الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الثالث والعشرون

الاجزاء من ٤٣٣ الى ٤٥٢

الحاوي في التفسير

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ

الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
433	سورة النحل	الآية 14 الى الآية 25	2
434	=	الآية 26 الى الآية 29	571
435	=	الآية 30 الى الآية 42	855
436	=	الآية 43 الى الآية 50	1203
437	=	الآية 51 الى الآية 63	1610
438	=	الآية 64 الى الآية 70	1960
439	=	الآية 71 الى الآية 74	2366
440	=	الآية 75 الى الآية 79	2922
441	=	الآية 80 الى الآية 88	3155
442	=	الآية 89 الى الآية 96	3393
443	=	الآية 97 الى الآية 105	3873
444	=	الآية 106 الى الآية 110	4150
445	=	الآية 111 الى الآية 124	4449
446	=	الآية 125 الى الآية 128	4815
447	سورة الاسراء	فصول مهمة	5276
448	=	فصل في الوقف والابتداء	5813
449	=	الآية 1	6171
450	=	الآية 2 الى الآية 8	6622
451	=	الآية 9 الى الآية 14	6947
452	=	الآية 15 الى الآية 17	7280

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 14 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ من نفس السورة

(4/433)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دل على قدرته واختياره سبحانه دلالة على القدرة على كل ما أخبر به لاسيما الساعة ، بخلق السماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الناس ، ثم ذكر بعض ما في المكشوف من الأرض المحيط به الهواء من التفاوت الدال على تفرد الصانع واختياره ، وختمه باللون ، أتبع ذلك بالمغمور بالماء الذي لا لون له في الحقيقة ، إشارة إلى أنه ضمنه من المنافع والحيوانات التي لها من المقادير والكيفيات والأشكال والألوان البديعة التخطيط ، الغريبة الصباغ – ما هو أدل من ذلك فقال : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي سخر

البحر ﴾ أي ذلَّله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر ، وغير ذلك من المنافع ، والمراد به السبعة الأبحر الكائنة في الربع المرتفع عن الماء ، وهو المسكون من كرة الأرض المادّة من البحر المحيط الغامر لثلاثة أرباع الأرض ، فجعله بالتسخير بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به بالركوب والغوص وغيرهما ﴿ لتأكلوا منه ﴾ أي بالاصطياد وغيره من لحوم الأسماك ﴿ لحماً طرياً ﴾ لا تجد أنعم منه ولا ألين ، وهو أرطب اللحوم فيسرع إليه الفساد فيبادر إلى أكله عذباً لذيذاً مع نشبه في ملح زعاق ﴿ وتستخرجوا منه ﴾ أي بجهد كم في الغوص وما يتبعه ﴿ حلية تلبسونها ﴾ أي نساؤكم ، وهن بعضكم لكم ، فكأن اللابس أنتم ، وهي من الحجارة التي لا ترى أصلب منها ولا أصفى من اللؤلؤ وكذا من المرجان وغيره ، مع نسبة هذا الصلب وذاك الطري إلى الماء ، فلو أنه فاعل بطبعه لاستويا .

(5/433)

ولما ذكر المنافع العامة مخاطباً لهم بها ، وكان المخر - وهو أن تجري السفينة مستقبلة الريح ، فتشق الماء ، فيسمع لجريها صوت معجب ، وذلك مع الحمل الثقيل - آية عظيمة لا يتأملها إلا أرباب القلوب خص بالخطاب أعلى أولي الألباب ، ومن قاربه في ابتغاء الصواب ، فقال : ﴿ وترى الفلك ﴾ ولما كان النظر إلى تعداد النعم هنا أتم منه في سورة فاطر ، قدم

المخر في قوله : ﴿ مواخر فيه ﴾ أي جواري تشق الماء مع صوت ، لتركبوها فتستدلوا - بعدم رسوبها فيه مع ميوعه ورقته وشدة لطافته - على وحدانية الإله وقدرته .

ولما علل التسخير بمنفعة البحر نفسه من الأكل وما تبعه ، عطف على ذلك النفع به ، فقال تعالى : ﴿ ولتبتغوا ﴾ أي تطلبوا طلباً عظيماً بركوبه ﴿ من فضله ﴾ أي الله بالتوصل بها إلى البلدان الشاسعة للمتاجر وغيرها ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم التي أنتم عاجزون عنها لولا تسخيره ؛ والمخر : شق الماء عن يمين وشمال ، وهو أيضاً صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها ، وقد ابتدىء فيه بما يغوص تارة ويطف أخرى بالاختيار ، وثنى بما طبعه الرسوب ، وثلث بما من طبعه الطفوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 254.253 ﴾

(6/433)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما احتج على إثبات الإله في المرتبة الأولى بأجرام السموات ، وفي المرتبة

الثانية ببدن الإنسان ونفسه ، وفي المرتبة الثالثة بعجائب خلقة الحيوانات ، وفي المرتبة الرابعة بعجائب طبائع النبات ذكر في المرتبة الخامسة الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر فبدأ منها بالاستدلال بعنصر الماء .

واعلم أن علماء الهيئة قالوا : ثلاثة أرباع كرة الأرض غائصة في الماء وذاك هو البحر المحيط وهو كلية عنصر الماء وحصل في هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال بعده : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان : 27] والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار ، ومعنى تسخير الله تعالى إياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها إما بالركوب أو بالغوص .

واعلم أن منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها في هذه الآية ثلاثة أنواع :

المنفعة الأولى : قوله تعالى : ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيّاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن الأعرابي لحم طري غير مهموز ، وقد طرو يطرو طراوة ، وقال الفراء : طرا يطرا طراءً ممدوداً وطراوة كما يقال شقي يشقى شقاء وشقاوة .

واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة ، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحاً ، لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة ، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر

الضد من الضد .

المسألة الثانية :

قال أبو حنيفة رحمه الله : لو حلف لا يأكل اللحم فأكل لحم السمك لا يحنث قالوا : لأن لحم السمك ليس بلحم ، وقال آخرون : إنه يحنث لأنه تعالى نص على كونه لحماً في هذه الآية وليس فوق بيان الله بيان .

روي أن أبا حنيفة رحمه الله لما قال بهذا القول وسمعه سفيان الثوري فأنكر عليه ذلك ، واحتج عليه بهذه الآية بعث إليه رجلاً وسأله عن رجل حلف لا يصلي على البساط فصلى على الأرض هل يحنث أم لا ؟ قال سفيان : لا يحنث فقال السائل : أليس أن الله تعالى قال : ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ بِسَاطاً ﴾ [نوح : 19] قال فعرف سفيان أن ذلك كان بتلقين أبي حنيفة .

ولقائل أن يقول : هذا الكلام ليس بقوي ، لأن أقصى ما في الباب أنا تركنا العمل بظاهر القرآن في لفظ البساط للدليل الذي قام عليه فكيف يلزمنا ترك العمل بظاهر القرآن في آية أخرى والفرق بين الصورتين من وجهين : الأول : أنه لما حلف لا يصلي على البساط فلو

أدخلنا الأرض تحت لفظ البساط لزمنا أن نمنعه من الصلاة ، لأنه إن صلى على الأرض المفروشة بالبساط لزمه الحنث لا محالة ، ولو صلى على الأرض التي لا تكون مفروشة لزمه الحنث أيضاً على تقدير أن يدخل الأرض تحت لفظ البساط ، فهذا يقتضي منعه من الصلاة ، وذلك مما لا سبيل إليه بخلاف ما إذا أدخلنا لحم السمك تحت لفظ اللحم ، لأنه ليس في منعه من أكل اللحم على الإطلاق محذور فظهر الفرق .

الثاني : أنا نعلم بالضرورة من عرف أهل اللغة أن وقوع اسم البساط على الأرض الخالصة مجاز أما وقوع اسم اللحم على لحم السمك فلم يعرف أنه مجاز ، فظهر الفرق ، والله أعلم .

وحجة أبي حنيفة رحمه الله أن : مبنى الأيمان على العادة ، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه لحم السمك بدليل أنه إذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار .

والجواب : أنا رأيناكم في كتاب الأيمان تارة تعتبرون اللفظ وتارة تعتبرون العرف ، وما رأيناكم ذكرتم ضابطاً بين القسمين والدليل عليه أنه إذا قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بلحم العصفور كان حقيقاً بالإنكار عليه ، مع أنكم تقولون إنه يحنث بأكل لحم

العصفور، فثبت أن العرف مضطرب، والرجوع إلى نص القرآن متعين، والله أعلم.

المنفعة الثانية: من منافع البحر قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22] والمراد: بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم، ولأن إقدامهن على التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم، ورأيت بعض أصحابنا تمسكوا في مسألة أنه لا يجب الزكاة في الحلي المباح بحديث عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا زكاة في الحلي" فقلت هذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن أن يقال فيه لفظ الحلي لفظ مفرد محلى بالألف واللام، وقد بينا في أصول الفقه أن هذا اللفظ يجب حمله على المعهود السابق، والحلي الذي هو المعهود السابق هو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في هذه الآية وهو قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لا زكاة في اللآلىء، وحينئذ يسقط الاستدلال به، والله أعلم.

المنفعة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ قال أهل اللغة: مخر السفينة شقها الماء بصدرها، وعن الفراء: أنه صوت جري الفلك بالرياح.

إذا عرفت هذا فقول ابن عباس: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي جواري، إنما حسن التفسير به، لأنها لا تشق الماء إلا إذا كانت جارية.

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني لتركبوه للتجارة فتطلبوا الربح من فضل الله وإذا وجدتم فضل الله تعالى وإحسانه فلعلكم تقدمون على شكره ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 7.5 ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

يَحْتَجُّ بِهِ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ فِيمَنْ حَلَفَ لَا يَلْبَسُ حُلِيًّا فَلَبِسَ لُؤْلُؤًا أَنَّهُ يَحْنَثُ ، لِتَسْمِيَةِ اللَّهِ إيَّاهُ حُلِيًّا وَأَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ : لَا يَحْنَثُ لِأَنَّ الْأَيْمَانَ مَحْمُولَةٌ عَلَى التَّعَارُفِ ، وَلَيْسَ فِي الْعُرْفِ تَسْمِيَةُ اللُّؤْلُؤِ وَحْدَهُ حُلِيًّا ، أَلَا تَرَى أَنَّ بَائِعَهُ لَا يُسَمَّى بَائِعَ حُلِيٍّ ؟ وَأَمَّا الْآيَةُ فَإِنَّ فِيهَا أَيْضًا ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ لَوْ حَلَفَ لَا يَأْكُلُ لَحْمًا فَأَكَلَ سَمَكًا أَنَّهُ لَا يَحْنَثُ مَعَ تَسْمِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى إيَّاهُ لَحْمًا طَرِيًّا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ : فَسَمَّى الْحُوتَ لَحْمًا ، وَأَنْوَاعُ اللَّحْمِ أَرْبَعَةٌ : لُحُومُ الْأَنْعَامِ ، وَلُحُومُ الْوَحْشِ ، وَلُحُومُ الطَّيْرِ ، وَلُحُومُ الْحُوتِ .

وَيَعُمُّهَا اسْمُ اللَّحْمِ ، وَيَخُصُّهَا أَنْوَاعُهُ ، وَفِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ تَتَشَابَهُ ؛ وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِيمَنْ حَلَفَ أَلَّا يَأْكُلَ لَحْمًا ؛ فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : يَحْنَثُ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ .

وَقَالَ أَشْهَبُ فِي الْمَجْمُوعَةِ : لَا يَحْنَثُ إلَّا بِأَكْلِ لُحُومِ الْأَنْعَامِ دُونَ الْوَحْشِ وَغَيْرِهِ ، مُرَاعَاةً لِلْعُرْفِ وَالْعَادَةِ ، وَتَقْدِيمًا لَهَا عَلَى إطْلَاقِ اللَّفْظِ اللُّغَوِيِّ ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ فِي الْبِلَادِ ، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ بِتِنِّيسَ أَوْ بِالْفَرَمَا لَا يَرَى لَحْمًا إلَّا الْحُوتَ ، وَالْأَنْعَامُ قَلِيلَةٌ فِيهَا ، فَعُرْفُهَا عَكْسُ عُرْفِ بَغْدَادَ ، فَإِنَّهُ لَا أَثَرَ لِلْحُوتِ فِيهَا ، وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَى لُحُومِ الْأَنْعَامِ ، وَإِذَا أَجْرَيْنَا الْيَمِينَ عَلَى الْأَسْبَابِ فَسَبَبُ الْيَمِينِ يُدْخِلُ فِيهَا مَا لَا يَجْرِي عَلَى الْعُرْفِ ، وَيُخْرِجُهُ مِنْهَا ، وَالنِّيَّةُ تَقْضِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ : أَشْتَرِي لَحْمًا وَحِيتَانًا فَلَا يُعَدُّ تَكْرَارًا ، وَالَّذِي أَخْتَارُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْحَالِفِ نِيَّةٌ وَلَا سَبَبٌ مَا قَالَهُ أَشْهَبُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ : يَعْنِي بِهِ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ .

وَهَذَا امْتِنَانٌ عَامٌّ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، فَلَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الرِّجَالِ الذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ الشَّافِعِيُّ ، وَأَبُو يُوسُفَ ، وَمُحَمَّدٌ : مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَلْبَسَ حُلِيًّا فَلَبِسَ لُؤْلُؤًا أَنَّهُ يَحْنَثُ ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وَالَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ اللُّؤْلُؤُ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَحْنَثُ .

وَلَمْ أَرَ لِعُلَمَائِنَا فِيهَا نَصًّا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ فَإِنَّهُ حَانِثٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَتَرَى الفلك مواخِرَ فيه ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن المواخر المواقر ، قاله الحسن .

الثاني : أنها التي تجري فيه معترضة ، قاله أبو صالح .

الثالث : أنها تمخر الريح من السفن ، قاله مجاهد : لأن المخر في كلامهم هبوب الريح .

الرابع : أنها تجري بريح واحدة مقبلة ومدبرة ، قاله قتادة .

الخامس : أنها التي تشق الماء من عن يمين وشمال ، لأن المخر في كلامهم شق الماء وتحريكه قاله ابن عيسى .

﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بالتجارة فيه .

الثاني : بما تستخرجون من حليته ، وتأكلونه من لحومه . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي سخر البحر ﴾ الآية تعديد نعم ، وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله للركوب والإرفاق وغيره ، و﴿ البحر ﴾ الماء الكثير ملحاً كان أو عذباً ، كله يسمى بحراً ، و﴿ البحر ﴾ هنا اسم جنس ، وإذا كان كذلك فمنه أكل اللحم الطري ومنه " استخراج الحلية " ، و" أكل اللحم " يكون من ملحه وعذبه ، وإخراج الحلية إنما يكون فيما عرف من الملح فقط ، ومما عرف من ذلك اللؤلؤ والمرجان والصدف والصوف البحري ، وقد يوجد في العذب لؤلؤ لا يلبس إلا قليلاً ، وإنما يتداوى به ، ويقال إن في الزمرد بحرياً وقد خطئ الهذلي في وصف الدرة . [الطويل]

فجاء بها من درة لطمية . . . على وجهها ماء الفرات يدوم

فجعلها من الماء الحلو .

قال القاضي أبو محمد : وتأمل أن قوله يخرج على أنه وصف بريقها ومائيتها فشبهه بماء الفرات ، ولم يذهب إلى الغرض الذي خطئ فيه ، و" اللحم الطري " ، و" الحلية " ما تقدم ، و﴿ الفلك ﴾ هنا جمع ، و﴿ مواخر ﴾ جمع ماخرة ، والمخر في اللغة الصوت الذي يكون من هبوب الريح على شيء يشق أو يصعب في الجملة الماء فيترتب منه أن يكون من السفينة ونحوها وهو في هذه الآية من السفن ، ويقال للسحاب بنات مخر تشبيهاً ، إذ في جريها ذلك الصوت الذي هو عن الريح والماء الذي في السحاب ، وأمرها يشبه أمر البحر

على أن الزجاج قد قال : بنات المخر سحاب بيض لا ماء فيها ، وقال بعض اللغويين المخر في كلام العرب الشق يقال : مخر الماء الأرض .

(14/433)

قال القاضي أبو محمد : فهذا يبن أن يقال فيه للفلك ﴿ مواخر ﴾ ، وقال قوم ﴿ مواخر ﴾ معناه تجيء وتذهب بريح واحدة ، وهذه الأقوال ليست تفسير اللفظة ، وإنما أرادوا أنها مواخر بهذه الأحوال ، إذ هي موضع النعمة المعددة ، إذ نفس كون الفلك ماخرة لا نعمة فيه ، وإنما النعمة في مخرها بهذه الأحوال في التجارات والسفر فيها وما يمنح الله فيها من الأرباح والمن ، وقال الطبري : المخر في اللغة صوت هبوب الريح ولم يقيد ذلك بكون في ماء ، وقال إن من ذلك قول واصل مولى ابن عيينة إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح أي لينظر في صوتها في الأجسام من أين تهب ، فيتجنب استقبالها لئلا ترد عليه بوله ، وقوله ﴿ ولتبتغوا ﴾ عطف على ﴿ تأكلوا ﴾ ، وهذا ذكر نعمة لها تفاصيل لا تحصى ، فيه إباحة ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح ، وهذه ثلاثة أسباب في تسخير البحر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(15/433)

وقال القرطبى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإِرفاء وغيره ، وهذه نعمة من نعم الله علينا ، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا .

وقد مضى الكلام في البحر وفي صيده .

وسماه هنا لحماً واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس ، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات الماء جنس .

فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلاً ، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلاً ، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلاً .

وقال أبو حنيفة : اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها ؛ فلحم البقر صنف ، ولحم الغنم صنف ، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير ، وكذلك السمك ، وهو أحد قولي الشافعيّ .

والقول الآخر أن الكل من النَّعَمَ والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل

فيه .

والقول الأوّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه .

ودليلنا هو أن الله تعالى فرّق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين ﴾ [الأنعام : 143] ثم قال : ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ [الأنعام : 144] فلما أن أم بالجميع إلى اللحم قال : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام ﴾ [المائدة : 1] فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : 21] وهذا جمع طائر الذي هو الواحد ، لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] فجمع لحم الطير كله باسم واحد .

وقال هنا : "لَحْماً طَرِيّاً" فجمع أصناف السمك بذكر واحد ، فكان صغاره ككباره في الجمع بينهما .

(16/433)

وقد روي عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المَعْز بلحم الكباش أشيء واحد ؟ فقال لا ؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع ، والله أعلم .

ولا حجة للمخالف في نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مِثْلاً بمثل ؛ فإن الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاماً لم يسبِق الفهم منه إلى أكل اللحم ، وأيضاً فانه معارَض بقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم " وهذان جنسان ، وأيضاً فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلاً لعلة أنه بَيْع طعام لا زكاة له بِيع بلحم ليس فيه الزكاة ، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلاً .

الثانية وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلاً .

وذكر عن سُحْنون أنه يمنع من ذلك ، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يدّخر .

الثالثة اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحماً ؛ فقال ابن القاسم : يحنَث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة .

وقال أشهب في المجموعة .

لا يحنث إلا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره ، مراعاة للعرف والعادة ، وتقديماً لها على إطلاق اللفظ اللغويّ ، وهو أحسن .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني به اللؤلؤ والمَرْجان ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] .

وإخراج الحِلية إنما هي فيما عرف من الملح فقط .

ويقال : إن في الزمرذ بحريا .

وقد خُطِّئ الهُذَليّ في قوله في وصف الدرّة :

فجاء بها من دُرّة لَطَمِيّة . . .

على وجهها ماء الفرات يَدوم

فجعلها من الماء الحلو .

فالحلية حق وهي نِحلة الله تعالى لآدم وولده .

خلق آدم وتُوّج وكُلِّل بإكليل الجنة ، وختم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم ، وكان يقال له خاتم العز فيما روي .

(17/433)

الخامسة امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير .

روى الصحيح عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة" وسيأتي في سورة "الحج" الكلام فيه إن شاء الله .

وروى البخاريّ عن ابن عمر : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من ذهب ، وجعل فصّه مما يلي باطن كفه ، ونقش فيه محمد رسول الله ؛ فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال : "لا ألبسه أبداً" ثم اتخذ خاتماً من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة .

قال ابن عمر : فلبس الخاتَمَ بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، حتى وقع من عثمان في بئر أرِيس " قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده .

وأجمع العلماء على جواز التختم بالوَرِق على الجملة للرجال .

قال الخطابيّ : وكره للنساء التختم بالفضة ؛ لأنه من زِيّ الرجال ، فإن لم يجدن ذهباً فليصفّرنه بزعفران أو بشبهه .

وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب ؛ إلا ما روي عن أبي بكر بن عبد الرحمن وخبّاب ، وهو خلاف شاذ ، وكل منهما لم يبلغهما النهي والنسخ .

والله أعلم .

وأما " ما رواه أنس بن مالك : أنه رأى في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من ورِق يوماً واحداً ، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من ورِق ولبِسوها ، فطرح رسول الله صلى الله

عليه وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم " أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاريّ فهو عند العلماء وَهَم من ابن شهاب ؛ لأن الذي نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاتم الذهب .

(18/433)

رواه عبد العزيز بن صُهيب وثابت وقتادة عن أنس ، وهو خلاف ما روى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها ، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادسة إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلّي به ، فقد كره ابن سِيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله .

وأجاز نقشه جماعة من العلماء .

ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعله في شماله ، فهل يدخل به الخلاء ويستنجي بشماله ؟ خفّفه سعيد بن المُسيِّب ومالك .

قيل لمالك : إن كان في الخاتم ذكر الله ويلبسه في الشمال أيستنجَى به ؟ قال : أرجو أن يكون خفيفاً .

وروي عنه الكراهة وهو الأَوْلى .

وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه .

وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهري عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه .

قال أبو داود : هذا حديث منكر ، وإنما يعرف عن ابن جريج عن زيادة بن سعد عن الزهري عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من وَرِق ثم ألقاه .

قال أبو داود : لم يحدّث بهذا إلا همام .

السابعة روى البخاري عن أنس بن مالك .

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه "محمد رسول الله" وقال : إني اتخذت خاتماً من ورِق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشنّ أحد على نقشه " .

قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه .

قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم ، ونهيه عليه السلام : لا ينقشنّ أحد على نقش خاتمه ، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه .

وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذي سلطان .

ورووا في ذلك حديثاً عن أبي رَيحانة ، وهو حديث لا حجة فيه لضعفه .

وقوله عليه السلام : "لا ينقشنّ أحد على نقشه" يردّه ، ويدل على جواز اتخاذ الخاتم لجميع الناس ، إذا لم ينقش على نقش خاتمه .

(19/433)

وكان نقش خاتم الزهريّ "محمد يسأل الله العافية" .

وكان نقش خاتم مالك "حسبي الله ونعم الوكيل" .

وذكر الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام "لكل أجل كتاب" وقد مضى في الرعد .

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتماً بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم ، فبِعْه وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتماً من حديد بدرهم ، واكتب عليه "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه" .

الثامنة من حلف ألاّ يلبسَ حليًّا فلبس لؤلؤا لم يحنث ؛ وبه قال أبو حنيفة .

قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : لأن هذا وإن كان الاسم اللغوي يتناوله فلم يقصده باليمين ، والأيمان تُخَصّ بالعرف ؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنَث ، وكذلك لا يستضيء بسراج فجلس في الشمس لا يحنث ، وإن كان الله تعالى قد سَمّى الأرض

فراشاً والشمس سراجاً .

وقال الشافعيّ وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حلياً ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ والذي يخرج منه : اللؤلؤ والمرجان .

التاسعة قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ قد تقدم ذكر الفُلْك وركوب البحر في "البقرة" وغيرها .

وقوله : ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ قال ابن عباس : جَوارِيَ ، من جرَت تجري .

سعيد بن جُبير : معترضة .

الحسن : مواقر .

قتادة والضحاك : أي تذهب وتجيء ، مقبلةً ومدبرة بريح واحدة .

وقيل : "مواخر" ملججة في داخل البحر ؛ وأصل المَخْر شقّ الماء عن يمين وشمال .

مَخَرت السفينة تَمْخَر وتَمْخُر مَخرا ومخوراً إذا جرت تشق الماء مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ يعني جَوارِيَ .

قال الجوهري : ومَخَر السابحُ إذا شق الماء بصدره ، ومَخَر الأرض شقها للزراعة ، ومخرها بالماء إذا حبس الماء فيها حتى تصير أرِيضة ؛ أي خليقةً بجودة نبات الزرع .

وقال الطبري : المَخْرُ في اللغة صوت هبوب الريح ؛ ولم يقيّد كونه في ماء ، وقال : إن من ذلك قول واصل مولى أبي عُيينة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخّر الريح ؛ أي لينظر في صوتها في الأجسام من أين تَهُبّ ، فيتجنّب استقبالها لئلا تردّ عليه بَوْلَه .

﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي ولتركبوه للتجارة وطلب الربح .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تقدم جميع هذا في "البقرة" والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(21/433)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ وهو الذي سخر لكم البحر ﴾ .

لما ذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته ، ووحدانيته من خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته ، وعجائب صنعته وذكر إنعامه في ذلك على عباده ، ذكر بعد ذلك إنعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله عليهم ، ومعنى تسخير الله

البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به .

فقال تعالى : وهو الذي سخر البحر ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ فبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود ، لأن به قوام البدن وفي ذكر الطري مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى ، وذلك أن السمك لون كان كله مالحاً لما عرف به من قدرة الله تعالى ، ما يعرف بالطري لأنه لما لما خرج من البحر الملح الزعاق ، الحيوان الطري الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث بقدرة الله ، وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك أن الله قادر على إخراج الضد من الضد .

المنفعة الثانية قوله تعالى ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان ، كما قال تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأن زينة النساء بالحلي ، وإنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة لهم .

المنفعة الثالثة قوله تعالى ﴿ وترى الفلك ﴾ يعني السفن ﴿ مواخر فيه ﴾ يعني جواري فيه قال قتادة : مقبلة ومدبرة وذلك أنك ترى سفينتين أحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة وأصل المخر في اللغة الشق يقال : مخرت السفينة مخراً إذا شقت الماء بجؤجؤها .

وقال مجاهد : تمخر الرياح السفن يعني أنها إذا جرت يسمع لها صوت قال أبو عبيدة : يعني من صوائح والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن : مواخر يعني مواقر أي مملوءة متاعاً ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ يعني الأرباح بالتجارة في البحر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ يعني إنعام الله عليكم إذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(23/433)

وقال أبو حيان :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

لما ذكر تعالى الاستدلال بما ذرأ في الأرض ، ذكر ما امتن به من تسخير البحر .

ومعنى تسخيره : كونه يتمكن الناس من الانتفاع به للركوب في المصالح ، وللغوص في استخراج ما فيه ، وللاصطياد لما فيه .

والبحر جنس يشمل الملح والعذب ، وبدأ أولاً من منافعه بما هو الأهم وهو الأكل ، ومنه على حذف مضاف أي : لتأكلوا من حيوانه طرياً ، ثم ثنى بما يتزين به وهو الحلية من اللؤلؤ

والمرجان ، ونبه على غاية الحلية وهو اللبس .

وفيه منافع غير اللبس ، فاللحم الطري من الملح والعذب ، والحلية من الملح .

وقيل : إنّ العذب يخرج منه لؤلؤ لا يلبس إلا قليلاً وإنما يتداوى به ، ويقال : إنّ في الزمرد بحرياً ، فأما لتأكلوا فعام في النساء والرجال ، وأما تلبسونها فخاص بالنساء .

والمعنى : يلبسها نساؤكم .

وأسند اللبس إلى الذكور ، لأنّ النساء إنما يتزيَّن بالحلية من أجل رجالهن ، فكأنها زينتهم ولباسهم .

ولما ذكر تعالى نعمة الأكل منه والاستخراج للحلية ، ذكر نعمة تصرف الفلك فيه ماخرة أي : شاقة فيه ، أو ذات صوت لشق الماء لحمل الأمتعة والأقوات للتجارة وغيرها ، وأسند الرؤية إلى المخاطب المفرد فقال : وترى ، وجعلها جملة معترضة بين التعليلين : تعليل الاستخراج ، وتعليل الابتغاء ، فلذلك عدل عن جمع المخاطب ، والظاهر عطف ، ولتبتغوا على التعليل قبله كما أشرنا إليه .

وأجاز ابن الأنباري أن يكون معطوفاً على علة محذوفة أي : لتبتغوا بذلك .

ولتبتغوا ، وأن يكون على إضمار فعل أي : وفعل ذلك لتبتغوا .

والفضل هنا حصول الأرباح بالتجارة ، والوصول إلى البلاد الشاسعة ، وفي هذا دليل على جواز ركوب البحر .

ولعلكم تشكرون ، على ما منحكم من هذه النعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(24/433)

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ الذى سَخَّرَ البحر ﴾

شروعٌ في تعداد النعمِ المتعلقة بالبحر إثرَ تفصيل النعمِ المتعلقة بالبر حيواناً ونباتاً ، أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به للركوب والغَوْص والاصطياد ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ هو السمك ، والتعبيرُ عنه باللحم مع كونه حيواناً للتلويح بانحصار الانتفاعِ به في الأكل ، ووصفُه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيهِ على وجوب المسارعةِ إلى أكله كيلا يتسارع إليه الفسادُ كما ينبىء عنه جعل البحرِ مبتدأً أكلِه ، وللإيذان بكمال قدرِته تعالى في خلقه عذباً طرياً في ماء زعاق ، ومن إطلاق اللحمِ عليه ذهب مالكٌ والثوري أن مَنْ حلف لا يأكلُ اللحم حنِث بأكله ، والجوابُ أن مبنى الأيمان العُرفُ ، ولا ريب في أنه لا يُفهم من اللحم عند الإطلاق ، ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحمِ فجاء بالسمك لم يكن ممتثلاً بالأمر ، ألا يرى إلى أن الله تعالى سمّى الكافرَ دابة حيث قال : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الذين كَفَرُواْ

﴿ ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ كاللؤلؤ والمَرْجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ عبر في مقام الامتنان عن لُبس نسائِهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لُبسِهن لأجلهم ﴿ وَتَرَى الفلك ﴾ السفن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ جواري فيه مُقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها ، من المخْر وهو شقُّ الماء ، وقيل : هو صوتُ جَرْي الفلك ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ ﴾ عطف على تستخرجوا وما عُطف هو عليه ، وما بينهما اعتراضٌ لتمهيد مبادي الابتغاءِ ودفعِ توهم كونِه باستخراج الحِلية ، أو على علة محذوفة أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ، ذكره ابن الأنباري أو متعلقة بفعل محذوفٍ أي وفعَل ذلك لتبتغوا ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ من سَعة رزقِه بركوبها للتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي تعرِفون حقوقَ نعمِه الجليلةِ فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ، ولعل تخصيصَ هذه النعمةِ بالتعقيب بالشكر من حيث إن

فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلةٍ في مدة قليلة من غير مزاولةِ أسبابِ السفر ، بل من غير حركة أصلاً مع أنها في تضاعيف المهالكِ وعدمُ توسيط الفوزِ بالمطلوب بين الابتغاء

والشكر للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معاً . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(26/433)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾

شروع في نوع آخر من النعم متعلق بالبحر إثر تفصيل النوع المتعلق بالبر ، وجعله بعضهم عديلاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم ﴾ [النحل : 10] فلذا جاء على أسلوبه جملة اسمية معرفة الجزءين ، وما وقع في البين إما مترتب على ذلك الماء المنزل وإما متضمن لمصلحة ما يترتب عليه ، والبحر على ما في "البحر" يشمل الملح والعذب ، والمعنى جعل لكم ذلك بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ وهو السمك ، والتعبير عنه باللحم مع كونه حيواناً للإشارة إلى قلة عظامه وضعفها في أغلب ما يصطاد للأكل بالنسبة إلى الإنعام الممتن بالأكل منها فيما سبق ، وقيل : للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل .

و﴿ مِنْ ﴾ متعلق بتأكلوا أو حال مما بعده وهي ابتدائية ، وجوز أن تكون تبعيضية

والكلام على حذف مضاف أي من حيوانه ، وحينئذٍ يجوز أن من اللحم الطري لحم السمك كما يجوز أن يراد منه السمك ، والطري فعيل من طرو يطرو طراوة مثل سرو يسرو سراوة ، وقال الفراء : من طري يطري طراء وطراوة كشقي يشقى شقاء وشقاوة ، والطراوة ضد اليبوسة ، ووصفه بذلك للإشعار بلطافته والتنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله فإنه لكونه رطباً مستعد للتغير فيسرع إليه الفساد والاستحالة ، وقد قال الأطباء : إن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ففيه إدماج لحكم طبي ؛ وهذا على ما قيل لا ينافي تقديده وأكله محللاً كما توهم ، وفي جعل البحر مبتدأ أكله على أحد الاحتمالين إيذان بالمسارعة أيضاً .

وزعم بعضهم أن في الوصف إيذاناً أيضاً بكمال قدرته تعالى في خلقه عذباً طرياً في ماء مر لا يشرب ، وفيه شيء لا يخفى ، ولا يؤكل عندنا من حيوان البحر إلا السمك ، ويؤيده تفسير اللحم به المروى عن قتادة .

وغيره ، وعن مالك .

وجماعة من أهل العلم إطلاق جميع ما في البحر ، واستثنى بعضهم الخنزير .

والكلب .

والإنسان ، وعن الشافعي أنه أطلق ذلك كله ، ويوافقه ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال : هو السمك وما في البحر من الدواب .

نعم يكره عندنا أكل الطافي منه وهو الذي يموت حتف أنفه في الماء فيطفو على وجه الماء لحديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم " ما نضب الماء عنه فكلوا وما لفظه الماء فكلوا وما طفا فلا تأكلوا " وهو مذهب جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وميتة البحر في خبر " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " ما لفظه ليكون موته مضافاً إليه لا ما مات فيه من غير آفة ، وما قطع بعضه فمات يحل أكل ما أبين وما بقي لأن موته بآفة وما أبين من الحي فهو ميت وإن كان ميتاً فميتته حلال ، ولو وجد في بطن السمكة سمكة أخرى تؤكل لأن ضيق المكان سبب موتها ، وكذا إذا قتلها طير الماء وغيره أو ماتت في جب ماء ، وكذا إن جمع السمك في حظيرة لا يستطيع الخروج منه وهو يقدر على أخذه بغير صيد فمات فيها ، وإن كان لا يؤخذ بغير صيد فلا خير في أكله لأنه لم يظهر لموته سبب ، وإذا ماتت السمكة في الشبكة وهي لا تقدر على التخلص منها أو أكلت شيئاً ألقاه في الماء لتأكل منه فماتت منه وذلك معلوم فلا بأس بأكلها لأن ذلك في معنى ما انحسر عنه الماء ، وفي موت الحر والبرد روايتان : إحدهما وهي مروية عن محمد يؤكل لأنه مات بسبب حادث وكان كما لو ألقاه

الماء على اليبس .

والأخرى ورويت عن الإمام أنه لا يؤكل لأن الحر والبرد صفتان من صفة الزمان وليسا من أسباب الموت في الغالب ، ولا بأس بأكل الجريث والمارماهي ، واشتهر عن الشيعة حركة أكل الأول فليراجع ، واستدل قتادة كما أخرج ابن أبي شيبة عنه بالآية على حنث من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لما فيها من إطلاق اللحم عليه ، وروي ذلك عن مالك أيضاً .

(28/433)

وأجيب بأن مبنى الإيمان على ما يتفاهمه الناس في عرفهم لا على الحقيقة اللغوية ولا على استعمال القرآن ، ولذا لما أفتى الثوري بالحنث في المسألة المذكورة للآية وبلغ أبا حنيفة عليه الرحمة قال للسائل : ارجع واسأله عمن حلف لا يجلس على بساط فجلس على الأرض هل يحنث لقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ [نوح : 19] فقال له : كأنك السائل أمس ؟ فقال : نعم ، فقال : لا يحنث في هذا ولا في ذاك ورجع عما أفتى به أولاً ، والظاهر أن متمسك الإمام قد كان العرف وهو الذي ذهب إليه ابن الهمام لا ما في الهداية كما قال من أن القياس الحنث ، ووجه الاستحسان أن التسمية القرآنية مجازية لأن منشأ

اللحم والدم ولا دم في السمك لسكونه الماء مع انتقاضه بالإلية فإنها تنعقد من الدم ولا يحنث بأكلها .

واعترض بأنه يجوز أن يكون في المسألة دليلان ليس بينهما تناف ، وما ذكر من النقض مدفوع بأن المذكور كل لحم ينشأ من الدم ولا يلزم عسكه الكلي ء وتعقب بأن إطلاق اللحم على السمك لغة لا شبهة فيه فينتقض الطرد والعكس فمراد المعترض الرد عليه بزيادة في الإلزام .

نعم قد يقال : مراده بالمجاز المذكور أنه مجاز عرفي كالدابة إذا أطلقت على الإنسان فيرجع كلامه إلى ما قاله الإمام وحينئذ لا غبار عليه ، وما ذكر بيان لوجه الاستعمال العرفي فلا يرد عليه شيء وهو كما ترى ، وعلى طرز ما قاله الإمام يقال فيمن حلف لا يركب دابة فركب كافراً أنه لا يحنث مع أن الله سبحانه سمى الكافر دابة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدوابِ عِندَ اللهِ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : 55] وفي "الكشاف" بياناً لعدم إطلاق اللحم على السمك عرفاً أنه إذا قال واحد لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار عليه أي وهو دليل على عدم إطلاق اللحم عليه في العرف فحيث كانت الإيمان مبنية على العرف لم يحنث بأكله .

واعترض بأنه لو قال لغلامه : اشتر لحماً فاشترى لحم عصفور كان حقيقاً بالإنكار مع الحنث بأكله .

وتعقب بأن الإنكار إنما جاء من ندرة اشتراء مثله لأنه غير متعارف وفيما نحن فيه اشتراء السمك ولحمه متعارف فليس محل الإنكار إلا عدم إطلاق اللحم عليه ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ أي تلبسها نساءكم وجهه ذلك بأنه أسند إلى الرجال لاختلاطهم بالنساء وكونهم متبوعين أو لأنهم سبب لتزينهن فإنهن يتزين ليحسن في أعين الرجال فكان ذلك زينتهم ولباسهم .

قال ابن المنير : ولله تعالى در مالك رضي الله تعالى عنه حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها ، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل ، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن حتى جعل كحظ المرأة من مالها وزينتها فعبر عن حظه في لبسها بلبسه كما يعبر عن حظها سواء مؤيداً بالحديث المروي في الباب اه .

ويفهم منه جواز اعتبار المجاز في الطرف ، وصرح بذلك بعضهم وفسر ﴿ تَلْبَسُونَ ﴾ بتمتعون وتتلذذون ، ويجوز أن يكون المجاز في النقص وما أظهر في التفسير مراد في النظم ، وقيل : الكلام على التغليب أو من باب بنو فلان قتلوا زيداً ففيه إسناد ما للبعض إلى الكل .

وتعقب بأنه وجه لكلا الوجهين أما الأول : فلعدم التلبس بالمسند وهو اللبس ، وأما الثاني : فلأنه لا يتم بدون المجاز في الطرف فلا وجه للعدول عن اعتباره على النحو السابق ، إلى هذا ، وقال بعضهم : لا حاجة إلى كل ذلك فإنه لا مانع من تزين الرجال باللؤلؤ .

وتعقب بأنه بعد تسليم أنه لا مانع منه شرعاً مخالف للعادة المستمرة فيأباه لفظ المضارع الدال على خلافه ، ولا يصح ما يقال : إن في "البحر" زمرداً بحرياً وبفرض الصحة يجيء هذا أيضاً ، ولعله لما أن النساء مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم اخفي التصريح بنسبة اللبس إليهن ليكون اللفظ كالمعنى .

(30/433)

واستدل أبو يوسف ومحمد عليهما الرحمة بالآية على أن اللؤلؤ يسمى حلياً حتى لو حلف لا يلبس حلياً فلبسه حنث .

وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقول : لا يحنث لأن الؤلؤ وحده لا يسمى حلياً في العرف وبائعه لا يقال له الحلي كذا في أحكام الجصاص .

واستدل بعضهم بالآية على أنه لا زكاة في حلي النساء ، فأخرج ابن جرير عن أبي جعفر أنه سئل هل في حلي النساء صدقة ؟ قال : لا هي كما قال الله تعالى ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

وهو كما ترى ، ثم إن اللحم الطري يخرج من البحر العذب والبحر الملح والحلية إنما تخرج من الملح ، وقيل : إن العذب يخرج منه لؤلؤ أيضاً ألا أنه لا يلبس إلا قليلاً والكثير التداوي به ، ولم نر من ذكر ذلك في أكثر الكتب المصنفة لذكر مثل ذلك .

وأخرج البزار عن أبي هريرة قال : كلم الله تعالى البحر الغربي وكلم البحر الشرقي فقال للبحر الغربي : إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم ؟ قال : أغرقهم قال : بأسك في نواحيك وحرمه الحلية والصيد وكلم هذا البحر الشرقي فقال : إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم ؟ قال : أحملهم على يدي وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه سبحانه الحلية والصيد ، وأخرج نحو ذلك ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص عن كعب الأحبار ، والله تعالى أعلم بصحة ذلك ، وظاهر كلام الأكثرين حمل ﴿ البحر ﴾ في الآية على البحر الملح وهو مملوء من السمك بل قيل إن السمك يطلق على كل ما فيه من الحيوانات ولا يكون اللؤلؤ إلا في موضع مخصوصة منه .

(31/433)

﴿ وَتَرَى الفلك ﴾ السفن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ جواري فيه جمع ماخرة بمعنى جارية ، وأصل المخر الشق يقال : مخر الماء الأرض إذا شقها وسميت السفن بذلك لأنها تشق الماء

بمقدمها ، وقال الفراء : هو صوت جري الفلك بالرياح ﴿ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ عطف على تستخرجوا وما عطف عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادىء الابتغاء ودفع كونه باستخراج الحلية ، وعدل عن نمط الخطاب السابق واللاحق أعني خطاب الجمع إلى خطاب المفرد المراد به كل من يصلح للخطاب إيذاناً بأن ذاك غير مسوق مساقهما ، وأجاز ابن الأنباري أن يكون معطوفاً على علة محذوفة أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ، وأن يكون متعلقاً بفعل محذوف أي فعل ذلك لتبتغوا ، وهو تكلف يغني الله تعالى عنه .

﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تقومون بحق نعم الله تعالى بالطاعة والتوحيد ، ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر لأنها أقوى في باب الأنعام من حيث أنه جعل ركوب البحر مع كونه مظنة الهلاك لأن راكبيه كما قال عمر رضي الله تعالى عنه دود على عود سبباً للانتفاع وحصول المعاش وهو من كمال النعمة لقطع المسافة الطويلة في زمن قصير مع عدم الاحتياج إلى الحل والترحال والحركة مع الاستراحة والسكون ، وما أحسن ما قيل في ذلك :

وإنا لفي الدنيا كركب سفينة . . .

نظن وقوفاً والزمان بنا يسري

وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر قيل للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معاً .

واستدل بالآية على جواز ركوب البحر للتجارة بلا كراهة وإليه ذهب جماعة ، وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر أنه كان يكره ركوب البحر إلا لثلاث غاز أو حاج أو معتمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(32/433)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : انه سخر البحر . أي ذلله لعباده حتى تمكنوا من ركوبه ، والانتفاع بما فيه من الصيد والحلية ، وبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار ، للحصول على أرباح التجارات ونحو ذلك .

فتسخير البحر للركوب من أعظم آيات الله . كما بينه في مواضع آخر . كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : 41-42] ، وقوله : ﴿ الله الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية : 12] إلى غير ذلك من الآيات .

وذكر في هذه الآية أربع نعم من نعمه على خلقه بتسخير البحر لهم :

الأولى : قوله : ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن . كقوله :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ [المائدة : 96] الآية ، وقوله :

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ [فاطر : 12] الآية .

الثانية - قوله : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة أيضاً في القرآن . كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 22-23] واللؤلؤ والمرجان : هما الحليه التي يستخرجونها من البحر للبسها ، وقوله :

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر : 12] .

(33/433)

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ وكرر في القرآن الامتنان بشق أمواج البحر على السفن ، كقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ [يس : 42-43] الآية ، وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ ﴾ [إبراهيم : 32] .

الرابعة - الابتغاء من فضله بأرباح التجارات بواسطة الحمل على السفن المذكور في قوله هنا : ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي كأرباح التجارات . وكرر في القرآن الامتنان بهذه النعمه

أيضاً . كقوله في "سورة البقرة" : ﴿ والفلك التي تَجْري فِي البحر بِمَا يَنفعُ الناس ﴾ [البقرة : 164] ، وقوله في "فاطر" : ﴿ وتَرَى الفلكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر : 12] ، وقوله في "الجاثية" : ﴿ اللهُ الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِيَ الفلكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية : 12] إلى غير ذلك من الآيات .

مسائل

تتعلق بهذه الآية الكريمة :

المسألة الأولى – لا مفهوم مخالفة لقوله ﴿ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ فلا يقال : يفهم من التقييد بكونه طرياً أن اليابس كالقديد مما في البحر لا يجوز أكله . بل يجوز أكل القديد مما في البحر بإجماع العلماء .

وقد تقرر في الأصول : أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون النص مسوقاً للامتنان . فإنه إنما قيد بالطري لأنه أحسن من غيره ، فالامتنان به أتم .

وقد أشار إلى هذا صاحب مراقي السعود بقوله عاطفاً على موانع اعتبار مفهوم المخالفة :

أو امتنان أو وفاق الواقع . . . والجهل والتأكيد عند السامع

ومحل الشاهد قوله "أو امتنان" وقد قدمنا هذا في "سورة المائدة" .

المسألة الثانية – اعلم أن علماء المالكية قد أخذوا من هذه الآية الكريمة : أن لحوم ما في البحر كلها جنس واحد . فلا يجوز التفاضل بينها في البيع ، ولا بيع طريها بيابسها لأ ، ها جنس واحد .

قالوا : لأن الله عبر عن جميعها بلفظ واحد ، وهو قوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ وهو شامل لما في البحر كله .

ومن هنا جعل علماء المالكية ، للحوم أربعة أجناس لا خامس لها :

الأول – لحم ما في البحر كله جنس واحد ، لما ذكرنا .

الثاني – لحوم ذوات الأربع من الأنعام والوحوش كلها عندهم جنس واحد . قالوا : لأن الله فرق بين أسمائها في حياتها فقال : ﴿ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين ﴾ [الأنعام : 143] ، ثم قال : ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ [الأنعام : 144] أمّا بعد ذبحها فقد عبر عنها باسم واحد فقال : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام ﴾ [المائدة : 1] فجمعها بلحم واحد . وقال كثير من العلماء : يدخل في بهيمة الأنعام الوحش كالظباء .

الثالث – لحوم الطير بجميع أنواعها جنس واحد . لقوله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : 21] فجمع لحومها باسم واحد .

الرابع – الجراد هو جنس واحد عندهم . وقد قدمنا في " سورة البقرة " الإشارة إلى

الاختلاف في ربويته عندهم . ومشهو مذهب مالك عدم ربويته ، بناء على أن غلبة العيش بالمطعوم من أجزاء العلة في الربا . لأن علة الربا في الربويات عند مالك : هي الاقتيات والادخار . قيل : وغلبة العيش . وقد قدمنا : أن الاختلاف في اشتراط غلبة العيش تظهر فائدته في أربعة أشياء : وهي الجراد ، والبيض ، والتين ، والزيت . وقد قدمنا تفصيل ذلك في " سورة البقرة " .

(35/433)

فإذا علمت ذلك – فاعلم أن كل جنس من هذه الأجناس المذكورة يجوز بيعه بالجنس الآخر متفاضلا يداً بيد . ويجوز بيع طريه بيابسه يداً بيد أيضاً في مذهب مالك رحمه الله تعالى .

ومذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله : أن اللحوم تابعة لأصولها ، فكل لحم جنس مستقل كأصله – فلحم الإبل عنده جنس مستقل ، وكذلك لحم الغنم ولحم البقر ، وهكذا . لأن اللحوم تابعة لأصولها وهي مختلفة كالأدقة والأدهان .

أما مذهب الشافعي وأحمد في هذه المسألة – فكلاهما عنه فيها روايتان . أما الروايتان عن الشافعي فإحداهما – أن اللحوم كله جنس واحد لاشتراكها في الاسم الخاص الذي

هو اللحم. الثانية – أنها أجناس كأصولها : كقول أبي حنيفة .

وقال صاحب المهذب : إن هذا قول المزني وهو الصحيح .

وأما الروايتان في مذهب الإمام أحمد فإحداهما – أن اللحوم كلها جنس واحد . وهو ظاهر كلام الخرقي ، فإنه قال : وسائر اللحمان جنس واحد . قال صاحب المغني : وذكره أبو الخطاب وابن عقيل رواية عن أحمد . ثم قال : وأنكر القاضي أبو يعلى كون هذا رواية عن أحمد ، وقال : الأنعام والوحوش والطير ودواب الماء أجناس ، يجوز التفاضل فيها رواية واحدة ، وإنما في اللحم روايتان .

إحداهما – أنه أربعة أجناس كما ذكرنا . الثانية – أنه أجناس باختلاف أصوله . انتهى من المغني بتصرف يسير ، بحذف ملا لا حاجة له فهذه مذاهب الأربعة في هذه المسألة .

(36/433)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : اختلاف العلماء في هذه المسألة من الاختلاف . في تحقيق مناط نص من نصوص الشرع ، وذلك أنه ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد " فعلم أن الاختلاف الصنفين مناط جواز

التفاضل. واتحادهما مناط منع التفاضل، واختلاف العلماء في تحقيق هذا المناط.

فبعضهم يقول: اللحم جنس واحد يعبر عنه باسم واحد، فمناط منع التفاضل غير موجود. والعلم عند الله تعالى.

المسألة الثالثة – لا يجوز بيع اللحم بالحيوان الذي يجوز أكله من جنسه.

وهذا مذهب أكثر العلماء: منهم مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حنيفة رحمه الله: يجوز بيع اللحم بالحيوان. لأن الحيوان غير ربوي، فأشبه بيع باللحم بيع اللحم بالإثمان.

واحتج الجمهور بما رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن سعبد بن المسيب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع اللحم بالحيوان. وفي "الموطأ" أيضاً عن مالك عن داود بن الحصين: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: من ميسر أهل الجاهلية بيع الحيوان باللحم بالشاة والشاتين. وفي "الموطأ" أيضاً عن مالك عن أبي الزناد عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: نهى عن بيع الحيوان باللحم. قال أو الزناد: فقلت لسعيد بن المسيب: أرأيت رجلا اشترى شارفاً بعشر شياه؟ فقال سعيد: إن كان اشتراها لينحرها فلا خير في ذلك. قال أبو الزناد: وكل من أدركت من الناس ينهون عن بيع الحيوان باللحم. قال أبو الزناد: وكان ذلك يكتب في عهود العمال في زمان أبان ابن عثمان وهشان بن إسماعيل ينهون عن ذلك اه من الموطأ.

وقال ابن قدامة في المغني : لايختلف المذهب أنهلا يجوز بيع اللحم بحيوان من جنسه ، وهو مذهب مالك والشافعي ، وقوله فقهاء المدينة السبعة . وحكي عن مالك : أنه لا يجوز بيع اللحم بحيوان معد للحم ويجوز بغيره . وقال أبو حنفية : يجوز مطلقاً لأنه باع مال الربا بما لا ربا فيه . فأشبه بيع اللحم بالدراهم ، أو بلحم من غير جنسه ولنا ما روي : أن النّبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن بيع اللحم بالحيوان " رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم ، وعن سعيد بن المسيب ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن عبد البر : هذا أحسن أسانيه .

وروي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم " أنه نهى أن يباع حي بميت " ذكره الإمام أحمد .

وروي عن ابن عباس : " أن جزوراً نحرت فجاء رجل بعناق فقال أعطوني جزءاً بهذه العناق – فقال أبو بكر : لا يصلح هذا قال الشافعي : لا أعلم مخالفاً لأبي بكر في ذلك ، وقال أبو الزناد : كل من أدركت ينهى عن بيع اللحم بالحيوان ، ولأن اللحم فيه الربا بيع بأصله الذي فيه مثله فلم يجز . كبيع السمسم بالشيرج اه .

وقال صاحب المهذب : ولا يجوز بيع حيوان يؤكل لحمه بلحمه ، لما روى سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يباع حي بميت " وروى ابن عباس رضي الله عنهما : " أن جزوراً نحرت على عهد أبي بكر رضي الله عنه . فجاء رجل

بعناق فقال : أعطوني بها لحماً فقال أبو بكر : لا يصلح هذا " ولأنه جنس فيه الربا بيع بأصله الذي فيه مثله فلم يجز كبيع الشيرج بالسمسم اه .

(38/433)

وقال ابن السبكي في تكلمته لشرح المهذب : حديث سعيد بن المسيب رواه أبو داود من طريق الزهري عن سعبد كما ذكره المصنف ، ورواه مالك في الموطأ ، والشعفعي في المختصر والأم ، وأبو داود من طريق زيد بن أسلم عن سعيد بن المسيب : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع اللحم بالحيوان " هذا لفظ الشافعي عن مالك ، وأبي داود عن القعنبي عن مالك ، وكذلك هو في موطأ ابن وهب . ورأيت في موطأ القعنبي عن بيع الحيوان باللحم ، والمعنى واحد ، وكلا الحديثين – أعني رواية الزهري وزيد بن أسلم – مرسل ، ولميسنده واحد عن سعيد . وقد روي من طرق أخرن منها عن الحسن عن سمرة : " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى ان تباع الشاة باللحم " رواه الحاكم في المستدرك وقال : رواته عن آخرهم أئمة حفاظ ثقات . وقد احتج البخاري بالحسن عن سمرة ، وله شاهد مرسل في الموطأ ، هذا كلام الحاكم . ورواه البيهقي في سننه الكبير وقال : هذا إسناد صحيح . ومن أثبت سماع الحسن عن سمرة عده موصولاً . ومن لم يثبته فهو مرسل جيد

انضم إلى مرسل سعيد . ومنها عن سهل بن سعد قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع اللحم بالحيوان " رواه الدارقطني وقال : تفرد به يزيد بن مروان عن مالك بهذا اسناد ولم يتابع عليه . وصوابه في الموطأ عن ابن المسيب مرسلاً . وذكره البهقي في سننه الصغير ، وحكم بأن ذلك من غلط يزيد بن مروان ، ويزيد المذكور تلكم فيه يحيى بن معين . وقل ابن عدي : وليس هذا بذلك المعروف . ومنها عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النَّبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن بيع الحيوان باللحم " قال عبد الحق : أخرجه البزار في مسنده من رواية ثابت بن زهير عن مافع ، وثابت رجل من أهل البصرة منكر الحديث لا يستقل به .

ذكره أبة حاتم الرازي . انتهى محل الغرض من كلام صاحب تكلمة المجموع .

(39/433)

قال مقيده عفا الله عنه : لا يخفى أن هذا الذي ذكرنا يثبت به منع بيع اللحم بالحيوان . أما على مذهب من يحتج بالمرسل كمالك وأبي حنيفة وأحمد فلا إشكال وأما على مذهب من لا يحتج بالمرسل فمرسل سعيد بن المسيب حجة عند مثير ممن لا يحتج بالمرس ، ولا سيما أنه اعتضد بحديث الحسن عن سمرة . فعلى قوله من يصحح سماع الحسن عن سمرة

- فأقل درجاته أنه مرسل صحيح ، اعتضد بمرسل صحيح . ومثل هذا يحتج به من يحتج بالمرسل ومن لا يحتج به وقد قدمنا في "سورة المائدة" كلام العلماء في سماع الحسن عن سمرة ، وقدمنا في "سورة الأنعام" أن مثل هذا المرسل يحتج به بلا خلاف عنه الأئمة الأربعة ، فظهر بهذه النصوص أن بيع الحيوان باللحم من جنسه لا يجوز خلافاً لأبي حنيفة . وأما إن كان من غير جنسه كبيع شاة بلحم حوت ، أو بيع طير بلحم إبل فهو جائز عند مالك ، لأن المزابنة تنتفي باختلاف الجنس ، وحمل معنى الحديث على هذا وإن كان ظاهره العلمو . ومذهب الشافعي مع اختلاف الجنس فيه قولان : أحدهما - جواز بيع اللحم بالحيوان إذا اختلف جنسهما . والثاني - المنع مطلقاً لعموم الحديث . ومذهب أحمد في المسألة ذكره ابن قدامة ي المغني بقوله : وأما بيع اللح بحيوان من غير جنسه فظاهر كلام أحمد والخرقي : أنه لا يجوز . فإن أحمد سُئل عن بيع الشاة باللحم فقال : لا يصح ، لأن النّبي صلى الله عليه وسلم "نهى أن يباع حيّ بميت" واختار القاضي جوازه وللشافعي فيه قولان . واحتج من منعه بعموم الأخبار ، وبأن اللحم كله جنس واحد ومن أجازه قال : مال الرب بيع بغير أصله ولا جنسه ، فجاز كما لو باعه بالأثمان . وإن باعه بحيوان غير مأكول اللحم جاز في ظاهر قول أصحابنا ، وهو قوله عامة الفقهاء - انتهى كلام صاحب المغني -قال مقديه عفا الله عنه : قد عرفت مما تقدم أن بعض العلماء قال : إن اللحم كله

جنس واحد . وبعضهم قال : إن اللحوم أجناس ، فعلى أن اللحم جنس واحد - فمنع بيع الحيوان باللحم

(40/433)

هو الظاهر . وعلى أن اللحوم أجناس مختلفة - فبيع اللحم بحيوان من غير جنسه الظاهر فيه الجواز . لقوله صلى الله عليه وسلم : " فإذا اختلفت الأجناس فبيعوا كيف شئتم " والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

اشترط المالكية في منع بيع الحيان باللحم من جنسه : ألا يكون اللحم مطبوخاً .

فإن كان مطبوخاً جاز عندهم بيعه بالحيوان من جنسه ، وهو معنى قول خليل في مختصره . وفسد منهي عنه إلا بدليل كحيوان بلحم جنسه إن لم يطبخ . واحتجوا لذلك بأن الطبخ ينقل اللحم عن جنسه فيجوز التفاضل بينه وبين اللحم الذي لم يطبخ . فبيعه بالحيوان من باب أولى - هكذا يقول والعلم عند الله تعالى .

(41/433)

المسألة الرابعة – اعلم أن ظاهر هذه الآية الكريمو يد لعلى أنه يجوز للرجل أن يلبس الثوب المكلل باللؤلؤ والمرجان . لأن الله جل وعلا قال فيها في معرض الامتنان العلام على خلقه عاطفاً على الأكل ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل : 14] وهذا الخطاب خطاب الذكر كما هو معروف . ونظير ذلك قوله تعالى في سورة فاطر : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر : 12] قال القرطبي في تفسيره : امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم تعالى على الرجال الذهب والحرير . وقال صاحب الإنصافك يجوز للرجل والمرأة التحلي بالجوهر ونحوه ، وهو الصحيح من المذهب : وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز للرجل أن يلبس الثوب المكلل باللؤلؤ مثلاً ، ولا أعلم للتحريم مستنداً إلى عموم الأحاديث الواردة بالزجر البالغ عن تشبه الرجال بالنساء ،

كالعكس !قال البخاري في صحيحه : " بابا المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال " : حدثنا محمج بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبيهن من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال " . فهذ الحديث نص صريح في أن تشبه الرجال بالنساء حرام ، لأن النّبي صلى الله عليه وسلم لا يلعن أحداَ إلا على ارتكاب حرام

شديد الحرمة . ولا شك أن الرجل إذا لبس اللؤلؤ والمرجان فقد تشبه بالنساء . فإن قيل : يجب تقديم الآية على هذا الحديث ، وما جرى مجراه من الأحاديث من وجهين :

الأول – أن الآية نص متواتر ، والحديث المذكور خبر آحاد ، والمتواتر مقدم على الآحاد .

(42/433)

الثاني – أن الحديث عام في كل أنواع التشبه بالنساء ، والآي خاصة في إباحة الحلية المستخرجة من البحر ، والخاص مقدم على العام ؟ فالجواب : أنا لم نر من تعرض لهذا .

والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم : أن الآية الكريمة وإن كانت أقوى سنداً وأخص في محل النزاع فإن الحديث أقوى دلالة على محل النزاع منها . وقوة الدلالة في نص صالح للاحتجاج على محل النزاع أرجح من قوة السند . لأن قوله : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يحتمل معناه احتمالاً قوياً : أن وجه الامتنان به أن نساءهم يتجملن لهم به ، فيكون تلذذهم وتمتعهم بذلك الجمال والزينة الناشىء عن تلك الحلية من نعم الله عليهم .

وإسناد اللباس إليهم لنفعهم به ، وتلذذهم بلبس أزواجهم له . بخلاف الحديث فهو نص صريح غير محتمل في لعن من تشبه بالنساء . ولا شك أن المتحلي باللؤلؤ مثلاً متشبه بهن . فالحديث يتناوله بلا شك . وقال ابن حجر في فتح الباري في الكلام على الحديث المذكور ،

واستدل به على أنه يحرك على الرجل لبس الثوب المكلل باللؤلؤ ، وهو واضحن لورود علامات التحريم وهو لعن من فعل ذلك– : وأما قول الشافعي : ولا أكره للرجل لبس اللؤلؤ غلا لأنه من زي النساء فليس مخالفاً لذلك . لأن مراده لم يرد في النهي عنه بخصوصه شيء .

المسالة الخامسة – لا يخفى أن الفضة والذهب يمنع الشرب في آنيتهما مطلقاً ، ولا يخفى ايضاً أنه يجوز لبس الذهب والحرير للنساء ويمنع للرجال . وهذا مما لا خلاف فيه ، لكثرة النصوص الصحيحة المصرحة به عن النَّبي صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين على ذلك ، وم نشذ فهو محجوج بالنصوص الصريحة وإجماع من يعتد به من المسلمين على ذلك . وسنذكر طرفاً قليلاً من النصوص الكثيرة الواردة في ذلك .

أما الشرب في آنيتهما – فقد أخرج الشيخان والإمام أحمد وأصحاب السنن عن حذيفة رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " ولا تشربوا في آنية الذهب والفضَّة ، ولا تأُكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة " ولفظة " ولا تأكلوا في صحافها " في صحيح مسلم : وعن أم سلمة رضي الله عنها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن

الذي يشرب في إناء الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم" متفق عليه. وفي رواية لمسلم: "إن الذي يأكل أو يشرب في إناء الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم" والأحاديث بمثل هذا كثيرة.

وأما لبس الحرير والديباج الذي هو نوع من الحرير - فعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة فإنهم لم في الدينا ولكم فى الآخرة" أخرجه الشيخان وباقي الجماعة وعن عمر رضي الله عنه سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تلبسوا الحرير فإن من لبسه في الدينا لم يلبسه في الآخرة" متفق عليه وعن أنس رضي الله عنه: أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: "من لبس الحرير في الدينا فلن يلبسه في الآخرة" متفق عليه أيضاً.

والأحاديث بمثل هذا كثير جداً.

(44/433)

وأما لبس الذهب - فقد أخرج الشيخان في صحيحهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النَّبي صلى الله عليه وسلم "نهاهم عن خاتم الذهب": قال البخاري في صحيحه: حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا أشعث بن سليم قال: سمعت معاوية بن

سويد بن مقرن قال : سمعت البراء بن عازب رضي الله عنهما يقول : " نهانا النَّبي صلى الله عليه وسلم عن سبع : نهى عن خاتم الذهب – أو قال حلقة الذهب – وعن حرير ، والاستبرق ، والدِّيباج ، والميثرة الحمراء ، والقسي ، وآنية الفضة ، وأمرنا بسبع بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، ورد السَّلام ، وإجابة الداعي ، وإبرار المقسمن ونصر المظلوم " ولفظ مسلم في صحيحه قريب منه ، إلا أن مسلماً قدم السبع المأمور به على السبع المنهي عنها .

وقال في حديثه : " ونهانا عن خواتيم ، أو عن تختم بالذَّهب " وهذا الحديث المتفق عليه يدل على أن لبس الذهب لا يحل للرجال . لأنه إذا منع الخاتم منه فغيره أولى ، وهو كالمعلوم من الدين بالضرورة والأحاديث فيه كثيرة .

وأما جواز لبس النساء للحرير – فله أدلة كثيرة ، منها حديث علي رضي الله عنه : أهديت للنَّبي صلى الله عليه وسلم حلة سيراء ، فبعث بها إلي فلبستها فعرفت الغضب في وجهه ، فقال : " إني لم أبعث بها إليك لتلبسها إنما بعثت بها إليك لتشقها خمراً بين نسائك " متفق عليه . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه رأى على أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم برد حلة سيراء . أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود والأحاديث بمثل ذلك كثيرة . وإباحة الحرير للنساء كالمعلوم بالضرورة . ومخالفة عبد الله بن الزبير

رضي الله عنهما في ذلك لا اثر لها ، أنه محجوج بالنصوص الصحيحة ، واتفاق عامة علماء المسلمين .

(45/433)

وأما جواز لبس الذهب للنساء – فقد وردت فيه أحاديث كثيرة . منها ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححاه والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " أحل الذهب والحرير للإناث من أمتي وحرم على ذكورها " وفي الحديث كلام . لأن رواية عن أبي موسى وهو سعيد بن أبي هند ، قال بعض العلماء : لم يسمع من أبي موسى .

قال مقيده عفا الله عنه : ولو فرضنا أنه لم يسمع منه فالحديث حجة . لأنه مرسل معتضد بأحاديث كثيرة ، منها ما هو حسن ، ومنها ما إسناده مقارب ، كما بيه الحافظ في التلخيص وبإجماع المسلمين – وقد قال البيهقي رحمه الله في سننه الكبرى " باب سياق أخبار تدل على تحريم التحلي بالذهب " وساق احاديث في ذلك ثم قال : " باب سياق أخبار تدل على تحريم التحلي بالذهب " وساق أحاديث في ذلك ثم قال : " باب سياق أخبار تدل على إباحته للنساء " ثم ساق في ذلك أحاديث ، وذكر منها حديث سعيد بن

أبي هند المذكور عن أبي موسى ، ثم قال ورويناه من حديث علي بن أبي طالب وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر منها أيضاً حديث عائشة قالت : قدمت على النَّبي صلى الله عليه وسلم حلية من عند النجاشي أهداها له ، فيها خاتم من ذهب فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود معرضاً عنه أو ببعض أصابعه .

(46/433)

ثم دعا أمامة بنت أبي العاصي بنت ابنته زينب فقال : " تحلي هذا يا بنية " وذكر منها أيضاً حديث بنت أسعد بن زرارة رضي الله عنه : أنا كانت هي وأختاها في حجر النَّبي صلى الله عليه وسلم . لأن اباهن أوصى إليه بهن ، قالت : فكان صلى الله عليه وسلم يحلينا الذهب واللؤلؤ وفي رواية " يحلينا رعاثاً من ذهب ولؤلؤ " وفي رواية " يحلينا التبر واللؤلؤ " ثم قال البيهقي : قال أبو عبيد قال أبو عمرو : وواحد الرعاث رعثة ورعثة وهو القرط . ثم قال البيهقي : فهذه الأخبار وما ورد في معناها تدل على أباحة التحلي بالذهب للنساء ، واستدللنا بحصول الإجماع على إباحته لهن على نسخ الأخبار الدالة على تحريمه فيهن خاصة . وقد قال بعض أهل العلم : إن موافقة الأجماع لخبر الآحاد تصيره

قطعياً لاعتضاده بالقطعي وهو الإجماع. وقد تقدم ذلك في "سورة التوبة" والله اعلم.

فتحصل أنه لا شك في تحريم لبس الذهب والحرير على الرجال، وإباحته للنساء.

المسألة السادسة – أما لبس الرجال خواتم الفضة فهو جائز بلا شك، وأدلته معروفة في السنة، ومن أوضحها خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضة المنقوش فيه "محمد رسول الله" الذي كان يلبسه بعده ابو بكر ثم عمر ثم عثمان. حتى سط في بئر أريس كما هو ثابت في الصحيحين. أما لبس الرجال لغير الخاتم من الفضة ففيه خلاف بين العلماء ن وسنوضح هذه المسألة إن شاء الله.

(47/433)

اعلم أولاً – أن الرجل إذا لبس من الفضة مثل ما يلبسه النساء من الحلي كالخلخال والسوار والقرط والقلادة ونحو ذلك، فهذا لا ينبغي أن يختلف في منعه. لأنه تشبه بالنساء، ومن تشبه بهن من الرجال فهو ملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما مر آنفاً. وكل من كان ملعوناً على لسانه صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في كتاب الله، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه. لأن الله يقول: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر: 7]. وأما غير ذلك كجعل الرجل الفضة في الثوب، واستعمال الرجل شيئاً

محلى بأحد النقدين فجماهير العلماء منهم الأئمة الأربعة على أن ذلك ممنوع، مع الإجماع على جواز تختم الرجل بخاتم الفضة.

والاختلاف في أشياء كالمنطقة وآلة الحرب ونحوه والمصحف. والاتفاق على جعل الأنف من الذهب وربط الأسنان بالذهب والفضة. وسنذكر بعض النصوص من فروع المذاهب الأربعة في ذلك.

قال خليل بن أسحاق المالكي في مختصره الذي قال في ترجمته مبيناً لما به الفتوى ما نصه: وحرم استعمال ذكر محلى ولو منطقة وآلة حرب. إلا السيف والأنف، وربط سن مطلقاً، وخاتم فضة. لا ما بعضه ذهب ولو قل، وإناء نقد واقتناؤه وإن لامرأة. وفي المغشر والمموه والمضبب وذي الحلقة وإناء الجوهر قولان. وجاز للمرأة الملبوس مطلقاً ولو نعلا كلا كسرير. انتهى الغرض من كلام خليل مع اختلاف في بعض المسال التي ذكرها عند المالكية. وقال صاحب تنيين الحقائق في مذهب الإمام أبي حنيفة ما نصه: ولا يتحلى الرجل بالذهب والفضة إلا بالخاتم والمنطقة وحلية السيف من الفضة اه.

وقال النووي في شرح المهذب في مذهب الشافعي : " فصل فيما يل ويحرم من الحلي "
فالذهب أصله على التحريم في حق الرجال ، وعلى الإباحة للنساء - إلآ أن قال : وأما
الفضة فيحز للرجل التختم ، بها وهل له ما سوى الخاتم من حلي الفضة كالدملج والسوار
والطوق والتاج. فيه وجهان . قطع الجمهور بالتحريم . انتهى محل الغرض من كلام النووي .
وقال ابن قدامة في المقنع في مذهب الإمام أحمد : ويباح للرجال من الفضة الخاتم ، وفي حلية
المنطقة روايتان ، وعلى قياسها الجوشن والخوذة والخف والران والحمائل . ومن الذهب
قبيعة السيف . ويباح للنساء من الذهب والفضة كل ما جرت عادتهن بلبسه قل أو كثر .
انتهى محل الغرض من المقنع .

فقد ظهر من هذه النقول : أن الأئمة الأربعة في الجملة متفقون على منع استعمال المحلى
بالذهب او الفضة من ثوب أو آلة أو غير ذلك إلا في أشياء استثنوها على اختلاف بينهم في
بعضها . وقال بعض العلماء : لا يمنع لبس شيء من الفضة . واستدل من قال بهذا بأمرينك
أحدهما - أنها لم يثبت فيها تحريم . قال صاحب الإنصاف في شرح قول صحاب المقنع :
وعلى قياسها الجوشن والخوذة الخ ما نصه : وقال صاحب الفروع فيه : ولا أعرف على
تحريم الفضة نصاً عن أحمد . وكلام شيخنا يدل على إباحة لبسها للرجال إلا ما دل الشرع
على تحريمه - انتهى . وقال الشيخ تقي الدين أيضاً : لبس الفضة إذا لم يكن فيه لفظ عام لم
يكن لأحد أن يحرم منه إلا ما قام الدليل الشرعي على تحريمه . فإذا أباحت السنة خاتم

الفضة إذا لم يكن فيه لفظ عام لم يكن لأحد أن يحرم منه إلا ما قام الدليل الشرعي على تحريمه. فإذا أباحت السنة خاتم الفضة دل على إباحة ما في معناه، وما هو أولى منه بالإباحة، وما لم يكن كذلك فيحتاج إلى نظر في تحليله وتحريمه، والتحريم يفتقر إلى دليل، والأصل عدمه.

ونصره صاحب الفروع ورد جميع ما استدل به الأصحاب. انتهى كلام صح الإنصاف.

(49/433)

الأمر الثاني – حديث عن النّبي صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك. قال أبو داود في سننه: حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن أسيد بن ابي أسيد البراد عن نافع بن عياش عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أحب أن يحلق حبيبه حلقه من نار فليحلقه حلقة من ذهب، ومن أحب أن يطوق حبيبه طوقاً من نار فليطوقه طوقاً من ذهب، ومن أحب أن يسور حبيبه سواراً من نار فليسوره سواراً من ذهب، ولكن عليكم بالفضة فالعبوا بها " هذا لفظ أب داود.

قال مقيده عفا الله عنه: الذي يظهر لي والله أعلم أن هذا الحديث لا دليل فيه على إباحة لبس الفضة للرجال. ومن استدل بهذا الحديث على جواز لبس الرجال للفضة فقط

غلط . بل معنى الحديث : أن الذهب كان حراماً على النساء ، وأن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى الرجال عن تحلية نسائهم بالذهب ، وقال لهم : " العبوا بالفضة " اي حلو نسائكم منها بما شئتم . ثم بعد ذلك نسخ تحريم الذهب على النساء . والدليل على هذا لاذي ذكرنا أمور :

الأول – أن الحديث ليس في خطاب الرجال بما يلبسونه بأنفسهم . بل بما يحلون به أحبابهم ، والمراد نساؤهم . لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : " من حب أن يحلق حبيبه " ، " أن يطوق حبيبه " ، " أن يسور حبيبه " لو يقل : من أحب أن يحلق نفسه ، ولا أن يطوق نفسه ، ولا أن يسور نفسه . فدل ذلك دلالة واضحة لا لبس فيها على أن المراد بقوله : " فالعبوا بها " اي حلوا بها أحبابكم كيف شئتم . لارتباط آخر الكلام بأوله .

الأمر الثاني – أنه ليس من عادة الرجال أن يلبسوا حلق الذهب ، ولا أن يطوقوا بالذهب ، ولا يتسوروا به في الغالب . فدل ذلك على أن المراد بذلك من شأنه لبس الخلقة والطوق والسوار من الذهب وهن النساء بلا شك .

الأمر الثالث – أن أبا داود رحمه الله قال بعد الحديث المذكور متصلاً به : حدثنا مسدد ثنا أبو عوانة عن منصور عن ربعي بن خراش عن امرأته عن أخت لحذيفة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا معشر النساء ، أما لكن في الفضة ما تحلين به ، أما إنه ليس منكن امرأة تحلي ذهباً تظهره إلا عذبت به " .

حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا أبان بن زيد يزيد العطار ثنا يحيى أن محمد بن عمرو الأنصاري حدثه أن أسماء بنت يزيد حدثته : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيما امرأة تقلدت قلادة من ذهب قلدت في عنقها مثله من النار يوم القيامة . وأيما امرأة جعلت في أذنها خرصا من ذهب جعل في أذنها مثله من النار يوم القيامة " .

فهذان الحديثان يدلان على ان المراد بالحديث الأول منع الذهب للنساء ، وأن قوله : " فالعبوا بها " . معناه : فحلوا نسائكم الفضة بما شئتم كما هو صريح في الحديثين الأخيرين . وهذا واضح جداً كما ترى .

ويدل له أن الحافظ البيهقي رحمه الله ذكر الأحاديث الثلاثة المذكورة التي من جملتها " وعليكم بالفضة فالعبوا بها " في سياق الأحاديث الدالة على تحريم الذهب على النساء أولاً دون الفضة . ثم بعد ذلك ذكر الأحاديث الدالة على النسخ ثم قال : واستدللنا بحصول الإجماع على إباحته لهن على نسخ الأخبار الدالة على تحريمه فيهن خاصة . والله أعلم أنتهى .

ومن جمل تلك الأحاديث المذكورة حديث : " فالعبوا بها " وهو واضح جداً فيما ذكرنا .

فإن قيل : قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المذكور " يحلق حبيبه " ، " أن يطوق حبيبه " ، " أن يسور حبيبه " يدل على أن المراد ذكرر لأنه لو أراد إشكال فيه . ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

منع النوم بالعشاء الهموم . . . وخيال إذا تغار النجوم

من حبيب أصاب قلبك منه . . . سقم فهو داخل مكتوم

ومراده بالحبيب أنثى . بدليل قوله بعده :

لم تفتها شمس النهار بشيء . . . غير أن الشباب ليس يدوم

وقول كثير عزة :

لئن كان برد الماء هيمان صاديا . . . إلى حبيبا إنها لحبيب

ومثل هذا كثير في كلام العرب فلا نطيل به الكلام .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم : أن لبس الفضة حرام على الرجال ، وأن من لبسها منهم في الدنيا لم يلبسها

في الآخرة. وإيضاح ذلك أن البخاري قال في صحيحه في باب: "لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه": حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبي ليلى قال: كان حذيفة بالمدائن فاستسقى فأتاه دهقان بماء في إناء من فضة، فمراه به، وقال: إني لم أرمه إلا أني نهيته فلم ينته! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الذَّهب والفضَّة والحرير والدِّيباج هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة".

فقول النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح: "الذَهب والفضَّة والحرير والدِّيباج هي لهم في الدينا ولكم في الآخرة" يدخل في عمومه تحريم لبس الفضة. لأن الثلاث المذكورات معها يحرم لبسها بلا خلاف.

وما شمله عموم نص ظاهر من الكتاب والسن لا يجوز تخصيصه إلا بنص صالح للتخصيص. كما تقرر في علم الأصول.

فإن قيل: الحديث وارد في الشر في إناء الفضة لا في لبس الفضة؟

فالجواب – أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، لا سيما أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ذكر في الحديث ما لا يحتمل غير اللبس كالحرير والديباج.

(52/433)

فإن قيل: جاء في بعض الروايات الصحيحة ما يفسر هذا ويبين أن المراد بالفضة الشرب في آنيتها لا لبسها. قال البخاري في صحيحه "باب الشرب في آنية الذهب" حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبي ليلى قال، كان حذيفة بالمدائن فاستسقى، فأتاه دهقان بقدح فضة فرماه به فقال: إني لم أرمه، إلا أني نهيته فلم ينته، وأن النَّبي نهانا عن الحرير والديباج والشرب في آنية الذهب ولا فضة وقال: "هن لهم في الدُّنيا ولكم في الآخرة" "باب آنية الفضة" حدثنا محمد بن المثنى حدثنا ابن أبي عدي عن ابن عون عن مجاهد عن ابن أبي ليلى قال: خرجنا مع حذيفة وذكر النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تلبسوا الحرير والدِّيباج، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة" انتهى.

فدل هذا التفصيل الذي هو النهي عن الشرب في آنية الذهب والفضة، والنهي عن لبس الحرير والديباج – على أن ذلك هو المراد بما في الرواية الأولى. وإذن فلا حجة في الحديث على منع لبس الفضة. لأنه تعين بها تين الروايتين أن المراد الشرب في آنيتها لا لبسها، لأن الحديث حديث واحد.

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول – أن الرواية المتقدمة عامة بظاهرها في الشرب واللبس معاً، والروايات المقتصرة على الشرب في آنيتها دون اللبس ذاكرة بعض أفراد العام، ساكتة عن بعضها. وقد تقرر

في الأصول : " أن ذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه " وهو الحق كما بيناه في غير هذا الموضع . وإليه أشار في مراقي السعود بقوله عاطفاً على ما لا يخصص به العموم على الصحيح :

وذكر ما وافقه من مفرد . . . ومذهب الرواي على المعتمد

(53/433)

الوجه الثاني – أن التفصيل المذكور لو كان هو مراد النَّبي صلى الله عليه وسلم لكان الذهب لا يحرم لبسه ، وإنما يحرم الشرب في آنيته فقط ، كما زعم مدعي ذلك التفصيل في الفضة . لأن الروايات التي فيها التفصيل المذكور " لا تشربوا في آنية الذهب والفضة " فظاهرها عدم الفرق بين الذهب والفضة . ولبس الذهب حرام إجماعاً على الرجال .

الوجه الثالث – وهو أقواها ، ولا ينبغي لمن فهمه حق الفهم أن يعدل عنه لظهور وجهه ، وهو : أن هذه الأربعة المذكورة في هذا الحديث ، التي هي : الذهب ، والفضة ، والحرير ، والديباج – صرح النَّبي أنها للكفار في الدنيا ، وللمسلمين في الآخرة .

فدل على ىأن من استمتع بها من الدينا لم يستمتع بها في الآخرة ، وقد صرح جل وعلا في كتابه العزيز بأن أهلاالجنة يتمتعون بالذهب والفضة من جهتين :

إحداهما – الشراب في آنيتهما .

والثانية – التحلي بهما . وبين أهل الجنة يتنعمون بالحرير والديباج من جهة واحدة وهي لبسها ، وحكم الاتكاء عليهما داخل في حكم لبسهما . فتعين تحريم الذهب والفضة من الجهتين المذكورتين . وتحريم الحرير والديباج من الجهة الواحدة . لقوله صلى الله عليه وسلم الثابت في الروايات الصحيحة في الأربعة المذكورة : " هي لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة " لأنه لو أبيح التمتع بالفضة في الدنيا والآخرة لكان ذلك معارضاً لقوله صلى الله عليه وسلم : " هي لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة " وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى من كتاب الله جل وعلا .

اعلم أولاً – أن الديباج هو المعبر عنه في كتاب الله بالسندس والاستبرق . فالسندس : رقيق الديباج . والاستبرق : غليظه .

فإذا علمت ذلك فاعلم أن الله جل وعلا بين تنعم أهل الجنة بلبس الذهب والديباج الذي هو السندس والاستبرق في " سورة الكهف " في قوله : ﴿ أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ

وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف : 31] الآية . فمن لبس الذهب والديباج في الدنيا منع من هذا التنعم بهما المذكور في " الكهف " .

ذكر جل وعلا تنعم أهل الجنة بلبس الحرير والذهب في " سورة الحج " في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾ [الحج : 23-24] .

وبين أيضاً تنعمهم بلبس الذهب والحرير في " سورة فاطر " في قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 33-34] الآية . فمن لبس الذهب والحرير في الدنيا منع من هذا التنعم بهما المذكور في " سورة الحج وفاطر " .

وذكر جل وعلا تنعمهم بلبس الحرير في " سورة الإنسان " في قوله : و ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ [الإنسان : 12] وفي " الدخان " بقوله ﴿ إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الدخان : 51-53] الآية . فمن لبس الحرير في الدنيا منع من هذا التنعم به المذكور في " سورة الإنسان والدخان " .

وذكر جل وعلا تنعمهم بالاتكاء على الفرش التي بطائنها من استبرق في " سورة الرحمن " بقوله :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن : 54] الآية. فمن اتكأ على الديباج في الدنيا منه هذا التنعم المذكور في "سورة الرحمن".

وذكر جل وعلا تنعم أهل الجنة بلبس الديباج الذي هو السندس والاستبرق ولبس الفضة في "سورة الإنسان" أيضاً في قوله : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21].

فمن لبس الديباج أو الفضة في الدنيا منه من التنعم بلبسهما المذكور في "سورة الإنسان"، لقوله صلى الله عليه وسلم : "هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة" فلو أبيح لبس الفضة في الدنيا مع قوله في نعيم أهل الجنة : ﴿ وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ لكان ذلك مناقضاً لقوله صلى الله عليه وسلم : "هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة".

وذكر تنعم أهل الجنة بالشرب في آنية الذهب في "سورة الزخرف" في قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف : 71] الآية. فمن شرب في الدنيا في أواني الذهب منه هذا التنعم بها المذكور في "الزخرف".

وذكر جل وعلا تنعم أهل الجنة بالشرب في آنية الفضة في "سورة الإنسان" في قوله : ﴿

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ [الإنسان: 15-18] فمن شرب في آنية الفضة في الدنيا منع هذا التنعم بها المذكور في "سورة الإنسان" فقد ظهر بهذا للمنصف دلالة القرآن والسنة الصحيحة على منع لبس الفضة. والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

(56/433)

فإن قيل عموم حديث حذيفة المذكور الذي استدللتم به، وببيان القرآن انه شامل للبس الفضة والشرب فيها، وقلتم: إن كونه وارداً في الشرب في آنية الفضة لا يجعله خاصاً بذلك. فما الدليل في ذلك على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟

فالجواب – أن النّبي صلى الله عليه وسلم سئل عما معناه: هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟ فأجاب بما معناه: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال البخاري في صحيحه: حدثنا مسددن حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة،

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأنزلت عليه ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : 114] قال الرجل : ألي هذه؟ قال : "لمن عمل بها من أمتي" اه هذا الفظ البخاري في التفسير في "سورة هود" وفي رواية في الصحيح قال "لجميع أمَّتي كلهم" اه .

فهذا أصاب القبلة من المرأة نزلت في خصوصه آية عامة اللفظ ، فقال للنَّبي صلى الله عليه وسلم : ألي هذه؟ ومعنى ذلك : هل النص خاص بي لأني سبب وروده؟ أو هو على عموم لفظه؟ وقول النَّبي صلى الله عليه وسلم له : "لجميع أمتي" معناه أن العبرة بعموم لفظ ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ لا بخصوص السبب .

والعلم عند الله تعالى .

(57/433)

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَتَرَى الفلك ﴾ أي السفن . وقد دل القرآن علة أن "الفُلْك" يطلق على الواحد وعلى الجمع ، وأ ، ه إن أطلق على الواحد ذكر ، وإن أطلق على الجمع أنث . فأطلقه على المفرد مذكراً في قوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : 41-42] . وأطلقه على

الجمع مؤنثاً في قوله : ﴿ والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ [البقرة : 164]. وقوله : ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ جمع ماخرة ، وهم اسم فاعل ، مخرت السفينة تمخر – بالفتح – وتمخر – بالضم – مخراً ومخورا : جرت في البحر تشق الماء مع صوت . وقيل : استقبلت الريح في جريتها . والأظهر في قوله ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أنه معطوف على قوله : ﴿ لتأْكُلُوا منهُ لحماً طرياً ﴾ ولعل هنا للتعليل كما تقدم .

والشكر في الشرع : يطلق من العبد لربه . كقوله هنا ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ وشكر العبد لربه : هو استعماله نعمه التي أنعم عليه بها في طاعته . وأما من يستعين بنعم الله على معصية فليس من الشاكرين . وإنما هو كنود كفور .

وشكر الرب لعبده المذكور في القرآن كقوله ﴿ فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 158] وقوله ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : 34] هو أن يثبت عبده الثواب الجزيل من العمل القليل . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(58/433)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾

القول في هذا الاستدلال وإدماج الامتنان فيه كالقول فيما سبق .

وتقدّم الكلام على تسخير الفلك في البحر وتسخير الأنهار في أثناء سورة إبراهيم .

ومن تسخير البحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك ، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخّرة لحيل الصائدين .

وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريّ .

و(مِن) ابتدائية ، أي تأكلوا لحماً طريّاً صادراً من البحر .

والطريّ : ضد اليابس .

والمصدر : الطراوة .

وفعله : طَرو ، بوزن خَشُن .

والحلية : ما يتحلّى به الناس ، أي يتزينون .

وتقدم في قوله تعالى ﴿ ابتغاء حلية ﴾ في سورة الرعد (17) .

وذلك اللؤلؤ والمَرجان ؛ فاللؤلؤ يوجد في بعض البحار مثل الخليج الفارسي ، والمرجان يوجد في جميع البحار ويكثر ويقلّ .

[وسيأتي الكلام على اللؤلؤ في سورة الحجّ ، وفي سورة الرحمان .

ويأتي الكلام على المَرجان في سورة الرحمن .

والاستخراج : كثرة الإخراج ، فالسين والتاء للتأكيد مثل : استجاب لمعنى أجاب .

واللبس : جعل الثوب والعمامة والمصوغ على الجسد .

يقال : لبس التاج ، ولبس الخاتم ، ولبس القميص .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قد أنزلنا عليكم لباسا ﴾ في سورة الأعراف (26) .

وإسناد لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور تغليب ، وإلا فإن غالب الحلية يلبسها النساء عدا الخواتيم وحلية السيوف .

وجملة وترى الفلك مواخر فيه ﴾ معترضة بين الجمل المتعاطفة مع إمكان العطف لقصد مخالفة الأسلوب للتعجيب من تسخير السير في البحر باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية .

وهو يستعمل في التعجيب كثيراً بصيغ كثيرة نحو : ولو ترى ، وأرأيت ، وماذا ترَى .

واجتلاب فعل الرؤية في أمثاله يفيد الحثّ على معرفة ذلك .

(59/433)

فهذا النظم للكلام لإفادة هذا المعنى ولولاها لكان الكلام هكذا : وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتبتغوا من فضله في فُلْكٍ مواخرَ .

وعطف ﴿ ولتبتغوا ﴾ على ﴿ وتستخرجوا ﴾ ليكون من جملة النّعم التي نشأت عن

حكمة تسخير البحر .

ولم يجعل علة لمخر الفلك كما جعل في سورة فاطر (12) ﴿ وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ﴾ لأن تلك لم تصدر بمنّة تسخير البحر بل جاءت في غرض آخر .

وأعيد حرف التعليل في قوله تعالى : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ لأجل البعد بسبب الجملة المعترضة .

والابتغاء من فضل الله : التجارة كما عبّر عنها بذلك في قوله تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ في سورة البقرة (198) .

وعطف ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ على بقية العلل لأنه من الحكم التي سخّر الله بها البحر للناس حملاً لهم على الاعتراف لله بالعبودية ونبذهم إشراك غير ربّه فيها .

وهو تعريض بالذين أشركوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(60/433)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾

والتسخير كما علمنا من قَبْل هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع الكائن أنْ يتخلَّف عنها ، ولا

اختيارَ له في أنْ يؤدّيها أو لا يُؤدِّيها . ونعلم أن الكون كله مُسخَّر للإنسان قبل أنْ يُوجدَ ؛ ثم خلق الله الإنسان مُخْتاراً .

وقد يظن البعض أن الكائنات المُسخَّرة ليس لها اختيار ، وهذا خطأ ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْه في بداية وجودها ، ولنقرأْ قوله الحق : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . . ﴾ [الأحزاب : 72] .

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خيَّر خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التي هي ما دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرَّة واحدة ؛ لذلك لا يجب أنْ يُقال : إن الحق سبحانه هو الذي قهرها ، بل هي التي اختارتْ من أول الأمر ؛ لأنها قدرتْ وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكأنها قالت لنفسها : فلأخرج من باب الجَمال ؛ قبل أن ينفتحَ أمامي باب ظلم النفس .

ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] . فقد ظلم الإنسانُ نفسَه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة ؛ لأنه قدر وقت التحمُّل ولم يقدر وقت الأداء . وهو جَهُول لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .

وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن

لمهمة لا يملك أن يتخلَّف عنها ؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لِمُهمة له أنْ يُؤدِّيها أو يتخلَّف عنها .

(61/433)

وأوضحنا أن المُسخَّرات كان لها أنْ تختارَ من البداية ، فاختارتْ أن تُسخِّر وألاَّ تتحملَ الأمانة ، بينما أخذ الإنسان المهمةَ ، واعتمد على عقله وفِكْره ، وقَبِل أن يُرتِّب أمور حياته على ضوء ذلك .

ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كي يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار ؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجري على الإنسان ولا اختيارَ له فيها ؛ كأن يمرضَ أو تقع له حادثة أو يُفلس .

ولذلك أقول : إن الكافر مُغفّل لاختياره ؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرَّد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفي الآية التي نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر ﴾ [النحل : 14] .

فهذا يعني أنه هو الذي خلق البحر ، لأنه هو الذي خلق السماوات والأرض ؛ وجعل

اليابسة ربع مساحة الأرض؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أي : أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضاً من الطعام فيقول :

﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .

. . ﴾ [النحل : 14] .

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتي المَدُّ أحياناً ثم يَعْقبه الجَزْر؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطيء ، أو قد تحمل موجة عفيّة بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطئ .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجودَ بعض من الأسماك على الشاطيء هو الذي نبَّه الإنسان إلى أهمية أنْ يحتالَ ويصنع السِّنارة؛ ويغزل الشبكة؛ ثم ينتقل من تلك الوسائل البدائية إلى التقنيّات الحديثة في صيد الأسماك .

(62/433)

لكن الحلية التي يتم استخراجها من البحر فهي اللؤلؤ ، وهي تقتضي أن يغوصَ الإنسان في القاع ليلتقطها . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أسرار كنوزه فيقول : ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا

فِي الأَرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ [طه : 6] .

وكل كنوز الأمم توجد تحت الثَّرى . ونحن إنْ قسمنا الكرة الأرضية كما نقسم البطيخة إلى قِطَع كالتي نُسمِّيها " شقة البطيخ " سنجد أن كنوز كل قطعة تتساوى مع كنوز القطعة الأخرى في القيمة النفعية ؛ ولكن كُلّ عطاء يوجد بجزء من الأرض له ميعاد ميلاد يحدده الحق سبحانه .

فهناك مكان في الأرض جعل الله العطاء فيه من الزراعة ؛ وهناك مكان آخر صحراوي يخاله الناس بلا أيِّ نفع ؛ ثم تتفجَّر فيه آبار البترول ، وهكذا .

وتسخير الحق سبحانه للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة التي هو عليها ؛ بل قد تجد له أشياء ومهام أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى عليه السلام ؛ وصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم .

ومن قبل ذلك حين حمل اليَمّ موسى عليه السلام بعد أن ألقتْه أمه فيه بإلهام من الله : ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل . . . ﴾ [طه : 39] .

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحملَ موسى إلى الشاطيء فَوْر أنْ تُلقيَه أمه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر في مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحُليّ . ونعلم أن ماءَ البحر مالح ؛ عكس ماء النهر وماء المطر ؛ فالمائيّة تنقسم إلى

قِسْمين؛ مائية عَذْبة، ومائية مِلْحية.

وقوله الحق عن ذلك: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . ﴾ [فاطر: 12]

.

ويسمُّونهم الاثنين على التغليب في قوله الحق: ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن: 19

].

(63/433)

والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح، وكيف يختلطان، ولكن الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض، وأنت لو حفرتَ في قاع البحر لوجدتَ ماء عَذْباً، فالحق سبحانه هو الذي شاء ذلك وبيَّنه في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ [الزمر: 21].

وهنا يقول سبحانه:

﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً . . . ﴾ [النحل: 14].

واللحم إذا أُطلِق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام، أما إذا قُيِّد ب " لحم طري "

فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآني ؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طَرّياً دائماً .

ونجد مَنْ يشتري السمك وهو يَثْني السمكة ، فإنْ كانت طرِيَّة فتلك علامةٌ على أنها صالحةٌ للأكل ، وإنْ كانت لا تنثني فهذا يعني أنها فاسدة ، وأنت إنْ أخرجتَ سمكة من البحر تجد لحمها طَرِياً ؛ فإنْ ألقيتَها في الماء فهي تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء ؛ أما إن كانت ميتة فهي تنتفخ وتطفو .

لذلك " نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل السمك الطَّافي لأنه المَيْتة " ، وتقييد اللحم هنا بأنه طريّ كي يخرجَ عن اللحم العادي وهو لَحْم الأنعام ؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلفَ ألاَّ يأكل لَحْماً ؛ ثم أكل سمكاً فهو لا يحنث ؛ لأن العُرْف جرى على أن اللحم هو لَحْم الأنعام .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية عن تسخير البحر :

﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . ﴾ [النحل : 14] .

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً ؛ لأنها رفاهية ؛ أما السمك فقال عنه مباشرة :

﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً . . . ﴾ [النحل : 14] .

والأَكْل أمر ضروري لذلك تكفّله الله وأعطى التسهيلات في صَيْده ، أما الزينة فلك أَنْ تتعب لتستخرجه ، فهو ترَفٌ . وضروريات الحياة مَجْزولة ؛ أما ترَف الحياة فيقتضي منك أنْ تغطس في الماء وتتعب من أجله .

وفي هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أنْ يرتقي في معيشته ؛ فَلْيُكثِر من دخله ببذل عرقه ؛ لا أنْ يُترِف معيشته من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

﴿ تَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . ﴾ [النحل : 14] .

والحِلْية كما نعلم تلبسها المرأة . والمَلْحظ الأدنى هنا أن زينةَ المرأة هي من أجْل الرجل ؛ فكأن الرجلَ هو الذي يستمتع بتلك الزينة ، وكأنه هو الذي يتزيّن . أو : أن هذه المُسْتخرجات من البحر ليست مُحرَّمة على الرجال مِثْل الذهب والحرير ؛ فالذهب والحرير نَقْد ؛ أما اللؤلؤ فليس نَقْداً .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصحّ أنْ تُصنع من تلك الحلية عَصاً أو أي شيء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ [النحل : 14] .

ولم تكُن هناك بواخر كبيرة كالتي في عصرنا هذا بل فُلُك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول مَنْ صنع الفُلْك ، وسَخِر منه قومه ؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لَمَا سَخِروا منه .

وبطبيعة الحال لم يَكُنْ هناك مسامير لذلك ربطها بالحبال ؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : 13] .

وكان جَرْي مركب نوح بإرادة الله ، ولم يكُنْ العلْم قد تقدَّم ليصنع البشر المراكب الضخمة التي تنبّأ بها القرآن في قوله الحق : ﴿ وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام ﴾ [الرحمن : 24] .

ونحن حين نقرؤها الآن نتعجَّب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر ؛ فالقرآن عالم بما يَجدّ ؛ لا بقهريات الاقتدار فقط ؛ بل باختيارات البشر أيضاً .

وقوله الحق :

﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ .

. . ﴾ [النحل : 14] .

والمَاخِر هو الذي يشق حلزومه الماء ، والحُزوم هو الصدر . ونجد مَنْ يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادةً لتكون رأس الحربة التي تشق المياه بجرير .

وفي هذه الآية امتنّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُليّ ، وسَيْر الفلْك في البحر ؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ ؛ فيقول :

﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ . . . ﴾ [النحل : 14] .

وكأن البواخر وهي تشقّ الماء ويرى الإنسان الماءَ اللين ، وهو يحمل الجسم الصَّلْب للباخرة فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسانَ من مكان إلى مكان .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 14] .

ولا يُقال ذلك إلا في سَرْد نعمة آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشكر من العقل العادي والفطرة العادية ، وشاء سبحانه أنْ يترك الشُّكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(66/433)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : 14) ، وقال في سورة الملائكة : ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (فاطر : 12) .

وفي هذه الآية ثلاث سؤالات : الأول : لم أخر المجرور وفي سورة النحل فقيل : ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ وقدم في السورة الأخرى فقيل : ﴿ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ ؟ والثاني : زيادة الواو في قوله : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ في سورة النحل وسقوطها في سورة الملائكة ؟ ، والثالث : زيادة ((منه)) في سورة النحل في قوله : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وسقوط ذلك في سورة الملائكة ﴾ ؟

والجواب عن الآول : أن أية النحل بنيت على تاخير المجرورات عما تعلقت به ، وجرى الكلام جريا واحدا للتناسب والتشاكل ، فقيل : لتأكلوا منه ، وتستخرجوا منه ، ومواخرفيه . ولو قيل هنا : فية مواخر وتقدم المجرور على العامل فبه وهو مواخر اسم فاعل مجموع من المخر وهو شق السفينة الماء بجيزومها لما ناسب ما تقدم مما بنيت الآية عليه وتقدم فى المجرورين قبله .

أما اية الملائكة فمبنية على تقدم المجرور على ما به تعلق (قال تعالى) : (ومن كل تاكلون لحما طريا) ، وتأكلون العامل فى المجرور الذى هو كل متاخر عنه ، فناسب ذلك تأخر العامل أيضا فى المجرور الثانى ليتناسب الكلام ببناء أخره على ما بنى أوله ولم يكن ليصح ما لا يتناسب.

(67/433)

والجواب عن السؤال الثانى : أن أية النحل مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم وقد اجتمع فى قوله تعالى : (وهو الذى سخر البحر) الآية ، مجموع الآمرين من الاعتبار وابداء النعمة بتسخير البحر وأكل اللحم الطرى منه واخراج الحلية للباس ومخر السفن اياه للمنافع والأكتساب ، فهذه نعم جليلة ، وفى كل منها مجال للاعتبار ومتسع للتفكير والنظر ، فلما كان من مقصود هذه الآية تعداد النعم ناسب ذلك عطف بعضها على بعض لانه مظنة اطناب وتفصيل ، فقيل : (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْله) (النحل : 14) ، والمجرور متعلق بفعل التسخير ، واستخراج الحلية ، وجرى السفن والابتغاء من فضل الله.

وأما أية سورة الملائكة فبينت على ابداء القدرة وجليل الحكمة ألا ترى قوله : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا

يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) (فاطر : 11) ، ثم قال : (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) (فاطر : 12) ، فهذا مقصود به الاعتبار والتعريف بانفراده سبحانه بخلق ذلك ابداء النعم وجليل الاحسان ، ولكن مقصود الآية وبناءها على ما ذكرنا ، ثم تجرد باقى الكلام للتعريف بالانعام والامتنان فقال تعالى : (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) (فاطر : 12) ، فتعلق المجرور الذى هو لتبتغو باسم الفاعل المجموع اى سخرة للابيتغاء من فضلة ، فالابتغاء هنا منجر طي الكلام ، والامتناء مقصود ، ألا ترى أن مخر السفن كأنه ليس لشيء الا للابتغاء ، فلما تعلقت اللام بمواخر من حيث تحمل اللفظ معنى الفعل لم يصح دخول

(68/433)

الواو ، ولم يكن كأية النحل ، فافترق القصدان ، ولم يلائم كلا من الموضعين الا الوارد فيه .

والجواب عن السؤال الثالث : أن معنى الكلام فى قوله (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) (فاطر : 12) مستقل ، لا ابهام فيه ولا احتمال لآن تقدير الكلام : من كل البحر أكلكم واستخراج الحلية للباس فالكلام فى قوة المبتأ والخبر ، لايوهم

خلاف ما ذكر ، وأما قوله : (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) (النحل : 14) فلو سقط هنا المجرور الذى هو ((منه)) لكان مجالا للاحتمال ، لو قيل : وتستخرجوا حلية لم يكن بالنص فى أن استخراج الحلية من البحر وان كان ظاهرا الا أن هذا القدر من الاحتمال منقدح هنا وغير منقدح فى أية الملائكة لآنة لا انقداح فيها للاحتمال فورد كل على ما يجب ، والله واعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 295.297 ﴾

(69/433)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن مطر أنه كان لا يرى بركوب البحر بأساً ، وقال : ما ذكره الله في القرآن إلا بخير .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر : أنه كان يكره ركوب البحر إلا لثلاث : غازٍ أو حاج أو معتمر .

وأخرج عبد الرزاق ، عن علقمة بن شهاب القرشي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لم يدرك الغزو معي فليغز في البحر ، فإن أجر يوم في البحر كأجر يوم في البر وإن القتل في البحر ، كالقتلتين في البر ، وإن المائد في السفينة ، كالمتشحط في دمه ، وان خيار شهداء أمتي أصحاب الكف ، قالوا . وما أصحاب الكف يا رسول الله ؟ قال : قوم تتكفأ بهم مراكبهم في سبيل الله " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن كعب الأحبار : إن الله قال للبحر الغربي حين خلقه : قد خلقتك فأحسنت خلقك وأكثرت فيك من الماء وإني حامل فيك عباداً لي يكبروني ويهللوني ويسبحوني ويحمدوني ، فكيف تعمل بهم ؟ قال : أغرقهم ، قال الله : إني أحملهم على كفي ، وأجعل بأسك في نواحيك ، ثم قال للبحر الشرقي : قد خلقتك فأحسنت خلقك ، وأكثرت فيك من الماء ، وإني حامل فيك عباداً لي يكبروني ويهللوني ويسبحوني ويحمدوني ، فكيف أنت فاعل بهم ؟ قال أكبرك معهم ، وأحملهم بين ظهري وبطني ، فأعطاه الله الحلية والصيد الطيب .

وأخرج البزار ، عن أبي هريرة قال : كلم الله البحر الغربي ، وكلم الشرقي ، فقال للبحر الغربي : إني حامل فيك عباداً من عبادي ، فما أنت صانع بهم ؟ قال : أغرقهم . قال : بأسك في نواحيك ، وحرمه الحلية والصيد وكلم هذا البحر الشرقي ، فقال : إني حامل

فيك عباداً من عبادي ، فما أنت صانع بهم ؟ قال : أحملهم على يدي ، وأكون لهم كالوالدة لولدها ، فأثابه الحلية والصيد .

(70/433)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ يعني حيتان البحر ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ قال هذا اللؤلؤ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ قال هو السمك وما فيه من الدواب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة : إنه سئل عن رجل قال لامرأته : إن أكلت لحماً فأنت طالق ؟ فأكلت سمكاً ، قال : هي طالق . قال الله ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عطاء قال : يحنث قال الله ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي جعفر قال : ليس في الحلي زكاة ، ثم قرأ ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ وترى الفلك مواخر ﴾ قال جواري .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ قال تمخر السفن الرياح، ولا تمخر الريح من السفن، إلا الفلك العظام.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عكرمة ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ قال تشق الماء بصدرها.

وأخرج ابن ألمنذر وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ قال السفينتان تجريان بريح واحدة؛ كل واحدة مستقبلة الأخرى.

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ قال تجري بريح واحدة مقبلة ومدبرة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ قال هو التجارة والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(71/433)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ لَحْماً ﴾ : يجوز في " منه " تعلّقُه ب " لتأكلوا " ، وأَنْ يتعلّق بمحذوفٍ لأنه حالٌ من النكرة بعده . و " مِنْ " لابتداء الغاية أو للتبعيض ، ولا بُدَّ مِنْ حذفِ مضافٍ ، أي : مِنْ حيوانِه .

و " طَرِيّاً " فَعِيْل مِنْ طَرُوَ يَطْرُوْ طَراوةً كسَرُوَ يَسْرُوْ سَراوةً . وقال الفراء : " بل يقال : طَرِيَ يَطرَى طَراوةً وطَراءً مثل : شَقِيَ يَشْقَى شَقَاوةً وشَقَاءً " . والطَّراوةُ ضد اليُبُوسة ، أي : غَضاً جديداً . ويُقال : الثيابُ المُطَرَّاة . والإِطراء : مَدْحٌ تَجَدَّد ذِكْرُه ، وأمَّا " طَرَأَ " بالهمز فمعناه طَلَع .

قوله : " حِلْيَةً " الحِلْيَة : اسمٌ لما يُتَحَلَّى به ، وأصلُها الدلالةُ على الهيئة كالعِمَّة والخِمْرَة . و " تَلْبَسُونها " صفةٌ . و " منه " يجوز فيه ما جاز في " منه " قبله . وقوله " تَرَى " جملةٌ معترضةٌ بين التعليلين وهما " لتأكلوا " و " لِتَبْتَغُوا " ، وإنما كانَتْ اعتراضاً لأنها خطابٌ لواحد بين خطابين لجمع .

قوله : " فيه " يجوز أَنْ يتعلَّق ب " ترى " ، وأَنْ يتعلَّق ب " مواخِرَ " لأنها بمعنى شَوَاقَّ ، وأن يتعلَّق بمحذوفٍ لأنه حالٌ مِنْ " مَواخِر " ، أو مِنَ الضميرِ المستكِنّ فيه .

و " مَواخِر " جمع ماخِرة ، والمَخْرُ : الشّقُّ ، يُقال : مَخَرَتِ السفينةُ البحرَ ، أي : شَقَّتْه ، تَمْخُره مَخْراً ومُخُوراً . ويقال للسُّفُن : بناتُ مَخْرٍ وبَخْرٍ بالميم ، والباءُ بدل منها . وقال الفراء : " هو صوتُ جَرْيِ الفُلْكِ " . وقيل : صوتُ شدَّةِ هُبوبِ الريحِ . وقيل : " بناتُ مَخْرٍ " لسَحابٍ ينشأُ صَيْفاً ، وامْتَخَرْتُ الريحَ واسْتَمْخَرْتُها ، أي : استقبلْتَها بأنفك . وفي الحديث : " اسْتَمْخِروا الريحَ ، وأَعِدُّوا النُّبَلَ " يعني في الاستنجاء ، والماخُور : الموضع الذي يُباع فيه الخمرُ . و " ترى " هنا بَصَرِيَّةٌ فقط .

قوله : " ولِتَبْتَغُوا " فيه ثلاثةُ أوجهٍ : عطفُه على " لتأكلوا " ، وما بينهما اعتراضٌ -كما تقدَّم- وهذا هو الظاهرُ . ثانيها : أنه عطفٌ على علةٍ محذوفةٍ تقديره : لتنتفعوا بذلك ولتبتَغُوا ، ذكره ابن الأنباري ، ثالثُها : أنه متعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ ، أي : فَعَل ذلك لتبتغوا ، وفيهما تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 200 . 201﴾

(73/433)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

سخر البحر في الظاهر، وسهّل ركوبه في الفُلْك، ويَسَّر الانتفاع بما يستخرج منه من الحُلِيّ كاللؤلؤ والدُّرّ، وما يقْتَاتُ به من السمك وحيوان البحر.

ومن وجوه المعاني خلق صنوفاً من البحر، فقومٌ غَرْقَى في بحار الشغل وآخرون في بحار الحزن، وآخرون في بحار اللهو. فالسلامةُ من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل، والنجاة من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا، والسلامة من بحر اللهو في ركوب سفينة الذكر، وأنشد بعضهم. (1) انتهى انتهى. ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 289 ﴾

---

(1) سقط الشاهد الشعرى من الناسخ.

(74/433)

صور من الإعجاز العلمى فى القرآن

–آيات عظمة الله في البحار والمحيطات

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل: 14)

عظمة البحار

تشغل البحار والمحيطات، حيزاً كبيرا من سطح الأرض، يبلغ نحو ثلاثة أرباعه . وتختلف صفات الماء على الأرض، بسهولة تدفقه من جهة إلى أخرى، حاملاً الدفء أو البرودة . وله قوة انعكاس جيدة للإشعاع الشمسي، ولذا فإن درجة حرارة البحار لا ترتفع كثيراً أثناء النهار ، ولا تنخفض بسرعة أثناء الليل فلا تختلف درجة الحرارة أثناء الليل عن النهار بأكثر من درجتين فقط .

ويقول أحد العلماء أن البحر يباري الزمان في دوامه، ويطاول الخلود في بقائه . تمر آلاف الأعوام بل وعشرات الألوف والملايين، وهو في يومه هو أمسه وغده، تنقلب الجبال أودية، والأودية جبالاً، وقد دلت الأبحاث العلمية أن أقصى أعماق البحار تعادل أقصى علو الجبال، وقد صرح الكابتن جاك ايف كوستو مكتشف أعماق البحر في أوائل سبتمبر سنة 1956 بأنه قد أمكن التقاط صور فوتوغرافية على عمق 25080 قدماً وأنه اكتشفت ألواناً جديدة من الحياة وأنواعاً لا عهد للعلم بها . وتدل الصور التي التقطت على قاع المحيط على أن قاع المحيط ليس منبسطاً كما كان مفهوماً .

قوة البحار

قال الله تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً) (الاسراء : 67)

ماء المحيطات والبحار، والبحيرات والأنهار، والترع والقنوات مصدرها واحد . . . . ذرات من إيدروجين . . . أتحدت مع ذرات من أكسجين، فكونت الماء . . الذي يسير دائما في اتجاه واحد . . . لا يختلف ولا يتغير . . يسير حاملا الحياة . . ولكن هل الماء دائما يجري لجلب الحياة والسعادة . . . ؟ ألا ما أقواه ! . . .

وما أقساه ! ! فإنه أحيانا يكاد يكون أقوى وأقسى ما في الوجود على وجه الإطلاق، فهو يجرف كل ما يقف في سبيله دائما كائنا ما كان ! ! وهو يسبب كوارث الفيضانات ولكل صلب . . وإليه يفتت الحجر، وتهوي تحت نقاطه الصخور وكل صلب . . وإليه يرجع ما في المحيط من روعة وعمق . . . سر ورهبة . . . خطر وفزع . . . ولعل أبدع ما قيل في وصف زمجرة البحر، لمن قال . . من اتفق له أن يعرف ما الزوبعة البحرية . . . تدوم ثلاثة أيام أو أربعة لا تقعد لها قائمة . . . ولا لها شدة . . موج متصاعد كالجبال، وخنادق منخفضة كالأودية، اتصال ما بين البحر والسماء، لا بر ينظر، ولا أفق يبصر، وأرض إلا قباب الأمواج، ولا بحر إلا غيوم السماء . فالموج الذي يرتفع عادة إلى 25 قدماً قد يرتفع في أيام العاصفة إلى 130 قدماً، وإذا عرفت أن للقدم الواحد في كل موجة قوة مدمرة زنتها ستة آلاف رطل لأمكننا أن نتصور مدى الدمار الذي تنتجه هذه الأمواج .

ففي عام 1872 اقتلعت موجة عاتية في أسكتلندا مرسى حديدياً زنته مليونا و700

ألف رطل، وأخرى حملت صخرة وزنها 175 ألف رطل إلى ارتفاع مائة قدم .

وفي عام 1737 وفي ميناء بابجوك هاج البحر وقتل 300 ألف إنسان ودمر 20 الف مركب .

ثم على حين فجأة، يصفوا الجو، وتعتدل الرياح، ويسكن البحر، وتظهر السماء وتنكشف الأرض، فلا يملك الإنسان إلا أن يسبح بحمد الله قائلا :

قال الله تعالى : (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة : 117) .

أحياء البحار

(76/433)

يقول الدكتور "هدسون" أنظر إلى العالم العجيب السابح في نقطة ماء، وتأمل تلك الأحياء، مكبة على عملها، غادية رائحة، وأعجب من أجسامها، وأراقبها وهي تطلب قوتها، وتنقض على فريستها، وتهرب من عدوها فلا تتمالك من أن تعترف بأن عواطف الإنسان، تجتاح صدور حيوان أصغر من إن يرى . والحياة ملء البحار حقاً، فإن عدد أصناف الكائنات الحية المجودة في البحار، أكثر من العدد الموجود على الأرض على وجه الإطلاق

. واختلاف الكائنات الحية الموجودة في البحار اختلافا واسعاً ، حتى أنها مازالت تتزايد في عدد تصنيفها ، فمنها قريص البحر ، تلك الكائنات الصغيرة التي يبلغ عدد الموجودين منها في الميل المكعب الواحد ، نحو رقم يبلغ سبعة عشرة عدداً أي بلايين البلايين . ومنها الدوركال الذي يبلغ طوله 120 قدما . وفيها الأسماك الصغيرة، والتي تتغذى عليها الكبير، ومنها الكاشلوت، وهو الحوت، الذي يطوف طولاً وعرضاً ، ويجول فيه جولات الأسد في غابته . . . وله أنياب حادة، وقوى غير متصورة، تمكنه من مهاجمة المراكب بل تحطيمها ،ومن عجائب أحياء البحر، السمك الهلامي، والحيوانات الرخوة . وللبحر طائر خاص به، وهو الصخاب ،وهو طائر ضخم الجثة، قوي الصوت جداً ، يبلغ طول جناحيه متى كانا ممدودين خمس عشرة قدماً .

ويبقى هذا الطائر ساعات متوالية طائراً ، وقيل أنه ينام محلقا قي الفضاء . . . ويكفي أن يتفكر الإنسان في ملايين الصيادين الذين ينشرون شباكهم في البحر ويخرجون كل ساعة ملايين الملايين من أطنان الأسماك . . . وكأن مافي البحر لا يتأثر بكل ما يصطادون . . ! !

وتتفاوت الأعماق التي فيها هذه الحيوانات، ولكل عمق أصناف مميزة موجودة به . .

وسنقتصر في الحديث عن أمثلة قليلة، من ملايين أمثلة الأحياء في البحار، التي تنطق بعظمة الخالق، وقدرة الصانع :

الأميبيا

كائن حي دقيق الحجم، يعيش في البرك والمستنقعات، أو على الأحجار الراسية في القاع، ولا يرى بالعين إطلاقاً، وهو يرى بالمجاهر، كتلة هلامية يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات . فعندما تتحرك، تدفع بأجزاء من جسمها تكون به شكلهاً بتغير الظروف والحاجات . فعندما تتحرك، تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد، تستعملها كالأقدام، للسير بها إلى المكان المرغوب .

ولذا تسمى هذه الزوائد، بالأقدام الكاذبة .

وإذا وجدت غذاء لها، أمسكت به بزائدة أو زائدتين، وتفرز عليه عصارة هاضمة، فتتغذى بالمفيد منها، أما الباقي فتطرده من جسمها . . وهي تتنفس من كل جسمها بأخذ الأوكسجين من الماء . . فتصور هذا الكائن الذي لا يرى إطلاقا بالعين ! ! يعيش ويتحرك ! ! ويتغذى ويتنفس ! ! ويخرج فضلاته . . . فإذا ما تم نموه، انقسم على قسمين وليكون كل قسم حيوان جديداً ! !

الإسفنج

كان الإسفنج يعتبر من النباتات حتى عام 1765 حين لاحظ العلامة " أليس " عند

فحصه أحد أنواع الإسفنج الحية، أن الماء يدخل من مسامه الجانبية، ويخرج من فتحة عليا بطريقة مطردة، فداخله شك إذ ذاك، بأن ما يفحصه ربما يكون حيوانا . وفي عام 1852 وضع العلامة روبرت جرانت الإسفنج في موضعه الحالي باعتباره حيوانا .

ومن الإسفنج، ما هو دقيق الحجم، لا يرى إلا بجهد ، ومنه ما يبلغ حجماً كبيراً . كما يختلف لونه، فمنه الأصفر والأخضر ، والبرتقالي والأحمر والأزرق . . .

وعلى جسمه عدة ثقوب صغيرة، وأعلاه فتحة واسعة . . فيدخل الماء محملا بالكائنات الحية والمواد الغذائية من الفتحات الجانبية، بينما تخرج البقايا من فتحته العليا . ولهذا فهو يختلف عن كافة أحياء العالم في أنه يستعمل الفتحة الرئيسية العليا ، لا لتناول الغذاء بل لإخراج بقايا منها .

الأسماك

حيوانات مائية، تحورت أجسامها بما يوائم معيشتها في الماء . فجسمها يشبه القارب ،لا مكان بقائها فيه، ولها زعانف على هيئة المروحة، تحفظ توازنها أثناء سباحته، كما يساعده على العوم . أما ذيلها فمفلطح مقوس من وسطه، لتستطيع به تغيير طريق سيره في

الماء . . ومن عجيب صنع الله، وجود كيس مستطيل في الجزء الظهري للسمكة يمتلئ بمقدار من الهواء يزيد حجمه أو ينقص، على حسب حاجة الحيوان . وهذا الكيس يسم كيس العوم . . وللسمك فتحات خارجية، هي الفم والأنف والخياشيم، وفتحات تناسلية وإخراجية .

ومن الأجهزة العجيبة في السمك، الخيشوم الذي يتنفس به إذ أن الحيوان يفتح فمه، فيدخل فيه الماء ثم يقفله فيمر الماء من الفتحات الجانبية للفم إلى الخيشوم، الذي يحصل على الأكسجين من الماء ويطرد ثاني أكسيد الكربون .

نجم البحر

حيوان بحري يشبه النجم في شكلها، وهو مختلف الحجم واللون، ويوجد في جميع البحار .

ويتركب جسم الحيوان من قرص، في وسطه فتحة الفم، ويتفرع من هذا القرص خمسة أذرع متشابهة شكلا، ومتساوية طولا وحجما . وسطحها العلوي أقتم من السفلي . ويوجد على جسمه عدد كبير من صفائح صلبة تبرز منها أشواك، كثيرا ما تعلق بها الأعشاب والحشائش والأوساخ .

ولذا نجد أن هذا الحيوان، قد زود جسمه بأعضاء صغيرة تشبه الملقط، يحافظ بها على نظافة جسمه بما يلقط بها مما علق بأشواكه .

ويتغذى نجم البحر بالحيوانات الرخوة ذات المصراعين، وهي المعروفة بالمحار ويفترسها

بطريقة غريبة، هي في ذاتها دليل على وجود الله، وعلى رحمته التي عمت كل الوجود .

فمتى وجدت نجمة، محارة , وضعتها بين أذرعتها الخمس، وقوست جسمها فوقها ، وألصقت بمصراع المحارة عددا من أقدامها ، وتشد هذه الأقدام في اتجاهين متضادين فتفتح المصراع . ونجمة البحر، صبورة جلدة، لو صادفت محارة قوي المصراع، ظلت تشده مدة طويلة إلى أن تتهادى قوته، ويُفتح المصراع مقهوراً أمام ذلك الجلد والصبر .

(79/433)

و متى فتح المصراع، أخرجت النجمة جزءا من معدتها خارج فمها ، يلتف حول المحار ثم تأخذ في امتصاص ما به حتى تأتي عليه .

المرجان

المرجان من عجائب مخلوقات الله يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخرة أو عشب . وفتحة فمه التي في أعلى جسمه أعلى جسمه، محاطة بعدد من الزوائد تستعملها في غذائه . فإذا لمست فريسة هذه الزوائد ، وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل في الحال، والتصقت بها ، فتنكمش الزوائد نحو الفم، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة

ضيقة تشبه مريء الإنسان .

و من دلائل قدرة الخالق، إن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هي التذرر ، وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تذررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميك، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها ، ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا والجزر المرجانية الحية، ذات ألوان مختلفة، نراها في البحار صفراء برتقالية، أو حمراء قرنفلية، ا و زرقاء زمردية أو غبراء باهتة .

والمرجان الأحمر، هو المحور الصلب المتبقي بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان . وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة . وكان المظنون أن هذه المستعمرات أن هي إلا قمم البراكين المغمورة تحت الماء .

وأكثر ما توجد هذه المستعمرات في المحيطين الهندي والهادي، حيث ترتفع عن الماء وتتسع حتى يبلغ من اتساعها أن تستعمر وتأهل بالسكان . وقد تبقى تحت سطح الماء، وبذلك تصبح خطرا يهدد الملاحة .

و من هذه المستعمرات، سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجاني الكبير، الموجود بالشمال الشرق لاستراليا ، ويبلغ هذه السلسلة 1300 ميل، وعرضها 50 ميلا، وهي مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم ! ! .

حيوان اللؤلؤ

لعل اللؤلؤ أعجب ما في البحر، فهو يهبط إلى الأعماق، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وكرقة معيشته، فإنه شبكة دقيقة كشبكة الصياد، عجيبة النسج، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان، ولكل فم أربع شفاه، فإذا دخلت ذرة رمل، او قطعة حصى، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة، سارع الحيوان إلى افراز مادة لزجة يغطيها بها، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة، وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة .

هذا إلى غير ذلك من آلاف بل ملايين الأصناف من الحيوانات البحرية الأولية كالبرامسيوم وغيرها .

المصدر : كتاب " الله والعلم الحديث " بقلم عبد الرزاق نوفل ط : دار الناشر العربي الطبعة الثالثة

.

.

.

0–خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير

في حلتها القياسية، تفترض نظرية الانفجار الكبير أنكل أجزاء الكون بدأت بالتمدد آنياً، ولكن كيف استطاعت كل الأجزاء المختلفة للكون أن تتواقت في بداية تمددها ؟ من الذي أعطى ذلك الأمر ؟

أندري ليندي أستاذ علم الكون [1]

قبل قرن مضى كان خلق الكون مفهوماً غامضاً ومهملاً لدى الفلكيين، والسبب في ذلك هو القبول العام لفكرة أن الكون أزلي في القدم وموجود منذ زمن لا نهائي وبفحص الكون افترض العلماء أنه كان مزيجاً من مادة ما ويظن أنها لم تكن ذات بداية، كما أنه لا توجد لحظة خلق . تلك اللحظة التي أتى فيها الكون وكل شيء للوجود .

تتلاءم هذه الفكرة وهي " سرمدية الوجود " تماماً مع الأفكار الأوربية المقتبسة من الفلسفة المادية، وهذه الفلسفة نمت وتقدمت أصلاً في العالم الإغريقي القديم .

و تضمنت أن المادة كانت الشيء الوحيد الموجود في الكون، وأن الكون وجد في الزمن اللانهائي، وسوف يبقى إلى الأبد .

هذه الفلسفة عاشت في أشكال مختلفة خلال الأزمنة الرومانية، لكن في فترة الإمبراطورية الرومانية القريبة والعصور الوسطى صارت المادية تنحدر نتيجة تأثير الكنيسة الكاثوليكية والفلسفة المسيحية علي يد رينايسانس ثم بدأت تجد قبولاً واسعاً بين علماء أوروبا ومثقفيها، وكان سبب ذلك الاتساع هو الحب الشديد للفلسفة الإغريقية القديمة .

ثم ما لبث الفيلسوف (إيمانويل كانت) في عصر النهضة الأوربية أن أعاد مزاعم المادية ودافع عنها، وأعلن (كانت) أن الكون موجود في كل الأزمان، وأن كل احتمالية (إن كانت موجودة) فسوف ينظر إليها على أنها ممكنة .

واستمر أتباع (كانت) في الدفاع عن فكرته في أن الكون لا نهائي ومتماشٍ مع النظرية المادية، ومع بداية القرن التاسع عشر صارت فكرة أزلية الكون وعدم وجود لحظة لبدايته مقبولة بشكل واسع، وتم نقل تلك الفكرة إلى القرن العشرين من خلال أعمال الماديين الجدليين من أمثال (كارل ماركس) و(فريدريك أنجلز) .

تتلاءم هذه الفكرة عن الكون اللامتناهي تماماً مع الإلحاد، وليس من الصعب معرفة السبب لأن فكرة أن للكون بداية تقتضي أنه مخلوق، وطبعاً هذا يتطلب الإقرار بوجود

خالق وهو الله، لذلك كان من المريح جداً وأكثر سلامة بأن يدار العرض بطريقة خادعة فتوضع أولاً فكرة أن " الكون موجود سرمدي " حتى ولو لم يكن هناك قاعدة علمية ولو كانت ضعيفة لتأكيد تلك الفكرة .

أعتنق (جورج بوليتزر) تلك الفكرة ودافع عنها في كتبة المنشورة في أوائلالقرن العشرين، وكان النصير الغيور لكلا النظريتين الماركسية والمادية، وآمن بفكرة الكون اللامتناهي وعارض بولتزر فكرة الخلق في كتابه " المبادئ الأساسية في الفلسفة " حيث كتب :

" الكون ليس شيئاً مخلوقاً ، فإذا كان كذلك فهذا يقتضي أنه خلق في لحظة ما من قبل إله، وبالتالي ظهر إلى الوجود من لا شيء ، ولقبول الخلق يجب على الإنسان أن يقبل في المقام الأول أنه كانت توجد لحظة لم يكن فيها الكون موجوداً ، ثم انبثق شيء من العدم، وهذا أمر لا يمكن للعلم أن يقبل به" .

كان بوليتزر يتصور أن العلم يقف إلى جانبه في رفضه لفكرة الخلق ودفاعه عن فكرة الكون السرمدي، بيد أنه لم يمض زمن طويل حتى أثبت العلم الحقيقة التي افترضها بوليتزر بقوله " . . وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي القبول بفكرة الخالق . . " بمعنى أنه أثبت حقيقة أن

للكون بداية .

تمدد الكون واكتشاف الانفجار الكبير :

كانت الأعوام التي تلت 1920 هامة في تطور علم الفلك الحديث، ففي عام 1922 كشف الفيزيائي الروسي ألكسندر فريدمان حسابات بين فيها أن تركيب الكون ليس ساكناً . حتى أن أصغر اندفاع فيه ربما كان كافياً ليسبب تمدد التركيب بأكمله أو لتقلصه وذلك طبقاً لنظرية أينشتاين في النسبية .

وكان جروج لوميتر أول من أدرك أهمية الأعمال التي كان فريدمان يقوم بها وبناء على تلك الحسابات أعلن الفلكي البلجيكي لوميتر أن للكون بداية، وأنه في تمدد متواصل، وصرح أيضاً أن معدل الإشعاع يمكن استخدامه كمقياس عقب حدوث ذلك الشيء .

لم تحض التأملات النظرية لهذين العالمين في تلك الفترة باهتمام يذكر، غير أنا الأدلة التي نتجت عن الملاحظات العلمية في عام 1929 كان لها وقع الصاعقة في دنيا العلم، ففي ذلك العام توصل الفكي الأمريكي الذي يعمل في مرصد جبل ويلسون في كاليفورنيا إلى واحد من أعظم الاكتشافات في تاريخ علم الفلك .

فمن رصد لعدد من النجوم من خلال تلسكوبه العملاق اكتشف أن ضوءها كان منحرفاً نحو الطرف الأحمر من الطيف وبشكل حاسم، وأن ذلك الانحراف كان مرتبطاً مباشرة مع بعد النجوم عن الأرض، وهذا الاكتشاف هز قواعد المفهوم الذي كان شائعاً للكون .

وفق القوانين الفيزيائية المميّزة إن أطياف الحزم الضوئية المسافرة نحو نقطة الرصد تميل نحو الطرف البنفسجي من الطيف، بينما أطياف حزم الضوء المسافرة بعيداً عن نقطة الرصد تميل نحو الأحمر، تماماً مثل صوت صفارة القطار أثناء حركته بعيداً عن الرصد فإن ذلك الصوت يكون خشناً غليظاً أما إذا كان القطار مقترباً فإن الصوت المسموع يكون حاداً ورفيعاً .

و قد أظهرت أرصاد هابل وفق هذا المبدأ أن الأجرام السماوية تتحرك بعيداً عنا ، وبعد فترة وجيزة توصل هابل إلى اكتشاف آخر مهم، وهو أن النجوم لم تكن تتباعد عن الأرض بل كانت تتباعد عن بعضها البعض أيضاً ، والاستنتاج الوحيد لتلك الظاهرة هو أن كل شيء في الكون يتحرك بعيداً عن كل شيء فيه، وبالتالي فالكون يتمدد بانتظام وتؤدة .

و جد هابل دليلاً رصدياً لشيء ما كان جورج لوميتر تنبأ به قبل فترة قصيرة من الزمن، وأحد أعظم عقول عصرنا كان قد ميز ذلك الأمر قبل خمس عشرة سنة بعده، ففي عام 1915 استنتج العالم ألبرت أنشتاين أن الكون لا يمكن أن يكون ساكناً لأن حساباته المبنية على نظريته المكتشفة حديثاً وهي النسبية تشير إلى ذلك . . .

(وهكذا تحققت استنتاجات فريدمان ولوميتر) ولقد صدم أنيشتاين ذاته باكتشافاته فأضاف ثابتاً كونياً لمعادلاته لكي يجعل إجاباتها الناتجة عنها صحيحة، لأن الفلكيين أكدوا له أن الكون ثابت وأنه لا توجد طريقة أخرى لجعل معادلاته تتطابق مع مثل ذلك النموذج، وبعد سنوات اعترف أنيشتاين أن ذلك الثابت الكوني الذي أضافه كان أكبر خطأ ارتكبه في أعماله .

صورة لأدوين هابل أمام تلسكوبه

لقد قاد اكتشاف هابل لحقيقة الكون المتمدد لانبثاق نموذج آخر كان ضرورياً لكي لا يكون هناك عبث، ولكي يجعل نتائج معادلاته صحيحة، فإذا كان الكون يتضخم ويكبر مع مرور الوقت فهذا يعني أن العودة إلى الخلف تقودنا نحو كون أصغر ، ثم إذا عدنا إلى الخلف أكثر (لمدى بعيد) ، فإن كل شيء سوف ينكمش ويتقارب نحو نقطة واحدة، والنتيجة الممكن التوصل إليها من ذلك هو أنه في وقت ما كانت كل مادة الكون مضغوطة في كتلة نقطية واحدة لها حجم صفر بسبب قوة النقطية ذات الحجم الصفر ، وهذا الانفجار الذي وقع

سمي بالانفجار الكبير .

توجد حقيقة أخرى مهمة تكشفها نظرية الانفجار الكبير، فلكي نقول أن شيئاً ما له حجم صفر فهذا يكافئ القول بأنه لم يكن هناك شيء ، وأن كل الكون خلق من ذلك اللاشيء ، والأكثر من ذلك أن للكون بداية وهذا عكس ما ذهبت إليه المادية من أن الكون لا أول له ولا آخر .

فرضية الحالة الثابتة :

سرعان ما اكتسبت نظرية الانفجار الكبير قبولاً واسعاً في الأوساط العلمية بسبب الدليل الواضح القاطع لها ، ومع ذلك فإن الفلكيين الذين فضوا المادية وتشيعوا لفكرة الكون اللامتناهي والتي يبدو أن المادية تقربها ، صاروا يحملون على الانفجار الكبير ويناضلون ضدها ليدعموا العقيدة الأساسية لمذهبهم الفكرية (الإيديولوجية) .

والسبب أوضحه الفلكي الإنكليزي آرثر أدينغتون الذي قال : " فلسفياً : إن فكرة البداية المفاجئة (المكتشفة) في النظام الحالي للطبيعة هي بغيضة لي "

فلكي آخر عارض نظرية الانفجار الكبير هو فريد هويل، ففي منتصف القرن العشرين أتى هذا الفلكي بنموذج جديد ودعاه بالحالة الثابتة، وكان امتداداً لفكرة المتضمن أن الكون يتمدد، فافترض هويل وفق هذا النموذج أن الكون كان لامتناه في البعد والزمن، وأثناء التمدد تنبثق فيه مادة جديدة باستمرار من تلقاء نفسها بكمية مضبوطة تجعل الكون في حالة ثابتة . وواضح أن هدفه كان دعم عقيدة وجود المادة في زمن لامتناه والتي هي أساس فلسفة الماديين، وهذه النظرية كانت على خلاف كلي مع نظرية الانفجار الكبير، والتي تدافع عن أن للكون بداية، والذين دعموا نظرية هويل في ثبات الحالة ظلوا يعارضون بصلابة الانفجار الكبير لسنوات عديدة، ومع ذلك فالعلم كان يعمل ضدهم .

انتصار الانفجار الكبير :

في عام 1948 طور العالم جورج كاموف حسابات جورج لوميتر عدة مراحل لأمام وتوصل إلى فكرة جديدة تتعلق بالانفجار الكبير، مفادها أنه إذا كان الكون قد تشكل فجأة فإن الانفجار كان عظيماً ويفترض أن تكون هناك كمية قليلة محددة من الإشعاع تخلفت عن هذا الانفجار والأكثر من ذلك يجب أن يكون متجانساً عبر الكون كله .

خلال عقدين من الزمن كان هناك برهان رصدي قريب لحدس عاموف، ففي عام 1965 قام باحثان هما آرنوبنزياس وروبرت ويلسون بإجراء تجربة تتعلق بالاتصال اللاسلكي وبالصدفة عثر على نوع من الإشعاع لم يلاحظه أحد قبل ذلك وحتى الآن،

وسمي ذلك بالإشعاع الخلفي الكوني، وهو لا يشبه أي شيء ويأتي من كل مكان من الكون وتلك صفة غريبة لا طبيعية، فهو لم يكن موجوداً في مكان محدد .

وبدلاً من ذلك كان متوزعاً بالتساوي في كل مكان، وعرف فيما بعد أن ذلك الإشعاع هو صدى الانفجار الكبير، والذي مازال يتردد منذ اللحظات الأولى لذلك الانفجار الكبير .

وبحث غاموف عن تردد ذلك الإشعاع فوجد أنه قريب وله القمية نفسها التي تنبأ بها العلماء، ومنح بنزياس وويلسون جائزة نوبل لاكتشافهم هذا .

في عام 1989 أرسل جورج سموت وفريق عمله في ناسا تابعاً اصطناعياً للفضاء، وسموه مستكشف الإشعاع الخلفي الكوني (cobe) وكانت ثمانية دقائق كافية للتأكد من النتائج التي توصل إليها كلمن بنزياس وويلسون، وتلك النتائج النهائية الحاسمة قررت وجود شيء ما له شكل كثيف وساخن بقي من الانفجار الذي أتى منه الكون إلى الوجود، وقد قرر العلماء أن ذلك التابع استطاع التقاط وأسر بقايا الانفجار الكبير بنجاح .

وإلى جانب نظرية الانفجار الكبير فثمة دليل آخر مهم يتمثل في كمية غازي الهيدروجين والهليوم في الكون . فقد أشارت الأرصاد أن مزج هذين العنصرين في الكون أتى مطابقاً

للحسابات النظرية لما يمكن أن يكون قد بقي منهما بعد الانفجار الكبير، مما أدى لدق إسفين في قلب نظرية الحالة الثابتة، لأن إذا كان الكون موجوداً وخالداً ولم يكن له بداية فمعنى ذلك أن كل غاز الهيدروجين يجب أن يكون قد احترق وتحول إلى غاز الهليوم .

و بفضل جميع هذه الأدلة كسبت نظرية الانفجار الكبير القبول شبه الكامل من قبل الأوساط العلمية . وفي مقالة صدرت في عام (1994) في مجلة (الأمريكية العلمية) ذكر أن نموذج الانفجار الكبير هو الوحيد القادر على تعليل تمدد الكون بانتظام، كما أنه يفسر النتائج المشاهدة .

كان دفاع (دنيس سياما) عن نظرية الحالة الثابتة طويلاً مؤيداً في ذلك فريد هويل لكنه عندما واجه دليل الانفجار الكبير وصف ذلك المأزق بقوله : " في البداية كان لي موقف مع هويل لكن عندما بدأ الدليل بالتعاظم كان يجب عليّ أن أقبل بأن المباراة انتهت وأن نظرية الحالة الثابتة يجب أن تلغي " 5

من الذي خلق الكون من لا شيء :

بانتصار الانفجار الكبير فإن دعوى الكون اللامتناهي الذي يشكل أساس العقيدة المادية أصبحت في مهب الريح، لكن الماديين أثاروا سؤالين اثنين وكانا غير ملائمين وهما ماذا كان يوجد قبل الانفجار الكبير ؟ وما هي القوة التي سببت الانفجار الأعظم الذي وقع في الكون ولم تكن موجودة قبلاً ؟

ماديون آخرون مثل آرثر أدنيغتون أدركوا أن الإجابات على مثل تلك الأسئلة تشير إلى وجود خالق أسمى وهم لا يحبون ذلك . وقد علق الفيلسوف الملحد (أنطوني فلو) على تلك النقطة بقوله :

" الاعتراض جيد للروح وهذا قول مشهور لذلك سأبدأ بالاعتراف بأنه على الملحد مهما كانت طبقته أن يرتبك من هذا التوافق العلمي الكوني المعاصر ، لأنه على ما يبدو أن علماء الكون اليوم يقدمون برهاناً علمياً لما ناضل من أجله (السيرتوماس) ولم يستطع البرهان عليه فلسفياً ، وبالتحديد الاسمى هو أن للكون بداية، وطالماً أن الفكرية مريحة في عدم وجود بداية أو نهاية للكون .

فيبقى هذا الأمر بشكله الوحشي أسهل للمناقشة، ومهما كانت مظاهر الأساسية فيجب قبولها على أنها قمة التفسيرات، ومع اعتقادي بأن فكرة أن للكون بداية ستبقى صحيحة مع ذلك فهي ليست سهلة ولا مريحة، ونحن بالتأكيد سنحافظ على موقفنا في مواجهة قصة الانفجار الكبير " 6

كثيرون هم العلماء الذين لا يجبرون أنفسهم على أن يقبلوا وجود خالق له قدرة لا نهائية فمثلاً عالم الفيزياء الفلكي الأمريكي (هيوج روس) يفترض وجود خالق للكون، وهذا الخالق هو فوق كل الأبعاد الفيزيائية وهنا يقول (روس) مايلي :

" بالتعريف : الزمن هو البعد الذي تحدث فيه ظواهر السبب والتأثير، وأنه بدون زمن لا يوجد سبب وتأثير، وإذا كانت بداية الكون كما تقول نظرية الفضاء والزمن عندئذ يكون سبب الكون هو كينونة عملت في بعد زمني مستقل تماماً ويسبق وجود هذا البعد الزمني للكون . . وهذا يخبرنا بأن بالخالق متعال وخلف نطاق الخبرة والمعرفة، ويعمل من خلف الحدود البعيدة للكون، كما يخبرنا أن الله ليس هو الكون ذاته ولا هو محتوى ضمن الكون "

الاعتراضات على الخلق وفشلها :

من الواضح والمؤكد أن الانفجار الكبير تعني أن خلق الكون كان من لا شيء ، وهذا بالتأكيد دليل الخلق المقصود ، ومع الأخذ بالحسبان هذه الحقيقة فإن بعض الفلكيين الماديين والفيزيائيين حاول تقديم تفسيرات بديلة ليعارضها ، وقد صيغ قول عن نظرية الحالة الثابتة ليدل على صلابتها وتماسكها ، وكان ذلك من قبل هؤلاء الذين لم يكونوا مرتاحين لفكرة

الخلق من العدم، وهذا القول يتضمن كل الأدلة المناقضة وذلك في محاولة لدعم فلسفتهم المادية .

يوجد عدد من النماذج الأخرى طورها ماديون قبلوا بنظرية الانفجار الكبير، لكنهم حاولوا إبعادها من فكرة الخلق، وأحد تلك النماذج هو "الكون ذو النموذج الكوانتي "، ولنتفحص هذه النظريات ولنفهم لماذا هي غير صالحة ؟ .

نموذج الكون الهزاز : طور هذا النموذج من قبل الفلكيين الذين لم تعجبهم فكرة أن الانفجار الكبير كانت بداية الكون، ويقضي ذلك النموذج بأن التمدد الحالي للكون سوف ينعكس أخيراً عند نقطة معينة ويبدأ بالانكماش والتقلص . وهذا الانكماش سوف يسبب انهيار واندماجاً لكل شيء في نقطة واحدة ،ومن ثم تعود تلك النقطة لتنفجر ثانية مستهلة جولة جديدة من التمدد ، وكما يقولون فهذه العلمية تتكرر بشكل لا محدود مع الزمن، ويفترض هذا النموذج أن الكون عانى لغاية الآن هذا التحول عدداً لا نهائياَ من المرات، وأن تلك العملية سوف تستمر إلى الأبد ، وبكلمة أخرى سيبقى الكون سرمدياً خالداً رغم أنه يتمدد وينهار خلال فواصل زمنية مختلفة مع حدوث انفجار هائل يختم كل دورة، والكون الذي

نحن فيه هو واحد فقط من هذه الأكوان اللانهائية والتي تمر عبر الدورة نفسها .

هذا لا شيء لكنه محاولة واهنة غير مجدية كي يجعلوا حقيقة الانفجار الكبير تتلاءم مع أفكارهم حول الكون اللانهائية والتي تمر عبر الدورة نفسها .

هذا لا شيء لكنه محاولة واهنة غير مجدية كي يجعلوا حقيقة الانفجار الكبير تتلاءم مع أفكارهم حول الكون اللامتناهي، وهذا السيناريوا المقترح من قبلهم لم يتم دعمه بنتائج الأبحاث العلمية التي جرت خلال الـ15 .20 مضت والتي تشير إلى أنه ليس من الممكن لفكرة الكون الهزاز أن تظهر للوجود، والأبعد من ذلك هو أن قوانين الفيزياء لا تقدم أي سبب معقول يدعو لانفجار الكون المتقلص ثانية بعد انهياره في نقطة واحدة ؟ ولماذا لا يجب أن يبقى على ما هو عليه بالضبط بعد الانهيار ؟ كما أنهم لم يقدموا أي تفسير أو سبب يوضح لماذا يجب على الكون أن يبدأ بالتقلص في المكان نفسه .

حتى إذا قبلنا بذلك فإنه يوجد بعض من الآليات والتي تقوم بعملها خلال دورة الانكماش والانفجار والتمدد وهي غير واضحة في هذا النموذج والنقطة الحاسمة في تلك الدورة هو أنها لا تستطيع الاستمرار إلى الأبد كما يتطلبه هذا النموذج، فقد بينت الحسابات وفقه

بأن الكون بأسره سوف ينقل كمية من الأنتروبي إلى وريثه، وبكلمات أخرى فأن كمية الطاقة المفيدة ستصبح أقل من كل مرة، وسيكون كل فتح تالٍ للكون (الانفجار) أكثر بطأً ومن نقطة أكبر قطراً، وهذا سيولد كوناً أصغر ثم تبدأ المرحلة التالية . . . وهكذا، وأخيراً يتلاشى في اللاشيء وحتى لو كانت الأكوان المفتوحة أو المغلقة تستطيع أن تكون موجودة، فإنهم غير قادرين على التحمل حتى يصلوا إلى الخلود والسرمدية، وعند نقطة ما يصبح من الضرورة أن يخلق الشيء من لا شيء 9 و هكذا يمكننا القول باختصار ما يلي: إن نموذج الكون الهزاز هو مجرد خيال جامح لا أمل فيه، وحقيقته الفيزيائية غير ممكنة .

النموذج الكوانتي للكون:

هو محاولة أخرى لتنظيف الانفجار الكبير من متطلبات التخلقية وتخليصها من حقيقة الخلق، وقد بنى الداعمون لهذا النموذج محاولتهم تلك على المشاهدات الكوانتية للفيزياء ما دون الذرية، ففي الفيزياء الكوانتية تمت مشاهدة جسيمات ما دون ذرية وهي تظهر وتختفي تلقائياً في الخلاء، وتعليل تلك المشاهدة هو أن المادة تنشأ عند سوية كوانتية مميزة تخص المادة وتلائمها، وقد حاول بعض الفيزيائيين تفسير أصل المادة من العدم خلال خلق

الكون بطريقة مماثلة وعلى أنها حالة مميزة وتخص المادة، وتمثيلها على أنها جزء من قوانين الطبيعة ،ووفق هذا النموذج يفسر كوننا على أنه جسيم ما دون ذري لكنه أكبر حجماً على كل حال هذا القياس المنطقي بالتحديد هو خارج موضوع السؤال، وفي أية حالة لم ينجح هذا النموذج في تفسير كيف أتى الكون إلى الوجود، والكاتب (وليام كرايج) مؤلف كتاب " الانفجار الكبير، الإيمان والإلحاد " (The big bang : Theism and Atheism) يفسر ذلك بقوله :

" الخلاء الكوانتي الميكانيكي والذي يقصد به الخلاء الذي يتم فيه توليد الجسيمات المادية هو معنى بعيد عن الفكرة العادية للخلاء (والذي يعني هنا اللاشيء) . والأغلب أن الخلاء الكوانتي هو بحر لتشكل وانحلال مستمر للجسيمات والتي تستعير بدورها طاقة منه لتنجز وجودها الكوني المختصر، وطبعاً هذا ليس (لا شيء) وبالتالي فالجسيمات المادية لا تأتي إلى الوجود من لا شيء .

إذن في الفيزياء الكوانتية لا توجد المادة إذا لم تكن موجودة قبلاً، وما يحدث هو أن طاقة مختفية تصبح فجأة مادة وكما اختفت تلك الطاقة فجأة تعود طاقة ثانية وهكذا، وباختصار لا يوجد شرط " للوجود من العدم "كما هو مطلوب وفق هذا النموذج.

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الانبياء : 30) .

قال تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (الزمر : 46) .

المرجع كتاب خلق الكون تأليف هارون يحيى .

Theself-reproducing inflationary "Andrei LindeK [1]

Universe sientific American, 271 199

.

.

.

0-المسافة الفاصلة بين الأجرام السماوية

كما هو معلوم فإن كوكب الأرض هو جزء من المجموعة الشمسية، وهذه المجموعة تتألف من تسعة كواكب سيارة تدور في فلك حول الشمس، وتعتبر الشمس نجماً متوسط الحجم مقارنة بالنجوم الموجودة في الكون، وهذه الكواكب تتبعها أقمار يبلغ عددها أربعة وخمسون قمراً، ويعتبر كوكبنا الأرض الثالث من ناحية بعده عن الشمس . ولنتأمل أولاً حجم المجموعة الشمسية التي ننتمي إليها فقطر الشمس يبلغ 102 مرة بقدر قطر الأرض، وبتعبير آخر لو قمنا بتصغير الأرض التي يبلغ قطرها 12200 كم حتى تبلغ حجم الكرة الزجاجية التي يلعب بها الأطفال عندئذ تكون الشمس بحجم ضعفي كرة القدم، ولكن النقطة الغريبة التي تلفت الانتباه هي المسافة الفاصلة بينهما فلو صغرناها كما صغرنا الحجم لكل منها عندئذ تصبح المسافة الفاصلة 280 متراً أما الكواكب البعيدة فتصبح على بعد كيلومترات عديدة، ولكن المجوعة الشمسية وبالرغم من حجمها الهائل فإنها تتواضع أمام مجرة درب التبانة التي تعتبر جزءا منها ، لأن هذه المجرة تحتوي على نجوم وشموس كثيرة ومعظمها أكبر حجماً من شمسنا ويربو عددها على 250 بليون نجم، وأقرب هذه النجوم إلينا نجم يدعى " ألفا سنتوري " ، ولتوضيح مدى قربه من مجموعتنا نرجع إلى المثال السابق الذي صغرنا فيه الأرض إلى حجم كرة زجاجية صغيرة والشمس

تبعد عنها 280 متراً عندئذ يكون النجم "الفاسنتوري" على بعد يقدر بـ (78ألف) كيلومتر من الشمس .

(94/433)

و دعونا نصغر المثال السابق بنسبة أكبر، كأن تصبح الأرض بقدر ذرة غبار تكاد لا ترى بالعين المجردة، عندئذ تصبح الشمس بحجم ثمرة الجوز وتبعد عن الأرض بمسافة 3 أمتار، ونجم الفاسنتوري سيكون في هذه الحالة على بعد 640 كم من الشمس، إذن فمجرة درب التبانة تحتوي على 250 بليون نجم تفصل بينها هذه المسافات الشاسعة جداً، وتقع شمسنا على أحد أطراف هذه المجرة ذات الشكل الحلزوني . والأغرب من ذلك أن حجم هذه المجرة يعتبر صغيرا جداً بالمقارنة مع حجم الكون، فالكون يحتوي على مجرات أخرى يقدر عددها بـ200 بليون مجرة . . أما المسافات الفاصلة بين هذه المجرات فأكبر من المسافة بين الشمس والفاسنتوري بملايين المرات . و المسافة الفاصلة بين الأجرام السماوية وطريقة انتشارها في الكون تعتبر ملائمة ولازمة لاستمرار الحياة على الأرض فهذه المسافات الفاصلة مرتبة وموجودة بطريقة تتلاءم مع القوى المؤثرة وبالتالي تشكل عاملاً ضرورياً للحياة على كوكب الأرض، وكذلك تعتبر هذه المسافات الفاصلة عاملاً مؤثراً

على باقي الكواكب وأفلاكها تأثيراً مباشراً ، ولو كانت هذه المسافات اصغر قليلاً لأثرت قوى الجذب الهائلة الموجودة بين كلتل النجوم المختلفة وبالتالي أدى ذلك إلى إحداث خلخلة في أفلاك الكواكب، وهذه الخلخلة كانت ستؤدي حتماً إلى تفاوت كبير في الحرارة، ولو كانت هذه المسافات أكبر قليلاً لتشتت المعادن المنطلقة من النجوم العملاقة ولما نشأت كواكب مثل الأرض . وتعبر المسافات الكونية الحالية مثالية وملائمة لنشوء مجموعات شمسية كالتي ننتمي إليها .

(95/433)

ويقول البروفسور مايكل دينتون الأخصائي في الكيمياء الحيوية في كتابه مصير الطبيعة إن المسافة الفاصلة بين النجوم العملاقة بل كافة النجوم تعتبر قضية حساسة جداً ، فهذه المسافات تقدر كمتوسط لها بـ 30 مليون ميل بين نجوم مجرتنا ، ولو تغيرت هذه المسافات بأن تكون أقل قليلاً لأصبحت مدارات الكواكب غير مستقرة، ولو كانت أكبر قليلاً لكانت المادة المنطلقة من قبل النجوم المنفجرة (سوبر نوفا) متشتتة تشتتاً كبيراً للغاية لدرجة ينعدم معه تشكل مجموعات شمسية مثل التي ننتمي إليها . فإن كنا نريد كوناً صالحاً وملائماً للحياة لكان من الضروري استمرار النجوم المنفجرة في الانفجار على وتيرة معينة

..

علماً أن هذه الانفجارات تعتبر محددة للمسافات المعينة الفاصلة بين النجوم، وإن هذه المسافات البعيدة والمحددة موجودة فعلياً وتمارس تأثيرها المباشر [1].

أما البروفيسور جورج كرنشتاين فيتحدث عن هذه المسافات الشاسعة في كتابه " الكون التكافلي " قائلاً :

إذا أصبحت النجوم أقرب مما هي عليه الآن فلا يحدث إلا فرق طفيف في المفاهيم الفيزيائية الفلكية، فقد لا يحدث أي تغيير في العمليات الفيزيائية الجارية في النجوم وفي الأجرام السماوية الأخرى، ولو نظر إلى مجرتنا من نقطة بعيدة عنها فلا يمكن تمييز أي تغيير فيما عدا أن عدد النجوم التي نراها ونحن مستلقين على الأعشاب يصبح أكثر عفواً أود أن أضيف أن هناك فرقاً آخر يحدث وهو استحالة وجود إنسان مثلي يلقي على هذه النجوم فهذه المسافات الشاسعة والهائلة الموجودة في الفضاء شرط أساسي لوجودنا 13

ويوضح كرينشتاين سبب هذا بأن الفراغات والمسافات البينية الموجودة في الفضاء تعتبر علامة رئيسياً في تأمين المتغيرات الفيزيائية بشكل ملائم لحياة الإنسان ومن ناحية أخرى فإن هذه الفراغات الواسعة دون ارتطام أرضنا بالأجرام السماوية العملاقة السابحة في الفضاء .

وملخص القول أن طريقة انتشار وتوزيع الأجرام السماوية في الكون تتلاءم في أبعادها ومواضعها مع حياة الإنسان واستمراره وأن هذه الفراغات لم تأت اعتباطاً أو بصورة عشوائية بل تعتبر نتيجة لعلمية خلق من أجل غاية معينة، ويقول الله عز وجل في آيات عديدة بأن السماوات والأرض خلقتا من أجل حكمة معينة:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿ 85 ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿ 86 ﴾ [سورة الحجر] .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿ 16 ﴾ [سورة الأنبياء] .

المرجع:

كتاب سلسلة المعجزات تأليف هارون يحيى

[1] 11 .Michael Denton, Nature's Destiny, p

.

.

.

0- النظام الفريد في المجموعة الشمسية

قال تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يّس : 40) .

نعلم أن في المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالأرض فارونوس فنبتون فزحل فالمشتري ، ثم بلوتوا الذي كشفوه منذ أكثر من أربعين عاماً (وهو كوكب شاذ في صغر حجمه وفي بعده عن الشمس فلا يصلح أن يكون سبباً قاطعاً لإبطال النسبة العجيبة التي سأذكرها عن بعد الكواكب من الشمس) .

هذا في ترتيب أحجامها ، وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتي على ترتيب آخر :

فأقربها عطارد الذي يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل ، ثم الزهرة ومتوسط بعدها 67 مليوناً ، فالأرض ومتوسط بعدها 93 مليواناً ، فالمريخ وبعده مليوناً ، فالمشتري وبعده 484 مليوناً ، فزحل 887 مليوناً ، فأورانوس وبعده 1782 مليوناً ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس 2792 مليوناً من الأميال .

وما ذكرت لك هذه الأحجام والأبعاد إلا لأعرفك بشيء أنت تعرفه ، أو تستطيع أن تعثر عليه في أبسط كتب الفلك ، وإنما ذكرتها لأعرفك بما تنطوي عليه هذه الأبعاد من نسب مقدرة تدهش العقول فقد كشف العلماء أن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (9) منازل :

أولها (الصفر) ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (3) ثم تتدرج متضاعفة هكذا : (3.6.12.24.48.96.192.384) ، فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد (4) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس ، أي أنه بإضافة (4) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا ك (4. 7.10.28.100.196.388) .

فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العدد عن الشمس .

فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس (36) مليون ميل كما سبق القول ، وبما أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمها (4) فإذا ضربنا 4×9000000 يكون حاصل الضرب (36) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم رأوا كيف تكون المنازل التي اكتشفوها في تفاوت الأبعاد تسع منازل في حين أن

الكواكب المعروفة ثمانية .

فقد وجدوا أن منزلة العدد (28) ليس فيها كوكب ، بل يأتي بعد المريخ صاحب العدد (16) ، كوكب المشتري الذي هو صاحب العدد (52) .

فما هو السر في هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة وإما أن يكون هنالك كوكب غير منظور في مرتبة العدد (28) على 252 مليون ميل عن الشمس ، أي بين المريخ والمشتري .

(98/433)

و من عجائب النظام الباهر أنهم وجدوا أخيراً في هذا الفراغ الشيء الذي قدّروا أنه لابد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيرا بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري أي في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة .

فهل هذا التناسب في مواقع النجوم وأقدارها ، ومواقع الكواكب وأبعادها ، كله أثر من آثار المصادفة العمياء . . .

عن كتاب قصة الإيمان تأليف الشيخ : نديم الجسر ص 307 308 بتصرف . ط . دار الهجرة

.

.

.

0–آيات عظمة الله في النتروجين

إن كون النتروجين غازاً جامداً . أو جامداً جزئياً كما يمكن القول. هو أمر ذو أهمية بالغة وهو يعمل كمخفف للأوكسجين، ويخفضه إلى النسبة التي تلائم الإنسان والحيوان . وكما ذكرنا في حالة الأوكسجين، لا يتوافر لنا من النتروجين ما يزيد على حاجتنا أو ينقص عنها . قد يمكن القول بأن الإنسان قد راضَ على نسبة الواحد والعشرين في المائة من الأوكسجين الموجود في الهواء ، وهذا صحيح، ولكن كون هذه الكمية الملائمة له بالضبط من وجوه جوهرية أخرى، هو أمر يستدعي الانتباه حقاً ! ولهذا فإن مما يدعو إلى العجب، إن النسبة المحددة للأوكسجين ترجع إلى عاملين : (أولاً) أنه لم يمتص بالتمام، وبذا يصبح جزءاً من قشرة الأرض أو من المحيط .

و (ثانياً) أن الكمية التي تركت حرة هي بالضبط الكمية التي تحفها جملة مقادير النتروجين

على الوجه الأكمل ولو أن النتروجين توافر بمقادير أكثر أو أقل مما هو عليه، لما أمكن تطور الإنسان كعهدنا به .

(99/433)

وأمامنا هنا تنظيم مزدوج يلفت النظر : فإن النتروجين، بوصفه غازاً جامداً ، هو عديم النفع في الظاهره، وهذا يصح من الوجهة الكيماوية على الحالة التي يوجد عليها في الهواء ، وهو بالطبع يكوّن 78% من كل نسيم يهبّ. وهو جزء من الهواء الواقي، وبدونه كانت تحدث عدة أمور خطرة . ولكن النتروجين من كلتا الوجهتين، ليس الآن حيوياً للإنسان والنبات مثل الأوكسجين .

بيد أن هناك سلسلة من المواد الكيماوية التي يعد النتروجين جزءاً منها ، والتي يمكن أن يقال بصفة عامة أنها نتروجين مركب. أي النتروجين الذي يمكن أن تتلقاه النباتات، أو النتروجين الذي يتكون منه العنصر النتروجين في أغذيتنا التي بدونها يموت الإنسان جوعاً .

وليس هناك سوى طريقتين يدخل بهما النتروجين القابل للذوبان في الأرض كمخصب لها (سماد) . وبدون النتروجين، في شكل ما ، لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية،

وإحدا الوسيلتين اللتين يدخل بهما النتروجين في التربة الزراعية هي عن طريق نشاط جراثيم (بكتريا) معينة، تسكن في جذور النباتات البقلية، مثل البرسيم والحمص والبسلة والفول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب .

وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض .

و هناك طريقة أخرى بها يدخل النتروجين إلى الأرض، وذلك عن طريق عواصف الرعد ، وكلما ومض برق خلال الهواء وحدّ بين قدر من الأوكسجين بين قدر قليل من الأوكسجين وبين النتروجين فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب .

و قد كانت ها تان الطريقتا ن كلتاهما غير كافيتين، وهذا هو السبب في أن الحقول التي طال زرعها قد فقدت ما بها من نتروجين وهذا أيضاً هو الذي يدعو الزراع إلى مناوبة المحصولات التي يزرعها .

(100/433)

و قد تنبأ (مالثوس) منذ زمن بعيد ، بأنه مع تكاثر عدد سكان الكرة الأرضية، واستغلال الأرض في زرع المحصولات دون انقطاع، سوف يستنفذ العناصر المخصبة ولو كان حسابه بشأن تزايد عدد السكان صحيحاً ، لوصلنا إلى درجة الندرة في بداية القرن الحالي .

وهذا يدلنا على أهمية الفضلة الدقيقة من النتروجين المتروكة في الهواء .

و البالغة الصغر بالنسبة لضخامة الكرة الأرضية . فبدون النتروجين كان مآل الإنسان ومعظم الحيوانات هو الموت .

و من عجب أنه حين وضح الناس أن الموت جوعاً هو احتمال قد يقع في المستقبل، وذلك في خلال الأربعين السنة الأخيرة، اكتشفت أماكن بها إنتاج النتروجين المركب من الهواء، وقد ثبت أخيراً أن في الإمكان إنتاجه بهذه الطريقة بكميات هائلة . وهنا زال ذلك الخوف من حدوث مجاعة عالمية .

و من الشاق أن نلاحظ أن إحدى المحاولات لإنتاج النتروجين المركب، كانت عبارة عن تقليد الطبيعة، في ظروف ملائمة، في إنتاج عواصف كهربائية مصطنعة . وقد استخدم نحو 300000 قوة حصانية لإحداث أنوار كهربية ساطعة في الهواء، ونتجت بالفعل فضلة من النتروجين المركب، كما ثبت قبل ذلك بزمن طويل

أما الآن فإن الإنسان قد قطع خطوات أبعد .

و بعد مضي عشرة آلاف سنة من وجودن التاريخي قد ارتقت الوسائل التي يحول بها غازاً جامداً على مخصب (سماد) .

و هذا يمكنه من أن ينتج عنصراً لازماً في الطعام، بدونه يموت الإنسان جوعاً . وما أعجبها مصادفة أن يكسب الإنسان في هذا الوقت بالضبط من تاريخ الأرض ن تلك المقدرة على

إبعاد شبح المجاعة العالمية .

إن النتائج الخلقية التي تنجم عن الاضطراب إلى نقص عدد سكان الأرض كي يبقى بعضهم على قيد الحياة، هي أفظع من أن يتصورها الإنسان . وقد أمكن تفادي هذه المأساة في نفس اللحظة التي كان يمكن توقعها .

المصدر : كتاب العلم يدعو إلى الإيمان أ . كريسي مورسون رئيس أكاديمية العلوم في واشنطن

.

.

.

0–عجائب الضوء

قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ﴾ (1) سورة الأنعام

. ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ 38،39 سورة الحاقة .

فما هو هذا الضوء الذي نرى به الأشياء ؟ . . وما هو هذا الذي أقسم الله بأننا نبصره ولا نبصره ؟ . .

وهو جلت قدرته لا يقسم في القرآن إلا بأعظم آياته من المخلوقات ؟

إن الأشعة التي تصل إلى أرضنا من الشمس ومن كل كوكب مضيء تأتي عبر (الأثير) كما كانوا يقولون، مهتزة باهتزازات مختلفة في عددها ، أي في أمواج مختلفة في أطوالها ، ولكن أبصارنا لا تستطيع أن ترى من هذه الأمواج إلا جزء قليلاً جداً ، وهي الأمواج التي تحدث ألوان الطيف الشمسي السبعة . أما الأمواج الأخرى أما الأمواج الأخرى فلا يمكن رؤيتها .

واختلاف الأمواج في أطوالها ، هو الذي يفرق بينها في ألوانها وتأثيراتها : فأطوال الأمواج التي يقدر بالأموال ، ولا تقصر عن ست موجات في البوصة ، هي الأمواج التي تؤثر في اللاسلكي . فإذا قصرت الأمواج عن ذلك أصبحت تحدث الحرارة ، نسميها (أمواج الحرارة المظلمة) لأننا لا نراها ما دام طولها لا يزيد عن جزء من ثلاثين ألف جزء من البوصة .

فإذا تجاوزت هذا الحد بسرعتها تصبح قادرة على التأثير في أبصارنا فنسميها (أمواج الضوء) وهي التي تحدث ألوان الطيف الشمسي السبعة . ويختلف لون هذه الأمواج المرئية باختلاف سرعتها ، فعندما تكون سرعتها في البوصة الواحدة (34) ألف موجة ، تحدث الضوء الأحمر فإذا قصرت عن ذلك تحدث البرتقالي ، ثم الأصفر ، ثم الأخضر ثم الأزرق ، ثم النيلي . فإذ أزداد قصرها كثيراً ، وأصبحت الأمواج أمواج متقاربة بحيث تشغل (60) ألف موجة منها بوصة واحدة ، فإنها تحدث الضوء المسمى (فوق البنفسجي) الذي يظهر لنا تأثيره في المواد الكيماوية . ووراء ذلك سلالم كثيرة ، فان العالم المنظور ليس إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة إلى العالم غير المنظور .

فالأمواج الأثيرية المعروفة حتى الآن تنتظم في أكثر من (27) سلماً ، المنظور منها سلم واحد ، والسلالم الأخرى غير منظورة .

فهل فهمنا معنى قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ 38،39 سورة الحاقة

المصدر : قصة الإيمان الشيخ نديم الجسر

.

.

.

0-الانسجام المعجز بين الضوء وبين الشمس

إن الضوء الممكن رؤيته باستخدام حاسة البصر بـ "الضوء المرئي " ويتألف من عدة أطوال موجية معينة، وجزء كبير من الطيف الشمسي يقع ضمن هذه الأطوال الموجية . ولو دققنا في هذا الأمر لوجدنا أن أساس حدوث الرؤية هو قدرة خلايا الشبكية على تمييز الفوتونات . وهنا ينبغي على الفوتون أن يكون ضمن الأطوال الموجية المذكورة سابقاً ، وإلا فسوف يكون هذا الفوتون إما ضعيفاً جداً أو شديداً جداً وفي كل الحالتين لا يستطيع إحداث تأثير ما على خلايا الشبكية، أما حجم العين أو صغره فلا يفيد شيئاً في هذا المجال، والمهم هو مدى ملاءمة طول موجة الفوتون لحجم الخلية .

و من المعلوم أن مواد البناء الأساسية للخلايا الحية هي الجزيئات العضوية، وتتكون الجزيئات، وتتكون الجزيئات العضوية من مختلف المركبات الكيماوية للكربون ومشتقاته،

وهذا المركبات والخلايا الحساسة للضوء والتي تتألف من هذه الجزيئات العضوية لا يمكن أن تميز أطوال موجية مختلفة عن الأطول الموجية للضوء المرئي . وبإيجاز لا يمكن أن توجد عين مختلفة التصميم تعمل بكفاءة وفق الظروف الموجودة على كوكبنا ولا يمكن لها أن تستقبل الضوء غير المرئي أبداً .

و نتيجة لذلك تستيطع العين أن ترى أو تميز حدوداً معينة من الأطوال الموجية وتتمثل في الضوء المرئي للشمس . ولا يمكن إيراد تفسير وجود هذين العاملين (صدور ضوء معين من الشمس ووجود عين ملائمة لتمييزه) بكلمة المصادفة بل يمكن تفسيره بكلمة الخلق بقدرة الله عز وجل .

و يتناول البروفيسور مايكل دينتون هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه " مصير الطبيعة " مؤكداً أن العين المتكونة من الجزيئات العضوية لا تستطيع أن تميز سوى الضوء المرئي، ولا يمكن نظرياً لعين لها خصائص أخرى مفروضة جدلاً أن تميز الضوء غير المرئي أبداً ويقول في هذا الصدد :

إن الأشعة فوق البنفسجية السينية وأشعة غاما ليست إلا إشاعات تحمل طاقة هائلة وذات قدرة تدميرة متميزة، أما الأشعة تحت الحمراء وباقي موجات الميكرويف فلها ضرر بالغ على الحياة، وأما الأشعة القريبة من تحت الحمراء والموجات الراديوية فلها طاقة ضعيفة جداً ولا يمكن تمييزها . . ويتضح مما تقدم أن الجزء المرئي من الطيف

الكهرومغناطيسية هو الملائم تماماً لحاسة البصر وخصوصاً لعين الإنسان وشبيهاتها من عيون الأحياء الفقرية والتي تعمل عيونها مثل كاميرا عالية الحساسية ولا يوجد أي طول موجي آخر مناسب لهذه العيون أبداً ([1]) .

(104/433)

و لو تأملنا في هذه الأمور مجتمعة لتوصلنا إلى النتيجة التالية : وهي أن الشمس مخلوقة بعناية تامة كي تشع هذا الضوء وبهذه الأطوال الموجية التي تشكل جزء واحداً من 10 قوة 25 جزء من الأطول الموجية الموجودة في الكون ويكفي هذا الجزء للتوازن الحراري لكوكب الأرض، ويكفي أيضاً لأداء الأحياء المعقدة التركيب فعالياتها الحيوية ويكفي أيضاً لأداء النباتات عملية التركيب الضوئي ويكفي أيضاً لتحريك حاسة البصر لدى الأحياء ، ومن الضروري أن لا يكون كل ذلك نشأ مصادفة، ذلك التعبير كل البعد عن العقل والمنطق، بل هو الخلق بقدرة الله تعالى فاطر السماوات والأرض وما بينهما ، وإن كل شيء مخلوق يعتبر حلقة في سلسلة المعجزات الإلهية والتي يتبرز أمامنا في كل لحظة مذكرة إيانا بقدرة الله التي لا حدّ لها .

المرجع :

كتاب سلسلة المعجزات تأليف هارون يحيى

[1] Michael Denton, Nature's Destiny, p. 62, 69.

.

.

.

0-التصميم المعجز لبلورات الثلج

عندما يتفحص المرء بلورات الثلج يرى أشكالاً متعددة ومختلفة فيما بينها . ويعتقد الباحثون أن متراً مكعباً من الثلج يحتوي على 350 مليون بلورة ، وهذه البلورات جميعها تتخذ شكل مضلع سداسي ، بيد أن هذه المضلعات السداسية تختلف فيما بينها من ناحية الشكل الذي تتخذه . ولكن كيف ظهرت هذه الأشكال ؟

كيف اختلفت فيما بينها ؟ كيف حدث هذا التناسق فيما بينها ؟ ما زالت الأبحاث جارية من قبل العلماء للتوصل إلى أجوبة عن هذه الأسئلة .

وكل شيء جديد يكتشف يضاف إلى رصيد الإعجاز الموجود في تصميم هذه البلورات الثلجية ، إن الشكل المضلع السداسي للبلورة الثلجية ، والتي لها أنواع مختلفة من ناحية

التناسق والتماثل فيما بينها ، يعد دليلاً على الإبداع الإلهي في الخلق ، ولا شك فهو البديع (أي الخالق دون وجود أنموذج سابق لخلقه) جل جلاله ، وهو الله الذي خلق الأشياء في أحسن صورة .

وعندما نتفحص البلورة الثلجية سنجد أمامنا جانبياً آخر من الإعجاز الإلهي .

إن هذه البلورات الثلجية التي تتجمع لتأخذ أشكالاً عديدة مثل الصحون الصغيرة والكبيرة ، أو الشكل النجمي أو حتى الشكل الدقيق جداً الذي يشبه رأس إبرة تحقق هذا الاختلاف في التشكل بوسيلة مثيرة للحيرة في العقول . [1]

ولا شكل في أن هذا التركيب البلوري لحبات الثلج قد جلب انتباه الباحثين منذ سنوات عديدة ، فقد أجريت الأبحاث ومازالت مستمرة منذ سنة 1945 لاكتشاف العوامل التي تشكل هذه البلورات بهذه الأشكال المختلفة ، فحبة الثلج تتألف من أكثر من مئتي بلورة ثلجية ، والبلورات الثلجية هي عبارة عن مجموعة من جزيئات من الماء مرتبة ومنظمة بتناسق باهر فيما بينها ، وتوصف هذه البلورات الثلجية بأنها بناء معماري بارع جداً ، وهي تتشكل عندما يمر بخار الماء خلال السحاب متعرضاَ للبرودة ، ويحدث هذا

الأمر كالآتي :

يحتوي بخار الماء على جزيئات الماء التي تكون منتشرة بصورة عشوائية ، وعندما تمر بين السحاب تتعرض للبرودة وبالتالي يقل نشاطها ، وهذه الجزيئات التي أصبحت حركتها بطيئة تميل إلى التجمع فيما بينها ثم تتحول إلى جسم صلب ، ولكن هذا التجمع لا يكون عشوائيا أبداً ، بل على العكس إنه دائما يكون باتحاد جزيئات الماء لتكوين مضلعات سداسية مجهرية منتظمة الشكل .

و كل قطعة ثلج تتكون من مرحلة أولى من مضلع سداسي ويتبلور من جزيئات الماء ، ومن ثم تأتي باقي المضلعات السداسية المتبلورة لتلتحم بالبلورة الأولى ، والعامل الرئيسي في طريقة تشكيل هذه البلورة الثلجية ـ وكما شرح ذلك العلماء ـ هو الالتصاق المتسلسل لهذه المضلعات السداسية بعضها ببعض تماماً مثلما تتحد حلقات السلسلة الواحدة .

و المفترض في هذه البلورات هو أن تتخذ الشكل نفسه مهما اختلفت الحرارة والرطوبة ، ولكن الذي يحصل هو أن شكلها يختلف باختلافهما ، لماذا توجد هذه البلورات المتناسقة ذات الشكل المضلع السداسي في كل قطعة ثلج ؟ ولماذا تأخذ شكلاً مختلفاً إحداها عن

الأخرى ؟ لماذا تكون حواف هذه الأشكال ذات زوايا بدلاً من أن تكون مستقيمة ؟ ولا زال العلماء مستمرين في أبحاثهم سعياً وراء العثور عن الأجوبة [2] .

ولكن الحقيقة الواضحة أن الله فاطر السماوات والأرض هو الذي خلق كل شيء وسواه لا شريك له وهو الأحد الصمد .

المصدر : كتاب العظمة في كل مكان تأليف هارون يحيى .

[1] 1- Gorsel Bilim ve Teknik Ansiklopedisi, p. 543

[2] Bilim ve Teknik Dergisi, April 1995, p.23

.

.

.

0- الله والكون المعقد

جون وليم كلونس (*)

عندما حاولت أن أكتب في هذا الموضوع جالت بخاطري حكمتان قديمتان من الحكم المقدسة وهما :

" السماوات تشهد بجلال الله ، وإحكامها يدل على بديع صنعه " .

"يقول الأحمق في نفسه : ليس هناك إله" .

إن هذا العالم الذي نعيش فيه بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشا بمحض الصدفة . إنه مليء بالروائع والأمور التي تحتاج إلى مدبر ، والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى . ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقد . وهي بذلك من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده .

و من التعقيدات الطريفة في هذا الكون ، ما نشاهده من العلاقات التوافقية الاضطرارية بين الأشياء أحياناً ؟ ومن أمثلتها العلاقات الموجودة بين فراش اليوكا ونبات اليوكا وهو أحد النباتات الزنبقية . فزهرة اليوكا تتدلى على أسفل ويكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضاً عن عضوا التذكير أو السداة . أما الميسم وهو الجزء من الزهور الذي يتلقى حبوب اللقاح ، فإنه على شكل الكأس وهو موضوع بطريقة يستحيل معها أن تسقط معها فيه حبوب اللقاح .

و لابد أن تنتقل هذه الحبوب بواسطة فراشة اليوكا التي تبدأ عملها بعد مغيب الشمس بقليل، فتجمع كمية من حبوب اللقاح من الأزهار التي تزورها وتحفظها في فمها الذي بني

بطرقة خاصة لأداء هذا العمل .

ثم تطير الفراشة إلى نبات آخر من نفس النوع وتثقب مبيضها بجهاز خاص في مؤخرة جسمها ، ينتهي بطرف مدبب يشبه الإبرة وينزل منه البيض . وتضع الفراشة بيضة أو أكثر ثم تزحف إلى أسفل الزهرة حتى تصل إلى القلم ، وهناك تترك ما جمعته من حبوب اللقاح على صورة كرة فوق ميسم الزهرة . وينتج عدداً كبيراً من الحبوب يستخدم بعضها طعاماً ليرقة الفراشة وينضج بعضها لكي يواصل دورة الحياة .

و هناك علاقة مشابهة بين نبات التين ومجموعة من الزنابير الصغيرة فهناك نوعان من نبات التين، وينتج هذا النبات عين من مجموعات الأزهار يحتوي أحدهما على الأزهار المذكرة والمؤنثة معا . أما الآخر فجميع أزهاره مؤنثة . وتقوم بتلقيح الأزهار المؤنثة في كلا النوعين السابقين إناث الزنابير . وتكون فتحة التخت الذي يحمل مجموعات الأزهار في كلا النوعين ضيقة إلى حد كبير بسبب إحاطتها بكثير من الأوراق الحرشفية مما يجعل وصول الحشرة إلى الداخل يتم بصعوبة كبيرة ويؤدي إلى تمزق أجنحتها . وعندما تدخل الحشرة إلى المجموعة التي تشتمل على الأزهار الذكرية والأنثوية ، تضع الحشرة الأنثى بيضها ثم تموت ثم يفقس البيض وتتزاوج الشفافير الصغيرة الناتجة ، ولا يستطيع أن يخرج منها سوى الإناث ،أما الذكور فتموت ، وقبل أن تخرج الإناث تلتصق هبوات اللقاح بأجسامها فتحملها إلى مجموعات جديدة من الأزهار . فإذا كانت المجموعات الجيدة تشتمل على أزهار ذكور

وأخرى إناث ، فإن العلمية تتكرر بالصورة السابقة ، أما إذا اشتملت المجموعة على أزهار إناث فقط ، فإن الفراشة تموت دون أن تضع البيوض .

(108/433)

ففي هذه الحالة تكون الأزهار الإناث على درجة من الطول بحيث لا تستطيع أن تصل الحشرات إلى قاعدتها لكي تضع البيض هناك ، وعندما تحاول الحشرات أن تصل إلى هذه القاعدة العميقة دون جدوى تلقح الأزهار بما تحمله من هبوات اللقاح ، ثم تنضج الأزهار وتكون ثمار التين . وعندما أدخل التين إلى الولايات المتحدة لأول مرة لم يكن ينتج ثماراً ولم يمكن إنتاج الثمار وقيام وصناعة التين إلا بعد أن جلبت الشفافير إلى الولايات المتحدة . وهناك كثير من الأزهار التي تسجن الحشرات داخلا ، ومن أمثلتها الزهرة المسات " جاك المصورة " JACK IN THE PULPIT . ولهذا النبات نوعان من المجموعات الزهرية ، ذكور وإناث . وهي تتكون داخل مقصورات تضيق عند منتصفها . ويتم التلقيح بواسطة ذبابة دقيقة تدخل إلى المقصورة ولا تكاد تجتاز المنطقة الضيقة الوسطى حتى تجد نفسها سجينة ليس بسبب الضيق فحسب بل بسبب تغطية الجدران الداخلية بمادة شمعية منزلقة يتعذر معها على الحشرة أن تثبت أقدامها ، وعندئذ تدور الحشرات

بصورة جنونية داخل المكان ، فتعلق هبوات اللقاح بجسمها . وبعد قليل تتصلب جوانب المقصورة بعض الشيء فتستطيع الحشرة الخروج بعد أن يكون جسمها تغطى بهبوات اللقاح . فإذا زارت الحشرة مقصورة مذكرة أخرى تكررت العملية السابقة ، أما إذا دخلت مقصورة أنثى فإنها تسجن في داخلها سجناً دائماً حتى تموت وعند محاولتها اليائسة للخروج ، تقوم بتلقيح الأزهار الأنثى . إن النبات في هذه الحالة لا يهتم بخروج الحشرة لأنها تكون قد أدت رسالتها ، أما عند زيارتها للمقصورات المذكرة فإنه يسمح لها بالخروج لأنها لا تكون قد أدت رسالتها بعد .

أفلا تدل كل هذه الشواهد على وجود الله ؟ إنه من الصعب على عقولنا أن تتصور أن كل هذا التوافق العجيب قد تم بمحض المصادفة ، إنه لابد أن يكون نتيجة توجيه محكم احتاج إلى قدرة وتدبير .

(109/433)

و نستطيع أن نلمح أدلة أخرى على وجود الله وقدرته في تلك الحالات العديدة التي حاول الإنسان فيها أن يتدخل في توازن الطبيعة أو يعمل على تعديله .

فمثلاً عندما نزل المهاجرون الأولون أستراليا ، لم يكن هنالك من الثدييات المشيمية إلا

الدنجو، وهو كلب بري . ولما كان هؤلاء المهاجرون قد نزحوا من أوربا فقد تذكروا ما كان يهيئه صيد الأرنب من فرصة طيبة لممارسة الصيد والرياضة . وفي محاولة لتحسين الطبيعة في أستراليا استورد توماس أوستين نحو أثني عشر زوجاً من الأرانب وأطلقها هناك، وكان ذلك سنة 1859 ،ولم يكن لهذه الأرانب أعداء طبيعيون في استراليا ، ولذلك فقد تكاثرت بصورة مذهلة ، وزاد عددها زيادة كبيرة فوق ما كان ينتظرون وكانت النتيجة سيئة للغاية . فقد أحدثت الأرانب أضراراً بالغة بتلك البلاد حيث قضت على الحشائش والمراعي التي ترعاها الأغنام . وقد بذلت محاولات عديدة للسيطرة على الأرانب، وبنيت أسوار عبر القارة في كوينزلاند بلغ امتدادها 7000 ميل ومع ذلك ثبت عدم فائدتها . فقد استطاعت الأرانب أن تتخطاها . ثم استخدم نوع من الطعم السام ولكن هذه المحاولة باءت هي الأخرى بالفشل . ولم يمكن الوصول لآلة حل إلا في السنوات الأخيرة ، وكان ذلك باستخدام فيروس خاص يسبب مرضاً قاتلاً لهذه الأرانب هو مرض الرض المخاطي . وقد لا يكون هذا هو الحل الأخير ، فقد أخذنا نسمع أخيراً عن ظهور أرانب حصينة لديها مقاومة كبيرة لهذا المرض في استراليا . ومع ذلك فقد أدى انخفاض عدد الأرانب هنالك إلى منافع جمة ، وتحولت مناطق البراري القاحلة والجبال المقفرة التي بقيت عشرات السنين إلى مروج خضراء يانعة . وقد ترتب على ذلك

في الإيراد من صناعة الأغنام وحدها قدرت 1952 . 1953 بما يبلغ 84 مليون جنيه .

(110/433)

ومن الممكن أن يكون لدينا مشكلة أرانب مشابهة في الولايات المتحدة الأمريكية ، فالأرانب الأوربية تختلف في نوعها عن الأرانب التي كانت تستوطن أمريكا ، والتي لا تعرف الآن إلا في جزيرة سان جوان حيث تعيش في عزلة تامة سنة 1900 . وقد حاول أصحاب بعض نوادي الصيد . بحسن نية طبعاً . أن يعمموا نوع الأرنب المسمى سان جوان في الولايات المتحدة كلها بسبب صعوبة استيراد النوع المسمى ذيل القطن وانتقاله من ولاية إلى أخرى كما كانت الحال من قبل . وكان من الممكن أن تصبح النتيجة خطيرة للغاية لأن أرانب السان جوان تتكاثر في الولايات المتحدة بنفس السرعة التي تتكاثر بها الأرانب في أستراليا . ومن الاحتياطات الحديثة التي أتخذت لتلافي هذا الخطر رفع الحظر عن صيد هذا النوع من الأرانب على مدار السنة .

و من الطريف أن استخدام فيروس الأرانب في أوربا قد أحدث أثره هنالك . فقد أحضر طبيب فرنسي من المهتمين بالموضوع . بسبب ما أحدثته الأرانب من الأضرار للأشجار في

حديقته ، بعض هذا الفيروس وحقن به بعض الأرانب البرية في فرنسا ، بل الأقاليم الأوربية المجاورة أيضاً . ويتجادل الناس حول هذا الموضوع فتختلف وجهات نظرهم . فمنهم من يرى أن العمل قد أدى إلى خفض كمية اللحوم التي كانت تعيش عليها الطبقات الفقيرة . ومنهم من يرى أن هذا العجز يعوضه تحسين الإنتاج النباتي بعد انخفاض عدد الأرانب .

(*) عالم في الوراثة. حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة بيتسبرغ أستاذ علم الأحياء والفسيولوجيا بكلية المعلمين بكلونكورديا منذ 1945 عضو جمعية الدراسات الوراثة. مختص في الوراثة وعلم البيئة .

المصدر :

عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . ."

جمعها : جون كلوفر مونسما

ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة

.

.

.

0–تقدير من الله لا مصادفة

(111/433)

خذ عشرة بنسات ، كلا منها على حدة ، وضع عليها أرقاماً مسلسلة من 1 إلى 10 ثم ضعها في جيبك حسب ترتيبها ، من 1 إلى 10 .

إن فرصة سحب البنس رقم 1 هي بنسبة 1 إلى 10 .

و فرصة سحب البنسات التي عليها أرقام 1 ، 2، 3 متتالية ، هي بنسبة 1 إلى 1000 . وفرصة سحب 1و 2و 3و4 متتالية ، هي بنسبة 1 إلى 10000 ، وهكذا ، حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من 1 إلى 10 ، هي بنسبة 1 إلى 10 بلايين .

و الغرض من هذا المثل البسيط ، هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة و لابد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة ، بحيث يصبح من المحال حسابيا أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة ، بمجرد المصادفة على أي أرض في أي وقت . لذلك لابد أن يكون في الطبيعة نوع من التوجيه السديد . وإذا كان هذا صحيحاً

فلابد أن يكون هناك هدف . والغرض من هذا الكتاب هو أن نبين بعض هذه التنظيمات العجيبة ن وأن نعرض الهدف الذي وراء وجود الإنسان . والآن لنبحث الحقائق المدهشة : إن بعض علماء الفلك يقولون لنا إن المصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفي لإحداث مد خفاق هدَّام ، هي في نطاق الملايين ، وإن مصادفة التصادم هي نادرة لدرجة وراء الحسيات . ومع ذلك ، تقول إحدى نظريات الفلك ، إنه في وقت ما ، ولنقل منذ بليوني سنة مضت ، قد مرَّ نجم بالفعل قريباً من شمسنا لدرجة كانت كافية لأن تحدث أمداداً (جمع مدّ) مروعة ، ولأن تقذف في الفضاء تلك الكواكب السيارة التي تبدو لنا هائلة ، ولكنها ضئيلة الأهمية من الوجهة الفلكية . ومن بين تلك الكتل التي اقتلعت ، تلك الحزمة من الكون التي نسميها بالكرة الأرضية . إنها جسم لا أهمية له في نظر الفلك ، ومع ذلك يمكن القول بأنها أهم حسم نعرف حتى الآن .

ويجب أن نفرض أن الكرة الأرضية مكونة من بعض العناصر التي توجد في الشمس، لا في أي كوكب آخر .

وهذه العناصر التي توجد في الشمس ، لا في أي كوكب آخر .

وهذه العناصر مقسمة على الكرة الأرضية بنسب مئوية معينة قد حولت جملة الكرة الأرضية إلى أقسام دائمة، وحدود حجمها وسرعتها في مدارها حول الشمس هي ثابتة للغاية.

ودورانها على محورها قد حد بالضبط، لدرجة أن اختلاف ثانية واحدة في مدى قرن من الزمان يمكن أن يقلب القديرات الفلكية. ويصحب الكرة الأرضية كوكب نسميه بالقمر، وحركاته محدودة، وسياق تغيراته يتكرر كل 18 سنة، ولو أن حجم الكرة الأرضية كان أكبر مما هو أو أصغر، أو لو أن سرعتها كانت مختلفة عما هي عليه، لكانت أبعد أو أقرب من الشمس مما هي، ولكانت هذه الحالة ذات أثر هائل في الحياة من كل نوع، بما فيها حياة الإنسان. وكان هذا الأثر يبلغ من القوة، بحيث إن الكرة الأرضية لو كان اختلفت من هذه الناحية أو تلك، إلى أية درجة ملحوظة، لما أمكن وجود الحياة فوقها.

ومن بين كل الكوكب السيارة، نجد أن الكرة الأرضية فيما نعلم الآن، هي الكوكب الوحيد الذي كانت صلته بالشمس سبباً في جعل نوع حياتنا ممكناً.

أما عطارد فإنه بناء على القوانين الفكلية لا يدير إلا وجهاً واحدة منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس (سنة عطارد). وبناء على ذلك لابد أن جانباً من عطارد هو أتون صحراوي، والجانب الآخر متجمد.

وكثافة جاذبيته هما من القلة بحيث إن كل آثار للهواء فيه لابد أن تكون في شكل رياح

هوجاء تجتاح هذا الكوكب من جانب آخر .

أما كوكب الزهرة فهو لغز من الألغاز به بخار سميك يحل محل الهواء ، وقد ثبت أنه لا يمكن أن يعيش فيه أي كائن حيّ.

وأما المريخ فهو الاستثناء الوحيد ، وقد تقوم فيه حياة كحياتنا ، سواء في بدايتها أو تكون على شفا الانتهاء . ولكن الحياة في المريخ لابد أن تعتمد على غازات أخرى غير الأوكسجين ، وعلى الخصوص الهيدروجين . إذ يبدو أن هذين قد أفلتا منه . ولا يمكن أن توجد مياه في المريخ . ومعدل درجة الحرارة فيه أقل كثيراً من أن تسمح بنمو النبات كما تعرفه .

أما الكواكب السيارة الأخرى فإنها بعيدة عن الشمس إلى حد لا يسمح بوجود الحياة فوقها ، وهي صعاب أخرى لا يمكن تذليلها ، لا تستطيع أن تحتمل الحياة في أي شكل من الأشكال .

والمتفق عليه الآن عموماً ، أن الحياة لم توجد قط ولا يمكن أن توجد ، في أي شكل معروف ، علي أي كوكب سيار غير الكرة الأرضية . لذلك في البداية الأولى ، كوطن للمخلوقات

البشرية ، كوكب سيار صغير ، قد أصبح بعد سلسلة تغيرات في مدى بليوني سنة أو أكثر ، مكاناً صالحاً لوجود الحياة الحيوانية والنباتية التي توجت بالإنسان ، وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، والآن أفرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار ، وفي الليل هي مصدر كل نبت في الأرض .

إن الشمس ، التي هي مصدر كل حياة ، تبلغ درجة حرارة مسطحها 12000 درجة فهرنهايت ، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حد يكفي لأن تمدنا هذه (النار الهائلة) بالدفء الكافي ، لا بأكثر منه . وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب ، وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة ، بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها ، ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة ، فإن كل نبت يموت ، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجمداً .

والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلا في الثانية . ولو أن معدل دورانها كان مثلاً ، ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية ، فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون يمتنع معه نوع حياتنا .

والنجوم كما نعلم تختلف في الحجم . وأحدها يبلغ من الضخامة حداً لو كانت شمسنا لكان محور الكرة الأرضية داخلاً في مسطحه لمسافة ملايين الأميال .

والنجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها . وكثير من أشعتها يميت كل نوع معروف من أنواع الحياة . وتتراوح كثافة هذا الإشعاع وحجمه بين ما هو اقل من إشعاع شمسنا وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرة ، ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط ، لكنا تجمدنا . ولو أنها زادته بمعدل النصف ، لأصبحنا رماداً من زمن بعيد ، هذا إذا كنا قد ولدنا بوصفنا شرارة بوتوبلازمية (خلية) للحياة .

ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة .

ثم إن الكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها 23 درجة .

ولهذا دواع دعت إليه : فلو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان القطبان في حالة غسق دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالاً وجنوباً ، مكدساً في طرقة قارات من الجليد ، وربما ترك صحراء بين خط الاستواء والثلج .

وفي هذه الحالة كانت تنبعث أنهار من الجليد ، وتتوقف خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح ، لتكون بركاً مؤقتة من الملح الأجاج (ملاحات) . وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين ، فيؤدي ذلك إلى فرطحة خط الاستواء أو فورانه ، أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة ، كما أن انخفاض المحيط يعرض مساحات شاسعة جديدة من الأرض ، ويقلل من هطول المطر في جميع أرجاء العالم ، مما ينجم عن ذلك من عواقب مخيفة .

إننا قلّ أن ندرك أن الحياة كلها محصورة في الفضاء الذي بين قمم الجبال وبين حرارة داخلية الأرض . وإذا قورنت هذه الطبقة الضيقة بقطر الكرة الأرضية ، كانت نسبتها إليه كنسبة نصف كثافة ورقة الشجرة ، إلى كتاب مكون من ألف صفحة . وتاريخ جميع المخلوقات مكتوب على هذا السطح الذي هو في سمك النسيج . ولو أن الهواء أصبح سائلاً لغطى الكرة الأرضية إلى عمق خمسة وثلاثين قدماً ، أو ما يعادل جزءاً من ستمائة ألف جزء من المسافة إلى مركز الكرة الأرضية . وهو تنظيم بالغ الدقة !

ويبعد القمر عنا مسافة 240000 ميل ، ويذكرنا المد الذي يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً

بوجود القمر . والمد الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن . بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شيء منتظماً درجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مسافة المحيط كلها عدة أقدام ، وتحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية .

والمريخ له قمر ، قمر صغير ، لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال . ولو كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلا ، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأرضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها ، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة .

وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم .

وإذا فرضنا أن القارات قد اكتسحت ، فإن معدل عمق الماء فوق الكرة الأرضية كلها يكون نحو ميل ونصف ميل ، وعندئذ ما كانت الحياة لتوجد إلا في أعماق المحيط السحيقة

على وجه الاحتمال وهناك كان تستنفذ نفسها حتى تخمد . ويبدو أن العلم يؤيد النظرية القائلة بأن هذه الحالة قد وجدت فعلا في خلال الفوضى العامة قبل أن تتماسك الأرض . وطبقاً لقوانين معترف بها ، صارت الأمداد (جمع مد) نفسها تدفع القمر بعيداً ، وفي الوقت نفسه جعلت دوران الأرض يبطئ ، فبعد أن كان يتم في يوم مقداره يقل عن ست ساعات ، صار يكمل في يوم مكون من أربع وعشرين ساعة ، وهكذا أصبح القمر اللطيف مسرة العاشق وفي أحسن تقويم ، وهو ما يرجى منه الدوام والأمان لمدة بليون سنة قادمة أو نحو ذلك . ويعتقد الفلكيون أنفسهم كذلك أنه في المستقبل البعيد سوف يعود القمر إلى الكرة الأرضية بنفس تلك القوانين الفلكية ، ثم ينفجر حين يقترب منها للدرجة الكافية فيضفي بهاء على العالم الفاني بحلقات كتلك التي تحيط بزحل .

لقد جاء نظامنا الشمسي من خليط مضطرب للعناصر التي انفصلت عن الشمس عند درجة حرارة قدرها 412000 وتبعثرت في فضاء غير محدود ، بعنف لا يتصوره العقل . وقد حل النظام محل الفوضى بدقة تجعلنا نستطيع أن نقدر بـ" الثانية " المكان الذي سيحتله أي جزء . ويبلغ التوازن من الكمال إلى حد أنه لم يعتريه أي تغيير في مدى بليون سنة ، وأنه يدل على الدوام إلى الأبد . كل ذلك بحكم قانون . وبهذا القانون نفسه يتكرر هذا النظام الذي نراه في النظام الشمسي ، في نواح أخرى .

المصدر : كتاب العلم يدعو إلى الإيمان أ . كريسي مورسون رئيس أكاديمية العلوم في

واشنطن

.

.

.

0–آيات عظمة الله في الغازات

(117/433)

لتنخذ من الأوكسجين مثلاً على التنظيم المحكم إلى غير حدّ : إن الهواء الذي فوق الأرض مكون من الأوكسجين والنتروجين والأرجون والنيون والكنسيون والكريبتون، وهو يحتوي بخار الماء، وكذا ثاني اوكسيد الكربون بنسبة 3/100 من 1%، أو نحو ثلاثة أجزاء من 10000 . والغازات النادرة تظهر نفسها في شكل الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء بلافتات الإعلان، أما الأرجون الذي يوجد في الهواء بنسبة 6/10 في 1% فإنه يعطينا النور الساطع الباهر الذي تتقدم به المدينة حيث يستخدم . ويوجد النتروجين بنسبة 78% تقريباً في الهواء، في حين تحدد نسبة الأوكسجين عادة ب21% والهواء، في جملته

يضغط على الأرض بمعدل خمسة عشرة رطلاً تقريباً على البوصة المربعة من السطح بمستوى البحر . والأوكسجين الذي يوجد في الهواء هو جزء من هذا الضغط، وهو بمعدل نحو ثلاثة أرطال على البوصة المربعة . وكل الباقي من الأوكسجين محبوس في شكل مركبات في قشرة الأرض، وهو يكون 8/10 من جميع المياه في العالم . والأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الحيوانات التي فوق الأرض، وهو لا يمكن الحصول عليه ولنا الآن أن نسأل : كيف أن هذا العنصر ذا النشاط البالغ من الوجهة الكيماوية، قد أفلت من الاتحاد مع غيره وترك في الجو بنفس النسبة تقريباً ، اللازم لجميع الكائنات الحية أو كان الأوكسجين بنسبة 50% مثلاً أو أكثر من الهواء بدلاً من 21% فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر .

ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى 10% أو أقل، فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور، ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان ـ كالنار مثلاً ـ تتوافر له . وإذا امتص الأوكسجين الطليق، ذلك الجزء الواحد من عدة ملايين من مادة الأرض فإن كل حياة حيوانية تقف على الفور .

إن العجيب الذي بين الأوكسجين وثاني اوكسيد الكربون فيما يتعلق بالحياة الحيوانية، وعالم النبات كله قد استرعت أنتباه العلماء، غير أن أهمية ثاني أوكسيد الكربون لم تدرك بعد من الجميع . ويمكن أن نقول كلمة عابرة بأن ثاني أوكسيد الكربون هو الغاز المألوف في تعبئة ماء الصودا . وهو غاز ثقيل، ولحسن الحظ يعلق بالأرض ،ولا يتم فصله إلى أوكسجين وكربون إلا بصعوبة كبيرة . وأنت إذا أشعلت ناراً، فإن الخشب الذي يتكون غالباً من الأوكسجين والكربون والهيدروجين يتحلل تحت تأثير الحرارة، ويتحد الكربون مع الأوكسجين بشدة، وينتج من ذلك ثاني أوكسيد الكربون، والهيدروجين الذي يطلق يتحد بمثل تلك الشدة مع الأوكسجين فنحصل على بخار الماء .

و معظم الدخان هو كربون غير متحد مع غيره وحين يتنفس رجل، يستنشق الأوكسجين فيتلقاه الدم ويوزع في خلال جسمه . وهذا الأوكسجين يحرق طعامه في كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبياً، ولكن النتيجة هي ثاني أوكسيد الكربون وبخار الماء، ولذا فإنه إذا وصف إنسان بأنه يتنهد كالأتون، ففي ذلك شيء من الحقيقة . .

وثاني أوكسيد الكربون يتسلل إلى رئتيه، ويكون غير قابل لتنسمه إلا في مقادير صغيرة وهو يحرك رئتيه، فيتنسم النسمة التالية وهو يلفظ ثاني أوكسيد الكربون في الجو . وكل كائن حيواني حيّ يمتص هكذا الأوكسجين، ويلفظ ثاني أوكسيد الكربون . ثم إن الأوكسجين

ضروري للحياة لتأثيره في عناصر أخرى في الدم وفي أجزاء أخرى من الجسم، وبدونه تتوقف عمليات الحياة .

(119/433)

و من جهة أخرى تعتمد حياة كل نبات معروف، على المقادير التي تكاد تكون متناهية الصغر، من ثاني أوكسيد الكربون الموجود في الهواء، والتي يمكن القول بأنها تتنسمها . ولكي نوضح هذا التفاعل الكيماوي المركب المختص بالتركيب الضوئي، بأبسط طريقة ممكنة، نقول إن أوراق الشجرة هي رئات، وإن لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أوكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأوكسجين . وبكميات سحرية، تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكراً أو سيلولوزا ومواد كيماوية أخرى عديدة وفواكه وأزهاراً . ويغذى النبات نفسه، وينتج فائضاً يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفي الوقت نفسه، يلفظ النبات الأوكسجين الذي تتنسمه، والذي بدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق . فدعنا إذن نعلن في تواضع خضوعنا لخالق النبات ! .

و هكذا نجد أن جميع النباتات، والغابات والأعشاب، وكل قطعة من الطحالب، وكل ما يتعلق بحياة الزرع، تبني تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلفظ ثاني

أوكسيد الكربون، بينما تلفظ النباتات الأوكسجين .

ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفذ في النهاية كل الأوكسجين أو كل ثاني اوكسيد الكربون، تقريباً، ومتى انقلب التوازن تماماً ذوى النبات أو مات الإنسان، فيلحق به الآخر وشيكا .

وقد اكتشف أخيراً أن وجود ثاني أوكسيد الكربون بمقادير صغيرة، هو أيضاً ضروري لمعظم حياة الحيوان، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأوكسجين .

ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضاً، وإن كنا لا نتنسمه، فبدون الهيدروجين كان النبات لا يوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أو النباتية هي كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة، ولا غنى عنه مطلقاً .

إن الأوكسجين والهيدروجين وثاني اوكسيد الكربون والكربون. سواء أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة. بعضها مع بعض. هي العناصر البيولوجية الرئيسية .

(120/433)

وهي عين الأساس الذي تقوم عليه الحياة . غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين، تقضي بأن تكون كلها في وقت واحد وفي كوكب سيار واحد، بتلك النسب الصحيحة

اللازمة للحياة ! وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق .

أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية !

المصدر : كتاب العلم يدعو إلى الإيمان أ . كريسي مورسون رئيس أكاديمية العلوم في واشنطن

.

.

.

0-من عجائب الذرات والكترونات

لقد قفز العلم قفزته الكبرى في القرن الماضي فعلم أن المادة تتألف من أجزاء صغيرة هي الذرات والتي كان يحسبها أنها لا تتجزأ ، لأنها أصغر شيء يمكن تصوره ، إن قطر الواحدة منها يقدر بخمسين مليون جزء من (البوصة) ووزنها يتراوح على اختلاف العناصر بين جزئين تقريباً و395 جزء من (مليون مليار مليار جزء) من الغرام .

و هذا الحجم يراه العلماء عظيماً بالنسبة لحجم الالكترونات والبروتونات التي تتألف منها الذرة ن ولكي يقربوا لنا تصور الفارق ضربوا مثلاً فقالوا إن الفرق بين حجم الذرة كلها وبين

حجم الإلكترون الذي فيها هو كالفرق بين ذرة الغبار وهذه الغرفة التي يجلس الإنسان فيها .

نعم إنهم عرفوا أن للذرة غلافاً تدور فيه نواة أو نويات كثيرة . أما الغلاف فهو مؤلف من الكترون (electron) واحد أو الكترونات كثيرة بحسب العناصر ن وأما النواة فتؤلف من بروتون (proton) واحد أو بروتونات كثيرة ومن نوترون (neutro) واحد أو نوترونات كثيرة ن إلا في الهيدروجين فلا نوترون فيه .

نسال أنفسنا ما هي الالكترونات والنترونات والبروتونات ؟

الجواب : الإلكترون عبارة عن وحدة كهربائية سالبة ن والبروتون عبارة عن وحدة كهربائية موجبة ،و النوترون عبارة عن وحدة كهربائية محايدة لا سالبة ولا موجبة .

و من عجائب هذا النظام والتنسيق أن عدد الالكترونات في مدار الذرة الخارجي (الذي سميناه غلافها) يكون بعدد البروتونات في مدار الذرة الخارجي (الذي سميناه غلافها) يكون بعدد البوتونات التي في نواتها ن فإذا كان في نواتها بروتون واح كان في المدار الكترون واحد كما في الهيدروجين . وإذا كان في النواة بروتونان كان في المدار الكترونان وهكذا

يتدرج العدد واحدا واحداً من اخف العناصر إلى اثقلها وزنا ذريا وهو الاورانيوم . وبهذا التعادل العجيب بين الالكترونات السالبة والبروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذرة ، أما النوترونات (المحايد) فإن عددها في النواة الرة قل أو كثر لا يتعادل مع عدد الالكترونات لأنها محايدة ن فتأمل بهذا التنسيق العجيب . . . و أعجب من هذا وأعظم هو ذلك القانون الدوري الذي يتحكم في ترتيب الالكترونات في مدار الذرة بل مداراتها ، ويتحكم بالتالي في تأليف العناصر المختلفة وتركيبها ، تبعاً لترتيب الالكترونات وعددها . ذلك أنهم وجدوا هذا السطح بل امتلأت أسرته الثمانية فلم يعد يتسع لإلكترون آخر ن فإذا كان للعنصر 9 الكترونات اتخذ التاسع مركزاً له في مدار ثان من غلاف الذرة ن وهكذا حتى تمتلىء الأسرة الثمانية في المدار الثاني ثم في الثالث إلى النهاية ثمانية ثمانية .

وأعجب من هذا أن اتحاد العناصر ببعضها يتمشى على أساس هذا الترتيب الثماني في السطح تمشياً فيه الكثير من (أدب الضيافة) .

(122/433)

ذلك أن اتحاد العناصر إنما يحصل بين الكتروناتها ، فإذا كان عدد الكترونات العنصر المضيف في سطح الغلاف أقل من ثمانية أي كان عنده أسرة فارغة فإنه يستطيع بكل رحابة

صدر أن يستقبل ويضيف في الأسرة الفارغة عنصراً آخراً ، بشرط أن تكون عدد الكترونات العنصر الضيف بقدر عدد الأسرة الفارغة عند العنصر المضيف . فالعنصر الذي في طبقته الخارجية ثمانية الكترونات لا يستطيع أن يستقبل أحدا في ضيافته ، وهو معذور أما الذي في طبقته الخارجية سبعة كهارب فإنه يستطيع الاتحاد بعنصر آخر في طبقته إلكترون واحد ، والذي في طبقته الخارجية ستة الكترونات يتحد مع الذي في طبقته إلكترونان ، وهكذا .

ولما كان اختلاف العناصر في الكون الأصلية في الكون إنما هو باختلاف عدد الكتروناتها كما سبق البيان ، ومتى عرف (الوزن الذري) لأي عنصر عرفت خواصه كلها ، فقد استطاع العالم الروسي (منديليف) أن يصنف العناصر بحسب وزنها الذري ، فوضع لها جدولاً في سلم صاعد متدرج ، ولكنه فوجيء بمثل (الفراغ) الذري إلي فوجىء به علماء الفلك بين المريخ والمشتري كما تذكريا حيران ، فوجد أن درجات السلم الدوري للعناصر تطرد بالتابع لا فراغ فيه إلا في ثلاثة عناصر ، فإما أن يكون هذا (القانون الدوري) غير مطرد وغير مطرداً فلابد حينئذ من وجود هذه العناصر الثلاثة المفقودة في نفس تلك الدرجات الفارغة .

ومن العجيب أن منديليف الذي كان مؤمنا بصحة قانونه الدوري أخذ يؤكد ان العناصر الثلاثة المفقودة لابد من وجودها على الأرض ، بل أنه استطاع على أساس وزنها الذري

الذي في الدرجات الفارغة أن يحدد كل الخواص الكيميائية التي لها كأنه يراها . ومن المدهش حقاً أن مندليف أسعده الحظ أن يرى قبل موته في سنة 1907 صدق نبوءته العلمية ، فقد أكتشف العلماء العناصر المفقودة وكان لكل واحد منها نفس الوزن وكل الخواص الكيميائية التي تنبأ بها مندليف .

(123/433)

فهل يعقل أن يكون هذا النظام العجيب والترتيب الغريب في الذرة وفي المجرة على حد سواء أثر من آثار المصادفة العمياء . . .

المرجع : قصة الإيمان الشيخ نديم الجسر

.

.

.

0–حقائق من سجل الغابات لورنس كولتون ووكر

جاء في الإنجيل ما معناه أن الله هو الدافع على الفوضى والارتباك,والحق أنه سبحانه هو الذي نظم هذا الكون فأحسن تنظيمه وأبدعه أيما إبداع .

إن عوام الناس ينظرون إلى قمم الجبال من أسفل الوادي ، فتأخذهم روعتها فينسبونها إلى الله تعالى ، أو يسمعون صوت الريح العاصفة تقطع صمت الأشجار والنباتات ، فيدركون جانبا من آيات الله التي تظهر في أرجاء هذا الكون ويتضاءل بجانبها ملك سليمان . حقيقة إن روعة هذا الكون ،إنما هي من إبداع الخالق الأعظم ، ولكن وقوف الإنسان عند هذا الحد من الإعجاب يشبه الإنسان بمظهر بعض الأعمال التي ينتجها صانع أو نجار بارع ، دون أن يجهد نفسه في تأمل دقة الصناعة وتفاصيلها وروائع الزوايا والتشابك " التعشيق " والحلي الداخلية وغير ذلك . . .

ولو أن تدبير الله العالم الذي نحن فيه قد اقتصر على خلق الوديان الخصيبة مما تنقله عوامل التعرية من الطمي والرواسب وتجلبه من فوق سفوح الجبال ، لكان هذا الأمر هيناً من وجهة نظر المتخصصين في فسيولوجيا النبات أو في علم الجيولوجيا ، ولكن لكي يدرك الإنسان روعة هذا العالم وما وراءه من جلال الحكمة والتدبير ، لابد أن يدرسه بدقة وأن يتأمل في الغابات والحقول ، عندئذ سوف يجد أن ما كان يعده طبيعياً ليس إلا إعجازاً إلهياً يعلو فوق مستوى البشر وتعجز عن إدراك كنهه ، وهنا لا سبيل إلا إلى الإيمان بالله وبقدرته وجلاله . ويقول كارل هايم في كتابه (المسيحية والعلوم الطبيعية) :

"إن عجائب الكون لا تسمح بالإيمان فحسب بل تدعو الناس إلى هذا الإيمان . وإن الاستدلال بالكون على وجود الله قد عاد إلى الظهور من جديد في عصر النهضة والتفكير العقلي بسبب انهيار النظرية الآلية في تفسير الكون بعد أن كادت هذه النظرية تقضي على هذا النوع من الاستدلال " .

وإني أكتب هذا المقال من وجهة نظري متخصصاً في بحوث الغابات ومهتماً بدراسة علم البيئة وفسيولوجيا النباتات لكي أظهر جانباً مما للغابات من أدلة على وجود الله .

تجدد تربة الغابات :

تظهر في جبال أديرو نداك رمال عميقة يرجع أصلها إلى ما اكتسحته أنهر الجليد في سابق الأزمان . والتربة في هذه الأماكن ضعيفة بسبب نقص العناصر الغذائية وبخاصة عنصر البوتاسيوم الذي تجرفه المياه بمجرد تكونه نتيجة لتحليل المواد العضوية، ولا يتبقى من هذا العنصر إلا ما يدخل في تركيب المواد العضوية ذاتها . ولقد كانت تنمو على هذه السهول الرملية غابات من أشجار التنوب الفضي spruce والصنوبر والشوكران hemlock

، ولكن سهولة طبيعة الأرض فوق هذه السهول أغرت باقتلاع هذه الأشجار وزراعة الأرض . وبعد انقضاء مائة عام زرعت الأرض في أثنائها زراعة عنيفة استنزفت عناصر التربة وأضعفت خصوبتها إلى حد كبير ، ولذلك شرع في زراعتها بأشجار الغابات من جديد .

وبعد مضي سنوات قليلة على زراعتها بأشجار الشوكران وأشجار الصنوبر الأبيض والأحمر ، ظهرت أعراض نقص البوتاسيوم في التربة على الأشجار . وقد أظهرت بعض البحوث العلمية التي أجريت على نباتات هذه الغابات أن بعض الأشجار العشبية المستوطنة مثل أشجار القان (BIRCH) الرمادي وأشجار الكريز الأسود ، ظهرت على أوراقها أعراض نقص البوتاسيوم في صورة ألوان شاذة يمكن بواسطتها تحديد خواص التربة في المناطق المختلفة ومدى صلاحيتها لزراعة الأنواع المختلفة من الأشجار .

(125/433)

لقد هيأ لنا الله بفضله الطريقة التي تعيننا على تحديد الأماكن التي تصلح لزراعة الشوكران وأشجار الصنوبر الأحمر والأبيض ، وتحديد الناطق التي يمكن زراعتها ببعض الأشجار ذات القيمة الاقتصادية ، مما لا يضره انخفاض مستوى عنصر البوتاسيوم في التربة مثل

أشجار الصنوبر الأسكتلندي وغيرها . كما وجدنا أن أوراق بعض النجيليات وأشجار الفراولة البرية وأنواعاً عديدة أخرى من الشجيرات العشبية وأشجار الصنوبر الأبيض يمكن تحليلها تحليلاً كيميائياً للوقوف على مدى صلاحية الأماكن والمناطق المختلفة المزروعة فيها . فالصنوبر الأبيض مثلاً تظهر عليه دلائل نقص البوتاسيوم عندما تنخفض نسبة البوتاسيوم في الأوراق الإبرية عن 0،5 % . ويمكن الاستدلال بنسبة البوتاسيوم الموجودة في هذه الأوراق على نسبة البوتاسيوم الموجود في التربة والذي هو قابل للامتصاص .

وهناك ظاهرة أخرى من الظواهر التي شوهدت في هذه الغابات ، فالقان الأبيض ، وهو عادة من الأعشاب التي تنمو بكثرة من تلقاء نفسها وتجوز زراعتها إلى حد بعيد في مناطق السهول تنمو تحت جذوره وفي حضانتها نباتات الصنوبر البيضاء التي تكون في هذه الحالة كثيفة غاية الكثافة . وقد لوحظ أن أعراض نقص البوتاسيوم لا تظهر على الأشجار الصنوبرية التي تنمو بجوار القان ، وأثبتت تحاليل التربة والأوراق أن نسبة البوتاسيوم القابل للامتصاص كانت تحت هذه الظروف ثلاثة أمثالها في الأرض الخالية من أشجار القان مما يثبت أن لأشجار القان قدرة كبيرة على تجديد خصوبة التربة التي تكون عناصرها قد استنزفت بسبب الإجهاد المترتب على طول فترات زراعتها . ولا شك أن هذه التغذية

المعدنية ، تعتبر همزة الوصل التي يستخدمها الإنسان لكي يحوّل المواد غير العضوية الميتة إلى عالم الحياة .

(126/433)

و من الظواهر العجيبة الأخرى التي شوهدت في التربة في وادي كونيكتيكت ما لوحظ من أن شجر السدر الأحمر يستطيع بمصاحبة خرطوم الأرض وهو من الدود أن يزيد من نسبة عنصر الكالسيوم بالتربة . فأوراق السدر الأحمر تتساقط على قاع الغابة ، وعندئذ تنجذب ديدان الأرض إليها بسبب ارتفاع نسبة الكالسيوم بها . و سرعان ما تلتهم الديدان هذه الأوراق وتهضمها وبذلك تطلق في التربة عنصر الكالسيوم في صورة يسهل على النبات امتصاصها والاستفادة بها .

و لا تقتصر فائدة السدر الأحمر على الناحية الغذائية وحدها ، بل إنه يؤدي إلى تحسين جميع الخواص الطبيعية للتربة مثل مساميتها ، وسرعة رشح الماء خلالها ، وقدرتها على الاحتفاظ بالماء ومنسوب الماء فيها . ولجميع هذه الصفات علاقة كبيرة بالاستفادة من مياه الفيضان والسيطرة عليها .

و نستطيع أن نذكر أكثر من ذلك في سياق الحديث عن العناية الإلهية التي تتجلى في إعادة

خصوبة التربة ، ففي الغابات البكر التي لم يتدخل في أمرها الإنسان ، تتكاثر الأشجار وتتتابع أنواعها على مر الأجيال حتى تصل في نهاية الأمر إلى نوع من الاستقرار تميزه أشجار خاصة تنمو وتتكاثر فيها إلى ما شاء الله إلا إذا تدخل في أمرها الإنسان أو دهمتها النار ، أو عبثت بها العواصف . ويؤدي تدخل الإنسان في أمر هذه الغابات الطبيعية بزراعتها واستنزاف خصوبتها ، إلى نقص صلاحيتها لنمو الأشجار وعندئذ نكون قد خسرنا الأشجار والتربة ويعقب ذلك حدوث الفيضانات .

(127/433)

إن الإنسان يبذل أموالاً طائلة لكي يقلل من أخطار الفيضانات بإقامة مشروعات السدود الضخمة ، ولكن إقامة هذه السدود ليست إلا حلاً مؤقتاً ضد قوة جبارة لا تستطيع أن تصدها حواجز الصخر أو البناء المسلح ، ولابد أن يقوم العلاج الحقيقي لمشكلة الفيضان على مهاجمتها في مصدرها . ولا يتم ذلك بإقامة السدود وإنما بإعادة الأشجار والنباتات إلى الأرض ، وهو أمر تقوم به الطبيعة من تلقاء نفسها ، فإنه لا يكاد ينقضي عام على الأراضي والحقول التي تكون قد هجرت بسبب استنزاف عناصرها ونقص خصوبتها حتى تنمو بها الحشائش الكثيفة والأعشاب والشجيرات وبادرات الأشجار ، وهذه كلها

تعمل على عودة الخصب إلى الأرض من جديد . و في منطقة بدمونت التي تقع في شرق الولايات المتحدة تكفي خمسة وعشرون سنة لتكوين طبقة جديدة ظاهرة من المواد الدبالية التي تغطي سطح التربة وتعيد إليها خصوبتها . وحتى في المناطق التي هي أشد برودة من هذه المنطقة حيث يكون تحلل المواد العضوية أشد بطأً ، فإن هذه الطبقة في تكوينها أكثر من 50 سنة . ويلاحظ أن التربة التي تستصلح بهذه الطريقة لا ترجع كعهدها الأول من حيث معالجة أخطار الفيضان . و مع ذلك فإنها تتحسن كثيراً عن ذي قبل . وفي ذلك يقول جونث :

" إن الطبيعة لا تعرف الإسراف . إنها دائماً صادقة وعظيمة وعنيفة . إنها دائماً صائبة . أما الخطأ فإنه لا يحدث إلا من جانبنا . إن الطبيعة تحارب العجز ولا تكشف أسرارها إلا للقادرين المخلصين الأتقياء " .

سد فروج الغابات :

عندما انتشر مرض الأندوثيا ، وهو المرض الذي يسبب الشلل لنباتات الكستناء " أبي فروة "

خلال العقدين الأولين من هذا القرن ، شاهد كثير من الناس فروجاً في أسقف الغابات ولاحظوا أن هذه الفروج لا تسد أبداً . ولقد كان الكستناء الأمريكي يحتل مكانا بين سائر أنواعه في العالم لا يدانيه فيه مكان آخر ، فقد كان يمتاز بنوعه ومقاومته للتعطن وبنخاعه الخشبي وما به من مادة التنين ، ثم بثماره وبما يعطيه من الظل وغير ذلك من الصفات الممتازة العديدة الأخرى وكان ينمو على حواف الجبال ذات التربة الضعيفة كما ينمو في الوديان الخصبة .

قبل أن يصيبه هذا المرض الذي وصل إليه من آسيا حوالي 1900 ، لم تكن تصيبه أمراض أخرى ، فلقد كان بحق ملك الغابة أما الآن فقد باد واندثر من الغابات ولم يعد يشاهد منه إلا بعض البراعم الضئيلة تنبثق بين حين وآخر من بقايا جذوع الأشجار التي كانت قائمة يوماً من الأيام كأنما تذكرنا أن البقاء لله وحده ، وأن أقوى الرجال كأقوى الأشجار لابد يوماً أن يزول .

و ما لبثت الفروج التي حدثت في سماء الغابة حتى ملئت ، لقد سدتها أشجار الخزامى ، التي كأنما كانت تراقب ما نزل بأشجار " أبي فروة " من داء لتحل محلها بفارغ الصبر حتى تحصل على ما يكفيها من الضوء . فهي من الأشجار التواقة إلى الضوء والتي لا تحتمل المعيشة في الظل . وحتى ذلك الوقت كانت أشجار الخزامى من الأشجار الضئيلة في

الغابة التي لا يمكن أن تعتبر من أشجار الخشب القيمة إلا نادراً . أما الآن فإنها أحداً لا يحزن على ما حل بأشجار الكستناء من خسارة ، إذ تقوم مكانها جذوع أشجار الخزامى الضخمة التي تضيف كل منها إلى نفسها بسبب نموها السريع ما يقرب من بوصة في السمك وست بوصات في الارتفاع سنويا .

و بالإضافة إلى سرعة نموها فإنها تعطي خشبها من النوع الممتاز .

(129/433)

فهل تضع الطبيعة العبقرية خططها وتدبيرها للأمور بأكثر من تهيئة الظروف المناسبة ؟و لقد كنت أتحدث مع زميل ممن أطمئن إليهم من الأختصاصيين في فلاحة الغابات عن ذلك المرض الذي أصاب نباتات الكستناء ، وهو ينصح المشتغلين بالغابات بان يلجأوا دائماً إلى كتاب الكون والطبيعة لكي يجدوا فيه حلا لكل مشكلة من المشكلات .

ويقول اسحق واطسن في هذا المعنى :

"إن الطبيعة تحمل كتابها المفتوح" .

"وتسبح بحمد الله وجلاله" .

ويقول عالم النبات اللامع آسا جراى في محاضراته التي ألقاها في جامعة ييل سنة 1880 :

" إن ما تنقله العلوم من عالم المجهول إلى عالم الطبيعة لا ينال من الإيمان أو يتعارض معه ، فالعلوم تسير في نفس الاتجاه الذي تسير فيه الطبيعة . وعلى ذلك فإن وظيفة العلوم هي العمل أن ترد ظواهر الكون في نشأتها الأولى إلى قدرة الله جل جلاله " .

المرجع : عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . . "جمعها : جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

.

.

.

0–حوار بين الحق والباطل

قال تعالى :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ 20 ، 21 سورة الذاريات

قال الدكتور عناية الله المشرقي ،وهو من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ،و يتمتع بشهرة كبيرة في الغرب ، لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية ، قال : خرجت من بيتي لقضاء حاجة ما ، وكان ذلك يوم الأحد من

أيام سنة 1909م فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جميس جينز الأستاذ بجامعة كمبرج، فدنوت منه، وسلمت عليه فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت له: إن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر! فتبسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور، وتوقف لحظة ثم قال: عليك أن تأخذ شاي المساء عندي.

(130/433)

وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت ليدي جيمس في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلت عليه في الغرفة وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي.

وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي، سألني: ماذا تريد؟ ودون أن ينتظر ردي، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول:

"يا عناية الله !

عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي ، وعندما أركع أمام الله وأقول له " إنك عظيم " أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء ، وأشعر بسكون وسعادة عظيمتين ،وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة

،أفهمت . . . يا عناية الله خان ؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفان في عقلي وقلت له :

يا سيدي لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي ،وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتاب الله فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم فهز رأسه قائلاً : بكل سرور فقرأت عليه الآية التالية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (27/ 28) سورة فاطر

فصرخ السير جيمس قائلاً : ماذا قلت ؟

﴿

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (28) سورة فاطر مدهش . . !

وغريب وعجيب جداً .

إن الأمر الذي كشفت عنه درسته واكتشفته بعد خمسين سنة من البحث .

من أنبأ محمد به ؟ .

المصدر : كتاب حوار بين الحق والباطل تأليف الشيخ عبد الحميد كشك

.

.

.

0–آيات الله في البيانات في المورثات

إن خلية في جسدنا تتكاثر بالانقسام ولابد من نسخ الحامض النووي (DNA) الذي داخل نواة الخلية عند الانقسام ، وعملية الانقسام هذه تتم وفق نظام دقيق لا قصور فيه ، يصيب الإنسان بحالة انبهار ، فجزيئة (DNA) تشبه سلماً حلزونياً يحتوي على ثلاثة مليارات حرف تعد مركزاً للمعلومات ، ويأتي أنزيم اللولب (هليكاز) إلى موقع الانقسام عند بداية عملية الانقسام فينقسم السلم الحلزوني (DNA) إلى شريطين بعد حل

اللولب المزدوج ، ويتم انفصال الشريطين عن بعضهما بكسر الروابط الهيدروجينية الموجودة بين القواعد المزدوجة في الشريطين ، وفي النهاية يفترق وجهاً (DNA) عن بعضها البعض بشكل " هيلكس " الذي دخل في بعضهم البعض .

يقوم (DNA) بوظيفة في الوقت المناسب ودون تأخير وبغير تخاذل أو إهمال ، ودون أدنى خطأ يذكر ، كما لا يصاب (DNA بأي ضرر ولو بسيط ، أما الآن فلقد جاء دور أنزيم DNA POLYMERASE بوليميراز فوظيفته تكمله وجهي الـ (DNA) اللذين انقسام إلى شريطين بشريط آخر لجعلها وحدة متكاملة .

(132/433)

الأنزيم المكون من ذرات الذي يتوقع أن يكون له عقل وعلم ووعي يستطيع أن يثبت المعلومات اللازمة التي تأتي بها من أماكنها في الخلية وصفها في موقعها الصحيحة لتكملة النصف الثاني ، ويكون (DNA) خلال هذه العملية دقيقاً كل الدقة حيث لا يوجد أدنى خطأ خلال العملية وبدقة متناهية جداً يثبت ثلاثة مليارات حرف الواحد وراء الآخر ، وفي نفس اللحظة يقوم أنزيم بوليميراز آخر نفس العملية لتكمله النصف الآخر (DNA) بينما يحدث كل هذا تمسك أنزيمات الربط (DNA) من أطرافها لكي لا

يحدث اختلاط بين جزأين منفصلين في شريطي (DNA) .

كما نرى فإن كل أنزيم يعمل من خلال تنظيم عسكري صارم جداً خلال عملية استنساخ (DNA) الذي يحتاج إلى العقل والعلم للقيام بهذه العملية الدقيقة .

هل لكم أن تتصوروا القيام بنسخ كتاب يحتوي على ثلاثة مليارات حرف عن طريق الآلة الكاتبة من غير أن يحدث خطأ في حرف من الحروف ؟ طبعاً هذا مستحيل . . . فبدون شك لا بد أن يحدث خطأ في النسخ ولو بسيط .

وعلى الرغم من ذلك فإن أنصار النظرية الداروينية يزعمون أن العمليات التي تقوم بها الأنزيمات ومليارات المعلومات الموجودة في (DNA) خلال الاستنساخ والتنظيم الهائل الذي لا خلل فيه يتم بمحض المصادفة العشوائية ، إن اعتقاد أنصار النظرية بمثل هذه الظنون التي لا يصدقها عقل حدث ضخم مثير للاهتمام بل إنه خارق للعادة . ونحن نجد أن السبب الوحيد لإيمانهم بهذه المعتقدات الخاطئة العمياء ، ونشرها هو تمسكهم بالإلحاد وتمردهم على الاعتراف بوجود الله ومشيئته .

المصدر : كتاب السلوك الذكي لدى الخلية تأليف هارون يحيى .

.

.

.

0–الخلايا التي تنتحر كي لا تصيب الجسم بأي ضرر

هناك بضع الخلايا في جسم الإنسان لمي يعد إليها حاجة أو تكون مريضة أو مصابة ، فهذه الخلايا تتلف نفسها بنفسها ، ومعظم الخلايا تقوم بتوليد البروتينات الكافية لقتلها ، ولكن هذه البروتينات لا تكون مؤثرة طالما كانت الخلية مفيدة للجسم وتمارس وظيفتها بشكل إيجابي إلا أن هذه البروتينات القاتلة أو ما نستطيع تسميتها بـ : آلة الموت داخل الخلية. تبدأ في العمل فقط عندما تصبح الخلية مريضة أو في حالة إبدائها سلوكاً غريباً أو في حالة كون وجود الخلية يعرض جسم الكائن الحي إلى خطر أكيد .

و من ألأهمية بمكان أن تقرر الخلية الانتحار في الوقت المناسب تماماً ، وإلا فإن بدء البروتينات القاتلة في التأثير سيسبب موت الخلية السليمة حتماً ، وهذا يعني استمرار موت الخلايا السليمة في الجسم وبالتالي هلاك الكائن الحي .

وكذلك استمرار الخلايا المصابة في الحياة يؤدي إلى أضرار تستفحل باستمرار وتقوم في النهاية إلى الموت ، وهذه الخلية التي يقرر الانتحار ، وتسمح لبروتيناتها القاتلة في العمل ،

تبدأ أولاً بالانكماش كي تعزل نفسها عن الوسط الموجدة فيه ، ومن ثم تظهر فقاعات على سطح الخلية فتبدو كأنها تغلي . وبعدها تبدأ النواة ثم سائر أجزاء الخلية في الانقسام إلى أجزاء متعددة . وتتلف الفضلات الناتجة عن الانتحار في الحال بواسطة الخلايا السليمة الأخرى والموجودة في منطقة الخلية المنتحرة ، والغريب هنا أن الخلايا المنتحرة والميتة لا تتلف كلها بل يتم الإبقاء على بعضها ، لأن في ذلك فائدة لجسم الكائن الحي ، وعلى سبيل المثال فإن عدسة العين والجلد والأظافر ، كل هذه تراكيب تتألف من أنسجة ميتة ولكن وجودها مهم لجسم الكائن الحي ، لذلك لا يتم إتلافها من الخلايا الميتة التي لا تزال ذات فائدة .

ما الذي جعل الخلية السليمة تستطيع أن تميز بهذا الشكل العجيب ؟ من الذي أوحى للخلية السليمة بأن ثمة خلية قد تلفت وأصبحت تشكل خطراً على الجسم ؟ من خلال ما تقدم يتضح لنا أن الخلايا الحية مبرمجة على أداء وظائفها الحياتية على أحسن صورة وهو ما يسمح باستمرار حياة الكائن الحي . ولكن من صاحب هذا النظام الخارق .

إن دعاة نظرية التطور لابد وأنهم مصابون بالعمى المزمن لأنهم لم يكفوا عن التأكيد بأن

المصادفة العمياء هي التي أودعت هذا النظام الخارق في الخلايا . ولكن الذي لا شك فيه أن الله تعالى بقدرته التي لا مثيل لها ، وبعلمه الذي لا حد له يتجلى بكل وضوح عند النظر في مخلوقات .

المصدر :

كتاب السلوك الذكي لدى الخلية تأليف هارون يحيى .

.

.

.

0-الخلايا الحية تؤدي رسالتها رسل تشارلز آرنست

تهيئ دراسة الخلايا الحية لنا خبرة عجيبة ، فإذا فحصت طرف وريقة صغيرة من وريقات العشب المائي الذي يسمى " الإيلوديا " تحت العدسة الكبرى للمجهر ، فسوف تلاحظ مظهراً من أكثر مظاهر الحياة انتظاماً وأروعها جمالاً .

فلكل خلية من خلاياها تركيب رائع ، ويبلغ سمك الورقة عند طرفها طبقتين من الخلايا .

وتستطيع أن تحرك قصبة المجهر رافعاً وخفضاً حتى نرى كل خلية من خلايا ها تين الطبقتين

على حدة ، وتدرك أنها وحدة قائمة بذاتها ، كما يلوح أن كل خلية من هذه الخلايا

الطبقيتين على حدة ، وتدرك أنها وحدة قائمة بذاتها ، كما يلوح أن كل خلية من هذه

الخلايا تستطيع أن تؤدي جميع وظائف الحياة مستقلة عن غيرها من الخلايا الأخرى

المشابهة لها . ويفصل الخلايا بعضها عن بعض جداران ثابتة متماسكة . وتتكون الورقة

من آلاف من هذه الخلايا المتراكمة التي تبدوا كأنها بنيان مرصوص .

صور حقيقة للكريات الحمراء بالمجهر الإلكتروني

أما النواة فترى بصعوبة على صورة جسم رمادي باهت تبرز فيه الفجوة العصارية التي

تشغل مركز الخلية . ويحيط بالنواة شريط من الحشوة (السيتوبلازم) الذي يحيط بالفجوة

. ويفصل الحشوة (السيتوبلازم) عن الجدار الخارجي للخلية غشاء رقيق ، لا نستطيع أن

نراه تحت الظروف المعتادة بسبب ضغط الفجوة العصارية عليه والتصاقه بالجدار . أما

فحصت الخلايا بعد أن تغمر الورقة فترة من الزمن في محلول مركز من ملح الطعام ، فإنه يسهل

مشاهدة هذا الغشاء ، لأن انغمار الورقة في محلول الملح بسبب فقدانها لعض الماء الذي

بفجوتها العصارية ، مما يترتب عليه انكماش محتويات الخلية وابتعاد الغشاء عن الجدار .

وعندئذ يقال للخلية إنها تبلزمت .

(136/433)

و في الخلية حركة وهي حركة لا يمكن أن ينبىء عنها ما يبدوا على ظاهر الورقة من السكون . ففي داخل شريط الحشوة (السيتوبلازم) الرقيق الذي أشرنا إليه ، أجسام دقيقة خضر تسمى البلاستيدات الخضر ، وهي لا تسبح في الحشوة (السيتوبلازم) أو تندفع داخله كما تندفع الحيوانات المجهرية الصغيرة داخل الماء , وإنما تتهادي كما تتهادى السفن الصغيرة يجرفها تيار الماء في بحر خضم .إنه الجبلة (البروتوبلازم) ذو التركيب المائي والحيوي الفياض ، هو الذي يتحرك . وهذا البروتوبلازم هو مركز الحركة والحياة في جميع الكائنات الحية .و تعتبر حركة الجبلة (البروتولازم) في خلايا نبات " الإيلوديا " مظهراً من مظاهر الحياة . أما القوة أو القوى التي تجعل هذه الجبلة (البرتوبلازم) يتحرك والتي ينشأ عنها هذا التيار المستمر فهي مالا تعرفه معرفة اليقين ومالا نستطيع أن نفسره في حدود معرفتنا الخالية تفسيراً صحيحاً . ولكننا نشاهد هذه الحركة البروتوبلازمية هنا وهنالك في عالم الأحياء من حيوان ونبات وتعرف هذه الظاهرة " تدفق الحشوة (السيتوبلازم)

وتعرف في نبات الإيلوديا بالذات بدوران الحشوة (السيتوبلازم) بسبب ما يشاهد من حركة البلاستيدات الخضر داخل خلاياها حركة دائرية مستمرة .

(137/433)

وإذا وضعت قطرة من ماء مزرعة حيوانات أولية تشتمل على الأميبيا فوق شريحة زجاجية دافئة ، ثم فحصتها بالمجهر ، فإنك تستطيع أن تشاهد ان الجبلة (البروتوبلازم) يتحرك حركة عجيبة ، فالأميبيا لا تسبح في الماء ولا تطفو على سطح قطرة الماء أو تندفع في جوفها ولكنها تتحرك كما لو كانت تنسكب أو تسيل . أما جسم الأميبا فهو كتلة عارية من البروتولازم يتحرك حركة عجيبة ، فالأميبيا لا تسبح في الماء ولا تطفو على سطح قطرة الماء أو تنطفع في جوفها ولكنها تتحرك كما لو كانت تنسكب أو تسيل . أما الأميبيا فهو كتلة عارية من البروتوبلازم وهو يختلف عن الخلية النباتية فأنه لا يحيط به من الخارج جدار صلب ، بل مجرد غشاء رقيق يحدد جسمه . كلما تحركت الجبلة (البروتوبلازم) في اتجاه من الاتجاهات ، أطاعه ذلك الغشاء وتحرك معه في نفس الاتجاه . وبذلك يتغير شكل الحيوان وتتكون له زوائد لا تلبث أن يتغير شكلها بعد قليل . وبهذه الطريقة يتحرك الحيوان وتتكون له زوائد لا تشبه الأقدام ، والتي تسمى بسبب ذلك " الأقدام الكاذبة " .

(138/433)

و من الممكن استخدام القوة المكبرة العظمى لمشاهدة الحشوة (السيتوبلازم) عند اندفاعه في الأقدام الكاذبة ،ولكي نشاهد أن جسم الحيوان يتكون من طبقتين من الجِبلة (البروتوبلازم) يختلفان في كثافتيهما . أما إحداهما فهي كتلة شفافة مائية دائمة الحركة ، وأما الأخرى فهي كتلة هلامية نصف صلبة تحيط بالطبقتين السابقة إحاطة تامة ، ويعتقد بعض العلماء ان الاختلاف في كثافة هاتين الطبقتين هو الذي يساعد على حدوث الحركة . فالطبقة الخارجية تضغط على الداخلية فتجعليها تندفع في اتجاه معين مكونة تلك الأقدام الكاذبة . ويعتقد آخرون أنه يمكن تفسير الحركة على أساس نظرية التوتر السطحي ، وهي نظرية يدرسها طلاب الجامعات عند بداية دراستهم للأحياء ،ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نبين لهم أسبابها . وحتى إذا سلمنا بالتفسير الأول لحركة الأميبيا فينبغي أن نعترف بأننا لا نعرف شيئاً عن عمليات التحول الغذائي التي تسببها هي الأخرى .

(139/433)

هذان طرازان من الخلايا يختلفان عن بعضهما اختلافاً كثيراً ، أحدهما من نبات أخضر والآخر فرد حيواني ، وكل منهما يتكون من خلية بسيطة . وتعرف الأمبيا بين علماء الحيوان بأنها أبسط الحيوانات تركيباً . والواقع أن حركة الجبلة البورتوبلازم فيها تعتبر أبسط أنواع الحركة في المملكة الحيوانية . أما الإيلوديا فبرغم أنها نبات زهري بسيط ، فإن خلاياها غير متخصصة أو متنوعة كما هو الشأن في كثير من النباتات الأخرى ، فهي على التحقيق خلايا بسيطة . ومع ذلك فإن كل خلية من هذه الخلايا ، إنما هي جهاز معقد ، يقوم بطريقته الخاصة بجميع الوظائف المعقدة الضرورية للحياة ، ومنها الحركة ومنها الحركة التي شاهدنا أحد مظاهرها . وتؤدي كل خلية من الخلايا وظائفها الحيوية العديدة بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقة في صناعة الساعات الدقيقة . وبمناسبة الحديث عن الساعات فقد توصل الإنسان إلى صناعة ساعات بالغة الدقة والروعة ، يستطيع بعضها أن يمتلىء بطرقة آلية عند ما يحرك الإنسان يده التي تحمل الساعة . ولا يمكن أن يتصور العقل البشري أن آلة دقيقة كالساعة قد وجدت بمحض المصادفة ، دون الاستعانة بالعقل المفكر واليد الماهرة ، أو أن تلك الساعة الأوتوماتيكية التي تدور من تلقاء نفسها قد صنعت نفسها أو أخذت تتحرك دون أن يبدأ أحد في تحريكها فإنه يستحيل علينا أن نفسر كل ذلك ما لم نسّلم ، عن طرق العقل والمنطق ، أن

وراء كل ذلك عقلاً وتدبيراً . هذا العقل وهذا التدبير وتلك القوة التي تعجز عنها المادة العاجزة عن التفكير والتدبير ليست إلا من مظاهر قوة الله وحكمته وتدبيره .

(140/433)

حقيقة أن هنالك بعض القوى والمؤثرات الخارجية الموجودة في البيئة والتي تؤثر في حركة الجبلة داخل الخلايا ، فبعض الباحثين يشير إلى درجة الحرارة ، وربما الضوء أو الضغط الأسموزي ، أو غير ذلك من المؤثرات التي تؤثر فعلاً في حركة البروتوبلازم دائبة لا تنقطع ، حتى عندما يزول أثر جميع هذه المؤثرات . ومعنى ذلك أن جانباً على الأقل من أسباب هذه الظاهرة يرجع إلى الجبلة ذاتها . فمن المحال إذن أن نفسر ظواهر الحياة على أنها مجرد استجابات لبعض المؤثرات الخارجية وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما نشطر خلية حية إلى نصفين بطريقة التشريح الدقيق بحيث تكون النواة في أحد القسمين دون الآخر ، فإن القسم الخالي من النواة يموت بعد قليل . وقد أخفقت جميع الجهود التي بذلت للاحتفاظ بها حياً . وعلى ذلك فإن النواة هي التي تنظم العمليات الحيوية في الخلية وتسيطر عليها ، فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة . وهكذا نرى أن خالق هذا الكون ومنظمه يعتبر ضرورياً لخلق الخلية والإنسان ، بل لخلق العقول المفكرة التي تبحث عن الحقيقة وعن

السبب الأول .

وأنا لا أريد أن أقول هنا إنني أومن بالله بسبب عجزي في الوقت الحاضر عن إدراك سبب ظاهرة الحركة في البروتوبلازم أو غيرها من الظواهر ، وأنا أعلم أن كثيراً من الناس يستخدمون هذا الأسلوب من أساليب المنطق ويقولون إذا كانت العلوم عاجزة عن التفسير فلابد من التسليم بوجود الله ، ولكنني أرفض هذا المنطق رفضاً باتاً وأقول إنه حتى عندما نكتشف الحقائق ويزول عنا ذلك الغموض يوماً من الأيام ونصير قادرين على فهم الخلية الحية بصورة أفضل ، فإننا لا نفعل أكثر من أن نتبع ونتدبر ما صنعه ودبره خالق ومدبر أكبر ،وهو الذي جعل هذا البروتوبلازم يتحرك في بادىء الأمر وهو الذي يجعله يتحرك ويؤدي كل وظائفه .

لقد وضعت نظريات عديدة ، لكي تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البورتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به

هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بخذلان وفشل ذريعين .

و مع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزيئات عن طرق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده . ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجاز وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق هذه الأشياء ودبرها .

إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها ،إن ملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شاهدة تقوم على الفكر والمنطق ،ولذلك فإنني أومن بوجود الله إيماناً راسخاً

(*) ـ إخصائي في علم الأحياء والنبا ـ حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة منيسوتا أستاذ في جامعة فرانكفورت بألمانيا ـ عضو الأكاديمية العلمية باندیانا ـ مؤلف لكثير من البحوث البيولوجية .

المصدر :

عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . . "جمعها : جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور

الدمرداش عبد المجيد سرحان الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة

.

.

.

0-منطق الإيمان جورج هربرت بلومنت

إنني أومن بالله ، بل وأكثر من ذلك، إنني أوكل إليه أمري ، ففكرة الألوهية بالنسبة إليّ ليست مجرد قضية فلسفية ، بل إن لها في نفسي قيمتها العلمية العظمى وإيماني بالله جزء من صميم حياتي اليومية .

و يختلف هذا اختلافاً كبيراً عما يذهب إليه كثير من المفكرين ،فهنالك عدد غير قليل من عمالقة الفكر استبعدوا فكرة وجود الله عن محيطهم وأقاموا من أنفسهم دعاة إلى الإلحاد ،وهذا يفرض علينا أن نوضح الأسباب التي تدعونا إلى الإيمان بالله ولدى محاولتي القيام بهذا الواجب، أحب أن أوضح بعض خواطري ، وأنا أناقش بعض النظريات الهامة

التي تدعو إلى الإيمان أو الإلحاد ،ولسوف تعيننا مناقشة هذه الآراء على الأسباب التي تدعو كل من يستخدم عقله إلى الإيمان بالله ،وأريد بعد ذلك أن أبين لماذا يؤمن الناس بالله .

لقد درس كثير من الباحثين الأسباب التي تجعل الناس يؤمنون إيماناً أعمى يقوم على التسليم لا على أساس المنطق والاقتناع ، وما يؤدي إليه هذا النوع من الإيمان من أفكار متناقضة حول صفات الله . وتدل الشواهد على أن هنالك نوعاً من الإجماع بين الفلاسفة والمفكرين على أن لهذا الكون إلهاً ، ولكن لا يوجد هنالك اتفاق على أن هذا الإله هو ذاته إله الكتب المقدسة . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن هنالك مطعناً في تلك الكتب ،أو أن ذلك الغموض يرجع إلى عدم وجود الأدلة الكافية فقد يكون العيب في المنظار ذاته الذي ترى به الحقائق، وعندئذ يؤدي ضبط المنظار إلى المزيد من الوضوح، ولكن حتى مع ذلك يبدوا أن الأدلة في حد ذاتها لا تعطي الحكم المطلق .

ولكي أبين القيمة الحقيقية للأدلة وما يعتبر من وجهة نظري الطريقة السليمة لاستخدامها ، أحب أن ألفت الأنظار إلى طريقة الاستدلال التي نستخدمها في علوم الرياضة .

فمن المعروف في علم الهندسة ، أننا نستطيع أن نبني كثيراً من النظريات على عدد قليل من البديهيات ، أو تلك الفروض التي نسلم بها ونقبلها دون مناقشة أو جدال حول صحتها ، فالعلماء يسلمون أولاً بالبديهيات ، ثم يتتبعون مقتضياتها أو النتائج التي تترتب عليها .

وعند إثبات أي نظرية نجد أن برهانها يعتمد في النهاية على مسلمات أو أمور بديهية ، ومع ذلك فإن النظريات مجتمعة لا تستطيع أن تقدم دليلاً على صحة بديهية من هذه البديهيات ،بمعرفة ما يترتب على استخدامها من الاتفاق أو تضارب مع التطبيقات العملية والحقائق المشاهدة .

ولا تعتبر صحة النظريات التي تقوم على الأخذ بهذه البديهيات ، ولا مجرد عدم مشاهدة آثار للتناقض بين هذه النظريات وبين الواقع والمشاهد ، دليلاً أو برهاناً كافياً على صحة البديهيات المستخدمة . فالواقع أننا نقبل البديهيات قبول تسليم وإيمان .

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أنه تسليم أعمى لا يقوم على البصيرة ، وكذلك الحال فيما يتعلق بوجوده تعالى أمر بديهي من الوجهة الفلسفية ، والاستدلال بالأشياء على وجود الله .كما في الإثبات الهندسي. لا يرمي إلى إثبات البديهيات، ولكنه يبدأ بها ، فإذا كان هنالك اتفاق بين هذه البديهية وبين ما نشاهده من حقائق هذا الكون ونظامه ، فإن ذلك يعد دليلاً على صحة البديهية التي اخترناها . وعلى ذلك فإن الاستدلال على وجود الله يقوم على أساس المطابقة بين ما نتوقعه إذا كان هنالك إله وبين الواقع الذي نشاهده .

والاستدلال بهذا المعنى ليس معناه ضعف الإيمان ،ولكنه طريقة لقبول البديهيات قبولاً يتسم باستخدام الفكر، ويقوم على أساس الاقتناع بدلاً من أن يكون تسليماً أعمى .

والأدلة أنواع: منها الأدلة الكونية، ومنها الأدلة التي تقوم على إدراك الحكمة، ثم الأدلة التي تكشف عنها الدراسات الإنسانية .

فالأدلة الكونية تقوم على أساس أن الكون متغير، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن يكون أبدياً ، ولابد من البحث عن حقيقة أبدية عليا .

أما الأدلة التي تبنى على إدراك الحكمة فتقوم على أساس أن هنالك غرضاً معيناً أو غاية وراء هذا الكون ،ولابد لذلك من حكيم أو مدبر . وتكمن الأدلة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية، فالشعور الإنساني في نفوس البشر إنما هو اتجاه إلى مشرع أعظم .

ولما كان اشتغالي بالعلوم ينحصر في التحليل الفيزيائي ،فإن الأدلة التي يتجه إليها تفكيري تعتبر من النوع الذي يبحث عن حكمة الخالق فيما خلق . ولاكتشاف القوانين التي تخضع لها الظواهر المختلفة، لابد من التسليم أولاً بأن هذا الكون أساسه النظام، ثم يتجه عمل الباحث نحو كشف هذا النظام .

ويبدأ عمله عند حل مشكلة من المشكلات بعمل نموذج أو تجربة تعينه على دراسة الظاهرة التي يدرسها ،وليس النموذج أو التجربة إلا محاولة لاختبار صحة فرض من الفروض . ويجب أن يكون هذا الفرض بسيطاً مع مطابقته للواقع ، ثم يدور البحث حول النموذج أو التجربة لمعرفة العوامل التي تؤثر في الظاهرة التي هي موضع البحث ، فإذا كانت النتائج مؤيدة للفرض الذي بدأ به ، فإنه يعده صحيحاً لأن ما ينطبق على هذا النموذج ينطبق أيضاً على سواه ، مما يدل على تسليمنا بأن هنالك نظاماً يُسود هذا الكون .

ولا يمكن أن يتصور العقل أن هذا النظام قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم أو من الفوضى ، وعلى ذلك فإن الإنسان المفكر لابد أن يصل ويسلم بوجود إله منظم لهذا الكون ،وعندئذ تصير فكرة الألوهية إحدى بديهيات الحياة ، بل الحقيقة العظمى التي تظهر في هذا الكون والمطابقة بين الفرض والنتيجة تعد برهاناً على صحة الفرض . والمنطق الذي نستخدمه هنا هو أنه إذا كان هنالك إله فلابد أن يكون هنالك نظام . وعلى ذلك فإذا كان هناك نظام فلابد من وجود إله .

ويلاحظ أن للملحدين منطقهم منطق سلبي ، فهم يقولون إن وجود الله يستدل عليه بشواهد معينة وليس ببراهين قاطعة ، وهذا من وجهة نظرهم يعني عدم وجوده تعالى . إنهم يردون على الأدلة الكونية بقولهم : إن المادة والطاقة يتحول كل منها إلى الآخر بحيث يمكن أن يكون الكون بذلك أبدياً . كما أنهم ينكرون النظام في الكون، يرونه مجرد وهم ، وهكذا ينكرون الشعور النفسي بالعدالة والاتجاه نحو موجّه أعظم ، ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الله ، ومن منطقهم : أن الأدلة المقدمة لإثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم .

وهنالك فئة أخرى من الملحدين لا يعترفون بإله لهذا الكون لأنهم لا يرونه ، ولكنهم لا ينفون وجود إله أو عالم آخر غير هذا الكون . ولا شك أن هذا موقف مائع متضارب لا يستند إلى أساس سليم .

فإذا قارنا الشواهد التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله، وتلك التي تستند إليها الملحدون في إنكار ذاته العلية ، لأتضح لنا أن وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن ، وبعبارة أخرى نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة . أما الملحد فيقيم إلحاده على العمى .

وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل وأن العقل يدعو إلى الإيمان . وإذا كان الإنسان يعجز أحياناً عن مشاهدة الأدلة ، فقد يكون ذلك راجعاً إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه .

ومجرد الاقتناع بوجود الله ، لا يجعل الإنسان مؤمناً ، فبعض الناس يخشون من القيود التي يفرضها الاعتراف بوجود الله على حريتهم . وليس هذا الخوف قائماً على غير أساس ، فإننا نشاهد أن كثيراً من المذاهب المسيحية ، حتى تلك التي تعتبر مذاهب عظمى . تفرض نوعاً من الدكتاتورية على العقول . وشك في أن هذه الدكتاتورية الفكرية إنما هي من صنع الإنسان وليست بالأمر اللازم في الدين ، فالإنجيل مثلاً يسمح بالحرية الفكرية حينما يقول : " قال الرب أقبل علينا ودعنا نفكر معاً " .

فماذا يدعو الإنسان إذن إلى الإيمان الحقيقي والاعتراف بوجود الله ؟ إنه نفس الشيء الذي يدعوه إلى الاعتراف بوجود صديقه ، وعلى ذلك فإن الإيمان يحدث عندما يتجه الإنسان إلى ربه ويرجع إليه .

وأعتقد أنني آمنت بالله بهذه الطريقة ، كما أعتقد أن الإيمان بالله يقوم على أساس المنطق والاقتناع ، ولكن هذا يعتبر أمرا ثانويا بالنسبة للأمر الأول : لقد اتجهت إلى الله وحصلت على خبرة شخصية محض لا أستطيع أن أقدمها إليك . فإذا كنت في شك من أمره تعالى فإليك الحل : " اتجه إليه وسوف تجده " . قال تعالى في القرآن الكريم ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (69) سورة العنكبوت

(*) .أستاذ الفيزياء التطبيقية حاصل على درجة الماجستير من معهد كاليفورنيا

التكنولوج. كبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا .

عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . . "بقلم : جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور

الدمرداش عبد المجيد سرحان الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة .

.

.

.

0–معجزة التكاثر عند الضفادع

بقلم الداعية هارون يحيى

الكثير منا يعتقد إن الضفادع تتكاثر عن طريق فقس البيض وتطور " الشرغوف " . مع

ذلك يوجد العديد من الطرق الأخرى لتكاثر الضفادع، منها ما يثير الكثير من الدهشة .

تحمل الضفادع صفات تساعدها على البقاء في مختلف البيئات . لذلك يمكنها أن تعيش في أي مكان على الأرض ما عدا القارة القطبية . تتواجد الضفادع مثلاً في الصحارى والغابات والسهول وجبال الهيمالايا والآنديز والارتفاعات التي قد تصل إلى 5000 متراً، إلا أن المناطق المدارية هي أكثر المناطق ازدحاماً بالضفادع، ففي الغابات المطيرة تزدحم الضفادع حيث يمكنك أن تجد 40 نوعاً منها في كل مترين مربعينفي بعض الأنواع يهتم الذكور فقط بالعناية بالبيوض، بينما يتشارك الزوجان في أنواع أخرى بهذه المهمة أو تقوم بها الأم لوحدها . على سبيل المثال : تبقى ذكور الضفادع في كوستريكا تراقب البيوض لمدة تتراوح ما بين 10.12 يوماً إلى أن تفقس، وبعد مجهودات جبارة تتسلق الشراغيف ظهور الأمهات وتلتصق بها حتى تبدوان وكأنهما لحمة واحدة، بعد ذلك تتسلق الأم شجرة في الغابة تحمل أزهاراً تشبه الكأس وبتلاتها تتجه نحو السماء وتكون مملوءة بالماء، تضع الأم صغارها في هذه الزهرة وتتركها لتنمو بأمان .

وبما أن هذه المياه لا تحتوي على غذاء تضع الأم بيوضاً غير ملقحة من اجل تغذية صغارها وتتغذى الشراغيف على هذه البيوض المليئة بالبروتينات والكربوهيدرات[1] .

الضفدع المجالد هو نوع آخر من الضفادع التي تحرس المنطقة التي تحتوي على البيوض . تحمل ذكور هذا النوع أشواكها تحت أصابعها لتخدش فيها أي دخيل غريب .

يبني الذكر الإفريقي الصغير (Nectophyrne afra) بيته خارج الطين الممتلئ بالماء على شواطئ البحيرات أو الأنهار الضحلة التي تلتصق بها البيوض. بهذه الطريقة تبقى الضفادع على سطح الماء لتتنفس الأوكسجين. وقد تؤدي حركة صغيرة من ضفدع آخر أو لمسة من يعسوب يمر قريباً إلى تدمير هذه المنظومة من البيوض وإرسالها إلى القاع حيث تبقى لتموت دون أكسجين. يقوم ذكر الضفدع بحراسة البيوض، وأثناء فترة الحراسة هذه يقوم بضرب الماء بساقه ليزيد من كمية الأوكسجين الداخلية إلى البيضة عبر غشائها. إلا أن نوعاً آخر من الضفادع، وهو الضفدع الزجاجي، لا يقوم بحراسة البيوض، فقد ألهمه الله طريقة أخرى لذلك. تضع هذه الضفادع بيوضها على صخور ونباتات البحيرات أو الأنهار المدارية وعندما تفقس البيوض تنزل الشراغيف إلى الماء.

تدحض هذه النماذج من السلوك الواعي والغيري لأنواع الضفادع المختلفة التي تدافع بوسائل مختلفة عن صغارها المزاعم الداروينية التي تقوم على أساس أن جميع المخلوقات تعيش في صراع أناني من

يعيش ضفدع سهم الليل في كوستاريكا تعتني الذكور بالبيوض حتى تفقس ثم تبدأ الشراغيب بتسلق ظهور أمهاتها بمحاولات مدهشة

أجل البقاء . إن السلوك الغيري لضفدع واحد في رعايته ودفاعه عن صغاره كاف لنسف هذه المفهوم من أساسه . علاوة على أن السلوك الذكي لهذه المخلوقات يبطل نظرية الوجود المصادفي التي قام عليها داروين . تقف هذه المخلوقات شواهد على أن الله قد خلق الكائنات الحية ووضع فيها الغريزة التي تضمن لها حياة مثالية . يقول الله تعالى لنا في كتابه الكريم ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : 4] .

ضفادع تتكاثر في المعدة :

آية أخرى من آيات الخلق المعجز طريقة تكاثر عجيبة ينتهجها نوع من الضفادع يطلق عليه " ريوباتراخوس سيلوس " (Rheobatrachus silus) .

تبتلع هذه الضفادع بيوضها بعد الإخصاب، ولكن ليس لتأكلها بل لتحميها . تفقس في المعدة وتبقى هناك لمدة ستة أسابيع بعد الفقس . ولكن كيف تبقى هناك دون أن تهضم ؟ أي : إن المعدة تبقى مخصصة طول هذه الفترة للشراغيف فقط ولكن هناك خطر آخر يتهددها : إنه حمض الهيدروكلوريك والببسين، هاتان المادتان كافيتان لقتل الصغار، ولكن هذا لا يحدث، لأن الأمور محسوبة وضمن معايير خاصة . فالسوائل الموجودة في

معدة الأم تتم محايدتها عن طريق مادة أخرى تشبه الهرمون وتدعى بروستاغلاندين 2 prostaglandin E تفرزها كبسولات البيوض من جهة والشراغيف من جهة أخرى. وهكذا ينمو الصغار بصحة جيدة على الرغم من أنها تسبح في بركة حمضية. السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تتغذى الشراغيف في معدة فارغة؟ هذه أيضاً مسألة محلولة. إن بيوض هذه الأنواع أكبر من غيرها بشكل ملحوظ، لأنها تحتوي على صفار غني بالبروتين، يكفي لتغذية الصغار لمدة ستة أسابيع.

والآن حان وقت الولادة، يتمدد المري خلال الوضع تماماً كما يتمدد الرحم عند الثديات وعندما تخرج الصغار يعود كل من المري والمعدة إلى الحالة الطبيعية وتبدأ الأنثى بتناول طعامها [2].

ينسف نظام التكاثر لدى هذا النوع من الضفادع المزاعم التطورية من أساسها، لأنه نظام معقد ومترابط. كل خطوة من هذه العملية مرتبط بعناية لتضمن حياة هذا الشرغوف. يجب أن تبتلع الأم البيوض أولاً وأن تتوقف عن تناول الطعام لمدة ستة أسابيع، بينما يتحتم على البيوض أن تفرز مادة هرمونية لتعدل الوسط الحامضي للمعدة. أما البروتين الإضافي الذي يقدمه صفار البيضة فهو ضرورة أخرى. لا يمكن أن يتوسع مري الأنثى عن طريق المصادفة لتضع صغارها. إن أي خلل مهما كان صغيراً في هذه السلسلة من الأحداث كفيل بإهلاك الصغير واستمرار هذا الخلل يعني انقراض النوع.

لهذا السبب لا يمكن أن تكون نظرية " الخطوة خطوة " ممكنة التطبيق على هذا النوع من الضفادع . لقد خلق أول ضفدع من نوع رهوبا توشوس (Rheobatrachus silus) بكامل مقوماته وصفاته من اللحظة الأولى . إن كل المخلوقات التي عرضناها حتى الآن تبرهن على الحقيقة ذاتها : تصميم معجز يشمل الطبيعة بكامل أركانها . لقد خلق الله المخلوقات على جانب من التعقيد الذي لا يمكن تفكيكه، إنه العلم المطلق والقدرة الإلهية اللامتناهية :

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ 24 ﴾ [سورة الحشر] .

المصدر : كتاب التصميم في الطبيعة تأليف هارون يحيى بتصرف .

[1] "Poison Dart Frogs – Lurid and Lethal", National Geographic, May 1995, pp.

[2] Reproductive Strategies of Frogs, William E. Duellman, Scientific American,

.

.

.

0-تصميم النظام الميكانيكي للمخلوقات

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

غالباً ما يكون تصميم الأنظمة المتحركة أكثر تحدياً للمصممين من الأنظمة البنيوية الثابتة .

على سبيل المثال : تكون المشاكل التي تظهر في المثقب اليدوي أكبر بكثير من تلك التي يمكن أن تنتج عن الإبريق، ذلك لأن الأولى تعمل على أساس ميكانيكي، بينما يقوم الثاني على مبدأ الشكل الفيزيائي، والتصاميم العلمية تميل لأن تكون أكثر تعقيداً . يمكن أن يؤدي كل عنصر من عناصر التصميم هدفاً معيناً . إذ يؤدي غياب أو تعطل أي منها إلى عجز النظام عن العمل في عنصر واحد يجعل النظام عديم الفائدة .

نهاية هذه التصاميم التي تتجلى فيها الأخطاء هو الفشل . تحمل الأنظمة التي يصممها الإنسان أخطاء أكبر بكثير مما يمكن تصديقه، لأن معظم هذه التصاميم أنجزت عن طريق التجربة والخطأ، على الرغم من أن بعض الأعطال يمكن تجنبها في الطور البدائي الذي يسبق إدخال المنتج إلى الأسواق، إلا أن يبقى من المستحيل تلافي جميع الأخطاء .

ولكن هذه المحاكمة لا تنطبق على الأنظمة الميكانيكية في الطبيعة، فجميع الأنظمة الميكانيكية في الطبيعة ترقى إلى درجة الكمال . خلق الله عز وجل جميع المخلوقات بإتقان محكم . يمكننا أن نطلع على بعض نماذج الخلق المطلق من خلال الأمثلة التالية :

جمجمة نقار الخشب :

يتغذى نقار الخشب على الحشرات واليرقات التي تختفي في جذوع الأشجار ويستخرجها عن طريق النقر . تقوم هذه الطيور بحفر أعشاشها في الأشجار الصحيحة بمهارة تضاهي مهارة أعظم فناني الحفر .

يستطيع نقار الخشب المرقش أن ينقر ما بين تسع إلى عشر نقرات في الثانية الواحدة، ويزداد هذا العدد ليصل إلى ما بين 15 . 20 عند الأنواع الأصغر حجماً ومنها نقار الخشب الأخضر .

يتعرض نقار الخشب أثناء نقره للشجر بمنقاره العلوي إلى صدمة كبيرة، ومع ذلك توجد

لديه آليتان لامتصاص هذه الصدمة الأولى : هي الأنسجة الليفية الواصلة بين الجمجمة والمنقار والتي تخفف من حدة الصدمة والثانية : هي لسان الطائر يدور اللسان داخل الجمجمة ليتصل مع مقدمة الطائر . تشبه الميكانيكية التي تعمل وفقها عضلة اللسان المقلاع وهو يساهم في تخفيف الصدمة الناتجة عن كل نقرة وهكذا تتناقص الصدمة (التي تمتصها الخلايا الإسفنجية) إلى أن تتلاشى في النهاية .

(152/433)

عندما يقوم نقار الخشب الأخضر بحفر عشه، فإن سرعة عمله تصل إلى 100 كم /سا هذه السرعة لا تؤثر على دماغه الذي يبلغ حجمه حبة الكرز . أما الزمن الفاصل بين النقرة والأخرى فهو أقل من 1/1000 من الثانية . عندما يبدأ الطائر في النقر ينتظم الرأس والمنقار في خط مستقيم تماماً ، فأي انحراف بسيط سيؤدي إلى تمزق في الدماغ .

إن الصدمة التي تنتج عن هذه الطرقات المتالية لا تختلف عن تلك التي يسببها ضرب الرأس في حائط إسمنتي، إلا أن التصميم المعجز لدماغ نقار الخشب يجنبه التعرض لأي نوع من الإصابة .

تتصل عظام الجمجمة عند معظم الطيور ببعضها ويعمل المنقار مع حركة الفك السفلي .

إلا أن منقار وجمجمة طائر نقار الخشب منفصلان عن بعضهما بأنسجة إسفنجية تمتص الصدمات الناتجة عن عملية النقر . وتؤدي هذه المادة المرنة عملها بشكل أفضل من ماص الصدمات في السيارات . إن جودة هذه المادة تأتي من قدرتها على امتصاص الصدمات المتتالية بفواصل قصيرة جداً واستعادتها لحالتها الطبيعية على الفور وهي تفوق بجودتها المواد التي أفرزتها التكنولوجيا الحديثة بأشواط .

تكتمل هذه العملية حتى في حالات أداء الطائر عشر طرقات في الثانية . إن فصل المنقار عن الجمجمة بهذه الطريقة الخارقة تسمح للحجرة التي تحمل دماغ الطائر بالحركة بعيداً عن المنقار العلوي أثناء عملية النقر ، وهكذا تكون وتتشكل آلية ثانية في امتصاص الصدمات . [1]

البرغوث : التصميم المثالي للقفز العالي :

يستطيع البرغوث أن يحقق قفزة تصل إلى 100 ضعف ارتفاعه عن الأرض، أي ما يساوي 200 متراً من القفز العالي الذي يقوم به الإنسان . علاوة على ذلك يمكنه أن يستمر في القفز دون توقف لمدة 78 ساعة . بشكل عام لا يسقط البرغوث على ساقيه بعد القفزة الخامسة، بل يهبط إما على رأسه أو على ظهره، ومع ذلك فهو لا يصاب بالدوار ولا يلحق به أي أذى بسبب تصميم جسمه الفريد .

لا يتوضع الهيكل العظمي لهذه الحشرة داخل جسمها . يتألف هذا الهيكل من طبقة صلبة من مركب يطلق عليه اسم " السكليروتين " الذي يغلف كامل الجسم ويتصل بالكيتين. يتكون هذا الهيكل الخارجي من شرائح مسلحة كثيرة جداً ومحدودة الحركة، ولكنها تمتص الصدمات وتبطل الصدمة الناتجة عن القفز .

لا يوجد في جسم البرغوث أي أوعية دموية بل يسبح جسمه الداخلي بسائل دموي صافي يبطن الأعضاء الداخلية ويحفظها من ضغط القفزات المفاجئ .

تتم تقنية الدم من خلال الثقوب الهوائي المنتشر في أنحاء الجسم، وهذا يغني عن الحاجة إلى مضخة ضخمة تقوم بضخ الأوكسجين بشكل متواصل . صمم قلب هذه الحشرات على شكل أنبوب، معدل نبضاته بطيء بحيث لا تؤثر عليه القفزات السريعة على الإطلاق .

مخلوق آخر مدهش مثل البرغوث وهو نوع من الحشرات الدقيقة التي تعيش على البرغوث هذه الحشرة المجهرية المدهشة تعيش تحت الصفيحات التي تغطي جسم البرغوث

اكتشف العلماء أن عضلات ساق البرغوث ليست بالقوة التي تتطلبها القفزات التي تقوم بأدائها ، إلا أن هذا الأداء المدهش يقوم به البرغوث بمساعدة نوع من النظام النابض الذي

أضيف إلى سيقانه . وهذا النظام يعمل بفضل البروتين الذي يطلق عليه resilin إذ يخزن البرغوث الطاقة الميكانيكية . الخاصية البارزة لهذه المادة هي قدرتها على تحرير 97% من الطاقة المختزنة بداخلها عند التمدد ، بينما لا تتعدى النسبة التي تغطيها المواد المرنة الموجودة في الأسواق اليوم تصل إلى 85% كحد أقصى . تتوضع هذه المادة المرنة في وسائد دقيقة جداً موجودة في سيقان الحشرة الخلفية . يستغرق البرغوث بضعة أعشار الثانية ليضغط هذه المادة أثناء طيه لسيقانه في المرحلة التحضيرية للقفزة . تحتفظ البنية الشبيهة بالمزلاج بالساق مطوية إلى أن تسترخي العضلة .

تسمح البنية النابضية بتحرير القوة المطلوبة للقفزة من خلال الطاقة المختزنة في مادة الريزيلين التي تترجم إلى قفزات عظيمة .

(154/433)

سوسة البلوط وآلية الثقب :

تعيش سوسة البلوط على ثمرة شجرة البلوط . تحمل هذه الحشرة خرطوماً طويلاً في رأسها أطول من جسمها ، وفي نهاية هذا الخرطوم يوجد منشار صغير حاد يشبه الأسنان .

في أحيان أخرى تحمل الحشرة هذا الخرطوم بشكل أفقي مستقيم مع جسمها حتى لا تتعثر أثناء سيرها . عندما تقع الحشرة على ثمرة البلوط توجه خرطومها باتجاهها لتصبح أشبه بآلة الثقب، ثم تضع أسنانها الشبيهة بالمنشار الموجودة في أعلى الخرطوم على الثمرة . تبدأ الحشرة بنقل رأسها من جانب إلى آخر، مما يعني إعمال المنشار الذي يحمله خرطومها المتحرك مع رأسها .

صمم رأس هذه الحشرة بما يتوافق تماماً مع هذه الآلية فهو يتمتع بمستوى مدهش من المرونة .

تقوم الحشرة أثناء ثقب الثمرة بالتهام محتواها ، وهكذا تخزن البروتين اللازم لذريتها . بعد الانتهاء من عملية الثقب تضع السوسة بيضة واحدة على الثمرة تسقطها في الحفرة التي صنعتها لها . تصبح البيضة يرقة داخل الثمرة وتبدأ بالتهامها . وكلما التهمت اليرقة من الثمرة أكثر كلما كبرت، وكلما كبرت كلما أزداد التهامها .

تستمر هذه العملية إلى أن تسقط البلوطة في النهاية من الغصن، وهذه هي العلامة التي تفهم منها اليرقة أنه أصبح بإمكانها مغادرة الثمرة. تقوم هذه اليرقة بتوسيع الفتحة التي صنعتها لها أمها عن طريق أسنانها القوية، ثم تغادر اليرقة السمينة الثمرة بقوة كبيرة . والآن أصبح هدفها حفر نفق تحت الأرض بعمق يتراوح ما بين 25 . 30 سم هناك تخدر الحشرة وتبقى لمدة خمسة سنوات تحت الأرض، وعندما تصبح سوسة فتية تخرج إلى شجرة

البلوط وتعمل منشارها من جديد . يعتمد الوقت الذي تمضيه في مرحلة الخدر على نمو البلوط الجديد على الشجرة .

(155/433)

مرة أخرى تظهر لنا معجزة الله في خلقه المحكم من خلال دورة حياة هذه الحشرة، وبطلان ادعاءات نظرية التطور البالية . إن كل نظام أو جهاز تعمل به الحشرة هو نتيجة لتخطيط محكم : الخرطوم الثاقب ، الأسنان القاطعة والرأس المرن الذي يساعد في عملية الثقب ، كل هذا لا يمكن تفسيره على ضوء المصادفة أو "الاصطفاء الطبيعي" .

لو لم يستخدم الخرطوم في عملية الثقب ، فلن يكون أكثر من عبء ثقيل وعضو لا فائدة منه ، مما يؤكد عدمية افتراض التطور " مرحلة إثر مرحلة " .

من جهة أخرى ، تبدو أعضاء اليرقة "كبنية معقدة" في هذه العملية ، يجب أن تمتلك اليرقة أسناناً قوية لتشق طريقها في ثمرة البلوط ، عليها أن تغوص عميقاً في الأرض وتنتظر في مقرها الجديد متذرعة بالصبر

إذا لم تمض السوسة مع هذه الدورة الحياتية فلن تعيش طويلاً وستنقرض في النهاية . كل هذا لا يمكن أن يأتي عن طريق المصادفة بل هو من صنع خالق حكيم خبير .

الله خالق هذه الحشرة بهذا الإعجاز وهو الخالق لكل شيء .

قال تعالى : (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) [سورة الأنعام] .

المصدر : كتاب التصميم في الطبيعة تأليف هارون يحيى

[1] Alexander I. Oparin, Origin of Life, (1936)

New York, Dover Publications 1953 (Reprint) ,

p.196

.

.

.

0–الفرمونات وفياجرا الحشرات

الدكتور نظمي خليل أبو العطا

من أكثر من عشر سنوات كتبت موضوعاً عن الفرمونات الحشرية Pheromones , ووزعت ورقة العمل الخاصة بذلك على المتدربين , وفجأة وجدت كل واحد منهم يخرج قلمه ويعدل كلمة الفرمونات إلى الهرمونات فسألتهم لماذا فعلتم ذلك ؟ فقالوا ظنناها خطأً طباعياً , فقلت لهم ألم تقرءوا المصطلح الافرنجي Pheromones قالوا عدلناه أيضاً ليصبح Hormones , حمدت الله ساعتها أنني اخترت هذا الموضوع للحديث عنه وطباعة ورقة إثرائية فيه لتوزيعها على الدارسين .

واليوم راودتني نفسي أن أضع نفس الموضوع ضمن موضوعات الاعجاز العلمي التي أكتبها للشباب ولغير المختصين, فأحضرت المصادر وبدأت في مراجعة الموضوع من جديد , وبعد مدة وجدت عنوان المقال يقفز إلى بؤرة شعوري, الفرمونات Pheromones وفيا جراء الحشرات, لأن العمل الرئيس للفرمونات هو الإثارة الجنسية, والجذب الجنسي, والمساعدة على المسافدة للحشرات منتجة الفرمونات .

وقد كنت قرأت كتاباً من عشرات السنين أن الانسان كائن كيميائي يحب بالكيمياء , ويضحك بالكيمياء , ويغضب بالكيمياء , ويهدأ بالكيمياء , وتتم جميع عملياته الحيوية بالكيمياء , وقد أصبحت هذه حقيقة علمية يعلمها القاصي والداني . فالجهاز العصبي في الانسان يعمل بالمواد الكيميائية الناقلة للسيالات العصبية, وفي الجسم البشري نوع من التكامل العصبي ونوع من التكامل الكيميائي, ويجب أن نتذكر أن التكامل العصبي

الكيميائي في تفاعل مستمر لكي يتحقق التكامل العضوي الفسيولوجي العام وثبات البيئة العضوية الداخلية, فالجهاز الغدي يتلقى التأثير من الجهاز العصبي كما أنه يؤثر فيه بدوره لدرجة أن بعض العلماء يضعون الغدد الصماء كأحد مكونات الجهاز العصبي .

ففي حالات التوتر الانفعالي يحدث التنبيه الكيميائي الاستجابة نفسها التي يحدثها التنبيه العصبي, فيتضاعف أثر التنبيهين في صورة دائرية (1) .

وتتحكم الكيمياء في النبات, فالهرمونات النباتية تجعل الجذر يتجه نحو الأرض والماء, والساق تتجه نحو الضوء والهواء, وهرمون الإزهار يجعل النبات يزهر, وهرمون التسقيط يسقط الأوراق والثمار (2) . وانتاج الثمار والبذور, وإنتاج ثمار بدون بذور, وتحسين جنس الزهرة, وكمون البذور وانباتها, واستطالة الخلايا والنبات, وإنتاج الجذور والأزهار, وتأخير الشيخوخة في النبات ونضج الثمار كلها تأثيرات هرمونية .

ونفس الشيء مع الحيوان ومنها الحشرات, وقد زود الله الحشرات بمنتجات ومستقبلات ومثيرات كيميائية والتي تسمى بالفرمونات سابقة بذلك مكتشفي الفياجرا البشرية التي هلل لها الناس وكأنهم وجدوا ما يسعد الانسان ويجعله يعيش في رضا وأمان, وإن كنا

لاننكر أهمية الدواء في علاج المرضى والضعفاء .

وتعمل الفرمونات في عدد كبير من الحشرات على جذب أفراد الجنسين لبعضهم وتسمى هذه الفرمونات بالجاذبات الجنسية .

وتتكون الغدد المنتجة للفرمونات بواسطة الاناث (لجذب الذكور) في الحلقات الأخيرة للبطن أو سحب الحلقات البطنية وإدخالها ببعض أو فردها , وتنطلق الفرمونات في أوقات محدده من اليوم وهذا ما يميز كل نوع من الحشرات فكل نوع من الحشرات ينتج فرمونات تجذب إليه الحشرات من نفس النوع (3) .

والرائحة التي تستقبل على المستقبلات الشمية الموجودة على قرون الاستشعار في ذكور العديد من الحشرات لها أهميتها حيث أن هذه الذكور التي تنجذب إلى الرائحة تكون حساسة جداً , وتنبه الأعضاء الحسية المتصلة بقرن الاستشعار بواسطة الرائحة المفرزة من الأنثى له نظام مميز من العصب القرني الشعري حتى في التركيزات متناهية الصغر, وتأثير الرائحة هي عملية إثارة للذكر وتحفيزه على الاقلاع والانجذاب نحو الأنثى, وفي بعض الأحيان تصل هذه الرائحة وعملية الجذب للذكر على بعد (11) كم .

وبذلك تقوم الفرمونات بعملية إثارة للطرف الآخر, وتنبيهه إلى مكان رفيقه ودفعه للقيام بعملية التزاوج والتلقيح لاستمرار النوع والحياة, وهي تجعل أعضاء التكاثر الذكرية صالحة لإتمام هذه العملية كما تفعل الفياجرا في الأعضاء البشرية .

وتستخدم الفرمونات في النمل لرسم طريق سير المجموعة المستمر غير المتقطع, كما تستخدم في بيان مسار ملكة النحل أثناء التلقيح وجذب الذكور نحو الملكة .

وإذا قمنا بوضع هذه المواد في طريق آخر فإن الحشرات تتشتت, وإذا قمت بقتل النمل ورسم خط سير آخر بالنمل المقتول فإن المجموعة تتشتت وتضل الطريق لوجود الطريق الجديد .

من هنا نفهم أهمية الكيمياء في حياة الكائنات الحية وفي تحديد سلوك تلك الكائنات, فسبحان من خلق تلك الكائنات وزودها بتلك المركبات ذات التركيب المميز والدقيق والمتخصص لكل نوع من الحشرات, وجعل لها المستقبلات والمستجيبات ولذلك نقول كما قال الله تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين) لقمان 11 .

(1) - علم النفس الفسيولوجي , أحمد عكاشة , القاهرة : دار المعارف (ص123) .

(2) - انظر كتاب الهرمونات النباتية والتطبيقات الزراعية , الشحات نصر أبوزيد ,

القاهرة: مكتبة مدبولي

(3) -الحشرات (التركيب والوظيفة) ر.ف. شابمان (مترجم). القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع (1987م) الجزء الثاني (ص 422).

.

.

.

0-الاحتكام إلى العقل

(159/433)

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: 164).

يقول كارل شتيرن: (جامعة مونتريال) وهو عالم نفس[1].

"الاعتقاد بأن كوننا المدهش تطور بصدفة عمياء هو جنون، ولا أقصد بكلمة جنون معناها العامي بل الأغلب هو المعنى التقني المستخدم في التحليل النفسي .

وفي الحقيقة فإن مثل ذلك الاعتقاد مصحوب بمظاهر التفكير الفصامي " .

إن " مبدأ الأنتروبي " أي العشوائية والذي يقول" بأن جميع الأنظمة في الكون إذا تركت للظروف الطبيعية فإنها مع الزمن سوف تدخل في حالة من الفوضى وعدم الانتظام . "

هذا القانون كسب قبولاً واسعاً في دنيا العلم، وكما أشرنا عندئذ فإن ذلك المبدأ يقتضي بأن يكون خليطاً من المادة المشوشة عشوائياً ، وكان ذلك على النقيض في أن الكون أتى من تصميم دقيق متأن كي يخدم الإنسان ويكون مأوى له .

فالدليل الموضح أن مبدأ الأنتروبية هو صحيح حقيقة حيث يمتد مجال هذا الدليل من السرعة التي كان يتطور بها الكون منذ الانفجار العظيم إلى التوازنات الفيزيائية للذرات، أي من الشدة النسبية للقوى الأربع الأساسية إلى كيمياء النجوم، ومن الأسرار الغامضة لأبعاد الفضاء إلى نموذج النظام الشمسي في نسقه وطريقة ترتيبه، ونحن أينما نظرنا وجدنا أن ترتيباً غير عادي يكمن في تركيب الكون، كما رأينا التركيبية والتوسعية للكون الذي نعيش

فيه وكيف ضبطتا بما فيها جوه كي نحيا فيه، وشاهدنا كيف يردنا الضوء من الشمس والماء الذي نشربه والذرات التي تصنع أجسامنا وكذلك الهواء الذي نستنشقه وندخله لرئتينا ، وكل هذا يتلاءم بدرجة مذهلة مع الحياة .

باختصار عندما نرى أن أي شيء في الكون فمعنى ذلك أننا نواجه تصميماً غير عادي غرضه تعزيز حياة الإنسان ودعمها ، وأن إنكار حقيقة هذا التصميم يكون تجاوزاً وارتداداً عن حدود العقل كما صرح بذلك العالم النفسي (كارل شتيرن) .

إن مضامين هذا التصميم واضحة جداً ، ومع ذلك يختفي هذا التصميم ويحتجب داخل كل جزء من أجزاء هذا الكون مهما كان دقيقاً ، كما أن قدرته وحكمته لا نهائيتان، وكما وضحت نظرية الانفجار العظيم أن هذا الخالق خلق الكون كله من العدم، وهذا الاستنتاج الذي توصل له العلم الحديث هو حقيقة نقلها لنا القرآن ووضحها :

قال تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف : 54) .

دون مفاجأة يتضح أن اكتشاف هذه الحقيقة من قبل العلم أزعج تماماً بعض العلماء وما زال يفعل ذلك، وهؤلاء العلماء هو الذين يوازنون بين العلم والمادية، وهم أناس اقتنعوا أن العلم والدين لا يمكن أن يسيرا معاً ، ومعنى أن تكون علمياً فهذا مرادف من وجهة نظرهم لأن تكون ملحداً ، فهم تدربوا على الاعتقاد أن الكون وكل الحياة فيها يمكن تفسيره كنتيجة أو محصلة لحوادث تقع بالصدفة، وأنها مجرد كلياً عن أية نية أو قصد في التصميم أو التخطيط، وعندما يواجه مثل هؤلاء بالحقيقة الواضحة للخلق فيكون ارتباكهم ورعبهم أمراً طبيعياً متوقعاً .

ولكي نفهم ذعر الماديين يجب أن نلقي نظرة مختصرة على مسألة أصل الحياة .

أصل الحياة :

الذي تستطيع قوله في مسألة أصل الحياة هو أن نطرح السؤال التالي :

كيف أتت أول الكائنات التي وجدت على الأرض ؟

لقد كان هذا السؤال أحد أكبر المعضلات الشائكة التي واجهت الماديين في القرن الأخير إلى غاية منتصف القرن العشرين . . لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا . السبب هو أن الخلية الحية الواحدة والتي تعتبر أصغر وحدة للحياة على درجة من التعقيد لا يمكن مقارنتها بأعظم الإنجازات البشرية وأكثرها تعقيداً ، وقد أوضحت قوانين الاحتمال تلك الحالة

وبينت أنه حتى ولا البروتين يمكن أن يكون قد أتى إلى الوجود بالصدفة، وإذا كان يصح هذا بشأن البروتينات وهي القطع البناءة الأكثر للخلايا ، فإن التشكل الكامل للخلية بالصدفة هو أمر مستحيل تماماً ولا يمكن أن يخطر على بال . وطبعاً هذا برهان على الخلق .

لقد ناقشنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتبنا الأخرى لذلك سنقدم هنا بعض الأمثلة البسيطة .

بيّنا في بداية هذا الكتاب كيف أن التشكل بالصدفة للتوازنات التي سادت الكون ليست ممكنة، وسوف نبين الآن أن الاستحالة تصح أيضاً بشأن التشكل بالصدفة حتى في أبسط أشكال الحياة وهي البكتريا .

إن أول دراسة على هذا الموضوع قام بها (روبيرت شابيرو) أستاذ الكيمياء والخبير في موضوع الدنا (DNA) في جامعة نيويورك، و(شابيرو) وهو دارويني وتطوري في آن واحد وقد حسب الاحتمال لألفين من نماذج البروتينات والتي تأخذ تلك البروتينات لتشكل حتى بكتيريا بسيطة واحدة، وذلك بفرض أنها أتت كلها بالصدفة، ويجب أن

نذكر هنا أن جسم الإنسان يحتوي على حوالي مئتي ألف نموذج منها ، وطبقاً لحسابات (شايرو) كان الاحتمال هو (10 40000) [2] .

أي العدد واحد متبوعاً بأربعين ألفاً من الأصفار، وطبعاً لا يوجد لهذا الاحتمال أو الرقم مكافئ في هذا الكون .

وبالتأكيد يبدو واضحاً ماذا يعني رقم (شايرو) . فتفسير الدراوينية والمادية للحياة أنها تطورت بالصدفة باطل بالتأكيد ولا أساس له من الصحة، وقد علق (شاندرا ويكرامانسيغ) أستاذ الراياضيات التطبيقية والفلك في جامعة كاردف على نتائج (شايرو) وقال :

" احتمال التشكل التلقائي للحياة من مادة ميتة هو واحد إلى عدد (10 40000) وأصفار بعدها ، فهذا الرقم كبير بشكل يكفي لدفن الداروينية وكل نظرية التطور وبالتالي لم يكن هناك سائل بدائي لا على هذا الكوكب ولا على غيره، وإذا كانت بدايات الحياة ليست عشوائية فمعنى ذلك أنها نتاج عقل ذكي هادف " [3]

ولقد علق الفلكي (فريد هويل) على هذه النقطة بطريقة مماثلة لشايرو فقال : " في الحقيقة كيف لنظرية علمية واضحة جداً تقول أن الحياة جمعها عقل ذكي ومع ذلك فإن الشخص يتعجب ويتساءل، لماذا لا يقبلها بشكل واسع باعتبارها بديهية . . . لكن أغلب الظن أن الأسباب نفسية أكثر منها علمية .[4] .

يعتبر كلا العالمين (ويكراما يسنغ) و(هويل) من الرجال الذين قربوا من خلال أعمالهم الكثيرة العلم من النزعة المادية، ولكن عندما واجهتهم حقيقة خلق الحياة كان لديهم الشجاعة بقبول تلك الحقيقة، واليوم يوجد كثير من علماء الأحياء كان لديهم الشجاعة بقبول تلك الحقيقة، واليوم يوجد كثير من علماء الأحياء والكيمياء الحيوية ممن تخلوا عن القصة الخيالية، وهي أن الحياة انبثقت بالصدفة، أما أولئك الذين ما زالوا موالين للداروينية ويجادلون بأن الحياة ما هي إلا نتيجة صدفة فهم في الحقيقة في حالة رعب كما قلنا في بداية هذا الفصل، وهذا بالضبط ما كان يقصده عالم الكيمياء الحيوية (ميشيل بيهي) عندما قال :

" لقد كانت نتيجة التحقق من أن الحياة صممت من قبل عقل ذكي هو صدمة لنا في القرن العشرين، حيث كلنا نظن أن الحياة ما هي إلا نتيجة قوانين طبيعية بسيطة " [5]

والصدمة التي شعر بها هؤلاء هي صدمة الوصول إلى العبارات فيها حقيقة وجود الله الذي خلقهم .

لقد كان سقوط قضية أنصار المادية أمراً محتوماً ذلك بأنهم كانوا يناضلون لينكروا حقيقة لم

يكونوا يرونها بوضوح، وفي القرآن الكريم وصف الله حيرة هؤلاء وارتباك الذين يعتقدون بالمادية كما يلي :

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿ 7 ﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿ 8 ﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿ 9 ﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿ 10 ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿ 11 ﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿ 12 ﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿ 13 ﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿ 14 ﴾) الذاريات .

وواجبنا نحن عند هذه النقطة أن ندعو هؤلاء الذين تأثروا بالفلسفة المادية، وتخطوا حدود العقل أن يعودوا إلى العقل والفطرة السليمة والحكم على الأشياء بصورة سليمة، كما يجب علينا أن ندعوهم ليدعوا جانباً كل حقد واجحاف وليفكروا في التصميم غير العادي للكون والحياة، وأن يقبلوا هذا البرهان البسيط لحقيقة أن الله هو الخالق . . الخالق المبدع لكل شيء ويدعو البشر الذين خلقهم ليجربوا عقولهم ويتفكروا .

وقال تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) (

يونس : 3) .

وفي آية أخرى يخاطب الله الناس بما يلي :

وقال تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) (النحل : 17) .

لقد برهن العلم الحديث على حقيقة الخلق، وحان الوقت لكل عالم أن يرى هذه الحقيقة وأن يستنبط منها درساً ، وإلى هؤلاء الذين ينكرون أو يتجاهلون وجود الله يجب أن يعرفوا مدى عمق ضلالهم وبعدهم عن الطريق الصحيح، لأنهم الحقيقة ويتظاهرون بأنهم يفعلون ذلك باسم العلم .

من ناحية أخرى . بهذه الحقيقة التي وضحها العلم درسُ آخر يجب أن نعلمه لهؤلاء الذين قالوا أنهم صاروا يعترفون أن الله خلق هذا الكون، وهذا الدرس هو أنه ربما كان اعتقادهم سطحياً أو ظاهرياً ، وأنهم لا يفكرون بعمق وشمولية بالدليل على خلق الله للكون ويتجاهلون ما يترتب على ذلك من نتائج وعواقب . . وتقاعسوا عن تلبية المسؤوليات المترتبة على إيمانهم . ولقد وصف القرآن أمثال هؤلاء الناس كما يلي :

(﴿ 83 ﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ 84 ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ 85 ﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ 86 ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ 87 ﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ 88 ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ 89 ﴾ . (سورة المؤمنون) .

لقد وصلنا إلى حقيقة وهي أن الله موجود وأن كل ما في الوجود هو من خلق الله وأن يبقى المرء لا مبالياً تجاه تلك الحقيقة هو نوع من الضلال والغفلة . هو الله الذي خلق الكون والعالم الذي نعيش فيه بانسجام وتكامل بعد أن أوجدنا من العدم، والواجب الملقى على عاتق كل شخص أن يحترم أعظم حقيقة هامة في حياته .

فالأرض والسماء وكل شيء بينهما خلقت بأمر الله الأسمى، وعلى البشرية معرفة الله حق المعرفة وعبادته كما يستحق باعتباره سيداً مشرفاً أسمى، وهذه الحقيقة وضحها لنا الله في قرآنه الكريم فقال : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) (مريم : 65)

المصدر : كتاب خلق الكون تأليف الكاتب التركيب هارون يحيى .

[1] JEREMY Rifkin .New York : The viking press ..1983.p.114

[2] Robert Shapiro .Origins : Asceptice Guide to
the creation of life on earth .New York. Summit
.Books,1986.p.127

[3] Fred Hoyle .chandra wickramasinghe evolution
from space .New York .Simon and
.schuster.1984.p.148

[4] Fred Hoyle .chandra wickramasinghe .evolution
.from space .p.130

[5] Michal behe .Darwin .s box : The Biochemicale
challenge to evolution .new york .The free
.p.252-53. 1996.

.

.

.

0-الجزيء المعجز الدنا (DNA)

قال الله تعالى في كتابه الكريم : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة : 164) .

كانت نظرية التطور عاجزة عن تقديم تفسير مترابط لوجود جزيئات هي الأساس في الخلية، والأكثر من ذلك فقد أنتجت التطورات في علم المورثات (الجينات) واكتشاف الحموض النووية (الدنا والرنا) مسائل جديدة لنظرية التطور .

في عام 1955 عمل عالمان على الدنا (DNA) وهما (جيمس واطسن) و(فرانسيس كريك) حيث أطلقا عهداً جديداً في علم الأحياء ومنذ تلك الفترة صار العلماء يوجهون انتباههم لعلم المورثات (الجينات) ، واليوم وبعد سنوات من البحث صار للعلماء طريقة تخطيطية واسعة ضخمة لتركيب الدنا ، وهنا نحن نحتاج أن نعطي بعض المعلومات الأساسية جداً عن بنية ووظيفة الدنا .

جزيء الدنا هو جزيء موجود في نواة كل خلية من خلايا جسمنا والبالغ عددها مئة

تريليون خلية، ويحتوي جزيء الدنا خطة كاملة لتركيب جسم الإنسان وكذلك التعليمات المتعلقة بكل صفات الإنسان من مظهره الفيزيائي إلى تركيب أعضائه الداخلية وهي مسجلة في جزيء الدنا بما يدعى بنظام تشفير خاص، فالمعلومات في شريط الدنا مشفرة بتتابع أربعة قواعد خاصة هي التي يتركب منها الجزيء .

وسميت تلك القواعد بـ (A.T.G.C) نسبة للأحرف الأولى لأسمائها ، وأن كل الفروق التركيبية بين جميع الناس تعتمد على التغيرات في تتابع هذه القواعد ، يوجد حوالي (3.5) بليون نيوكليوئيد أي : (3.5) بليون حرف في جزيء الدنا .

(167/433)

تدعى المعلومات في جزيء الدنا والتي تخص عضية ما أو بروتيناً ما بالجينات، فمثلاً المعلومات المتعلقة بالعين موجودة في سلسلة أخرى تماماً من الجينات، والخلية تنتج بروتينات باستخدام المعلومات في كل من هذه الجينات، أما الحموض الأمينية التي يتركب منها البروتين فكل منها يترتب من ترتيب متتابع لثلاثة من النيوكليوئيدات في الدنا .

عند هذه النقطة يوجد تفصيل هام يستحق الانتباه، وهو خطأ يقع في تتابع النيوكليوئيدات يجعل الجين هزيلاً ولا يعد صالحاً ، وعندما نتذكر أنه يوجد حوالي (200) ألف مورثة في

جسم الإنسان يصبح أكثر وضوحاً سبب استحالة ترتيب هذه الملايين من النيوكليوئيدات المشكلة للمورثات بتتابع صحيح وبالمصادفة، وعلق عالم الأحياء التطوري (فرانك سايلسبوري) على هذه اللاحتمالات بمقولة :

"قد يحتوي البروتين الوسط على حوالي (300) حمض أميني، وتحتوي مورثة الدنا التي تتحكم بذلك ألف نيوكليوئيد في سلسلتها ، وطالما أنه يوجد أربعة أنواع من النيوكليوئيدات في سلسلة الدنا ، فالواحدة تحتوي ألف وصلة بحيث يمكنها أن تتواجد في (10004) شكل، وباستخدام علم الجبر البسيط (اللوغاريتم) نرى أن :

10004=60010 أي عشرة مضروبة بنفسها (600) مرة وهذا الرقم بالضبط هو خلف مداركنا تماماً " 122

إذن الرقم (10004=60010) أي يعني أن نكتب (1) بجواره (600) صفر، وهنا نتذكر أن الرقم (10) متبوعاً بـ (11) صفراً يدعى تريليون، لذا الرقم ذي (600) صفر هو في الحقيقة عدد من الصعب علينا أن ندركه .

هذه الحقيقة أن الاحتمال في التشكل العشوائي للبروتين والحمض النووي (الدنا ـ الرنا) لا يمكن تصوره لصغره، والفرص التي هي ضد انبثاق حتى سلسلة بروتين خاص واحد هي ذات أرقام فلكية [1]

بالإضافة لتلك المستحيلات فإن الشكل الحلزوني لسلسلة الدنا المضاعفة تجعله بالكاد (وبجهد عظيم) يتمكن من الدخول ف تفاعل، مما يؤدي لاستحالة التفكير به كأساس للحياة .

لشريط الدنا القدرة على أن يكرر نفسه ويتضاعف (ينسخ نفسه) ومن ثم يلتوي بمساعدة بعض الأنزيمات، وتلك الأنزيمات هي في الواقع بروتينات يمكن معرفة تركيبها فقط من المعلومات المشفرة في الدنا ، وبما أن كليهما يعتمد على الآخر فعلمية التضاعف ستحدث إذا تواجد معاً في اللحظة نفسها أو إذا كان أحدهما قد خلق قبل الآخر، ولقد علق عالم الأحياء المجهرية (جاكسون) على ذلك الموضوع فقال :

" في اللحظة التي تبدأ فيها الحياة يجب أن يكون حاضراً كل من التوجيهات الكاملة لمخططات النسخ والطاقة اللازمة، واستخلاص الأجزاء اللازمة من البيئة المحيطة، لأن نمو التتابع والآلية التي تلعب دور ترجمة التعليمات إلى نمو يجب أن تكون جميعها حاضرة، وأن اتحاد الحوادث يبدو أنه بعيد عن الإحتمال كلياً لكنه يتحقق بطريقة لا تصدق وغالباً ما تنسب لتدخل إلهي " [2]

كتب هذا الاقتباس بعد سنتين فقط من اكتشاف تركيب الدنا من قبل (جيمس واتسون) (وفرانسيس كريك) وعلى الرغم من تطورات العلم وتقدمه إلا أن هذه المسألة بقيت غير

محلولة بالنسبة للتطوريين .

لنلخص الموضوع ونقول :

"إن الحاجة للدنا في التضاعف وضرورة وجود بعض البروتينات لذلك التضاعف (تكرار الذات) وكذلك وجوب تأمين مستلزمات لإنتاج تلك البروتينات طبقاً لمعلومات الدنا ، كل ذلك يدمر ادعاءات التطوريين ومزاعمهم " .

أثنان من العلماء الألمان وهما (جونكر - شيرار) فسرا أن التركيب لكل من الجزيئات اللازمة للتطور الكيميائي قد شجع شروطاً محددة وضمن احتمال هو الصفر إذا ما حُسب بطرق الرياضيات النظرية البارعة والمختلفة جداً في تركيب تلك المواد .

"حتى الآن لم تعرف تجربة نستطيع بها أن نحصل على كل الجزيئات اللازمة للتطور الكيميائي ، لذلك من الهام والضروري هو إنتاج جزيئات متنوعة في أماكن مختلفة تحت شروط مناسبة جداً ، وبعدها حملهم لمكان آخر للتفاعل مع حمايتهم من العناصر المؤذية مثل التحلل بالماء (الحلمهة) والتحلل الضوئي . [3]

باختصار إن نظرية التطور غير قادرة على أن تبرهن صحتها في أية مرحلة من المراحل

التطورية التي زعموا أنها تحدث على المستوى الجزيئي .

لنلخص ما كنا تحدثنا عنه فيما سلف : لا الحموض الأمينية ولا نواتجها وكذلك البروتينات التي تصنع خلايا الكائنات الحية قد أنتجت إطلاقاً بما سمي بالجو البدائي للبيئة ،والأكثر من ذلك هو أن عوامل التركيب المعقدة الذي لا يصدق للبروتينات وبالتمايزات اليمينية واليسارية لها والصعوبات في تشكيل الروابط الببتيدية في بالضبط المسؤولة عن عدم إمكانية إنتاجهم مخبرياً في المستقبل .

حتى لو فرضنا للحظة أن البروتينات تشكلت بطريقة ما بالمصادفة (وهذا سيبقى دون برهان) فالبروتينات لا تملك شيئاً لنفسها على الإطلاق، وبالتالي لا تستطيع تلك الجزيئات أن تكرر ذاتها ، وتركيب البروتينات ممكن فقط مع معلومات مشفرة في جزيئات الدنا والرنا ، فبدونهما يستحيل على البروتين أن يتكرر ويتضاعف والتابع البروتين في الجسم، وعلى كل حال وكما تم توضيحه من قبل عديد ممن درسوا تلك الجزيئات فإن الدنا والرنا يستحيل أن يتشلا بالمصادفة .

حقيقة الحياة :

بانهيار نظرية التطور في كل مجال، اعترفت أسماء بارزة في فروع علوم الأحياء الدقيقة اليوم بحقيقة الخلق، وبدأت في الدفاع وحماية تلك النظرية في أن كل شيء خلق من قبل مدرك كجزء من الخلق الأرفع .

حالياً هذه هي الحقيقة التي لا يستطيع أحد من الناس تجاهلها، والعلماء الذين اتسمت أعمالهم بعقل مفتوح طوروا رؤى جديدة سموها " التصميم الذكي " . ويعتبر (ميشيل ج . بيهي) واحداً من أعظم هؤلاء العلماء إذ صرح بأنه قَبِلَ بوجود كائن مطلق خالق لكل شيء، ووصف المأزق الذي يقع فيه هؤلاء الذين ينكرون تلك الحقيقة فقال :

النتيجة لتلك الجهود المتراكمة لفحص الخلية . أي : لفحص الحياة على المستوى الجزيئي هي صرخة عالية واضحة حادة (للتصميم) ، والنتيجة هي واضحة جداً وليست غامضة وذات مغزى ومعنى بحيث يمكن أن تصنف تلك النتيجة على أنها أعظم المنجزات في التاريخ العلمي، وهذا النصر العلمي يستدعي أن نصرخ مع عشرات الآلاف من الحناجر . . . "

" لكن لا زجاجات فتحت ولا أيدي صفقت، وبدلاً من ذلك فهنالك صمت مطبق يحاصر التعقيد الصارم للخلية، وعندما أتى الموضوع للناس بدأت الأقدام تتثاقل وبدا التنفس مجهداً، وفي بعض المجتمعات الخاصة شعر الأكثر منهم بالراحة والاسترخاء وكثير من هؤلاء قبل النتيجة الواضحة ثم حدقوا بالأرض وهزوا رؤوسهم وتركوها تذهب

هكذا .

لماذا لا تكون الجماعات العلمية تواقة لما أنجزت ولم تحتض اكتشافها المذهل . ؟ لماذا تكون مشاهدة التصميم والتكامل معه بعقلانية مقنعة بقفازات ؟

وهذا مصداق لقوله تعالى : (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (الزمر : 45) .

حتى اليوم فإن كثيراً من الناس لم يدركوا أنهم في حالة يقبلون بها الخدعة كأنها حقيقة باسم العلم من الاعتقاد بالله، أولئك الذين لم يجدوا عبارة : " الله خلقنا من لا شيء " هي علمية كافية لكنهم استطاعوا الاعتقاد بأن الكائنات الحية أتت للوجود من الصواعق عندما ضربت حساءً بدائياً قبل بلايين من السنين مضت .

(171/433)

المصدر : كتاب خلق الكون تأليف الكاتب التركي هارون يحيى

.

.

.

0–جزيء البروتين يتحدى نظرية التطور

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) (الروم : 8) .

وقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) [سورة الحج : 73] .

تقتضي نظرية التطور أن الحياة بدأت بخلية واحدة تشكلت بالمصادفة تحت شروط أرضية بدائية، لذلك لنفحص تركيب الخلية ببعض المقارنات لكي نبين كم هو سخيف ولا عقلاني أن ننسب وجود الخلية لظواهر طبيعية ومصادفات، ذلك أن الخلية ما زالت تحتفظ بأسرار في كثير من خصوصياتها وحتى في الوقت الذي دخلنا فيه القرن الحادي والعشرين ووضعنا قدمنا فيه .

الخلية الحية ليست أقل تعقيداً من مدينة، فلها أنظمة عمل وأنظمة اتصالات ونقل وإدارة، وتحتوي محطات طاقة (قدرة) تنتج طاقة وتستهلك من قبل الخلية، كما تحتوي مصانع لصنع الأنزيمات والهرمونات الأساسية للحياة وبنك معلومات، حيث يسجل فيها كل

المعلومات الضرورية عن المنتجات التي يجب إنتاجها . كما تضم نظماً معقدة للنقل وأنابيب لحمل المواد الخام والمحاصيل من مكان لآخر مختبرات متقدمة ومصافي لتحليل المواد الخام المستوردة داخل الأقسام المستفيدة منها ، وكذلك تحتوي بروتينات تخصصية في الغشاء الخليوي لضبط دخول وخروج المواد في الخلية . . هذا جزء صغير مما يتضمنه هذا النظام المعقد الذي لا يصدق .

بعيداً عن كون أن تشكل الخلية قد تم تحت شروط أرضية بدائية ومتذكرين مدى تعقيد تركيبها وآلياتها ، فإننا نقول : إنه لا يمكن تركيبها حتى في أعظم وأعقد المختبرات وأكبرها تقدما ًوالموجودة في أيامنا هذه، حتى ولو استخدمنا الحموض الأمينية، التي هي القطع البناءة للخلية، فليس بالإمكان إنتاج حتى عُضية واحدة من الخلية مثل جسيم ميتاكندوري، أو الريبوزوم . . وأي منها هو أقل من الخلية بكثير، والادعاء بأن الخلية نتجت بمصادفة تطورية تشبه لحد ما قصة اختراع خيالية .

البروتينات تتحدى المصادفة :

ليست هي الخلية فقط التي لا يمكن إنتاجها ، أي : إن تشكيلها تحت شروط نظامية

مستحيل، حتى ولا بروتين واحد من ألوف جزيئات البروتينات التي تشكل بنية الخلية .

البروتينات : هي جزيئات عملاقة تحتوي حموضاً أمينية مرتبة بتتابع خاص مميز وبكميات وتركيبات معينة، وتلك هي القطع البناءة للخلية الحية، وأبسطها مكون من خمسين حمضاً أمينياً ، لكن يوجد بعض البروتينات مكونة من ألوف الحموض الأمينية، ومن المعروف أن حذف أو إضافة أو استبدال حمض أميني واحد في تركيب البروتين في الخلايا الحسية يؤدي لتغيير كامل في وظيفة البروتين الخاصة ليصبح ذلك البروتين خردة جزيئية لا جدوى منه .

وعند تلك النقطة فإن مؤسسي نظرية التطور غير قادرين على توضيح تشكل الحموض الأمينية بالمصادفة، لكننا نستطيع نحن أن نشرح بسهولة وباستخدام حسابات الاحتمال البسيطة بحيث يستطيع أي إنسان أن يفهمها ، وهي أن التركيب الوظيفي للبروتينات لا يمكن أن يأتي بأية وسيلة بالمصادفة .

يوجد عشرون حمضاً أمينياً مختلفاً ، فإذا فرضنا أن حجم جزيء البروتين الوسطي مكون من (288) حمضاً أمينياً فيوجد (30010) تركيب مختلفة لهذه الحموض .

ومن كل هذه السلاسل الممكنة يوجد فقط شكل واحد في الجزيء البروتيني المرغوب، أما الحموض الأمينية الأخرى فهي إما غير نافعة تماماً أو ربما حملت بداخلها ضرراً للكائنات الحية . وبكلمة أخرى فإن احتمال أن يحدث هذا بالمصادفة هو واحد في (30010) أي احتمال أن يحدث هذا هو واحد في عدد فلكي يحتوي واحداً متبوعاً بثلاثمائة صفر، وهذا يكافئ الصفر عملياً، وبالتالي ليس من الممكن حدوثه والأكثر من ذلك أن لهذا البروتين (288) حمضاً أمينياً وعلى الأغلب هو جزيء متوسط إذا ما قورن بالجزيئات العملاقة التي تحتوي ألوف الحموض الأمينية، فعندما تطبق حسابات احتمال متشابهة على تلك بالجزيئات العملاقة فإننا نرى أنه حتى كلمة مستحيل هي غير كافية .

إذا كان التشكل المصادف حتى الواحد من هذه البروتينات غير ممكن فهذا أكثر ببلايين المرات مستحيل لحوالي مليون من هذه البروتينات لتأتي بالمصادفة معاً في زخرفة منتظمة وتصنع خلية بشرية تامة، والأكثر من ذلك فالخلية ليست مجموعة من البروتينات فقط بل بالإضافة لذلك فهي تتضمن حموضاً نووية وكربوهيدرات وليبيدات وفيتامينات وكثيراً من الكيماويات الأخرى مثل الكهرليتات، إن كلاً من هذه المكونات مرتب بتناسق وبتصميم ذي نسب محددة في النوع والتركيب والوظيفية، بحيث يكون لكل منها عمله كقطعة بناء أو كعنصر في العضيات المختلفة والمتعددة .

وهكذا نرى أن التطور غير قادر على تفسير التشكل حتى لبروتين واحد من ملايين وذلك

ضمن الخلية الواحدة، فكيف يمكن تفسيره لكامل الخلية ؟

الأستاذ الدكتور (علي ديمر سوري) وهو واحد من مفكري هيئة التطور في تركيبا ناقش في كتبه (الوراثة والتطور) احتمال التشكل بالمصادفة لأحد الأنزيمات الضرورية للحياة وهو (ستوكرون –سي) .

وقال : " إن احتمال تشكل سلسلة (سيتوكروم، سي) تشبه الصفر وتماثله، أي : إن الحياة إذا تطلبت تتابعاً (سلسلة) ما فمن الممكن القول : إن احتمال حدوث ذلك يماثل إطلاق طلقة في كل هذا الكون ليصيب هدفه دون خطأ ، وإلا (بطريقة أخرى) يوجد قدرات خلف طبيعية (ميتافيزيائية) وهي خلف قدراتنا ، هي التي يجب أن تعمل في تشكيلها ، ولقبول الأخير فهذا غير مناسب للعلم وأغراضه، لذلك يجب أن نبحث في الفرضية الأولى [1] .

بعد تلك السطور فإن (ديمرسوي) قبل هذا الاحتمال بسبب كونه أكثر ملائمة لإغراض العلم رغم أنه غير حقيقي .

" إن احتمال الحصول على سلسلة حمض أميني معين (لسيتوكروم – سي) يماثل إمكانية

قرد يكتب تاريخ البشرية على آلة كاتبة وبشكل عشوائي " [2]

إن احتمال الحصول على سلسلة حمض أميني معين (لسيتوكروم – سي) يماثل إمكانية قرد يكتب تاريخ البشرية على آلة كاتبة وبشكل عشوائي

إن التتابع الصحيح للحموض الأمينية الملائمة هي ببساطة ليست كافية لتشكل جزيء بروتين واحد والموجود في شيء حي، بالإضافة لذلك يجب أن تكون كل النماذج المختلفة لعشرين من الحمض الأميني والموجودة في تركيب البروتين يسارية، فمن الناحية الكيميائية يوجد نموذجان مختلفان من الحموض الأمينية تدعى يسارية ويمينه، فمن الناحية الكيمائية يوجد نموذجان مختلفان من الحموض الأمينية تدعى يسارية يمينية ،والاختلافات بينهما هو التناظر المرأي لتركيبهما الثلاثي الأبعاد، وهذا يشابه حالتي اليد اليمنى واليد اليسرى عند الإنسان ويوجد نموذجاً من هذه الحموض الأمينية بأعداد متساوية في الطبيعة، وهما قادران على الترابط معاً بشكل جيد وكل واحد مع الآخر، وعلاوة على ذلك،اكتشفت الأبحاث حقيقة مذهلة، وهي أن جميع البروتينات الموجودة في تركيب الأشياء الحية مكونة من حموض أمينية يسارية وحتى الحموض الأمينية الواحد اليميني المرتبط بتركيب بروتيني فإنه يكون هزيلاً عديم الجدوى .

دعنا نفرض للحظة أن الحياة أتت للوجود بالمصادفة كما يزعم التطورين ففي هذه الحالة يتشكل في الطبيعة حموض أمينية يسارية ويمينية وبأعداد متساوية تقريباً ، والسؤال الآن هو كيف تستطيع حتى واحد من الحموض الأمينية اليمني أن تصبح محتواة في عملية الحياة ؟ وهذا شيء مازال يربك التطوريين .

في الموسوعة البريطانية يوجد دفاع متحمس عن التطور ، فقد كتب المؤلفون فيها وبينوا أن الحموض الأمينية لكل العضويات الحية على الأرض وكذلك القطع البناءة للبولوميرات المعقدة مثل البروتينات لها التناظر اليساري ذاته، وأضافوا أن ذلك يساري ويقابل عملية قذف قطعة نقدية في الهواء مليون مرة ودائماً تأتي على الصورة نفسها ، وفي الموسوعة نفسها صرح المؤلفون أنه ليس بالإمكان فهم لماذا الجزيئات تصبح يسارية أو يمينية ؟ وأن ذلك الاختيار ساحر (فاتن) ويتعلق بمصدر الحياة على الأرض [3]

ليس كافياً على الحموض الأمينية أن تترتب بأعداد صحيحة وبتابع صحيح وبالأشكال الثلاثية الأبعاد المطلوبة، لكن تشكيل البروتين يتطلب أيضاً أن تكون جزيئات الحمض الأمينية التي لها أكثر من ذراع واحد أن تترابط مع بعضها البعض بأذرع معينة بالضبط، وتدعى مثل تلك الرابطة (بالرابطة الببتيدية) ، والحموض الأمينية تستطيع أن تصنع روابط مختلفة مع بعضها بعض، لكن البروتينات تشمل فقط الحموض الأمينية التي تنظم مع

بعضها بروابط ببتيدية .

بينت الأبحاث أن (50%) فقط من الحموض الأمينية تتحد بشكل عشوائي وبرابطة ببتيدية والباقين يرتبطون بروابط ليست موجودة في البروتينات، ولكن تعمل بشكل أنسب فإن كل حمض أميني يدخل في صناعة البروتين يجب أن يتصل بحموض أمينية أخرى بروابط ببتيدية كما لو أنه يتم اختيارها من بين اليساريات فقط، وبدون أية تساؤلات لا توجد آليات تحكم لاختبار وترك الحموض الأمينية اليمنى وأن تتأكد بذاتها أن كل حمض أميني يصنع رابطة ببتيدية مع غير .

(176/433)

تحت هذه الظروف فإن الاحتمال لامتلاك جزيء بروتيني متوسط لخمسمائة حمض أميني ترتب نفسها بكميات وبتتابعات صحيحة، بالإضافة لتلك الاحتمالات يجب أن تكون الحموض الأمينية يسارية فقط وتتحد معاً بروابط ببتيدية فقط ويكون ذلك الاحتمال لوجوده في التتابع الصحيح (الملائم) :

=1/50020=1/65010 .

احتمال وجوده يسارياً :

=1/50020=1/15010

احتمال اتحاده مستعملاً الرابطة الببتيدية :

=1/4992=1/15010 .

الاحتمال الكي :

=1/95010أي هو احتمال واحد من 95010 .

وكما ترى في الأعلى فإن احتمال تشكل جزيء بروتين واحد يحتوي خمسة حموض أمينية هو واحد مقسوم على عدد مكون بوضع (950) صفراً بعد الواحد ، وهو رقم غير مدرك لعقل الإنسان، وهذا فقط احتمال على ورق لكن عملياً فإن مثل ذلك الاحتمال هو الصفر مصادفة حقيقية، وفي الرياضيات الاحتمال الأقل من واحد على (5010) يعتبر صفراً حقيقة .

بينما الاحتمالية لتشكل جزيء مصنوع من خمسة حموض أمينية يصل لمثل هذا المدى، ونحن نستطيع أن نتقدم أكثر وأن ندفع حدود العقل لسويات أعلى من الاحتمالية، ففي جزيء الهيموغلوبين وهو بروتين نشط فعال ويضم خمسمئة وأربعة وسبعين حمضاً أمينياً وهو أكبر بكثير من عدد الحموض الأمينية التي شكلت البروتين المذكور في الأعلى، ولنعتبر الآن ما يلي :

يحتوي جسمك على بلايين الكريات الحمراء ، وفي الكرية الواحدة من تلك الكريات الحمراء

يوجد 280000000 أي (280 مليون) جزيء هيموغلوبين، فالعمر الوسطي الافتراضي للأرض سوف لن يكون كافياً ليتحمل تشكل حتى بروتين واحد وبطريقة التجربة والخطأ، فكيف من أجل كرية دم حمراء واحدة، والاستنتاج من كل هذا هو أن التطور فشل وسقط في هاوية رهيبة من الاحتمالية وبالضبط في مرحلة تشكل بروتين واحد فقط. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الإعجاز العلمى فى القرآن ﴾

(177/433)

قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر الأغوار ، الهابطة الضابطة للبحار ، أتبعها الأنجاد الشداد ، التي هي كالأوتاد ، تذكيراً بما فيها من النعم فقال : ﴿ وألقى في الأرض ﴾ أي وضع فيها وضعاً ، كأنه قذفه فيها قذفاً ، جبالاً ﴿ رواسي ﴾ مماسة لها ومزينة لنواحيها ، كراهة ﴿ أن تميد ﴾ أي تميل

مضطربة يميناً وشمالاً ، أي فيحصل لكم الميد ، وهو دوار يعتري راكب البحر ﴿ بكم ﴾ فهي ثابتة لأجل ذلك الإلقاء ، ثابتة مع اقتضائها بالكرية التحرك .

ولما ذكر الأوهاد ، وأتبعها الأوتاد ، تلاها بما تفجره غالباً منها ، عاطفاً على ﴿ رواسي ﴾ لما تضمنه العامل من معنى "جعل" فقال : ﴿ وأنهاراً ﴾ وأدل دليل على ثبات الأرض ما سبقها من ذكر البحار ، ولحقها من الحديث عن الأنهار ، فإنها لو تحركت ولو بمقدار شعرة في كل يوم لأغرقت البحارُ من إلى جانب الانخفاض ، وتعاكست مجاري الأنهار ، فعادت منافعها أشد المضار ، ولو زادت البحار ، بما تصب فيها الأنهار ، على مر الليل وكر النهار ، لأغرقت الأرض ، ولكنه تعالى دبر الأمر بحكمته تدبيراً تعجز عن الاطلاع على كنهه أفكار الحكماء ، بأن سلط حرارة الشمس على الأرض في جميع مدة الصيف وبعض غيره من الفصول ، فسرت في أغوارها ، وحميت في أعماقها في الشتاء ، فأسخنت مياه البحار وغيرها فتصاعدت منها بخارات كما يتصاعد من القدر المغلي بقدر ما صبت فيها الأنهار ، فانعقدت تلك البخارات في الجو مياهاً لما بردت ، فنزل منها المطر ، فأحيا الأرض بعد موتها ، وتخلل أعماقها منه ما شاء الله ، فأمد الأنهار ، ولذلك تزيد بزيادة المطر وتنقص بنقصه ، وهكذا في كل عام ، فأوجب ذلك بقاء البحر على حاله من غير زيادة ، فسبحان المدبر الحكيم العزيز العليم ! ولما ذكر ذلك ، أتبعه ما يتوصل به إلى منافع كل منه فقال تعالى : ﴿ وسبلاً ﴾ .

ولما كانت الجبال والبحار والأنهار أدلة على السبل الحسية والمعنوية ، قال تعالى :

﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي يحصل الاهتداء فتهتدوا إلى مقاصدكم .

ولما كانت الأدلة في الأرض غير محصورة فيها ، قال : ﴿ وعلامات ﴾ أي من الجبال وغيرها ، جمع علامة وهي صورة يعلم بها المعنى من خط ، أو لفظ أو إشارة أو هيئة ، وقد تكون علامة وضعية ، وقد تكون برهانية .

ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأعمها وأوضحها براً وبحراً ليلاً ونهاراً ، نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة لإفهام العموم لئلا يظن أن المخاطب مخصوص ، وأن الأمر لا يتعداه ، فقال تعالى : ﴿ وبالنجم هم ﴾ أي أهل الأرض كلهم ، وأولى الناس بذلك أول المخاطبين ، وهم قريش ثم العرب كلها ، لفرط معرفتهم بالنجوم ﴿ يهتدون ﴾ وقدم الجار تنبيهاً على أن دلالة غيره بالنسبة إليه سافلة .

ولما لم يبق – بذكر الدلائل على الوحدانية على الوجه الأكمل ، والترتيب الأحسن ، والنظم الأبلغ – شبهة في أن الخالق إنما هو الله ، لما ثبت من وحدانيته ، وتمام علمه وقدرته ، وكمال حكمته ، لجعله تلك الدلائل نعماً عامة ، ومنناً تامة ، مع اتضاح العجز في كل ما يدعون فيه

الإلهية من دونه، واتضاح أنه سبحانه في جميع صنعه مختار، للمفاوتة في الوجود والكيفيات بين ما لا مقتضى للتفاوت فيه غير الاختيار، فثبت بذلك أنه قادر على الإتيان بما يريد.

قال مسبباً عن ذلك: ﴿أفمن يخلق﴾ أي يجدد ذلك حيث أراد ومتى أراد فلا يمكن عجزه بوجه لتمكن شركته ﴿كمن﴾ شركته ممكنة، فهو أصل في ذلك بسبب أنه ﴿لا يخلق﴾ أي لا يقع ذلك منه وقتاً ما من الأصنام وغيرها، في العجز عن الإتيان بما يقوله؛ المستلزم لأن يكون ممكناً مخلوقاً، ولو كان التشبيه معكوساً كما قيل لم يفد ما أفاد هذا التقدير من الإبلاغ في ذمهم بإنزال الأعلى عن درجته، وعبر ب "من" لأنهم سموها آلهة، وأنهى أمرها أن تكون عاقلة، فإذا انتفى عنها وصف الإلهية معه لعدم القدرة على شيء انتفى بدونه من باب الأولى.

ولما سبب عن هذه الأدلة إنكار تسويتهم الخالق بغيره في العجز، سبب عن هذا الإنكار إنكار تذكرهم، حثاً لهم على التذكر المفيد لترك الشرك فقال: ﴿أفلا تذكرون﴾ بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه - بما أفاده الإدغام - لتذكروا ما يحق اعتقاده.

ولما كانت المقدورات لا تحصر ، وأكثرها نعم العباد مذكرة لهم بخالقهم ، قال تعالى ممتناً عليهم بإحسانه من غير سبب منهم : ﴿ وإن تعدوا ﴾ أي كلكم ﴿ نعمة الله ﴾ أي إنعام الملك الذي لا رب غيره ، عليكم وإن كان في واحدة فإن شعبها تفوت الحصر ﴿ لا تحصوها ﴾ أي لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كفرها وإعراضكم جملة عن شكرها ، فلو شكرتم لزادكم من فضله .

ولما كانوا مستحقين لسلب النعم بالإعراض عن التذكير ، والعمى عن التبصر ، أشار إلى سبب إدرارها ، فقال تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال بجميع صفات الإكرام والانتقام ﴿ لغفور رحيم ﴾ فلذلك هو يدر عليكم نعمه وأنتم منهمكون فيما يوجب نقمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 254 . 256 ﴾

(180/433)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الأرض .

فالنعمة الأولى: قوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى:

قوله: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ يعني لئلا تميد بكم على قول الكوفيين وكراهة أن تميد بكم على قول البصريين، وذكرنا هذا عند قوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء: 176] والميد الحركة والاضطراب يميناً وشمالاً يقال: ماد يميد ميداً.

المسألة الثانية:

المشهور عن الجمهور في تفسير هذه الآية أن قالوا: إن السفينة إذا ألقيت على وجه الماء، فإنها تميد من جانب إلى جانب، وتضطرب، فإذا وضعت الأجرام الثقيلة في تلك السفينة استقرت على وجه الماء فاستوت.

قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت ومادت، فخلق الله تعالى عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال.

ولقائل أن يقول: هذا يشكل من وجوه: الأول: أن هذا التعليل إما أن يذكر مع تسليم كون الأرض والماء ثقيلة بالطبع أو مع المنع من هذا الأصل ومع القول بأن حركات هذه الأجسام

بطباعها أو ليست بطباعها بل هي واقعة بتخليق الفاعل المختار ، أما على التقدير الأول فهذا التعليل مشكل ، لأن على هذا الأصل لا شك أن الأرض أثقل من الماء ، والأثقل من الماء يغوص في الماء ولا يبقى طافياً عليه وإذا لم يبق طافياً عليه امتنع أن يقال : إنها تميد وتميل وتضطرب ، وهذا بخلاف السفينة لأنها متخذة من الخشب وفي داخل الخشب تجويفات مملوءة من الهواء ، فلهذا السبب تبقى الخشبة طافية على الماء فحينئذ تضطرب وتميد وتميل على وجه الماء فإذا أرسيت بالأجسام الثقيلة استقرت وسكنت فظهر الفرق ، وأما على التقدير الثاني وهو أن يقال : ليس للأرض ولا للماء طبائع توجب الثقل والرسوب والأرض إنما تنزل ، لأن الله تعالى أجرى عادته بجعلها كذلك وإنما صار الماء محيطاً بالأرض لمجرد إجراء العادة ، وليس ههنا طبيعة للأرض ولا للماء توجب حالة مخصوصة فنقول : فعلى هذا التقدير علة سكون الأرض هي أن الله تعالى يخلق فيها السكون وعلة كونها مائدة مضطربة هي أن الله تعالى يخلق فيها الحركة وعلى هذا التقدير فإنه يفسد القول بأن الأرض كانت مائلة فخلق الله الجبال وأرساها عليها لتبقى ساكنة ، لأن هذا إنما يصح إذا كان طبيعة الأرض توجب الميدان وطبيعة الجبال توجب الإرساء والثبات ، ونحن إنما نتكلم الآن على تقدير نفي الطبائع الموجبة لهذه الأحوال ، فثبت أن هذا التعليل مشكل على كل التقديرات .

السؤال الثاني : هو أن إرساء الأرض بالجبال إنما يعقل لأجل أن تبقى الأرض على وجه الماء من غير أن تميد وتميل من جانب إلى جانب ، وهذا إنما يعقل إذا كان الماء الذي استقرت الأرض على وجهه واقفاً فنقول : فما المقتضى لسكون ذلك الماء ووقوفه في حيزه المخصوص ، فإن قلت : المقتضي لسكونه في ذلك الحيز المخصوص هو أن طبيعته المخصوصة توجب وقوفه في ذلك المعين ، فلم لا تقول : مثله في الأرض وهو أن الطبيعة المخصوصة التي للأرض توجب وقوفها في ذلك الحيز المعين وذلك يفيد القول بأن الأرض إنما وقفت بسبب أن الله تعالى أرساها بالجبال .

فإن قلت : المقتضى لسكون الماء في حيزه المعين هو أن الله تعالى سكن الماء بقدرته في ذلك الحيز المخصوص ، فلم لا تقول مثله في سكون الأرض ، وحينئذ يفسد هذا التعليل أيضاً .

السؤال الثالث : أن مجموع الأرض جسم عظيم ، فبتقدير أن تميد كليته وتضطرب على وجه البحر المحيط لم تظهر تلك الحالة للناس .

فإن قيل : أليس أن الأرض تحركها البخارات المحتقنة في داخلها عند الزلازل ، وتظهر تلك الحركات للناس فبم تنكرون على من يقول : إنه لولا الجبال لتحركت الأرض ، إلا أنه تعالى لما أرساها بالجبال الثقال لم تقو الرياح على تحريكها .

قلنا : تلك البخارات إنما احتقنت في داخل قطعة صغيرة من الأرض ، فلما حصلت الحركة في تلك القطعة الصغيرة ظهرت تلك الحركة .

(183/433)

قال القائلون بهذا القول : إن ظهور الحركة في تلك القطعة المعينة من الأرض يجري مجرى اختلاج يحصل في عضو معين من بدن الإنسان أما لو حركت كلية الأرض لم تظهر تلك الحركة ، ألا ترى أن الساكن في السفينة لا يحس بحركة كلية السفينة وإن كانت واقعة على أسرع الوجوه وأقواها فكذا ههنا ، فهذا ما في هذا الموضع من المباحث الدقيقة العميقة والذي عندي في هذا الموضع المشكل أن يقال ثبت بالدلائل اليقينية أن الأرض كرة ، وثبت أن هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة .

إذا ثبت هذا فنقول : لو فرضنا أن هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الأرض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بأدنى سبب لأن الجرم البسيط المستدير إما أن يجب كونه متحركاً بالاستدارة على نفسه وإن لم يجب ذلك عقلاً إلا أنه بأدنى سبب يتحرك على هذا الوجه ، أما لما حصل على ظاهر سطح كرة الأرض هذه الجبال وكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة فكل واحد من

هذه الجبال إنما يتوجه بطبعه نحو مركز العالم وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جارياً مجرى الوتد الذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة ، فكان تخليق هذه الجبال على وجه الأرض كالأوتاد المغروزة في الكرة المانعة لها عن الحركة المستديرة ، فكانت مانعة للأرض من الميد والميل والاضطراب بمعنى أنها منعت الأرض من الحركة المستديرة ، فهذا ما وصل إليه بحثي في هذا الباب .

والله أعلم بمراده .

النعمة الثانية : من النعم التي أظهرها الله تعالى على وجه الأرض هي أنه تعالى أجرى الأنهار على وجه الأرض واعلم أنه حصل ههنا بحثان :

البحث الأول : أن قوله : ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ والتقدير وألقى رواسي وأنهاراً .

وخلق الأنهار لا يبعد أن يسمى بالإلقاء فيقال : ألقى الله في الأرض أنهاراً كما قال : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ [ق : 7] والإلقاء معناه الجعل ألا تر أنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وبارك فِيهَا ﴾ [فصلت : 10] والإلقاء يقارب الإنزال ،

لأن الإلقاء يدل على طرح الشيء من الأعلى إلى الأسفل ، إلا أن المراد من هذا الإلقاء الجعل والخلق قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ [طه : 39] .

البحث الثاني : أنه ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال ، فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والأنهار .

النعمة الثالثة : قوله : ﴿ وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وهي أيضاً على قوله : ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ والتقدير : وألقى في الأرض سبلاً ومعناه : أنه تعالى أظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم ونظيره قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه : 53] وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أظهر في الأرض سبلاً معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده فقال : ﴿ وعلامات ﴾ وهي أيضاً معطوفة على قوله : ﴿ فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ والتقدير : وألقى في الأرض رواسي وألقى فيها أنهاراً وسبلاً وألقى فيها علامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الأشياء التي بها يهتدي ، وهذه العلامات هي الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق .

قال الأخفش تم الكلام عند قوله : ﴿ وعلامات ﴾ وقوله : ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ كلام منفصل عن الأول ، والمراد بالنجم الجنس كقولك : كثر الدرهم في أيدي الناس .

وعن السدي هو الثريا ، والفرقدان ، وبنات نعش ، والجدي ، وقرأ الحسن :

﴿ وبالنجم ﴾ بضمتين وبضمة فسكون ، وهو جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف .

وقيل : حذف الواو من النجم تخفيفاً .

فإن قيل : قوله : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ خطاب الحاضرين وقوله : ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

خطاب للغائبين فما السبب فيه ؟

قلنا : إن قريشاً كانت تكثر أسفارها لطلب المال ، ومن كثرت أسفاره كان علمه بالمنافع

الحاصلة من الاهتداء بالنجوم أكثر وأتم فقوله : ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إشارة إلى قريش

للسبب الذي ذكرناه ، والله أعلم .

واختلف المفسرون فمنهم من قال قوله : ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ مختص بالبحر ، لأنه

تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم ، ومنهم

من قال : بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر وهذا القول أولى ، لأنه أعم في كونه

نعمة ولأن الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معاً ، ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلاً على

أن المسافر إذا عميت عليه القبلة فإنه يجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التي في

الأرض ، وهي الجبال والرياح ، وذلك صحيح ، لأنه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات في معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها في معرفة طلب القبلة .

واعلم أن اشتباه القبلة إما أن يكون بعلامات لائحة أو لا يكون ، فإن كانت لائحة وجب أن يجب الاجتهاد ويتوجه إلى حيث غلب على الظن أنه هو القبلة ، فإن تبين الخطأ وجب الإعادة ، لأنه كان مقصراً فيما وجب عليه ، وإن لم تظهر العلامات فههنا طريقان :

الطريق الأول : أن يكون مخيراً في الصلاة إلى أي جهة شاء لأن الجهات لما تساوت وامتنع الترجيح لم يبق إلا التخيير .

(186/433)

والطريق الثاني : أن يصلي إلى جميع الجهات فحينئذ يعلم بيقين أنه خرج عن العهدة وهذا كما يقوله الفقهاء : فيمن نسي صلاة لا يعرفها بعينها أن الواجب عليه في القضاء أن يأتي بالصلوات الخمس ليكون على يقين من قضاء ما لزمه ، ومنهم من يقول : الواجب منها واحدة فقط وهذا غلط لأنه لما لزمه أن يفعل الكل كان الكل واجباً وإن كان سبب وجوب كل هذه الصلوات فوت الصلاة الواحدة ، والله أعلم .

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب الأحسن والنظم الأكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل ، فكذلك أيضاً كانت شرحاً وتفصيلاً لأنواع نعم الله تعالى وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة ، والبينات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم ، وثبت أنه هو المولي لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جماداً لا يفهم ولا يقدر ، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ والمعنى : أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر ألبتة على شيء أفلا تذكرون فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر .

ويكفي فيه أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم ، وأنتم ترون في الشاهد إنساناً عاقلاً فاهماً ينعم بالنعمة العظيمة ، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الأصنام جمادات محضة ، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها ، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها .

المسألة الثانية :

المراد بقوله : ﴿ مَّن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ الأصنام ، وأنها جمادات فلا يليق بها لفظة "من" لأنها لأولي العلم .

وأجيب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أن الكفار لما سموها آلهة وعبدوها ، لا جرم أجريت مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله على أثره : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ .

والوجه الثاني : في الجواب أن السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق .

والوجه الثالث : أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف من لا علم عنده كقوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ يعني أن الآلهة التي تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب ، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف يصح منهم عبادتها ، وليس المراد أنه لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا .

فإن قيل : قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ المقصود منه إلزام عبدة الأوثان ، حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق في التسمية بالإله ، وفي الاشتغال بعبادتها ، فكان حق الإلزام أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق .

والجواب : المراد منه أن من يخلق هذه الأشياء العظيمة ويعطي هذه المنافع الجليلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية باسم الإله ، وفي الاشتغال بعبادتها والإقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ .

المسألة الثالثة :

(188/433)

احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على أن العبد غير خالق لأفعال نفسه فقال : إنه تعالى ميز نفسه عن سائر الأشياء التي كانوا يعبدونها بصفة الخالقية لأن قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ الغرض منه بيان كونه ممتازاً عن الأنداد بصفة الخالقية وأنه إنما استحق الإلهية والمعبودية بسبب كونه خالقاً ، فهذا يقتضي أن العبد لو كان خالقاً لبعض الأشياء لوجب كونه إلهاً معبوداً ، ولما كان ذلك باطلاً علمنا أن العبد لا يقدر على الخلق والإيجاد قالت المعتزلة الجواب : عنه من وجوه :

الوجه الأول : أن المراد أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات والبحار والنجوم والجبال كمن لا يقدر على خلق شيء أصلاً ، فهذا يقتضي أن

من كان خالقاً لهذه الأشياء فإنه يكون إلهاً ولم يلزم منه أن من يقدر على أفعال نفسه أن يكون إلهاً .

والوجه الثاني : أن معنى الآية : أن من كان خالقاً كان أفضل ممن لا يكون خالقاً ، فوجب امتناع التسوية بينهما في الإلهية والمعبودية ، وهذا القدر لا يدل على أن كل من كان خالقاً فإنه يجب أن يكون إلهاً .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 195] ومعناه : أن الذي حصل له رجل يمشي بها يكون أفضل من الذي حصل له رجل لا يقدر أن يمشي بها ، وهذا يوجب أن يكون الإنسان أفضل من الصنم ، والأفضل لا يليق به عبادة الأخس ، فهذا هو المقصود من هذه الآية ، ثم إنها لا تدل على أن من حصل له رجل يمشي بها أن يكون إلهاً ، فكذلك ههنا المقصود من هذه الآية بيان أن الخالق أفضل من غير الخالق ، فيمتنع التسوية بينهما في الإلهية والمعبودية ، ولا يلزم منه أن بمجرد حصول صفة الخالقية يكون إلهاً .

والوجه الثالث في الجواب : أن كثيراً من المعتزلة لا يطلقون لفظ الخالق على العبد .

قال الكعبي في "تفسيره" إنا لا نقول : إنا نخلق أفعالنا : قال ومن أطلق ذلك فقد أخطأ إلا في مواضع ذكرها الله تعالى كقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير ﴾ [المائدة : 110] وقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

واعلم أن أصحاب أبي هاشم يطلقون لفظ الخالق على العبد ، حتى أن أبا عبد الله البصير بالغ وقال : إطلاق لفظ الخالق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز ، لأن الخالق عبارة عن التقدير ، وذلك عبارة عن الظن والحسبان ، وهو في حق العبد حاصل وفي حق الله تعالى محال .

واعلم أن هذه الأجوبة قوية والاستدلال بهذه الآية على صحة مذهبنا ليس بقوي ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بين بالآية المتقدمة أن الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ بين بهذه الآية أن العبد لا يمكنه الإتيان بعبادة الله تعالى وشكر نعمه والقيام بحقوق كرمه على سبيل الكمال والتمام ، بل العبد وإن أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات ، وبالغ في شكر نعمة الله تعالى فإنه يكون مقصراً ، وذلك لأن الاشتغال بشكر النعم مشروط بعلمه بتلك النعم على سبيل التفصيل والتحصيل ، فإن من لا يكون متصوراً ولا مفهوماً ولا معلوماً امتنع

الاشتغال بشكره ، إلا أن العلم بنعم الله تعالى على سبيل التفصيل غير حاصل للعبد ، لأن نعم الله تعالى كثيرة وأقسامها وشعبها واسعة عظيمة ، وعقول الخلق قاصرة عن الإحاطة بمباديها فضلاً عن غاياتها وأنها غير معلومة على سبيل التفصيل ، وما كان كذلك امتنع الاشتغال بشكره على الوجه الذي يكون ذلك الشكر لائقاً بتلك النعم .

(190/433)

فهذا هو المفهوم من قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ يعني : أنكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال ، وإذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام والكمال ، وذلك يدل على أن شكر الخالق قاصر عن نعم الحق ، وعلى أن طاعات الخلق قاصرة عن ربوبية الحق وعلى أن معارف الخلق قاصرة عن كنه جلال الحق ، ومما يدل قطعاً على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى أن كل جزء من أجزاء البدن الإنساني لو ظهر فيه أدنى خلل لتنغص العيش على الإنسان ، ولتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل .

ثم إنه تعالى يدبر أحوال بدن الإنسان على الوجه الأكمل الأصلح ، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه ولا بدفع مفاسده ، فليكن هذا المثال حاضراً في

ذهنك ، ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان ، وجعلها مهيأة لانتفاعك بها ، حتى تعلم أن عقول الخلق تفنى في معرفة حكمة الرحمن في خلق الإنسان فضلاً عن سائر وجوه الفضل والإحسان .

فإن قيل : فلما قررتم أن الاشتغال بالشكر موقوف على حصول العلم بأقسام النعم ، ودللتم على أن حصول العالم بأقسام النعم محال أو غير واقع ، فكيف أمر الله الخلق بالقيام بشكر النعم ؟

قلنا : الطريق إليه أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها .

فهذا هو الطريق الذي به يمكن الخروج عن عهدة الشكر .

والله أعلم .

المسألة الثانية :

قال بعضهم : إنه ليس لله على الكافر نعمة وقال الأكثرون : لله على الكافر والمؤمن نعم كثيرة .

والدليل عليه : أن الإنعام بخلق السموات والأرض والإنعام بخلق الإنسان من النطفة ، والإنعام بخلق الأنعام وبخلق الخيل والبغال والحمير ، وبخلق أصناف النعم من الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، وبتسخير البحر ليأكل الإنسان منه لحماً طرياً ويستخرج منه حلية يلبسها كل ذلك مشترك فيه بين المؤمن والكافر ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ وذلك يدل على أن كل هذه الأشياء نعم من الله تعالى في حق الكل ، وهذا يدل على أن نعم الله واصلة إلى الكفار ، والله أعلم .

أما قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ اعلم أنه تعالى قال في سورة إبراهيم : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] وقال ههنا : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ والمعنى : أنه لما بين أن الإنسان لا يمكنه القيام بأداء الشكر على سبيل التفصيل : قال : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ أي غفور للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه ، رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عليكم بسبب تقصيركم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 13.7 ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ مُجَاهِدٌ : مِنْ النُّجُومِ مَا يَكُونُ عَلَامَاتٍ ، وَمِنْهَا مَا يَهْتَدُونَ بِهِ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثِ خِصَالٍ : جَعَلَهَا اللَّهُ زِينَةً لِلسَّمَاءِ ، وَجَعَلَهَا يَهْتَدُونَ بِهَا ، وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ .

فَمَنْ تَعَاطَى مِنْهَا غَيْرَ ذَلِكَ سَفَّهَ رَأْيَهُ ، وَأَخْطَأَ حَظَّهُ ، وَأَضَاعَ نَفْسَهُ ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ تَحْقِيقَ ذَلِكَ وَتِبْيَانَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَبِالنَّجْمِ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ لِلْجِنْسِ .

وَالْمُرَادُ بِهِ جَمْعُ النُّجُومِ [وَلَا يَهْتَدِي بِهَا إلَّا الْعَارِفُ] .

الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الثُّرَيَّا .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْجَدْيُ وَالْفَرْقَدَانِ .

فَأَمَّا جَمِيعُ النُّجُومِ فَلَا يَهْتَدِي بِهَا إلَّا الْعَارِفُ بِمَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا ، وَالْمَفْرِقُ بَيْنَ الْجَنُوبِيِّ وَالشَّمَالِيِّ مِنْهَا ؛ وَذَلِكَ قَلِيلٌ فِي الْآخِرِينَ .

وَأَمَّا الثُّرَيَّا فَلَا يَهْتَدِي بِهَا إِلَّا مَنْ يَهْتَدِي بِجَمِيعِ النُّجُومِ، وَإِنَّمَا الْهَدْيُ لِكُلِّ أَحَدٍ بِالْجَدْيِ وَالْفَرْقَدَيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا مِنَ النُّجُومِ الْمُنْحَصِرَةِ الْمَطْلَعِ، الظَّاهِرَةِ السَّمْتِ، الثَّابِتَةِ فِي الْمَكَانِ فَإِنَّهَا تَدُورُ عَلَى الْقُطْبِ الثَّابِتِ دَوَرَانًا مُحَصَّلًا، فَهِيَ أَبَدًا هَدْيُ الْخَلْقِ فِي الْبَرِّ إِذَا عَمِيَتْ الطُّرُقُ، وَفِي الْبَحْرِ عِنْدَ مَجْرَى السُّفُنِ، وَعَلَى الْقِبْلَةِ إِذَا جَهِلَ السَّمْتَ، وَذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ بِأَنْ تَجْعَلَ الْقُطْبَ عَلَى ظَهْرِ مَنْكِبِكَ الْأَيْسَرِ، فَمَا اسْتَقْبَلْتَ فَهُوَ سَمْتُ الْجِهَةِ، وَتَحْدِيدُهَا فِي الْإِبْصَارِ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ الشَّمْسَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ كَانُونَ الْأَوَّلِ طَالِعَةً فَاجْعَلْ بَيْنَ وَجْهِكَ وَبَيْنَهَا فِي التَّقْدِيرِ

ذِرَاعًا، وَتَكُونُ مُسْتَقْبِلًا لِلْكَعْبَةِ عَلَى التَّقْرِيبِ، سَالِكًا إِلَى التَّحْقِيقِ.

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا يُهْتَدَى بِهَا فِي الْأَنْوَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ الْمَنَازِلَ، وَنَزَّلَ فِيهَا الْكَوَاكِبَ، وَرَتَّبَ لَهَا مَطَالِعَ وَمَغَارِبَ، وَرَبَطَ بِهَا عَادَةً نُزُولَ الْغَيْثِ، وَبِهَذَا عَرَفَتْ الْعَرَبُ أَنْوَاءَهَا، وَتَنَظَّرَتْ سُقْيَاهَا، وَأَضَافَتْ كَثْرَةَ السُّقْيَا إِلَى بَعْضٍ، وَقِلَّتَهَا إِلَى آخَرَ.

وَيُرْوَى فِي الْأَثَرِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ لِلْعَبَّاسِ: كَمْ بَقِيَ لِنَوْءِ الثُّرَيَّا ؟ فَقَالَ لَهُ: إنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: إنَّهَا تَدُورُ فِي الْأُفُقِ سَبْعًا، ثُمَّ يُدِرُّ اللَّهُ الْغَيْثَ، فَمَا جَاءَتْ السَّبْعُ حَتَّى غِيثَ النَّاسُ.

وَفِي الْمُوَطَّإِ: إذَا نَشَأَتْ بَحْرِيَّةٌ، ثُمَّ تَشَاءَمَتْ فَتِلْكَ عَيْنٌ غُدَيْقَةٌ.

وَمِنْ الْبِلَادِ مَا يَكُونُ مَطَرُهَا بِالصَّبَا، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مَطَرُهَا بِالْجَنُوبِ، وَيَزْعُمُ أَهْلُهَا أَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا يَدُورُ عَلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا جَرَّتْ الرِّيحُ ذَيْلَهَا عَلَى الْبَحْرِ أَلْقَحَتْ السَّحَابَ مِنْهُ، وَإِذَا جَرَّتْ ذَيْلَهَا عَلَى الْبَيْدَاءِ جَاءَتْ سَحَابًا عَقِيمًا، وَهَذَا فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّا لَا نَمْنَعُ ذَلِكَ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ رَبَّنَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ الْمَاءَ فِي السَّحَابِ إنْشَاءً، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسَيِّبَ لَهُ مَاءَ الْبَحْرِ الْمِلْحِ وَيُصَعِّدَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُسْتَقِلًّا، وَيُحَلِّيَ بِتَدْبِيرِهِ، وَقَدْ كَانَ مِلْحًا، وَيُنَزِّلَهُ إلَيْنَا فُرَاتًا عَذْبًا؛ وَلَكِنَّ تَعْيِينَ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ بِنَظَرٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ لِذَلِكَ أَثَرٌ، وَإِنَّمَا طَرِيقُهُ الْخَبَرُ، فَنَحْنُ نَقُولُ: هُوَ جَائِزٌ، وَلَوْ أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ لَكَانَ وَاجِبًا.

الثَّانِي: أَنَّ الشَّمَالَ تُسَمِّيهَا الْعَرَبُ الْمَجَرَّةَ؛ لِأَنَّهَا تَمْخَرُ السَّحَابَ، وَلَا تُمْطِرُ مَعَهَا، وَقَدْ تَأْتِي

بَحْرِيَّةً وبَرِّيَّة ، فَدلَّ هذا عَلى أنَّ الأَمْر مَوْقُوفٌ عَلى الْمَشِيئَةِ ؛ وَأَنَّهُ لا يُخبرُ عَنْ الآثَارِ الْعُلْوِيَّةِ إلَّا السُّنَّةُ النَّبَوِيَّة ، لا الْعُقُولُ الأرسطاليسية .

فَإِنْ قِيل : فقَدْ قَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي أَجْمعَتْ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ : ﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ بِالْكَوَاكِب ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِب ﴾ .

قُلْنَا : إنَّمَا خَرَجَ هذا عَلَى قَوْلِ الْعَرَبِ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَأْثِيرِ الْكَوَاكِبِ لِجَاهِلِيَّتِهَا .

وَأَمَّا مَنْ اعْتَقَدَهَا وَقْتًا وَمَحلًّا وَعَلَامَةً يُنْشِئُهُ اللَّهُ فِيهَا وَيُدَبِّرُهُ عَلَيْهَا فَلَيْسَ مِنْ الَّذِي نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْنَى .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَسَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون ﴾

في العلامات ثلاثة أقاويل : أحدها : أنها معالم الطريق بالنهار ، وبالنجوم يهتدون بالليل ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها النجوم أيضاً لأن من النجوم ما يهتدي بها ، قاله مجاهد وقتادة والنخعي .

الثالث : أن العلامات الجبال . وفي ﴿ النجم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه جمع النجوم الثابتة ، فعبر عنها بالنجم الواحد إشارة إلى الجنس .

الثاني : أنه الجدي وحده لأنه أثبت النجوم كلها في مركزه .

وفي المراد بالاهتداء بها قولان :

أحدهما : أنه أراد الاهتداء بها في جميع الأسفار ، قاله الجمهور .

الثاني : أنه أراد الاهتداء به في القِبلة . قال ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ قال " هو الجدي يا ابن عباس عليه قبلتكم ، وبه تهتدون في بركم وبحركم

" . قوله عز وجل : ﴿ وإن تعدوا نعمةَ اللهِ لا تحصوها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا تحفظوها ، قال الكلبي . الثاني : لا تشكروها وهو مأثور . ويحتمل المقصود بهذا الكلام وجهين :

أحدهما : أن يكون خارجاً مخرج الامتنان تكثيراً لنعمته أن تحصى .

الثاني : أنه تكثير لشكره أن يؤدى . فعلى الوجه الأول يكون خارجاً مخرج الامتنان . وعلى الوجه الثاني خارجاً مخرج الغفران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(197/433)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وألقى في الأرض ﴾ الآية ،

قال المتأولون ﴿ ألقى ﴾ بمعنى خلق وجعل .

قال القاضي أبو محمد : وهي عندي أخص من خلق وجعل ، وذلك أن ﴿ ألقى ﴾ تقتضي أن الله أحدث الجبال ليس من الأرض لكن من قدرته واختراعه ، ويؤيد هذا النظر ما روي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد ، أن الله تعالى لما خلق الأرض ، وجعلت تمور ، فقالت الملائكة ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً ، فأصبحت ضحى وفيها رواسيها . و" الرواسي " الثوابت ، رسا الشيء يرسو إذا ثبت ، ومنه قول الشاعر في صفة الوتد :

وأشعث أرسته الوليدة بالفهد . . . و﴿ أن ﴾ مفعول من أجله ، و" الميد " الاضطراب ،

وقوله ﴿ أنهاراً ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره وجعل أو وخلق أنهاراً .

قال القاضي أبو محمد : وإجماعهم على إضمار هذه الفعل دليل على خصوص ل ﴿ ألقى ﴾ ولو كانت ﴿ ألقى ﴾ بمعنى خلق لم يحتج إلى هذا الإضمار ، و" السبل " الطرق ، وقوله ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ في مشيكم وتصرفكم في السبل ، ويحتمل ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بالنظر في هذه المصنوعات على صانعها ، وهذا التأويل هو البارع ، أي سخر وألقى وجعل أنهاراً وسبلاً لعل البشر يعتبر ويرشد ولتكون علامات .

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) ﴾

﴿ عَلامات ﴾ نصب على المصدر ، أي فعل هذه الأشياء لعلكم تعتبرون بها ﴿ وعلامات ﴾ أي عبرة وإعلاماً في كل سلوك ، فقد يهتدي بالجبال والأنهار والسبل ، واختلف الناس في معنى قوله ﴿ وعلامات ﴾ على أن الأظهر عندي ما ذكرت ، فقال ابن الكلبي " العلامات " الجبال ، وقال إبراهيم النخعي ومجاهد : " العلامات " النجوم ، ومنها ما سمي علامات ومنها ما يهتدي به ، وقال ابن عباس : " العلامات " معالم الطرق بالنهار ، والنجوم هداية الليل .

قال القاضي أبو محمد : والصواب إذا قدرنا الكلام غير معلق بما قبله أن اللفظة تعم هذا وغيره ، وذلك أن كل ما دل على شيء وأعلم به فهو علامة ، وأحسن الأقوال المذكورة ، قول ابن عباس رضي الله عنه : لأنه عموم في المعنى فتأمله ، وحدثني أبي رضي الله عنه أنه سمع بعض أهل العلم بالمشرق يقول : إن في بحر الهند الذي يجري فيه من اليمن إلى الهند حيتاناً طوالاً رقاقاً كالحيات في التوائها وحركاتها وألوانها ، وإنها تسمى علامات ، وذلك أنها علامة الوصول إلى بلد الهند ، وأمارة إلى النجاة والانتهاء إلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته ، وإن بعض الناس قال : إنها التي أراد الله تعالى في هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : قال أبي رضي الله عنه : وأما من شاهد تلك العلامات في البحر المذكور وعاينها فحدثني منهم عدد كثير ، وقرأ الجمهور " وبالنجم " على أنه اسم الجنس ، وقرأ يحيى بن وثاب " وبالنُّجْم " بضم النون والجيم ساكنة على التخفيف من ضمها ، وقرأ الحسن " وبالنُّجم " بضم النون وذلك جمع ، كسقف وسقف ، ورهن ورهن ، ويحتمل أن يراد وبالنجوم ، فحذفت الواو .

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي توجيه ضعيف ، وقال الفراء : المراد الجدي والفرقدان . وقال غيره : المراد القطب الذي لا يجري وقال قوم : غير هذا ، وقال قوم : هو اسم الجنس وهذا هو الصواب ، ثم قررهم على التفرقة بين من يخلق الأشياء ويخترعها وبين من لا يقدر على شيء من ذلك ، وعبر عن الأصنام ب " من " لوجهين ، أحدهما أن

الآية تضمنت الرد على جميع من عبد غير الله ، وقد عبرت طوائف من تقع عليه العبارة ب "من" ، والآخر أن العبارة جرت في الأصنام بحسب اعتقاد الكفرة فيها في أن لها تأثيراً وأفعالاً ، ثم وبخهم بقوله ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ،

وقوله ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ أي إن حاولتم إحصاءها وحصرها عدداً حتى يشذ شيء منها لم تقدروا على ذلك ، ولا اتفق لكم إحصاؤها إذ هي في كل دقيقة من أحوالكم ، . و" النعمة " هنا مفردة يراد بها الجمع ، وبحسب العجز عن عد نعم الله يلزم أن يكون الشاكر لها مقصراً عن بعضها ، فلذلك قال عز وجل ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ أي تقصيركم في الشكر عن جميعها ، نحا هذا المنحى الطبري ، ويرد عليه أن نعمة الله تعالى في قول العبد : الحمد لله رب العالمين مع شروطها من النية والطاعة يوازي جميع النعم ، ولكن أين قولها بشروطها ؟ والمخاطبة بقوله ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ عامة لجميع الناس . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وألقى فِي الأرض روَاسِيَ ﴾

أي جبالاً ثابتة .

رَسَا يرسو إذا ثبت وأقام .

قال :

فصَبَرْتُ عارِفةً لذلك حُرَّةً . . .

ترسو إذا نفسُ الجبان تطلَّعُ

﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي لئلا تَميد ؛ عند الكوفيين .

وكراهية أن تميد ؛ على قول البصريين .

والمَيْد : الاضطراب يميناً وشمالاً ؛ ماد الشيء يميد ميداً إذا تحرك ؛ ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تبختر .

قال وهب بن مُنَبِّه : خلق الله الأرض فجعلت تميد وتمور ، فقالت الملائكة : إن هذه غير مقرّة أحداً على ظهرها فأصبحت وقد أرْسِيت بالجبال ، ولم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : لما خلق الله الأرض قَمَصَت ومالت وقالت : أيْ

رَب أتجعل عليّ من يعمل بالمعاصي والخطايا ، ويلقي عليّ الجِيف والنّتْن ! فأرسى الله تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون .

وروى الترمذيّ في آخر (كتاب التفسير) حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوّام بن حَوْشَب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لما خلق الله الأرض جعلت تَمِيد فخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرّت فعجب الملائكة من شدّة الجبال فقالوا يا رَبّ هل مِن خلقك شيء أشدّ من الجبال قال نعم الحديد قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد قال نعم النار فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من النار قال نعم الماء قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من الماء قال نعم الريح قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من الريح قال نعم ابنُ آدم تصدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله" .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه .

قلت : وفي هذه الآية أدلّ دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان قادراً على سكونها دون الجبال .

وقد تقدّم هذا المعنى .

﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ، أو ألقى فيها أنهاراً .

﴿ وَسُبُلاً ﴾ أي طُرُقاً ومسالك .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى حيث تقصِدون من البلاد فلا تضلون ولا تتحيّرون .

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَعَلامَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار ؛ أي جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها .

﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني بالليل ، والنجمُ يراد به النجوم .

وقرأ ابن وَثّاب "وبِالنُّجْم" .

الحسن : بضم النون والجيم جميعاً ومراده النجوم ، فقصره ؛ كما قال الشاعر :

إنّ الفقير بيننا قاضٍ حَكَمْ . . .

أن تَرِد الماءَ إذا غاب النُّجُمْ

وكذلك القول لمن قرأ "النُّجْم" إلا أنه سَكّن استخفافاً .

ويجوز أن يكون النُّجُم جمعَ نَجْم كسَقْف وسُقُف .

واختلف في النجوم ؛ فقال الفراء : الجَدْي والفرقدان .

وقيل : الثريا .

قال الشاعر :

حتى إذا ما استقلّ النّجمُ في غَلَس . . .

وغُودر البَقْل مَلْويٌّ ومحصودُ

أي منه ملويّ ومنه محصود ، وذلك عند طلوع الثريا يكون .

وقال الكَلْبِيّ : العلامات الجبال .

وقال مجاهد : هي النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتَدَى بها ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قَتادة والنَّخَعِيّ .

وقيل : تم الكلام عند قوله "وعلاماتٍ" ثم ابتدأ وقال : "وبالنَّجْمِ هم يهتدون" .

وعلى الأوّل : أي وجعل لكم علامات ونجوماً تهتدون بها .

ومن العلامات الرياح يهتدى بها .

وفي المراد بالاهتداء قولان : أحدهما في الأسفار ، وهذا قول الجمهور .

الثاني في القِبْلة .

" وقال ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ قال : "هو الجَدْيُ يا بن عباس ، عليه قبلتكم وبه تهتدون في بَرِّكم وبحركم" "

ذكره الماورديّ .

الثانية قال ابن العربيّ : أما جميع النجوم فلا يهتَدِي بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها ، والفرق بين الجنوبي والشمالي منها ، وذلك قليل في الآخرين .

(202/433)

وأما الثُّرّيا فلا يهتدي بها إلا مَن يهتدي بجميع النجوم .

وإنما الهَدْي لكل أحد بالجَدْي والفَرْقَدين ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْت الثابتة في المكان ، فإنها تدور على القطب الثابت دورانا محصّلاً ، فهي أبداً هَدْيُ الخلق في البَرّ إذا عميت الطرق ، وفي البحر عند مجرى السفن ، وفي القِبْلة إذا جهل السَّمْت ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سَمْت الجهة .

قلت : " وسأل ابنُ عباس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : "هو الجَدْي عليه قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم" " وذلك أن آخر الجدي بنات نَعْش الصغرى والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينها .

الثالثة قال علماؤنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالها وإصابتها وقصد جهتها بجميع بدنه .

والآخر أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاءها بالدلائل ، وهي الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها ، ومن غابت عنه وصلّى مجتهداً إلى غير ناحيتها وهي ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلّى مستدِلاّ ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صلى إلى غير القبلة أعاد إن كان في وقتها ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمِر به .

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مستوفًى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ هو الله تعالى .

﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ يريد الأصنام .

﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يُخبر عمن يعمل على ما تستعمله العرب في ذلك ؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ "مَن" كقوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ ﴾ [الأعراف : 195] .

وقيل : لاقتران الضمير في الذكر بالخالق .

قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه عليّ الراكب وجمله فلا أدري مَن ذا ومَن ذا ؛ وإن كان أحدهما غير إنسان .

قال المَهْدَوِيّ : ويسأل ب "مَن" عن البارىء تعالى ولا يسأل عنه ب "ما" ؛ لأن "ما" إنما يسأل بها عن الأجناس ، والله تعالى ليس بذي جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ [طه : 49] ولم يجب حين قال له : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 26] إلا بجواب "مَن" وأضرب عن جواب "ما" حين كان السؤال فاسداً .

ومعنى الآية : من كان قادراً على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحقّ ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع ؛ ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان : 11] ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ [فاطر : 40] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ تقدم في إبراهيم .

﴿ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه .

وقد تقدم جميع هذا مستوفًى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾

يعني جبالاً ثقالاً ﴿ أن تميد بكم ﴾ يعني لئلا تميل وتضطرب بكم ، والميد هو اضطراب الشيء العظيم كالأرض ، وقال وهب : لما خلق الله سبحانه وتعالى الأرض جعلت تمور وتتحرك فقالت الملائكة : إن هذه غير مقرة أحداً على ظهرها فأصبحوا ، وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال ﴿ وأنهاراً ﴾ يعني وجعل فيها أنهاراً لأن في ألقى معنى الجعل ، فقوله سبحانه وتعالى : وأنهاراً معطوف على وألقى ، ولما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الأنهار لأن معظم عيون الأنهار ، وأصولها تكون من الجبال ﴿ وسبلاً ﴾ يعني وجعل فيها طرقاً مختلفة تسلكونها في أسفاركم ، والتردد في حوائجكم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى مكان ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ يعني بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون ﴿ وعلامات ﴾ يعني وجعل فيها علامات تهتدون بها في أسفاركم قال بعضهم : تم الكلام عند قوله : وعلامات ثم ابتدأ ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ قال محمد بن كعب والكلبي : أراد بالعلامات الجبال والنجوم ، فالجبال علامات النهار ، والنجوم علامات الليل .

وقال مجاهد : أراد بالكل النجوم فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدي به .

وقال السدي : أراد بالنجم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدي ، فهذه يهتدى بها إلى الطريق والقبلة .

وقال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوماً للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به .

(205/433)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ لما ذكر الله من عجائب قدرته وغرائب صنعته ، وبديع خلقه ما ذكر على الوجه الأحسن والترتيب الأكمل ، وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى ، ووحدانيته وأنه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعاً قال على سبيل الإنكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تقدر على شيء ﴿ أفمن يخلق ﴾ يعني هذه الأشياء الموجودة المرئية بالعيان ، وهو الله تعالى الخالق لها ﴿ كمن لا يخلق ﴾ يعني هذه الأصنام العاجزة التي لا تخلق شيئاً البتة ، لأنها جمادات لا تقدر على شيء ، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الأشياء كلها ، ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله ﴿ أفلا تذكرون ﴾ يعني أن هذا القدر ظاهر غير خافٍ على أحد فلا يحتاج فيه إلى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه ، كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكره .

بقي في الآية سؤلان : الأول : قوله : كمن لا يخلق المراد به الأصنام وهي جمادات لا تعقل فكيف يعبر عنها بلفظة من وهي لمن يعقل ، والجواب عنه أن الكفار لما سموا هذه الأصنام آلة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل في زعمهم ألا ترى إلى قوله : بعد هذا والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً فخاطبهم على قدر زعمهم ، وعقولهم .

(206/433)

السؤال الثاني : قوله : أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه إلزام الحجة على من عبد الأصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق ، فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لا يخلق والجواب عنه أنه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه أن من خلق الأشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة ، كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية والعبادة ، وكيف يليق بالعاقل أن يترك عبادة من يستحق العبادة لأنه خالق هذه الأشياء الظاهرة كلها ، ويشتغل بعبادة جمادات لا يخلق شيئاً البتة والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾

يعني أن نعم الله على العبد فيما خلق الله فيه من صحة البدن وعافية الجسم ، وإعطاء النظر الصحيح والعقل السليم ، والسمع الذي يفهم به الأشياء وبطش اليدين وسعي

الرجلين إلى غير ذلك مما أنعم به عليه في نفسه ، وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا لا تحصى حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمة العظام التي لا يمكن الوصول إلى حصرها لجميع الخلق فذلك قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ يعني ولو اجتهدتم في ذلك وأتبعتم نفوسكم لا تقدرون عليه ﴿ إن الله لغفور ﴾ يعين لتقصيركم في القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم ﴿ رحيم ﴾ يعني بكم حيث وسع عليكم النعم ، ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير ، والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(207/433)

وقال أبو حيان :

﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾

قيل : خلق الله الأرض فجعلت تمور فقالت الملائكة : ما هي بمقر أحد على ظهرها ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ، لم تدر الملائكة مم خلقت .

وعطف وأنهاراً على رواسي .

ومعنى ألقى : جعل ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ﴾ وقوله :

وجعل فيها رواسي ، من فوقها .

وقال ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي : جعلت .

وقال ابن عطية : قال المتأولون : ألقى بمعنى خلق وجعل ، وهي عندي أخص من خلق وجعل ، وذلك أن ألقى يقتضي أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض لكن من قدرته واختراعه ، ويؤيد هذا النظر ما روي في القصص عن الحسن ، عن قيس بن عباد : أنّ الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمور إلى آخر الكلام السابق ، وهو أيضاً مروي عن وهب بن منبه .

وقال ابن عطية أيضاً : وقوله : وأنهاراً ، منصوب بفعل مضمر تقديره : وجعل ، أو خلق أنهاراً .

أو إجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على خصوص ألقى ، ولو كانت ألقى بمعنى خلق لم يحتج إلى هذا الإضمار انتهى .

وأي إجماع في هذا ، وقد حكى عن المتأولين أنّ ألقى بمعنى خلق وجعل ، وقال الزمخشري : وأنهاراً ، وجعل فيها أنهاراً لأنّ ألقى فيه معنى جعل .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ﴾ وقال أبو البقاء : أي وشق أنهاراً وعلامات أي : وضع علامات ، ويجوز أن يعطف على رواسي .

وقال أبو عبد الله الرازي : ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال

، فلهذا السبب أتبع ذكرها بتفجير الأنهار ، وسبلاً طرقاً إلى مقاصدكم لعلكم تهتدون بالسبل إلى مقاصدكم ، هذا هو الظاهر ، ويدل عليه ما بعده .

وقال تعالى : وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون .

وقيل : تهتدون أي : بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها ، فهو من الهداية إلى الحق ، ودين الله .

وعلامات هي معالم الطرق ، وكل ما يستدل به السابلة من جبل وسهل وغير ذلك قاله الزمخشري ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقال أبو عبد الله الرازي : ورأيت جماعة يتعرفون الطرقات بشم التراب .

وقال ابن عيسى : العلامة صورة يعلم بها ما يراد من خط أو لفظ أو إشارة أو هيئة .

وقال ابن عطية : وعلامات نصب كالمصدر أي : فعل هذه الأشياء لعلكم تعتبرون بها ، وعلامات أي : عبرة وإعلاماً في كل سلوك ، فقد يهتدي بالجبال وبالأنهار وبالسبل انتهى .

وقال ابن الكلبي : العلامات الجبال .

وقال النخعي ومجاهد : النجوم .

وأغرب ما فسرت به العلامات أنها حيتان طوال رقاق كالحيات في ألوانها وحركاتها تسمى بالعلامات ، وذلك في بحر الهند الذي يسار إليه من اليمن ، فإذا ظهرت كانت علامة للوصول لبلاد الهند وأمارة للنجاة .

وقرأ الجمهور : وبالنجم ، على أنه اسم جنس ، ويؤيد ذلك قراءة ابن وثاب : وبالنجم بضم النون والجيم ، وقراءة الحسن : بضم النون .

وفي اللوامح الحسن : النجم بضمتين ، وابن وثاب : بضمة واحدة ، وجاء كذلك عن ابن هشام الرفاعي ، ولا شك في أنه يذكره عن أصحاب عاصم انتهى .

وذلك جمع كسقف وسقف ، ورهن وترهن ، وجعله مما جمع على فعل أولى من حمله على أنه أراد النجوم ، فحذف الواو .

إلا أن ابن عصفور ذكر أن قولهم : النجم من ضرورة الشعر ، وأنشد :

إن الذي قضى بذا قاض حكم . . .

أن يرد الماء إذا غاب النجم

قال : يريد النجوم .

مثل قوله :

حتى إذا ابتلت حلاقيم الحلق . . .

يريد : الحلوق .

والتسكين : قيل تخفيف ، وقيل : لغة .

وعن السدي : هو الثريا ، والفرقدان ، وبنات نعش ، والجدي .

وقال الفراء : المراد الجدي والفرقدان انتهى .

قيل : والجدي هو السابع من بنات نعش الصغرى ، والفرقدان الأولان منها ، وليس بالجدي الذي هو المنزلة ، وبعضهم يصغره فيقول : جدي .

(209/433)

وفي الحديث عن ابن عباس أنه سأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن قوله : وبالنجم ، فقال : "هو الجدي" ولو صح هذا لم يعدل أحد عنه .

وقال ابن عباس : عليه قبلتكم ، وبه تهتدون في بركم وبحركم .

وقيل : هو القطب الذي لا يجري .

وقيل : هو الثريا .

وقال الشاعر :

إذا طلب الجوزاء والنجم طالع . . .

فكل مخاضات الفرات معابر

وقال آخر :

حتى إذا ما استقل النجم في غلس . . .

وغودر البقل ملوى ومحصود

أي ومنه ملوى ، ومنه محصود ، وذلك إنما يكون عند طلوع الثريا .

وهم : ضمير غيبة خرج من الخطاب إلى الغيبة ، كان الضمير النعت به إلى قريش إذ كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم .

وقدم المجرور على ما يتعلق به اعتناء ولأجل الفاصلة .

والزمخشري على عادته كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هم يهتدون .

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) ﴾

ذكر تعالى التباين بين من يخلق وهو الباري تعالى ، وبين من لا يخلق وهي الأصنام ، ومن عبد ممن لا يعقل ، فجدير أن يفرد بالعبادة من له الإنشاء دون غيره .

وجيء بمن في الثاني لاشتمال المعبود غير الله على من يعقل وما لا يعقل ، أو لاعتقاد الكفار أنّ لها تأثيراً وأفعالاً ، فعوملت معاملة أولي العلم ، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق ، أو لتخصيصه بمن يعلم .

فإذا وقعت البينونة بين الخالق وبين غير الخالق ، من أولي العلم فكيف بمن لا يعلم البتة كقوله : ﴿ ألهم أرجل يمشون بها ﴾ أي : أن آلهتهم منحطة عن حال من له أرجل ، لأنّ من له هذه حي ، وتلك أموات ، فكيف يصح أن يعبد لا أن من له رجل يصح أن يعبد ؟ قال الزمخشري : (فإن قلت) : هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فكان حق الإلزام أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟ (قلت) : حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له ، وسووا بينه وبينه ، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله : أفمن يخلق كمن لا يخلق ، ثم وبخهم بقوله : أفلا تذكرون ، أي : مثل هذا لا ينبغي أن تقع فيه الغفلة .

والنعمة يراد بها النعم لا نعمة واحدة ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا ﴾ وقوله : ﴿ لا تحصوها ﴾ إذ ينتفي العدو الإحصاء في الواحدة ، والمعنى : لا تحصوا عدها ، لأنها لكثرتها خرجت عن إحصائكم لها ، وانتفاء إحصائها يقتضي انتفاء القيام بحقها من الشكر .

ولما ذكر نعماً سابقة أخبر أنّ جميع نعمه لا يطيقون عدها .

وأتبع ذلك بقوله : إن الله لغفور رحيم ، حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعم ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها .

ولما كان الإنسان غير قادر على أداء شكر النعم ، وأن له حالة يعرض فيها منه كفرانها قال في عقب الآية التي في ابراهيم : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ أي لظلوم بترك الشكر كفار للنعمة .

وفي هذه الآية ذكر الغفران والرحمة لطفاً به ، وإيذاناً في التجاوز عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(211/433)

وقال أبو السعود :

﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾

أي جبالاً ثوابتَ ، وقد مر تحقيقُه في أول سورة الرعد ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهةَ أن تميل بكم وتضطربَ ، أو لئلا تميدَ بكم فإن الأرضَ قبل أن تُخلقَ فيها الجبالُ كانت كرةً خفيفةً بسيطةَ الطبع ، وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك أو تتحركَ بأدنى سبب محرّك ، فلما خُلقت الجبال تفاوتت حافّاتُها وتوجهت الجبالُ بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد ، وقيل : لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمورُ فقالت الملائكة : ما هي بمقر أحدٍ على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ﴿ وأنهارا ﴾ أي وجعل فيه أنهاراً لأن في

ألقى معنى الجعل ﴿ وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بها إلى مقاصدكم .

﴿ وعلامات ﴾ معالمَ يَستدِلُّ بها السابلةُ بالنهار من جبل وسهلٍ وريح ، وقد نُقل أن جماعة يشمّون الترابَ ويتعرفون به الطرقات ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بالليل في البراري والبحارِ حيث لا علامة غيرُه ، والمرادُ بالنجم الجنسُ ، وقيل : هو الثريا والفَرْقدان وبناتُ نعش والجدي ، وقرىء بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرُهْن ورُهُن ، وقيل : الأول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضميرَ لقريش فإنهم كانوا كثيري الترددِ للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم ، وصرفُ النظمِ عن سنن الخطاب وتقديمُ النجم وإقحامُ الضمير للتخصيص ، كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم .

(212/433)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ هذه المصنوعاتِ العظيمةَ ويفعل هاتيك الأفاعيلَ البديعة ، أو يخلق كلَّ شيء ﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ شيئاً أصلاً وهو تبكيتٌ للكفرة وإبطالٌ لإشراكهم وعبادتِهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعدادِ ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهراً ، وتعقيبُ الهمزة بالفاء لتوجيه الإنكارِ إلى توهم المشابهةِ

المذكورة على ما فصل من الأمور العظيمة الظاهرةِ الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك

فيما بينهم حسبما يُؤذِن به ما تلوناه من قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ الآيتين ، والاقتصارُ

على ذكر الخلقِ من بينها لكونه أعظمَها وأظهرَها واستتباعِه إياها ، أو لكون كلٍ منها خلقاً

مخصوصاً أي أبعدَ ظهورِ اختصاصِه تعالى بمبدئية هذه الشؤونِ الواضحةِ الدّلالةِ على

وحدانيته تعالى وتفرّدِه بالألوهية واستبدادِه باستحقاق العبادةِ ، يُتصوّر المشابهةُ بينه وبين

ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضيةُ إشراكِكم ومدارها وإن كان على نسبةٍ تقوم

بالمنتسبين ، اختير ما عليه النظمُ الكريم مراعاةً لحق سبْقِ المَلَكةِ على العدم وتفادياً عن

توسيط عدمِها بينها وبين جزئياتها المفصّلة قبلها وتنبيهاً على كمال قبحِ ما فعلوه من حيث

إن ذلك ليس مجردَ رفعِ الأصنام عن محلها بل هو حطٌّ لمنزلة الربوبيةِ إلى مرتبة الجماداتِ ،

ولا ريب في أنه أقبحُ من الأول ، والمرادُ بمن لا يخلق كلُّ ما هذا شأنه كائناً ما كان ، والتعبير

عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة ، أو العقلاءِ خاصة ، ويُعرف منه حالُ غيرهم لدِلالة

النص فإن من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاءِ ، فما ظنُّك بالجماد وأياً

ما كان فدخولُ الأصنام في حكم عدمِ المماثلة والمشابهةِ إما بطريق الاندراجِ تحت الموصولِ

العام وإما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية ، لا بأنها هي المرادةُ بالموصول

خاصة ﴿ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴾ أي ألا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك فإنه لوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ﴾ تذكيرٌ إجمالي لنعمه تعالى بعد تعدادِ طائفة منها، وكان الظاهرُ إيرادَه عقيبَها تكملةً لها على طريقة قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ولعل فصلَ ما بينهما بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ للمبادرة إلى إلزام الحجةِ وإلقامِ الحجر إثرَ تفصيلِ ما فُصل من الأفاعيل التي هي أدلةُ الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه إن شاء الله، ودَلالتُها عليها وإن لم تكن مقصورةً على حيثية الخلق ضرورةَ ظهور دلالتِها عليها من حيثية الإنعام أيضاً لكنها حيث كانت مستتبعاتِ الحيثيةِ الأولى، استُغنيَ عن التصريح بها ثم بُين حالها بطريق الإجمال أي إن تعدوا نعمته الفائضةَ عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ أي لا تطيقوا حصرَها وضبطَ عددِها ولو إجمالاً، فضلاً عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عُهدة تحقيقه في سورة إبراهيمَ بفضل الله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يستُر ما فرَط منكم من كفرانها والإخلال بالقيام بحقوقها، ولا يعاجلُكم بالعقوبة على ذلك ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حيث يُفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحِرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفرِ التي من جملتها عدمُ الفرق بين الخالقِ وغيرِه،

وكلٌّ من ذلك نعمةٌ وأيُّما نعمة ، فالجملة تعليلٌ للحكم بعدم الإحصاءِ وتقديمُ وصفِ المغفرة على نعت الرحمةِ لتقدم التخلية على التحلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(214/433)

وقال الآلوسى :

﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾

أي جبالاً ثوابت ، وقد مر تمام الكلام في ذلك ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي كراهة أن تميد أو لئلا تميد ، والميد اضطراب الشيء العظيم ، ووجه كون الإلقاء مانعاء عن اضطراب الأرض بأنها كسفينة على وجه الماء والسفينة إذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى شيء وإذا وضعت فيها أجرام ثقيلة تستقر فكذا الأرض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت فالجبال بالنسبة إليها كالأجرام الثقيلة الموضوعة في السفينة بالنسبة إليها .

وتعقبه الإمام لوجوه .

الأول : على مذهب الحكماء القائلين بأن حركة الأجسام أو سكونها لطبائعها أن الأرض

أثقل من الماء فيلزم أن تغوص فيه لا أن تطفو أو ترسي بالجبال وهذا بخلاف السفينة فإنها متخذة من الخشب وبين أجزائه هواء يمنعه من السكون ويفضي به إلى الميد لولا الثقيل .

والثاني : على مذهب أهل الحق القائلين بأنه ليس للأجسام طبائع تقتضي السكون أو الحركة فما سكن ساكن وما تحرك متحرك في بر وبحر إلا بمحض قدرة الله تعالى وحده .

والثاني : أن إرساء الأرض بالجبال لئلا تميد وتبقى واقفة على وجه الماء إنما يعقل إذا كان الماء الذي استقرت على وجهه ساكناً وحينئذ يقال : إن قيل إن سبب سكونه في حيزه المخصوص طبيعته المخصوصة فلم لا يقال في سكون الأرض في هذا الحيز أنه بسبب طبيعتها المخصوصة أيضاً ، وإن قلنا : إنه بمحض قدرته سبحانه فلم لم يقل : إن سكون الأرض أيضاً كذلك فلا يعقل الإرساء بالجبال على التقديرين .

والثالث : أنه يجوز أن تميد الأرض بكليتها ولا تظهر حركتها ولا يشعر بها أهلها ويكون ذلك نظير حركة السفينة من غير شعور راكبها بها ولا يأبى ذلك الشعور بحركتها عند احتقان البخاري فيها لأن ذلك يكون في قطعة صغيرة منها وهو يجري مجرى الاختلاج الذي يحصل في عضو معين من البدن ، ثم قال : والذي عندي في هذا الموضع المشكل أن يقال : ثبت

بالدلائل اليقينية أن الأرض كرة وثبت أن هذه الجبال على سطح الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة وحينئذ نقول لو فرضنا أن هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت ملساء خالية عنها لصارت بحيث تتحرك على الاستدارة كالأفلاك لبساطتها أو تتحرك بأدنى سبب للتحريك فلما خلقت هذه الجبال وكانت كالخشونات على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لمنعها إياها عن الحركة المستديرة اه ؛ وقد تابع الإمام في هذا الحل العلامة البيضاوي ، واعترض عليه بأنه لا وجه لما ذكره على مذهب أهل الحق ولا على مذهب الفلاسفة ، أما الأول : فلأن ذات شيء لا تقتضي تحركه وإنما ذلك بإرادة الله تعالى ، وأما الثاني : فلأن الفلاسفة لم يقولوا : إن حق الأرض أن تتحرك بالاستدارة لأن في الأرض ميلاً مستقيماً وما هو كذلك لا يكون فيه مبدأ ميل مستدير على ما ذكروا في الطبيعي .

(216/433)

وأورد أيضاً على منع الجبال لها من الحركة أنه قد ثبت في الهندسة أن أعظم جبل في الأرض وهو ما ارتفاعه فرسخان وثلث فرسخ إلى قطر الأرض نسبة خمس سبع عرض شعيرة إلى كرة قطرها ذراع ولا ريب في أن ذلك القدر من الشعير لا يخرج تلك الكرة عن الاستدارة

بحيث يمنعها عن الحركة ، وكذا حال الجبال بالنسبة إلى كرة الأرض ، ثم قيل : الصحيح أن يقال خلق الله تعالى الأرض مضطربة لحكمة لا يعلمها إلا هو ثم أرساها بالجبال على جريان عادته في جعل الأشياء منوطة بالأسباب ، وقال بعض المحققين في الجواب : إن المقصود أن الأرض من حيث كونها كرة حقيقية بسيطة مع قطع النظر عن كونها عنصراً كان حقها أحد الأمرين لأنها من تلك الحيثية إما ذو ميل مستدير كالأفلاك فكان حقها حينئذ أن تتحرك مثلها على الاستدالة وإما ذو ميل مستقيم فحقها السكون لكنها تتحرك بأدنى قاسر ، أما السكون فلأن الجسم الحاصل في الحيز الطبيعي لما يتحرك حركة طبيعية آنية لاستلزامها الخروج عن الحيز الطبيعي ولا يتصور من الأرض الحركة الإرادية لكونها عديمة الشعور ، وأما التحرك بأدنى قاسر فيحكم به بالضرورة من له تخيل صحيح ، واستوضح ذلك من كرة حقيقية على سطح حقيقي فإنها لا تماسه إلا بنقطة فبأدنى شيء ولو نفخة تتدحرج عن مكانها .

(217/433)

نعم الواقع في نفس الأمر أحد الأمرين معيناً وذكرهما توسيع للدائرة وهو أمر شائع فيما بينهم فيندفع قوله : وأما الثاني : فلأن الفلاسفة الخ ، وأما قوله : إنه قد ثبت في الهندسة الخ

فجوابه أنهم قد صرحوا في كتب الهيئة بأن في كل اقليم ثلاثين جبلاً بل أكثر فنسبة كل جبل وإن كانت كالنسبة المذكورة لكن يجوز أن يكون مجموعها مانعاً عن حركتها كالحبل المؤلف من الشعرات المخالف حكمه حكم كل شعرة ، على أن تلك النسبة باعتبار الحجم ومنعها عن حركتها باعتبار الثقل وثقل هذه الجبال يكاد أن يقاوم ثقل الأرض لأن الجبال أجسام صلبة حجرية والأرض رخوة متخلخلة كالكرة الخشبية التي ألزقت عليها حبات من حديد ، وما يقال : من أن فيه غير ذلك ابتناء على قواعد الفلسفة فلا يطعن فيه لأن ذلك الابتناء غير مضر إن لم يخالف القواعد الشرعية كما فيما نحن فيه ، واعترض على ما ادعى المعترض صحته بأنه يرد عليه ما أورد ، وظني أنه بعد الوقوف على مراده لا يرد عليه شيء مما ذكر ، ونحن قد أسلفنا نحوه واطنبنا الكلام في هذا المقام ومنه يظهر ما هو الأوفق بقواعد الإسلام ، ثم ما ذكره المجيب من أن المصرح به في كتب الهيئة أن في كل اقليم ثلاثين جبلاً بل أكثر خلاف المشهور وهو أن في الاقليم الأول عشرين وفي الثاني سبعة وعشرني وفي الثالث ثلاثة وثلاثين وفي الرابع خمسة وخمسين وفي الخامس ثلاثين وفي كل من السادس والسابع أحد عشر والمجموع مائة وسبعة وثمانون جبلاً على أن كلامه لا يخلو عن مناقشة فتدبر ، ومعنى ﴿ ألقى ﴾ على ما نقل ابن عطية عن المتأولين خلق وجعل ، واختار هو أنه أخص من ذلك وذلك أنه يقتضي أن الله سبحانه أوجد الجبال من محض قدرته

واختراعه لا من الأرض ووضعها عليها وأيد بأخبار رووها في هذا المقام وقد تقدم بعضها ، ولم يعد بعلى كما في قوله تعالى :

(218/433)

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ [طه : 39] للإشارة إلى كمال الجبال ورسوخها وثباتها في الأرض حتى كأنها مسامير في ساجة وانظر هل تعد من الأرض فيحنث من حلف لا يجلس على الأرض إذا جلس عليها أم لا فلا يحنث لم يحضرني من تعرض لذلك ، والظاهر الأول لعد العرف إياها منها وإن كان ظاهر هذه الآية كغيرها عدم العد ، وقوله تعالى : ﴿ وأنهارا ﴾ عطف على رواسي والعامل فيه ﴿ ألقى ﴾ إلا أنه تسلطه عليه باعتبار ما فيه من معنى الجعل والخلق أو تضمينه إياه ، وعلى التقديرين لا إضمار وهو الذي اختاره غير واحد ، وجوز أن يكون مفعولاً به لفعل مضمر وليس إجماعاً خلافاً لابن عطية ، أي وجعل أو خلق أنهاراً نظير ما قيل في قوله :

علقتها تبناً وماء بارداً . . .

وقدر أبو البقاء شق والعطف حينئذ من عطف الجمل وكأنه لما كان أغلب منابع الأنهار من الجبال ذكر الأنهار بعدما ذكر الجبال ، وقوله تعالى : ﴿ وَسُبُلاً ﴾ عطف على ﴿

أَنْهَارًا ﴾ أي وجعل طرقاً لمقاصدكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لها فالتعليل بالنظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَسُبُلًا ﴾ كما هو الظاهر ، ويجوز أن يكون تعليلاً بالنظر إلى جميع ما تقدم لأن تلك الآثار العظام تدل على بطلان الترك ، وقيل : تدل على وجود فاعل حكيم ففي قوله تعالى : ﴿ تَهْتَدُونَ ﴾ تورية حينئذ .

﴿ وعلامات ﴾ معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب ، فقد حكى أن من الناس من يشم التراب فيعرف بشمه الطريق وأنها مسلوكة أو غير مسلوكة ولذا سميت المسافة مسافة أخذاً لها من السوف بمعنى الشم ، وأخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس أنها معالم الطرق بالنهار .

وعن الكلبي أنها الجبال .

وعن قتادة أنها النجوم ، وقال ابن عيسى : المراد منها الأمور التي يعلم بها ما يراد من خط أو لفظ أو إشارة أو هيئة ، والظاهر ما ذكر أولاً ؛ وأغرب ما فسرت به وأبعده أن المراد منها حيتان طوال رقاق كالحيات في ألوانها وحركاتها تكون في بحر الهند الذي يسار إليه من اليمن ، سميت بذلك لأنها إذا ظهرت كانت علامة للوصول إلى بلاد الهند وأمارة للنجاة

﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بالليل في البر والبحر ، والمراد بالنجم الجنس فيشمل الخنس وغيرها مما يهتدي به ، وعن السدي تخيص ذلك بالثريا والفرقدين وبنات نعش والجدي ؛ وعن الفراء تخصيصه بالجدي والفرقدين ، وعن بعضهم أنه الثريا فإنه علم بالغلبة لها ، ففي الحديث إذا طلع النجم ارتفعت العاهة ، وقال الشاعر :

حتى إذا ما استقر النجم في غلس . . .

وغودر البقل ملوى ومحصود

وعن ابن عباس أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : هو الجدي ولو صح هذا لا يعدل عنه ، والجدي هو جدي الفرقد ، وهو على ما في المغرب بفتح الجيم وسكون الدال والمنجمون يصغرونه فرقاً بينه وبين البرج ، وقيل : إنه كذلك لغة ، واستدل على إرادة ما يعم ذلك بما في "اللوامح" عن الحسن أنه قرأ ، وبالنجم ﴿ بضمتين ﴾ وعن ابن وثاب أنه قرأ بضم فسكون فإن ذلك في القراءتين جمع كسقف وسقف ورهن ورهن والتسكين قيل للتخفيف ، وقيل : لغة ، والقول بأن ذلك جمع على فعل أولى مما قيل : إن أصله النجوم فحذفت الواو ؛ وزعم ابن عصفور أن قولهم : النجم من ضرورة الشعر وأنشد :

إن الذي قضى بذا قاض حكم . . .

أن يرد الماء إذا غاب النجم

وهو نظير قوله :

حتى إذا ابتلت حلاقيم الحلق . . .

(220/433)

والضمير يحتمل أن يكون عاماً لكل سالك في البر والبحر من المخاطبين فيما تقدم ، وتغيير التعبير للالتفات ، وتقديم الجار والمجرور للفاصلة والضمير المنفصل للتقوى ويحتمل أن كيون الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين للاهتداء في مسايرهم بالنجم ، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب ، وتقديم الجار والضمير للتخصيص كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون ، فالاعتبار بذلك والشكر عليه بالتوحيد الزم لهم وأوجب عليهم ، وجعل بعضهم الآية أصلاً لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق فلا بأس بتعلم ما يفيد تلك المعرفة ، لكن معرفة عين القبلة على التحقيق بالنجوم متعسر بل متعذر كما أفاده العلامة الرباني أبو العباس أحمد بن البناء لأنه إن اعتبر ذلك بما يسامت رؤوس أهل مكة من النجوم فليس مسقط العمود منه على بسيط مكة هو العمود الواقع منه على بسيط غيرها من المدن ، وإن اعتبر بالجدي فلا يلزم من أن يكون في مكة على الكتف أو على المنكب أن يكون في غيرها كذلك إلا لمن يكون في دائرة السمت المارة برؤوس أهل

مكة والبلد الآخر ، وذلك مجهول لا يتوصل إليه إلا بمعرفة ما بين الطولين والعرضين وهو شيء اختلف في مقداره ولم يتعين الصحيح فيه ، وقول من قال : إن ذلك يعرف بجعل المصلي مثلاً الشمس بين عينيه إذا استوت في كبد السماء أطول يوم في السنة فمتى فعل ذلك فقد استقبل البيت إن أراد بكبد السماء فيه كبد سماء بلده فليس بصحيح لأن الشمس لا تستوي في كبد السماء في وقت واحد في بلدين متنائيين كثيراً ، وإن أراد به كبد سماء مكة فلا يعلم ذلك في بلد آخر إلا بمعرفة ما بين البلدين في الطول ، وقد سمعت ما في ذلك من الاختلاف ، ويقال نحو هذا فيما يشبه ما ذكر بل قال قدس سره : إن معرفة ذلك على التحقيق بما يذكرونه من الدائرة الهندية ونحوها متعذر أيضاً لأن مبنى جميع ذلك على معرفة الأطوال والعروض ودون تحقيق ذلك خرط القتاد ، فلا

ينبغي أن يكون الواجب على المصلي إلا تحلي الجهة ومعرفة الجهة تحصل بالنجوم وكذا بغيرها مما هو مذكور في محله .

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ ما ذكر من المخلوقات البديعة أو يخلق كل شيء يريده ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئاً ما جليلاً أو حقيراً ، وهو تبكيت للكفرة وإبطال لإشراكهم وعبادتهم غيره تعالى شأنه من الأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينه سبحانه وبينه بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهراً ، وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المشابهة المذكورة على ما فعل سبحانه من الأمور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى شأنه المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به غير آية ؛ والاقتصار على ذكر الخلق من بين ما تقدم لكونه أعظمه وأظهره واستتباعه إيته أو لكون كل من ذلك خلقاً مخصوصاً أي أبعد ظهور اختصاص سبحانه بمبدئية هذه الشؤون الواضحة الدالة على وحدانيته تعالى وتفرد بالألوهية واستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل عن ذلك بالمرة كما هو قضية إشراككم ، وكان حق الكلام بحسب الظاهر في بادىء النظر أفمن لا يخلق كمن يخلق ، لكن قيل : حيث كان التشبيه نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفادياً عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيهاً على كمال قبح ما فعلوه من حيث أن ذلك ليس مجرد رفع أصنامهم عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية إلى مرتبة الجماد ولا ريب أنه أقبح من الأول ، والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه من ذوي العلم كالملائكة وعيسى عليهم السلام وغيرهم كالأصنام ، وأتى

﴿ بِمَن ﴾ تغليباً لذوي العلم على غيرهم مع ما فيه من المشاكلة أو ذوو العلم خاصة ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص ، فإن من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة ذوي العلم فما ظنك بالجماد ، وقيل : المراد به الأصنام خاصة ، والتعبير ﴿ بِمَن ﴾ إما للمشاكلة أو بناء على ما عند عبدتهما ، والأولى ما تقدم ، ودخول الأصنام في حكم عدم المشابهة إما بطريق الاندراج أو بطريق

الانفهام بدلالة النص على الطريق البرهاني قاله بعض المحققين .

واستدل بالآية على بطلان مذهب المعتزلة في زعمهم أن العباد خالقون لأفعالهم .

وقال الشهاب بعد أن قرر تقدير المفعول عاماً على طرز ما ذكرنا : وجوز أن يكون العموم فيه مأخوذاً من تنزيل الفعل منزلة اللازم أنه علم من هذا عدم توجه الاحتجاج بها على المعتزلة في إبطال قولهم بخلق العباد أفعالهم كما وقع في كتب الكلام لأن السلب الكلي لا ينافي الإيجاب الجزئي اه حسبما وجدناه في النسخ التي بأيدينا ولعلها سقيمة وإلا فلا أظن ذلك إلا كبوة جواد وهو ظاهر ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي ألا تلاحظون فلا تذكرون ذلك فإنه لجلائه لا يحتاج إلى شيء سوى التذكر وهو مراجعة ما سبق تصوره وذهل عنه ، وقدر

بعضهم المفعول عدم المساواة ، وذكر أنه لعدم سبقه حتى يتصور فيه حقيقة التذكر بأن يتصور ويذهل عنه جعل التذكر استعارة تصريحية للعلم به ، وقيل : الاستعارة مكنية في المفعول المقدر وإثبات التذكر تخييل فتذكر .

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾

تذكير إجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها ، وفصل ما بينهما بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] كما قيل للمبادرة إلى إلزام الحجة والقام الحجر إثر تفصيل ما فصل من الأفاعيل التي هي أدلة التوحيد ، ودلالتها عليه وإن لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليه من حيثية الأنعام أيضاً لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الأولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الإجمالي أي إن تعدوا نعمه تعالى الفائضة عليكم مما ذكر ومما يذكر لا تطيقوا حصرها وضبط عددها فضلاً عن القيام بشكرها ، وقد تقدم الكلام في تحقيق ذلك حسبما من الله تعالى به ﴿ إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والإخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما

تأتون وما تذرون من أصناف الكفر والعصيان التي من جملتها المساواة بين الخالق وغيره ، وكل من ذينك الستر والإفاضة نعمة وأيما نعمة ، فالجملة تعليل للحكم بعدم الإحصاء ، وتقديم المغفرة على الرحمة لتقدم التخلية على التحلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(225/433)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) ﴾

ذكر جل وعلا في هاتين الآيتين اربع نعم من نعمه على خلقه ، مبيناً لهم عظيم منته عليهم بها :

الأولى - إلقاؤه الجبال في الأرض لتثبت ولا تتحرك ، وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن كقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً والجبال أَوْتَاداً ﴾ [النبأ : 6-7] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ ﴾ [الأنبياء : 31] الآية ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ [المرسلات : 27] ، وقوله جل وعلا : ﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ

تَرَوْنَهَا وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: 10] الآية، وقوله: ﴿ والجبال أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات: 32] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

ومعنى تميد: تميل وتضطرب.

وفي معنى قوله ﴿ أَنْ ﴾ وجهان معروفان للعلماء: أحدهما - كراهة أن تميد بكم.

زالثاني - أن المعنى: لئلا تميد بكم. وهما متقاربان.

الثانية - إجواؤه الأنهار في الأرض المذكور هنا في قوله: ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ وكرر تعالى في القرآن الامتنا بتفجيره الماء في الأرض لخقه: كقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر... ﴾ [إبراهيم: 32-33] الآية، وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: 68-70]، وقوله: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ [يس: 34-35] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالثة - جعله في الأرض سبلاً يسلكها الناس، ويسيرون فيها من قطر إلى قطر طلب حاجاتهم المذكور هنا في قوله: ﴿ وَسُبُلاً ﴾ وهو جمع سبيل بمعنى الطريق. وكرر

الامتنان بذلك في القرآن . كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 31] ، وقوله : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأَرض بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح : 19-20] ، وقوله : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه : 52-53] ، وقوله : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرض ذَلُولاً فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك : 15] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأَرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرض مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 9-10] ، إلى غير ذلك من الآيات .

الرابعة - جعله العلامات لبني آدم . ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر المذكور هنا في قوله : ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . وقد ذكر الامتنان بنحو ذلك في القرآن في قوله : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ [الأنعام : 97] الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ الآية .

تقدم بيان مثل هذه الآية في موضعين .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن بني آدم لا يقدرون على إحصاء نعم الله لكثرتها عليهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فدل ذلك على تقصير بني آدم في شكر تلك النعم، وأن الله يغفر لمن تاب منهم، ويغفر لمن شاء أن يغفر له ذلك التقصير في شكر النعم. وبين هذا المفهوم المشار إليه هنا بقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: 34].

وبين في موضع آخر أن كل النعم على بني آدم منه جل وعلا، وذلك في قوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل: 53] الآية.

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن المفرد إذا كان اسم جنس وأضيف إلى معرفة أنه يعم كما تقرر في الأصول. لأن "نعمة الله" مفرد أضيف إلى معرفة فعم النعم. وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود عاطفاً على صيغ العموم:

أو بإضافة إلى معرف... إذا تحقق الخصوص قد نفي. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) ﴾

انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان .

وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض .

ولعلّ خلقها كان متأخراً عن خلق الأرض ، إذ لعلّ الجبال انبثقت باضطرابات أرضيّة كالزلزال العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار .

وأما السبل والعلامات فتأخّر وجودها ظاهر ، فصار خلق هذه الأربعة شبيهاً بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه .

ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض ، كما أن الأمطار تهاطلت فكوّنت الأنهار ؛ فيكون تشبيه حصول هذين بالإلقاء بيّناً .

وإطلاقه على وضع السبل والعلامات تغليب .

ومن إطلاق الإلقاء على الإعطاء ونحوه قوله تعالى : ﴿ ءألقي الذكر عليه من بيننا ﴾ [سورة القمر : 25] .

و﴿ رواسي ﴾ جمع راس .

وهو وصف من الرسْو بفتح الراء وسكون السين .

ويقال بضم الراء والسين مشددة وتشديد الواو .

وهو الثبات والتمكن في المكان ، قال تعالى : ﴿ وقدور راسيات ﴾ [سورة سبأ : 13

] .

ويطلق على الجبل راس بمنزلة الوصف الغالب .

وجمعه على زنة فواعل على خلاف القياس .

وهو من النوادر مثل عَواذل وفوارس .

وتقدم بعض الكلام عليه في أول الرعد .

وقوله تعالى : أن تميد بكم ﴾ تعليل لإلقاء الرواسي في الأرض .

والمَيْد : الاضطراب .

وضمير ﴿ تميد ﴾ عائد إلى ﴿ الأرض ﴾ بقرينة قرنه بقوله تعالى : ﴿ بكم ﴾ ، لأن

الميد إذا عُدّي بالباء علم أن المجرور بالباء هو الشيء المستقرّ في الظرف المَائد ،

والاضطراب يعطّل مصالح الناس ويلحق بهم آلاماً .

ولما كان المقام مقام امتنان علم أن المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعُه .

فالكلام جارٍ على حذفٍ تقتضيه القرينة ، ومثله كثير في القرآن وكلام العرب ، قال عمرو بن كلثوم:

فعجّلنا القِرى أن تشتمونا . . .

أراد أن لا تشتمونا .

فالعلّة هِي انتفاء الشتم لا وقوعه .

ونحاة الكوفة يخرجون أمثال ذلك على حذف حرف النّفي بعد ﴿ أنْ ﴾ .

والتقدير : لأن لا تميد بكم ولئلا تشتمونا ، وهو الظاهر .

ونحاة البصرة يخرجون مثله على حذف مضاف بين الفعل المعلل و ﴿ أنْ ﴾ .

تقديره : كراهيّة أن تميد بكم .

وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية معنى غامض .

ولعلّ الله جعَل نتوء الجبال على سطح الأرض معدّلاً لكرويتها بحيث لا تكون بجدّ من الملاسة يخفّف حركتها في الفضاء تخفيفاً يوجب شدّة اضطرابها .

ونعمة الأنهار عظيمة ، فإن منها شرابهم وسقي حرثهم ، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم .

ولهذه المنّة الأخيرة عطف عليها ﴿ وسبلاً ﴾ جمع سبيل .

وهو الطريق الذي يسافر فيه براً .

وجملة ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ معترضة ، أي رجاء اهتدائكم .

وهو كلام موجه يصلح للاهتداء إلى المقاصد في الأسفار من رسم الطرق وإقامة المراسي على الأنهار واعتبار المسافات .

وكل ذلك من جعل الله تعالى لأن ذلك حاصل بإلهامه .

ويصلح للاهتداء إلى الدّين الحقّ وهو دين التوحيد ، لأن في تلك الأشياء دلالة على الخالق المتوحّد بالخلق .

والعلامات : الأمارات التي ألهم الله الناس أن يضعوها أو يتعارفوها لتكون دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البرّ والبحر فتتبعها السابلة .

وجملة ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ ، لأنها في معنى : وهداكم بالنجم فأنتم تهتدون به .

وهذه منّة بالاهتداء في الليل لأن السبيل والعلامات إنما تهدي في النهار ، وقد يضطرّ السالك إلى السير ليلاً ؛ فمواقع النجوم علامات لاهتداء الناس السائرين ليلاً تعرف بها السموات ، وأخصّ من يهتدي بها البحّارة لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة فهم

مضطرّون إلى السير ليلاً ، وهي هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر ،

ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى : ﴿ وبالنجم ﴾ تقديماً يفيد الاهتمام ، وكذلك بالمسند الفعلي في قوله تعالى : ﴿ هم يهتدون ﴾ .

وعدل عن الخطاب إلى الغيبة التفاتاً يومىء إلى فريق خاص وهم السيّارة والملاّحون فإن هدايتهم بهذه النجوم لا غير .

والتعريف في "النجم" تعريف الجنس .

والمقصود منه النجوم التي تعارفها الناس للاهتداء بها مثل القطب .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ﴾ في [سورة الأنعام : 97] .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله تعالى ﴿ هم يهتدون ﴾ لمجرّد تقوي الحكم ، إذ لا يسمح المقام بقصد القصر وإن تكلّفه في "الكشاف" .

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) ﴾

بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق ابتداء من قوله تعالى ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ [سورة النحل : 3] وثبتت المنّة وحقّ الشّكر ، فرع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلّة السابقة إنكاراً على المشركين .

فالاستفهام عن المساواة إنكاري ، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق .

فالكاف للمماثلة ، وهي مورد الإنكار حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى .

ومن مضمون الصّلتين يعرف أي الموصولين أولى بالإلهية فيظهر مورد الإنكار .

وحين كان المراد بمن لا يخلق الأصنام كان إطلاق من الغالبة في العاقل مشاكلة لقوله ﴿ أفمن يخلق ﴾ .

(231/433)

وفرع على إنكار التسوية استفهامُ عن عدم التذّكر في انتفائها .

فالاستفهام في قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ مستعمل في الإنكار على انتفاء التذكر ، وذلك يختلف باختلاف المخاطبين ، فهو إنكار على إعراض المشركين عن التذكر في ذلك .

جملة ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ عطف على جملة ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ .

وهي كالتكملة لها لأنها نتيجة لما تضمنّته تلك الأدلّة من الامتنان كما تقدم .

وهي بمنزلة التذييل للامتنان لأن فيها عموماً يشمل النعم المذكورة وغيرها .

وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على الناس بحيث لا يستطيع عدّها

العادّون ، وإذا كانت كذلك فقد حصل التّنبيه إلى كثرتها بمعرفة أصولها وما يحويها من العوالم .

وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم ، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم ، وتغليظ التهديد لهم .

وتقدم نظيرها في سورة إبراهيم .

وجملة ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ استئناف عُقب به تغليظ الكفر والتّهديد عليه تنبيهاً على تمكّنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك ، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون ، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون .

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم ، إذ وقع هنالك ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ [سورة إبراهيم : 34] لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديدٍ عقب قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا ﴾ [سورة إبراهيم : 28] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله .

وأما هذه الآية فقد جاءت خطاباً للفريقين كما كانت النّعم المعدودة عليهم منتفعاً بها كلاهما .

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم لظلوم كفار ﴾ بوصفين هنا ﴿ لغفور رحيم ﴾ إشارة إلى أن تلك النّعم كانت سبباً لظلم الإنسان وكفره وهي

سبب لغفران الله ورحمته .

والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(232/433)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) ﴾

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلِقت على مراحل ، ويشرح ذلك قوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت : 9-10] .

وهكذا عَلِمنا أن جِرْم الأرض العام قد خُلِق أولاً ؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة ؛ ولأن الحركة هي التي تأتي بالمَيدان التّأرجُّح يميناً وشمالاً وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق في الأرض الرواسي لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة والرّاسي هو الذي يَثبت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال ، ولكنه خلق الأرض

على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] . وكلمة ﴿ وألقى ﴾ تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وُضِع ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

﴿ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً ﴾ [النحل : 15] .

ولم يَأْتِ الحق سبحانه فعل يناسب الأنهار ، ومن العجيب أن الأسلوب يجمع جماداً في الجبال ، وسيولة في الأنهار ، وسبلاً أي طرقاً ، وكُلُّ ذلك :

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 15] .

أي : أن الجَعْل كلَّه لعلنا نهتدي .

ونعلم أن العرب كانوا يهتدوا بالجبال ، ويجعلون منها علامات ، والمثَل هو جبل " هرشا " الذي يقول فيه الشاعر :

خُذُوا بَطْن هرشا أو قَفَاهَا فإنَّهُ . . . كِلاَ جَانِبي هرشا لَهُنَّ طَرِيقُ

وأيضاً جبل التوباد كان يُعتبر علامة .

وكذلك قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] .

وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنها علاماتٌ نهتدي بها إلى الطرق وإلى الأماكن ، وتلك من المهام الجانبية للجبال .

أو :

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 15] .

باتعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم ، كي تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) ﴾

أي : أن ما تقدم من خَلْق الله هو علامات تدلُّ على ضرورة أنْ تروا المنافع التي أودعها الله فيما خلق لكم ؛ وتهتدوا إلى الإيمان بإله مُوجِد لهذه الأشياء لصالحكم .

وما سبق من علامات مَقرُّه الأرض ، سواء الجبال أو الأنهار أو السُّبل ؛ وأضاف الحق سبحانه لها في هذه الآية علامة توجد في السماء ، وهي النجوم .

ونعلم أن كلَّ مَنْ يسير في البحر إنما يهتدي بالنجم . وتكلم عنها الحق سبحانه هنا كتسخير مُخْتص ؛ ولم يُدخِلها في التسخيرات المتعددة ؛ ولأن نجماً يقود لنجم آخر ، وهناك نجوم لم يصلنا ضوؤها بعد ، وننتفع بآثارها من خلال غيرها .

ونعلم أن قريشاً كانت لها رحلتان في العام : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وكانت تسلك سبلاً متعددة ، فتهتدي بالنجوم في طريقها ، ولذلك لا بد أن يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 16] .

قد فضَّل الحق هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أنْ تُؤدي المعنى ؛ هي : " يهتدون بالنجم " و " بالنجم يهتدون " والثالث : هو الذي استخدمه الحق فقال :

﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 16] .

وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم ؛ لأنها تسافر كل عام رحلتين ، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة .

والضمير " هم " جاء ليعطي خصوصيتين ؛ الأولى : أنهم يهتدون بالنجم لا بغيره ؛ والثانية : أن قريشاً تهتدي بالنجم ، بينما غيرُها من القبائل لا تستطيع أن تهتدي به .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) ﴾

ونعلم أن الكلام الذي يلقيه المتكلم للسامع يأخذ صوراً متعددة؛ فمرَّة يأخذ صورة الخبر، كأن يقول: مَنْ لا يخلق ليس كَمنْ يخلق. وهذا كلام خبريّ، يصح أنْ تُصدّقه، ويصحّ ألاَّ تُصدّقه.

أما إذا أراد المتكلم أن يأتي منك أن التصديق، ويجعلك تنطق به؛ فهو يأتي لك بصيغة سؤال، لا تستطيع إلا أنْ تجيبَ عليه بالتأكيد لِمَا يرغبه المتكلِّم.

ونعلم أن قريشاً كانت تعبد الأصنام؛ وجعلوها آلهة؛ وهي لم تكلمهم، ولم تُنزِل منهجاً، وقالوا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: 3].

فلماذا إذن لا يعبدون الله مباشرة دون وساطة؟ ولماذا لا يرفعون عن أنفسهم مشقة العبادة، ويتجهون إلى الله مباشرة؟

ثم لنسأل: ما هي العبادة؟

نعلم أن العبادة تعني الطاعة في "افعل" و "لا تفعل" التي تصدر من المعبود. وبطبيعة الحال لا توجد أوامر أو تكاليف من الأصنام لِمَنْ يعبدونها، فهي معبودات بلا منهج، وبلا جزاء لِمَن خالف، وبلا ثواب لِمَنْ أطاع، وبالتالي لا تصلح تلك الأصنام للعبادة.

ولنناقش المسألة من زاوية أخرى، لقد أوضح الحق سبحانه أنه هو الذي خلق السماوات

والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر كل الكائنات لخدمة الإنسان الذي أوكل إليه مهمة خلافته في الأرض .

وكلُّ تلك الأمور لا يدعيها أحد غير الله ، بل إنك إنْ سألتَ الكفار والمشركين عمَّن خلقهم ليقولن الله .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف : 87] .

ذلك أن عملية الإيجاد والخَلْق لا يجرؤ أحدٌ أنْ يدَّعيها إنْ لم يكُنْ هو الذي أبدعها ، وحين تسألهم : مَنْ خلق السماوات والأرض لقالوا : إنه الله .

وقد أبلغهم محمد صلى الله عليه وسلم أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض ، وأن منهجه لإدارة الكون يبدأ من عبادته سبحانه .

وما دام قد ادَّعى الحق سبحانه ذلكن ولم يوجد مَنْ ينازعه ؛ فالدعوة تثبُت له إلى أنْ يوجد معارض ، ولم يوجد هذا المُعَارض أبداً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لم يَقُل الحق سبحانه " أتجعلون مَنْ لا يخلق مِثْل من يخلق " . بل قال :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] .

ووراء ذلك حكمة ؛ فهؤلاء الذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله ؛ وتوهَّموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام ؛ ولذلك جاء القول الذي يناسب هذا التصوُّر .

والحق سبحانه يريد أنْ يبطل هذا التصوُّر من الأساس ؛ فأوضح أن مَنْ تعبدونهم هم أصنام من الحجارة وهي مادة ولها صورة ، وأنتم صنعتموها على حَسْب تصوُّركم وقدراتكم .

وفي هذه الحالة يكون المعبود أقلَّ درجة من العابد وأدنى منه ؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لِمَنْ يعبدها ضرا ولا نفعاً .

ثم : لماذا تدعون الله إنْ مسَّكم ضُرٌّ ؟

إن الإنسان يدعو الله في موقف الضر ؛ لأنه لحظتها لا يجرؤ على خداع نفسه ، أما الآلهة التي صنعوها وعبدوها فهي لا تسمع الدعاء : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : 14] .

فكيف إذن تساوون بين مَنْ لا يخلق ، ومن يخلق ؟ إن عليكم أنْ تتذكَّروا ، وأنْ تتفكروا ، وأن تُعْمِلوا عقولكم فيما ينفعكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) ﴾

وهذه الآية سبقتْ في سورة إبراهيم؛ فقال الحق سبحانه هناك : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] .

وكان الحديث في مجال مَنْ لم يعطوا الألوهية الخالقة، والربوبية الموجدة، والمُمِدَّة حَقَّها ، وجحدوا كل ذلك . ونفس الموقف هنا حديث عن نفس القوم، فيُوضِّح الحق سبحانه : أنتم لو استعرضتم نِعَمَ الله فلن تحصوها ، ذلك أن المعدود دائماً يكون مكرر الأفراد ؛ ولكن النعمة الواحدة في نظرك تشتمل على نِعَم لا تُحصَى ولا تُعَد ؛ فما بالك بالنِّعم مجتمعة ؟ أو : أن الحق سبحانه لا يمتنُّ إلا بشيء واحد ، هو أنه قد جاء لكم بنعمة ، وتلك النعمة أفرادها كثير جداً .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 18] .

أي : أنكم رغم كُفْركم سيزيدكم من النعم ، ويعطيكم من مناط الرحمة ، فمنكم الظلم ، ومن الله الغفران ، ومنكم الكفر ومن الله الرحمة .

وكأنَّ تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية التي في سورة إبراهيم حيث قال هناك : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] .

فهو سبحانه غفور لجحدكم ونُكْرانكم لجميل الله ، وهو رحيم ، فيوالي عليكم النِّعَم رغم أنكم ظالمون وكافرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(237/433)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أن تَميدَ ﴾ : ، أي : كراهةَ أَنْ تَمِيْدَ ، أو : لئلاَّ تَمِيْدَ .

قوله : " وأنهاراً " عطفٌ على " رَوَاسي " لأنَّ الإِلقاءَ بمعنى الخَلْقَ . وادّعاءُ ابنِ عطية أنه منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ ، أي : وجَعَل فيها أنهاراً ، ليس كما ذكره . وقدَّره أبو البقاء : " وشَقَّ فيها أنهاراً " وهو مناسِبٌ ، و " سُبُلاً " ، أي : وذلَّل ، أو : وجعل فيها طُرُقاً .

و ﴿ وَعَلامَاتٍ ﴾ ، أي : ووَضَعَ فيها علاماتٍ .

قوله تعالى : ﴿ وبالنجم ﴾ متعلِّق ب " يهتدون " . والعامَّةُ على فتحِ النونِ وسكونِ الجيمِ بالتوحيدِ فقيل : المرادُ به كوكبٌ بعينه كالجَدْيِ أو الثُّرَيَّا . وقيل : بل هو اسمُ جنسٍ . وقرأ ابن وثاب بضمِّهما ، والحسنُ بضمِّ النون فقط ، وعَكَسَ بعضُهم النَّقْلَ عنهما .

فأمّا قراءةُ الضمتين ففيها تخريجان، أظهرُهما: أنها جمعٌ صريحٌ لأنَّ فَعْلاً يُجمع على فُعُل نحو: سَقْف وسُقُف، ورَهْن ورُهُن. / والثاني: أنَّ أصلَه النجومُ، وفَعْل يُجمع على فُعُول نحو: فَلْس وفُلُوس، ثم خُفِّف بحَذْفِ الواوِ كما قالوا: أَسَد وأُسُود وأُسُد. قال أبو البقاء: "وقالوا في خِيام: خِيَم، يعني أنه نظيرُه، من حيث حَذَفوا منه حرفَ المدِّ. وقال ابنُ عصفور: إن قولهم "النُّجُم مِنْ ضرورة الشعر" وأنشد:

2967- إنَّ الي قَضَى بذا قاضٍ حَكَمْ ... أن تَرِدَ الماءَ إذا غابَ النُّجُمْ

يريد: النحوم، كقوله:

2968- حتى إذا ابْتَلَّتْ حَلاقِيمُ الحُلُقْ ... يريد الحُلُوق.

وأمّا قراءةُ الضمِّ والسكونِ ففيها وجهان، أحدهما: أنها تخفيفٌ من الضم. والثاني: أنها لغةٌ مستقلة.

(238/433)

وتقديمُ كلٍّ من الجار والمبتدأ يفيد الاختصاصَ. قال الزمشخري: "فإن قلت: قوله: ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ مُخْرَجٌ عن سَنَنِ الخِطاب، مقدَّم فيه النجم، مُقْحَمٌ فيه [هم]، كأنه قيل: وبالنجمِ خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدونَ، فَمَنْ المرادُ بهم؟ قلت: كأنَّه أراد

قريشاً ، كان لهم اهتداءٌ بالنجوم في مسائِرهم ، وكان لهم به عِلْمٌ لم يكنْ لغيرِهم فكان الشكرُ عليهم أوجبَ ولهم ألْزَمَ " .

﴿ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ إنْ أُريد ب " مَنْ لا يَخْلُق " جميعُ ما عُبِد مِنْ دونِ الله كان ورودُ " مَنْ " واضحاً ؛ لأن العاقلَ يُغَلَّبُ على غيرِه ، فيُعبَّر عن الجميع ب " مَنْ " ولو جِيْءَ ب " ما " أيضاً لجاز ، وإنْ أريد به الأصنامُ ففي إيقاعِ " مَنْ " عليهم أوجهٌ ، أحدُها : إجراؤهم لها مُجْرى أُولي العلمِ في عبادتهم إياها واعتقادِ أنها تَضُرُّ وتنفع كقوله :

2969- بَكَيْتُ إلى سِرْبِ القَطا إذْ مَرَرْنَ بي . . . فقلتُ ومِثْلي بالبكاءِ جديرُ

أسِرْبَ القَطا هل مَنْ يُعيرُ جناحَه . . . لعلّي إلى مَن قد هَوِيْتُ أطيرُ

فأوقعَ على السِّرْب " مَنْ " لَمَّا عاملها معاملةَ العقلاءِ . الثاني : المشاكلةُ بينه وبين مَنْ يَخْلُق . الثالث : تخصيصُه بمَنْ يَعْلَم ، والمعنى : أنه إذا حَصَلَ التباُيُن بين مَنْ يَخْلُقُ وبين مَنْ لا يَخْلُق مِنْ أولي العلم ، وأنَّ غيرَ الخالقِ لا يَسْتحق العبادةَ البتة ، فكيف تستقيم عبادةُ الجمادِ المنحطِّ رتبةً ، الساقطِ منزلةً عن المخلوقِ من أولي العلم كقوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف : 195] إلى آخره ؟ وأمَّا مَنْ يُجيز إيقاعَ " مَنْ " على غيرِ العقلاءِ مِنْ شرطٍ كقطرب فلا يحتاج إلى تأويلٍ .

قال الزمخشريُّ : " فإن قلتَ : هو إلزامٌ للذين عَبَدوا الأوثانَ ونحوَها ، تشبيهاً بالله تعالى ، وقد جعلوا غيرَ الخالقِ مثلَ الخالق ، فكان حَقُّ الإلزامِ أن يُقال لهم : أفمَنْ لا يَخْلُق كمَنْ يَخْلق ؟ قلت : حين جعلوا غيرَ اللهِ مِثْلَ اللهِ لتسميتِهم باسمِه ، والعبادةِ له ، جعلوا من جنس المخلوقات وشبيها بها ، فأنكر عليهم ذلك بقولِه ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ .

أهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 202.205 ﴾

(240/433)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) ﴾

الرواسي في الظاهر الجبال ، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخَلْق ، بهم يرحمهم ، وبهم يغيثهم . . ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب . وفي الخبر : " الشيخ في قومه كالنبي في أمته " وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ ، [

الفتح : 45] وأنشد بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم . . . هم المصابيح والأمن والمزن

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) ﴾

الكواكبُ نجومَ السماء ومنها رجومٌ للشياطين ، والأولياء نجومٌ في الأرضِ . وكذلك العلماء وهم أئمة في التوحيد وهم رجومٌ للكُفَّار والملحدين .

ويقال فرْقٌ بين نجوم يهْتَدَى في فِجَاج الدنيا ، ونجومٍ يُهْتَدَى بهم إلى الله تعالى .

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) ﴾

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه – سبحانه – وبين خَلْقِه . وصفاتُ القِدَمِ لله مُسْتَحَقَّة ، وما هو من خصائصِ الحدثان وسِماتِ الخْلق يتقدّس الحقّ – سبحانه – عن جميع ذلك . ولا تُشَبّه ذاتُ القديم بذواتِ المخلوقين ، ولا صفاتُه بصافِتهم ، ولا حُكمُه بحُكمِهم ، وأصل كُلِ ضلالةٍ التشبيهُ ، ومِنْ قُبْحِ ذلك وفسادِه أنّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه ويستنكِفُ من انتحاله .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) ﴾

الموجودات ُلا تحصوها ِلتقاصُرِ علومِكم عنها ، وما هو من ِنعمَ الدفع نهاية له ، وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره ، ويرضى بمعرفتكم (. . . .) لكم عن شكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 290 ﴾

(242/433)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(73) ﴿ وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * ﴾

بقلم : د . زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف الربع الأول من سورة النحل , وهي سورة مكية , وآياتها 128 بعد البسملة , وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلي النحل , وما وهبه الله (تعالي) من فطرة عجيبة مكنته من بناء خلاياه , وتنظيم حياته , وسلوك

مختلف السبل بسهولة ويسر , وإخراج هذا الشراب الذي فيه شفاء للناس من بطون إناثه ,
وقد سميت مجموعات النحل بهذا الاسم لأن الله (تعالي) قد نحلها هذه القدرة علي
إخراج العسل , وميزها بها عن غيرها من الحشرات .

وتعرض سورة النحل للركائز الأساسية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية ومنها حقيقة
الألوهية , وأن الله (تعالي) هو خالق كل شئ , وهو رب كل شئ ومليكه , وحقيقة
الوحدانية المطلقة للإله الخالق فوق جميع خلقه , وحقيقة طلاقة القدرة الإلهية التي لا
تحدها حدود , وطلاقة الإرادة الإلهية التي لا يعوقها عائق , وحقيقة الوحي , والنبوة
والرسالة , وقد أنزله الله (سبحانه وتعالي) علي فترة من الرسل , وأتمه وأكمله وختمه في
بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) , ولذلك
تعهد بحفظ رسالته الخاتمة حفظا كاملا بنص لغة وحيها , بينما أوكل حفظ الرسالات
السابقة لأصحابها فضيعوها .

وتعرض سورة النحل لحتمية البعث , وهي حقيقة لازمة , أنكرها الكافرون واستبعدوا
إمكانية وقوعها في القديم , كما ينكرونها اليوم ويستبعدون وقوعها , لعجزهم عن فهم
مدلول الألوهية الحقة , ومن هنا أنكروا وقوع عذاب الله بهم , وهو واقع لا محالة .

وتؤكد السورة أن

الحاكمية لله , ومن هنا كان له وحده (سبحانه وتعالي) الحق في التحليل والتحريم ,

وتعرض لمهام الأنبياء والمرسلين في تبليغ أوامر الله لعباده الذين أعطاهم حرية الاختيار بين الإيمان والكفر , والهدي والضلال , وجعل لهم علي ذلك من الثواب والعقاب ما يستحقون .

وتدعو سورة النحل إلي إقامة عدل الله في الأرض , والإحسان إلي الخلق , والوفاء بالعهد , كما تدعو إلي الإنفاق في سبيل الله , وإلي الهجرة من أجل إعلاء دينه , والتعريف به , وتحذر السورة من الوقوع في الفتن , ومن أشدها الكفر بعد الإيمان , وتؤكد العديد من مكارم الأخلاق وضوابط السلوك , وقواعد المعاملات انطلاقا من مخافة الله (تعالي) وخشية حسابه , وتذكر بأحوال الناس في حالات الضعف والقوة انتقالا من مراحل الأجنة في بطون الأمهات إلي الشباب والفتوة , ثم الهرم والشيخوخة , ومن أحوال النعمة والرخاء إلي أحوال الشدة والبلاء كما تذكر بلحظات الاحتضار وبمصارع الغابرين .

وتبدأ السورة الكريمة بالتحذير من فجائية الآخرة في تحد واضح للذين يستعجلونها , وهي واقعة لا محالة , ويستعجلون العذاب وهو واقع بهم , لا فكاك منه ولا مهرب , ثم تثني بتسبيح الله وتنزيهه (تعالي) عن الشريك , وتؤكد حقيقة إنزال الوحي من الله (سبحانه) علي من يشاء من عباده الذين اصطفاهم من الأنبياء والمرسلين لينذروا الناس بأنه لا إله إلا

الله , وأن علي الناس جميعا أن يتقوه وتعتب سورة النحل علي الذين كفروا . انطلاقا من صلفهم وعنتهم . أنهم طالبوا رسلهم بأن يأتوهم بالملائكة , او بتهديد الله لهم , وتشير الي عاقبة الذين طلبوا ذلك من قبل ; وتنعي علي الذين أشركوا ادعاءهم الكاذب بأن ذلك هو قدر الله عليهم , وتؤكد السورة أنه ما علي الرسل إلا البلاغ المبين , وأن الله (تعالي) قد بعث رسولا في كل أمة من الأمم يدعوهم إلي عبادة الله وحده , وإلي اجتناب

(244/433)

الطاغوت , فكان منهم مصدقون مهديون , ومكذبون عصاة , وتذكر بعواقب المكذبين . وتخاطب سورة النحل خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) . وهو الحريص علي هداية الخلق أجمعين . بأن الله (تعالي) لا يهدي من يضل , وأن الضالين لا نصير لهم . وتشير السورة الكريمة . في أكثر من موضع منها . إلي إنكار الكافرين للبعث , وتؤكد أنه وعد الله الذي لا يخلف وعده , حتي يجازي كلا بعمله , وأن أمر الله سريع النفاذ , وأنه بين الكاف والنون , كما تشير إلي الرسل السابقين وإلي رسالاتهم التي تكاملت كلها في القرآن الكريم الذي أنزله الله (تعالي) تبيانا لما اختلف فيه أهل الكتاب , وتحذر من عقاب الله للذين يمكرون السيئات , وتؤكد حتمية الحساب , وحتمية الثواب والعقاب .

وتلمح سورة النحل إلي حقيقة أن كل ما في السموات والأرض من دواب وملائكة خاضعون لله بالطاعة والعبادة , يسجدون له (تعالي) في غير استكبار , وتعاود التحذير من الشرك بالله رب السموات والأرض ومن فيهن , وصاحب النعم علي جميع الخلق , وكاشف الضر عنهم .

وتنكر السورة الكريمة علي أهل الجاهليات القديمة كراهيتهم لخلفة البنات , تلك الكراهية التي كانت تدفعهم الي وأد بناتهم أحياء . وتضرب سورة النحل عددا من الأمثال لتقارن بين غير الفاعلين من البشر , والفاعلين منهم الذين يأمرون بالعدل وهم علي صراط مستقيم .

وتؤكد سورة النحل أن الغيب المطلق في السموات والأرض لا يعلمه إلا الله , ومنه أمر الساعة الذي لا يأتي إلا بغتة , وأن الله (تعالي) علي كل شئ قدير .

وتستعرض السورة المباركة مواقف الظالمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة , وما سوف يتعرضون له من المهانة والعذاب , وتؤكد أن الأنبياء سوف يشهدون علي أممهم , وأن الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) سوف يشهد علي أمته وعلي الذين كذبوا نبوته وجحدوا رسالته منهم ومن الأمم

من بعدهم , وأن الله (تعالي) قد أنزل عليه القرآن العظيم (تبيانا لكل شيء وهدي ورحمة وبشري للمسلمين) .

وتؤكد سورة النحل أن الله (تعالي) يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي . . . , وتطالب المسلمين بالوفاء بعهد الله إذا عاهدوا , وبعدم نقض الأيمان بعد توكيدها , وتشير إلي أن الله (تعالي) لو شاء لجعل الناس أمة واحدة , ولكن منهم الضال والمهتدي , والطالح والصالح , وتقرر الآيات أن من عمل صالحا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

(النحل : 97)

وتأمر الآيات بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل البدء في تلاوة القرآن الكريم , وتؤكد أن ليس للشيطان سلطان علي الذين آمنوا , الذين علي ربهم يتوكلون , وإنما سلطانه علي الذين يتولونه والذين هم به مشركون .

وتشير سورة النحل إلي أن القرآن الكريم نزل به جبريل (عليه السلام) بالحق من لدن رب العالمين ليثبت الذين آمنوا وهدي وبشري للمسلمين , كما تشير إلي الادعاء الكاذب من الكافرين بأن الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) يتلقي ما أفاء الله (تعالي) عليه به من علم علي يد بشر , وتستنكر افتراء الكذب علي الله , والكفر به إلا من أكره وقلبه مطمئن

بالإيمان , وتقرر أن علي الكافرين غضبا من الله , وأن لهم عذاب عظيما .

وتعرض السورة الكريمة لشئ من المحرمات في الطعام من مثل الميتة والدم , ولحم الخنزير , وما أهل لغير الله به , إلا من اضطر غير باغ ولا عاد , فإن الله غفور رحيم , وتؤكد أن التحليل والتحريم من سلطة الله وحده , ولا يجرؤ عليه إلا كاذب علي الله , وتلمح إلي اليهود ومخالفتهم لأوامر الله بالاعتداء في السبت , وتذكر نبي الله إبراهيم (عليه السلام) بأنه كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين , وأن الله (تعالي) قد اجتباه وهداه إلي

صراط مستقيم , وأتاه في الدنيا حسنة , وجعله في الآخرة من الصالحين وتأمر الآيات رسول الله الخاتم (صلي الله عليه وسلم) أن يتبع ملة ابراهيم حنيفا .

وتختتم سورة النحل بدعوة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين) ومن بعده دعوة كل المؤمنين برسالته إلي أن يحملوا هذا الدين الخاتم المحفوظ بحفظ الله إلي غيرهم من الأمم بالحكمة والموعظة الحسنة , ومجادلتهم بالتي هي أحسن وبالصبر علي الكافرين والمشركين والمتشككين , والعفو عما يلقونه منهم من أذي في سبيل تبليغ دعوة الله إليهم , وإن عاقبوا فلا يجوز للعقاب أن يتعدي المثل , وأن الصبر خير للصابرين ,

وتنتهي السورة بالوصية إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بأن يصبر وبألا يكون في ضيق مما يمكر الكافرون لأن الله (تعالي) مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (النحل :128) والوصية من بعد رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) هي لكل مسلم يحمل راية الإسلام الي يوم الدين .

الآيات الكونية في سورة النحل

استشهدت سورة النحل بالعديد من الآيات الكونية الدالة علي حقيقة الألوهية التي تتجلي فيها عظمة الخلق , وشمول النعم علي العباد , وتمام العلم , وعظيم الحكمة , ودقة التدبير ومن تلك الآيات ما يلي :

(1) خلق السموات والأرض بالحق .

(2) خلق الإنسان من نطفة فإذا به يقابل خالقه بالجحود والنكران في أغلب الأحيان .

(3) خلق الأنعام وهي مصدر للعديد من المنافع للإنسان .

(4) خلق الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من وسائل الركوب التي لم تكن معروفة في زمن الوحي , والتي ستظل في تطور مستمر مع تزايد علم الإنسان وقدراته التقنية , والله يخلق مالا يعلمه الإنسان .

(5) تعدد معتقدات الناس بين الضلال والهداية .

(6) إنزال الماء من السماء للشراب وإنبات الشجر والزرع ومن أهمها الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الثمرات المباركات .

---

(7) تسخير الأرض (بتبادل ليلها ونهارها نتيجة لكرويتها ولدورانها حول محورها أمام الشمس) وكذلك تسخير كل من الشمس والقمر والنجوم بأمر الله لاستقامة الحياة في هذا الكون .

(8) نشر مختلف صور الحياة في الأرض , وتعدد أشكال سطحها وصخورها وعناصرها ومركباتها ومختلف الدورات فيها (دورة الماء , ودورة الحياة , ودورة الصخور . . إلخ) .

(9) تسخير البحر للإنسان بما فيه من أحياء ذات لحم طري , وهيا كل تصلح لصناعة الحلي , وقدرة علي حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة جريا بمصالح العباد تشق عباب مائه وما فوق الماء من هواء .

(10) إلقاء الجبال علي الأرض رواسي لها كي لا تميد ولا تضطرب وإلا ما كانت صالحة للعمران , وارتباط تكونها بنبع الأنهار من قممها , ودور حركة الأنهار من ينا بعها إلي

مصابها في تفتيت الصخور , وتكوين التربة , وتركيز العديد من المعادن والصخور النافعة والثروات الأرضية الأخري , وفي تسوية سطح الأرض وشق الفجاج والسبل فيها .

(11) جعل تضاريس الأرض

المختلفة علامات للاهتداء بها علي اليابسة في وضح النهار , وجعل النجوم علامات للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر .

(12) أن الله (تعالي) هو خالق كل شئ , والمخلوقون لا قدرة لهم علي الخلق .

(13) وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفا ينطبق علي ما تحدثه الزلازل في زماننا من قبل أن يدرك أحد من الخلق ميكانيكية حدوث تلك الهزات الأرضية .

(14) تأكيد أن الله (تعالي) خسف الأرض بالذين مكروا السيئات في الماضي وهو (سبحانه) قادر علي أن يخسفها بهم في الحاضر والمستقبل , وفي ذلك تأكيد علي أن فهمنا لميكانيكية حدوث الكوارث الأرضية لا يخرجها عن كونها من جند الله يسلطها علي من يشاء من عباده عقابا للعاصين , وابتلاء للصالحين , وعبرة للناجين .

(15) أن مد الظل وقبضه صورة من صور السجود التسخيري لله (تعالي) في خضوع وطاعة تامين .

(16) خلق اللبن في ضروع الأنعام من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين .

(17) جعل ثمرات النخيل والأعناب مصدرا للرزق الحسن , كما قد يسيء الإنسان استخدامها مصدرا للسكر وفقدان الوعي .

(18) خلق النحل ومنح إناثه القدرة علي بناء بيوتها في الجبال , وفي الأشجار , وفيما يعرش لها الناس , وعلي جمع الرحيق وحبوب اللقاح من مختلف الزهور والثمار , وذلك عبر مسافات شاسعة الاتساع دون أن تضل عن بيوتها . . وتحويل ذلك في بطونها إلي هذا الشراب المختلف الألوان والذي فيه شفاء للناس . .

(19) دورة الحياة بين الخلق والوفاة حتمية علي كل حي , ومن الأحياء الإنسان الذي منه من يتوفي صغيرا أو شابا , ومنه من يرد الي أرذل العمر ومن مظاهره فقدان الذاكرة جزئيا أو كليا .

(20) تقديم خلق حاسة السمع علي خلق حاسة البصر .

(21) إن الله (تعالي) هو الذي يمسك الطيور مسخرات في جو السماء

(22) الإشارة بلفظة الحر إلي كل من الحر والبرد علي أن كلا منهما يمثل بدرجات حرارة إيجابا أو سلبا .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي):

وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون .

(النحل:15)

ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما نصه: . . . ثم ذكر الله تعالي الأرض وما ألقي فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد, أي تضطرب بما عليها من الحيوانات, فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ولهذا قال: (والجبال أرساها) . . . وقوله: (وأنهارا وسبلا) أي جعل فيها أنهارا تجري من مكان إلي مكان آخر رزقا للعباد, ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر, فيقطع البقاع والبراري والقفار, ويخترق الجبال والآكام . . بحسب ما أراد الله وقدر وسخر ويسر, فلا إله إلا هو ولا رب سواه; وكذلك جعل فيها (سبلا) أي طرقا يسلك فيها من بلاد إلي بلاد حتي إنه تعالي ليقطع الجبل حتي يكون ما بينهما ممرا ومسلكا, كما قال تعالي: (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) .

(249/433)

---

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) كلام مشابه في اختصار غير مخل .

* كذلك جاء كلام مشابه في (الظلال) رحم الله كاتبه برحمته الواسعة, وإن كان قد نعي

علي العلم الحديث أنه يعلل وجود الجبال والرواسي ولكنه لا يذكر وظيفتها . والقرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض . . . .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبها) ما نصه : رواسي جبالا ثوابت . (ان تميد بكم) كراهة أن تميد . . أو لئلا تميد , أي تميل بكم وتضطرب , يقال : مادت السفينة تميد ميدا , إذا تحركت ومالت , ومادت الأغصان : تمايلت .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : وجعل الله في الأرض جبالا ثابتة تحفظها أن تضطرب , وجعل فيها أنهارا تجري فيها المياه الصالحة للشرب والزرع , وطرقا ممهدة لتهتدوا بها في السير إلي مقاصدكم .

* وذكر صاحب صفوة التفاسير (جزاه الله

خيرا) كلاما مشابها لا أري لزوما لتكراره .

الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية المبهرة في هذه الآية الكريمة استخدام تعبير الإلقاء لوصف تكون الجبال , ووصف الجبال بأنها رواس للأرض خشية أن تميد بما عليها من خلق , وربط تكون كل من الأنهار والسبل بتكون الجبال , وفيما يلي تفصيل ذلك :

أولا : وصف عملية تكون الجبال بتعبير الإلقاء :

توصف الجبال بأنها أشكال أرضية بارزة فوق سطح الأرض , تتسم بقممها العالية ,

وسفوحها المنحدرة, وبوجودها في مجموعات علي هيئة أطواف, أو منظومات, أو سلاسل, أو أحزمة, . أو مجموعات من تلك الأحزمة الجبلية التي تكون عادة متوازية أو قريبة من التوازي مع بعضها البعض, وإن كانت بعض الجبال توجد علي هيئة مرتفعات فردية وحيدة بصورة جبل واحد . والمرتفعات الفردية تتكون عادة من الطفوح البركانية علي النحو التالي:

(1) الجبال البركانية تتكون بعمليات إلقاء للطفوح البركانية:

(250/433)

يقسم الغلاف الصخري للأرض بواسطة عدد من الخسوف الأرضية التي تتراوح أعماقها بين 65 كيلو مترا و 150 كيلو مترا إلي حوالي الاثني عشر لوحا كبيرا بالإضافة الي عدد أقل من ألواح الغلاف الصخري الصغيرة .

ولما كانت هذه الألواح تطفو فوق نطاق لدن, شبه منصهر يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي فإن البراكين تكثر عند الحدود الفاصلة بين تلك الألواح خاصة عند حدود التباعد بينها, ومعظم هذه البراكين تلقي بحممها من أسفل إلي أعلي وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها البعض لتكون كتلا جبلية معزولة من الصخور البركانية تصل ارتفاعاتها

الي آلاف الأمتار فوق مستوي سطح البحر لأن معظم هذه البراكين يستمر في نشاطه لفترات تتراوح بين 20 و 30 مليون سنة , وإن كان بعضها قد يستمر نشاطه لأكثر من مائة مليون سنة .

ومن أمثلة الجبال البركانية جبل أرارات (5100 متر) في تركيا , وجبل إتنا (3300 متر) في صقلية ,

وجبل فيزوف (1300 متر) في إيطاليا , وجبل كيليمنجارو (5900 متر) في تنزانيا , وجبل كينيا (5100 متر) في كينيا .

(2) الجبال المطوية تتكون بعمليات إلقاء الصخور المتلونة فوق قيعان المحيطات فوق حواف القارات : تمثل سلاسل الجبال المطوية ذروة التطور في تكون النطق الجبلية , ولذلك فهي تمثل بالمنظومات الجبلية الكبري في العالم , وتتكون هذه النظم الجبلية من أنواع مختلفة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة (وكلها ينتج عن عملية إلقاء) , كما تعتريها أنماط بنيوية عديدة من الطي والتصدع , والتصدع الراكب والمتداخلات والطفوح البركانية ولعمليات الإلقاء من اسفل الي اعلي ومن اعلي الي اسفل في كل نمط من هذه الأنماط البنيوية دور أساسي لا يمكن إغفاله .

وتدل الملاحظات الميدانية علي ان تكون الجبال المطوية يسبقه تكون احواض ارضية عملاقة تقدر أطوالها بمئات الكيلو مترات واتساعها بعشرات الكيلو مترات , وأعماقها بعدة مئات من الأمتار , ولكن قيعانها تهبط تحت أوزان ما يتجمع فيها مما يؤدي الي تراكمات من الصخور الرسوبية المتبادلة مع الطفوح البركانية يزيد سمكها علي 1500 متر , وكل من الفتات الصخري والرسوبيات التي تتكون بطريقة كيميائية أو بطريقة عفوية لتكون هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية تلقي كلها من اعلي ماء البحار الي قيعانها بعملية إلقاء حقيقية , والطفوح البركانية المتداخلة فيها والمتبادلة معها تلقي اثناء الثورات البركانية من اسفل الي اعلي .

كذلك فإن تلك الأحواض الأرضية تكونت بفعل اعداد من الصدوع الخسفية العميقة التي تظل في حركة دائبة للهبوط بتلك الأحواض ببطء مما يعين علي تجمع تلك التراكمات السميكة من الصخور الرسوبية والبركانية وكلتاهما تتكون بعملية القاء من اعلي الي اسفل او من اسفل الي اعلي او بهما معا , واحدا تلو الآخر .

كذلك تشير الدراسات الميدانية الي ان حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض تلعب دورا مهما في عملية بناء هذه السلاسل والمنظومات الجبلية الشديدة الطي والتكسر , فعند اصطدام لوحين من ألواح الغلاف الصخري المكون لقاع

المحيط تتكون سلسلة من الجزر البركانية علي هيئة أقواس فوق قاع المحيط .

وعندما يصطدم قاع المحيط بإحدي القارتين المحيطتين به ويبدأ في الهبوط تحتها تتكون أعمق أغوار هذا المحيط ويتجمع في هذا الغور بالإلقاء من أعلي إلي أسفل كم هائل من الرسوبيات التي تتضاعف بالتدريج الي الصخور الرسوبية , كما يتبادل مع هذه الصخور الرسوبية كم هائل من الطفوح البركانية التي يلقي بها من أسفل إلي أعلي .

(252/433)

وتتسم عملية انزلاق قاع المحيط تحت قارة مجاورة بكشط هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية والبركانية (المتجمعة في الغور الأخدودي العميق الناتج عن عملية هبوط قاع المحيط تحت القارة) وبتعفنه وإلقائه فوق حافة القارة الراكبة تتكون سلسلة جبلية من السلاسل المطوية والمتكسرة بمحاذاة الأخدود البحري الهابط بالتدريج تحت القارة , وباستمرار عملية الهبوط يكشط المزيد من الصخور الرسوبية البحرية وما تضمه من طفوح بركانية من فوق قاع المحيط الهابط تحت القارة وتلقي فوق حافة القارة لتضاف إلي سلسلة الجبال المتكونة فوق طرف القارة , كذلك تنشط كل من الطفوح البركانية والمتداخلات النارية لتكون قلب وقواعد السلسلة الجبلية المتكونة وذلك بالانصهار الجزئي

للوح الهابط , وبإزاحته كتلا من الصهارة من نطاق الضعف الأرضي الذي تغوص فيه .

وفي بعض الأحيان قد تتحرك احدي القارات في اتجاه قارة مقابلة لها دافعة أمامها قاع المحيط الفاصل بين القارتين فيهبط تحت القارة المقابلة بالتدريج حتي يتم استهلاكه بالكامل فتصطدم القارتان ببعضهما اصطداما عنيفا يكون من نتائجه هبوط القارة الدافعة هبوطا جزئيا تحت القارة الراكبة , وتكون أعلي السلاسل الجبلية علي حافة القارة الراكبة وذلك بكشط كل الصخور الرسوبية

والبركانية من فوق قاع المحيط الهابط وإلقائها علي حافة القارة الراكبة مع القاء كم هائل من المتداخلات والطفوح البركانية والصخور المتحولة في قلب السلسلة الجبلية المتكونة بالعديد من الطي والتكسر .

وتكثر الصدوع بصفة خاصة علي امتداد حواف سلاسل ونظم الجبال المطوية , وبعض هذه الصدوع من النوع العادي , ولكن معظمها من الصدوع التجاوزية (الدسرية) ذات الميول المنخفضة والتي تمتد الي مئات الكيلو مترات دافعة أمامها كتلا هائلة من الصخور المتباينة كتلة فوق الأخري لعدة كيلو مترات وهي صورة من أروع صور الإلقاء .

ثانيا : وصف الجبال بأنها رواسي :

يقسم الغلاف الصخري للأرض إلي نحو اثني عشر لوحا كبيرا بالإضافة إلي عدد من الألواح الصغيرة وذلك بواسطة شبكة من الصدوع الخسفية (الخسوف الأرضية المكونة بواسطة عمليات تصدع الغلاف الصخري للأرض) , وهي خسوف تتراوح أعماقها بين 65 كم , و 150 كم وتطفو ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي , ولذلك فإن هذه الألواح الصخرية تنزلق فوق نطاق الضعف الأرضي مع دوران الأرض حول محورها , وباندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع والخسوف الفاصلة بينها , خاصة تلك الخسوف الموجودة في ألواح الغلاف الصخري المكونة لقيعان كل محيطات الأرض وأعداد من بحارها والتي تتسع باستمرار في ظاهرة تعرف باسم ظاهرة اتساع قيعان المحيطات , وبذلك تنتقل ألواح الغلاف الصخري للأرض باستمرار في حركة لا يبطئ من عنفها إلا تكون السلاسل الجبلية التي تثبت القارات في قيعان البحار والمحيطات بواسطة أوتاد الجبال , كما يمكن بواسطتها تثبيت قارة في قارة أخري .

فالجزء البارز من الجبال فوق سطح الأرض هو في الحقيقة ليس إلا القمم البارزة لكتل هائلة من الصخور التي تطفو في نطاق الضعف الارضي كما تطفو جبال الجليد في ماء البحر المحيط ومن هنا كان وصف

القرآن الكريم للجبال بالرواسي وصفا معجزا , لأن الجبال ترسو بأوتادها في نطاق الضعف الأرضي كما ترسو السفينة في ماء البحر علي مرساتها , و (الرواسي) من الجبال الثوابت الرواسخ , ووحداتها (راسية) .

ووجود الجبال بكتلها الغائرة في الغلاف الصخري للأرض والطافية في نطاق الضعف الأرضي يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها , ويجعل حركتها أكثر انتظاما وسلاسة تماما كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول اطار السيارة للتقليل من رجرجتها وانتظام حركتها وبذلك اصبحت الارض مؤهلة للعمران بمختلف صور الحياة .

ثالثا : ربط تكون كل من الأنهار والسبل بتكون الجبال :

يعرف النهر بماء يتدفق في مجري محدد (له حواف تعرف باسم الشرف النهرية) من مناطق مرتفعة في اتجاه البحر , او في اتجاه بحيرة داخلية , أو حوض صحراوي , أو نهر أكبر .

وتغذي الأنهار بماء المطر الذي يسقط فوق مرتفعات الارض من مثل الجبال , كما يمكن ان تغذي الأنهار من ماء العيون , او من تسربات الماء المخزون في طبقات تحت سطح الارض ومن ذوبان الجليد من اماكن تجمعه في قمم الجبال ومن اطراف حقول الجليد , ولكن عند

تكون اعداد من البحيرات في المناطق المرتفعة تكون قدرتها علي امداد الانهار بالماء المتدفق اكبر .

كذلك يمكن ان يفقد جزء من ماء النهر بالبخر أو بالتسرب الي الخزانات المائية تحت سطح الارض , والفرق بين كم الماء الذي يغذي النهر والفاقد منه هو الذي يتحكم في استمرارية أو انقطاع تدفق الماء في مجري النهر .

ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين تكون الجبال وتدفق الانهار في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم .

كذلك فان مجاري الانهار تتعرض للانتقال البطئ مع الزمن او للجفاف وذلك مع تغير الظروف المناخية , او تغير سرعة جريان الماء في مجراه , وهي مرتبطة بمعدل انحدار المجري , وطبيعة الصخور التي شق فيها مجراه

وشكل المقطع الرأسي للمجري , ومع جفاف مجري النهر او تغييره يترك المجري القديم سبيلا ميسرا لحركة كل من الانسان والحيوان , ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين ذكر الانهار والسبل حيث إن الانهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال والتلال والهضاب في مناطق التضاريس الارضية الوعرة .

خاتمة :

هذه الحقائق العلمية عن كل من الجبال والأنهار والسبل بدأ الانسان في جمع اطرافها في بطء

شديد عبر القرون المتعاقبة ولم يبدأ في بلورة تصور صحيح لها الا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي , ولم يكتمل هذا التصور إلا في منتصف الستينيات من القرن العشرين .

وورود هذه الحقائق في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم مما يقطع بأن القرآن هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , ويجزم بنبوة النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) وبأنه كان موصولا بوحي السماء , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض الذي انزل في محكم كتابه قوله الحق :

ويري الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلي صراط العزيز الحميد (سبأ :6)

قضايا واراء

42371 . . . السنة 126 -العدد . . . 2002 . . . ديسمبر . . . 9 . . . 5

من شوال 1423 هـ . . . الأثنين

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(73) وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون *

بقلم: د . زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف الربع الأول من سورة النحل, وهي سورة مكية, وآياتها 128 بعد البسملة, وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلي النحل, وما وهبه الله (تعالي) من فطرة عجيبة مكنته من بناء خلاياه, وتنظيم حياته, وسلوك مختلف السبل بسهولة ويسر, وإخراج هذا الشراب الذي فيه شفاء للناس من بطون إناثه, وقد سميت مجموعات النحل بهذا الاسم لأن الله (تعالي) قد نحلها هذه القدرة علي إخراج العسل, وميزها بها عن غيرها من الحشرات .

(256/433)

وتعرض سورة النحل للركائز الأساسية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية ومنها حقيقة الألوهية, وأن الله (تعالي) هو خالق كل شئ, وهو رب كل شئ ومليكه, وحقيقة الوحدانية المطلقة للإله الخالق فوق جميع خلقه, وحقيقة طلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود, وطلاقة الإرادة الإلهية التي لا يعوقها عائق, وحقيقة الوحي, والنبوة والرسالة, وقد أنزله الله (سبحانه وتعالي) علي فترة من الرسل, وأتمه وأكمله وختمه في

بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم), ولذلك تعهد بحفظ رسالته الخاتمة حفظا كاملا بنص لغة وحيها , بينما أوكل حفظ الرسالات السابقة لأصحابها فضيعوها .

وتعرض سورة النحل لحتمية البعث , وهي حقيقة لازمة , أنكرها الكافرون واستبعدوا إمكانية وقوعها في القديم , كما ينكرونها اليوم ويستبعدون وقوعها , لعجزهم عن فهم مدلول الألوهية الحقة , ومن هنا أنكروا وقوع عذاب الله بهم , وهو واقع لا محالة .

وتؤكد السورة أن

الحاكمية لله , ومن هنا كان له وحده (سبحانه وتعالي) الحق في التحليل والتحريم ,

وتعرض لمهام الأنبياء والمرسلين في تبليغ أوامر الله لعباده الذين أعطاهم حرية الاختيار بين الإيمان والكفر , والهدي والضلال , وجعل لهم علي ذلك من الثواب والعقاب ما يستحقون .

وتدعو سورة النحل إلي إقامة عدل الله في الأرض , والإحسان إلي الخلق , والوفاء بالعهد , كما تدعو إلي الإنفاق في سبيل الله , وإلي الهجرة من أجل إعلاء دينه , والتعريف به ,

وتحذر السورة من الوقوع في الفتن , ومن أشدها الكفر بعد الإيمان , وتؤكد العديد من مكارم الأخلاق وضوابط السلوك , وقواعد المعاملات انطلاقا من مخافة الله (تعالي) وخشية حسابه , وتذكر بأحوال الناس في حالات الضعف والقوة انتقالا من مراحل الأجنة في بطون الأمهات إلي الشباب والفتوة , ثم الهرم والشيخوخة , ومن أحوال النعمة والرخاء إلي أحوال الشدة والبلاء كما تذكر بلحظات الاحتضار وبمصارع الغابرين .

وتبدأ السورة الكريمة بالتحذير من فجائية الآخرة في تحد واضح للذين يستعجلونها , وهي واقعة لا محالة , ويستعجلون العذاب وهو واقع بهم , لا فكاك منه ولا مهرب , ثم تثني بتسبيح الله وتنزيهه (تعالي) عن الشريك , وتؤكد حقيقة إنزال الوحي من الله (سبحانه) علي من يشاء من عباده الذين اصطفاهم من الأنبياء والمرسلين لينذروا الناس بأنه لا إله إلا الله , وأن علي الناس جميعا أن يتقوه وتعتب سورة النحل علي الذين كفروا ـ انطلاقا من صلفهم وعنتهم ـ أنهم طالبوا رسلهم بأن يأتوهم بالملائكة , او بتهديد الله لهم , وتشير الي عاقبة الذين طلبوا ذلك من قبل ; وتنعي علي الذين أشركوا ادعاءهم الكاذب بأن ذلك هو قدر الله عليهم , وتؤكد السورة أنه ما علي الرسل إلا البلاغ المبين , وأن الله (تعالي) قد بعث رسولا في كل أمة من الأمم يدعوهم إلي عبادة الله وحده , وإلي اجتناب الطاغوت , فكان منهم مصدقون مهديون , ومكذبون عصاة , وتذكر بعواقب المكذبين .

وتخاطب سورة النحل خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) .وهو الحريص علي هداية الخلق أجمعين .بأن الله (تعالي) لا يهدي من يضل , وأن الضالين لا نصير لهم .

وتشير السورة الكريمة .في أكثر من موضع منها .إلي إنكار الكافرين للبعث , وتؤكد أنه وعد الله الذي لا يخلف وعده , حتي يجازي كلا بعمله , وأن أمر الله سريع النفاذ , وأنه بين الكاف والنون , كما تشير إلي الرسل السابقين وإلي رسالاتهم التي تكاملت كلها في القرآن الكريم الذي أنزله الله (تعالي) تبيانا لما اختلف فيه أهل الكتاب , وتحذر من عقاب الله للذين يمكرون السيئات , وتؤكد حتمية الحساب , وحتمية الثواب والعقاب .

وتلمح سورة النحل إلي حقيقة أن كل ما في السموات والأرض من دواب وملائكة خاضعون لله بالطاعة والعبادة , يسجدون له (تعالي) في غير استكبار , وتعاود التحذير من الشرك بالله رب السموات والأرض ومن فيهن , وصاحب النعم علي جميع الخلق , وكاشف الضر عنهم .

وتنكر السورة الكريمة علي أهل الجاهليات القديمة كراهيتهم لخلفة البنات , تلك الكراهية التي كانت تدفعهم إلي وأد بناتهم أحياء . وتضرب سورة النحل عددا من الأمثال لتقارن

يين غير الفاعلين من البشر , والفاعلين منهم الذين يأمرون بالعدل وهم علي صراط مستقيم
.

وتؤكد سورة النحل أن الغيب المطلق في السموات والأرض لا يعلمه إلا الله , ومنه أمر الساعة الذي لا يأتي إلا بغتة , وأن الله (تعالي) علي كل شئ قدير .

وتستعرض السورة المباركة مواقف الظالمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة , وما سوف يتعرضون له من المهانة والعذاب , وتؤكد أن الأنبياء سوف يشهدون علي أممهم , وأن الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) سوف يشهد علي أمته وعلي الذين كذبوا نبوته وجحدوا رسالته منهم ومن الأمم

من بعدهم , وأن الله (تعالي) قد أنزل عليه القرآن العظيم (تبيانا لكل شيء وهدي ورحمة وبشري للمسلمين) .

(259/433)

وتؤكد سورة النحل أن الله (تعالي) يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي . . . , وتطالب المسلمين بالوفاء بعهد الله إذا عاهدوا , وبعدم نقض الأيمان بعد توكيدها , وتشير إلي أن الله (تعالي) لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ,

ولكن منهم الضال والمهتدي , والطالح والصالح , وتقرر الآيات أن من عمل صالحا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

(النحل :97)

وتأمر الآيات بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل البدء في تلاوة القرآن الكريم , وتؤكد أن ليس للشيطان سلطان علي الذين آمنوا , الذين علي ربهم يتوكلون , وإنما سلطانه علي الذين يتولونه والذين هم به مشركون .

وتشير سورة النحل إلي أن القرآن الكريم نزل به جبريل (عليه السلام) بالحق من لدن رب العالمين ليثبت الذين آمنوا وهدي وبشري للمسلمين , كما تشير إلي الادعاء الكاذب من الكافرين بأن الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) يتلقي ما أفاء الله (تعالي) عليه به من علم علي يد بشر , وتستنكر افتراء الكذب علي الله , والكفر به إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان , وتقرر أن علي الكافرين غضبا من الله , وأن لهم عذاب عظيما .

وتعرض السورة الكريمة لشئ من المحرمات في الطعام من مثل الميتة والدم , ولحم الخنزير , وما أهل لغير الله به , إلا من اضطر غير باغ ولا عاد , فإن الله غفور رحيم , وتؤكد أن التحليل والتحريم من سلطة الله وحده , ولا يجرؤ عليه إلا كاذب علي الله , وتلمح إلي اليهود ومخالفتهم لأوامر الله بالاعتداء في السبت , وتذكر نبي الله إبراهيم (عليه السلام) بأنه كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين , وأن الله (تعالي) قد اجتباه وهداه إلي

صراط مستقيم , وأتاه في الدنيا حسنة , وجعله في الآخرة من الصالحين وتأمر الآيات رسول الله الخاتم (صلي الله عليه وسلم) أن يتبع ملة ابراهيم حنيفا .

(260/433)

وتختتم سورة النحل بدعوة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين) ومن بعده دعوة كل المؤمنين برسالته إلي أن يحملوا هذا الدين الخاتم المحفوظ بحفظ الله إلي غيرهم من الأمم بالحكمة والموعظة الحسنة , ومجادلتهم بالتي هي أحسن وبالصبر علي الكافرين والمشركين والمتشككين , والعفو عما يلقونه منهم من أذي في سبيل تبليغ دعوة الله إليهم , وإن عاقبوا فلا يجوز للعقاب أن يتعدي المثل , وأن الصبر خير للصابرين , وتنتهي السورة بالوصية إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بأن يصبر وبألا يكون في ضيق مما يمكر الكافرون لأن الله (تعالي) مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (النحل :128) والوصية من بعد رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) هي لكل مسلم يحمل راية الإسلام الي يوم الدين .

الآيات الكونية في سورة النحل

استشهدت سورة النحل بالعديد من الآيات الكونية الدالة علي حقيقة الألوهية التي تتجلي

فيها عظمة الخلق , وشمول النعم علي العباد , وتمام العلم , وعظيم الحكمة , ودقة التدبير

ومن تلك الآيات ما يلي :

(1) خلق السموات والأرض بالحق .

(2) خلق الإنسان من نطفة فإذا به يقابل خالقه بالجحود والنكران في أغلب الأحيان .

(3) خلق الأنعام وهي مصدر للعديد من المنافع للإنسان .

(4) خلق الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من وسائل الركوب التي لم تكن معروفة في زمن الوحي , والتي ستظل في تطور مستمر مع تزايد علم الإنسان وقدراته التقنية , والله يخلق مالا يعلمه الإنسان .

(5) تعدد معتقدات الناس بين الضلال والهداية .

(6) إنزال الماء من السماء للشراب وإنبات الشجر والزرع ومن أهمها الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الثمرات المباركات .

(7) تسخير الأرض (بتبادل ليلها ونهارها نتيجة لكرويتها ولدورانها حول محورها أمام الشمس) وكذلك تسخير كل من الشمس والقمر والنجوم بأمر الله لاستقامة الحياة في هذا الكون .

(8) نشر مختلف صور الحياة في الأرض , وتعدد أشكال سطحها وصخورها وعناصرها ومركباتها ومختلف الدورات فيها (دورة الماء , ودورة الحياة , ودورة الصخور . . إلخ) .

(9) تسخير البحر للإنسان بما فيه من أحياء ذات لحم طري , وهيا كل تصلح لصناعة الحلي , وقدرة علي حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة جريا بمصالح العباد تشق عباب مائه وما فوق الماء من هواء .

(10) إلقاء الجبال علي الأرض رواسي لها كي لا تميد ولا تضطرب وإلا ما كانت صالحة للعمران , وارتباط تكونها بنبع الأنهار من قممها , ودور حركة الأنهار من ينابعها إلي مصابها في تفتيت الصخور , وتكوين التربة , وتركيز العديد من المعادن والصخور النافعة والثروات الأرضية الأخري , وفي تسوية سطح الأرض وشق الفجاج والسبل فيها .

(11) جعل تضاريس الأرض

المختلفة علامات للاهتداء بها علي اليابسة في وضح النهار , وجعل النجوم علامات للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر .

(12) أن الله (تعالي) هو خالق كل شئ , والمخلوقون لا قدرة لهم علي الخلق .

(13) وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفا ينطبق علي ما تحدثه الزلازل في زماننا

من قبل أن يدرك أحد من الخلق ميكانيكية حدوث تلك الهزات الأرضية .

(14) تأكيد أن الله (تعالي) خسف الأرض بالذين مكروا السيئات في الماضي وهو (سبحانه) قادر علي أن يخسفها بهم في الحاضر والمستقبل, وفي ذلك تأكيد علي أن فهمنا لميكانيكية حدوث الكوارث الأرضية لا يخرجها عن كونها من جند الله يسلطها علي من يشاء من عباده عقابا للعاصين, وابتلاء للصالحين, وعبرة للناجين .

(15) أن مد الظل وقبضه صورة من صور السجود التسخيري لله (تعالي) في خضوع وطاعة تامين .

(16) خلق اللبن في ضروع الأنعام من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين .

(17) جعل ثمرات النخيل والأعناب مصدرا للرزق الحسن, كما قد يسيء الإنسان استخدامها مصدرا للسكر وفقدان الوعي .

---

(18) خلق النحل ومنح إناثه القدرة علي بناء بيوتها في الجبال, وفي الأشجار, وفيما يعرش لها الناس, وعلي جمع الرحيق وحبوب اللقاح من مختلف الزهور والثمار, وذلك عبر مسافات شاسعة الاتساع دون أن تضل عن بيوتها .. وتحويل ذلك في بطونها إلي هذا

الشراب المختلف الألوان والذي فيه شفاء للناس . .

(19) دورة الحياة بين الخلق والوفاة حتمية علي كل حي , ومن الأحياء الإنسان الذي منه من يتوفي صغيرا أو شابا , ومنه من يرد الي أرذل العمر ومن مظاهره فقدان الذاكرة جزئيا أو كليا .

(20) تقديم خلق حاسة السمع علي خلق حاسة البصر .

(21) إن الله (تعالي) هو الذي يمسك الطيور مسخرات في جو السماء

(22) الإشارة بلفظة الحر إلي كل من الحر والبرد علي أن كلا منهما يمثل بدرجات حرارة إيجابا أو سلبا .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي):

وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون .

(النحل:15)

ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما نصه: . . . ثم ذكر الله تعالي الأرض وما ألقي فيها من

الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد , أي تضطرب بما عليها من الحيوانات , فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ولهذا قال :(والجبال أرساها) . . . وقوله :(وأنهارا وسبلا) أي جعل فيها أنهارا تجري من مكان إلي مكان آخر رزقا للعباد , ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر , فيقطع البقاع والبراري والقفار , ويخترق الجبال والآكام . . بحسب ما أراد الله وقدر وسخر ويسر , فلا إله إلا هو ولا رب سواه ; وكذلك جعل فيها (سبلا) أي طرقا يسلك فيها من بلاد إلي بلاد حتي إنه تعالي ليقطع الجبل حتي يكون ما بينهما ممرا ومسلكا , كما قال تعالي :(وجعلنا فيها فجاجا سبلا) .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) كلام مشابه في اختصار غير مخل .

* كذلك جاء كلام مشابه في (الظلال) رحم الله كاتبه برحمته الواسعة , وإن كان قد نعي علي العلم الحديث أنه يعلل وجود الجبال والرواسي ولكنه لا يذكر وظيفتها . والقرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض . . . .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبها) ما نصه : رواسي جبالا ثوابت .(ان تميد بكم) كراهة أن تميد . . أو لئلا تميد , أي تميل بكم وتضطرب , يقال : مادت السفينة تميد ميدا , إذا تحركت ومالت , ومادت الأغصان : تمايلت .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : وجعل الله في الأرض جبالا ثابتة تحفظها أن تضطرب , وجعل فيها أنهارا تجري فيها المياه الصالحة

للشرب والزرع , وطرقا ممهدة لتهتدوا بها في السير إلي مقاصدكم .

* وذكر صاحب صفوة التفاسير (جزاه الله خيرا) كلاما مشابها لا أري لزوما لتكراره .

الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية المبهرة في هذه الآية الكريمة استخدام تعبير الإلقاء لوصف تكون الجبال , ووصف الجبال بأنها رواس للأرض خشية أن تميد بما عليها من خلق , وربط تكون كل من الأنهار والسبل بتكون الجبال , وفيما يلي تفصيل ذلك :

أولا : وصف عملية تكون الجبال بتعبير الإلقاء :

توصف الجبال بأنها أشكال أرضية بارزة فوق سطح الأرض , تتسم بقممها العالية , وسفوحها المنحدرة , وبوجودها في مجموعات علي هيئة أطواف , أو منظومات , أو سلاسل , أو أحزمة , . أو مجموعات من تلك الأحزمة الجبلية التي تكون عادة متوازية أو قريبة من التوازي مع بعضها البعض , وإن كانت بعض الجبال توجد علي هيئة مرتفعات فردية وحيدة بصورة جبل واحد . والمرتفعات الفردية تتكون عادة من الطفوح البركانية علي النحو التالي :

(1) الجبال البركانية تتكون بعمليات إلقاء للطفوح البركانية :

يقسم الغلاف الصخري للأرض بواسطة عدد من الخسوف الأرضية التي تتراوح أعماقها بين 65 كيلو مترا و 150 كيلو مترا إلي حوالي الاثني عشر لوحا كبيرا بالإضافة الي عدد أقل من ألواح الغلاف الصخري الصغيرة .

ولما كانت هذه الألواح تطفو فوق نطاق لدن , شبه منصهر يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي فإن البراكين تكثر عند الحدود الفاصلة بين تلك الألواح خاصة عند حدود التباعد بينها , ومعظم هذه البراكين تلقي بحممها من أسفل إلي أعلي وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها البعض لتكون كتلا جبلية معزولة من الصخور البركانية تصل ارتفاعاتها الي آلاف الأمتار فوق مستوي سطح البحر لأن معظم هذه البراكين يستمر في نشاطه لفترات تتراوح بين 20 و 30 مليون سنة , وإن كان بعضها قد يستمر نشاطه لأكثر من مائة مليون سنة .

ومن أمثلة الجبال البركانية جبل أرارات (5100 متر) في تركيا , وجبل إتنا (3300 متر) في صقلية ,

وجبل فيزوف (1300 متر) في إيطاليا , وجبل كيليمنجارو (5900 متر) في تنزانيا ,

وجبل كينيا (5100 متر) في كينيا .

(2) الجبال المطوية تتكون بعمليات إلقاء الصخور المتلونة فوق قيعان المحيطات فوق حواف القارات : تمثل سلاسل الجبال المطوية ذروة التطور في تكون النطق الجبلية , ولذلك فهي تمثل بالمنظومات الجبلية الكبري في العالم , وتتكون هذه النظم الجبلية من أنواع مختلفة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة (وكلها ينتج عن عملية إلقاء) , كما تعتريها أنماط بنيوية عديدة من الطي والتصدع , والتصدع الراكب والمتداخلات والطفوح البركانية ولعمليات الإلقاء من اسفل الي اعلي ومن اعلي الي اسفل في كل نمط من هذه الأنماط البنيوية دور أساسي لا يمكن إغفاله .

وتدل الملاحظات الميدانية علي ان تكون الجبال المطوية يسبقه تكون احواض ارضية عملاقة تقدر أطوالها بمئات الكيلو مترات واتساعها بعشرات الكيلو مترات , وأعماقها بعدة مئات من الأمتار , ولكن قيعانها تهبط تحت أوزان ما يتجمع فيها مما يؤدي الي تراكمات من الصخور الرسوبية المتبادلة مع الطفوح البركانية يزيد سمكها علي 1500 متر , وكل من الفتات الصخري والرسوبيات التي تتكون بطريقة كيميائية أو بطريقة عفوية لتكون هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية تلقي كلها من اعلي ماء البحار الي قيعانها بعملية إلقاء حقيقية , والطفوح البركانية المتداخلة فيها والمتبادلة معها تلقي اثناء الثورات البركانية

من اسفل الي اعلي .

كذلك فإن تلك الأحواض الأرضية تكونت بفعل اعداد من الصدوع الخسفية العميقة التي تظل في حركة دائبة للهبوط بتلك الأحواض ببطء مما يعين علي تجمع تلك التراكمات السميكة من الصخور الرسوبية والبركانية وكلتاهما تتكون بعملية القاء من اعلي الي اسفل او من اسفل الي اعلي او بهما معا , واحدا تلو الآخر .

كذلك تشير الدراسات الميدانية الي ان حركة ألواح الغلاف

الصخري للأرض تلعب دورا مهما في عملية بناء هذه السلاسل والمنظومات الجبلية الشديدة الطي والتكسر , فعند اصطدام لوحين من ألواح الغلاف الصخري المكون لقاع المحيط تتكون سلسلة من الجزر البركانية علي هيئة أقواس فوق قاع المحيط .

وعندما يصطدم قاع المحيط بإحدي القارتين المحيطتين به ويبدأ في الهبوط تحتها تتكون أعمق أغوار هذا المحيط ويتجمع في هذا الغور بالإلقاء من أعلي إلي أسفل كم هائل من الرسوبيات التي تتضاعف بالتدريج الي الصخور الرسوبية , كما يتبادل مع هذه الصخور الرسوبية كم هائل من الطفوح البركانية التي يلقي بها من أسفل إلي أعلي .

وتتسم عملية انزلاق قاع المحيط تحت قارة مجاورة بكشط هذا السمك الهائل من الصخور الرسوبية والبركانية (المتجمعة في الغور الأخدودي العميق الناتج عن عملية هبوط قاع المحيط تحت القارة) وبتعفنه وإلقائه فوق حافة القارة الراكبة تتكون سلسلة جبلية من السلاسل المطوية والمتكسرة بمحاذاة الأخدود البحري الهابط بالتدريج تحت القارة , وباستمرار عملية الهبوط يكشط المزيد من الصخور الرسوبية البحرية وما تضمه من طفوح بركانية من فوق قاع المحيط الهابط تحت القارة وتلقي فوق حافة القارة لتضاف إلي سلسلة الجبال المتكونة فوق طرف القارة , كذلك تنشط كل من الطفوح البركانية والمتداخلات النارية لتكون قلب وقواعد السلسلة الجبلية المتكونة وذلك بالانصهار الجزئي للوح الهابط , وبإزاحته كتلا من الصهارة من نطاق الضعف الأرضي الذي تغوص فيه .

وفي بعض الأحيان قد تتحرك احدي القارات في اتجاه قارة مقابلة لها دافعة أمامها قاع المحيط الفاصل بين القارتين فيهبط تحت القارة المقابلة بالتدريج حتي يتم استهلاكه بالكامل فتصطدم القارتان ببعضهما اصطداما عنيفا يكون من نتائجه هبوط القارة الدافعة هبوطا جزئيا تحت القارة الراكبة , وتكون أعلي السلاسل الجبلية علي حافة القارة الراكبة وذلك بكشط كل الصخور الرسوبية

والبركانية من فوق قاع المحيط الهابط وإلقائها علي حافة القارة الراكبة مع القاء كم هائل من المتداخلات والطفوح البركانية والصخور المتحولة في قلب السلسلة الجبلية المتكونة بالعديد من الطي والتكسر .

وتكثر الصدوع بصفة خاصة علي امتداد حواف سلاسل ونظم الجبال المطوية , وبعض هذه الصدوع من النوع العادي , ولكن معظمها من الصدوع التجاوزية (الدسرية) ذات الميول المنخفضة والتي تمتد الي مئات الكيلو مترات دافعة أمامها كتلا هائلة من الصخور المتباينة كتلة فوق الأخري لعدة كيلو مترات وهي صورة من أروع صور الإلقاء .

ثانيا : وصف الجبال بأنها رواسي :

يقسم الغلاف الصخري للأرض إلي نحو اثني عشر لوحا كبيرا بالإضافة إلي عدد من الألواح الصغيرة وذلك بواسطة شبكة من الصدوع الخسفية (الخسوف الأرضية المكونة بواسطة عمليات تصدع الغلاف الصخري للأرض) , وهي خسوف تتراوح أعماقها بين 65 كم , و 150 كم وتطفو ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي , ولذلك فإن هذه الألواح الصخرية تنزلق فوق نطاق الضعف الأرضي مع دوران الأرض حول محورها , وباندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع والخسوف الفاصلة بينها , خاصة تلك الخسوف الموجودة في ألواح

الغلاف الصخري المكونة لقيعان كل محيطات الأرض وأعداد من بحارها والتي تتسع باستمرار في ظاهرة تعرف باسم ظاهرة اتساع قيعان المحيطات, وبذلك تنتقل ألواح الغلاف الصخري للأرض باستمرار في حركة لا يبطئ من عنفها إلا تكون السلاسل الجبلية التي تثبت القارات في قيعان البحار والمحيطات بواسطة أوتاد الجبال, كما يمكن بواسطتها تثبيت قارة في قارة أخري .

فالجزء البارز من الجبال فوق سطح الأرض هو في الحقيقة ليس إلا القمم البارزة لكتل هائلة من الصخور التي تطفو في نطاق الضعف الارضي كما تطفو جبال الجليد في ماء البحر المحيط ومن هنا كان وصف

القرآن الكريم للجبال بالرواسي وصفا معجزا, لأن الجبال ترسو بأوتادها في نطاق الضعف الأرضي كما ترسو السفينة في ماء البحر علي مرساتها, و (الرواسي) من الجبال الثوابت الرواسخ, ووحداتها (راسية) .

ووجود الجبال بكتلها الغائرة في الغلاف الصخري للأرض والطافية في نطاق الضعف الأرضي يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها, ويجعل حركتها أكثر انتظاما

وسلاسة تماما كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول اطار السيارة للتقليل من رجرجتها وانتظام حركتها وبذلك اصبحت الارض مؤهلة للعمران بمختلف صور الحياة .

ثالثا : ربط تكون كل من الأنهار والسبل بتكون الجبال :

يعرف النهر بماء يتدفق في مجري محدد (له حواف تعرف باسم الشرف النهرية) من مناطق مرتفعة في اتجاه البحر , او في اتجاه بحيرة داخلية , أو حوض صحراوي , أو نهر أكبر .

وتغذي الأنهار بماء المطر الذي يسقط فوق مرتفعات الارض من مثل الجبال , كما يمكن ان تغذي الأنهار من ماء العيون , او من تسربات الماء المخزون في طبقات تحت سطح الارض ومن ذوبان الجليد من اماكن تجمعه في قمم الجبال ومن اطراف حقول الجليد , ولكن عند تكون اعداد من البحيرات في المناطق المرتفعة تكون قدرتها علي امداد الانهار بالماء المتدفق اكبر .

كذلك يمكن ان يفقد جزء من ماء النهر بالبخر أو بالتسرب الي الخزانات المائية تحت سطح الارض , والفرق بين كم الماء الذي يغذي النهر والفاقد منه هو الذي يتحكم في استمرارية أو انقطاع تدفق الماء في مجري النهر .

ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين تكون الجبال وتدفق الانهار في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم .

كذلك فان مجاري الانهار تتعرض للانتقال البطئ مع الزمن او للجفاف وذلك مع تغير

الظروف المناخية , او تغير سرعة جريان الماء في مجراه , وهي مرتبطة بمعدل انحدار المجري , وطبيعة الصخور التي شق فيها مجراه

وشكل المقطع الرأسي للمجري , ومع جفاف مجري النهر او تغييره يترك المجري القديم سبيلا ميسرا لحركة كل من الانسان والحيوان , ومن هنا كان ربط القرآن الكريم بين ذكر الانهار والسبل حيث إن الانهار من أعظم وسائل شق الطرق بين الجبال والتلال والهضاب في مناطق التضاريس الارضية الوعرة .

خاتمة :

هذه الحقائق العلمية عن كل من الجبال والأنهار والسبل بدأ الانسان في جمع اطرافها في بطء شديد عبر القرون المتعاقبة ولم يبدأ في بلورة تصور صحيح لها الا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي , ولم يكتمل هذا التصور إلا في منتصف الستينيات من القرن العشرين .

وورود هذه الحقائق في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي غيرها من آيات القرآن العظيم مما يقطع بأن القرآن هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , ويجزم بنبوة النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) وبأنه كان موصولا بوحي السماء

, ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض الذي انزل في محكم كتابه قوله الحق :

ويري الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلي صراط العزيز الحميد (سبأ :6)

أهـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية . بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(270/433)

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما جرت العادة بأن المكفور إحسانه يبادر إلى قطعه عند علمه بالكفر ، فكان ربما توهم متوهم أن سبب مواترة الإحسان عدم العلم بالكفران ، أو عدم العلم بكفران لا يدخل تحت المغفرة ، قال مهدداً مبرزاً للضمير بالاسم الأعظم الذي بنيت عليه السورة للفصل بالفرق بين الخالق وغيره ولئلا يتوهم تقيد التهديد بحيثية المغفرة إيماء إلى أن ذلك نتيجة ما مضى :

﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بجميع صفات الإكرام والانتقام ﴿ يعلم ﴾ أي على الإطلاق ﴿ ما تسرون ﴾ أي كله .

ولما كان الإسرار ربما حمل على حالة الخلوة ، فلم يكن علمه دالاً على الإعلان ، قال تعالى : ﴿ وما تعلنون ﴾ ليعلم مقدار المضاعفة لموجبات الشكر وقباحة الكفر ، وأما الأصنام فلا تعلم شيئاً فلا أسفه ممن عبدها .

ولما أثبت لنفسه تعالى كمال القدرة وتمام العلم وأنه المنفرد بالخلق ، شرع يقيم الأدلة على بعد ما يشركونه به من الإلهية بسلب تلك الصفات فقال تعالى : ﴿ والذين يدعون ﴾ أي دعاء عبادة ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ ولما كان ربما ادعى مدع في شيء أنه لا يخلق ولا يخلق ، قال : ﴿ وهم يخلقون ﴾ .

ولما كان من المخلوقات الميت والحي ، وكان الميت أبعد شيء عن صفة الإله ، قال نافياً عنها الحياة - بعد أن نفى القدرة والعلم - المستلزم لأن يكون عبدتها أشرف منها المستلزم لأنهم بخضوعهم لها في غاية السفه : ﴿ أموات ﴾ ولما كان الوصف قد يطلق على غير الملتبس به مجازاً عن عدم نفعه بضده وإن كان قائماً به عريقاً فيه قال : ﴿ غير أحياء ﴾ مبيناً أن المراد بذلك حقيقة سلب الحياة على ضد ما عليه الله ﴿ ألا له الخلق ﴾ من كونه حياً لا يموت ، ولعله اقتصر على وصفهم - مع أنهم موات - بأنهم أموات لأن ذلك مع كونه كافياً في المقصود من السياق - وهو إبعادهم عن الإلهية - يكون صالحاً لكل مخلوق ادعى

فيه الإلهية وإن اتصف بالحياة ، لأن حياته زائلة يعقبها الموت ، ومن كان كذلك كان بعيداً عن صفة الإلهية .

ولما كانوا – مع علمهم بأن الأصنام حجارة لا حياة لها – يخاطبون من أجوافها بألسنة الشياطين – كما هو مذكور في السير وغيرها من الكتب المصنفة في هواتف الجان ، فصاروا يظنون أن لها علماً بهذا الاعتبار ، ولذلك كانوا يظنون أنها تضر وتنفع ، احتيج إلى نفي العلم عنها ، ولما كانوا يخبرون على ألسنتها ببعض ما يسترقونه من السمع ، فيكون كما أخبروا ، لم ينف عنها مطلق العلم ، بل نفي ما لا علم لأحد غير الله به ، لأنهم لا يخبرون عنه بخبر إلا بان كذبه ، فقال تعالى عادّاً للبعث عداد المتفق عليه : ﴿ وما يشعرون ﴾ أي في هذا الحال كما هو مدلول ما ﴿ أيان ﴾ أي أيّ حين ﴿ يبعثون ﴾ فنفى عنهم مطلق الشعور الذي هو أعم من العلم ، فينتفي كل ما هو أخص منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 256. 257 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾

ففيه وجهان : الأول : أن الكفار كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى يسرون ضروباً من الكفر في مكايد الرسول عليه السلام فجعل هذا زجراً لهم عنها .

والثاني : أنه تعالى زيف في الآية الأولى عبادة الأصنام بسبب أنه لا قدرة لها على الخلق والإنعام وزيف في هذه الآية أيضاً عبادتها بسبب أن الإله يجب أن يكون عالماً بالسر والعلانية ، وهذه الأصنام جمادات لا معرفة لها بشيء أصلاً فكيف تحسن عبادتها ؟

أما قوله : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ فاعلم أنه تعالى وصف هذه الأصنام بصفات كثيرة .

فالصفة الأولى : أنهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون قرأ حفص عن عاصم يسرون ويعلنون ويدعون كلها بالياء على الحكاية عن الغائب ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بالياء خاصة على المغايبة وتسرون وتعلنون بالتاء على الخطاب ، والباقون كلها بالتاء على الخطاب عطفاً على ما قبله .

فإن قيل : أليس أن قوله في أول الآية : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ يدل على أن هذه

الأصنام لا تخلق شيئاً وقوله ههنا : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ يدل على نفس هذا المعنى ، فكان هذا محض التكرير .

وجوابه : أن المذكور في أول الآية أنهم لا يخلقون شيئاً ، والمذكور ههنا أنهم لا يخلقون شيئاً وأنهم مخلوقون لغيرهم ، فكان هذا زيادة في المعنى ، وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين أولاً أنها لا تخلق شيئاً ، ثم ثانياً أنها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة لغيرها .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ أموات غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ والمعنى : أنها لو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات ، أي غير جائز عليها الموت كالحي الذي لا يموت سبحانه وتعالى وأمر هذه الأصنام على العكس من ذلك .

(273/433)

فإن قيل : لما قال : ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ علم أنها غير أحياء فما الفائدة في قوله : ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ .

والجواب من وجهين :

الأول : أن الإله هو الحي الذي لا يحصل عقيب حياته موت ، وهذه الأصنام أموات لا

يحصل عقيب موتها الحياة .

والثاني : أن هذا الكلام مع الكفار الذين يعبدون الأوثان ، وهم في نهاية الجهالة والضلالة ، ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبي فقد يحسن أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه منه الإعلام بكون ذلك المخاطب في غاية الغباوة وأنه إنما يعيد تلك الكلمات لكون ذلك السامع في نهاية الجهالة ، وأنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ والضمير في قوله : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ عائد إلى الأصنام ، وفي الضمير في قوله : ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ قولان : أحدهما : أنه عائد إلى العابدين للأصنام يعني أن الأصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم ، وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم .

والثاني : أنه عائد إلى الأصنام يعني أن هذه الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس : إن الله يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بها إلى النار .

فإن قيل : الأصنام جمادات ، والجمادات لا توصف بأنها أموات ، ولا توصف بأنهم لا يشعرون كذا وكذا .

والجواب عنه من وجوه : الأول : أن الجماد قد يوصف بكونه ميتاً قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ [الروم : 19] .

والثاني : أن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالإلهية والمعبودية قيل لهم ؛ ليس الأمر كذلك ، بل هي أموات ولا يعرفون شيئاً ، فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم .

(274/433)

والثالث : أن يكون المراد بقوله : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ الملائكة ، وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله إنهم أموات لا بد لهم من الموت غير أحياء ، أي غير باقية حياتهم : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا علم لهم بوقت بعثهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 14.13 ﴾

فائدة

قال محمد بن أبى بكر الرازى :

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى فى وصف الأصنام " غير أحياء " بعد قوله " أموات "

قلنا : فائدته أنها أموات لا يعقب موتها حياة كالنطف والبيض والأجساد الميتة ، وذلك أبلغ فى موتها ؛ كأنه قال : أموات فى الحال غير أحياء فى المآل .

الثانى : أنه ليس وصفا لها ، بل لعبادها ، معناه : وعبادها غير أحياء القلوب

الثالث : أنه إنما قال : " غير أحياء " ليعلم أنه أراد : أموات فى الحال لأنها ستموت ، كما

فى قوله تعالى " إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ " .

فإن قيل : كيف عاب على الأصنام أو عبادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث فقال " وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ " والمؤمنون الموحدون كذلك ؟

قلنا : معناه وما تشعر الأصنام متى تبعث عبادها وقت بعثهم لا مفصلا ولا مجملا ، لأنهم ينكرون البعث بخلاف الموحدين ، فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملا أنه يوم القيامة ، وإن لم يشعروه مفصلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازى صـ 259 ﴾

(275/433)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾

الآية متصلة بمعنى ما قبله ، أي أن الله لغفور في تقصيركم عن شكر ما لا تحصونه من نعم الله ، وأن الله تعالى يعلم سركم وعلنكم ، فيغني ذلك عن إلزامكم شكر كل نعمة ، هذا على قراءة من قرأ " تسرون " بالتاء مخاطبة للمؤمنين ، فإن جمهور القراء قرأ " تسرون " بالتاء من فوق " وتعلنون " و " تدعون " كذلك ، وهي قراءة الأعرج وشيبة وأبي جعفر ومجاهد على معنى قل يا محمد للكفار ، وقرأ عاصم " تسرون " و " تعلنون " بالتاء من فوق و " يدعون "

بياء من تحت على غيبة الكفار ، وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن ، وروى هبيرة عن حفص عن عاصم ، كل ذلك بالياء على غيبة الكفار ، وروى الكسائي عن أبي بكر عن عاصم كل ذلك بالتاء من فوق ، وقرأ الأعمش وأصحاب عبد الله "يعلم الذي تبدون وما تكتمون وتدعون" بالتاء من فوق في الثلاثة ، و" ﴿ تدعون ﴾ معناه تدعونه إلهاً ، وعبر عن الأصنام ب ﴿ الذين ﴾ على ما قدمنا من أن ذلك يعم الأصنام وما عبد من دون الله وغيرها ، وقوله تعالى : ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ أجمعُ عبارة في نفي أحوال الربوبية عنهم ، وقرأ محمد اليماني "والذين يُدعون" بضم الياء وفتح على ما لم يُسم.

و ﴿ أموات ﴾ يراد به الذين يدعون من دون الله ورفع على خبر ابتداء مضمر تقديره هم أموات ، ويجوز أن يكون خبراً لقوله ﴿ والذين ﴾ بعد خبر في قوله ﴿ لا يخلقون ﴾ ووصفهم بالموت مجازاً . وإنما المراد لا حياة لهم ، فشبهوا بالموت ، وقوله ﴿ غير أحياء ﴾ أي لم يقبلوا حياة قط ، ولا اتصفوا بها .

قال القاضي أبو محمد : وعلى قراءة من قرأ " والذين يدعون " فالياء على غيبة الكفار ، يجوز أن يراد بالأموات الكفار الذين ضميرهم في " يدعون " ، شبههم بالأموات غير الأحياء

من حيث هم ضلال غير مهتدين ، ويستقيم على هذا فيهم قوله ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ و" البعث " هنا هو الحشر من القبور ، و﴿ أيان ﴾ ظرف زمان مبني ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي " إيان " بكسر الهمزة ، والفتح فيها والكسر لغتان ، وقالت فرقة : ﴿ وما يشعرون ﴾ أي الكفار ﴿ أيان يبعثون ﴾ الضميران لهم ، وقالت فرقة : وما يشعر الأصنام أيان يبعث الكفار .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون الضميران للأصنام ، ويكون البعث الإثارة ، كما تقول بعثت النائم من نومه إذا نبهته ، وكما تقول بعث الرامي سهمه ، فكأنه وصفهم بغاية الجمود أي وإن طلبت حركاتهم بالتحريك لم يشعروا لذلك .

قال القاضي أبو محمد : وعلى تأويل من يرى الضمير للكفار ينبغي أن يعتقد في الكلام الوعيد ، وما يشعر الكفار متى يبعثون إلى التعذيب ، ولو اختصر هذا المعنى لم يكن في وصفهم بأنهم " لا يشعرون وأيان يبعثون " طائل ، لأن الملائكة والأنبياء والصالحين كذلك هم في الجهل بوقت البعث ، وذكر بعض الناس أن قوله ﴿ أيان يبعثون ﴾ ظرف لقوله ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ [النحل : 22] وأن الكلام تم في قوله ﴿ وما يشعرون ﴾ ، ثم أخبر عن يوم القيامة أن الإله فيه واحد وهذا توعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾

قراءة العامة "تدعون" بالتاء لأن ما قبله خطاب .

روى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص "يدعون" بالياء ، وهي قراءة يعقوب .

فأما قوله : ﴿ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ فكلهم بالتاء على الخطاب ؛ إلا ما روى هُبيرة عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء .

﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ .

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أي هم أموات ، يعني الأصنام ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ، أي هي جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة .

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني الأصنام .

﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وقرأ السُّلَمِيّ "إِيّان" بكسر الهمزة ، وهما لغتان ، موضعه نصب ب "يبعثون" وهي في معنى الاستفهام .

والمعنى : لا يدرون متى يبعثون .

وعبر عنها كما عبر عن الآدميين ؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى ، فجرى خطابهم على ذلك .

وقد قيل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم ، وهي في الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث .

قال ابن عباس ؛ تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرؤون من عبدتها ، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار .

وقيل : إن الأصنام تطرح في النار مع عبدتها يوم القيامة ؛ دليله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

وقيل : تَمّ الكلام عند قوله : "لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون" ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات ، وهذا الموت موت كفر .

"وما يشعرون أيان يبعثون" أي وما يدري الكفار متى يبعثون ، أي وقت البعث ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدّوا للقاء الله .

وقيل : أي وما يدريهم متى الساعة ، ولعلها تكون قريباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(278/433)

وقال الخازن :

﴿ والله يعلم ما تسرّون وما تعلنون ﴾

يعني أن الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء .

وهو ما كانوا يمكرون بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وما يعلنون يعني ، وما يظهرون من إيذائه فأخبرهم الله أنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا تخفى عليه خافية وإن دقت وخفيت ، وقيل : إن الله سبحانه تعالى لما ذكر الأصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية أن الإله الذي يستحق العبادة ، يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات سرها وعلانيتها ، وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف الله هذه الأصنام بصفات فقال تعالى ﴿ والذين تدعون من دون الله ﴾ يعني الأصنام التي تدعونها آلهة من دون الله ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ فإن قلت : قوله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق ، يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً فقوله سبحانه وتعالى : لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار ؟ قلت : فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيئاً فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئاً وإنهم مخلوقون كغيرهم ، فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار ﴿ أموات ﴾ أي جمادات ميتة لا حياة فيها ﴿ غير أحياء ﴾ كغيرها ، والمعنى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها

الموت لأن الإله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت وهذه أموات غير أحياء ، فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها .

وقوله ﴿ وما يشعرون ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿ أيان يبعثون ﴾ يعني متى يبعثون وفيه دليل على أن الأصنام تجعل فيها الحياة ، وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها .

وقيل : معناها ما يدري الكفار الذين عبدوا الأصنام متى يبعثون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(279/433)

وقال أبو حيان :

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾

وأخبر تعالى أنه يعلم ما يسرون ، وضمنه الوعيد لهم ، والإخبار بعلمه تعالى .

وفيه التنبيه على نفي هذه الصفة الشريفة عن آلهتهم .

وقرأ الجمهور : بالتاء من فوق في تسرون وتعلنون وتدعون ، وهي قراءة : مجاهد ، والأعرج ، وشيبة ، وأبي جعفر ، وهبيرة ، عن عاصم على معنى : قل لهم .

وقرأ عاصم في مشهوره : يدعون بالياء من تحت ، وبالتاء في السابقتين .

وقرأ الأعمش وأصحاب عبد الله : يعلم الذي يبدون وما يكتمون ، وتدعون بالتاء من فوق في الثلاثة .

وقرأ طلحة : ما يخفون وما يعلنون ، وتدعون بالتاء من فوق ، وهاتان القراءتان مخالفتان لسواد المصحف ، والمشهور ما روي عن الأعمش وغيره ، فوجب حملها على التفسير ، لا على أنها قرآن .

ولما أظهر تعالى التباين بين الخالق وغيره ، نص على أنّ آلهتهم لا تخلق ، وعلى أنها مخلوقة .

وأخبر أنهم أموات .

وأكد ذلك بقوله : غير أحياء ، ثم نفى عنهم الشعور الذي يكون للبهائم ، فضلاً عن العلم الذي تتصف به العقلاء .

وعبر بالذين وهو للعاقل عومل غيره معاملته ، لكونها عبدت واعتقدت فيها الألوهية ،

وقرأ محمد اليماني : يدعون بضم الياء وفتح العين مبنياً للمفعول ، والظاهر أنّ قوله : وهم يخلقون ، أي : الله أنشأهم واخترعهم .

وقال الزمخشري : ووجه آخر وهو أن يكون المعنى : أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير ، وهم لا يقدرون على ذلك فهم أعجز من عبدتهم انتهى .

وأموات خبر مبتدأ محذوف أي : هم أموات .

ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر .

والظاهر أن هذه كلها مما حدث به عن الأصنام ، ويكون بعثهم إعادتها بعد فنائها .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وقيل : معنى بعثها إثارتها ، كما تقول : بعثت النائم من نومه إذ نبهته ، كأنه وصفهم بغاية الجمود أي : وإن طلبتهم بالتحريك أو حركتهم لم يشعروا بذلك ، ونفى عنهم الحياة لأنّ من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيواناً ، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها .

وأما الأصنام من الحجارة والخشب فأموات لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق في موتها .

وقيل : والذين تدعون ، هم الملائكة ، وكان ناس من الكفار يعبدونهم .

وأموت أي : لا بد لهم من الموت ، وغير أحياء أي : غير باق حياتهم ، وما يشعرون أي : لا علم لهم بوقت بعثهم .

وجوزوا في قراءة : والذين يدعون ، بالياء من تحت أن يكون قوله : أو موت ، يراد به الكفار الذين ضميرهم في : يدعون ، شبههم بالأموات غير الأحياء من حيث هم ضلال .

غير مهتدين وما بعده عائد عليهم ، والبعث الحشر من قبورهم .

وقيل : في هذا التقدير وعيد أي : أيان يبعثون إلى التعذيب .

وقيل : الضمير في وما يشعرون ، للأصنام وفي : يبعثون ، لعبدتها .

أي : لا تشعر الأصنام متى تبعث عبدتها .

وفيه تهكم بالمشركين ، وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعث عبدتهم ، فكيف يكون لهم وقت جزاء على عبادتهم .

وتلخص من هذه الأقوال أن تكون الإخبار بتلك الجمل كلها من المدعوين آلهة ، أما الأصنام ، وأما الملائكة ، أو يكون من قوله : أموات إلى آخره ، إخباراً عن الكفار .

أو يكون وما يشعرون أيان يبعثون ، فقط إخباراً عن الكفار ، أو يكون وما يشعرون إخباراً عن المدعوين ، ويبعثون : إخباراً عن الداعين العابدين .

وقرأ أبو عبد الرحمن إيان بكسر الهمزة ، وهي لغة قومه سليم .

والظاهر أنّ قوله : إيان ، معمول ليبعثون ، والجملة في موضع نصب بيشعرون ، لأنه معلق . إذ معناه العلم .

والمعنى : أنه نفى عنهم علم ما انفرد بعلمه الحي القيوم ، وهو وقت البعث إذا أريد بالبعث الحشر إلى الآخرة .

وقيل : تم الكلام عند قوله : وما يشعرون .

وأيان يبعثون ظرف لقوله : إلهكم إله واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(282/433)

وقال أبو السعود :

﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾

تُضمرونه من العقائد والأعمال ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي تظهرونه منهما ، وحُذف العائد لمراعاة الفواصلِ أي يستوي بالنسبة إلى علمه المحيطِ سرُّكم وعلَنُكم ، وفيه من الوعيد والدِلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الإلهية ما لا يخفى ، وتقديمُ السرِّ على العلن لما ذكرناه في سورة البقرة وسورة هودٍ من تحقيق المساواة بين عِلْميه المتعلّقَين بهما على أبلغ وجهٍ كأن عِلمَه تعالى بالسرّ أقدمُ منه بالعلن ، أو لأن كلَّ شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمرٌ في القلب ، فتعلّقُ علمه تعالى بحالته الأولى أقدمُ من تعلقه بحالته الثانية .

﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ شروع في تحقيق كونِ الأصنام بمعزل من استحقاق العبادةِ وتوضيحُه بحيث لا يبقى فيه شائبةُ ريب بتعديد أوصافِها وأحوالِها المنافية لذلك منافاةً ظاهرةً ، وتلك الأحوالُ وإن كانت غنيةً عن البيان لكنها شُرحت للتنبيه على كمال حماقةِ عبدَتِها وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح ، أي والآلهةُ الذين يعبدهم الكفار ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ سبحانه ، وقرىء على صيغة المبني للمفعول وعلى الخطاب ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ من الأشياء أصلاً أي ليس من شأنهم ذلك ، ولما لم يكن بين نفي الخالقية وبين المخلوقية تلازمٌ بحسب المفهومِ وإن تلازما في الصدق أُثبت لهم ذلك صريحاً فقيل : ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي شأنُهم ومقتضى ذاتِهم المخلوقيةُ لأنها ذواتٌ ممكنةٌ مفتقرةٌ في ماهياتها ووجوداتها إلى الموجد ، وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضادّ والمقابلة بين ما أثبت لهم وبين ما نُفي عنهم من وصفي المخلوقية والخالقية ، وللإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعلِ لظهور اختصاصِ الفعل بفاعله جل جلاله ، ويجوز أن يُجعل الخلقُ الثاني عبارةً عن النحت والتصوير رعايةً للمشاكلة بينه وبين الأول ومبالغةً في كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وإيذاناً بكمال ركاكةِ عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم ، وأما جعلُ الأول أيضاً عبارةً

عن ذلك كما فعل فلا وجه له ، إذ القدرةُ على مثل ذلك الخلقِ ليست مما يدور عليه استحقاقُ العبادة أصلاً ، ولِما أن إثباتَ المخلوقية لهم غيرُ مستدعٍ لنفي الحياة عنهم لِما أن بعض المخلوقين أحياءٌ صرح بذلك فقيل : ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ وهو خبرٌ ثان للموصول لا للضمير كما قيل ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ .

وحيث كان بعضُ الأموات مما يعتريه الحياة سابقاً أو لاحقاً كأجساد الحيوان والنطفِ متى يُنشِئُها الله تعالى حيواناً احتُرز عن ذلك فقيل : ﴿ غَيْرُ أَحْيَاء ﴾ أي لا يعتريها الحياة أصلاً فهي أمواتٌ على الإطلاق وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي ما يشعر أولئك الآلهةُ أيان يُبعث عَبَدتهم فعلى طريقة التهكمِ بهم لأن شعورَ الجماد بالأمور الظاهرة بديهيُّ الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير وفيه إيذانٌ بأن البعث من لوازم التكليفِ وأن معرفةَ وقته مما لا بد منه في الألوهية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾

أي تضمرونه من العقائد والأعمال ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي تظهرونه منهما ، وحذف العائد لمراعاة الفواصل أي يستوي بالنسبة إلى علمه سبحانه المحيط الأمران ، وفي تقديم الأول على الثاني تحقيق للمساواة على أبلغ وجه ، وفي ذلك من الوعيد والدلالة على اختصاصه تعالى بصفات الإلهية ما لا يخفى ، أما الأول : فلأن علم الملك القادر بمخالفة عبده يقتضي مجازاته ، وكثيراً ما ذكر علم الله تعالى وقدرته وأريد ذلك ، وأما الثاني : فبناء على ما قيل : إن تقديم المسند إليه في مثل ذلك يفيد الحصر ، ومن هنا قيل : إنه سبحانه أبطل شركهم للأصنام أولاً بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] وأبطله ثانياً بقوله تبارك اسمه : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ ﴾ الخ كأنه قيل : إنه تعالى عالم بذلك دون ما تشركون به فإنه لا يعلم ذلك بل لا يعلم شيئاً أصلاً فكيف يعد شريكاً لعالم السر والخفيات .

وفي "الكشف" أن في الجملة الأولى إشعاراً بأنه تعالى وما كلفهم حق الشكر لعدم الإمكان وتجاوز سبحانه عن الممكن إلى السهل الميسور ، وفي الثانية : ما يشعر بأنه قصروا في هذا الميسور أيضاً فاستحقوا العتاب .

﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ شروع في تحقيق أن آلهتهم بمعزل عن استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعداد أحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة ، وكأنها إنما شرحت مع ظهورها للتنبيه على كمال حماقة المشركين وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح أي والآلهة الذين تعبدونهم أيها الكفار ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ سبحانه ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ من الأشياء أصلاً أي ليس من شأنهم ذلك ، وذكر بعض الأجلة أن ذكر هذا بعد نفي التشابه والمشاركة للاستدلال على ذلك فكأنه قيل : هم لا يخلقون شيئاً ولا يشارك من يخلق من لا يخلق فينتج من الثالث هم لا يشاركون من يخلق ويلزمه أن من يخلق لا يشاركهم فلا تكرار ، وقيل عليه : إنه مبني على أن من يخلق ومن لا مجرى على غير معين ، ويفهم من سابق كلام هذا البعض أنه بني الكلام على أن الأول هو الله تعالى والثاني الأصنام ، ويقتضي تقريره هناك عدم الحاجة إلى هذه المقدمة للعلم بها وكونها مفروغاً عنها ، فالوجه أن التكرار لمزاوجة قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وتعقب بأن المصرح به العموم في الموضعين وأما التخصيص فيهما بما ذكر فلأن من يخلق عندنا مخصوص به تعالى في الخارج اختصاص الكوكب النهاري بالشمس وإن عم باعتبار مفهومه ، ومن لا يخلق وإن عم ذهناً

وخارجاً فتفسيره بمن عبد لاقتضاء المقام له ، ومقتضى التقرير ليس عدم الحاجة إلى المقدمة بل هو كونها في غاية الظهور بحيث لا يحتاج إلى إثباتها وهذا مصحح لكونها جزأ من الدليل ، وإذا ظهر المراد بطل الإيراد اه ، ولعل الأوجه في توجيه الذكر ما أشرنا إليه أولاً ، وحيث أنه لا تلازم أصلاً بين نفي الخالقين وبين المخلوقية أثبت ذلك لهم صريحاً على معنى شأنهم أنهم يخلقون إذ المخلوقية مقتضى ذواتهم لأنها ممكنة مفتقرة في وجودها وبقائها إلى الفاعل ، وبناء الفعل للمفعول كما قال بعض الأجلة لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما أثبت لهم وما نفى عنهم من وصف

الخالقية والمخلوقية وللإيذان بعدم الحاجة إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص بفاعله جل جلاله ، ولعل تقديم الضمير هنا لمجرد التقوى ، والمراد بالخلق منفياً ومثبتا المعنى المتبادر منه .

وجوز أن يراد من الثاني النحت والتصوير بناء على أن المراد من الذين يدعونهم الأصنام ، والتعبير عنهم بما يعبر عنه عن العقلاء لمعاملتهم والتعبير ، عن ذلك بالخلق لرعاية المشاكلة ، وفي ذلك من الإيماء بمزيد ركاكة عقول المشركين ما فيه حيث أشركوا بخالقهم مخلوقيهم ،

وإرادة هذا المعنى من الأول أيضاً ليست بشيء إذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلاً.

وقرأ الجمهور بالتاء المثناة من فوق في ﴿ تُسِرُّونَ ﴾ وهي قراءة مجاهد.

والأعرج.

وشيبة.

وأبي جعفر وهبيرة عن عاصم، وفي المشهور عنه أنه قرأ بالياء آخر الحروف في الأخير وبالتاء في الأولين، وقرئت الثلاثة بالياء في رواية عن أبي عمرو، وحمزة، وقرأ الأعمش ﴿ والله يَعْلَمُ الذى تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ والذين تَدْعُونَ ﴾ الخ بالتاء من فوق في الأفعال الثلاث، وقرأ طلحة ﴿ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ بالتاء كذلك، وحملت القراءتان على التفسير لمخالفتهما لسواد المصحف، وقرأ محمد اليماني ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ بضم الياء وفتح العين مبنياً للمفعول أي يدعونهم الكفار ويعبدونهم.

﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ خبر ثان للموصول أو خبر مبتدأ محذوف أي هم أموات، وصرح بذلك لما أن إثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفي الحياة عنهم لما أن بعض المخلوقين أحياء، والمراد بالموت على أن يكون المراد من المخبر عنه الأصنام عدم الحياة بلا زيادة عما من شأنه أن يكون حياً.

وقوله سبحانه : ﴿ غَيْرُ أَحْيَاء ﴾ خبر بعد خبر أيضاً أو صفة ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ وفائدة ذكره التأكيد عند بعض ، وأختير التأسيس وذلك أن بعض ما لا حياة فيه قد تعتريه الحياة كالنطفة فجيء به للاحتراز عن مثل هذا البعض فكأنه قيل : هم أموات حالاً وغير قابلين للحياة مآلا ، وجوز أن يكون المراد من المخبر عنه بما ذكر ما يتناول جميع معبوداتهم من ذوي العقول وغيرهم فيرتكب في ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ عموم المجاز ليشمل ما كان له حياة ثم مات كعزيز أو سيموت كعيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام وما ليس من شأنه الحياة أصلاً كالأصنام .

و ﴿ غَيْرُ أَحْيَاء ﴾ على هذا إذا فر بغير قابلين للحياة يكون من وصف الكل بصفة البعض ليكون تأسيساً في الجملة وإذا اعتبر التأكيد فالأمر ظاهر ، وجوز أن من أولئك المعبودين الملائكة عليهم الصلاة والسلام وكان أناس من المخاطبين يعبدونهم ، ومعنى كونهم أمواتاً لا بد لهم من الموت وكونهم غير أحياء غير تامة حياتهم والحياة التامة هي الحياة الذاتية التي لا يرد عليها الموت ، وجوز في قراءة ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ [النحل : 20] بالياء آخر الحروف أن يكون الأموات هم الداعين ، وأخبر عنهم بذلك تشبيهاً لهم بالأموات لكونهم ضلالاً غير مهتدين ، ولا يخفى ما فيه من البعد ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ الضمير الأول للآلهة والثاني لعبدتها ، والشعور العلم أو مباديه ، وقال الراغب :

يقال شعرت أي أصبت الشعر ، ومنه استعير شعرت كذا أي علمت علماً في الدقة كإصابة الشعر ، قي : وسمي الشاعر شاعراً لفظنته ودقة معرفته ، ثم ذكر أن المشاعر الحواس وأن معنى لا تشعرون لا تدركون بالحواس وأن لو قيل في كثير مما جاء فيه لا تشعرون لا تعقلون لم يجز إذ كثير مما لا يكون محسوساً يكون معقولاً ، و ﴿ أَيَّانَ ﴾ عبارة عن وقت الشيء ويقارب معنى متى ، وأصله عنده بعضهم أي أو أن أي أي وقت فحذف الألف ثم جعل الواو ياء وأدغم وهو كما ترى .

(289/433)

وقرأ أبو عبد الرحمن "إيان" بكسر الهمزة وهي لغة قومه سليم ، والظاهر أنه معمول ليبعثون والجملة في موضع نصب بيشعرون لأنه معلق عن العمل أي ما يشعر أولئك الآلهة متى يبعث عبدتهم ، وهذا من باب التهكم بهم بناءً على إرادة الأصنام لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهي الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير .

وفي "البحر" أن فيه تهكماً بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم ، ولعل هذا جار على سائر الاحتمالات في الآلهة ، وفيه تنبيه على أن البعث من لوازم التكليف لأنه للجزاء والجزاء للتكليف فيكون هو له وأن معرفة وقته لا بد

منه في الألوهية ، وقيل : ضميرا ﴿ يَشْعُرُونَ ﴾ للآلهة ويلزم من نفي شعورهم بوقت بعثهم نفي شعورهم بوقت بعث عبدتهم وهو الذي يقتضيه الظاهر ، ومن جوز أن يكون المراد من الأموات الكفرة الضلال جعل ضميري الجمع هنا لهم ، والكلام خارج مخرج الوعيد أي وما يشعر أولئك المشركون متى يبعثون إلى التعذيب ، وقيل : الكلام تم عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ و ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ظرف لقوله سبحانه :

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ على معنى أن الإله واحد يوم القيامة نظير ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] قال أبو حيان : ولا يصح هذا القول لأن ﴿ أيان ﴾ [النحل : 21] إذ ذاك تخرج عما استقر فيها من كونها ظرفاً إما استفهاماً أو شرطاً وتتمحض للظرفية بمعنى وقت مضافاً للجملة بعده نحو وقت يقوم زيد أقوم ، على أن هذا التعلق في نفسه خلاف الظاهر ، والظاهر أن قوله سبحانه : ﴿ إلهاكم ﴾ تصريح بالمدعي وتخليص للنتيجة غِبَّ إقامة الحجة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(290/433)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) ﴾

لما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات ، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال : ﴿ هُوَ الذى أَنْزَلَ مِنَ السماء ﴾ أي : من جهة السماء ، وهي السحاب ﴿ مَاء ﴾ أي : نوعاً من أنواع الماء ، وهو المطر ﴿ لَّكُم مَّنْهُ شَرَابٌ ﴾ يجوز أن يتعلق ﴿ لكم ﴾ ب ﴿ أنزل ﴾ أو هو خبر مقدّم ، وشراب مبتدأ مؤخر ، والجملة صفة لماء ، ﴿ وَمِنْهُ ﴾ في محل نصب على الحال ، والشراب : اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم ، والمعنى : أن الماء النازل من السماء قسمان : قسم يشربه الناس ، ومن جملته ماء الآبار والعيون ، فإنه من المطر لقوله : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ [الزمر : 21] وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشي .

قال الزجاج : كل ما ينبت من الأرض فهو شجر ، لأن التركيب يدل على الاختلاط ، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض ، ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق .

وقال ابن قتيبة : المراد من الشجر في الآية الكلأ ، وقيل : الشجر : كل ماله ساق كقوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] .

والعطف يقتضي التغاير ، فلما كان النجم ما لا ساق له ، وجب أن يكون الشجر ماله ساق ، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي : في الشجر ترعون مواشيكم ، يقال : سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة ، وأسمتها ، أي :

أخرجتها إلى الرعي فأنا مسيم وهي مسامة وسائمة ، وأصل السوم : الإبعاد في المرعى .

قال الزجاج : أخذ من السومة ، وهي العلامة ، لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها .

﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم " ننبت " بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، أي : ينبت الله لكم بذلك الماء الذي أنزله من السماء ، وقدّم الزرع لأنه أصل الأغذية التي يعيش بها الناس ، وأتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه وإداما من وجه لكثرة ما فيه من الدّهن ، وهو جمع زيتونة .

ويقال للشجرة نفسها : زيتونة .

ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه ، وجمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة ، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال : ﴿ وَمِن كُلّ الثمرات ﴾ كما أجمل الحيوانات التي لم يذكرها فيما سبق بقوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقرأ أبيّ بن كعب " ينبت لكم به الزرع " برفع الزرع وما بعده ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي : الإنزال والإنبات ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرّد بالربوبية ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في مخلوقات الله ولا يهملون النظر في مصنوعاته .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ معنى تسخيرهما للناس : تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم ، يتعاقبان دائماً ، كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ولا يخرج عن إرادته ولا يهمل السعي في نفعه .

وكذا الكلام في تسخير الشمس والقمر والنجوم ، فإنها تجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ، ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان .

ومعنى مسخرات : مذللات .

وقرأ ابن عامر وأهل الشام : " والشمس والقمر والنجوم مسخرات " بالرفع على الابتداء والخبر .

وقرأ الباقون بالنصب عطفاً على ﴿ الليل والنهار ﴾ ، وقرأ حفص عن عاصم برفع ﴿ النجوم ﴾ على أنه مبتدأ وخبره ﴿ مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ وعلى قراءة النصب في مسخرات يكون حالاً مؤكدة ، لأن التسخير قد فهم من قوله : ﴿ وَسَخَّرَ ﴾ ؛ وقرأ حفص في رواية برفع مسخرات مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي مسخرات ، ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ التسخير ﴿ لآيات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : يعملون عقولهم في

هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرّده ، وعدم وجود شريك له .

وذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة .

وجمعها ليطابق قوله ﴿ مسخرات ﴾ ؛ وقيل : إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها ، بخلاف ما تقدّم من الإنبات ، فإنه آية واحدة ، ولا يخلو كل هذا عن تكلف ، والأولى أن يقال : إن هذه المواضع الثلاثة التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار ، وللإفراد باعتبار ، فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبيهاً على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأرض ﴾ أي : خلق يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً : خلقهم ، فهو ذارىء ، ومنه الذرّية ، وهي : نسل الثقلين ، وقد تقدّم تحقيق هذا ، وهو معطوف على النجوم رفعاً ونصباً ، أي : وسخر لكم ما ذرأ في الأرض .

فالمعنى : أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية .

وانتصاب ﴿ مختلفاً ألوانه ﴾ على الحال ، و ﴿ ألوانه ﴾ : هيئاته ومناظره ، فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكلّ في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرّده ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ التسخير لهذه الأمور ﴿ لَآيَةً ﴾ واضحة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فإن من تذكر اعتبر ، ومن اعتبر ، استدلّ على المطلوب ، قيل : وإنما خصّ المقام الأوّل بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة .

وخصّ المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة ، وإراحة العلة ، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له .

وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة .

فمن شك بعد ذلك ، فلا حسّ له .

وفي هذا من التكلف ما لا يخفى .

والأولى : أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدّم في إفراد الآية في البعض ، وجمعها في البعض الآخر .

وبيانه أن كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ، ولذكر التعقل ، ولذكر التذكر ، لاعتبارات ظاهرة غير خفية .

فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة .

﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر ﴾ امتنّ الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيد وجواهر ، لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الربّ سبحانه وكمال قدرته ، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية ، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوّعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة ، وتكميلاً للإنذار ، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ، ومناطات البرهان ، ومواضع النظر والاعتبار ، ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال : ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ المراد به : السمك ، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته ، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ أي : لؤلؤاً ومرجاناً كما في قوله سبحانه : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] وظاهر قوله : ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي : يجعلونه حلية لهم كما يجوز للنساء ، ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله : ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ بقوله تلبسه نساؤهم ، لأنهنّ من جملتهم ، أو لكونهنّ يلبسنها لأجلهم ، وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من

التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلاّ النساء خاصة ، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبهاً بهنّ ، وقد ورد الشرع بمعنه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان .

﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ أي : ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها .

ومخر السفينة : شقها الماء بصدرها .

قال الجوهري : مخر السابح : إذا شقّ الماء بصدره ، ومخر الأرض : شقها للزراعة ، وقيل : مواخر جواري ، وقيل : معترضة .

وقيل : تذهب وتجيء ، وقيل : ملججة .

(295/433)

قال ابن جرير : المخر في اللغة : صوت هبوب الريح ، ولم يقيد بكونه في ماء ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ معطوف على ﴿ تستخرجوا ﴾ ، وما بينهما اعتراض ، أو على علة محذوفة تقديره : لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ، أو على تقدير فعل ذلك لتبتغوا أي : لتتجروا فيه ، فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : إذا وجدتم فضله عليكم وإحسانه إليكم ، اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والأركان .

قيل: ولعلّ وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر، بل من غير حركة أصلاً مع أنها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له.

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد، المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى، فقال: ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ أي: جبالاً ثابتة، يقال: رسا يرسو: إذا ثبت وأقام، قال الشاعر:

فصبرت عارفة لذلك حرة... ترسو إذا نفس الجبان تطلع

﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي: كراهة أن تميد بكم على ما قاله البصريون، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون، والميد: الاضطراب يميناً وشمالاً، ماد الشيء يميد ميداً تحرّك، ومادت الأغصان تمايلت، وماد الرجل تبختر ﴿ وأنهارا ﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً، لأن الإلقاء، ها هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مّنّى ﴾ [طه: 39].

﴿ وَسُبُلاً ﴾ أي: وجعل فيها سبلاً وأظهرها وبينها لأجل تهتدون بها في أسفاركم إلى مقاصدكم.

والسبل: الطرق ﴿ وعلامات ﴾ أي: وجعل فيها علامات، وهي معالم الطرق، والمعنى: أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ المراد بالنجم: الجنس، أي: يهتدون به في سفرهم ليلاً.

وقرأ ابن وثاب "وبالنجم" بضم النون والجيم، ومراده: النجوم فقصره، أو هو جمع نحو كسقف وسقف.

وقيل: المراد بالنجم هنا: الجدي والفرقدان قاله الفراء؛ وقيل: الثريا، وقيل: العلامات الجبال، وقيل: هي النجوم، لأن من النجوم ما يهتدى به، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها.

وذهب الجمهور إلى أن المراد في الآية الاهتداء في الأسفار؛ وقيل: هو الاهتداء إلى القبلة، ولا مانع من حمل ما في الآية على ما هو أعمّ من ذلك.

قال الأخفش: تمّ الكلام عند قوله ﴿ وعلامات ﴾، وقوله: ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ كلام منفصل عن الأول؛ ثم لما عدّد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ هذه المصنوعات العظيمة

ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئاً منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها ، وهو هذه الأصنام التي تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه .

وأطلق عليها لفظ "من" إجراء لها مجرى أولى العلم جرياً على زعمهم بأنها آلهة ، أو مشاكلة لقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ لوقوعها في صحبته ، وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى ، وما أحقهم بذلك ، فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقه تعالى الله عما يشركون .

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرّده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك ، فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرّد التذكر لها .

ثم لما فرغ من تعديد الآيات ، التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم ، قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ وقد مرّ تفسير هذا في سورة إبراهيم .

قال العقلاء : إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنغص النعم على الإنسان ، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل ، فهو سبحانه يدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له ، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك

فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أدناها ؟ .

يا ربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظيم نعمك معترفة بالعجز عن بادية الشكر لشيء منها ، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكر لك ، فتجاوز عنا واغفر لنا وأسبل ذيول سترك على عوارتنا فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرّد التقصير في شكر نعمك ، فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاء عن مناهيك ، وما أحسن ما قال من قال :

العفو يرجى من بني آدم . . . فكيف لا يرجى من الربّ

فقلت مذيلاً لهذا البيت الذي هو قصر مشيد :

فإنه أرأف بي منهم . . . حسبي به حسبي به حسبي

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه ، والقصور عن إحصائها ، والعجز عن القيام بأدناها ، ومن رحمته إدامتها عليكم وإدرارها في كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها .

اللهم إني أشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكلّ لسان في كل زمان ، وعدد ما سيشكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان ، فقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير من خلقك ، وإن

رأيت منها شيئاً على بعض خلقك لم أرَ عليه بقيتها ، فأني أطيق شكرك وكيف أستطيع بادية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها ؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها ؟

(298/433)

ثم بين لعباده بأنه عالم بجميع ما يصدر منهم ، لا تخفى عليه منه خافية فقال : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ أي : تضمرونه من الأمور ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي : تظهرونه منها .

وفيه وعيد وتعريض وتوبيخ ، وتنبيه على أنّ الإله يجب أن يكون عالماً بالسرّ والعلانية ، لا كالأصنام التي يعبدونها ، فإنها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلاً عن السرائر فكيف يعبدونها ؟ .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأرض ﴾ قال : ما خلق لكم في الأرض مختلفاً من الدواب ، والشجر والثمار ، نعم من الله متظاهرة ، فاشكروها لله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعني : حيتان البحر ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ قال : هذا اللؤلؤ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ وَهُوَ الذى سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا

طَرِيًّا ﴾ قال : هو السمك وما فيه من الدواب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي جعفر ، قال : ليس في الحلى زكاة ، ثم قرأ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

أقول : وفي هذا الاستدلال نظر ، والذي ينبغي التعويل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم ، وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف ، ولم يرد في الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدلّ على وجوب الزكاة فيها .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ قال : جواري .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ قال : تشقّ الماء بصدرها .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ قال : السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ قال : هي التجارة .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿

رَوَاسِيَ ﴾ قال : الجبال ، ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ قال : حتى لا تميد بكم ، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقرّ ، فأصبحوا صبحاً وقد جعل الله الجبال ، وهي الرواسي أوتاداً في الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ وَسُبُلاً ﴾ قال : السبل هي الطرق بين الجبال .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والخطيب عن قتادة ﴿ وَسُبُلاً ﴾ قال : طرقاً ﴿ وعلامات ﴾ قال : هي النجوم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في الآية قال : علامات النهار الجبال .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر عن الكلبي ﴿ وعلامات ﴾ قال : الجبال :

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وعلامات ﴾ يعني : معالم الطرق بالنهار ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني بالليل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ قال : الله هو الخالق الرازق ، وهذه الأوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تُخلق شيئاً ، ولا تملك لأهلها ضرّاً ولا نفعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) ﴾

عطف على جملة ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [سورة النحل : 17] .

فبعد أن أُثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلّة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله : أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ انتُقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم .

ولم يقدم لهذا الخبر استدلال ولا عقّب بالدّليل لأنه مما دلّت عليه أدلّة الانفراد بالخلق ، لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن يكون عالماً بدقائق حركات تلك الأجزاء وهي بين ظاهر وخفيّ ، فلذلك قال : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ .

والمخاطب هنا هم المخاطبون بقوله تعالى : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ [سورة النحل : 17] .

وفيه تعريض بالتهديد والوعيد بأن الله محاسبهم على كفرهم .

وفيه إعلام بأن أصنامهم بخلاف ذلك كما دلّ عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي فإنه يفيد القصر لردّ دعوى الشركة .

وقرأ حفص ما يسرون وما يعلنون ﴾ بالتحتية فيهما ، وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة .

وعلى قراءته تكون الجملة أظهر في التهديد منها في قصد التعليم .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) ﴾

عطف على جملة ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [سورة النحل : 17] وجملة ﴿ والله يعلم ما تسرون ﴾ [سورة النحل : 19] .

وما صدْق ﴿ الذين ﴾ الأصنامُ.

وظاهر أن الخطاب هنا متمحّض للمشركين وهم بعض المخاطبين في الضمائر السابقة .

والمقصود من هذه الجملة التصريح بما استفيد ضمناً مما قبلها وهو نفي الخالقية ونفي العلم عن الأصنام .

فالخبر الأول وهو جملة ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ استفيد من جملة ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [سورة النحل : 17] وعطف وهم يخلقون ﴾ ارتقاء في الاستدلال على انتفاء إلهيتها .

والخبر الثاني وهو جملة ﴿ أموات غير أحياء ﴾ تصريح بما استفيد من جملة ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ [سورة النحل : 19] بطريقة نفي الشيء بنفي ملزومه .

وهي طريقة الكناية التي هي كذكر الشيء بدليله .

فنفي الحياة عن الأصنام في قوله : ﴿ غير أحياء ﴾ يستلزم نفي العلم عنها لأن الحياة

شرط في قبول العلم ، ولأن نفي أن يكونوا يعلمون ما هو من أحوالهم يستلزم انتفاء أن يعلموا أحوال غيرهم بدلالة فحوى الخطاب ، ومن كان هكذا فهو غير إله .

وأسند ﴿ يخلقون ﴾ إلى النائب لظهور الفاعل من المقام ، أي وهم مخلوقون لله تعالى ، فإنهم من الحجارة التي هي من خلق الله ، ولا يخرجها نحت البشر إيّاها على صور وأشكال عن كون الأصل مخلوقاً لله تعالى .

كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام قوله : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [سورة الصافات : 96] .

وجملة غير أحياء ﴾ تأكيد لمضمون جملة ﴿ أموات ﴾ ، للدلالة على عراقة وصف الموت فيهم بأنه ليس فيه شائبة حياة لأنهم حجارة .

ووصفت الحجارة بالموت باعتبار كون الموتِ عدم الحياة .

ولا يشترط في الوصف بأسماء الأعدام قبولُ الموصوفات بها لملكاتها ، كما اصطلح عليه الحكماء ، لأن ذلك اصطلاح منطقي دعا إليه تنظيم أصول المحاجة .

وقرأ عاصم ويعقوب ﴿ يدعون ﴾ بالتحتية .

وفيها زيادة تبيين لصرف الخطاب إلى المشركين في قراءة الجمهور .

وجملة ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى ، لأن هذين هما أصل إبطال عقيدة المشركين ، وتمهيدٌ لوجه التلازم بين

إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله تعالى ﴿ فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ [سورة النحل : 22] .

ولذلك فالظاهر أن ضميري يشعرون ﴾ و ﴿ يبعثون ﴾ عائدان إلى الكفّار على طريق الالتفات في قراءة الجمهور ، وعلى تناسق الضمائر في قراءة عاصم ويعقوب .

والمقصود من نفي شعورهم بالبعث تهديدهم بأن البعث الذي أنكروه واقع وأنهم لا يدرون متى يبغتهم ، كما قال تعالى : ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ [سورة الأعراف : 187] .

والبعث : حقيقته الإرسال من مكان إلى آخر .

ويطلق على إثارة الجاثم .

ومنه قولهم : بعثتُ البعير ، إذا أثرته من مَبركه .

ولعلّه من إطلاق اسم الشيء على سببه .

وقد غلب البعث في اصطلاح القرآن على إحضار الناس إلى الحساب بعد الموت .

فمن كان منهم ميتاً فبعثه من جدثه ، ومن كان منهم حياً فصادفته ساعة انتهاء الدنيا فمات ساعتئذٍ فبعثُه هو إحياؤه عقب الموت ، وبذلك لا يعكر إسناد نفي الشعور بوقت

البعث عن الكفّار الأحياء المهدّدين.

ولا يستقيم أن يكون ضمير ﴿ يشعرون ﴾ عائداً إلى ﴿ الذين تدعون ﴾ ، أي الأصنام.

و﴿ أيان ﴾ اسم استفهام عن الزمان.

مركبة من (أي) و (آن) بمعنى أي زمن، وهي معلقة لفعل ﴿ يشعرون ﴾ عن العمل بالاستفهام، والمعنى: وما يشعرون بزمن بعثهم.

وتقدم ﴿ أيان ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها ﴾ في سورة الأعراف (187). انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(303/433)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) ﴾

والسِّر كما نعلم هو ما حبسْته في نفسك، أو ما أسررْتَ به لغيرك، وطلبتَ منه ألاَّ يُعلِمه لأحد . والحق سبحانه يعلم السِّر، بل يعلم ما هو أَخْفى فهو القائل: ﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه: 7].

أي : أنه يعلم ما نُسِره في أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سِراً قبل أن نُسِرَّه في أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السِّر فقط ؛ بل يعلم العَلَن أيضاً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) ﴾

أي : أنهم لا يستطيعون أنْ يخلقوا شيئاً ؛ بل هم يُخْلقون ، والأصنام كما قُلْنا هي أدنى مِمَّنْ يخلقونها ، فكيف يستوي أنْ يكونَ المعبود أَدْنى من العابد ؟ وذلك تسفيهٌ لعبادتهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لحظةَ أنْ حطَّم الأصنام ، وسأله أهله : مَنْ فعل ذلك بآلهتنا ؟ وأجاب : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ [الأنبياء : 63] .

فقالوا له : إن الكبير مجرَّد صنم ، وأنت تعلم أنه لا يقدر على شيء .

ونجد القرآن يقول لأمثال هؤلاء : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات : 95] .

فهذه الآلهة إذن لا تخلق بل تُخلق ، ولكن الله هو خالق كل شيء ، وسبحانه القائل : ﴿ يا أَيُّها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] .

ويذكر الحق سبحانه من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام : ﴿ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ . . .

﴾ .

وهم بالفعل أموات ؛ لأنهم بلا حِسٍّ ولا حركة ، وقوله :

﴿ غَيْرُ أَحْيَآءٍ . . ﴾ [النحل : 21] .

(304/433)

تفيد أنه لم تكُنْ لهم حياة من قَبْل ، ولم تثبت لهم الحياة في دورة من دورات الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام ، فهم لا يخلقون شيئاً ، بل هم مخلوقون بواسطة مَنْ نحتُوهم ، وتلك الأصنام والأوثان لن تكون لها حياة في الآخرة ، بل ستكون وَقُوداً للنار .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : 22] .

وبطبيعة الحال لن تشعرَ تلك الحجارةُ ببعْث مَنْ عبدوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(305/433)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ : قرأ العامَّةُ " تُسِرُّون " و " تُعْلِنون " بتاء الخطاب . وأبو جعفر بالياء مِنْ تحتُ .

﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ 20)

وقرأ عاصم وحده " يَدْعُون " بالياء ، والباقون بالتاء مِنْ فوقُ . وقُرِئ " يُدْعَوْن " مبنياً للمفعول . وهنَّ واضحاتٌ .

﴿ مْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ : يجوز أن يكونَ خبراً ثانياً ، أي : وهم يُخْلَقُون وهم أمواتٌ . ويجوز أن يكونَ " يُخْلَقون " و " أمواتٌ " كلاهما خبراً من بابِ " هذا حُلْوٌ حامِض " ذكره أبو البقاء ، ويجوز أُنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هم أمواتٌ .

قوله : ﴿ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ يجوز فيه ما تقدم ، ويكون تأكيداً . وقال أبو البقاء : " ويجوز أُنْ يكونَ قصد بها أنهم في الحال غيرُ أحياءٍ ليَرْفَعَ به توهُّمَ أنَّ قولَه " أمواتٌ " فيما بعد إذ قال

تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] . قلت : وهذا لا يُخْرِجُه عن التأكيدِ الذي ذكره قبل ذلك .

(306/433)

قوله : ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ " أيَّان " منصوبٌ بما بعده لا بما قبلَه لأنه استفهامٌ ، وهو مُعَلِّقٌ لـ " يَشْعُرون " فجملتُه في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافضِ ، هذا هو الظاهرُ . وفي الآية قولٌ آخرُ : وهو أن " أيَّان " ظرفٌ لقولِه ﴿ إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ يعني أن الإِلهَ واحدٌ يومَ القيامة ، ولم يَدَّعِ أحدٌ الإِلهيةَ في ذلك اليومِ بخلاف أيَّام الدنيا ، فإنه قد وُجد فيها من ادَّعى ذلك ، وعلى هذا فقد تَمَّ الكلامُ على قوله " يَشْعُرون " ، إلا أن هذا القول مُخْرِجٌ لـ " أيَّان " عن موضوعِها - وهو : إمَّا / الشرطُ ، وإمَّا الاستفهامُ - إلى مَحْضِ الظرفيةِ بمعنى وقت ، مضافٌ للجملة بعده كقولِك : " وقتَ تَذْهَبُ عمروٌ منطلق " فوقتَ منصوبٌ بمُنْطَلِق ، مضافٌ لتذهب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 205. 206 ﴾

(307/433)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) ﴾

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص . . فلا يخفى عليه حسبان ، وما تعلنون من الوفاق والشقاق ، والإحسان والعصيان . والآية توجِبُ تخويفَ أربابِ الزّلّات ، وتشريفَ أصحاب الطاعات .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) ﴾

أخبر أن الأصنامَ لا يَصحُّ منها الخُلقُ لكونها مخلوقةً ، ودلّت الآيةُ على أنّ من وُجِدَتْ له سِمَةُ الخَلْق لا يصِحُّ منه الخَلق ، والخَلق هو الإيجاد ؛ ففي الآية دليلٌ على خَلْقِ الأعمال .

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) ﴾

لأنّ مَنْ لَحِقَهُ وصفُ التكوين لا يصِحُّ منه الإيجاد . وفي التحقيق كُلُّ مَنْ عَلقَ قلبَه بشيءٍ ، وتَوَهَّم منه خيراً أو شراً فقد أشرك بالله بظنّه ، وإنما التوحيد تجريدُ القلبِ عن حسبان شظيّةٍ من النفي والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 290 . 291 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

هذه السورة هادئة الإيقاع ، عادية الجرس ؛ ولكنها مليئة حافلة . موضوعاتها الرئيسية كثيرة منوعة ؛ والإطار الذي تعرض فيه واسع شامل ؛ والأوتار التي توقع عليها متعددة مؤثرة ، والظلال التي تلونها عميقة الخطوط .

وهي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية . والوحي . والبعث . ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية . تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التي تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد صلى الله عليه وسلم وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال . وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله في المكذبين لهم . وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع . وتلم بالهجرة في سبيل الله ، وفتنة المسلمين في دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله . . ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة . . وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية

الموضوعات التي تعالجها .

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذي تجري فيه الأحداث ، فهو فسيح شامل . . هو السماوات والأرض . والماء الهاطل والشجر النامي . والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار . وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها ، والأخرى بأقدارها ومشاهدها . وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق .

(309/433)

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير . حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار . ليست في جلجلة الأنعام والرعد ، ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري ، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس . إنها تخاطب العين لترى ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر ، والوجدان ليتأثر ، والعقل ليتدبر . وتحشد الكون كله : سماءه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره وفجاجه وأنهاره وظلاله وأكنانه نبته وثماره ، وحيوانه وطيوره . كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسراره وغيوبه . . كلها أدوات

توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الإيقاعات التي لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق والقلب الميت ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله في الكون ، وآلائه على الناس كما تتناول مشاهد القيامة ، وصور الاحتضار ، ومصارع الغابرين ؛ تصاحبها اللمسات الوجدانية التي تتدسس إلى أسرار الأنفس ، وإلى أحوال البشر وهم أجنة في البطون ، وهم في الشباب والهرم والشيخوخة ، وهم في حالات الضعف والقوة ، وهم في أحوال النعمة والنقمة .

كذلك يتخذ الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التي تلون جو السورة كله فهي الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير .

. كلها متداخلة . . فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ، ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر ، لا تلبي ضروراتهم وحدها ، ولكن تلبي أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة . وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستروح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون . .

ومن ثم تتراءى في السورة ظلال النعمة وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها ، والتعقيب بها في مقاطع السورة ، وتضرب عليها الأمثال ، وتعرض لها النماذج ، وأظهرها نموذج إبراهيم ﴿ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ كل أولئك في تناسق ملحوظ بين الصور والظلال والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نقف على نماذج منه في أثناء استعراضنا للسياق .

ونبدأ الشوط الأول ، وموضوعه هو التوحيد ؛ وأدواته هي آيات الله في الخلق ، وأياديه في النعمة ، وعلمه الشامل في السر والعلانية ، والدنيا والآخرة . فلنأخذ في التفصيل :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ . .

لقد كان مشركوا مكة يستعجلون الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب زادوا استعجالاً ، وزادوا استهزاء ، وزادوا استهتارا ؛ وحسبوا أن محمد يخوفهم ما لا وجود له ولا حقيقة ، ليؤمنوا له ويستسلموا . ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته في أنظارهم ؛ ولم يحاولوا تدبر آياته في الكون ، وآياته في القرآن . هذه الآيات التي تخاطب العقول والقلوب ، خيرا من خطابها بالعذاب ! والتي تليق بالإنسان الذي أكرمه الله بالعقل والشعور ، وحرية الإرادة والتفكير .

وجاء مطلع السورة حاسماً جازماً : ﴿ أتى أمر الله ﴾ . . يوحي بصدور الأمر وتوجه

الإرادة ؛ وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدره الله لوقوعه ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فإن سنة الله تمضي وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال . ولا يؤخرها رجاء . فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى ، أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر ، لا يستقدم ساعة ولا يتأخر .

(311/433)

وهذه الصيغة الحاسمة الجازمة ذات وقع في النفس مهما تماسك أو تكابر ، وذلك فوق مطابقتها لحقيقة الواقع ؛ فامر الله لا بد واقع ، ومجرد قضائه يعد في حكم نفاذه ، ويتحقق به وجوده ، فلا مبالغة في الصيغة ولا مجانبة للحقيقة ، في الوقت الذي تؤدي غايتها من التأثر العميق في الشعور .

فأما ما هم عليه من شرك بالله الواحد ، وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تنزه الله عنه وتعالى : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ بكل صوره وأشكاله ، الناشئة عن هبوط في التصور والتفكير .

أتى أمر الله المنزه عن الشرك المتعالي عما يشركون . الله الذي لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم إنما هو ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من

أمره على من يشاء من عباده ﴾ .

. وهذا أولى نعمه وكبراها . فهو لا ينزل من السماء ماء يحيي الأرض والأجسام وحدها

كما سيجيء إنما ينزل الملائكة بالروح من أمره . وللتعبير بالروح ظله ومعناه . فهو حياة

ومبعث حياة : حياة في النفوس والضمائر والعقول والمشاعر . وحياة في المجتمع تحفظه من

الفساد والتحلل والانهيار . وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس ، وأول النعم التي يمن الله

بها على العباد . تنزل به الملائكة أطهر خلق الله على المختارين من عباده الأنبياء

خلاصته وفحواه : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون . ﴾

إنها الوحدانية في الألوهية . روح العقيدة . وحياة النفس . ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيي

والاتجاه المدمر . فالنفس التي لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل وتخايل

لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة ، وتناوشها الوساوس ، فلا تنطلق مجتمعة لهدف

من الأهداف !

والتعبير بالروح يشمل هذه المعاني كلها ويشير إليها في مطلع السورة المشتملة على شتى

النعم ، فيصدر بها نعمه جميعا ؛ وهي النعمة الكبرى التي لا قيمة لغيرها بدونها ؛ ولا

تحسن النفس البشرية الانتفاع بنعم الأرض كلها إن لم توهب نعمة العقيدة التي تحييها .

ويفرد الإنذار ، فيجعله فحوى الوحي والرسالة ، لأن معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والمشركين والجاحدين لنعمة الله ، والمحرمين ما أحله الله ، والناقضين لعهد الله ، والمرتدين عن الإيمان ومن ثم يكون إظهار الإنذار أليق في هذا السياق . وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى في هذا المقام .

ثم يأخذ في عرض الآيات . آيات الخلق الدالة على وحدانية الخالق ؛ وآيات النعمة الدالة على وحدانية المنعم ؛ يعرضها فوجا فوجا ، ومجموعة مجموعة . بادئاً بخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان .

﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾

﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ . . الحق قوام خلقهما ، والحق قوام تدبيرهما ، والحق عنصر أصيل في تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما . فما شيء من ذلك كله عبث ولا جزاف . إنما كل شيء قائم على الحق ومتلبس به ومفض له وصائر في النهاية إليه . . ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ . . تعالى عن شركهم ، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذي خلق السماوات والأرض ، وخلق من فيهما وما فيهما ، فليس أحد وليس شيء شريكاً له وهو الخالق الواحد بلا شريك .

﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ ويا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير . بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل الذي يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل في وجوده أو في وحدانيته . وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة . فهكذا يصوره التعبير ، ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير ، لتبدو المفارقة كاملة ، والنقلة بعيدة ، ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين : مشهد النطفة المهينة الساذجة ، ومشهد الإنسان الخصيم المبين .

. وهو إيجاز مقصود في تصوير .

وفي هذا المجال الواسع مجال الكون : السماوات والأرض الذي يقف فيه الإنسان ، يأخذ السياق في استعراض خلق الله الذي سخره للإنسان ، ويبدأ بالأنعام :

﴿ والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون ﴾ . .

وفي بيئة كالبيئة التي نزل فيها القرآن أول مرة ، وأشباهها كثير ؛ وفي كل بيئة زراعية والبيئات الزراعية هي الغالبة حتى اليوم في العالم . . في هذه البيئة تبرز نعمة الأنعام ، التي لا حياة بدونها لبني الإنسان . والأنعام المتعارف عليها في الجزيرة كانت هي الإبل والبقر والضأن والمعز . أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة ولا تؤكل والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك : ففي الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار ، ومنافع في هذه وفي اللبن واللحم وما إليها . ومنها تأكلون لحماً ولبناً وسمناً ، وفي حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس . وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح . جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة . وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة .

وفي الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب . وتلبية لحاسة الجمال في الزينة : ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ .

وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة . فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني

المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان .

﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ يعقب بها على حمل الأثقال إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس توجيها إلى ما في خلق الأنعام من نعمة ، وما في هذه النعمة من رحمة .

(315/433)

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ . . يعقب بها على خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال ، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة . . ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة ، وخارج حدود الزمان الذي يظلهم . فوراء الموجود في كل مكان وزمان صور أخرى ، يريد الله للناس أن يتوقعوا فيتسع تصورهم وإدراكهم ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها . ولا يقولوا : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها .

وإنما نص القرآني على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها ! .

إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهيِّئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه

العلم، ويتمخض عنه المستقبل. استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة.

ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يعلمها أهل ذلك الزمان. وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان. والقرآن يهيِّئ لها القلوب والأذهان، بلا جمود ولا تحجر ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ ..

وفي معرض النقل والحمل والركوب والسير لبلوغ غايات محسوسة في عالم الأرض، يدخل السياق غايات معنوية وسيرا معنوياً وطرقا معنوية. فثمة الطريق إلى الله. وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوي ولا يتجاوز الغاية. وثمة طرق أخرى لا توصل ولا تهدي. فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كشفها وبيانها: بآياته في الكون وبرسله إلى الناس:

﴿ وعلى الله قصد السبيل. ومنها جائر. ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ ..

والسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذي لا يلتوي كأنه يقصد إلى غايته فلا يحيد عنها.

والسبيل الجائر هو السبيل المنحرف المجاوز للغاية لا يوصل إليها، أو لا يقف عندها!

﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .. ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال

، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . فكان منهم من يسلك السبيل القاصد ، ومنهم من يسلك السبيل الجائر . وكلاهما لا يخرج على مشيئة الله ، التي قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار .

والفوج الثاني من آيات الخلق والنعمة :

﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ . . والماء ينزل من السماء وفق النواميس التي خلقها الله في هذا الكون ، والتي تدبر حركاته ، وتنشئ نتائجها وفق إرادة الخالق وتدبيره ، بقدر خاص من أقداره ينشئ كل حركة وكل نتيجة . هذا الماء يذكر هنا نعمة من نعم الله ﴿ لكم منه شراب ﴾ فهي خصوصية الشراب التي تبرز في هذا المجال ثم خصوصية المرعى ﴿ ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ وهي المراعي التي تربون فيها السوائم . ذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها وتنسيقاً للجو العام بين المراعي والأنعام . ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار . .

﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ . . في تدبير الله لهذا الكون ، ونواميسه المواتية لحياة البشر ، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته ، موافقة لفطرته ، ملبية لحاجاته . وما هي بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان في

هذا الكوكب الأرضي ، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هي هذه النسب ، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هي عليه ، ممكنة للإنسان من الحياة ، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذي نراه .

والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير ، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار ، وبين النواميس العليا للوجود ، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدبيره . أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء ، في الصيف والشتاء ، فلا توقظ تطلعهم ، ولا تثير استطلاعهم ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد .

والفوج الثالث من أفواج الآيات :

﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . .

ومن مظاهر التدبير في الخلق ، وظواهر النعمة على البشر في آن : الليل والنهار والشمس

والقمر والنجوم. فكلها مما يلبي حاجة الإنسان في الأرض. وهي لم تخلق له ولكنها مسخرة لمنفعته. فظاهرة الليل والنهار ذات أثر حاسم في حياة هذا المخلوق البشري. ومن شاء فليتصور نهارا بلا ليل أو ليلا بلا نهار، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات في هذه الأرض كيف تكون.

كذلك الشمس والقمر. وعلاقتهما بالحياة على الكوكب الأرضي، وعلاقة الحياة بهما في أصلها وفي نموها، ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ للإنسان ولغير الإنسان مما يعلم الله.. وكل أولئك طرف من حكمة التدبير، وتناسق النواميس في الكون كله، يدركه أصحاب العقول التي تدبر وتعقل وتدرك ما وراء الظواهر من سنن وقوانين: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾..

والفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان:

﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه. إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾..

وما خلق الله في الأرض وما أودع فيها للبشر من مختلف المعادن التي تقوم بها حياتهم في بعض الجهات وفي بعض الأزمان. ونظرة إلى هذه الذخائر المخبوءة في الارض، المودعة

للناس حتى يبلغوا رشدهم يوماً بعد يوم ، ويستخرجوا كنوزهم في حينها ووقت الحاجة إليها . وكلما قيل : إن كنزا منها قد نفد أعقبه كنز آخر غني ، من رزق الله المدخر للعباد . . ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ ولا ينسون أن يد القدرة هي التي خبأت لهم هذه الكنوز .

والفوج الخامس من أفواج الخلق والأنعام في البحر الملح الذي لا يشرب ولا يسقي ، ولكنه يشتمل على صنوف من آلاء الله على الإنسان :

﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾ . .

ونعمة البحر وأحيائه تلبي كذلك ضرورات الإنسان وأشواقه .

فمنه اللحم الطري من السمك وغيره للطعام . وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان ، وغيرهما من الأصداف والقواقع التي يتحلى بها أقوام ما يزالون حتى الآن . والتعبير كذلك عن الفلك يشي بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ فهي لفتة إلى متاع الرؤية وروعتها : رؤية الفلك ﴿ مواخر ﴾ تشق الماء وتفرق العباب . . ومرة اخرى نجد أنفسنا أمام التوجيه القرآني العالي إلى الجمال في مظاهر الكون ، بجانب الضرورة والحاجة ، لنتملى هذا الجمال ونستمتع به ، ولا نحبس أنفسنا داخل حدود الضرورات والحاجات .

كذلك يوجهنا السياق أمام مشهد البحر والفلك تشق عبابه إلى ابتغاء فضل الله ورزقه، وإلى شكره على ما سخر من طعام والزينة والجمال في ذلك الملح الأجاج: ﴿ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾.

والفوج الأخير في هذا المقطع من السورة:

﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم، وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾.

فأما الجبال الرواسي فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التي يذكرها القرآن هنا. يعلل وجودها بنظريات كثيرة متعارضة أهمها أن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش، فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه وتتجعد فتكون الجبال والمرتفعات والمنخفضات. ولكن القرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض. وهذه الوظيفة لم يتعرض لها العلم الحديث.

وفي مقابل الجبال الرواسي يوجه النظر إلى الأنهار الجواري، والسبل السوالك. والأنهار ذات علاقة طبيعية في المشهد بالجبال، ففي الجبال في الغالب تكون منافع الأنهار؛ حيث

مساقط الأمطار . والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار . وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال . وإلى جوار ذلك معالم الطرق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات ، وفي السماء من النجم الذي يهدي السالكين في البر والبحر سواء .

وعندما ينتهي استعراض آيات الخلق ، وآيات النعمة ، وآيات التدبير في هذا المقطع من السورة يعقب السياق عليه بما سيق هذا الاستعراض من أجله . فقد ساقه في صدد قضية التعريف بالله سبحانه وتوحيده وتنزيهه عما يشركون :

﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ . .

وهو تعقيب يجيء في أوانه ، والنفس متهيئة للإقرار بمضمونه : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ ﴾ . . فهل هنالك إلا جواب واحد : لا . وكلا : أفيجوز أن يسوي إنسان في حسه وتقديره . . بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق لا كبيرا ولا صغيراً ؟ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر ، فيتضح الأمر ويتجلى اليقين .

ولقد استعرض ألوانا من النعمة. فهو يعقب عليها: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾.. فضلاً على أن تشكروها. وأكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها.. وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال؟ إنما يسعه غفران الله للتقصير ورحمته بالإنسان الضعيف ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾..

والخالق يعلم ما خلق. يعلم الخافي والظاهر: ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ فكيف يسوونه في حسهم وتقديرهم بتلك الآلهة المدعاة وهم لا يخلقون شيئًا ولا يعلمون شيئًا، بل إنهم لأموات غير قابلين للحياة على الإطلاق. ومن ثم فهم لا يشعرون: ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون. أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾..

والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لا بد أن يعلم موعد البعث. لأن البعث تكملة للخلق. وعنده يستوفي الأحياء جزاءهم على ما قدموا. فالآلهة التي لا تعلم متى يبعث عبادها هي آلهة لا تستحق التأليه، بل هي سخرية الساخرين. فالخالق يبعث مخاليقه ويعلم متى يبعثهم على التحقيق!. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2159 2164. ﴾

قوله تعالى ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت أدلة البعث قد ثبت قيامها ، واتضحت أعلامها ، وعلا منارها ، وانتشرت أنوارها ، ساق الكلام فيها مساق ما لا خلاف إلا في العلم بوقته مع الاتفاق على أصله ، لأنه من لوازم التكليف ، ولما اتضح بذلك كله عجز شركائهم ، أشار إلى أن منشأ العجز قبول التعدد ، إرشاداً إلى برهان التمانع ، فقال على طريق الاستئناف لأنه نتيجة ما مضى قطعاً : ﴿ إلهكم ﴾ أي أيها الخلق كلكم ، المعبود بحق ﴿ إله ﴾ أي متصف بالإلهية على الإطلاق بالنسبة إلى كل أحد وكل زمان وكل مكان ﴿ واحد ﴾ لا يقبل التعدد - الذي هو مثار النقص - بوجه من الوجوه ، لأن التعدد يستلزم إمكان التمانع المستلزم للعجز

المستلزم للبعد عن رتبة الإلهية ﴿ فالذين ﴾ أي فتسبب عن هذا أن الذين ﴿ لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي دار الجزاء ومحل إظهار الحكم الذي هو ثمرة الملك والعدل الذي هو مدار العظمة ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ أي جاهلة بأنه واحد ، لما لها من القسوة لا لاشتباه الأمر - لما تقدم في هود من أن مادة " نكر " تدور على القوة وهي تستلزم الصلابة فتأتي القسوة ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم بسبب إنكار الآخرة ﴿ مستكبرون ﴾ أي صفتهم الاستكبار عن كل ما لا يوافق أهواءهم وهو طلب الترفع بالامتناع من قبول الحق أنفة من أهله ، فصاروا بذلك إلى حد يخفى عليهم معه الشمس كما قال تعالى : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ [هود : 20] وربما دل ﴿ مستكبرون ﴾ على أن ﴿ منكرة ﴾ بمعنى " جاحدة ما هي به عارفة " .

ولما كانوا - لكون الإنسان أكثر شيء جدلاً - ربما أنكروا الاستكبار ، وادعوا أنه او ظهر لهم الحق لأنابوا ، قال على طريق الجواب لمن كأنه قال : إنهم لا يأبون استكباراً ما لا يشكون معه في أن هذا كلام الله ﴿ لا جرم ﴾ أي لا ظن في ﴿ أن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يعلم ﴾ علماً غيبياً وشهادياً ﴿ ما يسرون ﴾ أي يخفون مطلقاً أو بالنسبة إلى بعض الناس .

ولما كان علم السر لا يستلزم علم الجهر – كما مضى غير مرة ، قال : ﴿ وما يعلنون ﴾ فهو أخبر بذلك إلا عن أمر قطعي لا يقبل المراء .

ولما كان في ذلك معنى التهديد ، لأن المراد : فليجازينهم على دق ذلك وجهل من غير أن يغفر منه شيئاً – كما يأتي التصريح به في قوله : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة ﴾ [النحل : 25] علل هذا المعنى بقوله : ﴿ إنه ﴾ أي العالم بالسر والعلن ﴿ لا يحب المستكبرين ﴾ أي على الحق ، كائناً ما كان .

ولما كان الطعن في القرآن – بما ثبت من عجزهم عن معارضته – دليل الاستكبار قال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ : ﴿ وإذا قيل ﴾ أي من أيّ قائل كان في أي وقت كان ولو تكرر ﴿ لهم ﴾ أي لمنكري الآخرة : ﴿ ماذا ﴾ أي أي شيء ﴿ أنزل ربكم ﴾ أي المحسن إليكم المدبر لأموركم ﴿ قالوا ﴾ مكابرين في إنزاله عادّين " ذا " موصولة لا مؤكدة للاستفهام : الذي تعنون أنه منزل ليس منزلاً ، بل هو ﴿ أساطير الأولين ﴾ – مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضة سورة منه مع علمهم بأنه أفصح الناس وأنه لا يكون من أحد من الناس متقدم أو متأخر قول إلا قالوا أبلغ منه .

ولما كان الكتاب هو الصراط المستقيم المنقذ من الهلاك ، وكان قولهم هذا صداً عنه ، فكان – مع كونه ضلالاً – إضلالاً ، ومن المعلوم أن من ضل كان عليه إثم ضلاله ، ومن أضل كان عليه وزر إضلاله – هذا ما لا يخفى على ذي عقل صحيح ، فلما كان هذا بيناً ، وكانوا يدعون أنهم أبصر الناس بالخفيات فكيف بالجليات ، حسن جداً قوله :

﴿ ليحملوا ﴾ فإنهم يعلمون أن هذا لازم لهم قطعاً وإن قالوا بألسنتهم غيره ، أو يقال : إنه قيل ذلك لأنه – مع أن الجهل أولى لهم منه – أخف أحوالهم لأنهم إما أن يعلموا أنهم فعلوا بهذا الطعن ما ليس لهم أولاً ، فعلى الثاني هم أجهل الناس ، وعلى الأول فإما أن يكونوا ظنوا أنهم يؤخذون به أو لا ، فعلى الثاني يكون الخلق سدى ، وليس هو من الحكمة في شيء ، فمعتقد هذا من الجهل بمكان عظيم ، وعلى الأول فهم يشاهدون كثيراً من الظلمة لا يجازون في الدنيا ، فيلزمهم في الحكمة اعتقاد الآخرة ، ليجازى بها المحسن والمسيء ، وهذا أخف الأحوال المتقدمة ، ولا يخفى ما في الإقدام على مثله من الغباوة المناقضة لادعائهم أنهم أبصر الناس ، فقد آل الأمر إلى التهكم بهم لأنهم نُسبوا إلى علم الجهل خير منه

﴿ أوزارهم ﴾ التي باشروها لنكوبهم عن الحق تكبراً لا عن شبهة .

ولما كان الله من فضله يكفر عن أهل الإيمان صغائرهم بالطاعات وباجتناب الكبائر فكان التكفير مشروطاً بالإيمان ، وكان هؤلاء قد كفروا بالتكذيب بالكتاب ، قال تعالى :

﴿ كاملة ﴾ لا ينقص منها وزر شيء مما أسروا ولا مما أعلنوا ، لخفاء ولا ذهول بتكفير ولا غيره من دون خلل في وصف من الأوصاف ، فهو أبلغ من " تامة " لأن التمام قد يكون في العدة مع خلل في بعض الوصف ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي لا شك فيه ولا محيص عن إتيانه ﴿ و ﴾ ليحملوا ﴿ من ﴾ مثل ﴿ أوزار ﴾ الجهلة الضعفاء ﴿ الذين يضلونهم ﴾ فيضلون بهم كما بين أولئك الذين ضلوا ﴿ بغير علم ﴾ يحملون من أوزارهم من غير أن يباشروها لما لهم فيها من التسبب من غير أن ينقص من أوزار الضالين بهم شيء وإن كانوا جهلة ، لأن لهم عقولاً هي بحيث تهدي إلى سؤال أهل الذكر ، وفطراً أولى تنفر من الباطل " أول " ما يعرض عليها فضيعوها ؛ ثم استأنف التنبيه على عظيم ما يحصل لهم من مرتكبهم من الضرر وعيداً لهم فقال تعالى : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ فأدخل همزة الإنكار على حرف النفي فصار إثباتاً على أبلغ وجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 257 259.﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) ﴾

اعلم أنه تعالى لما زيف فيما تقدم طريقة عبدة الأوثان والأصنام وبين فساد مذهبهم بالدلائل القاهرة قال : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ ثم ذكر تعالى ما لأجله أصر الكفار على القول بالشرك وإنكار التوحيد فقال : ﴿ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ والمعنى أن الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب ، خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعونه ، فلا جرم ينتفعون بسماع الدلائل ، ويرجعون من الباطل إلى الحق ، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فإنهم لا يرغبون في حصول الثواب ولا يرهبون من الوقوع في العقاب فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع إلى قول غيرهم ، فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال .

ثم قال تعالى : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ والمعنى أنه تعالى يعلم أن إصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة ليس لأجل شبهة تصوروها أو إشكال تخيلوه ، بل ذلك لأجل التقليد والنفرة عن الرجوع إلى الحق والشغف بنصرة مذاهب الأسلاف

والتكبر والنخوة .

فلهذا قال : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ وهذا الوعيد يتناول كل المتكبرين .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة في إبطال مذاهب عبدة الأصنام ، ذكر بعد ذلك شبهات منكري النبوة مع الجواب عنها .

فالشبهة الأولى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما احتج على صحة نبوة نفسه بكون القرآن معجزة طعنوا في القرآن وقالوا : إنه أساطير الأولين ، وليس هو من جنس المعجزات ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن ذلك السائل من كان ؟ قيل هو كلام بعضهم لبعض ، وقيل هو قول المسلمين لهم ، وقيل : هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : كيف يكون تنزيل ربهم أساطير الأولين ؟

وجوابه من وجوه : الأول : أنه مذكور على سبيل السخرية كقوله تعالى عنهم : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لمجنون ﴾ [الشعراء : 27] ، وقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذى نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] وقوله : ﴿ يأَيُّه الساحر ادع لَنَا رَبَّكَ ﴾ [الزخرف : 49] .

الثاني : أن يكون التقدير هذا الذي تذكرون أنه منزل من ربكم هو أساطير الأولين .

الثالث : يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزله الله لكنه أساطير الأولين ليس فيه شيء من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق .

(327/433)

واعلم أنه تعالى لما حكى شبههم قال : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة ﴾ اللام في ليحملوا لام العاقبة ، وذلك أنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين لأجل أن يحملوا الأوزار ، ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام كقوله : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ ﴾ [القصص : 8] وقوله : ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ معناه : أنه تعالى لا يخفف من عقابهم شيئاً ، بل يوصل ذلك العقاب بكليته إليهم ، وأقول : هذا يدل على أنه

تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل ، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى ، وقوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ معناه : ويحصل للرؤساء مثل أوزار الأتباع ، والسبب فيه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع كان له مثل أجر من اتبعه لا ينقص من أجورهم شيء وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع كان عليه مثل وزر من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيء "

واعلم أنه ليس المراد منه أنه تعالى يوصل العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤساء ، وذلك لأن هذا لا يليق بعدل الله تعالى ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾

[النجم : 39] وقوله : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ [الإسراء : 15] بل المعنى : أن الرئيس إذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه ، حتى أن ذلك العقاب يكون مساوياً لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع ، قال الواحدي : ولفظه : ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ ليست للتبعيض ، لأنها لو كانت للتبعيض لخف عن الأتباع بعض أوزارهم ، وذلك غير جائز ، لقوله عليه السلام : " من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " ولكنها للجنس ، أي ليحملوا من جنس أوزار الأتباع .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني أن هؤلاء الرؤساء إنما يقدمون على هذا الإضلال جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال ثم إنه تعالى ختم الكلام بقوله : ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ والمقصود المبالغة في الزجر .

فإن قيل : إنه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها ، بل اقتصر على محض الوعيد ؛ فما السبب فيه ؟

قلنا : السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزاً بطريقين : الأول : أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم بكل القرآن ، وتارة بعشر سور ، وتارة بسورة واحدة ، وتارة بحديث واحد ، وعجزوا عن المعارضة ، وذلك يدل على كونه معجزاً .

الثاني : أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهو قوله : ﴿ اكتتبها فَهِىَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5] وأبطلها بقوله : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] ومعناه أن القرآن مشتمل على الأخبار عن الغيوب ، وذلك لا يتأتى إلا ممن يكون عالماً بأسرار السموات والأرض ، فلما ثبت كون القرآن معجزاً بهذين الطريقين ، وتكرر شرح هذين الطريقين مراراً كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب عن هذه الشبهة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 16.15 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم ﴾

يعني وإذا قيل لمن تقدم ذِكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث .

﴿ مَّاذَا أنزل ربكم ﴾ يحتمل القائل ذلك لهم وجهين :

أحدهما : أنه قول بعض لبعض ، فعلى هذا يكون معناه ماذا نسب إلى إنزال ربكم ، لأنهم منكرون لنزوله من ربهم .

والوجه الثاني : أنه من قول المؤمنين لهم اختباراً لهم ، فعلى هذا يكون محمولاً على حقيقة نزوله منه .

﴿ قالوا أساطير الأولين ﴾ وهذا جوابهم عما سئلوا عنه ويحتمل وجهين :

أحدهما : أي أحاديث الأولين استرذالاً له واستهزاءَ به .

الثاني : أنه مثل ما جاء به الأولون ، تكذيباً له ولجميع الرسل .

قوله عز وجل : ﴿ ليحملوا أوزارهم ﴾

أي أثقال كفرهم وتكذيبهم .

﴿ كاملة يوم القيامة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنها لم تسقط بالتوبة .

الثاني : أنها لم تخفف بالمصائب .

﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علمٍ ﴾ يعني أنه قد اقترن بما حملوه من أوزارهم ما يتحملونه من أوزار من أضلوهم .

ويحتمل وجهين : أحدهما : أن المضل يتحمل أوزار الضال بإغوائه .

الثاني : أن الضال يتحمل أوزار المضل بنصرته وطاعته .

ويحتمل قوله تعالى ﴿ بغير علمٍ ﴾ وجهين :

أحدهما : بغير علم المضلّ بما دعا إليه .

الثاني : بغير علم الضال بما أجاب إليه .

ويحتمل المراد بالعلم وجهين :

أحدهما : يعني أنهم يتحملون سوء أوزارهم لأنه تقليد بغير استدلال ولا شبهة .

الثاني : أراد أنهم لا يعلمون بما تحملوه من أوزار الذين يضلونهم .

﴿ ألا ساءَ ما يزرون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني أنهم يتحملون سوء أوزارهم .

الثاني : معناه أنه يسوؤهم ما تحملوه من أوزارهم . فيكون على الوجه الأول معجلاً في

الدنيا ، وعلى الوجه الآخر مؤجلاً في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(330/433)

وقال ابن عطية :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

(331/433)

لما تقدم وصف الأصنام جاء الخبر الحق بالوحدانية ، وهذه مخاطبة لجميع الناس معلمة بأن الله تعالى متحد وحدة تامة لا يحتاج لكمالها إلى مضاف إليها ، ثم أخبر عن إنكار قلوب الكافرين وأنهم يعتقدون ألوهية أشياء أخر ، ويستكبرون عن رفض معتقدهم فيها ، واطراح طريقة آبائهم في عبادتها ، ووسمهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة إذ هي أقوى رتب الكفر ، أعني الجمع بين التكذيب بالله تعالى وبالبعث ، لأن كل مصدق ببعث فمحال أن يكذب بالله ، وقوله ﴿ لا جرم ﴾ عبرت فرقة من النحويين عن معناها بلا بد ولا محالة ، وقالت

فرقة : معناها حق أن الله ، ومذهب سيبويه أن ﴿ لا ﴾ ، نفي لما تقدم من الكلام ، و ﴿ جرم ﴾ معناه حق ووجب ، ونحو هذا ، هذا هو مذهب الزجاج ، ولكن مع مذهبهما ﴿ لا ﴾ مُلازمةٌ ل ﴿ جرم ﴾ لا تنفك هذه من هذه ، وفي ﴿ جرم ﴾ لغات قد تقدم ذكرها في سورة هود ، وأنشد أبو عبيدة : / جرمت فزارة / وقال معناها حقت عليهم وأوجبت أن يغضبوا ، و ﴿ أن ﴾ على مذهب سيبويه فاعلة ب ﴿ جرم ﴾ ، وقرأ الجمهور " أن " ، وقرأ عيسى الثقفي " إن " بكسر الألف على القطع ، قال يحيى بن سلام والنقاش : المراد هنا بما يسرون مشاورتهم في دار الندوة في قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ عام في الكافرين والمؤمنين ، فأخذ كل واحد منهم بقسطه ، وفي الحديث " لا يدخل الجنة وفي قلبه مثقال حبة من كبر " ، وفيه " أن الكبر منع الحق وغمص الناس " ويروى عن الحسن بن علي أنه كان يجلس مع المساكين ويحدثهم ، ثم يقول ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ . ويروى في الحديث " أنه من سجد لله سجدة من المؤمنين فقد برىء من الكبر " وقوله ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ الآية ، الضمير في ﴿ لهم ﴾ لكفار مكة ، ويقال إن سبب الآية كان النضر بن الحارث ، سافر عن مكة إلى الحيرة وغيرها ، وكان قد اتخذ كتب التواريخ والأمثال ككليلة ودمنة ، وأخبار السندباد ، ورستم ، فجاء إلى مكة ،

فكان يقول : إنما يحدث محمد بأساطير الأولين ، وحديثي أجمل من حديثه ، وقوله ﴿ ماذا ﴾ يجوز أن تكون " ما " استفهاماً ، و" ذا " بمعنى الذي ، وفي ﴿ أنزل ﴾ ضمير عائد ، ويجوز أن يكون " ما " و" ذا " اسماً واحداً مركباً ، كأنه قال : أي شيء وقوله ﴿ أساطير الأولين ﴾ ليس بجواب على السؤال لأنهم لم يريدوا أنه نزل شيء ولا أن ثم منزلاً ، ولكنهم ابتدوا الخبر بأن هذه ﴿ أساطير الأولين ﴾ ، وإنما الجواب على السؤال ، قول المؤمنين في الآية المستقبلة

﴿ خيراً ﴾ [النحل : 30] وقولهم : ﴿ أساطير الأولين ﴾ إنما هو جواب بالمعنى ، فأما على السؤال وبحسبه فلا ، واللام في قوله ﴿ ليحملوا ﴾ يحتمل أن تكون لام العاقبة لأنهم لم يقصدوا بقولهم ﴿ أساطير الأولين ﴾ "ليحملوا الأوزار " ، ويحتمل أن يكون صريح لام كي ، على معنى قدر هذا ، ويحتمل أن تكون لام الأمر ، على معنى الحتم عليهم بذلك ، والصغار الموجب لهم ، و" الأوزار " الأثقال ، وقوله ﴿ ومن ﴾ للتبعيض ، وذلك أن هذا الواهن المضل يحمل وزر نفسه كاملاً ويحمل وزراً من وزر كل مضل بسببه ولا تنقص أوزار أولئك ، وقوله ﴿ بغير علم ﴾ يجوز أن يريد بها المضل أي أضل بغير برهان قام عنده ، ويجوز أن يريد ﴿ بغير علم ﴾ من المقلدين الذي يضلون ، ثم استفتح الله تعالى الإخبار عن سوء ما يتحملونه للآخرة ، وأسند الطبري وغيره في معنى هذه الآية حديثاً ،

نصه " أيما داع إلى ضلالة فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ، وأيما داع دعا إلى الهدى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء "

و﴿ ساء ﴾ فعل مسند إلى ﴿ ما ﴾ ، ويحتاج في ذلك هنا إلى صلة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(333/433)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

لما بيّن استحالة الإشراك بالله تعالى بيّن أن المعبود واحد لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

﴿ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أي لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر ، وهذا ردّ على القدرية .

﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق .

وقد تقدم في "البقرة" معنى الاستكبار .

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي من القول والعمل فيجازيهم .

قال الخليل : "لا جرم" كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً ؛ يقال : فعلوا ذلك ؛ فيقال : لا جرم

سيندمون .

أي حقاً أن لهم النار .

وقد مضى القول في هذا في "هود" مستوفىً .

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ أي لا يثيبهم ولا يثني عليهم .

وعن الحسين بن عليّ أنه مرّ بمساكين قد قدّموا كِسَراً بينهم وهم يأكلون فقالوا : الغذاءَ يا أبا عبد الله ، فنزل وجلس معهم وقال "إنه لا يحِب المستكبِرِين" فلما فرغ قال : قد أجبتُكم فأجيبوني ؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا .

قال العلماء .

وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر ؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله .

وفي الحديث الصحيح : " إن المتكبرين يحشرون أمثال الذَّرّ يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم " أو كما قال صلى الله عليه وسلم : " تَصْغُرُ لهم أجسامُهم في المحشر حتى يضرهم صِغَرُها وتَعْظُم لهم في النار حتى يضرهم عِظَمُها " .

"

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾

يعني وإذا قيل لمن تقدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث "ماذا أنزل ربكم" .

قيل : القائل النضر بن الحارث ، وأن الآية نزلت فيه ، وكان خرج إلى الحِيرة فاشترى أحاديث (كَلِيلة ودِمْنة) فكان يقرأ على قريش ويقول : ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأولين ؛ أي ليس هو من تنزيل ربّنا .

وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبارا ً فأجابوا بقولهم : "أساطِير الأوّلِين" فأقرّوا بإنكار شيء هو أساطير الأوّلين .

والأساطير : الأباطيل والتُّرّهات .

وقد تقدّم في الأنعام .

والقول في "ماذا أنزل ربكم" كالقول في ﴿ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 215] وقوله : ﴿ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ خبر ابتداء محذوف ، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ ﴾

قيل : هي لام كَي ، وهي متعلقة بما قبلها .

وقيل : لام العاقبة ؛ كقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] .

أي قولهم في القرآن والنبيّ أدّاهم إلى أن حملوا أوزارهم ؛ أي ذنوبهم .

﴿ كَامِلَةً ﴾ لم يتركوا منها شيئاً لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم .

وقيل : هي لام الأمر ، والمعنى التهدّد .

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذينِ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال مجاهد : يحملون وِزْر من أضلّوه ولا يَنْقُص من إثم المُضَلّ شيء .

وفي الخبر : " أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيّما داع دعا إلى هُدًى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء " خرّجه مسلم بمعناه .

و"مِن" للجنس لا للتبعيض ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي يضلون الخلق جهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا .

﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس الوزر الذي يحملونه .

ونظير هذه الآية ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] وقد تقدّم في آخر "الأنعام" بيان قوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : 164] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(336/433)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إلهكم إله واحد ﴾

يعني أن الذي يستحق العبادة هو إله واحد ، وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ يعني جاحدة لهذا المعنى ﴿ وهم مستكبرون ﴾ يعني عن اتباع الحق لأن الحق إذا تبين كان تركه تكبراً ﴿ لا جرم ﴾ يعني حقاً ﴿ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾ يعني عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً وفعله حسناً قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق ، وغمط الناس " قوله بطر الحق هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده ، وعبادته باطلاً وهذا على قول من جعل أصل البطر من

الباطل ، ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماء الحق فلا يقبله ، ولا يجعله حقاً ، وقيل : البطر التكبر يعني أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله ، وقوله : وغمط الناس يقال : غمطت حق فلان إذا احتقرته ولم تره شيئاً وكذا معنى غمصته أي انتقصت به وازدريته .

(337/433)

قوله : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ يعني لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها ، وطرقها إذا سألهم الحاج الذين يقدمون عليهم ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ يعني أحاديثهم وأباطيلهم ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ﴾ اللام في ليحملوا لام العاقبة وذلك أنهم وصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين ، كانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعني ذنوب أنفسهم وإنما قال سبحانه وتعالى : كاملة لأن البلايا التي أصابتهم في الدنيا وأعمال البر التي عملوها في الدنيا ، لا تكفر عنهم شيئاً يوم القيام بل يعاقبون بكل أوزارهم قال الإمام فخر الدين : وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل ، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة .

(338/433)

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ يعني ويحصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الإيمان ، مثل أجور الاتباع والسبب فيه ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً " أخرجه مسلم ومعنى الآية ، والحديث أن الرئيس أو الكبير إذا سنّ سنه حسنة أو سنة قبيحة ، فتبعه عليها جماعة ، فعملوا بها فإن الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساوياً لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع ، الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة ، وليس المراد أن الله تعالى : يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤساء ، لأن ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى : ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ قال الواحدي : ولفظة من في قوله ومن أوزار الذين يضلونهم ، بغير علم ليست للتبعيض لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الأتباع بعض الأوزار ، وذلك غير جائز لقوله " لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً " ، ولكنها للجنس أي لحملوا من جنس أوزار الأتباع وقوله : بغير علم يعني أن الرؤساء إنما يقدمون على إضلال غيرهم ، بغير علم ، بما يستحقونه من العقاب ، على ذلك الإضلال بل يقدمون على ذلك جهلاً منهم

بما يستحقونه من العذاب الشديد .

﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ يعني ألا بئس ما يحملون ففيه وعيد وتهديد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(339/433)

وقال أبو حيان :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

أخبر عن يوم القيامة أنّ الإله فيه واحد انتهى .

ولا يصح هذا القول لأنّ أيان إذ ذاك تخرج عما استقر فيها من كونها ظرفاً ، إما استفهاماً ، وإما شرطاً .

وفي هذا التقدير تكون ظرفاً بمعنى وقت مضافاً للجملة بعدها ، معمولاً لقوله : واحد ، كقولك : يوم يقوم زيد قائم .

وفي قوله : أيان يبعثون دلالة على أنه لا بد من البعث ، وأنه من لوازم التكليف .

ولما ذكر تعالى ما اتصفت به آلهتهم بما ينافي الألوهية ، أخبر تعالى أنّ إله العالم هو واحد لا يتعدد ولا يتجزأ وأن الذين لا يؤمنون بالجزاء بعد وضوح بطلان أن تكون الإلهية لغيره بل له

وحده ، هم مستمرون على شركهم ، منكرون وحدانيته ، مستكبرون عن الإقرار بها ، لاعتقادهم الإلهية لأصنامهم وتكبرها في الوجود .

ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة مبالغة في نسبة الكفر إليهم ، إذ عدم التصديق بالجزاء في الآخرة يتضمن التكذيب بالله تعالى وبالبعث ، إذ من آمن بالبعث يستحيل أن يكذب الله عز وجل .

وقيل : مستكبرون عن الإيمان برسول الله وأتباعه .

وقال العلماء : كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان .

وفي الحديث الصحيح : " إنّ المستكبرين يجيؤون أمثال الذر يوم القيامة ، يطؤهم الناس بأقدامهم " أو كما قال (صلى الله عليه وسلم) ، وتقدم الكلام في ﴿ لا جرم ﴾ في هود .

وقرأ عيسى الثقفي إن بكسر الهمزة على الاستئناف والقطع مما قبله .

وقال بعض أصحابنا : وقد يغني لا جرم عن لفظ القسم ، تقول : لا جرم لآتينك ، فعلى هذا يكون لقوله : إن الله بكسر الهمزة تعلق بلا جرم ، ولا يكون استئنافاً .

وقد قال بعض الأعراب لمرداس الخارجي : لا جرم والله لأفارقنك أبداً ، نفى كلامه تعلقها بالقسم .

وفي قوله : يعلم ما يسرون وما يعلنون وعيد وتنبيه على المجازاة ، وقال يحيى بن سلام ، والنقاش : المراد هنا بما يسرون تشاورهم في دار الندوة في قتل النبي (صلى الله عليه وسلم) انتهى .

ولا يحب المستكبرين عام في الكافرين والمؤمنين ، يأخذ كل واحد منهم بقسطه .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) ﴾

قيل : سبب نزول وإذا قيل لهم الآية ، أنّ النضر بن الحرث سافر عن مكة إلى الحيرة ، وكان قد اتخذ كتب التواريخ والأمثال ككليلة ودمنة ، وأخبار اسفنديار ورستم ، فجاء إلى مكة فكان يقول : إنما يحدث محمد بأساطير الأولين وحديثي أجمل من حديثه .

وما كلمة استفهام مفعول بأنزل ، أو مبتدأ خبره ذا بمعنى الذي ، وعائده في أنزل محذوف أي : أي شيء الذي أنزله .

وأجاز الزمخشري أن يكون ماذا مرفوعاً بالابتداء قال : بمعنى أي شيء أنزله ربكم .

وهذا لا يجوز عند البصريين إلا في ضرورة الشعر ، والضمير في لهم عائد على كفار قريش .

وماذا أنزل ليس معمولاً لقيل على مذهب البصرين ، لأنه جملة ، والجملة لا تقع موقع المفعول الذي لم يسم فاعله ، كما لا تقع موقع الفاعل .

وقرئ شاذاً : أساطير بالنصب على معنى ذكر ثم أساطير ، أو أنزل أساطير على سبيل التهكم والسخرية ، لأنّ التصديق بالإنزال ينافي أساطير ، وهم يعتقدون أنه ما نزل شيء ولا أن ثمّ منزل .

وبنى قيل : للمفعول ، فاحتمل أن كون القائل بعضهم لبعض ، واحتمل أن يكون المؤمنون قالوا لهم على سبيل الامتحان .

وقيل : قائل ذلك الذين تقاسموا مداخل مكة ينفرون عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذا سألهم وفود الحاج : ماذا أنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ قالوا : أحاديث الأولين .

وقرأ الجمهور : برفع أساطير ، فاحتمل أن يكون التقدير المذكور : أساطير ، أو المنزل أساطير ، جعلوه منزلاً على سبيل الاستهزاء ، وإن كانوا لا يؤمنون بذلك .

(341/433)

واللام في ليحملوا لام الأمر على معنى الحتم عليهم والصغار الموجب لهم ، أو لام التعليل من غير أن يكون غرضاً كقولك : خرجت من البلد مخافة الشر ، وهي التي يعبر عنها بلام العاقبة ، لأنهم لم يقصدوا بقولهم : أساطير الأولين ، أن يحملوا الأوزار .

ولما قال ابن عطية : إنه يحتمل أن تكون لام العاقبة قال : ويحتمل أن يكون صريح لام كي على معنى قدر هذا لكذا ، وهي لام التعليل ، لكنه لم يعلقها بقوله .

قالوا : بل أضمر فعلاً آخر وهو : قدر هذا ، وكاملة حال أي : لا ينقص منها شيء ، ومِن للتبعيض .

فالمعنى : أنه يحمل من وزر كل من أضل أي : بعض وزر من ضلّ بضلالهم ، وهو وزر الإضلال ، لأنّ المضل والضال شريكان ، هذا يضله ، وهذا يطاوعه على إضلاله ، فيتحاملان الوزر ، وقال الأخفش : مِن زائدة أي : وأوزار الذين يضلونهم ، والمعنى : ومثل ﴿ أوزار الذين يضلونهم ﴾ كقوله : "فعليه وزرها ووزر عن عمل بها إلى يوم القيامة" المراد : ومثل وزر ، والمعنى : أن الرئيس إذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه حتى أن ذلك العقاب يكون مساوياً لعقاب كل من اقتدى به في ذلك .

وقال الواحدي : ليست مِن للتبعيض ، لأنه يستلزم تخفيف الأوزار عن الاتباع ، وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام : "من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" لكنها للجنس أي : ليحملوا من جنس أوزار الاتباع انتهى .

ولا تتقدر من التي لبيان الجنس هذا التقدير الذي قدره الواحدي ، وإنما تقدر : الأوزار التي هي أوزار الذين يضلونهم ، فيؤول من حيث المعنى إلى قول الأخفش ، وإن اختلفا في التقدير .

وبغير علم قال الزمخشري : حال من المفعول أي : يضلون من لا يعلم أنهم ضلال .

وقال غيره : حال من الفاعل وهو أولى ، إذ هو المحدث عنه المسند إليه الإضلال على جهة الفاعلية ، والمعنى : أنهم يقدمون على هذا الإضلال جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال .

ثم أخبر تعالى عن سوء ما يتحملونه للآخرة ، وتقدم الكلام في إعراب مثل ساء ما يزرون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(342/433)

وقال أبو السعود :

﴿ إلهكم إله واحد ﴾

لا يشاركه شيءٌ في شيء ، وهو تصريحٌ بالمدعى وتمحيضٌ للنتيجة غِبَّ إقامةِ الحجة ﴿ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ وأحوالِها التي من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقُبه من الجزاء المستلزِم لعقوبتهم وذِلتهم ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ للوَحدانية جاحدةٌ لها أو للآيات الدالة عليها ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الاعتراف بها ، أو عن الآيات الدالة عليها ، والفاء للإيذان بأن إصرارَهم على الإنكار واستمرارَهم على الاستكبار وقعَ موقعَ النتيجة للدلائل

الظاهرةِ والبراهينِ الباهرة ، والمعنى أنه قد ثبت بما قُرّر من الحجج والبينات اختصاصُ الإلهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك إصرارُهم على ما ذكر من الإنكار والاستكبار ، وبناءُ الحكم المذكورِ على الموصول للإشعار بكونه معللاً بما في حيّز الصلة ، فإن الكفرَ بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاءِ المتنوّعِ إلى الثواب على الطاعة والعقابِ على المعصية يؤدِّي إلى قصر النظر على العاجل ، والإعراضِ عن الدلائل السمعية والعقليةِ الموجبِ لإنكارها وإنكارِ مؤدّاها ، والاستكبارِ عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقِه ، وأما الإيمانُ بها وبما فيها فيدعو لا محالة إلى التأمل في الآيات والدلائلِ رغبةً ورهبةً فيورث ذلك يقيناً بالوحدانية وخضوعاً لأمر الله تعالى .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي حقاً وقد مر تحقيقُه في سورة هود ﴿ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من إنكارِ قلوبِهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من استكبارهم وقولِهم للقرآن أساطيرُ الأولين وغيرِ ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾ تعليلٌ لما تضمنه الكلامُ من الوعيد ، أي لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالةِ عليها أو لا يحب جنسَ المستكبرين ، فكيف بمن استكبر عما ذكر .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لأولئك المنكِرين المستكبرين ، وهو بيانٌ لإضلالهم غِبَّ بيانِ ضلالهم ﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ القائلُ : الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعضٌ منهم على طريق التهكم ، وماذا منصوبٌ بما بعده أو مرفوع ، أي أيَّ شيءٍ أنزل أو ما الذي أنزله ﴿ قَالُواْ أساطير الأولين ﴾ أي ما تدّعون نزوله ، والمنزلُ بطريق السخرية أحاديثُ الأولين وأباطيلهم وليس من الإنزال في شيء ، قيل : هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخلَ مكةَ ينفِّرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفودِ الحاجّ عما نزل عليه عليه السلام .

﴿ لِيَحْمِلُواْ ﴾ متعلق بقالوا أي قالوا ما قالوا ليحملوا ﴿ أَوْزَارَهُمْ ﴾ الخاصةَ بهم وهي أوزارُ ضلالهم ﴿ كَامِلَةً ﴾ لم يكفَّرْ منها شيءٌ بنكبة أصابتهم في الدنيا كما يكفّر بها أوزارُ المؤمنين ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ ظرفٌ ليحملوا ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ وبعضِ أوزارِ مَنْ ضل بإضلالهم وهو وزرُ الإضلال لأنهما شريكان ، هذا يُضله وهذا يطاوعه ، فيتحاملان الوزر ، واللام للتعليل في نفس الأمر من غير أن يكون غرضاً ، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على استمرار الإضلالِ أو باعتبار حال قولِهم لا حالِ الحمل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال

من الفاعل أي يضلونهم غيرَ عالمين بأن ما يدْعون إليه طريقٌ للضلال ، وأما حملُه على معنى غيرَ عالمين بأنهم يحمِلون يوم القيامة أوزارَ الضلال والإضلال على أن يكون العاملُ في الحال قالوا وتأييدُه بما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ من حيث إن حملِ ما ذكر من أوزار الضلالِ والإضلال من قبيل إتيانِ العذاب من حيث لا يشعرون فيردُّه أن الحملَ المذكورَ إنما هو يوم القيامة والعذابَ المذكور إنما هو العذابُ الدنيوي ، كما ستقف عليه ، أو حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاّلٌ ، وفائدةُ التقييد بها الإشعارُ بأن مكرهم لا يروج عند ذي لُب ، وإنما يتبعهم الأغبياءُ والجهلة ، والتنبيهُ على أن جهلَهم ذلك لا يكون عذراً إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الحقِّ الحقيقِ بالاتباع وبين المُبطل ﴿ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس شيئاً يزِرونه ما ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(345/433)

وقال الآلوسى :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾

وأحوالها التي من جملتها البعث وما يعقبه من الجزاء ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ للوحدانية

جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها ، والفاء للإيذان بأن إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين القطعية فهي للسببية كما في قولك : أحسنت إلى زيد فإنه أحسن إلي ، والمعنى أنه قد ثبت بما قرر من الدلائل والحجج اختصاص الإلهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار ، وبناء الحكم على الموصول للإشعار بعلية ما في حيز الصلة له ، فإن الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب يؤدي إلى قصر النظر على العاجل وعدم الالتفات إلى الدلائل الموجب لإنكارها وإنكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام والإيمان به ، وأما الإيمان بها وبما فيها فيدعو لا محالة إلى الالتفات إلى الدلائل والتأمل فيها رغبة ورهبة فيورث ذلك يقيناً بالوحدانية وخضوعاً لأمر الله تعالى قاله بعض المحققين .

ومن الناس من قال : المراد وهم مستكبرون عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه ، فيكون الإنكار إشارة إلى كفرهم بالله تعالى والاستكبار إشارة إلى كفرهم برسوله صلى الله عليه وسلم والأول أظهر ، وإسناد الإنكار إلى القلوب لأنها محله وهو أبلغ من إسناده إليهم ، ولعله إنما لم يسلك في إسناد الاستكبار مثل ذلك لأنه أثر ظاهر كما تشير إليه الآية بعد ؛ وقد قال بعض العلماء : كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه

فسق يلزمه الإعلان .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي حق أو حقاً ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من الإنكار ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الاستكبار ، وقال يحيى بن سلام .

(346/433)

والنقاش : المراد هنا بما يسرون تشاورهم في دار الندوة في قتل النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو كما ترى ، وأياً ما كان فالمراد من العلم بذلك الوعيد بالجزاء عليه ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مرفوع بلا جرم بناءً على ما ذهب إليه الخليل .

وسيبويه .

والجمهور من أنها اسم مركب مع لا تركيب خمسة عشر وبعد التركيب صار معناها معنى فعل وهو حق فهي مؤولة بفعل .

وأبو البقاء يؤولها بمصدر قائم مقامه وهو حقاً ، وقيل : مرفوع بجرم نفسها على أنها فعل ماض بمعنى ثبت ووجب و ﴿ لا ﴾ نافية لكلام مقدر تكلم به الكفرة كقوله سبحانه : ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ [البلد : 1] على وجه .

وذهب الزجاج إلى أنه منصوب على المفعولية لجرم على أنها فعل أيضاً لكن بمعنى كسب

وفاعلها مستتر يعود إلى ما فهم من السياق ولا كما في القول السابق ، وقيل : إنه خبر ﴿ لا ﴾ حذف منه حرف الجر و ﴿ جَرَمَ ﴾ اسمها ، والمعنى لا صدأ ولا منع في أن الله يعلم الخ ، وقد مر تمام الكلام في ذلك .

(347/433)

وقرأ عيسى الثقفي ﴿ إن ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف والقطع مما قبله على ما قال أبو حيان ، ونقل عن بعضهم أنه قد يغني ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ عن القسم تقول : لا جرم لآتينك وحينئذٍ فتكون الجملة جواب القسم ﴿ أَنَّهُ ﴾ جل جلاله ﴿ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾ أي مطلقاً ويدخل فيه من استكبر عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليه دخولاً أولياً ، وجوز أن يراد به أولئك المستكبرون والأول أولى ، وأياً ما كان فالاستفعال ليس للطلب مثله فيما تقدم ، وجوز كونه عاماً مع حمل الاستفعال على ظاهره من الطلب أي لا يحب من طلب الكبر فضلاً عمن اتصف به ، وقد فرق الراغب بين الكبر والتكبر والاستكبار بعد القول بأنها متقاربة ، والحق أنه قد يستعمل بعضها موضع بعض ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر ذلك آنفاً وأظنه قد تقدم أيضاً ؛ والجملة تعليل لما تضمنه الكلام السابق من الوعيد ،

والمراد من نفي الحب البغض وهو عند البعض مؤول بنحو الانتقام والتعذيب ، والأخبار الناطقة بسوء حال المتكبر يوم القيامة كثيرة جداً .

(348/433)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لأولئك المستكبرين ، وهو بيان لإضلالهم غب بيان ضلالهم ، وقيل : الضمير لكفار قريش الذين كانوا كما روي عن قتادة يقعدون بطريق من يغدو على النبي صلى الله عليه وسلم ليطلع على جلية أمره فإذا مر بهم قال لهم : ﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ أساطير الاولين ﴾ أي ما كتبه الأولون كما قالوا : ﴿ اكتتبها فَهِىَ تملى عَلَيْهِ ﴾ [الفرقان : 5] فالأساطير جمع اسطار جمع سطر فهو جمع الجمع ؛ وقال المبرد : جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح ومقصودهم من ذلك أنه لا تحقيق فيه ، وقيل : القائل لهم بعض المسلمين ليعلموا ما عندهم وقيل : القائل بعضهم على سبيل التهكم وإلا فهو لا يعتقد إنزال شيء ، ومثل هذا يقال في الجواب عن تسميته بالمنزل في الجواب بناءاً على تقدير المبتدأ فيه ذلك ، ويجوز أن يسموه بما ذكر على الفرض والتسليم ليردوه كقوله : ﴿ هذا رَبِّى ﴾ [الأنعام : 77] وقيل : قدروه منزلاً مجاراة ومشاكلة .

وفي "الكشاف" أن ﴿ مَاذَا ﴾ منصوب بأنزل أي أي شيء أنزل ربكم أو مرفوع بالابتداء

بمعنى أي شيء أنزله ربكم ، فإذا نصبت فمعنى ﴿ أساطير الاولين ﴾ ما تدعون نزوله ذلك ، وإذا رفعت فالمعنى المنزل ذلك كقوله تعالى : ﴿ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 219] فيمن رفعاه ، وقد خفي تحقيق مرامه على بعض المحققين ، فقد قال صاحب الفرائد : الوجه أن يكون مرفوعاً بالابتداء بدليل رفع ﴿ أساطير ﴾ فإن جواب المرفوع مرفوع وجواب المنصوب منصوب ولم يقرأ أحد هنا بالنصب .

(349/433)

وقال صاحب التقريب : إن في كلام الزمخشري نظراً وبينه بيما بينه وأجاب بما أجاب ، وأطال الطيبي الكلام في ذلك ، وقد أجاد صاحب الكشف في هذا المقام فقال : إن قوله أو مرفوع بالابتداء بمعنى أي شيء أنزله إيضاح وإلا فالمعنى ما الذي أنزله على المصرح به في المفصل إذ لا وجه لحذف الضمير من غير استطالة مع أن اللفظ يحتمل النصب والرفع احتمالاً سواء ، وعلى ذلك يلوح الفرق بين التقديرين ظهوراً بيناً ، فإن المنصوب وإن دل على ثبوت أصل الفعل وأن السؤال عن المفعول متقاعد عن دلالة المرفوع فقد علم أن الجملة التي تقع صلة للموصول حقها أن تكون معلومة للمخاطب وأين الحكم المسلم المعلوم من غيره ، وإذا ثبت ذلك فليعلم أنه على تقديرين لم يطابق به الجواب لقوله في ﴿ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ [

النحل : 30] طوبق به الجواب بخلاف ﴿ أساطير ﴾ وقوله هنا كقوله تعالى : ﴿ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 219] إلى آخره فيمن رفع تشبيه في العدول إلى الرفع لا وجهه فإن الجواب هنالك طبق السؤال بخلاف ما نحن فيه ، وإنما قدر ما تدعون نزوله على تقدير النصب لأن السائل لم يكن معتقداً لإنزال محقق بل سئل عن تعيين ما سمع نزوله في الجملة فيكفي في رده إلى الصواب ما تدعون نزوله أساطير ، وأما على تقدير الرفع فلما دل على أن الإنزال عنده محقق مسلم لا نزاع فيه وإنما السؤال عن التعيين للمنزل أجيب بأن ذلك المحقق عندك أساطير تهكماً إذ من المعلوم أن المنزل لا يكون أساطير فبولغ في رده إلى الصواب بالتهكم به وأنه بت الحكم بالتحقيق في غير موضعه فأرى السائل أنه طوبق ولم يطابق في الحقيقة بل بولغ في الرد ، ويشبه أن يكون الأول جواباً للسؤال فيما بينهم أو الوافدين ، والثاني جواباً عن سؤال المسلمين على ما ذكر من الاحتمالين لا العكس على ما ظن ، هذا هو الأشبه في تقرير قوله الموافق لما ذكره من بعد على ما مر .

وجعل ما ذكره هنالك وجهاً ثالثاً وأنه طوبق به الجواب ههنا وتوجيه اختلاف التقديرين ادعاءً ونزولاً بما مهدناه وإن ذهب إليه الجمهور تكلف عنه غنى اه .

وقرىء ﴿ أساطير ﴾ بالنصب كما نص عليه أبو حيان .

وغيره فإنكار صاحب الفرائد من قلة الاطلاع .

﴿ لِيَحْمِلُواْ ﴾ متعلق ب ﴿ قالوا ﴾ كما هو الظاهر أي قالوا ذلك لأن يحملوا ﴿ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي آثامهم الخاصة بهم وهي آثام ضلالهم ، وهو جمع وزر ويقال للثقل تشبيهاً بوزر الجبل ، ويعبر بكل منهما عن الإثم كما في هذه الآية ، وقوله تعالى ليحملوا أثقالهم : ﴿ كَامِلَةً ﴾ لم ينقص منها شيء ولم يكفر بنحو نكبة تصيبهم في الدنيا أو طاعة مقبولة فيها كما تكفر بذلك أوزار المؤمنين ، وقال الإمام : معنى ذلك أنه لا يخفف من عذابهم شيء بل يوصل إليه بكليته ، وفيه دليل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً للكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار به فائدة ، وحمل الأوزار مجاز عن العقاب عليها .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه بلغه أن الكافر يتمثل عمله في صورة أقبح ما خلق الله تعالى وجهاً وأنتنه ريحاً فيجلس إلى جنبه كلما أفزعه شيء زاده وكلما يخاف شيئاً زاده خوفاً فيقول : بئس الصاحب أنت ومن أنت ؟ فيقول : وما تعرفني ؟ فيقول : لا .

فيقول : أنا عملك كان قبيحاً فلذلك تراني قبيحاً وكان منتناً فلذلك تراني منتناً طاطىء إلى أركبك فطالما ركبتني في الدنيا فيركبه وهو قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ﴾ ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ ظرف ليحملوا ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ أي وبعض أوزار من

ضل بإضلالهم على معنى ومثل بعض أوزارهم فمن تبعيضية لأن مقابلته لقوله تعالى : ﴿ كَامِلَةً ﴾ يعين ذلك .

(351/433)

والمراد بهذا البعض حصة التسبب فالمضل والضال شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر وللضال أوزار غير ذلك وليست تلك محمولة ، وقال الأخفش : إن ﴿ مِنْ ﴾ زائدة أي وأوزار الذين يضلونهم على معنى أنهم يعاقبون عقاباً يكون مساوياً لعقاب كل من اقتدى بهم ، وإلى الزيادة ذهب أبو البقاء واعترض على التبعيض بأنه يقتضي أن المضل غير حامل كل أوزار الضال وهو مخالف للمأثور "من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً" وفيه أن المأثور يدل على التبعيض لا أن بينهما مخالفة كما لا يخفى ، ولتوهم هذه المخالفة قال الواحدي : إن من للجنس أي ليحملوا من جنس أوزار الاتباع ، وتعقبه أبو حيان بأن من التي لبيان الجنس لا تقدر بما ذكر وإنما تقدر بقولنا الأوزار التي هي أوزار الذين يضلونهم فيؤل من حيث المعنى إلى قول الأخفش وإن اختلفا في التقدير ، ولام ﴿ لِيَحْمِلُوا ﴾ للعاقبة لأن الحمل مترتب على فعلهم وليس باعثاً ولا غرضاً لهم ، وعن ابن عطية أنها تحتمل أن تكون لام التعليل ومتعلقة بفعل مقدر لا

بقالوا أي قدر صدور ذلك ليحملوا ، ويجيء حديث تعليل أفعال الله تعالى بالإغراض وأنت تدري أن فيه خلافاً .

وجوز في "البحر" كونها لام الأمر الجازمة على معنى أن ذلك الحمل متحتم عليهم فيتم الكلام عند قوله سبحانه : ﴿ أساطير الاولين ﴾ [النحل : 24] والظاهر العاقبة ، وصيغة الاستقبال في ﴿ يُضِلُّونَهُمْ ﴾ للدلالة على استمرار الإضلال أو باعتبار حال قولهم لا حال الحمل .

(352/433)

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال من المفعول كأنه قيل : يضلون من لا يعلم أنهم ضلال على الباطل ، وفيه تنبيه على أن كيدهم لا يروج على ذي لب وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء وفيه زيادة تعيير لهم وذم إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم ، وقيل : إنه حال من الفاعل أي يضلون غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال ، وقيل : المعنى حينئذٍ يضلون جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال ، ونقل القول بالحالية عن الفاعل بنحو هذا المعنى عن الواحدي ، وزعم بعضهم أنه الوجه لا الحالية من المفعول ، وأيد بأن التذييل بقوله تعالى : ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَرِوْنَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

[النحل : 26] يقويه، وليس بذاك، وما ذكر ظن من هذا المؤيد أنه إذا جعل حالاً من المفعول لم يكن له تعلق بما سيق له الكلام من حال المضلين وقد هديت إلى وجهه.

(353/433)

ورجحه أبو حيان بأن المحدث عنه هو المسند إليه الإضلال على جهة الفاعلية فاعتباره ذا الحال أولى، ويرد عليه مع ما يعلم مما ذكر أن القرب يعارضه فلا يصلح مرجحاً، وقيل: هو حال من ضمير الفاعل في ﴿ قَالُوا ﴾ [النحل : 24] على معنى قالوا ذلك غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والإضلال؛ وأيد بقوله تعالى: ﴿ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : 26] من حيث أن حمل ما ذكر من أوزار الضلال والإضلال من قبيل إتيان العذاب من حيث لا يشعرن، ويرده أن الحمل المذكور كما هو صريح الآية إنما هو يوم القيامة والعذاب المذكور إنما هو العذاب الدنيوي كما ستسمعه إن شاء الله تعالى وجوز أن يكون حالاً من الفاعل والمفعول كما قال ذلك ابن جني في قوله: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ [مريم : 27] وهو خلاف الظاهر، واستدل بالآية على أن المقلد يجب عليه أن يبحث ويميز بين المحق والمبطل ولا يعذر بالجهل، وهو ظاهر على ما

قدمناه من الوجه الأوجه ﴿ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس شيا يزرونه ويرتكبونه من الإثم فعلهم المذكور. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(354/433)

وقال الشيخ الشنقيطى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا سئلوا عما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قالوا: لم ينزل عليه شيء. وإنما هذا الذي يتكلم به من أساطير الأولين، نقله من كتبهم. والأساطير: جمع أسطورة أو إسطارة، وهي الشيء المسطور في كتب الأقدمين من الأكاذيب والأباطيل. أصلها من سطر: إذا كتب. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ [الطور: 2]. وقال بعض العلماء: الأساطير: الترهات والأباطيل. وأوضح هذا المعنى في آيات أخر. كقوله: ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: 5]، وقوله: ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [الأنفال: 31]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله : ﴿ ماذا ﴾ يحتمل أن تكون " ذا " موصوله و " ما " مبتدأ ، وجملة " أنزل " صلة الموصول ، والموصول وصلته خبر المبتدأ . ويحتمل أن يكون مجموعهما اسماً واحداً في محل نصب ، على أنه مفعول " أنزل " كما أشار به في الخلاصة بقوله :

ومثل ماذا بعد ما استفهام . . . أو من إذا لم تلغ في الكلام

ويين جل وعلا كذب الكفار في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين بقوله : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر ﴾ [الفرقان : 6] الآية ، وبقوله هنا : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة ﴾ [النحل : 25] .

(355/433)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمن : أن أولئك الكفار الذين يصرفون الناس عن القرآن بدعواهم أنه أساطير الأولين ، تحملوا أوزارهم – أي ذنوبهم – كاملة ، وبعض أوزار أتباعهم الذين اتبعوهم في الضلال ، كما يدل عليه حرف التبعيض الذي هو " من " في قوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ الآية .

وقال القرطبي : " من " لبيان الجنس . فهم يحملون مثل أوزار من أضلوهم كاملة .

وأوضح تعالى هذا المعنى في قوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ

القيامة عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : 13] واللام في قوله ﴿ ليحملوا ﴾ تتعلق بمحذوف دل المقام عليه . أي قدرنا عليهم أن يقولوا في القرآن : اساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم .

تنبيه

فإن قيلك ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه بقوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] مع أن الله يقول : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [الأنعام : 164 ، الإسراء : 15 ، فاطر : 18 ، الزمر : 7] ، ويقول جل وعلا : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾ [الأنعام : 164] ، ويقول ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : 134] ، إلى غير ذلك من الآيات .

فالجواب – والله تعالى أعلم – أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين : أحدهما – وزر ضلالهم في أنفسهم .

والثاني – وزر إضلالهم غيرهم . لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً . وإنما أخذ بعمل غيره لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه ، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله ، فصار غير مناف لقوله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ الآية .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثني زهير بن حرب ، حدثنا جرير بن عبد الحميد ، عن الأعمش ، عن موسى بن عبد الله بن يزيد ، وأبي الضحى عن عبد الرحمن بن هلال العبسي عن جرير بن عبد الله قال : جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم الصوف فرأى سوء حالهم ، قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فأبطؤوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه . قال : ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصرة من ورق ، ثم جاء آخر ، ثمَّ تتابعوا حتَّى عرف السرور في وجهه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء . ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء " اه .

أخرج مسلم في صحيحه هذا الحديث عن جرير بن عبد الله من طرق متعددة .

وأخرجه نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً .

ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً "

اه .

قال مقيده عفا الله عنه : هذه النصوص الصحيحة تدل على رفع الإشكال بين الآيات ، كما تدل على أن جميع حسنات هذه الأمة في صحيفة النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فله مثل أجور جميعهم . لأنه صلوات الله عليه وسلامه هو الذي سن لهم السنن الحسنة جميعها في الإسلام ، نرجوا الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة ، وأن يصلي ويسلم عليه أتم صلاة وأزكى سلام .

(357/433)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ بغير علم ﴾ يدل على أن الكافر غير معذور بعد إبلاغ الرسل المؤيد بالمعجزات ، الذي لا لبس معه في الحق ، ولو كان يظن أن كفره هدى ، لأنه ما منعه من معرفة الحق مع ظهوره إلا شدة التعصب للكفر ، كما قدمنا الآيات الدالة على ذلك في الأعراف . كقوله ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30] ، وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103-104] ،

وقوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : 47] وحملهم أوزارهم هو اكتسابهم الإثم الذي هو سبب ترديهم في النار – أعذانا الله والمسلمين منها ؟

وقال بعض العلماء : معنى حملهم أوزارهم : أن الواحد منهم عند خروجه من قبره يوم القيامة يستقبله شيء كأقبح صورة ، وانتنها ريحاً . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أو ما تعرفني ! فيقول : لا والله ، إلا ان الله قبح وجهك ! وأنتن ريحك ! فيقول : أنا عملك الخبيث ، كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه فطالما ركبتني في الدنيا ! هلم اركبك اليوم . فيركب على ظهره . اه .

وقوله : ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ﴿ ساء ﴾ فعل جامد . لإنشاء الذم بمعنى بئس . و " ما " فيها الوجهان المشار إليهما بقوله في الخلاصة :

وما مميز وقيل فاعل . . . في نحو نعم ما يقول الفاضل

وقوله : ﴿ يَزِرُونَ ﴾ أي يحملون . وقال قتادة : يعملون . اه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(358/433)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

استئناف نتيجة لحاصل المحاجّة الماضية ، أي قد ثبت بما تقدّم إبطال إلهية غير الله ، فثبت أن لكم إلهاً واحداً لا شريك له ، ولكون ما مضى كافياً في إبطال إنكارهم الوحدانية عُرّيت الجملة عن المؤكّد تنزيلاً لحال المشركين بعد ما سمعوا من الأدلّة منزلة من لا يظن به أنه يتردّد في ذلك بخلاف قوله تعالى : ﴿ إن إلهكم إله واحد ﴾ في سورة البقرة (163) خطاب لأهل الكتاب .

وتفرّع عليه الإخبار بجملة فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ ، وهو تفريع الأخبار عن الأخبار ، أي يتفرّع على هذه القضية القاطعة بما تقدّم من الدّلائل أنكم قلوبكم منكرة وأنتم مستكبرون وأن ذلك ناشىء عن عدم إيمانكم بالآخرة .

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته "الذين لا يؤمنون بالآخرة" لأنهم قد عُرفوا بمضمون الصّلة واشتهروا بها اشتهارَ لمز وتنقيص عند المؤمنين ، كقوله : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [سورة الفرقان : 21] ، وللإيماء إلى أن لهذه الصّلة ارتباطاً باستمرارهم على العناد ، لأن انتفاء إيمانهم بالبعث والحساب قد جرّأهم على نبذ دعوة الإسلام ظهرياً فلم يتوقعوا مؤاخذة على نبذها ، على تقدير أنها حقّ فينظروا في دلائل أحقّيتها مع أنهم يؤمنون بالله ولكنّهم لا يؤمنون بأنه أعدّ للناس يوم جزاء

على أعمالهم.

ومعنى قلوبهم منكرة ﴾ جاحدة بما هو واقع.

استعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنه ضدّ الإقرار.

فحذف متعلق ﴿ منكرة ﴾ لدلالة المقام عليه، أي منكرة للوحدانية.

وعبر بالجملة الاسمية ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم لاستمرارهم على الإنكار بعد ما تبين من الأدلّة.

وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجيّة وتمكّن من نفوسهم لأنهم ضروا به من حيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التبصّر في العواقب.

(359/433)

وكذلك جملة ﴿ وهم مستكبرون ﴾ بنيت على الاسمية للدّلالة على تمكّن الاستكبار منهم.

وقد خولف ذلك في آية سورة الفرقان (21) ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ لأن تلك الآية لم تتقدّمها دلائل على الوحدانية مثل الدلائل المذكورة في هذه الآية.

وجملة لا جرم أن الله يعلم ﴾ معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

والجَرم بالتحريك : أصلهُ البُدُّ .

وكثر في الاستعمال حتى صار بمعنى حَقّاً .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ في سورة هود (22) .

وقوله : ﴿ أن الله يعلم ﴾ في موضع جرّ بحرف جرّ محذوف متعلق بـ ﴿ جَرَم ﴾ .

وخبر ﴿ لا ﴾ النافية محذوف لظهوره ، إذ التقدير : لا جرم موجودٌ .

وحذْف الخبر في مثله كثير .

والتقدير : لا جرم في أن الله يعلم أو لا جرم من أنه يعلم ، أي لا بدّ من أنه يعلم ، أي لا بدّ من علمه ، أي لا شكّ في ذلك .

وجملة ﴿ أن الله يعلم ﴾ خبر مستعمل كناية عن الوعيد بالمؤاخذة بما يخفون وما يظهرون من الإنكار والاستكبار وغيرهما بالمُؤاخذة بما يخفون وما يظهرون من الإنكار والاستكبار وغيرهما مؤاخذةَ عقاب وانتقام ، فلذلك عقب بجملة ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ الواقعةِ موقع التعليل والتذييل لها ، لأن الذي لا يحب فعلاً وهو قادرٌ يجازي فاعله بالسّوء .

والتعريف في ﴿ المستكبرين ﴾ للاستغراق ، لأن شأن التذييل العموم .

ويشمل هؤلاء المتحدّث عنهم فيكون إثبات العقاب لهم كإثبات الشيء بدليله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) ﴾

و﴿ إذا قيل لهم ﴾ عطف على جملة ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ [سورة النحل : 22] ، لأن مضمون هذه من أحوالهم المتقدم بعضُها ، فإنه ذُكر استكبارهم وإنكارهم الوحدانية ، وأتبع بمعاذيرهم الباطلة لإنكار نبوءة محمد وبصدّهم الناس عن اتّباع الإسلام .

(360/433)

والتقدير : قلوبهم منكرة ومستكبرة فلا يعترفون بالنبوءة ولا يخلّون بينك وبين من يتطلب الهدى ، مضلّون للناس صادّونهم عن الإسلام .

وذكر فعل القول يقتضي صدوره عن قائل يسألهم عن أمر حدث بينهم وليس على سبيل الفرض ، وأنهم يجيبون بما ذكر مكراً بالدين وتظاهراً بمظهر الناصحين للمسترشدين المستنصحين بقرينة قوله تعالى : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [سورة النحل : 25] .

و﴿ إذا ﴾ ظرف مضمّن معنى الشّرط .

وهذا الشّرط يؤذن بتكرّر هذين القولين .

وقد ذكر المفسرون أن قريشاً لما أهمّهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ورأوا تأثير القرآن في نفوس الناس ، وأخذ أتباع الإسلام يكثرون ، وصار الواردون إلى مكّة في موسم الحجّ

وغيره يسألون الناس عن هذا القرآن ، و ماذا يدعو إليه ، دبّر لهم الوليد بن المغيرة معاذير واختلاقاً يختلقونه ليقنعوا السّائلين به ، فندب منهم ستة عشر رجلاً بعثهم أيام الموسم يقعدون في عقبات مكّة وطرقها التي يرد منها الناس ، يقولون لمن سألهم : لا تغترّوا بهذا الذي يدّعي أنه نبيّ فإنه مجنون أو ساحر أو شاعر أو كاهن ، وأن الكلام الذي يقوله أساطير من أساطير الأولين اكتتبها .

وقد تقدم ذلك في آخر سورة الحِجر .

وكان النضر بن الحارث يقول : أنا أقرأ عليكم ما هو أجمل من حديث محمد أحاديثَ رُسْتُمَ وإِسْفَنْدِيَارَ .

وقد تقدّم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ في سورة الأنعام (93) .

ومساءلة العرب عن بعث النبي كثيرة واقعة .

وأصرحها ما رواه البخاري عن أبي ذرّ أنه قال : كنت رجلاً من غفار فبلَغَنَا أُن رجلاً قد خرج بمكّة يزعم أنه نبيء ، فقلت لأخِي أُنَيْسٍ : انطلقْ إلى هذا الرجل كلّمْه وائتني بخبره ، فانطلَق فلقيَه ثم رجع ، فقلتُ : ما عندك ؟ فقال : والله لقد رأيتُ رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشرّ .

فقلتُ : لم تشفني من الخبر ، فأخذتُ جراباً وعصاً ثم أقبلت إلى مكّة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه ، وأشربُ من ماء زمزم وأكون في المسجد . . .

إلى آخر الحديث .

وسؤال السّائلين لطلب الخبر عن المنزل من الله يدلّ على أن سؤالهم سؤال مسترشد عن دعوى بلغتهم وشاع خبرها في بلاد العرب ، وأنهم سألوا عن حسن طويّة ، ويصُوغون السؤال عن الخبر كما بلغتهم دعوتُه .

وأما الجواب فهو جوابٌ بليغ تضمّن بيان نوع هذا الكلام ، وإبطال أن يكون منزلاً من عند الله لأن أساطير الأولين معروفة والمنزّل من عند الله شأنه أن يكون غير معروف من قبل .

و﴿ ماذا ﴾ كلمة مركبة من (ما) الاستفهامية واسم الإشارة ، ويقع بعدها فعل هو صلة لموصول محذوف ناب عنه اسم الإشارة .

والمعنى : ما هذا الذي أنزل .

و(ما) يستفهم بها عن بيان الجنس ونحوه .

وموضعها أنها خبر مقدّم .

وموضع اسم الإشارة الابتداءُ .

والتقدير : هذا الذي أنزل ربكم ما هو .

وقد تسامح النحويون فقالوا : إن (ذا) من قولهم (ماذا) صارت اسم موصول .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ في سورة البقرة (215) .

﴿ وأساطير الأولين ﴾ خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه ما في السؤال .

والتقدير : هو أساطير الأوّلين ، أي المسؤول عنه أساطير الأوّلين .

ويعلم من ذلك أنه ليس منزّلاً من ربهم لأن أساطير الأوّلين لا تكون منزّلة من الله كما قلناه آنفاً .

ولذلك لم يقع ﴿ أساطير الأولين ﴾ منصوباً لأنه لو نصب لاقتضى التقدير : أنزل أساطير الأولين ، وهو كلام متناقض .

لأن أساطير الأولين السابقة لا تكون الذي أنزل الله الآن .

والأساطير : جمع أسطار الذي هو جمع سطر .

فأساطير جمع الجمع .

وقال المبرّد : جمع أسطورة بضم الهمزة كأرجوحة .

وهي مؤنثة باعتبار أنها قصة مكتوبة .

وهذا الذي ذكره المبرّد أولى لأنها أساطير في الأكثر يعنى بها القصص لا كل كتاب مسطور .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأوّلين ﴾ في سورة الأنعام (25) .

واللاّم في ﴿ ليحملوا أوزارهم ﴾ تعليل لفعل ﴿ قالوا ﴾ ، وهي غاية وليست بعلّة لأنّهم لما قالوا ﴿ أساطير الأولين ﴾ لم يريدوا أن يكون قولهم سبباً لأن يحملوا أوزار الّذين يضلّونهم ، فاللام مستعملة مجازاً في العاقبة مثل ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [سورة القصص : 8] .

والتقدير : قالوا ذلك القول كحال من يُغرى على ما يجر إليه زيادة الضرّ إذ حملوا بذلك أوزار الذين يُضلونهم زيادة على أوزارهم .

والأوّزار : حقيقتها الأثقال ، جمع وزر بكسر الواو وسكون الزاي وهو الثّقل .

واستعمل في الجُرم والذنب ، لأنّه يُثقل فاعله عن الخلاص من الألم والعناء ، فأصل ذلك استعارة بتشبيه الجرم والذّنب بالوزر .

وشاعت هذه الاستعارة ، قال تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ في سورة الأنعام (31) .

كما يعبّر عن الذنوب بالأثقال ، قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [سورة العنكبوت : 13] .

وحَمْل الأوزار تمثيل لحالة وقوعهم في تبعات جرائمهم بحالة حامل الثقل لا يستطيع تفصّياً منه ، فلما شُبّه الإثم بالثقل فأطلق عليه الوِزر شبه التّورط في تبعاته بحمل الثّقل على طريقة التخييلية ، وحصل من الاستعارتين المفرقتين استعارة تمثيلية للهيئة كلها .

وهذا من أبدع التمثيل أن تكون الاستعارة التمثيلية صالحة للتفريق إلى عدّة تشابيه أو استعارات .

وإضافة الأوزار إلى ضمير هم لأنّهم مصدرها .

ووصفت الأوزار بـ ﴿ كاملة ﴾ تحقيقاً لوفائها وشدّة ثقلها ليسري ذلك إلى شدّة ارتباكهم في تبعاتها إذ هو المقصود من إضافة الحمل إلى الأوزار .

و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾ للسببية متعلقة بفعل محذوف دلّ عليْه حرف العطف وحرْف الجَر بعدَه إذ لا بدّ لحرف الجر من متعلّق .

وتقديره : ويحملوا .

ومفعول الفعل محذوف دلّ عليْه مفعول نظيره .

والتّقدير : ويحملوا أوزاراً ناشئة عن أوزار الّذين يُضلونهم ، أي ناشئة لهم عن تسبّبهم في

ضلال المضلّلين بفتح اللاّم ، فإنّ تسببهم في الضلال يقتضي مساواة المضلّل للضّال في جريمة الضّلال ، إذ لولا إضلاله إياه لاهتدى بنظره أو بسؤال الناصحين .

وفي الحديث الصّحيح " ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا ً " .

و ﴿ بغير علم ﴾ في موضع الحال من ضمير النصب في ﴿ يضلونهم ﴾ ، أي يضلّون ناساً غير عالمين يحسبون إضلالهم نصحاً .

والمقصود من هذا الحال تفظيع التضليل لا تقييده فإن التضليل لا يكون إلا عن عدم علم كُلاًّ أو بعضاً .

وجملة ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ تذييل .

افتتح بحرف التّنبيه اهتماماً بما تضمّنه للتحذير من الوقوع فيه أو للإقلاع عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(364/433)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ وقول الحق :

﴿ إلهكم إله واحدٌ . . . ﴾ [النحل : 22] .

تمنع أنْ يكونَ هناك أفراد غيره مثله ، وقد يتصوَّر البعض أنها تُساوي كلمة " أحد " .

وأقول : إن كلمة " أحد " هي منع أن يكونَ له أجزاء ؛ فهو مُنزَّه عن التَّكْرار أو التجزيء .

وفي هذا القول طَمْأنةٌ للمؤمنين بأنهم قد وصلوا إلى قِمَّة الفهم والاعتقاد بأن الله واحد .

أو : هو يُوضِّح للكافرين أن الله واحدٌ رغم أنوفكم ، وستعودون إليه غَصْباً ، وبهذا القول يكشف الحق سبحانه عن الفطرة الموجودة في النفس البشرية التي شهدتْ في عالم الذَّرِّ أن الله واحد لا شريك له ، وأن القيامة والبعث حَقٌّ .

ولكن الذين لا يؤمنون بالله وبالآخرة هم مَنْ ستروا عن أنفسهم فطرتهم ، فكلمة الكفر كما سبق أنْ قلنا هي ستر يقتضي مستوراً ، والكفر ستر إيمانَ الفطرة الأولى .

والذين يُنكرون الآخرة إنما يَحْرِمون أنفسهم من تصوُّر ما سوف يحدث حَتْماً ؛ وهو الحساب الذي سيجازي بالثواب والحسنات على الأفعال الطيبة ، ولعل سيئاتهم تكون قليلة ؛ فيجبُرها الحق سبحانه لهم وينالون الجنة .

والمُسْرفون على أنفسهم ؛ يأملون أن تكون قضيةُ الدين كاذبة ، لأنهم يريدون أن يبتعدوا عن تصوُّر الحساب ، ويتمنَّوْنَ ألاَّ يوجدَ حساب .

ويَصِفُهم الحق سبحانه :

﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : 22] .

أي : أنهم لا يكتفُون بإنكار الآخرة فقط ؛ بل يتعاظمون بدون وجه للعظمة .

و" استكبر " أي : نصَّب من نفسه كبيراً دون أنْ يملكَ مُقوّمات الكِبر ، ذلك أن " الكبير " يجب أن يستندَ لِمُقوّمات الكِبَر ؛ ويضمن لنفسه أنْ تظلَّ تلك المُقوّمات ذاتيةً فيه .

(365/433)

ولكِنّا نحن البشر أبناءُ أغيارٍ ؛ لذلك لا يصِحُّ لنا أنْ نتكبَّر ؛ فالواحد مِنَّا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه ، فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية في أيٍّ مِنَّا ؛ وقد تُسلب ممَّنْ فاء الله عليه بها ؛ ولذلك يصبح من اللائق أن يتواضعَ كُلٌّ مِنَّا ، وأنْ يستحضرَ ربَّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق في التكبُّر ؛ وهو سبحانه الذي تبلغ صفاته ومُقوّماته منتهى الكمال ، وهي لا تزول عنه أبداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) ﴾

وساعة نرى ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ فمعناها أنّ ما يأتي بعدها هو حَقٌّ ثابت ، ف " لا " نافية ، و " جرم " مأخوذة من " الجريمة " ، وهي كَسْر شيء مُؤْمَن به لسلامة المجموع . وحين نقول " لا

جرم " أي : أن ما بعدها حَقٌّ ثابت .

وما بعد ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسِرون وما يُعلِنون .

وكُلُّ آيات القرآن التي ورد فيها قوله الحق ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ تُؤدّي هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ [النحل : 62] .

وكذلك قوله الحق : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ [النحل : 109] .

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ يحمل معنى " لا بُدَّ " ، وهذا يعني أن قوله الحق : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . . . ﴾ [النحل : 23] . .

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسِرون وما يُعلِنون ، ولا مناصَ من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حَلَّلَ العلماء اللفظ لِيصِلوا إلى أدقّ أسراره .

وعِلْم الله لا ينطبق على الجَهْر فقط ، بل على السِّر أيضاً ؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأعمال . ويُنهِي الحق سبحانه الآية بقوله :

(366/433)

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾ [النحل : 23] .

وإذا سألنا : وما علاقة عِلْم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا في أنفسهم : ﴿ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله

بِمَا نَقُولُ . . ﴾ [المجادلة : 8] .

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه لِيُخبرهم بما قالوه في أنفسهم ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبلِغهم صادقٌ في البلاغ عن الله ، ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتأبَّوْا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذي جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ . . . ﴾ .

وقوله الحق :

﴿ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ . . . ﴾ [النحل : 24] .

يُوضِّح الاستدراك الذي أجراه الله على لسان المُتكلِّم ؛ ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين بربٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً .

وهذا دليل على إيمانهم بربٍّ خالق ؛ ولكنهم يعترضون على محمد صلى الله عليه وسلم وما أُنزِل إليه من الله .

و :

﴿ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النحل : 24] .

والأساطير : هي الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أقرُّوا بالألوهية ، ورفضوا

أيضاً القول المُنْزل إليهم .

ومنهم من قال : ﴿ وقالوا أَساطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سيأتي تبيانه من بعد ذلك ، وهم الجانب المُضَادّ لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ [النحل : 30] .

ووراء ذلك قصة تُوضِّح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

(367/433)

فحين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذي أنزل عليه منهجاً في كتاب مُعجز ، بدأت أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلُّ قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفَّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله ؛ فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل " ماذا قال ربكم الذي أرسل لكم رسولاً ؟ " .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذي يستقبلهم : " إنه رسول كاذب ، يُحرِّف ويُجدِّف " .

والهدف طبعاً أنْ يصُدّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التي جاءت تستطلع أخبار للرسول : ماذا أنزل ربُّكم ؟ يردُّون " إنه يُردِّد أساطير الأولين " .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدلُّ على أنها إجابة مُتفق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يَصرِفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله صلى الله عليه وسلم فشبَّهوا الذِّكْر المُنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم على سبيل المثال النضر ابن الحارث من قصص القدماء التي تتشابه مع قصص عنترة ، وأبي زيد الهلالي التي تروي في قُرانا . وهذه هي الموقعة الأولى في الأخذ والرد .

ويُعقِّب الحق سبحانه على قولهم هذا : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً . . . ﴾ .

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً . . . ﴾ [النحل : 25] .

لترى كيف يُوضِّح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة ؛ وإذا أسرفتْ على نفسها في تلك الجوانب ؛ فهي قد تُسرف في الجانب الأخلاقي ؛ والجانب الاجتماعي ؛ وغير ذلك ، فتأخذ وِزر كُلّ ما تفعل .

ويُوضِّح هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضِل نفساً غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلَّتها إلا ما نتج عن الإضلال ؛ فيقول :

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] .

ذلك أن النفس التي تمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أنْ يُحمّل حتى المُضِل أوزاراً لم يكُنْ هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾ [النحل : 25] .

أي : أن المُضِلّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلّهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفي هذا مُطْلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تمَّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات ؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم .

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أنْ يدفعهم لذلك مَنْ أضلُّوهم ؛ فهم

يتحمَّلون تَبِعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التي ارتكبها .

وقد حسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حين قال : " والذي نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رُغاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أو شاة تَيْعَر " .

وقِسْ على ذلك من سرق في الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾ [النحل : 25] .

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألاّ تُلهينا الدنيا عن أهمِّ قضية تشغل بال الخليقة ، وهي البحث عن الخالق الذي أكرم الخَلْق ، وأعدّ الكون لاستقبالهم .

(369/433)

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه ؛ فهم أُميون لم يسبق أنْ جاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة : 78] .

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أنْ يبحثوا ، وأنْ يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك

سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبةَ الشديدة ستكون لِمَنْ كان عندهم عِلْم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً . . ﴾ [البقرة : 79] .

ويَصِف الحق سبحانه مَنْ يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار مَنْ أضلوهم :

﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : 25] .

أي : ساء ما يحملون من آثام ؛ فهم لَمْ يكتفوا بأوزارهم ، بل صَدُّوا عن سبيل الله ، ومنعُوا الغير أنْ يستمعَ إلى قضية الإيمان .

ومن نتيجة ذلك أنْ يبيح مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً مِمَّا حرم الله ؛ فيتحمل مَنْ صدَّهم عن السبيل وِزْر هذا الإضلال .

ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " شَرُّكم مَنْ باع دينه بِدُنْياه ، وشَرٌّ منه مَنْ باع دينه بِدُنْيا غيره " .

فمَنْ باع الدين ليتمتع قليلاً ؛ يستحق العقاب ؛ أما مَنْ باع دينه ليتمتعَ غيرُه فهو الذي سيجد العقاب الأشدَّ من الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أن هؤلاء الضالين المضلين يحملون أوزارهم كاملة ويحملون أيضا من أوزار الأتباع الذين أضلوهم .

وقد جاءت آيات أخر تدل أنه لا يحمل أحد وزر غيره كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

والجواب:أن هؤلاء الضالين ما حملوا إلا أوزار أنفسهم لأنهم تحمَّلوا وزر الضلال ووزر الإضلال .

فمن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا لأن تشريعه لها لغيره ذنب من ذنوبه فأخذ به، وبهذا يزول الإشكال أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 171 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) ﴾

أخرج ابن عبد حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق قتادة ، عن الحسن عن قيس بن عباد قال : إن الله لما خلق الأرض جعَلَتْ تمور ، فقالت الملائكة ما هذه بمُقِرَّة على ظهرها أحداً ، فأصبحت صبحاً ، وفيها رواسيها ، فلم يدروا من أين خلقت ، فقالوا ربنا هل من خلقك شيء أشد من هذا ؟ قال : نعم ، الحديد ، فقالوا : هل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالوا : ربنا ، هل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ! الماء . قالوا : ربنا ، هل من خلقك شيء هو أشد من الماء ؟ قال : نعم الريح . قالوا : ربنا ، هل من خلقك شيء هو أشد من الريح ؟ قال : نعم الرجل . قالوا : ربنا ، هل من خلقك شيء هو أشد من الرجل ؟ قال : نعم المرأة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ رواسي ﴾ قال : الجبال ﴿ أن تميد بكم ﴾ قال : أثبتها بالجبال ، ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ رواسي أن تميد بكم ﴾ قال: حتى لا تميد بكم. كانوا على الأرض تمور بهم لا يستقر بها، فأصبحوا صبحاً، وقد جعل الله الجبال، وهي الرواسي أوتاداً في الأرض.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿ أن تميد بكم ﴾ قال: أن تكفأ بكم، وفي قوله وأنهاراً قال بكل بلدة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله ﴿ وسبلاً ﴾ قال: السبل هي الطرق بين الجبال.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب في كتاب النجوم، عن قتادة في قوله ﴿ وسبلاً ﴾ قال: طرقاً ﴿ وعلامات ﴾ قال: هي النجوم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله ﴿ وعلامات ﴾ قال: أنهار الجبال.

(372/433)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر، عن الكلبي في قوله ﴿ وعلامات ﴾ قال: الجبال.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله ﴿ وعلامات ﴾

يعني معالم الطرق بالنهار ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ يعني بالليل .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن إبراهيم ﴿ وعلامات ﴾ قال : هي الاعلام التي في السماء ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ قال : يهتدون به في البحر في أسفارهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ قال منها ما يكون علامة ، ومنها ما يهتدى به .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر .

وأخرج ابن المنذر ، عن إبراهيم ، أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ قال : الله هو الخالق الرازق ، وهذه الأوثان التي تعبد من دون الله تُخْلَقُ ولا تخلقُ شيئاً ، ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً .

قال الله ﴿ أفلا تذكرون ﴾ وفي قوله ﴿ والذين يدعون من دون الله ﴾ الآية . قال : هذه الأوثان التي تعبد من دون الله أموات لا أرواح فيها ، ولا تملك لأهلها خيراً ولا نفعاً ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ قال : الله إلهنا ومولانا وخالقنا ورازقنا ولا نعبد ولا ندعو غيره . ﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ يقول منكرة لهذا الحديث ﴿ وهم مستكبرون ﴾ قال مستكبرون عنه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس في قوله ﴿ لا جرم ﴾ يقول بلى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مالك في قوله ﴿ لا جرم ﴾ يعني الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله ﴿ لا جرم ﴾ قال لا كذب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ قال : هذا قضاء الله الذي قضى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وذكر لنا ، " أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، إنه ليعجبني الجمال ، حتى أود أن علاقة سوطي ، وقبالة نعلي حسن ، فهل ترهب عليّ الكبر ؟ فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجد قلبك ؟ قال : أجده عارفاً للحق مطمئناً إليه . قال : فليس ذاك بالكبر ، ولكن الكبر أن تبطر الحق وتغمص الناس ، فلا ترى أحداً أفضل منك ، وتغمص الحق ، فتجاوزه إلى غيره " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن الحسين بن علي ، أنه كان يجلس إلى المساكين ثم يقول : ﴿ إنه لا يحب المستكبرين

.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي قال: ثلاث من فعلهن لم يكتب مستكبراً: من ركب الحمار ولم يستنكف، ومن اعتقل الشاة واحتلبها، وأوسع للمسكين وأحسن مجالسته.

وأخرج مسلم والبيهقي في الشعب، عن عياض بن حمار المجاشعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: في خطبته "إن الله أوحى إليّ، أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد".

وأخرج البيهقي، عن عمر بن الخطاب رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله: "من تواضع لي هكذا - وأشار بباطن كفه إلى الأرض وأدناه من الأرض - رفعته هكذا - وأشار بباطن كفه إلى السماء - ورفعها نحو السماء.

وأخرج الخطيب والبيهقي، عن عمر أنه قال على المنبر: يا أيها الناس تواضعوا، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من تواضع لله رفعه الله وقال: انتعش رفعك الله، فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر، وضعه الله، وقال: اخسأ خفضك الله، فهو في أعين الناس صغير، وفي نفسه كبير، حتى لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير".

وأخرج البيهقي ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من آدمي إلا وفي رأسه سلسلتان - سلسلة في السماء وسلسلة في الأرض - وإذا تواضع العبد ، رفعه الملك الذي بيده السلسلة من السماء ، وإذا تجبر جذبته السلسلة التي في الأرض " .

وأخرج البيهقي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أدمي إلا وفي رأسه حكمة - الحكمة بيد ملك - فإن تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإن ارتفع ، قيل للملك : ضع حكمته " .

وأخرج البيهقي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تكبر تعظماً وضعه الله ، ومن تواضع لله تخشعاً رفعه الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان " . فقال رجل : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ؟ فقال : " إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر من بطر الحق وغمص الناس " " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والبيهقي ، عن أبي ريحانة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " " لا يدخل شيء من الكبر الجنة " قال قائل : يا رسول الله ، إني أحب أن أتجمل بعلاقة سوطي وشسع نعلي ؟ فقال : إن ذلك ليس بالكبر " إن الله جميل يحب

الجمال ، إنما الكبر من سفه الحق ، وغمص الناس بعينيه " " وأخرجه البغوي في معجمه والطبراني ، عن سوار بن عمرو الأنصاري قال : " قلت يا رسول الله ، إني رجل حبب إلي الجمال ، وأعطيت منه ما ترى ، فما أحب أن يفوقني أحد في شسع افمِنَ الكبر ذاك ؟ قال : لا . قلت : فما الكبر يا رسول الله ؟ قال : " من سفه الحق وغمص الناس " " .

وأخرج البغوي والطبراني ، عن سوار بن عمرو الأنصاري قال : " سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل حبب إلي الجمال ، حتى إني لا أحب أحداً يفوقني بشراك ، افمن الكبر ذاك ؟ قال : لا . " ولكن الكبر من غمص الناس وبطر الحق " " .

وأخرج ابن عساكر ، عن ابن عمر ، عن أبي ريحانة قال : " يا رسول الله ، إني لأحب الجمال حتى في نعلي وعلاقة سوطي ، أفمن الكبر ذلك ؟ قال : " إن الله جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، الكبر من سفَّه الحق ، وغمص الناس أعمالهم " " .

وأخرج ابن عساكر ، عن خريم بن فاتك أنه قال : يا رسول الله ، إني لأحب الجمال ، حتى إني لأحبه في شراك نعلي ، وجلاد سوطي ، وإن قومي يزعمون أنه من الكبر ، فقال " ليس

الكبر أن يحب أحدكم الجمال ، ولكن الكبر أن يسفه الحق ويغمص الناس " .

وأخرج سمويه في فوائده ، والباوردي ، وابن قانع ، والطبراني ، عن ثابت بن قيس بن شماس قال : ذكر الكبر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ، فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله ، إن ثيابي لتغسل ، فيعجبني بياضها ، ويعجبني علاقة سوطي ، وشراك نعلي ، فقال النبي : – صلى الله عليه وسلم – ليس ذاك من الكبر ، إنما الكبر : أن تسفه الحق وتغمص الناس " .

وأخرج الطبراني ، عن أسامة قال : أقبل رجل من بني عامر فقال : يا رسول الله ، بلغنا أنك شددت في لبس الحرير والذهب ، وإني لأحب الجمال ، فقال رسول الله : – صلى الله عليه وسلم – " إن الله جميل يحب الجمال ، إنما الكبر من جهل الحق وغمص الناس بعينيه " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني رجل حبب إليَّ الجمال ، وأعطيت منه ما ترى ؛ حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك ، أو شسع ، أفمن الكبر هذا ؟ قال : " لا ، ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس " " .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه مثله ، وفيه : إن الرجل مالك الرهاوي ، وقال البغي بدل الكبر .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوصى نوح ابنه ، فقال : إني موصيك بوصية وقاصرها عليك حتى لا تنسى ، أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين ، فأما اللتان أوصيك بهما ، فإني رأيتهما يكثران الولوج على الله عز وجل ، ورأيت الله تبارك وتعالى يستبشر بهما ، وصالح خلقه ، قل : سبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق وبها يرزق الخلق ، وقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فإن السموات والأرض لو كُنَّ حلقة لقصمتها ، ولو كُنَّ في كفةٍ لرجحت بهن ، وأما اللتان أنهاك عنهما ، فالشرك والكبر ، فقال عبد الله بن عمرو : يا رسول الله ، الكبر أن يكون لي حلة حسنة ألبسها ؟ قال : " لا إن الله جميل يحب الجمال " قال : فالكبر أن يكون لي دابة صالحة أركبها ؟ قال : لا ، قال : فالكبر أن يكون لي أصحاب يتبعوني وأطعمهم ؟ قال : لا ، قال : فأيما الكبر يا رسول الله ؟ قال : " أن تسفه الحق وتغمص الناس " " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن عمرو قال : لا يدخل حظيرة القدس متكبر .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : المتكبرون يجعلون يوم القيامة

في توابيت من نار فتطبق عليهم .

وأخرج أحمد والدارمي والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو يعلى وابن حبان والحاكم ، عن ثوبان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة ، الكبر والدين والغلول " قال ابن الجوزي : في جامع المسانيد كذا روى لنا الكبر ، وقال الدارقطني إنما هو الكنز بالنون والزاي .

وأخرج الطبراني عن السائب بن يزيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " قالوا يا رسول الله هلكنا وكيف لنا أن نعلم ما في قلوبنا من دأب الكبر ؟ وأين هو ؟ فقال : " من لبس الصوف ، أو حلب الشاة ، أو أكل مع من ملكت يمينه ، فليس في قلبه إن شاء الله الكبر " " .

وأخرج تمام في فوائده وابن عساكر ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لبس الصوف وانتعل المخصوف وركب حماره وحلب شاته وأكل معه عياله ، فقد نحى الله عنه الكبر . أنا عبد ابن عبد أجِلس جلسة العبد وآكل أكل العبد ، أني قد أوحي إلي أن تواضعوا ولا يبغ أحد على أحد ، أن يد الله مبسوطة في خلقه ، فمن رفع نفسه

وضعه الله ، ومن وضع نفسه رفعه الله ، ولا يمشي امرؤ على الأرض شبراً يبتغي سلطان الله الا أكبه الله " .

وأخرج أحمد في الزهد عن يزيد بن ميسرة قال : قال عيسى عليه السلام : ما لي لا أرى فيكم أفضل العبادة ؟ قالوا : وما أفضل العبادة يا روح الله ؟ قال : التواضع لله .

وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنكم لتدعون أفضل العبادة : التواضع .

وأخرج البيهقي عن يحيى بن أبي كثير قال : أفضل العمل الورع ، وخير العبادة التواضع .

وأخرج ابن ابي شيبة والبيهقي ، عن ابن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، كبّه الله على وجهه في النار " .

وأخرج البيهقي عن النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للشيطان مصالي وفخوخاً ، وإن من مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله والفخر بعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله تعالى " .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل فظ غليظ مستكبر . الا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ذي طمرين ، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره " .

وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه والبيهقي ، عن جبير بن مطعم قال : يقولون في التيه : وقد ركبت الحمار ولبست الشملة وحلبت الشاة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء " .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن عبد الله بن شداد رفع الحديث قال : من لبس الصوف واعتقل الشاة وركب الحمار وأجاب دعوة الرجل الدون أو العبد ، لم يكتب عليه من الكبر شيء .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي ، عن عبد الله بن سلام أنه رؤي في السوق على رأسه حزمة حطب ، فقيل له : أليس قد أوسع الله عليك ؟ قال : بلى ، ولكني أردت أن أدفع الكبر ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر " .

وأخرج البيهقي عن جابر قال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل رجل ، فلما رآه القوم أثنوا عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني لأرى على وجهه سفعة من النار . فلما جاء وجلس قال : أنشدك بالله ، أجئت وأنت ترى أنك أفضل القوم ؟ قال : نعم " .

وأخرج البيهقي عن ابن المبارك ، أنه سئل عن التواضع فقال : التكبر على الأغنياء .

وأخرج البيهقي عن ابن المبارك قال : من التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك فضل عليه لدنياك ، وأن ترفع نفسك عند من هو فوقك في دنياه ، حتى تعلمه أنه ليس لدنياه فضل عليك .

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال : من خضع لغني ووضع له نفسه اعظاماً له وطمعاً فيما قبله ، ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه .

(379/433)

وأخرج أحمد في الزهد عن عون بن عبد الله قال : قال عبد الله بن مسعود : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته ، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى والتواضع أحب إليه من الشرف ، وحتى يكون حامده وذامّه سواء . قال : ففسرها أصحاب عبد الله قالوا : حتى يكون الفقر في الحلال أحب إليه من الغني في الحرام . وحتى يكون التواضع في طاعة الله أحب إليه من الشرف في معصية الله ، وحتى يكون حامده وذامّه في الحق سواء .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمداً رجل حلو اللسان ، إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا أناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس كل ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه . فخرج ناس منهم في كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمد فينزل بهم . قالوا له : أنا فلان ابن فلان . فيعرفه بنسبه ويقول : أنا أخبرك عن محمد ، فلا يريد أن يعني إليه ، هو رجل كذاب ، لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه . وأما شيوخ قومه وخيارهم ، فمفارقون له فيرجع أحدهم . فذلك قوله ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأوّلين ﴾ فإذا كان الوافد ممن عزم الله له على الرشاد فقالوا له مثل ذلك في محمد ، قال : بئس الوافد انا لقومي إن كنت جئت ، حتى إذا بلغت إلا مسيرة يوم ، رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل . وانظر ما يقول : وآتي قومي ببيان أمره ، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم : ماذا يقول محمد ؟ فيقولون : ﴿ خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ [النحل : 30] يقول : مال ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ [النحل : 30] وهي الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال إن أناساً من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبي الله صلى الله عليه وسلم فإذا مروا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إنما هو أساطير الأوّلين.

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ يقول: يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم وذلك مثل قوله ﴿ وأثقالاً مع أثقالهم ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة... ﴾ الآية. قال: حملهم ذنوب أنفسهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة... ﴾ الآية. قال: قال النبي "أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتبع، كان عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. وأيما داع إلى هدى فاتبع، فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء".

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم، أنه بلغه أنه يتمثل للكافر عمله في صورة أقبح ما خلق

الله وجهاً وأنتنه ريحاً ، فيجلس إلى جنبه . كلما أفزعه شيء زاده ، وكلما تخوّف شيئاً زاده خوفاً ، فيقول : بئس الصاحب أنت ، ومن أنت ؟ فيقول : وما تعرفني ! ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا عملك . . . كان قبيحاً فلذلك تراني قبيحاً ، وكان منتناً فلذلك تراني منتناً . . . طأطئ إليّ اركبك ، فطالما ركبتني في الدنيا . فيركبه . وهو قوله ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(381/433)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ : قد تقدَّمَ الكلامُ على هذه اللفظةِ في سورةِ هود . والعامَّةُ على فتحِ الهمزةِ مِنْ " انَّ الله " وكَسَرَها عيسى الثقفيُّ ، وفيها وجهان ، أظهرُهما : الاستئنافُ . والثاني : جَرَيانُ " لا جرَم " مَجْرى القسمِ فتتلقَّى بما يُتَلَقَّى به . وقال بعضُ العرب : " لا جَرَمَ والله لا فارَقْتُك " وهذا عندي يُضْعِفُ كونَها للقسم لتصريحه بالقسمِ بعدها ، وإن كان الشيخ أتى بذلك مُقَوِّياً لجريانِها مَجْرى القسَم .

﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ على " ماذا " أول البقرة . وقال الزمخشري : " أو مرفوعٌ بالابتداءِ بمعنى : أيُّ شيءٍ أنزله ربُّكم ؟ قال الشيخ : " وهذا غيرُ جائزٍ عند البصريين " . يعني مِنْ كونِه حَذَفَ عائدَه المنصوب نحو : " زيدٌ ضربتُ " وقد تقدَّم خلافُ الناس في هذا ، والصحيحُ جوازه .

والقائمُ مَقامَ فاعلِ " قيل " الجملةُ مِنْ قولِه ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ ﴾ لأنها المَقُولَة ، والبصريون يَأْبَوْنَ ذلك ، ويجعلون القائمَ مقامَه ضميرَ المصدرِ ؛ لأنَّ الجملةَ لا تكونُ فاعلةً ولا قائمةً مقامَ الفاعلِ ، والفاعلُ المحذوفُ : إمَّا المؤمنون ، وإمَّا بعضُهم ، وإمَّا المقتسِمون .

وقرئ : " أساطيرَ " بالنصب ، على تقدير : أَنْزَلَ أساطيرَ على سبيل التهكُّم ، أو ذكرتُمْ أساطيرَ ، والعامَّةُ ، برفعِه على خبر مبتدأ مضمرٍ ، أي : المنزَّلُ أساطيرُ على سبيل التهكُّم ، أو المذكورُ أساطيرُ . وللزمخشريِّ هنا عبارةٌ فظيعةٌ يقف منها الشَّعْرُ .

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ ﴾ : في هذه اللام ثلاثة أُوجه ، أحدها : أنها لامُ الأمرِ الجازمةُ على معنى الحَتْم عليهم ، والصَّغارِ الموجبِ لهم ، وعلى هذا فقد تَمَّ الكلامُ عند قولِه " الأوَّلين " ، ثم استُؤْنِف أَمْرُهم بذلك . الثاني : أنها لامُ العاقبة ، أي : كان عاقبةُ قولِهم ذلك ، لأنهم لم يقولوا " أساطير " لِيَحْمِلوا ، فهو كقولِه تعالى ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] ، وقوله :

2970- لِدُوا للموتِ وابْنُوا للخرابِ . . . .

الثالث : أنَّها للتعليل ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه تعليلٌ مجازيٌّ . قال الزمخشري : " واللامُ للتعليلِ مِنْ غيرِ أن يكونَ غرضاً نحو قولِك : خرجْتُ من البلد مخافةَ الشرِّ " . والثاني : أنه تعليلٌ حقيقةً . قال ابن عطية : - بعد حكاية وجهِ لامِ العاقبة - " ويُحتمل أن تكونَ صريحَ لامِ كي ، على معنى : قَدَّر هذا لكذا " انتهى . لكنه لم يُعَلِّقُها ب " قالوا " إنما قَدَّر لها علةَ " كيلا " ، وهو قَدَّر هذا ، وعلى قول الزمخشري يتعلَّقُ ب " قالوا " ؛ لأنها ليست لحقيقةِ العلَّةِ . و " كاملةً " حالٌ .

قوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنَّ " مِن " مزيدةٌ ، وهو قولُ الأخفش ، أي : وأوزار الذين على معنى : ومثل أوزارِ ، كقولِه : كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِل بها "

. والثاني : أنها غيرُ مَزيدةٍ وهي للتبعيضِ ، أي : وبعض أوزارِ الذين . وقدَّر أبو البقاء مفعولاً حُذِف وهذه صفتُه ، أي : وأوزاراً مِنْ أوزارِ ، ولا بدَّ مِنْ حذف " مثل " أيضاً .

وقد منع الواحديُّ أن تكونَ " مِنْ " للتبعيض قال : " لأنه يَسْتلزِمُ تخفيفَ الأوزارِ عن الأتباع ، وهو غيرُ جائزٍ لقوله عليه السلام " من غير أن ينقصَ من أوزارهم شيءٌ " لكنها للجنس ، أي : ليحملوا من جنس أوزارِ الأتباع " . قال الشيخ : " والتي لبيانِ الجنسِ لا تتقدَّر هكذا ، إنما تتقدَّر : والأوزار التي هي أوزارُ الذين ، فهو من حيث المعنى كقول الأخفش ، وإن اختلفا في التقدير " .

قوله : { بِغَيْرِ عِلْمٍ } حالٌ ، وفي صاحبها وجهان ، أحدُهما : أنه مفعولٌ " يُضِلُّونهم " ، أي : يُضِلُّون مَنْ لا يعلم أنهم ضُلاَّلٌ ، قاله الزمخشري . والثاني : أنه الفاعل ، ورُجِّح هذا بأنه هو المُحدَّث عنه . وقد تقدَّم الكلامُ في إعرابِ نحو " ساءَ ما يَزِرون " ، وأنها قد تجري مَجْرى بِئْس . انتهى انتهى . ا هـ { الدر المصون حـ 7 صـ 206 . 209 }

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) ﴾

لا قَسِيمِ لذاتِه جوازاً أو وجوباً ، ولا شبيهَ له ولا شريك . . ومَنْ لم يتحققْ بهذه الجملة قطعاً ، وبشهادة البراهين له تفصيلاً فهو في دركاتِ الشّرك واقعٌ ، وعن حقائق التوحيج بمعزل ، قال تعالى في صفة الكفار : ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي في أَسْرِ الشّرْكِ وغطاء الكفر ، ثم ليس فيه اتصاف لطلب العرفان ؛ لأنَّ العلةَ -لِمَنْ أراد المعرفة- مُتاحة ، وأدلة الخْلق لائحة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

فيفضحهم ويبيّنِ نفاقَهم ، ويُعلِنُ للمؤمنين كفرهم وشِقاقهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

دليل الخطاب أنه يحب المتواضعين المتخاشعين ، ويكفيهم فضلاً بشارة الحق لهم بمحبته لهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) ﴾

لَحقَهم شؤمُ تكذيبهم ، فأَصروا على إعراضهم عن النظر ، وقَستْ قلوبهم ولم تجنح إلى

الإقرار بالحق ، فَلَبّسُوا على من يسائلهم ، وقالوا : هذا الذي جاء به محمد من أكاذيب العجم . فَضلُّوا وأَضلوا .

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) ﴾

لما سَعَوْا في الدنيا لغير الله لم تَصْفُ أعمالُهم ، وفي الآخرة حَمَلُوا معهم أوزارهم . . أولئك الذين خَسِروا في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 291 292. ﴾

(385/433)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

التفسير : هذه السورة تسمى سورة النعم أيضاً ، وحكى الأصم عن بعضهم أن كلها مدنية . وقال الآخرون : من أولها إلى قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ مدنية وما سواه مكي . وعن قتادة بالعكس منه . قال أهل النظم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم

بعذاب الدنيا تارة وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل في يوم بدر ، وتارة بعذاب القيامة . ثم إن القوم لما لم يشاهدوا شيئاً من ذلك أقبلوا على تكذيبه وكانوا يستعجلون ما وعدوا به استهزاء . وروي أنه لما نزلت ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] قال الكفار فيما بينهم : إن هذا يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن . فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً فنزلت

﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] فأشفقوا وانتظروا قربها ، فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزلت ﴿ أتى أمر الله ﴾ فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم فنزلت ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فاطمأنوا . والحاصل أن قوله : ﴿ أتى أمر الله ﴾ جواب عن شبهتهم إجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع كما يقال لمن طلب الإغاثة وقرب حصولها : جاءك الغوث فلا تجزع . أو المراد أن ﴿ أمر الله ﴾ بذلك وحكمه قد وقع وأتى . فأما المحكوم به فإنما لم يقع لأنه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود فلا تسعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت . ثم إن المشركين كأنهم قالوا : هب يا محمد أنا سلمنا صحة ما تقول

من أنه تعالى حكم بإنزال العذاب علينا إما في الدنيا وإما في الآخرة إلا أنا نعبد هذه الأصنام لأنها شفعاؤنا عند الله فكيف نستحق العذاب بسبب هذه العبادة ؟ فأجاب الله عن هذه الشبه بقوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ كما مر في أول سورة يونس .

والمراد تنزيه نفسه عن الأضداد والأنداد وأن يكون لأحد من الأرواح والأجساد أن يشفع عنده إلا بإذنه ، أو يستعجل في حكم من أحكامه ، أو قضية قبل أوانه . ثم إنهم كأنهم قالوا سلمنا أنه تعالى أن يقضي على طائفة باللطف وعلى الآخرين . بالقهر ولكن كيف صرت واقفا على أسرار الله تعالى في ملكه وملكوته دوننا ، من أين حصل لك هذا الفضل علينا ؟ فأزال الله سبحانه شبههم بقوله : ﴿ ينزل الملائكة ﴾ الآية . والمراد أن له بحكم المالكية أن يختص بعض عبيده بإنزال الوحي عليه ويأمره بأن يكلف سائر العباد بمعرفة توحيد الله وعبادته ، فظهر بهذا البيان أن هذه الآيات منتظمة على أحسن الوجوه . قال الواحدي : روى عطاء عن ابن عباس أنه أراد بالملائكة ههنا جبرائيل وحده ، وتسمية الواحد بالجمع إذا كان رئيساً مطاعاً جائزة . وعلى هذا التفسير فالمراد بالروح كلام الله

تعالى كقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] قال المحققون : الروح الأصلي هو القرآن الذي فيه بيان المبدأ والوسط والمعاد ، فبه يحصل إشراق العقل ، وبالعقل يكمل ضياء جوهر الروح ، وبالروح يكمل حال الجسد فهو الأصل والباقي فرع عليه وبهذه المناسبة يسمى جبرائيل روحاً وعيسى روحاً . وعن أبي عبيدة أن الروح ههنا جبرائيل ، والباء بمعنى " مع " أي تنزل الملائكة مع جبرائيل . وذلك أنه في أكثر الأحوال كان ينزل ومعه أقوام من الملائكة كما في يوم بدر وحنين ، وكان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ملك الجبال وملك البحار وخزان الجنة وغيرهم . قال في الكشاف : ﴿ بالروح من أمره ﴾ أي بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه ، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد وقال غيره : من أمره معناه أن ذلك التنزيل والنزول لا يكون إلا بأمر الله كقوله

﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ [مريم : 64] قال الزجاج : ﴿ أن أنذروا ﴾ بدل من " الروح " أي ينزلهم بأن أنذروا . و " أن " إما مفسرة لأن تنزيل الوحي فيه معنى القول ، وإما مخففة من الثقيلة وضمير الشأن مقدر أي بأن الشأن أقول لكم أنذروا أي أعلموا الناس قولي : ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ وهو إشارة إلى استكمال القوة النظرية . وقوله : ﴿ فاتقون ﴾ رمز

إلى استكمال القوة العملية ومنه يعلم أن النفس متى كملت من هاتين الجهتين حصل لها روح حقيقي وحياة أبدية وسعادة سرمدية . قال الإمام فخر الدين الرازي : إنا لا نعلم كون جبريل صادقاً ولا معصوماً من الكذب والتلبيس إلا بالدلائل السمعية ، وصحة الدلائل السمعية موقوفة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقه يتوقف على أن هذا القرآن معجز من قبل الله لا من قبل شيطان خبيث ، والعلم بذلك يتوقف على العلم بأن جبرائيل صادق مبرأ عن التلبيس وأفعال الشياطين ، وحينئذٍ يلزم الدور وهذا مقام صعب . أقول : قد ذكرنا مراراً أن الفرق بين المعجز والسحر هو أن صاحب المعجز يدعو إلى الخير ، وصاحب السحر يدعو إلى الشر ، والفرق بين الملك والشيطان هو أن الملك يلهم بالخير ، والشيطان يوسوس بضده وإذا كان الأمر كذلك فكيف تشتبه المعجزة بالسحرة وجبرائيل بإبليس ومن أين يلزم الدور ؟

ولما بين الله سبحانه أن روح الأرواح وروح الأجسام هو أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل أن يعمل به ، أتبعه دلائل التوحيد مبتدئاً من الأشرف وهو السماويات إلى الأدون – وهو الأرضيات – فقال : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ وقد مر تفسير مثله مراراً .

وقوله : ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ تنزيه لذاته عمن يشاركه في الأزلية والقدم والتدبير والتأثير والصنع والإبداع . فالفائدة المطلوبة من هذا الكلام غير الفائدة المطلوبة من مثله في أول السورة كما ذكرنا فلا تكرار . ثم إن أشرف الأجسام بعد الفلكيات بدن الإنسان فلهذا عقب المذكور بقوله : ﴿ خلق الإنسان من نطفة ﴾ قالت الأطباء : إن الغذاء إذا وصل إلى المعدة حصل له هناك هضم ، وإذا وصل إلى الكبد حصل له فيها هضم ثانٍ ، وفي العروق له هضم ثالث ، وفي جواهر الأعضاء هضم رابع ، وحينئذٍ يصير جزءاً من العضو المغتذى شبيهاً به ، ثم عند استيلاء الحرارة على البدن وقت هيجان الشهوة يحصل ذوبان لجملة الأعضاء وتجتمع منه النطفة في أوعيتها ، وعلى هذا تكون النطفة جسماً مختلفة الأجزاء والطبائع ، وإن كانت تخيل في الحس أنها متشابهة الأجزاء . وكيفما كان فالمقتضي لتولد البدن منها ليس هي الطبيعة الحاصلة لجوهر النطفة ودم الطمث ، لأن الطبيعة تأثيرها بالذات والإيجاب لا بالتدبير والاختيار ، والقوّة الطبيعة إذا عملت في مادة متشابهة الأجزاء وجب أن يكون فعلها هو الكرة .

وعلى هذا الحرف عول الحكماء في قولهم : البسائط يجب أن تكون أشكالها الطبيعة في الكرة ، وإذا عملت في مادة مختلفة الأجزاء وكل مركب فإنه ينحل إلى بسائط فإنه يلزم أن يكون الحيوان على شكل كرات مضموم بعضها إلى بعض ، وكلا الأمرين غير مطابق للواقع ، فعلمنا أن حدوث هذه الأعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس بالطبيعة وإنما هو بتدبير الفاعل المختار وهو الله سبحانه ، وكيف لا والنطفة رطوبة سريعة الاستحالة ؟ فالأجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع والنسبة ، فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله في الأسفل ، والجزء الذين هو مادة القلب قد يحصل في الفوق ، فلا يكون حدوث أعضاء الحيوان على هذا الترتيب الخاص دائماً ولا أكثرياً ، وحيث كان كذلك علمنا أن حدوثها بإحداث مدبر مختار . ثم إن نزلنا عن جميع هذه المراتب فلا خلاف بين الحكم وبين المتكلم أن الطبيعة خرقاء وأنها ليست واجبة الوجود لذاتها فلا بد من الانتهاء الى الصانع الحكيم الخبير . أما قوله : ﴿ فإذا هو خصم مبين ﴾ فقد ذكروا فيه وجهين : الأول فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مبين للحجة بعد أن كان نطفة لا حس به ولا حراك . وتقرير ذلك أن النفوس الإنسانية في أول الفطرة أقل فهماً وذكاء من نفوس سائر الحيوانات ، ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من البيضة يعرف الصديق من العدو فيهرب من الهرة ويلتجىء إلى الأم ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والذي لا يوافقه . وحال الطفل بخلاف ذلك فانتقاله من تلك الحالة الخسيسة إلى أن يقوى على معرفة الإلهيات والفلكيات والعنصريات وعلى إيراد

الشكوك والشبهات على النتائج والمقدمات إنما يكون بتدبير إله مختار قدير ينقل الأرواح من النقصان إلى الكمال ومن الجهالة إلى المعرفة. الوجه الثاني أن المراد فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيي العظام وهي رميم. فعلى الوجه الأول جوز أن يكون الخصيم "فعيلاً" بمعنى "مفاعل" كالأكيل والشريب، وأن يكون بمعنى

مختصم، وعلى الوجه الثاني تعين كونه بمعنى "مفاعل" والترجيح من الوجهين للأول بناء على أن هذه الآيات مسوقة لتقرير الدلائل على وجود الصانع الحكيم وقدرته لا لأجل وصف الإنسان بالتمادي في القحة والكفران. وقد يرجح الثاني بما روي أن أبيّ بن خلف الجمحي جاء بعظم رميم إلى رسول الله صلى الله عليه فقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم؟ فنزلت.

ثم أردف تكوين الإنسان بتكوين الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في ضروراته من الأكل والركوب وجر الأثقال وفي غير الضروريات من الأغراض الصحيحة كالتزيين والجمال فقال: ﴿ والأنعام خلقها ﴾ هي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام وهي: الضأن والمعز والإبل والبقر.

وإن شئت قلت : الإبل والبقر والغنم . قال في الكشاف : وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الإبل : قلت : ويمكن أن يستدل على ذلك بقوله بعد ذلك : ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ لأن هذا الوصف لا يليق إلا بالإبل . وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر . ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ الإنسان ﴾ أي خلق الإنسان والأنعام . ثم قال : ﴿ خلقها لكم ﴾ أي ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان . قال صاحب النظم : وأحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله : ﴿ خلقها ﴾ بدليل أنه عطف عليه قوله : ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ والدفء اسم ما يدفأ به كالملء اسم ما يملأ به وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر . قال الجوهري : الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ، والدفء أيضاً السخونة . وقوله : ﴿ ومنافع ﴾ قالوا : المراد نسلها ودرّها ، والمنافع بالحقيقة أعم من ذلك فقد ينتفع بها في البيع والشراء بالنقود والأثواب وسائر الحاجات . أما قوله : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ بتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص فلأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في مآكلهم عادة ، وأما الأكل من غيرها كالدجاج وصيد البر والبحر فكغير المعتد به الجاري مجرى التفكه ، ويحتمل أن يراد أن غالب أطعمتكم إنما يحصل منها لأنكم

تحرثون بالبقر وتكتسبون بإكراء الإبل وتشترون بنتاجها وألبانها وجلودها جميع ما تشتهون من الأطعمة . قوله : ﴿ حين تريحون ﴾ الإراحة رد الإبل إلى مراحها حيث تأوي إليه ليلاً ويقال : سرح القوم إبلهم سرحاً إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى . وقدم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر حين تقبل ملأى البطون حافلة الضروع ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها . قوله : ﴿ بشق الأنفس ﴾ من قرأ بفتح الشين فمعناه المشقة فيكون مصدر شق الأمر عليه شقاً وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع . ومن قرأ بالكسر فمعناه النصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد . قال جار الله . معنى المضي في قوله : ﴿ لم تكونوا ﴾ راجع إلى

الفرض والتقدير : أي لو لم يخلق الإبل لم تكونوا إلا كذلك . وإنما لم يقل " لم تكونوا حامليها إلى ذلك البلد " ليطابق قوله : ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ لأجل المبالغة كأنه قيل : قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة وذهاب قوة فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم ويجوز أن يكون العائد إلى الأثقال محذوفاً أي لم تكونوا بالغيها إلا بالشق ، أو المراد بالأثقال الأجساد ، عن ابن عباس أنه فسر البلد بمكة إلى اليمن وإلى الشام وإلى مصر ، قال

الواحدي : هذا قوله والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل شق عليكم . وخص ابن عباس هذه البلاد لأنها أكثر متاجر أهل مكة ﴿ إن ربكم لرءُوف رحيم ﴾ وإلا لم يخلق هذه الحوامل لأجل تيسير هذه المصالح .

احتج منكرو الكرامات بالآية على امتناع طي الأرض كما ينقل عن بعض الأولياء .

والجواب أن الامتناع العادي لا ينافي الإمكان الذاتي .

(394/433)

﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ معطوفات على الأنعام أي وخلق هؤلاء للركوب والزينة فانتصب على أنه مفعول له معطوف على محل ﴿ لتركبوها ﴾ وإنما لم يقل و " لتتزينوا بها " ليكون المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد لأن الركوب فعل المخاطبين ، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق . والتحقيق فيه أن الركوب أحد الأمور المعتبرة في المقصود بخلاف التزين بالشيء فإنه قلما يلتفت إليه أرباب الهمم العالية لأنه يورث العجب والتيه غالباً وكأنه قال : خلقتها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة ، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات . احتجت المعتزلة القائلون بأن أفعال الله معللة بالمصالح بأن قوله : ﴿ لتركبوها ﴾ يقتضي أن هذه الحيوانات مخلوقة لهذه

المصلحة . والجواب أن استتباع الغاية والفائدة مسلم ولكن التعليل ممنوع ، واحتج الحنفية بالآية على تحريم لحوم الخيل من وجوه : أحدها إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر فيجب اشتراك الكل في الحكم ، لكن البغال والحمير محرمان فكذا الخيل . ثانيها أن منفعة الأكل أعظم منة من الركوب والتزين فلو كان أكل لحم الخيل جائزاً لكان هذا المعنى أولى بالذكر . وثالثها أن قوله فيما قبل : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ يقتضي الحصر فيجب أن لا يجوز أكل ما عدا الأنعام إلا بدليل منفصل والأصل عدمه ورابعها أن قوله : ﴿ لتركبوها ﴾ يقتضي أن تمام المقصود من خلق هذه الأشياء الثلاثة هو الركوب والزينة ، فلو كان حل أكلها مقصوداً لزم أن يكون ما فرض تمام المقصود بعض المقصود هذا محال . والجواب أن تحريم الخيل محل النزاع وتحريم الحمير بنص الكتاب ممنوع لما روي عن جماعة من الصحابة أنه صلى الله عليه وسلم نهى عام خيبر عن لحوم الحمر الأهلية . فلو كان للآية دلالة على تحريم لحم الخيل لفهموه منها قبل ذلك العام لأن الآية مكية عند الأكثرين ، ولو فهموا التحريم قبل ذلك لم يبقَ لتخصيص التحريم بهذه السنة

فائدة . وإذا لم يكن الحمير والخيل محرمين لم يكن لتحريم البغال المتولدة منهما وجه . وأيضاً كون معظم المنة في الأكل بالنسبة إلى هذه الأنواع ممنوع بل الركوب والزينة هما أعظم المنافع فيها ولهذا جعلا تمام المقصود منها ، فكأنما أعطى الأكثر والمعظم حكم الكل . واقتضاء الحصر في قوله : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ ممنوع بل لعل الظرف قدم لرعاية الفاصلة . ثم إن أنواع الغرائب والعجائب المخلوقة في هذا العالم لا حد لها ولا حصر فلهذا أشار إلى ما بقي منها على سبيل الإجمال فقال : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ أي كنهه وتفاصيله بل نوعه وجنسه فإن مركبات العالم السفلي وغرائب العالم العلوي لا يعلمها إلا موجدها .

روى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال : إن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة ، يدخل فيه جبرائيل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله ، ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نقطة تقع من رأسه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور ، وفي الكعبة أيضاً سبعون ألفاً ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقيل : المراد ما خلق في الجنة والنار مما لم يبلغه فيهم أحد ولا وهمه .

ولما ذكر بعض دلائل التوحيد بين أنه إنما ذكرها إزاحة للعذر وإزالة للشبهة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة فقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ذكر صاحب الكشاف أن السبيل للجنس والقصد مصدر بمعنى الفاعل يقال : قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه ، والجور الميل عن الاستقامة . احتجت المعتزلة بالآية على مسألتين من أصولهم : إحداهما أنه يجب على الله تعالى الإرشاد والهداية لأن كلمة ، " على " للوجوب والمضاف محذوف أي وعلى الله بيان قصد السبيل ؛ فالمعنى أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه . والثانية أنه لا يضل أحداً ولا يغويه وإلا لقيل وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر فلما غير أسلوب الكلام قائلاً : ﴿ ومنها جائر ﴾ دل على أنه أراد أن يبين ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز . والجواب عن الأول بعد تسليم إفادة كلمة " على " الوجوب أنه وجوب بحسب الفضل والكرم لا بمعنى استحقاق الذم على الترك . وعن الثاني أن دلالة قوله : ﴿ ومنها جائر ﴾ على ما ذكرتم ليست دلالة المطابقة ولا التضمن ولا الالتزام ، لأن قول القائل " من السبيل سبل منحرفة " لا يفيد إلا الإخبار بوجود الانحراف في بعض السبيل ، فأما أن فاعل تلك السبيل من هو فلا دلالة للكلام عليه أصلاً على أن قوله : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ يناقض ما ادعيتم . وتفسير المشيئة بمشيئة الإلجاء والقسر أو بالهداية إلى الجنة خلاف الظاهر كما مر مراراً . ولما استدل على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال

الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ وقوله : ﴿ لكم ﴾ متعلق بأنزل أو بشراب خبراً له . والشراب ما يشرب كالطعام لما يطعم والمراد أن الماء النازل من السماء قسمان : بعضه يبقى لأجل الشرب كما هو ويحتمل أن يكون الماء المحتبس في الآبار والعيون منه كقوله : ﴿

فأسكناه في الأرض ﴾ [المؤمنون : 18] وبعضه يحصل منه شجر يرعاه المواشي . قال الزجاج : كل ما ينبت من الأرض فهو شجر لأن التركيب يدل على الاختلاط ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض ، ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق .

وقال ابن قتيبة : المراد بالشجر في الآية الكلأ . وفي حديث عكرمة " لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت " أراد الكلأ . وقيل الشجر كل ما له ساق كقوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : 6] والعطف يقتضي التغاير ، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ما له ساق ، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز ، وبأن قوله : ﴿ فيه تسيمون ﴾ من سامت الماشية إذا رعت وأسامها صاحبها وهو من

السومة العلامة لأنه تؤثر بالرعي علامات في الأرض يقتضي أن يكون الشجر هو العشب ليمكن الرعي. ورد بأن الإبل قد تقدر على رعي الأشجار الكبار. وحين ذكر مرعى الحيوان أتبعه ذكر غذاء الإنسان فقال: ﴿ ينبت لكم به الزرع ﴾ الذي هو الغذاء الأصلي ﴿ والزيتون ﴾ الذي هو فاكهة من وجه وغذاء من وجه لكثرة ما فيه من الدهن ﴿ والنخيل والأعناب ﴾ اللتين هما أشرف الفواكه. ثم أشار إلى الثمرات بقوله: ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ كما أجمل الحيوانات التي لم يذكرها بقوله: ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ قال في الكشاف: إنما لم يقل و "كل الثمرات" بل زاد "من" التبعيضية لأن كلها لا يكون إلا في الجنة. واعلم أنه قدم الغذاء الحيواني على الغذاء النباتي لأن النعمة فيه أعظم لأنه أسرع تشبيهاً ببدن الإنسان، وفي ذكر الغذار النباتي قدم غذاء الحيوان - وهو الشجر - على غذاء الإنسان - وهو الزرع وغيره - بناء على مكارم الأخلاق وهو أن يكون اهتمام الإنسان بحال من تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه، وإنما عكس الترتيب في قوله: ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ بناء على ما هو الواجب في نفس الأمر كقوله صلى الله عليه وسلم: "ابدأ بنفسك ثم بمن تعول"

قوله: ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب مصالحهم على سنن واحد يتعاقبان دائماً كالعبد المطواع، وكذا الكلام في تسخير الشمس والقمر والنجوم كما في "الأعراف" وفي سورة إبراهيم. وهذا حسم لمادة شبهة من يزعم أن حركات الأفلاك هي المقتضية لتعاقب الليل والنهار ومسيرات الكواكب هي المستدعية للحوادث السفليات، فإنه إن سلم لهم ذلك فلا بد لتلك الحركات والمسيرات من الانتهاء إلى صانع قديم منزه عن التغير والإمكان مبرإ عن الحدوث والنقصان وهو الله سبحانه. ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ قال جار الله: جمع الآية وذكر العقل لأن آثار العلو أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. وقال غيره: إنما جمع الآيات لتطابق قوله: ﴿ مسخرات ﴾ ومثله في هذه السورة في موضع آخر ﴿ مسخرات في جوّ السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات ﴾

[النحل: 79] وأقول: إنما جمع لأن كلاً من تسخيراً الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها لتباين الليل والنهار وتخالف مسيرات الكواكب كما هو مقرر في علم الهيئة بخلاف قوله ﴿ ينبت لكم ﴾ فإن مطلق الإنبات آية واحدة. وكذا قوله: ﴿ وما

ذرأ لكم في الأرض ﴾ أي خلق لكم فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك : ﴿ مختلفاً ألوانه ﴾ فإن ذرء هذه الأشياء على حالة اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية وفي تأثير الفلكيات فيها ، آية واحدة على وجود الصانع تعالى شأنه ، ولست أدعي إلا إمكان هذه الاعتبارات وإلا : ففي كل شيء آية تدل على أنه واحد . وإنما خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة ، وخص المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة وإزاحة العلة ، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له . وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة فمن شك بعد ذلك فلا حس له . ومن جملة الآيات التي هي في الحقيقة إنعامات على الإنسان تسخير البحر بالركوب عليه والانتفاع به أكلاً ولبساً . والمراد باللحم الطريّ السمك . قال ابن الأعرابي : لحم طريّ غير مهموز ومصدره طراوة . يقال : شيء طريّ أي غض بين الطراوة . وقال قطرب : طرو اللحم وطري طراوة والمراد في الآية السمك وما في معناه . قال في الكشاف : وصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه فيسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه . وقال المتكلمون : إنه لما خرج من البحر المالح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة ، علم أنه لم يحدث بحسب الطبع بل حدث بقدرة الله تعالى وحكمته بحيث أظهر الضد من الضد . قال أكثر الفقهاء ومنهم أبو حنيفة والشافعي : من حلف أن لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث لأن اللحم لا يتناوله

عرفاً . ومبنى الأيمان على العرف والعادة . ولهذا لو قال لغلامه : اشتر لحماً فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار عيله . ورد عليهم الإمام فخر الدين الرازي بأنه إذا قال

(400/433)

لغلامه : اشتر لحماً فجاء بلحم العصفور كان حقيقاً بالإنكار مع أنكم تقولون إنه يحنث بأكل لحم العصفور . فثبت أن العرف مضطرب والرجوع إلى نص القرآن متعين فليس فوق بيان الله بيان . ولقائل أن يقول : لعل الإنكار في هذه الصورة بعد تسليمه إنما جاء من قبل ندرة شراء العصفور أو شراء لحمه فإنه إنما يشترى كله ولم يجيء من إطلاق اللحم على لحمه .

ومن منافع البحر استخراج الحلية منه قالوا : أراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان ، والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم ولأن تزيينهن لأجلهم . ولقائل أن يقول : لا مانع من تزيين الرجال باللآلىء ونحوها شرعاً فلا حاجة إلى هذه التكلف . استدل الإمام فخر الدين بالآية في إبطال قول الشافعية إنه لا زكاة في الحلى قال : لأن اللام فيما يروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" لا زكاة في الحلى " تنصرف إلى المعهود السابق ولا معهود إلا ما في الآية من الحلية فصار معنى الحديث : لا زكاة في اللآلىء . وهذا باطل بالاتفاق . ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن

تكون اللام للجنس فتشمل المصوغ من الذهب والفضة أيضاً فيكون الحديث مخصصاً بالآية إن ثبت صحته ؟

ومن عجائب البحر ومنافعه قوله سبحانه : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ قال أهل اللغة : مخر السفينة شقها الماء بصدرها . وعن الفراء صوت دويّ الفلك بالرياح . وقال ابن عباس : مواخر أي جواري . وإنما حسن هذا التفسير لأنها لا تشق الماء إلا إذا كانت جارية : وقوله : ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي تتجروا فيه فتطلبوا الربح من فضل الله وإذا وجدتم فضله وإحسانه فلعلكم تقدمون على شكره . واعلم أن قوله : ﴿ مواخر فيه ﴾ جاء على القياس لأن موضع الظرف المتعلق بمواخر بعد مضي مفعولي " ترى " ، وأما في سورة الملائكة فقدم الظرف ليكون موافقاً لقوله : ﴿ ومن كل تأكلون ﴾ ولتقدم الجار في قوله : ﴿ ومن كل تأكلون ﴾ حذف لفظة " منه " هناك . الواو في ﴿ ولتبتغوا ﴾ في هذه السورة للعطف على لام العلة في ﴿ لتأكلوا ﴾ وقوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ اعتراض في السورتين يجري مجرى المثل ولهذا وحد الخطاب في قوله : ﴿ وترى ﴾ وقبله وبعده جمع " أي لو حضرت أيها المخاطب لرأيته بهذه الصفة . ويمكن أن يقال : إنما قال في

الملائكة ﴿ فيه مواخر ﴾ بتقديم الظرف لئلا يفصل بين لام العلة وبين متعلقها وهو مواخر ، وليكتنف المتعلق المتعلقان . وإنما بنينا الكلام على أن قوله : ﴿ فيه ﴾ متعلق ب ﴿ مواخر ﴾ لا ب ﴿ ترى ﴾ لقرب هذا وبعد ذاك والله أعلم . قوله : ﴿ أن تميد بكم ﴾ أي كراهة أن تميد الأرض بكم والباء للتعدية أو للمصاحبة . والميد الحركة والاضطراب يميناً وشمالاً . يروى أنه تعالى خلق الأرض فجعلت تمور فقالت الملائكة : ما هي بمقرّ على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت . قال جمهور المفسرين : إن السفينة إذا ألقيت على وجه الماء فإنها تميل من جانب إلى جانب وتضطرب ، فإذا وضعت الأجرام الثقيلة في تلك السفينة استقرت على وجه الماء فهكذا الأرض تستقر على الماء بسبب ثقل الجبال . واعترض عليه بأن السفينة إنما تضطرب على الماء لتخلخلها وخفتها بسبب الهواء الداخل في

تجاويف الخشب ومسامها ، أما الأرض فجسم كثيف ثقيل من شأنها الرسوب في الماء على ما هو مشاهد من حال أجزائها المنفصلة عنها . فإن كان طبيعة الكل كذلك فكيف يعقل طفوّها حتى توجب الجبال إرساءها وثباتها ، وإن لم تكن طبيعة الكل كذلك حتى

تكون طافية مائدة وقد أرساها الله تعالى بالجبال ، فالرسو والرسوخ إنما يتصور على جسم واقف وليس إلا الماء فينقل الكلام إلى وقوف الماء في حيزه المعين .

(403/433)

فإن كان بحسب الطبيعة فهذا خلاف التقدير لأنا نفينا القول بالطبائع الموجبة لهذه الأحوال ، وإن لم يكن بالطبع بل كان واقفاً بتخليق الفاعل المختار وتسكينه في حيزه المخصوص فلم لا نقول مثله في تسكين الأرض ؟ هذا تلخيص ما قاله الإمام فخر الدين الرازي ، ونسب المقام إلى الصعوبة والإشكال واستخرج لحله وجهاً مبنياً على قوانين الحكمة ، وهو أن الأرض جسم كروي ، والكرة إذا كانت صحيحة الاستدارة فإنها تتحرك بأدنى سبب ، فلما أحدث الله سبحانه على وجه الكرة هذه الخشونات الجارية مجرى الأوتاد منعتها عن السلاسة والحركة . قلت : في هذا الحال خلل . أما أولاً فلكونه مبنياً على غير قواعد أهل التفسير ، وأما ثانياً فلما ثبت في الحكمة أن نسبة أعظم جبل في الأرض وهو ما ارتفاعه فرسخان وثلث فرسخ إلى جميع الأرض كنسبة خمس سبع عرض شعيرة إلى كرة قطرها ذراع ، ولا ريب أن ذلك القدر من الشعيرة لا يخرج الكرة المذكورة عن صحة الاستدارة بحيث يمنعها عن سلاسة الحركة ، فكذا ينبغي أن يكون حال الجبال بالنسبة إلى كرة

الأرض . والجواب الصحيح على قاعدة أهل الشرع أن يقال : لا نسلم أن الأرض بكليتها لها طبيعة موجبة لحالة من الأحوال ، وعلى تقدير التسليم فلا نسلم أن لها طبيعة الرسوب بل لعل طبيعتها الطفوّ فلهذا احتاجت إلى الرواسي . وأما قوله : " لم أوقف الله الماء في حيزه ولم يوقف الأرض من غير إرساء " فلا يخفى سقوطه مع القول بالفاعل المختار ، فللوسائط والأسباب مدخل في الأمور العادية ، وإن لم نقل بتأثيرها ، هذا وإن حركة الأرض عند الزلازل لا تنافي حكم الله بعدم اضطرابها لأن إثبات الحركة لجزء الشيء لا ينافي نفيها عن كله . وشبهوا الزلزلة وهي حركة قطعة من الأرض لاحتقان البخارات في داخلها وطلبها المنفذ باختلاج يحصل في جزء معين من بدن الحيوان .

(404/433)

قوله سبحانه : ﴿ وأنهاراً ﴾ معطوف على ﴿ رواسي ﴾ أي وجعل فيها رواسي وأنهاراً لأن الإلقاء ههنا بمعنى الجعل والخلق كقوله : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] وكذا قوله ﴿ وسبلاً ﴾ أي أظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم . ولما ذكر أنه أظهر في الأرض سبلاً معينة ذكر أنه أظهر في تلك السبل علامات مخصوصة وهي كل ما يستدل به السابلة من جبل وسهل وغير ذلك . يحكى أن جماعة يشمون التراب

فيعرفون به الطرقات. قال الأخفش: تم الكلام عند قوله: ﴿ وعلامات ﴾ وقوله ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ كلام منفصل عن الأول. والمراد بالنجم الجنس كما يقال: كثر الدرهم في أيدي الناس. وعن السدي هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي. قال بعض المفسرين: أراد بقوله ﴿ هم يهتدون ﴾ أهل البحر لتقدم ذكر البحر ومنافعه، وقيل: أراد أعم من ذلك فأهل البر أيضاً قد يحصل لهم الاهتداء بالنجوم في الطرق والمسالك، وفي معرفة القبلة، وإنما جيء بالضمير الغائب لعوده إلى السائرين الدال عليهم ذكر السبل.

وقال في الكشاف: كأنه أراد قريشاً فقد كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا بتقديم النجم. وإقحام لفظ ﴿ هم ﴾ كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء يهتدون. ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته واتصافه بجميع صفات الكمال أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ أي كالأصنام التي لا تخلق شيئاً إلا أنه أجراها مجرى أولي العلم فأطلق عليها لفظ "من" التي هي لأولي العقل بناء على زعمهم أنها آلهة، أو لأجل المشاكلة بينه وبين من يخلق، أو أراد أن من يخلق ليس كمن لا

يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده ، أو أراد كل ما عبد من دون الله مغلباً فيه أولو العلم منهم . واعلم أنه أهل البيان يقولون : إن المشبه به يجب أن يكون أقوى وأتم في وجه الشبه من المشبه ليلتحق الأضعف بالأقوى في وجه الشبه كقولك " وجهه كالقمر " . ولا ريب أن الخالق أقوى من غير الخالق فكان حق النظم في الظاهر أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق . والقرآن ورد على العكس . ووجهه عند العلماء زيادة التوبيخ ليكون كأنهم جعلوا غير الخالق أقوى حالاً وأعرف من الخالق . قال في الكشاف : إنهم جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبهوه بها حين جعلوا غيره مثله في التسمية والعبادة فأنكر عليهم ذلك ، ولوضوح كون هذا الأمر منكراً عند من له أدنى عقل بل حس قال ﴿ أفلا تذكرون ﴾ وفيه مزيد توبيخ وتجهيل لأنه لجلائه كالحاصل الذي يحصل عند العقل بأدنى تذكر ومع ذلك هم عنه غافلون . قال بعض الأشاعرة . في الآية دلالة على أن العبد غير خالق لأفعال نفسه لأن الآية سيقت لبيان امتيازه بصفة الخالقية . أجابت المعتزلة بأن المراد أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات والبحار والجبال والنجوم . أو نقول : معنى الآية أن كل ما كان خالقاً يكون أفضل ممن لا يكون

خالقاً ، وهذا القدر لا يدل على أن كل من كان خالقاً فإنه يجب أن يكون إلهاً نظيره قوله : ﴿ ألهم أرجل يمشون بها ﴾ [الأعراف : 195] أراد به أن الإنسان أفضل من الصنم والأفضل لا يليق به عبادة الأخس فكذا ههنا . وقال الكعبي في تفسيره : نحن لا نطلق لفظ الخالق على العبد ومن أطلق ذلك فقد أخطأ إلا في مواضع ذكرها الله تعالى كقوله : ﴿ وإذ تخلق من الطين ﴾ [المائدة : 110] فعلى هذا لا يتوجه عليهم السؤال إلا أن أصحاب أبي هاشم يطلقون لفظ الخالق على العبد حتى إن أبا عبد الله البصري قال : إطلاق لفظ الخالق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز لأن الخلق عبارة عن التقدير وهو الظن والحسبان .

ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وقد مر تفسيره في سورة إبراهيم . قال العقلاء : إن كل جزء من أجزاء البدن الإنساني لو ظهر فيه أدنى خلل لنغص العمر على الإنسان وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل . ثم إنه سبحانه يدبر أحوال بدن الإنسان على الوجه الملائم له غالباً مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بمصالحه ومفاسده ، فليكن هذا المثال حاضراً في ذهنك وقس عليه سائر نعم الله تعالى حتى تعرف تقصيرك وقصورك عن شكر أدنى نعمة فضلاً عن جميعها ، ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ يغفر التقصير الصادر عنكم في أداء شكر النعمة ويرحمكم حيث لا يقطعها

عنكم بالتفريط ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله يسرون ضروباً من الكفر والمكايد في حق الرسول صلى الله عليه وسلم فأوعدهم بقوله : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ وفيه أيضاً تعريض وتوبيخ بسبب أن الإله يجب أن يكون عالماً بالسر والعلانية ، والأصنام التي عبدوها جمادات لا شعور لها أصلاً فكيف يحسن عبادتها .

(407/433)

ثم زاد في التوبيخ فقال : ﴿ والذين يدعون ﴾ أي الآلهة الذين يدعونهم الكفار ﴿ من دون الله لا يخلقون شيئاً ﴾ وقد ذكر هذا المعنى في قوله : ﴿ كمن لا يخلق ﴾ وزاد ههنا قوله : ﴿ وهم يخلقون ﴾ أي بخلق الله أو بالنحت والتصوير وهم لا يقدرون على نحو ذلك فهم أعجز من عبدتهم ، ففي هذه الآية زيادة بيان لأنه نفى عنهم صفة الكمال وأثبت صفة النقصان . وكذلك قوله : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ يستلزم ذمهم مرتين لأن من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطفة والجسد الإنساني الذي فارقه الروح ، وأما الحجارة فأموات لا تقبل الحياة أصلاً . وفيه أن الإله الحق يجب أن يكون حياً لا يعقبه موت وحال هذه الأصنام بالعكس . وفيه أن هؤلاء الكفار في غاية الغباوة وقد يقرر المعنى الواحد مع الغبي الجاهل

بعبارتين مختلفتين تنبيهاً على بلادته ﴿ وما يشعرون ﴾ الضمير فيه للآلهة . أما الضمير في ﴿ أيان يبعثون ﴾ فإما للآلهة أيضاً ويؤيده ما روي عن ابن عباس أن الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار ، وإما للداعين أي لا يشعر الآلهة متى يبعث عبدتهم فيكون فيه تهكم بالمشركين من حيث إن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم ؟ ! وفيه أنه لا بد من البعث وأنه من لوازم التكليف ، وإما للأحياء أي لا يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكماً بجلها لأن شعور الجماد محال فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحي القيوم سبحانه ؟ وجوز في الكشاف أن يراد بالذين يدعوهم الكفار الملائكة ، لأن ناساً منهم كانوا يعبدونهم .

ومعنى أنهم ﴿ أموات ﴾ أي لا بد لهم من الموت ﴿ غير أحياء ﴾ أي غير باقية حياتهم ولا علم لهم بوقت بعثهم . ولما زيف طريقة عبدة الأصنام صرح بما هو الحق في نفس الأمر فقال : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ ثم ذكر ما لأجله أصر الكفار على شركهم فقال : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ للوحدانية أو لكل كلام يخالف هواهم ﴿ وهم مستكبرون ﴾ عن قبول الحق وذلك أن المؤمن بالعبث والجزاء يؤثر فيه الترغيب

والترهيب فينقاد للحق أسرع ، وأما الجاحد للمعاد فلا يقبل إلا ما يوافق رأيه ويلائم طبعه فيبقى في ظلمة الإنكار ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً ﴿ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ فيجازيهم على ما أسروا من الاستكبار وأعلنوا من العناد ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ عن التوحيد فيختص بالمشركين أو كل مستكبر فيدخل هؤلاء دخولاً أوّلياً لأن الكلام فيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 240 . 253﴾

(409/433)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : الناس طبقات ثلاث : الغافلون والخطاب معهم بالعتاب إذا كانوا مشتاقين إلى الدنيا . وزخارفها وهم أصحاب النفوس ، والعاقلون والخطاب معهم بوعد الثواب لرغبتهم في الطاعات والأعمال الصالحات وهم أرباب العقول ، والعاشقون والخطاب معهم بوصل رب الأرباب لاشتياقهم إلى جمال ذي الجلال . فحين قال في الأزل ﴿ أتى أمر الله ﴾ استعجل أرواح كل طبقة منهم للخروج من العدم إلى الوجود لنيل المقصود وطلب المفقود فخاطبهم بقوله : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فإنه سيصيب في كل طبقة منكم ما كتب له في

القسمة الأزلية : والله سبحانه منزه عن أن يشاركه في الحكم أحد فلا مبدل لكلماته . ﴿ بالروح من أمره ﴾ أي بما يحيي القلوب من المواهب الربانية من أمره الوارد على الجوارح بالتكاليف الشرعية وعلى النفوس بآداب الطريقة ، وعلى القلوب بالإشارات ، وعلى الأرواح بملازمة الحضرة للمكاشفات ، وعلى الأسرار بالمراقبات للمشاهدات وعلى الخفيات بتجلي الصفات لإفناء الذوات . ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ من الأنبياء والأولياء ﴿ أن أنذروا ﴾ أعلموا أوصاف وجودكم ببذلها في أنانيتي ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ عن أنانيتكم بأنانيتي . ﴿ خلق ﴾ سموات الأرواح وأرض الأشباح وجعلها مظهراً لأفاعيله . فهو الفاعل لما يظهر على الأرواح والأشباح ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ الأرواح والأشباح في إحالة أفاعيله إلى غيره ﴿ خلق الإنسان من نطفة ﴾ لا علم لها ولا فعل ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ يدعي الشركة معه في الوجود . والأفاعيل والأنعام أي الصفات الحيوانية ﴿ خلقها لكم فيها دفء ﴾ لأنها المودعة في جبلتكم ﴿ ومنافع ومنها تأكلون ﴾ باستفادة بدل ما يتحلل ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ في أوقات الفترات وأزمنة الاستراحات ﴿ وتحمل ﴾ أثقال أرواحكم وهي أعباء الأمانة إلى بلد عالم الجبروت ﴿ إن ربكم لرءُوف رحيم ﴾ .

إذا أفنيتم أنفسكم في جبروته يبقيكم ببقاء عظموته ﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ أي صفاتها خلقت فيكم لأنها مراكب الروح عند السير إلى عالم الجبروت ﴿ وزينة ﴾ عند رجوعه بالجذبة إلى مستقره الذي أهبط منه ﴿ ويخلق ﴾ فيكم حينئذٍ ﴿ ما لا تعملون ﴾ وهو قبول فيض الله بلا واسطة. وعلى الله قصد السبيل ﴾ بجذبة ﴿ ارجعي ﴾ ﴿ ومنها جائر ﴾ يعني نفوسكم تحيد عن الفناء وبذل الوجود ﴿ هو الذي أنزل ﴾ من سماء الكرم ماء الفيض ﴿ منه شراب ﴾ المحنة لقلوبكم ﴿ ومنه شجر ﴾ القوى البشرية ودواعيها ﴿ فيه ﴾ ترعون مواشي نفوسكم ﴿ ينبت لكم ﴾ زرع الطاعات وزيتون الصدق ونخيل الأخلاق الحميدة وأعناب الواردات الربانية، ومن كل ثمرات المعقولات والمشاهدات والمكاشفات. ﴿ وسخر لكم ﴾ ليل البشرية ونهار الروحانية وشمس الروح وقمر القلب ونجوم الحواس والقوى، وتسخيرها استعمالها على وفق الشريعة وقانون الطريقة ﴿ وما ذرأ لكم ﴾ في أرض جبلتكم من الاستعدادات يتلون في كل عالم بلونه من عوالم الملكية والشيطانية والحيوانية ﴿ وسخر لكم ﴾ بحر العلوم ﴿ لتأكلوا منه ﴾ الفوائد الغيبية السنية الطرية ﴿ وتستخرجوا منه ﴾ جواهر المعاني فيلبس بها أرواحكم النور والبهاء. وترى فلك الشرائع والمذاهب جواري في بحر العلوم لتبتغوا الأسرار الخفية عن الملائكة. وألقى في أرض البشرية جبال الوقار والسكينة لئلا

تميد بكم صفات البشرية عن جادّة الشريعة والطريقة ، وأنهاراً من ماء الحكمة وسبلاً إلى الهداية والعناية ، وعلامات من الشواهد والكشوف ، وبنجم الجذبة الإلهية هم يهتدون فيخرجون من ظلمات الوجود المجازي إلى نور الوجود الحقيقي . أفمن يخلق الله فيه هذه الكمالات كمن لا يخلقها فيه من الملائكة وغيرهم ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : 34] وهي قسمان : نعمة الأعطاف وهي ما يتعلق بوجود النعمة ظاهرة وباطنة ، ونعمة الألطاف وهي ما يتعلق بوجود المنعم من الذوات والصفات ﴿ والله

(411/433)

يعلم ما تسرون ﴾ من أداء شكر نعمه بالقلوب ﴿ وما تعلنون ﴾ من أداء الشكر بالأجساد ﴿ والذين يدعون من دون الله ﴾ من الهوى والدنيا ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ من المنافع ﴿ وهم يخلقون ﴾ بتعب الطالب في تحصيلها ولهذا قال : ﴿ أموات غير أحياء وما يشعرون أيان ﴾ يبعثها دواعي البشرية ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ بما في عالم الغيب ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ لأهل الحق لأنهم لا يتجاوزون عالم الحس ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ من الإنكار ﴿ وما يعلنون ﴾ من الاستكبار . . الله حسبي . انتهى انتهى . ا هـ
﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 253 . 255 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ من نفس السورة

(4/434)

قوله تعالى ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المراد من هذا الاستكبار محو الحق وإخفاء أمره من غير تصريح بالعناد - بل مع إقامة شبه ربما راجت - وإن اشتد ضعفها - على عقول هي أضعف منها ، وكأن هذا

حقيقة المكر التي هي التغطية والستر كما بين في الرعد عند قوله تعالى : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ [الرعد : 23] شرع يهدد الماكرين ويحذرهم وقوع ما وقع بمن كانوا أكثر منهم عدداً وأقوى يداً ، ويرجي المؤمنين في نصرهم عليهم ، بما له من عظيم القوة وشديد السطوة ، فقال تعالى : ﴿ قد مكر الذين ﴾ ولما كان المقصود بالإخبار ناساً مخصوصين لم يستغرقوا زمان القبل ، أدخل الجار فقال تعالى : ﴿ من قبلهم ﴾ ممن رأوا آثارهم ودخلوا ديارهم ﴿ فأتى الله ﴾ أي بما له من مجامع العظمة ﴿ بنيانهم ﴾ أي إتيان بأس وانتقام ﴿ من القواعد ﴾ التي بنوا عليها مكرهم ﴿ فخر ﴾ أي سقط مع صوت عظيم لهدته ﴿ عليهم السقف ﴾ .

ولما كانت العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط - إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه كما نقله أبو حيان عن ابن الأعرابي ، قال تعالى صرفاً عن هذا إلى حقيقة السقوط المقيد بالجار : ﴿ من فوقهم ﴾ وكانوا تحته فهلكوا كما هو شأن البنيان إذا زالت قواعده .

ولما كان المكر هو الضر في خفية ، لأنه القتل بالحيلة إلى جهة منكرة ، بين أن ما حصل لهم من العذاب هو من باب ما فعلوا بقوله : ﴿ وأتاهم العذاب ﴾ أي الذي اتفقت كلمة الرسل على الوعيد به لمن أبى ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ لأن السبب الذي أعدوه لنصرهم كان بعينه سبب قهرهم ، وهذا على سبيل التمثيل ، وقيل : إنه على الحقيقة فيما بناه نمرود من

الصرح.

ذكر قصته من التوراة:

(5/434)

قال في السفر الأول منها في تعداد أولاد نوح عليه السلام: وكوش - يعني ابن حام بن نوح - ولد نمرود، وكان أول جبار في الأرض، وهو كان مخوفاً ذا صيد بين يدي الرب، ولذلك يقال: هذا مثل نمرود الجبار القناص، فكان مبدأ ملكه بابل والكوش والأهواز والكوفة التي بأرض شنعار، ومن تلك الأرض خرج الموصلي فابتنى نينوى ورحبوت القرية - وفي نسخة: قرية الرحبة - والإيلة والمدائن؛ ثم قال بعد أن عد أحفاد نوح عليه السلام وممالكهم: هؤلاء قبائل بني نوح وأولادهم وخلوفهم وشعوبهم، ومن هؤلاء تفرقت الشعوب في الأرض بعد الطوفان، وإن أهل الأرض كلهم كانت لغتهم واحدة، ومنطقهم واحداً، فلما ظعنوا في المشرق انتهوا إلى قاع في أرض شنعار - وفي نسخة: العراق - فسكنوه، فقال كل امرىء منهم لصاحبه: هلم بنا نلبن اللبن ونحرقه بالنار، فيصير اللبن مثل الحجارة ويصير الجص بدل الطين للملاط، ثم قال: هلموا! نبن لنا قرية نتخذها، وصرحاً مشيداً لاحقاً بالسماء، ونخلف لنا شيئاً نذكر به، لعلنا ألا نتفرق على الأرض كلها، فنظر الرب

القرية والصرح الذي يبينه الناس ، فقال الرب : إني أرى هذا الشعب رأيهم واحد ولغتهم واحدة وقد هموا أن يصنعوا هذا الصنيع فهم الآن غير مقصرين فيما هموا أن يفعلوه ، فلأورد أمراً أشتت به لغتهم حتى لا يفهم المرء منهم لغة صاحبه ، ثم فرقهم الرب من هنالك على وجه الأرض كلها ، ولم يبنوا القرية التي هموا ببنائها ، ولذلك سميت بابل لأن هنالك فرق الرب لغة أهل الأرض كلها - انتهى .

قال لي بعض علماء اليهود : إن بابل معرب بوبال ، ومعنى بوبال بالعبراني الشتات - هذا ما في التوراة ، وأما المفسرون فإنهم ذكروا أن الصرح بني على هيئة طويلة في الطول والإحكام ، وأن الله تعالى هدمه ، فكانت له رجة تفرقت لعظم هولها لغة أهل الأرض إلى أنحاء كثيرة لا يحصيها إلا خالقها فالله أعلم .

(6/434)

ولما بين سبحانه وتعالى حال المكرة المتمردين عليه في الدنيا ، أخذ يذكر حالهم في الآخرة تقريراً للآخرة وبياناً لأن عذابهم غير مقصور على الدنيوي ، فقال تعالى : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ أي الله تعالى الذي فعل بهم في الدنيا ما تقدم ، خزياً يشهده جميع الخلائق الوقوف في ذلك اليوم ، فيحصل لهم من الذل - جزاء على تكبرهم - ما يجل عن الوصف ،

وعطفه ب " ثم " لاستبعادهم له ولما له من الهول والعظمة التي يستصغر لها كل هول ﴿ ويقول ﴾ أي لهم في ذلك الجمع تبكيتاً وتوبيخاً : ﴿ أين شركاءي ﴾ على ما كنتم تزعمون ، وأضاف سبحانه إلى نفسه المقدس لأنه أقطع في توبيخهم وأدل على تناهي الغضب ﴿ الذين كنتم ﴾ أي كوناً لا تنفكون عنه ﴿ تشاقون فيهم ﴾ أوليائي ، فتكونون بمخالفتهم في شق غير شقهم ، فتخضعون لما لا ينبغي الخضوع له ، وتتكبرون على من لا ينبغي الإعراض عنه ، ما لهم لا يحضرونكم ويدفعون عنكم في هذا اليوم ؟ وقرئ بكسر النون لأن مشاقة المأمور مشاقة الآمر .

(7/434)

ولما كان المقام للجلال والعظمة المستلزم لزيادة الهيبة التي يلزم عنها غالباً خرس المخزي عن جوابه لو كان له جواب ، وكان من أجل المقاصد في تعذيبهم العدل بتفريح الأولياء وإشماتهم بهم ، جزاء لما كانوا يعملون بهم في الدنيا ، وكانت الشماتة أعلى محبوب للشامت وأعظم مرهوب للمشموت فيه ، وأعظم مسلّ للمظلوم ، دل على سكوتهم رغباً عن المبادرة بالجواب بتأخير الخبر عنه وتقديم الخبر عن شماتة أعدائهم فيهم في سياق الجواب عن سؤال من قال : هل علم بذلك المؤمنون ؟ فقيل : ﴿ قال الذين ﴾ ولما كان العلم شرفاً للعالم مطلقاً

، بني للمفعول قوله : ﴿أوتوا العلم﴾ أي انتفعوا به في سلوك سبيل النجاة من الأنبياء عليهم السلام ومن أطاعهم من أممهم ، إشارة إلى أن الهالك يصح سلب العلم عنه وإن كان أعلم الناس ، وعدل عن أن يقول : أعداؤهم أو المؤمنون ونحوه ، إجلالاً لهم بوصفهم بالعلم الذي هو أشرف الصفات لكونه منشأ كل فضيلة ، وتعرضاً بأن الحامل للكفار على الاستكبار الجهل الذي هو سبب كل رذيلة ﴿إن الخزي﴾ أي البلاء المذل ﴿اليوم﴾ أي يوم الفصل الذي يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة ﴿والسوء﴾ أي كل ما يسوء ﴿على الكافرين﴾ أي العريقين في الكفر الذين تكبروا في غير موضع التكبر ، لا على غيرهم ؛ ثم رغبهم في التوبة بقوله : ﴿الذين تتوفّاهم﴾ بالفوقية في قراءة الجمهور لأن الجمع مؤنث ، وبالتحتية في قراءة حمزة لأن المجموع غير مؤنث ، وكان وفاتهم على وجهين : وجه خفيف - بما أشار إليه التأنيث لخفة كفر صاحبه ، وآخر ثقيل شديد لشدة كفر صاحبه ، ولم يحذف شيء من التاءين للإشارة إلى نقصان حالهم لأنه لا يمكن خيرها لموتهم على الكفر بخلاف ما تقدم في تارك الهجرة في النساء ﴿الملائكة﴾ أي المؤكلون بالموت ، حال كونهم ﴿ظالمي أنفسهم﴾ بوضعها من الاستكبار على الملك الجبار غير موضعها .

فلما تم ذلك على هذا الوجه البديع ، والأسلوب الرفيع المنيع ، ابتدأ الخبر عن جوابهم على وجه معلم بجالهم فقال : ﴿ فألقوا ﴾ أي من أنفسهم عقب قول الأولياء وبسبب سؤال ذي الكبرياء ﴿ السلم ﴾ أي المقادة والخضوع بدل ذلك التكبر والعلو قائلين ارتكاباً للكذب من غير احتشام : ﴿ ما كنا نعمل ﴾ وأعرقوا في النفي فقالوا : ﴿ من سوء ﴾ فكأنه قيل : إن هذا لبهتان عظيم في ذلك اليوم الجليل ، فماذا قيل لهم ؟ فقيل : ﴿ بلى ﴾ قد عملتم أعظم السوء ؛ ثم علل تكذيبهم بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم من كل وجه ﴿ بما كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ تعملون ﴾ أي من الضلال والإضلال ، فلا يسعكم الإنكار ، أفما آن لكم أن تنزعوا عن الجهل فيما يضركم ولا ينفعكم ويخفضكم ولا يرفعكم !

ولما كان هذا الفعل مع هذا العلم سبباً لدخول جهنم من غير أن يقام لهم وزن ، لأنه لا وزن لما ضيع أساسه ، قال معقباً مسبباً : ﴿ فادخلوا ﴾ أي أيها الكفرة ﴿ أبواب جهنم ﴾ أي أبواب طبقاتها ودركاتها ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلد ﴿ فيها ﴾ أي في جهنم التي دأبها تجهم من دخلها .

ولما كان هذا المقام للمشاقة .

وكان أمرها زائد القباحة .

كان هذا الدخول أقبح دخول ، وكان سبباً لأن يقال : ﴿ فلبئس ﴾ بالأداة الجامعة لمجامع

الذم ﴿ مثوى المتكبرين ﴾ على وجه التأكيد وبيان الوصف الذي استحقوا به ذلك ، لتقدم كذبهم في قولهم ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ تعريضاً بأنهم جديرون - لغاية ما لهم من البلادة - أن يستحسنوا النار كما كذبوا مع العلم التام بأنه لا يروج في ذلك اليوم كذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 259.263 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ شركاي ﴾ مثل ﴿ هداي ﴾ زمعة عن ابن كثير والخزاعي عن البزي . وقرأ الخزاز عن هبيرة ﴿ شركائي الذين ﴾ مرسلة الياء ، الباقون بفتح الياء وكذلك في " الكهف " و " القصص " . ﴿ تشاقون ﴾ بكسر النون : نافع ، الآخرون بفتحها ﴿ تتوفاهم ﴾ وما بعده بالإمالة : حمزة وخلف ﴿ لا يهدي ﴾ بفتح الياء وكسر الدال : عاصم وحمزة وعلي وخلف ، الباقون بضم الياء وفتح الدال . ﴿ كن فيكون ﴾ بالنصب : ابن عامر وعلي ، الباقون بالرفع .

الوقوف : ﴿ ربكم ﴾ لا لأن ما بعده جواب " إذا " ﴿ الأولين ﴾ 5 لا لتعلق اللام ﴿ يوم القيامة ﴾ لا لأن قوله ﴿ ومن أوزار ﴾ مفعول ﴿ ليحملوا ﴾ ط ﴿ بغير علم ﴾ ط ﴿ ما يزرون ﴾ 5 ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ فيهم ﴾ ط ﴿ الكافرين ﴾ 5 لا بناء على أن ما بعده صفة ﴿ أنفسهم ﴾ ص لطول الكلام ﴿ من سوء ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ خالدين فيها ﴾ ط ﴿ المتكبرين ﴾ 5 ﴿ أنزل ربكم ﴾ ط ﴿ خيراً ﴾ ط ﴿ حسنة ﴾ ط ﴿ خير ﴾ ط ﴿ المتقين ﴾ 5 لا لأن ما بعده بدل ﴿ يشاءُون ﴾ ط ﴿ المتقين ﴾ 5 ﴿ طيبين ﴾ 5 لا لأن ما بعده حال آخر . ﴿ سلام عليكم ﴾ لا لأن قوله : ﴿ ادخلوا ﴾ مفعول ﴿ يقولون ﴾ ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ أمر ربك ﴾ ط ﴿ من قبلهم ﴾ ط ﴿ يظلمون ﴾ 5 ﴿ يستهزءُون ﴾ 5 ﴿ من شيء ﴾ الثاني ط ﴿ من قبلهم ﴾ ج للاستفهام مع الفاء ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ الطاغوت ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتصال المعنى ﴿ الضلالة ﴾ ط ﴿ المكذبين ﴾ 5 ﴿ ناصرين ﴾ 5 ﴿ أيمانهم ﴾ لا لأن ما بعده جواب القسم ﴿ يموت ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 لا لتعلق لام كي ﴿ كاذبين ﴾ 5 ﴿ فيكون ﴾ 5 ﴿ حسنة ﴾ ط ﴿ أكبر ﴾ م لأن جواب " لو " محذوف أي لو كانوا يعلمون لما اختاروا الدنيا على الآخرة ، ولو وصل لصار قوله : ﴿ ولأجر الآخرة ﴾ متعلقاً بشرط " أن " ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ وهو محال ﴿ يعلمون ﴾ 5 لا بناء على أن ﴿

الذين صبروا ﴾ بدل ﴿ الذين هاجروا ﴾ ﴿ يتوكلون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 255.256 ﴾

(11/434)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾

اعلم أن المقصود من الآية المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار ، وفي المراد بالذين من قبلهم قولان :

القول الأول : وهو قول الأكثر من المفسرين أن المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحاً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع .

وقيل فرسخان ، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء .

والقول الثاني : وهو الأصح ، أن هذا عام في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين .

أما قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى الله بنيانهم مِّنَ القواعد ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أن الإتيان والحركة على الله محال ، فالمراد أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والأساس .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ فَأَتَى الله بنيانهم مِّنَ القواعد ﴾ قولان :

القول الأول : أن هذا محض التمثيل ، والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حالهم في تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فانهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين ، فسقط السقف عليهم .

ونظيره قولهم : من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه .

والقول الثاني : أن المراد منه ما دل عليه الظاهر ، وهو أنه تعالى أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته ، والأول أقرب إلى المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ ففيه سؤال : وهو أن السقف لا يخر إلا من فوقهم ، فما معنى هذا الكلام .

وجوابه من وجهين : الأول : أن يكون المقصود بالتأكيد .

والثاني : ربما خر السقف ، ولا يكون تحته أحد ، فلما قال : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته ، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها .

وقوله : ﴿ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ إن حملنا هذا الكلام على محض التمثيل فالأمر ظاهر .

والمعنى : أنهم اعتمدوا على منصوباتهم .

ثم تولد البلاء منها بأعيانها ، وإن حملناه على الظاهر فالمعنى أنه نزل ذلك السقف عليهم بغتة ، لأنه إذا كان كذلك كان أعظم في الزجر لمن سلك مثل سبيلهم ، ثم بين تعالى أن عذابهم لا يكون مقصوراً على هذا القدر ، بل الله تعالى يخزيهم يوم القيامة ، والخزي هو العذاب مع الهوان ، وفسر تعالى ذلك الهوان بأنه تعالى يقول لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : قال الزجاج : قوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ معناه : أين شركائي في زعمكم واعتقادكم .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 22] وقال أيضاً : ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 28] وإنما حسنت هذه الإضافة

لأنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، وهذا كما يقال لمن يحمل خشبة خذ طرفك وآخذ طرفي ، فأضيف الطرف إليه .

البحث الثاني : قوله : ﴿ تشاقون فِيهِمْ ﴾ أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ، وقيل : المشاقة عبارة عن كون أحد الخصمين في شق وكون الآخر في الشق الآخر .

البحث الثالث : قرأ نافع : ﴿ تشاقون ﴾ بكسر النون على الإضافة ، والباقون بفتح النون على الجمع .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم إِنَّ الخزى اليوم والسوء عَلَى الكافرين ﴾ وفيه بحثان :

(13/434)

البحث الأول : ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة ، وقال آخرون هم المؤمنون يقولون حين يرون خزي الكفار يوم القيامة إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ، والفائدة فيه أن الكفار كانوا ينكرون على المؤمنين في الدنيا فإذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة في معرض إهانة الكافر كان وقع هذا الكلام على الكافر وتأثيره في إيذائه أكمل وحصول الشماتة به أقوى .

البحث الثاني : المرجئة احتجوا بهذه الآية على أن العذاب مختص بالكافر قالوا لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الخزى اليوم والسوء عَلَى الكافرين ﴾ يدل على أن ماهية الخزي والسوء في يوم القيامة مختصة بالكافر ، وذلك ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم ، وتأكد هذا بقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ [طه : 48] ثم أنه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكفار من وجه آخر فقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ قرأ حمزة : ﴿ يتوفاهم الملائكة ﴾ بالياء لأن الملائكة ذكور ، والباقون بالتاء للفظ .

ثم قال : ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : أنه تعالى حكى عنهم إلقاء السلم عند القرب من الموت ، قال ابن عباس : أسلموا وأقروا لله بالعبودية عند الموت .

وقوله : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء ﴾ أي قالوا ما كنا نعمل من سوء ! والمراد من هذا السوء الشرك ، فقالت الملائكة رداً عليهم وتكذيباً : بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون من التكذيب والشرك ، ومعنى بلى رداً لقولهم : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : أنه تعالى حكى عنهم إلقاء السلم عند القرب من الموت .

والقول الثاني : أنه تم الكلام عند قوله : ﴿ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ ثم عاد الكلام إلى حكاية كلام المشركين يوم القيامة ، والمعنى : أنهم يوم القيامة ألقوا السلم وقالوا ما كنا نعمل في الدنيا من سوء ، ثم ههنا اختلفوا ، فالذين جوزوا الكذب على أهل القيامة ، قالوا : هذا القول منهم على سبيل الكذب وإنما أقدموا على هذا الكذب لغاية الخوف ، والذين قالوا إن الكذب لا يجوز عليهم قالوا : معنى الآية ، ما كنا نعمل من سوء عند أنفسنا أو في اعتقادنا ، وأما بيان أن الكذب على أهل القيامة هل يجوز أم لا ؟ فقد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا : ما كنا نعمل من سوء قال بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ، ولا يبعد أن يكون قائل هذا القول هو الله تعالى أو بعض الملائكة رداً عليهم وتكذيباً لهم ، ومعنى بلى الرد لقولهم : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني أنه عالم بما كنتم عليه في الدنيا فلا ينفعكم هذا الكذب فإنه يجازيكم على الكفر الذي علمه منكم .

ثم صرح بذكر العقاب فقال :

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29) ﴾

وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب ، فيكون عقاب بعضهم أعظم من عقاب بعض ، وإنما صرح تعالى بذكر الخلود ليكون الغم والحزن أعظم .

ثم قال : ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ على قبول التوحيد وسائر ما أتت به الأنبياء ، وتفسير التكبر قد مر في هذا الكتاب غير مرة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 17.19 ﴾

(15/434)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه هدم بنيانهم من قواعدها وهي الأساس .

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى لاستئصالهم .

﴿ فخرّ عليهم السقف من فوقهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فخرّ أعالي بيوتهم وهم تحتها ، فلذلك قال ﴿ من فوقهم ﴾ وإن كنا نعلم أن السقف عال إلا أنه لا يكون فوقهم إذ لم يكونوا تحته ، قاله قتادة .

الثاني : يعني أن العذاب أتاهم من السماء التي هي فوقهم ، قاله ابن عباس .

وفي الذين خر عليهم السقف من فوقهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه النمرود بن كنعان وقومه حين أراد صعود السماء وبنى الصرح. فهدمه الله تعالى عليه ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم .

الثاني : أنه بختنصر وأصحابه ، قاله بعض المفسرين .

الثالث : يعني المقتسمين الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الحجر ، قاله الكلبي .

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾

قال عكرمة : نزلت هذه الآية في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها ، فقتلوا ، فقال الله ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ يعني بقبض أرواحهم . ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة . ﴿ فألقوا السّلَمَ ﴾ يعني في خروجهم معهم وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الصلح ، قاله الأخفش .

الثاني : الاستسلام ، قاله قطرب .

الثالث : الخضوع ، قاله مقاتل . ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ يعني من كفر .

﴿ بَلَى إن الله عليمٌ بما كنتم تعملون ﴾ يعني إن أعمالهم أعمال الكفار . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون جـ 3 صـ ﴾

(16/434)

وقال ابن عطية :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

قال ابن عباس وغيره من المفسرين : الإشارة ب ﴿ الذين من قبلهم ﴾ إلى نمرود الذي بنى صرحاً ليصعد فيه إلى السماء على زعمه ، فلما أفرط في علوه وطوله في السماء فرسخين على ما حكى النقاش ، بعث الله عليه ريحاً فهدمته ، " وخر سقفه " عليه وعلى أتباعه ، وقيل : جبريل هدمه بجناحه وألقى أعلاه في البحر وانجعف من أسفله ، وقالت فرقة أخرى : المراد ب ﴿ الذين من قبلهم ﴾ جميع من كفر من الأمم المتقدمة ومكر ونزلت فيه عقوبة من الله تعالى ، وقوله على هذا ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ إلى آخر الآية ، تمثيل وتشبيه ، أي حالهم بحال من فعل به هذا ، وقالت فرقة : المراد بقوله ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ أي جاءهم العذاب من قبل السماء .

(17/434)

قال القاضي أبو محمد : وهذا ينحو إلى اللعن ، ومعنى قوله ﴿ من فوقهم ﴾ رفع الاحتمال في قوله ﴿ فخر عليهم السقف ﴾ فإنك تقول انهدم على فلان بناؤه وهو ليس تحته ، كما تقول : انفسد عليه متاعه ، وقوله ﴿ من فوقهم ﴾ ألزم أنهم كانوا تحته . وقوله ﴿ فأتى ﴾ أي أتى أمر الله وسلطانه ، وقرأ الجمهور " بنيانهم " ، وقرأت فرقة " بنيتهم " ، وقرأ جعفر بن محمد " بيتهم " ، وقرأ الضحاك " بيوتهم " ، وقرأ الجمهور " السقْف " بسكون القاف ، وقرأت فرقة بضم القاف وهي لغة فيه ، وقرأ الأعرج " السُّقُف " بضم السين والقاف ، وقرأ مجاهد " السُّقْف " بضم السين وسكون القاف ، وقوله ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ الآية ، ذكر الله تعالى في هذه الآية المتقدمة حال هؤلاء الماكرين في الدنيا ، ثم ذكر في هذه حالهم في الآخرة وقوله ﴿ يخزيهم ﴾ لفظ يعم جميع المكاره التي تنزل بهم ، وذلك كله راجع إلى إدخالهم النار ، وهذا نظير قوله ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ [آل عمران : 192] . وقوله أين شركائي ﴾ توبيخ لهم وأضافهم إلى نفسه في مخاطبة الكفار أي على زعمكم ودعواكم ، قال أبو علي : وهذا كما قال الله تعالى حكاية ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] وكما قال ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك ﴾ [الزخرف : 49] .

قال القاضي أبو محمد : والإضافات تترتب معقولة وملفوظاً بأَرَق سبب ، وهذا كثير في

كلامهم ، ومنه قول الشاعر :

إذا قلت قدني قال تالله حلفة . . . لتغني عني ذا إنائك أجمعا

(18/434)

فأضاف الإناء إلى حابسه ، وقرأ البزي عن ابن كثير " شركاي " بقصر الشركاء ، وقرأت فرقة " شركاءي " بالمد وياء ساكنة ، و﴿ تشاقون ﴾ معناه تحاربون وتحارجون ، أي تكون في شق والحق في شق ، وقرأ الجمهور " تشاقونَ " بفتح النون ، وقرأ نافع وحده بكسر النون ، ورويت عن الحسن بخلاف وضعف هذه القراءة أبو حاتم ، وقد تقدم القول في مثله في الحجر في ﴿ تبشرون ﴾ [الحجر : 54] ، وقرأت فرقة " تشاقونّي " بشد النون وياء بعدها ، و﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ هم الملائكة فيما قال بعض المفسرين ، وقال يحيى بن سلام : هم المؤمنون وهذا الخطاب منهم يوم القيامة .

قال القاضي أبو محمد : والصواب أن يعم جميع من آتاه الله علم ذلك من جميع من حضر الموقف من ملك أو إنسي ، وغير ذلك ، وباقي الآية بين .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

(19/434)

﴿ الذين ﴾ نعت للكافرين في قول أكثر المتأولين، ويحتمل أن يكون ﴿ الذين ﴾ مرتفعاً بالابتداء منقطعاً مما قبله، وخبره في قوله ﴿ فألقوا السلم ﴾ فزيدت الفاء في الخبر، وقد يجيء مثل هذا، و﴿ الملائكة ﴾ يريد القابضين لأرواحهم، وقوله ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ حال، و﴿ السلم ﴾ هنا الاستسلام، أي رموا بأيديهم وقالوا ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ فحذف قالوا لدلالة الظاهر عليه، قال الحسن: هي مواطن بمرة يقرون على أنفسهم كما قال ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ [الأنعام: 13] ومرة يجحدون كهذه الآية، ويحتمل قولهم: ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ وجهين، أحدهما أنهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصاماً منهم به، على نحو قولهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام: 2]، والآخر أنهم أخبروا عن أنفسهم بذلك على ظنهم أنهم لم يكونوا يعملون سوءاً، فأخبروا عن ظنهم بأنفسهم، وهو كذب في نفسه. و﴿ عليم بما كنتم تعملون ﴾ وعيد وتهديد، وظاهر الآية أنها عامة في جميع الكفار، وإلقاؤهم السلم ضد مشافهتهم قبل، وقال عكرمة: نزلت في قوم من أهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا فأخرجهم كفار مكة مكرهين إلى بدر، فقتلوا هنالك فنزلت فيهم هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد : وإنما اشتبهت عليه بالآية الأخرى التي نزلت في أولئك باتفاق من العلماء ، وعلى هذا القول يحسن قطع ﴿ الذين ﴾ ورفعه بالابتداء فتأمله والقانون أن ﴿ بلى ﴾ تجيء بعد النفي ونعم تجيء بعد الإيجاب ، وقد تجيء بعد التقرير ، كقوله أليس كذا ونحوه ، ولا تجيء بعد نفي سوى التقرير ، وقرأ الجمهور " تتوفاهم " بالتاء فوق ، وقرأ حمزة " يتوفاهم " بالياء وهي قراءة الأعمش ، قال أبو زيد : أدغم أبو عمرو بن العلاء السلم "ما" ، وقوله ﴿ فادخلوا ﴾ من كلام الذي يقول ﴿ بلى ﴾ ، و﴿ أبواب جهنم ﴾ مفضية إلى طبقاتها التي هي بعض على بعض ، و" الأبواب "كذلك باب على باب ، و ﴿ خالدين ﴾ حال ، واللام في قوله ﴿ فلبئس ﴾ لام التأكيد .

قال القاضي أبو محمد : وذكر سيبويه ، رحمه الله ، وهو إجماع النحويين قال : ما علمت أن لام التأكيد لا تدخل على الفعل الماضي وإنما تدخل عليه لام القسم لكن دخلت على " بئس " لما لم تتصرف أشبهت الأسماء وبعدت عن حال الفعل من جهة أنها لا تدخل على زمان ، و" المثوى " موضع الإقامة ، ونعم وبئس إنما تدخلان على معرف بالألف واللام أو مضاف إلى معرف بذلك ، والمذموم هنا محذوف ، تقديره بئس المثوى ﴿ مثوى المتكبرين ﴾ ، و" المتكبر " هنا هو الذي أفضى به كبره إلى الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

أي سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدّمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل .

﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ القواعد فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه النُّمْروذ بن كَنْعَان وقومه ، أرادوا صعود السماء وقتال أهله ؛ فبَنُوا الصرح ليصعَدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخرّ .

كما تقدّم بيانه في آخر سورة "إبراهيم" .

ومعنى "فَأَتَى اللَّهُ بنيانَهُم" أي أتى أمرُه البنيان ، إمّا زلزلة أو ريحاً فخرّبته .

قال ابن عباس ووهب : كان طول الصَّرْح في السماء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة الاف .

وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين ، فهبّت ريح فألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي .

ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً ،

فلذلك سُمّيَ بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السُّرْيانية .

وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" .

وقرأ ابن هُرْمز وابن مُحَيْصن "السُّقُف" بضم السين والقاف جميعاً .

وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفاً ؛ كما تقدّم في "وبالنجم" في الوجهين .

والأشبه أن يكون جمع سقف .

والقواعد : أصول البناء ، وإذا اختلت القواعد سقط البناء .

وقوله : ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن الأعرابي : وكّد ليعلمَك أنهم كانوا حالّين تحته .

والعرب تقول : خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه .

فجاء بقوله : "مِن فوقِهِم" ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال : "من فوقهم" أي عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا .

وقيل : إن المراد بالسقف السماء ؛ أي إن العذاب أتاهم من السماء التي هي فوقهم ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : إن قوله : "فأتى اللَّهُ بنيانَهم من القواعِدِ" تمثيل ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه .

وقيل : المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه .

وقيل : المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه .

وعلى هذا اختُلف في الذين خرّ عليهم السقف ؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدّم .

وقيل : إنه بُخْتَنَصّر وأصحابه ؛ قاله بعض المفسرين .

وقيل : المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله في سورة الحجر ؛ قاله الكلبيّ .

وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل ، والله أعلم .

﴿ وَأَتَاهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي من حيث ظَنوا أنهم في أمان .

وقال ابن عباس : يعني البعوضة التي أهلك الله بها نمروذاً .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾

أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم .

﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ أي بزعمكم وفي دعواكم ، أي الآلهة التي عبدتم دوني ، وهو سؤال توبيخ .

﴿ الذين كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أي تعادون أنبيائي بسببهم ، فليدفعوا عنكم هذا العذاب .

وقرأ ابن كَثِير "شُرَكَايَ" بياء مفتوحة من غير همز ، والباقون بالهمز .

نافع "تُشَاقُّونِ" بكسر النون على الإضافة، أي تعادونني فيهم.

وفتحها الباقون.

﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ قال ابن عباس: أي الملائكة.

وقيل المؤمنون.

﴿ إِنَّ الخزي اليوم ﴾ أي الهوان والذل يوم القيامة.

﴿ والسوء ﴾ أي العذاب.

﴿ عَلَى الكافرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

هذا من صفة الكافرين.

و"ظَالِمِي أَنْفُسِهِم" نصب على الحال؛ أي وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك.

﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ أي الاستسلام.

أي أقرّوا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سوء ﴾ أي من

شرك.

فقالت لهم الملائكة: ﴿ بلى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقُتِلوا بها ؛ فقال : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ﴾ بقبض أرواحهم .

﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة .

﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ يعني في خروجهم معهم .

وفيه ثلاثة أوجه : أحدها أنه الصلح ؛ قاله الأخفش .

الثاني الاستسلام ؛ قاله قُطْرُب .

الثالث الخضوع ؛ قاله مقاتل .

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء ﴾ يعني من كفر .

﴿ بلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني أن أعمالكم أعمال الكفار .

وقيل : إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين ؛ فنزلت فيهم .

وعلى القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم ، ويخضع ويذل ، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان ؛ كما قال : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] وقد تقدّم هذا المعنى .

وتقدّم في "الأنفال" إن الكفار يتوفّون بالضرب والهوان ، وكذلك في "الأنعام" .

وقد ذكرناه في كتاب التذكرة .

قوله تعالى : ﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾

أي يقال لهم ذلك عند الموت .

وقيل : هو بشارة لهم بعذاب القبر ؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين .

وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليها مثلاً إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية والثالثة هكذا .

وقيل : لكل دركة باب مفرد ، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر .

فالله أعلم .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها .

﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ أي مقام ﴿ المتكبرين ﴾ الذين تكبّروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، وقد بيّنهم بقوله الحق : ﴿ إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : 35] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(24/434)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾

يعني من قبل كفار قريش وهو نمروذ بن كنعان الجبار ، وكان أكبر ملوك الأرض في زمن إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) وكان من مكره أنه بنى صرحاً ببابل ليصعد إلى السماء ، ويقاتل أهلها في زعمه .

قال ابن عباس : وكان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع .

وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصفته وألقت رأسه في البحر وخر عليهم الباقي فأهلكهم وهم تحته ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لساناً ، فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر لأن صالحاً عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية ، وكان أهل اليمن عرباً منهم جرهم الذي نشأ إسماعيل بينهم ، وتعلم منهم العربية كانت قبائل العرب قديمة قبل إبراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا في قدم الزمان بالعربية ، ويدل على صحة هذا قوله : ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى والله أعلم .

وقيل : حمل قوله قد مكر الذين من قبلهم على العموم أولى فتكون الآية عامة في جميع الماكرين المبطلين الذي يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالغير ، وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ يعني قصد تخريب بنيانهم من أصوله ، وذلك بأن أتاهم بريح قصفت بنيانهم من أعلى ، وأتاهم بزلازل قلعت بنيانهم من قواعده وأساسه ، هذا إذا حملنا تفسير الأية على القول الأول ، وهو ظاهر اللفظ وإن حملنا تفسير الآية على القول الثاني : وهو حملها على العموم كان المعنى أنهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى ، وجعل هلاكهم مثل هلاك بنوا بنياناً وثيقاً شديداً ودعموه بالأساطين فانهدم ذلك البنيان ، وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ، ومنه المثل السائر على ألسنة الناس : من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه .

وقوله تعالى ﴿ فخرّ عليهم السقف من فوقهم ﴾ يعني سقط عليهم السقف فأهلكهم وقوله : من فوقهم للتأكيد لأن السقف لا يخر إلا من فوقهم .

وقيل : يحتمل أنهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه ، فلما قال من فوقهم على أنهم كانوا تحته ، وأنه لما خر عليهم أهلكوا وماتوا تحته تحت السقف عند سقوطه ، فلما قال من فوقهم على أنهم كانوا تحته ، وأنه لما خر عليهم أهلكوا وماتوا تحته ﴿ وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ يعني في مأمنهم ، وذلك أنهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم ، وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ يعني يهينهم بالعذاب ، وفيه إشارة بأن العذاب يحصل لهم في الدنيا والآخرة لأن الخزي هو العذاب مع الهوان ﴿ ويقول ﴾ يعني ويقول : الله لهم يوم القيامة ﴿ أين شركائي ﴾ يعني في زعمكم واعتقادكم ﴿ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ يعني كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم في شأنهم لأن المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه ، والمعنى : ما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ يعني المؤمنين وقيل الملائكة ﴿ إن الخزي ﴾ يعني الهوان ﴿ اليوم ﴾ يعني في هذا اليوم وهو يوم القيامة ﴿ والسوء ﴾ يعني العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ وإنما يقول المؤمنون : هذا يوم القيامة لأن الكفار كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا ، وينكرون عليهم أحوالهم فإذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق ، وأُكرموا بأنواع الكرامات وأهين أهل الباطل وعذبوا بأنواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون : إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول إظهار الشماتة بهم فيكون أعظم في الهوان والخزي قوله تعالى ﴿ الذين تتوفاهم

الملائكة ﴿ تقبض أرواحهم الملائكة ، وهم ملك الموت وأعوانه ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ يعني بالكفر ﴿ فألقوا السلم ﴾ يعني أنهم استسلموا وانقادوا لأمر الله الذي نزل بهم وقالوا ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ يعني شركاً وإنما قالوا : ذلك من شدة الخوف ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ يعني فلا فائدة لكم في إنكاركم .

(27/434)

قال عكرمة : عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر ﴿ فادخلوا ﴾ أي فيقال لهم ادخلوا ﴿ أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ يعني مقيمين فيها لا يخروجون منها .

وإنما قال ذلك لهم ليكون أعظم في الغم والحزن ، وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذاباً من بعض ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ يعني عن الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(28/434)

وقال أبو حيان :

﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

فأتى الله أي : أمره وعذابه والبنيان ، قيل : حقيقة .

قال ابن عباس وغيره : الذين من قبلهم نمرود بنى صرحاً ليصعد بزعمه إلى السماء ، وأفرط في علوه وطوله في السماء فرسخين على ما حكى النقاش ، وقاله كعب الأحبار .

وقال ابن عباس ووهب : طوله في السماء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع ، فبعث الله تعالى عليه ريحاً فهدمته ، وخر سقفه عليه وعلى اتباعه .

وقيل : هدمه جبريل بجناحه ، وألقى أعلاه في البحر ، والحقف من أسفله .

وقال ابن الكلبي : المراد المقتسمون المذكورون في سورة الحجر .

وقيل : الذين من قبلهم بخت نصر وأصحابه .

وقال الضحاك : قريات قوم لوط ، وقالت فرقة : المراد بالذين من قبلهم من كفر من الأمم المتقدمة ومكر ، ونزلت به عقوبة من الله ، ويكون فأتى الله بنيانهم إلى آخره تمثيلاً والمعنى : أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله ، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين ، فأتى البنيان من الأساطين بأن تضعضعت ، فسقط عليهم السقف وهلكوا ونحوه : من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً .

ومن القواعد لابتداء الغاية أي : أتاهم أمر الله من جهة القواعد .

وقالت فرقة : المراد بقوله : فخرَّ عليهم السقف من فوقهم .

جاءهم العذاب من قبل السماء التي هي فوقهم ، وقاله ابن عباس .

وقيل : المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه .

قال ابن عطية : وهذا ينجر إلى اللغز .

ومعنى قوله : من فوقهم ، رفع الاحتمال في قوله : فخرَّ عليهم السقف ، فإنك تقول : انهدم على فلان بناؤه وليس تحته ، كما تقول : انفسد عليه ، وقوله : من فوقه ، ألزم أنهم كانوا تحته انتهى .

وهذا الذي قاله ابن الأعرابي قال : يعلمك أنهم كانوا جالسين تحته ، والعرب تقول : خر علينا سقف ، ووقع علينا سقف ، ووقع علينا حائط إذا كان يملكه .

(29/434)

وإن لم يكن وقع عليه فجاء بقوله من فوقهم ليخرج هذا الذي في كلام العرب فقال : من فوقهم ، أي : عليهم وقع ، وكانوا تحته فهلكوا ، فأتاهم العذاب .

قال ابن عباس : يعني البعوضة التي أهلك بها نمروذ ، وقيل : من حيث لا يشعرون ، من حيث ظنوا أنهم في أمان .

وقرأ الجمهور : بنيانهم ، وقرأت فرقة بنيتهم .

وقرأ جعفر : بيتهم ، والضحاك : بيوتهم .

وقرأ الجمهور : السقف مفرداً ، والأعرج السقف بضمتين وزيد بن علي ومجاهد ، بضم السين فقط .

ونقدم توجيه مثل هاتين القراءتين في وبالنجم .

وقرأت فرقة : السقف بفتح السين وضم القاف ، وهي لغة في السقف ، ولعل السقف مخفف منعه ، ولكنه كثر استعماله كما قالوا في رجل رجل وهي لغة تميمية .

ولما ذكر تعالى ما حل بهم في دار الدنيا ، ذكر ما يحل بهم في الآخرة .

ويخزيهم : يعم جميع المكاره التي تحل بهم ، ويقتضي ذلك إدخالهم النار كقوله : ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أي أهنته كل الإهانة .

وجمع بين الإهانة بالفعل ، والإهانة بالقول بالتقريع والتوبيخ في قوله : يخزيهم .

ويقول : أين شركائي ، أضاف تعالى الشركاء إليه ، والإضافة تكون بأدنى ملابسة ، والمعنى : شركائي في زعمكم ، إذ أضاف على الاستهزاء .

وقرأ الجمهور : شركائي ممدوداً مهموزاً مفتوح الياء ، وفرقة كذلك : تسكنها ، فسقط في الدرج لالتقاء الساكنين .

والبزي عن ابن كثير بخلاف عنه : مقصوراً وفتح الياء هنا خاصة .

وروي عنه : ترك الهمز في القصص والعمل على الهمز فيه وقصر الممدود ، وذكروا أنه من ضرورة الشعر ، ولا ينبغي ذلك لثبوته في هذه القراءة ، فيجوز قليلاً في الكلام .

والمشاقة : المفاداة والمخاصمة للمؤمنين .

وقرأ الجمهور : تشاقون بفتح النون ، وقرأ نافع بكسرها ، ورويت عن الحسن ، ولا يلتفت إلى تضعيف أبي حاتم هذه القراءة .

وقرأت فرقة : بتشديدها ، أدغم نون الرفع في نون الوقاية .

(30/434)

والذين أوتوا العلم ، عام فيمن أوتي العلم من الأنبياء ، وعلماء أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم ، فلا يلتفتون إليهم ، وينكرون عليهم .

وقيل : هم الملائكة ، وقاله ابن عباس .

وقيل : الحفظة من الملائكة .

وقيل : من حضر الموقف من ملك وأنسي ، وغير ذلك .

وقال يحيى بن سلام : هم المؤمنون انتهى .

ويقول أهل العلم : شماتة بالكفار وتسميعاً لهم ، وفي ذلك إعظام للعلم ، إذ لا يقول ذلك إلا

أهله ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ تقدم تفسيره في سورة النساء .

والظاهر أنّ الذين صفة للكافرين ، فيكون ذلك داخلاً في القول .

فإن كان القول يوم القيامة فيكون تتوفاهم حكاية حال ماضية ، وإن كان القول في الدنيا لما أخبر تعالى أنه يخزيهم يوم القيامة ويقول لهم ما يقول قال أهل العلم : إذا أخبر الله تعالى بذلك أن الخزي اليوم الذي أخبر الله أنه يخزيهم فيه ، فيكون تتوفاهم على بابها .

ويشمل من حيث المعنى من توفته ، ومن تتوفاه .

ويجوز أن يكون الذين خبر مبتدأ محذوف ، وأن يكون منصوباً على الذم ، فاحتمل أن يكون مقولاً لأهل العلم ، واحتمل أنْ يكون غير مقول ، بل من إخبار الله تعالى . انتهى . ا هـ

﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(31/434)

وقال أبو السعود :

﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

وعيدٌ لهم برجوع غائلة مكرِهم إلى أنفسهم كدأب مَنْ قبلهم من الأمم الخاليةِ الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجلِ ، أي قد سوّوا منصوباتٍ ليمكروا بها رسلَ الله تعالى ﴿

فَأَتَى اللهُ ﴾ أي أمرُه وحكمُه ﴿ بُنْيَانَهُم ﴾ وقرىء بيتهم وبيوتهم ﴿ مِّنَ القواعد ﴾ وهي الأساطينُ التي تعمِده أو أساسُه فضعضعَتْ أركانَه ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ أي سقط عليهم سقفُ بنيانهم إذ لا يتصور له القيامُ بعد تهدّم القواعدِ ، شُبّهت حالُ أولئك الماكرين في تسويتهم المكايدَ والمنصوباتِ التي أرادوا بها الإيقاعَ برسل الله سبحانه ، وفي إبطاله تعالى تلك الحيلَ والمكايدَ وجعلِه إياها أسباباً لهلاكهم بحال قومٍ بنَوا بنياناً وعمَدوه بالأساطين فأُتيَ ذلك من قِبل أساطينِه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ، وقرىء فخر عليهم السُّقُفُ بضمتين ﴿ وأتاهم العذاب ﴾ أي الهلاك والدمار ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه منه بل يتوقعون إتيانَ مقابِله مما يريدون ويشتهون ، والمعنى أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطيرُ الأولين سيأتيهم من العذاب مثلُ ما أتاهم وهم لا يحتسبون ، والمرادُ به العذابُ العاجل لقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾ فإنه عطفٌ على مقدر ينسحب عليه الكلام ، أي هذا الذي فُهم من التمثيل من عذاب هؤلاءِ أو ما هو أعمُّ منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤُهم في الدنيا ويوم القيامة يُخزيهم أي يُذِلهم بعذاب الخِزْي على رؤوس الأشهادِ ، وأصلُ الخزي ذُلٌّ يستحيى منه ، وثم للإيماء إلى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخي الزماني ، وتغييرُ السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزي على يوم القيامة كما هو المتبادرُ من تقديم الظرف

على الفعل بل لأن الإخبارَ بجزائهم في الدنيا مؤذِنٌ بأن لهم جزاءً أخروياً فتبقى النفسُ مترقبةً إلى وروده سائلةً عنه بأنه ماذا ، مع تيقنها

(32/434)

بأنه في الآخرة فسيق الكلامُ على وجه يُؤذِن بأن المقصود بالذكر إخزاؤهم لا كونُه يوم القيامة ، والضمير إما للمفترين في حق القرآنِ الكريم أو لهم ولمن مُثّلوا بهم من الماكرين كما أشير إليه وتخصيصُه بهم يأباه السِّباقُ والسياق كما ستقف عليه .

﴿ وَيَقُولُ ﴾ لهم تفضيحاً وتوبيخاً فهو الخ ، بيان للإخزاء ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ أضافهم إليه سبحانه حكاية لإضافتهم الكاذبة ، ففيه توبيخٌ مع الاستهزاء بهم ﴿ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ أي تخاصمون الأنبياءَ والمؤمنين في شأنهم بأنهم شركاءُ حقاً حين بينوا لكم بطلانَها ؟ والمرادُ بالاستفهام استحضارُهم للشفاعة أو المدافعةُ على طريقة الاستهزاء والتبكيتِ ، والاستفسارُ عن مكانهم لا يوجب غَيبتَهم حقيقةً حتى يُعتذرَ بأنهم يجوز أن يُحال بينهم وبين عبدتِهم حينئذ ليتفقدوها في ساعة علقوا بها الرجاءَ فيها ، أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيّب ، بل يكفي في ذلك عدمُ حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعُمون أنهم متصفون من عنوان الإلهية ، فليس هناك شركاءُ ولا أماكنُها ، على أن قوله

ليتفقدوا ليس بسديد فإنه قد تبين عندهم الأمرُ حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطلِ فكيف يتصور منهم التفقد وقرىء بكسر النون أي تشاقّونني على أن مشاقّةَ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لا سيما في شأن متعلق به سبحانه مشاقةٌ له عز وجل ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ من أهل الموقفِ وهم الأنبياءُ والمؤمنون الذين أوتوا علماً بدلائل التوحيدِ وكانوا يدْعونهم في الدنيا إلى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم ، أي يقولون توبيخاً فهو وإظهاراً للشماتة بهم وتقريراً لما كانوا يعِظونهم وتحقيقاً لما أوعدوهم به ، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على تحققه وتحتّم وقوعِه حسبما هو المعتادُ في إخباره سبحانه وتعالى كقوله :

(33/434)

﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ ﴿ إِنَّ الخزى ﴾ الفضيحةَ والذل والهوان ﴿ اليوم ﴾ منصوبٌ بالخزي على رأي من يرى إعمالَ المصدرِ المصدّر باللام ، أو بالاستقرار في الظرف ، وفيه فصلٌ بين العامل والمعمول بالمعطوف إلا إنه مغتفرٌ في الظروف ، وإيرادُه للإشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزّة وشِقاق ﴿ والسوء ﴾

العذاب ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾

(34/434)

بتأنيث الفعل ، وقرىء بتذكيره وبإدغام التاء في التاء ، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لاستحضار صورةِ توفّيهم إياهم لما فيها من الهول ، والموصولُ في محل الجرّ على أنه نعتٌ للكافرين أو بدلٌ منه أو في محل النصبِ أو الرفع على الذم ، وفائدتُه تخصيصُ الخزي والسوءِ بمن استمر كفرُه إلى حينِ الموت دون مَن آمن منهم ولو في آخر عُمره ، أي على الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن يتوفاهم الملائكة ﴿ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي حال كونهم مستمرين على الكفر فإنه ظلمٌ منهم لأنفسهم وأيُّ ظلم ، حيث عرّضوها للعذاب المخلّد وبدّلوا فطرةَ الله تبديلاً ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ أي فيُلقون ، والعدولُ إلى صيغة الماضي للدِلالة على تحقق الوقوعِ وهو عطفٌ على قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ ﴾ وما بينهما جملةٌ اعتراضية جيء بها تحقيقاً لما حاق بهم من الخزي على رؤوس الأشهادِ ، أي فيُسالمون ويتركون المُشاقّة وينزِلون عما كانوا عليه في الدنيا من الكِبْر وشدةِ الشكيمة قائلين : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ في الدنيا ﴿ مِن سُوء ﴾ أي من شرك ، قالوه منكِرين لصدوره عنهم

كقولهم : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وإنما عبروا عنه بالسوء اعترافاً بكونه سيئاً لا إنكاراً لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ، ويجوز أن يكون تفسيراً للسَّلَم على أن يكون المرادُ به الكلامَ الدالَّ عليه ، وعلى التقديرين فهو جوابٌ عن قوله سبحانه : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ كما في سورة الأنعام لا عن قول أولي العلم ادعاءً لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزي والسوء ﴿ بلى ﴾ رد عليهم من قِبل أولي العلم وإثباتٌ لما نفَوْه أي بلى كنتم تعملون ما تعملون ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه .

(35/434)

﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي كلُّ صنف من بابه المعدّ له ، وقيل : أبوابُها أصنافُ عذابها فالدخول عبارةٌ عن الملابسة والمقاساة ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ إن أريد بالدخول حدوثُه فالحال مقدّرة ، وإن أريد مطلقُ الكون فيها فهي مقارنة ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ عن التوحيد كما قال تعالى : ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ وذكرُهم بعنوان التكبر للإشعار بعلّيته لثُوائهم فيها ، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي جهنم وتأويلُ قولهم : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء ﴾ بأنا ما كنا عاملين ذلك في اعتقادنا رَوْماً للمحافظة على أن لا

كذِبَ ثمة يرده الردُّ المذكور وما في سورة الأنعام من قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(36/434)

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم عليهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل ، والمكر صرف الغير عما يقصده بحيلة وهو ههنا على ما قيل مجاز عن مباشرة أسبابه وترتيب مقدماته لأن ما بعد يدل على أنه لم يحصل الصرف ، وجوز أن يرتكب فيه التجريد أي سووا منصوبات وحيلا ليخدعوا بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿ فَأَتَى الله بنيانهم مّنَ القواعد ﴾ أي من جهة الدعائم والعمد التي بنوا عليها بأن ضعضعت فمن ابتدائية والبنيان اسم مفرد مذكر ، ونقل الراغب عن بعض اللغويين أنه جمع بنيانة مثل شعير وشعيرة وتمر وتمرة ونخل ونخلة وأن هذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه ، وأصل الإتيان كما قال المجيء بسهولة وهو مستحيل بظاهره في حقه سبحانه ولذلك احتاج بعضهم إلى تقدير مضاف أي أمر الله تعالى وروي ذلك عن قتادة ،

وجعل ذلك في "الكشاف" من قبيل أتى عليه الدهر بمعنى أهلكه وأفناه ، وحينئذٍ لا حاجة إلى تقدير المضاف .

وقرىء ﴿ بنيتهم ﴾ وهو بمعنى بنائهم يقال بنيت أبنى أبناء وبنية وبنى نعم كثيراً ما يعبر بالبنية عن الكعبة وقرأ جعفر بيتهم والضحاك ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ ﴾ ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف فَوْقِهِمْ ﴾ أي سقط عليهم سقف بنيانهم إذ لا يتصور له القيام بعد تهدم قواعده ، ﴿ وَمِنْ ﴾ متعلق بخر وهي لابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من السقف مؤكدة ، وقال ابن عطية وابن الأعرابي أن ﴿ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ ليس بتأكيد لأن العرب تقول خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا انهدم في ملك القائل وإن لم يقع عليه حقيقة فهو لبيان أنهم كانوا تحته حين هدم .

(37/434)

ومن الناس من زعم أن ﴿ على ﴾ بمعنى عن وهي للتعليل والكلام على تقدير مضاف أي خر من أجل كفرهم السقف وجىء بقوله تعالى ﴿ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ مع ﴿ خَرَّ ﴾ لدفع توهم أن يكون قد خروهم ليسوا تحته ، ولا يخفى أنه تطويل من غير طائل بل كلام لا ينبغي أن يتفوه به فاضل ؛ والكلام تمثيل يعني أن حالهم في تسويتهم المنصوبات والحيل ليمكروا بها رسل

الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وإبطال الله تعالى إياها وجعلها سبباً لهلاكهم كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا تحته ، ووجه الشبه أن ما نصبوه وخيلوه سبب التحصن والاستيلاء صار سبب البوار والفناء فالأساطين بمنزلة المنصوبات وانقلابها عليهم مهلكة كانقلاب تلك الحيل على أصحابها والبنيان ما كان زوروه وروجوا فيه تلك المنصوبات وتطواطئوا عليه من الرأي المدعم بالمكائد ، ويشبه ذلك قولهم ، من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً .

(38/434)

ويقرب من هذا ما قيل إن المراد أحبط الله تعالى أعمالهم ، وقيل : الأمر مبني على الحقيقة ، وذلك أن نمرود بن كنعان بنى صرحاً ببابل ليصعد بزعمه إلى السماء ويعرف أمرها ويقاتل أهلها وأفرط في علوه فكان طوله في السماء على ما حكى النقاش وروي عن كعب فرسخين ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ووهب ، كان ارتفاعه خمسة آلاف ذراع وعرضه ثلاثة آلاف ذراع فبعث الله تعالى عليه ريحاً فهدمته وخر سقفه عليه وعلى أتباعه فهلكوا ، وقيل : هدمه جبريل عليه السلام بجناحه لوما سقط تبلبلت الناس من الفزع فتكلموا يومئذٍ بثلاث وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك

السريانية ، ولا يخفى ما في هذا الخبر من المخالفة للمشهور لأن موجبه أن هلاك نمرود كان بما ذكر والمشهور أنه عاش بعد قصة الصرح وأهلكه الله تعالى ببعوضة وصلت لدماغه إظهاراً لكمال خسته وعجزه وجازاه سبحانه من جنس عمله لأنه صعد إلى جهة السماء بالنسور فأهلكه الله تعالى بأخس الطيور ، وما ذكر في وجه تسمية المكان المعروف ببابل هو المشهور ، وفي "معجم البلدان" أن مدينة بابل بوراسف الجبار واشتق اسمها من المشتري لأن بابل باللسان البابلي الأول اسم للمشتري وأخربها الإسكندر ، وما ذكر من أن اللسان كان قبل ذلك السريانية ذكره البغوي ونظر فيه الخازن بأن صالحاً عليه السلام وقومه كانوا قبل وكانوا يتكلمون بالعربية وكان قبائل قبل إبراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس يتكلمون بالعربية أيضاً وقد يدفع بالعناية .

(39/434)

وقال الضحاك الآية إشارة إلى قوم لوط عليه السلام وما فعل بهم وبقراهم ، والكلام أيضاً مبني على الحقيقة واختار جماعة بناءه على التمثيل حسبما سمعت وعليه فالمراد على المختار من الذين كفروا من قبل ما يشمل جميع الماكرين الذين هدم عليهم بنيانهم وسقط في أيديهم وقرأ الأعرج السقف وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ومجاهد ﴿ السقف ﴾

بضم السين فقط وكلاهما جمع سقف وفعل وفعل على ما قال أبو حيان محفوظان في جمع فعل وليسا مقيسين فيه ويجمع على سقوف وهو القياس .

وقرأت فرقة ﴿ السقف ﴾ بفتح السين وضم القاف وهي لغة في السقف ، وذكر أن الأصل مضموم القاف وساكنه مخففه وكثر استعماله على عكس قولهم رجل بفتح فضم ورجل بفتح فسكون وهي لغة تميمية ﴿ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه منه بل يتوقعون إتيان مقابله مما يريدون ويشتهون ، والمراد به العذاب العاجل ، وفي عطف هذه الجملة على ما تقدم تهويل لأمر هلاكهم ويدل على أن المراد به العاجل قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾

أي يذلهم ، والظاهر أن ضمائر الجمع للذين مكروا من قبل كأنه قيل : قد مكر الذين من قبلهم فعذبهم الله تعالى في الدنيا ثم يعذبهم في العقبى ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للإيماء إلى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما تدل عليه من التراخي الزماني ، وتقديم الظرف على الفعل قيل لقصر الإخزاء على يوم القيامة ، والمراد به ما بين بقوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ ﴾ أي لهم تفضيحاً وتوبيخاً ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ إلى آخره ، ولا شك أن ذلك لا يكون إلا في ذلك اليوم ، وقال بعض المحققين .

ليس التقديم لذلك بل لأن الإخبار بجزائهم في الدنيا مؤذن بأن لهم جزاءً أخروياً فتبقى النفس مترقبة إلى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه في الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر جزاؤهم لا كونه في الآخرة، وذكر أيضاً أن الجملة المذكورة عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي هذا الذي فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء الماكرين القائلين في القرآن العظيم أساطير الأولين أو ما هو أعم منه، ومما ذكر من عذاب أولئك الماكرين من قبل جزاؤهم في الدنيا ويوم القيامة يخزيهم إلى آخرهم، ثم قال: والضمير إما للمغترين في حق القرآن الكريم أو لهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين، وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق اه.

وفيه من ارتكاب خلاف الظاهر ما فيه فليتأمل، وفسر بعضهم الإخزاء بما هو من روادف التعذيب بالنار لأنه الفرد الكامل وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران: 192] وقيل عليه: إن قوله سبحانه: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ إلى آخره يأباه لأنه قبل دخولهم النار.

وأجيب بأن الواو لا تقتضي الترتيب، وأنت تعلم أن الأولى مع هذا حمله على مطلق الإذلال، وإضافة الشركاء إلى نفسه عز وجل لأدنى ملابسة بناءً على زعمهم أنهم شركاء لله سبحانه عما يشركون فتكون الآية كقوله تعالى: ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ

﴾ [القصص : 62] .

وجوز أن يكون ما ذكر حكاية منه تعالى لإضافتهم فإنهم كانوا يضيفون ويقولون : شركاء الله تعالى ، وفي ذلك زيادة في توبيخهم ليست في أين أصنامكم مثلاً لو قيل ، ولا يخفى أن هذا خزي وإهانة بالقول فإذا فسر الإخزاء فيما تقدم بالتعذيب بالنار كانت الآية مشيرة إلى خزيين فعلي وقولي ، وأشير إلى الأول أولاً لأنه أنسب بسابقه .

(41/434)

وقرأ الجمهور ﴿ شُرَكَائِىَ ﴾ ممدوداً مهموزاً مفتوح الياء ، وفرقة كذلك إلا أنهم سكنوا الياء فتسقط في الدرج لالتقاء الساكنين ، والبزي عن ابن كثير بخلاف عنه بالقصر وفتح الياء ، وأنكر ذلك جماعة وزعموا أن هذه القراءة غير مأخوذ لأن قصر الممدود لا يجوز إلا ضرورة ، وليس كما قالوا فإنه يجوز في السعة ، وقد وجه أيضاً بأن الهمزة المكسورة قبل الياء حذفت للتخفيف وليس كقصر الممدود مطلقاً ، مع أنه قد روي عن ابن كثير قصر التي في القصص (62) و﴿ وَرَائِى ﴾ في مريم (5) ، وعن قنبل قصر ﴿ أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 7] في العلق فكيف يعد ذلك ضرورة .

نعم قال أبو حيان : إن وقوعه في الكلام قليل فاعرف ذلك فقد غفل عنه كثير من الناس .

﴿ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ أي تخاصمون وتنازعون الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم في شأنهم وتزعمون أنهم رشركاء حقاً حين بينوا لكم ضد ذلك ، وفسر بعضهم المشاقة بالمعاداة ، وتفسيرها بالمخاصمة ليظهر تعلق ﴿ فِيهِمْ ﴾ به ولا يحتاج إلى جعل في للسببية أولى ، وقيل : للمخاصمة مشاقة أخذاً من شق العصا أو لكون كل من المتخاصمين في شق ؛ والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة على طريق الاستهزاء والتبكيت ، فإنهم كانوا يقولون : إن صح ما تقولون فالأصنام تشفع لنا ، والاستفسار عن مكانتهم لا يوجب غيبتهم حقيقة بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعمون أنهم متصفون به فليس هناك شركاء ولا أماكنها .

وقيل : إن ذلك يوجب الغيبة ، ويقال : إنه يحال بينهم وبين شركائهم حينئذٍ ليتفقدوهم في ساعة علقوا الرجاء بها فيهم أو أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب .

ولا يحتاج إلى هذا بعدما علمت على أنه أورد على قوله .

ليتفقدوهم إلى آخره أنه ليس بسديد ، فإنه قد تبين للمشكرين حقيقة الأمر فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد .

وأجيب بأنه يجوز أن يغفلوا لعظم الهول عن ذلك فيتفقدوهم ، ثم إن ما ذكر يقتضي حشر الأصنام وهو الذي يدل عليه كثير من الآيات كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] وقوله سبحانه : ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] على قول ، ولا أرى مانعاً من حمل الشركاء على معبوداتهم الباطلة بحيث تشمل ذوي العقول أيضاً .

وقرأ الجمهور ﴿ تشاقون ﴾ بفتح النون ، ونافع بكسرها ورويت عن الحسن ، ولا يلتفت إلى تضعيف أبي حاتم .

وقرأت فرقة بتشديدها على أنه أدغم نون الرفع في نون الوقاية .

والكسر على حذف ياء المتكلم والاكتفاء به أي تشاقونني .

على أن مشاقة الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم كمشاقة الله تعالى شأنه ولولا ذلك لم يصح تعليق المشاقة به سبحانه .

أما إذا كانت بمعنى المخاصمة فظاهر أنهم لم يخاصموا الله تعالى ، وأما إذا كانت بمعنى العداوة فلأنهم لا يعتقدون أنهم أعداء لله تعالى : وأما قوله تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ [الممتحنة : 1] يعني المشركين فمؤول أيضاً بغير شبهة ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ من أهل الموقف وهم الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون الذين أوتوا علماً بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم ، واقتصر

يحيى بن سلام على المؤمنين والأمر فيه سهل .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم أنهم الملائكة عليهم السلام .

ولم نقف على تقييده إياهم .

وعن مقاتل أنهم الحفظة منهم .

ويشعر كلام بعضهم بأنهم ملائكة الموت حيث أورد على القول بأنهم الملائكة أن الواجب حينئذٍ يتوفونهم مكان ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ 8] وأنه يلزم منه الإبهام في موضع التعيين والتعيين في موضع الإبهام .

وهو كما الشهاب في غاية السقوط ، وقيل : المراد كل من اتصف بهذا العنوان من ملك وأنسي وغير ذلك .

(43/434)

والذي يميل إليه القلب السليم القول الأول أي يقول أولئك توبيخاً للمشركين وإظهاراً للشماتة بهم وتقريراً لما كانوا يعظونهم وتحقيقاً لما أوعدوهم به .

وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه وتحتمه حسبما هو المعهود في أخباره تعالى كقوله سبحانه : ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 44] .

﴿ إِنَّ الخزى ﴾ الذال والهوان .

وفسره الراغب بالذال الذي يستحي منه ﴿ اليوم ﴾ منصوب بالخزي على رأي من يرى أعمال المصدر باللام كقوله : ضعيف النكاية أعداءه .

أو بالاستقرار في الظرف الواقع خبراً لإن ، وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف إلا أنه مغتفر في الظرف .

وأل للحضور أي اليوم الحاضر ، وإيراده للإشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزة وشقاق ﴿ والسوء ﴾ العذاب ومن الخزي به جعل ذكر هذا للتأكيد ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ بالله تعالى وآياته ورسله عليهم السلام .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾

بتأنيث الفعل ، وقرأ حمزة .

والأعمش ﴿ يتوفاهم ﴾ بالتذكير هنا وفيما سيأتي إن شاء الله تعالى ، والوجهان شائعان في أمثال ذلك .

وقرىء بإدغام تاء المضارعة في التاء بعدها ويجتلب في مثله حينئذٍ همزة وصل في الابتداء وتسقط في الدرج وإن لم يعهد همزة وصل في أول فعل مضارع .

وفي مصحف عبد الله بتاء واحدة في الموضعين ، وفي الموصول أوجه الإعراب الثلاثة .

الجر على أنه صفة ﴿ الكافرين ﴾ [النحل : 27] أو بدل منه أو بيان له ، والنصب

والرفع على القطع للذم؛ وجوز ابن عطية كونه مرتفعاً بالابتداء وجملة ﴿ فَأَلْقَوُاْ ﴾ خبره.

وتعقبه أبو حيان بأن زيادة الفاء في الخبر لا تجوز هنا إلا على مذهب الأخفش في إجازته وزيادتها في الخبر مطلقاً نحو زيد فقام أي قام، ثم قال: ولا يتوهم أن هذه الفاء هي الداخلة في خبر المبتدأ إذا كان موصولاً وضمن معنى الشرط لأنها لا يجوز دخولها في مثل هذا الفعل مع صريح أداة الشرط فلا يجوز مع ما ضمن معناه اه بلفظه.

(44/434)

ونقل شهاب عنه أنه قال: إن المنع مع ما ضمن معناه أولى.

وتعقبه بأن كونه أولى غير مسلم لأن امتناع الفاء معه لأنه لقوته لا يحتاج إلى رابط إذا صح مباشرته للفعل وما تضمن معناه ليس كذلك، وكلامه الذي نقلناه لا يشعر بالأولوية فلعله وجد له كلاما آخر يشعر بها.

واستظهر هو الجر على الوصفية ثم قال: فيكون ذلك داخلاً في المقول، فإن كان القول يوم القيامة يكون ﴿ تتوفاهم ﴾ بصيغة المضارع حكاية للحال الماضية، وإن كان في الدنيا أي لما أخبر سبحانه أنه يخزيهم يوم القيامة ويقول جل وعلا لهم ما يقول قال أهل العلم: إن

الخزي اليوم الذي أخبر الله تعالى أنه يخزيهم فيه والسوء على الكافرين يكون ﴿ تتوفاهم ﴾ على بابه ، ويشمل من حيث المعنى من توفته ومن تتوفاه ، وعلى ما ذكره ابن عطية يحتمل أن يكون ﴿ الذين ﴾ إلى آخره من كلام الذين أوتوا العلم وأن يكون إخباراً منه تعالى ، والظاهر أن القول يوم القيامة فصيغة المضارع لاستحضار صورة توفى الملائكة إياهم كما قيل آنفاً لما فيها من الهول ، وفي تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره إلى حين الموت دون من آمن منهم ولو في آخر عمره ، وفيه تنديم لهم لا يخفى أي الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن تتوفاهم الملائكة ﴿ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي حال كونهم مستمرين على الشرك الذي هو ظلم منهم لأنفسهم وأي ظلم حيث عرضوها للعذاب المقيم ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ أي الاستسلام كما قاله الأخفش وقال قتادة : الخضوع ، ولا بعد بين القولين .

والمراد عليهما أنهم أظهروا الانقياد والخضوع ، وأصل الالقاء في الأجسام فاستعمل في إظهارهم الانقياد وإشعاراً بغاية خضوعهم وانقيادهم وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب .

والجملة قيل عطف على قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ ﴾ [النحل : 27] وما بينهما جملة اعتراضية جيء بها تحقيقاً لما حاق بهم من الخزى على رؤوس الاشهاد .

وكان الظاهر فيلقون إلى آخره إلا أنه عبر بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي يقول لهم سبحانه ذلك فيستسلمون وينقادون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه في الدينا من الكبر وشدة الشكيمة ، ولعله مراد من قال : إن الكلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ ثم عاد إلى حكاية حالهم يوم القيامة ، وقيل : عطف على ﴿ قَالَ الذين ﴾ [النحل : 27] وجوز أبو البقاء .

وغيره العطف على ﴿ تتوفاهم ﴾ واستظهره أبو حيان ، لكن قال الشهاب : إنه إنما يتمشى على كون ﴿ تتوفاهم ﴾ بمعنى الماضي ، وقد تقدم لك القول بأن الجملة خبر ﴿ الذين ﴾ مع ما فيه .

واعترض الأول بأن قوله تعالى : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء ﴾ إما أن يكون منصوباً بقول مضمر وذلك القول حال من ضمير ﴿ أَلْقَوْا ﴾ أي ألقوا السلم قائلين ما كنا إلى آخره أو تفسيراً للسلم الذي ألقوه بناء على أن المراد به القول الدال عليه بدليل الآية الأخرى ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول ﴾ [النحل : 86] وأياما كان فذلك العطف يقتضي وقوع هذا القول منهم يوم القيامة وهو كذب صريح ولا يجوز وقوعه يومئذ .

وأجيب بأن المراد ما كنا عاملين السوء في اعتقادنا أي كان اعتقادنا أن عملنا غير سيء ، وهذا نظير ما قيل في تأويل قولهم ﴿ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وقد

تعقب بأنه لا يلائمه الرد عليهم ﴿ حَكِيمٌ إِنَّ اللهَ ﴾ إلى آخره لظهور أنه لإبطال النفي ولا يقال : الرد على من جحد واستيقنت نفسه لأنه يكون كذباً أيضاً فلا يفيد التأويل .

ومن الناس من قال بجواز وقوع الكذب يوم القيامة ، وعليه فلا اشكال ، ولا يخفى أن هذا البحث جار على تقدير كون العطف على ﴿ قَالَ الذين ﴾ [النحل : 27] أيضاً إذ يقتضي كالأول وقوع القول يوم القيامة وهو مدار البحث .

(46/434)

واختار شيخ الإسلام عليه الرحمة العطف السابق وقال : إنه جواب عن قوله سبحانه : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ [النحل : 27] وأرادوا بالسوء الشرك منكرين صدوره عنهم ، ونفى أن يكون جواباً عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزى والسوء ، ولعله متعين على تقدير العطف على ﴿ قَالَ الذين ﴾ [النحل : 27] إلى آخره ، وإذا كان العطف على ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ كان الغرض من قولهم هذا الصادر منهم عند معاينتهم الموت استعطاف الملائكة عليهم السلام بنفي صدور ما يوجب استحقاق ما يعانونه عند ذلك ، وقيل : المراد بالسوء الفعل السيء أعم من الشرك وغيره ويدخل فيه الشرك دخولاً أولياً أي ما كنا نعمل سوأ ما فضلا عن الشرك ، و ﴿ مِنْ ﴾ على كل حال

زائدة و﴿ سُوء ﴾ مفعول لنعمل ﴿ بلى ﴾ رد عليهم من قبل الله تعالى أو من قبل أولى العلم أو من قبل الملائكة عليهم السلام ، ويتعين الأخير على كون القول عند معاينة الموت ومعاناته أي بلى كنتم تعلمون ما تعملون .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه .

﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾

(47/434)

خطاب لكل صنف منهم أن يدخل باباً من أبواب جهنم ، والمراد بها اما المنفذ أو الطبقة ، ولا يجوز أن يكون خطاباً لكل فرد لئلا يلزم دخول الفرد من الكفار من أبواب متعددة أو يكون لجهنم أبواب بعدد الأفراد ، وجوز أن يراد بالأبواب أصناف العذاب ، فقد جاء إطلاق الباب على الصنف كما يقال : فلان ينظر في باب من العلم أي صنف منه وحينئذ لا مانع في كون الخطاب لكل فرد ، وأبعد من قال : المراد بتلك الأبواب قبور الكفرة المملوءة عذاباً مستدلاً بما جاء "القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار" ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدرة أن أريد بالدخول حدوثه ، ومقارنة ان أريد به مطلق الكون ، وضمير ﴿ فِيهَا ﴾ قيل : للأبواب بمعنى الطبقات ، وقيل : لجهنم ، والتزم هذا وكون الحال مقدرة

من أبعد ، وحمل الخلود على المكث الطويل للاستغناء عن هذا الالتزام وان كان واقعاً في كلامهم خلاف المعهود في القرآن الكريم ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ أي عن التوحيد ، وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها ، وقد وصف سبحانه الكفار فيما تقدم بالاستكبار وهنا بالتكبر ، وذكر الراغب أنهما والكبر تتقارب فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من اعجابه بنفسه ، والاستكبار على وجهين : أحدهما أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً ، وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب وهو محمود .

والثاني أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له وهو مذموم ، والتكبر على وجهين أيضاً .

الأول أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره ، وعلى هذا وصف الله تعالى بالمتكبر .

والثاني أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً وذلك في وصف عامة الناس ، والتكبر على الوجه الأول محمود وعلى الثاني مذموم ، والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم أو أبوابها أن فسرت بالطبقات ؛ والفاء عاطفة ، واللام جيء بها للتأكيد اعتناء بالذم لما أن القوم ضالون

مضلون كما ينبيء عنه قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] وللتأكيد اعتناء بالمدح جيء باللام أيضاً فيما بعد من قوله سبحانه : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ [النحل : 30] لأن أولئك القوم على ضد هؤلاء هادون مهديون ، وكأنه لعدم هذا المقتضى في آيتي الزمر والمؤمن لم يؤت باللام ، وقيل : ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ [الزمر : 72] وقيل : التأكيد متوجه لما يفهم من الجملة من أن جهنم مثواهم ، وحيث أنه لم يفهم من الآيات قبل هنا فهمه منها قبل آيتي تينك السورتين جيء بالتأكيد هناك ولم يجىء به هنا اكتفاء بما هو كالصريح في إفادة أنها مثواهم مما ستسمعه إن شاء الله تعالى هناك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(49/434)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) ﴾

شرع سبحانه في تحقيق كون الأصنام التي أشار إليها بقوله : ﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ عاجزة على أن يصدر منها خلق شيء فلا تستحق عبادة فقال : ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله

﴾ أي : الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة ، وهي أنهم ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ من المخلوقات أصلاً ، لا كبيرا ولا صغيرا ، ولا جليلاً ولا حقيرا .

﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي : وصفتهم أنهم يخلقون ، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره ؟ ففي هذه الآية زيادة بيان ، لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال ، بخلاف قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال .

وقراءة الجمهور " والذين تدعون " بالمثناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله .

وروى أبو بكر عن عاصم ، وروى هبيرة عن حفص ﴿ يدعون ﴾ بالتحتية ، وهي قراءة يعقوب .

(50/434)

ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال : ﴿ أموات غَيْرُ أَحْيَاء ﴾ يعني : أن هذه الأصنام أجسادها ميتة ، لا حياة بها أصلاً ، فزيادة ﴿ غير أحياء ﴾ لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التي تموت بعد ثبوت الحياة لها ، بل لا حياة لهذه أصلاً ، فكيف يعبدونها وهم

أفضل منها ؟ لأنهم أحياء ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ الضمير في ﴿ يشعرون ﴾ للآلهة ، وفي يبعثون للكفار الذين يعبدون الأصنام ، والمعنى : ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلاً عن الأمور التي لا يعلمها إلاّ الله سبحانه ، وقيل : يجوز أن يكون الضمير في ﴿ يبعثون ﴾ للآلهة ، أي : وما تشعر هذه لأصنام أيان تبعث ، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار ، ويدل على هذا قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، فيكون الضميران على هذا للكفار ، وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جرياً على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل .

وقرأ السلمي "إيان" بكسر الهمزة ، وهما لغتان ، وهو في محل نصب بالفعل الذي قبله .

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان ، صرح بما هو الحق في نفس الأمر ، وهو وحدانيته سبحانه ، ثم ذكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال : ﴿ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ للوحدانية ، لا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينجع فيها تذكير ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمرون على الجحد ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قال الخليل : ﴿ لا جرم ﴾ كلمة تحقيق ، ولا تكون إلاّ جواباً ، أي : حقاً أن الله يعلم ما يسرّون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك ، وقد مرّ تحقيق الكلام في ﴿ لا جرم ﴾ ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾ أي : لا يحبّ هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه ، والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدّم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ أي : وإذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل : ماذا أنزل ربكم ؟ أي : أيّ شيء أنزل ربكم ؟ أو ماذا الذي أنزل ؟ قيل : القائل النضر بن الحارث والآية نزلت فيه ؛ فيكون هذا القول منه على طريق التهكم ؛ وقيل : القائل هو من يفد عليه ؛ وقيل : القائل المسلمون ، فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون فقالوا ﴿ أساطير الأولين ﴾ بالرفع أي : ما تدّعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأوّلين ، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا : المنزل عليكم أساطير الأوّلين .

وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جواباً من المشركين ، وإلاّ لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأوّلين والكفار لا يقرّون بالإنزال ، ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه ؛ وقيل : هو كلام مستأنف ، أي : ليس ما تدّعون إنزاله أيها المسلمون منزلاً بل هو أساطير الأوّلين ؛ وقد جوّز على مقتضى علم النحو نصب " أساطير " وإن لم تقع القراءة به ، ولا بدّ في النصب من التأويل الذي ذكرنا ، أي : أنزل على دعواكم أساطير الأوّلين ، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية .

والأساطير : الأباطيل والترّهات التي يتحدّث الناس بها عن القرون الأولى .

وليس من كلام الله في شيء ، ولا مما أنزله الله أصلاً في زعمهم .

﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ﴾ أي قالوا : هذه المقالة لكي يحملوا أوزارهم كاملة .

لم يكفر منها شيء لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب .

وقيل : إن اللام هي لام العاقبة ، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار ، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] .

وقيل : هي لام الأمر ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ أي : ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم ، لأن من سنّ سنّة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها .

وقيل : " من " للجنس ، لا للتبعيض أي : يحملون كل أوزار الذين يضلونهم ، ومحلّ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ النصب على الحال من فاعل ﴿ يضلونهم ﴾ أي : يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه .

ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام .

وقيل : إنه حال من المفعول أي : يضلون من لا علم له ، ومثل هذه الآية : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾

[العنكبوت : 13] .

(53/434)

وقد تقدّم في الأنعام الكلام على قوله : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [الأنعام : 164] ﴿ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ أي : بئس شيئاً يزرونه ذلك .

ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدّمين فقال : ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمروذ بن كنعان حيث بنى بناءً عظيماً ببابل ، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فأهبّ الله الريح ، فخرّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا ، والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين من المتقدّمين الذين يحاولون إلحاق الضرّ

بالمحقين .

ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق ، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه وسلم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم ﴿ فَأَتَى اللهُ بنيانهم ﴾ أي : أتى أمر الله ، وهو الريح التي أخربت بنيانهم .

قال المفسرون : أرسل الله ريحاً ، فألقت رأس الصرح في البحر ، وخرّ عليهم الباقي ﴿ مِّنَ القواعد ﴾ قال الزجاج : من الأساطين ، والمعنى : أنه أتاها أمر الله من جهة قواعدها فزعزعها ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فوقهم ﴾ قرأ ابن أبي هريرة ، وابن محيصن " السقف " بضم السين والقاف جميعاً .

وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف ، وقرأ الباقون ﴿ السقف ﴾ بفتح السين وسكون القاف ، والمعنى : أنه سقط عليهم السقف ، لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها .

قال ابن الأعرابي ، وإنما قال ﴿ من فوقهم ﴾ ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته ، والعرب تقول خرّ علينا سقف ، ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه ، فجاء بقوله : ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب ، فقال : ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي : عليهم وقع ، وكانوا تحته فهلكوا ، وما أفلتوا .

وقيل : إن المراد بالسقف : السماء ، أي : أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم .

وقيل : إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم ؛ والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه .

وقد اختلف في هؤلاء الذين خرّ عليهم السقف ، فقيل : هو نمروذ كما تقدّم ، وقيل : إنه بختنصر وأصحابه ، وقيل هم المُقسمون الذين تقدّم ذكرهم في سورة الحجر ﴿ وأتاهم العذاب ﴾ أي : الهلاك ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ به ، بل من حيث أنهم في أمان .

ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا .

فقال : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾ بإدخالهم النار ، ويفضحهم بذلك ويهينهم ، وهو معطوف على مقدّر ، أي هذا عذابهم في الدنيا ، ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ويَقُولُ ﴾ لهم مع ذلك توبيخاً وتقريعاً ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ كما تزعمون وتدّعون ، قرأ ابن كثير من رواية البزي " شركاي " من دون همز ، وقرأ الباقون بالهمز ، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله : ﴿ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة ، وقرأ الباقون بفتحها ، أي : تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فيهم ، وعلى قراءة نافع تخاصمونني فيهم وتعادونني ، ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن

عباس في قوله: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ يقول: بلى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ قال: يعني الحق.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لا كذب.

(55/434)

وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان"، فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال: "إن الله جميل يحبّ الجمال، الكبر بطر الحق وغمص الناس" وفي ذمّ الكبر، ومدح التواضع أحاديث كثيرة، وكذلك في إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل، ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة.

والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن ماهية الكبر أنه بطر الحق وغمص الناس، فهذا هو الكبر المذموم.

وقد ساق صاحب الدرّ المنثور عند تفسيره لهذه الآية: أعني قوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المستكبرين ﴾ أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها، بل المقام مقام ذكر ماله علاقة

بتفسير الكتاب العزيز .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ قَالُوا أَساطير الأولين ﴾ أن ناساً من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا مرّوا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنما هو أساطير الأوّلين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ الآية يقول يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم .

وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه ، وزاد : ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قال : نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمروذ أيضاً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فَأَتَى الله بنيانهم مّنَ القواعد ﴾ قال : أتاها أمر الله من أصلها ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ والسقف : أعالي البيوت فائتكفت بهم بيوتهم ، فأهلكم الله ودمرهم ﴿ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ تشاقون فِيهِمْ ﴾ قال : تخالفوني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(57/434)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار الذين كانا قبل كفار مكة قد مكروا . وبين ذلك في مواضع أخر ، كقول : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً ﴾ [الرعد : 42] ، وقوله : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ [إبراهيم : 46] .

وبين بعض مكر كفار مكة بقوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: 30] الآية.

وذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران: 54].

وبين بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل: 50-51].

وذكر مكر قوم نوح بقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ [نوح: 22-23] الآية.

وبين مكر رؤساء الكفار في قوله: ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بالله ﴾ [سبأ: 33] الآية. والمكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة. وقد بين جل وعلا أن المكر السيىء لا يرجع ضرره إلا على فاعله. وذلك في قوله: ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: 43].

قوله تعالى: ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد ﴾.

أي اجتثه من أصله واقتلعه من أساسه . فأبطل عملهم وأسقط بنيانهم . وهذا الذي فعل بهؤلاء الكفار الذين هم نمروذ وقومه – كما قدمنا في " سورة الحجر " – فعل مثله أيضاً بغيرهم من الكفار . فأبطل ما كانوا يفعلون ويدبرون . كقوله : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : 137] وقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ﴾ [المائدة : 64] ، وقوله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار ﴾ [الحشر : 2] على غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة ﴾ .

أي يفضحهم على رؤوس الأشهاد ويهينهم بإظهار فضائحهم ، وما كانت تجنه ضمائرهم ، فيجعله علانية .

ويين هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ [العاديات : 9–10] أي أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ [الطارق : 9] .

وقد بين جل وعلا في موضع آخر : أن من أدخل النار فقد ناله هذا الخزي المذكور ، وذلك في قوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : 192] وقد قدمنا في سورة " هود " إيضاح معنى الخزي .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة . أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ ، فيقول لهم : أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها ، قائلين : إنكم لا بد لكم أن تشركوها معي في عبادتي !

(59/434)

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 62] وقوله : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء : 92-93] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ [غافر : 73-74] الآية ، وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ [الأعراف : 37] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقرأ عامة القراء ﴿ شُرَكَائِيَ ﴾ بالهمزة وياء المتكلم ، ويروى عن ابن كثير من رواية البزي أنه قرأ " شركاي " بياء المتكلم دون همز ، ولم تثبت هذه القراءة .

وقرأ الجمهور ﴿ تشاقون ﴾ بنون الرف مفتوحة مع حذ المفعول .

وقرأ نافع " تشاقون " بكسر النون الخفيفة التي هي نون الوقاية ، والمفعول به ياء المتكلم المدلول عليها بالكسرة مع حذف نون الرفع ، لجواز حذفها من غير ناصب ولا جازم إذا اجتمعت مع نون الوقاية ، كما تقدم تحريره في " سورة الحجر " في الكلام على قوله ﴿ فبم تبشرون ﴾ .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا السلم ﴾ .

أي الاستسلام والخضوع . والمعنى : أظهروا كمال الطاعة والانقياد ، وتركوا ما كانوا عليه من الشقاق . وذلك عندما يعاينون الموت ، أو يوم القيامة . يعنى أنهم في الدنيا يشاقون الرسل : اي يخالفونهم ويعادونهم ، فإذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم : اي خضعوا واستسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم ذلك .

ومما يدل من القرآن على أن المراد بإلقاء السلم : الخضوع والاستسلام قوله : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلقى إِلَيْكُمُ السلام لَسْتَ مُؤْمِناً ﴾ [النساء : 94] على قراءة نافع وابن عامر وحمزة

بلا ألف بعد اللام. بمعنى الانقياد والإذعان. وقوله: ﴿ فَإِنِ اعتزلوكم فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السلم ﴾ [النساء: 90]، وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ويلقوا إِلَيْكُمُ السلم ﴾ [النساء: 91] الآية.

والقول بأن السلم في الآيتين الأخيرتين: الصلح والمهادنه لا ينافي ما ذكرنا. لأن المصالح منقاد مذعن لما وافق عليه من ترك السوء. وقوله: ﴿ وَأَلْقَوْاْ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: 87] فكله بمعنى الاستسلام والخضوع والانقياد. والانقياد عند معاينة الموت لا ينفع، كما قدمنا، وكما دلت عليه آيات كثيرة. كقوله: ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن ﴾ [النساء: 18] الآية، وقوله: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر: 85] الآية، وقوله: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس: 91]، إلى غير ذلم من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سوء بلى إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

يعني أن الذين تتوفاهم الملائكة في حال كونهم ظالمي أنفسهم إذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم وقالوا: ما كنا نعمل من سوء. فقول ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ مهمول قول محذوف بلا خلاف.

والمعنى : أنهم ينكرون ما كانوا يعملون من السوء ، وهو الكفر وتكذيب الرسل والمعاصي . وقد بين الله كذبهم بقوله : ﴿ بلى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

(61/434)

وبين في مواضع أخر : أنهم ينكرون ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي كما ذكر هنا . وبين كذبهم في ذلك أيضاً . كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 23-24] ، وقوله : ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ [غافر : 74] . وقوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ [المجادلة : 18] ، وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [الفرقان : 22] اي حراماً محرماً أن تمسونا بسوء . لأنا لم نفعل ما نستحق به ذلك ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله هنا ﴿ بلى ﴾ تكذيب لهم في قولهم ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء ﴾ .

تنبيه

لفظة " بلى " لا تأتي في اللغة العربية إلا لأحد معنيين لا ثالث لهما :

الأول – أن تأتي لإبطال نفي سابق في الكلام، فهي نقيضة "لا".

لأن "لا" لنفي الإثبات، و"بلى" لنفي النفي. كقوله هنا: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سوء ﴾ فهذا النفي نفته لفظة "بلى" أي كنتم تعملون السوء من الكفر والمعاصي. وكقوله: ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أن لن يُبْعَثُوا قُلْ بلى وربي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: 7]، وكقوله ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: 3] وقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ [البقرة: 111] فإنه نفي هذا النفي بقوله جل وعلا ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: 112] الآية، ومثل هذا كثير في القرآن وفي كلام العرب.

(62/434)

الثاني – أن تكون جواباً لاستفهام مقترن بنفي خاصة. كقوله: ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف: 172] وقوله: ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى ﴾ [يس: 81]، وقوله: ﴿ قالوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات قَالُواْ بلى ﴾ [غافر: 50]، وهذا أيضاً كثير في القرآن وفي كلام العرب. أما إذا كان الاستفهام غير مقترن بنفي فجوابه ب "نعم" لا ب "بلى" وجوواب الاستفهام المقترن بنفي

"نعم" مسموع غير قياسي. كقوله:

أليس الليل يجمع أم عمرو... وإيانا فذاك لنا تداني

نعم، وترى الهلال كما أراه... ويعلوها النهار كما علاني

فالمحل ل "بلى" لا ل "نعم" في هذا البيت.

فإن قيل: هذه الآيات تدل على أن الكفار يكتمون يوم القيامة ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي، كقوله عنهم: ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 23]، وقوله: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سوء ﴾، ونحو ذلك. مع أن الله صرح بأنهم لا يكتمون حديثاً في قوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء: 42].

فالجواب – هو ما قدمنا من أنهم يقولون بألسنتهم: والله ربنا ما كنا مشركين. فيختم الله على افواههم. وتتكلم ايديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون. فالكتم باعتبار النطق بالجحود وبالألسنة. وعدم الكتم باعتبار شهادة أعضائهم عليهم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ الآية.

لم يبين هنا عدد أبوابها، ولكنه بين ذلك في "سورة الحجر" في قوله جل وعلا: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: 44]، أرجوا أ يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ومن جميع أبوابها! إنه رحيم كريم. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾

لمّا ذكر عاقبة إضلالهم وصدّهم السائلين عن القرآن والإسلام في الآخرة أتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم في الدّنيا من الخزي والعذاب مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم ، وأنهم خائبون في صنعهم كما خاب من قبلهم الذين مكروا برسلهم .

ولما كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم هو ﴿ أساطير الأولين ﴾ [سورة النحل : 24] مظهرينه بمظهر النصيحة والإرشاد وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم ، سمّي ذلك مكراً بالمؤمنين ، إذ المكر إلحاق الضرّ بالغير في صورة تمويه بالنّصح والنّفع ، فنُظّر فعلهم بمكر من قبلهم ، أي من الأمم السابقة الذين مكروا بغيرهم مثل قوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، قال تعالى في قوم صالح : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ﴾ [سورة النحل : 50] الآية ، وقال : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ [سورة الأنعام : 123] .

فالتعريف بالموصول في قوله تعالى : ﴿ الذين من قبلهم ﴾ مساوٍ للتعريف بلام الجنس .

ومعنى "أتى الله بنيانهم" استعارة بتشبيه القاصد للانتقام بالجائي نحو المنتقم منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ [سورة الحشر : 2] .

وقوله تعالى : فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ تمثيل لحالات استئصال الأمم ، فالبنيان مصدر بمعنى المفعول .

أي المبنى ، وهو هنا مستعار للقوّة والعزّة والمنعة وعلوّ القدر .

وإطلاق البناء على مثل هذا وارد في فصيح الكلام .

قال عبدة بن الطبيب:

فما كان قيس هُلْكُه هُلْكَ واحد . . .

ولكنّه بنيان قوم تهدّما

وقالت سعدة أمّ الكميت بن معروف:

بنى لك معروفٌ بناءً هدمته . . .

وللشرف العاديّ بانٍ وهادم

و ﴿ من القواعد ﴾ متعلق بـ "أتى" .

﴿ ومِن ﴾ ابتدائيّة ، ومجرورها هو مبْدأ الإتيان الذي هو بمعنى الاستئصال ، فهو في معنى هدمه .

و﴿ القواعد ﴾ : الأسس والأساطين التي تجعل عَمداً للبناء يقام عليها السقف .

وهو تخييل أو ترشيح ، إذ ليس في الكلام شيء يشبّه بالقواعد .

والخرور : السقوط والهويّ ، ففعل خرّ مستعار لزوال ما به المنعة نظير قوله تعالى : ﴿ يخرّبون بيوتهم بأيديهم ﴾ [سورة الحشر : 2] .

﴿ والسّقْف ﴾ : حقيقته غطاء الفراغ الذي بين جدران البيت ، يجعل على الجدران ويكون من حَجر ومن أعواد ، وهو هنا مستعار لما استعير له البناء .

و﴿ من فوقهم ﴾ تأكيد لجملة ﴿ فسخرّ عليهم السّقف ﴾ .

ومن مجموع هذه الاستعارات تتركّب الاستعارة التمثيليّة .

وهي تشبيه هيئة القوم الّذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزّة بهيئة قوم أقاموا بنياناً عظيماً ذا دعائم وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده فخرّ سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعاً .

فهذا من أبدع التمثيليّة لأنها تنحلّ إلى عدّة استعارات .

وجملة ﴿ وأتاهم العذاب ﴾ عطف على جملة ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ .

وأل في ﴿ العذاب ﴾ للعهد فهي مفيدة مضمون قوله ﴿ من فوقهم ﴾ مع زيادة قوله تعالى : ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ .

فباعتبار هذه الزيادة وردت معطوفة لحصول المغايرة وإلا فإن شأن الموكدة أن لا تعطف .

والمعنى أن العذاب المذكور حلّ بهم بغتة وهم لا يشعرون فإن الأخذ فَجْأ أشدّ نكاية لما يصحبه من الرّعب الشديد بخلاف الشيء الوارد تدريجاً فإنّ النّفس تتلقّاه بصبر .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ .

عطف على ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ﴾ [سورة النحل : 25] ، لأن ذلك وعيد لهم وهذا تكملة له .

(65/434)

وضمير الجمع في قوله تعالى : ﴿ يخزيهم ﴾ عائد إلى ما عاد إليه الضمير المجرور باللام في قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ [سورة النحل : 24] .

وذلك عائد إلى ﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [سورة النحل : 22] .

و﴿ ثمّ ﴾ للتّرتيب الرّتبي ، فإنّ خزي الآخرة أعظم من استئصال نعيم الدّنيا .

والخِزي : الإهانة .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدّنيا ﴾ في سورة البقرة (85) .

وتقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة لأنّه يوم الأحوال الأبديّة فما فيه من العذاب مهول

للسّامعين .

وأين ﴿ للاستفهام عن المكان ، وهو يقتضي العلم بوجود من يحلّ في المكان .

ولما كان المقام هنا مقام تهكّم كان الاستفهام عن المكان مستعملاً في التهكّم ليظهر لهم كالطماعية للبحث عن آلهتهم ، وهم علموا أن لا وجود لهم ولا مكان لحلولهم .

وإضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة زيادة في التوبيخ ، لأنّ مظهر عظمة الله تعالى يومئذٍ للعيان ينافي أن يكون له شريك ، فالمخاطبون عالمون حينئذٍ بتعذّر المشاركة .

والموصول من قوله تعالى : ﴿ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ للتّنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادعاء المشاركة مثل الذي في قول عبدة:

إنّ الّذينَ ترونهم إخْوَانَكم . . .

يشفي غليلَ صدورهم أن تصرعوا

والمشاقّة : المُشادة في الخصومة ، كأنّها خصومة لا سبيل معها إلى الوفاق ، إذ قد صار كلّ خصم في شِقّ غير شقّ الآخر .

وقرأ نافع ﴿ تشقونِ ﴾ بكسر النون على حذف ياء المتكلّم ، أي تعاندونني ، وذلك بإنكارهم ما أمرهم الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وقرأ البقيّة ﴿ تَشاقّون ﴾ بفتح النون وحُذف المفعول للعلم ، أي تعاندون من يدعوكم إلى التّوحيد .

و(في) للظرفيّة المجازيّة مع حذف مضاف ، إذ المشاقّة لا تكون في الذوات بل في المعاني . والتّقدير : في إلهيتهم أو في شأنهم .

(66/434)

جملة ابتدائية حكت قول أفاضل الخلائق حين يسمعون قول الله تعالى على لسان ملائكة العذاب : ﴿ أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ .

وجيء بجملة ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ غير معطوفة لأنها واقعة موقع الجواب لقوله : ﴿ أين شركائي ﴾ للتّنبيه على أنّ الّذين أوتوا العلم ابتدروا الجواب لما وجم المشركون فلم يحيروا جوابا ، فأجاب الّذين أوتوا العلم جواباً جامعاً لنفي أن يكون الشركاء المزعومون مغنين عن الّذين أشركوا شيئاً ، وأنّ الخزي والسوء أحاطا بالكافرين .

والتعبير بالماضي لتحقيق وقوع القول .

والّذين أوتوا العلم هم الذين آتاهم الله علم الحقائق من الرّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون ، كقوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ [سورة الروم : 56] ، أي يقولون في ذلك الموقف من جرّاء ما يشاهدوا من مُهيّأ العذاب للكافرين كلاماً يدلّ على حصر الخزي والضرّ يوم القيامة في الكون على

الكافرين .

وهو قصر ادعائي لبلوغ المُعرف بلام الجنس حدّ النّهاية في جنسه حتّى كأنّ غيره من جنسه ليس من ذلك الجنس .

وتأكيد الجملة بحرف التوكيد وبصيغة القصر والإتيان بحرف الاستعلاء الدّال على تمكّن الخزي والسوء منهم يفيد معنى التّعجّب من هول ما أعدّ لهم .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾

(67/434)

القرينة ظاهرة على أنّ قوله تعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ ليست من مقول الذين أوتوا العلم يوم القيامة ، إذ لا مناسبة لأن يعرّف الكافرون يوم القيامة بأنهم الّذين توفّاهم الملائكة ظالمي أُنْفُسهم ؛ فإن صيغة المضارع في قوله تعالى : ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ قريبة من الصريح في أن هذا التوفّي محكيّ في حال حصوله وهم يوم القيامة مضت وفاتهم ولا فائدة أخرى في ذكر ذلك يومئذٍ ، فالوجه أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً .

وعن عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكّة ولم يهاجروا فأخرجهم قريش إلى بدْر كَرهاً فقُتلوا ببدر .

فالوجه أن ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ بدل من ﴿ الذين ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [سورة النحل : 22] أو صفة لهم ، كما يومىء إليه وصفهم في آخر الآية بالمتكبّرين في قوله تعالى : فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ ، فهم الّذين وصفوا فيما قبل بقوله تعالى : ﴿ وهم مستكبرون ﴾ [سورة النحل : 22] ، وما بينهما اعتراض .

وإن أبيت ذلك لبعد ما بين المتبوع والتّابع فاجعل ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ خبراً لمبتدإ محذوف .

والتقدير : هم الذين تتوفاهم الملائكة .

وحذف المسند إليه جار على الاستعمال في أمثاله من كلّ مسند إليه جرى فيما سلف من الكلام .

أخبر عنه وحدث عن شأنه ، وهو ما يعرف عند السكاكي بالحذف المتّبع فيه الاستعمال .

ويقابل هذا قوله تعالى فيما يأتي : ﴿ الذين تتوفّاهم الملائكة طيبين ﴾ [سورة النحل : 32] فإنه صفة ﴿ للذين اتقوا ﴾ [سورة النحل : 30] فهذا نظيره .

والمقصود من هذه الصلة وصف حالة الذين يموتون على الشّرك ؛ فبعد أن ذكر حال حلول العذاب بمن حلّ بهم الاستئصال وما يحلّ بهم يوم القيامة ذكرت حالة وفاتهم التي هي بين

حالي الدّنيا والآخرة، وهي حال تعرض لجميعهم سواء منهم من أدركه الاستئصال ومن هلك قبل ذلك.

(68/434)

وأطبق من تصدّى لربطه بما قبله من المفسّرين، على جعل الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ الآية بَدلاً من ﴿ الكافرين ﴾ في قوله تعالى: ﴿ إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين ﴾ [سورة النحل: 27]، أو صفة له.

وسكت عنه صاحب الكشاف (وهو سكوت مِن ذهب).

وقال الخفاجي: "وهو يصحّ فيه أن يكون مقولاً للقول وغير مندرج تحته".

وقال ابن عطيّة: "ويحتمل أن يكون ﴿ الذين ﴾ مرتفعاً بالابتداء منقطعاً مما قبله وخبره في قوله: ﴿ فألقوا السلم ﴾ [سورة النحل: 28] اه.

واقتران الفعل بتاء المضارعة التي للمؤنث في قراءة الجمهور باعتبار إسناده إلى الجماعة.

وقرأ حمزة وخلف ﴿ يتوفّاهم ﴾ بالتحتية على الأصل.

وظلم النّفس: الشرّك.

والإلقاء: مستعار إلى الإظهار المقترن بمذلّة.

شبّه بإلقاء السّلاح على الأرض ، ذلك أنّهم تركوا استكبارهم وإنكارهم وأسرعوا إلى الاعتراف والخضوع لما ذاقوا عذاب انتزاع أرواحهم .

والسَلَم بفتح السين وفتح اللاّم الاستسلام .

وتقدّم الإلقاء والسَلَم عند قوله تعالى:

﴿ وألقوا إليكم السّلم ﴾ في سورة النساء (90) .

وتقدم الإلقاء الحقيقي عند قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ في أول هذه السورة (15) .

ووصفهم بـ ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ يرمي إلى أن توفّي الملائكة إيّاهم ملابس لغلظة وتعذيب ، قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [سورة الأنفال : 50] .

وجملة ما كنا نعمل من سوء ﴾ مقول قول محذوف دلّ عليْه ﴿ ألقوا السلم ﴾ ، لأن إلقاء السَلَم أوّل مظاهره القول الدّال على الخضوع .

يقولون ذلك للملائكة الّذين ينتزعون أرواحهم ليكفّوا عنهم تعذيب الانتزاع ، وهم من اضطراب عقولهم يحسبون الملائكة إنما يجرّبونهم بالعذاب ليطّلعوا على دخيلة أمرهم ، فيحسبون أنهم إن كذبوهم رَاج كذبهم على الملائكة فكفّوا عنهم العذاب ، لذلك جحدوا أن يكونوا يعملون سوءاً من قبل .

ولذلك فجملة ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ جواب الملائكة لهم ، ولذلك افتتحت بالحرف الّذي يبطل به النّفي وهو ﴿ بلى ﴾ .

وقد جعلوا علم الله بما كانوا يعملون كناية عن تكذيبهم في قولهم : ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ ، وكناية على أنّهم ما عاملوهم بالعذاب إلاّ بأمر من الله تعالى العالم بهم .

وأسندوا العلم إلى الله دون أن يقولوا : إنّا نعلم ما كنتم تعملون ، أدباً مع الله وإشعاراً بأنهم ما علموا ذلك إلاّ بتعليم من الله تعالى .

وتفريع ﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ على إبطال نفيهم عمل السّوء ظاهر ، لأنّ إثبات كونهم كانوا يعملون السّوء يقتضي استحقاقهم العذاب ، وذلك عندما كشف لهم عن مقرّهم الأخير ، كما جاء في الحديث " القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّار " .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفّى الّذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ [سورة الأنفال : 50] .

وجملة فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ تذييل .

يحتمل أن يكون حكاية كلام الملائكة ، والأظهر أنّه من كلام الله الحكاية لا من المحكيّ ،

ووصفهم بالمتكبّرين يرجّح ذلك ، فإنّه لربط هذه الصفة بالموصوف في قوله تعالى ﴿ قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ [سورة النحل : 22] .

واللّام الدّاخلة على بئس لام القسم .

والمثوى .

المرجع .

من ثوى إذا رجع ، أو المقام من ثوى إذا أقام .

وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ قال النار مثواكم ﴾ في سورة الأنعام (128) .

ولم يعبّر عن جهنّم بالدار كما عبّر عن الجنّة فيما يأتي بقوله تعالى : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ [سورة النحل : 30] تحقيراً لهم وأنّهم ليسوا في جهنّم بمنزلة أهل الدّار بل هم متراصّون في النار وهم في مثوى ، أي محل ثواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(70/434)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾

ويأتي الحق سبحانه هنا بسيرة الأولين والسُّنن التي أجراها سبحانه عليهم ، ليسلي رسوله

صلى الله عليه وسلم ؛ ويُوضِّح له أن ما حدث معه ليس بدْعاً ؛ بل سبق أنْ حدث مع مَنْ سبق من الرسل . ويُبلغه أنه لم يبعث أيَّ رسول إلا بعد تَعُمّ البَلْوى ويَطم الفساد ، ويفقد البشر المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يؤمنون ويعملون الصالحات ، ويتواصون بالحقِ وبالصبر .

والمَثَلُ الواضح على ذلك ما حدث لبني إسرائيل ؛ الذين قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة : 79] .

فانصبَّ عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلِّ أمة لا تتناهى عن المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [النحل : 26] .

والمكر تبييت خفيّ يُبيّته الماكر بما يستر عن المَمْكُور به . ولكن حين يمكر أحد بالرسل ؛ فهو يمكر بمَنْ يُؤيّده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم الله رسولَه بالمكر ؛ فهو يُلغِي كل أثر لهذا التبييت ؛ فقد علمه مَنْ يقدر على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] .

وهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 171-172] .

وطبّق الحق سبحانه ذلك على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ حين مكر به كفار قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه ؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا خروجه للهجرة ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بأيِّ وسيلة ؛ لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسل لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

(71/434)

﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد . . . ﴾ [النحل : 26] .

أي : أنهم إنْ جعلوا مكرهم كالبناية العالية ؛ فالحقُّ سبحانه يتركهم لإحساس الأمن المُزيف ، ويحفر لهم مِنْ تحتهم ، فيخِرّ عليهم السقف الذي من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثَل المعنوي بأمرٍ مَحَسّ .

وقوله الحق :

﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ . . . ﴾ [النحل : 26] .

يُوضِّح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا للسقف ، وهي فوقية شاءها الله ليأتيهم :

﴿ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : 26] .

وهكذا يأتي عذاب الله بَغْتة؛ ذلك أنهم قد بيّتوا، وظنوا أن هذا التبييت بجفاء يَخْفَى عن الحَيِّ القيوم.

ولَيْتَ الأمر يقتصر على ذلك؛ لا بل يُعذِّبهم الله في الآخرة أيضاً: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة . . . ﴾.

وهكذا يكون العذاب في الدنيا وفي الآخرة، ويلْقوْن الخِزْي يوم القيامة. والخِزْي هو الهوان والمَذَلّة، وهو أقوى من الضرب والإيذاء؛ ولا يتجلّد أمامه أحدٌ؛ فالخِزْي قشعريرة تَغْشَى البدن؛ فلا يُفلت منها مَنْ تصيبه.

وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام؛ فالخِزْي معنى نفسي، والمعاني النفسية تنضح على البشرة؛ ولا يقدر أحد أنْ يكتم أثرها؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التي عاش بها الذي بيَّت ومكر.

ويُوضّح الحق سبحانه هذا المعنى في قوله عن القرية التي كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله؛ فيقول: ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: 112].

أي : كأن الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكأن الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعاني منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخِزي فكُلُّ خلايا الاستكبار تنتهي ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدَّعي عليهم الإنسان أن عظمته وتجبّره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل : 27] . أي : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة ، وجعلتم من المؤمنين شُقَّة أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من " الشق " ويقال : " شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب " والمقصود هنا أنْ جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول في شُقَّة تُعادونها ، وأخذتُم جانب الباطل ، وتركتُم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم إِنَّ الخزي اليوم والسواء عَلَى الكافرين ﴾ [النحل : 27] .

وكأن هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيحضره الذين أتاهم الله العلم .

والعلم كما نعلم يأتي من الله مباشرة ؛ ثم يُنقل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقَل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسُل إلى الأُمم التي كلَّفَ الحق سبحانه رسله أنْ يُبلِّغوهم منهجه .

وكَما شهدتْ الدنيا سقوط المناهج التي اتبعوها من أهوائهم ، وسقوط مَنْ عبدوهم من دون الله سيشهد اليوم الآخر الخِزْي والسوء وهو يحيط بهم ، وقد يكون الخِزْي من هَوْل الموقف العظيم ، ويحمي الله مَنْ آمنوا به بالاطمئنان .

ونعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : " ألا هل بلغت ، اللهم فأشهد " .

(73/434)

وكما بلَّغَ رسولُ الله أمته واستجابتْ له ؛ فقد طلب منهم أيضاً أن يكونوا امتداداً لرسالته ، وأَنْ يُبلِّغوها للناس ، ذلك أن الحق سبحانه قد منع الرسالات من بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وصار عن مسئولية الأمة المحمدية أنْ تُبلِّغ كل مَنْ لم تبلغه رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى مِن سامع " .

والحق سبحانه هو القائل : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء

شَهِيداً * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض . . . ﴾ [النساء : 41-42] .

أي : يتمنونَ أنْ يصيروا تُراباً ، كما قال تعالى في موقع آخر : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ : 40] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة . . . ﴾ .

يقول تعالى :

﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [النحل : 28] .

أي : تتوفّاهم في حالة كَوْنهم ظالمين لأنفسهم ، وفي آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] .

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لَحظّ نفسه ولصالحها . . فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التي بين جنبيك . . ولكن كيف ذلك ؟

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهْلٌ التصدي له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التي بين جَنْبَيْك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدِّي له ، والتخّلص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أنْ تمنعَ صاحب حَقٍّ حَقَّه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حقّها ؟

نقول : حين تجوع ، ألاَ تأكل ؟ وحين تعطش ألاَ تشرب ؟ وحين تُرْهق من العمل ألاَ تنام ؟

إذن : أنت تعطي نفسك مطلوباتها التي تُريحها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نِمْتَ وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفي النهاية كانت النتيجة فشلاً في العمل أو خسارة في التجارة . . الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسانُ نفسه بما فاتها من منافع في الدنيا ، وقِسْ على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جُزْئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هي نهاية كل شيء ، أم بنهايتها يبتديء شيء ؟ بنهايتها يبتديء شيء ، ونسأل : الشيء الذي سوف يبدأ ، هل هو صورة مكررة لما انتهى في الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهي في الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حَظِّي منه على قَدْر قدراتي ، وقدراتي لها إمكانات محدودة . . أما الذي سيبدأ أي في الآخرة ليس بمُنْتهٍ بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من نعيم يأتي على قَدْر إمكانات المنعِم ربك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطِي نفسك متعة في الدنيا الزائلة المنقطعة ، تُفوِّت عليها المتعة الباقية في الآخرة . . وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

ونعود إلى قوله تعالى :

﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة . . . ﴾ [النحل : 28] .

أثبتت هذه الآية التوفِّي للملائكة . . والتوفِّي حقيقة لله تعالى ، كما جاء في قوله : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس . . . ﴾ [الزمر : 42] .

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكأن الله تعالى هو الذي يتوفى الأنفُسَ رغم أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس ﴾ [الزمر : 42] .

وقال : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : 11] .

وقال : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا . . . ﴾ [الأنعام : 61] .

(75/434)

إذن : جاء الحَدثُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة عزرائيل مرة ، ومن مُسَاعديه من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الآمر .

وقوله تعالى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ . . . ﴾ [النحل : 28] .

معنى التوفّي من وفاه حقَّه أي : وفَّاه أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وَفَّيتُك

دَيْنك .

. أي : أخذت ما لك عندي .

﴿ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ [النحل : 28] .

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِي ﴾ يعني ظالمين و ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ جمع ، وحين يُقَابَل الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً أي : أن كلاً منهم يظلم نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم . . . ﴾ [النحل : 28] .

أي : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبّرهم وعجرفتهم في الدنيا . . ذهب عنهم كل هذا بذهَاب الدنيا التي راحتْ من بين أيديهم . وما داموا ألقوا السَّلَم الآن ، إذن : فقد كانوا في حرب قبل ذلك كانوا في حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشّقاق في قوله تعالى : ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ [النحل : 27] .

أي : تجعلون هذا في شِقٍّ ، وهذا في شِقٍ ، وكأن الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جَلَد لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء . . ﴾ [النحل : 28] .

هذا كقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ

﴾ [الأنعام : 23] .

والواقع أنهم بعد أنْ ألقَوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب

فقالوا محاولين الدفاعَ عن أنفسهم :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء . . ﴾ [النحل : 28] .

وتعجب من كَذِب هؤلاء على الله في مثل هذا الموقف ، على مَنْ تكذبون الآن ؟ !

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿ بلى . . ﴾ [النحل : 28] .

(76/434)

وهي أداة نفي للنفي السابق عليها ، ومعلومٌ أن نَفْي النفي إثبات ، ف ﴿ بلى ﴾ تنفي :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء . . ﴾ [النحل : 28] .

إذن : معناها . . لا . . بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 28] .

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتَفِ بالعلم فقط ، بل دوّن ذلك عليهم وسَجّله في كتاب

سَيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47]

.

وقال : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 13-14] .

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها . . ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشريّ الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها . .

وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما نرقي إمكانات العقل البشري إلى الإمكانات الإلهية التي لا حدود لها .

فلا وجه إذن لأنْ ننكر قدرة الملائكة " رقيب وعتيد " في تسجيل الأعمال في كتاب يحفظ أعماله ويُحصى عليه كل كبيرة وصغيرة . ثم يقول تعالى : ﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ . . . ﴾ .

سبق أنْ قُلْنا في شرح قوله تعالى في وصف جهنم : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : 44] .

أي : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً . . فبابٌ لأهل الربا . . وبابٌ لأهل الرِّشوة . . وباب لأهل النفاق وهكذا . . ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصي ! ! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر . . حقاً ما أتعس هؤلاء !

وهنا يقول تعالى :

﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ [النحل : 29] .

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذي خُصِّص له . ثم يقول سبحانه :

﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ [النحل : 29] .

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾ [النحل : 23] .

فتكبَّر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كِبْرهم هذا غير ذاتيّ ؛ لأن الذي يتكبر حقّاً يتكبّر بما فيه ذاتيّاً لا يسْلُبه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشيء لا يملكه فتكبّره غيرُ حقيقيّ ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبَّروا به في الدنيا ، وبذلك لا يكون لأحد أنْ يتكبّر لأن الكبرياءَ الحقيقي لله عزَّ وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (النحل : 12) ، وفى سورة الزمر : (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (الزمر : 72) ، وفى سورة المؤمن : (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (غافر : 76) ، للسائل أن يسأل عن زيادة اللام فى اية النحل وسقوطها فى الآيتين الآخريين وما وجه ذلك ؟

والجواب عن ذلك : أن أية النحل تقدمها ثمانى أيات أو نحوها فى ذكر هؤلاء المقول لهم : (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) وفى وصفهم من لدن قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (النحل : 24) الى قوله : (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) (النحل : 29) ، وتلك اطالة فى ذكرهم ، والاستيفاء يناسبه التأكيد باللام المشيرة الى معنى القسم ، وأما الآيتان فى سورة الزمر وسورة المؤمن فان المتقدم فى الاولى منهما قوله : (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا) (الزمر : 71) الى قوله (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) (الزمر : 72) ، وذلك كلام قد جمع الى الوجازة أنه لم يذكر من كفرهم مثل ما ذكر فى المذكورين قبل أية النحل من ردهم المنزل بقولهم : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) وتلك مقالة شنعاء من كفرهم ، فناسب

الايجاز الواقع قبل أية الزمر مع أجمل فيها من كفرهم بسقوط اللام من قوله : ((فبئس)) .

وأما أية سورة المؤمن فلم يقع ايضا قبلها استيفاء التعريف ما وقع في سورة النحل ولا نص من شنيع مرتكبهم على غير التكذيب ، فناسب ذلك سقوط اللام كما فى سورة الزمر ، وورد كل على ما يجب ويناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 297 ﴾

(79/434)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ قال : هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، عن زيد بن أسلم قال : أول جبار كان في الأرض نمرود ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره ، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق . وارحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه ، وكان جباراً أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله . وهو الذي كان بَنَى صرحاً إلى السماء

الذي قال الله ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ قال : مكر نمرود بن كنعان الذي حاج إبراهيم في ربه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ قال : أتاها أمر الله من أصلها ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ و ﴿ السقف ﴾ عالي البيوت فائتفكت بهم بيوتهم ، فأهلكهم الله ودمرهم ﴿ وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس في قوله ﴿ تشاقون فيهم ﴾ يقول : تخالفوني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(80/434)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قد مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّنَ القواعد ﴾ : " مِنْ " لابتداءِ الغاية ، أي : من ناحيةِ القواعدِ ، أي : أتى

أمرُ اللهِ وعذابُه .

قوله : ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ يجوز أن يتعلَّقَ ب " خَرَّ " وتكون " مِنْ " لابتداء الغاية ، ويجوز/أَنْ يتعلق بمحذوفٍ على أنها حالٌ من " السقف " وهي حالٌ مؤكِّدة ؛ إذ السقفُ لا يكون تحتهم . وقال جماعة : ليس قوله " مِنْ تحتِهم " تأكيداً ؛ لأنَّ العرب تقول : " خَرَّ علينا سَقْفٌ ، ووقع علينا حائط " إذا كان يملكه وإنْ لم يَقَعْ عليه ، فجاء بقوله " من فوقهم " ليُخْرِج هذا الذي في كلام العرب ، أي : عليهم وَقَعَ وكانوا تحته فهلكوا . وهذا معنىً غيرُ طائلٍ ، والقولُ بالتأكيد أَنْصَعُ منه .

والعامَّةُ على " بُنْيانِهم " . وفرقة : " بِنْيَتُهُمْ " . وفرقة - منهم أبو جعفر - " بَيْتهم " . والضحاك " بيوتهم " .

والعامَّةُ أيضاً : " السَّقْفُ " مفرداً . وفرقةٌ بفتحِ السين وضمِّ القاف بزنةِ عَضُد ، وهي لغةٌ في السَّقْف ، ولعلها مخففةٌ من المضموم ، وكَثُرَ استعمالُ الفرعِ لخفَّته كقول تميم : " رَجْل " ، ولا يقولون : " رَجُل " . وقرأ الأعرج " السُّقُف " بضمتين . وزيدٌ بن علي بضم السين وسكونِ القاف ، وقد تقدَّم مثلُ ذلك في قراءةِ ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 16] .

﴿ ثم يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ مبتدأٌ وخبر. والعامَّة على "شركائي" ممدوداً. وسَكَّن ياءَ المتكلم فرقةٌ، فَتُحْذَفُ وصلاً لالتقاء الساكنين. وقرأ البزي بخلافٍ عنه بقصره مفتوحَ الياء. وقد أنكر جماعةٌ هذه القراءةَ، وزعموا أنَّها غيرُ مأخوذٍ بها، لأنَّ قصرَ الممدودِ لا يجوز إلاَّ ضرورةً. وتعجب أبو شامةَ من أبي عمروٍ الداني حيث ذكرها في كتابه مع ضعفها، وترك قراءاتٍ شهيرةً واضحة.

قلت: وقد رُوِي عن ابنِ كثير أيضاً قَصْرُ التي في القصص، ورُوِي عنه أيضاً قَصْرُ "ورائي" في مريم، ورَوى عنه قنبل أيضاً قَصْرَ ﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [الآية: 7] في العلق، فقد رَوَى عنه قصرَ بعضِ الممدوداتِ، فلا تَبْعُدُ روايةُ ذلك عنه هنا، وبالجملة فَقَصْرُ الممدودِ ضعيفٌ، ذكره غيرُ واحدٍ لكن لا يَصِلُ به إلى حَدِّ الضرورة.

قوله: "تُشَاقُّون" نافع بكسرِ النونِ خفيفةً والأصل: تشاقوني، فَحَذَفَها مجتزئاً عنها بالكسرة، والباقون بفتحها خفيفةً، ومفعولُه محذوفٌ، أي: تُشَاقُّون المؤمنين أو تشاقُّون الله، بدليلِ القراءةِ الأولى. وقد ضَعَّفَ أبو حاتمٍ هذه القراءةَ، أعني قراءةَ نافعٍ. وقرأَتْ فرقةٌ بتشديدِها مكسورةً، والأصل: تُشَاقُّونني فأدغم، وقد تقدَّم تفصيلُ ذلك في ﴿ أتحاجواني ﴾ [الأنعام: 80] ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: 54] وسيأتي في قولِه تعالى ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمروني ﴾ [الزمر: 64].

قوله : " اليومَ " منصوب بالخِزْي ، وعَمِل المصدرُ وفيه أل . وقيل : هو منصوبٌ بالاستقرار في " على الكافرين " إلا أنَّ فيه فصْلاً بالمعطوفِ بين العاملِ ومعمولِه ، واغتُفِر ذلك لأنهم يَتَّسِعُون في الظروفِ .

(82/434)

قوله تعالى : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ ﴾ : يجوز أن يكونَ الموصول مجرورَ المحلِّ نعتاً لِما قبله ، أو بدلاً منه ، أو بياناً له ، وأن يكونَ منصوباً على الذمِّ ، أو مرفوعاً عليه ، أو مرفوعاً عليه ، أو مرفوعاً بالابتداء ، والخبرُ قولُه ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ والفاءُ مزيدةٌ في الخبر ، قاله ابن عطية ، وهذا لا يجيْءُ إلاَّ على رأي الأخفش في إجازته زيادةَ الفاء في الخبر مطلقاً ، نحو : " زيد فقام " ، أي : قام . ولا يُتَوَهَّم أن هذه الفاءَ هي التي تدخل مع الموصولِ المتضمِّنِ معنى الشرط ؛ لأنه لو صُرِّح بهذا الفعلِ مع أداةِ الشرط لم يَجُزْ دخولُ الفاء عليه ، فما ضُمِّن معناه أَوْلَى بالمنع ، كذا قاله الشيخ ، وهو ظاهر . وعلى الأقوالِ المتقدمةِ خلا القول الأخيرِ يكون " الذين " وصلتُه داخلاً في المَقُول ، وعلى القولِ الأخيرِ لا يكنُ داخلاً فيه .

وقرأ " يَتَوَفَّاهُمْ " في الموضعين بالياء حمزة ، والباقون بالتاء مِنْ فوق ، وهما واضحتان ممَّا تقدَّم في قوله ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة ﴾ [آل عمران : 39] " فناداه " . وقرأت فرقةٌ بإدغام

إحدى التاءين في الأخرى، في مصحفِ عبد الله "تَوَفَّاهم" بتاءٍ واحدة، وهي مُحْتَمِلةٌ للقراءةِ بالتشديد على الإدغام، وبالتخفيفِ على حَذْفِ إحدى التاءَين.

و ﴿ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ حالٌ مِنْ مفعولِ "تَتَوَفَّاهم" و "تَتَوَفَّاهم" يجوز أن يكونَ مستقبلاً على بابه إن كان القول واقعاً في الدنيا، وأن يكونَ ماضياً على حكاية الحال إن كان واقعاً يوم القيامة.

(83/434)

قوله: "فَأَلْقَوا" يجوز فيه أوجهٌ، أحدها: أنه خبر الموصول وقد تقدَّم فسادُه. الثاني: أنه عطفٌ على ﴿ قَالَ الذين ﴾. الثالث: أن يكونَ مستأنفاً، والكلامُ قم تَمَّ عند قولِه "أنفسِهم"، ثم عاد بقولِه "فألْقَوا" إلى حكاية كلام المشركين يومَ القيامة، فعلى هذا يكون قولُه ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ إلى قوله "أنفسهم" جملةَ اعتراض. الرابع: أن يكونَ معطوفاً على "تَتَوَفَّاهم" قاله أبو البقاء، وهذا إنما يتمشَّى على أنَّ "تَتَوَفَّاهم" بمعنى المُضِيّ، ولذلك لم يذكرْ أبو البقاء في "تَتَوَفَّاهم" سواه.

قوله: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فيه أوجه، أحدها: أن يكون تفسيراً للسَّلَم الذي أَلْقَوه؛ لأنه بمعنى القول بدليلِ الآيةِ الأخرى: ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول ﴾ [النحل: 86]، قاله أبو البقاء

، ولو قال : " يحكي ما هو بمعنى القول " كان أوفقَ لمذهب الكوفيين . الثاني : أن يكونَ " ما كنَّا " منصوباً بقولٍ مضمرٍ ، ذلك الفعلُ منصوب على الحال ، أي : فألقَوا السَّلَم قائلين ذلك . /و ﴿ مِن سواء ﴾ مفعول " نعمل " ، زِيْدَتْ فيه " مِنْ " ، و " بلى " جوابٌ ل " ما كنَّا " فهو إيجابٌ له .

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَبِئْسَ ﴾ هذه لامُ التأكيدِ ، وإنما دخَلَتْ على الماضي لجمودِه وقُرْبِه من الأسماء . والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ . أي : جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 209 . 213 ﴾

(84/434)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

اتصفوا بالمكر فحاق بهم مَكْرُهم ، ووقعوا فيم حفروه لغيرهم ، واغتروا بطول الإمهال ، فأخذهم العذابُ من مأْمَنِهم ، واشتغلوا بلهوِهِم فَنَغَّصَ عليهم أطيب عَيْشهم :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

الذي وصف نفسه به في كتابه من الإتيان فمنعاه العقوبة ، وذلك على عادة العرب في التوسع في الخطاب .

وهو سبحانه يكشف الليلَ ببَدْره ثم يأخذ الماكر بما يليق بمَكْره ، وفي معناه قالوا :

وأَمِنْتُه فأَتَاحَ لي من مأْمَني . . . مكرًا ، كذا مَنْ يأْمَنُ الأيَاما

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾

في الدنيا عاجلُ بلائهم ، وبين أيديهم آجِلُه . وحَسْرةُ المُفلس تتضاعف إذا ما حُوسِبَ ، وشاهَدَ حاصِلَه .

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . . . ﴾ : يُسْمِعُ الكافرين قولَ المؤمنين ، ويبيّن للكافة صِدْقَهم . ويقع الندمُ على جاهلهم . وأما اليومَ فعليهم بالصبر والتحمُّل ، وعن قريب ينكشف الغطاء ، وأنشد بعضهم :

خليليَّ لو دارت على رأسِيَ الرَّحى . . . من الذُّلِّ لم أَجْزَعْ ولم أَتَكَلَّمِ

وأطرقتُ حتى قيل لا أعرفُ الجفا . . . ولكنني أفصحتُ يومَ التكلُّمِ

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) ﴾

﴿ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ : بارتكاب المعاصي وهم الكفار .

﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ : انقادوا واستسلموا لحكم الله .

(85/434)

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ : جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات .

﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ : هكذا قالت لهم الملائكة ، ثم يقولون لهم : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ . . . ﴾ : وكذلك الذين تقسو نفوسُهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزَلَتْ بهم الوفاةُ يأخذون في الجزع وفي التضرع ، ثم لا تطيبُ نفوسهم بأن يُقِرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند الناس ، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لِمَ أَخَلُّوا من معاملاتهم ، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير ، والنقير والقطمير ، ثم يبقون أبداً في وبال ما أحقبوه ، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أُخراهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 292 . 293 ﴾

(86/434)

فصل

قال السمرقندي في الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ أي يوم القيامة .

ويقال : يعني : العذاب .

كقوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : 40] وقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا يَأْكُلُ الناس والانعام حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالامس كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 24] أي : أتى أمر الله .

يعني : يأتي .

أي : هو قريب لأن ما هو آتٍ آتٍ .

وهذا وعيد لهم إنها كائنة .

وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] ثم نزلت بعدها ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1]

قالوا : يا محمد تزعم أن الساعة قد اقتربت ، ولا نرى من ذلك شيئاً فنزل ﴿ أتى أَمْرُ الله

﴾ أي: عذاب الله، فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً، لا يشك أن العذاب قد أتاهم، فقال لهم جبريل: ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ قال: فجلس النبي صلى الله عليه وسلم بعد قيامه، ثم قال: ﴿ سبحانه ﴾ نزّه نفسه عن الولد، والشريك.

ويقال: ارتفع، وتعاظم عن صفة أهل الكفر.

فقال عز وجل: ﴿ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من الأوثان.

قرأ حمزة، والكسائي ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة.

وقرأ الباقون: بالياء بلفظ المغايبة، وكذلك ما بعده.

ثم قال: ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ أي: جبريل ﴿ بالروح ﴾ أي: بالوحي والنبوة والقرآن ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي: بأمره.

(87/434)

قال القتبي: ﴿ مِنْ ﴾ توضع موضع الباء كقوله: ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله إِنَّ الله لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: 11] أي: بأمر الله.

وقال ههنا: يلقي الروح ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي: بأمره ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي:

يختار للنبوة والرسالة .

وقال قتادة : ينزل الملائكة بالرحمة ، والوحي ﴿ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يعني : من كان أهلاً لذلك .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يُنزِلُ ﴾ بجزم النون من قولك أنْزَلَ يُنْزِلُ ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ تُنَزَّلَ ﴾ بالتاء ، ونصب النون ، والزاي مع التشديد ، على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

وقرأ الباقون ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ بالياء ، وكسر الزاي مع التشديد ، من قولك : نَزَّلَ يُنَزِّلُ .

ثم قال تعالى : ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ ﴾ أي : خوفوا بالقرآن الكفار ، وأعلموهم أن الله واحد لا شريك له .

فذلك قوله : ﴿ لا إله إلا أَنَا فاتقون ﴾ أي : أطيعون ، ووحدون .

ثم قال : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض بالحق ﴾ أي : للحق .

ويقال : للزوال ، والفناء .

﴿ تَعَالَى ﴾ تنزه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من الأوثان .

ثم قال : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يقول : من ماء الرجل ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ يقول : جدل بالباطل ظاهر الخصومة ، وهو أبي بن خلف حيث أخذ عظماً بالياً فَفَتَّهُ بيده ، وقال : عجباً لمحمد يزعم أنه يعيدنا بعد ما كنا عظاماً ورفاتاً ، وإنا نعاد خلقاً جديداً ،

فنزل ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ صلى الله عليه وسلم [يس : 77] الآية .

(88/434)

ثم بيّن النعمة فقال تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾ الدفء ما يستدفأ به من الأكسية وغيرها .

والذي يتخذ منه البيوت من الشعر ، والوبر ، والصوف .

وأما المنافع فظهورها التي تحمل عليها .

وألبانها .

ويقال : الدفء الصغار من الإبل .

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي : في نسل كل دابة ثم قال : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : من لحومها .

قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ أي : ولكم يا بني آدم في الأنعام ، جمال حسن المنظر ، ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ أي : حتى تروح الإبل راجعة إلى أهلها ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي : تسرح إلى الرعي أول النهار ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أي : أمتعتكم وزادكم ﴿ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ

بالغيه إِلَّا بشِقّ الانفس ﴾ إلا بجهد الأبدان .

وروى سماك عن عكرمة قال : ﴿ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه إِلَّا بشِقّ الانفس ﴾ قال : هي مكة .

ويقال : هذا الخطاب لأهل مكة ، كانوا يخرجون إلى الشام ، وإلى اليمن ، ويحملون أثقالهم على الإبل .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ إذ لم يعجلكم بالعقوبة .

ثم قال : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ أي : جمالاً ، ومنظراً ، وحسناً .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ، أنه سئل عن لحوم الخيل ، فكرهه ، وتلا هذه الآية ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ يعني : إنما خلق هذه الأصناف الثلاثة للركوب والزينة ، لا للأكل ، وسائر الأنعام خلقت للركوب ، والأكل ، كما قال : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وبه كان يقول أبو حنيفة : إن لحم الخيل مكروه .

ثم قال : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : خلق أشياء تعلمون ، وخلق أشياء مما لا تعلمون .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ اللهَ خَلَقَ أَرْضاً بَيْضَاءَ مِثْلَ الدُّنْيَا ثَلاثِيْنَ مَرَّةً مَحْشُوَّةً خَلْقاً مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى ، لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْصَى طَرْفَةَ عَيْنٍ " قالوا : يا رسول الله أمن ولد آدم هم ؟ قال : " مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ " .

قالوا : فأين إبليس منهم ؟ قال : " مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ إِبْلِيسَ " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ " قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ أي : بيان الهدى .

ويقال : هداية الطريق ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي : من الطرق ما هو مائل عن طريق الهدى إلى طريق اليهودية ، والنصرانية .

وروى جويبر عن الضحاك أنه قال : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ يعني : بيان الهدى ، ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي : سبيل الضلالة .

وقال قتادة : في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي : مائل عن طريق الهدى ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : لو علم الله تعالى أن الخلق كلهم أهلاً للتوحيد لهداهم .

ويقال : لو شاء الله لأنزل آية يضطر الخلق إلى الإيمان بها .

ثم قال : ﴿ هُوَ الذى أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ أي : المطر ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ وهو ما يستقر في الأرض من الغدران ، وتشربون منه ، وتسقون أنعامكم ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ أي :

من الماء ما ينتشر في الأرض، فينبت منه الشجر، والنبات ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي: ترعون أنعامكم.

قوله: ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون ﴾ أي: يخرج لكم بالمطر الزرع، والزيتون ﴿ والنخيل والأعناب ﴾ أي: الكروم ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي: من ألوان الثمرات قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿ الله لَكُمْ ﴾ بالنون.

وقرأ الباقون بالياء، ومعناهما واحد.

(90/434)

ثم قال: ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني: فيما ذكر من نزول المطر، وخروج النبات لعبرة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في إنشائه.

ثم قال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر ﴾ أي ذلّل لكم الليل، والنهار لمعايشكم ﴿ والشمس والقمر ﴾ أي: خلق الشمس والقمر ﴿ والنجوم مسخرات ﴾ بأمره أي: مذللات ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ أي: بإذنه ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ أي: لعبرات ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: لمن له ذهن الإنسانية.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأرض ﴾ أي: وما خلق لكم في الأرض، من

الدواب، والأشجار، والثمار ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي في اختلاف ألوانها لعبرة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي: يتعظون قرأ ابن عامر ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ كلها بالرفع على معنى الابتداء.

وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿ والشمس والقمر ﴾ بالنصب على معنى البناء.

أي: سخر لكم الشمس والقمر.

ثم ابتدأ فقال: ﴿ والنجوم ﴾ بالضم على معنى الابتداء.

وقرأ الباقون الثلاثة كلها بالنصب، ويكون بمعنى المفعول.

ثم قال: ﴿ وَهُوَ الذى سَخَّرَ البحر ﴾ أي: ذلّل لكم البحر.

ويقال: ذلّل لكم ما في البحر ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ ﴾ أي: من البحر ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ أي: السمك الطري ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ ﴾ يعني: من البحر ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني: لؤلؤًا تتزينون بها.

يعني: زينة للنساء ﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ أي: مقبلة، ومدبرة فيه.

ويقال: تذهب، وتجيء بريح واحدة.

وقال عكرمة: يعني: السفينة حين تشق الماء يقال: مخرت السفينة إذا جرت، لأنها إذا جرت تشق الماء ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي: لكي تطلبوا من رزقه، حين تركبون

السفينة للتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : لكي تشكروا الله فيما صنع لكم من النعمة .

(91/434)

ثم قال : ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ يعني : الجبال الثوابت ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ يعني : لكيلا تميد بكم ، وقد يحذف لا ويراد إثباته ، كما قال هاهنا : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي لا تميل بأهلها .

وروى معمر عن قتادة أنه قال لما خلقت الأرض كادت تميد فقالت الملائكة ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال وقال القتبي الميد الحركة والميل ويقال ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ أي كراهة أن تميد بكم ﴿ وأنهارا ﴾ أي : وجعل لكم أنهاراً ﴿ وَسُبُلاً ﴾ أي : طرقاً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : تعرفون بها الطرق ﴿ وعلامات ﴾ أي : جعل في الأرض علامات من الجبال ، وغيرها تهتدون به الطرق في حال السفر .

﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي : بالجدي ، والفرقدين ، تعرفون بها الطرق في البر والبحر .

وروى عبد الرزاق عن معمر في قوله : ﴿ وعلامات ﴾ قال : قال الكلبي : الجبال .

وقال قتادة : النجوم .

وروى سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله : ﴿ وعلامات وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ قال : منها ما يكون علامة ، ومنها ما يهتدى به .

وقال عمر بن الخطاب : تعلموا من النجوم ما تهتدون به ، في طرقكم ، وقبلتكم ، ثم كفوا ، وتعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم .

وقال السدي : ﴿ وعلامات ﴾ أي : الجبال بالنهار يهتدون بها الطرق ، والنجوم بالليل .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ يعني : هذه الأشياء التي وصفت لكم ﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ أي : لا يقدر أن يخلق شيئًا وهم الأصنام .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : أفلا تتعظون في صنعه ، فتوحّدوه وتعبدوه ، ولا تعبدوا غيره .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ أي : لا تطيقوا إحصاءها .

فكيف تقدرون على أداء شكرها ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تاب ورجع .

ثم قال : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ في قلوبكم ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ بالقول .

ويقال: ما تخفون من أعمالكم ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي: تظهرون منها، فالسر والعلانية عنده سواء.

ثم قال: ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي: يعبدون من دون الله من الأوثان ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أي: لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي: ينحتون من الأحجار، والخشب، وغيره.

ثم قال تعالى: ﴿ أموات غَيْرُ أَحْيَاء ﴾ قال في رواية الكلبي: يعني: أن الأصنام أموات ليس فيها روح ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني: الأصنام ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: متى يحيون فيحاسبون ويقال ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ يعني: أن الكفار غير أحياء.

يعني: كأنهم أموات لا يعقلون شيئاً وما يشعرون أيان يبعثون غيره ﴿ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ يعني: الذين لا يصدقون بالبعث ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أي جاحدة للتوحيد ويقال قلوبهم خبيثة لا تدخل المعرفة فيها ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي متعظمون عن الإيمان ثم قال عز وجل ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي: حقاً.

ويقال: نعم.

وذكر عن الفراء أنه قال ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ بمنزلة لا بد ولا محالة.

ثم كثرت في الكلام، حتى صارت بمنزلة حقاً ﴿ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي: ما يكتمون، وما يظهرون من الكفر، والمكر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّهُ لاَ

يُحِبُّ المستكبرين ﴾ أي : المتعظمين عن الإيمان .

ويقال : لا يحب المتكبرين الذين يتكبرون على الناس .

قال الفقيه : حدّثنا محمد بن الفضل .

قال : حدّثنا محمد بن جعفر .

قال : حدّثنا إبراهيم بن يوسف .

قال : حدّثنا الفضل بن دكين ، عن مسعر بن كدام ، عن أبي مصعب ، عن أبيه ، عن أبي بن كعب قال : سيأتي المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم ، ويأتيهم الذل من كل مكان .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني : الخراصين من أهل مكة .

(93/434)

وروى أسباط عن السدي قال : اجتمعت قريش ، فقالوا : إن محمداً رجل حلو اللسان ، إذا كلمه رجل ذهب بعقله .

وفي رواية أخرى : بقلبه .

فانظروا أناساً من أشرافكم ، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو

ليلتين .

فمن جاء يريده ردّوه عنه .

فخرج ناس منهم في كل طريق ، فكان إذا جاء الرجل من وفد القوم ، ينظر ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم .

فنزل بهم ، فقالوا له : أنا فلان بن فلان ، فيعرفه بنسبه .

ثم قال : أنا أخبرك ثم قال : أنا أخبرك .

عن محمد ، فلا تنفر إليه هو رجل كذاب لم يتبعه إلا السفهاء والعبيد ، ومن لا خير فيه ، أما أشياخ قومه ، وأخيارهم ، فهم مفارقوه .

فيرجعون أي : الوافدون .

وإذا كان الوافد ممن عزم الله له على الرشد يقول : بئس الوافد أنا لقومي .

إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم ، رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وأنظر ماذا يقول .

فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين ، فيسألهم : ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ [النحل : 30] فذلك قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ للمقتسمين من أهل مكة ﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ يعني : ما الذي أنزل ربكم على محمد صلى

الله عليه وسلم ، ﴿ قَالُواْ أساطير الاولين ﴾ يعني : الذين يذكرون أنه منزل ، هو كذب الأولين ، وأحاديثهم .

قال الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي : آثامهم ﴿ كَامِلَةً ﴾ أي : وافرة ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ أي : لا يغفر لهم شيء .

وذنوب المؤمنين تكفر عنهم من الصلاة إلى الصلاة ، ومن رمضان إلى رمضان ، ومن الحج إلى الحج ، وتكفر بالشدائد ، والمصائب .

وذنوب الكفار لا تغفر لهم ، ويحملونها كاملة يوم القيامة .

أي : يحملون وبال الذنوب التي عملوا بأنفسهم ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ أي : يصدُّونهم عن الإيمان ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : بغير عذر ، وحجة ، وبرهان .

ويقال : ﴿ مِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ أي : أوزار إضلالهم .

وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من سنّ سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة" .

ثم قال : ﴿ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي : بئس ما يحملون من الذنوب .

ويقال: بئس الزاد زادهم الذنوب.

ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي: قد صنع الذين من قبلهم مثل المقتسمين، فأبطل الله كيدهم ﴿ فَأَتَى الله بنيانهم مّنَ القواعد ﴾ أي: قلع بنيانهم من أساس البيت ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ أي: سقف البيت، قال الكلبي: وهو نمروذ بن كنعان، بنى صرحاً طوله في السَّماء خمسة آلاف ذراع وخمسون ذراعاً، وكان عرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسون ذراعاً، فهدم الله بنيانه، وخرّ عليهم السقف من فوقهم، فأهلكهم الله.

وقال القتبي: هذا مثل.

أي: أهلك من قبلهم من الكفار، كما أهلك من هدم مسكنه من أسفله، فخرّ عليه.

ويقال: هدم بنيان مكرهم من الأصل، فخرّ عليهم السقف.

أي: رجع وبال مكرهم إليهم، كقوله تعالى: ﴿ استكبارا فِى الأرض وَمَكْرَ السيىء وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: 43] ﴿ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي: لا يعلمون.

قوله: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾ أي: يعذبهم، وما أصابهم في الدنيا، لم يكن كفارة لذنوبهم.

﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ أي : تعادونني ، وتخالفونني فيهم ، يعني : بسببهم وعبادتهم قرأ نافع ﴿ تشاقون ﴾ بكسر النون على معنى الإضافة .

والباقون : بنصب النون لأنها نون الجماعة .

﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ أي : الملائكة .

ويقال : يعني : المؤمنين ﴿ إِنَّ الخزى اليوم ﴾ أي : العقاب ﴿ والسوء ﴾ أي : الشدة من العذاب ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ أي : يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ﴿ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالى ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ أي : انقادوا ، واستسلموا حين رأوا العذاب .

قالوا : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء ﴾ أي : ما كنا نشرك بالله .

وقال الكلبي : هم قوم خرجوا مع المشركين يوم بدر ، قد تكلموا بالإيمان ، فلما رأوا قلة المؤمنين ، رجعوا إلى الشرك فقتلوا .

ويقال : جميع المشركين .

قال الله تعالى : ﴿ بلى ﴾ أشركتم بالله ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الشرك .

قوله : ﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي : يقول لهم خزنة جهنم ، ادخلوا أبواب جهنم ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ أي : مقيمين فيها أبداً ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ يعني : لبئس مأوى المتكبرين عن الإيمان .

ثم نزل في المؤمنين الذين يدعون الناس إلى الإيمان ، وذلك أن أهل مكة ، لما بعثوا إلى أعقاب مكة رجالاً ، ليصدوا الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالاً من أصحابه ، إلى أعقاب مكة .

فكان الوافد إذا قدم إليهم ، قالوا له : إن هؤلاء المشركين كذبوا ، بل محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الحق ، ويأمر بصلة الرحم ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 265 . 272 ﴾

(96/434)

وقال الثعلبي :

﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾

أي جاء فدنا ، واختلفوا في هذا الأمر ما هو .

فقال قوم : هو الساعة .

قال ابن عبّاس : لما أنزل الله تعالى ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم [أن] يوم القيامة قد قرب فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء ، قالوا : ما نرى شيئاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 1] الآية .

فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فلما إمتدت الأيام قالوا : يا محمّد ما نرى شيئاً مما تخوّفنا به فأنزل الله ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ فوثب النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم فنزلت ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فاطمأنوا فلما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم " بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه إن كادت لتسبقني " .

وقال ابن عبّاس : كان بعث النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة . وأن جبرئيل لما مرَّ بأهل السماوات مبعوثاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : الله أكبر قد قامت الساعة .

قال الآخرون : الأمر هاهنا العذاب بالسيف ، وهو جواب للنضر بن الحرث حين قال : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] الآية يستعجل العذاب ، فأنزل الله هذه الآية ، وهذا من الجواب المقصور فقتل النضر يوم بدر صبراً .

وقال الضحاك : ﴿ أَمْرُ الله ﴾ : الأحكام والحدود والفرائض .

والقول الأوّل أولى بالصواب ؛ لأنه لم يبلغنا أن أحداً من الصحابة مستعجل بفريضة الله قبل أن تفرض عليهم ، وأمّا مستعجل العذاب من المشركين فقد كانوا كثيراً .

﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ .

قراءه العامّة : بضم الياء وكسر الزاي المشدد ، الملائكة نصب . وخففه معظم أهل مكة والبصرة بمعنى ينزل الله .

وقرأ المفضل وروح وسهيل وزيد : ينزل بفتح الياء والزاي ، الملائكة رفع .

(97/434)

وقرأ الأعمش : ينزل بفتح الياء وجزم النون وكسر الزاي من النزول ، والملائكة رفع على هاتين القرائتين والفعل للملائكة .

﴿ بالروح ﴾ بالوحي سمّاه روحاً ، لأنه تحيا به القلوب والحق ، ويموت به الكفر والباطل .

وقال عطاء : بالنبوة فطرة يلقى الروح من أمره .

قتادة : بالرحمة .

أبو عبيدة : ﴿ بالروح ﴾ ، يعني : مع الروح وهو جبرئيل .

﴿ مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ ﴾ محله نصب بنزع الخافض ، ومجازه بأن ﴿

أنذروا ﴾ أعلموا ، من قولهم : أنذر به أي أعلم ﴿ أَنَّهُ ﴾ في محل النصب بوقوع الإنذار عليه .

﴿ لا إله إلاَّ أَنَاْ فاتقون * خَلَقَ السماوات والأرض بالحق تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ يجادل بالباطل ﴿ مُّبِينٌ ﴾ نظيره قوله : ﴿ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] نزلت هذه الآية في أُبي بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمّد أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ؟ نظيرها قوله :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [يس : 77] إلى آخر السورة نزلت في هذه القصة أيضاً .

﴿ والأنعام خَلَقَهَا ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ يعني من أوبارها وأصوافها وأشعارها ملابس و [لحفاً] وقطن يستدفئون ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ بالنسل والدرّ والركوب والحمل وغيرها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ يعني لحومها ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ أي حين يردّونها بالعشي من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها . يقال : أراح فلان ماشيته يريحها أراحة ، والمكان الذي يراح إليه : مراح .

﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ اي يخرجونها بالغداة من مراعيها إلى مسارحها . يقال : سرّح

ماشيته يسرّحها سرُحاً وسروحاً إذا أخرجها للرعي ، وسرحت الماشية سروحاً إذا رعت .

(98/434)

قال قتادة : وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظاماً ضروعها طوالاً أسنمتها .

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ ﴾ آخر غير بلدكم .

عكرمة : البلد مكة .

﴿ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ ﴾ أي تكلفتموه ﴿ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس ﴾ .

قرأه العامّة : بكسر الشين ، ولها معنيان : أحدهما : الجهد والمشقة .

والثاني : النصف ، يعني لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق النفس من القوة وذهاب شق منها حتّى لم تبلغوه إلاّ بنصف قوى أنفسكم وذهاب نصفها الآخر .

وقرأ أبو جعفر : بشق بفتح الشين . وهما لغتان مثل برَق وبرِق ، وحَصن وحصِن ، ورَطل ورطِل .

وينشد قول النمر بن تولب : بكسر الشين .

وذي إبل يسعى ويحسبها له . . . أخي نصب من شقها ودؤوب

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر من شققت عليه يشق شقاً .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ بخلقه حيث خلق لهم هذه الأشياء وهيّأ لهم هذه المنافع والمرافق .

﴿ والخيل ﴾ يعني وخلق الخيل وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء ﴿ والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ يعني وجعلها زينة مع المنافع التي فيها .

واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على تحريم لحوم الخيل ، روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنه سئل عن أكل لحوم الخيل فكرهها وتلا هذه الآية : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ .

قال : هو المركوب ، وقرأ التي قبلها : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا ﴾ الآية ، وقال : هذه للأكل .

وقال : الحكم بلحوم الخيل حرام في كتاب الله ، ثمّ قرأ هذه الآيات ، وقال : جعل هذه للأكل وهذا للركوب .

وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومالك وغيرهما من العلماء ، واحتجوا أيضاً في ذلك بما روى صالح بن يحيى بن المقدام بن معدي كرب عن أبيه عن جدّه عن خالد بن الوليد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير " .

وقال الآخرون : لا بأس بأكل لحوم الخيل ، وليس في هذه الآية دليل على تحريم شيء ، وإنما عرّف الله عباده بهذه الآية نعمه عليهم ونبههم على حجج وحدانيته وربوبيته وكمال قدرته ، وإليه ذهب الشافعي واحتج بما روى محمّد بن علي عن جابر بن عبد الله

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن لحوم الحمير الأهلية وأذن في لحوم الخيل " .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار " عن جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر " .

وروى سفيان عن عبد الكريم عن عطاء عن جابر قال : كنا نأكل لحوم الخيل ، قلت : والبغال ؟ قال : لا .

هشام عن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنه) قالت : أكلنا لحم فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سفيان عن منصور عن إبراهيم قال : نحر أصحابنا فرساً في النخع فأكلوا منه ولم يروا به بأساً .

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال بعض المفسرين : يعني ما أعدّ في الجنة لأهلها ، وفي النار لأهلها ما لم تره عين ولا سمعته أُذن ولا خطر على قلب بشر .

قال قتادة : يعني السوس في الثياب ، والدود في الفواكه .

وروى مقاتل عن الضحاك عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال :

يريد أن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبع

. يدخل جبرئيل كل سحر فيغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله وعظماً إلى

عظمته فينتفض فيخرج الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل

يوم سبعون ألف ملك بالبيت المعمور وفي الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى أن تقوم

الساعة .

(100/434)

﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾ يعني طريق الحق لكم ، والقصد : الطريق المستقيم ، وقيل

على الله القصد بكم إلى الدين ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ يعني ومن السبيل جائر عن الاستقامة

معوج ، وإنما أُنث للكناية ، لأن لفظ السبيل واحد ومعناها جمع ، والسبيل مؤنثة في لغة أهل

الحجاز ، والقصد من السبيل هو الحنيفية دين الإسلام ، والجائر منها اليهودية والنصرانية

وغير ذلك من الملل والكفرة .

وقال جابر بن عبد الله : قصد السبيل يعني بيان الشرائع والفرائض ، وقال عبد الله بن

المبارك وسهل بن عبد الله : ﴿ قَصْدُ السبيل ﴾ السنّة ، ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ يعني الأهواء والبدع ، بيانه قوله : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ [الأنعام : 153] الآية . وفي مصحف عبد الله : ومنكم جائز .

﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ نظيرها قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 99] وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] .

﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مِّنْهُ ﴾ أي من ذلك الماء ﴿ شَرَابٌ ﴾ يشربونه ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ شراب أشجاركم حياة غروسكم ونباتكم ﴿ فِيهِ ﴾ ، في الشجرة وهو اسم [عام] ، وإنما ذكر الكناية ، لأنه ردّه إلى لفظ الشجر .

﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون ، ونسيكم يقال : أسام فلان إبله يسيمها إسامة ، إذا رعاها ، فهو مسيم وسامت هي تسوم فهي سائمة .

قال الشاعر :

ومشى القوم بالعماد إلى . . . المرعى وأعيا المسيم اين المساق

يعني يدخلون العماد تحت بطون الزرعى [. . . .] .

قال الشاعر :

أولى لك ابن مسيمة الأجمال . . . أي يا بن راعية الإبل .

﴿ يُنبِتُ لَكُمْ ﴾ . قرأه العامّة بالياء يعني : ينبت لكم . وقرأ عاصم برواية المفضل وحماد ويحيى بالنون ، والأوّل الاختيار .

﴿ بِهِ ﴾ بالماء الذي أنزل ﴿ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٌ ﴾ قرأه العامّة بالنصب نسقاً على ماقبله .

وروى حفص عن عاصم ، ﴿ والنجوم مُسَخَّرَاتٌ ﴾ : بالرفع على الخبر والإبتداء ، وقرأ ابن عامر ﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٌ ﴾ كلها بالرفع على الإبتداء والخبر .

﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بأذنه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ ﴾ يعني وسخّر ما ذرأ ﴿ لَكُمْ ﴾ أي خلق لأجلكم من الدواب والأشجار والثمار وغيرها ﴿ فِي الأرض مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ نصب على الحال .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ يعني السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ

حِلْيَةً ﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان .

روى حماد بن يحيى عن إسماعيل بن عبد الملك قال : جاء رجل إلى ابن جعفر قال : في حليّ النساء صدقة ؟ قال : لا ، هي كما قال الله : ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

﴿ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ .

قال ابن عبّاس : جواري .

سعيد بن جبير : معترضة . قتادة ومقاتل : [تذهب وتجي] مقبلة ومدبرة بريح واحدة .

الحسن : مواقر .

عكرمة والفراء والأخفش : شقاق يشق الماء بجناحيها .

مجاهد : يمخر السفن الرياح ولا يمخر الريح من السفن إلاّ الملك العظيم .

أبو عبيدة : سوابح .

وأصل المخرّ الدفع والشق ، ومنه مخر الأرض ، ويقال : امتخرت الريح وتمخّرتها ، إذا نظرت من أين مبعوثها ، وفي الحديث : " إذا أراد أحدكم البول فليمتخر الريح " أي لينظر من أين مخرها وهبوبها فيستدبرها حتّى لا يرد عليه البول .

﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني التجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ يعني لئلاّ تميد بكم، أي تتحرك وتميل، والميل: هو الاضطراب والتكفّؤ، ومنه قيل للدوار الذي يعتري راكب البحر: ميد.

قال وهب: لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرّة أحداً على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ولم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال.

وقال علي (رضي الله عنه): لما خلق الله الأرض رفضت وقالت: أي رب أتجعل عليَّ بني آدم يعملون عليَّ الخطيئة ويلقون عليّ الخبث، فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون.

﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ يعني وجعل فيها أنهاراً ﴿ وَسُبُلاً ﴾ طرقاً مختلفة ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿ وَعَلامَاتٍ ﴾ فلا تضلون ولا تتحيرون، يعني معالم الطرق.

وقال بعضهم: هاهنا تم الكلام ثمّ ابتدأ.

﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

قال محمّد بن كعب القرظي والكلبي: أراد بالعلامات الجبال، فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل.

وقال مجاهد وإبراهيم: أراد بهما جميعاً النجوم، فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به.

قال السدي : يعني بالثريا وبنات نعش والفرقدين والجدي فيهتدون إلى الطرق والقبلة .

قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاث أشياء : لتكون زينة للسماء ، وعلامات للطريق ورجوماً للشياطين . فمن قال غير هذا فقد قال برأيه وتكلّف ما لا علم به .

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ يعني الله تعالى ﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ يعني الأصنام ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ نظيرها قوله تعالى : ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان : 11] وقوله عزّ وجلّ : ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ [فاطر : 40] .

(103/434)

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ الله لَغَفُورٌ ﴾ لما كان منكم من تقصير شكر نعمه ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بكم حيث وسّع عليكم نعمه ولم يقطعها منكم بتقصيركم ومعاصيكم . ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ .

قرأه العامّة بالتاء ، لأن ما قبله كلّه خطاب .

وقرأ يعقوب وعاصم وسهل بالياء .

﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ثمّ وصف الأوثان فقال : ﴿ أَمْواتٌ ﴾ أي هي

أموات ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني الأصنام ﴿ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ عَبّر عنها كما عبّر عن الآدميين وقد مضت هذه المسألة، وقيل: وما يدري الكفّار عبدة الأوثان متى يبعثون.

﴿ إلهكم إله وَاحِدٌ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ جاحدة غير عارفة ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ متعظّمون ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ حقاً ﴿ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾

﴿ وإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ يعني إذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم مشركوا قريش الذين اقتسموا عقاب مكة وأبوابهم، سألهم الحجاج والوفد أيام الموسم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعما أنزل عليه قالوا: ﴿ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ أحاديثهم وأباطيلهم.

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ ذنوب أنفسهم التي هم عليها مقيمون ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيصدونهم عن الإيمان ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ألا ساء الوزر الذي يحملون، نظيرها قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ [العنكبوت: 13] الآية.

قال النبي صلى الله عليه وسلم " أيّما داع دعا إلى ضلاله فاتُّبع ، فإن عليه مثل أوزار من اتّبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ، وأيّما داع دعا إلى هدى فاتّبع ، فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء " .

﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وهو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ولزم منها الصعود إلى السماء ينظر ويزعم إلى إله إبراهيم ، وقد مضت هذه القصة .

قال ابن عبّاس ووهب : كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراعاً .

وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين فهبّت ريح وألقت رأسها في البحر وخرّ عليهم الباقي وانفكت بيوتهم وأحدث نمرود ، ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل ، وإنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد ﴾ أي قصد تخريب بنيانهم من أصولها فأتاها أمر الله وهو الريح التي خرّبتها ﴿ فَخَرَّ ﴾ فسقط ﴿ عَلَيْهِمُ السقف ﴾ يعني أعلى البيوت ، ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ من مأمنهم ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾ يذلّهم بالعذاب . ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِي الذين كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ تخالفون فيهم لاينقذونكم فيدفعوا عنكم العذاب .

وقرأ العامّة على فتح النون من قوله : ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ إلاّ نافع فإنه كسرها على الإضافة ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ وهم المؤمنون ﴿ إِنَّ الخزي اليوم والسواء ﴾ العذاب ﴿ الذين

تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ﴾ يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بالكفر نصب على الحال، أي في حال كفرهم ﴿ فَأَلْقَوُا السلم ﴾ أي استسلموا وانقادوا وقالوا: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سوء ﴾ شرك، فقالت لهم الملائكة: ﴿ بلى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

(105/434)

قال عكرمة: عَنى بذلك من قتل من قريش وأهل مكة ببدر وقد أُخرج إليها كرهاً.

﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ عن الإيمان. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 14.5 ﴾

(106/434)

وقال الزمخشري:

سورة النحل

(مكية، غير ثلاث آيات في آخرها وتسمى سورة النعم، وهي مائة وثمان وعشرون آية

[نزلت بعد سورة الكهف]] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النحل (16) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكذيبا بالوعد، فقيل لهم أَتى أَمْرُ اللَّهِ الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرا لقرب وقوعه فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ روى أنه لما نزلت اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فنزلت أَتى أَمْرُ اللَّهِ فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ فاطمأنوا وقرئ: تستعجلوه، بالتاء والياء سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ تبرأ عز وجل عن أن يكون له شريك، وأن تكون آلهتهم له شركاء. أو عن إشراكهم، على أنّ «ما» موصولة أو مصدرية. فإن قلت: كيف اتصل

هذا باستعجالهم؟ قلت: لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك. وقرئ: تشركون، بالتاء والياء.

[سورة النحل (16) : آية 2]

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2)

قرئ يُنَزِّلُ بالتخفيف والتشديد. وقرئ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ أى تنزل بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ بما يحيى القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، وأَنْ أَنْذِرُوا بدل من الروح، أى ينزلهم بأن أنذروا. وتقديره: بأنه أنذروا، أى: بأن الشأن أقول لكم أنذروا. أو تكون «أن» مفسرة، لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول.

ومعنى أنذروا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا أعلموا بأنّ الأمر ذلك، من نذرت بكذا إذا علمته. والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولي لا إله إلا أنا فَاتَّقُونِ.

[سورة النحل (16) : الآيات 3 إلى 4]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجرّ

أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره. وقرئ: تشركون، بالتاء والياء فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ فيه معنيان، أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من منىّ جمادا لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته. والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: من يحيى العظام وهي رميم، وصفا للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتمادي في كفران النعمة.

وقيل نزلت في أبىّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال:

يا محمد، أترى اللّه يحيى هذا بعد ما قد رمّ؟ «1»

[سورة النحل (16): آية 5]

وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (5)

الْأَنْعامَ الأزواج الثمانية، وأكثر ما تقع على الإبل، وانتصابها بمضمر يفسره

---

(1). يأتى في صورة يس.

الظاهر ، كقوله وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ ويجوز أن يعطف على الإنسان ، أى : خلق الإنسان والأنعام

، ثم قال خَلَقَها لَكُمْ أى ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان . والدفء : اسم ما

يدفأ به ، كما أنّ الملء اسم ما يملأ به ، وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو

شعر . وقرئ :

دفّ ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء وَمَنافِعُ هي نسلها ودرّها وغير ذلك . فإن

قلت :

تقديم الظرف في قوله وَمِنْها تَأْكُلُونَ مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها . قلت :

الأكل منها هو الأصل « 1 » الذي يعتمده الناس في معايشهم . وأما الأكل من غيرها من

الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجارى مجرى التفكه . ويحتمل أن

طعمتكم منها ، لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء

الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها .

[سورة النحل (16) : آية 6]

وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)

منّ اللّه بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها ، لأنه من أغراض أصحاب المواشي ، بل هو من

معاظمها ، لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة - فزينت بإراحتها

وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء «2» - أنست أهلها وفرحت أربابها ،

وأجلتهم في عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ، يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً . فإن قلت : لم قدّمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأنّ الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . وقرأ عكرمة :

حينا تريحون وحينا تسرحون ، على أن تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وصف للحين . والمعنى : تريحون فيه وتسرحون فيه ، كقوله تعالى يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ .

[سورة النحل (16) : آية 7]

وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (7)

قرئ : بشق الأنفس ، بكسر الشين وفتحها . وقيل : هما لغتان في معنى المشقة ، وبينهما فرق :

وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقا ، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع .

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم قدم المجرور وأجاب بأن الأكل منها هو الأصل . . . الخ» ؟ قال أحمد :

ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل يوجب حصره فيه فكأنه قال وإنما تأكلون منها .

(2) . قوله «وتجاوب فيها الثغاء والرغاء» الثغاء صوت الشاء والمعز وما شاكلهما .

والرغاء صوت ذوات الخف ، كذا في الصحاح . [. . . . .]

(109/434)

وأما الشق فالنصف ، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد . فإن قلت : ما معنى قوله

: لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ كأنهم كانوا زمانا يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم .

قلت :

معناه وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم ، لا

أنهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة . فإن قلت : كيف طابق قوله : لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ قوله :

وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ وهلا قيل : لم تكونوا حامليها إليه «1» ؟ قلت : طباقه من حيث أن معناه

:

وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا أن

تحملوا على ظهوركم أثقالكم . ويجوز أن يكون المعنى : لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق

الأنفس . وقيل :

أثقالكم أجرامكم . وعن عكرمة : البلد مكة لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث رحمكم بخلق هذه

الحوامل وتيسير هذه المصالح.

[سورة النحل (16) : آية 8]

وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (8)

وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ عطف على الأنعام، أى: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام. فإن قلت: لم انتصب وَزِينَةً؟ قلت: لأن مفعول له، وهو معطوف على محل لتركبوها. فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد «2» ؟ قلت: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق. وقرئ: لتركبوها زينة، بغير واو، أى: وخلقها زينة لتركبوها. أو تجعل زينة حالا منها، أى: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ يجوز أن يريد به: ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمنّ علينا بذكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته. ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة

---

(1) . قال محمود: «إن قلت كيف طابق قوله لم تكونوا بالغيه قوله وتحمل أثقالكم . . . الخ» ؟ قال أحمد:

ويحتمل أن يكون المراد تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس واستغنى

بذكر البلوغ عن ذكر حملها لأن العادة أن المسافر لا يستغنى عن أثقال يستصحبها والمعنى الأول أعلى ، واللّه أعلم .

(2) . قال محمود : «إن قلت هلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد . . . الخ» ؟ قال أحمد : يعنى فجاز أن ينتصب مجرداً من لام التعليل لأنه فعل فاعل الفعل الأول ، ويعينه اقتران الركوب باللام لأنه فعل المخاطبين ، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام ، وفي هذا الجواب نظر ، فان لقائل أن يقول : كان من الممكن مجيئهما معا باللام فيأتيان على سنن واحد . ولا غرو في ذلك فالسؤال قائم ، والجواب العتيد عنه : أن المقصود المعتبر الأصلى في هذه الأصناف هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب «فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة التعليل ، تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين وتجرد التزين منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب ، واللّه أعلم

(110/434)

له في طيه ، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار ، مما لم يبلغه وهم أحد ، ولا خطر على قلبه .

[سورة النحل (16) : آية 9]

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

المراد بالسبيل: الجنس، ولذلك أضاف إليها القصد وقال وَمِنْها جائِرٌ. والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد. يقال: سبيل قصد وقاصد، أى: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه. ومعنى قوله وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ أنّ هداية الطريق الموصل «1» إلى الحق واجبة عليه، «2» كقوله إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى. فإن قلت: لم غير أسلوب الكلام في قوله وَمِنْها جائِرٌ؟ قلت: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة «3» لقيل: وعلى اللّه قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر. وقرأ عبد الله:

ومنكم جائر، يعنى: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره، واللّه بريء منه وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ قسرا وإلجاء «4».

[سورة النحل (16): الآيات 10 إلى 11]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11)

---

(1). قال محمود: «و معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة... الخ» قال أحمد: أين يذهب به عن تتمة الآية. وذلك قوله تعالى وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين. وما كأنهم إلا يؤمنون ببعض

الكتاب ويكافرون ببعض ، فان ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء ، فما كأنهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه . وأما المخالفة بين الأسلوبين ، فلأن سياق الكلام لاقامة حجة اللّه تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم في غير ما موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران ، هو من حيث كونه موجوداً مخلوق للّه تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له وبتأتيه له وتيسره عليه يضاف إلى العبد ، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى اللّه تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له ، والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر ، ليناسب ذلك إقامة الحجة قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ واللّه الموفق للصواب .

(2) . قوله «الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه» هذا مذهب المعتزلة ولا وجوب عليه تعالى عند أهل السنة ، بل ذلك فضل منه تعالى ، لكن الكريم يبرز الوعد بالخير في صورة الواجب . (ع)

(3) . قوله «ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل : وعلى اللّه قصد السبيل» يعنى أهل السنة من أنه تعالى يخلق الشر كالخير . وقوله «لقيل» الخ : الملازمة ممنوعة لأن الكريم يحب الخير دون الشر ، وإن كان كل منهما من عنده قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . (ع)

(4) . قوله «ولو شاء لهداكم أجمعين قسراً وإلجاء» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فانه لو شاء لهدى الكل اختياراً ، وذلك أن المعتزلة أوجبوا على اللّه الصلاح ، وهداية الكل صلاح ، فظاهر الآية يخالف مذهبهم. ولذا قالوا : إنه أراد هداية الكل ، لكن إرادة لا تنافى تخيير العبد ، لئلا يبطل تكليفه. وهذه الارادة لا تستلزم وقوع المراد . وأهل السنة لم يوجبوا على اللّه تعالى شيئا ، وكل ما أراده اللّه لا بد من وقوعه. وهذه الارادة لا تنافى اختيار العبد عندهم لما تقرر له من الكسب ، كما بين في علم التوحيد . (ع)

لَكُمْ متعلق بأنزل ، أو بشراب ، خبراً له . والشراب ما يشرب شَجَرٌ يعنى الشجر الذي ترعاه المواشي . وفي حديث عكرمة : لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت «1» . يعنى الكلأ تُسِيمُونَ من سامت الماشية إذا رعت ، فهي سائمة ، وأسامها صاحبها ، وهو من السومة وهي العلامة ، لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض . وقرئ : ينبت ، بالياء والنون . فإن قلت :

لم قيل وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ؟ قلت : لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة ، وإنما أنبت في الأرض

بعض من كلها للتذكرة يَتَفَكَّرُونَ ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته.

والآية: الدلالة الواضحة. وعن بعضهم: ينبت، بالتشديد. وقرأ أبىّ بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، بالرفع.

[سورة النحل (16): آية 12]

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12)

قرئت كلها بالنصب على: وجعل النجوم مسخرات. أو على أنّ معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم، حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم. فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره. ويجوز أن يكون المعنى: أنه سخرها أنواعا من التسخير جمع مسخر، بمعنى تسخير، من قولك: سخره اللّه مسخراً، كقولك: سرحه مسرحاً، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره. وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر.

وقرئ: والنجوم مسخرات، بالرفع. وما قبله بالنصب، وقال إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فجمع الآية. وذكر العقل، لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

[سورة النحل (16) : آية 13]

وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)

---

(1) . أخرجه أبو عبيد في الأحوال عنه موقوفا . وزاد نحوه . وروى عبد الرزاق من طريق وهب بن منبه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «اتقوا السحت قالوا : وما السحت؟ قال : بيع الشجر ، وثمن الخمر ، وإجارة الأمة المساحقة .

(112/434)

وَما ذَرَأَ لَكُمْ معطوف على الليل والنهار . يعنى : ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر .

[سورة النحل (16) : آية 14]

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)

لَحْماً طَرِيًّا هو السمك ، ووصفه بالطراءة ، «1» لأنّ الفساد يسرع إليه ، «2» فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه . فإن قلت : ما بال الفقهاء قالوا : إذا حلف الرجل لا يأكل لحما ، فأكل سمكا ، لم يحنث . واللّه تعالى سماه لحما كما ترى؟ قلت : مبنى الإيمان على العادة

، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك ، وإذا قال الرجل لغلامه : اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك ، كان حقيقاً بالإنكار . ومثاله أن اللّه تعالى سمى الكافر دابة في قوله : إنّ شرّ الدواب عند اللّه الذين كفروا ، فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث . حِلْيَةً هي اللؤلؤ والمرجان»

. والمراد بلبسهم : لبس نسائهم ، لأنهنّ من جملتهم ، ولأنهنّ إنما يتزيّن بها من أجلهم ، فكأنها زينتهم ولباسهم . المخر : شق الماء بحيزومها . وعن الفراء : هو صوت جرى الفلك بالرياح . وابتغاء الفضل : التجارة .

[سورة النحل (16) : الآيات 15 إلى 16]

وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)

أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ كراهة أن تميل بكم وتضطرب . والمائد : الذي يدار به إذا ركب البحر . قيل : خلق اللّه الأرض فجعلت تمور ، فقالت الملائكة : ما هي بمقرّ أحد على ظهرها ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ، لم تدر الملائكة ممّ خلقت وَأَنْهاراً وجعل فيها أنهاراً ، لأن ألقى فيه معنى : جعل . ألا ترى إلى قوله أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبالَ أَوْتاداً .

وَعَلاماتٍ

---

(1) . قوله «بالطراءة» في الصحاح : طرو اللحم . وطرى طراوة وطراء وطراة . (ع)

(2) . عاد كلامه . قال : «هو السمك ، ووصفه بالطراءة لأن الفساد يسرع إليه . . . الخ» قال أحمد : فكأن ذلك تعليم لأكله وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طريا . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون ، واللّه أعلم .

(3) . قال محمود : «الحلية هي اللؤلؤ والمرجان . . . الخ» قال أحمد : ولله در مالك رضى اللّه عنه حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها ، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل ، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل المرأة من مالها وزينتها حلية له ، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء ، مؤيدا بالحديث المروي في الباب ، واللّه أعلم .

هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك . والمراد بالنجم : الجنس ، كقولك . كثر الدرهم في أيدى الناس . وعن السدى : هو الثريا ، والفرقدان ، وبنات نعش ، والجدى . وقرأ الحسن : وبالنجم ، بضمتين ، وبضمة وسكون ، وهو جمع نجم ، كرهن ورهن ، والسكون تخفيف . وقيل حذف الواو من النجوم تخفيفاً . فإن قلت : قوله وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ مخرج عن سنن الخطاب ، مقدم فيه بِالنَّجْمِ ، مقحم فيه هُمْ ، كأنه

قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون ، فمن المراد ب هُمْ ؟ قلت : كأنه أراد قريشاً : كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم ، والاعتبار ألزم لهم ، فخصصوا .

[سورة النحل (16) : آية 17]

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (17)

فإن قلت : كَمَنْ لا يَخْلُقُ أريد به الأصنام ، «1» فلم جيء بمن الذي هو لأولى العلم ؟ قلت :

فيه أوجه ، أحدها : أنهم سموها آلهة وعبدوها ، فأجروها مجرى أولى العلم . ألا ترى إلى قوله على أثره وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ والثاني : المشاكلة بينه وبين من يخلق . والثالث : أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده ، كقوله أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها يعنى أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب ، لأنّ هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا . فإن قلت : هو إلزام للذين عبدوا الأوثان «2» وسموها آلهة تشبيها باللّه ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فكان حق الإلزام أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟ قلت : حين جعلوا غير اللّه مثل اللّه في تسميته باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه ، فقد جعلوا اللّه تعالى من جنس المخلوقات

وشبيهاً بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ

[سورة النحل (16) : الآيات 18 إلى 19]

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (19)

---

(1) . قال محمود : «إن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام . . . الخ» قال أحمد : هو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم ، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم ومن لا يخلق كالعاجزين والزمنى ، حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم وبين الأصنام بطريق الأولى ، ولقد تمكن منه الطمع حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتنزيله الآية على هذه التأويل ، ويتمنى لو تم له ذلك .

وما كل ما يتمنى المرء يدركه

(2) . عاد كلامه . قال : «فان قلت هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله تعالى وكان من حق الإلزام . . . الخ» قال أحمد : وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى فجدد بها عهدا .

لا تُحْصُوها لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر ، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيها على أنّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ من أعمالكم ، وهو وعيد .

[سورة النحل (16) : الآيات 20 إلى 21]

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21)

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ والآلهة الذين يدعوهم الكفار مِنْ دُونِ اللَّهِ وقرئ بالتاء . وقرئ : يدعون ، على البناء للمفعول . نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث ، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب . ومعنى أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات ، أى غير جائز عليها الموت كالحىّ الذي لا يموت وأمرهم على العكس من ذلك . والضمير في يُبْعَثُونَ للداعين ، أى لا يشعرون متى تبعث عبدتهم . وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم . وفيه دلالة على أنه لا بدّ من البعث وأنه من لوازم التكليف . ووجه آخر : وهو

أن يكون المعنى أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير ، وهم لا يقدرون على نحو ذلك ، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها ، غير أحياء يعنى أنّ من الأموات ما يعقب موته حياة ، كالنطف التي ينشئها اللّه حيوانا ، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها . وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق في موتها وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أى وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكما بحالها ، لأنّ شعور الجماد محال ، «1» فكيف بشعور ما لا يعلمه حىّ إلا الحىّ القيوم سبحانه . ووجه ثالث : وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة ، وكان ناس منهم يعبدونهم ، وأنهم أموات : أى لا بدّ لهم من الموت ، غير أحياء : غير باقية حياتهم . وما يشعرون : ولا علم لهم بوقت بعثهم . وقرئ : إيان ، بكسر الهمزة .

---

(1) . قوله «لأن شعور الجماد محال» أى شعوره بما يشعر به الحيوان محال ، فكيف بشعوره بما لا يعلمه حيوان وإنما يعلمه الحي القيوم ، وهو وقت البعث . ولعل في عبارة المصنف سقطاً تقديره : شعور الجماد بما يشعر به الحيوان . (ع)

[سورة النحل (16) : الآيات 22 إلى 23]

إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)

إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ يعنى أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره، وأنها له وحده لا شريك له فيها، فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها: استمرارهم على شركهم، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها لا جَرَمَ حقا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعنى المشركين. ويجوز أن يعمّ كل مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

[سورة النحل (16) : الآيات 24 إلى 25]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (25)

ما ذا منصوب بأنزل، بمعنى: أى شيء أَنْزَلَ رَبُّكُمْ أو مرفوع بالابتداء، بمعنى: أىّ شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ما يدّعون نزوله أساطير الأوّلين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأوّلين، كقوله ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ فيمن رفع. فإن قلت: هو كلام متناقض، لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير؟ قلت: هو على السخرية

كقوله :

إنّ رسولكم «1» وهو كلام بعضهم لبعض ، أو قول المسلمين لهم . وقيل : هو قول

المقتسمين :

الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قالوا أحاديث الأوّلين وأباطيلهم لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ أى قالوا ذلك إضلالا للناس وصدّا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فحملوا أوزار ضلالهم كامِلَةً وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم ، وهو وزر الإضلال ، لأن المضلّ والضال شريكان : هذا يضله ، وهذا يطاوعه على إضلاله ، فيتحاملان الوزر . ومعنى اللام التعليل من غير أن يكون غرضا ، كقولك : خرجت من البلد مخافة الشر بِغَيْرِ عِلْمٍ حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل .

---

(1) . قوله «على السخرية كقوله إن رسولكم» لعله : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . (ع) [. . . . . .]

[سورة النحل (16) : الآيات 26 إلى 29]

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

القواعد: أساطين البناء التي تعمده. وقيل: الأساس. وهذا تمثيل، يعنى: أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا «1» بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين «فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت، فسقط عليهم السقف وهلكوا. ونحوه: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا. وقيل: هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره مِنَ الْقَواعِدِ من جهة القواعد مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فأتى الله بيتهم. فخرّ عليهم السقف، بضمتين يُخْزِيهِمْ بذلهم بعذاب الخزي رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ يعنى هذا لهم في الدنيا، ثم العذاب في الآخرة شُرَكائِيَ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم تُشَاقُّونَ فِيهِمْ تعادون وتخاصمون

المؤمنين في شأنهم ومعناهم . وقرئ : تشاقون ، بكسر النون ، بمعنى : تشاقونني ، لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله قال الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم ، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم ، يقولون ذلك شماتة بهم وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه . وقيل : هم الملائكة .

قرئ : تتوفاهم ، بالتاء والياء .

وقرئ : الذين توفاهم ، بإدغام التاء في التاء فَأَلْقَوُا السَّلَمَ فسالموا وأخبتوا ، وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر ، وقالوا : ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان ، فردّ عليهم أولو العلم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فهو يجازيكم عليه ، وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 592.602 ﴾

---

(1) . قوله «ليمكروا بها الله ورسوله» لعل تعدية فعل المكر إلى مفعول لتضمنه معنى الخديعة . (ع)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾

قرأ حمزة ، والكسائي بالإمالة .

سبب نزولها : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] ، فقال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أنَّ القيامة قد اقتربت ، فأمْسِكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ، فلما رأوا أنَّه لا ينزل شيء ؛ قالوا : ما نرى شيئًا ! فأنزل الله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] فأشفقوا ، وانتظروا قرب الساعة ، فلما امتدَّت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئًا مما تخوِّفنا به .

فأنزل الله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ ، فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفع الناسُ رؤوسهم ، فنزل : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فاطمأنوا ، قاله ابن عباس .

وفي قوله : ﴿ أتى ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أتى بمعنى : يأتي ، كما يقال : أتاك الخير فأبشر ، أي : سيأتيك ، قاله ابن قتيبة ، وشاهدُه : ﴿ ونادى أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف 44] ، ﴿ وإِذ قال الله يا عيسى ﴾ [المائدة 116] ونحو ذلك .

والثاني : أتى بمعنى : قَرُب ، قال الزجاج : أعلم الله تعالى أن ذلك في قربه بمنزلة ما قد أتى .

والثالث : أن "أتى" للماضي ، والمعنى : أتى بعض عذاب الله ، وهو : الجدب الذي نزل

بهم، والجوع.

﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فينزل بكم مستقبلاً كما نزل ماضياً، قاله ابن الأنباري.

وفي المراد ب "أمر الله" خمسة أقوال:

أحدها: أنها الساعة، وقد يخرج على قول ابن عباس الذي قدمناه، وبه قال ابن قتيبة.

والثاني: خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس، يعني: أن خروجه من أمارات الساعة.

وقال ابن الأنباري: أتى أمر الله من أشراط الساعة، فلا تستعجلوا قيام الساعة.

والثالث: أنه الأحكام والفرائض، قاله الضحاك.

والرابع: عذاب الله، ذكره ابن الأنباري.

والخامس: وعيد المشركين، ذكره الماوردي.

(118/434)

قوله تعالى: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أي: لا تطلبوه قبل حينه، ﴿ سبحانه ﴾ أي: تنزيه له وبراءة من السوء عما يشركون به من الأصنام.

قوله تعالى: ﴿ ينزل الملائكة ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿ يُنْزِل ﴾ بإسكان النون

وتخفيف الزاي.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿ ينزِّل ﴾ بالتشديد، وروى الكسائي عن أبي بكر عن عاصم: ﴿ تُنزَّل ﴾ بالتاء مضمومة، وفتح الزاي مشددة. ﴿ الملائكةُ ﴾ رفع.

قال ابن عباس: يريد بالملائكة جبريل عليه السلام وحده.

وفي المراد بالروح ستة أقوال.

أحدها: الوحي، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: أنه النبوَّة، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: أن المعنى: تنزل الملائكة بأمره، رواه العوفي عن ابن عباس.

فعلى هذا يكون المعنى: أن أمر الله كلَّه روح.

قال الزجاج: الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد.

والرابع: أنه الرحمة.

قاله الحسن، وقتادة.

والخامس: أن أرواح الخلق: لا ينزل ملك إلا ومعه روح، قاله مجاهد.

والسادس: أنه القرآن، قاله ابن زيد.

فعلى هذا سماه روحاً، لأن الدين يحيا به، كما أن الروح تُحيي البدن.

وقال بعضهم : الباء في قوله : ﴿ بالروح ﴾ بمعنى : مع ، فالتقدير : مع الروح ، ﴿ من أمره ﴾ أي : بأمره ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ يعني : الأنبياء ، ﴿ أن أنذروا ﴾ قال الزجاج : والمعنى : أَنذِروا أهل الكفر والمعاصي ﴿ أنه لا إِله إلا أنا ﴾ أي : مُروهم بتوحيدي ، وقال غيره : أَنذروا بأنه لا إِله إلا أنا ، أي : مروهم بالتوحيد مع تخويفهم إِن لم يُقِرُّوا .

قوله تعالى : ﴿ خلق الإِنسان من نطفة ﴾ قال المفسرون : أخذ أُبيٌّ بن خلف عظماً رميماً ، فجعل يفتُّه ويقول : يا محمد كيف يبعث الله هذا بعدما رُمّ ؟

فنزلت فيه هذه الآية والخصيم : المخاصم ، والمبين : الظاهر الخصومه .

والمعنى : أنه مخلوق من نطفة ، وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأولة على آخرة ، وأن من قدر على إِيجاده أولاً ، يقدر على إِعادتة ثانيا ؟ ! وفية تنبية على إِنعام الله عليه حين نقله من حال ضعف النطفة إِلى القوة التي أمكنة معها الخصام .

قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ الأنعام : الإِبل ، والبقر ، والغنم .

قوله تعالى : ﴿ لكم فيها دفءٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه ما استدفىء به من أوبارها تتخذ ثياباً ، وأخبية ، وغير ذلك .

روى العوفي عن ابن عباس أنه قال : يعني بالدفء : اللباس ، وإِلى هذا المعنى ذهب الأكثرون .

والثاني : أنه نسلها .

روى عكرمة عن ابن عباس : ﴿ فيها دفءٌ ﴾ قال : الدفء : نسل كل دابة ، وذكر ابن السائب قال : يقال : الدفءُ أولادها ، ومن لا يحمل من الصغار ، وحكى ابن فارس اللغويّ عن الأمويّ ، قال : الدفء عند العرب : نتاج الإِبل وألبانها .

قوله تعالى : ﴿ ومنافع ﴾ أي : سوى الدفء من الجلود ، والألبان ، والنسل ، والركوب ، والعمل عليها ، إِلى غير ذلك ، ﴿ ومنها تأكلون ﴾ يعني : من لحوم الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ ولكم فيها جَمال ﴾ أي : زينة ، ﴿ حين تُريحون ﴾ أي : حين تردُّونها إِلى مراحها ، وهو المكان الذي تأوي إِليه ، فترجع عِظَامَ الضُّرُوعِ والأَسْنِمَة ، فيقال : هذا مال فلان ، ﴿ وحين تسرحون ﴾ : ترسلونها بالغداة إِلى مراعيها .

فإن قيل : لِمَ قدَّم الرَّواح وهو مؤخَّر ؟

فالجواب : أنها في حال الرواح تكون أجمل ؛ لأنها قد رعت ، وامتلأت ضروعها ، وامتدّت أسنمتها .

قوله تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ الإِشارة بهذا إِلى ما يطيق الحمل منها ، والأثقال : جمع

ثقل، وهو متاع المسافر.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِلى بلد ﴾ قولان:

أحدهما: أنه عامّ في كل بلد يقصِدُه المسافر، وهو قول الأكثرين.

(120/434)

والثاني: أن المراد به: مكة، قاله عكرمة، والأول أصح، والمعنى: أنها تحملكم إِلى كل بلد لو تكلفتم أنتم بلوغه لم تبلغوه إِلا بشِق الأنفس.

وفي معنى "شِق الأنفس" قولان:

أحدهما: أنه المشقة، قاله الأكثرون.

قال ابن قتيبة: يقال: نحن بشِق من العيش، أي: بجهد؛ وفي حديث أم زرع: "وجدني في أهل غُنَيْمَةٍ بشِقّ".

والثاني: أن الشِّق: النِّصف، فكان الجهد ينقص من قوة الرجل ونفسه كأنه قد ذهب نصفه، ذكره الفراء.

قوله تعالى: ﴿ إِن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي: حين مَنّ عليكم بالنعم التي فيها هذه المرافق.

قوله تعالى : ﴿ والخيل ﴾ أي : وخلق الخيل ﴿ والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ﴾ قال الزجاج : المعنى : وخلقها زينة .

فصل

ويجوز أكل لحم الخيل ، وإنما لم يُذكَر في الآية ، لأنه ليس هو المقصود ، وإنما معظم المقصود بها : الركوب والزينة ، وبهذا قال الشافعي .

وقال أبو حنيفة ، ومالك : لا تؤكل لحوم الخيل .

قوله تعالى : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ ذكر قوم من المفسرين : أن المراد به عجائب المخلوقات في السموات والأرض التي لم يُطَّلع عليها ، مثل ما يروى : أن لله ملكاً من صفته كذا ، وتحت العرش نهر من صفته كذا .

وقال قوم : هو ما أعد الله لأهل الجنة فيها ، ولأهل النار .

وقال أبو سليمان الدمشقي : في الناس مَن كره تفسير هذا الحرف .

وقال الشعبي : هذا الحرف من أسرار القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ القصد : استقامة الطريق ، يقال : طريق قصد وقاصد : إذا قصد بك ما تريد .

قال الزجاج : المعنى : وعلى الله تبيين الطريق المستقيم ، والدعاء إليه بالحجج والبرهان .

قوله تعالى : ﴿ ومنها جائر ﴾ قال أبو عبيدة : السبيل لفظه لفظ الواحد ، وهو في موضع

الجميع ، فكأنه قال : ومن السبل سبيل جائر .

قال ابن الأنباري : لما ذكر السبيل ، دلّ على السبل .

فلذلك قال : ﴿ ومنها جائر ﴾ كما دل الحَدَثان على الحوادث في قول العبدي :

(121/434)

وَلاَ يَبْقَى عَلَى الحَدَثَانِ حَيّ . . .

فَهَلْ يَبْقَى عليهِنَّ السِّلاَمُ

أراد : فهل يبقى على الحوادث ، والسِّلام : الصخور ، قال ويجوز أن يكون إنما قال : ﴿ ومنها ﴾ ، لأن السبيل تؤنث وتذكَّر ، فالمعنى : من السبيل جائر .

وقال ابن قتيبة : المعنى : ومن الطُّرق جائر لا يهتدون فيه ، والجائر : العادل عن القصد ،

قال ابن عباس : ومنها جائر الأهواء المختلفة .

وقال ابن المبارك : الأهواء والبدع .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماءً ﴾ يعني : المطر ﴿ لكم منه شراب ﴾ وهو ما تشربونه ، ﴿ ومنه شجر ﴾ ذكر ابن الأنباري في معناه قولين :

أحدهما : ومنه سَقي شجر ، وشرب شجر ، فخلف المضافُ إليه المضافَ ، كقوله : ﴿

وأُشربوا في قلوبهم العجل ﴾ [البقرة 93] .

والثاني : أن المعنى : ومن جهة الماء شجر ، ومن سقيه شجر ، ومن ناحيته شجر ،

فحُذف الأول ، وخلَفه الثاني ، قال زهير :

لِمَنِ الدّيارُ بقُنّةِ الحِجْرِ . . .

أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرِ

أي : من ممرّ حجج .

قال ابن قتيبة : والمراد بهذه الشجر : المرعى .

وقال الزجاج : كل ما نبت على الأرض فهو شجر ، قال الشاعر يصف الخيل :

يَعْلِفُهَا اللّحْمَ إذا عَزّ الشّجَرْ . . .

وَالخَيْلُ في إطعَامها اللّحْمَ ضَرَرْ

يعني : أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض .

و﴿ تُسيمون ﴾ بمعنى : ترعَون ، يقال : سامت الإبل فهي سائمة : إذا رعت ، وإنما أخذ

ذلك من السُّومة ، وهي : العلامة ، وتأويلها : أنها تؤثر في الأرض برعيها علامات .

قوله تعالى : ﴿ يُنبت لكم به الزرع ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم : "ننبت" بالنون .

قال ابن عباس : يريد الحبوب ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : ﴿ والنجومُ مسخراتٌ

بأمره ﴾ قال الأخفش: المعنى: وجعلَ النجوم مسخراتٍ، فجاز إضمار فعل غير الأول ،لأن هذا المضمر، في المعنى مثل المُظَهر، وقد تفعل العرب أَشدّ من هذا، قال الراجز:

(122/434)

تَسْمَعُ في أجوافِهِنّ صرَدَا . . .

وفي اليَديْنِ جُسْأَةً وَبَدَدَا

المعنى: وترى في اليدين.

والجُساأة: اليبس.

والبَدَد: السَّعة.

وقال غيره: قوله تعالى: ﴿ مسخرات ﴾ حال مؤكدة، لأن تسخيرها قد عرف بقوله تعالى: ﴿ وسخر ﴾ .

وقرأ ابن عامر: والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ، رفعاً كله، وروى حفص عن عاصم: بالنصب، كالجمهور، إلاّ قوله تعالى: ﴿ والنجومُ مسخراتٌ ﴾ فإنه رفعها.

قوله تعالى: ﴿ وما ذرأ لكم ﴾ أي: وسخر ما ذرأ لكم.

وذرأ بمعنى: خلق.

و"سخر البحر" أي : ذلَّله للركوب والغوص فيه ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرّياً ﴾ يعني : السمك ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ يعني : الدُّر ، واللؤلؤ ، والمرجان ، وفي هذا دلالة على أن حالفاً لو حلف : لا يلبس حُلِيّاً ، فلبس لؤلؤاً ، أنه يحنث ، وقال أبو حنيفة : لا يحنث .

قوله تعالى : ﴿ وترى الفلك ﴾ يعني : السفن .

وفي معنى ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ قولان :

أحدهما : جواري ، قاله ابن عباس .

قال اللغويون : يقال : مخرت السفينة مَخْراً : إذا شقت الماء في جريانها .

والثاني : المواقر ، يعني : المملوءة ، قاله الحسن .

وفي قوله تعالى : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ قولان :

أحدهما : بالركوب فيه للتجارة ابتغاء الربح من فضل الله .

والثاني : بما تستخرجون من حليته ، وتصيدون من حيتانه .

قال ابن الأنباري : وفي دخول الواو في قوله تعالى : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها معطوفة على لامٍ محذوفة ، تقديره : وترى الفلك مواخر فيه لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا .

والثاني : أنها دخلت لفعل مضمر ، تقديرهُ : وفعل ذلك لكي تبتغوا .

قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ أي : نصب فيها جبالاً ثوابت ﴿ أن تميد ﴾ أي : لئلاَّ تَميد ، وقال الزجاج : كراهة أن تميد ، يقال : ماد الرجل يميد مَيْداً : إِذا أُدير به ، وقال ابن قتيبة : الميد : الحركة والمَيْل ، يقال : فلان يميد في مشيته ، أي : يتكفَّأ .

(123/434)

قوله تعالى : ﴿ وأنهاراً ﴾ قال الزجاج : المعنى : وجعل فيها سُبُلاً ، لأن معنى "ألقى" : "جعل" ، فأما السبل ، فهي الطرق .

﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ أي : لكي تهتدوا إِلى مقاصدكم .

قوله تعالى : ﴿ وعلامات ﴾ فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها معالم الطرق بالنهار ، وبالنجم هم يهتدون وبالليل ، رواه العوفيّ عن ابن عباس .

والثاني : أنها النجوم أيضاً ، منها ما يكون علامة لا يُهتدى به ، ومنها ما يُهتدى به ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والنخعي .

والثالث : الجبال ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

وفي المراد بالنجم أربعة أقوال :

أحدها : أنه الثريّا ، والفرقدان ، وبنات نعش ، والجدي ، قاله السدي .

والثاني : أنه الجَدْي ، والفرقدان ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنه الجدي وحده ، لأنه أثبتُ النجومِ كلِّها في مركزه ، ذكره الماوردي .

والرابع : أنه اسم جنس ، والمراد جميع النجوم ، قاله الزجاج ، وقرأ الحسن ، والضحاك ، وأبو المتوكل ، ويحيى بن وثاب : "وبالنُّجْم" بضم النون وإسكان الجيم ، وقرأ الجحدري : "وبالنُّجُم" بضم النون والجيم ، وقرأ مجاهد : "وبالنجوم" بواوٍ على الجمع .

وفي المراد بهذا الاهتداء قولان :

أحدهما : الاهتداء إلى القِبلة .

والثاني : إلى الطريق في السفر .

قوله تعالى : ﴿ أفمن يَخلق كمن لا يخلق ﴾ يعني : الأوثان ، وإنما عبَّر عنها ب "مَن" ، لأنهم نحلوها العقل والتمييز ، ﴿ أفلا تَذَكَّرون ﴾ يعني : المشركين ، يقول : أفلا تتعظون كما اتعظ المؤمنون ؟ قال الفراء : وإنما جاز أن يقول : ﴿ كمن لا يخلق ﴾ ، لأنه ذُكر مع الخالق ، كقوله : ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رِجْلَيْن ﴾ [النور 45] ، والعرب تقول : اشتبه عليَّ الراكب وجملُه ، فما أدري مَن ذا مِن ذا ، لأنهم لما جمعوا بين الإنسان وغيره ، صلحت "مَن" فيهما جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ قد فسرناه في [إبراهيم : 34] .

قوله تعالى : ﴿ إِن الله لغفور ﴾ أي : لِما كان منكم من تقصيركم في شكر نعَمه ﴿ رحيم ﴾ بكم إِذ لم يقطعها عنكم بتقصيركم .

قوله تعالى : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ روى عبد الوارث ، إِلا القزاز "يسرون" و "يعلنون" بالياء .

قوله تعالى : ﴿ والذين تدعون من دون الله ﴾ قرأ عاصم : يدعون ، بالياء .

قوله تعالى : ﴿ أموات غيرُ أحياءٍ ﴾ يعني : الأصنام .

قال الفراء : ومعنى الأموات هاهنا : أنها لا روح فيها .

قال الأخفش : وقوله : ﴿ غير أحياءٍ ﴾ توكيد .

قوله تعالى : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ "أَيَّانَ" بمعنى : "متى" .

وفي المشار إِليهم قولان :

أحدهما : أنها الأصنام ، عبّر عنها كما يُعبّر عن الآدميين .

قال ابن عباس : وذلك أن الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها ، فيتبرَّؤون من عبادتهم ، ثم يُؤمر بالشياطين والذين كانوا يعبدونها إِلى النار .

والثاني: أنهم الكفار، لا يعلمون متى بعثهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ إِلهكم إله واحد ﴾ قد ذكرناه في سورة [البقرة: 163].

قوله تعالى: ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي: بالبعث والجزاء ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ أي: جاحدة لا تعرف التوحيد ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي: ممتنعون من قبول الحق.

قوله تعالى: ﴿ لا جَرَمَ ﴾ قد فسرناه في [هود: 22]، ومعنى الآية: أنَّه يجازيهم بسرِّهم وَعَلنهم، لأنه يعلمه.

والمستكبرون: المتكبرون عن التوحيد والإِيمان.

وقال مقاتل: "ما يُسرون" حين بَعثوا في كل طريق مَنْ يصدُّ الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، "وما يعلنون" حين أظهروا العداوة لرسول الله.

قوله تعالى: ﴿ وإِذا قيل لهم ﴾ يعني: المستكبرين ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال الزجاج: "ماذا" بمعنى "ما الذي".

و﴿ أساطير الأولين ﴾ مرفوعة على الجواب، كأنهم قالوا: الذي أُنزل: أساطيرُ الأولين، أي: الذي تذكرون أنتم أنه منزَّل: أساطير الأولين.

وقد شرحنا معنى الأساطير في [الأنعام : 25] .

قال مقاتل : الذين بعثهم الوليد بن المغيرة في طرق مكة يصدُّون الناس عن الإيمان ، ويقول بعضهم : إن محمداً ساحر ، ويقول بعضهم : شاعر ، وقد شرحنا هذا المعنى في [الحجر : 90] في ذكر المقتسمين .

قوله تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم ﴾ هذه لام العاقبة ، وقد شرحناها في غير موضع ، والأوزار : الآثام ، وإنما قال : كاملة ، لأنه لم يُكَفَّرْ منها شيء بما يُصيبهم من نكبة ، أو بليَّة ، كما يُكَفَّرُ عن المؤمن ، ﴿ ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم ﴾ أي : أنهم أضلُّوهم بغير دليل ، وإنما حملوا من أوزار الأتباع ، لأنهم كانوا رؤساء يقتدى بهم في الضلالة ، وقد ذكر ابن الأنباري في "مِنْ" وجهين :

أحدهما : أنها للتبعيض ، فهم يحملون ما شَرِكوهم فيه ، فَأَمَّا مَا ركبه أولئك باختيارهم من غير تزيين هؤلاء ، فلا يحملونه ، فيصح معنى التبعيض .

والثاني : أن "مِنْ" مُؤكِّدة ، والمعنى : وأوزار الذين يضلونهم .

﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي : بئس ما حملوا على ظهورهم .

قوله تعالى : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ قال المفسرون : يعني به : النمرود ابن كنعان ، وذلك أنه بنى صرحاً طويلاً .

واختلفوا في طوله ، فقال ابن عباس : خمسة آلاف ذراع ، وقال مقاتل : كان طوله فرسخين

، قالوا : ورام أن يصعد إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه .

ومعنى "المكر" هاهنا : التدبير الفاسد .

وفي الهاء والميم من "قبلهم" قولان :

أحدهما : أنها للمقتسمين على عقاب مكة ، قاله ابن السائب .

والثاني : لكفار مكة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فأتى الله بنيانَهم من القواعد ﴾ أي : من الأساس .

قال المفسرون : أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر ، وخَرَّ عليهم الباقي .

(126/434)

قال السدي : لما سقط الصرح ، تَبَلْبَلَتْ أَلسُن الناس من الفزع ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً ، فلذلك سميت "بابل" ، وإِنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية ، وهذا قول مردود ، لأن التَّبَلْبُل يُوجب الاختلاط والتكلمَ بشيء غير مستقيم ، فأما أن يوجب إِحداث لغة مضبوطة الحواشي ، فباطل ، وإِنما اللغات تعليم من الله تعالى .

فإن قيل : إِذا كان الماكر واحداً ، فكيف قال : "الذين" ولم يقل : "الذي" ؟ ، فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه كان الماكر ملكاً له أتباع ، فأدخلوا معه في الوصف .

والثاني : أن العرب توقع الجمع على الواحد ، فيقول قائلهم : خرجت إلى البصرة على البغال ، وإنما خرج على بغل واحد .

والثالث : أن "الذين" غير موقع على واحد معين ، لكنه يراد به : قد مكر الجبارون الذين من قبلهم ، فكان عاقبة مكرهم رجوع البلاء عليهم ، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري : قال : وذكر بعض العلماء : أنه إنما قال : "من فوقهم" ، لينبه على أنهم كانوا تحته ، إذ لو لم يقل ذلك ، لاحتمل أنهم لم يكونوا تحته ، لأن العرب تقول : سقط علينا البيت ، وخَرَّ علينا الحانوت ، وتداعت علينا الدار ، وليسوا تحت ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وأتاهم العذاب من حيثُ لا يشعرون ﴾ أي : من حيث ظنوا أنهم آمنون فيه .

قال السدي : أُخذوا من مأمنهم .

وروى عطية عن ابن عباس قال : خَرَّ عليهم عذاب من السماء .

وعامة المفسرين على ما حكيناه من أنه بنيان سقط .

وقال ابن قتيبة : هذا مَثَل ، والمعنى : أهلكهم الله ، كما هلك من هُدِم مسكنه من أسفله ، فخر عليه .

قوله تعالى : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ أي : يذلُّهم بالعذاب .

﴿ ويقول أين شركائي ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، "شركائيَ الذين" بهمزة وفتح الياء، وقال البزِّيُّ عن ابن كثير: "شركايَ" مثل: هدايَ، والمعنى: أين شركائي على زعمكم؟ هلاّ دفعوا عنكم!.

(127/434)

﴿ الذين كنتم تشاقُّون فيهم ﴾ أي: تخالفون المسلمين فتعبدونهم وهم يعبدون الله، وقرأ نافع: "تشاقُّونِ" بكسر النون، أراد: تشاقُّونني، فحذف النون الثانية، وأبقى الكسرة تدل عليها، والمعنى: كنتم تنازعونني فيهم، وتخالفون أمري لأجلهم.

قوله تعالى: ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ فيهم ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم الملائكة، قاله ابن عباس.

والثاني: الحفظة من الملائكة، قاله مقاتل.

والثالث: أَنهم المؤمنون.

فأمّا "الخِزي" فقد شرحناه في مواضع [آل عمران 192] و"السُّوءُ" هاهنا: العذاب.

قوله تعالى: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسِهم ﴾ قال عكرمة: هؤلاء قوم كانوا بمكة أقرُّوا بالإِسلام ولم يُهاجروا، فأخرجهم المشركون كرهاً إِلى بدر، فقتل بعضهم.

وقد شرحنا هذا في سورة [النساء : 97] .

قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ قال ابن قتيبة : انقادوا واستسلموا ، والسَّلَم : الاستسلام .

قال المفسرون : وهذا عند الموت يتبرؤون من الشرك ، وهو قولهم : ﴿ ما كُنَّا نعمل من سوءٍ ﴾ وهو الشرك ، فتردُّ عليهم الملائكة فتقول : "بلى" .

وقيل : هذا ردُّ خزنة جهنم عليهم ﴿ بلى إِن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ من الشرك والتكذيب .

ثم يقال لهم : ادخلوا أبواب جهنم ، وقد سبق تفسير ألفاظ الآية [النساء 97] و [الحجر 44] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(128/434)

وقال النسفى :

﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾

أي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تبرأ جل وعز عن أن يكون له شريك وعن إشراكهم ، ف ﴿ ما ﴾

موصولة أو مصدرية ، واتصال هذا باستعجالهم من حيث إن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ وبالتخفيف مكي وأبو عمرو ﴿ بالروح ﴾ بالوحي أو بالقرآن لأن كلاً منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد أو يحيي القلوب الميتة بالجهل ﴿ مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُواْ ﴾ أن مفسرة لأن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى أنذروا ﴿ أَنَّهُ لآ إله إِلا أَنَاْ فاتقون ﴾ أعلموا بأن الأمر ذلك من نذرت بكذا إذا علمته ، والمعنى أعلموا الناس قولي لا إله إلّا أنا فاتقون فخافون .

وبالياء : يعقوب ، ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السماوات والأرض وهو قوله

﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وبالتاء في الموضعين : حمزة وعلي .

وخلق الإنسان وما يكون منه وهو قوله ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح لخصومه مبين لحجته بعدما كان نطفة لا حس به ولا حركة ، أو فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيى العظام وهي رميم .

وهو وصف للإنسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة وخلق ما لا بد منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وحمل أثقاله وسائر حاجاته وهو قوله ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ وهي الأزواج الثمانية وأكثر ما يقع على الإبل ، وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ [ياس : 39] أو بالعطف على الإنسان أي خلق الإنسان والأنعام ثم قال خلقها لكم أي ما خلقها إلا لكم يا جنس الإنسان ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر ﴿ ومنافع ﴾ وهي نسلها ودرها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ قدم الظرف وهو يؤذن بالاحتصاص ، وقد يؤكل من غيرها لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ ترسلونها بالغداة إلى مسارحها .

منّ الله تعالى بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشي لأن الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية ، وفرحت أربابها وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس .

وإنما قدمت الإراحة على التسريح لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أحمالكم ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ وبفتح الشين : أبو جعفر وهما لغتان في معنى المشقة .

وقيل : المفتوح مصدر شق الأمر عليه وشقا وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع ، وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد .

والمعنى وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تخلق الإبل إلا بجهد ومشقة فضلاً أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم ، أو معناه لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس .

(130/434)

وقيل : أثقالكم أبدانكم ومنه الثقلان للجن والإنس ومنه ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : 2] أي بني آدم ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ عطف على الأنعام أي وخلق هذه للركوب والزينة ، وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله على حرمة أكل لحم الخيل بأنه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الأكل بعدما ذكره في الأنعام ، ومنفعة الأكل أقوى ، والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنة أدنى النعمتين ويترك أعلاهما .

وانتصاب ﴿ زينة ﴾ على المفعول له عطفاً على محل ﴿ لتركبوها ﴾ وخلق مالا تعلمون من أصناف خلائقه وهو قوله ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ومنْ هذا وصفه يتعالى عن أن يشرك به غيره ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ المراد به الجنس ولذا قال ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد .

يقال : سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه ، ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق عليه كقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ [الليل : 12] وليس ذلك للوجوب إذ لا يجب على الله شيء ولكن يفعل ذلك تفضلاً .

وقيل : معناه وإلى الله .

وقال الزجاج : معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء إليه بالحجج ﴿ ومنها جائر ﴾ أي من السبيل مائل عن الاستقامة ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أراد هداية اللطف بالتوفيق والإنعام بعد الهدى العام .

(131/434)

﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ ﴿ لكم ﴾ متعلق ب "أنزل" أو خبر ل "شراب" وهو ما يشرب ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ يعني الشجر الذي ترعاه المواشي ﴿ فِيهِ

تُسِيمُونَ ﴾ من سامت الماشية إذا رعت فهي سائمة وأسامها صاحبها وهي من السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والاعناب وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ ولم يقل كل الثمرات لأن كلها لا تكون إلا في الجنة وإنما أنبت في الأرض بعض من كل للتذكرة ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته والآية الدلالة الواضحة ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ بنصب الكل : عليّ وجعل النجوم مسخرات والنجوم مسخرات فقط : حفص ﴿ والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخرات ﴾ شامي على الابتداء والخبر ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ جمع الآية .

وذكر العقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأرض ﴾ معطوف على ﴿ الليل والنهار ﴾ أي ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك ﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ حال ﴿ أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتعظون

﴿ وَهُوَ الذى سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيّاً ﴾ هو السمك ، ووصفه بالطراوة لأن الفساد ، يسرع إليه فيؤكل سريعاً طرياً خيفة الفساد وإنما لا يحنث بأكله إذا حلف لا يأكل لحماً لأن مبني الإيمان على العرف .

ومن قال لغلامه : اشتر بهذه الدراهم لحماً ، فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار ﴿

وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ هي اللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن إنما يتزين بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم .

(132/434)

﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ ﴾ جواري تجري جرياً وتشق الماء شقاً والمخر شق الماء بحيزومها ﴿ فِيهِ ﴾ في البحر ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ هو عطف على محذوف أي لتعتبروا ولتبتغوا وابتغاء الفضل التجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ما أنعم عليكم به ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهية أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم لكن حذف المضاف أكثر .

قيل : خلق الله الأرض فجعلت تميد فقالت الملائكة : ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿ وأنهارا ﴾ وجعل فيها أنهاراً لأن ألقى فيه معنى جعل ﴿ وَسُبُلاً ﴾ طرقاً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدكم أو إلى توحيد ربكم ﴿ وعلامات ﴾ هي معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ المراد بالنجم الجنس أو هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى .

فإن قلت : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون فمن المراد بهم؟ قلت : كأنه أراد قريشاً فلهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ولهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ أي الله تعالى ﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ أي الأصنام وجيء ب ﴿ من ﴾ الذي هو لأولي العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم ، أو لأن المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده .

(133/434)

وإنما لم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره إياه لكونه إلزاماً للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله لأنهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها فأنكر عليهم ذلك بقوله ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ وهو حجة على المعتزلة في خلق الأفعال ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفون فساد ما أنتم عليه ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر ، وإنما اتبع ذلك ما عدد من

نعمه تنبيهاً على أن ما رواءها لا ينحصر ولا يعد ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتفريطكم .

﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ من أقوالكم وأفعالكم وهو وعيد ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ وبالتاء : غير عاصم ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ ﴾ أي هم أموات ﴿ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث ، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات جاهلون بالبعث ، ومعنى ﴿ أموات غير أحياء ﴾ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي غير جائز عليها الموت وأمرهم بالعكس من ذلك .

والضمير في ﴿ يبعثون ﴾ للداعين أي لا يشعرون متى تبعث عبدتهم ، وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم ، وفيه دلالة على أنه لا بد من البعث

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ أي ثبت بما مر أن الإلهية لا تكون لغير الله وأن معبودكم واحد ﴿ فالذين لا يُؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ للوحدانية ﴿ وهم مستكبرون ﴾ عنها وعن الإقرار بها ﴿ لا جرم ﴾ حقا ﴿ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي سرهم وعلانيتهم فيجازيهم وهو وعيد ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ عن التوحيد يعني المشركين.

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ ﴿ ماذا ﴾ منصوب ب ﴿ أنزل ﴾ أي أي شيء أنزل ربكم، أو مرفوع على الابتداء أي أي شيء أنزله ربكم و ﴿ أساطير ﴾ خبر مبتدأ محذوف.

قيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أساطير الأولين أي أحاديث الأولين وأباطيلهم واحدتها أسطورة، وإذا رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونهم بصدقه وأنه نبي فهم الذين قالوا خيراً ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾ أي قالوا ذلك إضلالاً للناس فحملوا أوزار

ضلالهم كاملة وبعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الإضلال لأن المضل والضال شريكان واللام للتعليل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ محل "ما" رفع ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى الله بنيانهم مّنَ القواعد ﴾ أي من جهة القواعد وهي الأساطين ، وهذا تمثيل يعني أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا ، والجمهور على أن المراد به نمرود بن كنعان حين بني الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا فأتى الله أي أمره بالاستئصال ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾ يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ﴿ تشاقون

﴿ نافع أي تشاقونني فيهم لأن مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله ﴾ ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ أي الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم فلا يلتفتون إليهم ويشاقونهم يقولون ذلك شماتة بهم أو هم الملائكة ﴿ إِنَّ الخزى اليوم ﴾ الفضيحة ﴿ والسوء ﴾

العذاب ﴿ عَلَى الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ وبالياء : حمزة وكذا ما بعده ﴿ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ بالكفر بالله ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ أي الصلح والاستسلام أي أخبتوا وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق وقالوا ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفران والعداوة فرد عليهم أولو العلم وقالوا ﴿ بلى إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك ﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 280. 285 ﴾

(137/434)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أتى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلوهُ ﴾

كانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم من قيام الساعة ، أو إهلاك الله تعالى إياهم كما فعل يوم بدر استهزاءً وتكذيباً ، ويقولون إن صح ما تقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت ، والمعنى أن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع ، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه . ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تبرأ وجل عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على وفق قوله : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ والباقون بالياء على تلوين الخطاب ، أو على أن الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم ، لما روي أنه لما نزلت أتى أمر الله فوثب النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم فنزلت ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ .

(138/434)

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح ﴾ بالوحي أو القرآن ، فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل ، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ، وذكره عقيب ذلك إشارة إلى الطريق الذي به علم الرسول صلى الله عليه وسلم ما تحقق موعدهم به ودنوه وإزاحة لاستبعادهم اختصاصه بالعلم به . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يُنَزِّلِ ﴾ من أنزل ، وعن يعقوب مثله وعنه "تنزل" بمعنى

تتنزل. وقرأ أبو بكر "تنزل" على المضارع المبني للمفعول من التنزيل. ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ بأمره أو من أجله. ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أن يتخذه رسولاً. ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا ﴾ بأن أنذروا أي اعلموا من نذرت بكذا إذا علمته. ﴿ أَنَّهُ لا إله إلا أَنَا فاتقون ﴾ أن الشأن ﴿ لا إله إلا أَنَا فاتقون ﴾، أو خوفوا أهل الكفر والمعاصي بأنه ﴿ لا إله إلا أَنَا ﴾ وقوله ﴿ فاتقون ﴾ رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود، و﴿ أن ﴾ مفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول، أو مصدرية في موضع الجر بدلاً من الروح أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة. والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وأن حاصله التنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية. وأن النبوة عطائية والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقدر على ذلك فيلزم التمانع.

﴿ خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته. ﴿ تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقائه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما. وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام.

﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جماد لا حس بها ولا حراك سيالة لا تحفظ الوضع والشكل. ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ منطيق مجادل. ﴿ مُّبِينٌ ﴾ للحجة أو خصيم مكافح لخالقه قائل: ﴿ مَن يُحيِى العظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ روي أن أُبَي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمَّ. فنزلت.

﴿ والأنعام ﴾ الإبل والبقر والغنم وانتصابها بمضمر يفسره. ﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ أو بالعطف على الإنسان، وخلقها لكم بيان ما خلقت لأجله وما بعده تفصيل له. ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ما يدفأ به فيقي البرد. ﴿ ومنافع ﴾ نسلها ودرها وظهورها، وإنما عبر عنها بالمنافع ليتناول عوضها. ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان، وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، أو لأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش، وأما الأكل من سائر الحيوانات المأكولة فعلى سبيل التداوي أو التفكه.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ زينة. ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي. ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها بالغداة إلى المراعي فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها، وتقديم الاراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرىء "حيناً" على

أن ﴿ تُرِيحُونَ ﴾ ﴿ وتسرحون ﴾ وصفان له بمعنى ﴿ تُرِيحُونَ ﴾ فيه ﴿ وتسرحون ﴾ فيه .

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أحمالكم . ﴿ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه ﴾ أي إن لم تكن الأنعام ولم تخلق فضلاً أن تحملوها على ظهوركم إليه . ﴿ إِلاَّ بِشِقّ الأنفس ﴾ إلا بكلفة ومشقة . وقرىء بالفتح وهو لغة فيه . وقيل المفتوح مصدر شق الأمر عليه وأصله الصدع والمكسور بمعنى النصف ، كأنه ذهب نصف قوته بالتعب . ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم .

﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ عطف على ﴿ الأنعام ﴾ . ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ أي لتركبوها وتتزينوا بها زينة . وقيل هي معطوفة على محل ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ وتغيير النظم لأن الزينة بفعل الخالق والركوب ليس بفعله ، ولأن المقصود مِنْ خَلْقِهَا الركوب وأما التزين بها فحاصل بالعرض . وقرىء بغير واو وعلى هذا يحتمل أن يكون علة ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ أو مصدراً في موضع الحال من أحد الضميرين أي : متزينين أو متزيناً بها ، واستدل به على حرمة لحومها ولا دليل فيه إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غالباً أن لا يقصد منه غيره

أصلاً ، ويدل عليه أن الآية مكية وعامة المفسرين والمحدثين على أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر . ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ لما فصل الحيوانات التي يحتاج إليها غالباً احتياجاً ضرورياً أو غير ضروري أجمل غيرها ، ويجوز أن يكون إخباراً بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ، وأن يراد به ما خلق في الجنة والنار مما لم يخطر على قلب بشر .

﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق ، أو إقامة السبيل وتعديلها رحمة وفضلاً ، أو عليه قصد السبيل يصل إليه من يسلكه لا محالة يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه ، والمراد من ﴿ السبيل ﴾ الجنس ولذلك أضاف إليه ال ﴿ قَصْدُ ﴾ وقال : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ حائد عن القصد أو عن الله ، وتغيير الأسلوب لأنه ليس بحق على الله تعالى أن يبين طرق الضلالة ، أو لأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض . وقرىء و"منكم جائر" أي عن القصد . ﴿ وَلَوْ شَاء ﴾ الله . ﴿ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتداء .

﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ من السحاب أو من جانب السماء . ﴿ مَآءً لَّكُم مَّنْهُ

شَرَابٌ ﴾ ما تشربونه ، ﴿ وَلَكُمْ ﴾ صلة ﴿ أَنزَلَ ﴾ أوخبر ﴿ شَرَابٌ ﴾ و ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية متعلقة به ، وتقديمها يوهم حصر المشروب فيه ولا بأس به لأن مياه العيون والآبار منه لقوله : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ ﴾ ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ ومنه يكون شجر يعني الشجر الذي ترعاه المواشي . وقيل كل ما نبت على الأرض شجر قال :

يَعْلِفُهَا اللَّحْمَ إِذَا عَزَّ الشَّجَر . . . وَالخَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّحْم ضَرَر

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون ، من سامت الماشية وأسامها صاحبها ، وأصله السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات .

(142/434)

﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع ﴾ وقرأ أبو بكر بالنون على التفخيم . ﴿ والزيتون والنخيل والاعناب وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ وبعض كلها إذا لم ينبت في الأرض كل ما يمكن من الثمار ، ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لأنه سيصير غذاء حيوانياً هو أشرف الأغذية ، ومن هذا تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ على وجود الصانع وحكمته ، فإن من تأمل أن الحبة تقع في الأرض وتصل إليها

نداوة تنفذ فيها ، فينشق أعلاها ويخرج منه ساق الشجرة ، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها . ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع مع اتحاد المواد ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل ، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ولعل فصل الآية به لذلك .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ﴾ بأن هيأها لمنافعكم . ﴿ مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ حال من الجميع أي نفعكم بها حال كونها مسخرات لله تعالى خلقها ودبرها كيف شاء ، أو لما خلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه ، وفيه إيذان بالجواب عما عسى أن يقال إن المؤثر في تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها ، فإن ذلك إن سلم فلا ريب في أنها أيضاً ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجود المحتملة ، فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعاً للدور والتسلسل ، أو مصدر ميمي جمع لاختلاف الأنواع .

وقرأ حفص ﴿ والنجوم مسخرات ﴾ على الابتداء والخبر فيكون تعميماً للحكم بعد تخصيصه ورفع ابن عامر ﴿ الشمس والقمر ﴾ أيضاً . ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ جمع الآية ، وذكر العقل لأنها تدل أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة غير محوجة إلى استيفاء فكر كأحوال النبات .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرض ﴾ عطف على ﴿ الليل ﴾ ، أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات . ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أصنافه فإنها تتخالف باللون غالباً . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ إن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم .

﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر ﴾ جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص . ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ هو السمك ، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يسرع إليه الفساد فيسارع إلى أكله ، ولإِظهار قدرته في خلقه عذباً طرياً في ماء زعاق ، وتمسك به مالك والثوري على أن من حلف أن لا يأكل لحماً حنث بأكل السمك . وأجيب عنه بأن مبنى الإِيمان على العرف وهو لا يفهم منه عند الإِطلاق ألا ترى أن الله تعالى سمى الكافر دابة ولا يحنث الخالق على أن لا يركب دابة بركوبه . ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كاللؤلؤ والمرجان أي تلبسها نساؤكم ، فأسند إليهم لأنهن من جملتهم ولأنهن يتزين بها لأجلهم . ﴿ وَتَرَى الفلك ﴾ السفن . ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ جواري فيه تشقه بحيزومها ، من المخر وهو شق الماء . وقيل صوت جري الفلك . ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾

من سعة رزقه بركوبها للتجارة . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي تعرفون نعم الله تعالى فتقومون بحقها ، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الأنعام من حيث أنه جعل المهالك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش .

(144/434)

﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً رواسي . ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب ، وذلك لأن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع ، وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك ، أو أن تتحرك بأدنى سبب للتحريك فلما خلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة . وقيل لما خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة : ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال . ﴿ وأنهارا ﴾ وجعل فيها أنهاراً لأن ألقى فيه معناه . ﴿ وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لمقاصدكم ، أو إلى معرفة الله سبحانه وتعالى .

﴿ وعلامات ﴾ معالم يستدل بها السابلة من جبل وسهل وريح ونحو ذلك . ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بالليل في البراري والبحار ، والمراد بالنجم الجنس ويدل عليه قراءة

"وبالنجم" بضمتين وضمة وسكون على الجمع . وقيل الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي ، ولعل الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم ، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون ، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم .

(145/434)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ إنكار بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته ، والتفرد بخلق ما عدد من مبدعاته لأن يساويه ويستحق مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك بل على إيجاد شيء ما ، وكان حق الكلام أفمن لا يخلق كمن يخلق ، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها ، والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلباً فيه أولو العلم منهم أو الأصنام ، وأجروها مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة ومن حق الإله أن يعلم ، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق أو للمبالغة وكأنه قيل : إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده ، ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفوا فساد

ذلك فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات .

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ لا تضبطوا عددها فضلاً أن يطيقوا القيام بشكرها ، أتبع ذلك تعداد النعم وإلزام الحجة على تفرده باستحقاق العبادة تنبيهاً على أن وراء ما عَدَّدَ نعماً لا تنحصر ، وأن حق عبادته تعالى غير مقدور . ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ لا يقطعها لتفريطكم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها .

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ من عقائدكم وأعمالكم ، وهو وعيد وتزييف للشرك باعتبار العلم بعد تزييفه باعتبار القدرة .

(146/434)

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي والآلهة الذين تعبدونهم من دونه . وقرأ أبو بكر "يدعون" بالياء . وقرأ حفص ثلاثتها بالياء . ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ لما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق بين أنهم لا يخلقون شيئاً لينتج أنهم لا يشاركونه ، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافي الألوهية فقال : ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لأنهم ذوات ممكنة مفتقرة الوجود إلى التخليق ، والإِله ينبغي أن يكون واجب الوجود .

﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ هم أموات لا تعتريهم الحياة ، أو أموات حالاً أو مآلاً . ﴿ غَيْرُ أَحْيَاء ﴾ بالذات ليتناول كل معبود ، والإِله ينبغي أن يكون حياً بالذات لا يعتريه الممات . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ولا يعلمون وقت بعثهم ، أو بعث عبدتهم فكيف يكون لهم وقت جزاء على عبادتهم ، والإِله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب مقدراً للثواب والعقاب ، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف .

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ تكرير للمدعى بعد إقامة الحجج . ﴿ فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ . بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم إيمانهم بالآخرة ، فإن المؤمن بها يكون طالباً للدلائل متأملاً فيما يسمع فينتفع به ، والكافر بها يكون حاله بالعكس وإنكار قلوبهم ما لا يعرف إلا بالبرهان إتباعاً للأسلاف وركوناً إلى المألوف ، فإنه ينافي النظر والاستكبار عن اتباع الرسول وتصديقه والالتفات إلى قوله ، والأول هو العمدة في الباب ولذلك رتب عليه ثبوت الآخرين .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ حقاً . ﴿ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فيجازيهم ، وهو في موضع الرفع ب ﴿ جَرَمَ ﴾ لأنه مصدر أو فعل . ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين ﴾ فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع الرسول .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ القائل بعضهم على التهكم أو الوافدون عليهم أو المسلمون. ﴿ قَالُواْ أساطير الأولين ﴾ أي ما تدعون نزوله، أو المنزل أساطير الأولين، وإنما سموه منزلاً على التهكم أو على الفرض أي على تقدير أنه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه، والقائلون قيل هم المقتسمون.

﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة ﴾ أي قالوا ذلك إضلالاً للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة فإن إضلالهم نتيجة رسوخهم في الضلال. ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ وبعض أوزار ضلال من يضلونهم وهو حصة التسبب. ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم، إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق والمبطل. ﴿ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ بئس شيئاً يزرونه فعلهم.

﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام. ﴿ فَأَتَى الله بنيانهم مِّنَ القواعد ﴾ فأتاها أمره من جهة العمد التي بنوا عليها بأن ضعضعت. ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ وصار سبب هلاكهم. ﴿ وأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل. وقيل

المراد به نمروذ بن كنعان بنى الصرح ببابل سمكه خمسة آلاف ذراع ليترصد أمر السماء ، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا .

(148/434)

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ ﴾ يذلهم أو يعذبهم بالنار كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ أضاف إلى نفسه استهزاء ، أو حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم . ﴿ الذين كُنتُمْ تشاقون فِيهِمْ ﴾ تعادون المؤمنين في شأنهم . وقرأ نافع بكسر النون بمعنى تشاقونني فإن مشاقة المؤمنين كمشاقة الله عز وجل . ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ أي الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد فيشاقونهم ويتكبرون عليهم ، أو الملائكة . ﴿ إِنَّ الخزي اليوم والسوء ﴾ الذلة والعذاب . ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ وفائدة قولهم إظهار الشماتة بهم وزيادة الإِهانة ، وحكايته لأن يكون لطفاً ووعظاً لمن سمعه .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ وقرأ حمزة بالياء . وقرىء بإدغام في التاء وموضع الموصول يحتمل الأوجه الثلاثة ﴿ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ بأن عرضوها للعذاب المخلد . ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ فسالموا وأخبتوا حين عاينوا الموت . ﴿ مَا كُنَّا ﴾ قائلين ما كنا . ﴿ نَعْمَلُ مِن

سُوء ﴾ كفر وعدوان ، ويجوز أن يكون تفسيراً ل ﴿ السلم ﴾ على أن المراد به القول الدال على الاستسلام . ﴿ بلى ﴾ أي فتجيبهم الملائكة بلى . ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهو يجازيكم عليه ، وقيل قوله : ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ إلى آخر الآية استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة ، وعلى هذا أول من لم يجوز الكذب يومئذ ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء ﴾ بأنا لم نكن في زعمنا واعتقادنا عاملين سوءاً ، ويحتمل أن يكون الراد عليهم هو الله تعالى ، أو أولوا العلم .

﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ كل صنف بابها المعد له . وقيل أبواب جهنم أصناف عذابها . ﴿ خالدين فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 384. 394 ﴾

(149/434)

وقال ابن جزى :

﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾

قيل : النصر على الكفار ، وقيل : عذاب الكفار في الدنيا ، ووضع الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوع الأمر ولقربه ، وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله صلى الله عليه

وسلم قائماً فلما قال : فلا تستعجلوه سكن ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح ﴾ أي بالنبوة وقيل بالوحي ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي من نطفة المني ، والمراد جنس الإنسان ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن معناه متكلم يخاصم عن نفسه ، والثاني : يخاصم في ربه ودينه ، وهذا في الكفار ، والأول أعم .

(150/434)

﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي ما يتدفأ به ، يعني ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب ، ويحتمل أن يكون قوله : لكم متعلق بما قبله أو بما بعده ويختلف الوقوف باختلاف ذلك ﴿ ومنافع ﴾ يعني شرب ألبانها ، والحرث بها وغير ذلك ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ يحتمل أن يريد بالمنافع ما عدا الأكل فيكون الأكل أمراً زائداً عليها ، أو يريد بالمنافع الأكل وغيره ، ثم جرد ذكر الأكل لأنه أعظم المنافع ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ الجمال حسن المنظر ، وحين تريحون يعني حين تردونها بالعشي إلى المنازل ، وحين تسرحون حين تردونها بالغداة إلى الرعي ، وإنما قدم تريحون على تسرحون ، لأن جمال الأنعام بالعشي أكثر لأنها ترجع وبطونها ملأى وضروعها حافلة ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ يعني الأمتعة وغيرها وقيل : أجساد بني آدم ﴿ إلى بَلَدٍ ﴾ أي إلى أي بلد توجهتم ، وقيل : يعني مكة

﴿ بِشِقِّ الأنفس ﴾ أي بمشقة ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ استدل بعض الناس به على تحريم أكل الخيل والبغال والحمير ، لكونه علل خلقتها بالركوب والزينة دون الأكل ، ونصب زينة على أنه مفعول من أجله ، وهو معطوف على موضع لتركبوها ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ عبارة على العموم أي أن مخلوقات الله لا يحيط البشر بعلمها ، وكل ما ذكر في هذه الآية شيئاً مخصوصاً فهو على وجه المثال .

(151/434)

﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾ أي على الله تقويم طريق الهدى ، بنصب الأدلة وبعث الرسل والمراد بالسبيل هنا : الجنس ، ومعنى القصد الموصل ، وإضافته إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ الضمير في منها يعود على السبيل إذ المراد به : الجنس ومعنى الجائر : الخارج عن الصواب : أي ومن الطريق جائر كطريق اليهود والنصارى وغيرهم ﴿ مَآءً لَّكُم ﴾ يحتمل أن يتعلق لكم بأنزل أو يكون في موضع خبر لشراب ، أو صفة لسماء ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ يعني ما ينبت بالمطر من الشجر ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي ترعون أنعامكم .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرض ﴾ يعني الحيوان والأشجار والثمار وغير ذلك ﴿ مُخْتَلِفاً

ألوانه ﴾ أي أصنافه وأشكاله ﴿ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ يعني الحوت ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعني الجواهر والمرجان ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ جمع ماخرة يقال: مخرت السفينة، والمخر: شق الماء، وقيل: صوت جري الفلك بالرياح ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني في التجارة وهو معطوف على لتأكلوا .

(152/434)

﴿ وألقى فِي الأرض رواسي أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ الرواسي الجبال، واللفظ مشتق من رسا إذا ثبت، وأن تميد في موضع مفعول من أجله، والمعنى أنه ألقى الجبال في الأرض لئلا تميد الأرض؛ وروي أنه لما خلق الله الأرض جعلت تميد فقالت الملائكة: لا يستقر على ظهر هذه أحد، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ﴿ وأنهارا ﴾ قال ابن عطية: أنهاراً منصوب بفعل مضمر تقديره: وجعل أو خلق أنهارا قال: وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على أن ألقى أخص من جعل وخلق: ولو كانت ألقى بمعنى خلق: لم يحتج إلى هذا الإضمار ﴿ وَسُبُلاً ﴾ يعني الطرق ﴿ وعلامات ﴾ يعني ما يستدل به على الطرق من الجبال والمناهل وغير ذلك، وهو معطوف على أنهاراً وسبلاً قال ابن عطية: هو نصب على المصدر أي لعلكم تعتبرون، وعلامات أي عبرة وأعلاماً ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

يعني الاهتداء بالليل في الطرق ، والنجم هنا جنس ، وقيل : المراد الثريا والفرقدان ، فإن قيل : قوله وبالنجم هم يهتدون ؛ فمن المراد بهم ؟ فالجواب أنه أراد قريشاً لأنهم ؛ كان لهم في الاهتداء بالنجم في سيرهم علم لم يكن لغيرهم ، وكان الاعتبار ألزم لهم فخصصوا ، قال ذلك الزمخشري .

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ تقرير يقتضي الردّ على من عبد غير الله ، وإنما عبّر عنهم بمن لأن فيهم من يعقل ومن لا يعقل ، أو مشاكلة لقوله : أفمن يخلق ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهَ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ ذكر من أول السورة إلى هنا أنواعاً من مخلوقاته تعالى على وجه الاستدلال بها على وحدانيته ، ولذلك أعقبها بقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ ، وفيها أيضاً تعداد لنعمه على خلقه ، ولذلك أعقبها بقوله : وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، ثم أعقب ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : أي يغفر لكم التقصير في شكر نعمه .

(153/434)

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ نفى عن الأصنام صفات الربوبية ، وأثبت لهم أضدادها ، وهي أنهم مخلوقون غير خالقين ، وغير أحياء ، وغير عالمين بوقت البعث ، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم أثبت الربوبية لله وحده فقال :

إلهكم إله واحد .

﴿ أموات غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أي لم تكن لهم حياة قط ولا تكون ، وذلك أغرق في موتها ممن تقدّمت له حياة ثم مات ، ثم يعقب موته حياة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ الضمير في يشعرون : للأصنام وفي : يبعثون للكفار الذين عبدوهم ، وقيل : إن الضميرين للكفار ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أي تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي لا بد ولا شك ، وقيل إن لا نفي لما تقدم ، وجرم معناه وجب ، أو حق ، وأن فاعله بجرم .

﴿ أساطير الأولين ﴾ أي ما سطره الأولون ، وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتاب تواريخ ، وكان يقول : إنما يحدث محمد بأساطير الأولين ، وحديثي أجمل من حديثه ، وماذا يجوز أن يكون اسماً واحداً مركباً من ما وذا ، ويكون منصوباً بأنزل ، أو أن تكون ما استفهامية في موضع رفع بالابتداء ، وذا بمعنى الذي ، وفي أنزل ضمير محذوف ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة : أي قالوا أساطير الأولين ، فأوجب ذلك أن حملوا أوزارهم وأوزار غيرهم ، ويحتمل أن تكون للأمر ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال من المفعول في يضلونهم ، أو من الفاعل .

﴿ فَأَتَى اللهُ بنيانهم مِّنَ القواعد ﴾ الآية : قيل المراد بالذين من قبلهم نمروذ ، فإنه بنى صرحاً ليصعد فيه إلى السماء بزعمه ، فلما علا فيه هدمه الله وخر سقفه عليه ، وقيل : المراد بالذين من قبلهم كل من كفر من الأمم المتقدمة ، ونزلت به عقوبة الله فالبنيان والسقف والقواعد على هذا تمثيل ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ توبيخ للمشركين وأضاف الشركاء إلى نفسه أي على زعمكم ودعواكم ، وفيه تهكم به ﴿ الذين كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أي تعادون من أجلهم فمن قرأ بكسر النون فالمفعول ضمير المتكلم وهو الله عز وجل ، ومن قرأ بفتحها فالمفعول محذوف تقديره تعادون المؤمنين من أجلهم ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ هم الأنبياء والعلماء من كل أمة ، وقيل : يعني الملائكة واللفظ أعم من ذلك .

﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ حال من الضمير المفعول في تتوفاهم ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ أي استسلموا للموت ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سوء ﴾ أي قالوا ذلك ، ويحتمل قولهم لذلك أن يكونوا قصدوا الكذب اعتصاماً به كقولهم : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] أو يكونوا أخبروا على حسب اعتقادهم في أنفسهم ، فلم يقصدوا الكذب ، ولكنه كذب في نفس الأمر ﴿ بلى ﴾ من قول الملائكة للكفار : أي قد كنتم تعملون السوء . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 149 . 152﴾

وقال الخطيب الشربيني :

سورة النحل

مكية إلا قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى آخر السورة وحكى الأصم عن بعضهم أنها كلها مدنية وقال آخرون : من أوّلها إلى قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ مدني وما سواه مكي .

وعن قتادة بالعكس ، وتسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل ، لما ذكر من شأنها في دقة الفهم في ترتيب بيوتها ورحبها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الأمور ووسمها بالنعم واضح وهي مائة وثمانية وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وعدد حروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف .

﴿ بسم الله ﴾ أي : المحيط بدائرة الكمال فما شاء فعل ﴿ الرحمن ﴾ أي : الذي عمت نعمته جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره . ﴿ الرحيم ﴾ أي : الذي خص من شاء بنعمته النجاة مما يسخطه بما يراه وقوله تعالى:

﴿ أتى أمر الله ﴾ فيه وجهان أحدهما أنه ماض لفظاً مستقبل معنى إذ المراد به يوم القيامة وإنما أبرزه في صورة ما وقع وانقضى تحقيقاً له ولصدق المخبر به . والثاني : أنه على بابه

والمراد مقدّماته وأوائله وهو نصر رسوله صلى الله عليه وسلم أي : جاء أمر الله ودنا وقرب فإنه يقال في الكلام المعتاد أنه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع . يقال لمن طلب الإعانة وقرب حصولها : جاءك الغوث ، أي : أتى أمر الله وعداً ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ وقوعاً قبل مجيئه فإنه واقع لا محالة روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى" . قال ابن عباس : كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة . ولما مرّ جبريل بأهل السموات مبعوثاً إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا : الله أكبر قامت الساعة . وروي أنه لما نزلت ﴿ اقتربت الساعة ﴾ قال (القمر ،)

قال الكفار بعضهم لبعض :إنّ هذا ، أي : محمداً صلى الله عليه وسلم يزعم أنّ القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما تقولون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً فنزل ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ (الأنبياء ،)

فاشفقوا وانتظروا فلما امتدّت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوّفنا به فنزل ﴿ أتى أمر الله ﴾ فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم وظنوا أنها قد

أتت حقيقة فنزل ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فاطمأنوا فكأن الكفار قالوا : سلمنا لك يا محمد إلا أنا نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فأجابهم الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزيهاً له ﴿ وتعالى عما يشركون ﴾ أي : تبرأ سبحانه وتعالى بالأوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك في ملكه . وقرأ حمزة والكسائي أتى بالإمالة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح . وقرأ حمزة والكسائي عما يشركون في الموضعين بالتاء على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على أنّ الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم . ولما أجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تنزيهاً لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا : هب أنّ الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشرّ وعلى آخرين بالخير ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الأمور التي لا يعلمها إلا الله تعالى ؟ وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه في ملكه وملكوته فأجابهم الله تعالى بقوله:

﴿ ينزل الملائكة ﴾ قال ابن عباس : يريد بالملائكة جبريل وحده . قال الواحدي : يسمى الواحد بالجمع إذا كان ذلك الواحد رئيساً . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي

والباقون بتشديدها والمراد ﴿ بالروح ﴾ الوحي أو القرآن فإنّ القلوب تحيا به من موت الجهالات وقوله تعالى : ﴿ من أمره ﴾ أي : بإرادته حال من الروح ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهم الأنبياء ﴿ أن أنذروا ﴾ أي : خوّفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم ﴿ أنه ﴾ أي : الشأن ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ أي : لا إله غيري وقوله تعالى : ﴿ فاتقون ﴾ أي : خافوني رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود . تنبيه : في قوله تعالى : ﴿ أن أنذروا ﴾ ثلاثة أوجه أحدها : أنها المفسرة لأنّ الوحي فيه ضرب من القول والإنزال بالروح عبارة عن الوحي قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ (الشورى ،)

. الثاني : أنها المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف . الثالث : أنها المصدرية التي من شأنها نصب المضارع ووصلت بالأمر كقولهم : كتبت إليه بأن قم والآية تدل على أنّ نزول الوحي بواسطة الملائكة وأنّ النبوّة عطاءة . ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث أنها تدلّ على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى:

﴿ خلق السموات ﴾ أي: التي هي السقف المظل ﴿ والأرض ﴾ أي: التي هي البساط المقل. ﴿ بالحق ﴾ أي: أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته ﴿ تعالى ﴾ أي: تعالياً فات الوصف ﴿ عما يشركون ﴾ به من الأصنام. ولما كان خلق السموات والأرض غيباً لتقدّمه وكان خلق الإنسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى في الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى: ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي: هذا النوع ﴿ من نطفة ﴾ أي: آدم عليه السلام من مطلق الماء ومن تفرع منه بعد زوجه حوّاء من ماء مقيد بالدفق إلى أن صيره قوياً شديداً ﴿ فإذا هو خصيم ﴾ أي: شديد الخصومة ﴿ مبين ﴾ أي: بينها. روي أنّ أبيّ بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال: تزعم يا محمد أنّ الله يحيي هذا العظم بعدما قد رمّ فنزلت هذه الآية، ونزل فيه أيضاً قوله تعالى: ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ (يس،)

. قال الخازن في تفسيره: والصحيح أنّ الآية عامة في كل ما يقع فيه الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى. ولما كان أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الإنسان سائر الحيوانات وأشرفها الأنعام ذكرها بقوله تعالى:

﴿ والأنعام ﴾ أي: الأزواج الثمانية الضأن، والمعز، والإبل، والبقر، ونصبه بفعل يفسره ﴿ خلقها ﴾. قال الواحدي: تم الكلام عند قوله: ﴿ والأنعام خلقها ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿ لكم فيها دفء ﴾ أي: ما يدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها المتخذة من الأصواف والأوبار والأشعار. قال: ويجوز أيضاً أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿ فيها دفء ﴾. قال الرازي: قال صاحب النظم: وأحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله تعالى: ﴿ خلقها ﴾ والدليل عليه أنه عطف عليه ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال. ولما ذكر تعالى الأنعام ذكر لها أنواعاً من المنافع الأوّل: قوله تعالى: ﴿ لكم فيها دفء ﴾. والنوع الثاني: قوله تعالى: ﴿ ومنافع ﴾ أي: ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الأنعام وإنما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم لأنّ الدر والنسل قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات، فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل. النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿ ومنها تأكلون ﴾ فإن قيل: تقديم الظرف يفيد الحصر لأنّ تقديم الظرف موذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها. أجيب: بأنّ الأكل من هذه الأنعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأمّا الأكل من غيرها كالدجاج والبط والأوز

وصيد البرّ والبحر فليس بمعتد به في الأغلب ، وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الغالب في الأكل من هذه الأنعام . فإن قيل : منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدّمت منفعة اللباس عليه ؟

أجيب : بأنّ منفعة اللباس أكثر من منفعة الأكل فلهذا قدّمت على منفعة الأكل .

(160/434)

﴿ ولكم فيها جمال ﴾ أي : زينة ﴿ حين تريحون ﴾ أي : تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشيّ ﴿ وحين تسرحون ﴾ أي : تخرجونها بالغداة إلى المرعى ، فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين وتجل أهلها في أعين الناظرين إليها . فإن قيل : لم قدّمت الإراحة على التسريح ؟ أجيب : بأنّ الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ في التفرق والانتشار للمرعى في البرية فليس في التسريح تجمل كما في الإراحة .

النوع الرابع : قوله تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ جمع ثقل وهو متاع المسافر . ﴿ إلى بلد ﴾ أي : غير بلدكم أردتم السفر إليه ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ أي : غير واصلين إليه على غير الإبل

﴿ إلا بشق الأنفس ﴾ أي : إلا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشي ، أي : لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوّة النفس وذهاب نصفها . وقال ابن عباس : يريد من مكة إلى اليمن وإلى الشأم وإلى مصر قال الواحدي : والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل شق عليكم . وخص ابن عباس هذه البلاد لأنّ متاجر أهل مكة كانت إلى هذه البلاد . فإن قيل : المراد من قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ الإبل فقط بدليل أنه وصفها إلى آخر الآية بقوله : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد ﴾ وهذا الوصف لا يليق إلا بالإبل ؟

(161/434)

أجيب : بأنّ المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الأنعام فبعض تلك المنافع حاصل في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه أن قوله : ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ حاصل في البقر والغنم ، مثل حصوله في الإبل . تنبيه : احتج منكرو كرامات الأولياء بهذه الآية فإنها تدل على أنّ الإنسان لا يمكنه الانتقال من بلد إلى بلد إلا بشق الأنفس وحمل الأثقال على الإبل ومثبتوا الكرامات يقولون : إنّ الأولياء قد ينتقلون من بلد إلى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة ، وكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلاً وإذا بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور إذ لا قائل بالفرق ،

وأجاب المثبتون بأنا نخصص عموم هذه الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرامات ﴿ إنّ ربكم ﴾ أي : الموجد لكم والمحسن إليكم ﴿ لرؤوف ﴾ أي : بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بما يرضيه . وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمدّ .

﴿ رحيم ﴾ أي : بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب .

وقوله تعالى : ﴿ والخيل ﴾ أي : الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والرهط . ﴿ والبغال ﴾ أي : المتولدة بينها وبين الحمير ﴿ والحمير ﴾ الناهقة عطف على الأنعام ، أي : وخلق هذه الحيوانات ﴿ لتركبوها ﴾ أي : لأجل أن تركبوها وفي نصب قوله تعالى : ﴿ وزينة ﴾ أوجه أحدها : أنه مفعول من أجله وإنما وصل الفعل إلى الأوّل باللام في قوله تعالى : ﴿ لتركبوها ﴾ وإلى هذا بنفسه لاختلاف شرطه في الأوّل وهو عدم اتحاد الفاعل فإنّ الخالق هو الله تعالى والراكب المخاطبون بخلاف الثاني . الثاني : أنها منصوبة على الحال وصاحب الحال إمّا مفعول خلقها وإمّا مفعول لتركبوها فهو مصدر أقيم مقام الحال . الثالث : أن ينتصب بتقدير فعل قدّره الزمخشري بقوله وخلقها زينة وقدّره ابن عطية وغيره بقولهم : وجعلها زينة . الرابع : أنها مصدر لفعل محذوف ، أي : وتتزينون بها زينة .

وتنبيه : احتج القائلون وهم ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية ، قالوا : منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزاً لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله لأنّ الله تعالى خص الأنعام بالأكل حيث قال تعالى : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ (النحل ،)

وخص هذه بالركوب فقال : ﴿ لتركبوها ﴾ فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل واحتج القائلون بإباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعي بما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنهما قالت : "نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً ونحن بالمدينة" . وبما روي عن جابر رضي الله عنه "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل" . وفي رواية : "أكلنا في زمن خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلي" هذه رواية البخاري ومسلم . وفي رواية أبي داود قال : "ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابنا مخمصة فنهانا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ، ولم ينهنا عن الخيل" .

وأجابوا عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة لا يدل على أنّ منفعتها مختصة بذلك وإنما

خص هاتين المنفعتين بالذكر لأنهما معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الأثقال على الخيل مع قوله تعالى في الأنعام: ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ (النحل،)

ولم يلزم من ذلك تحريم الأثقال على الخيل. وقال الواحدي: لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذا الحيوان لكان تحريم أكلها معلوماً في مكة لأجل أنّ هذه السورة مكية ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامّة المفسرين والمحدّثين أنّ لحوم الحمر الأهلية حرمت عام خيبر، أي: وذلك في المدينة باطلاً لأنّ التحريم لما كان حاصلاً قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة، قال الرازي: وهذا جواب حسن متين. وقال ابن الخازن: والدليل الصحيح المعتمد عليه في إباحة لحوم الخيل أنّ السنة مبينة للكتاب. ولما كان نص الآية يقتضي أنّ الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتاً عنه ودار الأمر فيه على الإباحة والتحريم فوردت السنة بإباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير، أخذنا به جمعاً بين النصين. ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأنواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الإجمال بقوله تعالى: ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ وذلك لأنّ أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحدّ والإحصاء ولو خاض الإنسان في شرح عجائب أحوالها

لكان المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان أحسن الأحوال ذكرها على سبيل الإجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية . وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال : إنّ عن يمين العرش نهراً من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل كل يوم ويغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه تقع كذا وكذا ألف ملك يدخل كل يوم منهم سبعون ألفاً البيت المعمور وفي الكعبة أيضاً سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم ، قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (المدثر/)

.

(164/434)

وفسر قتادة الآية بالسوس في النبات والدود في الفواكه وفسرها بعضهم بما أعدّ الله تعالى لأهل الجنة في الجنة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى:

﴿ وعلى الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ قصد السبيل ﴾ أي : بيان الطريق

المستقيم إنما ذكرت هذه الدلائل وشرحها إزاحة للعذر وإزالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف إليها القصد . وقال : ﴿ ومنها ﴾ أي : السبيل ﴿ جائر ﴾ أي : حائد عن الاستقامة . فإن قيل : هذه الآية تدلّ على أنّ الله تعالى يجب عليه الإرشاد والهداية إلى الدين وإزاحة العلل والأعذار كما قال به المعتزلة لأنه تعالى قال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ . وكلمة على للوجوب . قال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ (آل عمران ،)

أجيب : بأنّ المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح . فإن قيل : لم غير أسلوب الكلام حيث قال في الأوّل : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ . وفي الثاني : ﴿ ومنها جائر ﴾ دون وعليه جائر ؟

أجيب : بأنّ المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض . ثم قال تعالى : ﴿ ولو شاء ﴾ هدايتكم ﴿ لهداكم ﴾ إلى قصد السبيل ﴿ أجمعين ﴾ فتهتدون إليه باختيار منكم . قال الرازي : وهذا يدلّ على أنّ الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الإيمان لأنّ كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره . ولما ذكر تعالى نعمه على عباده بخلق الحيوانات لأجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر إنزال المطر لأنه من أعظم النعم على عباده فقال:

﴿ هو ﴾ أي : لا غيره مما تدعى فيه الإلهية ﴿ الذي أنزل ﴾ أي : بقدرته الباهرة ﴿ من السماء ﴾ إمّا من نفسها أو من غيرها أو من جهتها أو من السحاب كما هو مشاهد ﴿ ماء ﴾ أي : واحداً تحسونه بالذوق والبصر ﴿ لكم منه ﴾ أي : من ذلك الماء ﴿ شراب ﴾ أي : تشربونه وقد بيّن تعالى في آية أخرى أنّ هذه النعمة جليلة فقال : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ﴾ (الأنبياء ،)

. فإن قيل : ظاهر هذا أنّ شرابنا ليس إلا من المطر ؟

أجيب : بأنه تعالى لم ينف أن يشرب من غيره وبتقدير الحصر لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الأرض من جملة ماء المطر سكن هناك بدليل قوله في سورة المؤمنون : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ﴾ (المؤمنون ،)

. ﴿ ومنه ﴾ أي : من الماء ﴿ شجر ﴾ أي : ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الأرض حتى الكلأ وفي الحديث : "لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت" يعني الكلأ . فإن قيل : قال المفسرون : في قوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (الرحمن ،)

المراد من النجم ما ينجم من الأرض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق ؟

أجيب : بأن عطف الجنس على النوع وبالضدّ مشهور وأيضاً فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط يقال : تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح إذا

اختلطت وقال تعالى : ﴿ حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ (النساء ،)

ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ . فوجب إطلاق لفظ الشجر عليه ويصح أن يكون المراد بالشجر هنا ما له ساق لأنّ الإبل تقدر على رعي ورق الأشجار الكبار وحينئذٍ فإطلاق الشجر على الكلأ مجاز . ﴿ فيه ﴾ أي : الشجر ﴿ تسيمون ﴾ أي : ترعون مواشيكم يقال : أسمت الماشية إذا خليتها ترعى وسامت هي إذا رعت حيث شاءت . قال الزجاج : أخذ ذلك من السومة وهي العلامة لأنها تؤثر في الأرض برعيها علامات وقال غيره : لأنها تعلم الإرسال في المرعى .

ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلاً وإجمالاً ذكر الثمار تفصيلاً وإجمالاً بقوله تعالى :

﴿ ينبت ﴾ أي : الله ﴿ لكم به ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ فبدأ بذكر الزرع وهو الحبّ الذي يقتات به كالحنطة والشعير والأرز لأن به قوام البدن بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن وبارك فيه وثلث بذكر النخيل لأنّ ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الأعناب لأنه شبيه النخيل في المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر تعالى سائر الثمار إجمالاً لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لأنّ

الحبة الواحدة تقع في الطين فإذا مضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ في داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الأرض ونداوتها فتنفتح الحبة فينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الأرض إلى الهواء ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الأرض وهذه الغائصة هي المسماة بعروق الشجرة ثم إن تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ثم تخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ثم إنّ تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب، فإنّ قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إنّ في ذلك لآية ﴾ بينة على أنّ فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الإعادة وأنه مختار يفعل ذلك في الوقت الذي يريده وإنما تحصل معرفة ذلك ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون.

(167/434)

ثم ذكر سبحانه وتعالى أشياء تدلّ على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى: ﴿ وسخر لكم ﴾ أي: أيها الناس لإصلاح أحوالكم ﴿ الليل ﴾ للسكنى ﴿ والنهار ﴾ للمعاش. ثم ذكر آية النهار فقال: ﴿ والشمس ﴾ أي: لمنافع اختصاصها ثم آية الليل فقال: ﴿ والقمر ﴾ لأمور علقها به ﴿ والنجوم ﴾ أي: الآيات نصبها لها. ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى:

﴿ مسخرات ﴾ أي: بأنواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها ﴿ بأمره ﴾ أي: بإرادته سبباً لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار ولو شاء تعالى لأقام أسباباً غيرها أو أغنى عن الأسباب. وقرأ ابن عامر برفع الأربع وهي الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر ووافقه حفص في الاثنين الأخيرين والنجوم مسخرات لا غير والباقون بالنصب عطفاً على ما قبله في الثلاثة الأول وفي الرابع وهو مسخرات على الحال. ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله: ﴿ إنّ في ذلك ﴾ أي: التسخير العظيم ﴿ لآيات ﴾ أي: دلالات متعدّدة كثيرة عظيمة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي: يتدبرون فيعلمون أنّ جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراده منهم.

(168/434)

وقوله تعالى: ﴿ وما ذرأ ﴾ أي: خلق ﴿ لكم في الأرض ﴾ عطف على الليل، أي: وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات. وقيل: إنه في موضع نصب بفعل محذوف، أي: وخلق هكذا قدّره أبو البقاء وكأنه استبعد تسلط سخر على ذلك فقدّر فعلاً لائقاً. وقوله تعالى: ﴿ مختلفاً ﴾ حل منه. وقوله تعالى: ﴿ ألوانه ﴾ أي: في الخلقة

والهيئة والكيفية فاعل به ﴿ إنّ في ذلك لآية لقوم يذّكّرون ﴾ أي : يتعظون . تنبيه : ختم تعالى الآية الأولى بالتفكر لأنّ ما فيها يحتاج إلى تأمّل ونظر ، وختم الثانية بالعقل لأنّ مدار ما تقدّم عليه وختم الثالثة بالتذكر لأنه نتيجة ما تقدّم وجمع الآيات في الثانية دون الأولى والثالثة لأن ما نيط بها أكثر ولذلك ذكر معها العقل . ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الإله أولاً بأجرام السموات والأرض وثانياً ببدن الإنسان وثالثاً بعجائب خلقة الحيوان ورابعاً بعجائب النبات ذكر خامساً عجائب العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى: وهو أي : لا غيره . وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها ﴿ الذي سخر البحر ﴾ أي : ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكوّن الجواهر وغير ذلك قال علماء الهيئة : ثلاثة أرباع كرة الأرض غائصة في الماء فذاك هو البحر المحيط وجعل في هذا الربع المسكون سبعة أبحر قال تعالى : ﴿ والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ﴾ (لقمان ،)

والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار فمن تسخيرها للخلق ما مر ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار

كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة منافع الأولى قوله تعالى : ﴿ لتأكلوا منه ﴾ أي : بالاصطياد وغيره من لحوم الأسماك . ﴿ لحماً طرياً ﴾ لا تجد أنعم منه ولا ألين وهو أرطب اللحوم فيسرع إليه الفساد فيبادر إلى أكله عذباً ففي ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك أن السمك لو كان كله مالحاً لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لأنه لما خرج من البحر الملح اللحم الطري في غاية العذوبة علم أنه يخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك أنّ الله تعالى قادر على إخراج الضدّ من الضدّ . المنفعة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وتستخرجوا منه ﴾ أي : بجهدكم في الغوص وما يتبعه ﴿ حلية ﴾ أي : اللؤلؤ والمرجان ، كما قال تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن ،)

. ﴿ تلبسونها ﴾ أي : نساؤكم وهنّ بعضكم فكأن اللابس أنتم ولأنّ زينة النساء بالحلي إنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة لهم . المنفعة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وترى الفلك ﴾ أي : السفن ﴿ مواخر ﴾ أي : تمخر الماء ، أي : تشقه بجريها ﴿ فيه ﴾ أي : مقبلة ومدبرة وذلك أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر بريح واحدة . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن يعني أنها إذا جرت يسمع لها صوت . وقال الحسن : مواخر يعني مملوءة متاعاً . وقوله تعالى : ﴿ ولتبتغوا ﴾ أي : لتطلبوا عطف على تأكلوا وما بينهما إعتراض . وقيل : عطف على محذوف تقديره : لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ﴿ من فضله ﴾ أي : من سعة

رزقه بركوبها للتجارة وللوصول إلى البلدن الشاسعة ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله على هذه النعم التي أنتم عاجزون عنها لولا تسخيره.

(170/434)

ثم إنه تعالى ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الأرض بقوله تعالى: ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ أي: جبالاً ثوابت ﴿ أن تميد ﴾ أي: كراهة أن تميل وتضطرب ﴿ بكم ﴾ وقيل: لئلا تميل بكم والأوّل قدره البصريون والثاني قدّره الكوفيون، وقد تقدّم مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ (النساء،)

. روي أن الله تعالى خلق الأرض فجعلت تمور فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت وقوله تعالى:

﴿ وأنهاراً ﴾ عطف على رواسي لأنّ الإلقاء بمعنى الخلق والجعل. ألا ترى أنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾ (فصلت،)

. وقال تعالى: ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ (طه،)

. وذكر تعالى الأنهار بعد الجبال لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال.

﴿ و ﴾ جعل لكم فيها ﴿ سبلاً ﴾ أي: طرقاً مختلفة تسلكون فيها في أسفاركم والتردّد

في حوائجكم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى مكان ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي : بتلك السبل إلى مقاصدكم وإلى معرفة الله تعالى فلا تضلون .

﴿ و ﴾ جعل لكم فيها ﴿ علامات ﴾ أي : من الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها في أسفاركم . ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها براً وبحراً ليلاً ونهاراً نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة لإفهام العموم لئلا يظنّ أن المخاطب مخصوص والأمر لا يتعدّاه فقال تعالى : ﴿ وبالنجم ﴾ أي : الجنس ﴿ هم ﴾ أي : أهل الأرض كلهم وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم . ﴿ يهتدون ﴾ وقدّم الجارّ تنبيهاً على أن الدلالة بغيره بالنسبة إليه سافلة ، وقيل : المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي . وقيل : الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم . ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ما ذكر على الترتيب الأحسن والنظم الأكمل وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدّمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته ، وأنه تعالى المنفرد بخلقها جميعها قال على سبيل الإنكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه

الأصنام العاجزة التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تقدر على شيء .

﴿ أفمن يخلق ﴾ أي : هذه الأشياء الموجودة وغيرها ﴿ كمن لا يخلق ﴾ شيئاً من ذلك بل على إيجاد شيء ما فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى . فإن قيل : ذلك إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق فكان حق الإلزام أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟

(172/434)

أجيب : بأنهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى في تسميته باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها فانكر عليهم ذلك بقوله تعالى :

﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ . فإن قيل : من لا يخلق إن أريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود من واضحاً لأنّ العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جيء أيضاً بما لجاز وإن أريد به الأصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم ؟

أجيب : بأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله تعالى على أثره : ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ (النحل ،)

وإلى قول الشاعر :

*بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي ** فقلت ومثلي بالبكاء جدير

*أسرب القطا هل من يعير جناحه ** لعلي إلى من قد هويت أطير

*وكل قطاة لا تعير جناحها ** تعيش بذل والجناح قصير

فأوقع من على سرب لما عامله معاملة العقلاء ، وقيل : للمشاكلة بينه وبين من يخلق ، وقيل : المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى :

﴿ ألهم أرجل يمشون بها ﴾ (الأعراف ،)

يعني أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب ، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف تصح لهم العبادة إلا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا . ولما كان هذا القدر ظاهراً غير خافٍ على أحد فلا يحتاج فيه إلى تدقيق الفكر والنظر بل مجرّد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل . ختم تعالى ذلك بقوله تعالى : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون . تنبيه : احتج أهل السنة بهذه الآية على أنّ العبد غير خالق لأفعال نفسه لأنه تعالى ميز نفسه عن الأشياء التي

يعبدونها بصفة الخالقية لأنّ الغرض من قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ بيان تميزه عن هذه الأشياء بصفة الخالقية وأنه إنما استحق الإلهية والعبودية لكونه تعالى خالقاً وهذا يقتضي أنّ العبد لو كان خالقاً لشيء لوجب كونه إلهاً معبوداً ، ولما كان ذلك باطلاً علمنا أنّ العبد لا يقدر على الخلق والإيجاد ، ولما كانت المقدورات لا تحصى وأكثرها نعم على العباد مذكرة لهم بخالقهم قال ممتناً عليهم بإحسانه من غير سبب منهم .

(174/434)

﴿ وإن تعدّوا ﴾ كلكم ﴿ نعمت الله ﴾ أي : إنعام الملك الأعظم الذي لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم وإعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين ومشي الرجلين إلى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون إليه من أمر الدنيا حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها فإن تتبعها يفوت الحصر . ﴿ لا تحصوها ﴾ أي : لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كثرتها وإعراضكم جملة عن شكرها والعبد وإن أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فإنه يكون مقصراً لأنّ نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة وعقل الخلق قاصر عن الإحاطة بمبادئها فضلاً عن غاياتها لكن الطريق إلى ذلك أن

يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها . ﴿ إنّ الله لغفور ﴾ أي : لتقصيركم في القيام بشكرها يعني النعمة كما يجب عليكم ﴿ رحيم ﴾ بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي .

وقوله تعالى : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ فيه وجهان : الأوّل : أنّ الكفار مع كفرهم كانوا ليسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وما يعلنون ، أي : وما يظهرون من أذاه صلى الله عليه وسلم فأخبر الله تعالى بأنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى عليه خافية وإن دقت وخفيت . والوجه الثاني : أنه تعالى لما ذكر الأصنام وذكر عجزها في الآية المتقدّمة ذكر في هذه الآية أنّ الإله الذي يستحق العبادة يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة . ثم وصف تعالى هذه الأصنام بصفات الأولى مذكورة في قوله تعالى:

﴿ والذين تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ أي : الأصنام وتعتقدون أنها آلهة وقرأ عاصم بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ أي : يصوّرون من الحجارة وغيرها . فإن قيل : قوله تعالى في الآية المتقدّمة

﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ يدلّ على أنّ هذه الأصنام لا تخلق شيئاً وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور في تلك الآية المذكورة فما فائدة هذا التكرار ؟

أجيب : بأنّ فائدته أنّ المعنى المذكور في الآية المتقدّمة أنهم لا يخلقون شيئاً فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار فكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين أولاً أنها لا تخلق شيئاً ، ثم بيّن ثانياً أنها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة كغيرها .

الصفة الثانية قوله تعالى : ﴿ أموات ﴾ أي : جمادات لا روح لها ﴿ غير أحياء ﴾ إذ الإله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت . فإن قيل : علم من قوله : أموات أنها غير أحياء فما الفائدة في ذكره ؟

أجيب : بأنّ من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله تعالى حيواناً وأجساد الحيوانات التي تبعث بعد موتها وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة وذلك أعرق في موتها . وقيل : ذكر للتأكيد لأنّ الكلام مع الكفار الذي يعبدون الأوثان وهم في نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغبي فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات

الكثيرة وغرضه الإعلام بكون المخاطب في غاية الغباوة في أنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة. الصفة الثالثة قوله تعالى: ﴿ وما يشعرون ﴾ أي: الأصنام ﴿ أيان ﴾ أي: وقت ﴿ يبعثون ﴾ أي: وما تعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكماً بحالها لأنّ شعور الجماد محال فكيف بشعور ما لا يعلمه حيّ إلا الحيّ القيوم سبحانه وتعالى. وقيل: الضمير راجع للأصنام. قال ابن عباس: إنّ الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ والذين تدعون من دون الله ﴾ الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى: إنهم أموات، أي: لا بد لهم من الموت غير أحياء، أي: باقية حياتهم وما يشعرون، أي: لا علم لهم بوقت بعثهم. ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الأصنام وبيّن فساد مذهبهم قال تعالى:

﴿ إلهكم ﴾ أي: أيها الخلق جميعاً المعبود بحق ﴿ إله ﴾ أي: متصف بالإلهية على الإطلاق بالنسبة إلى كل أوان وكل زمان وكل مكان ﴿ واحد ﴾ لا يقبل التعدّد الذي هو مثال النقص بوجه من الوجوه لأنّ التعدّد يستلزم إمكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الإلهية. ﴿ فالذين ﴾ أي: فتسبب عن هذا أنّ الذين ﴿ لا يؤمنون

بالآخرة ﴾ أي : دار الجزاء ومحل إظهار الحكم الذي هو ثمرة الملك والعدل الذي هو مدار العظمة ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ أي : جاحدة للوحدانية ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم بسبب إنكار ذلك ﴿ مستكبرون ﴾ أي : متكبرون عن الإيمان بها ﴿ لا جرم ﴾ أي : حقاً ﴿ أن الله يعلم ﴾ علماً غيبياً وشاهدياً ﴿ ما يسرون ﴾ أي : ما يخفون مطلقاً أو بالنسبة إلى بعض الناس ﴿ وما يعلنون ﴾ أي : يظهرون فيجازيهم ذلك . ولما كان في ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي : العالم بالسر والعلن ﴿ لا يحب المستكبرين ﴾ أي : على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم محبتهم أنه يعاقبهم .

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : يا رسول الله ، إنّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ؟ قال : إنّ الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس" ومعنى بطر الحق أنه يستكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم . ولما بالغ سبحانه وتعالى في دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة في إبطال مذاهب عبدة

الأصنام قال تعالى عاطفاً على قلوبهم منكرة : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي : لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وقوله تعالى : ﴿ ما ﴾ استفهامية و ﴿ ذا ﴾ موصولة ، أي : ما الذي ﴿ أنزل ربكم ﴾ على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف في قائل هذا القول فقيل : كلام بعضهم لبعض ، وقيل : قول المسلمين لهم ، وقيل : قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قالوا ﴾ مكابرين في إنزال القرآن هو ﴿ أساطير ﴾ أي : أكاذيب ﴿ الأوّلين ﴾ مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضتهم أقصر سورة منه مع علمهم بأنهم أفصح الناس وأنه لا يكون من أحد من الناس متقدّم أو متأخر قول إلا قالوا أبلغ منه . فإن قيل : هذا كلام متناقض لأنه لا يكون منزلاً من ربهم وأساطير ؟

أجيب : بأنهم قالوه على سبيل السخرية كقوله : ﴿ إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ (الشعراء ،)

واللام في قوله تعالى : ﴿ ليحملوا ﴾ لام العاقبة كما في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزناً ﴾ (القصص ،)

وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الأوّلين كان عاقبتهم بذلك أن يحملوا ﴿ أوزارهم ﴾ أي : ذنوب أنفسهم وإنما قال تعالى : ﴿ كاملة ﴾ لئلا يتوهم أنه يكفر عنهم شيء بسبب البلايا التي أصابتهم في الدنيا وأعمال البرّ التي عملوها في الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي لا شك فيه ولا محيص عن إتيانه . قال الرازي : وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة ﴿ و ﴾ ليحملوا أيضاً ﴿ من ﴾ جنس ﴿ أوزار ﴾ الجهلة الضعفاء ﴿ الذين يضلونهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بغير علم ﴾ حال من مفعول يضلونهم ، أي : يضلون من يعلم أنهم ضلال أو من الفاعل وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل وإنما حصل للرؤوساء الذين أضلوا غيرهم وصدّوهم عن الإيمان مثل أوزار الأتباع لأنهم دعوهم إلى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا في الإثم وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً" أخرجه مسلم . ومعنى الآية والحديث أنّ الرئيس والكبير إذا سنّ سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فإن الله تعالى يعطيهم ثوابه وعقابه حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساوياً لكل

ما يستحقه كل واحد من الأتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة ، وليس المراد بأن الله يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤوساء ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (الأنعام ،)

. وقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ (النجم ،)

. تنبيه : قال الواحدي : لفظة من في قوله تعالى : ﴿ ومن أوزار ﴾ ليست للتبعيض لأنها لو كانت كذلك لنقص عن الأتباع بعض الأوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم "لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً" لكنها للجنس كما قدّرت ذلك في الآية الكريمة ، أي : ليحملوا من جنس أوزار الأتباع . وقيل : إنها للتبعيض وجرى عليه البيضاوي تبعاً للزمخشري . ﴿ ألا ساء ﴾ أي : بئس ﴿ ما يزرون ﴾ أي : يحملون حملهم هذا وفي هذا وعيد وتهديد لهم .

فإن قيل : إنّ الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب في ذلك ؟

أجيب : بأنّ السبب فيه أنه تعالى بيّن كون القرآن معجزاً بطريقين : الأوّل : أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم أولاً بكل القرآن وثانياً بعشر سور وثالثاً بسورة فعجزوا عن المعارضة

وذلك يدل على كونه معجزاً الثاني : أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهي قوله تعالى : ﴿ اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ (الفرقان ،)

وأبطلها بقوله تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض ﴾ (الفرقان ،)

. ومعناه أنّ القرآن يشتمل على الإخبار بالغيوب ، وذلك لا يتأتى إلا ممن يكون عالماً بأسرار السموات والأرض . ولما ثبت كون القرآن معجزاً بهذين الطريقين وتكرّر شرح هذين الطريقين مراراً كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية على مجرّد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم إنه سبحانه وتعالى بالغ في وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى:

أي : ممن رأوا آثارهم في ديارهم ﴿ فأتى الله ﴾ أي : أمره ﴿ بنيانهم من القواعد ﴾ أي : من جهة العمد التي بنوا عليها مكرهم ﴿ فخرّ ﴾ أي : سقط ﴿ عليهم السقف من فوقهم ﴾ وصار سبب هلاكهم وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم . والباقون بكسر الهاء وضم الميم . وأمّا الوقف فحمزة بضم الهاء على أصله والباقون بالكسر . ﴿ وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أي : من

جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل ، أي : التشبيه والتخييل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما أبرموه كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا نحوه من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً ، وقيل : هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد إلى السماء قال ابن عباس : كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع . وقال كعب : كان طوله فرسخين فأهب الله تعالى الريح فألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي وهم تحته قال البغوي : ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية فذلك قوله تعالى : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ أي : أتى أمره فخرب بنيانهم من أصلها فخرّ عليه وعلى قومه السقف ، أي : أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا . تنبيه : قال ابن الخازن في قول البغوي : وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لأنّ صالحاً عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عرباً منهم جرهم الذين نشأ إسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب طائفة قديمة قبل إبراهيم عليه السلام انتهى . وقد يقال : إنه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافي ذلك . فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ فخرّ عليهم السقف من فوقهم ﴾ والسقف من فوقهم ؟

أجيب: بأنهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى: ﴿فخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾ دل على أنهم كانوا تحته وحينئذٍ يفيد هذا الكلام بأنّ الأبنية قد تهدّمت وهم ماتوا تحتها. ولما ذكر الله تعالى حال أصحاب المكر في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة بقوله عزّ وجل:

﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي: يذلهم ويهينهم بعذاب النار ﴿ويقول﴾ لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخاً: ﴿أين شركائي﴾ أي: في زعمكم واعتقادكم ﴿الذين كنتم تشاقون﴾ أي: تخالفون المؤمنين ﴿فيهم﴾ أي: في شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها ﴿قال﴾ أي: يقول ﴿الذين أوتوا العلم﴾ أي: من الأنبياء والمؤمنين وقال ابن عباس: يريد الملائكة ﴿إنّ الخزي﴾ أي: البلاء المذل ﴿اليوم﴾ أي: يوم الفصل الذي يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة ﴿والسوء﴾ أي: كل ما يسوء ﴿على الكافرين﴾ أي: الغريقين في الكفر الذين تكبروا في غير موضع التكبر، وفائدة قولهم إظهار الشماتة، وزيادة الإهانة، وحكايته لتكون لطفاً لمن سمعه. تنبيه: في الآية دلالة على أن ماهية الخزي وماهية السوء في يوم القيامة مختصة بالكافرين وهذا ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم ويؤكد هذا قول موسى عليه السلام: ﴿إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾ (طه،)

ثم إنه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ أي : يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه عليهم السلام . وقرأ حمزة في هذه الآية وفي الآية الآتية بالياء في الموضعين على التذكير لأن الملائكة ذكور والباقون بالتاء على التأنيث لأن لفظ الجمع مؤنث . ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ أي : بأن عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم ﴿ فالقوا السلم ﴾ أي : استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين : ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ أي : شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة : ﴿ بلى ﴾ أي : بل كنتم تعملون أعظم السوء ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى : ﴿ إنّ الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ أي : فلا فائدة لكم في إنكاركم فيجازيكم به .

ولمّا كان هذا الفعل مع العلم سبباً لدخول جهنم قال تعالى : ﴿ فادخلوا ﴾ أي : أيها الكفرة ﴿ أبواب جهنم ﴾ أي : أبواب طبقاتها ودركاتها ﴿ خالدين ﴾ أي : مقدّرين الخلود ﴿ فيها ﴾ أي : جهنم لا يخرجون منها وإنما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم في الخزي والغم وفي ذلك دليل على أنّ الكفار بعضهم أشدّ عذاباً من بعض ثم قال تعالى : ﴿ فلبئس

مثوى ﴾ أي : مأوى ﴿ المتكبرين ﴾ عن قبول التوحيد وسائر ما آتت به الرسل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 313 . 331 ﴾

(184/434)

وقال القاسمى :

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تقرر في غير ما آية ، أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم ، كما فعل يوم بدر ، استهزاءً وتكذيباً بالوعد . فقيل لهم : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي : ما توعدونه مما ذكر . والتعبير عنه بـ : ﴿ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ؛ للتفخيم والتهويل . وللإيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه ، منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوّه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع . أو عن إتيان مباديه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى

المسببات . والآية كقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] ، وقوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : 1] ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : 53] . ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه ، من الأوثان والأنداد ، الذي أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد ، واعتقادهم أنها شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [2] .

(185/434)

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ رد لاستبعادهم النبوة ، بأن ذلك سنة له تعالى . ولذا ذكر صيغة الاستقبال ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : 15] ، وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : 75] . والروح هو الوحي ،

الذي من جملته القرآن ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : 52] . والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة . فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل . و : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ بيان للروح ، أو حال منه ، أو صفة ، أو متعلق بـ (ينزل) و (من) للسببية . و : ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا ﴾ بدل من الروح . أي : أخبروهم بالتوحيد والتقوى . فقوله : ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ من جملة المنذر به . أو هو خطاب للمستعجلين ، على طريقة الالتفات ، والفاء فصيحة ، أي : إذا كانت سنته تعالى ذلك ، فاتقون ، بما ينافيه من الإشراك وفروعه من الاستعجال .

قال الزمخشري : ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو ، بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره ، من خلق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان وما يصلحه ، وما لا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه ، وجر أثقاله وسائر حاجاته ، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه . ومثله متعال عن أن يشرك به غيره ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِيْنَ تُرِيحُونَ وَحِيْنَ تَسْرَحُونَ ﴾ [3 - 6] .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالحكمة ، كما تقدم : ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي : مهينة ضعيفة : ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ بعد تكامله بشراً : ﴿ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : مخاصم لخالقه مجادل ، يجحد وحدانيته ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً .

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ أي : لمصالحكم ، وهي الأزواج الثمانية المفصلة في سورة الأنعام .

قال الزمخشري : وأكثر ما تقع على الإبل .

﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي : ما يدفئ ، أي : يسخن به من صوف أو وبر أو شعر ، فيقي البرد ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ أي : من نسلها ودرّها وركوب ظهرها : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ أي : زينة : ﴿ حِيْنَ تُرِيحُونَ ﴾ أي : تردونها من مراعيها إلى مراحها (بضم الميم) وهو مقرّها في دور أهلها بالعشيّ : ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي : تخرجونها بالغداة إلى المراعي .

قال الزمخشري : منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها ؛ لأنه من أغراض أصحاب

المواشي ، بل هو من معاظمها ؛ لأن الرعيان ، إذا روحوها بالعشي ، وسرحوها بالغداة ، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ؛ أنست أهلها وفرحت أربابها ، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] ، ﴿ يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً ﴾ [الأعراف : 26]

.

(187/434)

فإن قلت : لِمَ قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ، ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر لأهلها . انتهى .

ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [7 - 8] .

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أي : أحمالكم : ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ بكسر الشين المعجمة وفتحها ، قراءتان ، وهما لغتان في معنى (المشقة) أي : لم تكونوا

بالغيه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلاً عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : حيث سخرها لمنافعكم .

ثم أشار إلى ما هو أتم في دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ﴾ عطف على (الأنعام) : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ عطف محل (لتركبوها) فهي مفعول له ، أو مصدر لمحذوف . أي : وتتزينوا بها زينة ، أو مصدر واقع موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله . أي : متزينين بها ، أو متزيناً بها . وسر التصريح باللام في المعطوف عليه ، دون المعطوف ؛ هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلي في الأصناف ؛ هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل ؛ تنبيهاً على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين منها تنبيهاً على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا في " الانتصاف " .

تنبيه :

استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل ، قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا : ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزاً ؛ لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب ؛ لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوزون لأكلها ، بأنه لا حجة في التعليل بالركوب ؛ لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي عيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل ؛ لدلت على تحريم الحمر الأهلية ، وحينئذ لا يكون ثَم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر . وقد قدمنا أن هذه السورة مكية . والحاصل : أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل . فلو سلمنا أن هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم ؛ لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال . وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة والترمذي وصححه ، والنسائي وغيرهم عن جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر

الأهلية . وأخرج أبو داود نحوه . وثبت أيضاً في الصحيحين من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن في الخيل .

(189/434)

وأما ما أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير . ففي إسناده صالح بن يحيى ، فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقو على معارضة أحاديث الحل . على أنه يمكن أن يكون متقدماً على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا في " فتح البيان " .

وفي " الإكليل " : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، رداً على الحنفية في قولهم بوجوب الزكاة فيها . أي : الخيل . وقوله تعالى :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : من المخلوقات في القفار والبحار ، وصيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [9] .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ في الآية فوائد :

الأولى : قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية الدينية ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة : 197] ، وقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : 26] .

(190/434)

ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ؛ شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها موصلة إليه ، فقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 153] . وقال : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر : 41] . انتهى . وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ .

الثانية : قال أبو السعود : (القصد) : مصدر بمعنى الفاعل . يقال : سبيل قصد وقاصد :

أي : مستقيم . على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه إليه ، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه . أي : حقٌّ عليه سبحانه وتعالى ، بموجب رحمته ووعده المحتوم ، بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحق ، الذي هو التوحيد : بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه . أو مصدر بمعنى الإقامة والتعديل . قاله أبو البقاء . أي : عليه ، عز وجل ، تقويمها وتعديلها . أي : جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق . لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفة عنه ، بل إبداعها ابتداء كذلك على نهج (سبحان من صغَّر البعوض ، وكبَّر الفيل) . وحقيقته راجعة إلى ما ذكر من نصب الأدلة . وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التي كل واحد منها لاحبٌ يهتدى بمناره ، وعلم يستضاء بناره ، وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأنزل عليهم كتباً من جملتها هذا الوحي الناطق بحقيقة الحق ، الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق ، الهادي إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى معالم الهدى ، المنجِّية عن فيافي الضلالة ومهاوي الردى .

الثالثة : الضمير في : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ للسبيل . فإنها تؤنث . أي : وبعض السبيل مائل عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه . وهو طرق الضلالة التي لا يكاد يحصى عددها ، المندرج كلها تحت الجائر ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 153] .

قال أبو السعود ، بعد ما تقدم ، أي : وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق وتعديله ، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد . وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب ، لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته ، بل هو مخلٌّ بحكمته ، حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء ، والمطيع والعاصي ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية موصلة إليه البتة ، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين ؛ لفعل ذلك ، ولكن لم يشأه ؛ لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها . ولا حكمة في تلك المشيئة ؛ لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب ، إنما هو الاختيار الذي عليه يترتب الأعمال ، التي بها نيط الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العلم السفلي ، بعد الحيوان ، النبات ، تأثر ما مرّ من الإنعام بالأنعام والدواب ، التي يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة

نفسها ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

(192/434)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [10 - 11] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : المزن : ﴿ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ يسكن حرارة العطش : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ أي : ومنه يحصل شجر . والمراد به : ما ينبت من الأرض ، سواء كان له ساق أو لا ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي : ترعون أنعامكم .

﴿ يُنبِتُ ﴾ أي : الله عز وجل : ﴿ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ ﴾ أي : الذي فيه قوت الإنسان : ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ أي : الذي فيه إدامه . : ﴿ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ ﴾ أي : اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي : يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : في إنزال وإنبات ما فصل : ﴿ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : دلالة وحجة على وحدانيته تعالى

. كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : 60] .

(193/434)

قال أبو السعود : وأصله للرازي في شرح كون ما ذكره حجة ؛ فإن من تفكر في أن الحبة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض ، وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع ، ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لا إلى نهاية ، مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية ، بالنسبة إلى الكل ؛ عَلم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال ، فضلاً عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته ، التي هي الألوهية واستحقاق العبادة . تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية ، قطع الآية الكريمة بالتفكر . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [12] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ لإصلاح ما نيط بهما صلاحه من المكونات : ﴿ وَالنُّجُومُ ﴾ ليهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله تعالى : ﴿ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ حال من الجميع ، على معنى جعلها مسخرات ؛ لأن في التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص .

(194/434)

فمعناه : نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعكم . ف (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل ؛ لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن (مسخرات) مصدر ميميّ ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات ، أو يجعل قوله : ﴿ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادي ؛ لأن الإحداث لا يدل على الاستمرار . وقرئ بنصب الليل

والنهار وحدهما ، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر . وقرئ : ﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ ﴾ بالرفع مبتدأ وخبر ، وما قبله بالنصب : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : تسخير ما ذكر : ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ولما نبه تعالى على معالم السماوات ، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ، والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [13] .

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ وَالنُّجُومُ ﴾ رفعاً ونصباً ، على أنه مفعول (لجعل) أي : وما خلق : ﴿ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من حيوان ونبات : ﴿ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ثم نبه تعالى ممتناً على تسخيره البحر ، وتعداد النعم به إثر امتنانه بنعم البر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [14] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ هو السمك .

قال الزمخشري : ووصفه بالطراوة ؛ لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكأن ذلك تعليم لأكله ، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً .

والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : ففيه إدماج لحكم طبي . وهذا لا ينافي تقديده وأكله مخللاً ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر في سر وصفه بالطراوة : هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكير في باهر قدرته وعجيب صنعه سبحانه ، في خلقه إياه ، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما في الحيوانية .

﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ كاللؤلؤ والمرجان : ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ أي : تلبسها نساؤكم ، والإسناد إليهم ؛ لأنهن من جملتهم في الخلطة والتابعية ، ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم ، فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى (تلبسون) تتمتعون وتلتذون ، على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أي : تلبسها نساؤكم .

قال الناصر : ولله درُّ مالك رضي الله عنه ، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له

بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث ؛ لحقه فيه بالتجمل . فانظر إلى مكانة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له . فعبر عن حظه في لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن ، أو تقلدونهن كما قال :

~تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وهي للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل ؛ لأن المراد لازمه . أي : تحلونهن . والثاني على فرض تسليمه : هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليباً ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونسائكم . ونكتة العدول : أن النساء مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفي التصريح به ليكون اللفظ كالمعنى . انتهى .

وناقش صاحب " فتح البيان " ما قدروه في الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان ، أي : يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله : ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾

بقولهم: تلبسها نساؤهم. لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم. وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة. فإن ذلك ممنوع، ورد الشرع بمنعه، من جهة كونه تشبهاً بهن، لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجاناً. انتهى.

قال السيوطي في "الإكليل": في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها.

واستدل بها من قال بحنث الحالف لا يلبس حلياً بلبس اللؤلؤ؛ لأنه تعالى سماه (حلياً)

واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة في حلي النساء. فأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر، أنه سئل: هل في حلي النساء صدقة؟ قال: لا، هي كما قال: ﴿ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ . انتهى.

(197/434)

قال في "فتح البيان": وفي هذا الاستدلال نظر. والذي ينبغي التعويل عليه: أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم. وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف. ولم يرد في الجواهر، على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها. وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ أي: السفن: ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾

أي : جواري جمع (ماخرة) بمعنى جارية . وأصل معنى (المخر) : الشق ؛ لأنها تشق الماء بمقدمها : ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ عطف على محذوف ، أي : لتنتفعوا بذلك : ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : من سعة رزقه ، بركوبها للتجارة : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر ، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، في مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلاً . مع أنها في تضاعيف المهالك . وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ؛ للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معاً .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [15 - 16] .

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي : تضطرب : ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ أي : جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر ، رزقاً للعباد : ﴿ وَسُبُلاً ﴾ أي : طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى في الجبال ، كما قال تعالى : ﴿

وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ [الأنبياء : 31] ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : بها إلى مآربكم .

(198/434)

﴿ وَعَلامَاتٍ ﴾ أي : دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح ، براً وبحراً ، إذا ضلوا الطريق : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي : في الظلام براً وبحراً . والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة ؛ للالتفات . وتقديم (بالنجم) للفاصلة ، وتقديم الضمير للتقوي . وهذا أولى من دعوى الزمخشري ؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر ، وذلك لأن الخطاب في الآيات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقها .

تنبيه :

قال في " الإكليل " : هذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [17 - 18] .

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ أي : كل شيء ، لا سيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله

الواحد الأحد : ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ أي : شيئًا ما ، وهو ما يعبدون من دونه ، وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك ، بل على إيجاد شيء ما .

وزعم الزمخشري ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تكلموا في سره . وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ [آل عِمْرَان : 36] ، فجدد به عهداً : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فتعرفوا فساد ذلك ، فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر .

(199/434)

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى ؛ إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ أي : لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر : ﴿ إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشري .

ولحظ ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنابوا . أي : فيتجاوز عن

تقصيرهم بشكرها الحقيقي ، ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية عقيب ما تقدم من النعم المعددة ، تكملة لها على طريقة قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] . ولعل فصل ما بينهما بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] ؛ للمبادرة إلى إلزام الحجة ، وإلقاء الحجر ، إثر تفصيل ما فصل من الأفاعيل ، التي هي أدلة الوحدانية .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [19 - 21] .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي : من أعمالكم وسيجزيكم عليه .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي : فأنى تستحق الألوهية ، وقد نفي عنها أخص صفاتها ؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد . أو المعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير . وهم لا يقدرون على نحو ذلك ، فهم أعجز من عبدتهم

. كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : 95 - 96] .

ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافي الألوهية بقوله :

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أي : هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل .

وقوله : ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ تأكيد أو تأسيس ، لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً ، كأجساد الحيوان ، والنطف التي ينشئها الله تعالى حيواناً . فلذا احترز عنه بقوله : ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أي : لا يعتريها الحياة أصلاً . فهي أموات على الإطلاق ، حالاً ومآلاً : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : تلك الأصنام المعبودة : ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : متى يكون بعثها . وقد رُوي أنها تبعث ، ويجعل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها ، ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوّز عود الضمير إلى عابديها . أي : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم تهكماً بحالها ؛ لأن شعور الجماد محال . فكيف بشعور ما لا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [22 - 23] .

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ تصريح بالمدعى ، وتمحيض للنتيجة ، غب إقامة الدليل . كما أفاده أبو السعود : ﴿ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أي : لوحدانيته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متعجبين من ذلك بقوله : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : 45] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن عبادته تعالى .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي : حقاً : ﴿ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ أي : عن التوحيد ، وهم المشركون ، أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : 60] .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ [24 - 25] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي: لم ينزل شيئاً . إنما هذا الذي يتلى علينا أحاديث الأولين، استمدها منها . كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: 5] .

(202/434)

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي: قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم، وهي أوزار ضلالهم في أنفسهم، وبعض أوزار من أضلوهم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: 13]، فاللام في قوله: ﴿ لِيَحْمِلُوا ﴾ لام العاقبة؛ لأن ما ذكر مترتب على فعلهم. ولا باعثاً إما مجازاً، وإما حقيقة، على معنى أنه قدر صدوره منهم ليحملوا . وقد قيل: إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة . والمعنى: إن ذلك متحتم عليهم . فيتم الكلام عند قوله: ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ كذا في "العناية" . وقوله تعالى: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال الزمخشري: حال من المفعول: أي: من لا يعلم أنهم ضُلال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه، وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل . فجهله لا يعذره: ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي: ألا

بئس ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [26] .

(203/434)

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : بأنبيائهم : ﴿ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ أي : قلع بنيانهم من قواعده وأُسُسه فهدمه عليهم حتى أهلكهم و (الإتيان) يتجوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ [الحشر : 2] ، ويقال : أُتِي فلان من مأمنه ، أي : جاءه الهلاك من جهة أمنه . وأتى عليه الدهر : أهلكه وأفناه . ومنه الأُتُوّ وهو الموت والبلاء . يقال أتى على فلان أتوٌ ، أي : موت أو بلاء يصيبه . وقد جوّز في الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالمحكي عن قوم لوط وصالح عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل ؛ لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى . شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكايد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام . وفي إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا

بنياناً وعمّدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم ، كقولهم : من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً . وقوله : ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ متعلق بـ (خَرَّ) . و (من) لابتداء الغاية ، أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد ؛ لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط ، إذا انهدم في ملكه وإن لم يقع عليه : ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي : الهلاك والدمار : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا يحتسبون .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [27] .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي : يذلّهم ويهينهم بعذاب الخزي . لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عِمرَان : 192] ، ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أي : تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم . وفيه تقريع وتوبيخ بالقول ،

واستهزاء بهم؛ إذْ أضاف الشركاء إلى نفسه لأدنى ملابسة، بناءً على زعمهم، مع الإهانة بالفعل المدلول عليها بقوله: ﴿ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي: ما لهم لا يحضرونكم ليدفعوا عنكم! لأنهم كانوا يقولون: إن صح ما تقول فالأصنام تشفع لنا. فهو كقوله: ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: 22]. وقيل: حكي عن المشركين زيادة في توبيخهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم الأنبياء أو العلماء، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاقونهم: ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ ﴾ أي: الفضيحة والعذاب: ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي: المشركين به تعالى. ما لا يضرهم ولا ينفعهم. وإنما قال: ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ هذا شماتة بهم، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول، وتقريراً لما كانوا يعظونهم، وتحقيقاً لما أوعدوهم به.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [28 - 29].

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ هذا إخبار عن حال المشركين الظالمي أنفسهم بتبديل فطرة الله، عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم، أي: ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقة. والعدول إلى صيغة الماضي؛ للدلالة على تحقق الوقوع. وأصل الإلقاء في الأجسام فاستعمل في إظهار الانقياد؛ إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم. وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب على الاستعارة. وقوله تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ منصوب بقول مضمر، حال. أي: قائلين ذلك. أو هو تفسير (للسلم) الذي ألقوه؛ لأنه بمعنى القول؛ بدليل الآية الأخرى: ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ﴾ [النحل: 86]، كما يقولون يوم المعاد: ﴿ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 23]، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: 18]. ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله: ﴿ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: مقدراً خلودكم.

قال ابن كثير : وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها . من حرها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ، وخلدت في نار جهنم ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : 36] كما قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : 46] ، وقوله : ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي : بئس المقيل والمقام لمن كان متكبراً عن آيات الله وإتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبُّر ؛ للإشعار بعليته لثوائهم فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 367.382 ﴾

(207/434)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/435)

الجزء الخامس والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 30 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 42 ﴾ من نفس السورة

(4/435)

قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم الخبر عن المنكر لما أنزل الله على ألسنة الملائكة من الروح من أمره على الأنبياء عليهم السلام ، إنكاراً لفضلهم وتكبراً بما ليس لهم ، بالاعتراض على خالقهم ، ابتدأ الخبر عن المقرين تصديقاً لهداتهم واعترافاً بفضلهم وتسليماً لمن هم عبيده في تفضيل من يشاء ، منبهاً على الوصف الذي أوجب لهم الاعتراف بالحق ، فقال حاذفاً ل " إذا " دلالة على الرضى بأيسر شيء من الخير والمدح عليه ولو لم يتكرر : ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ أي خافوا عقاب الله ﴿ ماذا ﴾ أي أي شيء ﴿ أنزل ربكم ﴾ أي المحسن إليكم من روحه المحيي للأرواح ، على رسوله ﴿ قالوا ﴾ معترفين بالإنزال ، غير متوقفين في المقال ، فاهمين أن ذا مؤكدة للاستفهام لا بمعنى الذي : أنزل ﴿ خيراً ﴾ وإنما أطبق القراء على نصب هذا ورفع الأول فرقاً بين جوابي المقر والجاحد بمطابقة المقر بين الجواب والسؤال ، وعدول الجاحد بجوابه عن السؤال ؛ ثم أخذ يرغب بما لهم من حسن المآل على وجه الجواب لسؤال من كأنه قال : ما لهم على ذلك ؟ فقيل مظهراً موضع الإضمار مدحاً لهم وتعميماً لمن اتصف بوصفهم : ﴿ للذين أحسنوا ﴾ فبين أن اعترافهم بذلك إحسان ؛ ثم أخبر عنه بقوله :

﴿ في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي جزاء لهم على إحسانهم ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] .

(5/435)

ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال ، أخبر عن حالهم في الآخرة فقال : ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ أي جزاء ومصيراً ؛ ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ أي هي ، مرغباً في الوصف الذي كان سبب حيازتهم لها ، وهو الخوف المنافي لما وصف به الأشرار من الاستكبار ، بإظهاره موضع الإضمار وحذف المخصوص بالمدح لتقدم ما يدل عليه ، وهو صالح لتقدير الدنيا - أي لمن عمل فيها بالتقوى - ولتقدير الآخرة ، وهو واضح .

ولما كان هذا المدح مشوقاً لتفصيل ذلك قيل : ﴿ جنّات عدن ﴾ أي إقامة لا ظعن فيها ﴿ يدخلونها ﴾ حال كونها ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي من تحت غرفها ﴿ الأنهار ﴾ ثم أجيب من كأنه سأل عما فيها من الثمار وغيرها بقوله تعالى : ﴿ لهم فيها ﴾ أي خاصة ، لا في شيء سواها من غير أن يجلب إليهم من غيرها ﴿ ما يشاؤون ﴾ ثم زاد في الترغيب بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ يجزي الله ﴾ أي الذي له الكمال كله

﴿ المتقين ﴾ أي الراسخين في صفة التقوى ، ثم حث على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت ، فقال تعالى : ﴿ الذين تتوفّاهم ﴾ أي تقبض أرواحهم وافية من نقص شيء من الروح أو المعاني - بما أشار إليه إثبات التاءين والإظهار ﴿ الملائكة طيبين ﴾ أي طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر متحلين بحلية الإيمان ، فكأنه قيل : ماذا تقول لهم الملائكة ؟ فقيل : ﴿ يقولون ﴾ أي مكررين للتأكيد تسكيناً لما جبلوا عليه من تعظيم جلال الله بالتقوى ﴿ سلام عليكم ﴾ ويقال لهم لتحقق فوزهم ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي دار التفكه التي لا مثل لها ﴿ بما كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ تعملون ﴾ ترغيباً لهم في الأعمال التي لا يستطيعونها إلا برحمة الله لهم بتوفيقهم لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 263.264 ﴾

(6/435)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أحوال الأقوام الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير

الأولين .

وذكر أنهم يحملون أوزارهم ومن أوزار أتباعهم ، وذكر أن الملائكة تتوفاهم ظالمي أنفسهم ، وذكر أنهم في الآخرة يلقون السلم ، وذكر أنه تعالى يقول لهم ادخلوا أبواب جهنم ، أتبعه بذكر وصف المؤمنين الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا خيراً ، وذكر ما أعده لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات ليكون وعد هؤلاء مذكوراً مع وعيد أولئك وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال القاضي : يدخل تحت التقوى أن يكون تاركاً لكل المحرمات فاعلاً لكل الواجبات ، ومن جمع بين هذين الأمرين فهو مؤمن كامل الإيمان ، وقال أصحابنا : يريد الذين اتقوا الشرك وأيقنوا أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأقول : هذا أولى مما قاله القاضي ، لأنا بينا أنه يكفي في صدق قوله فلان قاتل أو ضارب كونه آتياً بقتل واحد وضرب واحد ، ولا يتوقف صدق هذا الكلام على كونه آتياً بجميع أنواع القتل وجميع أنواع الضرب ، فعلى هذا قوله : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾ يتناول كل من أتى بنوع واحد من أنواع التقوى إلا أنا أجمعنا على أنه لا بد من التقوى عن الكفر والشرك فوجب أن لا يزيد على هذا القيد لأنه لما كان تقييد المطلق خلاف الأصل ، كان تقييد المقيد أكثر مخالفة للأصل ، وأيضاً فلأنه تعالى إنما ذكر هؤلاء في مقابلة أولئك الذين كفروا وأشركوا ، فوجب أن يكون المراد من اتقى عن ذلك

الكفر والشرك ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : إنه قال في الآية الأولى ، قالوا أساطير الأولين ، وفي هذه الآية قالوا خيراً ، فلم رفع الأول ونصب هذا ؟ .

(7/435)

أجاب صاحب "الكشاف" عنه بأن قال : المقصود منه الفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا خيراً أي أنزل خيراً ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء .

المسألة الثالثة :

قال المفسرون هذا كان في أيام الموسم ، يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه فيقولون خيراً ، والمعنى : أنزل خيراً .

ويحتمل أن يكون المراد الذي قالوه من الجواب موصوف بأنه خير ، وقولهم خير جامع لكونه

حقاً وصواباً ، ولكونهم معترفين بصحته ولزومه فهو بالضد من قول الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أن ذلك أساطير الأولين على وجه التكذيب .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ وما بعده بدل من قوله : ﴿خَيْرًا﴾ وهو حكاية لقول الذين اتقوا ، أي قالوا هذا القول ، ويجوز أيضاً أن يكون قوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ إخباراً عن الله ، والتقدير : إن المتقين لما قيل لهم : ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾ ثم إنه تعالى أكد قولهم وقال : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ﴾ وفي المراد بقوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ قولان ، أما الذين يقولون : إن أهل لا إله إلا الله يخرجون من النار فإنهم يحملونه على قول لا إله إلا الله مع الاعتقاد الحق ، وأما المعتزلة الذين يقولون : إن فساق أهل الصلاة لا يخرجون من النار يحملون قوله : ﴿أَحْسَنُواْ﴾ على من أتى بالإيمان وجميع الواجبات واحترز عن كل المحرمات .

وأما قوله : ﴿فِى هذه الدنيا﴾ ففيه قولان :

القول الأول : أنه متعلق بقوله : ﴿ أَحْسَنُواْ ﴾ والتقدير : للذين اتقوا بعمل الحسنة في الدنيا فلهم في الآخرة حسنة ، وتلك الحسنة هي الثواب العظيم ، وقيل : تلك الحسنة هو أن ثوابها يضاعف بعشر مرات وبسبعمائة وإلى ما لا نهاية له .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ متعلق بقوله : ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ والتقدير : للذين أحسنوا أن تحصل لهم الحسنة في الدنيا ، وهذا القول أولى ، لأنه قال بعده : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ وعلى هذا التقدير ففي تفسير هذه الحسنة الحاصلة في الدنيا وجوه :

الأول : يحتمل أن يكون المراد ما يستحقونه من المدح والتعظيم والثناء والرفعة ، وجميع ذلك جزاء على ما عملوه .

والثاني : يحتمل أن يكون المراد به الظفر على أعداء الدين بالحجة وبالغلبة لهم ، وباستغنام أموالهم وفتح بلادهم ، كما جرى ببدر وعند فتح مكة ، وقد أجلوهم عنها وأخرجوهم إلى الهجرة ، وإخلاء الوطن ، ومفارقة الأهل والولد وكل ذلك مما يعظم موقعه .

والثالث : يحتمل أن يكون المراد أنهم لما أحسنوا بمعنى أنهم أتوا بالطاعات فتح الله عليهم أبواب المكاشفات والمشاهدات والألطاف كقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] .

وأما قوله : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ فقد بينا في سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 32] بالدلائل القطعية العقلية حصول هذا الخير ، ثم قال :

﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي لنعم دار المتقين دار الآخرة، فحذفت لسبق ذكرها ، هذا إذا لم تجعل هذه الآية متصلة بما بعدها ، فإن وصلتها بما بعدها قلت : ولنعم دار المتقين جنات عدن فترفع جنات على أنها اسم لنعم، كما تقول : نعم الدار دار ينزلها زيد .

وأما قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(9/435)

اعلم أنها إن كانت موصولة بما قبلها ، فقد ذكرنا وجه ارتفاعها ، وأما إن كانت مقطوعة ، فقال الزجاج : جنات عدن مرفوعة بإضمار "هي" كأنك لما قلت ولنعم دار المتقين قيل : أي دار هي هذه الممدوحة فقلت : هي جنات عدن ، وإن شئت قلت : جنات عدن رفع بالإبتداء ، ويدخلونها خبره ، وإن شئت قلت : نعم دار المتقين خبره ، والتقدير : جنات عدن نعم دار المتقين .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ جنات ﴾ يدل على القصور والبساتين وقوله : ﴿ عَدْنٍ ﴾ يدل على الدوام ، وقوله : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ يدل على أنه حصل هناك أبنية يرتفعون عليها

وتكون الأنهار جارية من تحتهم ، ثم إنه تعالى قال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءونَ ﴾ وفيه بحثان :

الأول : أن هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات ، وهذا أبلغ من قوله :

﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] لأن هذين القسمين داخلان

في قوله : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يشاؤن ﴾ مع أقسام أخرى .

الثاني : قوله : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يشاؤن ﴾ يعني هذه الحالة لا تحصل إلا في الجنة ، لأن قوله :

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يشاؤن ﴾ يفيد الحصر ، وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده في

الدنيا .

(10/435)

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِى الله المتقين ﴾ أي هكذا جزاء التقوى ، ثم إنه تعالى عاد إلى

وصف المتقين فقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيّبِينَ ﴾ وهذا مذكور في مقابلة قوله :

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] وقوله : ﴿ الذين تتوفاهم

الملائكة ﴾ صفة للمتقين في قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِى الله المتقين ﴾ وقوله : ﴿ طَيّبِينَ ﴾

كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به ،

واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن

الأخلاق المذمومة ، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت ، وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح ، وإن كان الحسن يقول : إنه وفاة الحشر ، ثم بين تعالى أنه يقال لهم عند هذه الحالة : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ فاحتج الحسن بهذا على أن المراد بذلك التوفي وفاة الحشر ، لأنه لا يقال عند قبض الأرواح في الدنيا ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، ومن ذهب إلى القول الأول وهم الأكثرون يقولون : إن الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ، ادخلوا الجنة أي هي خاصة لكم كأنكم فيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 19 .22 ﴾

(11/435)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . ولدار الآخرة خيرٌ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الجنة خير من النار ، وهذا وإن كان معلوماً فالمراد به تبشيرهم بالخلاص

منها .

الثاني : أنه أراد أن الآخرة خير من دار الدنيا ، قاله الأكثرون .

﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولنعم دار المتقين الآخرة . الثاني : ولنعم دار المتقين الدنيا ، قال الحسن : لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . قوله تعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾

قيل معناه صالحين .

ويحتمل طيبي الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى .

ويحتمل وجهاً ثالثاً أن تكون وفاتهم وفاة طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم بخلاف ما تقبض عليه روح الكافر .

﴿ يقولون سلام عليكم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون السلام عليهم إنذاراً لهم بالوفاة .

الثاني : أن يكون تبشيراً لهم بالجنة ، لأن السلام أمان .

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة .

الثاني : أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة .

﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يعني في الدنيا من الصالحات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(12/435)

وقال ابن عطية :

، قوله ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ الآية ،

لما وصف تعالى مقالة الكفار الذين قالوا أساطير الأولين ، عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوجب لكل فريق ما يستحق لتتباين المنازل بين الكفر والإيمان ، و﴿ ماذا ﴾ تحتمل ما ذكر في التي قبلها ، وقولهم ﴿ خيراً ﴾ جواب بحسب السؤال ، واختلف المتأولون في قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا ﴾ إلى آخر الآية ، فقالت فرقة : هو ابتداء كلام من الله مقطوع مما قبله ، لكنه بالمعنى وعد متصل بذكر إحسان المتقين في مقالتهم ، وقالت فرقة : هو من كلام الذين ﴿ قالوا خيراً ﴾ وهو تفسير للخير الذي أنزل الله في الوحي على نبينا خبراً أن من أحسن في الدنيا بطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة ، وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : " إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة " وقد تقدم القول في إضافة " الدار " إلى الآخرة وباقي الآية بين .

(13/435)

﴿ جنات عدن ﴾ يحتمل أن يرتفع على خبر ابتداء مضمر بتقدير هي جنات عدن ، ويحتمل أن يرتفع بقوله ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ [النحل : 30] ﴿ جنات عدن ﴾ ويحتمل أن يكون التقدير ، لهم جنات عدن ، ويحتمل أن يكون ﴿ جنات ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ يدخلونها ﴾ ، وقرأ زيد بن ثابت وأبو عبد الرحمن " جناتِ " بالنصب ، وهذا نحو قولهم زيد ضربته ، وقرأ جمهور الناس " يدخلونها " ، وقرأ إسماعيل عن نافع "يُدخَلونها " بضم الياء وفتح الخاء ، ولا يصح هذا عن نافع ، ورويت عن أبي جعفر وشيبة بن نصاح ، وقوله ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ في موضع الحال وباقي الآية بين . وقرأ الجمهور " تتوفاهم " بالتاء ، وقرأ الأعمش " يتوفاهم " بالياء من تحت ، وفي مصحف ابن مسعود " توفاهم " بتاء واحدة في الموضعين ، و ﴿ طيبين ﴾ عبارة عن صلاح حالهم واستعدادهم للموت ، وهذا بخلاف ما قال في الكفرة ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ [النحل : 28] ، والطيب الذي لا خبث معه ، ومنه قوله تعالى ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : 73] وقول

الملائكة : ﴿ سلام عليكم ﴾ ، بشارة من الله تعالى ، وفي هذا المعنى أحاديث صحاح يطول ذكرها وقوله ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي بما كان في أعمالكم من تكسبكم ، وهذا على التجوز ، علق دخولهم الجنة بأعمالهم من حيث جعل الأعمال أمارة لإدخال العبد الجنة ، ويعترض في هذا المعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة أحد بعمله " قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة " وهذه الآية ترد بالتأويل إلى معنى الحديث .

قال القاضي أبو محمد : ومن الرحمة والتغمد ، أن يوفق الله العبد إلى أعمال برة ، ومقصد الحديث نفي وجوب ذلك على الله تعالى بالعقل ، كما ذهب إليه فريق من المعتزلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(14/435)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾

أي قالوا : أنزل خيراً ؛ وتَمّ الكلام .

و"ماذا" على هذا اسم واحد .

وكان يرِدُ الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون .

ويسأل المؤمنين فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى ، والمراد القرآن .

وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة .

قال الثعلبي : فإن قيل : لِم ارتفع الجواب في قوله : ﴿ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ وانتصب في قوله : "خيرا" فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكأنهم قالوا : الذي يقوله محمد هو أساطير الأوّلين .

والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا : أنزل خيراً .

وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ قيل : هو من كلام الله عز وجل .

وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقَوا .

والحسنة هنا : الجنة ؛ أي من أطاع الله فله الجنة غداً .

وقيل : "للذين أحسنوا" اليومَ حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغَنِيمة : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ؛ لفنائها وبقاء الآخرة .

﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ فيه وجهان قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا ؛ لأنهم

نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة .

وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة ؛ وهذا قول الجمهور .

وعلى هذا تكون ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدلاً من الدار فلذلك ارتفع .

وقيل : ارتفع على تقدير هي جنات ، فهي مبيِّنة لقوله : "دَارُ الْمتَّقِينَ" ، أو تكون مرفوعة بالابتداء ، التقدير : جنات عدن نعم دار المتقين .

﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ في موضع الصفة ، أي مدخولة .

وقيل : "جنات" رفع بالابتداء ، وخبره "يدخلونها" وعليه يُخَرّج قول الحسن .

والله أعلم .

(15/435)

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ تقدّم معناه في البقرة .

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ ﴾ أي مما تمنّوه وأرادوه .

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين .

﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ ﴾ قرأ الأعمش وحمزة "يتوفاهم الملائكة" في الموضعين بالياء ، واختاره أبو عبيد ؛ لما روي عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشاً زعموا أن الملائكة

إناث فذكِّروهم أنتم .

الباقون بالتاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة .

و ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ فيه ستة أقوال : الأوّل "طَيِّبِين" طاهرين من الشرك .

الثاني صالحين .

الثالث زاكية أفعالهم وأقوالهم .

الرابع طيبين الأنفس ثقةً بما يلقونه من ثواب الله تعالى .

الخامس طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله .

السادس "طيبين" أن تكون وفاتهم طيّبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط .

والله أعلم .

﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة .

الثاني أن يكون تبشيراً لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان .

وذكر ابن المبارك قال : حدّثني حَيْوَة قال أخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال : إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه مَلَك الموت فقال : السلام عليك وَلِيَّ الله ، الله يقرأ عليك السلام .

ثم نزع بهذه الآية "الذين تتوفاهم الملائكة طيِّبِين يقولونَ سلام عليكم" .

وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربّك يقرئك السلام .

وقال مجاهد : إن المؤمن ليبَشَّر بصلاح ولده من بعده لتَقَرّ عينه .

وقد أتينا على هذا في (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة في هذا المعنى ، والحمد لله .

وقوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون معناه ابشروا بدخول الجنة .

الثاني أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني في الدنيا من الصالحات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(16/435)

وقال الخازن :

قوله ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾

وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون إلى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) فإذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار

فيقولون : هو ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون وإذا لم تلقه خير لك .

فيقول الوافد : أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي من دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة ، فيرى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه ، وأمانته وأنه نبي مبعوث من الله ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : وقيل الذين اتقوا يعني اتقوا الشرك ، وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيراً يعني أنزل خيراً فان قلت لم رفع الأول وهو قوله : أساطير الأولين ونصب الثاني ، وهو قوله قالوا خيراً قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد ، وجواب المقر المؤمن وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين وليس هو من الإنزال في شيء لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلاً ولما سألوا المؤمنين على المنزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بيّناً مكشوفاً معقولاً للإنزال فقالوا : خيراً أي أنزل خيراً ، وتم الكلام عند قوله خيراً فهو ، وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ يعني الذين أتوا بالأعمال الصالحة الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، وقال الضحاك : هي النصر والفتح .

وقال مجاهد : هي الرزق الحسن .

فعلى هذا يكون معنى الآية للذين أحسنوا ثواب إحسانهم في هذه الدنيا حسنة ، وهي النصر والفتح والرزق الحسن ، وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده في الدنيا ، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ يعني ما لهم في الآخرة مما أعد الله لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ يعني الجنة وقال الحسن : هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها إلى الآخرة والقول الأول أولى هو قول جمهور المفسرين لأن الله فسر هذه الدار بقوله ﴿ جنّات عدن ﴾ يعني بساتين إقامة من قولهم : عدنَ بالمكان ، أي أقام به ﴿ يدخلونها ﴾ يعني تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ يعني تجري الأنهار في هذه الجنات من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم ﴿ لهم فيها ﴾ يعني في الجنات ﴿ ما يشاؤون ﴾ يعني ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين مع زيادات غير ذلك ، وهذه الحالة لا تحصل لأحد إلا في الجنة لأن قوله فيها ما يشاؤون لا يفيد الحصر ، وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ أي هكذا يكون جزاء المتقين ، ثم عاد إلى وصف المتقين فقال تعالى ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ يعني مؤمنين طاهرين من الشرك .

قال مجاهد : زاكية أقوالهم وأفعالهم وقيل : إن قوله طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه أنهم ، أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات ، والمحرمات مع الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة ، والمباعدة من الأخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه إن أوقاتهم تكون طيبة سهلة لأنهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة ، فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج ، فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة ﴿ يقولون ﴾ يعني الملائكة لهم ﴿ سلام عليكم ﴾ يعني تسلم عليهم الملائكة أو تبلغهم السلام من الله ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ يعني في الدنيا من الأعمال الصالحة.

فإن قلت : كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وبين قوله : (صلى الله عليه وسلم) " لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته " أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة ؟ قلت : قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في شرح مسلم.

اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا غيرها إلا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضاً أن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين ،

وأدخلهم النار كان ذلك عدلاً منه ، وإذا أكرمهم ورحمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرون ، وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلاً ، ولكنه سبحانه وتعالى أخبر وخبره صادق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ، ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلاً منه .

وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل ، ويوجبون ثواب الأعمال ويوجبون الأصلح في خبط طويل لهم ، تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع .

(19/435)

وفي ظاهر الحديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته .

وأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ ونحوها من الآيات التي تدل على أن الأعمال الصالحة يدخل بها الجنة ، فلا تعارض بينها ، وبين هذا الحديث بل معنى الآيات : أن دخول الجنة بسبب الأعمال والتوفيق للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة ، والفضل والمنة والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾

تقدم إعراب ماذا ، إلا أنه إذا كانت ذا موصولة لم يكن الجواب على وفق السؤال ، لكون ماذا مبتدأ وخبر ، أو الجواب نصب وهو جائز ، ولكن المطابقة في الإعراب أحسن .

وقرأ الجمهور : خيراً بالنصب أي : أنزل خيراً .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : لم نصب هذا ، ورفع الأول ؟ (قلت) : فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعني : أنّ هؤلاء لما سئلوا : لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا : خيراً ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين ، وليس من الإنزال في شيء انتهى .

وقرأ زيد بن علي : خير بالرفع أي : المنزل فتطابق هذه القراءة تأويل من جعل إذا موصولة ، ولا تطابق من جعل ماذا منصوبة ، لاختلافهما في الإعراب ، وإن كان الاختلاف جائزاً كما ذكرنا .

وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام المواسم من يأتيهم بخبر النبي (صلى الله عليه وسلم

) ، فإذا جاء الوفد كفه المقتسمون وأمره بالانصراف وقالوا : إنْ لم تلقه كان خيراً لك فيقول

: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد (صلى الله عليه وسلم)

وأراه ، فيلقى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيخبرونه بصدقه ، وأنه نبي

مبعوث ، فهم الذين قالوا خيراً .

والظاهر أن قوله : للذين ، مندرج تحت القول ، وهو تفسير للخير الذي أنزله الله في الوحي :

أنّ من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة .

وقال الزمخشري : للذين أحسنوا وما بعده بدل من خير ، حكايةٌ لقول الذين اتقوا أي : قالوا

هذا القول ، فقدم عليه تسميته خيراً ثم حكاه انتهى .

وقالت فرقة : هو ابتداء كلام من الله تعالى ، مقطوع مما قبله ، وهو بالمعنى وعد متصل

بذكر إحسان المتقين في مقالتهم .

(21/435)

ومعنى حسنة مكافأة في الدنيا بإحسانهم ، ولهم في الآخرة ما هو خير منها .

ولما ذكر حال الكفار في الدنيا والآخرة ذكر حال المؤمنين في الدارين ، والظاهر أنّ

المخصوص بالمدح هو جنات عدن .

وقال الزمخشري : ولنعم دار المتقين دار الآخرة ، فحذف المخصص بالمدح لتقدم ذكره ، وجنات عدن خبر مبتدأ محذوف انتهى .

وقاله ابن عطية : وقبلهما الزجاج وابن الأنباري ، وجوزوا أن يكون جنات عدن مبتدأ ، والخبر يدخلونها .

وقرأ زيد بن ثابت وأبو عبد الرحمن جنات عدن بالنصب على الاشتغال أي : يدخلون جنات عدن يدخلونها ، وهذه القراءة تقوي إعراب جنات عدن بالرفع أنه مبتدأ ، ويدخلونها الخبر .

وقرأ زيد بن علي : ولنعمت دار ، بتاء مضمومة ، ودار مخفوض بالإضافة ، فيكون نعمت مبتدأ وجنات الخبر .

وقرأ السلمي : تدخلونها بتاء الخطاب .

وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع : يدخلونها بياء على الغيبة ، والفعل مبني للمفعول ، ورويت عن أبي جعفر وشيبة : تجري .

قال ابن عطية : في موضع الحال ، وقال الحوفي : في موضع نعت لجنات انتهى .

فكان ابن عطية لحظ كون جنات عدن معرفة ، والحوفي لحظ كونها نكرة ، وذلك على الخلاف في عدن هل هي علم ؟ أو نكرة بمعنى إقامة ؟ والكاف في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف أي : جزاء مثل جزاء الذين أحسنوا يجزي ، وطيبين حال من مفعول

تتوفاهم ، والمعنى : أنهم صالحو الأحوال مستعدّون للموت والطيب الذي لا خبث فيه ، ومنه : ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ وقال أبو معاذ : طيبين طاهرين من الشكر بالكلمة الطيبة .

وقيل : طيبين سهلة وفاتهم لا صعوبة فيها ولا ألم ، بخلاف ما يقبض روح الكافر والمخلط .

وقيل : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله تعالى ، وقيل : زاكية أفعالهم وأقوالهم ، وقيل : صالحين ، وقال الزمخشري : طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي ، لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم .

(22/435)

ويقولون نصب على الحال من الملائكة ، وتسليم الملائكة عليهم بشارة من الله تعالى ، وفي هذا المعنى أحاديث صحاح.

وقوله : هدى للمتقين ، هو وقت قبض أرواحهم ، قاله : ابن مسعود ، ومحمد بن كعب ، ومجاهد .

والأكثرون جعلوا التبشير بالجنة دخولاً مجازاً .

وقال مقاتل والحسن : عند دخول الجنة وهو قول خزنة الجنة لهم في الآخرة : سلام عليكم

بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

فعلى هذا القول يكون يقولون حالاً مقدرة ، ولا يكون القول وقت التوفي .

وعلى هذا يحتمل أن يكون الذين مبتدأ ، والخبر يقولون ، والمعنى : يقولون لهم سلام عليكم .

ويدل لهذا القول قولهم : ادخلوا الجنة ، ووقت الموت لا يقال لهم ادخلوا الجنة ، فالتوفي هنا توفي الملائكة لهم وقت الحشر .

وقوله : بما كنتم تعملون ظاهره في دخول الجنة بالعمل الصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(23/435)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾

أي المؤمنين ، وُصفوا بالتقوى إشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىءٌ عن التقوى ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ سلكوا في الجواب مسلك السؤالِ من غير تلعثم ولا تغييرٍ في الصورة ، والمعنى أي أنزل خيراً فإنه جوابٌ مطابق للسؤال ولسبك الواقع في نفس الأمر

مضموناً ، وأما الكفرةُ فإنهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجوابَ عن نهج الحق الواقعِ الذي ليس له من دافع غيّروا صورته وعدَلوا بها عن سَنن السؤال حيث رفعوا الأساطير رَوماً لما مر من إنكار النزول . رُوي أن أحياءَ العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي عليه السلام ، فإذا جاء الوافد كفّه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا : إن لم تلْقَه كان خيراً لك ، فيقول : أنا شرُّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمرَ محمد وأراه فيلقى أصحابَ النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم فيخبرونه بحقيقة الحالِ فهم الذين قالوا خيراً ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ أي أعمالَهم أو فعلوا الإحسانَ ﴿ فِى هذه ﴾ الدار ﴿ الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ أي مثوبةٌ حسنةٌ مكافأة فيها ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ أي مثوبتُهم فيها ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة أو خيرٌ على الإطلاق فيجوز إسنادُ الخيرية إلى نفس دارِ الآخرة ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ أي دار الآخرة ، حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدَح الله تعالى به المتقين وعدّ جوابَهم المَحْكيَّ من جملة إحسانِهم ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة فلا محل له من الإعراب ، أو بدلٌ من خيراً أو تفسير له أي أنزل خيراً هو هذا الكلامُ الجامعُ ، قالوه ترغيباً للسائل .

(24/435)

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ خبرُ مبتدإٍ محذوف أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي لهم جنات ، ويجوز أن يكون هو المخصوصَ بالمدح ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ صفةٌ لجناتُ على تقدير تنكيرِ عدنٍ وكذلك ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أو كلاهما حال على تقدير عَلَميته ﴿ لَّهُمْ فِيهَا ﴾ في تلك الجنات ﴿ مَا يَشَاءونَ ﴾ الظرفُ الأول خبرٌ لما والثاني حالٌ منه والعاملُ ما في الأول ، أو متعلق به أي حاصلٌ لهم فيها ما يشاءون من أنواع المشتَهيات ، وتقديمُه للاحتراز عن توهم تعلّقِه بالمشيئة أو لما مر مراراً من أن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ يوجب ترقبَ النفسِ إليه فيتمكن عند ورودِه عليها فضلَ تمكن ﴿ كذلك ﴾ مثلَ ذلك الجزاءِ الأوفى ﴿ يَجْزِى الله المتقين ﴾ اللام للجنس أي كلَّ من يتقي من الشِرْك والمعاصي ويدخُل فيه المتقون المذكورون دخولاً أولياً ، ويكون فيه بعثٌ لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسيرٌ للكفرة .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ نعت للمتقين وقوله تعالى : ﴿ طَيّبِينَ ﴾ أي طاهرين عن دنس الظلمِ لأنفسهم حال من الضمير ، وفائدتُه الإيذانُ بأن مَلاكَ الأمر في التقوى هو الطهارةُ عما ذكر إلى وقت توفيهم ففيه حثٌّ للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ، ولغيرهم على تحصيله ، وقيل : فرحين طيِّبي النفوسِ ببشارة الملائكة إياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحِهم لتوجه نفوسِهم بالكلية إلى جناب القُدس ﴿ يَقُولُونَ ﴾ حالٌ من الملائكة أو قائلين لهم : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ قال القُرظِيّ رحمه الله : إذا استُدْعيت نفسُ المؤمن جاءه ملكُ

الموت عليه السلام، فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله تعالى يقرأ عليك السلام، وبشّره بالجنة.

(25/435)

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ اللام للعهد أي جناتِ عدن الخ، ولذلك جُرّدت عن النعت، والمرادُ دخولُهم لها في وقته فإن ذلك بشارةٌ عظيمة وإن تراخى المبشَّرُ به لا دخولُ القبر الذي هو روضةٌ من رياضها إذ ليس في البِشارة به ما في البشارة بدخول نفسِ الجنة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بسبب ثبا تكم على التقوى والطاعة أو بالذي كنتم تعملونه من ذلك، وقيل: المرادُ بالتوفّي التوفي للحشر، لأن الأمر بالدخول حينئذ يتحقق. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(26/435)

وقال الآلوسى:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾

أي المؤمنين ، وصفوا بذلك اشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىء من التقوى .

﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ أي أنزل خيراً ﴿ فَمَاذَا ﴾ اسم واحد مركب للاسفهام بمعنى أي شيء محله النصب ﴿ بأنزل ﴾ و﴿ اللهُ خَيْرًا ﴾ مفعول لفعل محذوف ، وفي اختيار ذلك دليل على أنهم لم يتلعثموا في الجواب وأطبقوه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة حيث عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو ﴿ أساطير الاولين ﴾ وليس من الإنزال في شيء .

نعم قرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ خَيْرٌ ﴾ بالرفع فما اسم استفهام و﴿ ذَا ﴾ اسم موصول بمعنى الذي أي أي شيء الذي أنزله ربكم ، و﴿ خَيْرٌ شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوْا العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا ﴾ منصوباً على المفعولية كما مر ورفع ﴿ خَيْرٌ ﴾ على الخبرية لمبتدأ جائز إلا أنه خلاف الأول ، وفي الكشف أنه يظهر من الوقوف على مراد صاحب الكشاف في هذا المقام إن فائدة النصب مع أن الرفع أقوى دفع الالتباس ليكون نصاً في المطلوب كما أوثر النصب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] لذلك ، وينحل مراده من ذلك بالرجوع إلى ما نقلناه عنه سابقاً والتأمل فيه فتأمل فإنه دقيق .

هذا ولم نجد في السائل هنا خلافاً كما في السائل فيما تقدم ، والذي رأيناه في كثير مما وقفنا عليه من التفاسير أن السائل الوفد الذي كان سائلاً أو لا في بعض الأقوال المحكية هناك ، وذكر أنه السائل في الموضعين كثير منهم ابن أبي حاتم ، فقد أخرج عن السدى قال اجتمعت قريش فقالوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله فانظروا أناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة انسابهم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين فمن جاء يريده فردوه عنه فخرج ناس منهم في كل طريق فكان إذا أقبل الرجل وافد لقومه ينظر ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فينزل بهم قالوا له : يا فلان ابن فلان فيعرفه بنسبه ويقول : أنا أخبرك عن محمد صلى الله عليه وسلم هو رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له فيرجع أحدهم فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أساطير الاولين ﴾ [النحل : 24] فإذا كان الوافد ممن عزم الله تعالى له على الرشاد فقالوا له مثل ذلك قال : بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وانظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد صلى الله عليه وسلم فيقولون : خيراً الخ ، نعم يجوز عقلا أن يكون السائل بعضهم لبعض ليقوى ما عنده بجوابه أو لنحو ذلك كالاستلذاذ بسماع

الجواب وكثيراً ما يسأل المحب عما يعلمه من أحوال محبوبه استلذاذاً بمدامة ذكره وتشنيفا لسمعه بسني دره :

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر . . .

ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

(28/435)

بل يجوز أيضاً أن يكون السائل من الكفرة المعاندين وغرضه بذلك التلاعب والتهكم ﴿ لّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ أتوا بالأعمال الحسنة الصالحة ﴿ فِى هذه ﴾ الدار ﴿ الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ مثوبة حسنة جزاء إحسانهم ، والجار والمجرور متعلق بما بعده على معنى أن تلك الحسنة لهم في الدنيا ، والمراد بها على ما روي عن الضحاك النصر والفتح ، وقيل : المدح والثناء منه تعالى ، وقال الإمام : يحتمل أن يكون فتح باب المكاشفات والمشاهدات والالطاف كقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] وقيل : متعلق بما قبله ، وحينئذ يحتمل أن يكون الكلام على تقدير مثله متعلقاً بما بعد أولا بل تكون هذه الحسنة الواقعة مثوبة لاحسانهم في الدنيا في الآخرة ، واقتصر بعضهم على هذا الاحتمال ، والمراد بالحسنة حينئذ إما الثواب العظيم الذي أعده الله تعالى يوم القيامة

للمحسنين وإما التضعيف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما لا يعلمه غيره جل وعلا

، واختير كونه متعلقاً بما بعد لأنه الأوفق بقوله سبحانه : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ والكلام

كما يشعر به كلام غير واحد على حذف مضاف أي ولثواب دار الآخرة أي ثوابهم فيها

خير مما أوتوا في الدنيا من الثواب .

وجوز أن يكون المعنى خير على الإطلاق فيجوز إسناد الخيرية إلى نفس دار الآخرة ﴿

وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ أي دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه كما قاله ابن عطية .

والزجاج .

وابن الأنباري .

(29/435)

وغيرهم ، وهذا كلام مبتدأ عدة منه تعالى الذين اتقوا على قولهم ، وهو في الوعد ههنا نظير

﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ ﴾ [النحل : 25] في الوعيد فيما مر ، وجوز أن يكون ﴿ خَيْرًا

﴾ مفعول ﴿ قَالُواْ ﴾ وعمل فيه لأنه في معنى الجملة كمقال قصيده أو صفة مصدر أي

قولاً خيراً ، وهذه الجملة بدل منه فمحلها النصب أو مفسرة له فلا محل لها من الأعراب ،

وعلى التقديرين مقولهم في الحقيقة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ الخ إلا أن الله سبحانه سماه خيراً

ثم حكاه كما تقول : قال فلان جميلاً من قصدنا وجب حقه علينا ، وعلى ما ذكر لا يكون دلالة النصب على ما مر لما أشير إليه هناك وإنما تكون من حيث شهادة اللهتعالى بخيرية قولهم ويحتمل جعل ذلك كما الكشف مفعول ﴿ أَنزَلَ ﴾ ويكون تسميته خيراً من الله تعالى كما قوله سبحانه :

﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ [الزخرف : 9] ليشعر أول ما يقرع السمع بالمطابقة من غير نظر إلى فهم معناه ؛ وأما قولهم : "للذين أحسنوا " أي قالوا أنزل هذه المقالة فإن ما يفهم من المطابقة بعد تدبر المعنى ، وزعم بعضهم أنه لا يجوز جعله منصوباً بأنزل لأن هذا القول ليس منزلاً من الله تعالى ، وفيه تفوت المطابقة حينئذ وهو كلام ناشىء من قلة التدبر .

وفي البحر الظاهر أن ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ الخ مندرج تحت القول وهو تفسير للخير الذي أنزل الله تعالى في الوحي ، وظاهره أنه وجه آخر غير ما ذكر وفيه رد على الزاعم أيضاً ، ولعل اقتصارهم على هذا من بين المنزل لأنه كلام جامع وفيه ترغيب للسائل ، والمختار من هذه الأوجه عند جمع هو الأول بل قيل إنه الوجه .

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ خبر مبتدأ محذوف كما اختاره الزجاج وابن الأنباري أي هي جنات ، وجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي لهم جنات أو هو المخصوص بالمدح ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ نعت لجنات عند الحوفي بناء على أن ﴿ عَدْنٍ ﴾ نكرة وكذلك دتَجْري مِنْ تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ وكلاهما حال عند غير واحد بناء على أنها علم.

وجوزوا أن يكون ﴿ ﴾ وكلاهما حال عند غير واحد بناء على أنها علم.

وجوزوا أن يكون ﴿ جنات ﴾ مبتدأ وجملة "يدخلونها" خبره وجملة تجري الخ حال ، وقرأ زيد بن ثابت.

وأبو عبد الرحمن جنات بالنصب على الاشتغال أي يدخلون جنات عدن يدخلونها ، قال أبو حيان : وهذه القراءة تقوى كون "جنات" مرفوعاً مبتدأ والجملة بعده خبره ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ ولنعمة دار المتقين ﴾ [النحل : 30] بتاء مضمومة ودار مخفوضة فيكون "نعمة" مبتدأ مضافاً إلى دار وجنات خبره.

وقرأ اسمعيل بن جعفر عن نافع "يدخلونها" بالياء على الغيبة والفعل مبني للمفعول ، ورويت عن أبي جعفر ، وشيبة ﴿ لَّهُمْ فِيهَا ﴾ أي في تلك الجنات ﴿ مَا يَشَآءونَ ﴾ الظرف الأول خبر لما والثاني حال منه ، والعامل ما في الأول من معنى الحصول والاستقرار أو متعلق به لذلك أي حاصل لهم فيها ما يشاؤون من أنواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أو لما مر غير مرة من أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس

إليه فيتمكن عند وروده فضل تمكن .

وذكر بعضهم أن تقديم فيها للحصر وما للعموم بقرينة المقام فيفيد أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة فتأمله .

(31/435)

والجملة في موضع الحال نظير ما تقدم ، وزعم أن لهم متعلق بتجري أي تجري من تحتها الأنهار لنفعهم ﴿ وفيها ما يشاؤون ﴾ مبتدأ وخبر في موضع الحال لا يخفى حاله عند ذوي التمييز ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿ يَجْزِى الله المتقين ﴾ أي جنسهم فيشمل كل من يتقي من الشرك والمعاصي وقيل من الشرك ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولاً أولياً ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو المذكورين فيكون فيه تحسير للكفرة ، قيل : وهذه الجملة تؤيد كون قوله سبحانه ﴿ للذين أحسنوا ﴾ [النحل : 30] عدة فإن جعل ذلك جزاء لهم ينظر إلى الوعد به من الله تعالى وإذا كان مقول القول لا يكون من كلامه تعالى حتى يكون وعداً منه سبحانه ، وقيل : إنها تؤيد كون "جنات" خبر مبتدأ محذوف لا مخصوصاً بالمدح لأنه إذا كان مخصوصاً بالمدح يكون كالصريح في أن "جنات عدن" جزاء للمتقين فيكون "كذلك" الخ تأكيداً بخلاف ما إذا كان خبر مبتدأ محذوف فإنه لم يعلم

صريحاً أن جنات عدن جزاء للمتقين وفيه نظر وكذا في سابقه إلا أن في التعبير بالتأبيد ما يهون الأمر .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ نعت للمتقين وجوز قطعه ، وقوله سبحانه : ﴿ طَيّبِينَ ﴾ حال من ضميرهم ، ومعناه على ما روي عن أبي معاذ طاهرين من دنس الشرك وهو المناسب لجعله في مقابلة ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ [النحل : 28] في وصف الكفرة بناء على أن المراد بالظلم أعظم أنواعه وهو الشرك لكن قيل عليه : إن ذكر الطهارة عن الشرك وحده لا فائدة فيه بعد وصفهم بالتقوى .

وأجيب بأن فائدة ذلك الإشارة إلى أن الطهارة عن الشرك هي الأصل الأصيل .

وفي إرشاد العقل السليم بعد تفسير الظلم بالكفر وتفسير طيبين بطاهرين عن دنس الظلم وجعله حالاً قال : وفائدته الايذان بأن ملاك الأمر في التقوى هو الطهارة عما ذكر إلى وقت توفيهم ، ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله .

وقال مجاهد : المراد بطيبين زاكية أقوالهم وأفعالهم ، وهو مراد من قال : طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وإلى هذا ذهب الراغب حيث قال : الطيب من الإنسان من

تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال وتحلي بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال وإياهم قصد بقوله سبحانه : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيّبِينَ ﴾ .

وانتصر لذلك بأن وصفهم بأنهم متقون موعودون بالجنة في مقابلة الأعمال يقتضي ما ذكر ، وحملوا الظلم فيما مر على ما يعم الكفر والمعاصي لأن ذلك مجاب بقولهم : ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ [النحل : 28] فلا تفوت المناسبة في جعل هذا مقابلاً لذاك لكن في الاستدلال بما ذكر في الجواب على إرادة العام ما لا يخفى ، والكثير على تفسير الطيب بالطاهر عن قاذورات الذنوب مطابق الذي لا خبث فيه ، وقيل : المعنى فرحين ببشارة الملائكة عليهم السلام إياهم أو بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس ، فالمراد بالطيب طيب النفس وطيبها عبارة عن القبول مع انشراح الصدر ﴿ يَقُولُونَ ﴾ حال من الملائكة ، وجوز أن يكون "الذين" مبتدأ خبره هذه الجملة أي قائلين أو قائلون لهم : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ لا يحيقكم بعد مكروه .

قال القرطبي : وروى نحوه البيهقي عن محمد بن كعب القرظي إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال : السلام عليك يا ولي الله إن الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ التي أعدها الله تعالى لكم ووعدكم إياها وكأنها إنما لم توصف لشهرة أمرها .

وفي إرشاد العقل السليم اللام للعهد أي ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ [النحل : 31] الخ ولذلك جردت عن النعت وهو كما ترى ، والمراد دخولهم فيها بعد البعث بناء على أن المتبادر الدخول بالأرواح والأبدان والمقصود من الأمر بذلك قبل مجيء وقته البشارة بالجنة على أتم وجه ويجوز أن يراد الدخول حين التوفي بناء على حمل الدخول على الدخول بالأرواح كما يشير إليه خبر "القبر روضة من رياض الجنة" وكون البشار بذلك دون البشارة بدخول الجنة على المعنى الأول لا يمنع عن ذلك على أن لقائل أن يقول : إن البشارة بدخول الجنة بالأرواح متضمنة للبشارة بدخولها بالأرواح والأبدان عند وقته ؛ وكون هذا القول كسابقه عند قبض الأرواح هو المروي عن ابن مسعود .

وجماعة من المفسرين ، وقال مقاتل .

والحسن : إن ذلك يوم القيامة ، والمراد من التوفي وفاة الحشر أعني تسليم أجسادهم وإيصالها إلى موقف الحشر من توفى الشيء إذا أخذه وافياً ، وجوز حمل التوفيس على المعنى المتعارف مع كون القول يوم القيامة إما بجعل ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ [النحل : 28] يقولون مبتدأ وخبراً أو بجعل يقولون حالاً مقدرة من الملائكة ﴿ والذين ﴾ على حاله أولا وحال ذلك لا يخفى ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة بالذي كنتم تعملونه من ذلك ، والباء للسببية العادية ، وهي فيما في الصحيحين

من قوله صلى الله عليه وسلم : "لن يدخل الجنة أحدكم بعمله" الحديث للسببية الحقيقية فلا تعارض بين الآية والحديث وبعضهم جعل الباء للمقابلة دفعاً للتعارض . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(34/435)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) ﴾

قوله : ﴿ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ قيل : هم العلماء ، قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ، ولا يلتفتون إلى وعظهم ، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة .

وقيل : هم الأنبياء ، وقيل : الملائكة ، والظاهر : الأوّل ، لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم ، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف ، وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة ، ولا يقدح في هذا جواز الإطلاق ، لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط ﴿ إِنَّ الخزى اليوم ﴾ أي : الذلّ والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿ والسوء ﴾ أي : العذاب ﴿ عَلَى الكافرين ﴾

مختص بهم .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ قد تقدّم تفسيره .

والموصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين ، أو بدل منه ، أو في محل نصب على الاختصاص ، أو في محل رفع على تقدير مبتدأ ، أي : هم الذين تتوفاهم .

(35/435)

وانتصاب ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ على الحال ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ معطوف على ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ وما بينهما اعتراض أي : أقرّوا بالربوبية ، وانقادوا عند الموت ، ومعناه الاستسلام قاله قطرب ، وقيل : معناه المسالمة ، أي : سالموا وتركوا المشاقة قاله الأخفش ؛ وقيل : معناه الإسلام ، أي : أقرّوا بالإسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر ، وجملة ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوء ﴾ يجوز أن تكون تفسيراً للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه ، ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك ، ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب ، ومن لم يجوّز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءاً في اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم ، ومثله قولهم : ﴿ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] فلما قالوا هذا ، أجاب عليهم أهل العلم بقولهم : ﴿ بلى إِنَّ

اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بلى كنتم تعملون السوء .

إن الله عليم بالذي كنتم تعملونه ، فمجازيكم عليه ، ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً .

﴿ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك عند الموت .

وقد تقدّم ذكر أبواب جهنم ، وأن جهنم درجات بعضها فوق بعض ، و ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدرة ، لأن خلودهم مستقبل ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، والتقدير ، لبئس مثوى المتكبرين جهنم ، والمراد بتكبرهم هنا : هو تكبرهم عن الإيمان والعبادة كما في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : 35] .

ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء ، فقال : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾ وهم المؤمنون ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ أي : أنزل خيراً .

قال الثعلبي : فإن قيل : لم ارتفع الجواب في قوله : ﴿ أساطير الأوّلين ﴾ وانتصب في قوله : ﴿ خيراً ﴾ ؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكأنهم قالوا : الذي يقوله محمد هو أساطير الأوّلين ، والمؤمنون آمنوا بالنزول .

فقال : أنزل خيراً ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ قيل : هذا من كلام الله عزّ وجلّ ، وقيل : هو حكاية لكلام الذين اتقوا ، فيكون على هذا بدلاً من ﴿ خيراً ﴾ ، وعلى الأوّل يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً للمدح للمتقين ، والمعنى : للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا حسنة أي : مثوبة حسنة ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ أي : مثوبتها ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما أوتوا في الدنيا ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ دار الآخرة ، فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه .

وارتفاع ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وقيل : يجوز أن تكون هي المخصوص بالمدح ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ هو إما خبر المبتدأ ، أو خبر بعد خبر ، وعلى تقدير تنكير ﴿ عدن ﴾ تكون صفة لجنات ، وكذلك ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وقيل : يجوز أن تكون الجملتان في محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ ﴿ عدن ﴾ علم ، وقد تقدّم معنى جري الأنهار من تحت الجنات ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ ﴾ أي : لهم في الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرّد ذلك ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِى الله المتقين ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء يجزيهم ، والمراد بالمتقين.
كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي .

والموصول في قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيّبِينَ ﴾ في محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله ، قرأ الأعمش وحمزة ﴿ تتوفاهم ﴾ في هذا الموضع ، وفي الموضع الأوّل

بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية .

واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلاً بما روي عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أنتم .

(37/435)

و ﴿ طيبين ﴾ فيه أقوال : طاهرين من الشرك ، أو الصالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو طيبي الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله ، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله ، أو طيبين الوفاة ، أي : هي عليهم سهلة ، لا صعوبة فيها ، وجملة ﴿ يَقُولُونَ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ في محل نصب على الحال من الملائكة أي : قائلين سلام عليكم .

ومعناه يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة .

الثاني أن يكون تبشيراً لهم بالجنة لأن السلام أمان .

وقيل : إن الملائكة يقولون : السلام عليك وليّ الله إن الله يقرأ عليك السلام ﴿ ادخلوا الجنة بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب عملكم .

قيل : يحتمل هذا وجهين : الأوّل أن يكون تبشيراً بدخول الجنة عند الموت .

الثاني : أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة .

ولا ينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح : " سدّدوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله " قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته " وقد قدّمنا البحث عن هذا .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾ قال : هؤلاء المؤمنون ، يقال لهم : ﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ فيقولون : ﴿ خَيْرًا ﴾ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ أي : آمنوا بالله وكتبه ، وأمروا بطاعته ، وحثوا عباد الله على الخير ، ودعوهم إليه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيّبِينَ ﴾ قال : أحياء وأمواتاً قدّر الله لهم ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(38/435)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

وفي "التأويلات النجمية" يشير إلى أن من أحسن أعماله بالصالحات وأخلاقه بالحميدات

وأحواله بالانقلاب عن الخلق إلى الخلق فله حسنة من الله وهو أن ينزله منازل الواصلين الكاملين في الدنيا ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ أي : ولثوابهم فيها ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة أو دار الآخرة خير من الدنيا على الإطلاق فإن الآخرة كالجوهر والدنيا كالخزف وقيمة الجوهر أرفع من قيمة الخزف بل لا مناسبة بينهما أصلاً ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ قال الحسن دار المتقين الدنيا لأنهم منها يتزودون للآخرة .

يقول الفقير فيه مدح للدنيا باعتبار أنها متاع بلاغ فإنها باعتبار أنها متاع الغرور مذمومة .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن للأتقياء الواصلين داراً غير دار الدنيا ودار الآخرة فدارهم مقعد الصدق في مقام العندية ونعم الدار .

(39/435)

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ عدن علم أي : لهم بساتين عدن حال كونهم ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ حال كونها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ ﴾ أي : من تحت منازلها الأنهار الأربعة على أن يكون المنبع فيها بشهادة من ﴿ لَهُمْ ﴾ خبر مقدم ﴿ فِيهَا ﴾ أي : في تلك الجنات حال من المبتدأ المؤخر وهو قوله : ﴿ مَا يَشَآءُونَ ﴾ ويحبون من أنواع المشتهيات .

قال البيضاوي في تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة .

يقول الفقير إن قلت هل يجوز للمرء أن يشتهي في الجنة اللواطة ؟ وقد ذهب إليه من لا وقوف له على جلية الحال فالجواب أن الاشتهاء المذكور مخالف لحكمة الرب الغفور ولو جاز هو لجاز نكاح الأمهات فيها على تقدير الاشتهاء وأنه مما لا يستريب عاقل في بطلانه ألا ترى أن الذكور وكذا الزنى واللواطة والكذب ونحوها كان حراماً مؤبداً في الدنيا في جميع الأديان لكونه مما لا تقتضي الحكمة حله بخلاف الخمر ونحوها ولذا كانت هي أحد الأنهار الجارية فيها فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا يستطيب ما استخبثته الطباع السليمة.

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن من الأتقياء من مشيئته الجنة ونعيمها ومن مشيئته العبور على الجنة والخروج إلى مقعد الصدق في مقام العندية فلهم ما يختارون من الجنة ومقعد الصدق ﴿كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء الأوفى

﴿يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي : كل من يتقي عن الشرك والمعاصي.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة﴾ نعت للمتقين أي : يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم حال كونهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي : طاهرين عن دنس الظلام لأنفسهم بتبديل فطرة الله.

وفائدته الإيذان بأن ملاك الأمر في التقوى هو الطهارة عما ذكر إلى وقت توفيهم.

ففيه حث للمؤمنين على ذلك ولغيرهم على تحصيله.

وقيل: طيبين بفيض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى جناب القدس جعلنا الله وإياكم منهم،

وفي "التأويلات النجمية" أي: طيبي الأعمال عن دنس الشهوات والمخالفات.

وطيبي الأخلاق عن المذمومات الملوثة بالطبعيات دون الشرعيات.

وطيبي الأحوال عن وصمة ملاحظات الكونين ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من الملائكة أي: قائلين لهم على وجه التعظيم والتبشير.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يخيفكم بعد مكروه.

قال القرطبي: إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك يا ولي الله الله يقرئك السلام وبشره بالجنة.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي: جنات عدن فإنها معدة لكم فاللام للعهد والمراد دخولهم لها في وقته كما قال الكاشفي: (بعد ازسلام كويند فرداكه مبعوث شويد در آييد دربهشت كه براى شما آماده است) والقبر روضة من رياض الجنة ومقدمة لنعيمها ومن دخله على حسن الحال والأعمال فكأنه دخل جنته ووجد نعيماً لا يزول ولا يزال.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة والعمل وإن لم يكن موجباً

للجنة لأن الدخول فيها محض فضل من الله إلا أن الباء دلت على أن الدرجات إنما تنال بالأعمال وصدق الأحوال فإن المراد من دخول الجنة إنما هو اقتسام المنازل بحسب الأعمال

(41/435)

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن دخول الجنة للأتقياء جزاء لإصلاح أعمالهم والعبور عليها جزاء لإصلاح أخلاقهم والخروج إلى مقعد الصدق جزاء لإصلاح أحوالهم فلكل متق مقام بحسب معاملته مع الله تعالى وفي الحديث : "عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك" .

قال في "بحر العلوم" المراد بالصديق كل من آمن بالله ورسله ولم يفرق بين أحد منهم بدليل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِه أولئك هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ (الحديد : 19) ويدل عليه أيضاً الآية التي نحن فيها كما لا يخفى ويعضده قول النبي عليه السلام "الله تعالى بنى جنات عدن بيد قدرته وجعل ملاطها المسك وترابها وحصباءها اللؤلؤ لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرس غرسها بيد قدرته وقال لها : تكلمي قالت : قد أفلح المؤمنون فقال

: طوبى لك منزل الملوك" وفي قولها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنون : 1) تنبيه على أن سكانها أهل الإيمان بالله ورسله انتهى .

يقول الفقير : لا شك أن أهل الإيمان كلهم يدخلون الجنة لكن بحسب تفاوت درجاتهم في مراتب

الإيمان تتفاوت منازلهم الجنانية فالفردوس وعدن للخواص ومن يلحق بهم وغيرهما للعوام وكمال الإيمان إنما يحصل بمكاشفة أسرار الملكوت ومشاهدة أنوار الجبروت وصاحبه الصديق الأكبر والدليل على ما قلنا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (الكهف : 107) فإنهم قد قالوا في التفسير إن أهلها هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وهو الوصف الزائد على مطلق الإيمان ولذا وعدوا بتلك الجنان إذ من كان أرفع مرتبة في الدنيا بحسب العلوم النافعة والأخلاق الفاضلة كان أعلى درجة في الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 5 صـ 38 .

39 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المتقين إذا سئلا عما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم قالوا : أنزل عليه خيراً . اي رحمة وهدى وبركة لمن اتبعه وآمن به . ويفهم من صفة أهل هذا الجواب بكونهم متقين – أن غير المتقين يجيبون جواباً غير هذا . وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله عن غير المتقين وهم الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النحل : 24] كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من أحسن عمله في هذه الدار التي هي الدنيا كان له عند الله الجزاء الحسن في الآخرة . وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 26] الآية .

والحسنى : الجنة . والزيادة : النظر إلى وجه الله الكريم . وقوله : ﴿ وَيِجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [النجم : 31] ، وقوله : ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] . وقوله : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 89] ، وقوله

فيه هذه الآية ﴿ حسنة ﴾ اي مجازاة حسنة بالجنة ونعيمها . والآيات في مثل ذلك كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ .

(44/435)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن دار الآخر وخير من دار الدنيا . وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ ﴾ [القصص : 80] الآية . وقوله : ﴿ وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : 198] ، وقوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى : 16-17] ، وقوله ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 4] ، وقوله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذلكم لِلَّذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله والله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ [آل عمران : 14-15] الآية . وقوله ﴿ خير ﴾ صيغة تفضيل ، حذفت همزتها لكثرة الاستعمال تخفيفاً . وإليه أشار ابن مالك في الكافية بقوله :

وغالباً أغناهم خير وشر . . . عن قولهم أخير منه وأشر

وإنما لتلك الدار : الدار الآخرة . لأنها هي آخر المنازل ، فلا انتقال عنها ألبتة إلى دار أخرى .

(45/435)

والإنسان قبل الوصول إليها ينتقل من محل إلى محل . فأول ابتدائه من التراب ، ثم انتقل من أصل التراب إلى أصل النطفة ، ثم إلى العلقة ، قم إلى المضغة ، ثم إلى العظام ، ثم كسا اله العظام لحماً ، وأنشأها خلقاً آخر ، وأخرجه للعالم في هذه الدار ، ثم ينتقل إلى القبر ، ثم إلى المحشر ، ثم يتفرقون ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ [الزلزلة : 6] فسالك ذات اليمين إلى النار ، وسالك ذات الشمال إلى النار ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة فأولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾

[الروم : 14-16] .

فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار – فعند ذلك تلقى عصا التسيار ، ويذبح الموت ، ويقال : يأهل الجنة خلود فلا موت ! ويأهل النار خلود فلا موت ! ويبقى ذلك دائماً لا انقطاع له ولا تحول عنه إلى محل آخر .

فهذا معنى وصفها بالآخرة. كما أوضحه جل وعلا بقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: 12-16].

تنبيه

أضاف جل وعلا في هذه الآية الكريمة الدار إلى الآخرة، مع أن الدار هي الدار الآخرة بدليل قوله: ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ الآية، بتعريف الدار ونعتها بالآخرة في غير هذا الموضع. وعلى مقتضى قول ابن مالك في الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد ... معنى وأول موهما إذا ورد

(46/435)

فإن لفظ "الدار" يؤول بمسمى الآخرة. وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة "فاطر" في الكلام على قوله "وكر السيء" أن الذي يظهر لنا أن إضافة الشيء إلى نفسه بلفظين مختلفين – أسلوب من أساليب اللغة العربية. لتنزيل التغاير في اللفظ منزلة التغاير في المعنى. وبينا كثرته في القرآن، وفي كلام العرب. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

مدح الله جل وعلا دار المتقين التي هي الجنة في هذه الاية الكريمة . لأن " نعم " فعل جامد لإنشار المدح . وكرر الثناء عليها في آيات كثيرة . لأن فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] الآية ، وقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المتقين يدخلون يوم القيامة جنات عدن . والعدم في لغة العرب : الإقامة . فمعنى جنات عدن : جنات إقامة في النعيم ، لا يرحلون عنها ، ولا يتحولون .

(47/435)

وبين في آيات كثيرة : أنهم مقيمون في الجنة على الدوام ، كما أشار له هنا بلفظة " عدن " ، كقوله : ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : 108] ، وقوله : ﴿ الذي أَحَلَّنَا دَارَ

المقامة مِن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : 35] الآية . والمقامة : الإقامة . وقد تقرر في التصريف : أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف فالمصدر الميمي منه ، واسم الزمان ، واسم المكان كلها بصيغة اسم المفعول . وقوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان : 51] على قراءة نافع وابن عامر بضم الميم من الإقامة . وقوله : ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ [الكهف : 2-3] إلى غير ذلك من الآيات .

وزقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [النحل : 31] .

بين أنواع تلك الأنهار في قوله : ﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 15] - إلى قوله - ﴿ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 15] ، وقوله هنا : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ ﴾ أوضحه في مواضع آخر . كقوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : 35] ، وقوله : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف : 71] ، وقوله : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ [الفرقان : 16] ، وقوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين ﴾ [الزمر : 34] ، وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت : 31] ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 32] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية : ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين ﴾ [النحل : 31] .

يدل على ان تقوى الله هو السبب الذي به تنال الجنة .

وقد أوضح تعالى هذا المهنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 63] ، وقوله : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] ، وقوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات : 15] ، وقوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ [الطور : 17] إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المتقين الذين كانوا يمتثلون أوامر رهم ، ويجتنبون نواهيه تتوفاهم الملائكة : أي يقبضون أرواحهم في حال كونهم طيبين : أي طاهرين من الشرك والمعاصي - على أصح التفسيرات - ويبشرونهم بالجنة ، ويسلمون عليهم .

وبين هذا المعنى أيضاً في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] ، وقوله : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] ، وقوله : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23-24] . والبشارة عند الموت ، وعند دخول الجنة من باب واحد . لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة . ويفهم من صفات هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ويقولون لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة - أن الذين لم يتصفوا بالتقوى لم تتوفهم الملائكة على تلك الحال الكريمة ، ولم تسلم عليهم ، ولم تبشرهم .

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر . كقوله : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السلم ﴾ [النحل : 28] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ ﴾ [النساء : 97] - إلى قوله - ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾ [النساء : 97] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : 50] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] ، وقوله : ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ ﴾ قرأهما عامة القراء غير حمزة " تتوفاهم " بتاءين فوقيتين . وقرأ حمزة "

يتوفاهم " بالياء في الموضعين.

تنبيه

أسند هنا جل وعلا التوفي لملائكة في قوله : ﴿ تَوَفَّاهُمُ الملائكة ﴾ وأسنده في " السجدة " لملك الموت في قوله : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة : 11] ، وأسنده في " الزمر " إلى نفسه جل وعلا في قوله : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] الآية. وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة " السجدة " : أنه لا معارضة بين الآيات المذكورة. فإسناده التوفي لنفسه ، لانه لا يموت أحد إلا بمشيئته تعالى ، كما قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران : 145] ، وأسنده لملك الموت ، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح ، وأسنده إلى الملائكة لأن لملك الموت أعواناً من الملائكة ينزعون الروح من الجسد إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت ، كما قاله بعض العلماء. والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾

لّما افتتحت صفة سيّئات الكافرين وعواقبها بأنّهم إذا قيل لهم ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ [سورة النحل : 24] قالوا : ﴿ أساطير الأولين ﴾ [سورة النحل : 24] ، جاءت هنا مقابلة حالهم بحال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها ، فافتتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قصّة الكافرين ، فجاء التنظير بين القصّتين في أبدع نظم .

وهذه الجملة معطوفة على الجمل التي قبلها ، وهي معترضة في خلال أحوال المشركين استطراداً .

ولم تقترن هذه الجملة بأداة الشرط كما قرنت مقابلتها بها وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ ، لأن قولهم : ﴿ أساطير الأولين ﴾ لما كان كذبا اختلقوه كان مظنة أن يقلع عنه قائلهُ وأن يرعوي إلى الحقّ وأن لا يجمع عليه القائلون ، قرن بأداة الشرط المقتضية تكرّر ذلك للدّلالة على إصْرارهم على الكفر ، بخلاف ما هنا فإن الصّدق مظنّة استمرار قائله عليه فلْيس بحاجة إلى التّنبيه على تكرّره منه .

والذين اتّقوا : هم المؤمنون لأن الإيمان تقوى الله وخشية غضبه .

والمراد بهم المؤمنون المعهودون في مكّة ، فالموصول للعهد .

والمعنى أنّ المؤمنين سئُلوا عن القرآن ، ومن جاء به ، فأرشدوا السائلين ولم يتردّدوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه ، وهو كلمة ﴿ خيراً ﴾ المنصوبة ، فإن لفظها شامل لكلّ خير في الدّنيا وكلّ خير في الآخرة ، ونصبَها دال على أنّهم جعلوها معمولة ل ﴿ أنزل ﴾ الواقع في سؤال السائلين ، فدل النّصب على أنهم مصدّقون بأنّ القرآن منزل من عند الله ، وهذا وجه المخالفة بين الرفع في جواب المشركين حين قيل لهم : ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ [سورة النحل : 24] بالرّفع وبين النصب في كلام المؤمنين حين قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ بالنّصب .

(52/435)

وقد تقدم ذلك آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أساطير الأولين ﴾ .

مستأنفة ابتدائية ، وهي كلامٌ من الله تعالى مثل نظيرها في آية ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ﴾ في سورة الزمر (10) ، وليست من حكاية قول الذين اتّقوا .

والّذين أحسنوا : هم المتقون فهو من الإظهار في مقام الإضمار توصّلا بالإتيان بالموصول إلى الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، أي جزاؤهم حسنة لأنهم أحسنوا .

وقوله تعالى : ﴿ في هذه الدنيا جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللهُ المتقين ﴾ يجوز أن يتعلق بفعل ﴿ أحسنوا ﴾ .

ويجوز أن يكون ظرفاً مستقرّاً حالاً من ﴿ حسنة ﴾ .

وانظر ما يأتي في نظر هذه الآية من سورة الزمر من نكتة هذا التوسيط .

ومعنى ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ أنّها خير لهم من الدّنيا فإذا كانت لهم في الدنيا حسنة فلهم في الآخرة أحسن ، فكما كان للّذين كفروا عذاب الدّنيا وعذاب جهنّم كان للّذين اتّقوا خيرُ الدّنيا وخير الآخرة .

فهذا مقابل قوله تعالى في حقّ المشركين ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة ﴾ [سورة النحل : 25] وقوله تعالى : ﴿ وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ [سورة النحل : 26] .

وحسنة الدّنيا هي الحياة الطّيّبة وما فتح الله لهم من زهرة الدنيا مع نعمة الإيمان .

وخير الآخرة هو النّعيم الدّائم ، قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزيّنهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [سورة النحل : 97] .

وقوله تعالى : ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها ﴾ مقابل قوله تعالى في ضدّهم ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ [سورة النحل : 29] .

وقد تقدّم آنفاً وجه تسمية جهنّم مثوى والجنّة داراً .

و (نِعم) فعل مدح غير متصرّف، ومرفوعُهُ فاعل دالّ على جنس الممدوح، ويذكر بعده مرفوع آخر يسمّى المخصوص بالمدح، وهو مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوفُ المبتدإ.

فإذا تقدّم ما يدلّ على المخصوص بالمدح لم يذكر بعد ذلك كما هنا، فإنّ تقدم ﴿ ولدار الآخرة ﴾ دلّ على أنّ المخصوص بالمدح هو دار الآخرة.

والمعنى: ولنعم دار المتّقين دار الآخرة.

وارتفع ﴿ جنات عدن ﴾ على أنه خبر لمبتدإ محذوف مما حذف فيه المسند إليه جرياً على الاستعمال في مسند إليه جرى كلام عليْه من قبلُ، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ [سورة النحل: 28].

والتقدير: هي جنات عدن، أي دار المتّقين جنات عدن.

وجملة يدخلونها ﴾ حال من ﴿ المتقين ﴾.

والمقصود من ذكره استحضار تلك الحالة البديعة حالة دخولهم لدار الخير والحسنى والجنّات.

وجملة ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ حال من ضمير الرفع في ﴿ يدخلونها ﴾ .

ومضمونها مكمل لما في جملة ﴿ يدخلونها ﴾ من استحضار الحالة البديعة .

وجملة ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ مستأنفة ، والإتيان باسم الإشارة لتمييز الجزاء والتّنويه به .

وجعل الجزاء لتمييزه وكماله بحيث يشبّه به جزاءُ المتّقين .

والتّقدير : يجزي الله المتّقين جزاء كذلك الجزاء الذي علمتموه .

وهو تذييل لأنّ التعريف في ﴿ المتقين ﴾ للعموم .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) ﴾

مقابل قوله في أضدادهم ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ ، فما قيل في مقابله يقال فيه .

وقرأ الجمهور ﴿ تتوفاهم ﴾ بفوقيّتين ، مثل نظيره .

وقرأه حمزة وخلَف بتحتية أولى كذلك .

والطيّب : بزنة فَيْعل ، مثل قيم وميّت ، وهو مبالغة في الاتّصاف بالطيب وهو حسن الرائحة .

ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النّفس على وجه المجاز المشهور فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى : ﴿ حلالاً طيباً ﴾ [سورة البقرة : 168] والمعاني والنفسيات كقوله تعالى : ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ [سورة الزمر : 73] .

وقولهم : طبت نفساً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ [سورة الأعراف : 58] .

وفي الحديث " إنّ الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً " أي مَالاً طيباً حلالاً .

فقوله تعالى هنا طيبين ﴾ يجمع كل هذه المعاني ، أي تتوفّاهم الملائكة منزّهين من الشرك مطمئنّي النفوس .

وهذا مقابل قوله في أضدادهم ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ [سورة النحل : 28] .

وجملة ﴿ يقولون سلام عليكم ﴾ حال من ﴿ الملائكة ﴾ وهي حال مقارنة ل ﴿ تتوفاهم ﴾ ، أي يتوفّونهم مسلّمين عليهم ، وهو سلام تأنيس وإكرام حين مجيئهم ليتوفّوهم ، لأن فعل ﴿ تتوفاهم ﴾ يبتدىء من وقت حلول الملائكة إلى أن تنتزع الأرواح وهي حصّة قصيرة .

وقولهم : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ هو مقابل قولهم لأضدادهم ﴿ إن الله عليم

بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم ﴾ [سورة النحل : 28 ، 29] .

والقول في الأمر بالدخول للجنّة حين التوفّي كالقول في ضدّه المتقدم آنفاً .

وهو هنا نعيم المكاشفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(55/435)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾

وقد سبق أنْ تحدثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النحل : 24] .

فهذه مشاهدة ولقطات تُبيّن الموقف الذي انتهى بأنْ أقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآيات نُزلتْ في جماعة كانوا داخلين مكة . . وعلى أبوابها التي يأتي منها أهل البوادي ، وقد قسَّم الكافرون أنفسهم على مداخل مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبي الجديد .

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحيَّنون الفرصة ويخرجون على مشارف مكة بحجة رَعْي الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء السائلين ليخبروهم خبر النبي صلى الله عليه وسلم وخبر دعوته .

مما يدلُّ على أن الذي يسأل عن شيء لا يكتفي بأول عابر يسأله ، بل يُجدّد السؤال ليقف على المتناقضات . . فحين سألوا الكافرين قالوا : ﴿ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النحل : 24] .

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

﴿ قَالُواْ خَيْراً . . . ﴾ [النحل : 30] .

هذا لنفهم أن الإنسانَ إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفي بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر : ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النحل : 24] .

وحينما سألوا أهلَ الإيمان والتقوى :

﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً ﴾ [النحل : 30] .

ونلاحظ هنا في ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا . . ﴾ [النحل : 30] .

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يُبيِّن هُويَّتهم ، وهذا يدلُّنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويُدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضِعَافاً لا يقدرون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف موقف السؤال إلى أنْ تصل إلى الوجهة الصواب حينما عَتَب الحق تبارك وتعالى على نبي من أنبيائه هو سيدنا داود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب * إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ واهدنآ إلى سَوَآءِ الصراط * إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ [ص: 21-23].

فماذا قال داود عليه السلام؟ ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ ﴾ [ص: 24].

وواضحٌ في حكم داود عليه السلام تأثُّره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكُنْ عنده شيء، ألم يظلم أخاه بأخْذ نعجته؟! إذن: تأثر داود بدعوى الخصم، وأدخل فيه حيثية أخرى، وهذا خطأ إجرائي في عَرْض القضية؛ لأن (تسع وتسعون) هذه لا دَخْل لها في القضية.. بل هي لاستمالة القاضي وللتأثير على عواطفه ومنافذه، ولبيان أن الخَصْم غني ومع ذلك فهو طماع ظالم.

وسرعان ما اكتشف داود عليه السلام خطأه في هذه الحكومة، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله:

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ . . . ﴾ [ص : 24] .

أي : اختبرناه كي نُعلِّمه الدرس تطبيقاً . . أيحكم بالحق ويُراعي جميع نواحي القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربّه وخرّله راكعاً مُنيباً .

وقال تعالى : ﴿ فاستغفر ربَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [ص : 24] .

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود عليه السلام أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثاني في الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

(57/435)

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً . . . ﴾ [النحل : 30] .

ما هو الخير ؟ الخيرُ كُلُّ ما تستطيبه النفس بكل مَلكَاتها . . لكن الاستطابة قد تكون موقوتة بزمن ، ثم تُورث حَسْرة وندامة . . إذن : هذا ليس خيراً ؛ لأنه لا خيرَ في خير بعده النارُ ، وكذلك لا شرّ في شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خُيْراً دائماً في الدنيا ، وكذلك في الآخرة ، فلو أخذنا مثلاً متعاطي المخدرات نجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائفة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما ينقلب هذا الخير في نظره إلى شر عاجل في الدنيا وآجل في الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير في نفسك وكيفيته وعاقبته . . وهذا هو الخير في قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ خَيْراً ﴾ [النحل : 30] .

إذن : هو خير تستطيبه النفس ، ويظل خيراً في الدنيا ، ويترتب عليه خير في الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة . . ثم فسَّره الحق تبارك وتعالى في قوله سبحانه :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ . . . ﴾ [النحل : 30] .

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاّ يترك الدنيا وأسبابها ، فربما أخذها منك الكافر وتغلَّب عليك بها ، أو يفتنك في دينك بسببها ، فمَنْ يعبد الله أَوْلى بسرِّه في الوجود ، وأسرارُ الله في الوجود هي للمؤمنين ، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمنَ الفتنة من الكافرين في دُنْياك . . ولا يخفي ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ [النحل : 30] .

(58/435)

أي : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليَدُ العليا بما اجتهدوا ، وبما عَمِلوا في دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسانُ نفسه وينفع غيره ، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا ، وكان ثوابك وخَيْرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة " .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات الإحسان في الدنيا وهي الأمن .

. فمَنْ عاش في الدنيا مستقيماً لم يقترف ما يُعَاقب عليه تجده آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر أو مكروه تجده آمنا لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خُذْ مثلاً اللص تراه دائماً مُتوجِّساً خائفاً ، تدور عَيْنه يميناً وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقَّب وراح يقول في نفسه : لعله يقصدني . . أما المستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة في الدنيا أن يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته ولا يُرهق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أَرْخِصوه ، قالوا : وكيف لنا ذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإِذَا غَلاَ شَيءٌ عَلَيَّ تركْتُه . . . فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إِذَا غَلاَ

ولا تَقُلْ : النفس توّاقة إليه راغبة فيه ، فهي كما قال الشاعر :

وَالنفْسُ رَاغِبةٌ إِذَا رغَّبْتَهَا . . . وَإِذَا تُرَدّ إلى قَلِيل تَقْنَعُ

وفي حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولمَّا ينضج الطعام ، ولم تُعَد المائدة وهو جائع ، فيأكل أيَّ شيء موجود وتنتهي المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنعُ النفسُ بما نالتْه .

(59/435)

ولكي يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته لا بُدَّ له أنْ يوازن بين دَخْله ونفقاته ، فمَنْ كان عنده عُسْر في دَخْله ، أو ضاقت عليه منافذ الرزق لا بُدَّ له من عُسْر في مصروفه ، ولا بُدَّ له أنْ يُضيِّق على النفس شهواتها ، وبذلك يعيش مستوراً ميسوراً ، راضي النفس ، قرير العين .

والبعض في مثل هذه المواقف يلجأ إلى الاستقراض للإنفاق على شهوات نفسه ، وربما اقترض ما يتمتع به شهراً ، ويعيش في ذلة دَهْراً ؛ لذا من الحكمة إذن قبل أن تسأل الناس القرض سَلْ نفسك أولاً ، واطلب منها أن تصبر عليك ، وأن تُنظرك إلى ساعة اليُسْر ، ولا تُلجئك إلى مذلّة السؤال . . وقبل أن تلوم مَنْ منعك لُمْ نفسك التي تأبَّتْ عليك أولاً .

وما أبدع شاعِرنا الذي صاغ هذه القيم في قوله :

إذَا رُمْتَ أنْ تستقرضَ المالَ مُنفِقاً . . . على شَهَواتِ النفسِ فِي زَمَنِ العُسْرِ

فَسَلْ نفسَكَ الإنفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها . . . عليْكَ وإنظاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ

فَإِنْ فعلْتَ كنتَ الغني ، وإنْ أبتْ . . . فكل مَنُوع بعدها وَاسِعُ العُذْرِ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ [النحل : 30] .

والخير في الآخرة من الله ، والنعيم فيها على قَدْر المنعِم تبارك وتعالى ، دون تعب ولا كَدٍّ ولا عمل .

ومعلوم أن كلمة : ﴿ قَالُواْ خَيْراً . . . ﴾ [النحل : 30] .

التي فسَّرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ . . ﴾ [النحل : 30] .

تقابلها كلمة " شر " ، هذا الشر هو ما جاء في قول الكافرين : ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ

أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النحل : 24] .

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

(60/435)

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير في الاثنين ، إلا أن أحدهما زاد في الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير " .

لذلك لما قال :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ [النحل : 30] .

قال : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ [النحل : 30] .

أي : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها حسنة الآخرة .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ [النحل : 30] .

أي : دار الآخرة .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار المتقين كأنها برقية ، فقال

سبحانه: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . . ﴾ .

والجنات: تعني البساتين التي بها الأشجار والأزهار والثمار والخضرة، مما لا عَيْن رأتْ، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . . ليس هذا وفقط . . هذه الجنة العمومية التي يراها كل مَنْ يدخلها . . بل هناك لكل واحد قصر خاص به، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ [الصف: 12] .

إذن: هنا قَدْر مشترك للجميع:

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [النحل: 31] .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ . . . ﴾ [النحل: 31] .

أي: جنات إقامة دائمة؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان، فلا حاجه له إلى غيرها . .

هَبْ أنك دخلتَ أعظم حدائق وبساتين العالم هايد بارك مثلاً فقصارى الأمر أنْ تتنزَّه به بعض الوقت، ثم يعتريك التعب ويصيبك المَلل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه النزهة . . أما الجنة فهي جنة عدن، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول:

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [النحل: 31] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ [التوبة : 100] .

ومعنى " تجري تحتها " أي : أنها تجري تحتها ، وربما تأتي من مكان آخر . . وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [النحل : 31] .

أي : ذاتية في الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ . . ﴾ [النحل : 31] .

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيئتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذي يتناسب مع الآخرة ونعيمها . . فمثلاً : إذا دخلتَ على إنسان رقيق الحال فَلَك مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلتَ على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لَكَ مشيئة أعلى . . وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشَاء منه ، فإذا كان المشَاء منه هو الله الذي لا يُعجزه شيء تكون مشيئتُك مُطلقة ، فالمشيئة في الآية ليستْ كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدَّد ببيئة الدنيا . . أما مشيئة الآخرة فهي المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر في البشر حَسْب مراتبهم ومراكزهم .

ويُرْوى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا شراءها منه وعرضوا

عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه . . فقال له أحدهم : إنها ابنة المَلك ، ولو كنت طلبتَ منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمتُ أن وراء الألف عدداً لطلبْته . . فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرح لنا هذا النص القرآني :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ . . . ﴾ [النحل : 31] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف : 71] .

قال : " فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قَلْب بشر " .

(62/435)

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين ﴾ [النحل : 31] .

أي : هكذا الجزاء الذي يستحقونه بما قدموا في الدنيا ، وبما حرَمَوا منه أنفسهم من مُتَع حرام . . وقد جاء الآن وقتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأَدْوم ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى في آية أخرى : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية ﴾ [الحاقة :

24] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ . . . ﴾ .

أي : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ ﴾ [النحل : 32] .

أي : تأتي لقبْض أرواحهم ، وهنا نَسَب التوفّي إلى جملة الملائكة ، كأنهم جنود ملَك الموت الأصيل عزرائيل ، وقد سبق أنْ قُلْنا : إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التوفّي إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى مَلك الموت : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ . . ﴾ [السجدة : 11] .

ومرّة ينسبه إلى نفسه سبحانه : ﴿ الله يَتَوَفَّى ﴾ [الزمر : 42] .

ذلك لأن الله سبحانه هو الآمر الأعلى ، وعزرائيل مَلَكُ الموت الأصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنفّذون أوامره .

وقوله : ﴿ طَيِّبِينَ . . ﴾ [النحل : 32] .

تقابل الآية السابقة : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] .

والطيّب هو الشيء الذي يوجد له خيرٌ دائم لا ينقطع ولا ينقلب خَيْره هذا شراً ، وهو الشيء الذي تستريح له النفس راحة تنسجم منها كل مَلكاتها ، بشرط أن يكون مستمراً

إلى خَيْرٍ منه ، ولا يستمر إلى خَيْرٍ منه وأحسن إلا طَيِّب القيم وطَيِّب الدين ، أما غير ذلك فهو طيب موقوتٌ سرعان ما يُهجر .

(63/435)

ولذلك حينما يدَّعي اثنان المحبة في الله نقول : هذه كلمة تُقال ، ومِصْداقها أن ينمو الودُّ بينكما كل يوم عن اليوم الذي قبله ؛ لأن الحب للدنيا تشوبه الأطماع والأهواء ، فترى الحب ينقص يوماً بعد يوم ، حَسْب ما يأخذ أحدهما من الآخر ، أما المتحابان في الله فيأخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإنْ رأيت اثنين يزداد وُدّهما فاعلم أنه وُدٌّ لله وفي الله ، على خلاف الوُد لأغراض الدنيا فهو وُدٌّ سرعان ما ينقطع .

هل هناك أطيب من أنهم طهّروا أنفسهم من دَنَس الشرك ؟ وهل هناك أطيبُ من أنهم اخلصوا عملهم لله ، وهل هناك أطيب من أنهم لم يُسْرفوا على أنفسهم في شيء ؟

وحَسْب هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتي مَلَكُ الموت يمرُّ عليهم شريط أعمالهم ، ومُلخّص ما قدّموه في الدنيا ، فيرْون خَيْراً ، فتراهم مُستبشرين فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه أبيضَ الوجه مُشْرِقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة ؛ ذلك لما عاينه من طيب عمله ، ولما يستبشر به من الجزاء عند الله تبارك

وتعالى .

وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشقاوة ، وما هُمْ عليه ساعةَ الغرغرة من سواد الوجه ، وسُوء الخاتمة ، والعياذ بالله .

﴿ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [النحل : 32] .

أي : حينما تتوفّاهم الملائكة يقولون لهم سلام ؛ لأنكم خرجتم من الدنيا بسلام ، وستُقبلون على الآخرة بسلام ، إذن : سلام الطيبين سلامٌ موصول من الدنيا إلى الآخرة ، سلامٌ مُترتّب على سلامة دينكم في الدنيا ، وسلامة إقبالكم على الله ، دون خوف في الآخرة .

وهنا سلام آخر جاء في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾

[الزمر : 73] .

(64/435)

ثم يأتي السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى ؛ لأن كل هذه السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] .

وهل هناك افضل وأطيب من هذا السلام الذي جاء من الحق تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هنا من سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطيبين وهم في الجنة ، ونحن نعرف أن أهل الأعراف هم قوم تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم فحُجِزا على الأعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضي أن للميزان كفتين ذكرهما الحق تبارك وتعالى في قوله : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : 6-9] .

هاتان حالتان للميزان ، فأين حالة التساوي بين الكفتين ؟ جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الأعراف : 46] .

أي : يعرفون أهل الجنة وأهل النار : ﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : 46] .

ووجه العجب هنا أن أهل الأعراف في مأزق وشدّة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويُبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم .

﴿ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 32] .

أي : لأنكم دفعتم الثمن ؛ والثمن هو عملكم الصالح في الدنيا ، واتباعكم لمنهج الحق تبارك

وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف : "لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " .

(65/435)

والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف نُوفِّق بين الآية والحديث ؟

الله تعالى يُوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم الحديث كما يُوحي له الآية ، فكلاهما يصدر عن مِشْكاة واحدة ومصدر واحد . . على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [التوبة : 74] .

فالحَدثُ هنا واحد ، فلم يُغْنِهم الله بما يناسبه والرسول بما يناسبه ، بل هو غناء واحد وحَدث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ بين الآية والحديث . . كيف ؟

الحق تبارك وتعالى كلَّف الإنسان بعد سِنِّ الرُّشْد والعقل ، وأخذ يُوالي عليه النعم منذ صِغَره ، وحينما كلَّفه كلَّفه بشيء يعود على الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد ذلك يُجازيه على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد في الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله في الآخرة

هو مَحْضُ الفضل من الله ، ولو أطاع العبدُ ربّه الطاعة المطلوبة منه في الأفعال الاختيارية التكليفية لما وَفّى نِعَم الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء في الجنة فَضْلاً من الله ومنَّة .

أو : أنهم حينما قالوا :

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 32] .

يريدون أن عملهم سبب عاديّ لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله . . فتجمع الآية بين العمل والفضل معاً ؛ لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يُقوّي هذا بقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58] .

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يَفِي بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وفي الدعاء : " اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل " .

(66/435)

وأخيراً . . هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم ؟ لا . . بل بمنهج وضعه لهم ربّهم تبارك وتعالى . . إذن : بالفضل لا بمجرد العمل . . ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا . . فإذا تفوّق الولد كان كل شيء لصالحه : النجاح والهدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ قال : هؤلاء المؤمنون ، يقال لهم ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ فيقولون ﴿ خيراً للذين أحسنوا ﴾ أي آمنوا بالله وكتبه وأمروا بطاعته ، وحثوا عباد الله على الخير ودعوهم إليه .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (32)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ قال : أحياء وأمواتاً ، قدر الله ذلك لهم .

وأخرج ابن مالك وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، وأبو القاسم بن منده في كتاب الأحوال ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن محمد بن كعب القرظي قال :

إذا استفاقت نفس العبد المؤمن ، جاءه الملك فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(68/435)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ : خيراً : العامَّة على نصْبه ، أي : أُنزل خيرا . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : لِمَ قلتَ : لِمَ رَفَعَ الأول ونَصَبَ هذا ؟ قلت : فصلاً بين جواب المُقِرِّ وجوابِ الجاحد " . يعني أن هؤلاء لمَّا سُئِلوا لم يَتَلَعْثموا ، وأطبقوا الجوابَ على السؤال بَيِّنا مكشوفاً مفعولاً للإِنزال فقالوا : خيراً ، وأولئك عَدَلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطيرُ الأولين ، وليس هو من الإِنزال في شيء .

وزيدُ بن علي : " خيرٌ " بالرفع ، أي : المُنْزَل خيرٌ ، وهي مؤيدةٌ لجَعْلِ " ذا " موصولةً ، وهو الأحسنُ لمطابقة الجوابِ لسؤاله ، وإن كان العكسُ جائزاً ، وقد تقدَّم تحقيقُه في البقرة .

قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ هذه الجملة يجوز فيها أوجهٌ، أحدها: أن تكونَ منقطعةً مِمَّا قبلها، إخبارَاستئنافٍ بذلك. الثاني: أنها بدلٌ مِنْ "خيراً". قال الزمخشري: "هو بدل من "خيرا" حكايةً لقول الذين اتَّقَوْا، أي: قالوا هذا القولَ فقدَّم تسميتَه خيراً ثم حكاه". الثالث: أن هذه الجملةَ تفسيرٌ لقوله: "خيراً"؛ وذلك أن الخيرَ هو الوحيُ الذي أُنْزل الله فيه: مَنْ أَحْسَنَ في الدنيا بالطاعة حسنةٌ في الدنيا وحسنةٌ في الآخرة.

وقوله: ﴿ فِي هذه الدنيا ﴾ الظاهرُ تعلُّقه ب "أَحْسَنوا"، أي: أَوْقَعوا الحسنةَ في دار الدنيا. ويجوز أن يكونَ متعلقاً بمحذوفٍ على أنه حال مِنْ "حَسَنَة" إذ لو تأخَّر لكان صفةً لها، ويَضْعُفُ تعلُّقه بها نفسِها لتقدُّمِه عليها.

(69/435)

قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾: يجوز أن يكونَ هو المخصوصَ بالمدح فيجيءُ فيها ثلاثةُ الأوجهِ: رفعُها بالابتداء، والجملةُ المتقدمة خبرُها، أو رفعُها خبرَ المبتدأ المضمر، أو رفعُها بالابتداءِ والخبرُ محذوفٌ، وهو أضعفُها، وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك. ويجوز أن يكونَ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ خبرَ مبتدأ مضمرٍ لا على ما تقدَّم، بل يكونُ المخصوصُ محذوفاً،

تقديرُه : ولَنِعْمَ دارُ المتقين دارُهم هي جنات . وقَدَّره الزمخشريُّ " ولَنِعْمَ دارُ المتقين دارُ الآخرة " . ويجوز أن يكونَ مبتدأً . والخبرُ الجملةُ مِنْ قوله : "يَدْخلونها " ، ويجوز أن يكونَ الخبرُ مضمراً تقديره : لهم جناتُ عدن ، ودلَّ على ذلك قولُه ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ .

والعامَّة على رفع " جناتُ " على ما تقدَّم . وقرأ زيد بن ثابت والسُّلَمي " جناتِ " نصباً على الاشتغال بفعل مضمر تقديره : يَدْخلون جناتِ عدن يَدْخُلونها ، وهذه تُقَوِّي أن يكونَ " جنات " مبتدأً ، و "يَدْخلونها " الخبرَ في قراءةِ العامَّة .

وقرأ زيد بن علي " ولَنِعْمَةُ دارِ " بتاءِ التأنيثِ مرفوعةٌ بالابتداء ، و " دارِ " خفضٌ بالإِضافة ، و " جَنَّاتُ عَدْنٍ " الخبر . و "يَدْخُلونها " في جميع ذلك نصبٌ على الحال ، إلاَّ إذا جَعَلْناه خبراً لِ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ .

وقرأ نافع في روايةٍ "يُدْخَلُونها " بالياءِ مِنْ تحتُ مبنياً للمفعول ، وأبو عبد الرحمن " تَدْخُلونها " بتاء الخطاب مبنياً للفاعل .

قوله : " تَجْري " يجوز أن يكونَ منصوباً على الحالِ مِنْ " جنات " قاله ابن عطية ، وأن يكونَ في موضعِ الصفةِ لِ " جنات " قاله الحوفي ، والوجهان مبنيَّان على القولِ في " عَدْنٍ " : هل هو معرفةٌ لكونِه علماً ، أو نكرةً ، فقائلُ الحالِ لَحَظَ الأولَ ، وقائلُ النعتِ لحظَ الثانيَ .

قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاۤؤُونَ ﴾ الكلامُ في هذه الجملةِ كالكلامِ في الجملة قبلَها ، والخبرُ : إمَّا " لهم " وإمَّا " فيها " .

قوله : "كذلك " الكافُ في محلِّ نصب على الحال من ضميرِ المصدرِ ، أو نعتٌ لمصدرٍ مقدرٍ ، أو في محلِّ رفعٍ خبراً لمبتدأ مضمر ، أي : الأمرُ كذلك . و ﴿ يَجْزِي اللهُ المتقين ﴾ مستأنَفٌ .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) ﴾

و﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ﴾ يحتمل ما ذكرناه فيما تقدَّم ، إذا جعَلْنا " يقولون " خبراً فلا بُدَّ مِنْ عائدٍ محذوفٍ ، أي : يقولون لهم ، وإذا لم نَجْعَلْه خبراً كان حالاً من " الملائكة " / فيكون " طيبين " حالاً مِنَ المفعولِ ، و " يقولون " حالاً مِن الفاعل . وهي يجوز أن تكونَ حالاً مقارِنَةً إن كان القولُ واقعاً في الدنيا ، ومقدَّرَةً إنْ كان واقعاً في الآخرة .

و" ما " في " بما " مصدرية ، أو بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 214.216 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) ﴾

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم ، وسألوهم عن أحوال محمد - صلى الله عليه وسلم - وعما أَنزل اللَّهُ عليه ، قالوا : دينه حقٌّ ، واللَّهُ أَنزل عليه الحقَّ . . والذين أحسنوا في الدنيا يجِدُون الخير في الآخرة .

ويقال في هذه الدنيا حسنة ، وهي ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصحُّ أن تكونَ تلك الحسنةُ زيادةَ التوفيق لهم في الأعمال ، وزيادةَ التوفيقِ لهم في الأحوال .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أَنْ يُوَفِّقَهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان .

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُبَلِّغهم منازلَ الأكابر والسادة .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة : 24] .

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدَّى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين ، وما يجري على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأن يهتدي بهداك رجل خير لك من حمر النعم " .

ثم قال : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ، لأن ما فيها يبقى ، وليس فيها خطر الزوال . ولأن في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاينة .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) ﴾

كما أن الإرادات والهمَمَ تختلف في الدنيا فكذلك في الآخرة ، وفي الخبر : " مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ الله بها " فَمِنْ مريدٍ يكتفي من الجنة بورودها ، ومن مريدٍ لا يكتفي من الجنة دون شهود ربِّ الجنة .

(72/435)

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم ، وما وجدوا في ذلك من صحبة اللَّعين في سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك ، ومن شاء أن تدوم رؤيته ، ويتأبَّد سماعُ خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وهو ما لم يخطر ببال أحد .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) ﴾

يقبض أرواحهم طيبً . أو يقال : ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ حال .

والأسباب التي تطيب بها قلوبُهم وأرواحُهم مختلفة ، فمنهم مَنْ طاب وقتُه لأنه قد غُفِرَتْ ذنوبُه ، وسُتِرتْ عيوبه ، ومنهم مَنْ طاب قلبُه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبُه ، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه .

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه ، ويصل إلى حُسْنِ مآبه .

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أَمِنَ من زوال حالِه ، وحظي بسلامة مآله ، ومنهم من يطيب قلبُه لأنه وصل إلى أفضاله ، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله ، وثابث لأنه خُصَّ بكشف جلاله - قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم .

ويقال : ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ طيبة نفوسهم أي طاهرةٌ من التدنُّس بالمخالفات ، وطاهرةً قلوبهم عن العلاقات ، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلوقات .

قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ احظَوْا بالجنة ، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكَ ، ومنهم مَنْ يُكاشِفه بذلك المَلِكُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 294 .

296﴾

قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر تعالى عن أحوال الكفار السائلين في نزول الملائكة بعد أن وهىّ شبههم ، وأخبر عن توفي الملائكة لهم ولأضدادهم المؤمنين ، مشيراً بذلك إلى أن سنته جرت بأنهم لا ينزلون إلا لإنزال الروح من أمره على من يختصه لذلك أو لأمر فيصل لا مهلة فيه ، قال منكراً عليهم : ﴿ هل ينظرون ﴾ أي هؤلاء الكفار في تقاعسهم عن تصديق الرسل في الإخبار بما أنزل ربهم ، وجرد الفعل إشارة إلى قرب ما ينتظرونه ﴿ إلا أن تأتيهم ﴾ أي بأمر الله ﴿ الملائكة ﴾ وهم لا يأتونهم إلا بمثل ما أتوا به من قبلهم ممن قصصنا أمرهم من الظالمين إن لم يتوبوا ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ أي المحسن إليك المدبر لأمرك بأمر يفصل النزاع من غير واسطة ملك أو غيره .

ولما كان هذا أمراً مفزعاً، كان موجباً لمن له فهم أن يقول: هل فعل هذا أحد غير هؤلاء؟ فقيل: نعم! ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا الفعل البعيد لبشاعته عن مناهج العقلاء، مكراً في تدبير الأذى، واعتقاداً وقولاً ﴿فعل الذين﴾ ولما كان الفاعلون مثل أفعالهم في التكذيب لم يستغرقوا الزمان، أدخل الجار فقال تعالى: ﴿من قبلهم وما﴾ أي والحال أنه ما ﴿ظلمهم الله﴾ أي الذي له الكمال كله في تقديره ذلك عليهم، لأنه المالك المطلق التصرف والملك الذي لا يسأل عما يفعل ﴿ولكن كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿أنفسهم﴾ أي خاصة ﴿يظلمون﴾ فاستحقوا العقاب لقيام الحجة عليهم على السنن الذي جرت به عوائدكم فيمن باشر سوء من غير أن يكره عليه إكراهاً ظاهراً، وهذا بعينه هو العلة في إرسال الرسل، ونصب الشرائع والملل ﴿فأصابهم﴾ أي فتسبب عن ظلمهم لأنفسهم أن أصابهم ﴿سيئات﴾ أي عقوبات أو جزاء سيئات ﴿ما عملوا وحاق﴾ أي أحاط ضابطة ﴿بهم﴾ من العذاب والمرسل به من الملائكة ﴿ما كانوا به﴾ أي خاصة ﴿يستهزؤن﴾ تكبراً عن قبول الحق.

ومادة حاق واوية ويائية - بتراكيبها الست: حوق، حقو، قحو، قوح، وقح، حيق - تدور على الإحاطة، ويلزمها صلابة المحيط ولين المحاط به: حاق به الشيء - إذا نزل به فأحاط، والحيق: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، وحاق فيه السيف: حاك أي

عمل – من التسمية باسم الجزء ، ولأنه في الأغلب يكون في عمله الموت المحيط بالأجل ، وحاق بهم الأمر : لزمهم ووجب عليهم ونزل بهم ، والحيقة : شجرة كالشيح يؤكل بها التمر – كأنه يحيط بالتمرة ، وحايقه : حسده وأبغضه – لإحاطة ذلك .

(75/435)

والحوق – بالضم : ما أحاط بالكمرة من حروفها ، وبالضم والفتح معاً : استدارة في الذكر ، والحوق – بالفتح فقط : الإحاطة ، والأحوق والمحوق – كمعظم : الكمرة – كأنها مختصة بذلك لكبرها ، ومنه فيشلة حوقاء : عظيمة – كأنها لعظمها هي التي ظهر حرفها دون غيرها ، وأرض محوقة – بضم الحاء : قليلة النبت لقلة المطر – كأنه تشبه بالكمرة في ملاستها ، وتركت النخلة حوقاء – إذا أشعل في الكرانيف – لاستدارة النار بها أو لشبهها بعد حريق السعف بالذكر أو رأسه ، والحوقة بالفتح : الجماعة المخرقة – لأن الجماعة لها قوة الاستدارة ، والمخرق إن كان من الكذب فمن لازمه العوج ، وإن كان من المخراق – وهو المنديل الذي يلف للعب به – فاللعب به على هيئة الاستدارة ، وحوق عليه تحويقاً : عوج عليه الكلام ، والحوق – بالفتح أيضاً : الكنس والدلك والتمليس لأن كلاًّ منها ترد فيه اليد إلى قريب من مكانها فيشبه الإحاطة ولو بالتعويج .

والحقو : الكشح ، وهو ما بين عظم رأس الورك إلى الضلع الخلف لأنه موضع إحاطة الإزار ، والإزار نفسه حقو لأنه آلته أو الحقو معقد الإزار ، والحقو : موضع غليظ مرتفع عن السيل - من الصلابة والاستدارة لأن السيل يحيط به أو يكاد ، ومن السهم : موضع الريش لأنه يشبه الحقو في استدارته وغلظ بعض ودقة بعض ، وفي إحاطة الريش به ، ومن الثنية : جانباها - من الإحاطة أو مطلق العوج ، والحقوة : وجع في البطن من أكل اللحم - للحوق وجعه الحقو .

والأقحوان : نبت يستدير به زهرة ، وأقاحي الأمر : تباشيره - لأنها تحيط به غالباً ، وقحا المال : أخذه - لما يلزمه من الإحاطة ، والمقحاة : الجرفة - لأنها تحيط بالجروف .

(76/435)

ومن اللين : قاح الجرح يقوح : صارت فيه مدة خالصة لا يخالطها دم كقاح يقيح - واوية ويائية ، ولما يلزمه من الاستدارة غالباً ، وقوّح الجرح : انتبر - إما من الموضع الغليظ المرتفع عن السيل ، وإما من استدارته ، وقاح البيت : كنسه كقوّحه ، والقاحة : الساحة - لاستدارتها غالباً ، وأقاح : صمم على المنع بعد السؤال - إما من لإزالة - أي أزال اللين - وإما من الصلابة .

ومن الصلابة : الوقاح – للحافر الصلب ، وهو من الاستدارة أيضاً ، ورجل وقاح الوجه : قليل الحياء – منه ، والموقح – كمعظم : المجرب ، وتوقيح الحوض : إصلاحه بالمدر والصفائح – للاستدارة والصلابة .

ولما تم ما هو عجب من مقالهم ومآلهم ، في سوء أحوالهم ، وختم بتهديدهم ، عطف على قوله ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ موجباً آخر للتهديد ، معجباً من حالهم فيه ، فقال : ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ أي الراسخ منهم في هذا الوصف والتابع له ، على سبيل الاعتراض على من يدعوهم إلى التوحيد من نبي وغيره ، محتجين بالقدر عناداً منهم ، ومعترضين على من لا يسأل عما يفعل بأنه – لقدرته على كل شيء – غير محتاج إلى بعث الرسل ، فإرسالهم عبث – تعالى الله الحكيم عن قولهم ، فهو قول من يطلب العلة في أحكامه تعالى وفي أفعاله ، وهو قول باطل ، لأنه سبحانه الفعال لما يريد سواء أطلع العباد على حكمته أم لا : ﴿ لو شاء الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ، عدم عبادتنا لغيره ﴿ ما عبدنا ﴾ .

ولما كانت الرتب كلها متقاصرة عن رتبته وكانت متفاوته ، وكان ما يعبدونه من الأصنام في أدناها رتبة ، أدخلوا الجار فقالوا : ﴿ من دونه ﴾ وأعرقوا في النفي فقالوا : ﴿ من شيء ﴾ أي من الأشياء ﴿ نحن ولا ءاباؤنا ﴾ من قبلنا ! ولما ذكروا الأصل أتبعوه الفرع فقالوا : ﴿ ولا حرمنا ﴾ أي على أنفسنا ﴿ من دونه ﴾ أي دون أمره ﴿ من شيء ﴾ لأن ما يشاء لا يتخلف على زعمكم ، لكنه لم يشأ العدم ، فقد شاء وجود ما نحن عليه ، فنحن نتبع ما شاءه لا نتغير عنه ، لأنه لا يشاء إلا ما هو حق ، وضل عن الأشقياء - بكلمتهم هذه الحق التي أرادوا بها الباطل - أن مدار السعادة والشقاوة إنما هو موافقة الأمر لا موافقة الإرادة ، فما كان من الفعل والكف على وفق الأمر سعد فاعله ، وما خالفه قامت به الحجة على فاعله على ما جرت به عوائد الناس فشقي .

(78/435)

فلما انتهك ستر هذه المقالة المموهة ، وكان كأنه قيل استبعاداً لها : هل قالها غيرهم ؟ فقيل : نعم ! ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا البعيد من السداد ، والقول الخارج عن الهداية والرشاد ، وهو الاعتراض على ربهم في إرسال الرسل ، مانعين لجواز الإرسال بهذه الشبهة الضعيفة ، فإنه تعالى يريد إظهار ثمرة الملك بالحكم على ما يتعارفه العباد من إقامة الحجة

بالأفعال الاختيارية وإن كانت بقضائه ، لأن ذلك مستور عن العباد ﴿ فعل ﴾ أي كذب بدليل الأنعام ﴿ الذين ﴾ ودل على عدم الاستغراق للزمان بقوله : ﴿ من قبلهم ﴾ وكان تكذيباً ، لأن قولهم اقتضى أن يكون ما هم عليه مما يرضاه الله ، والرسل يقولون : لا يرضاه ، ولا يرضى إلا ما أخبروا بأن صاحبه مثاب عليه أو غير معاقب ، فكان ذلك سبباً للإنكار عليهم بقوله : ﴿ فهل ﴾ أي فما ﴿ على الرسل ﴾ أي الذين لا رسل في الحقيقة غيرهم ، وهم الذين أرسلهم الله لدعاء العباد خلفاً عن سلف ؛ ولما كان الاستفهام بمعنى النفي - كما تقدم - إلا أنه صور بصورته ليكون كدعوى الشيء بدليلها فقال : ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ وقد بلغوكم وأوضحوا لكم ، فصار وبال العصيان خاصاً بكم . انتهى ا . هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 264.267 ﴾

(79/435)

فصل

قال الفخر :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الثانية لمنكري النبوة ، فإنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم

أن ينزل الله تعالى ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ في التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك ، ويحتمل أن يقال : إن القوم لما طعنوا في القرآن بأن قالوا : إنه أساطير الأولين ، وذكر الله تعالى أنواع التهديد والوعيد لهم ، ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيراً وصدقاً وصواباً ، عاد إلى بيان أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البيانات التي ذكرناها ، بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوال الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال .

واعلم أن على كلا التقديرين فقد قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كلام هؤلاء وأفعالهم يشبه كلام الكفار المتقدمين وأفعالهم .

ثم قال : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والتقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم الهلاك المعجل وما ظلمهم الله بذلك ، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بأن كفروا ، وكذبوا الرسول فاستوجبوا ما نزل بهم .

ثم قال : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ والمراد أصابهم عقاب سيئات ما عملوا ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي نزل بهم على وجه أحاط بجوانبهم : ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي عقاب استهزائهم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لمنكري النبوة ، وتقريرها : أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن في النبوة فقالوا : لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان ، سواء جئت أو لم تجيء ، ولو شاء الله الكفر فإنه يحصل الكفر سواء جئت أو لم تجيء ، وإذا كان الأمر كذلك فالكل من الله تعالى ، ولا فائدة في مجيئك وإرسالك ، فكان القول بالنبوة باطلاً ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذه الشبهة هي عين ما حكى الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَىْء كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام : 148] واستدلال المعتزلة به مثل استدلالهم بتلك الآية .

والكلام فيه استدلالاً واعتراضاً عين ما تقدم هناك فلا فائدة في الإعادة ، ولا بأس بأن نذكر منه القليل فنقول : الجواب عن هذه الشبهة هي أنهم قالوا : لما كان الكل من الله تعالى كان بعثة الأنبياء عبثاً .

فنقول : هذا اعتراض على الله تعالى ، فإن قولهم : إذا لم يكن في بعثة الرسول مزيد فائدة في حصول الإيمان ودفع الكفر كانت بعثة الأنبياء غير جائزة من الله تعالى ، فهذا القول جار

مجرى طلب العلة في أحكام الله تعالى وفي أفعاله ، وذلك باطل ، بل الله تعالى أن يحكم في ملكه وملكوته ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولا يجوز أن يقال له : لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك ؟ والدليل على أن الإنكار إنما توجه إلى هذا المعنى أنه تعالى صرح في آخر هذه الآية بهذا المعنى فقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 22 . 23 ﴾

(81/435)

وقال ابن عطية :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾

﴿ ينظرون ﴾ معناه ينتظرون ، ونظر متى كانت من رؤية العين فإنما تعديها العرب ب " إلى " ، ومتى لم تتعد ب " إلى " فهو بمعنى انتظر ، كما قال امرؤ القيس :

فإنكما إن تنظراني ساعة . . . من الدهر تنفعني لدى أم جندب

ومنه قوله تعالى حكاية ﴿ انظرونا نقتبس من نور ﴾ [الحديد : 13] وقد جاء شاذاً نظرت بمعنى الرؤية متعدياً بغير إلى كقول الشاعر :

باهرات الجمال والحسن ينظر . . . ن كما تنظر الأراك الظباء

وقرأ الجمهور " تأتيهم " بالتاء من فوق ، وقرأ حمزة والكسائي " يأتيهم " بالياء ، وهي قراءة يحيى بن وثاب وطلحة والأعمش ، ومعنى الكلام أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ظالمي أنفسهم ، وقوله ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ وعيد يتضمن قيام الساعة أو عذاب الدنيا ، ثم ذكر تعالى أن هذا كان فعل أسلافهم من الأمم ، أي فعوقبوا ولم يكن ذلك ظلماً لأنه لم يوضع ذلك العقاب في غير موضعه ، ولكن ظلموا أنفسهم بأن وضعوا كفرهم في جهة الله وميلهم إلى الأصنام والأوثان ، فهذا وضع الشيء في غير موضعه ، أي آذوها بنفس فعلهم ، وإن كانوا لم يقصدوا ظلمها ولا إذايتها ، وقوله ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ أي جزاء ذلك في الدنيا والآخرة. ﴿ وحاق ﴾ معناه نزل وأحاط ، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر من الكلام ، تقديره جزاء ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ الآية ، جدل من الكفار ، وذلك أن أكثر الكفار يعتقدون وجود الله تعالى وأنه خالقهم ورازقهم ، فإن كان أهل هذه الآية من هذا الصنف فكأنهم قالوا يا محمد : نحن من الله بمرىء في عبادة الأوثان لتنفع وتقرب زلفى ، ولو كره الله فعلنا لغيره منذ مدة ، إما بإهلاكنا وإما بهدايتنا ، وكان من الكفار فريق لا يعتقد وجود الله تعالى ، فإن كان أهل هذه الآية من

هذا الصنف فكأنهم أخذوا الحجة على النبي صلى الله عليه وسلم من قوله ، أي إن الرب الذي تثبته يا محمد وهو على ما تصفه يعلم ويقدر لا شك أنه يعلم حالنا ، ولو كرهها لغيرها ، والرد على هذين الفريقين هو في أن الله تعالى ينهى عن الكفر وقد أراده بقوم ، وإنما نصب الأدلة وبعث الرسل ويسر كلاًّ لما حتم عليه ، وهذا الجدال من أي الصنفين فرضته ليس فيه استهزاء ، لكن أبا إسحاق الزجاج : قال إن هذا الكلام على جهة الهزء ، فذهب أبو إسحاق رحمه الله والله أعلم إلى أن الطائفة التي لا تقول بإله ثم أقامت الحجة من مذهب خصمها كأنها مستهزئة في ذلك ، وهذا

جدل محض ، والرد عليه كما ذكرناه وقوله ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ يشير إلى ما ذكرناه ، وقولهم ﴿ ولا حرمنا ﴾ يريدون البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك مما شرعوه ، وأخبر الله تعالى أن هذه النزعة قد سبقهم الأولون من الكفار إليها ، كأنه قال : والأمر ليس على ما ظنوه من أن الله تعالى إذا أراد الكفر لا يأمر بتركه ، بل قد نصب الله لعباده الأدلة وأرسل الرسل منذرين وليس عليهم إلا البلاغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الملائكة ﴾

هذا راجع إلى الكفار ، أي ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم .

وقرأ الأعمش وابن وَثّاب وحمزة والكسائيّ وخَلَف "يأتيهم الملائكة" بالياء .

والباقون بالتاء على ما تقدّم .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي بالعذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والخَسْف في الدنيا .

وقيل : المراد يوم القيامة .

والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أي عاقبتهم العذاب .

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي أصرّوا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا .

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ﴾ أي بتعذيبهم وإهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾

قيل : فيه تقديم وتأخير ؛ التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم .

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ودار .

﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي عقاب استهزائهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾

أي شيئاً ، و "مِن" صلة .

قال الزجاج : قالوه استهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين .

وقد مضى هذا في سورة "الأنعام" مبيّناً معنًى وإعراباً فلا معنى للإعادة .

﴿ كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي ليس عليهم إلا التبليغ ، وأما الهداية فهي إلى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون ﴾

يعني هؤلاء الذين أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يا محمد ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ يعني لقبض أرواحهم ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ يعني بالعذاب في الدنيا وهو عذاب الاستئصال .

وقيل : المراد به يوم القيامة ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ يعني من الكفر والتكذيب ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ يعني بتعذيبه إياهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ يعني باكتسابهم المعاصي ، والكفر والأعمال القبيحة الخبيثة ، ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ يعني فأصابهم عقوبات ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ﴾ يعني أن مشركي مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء .

والحاصل أنهم تمسكوا بهذا القول في إنكار النبوة ، فقالوا : لو شاء الله منا الإيمان لحصل جئت أو لم تجيء ولو شاء الله منا الكفر لحصل جئت أو لم تجيء .

وإذا كان كذلك فالكل من الله ، فلا فائدة في بعثه رسل إلى الأمم والجواب عن هذا أنهم لما قالوا : إن الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثاً كان هذا اعتراضاً على الله تعالى ، وهو جار مجرى طلب العلة في أحكام الله ، وفي أفعاله وهو باطل لأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا اعتراض لأحد عليه في أحكامه وأفعاله ، ولا يجوز لأحد أن يقول

لو فعلت هذا ، ولم لم تفعل هذا كان في حكم الله وسنته في عباده إرسال الرسل إليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى ، وينهوهم عن عبادة غيره وأن الهداية والإضلال إليه فمن هداه فهو المهتدي ، ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله في عباده أنه يأمر الكل بالإيمان به وينهاهم عن الكفر .

ثم إنه سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إلى الإيمان ويضلّ من يشاء فلا اعتراض لأحد عليه .

(86/435)

ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل إلى الأمم الكافرة المكذبة كان قول هؤلاء لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا جهلاً منهم ، لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد باطل فلا جرم استحقوا عليه الذم والوعيد .

وأما قوله تعالى ﴿ ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ يعني الوصيلة والسائبة والحام .

والمعنى : فلولا أن الله رضيها لنا لغير ذلك ولهدانا إلى غيره ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ يعني أن من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الأمم الماضية كانوا على هذه الطريقة ، وهذا الفعل الخبيث فإنكار بعثة الرسل كان قديماً في الأمم الخالية ﴿ فهل على الرسل إلا

البلاغ المبين ﴾ يعني ليس إليهم هداية أحد إنما عليهم تبليغ ما أرسلوا به إلى من أرسلوا إليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(87/435)

وقال أبو حيان :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

مناسبة هذه الآية لما قلبها أنه تعالى لما ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم : أساطير الأولين ، ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم ، ثم توعد من وصف القرآن بالخيرية بين أن أولئك الكفرة لا يرتدعون عن حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد ، أو امر الله بعذاب الاستئصال.

وقرأ حمزة والكسائي : يأتيهم بالياء ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وباقي السبعة بالتاء على تأنيث الجمع ، وإتيان الملائكة لقبض الأرواح ، وهم ظالمو أنفسهم ، وأمر ربك العذاب المستأصل أو القيامة.

والكاف في موضع نصب أي : مثل فعلهم في انتظار الملائكة أو امر الله فعل الكفار الذين يقدمونهم.

وقيل : مثل فعلهم في الكفر والديمومة عليه فعل متقدموهم من الكفار.

وقيل : فعل هنا كناية عن اغترارهم ، كأنه قيل : مثل اغترارهم باستبطاء العذاب اغتر الذين من قبلهم ، والظاهر القول الأول لدلالة : هل ينظرون عليه ، وما ظلمهم بالله بإهلاكهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بكفرهم وتكذيبهم الذي أوجب لهم العذب في الدنيا والآخرة .

وقوله : فأصابهم ، معطوف على فعل ، وما ظلمهم اعتراض .

وسيئات : عقوبات كفرهم .

وحاق بهم أحاط بهم جزاء استهزائهم .

وقال الذين أشركوا ، تقدم تفسير مثل هذه الآية في آخر الأنعام ، فأغنى عن الكلام في هذا .

وقال الزمخشري : هنا يعني أنهم أشركوا بالله وحرموا ما أحل من البحيرة والسائبة وغيرهما ، ثم نسبوا فعلهم إلى الله ، وقالوا : لو شاء الله لم نفعل ، وهذا مذهب المجبرة بعينه .

كذلك فعل الذين من قبلهم أي أشركوا وحرموا حلال الله ، فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوا على ربهم ، فهل على الرسل إلا أن يبلغوا الحق ، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان ، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه ، وبراءة الله من أفعال العباد ، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم ، والله تعالى باعثهم على جميلها ، وموفقهم له

وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

وهذا القول صادر ممن أقر بوجود الباري تعالى وهم الأكثرون ، أو ممن لا يقول بوجوده .

فعلى تقدير أنّ الرب الذي يعبده محمد ويصفه بالعلم والقدرة يعلم حالنا ، وهذا جدال من أي الصفنين كان ليس فيه استهزاء .

وقال الزجاج : قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء ، ومن المطابقة التي أنكرت مطابقة الأدلة لإقامة الحجة من مذهب خصمها مستهزئة في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(89/435)

وقال أبو السعود :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظر كفارُ مكةَ المارُّ ذكرُهم ﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحِهم بالعذاب ، جُعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لا لأنه يلحقهم ألبتةَ لحوقُ الأمر المنتظِر بل لمباشرتهم لأسبابه الموجبةِ له المؤديةِ إليه ، فكأنهم يقصِدون إتيانَه ويترصّدون لوروده ، وقرىء بتذكير الفعل ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبّكَ ﴾ التعرض لوصف

الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعارٌ بأن إتيانَه لطفٌ به عليه الصلاة والسلام وإن كان عذاباً عليهم ، والمرادُ بالأمر العذابُ الدنيويُّ لا القيامةُ ، لكن لا لأن انتظارَها بجامع انتظار إتيان الملائكةِ فلا يلائمة العطفُ بأو لأنها ليست نصًّا في العناد إذ يجوز أن يعتبر منعُ الخلوّ ويرادَ بإيرادها كفايةُ كل واحد من الأمرين في عذابهم بل لأن قوله تعالى فيما سيأتي : ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ الآية ، صريحٌ في أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوي ﴿ كذلك ﴾ أي مثل فعلِ هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿ فَعَلَ الذين ﴾ خلوا ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ من الأمم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ﴾ بما سيُتلى من عذابهم ﴿ ولكن كَانُواْ ﴾ بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبةِ لذلك ﴿ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ كان الظاهرُ أن يقال : ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظمُ الكريم لإفادة أن غائلةَ ظلمِهم آيلةٌ إليهم وعاقبتَه مقصورةٌ عليهم مع استلزام اقتصارِ ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوعُ اقتصارَه عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقُه في سورة يونس .

﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وما بينهما اعتراضٌ لبيان أن فعلَهم على ذلك ظلمٌ لأنفسهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي أجزيةُ أعمالِهم السيئة على طريقة تسمية المسبَّب باسم سببه إيذاناً لفظاعته لا على حذف المضاف فإنه يوهم أن لهم أعمالاً غيرَ سيئاتهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم من الحَيق الذي هو إحاطةُ الشر ، وهو أبلغ من الإصابة وأفظع ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ من العذاب .

﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾

أي أهلُ مكة ، وهو بيانٌ لفن آخرَ من كفرهم والعدولُ عن الإضمار إلى الموصول لتقريعهم بما في حيز الصلة وذمّهم بذلك من أول الأمر ﴿ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْء ﴾ أي لو شاء عدم عبادتِنا لشيء غيرِه كما تقول لما عبدنا ذلك ﴿ نَّحْنُ وَلاَ ءابَاؤُنَا ﴾ الذين نقتدي بهم في ديننا ﴿ وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْء ﴾ من السوائب والبحائر وغيرِها ، وإنما قالوا ذلك تكذيباً للرسول عليه الصلاة والسلام وطعناً في الرسالة رأساً متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع ، فلو أنه شاء أن نوحّده ولا نشركَ به شيئاً ولا نحرِّمَ مما حرمنا شيئاً كما يقول الرسلُ وينقُلونه من جهة الله عز وجل لكان الأمرُ كما شاء من التوحيد ونفي الإشراكِ وما يتبعهما ، وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئاً من ذلك ، وإنما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فأجيب عنه بقوله عز وجل : ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ

ذلك الفعلِ الشنيع ﴿ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم ، أي أشركوا بالله وحرموا حِلَّه وردوا رسلَه وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ وهدوهم إلى الحق .

(91/435)

﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل ﴾ الذين يبلغون رسالاتِ الله وعزائمَ أمره ونهيه ﴿ إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي ليست وظيفتُهم إلا تبليغَ الرسالة تبليغاً واضحاً أو موضّحاً وإبانةً طريقَ الحق وإظهارَ أحكام الوحي التي من جملتها تحتّمُ تعلقِ مشيئةِ الله تعالى باهتداء مَنْ صَرَفَ قدرتَه واختيارَه إلى تحصيل الحق لقوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ وأما إلجاؤهم إلى ذلك وتنفيذُ قولِهم عليهم شاءوا أو أبَوا كما هو مقتضى استدلالِهم ، فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التي عليها يدور أمرُ التكليفِ في شيء حتى يُستدلَّ بعدم ظهور آثارِه على عدم حقّيّة الرسلِ أو على عدم تعلق مشيئتِه تعالى بذلك ، فإن ما يترتب عليه الثوابُ والعقابُ من أفعال العباد لا بد في تعلق مشيئتِه تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختياريةِ له وصرفِ اختيارهم الجزئيِّ إلى تحصيله وإلا لكان الثواب والعقاب اضطراريّين ، فالفاءُ للتعليل كأنه قيل : كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فإن الرسلَ ليس شأنُهم إلا تبليغَ أوامرِ الله تعالى ونواهيه لا تحقيقَ مضمونِهما وإجراءَ موجبهما على الناس

قسراً وإلجاءً ، وإيرادُ كلمة (على) للإيذان بأنهم في ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حقٌّ للناس عليهم وإيفاؤه. بهذا ظهر أن حملَ قولِهم : ﴿ لَوْ شَاء الله ﴾ الخ، على الاستهزاء لا يلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(92/435)

وقال الآلوسى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم ﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم كما روي عن قتادة.

ومجاهد ، وقرأ حمزة.

والكسائي.

وابن وثاب وطلحة.

والأعمش ﴿ يَأْتِيهِمُ ﴾ بالياء آخر الحروف ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبّكَ ﴾ أي القيامة كما روي عمن تقدم أيضاً ، وقال بعضهم : المراد به العذاب الدنيوي دونها لا لأن انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لا لأنها ليست نصاً في العناد إذ يجوز أن يعتبر

منع الخلو ويراد بإيرادها كفاية كل واحد من الأمرين في عذابهم بل لأن قوله تعالى فيما سيأتي إن شاء الله تعالى : ﴿ ولكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ فأصابهم ﴾ [النحل : 34] الآية صريح في أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوي وفيه منع ظاهر ، ويؤيد إرادة الأول التعبير بيأتي دون يأتيهم ، وقيل : المراد باتيان الملائكة اتيانهم للشهادة بصدق النبي صلى الله عليه وسلم أي ما ينتظرون في تصديقك إلا أن تنزل الملائكة تشهد بنبوتك فهو كقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ملك ﴾ [الأنعام : 8] والجمهور على الأول ، وجعلوا منتظرين لذلك مجازاً لأنه يلحقهم لحوق الأمر المنتظر كما قيل .

واختير ان ذلك لمباشرتهم أسباب العذاب الموجبة له المؤدية إليه فكأنهم يقصدون اتياءه ويتصدون لوروده ، ولا يخفى ما في التعبير بالرب وإضافته إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من اللطف به عليه الصلاة والسلام ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى وجه ربط الآيات ﴿ قَالَ كَذلك ﴾ أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿ فَعَلَ الذين ﴾ خلوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم ﴿ وَمَا عَبْدُ الله ﴾ إذ أصابهم جزاء فعلهم ﴿ ولكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالاستمرار على فعل القبائح المؤدى لذلك ، قيل : وكان الظاهر أن يقال : ﴿

ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ كما في سورة الزخرف (76) لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لإفادة أن غائلة ظلمهم آيلة إليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي أجزية أعمالهم السيئة على طريقة اطلاق اسم السبب على المسبب إيذاناً بفظاعته ، وقيل : الكلام على حذف المضاف .

وتعقب بأنه يوهم أن لهم أعمالاً غير سيئة والتزم ومثل ذلك بنحو صلة الأرحام ، ولا يخفى أن المعنى ليس على التخصيص ، والداعي إلى ارتكاب أحد الأمرين أن الكلام بظاهره يدل على أن ما أصابهم سيئة ، وليس بها .

وقد يستغني عن ارتكاب ذلك لما ذكر بأن ما يدل عليه الظاهر من باب المشاكلة كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] كما في الكشاف ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ، وأصل معنى الحيق الإحاطة مطلقاً ثم خص في الاستعمال باحاطة الشر ، فلا يقال : أحاطت به النعمة بل النقمة .

وهذا أبلغ وأفظع من أصابهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ ﴾ أي من العذاب كام قيل على أن دما ﴾ موصولة عبارة عن العذاب ، وليس في الكلام حذف ولا ارتكاب مجاز على نحو ما مر آنفاً ، وقيل : ﴿ مَا ﴾ مصدرية وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام وإن لم يذكر ، والمراد أحاط بهم جزاء استهزائهم بالرسول صلى الله عليه وسلم أو موصولة عامة للرسول عليه الصلاة والسلام وغيره وضمير ﴿ بِهِ ﴾ عائد عليها والمعنى على الجزاء أيضاً ، ولا يخفى ما فيه ، وإياما كان ﴿ فبه ﴾ متعلق بيستهزؤون قدم للقاصلة ، هذا ثم ان قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ [النحل : 33] الخ على ما في الكشف رجوع إلى عد ما هم فيه من العناد والاستشراء في الفساد وأنهم لا يقلعون عن ذلك كأسلافهم الغابرين إلى يوم التناد ، وما وقع من أحوال اضدادهم في البين كان لزيادة التحسير والتبكيت والتخسير ، وفيه دلالة على أن الحجة قد تمت وأنه صلى الله عليه وسلم أدى ما عليه من البلاغ المبين ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ عطف على ﴿ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل : 33] مترتب إذ المعنى كذلك التكذيب والشرك فعل أسلافهم وأصابهم ما أصابهم ، وفيه تحذير مما فعله هؤلاء وتذكير لقوله سبحانه : ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل : 26] ولا يخفى حسن الترتب على ذلك لأن التكذيب والشرك تسبباً لإصابة السيئات لمن قبلهم ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمْ الله ﴾ [النحل : 33] اعتراض واقع حاق موقعه ، وجعل ذلك راجعاً إلى المفهوم من قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ [النحل : 33] أي

كذلك كان من قبلهم مكذبين لزمتهم الحجة منتظرين فاصابهم ما كانوا منتظرين سديد حسن إلا أن معتمد الكلام الأول وهو أقرب مأخذاً ، ودلالة ﴿ فِعْلَ ﴾ عليه أظهر ، فهذه فذلكة ضمنت محصل ما قابلوا به تلك النعم والبصائر وأدمج فيها تسليته صلى الله عليه وسلم والبشرى بقلب الدائرة على من تربص به

(95/435)

وبأصحابه عليه الصلاة والسلام الدوائر وختمت بما يدل على أنهم انقطعوا فاحتجوا بآخر ما يحتج به المحجوج يتقلب عليه فلا يبصر إلا وهو مثلوج مشجوج وهو ما تضمنه قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْء ﴾

فهو من تتمة قوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ [النحل : 33] ألا ترى كيف ختم بنحوه آخر مجادلاتهم في سورة الأنعام في قوله سبحانه : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ [الأنعام : 148] وكذلك في سورة الزخرف ولا تراهم يتشبثون بالمشيئة إلا عند انخزال الحجة ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ ملائكة ﴾ [فصلت : 14] ويكفي في الانقلاب ما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾ [الأنعام : 149] وفي إرشاد العقل السليم أن

هذه الآية بيان لفن آخر من كفر أهل مكة فهم المراد بالموصول ، والعدول عن الضمير إليه لتقريعهم بما في حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الأمر ، والمعنى لو شاء الله تعالى عدم عبادتنا لشيء غيره سبحانه كما تقول ما عبدنا ذلك ﴿ نَّحْنُ وَلَا ءابَاؤُنَا ﴾ الذين نهتدي بهم في ديننا ﴿ وَلَاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْء ﴾ من السوائب والبحائر وغيرها فمن الأولى بيانية والثانية زائدة لتأكيد الاستغراق وكذا الثالثة ﴿ وَنَحْنُ ﴾ لتأكيد ضمير ﴿ عَبْدَنَا ﴾ لا لتصحيح العطف لوجود الفاصل وإن كان محسناً له ، وتقدير مفعول ﴿ شَاءَ ﴾ عدم العبادة مما صرح به بعضهم ، وكان الظاهر أن يضم إليه عدم التحريم .

(96/435)

واعترض تقدير ذلك بأن العدم لا يحتاج إلى المشيئة كما ينبىء عنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن " حيث لم يقل عليه الصلاة والسلام ما شاء الله تعالى كان وما شاء عدم كونه لم يكن بل يكفي فيه عدم مشيئة الوجود ، وهو معنى قولهم : علة العدم عدم علة الوجود ، فالأولى أن يقدر المفعول وجودياً كالتوحيد والتحليل وكامتثال ما جئت به والأمر في ذلك سهل .

وفي تخصيص الإشراك والتحريم بالنفي لأنهما أعظم وأشهر ما هم عليه ، وغرضهم من

ذلك كما قال بعض المحققين تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والطعن في الرسالة رأساً ، فإن حاصله إن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فلو أنه سبحانه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئاً ونحلل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرمنا كما تقول الرسل وينقلونه من جهته تعالى لكان الأمر كما شاء من التوحيد ونفي الإشراك وتحليل ما أحله وعدم تحريم شيء من ذلك وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئاً من ذلك بل شاء ما نحن عليه وتحقق أن ما تقوله الرسل عليهم السلام من تلقاء أنفسهم ورد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه عز وجل : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم أي أشركوا بالله تعالى وحرموا من دونه ما حرموا وجادلوا رسلهم بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل ﴾ الذين أمروا بتبليغ رسالات الله تعالى وعزائم أمره ونهيه .

﴿ إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي ليست وظيفتهم إلا الابلاغ للرسالة الموضح طريق الحق والمظهر أحكام الوحي التي منها تحتم تعلق مشيئته تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره إلى تحصيل الحق لقوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] .

واما الجاؤهم إلى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤوا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التي يدور عليها فلك التكليف حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقية الرسل عليهم السلام أو على عدم تعلق مشيئة الله تعالى بذلك ، فإن ما يترتب عليه الثواب والعقاب من الأفعال لا بد في تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية وصرف اختيارهم الجزئي إلى تحصيله وإلا لكان الثواب والعقاب اضطراريين ؛ والفاء على هذا للتعليل كانه قيل كذلك فعل اسلافهم وذلك باطل فان الرسل عليهم السلام ليس شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي لا تحقيق مضمونها قسرا والجاءراه ، وكأني بك لا تبريه من تكلف.

(98/435)

وهو متضمن للرد على الزمخشري فقد سلك في هذا المقام الغلو في المقال وعدل عن سنن الهدى إلى مهواة الضلال فذكر أن هؤلاء المشركين فعلوا ما فعلوا من القبائح ثم نسبوا فعلهم إلى الله تعالى وقالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ ﴾ إلى آخره وهذا مذهب المجبرة بعينه كذلك فعل اسلافهم فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم فهل على الرسل إلا أن يبلغوا الحق وأن الله سبحانه لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان ويطلعوا على بطلان الشرك

وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم ، والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه إلى آخر ما قال مما هو على هذا المنوال ، ولعمري أنه فسر الآيات على وفق هواه وهي عليه لا له لو تدبر ما فيها وحواه ، وقد رد عليه غير واحد من المحققين وأجله المدققين وبينوا أن الآية بمعزل عن أن تكون دليلاً لأهل الاعتزال كما أن الشرطية لا تنتج مطلوب أولئك الضلال ، وقد تقدم نبذه من الكلام في ذلك ثم إن كون غرض المشركين من الشرطية تكذيب الرسل عليهم السلام هو أحد احتمالين في ذلك ، قال المدقق في الكشف في نظير الآية : إن قولهم هذا إما لدعوى مشروعية ما هم عليه رداً للرسل عليهم السلام أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذاراً بأنهم مجبورون ، والأول باطل لأن المشيئة تتعلق بفعلهم المشروع وغيره فما شاء الله تعالى أن يقع منهم مشروعاً وقع كذلك وما شاء الله تعالى أن يقع لا كذلك وقع لا كذلك ، ولا شك أن من توهم أن كون الفعل بمشيئته تعالى ينافي مجيء الرسل عليهم السلام بخلاف ما عليه المباشر من الكفر والضلال فقد كذب التكذيب كله وهو كاذب في استنتاج المقصود من هذه اللزومية ، وظاهر الآية مسوق لهذا المعنى .

والثاني على ما فيه حصول المقصود وهو الاعتراف بالبطلان باطل أيضاً إذ لا جبر لأن المشيئة تعلقت بأن يشركوا اختياراً منهم والعلم تعلق كذلك ومثله في التحريم فهو يؤكد دفع العذر لا أنه يحققه ، وذكر أن معنى ﴿ فهل على الرسل ﴾ أن الذي على الرسل أن يبلغوا ويبينوا معالم الهدى بالإرشاد إلى تمهيد قواعد النظر والإمداد بأدلة السمع والبصر ولا عليهم من مجادلة من يريد أن يدحض بباطله الحق الأبلج إذ بعد ذلك التبيين يتضح الحق للناظرين ولا تجدي نفعاً مجادلة المعاندين ، وجوز أن يكون قولهم هذا منعاً للبعثة والتكليف متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدة فيهما أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشكر والتحريم محتجين بأن ذلك لو كان مستقبحاً لما شاء الله تعالى صدوره عنا أو لشاء خلافه ملجأ إليه ، وأشير إلى جواب الشبهة الأولى بقوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل ﴾ إلى آخره كأنه قيل : إن فائدة البعثة البلاغ الموضح للحق فإن ما شاء الله تعالى وجوده أو عدمه لا يجب ولا يمتنع مطلقاً كما زعمتم بل قد يجب أو يمتنع بتوسط أسباب أخر قدرها سبحانه ومن ذلك البعثة فإنا تؤدي إلى هدى من شاء الله تعالى على سبيل التوسط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾

استئناف بياني ناشىء عن جملة ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ [سورة الرعد : 42] لأنّها تثير سؤال من يسأل عن إبّان حلول العذاب على هؤلاء كما حلّ بالّذين من قبلهم ، فقيل : ما ينظرون إلا أحد أمرين هما مجيء الملائكة لقبض أرواحهم فيحقّ عليهم الوعيد المتقدم ، أو أن يأتي أمرُ الله .

والمراد به الاستئصال المعرّض بالتهديد في قوله : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ [سورة النحل : 26] .

والاستفهام إنكاري في معنى النّفي ، ولذلك جاء بعده الاستثناء .

﴿ وينظرون ﴾ هنا بمعنى الانتظار وهو النظِرة .

والكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم تذكيراً بتحقيق الوعيد وعدم استبطائه وتعريضاً بالمشركين بالتحذير من اغترارهم بتأخّر الوعيد وحثّاً لهم على المبادرة بالإيمان .

وإسناد الانتظار المذكور إليهم جار على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيلهم منزلة من ينتظر أحد الأمرين ، لأنّ حالهم من الإعراض عن الوعيد وعدم التفكّر في دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم مع ظهور تلك الدلائل وإفادتها التحقّق كحال من أيقن حلول أحد الأمرين به فهو يترقّب أحدهما ، كما تقول لمن لا يأخذ حِذره من العدوّ : ما تترقّب إلاّ أن تقع

أسيراً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ [سورة يونس : 102] وقوله تعالى : ﴿ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ [سورة القصص : 19] .

وهذا قريب من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه وما هو بذلك .

وجملة كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ تنظير بأحوال الأمم الماضية تحقيقاً للغرضين .

والإشارة إلى الانتظار المأخوذ من ﴿ ينظرون ﴾ المراد منه الإعراض والإبطاء ، أي كإبطائهم فعل الذين من قبلهم ، فيوشك أن يأخذهم العذاب بغتة كما أخذ الذين من قبلهم .

(101/435)

وهذا تحذير لهم وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن أمّة محمد عليه الصلاة والسلام ببركته ولإرادته انتشار دينه .

و﴿ الذين من قبلهم ﴾ هم المذكورن في قوله تعالى : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ [سورة الرعد : 42] .

وجملة ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ معترضة بين جملة ﴿ الذين من قبلهم ﴾ [سورة النحل : 33] وجملة فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ .

ووجه هذا الاعتراض أن التعرّض إلى ما فعله الذين من قبلهم يشير إلى ما كان من عاقبتهم وهو استئصالهم ، فعُقب بقوله تعالى : ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ ، أي فيما أصابهم .

ولّما كان هذا الاعتراض مشتملاً على أنهم ظلموا أنفسهم صار تفريع ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ عليه أو على ما قبله .

وهو أسلوب من نظم الكلام عزيز .

وتقديرُ أصله : كذلك فعل الذين من قبلهم وظلموا أنفسهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله .

ففي تغيير الأسلوب المتعارف تشويق إلى الخبر ، وتهويل له بأنه ظُلم أنفسهم ، وأن الله لم يظلمهم ، فيترقّب السامع خبراً مفظعاً وهو ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ .

وإصابة السيئات إما بتقدير مضاف ، أي أصابهم جزاؤها ، أو جعلت أعمالهم السيئة كأنها هي التي أصابتهم لأنها سبب ما أصابهم ، فهو مجاز عقلي .

و﴿ حاق ﴾ : أحاط .

والحَيْق : الإحاطة .

ثم خصّ الاستعمالُ الحيقَ بإحاطة الشرّ .

وقد تقدّم الكلام على ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ في أوائل سورة الأنعام (10) .

و﴿ ما ﴾ موصولة ، ما صْدقها العذاب المتوعدون به .

والباء في ﴿ به ﴾ للسببية .

وهو ظرف مستِقرّ هو صفة لمفعول مطلق .

والتقدير : الذي يستهزئون استهزاء بسببه ، أي بسبب تكذيبهم وقوعَه .

وهذا استعمال في مثله .

وقد تكرّر في القرآن ، من ذلك ما في سورة الأحقاف ، وليست الباء لتعدية فعل ﴿ يستهزءون ﴾ وقدّم المجرور على عامل موصوفه للرّعاية على الفاصلة .

(102/435)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ﴾

عطف قصّة على قصّة لحكاية حال من أحوال شبهاتهم ومكابرتهم وباب من أبواب تكذيبهم .

وذلك أنّهم كانوا يحاولون إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه يقول : إن الله يعلم ما

يسرّون وما يعلنون ، وإنه القادر عليهم وعلى آلهتهم ، وإنه لا يرضى بأن يعبد ما سواه ، وإنه ينهاهم عن البحيرة والسائبة ونحوهما ، فحسبوا أنهم خصموا النبي صلى الله عليه وسلم وحاجّوه فقالوا له : لو شاء الله أن لا نعبد أصناماً لما أقدرنا على عبادتها ، ولو شاء أن لا نحرّم ما حرّمنا من نحو البحيرة والسائبة لما أقرّنا على تحريم ذلك .

وذلك قصد إفحام وتكذيب .

وهذا ردّه الله عليهم بتنظير أعمالهم بأعمال الأمم الذين أهلكهم الله فلو كان الله يرضى بما عملوه لما عاقبهم بالاستئصال ، فكانت عاقبتهم نزول العذاب بقوله تعالى : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ ، ثم بقطع المحاجّة بقوله تعالى : ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ ، أي وليس من شأن الرسل عليهم السلام المناظرة مع الأمّة .

وقال في سورة الأنعام (148) ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ فسمّى قولهم هذا تكذيباً كتكذيب الذين من قبلهم لأن المقصود منه التكذيب وتعضيد تكذيبهم بحجّة أساءوا الفهم فيها ، فهم يحسبون أن الله يتولّى تحريك الناس لأعمالهم كما يُحرّك صاحب خيال الظلّ ومحرّك اللعب أشباحَه وتماثيله ، وذلك جهل منهم بالفرق بين تكوين المخلوقات وبين ما يكسبونه بأنفسهم ، وبالفرق بين أمر التكذيب وأمر التكليف ، وتخليط بين الرضى والإرادة ، ولولا هذا التخليط لكان قولهم إيماناً .

والإشارة بكذلك ﴾ إلى الإشراك وتحريم أشياء من تلقاء أنفسهم ، أي كفعل هؤلاء فَعَل الذين مِن قبلهم وهم المذكورون فيما تقدم بقوله تعالى : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ [سورة النحل : 26] وبقوله : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ﴾ [سورة النحل : 33] .

والمقصود : أنهم فعلوا كفعلهم فكانت عاقبتهم ما علمتم ، فلو كان فعلهم مرضياً لله لما أهلكهم ، فهلا استدّلوا بهلاكهم على أن الله غير راض بفعلهم ، فإن دلالة الانتقام أظهر من دلالة الإملاء ، لأن دلالة الانتقام وجودية ودلالة الإمهال عدمية .

وضمير نحن ﴾ تأكيد للضمير المتّصل في ﴿ عبدنا ﴾ .

وحصل به تصحيح العطف على ضمير الرفع المتّصل .

وإعادة حرف النفي في قوله تعالى : ﴿ ولا آباؤنا ﴾ لتأكيد ﴿ ما ﴾ النافية .

وقد فُرع على ذلك قطع المحاجّة معهم وإعلامهم أن الرسل عليهم السلام ما عليهم إلا البلاغ ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فاحذروا أن تكون عاقبتكم عاقبة أقوام الرّسل السالفين .

وليس الرسل بمكلّفين بإكراه الناس على الإيمان حتى تسلكوا معهم التحكّك بهم والإغاظة لهم .

والبلاغ اسم مصدر الإبلاغ .

والمبين : الموضّح الصريح .

والاستفهام بـ (هل) إنكاري بمعنى النفي ، ولذلك جاء الاستثناء عقبه .

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء قصر إضافي لقلب اعتقاد المشركين من معاملتهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ للرسول غرضاً شخصياً فيما يدعو إليه .

وأثبت الحكم لعموم الرسل عليهم السلام وإن كان المردود عليهم لم يخطر ببالهم أمر الرسل الأولين لتكون الجملة تذييلاً للمحاجّة ، فتفيد ما هو أعمّ من المردود .

والكلام موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعليماً وتسلية ، ويتضمّن تعريضاً بإبلاغ المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾

بعد أن عرضتْ الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادتْ لهؤلاء الذين قالوا ﴿ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْد والتربُّص والإيذاء .

وهذا استفهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون ؟ ! بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صَدَدْتُم الناس عنها ، ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون أنْ تَرَوْا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيَحُلاّن بكم لا محالة :

إما أنْ تأتيكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتي أمر ربِّك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أنْ تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيْراً ؟ ! فلن يأتيكم خير أبداً . . كما قال تعالى في آيات أخرى :

﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] .

وقال : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] .

وقال : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 1] .

إذن : إنما ينتظرون أحداثاً تأتي لهم بشرّ : تأتيهم الملائكة لقبْض أرواحهم في حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يُلْقون السَّلَم رَغْماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة الكبرى وهي القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل : 33] .

أي : ممّن كذَّب الرسل قبلهم . . يعني هذه مسألة معروفة عنهم من قبل :

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ﴾ [النحل : 33] .

أي : وما ظلمهم الله حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا ، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب ؛ لأن العذاب لم يحُلّ بهم بعد .

﴿ ولكن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 33] .

(105/435)

وهذا ما نُسمِّيه بالظلم الأحمق ؛ لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظُلْم النفس فلا يعود عليها بشيء ؛ وذلك لأنهم أسرفوا على أنفسهم في الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك فوّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ . . . ﴾ .

أي : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وسُمّي ما يُفعل بهم سيئة ؛ لأن الحق تبارك وتعالى يُسمّي جزاء السيئة سيئة في قوله : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . . ﴾ [النحل : 126] .

وهذه تُسمّى المشاكلة ، أي : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى: ﴿ مَا عَمِلُواْ ﴾ العمل هو مُزَاولة أيِّ جارحة من الإنسان لمهمتها، فكُلُّ جارحة لها مهمة. الرِّجْل واليد والعَيْن والأُذن.. الخ. فاللسان مهمته أن يقول، وبقية الجوارح مهمتها أنْ تفعل. إذن: فاللسان وحده أخذ النصف، وباقي الجوارح أخذتْ النصف الآخر؛ ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعوّل الأساسي.

فكلمة الشهادة: لا إله إلا الله لا بُدَّ من النطق بها لنعرف أنه مؤمن، ثم يأتي دَوْر الفعل لُيساند هذا القول؛ لذا قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا ِلمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: 2-3].

وبالقول تبلُغ المناهج للآذان.. فكيف تعمل الجوارح دون منهج؟ ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وَضْعاً خاصاً بين باقي الحواس، فهي أول جارحة في الإنسان تؤدي عملها، وهي الجارحة التي لا تنقضي مهمتها أبداً.. كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن، وبها يتم الاستدعاء والاستيقاظ من النوم.

(106/435)

وإذا استقرأت آيات القرآن الكريم، ونظرت في آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] .

ثم هي آلة الشهادة يوم القيامة : ﴿ حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم . . ﴾ [فصلت : 20] .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً ﴾ [الكهف : 11] .

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أي : عطلنا الأذن التي لا تعطل حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار في كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى في تكوينهم الخارجي شيئاً معيناً لما استقر لهم نوم طوال 309 أعوام .

ويقول الحق تعالى :

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [النحل : 34] .

بماذا استهزأ الكافرون ؟ استهزأوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الأولون ﴾ [الصافات : 16-17] .

وقالوا : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة : 10] .

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجّلوا العذاب فقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] .

وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 92] .

وهل يطلب أحد من عدوه أن يُنزِل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً ؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدروا على هذا العذاب الذي تستهزئون به . فقال :

﴿ وَحَاقَ بِهِم . . . ﴾ [النحل : 34] .

(107/435)

أي : أحاط ونزل بهم ، فلا يستطيعون منه فراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما في قوله تعالى : ﴿ والله مِن وَرَآئِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ [البروج: 20] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ . . . ﴾ .

نلاحظ أنه ساعة أنْ يأتيَ الفعل نصاً في مطلوبه لا يُذكر المتعلق به . . فلم يَقُلْ : أشركوا بالله . . لأن ذلك معلوم ، والإشراك معناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ . . . ﴾ [النحل : 35] .

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

﴿ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾

[النحل : 35] .

إنهم هنا يدافعون عن أنفسهم ، وهذه هي الشفاعة التي يُعلّق عليها الكفار خطاياهم شماعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا .

فيقول المسرف على نفسه : ربُّنا هو الذي أراد لي كذا ، وهو الذي يهدي ، وهو الذي يُضل ، وهو الذي جعلني ارتكب الذنوب ، إلى آخر هذه المقولات الفارغة من الحق والنهاية ؛ فلماذا يعذبني إذن ؟

وتعالوا نناقش صاحب هذه المقولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ، والقضية غير واضحة أمامه . . ولكي نزيل عنه هذا الغموض نقول له : ولماذا لم تقُل : إذا كان الله قد أراد لي الطاعة وكتبها عليَّ ، فلماذا يثيبني عليها . . هكذا المقابل . . فلماذا قُلْت بالأولى ولم تقُلْ بالثانية ؟ !

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشر والعذاب ، فوقفتْ في عقلك . . أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذِكْرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك . . هل كلها خير ؟ أم هل كلها شَرّ ؟ أَمَا منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ؟

والإجابة هنا واضحة . إذن : لا أنت مطبوع على الخير دائماً ، ولا أنت مطبوع على الشرِّ دائماً ، لذلك فأنت صالح للخير ، كما أنت صالح للشر .

إذن : هناك فَرْق بين أن يخلقك صالحاً للفعل وضِدّه ، وبين أنْ يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضده ، ولما خلقك صالحاً للخير وصالحاً للشر أوضح لك منهجه وبيَّن لك الجزاء ، فقال : اعمل الخير . . والجزاء كذا ، واعمل الشر . . والجزاء كذا . . وهذا هو المنهج .

ويحلو للمسرف على نفسه أنْ يقولَ : إن الله كتبه عليَّ . . وهذا عجيب ، وكأنِّي به قد اطَّلع على اللوح المحفوظ ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً فراحَ فشربها ؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمر هكذا لكنتَ طائعاً بشُرْبك هذا ، لكن الأمر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كُتِبت عليك إلا بعد أنْ فعلتَ ، والفعل منك مسبوق بالعزم على أنْ تفعلَ ، فهل اطلعتَ على اللوح المحفوظ كي تعرف ما كتبه الله عليك ؟

وانتبه هنا واعلم أن الله تعالى كتب أزلاً ؛ لأنه علم أنك تفعل أجلاً ، وعِلْم الله مُطْلق لا حدودَ له .

ونضرب مثلاً ولله المثل الأعلى الوالد الذي يلاحظ ولده في دراسته ، فيجده مُهملاً غير مُجدٍّ فيتوقع فشله في الامتحان .

. هل دخل الوالد مع ولده وجعله يكتب خطأ ؟ لا . . بل توقّع له الفشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُسبقاً وأزلاً ؛ لأنه يعلم ما يفعله العبد أصلاً . . وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخرى لهذا المنهج حينما وجّه المؤمنين إلى الكعبة بعد أنْ كانت وجْهتهم إلى بيت المقدس ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : 144] .

ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] .

(109/435)

جاء الفعل هكذا في المستقبل : سيقول . . إنهم لم يقولوا بَعْد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلَى على مسامع الجميع غير خافٍ على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسكتُوا ولم يُبادروا بهذه المقولة ، ويُفوِّتوا الفرصة بذلك على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صِدْق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا ويُوجّهوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة في القرآن الكريم .

وهذه الآية : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ [النحل : 35] .

تشرح وتُفسِّر قول الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 148] .

فهنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لنعلم أنه لا يستطيع أحد معارضة قَوْل الله تعالى ، أو تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

﴿ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا . . . ﴾ [النحل : 35] .

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن أنفسهم فقط ؟ ما الحكمة في دفاعهم عن آبائهم هنا ؟ الحكمة أنهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد وسوف يجعلونها حُجَّة حينما يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 22] . إذن : لا حُجَّة لهؤلاء الذين يُعلِّقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر ، وأن الله تعالى كتب عليهم المعصية ؛ لأننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الأباطيل ،

ومنهم مَنْ تأخذه الجَرْأة على الله عز وجل فيُشبِّه هذه القضية بقول الشاعر :

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ . . . إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبتلَّ بالماءِ

وما يفعل هذا إلا ظالم ! ! تعالى الله وتنزّه عن قَوْل الجُهَّال والكافرين ، وأيضاً هناك مَنْ يقول : إن الإنسان هو الذي خلق الفعل ، ويعارضهم آخرون يقولون : لا بل ربّنا هو الذي يخلق الفِعْل .

نقول لهم جميعاً : افهموا ، ليس هناك في الحقيقة خلافٌ . . ونسأل : ما هو الفعل؟ الفعل توجيه جارحة لحدثٍ ، فأنت حينما تُوجّه جارحة لحدثٍ ، ما الذي فعلته أنت؟ هل أعطيتَ لليد مثلاً قوة الحركة بذاتها؟ أم أن إرادتك هي التي وجَّهَتْ حركتها؟

والجارحة مخلوقة لله تعالى ، وكذلك الإرادة التي حكمتْ على الجارحة مخلوقة لله أيضاً .

. إذن : ما فعلته أنت ما هو إلا أن وجَّهْتَ المخلوق لله إلى مَا لا يحب الله في حالة المعصية وإلى ما يحبه الله في حالة الطاعة .

كذلك لا بُدَّ أن نلاحظ أن لله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية . . فالمراد الكونيّ هو ما يكون فِعلاً ، كُلُّ ما تراه في الكون أراد الله أن يكون . والمراد الشرعي : هو طَلَبُ الشيء

لمحبوبيته .

ولنأخذ مثلاً لتوضيح ذلك : كُفْر الكافر ، أراد الله كَوْنياً أن يكون ، لأنه خلقه مختاراً وقال : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

وطالما خلقك الله مختاراً تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان ، أو تتوجه إلى الكفر ، ثم كفرتَ .

إذن : فهل كفرتَ غَصْباً عنه وعلى غير مُراده سبحانه وتعالى ؟ حاشا لله ومعنى ذلك أن كُفْر الكافر مُراد كونيّ ، وليس مراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كفر المؤمن ، المؤمن حقيقة لم يكفر . إذن : هو مراد شرعي وكذلك مراد كوني ، وهكذا ، فلا بُدَّ أن نُفرِّق بين المراد كونياً والمراد شرعياً .

ولذلك لما حدثت ضجة في الحرم المكي منذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين ، قال بعضهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران : 97] .

وها هو الحال قَتْل وإزعاج للآمنين فيه ؟ !

والحقيقة أن هؤلاء خلطوا بين مراد كوني ومراد شرعي ، فالمقصود بالآية : فَمَنْ دخله فأمّنوه . أي : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلَب من الله تبارك وتعالى ، وهو مراد شرعي قد يحدث وقد لا يحدث . . أما المراد الكوني فهو الذي يحدث فعلاً . وبذلك يكون ما حدث في الحرم مراداً كونياً ، وليس مراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

﴿ وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [النحل : 35] .

وقد ورد توضيح هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : 103] .

ثم يقول تعالى مقرراً :

﴿ كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [النحل : 35] أي : هذه سُنَّة السابقين المعاندين .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [النحل : 35] .

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج " افعل أو لا تفعل " . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفِعْل وقادر على التَّرْك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المكْره فلا يتعلق به حكم ؛ لأنه في حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبه ، وكذلك المجنون والصغير الذي لم يبلغ التعقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكْم . . لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لآلة الترجيح في الاختيار . . وهي العقل .

وحينما يكون الإنسان محلَّ تكليف عليه أنْ يجعلَ الفيصل في :

﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [النحل : 35] .

(112/435)

بلاغ المنهج بافعل ولا تفعل ؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا بقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلّغ صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى في حقّ هؤلاء : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ . . . ﴾ [الزخرف : 19-20] .

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف : 21] .

وخاطبهم سبحانه في آية أخرى : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ [القلم : 37] .

وكلمة ﴿ البلاغ المبين ﴾ أي : لا بُدَّ أن يُبَلِّغ المكَلَّف ، فإنْ حصل تقصير في ألَّا يُبَلَّغ المكَلَّف يُنسَب التقصير إلى أهل الدين الحق ، المنتسبين إليه ، والمُنَاط بهم تبليغ هذا المنهج لمن لَمْ يصلْه . وقد وردت الأحاديث الكثيرة في الحَثّ على تبليغ دين الله لمن لم يصِلْه الدين .

كما قال صلى الله عليه وسلم : " بلِّغُوا عَنِّي ولو آية " وقوله صلى الله عليه وسلم : " نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعَاهَا ثم أدّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعى من سامع " .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(113/435)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (النحل : 34)

، وفي سورة الزمر : (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) (الزمر : 51) .

ووجه ذلك ، والله أعلم : استدعاء التناسب في كل من الموضعين ، وقد ورد قبل أية النحل قوله تعالى مخبرا عن المشركين : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا

نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل : 28) ، (ثم استمرت الاية الى قوله : (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل : 32)) ، ثم صرف الكلام الى كفار العرب فى توقفهم عن الايمان فقيل : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) (النحل : 33) ، ثم قيل : (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (النحل : 33) ، والمراد من قال : (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) (النحل : 28) ومن كان على مثل حالهم فقيل بناء على قولهم : (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) ، (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) (النحل : 34) ، وتناسب هذا أبين تناسب

.

وأما أية الزمر فقد وقع قبلها قوله : (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (الزمر : 47) الى قوله : (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الزمر : 47و48) وبعد هذا : (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ، ثم قال : (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ (يعنى كفار العرب)

سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) (الزمر : 51) ، فقد وضح وجه التناسب فى الآيتين ، وعكس الوارد لا يناسب ، والله اعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 297. 298 ﴾

(115/435)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ قال : بالموت . وقال في آية أخرى ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ [الأنفال : 50] . وهو ملك الموت ، وله رسل ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ وذاك يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ يقول : عند

الموت ، حين تتوفاهم ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ قال : ذلك يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(116/435)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ أن تأتِيَهم الملائكة ﴾ : وقد تقدَّم في آخرِ الأنعام أن الأَخَوَيْن يَقْرآن بالياء مِنْ تحتُ ، والباقين يقرؤون بالتاءِ من فوقُ ، وهما واضحتان لكونِه تأنيثاً مجازياً .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ : عطفٌ على ﴿ فَعَلَ الذين ﴾ وما بينهما اعتراضٌ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 216.217 ﴾

(117/435)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

القوم ينتظرون مجيءَ المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونَه . ولكن لمَّا كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسلَ غيرُ صادقين ، ولمَّا سلكوا مسلكَ أضرابهم من المتقدمين – عوملوا بمثل ما لَقِيَ أسلافُهم ، وما كان ذلك من الله ظلماً ، لأنه يتصرف في مُلْكه من غير حُكْم حاكم عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

خبُثَتْ قصودُهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء ، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم ، وانكشف عدمُ صِدْقِهم في أحوالهم .

وقولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ . . . ﴾ يشبه قولهم : ﴿ أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس : 47] . ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 296 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان جمع الرسل مفهماً لتوزيعهم على الأمم ، كان موضع توقع التصريح بذلك ، فقال – دافعاً لكرب هذا الاستشراف ، نافياً لطروق احتمال ، دالاً علا أن هذا القول السابق منصب إنكاره بالذات إلى اعتراضهم على الإرسال ، ومسلياً لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وحاثاً لهم على الاعتبار ، عطفاً على ما تقديره : فلقد بعثناك في أمتك هذه لأن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدينا ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فكان من غير شك بعضهم مرضٍ لله وبعضهم مغضب له ، فإنه لا يكون حكم المتنافيين واحداً أبداً : ﴿ ولقد ﴾ أي والله لقد ﴿ بعثنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي من

اعترض عليها أخذ ﴿ في كل أمة ﴾ من الأمم الذين قبلكم ﴿ رسولا ﴾ فما بقي في الأرض أحد لم تبلغه الدعوة ، ولأجل أن الرسل قد تكون من غير المرسل إليهم كلوط وشعيب عليهما السلام في أصحاب الأيكة وسليمان عليه السلام في غير بني إسرائيل من سائر من وصل إليه حكمه من أهل الأرض لم يقيد ب " منهم " .

(119/435)

ولما كان البعث متضمناً معنى القول ، كان المعنى : فذهبوا إليهم قائلين : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعلى وحده ﴿ واجتنبوا ﴾ أي بكل جهدكم ﴿ الطاغوت ﴾ كما أمركم رسولنا ﴿ فمنهم ﴾ أي فتسبب عن إرسال الرسل أن كانت الأمم قسمين : منهم ﴿ من هدى الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ، للحق فحقت له الهداية فأبصر الحق وعمل به باتباع الدعاة الهداة فيما أمروا به عن الله ، فحقت له الجنة ﴿ ومنهم من حقت ﴾ أي ثبتت غاية الثبات ﴿ عليه الضلالة ﴾ بأن أضله الله فنابذ الأمر فلم يعمل به وعمل بمقتضى الإرادة ، فإن الأمر قد لا يكون ما تعلق به ، والإرادة لا بد أن يكون ما تعلقت به ، وقد يكون موافقها عاملاً بالضلالة فحق عليه عذابها فحقت له النار فهلك ، لأنه لم تبق له حجة يدفع بها عن نفسه ، فلو كان كل ما شاءه حقاً كان الفريقان محقين فلم

يعذب أحدهما ، لكنه لم يكن الأمر كذلك ، بل عذب العاصي ونجى الطائع في كل أمة على حسب ما قال الرسل ، وهذا هو معنى رضي الله ، إطلاقاً لاسم الملزوم على اللازم ، فدل ذلك قطعاً على صدق الرسل وكذب مخالفيهم ، فالآية من الاحتباك : ذكر فعل الهداية أولاً دليلاً على فعل الضلال ثانياً ، وحقوق الضلالة ثانياً دليلاً على حقوق الهداية أولاً .

(120/435)

ثم التفت إلى مخاطبتهم إشارة إلى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعي في نظر البصيرة إلا الدليل المحسوس للبصر فقال : ﴿ فسيروا ﴾ أي فإن كنتم أيها المخاطبون في شك من إخبار الرسل فسيروا ﴿ في الأرض ﴾ أي جنسها ﴿ فانظروا ﴾ أي إذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ، وعبر هنا بالفاء المشيرة إلى التعقب دون تراخ لأن المقام للاستدلال المنقذ من الضلال الذي تجب المبادرة إلى الإقلاع عنه بخلاف ﴿ ثم انظروا ﴾ في الأنعام لما تقدم ، وأشار بالاستفهام إلى أن أحوالهم مما يجب أن يسأل عنه للاتعاظ به فقال : ﴿ كيف كان ﴾ أي كوناً لا قدرة على الخلاص منه ﴿ عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ المكذبين ﴾ أي من عاد ومن بعدهم الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم في الكفر من أسلافكم ، فإنهم

كذبوا الرسل فيما أمرتهم بإبلاغه مخالفة لأمري وعملاً بمشيئتي ، فأوقعت بهم لأنهم خالفوا أمري باختيارهم مع جهلهم بإرادتي ، فقامت عليهم الحجة على ما يتعارفه الناس بينهم .

(121/435)

ولما كان المحقق أنه ليس بعد الإيصال في الاستدلال إلى الأمر المحسوس إلا العناد ، أعرض عنهم ملتفتاً إلى الرؤوف بهم الشفيق عليهم ، فقال مسلياً له صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ﴿ إن تحرص على هداهم ﴾ فتطلبه بغاية جدك واجتهادك ﴿ فإن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ لا يهدي ﴾ أي هو بخلق الهداية في القلب - هذا على قراءة الكوفيين بفتح الياء وكسر الدال ، ومن هاد ما بوجه من الوجوه على قراءة الجمهور بالبناء للمفعول ﴿ من يضل ﴾ أي من يحكم بضلاله ، وهو الذي أضلهم فلا يمكن غيره أن يهديهم لأنه لا غالب لأمره ؛ وقرىء شاذاً بفتح الياء من ضل بمعنى نسي ، أي فلا تمكن هداية من نسيه ، أي تركه من الهداية ترك المنسي فإنه ليس في يد غيره شيء ، ونقل الصغاني في مجمع البحرين أنه يقال : ضل فلان البعير أي أضله ، والضلال عند العرب سلوك غير سبيل القصد ، فالمعنى أنه كان سبباً لسلوك البعير غير المقصود ، فمعنى الآية : لا تهدي من يضله الله - بفتح الياء ، أي يكون سبباً لسلوكه غير سبيل القصد ، فلا تحزن ولا يضيق صدرك من عدم تأثرهم

بنصحك وإخلاصك في الدعاء ، ولا يقع في فكرك أن في دعائك نقصاً ، إنما النقص في مرائيهم العمياء ، وليس عليك إلا البلاغ .

وقوله تعالى – : ﴿ وما لهم ﴾ أي هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله ﴿ من ناصرين ﴾ أي ينصرونهم عند مجازاتهم على الضلال ، لينقذوهم مما لحقهم عليه من الوبال ، كما فعل بالمكذبين من قبلهم – عطف على نتيجة ما قبله ، وهو فلا هادي لهم ما أراد الله ضلالهم ، وتبكيت لهم وتقريع وحث وتهييج على أن يقوموا بأنفسهم ويستعينوا بمن شاؤوا على نصب دليل ما يدعونه من أنهم أتبع الناس للحق ، إما بأن يبرهنوا على صحة معتقدهم أو يعينوهم على الرجوع عنه عند العجز عن ذلك ، أو يكفوا عنهم العذاب إذا حاق بهم .

(122/435)

ولما كان من حقهم – بعد قيام الأدلة على كمال قدرته وشمول علمه وبلوغ حكمته في إبداع جميع المخلوقات مما نعلم وما لا نعلم على أبدع ترتيب وأحسن نظام – تصديق الهداة في إعلامهم بأنه سبحانه يعيدهم للبعث وأنهم لم يفعلوا ولا طرقوا لذلك احتمالاً ، بل حلفوا على نفيه من غير شبهة عرضت لهم ولا إخبار عن علم وصل إليهم فعل الجلف الجافي الغبي

العاسي ، أتبع ذلك سبحانه تعجيباً آخر من حالهم ، فقال - عاطفاً على ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ لأن كلاًّ من الجملتين لبيان تكذيبهم الرسل والتعجيب منهم في ذلك ، دالاً على ان اعتقادهم مضمون هذه الجملة هو الذي جرأهم على قول الأولى وما تفرع منها - : ﴿ وأقسموا بالله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ جهد أيمانهم ﴾ جعلت الأيمان جاهدة لكثرة ما بالغوا فيها : ﴿ لا يبعث الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ من يموت ﴾ أي يحيي أحداً بعد موته ، استناداً منهم إلى مجرد استبعاد ما لم تجر به نفسه عندهم عادة ، جموداً منهم عن حلها بأن النشأة الأولى كانت من غير عادة ، مع ادعائهم أنهم أعقل الناس وأحدهم أذهاناً وأثقبهم أفهاماً .

(123/435)

ثم رد عليهم بقوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ أي ليبعثهم لأنه لا مانع له من ذلك وقد وعد به ﴿ وعداً ﴾ وبين أنه لا بد منه بقوله : ﴿ عليه ﴾ وزاده تأكيداً في مقابلة اجتهادهم في أيمانهم بقوله : ﴿ حقاً ﴾ أي لأنه قادر عليه وهو لا يبدل القول لديه ، فصار واجباً في الحكمة كونه ، وأمر البعث معلوم عند كل عاقل سمع أقوال الهداة تاركاً لهواه ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي بما لهم من الاضطراب ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا علم لهم يوصلهم إلى ذلك لأنه من

عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول إليه بغير إرشاد من الله ، ولا هم يقبلون أقوال الدعاة إليه الذين أيدهم بروح منه لتقيدهم بما توصلهم إليه عقولهم ، وهي مقصورة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقي منه إلى عالم الغيب بغير وساطة منه سبحانه تعالى ، فلذلك ترى الإنسان منهم يأبى ذلك استعباداً لأن يكون شيء معقول لا يصل إليه بمجرد عقله وهو خصيم مبين .

ولما بين أنه لا بد من ذلك لسبق الوعد به من القادر ، بين حكمته بأمر مبين أنه لا يسوغ تركه بوجه ، وهو أنه لا يجوز في عقل عاقل أن أحداً ملكاً فما دونه يأمر عبيده بشيء ثم يهملهم فلا يسألهم ولا سيما إن اختلفوا ولا سيما إن أدى اختلافهم إلى المقاطعة والمقاتلة فكيف إن كان حاكماً فكيف إذا كان حكيماً فكيف وهو أحكم الحاكمين ! فقال معلقاً بما دل عليه ﴿ بلى ﴾ : ﴿ ليبين ﴾ أي فعله ووعد به فهو يبعثهم ليبين ﴿ لهم ﴾ أي للناس ﴿ الذي يختلفون ﴾ أي يوجد اختلافهم ﴿ فيه ﴾ من البعث وغيره ، ويجزي كلاًّ بما عمل لأن ذلك من العدل الذي هو فعله ﴿ وليعلم الذين كفروا ﴾ أي جهلوا الآيات الدالة عليه ، فكأنهم ستروها لأنها لظهورها لا تجهل ﴿ أنهم كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ كاذبين ﴾ أي عريقين في الكذب في إنكارهم للمعاد وزعمهم أنهم المختصون بالمفاز علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 267 . 270 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

فبين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم ، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت .

ثم قال : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ والمعنى : أنه تعالى وإن أمر الكل بالإيمان ، ونهى الكل عن الكفر ، إلا أنه تعالى هدى البعض وأضل البعض ، فهذه سنة قديمة لله تعالى مع العباد ، وهي أنه يأمر الكل بالإيمان وينهاهم عن الكفر ، ثم يخلق الإيمان في البعض والكفر في البعض .

ولما كانت سنة الله تعالى في هذا المعنى سنة قديمة في حق كل الأنبياء وكل الأمم والملل وإنما يحسن منه تعالى ذلك بحكم كونه إلهاً منزهاً عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين ، كان إيراد هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجباً للجهل والضلال والبعد عن الله فثبت أن الله تعالى إنما حكم على هؤلاء باستحقاق الخزي واللعن ، لا لأنهم كذبوا في قولهم : ﴿ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ ﴾ بل لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الأنبياء والرسل وهذا باطل ، فلا جرم استحقوا على هذا الاعتقاد مزيد الذم

واللعن .

فهذا هو الجواب الصحيح الذي يعول عليه في هذا الباب .

وأما من تقدمنا من المتكلمين والمفسرين فقد ذكروا فيه وجهاً آخر فقالوا : إن المشركين ذكروا هذا الكلام على جهة الاستهزاء كما قال قوم شعيب عليه السلام له :

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] ولو قالوا ذلك معتقدين لكانوا مؤمنين ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى لما حكى هذه الشبهة قال : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي هؤلاء للكفار أبداً كانوا متمسكين بهذه الشبهة .

ثم قال : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أما المعتزلة فقالوا : معناه أن الله تعالى ما منع أحداً من الإيمان وما أوقعه في الكفر ، والرسل ليس عليهم إلا التبليغ ، فلما بلغوا التكاليف وثبت أنه تعالى ما منع أحداً عن الحق كانت هذه الشبهة ساقطة .

أما أصحابنا فقالوا : معناه أنه تعالى أمر الرسل بالتبليغ .

فهذا التبليغ واجب عليهم ، فأما أن الإيمان هل يحصل أم لا يحصل فذلك لا تعلق للرسول به ، ولكنه تعالى يهدي من يشاء بإحسانه ويضل من يشاء بخذلانه .

المسألة الثالثة :

احتج أصحابنا في بيان أن الهدى والضلال من الله بقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى كان أبداً في جميع الملل والأمم آمراً بالإيمان وناهياً عن الكفر .

ثم قال : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ يعني : فمنهم من هداه الله إلى الإيمان والصدق والحق ، ومنهم من أضله عن الحق وأعماه عن الصدق وأوقعه في الكفر والضلال ، وهذا يدل على أن أمر الله تعالى لا يوافق إرادته ، بل قد يأمر بالشيء ولا يريده وينهى عن الشيء ويريده كما هو مذهبنا .

والحاصل أن المعتزلة يقولون : الأمر والإرادة متطابقان أما العلم والإرادة فقد يختلفان ، ولفظ هذه الآية صريح في قولنا وهو أن الأمر بالإيمان عام في حق الكل أما إرادة الإيمان فخاصة بالبعض دون البعض .

أجاب الجبائي : بأن المراد : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله ﴾ لنيل ثوابه وجنته : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ أي العقاب .

قال : وفي صفة قوله : ﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِ ﴾ دلالة على أنها العذاب دون كلمة الكفر لأن الكفر والمعصية لا يجوز وصفهما بأنه حق .

(126/435)

وأيضاً قال تعالى بعده : ﴿ فَسِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ وهذه العاقبة هي آثار الهلاك لمن تقدم من الأمم الذين استأصلهم الله تعالى بالعذاب ، وذلك يدل على أن المراد بالضلال المذكور هو عذاب الاستئصال .

وأجاب الكعبي عنه بأنه قال : قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله ﴾ أي من اهتدى فكان في حكم الله مهتدياً ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ يريد : من ظهرت ضلالته ، كما يقال للظالم : حق ظلمك وتبين ، ويجوز أن يكون المراد : حق عليهم من الله أن يضلهم إذا ضلوا كقوله :

﴿ وَيُضِلُّ الله الظالمين ﴾ [إبراهيم : 27] .

واعلم أنا بينا في آيات كثيرة بالدلائل العقلية القاطعة أن الهدى والإضلال لا يكونان إلا من الله تعالى فلا فائدة في الإعادة ، وهذه الوجوه المتعسفة والتأويلات المستكرهة قد بينا ضعفها وسقوطها مراراً ، فلا حاجة إلى الإعادة ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

في الطاغوت قولان : أحدهما : أن المراد به : اجتنبوا عبادة ما تعبدون من دون الله ، فسمى الكل طاغوتاً ، ولا يمتنع أن يكون المراد : اجتنبوا طاعة الشيطان في دعائه لكم .

المسألة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ يدل على مذهبنا ، لأنه تعالى لما أخبر عنه أنه حقت عليه الضلالة امتنع أن لا يصدر منه الضلالة ، وإلا لانقلب خبر الله الصدق كذباً ، وذلك محال ومستلزم المحال محال ، فكان عدم الضلالة منهم محالاً ، ووجود الضلالة منهم واجباً عقلاً ، فهذه الآية دالة على صحة مذهبنا في هذه الوجوه الكثيرة ، والله أعلم .

ونظائر هذه الآية كثيرة منها قوله : ﴿ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ [الأعراف : 30] وقوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 96] وقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس : 7] .

ثم قال تعالى : ﴿ فَسِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ والمعنى : سيروا في الأرض معتبرين لتعرفوا أن العذاب نازل بكم كما نزل بهم ، ثم أكد أن من حقت

عليه الضلالة فإنه لا يهتدي ، فقال : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ ﴾ أي إن تطلب بجهدك ذلك ، فإن الله لا يهدي من يضل ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ يَهْدِي ﴾ بفتح الياء وكسر الذال والباقون : ﴿ لاَّ يُهْدَى ﴾ بضم الياء وفتح الدال .

أما القراءة الأولى : ففيها وجهان : الأول : فإن الله لا يرشد أحداً أضله ، وبهذا فسره ابن عباس رضي الله عنهما .

والثاني : أن يهدي بمعنى يهتدي .

قال الفراء : العرب تقول : قد هدى الرجل يريدون قد اهتدى ، والمعنى أن الله إذا أضل أحداً لم يصر ذلك مهتدياً .

وأما القراءة المشهورة : فالوجه فيها إن الله لا يهدي من يضل ، أي من يضله ، فالراجع إلى الموصول الذي هو من محذوف مقدر وهذا كقوله : ﴿ مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : 186] وكقوله : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ [الجاثية : 23] أي من بعد إضلال الله إياه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن ناصرين ﴾ أي وليس لهم أحد ينصرهم أي يعينهم على مطلوبهم في الدنيا والآخرة .

وأقول أول هذه الآيات موهم لمذهب المعتزلة ، وآخرها مشتمل على الوجوه الكثيرة الدالة على قولنا ، وأكثر الآيات كذلك مشتملة على الوجهين ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا هو الشبهة الرابعة لمنكري النبوة فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل ، فكان القول بالنبوة باطلاً .

أما المقام الأول : فتقريره أن الإنسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة ، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه ، لأن الشيء إذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه ، فالذي يعود يجب أن يكون شيئاً مغايراً للأول فلا يكون عينه .

وأما المقام الثاني : وهو أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة وتقريره من وجهين : الأول : أن محمداً كان داعياً إلى تقرير القول بالمعاد ، فإذا بطل ذلك ثبت أنه كان داعياً إلى القول

الباطل ومن كان كذلك لم يكن رسولاً صادقاً .

الثاني : أنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته بناء على الترغيب في الثواب والترهيب عن العقاب ، وإذا بطل ذلك بطلت نبوته .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن الشيء إذا فنى وصار عدماً محضاً ونفياً صرفاً ، فإنه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئاً آخر غيره .

وهذا القسم واليمين إشارة إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محال في بديهة العقل : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم ﴾ على أنهم يجحدون في قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضروري ، وأما بيان أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة فلم يذكره على سبيل التصريح ، لأنه كلام جلي متبادر إلى العقول فتركوه لهذا العذر .

ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث ممكن ويدل عليه وجهان :

الوجه الأول : أنه وعد حق على الله تعالى ، فوجب تحقيقه ، ثم بين السبب الذي لأجله كان وعداً حقاً على الله تعالى ، وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي ، وبين المحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ، وهو قوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كاذبين ﴾ وهذه الطريقة قد بالغنا في شرحها وتقريرها في سورة يونس .

والوجه الثاني : في بيان إمكان الحشر والنشر أن كونه تعالى موجداً للأشياء ومكوناً لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة ، وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشئته ، وليس لقدرته دافع ولا لمشيئته مانع فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وإذا كان كذلك ، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الإبتداء وجب أن يكون قادراً عليه في الإعادة ، فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق ، والقول إنما طعنوا في صحة النبوة بناء على الطعن في هذا الأصل ، فلما بطل هذا الطعن بطل أيضاً طعنهم في النبوة ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم ﴾ حكاية عن الذين أشركوا ، وقوله : ﴿ بلى ﴾ إثبات لما بعد النفي ، أي بلى يبعثهم ، وقوله : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكد أي وعد بالبعث وعداً حقاً لا خلف فيه ، لأن قوله يبعثهم دل على قوله وعد بالبعث ، وقوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من أمور البعث أي بلى يبعثهم ليبين لهم وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما أقسموا فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 26.23 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

لما أشار قوله تعالى : ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ [النحل : 35] إلى إقامة الحجة حسبما ذكرناه بين ذلك في هذه الآية ، أي إنه بعث الرسل آمراً بعبادته وتجنب عبادة غيره ، و ﴿ الطاغوت ﴾ في اللغة كل ما عُبد من دون الله من آدمي راض بذلك ، أو حجر أو خشب ، ثم أخبر أن منهم من اعتبر وهداه الله ونظر ببصيرته ، ومنهم أيضاً من أعرض وكفر ﴿ فحقت عليه الضلالة ﴾ ، وهي مؤدية إلى النار حتماً ، ومنه من أدته إلى عذاب الله في الدنيا ، ثم أحالهم في علم ذلك على الطلب في الأرض واستقراء الأمم والوقوف على عواقب الكافرين المكذبين ، وقوله ﴿ إن تحرص ﴾ الآية ، الحرص أبلغ الإرادة في الشيء ، وهذه تسلية للنبي عليه السلام أي إن حرصك لا ينفع ، فإنها أمور محتومة ، وقرأ نافع وابن

كثير وأبو عمرو وابن عامر والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة ومجاهد وشبل ومزاحم الخراساني وأبو رجاء العطاردي وابن سيرين "لا يُهدَى" بضم الياء وفتح الدال ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "لا يهدي" بفتح الياء وكسر الدال ، وهي قراءة ابن المسيب وابن مسعود وجماعة ، وذلك على معنيين أي إن الله لا يهدي من قضى بإضلاله ، والآخر أن العرب تقول هدي الرجل بمعنى اهتدى حكاه الفراء وفي القرآن ﴿ لا يهدي إلا أن يهدى ﴾ [يونس : 35] وجعله أبو علي وغيره بمعنى يهتدي ، وقرأت فرقة "إن الله لا يَهدِي" بفتح الياء وكسر الهاء والدال ، وقرأت فرقة "إن الله لا يُهدي" بضم الياء وكسر الدال ، وهي ضعيفة ، وفي مصحف أبي بن كعب ، "إن الله لا هادي لمن أضل" ، قال أبو علي : الراجع إلى اسم ﴿ إن ﴾ مقدر في ﴿ يضل ﴾ على كل قراءة إلا على قراءة من قرأ "يَهْدِي" بفتح الياء وكسر الدال بمعنى يهدي الله ، فإن الراجع مقدر في "يهدي" ، وقوله ﴿ وما لهم ﴾ ضمير على معنى "من" ، وتقول العرب حرَص يحرص وحَرِص يحرُص والكسر في المستقبل هي لغة أهل الحجاز ، وقرأ الحسن وإبراهيم وأبو حيوة

بفتح الراء ، وقرأ إبراهيم منهم ، " وإن " بزيادة الواو ، والضمير في قوله ﴿ وأقسموا ﴾ لكفار قريش ، وذكر أن رجلاً من المسلمين حاور رجلاً من المشركين ، فقال في حديثه : لا والذي أرجوه بعد الموت ، فقال له الكافر أونبعث بعد الموت ؟ قال : نعم ، فأقسم الكافر مجتهداً في يمينه أن الله لا يبعث أحداً بعد الموت ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، و ﴿ جَهْدُ ﴾ مصدر ومعناه فغاية جهدهم ، ثم رد الله تعالى عليهم بقوله تعلى ﴿ بلى ﴾ فأوجب بذلك البعث ، وقوله ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ مصدران مؤكدان ، وقرأ الضحاك " بلى وعدٌ عليه حقٌ " بالرفع في المصدرين ، و ﴿ أكثر الناس ﴾ في هذه الآية الكفار المكذبون بالبعث .

قال القاضي أبو محمد : والبعث من القبور مما يجوزه العقل ، وأثبته خبر الشريعة على لسان جميع النبيين ، وقال بعض الشيعة إن الإشارة بهذه الآية إنما هي لعلي بن أبي طالب ، وإن الله سيبعثه في الدنيا ، وهذا هو القول بالرجعة ، وقولهم هذا باطل وافتراء على الله وبهتان من القول رده ابن عباس وغيره .

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) ﴾

اللام في قوله ﴿ ليبين ﴾ تتعلق بما في ضمن قوله ﴿ بلى ﴾ [النحل : 38] لأن التقدير " بلى يبعث ليبين " ، وقيل هي متعلقة بقوله ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ [النحل :

36] والأول أصوب في المعنى ، لأن به يتصور كذب الكفار في إنكار البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(133/435)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله ﴾

أي بأن اعبدوا الله ووحّدوه .

﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ أي اتركوا كلّ معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال .

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله ﴾ أي أرشده إلى دينه وعبادته .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ أي بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره ، وهذا يردّ على القدرية ؛ لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلّهم ووفقهم للهدى ، والله تعالى يقول : "فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ" وقد تقدم هذا في غير موضع .

﴿ فَسِيرُواْ فِي الأرض ﴾ أي فسيروا معتبرين في الأرض .

﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ أي كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب

والهلاك .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ ﴾

أي إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم .

﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ أي لا يرشد من أضله ، أي من سبق له من الله الضلالة لم يهده .

وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة .

ف "يَهْدِي" فعل مستقبل وماضيه هَدَى .

و"مَن" في موضع نصب ب "يهدي" ويجوز أن يكون هَدَى يَهْدِي بمعنى اهتدى يهتدي ؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال : كما قرىء ﴿ أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أَن يهدى ﴾ [يونس : 35] بمعنى يهتدي .

قال أبو عبيد .

ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء ، وليس بمتَّهم فيما يحكيه .

النحاس : حكي لي عن محمد بن يزيد كأنّ معنى "لاَ يَهْدِي مَن يُضِلّ" من علم ذلك منه وسبق ذلك له عنده ، قال : ولا يكون يهدي بمعنى يهتدي إلا أن يكون يُهْدَى أو يُهْدِي .

وعلى قول الفراء "يَهْدِي" بمعنى يهتدي ، فيكون "من" في موضع رفع ، والعائد إلى "من" الهاء المحذوفة من الصلة ، والعائد إلى اسم "إن" الضمير المستكِنّ في "يُضِل" .

وقرأ الباقون "لاَ يُهدَى" بضم الياء وفتح الدال، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى من أضله الله لم يهده هادٍ؛ دليله قوله: ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف: 186] و"مَن" في موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسَمَّ فاعله، وهي بمعنى الذي، والعائد عليها من صلتها محذوف، والعائد على اسم إن من "فإنّ الله" الضمير المستكِنّ في "يُضِل".

﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت.

ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجّزونه عن بعث الأموات.

وقال أبو العالية: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان في بعض كلامه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله: لا يبعث الله من يموت؛ فنزلت الآية.

وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يا ابن عباس ، إن ناساً يزعمون أن عليًّا مبعوث بعد الموت قَبْل الساعة ، ويتأوّلون هذه الآية .

فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس ، لو كان عليّ مبعوثاً قبل القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه .

﴿ بلى ﴾ هذا ردّ عليهم ؛ أي بلى ليبعثنهم .

﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ مصدر مؤكّد ؛ لأن قوله "يبعثهم" يدل على الوعد ، أي وعد البعث وعداً حقاً .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مبعوثون .

وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وأما شتمه إيّاي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد " وقد تقدّم ويأتي .

قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أي ليظهر لهم .

﴿ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أي من أمر البعث.

﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالبعث وأقسموا عليه ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴾ وقيل: المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ليبين لهم الذي يختلفون فيه، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة الأصنام، ومنها إقرار قوم بأن محمداً حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد؛ كأبي طالب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(136/435)

وقال الخازن:

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾

يعني كما بعثنا فيكم محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ يعني أن الرسل كانوا يأمرونهم بأن يعبدوا الله وأن يجتنبوا عبادة الطاغوت، وهو اسم كل معبود من دون الله ﴿ فمنهم ﴾ يعني فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل ﴿ من هدى الله ﴾ يعني هداه الله إلى الإيمان به وتصديق رسله ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ يعني، ومن الأمم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق في الأزل حتى مات

على الكفر والضلال ، وفي هذه الآية أبين دليل على أن الهادي ، والمضل هو الله تعالى لأنه المتصرف في عباده فيهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لأحد عليه بما حكم به في سابق علمه ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ يعني فسيروا في الأرض معتبرين متفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل ، وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك ، ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم إن أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن تحرص على هداهم ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعني إن تحرص يا محمد على هدى هؤلاء ، وإيمانهم وتجتهد كل الاجتهاد ﴿ فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ قرئ بفتح الياء وكسر الدال يعني لا يهدي الله من أضله ، وقيل : معناه لا يهتدي من أضله الله وقرئ بضم الياء ، وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادي له ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي مانعين يمنعونهم من العذاب ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ قال ابن الجوزي : سبب نزولها أن رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به المسلم : والذي أرجوه بعد الموت .

فقال المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت ، وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله أبو العالية .

وتقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في إنكار البعث بعد الموت أن الإنسان ليس هو ، إلا هذه البنية المخصوصة ، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لأن الشيء إذا عدم فقد فني ، ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه ، فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم في إنكار البعث بعد الموت ، فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿ لا يبعث الله من يموت ﴾ فرد الله عليهم ذلك ، وكذبهم في قولهم فقال تعالى ﴿ بلى ﴾ يعني بلى يبعثهم بعد الموت لأن لفظة بلى إثبات لما بعد النفي .

والجواب عن شبهتهم أن الله سبحانه وتعالى ، خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يك شيئاً فالذي أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على إيجاده بعد إعدامه لأن النشأة الثانية أهون من الأولى ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ يعني أن الذي وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يعني لا يفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى ، قادر على كل شيء .

﴿ ليبين لهم الذي يختلفون فيه ﴾

يعني من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذي لا خلق فيه ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ يعني في قولهم لا بعث بعد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

قال الزمخشري : ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشيه الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله واجتناب الشر الذي هو الطاغوت فمنهم من هدى الله أي لطف به ، لأنه عرفه من أهل اللطف ، ومنهم من حقت عليه الضلالة أي ثبت عليه الخذلان والشرك من اللطف ، لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتي منه خير . فسيروا في الأرض فانظروا ما فعلت بالمكذبين حتى لا تبقى لكم شبهة وإني لا أقدر الشر ولا أشاؤه ، حيث أفعل ما أفعل بالأشرار انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

ولما قال : فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ، بيّن ذلك هنا بأنه بعث الرسل بعبادته وتجنب عبادة غيره ، فمنهم من اعتبر فهداه الله ، ومنهم من أعرض وكفر ، ثم أحالهم في معرفة ذلك على السير في الأرض واستقراء الأمم ، والوقوف على عذاب الكافرين المكذبين ، ثم خاطب نبيه وأعلمه أنّ من حتم عليه بالضلالة لا يجدي فيه الحرص على هدايته .

وقرأ النخعي : وإن بزيادة واو وهو والحسن ، وأبو حيوة : تحرص بفتح الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة .

وقرأ الجمهور بالكسر مضارع حرص بالفتح ، وهي لغة الحجاز .

وقرأ الحرميان ، والعربيان ، والحسن ، والأعرج ، ومجاهد ، وشيبة ، وشبل ، ومزاحم الخراساني ، والعطاردي ، وابن سيرين : لا يهدي مبنياً للمفعول ، ومن مفعول لم يسم فاعله .

والفاعل في يضل ضمير الله والعائد على من محذوف تقديره : من يضله الله .

وقرأ الكوفيون ، وابن مسعود ، وابن المسيب ، وجماعة : يهدي مبنياً للفاعل .

والظاهر أنّ في يهدي ضميراً يعود على الله ، ومن مفعول ، وعلى ما حكى الفراء أنّ هدى يأتي بمعنى اهتدى يكون لازماً ، والفاعل من أي لا يهتدي من يضله الله .

وقرأت فرقة منهم عبد الله : لا يهدي بفتح الياء وكسر الهاء والدال .

كذا قال ابن عطية ، ويعني : وتشديد الدال وأصله يهتدي ، فأدغم كقولك في : يختصم يخصم .

وقرأت فرقة : يهدي بضم الياء وكسر الدال ، قال ابن عطية : وهي ضعيفة انتهى .

وإذا ثبت أن هدى لازم بمعنى اهتدى لم تكن ضعيفة ، لأنه أدخل على اللازم همزة التعدية ، فالمعنى : لا يجعل مهتدياً من أضله ، وفي مصحف أُبي : لا هادي لمن أضل .

وقال الزمخشري : وفي قراءة أبيّ فإنّ الله لا هادي لمن يضل ولمن أضل .

وقرىء : يضل بفتح الياء ، وقال أيضاً : حرص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على إيمان قريش ، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة ، وأنه لا يهدي من يضل أي : لا يلطف بمن يخذل لأنه عبث ، والله تعالى متعالٍ عن العبث ، لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

والضمير في لهم عائد على معنى من ، والضمير في وأقسموا عائد على كفار قريش .

وعن أبي العالية : نزلت في رجل من المسلمين تقاضى ديناً على رجل من المشركين ، فكان فيما تكلم به المسلم الذي ادخره بعد الموت فقال المشرك ، وأنكر أنك تبعث بعد الموت ، وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت ، بلى رد عليه ما نفاه ، وأكده بالقسم ، والتقدير : بلى يبعثه .

وانتصب وعداً وحقاً على أنهما مصدران مؤكدان لما دل عليه بلى من تقدير المحذوف الذي هو يبعثه .

وقال الحوفي : حقاً نعت لوعدا .

وقرأ الضحاك : بلى وعد حق ، والتقدير : بعثهم وعد عليه حق ، وحق صفة لوعد .

وقال الزمخشري : وأقسموا بالله معطوف على وقال الذين أشركوا ، إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا ، توريك ذنوبهم على مشيئة الله ، وإنكارهم البعث مقسمين عليه ، وبيّن أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنهم يبعثون ، أو أنه وعد واجب على الله لأنهم يقولون : لا يجب على الله شيء ، لا ثواب عامل ولا غيره من مواجب الحكمة انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

وأكثر الناس هم الكفار المكذبون بالبعث .

وأما قول الشيعة : إن الإشارة بهذه الآية إنما هي لعليّ بن أبي طالب ، وأن الله سيبعثه في الدنيا ، فسخافة من القول .

والقول بالرجعة باطل وافتراء على الله على عادتهم ، رده ابن عباس وغيره .

واللام في ليبين متعلقة بالفعل المقدر بعد بلى أي : نبعثهم ليبين لهم كما يقول الرجل : ما

ضربت أحداً فيقول : بلى زيداً أي : ضربت زيداً .

ويعود الضمير في يبعثهم المقدر ، وفي لهم على معنى من في قوله : من يموت ، وهو شامل للمؤمنين والكفار .

والذي اختلفوا فيه هو الحق وأنهم كانوا كاذبين فيما اعتقدوا من جعل آلهة مع الله ، وإنكار النبوّات ، وإنكار البعث ، وغير ذلك مما أمروا به .

وبين لهم أنه دين الله فكذبوا به وكذبوا في نسبة أشياء إلى الله تعالى .

وقال الزمخشري : إنهم كذبوا في قولهم : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ، وفي قولهم : لا يبعث الله من يموت انتهى .

وفي قولهم دسيسة الاعتزال .

وقيل : تتعلق ليبين بقوله : ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ، أي : ليظهر لهم اختلافهم ، وأنّ الكفار كانوا على ضلالة من قبل بعث ذلك الرسول ، كاذبون في رد ما يجيء به الرسل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾

تحقيقٌ لكيفية تعلقِ مشيئَته تعالى بأفعال العبادِ بعد بيانِ أن الإلجاءَ ليس من وظائف الرسالةِ ولا من باب المشيئةِ المتعلقةِ بما يدور عليه الثوابُ والعقاب من الأفعال الاختياريةِ لهم ، أي بعثنا في كل أمة من الأمم الخالية رسولاً خاصاً بهم ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ يجوز أن تكون (أن) مفسرةً لما في البعث من معنى القول وأن تكون مصدريةً ، أي بعثنا بأن اعبدوا الله وحده ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ هو الشيطانُ وكلُّ ما يدعو إلى الضلالة ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من تلك الأمم ، والفاء فصيحة ، أي فبلَّغوا ما بُعثوا به من الأمر بعبادة الله وحده واجتنابِ الطاغوت فتفرقوا فمنهم ﴿ مَّنْ هَدَى الله ﴾ إلى الحق الذي هو عبادتُه واجتنابُ الطاغوت بعد صَرْفِ قدرتهم واختيارِهم الجزئيّ إلى تحصيله ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ أي وجبت وثبتت إلى حين الموت لعِناده وإصرارِه عليها وعدمِ صرفِ قدرته إلى تحصيل الحق ، وتغييرِ الأسلوبِ للإشعار بأن ذلك لسوء اختيارِهم كقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ فلم يكن كلٌّ من مشيئة الهدايةِ وعدمِها إلا حسبما حصل منهم من التوجهُ إلى الحق وعدمِه ، لا بطريق القسرِ والإلجاءِ حتى يُستدَل بعدمهما على عدم تعلقِ مشيئَتِه تعالى بعبادتهم له تعالى وحده ﴿ فَسِيرُواْ ﴾ يا معشرَ قريش ﴿ فِى الأرض فانظروا ﴾ في أكنافها ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ من عاد وثمودَ ومن سار سيرَتَهم ممن حقت عليهم الضلالةُ لعلكم تَعتبرون حين تشاهدون في منازلهم وديارهم آثارَ الهلاك والعذابِ . وترتيبُ الأمرِ بالسير على مجرد الإخبارِ بثبوت الضلالةِ عليهم من غير إخبارٍ بحلول العذابِ للإيذان بأنه غنيٌّ عن البيان وأنْ ليس الخبرُ كالعِيان ، وترتيبُ النظر على السير لما أنه بعده وأن مَلاكَ الأمر في تلك العاقبة هو التكذيبُ والتعلّلُ بأنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء .

(143/435)

﴿ إِن تَحْرِصْ ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرىء بفتح الراء وهي لغة ﴿ على هُدَاهُمْ ﴾ أي إن تطلب هدايتَهم بجهدك ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ أي فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهدايةَ جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختيارِه ، والمرادُ به قريش ، وإنما وضع الموصولُ موضعَ الضمير للتنصيص على أنهم ممن حقت عليه الضلالةُ

وللإشعار بعلة الحكم ، ويجوز أن يكون المذكورُ علةً للجزاء المحذوف ، أي إن تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لأن الله لا يهدي من يُضله وهؤلاء من جملتهم ، وقرىء لا يهدى على بناء المفعول أي لا يقدر أحدٌ على هداية من يضله الله تعالى ، وقرىء لا يهَدّي بفتح الهاء وإدغام تاء يهتدي في الدال ، ويجوز أن يكون يهدي بمعنى يهتدي ، وقرىء يُضل بفتح الياء ، وقرىء لا هاديَ لمن يُضِل ولمن أضل ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ ينصرونهم في الهداية أو يدفعون العذابَ عنهم ، وصيغة الجمع في الناصرين باعتبار الجمعية في الضمير فإن مقابلةَ الجمعِ بالجمع يقتضي انقسامَ الآحادِ إلى الآحاد لا لأن المرادَ نفيُ طائفةٍ من الناصرين من كل منهم .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ ﴾ شروع في بيان فن آخرَ من أباطيلهم وهو إنكارُ البعث ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ مصدرٌ في موقع الحال أي جاهدين في أيمانهم ﴿ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغَ ردَ بقوله الحق ﴿ بلى ﴾ أي بلى يبعثهم ﴿ وَعْداً ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه بلى ، فإن ذلك موعدٌ من الله سبحانه ، أو المحذوفِ ، أو وعَد بذلك وعداً ﴿ عَلَيْهِ ﴾ صفة لوعداً أي وعداً ثابتاً عليه إنجازُه لامتناع الخُلفِ في وعده ، أو لأن

البعثَ من مقتضيات الحِكمة ﴿ حَقًّا ﴾ صفةٌ أخرى له أو نصبٌ على المصدرية أي حقَّ حقاً ﴿ ولكنَ أَكْثَرَ الناس ﴾ لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرةِ والحكمة وغيرِها من صفات الكمالِ ، وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدمِ وقوفِهم على سرّ التكوين والغايةِ القصوى منه ، وعلى أن البعثَ مما يقتضيه الحكمةُ التي جرت عادتُه سبحانه بمراعاتها ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه يبعثهم فيبْنون القولَ بعدمه أو أنه وعدٌ عليه حق فيكذبونه قائلين : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءابَاؤُنَا هذا مِن قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾

(145/435)

﴿ لِيُبَيّنَ لَهُمُ ﴾ غايةٌ لما دل عليه بلى من البعث ، والضمير لمن يموت إذ التبيينُ يعم المؤمنين أيضاً فإنهم وإن كانوا عالمين بذلك لأنه عند معاينةِ حقيقةِ الحال يتضح الأمرُ فيصل علمُهم إلى مرتبة عينِ اليقين ، أي يبعثهم ليبينَ لهم بذلك وبما يحصُل لهم من مشاهدة الأحوالِ كما هي ومعاينتِها بصورها الحقيقيةِ الشأن ﴿ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من الحق المنتظمِ لجميع ما خالفوه مما جاء به الشرعُ المبين ويدخل فيه البعثُ دخولاً أولياً ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالله سبحانه بالإشراك وإنكارِ البعث وتكذيبِ وعده الحق ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كاذبين ﴾ في كل ما يقولون لا سيما في قولهم : لا يبعث الله من يموت ، والتعبيرُ عن الحق بالموصول للدِلالة

على فخامته وللإشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلةِ للتبيين وما عُطف عليه وما جعلهما غاية للبعث المشار إليه باعتبار ورودِه في معرِض الردّ على المخالفين ، وإبطال مقالةِ المعاندين المستدعي للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويُلجئهم إلى الإذعان للحق ، فإن الكفرة إذا عِلموا أن تحقيقَ البعث إذا كان لتبيين أنه حق وليعلموا أنهم كانوا كاذبين في إنكاره كان ذلك أزجرَ لهم عن إنكاره وأدعى إلى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمةِ على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلّي : لأصَلينّ رغماً لأنفك وإظهاراً لكذبك ، ولأن تكررَ الغايات أدلُّ على وقوع الفعل المُغيّا بها وإلا فالغايةُ الأصلية للبعث باعتباره ذاتَه إنما هو الجزاءُ الذي هو الغايةُ القصوى للخلق المُغيّا بمعرفته عز وجل وعبادته ، وإنما لم يُذكر ذلك لتكرر ذكرِه في مواضعَ أُخَرَ وشهرته ، وإنما لم يُدرَج علمُ الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال : وإن الذين كفروا كانوا كاذبين ، بل جيء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما تعلق به التبيينُ الذي هو عبارةٌ عن إظهار ما كان مُبهماً قبل ذلك بأن يخبَرَ به فيُختلفَ فيه ، كالبعث الذي

نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون ، وأما كذِبُ الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علمٌ ضروريٌّ حاصل هلم من قِبل أنفسِهم ، وقد مر تحقيقُه في سورة التوبة عند قوله تعالى : ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُواْ ﴾ وإنما خُص الإسنادُ بهم حيث لم يقل : وليعلموا أن الكافرين الآية ، لأن علمَ المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضاً . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(147/435)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلّ أُمَّةٍ ﴾

من الأمم الخالية ﴿ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ وحده ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ هو كل ما يدعو إلى الضلالة ، وقال الحسن : هو الشيطان ، والمراد من اجتنابه اجتناب ما يدعو إليه .

﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك الأمم ﴿ مَّنْ هَدَى الله ﴾ إلى الحق من عبادته أو اجتناب الطاغوت بأن وفقهم لذلك ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ ثبتت ووجبت إذ لم يوفقهم ولم يرد هدايتهم ، ووجه الإشارة أن تحقق الضلال وثباته من حيث إنه وقع قسيماً

للهداية التي هي بإرادته تعالى ومشيئته كان هو أيضاً كذلك .

وأما أن إرادة القبيح قبيحة فلا يجوز اتصاف الله سبحانه بها فظاهر الفساد لأن القبيح كسب القبيح والاتصاف به لا إرادته وخلقه على ما تقرر في الكلام .

وأنت تعلم أن كلتا الإشارتين في غاية الخفاء ، ولينظر أي حاجة إلى الحص وما المراد به على جعل ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل ﴾ [النحل : 35] إلى آخره مشيراً إلى جواب الشبهة الأولى .

وقال الإمام : إن المشركين أرادوا من قولهم ذلك أنه لما كان الكل من الله تعالى كان بعثه الأنبياء عليهم السلام عبثاً فنقول .

هذا اعتراض على الله تعالى وجار مجرى طلب العلة في أحكامه تعالى وأفعاله وذلك باطل إذ لله سبحانه أن يفعل في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا يجوز أن يقال له لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذاك .

والدليل على أن الإنكار إنما توجه إلى هذا المعنى أنه تعالى صرح بهذا المعنى في قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾ إلى آخره حيث بين فيه أن سنته سبحانه في عباده إرسال

الرسل إليهم وأمرهم بعبادته ونهيهم عن عبادة غيره ، وأفاد أنه تعالى وإن أمر الكل ونهاهم إلا أنه جل جلاله هدى البعض وأضل البعض ، ولا شك أنه إنما يحسن منه تعالى ذلك بحكم كونه إلهاً منزهاً عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين ، فكان إيراد هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجباً للجهل والضلال والبعد عن الله المتعال ، فثبت أن الله تعالى أنما ذم هؤلاء القائلين لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل لا لأنهم كذبوا في قولهم ذلك ، وهذا هو الجواب الصحيح الذي يعول عليه في هذا الباب ، ومعنى ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل ﴾ [النحل : 35] إلى آخره أنه تعالى أمر الرسل عليهم السلام بالتبليغ فهو الواجب عليهم ، وإما أن الإيمان هل يحصل أولاً يحصل فذاك لا تعلق للرسل به ولكن الله تعالى يهدي من يشاء بإحسانه ويضل من يشاء بخذلانه اه وهو كما ترى .

ونقل الواحدي في الوسيط عن الزجاج أنهم قالوا ذلك على الهزو ولم يرتضه كثير من المحققين ، وذكر بعضهم أن حمله على ذاك لا يلائم الجواب .

نعم قال في "الكشف" عند قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] إنهم دفعوا قول الرسل عليهم السلام بدعوتهم إلى عبادته تعالى ونهيهم

عن عبادة غيره سبحانه بهذه المقالة وهم ملزمون على مساق هذا القول لأنه إذا استند الكل إلى مشيئته تعالى فقد شاء إرسال الرسل وشاء دعوتهم إلى العباد وشاء جحودهم وشاء دخولهم النار، فالإنكار والدفع بعد هذا القول دليل على أنهم قالوه لا عن اعتقاد بل مجازفة، وقال في موضع آخر عند نظير الآية أيضاً: إنهم كاذبون في هذا القول لجزمهم حيث لا ظن مطلقاً فضلاً عن العلم، وذلك لأن من المعلوم أن العلم بصفات الله تعالى فرع العلم بذاته والإيمان بها كذلك والمحتجون به كفرة مشركون مجسمون، وأطال الكلام في هذا المقام في سورة الزخرف.

(150/435)

وذكر أن في كلامهم تعجيز الخالق بإثبات التمانع بين المشيئة وضد المأمور به فيلزم أن لا يريد إلا أمر به ولا ينهى إلا وهو لا يريده، وهذا تعجيز من وجهين إخراج بعض المقدورات عن أن يصير محلها وتضييق محل أمره ونهيه وهذا بعينه مذهب إخوانهم القدرية اه ويجوز أن يقال: إن المشركين إنما قالوا ذلك إلزاماً بزعمهم حيث سمعوا من المرسلين وأتباعهم أن ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن وإلا فهم أجهل الخلق بربهم جل شأنه وصفاته ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان: 44] ومرادهم إسكان المرسلين وقطعهم عن

دعوتهم إلى ما يخالف ما هم عليه والاستراحة عن معارضتهم فكأنهم قالوا : إنكم تقولون ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن فما نحن عليه مما شاءه الله تعالى وما تدعونا إليه مما لم يشأه وإلا لكان ، واللائق بكم عدم التعرض لخلاف مشيئة الله تعالى ، فإن وظيفة الرسول الجري على إرادة المرسل لأن الإرسال إنما هو لتنفيذ تلك الإرادة وتحصيل المراد بها ، وهذا جهل منهم بحقيقة الأمر وكيفية تعلق المشيئة وفائدة البعثة ، وذلك لأن مشيئته تعالى إنما تتعلق وفق علمه وعلمه إنما يتعلق وفق ما عليه الشيء في نفسه ، فالله تعالى ما شاء شركهم مثلاً إلا بعد أن علم ذلك وما علمه إلا وفق ما هو عليه في نفس الأمر فهم مشركون في الأزل ونفس الأمر ألا أنه سبحانه حين أبرزهم على وفق ما علم فيهم لو تركهم وحالهم كان لهم الحجة عليه سبحانه إذا عذبهم يوم القيامة إذ يقولون حينئذ : ما جاءنا من نذير فأرسل جل شأنه الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فليس على الرسل إلا تبليغ الأوامر والنواهي لتقوم الحجة البالغة لله تعالى ، فالتبليغ مراد الله تعالى من الرسل عليهم السلام لإقامة حجته تعالى على خلقه به ، وليس مراده من خلقه إلا ما هم عليه في نفس الأمر خيراً كان أو شراً .

وفي الخبر يقول الله تعالى : " يا عبادى إنما أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " ولا منافاة بين الأمر بشيء وإرادة غيره منه تعالى لأن الأمر بذلك حسبما يليق بجلاله وجماله ، والإرادة حسبما يستدعيه في الآخرة الشيء في نفسه ، وقد قرر الجماعة إنفكاك الأمر عن الإرادة في الشاهد أيضاً وذكر بعض الحنابلة الانفكاك أيضاً لكن عن الإرادة التكوينية لا مطلقاً ، والبحث مفصل في موضعه ، وإذا علم ذلك فاعلم أن قوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ ﴾ [النحل : 35] يتضمن الإشارة إلى ردهم كأنه قيل : ما أشرتم إليه من أن اللائق بالرسل ترك الدعوة إلى خلاف ما شاءه الله تعالى منا والجري على وفق المشيئة والسكوت عنا باطل لأن وظيفتهم والواجب عليهم هو التبليغ وهو مراد الله تعالى منهم لتقوم به حجة الله تعالى عليكم لا السكوت وترك الدعوة ، وفي قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾ الخ إشارة يتفطن لها من له قلب إلى أن المشيئة حسب الاستعداد الذي عليه الشخص في نفس الأمر فتأمل فإن هذا الوجه لا يخلو عن بعد ودغدغة .

والذي ذكره القاضي في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾ الخ أنه بين فيه أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سبباً لهدي من أراد سبحانه اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه .

وفي إرشاد العقل السليم أنه تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان أن الإلجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه فلك الثواب والعقاب من الأفعال الاختيارية ، والمعنى إنا بعثنا في كل أمة رسولاً يأمرهم بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت فأمروهم فتفرقوا فمنهم من هداه الله تعالى بعد صرف قدرته واختياره الجزئي إلى تحصيل ما هدى إليه ومنهم من ثبت على الضلالة لعناده وعدم صرف قدرته إلى تحصيل الحق ، والفاء في ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ نصيحة كما أشار إليه ، وكان الظاهر في القسم الثاني ومنهم من أضل الله إلا أنه غير الأسلوب إلى ما في النظم الكريم للإشعار بأن ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] و ﴿ إن ﴾ يحتمل أن تكون مفسرة لما في البعث من معنى القول وأن تكون مصدرية بتقدير حرف الجر أي بأن اعبدوا الله ﴿ فَسِيرُواْ ﴾ أيها المشركون المكذبون القائلون : لو شاء الله ما عبدنا من دونه ﴿ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ من عاد وثمود ومن سار سيرهم ممن حقت عليه الضلالة وقال كما قلتم لعلكم تعتبرون ، وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير إخبار بحلول العذاب للإيذان بأن ذلك غني عن البيان ، وفي عطف الأمر الثاني بالفاء إشعار بوجوب المبادرة إلى النظر والاستدلال المنقذين من الضلال .

﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والحرص فرط الإرادة .

(153/435)

وقرأ النخعي ﴿ وَأَنْ ﴾ بزيادة واو وهو ، والحسن ، وأبو حيوة ﴿ تَحْرِصْ ﴾ بفتح الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة ، والجمهور ﴿ تَحْرِصْ ﴾ بكسر الراء مضارح حرص بفتحها وهي لغة الحجاز ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ جواب الشرط على معنى فاعلم ذلك أو علة للجواب المحذوف أي أن تحرص على هداهم لم ينفع حرصك شيئاً فإن الله تعالى لا يهدي من يضل ، والمراد بالموصولة قريش المعبر عنهم فيما مر بالذين أشركوا ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنصيص على أنهم ممن حقت عليهم الضلال وللإشعار بعلة الحكم .

ويجوز أن يراد به ما يشملهم ويدخلون فيه دخولاً أولياء ، ومعنى الآية على ما قيل : أنه سبحانه لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ولا بد من نحو هذا التأويل لأن الحكم بدون ذلك مما لا يكاد يجهل ، و ﴿ مِنْ ﴾ على هذا مفعول ﴿ يَهْدِى ﴾ كما هو الظاهر ، وقيل : إن يهدي مضارع هدى بمعنى اهتدى فهو لازم و ﴿ مِنْ

﴾ فاعله وضمير الفاعل في ﴿ يُضِلَّ ﴾ لله تعالى والعائد محذوف أي من يضله ، وقد حكى مجيء هدى بمعنى اهتدى الفراء .

وقرأ غير واحد من السبعة .

والحسن .

والإعرج .

ومجاهد .

وابن سيرين .

والعطاردي .

ومزاحم الخراساني .

وغيرهم ﴿ لَاَّ يَهِدّى ﴾ بالبناء للمفعول فمن نائب الفاعل والعائد وضمير الفاعل كما مر ، وهذه القراءة أبلغ من الأولى لأنها تدل على أن من أضله الله تعالى لا يهديه كل أحد بخلاف الأولى فإنها تدل على أن الله تعالى لا يهديه فقط وإن كان من لم يهد الله فلا هادي له ، وهذا على ما قيل إن لم نقل بلزوم هدى وأما إذا قلنا به فهما بمعنى إلا أن هذه صريحة في عموم الفاعل بخلاف تلك مع أن المتعدي هو الأكثر .

وقرأت فرقة منهم عبد الله ﴿ لَاَّ يَهِدّى ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء والدال وتشديدها ، وأصله يهتدي فأدغم كقولك في يختصم يخصم .

وقرأت فرقة أخرى ﴿ لَّا يَهِدّى ﴾ بضم الياء وكسر الدال ، قال ابن عطية : وهي ضعيفة ، وتعقبه في البحر بأنه إذا ثبت هدى لازماً بمعنى اهتدى لم تكن ضعيفة لأنه ادخل على اللازم همزة التعدية ، فالمعنى لا يجعل مهتدياً من أضله .

وأجيب بأنه يحتمل أن وجه الضعف عنده عدم اشتهار أهدى المزيد .

وقرىء ﴿ يُضِلَّ ﴾ بفتح الياء ، وفي مصحف أبي ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ ﴾ ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ ينصرونهم في الهداية أو يدفعون العذاب عنه وهو تتميم بإبطال ظن أن آلهتهم تنفعهم شيئاً وضير لهم عائد على معنى من وصيغة الجمع في الناصرين باعتبار الجمعية في الضمير فإن مقابلة الجمع بالجمع تفيد إنقسام الآحاد على الآحاد لا لأن المراد نفي طائفة من الناصرين من كل منهم .

ثم إن أول هذه الآيات ربما يوهم نصرة مذهب الاعتزال لكن آخرها مشتمل على الوجوه الكثيرة كما قال الإمام الدالة على نصرة مذهب أهل الحق ، ولعل الأمر غني عن البيان ولله تعالى الحمد على ذلك .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله ﴾ شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم وهو إنكارهم البعث ، وهو على

ما في "الكشاف" وغيره عطف على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ [النحل : 35] قيل : ولتضمن الأول إنكار التوحيد وهذا إنكار البعث وهما أمران عظيمان من الكفر والجهل حسن العطف بينهما ، والضمير لأهل مكة أيضاً أي حلفوا بالله ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ مصدر منصوب الحال أي جاهدين في أيمانهم ﴿ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ وهو مبني على أن الميت يعدم ويفنى وأن البعث إعادة له وأنه يستحيل إعادة المعدوم ، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفة ولم يوافقهم في دعوة ذلك أحد من المتكلمين إلا الكرامية .

(155/435)

وأبو الحسين البصري من المعتزلة ، واحتجوا عليها بما رده المحققون ، وبعضهم ادعى الضرورة في ذلك وأن ما يذكر في بيانه تنبيهات عليه ، فقد نقل الإمام عن الشيخ أبي علي بن سينا أنه قال : كل من رجع إلى فطرته السليمة ورفض عن نفسه الميل والتعصب شهد عقله الصريح بأن إعادة المعدوم بعينه ممتنعة ؛ وفي قسم هؤلاء الكفار على عدم البعث إشارة كما قال في "التفسير" إلى أنهم يدعون العلم الضروري بذلك .

وأنت تعلم أنه إذا جوز إعادة المعدوم بعينه كما هو رأى جمهور المتكلمين فلا إشكال في

البعث أصلاً ، وأما إن قلنا بعدم جواز الإعادة لقيام القاطع على طلك فقد قيل : تلزم القول بعدم انعدام شيء من الأبدان حتى يلز في البعث إعادة المعدوم وإنما عرض لها التفرق ويعرض لها في البعث الاجتماع فلا إعادة لمعدوم ، وفيه بحث وإن أيد بقصة إبراهيم عليه السلام ومن هنا قال المولى ميرزاجان : لا مخلص إلا بأن يقال ببقاء النفس المجردة وأن البدن المبعوث مثل البدن الذي كان في الدنيا وليس عينه بالشخص ولا ينافي هذا قانون العدالة إذ الفاعل هو النفس ليس إلا والبدن بمنزلة السكين بالنسبة إلى القطع فكما أن الأثر المترتب على القطع من المدح والذم والثواب والعقاب إنما هو للقاطع لا للسكين كذلك الأثر المترتب على أفعال الإنسان إنما هو للنفس وهي المتلذذة والمتألمة تلذذاً أو تألماً عقلياً أو حسياً فليس يلزم خلاف العدالة ، وأما الظواهر الدالة على عود ذلك الشخص بعينه فمؤولة لفرض القاطع الدال على الامتناع ، وذلك بأن يقال : المراد إعادة مادته مع صورة كانت أشبه الصور إلى الصورة الأولى دتبر ؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة يس تحقيق هذا المطلق على أتم وجه .

ونقل عن ابن الجوزي .

وأبي العالية أن هذه الآية نزلت لأن رجلاً من المسلمين تقاضى دينا على رجل من المشركين فكان فيما تكلم به المسلم والذي أرجوه بعد الموت فقال المشرك : وإنك لتبعث بعد الموت وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت فقص الله تعالى ذلك ورده أبلغ رد بقوله بحانه : ﴿ بلى ﴾ لإيجاب النفي أي بلى يبعثهم ﴿ وَعْداً ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه ﴿ بلى ﴾ إذ لا معنى له سوى الوعد بالبعث والإخبار عنه ، ويسمى نحو هذا مؤكداً لنفسه وجوز أن كيون مصدراً لمحذوف أي وعد ذلك وعداً ﴿ عَلَيْهِ ﴾ صفة ﴿ وَعْداً ﴾ والمراد وعداً ثابتاً عليه إنجازه وإلا فنفس الوعد ليس ثابتاً عليه ، وثبوت الإنجاز لامتناع الخلف في وعده أو لأن البعث من مقتضيات الحكمة .

﴿ حَقّاً ﴾ صفة أخرى لوعداً وهي مؤكدة إن كان بمعنى ثابتاً متحققاً ومؤسسة إن كان بمعنى غير باطل أو نصب على المصدرية بمحذوف أي حق حقاً ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ لجهلهم بشؤون الله تعالى من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى البعث مما تقتضيه الحكمة ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه تعالى يبعثهم ، ونعى عليهم عدم العلم بالبعث دون العلم بعدمه الذي يزعمونه على ما يقتضيه ظاهر قسمهم ليعلم منه نعي ذاك بالطريق .

وجوز أن يكون للإيذان بأن ما عندهم بمعزل عن أن يسمى علماً بل هو توهم صرف وجهل محض ، وتقدير مفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ما علمت هو الأنسب بالسياق ، وجوز أن يكون

التقدير لا يعلمون أنه وعد عليه حق يكذبونه قائلين : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءابَاؤُنَا هذا مِن قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الاولين ﴾ [المؤمنون : 83] .

(157/435)

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ متعلق بما دل عليه ﴿ بلى ﴾ [النحل : 38] وهو يبعثهم ، والضمير ل ﴿ من يموت ﴾ [النحل : 38] الشامل للمؤمنين والكافرين إذ التبيين يكون للمؤمنين أيضاً فإنهم وإ كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الأمر فيصل علمهم إلى مرتبة عين اليقين أي يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم بمشاعدة الأحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن ﴿ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من الحق الشامل لجميع ما خالفوه مما جاء به الرسل المبعوثون فيهم ويدخل فيه البعث دخولاً أولياً والتعبير عن ذلك بالموصول للدلالة على فخامته وللإشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين ، وتقدير الجار والمجرور لرعاية رؤس الآي ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالله تعالى بالإشراك وإنكار البعث الجسماني وتكذيب الرسل عليهم السلام ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كاذبين ﴾ في كل ما يقولونه ويدخل فيه قولهم : ﴿ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38] دخولاً أولياً .

(158/435)

ونقل في "البحر" القول بتعلق ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ الخ بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ [النحل : 36] أي بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه وأنهم كانوا على الضلالة قبل بعثه مفترين على الله سبحانه الكذب ولا يخفى بعد ذلك وتبادر ما تقدم ، وجعل التبيين والعلم المذكورين غاية للبعث كما في إرشاد العقل السليم باعتبار وروده في معرض الرد على المخالفين وإبطال مقالة المعاندين المستدعى للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويأخذ بهم الإذعان للحق فإن الكفرة إذا علموا أن تحقق البعث إذا كان لتبيين أنه حق وليعلموا أنهم كاذبون في إنكاره كان أزجر لهم عن إنكاره وادعى إلى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقة كما تقول لمن ينكر أنك تصلي لأصلين رغماً لأنفك وإظهاراً لكذبك ، ولأن تكرر الغايات أدل على وقوع المغيا بها وإلا فالغاية الأصلية للبعث باعتبار ذاته إنما هو الجزاء الذي هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته ، وإنما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره في مواضع وضهرته ، وفيه أنه إنما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال مثلاً : وأن الذين كفروا كانوا كاذبين بل جيء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما يتعلق به التبين الذي هو عبارة عن إظهار ما كان مبهماً قبل ذلك بأن يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون ، وأما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل ، ويستفاد من تحقيقه في نظير ما هنا أنه لما كان مدلول الخبر هو الصدق والكذب

احتمال عقلي وكان معنى تبيين الصدق إظهار ذلك المدلول وقطع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملاً له احتمالاً عقلياً ناسب أن يعلق التبيين بالذي فيه يختلفون من الحق ، وليس بين الصدق والحق كثير فرق ، ولما كان الكذب أمراً حادثاً لا دلالة الخبر عليه حتى يتعلق به التبيين والإظهار بل هو نقيض مدلوله فما يتعلق به يكون علماً مستأنفاً ناسب أن يعلق

العلم بأنهم كانوا كاذبين فليتدبر .

قيل : ولكون العلم بما ذكر من روادف ذلك التبيين قيل : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ دون وليجعل الذين كفروا عالمين ، وخص الإسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا أن الذين كفروا كانوا كاذبين تنبيهاً على أن الأهم علمهم ، وقيل : لم يقل ذلك لأن علم المؤمنين بما ذكر حاصل قبل ذلك أيضاً .

وتعقب بأن حصول مرتبة من مراتب العلم لا يأبى حصول مرتبة أعلا منها فلم لم يقل ذلك إيذاناً بحصول هذه المرتبة من العلم لهم حينئذ ، ولعل فيه غفلة عن مراد القائل .

وجوز أن يراد من علم الكفرة بأنهم كانوا كاذبين تعذيبهم على كذبهم فكأنه قيل : ليظهر للمؤمنين والكافرين الحق وليعذب الكافرون على كذبهم فيما كانوا يقولونه من أنه تعالى لا

يبعث من يموت ونحوه ، وهذا كما يقال للجاني : غداً تعلم جنايتك ، وحينئذ وجه تخيص الإسناد بهم ظاهر ، وهو كما ترى .

وزعم بعض الشيعة أن الآية في علي كرم الله تعالى وجهه والأئمة من بنيه رضي الله تعالى عنهم وأنها من أدلة الرجعة التي قال بها أكثرهم ، وهو زعم باطل ، والقول بالرجعة محض سخافة لا يكاد يقول بها من يؤمن بالبعث ، وقد بين ذلك على أتم وجه في التحفة الإثني عشرية ، ولعل النوبة تفضي إن شاء الله تعالى إلى بيانه ، وما أخرجه ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : أن قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ الآية [النحل : 38] نزلت في غير مسلم الصحة ، وعلى فرض التسليم لا دليل فيه على ما يزعمونه من الرجعة بأن يقال : إنه رضي الله تعالى عنه أراد أنها نزلت بسببي ، ويكون رضي الله تعالى عنه هو الرجل الذي تقاضى ديناً له على رجل من المشركين فقال ما قال كما مر عن ابن الجوزي .

وأبي العالية ، وأخرجه عن أبي العالية عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

واستنبط الشيخ بهاء الدين من الآية دليلاً على أن الكذب مخالفة الواقع ولا عبرة بالاعتقاد ، وهو ظاهر فافهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(161/435)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه بعث في كل أمة رسولاً بعبادة الله وحده ، واجتناب عبادة ما سواه . وهذا هو معنى " لا إله ألا الله " ، لأنها مركبة من نفي وإثبات ، فنفيها هو خلع جميع المعبوادت غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات ، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص ، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه .

وأوضح هذا المعنى كثيراً في القرآن عن طريق العموم والخصوص . فمن النصوص الدالة عليه مع عمومها قاله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] ، وقوله : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ

أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] ، ونحو ذلك من الآيات .

ومن النصوص الدالة عليه مع الخصوص في إفراد الأنبياء وأممهم قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] ، وقوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 65] ، وقوله : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 73] ، وقوله : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُه ﴾ [الأعراف : 85] ، إلى غير ذلك من الآيات .

(162/435)

واعلم أن كل ما عبد من دون الله ، فهو طاغوت . ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه . كما بينه تعالى بقوله : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغوت وَيْؤْمِن بالله فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [البقرة : 256] ، وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106] ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الأمم التي بعث فيه الرسل بالتوحيد منهم سعيد ،

ومنهم شقي . فالسعيد منهم يهديه الله إلى اتباع كا جاءت به الرسل ، والشقي منهم يسبق عليه الكتاب فيكذب الرسل ، ويكفر بما جاؤوا به . فالدعوة إلى دين الحق عامة ، والتوفيق للهدى خاص . كما قال تعالى : ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ويَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : 25] . فقوله : ﴿ فَمِنْهُم ﴾ أي من الأمم المذكورة في قوله : ﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ ، وقوله : ﴿ مَّنْ هَدَى الله ﴾ أي وفقه لاتباع ما جاءت به الرسل . والضمير المنصوب الذي هو رابط الصلة بالموصول محذوف . أي فمنهم من هداه الله . على حد قوله في الخلاصة :

والحذف عندهم كثير منجلي . . . في عائد متصل إن انتصب

بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ أي وجبت عليه ولزمته . لما سبق في علم الله من أنه يصيؤ إلى الشقاوة . والمراد بالضلالة : الذهبا عن طريق الإسلام إلى الكفر . وقد بين تعالى هذا المعنى في آيات أخر . كقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] ، وقوله : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] ، إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية: أن حرص النّبي صلى الله عليه وسلم على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم الله أنه شقي.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: 56]، وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أولئك الذين لَمْ يُرِدِ الله أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: 41]، وقوله: ﴿ مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: 186]، وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء ﴾ [الأنعام: 125] إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمر: ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: 37] بضم الياء وفتح الدال. من "يُهدَى" مبنياً للمفعول. وقوله: ﴿ مِن ﴾ نائب الفاعل. والمعنى: أن من أضله الله لا يهدي، أي لا هادي له.

وقرأه عاصم، وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الدال، من "يَهدِي" مبنياً للفاعل.

وقوله: ﴿ من ﴾ مفعول به لهدي، والفاعل ضمير عائد إلى الله تعالى. والمعنى: أن من أضله اله لا يهديه الله. وهي على هذه القراءة فيمن سبقت لهم الشقاوة في علم الله. لأن غيرهم قد يكوم ضالاً ثم يهديه الله كما هو معروف.

وقال بعض العلماء : لا يهدي من يضل ما دام في إضلاله له . فإن رفع الله عنه الضلالة وهداه فلا مانع من هداه . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ .

(164/435)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار حلفوا جهد أيمانهم – أي اجتهدوا في الحلف – وغلظوا الأيمان على أن الله لا يبعث من يموت وكذبهم الله جل وعلا في ذلك بقوله : ﴿ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ ، وكرر في آيات كثيرة هذا المعنى المذكور هنا من إنكارهم للبعث وتكذيبه لهم في ذلك ، كقوله : ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن : 7] الآية ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 104] ، وقوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78-79] ، وقوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 51] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً .

وقوله : ﴿ بَلَى ﴾ نفي لنفيهم البعث كما قدمنا . وقوله : ﴿ وَعْداً ﴾ مصدر مؤكد لما دلت عليه " بلى " . لأن " بلى " تدل عى نفي قولهم : لا يبعث الله من يموت . ونفي هذا النفي إثبات ، معناه : لتبعثن . وهذا البعث المدلول على إثباته بلفظة " بلى " فيه معنى وعد الله بأنه سيكون . فقوله : ﴿ وَعْداً ﴾ مؤكد له . وقوله : ﴿ حَقّاً ﴾ مصدر أيضاً . اي وعد الله بذلك وعداً ، وحقه حقاً ، وهو مؤمد أيضاً لما دلت عليه " بلى " .

واللام في قوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴾ [النحل : 39] ، وفي قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كفروا ﴾ [النحل : 39] الآية ، تتعلق بقوله : " بلى " أي يبعثهم ليبين لهم . . إلخ . والضمير في قوله : ﴿ لَهُمُ ﴾ عائد إلى من يموت . لأنه شامل للمؤمنين والكافرين .

وقال بعض العلماء : اللام في الموضعين تتعلق بقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ [النحل : 36] الآية . اي بعثناه ليبين لهم . . إلخ والعلم عند الله تعالى . انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

عطف على جملة ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ [سورة النحل : 35] .

وهو تكملة لإبطال شبهة المشركين إبطالاً بطريقة التفصيل بعد الإجمال لزيادة تقرير الحجّة ،

فقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة ﴾ بيان لمضمون جملة ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ [النحل : 35] .

وجملة فمنهم من هدى الله إلى آخرها بيان لمضمون جملة ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ .

والمعنى : أن الله بيّن للأمم على ألسنة الرسل عليهم السلام أنّه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة الأصنام ؛ فمن كل أمّة أقوام هداهم الله فصدّقوا وآمنوا ، ومنهم أقوام تمكّنت منهم الضلالة فهلكوا .

ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم .

و﴿ أن ﴾ تفسيرية لجملة ﴿ بعثنا ﴾ لأنّ البعث يتضمّن معنى القول ، إذ هو بعث للتبليغ .

و﴿ الطاغوت ﴾ : جنس ما يعبد من دون الله من الأصنام .

وقد يذكرونه بصيغة الجمع ، فيقال : الطواغيت ، وهي الأصنام .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ في سورة النساء (51) .

وأسندت هداية بعضهم إلى الله مع أنه أمر جميعهم بالهدى تنبيهاً للمشركين على إزالة شبهتهم في قولهم : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ [سورة النحل : 35] بأن الله بيّن لهم الهُدى ، فاهتداء المهتدين بسبب بيانه ، فهو الهادي لهم .

والتّعبير في جانب الضلالة بلفظ حقّت عليهم دون إسناد الإضلال إلى الله إشارة إلى أن الله لما نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة فحقّت عليهم الضلالة ، أي ثبتت ولم ترتفع .

وفي ذلك إيماء إلى أن بقاء الضلالة من كسب أنفسهم ؛ ولكن ورد في آيات أخرى أن الله يضلّ الضالّين ، كما في قوله : ﴿ ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ [سورة الأنعام : 125] ، وقوله عقب هذا ﴿ فإن الله لا يهدي من يضلّ ﴾ [سورة النحل : 37] على قراءة الجمهور ، ليحصل من مجموع ذلك علم بأن الله كوّنَ أسباباً عديدة بعضها جاءٍ من توالد العقول والأمزجة واقتباس بعضها من بعض ، وبعضها تابع للدعوات الضالّة

بحيث تهيّأت من اجتماع أمور شتّى لا يحصيها إلا الله، أسباب تامّة تحول بين الضالّ وبين الهدى.

فلا جرم كانت تلك الأسباب هي سبب حقّ الضلالة عليهم، فباعتبار الأسباب المباشرة كان ضلالهم من حالات أنفسهم، وباعتبار الأسباب العالية المتوالدة كان ضلالهم من لدن خالق تلك الأسباب وخالق نواميسها في متقادم العصور.

فافْهَم.

ثم فرّع على ذلك الأمَر بالسير في الأرض لينظروا آثار الأمم فيروا منها آثار استئصال مخالف لأحوال الفناء المعتاد، ولذلك كان الاستدلال بها متوقّفاً على السير في الأرض، ولو كان المراد مطلق الفناء لأمرهم بمشاهدة المقابر وذكر السّلف الأوائل.

﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) ﴾

استئناف بياني، لأن تقسيم كل أمّة ضالّة إلى مهتد منها وباقٍ على الضلال يثير سؤالاً في نفس النبي صلى الله عليه وسلم عن حال هذه الأمّة: أهو جار على حال الأمم التي قبلها، أو أن الله يهديهم جميعاً.

وذلك من حرصه على خيرهم ورأفته بهم، فأعلمه الله أنه مع حرصه على هداهم فإنهم سيبقى منهم فريق على ضلاله.

وفي الآية لطيفتان:

الأولى : التعريض بالثناء على النبي صلى الله عليه وسلم في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحَنَق في نفس من يلحقه الأذى ؛ ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم مطهّرة من كل نقص ينشأ عن الأخلاق الحيوانية .

(168/435)

واللطيفة الثانية : الإيماء إلى أن غالب أمّة الدعوة المحمّدية سيكونون مهتدين وأن الضُلاّل منهم فئة قليلة ، وهم الذين لم يقدر الله هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقُدرته من الأسباب التي هيّأت لهم البقاء في الضلال .

والحرصُ : فرط الإرادة الملحّة في تحصيل المُراد بالسّعي في أسبابه .

والشرط هنا ليس لتعليق حصول مضمون الجواب على حصول مضمون الشرط ، لأن مضمون الشرط معلوم الحصول ، لأن علاماته ظاهرة بحيث يعلمه النّاس ، كما قال تعالى : ﴿ حريص عليكم ﴾ [سورة التوبة : 128] ؛ وإنّما هو لتعليق العلم بمضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشرط .

فالمعنى : إن كنت حريصاً على هداهم حرصاً مستمراً فاعلم أن من أضلّه الله لا تستطيع هديه ولا تجد لهديه وسيلة ولا يهديه أحد .

فالمضارع مستعمل في معنى التجدد لا غير ، كقول عنترة:

إن تُغْدِ فِي دوني القِناعَ فإنّني . . .

طَبّ بأخذ الفارس المستلئم

وأظهر منه في هذا المعنى قوله أيضاً :

إن كنت أزمعتِ الفراق فإنما . . .

زُمّت رِكابكم بليلٍ مظلم

فإنّ فعل الشرط في البيتين في معنى : إن كان ذلك تصْميماً ، وجواب الشرط فيهما في معنى إفادة العلم .

وجعل المسند إليه في جملة الإخبار عن استمرار ضلالهم اسمَ الجلالة للتهويل المشوق إلى استطلاع الخبر .

والخبر هو أن هداهم لا يحصل إلاّ إذا أراده الله ولا يستطيع أحد تحصيله لا أنت ولا غيرك ، فمن قدّر الله دوام ضلاله فلا هادي له .

ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يكون المسند إليه ضمير المتحدّث عنهم بأن يقال : فإنهم لا يهديهم غير الله .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب لا يُهدَى ﴾ بضم الياء وفتح الدّال مبنياً للنائب ، وحذف الفاعل للتعميم ، أي لا يهديه هاد .

و﴿ مَن ﴾ نائب فاعل، وضمير ﴿ يضل ﴾ عائد إلى الله، أي فإن الله لا يُهدَى المضَلَّل بفتح اللاّم منه.

(169/435)

فالمسند سببي وحُذف الضمير السببي المنصوب لظهوره وهو في معنى قوله: ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ [سورة الرعد: 33] وقوله تعالى: ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ [سورة الأعراف: 186].

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف لا يَهدي ﴾ بفتح الياء بالبناء للفاعل، وضمير اسم الجلالة هو الفاعل، و﴿ مَن ﴾ مفعول ﴿ يهدي ﴾، والضمير في ﴿ يضل ﴾ للّهِ، والضمير السببي أيضاً محذوف، والمعنى: أنّ الله لا يهدي من قَدّر دوام ضلاله، كقوله تعالى: ﴿ وأضله الله على علم ﴾ [سورة الجاثية: 23] إلى قوله: ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ [سورة الجاثية: 23].

ومعنى ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ما لهم ناصر ينجيهم من العذاب، أي كما أنهم ما لهم منقذ من الضلال الواقعين فيه ما لهم ناصر يدفع عنهم عواقب الضلال.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ (38) ﴾

انتقال لحكاية مقالة أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم ، واستدلال من أدلّة تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به إظهاراً لدعوته في مظهر المحال ، وذلك إنكارهم الحياة الثانية ولبعث بعد الموت .

وذلك لم يتقدم له ذكر في هذه السورة سوى الاستطراد بقوله : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [سورة النحل : 22] .

والقسم على نفي البعث أرادوا به الدّلالة على يقينهم بانتفائه .

وتقدّم القول في جهد أيمانهم ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ في سورة العقود (53) .

وإنما أيقنوا بذلك وأقسموا عليه لأنّهم توهّموا أن سلامة الأجسام وعدم انخرامها شرط لقبولها الحياة ، وقد رأوا أجساد الموتى معرّضة للاضمحلال فكيف تعاد كما كانت .

وجملة لا يبعث الله من يموت ﴾ عطف بيان لجملة ﴿ أقسموا ﴾ وهي ما أقسموا عليه .

والبعث تقدّم آنفاً في قوله تعالى: ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ [سورة النمل: 65].

والعدول عن (الموتى) إلى ﴿ من يموت ﴾ لقصد إيذان الصّلة بتعليل نفي البعث، فإن الصّلة أقوى دلالة على التعليل من دلالة المشتق على عليّة الاشتقاق، فهم جعلوا الاضمحلال منافياً لإعادة الحياة، كما حكي عنهم ﴿ وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ﴾ [سورة النمل: 67].

و﴿ بَلى ﴾ حرف لإبطال النفي في الخبر والاستفهام، أي بل يبعثهم الله.

وانتصب ﴿ وعداً ﴾ على المفعول المطلق مؤكداً لما دلّ عليْه حرف الإبطال من حصول البعث بعد الموت.

ويسمى هذا النوع من المفعول المطلق مؤكداً لنفسه، أي مؤكداً لمعنى فعل هو عين معنى المفعول المطلق.

و﴿ عليه ﴾ صفة ل﴿ وعداً ﴾، أي وعداً كالواجب عليه في أنه لا يقبل الخلف.

ففي الكلام استعارة مكنية.

شبه الوعد الذي وعده الله بمحض إرادته واختياره بالحقّ الواجب عليه ورُمز إليه بحرف الاستعلاء.

و﴿ حقاً ﴾ صفة ثانية ل﴿ وعداً ﴾.

والحقّ هنا بمعنى الصدق الذي لا يتخلّف.

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ في سورة براءة (111) .

والمراد بأكثر الناس المشركون ، وهم يومئذٍ أكثر الناس .

ومعنى لا يعلمون ﴾ أنهم لا يعلمون كيفيّة ذلك فيقيمون من الاستبعاد دليل استحالة حصول البعث بعد الفناء .

والاستدراك ناشىء عن جعله وعداً على الله حقّاً ، إذ يتوهّم السامع أن مثل ذلك لا يجهله أحد فجاء الاستدراك لرفع هذا التوهّم ، ولأن جملة ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ تقتضي إمكان وقوعه والناس يستبعدون ذلك .

﴿ ليبين ﴾ تعليل لقوله تعالى : ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ [سورة النحل : 38] لقصد بيان حكمة جعله وعداً لازماً لا يتخلّف ، لأنه منوط بحكمة ، والله تعالى حكيم لا تجري أفعاله على خلاف الحكمة التامّة ، أي جعل البعث ليبيّن للناس الشيء الذي يختلفون فيه من الحقّ والباطل فيظهر حقّ المحقّ ويظهر باطل المبطل في العقائد ونحوها من أصول الدّين وما ألحق بها .

وشمل قوله : ﴿ يختلفون ﴾ كل معاني المحاسبة على الحقوق لأن تمييز الحقوق من المظالم كلّه محل اختلاف الناس وتنازعهم .

وعطف على هذه الحكمة العامّة حكمةٌ فرعيّة خاصّة بالمردود عليهم هنا ، وهي حصول العلم للّذين كفروا بأنهم كانوا كاذبين فيما اخترعوه من الشرك وتحريم الأشياء وإنكار البعث .

وفي حصول علمهم بذلك يوم البعث مثارٌ للندامة والتحسّر على ما فرط منهم من إنكاره .

وقد تقدّم بيان حكمة الجزاء في يوم البعث في أول سورة يونس .

و ﴿ كانوا كاذبين ﴾ أقوى في الوصف بالكذب من (كذَبوا أو كاذبون) ، لما تدلّ عليه (كان) من الوجود زيادة على ما يقتضيه اسم الفاعل من الاتّصاف ، فكأنه قيل : وُجد كذبهم ووصفوا به .

وكذبهم يستلزم أنهم معذّبون عقوبة على كذبهم .

ففيه شتم صريح تعريض بالعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً . . . ﴾ [النحل : 36] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ [النحل : 84] .

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى . . فقوله : ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ [النحل : 84] .

أي : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربَّى ودَرَج ، يعرفون خِصَاله وصِدْقه ومكانته في قومه .

أما قوله تعالى : ﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ [النحل : 36] .

ف " في " هنا تفيد الظرفية . أي : في الأمة كلها ، وهذه تفيد التغلغل في جميع الأمة . . فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون أخرى ، بل لا بُدّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة : ﴿ أَرْسَلْنَا . . . ﴾ [الحديد : 26] .

ومرة أخرى يقول :

﴿ بَعَثْنَا ﴾ [النحل : 36] .

وهناك فرق بين المعنيين ف ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجح إلى قصة آدم عليه السلام حيث علّمه الله الأسماء كلها ، ثم أهبطه من الجنة إلى الأرض . وقال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] .

وقال في آية أخرى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123] .

(173/435)

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم عليه السلام والمفروض أن يُبلّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض في أبنائه أن يُبلّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلّغ للمنهج فتنطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتي هكذا فجأة فجماعة من الجماعات ، بل هي موجودة منذ أول الخلق .

فالرسالات إذن بَعْثٌ لمنهج إلهي ، كان يجب أنْ يظلّ على ذكر من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلّغ فلا يُبلّغ ، وقد تصيب المبلَّغ فلا يلتزم بالبلاغ ؛ لذلك يجدد الله الرسل .

وقد وردت آيات كثيرة في هذا المعنى ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] .

وقوله : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضعُون لأنفسهم القوانين التي تُنظِّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدِّد الجرائم ويُعاقب عليها ؟ فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ .

ومن هنا تأتي أهمية وَضْع القوانين ونشرها في الصحف والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أنْ نعاقبَ إنسانا على جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسولان ، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط متعاصريْن ؟ ألم يكُنْ شعيب وموسى متعاصريْن ؟ فما عِلَّة ذلك ؟

نقول : لأن العالَم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكُلّ جماعة منعزلة في مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة في أرض لا تدري بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكُلِّ جماعة بيئتُها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكْران دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كُلٌّ في بلد على حِدَة .

لكن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت على موعد مع التقاءات الأمكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً في أمريكا فنعلم بها في نفس اليوم . .

إذن : أصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أن يُرْسلَ صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، وللأزمنة كافة .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً . . ﴾ [سبأ : 28] .

أي : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كففْتُ القماش أي : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهبَ منه شيءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت . . . ﴾ [النحل : 36] .

هذه هي مهمة الرسل :

﴿ أَنِ اعبدوا الله . . . ﴾ [النحل : 36] .

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، ويُنهي عن أمر فلا يُفعل ؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعي الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذي جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ عن أي شيءٍ تنهانا ؟

فهنا أَمْر بالعبادة ونَهْي عن الطاغوت ، وهذا يُسمُّونه تَحْلِية وتَخْلِيةً : التحلية في أنْ تعبدَ الله ، والتخلية في أنْ تبتعدَ عن الشيطان .

(175/435)

وعلى هذين العنصرين تُبنَى قضية الإيمان حيث نَفْي في : " أشهد أن لا إله " . . وإثبات في " إلا الله " ، وكأن الناطق بالشهادة ينفي التعدُّد ، ويُثبت الواحدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشرك ، وحَلَّيْتَ نفسك بالوحدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها في الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية ؛ ولذلك نجد في

قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار . . . ﴾ [آل عمران: 185] .

أي: خُلِّي عن العذاب . ﴿ وَأُدْخِلَ الجنة . . ﴾ [آل عمران: 185] .

أي: حُلِّي بالنعيم .

وقوله سبحانه:

﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل: 36] .

أي: ابتعدوا عن الطاغوت . . فيكون المقابل لها: تقرَّبوا إلى الله و ﴿ الطاغوت ﴾ فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذِّرْوة في الطغيان وزادَ فيه . . وفَرْق بين الحدث المجرَّد مثل طغى، وبين المبالغة فيه مثل (طاغوت)، وهو الذي يَزيده الخضوعُ لباطله طُغْياناً على باطل أعلى .

ومثال ذلك: شاب تمرَّد على مجتمعه، وأخذ يسرع الشيء التافه القليل، فوجد الناس يتقرَّبون إليه ويُداهنونه اتقاء شره، فإذا به يترقَّى في باطله فيشتري لنفسه سلاحاً يعتدي به على الأرواح، ويسرق الغالي من الأموال، ويصل إلى الذروة في الظلم والاعتداء، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديات تتحملها العاقلة وتقوم بها عن الفاعل الجاني، ذلك لما وقع عليها من مسئولية تَرْك هذا الجاني، وعدم الأخذ على يده وكَفِّه عن الأذى .

ونلاحظ في هذا اللفظ (الطاغوت) أنه لما جمع كلَّ مبالغة في الفعل نجده يتأبَّى على

المطاوعة، وكأنه طاغوت في لفظه ومعناه، فنراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع، وعلى المذكر والمؤنث، فنقول: رجل طاغوت، وامرأة طاغوت، ورجلان طاغوت، وامرأتان طاغوت، ورجال طاغوت، ونساء طاغوت، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصِّيَغ.

(176/435)

إذن: الطاغوت هو الذي إذا ما خضع الناس لِظُلمه ازداد ظلماً. ومنه قوله تعالى: ﴿ فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ . . . ﴾ [الزخرف: 54].

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية، وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي . . . ﴾ [القصص: 38].

ويُحكَى في قصص المتنبِّئين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة، فأمرهم ألاَّ يهتموا بشأنه، وأن يتركوه، ولا يعطوا لأمره بالاً لعله ينتهي، ثم بعد فترة ظهر آخر يدَّعي النبوة، فجاءوا بالأول ليرى رأيه في النبي الجديد: ما رأيك في هذا الذي يدعي النبوة؟! أيُّكم النبي؟ فقال: إنه كذاب فإني لم أرسل أحداً!! ظن أنهم صدقوه في ادعائه النبوة، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية، وهكذا الطاغوت.

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ في القرآن ثماني مرات، منها ستة تصلح للتذكير

والتأنيث، ومرة وردتْ للمؤنث في قوله تعالى: ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا . . ﴾ [الزمر: 17].

ومرة وردتْ للمذكر في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ . . . ﴾ [النساء: 60].

وفي اللغة كلمات يستوي فيها المذكر والمؤنث، مثل قَوْل الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . . . ﴾ [الأعراف: 146].

وقوله: ﴿ قُلْ هذه سبيلي . . . ﴾ [يوسف: 108].

فكلمة "سبيل" جاءت مرَّة للمذكر، ومرَّة للمؤنث.

ثم يقول تعالى:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة . . . ﴾ [النحل: 36].

وقد أخذت بعضهم هذه الآية على أنها حُجَّة يقول من خلالها: إن الهداية بيد الله، وليس لنا دَخْل في أننا غير مهتدين . . إلى آخر هذه المقولات.

نقول : تعالوا نقرأ القرآن . . يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] .

ولو كانت الهداية بالمعنى الذي تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضَّلوه ، لكن " هديناهم " هنا بمعنى : دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط ، ولهم حَقّ الاختيار ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتي للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذي أقبل على الله بإيمان به زاده هُدًى وآتاه تقواه ، كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . ﴾ [القصص : 56] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] .

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول صلى الله عليه وسلم الهداية في الأولى ، وأثبتها له في الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدَّث عنه واحد هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحْدِثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟ !

لا بُدَّ أن تكون الجهة مُنفكّة . . في : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي . . . ﴾ [القصص : 56] .

أي : لا تستطيع أنْ تُدخِل الإيمان في قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية

الإيمان فبيد الله تعالى يهدي إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، ويَصْرف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ .

وكأن الله تعالى في خدمة عبيده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسَّره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قَلْب الكافر بالكفر .

إذن : تأتي الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما في الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشَرْح الصدر للإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . ﴾ [القصص : 56] .

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى . . ﴾ [محمد : 17] .

فقوله تعالى :

(178/435)

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله . . . ﴾ [النحل : 36] .

أي : هداية إيمان ومعونة بأن مكَّن المنهج في نفسه ، ويسَّره له ، وشرح به صدره .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة . . ﴾ [النحل : 36] .

حقَّتْ : أي أصبحتْ حقاً له ، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة

، فما حقَّتْ عليهم ، وما وجبتْ لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القومَ الظالمين ﴾ [الأنعام : 144] .

أيُّهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمَّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أنْ حُرموا الهداية .

وتذكر هنا مثالاً كثيراً ما كررناه ليرسخَ في الأذهان ولله المثل الأعلى هَبْ أنك سائر في طريق تقصد بلداً ما ، فصادفك مُفْترق لطرق متعددة ، وعلامات لاتجاهات مختلفة ، عندها لجأتَ لرجل المرور : من فضل أريدُ بلدة كذا ، فقال لك : من هنا . فقلت : الحمد لله ، لقد كِدْتُ أضلَّ الطريق ، وجزاكَ الله خيراً .

فلمَّا وجدك استقبلتَ كلامه بالرضا والحب ، وشكرْتَ له صنيعه أراد أنْ يُزيد لك العطاء . فقال لك : لكن في هذا الطريق عقبةٌ صعبة ، وسوف أصحبُك حتى تمرَّ منها بسلام .

هكذا كانت الأولى منه مُجرَّد دلالة ، أما الثانية فهي المعونة ، فلمَّا صدَّقْته في الدلالة أعانَك على المدلول . هكذا أَمْرُ الرسل في الدلالة على الحق ، وكيفية قبول الناس لها .

ولك أنْ تتصور الحال لو قُلْتَ لرجل المرور هذا : يبدو أنك لا تعرف الطريق . فسيقول لك : إذن اتجه كما تُحِب وسِرْ كما تريد .

وكلمة " الضلالة " مبالغة من الضلال وكأنها ضلال كبير، ففيها تضخيمٌ للفعل، ومنها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً . . . ﴾ [مريم: 75] .

(179/435)

ثم يُقيم لنا الحق تبارك وتعالى الدليلَ على بَعْثة الرسل في الأمم السابقة لنتأكد من إخباره تعالى، وأن الناسَ انقسموا أقساماً بين مُكذّب ومُصدّق، قال تعالى:

﴿ فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ [النحل: 36] .

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات: 137] .

فأمر الله تعالى بالسياحة في الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة، مثل: عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا:

﴿ فَسِيرُواْ فِي الأرض . . . ﴾ [النحل: 36] .

وهل نحن نسير في الأرض، أم على الأرض؟

نحن نسير على الأرض . . وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربُّنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويُثبت العلم صِدْق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظنُّ أن الأرض هي هذه اليابسة التي نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوي) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدون لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوي جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير في الأرض ، كما نطق بذلك الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز .

ونقف أمام مَلْحظ آخر في هذه الآية : ﴿ فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا . . . ﴾ [آل عمران : 137] .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . ﴾ [الأنعام : 11] .

ليس هذا مجرد تفنُّن في العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أي : يأتي النظر بعد السَّيْر مباشرة . . أما في العطف بثُم فإنها تفيد الترتيب مع التراخي . أي : مرور وقت بين الحدثَيْن ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : 22] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فانظروا . . . ﴾ [النحل : 36] .

فكأن الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بُدَّ إذن من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التي أصبحتْ أثراً بعد عَيْنٍ .

وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفِد إليها السُّيَّاح من شتى دول العالم المتقدم ؛ لِيَروْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعجزهم ويُحيِّرهم ، ولم يستطيعوا فَكّ طلاسِمه حتى الآن .

ومع ذلك لم يترك الفراعنة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ، أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى ؛ مما يدل على أن هؤلاء القوم أخذوا أَخْذة قوية اندثرتْ معها هذه المراجع وهذه المعلومات ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ [مريم : 98] .

وقد ذكر لنا القرآن من قصص هؤلاء السابقين الكثير كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ [الفجر : 6-8] .

وقال : ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : 9-13] .

هذا ما حدث للمكذِّبين في الماضي ، وإياكم أنْ تظنُّوا أن الذي يأتي بعد ذلك بمنجىً عن هذا المصير . . كلا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾

(181/435)

يُسلِّي الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويثبت له حِرْصَه على أمته ، وأنه يُحمِّل نفسه في سبيل هدايتهم فوق ما حمَّله الله ، كما قال له في آية أخرى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] .

ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذبين المعاندين ، فيقول تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ . . . ﴾ [النحل : 37] .

أي : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدعُه إلى كفره ، بل ويطمس على قلبه غيْر مأسُوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله إلى ما يريد .

﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ . . . . ﴾ [النحل : 37] .

إذن : المسألة ليستْ مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلِّصهم منها ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100-101] .

إذن : لا يهدي الله مَن اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعذِّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصره فيه .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ . . . ﴾ .

سبحان الله ! ! كيف تُقسِمون بالله وأنتم لا تؤمنون به ؟ ! وما مدلول كلمة الله عندكم ؟ .

. هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن موضوع الإيمان غير واضح في عقولهم ؛ لأن كلمة الله نفسها دليلٌ على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة في اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً . . فالتلفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .

أذن : توجد المعاني أولاً ، ثم توضع للمعاني أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده ؟ يكون قبله . . فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتم ؛ لأن كلمة الله لفظ موجود في اللغة ، ولا بُدّ أن لها معنىً سبق وجودها .

إذن : فالإيمان سابقٌ للكفر . . وجاء الكفر منطقياً ؛ لأن معنى الكفر : السَّتْر . .

والسؤال إذن : ماذا ستر ؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . . . ﴾ [النحل : 38] .

أي : مبالغين في اليمين مُؤكّدينه ، وما أقربَ غباءَهم هنا بما قالوه في آية أخرى : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

فليس هذا بكلام العقلاء . وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :

﴿ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . ﴾ [النحل : 38] .

وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأنْ قالوا : ﴿ قالوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : 82] .

فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ بلى ﴾ .

وهي أداة لنفي السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفي النفي إثبات ، إذاً " بلى " تنفي النفي قبلها وهو قولهم :

﴿ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ . . . ﴾ [النحل : 38] .

فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً . . . ﴾ [النحل : 38] .

والوَعْد هو الإخبار بشيء لم يأْتِ زمنه بعد ، فإذا جاء وَعْدٌ بحدَث يأتي بَعْد ننظر فيمَنْ وعد : أقادرٌ على إيجاد ما وعد به ؟ أم غير قادر ؟

(183/435)

فإن كان غيرَ قادر على إنفاذ ما وعد به لأنه لا يضمن جميع الأسباب التي تعينه على إنفاذ وعده ، قُلْنا له قُلْ : إنْ شاء الله . . حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تَفِ بوعدك التمسْنا لك عُذْراً ، وحتى لا تُوصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبتَ الأمر إلى مشيئة الله .

والحق تبارك وتعالى لا يمنعنا أن نُخطِّط للمستقبل ونعمل كذا ونبني كذا . . خطِّط كما تحب ، واعْدُدْ للمستقبل عِدَته ، لكن أردف هذا بقولك : إنْ شاء الله ؛ لأنك لا تملك جميع الأسباب التي تمكّنِ من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلاَ تَقْوْلَنَّ

لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ . . . ﴾

[الكهف : 23-24] .

ونضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك أردتَ أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه في أمر ما . . هل ضمنت لنفسك أن تعيش لغد ؟ وهل ضمنت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً ؟ وهل ضمنتَ ألا يتغير الداعي الذي تريده ؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب ألَمَّ بك عائق منعك من الذهاب . إذن : يجب أن نُردف العمل في المستقبل بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ ما يَعِد به ؛ لأنه لا قوة تستطيع أن تقفَ أمام مُراده ، ولا شيء يُعجزه في الأرض ولا في السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً) أنْ يُوفّيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 38] .

أي : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى : ﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ﴾ [السجدة : 10] .

وقال : ﴿ وقالوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء : 49] .

فقد استبعد الكفار أمر البعث ؛ لأنهم لا يتصورون كيف يبعث الله الخلْق من لَدُن آدم عليه السلام حتى تقوم الساعة . . ولكن لِمَ تستبعدون ذلك ؟ وقد قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . ﴾ [لقمان : 28] .

فالأمر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على حدة . . لا . . ليس في الأمر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً . ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

ونضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى فنحن نرى مثل هذه الأوامر في عالم البشر عندما يأتي المعلّم أو المدرب الذي يُدرِّب الجنود نراه يعلِّم ويُدرِّب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً وبكلمة واحدة يقولها يمتثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندي وأوقفه كما يريد ؟ ! لا . . بل بكلمة واحدة تَمَّ له ما يريد .

وكأن انضباط المأمور وطاعته للأمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات في الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى . . هي كلمة واحدة بها يتم كل شيء . . فليس في الأمر مُعَالجة ،

لأن المعالجة أنْ يُباشر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا . . بل بالأمر الانضباطي : كن .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 38] .

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي . . . . ﴾ .

فمعنى قوله تعالى :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . . ﴾ [النحل : 39] . أي : من أمر البعث ؛ لأن القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء ؛ ولذلك كنت في جدالي للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفترين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا . . فماذا فعلتُم بهم ؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة 1917 ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء ؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين

سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتي فَصْل الخطاب في قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴾ [النحل : 39] . أي : كاذبين في قولهم : ﴿ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . ﴾ [النحل : 38] .

وذلك علم يقين ومعاينة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدي التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين في قَسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يموت وبالغوا في الأَيمان وأكَّدوها ؛ ولذلك يقول تعالى عنهم في آية أخرى : ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ [الواقعة : 46] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(186/435)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ [36] قال : العبادة زينة

العارفين ، وأحسن ما يكون العارف إذا كان في ميادين العبودية والخدمة ، يترك ما له لما عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 90 ﴾

(187/435)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) ﴾

أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن مسعود ، أنه قرأ ﴿ فإن الله لا يهدي ﴾ بفتح الياء ﴿ من يضل ﴾ بضم الياء .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن الأعمش قال : قال لي الشعبي : يا سليمان ، كيف تقرأ هذا الحرف ؟ قلت ﴿ لا يهدي من يضل ﴾ فقال : كذلك سمعت علقمة أنه كان يقرأ ﴿ لا يهدي من يضل ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن علقمة أنه كان يقرأ ﴿ لا يهدي من يضل ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن إبراهيم ، أنه قرأ ﴿ لا يهدي من يضل ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه كان يقرأ هذا الحرف ﴿ فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ قال : من يضله الله لا يهديه أحد .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) ﴾

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه ، فكان فيما تكلم به والذي أرجوه بعد الموت ، أنه لكذا وكذا . فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت . . . فأقسم بالله جهد يمينه : لا يبعث الله من يموت . فأنزل الله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن علي في قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ قال : نزلت في .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة قال : " قال الله : سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني . فأما تكذيبه إياي فقال :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ وقلت : ﴿ بلى وعداً عليه حقاً ﴾ وأما سبه إياي فقال : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقلت ﴿ هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [الصمد] " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ليبين لهم الذي يختلفون فيه ﴾ قال : للناس عامة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(189/435)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ : يجوز في " أَنْ " أَنْ تكونَ تفسيرية ؛ لأن البَعْثَ يتضمَّن قولاً ، وأن تكونَ مصدرية ، أي : بَعَثْناه بأَنِ اعْبُدُوا .

قوله : ﴿ مَّنْ هَدَى ﴾ و ﴿ مَّنْ حَقَّتْ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ موصولةً ، وأن تكون نكرةً موصوفةً ، والعائدُ على كلا التقديرَيْنِ محذوفٌ من الأولِ .

وقرأ العامَّةُ ﴿ إِن تَحْرِصْ ﴾ : بكسرِ الراءِ مضارعَ "حَرَص" بفتحِها ، وهي اللغةُ العاليةُ لغةُ الحجاز . والحسن وأبو حَيْوة "تَحْرَصُ" بفتح الراء مضارِعَ "حرِص" بكسرِها ، وهي لغةُ لبعضِهم ، وكذلك النخعي ، إلاأنه زاد واواً قبل "إنْ" فقرأ ﴿ وَإِنْ تَحْرَصْ ﴾ .

قوله : ﴿ لاَ يَهْدِي ﴾ قرأ الكوفيون "يَهْدِي" بفتح الياءِ وكسرِ الدال ، وهذه القراءةُ تحتمل وجهين ، أحدُهما : أن يكون الفاعلُ ضميراً عائداً على الله ، أي : لا يَهْدِي اللهُ مَنْ يُضِلُّه ، ف "مَنْ" مفعولُ "يَهْدِي" ويؤيده قراءةُ أُبَيّ "فإنَّ اللهَ لا هاديَ لِمَنْ يُضِلُّ ، ولِمَنْ أَضَلَّ" ، وأنه في معنى قولِه : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : 186] .

والثاني : أن يكونَ الموصول هو الفاعل ، أي : لا يَهْدِيْ المُضِلُّون ، و "يَهْدِي" يجيءُ في معنى يهتدي . يقال : هداه فهَدَى ، أي : اهتدى . ويؤيد هذا الوجهَ قراءةُ عبدِ الله "يَهْدِي" بتشديدِ الدالِ المكسورةِ ، فأَدْغم . ونقل بعضُهم في هذه القراءةِ كسرَ الهاءِ على الإِتباع ، وتحقيقُه تقدَّمَ في يونس . والعائدُ على "مَنْ" محذوفٌ : ﴿ مَن يُضِلُّ ﴾ ، أي : الذي يُضِلُّه اللهُ .

والباقون : "لا يُهْدَى" بضمِّ الياءِ وفتحِ الدالِ مبنياً للمفعول ، و "مَنْ" قائمٌ مَقامَ فاعِله ، وعائدُه محذوفٌ أيضاً .

وجوَّز أبو البقاء في " مَنْ " أن يكونَ مبتدأً و " لا يَهْدِي " خبره ، يعني : مقدَّمٌ عليه . وهذا خطأٌ ؛ لأنه متى كان الخبرُ فعلاً رافعاً لضميرٍ مستترٍ وجب تأخُّرُه نحو : " زيدٌ لا يضْرِبُ " ، ولو قَدَّمْتَ لالتبس بالفاعل .

وقُرِئ " لا يُهْدِيْ " بضمِّ الياءِ وكسرِ الدالِ . قال ابن عطية : " وهي ضعيفةٌ " قال الشيخ : " وإذا ثَبَتَ أنَّ " هَدَى " لازمٌ بمعنى اهتدى لم تكنْ ضعيفةً ؛ لأنه أدخل همزةَ التعديةِ على اللازم ، فالمعنى : لا يُجْعَلُ مهتدياً مَنْ أضلَّه الله " .

وقوله : " وما لهم " حُمِلَ على معنى " مَنْ " ، فلذلك جُمِعَ .

وقُرِئ " مَنْ يَضِلُّ " بفتحِ الياءِ مِنْ " ضَلَّ " ، أي : لا يَهْدي مَنْ ضَلَّ بنفسِه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ : ظاهرُه أنه استئنافُ خبرٍ ، وجعله الزمخشريُّ نَسَقاً على " وقال الذين أشركوا " إيذاناً بأنهما كفْرتان عظيمتان . قوله : ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ هذان منصوبان على المصدرِ المؤكِّد ، أي : وَعَدَ ذلك ، وحَقَّ حقاً . وقيل : " حقاً " نعتٌ ل " وَعْد " والتقدير : بلى يَبْعثهم وَعَدَ بذلك . وقرأ الضحاك : ﴿ وَعْدٌ عَلَيْهِ حَقٌّ ﴾ برفعِهما على أنَّ وَعْداً خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : بلى بَعْثُهم وَعْدٌ على الله ، و " حَقٌّ " : نعتٌ ل " وعدٌ " .

قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ : هذه اللامُ متعلقةٌ بالفعلِ المقدَّرِ بعد حرفِ الإِيجاب ، أي : بلى يَبْعثهم لِيُبيِّنَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون جـ 7 صـ 217. 219 ﴾

(191/435)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

لم يُخْلِ زمانا من الشرع توضيحاً لحجته ، ولكن فرّقهم في سابِق حُكْمِه ؛ ففريقاً هداهم ، وفريقاً حَجَبَهم وأعماهم .

﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) ﴾

أَلزمهم الوقوفَ على حدّ العبودية في إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال : إنك وإنْ كنتَ بأمرنا لك حريصاً على هدايتهم ؛ فإن من قَسَمْتُ له الضلال لا يجري عليه غيرُ ما قَسمْتُ له .

ويقال لمن ألبستُه صدارَ الضلال لا تنزعه وسيلةٌ ولا شفاعة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ (38) ﴾

القَسَمُ يؤكِّد الخبرَ، ولكنَّ يمينَ الكاذب توجِب ضَعْفَ قوله؛ لأنه كلما زاد في جحد الله ازداد القلبُ نفرةً.

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) ﴾

إذا بيَّن اللهُ صِدْقَ ما ورد به الشرع في الآخرة بكشف الغيب زاد افتضاحُ أهل التكذيب فيكون في ذلك زيادةُ لهم في التعذيب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 298.297﴾

(192/435)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين تحتمه وحكمته، بين إمكانه ويسره عليه وخفته لديه، فقال تعالى : ﴿ إنما قولنا ﴾

أي بما من العظمة ﴿لشيء ﴾ إبداء وإعادة ﴿إذا أردناه ﴾ أي أردنا كونه ﴿أن نقول له ﴾ ثم ذكر محكى القول النفسي فقال – بانياً من "كان" التامة ما دل على موافقة الأشياء المرادة موافقة المأمور للآمر المطاع – : ﴿كن ﴾ أي أحدث ﴿ فيكون ﴾ أي فيتسبب عن ذلك القول أنه يكون حين تعلق القدرة به من غير مهلة أصلاً ، فنحن خلقنا الخلق لنأمرهم وننهاهم .

ولما كان التقدير تفصيلاً لفريقي المبين لهم وترغيباً في الهجرة لأنها بعد الإيمان أوثق عرى الإسلام : فالذين كفروا واغتروا بما شاهدوه من العرض الفاني لنخزينهم في الدنيا والآخرة ولنجازينهم بجميع ما كانوا يعملون ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا ﴾ أي أوقعوا المهاجرة فراراً بدينهم فهجروا آباءهم وأبناءهم وأقاربهم من الكفار وديارهم وجميع ما نهوا عنه ﴿في الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له صفات الكمال ، بعدما " تمادى" المكذبون بالبعث على إيذائهم ، فتركوا لهم بلادهم .

ولما كانت هجرتهم لم تستغرق زمان البعد لموت بعض من هجروه وإسلام آخرين بعد احتمالهم لظلمهم ما شاء الله ، قال تعالى : ﴿ من بعد ما ظلموا ﴾ أي وقع ظلمهم من

الكفار ، بناه للمفعول لأن المحذور وقوع الظلم لا كونه من معين ﴿ لنبوئنهم ﴾ أي نوجد لهم منزلاً هو أهل لأن يرجع إليه ، بما لنا من الملائكة وغيرهم من الجنود وجميع العظمة ﴿ في الدنيا ﴾ مباءة ﴿ حسنة ﴾ كبيرة عظيمة ، جزاء لهم على هدمتنا ، بأن نعلي أمرهم وإن كره المشركون ، كما يراه من يتدبر بمعني لأوليائي على قلتهم ، وسينكشف الأمر عما قريب انكشافاً لا يجهله أحد ، فالآية دليل على ما قبلها .

ولما كان التقدير : ولنبوئنهم في الآخرة أجراً كبيراً ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ولأجر الآخرة ﴾ المعد لهم ﴿ أكبر ﴾ مما جعلته لهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان الكفار لهم بجبلاتهم علم بأن يكون لهم عقل يتدبرون به لعلموا - بإحساني إلى أوليائي في الدنيا من منعي لهم منهم في عنادهم مع كثرتهم وقلتهم ، وإسباغي لنعمي عليهم لا سيما في الأماكن التي هاجروا إليها من الحبشة والمدينة وغيرهما مع اجتهادهم في منعها عنهم - أني أجمع لأوليائي الدارين ، وأن إحساني إليهم في الآخرة أعظم - روي أن عمر بن الخطاب .رضى الله عنهم.كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أكثر وأفضل - ثم تلا هذه الآية .

ولما نبه على إحسانه إليهم ، وكان فيه من أول الأمر نوع غموض لظهور الكفرة في بادي الرأي ، وصفهم بما يحتاج إليه في الاستجلاب لتمامه حثاً وإلهاباً ، فقال تعالى - واصفاً للمهاجرين بياناً لأصل ما حملهم على ما استحقوا به هذا الأجر الجزيل - : ﴿ الذين صبروا ﴾ أي استعملوا الصبر على ما نابهم من المكاره من الكفار وغيرهم في الإقامة بين أظهرهم مدة ثم في الهجرة بمفارقة الوطن الذي هو حرم الله المشرب حبه لكل قلب ، فكيف بقلوب من هو مسقط رؤوسهم ومألف أبدانهم ونفوسهم ، وفي بذل الأرواح في الجهاد وغير ذلك ، ولفت الكلام إلى وصف والإحسان تنبيهاً على ما يحمل على التوكل فقال تعالى : ﴿ وعلى ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بإيجادهم وهدايتهم وحده ﴿ يتوكلون ﴾ في كل حالة يريدونها رضى بقضاء الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 272.270 ﴾

(195/435)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال ، وإن كان خطاباً مع الموجود كان هذا أمراً بتحصيل الحاصل وهو محال .

والجواب : أن هذا تمثيل لنفي الكلام والمعاياة وخطاب مع الخلق بما يعقلون ، وليس خطاباً للمعدوم ، لأن ما أراده الله تعالى فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الإسراع ، ولو أراد خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والأرض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك ، ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ قَوْلُنَا ﴾ مبتدأ و ﴿ أَن نَّقُولَ ﴾ خبره و ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أي إذا أردنا حدوث شيء فليس إلا أن نقول له أحدث فيحدث عقيب ذلك من غير توقف .

المسألة الثالثة :

قرأ ابن عامر والكسائي ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بنصب النون ، والباقون بالرفع قال الفراء : القراءة بالرفع وجهها أن يجعل قوله : ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُ ﴾ كلاماً تاماً ثم يخبر عنه بأنه سيكون كما يقال : إن زيداً يكفيه إن أمر فيفعل فترفع قولك فيفعل على أن تجعله كلاماً مبتدأ ، وأما القراءة

بالنصب فوجهه أن تجعله عطفاً على أن نقول ، والمعنى : أن نقول كن فيكون هذا قول جميع النحويين ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون نصباً على جواب ﴿ كُنَّ ﴾ قال أبو علي لفظة "كن" وإن كانت على لفظة الأمر فليس القصد بها ههنا الأمر إنما هو والله أعلم الإخبار عن كون الشيء وحدوثه ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ يبطل قوله إنه نصب على جواب ﴿ كُنْ ﴾ ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على قدم القرآن فقالوا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له كن فيكون ، فلو كان قوله ﴿ كُنْ ﴾ حادثاً لافتقر إحداثه إلى أن يقول له كن وذلك يوجب التسلسل ، وهو محال فثبت أن كلام الله قديم .

واعلم أن هذا الدليل عندي ليس في غاية القوة ، وبيانه من وجوه :

الوجه الأول : أن كلمة ﴿ إِذَا ﴾ لا تفيد التكرار ، والدليل عليه أن الرجل إذا قال لامرأته إذا دخلت الدار فأنت طالق فدخلت الدار مرة طلقت طلقة واحدة فلو دخلت ثانياً لم

تطلق طلقة ثانية فعلمنا أن كلمة إذا لا تفيد التكرار ، وإذا كان كذلك ثبت أنه لا يلزم في كل ما يحدثه الله تعالى أن يقول له كن فلم يلزم التسلسل .

والوجه الثاني : أن هذا الدليل إن صح لزم القول بقدم لفظه "كن" وهذا معلوم البطلان بالضرورة ، لأن لفظة : كن ، مركبة من الكاف والنون ، وعند حضور الكاف لم تكن النون حاضرة وعند مجيء النون تتولى الكاف ، وذلك يدل على أن كلمة كن يمتنع كونها قديمة ، وإنما الذي يدعي أصحابنا كونه قديماً صفة مغايرة للفظة كن ، فالذي تدل عليه الآية لا يقول به أصحابنا ، والذي يقولون به لا تدل عليه الآية فسقط التمسك به .

والوجه الثالث : أن الرجل إذا قال إن فلاناً لا يقدم على قول ، ولا على فعل إلا ويستعين فيه بالله تعالى فإن عاقلاً لا يقول : إن استعانته بالله فعل من أفعاله فيلزم أن يكون كل استعانة مسبوقة باستعانة أخرى إلى غير النهاية لأن هذا الكلام بحسب العرف باطل فكذلك ما قالوه .

والوجه الرابع : أن هذه الآية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه :

الوجه الأول : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ يقتضي كون القول واقعاً بالإرادة ، وما كان كذلك فهو محدث .

والوجه الثاني : أنه علق القول بكلمة إذا ، ولا شك أن لفظة "إذا" تدخل للاستقبال .

والوجه الثالث : أن قوله : ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُ ﴾ لا خلاف أن ذلك ينبىء عن الاستقبال .

والوجه الرابع : أن قوله : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ يدل على أن حدوث الكون حاصل عقيب قوله : ﴿ كُنْ ﴾ فتكون كلمة ﴿ كُنْ ﴾ متقدمة على حدوث الكون بزمان واحد ، والمتقدم على المحدث بزمان واحد يجب أن يكون محدثاً .

والوجه الخامس : أنه معارض بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ [النساء : 47] ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ [الأحزاب : 38] .

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ [الزمر : 23] .

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور : 34] ، ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إماماً وَرَحْمَةً ﴾ [الأحقاف : 12] .

فإن قيل : فهب أن هذه الآية لا تدل على قدم الكلام ، ولكنكم ذكرتم أنها تدل على حدوث الكلام فما الجواب عنه ؟ .

قلنا : نصرف هذه الدلائل إلى الكلام المسموع الذي هو مركب من الحروف والأصوات ، ونحن نقول بكونه محدثاً مخلوقاً .

والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة دل ذلك على أنهم تمادوا في الغي ، والجهل ، والضلال ، وفي مثل هذه الحالة لا يبعد إقدامهم على إيذاء المسلمين وضرهم ، وإنزال العقوبات بهم ، وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا عن تلك الديار والمساكن ، فذكر تعالى في هذه الآية حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من الحسنات في الدنيا ، والأجر في الآخرة من حيث هاجروا وصبروا وتوكلوا على الله ، وذلك ترغيب لغيرهم في طاعة الله تعالى .

(198/435)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير موليين لقريش فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام ، أما صهيب فقال لهم : أنا رجل كبير إن كنت لكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله فلما رآه أبو بكر قال : ربح البيع يا صهيب ، وقال عمر : نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله النار لأطاعه فكيف ظنك به وقد خلقها ؟ وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الإسلام فتركوا عذابهم ، ثم هاجروا فنزلت هذه الآية ، وبين الله تعالى بهذه الآية عظم محل

الهجرة، ومحل المهاجرين فالوجه فيه ظاهر، لأن بسبب هجرتهم ظهرت قوة الإسلام، كما أن بنصرة الأنصار قويت شوكتهم، ودل تعالى بقوله: ﴿ والذين هاجروا فِى الله ﴾ أن الهجرة إذا لم تكن لله لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى بلد، وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ معناه أنهم كانوا مظلومين في أيدي الكفار، لأنهم كانوا يعذبونهم.

ثم قال: ﴿ لَنُبَوّئَنَّهُمْ فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ وفيه وجوه: الأول: أن قوله: ﴿ حَسَنَةً ﴾ صفة للمصدر من قوله: ﴿ لَنُبَوّئَنَّهُمْ فِى الدنيا ﴾ والتقدير: لنبوئنهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي عليه السلام: (لنبوئنهم إبواءة حسنة).

الثاني: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أكبر.

والقول الثالث: لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم، وهذا قول الحسن والشعبي وقتادة، والتقدير: لنبوئنهم في الدنيا داراً حسنة أو بلدة حسنة يعني المدينة.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ وأعظم وأشرف ؛ ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ والضمير إلى من يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الكفار ، أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم .

والثاني : أنه راجع إلى المهاجرين ، أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم .

ثم قال : ﴿ الذين صَبَرُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وفي محل : ﴿ الذين ﴾ وجوه : الأول : أنه بدل من قوله : ﴿ والذين هاجروا ﴾ والثاني : أن يكون التقدير : هم الذين صبروا .

والثالث : أن يكون التقدير : أعني الذين صبروا وكلا الوجهين مدح ، والمعنى : أنهم صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله ، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله ، وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل .

أما الصبر فللسعي في قهر النفس ، وأما التوكل فللانقطاع بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية إلى الحق ، فالأول : هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى .

والثاني : آخر هذا الطريق ونهايته ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 26 . 29 ﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ والذين هاجروا في الله من بَعْدِ ما ظُلموا ﴾

يعني من بعد ما ظلمهم أهل مكة حين أخرجوهم إلى الحبشة بعد العذاب والإبعاد .

﴿ لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ فيه أربعة أقاويل : أحدها : نزول المدينة ، قاله ابن عباس والشعبي وقتادة .

الثاني : الرزق الحسن ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه النصر على عدوهم ، قاله الضحاك .

الرابع : أنه لسان صدق ، حكاه ابن جرير . ويحتمل قولاً خامساً : أنه ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات .

ويحتمل قولاً سادساً : أنه ما بقي لهم في الدنيا من الثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف .

وقال داود بن إبراهيم : نزلت هذه الآية في أبي جندل بن سهل ، وقال الكلبي : نزلت في بلال وعمار وصهيب وخباب بن الأرتّ عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا في الدنيا ، فلما خلوهم هاجروا إلى المدينة .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما

وعدكم الله في الدنيا ، وما خولكم في الآخرة أكثر ، ثم تلا عليهم هذه الآية . انتهى . ا

هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(201/435)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ إنما قولنا ﴾ الآية ،

(202/435)

" إنما " في كلام العرب هي للمبالغة وتحقيق تخصيص المذكور ، فقد تكون مع هذا حاصرة إذا دل على ذلك المعنى ، كقوله تعالى ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ [النساء : 171] وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم " إنما الربا في النسيئة " وقول العرب : إنما الشجاع عنترة ، فبقي فيها معنى المبالغة فقط ، و ﴿ إنما ﴾ في هذه الآية هي للحصر ، وقاعدة القول في هذه الآية أن تقول ، إن الإرادة والأمر اللذين هما صفتان من صفات الله تعالى القديمة ، هما قديمان أزليان ، وإن ما في ألفاظ هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إنما هو راجع

إلى المراد ، لا إلى الإرادة ، وذلك أن الأشياء المرادة المكونة في وجودها استئناف واستقبال لا في إرادة ذلك ولا في الأمر به ، لأن ذينك قديمان ، فمن أجل المراد عبر ب ﴿ إذا ﴾ وب ﴿ نقول ﴾ ، ويرجع الآن على هذه الألفاظ فتوضح الوجه فيها واحدة واحدة ، أما قوله ﴿ لشيء ﴾ فيحتمل وجهين : أحدهما أن الأشياء التي هي مرادة وقيل لها ﴿ كن ﴾ ، معلوم أن للوجود يأتي على جميعها بطول الزمن وتقدير الله تعالى ، فلما كان وجودها حتماً جاز أن تسمى أشياء وهي في حالة عدم ، والوجه الثاني أن يكون قوله ﴿ لشيء ﴾ تنبيهاً لنا على الأمثلة التي تنظر فيها ، أي إن كل ما تأخذونه من الأشياء الموجودة فإنما سبيله أن يكون مراداً وقيل له ﴿ كن ﴾ فكان ، ويكون ذلك الشيء المأخوذ من الموجودات مثالاً لما يتأخر من الأمور وما تقدم وفني ، فبهذا يتخلص من تسمية المعدوم شيئاً ، وقوله ﴿ أردناه ﴾ منزل منزلة مراد ، ولكنه أتى بهذه الألفاظ المستأنفة بحسب أن الموجودات تجيء وتظهر شيئاً بعد شيء ، فكأنه قال إذا ظهر للمراد منه ، وعلى هذا الوجه يخرج قوله تعالى : ﴿ فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ [التوبة : 105] ، وقوله تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ [آل عمران : 140] ونحو هذا مما معناه ، ويقع منكم ما رآه الله تعالى في الأزل وعلمه ، وقوله ﴿

أن نقول ﴾ منزل منزلة المصدر ، كأنه قال قولنا ، ولكن ﴿ أن ﴾ مع الفعل تعطي استئنافاً ليس في المصدر في أغلب أمرها ، وقد تجيء في مواضع لا يلحظ فيها الزمن كهذه الآية ، وكقوله تعالى ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ [الروم : 25] وغير ذلك ، وذهب أكثر الناس إلى أن الشيء هو الذي يقال له ، كالمخاطب ، وكأن الله تعالى قال في الأزل لجميع ما خلق : ﴿ كن ﴾ بشرط الوقت والصفة ، وقال الزجاج ﴿ له ﴾ بمعنى من أجله ، وهذا يمكن أن يرد بالمعنى إلى الأول ، وذهب قوم إلى أن قوله ﴿ أن نقول ﴾ مجاز ، كما تقول قال برأسه فرفعه وقال بيده فضرب فلاناً ، ورد على هذا المنزع أبو منصور ، وذهب إلى أن الأولى هو الأولى ، وقرأ الجمهور " فيكونُ " برفع النون ، وقرأ ابن عامر والكسائي هنا وفي يس ، " فيكونَ " بنصبها ، وهي قراءة ابن محيصن .

قال القاضي أبو محمد : والأول أبعد من التعقيب الذي يصحب الفاء في أغلب حالها فتأمله ، وفي هذه النبذة ما يطلع منه على عيون هذه المسألة ، وشرط الإيجاز منع من بسط الاعتراضات والانفصالات ، والمقصود بهذه الآية إعلام منكري البعث بهوان أمره على الله وقربه في قدرته لا رب غيره .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾

لما ذكر الله تعالى كفار مكة الذين أقسموا أن الله لا يبعث من يموت ، ورد على قولهم ، ذكر

مؤمني مكة المعاصرين لهم ، وهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح في سبب الآية ، لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية ، وقالت فرقة سبب الآية أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، لأن أمر أبي جندل كان والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وقالت فرقة نزلت في عمار وصهيب وخباب وأصحابهم الذين أوذوا بمكة وخرجوا عنها .

قال القاضي أبو محمد : وعلى كل قول فالآية تتناول بالمعنى كل من هاجر أولاً وآخراً . وقرأ الجمهور "لنبوئنهم" وقرأ ابن مسعود ونعيم بن ميسرة والربيع بن خثيم وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب . "لنثوينهم" وهاتان اللفظتان معناهما التقرير ، فقالت فرقة : الحسنة عِدَةٌ ببقعة شريفة كشف الغيب أنها كانت المدينة ، وإليها كانت الإشارة بقوله ﴿ حسنة ﴾ وقالت فرقة : الحسنة لسان الصدق الباقي عليهم في غابر الدهر .

قال القاضي أبو محمد : وفي ﴿ لنبوئنهم ﴾ أو "لنثوينهم" على هذا التأويل في لسان الصدق تجوز كثير واستعارة بعيدة ، وهذا على أن ﴿ حسنة ﴾ هي المباءة والمثوى ،

وأن الفعل الظاهر عامل فيها ، وقال أبو الفتح : نصبها على معنى نحسن إليهم في ذلك إحساناً ، وجعلت ﴿ حسنة ﴾ موضع إحساناً ، وذهبت فرقة إلى أن الحسنة عامة في كل ما يستحسن أن يناله ابن آدم وتخف الاستعارة المذكورة على هذا التأويل ، وفي هذا القول يدخل ما روي عن عمر بن الخطاب أنه كان يعطي المال وقت القسمة للرجل من المهاجرين ويقول له : خذ ما وعدك الله في الدنيا ، ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ ، ثم يتلو هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : ويدخل في هذا القول النصر على العدو وفتح البلاد ، وكل أمل أبلغه المهاجرون ، و" أجر الآخرة " هنا إشارة إلى الجنة ، والضمير في ﴿ يعلمون ﴾ عائد إلى كفار قريش ، وجواب ﴿ لو ﴾ مقدر محذوف ، ومفعول ﴿ يعلمون ﴾ كذلك ، وفي هذا نظر ، وقوله ﴿ الذين صبروا ﴾ من صفة المهاجرين الذين وعدهم الله ، والصبر يجمع عن الشهوات وعلى المكاره في الله تعالى ، و" التوكل " تتفاضل مراتبه ، فمطيل فيه وذلك مباح حسن ما لم يغل حتى يسبب الهلاك ، ومتوسط يسعى جميلاً ، وهذا مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : " قيدها وتوكل " ، ومقصر لا نفع في تقصيره وإنما له ما قدر له . انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه ، أي إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم ، ولا في غير ذلك مما نحدثه ؛ لأنا إنما نقول له كن فيكون .

قراءة ابن عامر والكسائيّ "فيكونَ" نصباً عطفاً على أن نقول .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون نصباً على جواب "كن" .

الباقون بالرفع على معنى فهو يكون .

وقد مضى القول فيه في "البقرة" مستوفىً .

وقال ابن الأنباريّ : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد .

وفي الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ؛ لأنه لو كان قوله : "كن" مخلوقاً لاحتاج إلى قول ثان ، والثاني إلى ثالث وتسلسل وكان محالاً .

وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ؛ والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين : إما لكونه جاهلاً لا يدري ، وإما لكونه مغلوباً لا يطيق ، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه ، وقد قام

الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشيء وهو غير مريد له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مريداً لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد ؛ وهذا قول الطبيعيين ، وقد أجمع الموّحدون على خلافه وفساده .

قوله تعالى : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾

قد تقدّم في "النِّساء" معنى الهجرة ، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله ، وترك السيئات .

وقيل : "في" بمعنى اللام ، أي لله .

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أي عُذّبوا في الله .

نزلت في صُهَيب وبلال وخبّاب وعمّار ، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا ، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة ؛ قاله الكَلْبِيّ .

وقيل : نزلت في أبي جَنْدل بن سهيل .

وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ؛ ثم بوّأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين .

والآية تعم الجميع .

﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ في الحسنة ستة أقوال : الأوّل نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن والشَّعْبِيّ وقَتادة .

الثاني الرزق الحسن ؛ قاله مجاهد .

الثالث النصر على عدوّهم ؛ قاله الضحاك .

الرابع إنه لسان صدق ؛ حكاه ابن جُرَيج .

الخامس ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات .

السادس ما بقي لهم في الدنيا من الثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف .

وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله ، والحمد لله .

﴿ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ أي ولأجر دار الآخرة أكبر ، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده ؛ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك .

وقيل : هو راجع إلى المؤمنين .

أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما ادّخر لكم في الآخرة أكثر ؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) ﴾

قيل : ﴿ الذين ﴾ بدل من "الذين" الأوّل .

وقيل : من الضمير في "لَنُبَوِّئَنَّهُمْ" وقيل : هم الذين صبروا على دينهم .

﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في كل أمورهم .

وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر ، وإذا عجز عن أمر توكل ؛ قال الله تعالى ﴿ الذين صَبَرُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(207/435)

وقال الخازن :

﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾

يعني أن الله سبحانه وتعالى قادر إذا أراد أن يحيي الموتى ، ويبعثهم للحساب والجزاء فلا

تعب عليه في إحيائهم وبعثهم إنما يقول لشيء أراده كن فيكون على ما أراد لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء أراده (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ويكذبني، وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولداً، وأما تكذيبه إياي فقوله ليس يعيدني كما بدأني " وفي رواية "كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني، ولم يكن له ذلك أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من إعادته وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد " وقوله تعالى ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴾ يعني أوذوا وعذبوا نزلت في بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام إلى الكفر وهم المستضعفون.

فأما بلال فكان أصحابه يخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه، ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر الصديق وأعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين، وأما صهيب فقال لهم إني رجل كبير إن كنت معكم فلن أنفعكم وإن كنت عليكم فلا أضركم فاشترى نفسه بماله فباعوه منه فمر به أبو بكر الصديق.

فقال: يا صهيب ربح البيع.

وأما باقيهم فأعطوهم بعض ما يريدون، فخلوا عنهم.

وقالت قتادة : هم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، فهاجروا إليها وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين فآووهم ونصروهم وواسوهم ، وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين وفضل الهجرة وفيه دليل على أن الهجرة إذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع ، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ومنه حديث " الأعمال بالنيات " وفيه " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " الحديث أخرجاه في الصحيحين من رواية عمر بن الخطاب وقوله تعالى ﴿ لنبوأنهم في الدنيا حسنة ﴾ يعني لنبوأنهم تبوئة حسنة وهو أنه تعالى أنزلهم المدينة ، وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوأنهم في الدنيا داراً حسنة أو بلدة حسنة ، وهي المدينة روي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له : خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم يقول هذه الآية .

وقيل : معناه ليحسنن إليهم في الدنيا بأن يفتح لهم مكة ، ويمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة ، وعلى أهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة في الدنيا التوفيق والهداية في الدين ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ يعني أعظم وأفضل وأشرف مما أعطاهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ قيل : الضمير يرجع إلى الكفار لأن المؤمنين يعلمون ما لهم في الآخرة ، والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن أجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لرغبوا فيه ، وقيل : إنه راجع إلى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم في الآخرة ، لزادوا في الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى الماكرين ﴿ الذين صبروا ﴾ يعني في الله على ما نالهم ، وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ يعني في أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكيل في هذه الآية ، وهما مبدأ السلوك إلى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات ، واحتمال الأذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات والمحرمات والصبر على المصائب ، وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق تعالى بالكلية فالأول هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى ، والثاني هو آخر الطريق ومنتهاه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

لما تقدّم إنكارهم البعث وأكدوا ذلك بالحلف بالله الذي أوجدهم ، ورد عليهم تعالى بقوله : ﴿ بلى ﴾ وذكر حقية وعده بذلك ، أوضح أنه تعالى متى تعلقت إرادته بوجود شيء أوجده .

وقد أقروا بأنه تعالى خالق هذا العالم سمائة وأرضه ، وأن إيجاده ذلك لم يوقف على سبق مادّة ولا آلة ، فكما قدر على الإيجاد ابتداء وجب أن يكون قادراً على الإعادة .

وتقدم تفسير قوله تعالى : كن فيكون في البقرة ، فأغنى عن إعادته .

والظاهر أن اللام في لشيء وفي له للتبليغ ، كقولك : قلت لزيد قم .

وقال الزجاج : هي لام السبب أي : لأجل إيجاد شيء ، وكذلك له أي لأجله .

قال ابن عطية : وما في ألفاظ هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إنما هو راجع إلى المراد ، لا إلى الإرادة .

وذلك أنّ الأشياء المرادة المكونة في وجودها استئناف واستقبال ، لا في إرادة ذلك ، ولا في

الأمر به ، لأن ذينك قديمان .

فمن أجل المراد عبر بإذا ، ونقول : وأما قوله لشيء فيحتمل وجهين : أحدهما : أنه لما كان وجوده حتماً جاز أن يسمى شيئاً وهو في حالة عدم .

والثاني : أن قوله لشيء تنبيه على الأمثلة التي ينظر فيها ، وأنّ ما كان منها موجوداً كان مراداً ، وقيل له : كن فكان ، فصار مثالاً لما يتأخر من الأمور بما تقدّم ، وفي هذا مخلص من تسمية المعدوم شيئاً انتهى .

وفيه بعض تلخيص .

وقال : إذا أردناه منزل منزلة مراد ، ولكنه أتى بهذه الألفاظ المستأنفة بحسب أنّ الموجودات تجيء وتظهر شيئاً بعد شيء ، فكأنه قال : إذا ظهر المراد فيه .

وعلى هذا الوجه يخرج قوله : ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ وقوله : ﴿ ليعلم الذين آمنو منكم ﴾ ونحو هذا معناه يقع منكم ما أراد الله تعالى في الأزل وعلمه ، وقوله : أن نقول ، ينزل منزلة المصدر كأنه قال قولنا ، ولكن أن مع الفعل تعطى استئنافاً ليس في الصدر في أغلب أمرها ، وقد تجيء في مواضع لا يلحظ فيها الزمن كهذه الآية .

وكقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ وغير ذلك انتهى .

وقوله : ولكنْ أنّ مع الفعل يعني المضارع ، وقوله : في أغلب أمرها ليس بجيد ، بل تدل على المستقبل في جميع أمورها .

وأما قوله : وقد تجيء إلى آخره ، فلم يفهم ذلك من دلالة أنْ ، وإنما ذلك من نسبة قيام السماء والأرض بأمر الله ، لأنّ هذا لا يختص بالمستقبل دون الماضي في حقه تعالى .

ونظيره ﴿ إن الله كان على كل شيء قديراً ﴾ فكان تدل على اقتران مضمون الجملة بالزمن الماضي ، وهو تعالى متصف بهذا الوصف ماضياً وحالاً ومستقبلاً ، وتقييد الفعل بالزمن لا يدل على نفيه عن غير ذلك الزمن .

والذين هاجروا قال قتادة : نزلت في مهاجري أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقال داود بن أبي هند : في أبي جندل بن سهيل بن عمرو .

وعن ابن عباس : في صهيب ، وبلال ، وخباب بن الأرت ، وأضرابهم عذبهم المشركون بمكة ، فبوأهم الله المدينة .

وعلى هذا الاختلاف في السبب يتنزل المراد بقوله : والذين هاجروا .

قال ابن عطية : لما ذكر الله كفار مكة الذين أقسموا بأنّ الله لا يبعث من يموت ، ورد على قولهم ذكر مؤمني مكة المعاصرين لهم ، وهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة ، هذا قول الجمهور وهو الصحيح في سبب الآية ، لأنّ هجرة المدينة ما كانت إلا بعد وقت نزول الآية

انتهى .

والذين هاجروا ، عموم في المهاجرين كائناً ما كانوا ، فيشمل أولهم وآخرهم .

وقرأ الجمهور : لنبوأنهم ، والظاهر انتصاب حسنة على أنه نعت لمصدر محذوف يدل عليه الفعل أي : تبوئة حسنة .

(212/435)

وقيل : انتصاب حسنة على المصدر على غير الصدر ، لأنّ معنى لنبوأنهم في الدنيا لنحسنن إليهم ، فحسنة في معنى إحساناً .

وقال أبو البقاء : حسنة مفعول ثان لنبوأنهم ، لأنّ معناه لنعطينهم ، ويجوز أن يكون صفة لمحذوف أي : دار حسنة انتهى .

وقال الحسن ، والشعبي ، وقتادة : داراً حسنة وهي المدينة .

وقيل : التقدير منزلة حسنة ، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموا ، وعلى العرب قاطبة ، وعلى أهل المشرق والمغرب .

وقال مجاهد : الرزق الحسن .

وقال الضحاك : النصر على عدوهم .

وقيل : ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات .

وقيل : ما بقي لهم فيها من الثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف .

وقيل : الحسنة كل شيء مستحسن ناله المهاجرون .

وقرأ عليّ ، وعبد الله ، ونعيم بن ميسرة ، والربيع بن خيثم : لنثوينهم بالثاء المثلثة ، مضارع أثوى المنقول بهمزة التعدية من ثوى بالمكان أقام فيه ، وانتصب حسنة على تقدير إثواة حسنة ، أو على نزع الخافض أي : في حسنة ، أي : دار حسنة ، أو منزلة حسنة .

ودل هذا الإخبار بالمؤكد بالقسم على عظيم محل الهجرة ، لأنه بسببها ظهرت قوة الإسلام كما أنّ بنصرة الأنصار قويت شوكته .

وفي الله دليل على إخلاص العمل لله ، ومن هاجر لغير الله هجرته لما هاجر إليه .

وفي الإخبار عن الذين بجملة القسم المحذوفة الدال عليها الجملة المقسم عليها دليل على صحة وقوع الجملة القسمية خبراً للمبتدأ ، خلافاً لثعلب .

وأجاز أبو البقاء أن يكون الذين منصوباً بفعل محذوف يدل عليه لنبوأنهم ، وهو لا يجوز لأنه لا يفسر إلا ما يجوز له أن يعمل .

ولا يجوز زيداً لأضربن ، فلايجوز زيداً لأضربنه .

وعن عمر رضي الله عنه : أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءه قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أكثر ، ولأجر الآخرة أي : ولأجر الدار الآخرة أكبر ، أي : أكبر أنْ يعلمه أحد قبل مشاهدته كما قال : وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً .

والضمير في يعلمون عائد على الكفار أي : لو كانوا يعلمون أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم .

وقيل : يعود على المؤمنين أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم ، والذين صبروا على تقديرهم الذين ، أو أعني الذين صبروا على العذاب ، وعلى مفارقة الوطن ، لا سيما حرم الله المحبوب لكل قلب مؤمن ، فكيف لمن كان مسقط رأسه ؟ وعلى بذل الروح في ذات الله ، واحتمال الغربة في دار لم ينشأ بها ، وناس لم يألفهم أجانب حتى في النسب . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا ﴾

استئناف لبيان كيفية التكوين على الإطلاق إبداءً وإعادةً بعد التنبيه على آنية البعثِ ، ومنه يظهر كيفيتُه ، فما كافةٌ وقولنا مبتدأ وقوله : ﴿ لِشَىْء ﴾ أي أيِّ شيءٍ كان مما عز وهان متعلقٌ به ، على أن اللامَ للتبليغ كهي في قولك : قلت له قم فقام ، وجعلها الزجاجُ سببيةً أي لأجل شيءٍ وليس بواضح ، والتعبيرُ عنه بذلك باعتبار وجودِه عند تعلق مشيئتِه تعالى به لا أنه كان شيئاً قبل ذلك ﴿ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ ظرفٌ لقولنا أي وقت إرادتِنا لوجوده ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ ﴾ خبر للمبتدأ ﴿ فَيَكُونُ ﴾ إما عطفٌ على مقدر يُفصِح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام ، أي فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى :

(215/435)

﴿ فَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فيَكُونُ ﴾ وإما جوابٌ لشرط محذوف أي فإذا قلنا ذلك فهو يكون ، وليس هناك قولٌ ولا مقولٌ له ولا أمرٌ ولا مأمورٌ حتى يقال إنه يلزم منه أحدُ المُحالين إما خطابُ المعدومِ أو تحصيلُ الحاصل ، أو يقال إنما يستدعيه انحصار قوله تعالى : ﴿ كُنَّ ﴾ وليس يلزم منه انحصارُ أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فإن المرادَ بالأمر هو الشأنُ الشاملُ للقول والفعل ومن ضرورة انحصارِه في كلمة كن انحصارُ أسبابه على الإطلاق فيه بل إنما هو تمثيلٌ لسهولة تأتّي المقدورات حسب تعلقِ مشيئته تعالى بها وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو عَلَمٌ في ذلك من طاعة المأمورِ المطيعِ لأمر الآمر المُطاع ، فالمعنى إنما إيجادُنا لشيء عند تعليق مشيئتِنا به أن نوجدَه في أسرع ما يكون ، ولمّا عنه بالأمر الذي هو قولٌ مخصوصٌ وجب أن يُعبّر عن مطلق الإيجادِ بالقول المطلقِ فتأمل ، وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالةِ ما يحار فيه العقولُ والألباب ، وقرىء بنصب يكون عطفاً على نقول أو تشبيهاً له بجواب الأمر .

﴿ والذين هاجروا فِى الله ﴾

(216/435)

أي في شأن الله تعالى ورضاه وفي حقه ولوجهه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ ولعلهم الذين ظلمهم أهلُ مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا إلى الحبشة ثم بوّأهم الله تعالى المدينةَ حسبما وعد بقوله سبحانه : ﴿ لَنُبَوّئَنَّهُمْ فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ أي مَباءةً حسنةً أو تبوئةً حسنة كما قال قتادة وهو الأنسبُ بما هو المشهورُ من كون السورةِ غيرَ ثلاثِ آياتٍ من آخرها مكيةً . وأما ما نقل عن ابن عباس

رضي الله عنهما من أنها نزلت في صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجُبير وأبي جندل بن سهيل ، أخذهم المشركون فجعلوا يعذّبونهم ليردوهم عن الإسلام ، فأما صهيبٌ فقال لهم : أنا رجل كُبير إن كنت معكم لم أنفعْكم وإن كنت عليكم لم أضرَّكم ، فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال : ربح البيعُ يا صهيب ، وقال عمر رضي الله عنه : "نعم العبدُ صُهيب لو لم يخفِ الله لم يَعْصِه" فإنما يناسب ما حُكي عن الأصم من كون كل السورةِ مدنيةً ، وما نقل عن قتادةَ من كون هذه الآية إلى آخر السورةِ مدنيةً فيُحمل ما نقلناه عنه من نزول الآيةِ في أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولُها بالمدينة بين الهجرتين ، وأما جعلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظمُ التنزيلِ ولا شأنُه الجليل ، وقرىء لَنُثْوِيَنّهم ومعناه إثواءةً حسنةً أو لَنُنزّلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغَلبةُ على من ظلمهم من أهل مكةَ وعلى العرب قاطبةً وأهلِ الشرقِ والغربِ كافة ﴿ وَلَأَجْرُ الآخرة ﴾ أي أجرُ أعمالِهم المذكورةِ في الآخرة ﴿ أَكْبَرَ ﴾ مما يعجّل لهم في الدنيا ، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال له : خُذ بارك الله تعالى لك فيه ، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما ادّخر في الآخرة أفضلُ ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ الضمير للكفار أي لو علموا أن الله تعالى يجمع

لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارين لوافقوهم في الدين ، وقيل : للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجَرة وشدائدِها .

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على الشدائد من أذية الكفار ومفارقةِ الأهل والوطن وغيرِ ذلك ، ومحلُّه النصبُ أو الرفع على المدح ﴿ وعلى رَبّهِمْ ﴾ خاصة ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ منقطعين إليه تعالى معرِضين عما سواه مفوّضِين إليه الأمر كلَّه ، والجملةُ إما معطوفةٌ على الصلة وتقديمُ الجار والمجرور للدِلالة على قصر التوكلِ على الله تعالى وصيغةُ الاستقبال للدلالة على دوام التوكل . أو حالٌ من ضمير صبروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(218/435)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا ﴾

استئناف لبيان التكوين على الإطلاق ابتداء أو إعادة بعد التنبيه على أنية البعث ومنه يعلم كيفيته فما كافة و ﴿ قَوْلُنَا ﴾ مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ لِشَىْء ﴾ متعلق به واللام للتبليغ كما في قولك : قلت لزيد قم فقام ، وقال الزجاج : هي لام السبب أي لأجل إيجاد

شيء ، وتعقب بأنه ليس بواضح والمتبادر من الشيء هنا المعدوم وهو أحد إطلاقاته ، وقد برهن الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة على أن إطلاق الشيء على المعدوم حقيقة كإطلاقه على الموجود وألف ذلك رسالة جليلة سماها جلاء الفهوم ، ويعلم منها أن القول بذلك الإطلاق ليس خاصاً بالمعتزلة كما هو المشهور ، ولهذا أول هنا من لم يقف على التحقيق من الجماعة فقال : إن التعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا أنه كان شيئًا قبل ذلك .

(219/435)

وفي "البحر" نقلاً عن ابن عطية أن في قوله تعالى : ﴿ لِشَىْء ﴾ وجهين : أحدهما : أنه لما كان وجوده حتماً جاز أن يسمى شيئًا وهو في حال العدم ، والثاني : أن ذلك تنبيه على الأمثلة التي ينظر فيها وأن ما كان منها موجوداً كان مراداً وقيل له كن فكان فصار مثالاً لما يتأخر من الأمور بما تقدم ، وفي هذا مخلص من تسمية المعدوم شيئًا اه ، وفيه من الخفاء ما فيه ، وأياً ما كان فالتنوين للتنكير أي لشيء أي شيء كان مما عزوهان ﴿ إِذَا ﴾ ظرف لقولنا أي وقت تعلق إرادتنا بإيجاده ﴿ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ ﴾ في تأويل مصدر خبر للمبتدأ ، والسلام في ﴿ لَهُ ﴾ كاللام في ﴿ لِشَىْء ﴾ ﴿ فَيَكُونُ ﴾ إما عطف على

مقدر يفصح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام أي فنقول ذلك فيكون ، وإما جواب لشرط محذوف أي فإذا قلنا ذلك فهو يكون ، وقيل : إنه بعد تقدير هو تكون الجملة خبراً لمبتدأ محذوف أي ما أردناه فهو يكون ، وكان في الموضعين تامة ، والذي ذهب إليه أكثر المحققين وذكره مقتصراً عليه شيخ الإسلام أنه ليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال : إنه يلزم أحد المحالين أما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل ؛ أو يقال : ﴿ إِنَّمَا ﴾ مستدعية انحصار قوله تعالى في قوله تعالى : ﴿ كُنَّ ﴾ وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فإن المراد بالأمر الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره في كلمة كن انحصار أسبابه على الإطلاق في ذلك بل إنما هو تمثيل لسهولة تأتي المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم في ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع ، فالمعنى إنما إيجادنا لشيء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون ، ولما عبر عنه بالأمر الذي هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الإيجاد بالقول

المطلق .

وقيل : إن الكلام على حقيقته وبذلك جرت العادة الإلهية ونسب إلى السلف ، وأجيب لهم عن حديث لزوم أحد المحذورين تارة بأن الخطاب تكويني ولا ضير في توجهه إلى المعدوم ، وتعقب بأنه قول بالتمثيل وتارة بأن المعدوم ثابت في العلم ويكفي في صحة خطابه ذلك حتى أن بعضهم قال بأنه مرئي له تعالى في حال عدمه ، وتعقب بما يطول ، وأما حديث الانحصار فقالوا إن الأمر فيه هين ، وقد مر بعض الكلام في هذا المقام .

واحتج بعض أهل السنة بالآية بناء على الحقيقة على قدم القرآن قال : إنها تدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له كن فلو كان كن حادثاً لزم التسلسل وهو محال فيكون قديماً ومتى قيل بقدم البعض فليقل بقدم الكل ، وتعقب بأن كلمة إذا لا تفيد التكرار ولذا إذا قال لامرأته : إذا دخلت الدار فأنت طالق فدخلت مرات لا تطلق إلا طلقة واحدة فلا يلزم أن يكون كل محدث محدثاً بكلمة كن فلا يلزم التسلسل على أن القول بقدم ﴿ كُنَّ ﴾ ضروري البطلان لما فيه من ترتب الحروف ، وكذا يقال في سائر الكلام اللفظي .

وقال الإمام : إن الآية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه : الأول : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ يقتضي كون القول واقعاً بالإرادة وما كان كذلك فهو محدث ، والثاني : أنه علق القول بكلمة ﴿ إِذَا ﴾ ولا شك أنها تدخل للاستقبال ، والثالث : أن قوله تعالى : ﴿ إِن نَّقُولُ ﴾ لا خلاف في أنه ينبىء عن الاستقبال .

والرابع : أن قوله سبحانه : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ كن فيه مقدمة على حدوث المكون ولو بزمان واحد والمقدم على المحدث كذلك محدث فلا بد من القول بحدوث الكلام .

نعم إنها تشعر بحدوث الكلام اللفظي الذي يقول به الحنابلة ومن وافقهم ولا تشعر بحدوث الكلام النفسي .

والأشاعرة في المشهور عنهم لا يدعون إلا قدم النفسي وينكرون قدم اللفظي ، وهو بحث أطالوا الكلام فيه فليراجع ، وما ذكر من دلالة ﴿ إِذَا ﴾ و ﴿ نَّقُولُ ﴾ على الاستقبال هو ما ذكره غير واحد ، لكن نقل أبو حيان عن ابن عطية أنه قال : ما في ألفاظ هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إنما هو راجع إلى المراد لا إلى الإرادة ، وذلك أن الأشياء المرادة المكونة في وجودها استئناف واستقبال لا في إرادة ذلك ولا في الأمر به لأن ذينك قديمان فمن أجل المراد عبر بإذا ونقول .

وأنت تعلم أنه لا كلام في قدم الإرادة لكنهم اختلفوا في أنها هل لها تعلق حادث أم لا ؛ فقال بعضهم بالأول ، وقال آخرون : ليس لها إلا تعلق أزلي لكن بوجود الممكنات فيما لا يزال كل في وقته المقدر له .

فالله تعالى تعلقت إرادته في الأزل بوجود زيد مثلاً في يوم كذا وبوجود عمرو في يوم كذا وهكذا ، ولا حاجة إلى تعلق حادث في ذلك اليوم ، وأما الأمر فالنفسي منه قديم واللفظي حادث عن القائلين بحدوث الكلام اللفظي ، وأما الزمان فكثيراً ما لا يلاحظ في الأفعال المستندة إليه تعالى ، واعتبر كان الله تعالى ولا شيء معه وخلق الله تعالى العالم ونحو ذلك ولا أرى هذا الحكم مخصوصاً فيما إذا فسر الزمان بما ذهب إليه الفلاسفة بل يطر في ذلك وفيما إذا فسر بما ذهب إليه المتكلمون فتأمل والله تعالى الهادي .

وجعل غير واحد الآية لبيان إمكان البعث ، وتقريره أن تكوين الله تعالى بمحض قدرته ومشيئته لا توقف له على سبق المواد والمدد وإلا لزم التسلسل ، وكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكيونها إعادة بعده ، وظاهره أنه قول بإعادة المعدوم ، وظواهر كثير من النصوص أن البعث بجمع الأجزاء المتفرقة ، وسيأتي تحقيق ذلك كما وعدناك آنفاً إن شاء الله تعالى .

وقرأ ابن عامر .

والكسائي ههنا وفي يس (82) ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب، وخرجه الزجاج على العطف على ﴿ نَّقُولُ ﴾ أي فإن يكون أو على أن يكون جواب ﴿ كُنَّ ﴾ ، وقد رد هذا الرضي وغيره بأن النصب في جواب الأمر مشروط بسببية مصدر الأول للثاني وهو لا يمكن هنا لاتحادهما فلا يستقيم ذاك، ووجه بأن مراده أنه نصب لأنه مشابه لجواب الأمر لمجيئه بعده وليس بجواب له من حيث المعنى لأنه لا معنى لقولك: قلت لزيد اضرب تضرب.

وتعقب بأنه لا يخفى ضعفه وأنه يقتضي إلغاء الشرط المذكور، ثم قيل: والظاهر أن يوجه بأنه إذا صدر مثله عن البليغ على قصد التمثيل لسرعة التأثير بسرة مبادرة المأمور إلى الامتثال يكون المعنى إن أقل لك اضرب تسرع إلى الامتثال فيكون المصدر المسبب عنه مسبوكاً من الهيئة لا من المادة، ومصدر الثاني من المادة أو محصل المعنى وبه يحصل التغاير بين المصدرين ويتضح السببية والمسببية، وقال بعضهم: إن مراد من قال إن النصب للمشابهة لجواب الأمر أن ﴿ فَيَكُونُ ﴾ كما في قراءة الرفع معطوف على ما ينسحب عليه الكلام أو هو بتقدير فهو يكون خبر لمبتدأ محذوف إلا أنه نصب لهذه المشابهة، وفيه ما فيه.

﴿ والذين هاجروا فِى الله ﴾ أي في حقه ففي على ظاهرها ففيه إشارة إلى أنها هجرة متمكنة تمكن الظرف في مظروفه فهي ظرفية مجازية أو لأجل رضاه ففي للتعليل كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن امرأة دخلت النار في هرة" والمهاجرة في الأصل مصارمة الغير

ومتاركته واستعملت في الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان أي والذين هجروا أوطانهم وتركوها في الله تعالى وخرجوا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أي من بعد ظلم الكفار إياهم .

أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(223/435)

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة فخرجوا من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة بعد ذلك حسبما وعد سبحانه بقوله جل وعلا : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ أي مباءة حسنة ، وحاصله لننزلهم في الدنيا منزلاً حسناً ، وعن الحسن داراً حسنة ، والتقدير الأول أظهر لدلالة الفعل عليه ، والثاني أوفق بقوله تعالى : ﴿ تبوؤا الدَّار ﴾ [الحشر : 9] ، وأياً ما كان فحسنة صفة محذوف منصوب نصب الظروف ، وجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لنبؤئنهم على معنى لنعطينهم منزلة حسنة ، وفسر ذلك بالغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم وعلى العرب قاطبة ، وقيل : هي ما بقي لهم في الدنيا من الثناء وما صار

لأولادهم من الشرف ، وعن مجاهد أن التقدير معيشة حسنة أي رزقاً حسناً ، وقيل : التقدير عطية حسنة ، والمراد بالعطية المعطي ، ويفسر ذلك بكل شيء حسن ناله المهاجرون في الدنيا ، وقدر بعضهم تبوئة حسنة فهو صفة مصدر محذوف ، وقد تعتبر هذه التبوئة بحيث تشمل إعطاء كل شيء حسن صار للمهاجرين على نحو السابق .

وفي "البحر" أن الظاهر أن انتصاب ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ على المصدر على غير الصدر لأن معنى لنبوئنهم لنحسنن إليهم فحسنة بمعنى إحساناً ، وعلى جميع التقادير ﴿ الذين هاجروا ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ خبره .

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ الذين ﴾ منصوب بفعل محذوف يفسره المذكور ، والأول متعين عند أبي حيان قال : وفيه دليل على صحة وقوع الجملة القسمية خبراً للمبتدأ خلافاً لثعلب ، والذي ذهب إليه بعض المحققين أن الخبر في مثل ذلك إنما هو جملة الجواب المؤكدة بالقسم وهي إخبارية لا إنشائية ، واعترض على أبي البقاء في الوجه الثاني بأنه لا يجوز النصب بالفعل المحذوف إلا حيث يجوز للمذكور أن يعمل في ذلك المنصوب حتى يصح أن يكون مفسراً وما هنا ليس كذلك فإنه لا يجوز زيداً لأضربن فلا يجوز زيداً

لأضربنه، والجار والمجرور متعلق بما عنده، وقيل: بمحذوف وقع حالاً من ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ هذا.

ونقل عن ابن عباس أن الآية نزلت في صهيب.

وبلال.

وعمار.

وخباب.

وعابس.

وجبير.

وأبي جندل بن سهيل أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام، فأما صهيب فقال لهم: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضي الله تعالى عنه قال: ربح البيع يا صهيب؛ وقال عمر رضي الله تعالى عنه: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، والجمهور على ما روي عن قتادة بل قال ابن عطية: إنه الصحيح، ولم نجد لهذا الخبر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سنداً يعول عليه.

وذكر العلامة الشيخ بهاء الدين السبكي في شرح التلخيص كغيره من المحدثين مثل الحافظ العلامة زين الدين عبد الرحيم العراقي وولده الفقيه الحافظ أبي زرعة وغيرهما فيما نسب

لعمر رضي الله تعالى عنه فيه من قوله : نعم العبد صهيب إلى آخره أنا لم نجده في شيء من كتب الحديث بعد الفحص الشديد ، وهذا يوقع شبهة قوية في صحة ذلك .

نعم في "الدر المنثور" ، أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في هؤلاء الذين هاجروا : هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ظلمهم ثم قال : وظلمهم الشرك ، لكن يقتضي هذا بظاهره أنه رضي الله تعالى عنه كان يقرأ ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ بالبناء للفاعل .

وأورد على الخبرين أنه قيل : إن السورة مكية إلا ثلاث آيات في آخرها فإنها مدنية ، ويلتزم إذا صح الخبر الذهاب إلى أن فيها مدنياً غير ذلك ، أو القول بأن المراد من المكي ما نزل في حق أهل مكة ، أو أن هذه الآية لم تنزل بالمدينة وأن المكي ما نزل بغيرها ، أو القول بأن ذلك من الإخبار بالشيء قبل وقوعه ، والكل كما ترى ، ولا يرد على القول الأول الذي عليه الجمهور أنه مخالف للقول المشهور في السورة لأن هجرة الحبشة كانت قبل هجرة المدينة فلا

مانع من كون الآية مكية بالمعنى المشهور عليه ، لكن قيل : إن قتادة القائل بما تقدم قائل بأن هذه الآية إلى آخر السورة مدنية وهو آب عما ذكر ، ومن هنا حمل بعضهم ما نقل عنه سابقاً على أن نزولها كان بين الهجرتين بالمدينة ، ولا يمكن الجمع بين هذه الأقوال أصلاً ، والذي ينبغي أن يعول عليه أن السورة مكية إلا آيات ليست هذه منها بل هي مكية نزلت بين الهجرتين فيمن ذكره الجمهور ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، وقال بعضهم : إن الذين هاجروا عام في المهاجرين كائناً من كان فيشمل أولهم وآخرهم وكان هذا من قائله اعتبار لعموم اللفظ لا لخصوص السبب كما هو المقرر عندهم .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وعبد الله رضي الله تعالى عنه .

ونعيم بن ميسرة .

والربيع بن خيثم لنثوينهم بالثاء المثلثة من أثوى المنقول بهمزة التعدية من ثوى بالمكان أقام فيه ، قال في "البحر" .

وانتصاب ﴿ حَسَنَةً ﴾ على تقدير اثواءة حسنة أو على نزع الخافض أي في حسنة أي دار حسنة أو منزلة حسنة ولا مانع على ما قيل من اعتبار تضمين الفعل معنى نعطيهم كما أشير إليه أولا .

واستدل بالآية على أحد الأقوال على شرف المدينة وشرف إخلاص العمل لله تعالى ﴿ وَلَأَجْرُ الآخرة ﴾ أي أجر أعمالهم المذكورة في الدار الآخرة ﴿ أَكْبَرَ ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا .

أخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءً يقول له : خذ بارك الله تعالى لك هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما أخر لك في الآخرة أفضل ثم يقرأ هذه الآية ، وقيل : المراد أكبر من أن يعلمه أحد قبل مشاهدته ، ولا يخفى ما في مخالفة أسلوب هذا الوعد لما قبله من المبالغة ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ الضمير للكفرة الظالمين أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين ، وقيل : هو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في الاجتهاد ولما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها ولازدادوا سروراً .

وفي المعالم لا يجوز ذلك لأن المهاجرين يعلمونه ودفع بأن المراد علم المشاهدة وليس الخبر كالمعاينة أو المراد العلم التفصيلي .

وجوز أن يكون الضمير للمتخلفين عن الهجرة يعني لو علم المتخلفون عن الهجرة ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم .

(227/435)

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على ما نالهم من الظلم ولم يرجعوا القهقرى وعلى مفارقة الوطن وهو حرم الله سبحانه المحبوب لكل مؤمن فضلاً عمن كان مسقط رأسه وعلى احتمال الغربة بين أناس أجانب في النسب لم يألفهم وعلى غير ذلك ، ومحل الموصول النصب بتقدير أعني أو الرفع بتقدير هم ويجوز أن يكون تابعاً للذين هاجروا بدلاً أو بياناً أو نعتاً ﴿ وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ منقطعين إليه معرضين عمن سواه مفوضين إليه الأمر كله كما يفيده حذف متعلق التوكل ، وقيل : تقديم الجار والمجرور المؤذن بالحصر وكونه لرعاية الفواصل غير متعين ، وصيغة الاستقبال إما للاستمرار أو لاستحضار تلك الصورة البديعة ، والجملة إما معطوفة على الصلة أو حال من ضمير ﴿ صبروا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(228/435)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) ﴾

قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ الآية هذا جواب شبهة أخرى لمنكري النبوّة ، فإنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادّعاء النبوّة فقال : ﴿ هل ينظرون ﴾ في تصديق نبوّتك ﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ شاهدين بذلك .

ويحتمل أن يقال : إنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأوّلين أوعدهم الله بقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبّكَ ﴾ أي : عذابه في الدنيا المستأصل لهم ، أو المراد بأمر الله القيامة .

وقرأ الأعمش ، وابن وثاب ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف " إلا أن يأتيهم الملائكة " بالياء التحتية وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية .

والمراد بكونهم ﴿ ينظرون ﴾ أي : ينتظرون إتيان الملائكة أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب ، وصار منتظراً له ، وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة ، فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصدّقونه ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا

من قبلهم من طوائف الكفار ، فأتاهم أمر الله فهلكوا ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ﴾ بتدميرهم بالعذاب ، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ﴿ ولكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بما ارتكبوه من القبائح .

وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يئول .

وجملة ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ معطوفة على ﴿ فعل الذين من قبلهم ﴾ ، وما بينهما اعتراض .

(229/435)

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله ، والمعنى : فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ، أو جزاء أعمالهم السيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي : نزل بهم على وجه الإحاطة ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي : العذاب الذي كانوا به يستهزئون ، أو عقاب استهزائهم .

﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ هذا نوع آخر من كفرهم الذي حكاه الله عنهم .

والمراد بالذين أشركوا هنا .

أهل مكة ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : لو شاء عدم عبادتنا لشيء

غيره ما عبدنا ذلك ﴿ نَّحْنُ وَلَا ءابَاؤُنَا ﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من دين الكفر والشرك بالله.

قال الزجاج: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين.

وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة الأنعام ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ من السوائب والبحائر ونحوهما، ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة: الطعن في الرسالة، أي: لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله، والمنع من تحريم ما لم يحرّمه الله حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا فإنه قد شاء ذلك، وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك دليلاً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرّون به لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من طوائف الكفر، فإنهم أشركوا بالله وحرّموا ما لم يحرّمه، وجادلوا رسله بالباطل واستهزءوا بهم، ثم قال: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل ﴾ الذين يرسلهم الله إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التي رأسها توحيده، وترك الشرك به ﴿ إِلاَّ البلاغ ﴾ إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه

بلاغاً واضحاً يفهمه المرسل إليهم ولا يلتبس عليهم.

ثم إنه سبحانه أكد هذا، وزاده إيضاحاً فقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15] و"أن" في قوله: ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ إما مصدرية أي: بعثنا بأن اعبدوا الله، أو مفسرة؛ لأن في البعث معنى القول: ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ أي: اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان، والكاهن، والصنم، وكل من دعا إلى الضلال.

﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي: من هذه الأمم التي بعث الله إليها رسله ﴿ مَّنْ هَدَى الله ﴾ أي: أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ أي: وجبت وثبتت، لإصراره على الكفر والعناد.

(231/435)

قال الزجاج: أعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ [الأعراف: 30].

وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان، وكل ما يدعو

إلى الضلال ، وأنهم بعد ذلك فريقان : فمنهم من هدى ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان ، ولا يريد الهداية إلّا للبعض ، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد ، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا .

﴿ فَسِيرُواْ فِى الأَرض ﴾ سير معتبرين ﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود ، أي : كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان .

بالعذاب ثم خصص الخطاب برسوله صلى الله عليه وسلم مؤكداً لما تقدّم فقال : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ ﴾ أي : تطلب بجهدك ذلك ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ قرأ ابن مسعود وأهل الكوفة : ﴿ لا يهدي ﴾ بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى الله سبحانه ، أي : فإن الله لا يرشد من أضله ، و ﴿ من ﴾ في موضع نصب على المفعولية .

وقرأ الباقون "لا يهدي" بضم حرف المضارعة على أنه مبني للمجهول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم على معنى أنه لا يهديه هادٍ كائناً من كان .

و ﴿ من ﴾ في موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف ، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله في الآية الأخرى ﴿ مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : 186] .

والعائد على القراءتين محذوف ، أي : من يضله .

وروى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى ﴿ لَّا يَهِدِّى ﴾ لا يهتدي كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّى إِلَّآ أَن يهدى ﴾ [يونس : 35] .

بمعنى يهتدي .

(232/435)

قال أبو عبيد : ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء ، وليس بمتهم فيما يحكيه .

قال النحاس : حكي عن محمد بن يزيد المبرد ، كأن معنى ﴿ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ من علم ذلك منه ، وسبق له عنده ﴿ وَمَا لَهُم مِّن ناصرين ﴾ ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله ، أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم .

ثم ذكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ مصدر في موضع الحال أي : جاهدين ﴿ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ من عباده ، زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات ، فردّ الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ بلى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ هذا إثبات لما بعد النفي ، أي : بلى يبعثهم ، و ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لما دلّ عليه " بلى " وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله وعد عباده به .

والتقدير : وعد البعث وعداً عليه حقاً لا خلف فيه ، و ﴿ حقاً ﴾ صفة ل ﴿ وعد ﴾ ، وكذا ﴿ عليه ﴾ فإنه صفة ل ﴿ وعدا ﴾ أي : كائناً عليه ، أو نصب حقاً على المصدرية : أي حق حقاً ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير .

وقوله ﴿ لِيُبَيّنَ لَهُمُ ﴾ أي : ليظهر لهم ، وهو غاية لما دلّ عليه " بلى " من البعث ، والضمير في ﴿ لَهُمْ ﴾ راجع إلى من يموت ، والموصول في قوله : ﴿ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ في محل نصب على أنه مفعول ليبين ، أي : الأمر الذي وقع الخلاف بينهم فيه ، وبيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل ، ونزلت عليهم فيه كتب الله .

وقيل : إن ﴿ ليبين ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾ أي : بعثنا في كل أمة رسولاً ليبين وهو بعيد ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالله سبحانه ، وأنكروا البعث ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كاذبين ﴾ في جدالهم وإنكارهم البعث بقولهم : ﴿ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ .

(233/435)

وجملة ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه .

قال الزجاج : أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان ، وهذا كقوله : ﴿ وَإِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] .

وقرأ ابن عامر ، والكسائي ﴿ فيكون ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ أن نقول ﴾ .

قال الزجاج : يجوز أن يكون نصباً على جواب ﴿ كن ﴾ .

وقرأ الباقون بالرفع على معنى : فهو يكون .

قال ابن الأنباري : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق ، لأنه بمنزلة ما قد وجد وشوهد .

وقال الزجاج : إن معنى "لشيء" لأجل شيء فجعل اللام سببية .

وقيل : هي لام التبليغ ، كما في قولك : قلت له قم فقام ، و ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا ﴾ مبتدأ و ﴿ أَنْ نَّقُولَ لَهُ كُنْ ﴾ خبره ، وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى : أنه لا يمتنع عليه شيء ، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع ، وليس هناك قول ولا مقول له ، ولا أمر ، ولا مأمور حتى يقال : إنه يلزم منه أحد محالين ، إما خطاب المعدوم ، أو تحصيل الحاصل .

وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿

هَل يَنظُرُونَ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ قال : بالموت ، وقال في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُوا الملئكة ﴾ [الأنفال : 50] ، وهو ملك الموت ، وله رسل ﴿ أَوْ يَأْتِى أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ وذاكم يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ قال : من يضله الله لا يهديه أحد .

(234/435)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت ، فأنزل الله ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيمانهم لا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ الآية .

وأخرج ابن العقيلي ، وابن مردويه عن عليّ في قوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيمانهم لا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ قال : نزلت فيّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر عن أبي هريرة ، قال : "قال الله تعالى : سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، أما تكذيبه إياي ، فقال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ ، وقلت : ﴿ بلى وعداً عليه حقاً ﴾ وأما سبه إياي ، فقال : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [المائدة : 73] ، وقلت : ﴿ [قل] هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [سورة الإخلاص 1 – 4] ، هكذا ذكره أبو هريرة موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ يقول : للناس عامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(235/435)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه لا يتعاصى على قدرته شيء ، وإذ يقول للشيء "

كن " فيكون بلا تأخير . وذلك أن الكفار لما ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 83] ، ورد الله عليهم كذبهم بقوله : ﴿ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ [النحل : 83] بين أنه قادر على كل شيء ، وأنه كلما قال لشيء " كن " كان .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله في الرد على من قال ﴿ يُحيي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله : " كن " بل إذا قال للشيء " ككن " مرة واحدة ، كان في أسرع من لمح البصر – في قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ [القمر : 50] ، ونظيره قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ [النحل : 77] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] الآية ، وقال : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 28] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وعبر تعالى عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء . لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل . فلا تنافي الآية إطلاق الشيء على خصوص الموجود دون المعدوم . لأ ، ه لما سبق في علم الله أنه يوجد ذلك الشيء ، وانه يقول له كن فيكون – كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه . أو لأنه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع ، كتسمية العصير خمراً في قوله : ﴿ إني أراني أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : 36] – نظراً إلى ما يؤول إليه في ثاني حال . وقرأ هذا الحرف ابن عامر والكسائي " فيكون " بفتح النون منصوباً بالعطف على قوله : أن نقول . زقيل : منصوب بأن المضمرة بعد الفاء في جواب الأمر . وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي فهو يكون . ولقد أجاد من قال :

إذا ما اراد الله أمراً فإنما . . . يقول له كن قوله فيكون

واللام في قوله : " لشيء " وقوله : " له " للتبليغ . قاله أبو حيان . انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(237/435)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

هذه الجملة متّصلة بجملة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [سورة النحل : 38] لبيان أنّ جهلهم بمَدى قدرة الله تعالى هو الذي جرّأهم على إنكار البعث واستحالته عندهم ، فهي بيان للجملة التي قبلها ولذلك فُصلت ، ووقعتْ جملة ﴿ ليبين لهم الذين يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا ﴾ [سورة النحل : 39] إلى آخرها اعتراضاً بين البيان والمبيّن .

والمعنى أنه لا يتوقف تكوين شيء إذا أراده الله إلا على أن تتعلّق قدرته بتكوينه .

وليس إحياء الأموات إلا من جملة الأشياء ، وما البعث إلا تكوين ، فما بَعْث الأموات إلا من جملة تكوين الموجودات ، فلا يخرج عن قدرته .

وأفادت ﴿ إنّما ﴾ قصراً هو قصر وقوع التّكوين على صدور الأمر به ، وهو قصر قلب لإبطال اعتقاد المشركين تعذّر إحياء الموتى ظنّاً منهم أنّه لا يحصل إلا إذا سلمت الأجساد من الفساد كما تقدم آنفاً ، فأريد بـ ﴿ قولنا لشيء ﴾ تكوينُنا شيئاً ، أي تعلّق القدرة بخلق شيء .

وأريد بقوله : ﴿ إذا أردناه ﴾ إذا تعلّقت به الإرادة الإلهية تعلّقاً تنجيزياً ، فإذا كان سبب التكوين ليس زائداً على قول ﴿ كن ﴾ فقد بطل تعذّر إحياء الموتى .

ولذلك كان هذا قصر قلب لإبطال اعتقاد المشركين .

والشيء : أُطلق هنا على المعدوم باعتبار إرادة وجوده ، فهو من إطلاق اسم ما يؤول إليه ، أو المرادُ بالشيء مطلق الحقيقة المعلومة وإن كانت معدومة ، وإطلاق الشيء على المعدوم

مستعمل .

و ﴿ أن نقول له كن ﴾ خبر عن ﴿ قولنا ﴾ .

والمراد بقول ﴿ كن ﴾ توجّه القدرة إلى إيجاد المقدور .

عُبر عن ذلك التوجّه بالقول بالكلام كما عبّر عنه بالأمر في قوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [سورة يس : 82] وشبّه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور ، وشبّه انفعال الممكن لأمرِ التكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر .

وكلّ ذلك تقريب للناس بما يعقلون ، وليس هو خطاباً للمعدوم ولا أن للمعدوم سمعاً يعقل به الكلام فيمتثل للآمر .

و(كَان) تامة .

وقرأ الجمهور فيكون ﴾ بالرفع أي فهو يكون ، عطفاً على الخبر وهو جملة ﴿ أن نقول ﴾ .

وقرأ ابن عامر والكسائي بالنصب عطفاً على ﴿ نقول ﴾ ، أي أن نقول له كُن وأن يكون .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾

لما ثبتت حكمة البعث بأنها تبيين الذي اختلف فيه الناس من هدى وضلالة ، ومن ذلك

أن يتبين أن الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين يعلم منه أنّه بتبيين بالبعث أن الذين آمنوا كانوا صادقين بدلالة المضادة وأنهم مثابون ومكرمون .

فلما علم ذلك من السياق وقع التصريح به في هذه الآية .

وأدمج مع ذلك وعدهم بحسن العاقبة في الدنيا مقابلة وعيد الكافرين بسوء العاقبة فيها الواقع بالتعّريض في قوله تعالى : ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [سورة النحل : 36] .

فالجملة معطوفة على جملة ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ [سورة النحل : 39] .

والمهاجر : متاركة الدّيار لغرض ما .

وفي ﴾ مستعملة في التّعليل ، أي لأجل الله .

والكلام على تقدير مضاف يظهر من السّياق .

تقديره : هاجروا لأجل مرضاة الله .

وإسناد فعل ﴿ ظلموا ﴾ إلى المجهول لظهور الفاعل من السّياق وهو المشركون .

والظلم يشمل أصناف الاعتداء من الأذى والتعذيب .

والتبوئة : الإسكان .

وأطلقت هنا على الجزاء بالحسنى على المهاجرة بطريق المضادّة للمهاجرة ، لأن المهاجرة

الخروج من الدّيار فيضادّها الإسكان .

وفي الجمع بين ﴿ هاجروا ﴾ و ﴿ لنبوئنهم ﴾ محسّن الطباق .

والمعنى : لنجازينّهم جزاءً حسناً .

فعبر عن الجزاء بالتّبوئة لأنه جزاء على ترك المباءة .

و ﴿ حسنة ﴾ صفة لمصدر محذوف جار على "نبوئنهم" ، أي تبوئة حسنة .

(239/435)

وهذا الجزاء يجبر كل ما اشتملت عليه المهاجرة من الأضرار التي لقيها المهاجرون من مفارقة ديارهم وأهليهم وأموالهم ، وما لاقَوْه من الأذى الذي ألجأهم إلى المهاجرة من تعذيب واستهزاء ومَذلّة وفتنة ، فالحسنة تشتمل على تعويضهم ديارا ًخيرا ًمن ديارهم ، ووطناً خيراً من وطنهم ، وهو المدينة ، وأموالاً خيراً من أموالهم ، وهي ما نالوه من المغانم ومن الخراج.

روي أن عُمر رضي الله عنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له : "هذا ما وعدك ربّك في الدنيا ، وما ذخر لك في الآخرة أكبر" ؛ وغلبة لأعدائهم في الفتوح وأهمّها فتح مكّة ، وأمناً في حياتهم بما نالوه من السلطان ، قال تعالى : ﴿ وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا

﴾ [سورة النور : 55] .

وسبب النزول الذين هاجروا إلى أرض الحبشة من المسلمين لا محالة ، أو الذين هاجروا إلى المدينة الهجرة الأولى قبل هجرة النبي وبقية أصحابه رضي الله عنهم مثل مصعب بن عمير وأصحابه إن كانت هذه الآية نازلة بعد الهجرة الأولى إلى المدينة .

وكلا الاحتمالين لا ينافي كون السورة مكّية .

ولا يقتضي تخصيص أولئك بهذا الوعد .

ثم أعقب هذا الوعد بالوعد العظيم المقصود وهو قوله : ولأجر الآخرة أكبر ﴾ .

ومعنى ﴿ أكبر ﴾ أنّه أهمّ وأنفع .

وإضافته إلى ﴿ الآخرة ﴾ على معنى (في) ، أي الأمر الذي في الآخرة .

وجملة ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ معترضة ، وهي استئناف بياني ناشىء عن جملة الوعد كلّها ، لأن ذلك الوعد العظيم بخير الدنيا والآخرة يثير في نفوس السامعين أن يسألوا كيف لم يقتدِ بهم من بقوا على الكفر فتقع جملة ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ بياناً لما استبهم على السّائِل .

والتقدير : لو كانوا يعلمون ذلك لاقتدوا بهم ولكنّهم لا يعلمون .

فضمير ﴿ يعلمون ﴾ عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ [سورة النحل : 39] .

ويجوز أن يكون السؤال المثار هو : كيف يحْزن المهاجرون على ما تركوه من ديارهم وأموالهم وأهليهم ، فيكون : المعنى لو كان المهاجرون يعلمون ما أعدّ لهم عِلم مشاهدة لما حزِنوا على مفارقة ديارهم ولكانت هجرتهم عن شوق إلى ما يلاقونه بعد هجرتهم ، لأن تأثير العلم الحسّي على المزاج الإنساني أقوى من العلم العقلي لعدم احتياج العلم الحسّي إلى استعمال نظر واستدلال ، ولعدم اشتمال العلم العقلي على تفاصيل الكيفيات التي تحبّها النفوس وترتمي إليها الشهوات ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [سورة البقرة : 260] .

فليس المراد بقوله تعالى : لو كانوا يعلمون ﴾ لو كانوا يعتقدون ويؤمنون ، لأن ذلك حاصل لا يناسب موقع ﴿ لو ﴾ الامتناعية .

فضمير ﴿ يعلمون ﴾ على هذا "للذين هاجروا" .

وفي هذا الوجه تتناسق الضمائر .

و ﴿ الذين صبروا ﴾ صفة "للذين هاجروا" .

والصبر : تحمّل المشاقّ .

والتّوكّل : الاعتماد .

وتقدم الصبر عند قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ أوائل سورة البقرة (45

) .

والتوكل عند قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ في سورة آل عمران (159

) .

والتعبير في جانب الصبر بالمضي وفي جانب التوكّل بالمضارع إيماء إلى أن صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه ، وأن الله قد جعل لهم فرجاً بالهجرة الواقعة والهجرة المترقّبة .

فهذا بشارة لهم .

وأنّ التوكّل ديدنهم لأنهم يستقبلون أعمالاً جليلة تتمّ لهم بالتوكّل على الله في أمورهم فهم يكرّرونه .

وفي هذا بشارة بضمان النجاح .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [سورة الزمر : 10] .

وتقديم المجرور في قوله تعالى : وعلى ربهم يتوكلون ﴾ للقصر ، أي لا يتوكّلون إلاّ على ربّهم دون التوكّل على سادة المشركين وولائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضمّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهي (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومُزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً ، كل واحد منتظرٌ دوره ، منتظر الإشارة ؛ ولذلك جاء في الخبر : " أمور يبديها ولا يبتديها " .

فالأمر يتوقف على الإذن : اظهر يظهر .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين . . تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذي وُضِع فيها ، ثم تنفجر دون تدخُّل من صناعها . . مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها في الإذن . . وإن كان الأمر في حقِّه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي الله . . . ﴾ .

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظلم والاضطهاد في سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحِّي الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا

إذا كان لأمر يقينيّ .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذي أنكره الكافرون وألَّحوا في إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ . . ﴾ [النحل : 38] .

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسيء ، ومنهم من يُحسِن ، فهل يعتقدون في عُرْف العقل أن يتركَ الله من أساء ليُعربد في خَلْق الله دون أن يُجازيه ؟

(242/435)

ذلك يعني أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمنَّوا البعث ، أمَا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفِقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعي أنْ يُنكروا البعث ، ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأماني الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذي يدفعهم إلى التضحية في سبيل هذا الإيمان . . إذن : لا بُدَّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينشر الإسلام في بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظَانٌّ أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا . . هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة . . إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبارَ الصناديدَ العتاة .

وكان من الممكن أن ينصرَ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلي كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحةُ الإيمانية في مكَّة أولاً ؛ لأن مكة مركز السيادة في جزيرة العرب ، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أيّ قبيلة في الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالوا : إن الإسلام استضعفَ جماعة من الناس ، وأغرَاهم بالقول حتى آمنوا به . لا ، فالصيحة الإسلاميةُ جاءت في أُذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين أمّنهم الله في رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه في بلد السادة ؟ نقول : لا . . الصيحة في أذن الباطل تكون في بلد السادة في مكة ، لكن نُصْرة الدين لا تأتي على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتي في المدينة .

وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد في مكة فرضتْ الإيمان بمحمد .

. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانتْ لها قريش نفسها .

وما دامت هناك معركة ، فمَن المطحون فيها ؟ المطحون فيها هو الضعيف الذي لا يستطيع أنْ يحميَ نفسه . . وهؤلاء هم الذين ظُلِموا . . ظُلِموا في المكان الذي يعيشون فيه ؛ ولذلك كان ولا بُدّ أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .

وقد جاء رَفْع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل . . فكانت المرحلة الأولى أن ينتقلَ المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نَشْر دينهم ، بل إلى دار أَمْن فقط يأمنون فيها على دينهم . . مجرد أَمْن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .

ولذلك استعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد كلها لينظر أيّ الأماكن تصلح دار أَمْن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : " إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه " .

وتكفي هذه الصفة في ملك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففي هذه المرحلة من نُصْرة الدين

لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسَّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقَوْا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على النُّصْرة والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهي هجرةُ هذه المرة إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره في رُبُوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ والذين هَاجَرُواْ . . . ﴾ [النحل : 41] .

ومادة هذا الفعل : هجر . . وهناك فَرْق بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ في مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى انه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يكرهه على الهجرة . . أي المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهي تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التي حدثتْ من القوم هي التي اضطرتْه للهجرة . . وهذا ما حدث في هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلاَّ بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظُّلْم ،

فكأنهم بذلك شاركوا في الفعل، فلو لم يتعرَّضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ . . . ﴾ [النحل : 41] .

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبي :

إِذَا ترحلْتَ عن قَوْمٍ وَقَدْ قَدرُوا . . . ألاَّ تُفَارِقهم فَالرَّاحِلُون هُمُوا

يعني : إذا كنت في جماعة وأردْتَ الرحيل عنهم، وفي إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما يُيسِّر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا، وتركوك ترحل مع مقدرتهم، فالراحلون في الحقيقة هم، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذي يتمنى كل مسلم الإقامة في جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا عليه، وطبيعي إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ثم يعودون للإقامة ثانية في مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي الله . . . ﴾ [النحل : 41] .

ونلاحظ في الحديث الشريف الذي يوضح معنى هذه الآية : " فمن كانت هجرته إلى الله

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

فما الفرق هنا بين : هاجر في الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذي هاجر إليه افضل من الذي تركه ، وكأن الذي هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر في الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً في الله . . إقامتهم نفسها في مكة وتحمُّلهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت أيضاً في الله .

أما لو قالت الآية " هاجروا إلى الله " لدلَّ ذلك على أن إقامتهم الأولى لم تكن لله . . إذن : معنى الآية :

﴿ هَاجَرُواْ فِي اللهِ . . . ﴾ [النحل : 41] .

أي : أن إقامتهم كانت لله ، وهجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ [آل عمران : 133]

.

أي : إذا لم تكونوا في مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفي الآية الأخرى : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . ﴾ [المؤمنون : 61] .

ذلك لأنهم كانوا في خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر . . أي : أنتم في خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملمح آخر في قوله تعالى :

﴿ والذين هَاجَرُواْ . . ﴾ [النحل : 41] .

نلاحظ أن كلمة " الذين " جمع . . لكن هل هي خاصة بمَنْ نزلت فيهم الآية ؟ أم هي عامة في كُلِّ مَنْ ظُلِم في أيِّ مكان في الله ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي عامة في كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت في نفر من الصحابة منهم : صُهيب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِمَّن اضطروا إلى الهجرة فِراراً بدينهم .

" ونعلم قصة صهيب رضي الله عنه وكان رجلاً حداداً لما أراد أنْ يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السِّنِ ، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم ، وإنْ كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندي مال . . خذوه واتركوني أهاجر ، فرضَوْا بذلك ، وأخذوا مال صُهَيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له صلى الله عليه وسلم : " ربح البيع يا صُهَيْب "

أي : بيعة رابحة .

(246/435)

ويقول له عمر رضي الله عنه : " نِعْم العبدُ صُهيب ، لو لم يخَفِ الله لم يَعْصِه " .

وكأن عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حُبّاً في الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أنْ يُعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً . . ﴾ [النحل : 41] .

نبوِّئ ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت . . ﴾ [الحج : 26] .

أي : بيَّنا له مكانه ، ونقول : باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعي في مناكب الأرض في زراعة أو تجارة ، ثم يأوي ويبوء إلى بيته ، إذن : باء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدَّه الله له .

فإنْ كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحِلهم ونُنزِلهم منزلةً أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مُضطهدين في مكة ، فأصبحوا آمنين في

المدينة ، وإنْ كانوا تركوا بلدهم فسوف نُمهّد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنُون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزّة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الأوثان والأصنام . . هذه هي الحسنة في الدنيا .

ثم يقول تعالى :

﴿ ولأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ . . ﴾ [النحل : 41] .

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أنْ تفارقها ، وإما أن تُفارقك ، وقد أنجز الله وَعْده للمؤمنين في الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانتْ لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا في الشرق في فارس ، وفي الغرب في الرومان ، وفي نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإنْ كانت هذه هي حسنة الدنيا المعَجّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

﴿ ولأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ . . . ﴾ [النحل : 41] .

أي : أن ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه في الدنيا .

ولذلك كان سيدنا عمر رضي الله عنه إذا أعطى أحد الصحابة نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : " بارك الله لك فيه . . هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة اكبر من هذا " . فهذه حسنة الدنيا .

﴿ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ . . ﴾ [النحل : 41] .

وساعة أنْ تسمع كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التي بوّأهم الله إياها هي (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم في الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغة أُفعل التفضيل أقلَّ في المدح من غير أفعل التفضيل . . فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) في حين أن الأكبر صفةٌ من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفي شعار ندائنا لله نقول : الله اكبر ولا نقول : الله كبير . . ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً . . إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيرا ، فنقول في الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا في حَقِّ المؤمن كبيرة من حيث هي وسيلة للآخرة .

فإياك أنْ تظنَّ أن حركةَ الدنيا التي تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هي كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تأكل وتشرب وتتقوّى ، وبها تجمع المالِ لتسُدَّ به حاجتك ، وتُؤدِّي الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدي الله أكبر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ يا أَيُّها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع . . ﴾ [الجمعة : 9] .

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله . . . ﴾ [الجمعة : 10] .

(248/435)

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة ؛ لأنها الوسيلة للدار الآخرة ، والمزرعة التي نُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى . . إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسَى من حيث هي معونة للآخرة ، ولكنها أتفه من أن تكونَ غاية في حَدّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . . ﴾ [النحل : 41] .

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أنْ يُراد به الكافرون . . ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون . . ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا في عمل الخير .

وأخيراً قد يُرَاد به المؤمن الذي لم يهاجر . . ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة

لسارع إليها .

وهذه الأوجه التي يحتملها التعبير القرآني دليل على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تربيب الفوائد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين صَبَرُواْ . . . ﴾ .

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحاً لحال المهاجرين ، فقد ظُلِموا واضْطهِدوا وأُوذُوا في سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن دينهم ، بل صبروا وتحمَّلوا ، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم ، وتركوا بلدهم وأرضهم في سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم اتكالاً على أن الله تعالى لن يُضيِّعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآني هكذا ﴿ صَبَرُواْ ﴾ بصيغة الماضي ، فقد حدث منهم الصبر فعلاً ، كأن الإيذاء الذي صبروا عليه فترة مضتْ وانتهت ، والباقي لهم عِزّة ومنَعة وقوة لا يستطيع أحد أنْ يضطهدهم بعد ذلك ، وهذه من البشارات في الأداء القرآني .

أما في التوكل ، فقال تعالى في حقهم :

﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : 42] .

بصيغة المضارع ؛ لأن التوكُّل على الله حدث منهم في الماضي ، ومستمرون فيه في الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

أخرج أحمد والترمذي وحسنه ، وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان – واللفظ له – عن أبي ذر ، عن رسول الله قال : " يقول الله : يا ابن آدم ، كلكم مذنب إلا من عافيت . . فاستغفروني أغفر لكم . وكلكم فقراء إلا من أغنيت ، فسلوني أُعْطِكُم . وكلكم ضال إلا من هديت ، فسلوني الهدى أهدكم . ومن استغفرني وهو يعلم أني ذو قدرة على أن أغفر له ، غفرت له ولا أبالي . ولو أن أوّلكم وآخركم وحيّكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أشقى واحد منكم ، ما نقص ذلك من سلطاني مثل جناح بعوضة . ولو أن أوّلكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أتقى واحد منكم ، ما زادوا في سلطاني مثل جناح بعوضة . ولو أن أوّلكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منكم ، فأعطيتهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي كغرز إبرة غمسها أحدكم في البحر ، وذلك أني جواد ماجد واجد عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له ﴿ كن فيكون ﴾ " .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴾ قال: إنهم قوم من أهل مكة، هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ظلمهم، ظَلَمَهُمُ المشركون.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم، عن داود بن أبي هند قال: نزلت ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا . . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ في أبي جندل بن سهيل.

(250/435)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴾ قال: هؤلاء أصحاب محمد، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ قال: أي والله لما يثيبهم عليه من جنته ونعمته ﴿ أكبر لو كانوا يعلمون ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي في قوله: ﴿ لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ﴾ قال: المدينة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ﴾ قال : لنرزقنهم في الدنيا رزقاً حسناً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبان بن تغلب قال : كان الربيع بن خثيم يقرأ هذا الحرف في النحل ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ ويقرأ في العنكبوت (لَنَثْوِيَنَّهُمْ من الجنة غرفا) [العنكبوت : 58] ويقول : التَّنَبُّؤ في الدنيا والثواء في الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب : أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول : خذ . . . بارك الله لك ، هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادّخر لك في الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(251/435)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ قد تقدَّم ذلك في البقرة . واللامُ في " لِشيءٍ " وفي " له " لامُ التبليغِ كهي في : " قلت له قم " . وجعلها الزجاج للسببِ فيهما ، أي : لأجل شيءٍ ، أَنْ

نقولَ لأجلِه، وليس بواضح . وقال ابن عطية : " وقوله تعالى ﴿ أَن نَّقُولَ ﴾ يُنَزَّل مَنْزِلةَ المصدرِ، كأنه قال: قولُنا، ولكنّ " أنْ " مع الفعلِ تعطي استقبالاً ليس في المصدر في أغلبِ أَمْرِها، وقد تجيءُ في مواضعَ لا يُلْحَظُ فيها الزمنُ كهذه الآيةِ، وكقولِه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآءَ والأرض بِأَمْرِه ﴾ [الروم: 25] إلى غيرِ ذلك .

قال الشيخ: " وقوله: في أغلبِ أمرِها " ليس بجيدٍ بل تَدُلُّ على المستقبل في جميع أمورِها، وقوله" وقد تجيءُ إلى آخره " لم يُفْهَمْ ذلك مِنْ " أنْ " ، إنما فُهِمَ من نسبةِ قيامِ السماءِ والأرض بأمرِ الله لأنه لا يختصُّ بالمستقبلِ دونَ الماضي في حَقِّه تعالى، ونظيرُه: ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ و"كان" تدل على اقترانِ مضمونِ الجملةِ بالزمنِ الماضي، وهو تعالى/ متصفٌ بذلك في كلِّ زمن.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) ﴾

(252/435)

قوله تعالى: ﴿ حَسَنَةً ﴾ فيها أوجهُ، أحدُها: أنها نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تَبْوِئَةً حسنةً . والثاني: أنها منصوبةٌ على المصدر الملاقي لعامِله في المعنى؛ لأنَّ معنى " لَنُبَوِّئَنَّهم

" : لَنُحْسِنَنَّ إليهم . الثالث : أنها مفعولٌ ثانٍ لأنَّ الفعلَ قبلها مضمَّنٌ معنى : " لَنُعْطِيَنَّهم . و " حسنة " صفةً لموصوفٍ محذوفٍ ، أي : داراً حسنة ، وفي تفسيرِ الحسن : داراً حسنة ، وهي المدينةُ . وقيل : تقديره : منزلةً حسنةً وهي الغَلَبَةُ على أهلِ المشرقِ والمغربِ وقيل : " حسنة " بنفسها هي المفعولُ من غيرِ حَذْفِ موصوفٍ .

وقرأ أميرُ المؤمنين وابنُ مسعود ونعيم بن ميسرة : " لَنُثْوِيَنَّهُمْ " بالثاء المثلثة والياء ، مضارع أَثْوَى المنقولِ بهمزةِ التعديةِ مِنْ ثَوَى بمعنى أقام ، وسيأتي أنه قُرِئ بذلك في السبع في العنكبوت ، و " حسنةً " على ما تقدَّم . ونزيد أنه يجوز أن يكونَ على نَزْعِ الخافضِ ، أي : في حسنة .

والموصولُ مُبتدأٌ ، والجملةُ مِنَ القسمِ المحذوفِ وجوابه خبرُه ، وفيه رَدٌّ على ثعلب حيث مَنَعَ وقوعَ جملةِ القسم خبراً . وجوَّز أبو البقاء في " الذين " النصبَ على الاشتغال بفعلٍ مضمرٍ ، أي : لَنُبَوِّئَنَّ الذين . وردَّه الشيخُ : بأنه لا يجوز أن يُفَسِّر عاملاً إلا ما جاز أَنْ يعملَ ، وأنت لو قلت : " زيداً لأَضْرِبَنَّ " لم يَجُزْ ، فكذا لا يجوزُ " زيداً لأضربنَّه " .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يجوز أن يعودَ الضميرُ على الكفار ، أي : لو كانوا يَعْلمون ذلك لرجَعوا مسلمين ، أو على المؤمنين ، أي : لاجتهدوا في الهجرةِ والإِحسانِ ، كما فعل غيرُهم .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ : مَحَلَّه رفعٌ على " هم " أو نصبٌ على " أمدحُ " ، ويجوز أن يكونَ تابعاً للموصولِ قبله نعتاً أو بدلاً أو بياناً فمحلُّه محلُّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 219.222 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴾

فيكون بالسمع عِلْمُ تَعَلُّقِ قَوْلِهِ بما يفعله ، وحَمَلَه قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسَّرُ عليه فعلُ شيءٍ أراده ، فالآية على القولين جميعاً .

والذي لا يحتاج في فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدةٍ يقع الفعل فيها .

وتدل الآيةُ على أنَّ قولَه ليس بمخلوق ؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له : كن ، وذلك القول

يجب أن يكون مقولاً له بقولٍ آخر . . . وهذا يؤدي إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى ما لا نهاية له .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) ﴾

مَنْ هَاجَرَ عن أوطان السوء – في الله – أبدل له اللَّهُ في جوار أوليائه ما يكون له في جوارهم معونةٌ على الزيادة في صفاء وقته ، ومَنْ هَجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ اللهُ مِنْ مشاهدِ الوصلة . ومَنْ فَارقَ مجالسة المخلوقين ، وانقطع بقلبه إليه – سبحانه – باستدامة ذكره – فكما في الخبر : " أنا جليس من ذكرني " وبداية هؤلاء القوم نهايةُ أهل الجنة ؛ ففي الخبر " الفقراء الصابرون جلساءُ الله يوم القيامة " ويقال القلبُ مظلومٌ من جهة النَّفس لما تدعوه إليه من شهواتها ، فإذا هجرها أورث اللَّهُ القلبَ أوطانَ النَّفْس حتى تنقادَ لما يطالِبُ به القلبُ من الطاعة ؛ فبعد ما تكون أوطان الزَّلَّةِ بدواعي الشهوة تصير أوطانَ الطاعة لسهولة أدائها .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) ﴾

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء ، والتوكل التوقي بالله بُحُسْن الرجاء .

ويقال صبروا في الحال ، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال .

ويقال الصبر تحسّي كاساتِ المقدور ، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المحذور .

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسْقَى ، والتوكل الثقة بما يرجو .

ويقال إنما يقوَوْن على الصبر بما حققوا من التوكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 298.299 ﴾

(255/435)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) ﴾

التفسير : لما بالغ في تقرير دلائل التوحيد أراد أن يذكر شبهات منكري النبوة مع أجوبتها . فالشبهة الأولى أنهم طعنوا في القرآن وعدّوه من قبيل الأساطير . قال النحويون : " ماذا " منصوب بأنزل بمعنى أي شيء أنزله ربكم ، أو " ما " مبتدأ و " ذا " موصولة ، والجملة صلتها ، والمجموع خبر المبتدأ ، وعلى التقديرين : فقوله : ﴿ أساطير الأوّلين ﴾ بالرفع ليس بجواب للكفار وإلا لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأوّلين والكفار لا يقرون بالإنزال فهو إذن كلام مستأنف أي ليس ما تدّعون إنزاله منزلاً بل هو أساطير الأولين . وقال في الكشاف : معناه المنزل أساطير الأوّلين وذكر في دفع التناقض أنه على السخرية كقوله :

﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ [الشعراء : 27] وجوز كونه منصوباً ولم يقرأ به . واختلفوا في السائل فقيل : هو كلام بعضهم لبعض .

(256/435)

وقيل : هو قول المسلمين لهم وقيل : هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أحاديث الأوّلين وأباطيلهم ، ليس فيه شيء من العلوم والفصاحة والحقائق والدقائق . ثم إنه تعال اقتصر في جواب شبههم على محض الوعي لأنه قد ثبت بالتحدي كما مر ذكره مراراً أن القرآن معجز تحدوا بالقرآن جملة ثم بعشر سور ثم بسورة فعجزوا عن المعارضة فكان طعنهم فيه بعد ذلك مجرد المكابرة والعناد فلم يستحقوا في الجواب إلا التهديد والوعيد . واللام في قوله : ﴿ ليحملوا ﴾ ليس لام الغرض لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لغرض حمل الأوزار ، ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن التعليل به فكان لام العاقبة ، وقوله : ﴿ كاملة ﴾ معناه أنه تعالى لا يخفف من عقابهم شيئاً ، وفيه دليل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين لأن هذا المعنى لو كان حاصلاً في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة . قال الواحدي : لفظة " من

" في قوله : ﴿ ومن أوزار الذين ﴾ ليست للتبعيض فإنه لا يخفف عن الأتباع بعض أوزارهم لقوله صلى الله عليه وسلم " أيما داع دعا إلى الضلال فاتبع كان عليه وزر من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيء " ولكنها للابتداء أي لحملوا ما قد نشأ من أوزار الاتباع ، أو للبيان أي ليحملوا ما هو من جنس أوزار تبعهم . ومعنى ﴿ بغير علم ﴾ أن هؤلاء الرؤساء إنما يقدمون على هذا الإضلال جهلاً منهم بما يتسحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال . وقال في الكشاف : ﴿ بغير علم ﴾ حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل . ثم أوعدهم بما هو النهاية في التهديد فقال : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ وزرهم . ثم حكى حال أضرابهم من المتقدين فقال

: ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمروذ بن كنعان بنى صرحاً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع - وقيل فرسخان - ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا ، وألقت رأس الصرح في البحر فأحدث نمروذ وتبلبلت يومئذٍ ألسن الناس من الفزع فتكلموا بثلاثة وتسعين لساناً ولذلك

سميت ببابل ، وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية ، وابتلاه الله ببعوضة دخلت دماغه والحكاية مشهورة . والأصح أن الآية عامة في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحق الضرر بالمحقين . وعلى القول الأوّل معنى قوله : ﴿ فأتى الله ﴾ أي أمره وحكمه ﴿ بنيانهم من القواعد ﴾ وهي أساطين البناء التي تعمده أو الأساس أنه أسقط السقف عليهم بعد هدم القواعد .

وفائدة زيادة قوله : ﴿ من فوقهم ﴾ التنصيص على أن الأبنية تهدمت وهم ماتوا تحتها ، وعلى الثاني يكون الكلام محض التمثيل والمراد أنهم سوّوا منصوبات وحيلاً ليمكروا بها رسل الله ، فجعل الله هلاكهم في تلك الحيل كحيل قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين ، فأتي البنيان من الأساطين بأن ضعفت فسقط عليهم السقف فهلكوا ونحوه " من حفر بئراً لأخيه فقد وقع فيه " وبعبارة أخرى " من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً " .

ثم بين أن عذابهم ير مقصور على عذاب الدنيا بل الله تعالى يخزيهم يوم القيامة بإدخالهم النار ﴿ إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ [آل عمران : 192] ﴿ ويقول ﴾ مع ذلك لأجل الإهانة والتوبيخ ﴿ أين شركائي ﴾ الإضافة لأدنى الملابسة أو هي حكاية

لإضافتهم استهزاء وتوبيخاً ﴿ الذين كنتم تشاقون ﴾ تخاصمون المؤمنين في شأنهم . ومن قرأ بكسر النون فعلى حذف يا المتكلم لأن مشاقة المؤمنين مشاقة الله . ثم ذكر على سبيل الاستئناف ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ عن ابن عباس هم الملائكة . وقال الآخرون : هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون إليهم فيقولون ذلك يوم القيامة شماتة بهم . قالت المرجئة قولهم : ﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ يدل على أن ماهية الخزي والسوء مختص بالكافرين فينتفي عن غيرهم . أما قوله : ﴿ فألقوا السلم ﴾ فعن ابن عباس : المراد أنهم أسلموا وأقروا بالعبودية عند الموت . وقيل : إنه في يوم القيامة وقولهم : ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ أرادوا الشرك قالوه على وجه الكذب والجحود ، ومن لم يجوز الكذب على أهل القيامة قال : أرادوا في اعتقادهم وظنونهم فرد عليهم أولو العلم أو الملائكة بقوله : ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا فلا ينفعكم هذا الكذب وإنه يجازيكم على الكفر الذي علمه منكم . قال في الكشاف : وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك ﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ وفي ذكر الأبواب إشارة إلى تفاوت منازلهم في دركات جهنم . ثم قال : ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الأنبياء . والفاء للعطف على فاء التعقيب في ﴿ فادخلوا ﴾ واللام للتأكيد يجري مجرى القسم موافقة لقوله بعد ذلك ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ ولا نظير لهما في كل القرآن . ثم أتبع أوصاف الأشقياء أحوال السعداء فقال : ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾

الآية . وإنما ذكر الجواب ههنا بالنصب ليكون الجواب مطابقاً مكشوفاً بيناً من غير تلعثم أي أنزل

خيراً أو ﴿ قالوا خيراً ﴾ لا شراً كما قاله الكفار ، أو قالوا قولاً خيراً ولو رفعوا لأوهم أنه كلام مستأنف كما في جواب الكفار وليس بمنزل . روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف كما مر ، فكان الوافد يقول : كيف أرجع إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه .

فيلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبرونه بصدقه وأنه نبي مبعوث فهم الذين قالوا خيراً . وجوّز في الكشاف أن يكون ﴿ للذين أحسنوا ﴾ وما بعده بدلاً من ﴿ خيراً ﴾ كأنه فسر الخبر بهذا القول ، وجوّز أن يكون كلاماً مبتدأ على سبيل الوعد فيكون قولهم الخير من جملة إحسانهم . أما قوله ﴿ في هذه الدنيا ﴾ فإما أن يتعلق بما قبله فالمعنى : الذين جاءُوا بالإحسان في هذه الدنيا لهم في الآخرة ﴿ حسنة ﴾ هي الثواب العظيم أو المضاعف إلى سبعمائة أو أكثر ، وإما أن يتعلق بما بعده والتقدير : الذين أحسنوا

لهم الحسنة في الدنيا باستحقاق المدح والثناء ، أبو بالظفر على أعداء الدين باللسان والسنان وفتح البلاد ، أو بفتح أبواب المكاشفات والمشاهدات . والحاصل أن لهم في الدنيا مكافأة بإحسانهم . ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ منها . ثم بين الخيرية بقوله : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره .

(260/435)

ثم قال : ﴿ جنات عدنٍ ﴾ أي هي هذه فيكون المبتدأ محذوفاً أو الجنات مبتدأ وما بعدها خبر أو ﴿ جنات عدن ﴾ هي المخصوص بالمدح . فالجنات يدل على القصور والبساتين ، والعدن على الدوام والإقامة . وقوله : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ على أنه حصل هناك أبنية مرتفعة هم عليها والأنهار تجري من تحتهم . وقوله : ﴿ لهم فيها ما يشاءُون ﴾ أبلغ من قوله في موضع آخر ﴿ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] وفي تقديم الظرف دلالة على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده إلا في الجنة ، وقوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ أكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح. وقوله : ﴿ طيبين ﴾ أي طاهرين عن دنس الكفر والمعاصي أو دنس الكفر وحده ، وهذه كلمة جامعة تشمل أنواع البراءة عن العلائق الجسمانية فلا يكون لصاحب

هذه الحالة تألم بالموت دليله قوله : ﴿ يقول سلام عليكم ﴾ يروى أنه إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فيقول : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة فذلك قوله : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ وعن الحسن أن المراد بهذا التوفي هو وفاة الحشر لأنه لا يقال عند قبض الروح في الدنيا ادخلوا الجنة . والأولون قالوا : البشارة بالجنة بمنزلة الدخول فيها .

قوله سبحانه : ﴿ هل ينظرون ﴾ قيل : إنه جواب شبهة أخرى لمنكري النبوة فإنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادّعاء النبوة فقال تعالى : هل ينظرون في تصديق نبوتك ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ شاهدين بذلك . ويحتمل أن يقال : إنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين أوعدهم الله تعالى بما أوعد ، ثم وصف القرآن بكونه حقاً وصدقاً وذكر جزاء المتقين ثم ذكر أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم بسبب البيانات التي ذكرناها إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد أو لقبض الأرواح أو أتاهم أمر ربك وهو العذاب المستأصل أو القيامة ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ فأصابهم الهلاك المعجل ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بتدميرهم فإنه أنزل بهم ما

استحقوه بكفرهم ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم أو هو من باب الطباق والمشاكلة كقوله

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : 40] ﴿ وحاق بهم ﴾ . أي نزل بهم على وجه الإحاطة عقاب استهزائهم . الشبهة الثالثة لمنكري النبوة أنهم تشبثوا بمسألة الجبر فقالوا : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا ﴾ الآية . وقد مر في تفسير مثلها في آخر سورة الأنعام ، وذكرنا أسرار المتشابه هناك وكذا استدلال المعتزلة بها وجواب الأشاعرة عنها . وزاد بعض الأشاعرة فقالوا : إن المشركين ذكروا هذا الكلام على وجه الاستهزاء كما قال قوم شعيب ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] ولو قالوا ذلك معتقدين كانوا مؤمنين . وقال آخرون : إنه سبحانه أجاب عن شبهتهم وهي أنه لما كان الكل من الله كان بعثه الأنبياء عبثاً بقوله : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ يعني أنهم اعترضوا على أحكام الله وطلبوا لها العلة فعل من تقدمهم من الكفرة ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي ما عليهم إلا التبليغ فإما تحصيل الإيمان فليس إليهم . ثم إنه أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ إلى قوله : ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ وفيه

دلالة على أن أمر الله قد لا يوافق إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان ولا يريد الهداية إلا للبعض إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد ولم ينزل العذاب على قوم لكنه كفر ونزل لقوله : ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [النحل : 36] . ثم خصص الخطاب قائلاً لرسوله ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ لا يرشد أحداً أضله ، قال ابن عباس : وقال الفراء : لا يهدي معناه لا يهتدي : ومن قرأ على البناء للمفعول فمعناه لا تقدر أنت ولا أحد على هداية من أضله الله فلن يكون مهدياً منصورا ، ولا يخفى أن أول الآية ظاهره يوافق مذهب المعتزلة . أما قوله : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ إلى آخر الآيات فإنهم قد صاروا فيه إلى التأويل فقالوا : معناه أن متقدميهم أشركوا وحرموا حلال الله فلما نبهوا على قبح فعلهم أسندوه إلى الله ﴿ فهل

على الرسل إلا ﴾ أن يبلغوا الحق وأن الله بريء من الظلم وخلق القبائح والمنكرات ، وما من أمة إلا وقد بعث الله فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو عبادة الله وينهاهم عن الشر الذي هو طاعة الطاغوت . ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ لأنه من أهل اللطف ، ومنهم من ثبت عليه الخذلان لأنه عرفه مصمماً على الكفر ، أو المراد منهم من حكم الله عليه

بالاهتداء ومنهم من صار محكوماً عليه بالضلال لظهور ضلاله ، أو منهم من هداه الله إلى الجنة ومنهم من أضله عنها .

﴿ فسيروا في الأرض فانظروا ﴾ ما فعلت بالمكذبين حتى لا يبقى لكم شبهة في أني لا أقدر الشر ولا أشاؤه . ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيمانهم وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة ، وأنه لا يلطف بمن يخذل لأنه عبث والله تعالى متعال عن العبث . فهذا تفسير الفريقين لاشتمال آيات مسألة الجبر والقدر على الجهتين وعليك الاختيار بعقلك دون هواك . الشبهة الرابعة قدحهم في الحشر والنشر ليلزم إبطال النبوة وذلك أنهم ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ أي أغلاظ الأيمان كما في " المائدة " كأنهم ادّعوا علماً ضرورياً بأن الشيء إذا فني وصار عدماً محضاً فإنه لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئاً آخر فأكدوا ادعاءهم بالقسم الغليظ فأجاب الله عن شبهتهم بقوله : ﴿ بلى ﴾ وهو إثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم وقوله : ﴿ وعداً ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه " بلى " لأن يبعث موعد من الله أي وعد البعث ﴿ وعدا عليه حقاً ﴾ لا خلاف فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنهم يبعثون أو أن وعد الله حق . ثم ذكر

لمية حقية البعث فقال ﴿ ليبين ﴾ أي يبعث كل من يموت من المؤمنين والكافرين ليبين ﴿ لهم ﴾ الحق الذي اختلفوا فيه بياناً عيانياً لا يشتبه فيه المطيع بالمعاصي والمحق بالمبطل والمظلوم بالظالم والصادق بالكاذب. وجوز بعضهم أن يكون قوله: ﴿ ليبين ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿ ولقد بعثنا ﴾ أي بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا به وأنهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب في ادعاء الشريك له وفي قولهم بمجرد هواهم هذا حلال الله وهذا حرام.

ثم برهن على إمكان البعث بقوله: ﴿ إنما قولنا ﴾ وهو مبتدأ خبره ﴿ أن نقول ﴾ وقد فسرنا مثل هذه الآية في سورة البقرة، وذكرنا فيه مباحث عميقة لفظية ومعنوية فلا حاجة إلى الإعادة. والغرض أنه سبحانه لا مانع له من الإيجاد والإعدام ولا تتوقف آثار قدرته إلا على مجرد الإرادة والمشيئة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو أهون من الإبداء؟! قال في الكشاف: قرىء ﴿ فيكون ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ نقول ﴾ قلت: ولا مانع من كونه منصوباً بإضمار "أن" لوقوعه في جواب الأمر بعد الفاء وقد مر في "البقرة". احتج بعض الأشاعرة بالآية على قدم القرآن قال: إنه لو كان حادثاً لافتقر إلى أن يقال له "كن".

ثم الكلام في هذا اللفظ كالكلام في الأوّل وتسلسل ، والجواب بعد تسليم أن هذا ليس مثلاً وأن ثم قولاً أن " إذا " لا تفيد التكرار فلا يلزم في كل ما يحدثه الله تعالى إلى أن يقول له " كن ".

(266/435)

وكيف يتصور أن تكون لفظة " كن " قديمة والكاف مقدم على النون بزمان محصور ، ولو سلم فلا يجوز من قدم لفظة " كن " قدم القرآن . على أن قوله : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾ يقتضي كون القول واقعاً بالإرادة وما كان كذلك فهو محدث وأنه علق القول بكلمة " إذا " ولا شك أنها للاستقبال وكذا قوله : ﴿ أن نقول ﴾ ثم إن كلمة ﴿ كن ﴾ متقدمة على المكون بزمان واحد ، والمتقدم على المحدث بزمان يكون محدثاً ، فتلخص من هذه الدلائل أن الكلام المسموع لا بد أن يكون محدثاً . هذا تلخيص ما قاله الإمام فخر الدين الرازي ، ولعل لنا فيه نظراً . ولما حكى الله سبحانه عن الكفار ما حكى من إنكار البعث والجزاء لم يبعد منهم - والحالة هذه - إيذاء المسلمين وإنزال الضرر والهوان بهم وحينئذٍ يلزمهم أن يهاجروا تلك الديار فذكر ثواب المهاجرين قائلاً ﴿ والذين هاجروا في الله ﴾ أي في حقه وسبيله ﴿ من بعد ما ظلموا لنبوّئنهم في الدنيا ﴾ مثوبة ﴿ حسنة ﴾ أو مباءة

حسنة هي المدينة أوهم أهلها ونصروهم قاله الحسن والشعبي وقتادة . وقيل : لننزلنهم منزلة حسنة هي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم ، بل على العرب قاطبة بل على أهل المشرق والمغرب . قال ابن عباس : نزلت الآية في جماعة – منهم صهيب وبلال وعمار وخباب – جعل المشركون يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام فقال صهيب : أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر قال له : ربح البيع يا صهيب ، وقال له عمر : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه . أما الضمير في قوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فإما أن يرجع إلى الكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين خير الدارين لرغبوا في دينهم ، وإما أن يعود إلى المهاجرين أي لو علموا أن أجر الآخرة أكبر لزادوا في اجتهادهم وصبرهم . ثم مدحهم بقوله : ﴿ الذين صبروا ﴾ على هم الذين أو أعني الذين . والمراد صبرهم على العذاب وعلى

مفارقة الوطن الذي هو حرم الله ، وعلى المجاهدة في سبيل الله بالنفوس والأموال . قال المحققون : الصبر حبس النفس على خلاف ما تشتهيه من اللذات العاجلة وهو مبدأ السلوك ، والتوكل هو الانقطاع بالكلية عما سوى الحق وهو آخر الطريق والله ولي التوفيق .

فإن العارفين بالصبر ساروا وبالتوكل طاروا ثم في الله حاروا حسبي الله ونعم الوكيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 256 . 262 ﴾

(268/435)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 43 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 50 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر تعالى أنه بعث الرسل ، وكان عاقبة من كذبهم الهلاك ، بدلالة آثارهم ، وكانوا قد قدحوا في الرسالة بكون الرسول بشراً ثم بكونه ليس معه ملك يؤيده ، رد ذلك بقوله -

مخاطباً لأشرف خلقه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكونه أفهمهم عنه مع أنه أجل من توكل وصبر ، عائداً إلى مظهر الجلال بياناً لأنه يظهر من يشاء على من يشاء - : ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة .

ولما كان الإرسال بالفعل إنما كان في بعض الأزمنة ، دل عليه بالجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ إلى الأمم من طوائف البشر ﴿ إلا رجالاً ﴾ لا ملائكة بل آدميين ، هم في غاية الاقتدار على التوكل والصبر الذي هو محط الرجلة ﴿ نوحي إليهم ﴾ بواسطة الملائكة ، وما أحسن تعقيب ذلك للصابرين ، لأن الرسل أصبر الناس .

ولما كانوا قد فزعوا إلى سؤال أهل الكتاب في بعض الأمور ، وكانوا قد أتوا علماً من عند الله ، سبب عن هذا الإخبار الأمر بسؤالهم عن ذلك ، فقال مخاطباً لهم ولكل من أراد الاستثبات من غيرهم : ﴿ فسئلوا ﴾ أي أيها المكذبون ومن أراد من سواهم ﴿ أهل الذكر ﴾ أي العلم بالكتاب ، سمي ذكراً لأن الذكر - الذي هو ضد السهو - بمنزلة السبب المؤدي إليه فأطلق عليه ، كأن الجاهل ساهٍ وإن لم يكن ساهياً ، وكذا الذكر - الذي هو الكلام المذكور - سبب للعلم .

ولما كان عندهم حسّ من ذلك بسماع أخبار الأمم قبلهم ، أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ إن كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ لا تعلمون ﴾ أو هو التنفير من الرضى بالجهل .

ولما كانت رسل الملوك تقترن بما يعرف بصدقهم ، قال - جواباً لمن كأنه قال : بأي دلالة

أرسلوا ؟ - : ﴿ بالبينات ﴾ المعرفة بصدقهم ﴿ والزبر ﴾ أي الكتب الهادية إلى أوامر مرسلهم.

(5/436)

ولما كان القرآن أعظم الأدلة ، أشار إلى ذلك بذكره مدلولاً على غيره من المعجزات بواو العطف ، فقال - عاطفاً على ما تقديره : وكذلك أرسلناك بالمعجزات الباهرات - : ﴿ وأنزلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إليك ﴾ أي وأنت أشرف الخلق ﴿ الذكر ﴾ أي الكتاب الموجب للذكر ، المعلي للقدر ، الموصل إلى منازل الشرف ﴿ لتبين للناس ﴾ كافة بما أعطاك الله من الفهم الذي فقت فيه جميع الخلق ، واللسان الذي هو أعظم الألسنة وأفصحها وقد أوصلك الله فيه إلى رتبة لم يصل إليها أحد ﴿ ما نزل ﴾ أي وقع تنزيله ﴿ إليهم ﴾ من هذا الشرع الحادي إلى سعادة الدارين بتبيين المجمل ، وشرح ما أشكل ، من علم أصول الدين الذي رأسه التوحيد ، ومن البعث وغيره ، وهو شامل لبيان الكتب القديمة لأهلها ليدلهم على ما نسخ ، وعلى ما بدلوه فمسخ .

ولما كان التقدير : لعلهم بحسن بيانك يعملون ! عطف عليه بياناً لشرف العلم قوله تعالى : ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ إذا نظروا أساليبه الفائقة ، ومعانيه العالية الرائقة ، فيصلوا بالفكر

فيه – بسبب ما فتحت لهم من أبواب البيان – إلى حالات الملائكة ، بأن تغلب أرواحهم على أشباحهم فيعلموا أنه تعالى واحد قادر فاعل بالاختيار ، وأنه يقيم الناس للجزاء فيطيعونه رغبة ورهبة ، فيجمعون بين شرفي الطاعة الداعية إليها الأرواح ، والانكفاف عن المعصية الداعية إليها النفوس بواسطة الأشباح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 272.273 ﴾

(6/436)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ نوحي ﴾ بالنون : حفص غير الخزاز . الباقون بالياء مجهولاً ﴿ أو لم تروا ﴾ بتاء الخطاب : حمزة وعلي وخلف ﴿ تتفيؤ ﴾ بتاء التأنيث : أبو عمرو وسهل ويعقوب ، الآخرون على الغيبة .

الوقوف : ﴿ لا تعلمون ﴾ 5 لا لتعلق الباء ﴿ والزبر ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ 5 ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 لا للعطف ﴿ بمعجزين ﴾ 5 لا كذلك ﴿ على تخوّف ﴾ ط للفصل بين الاستخبار والإخبار ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ داخرون ﴾ 5 ﴿ لا يستكبرون ﴾ 5 ﴿ ما

يؤمرون ﴾ 5 ﴿ اثنين ﴾ج للابتداء بانما مع اتحاد القائل ﴿ واحد ﴾ج للعدول مع الفاء ﴿ فارهبون ﴾ 5 ﴿ واصباً ﴾ ط ﴿ تتقون ﴾ 5 ﴿ تجأرون ﴾ 5ج لأن " ثم " لترتيب الأخبار مع شدة اتصال المعنى ﴿ يشركون ﴾ 5 لا لتعلق لام كي ﴿ آتيناهم ﴾ ط للعدول والفاء للاستئناف ﴿ تعلمون ﴾ 5 ﴿ رزقناهم ﴾ ط ﴿ تفترون ﴾ 5 ﴿ سبحانه ﴾ لا لأن ما بعده من جملة مفعول ﴿ يجعلون ﴾ و ﴿ سبحانه ﴾ معترض للتنزيه ﴿ يشتهون ﴾ 5 ﴿ كظيم ﴾ 5ج لاحتمال أن ما بعد وصف ﴿ لكظيم ﴾ أو استئناف. ﴿ ما بشر به ﴾ ط لأن التقدير يتفكر في نفسه المسألة ﴿ في التراب ﴾ ط ﴿ ما يحكمون ﴾ 5 ﴿ السوء ﴾ج لتضاد الجملتين معنى مع العطف لفظاً ﴿ الأعلى ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 263﴾

(7/436)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43)

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري النبوة كانوا يقولون : الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر ، بل لو أراد بعثة رسول إلينا لكان يبعث ملكاً ، وقد ذكرنا تقرير هذه الشبهة في سورة الأنعام فلا نعيده ههنا ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : 8] وقالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون : 47] وقالوا : ﴿ مَا هذا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ ﴾ [المؤمنون : 33 ، 34] وقال : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس : 2] وقالوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : 7] .

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ والمعنى : أن عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لم يبعث رسولاً إلا من البشر ، فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى ، وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك أيضاً طعن قديم فلا يلتفت إليه .

المسألة الثانية :

دلت الآية على أنه تعالى ما أرسل أحداً من النساء ، ودلت أيضاً على أنه ما أرسل ملكاً ، لكن ظاهر قوله : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ [فاطر : 1] يدل على أن الملائكة رسل الله إلى سائر الملائكة ، فكان ظاهر هذه الآية دليلاً على أنه ما أرسل رسولاً من الملائكة إلى الناس .

(8/436)

قال القاضي : وزعم أبو علي الجبائي أنه لم يبعث إلى الأنبياء عليهم السلام إلا من هو بصورة الرجال من الملائكة .

ثم قال القاضي : لعله أراد أن الملك الذي يرسل إلى الأنبياء عليهم السلام بحضرة أممهم ، لأنه إذا كان كذلك فلا بد من أن يكون أيضاً بصورة الرجال ، كما روي أن جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وفي صورة سراقة ، وإنما قلنا ذلك لأن المعلوم من حال الملائكة أن عند إبلاغ الرسالة من الله تعالى إلى الرسول قد يبقون على صورتهم الأصلية الملكية ، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرتين ، وعليه تأولوا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أخرى ﴾ [النجم : 13] ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام أتبعه بقوله : ﴿ فاسألوا

أَهْلَ الذكر إِن كُنتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في المراد بأهل الذكر وجوه : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد أهل التوراة ، والذكر هو التوراة .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ [الأنبياء : 105] يعني التوراة .

الثاني : قال الزجاج : فاسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معاني كتب الله تعالى ، فإنهم يعرفون أن الأنبياء كلهم بشر ، والثالث : أهل الذكر أهل العلم بأخبار الماضين ، إذ العالم بالشيء يكون ذاكراً له .

والرابع : قال الزجاج : معناه سلوا كل من يذكر بعلم وتحقيق .

وأقول : الظاهر أن هذه الشبهة وهي قولهم : الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر إنما تمسك بها كفار مكة ، ثم إنهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله بأن يرجعوا في هذه المسألة إلى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها ، فإن اليهودي والنصراني لا بد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها .

المسألة الثانية :

اختلف الناس في أنه هل يجوز للمجتهد تقليد المجتهد ؟ منهم من حكم بالجواز واحتج بهذه الآية فقال : لما لم يكن أحد المجتهدين عالماً وجب عليه الرجوع إلى المجتهد الآخر الذي يكون عالماً لقوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن لم يجب فلا أقل من الجواز .

المسألة الثالثة :

احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : المكلف إذا نزلت به واقعة فإن كان عالماً بحكمها لم يجز له القياس ، وإن لم يكن عالماً بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالماً بها لظاهر هذه الآية ، ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم لأجل أنه يمكنه استنباط ذلك الحكم بواسطة القياس ، فثبت أن تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية فوجب أن لا يجوز ، والله أعلم .

وجوابه : أنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة ، والإجماع أقوى من هذا الدليل ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ بالبينات والزبر ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكروا في الجالب لهذه الباء وجوهاً : الأول : أن التقدير : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً يوحى إليهم ، وأنكر الفراء ذلك وقال : إن صلة ما قبل إلا لا يتأخر إلى بعد ، والدليل عليه : أن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل إلا مع صلته ، فما لم يصر هذا المجموع مذكوراً بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه .

الثاني : أن التقدير : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم بالبينات والزبر ، وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ بالبينات والزبر ﴾ متعلق بالمستثنى .

والثالث : أن الجالب لهذا الباء محذوف ، والتقدير أرسلناهم بالبينات وهذا قول الفراء .

قال : ونظيره ما مر إلا أخوك بزيد ما مر إلا أخوك ثم يقول مر بزيد .

الرابع : أن يقال : الذكر بمعنى العلم ، والتقدير فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون .

الخامس : أن يكون التقدير : إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر فاسألوا أهل الذكر .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ بالبينات والزبر ﴾ لفظة جامعة لكل ما تكامل به الرسالة ، لأن مدار أمرها على المعجزات الدالة على صدق من يدعي الرسالة وهي البينات وعلى التكاليف التي يبلغها الرسول من الله تعالى إلى العباد وهي الزبر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ظاهر هذا الكلام يقتضي أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول الله والمفتقر إلى البيان مجمل ، فظاهر هذا النص يقتضي أن القرآن كله مجمل ، فلهذا المعنى قال بعضهم متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخبر لأن القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية ، والخبر مبين له بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على المجمل .

والجواب : أن القرآن منه محكم ، ومنه متشابه ، والمحكم يجب كونه مبيناً فثبت أن القرآن ليس كله مجملاً بل فيه ما يكون مجملاً فقوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ محمول على المجملات .

المسألة الثانية :

ظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين لكل ما أنزله الله تعالى على المكلفين ، فعند هذا قال نفاة القياس لو كان القياس حجة لما وجب على

الرسول بيان كل ما أنزله الله تعالى على المكلفين من الأحكام ، لاحتمال أن يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس ، ولما دلت هذه الآية على أن المبين لكل التكاليف والأحكام ، هو الرسول صلى الله عليه وسلم علمنا أن القياس ليس بحجة .

وأجيب عنه بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين أن القياس حجة ، فمن رجع في تبيين الأحكام والتكاليف إلى القياس ، كان ذلك في الحقيقة رجوعاً إلى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 29 . 31 ﴾

(11/436)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾

هذا خطابٌ لمشركي قريش .

﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنت لا تعلمون ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن أهل الذكر العلماء بأخبار من سلف من القرون الخالية الذين يعلمون أن الله تعالى ما بعث رسولاً إلا من رجال الأمة ، وما بعث إليهم ملكاً .

الثاني : أنه عنى بأهل الذكر أهل الكتاب خاصة ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثالث : أنهم أهل القرآن ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ . . . وأنزلنا إليك الذِّكر لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه القرآن . الثاني : أنه العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(12/436)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ الآية ،

هذه الآية رد على كفار قريش الذين استبعدوا أن يكون البشر رسولاً من الله تعالى ،

فأعلمهم الله تعالى مخاطباً لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يرسل إلى الأمم ﴿ إلا رجالاً ﴾ .

ولم يرسل ملكاً ولا غير ذلك ، و﴿ رجالاً ﴾ منصوب ب ﴿ أرسلنا ﴾ و﴿ إلا ﴾ إيجاب ، وقرأ الجمهور بضم الياء وفتح الحاء ، وقرأت فرقة "يُوحِي" بضم الياء وكسر الحاء ، وقرأ عاصم من طريق حفص وحده " نوحِي " بالنون وكسر الحاء ، وهي قراءة ابن مسعود وطلحة بن مصرف وأبي عبد الرحمن ثم قال تعالى ﴿ فاسألوا ﴾ ، و﴿ أهل

الذكر ﴾ هنا اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن ، وقال الأعمش وسفيان بن عيينة : المراد من أسلم منهم ، وقال ابن جبير وابن زيد : ﴿ أهل الذكر ﴾ أهل القرآن .

(13/436)

قال القاضي أبو محمد : وهذان القولان فيهما ضعف ، لأنه لا حجة على الكفار في إخبار المؤمنين بما ذكر ، لأنهم يكذبون هذه الصنائف ، وقال الزجاج : ﴿ أهل الذكر ﴾ هنا أحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، وهم في هذه النازلة خاصة إنما يخبرون بأن الرسل من البشر ، وإخبارهم حجة على هؤلاء ، فإنهم لم يزالوا مصدقين لهم ولا يتهمون لشهادة لنا لأنهم مدافعون في صدر ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو كسر حجتهم من مذهبهم ، لا أنّا افتقرنا إلى شهادة هؤلاء ، بل الحق واضح في نفسه ، وقد أرسلت قريش إلى يهود يثرب يسألون ويستندون إليهم ، وقوله ﴿ بالبينات ﴾ متعلق بفعل مضمر تقديره أرسلناهم بالبينات ، وقالت فرقة الباء متعلقة ب ﴿ أرسلنا ﴾ في أول الآية ، والتقدير على هذا وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً ، ففي الآية تقديم وتأخير ، ﴿ والزبر ﴾ الكتب المزبورة ، تقول زبرت ودبرت إذا كتبت ، و﴿ الذكر ﴾ في هذه الآية

القرآن ، وقوله ﴿ لتبين ﴾ يحتمل أن يريد لتبين بسردك نص القرآن ما نزل ، ويحتمل أن يريد لتبين بتفسيرك المجمل ، وشرحك ما أشكل مما نزل ، فيدخل في هذا ما بينته السنة من أمر الشريعة ، وهذا قول مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(14/436)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ ﴾

قراءة العامة "يُوحَى" بالياء وفتح الحاء .

وقرأ حفص عن عاصم "نُوحي إليهم" بنون العظمة وكسر الحاء .

نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فهلاّ بعث إلينا مَلَكاً ؛ فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى الأمم الماضية يا محمد "إلا رِجالا" آدميين .

﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ قال سفيان : يعني مؤمني أهل الكتاب .

﴿ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً .

وقيل : المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر .

رُوِيَ معناه عن ابن عباس ومجاهد .

وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن .

وقيل : أهل العلم ، والمعنى متقارب .

﴿ بالبينات والزبر ﴾ قيل : "بالبينات" متعلق ب "أرسلنا" .

وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً أي غير رجال ، ف "إلاّ" بمعنى غير ؛ كقوله : لا إله إلا الله ، وهذا قول الكلبيّ نوحِي إليهم .

وقيل : في الكلام حذف دل عليه "أرسلنا" أي أرسلناهم بالبينات والزبر .

ولا يتعلق "بِالبيناتِ" ب "أرسلنا" الأوّل على هذا القول ؛ لأن ما قبل "إلاّ" لا يعمل فيما بعدها ، وإنما يتعلق بأرسلنا المقدّرة ، أي أرسلناهم بالبينات .

وقيل : مفعول ب "تعلمون" والباء زائدة ، أو نصب بإضمار أعني ؛ كما قال الأعشى :

وليس مُجِيراً إن أتى الحيَّ خائف . . .

ولا قائلاً إلا هو المتعيَّبَا

أي أعني المتعِيّب .

والبينات : الحجج والبراهين .

والزُّبُر : الكتب .

وقد تقدّم في آل عمران .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ يعني القرآن .

(15/436)

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبيِّن عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة ، وغيرِ ذلك مما لم يفصّله .

وقد تقدّم هذا المعنى مستوفىً في مقدّمة الكتاب ، والحمد لله .

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيتّعظون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(16/436)

وقال الخازن :

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾

نزلت هذه الآية جواباً لمشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)

وقالوا الله أعظم وأجل أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث ملكاً إلينا فأجابهم الله بقوله : وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً يعني مثلك نوحي إليهم والمعنى أن عادة الله جارية من أول مبدأ الخلق أنه لم يبعث إلا رسولاً من البشر فهذه عادة مستمرة ، وسنة جارية قديمة ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ يعني أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وإنما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لأن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم ، وقد أرسل الله إليهم رسلاً منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل ، وكانوا بشراً مثلهم فإذا سألوهم فلا بد ، وأن يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً ، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ الخطاب لأهل مكة يعني إن كنتم يا هؤلاء لا تعلمون ذلك ﴿ بالبينات والزبر ﴾ اختلفوا في المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى ، وما أرسلنا من قبلك بالبيّنات والزبر إلا رجالاً يوحى إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر ، وقيل الذكر بمعنى العلم في قوله فاسألوا أهل الذكر يعني أهل العلم والمعنى فاسئلوا أهل الذكر الذي هو العلم بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون أنتم ذلك .

(17/436)

والبينات والزبر اسم جامع لكل ما يتكامل به أمر الرسالة ، لأن مدار أمر الرسول على المعجزات الدالة على صدقة ، وهي بالبينات وعلى بيان الشرائع والتكاليف ، وهي المراد بالزبر يعني الكتب المنزلة على الرسل من الله ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعني : وأنزلنا عليك يا محمد الذكر الذي هو القرآن وإنما سماه ذكراً لأن فيه مواعظ ، وتنبيهاً للغافلين ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ يعني ما أجمل إليك من أحكام القرآن وبيان الكتاب يطلب منه السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولهذا قال بعضهم : متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لأن القرآن مجمل ، والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم ، ومنه متشابه فالمحكم يجب أن يكون مبيناً والمتشابه هو المجمل ويطلب بيانه من السنة فقوله تعالى : لتبين للناس ما نزل إليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم البين المفسر ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ يعني فيما أنزل إليهم فيعلموا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(18/436)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

خسف المكان يخسف خسوفاً ذهب ، وخسفه الله يريد أذهبه في الأرض به .

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون .

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون .

أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين .

أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءُوف رحيم ﴾ : نزلت في مشركي مكة أنكروا نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وقالوا : الله أعظم أن يكون رسوله بشراً ، فهلا بعث إلينا ملكاً ؟ وتقدّم تفسير هذه الجملة في آخر يوسف ، والمعنى : نوحي إليهم على ألسنة الملائكة .

وقرأ الجمهور : يوحى بالياء وفتح الحاء ، وقرأت فرقة : بالياء وكسرها وعبد الله ، والسلمي ، وطلحة ، وحفص : بالنون وكسرها .

وأهل الذكر : اليهود ، والنصارى ، قاله : ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن .

وعن مجاهد أيضاً : اليهود .

والذكر : التوراة لقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ وعن عبد الله بن سلام ، وسلمان .

وقال الأعمش ، وابن عيينة : من أسلم من اليهود والنصارى .

وقال الزجاج : عام فيمن يعزى إليه علم .

وقال أبو جعفر وابن زيد : أهل القرآن .

ويضعف هذا القول وقول من قال : من أسلم من الفريقين ، لأنه لا حجة على الكفار في إخبار المؤمنين ، لأنهم مكذبون لهم .

قال ابن عطية : والأظهر أنهم اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، وهم في هذه الآية النازلة ، إنما يخبرون من الرسل عن البشر ، وإخبارهم حجة على هؤلاء ، فإنهم لم يزالوا مصدقين لهم ، ولا يتهمون بشهادة لهم لنا ، لأنهم مدافعون في صدر ملة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا هو كسر حجتهم ومذهبهم ، لا أنا افتقرنا إلى شهادة هؤلاء ، بل الحق واضح في نفسه .

وقد أرسلت قريش إلى يهود يثرب يسألونهم ويسدون إليهم انتهى .

والأجود أن يتعلق قوله : بالبينات ، بمضمر يدل عليه ما قبله كأنه قيل : ثم أرسلوا ؟ قال : أرسلناهم بالبينات والزبر ، فيكون على كلامين ، وقاله : الزمخشري وابن عطية وغيرهما .

وقد يتعلق بقوله : وما أرسلنا ، وهذا فيه وجهان : أحدهما : أنّ النية فيه التقديم قبل أداة الاستثناء ، والتقدير : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً حتى لا يكون ما بعد إلا معمولين متأخرين لفظاً ورتبة ، داخلين تحت الحصر لما قبلها ، وهذا حكاه ابن عطية عن فرقة .

والوجه الثاني : أنْ لا ينوي به التقديم ، بل وقعا بعد إلا في نية الحصر ، وهذا قاله الحوفي والزمخشري ، وبدأ به قال : تتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي : وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات ، كقولك : ما ضربت إلا زيداً بالسوط ، لأن أصله ضربت زيداً بالسوط انتهى .

وقال أبو البقاء : وفيه ضعف ، لأنّ ما قبل إلا لا يعمل فيما بعدها إذا تم الكلام على إلا وما يليها ، إلا أنه قد جاء في الشعر .

قال الشاعر :

ليتهم عذبوا بالنار جارهم . . .

ولا يعذب إلا الله بالنار

انتهى .

وهذا الذي أجازه الحوفي والزمخشري لا يجوز على مذهب جمهور البصريين ، لأنهم لا يجيزون أن يقع بعد إلا ، إلا مستثنى ، أو مستثنى منه ، أو تابعاً ، وما ظن من غير الثلاثة معمولاً لما قبل إلاّ قدر له عامل .

وأجاز الكسائي أن تقع معمولاً لما قبلها منصوب نحو : ما ضرب إلا زيد عمراً ، ومخفوض نحو : ما مرّ إلا زيد بعمرو ، ومرفوع نحو : ما ضرب إلا زيداً عمرو .

ووافقه ابن الأنباري في الموفوع ، والأخفش في الظرف والجار والحال .

فالقول الذي قاله الحوفي والزمخشري يتمشى على مذهب الكسائي والأخفش ، ودلائل هذه المذاهب مذكورة في علم النحو .

(20/436)

وأجاز الزمخشري أن يكون صفة لرجال أي : رجالاً ملتبسين بالبينات فيتعلق بمحذوف ، وهذا وجه سائغ ، لأنه في موضع صفة لما بعد : إلا ، فوصف رجالاً بيوحى إليهم ، وبذلك العامل في بالبينات كما تقول : ما أكرمت إلا رجلاً مسلماً ملتبساً بالخير .

وأجاز أيضاً أن يتعلق بيوحى إليهم ، وأن يتعلق بلا يعلمون .

قال : على أنّ الشرط في معنى التبكيت والإلزام كقول الأجير : إن كنت علمت لك فاعطني حقي ، وقوله : فاسألوا أهل الذكر ، اعتراض على الوجوه المتقدمة يعني : من التي ذكر غير الوجه الأخير .

وأنزلنا إليك الذكر : هو القرآن ، وقيل له ذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين .

وقيل : الذكر العلم ما نزل إليهم من المشكل والمتشابه ، لأن النص والظاهر لا يحتاجان إلى بيان .

وقال الزمخشري : مما أمروا به ونهوا عنه ، ووعدوا وأوعدوا .

وقال ابن عطية : لتبين بسردك بنص القرآن ما نزل إليهم .

ويحتمل أن يريد لتبين بتفسيرك المجمل وشرحك ما أشكل ، فيدخل في هذا ما تبينه السنة من أمر الشريعة ، وهذا قول مجاهد انتهى .

ولعلهم يتفكرون أي : وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ : هذه الآيةُ ردٌّ على كفَّار قريش الذين استبعدوا أنْ يبعث اللَّه بشراً رسولاً ، ثم قال تعالى : ﴿ فاسئلوا ﴾ ، أي : قلْ لهم : ﴿ فاسئلوا ﴾ ، و ﴿ أَهْلَ الذكر ﴾ ؛ هنا : أحبارِ اليهودِ والنصارى ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وهو أظهر الأقوال ، وهم في هذه النازِلَةِ خاصَّةً إنما يخبرون بأَنَّ الرسُلَ من البَشَر ، وأخبارُهم حجَّة على هؤلاء ، وقدْ أرسلَتْ قريشٌ إلى يهودِ يَثْرِبَ يسألونهم ويُسْنِدُون إليهم .

وقوله : ﴿ بالبينات ﴾ : متعلّق بفعلٍ مضمرٍ ، تقديره : أرسلناهم بالبيّنات ، وقالتْ فرقة : الباءُ متعلّقة ب ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ في أول الآية ، والتقدير على هذا : وما أرسلنا من قبلك بالبيّنات والزُّبرِ إلاَّ رجالاً ، ففي الآية تقديمٌ وتأخير ، و ﴿ الزبر ﴾ : الكُتُبُ المزبورة .

وقوله سبحانه : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ الآية .

(22/436)

---

* ت * : وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ، فبيَّن عن اللَّه ، وأوْضَح ، وقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامعَ الكَلِم ، فأعرب عن دين اللَّهِ ، وأفصح ، ولنذكُرِ الآن طَرَفاً من

حِكَمِهِ، وفصيح كلامِهِ بحذف أسانيده، قال عِياضٌ في «شِفَاهُ» : وأما كلامُهُ صلى الله عليه وسلم المعتادُ، وفصاحَتُه المعلومةُ، وجوامعُ كَلِمِهِ، وحِكَمُه المأثورةُ، فمنها ما لا يُوَازَى فصاحةً، ولا يبارى بلاغةً؛ كقوله : "المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ" ، وقوله : "النَّاسُ كَأَسْنَانِ المِشْطِ" ، و "المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ" ، و "لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ" ، و "النَّاسُ مَعَادِنٌ" ، و "مَا هَلَكَ امرءٌ عَرَفَ قَدْرَهُ" ، و "المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ" ، و "هو بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ"

(23/436)

، و "رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً قَالَ خَيْراً فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ عَنْ شَرٍّ فَسَلِمَ" ، وقوله : "أَسْلِمْ تَسْلَمْ" ، و "أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ" ، و "إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً المُوطَّؤُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ" ، وقوله : "لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَبْخَلُ بِمَا لَا يُغْنِيهِ" ، وقوله : "ذُو الوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً" وَنَهْيُهُ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةِ المَالِ، وَمَنْعٍ وهَاتِ، وَعُقُوقِ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ البَنَاتِ، وقوله : "اتقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حسنٍ" ؛ و "خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا" ، وقوله : "أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ

يَوْماً مَّا " ، وقوله : " الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَة " ، وقولِه في بَعْضِ دعائه : " اللَّهُمَّ ، إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي ، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي ، وَتَلُمُّ بِهَا شَعْثِي ، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي ، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي ، وتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي ، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رَشَدِي ، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي ، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، اللَّهُمَّ ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الفَوْزَ فِي القَضَاءِ ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ " ، إلى غَيْرِ ذلكَ مِنْ بيانِهِ ، وحُسْنِ كلامه ممَّا روتْهُ الكافَّةُ عن الكافَّة مما لا يُقَاسُ به غيره ، وحاز فيه سبقاً لا يُقْدَرُ قَدْرُهُ ؛ كقوله : " السَّعِيدُ مَنْ

(24/436)

وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ " ؛ في أخواتها مما يدرك الناظِرُ العَجَبَ في مضمَّنها ، ويذهَبُ به الفكْرُ في أداني حِكَمِها ، وقال صلى الله عليه وسلم : "بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ " ، فجمع اللَّه له بذلك قُوَّةَ عارضَةِ الباديةِ وجزالَتَهَا ، وَنَصَاعَةَ أَلفاظِ الحاضِرَةِ ورَوْنَقَ كلامِهَا ، إلى التأييد الإلهي الذي مَدَدُهُ الوَحْي ، الذي لا يحيطُ بعلمه بَشَرِيّ . انتهى . وبالجملة فليس بَعْدَ بيان الله ورسُولِه بيانٌ لمن عَمَّرَ اللَّهُ قلْبَه بالإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(25/436)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

وقرىء بالياء مبنياً للمفعول وهو ردٌّ لقريش حين قالوا : اللهُ أجلُّ من أن يكون له رسولٌ من البشر ، كما هو مبنى قولِهم : ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا ﴾ الخ ، أي جرت السنةُ الإلهية حسبما اقتضتْه الحكمةُ بأن لا يَبعثَ للدعوة العامة إلا بشراً يوحي إليهم بواسطة الملَك أوامرَه ونواهيَه ليبلّغوها الناس . ولما كان المقصودُ من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيهَ الكفار على مضمونه صُرف الخطاب إليهم فقيل : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ أي أهلَ الكتاب أو علماءَ الأخبار أو كلَّ من يُذكرُ بعلم وتحقيق ليعلّموكم ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ حُذف جوابُه لدِلالة ما قبله عليه ، وفيه دلالةٌ على أنه لم يُرسِلْ للدعوة العامة ملَكاً ، وقولُه تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الرسل ، ولا امرأةً ولا صبياً ، ولا ينافيه نبوةُ عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في المهْد لأنها أعمُّ من الرسالة ، وإشارةٌ إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يُعلم .

﴿ بالبينات والزبر ﴾ بالمعجزات والكتبِ ، والباءُ متعلقةٌ بمقدر وقع جواباً عن سؤال من قال : بمَ أُرسلوا ؟ فقيل : أرسلوا بالبينات والزبر ، أو بما أرسلنا داخلاً تحت الاستثناء مع رجالاً عند من يجوّزه ، أي ما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك : ما ضربت إلا زيداً بالسوط ، أو على نية التقديمِ قبل أداة الاستثناءِ أي ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً عند من يجوّز تأخرَ صلةِ ما قبل إلا إلى ما بعده ، أو ما وقع صفةً للمستثنى أي إلا رجالاً ملتبسين بالبينات أو بنوحي على المفعولية أو الحالية من القائم مقامَ فاعل يوحى وهو إليهم على أن قوله تعالى : ﴿ فاسألوا ﴾ اعتراضٌ أو بقوله ﴿ لا تَعْلَمُونَ ﴾ على أن الشرطَ للتبكيت كقول الأجير : إن كنت عملْتُ لك فأعطِني حقي .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ أي القرآنَ ، وإنما سُمّي به لأنه تذكيرٌ وتنبيهٌ للغافلين ﴿ لِتُبَيّنَ لِلنَّاسِ ﴾ كافةً ويدخل فيهم أهلُ مكة دخولاً أولياً ﴿ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في ذلك الذكرِ من الأحكام والشرائعِ وغير ذلك من أحوال القرونِ المهلَكة بأفانين العذابِ حسب أعمالِهم الموجبةِ لذلك على وجه التفصيلِ بياناً شافياً ، كما ينبىء عنه صيغةُ التفعيل في الفعلين لا سيما بعد ورودِ الثاني أو لا على صيغة الإفعالِ ، ولِما أن التبيينَ أعمُّ من التصريح بالمقصود ومن الإرشاد إلى ما يدل عليه دخل تحته القياسُ على الإطلاق سواءٌ كان في الأحكام الشرعية أو غيرِها ، ولعل قوله عز وجل : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ذلك أي إرادةَ

أن يتأملوا فيتنبّهوا للحقائق وما فيه من العبر ، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(27/436)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾

رد لقريش حيث أنكروا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله تعالى أعظم أن يكون رسوله بشراً هلا بعث إلينا ملكاً أي جرت السنة الإلهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا نبعث للدعوة العامة إلا بشراً نوحي إليهم بواسطة الملك في الأغلب الأوامر والنواهي ليبلغوها ، ويحترز بالدعوة العامة عن بعث الملك للأنبياء عليهم السلام للتبليغ أو لغيرهم كبعثه لمريم للبشارة ، وبالأغلب بعض أقسام الوحي مما لم يكن بواسطة الملك كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾ [الشورى : 51] وقرأ الجمهور ﴿ يُوحِى ﴾ بالياء وفتح الحاء .

وفرقة بالياء وكسرها ؛ وعبد الله والسلمي .

وطلحة.

وحفص بالنون وكسرها .

وفي ذلك من تعظيم أمر الوحي ما لا يخفى.

ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب إليهم فقيل : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى قاله ابن عباس.

والحسن.

والسدي.

وغيرهم ، وتسمية الكتاب تعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وعن مجاهد تخصيصه بالتوراة لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ [الأنبياء : 105] فأهله اليهود .

قال في "البحر" والمراد من لم يسلم من أهل الكتاب لأنهم الذين لا يتهمون عند أهل مكة في إخبارهم بأن الرسل عليهم السلام كانوا رجالاً فإخبارهم بذلك حجة عليهم ، والمراد كسر حجتهم وإلزامهم وإلا فالحق واضح في نفسه لا يحتاج فيه إلى إخبار هؤلاء ، وقد أرسل المشركون بعد نزولها إلى أهل يثرب يسألونهم عن ذلك ، وقال الأعمش وابن عيينة .

وابن جبير : المراد من أسلم منهم كعبد الله بن سلام .

وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهما .

وغيرهما .

ويضعفه أن قول من أسلم لا حجة فيه على الكفار ومنه يعلم ضعف ما قال أبو جعفر .

وابن زيد من أن المراد من الذكر القرآن لأن الله تعالى سماه ذكراً في مواضع منها ما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ، وأهل الذكر على هذا المسلمون مطلقاً ، وخصهم بعض الإمامية بالأئمة أهل البيت احتجاجاً بما رواه جابر .

ومحمد بن مسلم منهم عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه أنه قال : نحن أهل الذكر ، وبعضهم فسر الذكر بالنبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : ﴿ ذِكْراً رَسُولاً ﴾ على قول ، ويقال على مقتضى ما في "البحر" : كيف يقنع كفار أهل مكة بخبر أهل البيت في ذلك وليسوا بأصدق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم وهو عليه الصلاة والسلام المشهور فيما بينهم بالأمين ، ولعل ما رواه ابن مردويه منا موافقاً بظاهره لمن زعمه ذلك البعض من الإمامية عن أنس قال :

"سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرجل ليصلي ويصوم ويحج ويعتمر وإنه

لمنافق قيل : يا رسول الله بماذا دخل عليه النفاق ؟ قال : يطعن على إمامه وإمامه من قال الله تعالى في كتابه : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ إلى آخره "مما لا يصح ، وأنا أقول يجوز أن يراد من أهل الذكر أهل القرآن وإن قال أبو حيان ما قال وستعلم وجهه قريباً إن شاء الله تعالى المنان ، وقال الرماني .

والزجاج.

والأزهري : المراد بأهل الذكر علماء أخبار الأمم السالفة كائناً من كان فالذكر بمعنى الحفظ كأنه قيل : اسألوا المطلعين على أخبار الأمم يعلموكم بذلك ﴿ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وجواب ﴿ إن ﴾ إما محذوف لدلالة ما قبله عليه أي فاسألوا ، وأما نفس ما قبله بناءً على جواز تقدم الجواب على الشرط .

(29/436)

واستدل بالآية على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا صبياً لا ينافيه نبوة عيسى عليه السلام في المهد فإن النبوة أعم من الرسالة ؛ ولا يقتضي صحة القول بنبوة مريم أيضاً لأن غايته نفي رسالة المرأة ، ولا يلزم من ذلك إثبات نبوتها ، وذهب إلى صحة نبوة النساء جماعة وصحح ذلك ابن السيد ، ولا ينافي ما دلت عليه الآية من نفي إرسال الملائكة عليهم السلام

قوله تعالى: ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ [فاطر: 1] لأن المراد جاعلهم رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم السلام لا للدعوة العامة وهو المدعي كما علمت فالرسول إما بالمعنى المصطلح أو بالمعنى اللغوي، وقال الجبائي: إن الملائكة عليهم السلام لم يبعثوا إلى الأنبياء عليهم السلام إلا ممثلين بصور الرجال ورد بما روي أن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرتين، وهو وارد على الحصر المقتضى للعموم فلا يرد عليه أنه لا دلالة فيما روي على رؤية من قبل نبينا عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام على صورته مع أنه إذا ثبت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ولم يثبت أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام فلا مانع من ثبوته لغيره قاله الشهاب، وذكر أنه نقل الإمام عن القاضي أن مراد الجبائي أنهم لم يبعثوا إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحضرة أممهم إلا وهم على صور الرجال كما روي أن جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحضر من أصحابه في صورة دحية الكلبي وفي صورة سراقة وفي صورة أعرابي لم يعرفوه.

واستدل بها أيضاً على وجوب المراجعة للعلماء فيما لا يعلم.

وفي الإكليل للجلال السيوطي أنه استدل بها على جواز تقليد العامي في الفروع وانظر التقييد بالفروع فإن الظاهر العموم لا سيما إذا قلنا إن المسألة المأمورين بالمراجعة فيها والسؤال عنها من الأصول ، ويؤيد ذلك ما نقل عن الجلال المحلي أنه يلزم غير المجتهد عامياً كان أو غيره التقليد للمجتهد لقوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ والصحيح أنه لا فرق بين المسائل الاعتقادية وغيرها وبين أن يكون المجتهد حياً أو ميتاً اه .

وصحح هو وغيره امتناع التقليد على المجتهد مطلقاً سواء كان له قاطع أو لا وسواء كان مجتهداً بالفعل أو له أهلية الاجتهاد ، ومقتضى كلامهم أنه لا فرق بين تقليد أحد أئمة المذاهب الأربع وتقليد غيره من المجتهدين .

نعم ذكر العلامة ابن حجر .

وغيره أنه يشترط في تقليد الغير أن يكون مذهبه مدوناً محفوظ الشروط والمعتبرات فقول السبكي : إن مخالف الأربعة كمخالف الإجماع محمول على ما لم يحفظ ولم تعرف شروطه وسائر معتبراته من المذاهب التي انقطع حملتها وفقدت كتبها كمذهب الثوري .

والأوزاعي .

وابن أبي ليلى .

وغيرهم ، ثم إن تقليد الغير بشرطه إنما يجوز في العمل وأما للإفتاء والقضاء فيتعين أحد المذاهب الأربع ، واستشكل الفرق العلامة ابن قاسم العبادي ، وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الفرق أنه يحتاط فيهما لتعديهما ما لا يحتاط في العمل فيتركان لأدنى محذور ولو محتملاً ، ونظير ذلك ما ذكره بعض الشافعية في القولين المتكافئين أنه لا يفتي ولا يقضي بكل منهما لاحتمال كونه مرجوحاً ويجوز العمل به ؛ وذكر الإمام أن من الناس من جوز التقليد للمجتهد لهذه الآية فقال : لما لم يكن أحد المجتهدين عالماً وجب عليه الرجوع إلى المجتهد العالم لقوله تعالى : ﴿ فاسألوا ﴾ الآية فإن لم يجب فلا أقل من الجواز ، وأيد ذلك بأن بعض المجتهدين نقلوا مذاهب بعض الصحابة وأقروا الحكم عليها ، والصحيح ما سمعت أولاً ، وما ذكر ليس بتقليد بل هو من باب موافقة الاجتهاد الاجتهاد ، واحتج بها أيضاً نفاة القياس فقالوا : المكلف إذا نزلت به واقعة فإن كان عالماً بحكمها لم يجز له القياس وإلا وجب عليه سؤال من كان عالماً بها بظاهر الآية ولو كان القياس حجة لما وجب عليه السؤال لأجل أنه يمكنه استنباط ذلك الحكم بالقياس ، فثبت أن تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر الآية فوجب أن لا يجوز .

وأجيب بأنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة والإجماع أقوى من هذا الدليل .

وقال بعضهم : إذا كان المكلف ممن يقدر على القياس كان ممن يعلم فلا يجب عليه السؤال

فتأمل.

﴿ بالبينات والزبر ﴾ أي بالمعجزات والكتب، والأولى للدلالة على الصدق، والثانية لبيان الشرائع والتكاليف.

وانحرف عن الحق من فسرهما بما هو مصطلح أهل الحرف.

والجار والمجرور متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله وقع جواباً عن سؤال من قال: بم أرسلوا؟ فقيل: أرسلوا "بالبينات والزبر".

وجوز الزمخشري.

والحوفي تعلقه بأرسلنا السابق داخلاً تحت حكم الاستثناء مع ﴿ رِجَالاً ﴾ [النحل: 43] أي وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات وهو في معنى قولك: ما أرسلنا جماعة من الجماعات بشيء من الأشياء إلا رجالاً بالبينات، ومثله ما ضربت إلا زيداً بسوط، وهو مبني على ما جوزه بعض النحاة من جواز أن يستثنى بأداة واحدة شيآن دون عطف وأنه يجري في الاستثناء المفرغ، وأكثر النحاة على منعه كما صرح به صاحب التسهيل وغيره. وقال في "الكشف": والحق أنه لا يجوز لأن إلا من تتمة ما دخلت عليه كالجزء منه وللزوم

الإلباس .

أو وجوب أن يكون جميع ما يقع بعد إلا محصوراً وأن يجب نحو ما ضرب إلا زيداً عمراً إذا أريد الحصر فيهما ولا يكون فرق بين هذا وذاك ، وكل ذلك ظاهر الانتفاء .

والزمخشري جوز ذلك وصرح به في مواضع من كشافه ، واستدل عليه بأن أصل ما ضربت إلا زيداً بسوط ضربت زيداً بسوط وأراد أن زيادة ما وإلا ليست إلا تأكيداً فلتؤكد لما كان أصل الكلام عليه ، وهو حسن لولا أن الاستعمال والقياس آبيان ، وقال بعضهم : إنه متعلق به من غير دخوله مع ﴿ رجالاً ﴾ [النحل : 43] تحت حكم الاستثناء على أن أصله وما أرسلنا بالبينات والزبر إلا رجالاً .

وتعقب بأنه لا يجوز على مذهب البصريين حيث لا يجيزون أن يقع بعد إلا إلا مستثنى أو مستثنى منه أو تابعاً وما ظن من غير الثلاثة معمولاً لما قبل إلا قدر له عامل ، وأجاز الكسائي أن يقع معمولاً لما قبلها منصوب كما ضرب إلا زيد عمراً ، ومخفوض كما مر إلا زيد بعمرو ولا يعذب إلا الله بالنار ، ومرفوع كما ضرب إلا زيداً عمرو ، ووافقه ابن الأنباري في المرفوع ، والأخفش في الظرف والجار والحال ، فما ذكر مبني على مذهب الكسائي .

والأخفش ، لكن قال الشهاب : إنه خلاف ظاهر الكلام وإخراج له عن سنن الانتظام وأكثر النحاة على أنه ممنوع ، وجوز أن يكون متعلقاً بما رفع صفة لرجالاً أي رجالاً ملتبسين بالبينات ولم يقع حالاً منه ، قيل : لأنه نكرة متقدمة ، نعم قيل : بجواز وقوعه حالاً من ضمير الرجال في ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ [النحل : 43] وقيل : يجوز كونه حالاً من ﴿ رِجَالاً ﴾ [النحل : 43] لأنه نكرة موصوفة ، واختار أبو حيان مجيء الحال من النكرة بلا مسوغ كثيراً قياساً ونقله عن سيبويه وإن كان دون الاتباع في القوة .

وجوز أيضاً تعلقه بنوحي وقوله سبحانه : ﴿ فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذكر ﴾ [النحل : 43] اعتراض على الوجوه المتقدمة أو غير الأول ، وتصدير الجملة المعترضة بالفاء صرح به في التسهيل وغيره ، وما نقل من منعه ليس بثبت ، ثم إذا كان اعتراضاً متخللاً بين مقصوري حرف الاستثناء معناه فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون أنا أرسلنا رجالاً بالبينات وعلى الوصفية إن كنتم لا تعلمون أنهم رجال متلبسون بالبينات ، وعلى هذا يقدر الاعتراض مناسباً لما تخلل بينهما ، وأشبه الأوجه أن يكون على كلامين ليقع الاعتراض موقعه اللائق به لفظاً ومعنى قاله في "الكشف" .

وجوز أن يتعلق بتعلمون فلا اعتراض ، وفي الشرط معنى التبكيت والإلزام كما في قول الأجير : إن كنت عملت لك فأعطني حقي ، فإن الأجير لا يشك في أنه عمل وإنما أخرج الكلام مخرج الشك لأن ما يعامل به من التسويف معاملة من يظن بأجيره أنه لم يعمل ، فهو في ذلك يلزمه مقتضى ما اعترف به من العمل ويبكته بالتقصير مجهلاً إياه ، فكذا ما هنا لا يشك أن قريشاً لم يكونوا من علم البينات والزبر في شيء فيقول : إن كون الرسل عليهم السلام رجالاً أمر مكشوف لا شبهة فيه فاسألوا أهل الذكر إن لم تكونوا من أهله يبين لكم يريد أن إنكاركم وأنتم لا تعلمون ليس بسديد وإنما السبيل أن تسألوا من أهل الذكر لا أن تنكروا قولهم ، فإنكاركم مناف لما تقتضيه حالكم من السؤال فهو تبكيت من حيث الاعتراف بعدم العلم وسبيل الجاهل سؤال من يعلم لا إنكاره ، قاله في "الكشف" أيضاً ، ثم قال : ولا أخص أهل الذكر بأهل الكتابين ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولو خص لجاز لأنهم موافقون في ذلك فإنكارهم إنكارهم ، ثم التبكيت متوجه إلى العدول عن السؤال إلى الإنكار سألوا أولاً انتهى .

(35/436)

ومنه يعلم جواز أن يراد بأهل الذكر أهل القرآن ، وما ذكره أبو حيان في تضعيفه من أنه لا حجة في إخبارهم ولا إلزام ناشىء من عدم الوقوف على هذا التحقيق الأنيق ، وهذا ظاهر على تقدير تعلق ﴿ بالبينات ﴾ بيعلمون والباء على هذا التقدير سببية والمفعول محذوف عند بعض ، وزعم آخر أنها زائدة والبينات هي المفعول ، فافهم ذاك ، والله تعالى يتولى هداك ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ أي القرآن وهو من التذكير إما بمعنى الوعظ أو بمعنى الإيقاظ من سنة الغفلة وإطلاقه على القرآن إما لاشتماله على ما ذكر أو لأنه سبب له ، ومنه يعلم وجه تسمية التوراة ونحوها ذكراً ، وقيل : المراد بالذكر العلم وليس بذاك ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً ﴿ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في ذلك الذكر من الأحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم مع أنبيائهم عليهم السلام الموجبة لذلك على وجه التفصيل بياناً شافياً كما ينبىء عنه صيغة التفعيل في الفعلين لا سيما بعد ورود الثاني أولاً على صيغة الأفعال ، وعن مجاهد أن المراد بهذا التبيين تفسير المجمل وشرح ما أشكل إذ هما المحتاجان للتبيين ، وأما النص الظاهر فلا يحتاجان إليه .

وقيل : المراد به إيقافهم على حسب استعداداتهم المتفاوتة على ما خفي عليهم من أسرار القرآن وعلومه التي لا تكاد تحصى ، ولا يختص ذلك بتبيين الحرام والحلال وأحوال القرون الخالية والأمم الماضية ، واستأنس له بما أخرجه الحاكم وصححه عن حذيفة قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً أخبرنا فيه بما يكون إلى يوم القيامة عقله منا من عقله ونسيه من نسيه" وهذا في معنى ما ذكره غير واحد أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الإرشاد إلى ما يدل عليه ، ويدخل فيه القياس وإشارة النص ودلالته وما يستنبط منه من العقائد والحقائق والأسرار الإلهية ، ولعل قوله عز وجل : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إشارة إلى ذلك أي وطلب أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترز عما يؤدي إلى ما أصاب الأولين من العذاب ، وقال بعض المعتزلة : أي وإرادة أن يتفكروا في ذلك فيعلموا الحق ثم قال ، وفيه دلالة على أن الله تعالى أراد من جميع الناس التفكر والنظر المؤدي إلى المعرفة بخلاف ما يقول أهل الجبر ، ونحن في غنى عن تقدير الإرادة بتقدير الطلب ، ومن قدرها منا أراده منها ، وإلا ورد عليه عدم تأمل البعض ولعله الأكثر ، وهي لا ينفك المراد عنها على المذهب الحق فلا بد من العدول عنه إلى مقابله ، وقيل : أراد تعلقها بالبعض وهو المتأمل لا بالكل ، وأيد بعضهم إرادة الصحابة أو ما يشملهم والنبي صلى الله عليه وسلم من أهل الذكر فيما تقدم بذكر هذه الآية بعده وليس بذي أيد . انتهى ا . هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال صاحب روح البيان :

قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا مِن قَبْلِكَ ﴾ أي : الأمم الماضية ﴿ إِلا رِجَالا ﴾ آدميين لا ملكاً وقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلا ﴾ (فاطر : 1) أي : إلى الملائكة أو إلى الأنبياء ولا امرأة إذ مبني حالها على الستر والنبوة تقتضي الظهور ولا صبياً ونبوة عيسى في المهد لا تنافيه إذ الرسالة أخص .

قال ابن الجوزي اشتراط الأربعين في حق الأنبياء ليس بشيء .

﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ على ألسنة الملائكة في الأغلب وأكثر الأمر وفيه إشارة إلى أن الرسالة والنبوة والولاية لا تسكن إلا في قلوب الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله :

نه هركس سزاوار باشد بصدر

كرامت بفضلست ورتبت بقدر

﴿ فسْألُوا ﴾ أي : فإن شككتم في ذلك فاسألوا يا معشر قريش ﴿ أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ علماء أهل الكتاب ليخبروكم أن الله تعالى لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً وكانوا يشاورونهم في بعض الأمور ولذلك أحالهم إلى هؤلاء للإلزام ﴿ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

وفي الآية إشارة إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم .

وسئل الإمام الغزالي رحمه الله : من أين حصل لك الإحاطة بالعلوم أصولها وفروعها فتلا هذه الآية أي : أفاد أن ذلك العلم الكلي إنما حصل باستعلام المجهول من العلماء وترك العار وقد ورد (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها) يعني ينبغي للمؤمن أن يطلب الحكمة كما يطلب ضالته .

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جواباً عن سؤال من قال بم أرسلوا فقيل : أرسلوا بالبينات والزبر .

والبينات جمع بينة وهي الواضحة .

والزبر جمع زبور وهو الكتاب بمعنى المزبور أي : المكتوب ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ أي : القرآن إنما سمي به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين .

(38/436)

يعني أنه سبب الذكر فاطلق عليه المسبب ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ كافة العرب والعجم ﴿ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في ذلك الذكر من الأحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بياناً شافياً كما ينبىء

عنه صيغة التفعيل في الفعلين

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ التفكر تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب أي وإرادة أن يجيلوا فيه أفكارهم فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب .

(39/436)

وفي "التأويلات النجمية" : ولعلهم أي : وفي إنزال الذكر إليك حكمة أخرى وهي لعل الناس يتفكرون فيما يسمعون من بيان القرآن والأحكام منك على أنك أمي ما قرأت الكتب المنزلة ولا تعلمت العلوم وإنما تبين لهم من نور الذكر فيلازمون الذكر ويواظبون عليه ليصلوا إلى مقام المذكورين في متابعتك ورعاية سنتك .

ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلّم عن جلاء القلب قال : "ذكر الله وتلاوة القرآن والصلاة عليّ" ولا شك أن خير الأذكار كلمة التوحيد .

قال إبراهيم الخواص رحمه الله : دواء القلب خمسة : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع إلى الله عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

وفي "أبكار الأفكار" أفضل الذكر قراءة القرآن فإنها أفضل من الدعوة الغير المأثورة .

وأما المأثورة فقيل: إنها أفضل منها وقيل: القراءة أفضل انتهى.

وفي "نفائس المجالس" مما يجب فيه التدبر والتذكر قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (التوبة: 34) فالله تعالى أمر المؤمنين بالإيمان أي: بتكرار عقد القلب وتجديده كما ورد "جددوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله".

قال بعض الكبار: قد علم بحديث التجديد أن الإيمان يقبل البلى وذلك بزوال الحب وتجديده بالتوحيد وكلمة التوحيد مركبة من النفي والإثبات فبنفي ما سوى المعبود وإثبات ما هو المقصود يصل الموحد إلى كمال الشهود وحصول ذلك بنور التلقين والكينونة التامة مع الصادقين كما قال تعالى: ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: 119) والكينونة صورية وهي بملازمة أهل الصدق ومجالستهم ومعنوية وهي باتخاذ الأسرار وتحصيل المناسبة المعنوية فلا بد من الارتباط بواحد من الصادقين:

واعلم أن التبيين حق أهل الدعوة والإرشاد إذ ليس عليهم إلا البلاغ المبين والعمل بموجب الدعوة على العباد إذ ليس عليهم إلا قبول ما جاء من طرف النبي الأمين فإذا قبلوا ذلك ورجعوا في المشكلات إليه أو إلى وارث من ورثته الكمل علموا ما لم يعلموا ووصلوا إلى كمال العلم والعمل وحصلوا عند المقصود من نزول القرآن فطوبى لهم فلهم درجات الجنان ورؤية المنان. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح البيان حـ 5 صـ 47. 48 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه لم يرسل قبله صلى الله عليه وسلم من الرسل إلا رجالاً ، أي لا ملائكة . وذلك أن الكفار استغربوا جداً بعث الله رسلاً من البشر ، وقالوا : الله أعظم من أن يرسل بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . فلو كان مرسلاً أحداً حقاً لأرسل ملائكة كما بينه تعال في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ [يونس : 2] ، وقوله : ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ ﴾ [ق : 2] الآية ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ مالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] ، وقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله ﴾ [التغابن : 6] الآية ، وقوله ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر : 24] الآية ، وقوله : ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ الله لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بهذا فِي آبَآئِنَا الأولين ﴾ [المؤمنون : 24] ، وقوله : ﴿ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ

بِلقَآءِ الآخرة وأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا مَا هذا إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: 33-34]، وقوله ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السماوات والأرض يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ

(41/436)

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: 10] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين الله جل وعلا في آيات كثيرة: أن الله ما أرسل لبني آدم إلا رسلاً من البشر، وهم رجال يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ونحو ذلك من صفات البشر.

كقوله هنا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43] وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ [يوسف: 109]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ [الفرقان: 20]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ

الطعام وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 8] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد : 38] ، وقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقرأ جمهور القراؤ هذا الحرف "يوحى إليهم" بالياء المثناة التحتية ، وفتح الحاء مبنياً للمفعول . وقرأه حفص عن عاصم "نوحي إليهم" بالنون وكسر الحاء مبنياً للفاعل .

وكذلك قوهل في آخر سورة يوسف "إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى" . وأول الأنبياء "إلا رجالاً يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر .

(42/436)

. "الآية . كل هذه المواضع قرأ فيها حفص وحده بالنون وكسر الحاء . والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء أيضاً وأما الثانية في سورة الأنبياء وهي قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ ﴾ [الأنبياء : 25] الآية . فقد قرأه بالنون وكسر الحاء حمزة والكسائي وحفص والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء أيضاً . وحصر الرسل في الرجال في الآيات المذكورة لا ينافي أن من الملائكة رسلاً . كما قال تعالى : ﴿ الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ [الحج : 75] ، وقال : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ

السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ [فاطر : 1] الآية . لأن الملائكة يرسلون إلى الرسل ، والرسل ترسل إلى الناس . والذي أنكره الكفار هو إرسال الرسل إلى الناس ، وهو الذي حصر اله فيه الرس في الرجال من الناس . فلا ينا في إرسال الملائكة للرُّسل بالوحي ، ولقبض الأرواح ، وتسخير الرِّياح والسَّحاب ، وكتب أعمال بني آدم ، وغير ذلك . كما قال تعالى : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [النازعات : 5] .

تنبيه

(43/436)

يفهم من هذه الآيات أن الله لم يرسل امرأة قط . لقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ . ويفهم من قوله : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ الآيه – أن من جهل الحكم : يجب عليه سؤال العلماء والعمل بما أفتوه به . والمراد بأهل الذكر في الآية : أهل الكتاب ، وهذه الأمة أيضاً يصدق عليها أنه أهل الذكر . لقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] الآية . إلا أن المراد في الآية أهل الكتاب . والباء في قوله ﴿ بالبينات والزبر ﴾ [النحل : 44] قيل : تتعلق ب " ما أرسلنا " داخلاً تحت حكم الاستثناء مع " رجالاً " أي وما أرسلنا إلاّ رجالاً بالبينات ، كقولك : ما متلبسين بالبينات . وقيل : تتعلق ب " أرسلنا " مضمراً دل

عليه ما قبله . كأنه قيل : بم أرسولا ؟ قيل : بالبينات . وقيل : تتعلق ب ، " نوحي " إليهم بالبينات . قاله صاحب الكشاف . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

المراد بالذكر في هذه الآية : القرآن . كقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم .

إحداهما – أن يبين للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والنواهي ، والوعد والوعيد ، ونحو ذلك . وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً . كقوله : ﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ ﴾ [النحل : 64] ، وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس ﴾ [النساء : 105] الآية .

(44/436)

الحكمة الثانية – هي التفكر في آياته والاتعاظ بها . كما قال هنا : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً . كقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ

ليدبروا آياتِهِ ولِيَتَذكَّرَ أُوْلُو الألباب ﴾ [ص : 29] ، وقوله : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ ولَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] ، وقوله : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 24] ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(45/436)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحى إِلَيْهِمْ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بالبينات والزبر ﴾ .

كانت الآيات السابقة جارية على حكاية تكذيب المشركين نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم وإنكارهم أنه مرسل من عند الله وأن القرآن وحي الله إليه ، ابتداء من قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ [سورة النحل : 24] ، وردّ مزاعمهم الباطلة بالأدلّة القارعة لهم متخلّلاً بما أدمج في أثنائه من معان أخرى تتعلّق بذلك ، فعاد هنا إلى إبطال شبهتهم في إنكار نبوءته من أنه بشر لا يليق بأن يكون سفيراً بين الله والناس ، إبطالاً بقياس التّمثيل بالرّسل الأسبقين الذين لا تنكر قريش رسالتهم مثل نوح

وإبراهيم عليهما السلام .

وهذا ينظر إلى قوله في أول السورة ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [سورة النحل : 1] .

وقد غيّر أسلوب نظم الكلام هنا بتوجيه الخطاب إلى النبي بعد أن كان جارياً على أسلوب الغيبة ابتداء من قوله تعالى : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ [سورة النحل : 22] ، وقوله تعالى ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ [سورة النحل : 35] الآية ، تأنيساً للنبيء عليه الصلاة والسلام لأن فيما مضى من الكلام آنفاً حكاية تكذيبهم إيّاه تصريحاً وتعريضاً ، فأقبل الله على الرسول بالخطاب لما في هذا الكلام من تنويه منزلته بأنه في منزلة الرسل الأولين عليهم الصلاة والسلام .

وفي هذا الخطاب تعريض بالمشركين ، ولذلك التفت إلى خطابهم بقوله تعالى : فسألوا أهل الذكر ﴾ .

وصيغة القصر لقلب اعتقاد المشركين وقولهم : ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ [سورة الإسراء : 94] ، فقصر الإرسال على التعلّق برجال موصوفين بأنهم يوحى إليهم .

ثم أشهد على المشركين بشواهد الأمم الماضية وأقبل عليهم بالخطاب توبيخاً لهم لأن التوبيخ يناسبه الخطاب لكونه أوقع في نفس الموبّخ ، فاحتجّ عليهم بقوله : فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ الخ .

فهذا احتجاج بأهل الأديان السابقين أهل الكُتب اليهود والنصارى والصابئة .

و﴿ الذّكر ﴾ : كتاب الشريعة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ في أول سورة الحِجر (6) .

وفي قوله تعالى : إن كنتم لا تعلمون ﴾ إيماء إلى أنهم يعلمون ذلك ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء ، فلذلك جيء في الشرط بحرف ﴿ إن ﴾ التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده .

وجملة ﴿ فسألوا أهل الذكر ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وما أرسلنا ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ بالبينات والزبر ﴾ .

والجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الجملة مفرّعاً على ما قبله ، وقد جعلها في "الكشاف" معترضة على اعتبار وجوه ذكرها في متعلّق قوله تعالى : ﴿ بالبينات ﴾ .

ونقل عنه في سورة الإنسان (29) عند قوله تعالى : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربه سبيلا ﴾ أنه لا تقترن الجملة المعترضة بالفاء .

وتردد صاحب الكشاف ﴾ في صحة ذلك عنه لمخالفته كلامه في آية سورة النحل .

وقوله ﴿ بالبينات ﴾ متلّق بمستقر صفةً أو حالاً من ﴿ رجالاً ﴾ .

وفي تعلّقه وجوه أخر ذكرها في "الكشاف" ، والباء للمصاحبة ، أي مصحوبين بالبينات والزبر ، فالبينات دلائل الصّدق من معجزات أو أدلّة عقلية .

وقد اجتمع ذلك في القرآن وافترق بين الرسل الأوّلين كما تفرّق منه كثير لرسولنا صلى الله عليه وسلم

و﴿ الزُّبُر ﴾ : جمع زبور وهو مشتقّ من الزبرْ أي الكتابة ، ففعول بمعنى مفعول .

﴿ والزبر ﴾ الكتب التي كتب فيها ما أوحي إلى الرسل مثل صحف إبراهيم والتوراة وما كتبه الحواريون من الوحي إلى عيسى عليه السلام وإن لم يكتبه عيسى .

(47/436)

ولعل عطف ﴿ الزبر ﴾ على ﴿ بالبينات ﴾ عطف تقسيم بقصد التوزيع ، أي بعضهم مصحوب بالبينات وبعضهم بالأمرين لأنه قد تجيء رسل بدون كتب ، مثل حنظلة بن صفوان رسول أهل الرّسّ وخالد بن سنان رسول عبس .

ولم يذكر الله لنوح عليه السلام كتاباً .

وقد تجعل ﴿ الزّبر ﴾ خاصة بالكتب الوجيزة التي ليست فيها شريعة واسعة مثل صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السلام والإنجيل كما فسّروها به في سورة فاطر .

لما اتّضحت الحجّة بشواهد التاريخ الذي لا ينكر ذُكرت النتيجة المقصودة ، وهو أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو ذكر وليس أساطير الأوّلين .

والذكر الكلام الذي شأنه أن يُذكر ، أي يُتلى ويكرّر .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ في سورة الحِجر (6) .

أي ما كنتَ بدعاً من الرّسل فقد أوحينا إليك الذكر .

والذكر : ما أنزل ليقرأه الناس ويتلونه تكراراً ليتذكروا ما اشتمل عليه .

وتقديم المتعلّق المجرور على المفعول للاهتمام بضمير المخاطب .

وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله : بالبينات والزبر ﴾ إيماء إلى أن الكتاب المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم هو بيّنةٌ وزبور معاً ، أي هو معجزة وكتاب شرع .

وذلك من مزايا القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر ، ولا معجزةٌ أخرى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربّه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مُبين أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ سورة العنكبوت (50 ، 51) .

وفي الحديث : أن النبي قال : ما من الأنبياء نبيء إلا أوتي من الآيات ما مِثْلُه آمَنَ عليه البشر وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يومِ القيامة .

والتبيين : إيضاح المعنى .

والتعريف في الناس للعموم .

(48/436)

والإظهار في قوله تعالى : ما نزل إليهم ﴾ يقتضي أن ما صدق الموصول غير الذكر المتقدم ، إذ لو كان إيّاه لكان مقتضى الظاهر أن يقال لتبيّنه : للناس .

ولذا فالأحسن أن يكون المراد بما نزل إليهم الشرائع التي أرسل الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل القرآن جامعاً لها ومبيناً لها ببليغ نظمه ووفرة معانيه ، فيكون في معنى قوله تعالى:

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ [سورة النحل : 89] .

وإسناد التبيين إلى النبي عليه الصلاة والسلام باعتبار أنه المبلّغ للناس هذا البيانَ .

واللّام على هذا الوجه لذكر العِلّة الأصلية في إنزال القرآن .

وفسر ما نزل إليهم ﴾ بأنه عين الذكر المنزّل ، أي أنزلنا إليك الذكر لتبيّنه للناس ، فيكون

إظهاراً في مقام الإضمار لإفادة أن إنزال الذكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو إنزاله إلى الناس كقوله تعالى: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ [سورة الأنبياء: 10].

وإنّما أتي بلفظه مرتين للإيماء إلى التّفاوت بين الإنزالين: فإنزاله إلى النبي مباشرةً، وإنزاله إلى الناس إبلاغه إليهم.

فالمراد بالتبيين على هذا تبيين ما في القرآن من المعاني، وتكون اللّام لتعليل بعض الحِكم الحافّة بإنزال القرآن فإنها كثيرة، فمنها أن يبيّنه النبي فتحصل فوائد العلم والبيان، كقوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للناس ﴾ [سورة آل عمران: 187].

وليس في هذه الآية دليل لمسائل تخصيص القرآن بالسنّة، وبيان مجمل القرآن بالسنّة، وترجيح دليل السنّة المتواترة على دليل الكتاب عند التعارض المفروضات في أصول الفقه إذ كل من الكتاب والسنّة هو من تبيين النبي إذ هو واسطته.

عطف لعلهم يتفكرون ﴾ حكمة أخرى من حِكَم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر الناس فيه وتأمّلهم فيما يقرّبهم إلى رضى الله تعالى.

فعلى الوجه الأول في تفسير ﴿ لتبين للناس ﴾ يكون المراد أن يتفكّروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده ، وعلى الوجه الثاني أن يتفكّروا في بيانك ويعوه بأفهامهم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(50/436)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) ﴾

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً . وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغي أن يكون مَلَكاً فقالوا : ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً . . ﴾ [المؤمنون : 24] .

وكأنهم استقلُّوا الرسالة عن طريق بشر ؛ وهذا أيضاً من غباء الكفر وحماقة الكافرين ؛ لأن الرسول حين يُبلِّغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك . . فيأمر بالصلاة ويُصلِّي ، وبالزكاة ويُزكّي ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول فقط ، لا بل بالسلوك العمليّ النموذجيّ .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان خلقه القرآن " .

وكان قرآناً يمشي على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذي جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى في حقّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . ﴾ [الأحزاب : 21] .

فكيف نتصور أن يكون الرسول مَلَكاً ؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشر ؟ قد يؤدي الملك مهمة البلاغ ، ولكن كيف يُؤدّي مهمة القدوة والتطبيق العملي النموذجي ؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خَلْق جُبلوا على طاعة الله : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

ومن أين تأتيه منافذ الشهوة وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ؟

فلو جاء مَلَك برسالة السماء ، وأراد أن ينهى قومه عن إحدى المعاصي ، ماذا نتوقع ؟ نتوقع أن يقول قائلهم : لا . . لا أستطيع ذلك ، فأنت ملك ذو طبيعة علوية تستطيع ترْك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعة الأُسْوة تقتضي أن يكون الرسول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين .

ومن هنا كان من امتنان الله على العرب ، ومن فضله عليهم أنْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 128] .

فهو أولاً من أنفسكم ، وهذه تعطيه المباشرة ، ثم هو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية . . بل من بيئتكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قريش ؛ ذلك لتكونوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناته ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق والأمانة ، وتأتمنونه على كل غَالٍ ونفيس لديكم لعلمكم بأمانته ، فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكذب ؟ !

لذلك رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى في آية أخرى فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] .

فالذي صَدَّكم عن الإيمان به كَوْنه بشراً ! !

ثم نأخذ على هؤلاء مأخذاً آخر ؛ لأنهم تنازلوا عن دعواهم هذه بأنْ يأتيَ الرسول من الملائكة وقالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

فهذا تردُّد عجيب من الكفار ، وعدم ثبات على رأي .

. مجرد لَجَاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً .

ويرد عليهم القرآن : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

فلو كان في الأرض ملائكة لنزّلنا لهم ملكاً حتى تتحقّق الأُسْوة .

(52/436)

إذن : لا بُدَّ في القدوة من اتحاد الجنس . . ولنضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك رأيتَ أسداً يثور ويجول في الغابة مثلاً يفترس كُلَّ ما أمامه ، ولا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض له . . هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً ؟ لا . . إنما لو رأيتَ فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء . . ألا تحب أن تكون فارساً ؟ بلى أحب .

فهذه هي القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا تصلح القدوة .

وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [النحل : 43] .

أي : أنك يا محمد لَسْتَ بَدْعاً في الرسل ، فَمْن سبقوك كانوا رجالاً طيلة القرون الماضية ،

وفي موكب الرسالات جميعاً .

وجاءتْ هنا كلمة ﴿ رِجَالاً ﴾ لتفيد البشرية أولاً كجنس ، ثم لتفيد النوع المذكَّر ثانياً ؛ ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه . . يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع . . أما المرأة فمبنية على التستُّر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأُسْوة للناس ، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا في طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب دور النبوة ، ولا تتمشّى مع مهمة النبي ، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد لأنها حائض أو نُفَساء .

كذلك جاءت كلمة ﴿ رِجَالاً ﴾ مُقيَّدة بقوله :

﴿ نوحي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [النحل : 43] .

فالرسول رجل ، ولكن إياكَ أنْ تقول : هو رجل مثْلي وبشر مثْلي . . لا هناك مَيْزة أخرى أنه يُوحَى إليه ، وهذه منزلة عالية يجب أن نحفظها للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] .

أي : إذا غابتْ عنكم هذه القضية ، قضية إرسال الرسل من البشر ولا أظنها تغيب لأنها عامة في الرسالات كلها . وما كانت لتخفَى عليكم خصوصاً وعندكم أهل العلم بالأديان السابقة ، مثل ورقة بن نوفل وغيره ، وعندكم أهل السِّيَر والتاريخ ، وعندكم اليهود والنصارى . . فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشرية الرسل .

فهذه قضية واضحة لا تُنكر ، ولا يمكن المخالفة فيها . . وماذا سيقول اليهود والنصارى؟ . . موسى وعيسى . . إذنْ بشر .

وقوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] .

يوحي بأنهم يعلمون ، وليس لديهم شَكٌّ في هذه القضية . . مثل لو قلتَ لمخاطبك : اسأل عن كذا إنْ كنت لا تعرف . . هذا يعني أنه يعرف ، أما إذا كان في القضية شَكٌّ فنقول : اسأل عن كذا دون أداة الشرط . . إذن : هم يعرفون ، ولكنه الجدال والعناد والاستكبار عن قبول الحق .

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) ﴾

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بالبينات والزبر . . . ﴾ [النحل : 44] .

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق . . فبماذا يتعلق الجار والمجرور

هنا ؟ قالوا : يجوز أنْ يتعلّق بالفعل (نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر . . فيكون المعنى : فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ، فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور .

والبينات : هي الأمر البيِّن الواضح الذي لا يشكُّ فيه أحد . . وهو إما أن يكون أمارة ثُبوت صِدْق الرسالة كالمعجزة التي تتحدى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها . . أو : هي الآيات الكونية التي تلفِتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهارَ والشمس والقمر والنجوم .

(54/436)

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة . . ولا يُكتب عادة إلا الشيء النفيس مخافة أنْ يضيعَ ، وليس هنا أنفَسُ مما يأتينا من منهج الله لِيُنظِّم لَنَا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب قديماً كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم عِلْمٌ بالسهم ومَنْ أول صانع لها ، وعن القوس والرَّحْل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة . . ألاَ يسألون عن آيات الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خَلْقها تدلُّ على الخالق

سبحانه وتعالى؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ.. ﴾ [النحل: 44].

كلمة الذكر وردتْ كثيراً في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة، وأَصلْ الذكر أنْ يظلَّ الشيءُ على البال بحيث لا يغيب، وبذلك يكون ضِدّه النسيان.. إذن: عندنا ذِكْر ونسيان..

فكلمة "ذكر" هنا معناها وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه.. فما هو؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم عليه السلام أخذ العهد على كُلِّ ذرّة فيه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 172].

وأَخْذ العهد على آدم هو عَهْد على جميع ذريته، ذلك لأن في كُلِّ واحد من بني آدم ذَرَّة من أبيه آدم.. وجزءاً حيّاً منه نتيجة التوالُد والتناسُل من لَدُن آدم حتى قيام الساعة، وما دُمْنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾.

وكأن كلمة (ذكر) جاءت لتُذكّرنا بالعهد المطمور في تكويننا، والذي ما كان لنا أنْ ننساه، فلما حدث النسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لتذكّرنا بعهد الله لنا: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف: 172].

ومن هنا سَمّينا الكتب المنزلة ذكراً ، لكن الذكْر يأتي تدريجياً وعلى مراحل . . كلُّ رسولٍ يأتي ليُذكِّر قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة .

. أما الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم الذي جاء للناس كافّة إلى قيام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقي الذي لا ذِكْر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تأتي كلمة (الذكْر) بمعنى الشَّرَف والرِّفْعة كما في قوله تعالى للعرب : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] وقد أصبح للعرب مكانة بالقرآن ، وعاشت لغتهم بالقرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتي الذكْر من الله للعبد ، وقد يأتي من العبد لله تعالى كما في قوله سبحانه : ﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ . . ﴾ [البقرة : 152] .

والمعنى : فاذكروني بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابي .

وإذا أُطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرسُل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أنْ تقومَ الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أي كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت

إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (عَلَم بالغلبة) .

والذكْر هو القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو معجزته الخالدة في الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسُل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فمعجزته هي نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام الساعة .

(56/436)

وهذا هو السِّر في أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحِفْظ كتابه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله . . . ﴾ [المائدة : 44] .

ومعنى اسْتُحفِظوا : أي طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا أمْرُ تكليف قد يُطاع وقد يُعصى ، والذي حدث أن اليهود عَصَوْا وبدّلوا وحرّفوا في التوراة . . أما القرآن فقد تعهّد الله تعالى بحفْظه ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتَم الذي سيصاحب البشرية إلى قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مع القرآن ، وهو الحديث الشريف ، فللرسول مُهِمة أخرى ، وهي منهجه الكلاميّ وحديثه الشريف الذي جاء من مِشْكاة القرآن مبيّناً له ومُوضِّحاً له . . . كما قال صلى الله عليه وسلم : " أَلاَ وإنِّي قد أُوتيتُ القرآن ومِثْله معه ، يُوشك رجل شبعان يتكيء على أريكته يُحدِّث بالحديث عنِّي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حَلَّلْناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، أَلاَ وإنَّه ليس كذلك " .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .

﴾ [النحل : 44] .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلاَّ لطالتْ المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُد عن مُراده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول صلى الله عليه وسلم مهمة أنْ يُبيِّنه للناس ، ويشرحه ويُوضِّح ما فيه .

(57/436)

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءتْ به السُّنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُثَاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها . . نقول : لا . . لا بُدَّ أن نُفرِّق هنا بين سُنِّية الدليل وسُنِّية الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنِّية الدليل تعني وجود فَرْض ، إلا أن دليله ثابت من السنة . . وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهي فَرْض .

أما سُنِّية الحكم : فهي أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُثَاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها . . فحين يُبيِّن لنا الرسول بسلوكه وأُسْوته حُكْماً ننظر : هل هي سُنِّية الدليل فيكون فَرْضاً ، أم سُنِّية الحكم فيكون سُنة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنْ واظب عليه والتزمه فهو فَرْض ، وإنْ لم يواظب عليه فهو سُنة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُنَاولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهي ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون بيان . . ولا بُدَّ أن نفرّق بين العطائين : العطاء القرآني ، والعطاء النبوي .

ويجب أن نعلم هنا أن من المَيْزات التي مُيِّز بها النبي صلى الله عليه وسلم عن سائر إخوانه من الرُّسُل ، أنه الرسول الوحيد الذي أمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فَقط وانتهتْ المسألة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال الحق تبارك وتعالى في حقِّه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . ﴾ [الحشر : 7] .

إذن : أخذ مَيْزة التشريع ، فأصبحت سُنّته هي التشريع الثاني بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 44] .

(58/436)

يتفكرون . . في أي شيء ؟ يتفكرون في حال الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، حيث لم يُؤْثَر عنه أنه كان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤْثَر عنه أنه كان كاتباً مُتعلِّماً . . لم

يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكُّر والتدبُّر في هذا الأمر .

فليس ما جاء به محمد عبقرية تفجَّرت هكذا مرَّة واحدة في الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيعي للعبقريات يأتي في أواخر العِقْد الثاني وأوائل العِقْد الثالث من العمر .

ولا يُعقل أنْ تؤجَّل العبقرية عند رسول الله إلى هذا السن وهو يرى القوم يُصْرعون حوله . . فيموت أبوه وهو في بطن أمه ، ثم تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جَدُّه ، فمَنْ يضمن له الحياة إلى سِنِّ الأربعين ، حيث تتفجَّر عنده هذه العبقرية ؟ !

إذن : تفكَّروا ، فليستْ هذه عبقرية من محمد ، بل هي أمْر من السماء ؛ ولذلك أمره ربُّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16] .

فكان عليكم أنْ تفكِّروا في هذه المسألة . . ولو فكرتُمْ فيها كان يجب عليكم أنْ تتهافتوا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرَّبتم عليه لا كذباً ولا خيانةً ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان لِيُصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التي تستقبل المحسَّات وتُميِّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التي ستكون هي المباديء التي يعيش الإنسان عليها ، والتي ستكون

عبارة عن معلومات مُخْتزنة ، أما الفكر فهو أن تفكر في هذه الأشياء لكي تستنبط منها الحكم .

(59/436)

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حُرية التفكير وحرية العقل في أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قَسْرية يفسَد العالم بدونها ، فالذي يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا . . والباقي الذي لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفشل فيه لا يضر .

فما أراده الله حُكْماً قَسْرياً فرضه بنصِ صريح لا خلافَ فيه ، وما أراده على وجوه متعددة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه أوجهاً متعددة ، ولا يؤدي الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكري يتحكم في المحسَّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أنْ يعبد الله به ، ولكن آفة الناس في الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رَمْي مخالفيهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فَلَهُ أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر .

. ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول: رَأْيي صواب يحتمل الخطأ، ورَأْيُ غيري خطأ يحتمل الصواب. وهكذا يتعايش الجميع وتُحتَرم الآراء.

ومن رحمة الله بعباده أن يأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والنظر؛ ذلك لأنهم خَلْقه سبحانه، وهم أكرم عليه من أنْ يتركهم للضلال والكفر، بعد أن أكرمهم بالخَلْق والعقل، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان.

وكأنه سبحانه يقول لهم: رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَج الخصومة، وإنْ كنتم لا تؤمنون بالبعث في الآخرة، وبما أُعدّ للظالمين فيها من عقاب، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عُجِّل لهم من عذاب في الدنيا.

انظروا للذين سبقوكم من الأمم المكذّبة وما آل إليه مصيرهم، أم أنتم آمنون من العذاب، بعيدون عنه؟!. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ﴾

(60/436)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) ﴾

قوله تعالى: ﴿ نوحي إِلَيْهِمْ ﴾: قد تقدَّم في آخر يوسف. وقرأت فرقةٌ "يُوحي"، أي: الله.

قوله تعالى: ﴿ بالبينات ﴾: فيه ثمانيةُ أوجه، أحدُها: أنه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل "رِجالاً" فيتعلَّقُ بمحذوفٍ، أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، أي: مُصاحبين لها. وهو وجهٌ حسنٌ ذكره الزمخشري لا محذورَ فيه. الثاني: أنه متعلقٌ ب "أَرْسَلْنا" ذكره الحوفيّ والزمخشريُّ وغيرُهما، وبه بدأ الزمخشريُّ قال: يتعلَّق ب "أَرسَلْنا" داخلاً تحت حكمِ الاستثناءِ مع "رجالاً"، أي: وما أرسَلْنا إلا رجالاً بالبينات كقولِك: "وما ضربْتُ إلا زيداً بالسَّوْطِ"؛ لأنَّ أصلَه: ضربْتُ زيداً بالسَّوْط". وضعَّفه أبو البقاء بأنَّ ما قبلَ "إلاَّ" لا يعمل فيما بعدهم إذا تَمَّ الكلامُ على "إلا" وما يليها. قال: "وإلا أنه قد جاء في الشِّعر:

2971- نُبِّئْتُهُمْ عَذَّبوا بالنارِ جارَتَهمْ ... ولا يُعَذِّبُ إلا اللهُ بالنارِ

قال الشيخ: وما أجازه الحوفيُّ والزمشخريُّ لا يُجيزه البصريون، إذ لا يُجيزون أن يقع بعد "إلا" إلا مستثنى أو مستثنى منه أو تابعٌ لذلك، وما ظُنَّ بخلافه قُدِّر له عاملٌ. وأجاز الكسائيُّ أن يليَها معمولُ ما قبلها مرفوعاً ومنصوباً ومخفوضاً، نحو: ما ضَرَبَ إلا عمراً

زيدٌ ، وما ضَرَبَ إلا زيدٌ عمراً وما مرَّ إلا زيدٌ بعمروٍ ، ووافقه ابنُ الأنباريّ في المرفوع ، والأخفش في الظرف وعديله ، فما لاقاه يتمشَّى على قولِ الكسائي والأخفش " .

(61/436)

الثالث : أنه يتعلَّقَ بأَرْسَلْنا أيضاً ، إلا أنه نيةِ التقديمِ قبل أداةِ الاستثناءِ تقديرُه : وما أرسلْنا مِنْ قبلك بالبيناتِ والزبرِ إلا رجالاً ، حتى لا يكونَ ما بعد " إلا " معمولَيْنِ متأخِّرَيْنِ لفظاً ورتبةً داخلَيْنِ تحت الحصرِ لما قبل " إلا " ، حكاه ابنُ عطية .

الرابع : أنَّه متعلقٌ ب " نُوحِي " كما تقول : " أُوْحي إليه بحق " ، ذكره الزمخشري وأبو البقاء . الخامس : أن الباءَ مزيدةٌ في " " بالبيّنات " وعلى هذا فيكون " بالبيّنات " هو القائمَ مَقامَ الفاعل لأنها هي المُوْحاة . السادس : أن الجارِّ متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنَ القائمِ مَقامَ الفاعل ، وهو " إليهم " ذكرهما أبو البقاء ، وهما ضعيفان جداً معنىً وصناعةً .

السابع : أَنْ يتعلَّق ب " لا تعلمون " على أنَّ الشرطَ/في معنى التبكيتِ والإلزام ، كقولِ الأجير : " إن كنتُ عَمِلْتُ لك فَأَعْطِني حقي " . قال الزمخشري : " وقوله : " فاسْألوا أهلَ " اعتراضٌ على الوجوه المتقدِّمة " ويعني بقوله " فاسألوا " الجزاءَ وشرطَه ، وأمَّا على الوجهِ الأخير فعدمُ الاعتراضِ واضحٌ .

الثامن : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ جواباً لسؤالٍ مقدر ، كأنه قيل : بم أُرْسِلوا ؟ فقيل : أُرْسِلوا بالبينات والزُّبُر . كذا قدَّره الزمخشري ، وهو أحسنُ مِنْ تقديرِ أبي البقاء : "بُعِثوا" ، لموافقتِه للدالِّ عليه لفظاً ومعنىً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 222. 224﴾

(62/436)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) ﴾

تعجبوا أن يكون من البَشَرِ رُسلاً ، فأخبر أنَّ الرسل كلّهم كانوا من البشر ، وأَنَّ فيمن سبق مَنْ أقرَّ بذلك . ﴿ أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ هم العلماء ؛ والعلماء مختلفون : فالعلماءُ بالأحكام إليهم الرجوعُ في الاستفتاء من قِبَل العوام فَمَنْ أُشْكِل عليه شيءٌ من أحكام الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء في أحكام الله ، ومن اشتبه عليه شيءٌ من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله ، فالفقيه يوقِّع عن الله ، والعارف ينطق – في آداب الطلب وأحكام الإرادة

وشرائط صحتها – عن الله ، فهو كما قيل : أليس حقاً نطقت بين الورى فاشتهرت ،

كاشفها يعلم ما منّ عليها فجرت ، فهي عناء به عينيه قد طهرت .

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) ﴾

أي إن البيانَ إليك ، فأنت الواسطة بيننا وبينهم ، وأنت الأمين على وحينا . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 299 ﴾

(63/436)

قوله تعالى ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نبه سبحانه على التفكر ، وكان داعياً للعاقل إلى تجويز الممكن والبعد من الخطر ، سبب عنه إنكار الأمن من ذلك فقال تعالى : ﴿ أفأمن ﴾ أي أتفكروا فتابوا ، أو استمروا على عتوهم ؟ أفأمن ﴿ الذين مكروا ﴾ بالاحتيال في قتل الأنبياء وإطفاء نور الله الذي أرسلهم به ، المكرات ﴿ السيئات أن ﴾ يجازوا من جنس عملهم بأن ﴿ يخسف الله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ بهم ﴾ أي خاصة ﴿ الأرض ﴾ فإذا هم في بطنها ، لا يقدرون على نوع تقلب بمدافعة ولا غيرها ، كما فعل بقارون وأصحابه وبقوم لوط عليه السلام من قبلهم ﴿ أو يأتيهم العذاب ﴾ على غير تلك الحال ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ به في حالة من هاتين الحالتين شعوراً ما ، هم في حال سكون ودعة بنوم أو غفلة ﴿ أو يأخذهم ﴾ أي الله بعذابه ﴿ في ﴾ حال ﴿ تقلبهم ﴾ وتصرفهم ومشاعرهم حاضرة وقواهم مستجمعة .

(64/436)

ولما كانت هذه الأحوال الثلاثة مفروضة في حال أمنهم من العذاب وكان الأمن من العدو يكون عن ظن عدم قدرته عليه ، علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أي في حالة من هذه الأحوال ، سواء علينا غفلتهم ويقظتهم ، ولم يعلل ما بعده بذلك لأن المتخوف مجوّز

للعجز ، فقال تعالى : ﴿ أو يأخذهم ﴾ أي الله أخذ غضب ﴿ على تخوف ﴾ منهم من العذاب وتحفظ من أن يقع بهم ما وقع بمن قبلهم من عذاب الاستئصال ، ويجوز أن يراد بما مضى عذاب الاستئصال ، وبهذا الأخذ شيئاً فشيئاً ، فإن التخوف التنقص عند هذيل ، روي أن عمر ـ رضى الله عنهم ـ سأل الناس عنها فسكتوا فأجابه شيخ من هذيل بأنه التنقص ، فقال عمر ـ رضى الله عنهم ـ : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم ! قال شاعرنا أبو كثير الهذلي يصف ناقة :

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً . . .

كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر ـ رضى الله عنهم ـ : أيها الناس ! عليكم بديوانكم لا يضل ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم .

ولما كان التقدير : لم يأمنوا ذلك في نفس الأمر ، ولكن جهلهم بالله – لطول أناته وحلمه – غرهم سبب عنه قوله التفاتاً إلى الخطاب استعطافاً : ﴿ فإن ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بإهلاك من يريد وإبقاء من يريد ﴿ لرءوف ﴾ أي بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بنوع وسيلة ، وكذا لمن قاطعه أتم مقاطعة ، وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿ رحيم ﴾ أي فتسبب عن إمهاله لهم في كفرهم وطغيانهم مع القدرة عليهم العلم بأن تركه لمعاجلتهم ما هو إلا لرأفته ورحمته .

ولما خوفهم ، دل على تمام قدرته على ذلك وغيره بقوله : عاطفاً على ما تقديره : أو لم يروا إلى عجزهم عما يريدون وقسره لهم على ما لا يريدون ، فيعلموا بذلك قدرته وعجزهم ، فيعلموا أن عفوه عن جرائمهم إحسان منه إليهم ولطف بهم : ﴿ أولم ﴾ ولما كان حقهم المبادرة بالتوبة فلم يفعلوا ، أعرض عنهم في قراءة الجماعة تخويفاً فقال تعالى : ﴿ يروا ﴾ بالياء التحتية ، وقرأ حمزة والكسائي بالخطاب على نسق ما قبله ، أي ينظروا بعيون الأبصار متفكرين بالبصائر ، وبين بعدهم عن المعارف الإلهية بحرف الغاية فقال تعالى : ﴿ إلى ما خلق الله ﴾ أي الذي له جميع الأمر ﴿ من شيء ﴾ أي له ظل ﴿ يتفيؤا ﴾ أي تترجع إلى جهة الشاخص ﴿ ظلاله ﴾ وهو ما ستره الشاخص عن الشمس متجاوزة له ﴿ عن اليمين ﴾ وهي ما على يمين المستدبر للشمال ، المستقبل للجنوب ، الذي هو ناحية الكعبة لمن في بلاد الشام التي هي مسكن الأنبياء عليهم السلام ، وأفراد لأن الظل يكون أول ما تشرق الشمس مستقيماً إلى تلك الجهة على استواء ، وجمع في قوله : ﴿ والشمائل ﴾ لأن الشمس كلما ارتفعت تحول ذلك الظل راجعاً إلى جهة ما وراء الشاخص ، ولا يزال كذلك إلى أن ينتصب عند الغروب إلى جهة يساره قصداً على ضد ما كان انتصب إليه عند الشروق ، فلما كان بعد انتصابه إلى جهة اليمين طالباً في تفيئه جهة اليسار ، سميت تلك الجهات التي تفيأ فيها باسم ما هو طالبه تنبيهاً على ذلك ، وفيه إشارة إلى قلة الجيد

المستقيم وكثرة المنحرف الرديء .

ولما كانت كثرة الخاضعين أدل على القهر وأهيب ، جمع بالنظر إلى معنى " ما " في قوله :

﴿ سجداً ﴾ أي حال كونهم خضعاً ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعلى بما فيهم من الحاجة إلى مدبرهم .

ولما كان امتداد الظل قسرياً لا يمكن أحداً الانفصال عنه ، قال جامعاً بالواو والنون تغليباً :

﴿ وهم داخرون ﴾ ذلاً وصغاراً ، لا يمتنع شيء منهم على تصريفه ، وخص الظل بالذكر لسرعة تغيره ، والتغير دال على المغير .

(66/436)

ولما حكم على الظلال بما عم أصحابها من جماد وحيوان ، وكان الحيوان أشرف من الجماد ، رقي الحكم إليه بخصوصه فقال تعالى : ﴿ ولله ﴾ أي الذي له الأمر كله

﴿ يسجد ﴾ أي يخضع بالانقياد للمقادير والجري تحت الأقضية ، وعبر بما هو ظاهر في غير العقلاء مع شموله لهم فقال تعالى : ﴿ ما في السماوات ﴾ ولما كان المقام للمبالغة في إثبات الحكم على الطائع والعاصي ، أعاد الموصول فقال تعالى : ﴿ وما في الأرض ﴾ ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ من دآبة ﴾ أي عاقلة وغير عاقلة .

ولما كان المقرب قد يستهين بمن يقربه ، قال مبيناً لخضوع المقربين تخصيصاً لهم وإن كان الكلام قد شملهم : ﴿ والملائكة ﴾ .

ولما كان الخاضع قد يحكم بخضوعه وإن كان باطنه مخالفاً لظاهره ، قال - دالاً على أن في غيرهم من يستكبر فيكون انقياده للإرادة كرهاً ، وعبر عن السجودين : الموافق للأمر والإدارة طوعاً ، والموافق للارداة المخالف للأمر كرهاً ، بلفظ واحد ، لأنه يجوز الجمع بين مفهومي المشترك والحقيقة والمجاز بلفظ : ﴿ وهم ﴾ أي الملائكة ﴿ لا يستكبرون ﴾ ثم علل خضوعهم بقوله دلالة على أنهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء : ﴿ يخافون ربهم ﴾ أي الموجد لهم ، المدبر لأمورهم ، المحسن إليهم ، خوفاً مبتدئاً ﴿ من فوقهم ﴾ إشارة إلى علو الخوف عليهم وغلبته لهم ، أو حال كون ربهم مع إحسانه إليهم له العلو والجبروت ، فهو المخوف المرهوب ، فهم عما نهوا عنه ينتهون ﴿ ويفعلون ﴾ أي بداعية عظيمة علماً منهم بما عليهم لربهم من الحق مع عدم منازع من حظ أو شهوة أو غير ذلك ، ودل على أنهم مكلفون بقوله تعالى : ﴿ ما يؤمرون ﴾ فهم لرحمته لهم يرجون ؛ فالآية من الاحتباك : ذكر الخوف أولاً دال على الرجاء ثانياً ، وذكر الفعل ثانياً دال على الانتهاء أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 273.275 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾

المكر في اللغة عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء ، ولا بد ههنا من إضمار ، والتقدير : المكرات السيئات ، والمراد أهل مكة ومن حول المدينة .

قال الكلبي : المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى ، والأقرب أن المراد سعيهم في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سبيل الخفية ، ثم إنه تعالى ذكر في تهديدهم أموراً أربعة : الأول : أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون .

الثاني : أن يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، والمراد أن يأتيهم العذاب من السماء من حيث يفجؤهم فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط .

والثالث : أن يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ، وفي تفسير هذا التقلب وجوه : الأول : أنه يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم ، فإنه تعالى قادر على إهلاكهم في السفر كما أنه قادر على إهلاكهم في الحضر وهم لا يعجزون الله بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله حيث كانوا ، وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِى البلاد ﴾ [آل عمران : 196] .

وثانيهما : تفسير هذا اللفظ بأنه يأخذهم بالليل والنهار في أحوال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم وحقيقته في حال تصرفهم في الأمور التي يتصرف فيها أمثالهم .

وثالثها : أن يكون المعنى أو يأخذهم في حال ما ينقلبون في قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين إتمام تلك الحيل قسراً كما قال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : 66] وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله : ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ ﴾ [التوبة : 48] فإنهم إذا قلبوها فقد تقلبوا فيها .

(68/436)

والنوع الرابع : من الأشياء التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية على سبيل التهديد قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ وفي تفسير التخوف قولان :

القول الأول : التخوف تفعل من الخوف ، يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولاً بل يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعده ، وتلك الإخافة هو أنه تعالى يهلك فرقة فتخاف التي تليها فيكون هذا أخذاً ورد عليهم بعد أن يمر بهم قبل ذلك زماناً طويلاً في الخوف والوحشة .

والقول الثاني : أن التخوف هو التنقص قال ابن الأعرابي يقال : تخوفت الشيء وتخفيته إذا

تنقصته ، وعن عمر أنه قال على المنبر : ما تقولون في هذه الآية ؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف التنقص ، فقال عمر : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم .

قال شاعرنا وأنشد :

تخوف الرحل منها تامكا قردا . . كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم .

إذا عرفت هذا فنقول : هذا التنقص يحتمل أن يكون المراد منه ما يقع في أطراف بلادهم كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الأنبياء : 44] والمعنى أنه تعالى لا يعاجلهم بالعذاب ولكن ينقص من أطراف بلادهم إلى القرى التي تجاورهم حتى يخلص الأمر إليهم فحينئذ يهلكهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلاً قليلاً حتى يأتي الفناء على الكل فهذا تفسير هذه الأمور الأربعة ، والحاصل أنه تعالى خوفهم بخسف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة واحدة حال ما لا يكونون عالمين بعلاماتها ودلائلها ، أو بآفات تحدث قليلاً قليلاً إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم ختم الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ والمعنى أنه يمهل في أكثر الأمور لأنه رؤوف رحيم فلا يعاجل بالعذاب .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما خوف المشركين بالأنواع الأربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وتدبير أحوال الأرواح والأجسام ، ليظهر لهم أن مع كمال هذه القدرة القاهرة ، والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب إليهم على أحد تلك الأقسام الأربعة .

المسألة الثانية :

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ أَوَلَمْ تَرَوْا ﴾ بالتاء على الخطاب ، وكذلك في سورة العنكبوت : ﴿ أَوَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [العنكبوت : 19] بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء فيهما كناية عن الذين مكروا السيئات ، وأيضاً أن ما قبله غيبة وهو قوله : ﴿ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأرض أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب * أَوْ يَأْخُذَهُمْ ﴾ [النحل : 45 ، 46]

فكذا قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ وقرأ أبو عمرو وحده : ﴿ تتفيؤ ﴾ بالتاء والباقون بالياء ، وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ ﴾ لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بإلى ، لأن المراد به الاعتبار والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية حتى يكون معها نظر إلى الشيء وتأمل لأحواله ، وقوله : ﴿ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ قال أهل المعاني : أراد من شيء له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم ، ولفظ الآية يشعر بهذا القيد ، لأن قوله : ﴿ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ ﴾ يدل على أن ذلك الشيء كثيف يقع له ظل على الأرض .

(70/436)

وقوله : ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلالُهُ ﴾ إخبار عن قوله : ﴿ شَيْءٍ ﴾ وليس بوصف له ، ويتفيأ يتفعل من الفيء يقال : فاء الظل يفيء فيئاً إذا رجع وعاد بعد ما نسخه ضياء الشمس ، وأصل الفيء الرجوع ، ومنه فيء المولي وذكرنا ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 226] وكذلك فيء المسلمين لما يعود على المسلمين من مال من خالف

دينهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ [الحشر : 6] وأصل هذا كله من الرجوع .

إذا عرفت هذا فنقول : إذا عدي فاء فإنه يعدى إما بزيادة الهمزة إو بتضعيف العين .

أما التعدية بزيادة الهمزة كقوله : ﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ ﴾ وأما بتضعيف العين فكقوله فيأ الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ .

قال الأزهري : تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار ، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي بعد ما انصرفت عنه الشمس والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس كما قال الشاعر :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه . . ولا الفيء من برد العشي تذوق

قال ثعلب : أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ، ومنهم من أنكر ذلك ، فإن أبا زيد أنشد للنابغة الجعدي :

فسلام الإله يغدو عليهم . . وفيوء الغروس ذات الظلال

فهذا الشعر قد أوقع فيه لفظ الفيء على ما لم تنسخه الشمس ، لأن ما في الجنة من الظل ما حصل بعد أن كان زائلاً بسبب نور الشمس وتقول العرب في جمع فيء أفياء وهي للعدد القليل ، وفيوء للكثير كالنفوس والعيون ، وقوله : ﴿ ظلاله ﴾ أضاف الظلال إلى مفرد ، ومعناه الإضافة إلى ذوي الظلال ، وإنما حسن هذا ، لأن الذي عاد إليه الضمير وإن كان واحداً في اللفظ وهو قوله إلى ما خلق الله ، إلا أنه كثير في المعنى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ [الزخرف : 13] فأضاف الظهور وهو جمع ، إلى ضمير مفرد ، لأنه يعود إلى واحد أريد به الكثرة وهو قوله : ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ هذا كله كلام الواحدي وهو بحث حسن .

أما قوله : ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : في المراد باليمين والشمائل قولان :

القول الأول : أن يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب ، والسبب في تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين أن أقوى جانبي الإنساني يمينه ، ومنه تظهر الحركة القوية ، فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق إلى المغرب ، لا جرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله .

إذا عرفت هذا فنقول : إن الشمس عند طلوعها إلى وقت انتهائها إلى وسط الفلك تقع الإظلال إلى الجانب الغربي ، فإذا انحدرت الشمس من وسط الفلك إلى الجانب الغربي وقع

الإظلال في الجانب الشرقي ، فهذا هو المراد من تفيؤ الظلال من اليمين إلى الشمال وبالعكس ، وعلى هذا التقدير : فالإظلال في أول النهار تبتدىء من يمين الفلك على الربع الغربي من الأرض ، ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدىء الإظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الأرض .

القول الثاني : أن البلدة التي يكون عرضها أقل من مقدار الميل ، فإن في الصيف تحصل الشمس على يسارها ، وحينئذ يقع الإظلال على يمينهم ، فهذا هو المراد من انتقال الإظلال عن الأيمان إلى الشمائل وبالعكس .

(72/436)

هذا ما حصلته في هذا الباب ، وكلام المفسرين فيه غير ملخص .

البحث الثاني : لقائل أن يقول : ما السبب في أن ذكر اليمين بلفظ الواحد ، والشمائل بصيغة الجمع ؟

وأجيب عنه بأشياء : أحدها : أنه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى : ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

وثانيها : قال الفراء : كأنه إذا وحد ذهب إلى واحدة من ذوات الأظلال ، وإذا جمع ذهب

إلى كلها ، وذلك لأن قوله : ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ لفظه واحد ، ومعناه الجمع على ما بيناه فيحتمل كلا الأمرين .

وثالثها : أن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وقوله : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] .

ورابعها : أنا إذا فسرنا اليمين بالمشرق كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها ، فكانت اليمين واحدة .

وأما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الأظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة ، فلذلك عبر الله تعالى عنها بصيغة الجمع ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

أما قوله : ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ ففيه احتمالات : الأول : أن يكون المراد من السجود الاستسلام والانقياد يقال : سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب ، وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل ويقال : أسجد لقرد السوء في زمانه ، أي أخضع له قال الشاعر :

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . أي متواضعة ، إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى دبر النيرات الفلكية ، والأشخاص الكوكبية بحيث يقع أضواؤها على هذا العالم السفلي على وجوه مخصوصة .

ثم إنا نشاهد أن تلك الأضواء ، وتلك الإظلال لا تقع في هذا العالم إلا على وفق تدبير الله تعالى وتقديره ، فنشاهد أن الشمس إذا طلعت وقعت الأجسام الكثيفة أظلال ممتدة في الجانب الغربي من الأرض ، ثم كلما ازدادت الشمس طلوعاً وارتفاعاً ، ازدادت تلك الأظلال تقلصاً وانتقاصاً إلى الجانب الشرقي إلى أن تصل الشمس إلى وسط الفلك ، فإذا انحدرت إلى الجانب الغربي ابتدأت الأظلال بالوقوع في الجانب الشرقي ، وكلما ازدادت الشمس انحداراً ازدادت الأظلال تمدداً وتزايداً في الجانب الشرقي .

وكما أنا نشاهد هذه الحالة في اليوم الواحد ، فكذلك نشاهد أحوال الأظلال مختلفة في التيامن والتياسر في طول السنة ، بسبب اختلاف أحوال الشمس في الحركة من الجنوب إلى الشمال وبالعكس ، فلما شاهدنا أحوال هذه الأظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة في شرق الأرض وغربها ، وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة في يمين الفلك ويساره ، ورأينا أنها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين ، علمنا أنها منقادة لقدرة الله خاضعة لتقديره وتديره ، فكانت السجدة عبارة عن هذه الحالة .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : اختلاف حال هذه الأظلال معلل باختلاف سير النير الأعظم الذي هو الشمس ، لا لأجل تقدير الله تعالى وتدبيره ؟

(74/436)

قلنا : قد دللنا على أن الجسم لا يكون متحركاً لذاته ، إذ لو كانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة ، لبقي هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته ، ولو بقي ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة ، ولو كان الأمر كذلك لكان هذا سكوناً لا حركة ، فالقول بأن الجسم المتحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكناً لذاته وأنه محال ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلاً ، فعلمنا أن الجسم يمتنع كونه متحركاً لذاته ، وأيضاً فقد دللنا على أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية ، فاختصاص جرم الشمس بالقوة المعينة والخاصية المعينة لا بد وأن يكون بتدبير الخالق المختار الحكيم .

إذا ثبت هذا فنقول : هب أن اختلاف أحوال الأظلال إنما كان لأجل حركات الشمس ، إلا أنا لما دللنا على أن محرك الشمس بالحركة الخاصة ليس إلا الله سبحانه كان هذا دليلاً على أن اختلاف أحوال الأظلال لم يقع إلا بتدبير الله تعالى وتخليقه ، فثبت أن المراد بهذا السجود الانقياد والتواضع ، ونظيره قوله : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6

] وقوله : ﴿ وظلالهم بالغدو والأصال ﴾ [الرعد : 15] قد مر بيانه وشرحه .

والقول الثاني : في تفسير هذا السجود ، أن هذه الأظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد .

قال أبو العلاء المعري في صفة واد :

بجرف يطيل الجنح فيه سجوده . . وللأرض زي الراهب المتعبد

فلما كانت الأظلال تشبه بشكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ ، وكان الحسن يقول : أما ظلك فسجد لربك ، وأما أنت فلا تسجد له بئسما صنعت ، وقال مجاهد : ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي ، وقيل : ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك ساجداً أم لا .

واعلم أن الوجه الأول أقرب إلى الحقائق العقلية ، والثاني أقرب إلى الشبهات الظاهرة .

المسألة الخامسة :

وقوله : ﴿ سُجَّدًا ﴾ حال من الظلال وقوله : ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ أي صاغرون ، يقال : دخر يدخر دخوراً ، أي صغر يصغر صغاراً ، وهو الذي يفعل ما تأمره شاء أم أبى ، وذلك

لأن هذه الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتديره وقوله : ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ حال أيضاً من الظلال .

فإن قيل : الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون ؟

قلنا : لأنه تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض مَن دَآبَّةٍ والملئكة ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا أن السجود على نوعين : سجود هو عبادة كسجود المسلمين لله تعالى ، وسجود هو عبارة عن الانقياد لله تعالى والخضوع ، ويرجع حاصل هذا السجود إلى أنها في نفسها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما ، وأنه لا يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح .

إذا عرفت هذا فنقول : من الناس من قال : المراد بالسجود المذكور في هذه الآية السجود بالمعنى الثاني وهو التواضع والانقياد ، والدليل عليه أن اللائق بالدابة ليس إلا هذا السجود ومنهم من قال : المراد بالسجود ههنا هو المعنى الأول ، لأن اللائق بالملائكة هو السجود بهذا المعنى لأن السجود بالمعنى الثاني حاصل في كل الحيوانات والنباتات والجمادات ، ومنهم من قال : السجود لفظ مشترك بين المعنيين ، وحمل اللفظ المشترك لإفادة مجموع معنييه جائز ، فحمل لفظ السجود في هذه الآية على الأمرين معاً ، أما في حق الدابة

فبمعنى التواضع ، وأما في حق الملائكة فبمعنى سجود المسلمين لله تعالى ، وهذا القول ضعيف ، لأنه ثبت أن استعمال اللفظ المشترك لإفادة جميع مفهوماته معاً غير جائز .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ قال الأخفش : يريد من الدواب وأخبر بالواحد كما تقول ما أتاني من رجل مثله ، وما أتاني من الرجال مثله ، وقال ابن عباس : يريد كل ما دب على الأرض .

المسألة الثالثة :

لقائل أن يقول : ما الوجه في تخصيص الدواب والملائكة بالذكر ؟ فنقول فيه وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى بين في آية الظلال أن الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى وبين بهذه الآية أن الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى ، لأن أخسها الدواب وأشرفها الملائكة ، فلما بين في أخسها وفي أشرفها كونها منقادة لله تعالى كان ذلك دليلاً على أنها بأسرها منقادة خاضعة لله تعالى .

والوجه الثاني : قال حكماء الإسلام : الدابة اشتقاقها من الدبيب ، والدبيب عبارة عن الحركة الجسمانية ، فالدابة اسم لكل حيوان جسماني يتحرك ويدب ، فلما بين الله تعالى

الملائكة عن الدابة علمنا أنها ليست مما يدب ، بل هي أرواح محضة مجردة ، ويمكن الجواب عنه بأن الجناح للطيران مغاير للدبيب بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

المقصود من هذه الآية شرح صفات الملائكة وهي دلالة قاهرة قاطعة على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب ، لأن قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يدل على أنهم منقادون لصانعهم وخالقهم وأنهم ما خالفوه في أمر من الأمور ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبّكَ ﴾ [مريم : 64] وقوله : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 27] وأما قوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فهذا أيضاً يدل على أنهم فعلوا كل ما كانوا مأمورين به ، وذلك يدل على عصمتهم عن كل الذنوب .

فإن قالوا : هب أن هذه الآية تدل على أنهم فعلوا كل ما أمروا به فلم قلتم إنها تدل على أنهم تركوا كل ما نهوا عنه ؟

قلنا : لأن كل ما نهي عن شيء فقد أمر بتركه ، وحينئذ يدخل في اللفظ ، وإذا ثبت بهذه الآية كون الملائكة معصومين من كل الذنوب ، وثبت أن إبليس ما كان معصوماً من الذنوب بل كان كافراً ، لزم القطع بأن إبليس ما كان من الملائكة .

والوجه الثاني : في بيان هذا المقصود أنه تعالى قال في صفة الملائكة : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثم قال لإبليس : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75] وقال أيضاً له : ﴿ فاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : 13] فثبت أن الملائكة لا يستكبرون وثبت أن إبليس تكبر واستكبر فوجب أن لا يكون من الملائكة وأيضاً لما ثبت بهذه الآية وجوب عصمة الملائكة ، ثبت أن القصة الخبيثة التي يذكرونها في حق هاروت وماروت كلام باطل ، فإن الله تعالى وهو أصدق القائلين لما شهد في هذه الآية على عصمة الملائكة وبراءتهم عن كل ذنب ، وجب القطع بأن تلك القصة كاذبة باطلة ، والله أعلم .

واحتج الطاعنون في عصمة الملائكة بهذه الآية فقالوا : إنه تعالى وصفهم بالخوف ، ولولا أنهم يجوزون على أنفسهم الإقدام على الكبائر والذنوب وإلا لم يحصل الخوف .

والجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى منذرهم من العقاب فقال : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنّى إله مّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 29] وهم لهذا الخوف يتركون الذنب .

والثاني : وهو الأصح أن ذلك الخوف خوف الإجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والدليل على صحته قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم ، كان الخوف منه أعظم ، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قالت المشبهة قوله تعالى : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ هذا يدل على أن الإله تعالى فوقهم بالذات .

(78/436)

واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : 18] والذي نزيده ههنا أن قوله : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ معناه يخافون ربهم من أن ينزل عليهم العذاب من فوقهم ، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى سقط قولهم ، وأيضاً يجب حمل هذه الفوقية على الفوقية بالقدرة والقهر كقوله : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ [الأعراف : 127] والذي يقوي هذا الوجه أنه تعالى لما قال : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ وجب أن يكون المقتضى لهذا الخوف هو كون ربهم فوقهم لما

ثبت في أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف يشعر بكون الحكم معللاً بذلك الوصف .

إذا ثبت هذا فنقول : هذا التعطيل إنما يصح لو كان المراد بالفوقية الفوقية بالقهر والقدرة لأنها هي الموجبة للخوف ، أما الفوقية بالجهة والمكان فهي لا توجب الخوف بدليل أن حارس البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع أنه أخس عبيده فسقطت هذه الشبهة .

المسألة الثالثة :

دلت هذه الآية على أن الملائكة مكلفون من قبل الله تعالى وأن الأمر والنهي متوجه عليهم كسائر المكلفين ، ومتى كانوا كذلك وجب أن يكونوا قادرين على الخير والشر .

المسألة الرابعة :

تمسك قوم بهذه الآية في بيان أن الملك أفضل من البشر من وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض مَن دَآبَّةٍ والملئكة ﴾ وذكرنا أن تخصيص هذين النوعين بالذكر إنما يحسن إذا كان أحد الطرفين أخس المراتب وكان الطرف الثاني أشرفها حتى يكون ذكر هذين الطرفين منبهاً على الباقي ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الملائكة أشرف خلق الله تعالى .

الوجه الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يدل على أنه ليس في قلوبهم تكبر وترفع وقوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يدل على أن أعمالهم خالية عن الذنب والمعصية ، فمجموع هذين الكلامين يدل على أن بواطنهم وظواهرهم مبرأة عن الأخلاق الفاسدة والأفعال الباطلة ، وأما البشر فليسوا كذلك .

ويدل عليه القرآن والخبر ، أما القرآن فقوله تعالى :

﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : 17] وهذا الحكم عام في الإنسان ، وأقل مراتبه أن تكون طبيعة الإنسان مقتضية لهذه الأحوال الذميمة ، وأما الخبر فقوله عليه السلام : " ما منا إلا وقد عصى أو هم بالمعصية غير يحيى بن زكريا " ومن المعلوم بالضرورة أن المبرأ عن المعصية والهم بها أفضل ممن عصى أو هم بها .

الوجه الثالث : أنه لا شك أن الله تعالى خلق الملائكة قبل البشر بأدوار متطاولة وأزمان ممتدة ، ثم إنه وصفهم بالطاعة والخضوع والخشوع طول هذه المدة ، وطول العمر مع الطاعة يوجب مزيد الفضيلة لوجهين : الأول : قوله عليه السلام : " الشيخ في قومه كالنبي في أمته " فضل الشيخ على الشاب ، وما ذاك إلا لأنه لما كان عمره أطول فالظاهر أن طاعته أكثر فكان أفضل .

والثاني : أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل

بها إلى يوم القيامة " فلما كان شروع الملائكة في الطاعات قبل شروع البشر فيها لزم أن يقال إنهم هم الذين سنوا هذه السنة الحسنة ، وهي طاعة الخالق القديم الرحيم ، والبشر إنما جاؤوا بعدهم واستنوا سنتهم ، فوجب بمقتضى هذا الخبر أن كل ما حصل للبشر من الثواب فقد حصل مثله للملائكة ولهم ثواب القدر الزائد من الطاعة فوجب كونهم أفضل من غيرهم .

(80/436)

الوجه الرابع : في دلالة الآية على هذا المعنى قوله : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ وقد بينا بالدليل أن هذه الفوقية عبارة عن الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة ، فظاهر الآية يدل على أنه لا شيء فوقهم في الشرف والرتبة إلا الله تعالى ، وذلك يدل على كونهم أفضل المخلوقات ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 31. 39 ﴾

(81/436)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : في إقبالهم وإدبارهم ، قاله ابن بحر .

الثاني : في اختلافهم ، قاله ابن عباس . الثالث : بالليل والنهار ، قاله ابن جريج .

الرابع : في سفرهم .

﴿ أو يأخذهم على تخوفٍ ﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : يعني على تنقص بأن يهلك واحد بعد واحد فيخافون الفناء ، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

الثاني : على تقريع بما قدموه من ذنوبهم ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : على عجل ، وهذا قول الليث .

الرابع : أن يهلك القرية فتخاف القرية الأخرى ، قاله الحسن .

الخامس : أن يعاقبهم بالنقص من أموالهم وثمارهم ، قاله الزجاج. ﴿ فإن ربكم لرءُوف رحيم ﴾ أي لا يعاجل بل يمهل .

قوله عز وجل : ﴿ أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظِلالُهُ ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : يرجع ظلاله ، لأن الفيء الرجوع ، ولذلك كان اسماً للظل بعد الزوال لرجوعه .

الثاني : معناه تميل ظلاله ، قاله ابن عباس .

الثالث : تدور ظلاله ، قاله ابن قتيبة .

الرابع : تتحول ظلاله ، قاله مقاتل .

﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني تارة إلى جهة اليمين ، وتارة إلى جهة الشمال ، قاله ابن عباس . لأن الظل يتبع الشمس حيث دارت .

الثاني : أن اليمين أول النهار ، والشمال آخر النهار ، قاله قتادة والضحاك .

﴿ سجداً لله ﴾ فيه ثلاث تأويلات :

أحدهما : أن ظل كل شيء سجوده ، قاله قتادة .

الثاني : أن سجود الظلال سجود أشخاصها ، قاله الضحاك .

الثالث : أن سجود الظلال كسجود الأشخاص تسجد لله خاضعة ، قاله الحسن . ومجاهد .

وقال الحسن : أما ظلك فيسجد لله ، وأما أنت فلا تسجد لله ، فبئس والله ما صنعت .

﴿ وهم داخرون ﴾ أي صاغرون خاضعون ، قال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخرٌ في مخيس . . . ومنحجر في غير أرضك حُجر

قوله عز وجل : ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة ﴾ أما سجود ما في السموات فسجود خضوع وتعبد ، وأما سجود ما في الأرض من دابة فيحتمل وجهين :

أحدهما : أن سجوده خضوعه لله تعالى .

الثاني : أن ظهور ما فيه من قدرة الله يوجب على العباد السجود لله سبحانه .

وفي تخصيص الملائكة بالذكر ، وإن دخلوا في جملة من في السموات والأرض وجهان :

أحدهما : أنه خصهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة فميزهم من الجملة بالذكر وإن دخلوا فيها .

الثاني : لخروجهم من جملة من يدب ، لما جعل الله تعالى لهم من الأجنحة فلم يدخلوا في الجملة ، فلذلك ذكروا .

وجواب ثالث : أن في الأرض ملائكة يكتبون أعمال العباد لم يدخلوا في جملة ملائكة السماء فلذلك أفردهم بالذكر .

﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يستكبرون عن السجود لله تعالى .

الثاني : لا يستكبرون عن الخضوع لقدرة الله .

﴿ يخافون ربَّهم من فوقهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني عذاب ربهم من فوقهم لأن العذاب ينزل من السماء .

الثاني : يخافون قدرة الله التي هي فوق قدرتهم وهي في جميع الجهات .

﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من العبادة ، قاله ابن عباس .

الثاني : من الانتقام من العصاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(83/436)

وقال ابن عطية :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) ﴾

هذه الآية لأهل مكة ، وهم المراد ب ﴿ الذين ﴾ في قول الأكثر ، وقال مجاهد : المراد نمرود بن كنعان ، والأول أظهر ، ونصب ﴿ السيئات ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما أن

ينصب بقوله ﴿ أفأمن ﴾ وتكون ﴿ السيئات ﴾ على هذا العقوبات التي تسوء من تنزل به ، ويكون قوله ﴿ أن يخسف ﴾ بدلاً منها . والوجه الثاني أن ينصب ب ﴿ مكروا ﴾ ، وعدي ﴿ مكروا ﴾ لأنه بمعنى عملوا وفعلوا ، و ﴿ السيئات ﴾ على هذا معاصي الكفر وغيره ، قاله قتادة ، ثم توعدهم بما أصاب الأمم قبلهم من الخسف ، وهو أن تبتلع الأرض المخسوف به ويقعد به إلى أسفل وأسند النقاش ، أن قوماً في هذه الأمة ، أقيمت الصلاة فتدافعوا الإمامة وتصلفوا في ذلك فما زالوا كذلك حتى خسف بهم ، و ﴿ تقلبهم ﴾ سفرهم ومحاولتهم المعايش بالسفر والرعاية ونحوها ، و" المعجز " المفلت هرباً كأنه عجز طالبه ، وقوله ﴿ على تخوف ﴾ أي على جهة التخوف ، والتخوف النقص ومنه قول الشاعر : [البسيط]

تخوف السير منها تامكاً فرداً . . . كما تخوف عود النبعة السفن

والسفن المبرد ويروى أن عمر بن الخطاب خفي عليه معنى " التخوف " في هذه الآية ، وأراد الكتب إلى الأمصار يسأل عن ذلك ، حتى سمع هذا البيت ، ويروى أنه جاءه فتى من العرب وهو قد أشكل عليه أمر لفظة " التخوف " ، فقال له يا أمير المؤمنين : إن أبي يتخوفني مالي ، فقال عُمر : الله كبر ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ ، ومنه قول طرفة :

وجامل خوف من نبيه . . . زجرُ المعلى أبداً والسفيح

ويروى من نبته ، ومنه قول الآخر : [الوافر]

ألأم على الهجاء وكل يوم . . . تلاقيني من الجيران غول

تخوف غدرهم مالي وهدي . . . سلاسل في الحلوق لها صليل

يريد الأهاجي ، ومنه قول النابغة : [الطويل]

(84/436)

تخوفهم حتى أذل سراتهم . . . بطعن ضرار بعد فتح الصفائح

قال القاضي أبو محمد : وهذا التنقص يتجه الوعيد به على معنيين : أحدهما أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف أي أفذاذاً ينقصهم بذلك الشيء بعد الشيء ، وهذا لا يدعي أحد أنه يأمنه ، وكأن هذا الوعيد إنما يكون بعذاب ما يلقون بعد الموت ، وإلا فبهذا تهلك الأمم كلها ، ويؤيد هذا قوله ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي إن هذه الرتبة الثالثة من الوعيد ، فيها رأفة ورحمة وإمهال ليتوب التائب ويرجع الراجع : والآخر أن يأخذ بالعذاب طائفة أو قرية ويترك أخرى ، ثم كذلك حتى يهلك الكل ، وقالت فرقة : " التخوف " هنا من الخوف أي يأخذهم بعد تخوف ينالهم فيعذبهم به .

(85/436)

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا القول تكلف ما ، وقوله ﴿ أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء ﴾ الآية ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " أولم يروا " بالياء على لفظ الغائب ، وكذلك في العنكبوت ، فهي جارية على قوله : ﴿ أو يأخذهم ﴾ ، وقوله : ﴿ أو يأتيهم ﴾ وقوله : ﴿ لا يشعرون ﴾ ، ورجحها الطبري ، وقرأ حمزة والكسائي " أولم تروا " بالتاء في الموضعين ، وهي قراءة الحسن والأعرج وأبي عبد الرحمن ، وذلك يحتمل من المعنى وجهين أحدهما : أن يكون على معنى قل لهم يا محمد أولم تروا ، والوجه الآخر أن يكون خطاباً عاماً لجميع الخلق ابتدأ به القول آنفاً ، وقرأ عاصم في النحل بالتاء من فوق ، واختلف عنه في العنكبوت ، وقوله ﴿ من شيء ﴾ لفظ عام في كل ما اقتضته الصفة في قوله ﴿ يتفيأ ظلاله ﴾ لأن ذلك صفة لما عرض العبرة في جميع الأشخاص التي لها ظل ، والرؤية هنا هي رؤية القلب ، ولكن الاعتبار برؤية القلب إنما تكون في مرئيات بالعين ، وقرأ أبو عمرو وحده " تتفيأ " بالتاء من فوق ، وهي قراءة عيسى ويعقوب ، وقرأ الجمهور " يتفيأ " ، قال أبو علي : إذا تقدم الفعل المنسوب إلى مثل هذا الجمع فالتذكير والتأنيث فيه حسنان ، وفاء الظل رجع بعكس ما كان إلى الزوال ، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال إنما هي في نسخ الظل العام قبل طلوعها ، فإذا زالت ابتدأ رجوع الظل العام ، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس ، فيعم ، والظل الممدود في الجنة لم يذكر الله فيئه لأنه لم

يرجع بعد أن ذهب ، وكذلك قول حميد بن ثور :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه . . . ولا الفيء من برد العشي تذوق

فهو على المهيع ، وكذلك قول علقمة بن عبدة : [الطويل]

تَتَبعَ أفياء الظلال عشية . . . على طرق كأنهن سيوف

وكذلك قول امرىء القيس :

يفيء عليها الظل . . . وأما النابغة الجعدي فقال : [الخفيف]

فسلام الإله يغدو عليهم . . . وفيء الفردوس ذات الظلال

(86/436)

فتجوز في أن جعل الفيء حيث لا رجوع ، وقال رؤبة بن العجاج : يقال بعد الزوال فيء وظل ، ولا يقال قبله إلا ظل فقط ، ويقال فاء الظل أي رجع من النقصان إلى الزيادة ، ويعدى فاء بالهمزة كقوله تعالى : ﴿ ما أفاء الله ﴾ [الحشر : 7] ويعدى بالتضعيف فيقال أفاءه الله وفياه الله وتفيأ مطاوع فيا ، ولا يقال الفيء إلا من بعد الزوال في مشهور كلام العرب ، لكن هذه الآية الاعتبار فيها من أول النهار إلى آخره ، فكأن الآية جارية في بعض التأويلات على تجوز كلام العرب واقتضائه وضع تتفيأ مكان تتنقل وتميل ، وأضاف الظلال إلى ضمير مفرد

حملاً على لفظ ما أو لفظ شيء ، وهو في المعنى لجمع ، وقرأ الثقفي " ظُلُله " بفتح اللام الأولى وضم الثانية وضم الظاء ، وقوله ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ أفرد اليمين وهو يراد به الجمع ، فكأنه للجنس ، والمراد عن الأيمان والشمائل ، كما قال الشاعر : [جرير]

الواردون وتِيمٌ في ذرى سبأ . . . قد عض أعناقهم جلد الجواميس

وكما قال الآخر :

ففي الشامتين الصخر إن كان هدني . . . رزية شبلي مخدر في الضراغم

(87/436)

والمنصوب للعبرة في هذه الآية هو كل شخص وجرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك ، والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو البشر فقط ، لكن ذكر الأيمان والشمائل هنا على جهة الاستعارة لغير البشر ، أي تقدره ذا يمين وشمال ، وتقدره يستقبل أي جهة شئت ، ثم تنظر فيه فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال ، وذلك في كل أقطار الدنيا ، فهذا وجه يعمم لك ألفاظ الآية ، وفيه تجوز واتساع ، ومن ذهب إلى أن ﴿ اليمين ﴾ من غدوة النهار إلى الزوال ثم يكون من الزوال إلى المغيب عن الشمال ، وهو قول قتادة وابن جريج ، فإنما يترتب له ذلك فيما قدره مستقبل الجنوب ، والاعتبار في هذه الآية عندي إنما

هو المستقبل الجنوب ، وما قال بعض الناس من أن ﴿ اليمين ﴾ أول وقعة للظل بعد الزوال ، ثم الآخر إلى الغروب هي عن الشمال ، ولذلك جمع ﴿ الشمائل ﴾ ، وأفرد ﴿ اليمين ﴾ ، فتخليط من القول يبطل من جهات ، وقال ابن عباس إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً ، ثم بعث الله الشمس عليه دليلاً فقبض إليه الظل .

قال القاضي أبو محمد : فعلى هذا فأول ذرور الشمس فالظل عن يمين مستقبل الجنوب ثم يبدأ الانحراف فهو عن الشمائل لأنها حركات كثيرة ، وظلال متقطعة ، فهي شمائل كثيرة ، وكأن الظل عن اليمين متصلاً واحداً عاماً لكل شيء ، وفي هذا القول تجوز في تفيأ ، وعلى ما قدرنا من استقبال الجنوب يكون الظل أبداً مندفعاً عن اليمين إلى الزوال ، فإذا تحرك بعد فارق الأيمان جملة وصار اندفاعه عن الشمائل ، وقالت فرقة " الظلال " هنا الأشخاص هي المراد أنفسها ، والعرب تعبر أحياناً عن الأشخاص بالظل ، ومنه قول عبدة بن الطيب : [البسيط]

إذا نزلنا نصبنا ظل أخبية . . . وفار للقوم باللحم المراجيل

وإنما تنصب الأخبية ، ومنه قول الآخر : [الطويل]

تتبع أفياء الظلال عشية . . . أي أفياء الأشخاص .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله محتمل غير صريح ، وإن كان أبو علي قد قدره ، واختلف المتأولون في هذا السجود فقالت فرقة هو سجود عبادة حقيقة ، وذكر الطبري عن الضحاك قال إذا زالت الشمس سجد كل شيء قبل القبلة من نبت أو شجر ، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت ، وقال مجاهد إنما تسجد الظلال لا الأشخاص وقالت فرقة ، منهم الطبري عبر عن الخضوع والطاعة وميلان الظل ودورانها بالسجود ، وكما يقال للمشير برأسه على جهة الخضوع والطاعة وميلان الظل ساجد ومنه قول الشاعر : [الطويل]

فكلتاهما خرت وأسجد رأسها . . . كما سجدت نصرانة لم تحنف

والداخر المتصاغر المتواضع ، ومنه قول ذي الرمة : [الطويل]

فلم يبق إلا داخر في مُخَيِّس . . . ومنجحر في غير أرضك في حجر

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾

وقعت ﴿ ما ﴾ في هذه الآية لما يعقل ، قال الزجاج : قوله ﴿ ما في السماوات ﴾ يعم ملائكة السماء وما في السحاب وما في الجو من حيوان ، وقوله ﴿ وما في الأرض من دابة ﴾ يين ، ثم ذكر ملائكة الأرض في قوله ﴿ والملائكة ﴾ ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ والملائكة ﴾ هو الذي يعم " السماوات والأرض " ، وما قبل ذلك لا يدخل فيه ملك ، إنما

هو للحيوان أجمع، وقوله ﴿ يخافون ربهم ﴾ عام لجميع الحيوان، وقوله ﴿ من فوقهم ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما الفوقية التي يوصف بها الله تعالى فهي فوقية القدر والعظمة والقهر والسلطان، والآخر أن يتعلق قوله ﴿ من فوقهم ﴾ بقوله ﴿ يخافون ﴾، أي يخافون عذاب ربهم من فوقهم، وذلك أن عادة عذاب الأمم إنما أتى من جهة فوق، وقوله ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أما المؤمنون فبحسب الشرع والطاعة، وأما غيرهم من الحيوان فبالتسخير والقدر الذي يسوقهم إلى ما نفد من أمر الله تعالى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(89/436)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾

أي بالسيئات، وهذا وعيد للمشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام.

﴿ أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض ﴾ قال ابن عباس: كما خسف بقارون، يقال: خَسَفَ المكانُ يخسِف خسوفاً ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفاً أي غاب به فيها؛ ومنه قوله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص: 71].

وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِف به .

والاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أي يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين .

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرِهم .

وقيل : يريد يوم بدر ؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن شيء منه في حسابهم .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي في أسفارهم وتصرفهم ؛ قاله قتادة .

﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي سابقين الله ولا فائتيه .

وقيل : "في تَقَلُّبِهِم" على فراشهم أينما كانوا .

وقال الضحاك : بالليل والنهار .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أي على تنقّص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم .

وكذا قال ابن الأعرابي : أي على تنقّص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلّهم .

وقال الضحاك : هو من الخوف ؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة ، فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها .

وقال الحسن : "على تَخَوُّفٍ" أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهذا هو معنى القول الذي قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأوّل ، وأن التخوّف التنقص ؛ تخوّفه تنقصه ،

وتخوّفه الدهر وتخوّنه (بالفاء والنون) بمعنىً ؛ يقال : تخوّنني فلان حَقّي فلان حقِّي إذا تنقصك .

قال ذو الرُّمَّة :

لا ، بل هو الشّوْق مِن دار تَخوّنها . . .

مَرّاً سحابٌ ومَرّاً بارِحٌ تَرِبُ

وقال لبيد :

تخوّنها نزولي وارتحالي . . .

أي تنقص لحمها وشحمها .

(90/436)

وقال الهَيْثَم بن عَدِيّ : التخوّف (بالفاء) التنقص ، لغة لأزدِشُنوءة .

وأنشد :

تخوّف غَدْرهم مالي وأهْدَى . . .

سلاسل في الحلوق لها صليل

وقال سعيد بن المسيِّب : بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال : يا أيها

الناس ، ما تقولون في قول الله عز وجل : "أَوْ يَأْخُذَهُم على تَخَوُّفٍ" فسكت الناس ، فقال

شيخ من بني هُذَيل : هي لغتنا يا أمير المؤمنين ، التخوّف التنقص .

فخرج رجل فقال : يا فلان ، ما فعل دَيْنُك ؟ قال : تخوّفته ، أي تنقّصته ؛ فرجع فأخبر عمر

فقال عمر : أتعرف العرب ذلك في أشعارهم ؟ قال نعم ؛ قال شاعرنا أبو كبير الهُذَلِيّ

يصف ناقة تنقّص السير سنامها بعد تَمْكِه واكتنازه :

تخوف الرَّجل منها تامِكاً قَرِداً . . .

كما تخوف عُودَ النَّبْعة السَّفَنُ

فقال عمر : يا أيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني

كلامكم .

تَمَك السنام يَتْمِك تَمْكاً ، أي طال وارتفع ، فهو تامك .

والسَّفَن والمسْفن ما يُنْجَر به الخشب .

وقال اللّيث بن سعد : "على تخوّفٍ" على عجل .

وقيل : على تقريع بما قدّموه من ذنوبهم ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

وقال قتادة : "على تخوّف" أن يعاقب أو يتجاوز .

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لا يعاجل بل يمهل .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ

دَاخِرُونَ (48) ﴾

قرأ حمزة والكسائيّ وخلف ويحيى والأعمش (تَرَوْا) بالتاء ، على أن الخطاب لجميع الناس .

الباقون بالياء خبراً عن الذين يمكرون السيئات ؛ وهو الاختيار .

﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ يعني من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل ؛ قاله ابن عباس .

وإن كانت الأشياء كلّها سميعة مطيعة لله تعالى .

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال .

الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد .

(91/436)

أي يميل من جانب إلى جانب ، ويكون أول النهار على حال ويتقلّص ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى ؛ فدورانها ومَيَلانها من موضع إلى موضع سجودها ؛ ومنه قيل للظل بالعشي : فَيْءٌ ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق ، أي رجع .

والفيء الرجوع ؛ ومنه ﴿ حتى تفيء إلى أَمْرِ الله ﴾ [الحجرات : 9] .

روي معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما ، وقد مضى هذا المعنى في سورة

"الرعد" .

وقال الزجاج : يعني سجود الجسم ، وسجودُه انقياده وما يُرَى فيه من أثر الصنعة ، وهذا عام في كل جسم .

ومعنى ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي خاضعون صاغرون .

والدخور : الصَّغار والذّل .

يقال : دَخَر الرجل (بالفتح) فهو داخر ، وأدخره الله .

وقال ذو الرمة :

فلم يَبْقَ إلا داخِرٌ في مُخَيَّس . . .

ومُنْجَحِرٌ في غير أرْضِك في جُحْرِ

كذا نسبه الماوَرْدِيّ لذي الرُّمّة ، ونسبه الجوهري للفرزدق وقال : المُخَيِّسُ اسم سجن كان بالعراق ؛ أي موضع التذلل .

وقال :

أمَا تراني كَيِّساً مُكَيِّساً . . .

بَنَيْتُ بعد نافع مُخَيَّساَ

ووحَّد اليمين في قوله : "عَنِ الْيَمِينِ" وجمع الشمال ؛ لأن معنى اليمين وإن كان واحداً الجمع .

ولو قال: عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة.

وأيضاً فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى؛ كقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ وكقوله: ﴿ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور ﴾ ولو قال على أسماعهم وإلى الأنوار لجاز.

ويجوز أن يكون ردّ اليمين على لفظ "ما" والشمال على معناها.

ومثل هذا في الكلام كثير.

قال الشاعر:

الواردون وتَيْم في ذُرا سَبَإ . . .

قد عَضّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميس

ولم يقل جلود.

وقيل: وحّد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم في حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات، فسماها شمائل.

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ ﴾

أي من كل ما يدِب على الأرض .

﴿ والملائكة ﴾ يعني الملائكة الذين في الأرض ، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

بشرف المنزلة ، فميّزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن دخلوا فيها ؛ كقوله : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ

وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] .

وقيل : لخروجهم من جملة ما يدِبّ لما جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا في الجملة

فلذلك ذكروا .

وقيل : أراد "ولله يسجد ما في السموات" من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح

والسحاب ، "وما في الأرض من دابة" وتسجد ملائكة الأرض .

﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة ربهم .

وهذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله .

ومعنى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي عقاب ربهم وعذابه ، لأن العذاب المهلك إنما

ينزل من السماء .

وقيل : المعنى يخافون قدرة ربهم التي هي فوق قدرتهم ؛ ففي الكلام حذف .

وقيل : معنى "يخافون ربهم من فوقهم" يعني الملائكة ، يخافون ربهم وهي من فوق ما في

الأرض من دابة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف مَن دونهم أولى ؛ دليل هذا القول قوله تعالى :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعني الملائكة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(93/436)

وقال الخازن :

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾

فيه حذف تقديره المنكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبأصحابه، وبالغوا في أذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء، وقيل : المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم والصحيح أن المراد بهذا المكر السعي في أذى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين.

وقيل : المراد بالذين مكروا السيئات نمروذ، ومن هو مثله والصحيح أن المراد بهم كفار مكة ﴿ أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ يعني كما خسف بقرون من قبلهم ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ يعني أن العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما أهلك قوم لوط وغيرهم ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ بمعنى في تصرفهم في الأسفار فإنه سبحانه

وتعالى، على إهلاكهم في السفر كما هو قادر على إهلاكهم في الحضر، وقال ابن عباس يأخذهم في اختلافهم.

وقال ابن جريج: إقبالهم وإدبارهم يعني أنه تعالى قادر على أن يأخذهم في ليلهم ونهارهم، وفي جميع أحوالهم ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ يعني بسابقين الله أو يفوتونه بل هو قادر عليهم ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني على تنقص.

قال ابن قتيبة: التخوف التنقص ومثله التخون.

(94/436)

يقال تخوفه الدهر وتخونه إذا انتقصه وأخذ ماله وحشمه، ويقال: هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به أن ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم وقيل هو على أصله من الخوف فيحتمل أنه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب أولاً، بل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال الضحاك والكلبي: هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فيحتمل أنه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء، أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات تحدث قليلاً قليلاً إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم إنه سبحانه وتعالى، ختم الآية بقوله

﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى ، لا يعجل العقوبة والعذاب .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ أولم يروا ﴾ قرئ بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة ﴿ إلى ما خلق الله من شيء ﴾ يعني من جسم قائم له ظل ، وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بإلى لأن المراد منها الاعتبار ، والاعتبار لا يكون إلا بنفس الرؤية ، التي يكون معها نظر إلى الشيء ليتأمل أحواله ، ويتفكرون فيه فيعتبر به ﴿ يتفيؤا ظلاله ﴾ يعني تميل وتدور من جانب إلى جانب فهي من أول النهار على حال ثم تقلص ثم تعود في آخر النهار إلى حالة أخرى ويقال للظل بالعشي فيء ، لأنه من فاء يفيء إذا رجع من المغرب إلى المشرق ، والفيء الرجوع قال الأزهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس ، والظل يكون الغداة ، وهو ما لم تنله الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وإنما أضاف الظلال ، وهو جمع مفرد وهو قوله : من شيء لأنه يراد به الكثرة ومعناه الإضافة إلى ذوي الظلال ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ قال العلماء : إذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه إلى القبلة كان ظلك عن يمينك فإذا ارتفعت الشمس واستوت في وسط السماء كان ظلك خلفك فإذا مالت الشمس إلى الغروب كان ظلك عن يسارك .

وقال الضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار وإنما وحد اليمين وإن كان المراد به الجمع للإيجاز والاختصار في اللفظ وقيل اليمين راجع إلى لفظ الشيء وهو واحد والشمائل راجع إلى المعنى لأن لفظ الشيء يراد به الجمع ﴿ سجداً لله ﴾ في معنى هذا السجود قولان : أحدهما أن المراد به الاستسلام والانقياد والخضوع .

يقال سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب ، وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل والمعنى أن جميع الأشياء التي لها ظلال فهي منقادة لله تعالى مستسلمة لأمره غير ممتنعة عليه ، فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ، والقول الثاني في معنى هذا السجود أن الظلال واقعة على الأرض ، ملتصقة بها كالساجد على الأرض فلما كانت الظلال يشبه شكلها الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وقيل ظل كل شيء ساجد لله سواء كان ذلك الشيء يسجد لله أو لا ويقال إن ظل الكافر ساجد لله وهو غير ساجد لله ، ﴿ وهم داخرون ﴾ أي صاغرون أذلاء والداخر الصاغر الذي يفعل ما تأمره به شاء أم أبى وذلك أن جميع الأشياء منقادة لأمر الله تعالى .

فإن قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنا بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون .

قلت : لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لأمره ، وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل ، وجاز جمعها بالواو والنون ، وهو جمع العقلاء قوله ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة ﴾ قال العلماء : السجود على نوعين سجود طاعة ، وعبادة كسجود المسلم لله ، وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله : ولله يسجد ما في السموات ، وما في الأرض من دابة يحتمل النوعين لأن سجود كل شيء بحسبه فسجود المسلمين ، والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع وأتى بلفظ ما في قوله ما في السموات وما في الأرض للتغليب لأن ما لا يعقل أكثر ممن يعقل في العدد ، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث ، ولأنه لو أتى بمن التي هي للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناولة للعقلاء خاصة فأتى بلفظة ما ليشمل الكل ، ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية ، فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسماني يتحرك ويدب فيدخل فيه الإنسان ، لأنه مما يدب على الأرض ولهذا أفرد الملائكة في قوله ﴿ والملائكة ﴾ لأنهم أولو أجنحة يطيرون بها أو أفردهم بالذكر ، وإن كانوا من جملة من في السموات لشرفهم .

وقيل : أراد ولله يسجد ما في السموات من الملائكة ، وما في الأرض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة ، وسجود غيرهم تذليلها وتسخيرها لما خلقت له وسجود ما لا يعقل ، وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى ، فيدعو الغافلين إلى السجود لله عند التأميل والتدبر ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ يعني الملائكة ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ وكقوله ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ وقد تقدم تفسيره ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ عن أبي ذر قال رسول الله عليه وسلم : " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسعمون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا ، وملك واضع جبهته ساجداً والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدت تجأرون إلى الله تعالى " قال أبو ذر : لوددت أني كنت شجرة تعضد أخرجه الترمذي وقال عن أبي ذر موقوفاً .

فصل

وهذ السجدة من عزائم سجود القرآن ، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾

والسيئات نعت لمصدر محذوف أي : المكرات السيئات قاله الزمخشري ، أو مفعول بمكروا على تضمين مكروا معنى فعلوا وعملوا ، والسيئات على هذا معاصي الكفر وغيره قاله قتادة ، أو مفعول بأمن ويعني به العقوبات التي تسوءهم ذكرهما ابن عطية .

وعلى هذا الأخير يكون أن يخسف بدلاً من السيئات .

وعلى القولين ، قبله مفعول بامن ، والذين مكروا في قول الأكثرين هم أهل مكة مكروا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقال مجاهد : هو نمرود ، والخسف بلع الأرض المخسوف به وقعودها به إلى أسفل .

وذكر النقاش أنه وقع الخسف في هذه الأمة بهم الأرض كما فعل بقارون ، وذكر لنا أنّ أخلاطاً من بلاد الروم خسف بها ، وحين أحسن أهلها بذلك فرّ أكثرهم ، وأن بعض التجار ممن كان يرد إليها رأى ذلك من بعيد فرجع بتجارته .

من حيث لا يشعرون : من الجهة التي لا شعور لهم بمجيء العذاب منها ، كما فعل بقوم لوط

في تقلبهم في أسفارهم قاله قتادة ، أو في منامهم روي هذا وما قبله عن ابن عباس .

وقال الضحاك ، وابن جريج ، ومقاتل : في ليلهم ونهارهم أي : حالة ذهابهم ومجيئهم فيهما .

وقيل : في تقلبهم في مكرهم وحيلهم ، فيأخذهم قبل تمام ذلك .

وقال الزجاج : جميع ما يتقلبون فيه ، فما هم بسابقين الله ولا فائتيه .

والأخذ هنا الإهلاك كقوله : ﴿ فكلاًّ أخذنا بذنبه ﴾ وعلى تخوف على تنقص قاله : ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

وقال ابن قتيبة : يقال خوفته وتخوفته إذا تنقصته وأخذت من ماله وجسمه .

وقال الهيثم بن عدي : هو النقص بلغة أزدشنوءة .

وفي حديث لعمر أنه سأل عن التخوف ، فأجابه شيخ : بأنه التنقص في لغة هذيل .

وأنشده قول أبي كثير الهذلي :

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً . . .

كما تخوف عود النبعة السفر

وهذا التخوف بمعنى التنقص ، قيل : من أعماله ، وقيل : يأخذ واحداً بعد واحد ، ورويا عن ابن عباس .

وقال الزجاج : ينقص ثمارهم وأموالهم حتى يهلكهم .

وقيل : على تخوف ، على خوف أن يعاقبهم أو يتجاوز عنهم قاله قتادة .

وقال الزمخشري : على تخوف متخوفين ، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا ، فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون ، وهو خلاف قوله : من حيث لا يشعرون انتهى .

وقاله الضحاك ، يأخذ قرية فتخاف القرية الأخرى .

وقال ابن بجر : على تخوف ضد البغتة أي : على حدوث حالات يخاف منها كالرياح والزلازل والصواعق ، ولهذا ختم بقوله تعالى : إن ربكم لرؤوف رحيم ، لأنّ في ذلك مهلة وامتداد وقت ، فيمكن فيه التلافي .

وقال الليث بن سعد : على تخوف على عجل .

وقيل : على تقريع بما قدّموه ، وهذا مروي عن ابن عباس .

ولما كان تعالى قادراً على هذه الأمور ولم يعاجلهم بها ناسب وصفه بالرأفة والرحمة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) ﴾

دخر دخوراً تصاغر ، وفعل ما يؤمر شاء أو أبى .

فقال ابن عطية : تواضع .

قال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخر في مجلس . . .

ومنجحر في غير أرضك في جحر

﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيئوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون .

ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون .

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ : لما ذكر تعالى قدرته على تعذيب الماكرين وإهلاكهم بأنواع من الأخذ ، ذكر تعالى طواعية ما خلق من غيرهم وخضوعه ضد حال الماكرين ، لينبههم على أنه ينبغي بل يجب عليهم أن يكونوا طائعين منقادين لأمره .

وقرأ السلمي ، والأعرج ، والأخوان : أو لم تروا بتاء الخطاب إما على العموم للخلق استؤنف به الأخبار ، وإما على معنى : قل لهم إذا كان خطاباً خاصاً .

وقرأ باقي السبعة بالياء على الغيبة .

واحتمل أيضاً أن يعود الضمير على الذين مكروا ، واحتمل أن يكون إخباراً عن المكلفين ، والأول أظهر لتقدم ذكرهم .

وقرأ أبو عمرو ، وعيسى ، ويعقوب : تتفيئوا بالتاء على لتأنيث ، وباقي السبعة بالياء .

وقرأ الجمهور : ظلاله جمع ظل .

وقرأ عيسى : ظلله جمع ظلة ، كحلة وحلل .

والرؤية هنا رؤية القلب التي يقع بها الاعتبار ، ولكنها بواسطة رؤية العين .

قيل : والاستفهام هنا معناه التوبيخ .

قيل : ويجوز أن يكون معناه التعجب والتقدير : تعجبوا من اتخاذهم مع الله شريكاً وقد رأوا هذه المصنوعات التي أظهرت عجائب قدرته وغرائب صنعه ، مع علمهم بأنّ آلهتهم التي اتخذوها شركاء لا يقدر على شيء البتة .

والجملة من قوله : تتفيئوا ، في موضع الصفة قاله الحوفي ، وهو ظاهر قول ابن عطية والزمخشري .

قال ابن عطية : من شيء لفظ عام في كل ما اقتضته الصفة في قوله : تتفيؤ ظلاله ، لأنّ ذلك صفة لما عرض للعبرة في جميع الأشخاص التي لها ظل .

وقال الزمخشري : وما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه من شيء تتفيؤ ظلاله ، وقال غير هؤلاء : المعنى من شيء له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم ، وقوله : تتفيؤ ظلاله ،

إخبار عن قوله من شيء وصف له ، وهذا الإخبار يدل على ذلك الوصف المحذوف الذي هو له ظل .

وتفيؤ تتفعل من الفيء ، وهو الرجوع يقال : فاء الظل يفيء فيأرجع ، وعاد بعدما نسخه ضياء الشمس .

وفاء إذا عدي فبالهمزة كقوله : ﴿ ما أفاء الله على رسوله ﴾ أو بالتضعيف نحو : فيأ الله الظل فتفيأ ، وتفيأ من باب المطاوعة ، وهو لازم وقد استعمله أبو تمام متعدياً قال :

طلبت ربيع ربيعة الممهى لها . . .

وتفيأت ظلالها ممدودا

ويحتاج ذلك إلى نقله من كلام العرب متعدياً .

قال الأزهري : تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار ، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس ، والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله .

وقال الشاعر :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه . . .

ولا الفيء من برد العشيّ تذوق

وقال امرؤ القيس :

تيممت العين التي عند ضارج . . .

يفيء عليها الظل عرمضها طام

وعن رؤبة ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ما لم تكن عليه فهو ظل ، وذلك أنّ الشمس من طلوعها إلى وقت الزوال تنسخ الظل ، فإذا زالت رجع ، ولا يزال ينمو إلى أن تغيب .

والمشهور أنّ الفيء لا يكون إلا بعد الزوال ، والاعتبار في هذه الآية من أول النهار إلى آخره . فمعنى تتفيؤ تنتقل وتميل ، وأضاف الظلال وهي جمع إلى ضمير مفرد ، لأنه ضمير ما ، وهو جمع من حيث المعنى لقوله : ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ وقال صاحب اللوامح : في قراءة عيسى ظلله ، وظله الغيم وهو جسم ، وبالكسر الفيء وهو عرض في العامة : فرأى عيسى أن التفيؤ الذي هو الرجوع بالأجسام أولى ، وأما في العامة فعلى الاستعارة انتهى .

قالوا في قوله : عن اليمين والشمائل ، بحثان .

أحدهما : ما المراد بذلك .

والثاني : ما الحكمة في إفراد اليمين وجمع الشمائل ؟ أما الأول فقالوا : يمين الفلك وهو المشرق .

وشماله هو المغرب .

وخص هذان الاسمان بهذين الجانبين لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه ، ومنه تظهر الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق إلى المغرب ، لا جرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله ، فعلى هذا تقول الشمس عند طلوعها إلى وقت انتهائها إلى وسط الفلك يقع الظلال إلى الجانب الغربي ، فإن انحدرت من وسط الفلك عن الجانب الغربي وقعت الظلال في الجانب الشرقي ، فهذا المراد من تفيؤ الظلال من اليمين إلى الشمال .

وقيل : البلدة التي عرضها أقل من مقدار الميل تكون الشمس في الصيف عن يمين البلدة فتقع الظلال على يمينهم .

وقال الزمخشري : المعنى أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ضلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها عن جانبي كل واحد منها وشقيه ، استعارة من يمين الإنسان وشماله بجانبي الشيء أي : ترجع الظلال من جانب إلى جانب انتهى .

وقال ابن عطية : والمقصود العبرة في هذه الآية ، هو كل جرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك ، والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو البشر فقط ، لكن ذكر الأيمان والشمائل هنا

على حسب الاستعارة لغير اللبس تقدره : ذا يمين وشمال ، وتقدره : بمستقبل أي جهة شئت ، ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال ، وذلك في كل أقطار الدنيا ، فهذا يعم ألفاظ الآية .

وفيه تجوز واتساع .

ومن ذهب إلى أنّ اليمين من غدوة الزوال ، ويكون من الزوال إلى المغيب عن الشمال ، وهو قول قتادة وابن جريج ، فإنما يترتب فيما قدره مستقبل الجنوب انتهى .

وأما الثاني فقال الزمخشري : واليمين بمعنى الأيمان ، فجعله وهو مفرد بمعنى الجمع ، فطابق الشمائل من حيث المعنى كما قال : ﴿ ويولون الدبر ﴾ يريد الإدبار .

وقال الفراء : كأنه إذا وجد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال ، وإذا جمع ذهب إلى كلها لأنّ قوله ما خلق الله من شيء ، لفظه واحد ومعناه الجمع ، فعبر عن أحدهما بلفظ الواحد لقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ وقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾

وقيل : إذا فسرنا اليمين بالمشرق ، كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها ، فكانت اليمين واحدة .

وأما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الظلال بعد وقوعها على الأرض ، وهي كثيرة ، فلذلك عبر عنها بصيغة الجمع .

وقال الكرماني يحتمل أن يراد بالشمائل الشمال والقدام والخلف ، لأنّ الظل يفيء من

الجهات كلها فبدئ باليمين لأن ابتداء التفيؤ منها ، أو تيمناً بذكرها ، ثم جمع الباقي على لفظ الشمال لما بين اليمين والشمال من التضاد ، وتنزل القدام والخلف منزلة الشمال لما بينهما وبين اليمين من الخلاف .

وقيل : وحد اليمين وجمع الشمائل ، لأن الابتداء عن اليمين ، ثم ينقبض شيئاً فشيئاً حالاً بعد حال ، فهو بمعنى الجمع ، فصدق على كل حال لفظة الشمال ، فتعدد بتعدد الحالات .

(103/436)

وقال ابن عطية : وما قال بعض الناس من أن اليمين أول وقعة للظل بعد الزوال ، ثم الآخر إلى الغروب هي عن الشمائل ، وأفرد اليمين فتخليط من القول ومبطل من جهات .

وقال ابن عباس : إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً ، ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً فقبض إليه الظل ، فعلى هذا تأول دورة الشمس بالظل عن يمين مستقبل الجنوب ، ثم يبدأ الانحراف فهو من الشمائل ، لأنه حركات كثيرة وظلال منقطعة ، فهي شمائل كثيرة ، فكان الظل عن اليمين متصلاً واحداً عاماً لكل شيء انتهى .

وقال شيخنا الأستاذ أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف الكتامي المعروف بابن الصائغ : أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين ، لأنّ ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى منه إلا اليسير فكأنه في

جهة واحدة ، وهو بالعشي على العكس لاستيلائه على جميع الجهات ، فلحظت الغايتان في الآية : هذا من جهة المعنى ، وفيه من جهة اللفظ المطابقة ، لأنّ سجداً جمع فطابقه جمع الشمائل لاتصاله به ، فحصل في الآية مطابقة اللفظ للمعنى ، ولحظهما معاً وتلك الغاية في الإعجاز انتهى .

والظاهر حمل الظلال على حقيقتها ، وعلى ذلك وقع كلام أكثر المفسرين وقالوا : إذا طلعت الشمس وأنت متوجه إلى القبلة كان الظل قدامك ، فإذا ارتفعت كان على يمينك ، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك فإذا أرادت الغروب كان على يسارك .

وقالت فرقة : الظلال هنا الأشخاص وهي المرادة نفسها ، والعرب تخبر أحياناً عن الأشخاص بالظلال .

ومنه قول عبدة بن الطبيب :

إذا نزلنا نصبنا ظل أخبية . . .

وفار للقوم باللحم المراجيل

وإنما تنصب الأخبية ، ومنه قول الشاعر :

تتبع أفياء الظلال عيشة . . .

أي : أفياء الأشخاص .

قال ابن عطية : وهذا كله محتمل غير صريح ، وإن كان أبو علي قرره انتهى .

والظاهر أن السجود هنا عبارة عن الانقياد ، وجريانها على ما أراد الله من ميلان تلك الظلال ودورانها كما يقال للمشير برأسه إلى الأرض على جهة الخضوع : ساجد .

(104/436)

قال الزمخشري : سجداً حال من الظلال ، وهم داخرون حال من الضمير في ظلاله ، لأنه في معنى الجمع ، وهو ما خلق الله من شيء له ظل .

وجمع بالواو لأنّ الدخور من أوصاف العقلاء ، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب ،

والمعنى : أنّ الظلال منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ والأجرام في أنفسها .

ذاخرة أيضاً صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لا تمتنع انتهى .

فغاير الزمخشري بين الحالين ، جعل سجداً حالاً من الظلال ، ووهم داخرون حالاً من الضمير في سجداً ، وأن يكون حالاً ثانية من الظلال كما تقول : جاء زيد راكباً وهو ضاحك ، فيجوز أن يكون وهو ضاحك حالاً من الضمير في راكباً ، ويجوز أن يكون حالاً من زيد ، وهذا الثاني عندي أظهر ، والعامل في الحالين هو تتفيؤ ، وعن متعلقة به ، وقاله الحوفي .

وقيل : في موضع الحال ، وقاله أبو البقاء .

وقيل : عن اسم أي : جانب اليمين ، فيكون إذ ذاك منصوباً على الظرف .

وأما ما أجازه الزمخشري من أن قوله : وهم داخرون ، حال من الضمير في ظلاله ، فعلى مذهب الجمهور لا يجوز ، وهي مسألة جاءني غلام هند ضاحكة ، ومن ذهب إلى أنه إذا كان المضاف جزءاً أو كالجزء جاز ، وقد يخبر هنا ويقول : الظلال وإن لم تكن جزءاً من الأجرام فهي كالجزء ، لأن وجودها ناشىء عن وجودها .

وذهبت فرقة إلى أن السجود هنا حقيقة .

قال الضحاك : إذا زالت الشمس سجد كل شيء قبل القبلة من نبت وشجر ، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت .

وقال مجاهد : إنما تسجد الظلال دون الأشخاص ، وعنه أيضاً إذا زالت الشمس سجد كل شيء .

وقال الحسن : أما ظلك فيسجد لله ، وأما أنت فلا تسجد له .

وقيل : لما كانت الظلال ملصقة بالأرض واقعة عليها على هيئة الساجد وصفت بالسجود ، وكون السجود يراد به الحقيقة وهو الوقوع على الأرض على سبيل العبادة وقصدها يبعد ، إذ يستدعي ذلك الحياة والعلم والقصد بالعبادة .

وخصّ الظل بالذكر لأنه سريع التغير ، والتغير يقتضي مغيراً غيره ومدبراً له ، ولما كان سجود الظلال في غاية الظهور بدىء به ، ثم انتقل إلى سجود ما في السموات والأرض .

ومن دابة : يجوز أن يكون بياناً لما في الظرفين ، ويكون مَن في السموات خلق يدبون .

ويجوز أن يكون بياناً لما في الأرض ، ولهذا قال ابن عباس : يريد كل ما دب على الأرض .

وعطف والملائكة على ما في السموات وما في الأرض ، وهم مندرجون في عموم ما تشريفاً لهم وتكريماً ، ويجوز أن يراد بهم الحفظة التي في الأرض ، وبما في السموات ملائكتهنّ ، فلم يدخلوا في العموم .

وقيل : بين تعالى في آية الظلال أن الجمادات بأسرها منقادة لله ، بين أنّ أشرف الموجودات وهم الملائكة ، وأخسها وهي الدواب منقادة له تعالى ، ودل ذلك على أن الجميع منقاد لله تعالى .

وقيل : الدابة اسم لكل حيوان جسماني يتحرك ويدب ، فلما ميز الله تعالى الملائكة عن الدابة ، علمنا أنها ليست مما يدب ، بل هي أرواح مختصة بحركة انتهى .

وهو قول فلسفي .

ولما كان بين المكلفين وغيرهم قدر مشترك في السجود وهو الانقياد لإرادة الله ، جمع بينهما فيه وإن اختلفا في كيفية السجود .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : فهلا جيء بمن دون ما تغليباً للعقلاء من الدواب على غيرهم ؟ (قلت) : لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب ، فكان متناولاً للعقلاء خاصة ، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم انتهى .

وظاهر السؤال تسليم أنّ من قد تشمل العقلاء وغيرهم على جهة التغليب ، وظاهر الجواب تخصيص من بالعقلاء ، وأنّ الصالح للعقلاء وغيرهم ما دون من ، وهذا ليس بجواب ، لأنه أورد السؤال على التسليم ، ثم ذكر الجواب على غير التسليم فصار المعنى : أن من يغلب بها ، والجواب لا يغلب بها ، وهذا في الحقيقة ليس بجواب ، والظاهر أنّ الضمير في قوله : يخافون ، عائد على المنسوب إليهم السجود .

في ولله يسجد ، وقاله أبو سليمان الدمشقي .

وقال ابن السائب ومقاتل : يخافون من صفة الملائكة خاصة ، فيعود الضمير عليهم .

وقال الكرماني : والملائكة موصوفون بالخوف ، لأنهم قادرون على العصيان وإن كانوا لا يعصون .

والفوقية المكانية مستحيلة بالنسبة إليه تعالى ، فإن علقته بيخافون كان على حذف

مضاف أي : يخافون عذابه كائناً من فوقهم ، لأن العذاب إنما ينزل من فوق ، وإن علقته بربهم كان حالاً منه أي : يخافون ربهم عالياً لهم قاهراً لقوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وفي نسبة الخوف لمن نسب إليه السجود أو الملائكة خاصة دليل على تكليف الملائكة كسائر المكلفين ، وأنهم بين الخوف والرجاء مدارون على الوعد والوعيد كما قال تعالى : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ ومن يقل منهم : إنه إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم .

وقيل : الخوف خوف جلال ومهابة .

والجملة من يخافون يجوز أن تكون حالاً من الضمير في من لا يستكبرون ، ويجوز أن تكون بياناً لنفي الاستكبار وتأكيداً له ، لأن من خاف الله لم يستكبر عن عبادته .

وقوله : ويفعلون ما يؤمرون ، أما المؤمنون فبحسب الشرع والطاعة ، وأما غيرهم من الحيوان فبالتسخير والقدر الذي يسوقهم إلى ما نفذ من أمر الله تعالى . انتهى . اهـ

﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات . . . ﴾ الآية

تهديدٌ لكفَّار مكَّة ونَصْبُ السيئات ب ﴿ مَكَرُواْ ﴾ وعُدِّيَ ﴿ مَكَرُواْ ﴾ لأنه في معنى عملوا ، قال البخاريُّ : قال ابن عباس : ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ ، أي : في اختلافهم انتهى .

وقال المهدويُّ : قال قتادة : ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ : في أسفارهم الضَّحَّاك : ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ : باللَّيلِ انتهى .

وقوله : ﴿ على تَخَوُّفٍ ﴾ ، أي على جهة التخُّوف ، والتخُّوفُ التنقُّص ، وروي أن عمر بن الخطَّاب رضي اللَّه عنه خَفِيَ عليه معنى التخُّوف في هذه الآية ، وأراد الكَتْبَ إلى الأمصار يسأل عن ذلك ، فيروى أنه جاءه فَتًى مِن العرب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إِنَّ أَبي يتخَّوفُنِي مَالي ، فقَالَ عُمَرُ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ ومنه قول النابغة :

[الطويل]

تَخَوَّفَهُمْ حَتَّى أَذَلَّ سَرَاتَهُمْ . . . بِطَعْنٍ ضِرَارٍ بَعْدَ فَتْحِ الصَّفَائِحِ

وهذا التنقُّص يتَّجه به الوعيدُ على معنيين :

أحدهما : أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخَّوف ، أي : أفذاذاً يتنقَّصهم بذلك الشيءَ بعد الشيءِ ، ويصيِّرهم إِلى ما أعدَّ لهم من العذاب ، وفي هذه الرتبةِ الثالثة مِنَ الوعيدِ رأْفَةٌ ورحمةٌ وإِمهال ؛ ليتوبَ التائِبُ ، ويرجعَ الرَّاجع ، والثاني : ما قاله الضَّحَّاك : أنْ يأخذ

بالعذابِ طائفةً أو قريةً، ويترك أخرى، ثم كذلك حتَّى يَهْلِكَ الكُلُّ.

وقالت فرقة: «التَّخُوف» هنا: من الخَوْف، أي: فيأخذهم بعد تخُّوف ينالهم يعذِّبهم به.

(108/436)

وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ الآية: قوله: ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ لفظٌ عامٌّ في كلِّ شخصٍ وجرْمٍ له ظلٌّ كالجبال والشجر وغير ذلك، وفَاءَ الظِّلُّ رجَعَ، ولا يقالُ: الفيء إلاَّ مِنْ بعد الزوال؛ في مشهور كلام العرب، لكنْ هذه الآية: الاعتبار فيها من أول النَّهار إلى آخره فكأنَّ الآية جاريةٌ في بعْضٍ؛ على تجوُّز كلام العرب واقتضائه، والرؤية، هنا: رؤيةُ القَلْبُ ولكنَّ الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكونُ في مرئيَّات بالعينِ، و ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾؛ هنا: فيه تجوُّز واتساعٌ، وذكَرَ الطبريُّ عن الضَّحّاك، قال: إذا زالَتِ الشمْسُ، سَجَدَ كلّ شيء قِبَلَ القِبْلة من نَبْت أو شجر؛ ولذلك كان الصالحُونَ يستحبُّون الصلاة في ذلك الوقْت. قال الداووديُّ: وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: " أَرْبعٌ قَبْلَ الظُّهْرِ بَعْدَ الزَّوَالِ تُحْسَبُ بِمِثْلِهِنَّ في صَلاَةِ السَّحَرِ » قَالَ: « وَلَيْس شَيْءٌ إِلاَّ يُسَبِّحُ للهِ تِلْكَ السَّاعَةَ "، وقرأ: ﴿ يَتَفَيَّأُ ظلاله . . . ﴾ الآية كلُّها.

انتهى. و«الدَّاخر»: المتصاغر المتواضع.

وقوله سبحانه : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ : عامٌّ لجميع الحيوانِ ،

و ﴿ مِّن فَوْقِهِم ﴾ : يريد : فوقية القَدْرِ والعَظَمة والقَهْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(109/436)

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾

هم أهلُ مكةَ الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صدَّ أصحابِه عن الإيمان عليهم الرضوان ، لا الذين احتالوا لهلاك الأنبياءِ كما قيل ولا من يعُمّ الفريقين لِما أن المرادَ تحذيرُ هؤلاء عن إصابة مثلِ ما أصاب أولئك من فنون العذابِ المعدودة ، والسيئاتِ نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي مكروا المكَراتِ السيئاتِ التي قصت عنهم ، أو مفعولٌ به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أي عمِلوا السيئاتِ ، فقوله تعالى : ﴿ أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض ﴾ مفعولٌ لأمِن أو السيئاتِ صفةٌ لما هو المفعولُ أي أفأمن الماكرون العقوباتِ السيئةَ ، وقوله : أن يخسف الخ ، بدلٌ من ذلك وعلى كل حال فالفاءُ للعطف على مقدر ينسحب عليه النظمُ الكريم أي أنزلنا إليك الذكرَ لتبين لهم مضمونَه الذي من جملته إنباءُ

الأممِ المهلَكة بفنون العذاب ويتفكروا في ذلك ، ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئاتِ أن يخسف الله بهم الأرضَ كما فعل بقارون ، على توجيه الإنكارِ إلى المعطوفين معاً ، أو أتفكروا فأمِنوا على توجيهه إلى المعطوف على أن الأمنَ بعد التفكرِ مما لا يكاد يفعله أحد ، وقيل : هو عطفٌ على مقدر ينبىء عنه الصلة أي أمُكِر فأمن الذين مكروا الخ ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه أي في حالة غفلتِهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون إتيانَ ما يشتهون كما حُكي فيما سلف مما نزل بالماكرين .

(110/436)

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي في حالة تقلُّبهم في مسائرهم ومتاجرهم ، ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بممتنعين أو فائتين بالهرب والفِرار على ما يوهمه حالُ التقلب والسير ، والفاءُ إما لتعليل الأخذِ أو لترتيب عدمِ الإعجاز عليه دلالةً على شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام : " إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته " وإيرادُ الجملة الاسميةِ للدلالة على دوام النفي لا نفْي الدوام .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ أي مخافةٍ وحذرٍ عن الهلاك والعذاب بأن يُهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا فيأخذَهم العذابُ وهم متخوّفون ، وحيث كانت حالتا التقلّبِ والتخوّف مَظِنةً

للهرب عُبّر عن إصابة العذاب فيهما بالأخذ وعن إصابته حالةَ الغفلة المنبئةِ عن السكون بالإتيان ، وقيل : التخوّفُ التنقّص ، قال قائلهم

تخوّفَ الرحلُ منها تامكاً قردا . . . كما تخوّفَ عودَ النبعة السفن

أي يأخذُهم على أن ينْقُصَهم شيئاً بعد شيءٍ في أنفسهم وأموالِهم حتى يهلِكوا ، والمرادُ بذكر الأحوال الثلاثِ بيانُ قدرة الله سبحانه على إهلاكهم بأي وجهٍ كان لا الحصرُ فيها ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلُم عنكم مع استحقاقكم لها .

(111/436)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ استفهامُ إنكاريّ ، وقرىء على صيغة الخِطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ أي ألم ينظروا ولم يروا متوجهين ﴿ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَىْء ﴾ أي من كل شيء ﴿ يَتَفَيَّأُ ظلاله ﴾ أي يرجع شيئاً فشيئاً حسبما يقتضيه إرادةُ الخالق تعالى ، فإن التفيّؤَ مطاوعُ الإفاءةِ ، وقرىء بتأنيث الفعل ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ أي ألم يروا الأشياءَ التي لها ظلال متفيّئةٌ عن أيمانها وشمائِلها أي عن جانبي كل واحد منها ، استُعير لهما ذلك من يمين الإنسانِ وشمالِه ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ حالٌ من الظلال كقوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدو والاصال ﴾ والمرادُ بسجودها تصرّفُها على مشيئة الله وتأّتيها لإرادته تعالى في

الامتداد والتقلصِ وغيرِهما غيرَ ممتنعةٍ عليه فيما سخرها له ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ أي صاغرون منقادون ، حال من الضمير في ظلاله والجمعُ باعتبار المعنى وإيرادُ الصيغةِ الخاصة بالعقلاء لما أن الدخورَ من خصائصهم ، والمعنى ترجعِ الظلالُ من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارِها أو باختلاف مشارِقها ومغاربها فإنها كلَّ يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معينٍ من المدارات اليومية بتقدير العزيزِ العليم ، منقادةٌ لما قُدّر لها من التفيّؤ أو واقعةٌ على الأرض ملتصقةٌ بها على هيئة الساجد ، والحالُ أن أصحابها من الأجرام داخرةٌ منقادةٌ لحكمه تعالى ، ووصفُها بالدخور مغنٍ عن وصف ظلالِها به ، وكلاهما حالٌ من الضمير المشار إليه ، والمعنى ترجع ظلالُ تلك الأجرامِ حالَ كونها منقادةً لله تعالى داخرةً ، فوصفُها بهما مغنٍ عن وصف ظلالِها بهما ، ولعل المرادَ بالموصول الجماداتُ من الجبال والأشجارِ والأحجارِ التي لا يظهر لظلالها أثرٌ سوى التفيّؤِ بما ذُكر من ارتفاع الشمسِ وانحدارِها أو اختلافِ مشارقها ومغاربها ، وأما الحيوانُ فظلُّه يتحرك بتحركه ، وقيل : المرادُ باليمين والشمائل يمينُ

الفَلكِ وهو جانبُه الشرقيُّ لأن الكواكبَ منه تظهر آخذةً في الارتفاع والسطوعِ ، وشمالُه وهو جانبُه الغربيُّ المقابل له فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من الشرق واقعةً على الرُّبع الغربي من الأرض ، وعند الزوالِ تبتدىء من الغرب واقعةً على الربع الشرقي منها ، وبعد ما بُيّن سجودُ الظلالِ وأصحابِها من الأجرام السفلية الثابتة في أخبارها ودخورُها له سبحانه وتعالى شُرع في بيان سجودِ المخلوقات المتحركة بالإرادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ أي له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشيء غيرِه استقلالاً أو اشتراكاً ، فالقصرُ ينتظم القلبَ والإفراد إلا أن الأنسب بحال المخاطبين قصرُ الإفراد كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهَينِ اثنين ﴾ ﴿ مَا فِي السموات ﴾ قاطبة ﴿ وَمَا فِى الأرض ﴾ كائناً ما كان ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ بيانٌ لما في الأرض ، وتقديمُه لقلته ولئلا يقعَ بين المبين والمبين فصلٌ ، والإفرادُ مع أن المرادَ الجمعُ لإفادة وضوحِ شمولِ السجود لكل فرد من الدواب .

قال الأخفش : هو كقولك : " ما أتَانِي من رَجُلٍ مثلِه وما أتاني من الرجال مثلُه " ﴿ والملائكة ﴾ عطف على ما في السموات عطفَ جبريلَ على الملائكة تعظيماً وإجلالاً ، أو على أن يراد بما في السموات الخلْقُ الذي يقال له الروح ، أو يراد به ملائكةُ السموات ، وبقوله : والملائكةُ ملائكةُ الأرض من الحفَظة وغيرِهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الملائكةُ مع علو

شأنهم ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته عز وجل والسجود له ، وتقديمُ الضمير ليس للقصر ، والجملةُ إما حالٌ من ضمير الفاعل في يسجد مسندٌ إلى الملائكة أو استئنافٌ أخبر عنهم بذلك .

﴿ يخافون رَبَّهُمْ ﴾

(113/436)

أي مالكَ أمرِهم وفيه تربيةٌ للمهابة وإشعارٌ بعلة الحكم ﴿ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي يخافونه جل وعلا خوفَ هيبةٍ وإجلالٍ وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أو يخافون أن يرسِل عليهم عذاباً من فوقهم ، والجملةُ حالٌ من الضمير في لا يستكبرون أو بيانٌ له وتقريرٌ لأن من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات ، وإيرادُ الفعل مبنياً للمفعول جرْيٌ على سَنن الجلالة وإيذانٌ بعدم الحاجةِ إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استنادِه إلى غيره سبحانه ، وفيه أن الملائكة مكلّفون مُدارون بين الخوف والرجاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(114/436)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾

هم عند أكثر المفسرين أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه رضي الله تعالى عنهم عن الإيمان ، وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وغيرهما عن مجاهد أنهم نمروذ بن كنعان وقومه ، وعمم بعضهم فقال : هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء عليهم السلام ، وتعقب بأن المراد تحذير أهل مكة عن إصابة مثل ما أصاب الأولين من فنون العذاب المعدودة فالمعول عليه ما عند الأكثر ،

(115/436)

و ﴿ السيآت ﴾ نعت لمصدر محذوف أي مكروا المكرات السيئات التي قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى فعل متعد كعمل أي عملوا السيئات ماكرين فقوله تعالى : ﴿ السيئات أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض ﴾ مفعول لأمن أو ﴿ السيآت ﴾ مفعول لأمن بتقدير مضاف أو تجوز أي عقاب السيئات أو على أن ﴿ السيآت ﴾ بمعنى

العقوبات التي تسوءهم ، و﴿ السيئات أَن يَخْسِفَ ﴾ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أي أنزلنا إليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذي من جملته أنباء الأمم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا في ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئات الخ على توجيه الإنكار إلى المعطوفين أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه إلى المعطوف ، وقيل : هو للعطف على مقدر ينبىء عنه الصلة أي أمركوا فأمن الذين مكروا السيئات الخ ، وخسف يستعمل لازماً ومتعدياً يقال : كما قال الراغب خسفه الله تعالى وخسف هو وكلا الاستعمالين محتمل هنا ، فالباء إما للتعدية أو للملابسة و﴿ الأرض ﴾ إما مفعول به أو نصب بنزع الخافض أي فأمن الذين مكروا السيئات أن يغيبهم الله تعالى في الأرض أو يغيبها بهم كما فعل بقارون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي من الجهة التي لا شعور لهم بمجيء العذاب منها كجهة مأمنهم أو الجهة التي يرجون إتيان ما يشتهون منها ، وقال البيضاوي : أي بغتة من جانب السماء كما فعل بقوم لوط ، وكأن التخصيص بجانب السماء لأن ما يجيء منه لا يشعر به غالباً بخلاف ما يجيء من الأرض فإنه محسوس في الأكثر ، ولعل اعتباره أوفق بالمقابلة ، ويحتمل أن يكون مراده بما من جانب السماء

ما لا يكون على يد مخلوق سواء نشأ من الأرض أو السماء كما قيل :

دعها سماوية تجري على قدر . . .

فيكون مجازاً ، لكن قيل عليه : إنه لا يلائم المثال وإن كان لا يخصص .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ ﴾ أي العذاب أو الله تعالى ورجح الأول بالقرب والثاني بكثرة إسناد الأخذ إليه تعالى في القرآن العظيم مع أنه جل شأنه هو الفاعل الحقيقي له .

﴿ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي حركتهم إقبالاً وإدباراً ، والمراد على ما أخرجه ابن جرير . وغيره عن قتادة ، وروي عن ابن عباس في أسفارهم ، وحمله على ذلك قال الإمام : مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِى البلاد ﴾ [آل عمران : 196] أو المراد في حال ما يتقلبون في قضاء مكرهم والسعي في تنفيذه ، وقيل : المراد في حال تقلبهم على الفرش يميناً وشمالاً ، وهو في معنى ما جاء في رواية عن ابن عباس أيضاً في منامهم ، ولا أراه يصح .

وقال الزجاج : المراد ما يعم سائر حركاتهم في أمورهم ليلاً أو نهاراً والجمهور على الأول والأخذ في الأصل حوز الشيء وتحصيله ، والمراد به القهر والإهلاك ، والجار والمجرور إما في موضع الحال أو متعلق بالفعل قبله والأول أولى نظراً إلى أنه الظاهر في نظيره الآتي إن شاء الله تعالى لكن الظاهر فيما قبله الثاني ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين الله تعالى بالهرب

والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير أو ما هم بممتنعين كما يوهمه مكرهم وتقلبهم فيه ، والفاء قيل : لتعليل الأخذ أو لترتيب عدم الإعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " والجملة الاسمية للدلالة على دوام النفي والتأكيد يعود إليه أيضاً .

(117/436)

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ أي مخافة وحذر من الهلاك والعذاب بأن يهلك قوماً قبلهم أو يحدث حالات يخاف منها غير ذلك كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون ويروى نحوه عن الضحاك ، وهو على ما قال الزمخشري ويقتضيه كلام ابن بحر خلاف قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : 45] . وقال غير واحد من الأجلة : على أن ينقصهم شيئاً فشيئاً في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفته إذا تنقصته ، وروي تفسيره بذلك عن ابن عباس .

ومجاهد .

والضحاك أيضاً .

وذكر الهيثم بن عدي أن التنقص بهذا المعنى لغة أزدشنوءة ، ويروى أن عمر رضي الله

تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون فيها أي الآية والتخوف منها ؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف التنقص فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ فقال : نعم قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تخوف الرحل منها تامكا قردا . . .

كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر رضي الله تعالى عنه : عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ، والجار والمجرور قال أبو البقاء : في موضع الحال من الفاعل أو المفعول في يأخذهم .

وقال الخفاجي : الظاهر أنه حال من المفعول وكأنه أراد على تفسيري التخوف ويتخوف من الجزم به على التفسير الثاني ، والمراد من ذكر هذه المتعاطفات بيان قدرة الله تعالى على إهلاكهم بأي وجه كان لا الحصر ، ثم إن بعضهم اعتبر في التقابل بينهما أن المراد بخسف الأرض بهم إهلاكهم من تحتهم وبإتيان العذاب من حيث لا يشعرون إهلاكهم من فوقهم وحيث قوبلا بإهلاكهم في تقلبهم وأسفارهم كان المعتبر فيهما سكونهم في مساكنهم

وأوطانهم والمقابلة بين أخذهم على تخوف على المعنى الأولى والأخذ بغتة المشعر به من حيث لا يشعرون ظاهرة ، واعتبر عدم الشعور في الأخذ في التقلب والخسف لقرينة الأخذ على تخوف على ذلك المعنى وحمل سائرها على عذاب الاستئصال دون الأخذ على تخوف على المعنى الثاني ومجمل القول في ذلك أنه اعتبر في كل اثنين من الأربعة منع الجمع لكن بعد أن يراد بالعام منهما للمقابلة ما عدا الخاص سواء كان بين الاثنين عموم من وجه أو مطلقاً .

وذكر الإمام ، وابن الخازن في حاصل الآية أنه تعالى خوفهم بخوف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات تأتي قليلاً قليلاً إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم ، وكان الظاهر في الآية أن يقال : أو يعذبهم من حيث لا يشعرون ليناسب ما قبله وما بعده بناءً على أن إسناد الفعل فيهما إليه تعالى وما قبله فقط بناءً على أن إسناد الفعل فيما بعد إلى العذاب مع كونه أخصر مما في النظم الجليل لكنه عدل عنه إلى ذلك لكونه أبلغ في التخويف وأدل على استحقاق العذاب من حيث أن فيه إشعاراً بأن هناك عذاباً موجوداً مهيئاً لا يحتاج إلا إلى الإتيان دون الإحداث وليس في يعذبهم إشعار كذلك على أن ما في "النظم الجليل" أبعد من أن يتوهم فيه معنى غير صحيح كما يتوهم في البدل المفروض حيث يتوهم فيه أنه سبحانه يعذبهم من حيث لا يشعرون بالعذاب وهو كما ترى .

وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن إصابة العذاب فيهما بالأخذ وعن إصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالإتيان وجيء بفي مع التقلب وبعلى مع التخوف قيل: لأن في التقلب حركتين فكان الشخص المتقلب بينهما ولا كذلك التخوف، وقيل: لما كان التقلب شاغلاً الإنسان بسائر جوارحه حتى كأنه محيط به وهو مظروف فيه جيء بفي معه، والتخوف أي المخافة إنما يقوم ببعض من أعضائه فقط وهو القلب المحيط به بدن الإنسان فلذا جيء بعلي معه، وقيل: إن علي بمعنى مع كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [البقرة: 177] أي يأخذهم مصاحبين لذلك ولما كان التخوف نفسه نوعاً من العذاب لما فيه من تألم القلب ومشغولية الذهن وكان الأخذ مشيراً إلى نوع آخر من العذاب أيضاً جيء بعلي التي بمعنى مع ليكون المعنى يعذبهم مع عذابهم ولم يعتبر ذلك مع التقلب مراداً به الإقبال والإدبار في الأسفار والمتاجر مع أنه جاء ﴿ السفر قطعة من العذاب ﴾ لأنهم لا يعدون ذلك عذاباً وفي القلب من هذا شيء فتدبر وتأمل فأسرار كتاب الله تعالى لا تحصى ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ جعله ابن بحر تعليلاً للأخذ على تخوف بناء على أن المراد به أخذهم على حدوث حالات يخاف منها كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل لا بغتة فإن في ذلك امتداد وقت ومهلة يمكن فيها التلافي فكأنه قيل: أو يأخذهم على تخوف ولا يفاجئهم لأنه سبحانه رؤوف رحيم وذلك أنسب

برأفته ورحمته جل وعلا ، وجوز أن يكون تعليلاً لذلك على المعنى الأخير فإن في تنقصهم شيئاً بعد شيء دون أخذهم دفعة إمهالاً في الجملة وهو مطلقاً من آثار الرحمة ، وقيل : هو تعليل لما يفهم من الآية من أنه سبحانه قادر على إهلاكهم بأي وجه كان لكنه تعالى لم يفعل ، وقيل : هو كالتعليل للأمن المستفهم عنه ، والتعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير الخطاب من آثار رحمته جل شأنه .

(120/436)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والرؤية بصرية مؤدية إلى التفكر والضمير للذين مكروا السيئات أي ألم ينظر هؤلاء الماكرون ولم يروا متوجهين ﴿ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ .

وقيل : الضمير للناس الشامل لأولئك وغيرهم والإنكار بالنسبة إليهم .

وقرأ السلمي .

والأعرج .

والإخوان ﴿ أَوَلَمْ تَرَوْا ﴾ بتاء الخطاب جرياً على أسلوب قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ ﴾ [النحل : 47] كما أن الجمهور قرءوا بالياء جرياً على أسلوب قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ

الذين مَكَرُواْ ﴾ [النحل : 45] وذكر الخفاجي وغيره أن قراءة التاء على الالتفات أو تقدير قل أو الخطاب فيها عام للخلق و﴿ مَا ﴾ موصولة مبهمة ، وقوله تعالى : ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ بيان لها لكن باعتبار صفته وهي قوله تعالى : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظلاله ﴾ فهي المبينة في الحقيقة والموصوف توطئة لها وإلا فأي بيان يحصل به نفسه ، والتفيؤ تفعل من فاء يفيء فيئاً إذا رجع وفاء لازم وإذا عدى فبالهمزة أو التضعيف كأفاءه الله تعالى وفيأه فتفيأ وتفيأ مطاوع له لازم ، وقد استعمله أبو تمام متعدياً في قوله من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :

طلبت ربيع ربيعه الممهى لها . . .

وتفيأت ظلاله ممدوداً

ويحتاج ذلك إلى نقل من كلام العرب ، والظلال جمع ظل وهو في قول ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس والفيء ما يكون بالعشي وهو ما انصرفت عنه الشمس وأنشدوا له قول حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن امرأة :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه . . .

ولا الفيء من برد العشي تذوق

ونقل ثعلب عن رؤبة ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل وما لم تكن عليه فهو ظل فالظل أعم من الفيء ، وقيل : هما مترادفان يطلق كل منهما على ما كان قبل الزوال

وعلى خلافه ، وأنشد أبو زيد للنابغة الجعدي :

فسلام الإله يغدو عليهم . . .

وفيوء الفردوس ذات الظلال

(121/436)

والمشهور أن الفيء لا يكون إلا بعد الزوال ، ومن هنا قال الأزهري : إن تفيء الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار ، وقال أبو حيان : إن الاعتبار من أول النهار إلى آخره ، وإضافة الظلال إلى ضمير المفرد لأن مرجعه وإن كان مفرداً في اللفظ لكنه كثير في المعنى ، ونظير ذلك أكثر من أن يحصى ، والمعنى أو لم يروا الأشياء التي ترجع وتتنقل ظلالها ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ والمراد بها الأشياء الكثيفة من الجبال والأشجار وغيرها سواء كان جماد أو إنساناً على ما عليه بعض المفسرين ، وخصها بعضهم بالجمادات التي لا يظهر لظلالها أثر سوي التفيء بواسطة الشمس على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى دون ما يشمل الحيوان الذي يتحرك ظله بتحركه ، وكلا القولين على تقدير كون ﴿ مِنْ ﴾ بيانية كما سمعت ؛ وذهب بعض المحققين إلى العموم لكنه جعل من ابتدائية متعلقة بخلق والمراد بما خلقه من شيء عالم الأجسام المقابل لعالم الروح والأمر الذي لم يخلق من شيء بل وجد بأمر

كن كما قال سبحانه :

﴿ أَلا لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] ، ولا يخفى بعده ، واعترض أيضاً بأن السموات والجن من عالم الأجسام والخلق ولا ظل لها ومقتضى عموم ﴿ مَا ﴾ أنه لا يخلو شيء منها عنه بخلاف ما إذا جعلت من بيانية و ﴿ يتفيؤ ﴾ صفة شيء مخصصة له . ورد بأن جملة ﴿ يتفيؤ ﴾ حينئذ ليست صفة لشيء إذ المراد إثبات ذلك لما خلق من شيء لإله وليس صفة لما لتخالفهما تعريفاً وتنكيراً بل هي مستأنفة لإثبات أن له ظلالاً متفيئة وعموم ﴿ فِى مَا ﴾ لا يوجب أن يكون المعنى لكل منه هذه الصفة .

(122/436)

وتعقب بأنه إن أريد أنه لا يقتضي العموم ظاهراً فممنوع وإن أريد أنه يحتمل فلا يرد رداً لأنه مبني على الظاهر المتبادر ، والمراد باليمين والشمائل على ما قيل جانباً الشيء استعارة من يمين الإنسان وشماله أو مجازاً من إطلاق المقيد على المطلق أي ألم يروا الأشياء التي لها ظلال متفيئة عن جانبي كل واحد منها ترجع من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فإن لها مشارق ومغارب بحسب مداراتها اليومية حال كون تلك الظلال ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ أي منقادة له تعالى جارية على ما أراد من

الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه سبحانه فيما سخرها له وهو المراد بسجودها ، وقد يفسر باللصوق في الأرض أي حال كونها لاصقة بالأرض على هيئة الساجد ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ حال من ضمير ﴿ ظلاله ﴾ الراجع إلى شيء ، والجمع باعتبار المعنى وصح مجيء الحال من المضاف إليه لأنه كالجزء ، وإيراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم فإنه التصاغر والذل ، قال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخر في مخيص . . .

ومنحجر في غير أرضك في حجر

فالكلام على الاستعارة أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب ، ووجه التعبير بهم يعلم مما ذكر ، ويجوز أن يعتبر وجهه أولاً ويجعل ما بعده جارياً على المشاكلة له أي والحال أن أصحاب تلك الظلال ذليلة منقادة لحكمه تعالى ، ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به ، وجوز كون ﴿ سُجَّدًا ﴾ والجملة حالين من الضمير أي ترجع ظلال تلك الأجرام حال كون تلك الأجرام منقادة له تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما .

والمراد بالسجود أيضاً الانقياد سواء كان بالطبع أو بالقسر أو بالإرادة ، فلا يرد على احتمال أن يكون المراد ﴿ بِمَا خَلَقَ ﴾ شاملاً للعقلاء وغيرهم كيف يكون ﴿ سُجَّدًا ﴾ حالاً من ضميره وسجود العقلاء غير سجود غيرهم .

وحاصل ما أشرنا إليه أن ذلك من عموم المجاز ، والأمر على احتمال أن يراد من ذاك الجمادات ظاهر ، وزعم بعضهم أن السجود حقيقة مطلقاً وهو الوقوع على الأرض على قصد العبادة ويستدعي ذلك الحياة والعلم لتقصد العبادة ، وليس بشيء كما لا يخفى ، ثم إن قلنا على هذا الوجه : إن الواو حالية كما أشير إليه فالحالات مترادفتان ، وتعدد الحال جائز عند الجمهور ، ومن لم يجوز جعل الثانية بدل اشتمال أو بدل كل من كل كما فصله السمين ، وإن قلنا : إنها عاطفة فلا تكون الحال مترادفة بل متعاطفة ، وقال أبو البقاء : ﴿ سُجَّدًا ﴾ حال من الظلال ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ حال من الضمير في ﴿ سُجَّدًا ﴾ ويجوز أن يكون حالاً ثانية معطوفة اه ، وفيه القول بالتداخل وهو محتمل على تقدير كون ﴿ سُجَّدًا ﴾ حالاً من ضمير ﴿ ظلاله ﴾ والوجه الأول هو المختار عند الزمخشري ، ورجحه في "الكشف" فقال : إن انقياد الظل وذي الظل مطلوب ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدو والاصال ﴾ [الرعد : 15] فجاعلهما حالاً من الضمير في ﴿ ظلاله ﴾ مقصر ، وفيه تكميل حسن لما وصف الظلال بالسجود وصف أصحابها بالدخور الذي هو أبلغ لأنه انقياد قهري مع صفة المنقاد ، ولم يجعل حالاً من الراجع إلى الموصول في ﴿ خَلَقَ الله ﴾ إذ المعنى على تصوير سجود الظل وذيه وتقارنهما في الوجود لا على مقارنة الخلق والدخور ، والعامل في الحال الثاني ﴿ يتفيؤ ﴾ على ما قال ابن مالك

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبراهيم حَنِيفًا ﴾ [البقرة : 135] اه ، ومنه يعلم ما في إعراب أبي البقاء .

نعم أن في هذا الوجه بعداً لفظياً والأمر فيه هين ، وأما جعل ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ ﴿ وانشق القمر وَإِن يَرَوْا ﴾ فمما لا يصح بحال كما لا يخفى .

هذا وذكر الإمام في اليمين والشمال قولين غير ما تقدم .

(124/436)

الأول : أن المراد بهما المشرق والمغرب تشبيهاً لهما بيمين الإنسان وشماله فإن الحركة اليومية آخذة من المشرق وهوى أقوى الجانبين فهو اليمين والجانب الآخر الشمال فالظلال في أول النهار تبتدىء من الشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقي منها .

والثاني : يمين البلد وشماله ، وذلك أن البلدة التي يكون عرضها أقل من مقدار الميل الكلي وهو "كجل يز أو كحله" على اختلاف الارصاد فإن في الصيف تحصل الشمس على يمين تلك البلدة وحينئذ تقع الإظلال على يسارها وفي الشتاء بالعكس ، ولا يخفى ما في الثاني فإنه مختص بقطر مخصوص والكلام ظاهر في العموم ، وقيل : المراد باليمين والشمال يمين

مستقبل الجنوب وشماله ، و﴿ عَنْ ﴾ كما قال الحوفي متعلقة ﴿ بيتفيؤ ﴾ وقال أبو البقاء : متعلقة بمحذوف وقع حالاً ، وقيل : هي اسم بمعنى جانب فتكون في موضع نصب على الظرفية ، ولهم في توحيد ﴿ عَنِ اليمين ﴾ وجمع ﴿ الشمائل ﴾ وهو جمع غير قياسي كلام طويل .

(125/436)

فقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ المفرد كقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] و﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] وقيل : إذا فسرنا اليمين بالمشرق كان النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة ، وأما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الاظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة فلذلك عبر عنها بصيغة الجمع ، وقيل : اليمين مفرد لفظاً لكنه جمع معنى فيطابق الشمائل من حيث المعنى ، وقال الفراء : إنه يحتمل أن يكون مفرداً وجمعاً فإن كان مفرداً ذهب إلى واحد من ذوات الظلال وإن جان جمعاً ذهب إلى كلها لأن ما خلق الله لفظه واحد ومعناه الجمع ، وقال الكرماني : يحتمل أن يراد بالشمائل الشمال والقدام والخلف لأن الظل يفيء من الجهات كلها فبدأ باليمين لأن ابتداء

التفيء منها أو تيمناً بذكرها ، ثم جمع الباقي على لفظ الشمال لما بين الشمال واليمين من التضاد ، ونزل الخلف والقدام منزلة الشمال لما بينهما وبين اليمين من الخلاف ، وهو قريب من الأول .

(126/436)

وتعقب بأن فيه جمع اللفظ باعتبار حقيقته ومجازه وفي صحته مقال ، وقيل : المراد باليمين يمين الواقف مستقبل المشرق ويسمى الجنوب وبالشمال شماله فكأنه قيل : يتفيؤ ظلاله عن الجنوب إلى الشمال وعن الشمال إلى الجنوب ولما كان غالب المعمورة شمالي وظلالها كذلك جمع الشمال ولم يجمع اليمين ، وهو كما ترى ، ونقل أبو حيان عن أستاذه الحسن علي بن الصائغ أنه أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين لأن ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى مه إلا اليسير فكأنه في جهة واحدة ، وهو في العشي على العكس لاستيلائه على جميع الجهات فلحظت الغايتان ، هذا من جهة المعنى وأما منجهة اللفظ فجمع الثاني ليطابق ﴿ سُجَّدًا ﴾ المجاور له شمالاً كما أفرد الأول ليطابق ضمير ﴿ ظلاله ﴾ المجاور له يميناً ، ولا يخفى ما في التقديم والتأخير من حسن رعاية الأصل والفرع أيضاً ، فحصل في الآية مطلقة اللفظ للمعنى وملاحظتهما معاً وتلك الغاية في الإعجاز ، ويخطر لي وجه آخر في الأفراد والجمع

مبني على أن المراد باليمين جهة المشرق وبالشمال جهة المغرب ، وهو أنه لما كانت الجهة الأولى مطلع النور والجهة الثانية مغربه ومظهر الظلمة أفرد ما يدل على الجهة الأولى كما أفرد ﴿ النور ﴾ في كل القرآن ، وجمع يدل على الجهة الثانية كما جمع الظلمة كذلك وإفراد النور وجمع الظلمة تقدم الكلام فيهما ، وقد يقال : إن جمع الظلال مع إفراد ما قبله وما بعده لأن الظل ظلمة حاصلة من حجب الكثيف الشمس مثلاً عن أن يقع ضوؤها على ما يقابله فجمعت الظلال كما جمعت الظلمات ، ولا يعكر على هذا أنه جمعت المشارق في القرآن كالمغارب إذ كثيراً ما يرتكب أمر لنكتة في مقام ولا يرتكب لها في مقام آخر ، وآخر أيضاً وهو أنه لما كان اليمين عبارة عن جهة المشرق وهو مبدأ الظل وحده مناسبته لتوحيد المبدأ الحقيقي وهو الله تعالى ولا كذلك جهة المغرب ، ولايناسب رعاية نحو هذا في الشمال كما يرشدك إلى ذلك و﴿ كِلْتَا يَدَيْهِ

يَمِينٌ ﴾ ويعين على ملاحظة المبدئية نسبة الخلق إليه تعالى ، وآخر أيضاً وهو أن الظل الجائي من جهة المشرق لا يتعلق به أمر شرعي والجائي من جهة المغرب يتعلق به ذلك ، فإن صلاة الظهر يدخل وقتها بأول حدوثه من تلك الجهة بزوال الشمس عن وسط الماء ،

ووقت العصر بصيرورته مثل الشاخص أو مثليه بعد ظل الزوال إن كان كما في الآفاق المائلة ، ووقت المغرب بشموله البسيطة بغروب الشمس ، وما ألطف وقوع ﴿ سُجَّدًا ﴾ بعد ﴿ الشمائل ﴾ على هذا ؛ وآخر أيضاً وهو أوفق بباب الإشارة وسيأتي فيه إن شاء الله تعالى الفتاح ، وبعد لمسلك الذهن اتساع فتأمل فلعل ما ذكرته لا يرضيك .

وقد بين الإمام أن اختلاف الظلال دليل على كونها منقادة لله تعالى خاضعة لتقديره وتدبيره سبحانه ، ثم قال : فإن قيل لم لا يجوز أن يقال اختلافها معلل باختلاف الشمس ؟ قلنا : قد دللنا على أن الجسم لا يكون متحركاً لذاته فلا بد أن يكون تحركه من غيره ولا بد من الاستناد بالآخرة إلى واجب الوجود جل شأنه فيرجع أمر اختلاف الظلال إليه تعالى على هذا التقدير .

وأنت تعلم أنه لا ينبغي أن يتردد في أن السبب الظاهري للظلال هو الشمس ونحوها وكثافة الشاخص ، نعم في كون ذلك مستنداً إليه تعالى في الحقيقة ابتداء أو بالواسطة خلاف ، ومذهب السلف غير خفي عليك فقد أشرنا إليه غير مرة فتذكره إن لم يكن على ذكر منك ، ثم الظاهر أن المراد بالظلال الظلال المبسوطة وتسمى المستوية ، ويجوز أن يراد بها ما يشمل الظلال المعكوسة فإنها أيضاً تتفيؤ عن اليمين والشمائل فاعرف ذلك ولا تغفل ، وقرأ أبو عمرو .

وعيسى .

ويعقوب ﴿ تتفيؤ ﴾ بالتاء على التأنيث ، وأمر التأنيث والتذكير في الفعل المسند لمثل الجمع المذكور ظاهر .

(128/436)

وقرأ عيسى ﴿ يَتَفَيَّأُ ظلاله ﴾ وهو جمع ظلة كحلة وحلل ؛ قال "صاحب اللوامح" : الظلة بالضم الغيم وأما بالكسر فهو الفيء والأول جسم والثاني عرض ، فرأى عيسى أن التفيؤ الذي هو الرجوع بالأجسام أولى ، وأما في العامة فعلى الاستعارة اه ، ويلوح منه القول بالقراءة بالرأي ، ومن الناس من فر الظلال في قراءة العامة بالأشخاص لتكون على نحو قراءة عيسى ، وأنشدوا لاستعمال الظلال في ذلك قول عبدة :

إذا نزلنا نصبنا ظل أخبية . . .

وفار للقوم باللحم المراجيل

فإنه إنما تنصب الأخبية لا الظل الذي هو الفيء ، وقول الآخر :

يتبع أفياء الظلال عشية . . .

فإنه أراد أفياء الأشخاص .

وتعقب ذلك الراغب بأنه لا حجة فيما ذكر فإن قوله : رفعنا ظل أخبية معناه رفعنا

الأخبية فرفعنا بها ظلها فكأنه رفع الظل، وقوله: أفياء الظلال فالظلام فيه عام والفيء خاص والإضافة من إضافة الشيء إلى جنسه، وقال بعضهم: المراد من الظلة في قراءة عيسى الظل الذي يشبه الظلة، والمراد بها شيء كهيئة الصفة في الانتفاع به وقيل: الكلام في تلك القراءة على حذف مضاف أي ظلال ظلله، وتفسير الظلة بما هو كهيئة الصفة، والمتبادر من الظل حينئذ الظل المعكوس.

ثم إنه تعالى بعد أن ذكر ما ذكر أردفه بما يفيده تأكيداً مع زيادة سجود ما لا ظل له فقال سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

(129/436)

أو أنه سبحانه بعد ما بين سجود الظلال وذويها من الأجرام السفلية الثابتة في إحيازها ودخورها له سبحانه شرع في شأن سجود المخلوقات المتحركة بالإرادة سواء كانت لها ظلال أم لا؟ فقال عز من قائل ما قال، والمراد بالسجود على ما ذكره غير واحد الانقياد سواء كان انقياداً لإرادته تعالى وتأثيره طبعاً أو انقياداً لتكليفه وأمره طوعاً ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض من غير جمع بين الحقيقة والمجاز ولكون الآية آية سجدة لا

بد من دلالتها على السجود المتعارف ولو ضمنا ، والاسم الجليل متعلق بيسجد والتقديم لإفادة القصر وهو ينتظم القلب والإفراد إلا أن الأنسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَينِ اثنينِ ﴾ [النحل : 51] أي له تعالى وحده ينقاد ويخضع جميع ما في السموات وما في الأرض ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ بيان لما فيهما بناء على أن الذبيب هو الحركة الجسمانية سواء كان في أرض أو سماء ، والملائكة أجسام لطيفة غير مجردة وتقييد الذبيب بكونه على وجه الأرض لظهوره أو لأنه أصل معناه وهو عام هنا بقرينة المبين ، وقوله سبحانه : ﴿ والملائكة ﴾ عطف على محل الدابة المبين به وهو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف لأن ﴿ مِنْ ﴾ البيانية لا تكون ظرفاً لغواً وهو من عطف الخاص على العام إفادة لعظم شأن الملائكة عليهم السلام ، وجوز أن يكون من عطف المباين بناء على أن يراد بما في السموات الجسمانية ويلتزم القول بتجرد الملائكة عليهم السلام فلا يدخلون فيما في السموات لأن المجردات ليست في حيز وجهة وبعضهم استدل بالآية على تجرد الملائكة بناء على أن ما في السموات وما في الأرض بين أحدهما بالدابة والآخر بالملائكة والأصل في التقابل التغاير ، والدابة المتحركة حركة جسمانية فلا يكون مقابلها من الأجسام لأن الجسم لا بد فيه من حركة جسمانية ، ولا يخفى أنه دليل اقناعي إذ يحتمل كونه تخصيصاً بعد تعميم

كما سمعت آنفاً أو هو بيان لما في الأرض ، والدابة اسم لما يدب على الأرض و ﴿ الملائكة ﴾ عطف على ما في السموات وهو تكرير له وتعيين إجلالاً وتعظيماً ، وذكر غير واحد أنه من عطف الخاص على العام لذلك أيضاً ، وجوز أن يراد بما في السموات الخلق الذين يقال لهم الروح ويلتزم القول بأنهم غير الملائكة عليهم السلام فكيون من عطف المباين أو هما بيان لما في الأرض ، والمراد بالملائكة عليهم السلام ملائكة يكونون فيها كالحفظة والكرام الكاتبين ولايراد بالدابة ما يشملهم ، و﴿ مَا ﴾ إذا قلنا : إنها مختصة بغير العقلاء كما يشهد له خبر ابن الزبعري فاستعمالها هنا في العقلاء وغيرهم للتغليب ، وأما إن قلنا أن وضعها لأن تستعمل في غير العقلاء وفيما يعم العقلاء وغيرهم كالشبح المرئي الذي لا يعرف أنه عاقل أو لا فإنه يطلق عليه ما حقيقة فالأمر على ما قيل غير محتاج إلى تغليب ، وفي "أنوار التنزيل" أن ﴿ مَا ﴾ استعمل للعقلاء كما استعمل لغيرهم كان استعماله حيث اجتمع القبيلان أولى من إطلاق من تغليبا ، وفي "الكشاف" أنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم وهو جواب عن سبب اختيار ما على من ، وحاصله على ما في "الكشف" أن من للعقلاء والتغليب مجاز فلو جيء بغير قرينة تعين الحقيقة والمقام يقتضي التعميم فجيء بما يعم وهو ما وأراد أن لا دليل في اللفظ ، وقرينة العموم في السابق لا تكفي لجواز تخصيصهم

من البين بعد التعميم على أن اقتضاء المقام العموم وما في التغليب من الخصوص كاف في العدول انتهى .

وقيل بناء على أن ما مختصه بغير العقلاء ومن مختصة بالعقلاء : إن الإتيان بما وارتكاب التغليب أوفق بتعظيم الله تعالى من الإتيان بمن وارتكاب ذلك فليفهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الملائكة علو شأنهم ﴿ لاَيَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته تعالى شأنه والسجود له ، وتقدير الضمير ليس للقصر ، والسين ليست للطلب وقيل : له على معنى لا يطلبون ذلك فضلاً عن فعله والاتصاف به .

وإذا قلنا : إن صيغة المضارع لاستمرار التجددي فالمراد استمرار النفي .

والجملة إما حال من فاعل ﴿ يَسْجُدُ ﴾ مسنداً إلى الملائكة أو استئناف للأخبار عنهم بذلك ، وإنما لم يجعل الضمير لما لاختصاصه بأولى العلم وليس المقام التغليب ، وخالف في ذلك بعضهم فجعله لها وكذا الضمير في قوله سبحانه : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ ﴾ وممن صرح بعود الضمير فيه على ﴿ مَا ﴾ أبو سليمان الدمشقي ، وقال أبو حيان : أنه الظاهر ، وذهب ابن السائب ومقاتل إلى ما قلنا أي يخافون مالك أمرهم .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ وممن صرح بعود الضمير فيه على ﴿ ما ﴾ [النحل : 49] أبو سليمان الدمشقي ، وقال أبو حيان : إنه الظاهر ، وذهب ابن السائب ومقاتل إلى ما قلنا أي يخافون مالك أمرهم .

﴿ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ إما متعلق بيخافون وخوف ربهم كناية عن خوف عذابه أو الكلام على تقدير مضاف هو العذاب على ما هو الظاهر أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿ رَّبُّهُمْ ﴾ أي كائناً من فوقهم ، ومعنى كونه سبحانه فوقهم قهره وغلبته لأن الفوقية المكانية مستحيلة بالنسبة إليه تعالى ، ومذهب السلف قد أسلفناه لك وأظنه على طكر منك .

(132/436)

والجملة حال من الضمير في ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : 49] وجوز أن تكون بياناً لنفي الاستكبار وتقريراً له لأن من خاف الله تعالى لم يستكبر عن عبادته ، واختاره ابن المنير وقال : إنه الوجه ليس إلا لئلا يتقيد الاستكبار وليدل على ثبوت هذه الصفة أيضاً على الإطلاق ، ولا بد أن يقال على تقدير الحالية : أنها حال غير منتقلة وقد جاءت في الفصيح بل في أفصحه على الصحيح ، وفي اختيار عنوان الربوبية تربية للمهابة وإشعار بعلة الحكم .

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وإيراد الفعل مبيناً للمفهول جرى على سنن الجلالة وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه ، واستدل بالآية على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء ، أما دلالتها على التكليف فلمكان الأمر ، وأما على الخوف فهو أظهر من أن يخفى ، وأما على الرجاء فلاستلزام الخوف له على ما قيل ، وقيل : إن اتصافهم بالرجاء لأن من خدم أكرم الأكرمين كان من الرجاء بمكان مكين ، وزعم بعضهم أن خوفهم ليس إلا خوف إجلال ومهابة لا خوف وعيد وعذاب ، ويرده قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إله مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 28 ، 29] ولا ينافي ذلك عصمتهم ، وقال الإمام : الأصح أن ذلك الخوف خوف الإجلال ، وذكر أنه نقل عن ابن عباس واستدل له بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] وفي القلب منه شيء ، والحق أن الآية لا تصلح دليلاً لكون الملائكة أفضل من البشر .

واستدل بها فرقة على ذلك من أربعة أوجه ذكرها الإمام ولم يتعقبها بشيء لأنه ممن يقول بهذه الأفضلية ، وموضع تحقيق ذلك كتب الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) ﴾

قد تقدّم تحقيق معنى الهجرة في سورة النساء ، وهي ترك الأهل والأوطان ، ومعنى ﴿ هاجروا فِى الله ﴾ في شأن الله سبحانه وفي رضاه .

وقيل : ﴿ فِى الله ﴾ في دين الله .

وقيل : في بمعنى اللام أي : لله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أي : عذبوا وأهينوا ، فإن أهل مكة عذبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم ، فلما تركوهم هاجروا .

وقد اختلف في سبب نزول الآية ، فقيل : نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار .

واعترض بأن السورة مكية ، وذلك يخالف قوله : ﴿ والذين هاجروا ﴾ .

وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدّمنا في عنوانها ، وقيل : نزلت في أبي جندل بن سهيل ، وقيل : نزلت في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة .

﴿ لَنُبَوّئَنَّهُمْ فِى الدنيا حَسَنَة ﴾ اختلف في معنى هذا على أقوال .

فقيل : المراد : نزولهم المدينة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والشعبي ، وقتادة .

وقيل : المراد : الرزق الحسن ، قاله مجاهد .

وقيل : النصر على عدّوهم قاله الضحاك .

وقيل : ما استولوا عليه من فتوح البلاد ، وصار لهم فيها من الولايات .

وقيل : ما بقي لهم فيها من الثناء ، وصار لأولادهم من الشرف .

ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور .

ومعنى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدنيا حَسَنَة ﴾ لنبوئنهم مباءة حسنة ، أو تبوئة حسنة ، فحسنة صفة مصدر محذوف ﴿ وَلأَجْرُ الآخرة ﴾ أي : جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿ أَكْبَرَ ﴾ من أن يعلمه أحد من خلق الله قبل أن يشاهده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] .

(134/436)

﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك .

وقيل : إن الضمير في ﴿ يعلمون ﴾ راجع إلى المؤمنين ، أي : لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا .

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ الموصول في محل نصب على المدح ، أو الرفع على تقدير مبتدأ ، أو هو

بدل من الموصول الأوّل ، أو من الضمير في ﴿ لنبوئنهم ﴾ ، ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : على ربهم خاصة يتوكلون في جميع أمورهم معرضين عما سواه ، والجملة معطوفة على الصلة أو في محل نصب على الحال .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ .

قرأ حفص عن عاصم ﴿ نوحي ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون "يوحي" بالياء التحتية ، وهذه الآية ردّ على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجلّ من أن يرسل رسولاً من البشر ، فردّ الله عليهم بأن هذه عادته وسنّته أن لا يرسل إلاّ رجالاً من البشر يوحي إليهم .

وزعم أبو عليّ الجبائي أن معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلاّ من هو على صورة الرجال من الملائكة .

ويردّ عليه بأن جبريل كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على صور مختلفة .

ولما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود والنصارى هم أهل لعلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، صرف الخطاب إليهم ، وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب ، فقال : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : فاسألوا أيها المشركون مؤمن أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون ، فإنهم سيخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً ، أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر ، فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه .

وقيل : المعنى : فاسألوا أهل القرآن .

و ﴿ بالبينات والزبر ﴾ يتعلق ب ﴿ أرسلنا ﴾ ، فيكون داخلاً في حكم الاستثناء مع ﴿ رجالاً ﴾ ، وأنكر الفراء ذلك ، وقال : إن صفة ما قبل "إلاّ" لا تتأخر إلا ما بعدها ، لأن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل : "إلاّ" مع صلته ، كما لو قيل [ما] أرسلنا إلاّ رجالاً بالبينات ، فلما لم يصر هذا المجموع مذكوراً بتمامه ، امتنع إدخال الاستثناء عليه .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلاّ رجالاً .

وقيل : يتعلق بمحذوف دلّ عليه المذكور ، أي : أرسلناهم بالبينات والزبر ، ويكون جواباً عن سؤال مقدّر كأنه قيل : لماذا أرسلهم ؟ فقال : أرسلناهم بالبينات والزبر .

وقيل : متعلق ب ﴿ تعلمون ﴾ على أنه مفعوله .

والباء زائدة ، أي : إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر ؛ وقيل : متعلق ب ﴿ رجالاً ﴾ أي : رجالاً متلبسين بالبينات والزبر .

وقيل : ب ﴿ نوحى ﴾ أي : نوحي إليهم بالبينات والزبر .

وقيل : منصوب بتقدير أعني ، والباء زائدة ، وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدّم .

وقال الزجاج : اسألوا كل من يذكر بعلم ، والبينات : الحجج والبراهين ، والزبر : الكتب .

وقد تقدّم الكلام على هذا في "آل عمران" ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ أي القرآن .

ثم بين الغاية المطلوبة من الإنزال ، فقال : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ جميعاً ﴿ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في هذا الذكر من الأحكام الشرعية ، والوعد والوعيد ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيتعظوا .

﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ السيئات ﴾ صفة مصدر محذوف أي : مكروا المكرات السيئات ، وأن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل ، أي : عملوا السيئات ، أو صفة لمفعول مقدّر ، أي : أفأمن الماكرون العقوبات السيئات .

(136/436)

أو على حذف حرف الجرّ ، أي : مكروا بالسيئات ﴿ أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض ﴾ هو مفعول "أمن" ، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف ، وأن السيئات صفة للمحذوف ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

ومكر السيئات وسعيهم في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذاء أصحابه على

وجه الخفية ، واحتيالهم في إبطال الإسلام ، وكيد أهله ﴿ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ ﴾ كما خسف بقارون .

يقال : خسف المكان يخسف خسوفاً ، ذهب في الأرض ، وخسف الله به الأرض خسوفاً أي : غاب به فيها ، ومنه قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص : 81] وخسف هو في الأرض ، وخسف به ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ به في حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط وغيرهم .

وقيل : يريد يوم بدر ، فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن في حسبانهم .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ .

ذكر المفسرون فيه وجوهاً ، فقيل : المراد : في أسفارهم ومتاجرهم ، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر ، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض ، وبعدهم عن الأوطان .

وقيل : المراد : في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجود الحيل .

فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم .

وقيل : في حال تقلبهم في الليل على فرشهم .

وقيل : في حال إقبالهم وإدبارهم ، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار .

والقلب بالمعنى الأوّل مأخوذ من قوله : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِى البلاد ﴾ [آل

عمران : 196] .

وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله : ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور ﴾ [التوبة : 48] .

﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : بفائتين ولا ممتنعين .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ أي : حال تخوّف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب ، حذرين منه غير غافلين عنه ، فهو خلاف ما تقدم من قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ ، وقيل : معنى ﴿ على تَخَوُّفٍ ﴾ على تنقص .

قال ابن الأعرابي : أي على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم .

قال الواحدي : قال عامة المفسرين : ﴿ على تخوّف ﴾ قال : تنقص ، إما بقتل أو بموت ، يعني : بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأول فالأوّل حتى يأتي الأخذ على جميعهم .

قال : والتخوّف : التنقص ، يقال : هو يتخوف المال ، أي : يتنقصه ، ويأخذ من أطرافه ، انتهى .

يقال : تخوّفه الدهر وتخونه بالفاء والنون : تنقصه ، قال ذو الرّمة :

لا بل هو الشوق من دار تخوّفها . . . مرا سحاب ومرا بارح ترب

وقال لبيد :

تخوّفها نزولي وارتحالي . . . أي : تنقص لحمها وشحمها

قال الهيثم بن عديّ : التخوّف بالفاء : التنقص .

لغة لأزد شنودة .

وأنشد :

تخوف عدوهم مالي وأهدي . . . سلاسل في الحلوق لها صليل

وقيل : ﴿ على تخوّف ﴾ على عجل ، قاله الليث بن سعد ، وقيل : على تقريع بما قدّموه من ذنوبهم ، روي ذلك عن ابن عباس ، وقيل : ﴿ على تخوّف ﴾ أن يعاقب ويتجاوز ، قاله قتادة : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ لا يعاجل ، بل يمهل رأفة بكم ورحمة لكم مع استحقاقهم للعقوبة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ لما خوّف سبحانه الماكرين بما خوّف ، أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي ومكانهما ، والاستفهام في ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ للإنكار ، و " ما " مبهمة مفسرة بقوله : ﴿ من شيء ﴾ ، قرأ حمزة ،

والكسائي ، وخلف ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش " تروا " بالمثناة الفوقية ، على أنه خطاب لجميع الناس ، وقرأ الباقون بالتحتية بإرجاع الضمير إلى ﴿ الذين مكروا السيئات ﴾ ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (تتفيؤا ظلاله) بالمثناة الفوقية .

وقرأ الباقون بالتحتية ، واختارها أبو عبيد ، أي يميل من جانب إلى جانب ، ويكون أوّل النهار على حال ويتقلص ، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى .

قال الأزهري : تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار ، فالتفيؤ لا يكون إلاّ بالعشيّ ، وما انصرف عنه الشمس والقمر ، والذي يكون بالغداة هو الظلّ .

وقال ثعلب : أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظلّ .

ومعنى ﴿ مِن شَىْء ﴾ من شيء له ظلّ ، وهي الأجسام ، فهو عام أريد به الخاص .

و﴿ ظلاله ﴾ جمع ظلّ ، وهو مضاف إلى مفرد لأنه واحد يراد به الكثرة .

﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ أي : عن جهة أيمانها وشمائلها ، أي : عن جانبي كل واحد منها .

قال الفراء : وحد اليمين ؛ لأنه أراد واحداً من ذوات الأظلال ، وجمع الشمائل ؛ لأنه أراد كلها ، لأن ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جمع .

وقال الواحدي : وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازاً في اللفظ كقوله : ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] ، ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع .

(139/436)

وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع ، عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] ، و ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] ، وقيل : المراد باليمين : النقطة التي هي مشرق الشمس ، وأنها واحدة .

والشمائل : عبارة عن الانحراف في فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض ، وهي كثيرة .

وإنما عبر عن المشرق باليمين ؛ لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه ، ومنه تظهر الحركة القوية .

﴿ سُجَّداً لِلَّهِ ﴾ منتصب على الحال ، أي : حال كون الظلال سجداً لله .

قال الزجاج : يعني : أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة ، وقال أيضاً : سجود الجسم : انقياده وما يرى من أثر الصنعة ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : خاضعون صاغرون ، والدخور : الصغار والذلّ ، يقال : دخر الرجل ، فهو داخر ، وأدخره الله .

قال الشاعر :

فلم يبق إلا داخر في مخيس . . . ومنجحر في غير أرضك في حجر

ومخيس : اسم سجن كان بالعراق ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض مَن دَآبَّةٍ ﴾ أي : له وحده يخضع وينقاد ، لا لغيره ما في السموات جميعاً ، ﴿ وما في الأرض من دابة ﴾ تدبّ على الأرض .

والمراد به كل دابة .

قال الأخفش : هو كقولك ما أتاني من رجل مثله ، وما أتاني من الرجال مثله .

وقد دخل في عموم ما في السموات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما ، وإنما خصّ الدابة بالذكر ، لأنه قد علم من قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَىْء ﴾ انقياد الجمادات ، وعطف الملائكة على ما قبلهم ، تشريفاً لهم ، وتعظيماً لدخولهم في المعطوف عليه ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم ، والمراد : الملائكة .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة .

وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله .

ويجوز أن تكون حالاً من فاعل ﴿ يسجد ﴾ ، و " ما " عطف عليه ، أي : يسجد لله ما في السموات وما في الأرض ، والملائكة ، وهم جميعاً لا يستكبرون عن السجود .

﴿ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال ، أي : حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم .

أو جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم ، ومن آثار الخوف عدم الاستكبار ، و ﴿ من فوقهم ﴾ متعلق ب ﴿ يخافون ﴾ على حذف مضاف ، أي : يخافون عذاب ربهم من فوقهم ، أو يكون حالاً من الربّ ، أي : يخافون ربهم حال كونه من فوقهم .

وقيل : معنى ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ يخافون الملائكة ، فيكون على حذف المضاف ، أي يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم .

وهو تكلف لا حاجة إليه ، وإنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت في الأذهان ، وتقرّرت في القلوب .

قيل : وهذه المخافة هي مخافة الإجلال ، واختاره الزجاج فقال : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ ﴾ خوف مجلين .

ويدلّ على صحة هذا المعنى قوله : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : 18] .

وقوله إخباراً عن فرعون ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون ﴾ [الأعراف : 127] .

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي : ما يؤمرون به من طاعة الله يعني : الملائكة ، أو جميع من

تقدّم ذكره ، وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى ؛ لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ، ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به ، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وإبليس وجنوده .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين هاجروا فِى الله مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ قال : هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ظلمهم .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن داود بن أبي هند قال : نزلت هذه الآية في أبي جندل بن سهيل .

(141/436)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ والذين هاجروا فِى الله ﴾ الآية قال : هؤلاء أصحاب محمد ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك ، فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين ﴿ وَلأَجْرُ الأخرة أَكْبَرُ ﴾ قال : أي والله لما يصيبهم الله من جنته ونعمته أكبر ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي في قوله: ﴿ فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ قال: المدينة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: لنرزقنهم في الدنيا رزقاً حسناً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: "لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك، فأنزل الله ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ ".

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ الآية، يعني: مشركي قريش، أن محمداً رسول الله في التوراة والإنجيل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من أهل التوراة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ بالبينات ﴾ قال: الآيات.

﴿ والزبر ﴾ قال: الكتب.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾ قال: نمروذ بن كنعان وقومه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: أي الشرك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: تكذيبهم الرسل، وإعمالهم بالمعاصي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ قال: في اختلافهم.

(142/436)

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ قال: إن شئت أخذته في سفره ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ يقول: على أثر موت صاحبه.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ على تَخَوُّفٍ ﴾ قال: تنقص من أعمالهم.

وأخرج ابن جرير عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ فقالوا: ما نرى إلاّ أنه عند تنقص ما يردّده من الآيات.

فقال: عمر ما أرى إلا أنه على ما ينقصون من معاصي الله، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقي أعرابياً، فقال يا فلان: ما فعل ربك؟ قال: قد تخيفته، يعني انتقصته، فرجع إلى عمر فأخبره، فقال: قد رأيته ذلك.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على

تَخَوُّفٍ ﴾ قال : يأخذهم بنقص بعضهم بعضاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يتفيؤ ﴾ قال : يتميل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ قال : صاغرون .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ الآية قال : لم يدع شيئاً من خلقه إلاّ عبده له طائعاً أو كارهاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية ، قال : يسجد من في السموات طوعاً ، ومن في الأرض طوعاً وكرهاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(143/436)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) ﴾

أنكر الله جل وعلا على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي ، ومعذلك يأمنون عذاب الله ولا يخافون أخذه الأليم ، وبطشه الشديد ، وهو قادر على أن يخسف بهم

الأرض، ويهلكهم بأنواع العذب. الخسف: بلع الأرض المخسوف به وقعودها به إلى أسفل. كما فعل الله بقارون، قال الله تعالى فيه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ [القصص: 81] الآية. وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة. كقوله: ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السمآء ﴾ [الملك: 16-17] الآية، وقوله: ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 68] وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف: 99] وقد قدمنا طرفاً من هذه في أول " سورة الأعراف ".

واختلف العلماء في إعراب " السيئات " في هذه الآية الكريمة. فقال بعض العلماء: نعت لمصدر محذوف. أي مكروا المكرات السيئات، أي القبيحات قبحاً شديداً. كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: 30] الآية. وقال بعض العلماء: مفعول به ل ﴿ مكروا ﴾ على تضمين ﴿ مكروا ﴾ معنى فعلوا. وهذا أقرب أوجه الإعراب عندي. وقيلك مفعول به ل ﴿ أمن ﴾ أي أأمن الماكرون السيئات: أي العقوبات الشديدة التي تسوءهم عند نزولها بهم. ذكر الوجه الأول الزمخشري، والأخيرين ابن عطية. وذكر الجميع أبو حيان في " البحر المحيط ".

تنبيه

كل ما جاء في القرىن من همزة استفهام بعدها واو العطف أو فاؤه . كقوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ [الزخرف : 5] ، ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [سبأ : 9] ، ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُم ﴾ [الجاثية : 31] الخ ، فيه وجهان معروفان عند العلماء العربية : أحدهما – أن الفاء والواو كلتاهما عاطفة ما بعدها على محذوف دل المقام عليه . كقولك مثلاً : أنهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً ؟ أعموا فلم يروا إلى ما بين أيديهم ؟ ! ألم تأتكم آياتي فلم تكن تتلى عليكم ؟ ! وهكذا – وإلى هذا الوجه أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله :

وحذف متبوع بد هنا استبح . . . وعَطفك الفعل عَلى الفعل يصح

ومحل الشّاهد في الشطر الأول دون الثاني .

الوجه الثاني – أن الفاء والواو كلتاهما عاطفة للجملة المصدرة بهمزة الاستفهام على ما قبلها . إلا أن همزة الاستفهام تزحلقت عن محلها فتقدمت على الفاء والواو ، وهي متأخرة عنهما في المعنى ، وإ ، ما تقدمت لفظاً عن محلها معنى لأن الاستفهام له صدر الكلام .

فبهذا تعلم : أن في قوله تعالى في هذه الآية التي هي قوله : ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات

﴾ الآية – الوجهين المذكورين. فعلى الأول – فالمعنى جهل الذين مكروا السيئات وعيد الله بالعقاب؟ أفأمن الذين مكروا السيئات الخ. وعلى الثاني – فالمعنى فأأمن الذين كفروا السيئات. فالفاء عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام. والأول هو الأظهر. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ الآية.

تقدم بيان هذه الآية وأمثالها من الآيات في "سورة الرعد". انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(145/436)

وقال ابن عاشور:

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) ﴾

بعد أن ذُكرت مساويهم ومكائدهم وبعد تهديدهم بعذاب يوم البعث تصريحاً وبعذاب الدنيا تعريضاً، فُرِّع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في المعاندة غير مقدّرين أن يقع ما يهدّدهم به الله على لسان رسوله صلى

الله عليه وسلم فلا يقلعون عن تدبير المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم فكانت حالهم في استرسالهم كحال من هم آمنون بأس الله.

فالاستفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالتوبيخ.

و﴿ الذين مكروا ﴾: هم المشركون.

والمكر تقدم في قوله تعالى: ﴿ قد مكر الذين من قبلهم في هذه السورة.

وقوله تعالى: السيئات ﴾ صفة لمصدر ﴿ مكروا ﴾ محذوفاً يقدّر مناسباً لتأنيث صفته.

فالتقدير: مكروا المكرات السيئات، كما وصف المكر بالسيِّىء في قوله تعالى: ﴿ ولا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله ﴾ [سورة فاطر: 43].

والتأنيث في مثل هذا يقصد منه الدلالة على معنى الخصلة أو الفَعْلة، كالغدرة للغدر.

ويجوز أن يضمن مكروا ﴾ معنى (اقترفوا) فانتصب ﴿ السيئات ﴾ على المفعولية به.

ويجوز أن يكون منصوباً على نزع الخافض وهو باء الجرّ التي معناها الآلة.

والخسف: زلزال شديد تنشقّ به الأرض فتحدث بانشقاقها هوّة عظيمة تسقط فيها الديار والناس، ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها.

وقد أصاب ذلك أهلَ بابل، ومكانهم يسمّى خسف بابل.

وأصاب قومَ لوط إذ جعل الله عاليها سافلها.

وبلادهم مخسوفة اليوم في بُحيرة لوط من فلسطين .

وخسف من باب ضرب .

ويستعمل قاصراً ومتعدّياً .

(146/436)

يقال : خسفت الأرضُ ، ويقال : خسف الله الأرض ، قال تعالى : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ [سورة القصص : 81] ، ولا يتعدّى إلى ما زاد على المفعول إلا بحرف التعدية ، والأكثر أن يعدّى بالباء كما هنا وقوله تعالى : فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ ، أي جعلناها خاسفة به ، فالباء للتعدّية ، كما يقال : ذهب به .

و﴿ العذاب ﴾ يعمّ كل ما فيه تأليم يستمرّ زمناً ، فلذلك عطف على الخسف .

وإتيان العذاب إليهم : إصابته إياهم .

شبّه ذلك بالإتيان .

و﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ من مكان لا يترقّبون أن يأتيهم منه ضرّ .

فمعنى ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ أنه يأتيهم بغتة لا يستطيعون دفعه ، لأنهم لبأسهم ومنعتهم لا يبغتهم ما يحذرونه إذ قد أعدّوا له عدّته ، فكانَ الآتي من حيث لا يشعرون

عذاباً غير معهود .

فوقع قوله : ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ كناية عن عذاب لا يطيقون دفعه بحسب اللزوم العرفي ، وإلا فقد جاء العذاب عاداً من مكان يشعرون به ، قال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ [سورة الأحقاف : 24] .

وحلّ بقوم نوح عذاب الطوفان وهم ينظرون ، وكذلك عذاب الغرَق لفرعون وقومه .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) ﴾

الأخذ مستعار للإهلاك قال تعالى : ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ [سورة الحاقة : 10] .

وتقدّم عند قوله : ﴿ أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ في سورة الأنعام (44) .

والتّقلّب : السعي في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة .

وأصله : الحركة إقبالاً وإدباراً ، والمعنى : أن يهلكهم الله وهم شاعرون بمجيء العذاب .

وهذا قسيم قوله تعالى : ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ [سورة النحل : 45] .

وفي معناه قوله تعالى : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحًى وهم يلعبون ﴾ [سورة الأعراف : 98] وتفريع ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ اعتراض ، أي لا يمنعهم من أخذه إيّاهم تقلّبهم شيء إذ لا يعجزه اجتماعهم وتعاونهم .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية ، أي الملابسة ، وهي حال من الضمير المنصوب في ﴿ يأخذهم ﴾ .

والتخوّف في اللغة يأتي مصدر تخوّف القاصر بمعنى خاف ومصدر تخوّف المتعدّي بمعنى تنقّص ، وهذا الثاني لغة هذيل ، وهي من اللغات الفصيحة التي جاء بها القرآن .

فللآية معنيان : إما أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة توقّع نزول العذاب بأن يريهم مقدماته مثل الرعد قبل الصّواعق ، وإما أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة تنقّص من قبل أن يتنقّصهم قبل الأخذ بأن يكثر فيهم الموتان والفقر والقحط .

وحرف ﴿ على ﴾ مستعمل في التمكّن على كلا المعنيين ، ومحل المجرور حال من ضمير النصب في ﴿ يأخذهم ﴾ وهو كقولهم : أخذه على غرّة .

روى الزمخشري وابن عطية يزيد أحدهما على الآخر : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خفي عليه معنى التخوّف في هذه الآية وأراد أن يكتب إلى الأمصار ، وأنه سأل الناس وهو على المنبر : ما تقولون فيها ؟ فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا .

التخوّف: التنقّص.

قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا:

تخوّف الرحل منها تامكا قردا . . .

كما تخوّف عودَ النبعة السفن

فقال عمر رضي الله عنه: "أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضلّ، قالوا وما ديواننا؟ قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم".

وتفرّع ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ على الجمل الماضية تفريع العلّة على المعلّل.

وحرف (إن) هنا مفيد للتعليل ومغن عن فاء التفريع كما بيّنه عبد القاهر، فهي مؤكدة لما أفادته الفاء.

(148/436)

والتّعليل هنا لما فهم من مجموع المذكورات في الآية من أنه تعالى قادر على تعجيل هلاكهم وأنه أمهلهم حتى نسوا بأس الله فصاروا كالآمنين منه بحيث يستفهم عنهم: أهم آمنون من ذلك أم لا.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ

دَاخِرُونَ (48) ﴾

بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض كلّها مشعرةٍ بخضوعها لله تعالى خضوعاً مقارناً لوجودها وتقلّبها آناً فآناً علم بذلك من علمه وجهله من جهله .

وأنبأ عنه لسان الحال بالنسبةِ لِما لا علم له ، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي خلقاً ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى ، وذلك في أشدّ الأعراض مُلازمةً للذوات ، ومطابَقَةً لأشكالها وهو الظلّ .

وقد مضى تفصيل هذا الاستدلال عند قوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ في سورة الرعد (15) .

فالجملة معطوفة على الجُمل التي قبلها عطف القصّة على القصّة .

والاستفهام إنكاري ، أي قد رأوا ، والرؤية بصرية .

وقرأ الجمهور أولم يروا ﴾ بتحتية .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ أولم تروا ﴾ بالمثناة الفوقية على الخطاب على طريقة الالتفات .

و﴿ من شيء ﴾ بيانٌ للإبهام الذي في ﴿ ما ﴾ الموصولة ، وإنما كان بياناً باعتبار ما جرى عليه من الوصف بجملة ﴿ يتفيؤا ظلاله ﴾ الآية .

والتَفَيُّؤُ: تفعّل من فاء الظلّ فيئاً، أي عاد بعد أن أزالَه ضوءُ الشمس.

لعلّ أصلهُ من فاء إذا رجع بعد مغادرة المكان، وتفيؤ الظلال تنقّلها من جهات بعد شروق الشمس وبعد زوالها.

وتقدم ذكر الظلال عند قوله: ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ في سورة الرعد (15).

(149/436)

وقوله: عن اليمين والشمائل ﴾، أي عن جهات اليمين وجهات الشمائل مقصود به إيضاح الحالة العجيبة للظلّ إذ يكون عن يمين الشخص مرّة وعن شماله أخرى، أي إذا استقبل جهة ما ثم استدبرها.

وليس المراد خصوص اليمين والشمال بل كذلك الأمام والخَلْف، فاختصر الكلام.

وأفرد اليمين، لأن المراد به جنس الجهة كما يقال المَشرق.

وجمع ﴿ الشمائل ﴾ مراداً به تعدّد جنس جهة الشمال بتعدّد أصحابها، كما قال: ﴿ فلا أقسم برب المشارق ﴾ [سورة المعارج: 40].

فالمخالفة بالإفراد والجمع تفنّن.

ومجيء فعل يتفيؤا ﴾ بتحتية في أوله على صيغة الإفراد جرى على أحد وجهين في الفعل

إذا كان فاعله جمعا غير جمع تصحيح ، وبذلك قرأ الجمهور .

وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ تتفيأ ﴾ بفوقيتين على الوجه الآخر .

وأفرد الضمير المضاف إليه (ظلال) مراعاةً للفظ ﴿ شيء ﴾ وإن كان في المعنى متعدّداً ، وباعتبار المعنى أضيف إليه الجمع .

و﴿ سجداً ﴾ حال من ضمير ﴿ ظلاله ﴾ العائد إلى ﴿ من شيء ﴾ فهو قيد للتفيّؤ ، أي أن ذلك التفيّؤ يقارنه السجود مقارنة الحصول ضمنه .

وقد مضى بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدوّ والآصال في سورة الرعد .

وجملة وهم داخرون ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿ ظلاله ﴾ لأنه في معنى الجمع لرجوعه ﴿ ما خلق الله من شيء ﴾ .

وجُمع بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليباً لأن في جملة الخلائق العقلاء وهم الجنس الأهمّ .

والدّاخر : الخاضع الذّليل ، أي داخرون لعظمة الله تعالى .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) ﴾

لما ذُكر في الآية السابقة السجود القسري ذُكر بعده هنا سجود آخر بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار .

وتقديم المجرور على فعله مؤذن بالحصْر ، أي سجد لله لا لغيره ما في السماوات وما في الأرض ، وهو تعريض بالمشركين إذ يسجدون للأصنام .

وأوثرت ﴿ ما ﴾ الموصولة دون (من) تغليباً لكثرة غير العقلاء .

و ﴿ من دابة ﴾ بيان ل ﴿ ما في الأرض ﴾ ، إذ الدابة ما يدبّ على الأرض غير الإنسان .

ومعنى سجود الدواب لله أن الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب ، وتطلب الدفع عن نفسها من المتغلّب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقّي ، ونحو ذلك من الملائمات .

فحالها بذلك كحال شاكر تتيسر تلك الملائمات لها ، وإنما تيسيرها لها ممن فطرها .

وقد تصحب أحوال تنعّمها حركاتٌ تشبه إيماء الشاكر المقارب للسجود ، ولعلّ من حركاتها ما لا يشعر به الناس لخفائه وجهلهم بأوقاته ، وإطلاقُ السجود على هذا مجاز .

ويشمل ﴿ ما في السموات ﴾ مخلوقاتٍ غير الملائكة ، مثل الأرواح ، أو يراد بالسماوات الأجواء فيراد بما فيها الطُيور والفراش .

وفي ذكر أشرف المخلوقات وأقلّها تعريض بذمّ من نزل من البشر عن مرتبة الدواب في كفران الخالق ، وبمدح من شابَه من البشر حال الملائكة .

وفي جعل الدوابّ والملائكة معمولين ل ﴿ يسجد ﴾ استعمال للفظ في حقيقته ومجازه .

ووصف الملائكة بأنهم ﴿ لا يستكبرون ﴾ تعريض ببعد المشركين عن أوج تلك المرتبة الملكية .

والجملة حال من ﴿ الملائكة ﴾ .

وجملة ﴿ يخافون ربهم ﴾ بيان لجملة ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ .

والفوقية في قوله : ﴿ من فوقهم ﴾ فوقية تصرف ومِلك وشرف كقوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [سورة الأنعام : 18] وقوله ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ [سورة الأعراف : 127] .

وقوله تعالى : ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، أي يطيعون ولا تصدر منهم مخالفة .

وهنا موضع سجود للقارىء بالاتّفاق .

وحكمته هنا إظهار المؤمن أنه من الفريق الممدوح بأنه مشابه للملائكة في السجود لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ . . . ﴾ [النحل : 45] .

عبارة عن همزة الاستفهام التي تستفهم عن مضمون الجملة بعدها . . أما الفاء بعدها فهي حَرْف عَطْف يعطف جملة على جملة . . إذن : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفي الأنبياء السابقين من العذاب ، فأمِنُوا مكر الله ؟

أي : أن أَمْنهم لمكر الله ناشيٌء عن جهلهم بما وقع للمكَذِّبين من الأمم السابقة .

ثم يقول تعالى :

﴿ مَكَرُواْ السيئات . . . . ﴾ [النحل : 45] .

المكر : هو التبييت الخفيّ للنيل ممَّنْ لا يستطيع مجابهته بالحق ومجاهرته به ، فأنت لا تُبيِّت لأحد إلا إذا كانت قدرتُك عاجزة عن مُصَارحته مباشرة ، فكوْنُك تُبيّت له وتمكر به دليل على عَجْزك ؛ ولذلك جعلوا المكر أول مراتب الجُبْن ؛ لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكْر عظيماً يكون الضعف كذلك .

وهذا ما نلحظه من قوله تعالى في حَقِّ النساء : ﴿ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . . ﴾ [يوسف : 28] .

وقال في حَقِّ الشيطان : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] .

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْدهُن عظيماً إذن : ضَعْفُهن أيضاً عظيم ، وكذلك في كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أنْ يملكَك الضعيف ؛ ذلك لأنه إذا تمكَّن منك وواتَتْه الفرصة فلن يدعَكَ تُفلت منه ؛ لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن أن تُتاحَ له الفرصة مرة أخرى ؛ لذلك لا يضيعها على عكس القويّ ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أُتيحَتْ له الفرصة وربما فوَّتها لقُوته وقُدرته على خَصْمه ، وتمكّنه منه في أيِّ وقت يريد ، وفي نفس المعنى جاء قول الشاعر :

(152/436)

وَضَعِيفة فإذَا أَصَابتْ فُرْصَةً . . . قتلَتْ كذلِكَ قُدرةُ الضُّعَفاءِ

إذن : قدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القويّ فليستْ كذلك .

ثم لنا وقْفة أخرى مع المكْر ، من حيث إن المكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بني الإنسان ، فإذا ما تعرضْتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حَيْطة ، وأحكم منك مكْراً ،

فربما لا يُجدِي مكرُكَ به ، بل ربما غلبك هو بمكْره واحتياطه ، فكيف الحال إذا كَان الماكر بك هو ربِّ العالمين تبارك وتعالى ؟

وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ [الأنفال : 30] .

وقال : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

فمكْر العباد مكشوف عند الله ، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحتاط منه أحد ؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين .

والمكْر السَّيء هو المكْر البطَّال الذي لا يكون إلا في الشر ، كما حدث من مَكْر المكذِّبين للرسل على مَرِّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيْداً يُبطل حَقّاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرَّض الرسول صلى الله عليه وسلم لمراحل متعددة من الكَيْد والمكْر والخديعة ، وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهي أن يُوئس الكفار من الانتصار عليه صلى الله عليه وسلم ، فقد بيَّتوا له ودَبَّروا لقتله ، وحَاكُوا في سبيل ذلك الخطط ، وقد باءتْ خُطتهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفي مكيدة أخرى حاولوا أن يَسْحروه صلى الله عليه وسلم ، ولكن كشف الله أمرهم وخيَّب سعيهم . . إذن : فأيّ وسيلة من وسائل دَحْض هذه الدعوة لم تنجحوا فيها ،

ونصره الله عليكم . كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي . . . ﴾ [المجادلة : 21] .

وقوله تعالى :

﴿ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأرض . . . ﴾ [النحل : 45] .

(153/436)

الخسْف : هو تغييب الأرض ما على ظهرها . . فانخسفَ الشيء أيْ : غاب في باطن الأرض ، ومنه خُسوف القمر أي : غياب ضَوْئه . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص : 81] .

وهذا نوع من العذاب الذي جاء على صُور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا . . ﴾ [العنكبوت : 40] .

هذه ألوان من العذاب الذي حاقَ بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقيهم عبرة وعظة ، وأنْ يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقيهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : 45] .

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكْر الله وللعذاب الواقع بهم، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطُر لهم على بال، وطالما لم تخطُرْ لهم على بال، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أَخْذهم يسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ . . . ﴾ [الحشر : 2] .

ويتابع الحق سبحانه، فيقول : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي . . . ﴾ .

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46)

التقلب : الانتقال من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخر دليل القُوة والمقدرة ، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه وعَتَاده وجميع ما يملك ؛ لينشيء له حركةَ حياة جديدة في مكانه الجديد .

إذن : التقلُّب في الحياة مظهر من مظاهر القوة ، بحيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله في رحلة تقلُّبه . . ولا شكّ أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوي .

ولذلك نرى في قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبأ : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ : 18-19] .

فهؤلاء قوم جمع الله لهم ألواناً شتى من النعيم ، وأمَّن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم للعجب طلبوا من الله أن يُباعد بين أسفارهم ، كأنهم أرادوا أنْ يتميزوا عن الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿ بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ : 19] .

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خَوْض هذه المسافات .

إذن : الذي يتقلَّب في الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظَعْن وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به في مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : المال في الغربة وطن . . ومَنْ كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ ﴾ [آل عمران : 196] .

فلا يخيفنك انتقالهم بين رحلتي الشتاء والصَّيْف ، فالله تعالى قادر أن يأخذهم في تقلُّبهم .

وقد يُراد تقلّبهم في الأفكار والمكْر السيء بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ ﴾ [التوبة : 48] .

فقد قعدوا يُخطّطون ويمكُرون ويُدبّرون للقضاء على الدعوة في مَهْدها .

ويقول تعالى :

﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [النحل : 46] .

المعجز : هو الذي لا يمكّنك من أنْ تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجزوا الله تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه ؛ لأنهم مهما بَيّتوا فتبييتهم وكَيْدهم عند الله . . أما كيْد الله إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ [الأنفال : 30] .

(155/436)

وقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 15-17] .

فمَنْ لا يستطيع أن يغلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر عليه المنهج الذي جِئْتَ به .

وقد يكون العجز أمام القويّ دليلَ قوة ، كما عجز العرب أمام تحدّي القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليلَ قوتهم في المجال الذي تحدّاهم القرآن فيه ؛ لأن الله تعالى حين يتحدّى وحين يُنازل لا ينازل الضعيف ، لا بل ينازل القوي في مجال هذا التحدّي .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) ﴾

التخوُّف: هو الفزع من شيء لم يحدث بعد، فيذهب فيه الخيال مذاهبَ شتَّى، ويتوقع الإنسان ألواناً متعددة من الشر، في حين أن الواقع يحدث على وجه واحد.

هَبْ أنك في انتظار حبيب تأخَّر عن موعد وصوله، فيذهب بك الخيال والاحتمال إلى أمور كثيرة.. يا تُرى حدث كذا أو حدث كذا، وكل خيال من هذه الخيالات له أثر ولذعة في النفس، وبذلك تكثر المخاوف، أما إن انتظرتَ لتعرفَ الواقع فإنْ كان هناك فزع كان مرة واحدة.

ولذلك يقولون في الأمثال: (نزول البلا ولا انتظاره) ذلك لأنه إنْ نزل سينزل بلون واحد، أما انتظاره فيُشيع في النفس ألواناً متعددة من الفزع والخوف.. إذن: التخوُّف أشدُّ وأعظم من وقوع الحَدث نفسه.

وكان هذا الفزع يعتري الكفار إذا ما عَلِموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية من السَّرايا، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم، وبذلك يُشيع الله الفزع في نفوسهم جميعاً، في حين أنها خرجتْ لناحية معينة.

وبعض المفسرين قال: التخوُّف يعني التنقُّص بأنْ ينقص الله من رُقْعة الكفر بدخول القبائل في الإسلام قبيلةً بعد أخرى، فكلٌّ واحدة منها تنقص من رقعة الكفر. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات.. ﴾ [البقرة: 155].

ثم يقول الحق تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية:

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: 47].

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد؟ فالعقل يقول: إن التذييل المناسب لها: إن ربكم لشديد العقاب مثلاً.

لكن يجب هنا أنْ نعلمَ أن هذا هو عطاء الربوبية الذي يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا، وتكفَّل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء، لم تُخلَق هذه الأشياء لواحد دون الآخر، وقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: 20].

وكأن في الآية لَوْناً من ألوان رحمته سبحانه بخَلْقه وحِرْصه سبحانه على نجاتهم؛ لأنه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يحدث لَهم إذا أصرُّوا على كفرهم، ويُبصِّرهم بعاقبة كفرهم، والتبصرة عِظَة، والعِظَة رأفة بهم ورحمة حتى لا ينالهم هذا التهديد وهذا الوعيد.

ومثال هذا التذييل كثير في سورة الرحمن، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 17-18].

فهذه نعمة ناسبت قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 18].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: 19-20].

(157/436)

فهذه نعمة من نعم الله ناسبت تذييل الآية: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 21].

أما في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 26-28].

فما النعمة في ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾؟ هل الموت نعمة؟!

نعم، يكون الموت نعمة من نِعَم الله على عباده؛ لأنه يقول للمحسن: سيأتي الموت لتلقَى جزاء إحسانك وثواب عملك، ويقول أيضاً للكافر: انتبه واحذر.. الموت قادم، كأنه سبحانه يُوقظ الكفار ويَعِظهم لينتهوا عما هم فيه.. أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة

منه سبحانه بعباده؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 35-36].

فأيّ نعمة في: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ [الرحمن: 35].

أيُّ نعمة في هذا العذاب؟

نعم المتدبِّر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمروا على ما هم فيه من الكفر.. ففي طيَّاتها تحذير وحِرْص على نجاتهم كما تتوعد ولدك: إذا أهملتَ دروسك ستفشل وأفعل بك كذا وكذا. وأنت ما قلت ذلك إلا لِحرصك على نجاحه وفلاحه.

إذن: فتذييل الآية بقوله:

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: 47].

تذييل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد، وفيها بيان لرحمة الله التي يدعو إليها كلاًّ من المؤمن والكافر.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ.. ﴾.

قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ... ﴾ [النحل: 48].

المعنى : أَعَمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيها خلق الله ؟

﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ [النحل : 48] .

(158/436)

كلمة شيء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِن ﴾ تفيد ابتداء ما يُقال له شيء ، أي : أتفه شيء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس . . وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [النحل : 48] .

أي : كل شيء .

فانظر إلى أيّ شيء في الوجود مهما كان هذا الشيء تافهاً ستجد له ظِلاًّ :

﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ . . . ﴾ [النحل : 48] .

يتفيأ : من فاءَ أي : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل مُتغيّر ، فالظل الثابت دائماً في الأماكن التي لا تصل إليها أشعة الشمس ، كقاع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظِلٌّ ثابت لا تأتيه أشعة الشمس في أي وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذي يُسمّى الفَيْء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمَّى الظل فَيْئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن . . كيف يتكّون الظل ؟ يتكّون الظل إذا مَا استعرض الشمسَ جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظِلاّ له في الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طُولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أنْ يبلغَ المغرب ، ثم يأخذ في التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوتْ الشمس في السماء يصبح ظِلّ الشيء في نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظلّ الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ [الفرقان : 45-46] .

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى الظلِ وكيف يمتدّ ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقاً . . ذلك لأنك تلاحظ الظل في الحالتين يسير سَيْراً انسيابياً .

ما معنى : (انسيابي) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالي سكونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها في حركة عقارب الساعة ، وهي أوضح في عقرب الثواني منها في عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها في عقرب الساعات . . فلو لاحظت عقرب الثواني لوجدتَه يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا . . ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة في حال سكونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية . . هذه الحركة لا تستطيع رَصْدها في عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها ، هذه هي الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعني أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة . . أي : حركة مستمرة ومُوزّعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل . . الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازمتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً . . فكيف تكون حركة النمو في الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفْرة واحدة ؟ لو كان نموه هكذا لَلاَحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزّع المِلّي الواحد من النمو على طول الزمن . فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جُزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا . . بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكُنْ الدائمة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفت خَلْقه إلى ظاهرة كونية في الوجود مُحسّة ، يدركها كلٌّ مِنّا في ذاته ، وفيما يرى من المرائي ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظّل التي يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

(160/436)

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] .

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسبيحية في الكون كله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء : 44] .

فكل ما يُطلَق عليه شيء فهو يُسبِّح مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى :

﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ اليمين والشمآئل . . . ﴾ [النحل : 48] .

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآني، حيث أتى باليمين مُفْرداً، في حين أتى بالشمائل على صورة الجمع؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [النحل: 48].

أتى بأقلّ ما يُتصوَّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ وهو مفرد، ثم قال سبحانه:

﴿ ظِلاَلُهُ . . ﴾ [النحل: 48].

بصيغة الجمع. أي: مجمع هذه الأشياء، فالإنسان لا يتفيأ ظِلّ شيء واحد، لا.. بل ظِلّ أشياء متعددة.

و﴿ مِن ﴾ هنا أفادت العموم:

﴿ مِن شَيْءٍ . . ﴾ [النحل: 48].

أي: كل شيء. فليناسب المفرد جاء باليمين، وليناسب الجمع جاء بالشمائل.

ثم يقول تعالى:

﴿ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: 48].

فما العلاقة بين حركة الظلّ وبين السجود؟

معنى: سُجّداً أي: خضوعاً لله، وكأن حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليلٌ على أنه موصول بالمحرك الأعلى له، والقائل الأعلى لـ "كُنْ"، والظل آية من آياته سبحانه

مُسخّرة له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعِده إعداداً كَوْنياً ، والشيء تُعِده إعداداً قدرياً . .

فصانع القنبلة الزمنية يُعِدُّها لأنْ تنفجرَ في الزمن الذي يريده ، وليس الأمر كذلك في إعداد الكون .

(161/436)

الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفي انتظار لهذا الأمر الإلهي باستمرار (كن فيكون) .

وهكذا . . فليست المسألة مضبوطة ميكانيكاً ، لا . . بل مضبوطة قَدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهي ضوؤها ، ويُرتّب على هذا الحكم أشياء أخرى . . نقول : لا . . ليس الأمر كذلك . . فالشمس خاضعة للإعداد القدريّ منضبطة به ومنتظرة ل "كُنْ" التي يُصغِي لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] .

هكذا بيّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له " شيء " يسجد لله عز وجل ، وكلمة " شيء " جاءت مُفْردة دالّة على العموم . . وقد عرفنا السجود فيما كلّفنا الله به من ركن في الصلاة

، وهو مُنْتَهى الخضوع، خضوع الذات من العابد للمعبود، فنحن نخضع واقفين، ونخضع راكعين، ونخضع قاعدين، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله . . ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجدَ لله؟

نقول: لأن الإنسان له ذات عامة، وفي هذا الذات سيد للذات، بحيث إذا أُطلِق انصرف إلى الذات، والمراد به الوجه؛ لذلك حينما يعبّر الحق تبارك وتعالى عن فَنَاء الوجود يقول: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . ﴾ [القصص: 88] .

وكذلك في قوله: ﴿ إِلاَّ ابتغآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ [الليل: 20-21] .

فيُطلَق الوجه ويُراد به الذات، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دلّ ذلك على خضوع الذات كلها؛ لأن أشرف ما في الإنسان وجهه، فإذا ما ألصقه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دلَّتْ الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالقه سبحانه، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً، أو بناية أو جبل، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظِلّها أيضاً ثابتاً لا

يتحرك، أما ظِلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظل متحرك، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً في الخضوع التام بالظلال؛ لأن ظل كل شيء لا يفارق الأرض أبداً، وهذا مثال للخضوع الكامل.

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات في الظلال في قوله: ﴿ وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد: 15].

يعني الذوات تسجد، وكذلك الظلال تسجد؛ ولذلك يتعجب بعض العارفين من الكافر.. يقول: أيها الكافر ظِلُّك ساجد وأنت جاحد.. جاء هذا الترقِّي في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ.... ﴾.

فأجناس الكون التي يعرفها الإنسان أربعة: إما جماد، فإذا وجدتَ خاصية النمو كان النبات، وإذا وجدتَ خاصية الحركة والحسِّ كان الحيوان، فإذا وجدتَ خاصية الفِكْر كان الإنسان، وإذا وجدتَ خاصية العلم الذاتي النوراني كان المَلَك.. هذه هي الأجناس التي نعرفها.

الحق تبارك وتعالى ينقلُنا هنا نَقْلة من الظلال الساجدة، للجمادات الثابتة، إلى الشيء الذي يتحرك، وهو وإنْ كان مُتحركاً إلا أن ظلّه أيضاً على الأرض، فإذا كان الحق سبحانه قد قال:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض.. ﴾ [النحل: 49].

فقد فصَّل هذا الإجمال بقوله :

﴿ مِن دَآبَّةٍ والملائكة . . . ﴾ [النحل : 49] .

أي : من أقلّ الأشياء المتحركة وهي الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهي الملائكة . .

وقد يقول قائل : وهل ما في السماوات وما في الأرض يسجد لله ؟

نقول له : نعم . . لأنك فسرتَ السجود فيك أنت بوضْع جبهتك على الأرض ، ليدلّ على أن الذات بعلوّها ودنُوّها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلتَ الجبهة مع القدم

.

(163/436)

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أن نعرف استطراق العبودية في الوجود كله ؛ لأن الكافر وإنْ كان مُتمرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختيارا ، في أنْ يؤمن أو يكفر ، في أن يطيع أو يعصي ، ولكن الله أعطاه الاختيار .

نقول له : إنك قد ألْفتَ التمرّد على الله ، فطلب منك أن تؤمن لكنك كفرتَ ، وطلبَ منك يا مؤمن أن تطيعَ فعصيتَ ، إذن : فلكَ إلْفٌ بالتمرّد على الحق . . ولكن لا تعتقد أنك خرجتَ من السجود والخضوع لله ؛ لأن الله يُجري عليك أشياء تكرهها ، ولكنها تقع

عليك رغم أنفك وأنت خاضع .

وهذا معنى قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل : 48] .

أي : صاغرون مُستذِلّون مُنقَادُونَ مع أنهم أَلِفُوا التمرُّد على الحق سبحانه .

وإلا فهذا الذي أَلِف الخروج عن مُرادات الله فيما له فيه اختيار ، هل يستطيع أنْ يتأبَّى على الله إذا أراد أنْ يُمرضه ، أو يُفقره ، أو يميته ؟

لا ، لا يستطيع ، بل هو داخر صاغر في كل ما يُجريه عليه من مقادير ، وإنْ كان يأباها ، وإنْ كان قد أَلِف الخروج عن مُرادات الله .

إذن : ليس في كون الله شيء يستطيع الخروج عن مرادات الله ؛ لأنه ما خرج عن مرادات الله الشرعية في التكليف إلا بما أعطاه الله من اختيار ، وإلا لو لم يُعْطه الاختيار لما استطاع التمرّد ، كما في المرادات الكونية التي لا اختيارَ فيها .

لذلك نقول للكافر الذي تمرّد على الحق سبحانه : تمرّد إذا أصابك مرض ، وقُلْ : لن أمرض ، تمرَّد على الفقر وقُلْ : لن أفتقر . . وما دُمْتَ لا تقدر وسوف تخضع راغماً فلتخضعْ راضياً وتكسب الأمر ، وتنتهي مشكلة حياتك ، وتستقبل حياة أخرى أنظف من هذه الحياة .

وقوله تعالى :

﴿ مِن دَآبَّةٍ . . . ﴾ [النحل : 49] .

هو كل ما يدبّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معنا الحركة والمشي . . وقوله :

﴿ والملائكة . . . ﴾ [النحل : 49] .

(164/436)

أي : أن الملائكة لا يُقال لها دابة ؛ لأن الله جعل سَعْيها في الأمور بأجنحة فقال تعالى : ﴿ أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ . . ﴾ [فاطر : 1] .

وقال في آية أخرى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . . ﴾ [الأنعام : 38] .

فخلق الله الطائر يطير بجناحيه مقابلاً للدابة التي تدب على الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و﴿ مَا ﴾ في الآية تُطلق على غير العالمين وغير العاقلين ؛ ذلك لأن أغلبَ الأشياء الموجودة في الكون ليس لها عِلْم أو معرفة ؛ ولذلك قال تعالى في آية أخرى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا . . ﴾ [الأحزاب : 72] .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : 49] .

أي : أن الملائكة الذين هم أعلى شيء في خَلْق الله لا يستكبرون ؛ لأن علوّهم في الخَلْق من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً على خالقهم سبحانه ؛ لأن الذي أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى .

وما دام الله هو الذي أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به ؛ لأن الذي يُدِلُّ إنما يُدِلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشيء الموهوب من الغير فلاَ يجوز أن تُدِلَّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً لَّلَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون . . ﴾ [النساء : 172] .

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرَّمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ . . . ﴾ .

ما هو الخوف ؟ الخوف هو الفزع والوجَل ، والخوف والفزع والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رَفْعه ، ولو أمكنك رَفْعه لما كان هناك داعٍ للخوف منه ؛ لذلك فالأمور التي تدخل في مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إنْ حصل كذا افعل

كذا . . الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام : ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

فما داعي الخوف إذن ؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخُوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربي يقول في تبرير هذا الخوف :

أَهَابُكِ إِجْلاَلاً ومَا بِكَ قُدْرة . . . عليَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

إذن : مرّة يأتي الخوف لتوقُّع أذى لتقصير منك ، ومرَّة يأتي لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .

وقوله تعالى :

﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 50] .

ما المراد بالفوْقية هنا ؟ نحن نعرف أن الجهات ستّ : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف . . بقيتْ جهة الفَوْقية لتكون هي المسيطرة ؛ ولذلك حتى في بناء الحصون يُشيّدونها على الأماكن العالية لتتحكم بعلُوّها في متابعة جميع الجهات .

إذن : فالفوقية هي محلّ العُلو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .

فالذي يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله في السماء ، بدليل أن الجارية التي سُئِلت : أين

الله ؟ أشارتْ إلى السماء ، وقالت : في السماء .

فأشارت إلى جهة العُلو ؛ لأنه لا يصح أن تقول : إن الله تحت ، فالله سبحانه مُنزَّه عن المكان ، وما نُزِّه عن المكان نُزّه عن الزمان ، فالله عز وجل مُنزَّه عن أنْ تُحيّزه ، لا بمكان ولا بزمان ؛ لأن المكان والزمان به خُلِقا . . فمَن الذي خلق الزمان والمكان ؟

إذن : ما داما به خُلِقا فهو سبحانه مُنزَّه عن الزمان والمكان .

(166/436)

وهم قالوا بأن الفوقية هنا فوقية حقيقية . . فوقية مكان ، أي : أنه تعالى أعلى مِنّا . .

ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أَعْلى مِنّا . . من أيّ ناحية ؟ من هذه أم من هذه ؟

إذن : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من المحروس . . فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة ؟ بالطبع لا .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 50] .

وهذه هي الطاعة ، وهي أن تفعلَ ما أُمِرتْ به ، وأنْ تجتنبَ ما نُهيتَ عنه ، ولكن الآية هنا

ذكرت جانباً واحداً من الطاعة، وهو:

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: 50].

ولم تقُلْ الآية مثلاً: ويجتنبون ما ينهوْنَ عنه، لماذا؟.. نقول: لأن في الآية ما يسمونه بالتلازم المنطقي، والمراد بالتلازم المنطقي أن كلّ نهي عن شيء فيه أمر بما يقابله، فكل نهي يؤول إلى أمر بمقابله.

فقوله سبحانه:

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: 50].

تستلزم منطقياً "ويجتنبون ما يُنهَوْن عنه" وكأن الآية جمعت الجانبين.

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلا أنهم هُيِّموا في ذات الله، ومنهم ملائكة مُوكّلون بالخلق، وهم: ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [النازعات: 5].

ويقول تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله.. ﴾ [الرعد: 11].

ومنهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار: 10-11].

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بِنَا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لآدم حينما خلقه الله ، وصوَّره بيده ، ونفخ فيه من رُوحه . . وكأن الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذي ستكونون في خدمته ، فالسجود له بأمر الله إعلانٌ بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويُدبّرون له الأمور . . الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعْنِيون في قوله سبحانه لإبليس : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75] .

أي : أستكبرتَ أنْ تسجدَ ؟ أم كنتَ من الصِّنْف الملَكي العالي ؟ . . هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكُلُّ مهمتهم التسبيح والذكْر ، وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ اليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 20] .

كلُّ شيء إذن في الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فالله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذي يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها وأشفقْنَ منها . . وكأنها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسخَّرين ، ولا دَخْلَ لنا في موضوع الأمانة والتكليف ! !

لماذا إذن يأبى الكون بسمائه وأرضه تحمُّل هذه المسئولية ؟

نقول : لأن هناك فَرْقاً بين تقبُّل الشيء وقت تحمُّله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه . .

هناك فَرْق . . عندنا تحمُّل وعندنا أداء . . وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً لتحمّل الأمانة وقُلْنا : هَبْ أن إنساناً أراد أن يُودع عندك مبلغاً من المال مخافة تبديده لتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت في هذا الوقت قادر على التحمل وتنوي أداء أمانته إليه عند طلبها وذمّتك قوية ، ونيتك صادقة .

(168/436)

وهذا وقت تحمُّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إنفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارضٌ يمنعك من الأداء أو تتغيّر ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذي يريد أنْ يُبرئ ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمُّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسي وقت التحمل فلا أضمن نفسي وقت الأداء .

هذا مثال لما حدث من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمُّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدِّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقها ، لذلك رفضت تحمُّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمُّل الأمانات ؛ ولذلك يقول تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

ما الذي جهله الإنسان ؟ جهل تقدير حالة وقت أداء الأمانة ، فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجمال كما يقولون لَقال : يا ربِّ اجعلني مثل السماء والأرض والجبال ، وما تُجريه عليَّ ، فأنا طَوْع أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبِل الاختيار وتحمَّل التكليف ، ولكنه خرج عن اختياره ومراده لمراد ربِّه وخالقه ، فقال : يا رب أنت خلقْتَ فينا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكنَّا تنازلنا عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوْع أمرك . . هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألاَّ يفعل ، وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير . . فالأول مع أنه قادر ألاَّ يفعل ، فقد غلَّب مُراد ربِّه في التكليف على مراد نفسه في الاختيار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

(169/436)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43)

﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك، ومن أنكر منهم قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. فأنزل الله: ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ [يونس: 2] وقال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ يعني فاسألوا أهل الذكر والكتب الماضية: أبشرا كانت الرسل الذين أتتهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أتتكم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون رسولاً. ثم قال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ [يوسف: 109] أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ قال: قالت العرب ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ [المائدة: 73] قال الله: ما أرسلت الرسل إلا بشراً ﴿ فاسألوا ﴾ يا معشر العرب ﴿ أهل الذكر ﴾ وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين جاءتهم قبلكم ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ أن الرسل الذين كانوا من قبل محمد كانوا بشراً مثله، فإنهم سيخبرونكم أنهم كانوا بشراً مثله.

وأخر الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن

عباس ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ يعني مشركي قريش، أن محمداً رسول الله في التوراة والإنجيل.

(170/436)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من أهل التوراة، وكانوا أهل كتب يقول: فاسألوهم ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ أن الرجل ليصلي ويصوم ويحج ويعتمر، وأنه لمنافق. قيل: يا رسول الله، بماذا دخل عليه النفاق؟ قال: يطعن على إمامه، وإمامه من قال الله في كتابه: ﴿ فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي للعالم أن يسكت عن علمه، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله. وقد قال الله ﴿ فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون ﴾ فينبغي للمؤمن أن يعرف عمله على هدى أم على خلافه".

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ بالبينات ﴾ قال: الآيات ﴿ والزبر ﴾ قال: الكتب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أصحابه في قوله: ﴿ بالبينات والزبر ﴾ قال: ﴿ البينات ﴾ الحلال والحرام الذي كانت تجيء به الأنبياء ﴿ والزبر ﴾ كتب الأنبياء ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ قال: هو القرآن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ قال: ما أحل لهم وما حرم عليهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ قال: أرسله الله إليهم ليتخذ بذلك الحجة عليهم.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ قال: يطيعون.

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً أخبرنا بما يكون إلى قيام الساعة، عقله منا من عقله ونسيه من نسيه.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ قال: هو نمرود بن كنعان وقومه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ أي الشرك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ قال : تكذيبهم الرسل وأعمالهم بالمعاصي .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ قال : في اختلافهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ قال : إن شئت أخذته في سفره . وفي قوله : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ يقول : إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه . وتخوف بذلك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ قال : في أسفارهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ يعني على أي حال كانوا بالليل والنهار ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ يعني أن يأخذ بعضاً بالعذاب ويترك بعضاً ، وذلك أنه كان يعذب القرية فيهلكها ويترك الأخرى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ قال : ينقص من أعمالهم .

وأخرج ابن جرير من طريق عطاء الخراساني ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو يأخذهم

على تخوف ﴾ قالوا : ما نرى إلا أنه عند تنقص ما نردده من الآيات ، فقال عمر : ما أرى إلا أنه على ما تنتقصون من معاصي الله . فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقي أعرابياً فقال : يا فلان ، ما فعل ربك . فقال : قد تخيفته . يعني تنقصته . فرجع إلى عمر فأخبره فقال : قدر الله ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ قال : يأخذهم بنقص بعضهم بعضاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ قال : كان يقال : التخوف ، هو التنقص . . . تنقصهم من البلد والأطراف .

(172/436)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤُا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله ﴾ قال : ظل كل شيء فيه ، وظل كل شيء سجوده . ﴿ فاليمين ﴾ أول النهار ﴿ والشمائل ﴾ آخر النهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤُا ظلاله ﴾ قال : إذا فاءَ الْفَيءُ توجه كل شيء ساجداً لله قِبَلَ القبلة من بيت

أو شجر . قال : فكانوا يستحبون الصلاة عند ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن الضحاك في الآية قال : إذا فاء الفيء ، لم يبق شيء من دابة ولا طائر إلا خر لله ساجداً .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن المنذر وأبو الشيخ ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع قبل الظهر بعد الزوال تحسب بمثلين من صلاة السحر " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وليس من شيء إلا وهو يسبح الله تلك الساعة " ثم قرأ ﴿ يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله . . . ﴾ الآية كلها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعد بن إبراهيم قال : صلوا صلاة الآصال حتى يفيء الفيء قبل النداء بالظهر ، من صلاها فكأنما تهجد بالليل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : فيء كل شيء ظله ، وسجود كل شيء فيه سجود الخيال فيها .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية في قوله : ﴿ يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل ﴾ قال : الغدو والآصال ، إذا فاء ظل كل شيء . أما الظل بالغداة فعن اليمين ،

وأما بالعشي فعن الشمائل . إذا كان بالغداة سجدت لله ، وإذا كان بالعشي سجدت له .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي غالب الشيباني قال : أمواج البحر صلاته .

(173/436)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ داخرون ﴾ قال : صاغرون .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله ﴿ وهم داخرون ﴾ قال : صاغرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(174/436)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) ﴾

قوله تعالى : ﴿ السيئات ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها : أنها نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي : المَكَرات السيئات، ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَه . الثاني : أنه مفعولٌ به على تضمين "مَكَروا" "عَمِلُوا وفعلوا"، وعلى هذين الوجهين فقوله : ﴿ أَن يَخْسِفَ الله ﴾ مفعول ب "أَمِنَ" . الثالث : أنه منصوبٌ ب "أَمِنَ"، أي : أَمِنُوا العقوباتِ السيئات، وعلى هذا فقولُه ﴿ أَن يَخْسِفَ الله ﴾ بدلٌ من "السيئات" .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) ﴾

قوله تعالى : ﴿ على تَخَوُّفٍ ﴾ : متعلقٌ بمحذوفٍ، فإنه حالٌ إمَّا مِنْ فاعلِ "يأخذهم"، وإمَّا مِنْ مفعوله، ذكرهما أبو البقاء . والظاهِرُ كونُه حالاً من المفعولِ دونَ الفاعل .

والتخوُّفُ : التنقُّص . حكى الزمخشري أن عمر بن الخطاب سألهم على المِنْبر عنها فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا : التخوُّفُ : التنقُّصُ قال : فهل تعرف [العربُ] ذلك في أشعارِها ؟ قال : نعم . قال شاعرُنا وأنشد :

2972- تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكاً قَرِداً . . . كما تَخَوَّفَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر : "أيها الناسُ، عليكم بديوانِكم لا يَضِلُّ" . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : "شعرُ الجاهلية، فإنّ فيه تفسيرَ كتابكم" .

قلت : وكان الزمخشريُّ نَسَبَ البيتَ قبل ذلك لزهيرٍ، وكأنه سهوٌ، فإنَّه لأبي كبير الهذلي،

ويؤيد ذلك قول الرجل : " قال شاعرنا " ، وكان هُذَلِيّاً كما حكاه هو . وقيل : التخوُّفُ : الخوفُ .

(175/436)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ ﴾ : قرأ الأخوان " تَرَوْا " بالخطاب جَرْياً على قوله ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ ﴾ ، والباقون بالياءِ جَرْياً على قوله : ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ ﴾ . وأمَّا قولُه : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير ﴾ [النحل : 79] فقرأه حمزةُ أيضاً بالخطاب ، ووافقه ابنُ عامر فيه ، فحصل من مجموعِ الآيتين أنَّ حمزةَ بالخطاب فيهما ، والكسائيَّ بالخطابِ في الأول والغَيْبة في الثاني ، وابنَ عامر بالعكس ، والباقون بالغيبة فيهما .

فأمَّا توجيهُ الأولى فقد تقدَّم ، وأمَّا الخطابُ في الثانية فجَرْياً على قوله ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النحل : 78] . وأمَّا الغيبةُ فجَرْياً على قوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [النحل : 73] . وأمَّا تفرقةُ الكسائيِّ وابنِ عامرٍ بين الموضعين فجمعاً بين الاعتبارين وأنَّ كلاًّ منهما صحيحٌ .

قوله : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا بيانٌ لما في قوله : ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ﴾ فإنها موصولةٌ بمعنى الذي . فإن قلتَ : كيف يُبيِّنُ الموصولُ -وهو مبهمٌ- ب " شيء " وهو مبهمٌ ، بل أَبْهَمُ ممَّا قبله ؟ فالجواب أنَّ شيئاً قد اتضح وظهر بوصفِه بالجملة بعده ، وهي ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ ﴾ .

(176/436)

قال الزمخشري : " وما موصولة ب ﴿ خَلَقَ اللهُ ﴾ وهو مبهمٌ ، بيانُه ﴿ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ ﴾ . وقال ابن عطية : " وقوله ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ لفظٌ عامٌّ في كل ما اقتضَتْه الصفةُ مِنْ قوله ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ ﴾ فظاهر هاتين العبارتين أنَّ جملة ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ ﴾ صفة لشيء ، وأمَّا غيرُهما فإنه قد صرَّح بعدمِ كونِ الجملةِ صفةً فإنه قال : " والمعنى : من شيءٍ له ظِلٌ من جبلٍ وشجرٍ وبناءٍ وجسمٍ قائمٍ . وقوله : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ ﴾ إخبارٌ عن قوله ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ليس بوصفٍ له ، وهذا الإِخبارُ يَدُلُّ على ذلك الوصفِ المحذوفِ الذي تقديرُه : هو له ظلٌّ " وفيه تكلُّفٌ لا حاجةَ له ، والصفةُ أبينُ . و ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال من الموصولِ ، أو متعلقٌ بمحذوفٍ على جهةِ البيان ، أي : أَعْني مِنْ شيء .

والتفيُّؤُ : تَفَعَّل مِنْ فاء يَفِيْءُ ، أي : رجَع ، و " فاء " قاصرٌ ، فإذا أُريد تعديتُه عُدِّي بالهمزة كقوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ/اللهُ على رَسُولِهِ ﴾ [الحشر : 7] أو بالتضعيف نحو : فَيَّأَ اللهُ

الظلّ فتَفَيَّأ . وتَفَيَّأ مطاوِعٌ فهو لازمٌ . ووقع في شعر أبي تمام متعديًا في قوله :

2973- طَلَبَتْ ربيعَ ربيعةَ المُمْرَى لها . . . وتفيَّأَتْ ظلالَه مَمْدودا

واخْتُلِف في الفَيْءِ فقيل : هو مُطْلَقُ الظِّلِّ سواءً كان قبل الزَّوال أو بعده ، وهو الموافِقُ لمعنى الآيةِ ههنا . وقيل : " ما كان [قبل] الزوال فهو ظلٌّ فقط ، وما كان بعده فهو ظِلٌّ وفَيْءٌ " ، فالظلُّ أعمُّ ، يُرْوَى ذلك عن رؤبة ابن العجاج . وقيل : بل يختصُّ الظِّلُّ بما قبل الزوال والفَيْءُ بما بعده . قال الأزهري : " تَفَيُّؤُ الظلال رجوعُها بعد انتصافِ النهار ، فالتفيُّؤُ لا يكون إلا بالعَشِيّ ، وما انصرفَتْ عنه الشمسُ ، والظلُّ ما يكون بالغداة ، وهو ما لم تَنَلْهُ [الشمس] قال الشاعر :

2975- فلا الظِلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحى تَسْتَطيعُه . . . ولا الفَيْءُ من بَرْدِ العَشِيِّ تَذُوْقُ

وقال امرؤُ القيس أيضًا :

2975- تَيَمَّمَتِ العينَ التي عند ضارجٍ . . . يَفِيْءُ عليها الظِّلُّ عَرْمَضُها طام

وقد خطَّأ ابن قتيبة الناسَ في إطلاقهم الفَيْءَ على ما قبلَ الزَّوال ، وقال : إنما يُطْلَقُ على ما بعده ، واستدلَّ بالاشتقاق ، فإن الفيْءَ هو الرجوعُ وهو متحققٌ ما بعد الزوال ، فإنَّ الظلَّ

يَرْجعُ إلى جهةِ المشرق بعد الزوال بعدما نَسَخَتْه الشمسُ قبل الزَّوال .

وقرأ أبو عمرو " تَتَفَيَّأ " بالتاءِ مِنْ فوق مُراعاةً لتأنيث الجمع ، وبها قرأ يعقوب ، والباقون بالياء لأنه تأنيثٌ مجازي .

وقرأ العامَّة " ظلاله " جمع ظِلّ ، وعيسى بن عمر " ظُلُلُه " جمع " ظُلَّة " كغُرْفَة وغُرَف .

قال صاحب " اللوامح " في قراءة عيسى " ظُلُلُه " : " والظُّلَّة : الغَيْم ، وهو جسمٌ ، وبالكسرِ الفَيْءُ وهو عَرَضٌ ، فرأى عيسى أنَّ التفيُّؤَ الذي هو الرجوعُ بالأجسام أَوْلَى منه بالأَعْرَاضِ ، وأمَّا في العامَّة فعلى الاستعارة " .

قوله : " عن اليمين " فيه ثلاثة أُوجهٍ ، أحدُها : أنها تتعلَّقُ ب " يتفيَّأ " ، ومعناها المجاوزةُ ، أي : تتجاوز الظلالُ عن اليمينِ إلى الشَّمائل . الثاني : أنها متعلقةٌ بمحذوفٍ على أنها حالٌ من " ظلالُه " . الثالث : أنها اسمٌ بمعنى جانب ، فعلى هذا تَنْتَصِبُ على الظرف .

وقوله : ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ فيه سؤالان ، أحدهما : ما المراد باليمين والشَّمائل ؟ والثاني : كيف أفرد الأولَ وجوع الثاني ؟ وأُجيب عن الأول بأجوبةٍ ، أحدُها : أنَّ اليمينَ يمينُ الفَلَك وهو المشرقُ ، والشَّمائلُ شمالُه وهي المغرب ، وخُصَّ هذان الجانبان لأنَّ أقوى الإنسانِ جانباه وهما يمينُه وشماله ، وجعل المشرقَ يميناً ؛ لأن منه تظهر حركةُ الفَلَكِ اليومية .

الثاني : البلدةُ التي عَرْضُها أقلُّ مِنْ مَيْل الشمس تكون الشمس صيفاً عن يمينِ البلدِ فيقع الظلُّ عن يمينهم .

الثالث : أنَّ المنصوبَ للعِبْرة : كلُّ جِرْمٍ له ظِلٌّ كالجبل والشجر ، والذي يترتَّبُ فيه الأيمان والشَّمائل إنما هو البشرُ فقط ، لكنَّ ذِكْرَ الأَيمانِ والشَّمائِلِ هنا على سبيل الاستعارة .

الرابع : قال الزمخشري : " أو لم يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ من الأَجْرامِ التي لها ظلالٌ متفيِّئَةٌ عن أَيمانِها وشَمائِلها عن جانبي كل واحدٍ منها وشِقَّيْه استعارةً من يمين الإِنسان وشمائله لجانبي الشيءِ ، أي : تَرْجِعُ من جانبٍ إلى جانب " . وهذا قريبٌ مِمَّا قبله .

وأُجيْب عن الثاني بأجوبةٍ ، أحدُها : أن الابتداءَ يقع من اليمين وهو شيءٌ واحدٌ ، فلذلك وَحَّد اليمينَ ثم يَنْتَقِصُ شيئاً فشيئاً ، حالاً بعد حال/ فهو بمعنى الجمعِ ، فَصَدَق على كلِّ حالٍ لفظةُ " الشمال " ، فَتَعَدَّدَ بتعدُّدِ الحالات . وإلى قريبٍ منه نحا أبو البقاء .

والثاني : قال الزمخشري : " واليمين بمعنى الأَيمان " يعني أنه مفردٌ قائمٌ مقامَ الجمع ، وحينئذٍ فهما في المعنى جمعان كقوله

﴿ ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] ، أي : الأدبار .

الثالث : قال الفراء : " كأنه إذا وَحَّد ذَهَبَ إلى واحدٍ من ذواتِ الظلال ، وإذا جَمَع ذَهَب إلى كلِّها ، لأنَّ قولَه ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ لفظُه واحدٌ ومعناه الجمعُ ، فعبَّر عن

أحدِهما بلفظِ الواحدِ كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وقوله : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] .

(179/436)

الرابع : أَنَّا إذا فَسَّرْنا اليمينَ بالمشرقِ كانت النقطةُ التي هي مَشْرِقُ الشمسِ واحدةً بعينها ، فكانت اليمينُ واحدةً ، وأمَّا الشمائلُ فهي عباراتٌ عن الانحرافاتِ الواقعةِ في تلك الظلال بعد وقوعِها على الأرضِ وهي كثيرةٌ ، فلذلك عَبَّر عنها بصيغةِ الجمع .

الخامس : قال الكرماني : "يُحتمل أَنْ يُراد بالشمائل الشِمالُ والخَلْفُ والقُدَّامُ ؛ لأنَّ الظِّلَّ يفيءُ من الجهاتِ كلِّها ، فبُدِئ باليمينِ لأنَّ ابتداءَ التفيُّؤِ منها أو تَيَمُّناً بذِكرها ، ثم جَمَعَ الباقي على لفظ الشِّمال لما بين اليمين واليسار مِنَ التَّضادِّ ، ونَزَّلَ القُدَّام والخلفَ منزلةَ الشَّمائلِ لما بينهما وبين اليمينِ من الخلافِ " .

السادس : قال ابن عطية : " وما قال بعضُ الناس : مِنْ أنَّ اليمينَ أولُ وَقْعَةٍ للظلِّ بعد الزوالِ ثم الآخر الغروبُ هي عن الشّمائل ، ولذلك جَمَعَ الشمائل وأَفْرد اليمين ، فتخليطٌ من القول ، ويَبْطُل مِنْ جهات . وقال ابن عباس : " إذا صَلَّيْتَ الفجرَ كان ما بين مَطْلَعِ الشمس ومَغْرِبِها ظِلاًّ ثم بَعَثَ اللهُ عليه الشمسَ دليلاً ، فقبضَ إليه الظلَّ ، فعلى هذا فأوَّلُ دُرُوْر

الشمس فالظِّلُّ عن يمينِ مستقبلِ الجنوب، ثم يبدأ الانحرافُ فهو عن الشَّمائل؛ لأنه حركاتٌ كثيرة وظلالٌ متقطعةٌ فهي شمائلُ كثيرةُ، فكان الظلُّ عن اليمينِ متصلاً واحداً عامّاً لكلِّ شيء".

(180/436)

السابع: قال ابن الضائع: "أَفْرَدَ وجمَع بالنظر إلى الغايتين؛ لأنَّ ظِلَّ الغَدَاةِ يَضْمَحِلُّ حتى لا يبقى منه إلا اليسيرُ، فكأنه في جهةٍ واحدة، وهي في العَشِيِّ على العكس لاستيلائِه على جميع الجهات، فلُحِظَت الغايتان في الآية. هذا من جهةِ المعنى، وأمّا مِنْ جهةِ اللفظ ففيه مطابقةٌ؛ لأنَّ "سُجَّداً" جمع فطابقه جَمْعُ الشَّمائل لاتصاله به، فَحَصَلَ في الآية مطابَقَةُ اللفظِ للمعنى ولَحْظُهما معاً، وتلك الغايةُ في الإِعجاز".

قوله: "سُجَّداً" حالاً مِنْ "ظلالُه" و "سُجَّداً" جمع ساجِد كشاهِد وشُهَّد، وراكِع ورُكَّع.

قوله: ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ في هذه الجملة ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنها حالٌ من الهاءِ في "ظلالُه". قال الزمخشري: "لأنه في معنى الجمع، وهو ما خلق اللهُ مِنْ شيءٍ له ظِلٌّ وجُمع بالواوِ والنون؛ لأنَّ الدُّخورَ من أوصافِ العقلاء، أو لأن في جملة ذلك مَنْ يَعْقِل فَغُلِّبَ".

وقد رَدَّ الشيخُ هذا : بأن الجمهور لا يُجيزون مجيءَ الحال من المضافِ إليه ، وهو نظيرُ : " جاءني غلامُ هندٍ ضاحكةً " قال : " ومَنْ أجاز مجيئَها منه إذا كان المضافُ جزءاً أو كالجزء جوَّز الحاليةَ منه هنا ، لأنَّ الظّلَّ كالجزءِ إذ هو ناشِئٌ عنه " .

الثاني : أنها حالٌ من الضميرِ المستترِ في " سُجَّدا " فهي حالٌ متداخِلةٌ .

الثالث : أنها حالٌ مِنْ " ظلالُه " فينتصبُ عنه حالان .

(181/436)

ثم لك في هذه الواو اعتباران ، أحدُهما : أن تجعلَها عاطفةً حالاً على مثلِها فهي عاطفةٌ ، وليست بواوِ حال ، وإن كان خُلُوُّ الجملةِ الاسميةِ الواقعةِ حالاً من الواو قليلاً أو ممتنعاً على رأيٍ . وممَّن صَرَّح بأنها عاطفةٌ أبو البقاء . والثاني : أنها واوُ الحال ، وعلى هذا فيقال : كيف يقتضي العاملُ حالين ؟ فالجوابُ أنه جاز ذلك لأنَّ الثانيةَ بدلٌ مِن الأولى ، فإن أُريد بالسجودِ التذلُّلُ والخضوعُ فهو / بدلُ كلٍ من كل ، وإن أُريد به حقيقته فهو بدلُ اشتمالٍ ؛ إذ السجودُ مشتملٌ على الدُّخور ، ونظيرُ ما نحن فيه : " جاء زيد ضاحكاً وهو شاكٍ " فقولك " وهو شاكٍ " يحتمل الحاليةَ من " زيد " أو من ضمير " ضاحكاً " .

والدُّخور : التواضعُ قال :

2976- فلم يَبْقَ إلا داخِرٌ في مُخَيَّسٍ . . . ومُنْجَحِرٌ في غيرِ أرضِكَ في جُحْرِ

وقيل: هو القهرُ والغلبةُ . ومعنى داخِرُون: أَذِلَّاءُ صاغِرون .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) ﴾

قوله تعالى: ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ : يجوز أن يكونَ بياناً لِما في السماوات وما في الأرض، ويكون لله تعالى في سمائِه خَلْقٌ يَدِبُّون كما يَدِبُّ الخَلْقُ الذي في الأرض . ويجوز أن يكون بياناً لِما في الأرض فقط . قال الزمخشري: "فإن قلت: فهلاَّ جِيْءَ بـ "مَنْ" دونَ "ما" تغليباً للعقلاءِ مِن الدوابِّ على غيرهم؟ قلت: لأنه لو جِيْءَ بـ "مَنْ" لم يكنْ فيه دليلٌ على التغليب فكأن متناولاً للعقلاءِ خاصة فجيء بما هو صالحٌ للعقلاءِ وغيرِهم إرادةَ العمومِ" .

(182/436)

قال الشيخ: "وظاهرُ السؤالِ تسليمُ أنَّ "مَنْ" قد تشمل العقلاءَ وغيرَهم على جهةِ التغليبِ، وظاهرُ الجوابِ تخصيصُ "مَنْ" بالعقلاء، وأنَّ الصالحَ للعقلاء [وغيرِهم] "ما" دون "مَنْ" وهذا ليس بجواب؛ لأنه أورد السؤالَ على التسليم، ثم أورد الجوابَ على غير

التسليم، فصار المعنى: أنَّ "مَنْ "يُغَلَّبُ بها والجوابَ لا يُغَلَّبُ بها ، وهذا في الحقيقةِ ليس بجوابٍ " .

قوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يجوز أن تكونَ الجملةُ استئنافاً أخبر عنهم بذلك، وأن تكونَ حالاً مِنْ فاعلِ "يَسْجُدُ" .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) ﴾

قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ ﴾ يجوز فيها أن تكونَ مفسِّرةً لعدم استكبارِهم، كأنه قيل: ما لهم لا يَسْتكبرون؟ فأُجيبَ بذلك، ويُحْتمل أن تكونَ حالاً مِنْ فاعل "لا يَسْتكبرون" ومعنى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي: عقابَه .

قوله: ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ يجوز فيه وجهان، أحدهما: أن تتعلَّقَ ب "يَخافون" ، أي: يخافون عذابَ ربهم كائناً مِنْ فوقهم؛ لأنَّ العذابَ إنما ينزل مِنْ فوق . الثاني: أنه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من " ربهم " أي يخافون ربَّهم عالياً عليهم، قاهراً لهم، كقولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: 18] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 224.234 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) ﴾

العبدُ في جميع أحواله عُرْضَةٌ لِسهام التقدير ، فينبغي أن يستشعر الخَوفَ في كلِّ نَفَسٍ من الإصابة بها ، وألَّا يأمن مَكْرَ الله في أي وقت ، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأةِ نفوسُهم وقلوبُهم على ما عَوَّدهم الحقُّ من عوائد المِنَّة ، ولكن كما قيل :

يا راقدَ الليل مسروراً بأَوَّله . . . إن الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحارا

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) ﴾

كل مخلوقٍ من عين أو أثر ، مِنْ حجَر أو مَدَرٍ أو غَبَرٍ فلله – من حيث البرهان – ساجد ، ومن حيث البيان على الوحدانية شاهد .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) ﴾

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة ، فإذا امتَنَعَتْ عن إقامة الشهادة لقوم قالةٌ ، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) ﴾

يخافون الله أن يُنزل عليهم عذاباً من فوق رؤوسهم.

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ لا يعصونه ولا يحيدون عن طاعته.

ويقال خيرُ شيء للعبد في الدنيا والآخرة الخوفُ؛ إذ يمنعه من الزَّلة ويحمله على الطاعة.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 300. 301 ﴾

(184/436)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة:

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾

أي: يدعو إلى الخير ﴿ لّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ أي: للذين وحّدوا في هذه الدنيا، لهم الحسنة في الآخرة أي: الجنة ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ يعني: الجنة ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي: أفضل من الدنيا ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ يعني: المطيعين.

قال مقاتل في قوله: ﴿ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ أي: قالوا للوافد إنه يأمر بالخير، وينهى عن الشر ﴿ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ ثم قطع الكلام.

يقول الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ أي : أحسنوا العمل في هذه الدنيا ، لهم حسنة في الآخرة أي : في الجنة ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ خير يعني : الجنة أفضل من ثواب المشركين الذين يحملون أوزارهم .

ويقال : هذه كلها حكاية كلام المؤمنين ، إلى قوله : ﴿ المتقين ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ تُسِرُّونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

﴿ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ ﴾ بالياء على معنى المغايبة .

وروي عن حفص : الثلاث كلها بالياء على معنى المغايبة .

وقرأ الباقون : بالتاء على معنى المخاطبة .

ثم وصف دار المتقين فقال : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ يعني : الدار التي هي للمتقين جنات عدن ﴿ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءونَ ﴾ أي : يحبون ، ويتمنون ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِى الله المتقين ﴾ أي : هكذا يثبت الله المتقين الشرك .

قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ أي : ملك الموت ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ يقول : زاكين ، طاهرين من الشرك ، والذنوب ، ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي : يقول لهم خزنة الجنة في الآخرة ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ادخلوا الجنة بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا .

ويقال : هذا مقدم ومؤخر .

أي : جنات عدن يدخلونها .

ثم قال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ قرأ حمزة : ﴿ الذين ﴾ بالياء بلفظ التذكير .

(185/436)

والباقون : بالتاء بلفظ التأنيث ، لأن الفعل إذا كان قبل الاسم جاز التذكير والتأنيث .

قوله : ﴿ أَلِيمٍ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ يقول : ما ينظرون وهم أهل مكة ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ أي : ملك الموت يقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي : عذاب ربك يوم بدر ، ويقال : يوم القيامة ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ ﴾ أي : كذلك كذب ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ رسلهم ، كما كذبك قومك ، فأهلكهم الله تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ﴾ يعني : بإهلاكه إياهم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بتكذيبهم رسلهم .

قرأ حمزة والكسائي : إلا أن يأتيهم بالياء بلفظ التذكير ، والباقون بلفظ التأنيث ، لأن الفعل مقدم .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي : جزاء ما عملوا ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي : نزل بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ من العذاب أنه غير نازل بهم .

قوله : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ أي : أهل مكة ﴿ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن

شَىْءٍ ﴾ قالوا ذلك على وجه الاستهزاء .

يعني : إن الله قد شاء لنا ذلك الذي ﴿ نَحْنُ ﴾ فيه ﴿ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ ولكن شاء لنا ولآبائنا ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ ولا آباؤنا ، ولكن شاء لنا من تحريم البحيرة ، والسائبة ، وأمرنا به .

ولو لم يشأ ، ما حرمنا من دونه من شيء .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يقول : هكذا كذب الذين من قبلهم من الأمم ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ أي : ليس عليهم إلا تبليغ الرسالة ﴿ المبين ﴾ أي : بينّوا لهم ما أمروا به .

(186/436)

قوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي : في كل جماعة ﴿ رَسُولًا ﴾ كما بعثناك إلى أهل مكة ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ أي : وحدوا الله ، وأطيعوه ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ أي : اتركوا عبادة الطاغوت ، وهو الشيطان ، والكاهن ، والصنم ، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ لدينه ، وهم الذين أجابوا الرسل للإيمان ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ ﴾ يعني : وجبت ﴿ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ فلم يجب الرسل إلى الإيمان ﴿ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ يقول سافروا في الأرض

﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ يقول: اعتبروا كيف كان آخر أمر المكذبين.

فلما نزلت هذه الآية، قرأها صلى الله عليه وسلم عليهم فلم يؤمنوا، فنزل قوله: ﴿ إن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ ﴾ يعني: على إيمانهم ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ يقول: من يضلل الله، وعلم أنه أهل لذلك، وقدر عليه ذلك.

قال مقاتل: ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طغيانهم يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: 186] قرأ أهل الكوفة، حمزة، وعاصم، والكسائي، ﴿ لاَّ يَهِدّى ﴾ بنصب الياء، وكسر الدال، أي لا يهدي من يضلله الله.

وقرأ الباقون: ﴿ لاَّ يُهِدّى ﴾ بضم الياء، ونصب الدال، على معنى فعل ما لم يسم فاعله، ولم يختلفوا في ﴿ يُضِلَّ ﴾ أنه بضم الياء، وكسر الضاد.

وقال إبراهيم بن الحكم: سألت أبي عن قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ فقال: قال عكرمة.

قال ابن عباس: من يضلله الله لا يهدى ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ أي: من مانعين من نزول العذاب.

قوله: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ وكل ما حلف بالله، فهو جهد اليمين لأنهم كانوا يحلفون بالأصنام بآبائهم، ويسمون اليمين بالله جهد باليمين، وكانوا ينكرون البعث بعد الموت، وحلفوا بالله حين قالوا: ﴿ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ فكذبهم الله تعالى في مقالتهم، فقال: ﴿ بلى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أوجبه على نفسه ليبعثهم بعد الموت.

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث بعد الموت.

قوله: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من الدين يوم القيامة يعني: يبعثهم، ليبين لهم أن ما وعدهم حقّ ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني: ليستبين لهم عندما خرجوا من قبورهم ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كاذبين ﴾ في الدنيا.

قوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ ﴾ يعني: إن بعثهم على الله يسير ﴿ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة: ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بضم النون.

وقرأ الباقون: بالنصب.

قوله: ﴿ والذين هاجروا فِى الله ﴾ أي: هاجروا من مكة إلى المدينة في طاعة الله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أي: عذبوا ﴿ لَنُبَوّئَنَّهُمْ فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ أي: لننزلنهم بالمدينة، ولنعطينهم الغنيمة فهذا الثواب في الدنيا ﴿ وَلأَجْرُ الآخرة ﴾ أي: الجنة ﴿ أَكْبَرَ ﴾ أي: أفضل ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يصدقون بالثواب.

ثم نعتهم فقال : ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على العذاب ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : يثقون به ، ولا يثقون بغيره ، منهم بلال بن حمامة ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان ، وخباب بن الأرت ؛ قال مقاتل : نزلت الآية في هؤلاء الأربعة .

عذبوا على الإيمان بمكة .

(188/436)

وقال في رواية الكلبي : نزلت في ستة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسرهم أهل مكة ، وذكر هؤلاء الأربعة ، واثنين آخرين ، عابس وجبير مولى لقريش .

فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام .

فأما صهيب فابتاع نفسه بماله ، ورجع إلى المدينة وأما سائر أصحابه ، فقالوا بعض ما أرادوا ثم هاجروا إلى المدينة بعد ذلك .

ثم قال قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ كما أوحي إليك ، وذلك أن مشركي قريش لما بلغهم النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة ، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى ، أنكروا ذلك ، وقالوا : لن يبعث الله رجلاً إلينا ، ولو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً ، لبعث إلينا من الملائكة الذين عنده ، فنزل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى الأمم الماضية

﴿ إِلَّا رِجَالًا ﴾ مثلك ﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ كما نوحي إليك قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ نُوحِي ﴾ بالنون وقرأ الباقون : بالياء .

ثم قال : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ أي : أهل التوراة والإنجيل ﴿ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ بالبينات والزبر ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير .

أي : وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم بالبينات ، والزبر .

وروى أسباط عن السدي قال : البينات : الحلال ، والحرام .

والزبر : كتب الأنبياء .

وقال الكلبي : البينات أي : بالآيات الحلال ، والحرام ، والأمر ، والنهي ، ما كانوا يأتون به قومهم منها ، وهو كتاب النبوة .

ويقال : البينات التي كانت تأتي بها الأنبياء ، مثل عصا موسى وناقة صالح .

وقال مقاتل : ﴿ والزبر ﴾ يعني : حديث الكتب .

ثم قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ يعني : القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ لتقرأ للناس ﴿ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : ما أمروا به في الكتاب ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يتفكروا فيه ، ليؤمنوا به .

ثم خوّفهم فقال: ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾ أي: أشركوا بالله ﴿ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأرض ﴾ يعني: أن تغور الأرض بهم، حتى يدخلوا فيها إلى الأرض السفلى ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي: من حيث لا يعلمون بهلاكهم.

قوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي: في ذهابهم، ومجيئهم في تجارتهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي: بفائتين ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ أي: على تنقص.

ويقال: يأخذ قرية بالعذاب، ويترك أخرى قريبةً منها، فيخوفها بمثل ذلك.

وهذا قول مقاتل: وروي عن بعض التابعين أن عمر سأل جلساءه عن قوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ فقالوا: ما نرى إلا عند بعض ما يرون من الآيات يخوفهم، فقال عمر: ما أراه إلاَّ عند ما يتنقصون من معاصي الله، فخرج رجل فلقي أعرابياً، فقال: يا فلان ما فعل دينك؟ قال: تخيلته أي: تنقصته.

فرجع إليه فأخبره بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: لا يعجل عليهم بالعقوبة.

قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ أَوَلَمْ تَرَوْاْ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون: بالياء على معنى المغايبة يعني: أولم يعتبروا ﴿ إلى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ عند طلوع الشمس وعند غروبها ﴿ يَتَفَيَّأُ ظلاله ﴾ يعني: يدور ظله ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ قال القتبي: أصل الفيء الرجوع.

وتفيؤ الظلال : رجوعها من جانب إلى جانب ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ داخرون ﴾ أي : صاغرون ، وهم مطيعون .

وأصل السجود التطأطؤ ، والميل .

يقال : سجد البعير إذا تطأطأ ، وسجدت النخلة إذا مالت .

ثم قد يستعار السجود ، ويوضع موضع الاستسلام ، والطاعة ، ودوران الظل ، من جانب إلى جانب .

هو سجوده لأنه مستسلم ، منقاد ، مطيع .

(190/436)

فذلك قوله : ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ داخرون ﴾ قرأ أبو عمرو : ﴿ تَتَفَيَّأُ ﴾ بالتاء بلفظ التأنيث ، والباقون : بالياء ، لأن تأنيثه ليس بحقيقي ، ولأن الفعل مقدم ، فيجوز التذكير والتأنيث .

ثم قال تعالى : ﴿ داخرون وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ أي : يستسلم ﴿ مَا فِي السموات ﴾ من الملائكة ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، ﴿ وَمَا فِى الأرض مِن دَآبَّةٍ ﴾ يعني : يسجد لله جميع ما في الأرض من دابة ﴿ والملئكة ﴾ يعني : وما على الأرض من الملائكة .

ويقال : فيه تقديم وتأخير ، ومعناه : ما في السموات من الملائكة ، وما في الأرض من دابة .

ويقال : معناه يسجد له جميع ما في السموات ، وما في الأرض ، من دابة والملائكة .

يعني : الدواب ، والملائكة ، والذين هم في السموات والأرض .

ثم قال : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : لا يتعظمون عن السجود لله تعالى ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي : يخافون الله تعالى .

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنَّ لله تَعَالَى مَلائِكَةً فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ سُجّداً مُذْ خَلَقَهُمُ الله تَعَالَى إلى يَوْمِ القِيَامَةِ تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَةِ الله تَعَالَى ، فَإذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَقَالُوا : ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبادَتِك ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ " أي : يخافون خوفاً ، معظمين ، مبجلين .

ويقال : خوفم بالقهر ، والغلبة ، والسلطان .

ويقال : معناه يخافون ربهم الذي على العرش ، كما وصف نفسه بعلوه ، وقدرته ، والطريق الأول أوضح كقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ وَمَنْ أوفى بِمَا عاهد عَلَيْهِ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 10] أي : لا يعصون الله تعالى طرفة عين .

قرأ أبو عمرو : ﴿ يتفيؤا ﴾ بالتاء بلفظ التأنيث .

وقرأ الباقون : بالياء لأن تأنيثه مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 272 . 276 ﴾

(191/436)

وقال الثعلبى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾

وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه ، فيقولون : شاعر وساحر وكاهن وكاذب ومجنون [ويفرّق الأخوان] ويقولون : إنه لو لم تلقه خير لك ، فيقول السائل : أنا شرّ داخل إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة وأستطلع أمر محمّد أو ألقاه ، فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وأنه نبي مبعوث ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً ﴾ .

فإن قيل : لِمَ ارتفع جواب المشركين في قولهم ﴿ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ وانتصب في قوله ﴿ خَيْراً ﴾ .

فالجواب : أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل فلما سئلوا قالوا : ﴿ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ يعني الذي

يقوله محمد صلى الله عليه وسلم أساطير الأولين ، والمؤمنين إنما كانوا مقرّين بالتنزيل ، فإذا قيل لهم : ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ يعنون أنزل خيرا .

ثمّ ابتدأ فقال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ كرامة من الله ، ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ ثمّ فسرّها فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ بدل عن النار ، فلذلك ارتفع ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين * الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ ﴾ مؤمنين . مجاهد : زاكية أعمالهم وأقوالهم .

﴿ يَقُولُونَ ﴾ يعني في الآية ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال القرظي : إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك وليّ الله ، الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائكة ﴾ يقبضون أرواحهم .

(192/436)

﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ يعني يوم القيامة ، وقيل : العذاب ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ﴾ بتعذيبه إياهم ﴿ ولكن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة .

﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل ﴿ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا ﴾ قل للذين اقتدينا بهم ﴿ وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ يعني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فلولا أن رضيها لغيّر ذلك ببعض عقوباته أو هدانا إلى غيرها .

قال الله : ﴿ كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ يعني إلاّ عليه ، فإنها لم تحرم هذه الأشياء وأنهم ادعوا على الله .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ يعني بأن اعبدوا الله ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ وهو كل معبود من دون الله ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله ﴾ في دينه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ ﴾ أي وجبت عليه الضلالة حتّى مات على كفره ﴿ فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ أي خراب منازلهم وديارهم بالعذاب والهلاك ﴿ إِن تَحْرِصْ ﴾ يا محمّد ﴿ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ .

قرأ أهل الكوفة : يهدي بفتح الياء وقسموا ذلك ، ولها وجهان : أحدهما : إن معناه فإنّ الله لا يهدي من أضله الله ، والآخر : أن يكون يهدي بمعنى يهتدي ، بمعنى من أضله الله لا يهتدي يقول العرب : هدى الرجل وهم يريدون اهتدى .

وقرأ الباقون : بضم الياء وفتح الدال ، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم على معنى من أضله الله فلا هادي له ، دليله : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : 186] . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ يمنعونهم من عذاب الله ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ .

الربيع عن أبي العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلّم به : والذي أرجوه بعد الموت أنه لكذا ، فقال المشرك : وإنك لتزعم أنك تُبعث بعد الموت فأقسم بالله (لا يبعث الله من يموت) فأنزل الله هذه الآية .

قتادة : ذكر لنا أن رجلاً قال لابن عبّاس : إن ناساً بالعراق يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة ويتأولون هذه الآية .

فقال ابن عبّاس : كذب أولئك ، إنما هذه الآية عامة للناس ، لو كان عليّ مبعوثاً قبل يوم القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه ، قال الله رداً عليهم : ﴿ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ . في الخبر أن الله تعالى يقول : كذّبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وشتمني ابن آدم ولا ينبغي له أن يشتمني ، وأمّا تكذيبه إياي فحلفه بي أن لا أبعث الخلق ، وأمّا شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الله الواحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد .

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ هو مردود إلى قوله : ﴿ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ يبين لهؤلاء المنكرين المقتسمين الذين يختلفون ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ الآية ، يقول الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم ولا في غير ذلك [مما نخلق ونكّون ونُحْدث] ، لأنا إذا أردنا خلق شيء وإنشاؤه ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وفي هذه الآية دليل على أنّ القرآن غير مخلوق ، فذكر أن الله عزّ وجلّ أخبر أنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، فلو كان قوله كن مخلوقاً لاحتاج إلى قول ثان ولا حتاج ذلك القول إلى قول ثالث إلى ما لا نهاية فلما بطل ذلك ثبت أن الله خلق الخلق بكلام غير مخلوق .

﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ عُذّبوا وقُتلوا في الله ، نزلت في بلال وصهيب وخبّاب وعمار وعابس وجبير وأبي جندل بن سهيل ، أخذهم المشركون بمكة فعذّبوهم .

وقال قتادة : يعني أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتّى لحق جماعة منهم بالحبشة ثمّ بوّأهم الله بالمدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار

الهجرة وجعل لهم على من ظلمهم [أنصارا من المؤمنين والآية تعم الجميع] .

﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ أنزلهم المدينة وأطعمهم الغنيمة .

ويروى إن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان إذا أعطى لرجل من المهاجرين عطاء يقول : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أفضل ، ثمّ تلا هذه الآية .

(195/436)

وقال بعض أهل المعاني : مجاز قوله تعالى : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ ليحسنّن إليهم في الدنيا . ﴿ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * الذين صَبَرُواْ ﴾ في الله على ما نابهم ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ ﴾ الآية نزلت في مشركي مكة حين أنكروا نبوة محمّد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فهّلا بعثت إلينا ملكاً .

﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ يعني هم أهل الكتاب ﴿ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ * بالبينات والزبر ﴾ فإن قيل : ما الجالب لهذه الباء ؟

قيل : قد اختلفوا في ذلك : فقال بعضهم : هي من صلة أرسلنا و ﴿ إِلاَّ ﴾ بمعنى غير ،

مجازه: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر غير رجال يوحى إليهم ولم نبعث ملائكة.

وهذا كما تقول: ماضرب إلاّ أخوك عمر، وهل كلم إلاّ أخوك زيداً، بمعنى ماضرب عمر غير أخيك، هل كلم زيداً غير أخيك.

قال أوس بن حجر:

أبني لبيني لستمُ بيد ... إلا يد ليست لها عضد

يعني غير يده، قال الله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: 22] أي غير الله.

وقال بعضهم: إنما هذا على كلامين، يريد: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً أرسلنا بالبينات والزبر ويشهد على ذلك بقول الأعمش:

وليس مجيراً إن أتى الحي خائف ... ولا قائلا إلاّ هو المتعيّبا

يقول: لو كان بذلك على كلمة لكان خطأ من سفه القائل، ولكن جاء ذلك على كلامين كقول الآخر:

نبّئتهم عذّبوا بالنار جارهم ... وهل يعذّب إلاّ الله بالنار

وتأويل الكلام: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر.

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾ يعني نمرود بن كنعان وغيره من الكفار وأهل الأوثان ﴿ أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ ﴾ العقاب ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ تصرفهم في أسفارهم بالليل والنهار ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ مسابقي الله ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ .

قال الضحاك والكلبي : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ يعني يأخذ طائفة ويدع فتخاف الطائفة الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها .

وقال سائر المفسرين : التخوّف : التنقّص ، يعني ينقص من أطرافهم ونواصيهم الشيء بهذا الشيء حتّى يهلك جميعهم . يقال : تخوّف مال فلان الإنفاق ، إذا انتقصه وأخذه من حافاته وأطرافه .

وقال الهيثم بن عدي : هي لغة لازد شنوءة ، وأنشد :

تخوّف عدوهم مالي وأهدى . . . سلاسل في الحلوق لها صليل

قال سعيد بن المسيب : بينما عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على المنبر فقال : يا أيها الناس ما تقولون في قول الله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ فسكت الناس ، فقام شيخ فقال : يا أمير المؤمنين هذه لغتنا في هذيل ، التخوّف : التنقص ، فقال عمر : وهل تعرف

العرب ذلك في أشعارهم قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي : [يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه] .

تخوّف السير منها تامكاً قرداً . . . كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر :

يا أيها الناس عليكم بديوانكم الجاهلية . . . فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني لم يعجّل العقوبة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والأعمش : (تروا) بالتاء على الخطاب ، وقرأ الآخرون بالياء خبراً عن الذين مكروا السيئات وهو اختيار الأئمة .

(197/436)

﴿ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ يعني من جسم قائم له ظل ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلَّهِ ﴾ .

بالتاء أهل البصرة . الباقون بالياء ، ومعنى قوله ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ ﴾ : يميل ويرجع من جانب إلى جانب فهي في أوّل النهار ثمّ تعود إلى حال أخرى في آخر النهار ، فميلانها ودورانها من موضع إلى موضع سجودها ، ومنه قيل للظل بالعشي : فيء ، لأنه فاء من

المغرب إلى المشرق ، والفي : الرجوع ، قال الله : ﴿ حتى تفياء إلى أَمْرِ الله ﴾ [الحجرات : 9] يقال : سجدت النخلة إذا حالت ، وسجد البعير وأسجد إذا جعل للركوب ، ومثله قال في هذه الآية على هذا التأويل .

قتادة والضحاك : أمّا اليمين فأول النهار وأمّا الشمال فآخر النهار ، تسجد الضلال لله غدوة إلى أن تفيء الظلال ثمّ تسجد أيضاً إلى الليل .

وقال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله .

وقال عبد الله بن عمر : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " " أربع قبل الظهر بعد الزوال تحسب بمثلهن في صلاة السحر وليس من شيء إلاّ وهو يسبح لله تعالى تلك الساعة " ثمّ قرأ ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ﴾ " الآية .

الكلبي : الظل قبل طلوع الشمس عن يمينك وعن شمالك وقدامك وخلفك ، ولذلك إذا غابت وإذا طلعت كان قدامك ، فإذا إرتفعت كان عن يمينك وإذا كان بعد ذلك كان خلفك ، فإذا كان قبل أن تغيب الشمس كان على يسارك فهذا تفيؤه أي تضلله ها هنا وهاهنا ، وهو سجوده .

وأمّا الوجه في توحيد اليمين وجمع الشمال ، فهو أنّ من شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن يبقى واحدة ويلقى الأخرى ، واكتفي بالملقي على الملقى بقوله : ﴿

خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] كقوله : ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] .

(198/436)

وقال بعضهم : اليمين راجع إلى قوله : ﴿ مَا خَلَقَ ﴾ ولفظة من أحد ، والشمائل راجعة إلى المعنى وقيل : هذا في الكلام كثير .

قال الشاعر :

بفي الشامتين الصخر إن كان هدني . . . رزية شبلي مخدر في الضراغم

لم يقل : بأفواه الشامتين .

وقال آخر :

الواردون وتيم في ذرا سبأ . . . قد عض أعناقهم جلد الجواميس

لم يقل : جلود .

﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ صاغرون ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [وإنما أخبر ب (ما) عن الذي يعقل ولا يعقل على التغلب ، كما يغلب الكثير على القليل والمذكر على المؤنث] ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ يدب عليها كل حيوان يموت ، كقوله : ﴿ وَمَا مِن

دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] وقوله : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود : 56] .

﴿ والملائكة ﴾ خص الملائكة بالذكر مع كونهم من جملتها في الآية لرفع شأنهم ، وقيل : لخروجهم من جملة الموصوفين بالتسبيب إذ جعل الله لهم أجنحة كما قال تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ ﴾ [فاطر : 1] فالطيران أغلب عليهم من الدبيب ، وقيل : أراد لله يسجد ما في السماوات من الملائكة وما في الأرض من دابة ويسجد ملائكة الأرض .

﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ يعني : يخافون [قدرة] ربهم أن يأتيهم بالعذاب من فوقهم ، ويدل عليه قوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ما يؤمرون يعني الملائكة ، وقيل : معناه يخافون ربهم الذي فوقهم بالقول والقدرة فلا يعجزه شيء ولا يغلبه أحد [يدل عليه] قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : 18] وقوله إخباراً عن فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف : 127] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 21.14 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ماذا أُنْزَلَ رَبُّكُمْ قالوا خَيْراً ﴾

خَيْراً أنزل خيراً . فإن قلت : لم نصب هذا ورفع الأول ؟ قلت : فصلا بين جواب المقرّ وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال ، فقالوا خيراً : أى أنزل خيراً ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأوّلين ، وليس من الإنزال في شيء . وروى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا جاء الواقد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا : إن لم تلقه كان خيراً لك ، فيقول : أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه ، فيلقى أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيخبرونه بصدقه ، وأنه نبىّ مبعوث ، فهم الذين قالوا خيراً . وقوله لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا وما بعده بدل من خيراً ، حكاية لقوله الذين اتقوا ، أى : قالوا هذا القول ، فقدّم عليه تسميته خيراً ثم حكاه .

ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ عدة للقائلين ، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه حَسَنَةٌ مكافأة في الدنيا بإحسانهم ، ولهم في الآخرة ما هو خير منها ، كقوله فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ . وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ دار الآخرة ، فحذف المخصوص بالمدح لتقدّم ذكره . وجَنَّاتُ عَدْنٍ خبر مبتدإ محذوف . ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح

طَيِّبِينَ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولىّ اللّه، اللّه يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

[سورة النحل (16): الآيات 33 إلى 34]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (34)

تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ

قرئ بالتاء والياء، يعنى: أن تأتيهم لقبض الأرواح. وأَمْرُ رَبِّكَ

(200/436)

العذاب المستأصل، أو القيامة ذلِكَ

أى مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

بتدميرهم وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا جزاء سيئات أعمالهم. أو هو كقوله

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها

[سورة النحل (16) : آية 35]

وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35)

هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم باللّه وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله، استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم، واستكبارهم عن قبول الحق، يعنى: أنهم أشركوا باللّه وحرّموا ما أحل اللّه، من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى اللّه وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه «1» كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى أشركوا وحرموا حلال اللّه «2»، فلما نبهوا على قبح فعلهم

---

(1). قوله «وقالوا لو شاء اللّه لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه» يعنى أهل السنة، وليس كما قال، بل قاله المشركون استهزاء، وأهل السنة اعتقادا، كما أفاده النسفي. وكل ما شاء، اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، شرا كان أو خيرا. وكل أمر بقضائه تعالى وقدره، شرا كان أو خيراً. وهو الخالق لأفعال العباد وإن كانت بكسبهم واختيارهم، خلافا للمعتزلة في جميع ذلك، كما أطال به فيما سيأتى هنا انتصارا للمعتزلة. (ع)

(2). قال محمود: «يعنى أنهم أشركوا باللّه وحرموا ما أحل اللّه... الخ» قال أحمد:

قد تكرر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المتقدمة في سورة الأنعام ، وقد قدمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء اللّه ، والذي زاده هنا يثبت معتقده على زعمه بقوله تعالى وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ووجه تمسكه به أن اللّه تعالى قسم العبادة إلى قسمين : مأمور به ومنهى عنه . والأمر والنهى عند المصنف راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس وحمل الاقتضاء على الارادة ، فالحاصل حينئذ من هذه التتمة أن اللّه شاء عبادة الخلق له وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت ، ولم يشأ منهم أن يشركوا به ، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمة من الأمم ، فجاءت التتمة مترجمة عن معنى صدر الآية ، مؤكدة بمقتضاها . هذا هو الذي زاده المصنف هاهنا ، وقد بينا أن مبناه على إنكار كلام النفس الثابت قطعا ، فهو باطل جزما . والعجب أن اللّه تعالى أوضح في الآيتين جميعاً أن الذي أنكره من القائلين لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا إنما هو احتجاجهم على اللّه تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها ، مع ما خلق لهم من الاختيار بقوله هاهنا فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ وبقوله في آخر آية الأنعام فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ فتبين فيهما أنه هو الذي شاء منهم الاشراك والضلالة ، ولو شاء هدايتهم أجمعين لاهتدوا عن آخرهم . وحصل من هذا البيان : صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة للّه تعالى ، وذلك هو الذي قدمناه

في إقامتهم الحجة على اللّه بمشيئته ، مع أن حجتهم في ذلك داحضة ، وللّه عليهم الحجة البالغة الواضحة ، واللّه الموفق .

(201/436)

وركّوه على ربهم «1» فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلا أن يبلغوا الحق ، وأن اللّه لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان ، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة اللّه تعالى من أفعال العباد ، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم ، واللّه تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له ، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه .

[سورة النحل (16) : آية 36]

وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36)

ولقد أمدّ إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة اللّه ، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ أى لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ أى ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف ، لأنه عرفه مصمما على الكفر لا يأتى منه خير فَسِيرُوا

فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ما فعلت بالمكذبين حتى لا يبقى لكم شبهة في أنى لا أقدّر الشر ولا أشاؤه، حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.

[سورة النحل (16) : آية 37]

إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (37)

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيمانهم، وعرّفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، وأنه لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ أى لا يلطف بمن يخذل، لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث، لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه. وقرئ: لا يهدى «2»، أى:

لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله. وقوله وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ دليل على أنّ المراد بالإضلال: الخذلان الذي هو نقيض النصرة. ويجوز أن يكون لا يَهْدِي بمعنى لا يهتدى. يقال: هداه الله فهدى. وفي قراءة أبىّ: فإنّ الله لا هادى لمن يضل، ولمن أضلّ «3»، وهي معاضدة لمن قرأ لا يَهْدِي على البناء للمفعول. وفي قراءة عبد الله: يهدى، بإدغام تاء يهتدى، وهي معاضدة للأولى. وقرئ «يضل» بالفتح. وقرأ النخعي: إن تحرص، بفتح الراء، وهي لغية.

---

(1) . قوله «وركوه على ربهم» أى اتهموه به. (ع)

(2) . قوله «وقرئ لا يهدى» أى بالبناء المجهول، كما أفاده النسفي. (ع)

(3) . قوله «وفي قراءة أبى : فان اللّه لا هادى لمن يضل ولمن أضل» ظاهره أن هذه قراءة أخرى لأبى ، فليحرر . (ع)

(202/436)

[سورة النحل (16) : الآيات 38 إلى 39]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (39)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ معطوف على وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إيذانا بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان ، حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا : توريك ذنوبهم على مشيئة «1» اللّه ، وإنكارهم البعث مقسمين عليه . وبَلى إثبات لما بعد النفي ، أى : بلى يبعثهم . ووعد اللّه : مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى . لأن يبعث موعد من اللّه ، وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب «2» على اللّه ، لأنهم يقولون : لا يجب على اللّه شيء ، لا ثواب عامل ولا غيره من مواجب الحكمة لِيُبَيِّنَ لَهُمُ متعلق بما دل عليه «بلى» أى يبعثهم ليبين لهم . والضمير لمن يموت ، وهو عام للمؤمنين والكافرين ، والذي اختلفوا فيه هو الحق وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كذبوا في قولهم :

لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شيء ، وفي قولهم : لا يبعث اللّه من يموت . وقيل : يجوز أن يتعلق بقوله وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله ، مفترين على اللّه الكذب .

[سورة النحل (16) : آية 40]

إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

قَوْلُنا مبتدأ ، وأَنْ نَقُولَ خبره . كُنْ فَيَكُونُ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود ، أى : إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له : أحدث ، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف ، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه ، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل ، ولا قول ثم ، والمعنى : أنّ إيجاد كل مقدور على اللّه تعالى بهذه السهولة ، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات . وقرئ : فيكون ، عطفاً على نَقُولَ .

[سورة النحل (16) : الآيات 41 إلى 42]

وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

---

(1) . قوله «توريك ذنوبهم على مشيئة اللّه» أى نسبة ذنوبهم إلى مشيئته تعالى واتهامها بها . (ع)

(2) . قوله «أو أنه وعد واجب على اللّه . . . الخ» الكلام في الكفار . وعرض فيه المصنف بأهل السنة تعصبا للمعتزلة في قولهم بوجوب الصلاح عليه تعالى فافهم . (ع)

(203/436)

وَالَّذِينَ هاجَرُوا هم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه ، ظلمهم أهل مكة ففرّوا بدينهم إلى اللّه ، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين . ومنهم من هاجر إلى المدينة . وقيل : هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكلما خرجوا تبعوهم فردّوهم : منهم بلال ، وصهيب ، وخباب ، وعمار . وعن صهيب أنه قال لهم : أنا رجل كبير ، إن كنت معكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضرّكم ، فافتدى منهم بماله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر رضى اللّه عنه قال له : ربح البيع يا صهيب . وقال له عمر : نعم الرجل صهيب ، لو لم يخف اللّه لم يعصه ، وهو ثناء عظيم : يريد لو لم يخلق اللّه نارا لأطاعه «1» ، فكيف فِي اللَّهِ في حقه ولوجهه حَسَنَةً صفة للمصدر ، أى لنبوأنهم تبوئة حسنة . وفي قراءة على رضى اللّه عنه : لنثوّينهم . ومعناه : أثواة حسنة . وقيل : لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة ، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم ، وعلى العرب قاطبة ، وعلى أهل المشرق والمغرب . وعن عمر رضى اللّه عنه

أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك اللّه لك فيه ، هذا ما وعدك ربك في الدنيا ، وما ذخر لك في الآخرة أكثر . وقيل : لنبوّأنهم مباءة حسنة وهي المدينة ، حيث آواهم أهلها ونصروهم لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الضمير للكفار ، أى : لو علموا أنّ اللّه يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة ، لرغبوا في دينهم . ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين ، أى : لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم الَّذِينَ صَبَرُوا على : هم الذين صبروا . أو أعنى الذين صبروا ، وكلاهما مدح ، أى : صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم اللّه المحبوب في كل قلب ، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم ، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل اللّه .

[سورة النحل (16) : الآيات 43 إلى 44]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)

قالت قريش : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فقيل وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ على ألسنة الملائكة فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ وهم أهل الكتاب ، ليعلموكم أن اللّه لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشرا . فإن قلت : بم تعلق قوله بِالْبَيِّناتِ ؟ قلت : له متعلقات شتى ، فاما أن يتعلق بما أرسلنا داخلا تحت حكم الاستثناء مع رجالا أى : وما أرسلنا

(1) . قوله «لو لم يخلق اللّه نارا لأطاعه فكيف» أى فكيف لا يطيعه. وقد خلقها لمن عصى. (ع)

(204/436)

إلا رجالا بالبينات، كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط، لأن أصله: ضربت زيداً بالسوط وإما برجالا، صفة له: أى رجالا ملتبسين بالبينات. وإما بأرسلنا مضمراً، كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت بالبينات، فهو على كلامين، والأوّل على كلام واحد. وإما بيوحى، أى:

يوحى إليهم بالبينات. وإما بلا تعلمون، على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطنى حقي. وقوله فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ اعتراض على الوجوه المتقدّمة، وأهل الذكر: أهل الكتاب. وقيل للكتاب الذكر، لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ يعنى ما نزل اللّه إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

[سورة النحل (16) : الآيات 45 إلى 47]

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا

يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (47)

مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أى المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1» فِي تَقَلُّبِهِمْ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم عَلى تَخَوُّفٍ متخوفين، وهو أن يهلك قوما قبلهم فيتخوّفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ وقيل: هو من قولك: تخوفنه وتخونته، إذا تنقصته:

قال زهير:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ «2»

أى يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا. وعن عمر رضى اللّه عنه. أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا: التخوّف

---

(1). قوله «وما مكروا به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» ضمن المكر معنى الخدع، فعدى إلى المفعول. (ع)

(2). لأبى كبير الهذلي. وقيل لزهير. والتخوف: التنقص شيئا فشيئا. والتامك: السنام المرتفع. والقرد:

الذي أكله القراد من كثرة أسفارها . أو الذي تنقب وفسد من الرحل في السفر . والنبعة : واحدة النبع ، وهو شجر تتخذ منه القسي . ويروى : ظهر النبعة . والسفن : المبرد الحديد الذي ينحت به الخشب ، يقول : تنقص رحلها سنامها المرتفع الذي تنقب من كثرة السفر ، كما تنقص المبرد عود النبعة . وفيه تشبيه بها في الصلابة . وروى أن عمر قال على المنبر : ما تقولون في قوله تعالى أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فسكتوا ، فقال شيخ من هذيل : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص ، وأنشد البيت ، فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فان فيه تفسير كتابكم .

(205/436)

التنقص . قال : فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا . وأنشد البيت .

فقال عمر : أيها الناس ، عليكم بديوانكم لا يضل . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث يحلم عنكم ، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم .

[سورة النحل (16) : آية 48]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (48)

قرئ: أو لم يروا. ويتفيؤا، بالياء والتاء. وما موصولة بخلق الله، وهو مبهم بيانه مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ واليمين، بمعنى الأيمان. وسُجَّداً حال من الظلال. وَهُمْ داخِرُونَ حال من الضمير في ظلاله، لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو، لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب. والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أى عن جانبي كل واحد منها. وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبى الشيء، أى: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها، لا تمتنع.

[سورة النحل (16): الآيات 49 إلى 50]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (50)

مِنْ دابَّةٍ يجوز أن يكون بيانا لما في السموات وما في الأرض جميعا، على أنّ في السموات خلقا لله يدبون فيها كما يدب الأناسى في الأرض، وأن يكون بيانا لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الملائكة. وكرّر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصا من بين

الساجدين ، لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم . ويجوز أن يراد بما في السموات : ملائكتهنّ . وبقوله والملائكة : ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم ، فإن قلت : سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم ، «1» فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ؟ قلت : المراد بسجود

---

(1) . قال محمود : «إن قلت سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم ، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد . . . الخ» ؟ قال أحمد : وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته ومجازه شمولا ولم يرد ذلك متناقضا ، فان السجود يتناول هل المكلف حقيقة يتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه ، وقد أريد جميعا من الآية ، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه ، هذا وظاهر مراده هاهنا أن السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف وحال غير المكلف ، وهو عدم الامتناع عند القدرية ، وغرضه من ذلك أن يكون اللفظ متواطئا فيهما جميعا ، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز ، لأنه يأبى ذلك ، ولا ينم له هذا المقصد في الآية - واللّه أعلم - لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود المذكور فيها منسوبا للمكلفين هو الفعل الخاص المتعارف شرعا ، الذي يكون ذكره سببا لفعلة سببية معتادة في عزائم السجود ، لا القدر الأعم المشترك ، واللّه أعلم .

المكلفين : طاعتهم وعبادتهم ، وسجود غيرهم : انقياده لإرادة اللّه وأنها غير ممتنعة عليها ، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا ، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد . فإن قلت :

فهلا جيء بمن دون «ما» تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم ؟ قلت : لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب ، فكان متناولا للعقلاء خاصة ، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ، إرادة العموم يَخافُونَ يجوز أن يكون حالا من الضمير «1» في لا يَسْتَكْبِرُونَ أى : لا يستكبرون خائفين ، وأن يكون بيانا لنفى الاستكبار وتأكيداً له ، لأنّ من خاف اللّه لم يستكبر عن عبادته مِنْ فَوْقِهِمْ إن علقته بيخافون ، فمعناه : يخافونه أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم ، وإن علقته بربهم حالا منه فمعناه : يخافون ربهم عاليا لهم قاهرا ، كقوله وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين ، وأنهم بين الخوف والرجاء . انتهى ا . هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 603. 610﴾

---

(1) . قال محمود : «يجوز أن يكون حالا من الضمير . . . الخ» قال أحمد : هذا الثاني هو

الوجه ليس الأول ، وأما الحال فيعطى انتقالا ، ويوهم تقيد العدم استكبارهم ، مع أن الواقع أو عدم استكبارهم مطلق غير مقيد بحال ، والله الموفق .

(207/436)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقيل للذين اتَّقَوا ماذا أنزل ربكم ﴾

روى أبو صالح عن ابن عباس أنّ مشركي قريش بعثوا ستة عشر رجلاً إلى عِقاب مكة أيام الحج على طريق الناس ، ففرّقوهم على كل عَقَبَةٍ أربعة رجال ، ليصدُّوا الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالوا لهم : مَنْ أتاكم من الناس يسألكم عن محمد فليقُلْ بعضكم : شاعِرٌ ، وبَعْضُكم : كاهِنٌ ، وبَعْضُكم : مجنون ، وألاّ ترَوْه ولا يراكم خَيْرٌ لكم ، فإذا انتَهوا إلينا ، صدّقناكم ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إلى كل أربعة منهم أربعةً من المسلمين ، فيهم عبد الله بن مسعود ، فأُمِرُوا أن يكذّبوهم ، فكان الناس إذا مرُّوا على المشركين ، فقالوا ما قالوا ، ردّ عليهم المسلمون ، وقالوا : كذبوا ، بل يدعو إلى الحق ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى الخير ، فيقولون : وما هذا الخير الذي يدعوا إليه ؟ فيقولون :

﴿ للذين أُحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قالوا خيراً ﴾ أي : أنزل خيراً ، ثم فسر ذلك الخير فقال : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا ﴾ قالوا : لا إِله إِلا الله ، وأحسنوا العمل ﴿ حسنةً ﴾ أي : كرامة من الله تعالى في الآخرة ، وهي الجنة ، وقيل : "للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة" في الدنيا وهي ما رزقهم من خيرها وطاعته فيها ، ﴿ ولدار الآخرة ﴾ يعني : الجنة ﴿ خير من الدنيا ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ قولان :

أحدهما : أنها الجنة ، قاله الجمهور .

قال ابن الأنباري : في الكلام محذوف ، تقديره : ولنعم دار المتقين الآخرةُ ، غير أنه لما ذُكرت أولاً ، عرف معناها آخراً ، ويجوز أن يكون المعنى : ولنعم دار المتقين جنات عَدْنٍ .

والثاني : أنها الدنيا .

قال الحسن : ولنعم دار المتقين الدنيا ، لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ قد شرحناه في [براءة : 72] .

قوله تعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ وقرأ حمزة "يتوفاهم" بياء مع الإِمالة .

وفي معنى "طَيِّبِينَ" خمسة أقوال :

أحدها : مؤمنين .

والثاني : طاهرين من الشرك .

والثالث : زاكية أفعالهم وأقوالهم .

والرابع : طيبةٌ وفاتُهم ، سَهْلٌ خروجُ أرواحهم .

والخامسة : طيبة أنفسهم بالموت ، ثقة بالثواب .

قوله تعالى : ﴿ يقولون ﴾ يعني الملائكة ﴿ سلام عليكم ﴾ .

وفي أي وقت يكون هذا [السلام] ؟ فيه قولان :

أحدهما : عند الموت .

قال البراء بن عازب : يسلِم عليه ملك الموت إِذا دخل عليه .

وقال القرظي : ويقول له : الله عز وجل يقرأ عليك السلام ، ويبشره بالجنة .

والثاني : عند دخول الجنة .

قال مقاتل : هذا قول خزنة الجنة لهم في الآخرة يقولون : سلام عليكم .

قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إِلاَّ أن تأتيهم الملائكة ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي "يأتيهم" بالياء ، وهذا تهديد للمشركين ، وقد شرحناه في [البقرة : 210] وآخر [الأنعام : 158] .

وفي قوله تعالى: ﴿ أو يأتيَ أمر ربك ﴾ قولان:

أحدهما: أمر الله فيهم، قاله ابن عباس.

والثاني: العذاب في الدنيا، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ يريد: كفار الأمم الماضية، كذَّبوا كما كذَّب هؤلاء.

﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بإهلاكهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾، بالشرك ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ أي: جزاؤها، قال ابن عباس: جزاء ما عملوا من الشرك، ﴿ وحاق بهم ﴾ قد بيناه في [الأنعام: 10]، والمعنى: أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ من العذاب.

(209/436)

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ يعني: كفار مكة ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ يعني: الأصنام أي لو شاء ما أشركنا ولا حرَّمنا من دونه من شيء من البَحِيرَة، والسائبة، والوصيلة، والحَامِ، والحرث، وذلك أنه لما نزل ﴿ وما تشاؤون إلاَّ أن يشاء الله ﴾ [الدهر: 30] قالوا هذا، على سبيل الاستهزاء، لا على سبيل الاعتقاد

، وقيل : معنى كلامهم : لو لم يأمرنا بهذا ويُرِدْهُ منّا ، لم نأته .

قوله تعالى : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي : من تكذيب الرسل وتحريم ما أحل الله ، ﴿ فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين ﴾ يعني : ليس عليهم إلاّ التبليغ ، فأما الهداية ، فهي إلى الله تعالى ، وبيَّن ذلك بقوله : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ أي : كما بعثناك في هؤلاء ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ أي : وحِّدوه ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ وهو الشيطان ﴿ فمنهم مَنْ هدى الله ﴾ أي : أرشده ﴿ ومنهم مَنْ حقت عليه الضلالة ﴾ أي : وجبت في سابق علم الله ، فأعلم الله عز وجل أنه إنّما بعث الرسل بالأمر بالعبادة ، وهو من وراء الإضلال والهداية ، ﴿ فسيروا في الأرض ﴾ أي : معتبرين بآثار الأمم المكذبة .

ثم أكد أن من حقت عليه الضلالة لا يهتدي ، فقال : ﴿ إن تحرص على هداهم ﴾ أي : [إن] تطلب هداهم بجهدك ﴿ فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، "لا يُهدَى" برفع الياء وفتح الدال ، والمعنى : من أضله ، فلا هادي له ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "يَهْدِي" بفتح الياء وكسر الدال ، ولم يختلفوا في ﴿ يُضِل ﴾ أنها بضم الياء وكسر الضاد ، وهذه القراءة تحتمل معنيين ، ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : لا يهدي من طَبَعَهُ ضَالاًّ ، وخَلَقَهُ شقيّاً .

والثاني : لا يهدي أي : لا يهتدي من أضله ، أي : مَنْ أضله الله لا يهتدي ، فيكون معنى يهدي : يهتدي ، تقول العرب : قد هُدِيَ فلانٌ الطريق ، يريدون : اهتدى .

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ سبب نزولها أن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دَين ، فأتاه يتقاضاه ، فكان فيما تكلَّم به : والذي أرجوه بعد الموت ، فقال المشرك : وإِنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت ؟ ! فأقسم بالله ﴿ لا يبعث الله من يموت ﴾ ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو العالية .

و﴿ جهدَ أيمانهم ﴾ مفسر في [المائدة : 53] .

وقوله : ﴿ بلى ﴾ رَدٌّ عليهم ، قال الفراء : والمعنى : ﴿ بلى ﴾ ليبعثنَّهم ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِيبيِّن لهم الذي يختلفون فيه ﴾ قال الزجاج : يجوز أن يكون متعلقاً بالبعث ، فيكون المعنى : بلى يَبعثهم فيبين لهم ، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً ﴾ لِيُبيِّنَ لهم .

وللمفسرين في قوله ﴿ ليبين لهم ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم جميع الناس ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم المشركون ، يبين لهم بالبعث ما خالفوا المؤمنين فيه .

قوله تعالى : ﴿ أنهم كانوا كاذبين ﴾ أي : فيما أقسموا عليه من نفي البعث .

ثم أخبر بقدرته على البعث بقوله : ﴿ إِنما قولنا لشيء إِذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة "فيكونُ" رفعاً ، وكذلك في كل القرآن .

وقرأ ابن عامر ، والكسائي "فيكونَ" نصباً .

قال مكي بن إِبراهيم : من رفع ، قطعه عمّا قبله ، والمعنى : فهو يكون ، ومن نصب ، عطفه

على "يقول" ، وهذا مثل قوله : ﴿ وإِذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، وقد

فسرناه في [البقرة : 117] .

فإن قيل : كيف سمي الشيء قبل وجوده شيئًا ً ؟ .

فالجواب : أن الشيء وقع على المعلوم عند الله قبل الخلق ، لأنه بمنزلة ما قد عُويِنَ

وشُوهِدَ .

قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا في الله ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلال ، وعمار ،

وصهيب ، وخبّاب بن الأرتِّ ، وعايش وجبر مَولَيان لقريش ، أخذهم أهل مكة فجعلوا

يُعذِّبونهم، ليردُّوهم عن الإِسلام، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل بن عمرو، قاله داود بن أبي هند.

والثالث: أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة.

ومعنى "هاجروا في الله" أي: في طلب رضاه وثوابه ﴿ من بعد ما ظُلموا ﴾ بما نال المشركون منهم، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدنيا حسنة ﴾ وفيها خمسة أقوال: أحدها: لننزلَنَّهم المدينة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والشعبي، وقتادة، فيكون المعنى: لَنُبَوِّئَنَّهم داراً حسنة وبلدة حسنة.

والثاني: لنرزقنَّهم في الدنيا الرزق الحسن، قاله مجاهد.

والثالث: النصر على العدوِّ، قاله الضحاك.

والرابع: أنه ما بقي بعدهم من الثناء الحسن، وصار لأولادهم من الشرف، ذكره الماوردي، وقد روي معناه عن مجاهد، فروى عنه ابن أبي نجيح أنه قال: ﴿ لنبوِّئنهم في الدنيا حسنة ﴾ قال: لسان صادق.

والخامس: أن المعنى: لنحسِنَنَّ إِليهم في الدنيا، قال بعض أهل المعاني: فتكون على هذه الأقوال "لنبوِّئنهم"، على سبيل الاستعارة، إِلا على القول الأول.

قوله تعالى: ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ قال ابن عباس: يعني: الجنة، ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ يعني: أهل مكة.

ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه كان إِذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ذخر لك في الآخرة أفضل ، ثم يتلو هذه الآية .

ثم إِن الله أثنى عليهم ومدحهم بالصبر فقال : ﴿ الذين صبروا ﴾ أي : على دينهم ، لم يتركوه لِأَذَى نالهم ، وهم في ذلك واثقون بربهم .

(212/436)

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إِلا رجالاً ﴾ قال المفسرون : لما أنكر مشركو قريش نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلاَّ بعث إِلينا ملَكاً ! فنزلت هذه الآية ، والمعنى : أن الرسل كانوا مثلك آدميِّين ، إِلا أنهم يُوحَى إِليهم ، وقرأ حفص عن عاصم : "نوحِي" بالنون وكسر الحاء .

﴿ فاسألوا ﴾ يا معشر المشركين ﴿ أهل الذكر ﴾ وفيهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم أهل التوراة والإِنجيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أهل التوراة ، قاله مجاهد .

والثالث : أهل القرآن ، قاله ابن زيد .

والرابع: العلماء بأخبار من سلف، ذكره الماوردي.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِن كنتم لا تعلمون ﴾ قولان.

أحدهما: لا تعلمون أن الله تعالى بعث رسولاً من البشر.

والثاني: لا تعلمون أن محمداً رسول الله، فعلى القول الأول، جائز أن يسأل مَن آمن برسول الله ومَن كفر، لأن أهل الكتاب والعلم بالسِّيَر متفقون على أن الأنبياء كلَّهم، من البشر، وعلى الثاني إِنما يسأل مَنْ آمَنَ مِنْ أهل الكتاب، وقد روي عن مجاهد ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ قال: عبد الله بن سلام، وعن قتادة، قال: سليمان الفارسي.

قوله تعالى: ﴿ بالبينات والزُّبر ﴾ في هذه "الباء" قولان:

أحدهما: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، تقديره: وما أرسلنا من قبلك إِلاّ رجالاً أرسلناهم بالبينات.

والزُّبر: الكتب.

وقد شرحنا هذا في [آل عمران: 184].

قوله تعالى: ﴿ وأنزلنا إِليك الذكر ﴾ وهو القرآن بإجماع المفسرين ﴿ لِتُبَيِّنَ للناس ما نزِّل إِليهم ﴾ [فيه] من حلال وحرام، ووعد ووعيد ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ في ذلك فيعتبرون.

قوله تعالى: ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ قال المفسرون: أراد مشركي مكة.

ومكرهم السيئات : شركهم وتكذيبهم ، وسمي ذلك مكراً ، لأن المكر في اللغة : السعي بالفساد ، وهذا استفهام إنكار ، ومعناه : ينبغي أن لا يأمَنوا العقوبة ، وكان مجاهد يقول : عنى بهذا الكلام نمرود بن كنعان .

قوله تعالى : ﴿ أو يأخذَهم في تقلُّبهم ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : في أسفارهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : في منامهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : في ليلهم ونهارهم ، قاله الضحاك ، وابن جريج ، ومقاتل .

والرابع : أنه جميع ما يتقلَّبون فيه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ أو يأخذَهم على تخوّف ﴾ فيه قولان :

أحدهما : على تنقُّص ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

قال ابن قتيبة : التَّخَوُّف : التنقُّص ، ومثله التخوُّن .

يقال : تخوفته الدهور وتخونته : إذا نقصته وأخذت من ماله وجسمه .

وقال الهيثم بن عدي : التخوُّف : التنقُّص ، بلغة أزد شنوءة .

ثم في هذا التنقُّص ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه تنقّصٌ من أعمالهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أخذُ واحد بعد واحد ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : تنقُّصُ أموالهم وثمارهم حتى يهلكهم ، قاله الزجاج.

والثاني : أنه التخوف نفسه ، ثم فيه قولان : أحدهما : يأخذهم على خوف أن يعاقب أو يتجاوز ، قاله قتادة .

والثاني : أنه يأخذ قرية لتخاف القرية الأخرى ، قاله الضحاك .

وقال الزجاج : يأخذهم بعد أن يخيفهم بأن يهلك قرية فتخاف التي تليها ، فعلى هذا ، خوَّفهم قبل هلاكهم ، فلم يتوبوا ، فاستحقوا العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ إِذ لم يعجِّل بالعقوبة ، وأمهل للتوبة .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يروا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "أولم يروا" بالياء ، وقرأ حمزة ، والكسائي : "تروا" بالتاء ، واختلف عن عاصم .

قوله تعالى : ﴿ إِلى ما خلق الله من شيء ﴾ أراد من شيء له ظل ، من جبل ، أو شجر ، أو جسم قائم ﴿ يتفيَّأُ ﴾ قرأ الجماعة بالياء ، وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب بالتاء ﴿ ظلالُه ﴾ وهو جمع ظل ، وإِنما جمع وهو مضاف إِلى واحد ، لأنه واحدٌ يُراد به الكثرة ، كقوله تعالى : ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ [الزخرف : 13] قال ابن قتيبة : ومعنى يتفيَّأُ ظلاله : يدور ويرجع من جانب ، إِلى جانب ، والفيء : الرجوع ، ومنه قيل للظل بالعشيِّ : فييءٌ ، لأنه فاء عن المغرب إِلى المشرق .

قال المفسرون : إِذا طلعتْ الشمس وأنت متوجه إِلى القبلة ، كان الظل قُدَّامك ، فإذا ارتفعتْ كان عن يمينك ، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك ، وإِذا دنتْ للغروب كان على يسارك ، وإِنما وحّد اليمين ، والمراد به : الجمع ، إيجازاً في اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ ويولُّون الدُّبُر ﴾ [القمر : 45] ، ودلّت "الشمائل" على أن المراد به الجميع ، وقال الفراء : إِنما وحد اليمين ، وجمع الشمائل ، ولم يقل : الشمال ، لأن كل ذلك جائز في اللغة ، وأنشد :

الوَارِدُوْنَ وَتَيْم في ذَرَى سَبَأٍ . . .

قد عضّ أعناقَهُم جِلْدُ الجوامِيْسِ

ولم يقل : جلود ، ومثله :

كُلُوا في نِصْفِ بَطْنِكُم تَعِيْشُوا . . .

فإِنَّ زَمَانَكُم زَمَنٌ خَمِيْصُ

وإنما جاز التوحيد ، لأن أكثر الكلام يواجَه به الواحد .

وقال غيره : اليمين راجعة إلى لفظٍ ما ، وهو واحد ، والشمائل راجعة إلى المعنى .

قوله تعالى : ﴿ سُجَّداً لله ﴾ قال ابن قتيبة : مستسلمة ، منقادة ، وقد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وهم داخرون ﴾ قولان :

أحدهما : والكفار صاغرون .

والثاني : وهذه الأشياء داخرة مجبولة على الطاعة .

قال الأخفش : إنما ذكر مَن ليس من الإنس ، لأنه لما وصفهم بالطاعة أشبهوا الإنس في الفعل .

قوله تعالى : ﴿ ولله يسجد ما في السموات . . .

﴾ الآية .

السا جدون على ضربين :

أحدهما : مَن يعقل ، فسجوده عبادة .

والثاني : مَن لا يعقل ، فسجوده بيان أثر الصَّنعة فيه ، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق ، هذا قول جماعة من العلماء ، واحتجوا في ذلك بقول الشاعر :

بِجَيْشٍ تضِلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِهِ . . .

تَرى الأُكْمَ فيه سُجَّداً لِلْحَوافِرِ

قال ابن قتيبة : حَجَرَاتُهُ ، أي : جوانبه ، يريد أن حوافر الخيل قد قلعت الأُكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت .

فأما الشمس والقمر والنجوم ، فألحقها جماعة بمن يعقل ، فقال أبو العالية : سجودها حقيقة ، ما منها غارب إِلاَّ خرّ ساجداً بين يدي الله عز وجل ، ثم لا ينصرف حتى يُؤذَن له ، ويشهد لقول أبي العالية ، حديث أبي ذر قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : " يا أبا ذر ! تدري أين ذهبت الشمس " قلت الله ورسوله أعلم ، قال : "فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربّها عز وجل ، فتستأذن في الرجوع ، فيؤذَن لها فكأنها قد قيل لها : ارجعي من حيث جئتِ ، فترجع إِلى مطلعها فذلك مستقرها "

، ثم قرأ : ﴿ والشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ [يس : 38] أخرجه البخاري ومسلم .

وأمّا النبات والشجر ، فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء .

أحدها : أن يكون سجوداً لا نعلمه ، وهذا إِذا قلنا : إِن الله يُودِعه فهماً .

والثاني : أنه تفيُّؤ ظلاله .

والثالث : بيان الصنعة فيه .

والرابع : الانقياد لما سُخِّر له .

قوله تعالى : ﴿ والملائكة ﴾ إِنما أخرج الملائكة من الدوابّ ، لخروجهم بالأجنحة عن صفة الدبيب .

وفي قوله : ﴿ وهم لا يستكبرون .

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ قولان :

أحدهما : أنه من صفة الملائكة خاصة ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والثاني : أنه عامّ في جميع المذكورات ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وفي قوله : ﴿ من فوقهم ﴾ قولان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أنه ثناءٌ على الله تعالى ، وتعظيم لشأنه ، وتلخيصه : يخافون ربهم عالياً رفيعاً عظيماً .

والثاني : أنه حال ، وتلخيصه : يخافون ربهم معظِّمين له عالِمين بعظيم سلطانه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(217/436)

وقال النسفى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾

الشرك ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ وإنما نصب هذا ورفع ﴿ أساطير ﴾ لأن التقدير هنا أنزل خيراً فأطبقوا الجواب على السؤال وثمة التقدير هو أساطير الأولين فعدلوا بالجواب عن السؤال ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا ﴾ أي آمنوا وعملوا الصالحات أو قالوا : لا إله إلا الله ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ بالرفع أي ثواب وأمن وغنيمة وهو بدل من ﴿ خيراً ﴾ حكاية لقول ﴿ الذين اتقوا ﴾ أي قالوا هذا القول فقدم عليه تسميته خيراً .

ثم حكاه ، أو هو كلام مستأنف عدة للقائلين وجعل قولهم من جملة إحسانهم ﴿ وَلَدَارُ الاخرة خَيْرٌ ﴾ أي لهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله ﴿ فآتاهم الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة ﴾ [آل عمران : 148] ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أو هي المخصوص

بالمدح ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ حال ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم ﴿ يَقُولُونَ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ قيل : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك ، فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام ، ويبشره بالجنة ويقال لهم في الآخرة ﴿ ادخلوا الجنة بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بعملكم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ما ينتظر هؤلاء الكفار ﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم .

وبالياء : علي وحمزة ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي العذاب المستأصل أو القيامة ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ﴾ بتدميرهم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ وأحاط بهم جزاء استهزائهم : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلآ ءابَآؤُنَا ﴾ هذا كلام صدر منهم استهزاء ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً ﴿ وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ ﴾ يعني البحيرة والسائبة ونحوهما ﴿

كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل قولهم استهزاء ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ إلا أن يبلغوا الحق ويطّلعوا على بطلان الشرك وقبحه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ بأن وحدوه ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ الشيطان يعني طاعته ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله ﴾ لاختيارهم الهدى ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ أي لزمته لاختياره إياها ﴿ فَسِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم .

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيمانهم وأعلمه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة فقال ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ بفتح الياء وكسر الدال : كوفي .

الباقون : بضم الياء وفتح الدال ، والوجه فيه أن ﴿ من يضل ﴾ مبتدأ و ﴿ لا يهدي ﴾ خبره ﴿ وَمَا لَهُم مِّن ناصرين ﴾ يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذي أعد لهم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمانهم ﴾ معطوف على ﴿ وقال الذي أشركوا ﴾ ﴿ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بلى ﴾ هو إثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ وهو مصدر مؤكد لما دل عليه ﴿ بلى ﴾ لأن ﴿ يبعث ﴾ موعد من الله وبين أن الوفاء بهذا الوعد حق ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن وعده حق أو أنهم يبعثون

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ متعلق بما دل عليه ﴿ بلى ﴾ أي يبعثهم ليبين لهم، والضمير ل ﴿ من يموت ﴾ وهو يشمل المؤمنين والكافرين ﴿ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ هو الحق ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُواْ كاذبين ﴾ في قولهم ﴿ لا يبعث الله من يموت ﴾ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي فهو يكون، وبالنصب: شامي وعلي، على جواب.

كن ﴿ قولنا ﴾ مبتدأ و ﴿ أن نقول ﴾ خبره و ﴿ كن فيكون ﴾ من "كان" التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أي إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له أحدث فهو يحدث بلا توقف، وهذه عبارة عن سرعة الإيجاد تبين أن مراداً لا يمتنع عليه، وأن وجوده عند إرادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع المتمثل ولا قول ثَم.

والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات ؟ ﴿ والذين هاجروا فِى الله ﴾ في حقه ولوجهة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ هم رسول الله وأصحابه ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله ، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين ، ومنهم من هاجر إلى المدينة ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ صفة للمصدر أي تبوئة حسنة أو لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ الوقف لازم عليه لأن جواب ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ محذوف والضمير للكفار أي لو علموا ذلك لرغبوا في الدين أو للمهاجرين أي لو كانوا يعلمون لزادوا في اجتهادهم وصبرهم ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ أي هم الذين صبروا أو أعني الذين صبروا ، وكلاهما مدح أي صبروا على مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم ، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي يفوضون الأمر إلى ربهم ويرضون بما أصابهم في دين الله .

ولما قالت قريش : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً نزل

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ يوحى اليهم على ألسنة الملائكة .

﴿ نوحي ﴾ حفص ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ أهل الكتاب ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً .

(221/436)

وقيل للكتاب الذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ أي بالمعجزات والكتب والباء يتعلق ب ﴿ رجالاً ﴾ صفة له أي رجالاً ملتبسين بالبينات ، أو بأرسلنا مضمراً كأنه قيل : بم أرسل الرسل ؟ فقيل : بالبينات ، أو ب ﴿ يوحي ﴾ أي يوحي إليهم بالبينات أو ب ﴿ لا تعلمون ﴾ ، وقوله : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ القرآن ﴿ لِتُبَيّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا به وأوعدوا ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تنبيهاته فينتبهوا ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾ أي المكرات السيئات ، وهم أهل مكة وما مكروا به رسول الله عليه السلام ﴿ أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض ﴾ كما فعل بمن تقدمهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي بغتة ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ متخوفين وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون وهو

خلاف قوله ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ [الزمر : 25] ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم ، والمعنى أنه إذا لم يأخذكم مع ما فيكم فإنما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ وبالتاء : حمزة وعلي وأبو بكر ﴿ إلى مَا خَلَقَ اللهُ ﴾ "ما" موصولة ب ﴿ خلق الله ﴾ وهو مبهم بيانه ﴿ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظلاله ﴾ أي يرجع من موضع إلى موضع .

وبالتاء : بصري ﴿ عَنِ اليمين ﴾ أي الأيمان ﴿ والشمآئل ﴾ جمع شمال ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ حال من الظلال .

عن مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ صاغرون وهو حال من الضمير في ﴿ ظلاله ﴾ لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل . وجمع بالواو والنون لأن الدخور من أوصاف العقلاء ، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب . والمعنى أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي ترجع الظلال من جانب إلى جانب ، منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من

التفيؤ والأجرام في أنفسها ، داخرة أيضاً صاغرة منقادة لأفعال الله فيها غير ممتنعة ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض مِن دَآبَّةٍ ﴾ "من" بيان لما في السماوات وما في الأرض جميعاً على أن في السماوات خلقاً يدبون فيها كما تدب الأناسي في الأرض ، أو بيان لما في الأرض وحده والمراد بما في السماوات ملائكتهن ، وبقوله ﴿ والملئكة ﴾ ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم .

قيل : المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم ، وسجود غيرهم انقيادهم لإرادة الله .

ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا فلذا جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد .

وجيء ب "ما" إذ هو صالح للعقلاء وغيرهم ولو جيء ب "من" لتناول العقلاء خاصة ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يخافون رَبَّهُمْ ﴾ هو حال من الضمير في ﴿ لا يستكبرون ﴾ أي لا يستكبرون خائفين ﴿ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ إن علقته ب ﴿ يخافون ﴾ فمعناه يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ، وإن علقته ب ﴿ ربهم ﴾ حالاً منه فمعناه يخافون ربهم غالباً لهم قاهراً كقوله ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ ﴿ [الانعام : 61 ، 18] وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي وأنهم بين الخوف والرجاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 285 . 288 ﴾

وقال البيضاوي :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا ﴾

يعني المؤمنين . ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ أي أنزل خيراً ، وفي نصبه دليل على أنهم لم يتلعثموا في الجواب ، وأطبقوه على السؤال معترفين بالإِنزال على خلاف الكفرة . روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاء الوافد المقتسمين قالوا له ما قالوا وإذا جاء المؤمنين قالوا لهم ذلك . ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ مكافأة في الدنيا . ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ أي ولثوابهم في الآخرة خير منها ، وهو عدة للذين اتقوا على قولهم ، ويجوز أن يكون بما بعده حكاية لقولهم بدلاً وتفسيراً ل ﴿ خَيْرًا ﴾ على أنه منتصب ب ﴿ قَالُواْ ﴾ . ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ﴾ دار الآخرة فحذفت لتقدم ذكرها وقوله :

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح . ﴿ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من أنواع المشتهيات ، وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الإِنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة . ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين ﴾ مثل هذا الجزاء يجزيهم وهو يؤيد الوجه الأول .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيّبِينَ ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في

مقابلة ﴿ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ . وقيل فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة ، أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس . ﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ لا يحيقكم بعد مكروه . ﴿ ادخلوا الجنة بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ حين تبعثون فإنها معدة لكم على أعمالكم . وقيل هذا التوفي وفاة الحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ .

(224/436)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ما ينتظر الكفار المار ذكرهم . ﴿ إِلا أَن تَأْتِيهُمُ الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم . وقرأ حمزة والكسائي بالياء . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبّكَ ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب . ﴿ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فأصابهم ما أصابوا . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ﴾ بتدميرهم . ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه . ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف ، أو تسمية الجزاء باسمها . ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وأحاط بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل إلا في الشر .

﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا ءَابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ من شيء ﴾ إنما قالوا ذلك استهزاء أو منعاً للبعثة والتكليف متمسكين بأن ما

شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدة فيها ، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتجين بأنها لو كانت مستقبحة لما شاء الله صدورها عنهم ولشاء خلافه ، ملجئاً إليه لا اعتذاراً إذ لم يعتقدوا قبح أعمالهم ، وفيما بعده تنبيه على الجواب عن الشبهتين .

﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فأشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ إلا الإِبلاغ الموضح للحق وهو لا يؤثر في هدى من شاء الله هداه لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسط ، وما شاء الله وقوعه إنما يجب وقوعه لا مطلقاً بل بأسباب قدرها له ، ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإِلهية في الأمم كلها سبباً لهدى من أراد اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله ، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت . ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى الله ﴾ وفقهم للإِيمان بإرشادهم . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ إذ لم يوفقهم ولم يرد هداهم ، وفيه تنبيه على فساد

الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على أن تحقق الضلال وثباته بفعل الله تعالى وإرادته من حيث أنه قسم من هدى الله، وقد صرح به في الآية الأخرى. ﴿ فَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ يا معشر قريش. ﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ من عاد وثمود وغيرهم لعلكم تعتبرون.

﴿ إِن تَحْرِصْ ﴾ يا محمد. ﴿ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ من يريد ضلاله وهو المعني بمن حقت عليه الضلالة. وقرأ غير الكوفيين ﴿ لاَّ يِهدّي ﴾ على البناء للمفعول وهو أبلغ. ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ عطف على ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه زيادة في البيت على فساده، ولقد رد الله عليهم أبلغ رد فقال: ﴿ بلى ﴾ يبعثهم. ﴿ وَعْداً ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه ﴿ بلى ﴾ فإن يبعث موعد من الله. ﴿ عَلَيْهِ ﴾ إنجازه لامتناع الخلف في وعده، أو لأن البعث مقتضى حكمته. ﴿ حَقّاً ﴾ صفة أخرى للوعد. ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم يبعثون وإما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعه، ثم إنه تعالى بين الأمرين فقال:

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أي يبعثهم ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ . ﴿ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو الحق . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كاذبين ﴾ فيما يزعمون ، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له من حيث الحكمة ، وهو المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب ثم قال :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهو بيان إمكانية وتقريره أن تكوين الله بمحض قدرته ومشيئته لا توقف له على سبق المواد والمدد ، وإلاَّ لزم التسلسل فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكوينها إعادة بعده ، ونصب ابن عامر والكسائي ها هنا وفي "يس" فيكون عطفاً على نقول أو جواباً للأمر .

﴿ والذين هاجروا فِي الله مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرون ظلمهم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة ، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم ، وقوله . ﴿ فِي الله ﴾ أي في حقه ولوجهه . ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ مباءة حسنة وهي المدينة أو تبوئة حسنة . ﴿ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا . وعن عمر رضي الله تعالى عنه : أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله

لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم ، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم .

(227/436)

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن ، ومحله النصب أو الرفع على المدح . ﴿ وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ منقطعين إلى الله مفوضين إليه الأمر كله .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ رد لقول قريش : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، أي جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحي إليه على ألسنة الملائكة ، والحكمة في ذلك وقد ذكرت في سورة "الأنعام" فإن شككتم فيه . ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ أهل الكتاب أو علماء الأخبار ليعلموكم . ﴿ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة وقوله : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال . ورد بما روي " أنه عليه الصلاة والسلام رأى

جبريل صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين " . وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم .

﴿ بالبينات والزبر ﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر أي المعجزات والكتب ، كأنه جواب : قائل قال : بم أرسلوا ؟ ويجوز أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً في الاستثناء مع رجالاً أي : وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك : ما ضربت إلا زيداً بالسوط ، أو صفة لهم أي رجالاً ملتبسين بالبينات ، أو بيوحي على المفعولية أو الحال من القائم مقام فاعله على أن قوله فاسألوا اعتراض ، أو بلا تعلمون على أن الشرط للتبكيت والإلزام . ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ أي القرآن وإنما سمي ذكراً لأنه موعظة وتنبيه . ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في الذكر بتوسط إنزاله إليك مما أمروا به ونهوا عنه ، أو مما تشابه عليهم والتبيين أعم من أن ينص بالمقصود ، أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس . ودليل العقل . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق .

﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾ أي المكرات السيئات وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ، أو الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن

الإيمان. ﴿ أَن يَخسِفَ اللهُ بِهِمُ الأرض ﴾ كما خسف بقارون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بغتة من جانب السماء كما فعل بقوم لوط.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم. ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ على مخافة بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأحوالهم حتى يهلكوا من تخوفته إذا تنقصته. روي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا التخوف التنقص، فقال هل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تَخَوَّفَ الرَحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً . . . كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَبْعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا: وما ديواننا قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ استفهام إنكار أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه ، وما موصولة مبهمة بيانها . ﴿ يَتَفَيَّؤُا ظلاله ﴾ أي أو لم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال متفيئة . وقرأ حمزة والكسائي "تَروْا" بالتاء وأبو عمرو "تتفيؤ" بالتاء . ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ عن أيمانها وعن شمائلها أي عن جانبي كل واحد منها ، استعارة من يمين الإنسان وشماله ، ولعل توحيد اليمين وجمع الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وجمعه في قوله : ﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ داخرون ﴾ وهما حالان من الضمير في ظلاله ، والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع أو الاختيار ، يقال سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل وسجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب وسجدا حال من الظلال ﴿ وَهُمْ داخرون ﴾ حال من الضمير . والمعنى يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها ، أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب منقادة لما قدر لها من التفيؤ ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة أي صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها ، وجمع ﴿ داخرون ﴾ بالواو لأن من جملتها من يعقل ، أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . وقيل المراد ب ﴿ اليمين والشمآئل ﴾ يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لأن الكواكب تظهر منه آخذة في الارتفاع والسطوع وشماله هو الجانب

الغربي المقابل له من الأرض ، فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض ، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعة على الربع الشرقي من الأرض .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي ينقاد انقياداً يعم الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض وقوله : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ بيان لهما لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء . ﴿ والملائكة ﴾ عطف على المبين به عطف جبريل على الملائكة للتعظيم ، أو عطف المجردات على الجسمانيات ، وبه احتج من قال إن الملائكة أرواح مجردة أو بيان لما في الأرض والملائكة تكرير لما في السموات وتعيين له إجلالاً وتعظيماً ، أو المراد بها ملائكتها من الحفظة وغيرهم ، وما لما استعمل للعقلاء كما استعمل لغيرهم كان استعماله حيث اجتمع القبيلان أولى من إطلاق من تغليباً للعقلاء . ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته .

﴿ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم ، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ والجملة حال من الضمير في ﴿ لاَ

يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، أو بيان له وتقرير لأن من خاف الله تعالى لم يستكبر عن عبادته . ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ من الطاعة والتدبير ، وفيه دليل على أَنَّ الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 395.403 ﴾

(232/436)

وقال ابن جزى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً ﴾

لما وصف مقالة الكفار الذين قالوا أساطير الأولين : قابل ذلك بمقالة المؤمنين ، فإن قيل : لم نصب جواب المؤمنين وهو قولهم : خيراً ، رفع جواب الكافرين وهو أساطير الأولين ؟ فالجواب : أن قولهم خيراً منصوب بفعل مضمر تقديره أنزل خيراً ، ففي ذلك اعتراف بأن الله أنزله ، وأما أساطير الأولين فهو خبر ابتداء مضمر تقديره هو أساطير الأولين ، فلم يعترفوا بأن الله أنزله فلا وجه لنصبه ، ولو كان منصوباً لكان الكلام متناقضاً ؛ لأن قولهم أساطير الأولين يقتضي التكذيب بأن الله أنزله ، والنصب بفعل مضمر يقتضي التصديق بأن الله أنزله ، لأن تقديره أنزل ، فإن قيل : يلزم مثل هذا في الرفع ، لأن تقديره هو أساطير الأولين ، فإنه غير مطابق للسؤال الذي هو ماذا أنزل ربكم ، الجواب : أنهم عدلوا بالجواب

عن السؤال فقالوا هو أساطير الأولين ، ولم ينزله الله ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ ارتفع حسنة بالابتداء وللذين خبره ، والجملة بدل من خيراً ، وتفسيره للخير الذي قالوا ، وقيل : هي استئناف كلام الله تعالى ، لا من كلام الذين قالوا خيراً ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ يحتمل أن يكون هو اسم الممدوح بنعم ، فيكون مبتدأ وخبره فيما قبله أو خبر ابتداء مضمر ، ويحتمل أن يكون مبتدأ وخبره يدخلونها أو مضمر تقديره : لهم جنات عدن .

(233/436)

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي ينتظرون ، والضمير للكفار وإنما أن تأتيهم الملائكة يعني لقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ يعني قيام الساعة أو العذاب في الدنيا ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي أصابهم جزاء سيئات ما عملوا ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي أحاط بهم العذاب الذين كانوا به يستهزؤن ، وهذا تفسيره حيث وقع ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة والاحتجاج على صحة فعلهم ؛ أي أن فِعلنا هو بمشيئة الله فهو صواب ، ولو شاء الله أن لا نفعله ما فعلناه ، والرّد عليهم بأن الله نهى عن الشرك ولكنه قضى على من

يشاء من عباده ، ويحتمل أن يكونوا قالوا ذلك في الآخرة على وجه التمني فإن " لو " تكون للتمني والمعنى هذا أنهم لما رأوا العذاب تمنوا أن يكونوا لم يعبدوا غيره ، ولم يحرموا ما أحل الله من البحيرة وغيرها .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ قرئ بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول أي لا يهدي غير الله من يضله الله وقرئ يهدي بفتح الياء وكسر الدال ، والمعنى على هذا : لا يهدي الله من قضى بإضلاله ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ الضمير عائد على من يضل ، لأنه في معنى الجمع .

﴿ بلى ﴾ ردّ على الذين أقسموا ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ أي أنه يبعثه ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ اللام تتعلق بما دل عليه أي يبعثهم ليبين لهم ، وهذا برهان أيضاً على البعث ، فإن الناس مختلفون في أديانهم ومذاهبهم ، فيبعثهم الله ليبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ الآية : برهان أيضاً على البعث ، لأنه داخل تحت قدرة الله تعالى .

﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي الله ﴾ يعني الذين هاجروا من مكة إلى أرض الحبشة ، لأن الهجرة إلى المدينة كانت بعدها ، وقيل : نزلت في أبي جندل بن سهيل وخبره مذكور في السير في قصة الحديبية ، وهذا بعيد لأن السورة نزلت قبل ذلك ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ وعد أن ينزلهم بقعة حسنة ، وهي المدينة التي استقروا بها ، وقيل : إن حسنة صفة لمصدر ؛ أي نبوئنهم تبوئة حسنة وقرئ لنثوبنهم بالثاء من الثواب ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ وصف للذين هاجروا ، ويحتمل إعرابه أن يكون نعتاً أو على تقدير : هم الذين أو مدح الذين ﴿ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ ردّ على من استبعد أن يكون الرسول من البشر ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ يتعلق بأرسلنا الذي في أول الآية على التقديم والتأخير في الكلام ، أو بأرسلنا مضمراً وبيوحي أو بتعلمون .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ يعني القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ يحتمل أن يريد لتبين القرآن بسردك نصه وتعليمه للناس ، أو لتبين معانيه بتفسير مشكلة ، فيدخل في هذا ما بينته السنة من الشريعة .

﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات ﴾ يعني : كفار قريش عند جمهور المفسرين ، والسيئات تحتمل وجهين : أحدهما : يريد به الأعمال السيئات ؛ أي المعاصي فيكون : مكروا يتضمن معنى عملوا ، والآخر أن يريد بالمكرات السيئات مكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيكون المكر على بابه ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ يعني في أسفارهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بمفلتين حيث وقع ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن معناه على تنقص أي ينتقص أموالهم وأنفسهم شيئاً بعد شيء ، حتى يهلكوا من غير أن يهلكهم جملة واحدة ، ولهذا أشار بقوله : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، لأن الأخذ هكذا أخف من غيره ، وقد كان عمر بن الخطاب أشكل عليه معنى التخوف في الآية ، حتى قال له رجل من هذيل : التخوف التنقص في لغتنا ، والوجه الثاني : أنه من الخوف أي يهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا هو ذلك ، فيأخذهم بعد أن توقعوا العذاب وخافوه ، ذلك خلاف قوله : وهم لا يشعرون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ ﴾ معنى الآية اعتبار بانتقال الظل ، ويعني بقوله : ما خلق الله من شيء : الأجرام التي لها ظلال من الجبال والشجر والحيوان

وغير ذلك ، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال يكون ظلها إلى جهة ، ومن الزوال إلى الليل إلى جهة أخرى ، ثم يمتدّ الظل ويعم بالليل إلى طلوع الشمس ، وقوله : يتفيؤ من الفيء وهو الظل الذي يرجع ، بعكس ما كان غدوة ، وقال رؤبة بن العجاج : يقال بعد الزوال ظل وفيء ، ولا يقال قبله إلا ظل ، ففي لفظه : يتفيؤ هنا تجوز ما لوقوع الخصوص في موضع العموم ، لأن المقصود الاعتبار من أول النهار إلى آخره ، فوضع يتفيؤ موضع ينتقل أو يميل ، والضمير في ظلاله يعود على ما أو على شيء ﴿ عَنِ اليمين والشمآئل ﴾ يعني عن الجانبين أي يرجع الظل من جانب إلى جانب ، واليمين بمعنى الأيمان والشمائل ، واستعار هنا الأيمان والشمائل للأجرام ، فإن اليمين والشمائل إنما هما في الحقيقة للإنسان ﴿ سُجَّداً لِلَّهِ ﴾ حال من الظلال ، وقال الزمخشري حال من الضمير في ظلاله ، إذ هو بمعنى الجمع لأنه يعود على قوله : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ، فعلى الأول يكون السجود من صفة الظلال ، وعلى الثاني يكون من صفة الأجرام ، واختلف في معنى هذا السجود فقيل عبر به عن الخضوع والانقياد ، وقيل هو سجود حقيقة ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون وجمع بالواو [والنون] لأن الدخور من أوصاف العقلاء .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ ﴾ يحتمل أن يكون من دابة بيان لما في السموات وما في الأرض معاً ، لأن كل حيوان يصح أن يوصف بأنه يدب ، ويحتمل أن يكون بياناً لما في الأرض خاصة وإنما قال : ما في السموات وما في الأرض ليعم العقلاء وغيرهم ، ولو قال . من في السموات لم يدخل في ذلك غير العقلاء قال الزمخشري ﴿ والملائكة ﴾ إن كان قوله من دابة بياناً لما في السموات والأرض ، فقد دخل الملائكة في ذلك ، وكرر ذكرهم تخصيصاً لهم بالذكر وتشريفاً ، وإن كان من دابة لما في الأرض خاصة فلم تدخل الملائكة في ذلك فعطفهم على ما قبلهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ هذا إخبار عن الملائكة ، وهو بيان نفي الاستكبار ، ويحتمل أن يريد فوقية القدرة والعظمة أو يكون من المشكلات التي يمسك عن تأويلها ، وقيل : معناه يخافون أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 152. 155 ﴾

(238/436)

وقال الخطيب الشربينى :

ولمّا بيّن تعالى أحوال المكذبين ذكر أحوال الصدّيقين بقوله تعالى :

﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ أي : خافوا عقاب الله ﴿ ماذا ﴾ أي : أيّ شيء ﴿ أنزل ربكم

قالوا خيراً ﴾ أي : أنزل خيراً وذلك أنّ أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون : ساحر شاعر كذاب مجنون ولو لم تلقه خيرلك فيقول السائل : أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة وألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه ، وأنه نبيّ مبعوث من الله تعالى فذلك قوله تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ﴾ الآية فإن قيل : لم رفع الأول وهو قولهم أساطير الأوّلين ونصب الثاني وهو قولهم خيراً أجيب : بأنه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقرّ وجواب الجاحد ، وذلك أنهم لمّا سألوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا أساطير الأولين وليس هو من الإنزال في شيء لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلاً . ولمّا سألوا المؤمنين عن المنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا ، وطابقوا الجواب عن السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال ، فقالوا : ﴿ خيراً ﴾ أي : أنزل خيراً ، وتمّ الكلام عند قوله ﴿ خيراً ﴾ فهو وقف تامّ ، ثم ابتدأ بقوله تعالى:

﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي : حياة طيّبة أو أنّ للذين أتوا بالأعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، أو أنه تعالى بيّن أنّ اعترافهم بذلك الإحسان في هذه الدنيا حسنة أي : جزاء لهم على إحسانهم ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (الرحمن)

ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم في الآخرة فقال : ﴿ ولدار الآخرة ﴾ أي : الجنة ﴿ خير ﴾ أي : ما أعدّ الله لهم في الجنة خير مما حصل لهم في الدنيا ، ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ أي : دار الآخرة ، فحذف لتقدّم ذكرها وقال الحسن : هي الدنيا لأنّ أهل التقوى يتزوّدون فيها للآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين ﴿ عدن ﴾ أي : إقامة خبر مبتدأ محذوف ويصح أن يكون المخصوص بالمدح ﴿ يدخلونها ﴾ أي : تلك الجنات حالة كونها ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي : من تحت غرفها ﴿ الأنهار ﴾ ثم كأنّ سائلاً سأل عما فيها من الثمار وغيرها . فأجيب بأنّ ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ أي : ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، مع زيادات غير ذلك ، فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهي أبلغ من قوله تعالى : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ (الزخرف ،)

لأن هذين القسمين داخلان في قوله تعالى : ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ مع أقسام أخرى وعلى أنّ الإنسان لا يجد كل ما يريده في الدنيا ، لأنّ قوله : ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ يفيد الحصر ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ يجزي الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله

﴿ المتقين ﴾ أي : الراسخين في صفة التقوى ، ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أنّ العبرة بحال الموت فقال:

(240/436)

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ أي : تقبض أرواحهم وقوله تعالى : ﴿ طيبين ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة ، مبّرئين عن الأخلاق المذمومة ، ويدخل فيه كونهم مبرّئين عن العلائق الجسمانية ، متوجهين إلى حضرة القدس ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح ، وأنها لم تقبض إلامع البشارة بالجنة ، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ، ومن هذا حاله لا يتألم بالموت ، وأكثر المفسرين على أنّ هذا التوفي هو قبض الأرواح كما مرّ ، وإن كان الحسن يقول : إنه وفاة الحشر . واستدل بقوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ لأنه لا يقال عند قبض الأرواح في الدنيا ، ادخلوا الجنة . وأجاب الأكثرون بما سيأتي وأدغم أبو عمرو التاء في الطاء بخلاف عنه . ثم بيّن تعالى أنّ الملائكة ﴿ يقولون ﴾ لهم عند الموت ﴿ سلام عليكم ﴾ فتسلم عليهم أو تبلغهم السلام من الله تعالى ، كما روي أنّ العبد المؤمن إذا أشرف على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك يا

ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة ، ويقال لهم في الآخرة هذا جواب الأكثرين ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ أو إنهم لمّا بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم ، وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم : ادخلوا الجنة ، أي : هي خاصة لكم كأنكم فيها . ولما طعن الكفار في القرآن بقولهم : ﴿ أساطير الأوّلين ﴾ وذكر أنواع التهديد والوعيد ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيراً ، عاد إلى بيان أنّ أولئك الكفار لا ينزجرون عن كفرهم وأقوالهم الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة ، وأتاهم أمر ربك فقال تعالى:

(241/436)

﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم . وقرأ حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وتقدّم توجيه ذلك ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ أي : يوم القيامة وقيل : العذاب . وقيل : إنهم طلبوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينزل الله تعالى ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادّعاء النبوّة فقال تعالى : ﴿ هل ينظرون ﴾ في التصديق بنبوّتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك . وعلى كلا التقديرين ، فقد قال تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ما ﴿ فعل ﴾ هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل ﴿ الذين من قبلهم ﴾ من الأمم السالفة ، كذبوا رسلهم فأهلكوا ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ باهلاكهم بغير

ذنب. ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بكفرهم وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم ﴿ فأصابهم ﴾ أي: فتسبب عن ظلمهم لأنفسهم أن أصابهم ﴿ سيئات ﴾ أي: عقوبات أو جزاء سيئات ﴿ ما عملوا وحاق ﴾ أي: نزل ﴿ بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ تكبراً عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه، والحيق لا يستعمل إلا في الشر. وقرأ حاق حمزة بالإمالة والباقون بالفتح.

﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ للنبيّ صلى الله عليه وسلم استهزاء ومنعاً للبعثة والتكليف ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ﴾ لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل، فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم: ﴿ ولا حرّمنا من دونه من شيء ﴾ أي: من السوائب والبحائر والحامي فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة في مجيئك وفي إرسالك وهذا عين ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ﴾ (الأنعام،)

الآية. قال الله تعالى: ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي: من تقدّم هؤلاء من الكفار من الأمم الماضية كانوا على هذه الطريقة، وهذا الفعل الخبيث فإنكار بعثة الرسل كان قديماً

في الأمم الخالية ففي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وكذا في قوله تعالى : ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ ﴾ أي : الإبلاغ . ﴿ المبين ﴾ أي : البين فليس عليهم هداية أحد إنما عليهم تبليغ ما أرسلوا به إلى من أرسلوا إليه .

(243/436)

ثم بين تعالى أنّ البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سبباً لهدى من أراد اهتداءه ، وزيادة لضلال من أراد ضلاله ، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضرّ المزاج المنحرف ويفنيه بقوله تعالى : ﴿ ولقد ﴾ أي : والله لقد ﴿ بعثنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة التي من اعترض عليها قصم . ﴿ في كل أمّة ﴾ من الأمم الذين من قبلكم ﴿ رسولاً ﴾ أي : كما بعثنا فيكم محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً . ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ أي : الملك الأعلى وحده . وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون في الوصل والباقون بالضم . ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ أي : الأوثان أن تعبدوها ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ أي : وفقهم للإيمان بإرشاده ﴿ ومنهم من حقت ﴾ أي : وجبت ﴿ عليه الضلالة ﴾ أي : في علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم . تنبيه : في هذه الآية أبين دليل على أنّ الهادي والمضل هو الله تعالى لأنه المتصرف في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فيما

حكم به لسابق علمه ، ثم التفت سبحانه وتعالى إلى مخاطبتهم إشارة إلى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعي في نظر البصيرة إلا الدليل المحسوس للبصر فقال تعالى : ﴿ فسيروا ﴾ أي : فإن كنتم أيها المخاطبون في شك من أخبار الرسل فسيروا ﴿ في الأرض ﴾ أي : جنسها ﴿ فانظروا ﴾ أي : إذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ، ثم أشار تعالى بالاستفهام إلى أن أحوالهم مما يجب أن يسأل عنه للاتعاظ به فقال : ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ المكذبين ﴾ أي : من عاد ومن

بعدهم من الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم في الكفر من أسلافكم لعلكم تعتبرون .

ولما كان من المحقق أنه ليس بعد الإيصال في الاستدلال إلى الأمر المحسوس إلا العناد أعرض عنهم ملتفتاً إلى الرؤوف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسلياً له:

(244/436)

﴿ إن تحرص على هداهم ﴾ فتطلبه بغاية جدّك واجتهادك وقد أضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم قال تعالى : ﴿ فإنّ الله لا يهدي من يضلّ ﴾ أي : من يرد ضلاله وهو معين لمن حقت عليه الضلالة . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الدال ، والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء المفعول . قال البيضاوي : وهو أبلغ . ثم قال تعالى :

﴿ وما لهم ﴾ أي : هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله ﴿ من ناصرين ﴾ أي : وليس لهم أحد ينصرهم في الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين ممن قبلهم .

ثم حكى الله عن هؤلاء القوم أنهم ينكرون الحشر والنشر بقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ أي : غاية اجتهادهم فيها ﴿ لا يبعث الله من يموت ﴾ وذلك أنهم قالوا : إنّ الإنسان ليس هو إلا هذه البنية المخصوصة فإذا مات وتفرّقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه ؛ لأنّ الشيء إذا عدم فقد فني ، ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه ، فكذبهم الله تعالى في قولهم بقوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ أي : يبعثهم بعد الموت فإنّ لفظة بلى إثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم أنّ الله تعالى خلق الإنسان وأوجده من العدم ، ولم يكن شيئاً فالذي أوجده ولم يكن شيئًا قادر على إيجاده بعد إعدامه لأنّ النشأة الثانية أهون من الأولى ، وقوله تعالى : ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدّر ، أي : وعد ذلك وعداً وحقه حقاً .

﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك ، أي : لا علم لهم يوصلهم لذلك لأنه من عالم الغيب ، لا يمكن عقولهم الوصول إليه بغير إرشاد من الله تعالى ولا هم يقبلون أقوال الدعاة إليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصل إلى عقولهم أنها قاصرة على عالم الشهادة لا

يمكنها الترقي منه إلى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى ، فلذلك ترى الإنسان منهم يأبى ذلك استبعاداً وهو خصيم مبين .

(245/436)

وقوله تعالى : { ليبين لهم الذي يختلفون فيه } يتعلق بما دل عليه بلى ، أي : يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عامّ للمؤمنين والكافرين والذي اختلفوا فيه هو الحق . { وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين } في قولهم : { لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء } وقولهم : { لا يبعث الله من يموت } وقيل : يجوز أن يتعلق بقوله : { ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً } أي : بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الإعادة بقوله تعالى:

{ إنما قولنا } أي : بما لنا من العظمة والقدرة { لشيء } إبداء وإعادة { إذا أردناه أن نقول له كن فيكون } أي : يتسبب عن ذلك القول أنه يكون . تنبيه : قوله تعالى :

{ قولنا } مبتدأ و { أن نقول } خبره . فيكون وكن من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود ، ، أي : إذا أردنا حدوث شيء فليس إلا أن نقول له : أحدث فيحدث عقب

ذلك من غير توقف. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كن﴾ إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال وإن كان خطاباً مع الموجود فكان أمراً بتحصيل الحاصل وهو محال؟

(246/436)

أجيب: بأنّ هذا تمثيل لنفي الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب المعدوم لأنّ ما أراد فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الإسراع ولو أراد تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيها من السموات والأرض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك، ولكن خاطب تعالى العباد بما يعقلون، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يقول الله تبارك وتعالى: يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له. أمّا شتمه إياي فيقول: إنّ لي ولداً. وأمّا تكذيبه فيقول: ليس يعيدني كما بدأني". حديث وفي رواية: "كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني، وليس أوّل الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأمّا شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٍ". وقرأ ابن عامر والكسائي بفتح النون من يكون عطفاً على يقول أو جواباً للأمر والباقون بالرفع. ولما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على

إنكار البعث والقيامة دل ذلك على أنهم تمادوا في الغي والجهالة والجهل والضلال ، وفي مثل هذه الحالة لا يبعد إقدامهم على إيذاء المسلمين وإنزال العقوبة بهم ، وحينئذٍ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبيّن تعالى حكم تلك الهجرة ، وما لهؤلاء المهاجرين من الحسنة في الدنيا والآخرة بقوله تعالى:

وقوله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ فيه إضمار تقديره المكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبالقرآن في أذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء ثم إنه تعالى ذكر في تهديدهم أربعة أمور الأوّل قوله تعالى : ﴿ أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ كما خسف بقارون وأصحابه فإذا هم في بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها . الثاني قوله تعالى : ﴿ أو يأتيهم العذاب ﴾ على غير تلك الحال ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ به فيأتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام . الثالث : قوله تعالى : ﴿ أو يأخذهم ﴾ أي : الله بعذابه ﴿ في ﴾ حالة ﴿ تقلبهم ﴾ ومشاعرهم حاضرة وقواهم مستجمعة وفي تفسير هذا التقلب وجوه أوّلها : أنه تعالى يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم فإنه تعالى قادر على إهلاكهم

في السفر كما أنه قادر على إهلاكهم في الحضر . ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أي : بفائتين العذاب بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا . ثانيها : أنه تعالى يأخذهم بالليل والنهار وفي حال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم . وثالثها : أنّ الله تعالى يأخذهم في حال ما يتقلبون في قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين إتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ (التوبة

،)

فإنهم إذا قلبوها فقد تقلبوا فيها .

الأمر الرابع : قوله تعالى:

﴿ أو يأخذهم على تخوّف ﴾ وفي تفسير التخوّف قولان ؛ الأوّل : التخوّف تفعل من الخوف يقال : خفت الشيء وتخوّفته ، والمعنى : أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أوّلاً بل يخيفهم أوّلاً ثم يعذبهم بعده ، وتلك الإخافة هو أنه تعالى يهلك قرية فتخاف التي تليها فيأتيهم العذاب . والثاني : التخوّف بمعنى التنقص ، أي : أنه تعالى ينقص شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوّفه إذا تنقصه . وروي أنّ عمر رضي الله تعالى عنه

قال على المنبر : ما تقولون في هذه الآية ؟ فسكتوا . فقال شيخ من هذيل : هذه لغتنا التخوّف التنقص . فقال عمر : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير:

تخوّف ، أي : تنقص ـ الرحل ، أي : رحل ناقته ـ منها تامكاً ، أي : سناماً ـ قردا ، أي : متراكماً أو مرتفعاً وهو بسكون الراء ـ كما تخوّف عود النبعة السفن

(249/436)

والنبعة بالضم واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه السفن والسفن بفتح السين والفاء ما ينحت به الشيء وهو فاعل تخوّف ومفعوله عود . فقال عمر : عليكم بديوانكم . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم . ومعنى البيت أنّ رحل ناقته ينقص سنامها المتراكم أو المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة . ﴿ فإنّ ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم بإهلاك من يريد وإبقاء من يريد وقوله تعالى : ﴿ لرؤوف ﴾ قرأه أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمدّ ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿ رحيم ﴾ أي : حيث لم يعاجلهم بالعذاب . ولما خوّف سبحانه وتعالى المشركين بالأنواع الأربعة

المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وتدبير أحوال الأرواح والأجسام ليظهر لهم أنه مع كمال هذه القدرة الباهرة والقوّة الغير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب إليهم على أحد تلك الأجسام الأربعة بقوله تعالى:

(250/436)

﴿ أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء ﴾ أي: من الأجرام التي لها ظل كشجر وجبل ﴿ تتفيؤ ﴾ أي: تتميل ﴿ ظلاله عن اليمين والشمائل ﴾ جمع شمال، أي: عن جانبي كل واحد منهما وشقيه. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء على الغيبة إلى ما خلق استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له. وقال قتادة والضحاك: أمّا اليمين فأوّل النهار وأمّا الشمائل فآخره لأنّ الشمس وقت طلوعها إلى وقت انتهائها إلى وسط الفلك تقع الظلال إلى الجانب الغربي فإذا انحدرت الشمس من وسط الفلك إلى الجانب الغربي وقعت الظلال في الجانب الشرقي والظلال في أوّل النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربي من الأرض ومن وقت انحدار الشمس من وسط

الفلك تبتدئ من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الأرض . فإن قيل : ما السبب في ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع ؟

أجيب : بأشياء الأوّل : أنه وحّد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر على الواحد كقوله تعالى : ﴿ ويولون الدبر ﴾ (القمر ،)

الثاني : قال الفرّاء : كأنه إذا وحد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال وإذا جمع ذهب إلى كلها وذلك لأنّ قوله : ﴿ إلى ما خلق الله من شيء ﴾ لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مرّ فيحتمل كلا الأمرين . الثالث : أنّ العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ (الأنعام ،)

. وقوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ (البقرة ،)

. تنبيه : الهمزة للاستفهام وهو استفهام إنكار ، أي : قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذي ومن شيء بيان لها . فإن قيل : كيف بين الموصول وهو مبهم بشيء وهو مبهم بل أبهم مما قبله ؟

أجيب : بأن شيئاً قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو تتفيؤ ظلاله وقيل : الجملة بيان لما . وقوله تعالى : ﴿ سجداً لله ﴾ حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد ، وراكع وركع . واختلف في المراد من السجود على قولين أحدهما : أنّ المراد منه الاستسلام والانقياد يقال : سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل ويقال : اسجد للقرد في زمانه ، أي : اخضع له وقال الشاعر :

* ترى الأكم فيها سجداً للحوافر

أي متواضعة . والثاني : أنّ هذه الظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول : أما ظلك فيسجد لربك وأمّا أنت فلا تسجد لربك بئسما صنعت . وعن مجاهد ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي . وقيل : ظل كل شيء يسجد لله سواء أكان ذلك الشيء ساجداً أم لا . قال الرازي : والأوّل أقرب إلى الحقائق العقلية والثاني أقرب إلى الشبهات الظاهرة . وقوله تعالى : ﴿ وهم داخرون ﴾ أي : صاغرون حال أيضاً من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل : حال من الضمير المستتر في سجداً فهي حال متداخلة . فإن قيل : الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون ؟

أجيب : أنه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخور أشبهت العقلاء أو أن في جملة ذلك من يعقل

فغلب . ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان أشرف من الجماد رقي الحكم إليه بخصوصه ، فقال:

(252/436)

﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من دابة ﴾ يجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً على أنّ في السموات خلقاً لله يدبون فيها كما تدب الأناسيّ في الأرض ، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده ، ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح ، وأن يكون بياناً لما في الأرض ويراد بما في السموات الملائكة وكرّر ذكرهم بقوله تعالى : ﴿ والملائكة ﴾ خصوصاً من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهنّ وبقوله تعالى : ﴿ والملائكة ﴾ ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم . فإن قيل : سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ؟

أجيب : بأنّ المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقياده لإرادة الله تعالى وأنه غير ممتنع عليه وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد . فإن قيل : هلا جيء بمن دون ما تغليباً للعقلاء من الدواب على

غيرهم ؟

أجيب : بأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة للعموم . ﴿ وهم ﴾ أي : الملائكة ﴿ لا يستكبرون ﴾ عن عبادته ثم علل تخصيصهم بقوله تعالى دلالة على أنهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء .

﴿ يخافون ربهم ﴾ أي : الموجد لهم المدبر لأمورهم المحسن إليهم خوفاً مبتدأ ﴿ من فوقهم ﴾ إشارة إلى علو الخوف عليهم وغلبته لهم ، أو أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ (الأنعام ،) . وقوله تعالى : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ (الأعراف ،)

(253/436)

والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون ، أو بيان له أو تقرير لأنّ من خاف الله لا يستكبر عن عبادته . ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي : من الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي والوعد والوعيد كسائر المكلفين وأنهم بين الخوف والرجاء ، كما مرّت الإشارة إليه وأنهم معصومون من الذنوب لأنّ قوله تعالى :

﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ يدل على أنهم منقادون لخالقهم وأنهم ما خالفوا في أمر من الأمور كما قال تعالى : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ (الأنبياء) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 331. 341 ﴾

(254/436)

وقال القاسمي :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾

ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا في جواب : ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ هو : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فجحدوا رحمته وكفروا نعمته ؛ تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [30] .

(255/436)

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ ﴾ وهم المؤمنون : ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً ﴾ أي : أنزل خيراً ، أي : رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ أي : لمن أحسن عمله ، مكافأة في الدنيا بإحسانهم ، ولهم في الآخرة ما هو خير منها . فقوله : ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ متعلق بـ : ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ كتعلقه بـ : ﴿ أَحْسَنُواْ ﴾ . قال الشهاب : والحسنة التي في الدنيا : الظفر وحسن السيرة وغير ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] ، وقوله : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ [آل عِمْرَان : 148] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عِمْرَان : 198] ، وقال : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : 17] . ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [31 – 32] .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ ﴾ كقوله : تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف : 71] ، ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(256/436)

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ أي : طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وكل سوء : ﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : لتدخل أرواحكم الجنة ، فإنها في نعيم برزخي إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] الآيات .

ثم أشار إلى تقريع المشركين ، وتهديدهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا

ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ [33 - 34] .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ ﴾ أي : لقبض أرواحهم بالعذاب : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي : العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء : ﴿ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : فتمادوا في ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ ﴾ فيما أحل بهم في عذابه الآتي بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم : بإرسال رسله وإنزال كتبه : ﴿ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الوحدانية وتكذيب الرسل ونحوها : ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي : أحاط بهم : ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴾ من العذاب الذي توعدتهم به الرسل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا

مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [35 - 36]

.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

(258/436)

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ؛ تكذيباً للرسول صلوات الله عليه ، وطعناً في الرسالة ، وذلك قولهم : ﴿ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ، مما لم ينزل الله به سلطاناً

. ثم أعلم تعالى مشاكلتهم لمن تقدمهم ، بقوله : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من الشرك والتحريم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

(259/436)

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا ، لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه . قال الله تعالى راداً عليهم شبههم : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه آكد النهي ، وبعث في كل أمة ، أي : في كل قرن وطائفة من الناس ، رسولاً . وكلهم يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض ، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : 25] ، وكما أخبر هنا في هذه الآية . فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ﴿ لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على

ألسنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهي تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها .

أي : لأنها من سر القدر الذي حُظر الخوض فيه . ثم إنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ الآية . وقد تقدم لنا في سورة الأنعام نقل ما للأئمة في مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضاً ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، في أول الجزء الثاني من " منهاج السنة " مما يتعلق بالآية ، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضاً ، فإن الآية من معارك الأفهام ، فلا علينا أن نجلو عن الشبه فيها صدأ الأوهام .

قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه . فإن كثيراً من

الناس ، إذا أمر بما يجب عليه تعلل بالقدر وقال : حتى يقدر الله ذلك أو يقدرني الله على ذلك ، أو حتى يقضي الله ذلك . وكذلك إذا نهي عن فعل ما حرم الله قال : الله قضاه علي بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة ، باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين . والمحتج به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها في ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ما له عليه ، ويعاقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التي تعرض في العلوم . فكأنك تعلم فسادها

بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس ، حتى قد يشك في وجود نفسه ، وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض في الأعمال حتى يظن أنها شبهة في إسقاط الصدق والعدل الواجب ، وغير ذلك ، وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلم القلوب بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله ، فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة ، وهو المأمور ، وهو الذي ينبغي فعله ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة ، أو ليس هو مأموراً به ؛ لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه بغير علم ، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 148] ، قال الله تعالى : ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : من الآية 148] : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : 149] ، فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخر أو حرج في

ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصراً على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا؛ لم يقبلوا منه هذه الحجة، ولا هو يقبلها من غيره. وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم بلا وجه. فقال الله تعالى: ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله، وأنه مصلحة ينبغي فعله: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فإنه لا علم عندكم بذلك، إن تظنون ذلك إلا ظناً: ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ وتفترون. فعمدتكم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم، ليس عمدتكم في نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدره. فإن مجرد المشيئة والقدر لا تكون عمدة لأحد في الفعل، ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد؛ إذ الناس كلهم مشتركون في القدر. فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبر والفاجر. ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال [و] ما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم. وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيده، والإيمان به؛ لو احتج به بعضهم على بعض في سقوط حقوقه ومخالفة أمره، لم يقبله منه. بل كان هؤلاء المشركون يذم بعضهم بعضاً ويعادي بعضهم بعضاً ويقاتل بعضهم بعضاً على فعل من يريد تركاً لحقهم، أو ظلماً. فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره، واحتجوا بالقدر؛ فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حقّ ربهم ومخالفة أمره، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم. وفي الصحيحين عن معاذ بن

جبل رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < يا معاذ بن جبل ! أتدري ما حق الله على عباده ؟ ! حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يعذبهم > .

فالاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ وهم إنما يحتجون به في ترك حق ربهم ومخالفة أمره ، لا في ترك ما يرونه حقاً لهم ولا في مخالفة أمرهم . ولهذا تجد المحتجين والمستندين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ؛ يفرون إليه عند إتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً . بل يعتمدون عليه لعدم الهدى والعلم ، وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والغي لكثير من الناس . ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهي ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإنه كثيراً ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها . فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنه دين الله تعالى ، وليس معهم إلى الظن والذوق والوجدان الذي يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والخرص ، وهم متبعون

أهواءهم في الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : 123] ، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف : 20] ، فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا يخرصون . وقال في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام : 149] : إرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : 165]

(263/436)

، ثم أثبت القدر بقوله : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية . وكلاهما حق . وقال في النحل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : 35] فبيَّن سبحانه وتعالى أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءوهم به ، ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على

تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم . ففي فطرة بني آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج لعدم العلم وإتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < لا أحد أحب إليه العذر من [في المطبوع : في] الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن > .

فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويبغض الفواحش ، فيحب أن يمدح بالعدل والإحسان ، وألا يوصف بالظلم . ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن افعلوا كذا ولا تفعلوا . وبيّن لهم وأزاح علتهم ، ثم تعدوا حدوده وأفسدوا أمورهم ؛ كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدر علينا هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، وتبيَّن [في المطبوع : يبيّن] أن ما فعلتموه كان حسناً ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الكلام غير مقبول منكم . وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن ولي أمر أعطى قوماً مالاً ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه في البرية ليس عنده أحد

وباتوا في مكان بعيد منه ، وكان ولي الأمر قد أرسل جنداً يغزون بعض الأعداء ، فاجتازوا تلك الطريق ، فرأوا ذلك المال فظنوه لقطة ليس له أحد فأخذوه وذهبوا ؛ لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به . ولو قالوا له : أنت لم تعلمنا أنك تبعث بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم ! قال : هذا لا يجب علي ، ولو فعلته لكان زيادة إعانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قائمة ولم يكن يدعى فيهم ظالماً ، وإن كان لم يُعنهم بالإعلام بذلك الجند ، لكن عمل المصلحة في إرسال الأولين والآخرين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى ، حكَمٌ عدل في كل ما جعله ، ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ؛ كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرَّطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلاً حكماً في خلق هذا وخلق هذا ، والأمر بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يمدَّ الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتج أحد بالقدر إلا حجة تعليل ؛ لدعم إتباع الحق الذي بينه العلم . فإن الإنسان حيٌّ حساس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : < أصدق الأسماء الحارث

وهمام > فالحارث : الكاسب العامل . والهمام : المتحرك الهمّ . والهمّ مبدأ الإرادة والقصد . فكل إنسان حارث هَمَّام ، وهو المتحرك بالإرادة ، وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد ، فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور . فهذا الإدراك والشعور هو

مقدمة الإرادة والحب والطلب . والحيِّ مفطور على حب ما ينفعهُ ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذا تصوّر الشيء الملائم النافع ، أراده وأحبه . وإن تصور الشيء الضار أبغضه ونفر عنه . لكن ذلك التصوُّر قد يكون علماً وقد يكون ظناً وخرصاً . فإذا كان عالماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة وهو الذي يلائمه ؛ كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعاً للظن وما تهوى نفسه . فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لدَدٍ وتفريج ، لا حجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد في باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقراً بأن ما هو عليه ليس معه به علم ، وإنما تكلم

بغير علم . ومن تكلم بغير علم كان مبطلاً في كلامه ، ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فإما أن يكون جاهلاً ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قد عرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه . فتبين أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : 50] . انتهى . وله تتمة سابغة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

(266/436)

وقال القاشاني في هذه الآية : إنما قالوا ذلك عناداً وتعنتاً عن فرط بالجهل وإلزاماً للموحدين بناءً على مذهبهم . إذ لو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير ؛ لأن من علم أنه لا يمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من في العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ؛ لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفي القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركاً ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام : 107] ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل : 35] ، أي : في تكذيب الرسل بالعناد . انتهى .

(267/436)

وقال الإمام مفتي مصر في تفسير سورة العصر ، من هذا البحث ما مثاله : فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات ، إنما هو نسبتها إليه . ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه ، مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البداهة كذلك . ومثل هذا يقال في عظم قدرة الله تعالى . وإنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم ، نُدبِّر شيئاً ، ثم يأتي من الموانع من تحقيقه ما لم يكن في الحسبان ، ونتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند المِلّيّين ، فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحو الذي يعلمه ، وأن يقرِّر بنسبة عمله إليه كما هو بديهي عنده . ويعلم بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذي يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 148] . ووردت الأحاديث متواترة المعنى في النهي عن الخوض في القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصبر ؛ لوقف عند ما حدَّ الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدي حدود الله التي ضربها لعباده . ولست أحب التكلم في هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت في

القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول (واعتمادي على الله فيما أقول) : إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

(268/436)

وقال في موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدين . وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعي عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 148] ، فلا يسوغ لأحد منا ، وهو يدعي أنه مؤمن بالقرآن ؛ أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [37 - 38] .

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ أي : من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أي : ينصرونهم في الهداية ، أو يدفعون العذاب عنهم . ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم . وهو إنكارهم البعث بقوله :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي : جاهدين فيها فـ : ﴿ جَهْدَ ﴾ مصدر في موقع الحال : ﴿ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : أنه يبعثهم ، فيبتّون القول بعدمه ! وإنه وعداً عليه حقٌّ ، فيكذبونه ؛ وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال . وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما تقتضيه الحكمة . أفاده أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى في المعاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

(269/436)

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [39 - 40] .

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ أي : في أباطيلهم . لا سيما في إيمانهم بعدم البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : 14] . ثم بيّن عظيم قدرته ، وأنه لا يعجزه شيء ما ، بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي : فيوجد على ما شاء تكوينه ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : 50] ، وقوله : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 28] .

قال الزمخشري : (قولنا) مبتدأ ، و (أن نقول) خبره ، و (كن فيكون) من (كان) التامة التي بمعنى الحدوث والوجود . أي : إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له : أحدث ، فهو يحدث عقيب ذلك ، لا يتوقف . وهذا مثل ؛ لأن مراداً لا يمتنع عليه ، وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل . ولا قول ثَمّ . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو في شق المقدورات ؟ . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إنّ (كن) إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال . وإن كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفي الآية كلام لطيف مضى في سورة البقرة . فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلان ؛ رجاء ثوابه وابتغاء مرضاته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [41] .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ ﴾ أي : مخلصين لوجهه ، أو في حقه ، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره صلى الله عليه وسلم ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم ، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى صغار أبنائهم ، وهي أول هجرة في الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أو هم مهاجرة المدينة ، أخبر به قبل وقوعه أو بعده ، إلا أنها ألحقت بالمكية . وقوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أي : أوذوا ، وأريد فتنتهم عن الدين : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ يعني بالغلبة على من ظلمهم ، وإيراثهم أرضهم وديارهم : ﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني مضطهديهم وظالميهم . وقد روي أن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : (خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل) . ثم وصفهم تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [42 - 44] .

(271/436)

﴿ الَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي : على ما أوذوا في سبيل الله : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : فلا يخشون أحداً غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل ، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له ؛ إذ لا ظفر بغاية إلا بهما .

ولما عجبوا من إيحاء الله لرسوله ، واصطفائه برسالته ؛ قيل في درء شبههم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أهل الكتاب أو علماء الأحبار ؛ ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالذكر : إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ [يس : 69] ، أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد في الفروع للعاميّ

. وفي ذلك بحث طويل في " إيقاظ الهمم " لِلْفُلاَّنِي ، فارجع إليه إن شئت . وأشار إلى طرف منه في " فتح البيان " .

وقوله تعالى : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ أي : بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجار متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أي : أرسلناهم . أو بـ (ما أرسلنا) . أو بـ (نوحي) أو بـ (لا تعلمون) ، على أن الشرط للتبكيت والإلزام : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ أي : القرآن المذكِّر والموقظ من سنة الغفلة : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين . أو يتأملون ما فيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [45] .

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : المكرات السيئات التي قُصَّتْ عنهم . فهي صفة

لمصدر محذوف أو مفعول لـ (مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) : ﴿ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾

أي : من جهة لا يعلمون بها ، كما لا يشعر الممكور بقصد الماكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [46 – 48] .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي : سعيهم في المعايش واشتغالهم بها : ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : لا يعجزون ربهم على أي : حال كانوا .

(273/436)

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ أي : توقع للهلاك ومخافة له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو تنقص في أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته : جمادات وحيوانات

ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : جسم قائم له ظل : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ ﴾ أي : يرجع شيئاً فشيئاً : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ ﴾ أي : عن جانبي كل واحد منها ، بُكْرَةً وعَشِيّاً : ﴿ سُجَّداً لِلّهِ ﴾ أي : منقادة له على حسب مشيئته في الامتداد والتقلص وغيرهما ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له : ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي : صاغرون . وغلب في جمعها من يعقل ، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة ، وكذا ضمير (هم) أيضاً ؛ لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعتبر ما ذكر فيه ، ويجعل ما بعده جارياً على المشاكلة .

لطيفة :

لابن الصائغ في سر توحيد اليمين وجمع الشمائل توجيه لطيف . وملخصه : أنه نظر إلى الغاية فيهما ؛ لأن ظل الغداة يضمحل بحيث لا يبقى منه إلا اليسير ، فكأنه في جهة واحدة . وهو في العشيِّ على العكس ، لاستيلائه على جميع الجهات . فلحظت الغايتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له ، كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلاله) وقدّم الإفراد لأنه أصل أخف . و (عن اليمين) متعلق بـ (يَتَفَيَّأُ) أو حال . كذا في " العناية " .

ثم بيَّن سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [49] .

﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ ﴾ أي : الملائكة ، مع علو شأنهم : ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن عبادته والسجود له .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [50] .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي : من الطاعات والتدبير . واستدل بقوله : ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ على ثبوت الفوقية والعلو له تعالى . وقد صنف في ذلك الحافظ الذهبي كتاب " العلوّ " وابن القيم كتاب " الجيوش الإسلامية " وغيرهما . وأطنب فيها الحكيم ابن رشد في " مناهج الدولة " فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علوٌّ بلا تشبيه

ولا تمثيل . وانفرد السلف بخطر التأويل والتعطيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 382.394 ﴾

(275/436)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) ﴾

وقفنا في الدرس السابق عند استعراض آيات الخالق في خلقه ، وفي نعمته على عباده ، وفي علمه بالسر والعلن . . بينما الآلهة المدعاة ، لا تخلق شيئا ، بل هي مخلوقة . ولا تعلم شيئا ، بل هي ميتة لا تنتظر لها حياة . وهي لا تعلم متى يبعث عبادها للجزاء ! وهذا وذلك قاطع في بطلان عبادتها ، وفي بطلان عقيدة الشرك كافة . . وكان هذا هو الشوط الأول في قضية التوحيد في السورة مع إشارة إلى قضية البعث أيضا .

وها نحن أولاء نبدأ في الدرس الجديد من حيث انتهينا في الدرس السابق . نبدأ شوطا جديدا ، يفتتح بتقرير وحدة الألوهية ، ويعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكرة ، فالجحود صفة كامنة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات ، وهم مستكبرون ، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم . . ويختم بمشهد مؤثر : مشهد الظلال في

الأرض كلها ساجدة لله ، ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة ، قد برئت نفوسهم من الاستكبار ، وامتلأت بالخوف من الله ، والطاعة لأمره بلا جدال . . هذا المشد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المنكرة قلوبهم في مفتتح هذا الشوط الجديد .

(276/436)

وبين المطلع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين عن الوحي والقرآن إذ يزعمون أنه أساطير الأولين . ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله ، إذ يدعون أن الله أراد منهم الشر وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة إذ يقسمون جهد هم لا يبعث الله من يموت . ويتولى الرد على مقولاتهم جميعا . ويعرض في ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرأون من تلك المقولات الباطلة ، كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ، ويخوفهم أخذ الله في ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون ، وهم في تقلبهم في البلاد ، أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب . . وإلى جوار هذا يعرض صورا من مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء . وينتهي بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة في

الأرض والسماء . .

﴿ إلهكم إله واحد . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾ . .

ويجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة . بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء . فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء . .

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ وكل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة ، الواضحة الآثار في نواميس الكون وتناسقها وتعاونها كما سلف الحديث .

فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة ، ولا يؤمنون بالآخرة وهي فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين ، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم .

إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات ، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول . فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب ! .

والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم . فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون . يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم . ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ فالقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم . ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم الذي يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون .

﴿ وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ﴾ .

هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التي لا تقتنع ولا تستجيب إذا سئلوا ﴿ ماذا أنزل ربكم ؟ ﴾ لم يجيبوا الجواب الطبيعي المباشر ، فيتلوا شيئًا من القرآن أو يلخصوا فحواه ، فيكونوا أمناء في النقل ، ولو لم يعتقدوه . إنما هم يعدلون عن الجواب الأمين فيقولون : ﴿ أساطير الأولين ﴾ والأساطير هي الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة . . وهكذا يصفون هذا القرآن الذي يعالج النفوس والعقول ، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل . هكذا يصفونه لما يحويه من قصص الأولين . وهكذا يؤدي بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول ، ويصدونهم عن القرآن والإيمان ، وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته . . ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالا ذات ثقل وساءت احمالاً وأثقالا ! فهي توقر

النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهي تثقل القلوب ، كما تثقل الأحمال العواتق ، وهي تتعب وتشقي كما تتعب الأثقال حامليها بل هي أدهى وأنكى !

روى ابن أبي حاتم عن السدي قال : " اجتمعت قريش ، فقالوا : إن محمداً رجل حلو اللسان ، إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوا في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه . فخرج ناس في كل طريق فكان إذا اقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم ، قال أحدهم : انا فلان ابن فلان . فيعرفه نسبه ، ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له . فيرجع الوافد . فذلك قوله تعالى : ﴿ إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ﴾ . فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بئس الوافد لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وانظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره .

فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون : خيراً . . . " .

فقد كانت حرب دعاية منظمة يديرها قريش على الدعوة، ويديرها امثال قريش في كل زمان ومكان من المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان، لأن استكبارهم يمنعهم من الخضوع للحق والبرهان. فهؤلاء المستكبرون من قريش ليسوا أول من ينكر، وليسوا أول من يمكر. والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم، ومصيرهم يوم القيامة، بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلقوا في الآخرة جزاءهم. يعرض عليهم هذا كله في مشاهد مصورة على طريقة القرآن المأثورة:

(279/436)

﴿ قد مكر الذين من قبلهم. فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم، ويقول: أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم؟ قال الذين أوتوا العلم: إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين، الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء. بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فلبئس مثوى المتكبرين ﴾.

﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ والتعبير يصور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته. ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله

وتدبيره: ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فَخَرَّ عليهم السقف من فوقهم ﴾ وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل ، يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فالقواعد التي تحمل البناء تحطم وتهدم من أساسها ، والسقف يخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفنهم ﴿ وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ فإذا البناء الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه . إذا هو مقبرتهم التي تحتويهم ، ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم . وهو الذي اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته !

إنه مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ، ويحسبون مكرهم لا يرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط !

وهو مشهد مكرر في الزمان قبل قريش وبعدها . ودعوة الله ماضية في طريقها مهما يمكر الماكرون ، ومهما يدبر المدبرون . وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذي رسمه القرآن الكريم : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد فَخَرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

هذا في الدنيا ، وفي واقع الأرض : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول : اين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ ﴾ .

ويرتسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزي؛ وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر. وجاءوا إلى صاحب الخلق والأمر، يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب: ﴿ أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم؟ ﴾ أين شركائي الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الرسول والمؤمنين، وتجادلون فيهم المقرين الموحدين؟.

ويسكت القوم من خزي، لتنطلق ألسنة الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين وقد أذن الله لهم أن يكونوا في هذا اليوم متكلمين ظاهرين: ﴿ قال الذين أوتوا العلم: إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾..

﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾.. ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ فيعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة. يعود بهم إلى ساعة الاحتضار، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين، وبما اوردوها موارد الهلاك، وبما قادوها في النهاية إلى النار والعذاب.

ويرسم مشهدهم في ساعة الاحتضار، وهم قريبو عهد بالأرض، وما لهم فيها من كذب ومكر وكيد: ﴿ فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء! ﴾ ألقوا السلم. هؤلاء المستكبرون. فإذا هم مستسلمون لا يهمون بنزاع أو خصام، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام! ثم يكذبون ولعله طرف من مكرهم في الدنيا فيقولون مستسلمين: ﴿ ما كنا

نعمل من سوء ﴾ ! وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين !

ويجيئهم الجواب : ﴿ بلى ﴾ من العليم بما كان منهم ﴿ إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه .

ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ !

وعلى الجانب الأخر : الذين اتقوا . . يقابلون المنكرين المستكبرين في المبدأ والمصير :

(281/436)

﴿ وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيراً . للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار ، لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزي الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون : سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ . .

إن المتقين يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة ، وقوام ما أنزل ربهم من أمر ونهي وتوجيه وتشريع . فيلخصون الأمر كله في كلمة : ﴿ قالوا : خيراً ﴾ ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ حياة حسنة ومتعة حسنة

، ومكانة حسنة . ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ من هذه الدار الدنيا ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ . . ثم يفصل ما أجمل . عن هذه الدار . فإذا هي ﴿ جنات عدن ﴾ للإقامة ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ رخاء . ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ فلا حرمان ولا كد ، ولا حدود للرزق كما هي الحياة الدنيا . . ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ .

ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من قبلهم خطوة بالمستكبرين . فإذا هم في مشهد الاحتضار وهو مشهد هين لين كريم : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ طيبة نفوسهم بلقاء الله ، معافين من الكرب وعذاب الموت . ﴿ يقولون : سلام عليكم ﴾ طمأنة لقلوبهم وترحيباً بقدومهم ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ تعجيلاً لهم بالبشرى ، وهم على عتاب الآخرة ، جزاء وفاقاً على ما كانوا يعملون .

وفي ظل هذا المشهد بشقيه . مشهد الاحتضار ومشهد البعث . يعقب السياق بسؤال عن المشركين من قريش : ماذا ينتظرون ؟ أينتظرون الملائكة فتتوفاهم ؟ أم ينتظرون أمر الله فيبعثهم . وهذا ما ينتظرهم عند الوفاة ، وما ينتظرهم يوم يبعثهم الله ! أو ليس في مصير المكذبين قبلهم وقد شهدوه ممثلاً في ذينك المشهدين عبرة وغناء :

﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك ؟ كذلك فعل الذين من قبلهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فأصابهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . .

وعجيب أمر الناس . فإنهم يرون ما حل بمن قبلهم ممن يسلكون طريقهم ، ثم يظلون سادرين في الطريق غير متصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم ، وغير مدركين أن سنة الله تمضي وفق ناموس مرسوم ، وأن المقدمات تعطي دائما نتائجها ، وأن الأعمال تلقى دائماً جزاءها ، وأن سنة الله لن تحابيهم ولن تتوقف إزاءهم ، ولن تحيد عن طريقهم .

﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فقد أتاهم الله حرية التدبر والتفكر والاختيار ، وعرض عليهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، وحذرهم العاقبة ، ووكلهم إلى عملهم وإلى سنته الجارية . فما ظلمهم في مصيرهم المحتوم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . وما قسا عليهم في عقوبة ، إنما قست عليهم أعمالهم ، لأنهم أصيبوا بها أي بنتائجها الطبيعية وجرائرها : ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . . ولهذا التعبير وأمثاله دلالة فإنهم لا يعاقبون بشيء خارج عن ثمرة أعمالهم الذاتية . وإنهم ليصابون بجرائر سلوكهم التلقائية . وهم ينتكسون إلى أدنى من رتبة البشرية بما يعملون ، فيجازون بما هو أدنى من رتبة البشرية في دركات المقام المهين ، والعذاب الأليم .

ومقولة جديدة من مقولات المشركين عن علة شركهم وملابساته :

﴿ وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ؟ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ؛ فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة . فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . .

(283/436)

إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التي يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة على أنفسهم بغير شريعة من الله . . إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته . فلو شاء الله في زعمهم ألا يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله .

وهذا وهم وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلهية . وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التي وهبها له الله لاستخدامها في الحياة .

فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات .

وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه ، على ألسنة الرسل الذين كلفوا التبليغ وحده فقاموا به وأدوه : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت

﴿ فهذا أمره وهذه إرادته لعباده . والله تعالى لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقة من القدرة عليه ، أو دفعهم قسراً إلى مخالفته . وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال ، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين ؛ ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين ، بعد ما بث في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت آناء الليل وأطراف النهار . . ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده ، فوضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت بها رسله ، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر ، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذي لا تعصف به الأهواء . . ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان ، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان :

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . .

ففريق استجاب ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ وفريق شرد في طريق الضلال ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ . . وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله ، وكلاهما لم يقسره الله قسراً على هدى أو ضلال ، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه ، بعد ما زودته بمعالم الطريق في نفسه وفي الآفاق .

كذلك ينفي القرآن الكريم بهذا النص وهم الإجبار الذي لوح به المشركون ، والذي يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين . والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة في هذه النقطة . فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر ، ويعاقب المذنبين أحياناً في الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم . فلا مجال بعد هذا لأن يقال : إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله ! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم وهذه هي إرادة الله . وكل ما يصدر عنهم من خير أو شر . من هدى ومن ضلال . يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذي فصلناه .

ومن ثم يعقب على هذا بخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر سنة الله في الهدى والضلال :

﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴾ .

فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه ، فوظيفته البلاغ . أما الهدى أو الضلال فيمضي وفق سنة الله وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها ، فمن

أضله الله لأنه استحق الضلال وفق سنة الله ، فإن الله لا يهديه ، لأن لله سننا تعطي نتائجها . وهكذا شاء . والله فعال لما يشاء . ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من دون الله .

ومقولة ثالثة من مقولات المنكرين المستكبرين :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى . وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن . فيكون ﴾ . .

ولقد كانت قضية البعث دائماً هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ ان أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب .

وهؤلاء المشركون من قريش أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ! فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور . يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات ! .

وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى . . وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم . وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئًا ؛ فيكفي أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء ليكون .

وغفلوا كذلك عن حكمة الله في البعث . وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه . فالناس يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر . وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه في هذه الأرض لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه الفاصل في هذه الديار . حتى يتم الجزاء في الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هناك .

والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة ، ويكشف ما يحيط بها في نفوس القوم من شبهات فيبدأ بالتقرير : ﴿ بلى . وعداً عليه حقاً ﴾ ومتى وعد الله فقد كان ما وعد به لا يتخلف بحال من الأحوال ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ حقيقة وعد الله .

وللأمر حكمته : ﴿ ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ فيما ادعوا أنهم على الهدى ؛ وفيما زعموا من كذب الرسل ، ومن نفي الاخرة ؛ وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد .

والأمر بعد ذلك هين : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن . فيكون ﴾ . .

والبعث شيء من هذه الأشياء يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء .

وهنا يعرض في الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين ، لمحة عن المؤمنين المصدقين ، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال ، في الله ، وفي سبيل الله :

﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ . .

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون ، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم . . هؤلاء يرجون في الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا . وقد عانوا الظلم وفارقوه . فإذا كانوا قد خسروا الديار ف ﴿ لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ﴾ ولنسكننهم خيرا مما فقدوا ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ لو كان الناس يعلمون . هؤلاء ﴿ الذين صبروا ﴾ واحتملوا ما احتملوا ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ لا يشركون به أحدا في الاعتماد والتوجه والتكلان .

ثم يعود السياق إلى بيان وظيفة الرسل التي أشار عليها عند الرد على مقولة المشركين عن إرادة الله الشرك لهم ولآبائهم . يعود إليها لبيان وظيفة الرسول الأخير صلوات الله وسلامه عليه وما معه من الذكر الأخير . وذلك تمهيدا لإنذار المكذبين به ما يتهددهم من هذا التكذيب :

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون ﴾ . .

(287/436)

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً . . لم نرسل ملائكة ، ولم نرسل خلقاً آخر . رجالاً مختارين ﴿ نوحي إليهم ﴾ كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك . ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل من قبل ، أكانوا رجالا أم كانوا ملائكة أم خلقا آخر . اسألوهم ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ . أرسلناهم بالبينات وبالكتب (والزبر الكتب المتفرقة) ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا في كتابهم ، فجاء القرآن ليفصل في هذا الخلاف ، وليبين لهم وجه الحق فيه . أو المعاصرون الذين جاءهم القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم يبينه لهم ويشرحه بفعله وقوله ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ في آيات الله وآيات القرآن فإنه يدعو دائماً إلى التفكر والتدبر ، وإلى يقظة الفكر والشعور .

ويختم هذا الدرس الذي بدأه بالإشارة إلى الذين يستكبرون ويمكرون . . ينتهي بلمسة وجدانية بعد لمسة : أولاهما للتخويف من مكر الله الذي لا يأمنه أحد في ساعة من ليل أو

نهار . والثانية لمشاركة هذا الوجود في عبادة الله وتسبيحه . فليس إلا الإنسان هو الذي يستكبر ويمكر . وكل ما حوله يحمد ويسبح .

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ؟ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف . فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ .

﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ ؟

﴿ ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة ، وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

.

وأعجب العجب في البشر أن يد الله تعمل من حولهم ، وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا يغني عنهم مكرهم وتدبيرهم . ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم ومالهم . . وبعد ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون ، ويظل الناجون آمنين لا يتوقعون ان يؤخذوا كما أخذ من قبلهم ومن

حولهم ، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد الله في صحوهم أو في منامهم ، في غفلتهم أو في استيقاظهم والقرآن الكريم يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليثير حساسيتهم للخطر المتوقع ، الذي لا يغفل عنه إلا الخاسرون :

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ ؟ .

أو يأخذهم وهم يتقلبون في البلاد ، من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة ، ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ لله ، ولا يبعد عليه مكانهم في حل أو ترحال . ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون ؟ ولكن الله رؤوف رحيم .

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يأخذهم الله ؟ فهم لاجون في مكرهم سادرون في غيهم لا يثوبون ولا يتقون .

ذلك والكون من حولهم بنواميسه وظواهره يوحي بالايمان ، ويوحي بالخشوع : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ . .

ومشهد الظلال تمتد وتتراجع ، تثبت وتتمايل ، مشهد موح لمن يفتح قلبه ، ويوقظ حسه ، ويتجاوب مع الكون حوله .

والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود وهو أقصى مظاهر الخضوع ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة أي الراجعة بعد امتداد وهي حركة لطيفة خفيفة ذات دبيب في المشاعر وئيد عميق . ويرسم المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة طائعة . ويضم إليها ما في السماوات وما في الأرض من دابة . ويضيف إلى الحشد الكوني . . الملائكة فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب . ومعهم الملائكة . في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود . لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره . والمنكرون المستكبرون من بني الإنسان وحدهم شواذ في هذا المقام العجيب . وبهذا المشهد يختم الدرس الذي بدأ بالإشارة إلى المنكرين المستكبرين ، ليفردهم في النهاية بالإنكار والاستكبار في مشهد الوجود . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2166 2174.﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ وهو القيامة الكبرى التي يرتفع فيها حجب التعينات ويضمحل السوى ، ولما كان صلى الله عليه وسلم مشاهداً لذلك في عين الجمع قال ﴿ أتى ﴾ ولما كان ظهورها على التفصيل بحيث تظهر للكل لا يكون إلا بعد حين قال : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ لأن هذا ليس وقت ظهوره ، ثم أكد شهوده لوجه الله تعالى وفناء الخلق في القيامة بقوله :

﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 1] بإثبات وجود الغير ، ثم فصل ما شاهد في عين الجمع لكونه في مقام الفرق بعد الجمع لا يحتجب بالوحدة عن الكثرة ولا بالعكس فقال : ﴿ يُنَزّلُ الملائكة بالروح ﴾ وهو العلم الذي تحيا به القلوب ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم المخلصون له ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إله إلا أَنَاْ فاتقون ﴾ [النحل : 2] وقال بعضهم : أي خوفوا الخلق من الخواطر الرديئة المزوجة بالنظر إلى غيري وخوفهم من عظيم جلالي ، وهذا وحي تبليغ وهو مخصوص بالمرسلين عليهم السلام ، وذكروا أن

الوحي إذا لم يكن كذلك غير مخصوص بهم بل يكون للأولياء أيضاً ﴿ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَن لاَ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : 30] وقد روى عن بعض أئمة أهل البيت أن الملائكة تزاحمهم في مجالسهم ، ثم إنه تعالى عدد الصفات وفصل النعم فقال : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ [النحل : 3] الخ ، وفي قوله سبحانه : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ [النحل : 7] الخ إشارة كما نقل عن الجنيد قدس سره إلى أنه ينبغي لمن أراد البلوغ إلى مقصده أن يكون أول أمره وقصده الجهد والاجتهاد ليوصله بركة إلى مقصوده ، وذكروا أن المحمولين من العباد إلى المقاصد أصناف وكذا المحمول عليه ، فمحمول بنور الفعل ، ومحمول بنور الصفة ، ومحمول بنور الذات ، فالمحمول بنور الفعل يكون بلده مقام الخوف والرجاء ومحلته صدق اليقين وداره مربع الشهود ، والمحمول بنور الصفة يكون بلده مقام المعرفة ومحلته صفو الخلة وداره دار المودة ، والمحمول بنور الذات يكون بلده التوحيد ومحلته الفناء وداره البقاء ، وهذه الأصناف للسالك ، وأما المجذوب فمحمول على مطية الفضل إلى بلد المشاهدة ، وفي قوله سبحانه : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] تحيير للإفهام وعجيز أي تعجيز عن أن

تدرك الملك العلام ؛ وقال بعضهم : إن فيها تعليماً للوقوف عند ما لا يدركه العقل من آثار الصنع وفنون العلم وعدم مقابلة ذلك بالانكار حيث أخبر سبحانه أن يخل قما لا يعلم بمقتضى القوى البشرية المعتادة وإنما يعلم بقوة إلهية وعناية صمدية ، ألا ترى الصوفية الذين من الله تعالى عليهم بما من كيف عملوا عوالم عظيمة نسبة عالم الشهادة إليها كنسبة الذرة إلى الجبل العظيم ، وممن زعم الانتظام في سلكهم كالكفشية الملقبين أنفسهم بالكشفية من ذكر من ذلك أشياء لا يشك العاقل في أنها لا أصل لها بل لو عرض كلامهم في ذلك على الأطفال أو المجانين لم يشكوا في أنه حديث خرافة صادر عن محض التخيل ، وأنا أسأل الله تعالى أن لا يبتلي مسلماً بمثل ما ابتلاهم ، وقد عزمت حين رأيت بعض كتبهم التي ألفها بعض معاصرينا منهم مما اشتمل على ذلك على أن أصنع نحو ما صنعوا مقابلة للباطل بمثله لكن منعني الحياء من الله تعالى والاشتغال بخدمة كلامه سبحانه والعلم بأن تلك الخرافات لا تروج إلا عند من سلب مه الإدراك والتحق بالجمادات ، وقال الواسطي في الآية : المعنى يخلق فيكم من الأفعال ما لا تعلمون أنها لكم أم عليكم ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ أي السبيل القصد وهو التوحيد ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ وهو ما عدا ذلك

﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل : 9] لكنه لم يشأ لعدم استعدادكم ولتظهر صفات جماله وجلاله سبحانه : ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ وهم الأوتاد أرباب التمكين ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي تضطرب ، ومن الكلام المشهور على الألسنة لو خلت

قلبت ﴿ وأنهارا ﴾ وهم العلماء الذين تحيا بفرات علومهم أشجار القلوب ﴿ وَسُبُلاً ﴾ [النحل : 15] وهم المرشدون الداعون إليه تعالى ﴿ وعلامات ﴾ وهي الآيات الآفاقية والأنفسية ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 16] وهي الأنوار التي تلوح للسالك من عالم الغيب .

(293/436)

وقال بعضهم : ألقى في أرض القلوب رواسي العلوم الغيبيبة والمعارف السرمدية وأجرى فيها أنهار أنوار المعرفة والمكاشفة والمحبة والشوق والعشق والحكمة والفطنة وأوضح سبلاً للأرواح والعقول والأسرار ، فسبيل الأرواح إلى أنوار الصفات ، وسبيل العقول إلى أنوار الآيات ، وسبيل الأسرار إلى أنوار الذات ، والسبل في الحقيقة غير متناهية ، ومن كلامهم الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق .

والعلامات في الظاهر أنوار الأفعال للعموم ، وأخص العلامات في العالم الأولياء ، والنجوم أهل المعارف الذين يسبحون في أفلاك الديمومية بأرواحهم وقلوبهم وأسرارهم من اقتدى بهم يهتدي إلى مقصوده الأبدي ، وفي الحديث " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " والمراد بهم خواصهم ليتأتى الخطاب ، ويجوز أن يراد كلهم والخطاب لنا ولا مانع من ذلك

على مشرب القوم ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أموات غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : 20 ، 21] ما أعظمها آية في النهي على من يستغيث بغير الله تعالى من الجمادات والأموات ويطلب منه ما لا يستطيع جلبه لنفسه أو دفعه عنها .

وقال بعض أكابر السادة الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم : إن الاستغاثة بالأولياء محظورة إلا من عارف يميز بين الحدوث والقدم فيستغيث بالولي لا من حيث نفسه بل من حيث ظهور الحق فيه فإن ذلك غير محظور لأنه استغاثة بالحق حينئذ ؛ وأنا أقول إذا كان الأمر كذلك فما الداعي للعدول عن الاستغاثة بالحق من أول الأمر ؟ وأيضاً إذا ساغت الاستغاثة بالولي من هذه الحيثية فلتسغ الصلاة والصوم وسائر أنواع العبادة له من تلك الحيثية أيضاً ، ولعل القائل بذلك قائل بهذا .

(294/436)

بل قد رأيت لبعضهم ما يكون هذا القول بالنسبة إليه تسبيح ولا يكاد يجري قلمي أو يفتح فمي بذكره ، فالطريق المأمون عند كل رشيد قصر الاستغاثة والاستعانة على الله عز وجل فهو سبحانه الحي القادر العالم بمصالح عباده ، فإياك والانتظام في سلك الذين يرجون

النفع من غيره تعالى :

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] ذكروا أن السابقين الموحدين يتوفاهم الله تعالى بذاته ، وأما الأبرار والسعداء فقسمان ، فمن ترقى عن مقام النفس بالتجرد ووصل إلى مقام القلب بالعلوم والفضائل يتوفاهم ملك الموت ، ومن كان في مقام النفس من العباد والصلحاء والزهاد المتشرعين الذين لم يتجردوا عن علائق البدن بالتحلية والتخلية تتوفاهم ملائكة الرحمة ، وأما الأشرار الأشقياء فتتوفاهم الملائكة أيضاً ولكن ملائكة العذاب ويتشكلون لهم على صورة أخلاقهم الذميمة كما يتشكل ملائكة الرحمة لمن تقدم على صورة أخلاقهم الحسنة ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيِّبِينَ ﴾ [النحل : 32] طابت نفوسهم في خدمة مولاها وطابت قلوبهم في محبة سيدها وطابت أرواحهم بطيب مشاهدة ربها وطابت أسرارهم بطيب الأنوار ، وقيل : أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخدمة وترك الشهوات .

وقيل : طيبة أرواحهم بالموت لكونه باب الوصال وسبب الحياة الأبدية ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [النحل : 35] قالواه الزاماً بزعمهم

للموحدين وما دروا أنه حجة عليهم لأنه تعالى لا يشاء إلا ما يعلم ولا يعلم إلا ما عليه الشيء في نفسه فلولا أنهم في نفس الأمر مشركون ما شاء الله تعالى ذلك : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] هم أهل القرآن المتخلقون بأخلاقه القائمون بأمره ونهيه الواقفون على ما أودع فيه من الأسرار والغيوب وقليل ما هم فالمراد بالذكر القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 44] .

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لم يظهر مكنونات أسرار كتابه إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم فهو عليه الصلاة والسلام الأمين المؤتمن على الأسرار .

وقد أشار سبحانه له عليه الصلاه والسلام بتبيين ذلك وقد فعل ولكن على حسب القابليات لا تمنعوا الحكمة عن أهلها فتظلموهم ولا تمنحوها غير أهلها فتظلموها ولا تودع الأسرار إلا عند الأحرار .

وذلك لأنها أمانة وإذا أودعت عند غيرهم لم يؤمن عليها من الخيانة .

وخيانتها افشاؤها وافشاؤها خطر عظيم .

ولذا قيل :

من شاوروه فأبدى السر مشتهرا . . .

لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وجانبوه فلم يسعد بقربهم . . .

وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

لا يصطفون مذيعا بعض سرهم . . .

حاشا ودادهم من ذاكم حاشا

(296/436)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ أي ذات وحقيقة مخلوقة أية ذات كانت ﴿ يَتَفَيَّأُ ظلاله ﴾ قيل : أي يتمثل صوره ومظاهره ﴿ عَنِ اليمين ﴾ جهة الخير ﴿ والشمآئل ﴾ [النحل : 48] جهات الشرور ، ولما كانت جهة اليمين إشارة إلى جهة الخير الذي لا ينسب إلا إليه تعالى وحد اليمين ولما كانت جهة الشمال اشارة إلى جهة الشر الذي لا ينبغي أن ينسب إليه تعالى كما يرشد إليه قوله صلى الله عليه وسلم : "والشر ليس إليك" ولكن ينسب إلى غيره سبحانه وكان في الغير تعدد ظاهر جمع الشمال .

وقيل في وجه الأفراد والجمع : إن جميع الموجودات تشترك في نوع من الخير لا تكاد تفىء عنه وهو العشق فقد برهن ابن سينا على سريان قوة العشق في كل واحد من الهويات ولا تكاد تشترك في شر كذلك فما تفىء عنه من الشر لا يكون إلا متعدداً فلذا جمع الشمال ولا

كذلك ما تفيء عنه من الخير فلذا أفرد اليمين فليتأمل "ولله يسجد" ينقاد ﴿ ما في السموات وما في الأرض من دابة ﴾ أي موجود يدب ويتحرك من العدم إلى الوجود ﴿ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ [النحل : 49] لا يمتنعون عن الانقياد والتذلل لأمره ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ لأنه القاهر المؤثر فيهم ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [النحل : 50] طوعاً وانقياداً ، والله تعالى الهادي سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(297/436)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/437)

الجزء السابع والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 51 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 63 ﴾ من نفس السورة

(4/437)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ

بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التوحيد أعظم المأمورات ، وكان العصيان فيه أعظم العصيان ، وكان سبحانه قد أكثر التخويف من عصيانه ، أبلغ الأمر إلى نهايته بالإخبار بأن الملائكة تخافه ، وكان الملائكة من أعظم الموحدين ، كما كانوا من أعظم الساجدين ، من أهل السماوات والأرضين ، وكانت هذه الآيات من أعظم أدلة التوحيد ، أتبعها - عطفاً على ﴿ وأنزل إليك الذكر ﴾ ليتظافر على ذلك أدلة العقل والنقل وتسليكاً بأحوال الملائكة - قوله تعالى : ﴿ وقال الله ﴾ فعبر لأجل تعظيم المقام بالاسم الأعظم الخاص الذي بنيت عليه السورة : ﴿ لا تتخذوا ﴾ أي لا تكلفوا فطركم الأولى السليمة المجبولة على معرفة أن الإله واحد إلى أن تأخذ في اعتقادها ﴿ إلهين ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على ما علم من المقدمات المذكورة أول السورة إلى قوله : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ من النتيجة وهي ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ لاحتمال أن يقول متعنت : إنه لم يأمرنا بذلك وإن دلت عليه الأدلة ، ويجوز - وهو أقرب - أن يعطف على قوله : ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ تبكيتاً لهم بأنهم احتجوا بحكمه ، ولم يبادروا إلى امتثال أمره .

ولم كان قد فهم المراد من التثنية ، وكان ربما قال المتعنت : إن المنهي عنه تكثير الأسماء ، قال مؤكداً ومحققاً : ﴿ اثنين ﴾ تنبيهاً على أن الألوهية لأنه موضع لإمكان التنازع الملزوم للعجز المنافي لتلك الرتبة مطلق العدد ينافي المنيفة الشماء ، وفي ذلك أيضاً - مع كون معبوداتهم كانت كثيرة - إشارة إلى أن ما يسمى آلهة - وإن زاد عدده - يرجع بالحقيقة إلى اثنين : خالق ومخلوق ، ومن المعلوم لكل ذي لب أن المخلوق غير صالح للألوهية ، فانحصر الأمر في الخالق ، وإن لم يكن فيه الخالق كان منقسماً لا محالة ، وأقل ما ينقسم إلى اثنين : وباب الاتخاذ إذا كان مفعوله نكرة ، اكتفى بواحد كما تقول : اتخذت بيتاً ، واتخذت زوجة - ونحو ذلك ، ثم علل ذلك النهي بما اقتضاه السياق من الوحدانية فقال تعالى : ﴿ إنما هو ﴾ أي الإله المفهوم من لفظ ﴿ إلهين ﴾ الذي لا يستحق غيره أن يطلق عليه هذا الضمير إلا مجازاً ، لأنه لا يطلق إطلاقاً حقيقياً إلا على ما وجدوه من ذاته ﴿ إله ﴾ أي يستحق هذا الوصف على الإطلاق .

ولما كان السياق مفهماً للوحدانية من النهي عن التثنية ، وكان ربما تعنت متعنت بأن المراد إثبات الإله الدال على الجنس ، قال رافعاً لكل شبهة : ﴿ واحد ﴾ أي لا يمكن أن يثني بوجه ولا أن يجزأ لغناء المطلق عن كل شيء واحتياج كل شيء إليه ، فكونوا ممن يسجد له طوعاً ولا تكونوا ممن لا يسجد له إلا كرهاً .

ولما كان أسلوب الغيبة لا يعين الإله في المتكلم ، التفت إلى أسلوب التلكم فقال تعالى : ﴿ فإياي ﴾ أي ذلك الواحد أنا وحدي لا شريك لي ، فمن لم يوحدني أوقعت به بقوتي ما لا يطيقه لعجزه .

(6/437)

ولما كانت الوحدانية مما لا يخفى على عاقل ، وكانت مركوزة في كل فطرة بدليل الاضطراب عند المحن ، والشدائد والفتن ، وكانت الرهبة - كما مضى عن الحرالي في البقرة - خاصة بالخوف مما خالف العاصي فيه العلم ، عبر بها فقال تعالى : ﴿ فارهبون ﴾ مختصاً بذلك ولا تخافوا شيئاً غيري من صنم ولا غيره ، فإنه ليس لشيء من ذلك قدرة ، وإن أودعته فإنه لا يتمكن من إنفاذها ، فالأمر كله إليّ وحدي .

ولما كان أسلوب الغيبة من الحاضر دالاً على التردي بحجاب الكبر المؤذن بشدة البطش وسرعة الانتقام وبعد المقام ، رجع إليه فقال تعالى : ﴿ وله ﴾ فأعاد الضمير على الله الاسم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنى ﴿ ما في السّماوات ﴾ .

ولما كان الأمر قد تأكد وتأطد ، وظهر المراد منه غاية الظهور ، لم يحتج إلى تأكيده بإعادة النافي ، فقال تعالى : ﴿ والأرض ﴾ أي مما تعبدونه وغيره ، فكيف يتصور أن يكون شيء

من ذلك إلهاً وهو ملكه ، مع كونه محتاجاً إلى الزمان والمكان وغيرهما ﴿ وله الدين ﴾ أي الخضوع والتذلل من كل ما فيهما ومن فيهما بالطوع والكره ، بإنفاذ القضاء والقدر ، بالصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحياة والموت ، والإيجاد والإعدام ، والإذلال والإعزاز ، والإقبال والإعراض - كما بين آنفاً ، وله الدينونة بالمجازاة ﴿ واصباً ﴾ أي دائماً ثابتاً عاماً لا كالملوك الذين تنقطع ممالكهم مع خصوصها ، والمعبودات التي تنقطع عبادتها في وقت من الأوقات فتصير كاسدة بعد أن كانت رائجة وإن طال المدى ، مع خصوصها بناس دون غيرهم ، ولا يخلو يوم من الأيام لملك غيره من جري أمور على غير مراده وإن عظم سلطانه ، وعلا شأنه ، وكثرت أعوانه ، فكيف يتصور من له أدنى بصر أن يكون غيره إلهاً ، وقد تقدم في ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ [هود : 56] في هود ما ينفع استحضاره هنا .

(7/437)

ولما تقرر هذا الدليل على هذه الصفة ، وكان من مفهومات الدين الجزاء الناظر إلى الأفعال الواقية مما يضر ، تسبب عنه الإنكار الشديد على من يلتفت بشيء من أفعاله إلى غيره بعد علمه بأنه دائم لا يزول ، وأن كل ما سواه زائل ، فقال معبراً بالتقوى التي هي نتيجة الرهبة :

﴿ أفغير الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها ﴿ تتقون ﴾ وأتبع ذلك ما يوجب تعظيم الإنكار عليهم ، فقال مبيناً أنه لا ينبغي أن يتعلق خوف ولا رجاء إلا به : ﴿ وما بكم ﴾ أي التبس بكم أيها الناس عامة مؤمنكم وكافركم ﴿ من نعمة ﴾ أي جليلة أو حقيرة ﴿ فمن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء وحده لا من غيره .

ولما كان إخلاصهم له - مع ادعائهم ألوهية غيره - أمراً مستبعداً ، عبر بأداة التراخي والبعد في قوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم ﴾ أي أدنى مس ﴿ الضر ﴾ بزوال نعمة مما أنعم به عليكم ﴿ فإليه ﴾ أي وحده ﴿ تجأرون ﴾ أي تعرفون أصواتكم بالاستغاثة لما ركز في فطركم الأولية السليمة من أنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

ولما كان الرجوع إلى الإشراك بعد الإخلاص مستبعداً أيضاً لاستهجانهم سرعة الاستحالة ، قال تعالى : ﴿ ثم إذا كشف ﴾ سبحانه عما تشركون ﴿ الضر ﴾ أي الذي مسكم ﴿ عنكم ﴾ ونبه على مسارعة الإنسان في الكفران فقال تعالى : ﴿ إذا فريق ﴾ أي جماعة هم أهل فرقة وضلال ﴿ منكم ﴾ أيها العباد ! ﴿ بربهم ﴾ الذي تفرد بالإنعام عليهم ﴿ يشركون ﴾ أي يوقعون الإشراك به بعبادة غيره تغيراً منهم عما كانوا عليه عند الاستغاثة به في الشدة ، فكان منطبقاً عليهم ما ضربوا المثل بكراهته بقولهم :

وإذا تكون كريهة أُدعى لها . . .

وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

وهذا أجهل الجهل .

(8/437)

ولما كان هذا ملزوماً بجحد النعمة ، وكان من شأن العاقل البصير بالأمور - كما يدعونه لأنفسهم - أن يغفل عن شيء من لوازم ما يقدم عليه ، قال : ﴿ ليكفروا ﴾ أي يوقعوا التغطية لأدلة التوحيد التي دلتهم عليها غرائز عقولهم ﴿ بما ءاتينهم ﴾ أي من النعمة ، تنبيهاً على أنهم ما أقدموا على ذلك الشرك إلا لهذا الغرض إحلالاً لهم محل العقلاء البصراء الذين يزعمون أنهم أعلاهم ، ورفعاً لهم عن أحوال من يقدم على ما لا يعلم عاقبته ، ولا خزي أعظم من هذا ، لأنه أنتج أن الجنون خير من عقل يكون هذا مآله ، فهو من باب التهكم ﴿ فتمتعوا ﴾ أي فتسبب عن هذا أن يُقبل على هذا الفريق إقبال عالم قادر عليه قائلاً : تمتعوا ﴿ فسوف ﴾ أي فإن تمتعكم على هذا الحال سبب لأن يقال لكم تهديداً : سوف ﴿ تعلمون ﴾ غب تمتعكم ، فهو إقبال الغضب والتهديد بسوء المنقلب ، وحذف المتهدد به أبلغ وأهول لذهاب النفس في تعيينه كل مذهب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 276 . 279 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن كل ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام ، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه ، أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالأمر بأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وأنه غني عن الكل فقال : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين ، فما الفائدة في قوله : ﴿ إلهين اثنين ﴾ .

وجوابه من وجوه : أحدها : قال صاحب "النظم" : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : لا تتخذوا اثنين إلهين .

وثانيها : وهو الأقرب عندي أن الشيء إذا كان مستنكراً مستقبحاً ، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سبباً لوقوف العقل على ما

فيه من القبح .

إذا عرفت هذا فالقول بوجود الإلهين قول مستقبح في العقول ، ولهذا المعنى فإن أحداً من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال ، فقوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح .

وثالثها : أن قوله : ﴿ إلهين ﴾ لفظ واحد يدل على أمرين : ثبوت الإله وثبوت التعدد ، فإذا قيل : لا تتخذوا إلهين لم يعرف من هذا اللفظ أن النهي وقع عن إثبات الإله أو عن إثبات التعدد أو عن مجموعهما .

فلما قال : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ثبت أن قوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ إِلَٰهَيْنِ ﴾ نهي عن إثبات التعدد فقط .

(10/437)

ورابعها : أن الأثنينية منافية للإلهية ، وتقريره من وجوه : الأول : أنا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجباً لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتي ومتباينين بالتعين وما به المشاركة غير ما به المباينة ، فكل واحد منهما مركب من جزأين ، وكل مركب فهو ممكن

، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفي القول بكونهما واجبي الوجود .

والثاني : أنا لو فرضنا إلهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثاني ، لأن الحركة الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسمة أصلاً ولا التفاوت أصلاً ، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثاني ، وإذا ثبت هذا امتنع كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية ، وإذا ثبت هذا فإما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال ، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما ألبتة .

فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً .

فثبت أن كونهما اثنين ينفي كون كل واحد منهما إلهاً .

الثالث : أنا لو فرضنا إلهين اثنين لكان إما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر ، فإن قدر ذاك إله والآخر ضعيف ، وإن لم يقدر فهو ضعيف ، والرابع : وهو أن أحدهما إما أن يقوى على مخالفة الآخر ، أو لا يقوى عليه فإن لم يقو عليه فهو ضعيف ، وإن قوي عليه فذاك الآخر إن لم يقو على الدفع فهو ضعيف ، وإن قوي عليه فالأول المغلوب ضعيف .

فثبت أن الأثنينية والإلهية متضادتان .

فقوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين

الإلهية وبين الأثنينية .

والله أعلم .

(11/437)

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِله وَاحِدٌ ﴾ والمعنى : أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله ، وثبت أن القول بوجود الإلهين محال ، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق الصمد .

ثم قال بعده : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور ، والتقدير : أنه لما ثبت أن الإله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله ، فحينئذ ثبت إنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام ، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور ، ويقول : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ وفيه دقيقة أخرى وهو أن قوله : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ يفيد الحصر ، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه ، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه ، وذلك لأن الموجود إما قديم وإما محدث ، أما القديم الذي هو الإله فهو واحد ، وأما ما سواه فمحدث ، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبإيجاده ، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا إليه ولا رهبة إلا منه ، فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات .

ثم قال بعده : ﴿ وَلَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ وهذا حق ، لأنه لما كان الإله واحداً ، والواجب لذاته واحداً ، كان كل ما سواه حاصلاً بتخليقه وتكوينه وإيجاده ، فثبت بهذا البرهان صحة قوله : ﴿ وَلَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، لأن أفعال العباد من جملة ما في السموات والأرض ، فوجب أن تكون أفعال العباد لله تعالى ، وليس المراد من كونها لله تعالى أنها مفعولة لله لأجله ولغرض طاعته ، لأن فيها المباحات والمحظورات التي يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة ، لا لغرض الطاعة ، فوجب أن يكون المراد من قولنا إنها لله أنها واقعة بتكوينه وتخليقه وهو المطلوب .

ثم قال بعده : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِبًا ﴾ الدين ههنا الطاعة ، والواصب الدائم .

(12/437)

يقال : وصب الشيء يصب وصوباً إذا دام ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات : 9] ويقال : واظب على الشيء وواصب عليه إذا داوم ، ومفازة واصبة أي بعيدة لا غاية لها .

ويقال للعليل واصب ، ليكون ذلك المرض لازماً له .

قال ابن قتيبة : ليس من أحد يدان له ويطاع ، إلا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه ، فإن طاعته واجبة أبداً .

واعلم أن قوله : ﴿ واصباً ﴾ حال ، والعامل فيه ما في الظرف من معنى الفعل .

وأقول : الدين قد يعني به الانقياد .

يقال : يا من دانت له الرقاب أي انقادت .

فقوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ أي انقياد كل ما سواه له لازم أبداً ، لأن انقياد غيره له معلل بأن غيره ممكن لذاته ، والممكن لذاته يلزمه أن يكون محتاجاً إلى السبب في طرفي الوجود والعدم والماهيات يلزمها الإمكان لزوماً ذاتياً ، والإمكان يلزمه الاحتياج إلى المؤثر لزوماً ذاتياً ، ينتج أن الماهيات يلزمها الاحتياج إلى المؤثر لزوماً ذاتياً فهذه الماهيات موصوفة بالانقياد لله تعالى أتصافاً دائماً واجباً لازماً ممتنع التغير .

وأقول : في الآية دقيقة أخرى ، وهي أن العقلاء اتفقوا على أن الممكن حال حدوثه محتاج إلى السبب المرجح ، واختلفوا في الممكن حال بقائه هل هو محتاج إلى السبب ؟ قال المحققون : إنه محتاج لأن علة الحاجة هي الإمكان والإمكان من لوازم الماهية فيكون حاصلاً للماهية حال حدوثها وحال بقائها فتكون علة الحاجة حال حدوث الممكن وحال بقائه ، فوجب أن تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقائها .

إذا عرفت هذا فقوله : ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ معناه : أن كل ما سوى الحق فإنه محتاج في انقلابه من العدم إلى الوجود أو من الوجود إلى العدم إلى مرجح ومخصص ، وقوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ معناه أن هذا الانقياد وهذا الاحتياج حاصل دائماً أبداً ، وهو إشارة إلى ما ذكرناه من أن الممكن حال بقائه لا يستغني عن المرجح والمخصص ، وهذه دقائق من أسرار العلوم الإلهية مودعة في هذه الألفاظ الفائضة من عالم الوحي والنبوة .

ثم قال تعالى : ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ والمعنى : أنكم بعد ما عرفتم أن إله العالم واحد وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه في وقت حدوثه ، ومحتاج إليه أيضاً في وقت دوامه وبقائه ، فبعد العلم بهذه الأصول كيف يعقل أن يكون للإنسان رغبة في غير الله تعالى أو رهبة عن غير الله تعالى ؟ فلهذا المعنى قال على سبيل التعجب : ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ .

ثم قال : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه لما بين بالآية الأولى أن الواجب على العاقل أن لا يتقي غير الله ، بين في هذه الآية أنه يجب عليه أن لا يشكر أحداً إلا الله تعالى ، لأن الشكر إنما يلزم على النعمة ، وكل نعمة حصلت للإنسان فهي من الله تعالى لقوله : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يتقي أحداً إلا الله وأن لا يشكر أحداً إلا الله تعالى .

المسألة الثانية : احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإيمان حصل بخلق الله تعالى فقالوا الإيمان نعمة ، وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ينتج أن الإيمان من الله وإنما قلنا : إن الإيمان نعمة ، لأن المسلمين مطبقون على قولهم : الحمد لله على نعمة الإيمان ، وأيضاً فالنعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعاً به ، وأعظم الأشياء في النفع هو الإيمان ، فثبت أنا لإيمان نعمة .

(14/437)

وإذا ثبت هذا فنقول : وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ وهذه اللفظة تفيد العموم ، وأيضاً مما يدل على أن كل نعمة فهي من الله ، لأن كل ما كان موجوداً فهو إما واجب لذاته ، وإما ممكن لذاته ، والواجب لذاته ليس إلا الله تعالى ، والممكن لذاته لا يوجد إلا لمرجح ، وذلك المرجح إن كان واجباً لذاته كان حصول ذلك الممكن بإيجاد الله تعالى وإن كان ممكناً لذاته عاد التقسيم الأول فيه ، ولا يذهب إلى التسلسل ، بل ينتهي إلى إيجاد الواجب لذته ، فثبت بهذا البيان أن كل نعمة فهي من الله تعالى .

المسألة الثالثة :

النعم إما دينية وإما دنيوية ، أما النعم الدينية فهي إما معرفة الحق لذاته وإما معرفة الخير لأجل العمل به ، وأما النعم الدنيوية فهي إما نفسانية ، وإما بدنية وإما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر والتحديد كما قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : 34] والإشارة إلى تفصيل تلك الأنواع قد ذكرناها مراراً فلا نعيدها .

المسألة الرابعة : إنما دخلت الفاء في قوله : ﴿ فمن الله ﴾ لأن الباء في قوله : ﴿ بكم ﴾ متصلة بفعل مضمر ، والمعنى : ما يكن بكم أو ما حل بكم من نعمة فمن الله .

ثم قال تعالى : ﴿ ثم إِذا مسكم الضر ﴾ قال ابن عباس : يريد الأسقام والأمراض والحاجة : ﴿ فإليه تجأرون ﴾ أي ترفعون أصواتكم بالاستغاثة ، وتتضرعون إليه بالدعاء يقال : جأر يجأر جؤاراً وهو الصوت الشديد كصوت البقرة ، وقال الأعشى يصف راهباً :

يراوح من صلوات المليك . . طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

والمعنى : أنه تعالى بين أن جميع النعم من الله تعالى ، ثم إذا اتفق لأحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فإلى الله يجأر ، أي لا يستغيث أحداً إلا الله تعالى لعلمه بأنه لا مفزع

للخلق إلا هو ، فكأنه تعالى قال لهم فأين أنتم عن هذه الطريقة في حال الرخاء والسلامة ، ثم قال بعده : ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ فبين تعالى أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر في أن لا يفزع إلا إلى الله تعالى ، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره ، وهذا جهل وضلال ، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع إلا إلى الواحد ، ولا مستغاث إلا الواحد فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد ، فأما أنه عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلا الله تعالى ، وعند زوال البلاء يثبت الأضداد والشركاء ، فهذا جهل عظيم وضلال كامل .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت : 65] .

ثم قال تعالى : لأليكفروا بما آتيناهم ﴾ وفي هذه اللام وجهان : الأول : أنها لام كي والمعنى أنهم أشركوا بالله غيره في كشف ذلك الضر عنهم .

وغرضهم من ذلك الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالى ، ألا ترى أن العليل إذا اشتد وجعه تضرع إلى الله تعالى في إزالة ذلك الوجع ، فإذا زال أحال زواله على الدواء الفلاني والعلاج الفلاني ، وهذا أكثر أحوال الخلق .

وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله : في اليوم الذي كنت أكتب هذه الأوراق وهو اليوم الأول من محرم سنة اثنتين وستمائة حصلت زلزلة شديدة ، وهذه عظيمة وقت الصبح ورأيت الناس يصيحون بالدعاء والتضرع ، فلما سكنت وطاب الهواء ، وحسن أنواع الوقت نسوا في الحال تلك الزلزلة وعادوا إلى ما كانوا عليه من تلك السفاهة والجهالة ، وكانت هذه الحالة التي شرحها الله تعالى في هذه الآية تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الإنسان .

والقول الثاني : أن هذه اللام لام العاقبة كقوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 8] يعني أن عاقبة تلك التضرعات ما كانت إلا هذا الكفر .

واعلم أن المراد بقوله : ﴿ بما آتيناهم ﴾ فيه قولان : الأول : أنه عبارة عن كشف الضر وإزالة المكروه .

والثاني : قال بعضهم : المراد به القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من النبوة والشرائع .

واعلم أنه تعالى توعدهم بعد ذلك فقال : ﴿ فتمتعوا ﴾ وهذا لفظ أمر ، والمراد منه

التهديد ، كقوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : 29] وقوله :

﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ [الإسراء : 107] .

ثم قال تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب والله أعلم .

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 39 . 43 ﴾

(17/437)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . وله الدين واصباً ﴾

في ﴿ الدين ﴾ ها هنا قولان :

أحدهما : أنه الإخلاص ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه الطاعة ، قاله ابن بحر .

وفي قوله تعالى : ﴿ واصباً ﴾ أربعة تأويلات :

أحدها : واجباً ، قاله ابن عباس .

الثاني : خالصاً ، حكاه الفراء والكلبي .

الثالث : مُتعِباً ، والوصب : التعب والإعياء ، قال الشاعر :

لا يشتكي الساق مِن أين ولا وصَبٍ . . . ولا يزال أمام القوم يقتَفِرُ

الرابع : دائماً ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك ، ومنه قوله تعالى ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ [الصافات : 9] أي دائم ، وقال الدؤلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه . . . يوماً بذم الدهر أجمع واصبا

قوله عز وجل : ﴿ . . . ثم إذا مَسّكُم الضّرُّ فإليه تجأرون ﴾

في ﴿ الضر ﴾ ها هنا ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه القحط ، قاله مقاتل .

الثاني : الفقر ، قاله الكلبي .

الثالث : السقم ، قاله ابن عباس .

﴿ فإليه تجأرون ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : تضجون ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : تستغيثون .

الثالث : تضرعون بالدعاء ، وهو في اللغة الصياح مأخوذ من جؤار الثور وهو صياحه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وقال الله ﴾ الآية ،

آية نهي من الله تعالى عن الإشراك به ومعناها لا تتخذوا إلهين اثنين فصاعداً ، بما ينصه من قوله ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ ، قالت فرقة المفعول الأول ب ﴿ تتخذوا ﴾ قوله ﴿ إلهين ﴾ ، وقوله ﴿ اثنين ﴾ تأكيد وبيان بالعدد ، وهذا معروف في كلام العرب أن يبين المعدود وبذكر عدده تأكيداً ، ومنه قوله ﴿ إله واحد ﴾ لأن لفظ ﴿ إله ﴾ يقتضي الانفراد ، وقال قوم منهم : المفعول الثاني محذوف تقديره معبوداً أو مطاعاً ونحو هذا ، وقالت فرقة : المفعول الأول ﴿ اثنين ﴾ ، والثاني قوله ﴿ إلهين ﴾ ، وتقدير الكلام لا تتخذوا اثنين إلهين ، ومثله قوله تعالى ﴿ ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ذرية من حملنا مع نوح ﴾ [الإسراء : 2-3] ففي هذه الآية على بعض الأقوال تقديم المفعول الأول ل ﴿ تتخذوا ﴾ ، وقوله ﴿ فإياي ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره فارهبوا إياي فارهبون ولا يعمل فيه الفعل لأنه قد عمل في الضمير المتصل به ، وقوله ﴿ وله ما في السموات ﴾ الآية ، الواو في قوله ﴿ وله ﴾ عاطفة على قوله : ﴿ إله واحد ﴾ ، وجائز أن يكون واو ابتداء ، و﴿ ما ﴾ عامة جميع الأشياء مما يعقل ومما لا يعقل ، و﴿ السماوات ﴾ هنا كل ما ارتفع من الخلق في جهة فوق ، فيدخل فيه العرش والكرسي ، و﴿ الدين ﴾ الطاعة

والملك كما قال زهير في دين عمرو : وحالت بيننا فدك . أي في طاعته وملكه و" الواصب " القائم ، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقال الشاعر [أبي الأسود] : [الكامل]

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه . . . يوماً بذم الدهر أجمع واصبا

ومنه قول حسان : [المديد]

غيرته الريح تسفي به وهزيم رعده واصب . . . وقالت فرقة : هو من الوصب وهو التعب ، أي وله الدين على تعبه ومشقته .

(19/437)

قال القاضي أبو محمد : ف" واصب " على هذا جار على النسب أي ذا وصب ، كما قال : أضحى فؤادي به فاتناً ، وهذا كثير ، وقال ابن عباس أيضاً : " الواصب " الواجب ، وهذا نحو قوله : الواصب الدائم ، وقوله ﴿ أفغير ﴾ ، توبيخ ولفظ استفهام ونصب " غير " ب ﴿ تتقون ﴾ ، لأنه فعل لم يعمل في سوى " غير " المذكورة ، والواو في قوله ﴿ وما بكم ﴾ يجوز أن تكون واو ابتداء ، ويجوز أن تكون واو الحال ، ويكون الكلام متصلاً بقول ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ ، كأنه يقال على جهة التوبيخ : أتتقون غير الله وما منعم عليكم سواه ،

والباء في قوله ﴿ بكم ﴾ متعلقة بفعل تقديره وما نزل أو ألم ونحو هذا ، و﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، والفاء في قوله ﴿ فمن الله ﴾ دخلت بسبب الإبهام الذي في ﴿ ما ﴾ التي هي بمعنى الذي ، فأشبه الكلام الشرط ، ومعنى الآية التذكير بأن الإنسان في جليل أمره ودقيقه إنما هو في نعمة الله وأفضاله ، إيجاده داخل في ذلك فما بعده ، ثم ذكر تعالى بأوقات المرض لكون الإنسان الجاهل يحس فيها قدر الحاجة إلى لطف الله تعالى ، و﴿ الضر ﴾ وإن كان يعم كل مكروه فأكثر ما يجيء عبارة عن أرزاء البدن ، و﴿ تجأرون ﴾ معناه ترفعون أصواتكم باستغاثة وتضرع ، وأصله في جؤار الثور والبقرة وصياحها ، وهو عند جهد يلحقها أو في أثر دم يكون من بقر تذبح ، فذلك الصراخ يشبه به انتحاب الداعي المستغيث بالله إذ رفع صوته ، ومنه قول الأعشى : [المتقارب]

يراوح من صلوات المليـ . . . ك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

وأنشده أبو عبيدة :

(20/437)

بأبيل كلما صلى جأر . . . والأصوات تأتي غالباً على فعال أو فعيل : وقرأ الزهري " يجَرَون " بفتح الجيم دون همز حذفت الهمزة وألقيت حركتها على الجيم ، كما خففت "

تسلون " من " تسألون " ، وقوله ﴿ ثم إذا كشف الضر ﴾ قرأ الجمهور "كشف " ، وقرأ قتادة "كاشف " ، ووجهها أنها فاعل من واحد بمعنى كشف وهي ضعيفة ، و ﴿ فريق هنا يراد به المشركون الذين يرون أن للأصنام أفعالاً من شفاء المرض وجلب الخير ودفع الضر ، فهم إذا شفاهم الله عظموا أصنامهم ، وأضافوا ذلك الشفاء إليها ، وقوله ﴿ ليكفروا ﴾ يجوز أن يكون اللام لام الصيرورة أي فصار أمرهم ليكفروا ، وهم لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا ، ويجوز أن تكون لام أمر على معنى التهديد والوعيد ، كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] والكفر هنا يحتمل أن يكون كفر الجحد بالله والشرك ، ويؤيده قوله : ﴿ بربهم يشركون ﴾ ، ويحتمل أن يكون كفر النعمة وهو الأظهر ، لقوله : ﴿ بما آتيناهم ﴾ أي بما أنعمنا عليهم ، وقرأ الجمهور ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ على معنى قل لهم يا محمد ، وروى أبو رافع عن النبي عليه السلام " فيُمتعوا " بياء من تحت مضمومة " فسوف يعلمون " على معنى ذكر الغائب وكذلك في الروم ، وهي قراءة أبي العالية ، وقرأ الحسن " فتمتعوا " على الأمر " فسوف يعلمون " بالياء على ذكر الغائب ، وعلى ما روى أبو رافع يكون " يمتعوا " في موضع نصب عطفاً على " يكفروا " إن كانت اللام لام كي ، أو نصباً بالفاء في جواب الأمر إن كانت اللام لام أمر ، ومعنى التمتع في هذه الآية بالحياة الدنيا التي مصيرها إلى الفناء والزوال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهين اثنين ﴾

قيل : المعنى لا تتخذوا اثنين إلهين .

وقيل : جاء قوله "اثنين" توكيداً .

ولما كان الإله الحق لا يتعدّد وأن كل من يتعدّد فليس بإله ، اقتصر على ذكر الاثنين ؛ لأنه قصد نفي التعديد .

﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ يعني ذاته المقدّسة .

وقد قام الدليل العقلي والشرعي على وحدانيته حسبما تقدّم في "البقرة" بيانه وذكرناه في اسمه الواحد في شرح الأسماء ، والحمد لله .

﴿ فَإِيَّايَ فارهبون ﴾ أي خافون .

وقد تقدّم في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾

الدِّين : الطاعة والإخلاص .

و"وَاصِباً" معناه دائماً ؛ قاله الفرّاء ، حكاه الجوهريّ.

وَصَبَ الشيء يَصِب وُصوباً ، أي دام.

ووَصَبَ الرجل على الأمر إذا واظب عليه.

والمعنى : طاعة الله واجبة أبداً.

وممن قال واصبا دائماً : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك.

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي دائم.

وقال الدُّؤَلِي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه . . .

بذم يكون الدهر أجمع واصبا

أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما :

ما أبتغي الحمد القليلَ بقاؤه . . .

يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وقيل : الوَصب التعب والإعياء ؛ أي تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها.

ومنه قول الشاعر :

لا يُمسك الساقَ من أين ولا وَصَب . . .

ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصفر

وقال ابن عباس : "واصبا" واجباً .

الفراء والكلبي : خالصا .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي لا ينبغي أن تتقوا غير الله .

ف "غير" نصب ب "تتقون" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾

قال الفراء .

"ما" بمعنى الجزاء .

والباء في "بكم" متعلقة بفعل مضمر ، تقديره : وما يكن بكم .

﴿ مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ أي صحة جسم وَسَعة رزق وولد فمن الله .

وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي .

(22/437)

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر ﴾ أي السّقم والبلاء والقَحْط .

﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أي تضجون بالدعاء .

يقال : جَأَر يَجْأَر جُؤارا ً .

والجُؤار مثل الخُوار ؛ يقال : جأر الثور يجأر ، أي صاح .

وقرأ بعضهم "عجْلاً جسَداً لَهُ جُؤَارٌ" ؛ حكاه الأخفش .

وجأر الرجل إلى الله ، أي تضرّع بالدعاء .

وقال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة . . . .

وكان النكير أن تُضِيف وتجأرا

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ ﴾ أي البلاء والسقم .

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار .

فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرر في القرآن ،

وقد تقدّم في "الأنعام ويونس" ، ويأتي في "سبحان" وغيرها .

وقال الزجاج : هذا خاص بمن كفر .

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء .

أي أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كَيّ .

وقيل لام العاقبة .

وقيل : "لِيَكْفُرُوا بما آتَيْنَاهُم" أي ليجعلوا النعمة سبباً للكفر ، وكل هذا فعل خبيث ؛ كما

قال :

والكفرُ مَخْبَثةٌ لنفس المُنْعِم . . .

﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أمر تهديد .

وقرأ عبد الله "قل تمتعوا" .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة أمركم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(23/437)

وقال الخازن :

﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾

لما أخبر الله في الآية المتقدمة أن كل ما في السموات والأرض خاضعون لله ، منقادون لأمره عابدون له ، وأنهم في ملكه وتحت قدرته ، وقبضته نهى في هذه الآية عن الشرك ، وعن اتخاذ إلهين اثنين فقال ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ قال الزجاج : ذكر الاثنين توكيداً لقوله إلهين وقال : صاحب النظم : فيه تقديم وتأخير تقديره ، لا تتخذوا اثنين إلهين يعني أن الاثنين لا يكون كل واحد منهما إلهاً ، ولكن اتخذوا إلهاً واحداً ، وهو قوله تبارك

وتعالى ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ لأن الإلهين لا يكونان إلا متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال والقدره والإرادة فصارت الاثنينية منافية للإلهية ، وذلك قوله تعالى إنما هو إله واحد يعني لا يجوز أن يكون في الوجود إلهان اثنان إنما هو إله واحد ﴿ فإياي فارهبون ﴾ يعني فخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وإنما نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور ، وهو من طريق الالتفات لأنه أبلغ في الترهيب من قوله ، فإياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فإياي يفيد الحصر ، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه ولا يرغبون إلا إليه وإلى كرمه وفضله وإحسانه ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أن إله العالم لا شريك له في الإلهية ، وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيداً له وفي ملكه وتصرفه ، وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله ما في السموات والأرض يعني ، عبيداً وملكاً ﴿ وله الدين واصباً ﴾ يعني وله العبادة والطاعة وإخلاص العمل دائماً ثابتاً والواصب : الدائم .

(24/437)

قال ابن قتيبة : ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك لسبب في حال الحياة أو بالموت ، إلا الحق سبحانه وتعالى فإن طاعته واجبه أبداً ، ولأنه المنعم على عباده المالك لهم

فكانت طاعته واجبة دائماً أبداً ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ يعني أنكم عرفتم أن الله واحد لا شريك له في ملكه ، وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره ، وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الانكار قوله ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ يعني من نعمة الإسلام ، وصحة الأبدان وسعة الأرزاق ، وكل ما أعطاكم من مال أو ولد فكل ذلك من الله تعالى ، إنما هو المتفضل بها على عباده فيجب عليكم شكره على جميع إنعامه .

ولما بين في الآية المتقدمة أنه يجب على جميع العباد أن لا يخافوا إلا الله تعالى بين في هذه الآية أن جميع النعم منه لا يشكر عليها إلا إياه ، لأنه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها ﴿ ثم إذا مسّكم الضر ﴾ أي الشدة والأمراض والأسقام ﴿ فإليه تجأرون ﴾ يعني إليه تستغيثون ، وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم ما نزل بكم من الضرر والشدة وأصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد ، ومنه جؤار البقر .

(25/437)

والمعنى أن النعم لما كانت كلها ابتداء منه فإن حصل شدة ، وضر في بعض الأوقات فلا يلجأ إلا إليه ولا داعي إلا إياه ليكشفها ، فإنه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى ﴿ ثم

إذا كشف الضر عنكم ﴾ يعني ثم إذا أزال الشدة ، والبلاء عنكم ﴿ إذا فريق منكم ﴾ يعني طائفة وجماعة منكم ﴿ بربهم يشركون ﴾ يعني أنهم يضيفون كشف الضر إلى العوائد ، والأسباب ولا يضيفونه إلى الله فهذا من جملة شركهم الذي كانوا عليه ، وإنما قسمهم فريقين لأن فريق المؤمنين لا يرون كشف الضر إلا من الله تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ قيل : إن هذه اللام لام كي ويكون المعنى على هذا أنهم إنما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر عنهم وقيل : إنها لام العاقبة والمعنى عاقبة أمرهم ، هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ﴿ فتمتعوا ﴾ لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد .

يعني : فعيشوا في اللذة التي أنتم فيها إلى المدة التي ضربها الله لكم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ يعني عاقبة أمركم إلى ماذا تصير ، وهو نزول العذاب بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(26/437)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

وصب الشيء دام ، قال أبو الأسود الدؤلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه . . .

يوماً بذمّ الدهر أجمع واصبا

وقال حسان :

غيرته الريح يسفى به . . .

وهزيم رعده واصب

والعليل وصيب ، لكنّ المرض لازم له .

وقيل : الوصب التعب ، وصب الشيء شق ، ومفازة واصبة بعيدة لا غاية لها .

والجواز : رفع الصوت بالدعاء ، وقال الأعشى يصف راهباً :

يداوم من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا . . .

﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ : لما ذكر انقياد ما في السموات وما في الأرض لما يريده تعالى منها ، فكان هو المتفرد بذلك .

نهى أن يشرك به ، ودل النهي عن اتخاذ إلهين على النهي عن اتخاذ آلهة .

ولما كان الاسم الموضوع للإفراد والتثنية قد يتجوز فيه فيراد به الجنس نحو : نعم الرجل زيد ، ونعم الرجلان الزيدان ، وقول الشاعر :

فإن النار بالعودين تذكي . . .

وأن الحرب أولها الكلام

أكد الموضوع لهما بالوصف ، فقيل : إلهين اثنين ، وقيل : إله واحد ، وقال الزمخشري : الاسم الحامل لمعنى الإفراد أو التثنية دال على شيئين : على الجنسية ، والعدد المخصوص.

فإذا أردت الدلالة على أن المعنى به مبهم.

والذي يساق به الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه والعناية به.

ألا ترى أنك إذا قلت : إنما هو إله ولم تؤكده بواحد ، لم يحسن ، وخيل : أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية انتهى.

والظاهر أن لا تتخذوا ، تعدى إلى واحد واثنين كما تقدم تأكيد.

وقيل : هو متعد إلى مفعولين ، فقيل : تقدم الثاني على الأول وذلك جائز ، والتقدير : لا تتخذوا اثنين إلهين .

وقيل : حذف الثاني للدلالة تقديره معبوداً واثنين على هذا القول تأكيد ، وتقرير منافاة الاثنينية للإلهية من وجود ذكرت في علم أصول الدين .

ولما نهى عن اتخاذ الإلهين ، واستلزم النهي عن اتخاذ آلهة ، أخبر تعالى أنه إله واحد كما قال : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ بأداة الحصر ، وبالتأكيد بالوحدة .

ثم أمرهم بأنْ يرهبوه ، والتفت من الغيبة إلى الحضور لأنه أبلغ في الرهبة ، وانتصب إياي بفعل محذوف مقدر التأخير عنه يدل عليه فارهبون ، وتقديره : وإياي ارهبوا .

وقول ابن عطية : فإياي ، منصوب بفعل مضمر تقديره : فارهبوا إياي فارهبون ، ذهول عن القاعدة في النحو ، أنه إذا كان المفعول ضميراً منفصلاً والفعل متعدياً إلى واحد هو الضمير ، وجب تأخير الفعل كقولك : ﴿ إياك نعبد ﴾ ولا يجوز أن يتقدم إلا في ضرورة نحو قوله : إليك حين بلغت إياكا . . .

ثم التفت من التكلم إلى ضمير الغيبة فأخبر تعالى : أنّ له ما في السموات والأرض ، لأنه لما كان هو الإله الواحد الواجب لذاته كان ما سواه موجوداً بإيجاده وخلقه ، وأخبر أنّ له الدين واصباً .

قال مجاهد : الدين الإخلاص .

وقال ابن جبير : العبادة .

وقال عكرمة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الحدود والفرائض .

وقال الزمخشري وابن عطية : الطاعة ، زاد ابن عطية : والملك .

وأنشد :

في دين عمرو وحالت بيننا فدك . . .

أي : في طاعته وملكه .

وقال الزمخشري : أوله الحداد أي : دائماً ثابتاً سرمداً لا يزول ، يعني الثواب والعقاب .

وقال ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ،

والثوري : واصباً دائماً .

(28/437)

قال الزمخشري : والواصب الواجب الثابت لأن كل نعمة منه بالطاعة واجبة له على كل

منعم عليه ، وذكر ابن الأنباري أنه من الوصب وهو التعب ، وهو على معنى النسب أي :

ذا وصب ، كما قال : أضحى فؤادي به فاتناً ، أي ذا فتون .

قال الزمخشري : أو وله الدين ذا كلفة ومشقة ، ولذلك سمى تكليفاً انتهى .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وله الدين والطاعة رضي العبد بما يؤمر به وسهل عليه أم لا يسهل فله الدين ، وإن كان فيه الوصب .

والوصب : شدّة التعب .

وقال الربيع بن أنس : واصباً خالصاً .

قال ابن عطية : والواو في وله ما في السموات والأرض عاطفة على قوله : إله واحد ، ويجوز أن تكون واو ابتداء انتهى .

ولا يقال واو ابتداء إلا لواو الحال ، ولا يظهر هنا الحال ، وإنما هي عاطفة : فإما على الخبر كما ذكر أولاً فتكون الجملة في تقدير المفرد لأنها معطوفة على الخبر ، وإما على الجملة بأسرها التي هي : إنما هي إله واحد ، فيكون من عطف الجمل .

وانتصب واصباً على الحال ، والعامل فيها هو ما يتعلق به المجرور .

أفغير الله استفهام تضمن التوبيخ والتعجب أي : بعدما عرفتم وحدانيته ، وأن ما سواه له ومحتاج إليه ، كيف تتقون وتخافون غيره ولا نفع ولا ضر يقدر عليه ؟ ثم أخبر تعالى بأنّ جميع النعم المكتسبة منا إنما هي من إيجاده واختراعه ، ففيه إشارة إلى وجوب الشكر على ما أسدى من النعم الدينية والدنيوية .

ونعمه تعالى لا تحصى كما قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وما موصولة ، وصلتها بكم ، والعامل فعل الاستقرار أي : وما استقر بكم ، ومن نعمة تفسير لما ، والخبر

فمن الله أي : فهي من قبل الله ، وتقدير الفعل العامل بكم خاصاً كحلّ أو نزل ليس بجيد .

وأجاز الفرّاء والحوفي : أن تكون ما شرطية ، وحذف فعل الشرط.

قال الفراء : التقدير .

(29/437)

وما يكن بكم من نعمة ، وهذا ضعيف جداً لأنه لا يجوز حذفه إلا بعد أن وحدها في باب الاشتغال ، أو متلوّة بما النافية مدلولاً عليه بما قبله ، نحو قوله :

فطلقها فلست لها بكفء . . .

وإلا يعل مفرقك الحسام

أي : وإلا تطلقها ، حذف تطلقها الدلالة طلقها عليه ، وحذفه بعد أنْ متلوة بلا مختص بالضرورة نحو قوله :

قالت بنات العم يا سلمى وإن . . .

كان فقيراً معدماً قالت وإن

أي : وإن كان فقيراً معدماً ، وأما غير إن من أدوات الشرط فلا يجوز حذفه إلا مدلولاً عليه في باب الاشتغال مخصوصاً بالضرورة نحو قوله : أينما الريح تميلها تمل .

التقدير : أينما تميلها الريح تميلها تمل .

ولما ذكر تعالى أنّ جميع النعم منه ذكر حالة افتقار العبد إليه وحده ، حيث لا يدعو ولا يتضرع لسواه ، وهي حالة الضر والضر ، يشمل كل ما يتضرر به من مرض أو فقر أو حبس أو نهب مال وغير ذلك .

وقرأ الزهري : تجرون بحذف الهمزة ، وإلقاء حركتها على الجيم .

وقرأ قتادة : كاشف ، وفاعل هنا بمعنى فعل ، وإذا الثانية للفجاءة .

وفي ذلك دليل على أنّ إذا الشرطية ليس العامل فيها الجواب ، لأنه لا يعمل ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها .

ومنكم : خطاب للذين خوطبوا بقوله : وما بكم من نعمة ، إذ بكم خطاب عام .

والفريق هنا هم المشركون المعتقدون حالة الرجاء أنّ آلهتهم تنفع وتضر وتشقى .

وعن ابن عباس : المنافقون .

وعن ابن السائب : الكفار .

ومنكم في موضع الصفة ، ومِنْ للتبعيض ، وأجاز الزمخشري أن تكون من للبيان لا للتبعيض قال : كأنه قال فإذا فريق كافر وهم أنتم .

قال : ويجوز أن تكون فيهم من اعتبر كقوله : ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾

انتهى واللام في ليكفروا ، إن كانت للتعليل كان المعنى : أنّ إشراكهم بالله سببه كفرهم به ،

أي جحودهم أو كفران نعمته ، وبما آتيناهم من النعم ، أو من كشف الضر ، أو من القرآن المنزل إليهم .

(30/437)

وإن كانت للصيرورة فالمعنى : صار أمرهم ليكفروا وهم لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا ، بل آل أمر ذلك الجؤار والرغبة إلى الكفر بما أنعم عليهم ، أو إلى الكفر الذي هو جحوده والشرك به .

وإن كانت للأمر فمعناه التهديد والوعيد .

وقال الزمخشري : ليكفروا فتمتعوا ، يجوز أن يكون من الأمر الوارد في معنى الخذلان والتخلية ، واللام لام الأمر انتهى .

ولم يخل كلامه من ألفاظ المعتزلة ، وهي قوله : في معنى الخذلان والتخلية .

وقرأ أبو العالية : فيمتعوا بالياء باثنتين من تحتها مضمومة مبنياً للمفعول ، ساكن الميم وهو مضارع متع مخففاً ، وهو معطوف على ليكفروا ، وحذفت النون إما للنصب عطفاً إنْ كان يكفروا منصوباً ، وإما للجزم إن كان مجزوماً أن كان عطفاً ، وأن للنصب إن كان جواب الأمر .

وعنه : فسوف يعلمون بالياء على الغيبة ، وقد رواهما مكحول الشامي عن أبي رافع مولى النبي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

والتمتع هنا هو بالحياة الدنيا ومآلها إلى الزوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(31/437)

وقال أبو السعود :

وبعد ما بُيّن أن جميعَ الموجودات يُخَصّون بالخضوع والانقياد أصلاً لله عز وجل أُردف ذلك بحكاية نهْيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الإشراك فقيل :

﴿ وَقَالَ الله ﴾ عطف على قوله : ولله يسجد ، وإظهارُ الفاعل وتخصيصُ لفظة الجلالة بالذكر للإيذان بأنه متعيّنُ الألوهية ، وإنما المنهيُّ عنه هو الإشراكُ به لا أن المنهيَّ عنه مطلقُ اتخاذِ إلهين بحيث يتحقق الانتهاءُ عنه برفض أيِّهما كان أي قال تعالى لجميع المكلفين : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين ﴾ وإنما ذُكر العددُ مع أن صيغة التثنيةِ مغنيةٌ عن ذلك دلالةً على أن مساقَ النهي هو الاثْنيْنيّة وأنها منافيةٌ للألوهية كما أن وصفَ الإله بالوَحدة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ للدلالة على أن المقصودَ إثباتُ الوحدانية وأنها من لوازم الإلهية ،

وأما الإلهية فأمرٌ مسلَّمُ الثبوت له سبحانه وإليه أشير حيث أُسند إليه القول ، وفيه التفاتٌ من التكلم إلى الغَيبة على رأي من اكتفى في تحقق الالتفاتِ بكون الأسلوب الملتفَتِ عنه حقَّ الكلام ولم يشترِط سبقَ الذكرِ على ذلك الوجه ﴿ فإياي فارهبون ﴾ التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابةِ وإلقاءِ الرهبة في القلوب ولذلك قدّم المفعولَ وكرر الفعلَ أي إن كنتم راهبين شيئاً فإيايَ فارهبون لا غيرُ فإني ذلك الواحدُ الذي يسجُد له ما في السموات والأرض .

(32/437)

﴿ وَلَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ خلقاً ومُلكاً تقريرٌ لعلة انقيادِ ما فيها له سبحانه خاصة ، وتحقيقٌ لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديمُ الحرفِ لتقوية ما في اللام من معنى الاختصاص وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الدين ﴾ أي الطاعةُ والانقياد ﴿ وَاصِبًا ﴾ أي واجباً ثابتاً لا زوالَ له لِما تقرّر أنه الإله وحده الحقيقُ بأن يُرهَبَ ، وقيل : واصباً من الوصب أي وله الدين ذا كلفة ، وقيل : الدينُ الجزاءُ أي وله الجزاءُ الدائمُ بحيث لا ينقطع ثوابُه لمن آمن وعقابُه لمن كفر ﴿ أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أي أعَقيبَ تقرّرِ الشؤون المذكورةِ من تخصيص جميعِ

الموجودات للسجود به تعالى وكونِ ذلك كلّه له ، ونهيِه عن اتخاذ الأندادِ وكونِ الدين له واصباً المستدعي ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غيرَ الله الذين شأْنُه ما ذكر تتقون فتطيعون .

﴿ وَمَا بِكُم ﴾ أي أيُّ شيء يلابسكم ويصاحبكم ﴿ مِن نّعْمَةٍ ﴾ أية نعمةٍ كانت ﴿ فَمِنَ الله ﴾ فهي من الله ، فما شرطيةٌ أو موصولة متضمّنة لمعنى الشرط باعتبار الإخبارِ دون الحصول فإن ملابسةَ النعمةِ بهم سببٌ للإخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر ﴾ مِساساً يسيراً ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ﴾ تتضرعون في كشفه لا إلى غيره ، والجُؤار رفعُ الصوت بالدعاء والاستغاثة ، قال الأعشى

يراوِحُ من صلَواتِ الملي . . . ك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

(33/437)

وقرىء تَجَرون بطرح الهمزة وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها ، وفي ذكر المِساس المُنْبىءِ عن أدنى إصابةٍ وإيرادِه بالجملة الفعلية المعربةِ عن الحدوث مع ثم الدالةِ على وقوعه بعد برهةٍ من الدهر وتحليةِ الضُّر بلام الجنس المفيدةِ لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسمُ الجنس مع إيراد النعمةِ بالجملة الاسميةِ الدالةِ على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة

وإيرادِ (ما) المعربةَ عن العموم ما لا يخفى من الجزالة والفخامة ، ولعل إيرادَ إذا دون إن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب .

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ ﴾ وقرىء كاشَفَ الضر ، وكلمةُ ثم ليست للدلالة على تمادي زمانِ مِساس الضرّ ووقوعِ الكشفِ بعد برهة مديدةٍ بل للدلالة على تراخي رتبةِ ما يترتب عليه من مفاجأة الإشراك المدلولِ عليها بقوله سبحانه : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مّنْكُم بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فإنّ ترتبها على ذلك في أبعد غايةٍ من الضلال ، ثم إن وُجّه الخطابُ إلى الناس جميعاً فمِن للتبعيض والفريقُ فريقُ الكفرة ، وإن وجه إلى الكفرة فمن للبيان ، كأنه قيل : إذا فريق كافرون أنتم . ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ فمن تبعيضية أيضاً ، والتعرضُ لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبحِ ما ارتكبوه من الإشراك والكفران .

(34/437)

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضَهم في الشرك كُفرانَ النعمة وإنكارَ كونها من الله عز وجل ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ أمرُ تهديد ، والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان بتناهي السَّخَط ، وقرىء بالياء مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا على

أن يكون كفرانُ النعمة والتمتعُ غرضاً لهم من الإشراك ، ويجوز أن يكون اللامُ لامَ الأمرِ الواردِ للتهديد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ أمرِكم وما ينزل بكم من العذاب ، وفيه وعيدٌ أكيدٌ منبىءٌ عن أخذٍ شديد حيث لم يُذكر المفعول إشعاراً بأنه مما لا يوصف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(35/437)

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى بعد ما بين أن جميع الموجودات ، خاضعة منقادة له تعالى أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الإشراك فقال عز قائلا :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

﴿ وَقَالَ الله ﴾ عطفاً على قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ [النحل : 49] .

وجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ [النحل : 44] وقيل : إنه معطوف على ﴿ مَّا خَلَقَ الله ﴾ [النحل : 48] على أسلوب :

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

أي أو لم يروا إلى ما خلق الله ولم يسمعوا إلى ما قال الله ولا يخفى تكلفه ، وإظهار الفاعل

وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للإيذان بأنه تعالى متعين الألوهية وإنما المنهى عنه هو الإشراك به لا أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان ، ولم يذكر المقول لهم للعموم أي قال تعالى لجميع المكلفين بواسطة الرسل عليهم السلام : ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ إِلٰهين اثنين ﴾ المشهور أن ﴿ اثنين ﴾ وصف لإلهين وكذا "واحد" في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا هُوَإِله وَاحِدٌ ﴾ صفة لإله ، وجيء بهما للايضاح والتفسير لا للتأكيد وان حصل .

وتقرير ذلك أن لفظ "إلهين" حامل لمعنى الجنسية أعني الإلهية ومعنى العدد أعنى الاثنينة وكذا لفظ "إله" حامل لمعنى الجنسية والوحدة ، والغرض المسوق له الكلام في الأول النهي عن اتخاذ الاثنين من الاله لا عن اتخاذ جنس الإله ، وفي الثاني إثبات الواحد من الإله لا إثبات جنسه فوصف "آلهين" باثنين "وإله" بواحد إيضاحاً لهذا الغرض وتفسيراً له ، فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو نعم الرجل زيد .

وكذا المثنى كقوله :

فإن النار بالعودين تذكى . . .

وأن الحرب أولها الكلام

وإلى هذا ذهب صاحب الكشاف هو ما يفهم منه أنه تأكيد فمعناه أنه تأكيد فمعناه أنه محقق ومقرر من المتبوع فهو تأكيد لغوى لا أنه مؤكد أمر المتبوع في النسبة أو الشمول ليكون تأكيداً صناعياً كيف وهو إنما يكون بتقرير المتبوع بنفسه أو بما يوافقه معنى أو بألفاظ محفوظة ، فما قيل : إن مذهبه إن ذلك من التأكيد الصناعي ليس بشيء إذ لا دلالة في كلامه عليه .

وقد أورد السكاكي الآية في باب عطف البيان مصرحاً بأنه من هذا القبيل فتوهم منه بعضهم أنه قائل بأن ذلك عطف بيان صناعي ، وهو الذي اختارخ العلامة القطب في شرح المفتاح نافياً كونه وصفاً ، واستدل على ذلك بأن معنى قولهم : الصفة تابع يدل على معنى في متبوعه أنه تابع ذكر ليدل على معنى في متبوعه على ما نقل عن ابن الحاجب ، ولم يذكر ﴿ اثنين ﴾ للدلالة على الاثنينة والوحدة اللتين في متبوعهما فيكونا وصفين بل ذكرا للدلالة على أن القصد من متبوعهما إلى أحد جزئيه أعنى الأثنينية والوحدة دون الجزء الآخر أعنى الجنسية ، فكل منهما تابع غير صفة يوضح متبوعه فيكون عطف بيان لا صفة .

وقال العلامة الثاني : ليس في كلام السكاكي ما يدل على أنه عطف بيان صناعي لجواز أن

يريد أنه من قبيل الإيضاح والتفسير وإن كان وصفاً صناعياً ، ويكون إيراده في ذلك المبحث مثل إيراد كل رجل عارف وكل إنسان حيوان في بحث التأكيد ومثل ذلك عادة له .

(37/437)

وتعقب العلامة الأول بأنه إن أريد أنه لم يذكر إلا ليدل على معنى في متبوعه فلا يصدق التعريف على شيء من الصفة لأنها البتة تكون لتخصيص أو تأكيد أو مدح أو نحو ذلك وإن أريد أنه ذكر ليدل على هذا المعنى ويكون الغرض من دلالته عليه شيئاً آخر كالتخصيص والتأكيد وغيرهما فيجوز أن يكون ذكر ﴿ اثنين ﴾ للدلالة على الاثنينية والوحدة ويكون الغرض من هذا بيان المقصود وتفسيره ، كما أن الدابر في أمس الدابر ذكر ليدل على معنى الدبور والغرض منه التأكيد بل الأمر كذلك عند التحقيق ، ألا ترى أن السكاكي جعل من الوصف ما هو كاشف وموضح ولم يخرج بهذا عن الوصفية .

وأجيب بأنا نختار الشق الثاني ونقول : مراد العلامة من قوله : ذكر ليدل على معنى في متبوعه أن يكون المقصود من ذكره الدلالة على حصول المعنى في المتبوع ليتوسل بذلك إلى التخصيص أو التوضيح أو المدح أو الذم إلى غير ذلك وذكر ﴿ اثنين ﴾ ليس للدلالة على حثول الاثنينية والوحدة في موصوفيهما بل تعيين المقصود من جزئيهما فلا يكونان صفة ،

وذكر الدابر ليدل على حصول الدبور في الأمس ثم يتوسل بذلك إلى التأكيد وكذا في الوصف الكاشف بخلاف ما نحن فيه فتدبره فإنه غامض .

ولم يجوز العلامة الأول البدلية فقال : واما أنه ليس ببدل فظاهر لأنه لا يقوم مقام المبدل منه .

ونظر فيه العلامة الثاني بأنا لا تسلم أن البدل يجب صحة قيامه مقام المبدل منه فقد جعل الزمخشري "الجن" في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [الأنعام : 100] بدلاً من "شركاء" ومعلوم أنه لا معنى لقولنا وجعلوا لله الجن ، ثم قال : بل لا يبعد أن يقال : الأولى أنه بدل لأنه المقصود بالنسبة إذ النهي عن اتخاذ الاثنين من الإله على ما مر تقريره .

(38/437)

وتعقب بأن الرضى قد ذكر أنه لما لم يكن البدل معنى في المتبوع حتى يحتاج إلى المتبوع كما احتاج الوصف ولم يفهم معناه من المبتوع كما فهم ذلك في التأكيد جاز اعتباره مستقلاً لفظاً أي صالحاً لأن يقوم مقام المتبوع اه .

ولا يخفى أن صحة إقامته بهذا المعنى لا تقتضي أن يتم معنى الكلام بدونه حتى يرد ما أورد ؛ وقيل : إن ذكر "اثنين" للدلالة على منافاة الاثنينية للالوهية وذكر الوحدة للتنبيه على أنها من لوازم الألوهية .

وجعل ذلك بعضهم من روادف الدلالة على كون ما ذكر مساق النهي والإثبات وهو الظاهر وإن قيل فيه ما قيل .

وزعم بعضهم ان ﴿ تَتَّخِذُواْ ﴾ متعد إلى مفعولين وأن ﴿ اثنين ﴾ مفعوله الأول "وإلهين" مفعوله الثاني والتقدير لا تتخذوا اثنين إلهين ، وقيل : الأول مفعول أول والثاني ثان ، وقيل : "إلهين" مفعوله الأول "واثنين" باق على الوصفية والتوكيد والمفعول الثاني محذوف أي معبودين ، ولا يخفى ما في ذلك ، وإثبات الوحدة له تعالى مع أن المسمى المعين لا يتعدد بمعنى أنه لا مشارك له في صفاته وألوهيته فليس الحمل لغواً ، ولا حاجة لجعل الضمير للمعبود بحق المفهوم من الجلالة على طريق الاستخدام كما قيل ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه في سورة الاخلاص .

وفي التعبير بالضمير الموضوع للغائب التفات من التكلم إلى الغيبة على رأي السكاكي المكتفي بكون الأسلوب الملتفت عنه حق الكلام وإن لم يسبق الذكر على ذلك الوجه ، واما قوله تاعلى : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ ففيه التفات من الغيبة إلى التكلم على مذهب الجمهور أيضاً ، والنكتة فيه بعد النكتة العامة أعني الايقاظ وتطرية الاصغاء المبالغة في التخويف والترهيب فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام .

والفاء في ﴿ فإياي ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر و ﴿ إياي ﴾ مفعول لفعل محذوف يقدر مؤخراً يدل عليه ﴿ وإياى فارهبون ﴾ أي إن رهبتم شيئاً فإياي ارهبوا ، وقول ابن عطية : أن ﴿ إياي ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره فارهبوا إياي فارهبون ذهول عن القاعدة النحوية ، وهي انه إذا كان المعمول ضميراً منفصلاً والفعل متعد إلى واحد هو الضمير وجب تأخر الفعل نحو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة : 5] ولا يجوز أن يتقدم إلا في ضرورة نحو قوله :

إليك حتى بلغت إياكا . . .

وعطف المفسر المذكور على المفسر المحذوف بالفاء لأن المراد رهبة بعد رهبة ، وقيل : لأن المفسر حقه إن يذكر بعد المفسر ، ولا يخفى فصل الضمير وتقديمه من الحصر أي ارهبوني لا غير فانا ذلك الإله الواحد القادر على الانتقام

﴿ وَلَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ عطف على قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ [النحل : 51] أو على الخبر أو مستأنف جيء به تقريراً لعلة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصة وتحقيقاً لتخصيص الرهبة به تعالى ، وتقديم الظرف لتقوية ما في اللام من معنى التخصيص ، وكذا يقال فيما بعد أي له تعالى وحده ما في السموات والأرض خلقا وملكا ﴿ وَلَهُ ﴾ وحده ﴿ الدين ﴾ أي الطاهة والانقياد كما هو أحد معانيه .

ونقل عن ابن عطية وغيره ﴿ وَاصِبًا ﴾ أي واجباً لازماً لا زوال له لما تقرر أنه سبحانه الإله وحده الحقيق بأن يرهب ، وتفسير ﴿ وَاصِبًا ﴾ بما ذكر مروى عن ابن عباس .

والحسن .

وعكرمة .

ومجاهد .

والضحاك .

وجماعة ، وأنشدوا لأبي الأسود الدؤولي :

لا أبتغى الحمد القليل بقاؤه . . .

يوماً بذم الدهر أجمع واصبا

وقال ابن الأنباري : هو من الوصب بمعنى التعب أو شدته ، وفاعل للنسب كما في قوله :

وأضحى فؤادي به فاتنا . . .

أي ذا وصب وكلفة ، ومن هنا سمى الدين تكليفاً ، وقال الربيع بن أنس : ﴿ وَاصِبًا ﴾ خالصاً ، ونقل ذلك أيضا عن الفراء ، وقيل : الدين الملك والواصب الدائم ، ويبعد ذلك

قول أمية بن الصلت :

وله الدين واصبا وله الم. . .

لك وحمد له على كل حال

وقيل : الدين الجزاء والواصب كما في سابقه أي له تعالى الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه للمطيع وعقابه للعاصي ، وأياً ما كان فنصب ﴿ وَاصِبًا ﴾ على أنه حال من ضمير ﴿ الدين ﴾ المستكن في الظرف والظرف عامل فيه أو حال من ﴿ الدين ﴾ والظرف هو العامل على رأي من يرى جواز اختلاف العامل في الحال والعامل في صاحبها .

واستدل بالآية على أن أفعال العباد مخلوقة تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ الهمزة للانكار والفاء للتعقب أي أبعد ما تقرر من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى وكون ذلك كله له سبحانه ونهيه عن اتخاذ الإلهين وكون الدين له واصباً المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به تاعلى تتقون غيره ، والمنكر تقوى غير الله تعالى لا مطلق التقوى ولذا قدم الغير ، وأولي الهمزة لا للاختصاص حتى يرد أن انكار تخصيص التقوى بغيره سبحانه لا ينافي جوازها ، وقيل : يصح أن يعتبر الاختصاص بالانكار فيكون التقديم لاختصاص الإنكار لا لإنكار الاختصاص .

وفي البحر أن هذا الاستفهام يتضمن التوبيخ والتعجب أي بعد ما عرفتم من وحدانيته سبحانه وأن ما سواه له ومحتاج إليه كيف تتقون وتخافون غيره .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ أي أي شيء يلابسكم ويصاحبكم من نعمة أي نعمة كانت فهي منه تاعلى فما موصولة مبتدأ متضمنة معنى الشرط و ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ خبرها والفاء زائدة في الخبر لذلك التضمن و ﴿ مِن نِّعْمَةٍ ﴾ بيان للموصول و ﴿ بِكُمْ ﴾ صلته، وأجاز الفراء وتبعه الحوفي أن تكون ﴿ مَا ﴾ شرطية وفعل الشرط محذوف أي وما يكن بكم من نعمة الخ.

(41/437)

واعترضه أبو حيان بأنه لا يحذف فعل الشرط إلا بعد إن خاصة في موضعين باب الاشتغال نحو ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة : 6] وأن تكون إن الشرطية متلوة بلا النافية وقد دل على الشرط ما قبله كقوله :

فطلقها فلست لها بكفء . . .

وإلا يعل مفرقك الحسام

وحذفه في غير ما ذكر ضرورة كقوله :

قالت بنات العم يا سلمى وإن . . .

كان فقيراً معدماً قالت وإن

وقوله :

أينما الريح تمليها تمل . . .

وأجيب بأن الفراء لا يسلم هذا فما أجازه مبني على مذ به .

واستشكل أمر الشرطية على الوجهين من حيث أن الشرط لا بد أن يكون سبباً للجزاء كما تقول : إن تسلم تدخل الجنة فإن الإسلام سبب لدخول الجنة وهنا على العكس ، فإن الأول وهو استقرار النعمة بالمخاطبين لا يستقيم أن يكون سبباً للثاني وهو كونها من الله من جهة كونه فرعاً عنه .

وأجاب في إيضاح المفصل بأن الآية جيء بها لاخبار قوم استقرت بهم نعم جهلوا معطيها أوشكوا فيه أو فعلوا ما يؤدي إلى أن يكونوا شاكين فاستقرارها مجهولة أو مشكوكة سبب للاخبار بكونها من الله تعالى فيتحقق أن الشرط والمشروط فيها على حسب المعروف من كون الأول سبباً والثاني مسبباف ، وقد وهم من قال : إن الشرط قد يكون مسبباً .

وفي الكشف أن الشرط والجزاء ليسا على الظاهر فإن الأول ليس سبباً للثاني بل الأمر بالعكس لكن المقصود منه تذكيرهم وتعريفهم فالاتصال سبب العلم بكونها من الله تعالى ، وهذا أولى مما قدره ابن الحاجب من أنه سبب الأعلام بكونها منه لأنه في قوم استقرت بهم النعم وجهلوا معطيها أوشكوا فيه ، ألا ترى إلى ما بنى عليه بعد كيف دل على أنهم عالمون بأنه سبحانه المنعم ولكن يضطرون إليه عند الإلجاء ويكفرون بعد الإنجاء انتهى .

وفيه أنه يدفع ما ذكره بأن علمهم نزل لعدم الاعتداد به وفعلهم ما ينافيه منزلة الجهل فأخبروا بذلك كما تقول لمن توبخه : أما أعطيتك كذا أما وأما ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر ﴾ مساساً يسيراً ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ تتضرعون في كشفه لا إلى غيره كما يفيده تقديم الجار والجرور ، والجؤار في الأصل صياح الوحش واستعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ، قال الأعشى يصف راهباً :

يداوم من صلوات المليك . . .

طوراً سجوداً وطوراً جؤراً

وقرى الزهري "تجرون" بحذف الهمزة والقاء حركتها على الجيم ، وفي ذكر المساس المنبىء عن أدنى إصابة وإيراده بالجملة الفعلية المؤذنة بالحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية ﴿ الضر ﴾ بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسم الجنس مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية المؤذنة بالدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة وأيراد ﴿ مَا ﴾ المعربة عن العموم على احتماليها ما لا يخفى من الجزالة والفخامة .

ولعل إيراد "إذا" دون ان للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب قاله المولى أبو السعود ، وفيه ما يعرف مع الجواب عنه بأدنى تأمل ، وكان الظاهر على ما قيل أن يقال بعد ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل : 52] : وما يصيبكم ضر إلا منه ليقوي إنكار اتقاء غيره سبحانه لكن ذكر النفع الذي يفهم بواسطته الضر واقتصر عليه إشارة إلى سبق رحمته وعمومها وبملاحظة هذا المعنى قيل : يظهر ارتباط "وما بكم من نعمة فمن الله" بما قبله ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك ، واستدل بالآية على أن لله تعالى نعمة على الكافر وعلى أن الإيمان مخلوق له تعالى .

(43/437)

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ ﴾ أي رفع ما مسكم من الضر ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي يتجدد إشراكهم به تعالى بعبادة غيره سبحانه ، والخطاب في الآية ان كان عاماً فمن للتبعيض والفريق الكفرة ، وإن كان خاصاً بالمشركين كما استظهره في الكشف فمن للبيان على سبيل التجريد ليحسن وإلا فليس من مواقعه كما قيل ، والمعنى إذا فريق هم أنتم يشركون ؛ وجوز على هذا الاحتمال في الخطاب كون من تبعيضية أيضاً لأن من المشركين من يرجع عن شركه إذا شاهد ضراً شديداً كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا

نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ [لقمان : 32] على تقدير أن يفسر الاقتصاد بالتوحيد لا بعدم الغلو في الكفر ، و﴿ إِذَا ﴾ الأولى شرطية والثانية فجائية والجلمة بعدها جواب الشرط ، واستدل أبو حيان باقترانها باذا الفجائية على أن إذا الشرطية ليس العامل فيها الجواب لأنه لا يعمل ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها ، و﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ متعلق بيشركون والتقديم لمراعاة رؤوس الآي ، والتعرض لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الإشراك الذي هو غاية في الكفران .

و﴿ ثُمَّ ﴾ قال في إرشاد العقل السلم ليست لتمادي زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخي رتبة ما يترتب عليه من مفاجآت الإشراك فإن ترتبها على ذلك في أبعد غاية من الضلال .

وفي الكشف متعقباً صاحب الكشاف بأنه لم يذكر وجه الكلام في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ﴾ وهو على وجهين والله تعالى أعلم .

(44/437)

أحدهما أن يكون قوله سبحانه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : 53] من تتمة السابق على معنى إنكار إتقاء غير الله تعالى وقد علموا أن كل ما يتقلبون فيه من نعمته فهو

سبحانه القادر على سلبها ، ثم أنكر عليهم تخصيصهم بالجؤار عند الضر في مقابلة تخصيص غيره بالاتقاء ثم اشراكهم به تعالى كفراناً لتلك النعمة وجيء بثم لتفاوت الانكارين فإن اتقاء غير المنعم أقرب من الاعراض عنه وهو متقلب في نعمه ثم اللجأ إلى هذا المكفور به وحده عند الحاجة ، وأبعد منه الأعراض ولم يجف قدمه من ندى النجاة .

والثاني أن يكون جملة مستقلة واردة للتقريع و ﴿ ثُمَّ ﴾ في الأول لتراخي الزمان اشعاراً بأنهم غمطوا تلك النعم ولم يزالوا عليه إلى وقت الإلجاء ، وفيه الأشعار بتراخي الرتبة أيضاً على سبيل الإشارة وفي الثاني لتراخي الرتبة وحده ، اه وهو كلام نفيس ، وللطيبي كلام طويل في هذا المقام ان أردته فارجع إليه .

وقرأ الزهري ﴿ ثُمَّ إِذَا كَاشف ﴾ وفاعل هنا بمعنى فعل ، وفي الآية ما يدل على أن صنيع أكثر العوام اليوم من الجؤار إلى غيره تعالى ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً عند إصابة الضر لهم واعراضهم عن دعائه تعالى عند ذلك بالكلية سفه عظيم وضلال جديد لكنه أشد من الضلال القديم ، ومما تقشعر منه الجلود وتصعر له الخدود الكفرة أصحاب الأخدود فضلاً عن المؤمنين باليوم الموعود ان بعض المتشيخين قال لي وأنا صغير : إياك ثم إياك أن تستغيث بالله تعالى إذا خطب دهاك فإن الله تعالى لا يعجل في اغاثتك ولا يهمه سوء حالتك وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين فأنهم يعجلون في تفريج كربك ويهمهم

سوء ما حل بك فمج ذلك سمعي وهمي دمعي وسألت الله تعالى أن يعصمني والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين ، ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك .

(45/437)

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ من نعمة الكشف عنهم ، فالكفر بمعنى كفران النعمة واللام لام العاقبة والصيرورة ، وهي استعارة تبعية فإنه لما لم ينتج كفرهم واشراكهم غير كفران ما أنعم الله تعالى به عليهم جعل كأنه علة غائية له مقصودة منه ، وجوز أن يكون الكفر بمعنى الجحود أي انكار كون تلك النعمة من الله تعالى واللام هي اللام ، والمعنيان متقاربان ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ أمر تهديد كما هو أحد معاني الأمر المجازية عند الجمهور كما يقول السيد لعبده افعل ما تريد ، والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط .

وقرأ أبو العالية ﴿ فيمتعوا ﴾ بضم الياء التحتية ساكن الميم مفتوح التاء مضارع متع مخففاً مبنياً للمفعول وروى ذلك مكحول الشامي عن أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو معطوف ﴿ أَن يَكْفُرُواْ ﴾ على أن يكون الأمران عرضاً لهم من الإشراك ، ويجوز أن يكون لام ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ لام الأمر والمقصود منه التهديد بتخليتهم وما هم فيه لخذلانهم ، فالفاء واقعة في جواب الأمر وما بعدها منصوب باسقاط النون ، ويجوز جزمه بالعطف أيضاً

كما ينصب بالعطف إذا كانت اللام جارة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ، وفيه وعيد شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا ً بأنه لا يوصف .

وقرأ أبو العالية أيضا ً ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بالياء التحتية وروي ذلك مكحول عن أبي رافع أيضا ً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(46/437)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلها ً آخر معه ، وإبراهيم أن المعبود المستحق لأن يعبد وحده واحد ، ثم أمرهم أن يرهبوه أي يخافوه وحده . لأنه هو الذي بيده الضر والنفع ، لا نافع ولا ضار سواه .

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ ففروا إِلَى الله إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ الله إلها آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : 50-51] ، وقوله ﴿ الذي جَعَلَ مَعَ الله إلها آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي العذاب الشديد ﴾ [ق : 26] وقوله : ﴿ لاَّ

تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء : 22] ، وقوله ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء : 39] .

(47/437)

وبين جل علا في مواضع أخر : استحالة تعدد آلهة عقلاً . كقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إله إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الغيب والشهادة فتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : 91-92] وقوله : ﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] . والآيات بعبادته وحده كثيرة جداً ، فلا نطيل بها الكلام . وقدم المفعول في وقله : ﴿ فَإِيَّايَ فارهبون ﴾ للدلالة على الحصر . وقد تقرر في الأصول في مبحث " مفهوم المخالفة ، وفي المعاني في مبحث القصر " - " أن تقديم المعمول على صيغ الحصر " أي خافون وحدي ولا تخافوا سواي . وهذا الحصر المشار إليه هنا بتقديم المعمول بينه جل وعلا في " مواضع أخر . كقوله : ﴿ فَلاَ تَخْشَوُاْ الناس واخشون ﴾ [المائدة : 44] الآية ، وقوله : ﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله ﴾ [الأحزاب : 39] الآية . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ

آمَنَ بالله واليوم الآخر وأَقَامَ الصلاة وآتى الزكاة وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ الله ﴾ [التوبة : 18] الآية ،
وقوله : ﴿ إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 175] . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ .

(48/437)

الدين هنا : الطاعة . ومنه سميت أوامر الله ونواهيه ديناً . كقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] ، وقوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : 85] .

والمراد بالدين في الآيات : طاعة الله بامتثال جميع الأوامر ، واجتناب جميع النواهي . ومن الدين بمعنى الطاعة : قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

وأياماً لنا غراً كراماً . . . عصينا الملك فيها أن ندينا

أي عصيناه وامتنعنا أن ندين له ، أي نطيعه . وقوله ﴿ واصباً ﴾ أي دائماً . أي له جلَّ وعلا : الطاعة والذل والخضوع دائماً . لأنه لا يضعف سلطانه ، ولا يعزل عن سلطانه ، ولا يموت ولا يغلب ، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا . فإن الواحد منهم يكون مطاعاً له

السلطنة والحكم ، والناس يخافونه ويطعمون فيما عنده برهة من الزمن ، ثم يعزل أو يموت ، أو يذل بعد عز ، ويتضع بعد رفعة . فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد . فسبحان من لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل ، وكبره تكبيراً .

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه جل وعلا في مواضع آخر . كقوله : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] ، وقوله : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ [الواقعة : 3] لأنها ترفع أقواماً كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا ، وتخفض أقواماً كانوا ملوكاً في الدنيا ، لهم المكانة الرفيعة0 وقوله : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

(49/437)

ونظير هذه الاية المذكورة قوله : ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات : 8-9] أي دائم . وقيل : عذاب " موجع مؤلم " والعرب تطلق الوصب على المرض ، وتطلق الوصب على الدوام . وروي عن ابن عباس أنه لما ساله نافع بن الأزرق عن قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ قال له : الوصب الدائم واستشهد له بقول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

وله الدين واصباً وله الملـ . . . ـك وحمد له على كل حال

ومنه قول الدؤلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه . . . يوماً بذم الدهر أجمع واصباً

وممن قال بأن معنى الواصب في هذه الآية الدائم : ابن عباس ومجاهد ، وعكرمة وميمون بن مهران ، والسدي وقتادة ، والحسن والضحاك ، وغيرهم . وروي عن ابن عباس ايضاً واصباً : أي واجباً . وعن مجاهد أيضاً : واصباً : أي خالصاً . وعلى قول مجاهد هذا ، فلاخبر بمعنى الإنشاء . أي ارهبنا أن تشركوا بي شيئاً ، وأخلصوا لي الطاعة – وعليه فالآية كقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : 83] ، وقوله : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ [الزمر : 3] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] وقوله : " واصباً " حال عمل فيه الظرف .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ ﴾ .

أنكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة على من يتقي غيره ، لأنه لا ينبغي ان يتقي إلا من بيده النفع كله والضر كله . لأن غيره لا يستطيع أن ينفعك بشيء لم يرده الله لك ، ولا يستطيع أن يضرك بشيء لم يكتبه الله عليك .

وقد اشار تعالى هنا إلى أن إنكار إتقاء غير الله ، لأجل أن الله هو الذي يرجى منه النفع ، ويخشى منه الضر ، ولذلك أتبع قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ﴾ بقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : 53] ومعنى تجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة عند نزول الشدائد . ومنه قول الأعشى أو النابغة يصف بقرة :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة . . . وكان النكير أن تضيف وتجأرا

وقوله الأعشى :

يرواح من صلوات المليك . . . طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعذاب إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لاَ تَجْأَرُواْ اليوم إِنَّكُمْ مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 64-65] قد أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ ﴾ [الأنعام : 17] ، وقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [يونس : 107] الآية ، وقوله : ﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 2] الآية ، وقوله : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا ﴾ [

التوبة : 51] الآية ، وقوله : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ [الزمر : 38] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(51/437)

وقد ثبت في الصيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اللَّهمَّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ " وفي حديث ابن عباس المشهور : " واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعول إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلى بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف " .

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) ﴾

بين تعالى في هذه الاية الكريمة : ان بني آدم إذا مسهم الضر دعوا الله وحده مخلصين له الدين فإذا كشف عنهم الضر ، وأزال عنهم الشدة : إذا فريق منهم وهم الكفار يرجعون في أسرع وقت إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي . وقد كرر جل وعلا هذا المعنى في القرآن . كقوله في " يونس " : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا

رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [يونس : 22] إلى قوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ [يونس : 23] ، وقوله " في الإسراء " ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً ﴾ [الإسراء : 67] ، وقوله في آخر " العنكبوت " : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] ، وقوله في " الأنعام " : ﴿ قُلِ الله يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 64] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا في " سورة الأنعام " في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله ﴾ [الأنعام : 40] الآية .

(52/437)

قوله تعالى : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

صيغة الأمر في قوله ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ للتهديد . وقد تقرر في " فن المعاني ، في مبحث الإنشاء " ، وفي " فن الأصول ، في مبحث الأمر " : أن من المعاني التي تأتي لها صيغة إفعل التهديد . كقوله هنا : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وتشهد لهذا المعنى آيات أخر . كقوله . ﴿ قُلْ

تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر : 8] ، وقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم : 30] ، وقوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : 3] ، وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف : 83] وقوله : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات : 46] ، وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور : 45] ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(53/437)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

لما أُشبع القول في إبطال تعدّد الآلهة الشائع في جميع قبائل العرب ، وأتبع بإبطال الاختلاق على الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ، نُقل الكلام إلى إبطال نوع آخر من الشّرك متّبع عند قبائل من العرب وهو الإشراك بإلهية أصلين للخير والشرّ ، تقلّدته قبائل العرب المجاورة بلاد فارس والساري فيهم سلطان كِسرى وعوائدُهم ، مثل بني بكر بن وائل وبني تميم ، فقد دان منهم كثير بالمجوسية ، أي المَزْدكية والمانوية في زمن كِسرى أبرويش وفي زمن كِسرى

أنوشروان ، والمجوسية تثبت عقيدةً بإلهين : إلهٍ للخير وهو النّور ، وإلهٍ للشرّ وهو الظلمة ، فإله الخير لا يصدر منه إلا الخير والأنعام ، وإله الشرّ لا يصدر عنه إلا الشرّ والآلام ، وسمّوا إله الخير (يَزْدَان) ، وسموا إله الشرّ (اَهْرُمُنْ) .

وزعموا أن يزدان كان منفرداً بالإلهية وكان لا يخلق إلا الخير فلم يكن في العالم إلا الخير ، فخطر في نفسه مرةً خاطرُ شرّ فتولّد عنه إلهٌ آخرُ شريك له هو إلهُ الشرّ ، وقد حكى هذا المعرّي في لزومياته بقوله:

فَكّرَ يَزْدانُ على غِرة . . .

فصيغ من تفكيره أهْرُمُنْ

ولم يكونوا يجعلون لهذين الأصلين صُوراً مجسّمة ، فلذلك لم يكن دينهم من عداد عبادة الطاغوت لاختصاص اسم الطاغوت بالصور والأجسام المعبودة .

وهذا الدين من هذه الجهة يشبه الأديان التي لا تعبُد صُوَراً محسوسة .

وسيأتي الكلام على المجوسيّة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا إلى قوله ﴿ والمَجوسَ ﴾ في سورة الحج (170) .

ويدلّ على أن هذا الدين هو المراد التّعقيب بآية ﴿ ما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون ﴾ [سورة النحل : 53] كما سيأتي .

فقوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ عطف قصّة على قصّة وهو مرتبط بجملة ﴿ ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [سورة النحل : 36] .

ومعنى ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين ﴾ أنه دعا الناس ونَصب الأدلّة على بطلان اعتقاده .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ [سورة الفتح : 15] وقوله : ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ [سورة الفتح : 15] .

وصيغة التّثنية من قوله : إلهين ﴾ أكدت بلفظ ﴿ اثنين ﴾ للدّلالة على أن الإثنينية مقصودة بالنّهي إبطالاً لشرك مخصوص من إشراك المشركين ، وأن لا اكتفاء بالنّهي عن تعدّد الإله بل المقصود النّهي عن التّعدد الخاص وهو قول المجوس بإلهين .

ووقع في "الكشاف" توجيه ذكر ﴿ اثنين ﴾ بأنه لدفع احتمال إرادة الجنس حقيقة لا مجازاً .

وإذ نُهوا عن اتخاذ إلهين فقد دلّ بدلالة الاقتضاء على إبطال اتخاذ آلهة كثيرة .

وجملة ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ يجوز أن تكون بياناً لجملة ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ ، فالجملة مقولة لفعل ﴿ وقال الله ﴾ لأن عطف البيان تابع للمبيّن كموقع الجملة الثانية في

قول الشاعر:

أقول له ارحَلْ لا تَقيمَنّ عندنا . . .

فلذلك فُصلت، وبذلك أفيد بالمنطوق ما أفيد قبلُ بدلالة الاقتضاء.

والضمير من قوله تعالى: ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿ وقال الله ﴾، أي قال الله إنما الله إله واحد، وهذا جَريٌ على أحد وجهين في حكاية القول وما في معناه بالمعنى كما هنا، وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ [سورة المائدة: 117] ف ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ مفسرُ "أمَرْتني"، وفعل "أمَرْتني" فيه معنى القول، والله قال له: قل لهم اعبُدوا الله ربك وربهم، فحكاه بالمعنى، فقال: ربّي.

والقصر في قوله: ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ قصر موصوف على صفة، أي الله مختصّ بصفة توحّد الإلهية، وهو قصر قلب لإبطال دعوى تثنية الإله.

ويجوز أن تكون جملة ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ معترضةً واقعة تعليلاً لجملة ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ أي نهى الله عن اتخاذ إلهين لأن الله واحد، أي والله هو مسمّى إله فاتّخاذ

إلهين اثنين قلب لحقيقة الإلهية .

وحصر صفة الوحدانية في عَلَم الجلالة بالنّظر إلى أن مسمّى ذلك العلم مساوٍ لمسمّى إله ، إذ الإله منحصر في مسمّى ذلك العلَم .

وتفريع ﴿ فإياي فارهبون ﴾ يجوز أن يكون تفريعاً على جملة ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ فيكون ﴿ فإياي فارهبون ﴾ من مقول القول ، ويكون في ضمير المتكلم من قوله : ﴿ فارهبون ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب .

ويجوز أن يكون تفريعاً على فعل ﴿ وقال الله ﴾ فلا يكون من مقول القول ، أي قال الله لا تتخذوا إلهين فلا ترهبوا غيري .

وليس في الكلام التفات على هذا الوجه .

وتفرّع على ذلك قوله تعالى : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ بصيغة القصر ، أي قصر قلب إضافياً ، أي قصر الرهبة التامة منه عليه فلا اعتداد بقدرة غيره على ضرّ أحد .

وهو ردّ على الذين يرهبون إله الشرّ فالمقصود هو المرهوب .

والاقتصار على الأمر بالرّهبة وقصرها على كونها من الله يفهم منه الأمر بقصر الرغبة عليه لدلالة قصر الرهبة على اعتقاد قصر القدرة التامة عليه تعالى فيفيد الردّ على الذين يطمعون في إله الخير بطريق الأولى ، وإنما اقتصر على الرّهبة لأن شأن المزدكية أن تكون عبادتهم عن خوف إله الشرّ لأن إله الخير هم في أمن منه فإنه مطبوع على الخير .

ووقع في ضمير ﴿ فإياي ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلّي إلى تعيين هذا الواحد أنه الله منزل القرآن تحقيقاً لتقرير العقيدة الأصلية .

وفي هذا الالتفات اهتمام بالرّهبة لما في الالتفات من هزّ فهم المخاطبين .

(56/437)

وتقدّم تركيب نظيره بدون التفات في سورة البقرة .

واقتران فعل ﴿ فارهبون ﴾ بالفاء ليكون تفريعاً على تفريع فيفيد مفاد التأكيد لأن تعلّق فعل "ارهبون" بالمفعول لفظاً يجعل الضمير المنفصل المذكور قبله في تقدير معمول لفعل آخر ، فيكون التقدير : فإياي ارهبُوا فارهبون ، أي أمرتكم بأن تقصُروا رهبتكم عليّ فارهبون امتثالاً للأمر .

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) ﴾

مناسبة موقع جملة ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ بعد جملة ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ [سورة النحل : 51] أن الذين جعلوا إلهين جعلوهما النور والظلمة .

وإذ كان النور والظلمة مظهرين من مظاهر السماء والأرض كان المعنى : أن ما تزعمونه إلهاً

للخير وإلهاً للشرّ هما من مخلوقاته .

وتقديم المجرور يفيد الحصر فدخل جميع ما في السماء والأرض في مفاد لام الملك ، فأفاد أن ليس لغيره شيء من المخلوقات خيرها وشرّها .

فانتفى أن يكون معه إله آخر لأنه لو كان معه إله آخر لكان له بعض المخلوقات إذ لا يعقل إله بدون مخلوقات .

وضمير له ﴿ عائد إلى اسم الجلالة من قوله : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين ﴾ .

فعطفه على جملة ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ [سورة النحل : 51] لأن عظمة الإلهية اقتضت الرّهبة منه وقصرها عليه ، فناسب أن يشار إلى أن صفة المالكية تقتضي إفراده بالعبادة .

وأما قوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ فالدين يحتمل أن يكون المراد به الطاعة ، من قولهم : دانت القبيلة للملك ، أي أطاعته ، فهو من متمّمات جملة ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ ، لأنه لما قَصَرَ الموجودات على الكون في ملكه كان حقيقاً بقصر الطاعة عليه ، ولذلك قدّم المجرور في هذه الجملة على فعله كما وقع في التي قبلها .

ويجوز أن يكون ﴿ الدين ﴾ بمعنى الديانة ، فيكون تذييلاً لجملة ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ ، لأن إبطال دين الشرك يناسبه أن لا يدين الناس إلا بما يشرّعه الله لهم ، أي هو الذي يشرّع لكم الدين لا غيره من أئمّة الضلال مثل عَمرو بن لُحيي ، وزرَادَشْت ، ومَزْدك ، ومَاني ، قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ [سورة الشورى : 21] .

ويجوز أن يكون الدين بمعنى الجزاء كما في قوله تعالى : ﴿ ملك يوم الدين ﴾ [سورة الفاتحة : 4] ، فيكون إدماجاً لإثبات البعث الذي ينكره أولئك أيضاً .

والمعنى : له ما في السماوات والأرض وإليه يرجع من في السماوات والأرض لا يرجعون إلى غيره ولا ينفعهم يومئذٍ أحد .

والواصب : الثابت الدائم ، وهو صالح للاحتمالات الثلاثة ، ويزيد على الاحتمال الثالث لأنه تأكيد لردّ إنكارهم البعث .

وتفرّع على هاتين الجملتين التّوبيخ على تقواهم غيره ، وذلك أنهم كانوا يتقون إله الشرّ ويتقرّبون إليه ليأمنوا شرّه .

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ﴾

عطف خبر على خبر .

وهو انتقال من الاستدلال بمصنوعات الله الكائنة في ذات الإنسان وفيما يحيط به من

الموجودات إلى الاستدلال بما ساق الله من النعم ، فمن الناس معرضون عن التّدبر فيها وعن شكرها وهم الكافرون ، فكان في الأدلّة الماضية القصد إلى الاستدلال ابتداء متبوعاً بالامتنان .

وتغيّر الأسلوب هنا فصار المقصود الأول هو الامتنان بالنّعم مُدمجاً فيه الاعتبار بالخلق .

فالخطاب موجّه إلى الأمّة كلّها ، ولذلك جاء عقبه قوله تعالى : ﴿ إذا فريق منكم بربّهم يشركون ﴾ .

وابتدىء بالنّعم على وجه العموم إجمالاً ثم ذكرت مهمات منها .

والخطاب موجّه إلى المشركين تذكيراً لهم بأن الله هو ربّهم لا غيره لأنه هو المنعم .

(58/437)

وموقع قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ هنا أنه لما أبطل في الآية السابقة وجود إلهين اثنين (أحدهما فعله الخير والآخر فعله الشرّ) أعقبه هنا بأن الخير والضر من تصرفات الله تعالى ، وهو يعطي النّعمة وهو كاشف الضرّ .

والباء للملابسة ، أي ما لابسكم واستقرّ عندكم ، و ﴿ من نعمة ﴾ لبيان إبهام ﴿ ما ﴾ الموصولة .

و(مِن) في قوله تعالى : ﴿ فمن الله ﴾ ابتدائية ، أي واصلة إليكم من الله ، أي من عطاء الله ، لأن النّعمة لا تصدر عن ذات الله ولكن عن صفة قدرته أو عن صفة فعله عند مثبتي صفات الأفعال .

ولما كان ﴿ ما بكم من نعمة مُفيداً للعموم كان الإخبار عنه بأنه من عند الله مغنياً عن الإتيان بصيغة قصر .

وثمّ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم الضر ﴾ للتّراخي الرتبي كما هو شأنها الغالب في عطفها الجملَ ، لأن اللجأ إلى الله عند حصول الضرّ أعجب إخباراً من الإخبار بأن النّعم كلّها من الله ، ومضمون الجملة المعطوفة أبعد في النظر من مضمون المعطوف عليها .

والمقصود : تقرير أن الله تعالى هو مدبّر أسباب ما بهم من خير وشرّ ، وأنه لا إله يخلق إلا هو ، وأنهم لا يلتجئون إلا إليه إذا أصابهم ضرّ ، وهو ضد النّعمة .

ومسّ الضرّ : حلوله .

استعير المسّ للحصول الخفيف للإشارة إلى ضيق صبر الإنسان بحيث إنه يجأر إلى الله بحصول أدنى شيء من الضرّ له .

وتقدم استعمال المسّ في الإصابة الخفيفة في قوله تعالى ﴿ وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلا هو ﴾ في سورة الأنعام (17) .

و﴿ تجأرون ﴾ تصرُخون بالتضرع .

والمصدر: الجؤار، بصيغة أسماء الأصوات.

وأتبع هذه بنعمة أخرى وهي نعمة كاشف الضرّ عن الناس بقوله تعالى: ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم ﴾ الآية.

و﴿ ثُمّ ﴾ للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل.

(59/437)

وجيء بحرف ﴿ ثُمّ ﴾ لأنّ مضمون الجملة المعطوفة أبعد في النّظر من مضمون المعطوف عليها فإن الإعراض عن المنعم بكشف الضرّ وإشراك غيره به في العبادة أعجب حالاً وأبعد حُصولاً من اللجأ إليه عند الشدّة.

والمقصود تسجيل كفران المشركين، وإظهار رأفة الله بالخلق بكشف الضرّ عنهم عند التجائهم إليه مع علمه بأن من أولئك من يُشرك به ويستمرّ على شركه بعد كشف الضرّ عنه.

و﴿ إذَا ﴾ الأولى مضمنة معنى الشرط، وهي ظرف.

و﴿ إذا ﴾ الثانية فجائية.

والإتيان بحرف المفاجأة للدّلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك وأنه لا يتريث

إلى أن يبعد العهد بنعمة كشف الضرّ عنه بحيث يفجأون بالكفر دفعة دون أن يترّقبه منهم مترّقب ، فكان الفريق المعني في قوله تعالى : ﴿ إذا فريق منكم ﴾ فريق المشركين .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) ﴾

لام التعليل متعلّقة بفعل ﴿ يشركون ﴾ [سورة النحل : 54] الذي هو من جواب قوله تعالى : ﴿ إذا كشف الضر عنكم ﴾ [سورة النحل : 54] .

والكفر هنا كفر النّعمة ، ولذلك علّق به قوله تعالى : بما آتيناهم ﴾ أي من النّعم .

وكفر النّعمة ليس هو الباعث على الإشراك فإن إشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضرّ عنهم ، ولكن شبهت مقارنة عودهم إلى الشرك بعد كشف الضرّ عنهم بمقارنة العلّة الباعثة على عملٍ لذلك العمل .

ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النّعمة دون تريّث .

فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل ، وهي استعارة تبعيّة تمليحيّة تهكميّة ومثلها كثير الوقوع في القرآن .

وقد سمى كثير من النحاة هذه اللام لام العاقبة ، ومثالها عندهم قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [سورة القصص : 8] ، وقد بيّناها في مواضع آخرُها عند قوله تعالى ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ﴾ في هذه السورة [النحل : 25]

وضمير ﴿ ليكفروا ﴾ عائد إلى ﴿ فريق ﴾ [سورة النحل : 54] باعتبار دلالته على جمع من الناس .

والإيتاء : الإعطاء .

وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة ، لأن شأن الإعطاء أن يكون تمكيناً بالمأخوذ المحبوب .

وعبّر بالموصول ﴿ بما آتيناهم ﴾ لما تؤذن به الصّلة من كونه نعمة تفظيعاً لكفرانهم بها ، لأن كفران النّعمة قبيح عند جميع العقلاء .

وفرع عليه مخاطبتهم بأمرهم بالتمتّع أمرَ إمهال وقلّة اكتراث بهم وهو في معنى التخلية .

والتمتّع : الانتفاع بالمتاع .

والمتاع الشيء الذي ينتفع به انتفاعاً محبوباً ويسرّ به .

ويقال : تمتّع بكذا واستمتع .

وتقدّم المتاع في آخر سورة براءة .

والخطاب للفريق الذين يشركون بربّهم على طريقة الالتفات .

والأظهر أنه مقول لقولٍ محذوف .

لأنه جاء مفرعاً على كلام خوطب به الناس كلّهم كما تقدم ، فيكون المفرع من تمام ما تفرّع عليه .

وذلك ينافي الالتفات الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلى مرجع ما قبله .

والمعنى : فنقول تمتّعوا بالنّعم التي أنتم فيها إلى أمدٍ .

وفرع عليه التهديدُ بأنهم سيعلمون عاقبة كفران النّعمة بعد زوال التمتّع .

وحذف مفعول ﴿ تعلمون ﴾ لظهوره من قوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ أي تعلمون جزاء كفركم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(61/437)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم ينتقل الحق تبارك وتعالى إلى قمة القضايا العقدية بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

وقد جاء النهي في الآية نتيجة خروج الإنسان عن مُراد ربّه سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً يعني الثقلين هم المختارون في الكون كله ، اختيار في أشياء وقَهْر في أشياء أخرى . . ومع ذلك لم يشذّ من خَلْق الله غيرهما .

فالسموات والأرض والجبال كان لها اختيار ، وقد اختارت التسخير ، وانتهت المسألة في بداية الأمر ، ومع ذلك فهي مُسخَّرة وتُؤدّي مهمتها لخدمة الإنسان ، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض . . فهي تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر . . وكذلك الهواء والأرض والدابة الحلوب ، وكل ما في كون الله مُسخَّر للجميع . . إذن : كل هذه الأشياء لها مهمة ، وتؤدي مُهمتها على أكمل وجه .

ولذلك يقول تعالى في حقّ هذه الأشياء : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب . . . ﴾ [الحج : 18] هكذا بالإجماع ، لا يتخلّف منها شئ عن مُراد ربه .

فما الحال في الإنسان ؟ يقول تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ [الحج : 18] .

ولم يَقُلْ : والناس . ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ [الحج : 18] .

هذا هو الحال في الإنسان المكرّم الذي اختاره الله وترك له الاختيار . . إنما كل الأجناس مُؤدّيه واجبها ؛ لأنها أخذتْ حظّها من الاختيار الأول ، فاختارت أن تكون مُسخَّرة ، وأن تكون مقهورة .

فالإنسان . . واحد يقول : لا إلهَ في الوجود . . العالم خُلِق هكذا بطبيعته ، وآخر يقول : بل هناك آلهة متعددة ؛ لأن العالم به مصالح كثيرة وأشياء لا ينهض بها إله واحد . . يعني : إله للسماء ، وإله للأرض ، وإله للشمس . . الخ .

إذن : هذا رأي في العالم أشياء كثيرة بحيث لا ينهض بها في نظره إله واحد ، ونقول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قدرة الفردية فيك . . لا . . خُذها من قدرة من : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] .

لأن القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت ، وتحتاج إلى مجهود وعمل . . بل في حقّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ . . كُنْ كذا وانتهت المسألة .

ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقول : الكون خُلِق هكذا الحاله دون إله . والآخر يقول : بل له آلهة متعددة . . نقول لهم : أنتم متناقضون ، فتعالَوْا إلى دين الله ، وإلى الوسطية التي تقول بإله واحد ، لا تنفي الألوهية ولا تثبت التعددية .

فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقتضي أجهزة كثيرة لإدارته ، فاعلم أن الله تعالى لا يباشر تدبير أمر الكون بعلاج . . يفعل هذه ويفعل هذه ، كما يُزاول البشر أعمالهم ، بل يفعلها ب "كُنْ" ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي : "يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من مُلْكي إلا

كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأِّني جواد ماجد ، افعل ما أريد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري بشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون " .

فيا مَنْ تُشفق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتى نواحيه ، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر ؛ لأن الله تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً في الكون ، وإنما يباشره بكلمة "كُنْ" .

إذن : إله واحد يكفي ، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد ، فإياك أن تقول بتعدُّد الآلهة . . وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفى إلهين اثنين ، فنَفْي ما هو أكثر من ذلك أَوْلَى . . واثنان أقل صُور التعدد .

ومعنى ﴿ إلهين ﴾ أي : معبودين ، فيكون لهما أوامر ونواه ، والأوامر والنواهي تحتاج إلى طاعة ، والكون يحتاج إلى تدبير ، فأيُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون ؟ أم أنه يحتاج إلى مُسَاعد ؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد فهذا نقْص فيه ، ولا يصلح أن يكون إلهاً .

وكذلك إنْ تخصَّص كُلٌّ منهما في عمل ما ، هذا لكذا وهذا لكذا ، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر . . وأي ناحية إذن من نواحي الحياة تكون هي المسيطرة ؟

ومعلوم أن نواحي الحياة مشتركة ومتشابكة .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَه بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . ﴾ [المؤمنون : 91] .

وقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

فكيف الحال إذا أراد الأول شيئاً ، وأراد الآخر ألاَّ يكون هذا الشيء ؟ فإنْ كان الشيء كان عجزاً في الثاني ، وإن لم يكن كان عجزاً في الأول . . إذن : فقوة أحدهما عَجْز في الآخر .

ونلحظ في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين ﴾ [النحل : 51] .

عظة بليغة ، كأنه سبحانه حينما دعانا إلى توحيده يقول لنا : أريحوا أنفسكم بالتوحيد ، وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الراحة في قوله : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 29] .

يعني رجل خُلّص لسيد واحد ، ورجل أسياده كثيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك ، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخر . فهو دائماً مُتْعبٌ مُثقلٌ ، أما المملوك لسيد واحد فلا يخفي ما فيه من راحة .

ففي أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وِجْهة واحدة تكفيكم كُلَّ الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبُه سبحانه راحةٌ لنا ؛ لذلك قبل أن يطلبها مِنّا شهد بها لذاته تعالى ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾

[آل عمران : 18] .

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه ؛ لأنه لا أحدَ غيره . . لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي . . وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيري ، وإنْ كان هناك إله غيري فَلْيُرني نفسه ، وليُفصِح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلتُ كذا وكذا ، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة ، وإما أنْ أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذي خلق . . فأين هو ؟ لماذا لا يعارضني ؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع الله في خَلْقه أحد ، وحين تأتي الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسْلَم لصاحبها .

فإنْ قال قائل: لعل الآلهة الأخرى لم تَدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلُحون للألوهية لعدم درايتهم، وإنْ دَرَوْا ولم يعارضوا فهُمْ جُبناء لا يستحقون هذه المكانة.

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق؛ لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره، فإذا قال: "كن" فهو واثق أنه سيكون.

ولذلك ساعة يحكم الله حُكْماً غيبياً يقول: أنا حكمت هذا الحكم مع أنكم مختارون في أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا، ولكني حكمتُ بأنكم لا تفعلون، وما دُمْتُ حكمت بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا، ولكن ما فعلتم، فهذا دليل على أنه لا إله غيري يُعينكم على أنْ تفعلوا.

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات، وشهد أولو العلم شهادةَ الاستدلال، كما قال تعالى: ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم . . ﴾ [آل عمران: 18].

(65/437)

لنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى:

﴿ إلهين اثنين . . . ﴾ [النحل: 51].

فعندنا العدد ، وعندنا المعدود ، فإذا قُلْنا مثلاً : قابلت ثلاثة رجال ، فكلمة " ثلاثة " دلتْ على العدد ، وكلمة " رجال " دلَّتْ على جنس المعدود ، وهكذا في جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، فلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دلَّتْ على الوحدة ، ودلتْ على الجنس ، وكذلك " إلهين " دلَّتْ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفي في الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا إلهين ؛ لأنها دلَّتْ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقديّ لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبُّوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد . فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حَسَن بَسَن ، وفلان شيطان ليطان ، يريدون تأكيد الصفة . وكذلك في قوله : ﴿ إلهين ﴾ فقط تثبت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقدية لأنها أهمّ القضايا بالنسبة للإنسان ، وهي قضية القمة ، فقال تعالى :

﴿ إلهين اثنين ﴾ [النحل : 51] .

وكذلك أيضاً في قوله :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ [النحل : 51] .

فجاء بقوله تعالى ﴿ وَاحِدٌ ﴾ لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفي الآية مَلْحظ آخر يجب تأمّله ، وهو أن الكلام هنا في حالة الغيبة :

﴿ إِنَّمَا هُوَإِله وَاحِدٌ ﴾ [النحل : 51] .

فكان القياس في اللغة هنا أن يقول : " فإياه فارهبون " .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى المجابهة للمتكلم قال :

﴿ فَإِيَّايَ فارهبون ﴾ [النحل : 51] .

وهذا وراءه حكمة ، ومَلْحظ بلاغي ، فبعد أنْ أكَّد الألوهية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا هُوَإِله وَاحِدٌ ﴾ [النحل : 51] .

(66/437)

صَحَّ أنْ يُجابِههم بذاته ؛ لأن المسألة ما دامتْ مسألة رَهْبة ، فالرهبة من المتكلم خير من الرهبة من الغائب . . وكأن السياق يقول : ها هو سبحانه أمامك ، وهذا أَدْعى للرهْبة .

وكذلك في فاتحة الكتاب نقرأ : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 2-4] .

ولم يَقُلْ : إياه نعبد ، متابعة للغيبة ، بل تحوّل إلى ضمير الخطاب فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] .

ذلك لأن العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أَهْلاً للمواجهة والخطاب

المباشر مع الله عز وجل .

فقوله :

﴿ فَإِيَّايَ فارهبون ﴾ [النحل : 51] .

بعد ما استحضر العبد عظمة ربه ، وأقرّ له بالوحدانية وعَلِم أنه إله واحد ، وليس إلهين .

واحد يقول : نُعذِّبه . والآخر يقول : لا .

ليس الأمر كذلك ، بل إله واحد بيده أنْ يُعذِّب ، وبيده أنْ يعفو ، فناسب السياق هنا أنْ يُواجههم فيقول :

﴿ فَإِيَّايَ فارهبون ﴾ [النحل : 51] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض . . . ﴾ .

عندنا هنا اللام . . وقد تكون (اللام) للمِلْك كما في الآية . وكما في : المال لزيد ، وقد تكون للتخصيص إذا دخلتْ اللام على ما لا يملك ، كما نقول : اللجام للفرس ، والمفتاح للباب ، فالفرس لا يملك اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [النحل : 52] .

وفي موضع آخر يقول : ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [يونس : 68] .

وكذلك في : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [الحشر : 24] .

ومرة يقول : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الجمعة : 1] .

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففي قوله :

﴿ مَا فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [النحل : 52] .

(67/437)

يعني : القدر المشترك الموجود فيهما . أي : الأشياء الموجودة في السماء وفي الأرض .

أما في قوله : ﴿ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [يونس : 68] .

أي : الأشياء الموجودة في السماء وليست في الأرض ، والأشياء الموجودة في الأرض وليست في السماء ، أي : المخصَّص للسماء والمخصَّص للأرض ، وهذا ما يُسمُّونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، فليس لأحد غيره مِلْكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن : فليس له ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام وجوده موهوب له . . ولذلك يقولون : مَنْ أراد أن يعاند في الألوهية يجب أن تكون له ذاتية وجود . . وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذي يعاند أباه ، وهو ما يزال عَالةً عليه . فيقول له :

انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك . . فإذا ما شَبَّ الولد وبلغ وبدأ في الكَسْب أمكن له الاعتماد على نفسه، والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند في الألوهية : أنت لا تقدر ؛ لأن وجودك هِبَة، وقيام وجودك هِبَة، كل شيء يمكن أنْ يُنزع منك .

ولذلك، فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7] .

فهذا الذي رأى نفسه استغنى عن غيره من وجهة نظره إنما هل استغنى حقاً ؟ . . لا . لم يستغن، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [النحل : 52] .

الذي له ما في السموات والأرض، وبه قيام وجوده بقيوميته، فهو سبحانه يُطمئِنك ويقول لك : أنا قيُّوم يعني : قائم على أمرك . . ليس قائماً فقط . . بل قيُّوم بالمبالغة في الفِعْل، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عَدَم، وإمداداً من عُدم . إذن : يجب أن تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره .

وفي الأمثال يقولون " اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي " فإذا كنتَ أنت عالة في الوجود . . وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مُقوّمات حياتك من الله ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ [النحل : 52] .

أي : هذه نتيجة ؛ لأن لله ما في السموات والأرض ، فَلَه الدين واصباً ، أي : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، ومُلْك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكه لأحد ، ولا تزال يد الله في مُلْكه . . وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

﴿ أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ ﴾ [النحل : 52] .

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أنْ تتقي غير الله ، لأنه حُمْق لا يليق بك ، وقد علمتَ أن لله ما في السموات وما في الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السموات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عَدَم والإمداد من عُدم .

إذن : فمن الحُمْق أنْ تتقي غيره ، وهو أَوْلى بالتقوى ، فإنِ اتقيتُم غيره فذلك حُمْق في التصرّف يؤدّي إلى العطَب والهلاك ، إنِ اغتررتم بأن الله تعالى أعطاكم نِعماً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكَات وما حولها ، فلو سَلِم العقل مثلاً سَلِمت وصَحَّتْ الأمور التي تتعلق به ، فيصحّ النظام ، وتصحّ التصرُّفات ، ويصحّ الاقتصاد . .

وهذه نعمة .

فالنعمة تكون للقلب وتكون للقالب ، فللقالب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية . .

وأهم المتَع المعنوية التي تريح القالب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجّهه . . أن يكون له ربٌّ قادر ، لا يُعجزه شيء ، فإنْ ضاقتْ به الدنيا ، وضاقتْ به الأسباب فإن له رباً يَلجأ إليه فيُسعفه ويكيفه ، وهذه هي الراحة الحقيقة .

وقد ضمن لنا الحق سبحانه وتعالى سلامة القالب بما أودع في الكون من مُقوِّمات الحياة في قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا . . ﴾ [فصلت : 10] .

(69/437)

أي : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، فالله سبحانه لا يريد منكم إلا أنْ تُعمِلوا عقولكم المخلوقة لله لِتُفكّروا في المادة المخلوقة لله ، وتنفعلوا لها بالطاقة المخلوقة لله في جوارحكم ، وسوف تجدون كلَّ شيء مُيسَّراً لكم . . فالله تعالى ما أراد منكم أنْ تُوجِدوا رزقاً ، وإنما أراد أن تُعمِلوا العقل ، وتتفاعلوا مع مُعْطيات الكون .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان في الحياة ؟

هناك أشياء في الوجود خلقها الله سبحانه برحمته وفضله ، فهي تفعل لك وإنْ لم تطلب منها

أن تفعل ، فأنت لا تطلب من الشمس أنْ تطلُع عليك ، ولا من الهواء أنْ يَهُبَّ عليك . . الخ .

وهناك أشياء أخرى تفعل لك إنْ طلبتَ منها ، وتفاعلتَ معها ، كالأرض إنْ فعلتَ بيدك فحرثْتَ وزرعْتَ ورويْتَ تعطيك ما تريد .

وفي هذا المجال من التفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلون فيما يُفعل لهم دون انفعال منهم . لا بل ارتقاء الناس وتفاضُلهم يكون بالأشياء التي تنفعل لهم إنْ فعلوا . . أما الأخرى فتَفعل لكل الناس ، فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن وللكافر في أيّ مكان .

إذن : يترقَّى الإنسان بالأشياء التي خلقها الله له ، فإذا انفعل معها انفعلتْ له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعْطِه شيئاً ، ولا يستفيد منها بشيء . . ولذلك قد يقول قائل : الكافر عنده كذا وكذا ، ويملك كذا وكذا ، وهو كافر . . ويتعجّب من القدر الذي أَعطَى هذا ، وحرَمَ المؤمن الموحد منه .

نقول له : نعم أخذ ما أخذ ؛ لأنه يشترك معك فيما يُفعل لك وإنْ لم تطلب ، ويزيد عليك أنه يعمل ويكدّ وينفعل مع الكون وما أعطاه الله من مُقوِّمات وطاقة ، فتنفعل معه وتعطيه ، في حين أنك قاعد لا هِمَّة لك .

وكذلك قد يتسامى الارتقاء في الإنسان ، فيجعل الشيء الذي يُفعل له دون أن يطلب منه أي : الشيء المسخَّر له يجعله ينفعل له ، كما نرى فيما توصَّل إليه العلم من استخدام الطاقة الشمسية مثلاً في تسخين المياه . . هذه الطاقة مُسخَّرة لنا دون جَهْد مِنّا ، ولكن ترقّي الإنسان وطموحه أوصله إلى هذا الارتقاء . . وكُلُّ هذه نِعَم من الله ؛ ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ . . . ﴾ .

أمدَّنا الله سبحانه بهذه النعم رحمة منه وفضلاً . . نِعَم تترى لا تُعَد ولا تُحْصَى ، ولكن لرتابة النعمة وحلولها في وقتها يتعوّدها الإنسان ، ثم يذهل عن المنعم سبحانه .

ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بالولد الذي تعطيه مصروفه مثلاً كل أول شهر ، تجده لا يحرص على أنْ يلقاك بعد ذلك إلا كل أول شهر ، إنما إذا عوّدته أن يأخذ مصروفه كل يوم تراه في الصباح يحوم حولك ، ويُظهِر لك نفسه ليُذكّرك بالمعلوم .

إذن : رتابة النعمة قد تُذهِلك عن المُنعِم ، فلا تتذكره إلا حين الحاجة إليه ؛ لذا يُنبّهنا الحق تبارك وتعالى : إذا أعطيتُ لكم نعمة فإياكم أنْ تغتروا بها . . إياكم أن تُذهِلكم النعمة عن المنعم ؛ لأنكم سوف تحكمون على أنفسكم أنه لا مُنعِم غيري ، بدليل أنني إذا سلبْتُ النعمة منكم فلن تجدوا غيري تلجأون إليه فستقولون : يا ربّ يا ربّ .

فأنت ستكون شاهداً على نفسك ، لن تكذب عليها ، فَلِمَنْ تتوجّه إذا أصابك فقر ؟ ولمن

تتوجَّه إذا أصابك مرض ؟ لن تتوجّه إلا إلى الله تقول : يا رب .

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : 53] .

فترة الضُّر التي تمرُّ بالإنسان هي التي تلفته إلى الله ، والحاجة هي التي تُلجئه إلى المصدر الحقيقي للإمداد ، فإذا كانت النعمة قد تُذهِله وتُنسِيه ، فالضر يُذكِّره بربّه الذي يملك وحده كَشْف الضر عنه .

(71/437)

ولذلك ، فالناس أصحاب اليقين في الله تعالى ساعةَ أنْ يصيبهم ضُرٌّ ، يقول : ذكَّرتني بك يا ربّ ، يأخذها على أنها نعمة . . كأنها نجدة نجدتْه مما هو فيه من غفلة . . يا ربّ أنت ذكّرتني بك . . أنا كنتُ ناسياً ذاهلاً . . كنت في غفلة .

وساعةَ أنْ يعودَ ويشعر بالتقصير يرفع الله عنه البلاء ؛ وذلك يُرفع القضاء عن العبد إنْ رضي به وعلم أن فيه خيراً له .

ولذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يُنبّهنا لهذه الأحداث التي تصيبنا ، فإياكم أن تستقبلوها بالجزع والفزع . . ولكن استقبلوها بالإيمان والرضا ، واعلموا أن ربكم يغار عليكم ، وهو بهذه الأحداث يلفتكم إليه قهراً عنكم ؛ لكي تعودوا إليه وتلجأوا إليه . .

لكي تقولوا يا رب .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة في الحديث القدسي : " مِنْ عبادي مِنْ أحبهم فأنا أبتليهم ليقولوا يا رب . . . . " .

ويقول تعالى في الآية الأخرى : ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . . ﴾ [الأنعام : 43] .

أي : أنه سبحانه يريد منا إذا نزل بنا بلاء وبأس أنْ نتضرّع إليه سبحانه ؛ لأن الضراعة إلى الله لَفْتة وتذكير به . . والنبي صلى الله عليه وسلم يُرشِدنا إلى هذه الحقيقة ، فالمصاب الحقيقي ليس مَنْ نزل به ضُرٌّ أو أصابه بلاء . . لا . . بل المصاب الحقيقي مَنْ حُرِم الثواب .

إذن : نقول لمن عنده نعمة : احذر أن تُنسيك النعمة وتُذهلك عن المنعم ، أما صاحب البلاء والضر ، فسوف يردُّك هذا البلاء ، ويُذكّرك هذا الضرّ بالله تعالى ، ولن تجدَ غيره تلجأ إليه .

فقوله تعالى :

﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : 53] .

أي : تضرَعون بصراخ وصوت عالٍ كخُوار البقر ، لا يُسرّه أحد ولا يستحي منه أنْ يُفتضح أمره أمام مَنْ تكبّر عليهم . . ويا ليتكم حين ينتابكم مثل ذلك تعتبرون به وتتعِظُون ، وتقولون في لحظة من اللحظات : سوف تلجئنا الأحداث إلى ربنا . . بل بالعكس حينما نكشف عنكم الضر سوف تعودون إلى ما كنتم عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر . . . . ﴾ .

فمن الناس مَنْ إذا أصابه الله بضرٍ أو نزل به بأْسٌ تضرّع وصرخ ولجأ إلى الله ودعاه ، وربما سالتْ دموعه ، وأخذ يُصلّي ويقول : يا فلان ادْعُ لي الله وكذا وكذا . . فإذا ما كشف الله عنه ضُرَّه عاود الكَرّة من جديد ؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . ﴾ [يونس : 12] .

ومن لُطْف الأداء القرآني هنا أن يقول :

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 54] .

أي : جماعة منكم وليس كلكم ، أما الباقي فيمكن أنْ يثبتُوا على الحق ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون . . فالناس إذن مختلفون في هذه القضية : فواحد يتضرّع ويلتفت إلى الله

من ضُرٍّ واحد أصابه، وآخر يلتفت إلى الله من ضرَّين، وهكذا .

وقد وجدنا في الأحداث التي مرَّتْ ببلادنا على أكابر القوم أحداثاً عظاماً تلفتهم إلى الله، فرأينا مَنْ لا يعرف طريق المسجد يُصلّي، ومَنْ لا يفكر في حج بيت الله، ويسرع إليه ويطوف به ويبكي هناك عند الملتزم، وما ألجأهم إلى الله ولفتهم إليه سبحانه إلا ما مرَّت بهم من أحداث .

أليست هذه الأحداث، وهذه الأزمات والمصائب خيراً في حقهم؟ . . بلى إنها خير .

(73/437)

وأيضاً قد يُصاب الإنسان بمرض يُلِمّ به، وربما يطول عليه، فيذهب إلى الأطباء، ويدعو الله ويلجأ إليه، ويطلب من الناس الدعاء له بالشفاء، ويعمل كذا وكذا . . فإذا ما كشف الله عنه المرض وأَذِن له بالشفاء قال: أنا اخترتُ الطبيب الحاذق، الطبيب النافع، وعملتُ وعملتُ . . سبحان الله!

لماذا لا تترك الأمر لله، وتُعفِي نفسك من هذه العملية؟

وفي قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 54] .

صمام أَمْن اجتماعي في الكون، يقول للناس: إياكم أن تأخذوا على غيركم حين تُقدمون إليهم جميلاً فيُنكرونه.. إياكم أنْ تكُفُّوا عن عمل الجميل على غيركم؛ لأن هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع أعلى منكم، فعلوه مع الله سبحانه، فلا يُزهدك إنكارهم للجميل في فِعْله، بل تمسَّك به لتكون من أهله.

والحق تبارك وتعالى يضرب لنا مثلاً لإنكار الجميل في قصة سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كالذين آذَوْاْ موسى فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ الله وَجِيهاً ﴾ [الأحزاب: 69].

فقد اتهمه قومه وقعدوا يقولون فيه كذباً وبُهْتاناً، فقال موسى: يا ربّ أسألك ألاَّ يُقال فيَّ ما ليس فيَّ.. فقال تعالى لموسى: أنا لم افعل ذلك لنفسي، فكيف أفعلها لك؟

ولماذا لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه؟.. لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ليعطينا نحن أُسْوة في تحمُّل هذا الإنكار، فقد خلق الله الخَلْق ورزقهم ووَسِعهم، ومع ذلك كفروا به، ومع ذلك ما يزال الحق سبحانه خالقاً رازقاً واسعاً لهم.

إذن: في الآية تقنين وأمان للمجتمع أن يتفشى فيه مرض الزُّهْد في عمل الخير.

وقَوْل الحق سبحانه:

﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 54].

تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين، ومن الكافرين .

ولكن لماذا يشركون؟

(74/437)

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ . . . ﴾ .

أي: مُسْتعظمين كقارون الذي قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص: 78] .

أخذتُ هذا بَجْهدي وعملي . . ومثله مَنْ تقول له: الحمد لله الذي وفَّقك في الامتحان، فيقول: أنا كنت مُجداً . . ذاكرتُ وسهرتُ . . نعم أنت ذاكرتَ، وأيضاً غيرك ذاكر وجَدَّ واجتهد، ولكن أصابه مرض ليلة الامتحان فأقعده، وربما كنت مثله .

فهذه نغمة مَنْ أنكر الفضل، وتكبَّر على صاحب النعمة سبحانه .

وقوله:

﴿ لِيَكْفُرُواْ . . . ﴾ [النحل: 55] .

هل فعلوا ذلك ليكفروا، فتكون اللام للتعليل؟ لا بل قالوا: اللام هنا لام العاقبة . .

ومعناها أنك قد تفعل شيئاً لا لشيء، ولكن الشيء يحدث هكذا، وليس في بالك أنت .

. إنما حصل هكذا .

ومثال هذه اللام في قوله تعالى في قصة موسى وفرعون : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . ﴾ [القصص : 8] .

ففرعون حينما أخذ موسى من البحر وتبنّاه وربّاه ، هل كان يتبناه ليكون له عدواً ؟ لا .

. إنما هكذا كانت النهاية ، لكي يثبت الحق سبحانه أنهم كانوا مُغفَّلين ، وأن الله حالَ بين قلوبهم وبين ما يريدون . . إذن : المسألة ليستْ مرادة . . فقد أخذْته وربّيته في الوقت الذي تقتل فيه الأطفال . . ألم يخطر ببالك أن أحداً خاف عليه ، فألقاه في البحر ؟ !

لذا يقول تعالى : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ . . ﴾ [الأنفال : 24] .

وكذلك أم موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . ﴾ [القصص : 7] .

(75/437)

كيف يقبل هذا الكلام ؟ وأنَّى للأم أن ترمي ولدها في البحر إنْ خافت عليه ؟ ! كيف يتأتَّى ذلك ؟ ! ولكن حالَ الله بين أم موسى وبين قلبها ، فذهب الخوف عليه ، وذهب الحنان ، وذهبت الرأفة ، ولم تكذّب الأمر الموجّه إليها ، واعتقدت أن نجاة وليدها في هذا فألقتْه .

وقوله : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 55] .

أي : اكفروا بما آتيناكم من النعم ، وبما كشفنا عنكم من الضر ، وتمتعوا في الدنيا ؛ لأنني لم اجعل الدنيا دار جزاء ، إنما الجزاء في الآخرة .

وكلمة ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ هنا تدل على أن الله تعالى قد يُوالي نعمه حتى على مَنْ يكفر بنعمته ، وإلاَّ فلو حَجَب عنهم نِعَمه فلن يكون هناك تمتُّع .

ويقول تعالى :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 55] .

أي : سوف ترونَ نتيجة أعمالكم ، ففيها تهديد ووعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(76/437)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (النحل : 53-55) ، (وفى الروم : (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (النحل : 33-34)) ، وفى العنكبوت : (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (العنكبوت65-66) ، للسائل أن يسأل عن وجه تكرر اللام فى قوله : ((وليتمتعوا)) في سورة العنكبوت ولم يتكرر فى الآيتين الآخريين ؟ وهل بين أية العنكبوت وأيتى النحل والروم فرق فى ذلك يوجب تكرار اللام حيث ذكر ام لا ؟ وهل قوله فى سورة العنكبوت : (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) يعم جميع المذكورين فى ذلك ؟ وقال فى

الآيتين الآخريين : (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ) فخص بعضهم ولم يعم فهل لذلك موجب ؟ فهذان سؤالان .

(77/437)

والجواب : أن هذه اللام فى قولة تعالى : ((ليكفروا)) ، ((وليتمتعوا)) لام مقصود به التهديد والوعيد كقوله تعالى : (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (فصلت : 40) و (اعْمَلُوا عَلَى

مَكَانَتِكُمْ) (هود : 93) وقوله (وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (الكهف : 29) . واذا تقرر هذا فقوله تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ 000) (النحل : 53-54) خطاب يعم ولا يخص ، واذا كان الخطاب يشمل العام الكثير فأبعد شيء أن يكونوا فى تلقيه على حد واحد ، بل يكون منهم المقبل والمعرض ، فعلى هذا الحكم ورد فى سورتى النحل والروم (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ) ، لان ما تقدم من الخطاب الاخبارى فى قوله : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) الى قوله : (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ) ، وفى قوله فى الروم : (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) الى قوله : (ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ) عام غير خاص ، فقد تفصل تلقيهمنوافترقت احوالهم بشاهد جرى العادة الذى لا ينكسر . واذا تقرر هذا فالوعيد لا يعمهم معنى ، بل يخص الفريق المسمى وان عم بلفظه تخويفا لمن عدا ذلك الفريق وليكون ارهب للجميع وان تفصلت احوالهم .

اما قوله تعالى فى سورة العنكبوت : (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ) (العنكبوت : 65) فليس هؤلاء كل الناس ، ولا يتناول الخطاب غير من ذكر ، فقوله بعد : (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

يتناول جميع من شمله الضمير فى قوله ((ركبوا)) وظاهر الخطاب تساوى هؤلاء فى مرتكبهم ، فالوعيد شامل لجميعهم ومتناول جملتهم ، فحسن توكيد الوعيد لشموله لهؤلاء المخصومين فقيل : ((وليتمتعوا)) ، ولم يحسن في المذكورين في آيتي النحل والروم لتفصيل أحوالهم ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 298.299 ﴾

(79/437)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [53]

قال سهل : لو أن الله تعالى طالب حملة العرش ، فمن دونهم من الملائكة ومن النبيين والمرسلين ، بما جهلوا من نعمة الله عليهم لعذبهم عليها ، وهو غير ظالم .

قيل لسهل : أي شيء يفعل الله بعبده إذا أحبه ؟ قال : يلهمه الاستغفار عند التقصير ، والشكر له عند النعمة ، وإنما أرادوا بالنية أن يتعرفوا بها نعم الله تعالى عليهم ، فيدوم لهم الشكر ويدوم لهم المزيد .

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [53] يعني إياه تدعون عند الفقر والبلاء ، وربما يكون ذلك نعمة من الله عليكم ، إذ لو شاء لابتلاكم بأشد منه ، فيصير ذلك عند أشد البلاء نعمة ، فيجزعون منه ، ولا يصبرون ولا يشكرون .

وبلغنا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال : اصبر على المؤونة تأتك مني المعونة .

(80/437)

قوله تعالى : ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [55] قال : هذا وعد من الله تعالى لكفار مكة على تكذيبهم ، مع ما أنعم الله عليهم في الدنيا ، أنهم سيعلمون جزاء ذلك في الآخرة ، وهذه الآية أيضاً وعيد شديد للغافلين على ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ من الدنيا نهمته حيل بينه وبين نهمته في الآخرة حلالها حساب وحرامها عقاب » ، وإنما يحاسب المؤمنون بما أخذوا من الحلال فضلاً على ما يكفيهم ، فأما من أخذ البلغة من الحلال فهو داخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس من الدنيا كسرة يسد بها المؤمن جوعته ، وثوب يواري به عورته ويؤدي فيه فرضه ، وبيت يكنه من حر الشمس وبرد الشتاء » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 90 . 91 ﴾

(81/437)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اثنين ﴾ : فيه قولان ، أحدُهما : أنه مؤكد ل " إلهَيْن " وعليه أكثرُ الناسِ ، و " اتَّخذ " على هذا يحتمل أن تكونَ متعديةً لواحدٍ ، وأن تكونَ متعديةً لاثنين ، والثاني منها محذوفٌ ، أي : لا تَتَّخذوا إلهين اثنين معبوداً .

والثاني : أنَّ " اثنين " مفعولٌ أولُ ، وإنما أُخِّر ، والأصلُ : لا تَتَّخذوا اثنين إلهين ، وفيه بُعْدٌ .

وقال أبو البقاء : " هو مفعولٌ ثانٍ " وهذا كالغلط إذ لا معنى لذلك البتةَ ، وكلامُ الزمخشري هنا يُفْهِم أنه ليس بتأكيدٍ فإنه قال : " فإنْ قلتَ : إنما جمعوا بين العددِ والمعدودِ فيما وراء الواحدِ والاثنين ، فقالوا : عندي رجالٌ ثلاثةٌ وأفراسٌ أربعةٌ ؛ لأنَّ المعدودَ عارٍ عن العدد الخاص ، فأمَّا رجل ورجلان وفَرَسٌ وفرسان فمعدودان فيهما دلالةٌ على العدد ، فلا حاجةَ على أَنْ يقال : رجل واحد ، ورجلان اثنان ، فما وجه قوله تعالى ﴿ إلهين اثنين ﴾ ؟ قلت : الاسمُ الحاملُ لمعنى الإفرادِ أو التثنيةِ دَلَّ على شيئين : على الجنسيةِ والعددِ المخصوصِ ، فإذا أُريدت الدلالةُ على أن المعنيَّ به منهما والذي يُساق إليه الحديثُ هو العددُ شُفِع بما يؤكِّد العددَ ، فدلَّ به على القصدِ إليه والعنايةِ به ، ألا ترى أنك لو قلْتَ : إله ،

ولم تؤكِّده بواحدٍ لم يَحْسُنْ، وخُيِّل أنك تُثْبِتُ الإِلهيةَ لا الوَحْدانية" .

وقال الشيخ: "لَمَّا كان الاسمُ الموضوع للإِفراد والتثنية قد يُتَجَوَّز به فيُراد به الجنسُ نحو: نِعم الرجل زيدٌ، ونِعْم الرجلان الزيدان، وقول الشاعر: /

2977- فإنَّ النارَ بالعُوْدَيْنِ تُذْكَى ... وإنَّ الحربَ أوَّلُها الكلامُ

أكَّدَ الموضوعَ لهما بالوصفِ فقيل: إلهين اثنين، وقيل: إله واحد" .

(82/437)

قوله: "فإيَّايَ" منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ مقدرٍ بعدهن يُفَسِّره هذا الظاهرُ، أي: إياي ارهبوا فارْهَبون. وقدَّر ابنُ عطية "ارهَبوا إيَّاي فارهبون" . قال الشيخ: "وهو ذُهولٌ عن القاعدةِ النحوية، وهي أنَّ المفعولَ إذا كان ضميراً منفصلاً والفعلُ متعدٍّ لواحد وَجَبَ تأخيرُ الفعلِ نحو: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: 5] ولا يجوز أن يتقدَّمَ إلا في ضرورةٍ كقوله:

2978- إليك حتى بَلَغَتْ إيَّاكا ... وهذا قد مَرَّ تقريرُه في أول البقرة. وقد يُجاب عن ابنِ عطية: بأنه لا يَقْبُحُ في الأمور التقديرية ما يقبح في [الأمور] اللفظيةِ. وفي قوله: "فإيَّايَ" التفاتٌ من غَيْبة وهي قولُه {وَقَالَ الله} إلى تكلُّمٍ وهو قوله "فإيَّاي" ثم التفت إلى الغِيْبة أيضاً في قوله: {وَلَهُ مَا فِي السماوات} .

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) ﴾

قوله تعالى : ﴿ واصِباً ﴾ : حالٌ من " الدِّين " العامل فيها الاستقرارُ المتضمِّنُ الجارُّ الواقعَ خبراً . والواصِبُ : الدائم ، قال حسَّان :

2979- غَيَّرَتْهُ الريحُ تَسْفِي بِهِ . . . وهَزِيْمٌ رَعْدُهُ واصِبُ

[وقال] أبو الأسود :

2980- لا أبتغي الحَمْدَ القليلَ بقاؤُه . . . يوماً بِذَمِّ الدهرِ أَجْمَعَ واصِبا

والوَصِبُ : العليل لمُداوَمَةِ السَّقَمِ له . وقيل : مِنَ الوَصَبِ وهو التَّعَبُ ، ويكون حينئذٍ على النَّسَب ، أي : ذا وَصَبٍ ؛ لأن الدينَ فيه تكاليفُ ومَشَاقُّ على العبادِ ، فهو كقوله :

2981- . . . .

. . . . . أضحى فؤادي به فاتِنا

أي : ذا فُتُوْن وقيل : الواصِبُ : الخَالِصُ .

وقال ابن عطية : والواوُ في قوله : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السماوات ﴾ عاطفةٌ على قوله ﴿ إله وَاحِدٌ ﴾ ، ويجوزُ أن تكونَ واوَ ابتداء " . قال الشيخ : " ولا يُقال واوُ ابتداءٍ إلا لواوِ الحال

، ولا تظهر هنا الحالُ" . قلت : وقد يُطْلِقون واوَ الابتداء ، ويريدون واوَ الاستئناف ، أي : التي لم يُقْصَدْ بها عطفٌ ولا تَشْريكٌ ، وقد نصُّوا على ذلك فقالوا : قد يُؤْتَى بالواو أولَ كلامٍ من غير قَصْدٍ إلى عَطفٍ . واسْتَدَلُّوا على ذلك بإتيانهم بها في أولِ قصائدِهم وأشعارِهم ، وهو كثيرٌ جداً . ومعنى قولِه " عاطفة على قوله ﴿ إله واحِدٌ ﴾ ، أي : أنها عَطَفَتْ جملةً على مفرد ، فيجبُ تأويلُها بمفردٍ لأنها عَطَفَتْ على الخبرِ فيكونُ خبراً ، ويجوز على كونِها عاطفةً أن تكونَ عاطفةً على الجملة بأسرها ، وهي قوله ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله واحِدٌ ﴾ وكأنَّ ابنَ عطية قَصَدَ بواوِ الابتداءِ هذا ، فإنها استئنافيةٌ .

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم ﴾ : يجوز في " ما " وجهان ، أحدهما : أن تكونَ موصولةً ، والجارُّ صلتُها ، وهي مبتدأٌ ، والخبرُ قولُه ﴿ فَمِنَ الله ﴾ والفاءُ زائدةٌ في الخبر لتضمُّنِ الموصولِ معنى الشرطِ ، تقديره : والذي استقرَّ بكم . و ﴿ مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ بيان للموصول . وقدَّر بعضُهم متعلِّق " بكم " خاصّاً فقال : " وما حَلَّ بكم أو نزل بكم " وليس بجيدٍ ؛ إذ لا يُقدَّرُ إلا كونٌ مطلقٌ .

والثاني: أنها شرطية، وفعلُ الشرطِ بعدها محذوفٌ وإليه نحا الفراء، وتبعه الحوفيُّ وأبو البقاء. قال الفراء: "التقدير: وما يكنْ بكم". وقد رُدَّ هذا بأنه لا يُحْذَفُ فعلٌ إلا بعد "إنْ" خاصةً، في موضعين، أحدُهما: أن يكون في باب الاشتغال نحو: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ [التوبة: 6] لأنَّ المحذوفَ في حكمِ المذكورِ. والثاني: أن تكونَ "إنْ" متلوَّةً ب "لا" النافية، وأنْ يَدُلَّ على الشرطِ ما تقدَّمه من الكلامِ كقوله:

2982- فطلِّقْها فلَسْتَ لها بكُفْءٍ ... وإلاَّ يَعْلُ مَفْرِقَكَ الحُسامُ

أي: وإن لا تُطَلِّقْها، فَحَذَفَ لدلالةِ قوله "فَطَلِّقْها" عليه فإن لم توجَدْ "لا" النافيةُ، أو كانت الأداةُ غيرَ "إنْ" لم يُحْذَفْ إلا ضرورةً، مثالُ الأول:

2983- قالَتْ بناتُ العمِّ يا سَلْمَى وإنْ ... كان غنياً مُعْدِماً قالت: وإنْ

أي: وإن كان غنياً رَضِيْتُه. ومثالُ الثاني:

2984- صَعْدَةٌ نابتةٌ في حائرٍ ... أيْنما الريحُ تُمَيِّلْها تَمِلْ

وقول الآخر:

2985- فمتى واغِلٌ يَنُبْهُمْ يُحَيُّو ... ه وتُعْطَفْ عليه كأسُ الساقي

قوله: ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ الفاءُ جوابُ "إذا". والجُؤار رَفْعُ الصوتِ، قال رؤبة يصفُ راهباً. /

2986- يُراوِحُ مِنْ صلواتِ المَلِي ... كِ طَوْراً سُجوداً وطَوْراً جُؤاراً

ومنهم مَنْ قَيَّده بالاستغاثة ، وأنشد الزمخشري :

2987- جَأَّرُ ساعاتِ النيامِ لربِّه . . . .

وقيل : الجُؤَار كالخُوار ، جأَر الثورُ وخارَ واحد ، إلا أنَّ هذا مهموزُ العين وذلك معتلُّها .

وقال الراغب : " جَأَر إذا أفرط في الدعاء والتضرع ، تشبيهاً بجُؤَارِ الوَحْشِيَّات " .

وقرأ الزهري : " تَجَرون " بحذفِ الهمزة وإلقاء حركتها على الساكنِ قبلَها ، كما قرأ نافع " رِدًا " في " رِدْءاً " .

(85/437)

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا كَشَفَ ﴾ : " إذا " الأولى شرطيةٌ والثانيةُ فجائيةٌ جوابُها . وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ " إذا " الشرطيةَ لا تكونُ معمولةً لجوابها ؛ لأنَّ ما بعد " إذا " الفجائية لا يعمل فيما قبلَها .

وقرأ قتادة " كاشَفَ " على فاعَلَ . قال الزمخشري : " بمعنى فَعَل ، وهو أقوى مِنْ " كَشَفَ " لأنَّ بناءَ المغالبةِ يدلُّ على المبالغة " .

قوله : " منكم " يجوز أن يكونَ صفةً ل " فريق " و " مِنْ " للتبعيض ، ويجوز أن تكونَ للبيا ن . قال الزمخشري : " كأنه قال : إذا فريقٌ كافرٌ ، وهم أنتم " .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ : في هذه اللامِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها لامُ كي ، وهي متعلقةٌ ب " يُشْرِكون " ، أي : إنَّ إشراكهم سببُه كفرُهم به . الثاني : أنها لامُ الصيرورةِ ، أي : صار أمرُهم إلى ذلك . الثالث : أنها لامُ الأمرِ ، وإليه نحا الزمخشريُّ .

وقرأ أبو العالية - ورواها مكحول عن أبي رافع مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه صلى الله عليه وسلم " فيُمْتَعُوا " بضمِّ الياء مِنْ تحتُ ، ساكنَ الميم مفتوحَ التاء ، مضارعَ مُتِّع مبنياً للمفعول . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ بالياءِ مِنْ تحتُ أيضاً . وهذا المضارع في هذه القراءةِ يجوز أن يكونَ حَذْفُ النونِ فيه : إمَّا للنصبِ عطفاً على " ليكفروا " إنْ كانت لامَ كي ، أو للصيرورة ، وإمّا للنصبِ أيضاً ، ولكنْ على جوابِ الأمرِ إنْ كانت اللامُ للأمر . ويجوز أن يكونَ حَذْفُها للجزم عَطْفاً على " لِيَكْفُروا " إن كانت للأمر أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 235 . 241 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ وَلَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

الحاجة إلى إثبات صانعٍ واحد داعية ، وما زاد على الواحد (فالا . . . .) فيه متساوية .

ويقال إثبات الواحد ضرورة ، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة .

قوله جلّ ذكره ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ .

له الدين خالصاً وله الدين دائماً ، وله الدينُ ثابتاً ، فطاعة له واجبة ، فلا تتقوا غيره ، وأطيعوا شَرْعَه بخلاف هواكم ، واعبدوه وَحْدَه ، واستجيبوا له في المَسرَّة والمَضرَّة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ .

النِّعمة ما يُقرِّبُ العبدَ من الحق ، فأمَّا ما لا يوجب النسيانَ والطغيان ، والغفلةَ والعصيانَ فأَوْلَى أن يكون محبة .

ويقال ما للعبد فيه نفع ، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة ؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً ، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال . وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : 13] على كل حال .

وفائدةُ الآيةِ قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيارِ في حالتي اليُسْرِ والعُسْر ، والثقة بأن الخير والشر ،

والنفع والضر كلاهما من الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ .

إذ ليس لكم سواه؛ فإذا أظلّتْ العبدَ هواجمُ الاضطرار التجأَ إلى الله في استدفاع ما مَسَّه من البلاء ثم إذا مَنَّ الحقُّ عليه، وجاد عليه بكشف بلائه صار كأَنْ لم يمسه سوءٌ أو أصابه همٌّ كما قيل:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى . . . ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَموَّلا

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) ﴾

(87/437)

الخطاب عام، وقوله: ﴿ مِّنكم ﴾ : لأنَّ القومَ منهم.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) ﴾

في هذا تهديد أي أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامةٌ، ويعتذرون حين لا يُقْبَل لهم عُذْرٌ. . ومَنْ زرَعَ شراً فلن يَحْصُدَ إلا جزاءَ عَمَلِه. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 301. 302﴾

(88/437)

قوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما هددهم بإشراكهم المستلزم لكفر النعمة ، أتبعه عجباً آخر من أمرهم فقال عاطفاً على قوله تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ : ﴿ ويجعلون ﴾ أي على سبيل التكرير ﴿ لما لا يعلمون ﴾ مما يعبدونه من الأصنام وغيرها لكونه في حيز العدم في نفسه وعدماً محضاً بما وصفوه به كما قال تعالى ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم ﴾ [الرعد : 33] ﴿ نصيباً مما رزقناهم ﴾ بما لنا من العظمة ، من الحرث والأنعام وغير ذلك ، تقرباً إليها كما مضى شرحه في الأنعام ، ولك أن تعطفه – وهو أقرب – على ﴿ يشركون ﴾ فيكون داخلاً في حيز " إذا " أي فاجأوا مقابلة نعمته في الإنجاء بالإشراك والتقرب برزقه إلى ما الجهل به خير من العلم به ، لأنه عدم لأنه لا قدرة له ولا نفع في المقام الذي أقاموه فيه ؛ ثم التفت إليهم التفاتاً مؤذناً بما يستحق على هذا الفعل من الغضب فقال تعالى : ﴿ تالله ﴾ أي الملك الأعظم

﴿ لتسئلن ﴾ يوم الجمع ﴿ عما كنتم ﴾ أي كوناً هو في جبلاتكم ﴿ تفترون ﴾ أي تتعمدون في الدنيا من هذا الكذب ، سؤال توبيخ ، وهو الذي لا جواب لصاحبه إلا بما فيه فضيحته .

ولما بين سفههم في صرفهم مما آتاهم إلى ما هو في عداد العدم الذي لا يعلم ، بين لهم سفهاً هو أعظم من ذلك بجعلهم لمالك الملك وملكه أحقر ما يعدونه مما أوجده لهم ، لافتقارهم إليه وغناه عنه على وجه التوالد المستحيل عليه مع كراهته لأنفسهم ، فصار ذلك أعجب العجب ، فقال تعالى : ﴿ يجعلون لله ﴾ أي الذي لا معلوم على الحقيقة سواه لاستجماعه لصفات الجلال والإكرام .

ولما كان المراد تقريعهم ، وكانت الأنوثة ربما أطلقت على كرائم الأشجار ، نص على المراد بقوله : ﴿ البنات ﴾ فلا أعجب منهم حيث يجعلون الوجود للمعدوم المجهول ، ويجعلون العدم للموجود المعلوم ؛ ثم نزه نفسه عن ذلك معجباً من وقوعه من عاقل بقوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ .

ولما ذكر ما جعلوا له مع الغنى المطلق ، بين ما نسبوا لأنفسهم مع لزوم الحاجة والضعف فقال : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ من البنين ، وذلك في جملة اسمية مدلولها الثبات ، ليكون منادياً عليهم بالفضيحة ، لأنهم لا يبقون لأبنائهم ولا يبقى أبناؤهم لهم ، وقد يكونون أعدى أعدائهم ؛ ثم بين حالهم إذا حصل لهم نوع ما جعلوه له سبحانه فقال تعالى : ﴿ وإذا ﴾ أي جعلوا كذا والحال أنه إذا ﴿ بشر أحدهم ﴾ ولما تعين وزال المحذور ، جمع بين الخساستين كما بين آخر الصافات فقال تعالى : ﴿ بالأنثى ﴾ أي قابل هذه البشرى التي تستحق السرور بحصول نسمة تكون سبباً لزيادة هذا النوع ، وقد تكون سبب سعادته ، دالة على عظمة الله - بضد ما تستحق مما لا يفيده شيئاً بأن ﴿ ظل وجهه ﴾ وكنى عن العبوس والتكدر والغبرة بما يفوز فيه من الغيظ بقوله تعالى : ﴿ مسوداً ﴾ أي من الغم والكراهة ، ولعله اختير لفظ " ظل " الذي معناه العمل نهاراً وإن كان المراد العموم في النهار وغيره دلالة على شهرة هذا الوصف شهرة ما يشاهد نهاراً ﴿ وهو كظيم ﴾ ممتلىء غيظاً على المرأة ولا ذنب لها بوجه ، والبشارة في أصل اللغة : الخبر الذي يغير البشرة من حزن أو سرور ، ثم خص في عرف اللغة بالسرور ، ولا تكون إلا بالخبر الأول ، ولعله عبر عنه بهذا اللفظ تنبيهاً على تعكيسهم للأمور في جعلهم وسرورهم وحزنهم وغير ذلك من أمرهم .

ولما كان سواد الوجه والكظم قد لا يصحبه الخزي ، وصل به قوله تعالى : ﴿ يتوارى ﴾ أي يستخفي بما يجعله في موضع كأنه الوراء لا اطلاع لأحد عليه ﴿ من القوم ﴾ أي الرجال الذين هو فيهم ﴿ من سوء ما بشر به ﴾ لعده له خزياً ، ثم بين ما يلحقه من الحيرة في الفكر عند ذلك بقوله تعالى : ﴿ أيمسكه على هون ﴾ أي ذلك وسفول أمر ، ولما كانوا يغيبون الموءودة في الأرض على غير هيئة الدفن ، عبر عنه بالدس فقال تعالى : ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ قال ابن ميلق : قال المفسرون : كانت المرأة إذا أدركها المخاض احتفرت حفيرة وجلست على شفيرها ، فإن وضعت ذكراً أظهرته ، وظهر السرور أهله ، وإن وضعت أنثى استأذنت مستولدها ، فإن شاء أمسكها على هون وإن شاء أمر بإلقائها في الحفيرة ورد التراب عليها وهي حية لتموت - انتهى .

قالوا : وكان الوأد في مضر وخزاعة وتميم .

ولما كان حكمهم هذا بالغاً في القباحة ، وصفه بما يستحقه فقال مؤكداً لقبحه : ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ أي بجعل ما يكرهونه لمولاهم الذي لا نعمة عندهم إلا منه ، وجعل ما يختارونه لهم خاصاً بهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 279 . 280 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل القاهرة فساد أقوال أهل الشرك والتشبيه ، شرح في هذه الآية تفاصيل أقوالهم وبين فسادها وسخافتها .

فالنوع الأول : من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لما لا يعلمون نصيباً وفيه مسالتان :

المسألة الأولى :

الضمير في قوله : ﴿ لما لا يعلمون ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى المشركين المذكورين في قوله : ﴿ إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ [النحل : 54] والمعنى أن المشركين لا يعلمون .

والثاني : أنه عائد إلى الأصنام أي لا يعلم الأصنام ما يفعل عبادها قال بعضهم : الأول أولى لوجوه : أحدها : أن نفي العلم عن الحي حقيقة وعن الجماد مجاز .

وثانيها : أن الضمير في قوله : ﴿ ويجعلون ﴾ عائد إلى المشركين فكذلك في قوله : ﴿ لما لا يعلمون ﴾ يجب أن يكون عائد إليهم .

وثالثها : أن قوله : ﴿ لما لا يعلمون ﴾ جمع بالواو والنون .

وهو بالعقلاء أليق منه بالأصنام التي هي جمادات ، ومنهم من قال بل القول الثاني أولى لوجوه : الأول : أنا إذا قلنا إنه عائد إلى المشركين افتقرنا إلى إضمار ، فإن التقدير : ويجعلون لما لا يعلمون إلهاً ، أو لما لا يعلمون كونه نافعاً ضارا ، وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام ، لم نفتقر إلى الإضمار لأن التقدير : ويجعلون لما لا علم لها ولا فهم .

والثاني : أنه لو كان العلم مضافاً إلى المشركين لفسد المعنى ، لأن من المحال أن يجعلوا نصيباً من رزقهم لما لا يعلمونه ، فهذا ما قيل في ترجيح أحد هذين القولين على الآخر .

(92/437)

واعلم أنا إذا قلنا بالقول الأول افتقرنا فيه إلى الإضمار ، وذلك يحتمل وجوهاً : أحدها : ويجعلون لما لا يعلمون له حقاً ، ولا يعلمون في طاعته نفعاً ولا في الإعراض عنه ضرراً ، قال مجاهد : يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه ينفعهم ويضرهم نصيباً .

وثانيها : ويجعلون لما لا يعلمون إلهيتها .

وثالثها : ويجعلون لما لا يعلمون السبب في صيرورتها معبودة .

ورابعها : المراد استحقار الأصنام حتى كأنها لقلتها لا تعلم .

المسألة الرابعة :

في تفسير ذلك النصيب احتمالات : الأول : المراد منه أنهم جعلوا لله نصيباً من الحرث والأنعام يتقربون إلى الله تعالى به ، ونصيباً إلى الأصنام يتقربون به إليها ، وقد شرحنا ذلك في آخر سورة الأنعام .

والثاني : أن المراد من هذا النصيب ، البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، وهو قول الحسن .

والثالث : ربما اعتقدوا في بعض الأشياء أنه إنما حصل بإعانة بعض تلك الأصنام ، كما أن المنجمين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة ، فيقولون لزحل كذا من المعادن والنبات والحيوانات ، وللمشتري أشياء أخرى فكذا ههنا .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين هذا المذهب قال : ﴿ تالله لتسألن ﴾ وهذا في هؤلاء الأقوام خاصة بمنزلة قوله :

﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾ [الحجر : 92 ، 93] وعلى التقديرين فأقسم الله تعالى بنفسه أنه يسألهم ، وهذا تهديد منه شديد ، لأن المراد أنه يسألهم سؤال توبيخ وتهديد ، وفي وقت هذا السؤال احتمالان : الأول : أنه يقع ذلك السؤال عند القرب من الموت ومعاينة ملائكة العذاب ، وقيل عند عذاب القبر .

والثاني : أنه يقع ذلك في الآخرة ، وهذا أولى لأنه تعالى قد أخبر بما يجري هناك من ضروب التوبيخ عند المسألة فهو إلى الوعيد أقرب .

(93/437)

النوع الثاني : من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لله البنات ، ونظيره قوله تعالى : { وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً } [الزخرف : 19] كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله .

أقول أظن أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات لأن الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء في الاستتار فأطلقوا عليهم لفظ البنات .

وأيضاً قرص الشمس يجري مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث فهذا ما يغلب على الظن في سبب إقدامهم على هذا القول الفاسد والمذهب الباطل ، ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال { سبحانه } وفيه وجوه : الأول : أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد إليه .

والثاني : تعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح ، وهو وصف الملائكة بالأنوثة ثم نسبتها بالولدية إلى الله تعالى .

والثالث : قيل في التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الأول .

ثم قال تعالى : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ أجاز الفراء في " ما " وجهين : الأول : أن يكون في محل النصب على معنى ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون .

والثاني : أن يكون رفعاً على الابتداء كأنه تم الكلام عند قوله : ﴿ سبحانه ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ يعني البنين وهو كقوله : ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ [الطور : 39] ثم اختار الوجه الثاني وقال : لو كان نصيباً لقال ولأنفسهم ما يشتهون ، لأنك تقول جعلت لنفسك كذا وكذا ، ولا تقول جعلت لك ، وأبى الزجاج إجازة الوجه الأول ، وقال " ما " في موضع رفع لا غير ، والتقدير : ولهم الشيء الذى يشتهونه ، ولا يجوز النصب لأن العرب تقول جعل لنفسه ما تشتهي ، ولا تقول جعل له ما يشتهي وهو يعني نفسه .

ثم إنه تعالى ذكر أن الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فما لا يرتضيه لنفسه كيف ينسبه لله تعالى فقال : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

التبشير في عرف اللغة مختص بالخبر الذي يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في تغير بشرة الوجه ، ومعلوم أن السرور كما يوجب تغير البشرة فكذلك الحزن يوجبه .

فوجب أن يكون لفظة التبشير حقيقة في القسمين ، ويتأكد هذا بقوله ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : 21] ومنهم من قال : المراد بالتبشير ههنا الإخبار ، والقول الأول أدخل في التحقيق .

أما قوله : ﴿ ظل وجهه مسوداً ﴾ فالمعنى أنه يصير متغيراً تغير مغتم ، ويقال لمن لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحزناً ، وأقول إنما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم ، وذلك لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب ، ووصل إلى الأطراف ، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد ، وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار ، وأما إذا قوي غم الإنسان احتقن الروح في باطن القلب ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه ، فلا جرم يربد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية والكثافة ، فثبت أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ، ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده ، فلهذا السبب جعل بياض الوجه إشراقه كناية عن الفرح وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية ، ولهذا المعنى قال : ﴿ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ أي ممتلئ غماً وحزناً .

ثم قال تعالى : ﴿ يتوارى من القوم من سوء ﴾ أي يختفي ويتغيب من سوء ما بشر به ، قال المفسرون : كان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بامرأته توارى واختفى عنا لقوم إلى أن يعلم ما يولد له فإن كان ذكراً ابتهج به ، وإن كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أياماً يدبر فيها أنه ماذا يصنع بها ؟ وهو قوله : ﴿ أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾ والمعنى : أيحسبه ؟ والإمساك ههنا بمعنى بمعنى الحبس كقوله : ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ [الأحزاب : 37] وإنما قال : ﴿ أيمسكه ﴾ ذكره بضمير الذكران لأن هذا الضمير عائد على " ما " في قوله : ﴿ ما بشر به ﴾ والهون الهوان قال النضر بن شميل يقال إنه أهون عليه هوناً وهواناً ، وأهنته هوناً وهواناً ، وذكرنا هذا في سورة الأنعام عند قوله ؛ ﴿ عذاب الهون ﴾ [الأنعام : 93] وفي أن هذا الهون صفة من ؟ قولان : الأول : أنه صفة المولودة ، ومعناه أنه يمسكها عن هون منه لها .

والثاني : قال عطاء عن ابن عباس : أنه صفة للأب ، ومعناه أنه يمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه .

ثم قال : ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ والدس إخفاء الشيء في الشيء .

يروى أن العرب كانوا يحفرون حفيرة ويجعلونها فيها حتى تموت .

وروي عن قيس بن عاصم أنه قال : يا رسول الله إني واريت ثماني بنات في الجاهلية فقال عليه السلام : " أعتق عن كل واحدة منهن رقبة " فقال : يا نبي الله إني ذو إبل ، فقال : " أهد عن كل واحدة منهن هدياً " وروي أن رجلاً قال يا رسول الله : ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت ، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فأمرت امرأتي أن تزينها فأخرجتها إلي فانتهيت بها إلى واد بعيد القعر فألقيتها فيه ، فقالت : يا أبت قتلتني ، فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء ، فقال عليه السلام :

(96/437)

" ما كان في الجاهلية فقد هدمه الإسلام وما كان في الإسلام يهدمه الاستغفار " واعلم أنهم كانوا مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت ، ومنهم من يرميها من شاهق جبل ، ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها ، وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية ، وتارة خوفاً من الفقر والفاقة ولزوم النفقة ، ثم إنه قال : ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ وذلك لأنهم بلغوا في الاستنكاف من البنت إلى أعظم الغايات ، فأولها : أنه يسود وجهه .

وثانيها : أنه يختفي عن القوم من شدة نفرته عن البنت ، وثالثها : أن الولد محبوب بحسب الطبيعة ، ثم إنه بسبب شدة نفرته عنها يقدم على قتلها ، وذلك يدل على أن النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغاً لا يزداد عليه .

إذا ثبت هذا فالشيء الذي بلغ الاستنكاف منه إلى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل أن ينسبه لإله العالم المقدس العالي عن مشابهة جميع المخلوقات ؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى :

﴿ ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ [النجم : 21 ، 22] .

المسألة الثانية :

قال القاضي : هذه الآية تدل على بطلان الجبر ، لأنهم يضيفون إلى الله تعالى من الظلم والفواحش ما إذا أضيف إلى أحدهم أجهد نفسه في البراءة منه والتباعد عنه ، فحكمهم في ذلك مشابه لحكم هؤلاء المشركين ، ثم قال : بل أعظم ، لأن إضافة البنات إليه إضافة قبح واحد ، وذلك أسهل من إضافة كل القبائح والفواحش إلى الله تعالى .

فيقال للقاضي ، إنه لما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد على الله تعالى أردفة الله بذكر هذا الوجه الإقناعي ، وإلا فليس كل ما قبح منا في العرف قبح من الله تعالى ألا ترى

أن رجلاً زين إماءه وعبيده وبالغ في تحسين صورهن ثم بالغ في تقوية الشهوة فيهم وفيهن ، ثم جمع بين الكل وأزال الحائل والمانع فإن هذا بالإتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق ، فعلمنا أن التعويل على هذه الوجوه المبينة على العرف ، إنما يحسن إذا كانت مسبوقة بالدلائل القطعية اليقينية ، وقد ثبت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله ، فلا جرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الإقناعية .

أما أفعال العباد فقد ثبت بالدلائل اليقينية القاطعة أن خالقها هو الله تعالى ، فكيف يمكن إلحاق أحد البابين بالآخر لولا شدة التعصب ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 43.46 ﴾

(98/437)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإذا بُشِر أَحَدُهُم بالأنثى ظلّ وجهُهُ مسودّاً وهو كظيمٌ ﴾ في قوله ﴿ مسودّاً ﴾

ثلاثة أوجه :

أحدها : مسود اللون ، قاله الجمهور . الثاني : متغير اللون بسواد أو غيره ، قاله مقاتل .

الثالث : ان العرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودّ وجهه غماً وحزناً ، قاله الزجاج.

ومنه : سَوَّدْت وجه فلان ، إذا سُؤته.

﴿ وهو كظيم ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن الكظيم الحزين ، قاله ابن عباس.

الثاني : أنه الذي يكظم غيظه فلا يظهر ، قاله الأخفش.

الثالث : أنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الفم ، مأخوذ من الكظامة وهو سد فم القربة ، قاله ابن عيسى.

﴿ . . . أيمسكُهُ على هُونٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هو الهوان بلغة قريش ، قاله اليزيدي.

الثاني : هو القليل بلغة تميم ، قاله الفراء.

الثالث : هو البلاء والمشقة ، قاله الكسائي. قالت الخنساء :

نهينُ النفوس وهون النفو . . . س يوم الكريهة أبقى لها

﴿ أم يدُسُّهُ في التراب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها الموُودة التي تدس في التراب قتلاً لها.

الثاني : أنه محمول على إخفائه عن الناس حتى لا يعرفوه كالمدسوس في التراب لخفائه عن الأبصار. وهو محتمل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾

الضمير في قوله ﴿ ويجعلون ﴾ للكفار ، وقوله ﴿ لما لا يعلمون ﴾ يريد الأصنام ، ومعناه لا يعلمون فيهم حجة ولا برهانا ً ، ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ يعلمون ﴾ الأصنام ، أي يجعلون لجمادات لا تعلم شيئاً ﴿ نصيبا ً ﴾ ، فالمفعول محذوف ، ثم عبر عنهم بعبارة من يعقل بحسب مذهب الكفار الذين يسندون إليها ما يسند إلى من يعقل ، وبحسب أنه إسناد منفي ، وهذا كله ضعيف ، و" النصيب " المشار إليه هو ما كانت العرب سنته من الذبح لأصنامها والإهداء إليها ، والقسم لها من الغلات ، ثم أمر الله تعالى نبيه عليه السلام ، أن يقسم لهم أنهم سيسألون على افترائهم في أن تلك السنن هي الحق الذي أمر الله به كما قال بعضهم ، و" الفرية " اختلاق الكذب وقوله ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ الآية ، هذا تعديد لقبح قول الكفار : الملائكة بنات الله ورد عليهم من وجهين ، أحدهما نسبة النسل إلى الله تعالى عن ذلك ، والآخر أنهم نسبوا من النسل الأخس المكروه عندهم ، و ﴿ ما

﴾ في قوله ﴿ ما يشتهون ﴾ مرتفعة بالابتداء ، والخبر في المجرور قبله ، وأجاز الفراء أن تكون في موضع نصب عطفاً على ﴿ البنات ﴾ ، والبصريون لا يجيزون هذا لأنه من باب ضربتني ، وكان يلزم عندهم أن يكون لأنفسهم ما يشتهون ، والمراد بقوله ﴿ ما يشتهون ﴾ : الذكران من الأولاد ، وقوله ﴿ وإذا بشر ﴾ لما صرح بالشيء المبشر به حسن ذكر البشارة فيه وإلا فالبشارة مطلقة لا تكون إلا في خير ، وقوله ﴿ ظل وجهه مسوداً ﴾ عبارة عن العبوس والتقطيب الذي يلحق المغموم ، وقد يعلو وجه المغموم سواد وربدة وتذهب شراقته ، فلذلك يذكر له السواد ، و﴿ كظيم ﴾ بمعنى كاظم كعليم وعالم ، والمعنى أنه يخفي وجده وهمه بالأنثى ، وقوله ﴿ يتوارى من القوم ﴾ الآية ، هذا التواري الذي ذكر الله تعالى إنما هو بعد البشارة بالأنثى ، وما يحكى أن الرجل منهم كان إذا أصاب امرأته الطلق توارى حتى يخبر بأحد الأمرين ، فليس المراد في الآية ، ويشبه أن ذلك

كان إذا أخبر بسارّ خرج ، وإن أخبر بسوء بقي على تواريه ولم يحتج إلى إحداثه ، ومعنى ﴿ يتوارى ﴾ يتغيب ، وتقدير الكلام يتوارى من القوم مدبراً ﴿ أيمسكه أم يدسه ﴾ ؟ وقرأت فرقة " أيمسكه " على لفظ " ما أم يدسها " على معنى الأنثى ، وقرأ الجحدري "

أيمسكها أم يدسها " على معنى الأنثى في الموضعين ، وقرأ الجمهور " على هُون " بضم الهاء ، وقرأ عيسى بن عمر " على هوان " ، وهي قراءة عاصم الجحدري ، وقرأ الأعمش " على سوء " ، ومعنى الآية يدبر أيمسك هذه الأنثى على هوان يتحمله وهم يتجلد له ، أم يدسها فيدفنها حية ، فهو الدس في التراب ، ثم استفتح تعالى بالإخبار بسوء حكمهم وفعلهم بهذا في بناتهم ورزق الجميع على الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(102/437)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾

ذكر نوعاً آخر من جهالتهم ، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع وهي الأصنام شيئاً من أموالهم يتقرّبون به إليه ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما .

ف"يعلمون" على هذا للمشركين .

وقيل : هي للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل ، فهو رد على "ما" ومفعول يعلم محذوف ، والتقدير : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً .

وقد مضى في "الأنعام" تفسير هذا المعنى في قوله ﴿ فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : ﴿ تالله لَتُسْأَلُنَّ ﴾ وهذا سؤال توبيخ .

﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أي تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ للَّهِ البنات ﴾

نزلت في خُزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات .

﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد .

﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات .

وموضع "ما" رفع بالابتداء ، والخبر "لهم" وتم الكلام عند قوله : "سبحانه" .

وأجاز الفراء كونها نصباً ، على تقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون .

وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ﴾

أي أخبر أحدهم بولادة بنت .

﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ أي متغيراً ، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت .

والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً : قد اسود وجهه غمّاً وحزناً ؛ قاله الزجاج.

وحكى الماوردي أن المراد سوادُ اللون قال : وهو قول الجمهور .

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ممتلىء من الغم .

وقال ابن عباس : حزين .

وقال الأخفش : هو الذي يكظم غيظه فلا يظهره .

(103/437)

وقيل : إنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم ؛ مأخوذ من الكِظامة وهو شد فم القربة ؛ قاله علي بن عيسى .

وقد تقدّم هذا المعنى في سورة "يوسف" .

قوله تعالى : ﴿ يتوارى مِنَ القوم ﴾

أي يختفي ويتغيّب .

﴿ مِن سواء مَا بُشّرَ بِهِ ﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت .

﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ ذكّر الكناية لأنه مردود على "ما" .

﴿ على هُونٍ ﴾ أي هوان .

وكذا قرأ عيسى الثقفيّ "على هوان" والهُون الهوان بلغة قريش ؛ قاله اليزيدي وحكاه أبو

عبيد عن الكسائيّ .

وقال الفرّاء : هو القليل بلغة تميم .

وقال الكسائيّ : هو البلاء والمشقة .

وقالت الخَنْساء :

نُهين النفوسَ وهُونُ النفو . . .

س يوم الكريهة أبقَى لها

وقرأ الأعمش "أيمسِكه على سوءٍ" ذكره النحاس ، قال : وقرأ الجَحْدَرِيّ "أم يدسّها في التراب" يردّه على قوله : "بِالأنثى" ويلزمه أن يقرأ "أيمسِكها" .

وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛ أي أيمسكها وهي مهانة عنده .

وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه في التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حيّة .

قال قتادة : كان مُضَرُ وخُزاعة يدفنون البنات أحياء ؛ وأشدهم في هذا تميم .

زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن .

وكان صَعْصَعة بن ناجية عَمُّ الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك .

فقال الفرزدق يفتخر :

وعمّي الذي منَع الوائداتْ . . .

وأحيا الوئِيد فلم يُوأَدِ

وقيل : دَسُّها إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف ، كالمدسوس في التراب لإخفائه عن الأبصار ؛ وهذا محتمل .

(104/437)

مسألة ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها ، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسَمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً ، ثم قامت فخرجت وابنتاها ، فدخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم فحدّثته حديثَها ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار " ففي هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية ، ثم أخبر أن في الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقي من النار .

" وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ؛ فأعجبني شأنها ، فذكرتُ الذي

صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار " وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو " وضم أصابعه ، خرّجهما أيضاً مسلم رحمه الله ! وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من كانت له بنت فأدّبها فأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له ستراً أو حجاباً من النار " .

وخُطب إلى عَقيل بن عُلّفة ابنته الجرباء فقال :

إني وإن سِيق إليّ المَهْرُ . . .

أَلْفٌ وعُبدان وخُورٌ عشرُ

أَحَبّ أصهاري إليّ القبر . . .

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبي بنت يراعي شؤونها . . .

ثلاثةُ أصهار إذا حُمد الصّهْرُ

فَبَعْلٌ يُراعِيها وخِدْرٌ يكنُّها . . .

وقبرٌ يُواريها وخيرُهم القَبْرُ

﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي في إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم .

(105/437)

نظيره ﴿ أَلَكُمُ الذكر ولَهُ الأنثى تلك إذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 21 ، 22] أي جائرة ، وسيأتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(106/437)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً ﴾

قيل الضمير في قوله : لما لا يعلمون عائد إلى المشركين يعني أن المشركين لا يعلمون .

وقيل إنه عائد إلى الأصنام يعني أن الأصنام لا تعلم شيئاً البتة لأنها جماد والجماد لا علم له ، ومنهم من رجح القول الأول لأن نفي العلم عن الحي حقيقة ، وعن الجماد مجاز فكان عود

الضمير إلى المشركين أولى ، لأنه قال لما لا يعلمون فجمعهم بالواو والنون ، وهو جمع لمن يعقل ومنهم من رجع القول الثاني .

(107/437)

قال : لأنا إذا قلنا أنه عائد إلى المشركين احتجنا إلى إضمار فيكون المعنى : ويجعلون يعني المشركين لما لا يعلمون أنه إله ولا إله حتى نصيباً وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام لم نحتج إلى هذا الاضمار لأنها لا علم لها ، ولا فيهم وقوله ﴿ مما رزقناهم ﴾ يعني أن المشركين جعلوا للأصنام نصيباً من حروثهم وأنعامهم وأموالهم التي رزقهم الله ، وقد تقدم تفسيره في سورة الأنعام ﴿ تالله ﴾ أقسم بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة ، وهو قوله تعالى ﴿ لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ يعني عما كنتم تكذبون في الدنيا في قولكم ، إن هذه الأصنام آلهة وإن لها نصيباً من أموالكم ، وهذا التفات من الغيبة إلى الحضور ، وهو من بديع الكلام وبليغه ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ هم خزاعة وكنانة قالوا : الملائكة بنات الله وإنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء ، أو لدخول لفظ التأنيث في تسميتهم ﴿ سبحانه ﴾ نزه الله نفسه عن الولد والبنات ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ يعني : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون يعني البنين ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ البشارة عبارة

عن الخبر السار الذي يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ، ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن ، والغم يظهر أثره على الوجه وهو الكمودة التي تعلو الوجه ، عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا أن البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن ، فصح قوله : وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴿ ظل وجهه مسوداً ﴾ يعني متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهة التي حصلت له عند هذه البشارة ، والمعنى أن هؤلاء المشركين لا يرضى بالبنت الأنثى أن تنسب إليه فكيف يرضي أن ينسبها إلى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وهو كظيم ﴾ يعني أنه ظل ممتلئاً غماً وحزناً ﴿ يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به ﴾ يعني أنه يختفي من ذلك القول الذي بشر به ، وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم ، توارى من القوم إلى أن يعلم ما ولد له فإن كان ولداً ابتهج بذلك وظهر وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياماً حتى يفكر ما يصنع بها وهو قوله تعالى ﴿ أيمسكه على هون ﴾ يعني على هوان ، وإنما ذكر الضمير في أيمسكه لأنه عائد إلى ما بشر به في قوله ، وإذا بشر أحدهم ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ يعني أم يخفي الذي بشر

به في التراب والدس إخفاء الشيء في الشيء قال أهل التفسير : إن مضر وخزاعة وتميماً كانوا يدفنون البنات أحياء ، والسبب في ذلك إما خوف الفقر وكثر العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الأسر ونحوه ، أو طمع غير الأكفّاء فيهن فكان الرجل من العرب في الجاهلية ، إذا ولدت له بنت أراد أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر ، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية ، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية ، قال لأمها : زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ويكون فد حفر لها حفرة في الصحراء فإذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها : انظري إلى هذه البئر فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها في تلك البئر ، ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم (1) الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه بإبل إلى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك :

وعمي الذي منع الوائدات . . .

فأحيا الوئيد فلم يوأد

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الوائدة والمؤودة في النار " أخرجه أبو داود .

وقوله تعالى ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ يعني بئس ما يصنعون ويقضون حيث يجعلون لله خلقهم البنات ، وهم يستنكفون منهن ويجعلون لأنفسهم البنين نظيره قوله سبحانه وتعالى

﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وقيل: معناه ألا ساء ما يحكمون في وأد البنات. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

---

(1) قوله صعصعة عم كذا بالنسخ التي بأيدينا والصواب جد وكذا قوله (وعمي الذي) الصواب وجدي الذي كما هو مقرر في كتب الأدب اهـ.

(109/437)

وقال أبو حيان:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾

ويروى: يراوح.

دس الشيء في الشيء أخفاه فيه.

﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألنّ عما كنتم تفترون ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾:

الضمير في: ويجعلون، عائد على الكفار.

والظاهر أنه في يعلمون عائد عليهم .

وما هي الأصنام أي : للأصنام التي لا يعلم الكفار أنها تضر وتنفع ، أو لا يعلمون في اتخاذها آلهة حجة ولا برهاناً .

وحقيقتها أنها جماد لا تضر ولا تنفع ولا تشفع ، فهم جاهلون بها .

وقيل : الضمير في لا يعلمون للأصنام أي : للأصنام التي لا تعلم شيئاً ولا تشعر به ، إذ هي جماد لم يقم بها علم البتة .

والنصيب : هو ما جعلوه لها من الحرث والأنعام ، قبح تعالى فعلهم ذلك ، وهو أن يفردوا نصيباً مما أنعم به تعالى عليهم لجمادات لا تضر ولا تنفع ، ولا تنتفع هي بجعل ذلك النصيب لها ، ثم أقسم تعالى على أنه يسألهم عن افترائهم واختلاقهم في إشراكهم مع الله آلهة ، وأنها أهل للتقرب إليها بجعل النصيب لها ، والسؤال في الآخرة ، أو عند عذاب القبر ، أو عند القرب من الموت أقوال .

ولما ذكر الله تعالى أنه يسألهم عن افترائهم ، ذكر أنهم مع اتخاذهم آلهة نسبوا إلى الله تعالى التوالد وهو مستحيل ، ونسبوا ذلك إليه فيما لم يرتضوه ، وتربد وجوههم من نسبته إليهم ويكرهونه أشد الكراهة .

وكانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله سبحانه وتنزيه له تعالى عن نسبة الولد إليه ، ولهم ما يشتهون : وهم الذكور ، وهذه الجملة مبتدأ وخبر .

وقال الزمخشري : ويجوز فيما يشتهون الرفع على الابتداء ، والنصب على أن يكون معطوفاً على البنات أي : وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور انتهى .

وهذا الذي أجازه من النصب تبع فيه الفراء والحوفي .

وقال أبو البقاء : وقد حكاه ، وفيه نظر .

وذهل هؤلاء عن قاعدة في النحو : وهو أن الفعل الرافع لضمير الاسم المتصل لا يتعدّى إلى ضميره المتصل المنصوب ، فلا يجوز زيد ضربه زيد ، تريد ضرب نفسه إلا في باب ظن وأخواتها من الأفعال القلبية ، أو فقد ، وعدم ، فيجوز : زيد ظنه قائماً وزيد فقده ، وزيد عدمه .

والضمير المجرور بالحرف المنصوب المتصل ، فلا يجوز زيد غضب عليه تريد غضب على نفسه ، فعلى هذا الذي تقرر لا يجوز النصب إحذ يكون التقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون .

قالوا : وضمير مرفوع ، ولهم مجرور باللام ، فهو نظير : زيد غضب عليه .

وإذا بشر ، المشهور أن البشارة أول خبر يسر ، وهنا قد يراد به مطلق الأخبار ، أو تغير

البشرة ، وهو القدر المشترك بين الخبر السار أو المخبرين ، وفي هذا تقبيح لنسبتهم إلى الله المنزه عن الولد البنات واحدهم أكره الناس فيهنّ ، وأنفرهم طبعاً عنهن .

وظل تكون بمعنى صار ، وبمعنى أقام نهاراً على الصفة التي تسند إلى اسمها تحتمل الوجهين .

والأظهر أن يكون بمعنى صار ، لأنّ التبشير قد يكون في ليل ونهار ، وقد تلحظ الحالة الغالبة .

وأنّ أكثر الولادات تكون بالليل ، وتتأخر أخبار المولود له إلى النهار وخصوصاً بالأنثى ، فيكون ظلوله على ذلك طول النهار .

واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والتكره والنفرة التي لحقته بولادة الأنثى .

قيل : إذا قوي الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف ، ولا سيما إلى الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد ، فترى الوجه مشرقاً متلألئاً .

وإذا قوي الغم انحصر الروح إلى باطن القلب ولم يبق له أثر قوي في ظاهر الوجه ، فيربد الوجه ويصفر ويسود ، ويظهر فيه أثر الأرضية ، فمن لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ، ومن

لوازم الغم والحزن اربداده واسوداده ، فلذلك كنى عن الفرح بالاستنارة ، وعن الغم بالاسوداد .

وهو كظيم أي : ممتلىء القلب حزناً وغمًّا .

أخبر عما يظهر في وجهه وعن ما يجنه في قلبه .

وكظيم يحتمل أن يكون للمبالغة ، ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول لقوله : ﴿ وهو مكظوم ﴾

ويقال : سقاء .

مكظوم ، أي مملوء مشدود الفم .

وروى الأصمعي أنّ امرأة ولدت بنتاً سمتها الذلفاء ، فهجرها زوجها فقالت :

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا . . .

يظل في البيت الذي يلينا

يحردان لا نلد البنينا . . .

وإنما نأخذ ما يعطينا

يتوارى : يختفي من الناس ، ومن سوء للتعليل أي : الحال له على التواري هو سوء ما أخبر به ، وقد كان بعضهم في الجاهلية يتوارى حالة الطلق ، فإن أخبر بذكر ابتهج ، أو أنثى حزن .

وتوارى أياماً يدبر فيها ما يصنع .

أيمسكه قبله حال محذوفة دل عليها المعنى ، والتقدير : مفكراً أو مدبراً أيمسكه ؟ وذكر الضمير ملاحظة للفظ ما في قوله : من سوء ما بشر به .

وقرأ الجحدري : أيمسكها على هوان ، أم يدسها بالتأنيث عوداً على قوله : بالأنثى ، أو على معنى ما بشر به ، وافقه عيسى على قراءة هوان على وزن فعال .

وقرأت فرقة : أيمسكه بضمير التذكير ، أم يدسها بضمير التأنيث .

وقرأت فرقة : على هون بفتح الهاء .

وقرأ الأعمش : على سوء ، وهي عندي تفسير لا قراءة ، لمخالفتها السواد المجمع عليه .

ومعنى الإمساك حبسه وتربيته ، والهون الهوان كما قال : ﴿ عذاب الهون ﴾ والهون بالفتح الرفق واللين ، ﴿ يمشون على الأرض هوناً ﴾ وفي قوله : على هون قولان : أحدهما : أنه حال من الفاعل ، وهو مروي عن ابن عباس .

قال ابن عباس : إنه صفة للأب ، والمعنى : أيمسكها مع رضاه بهوان نفسه ، وعلى رغم أنفه ؟ وقيل : حال من المفعول أي : أيمسكها مهانة ذليلة ، والظاهر من قوله : أم يدسه في التراب ، إنه يئدها وهو دفنها حية حتى تموت .

وقيل : دسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس في التراب .

والظاهر من قوله : ألا ساء ما يحكمون ، رجوعه إلى قوله : ويجعلون لله البنات الآية أي : ساء ما يحكمون في نسبتهم إلى الله ما هو مستكره عندهم ، نافر عنهن طبعهم ، بحيث لا يحتملون نسبتهن إليهن ، ويئدونهن استنكافاً منهن ، وينسبون إليهم الذكر كما قال : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ وقال ابن عطية : ومعنى الآية يدبر أيمسك هذه الأنثى على هوان يتجلد له ، أم يئدها فيدفنها حية فهو الدس في التراب ؟ ثم استقبح الله سوء فعلهم وحكمهم بهذا في بناتهم ورزق الجميع على الله انتهى .

فعلق ألا ساء ما يحكمون بصنعهم في بناتهم مثل السوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(113/437)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾

لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعداداً لجناياتهم أي يفعلون ما يفعلون من الجُؤار إلى الله تعالى عند مِساس الضرر ومن الإشراك به عند كشفِه ويجعلون ﴿ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ

﴿ أي لما لا يعلمون حقيقتَه وقدرَه الخسيسَ من الجمادات التي يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالةً وسَفاهةً ويزعُمون أنها تنفعهم وتشفعَ لهم ، على أن ما موصولةٌ والعائدُ إليها محذوف ، أو لما لا علم له أصلاً وليس من شأنه ذلك فما موصولةٌ أيضاً والعائدُ إليها ما في الفعل من الضمير المستكنْ ، وصيغةُ جمعِ العقلاءِ لكون (ما) عبارةً عن آلهتهم التي وصفوها بصفات العقلاءِ ، أو مصدريةٌ واللامُ للتعليل أي لعدم علمِهم والمجعولُ له محذوفٌ للعلم بمكانه ﴿ نَصِيبًا مِّمَّا رزقناهم ﴾ من الزرع والأنعام وغيرِهما تقرباً إليها ﴿ تالله لَتُسْأَلُنَّ ﴾ سؤالَ توبيخٍ وتقريع ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ في الدنيا بآلهة حقيقةٍ بأن يُتقرَّب إليها ، وفي تصدير الجملةِ بالقسم وصرفِ الكلامِ من الغَيبة إلى الخطاب المنبىءِ عن كمال الغضبِ من شدة الوعيد ما لا يخفى .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ هم خُزاعةُ وكِنانةُ الذين يقولون : الملائكةُ بناتُ الله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيهٌ له عز وجل عن مضمون قولِهم ذلك أو تعجيبٌ من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من البنين ، و (ما) مرفوعةُ المحلِّ على أنه مبتدأٌ والظرفُ المقدمُ خبرُه ، والجملةُ حاليةٌ وسبحانه اعتراضٌ في حق موقعِه ، وجعلُها منصوبةً بالعطف على البنات أي يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين يؤدّي إلى جعل الجعْلِ بمعنى يعمّ الزعمَ والاختيارَ .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالانثى ﴾ أي أخبر بولادتها ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أي صار أو دام النهارَ كلَّه ﴿ مُسْوَدّا ﴾ من الكآبة والحياءِ من الناس ، واسودادُ الوجه كنايةٌ عن الاغتمام والتشويش ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوءٌ حَنقاً وغيظاً .

﴿ يتوارى ﴾ أي يستخفي ﴿ مِنَ القوم مِن سُوء مَا بُشّرَ بِهِ ﴾ من أجل سوئِه ، والتعبيرُ عنها بما لإسقاطها عن درجة العقلاء ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ أي متردداً في أمره محدّثاً نفسَه في شأنه أيمسكه ﴿ على هُونٍ ﴾ ذل ، وقرىء هوانٍ ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ ﴾ يُخفيه ﴿ فِى التراب ﴾ بالوأد ، والتذكيرُ باعتبار لفظ ما ، وقرىء بالتأنيث ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنُه عندهم من الهُون والحقارة لله المتعالي عن الصاحبة والولد ، والحالُ أنهم يتحاشَون عنه ويختارون لأنفسهم البنين ، فمدارُ الخطأ جعلُهم ذلك لله سبحانه مع إبائهم إياه لا جعلُهم البنين لأنفسهم ولا عدمُ جعلهم له سبحانه ، ويجوز أن يكون مدارُه التعكيس لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾

قيل معطوف على ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 54] وليس بشيء ، وقيل : لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعداداً لجناياتهم أي يفعلون مما قص عليك ويجعلون ﴿ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لآلهتهم التي لا يعلمون أحوالها وأنها لا تضر ولا تنفع على أن ﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف وضمير الجمع للكفار أو لآلهتهم التي لا علم لها بشيء لأنها جماد على أن دما ﴾ موصولة أيضاً عبارة عن الآلهة ، وضمير ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ عائد عليه ، ومفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ متروك لقصد العموم ، وجوز أن ينزل منزلة اللازم أي ليس من شأنهم العلم ، وصيغة جمع العقلاء لوصفهم الآلهة بصفاتهم ، ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية وضمير الجمع للمشركين واللام تعليلية لا صلة الجعل كما في الوجهين الأولين ، وصلته محذوفة للعلم بها أي يجعلون لآلهتهم لأجل جعلهم ﴿ نَصِيبًا مِّمّا رزقناهم ﴾ من الحرث والأنعام وغيرهما مما ذرأ تقربا إليها ﴿ تالله لَتُسْئَلُنَّ ﴾ سؤال توبيخ وتقريع في الآخرة ، وقيل : عند عذاب القبر ، وقيل : عند القرب من الموت ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ من قبل بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب إليها ، وفيتصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب المنبىء عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لا يخفى .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ هم خزاعة وكنانة كانوا يقولون : الملائكة بنات الله تعالى

وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها وبنوتها ، وقال الإمام : أظن أنهم أطلقوا عليها البنات لاستتارها عن العيون كالنساء ؛ ولهذا لما كان قرص الشمس يجري مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر أطلقوا عليه لفظ التأنيث .

(116/437)

ولا يرد على ذلك أن الجن كذلك لأنه لا يلزم في مثله الاطراد ، وقيل : أطلقوا عليها ذلك للاستتار مع كونها في محل لا تصل إليه الأغبار فهي كبنات الرجل اللاتي يغار عليهن فيسكنهن في محل أمين ومكان مكين ، والجن وإن كانوا مستترين لكن لا على هذه الصورة ، وهذا أولى مما ذكره الإمام ، وإما عدم التوالد فلا يناسب ذلك .

﴿ سبحانه ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ، وهو في المعنى الأول حقيقة وفي الثاني مجاز .

﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني البنين و ﴿ مَا ﴾ مرفوع المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض في حاق موقعه ؛ وجوز الفراء .

والحوفي أنه في محل نصب معطوف على ﴿ البنات ﴾ كأنه قيل : ويجعلون لهم ما يشتهون .

(117/437)

واعترض عليه الزجاج وغيره بأنه مخالف للقاعدة النحوية وهي أنه لا يجوز تعدي فعل المضمر المتصل المرفوع بالفاعلية وكذا الظاهر إلى ضميره المتصل سواء كان تعديه بنفسه أو بحرف الجر إلا في باب ظن وما ألحق به من فقد وعدم فلا يجوز زيد ضربه بمعنى ضرب نفسه ولا زيد مر به أن مر هو بنفسه ويجوز زيد ظنه قائماً وزيد فقده وعدمه فلو كان مكان الضمير إسماً ظاهراً كالنفس نحو زيد ضرب نفسه أو ضميراً منفصلاً نحو زيد ما ضرب إلا إياه وما ضرب زيد إلا إياه جاز ، فإذا عطف ﴿ مَا ﴾ على ﴿ البنات ﴾ أدى إلى تعدية فعل المضمر المتصل وهو واو ﴿ يَجْعَلُونَ ﴾ إلى ضميره المتصل وهو ﴿ هُمْ ﴾ المجرور باللام في غير ما استثنى وهو ممنوع عند البصريين ضعيف عند غيرهم فكان حقه أن يقال لأنفسهم وأجيب بأن الممتنع إنما هو تعدي الفعل بمعنى وقوعه عليه أو على ما جر بالحرف نحو زيد مر به فإن المرور واقع بزيد وما نحن فيه ليس من هذا القبيل فإن الجعل ليس واقعاً بالجاعلين بل بما يشتهون ، ومحصله كما قال الخفاجي المنع في المتعدي بنفسه مطلقاً والتفصيل في المتعدي بالحرف بين ما قصد الإيقاع عليه وغيره فيمتنع في الأول دون الثاني لعدم ألف إيقاع المرء بنفسه .

وأبو حيان اعترض القاعدة بقوله تعالى : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ [القصص : 32] والعلامة البيضاوي أجاب بوجه آخر

وهو أن الامتناع إنما هو إذا تعدى الفعل أولاً لا ثانياً وتبعاً فإنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع ، ومنهم من خص ذلك بالمتعدي بنفسه وجوز في المتعدي بالحرف كما هنا وارتضاه الشاطبي في شرح الألفية ، وقال الخفاجي : هو قوي عندي لكن لا يخفى أن العطف هنا بعد هذا القيل والقال يؤدي إلى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾

(118/437)

أي أخبر بولادتها ، واصل البشارة الأخبار بما يسر لكن لما كانت ولادة الأنثى تسوءهم حملت على مطلق الأخبار ، وجوز أن يكون ذلك بشارة باعتبار الولادة بقطع النظر عن كونها أنثى وقيل : إنه بشارة حقيقة بالنظر إلى حال المبشر به في نفس الأمر ، وأياماً كان فالكلام على تقدير مضاف كما أشرنا إليه ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أي صار ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ من الكآبة والحياء من الناس ، وأصل معنى ظل أقام نهاراً على الصفة التي تسند إلى الاسم ، ولما كان التبشير قد يكون في الليل وقد يكون في النهار فسر بما ذكر وقد تلحظ الحالة الغالبة بناء على أن أكثر الولادات يكون بالليل ويتأخر اخبار المولود له إلى النهار خصوصاً بالأنثى فيكون ظلوله على ذلك الوصف طول النهار واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم

والفكر والنفرة التي لحقته بولادة الأنثى ، قيل : إذا قوى الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف لا سيما إلى الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد فيرى الوجه مشرقاً متلألئاً ، وإذا قوى الغم انحصر الروح إلى باطن القلب ولم يبق له أثر قوي في ظاهر الوجه فيربد ويتغير ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية ، فمن لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ومن لوازم الغم والحزن اربداده واسوداده فلذلك كنى عن الفرح بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد ، ولو قيل بالمجاز لم يبعد بل قال بعضهم : ﴿ أَنَّهُ ﴾ والظاهر أن ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ ﴾ اسم ظل ﴿ ومسودا ﴾ خبره ، وجوز كون الاسم ضمير الأحد ووجهه بدلاً منه ولو رفع ﴿ وَجْهُهُ مُسْوَدّا ﴾ على أن ﴿ وَجْهَهُ ﴾ مبتدأ وهو خبر له والجملة خبر ﴿ ظِلّ ﴾ صح لكنه لم يقرأ بذلك هنا ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء غيظاً وأصل الكظم مخرج النفس يقال : أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم الغيظ لا خفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه .

وفعل اما بمعنى مفعول كما أشير إليه أو صيغة مبالغة ، والظاهر أن ذلك الغيظ على المرأة حيث ولدت أنثى ولم تلد ذكراً ، ويؤيده ما روي الأصمعي أن امرأة ولدت بنتاً سمتها

الذلفاء فهجرها زوجها فانشدت :

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا . . .

يظل في البيت الذي يلينا

يحرد أن لا نلد البنينا . . .

وإنما نأخذ ما يعطينا

والفقير قد رأيت من طلق زوجته لأن ولدت أنثى ، والجملة في موضع الحال من الضمير في ﴿ ظَلَّ ﴾ وجوز أبو البقاء أن يكون حالا من وجه ، وجوز غيره أيضاً حاليته من ضمير ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ .

﴿ يتوارى مِنَ القوم ﴾ يستخفي من قومه ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ عرفاً وهو الأنثى ، والتعبير عنها بما لإسقاطها بزعمهم عن درجة العقلاء ، والجملة مستأنفة أو حال على الأوجه السابقة في ﴿ وهو كظيم ﴾ [النحل : 58] إلا كونه من وجهه ، والجاران متعلقان بيتوارى و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى ابتدائية ، والثانية تعليلية أي يتوارى من أجل ذلك ، ويروى أن بعض الجاهلية يتوارى في حال الطلق فإن أخبر بذكر ابتهج أو بأنثى حزن وبقي متوارياً أياماً يدبر فيها ما صنع ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ أيتركه ويربيه ﴿ على هُونٍ ﴾ أي ذل ، والجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل ولذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : معناه أيمسكه مع رضاه بهوان نفسه وعلى رغم أنفه ، وقيل : حال من المفعول به أي أيمسك

المبشر به وهو الأنثى مهاناً ذليلاً ، وجملة ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ معمولة لمحذوف معلق بالاستفهام عنها وقع حالاً من فاعل ﴿ يتوارى ﴾ أي محدثاً نفسه متفكراً في أن يتركه ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ ﴾ يخفيه ﴿ فِى التراب ﴾ والمراد يئده ويدفنه حياً حتى يموت وإلى هذا ذهب

السدي .

وقتادة .

وابن جريج وغيرهم ، وقيل : المراد إهلاكه سواء كان بالدفن حياً أم بأمر آخر فقد كان

بعضهم يلقى الأنثى من شاهق .

(120/437)

روي أن رجلاً قال : يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت ، وقد كانت لي في الجاهلية بنت وأمرت امرأتي أن تزينها وأخرجتها فلما انتهيت إلى واد بعيد القعر ألقيتها فقالت يا أبت قتلتني فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء فقال صلى الله عليه وسلم : " ما في الجاهلية فقد هدمه الإسلام وما في الإسلام يهدمه الاستغفار " وكان بعضهم يغرقها ، وبعضهم يذبحها إلى غير ذلك ، ولما كان الكل إماتة تفضي إلى الدفن في التراب قيل : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التراب ﴾ وقيل : المراد إخفاؤه عن الناس حتى لا يعرف

كالمدسوس في التراب ، وتذكير الضميرين للفظ ﴿ مَا ﴾ .

وقرأ الجحدري بالتأنيث فيهما عوداً على قوله سبحانه : ﴿ بالانثى ﴾ أو على معنى ﴿ مَا ﴾ .

وقرىء بتذكير الأول وتأنيث الثاني ، وقرأ الجحدري أيضاً ، وعيسى ﴿ هوان ﴾ بفتح الهاء وألف بعد الواو ، وقرىء ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ ﴾ بفتح الهاء وإسكان الواو وهو بمعنى الذل أيضاً ، ويكون بمعنى الرفق واللين وليس بمراد ، وقرأ الأعمش ﴿ على سُوء ﴾ وهي عند أبي حيان تفسير لا قراءة لمخالفتها السواد ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حيث يجعلون لمن تنزه عن الصاحبة والولد ما هذا شأنه عندهم والحال أنهم يتحاشون عنه ويختارون لأنفسهم البنين ، فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله تعالى شأنه مع إبائهم إياه لا جعلهم البنين لأنفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ، وجوز أن يكون مداره التعكيس كقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 22] ، وقال ابن عطية : هذا استقباح منه تعالى شأنه لسوء فعلهم وحكمهم في بناتهم بالإمساك على هون أو الوأد مع أن رزق الجميع على الله سبحانه فكأنه قيل : الا ساء ما يحكمون في بناتهم وهو خلاف الظاهر جداً ، وروى الأول عن السدي وعليه الجمهور .

والآية ظاهرة في ذم من يحزن إذا بشر بالأنثى حيث أخبرت أن ذلك فعل الكفرة ، وقد أخرج ابن جرير .

(121/437)

وغيره عن قتادة أنه قال في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ ﴾ الخ هذا صنيع مشركي العرب أخبركم الله تعالى بخبثه فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله تعالى خير من قضاء المرء لنفسه ، ولعمري ما ندري أي خير لرب جارية خير لأهلها من غلام ، وإنما أخبركم الله عز وجل بصنيعهم لتجتنبوه ولتنتهوا عنه .

واستدل القاضي بالآية على بطلان مذهب القائلين بنسبة أفعال العباد إليه تعالى لأن في ذلك إضافة فواحش لو أضيفت إلى أحدهم أجهد نفسه في البراءة منها والتباعد عنها قال : فحكم هؤلاء القائلين مشابه لحكم هؤلاء المشركين بل أعظم لأن إضافة البنات إليه سبحاه إضافة لقبيح واحد وهو أسهل من إضافة كل القبائح والفواحش إليه عز وجل .

وأجيب عن ذلك أنه بما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد عليه سبحانه أردفه عز وجل بذكر هذا الوجه الإقناعي وإلا فليس كل ما قبح منا في العرف قبح منه تعالى ، ألا ترى أن رجلاً لو زين إماءه وعبيده وبالغ في تحسين صورهم وصورهن ثم بالغ في تقوية الشهوة

فيهم وفيهن ثم جمع بين الكل وأزال الحائل والمانع وبقي ينظر ما يحدث بينهم من الوقاع وغيره عد من أسفه السفهاء وعد صنيعه أقبح كل صنيع مع أن ذلك لا يقبح منه تعالى بل قد صنعه جل جلاله فعلم أن التعويل على مثل هذه الوجوه المبنية على العرف إنما يحسن إذا كانت مسبوقة بالدلائلة القطعية ، وقد ثبت بها امتناع الولد عليه سبحانه فلا جرم حسنت تقويتها لهذه الوجوه الإقناعية ، وأما أفعال العباد فقد ثبت بالدلائل القاطعة أن خالقها هو الله تعالى فكيف يمكن إلحاق أحد البابين بالآخر لولا سوء التعصب . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(122/437)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾

في ضمير الفاعل في قوله ﴿ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما – أنه عائد إلى الكفار . أي ويجعل الكفار للأصنام التي لا يعلمون أن الله أمر بعبادتها ، ولا يعلمون أنها تنفع عابدها أو تضر عاصيها – نصيباً الخ . كقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [

الحج : 71] ونحو ذلك من الآيات .

وقال صاحب الكشاف : ومعنى كونهم لا يعلمونها : أنهم يسمونها آلهة ، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع ، وتشفع عند الله . وليس كذلك ! وحقيقتها أنها جماد ، لا يضر ولا ينفع . فهم إذاً جاهلون بها .

الوجه الثاني – أن واو ﴿ يعلمون ﴾ واقعة على الأصنام . فهي جماد لا يعلم شيئاً . اي يجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئًا لكونهم جماداً – نصيباً إلخ . وهذا الوجه كقوله : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : 21] ، وقوله : ﴿ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس : 29] ، وقوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 195] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وعلى هذا القول – فالواو راجعة إلى " ما " من قوله ﴿ لما لا يعلمون ﴾ . وعبر عنهم ب ﴿ ما ﴾ التي هي لغير العاقل . لأن تلك المعبودات التي جعلوا لها من رزق الله نصيباً جماد لا تعقل شيئاً . وعبر بالواو في ﴿ لا يعلمون ﴾ على هذا القول لتنزيل الكفار لها منزلة العقلاء في زعمهم أنها تشفع ، وتضر وتنفع .

وإذا عرفت ذلك – فاعلم أن هذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة بينه تعالى في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: 136] وذلك أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءاً، وللوثن جزءاً. فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه. وقالوا: الله غني والصنم فقير. وقد اقسم جل وعلا: على أنه يسألهم يوم القيامة عن هذا الافتراء والكذب! وهو زعمهم أن نصيباً مما خلق الله للأوثان التي لا تنفع ولا تضر في قوله: ﴿ تالله لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) ﴾

قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ أي يعتقدون. ذكر جلو علا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار يعتقدون أن لله بنات إناثاً، وذلك أن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: الملائكة بنات الله. كما

بينه تعالى بقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ [الزخرف : 19] الآية . فزعموا لله الأولاد ! ومع ذلك زعموا له أخس الولدين وهو الأنثى ، فالإناث التي جعلوها له يكرهونها لأنفسهم ويأنفون منها كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ لأن شدة الحزن والكآبة تسود لون الوجه ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ممتلىء حزناً وهو ساكت . وقيل ممتلىء غيظاً على امرأت التي ولدت له الأنثى . ﴿ يتوارى مِنَ القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ : أي يختفي من أصحابه من أجل سوء ما بشر به لئلا يروا ما هو فيه من الحزن والكآبة . أو لئلا يشمتوا به ويعيرونه . ويحدث نفسه وينظر : ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ ، أي ما بشر به وهو الأنثى ﴿ على هُونٍ ﴾ أي هوان وذل . ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ ﴾ في التراب : أي يدفن المذكور الذي هو الأنثى حياً في التراب ، يعني ما كانوا يفعلون بالبنات من الوأد وهو دفن البنت حية ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : 8-9] .

وأوضح جل وعلا هذه المعاني المذكورة في هذه الآيات في مواضع خر ، فبين أن جعلهم الإناث لله ، أو الذكور لأنفسهم قسمة غير عادلة ، وأنها من أعظم الباطل .

وبين أنه لو كان متخذاً ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك ! لاصطفى أحسن النصيبين .

ووبخهم على أم جعلوا له أخس الولدين ، وبين كذبهم في ذلك ، وشدة عظم ما نسبوه إليه .

كل هذا ذكره في مواضع متعددة . كقوله ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 21-22] ، وقوله : ﴿ أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى البنات على البنين مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات : 151-154] ، وقوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : 40] ، وقوله : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بالبنين ﴾ [الزخرف : 16] ، وقوله : ﴿ لَّوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : 4] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ [الطور : 39] وقال جل وعلا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : 62] ، وقال : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] ، وقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف : 17] .

وبين شدة عظم هذا الافتراء بقوله : ﴿ وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 88-93] ، وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : 40] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله في هذه الآية ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ مبتدأ وخبر وذكر الزمخشري والفراء وغيرهما أنه يجوز أن تكون " ما " في محل نص عطفاً على " البنات " أي ويجعلون لله البنات ، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون .

ورد إعرابه بالنصب الزجاج ، وقال : العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم . قاله القرطبي . وقال أبو حيان " في البحر المحيط " . قال الزمخشري : ويجوز في " ما " فيما يشتهون الرفع على الابتداء ، والنصب على أن يكون معطوفاً على " البنات " أي وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور . انتهى . وهذا الذي أجازه من النصب تبع فيه الفراء والحوفي وقال أبو البقاء وقد حكاه : وفيه نظر . وذهل هؤلاء عن قاعدة في النحو : وهي أن الفعل الرافع لضمير الاسم المتصل لا يتعدى إلى ضميره المتصل . فلا يجوز : زيد ضربه ، أي زيداً . تريد ضرب نفسه . إلا في باب ظن وأخواتها من الأفعال القلبية ، أو فقد وعدم . فيجوز : زيد ظنه قائماً ، وزيد فقدهن وزيد عدمه . والضمير المجرور بالحرف كالمنصوب المتصل . فلا يجوز : زيد غضب عليه ، تريد غضب على نفسه . فعلى هذا الذي تقرر لا

يجوز النصب . إذ يكون التقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون . فالواو ضمير مرفوع" ولهم" مجرور باللام . فهو نظير بما يسوء قوله هنا : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأنثى ﴾ الآية ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] ، ونحو ذلك من الآيات .

(127/437)

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من بغضهم للبنات مشهور معروف في أشعارهم .

ولما خطبت إلى عقيل بن غفلة المري ابنته الجرباء قال :

إني وإن سيق إلى المهر . . . ألف وعبدان وذود عشر

أحب أصهاري إلى القبر . . . ويروى لعبد الله بن طاهر قوله :

لكل أبي بنت يراعى شؤونها . . . ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر

فبعل يراعيها وخدر يكنها . . . وقبر يواريها وخيرهم القبر

وهم يزعمون أن موجب رغبتهم في موتهن ، وشدة كراهيتهم لولادتهن : الخوف من العار ، وتزوج غير الأكفاء ، وأن تهان بناتهم بعد موتهم . كما قال الشاعر في ابنة له تسمى مودة :

مودة تهوى عمر الشيخ يسره . . . لها الموت قبل الليل لو أنها تدري

يخاف عليها جفوة الناس بعده . . . ولا ختن يرجى أود من القبر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(128/437)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾

عطف حالة من أحوال كفرهم لها مساس بما أنعم الله عليهم من النّعمة ، فهي معطوفة على جملة ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [سورة النحل : 53] .

ويجوز أن تكون حالاً من الضمير المجرور في قوله تعالى : وما بكم من نعمة ﴾ على طريق الالتفات .

ويجوز أن تكون معطوفة على ﴿ يشركون ﴾ من قوله تعالى : ﴿ إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ [سورة النحل : 54] .

وما حكي هنا هو من تفاريع دينهم الناشئة عن إشراكهم والتي هي من تفاريع كفران نعمة ربّهم ، إذ جعلوا في أموالهم حقاً للأصنام التي لم ترزقهم شيئاً .

وقد مرّ ذلك في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام

نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ [سورة النحل : 136] .

إلا أنه اقتصر هنا على ذكر ما جعلوه لشركائهم دون ما جعلوه لله لأن المقام هنا لتفصيل كفرانهم النّعمة ، بخلاف ما في سورة الأنعام فهو مقام تعداد أحوال جاهليتهم وإن كان كل ذلك منكَراً عليهم ، إلا أن بعض الكفر أشدّ من بعض .

والجعل : التصيير والوضع .

تقول : جعلت لك في مالي كذا .

وجيء هنا بصيغة المضارع للدّلالة على تجدّد ذلك منهم واستمراره ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله ﴾ [سورة النحل : 38] بأنه حكاية قضية مضت من عنادهم وجدالهم في أمر البعث .

ومفعول يعلمون ﴾ محذوف لظهوره ، وهو ضمير (ما) ، أي لا يعلمونه .

ومثل حذف هذا الضمير كثير في الكلام .

وما صدق صلة ﴿ ما لا يعلمون ﴾ هو الأصنام ، وإنما عبّر عنها بهذه الصّلة زيادة في تفظيع سخافة آرائهم ، إذ يفرضون في أموالهم عطاءً يعطونه لأشياء لا يعلمون حقائقها بَلْه

مبلغِ ما ينالهم منها ، وتخيّلات يتخيّلونها ليست من الوجود ولا من الإدراك ولا من الصلاحية للانتفاع في شيء ، كما قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سمّيتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ .

وضمير ﴿ تعلمون ﴾ [سورة الحجر : 55] عائد إلى معاد ضمير يجعلون ﴾ .

ووصف النصيب بأنه ﴿ مما رزقناهم ﴾ لتشنيع ظلمهم إذ تركوا المنعم فلم يتقرّبوا إليه بما يرضيه في أموالهم مما أمرهم بالإنفاق فيه كإعطاء المحتاج ، وأنفقوا ذلك في التقرّب إلى أشياء موهومة لم ترزقهم شيئاً .

ثم وجه الخطاب إليهم على طريقة الالتفات لقصد التهديد .

ولا مانع من الالتفات هنا لعدم وجود فاء التفريع كما في قوله تعالى : ﴿ فتمتعوا ﴾ [سورة النحل : 55] .

وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه ، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكّد .

والقسم بالتاء يختصّ بما يكون المقسم عليه أمراً عجيباً ومستغرباً ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ﴾ في سورة يوسف (73) .

وسيأتي في قوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ في سورة الأنبياء (57) .

فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يسألون سؤالاً عجيباً بمقدار غرابة الجُرم

المسؤول عنه .

والسؤال كناية عما يترّتب عليه من العقاب ، لأن عقاب العادل يكون في العرف عقب سؤال المجرم عمّا اقترفه إذ لعلّ له ما يدفع به عن نفسه ، فأجرى الله أمر الحساب يوم البعث على ذلك السَنَن الشريف .

والتعبير عنه بكنتم تفترون ﴾ كناية عن استحقاقهم العقاب لأن الكذب على الله جريمة .

والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدّلالة على أن الافتراء كان من شأنهم ، وكان متجدداً ومستمراً منهم ، فهو أبلغ من أن يقال : عمّا تفترون ، وعمّا افتريتم .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) ﴾

عطف على جملة ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم ﴾ [سورة النحل : 56] .

هذا استدلال بنعمة الله عليهم بالبنين والبنات ، وهي نعمة النّسل ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ ، أي ما يشتهون مما رزقناهم من الذّرية .

وأدمج في هذا الاستدلال وهذا الامتنان ذكرُ ضرب شنيع من ضروب كفرهم .

وهو افتراؤهم : أن زعموا أن الملائكة بنات الله من سروات الجنّ ، كما دل عليه قوله تعالى :

﴿ وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً ﴾ [سورة الصافات : 158] .

وهو اعتقاد قبائل كنانة وخزاعة .

والجعل : هنا النسبة بالقول .

و﴿ سبحانه ﴾ مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو في محل جملة معترضة وقعت جواباً عن مقالتهم السيّئة التي تضمّنتها حكاية ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ إذ الجعل فيه جعل بالقول ، فقوله : ﴿ سبحانه ﴾ مثل قولهم : حاش لله ومعاذَ الله ، أي تنزيهاً له عن أن يكون له ذلك .

وإنا قدم ﴿ سبحانه ﴾ على قوله : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ ليكون نصّاً في أن التّنزيه عن هذا الجعل لذاته وهو نسبة البنوّة لله ، لا عن جعلهم له خصوص البنات دون الذكور الذي هو أشدّ فظاعة ، كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ ، لأن ذلك زيادة في التّفظيع ، فقوله : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ جملة في موضع الحال .

وتقديم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكّم .

وما صدق ﴿ ما يشتهون ﴾ الأبناء الذكور بقرينة مقابلته بالبنات ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ [سورة النحل : 58] ، أي والحال أن لهم ذكوراً من أبنائهم فهلّا جعلوا لله بنين وبنات .

وهذا ارتقاء في إفساد معتقدهم بحسب عرفهم وإلا فإنه بالنسبة إلى الله سواء للاستواء في التولّد الذي هو من مقتضى الحدوث المنزّه عنه واجب الوجود .

وسيخصّ هذا بالإبطال في قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ [سورة النحل : 62] .

ولهذا اقتصر هنا على لفظ البنات الدالّ على الذّوات ، واقتصر على أنهم يشتهون الأبناء ، ولم يتعرّض إلى كراهتهم البنات وإن كان ذلك مأخوذاً بالمفهوم لأن ذلك درجة أخرى من كفرهم ستخصّ بالذّكر .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) ﴾

الواو في قوله تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ يجوز أن تكون واو الحال .

ويجوز أن تكون الجملة معترضة والواو اعتراضية اقتضى الإطالة بها أنها من تفاريع شركهم ، فهي لذلك جديرة بأن تكون مقصودة بالذكر كأخواتها .

وهذا أولى من أن تجعل معطوفة على جملة ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ [سورة النحل : 57] التي هي في موضع الحال ، لأن ذلك يفيت قصدها بالعدّ .

وهذا القصد من مقتضيات المقام وإن كان مآل الاعتبارين واحداً في حاصل المعنى .

والتّعبير عن الإعلام بازدياد الأنثى بفعل ﴿ بشر ﴾ في موضعين لأنه كذلك في نفس الأمر إذ ازدياد المولود نعمة على الوالد لما يترقّبه من التأّنس به ومزاحِه والانتفاع بخدمته وإعانته عند الاحتياج إليه ، ولما فيه من تكثير نسل القبيلة الموجب عزّتها ، وآصرة الصهر .

ثم إن هذا مع كونه بشارة في نفس الأمر فالتّعبير به يفيد تعريضاً بالتهكّم بهم إذ يعُدون البشارة مُصيبة وذلك من تحريفهم الحقائق .

والتّعريض من أقسام الكناية والكناية تجامع الحقيقة .

والباء في ﴿ بالأنثى ﴾ لتعدية فعل البشارة وعلّقت بذات الأنثى .

والمراد ؛ بولادتها ، فهو على حذف مضاف معلوم .

(132/437)

وفعل ﴿ ظل ﴾ من أفعال الكون أخوات كان التي تدلّ على اتّصاف فاعلها بحالة لازمة فلذلك تقتضي فاعلاً مرفوعاً يدعى اسماً وحالاً لازماً له منصوباً يدعى خبراً لأنه شبيه بخبر المبتدإ .

وسمّاها النّحاة لذلك نواسخ لأنها تعمل فيما لولاها لكان مبتدأً وخبراً فلما تغيّر معها حكم

الخبر سمّيت ناسخة لرفعه ، كما سميت (إنّ) وأخواتها و (ظنّ) وأخواتها كذلك .

وهو اصطلاح تقريبي وليس برشيق .

ويستعمل ﴿ ظَلّ ﴾ بمعنى صار .

وهو المراد هنا .

واسوداد الوجه : مستعمل في لون وجه الكئيب إذ ترهقه غبرة ، فشبّهت بالسّواد مبالغة .

والكظيم : الغضبان المملوء حنقاً .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فهو كظيم ﴾ في سورة يوسف (84) ، أي أصبح حنقاً على امرأته .

وهذا من جاهليتهم الجهلاء وظلمهم ، إذ يعاملون المرأة معاملة من لو كانت ولادة الذكور باختيارها ، ولماذا لا يحنق على نفسه إذ يلقح امرأته بأنثى ، قالت إحدى نسائهم أنشده الأصمعي تذكر بعلها وقد هجرها لأنها تلد البنات:

يَغْضَبُ إنْ لم نلد البنينا . . .

وإنما نُعطي الذي أعطينا

والتّواري : الاختفاء ، مضارع واراه ، مشتقّ من الوراء وهو جهة الخلف .

و﴿ مِن ﴾ في قوله تعالى : ﴿ من سوء ما بشر به ﴾ للابتداء المجازي المفيد معنى التعليل ، لأنه يقال : فعلت كذا من أجل كذا ، قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق

﴾ [سورة الأنعام : 151] ، أي يتوارى من أجل تلك البشارة .

وجملة أيمسكه ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ يتوارى ﴾ ، لأنه يتوارى حياء من الناس ؛

فيبقى متوارياً من قومه أياماً حتى تُنسى قضيّته .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أيمسكه ﴾ الخ ، أي يتوارى ويتردّد بين أحد هذين الأمرين

بحيث يقول في نفسه : أأمسكه على هُون أم أدسّه في التراب .

والمراد : التردّد في جواب هذا الاستفهام .

والهُون : الذلّ .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ في سورة الأنعام (93) .

والدسّ : إخفاء الشيء بين أجزاء شيء آخر كالدفن .

والمراد : الدّفن في الأرض وهو الوأد .

وكانوا يَئِدون بناتهم ، بعضُهم يئد بحدثان الولادة ، وبعضهم يئد إذا يفعت الأنثى ومشت

وتكلّمت ، أي حين تظهر للناس لا يمكن إخفاؤها .

وذلك من أفظع أعمال الجاهلية ، وكانوا متمالئين عليه ويحسبونه حقّاً للأب فلا ينكرها

الجماعة على الفاعل .

ولذلك سمّاه الله حكماً بقوله تعالى : ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ .

وأعلن ذمّهُ بحَرف ﴿ ألاَ ﴾ لأنه جور عظيم قد تَمَالأُوا عليه وخوّلوه للناس ظلماً للمخلوقات ، فأسند الحكم إلى ضمير الجماعة مع أن الكلام كان جارياً على فعل واحد غير معيّن قضاءً لحقّ هذه النكتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(134/437)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾

أي : الذين يكفرون بالله ويتخذون الأصنام والشركاء ، يجعلون لها نصيباً .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لاَ يَعْلَمُونَ . . ﴾ [النحل : 56] .

ما العلم ؟

العلم أن تعرف قضية ، هذه القضية صِدْق أي : مطابقة للواقع وتستطيع أن تُدلّل عليها ، فإذا اختلّ واحد منها لم تكنْ علماً . . وهؤلاء حينما جعلوا للأصنام نصيباً ، فقد أَتَوْا

بأشياء لا وجودَ لها في الواقع ولا في العلم ، وليست حقائق . . وهل للأصنام وجود ؟ وهل عليها دليل ؟

قال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ . . . ﴾ [النجم : 23] .

هذه الأصنام ليست لها وجود في الحقيقة ، وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إلى الله وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : 136] .

حتى لَمَّا جعلوا للأصنام نصيباً جعلوه مما رزقهم الله ، أَلاَ جعلتم نصيب الأصنام مما تعطيكم الأصنام ؟ ونصيب الله مما رزقكم الله ؟ فهذا اعتراف منكم بعجز أصنامكم ، وأنكم أخذتم رزق الله وجعلتموه لأصنامكم .

وهذا دليل على أن الأصنام لا تعطيكم شيئاً ، وشهادة منكم عليهم . . وهل درت الأصنام بهذا ؟

إذن :

﴿ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ . . . ﴾ [النحل : 56] .

أي : للأصنام ؛ لأنها لا وجودَ لها في الحقيقة ، وهم يأخذون ما رزقناهم ، ويجعلونه

لأصنامهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل : 56] .

(135/437)

التاء هنا في ﴿ تالله ﴾ للقسم أي : والله لَتُسْأَلُنَّ عما افتريتم من أمر الأصنام . والافتراء : هو الكذب المتعمد .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) ﴾

ساعة أنْ تسمع كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ فاعلم أنها تنزيهُ لله تعالى عَمّا لا يليق ، فهي هنا تنزيهٌ لله سبحانه وتعالى عما سبق من نسبة البنات له . . تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً . . أي : تنزيهاً لله عن أن يكونَ له بنات .

فهل يمكن أن يكون له أولاد ذكور ؟

إنهم جعلوا لله البنات ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهذه قسمة قال عنها القرآن الكريم :

﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 21-22] .

أي : جائرة .

لم تجعلوها عادلة ، يعني لي ولد ولكم ولد ، ولي بنت ولكم بنت ، إنما تجعلون لله مَا تكرهون وهي البنات لله ، وتجعلون لكم ما تحبون . . لذلك كان في جَعْلهم لله البنات عيبان :

الأول : أنهم نَسبُوا لله الولد ولو كان ذكراً فهو افتراء باطل يتنزه الله عنه .

الثاني : أنهم اختاروا أخسَّ الأنواع في نظرهم . . ولا يستطيع أحد أن يقول : إن البنات أخسُّ الأنواع . . لماذا ؟

لأن بالبنات يكون بقاء النوع ؛ ولذلك قال العباس : لو سمع الله ما قال الناس في الناس لما كان الناس . . أي : لو استجاب الله لرغبة الناس في أنهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم . . ماذا سيحدث ؟ سينقطع النسل ، فهذا مطْلَب غبيّ ، فالبنت هي التي تَلِد الولد ، وبها بقاء النوع واستمرار النسل .

وقوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَهُ . . . ﴾ [النحل : 57] .

أي : تنزيهاً له أن يكون له ولد ، وتنزيهاً له سبحانه أن يكون له أخسّ النوعين في نظرهم وعرفهم ، وقد قال عنهم القرآن في الآية التالية : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ

مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يتوارى مِنَ القوم مِن سوء مَا بُشّرَ بِهِ . . ﴾ [النحل : 58-59]

.

ولذلك فالحق تبارك وتعالى حينما يُحدّثنا عن الإنجاب يقول : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً . . ﴾ [الشورى : 49-50] .

أول ما بدأ الحق سبحانه بدأ بالإناث . . ثم أعطانا هذه الصورة من الخَلْق : إناث ، ذكور ، ذكور وإناث ، عقيم . . إذن : هِبَات الله تعالى لها أربعة أنواع ، ومن هنا كان العُقْم أيضاً هبةً من الله لحكمة أرادها سبحانه . . لكن الناس لا تأخذ العُقْم على أنه هِبَة . . لكن تأخذه على أنه نِقْمة وغضب .

لماذا ؟ لماذا تأخذه على أنه نِقْمة وبلاء ؟ فربما وهبك الولد ، وجاء عاقّاً ، كالولد الذي جاء فتنة لأبويْه ، يدعوهما إلى الكفر .

ولو أن صاحب العقم رضي بما قسمه الله له من هبة العقم واعتبره هبة ورضي به لرأى كل ولد في المجتمع ولده من غير تعب في حَمْله وولادته وتربيته . فيرى جميع الأولاد من حوله أولاده ويعطف الله قلوبهم إليه كأنه والدهم . . وكأن الحق تبارك وتعالى يقول له : ما دُمْتَ رضيتَ بهبة الله لك في العقم لأجعلنّ كل ولدٍ ولداً لك .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : 57] .

أي : من الذّكْران ؛ لأن الولد عِزْوة لأبيه ينفعه في الحرب والقتال وينفعه في المكاثرة . . الخ

إنما البنت تكون عالةً عليه ؛ ولذلك قال تعالى بعد هذا : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ . . . ﴾

.

(137/437)

نعرف أن البشارة تكون بخير ، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها استقبالَ البشارة ، ولكنهم استقبلوها استقبال الناقمين الكارهين لما بُشّروا به ، فتجد وجه الواحد منهم .

﴿ مُسْوَدّاً . . . ﴾ [النحل : 58] .

ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ . . . ﴾ [النحل : 58] .

الكظم هو كَتْم الشيء .

ولذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ والكاظمين الغيظ . . ﴾ [آل عمران : 134] .

وهو مأخوذ من كَظْم القِرْبة حين تمتلئ بالماء ، ثم يكظمها أي : يربطها ، فتراها ممتلئة كأنها ستنفجر . . هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم في وجهه ، ويحدث له احتقان ،

فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً حاله :

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾)

قوله تعالى :

﴿ يتوارى مِنَ القوم . . ﴾ [النحل : 59] .

أي : يتخفَّى منهم مخافَةَ أنْ يُقال : أنجب بنتاً .

﴿ مِن سواء مَا بُشّرَ بِهِ . . ﴾ [النحل : 59] .

نلاحظ إعادة البشارة في هذه الآية أيضاً ، وكأنه سبحانه وتعالى يُحنِّن قلبه عليها ، ويدعوه إلى الرِّفْق بها .

فهو متردد لا يدري ماذا يفعل ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب . . ﴾ [النحل : 59] .

أي : ماذا يفعل فيما وُلِد له . أيحتفظ به على هُونٍ أي : هوان ومذلة أم يدسُّه في التراب أي : يدفنها فيه حية ؟

﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : 59] .

أي : ساء ما يحكمون في الحالتين . حالة الإمساك على هُون ومذلَّة ، أو حالة دَسّها في

التراب ، فكلاهما إساءة . وكان بعض هؤلاء إذا وُلدتْ له بنت كرهها ، فإن أمسكها أمسكها على حال كونها ذليلة عنده ، مُحتقرة مُهَانة ، وهي مسكينة لا ذنبَ لها .

(138/437)

ولذلك ، فإن المرأة العربية التي عاصرتْ هذه الأحداث فطِنَتْ إلى ما لم نعرفه نحن إلا قريباً ، حيث اكتشف العالم الحديث أن أمر إنجاب الولد أو البنت راجع إلى الرجل وليس إلى المرأة . . وكان أبو حمزة كثيراً ما يترك زوجته ويغضب منها ، لأنها لا تلد إلا البنات . .

فماذا قالت هذه المرأة العربية التي هجرها زوجها ؟ قالت :

مَا لأبي حمزةَ لا يأتِينَا . . . غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينا

تَاللهِ مَا ذَلكَ فِي أَيْدينا . . . فَنَحنُ كالأَرْضِ لغارسينا

نُعطِي لَهُم مِثْل الذِي أُعْطِينَا . . . والحق سبحانه وتعالى حينما يريد توازناً في الكون يصنع هذا التوازن من خلال مقتضيات النفس البشرية ، ومن مقتضياتها أن يكون للإنسان جاه ، وأن يكون له عِزّ ، لكن الإنسان يخطيء في تكوين هذا الجاه والعِزّ ، فيظن أنه قادر على صنع ما يريد بأسبابه وحدها .

إنما لو علم أن تكوين الجاه والعِزّ بشيء فوق أسبابه هو ، بشيء مخلوق لله تعالى ، بقدر

مخلوق لله تعالى ، لو علم هذه الحقيقة لجاء المسألة من بابها .

ذلك لأن العزة ليست بما تُنجِب . . العزة هنا لله وللرسول وللمؤمنين ، اعتزّ هنا بُعصْبة الإيمان ، اعتز بأنك في بيئة مؤمنة متكافلة ، إذا أصابك فيها ضَيْم فزِع إليك الجميع .

ولا تعتزّ بالأنسال والأنجال ، فقد يأتي الولد عاقّاً لا يُسعِف أبويْه في شدة ، ولا يعينهما في حاجة ؛ ذلك لأنك لجأتَ إلى عَصَبية الدم وعَصَبيَّة الدم قد تتخلّف ، أما عَصبيّة العقيدة وعَصَبية الإيمان والدين فلا .

ولنأخذ على ذلك مثالاً . . ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من تكافل وتعاون فاق كُل ما يتصوره البشر ، ولم يكُنْ بينهم سوى رابطة العقيدة وعصبية الإيمان . . ماذا حدث بين هؤلاء الأفذاذ ؟

وجدنا أن العصبية الإيمانية جعلت الرجل يُضحِّي بأنفَس شيء يضِنُّ به على الغير . .

تصور في هذا الموقف أن يعود الأنصار بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين ، فَمنْ كانت عنده ركوبة أو منزلة مثلاً يقول لأخيه المهاجر : تفضل اركب هذه الركوبة ، أو اجلس في هذا المنزل .

. هذا كله أمر طبيعي .

أما نعيم المرأة ، فقد طُبِع في النفس البشرية أن الإنسان لا يحب أن تتعدّى نعمته فيها إلى غيره . . لكن انظر إلى الإيمان ، ماذا صنع بالنفوس ؟ . . فقد كان الأنصاري يقول للمهاجر : انظر لزوجاتي ، أيّهن أعجبتْك أُطلّقها لتتزوجها أنت ، وما حمله على ذلك ليس عصبية الدم أو عَصبيّة الجنس ، بل عَصبيّة اليقين والإيمان .

ولذلك تنتفي جميع العصبيات في قصة نوح عليه السلام وولده الكافر ، حينما ناداه نوح عليه السلام : ﴿ يا بني اركب مّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين * قَالَ سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ . . ﴾ [هود : 42-43] .

ويتمسّك نوح بولده ، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق . . ﴾ [هود : 45] .

فيأتي فَصْل الخطاب في هذه القضية : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] .

إذن : هذا الولد ليس من أهلك ؛ لأن البُنُوة هنا بُنُوة العمل ، لا بُنُوة الدم والنَّسَب .

صحيح أن الإنسان يحب العزة ويطلبها لنفسه ، ولكن يجب أن تنظر كيف تكون العزة الحقيقية؟ وما أسبابها ؟

خُذْ العزة بالله وبالرسول وبالبيئة الإيمانية ، يصبح كل الأولاد أولادك ؛ لأنهم معك في يقينك بالله وإيمانك به سبحانه . أما أن تعتز بطريقتك أنت ، فتطلب العزة في الولد الذكَر ، فمَنْ يُدرِيك أن تجد فيه العزة والعِزوة والمكاثرة ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(141/437)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة ﴾ قال : لم يدع شيئاً من خلقه إلا عبده له طائعاً أو كارهاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : يسجد من في السموات طوعاً ، ومن في الأرض طوعاً وكرهاً .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ قال : مخافة الإجلال .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه ، عن أبي هريرة قال : " مر النبي صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يدعو بأصبعيه فقال له : يا سعد ، أحد أحد " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال : كانوا إذا رأوا إنساناً يدعو بأصبعيه ، ضربوا إحداهما وقالوا : ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت : إن الله يحب أن يدعى هكذا ، وأشارت بأصبع واحدة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : هو الإخلاص ، يعني الدعاء بالاصبع .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : الدعاء هكذا – وأشار بأصبع واحدة – مقمعة الشيطان .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : الإخلاص هكذا . وأشار بأصبعيه والدعاء هكذا يعني ببطون كفيه . وللاستخارة هكذا ، ورفع يديه وولى ظهرهما وجهه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ قال : ﴿ الدين ﴾ الإخلاص ﴿ واصباً ﴾ دائماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ قال : لا إله إلا الله .

واخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ قال : دائماً .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ قال : واجباً .

(142/437)

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ وله الدين واصباً ﴾ ما الواصب ؟ قال : الدائم . قال فيه أمية بن أبي الصلت :

وله الدين واصباً وله . . . الملك وحمد له على كل حال

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن في الآية قال : إن هذا الدين دين واصب . . . شغل الناس وحال بينهم وبين كثير من شهواتهم ، فما يستطيعه من إلا من عرف فضله ورجا عاقبته .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فإليه تجأرون ﴾ قال : تتضرعون دعاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ فإليه تجأرون ﴾ يقول : تضجون بالدعاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم . . . ﴾ الآية ، قال : الخلق كلهم يُقِرُّونَ لله أنه ربهم ثم يشركون بعد ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ قال : هو وعيد .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم ﴾ قال : يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ، ثم يجعلون لما يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم نصيباً مما رزقناهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً ﴾ قال : هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم نصيباً مما رزقهم الله ، وجزأوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم ﴾ هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(143/437)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ : الضميرُ في "يَعْلمون" يجوز أن يكونَ للكفار ، أي : لِما لا يَعْلم الكفار ، ومعنى لا يَعْلمونها : أنهم يُسَمُّونها آلهةً ، ويعتقدون أنها تَضُرُّ وتنفع وتسمع ، وليس الأمر كذلك . ويجوز أن يكونَ للآلهة وهي الأصنامُ ، أي : لأشياءَ غيرِ موصوفةٍ بالعلم .

و " نصيباً " هو المفعول الأول ، والجارُّ قبلَه هو الثاني ، أي : ويُصيِّرون للأصنام نصيباً . و ﴿ مِمّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ يجوز أن يكونَ نعتاً ل " نصيباً " ، وأن يتعلَّقَ بالجَعْلِ . ف " مِنْ " على الأول للتبعيض ، وعلى الثاني للابتداء .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدُهما : أن هذا جملةٌ مِنْ مبتدأ وخبر ، أي : يجعلون لله البناتِ ، ثم أخبر أنَّ لهم ما يَشْتَهون . وجوَّز الفراء والحوفيُّ والزمخشريُّ وأبو البقاء أن تكونَ " ما " منصوبةَ المحلِّ عطفاً على " البناتِ " و " لهم " عطفٌ على " الله " ، أي : ويجعلون لهم ما يشتهون .

قال الشيخ : " وقد ذَهَلُوا عن قاعدةٍ نحوية : وهو أنه لا يتعدّى فِعْلُ المضمرِ المتصلِ إلى ضميره المتصل إلا في باب ظنَّ وفي عَدَمِ وفَقَد ، ولا فرقَ بين أن يتعدّى الفعلُ بنفسِه أو بحرفِ الجر ، فلا يجوز : " زيدٌ ضربه " ، أي : ضربَ نفسَه ، ولا " زيدٌ مَرَّبه " ، أي : مرَّ بنفسه ، ويجوز : زيدٌ ظنَّه قائماً " ، و " زيدٌ فَقَدَه " و " عَدِمه " ، أي : ظنَّ نفسَه قائماً وفَقَد نفسه وعَدِمها . إذ تقرَّر هذا فَجَعْلُ " ما " منصوبةً عطفاً على " البنات " يؤدِّي إلى تعدِّي فِعْلِ المضمرِ المتصلِ وهو واو / " يَجْعَلون " إلى ضميرِه المتصل ، وهو " هم " في " لهم " . انتهى ملخصاً .

وما ذكره يحتاج إلى إيضاحٍ أكثرَ مِنْ هذا فأقول فيها مختصراً : اعلمْ أنه لا يجوز تَعَدِّي فِعْلِ المضمرِ المتصلِ ولا فعلِ الظاهرِ إلى ضميرِهما المتصلِ ، إلا في بابِ ظَنَّ وأخواتِها من أفعال القلوب ، وفي فَقَد وعَدَم ، فلا يجوز : " زيد ضربه " ولا " ضربه زيد " ، أي : ضربَ نفسه . ويجوز : " زيد ظنَّه قائماً " ، وظنَّه زيدٌ قائماً ، و " زيد فَقَدَه وعَدِمه " ، و " فَقَدَه وعَدِمَه زيد " ، ولا يجوز تَعَدِّي فِعْلِ المضمر المتصل إلى ظاهره في بابٍ من الأبواب ، لا يجوز " زيداً ضرب " ، أي : ضربَ نفسَه .

وفي قولي : " إلى ضميرِهما المتصلِ " قيدان أحدُهما : كونُه ضميراً فلو كان ظاهراً كالنفس لم يمتنع نحو : " زيدٌ ضَرَبَ نفسَه " و " ضَرَبَ نفسَه زيدٌ " . والثاني : كونُه متصلاً ، فلو كان

منفصلاً جاز نحو : " زيدٌ ما ضربَ إلا إياه " ، و " ما ضرب زيدٌ إلا إياه " ، وعِلَلُ هذه المسألةِ وأدلتُها موضوعُها غيرُ هذا الموضوعِ ، وقد أَتْقَنْتُها في " شرحِ التسهيل " .

(145/437)

وقال مكي : " وهذا لا يجوزُ عند البصريين ، كما لا يجوز جعلتُ لي طعاماً ، إنما يجوز : جعلتُ لنفسي طعاماً ، فلو كان لفظُ القرآن " ولأنفسِهم ما يَشْتَهون " جاز ما قال الفراء عند البصريين . وهذا أصلٌ يحتاج إلى تعليلٍ وبَسْطٍ كثير " .

قلت : ما أشارَ إليه من المَنْعِ قد عَرَفْتَه ولله الحمدُ مما قدَّمْتُه لك .

وقال الشيخ بعد ما حكى أنَّ " ما " في موضعِ نصبٍ عن الفراءِ ومَنْ تبعه : " وقال ابو البقاء - وقد حكاه - : وفيه نظرٌ " . قلت : وأبو البقاء لم يجعلِ النظرَ في هذا الوجه ، إنما جعله في تضعيفه بكونِه يؤدِّي إلى تَعَدِّي فِعْلِ المضمر المتصل إلى ضميره المتصل في غيرِ ما اسْتُثْنِي فإنه قال : " وضَعَّف قومٌ هذا الوجهَ وقالوا : لو كان كذلك لقال : ولأنفسهم ، وفيه نظرٌ " فجعل النظرَ في تضعيفِه لا فيه .

وقد يُقال : وَجْهُ النظرِ المتنعُ تعدِّي ذلك الفعلِ ، أي : وقوعُه على ما جُرَّ بالحرف نحو : " زيدٌ مَرَّ به " فإن المرورَ واقعٌ بزيد ، وأمَّا ما نحن فيه فليس الجَعْلُ واقعاً بالجاعِلِين ، بل بما

يَشْتهون، وكان الشيخُ يَعْتَرِض دائماً على القاعدةِ المتقدمةِ بقوله تعالى: ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم: 25] ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ [القصص: 32]

والجوابُ عنهما ما تقدَّم: وهو أنَّ الهزَّ والضَّمَّ ليسا واقعين بالكاف، وقد تقدَّم لنا هذا في مكانٍ آخرَ، وإنما أَعَدْتُه لصعوبتِه وخصوصيةِ هذا بزيادةِ فائدةٍ.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) ﴾

(146/437)

قوله تعالى: ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾: يجوز أن تكونَ على بابِها مِنْ كونِها تدلُّ على الإِقامة نهاراً على الصفةِ المسندةِ إلى اسمها، وأن تكونَ بمعنى صار، وعلى التقديرَيْن فهي ناقصةٌ، و "مُسْوَدّاً" خبرُها. وأمَّا "وجهُه" ففيه وجهان، المشهور -وهو المتبادَرُ إلى الذهن- أنه اسمُها. والثاني: أنه بدلٌ من الضميرِ المستترِ في "ظل" بدلُ بعضٍ من كل، أي: ظلَّ أحدُهم وجهُه، أي: ظلَّ وجهُ أحدِهم.

قوله: "كَظِيم" يجوز ان يكونَ بمعنى فاعِل، وأن يكونَ بمعنى مَفْعول كقوله ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: 48]. والجملة حال من الضمير في "ظَلَّ"، أو مِنْ "وجهه"، أو من الضمير في "ظَلَّ". وقال أبو البقاء هنا: "فلو قُرِئ "مُسْوَدٌّ" يعني بالرفع لكان مستقيماً، على أن

تَجْعَلَ اسمَ " ظَلَّ " مضمراً ، والجملةُ خبرها " . وقال في سورة الزخرف : " ويُقرآن بالرفع على أنه مبتدأٌ وخبرٌ في موضع خبرِ " ظلَّ " .

﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يتوارى ﴾ : يحتمل أن تكونَ مستأنفةً ، وأن تكونَ حالاً مِمَّا كانت الأُوْلى حالاً منه ، إلا [مِنْ] " وجهُه " فإنه لا يليق ذلك به ، ويجوز أن تكونَ حالاً من الضمير في " كظيم " .

قوله : ﴿ مِنَ القومِ مِن سواء ﴾ يُعَلَّق هنا جارَّان بلفظٍ واحدٍ لاختلافِ معناهما ؛ فإنَّ الأولى للابتداء ، والثانية للعلة ، أي : من أجلِ سُوْءِ ما بُشِّر به .

(147/437)

قوله ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ . قال أبو البقاء : " في موضع الحال تقديرُه : يَتَوارى متردِّداً . هل يُمْسِكه أم لا " ، وهذا خطأٌ عن النَّحْويين ؛ لأنهم نَصُّوا على أن الحالَ لا تقع جملةً طلبيةً . والذي يظهر أنَّ هذه الجملةَ الاستفهاميةَ معمولةٌ لشيء محذوفٍ هو حالٌ مِنْ فاعل " يتوارى " المتممِ للكلام ، أي : يتوارى ناظراً أو مفكِّراً : أَيُمْسِكه على هُوْن .

والعامَّةُ على تذكير الضمائر اعتبارا بلفظ " ما " وقرأ / الجحدريُّ ﴿ أَيُمْسِكُها ﴾ ، ﴿ أَمْ يَدُسُّها ﴾ مُراعاةً للأنثى أو لمعنى " ما " . وقُرِئ ﴿ أَيُمسِكُهُ أَمْ يَدُسُّهُ ﴾ .

والجحدريُّ وعيسى قرآ على " هَوان " بزنة " قَذَال " ، وفرقةٌ على " هَوْنٍ " بفتح الهاء ، وهي قَلِقَةٌ هنا ؛ لأن " الهَوْن " بالفتح الرِّفقُ واللين ، ولا يناسب معناه هنا ، وأمَّا " الهَوان " فبمعنى هُوْن المضمومة .

قوله : ﴿ على هُونٍ ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه حالٌ مِنَ الفاعِل ، وهو مَرْوِيٌّ عن ابن عباس فإنه قال : يُمْسِكه مع رضاه بهوانٍ وعلى رغم أنفه .

والثاني : أنه حالٌ من المفعولِ ، أي : يُمْسِكها ذليلةً مُهانةً .

والدَّسُّ : إخفاءُ الشيءِ وهو هنا عبارةٌ عن الوَأْد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 241. 246 ﴾

(148/437)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) ﴾

أي يجعلون لما لا يعلمون وهي أصنامهم التي ليس لها استحقاق العلم نصيباً من أرزاقهم؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا .

﴿ تَاللَّهِ ﴾ أقسم إنهم سيلْقَوْن عقوبةَ فِعْلِهم .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) ﴾

من فَرْطِ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد ، ثم زاد اللَّهُ في خذلانهم حتى قالوا : الملائكة بنات الله . وكانوا يكرهون البنات ، فرضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم . ويلتحق بهؤلاء في استحقاق الذمِّ كلُّ مَنْ آثر حَظَّ نَفْسِه على حقِّ مولاه ، فإذا فعل مَالَه فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مذمومَ الوصف ، ملوماً على ما اختاره من الفعل .

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه وتصفون به من كراهةِ أَنْ تُولَد لهم الإناثُ .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) ﴾

استولت عليهم رؤيةُ الخَلْق ، وملكتهم الحيرة ، فَلَحِقُوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البَعْلِ فيهن . . . وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة ، والغيبة عن شهود الحقيقة .

ثم قال : ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ ﴾ أي يحبس المولودَ إذا كان أنثى على مَذَلَّة ، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ ليموت ؟ وتلك الجفوةُ في أحوالهم جعلَتْ - من قساوة قلوبهم في أحوالهم - العقوبةَ أشدَّ مما كانت بتعجيلها لهم . وجَعَلَهم فرطُ غيظهم ، وفَقْدُ رضائهم ، وشدة

حنقهم على من لا ذنبَ له من أولادهم - من أهل النار في دركَاتِ جهنم ، وتكدَّر عليهم الوقتُ ، واستولت الوحشةُ . . . ونعوذ بالله من المَثَلِ السوء ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 302. 303 ﴾

(149/437)

قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان شرح هذا أنهم تكلموا بالباطل في جانبه تعالى وجانبهم ، بين ما هو الحق في هذا المقام ، فقال تعالى على تقدير الجواب لمن كأنه قال : فما يقال في ذلك ؟ مظهراً في موضع

الإضمار ، تنبيهاً على الوصف الذي أوجب الإقدام على الأباطيل من غير خوف : ﴿ للذين لا يؤمنون ﴾ أي لا يوجدون الإيمان أصلاً ﴿ بالآخرة مثل ﴾ أي حديث ﴿ السوء ﴾ من الضعف والحاجة والذل والرعونة ﴿ ولله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ المثل ﴾ أي الحديث أو المقدار أو الوصف أو القياس ﴿ الأعلى ﴾ من الغنى والقوة وجميع صفات الكمال بحيث لا يلحقه حاجة ولا ضعف ولا شائبة نقص أصلاً ، وأعدل العبارات عن ذلك لا إله إلا الله ، ويتأتى تنزيل المثل على الحقيقة كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى في سورة الروم .

ولما كان أمره سبحانه وتعالى أجل مما تدركه العقول ، وتصل إليه الأفهام ، أشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وهو ﴾ لا غيره ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يمتنع عليه شيء فلا نظير له ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يوقع شيئاً إلا في محله ، فلو عاملهم بما يستحقونه من هذه العظائم التي تقدمت عنهم لأخلى الأرض منهم ﴿ ولو يؤاخذ الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له صفات الكمال ﴿ الناس ﴾ كلهم .

ولما كان السياق للحكمة ، وكان الظلم – الذي هو إيقاع الشيء في غير موقعه – شديد المنافاة لها ، وكان الشرك – الذي هذا سياقه – أظلم الظلم ، قال معبراً بالوصف الشامل لما وقع منهم منه بالفعل ولما هم منطوون وهو وصف لهم ولم يباشروه إلى الآن بالفعل قال : ﴿ بظلمهم ﴾ أي يعاملهم معاملة الناظر لخصمه المعامل له بمحض العدل من غير نظر إلى الفضل ، وعبر بصيغة المفاعلة لأن دلالتها على المناقشة أبلغ ﴿ ما ترك ﴾ ولما اقتضى الحال ذكر الظلم ، وكان سياق هذه الآية أغلظ من سياق فاطر ، عبر بما يشمل كل محمول الأرض سواء كان على الظهر أو في البطن مغموراً بالماء أو لا فقال تعالى : ﴿ عليها ﴾ أي الأرض المعلوم أنها مستقرهم المدلول عليها التراب ، وأعرق في النفي فقال تعالى : ﴿ من دآبة ﴾ أي نفس تدب على وجه الأرض ، لأن الكل إما ظالم يعاقب بظلمه ، وإما من مصالح الظالم فيهلكه عقوبة للظالم ، أو لأنه ما خلقهم إلا للبشر ، فإذا أهلكهم أهلكهم كما وقع قريب منه في زمن نوح عليه السلام ﴿ ولكن ﴾ لا يفعل بهم ذلك فهو ﴿ يؤخرهم ﴾ إمهالاً بحكمته وحلمه ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ضربه لهم في الأزل .

ولما قطع العلم بالغاية عما يكون ، سبب عن ذلك الإعلام بما يكون فيه فقال : ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ الذي حكم بأخذهم عنده ﴿ لا يستأخرون ﴾ أي عنه ﴿ ساعة ﴾ أي وقتاً هو عام التعارف بينكم ، ثم عطف على جملة الشرط من أولها قوله تعالى : ﴿ ولا يستقدمون ﴾ أي عن الأجل شيئاً .

ولما كان ما تقدم أمارة على كراهتهم لما نسبوه إلى الله تعالى ، أتبعه التصريح بعد التلويح بقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ﴾ أي وهو الملك الأعظم ﴿ ما يكرهون ﴾ أي لأنفسهم ، من البنات والأموال والشركاء في الرئاسة ، ومن الاستخفاف برسلهم وجنودهم والتهاون برسالاتهم ، ثم وصف جراءتهم مع ذلك ، الكائنة في محل الخوف ، المقتضية لعدم التأمل اللازم لعدم العقل فقال : ﴿ وتصف ﴾ أي تقول معتقدة مع القول الصفاء ، ولما كان قولاً لا حقيقة له بوجه ، أسنده إلى اللسان فقال : ﴿ ألسنتهم ﴾ أي مع ذلك مع أنه قول لا ينبغي أن يتخيله عاقل ﴿ الكذب ﴾ ثم بينه بقوله : ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ أي عنده ، ولا جهل أعظم ولا حكم أسوأ من أن تقطع بأن من تجعل له ما تكره يجعل لك ما تحب ، فكأنه قيل : فما لهم عنده؟ فقيل : ﴿ لا جرم ﴾ أي لا ظن ولا تردد في ﴿ أن لهم النار ﴾ التي هي جزاء الظالمين ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ أي مقدمون معجلون إليها بتقديم من يسوقهم وإعجاله لهم؛ وقال الرماني : متروكون فيها ، من قول العرب : ما أفرطت ورائي أحداً ، أي ما خلفت ولا تركت ، وقرأ نافع بالتخفيف والكسر ، أي مبالغون في الإسراف والجراءة على الله .

ولما يبن مآلهم، وكانوا يقولون: إن لهم من يشفع فيهم، يبن لهم ما يكون من حالهم، بالقياس على أشكالهم تهديداً، وتسلية للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال تعالى: ﴿ تالله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ لقد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة، رسلاً من الماضين ﴿ إلى إمم ﴾ ولما كان الإرسال بالفعل لم يستغرق زمان القبل، قال: ﴿ من قبلك ﴾ كما أرسلناك إلى هؤلاء ﴿ فزين لهم الشيطان ﴾ أي المحترق بالغضب.

(152/437)

المطرود باللعنة ﴿ أعمالهم ﴾ كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فأهلكناهم ﴿ فهو ﴾ لا غيره ﴿ وليهم اليوم ﴾ بعد إهلاكهم حال كونهم في النار ولا قدرة له على نصرهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ فلا ولي لأنه لو قدر على نصرهم لما أسلمهم للهلاك وقد أطاعوه، بل لو عدموا ولايته كان ذلك أولى لهم، فهو نفي لأن يكون لهم ولي على أبلغ الوجوه. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 281. 282 ﴾

(153/437)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ﴾

والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهي احتياجهم إلى الولد ، وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الصفة العالية المقدسة ، وهي كونه تعالى منزهاً عن الولد .

فإن قيل : كيف جاء : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ مع قوله : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ .

قلنا : المثل الذي يذكره الله حق وصدق والذي يذكره غيره فهو الباطل ، والله أعلم .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم ، بين أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة ، إظهاراً للفضل والرحمة والكرم ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بقوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ من وجهين : الأول : أنه قال : ﴿ ولا يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ فأضاف الظلم إلى كل الناس ، ولا شك أن الظلم من المعاصي ، فهذا يقتضي كون كل إنسان آتياً بالذنب والمعصية ، والأنبياء عليهم السلام من الناس ، فوجب كونهم

آتين بالذنب والمعصية .

والثاني : أنه تعالى قال : ما ترك على ظهرها من دابة وهذا يقتضي أن كل من كان على ظهر الأرض فهو آت بالظلم والذنب ، حتى يلزم من إفناء كل ما كان ظالماً إفناء كل الناس .

أما إذا قلنا : الأنبياء عليهم السلام لم يصدر عنهم ظلم فلا يجب إفناؤهم ، وحينئذ لا يلزم من إفناء كل الظالمين إفناء كل الناس ، وأن لا يبقى على ظهر الأرض دابة ، ولما لزم علمنا أن كل البشر ظالمون سواء كانوا من الأنبياء أو لم يكونوا كذلك .

(154/437)

والجواب : ثبت بالدليل أن كل الناس ليسوا ظالمين لأنه تعالى قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] أي فمن العباد من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ، ولو كان المقتصد والسابق ظالماً لفسد ذلك التقسيم ، فعلمنا أن المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين ، فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز أن يقال كل الخلق ظالمون .

وإذا ثبت هذا فنقول : الناس المذكورون في قوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ إما كل العصاة المستحقين للعقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات .

وعلى هذا التقدير فيسقط الاستدلال . والله أعلم .

المسألة الثانية :

من الناس من احتج بهذه الآية على أن الأصل من المضار الحرمة ، فقال : لو كان الضرر مشروعاً لكان إما أن يكون مشروعاً على وجه يكون جزاء على جرم صادر منهم أو لا على هذا الوجه ، والقسمان باطلان ، فوجب أن لا يكون مشروعاً أصلاً .

أما بيان فساد القسم الأول ، فلقوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ والاستدلال به من وجهين : الأول : أن كلمة " لو " وضعت لانتفاء الشيء لانتفاء غيره .

فقوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ يقتضي أنه تعالى ما أخذهم بظلمهم وأنه ترك على ظهرها من دابة .

والثاني : أنه لما دلت الآية على أن لازمة أخذ الله الناس بظلمهم هو أن لا يترك على ظهرها دابة ، ثم إنا نشاهد أنه تعالى ترك على ظهرها دواب كثيرين ، فوجب القطع بأنه تعالى لا يؤاخذ الناس بظلمهم ، فثبت بهذا أنه لا يجوز أن تكون المضار مشروعة على وجه تقع أجزية عن الجرائم .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون مشروعاً ابتداء لا على وجه يقع أجزية عن جرم سابق ، فهذا باطل بالإجماع ، فثبت أن مقتضى هذه الآية تحريم المضار مطلقاً ، ويتأكد هذا أيضاً بآيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ [الأعراف : 56] وكقوله : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : 78] وكقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] وكقوله عليه السلام : " لا ضرر ولا ضرار في الإسلام " وكقوله : " ملعون من ضر مسلماً " فثبت بمجموع هذه الآيات والأخبار أن الأصل في المضار الحرمة ، فنقول : إذا وقعت حادثة مشتملة على الضرر من كل الوجوه ، فإن وجدنا نصاً خاصاً يدل على كونه مشروعاً قضينا به تقديماً للخاص على العام ، وإلا قضينا عليه بالحرمة بناء على هذا الأصل الذي قررناه .

ومنهم من قال هذه القاعدة تدل على أن كل ما يريده الإنسان وجب أن يكون مشروعاً في حقه ، لأن المنع منه ضرر ، والضرر غير مشروع بمقتضى هذا الأصل وكل ما يكرهه الإنسان وجب أن يحرم لأن وجوده ضرر والضرر غير مشروع ، فثبت أن هذا الأصل يتناول جميع الوقائع الممكنة إلى يوم القيامة ، ثم نقول القياس الذي يتمسك به في إثبات الأحكام إما أن يكون على وفق هذه القاعدة أو على خلافها ، والأول باطل : لأن هذا الأصل يغني عنه ، والثاني باطل ؛ لأن النص راجح على القياس ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قالت المعتزلة : هذه الآية دالة على أن الظلم والمعاصي ليست فعلاً لله تعالى ، بل تكون أفعالاً للعباد ، لأنه تعالى أضاف ظلم العباد إليهم ، وما أضافه إلى نفسه .

(156/437)

فقال : ﴿ ولا يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ وأيضاً فلو كان خلقاً لله تعالى لكانت مؤاخذتهم بها ظلماً من الله تعالى ، ولما منع الله العباد من الظلم في هذه الآية ؛ فبأن يكون منزهاً عن الظلم كان أولى ، قالوا : ويدل أيضاً على أن أعمالهم مؤثرة في وجوب الثواب والعقاب أو قوله : ﴿ بظلمهم ﴾ الباء فيه تدل على العلية كما في قوله : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ﴾ [الأنفال : 13] .

واعلم أن الكلام في هذه المسائل قد ذكرناه مراراً فلا نعيده .

والله أعلم .

المسألة الرابعة :

ظاهر الآية يدل على أن إقدام الناس على الظلم يوجب إهلاك جميع الدواب وذلك غير جائز ، لأن الدابة لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز إهلاكها بسبب ظلم الناس ؟

والجواب عنه من وجهين :

الوجه الأول : أنا لا نسلم أن قوله : ما ترك على ظهرها من دابة يتناول جميع الدواب .

وأجاب أبو علي الجبائي عنه : أن المراد لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لعجل هلاكهم ، وحينئذ لا يبقى لهم نسل ، ثم من المعلوم أنه لا أحداً إلا وفي أحد آبائه من يستحق العذاب وإذا هلكوا فقد بطل نسلهم ، فكان يلزمه أن لا يبقى في العالم أحد من الناس ، وإذا بطلوا وجب أن لا يبقى أحد من الدواب أيضاً ، لأن الدواب مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم ، فهذا وجه لطيف حسن .

والوجه الثاني : أن الهلاك إذا ورد على الظلمة ورد أيضاً على سائر الناس والدواب ، فكان ذلك الهلاك في حق الظلمة عذاباً ، وفي حق غيرهم امتحاناً ، وقد وقعت هذه الواقعة في زمان نوح عليه السلام .

والوجه الثالث : أنه تعالى لو آخذهم لانقطع القطر وفي انقطاعه انقطاع النبت فكان لا تبقى على ظهرها دابة ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال : لا والله بل إن الحبارى في وكرها لتموت بظلم الظالم ، وعن ابن مسعود

رضي الله عنه : كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم ، فهذه الوجوه الثلاثة من الجواب مفرعة على تسليم أن لفظة الدابة يتناول جميع الدواب .

والجواب الثاني : أن المراد من قوله : ما ترك على ظهرها من دابة أي ما ترك على ظهرها من كافر ، فالمراد بالدابة الكافر ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الأعراف : 179] والله أعلم .

المسألة الخامسة :

الكناية في قوله : ﴿ عليها ﴾ عائدة إلى الأرض ، ولم يسبق لها ذكر ، إلا أن ذكر الدابة يدل على الأرض ، فإن الدابة إنما تدب عليها .

وكثيراً ما يكنى عن الأرض ، وإن لم يتقدم ذكرها لأنهم يقولون ما عليها مثل فلان وما عليها أكرم من فلان ، يعنون على الأرض .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ ليتوالدوا ، وفي تفسير هذا الأجل قولان :

القول الأول : وهو قول عطاء : عن ابن عباس أنه يريد أجل القيامة .

والقول الثاني : أن المراد منتهى العمر .

وجه القول الأول أن معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة ، ووجه القول الثاني أن المشركين يؤاخذون بالعقوبة إذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا .

النوع الثالث : من الأقاويل الفاسدة التي كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم ، قوله : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ .

واعلم أن المراد من قوله : ﴿ ويجعلون ﴾ أي البنات التي يكرهونها لأنفسهم ، ومعنى قوله : ﴿ يجعلون ﴾ يصفون الله بذلك ويحكمون به له كقوله جعلت زيداً على لناس أي حكمت بهذا الحكم وذكرنا معنى الجعل عند قوله : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ﴾ [المائدة : 103] .

(158/437)

ثم قال تعالى : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ قال الفراء والزجاج : موضع "أن" نصب لأن قوله : ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ بدل من الكذب ، وتقدير الكلام وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى .

وفي تفسير ﴿ الحسنى ﴾ ههنا قولان : الأول : المراد منه البنون ، يعني أنهم قالوا لله البنات ولنا البنون .

والثاني : أنهم مع قولهم بإثبات البنات لله تعالى ، يصفون أنفسهم بأنهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب هذا القول ، وأنهم على الدين الحق والمذهب الحسن .

الثالث : أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة والثواب من الله تعالى .

فإن قيل : كيف يحكمون بذلك وهم كانوا منكرين للقيامة ؟

قلنا : كلهم ما كانوا منكرين للقيامة ، فقد قيل : إنه كان في العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة ، ولذلك فإنهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه إلى أن يموت ويقولون : إن ذلك الميت إذا حشر فإنه يحشر معه مركوبه ، وأيضاً فبتقدير أنهم كانوا منكرين للقيامة فلعلهم قالوا : إن كان محمد صادقاً في قوله بالبعث والنشور فإنه يحصل لنا الجنة والثواب بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه ، ومن الناس من قال : الأولى أن يحمل ﴿ الحسنى ﴾ على هذا الوجه بدليل أنه تعالى قال بعده : ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ فرد عليهم قولهم وأثبت لهم النار ، فدل هذا على أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة .

قال الزجاج : لا رد لقولهم ، والمعنى ليس الأمر كما وصفوا جرم فعلهم أي كسب ذلك القول لهم النار ، فعلى هذا لفظ " أن " في محل النصب بوقوع الكسب عليه .

وقال قطرب (أن) في موضع رفع ، والمعنى : وجب أن لهم النار وكيف كان الإعراب فالمعنى هو أنه يحق لهم النار ويجب ويثبت .

وقوله : ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قرأ نافع وقتيبة عن الكسائي : ﴿ مفرطون ﴾ بكسر الراء ، والباقون : ﴿ مفرطون ﴾ بفتح الراء .

أما قراءة نافع فقال الفراء : المعنى أنهم كانوا مفرطين على أنفسهم في الذنوب ، وقيل : أفرطوا في الافتراء على الله تعالى ، وقال أبو علي الفارسي : كأنه من أفرط ، أي صار ذا فرط مثل أجرب ، أي صار ذا جرب والمعنى : أنهم ذوو فرط إلى النار كأنهم قد أرسلوا من يهيئ لهم مواضع فيها .

وأما قراءة قوله : ﴿ مفرطون ﴾ بفتح الراء ففيه قولان :

القول الأول : المعنى ، أنهم متروكون في النار .

قال الكسائي : يقال ما أفرطت من القوم أحداً ، أي ما تركت .

وقال الفراء : تقول العرب أفرطت منهم ناساً ، أي خلفتهم وأنسيتهم .

والقول الثاني : ﴿ مفرطون ﴾ أي معجلون .

قال الواحدي رحمه الله : وهو الاختيار ووجهه ما قال أبو زيد وغيره : فرط الرجل أصحابه يفرطهم فرطاً وفروطاً إذا تقدمهم إلى الماء ليصلح الدلاء والأرسان ، وأفرط القوم الفارط ، وفرطوه إذا قدموه فمعنى قوله : ﴿ مفرطون ﴾ على هذا التقدير كأنهم قدموا إلى النار فهم فيها فرط للذين يدخلون بعدهم ، ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنع الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الأمم السابقين في حق الأنبياء المتقدمين عليهم السلام ، فقال : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ وهذا

يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم .

قالت المعتزلة : الآية تدل على فساد قول المجبرة من وجوه : الأول : أنه إذا كان خالق أعمالهم هو الله تعالى ، فلا فائدة في التزيين .

والثاني : أن ذلك التزيين لما كان بخلق الله تعالى لم يجز ذم الشيطان بسببه .

والثالث : أن التزيين هو الذى يدعو الإنسان إلى الفعل ، وإذا كان حصول الفعل فيه بخلق الله تعالى كان ضرورياً فلم يكن التزيين داعياً .

والرابع : أن على قولهم ، الخالق لذلك العمل ، أجدر أن يكون ولياً لهم من الداعي إليه .

والخامس : أنه تعالى أضاف التزيين إلى الشيطان ولو كان ذلك المزين هو الله تعالى لكانت إضافته إلى الشيطان كذباً .

وجوابه : إن كان مزين القبائح في أعين الكفار هو الشيطان ، فمزين تلك الوساوس في عين الشيطان إن كان شيطاناً آخر لزم التسلسل .

وإن كان هو الله تعالى فهو المطلوب .

ثم قال تعالى : ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ وفيه احتمالان : الأول : أن المراد منه كفار مكة وبقوله : ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ أي الشيطان ويتولى إغواءهم وصرفهم عنك ، كما فعل بكفار الأمم قبلك فيكون على هذا التقدير رجع عن أخبار الأمم الماضية إلى الأخبار عن كفار مكة .

الثاني : أنه أراد باليوم يوم القيامة ، يقول فهو ولي أولئك الذين كفروا يزين لهم أعمالهم يوم القيامة ، وأطلق اسم اليوم على يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم ، والمقصود من قوله : ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ هو أنه لا ولي لهم ذلك اليوم ولا ناصر ، وذلك لأنهم إذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشيطان كنزوله بهم ، ورأوا أنه لا مخلص له منه ، كما لا مخلص لهم منه ، جاز أن يوبخوا بأن يقال لهم : هذا وليكم اليوم على وجه السخرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 46.51 ﴾

(161/437)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : صفة السوء من الجهل والكفر .

الثاني : وصفهم الله تعالى بالسوء من الصاحبة والولد .

﴿ ولله المَثَلُ الأعلى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الصفة العليا بأنه خالق ورزاق وقادر ومُجازٍ . الثاني : الإخلاص والتوحيد ، قاله قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾

يعني في الدنيا بالانتقام لأنه يمهلهم في الأغلب من أحوالهم .

﴿ ما ترك عليها من دابّةٍ ﴾ يعني بهلاكهم بعذاب الاستئصال من أخذه لهم بظلمهم . ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلى يوم القيامة .

الثاني : تعجيله في الدنيا . فإن قيل : فكيف يعمهم بالهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم ؟

فعن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة .

الثاني : ما ترك عليها من دابة من أهل الظلم .

الثالث : يعني أنه لو أهلك الآباء بالكفر لم يكن الأبناء ولا نقطع النسل فلم يولد مؤمن .

قوله عز وجل : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ يعني من البنات . ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أنّ لهم الحُسنَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن لهم البنين مع جعلهم لله ما يكرهون من البنات ، قاله مجاهد .

الثاني : معناه أن لهم من الله الجزاء الحسن ، قاله الزجاج . ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدهما : معناه حقاً أن لهم النار . الثاني : معناه قطعاً أن لهم النار .

الثالث : اقتضى فعلهم أن لهم النار .

الرابع : معناه بلى إن لهم النار ، قاله ابن عباس .

﴿ وأنهم مفرطون ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : معناه منسيون ، قاله مجاهد .

الثاني : مضيّعون ، قاله الحسن .

الثالث : مبعدون في النار ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : متروكون في النار ، قاله الضحاك .

الخامس : مقدَّمون إلى النار ، قاله قتادة . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا فَرَطكم على الحوض " أي متقدمكم ، وقال القطامي :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا . . . كما تعجّل فرّاطٌ لوُرّادِ

والفرّاط : المتقدمون في طلب الماء ، والورّاد : المتأخرون .

وقرأ نافع ﴿ مُفْرِطون ﴾ بكسر الراء وتخفيفها ، ومعناه مسرفون في الذنوب ، من الإفراط فيها .

وقرأ الباقون من السبعة ﴿ مفرطون ﴾ أي معجلون إلى النار متروكون فيها .

وقرأ أبو جعفر القارىء ﴿ مفَرِّطون ﴾ بكسر الراء وتشديدها ، ومعناه من التفريط في الواجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(163/437)

وقال ابن عطية :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾

قالت فرقة ﴿ مثل ﴾ في هذه الآية بمعنى صفة ، أي لهؤلاء صفة السوء ولله الوصف الأعلى .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يضطر إليه ، لأنه خروج عن اللفظ ، بل قوله ﴿ مثل ﴾ على بابه ، وذلك أنهم إذا قالوا إن البنات لله فقد جعلوا له مثلاً أبا البنات من البشر ، وكثرة

البنات عندهم مكروه ذميم ، فهو مثل السوء الذي أخبر الله تعالى أنه لهم ليس في البنات فقط ، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإطلاق في كل سوء ، ولا غاية أبعد من عذاب النار ، وقوله ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ على الإطلاق أيضاً في الكمال المستغني ، وقال قتادة : ﴿ المثل الأعلى ﴾ لا إله إلا الله ، وباقي الآية بين ، وقوله ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ الآية ، وآخذ هو تفاعل من أخذ ، كأن أحد المتواخذين يأخذ من الآخر ، إما بمعصية كما هي في حق الله تعالى ، أو بإذاية في جهة المخلوقين ، فيأخذ الآخر من الأول بالمعاقبة والجزاء ، وهي لغتان واخذ وآخذ ، و﴿ يؤاخذ ﴾ يصح أن يكون من آخذ ، وأما كونها من واخذ فبين ، والضمير في ﴿ عليها ﴾ عائد على الأرض ، وتمكن ذلك مع أنه لم يجر لها ذكر لشهرتها ، وتمكن الإشارة لها كما قال لبيد في الشمس :

حتى إذا ألقت يداً في كافر . . . وأجنّ عورات البلاد ظلامُها

(164/437)

ومنه قول تعالى ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] ولم يجر للشمس ذكر ، وقوله ﴿ من دابة ﴾ دخلت ﴿ من ﴾ لاستغراق الجنس ، وظاهر الآية أن الله تعالى أخبر أنه لم أخذ الناس بعقاب يستحقونه بظلمهم في كفرهم ومعاصيهم لكان ذلك العقاب يهلك منه

جميع ما يدب على الأرض من حيوان فكأنه بالقحوط أو بأمر يصيبهم من الله تعالى ، وعلى هذا التأويل قال بعض العلماء : كاد الجُعَل أن يهلك بذنوب بني آدم ، ذكره الطبري ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى ليهزل الحوت في الماء والطير في الهواء بذنوب العصاة " ، وسمع أبو هريرة رجلاً يقول : إن الظالم لا يهلك إلا نفسه ، فقال أبو هريرة : بلى إن الله ليهلك الحبارى في وكرها هزلاً بذنوب الظلمة ، وقد نطقت الشريعة في أخبارها بأن الله تعالى أهلك الأمم بريها وعاصيها بذنوب العصاة منهم ، وقالت فرقة : قوله : ﴿ من دابة ﴾ ، يريد من أولئك الظلمة فقط ، ويدل على هذا التخصيص ، أن الله لا يعاقب أحداً بذنب أحد ، واحتجب بقول الله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : 164] وهذا معنى آخر ، وذلك أن الله تعالى لا يجعل العقوبة تقصد أحداً بسبب إذْنَاب غيره ، ولكن إذا أرسل عذاباً على أمة عاصية ، لم يمكن البري التخليص من ذلك العذاب ، فأصابه العذاب لا بأنه له مجازاة ، ونحو هذا قوله

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : 25] وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال " نعم إذا كثر الخبث " ، ثم لا بد من تعلق

ظلم ما بالأبرياء ، وذلك بترك التغير ومداهنة أهل الظلم ومداومة جوارهم ، و" الأجل المسمى " في هذه الآية هو بحسب شخص شخص ، وفي معنى الآية مع أمائرها اختصار وإيجاز ، وقوله ﴿ ما يكرهون ﴾ يريد البنات ، و﴿ ما ﴾ في هذا الموضع تقع لمن يعقل من حيث هو صنف وقرأ الحسن " ألسنتهم الكذب " بسكون النون كراهية توالي الحركات ، وقرأ الجمهور " الكذِب " بكسر الذال ، ف ﴿ أن ﴾ بدل منه ، وقرأ معاذ بن جبل وبعض أهل الشام " الكُذُب " بضم الكاف والذال والباء على صفة الألسنة ، و﴿ أن لهم ﴾ مفعول ب ﴿ تصف ﴾ ، و﴿ الحسنى ﴾ قال مجاهد وقتادة : الذكور من الأولاد ، وهو الأسبق من معنى الآية ، وقالت فرقة يريد الجنة .

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد هذا قوله ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ ومعنى الآية على هذا التأويل يجعلون لله المكروه ويدعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنة ، كما تقول لرجل أنت تعصي الله ، وتقول مع ذلك أنت تنجو ، أي هذا بعيد مع هذا ، ثم حكم عليهم بعد ذلك بالنار ، وقد تقدم القول في ﴿ لا جرم ﴾ ، وقرأ الجمهور " أن لهم " بفتح الهمزة ، وإعرابها بحسب تقدير ﴿ جرم ﴾ ، فمن قدرها بكسب فعلهم فهو نصب ، ومن قدرها بوجب فهو رفع ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمران " إن لهم " بكسر الهمزة وقرأ السبعة سوى نافع " مفرَطون " بفتح الراء وخفتها ، ومعناه مقدمون إلى النار والعذاب ، وهي قراءة الحسن والأعرج وأصحاب ابن عباس ، وقد رويت عن نافع ، وهو مأخوذ من فرط الماء وهم القوم الذين

يتقدمون إلى المياه لإصلاح الدلاء والأرشية ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " أنا فرطكم على الحوض " ومنه قول القطامي :

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا . . . كما تعجل فرّاطٌ لورّاد

وقالت فرقة : ﴿ مفرطون ﴾ معناه مخلفون متركون في النار منسيون فيها ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد وابن أبي هند ، وقال آخرون ﴿ مفرطون ﴾ معناه مبعدون في النار ، وهذا قريب من الذي قبله ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " مُفَرِّطون " بكسر الراء وتشديدها وفتح الفاء ، ومعناه مقصرون في طاعة الله تعالى ، وقد روي عنه فتح الراء مع شدها ، وقرأ نافع وحده " مُفرِطون " بكسر الراء وخفتها ، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي رجاء وشيبة بن نصاح وأكثر أهل المدينة ، أي يتجاوزون الحد في معاصي الله عز وجل .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

هذه آية ضرب مثلاً لهم بمن تقدم وفي ضمنها وعيد لهم وتأنيس للنبي صلى الله عليه ولم ، وقوله ﴿ اليوم ﴾ يحتمل أن يريد يوم الإخبار بهذه الآية ، وهو بعد موت أولئك الأمم

المذكورة ، أي لا ولي لهم منذ ما توا واحتاجوا إلى الغوث إلا الشيطان ، ويحتمل أن يريد يوم القيامة ، والألف واللام فيه للعهد ، أي " هو وليهم " في " اليوم " المشهور وهو وقت الحاجة والفصل ، ويحتمل أن يريد ﴿ فهو وليهم ﴾ مدة حياتهم ، ثم انقطعت ولايته بموتهم ، وعبر عن ذلك بقوله ﴿ اليوم ﴾ تمثيلاً للمخاطبين بمدة حياتهم ، كما تقول لرجل شاب تحضه على طلب العلم : يا فلان لا يدرس أحد من الناس إلا اليوم ، تريد في مثل سنك هذه .

فكأنه قال لهؤلاء : ﴿ فهو وليهم ﴾ في مثل حياتكم هذه ، وهي التي كانت لهم ، وسائر الآية وعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(167/437)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾

أي لهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿ مَثَلُ السوء ﴾ أي صفة السوء من الجهل والكفر .

وقيل : هو وصْفُهم الله تعالى بالصاحبة والولد .

وقيل : أي العذاب والنار .

﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد ؛ قاله قتادة .

وقيل : أي الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجازٍ .

وقال ابن عباس : "مثل السوء" النار ، و "المثل الأعلى" شهادة أن لا إله إلا الله .

وقيل : ليس كمثله شيء .

وقيل : ﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ كقوله : ﴿ الله نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ ﴾ [النور : 35] .

فإن قيل : كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾

فالجواب أن قوله : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ [النحل : 74] أي الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص ؛ أي لا تضربوا لله مثلاً يقتضي نقصاً وتشبيهاً بالخلق .

والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جَلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوّاً كبيراً .

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ ﴾

أي بكفرهم وافترائهم ، وعاجَلهم .

﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أي على الأرض فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دل عليه قوله : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ فإن الدابة لا تَدِبّ إلا على الأرض .

والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص .

وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء .

وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أي لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهر هذه الأرض من دابة من نبيّ ولا غيره ؛ وهذا قول الحسن .

وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية : لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذابُ جميع الخلق حتى الجِعْلان في جُحْرها ، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب ، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل ؛ كما قال : ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي أجل موتهم ومنتهى أعمارهم .

﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ وقد تقدّم .

فإن قيل : كيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم ؟ قيل : يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء ، وهلاك المؤمن معوّضاً بثواب الآخرة .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على نياتهم " وعن أم سَلمة وسئلت عن الجيش الذي يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير ، فقالت قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : يعوذ بالبيت عائذ فيُبعث إليه بَعْث فإذا كانوا ببَيْداء من الأرض خُسِف بهم فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارهاً ؟ قال : "يخسَف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته" " وقد أتينا على هذا المعنى مُجَوّداً في (كتاب التذكرة) وتقدم في "المائدة" وآخر "الأنعام" ما فيه كفاية ، والحمد لله .

وقيل : "فإذا جاء أجلهم" أي فإذا جاء يوم القيامة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾

أي من البنات .

﴿ وَتَصِفُ أَلسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ أي وتقول ألسنتهم الكذب .

﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ قال مجاهد : هو قولهم أن لهم البنين ولله البنات .

"الكذِب" مفعول "تصِف" و "أنّ" في محل نصب بدل من الكذب ؛ لأنه بيان له .

وقيل : "الحسنى" الجزاء الحسن ؛ قاله الزجاج.

وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن مُحَيْصِن "الكُذُبُ" برفع الكاف والذال والباء نعتاً للألسنة ؛ وكذا ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ والكُذُب جمع كذوب، مثل رَسُول ورُسُل وصبُور وصبر وشَكُور وشُكُر .

﴿ لاَ ﴾ رَدٌّ لقولهم، وتَمّ الكلام، أي ليس كما تزعمون.

﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ أي حقاً أن لهم النار .

وقد تقدّم مستوفىً.

﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ متركون منسيون في النار ؛ قاله ابن الأعرابيّ وأبو عبيدة والكسائيّ والفرّاء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضاً : مبعدون.

قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها .

والفارط : الذي يتقدم إلى الماء ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنا فَرَطُكم على الحوض" أي متقدّمكم.

وقال القَطَاميّ :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا . . .

كما تعجّل فُرّاط لورّاد

والفرّاط : المتقدّمون في طلب الماء .

والورّاد : المتأخرون .

وقرأ نافع في رواية ورْش "مُفْرِطون" بكسر الراء وتخفيفها ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية ، أي أفرطوا فيها .

يقال : أفرط فلان على فلان إذا أربَى عليه ، وقال له أكثر مما قال من الشر .

وقرأ أبو جعفر القارئ "مُفَرِّطون" بكسر الراء وتشديدها ، أي مضيّعون أمر الله ؛ فهو من التفريط في الواجب .

قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخبيثة .

هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم .

﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ أي ناصرهم في الدنيا على زعمهم .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

وقيل : "فهو وليّهم" أي قرينهم في النار .

﴿ اليوم ﴾ يعني يوم القيامة ، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته .

وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وليّكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب ، على جهة التوبيخ لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾

يعني صفة السوء من احتياجاتهم إلى الولد الذكر وكراهتهم الإناث وقتلهن خوف الفقر ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الصفة العليا المقدسة ، وهي أن له التوحيد وأنه المنزه عن الولد وأنه لا إله إلا هو وأن له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدي ، وغير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه .

وقال ابن عباس : مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الممتنع في كبريائه وجلاله ﴿ الحكيم ﴾ يعني في جميع أفعاله .

قوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾

يعني بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم .

فإن قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى في آية أخرى ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ فقسمهم في تلك الآية ثلاثة أقسام فجعل الظالمين قسماً واحداً من ثلاثة .

قلت : قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام مخصوص بتلك الآية الأخرى ، لأن في جنس الناس الأنبياء والصالحين ومن لا يطلق عليه اسم الظلم ، وقيل : أراد بالناس الكفار فقط

بدليل قوله ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وقوله ﴿ وما ترك عليها ﴾ يعني على الأرض كناية عن غير مذكور لأن الدابة لا تدب إلا على الأض ﴿ من دابة ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى، لو يؤاخذ الناس بظلمهم لأهلك جميع الدواب التي على وجه الأرض.

قال قتادة: وقد فعل الله ذلك في زمن نوح عليه السلام وروي أن أبا هريرة سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بئس ما قلت إن الحبارى تموت هزالاً بظلم الظالم.

(171/437)

وقال ابن مسعود: إن الجعل تعذب في جحرها بذنب ابن آدم وقيل أراد بالدابة الكافر بدليل قوله: ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ وقيل في معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل، ولم توجد الأبناء فلم يبق في الأرض أحد ﴿ ولكن يؤخرهم ﴾ يعني يمهلهم بفضله، وكرمه وحلمه ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ يعني إلى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ يعني لا يؤخرون ساعة من الأجل الذي جعله الله لهم ولا ينقصون عنه.

وقيل: أراد بالأجل المسمى يوم القيامة، والمعنى ولكن يؤخرهم إلى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ يعني لأنفسهم وهي

البنات ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ يعني ويقولون : إن لهم البنين وذلك أنهم قالوا : لله البنات ولنا البنون ، وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله .

وقيل : أراد بالحسنى الجنة ، والمعنى أنهم مع كفرهم ، وقولهم الكذب يزعمون أنهم على الحق وأن لهم الجنة وذلك أنهم قالوا : إن كان محمد صادقاً في البعث بعد الموت ، فإن لنا الجنة لأنّا على الحق فأكذبهم الله فقول ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ يعني في الآخرة لا الجنة ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قرئ بكسر الراء مع التخفيف ، يعني مسرفون وقرئ بكسر الراء مع التشديد يعني مضيعون لأمر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها أي منسيون في النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل : متروكون .

وقال قتادة : معجلون إلى النار .

وقال الفراء : مقدمون إلى النار والفرط ما تقدم إلى الماء قبل القوم .

ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) : " أنا فرطكم على الحوض " أي متقدمكم ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ يعني كما أرسلناك إلى هذه الأمة لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ فزين لهم

الشيطان أعمالهم ﴾ يعني أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب ، والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة ، وإنما جعل الشيطان آلة بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ، وليس له قدرة أن يضل أحداً أو يهدي أحداً ، وإنما له الوسوسة فقط فمن أراد شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته ﴿ فهو وليهم ﴾ أي ناصرهم ﴿ اليوم ﴾ ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور ، وإنما سماه ولياً لهم لطاعتهم إياه ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ يعني في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(173/437)

وقال أبو حيان :

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة مَثَلُ السوء ﴾

قيل : مثل بمعنى صفة أي : صفة السوء ، وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ، ووأدهن خشية الإملاق وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ .

ولله المثل الأعلى أي : الصفة العليا ، وهي الغنى عن العالمين ، والنزاهة عن سمات المحدثين .

وقيل : مثل السوء هو وصفهم الله تعالى بأن له البنات ، وسماه مثل السوء لنسبتهم الولد إلى

الله ، وخصوصاً على طريق الأنوثة التي هم يستنكفون منها .

وقال ابن عباس : مثل السوء النار .

وقال ابن عطية : قالت فرقة مثل بمعنى صفة أي : لهؤلاء صفة السوء ، ولله الوصف الأعلى ، وهذا لا نضطرّ إليه لأنه خروج عن اللفظ ، بل قوله : مثل ، على بابه وذلك أنهم إذا قالوا : أن البنات لله فقد جعلوا لله مثلاً ، فالبنات من البشر وكثرة البنات مكروه عندهم ذميم فهو المثل السوء .

والذي أخبر الله تعالى أنهم لهم وليس في البنات فقط ، بل لما جعلوه هم البنات جعله هو هلم على الإطلاق في كل سوء ، ولا غاية أبعد من عذاب النار .

وقوله : ولله المثل الأعلى ، على الإطلاق أي : الكمال المستغنى .

وقال قتادة : المثل الأعلى لا إله إلا الله انتهى ، وقول قتادة مروي عن ابن عباس .

ولما تقدم قوله : ويجعلون لله البنات الآية تقدم ما نسبوا إلى الله ، وأتى ثانياً ما كان منسوباً لأنفسهم ، وبدأ هنا بقوله : للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، وأتى بعد ذلك بما يقابل قوله : سبحانه وتعالى من التنزيه وهو قوله : ولله المثل الأعلى ، وهو الوصف المنزه عن سمات الحدوث والتوالد ، وهو الوصف الأعلى الذي ليس يشركه فيه غيره ، وناسب الختم بالعزيز وهو الذي لا يوجد نظيره ، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

لما حكى الله تعالى عن الكفار عظيم ما ارتكبوه من الكفر ونسبة التولد له ، بيَّن تعالى أنه يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته .

ويؤاخذ : مضارع آخذ ، والظاهر أنه بمعنى المجرد الذي هو أخذه .

وقال ابن عطية : كان أحد المؤاخذين يأخذ من الآخر ، إما بمعصية كما هي في حق الله تعالى ، أو بإذاية في جهة المخلوقين ، فيأخذ الآخر من الأول بالمعاقبة والجزاء انتهى .

والظاهر : عموم الناس .

وقيل : أهل مكة ، والباء في بظلمهم للسبب .

وظلمهم كفرهم ومعاصيهم .

والضمير في عليها عائد على غير مذكور ، ودل على أنه الأرض قوله : من دابة ، لأن الدبيب من الناس لا يكون إلا في الأرض ، فهو كقوله : ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ أي بالمكان لأن ﴿ والعاديات ﴾ معلوم أنها لا تعدو إلا في مكان ، وكذلك الإثارة والنقع .

والظاهر عموم من دابة فيهلك الصالح بالطالح ، فكان يهلك جميع ما يدب على الأرض حتى الجعلان في جحرها قاله : ابن مسعود .

قال قتادة : وقد فعل تعالى في زمن نوح عليه السلام .

وقال السدي ومقاتل : إذا قحط المطر لم تبق دابة إلا هلكت .

وسمع أبو هريرة رجلاً يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال : بلى والله حتى أن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم .

وهذا نظير : ﴿ واتقوا فتنة ﴾ الآية والحديث "أنهلك وفينا الصالحون" وقال ابن السائب ، واختاره الزجاج : من دابة من الإنس والجن .

وقال ابن جريج : من الناس خاصة .

وقالت فرقة منهم ابن عباس : من دابة من مشرك يدب عليها ، ولكن يؤخرهم إلى أجل الآية ، تقدّم تفسير ما يشبهه في الأعراف .

وما في ما يكرهون لمن يعقل ، أريد بها النوع كقوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾ ومعنى : ويجعلون ، يصفونه بذلك ويحكمون به .

وقال الزمخشري : ما يكرهون لأنفسهم من البنات ، ومن شركاء في رئاستهم ، ومن الاستخفاف برسلهم والتهاون برسالاتهم ، ويجعلون له أرذل أموالهم ، ولأصنامهم أكرمها ،

وتصف ألسنتهم مع ذلك أنّ لهم الحسنى عند الله كقوله : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ انتهى .

وقال مجاهد : الحسنى قول قريش لنا البنون ، يعني قالوا : لله البنات ولنا البنون .

وقيل : الحسنى الجنة ، ويؤيده : لا جرم أن لهم النار ، والمعنى على هذا : يجعلون لله المكروه ، ويدعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنة كما تقول : أنت تعصي الله وتقول مع ذلك : أنك تنجو ، أي هذا بعيد مع هذا .

وهذا القول لا يتأتى إلا ممن يقول بالبعث ، وكان فيهم من يقول به .

أو على تقدير أنْ كان ما يقول من البعث صحيحاً ، وأنّ لهم الحسنى بدل من الكذب ، أو على إسقاط الحرف أي : بأن لهم .

وقرأ الحسن ومجاهد باختلاف ألسنتهم : بإسكان التاء ، وهي لغة تميم جمع لساناً المذكر نحو : حمار وأحمرة ، وفي التأنيث : ألسن كذراع وأذرع .

وقرأ معاذ بن جبل وبعض أهل الشام : الكذب بضم الكاف والذال والباء صفة للألسن ، جمع كذوب كصبور وصبر ، وهو مقيس ، أو جمع كاذب كشارف وشرف ولا ينقاس ، وعلى هذه القراءة أنّ لهم مفعول تصف ، وتقدم الكلام في لا جرم أن .

وقرأ الحسن وعيسى بن عمران : لهم بكسر الهمزة ، وأن جواب قسم أغنت عنه لا جرم .

وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود وأبو رجاء ، وشيبة ، ونافع ، وأكثر أهل المدينة : مفرطون

بكسر الراء من أفرط حقيقة أي : متجاوزون الحد في معاصي الله .

وباقي السبعة ، والحسن ، والأعرج ، وأصحاب ابن عباس ، ونافع في رواية ، بفتح الراء من أفرطته إلى كذا قدمته ، معدى بالهمزة من فرط إلى كذا تقدم إليه .

قال القطامي :

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا . . .

كما تعجل فراط لوراد

ومنه "أنا فرطكم على الحوض" أي متقدمكم .

(176/437)

وقال ابن جبير ، ومجاهد ، وابن أبي هند : مفرطون مخلفون متروكون في النار من أفرطت فلاناً خلفى إذا خلفته ونسيته .

قال أبو البقاء : تقول العرب أفرطت منهم ناساً أي خلفتهم ونسيتهم .

وقرأ أبو جعفر : مفرطون مشدداً من فرط أي : مقصرون مضيعون .

وعنه أيضاً : فتح الراء وشدها أي ، مقدمون من فرطته المعدى بالتضعيف من فرط بمعنى : تقدم .

ثم أخبر تعالى بإرسال الرسل إلى أمم من قبل أممك ، مقسماً على ذلك ومؤكداً بالقسم وبقد التي تقتضي تحقيق الأمر على سبيل التسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) لما كان يناله بسبب جهالات قومه ونسبتهم إلى الله ما لا يجوز ، فزين لهم الشيطان أعمالهم من تماديهم على الكفر ، فهو وليهم اليوم حكاية حال ماضية أي : لا ناصر لهم في حياتهم إلا هو ، أو عبر باليوم عن وقت الإرسال ومحاورة الرسل لهم ، أو حكاية حال آتية وهي يوم القيامة .

وأل في اليوم للعهد ، وهو اليوم المشهود ، فهو وليهم في ذلك اليوم أي : قرينهم وبئس القرين .

والظاهر عود الضمير في وليهم إلى أمم .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش ، وأنه زين للكفار قبلهم أعمالهم ، فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم .

ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي : فهو ولي أمثالهم اليوم انتهى .

وهذا فيه بعد ، لاختلاف الضمائر من غير ضرورة تدعو إلى ذلك ، ولا إلى حذف المضاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾

ممن ذكرت قبائحُهم ﴿ مَثَلُ السوء ﴾ صفةُ السَّوْء الذي هو كالمثَل في القبح وهي الحاجةُ إلى الولد ليقوم مقامَه عند موتهم ، وإيثارُ الذكور للاستظهار بهم ووأدُ البنات لدفع العار ، وخشيةُ الإملاق المنادي كلَّ ذلك بالعجز والقصورِ والشحّ البالغ ، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بأن مدارَ اتصافِهم بتلك القبائح هو الكفرُ بالآخرة ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ المثل الاعلى ﴾ أي الصفةُ العجيبةُ الشأنِ التي هي مثلٌ في العلو مطلقاً ، وهو الوجوبُ الذاتيُّ والغِنى المطلقُ والجودُ الواسعُ والنزاهةُ عن صفات المخلوقين ، ويدخل فيه علوُّه تعالى عما قالوه علواً كبيراً ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ المنفردُ بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل كلَّ ما يفعل بمقتضى الحكمةِ البالغةِ وهذا أيضاً من جملة صفاتِه العجيبة تعالى .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس ﴾ الكفارَ ﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾ بكفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما عُدّد من قبائحهم ، وهذا تصريحٌ بما أفاده قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ وإيذانٌ

بأن ما أتَوْه من القبائح قد تناهى إلى أمد لا غايةَ وراءَه ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ على الأرض المدلولِ عليها بالناس وبقوله تعالى : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي ما ترك عليها شيئاً من دابة قطُّ بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضرُّ إلا نفسه فقال : " بلى والله حتى إن الحُبارَى لتموت في وكرها بظلم الظالم " . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : " كاد الجُعَل يُهلك في جُحره بذنب ابن آدمَ أو من دابة ظالمة " وقيل : لم أَهْلك الآباءَ لم يكن الأبناءُ ، فيلزم أن لا يكون في الأرض دابةٌ لِما أنها مخلوقةٌ لمنافعِ البشر لقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ ﴿ ولكن ﴾ لا يؤاخذهم بذلك بل ﴿ يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا ويكثُرَ عذابُهم ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ ﴾ المسمّى ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن ذلك الأجلِ أي لا يتأخرون ، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له ﴿ سَاعَةٍ ﴾ فذةً ، وهي مثَلٌ في قلة المدة ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي لا يتقدمون ، وإنما تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدامُ عند مجيء الأجلِ مبالغةً في بيان عدمِ الاستئخار بنظمه في سلك ما يمتنع ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنّى تُبْتُ الان وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ فإن من مات كافراً مع أنه لا توبةَ له رأساً قد نُظم في سِمْطِ من لم تُقبل توبته للإيذان

بأنهما سيان في ذلك وقد مر في تفسير سورة يونس .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ﴾ أي يُثْبتون له سبحانه وينسبون إليه في زعمهم ﴿ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم مما ذكر ، وهو تكريرٌ لما سبق ، تثنيةً للتقريع وتوطئةً لقوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ أي يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ العاقبةَ الحسنى عند الله تعالى كقوله : ﴿ وَلَئِن رُّجّعْتُ إلى رَبّى إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ وقرىء الكُذُبُ وهو جمع الكَذوب على أنه صفةُ الألسنة ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ رد لكلامهم ذلك وإثباتٌ لنقيضه أي حقاً ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ مكان ما أمّلوا من الحسنى ﴿ النار ﴾ التي ليس وراءَ عذابها عذابٌ وهي عَلَمٌ في السَّوآى ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ أي مقدَّمون إليها من أفرطتُه أي قدّمتُه في طلب الماء ، وقيل : مَنْسيّون من أفرطتُ فلاناً خلفي إذا خلّفتُه ونسِيتُه ، وقرىء بالتشديد وفتح الراء من فرّطتُه في طلب الماء ، وبكسر الراء المشددة من التفريط في الطاعات ، وبكسر المخففة من الإفراط في المعاصي فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الأخروية كما عطف عليه .

﴿ تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ ﴾

تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرةِ ووعيدٌ لهم على ذلك ، أي أرسلنا إليهم رسلاً فدعَوْهم إلى الحق فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطن أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحةَ فعكفوا عليها مُصِرّين ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ﴾ أي قرينُهم وبئس القرينُ ﴿ اليوم ﴾ أي يومَ زين لهم الشيطانُ أعمالهم فيه على طريق حكايةِ الحال الآتية وهي حالُ كونهم معذبين في النار ، والوليُّ بمعنى الناصر أي فهو ناصرهم اليوم لا ناصرَ لهم غيرُه مبالغةً في نفي الناصرِ عنهم ، ويجوز أن يكون الضميرُ عائداً إلى مشركي قريش والمعنى زيّن للأمم السالفة أعمالَهم فهو وليُّ هؤلاء لأنهم منهم وأن يكون على حذف المضافِ أي وليُّ أمثالهم ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو عذابُ النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾

ممن ذكرت قبائحهم ﴿ مَثَلُ السوء ﴾ صفة السوء التي هي كالمثل في القبح وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم ويبقى به ذكرهم ، وإيثار الذكور للاستظهار ، ووأد البنات لدفع العار أو خشية الإملاق على حسب اختلاف أغراض الوائدين المنادي كل واحد من ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ .

وعن ابن عباس ﴿ مَثَلُ السوء ﴾ النار ، وأظنه لا يصح عنه رضي الله تعالى عنه ، ومنع ابن عطية حمل المثل على الصفة وقال : إنه لا يضطر إليه لأنه خروج عن اللفظ بل هو على بابه ، وذلك أنهم إذا قالوا : إن البنات لله سبحانه فقد جعلوا لله عز وجل مثلاً فإن البنات من البشر وكثرة البنات أمر مكروه عندهم ذميم فهو المثل السوء الذي أخبر الله تعالى بأنه لهم ، وليس في البنات فقط بل لما جعلوا له تعالى البنات جعله هو سبحانه لهم على الإطلاق في كل سوء ولا غاية أبعد من عذاب النار اه ، وهو أشبه شيء عندي بالرطانة كما لا يخفى ؛ ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة ﴿ وَلِلَّهِ المثل الاعلى ﴾ أي الصفة العجيبة الشأن التي هي مثل في العلو مطلقاً وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى عما يقول علواً كبيراً .

وأخرج ابن جرير.

وغيره عن قتادة أن المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله وهو رواية عن ابن عباس.

والذي أخرجه عنه البيهقي في الأسماء والصفات وغيره هو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: 11] ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ المنفرد بكمال القدرة على كل شيء ومن ذلك مؤاخذتهم بقبائحهم، وقيل: هو الذي لا يوجد له نظير ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة.

(182/437)

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس ﴾ الظالمين مطلقاً، وقيل: بالكفر والمؤاخذة مفاعلة من فاعل بمعنى فعل وهو الظاهر، وقال ابن عطية: هي مجاز كأن العبد يأخذ حق الله تعالى بمعصيته والله تعالى يأخذ منه بمعاقبته وكذا الحال في مؤاخذة الخلق بعضهم بعضاً ﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم بناءً على أن الظلم فعل ما لا ينبغي ووضعه في غير موضعه؛ وقد يخص بالكفر والتعدي على الغير ويدخل فيه ما عد من القبائح، وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [النحل: 60] وإيذان بأن ما أتاه هؤلاء الكفرة من القبائح قد تناهى إلى أمد لا غاية وراءه ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أي على

الأرض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ بناءً على شهرة كون الدبيب في الأرض أي ما ترك عليها شيئاً من الدواب أصلاً بل أهلكها بالمرة ، أما الظالم فبظلمه وأما غيره فبشؤم ذلك فقد قال سبحانه : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] وأخرج البيهقي في الشعب وغيره عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال : بلى والله إن الحبارى لتموت هزلاً في وكرها من ظلم الظالم ، وأخرج أيضاً هو فيه وغيره عن ابن مسعود قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ الآية ، وأخرج أحمد في الزهد عنه أنه قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره ثم قال : أي والله زمن غرق قوم نوح عليه السلام ، وقيل : المراد من دابة ظالمة على أن التنوين للنوع وهو مخصوص بالكفار والعصاة من الإنس ، وقيل : منهم ومن الجن ، وقيل : المراد الدابة الظالمة الفاعلة لما لا ينبغي شرعاً أو عرفاً فيدخل بعض الدواب إذا ضر غيره ، وقالت فرقة منهم ابن عباس : المراد بالدابة المشرك فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : 55] وقال الجبائي : الدابة

على عمومها فتشمل سائر الحيوانات ، والمراد بالناس الظالمون مطلقاً ؛ ووجه الملازمة أنه تعالى لو آخذهم بما كسبوا من كفر أو معصية لعجل هلاكهم وحينئذٍ لا يبقى لهم نسل ، ومن المعلوم أن لا أحد إلا وفي آبائه من يستحق العقاب وإذا هلكوا جميعاً وبطل نسلهم لا يبقى أحد من الناس وحينئذٍ يهلك الدواب لأنها مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم كما يشعر به قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] وبتخصيص الناس يسقط الاستدلال بالآية على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام ، وقال بعض المحققين : لا حاجة إلى التخصيص في ذلك والآية من باب بنو تميم قتلوا قتيلاً لتظافر الأدلة والنصوص على عصمة الأنبياء عليهم السلام ، فلا يقال : الأصل الحمل على الحقيقة .

واستدل بعضهم للتخصيص بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] وإلا يفسد التقسيم ، وقد يقال : إنه ما أحد إلا وهو متصف بظلم إلا أن مراتبه مختلفة فحسنات الأبرار سيئات المقربين ، والعصمة التي تدعى للأنبياء عليهم السلام إنما هي العصمة مما يعد ذنباً بالنسبة إلى غيرهم وأما العصمة مما يعد ذنباً بالنسبة إلى مقامهم ومرتبتهم فلا تدعى لهم إذ قد وقع ذلك منهم كما يشهد به كثير من الآيات .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن الله تعالى يؤاخذني وعيسى ابن مريم بذنوبنا وفي لفظ بما جنت ها تان الإبهام والتي تليها لعذبنا ما يظلمنا شيئاً " نعم إنه لا يقال لنبي هو ظالم ولا للأنبياء عليهم السلام هم ظالمون ويقال الناس ظالمون وهذا نظير قولهم : لا يقال لله سبحانه خالق القردة والخنازير ويقال هو خالق كل شيء ، ورب شيء يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً ، وأمر التقسيم هين عند المتأمل فليتأمل ، ومن الناس من احتج بالآية على أن أصل المضار الحرمة إذ لو كان الضرر مشروعاً فإما أن يكون مشروعاً على وجه يكون جزاءً على جرم أو لا وكلا القسمين باطل ، أما الأول فللآية وذلك من وجهين .

الأول : إنها لمكان لو تقتضي أن تعالى ما آخذ الناس بظلمهم وأنه ترك على ظهرها دابة .

الثاني : إن مقتضى المؤاخذة عدم ترك دابة على ظهرها ونحن نشاهد أنه سبحانه قد ترك كثيراً من الدواب فيجب القطع بأنه تعالى لم يؤاخذ بالظلم ، وأما الثاني فباطل بالإجماع فثبت بمقتضى الآية تحريم المضار ، ويؤكد ذلك آيات أخر وأخبار ؛ وحينئذٍ يقال : إذا وقعت حادثة مشتملة على الضرر من جميع الوجوه فإن وجدنا نصاً يدل على كونه مشروعاً قضينا به تقديماً للخاص على العام وإلا قضينا بالحرمة بناءً على الأصل الذي قرر .

واستدل بها المعتزلة على أن العباد خالقون لأفعالهم ووجهه مع رده غني عن البيان ﴿ ولكن ﴾ لا يؤاخذهم بذلك بل ﴿ يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ سماه سبحانه وعينه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا أو يكثر عذابهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ المسمى ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةِ ﴾ أقل مدة ﴿ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه ، وقد مر الكلام في نظيرها .

(185/437)

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ﴾ أي يثبتون له سبحانه وينسبون إليه بزعمهم ﴿ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ الذي يكرهونه لأنفسهم من البنات ، والتعبير بما عند أبي حيان على إرادة النوع ، وهذا على ما سمعت تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ أي يجعلون لله تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ أي العاقبة الحسنى عند الله عز وجل ولا يتعين إرادة الجنة .

وعن بعضهم أن المراد بها ذلك بناءً على أن منهم من يقر بالبعث وهذا بالنسبة لهم أو أنه على الفرض والتقدير كما روي أنهم قالوا : إن كان محمد صلى الله عليه وسلم صادقاً في البعث فلنا الجنة بما نحن عليه ، قيل : وهو المناسب لقوله تعالى الآتي : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ

النار ﴾ لظهور دلالته على أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة ، فلا يرد أنهم كيف قالوا ذلك وهم منكرون للبعث ، وعن مجاهد أنهم أرادوا بالحسنى البنين وليس بذاك وقال بعض المحققين : المراد بما يكرهون أعم مما تقدم فيشمل البنات وقد علم كراهتهم لها وإثباتها لله تعالى بزعمهم والشركاء في الرياسة فإن أحدهم لا يرضى أن يشرك في ذلك ويزعم الشريك له سبحانه والاستخفاف برسل الله تعالى عليهم السلام فإنهم يغضبون لو استخف برسول لهم أرسلوه في أمر لغيرهم ويستخفون برسل الله تعالى عليهم السلام وأراذل الأموال فإنهم كانوا إذا رأوا ما عينوه لله تعالى من أنعامهم أزكى بدلوه بما لآلهتهم وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها ولو فعل نحو ذلك معهم غضبوا ، وعلى هذا يفسر الجعل بما يعم الزعم والاختيار و﴿ مَا ﴾ تعم العقلاء وغيرهم ولا يخلو الكلام عن نوع تكرير ، والمراد من ﴿ تَصِفُ أَلسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ يكذبون وهو من بليغ الكلام وبديعه ، ومثله قولهم : عينها تصف السحر أي ساحرة وقدها يصف الهيف أي هيفاء ، وقول أبي العلاء المعري :

سرى برق المعرة بعد وهن . . .

فبات برامة يصف الكلالا

وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تمام الكلام في ذلك ، والظاهر أن ﴿ الكذب ﴾ مفعول ﴿ تَصِفُ ﴾ و﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ بدل منه أو بتقدير بأن لهم ولما حذفت الباء صار في موضع نصب عند سيبويه ، وعند الخليل هو في موضع جر ، وجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف كما أشرنا إليه في بيان المعنى ، وجوز أبو البقاء كون ﴿ الكذب ﴾ بدلاً مما يكرهون وهو كما ترى .

وقرأ الحسن .

ومجاهد باختلاف ﴿ ألسنهم ﴾ بإسقاط التاء وهي لغة تميم ، واللسان يذكر ويؤنث قيل : ويجمع المذكر على ألسنة نحو حمار وأحمرة والمؤنث على ألسن كذراع وأذرع .

وقرأ معاذ بن جبل .

وبعض أهل الشام ﴿ يَفْتَرِى الكذب ﴾ بثلاث ضمات وهو جمع كذوب كصبر وصبور وهو مقيس .

وقيل : جمع كاذب نحو شارف وشرف وهو غير مقيس ، ورفعه على أنه صفة الألسنة و﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ حينئذٍ مفعول ﴿ تَصِفُ ﴾ ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي حقاً ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ مكان ما زعموه من الحسنى ﴿ النار ﴾ التي ليس وراء عذابها عذاب وهي علم في السوأى ، وكلمة ﴿ لا ﴾ رد لكلام و﴿ جَرَمَ ﴾ بمعنى كسب و﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ في موضع

نصب على المفعولية أي كسب ما صدر منهم أن لهم ذلك .

وإلى هذا ذهب الزجاج ، وقال قطرب : ﴿ جَرَمَ ﴾ بمعنى ثبت ووجب و ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ في موضع رفع على الفاعلية له ، وقيل : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ بمعنى حقاً و ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فاعل حق المحذوف ، وقد مر تمام الكلام في ذلك وحلا .

وقرأ الحسن .

وعيسى بن عمر ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ بكسر الهمزة وجعل الجملة جواب قسم أغنت عنه ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ وكذا قرءا بالكسر في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ أي مقدمون معجل بهم إليها على ما روي عن الحسن .

وقتادة من أفرطته إلى كذا قدمته وهو معدى بالهمزة من فرط إلى كذا تقدم إليه ، ومنه أنا "فرطكم على الحوض" أي متقدمكم وكثيراً ما يقال للمتقدم إلى الماء لإصلاح نحو دلو فارط وفرط ، وأنشدوا للقطامى :

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا . . .

كما تعجل فراط لوراد

وقال مجاهد ، وابن جبير .

وابن أبي هند : أي متركون في النار منسيون فيها أبداً من أفرطت فلاناً خلفي إذا تركته ونسيته .

وقرأ ابن عباس .

وابن مسعود .

وأبو رجاء .

وشيبة .

ونافع .

وأكثر أهل المدينة ﴿ مُّفْرِطُونَ ﴾ بكسر الراء اسم فاعل من أفرط اللازم إذا تجاوز أي متجاوزو الحد في معاصي الله تعالى .

وقرأ أبو جعفر ﴿ مُّفْرِطُونَ ﴾ بتشديد الراء وكسرها من فرط في كذا إذا قصر أي مقصرون في طاعة الله تعالى ، وعنه أنه قرأ ﴿ مُّفْرَطُونَ ﴾ بتشديد الراء وفتحها من فرطته المعدي بالتضعيف من فرط بمعنى تقدم أي مقدمون إلى النار .

﴿ تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يناله من جهالات قومه الكفرة ووعيد لهم على ذلك ، ولا يخفى ما في ذلك من عظيم التأكيد أي أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبل أمتك أو من قبل إرسالك إلى هؤلاء فدعوهم إلى الحق ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطن أعمالهم ﴾ القبيحة فلم يتركوها ولم يمتثلوا دعوة الرسل عليهم السلام ، وقد تقدم الكلام في نسبة التزيين إلى الشيطان ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ﴾ أي قرين الأمم وبئس القرين أو متولي إغوائهم وصرفهم عن الحق ﴿ اليوم ﴾ أي يوم زين الشيطان أعمالهم فيه ، وهو وإن كان ماضياً واليوم المعرف معروف في زمان الحال كالآن لكن صور بصورة الحال ليستحضر السامع تلك الصورة العجيبة ويتعجب منها ، وسمي مثل ذلك حكاية الحال الماضية وهو استعارة من الحضور الخارجي للحضور الذهني أو المراد باليوم مدة الدنيا لأنها كالوقت الحاضر بالنسبة للآخرة وهي شاملة للماضي والآتي وما بينهما أي فهو وليهم في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الأخرى ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو عذاب النار ، وقد ورد إطلاق اليوم على مدتها كثيراً فهو مجاز متعارف وليس فيه حكاية لما مضى أو يوم القيامة الذي فيه عذابهم لكن صور بصورة الحال استحضاراً له كما في الوجه الأول إلا أنه حكاية حال آتية وفي الأول حكاية حال ماضية وليس من مجاز الأول ، والولي على هذا بمعنى الناصر أي لا ناصر لهم في ذلك اليوم غيره وهو نفي للناصر على أبلغ وجه على حد قوله :

وبلدة ليس بها أنيس . . .

إلا اليعافير وإلا العيس

(189/437)

ولا يجوز أن يكون بمعنى المتولي للإغواء إذ لا إغواء ثمة ولا بمعنى القرين لأنه في الدرك الأسفل من النار ، وجوزه بعضهم باعتبار أنه معهم في النار في الجملة ولا يضر اختلافهم في الدركات ، والظاهر أن ضمائر الجمع كلها للأمم كما أشرنا إليه في بعضها ، وجوز الزمخشري أن يكون ضمير ﴿ وَلِيُّهُمُ ﴾ المضاف إليه لقريش لا للأمم و ﴿ اليوم ﴾ بمعنى الزمان الذي وقع فيه الخطاب أي زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم .

وأن يكون الضمير للمتقدمين ، والكلام على حذف مضاف أي ولي أمثالهم ، والمراد من الأمثال قريش .

وتعقب ذلك أبو حيان بأن فيه بعداً لاختلاف الضمائر من غير داع إليه ولا إلى تقدير المضاف .

ورد بأن لفظ اليوم داع إليه ، وقال الطيبي : إنه الوجه وعليه النظم الفائق لأن في تصدير

القسمية بقوله تعالى : ﴿ تالله ﴾ بعد إنكارهم الرسالة وتعداد قبائحهم الإشعار بأن ما ذكر كالتسلية للرسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنه قيل : إن الأمم الخالية مع الرسل السالفة لم تزل على هذه الوتيرة فلك أسوة بالرسل عليهم السلام وقومك خلف لتلك الأمم فلا تهتم لذلك فإن ربك ينتقم لك منهم في الدنيا والآخرة فاشتغل أنت بتبليغ ما أنزل إليك وتقرير أنواع الدلائل المنصوبة على الوحدانية وبالتنبيه على إقامة الشكر على نعم الله تعالى المتظاهرة اه .

وقال في "الكشف" : لا ترجيح لهذا الوجه من حيث التسلي إذ الكل مفيد لذلك على وجه بين وإنما الترجيح للوجه الصائر إلى استحضار الحال لما فيه من مزيد التشفي اه ، والحق أن ما ذكره الزمخشري غير ظاهر وما قيل : إن لفظ ﴿ اليوم ﴾ داع إليه ففي حيز المنع ، وقصارى ما يقال : وجود القرينة المصححة لا المرجحة هذا .

(190/437)

وذكر في "الكشف" في بيان ربط الآيات أن قوله سبحانه : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 56] إلى هذا الموضع فن آخر من كفرانهم وتداد قبائحهم ، وجاز أن يكون من تتمة سابقه على منوال ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] إلا أنه بنى على

الغيبة دلالة على أنه فن آخر ، وهذا قريب المتناول ، وجاز أن يجعل عطفاً على قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ ﴾ [النحل : 38] فإن ما وقع من الكلام بعده من تتمته اعتراضاً واستطراداً كأنه قيل : ذاك معتقدهم في المعاد وهذا في المبدأ وهم فيما بين ذلك متدينون بهذا الدين القويم ومع اختلاف العقيدة في المبدأ والمعاد يدعون أن لهم الحسنى فيحق لهم ضد ذلك حقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(191/437)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له ، خاضعة لجلاله ، أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله : ﴿ وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين ، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه .

وقد قيل : إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية ، والإفراد في إله قد دلّ على الوحدة ، فما وجه وصف إلهين باثنين ، ووصف إله واحد ؟ فقيل في الجواب : إن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، والتقدير : لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله ، وقيل : إن التكرير لأجل

المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك .

وقيل : إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدّد لا إلى الجنسية ، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية ، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها ، وإنما خلاف المشركين في الواحدية .

ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب ، فقال : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ أي : إن كنتم راهبين شيئاً ، فإياي فارهبون لا غيري .

وقد مرّ مثل هذا في أول البقرة .

ثم لما قرّر سبحانه وحدانيته ، وأنه الذي يجب أن يخصّ بالرهبة منه والرغبة إليه ، ذكر أن الكلّ في ملكه وتحت تصرّفه فقال : ﴿ وَلَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ وهذه الجملة مقررة لمن تقدّم في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى * السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ إلى آخره ، وتقديم الخبر لإفادة الاختصاص ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِبًا ﴾ أي : ثابتاً واجباً دائماً لا يزول ، والدين هو الطاعة والإخلاص .

قال الفراء ﴿ وَاصِبًا ﴾ معناه دائماً ، ومنه قول الدؤلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه . . . بذمّ يكون الدهر أجمع واصبا

أي : دائماً .

وروي عن الفراء أيضاً أنه قال : الواصب : الخالص ، والأوّل أولى ، ومنه قوله سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات : 9] أي دائم .

وقال الزجاج : أي طاعته واجبة أبداً .

ففسر الواصب بالواجب .

وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب : أي ليس أحد يطاع إلاّ انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير

الله تعالى ، فإن الطاعة تدوم له .

ففسر الواصب بالدائم .

وإذا دام الشيء دواماً لا ينقطع فقد وجب وثبت .

يقال : وصب الشيء يصب وصوباً ، فهو واصب : إذا دام ، ووصب الرجل على الأمر :

إذا واظب عليه .

وقيل : الوصب التعب والإعياء ، أي : يجب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو

غير مناسب لما في الآية ، والاستفهام في قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ﴾ للتقريع والتوبيخ ،

وهو معطوف على مقدّر ، كما في نظائره .

والمعنى : إذا كان الدين : أي الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص

التقوى به وعدم إيقاعها لغيره .

ثم امتنّ سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره ، فقال : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ أي : ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله ، أي : فهي منه ، فتكون ما شرطية ، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط ، و ﴿ بكم ﴾ صلتها ، و ﴿ من نعمة ﴾ حال من الضمير في الجار والمجرور ، أو بيان ل " ما " .

وقوله : ﴿ فَمِنَ اللهِ ﴾ الخبر ، وعلى كون " ما " شرطية يكون فعل الشرط محذوفاً ، أي : ما يكن ، والنعمة إما دينية وهي معرفة الحق لذاته ، ومعرفة الخير لأجل العمل به .

وإما دنيوية نفسانية ، أو بدنية ، أو خارجية ، كالسعادات المالية وغيرها ، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها ، والكل من الله سبحانه ، فعلى العاقل أن لا يشكر إلاّ إياه ، ثم بين تلوّن الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ﴾ أي : إذا مسكم الضرّ أيّ مس ، فإلى الله سبحانه لا إلى غيره تتضرّعون في كشفه ، فلا كاشف له إلاّ هو .

يقال : جأر يجأر في لسان العرب جؤاراً : إذا رفع صوته في تضرع .

قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة . . . وكان النكير أن تطيف وتجأرا

والضرّ : المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الإنسان .

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي : إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضرّ ﴿ إذا فريق ﴾ أي : جماعة منكم بربهم الذي رفع الضر عنهم يشركون ، فيجعلون معه إلهاً آخر من صنم أو نحوه ، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء ، حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضرّ مكان الشكر له ، وهذا المعنى قد تقدّم في الأنعام ويونس ، ويأتي في سبحان .

قال الزجاج : هذا خاص بمكر من كفر ، وقابل كشف الضرّ عنه بالجحود والكفر ، وعلى هذا فتكون " من " في ﴿ منكم ﴾ للتبعيض ، حيث كان الخطاب للناس جميعاً .

والفريق هم الكفرة وإن كان الخطاب موجهاً إلى الكفار ، ف " من " للبيان ، واللام في ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ لام كي ، أي : لكي يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضرّ ، حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم .

وهذا غاية في العتوّ والعناد ليس وراءها غاية .

وقيل : اللام للعاقبة ، يعني : ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلاّ هذا الكفر .

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ بما أنتم فيه من ذلك ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمركم ، وما يحل بكم في هذه الدار ، وما تصيرون إليه في الدار الآخرة .

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم فقال : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رزقناهم ﴾ أي : يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم ، وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به ، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيباً مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه .

وقيل : المعنى أنهم ، أي الكفار يجعلون للأصنام ، وهم لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات ، ففاعل ﴿ يعلمون ﴾ على هذا هي الأصنام وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالواو والنون ، جرياً على اعتقاد الكفار فيها ، وحاصل المعنى : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام . التي لا تعقل شيئاً نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله إياها ﴿ تاالله لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تفْتَرُونَ ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب .

وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تفْتَرُونَ ﴾ تختلقونه من الكذب على الله

سبحانه في الدنيا .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم ، وقد كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما نسبه إليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا أفهام مستقيمة .

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان : 44] وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين على أن "ما" في محل نصب بالفعل المقدّر ، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء .

وأنكر النصب الزجاج.

(195/437)

قال : لأن العرب لا يقولون : جعل له كذا ، وهو يعني نفسه ، وإنما يقولون : جعل لنفسه كذا ، فلو كان منصوباً ، لقال : ولأنفسهم ما يشتهون .

وقد أجاز النصب الفراء .

ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التي جعلوها لله سبحانه فقال : ﴿ وَإِذَا بُشّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ﴾ أي : إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّا ﴾ أي : متغيراً ،

وليس المراد السواد الذي هو ضدّ البياض ، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغمّ ، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً : قد اسود وجهه غماً وحزناً .

قاله الزجاج.

وقال الماوردي : بل المراد سواد اللون حقيقة ، قال : وهو قول الجمهور ، والأوّل أولى ، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتمّ لا يحصل في لونه إلاّ مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي .

وجملة ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : ممتلىء من الغمّ غيظاً وحنقاً .

قال الأخفش : هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره .

وقيل : إنه المغموم الذي يطبق فاه من الغمّ .

مأخوذ من الكظامة ، وهو سدّ فم البئر قاله عليّ بن عيسى ، وقد تقدّم في سورة يوسف .

﴿ يتوارى مِنَ القوم ﴾ أي : يتغيب ويختفي ﴿ مِن سُوء مَا بُشّرَ بِهِ ﴾ أي : من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ ﴾ أي : لا يزال متردّداً بين الأمرين ، وهو إمساك البنت التي بشر بها ، أو دفنها في التراب ﴿ على هُونٍ ﴾ أي : هوان .

وكذا قرأ عيسى الثقفي .

قال اليزيدي : والهون : الهوان بلغة قريش .

وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائي ، وحكي عن الكسائي أنه البلاء والمشقة ، قالت الخنساء :

نهين النفوس وهون النفو . . . س يوم الكريهة أبقى لها

وقال الفراء : الهون : القليل بلغة تميم .

(196/437)

وحكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ " أيمسكه على سوء " ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي : يخفيه في التراب بالوأد كما كانت تفعله العرب ، فلا يزال الذي بشر بحدوث الأنثى متردّداً بين هذين الأمرين .

والتذكير في ﴿ يمسكه ﴾ و ﴿ يدسه ﴾ مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ .

وقرأ الجحدري " أم يدسها في التراب " ويلزمه أن يقرأ " أيمسكها " ، وقيل : دسها : إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس لإخفائه عن الأبصار ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حيث أضافوا البنات التي يكرهونها إلى الله سبحانه وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم :

. [22 21

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي : لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة ﴿ مثل السوء ﴾ أي : صفة السوء من الجهل والكفر بالله .

وقيل : هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد .

وقيل : هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم .

ووأد البنات لدفع العار وخشية الإملاق .

وقيل : العذاب والنار ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأعلى ﴾ وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل ، والجود الشامل ، والعلم الواسع ، أو التوحيد وإخلاص العبادة ، أو أنه خالق رازق قادر مجاز ؛ وقيل : شهادة أن لا إله إلاّ الله وقيل ﴿ الله نُورُ السموات والأرض مَثَلُ نُورِهِ ﴾ [النور : 35] .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغالب ، فلا يضرّه نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله .

ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم ، بيّن سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، ولم يؤاخذهم بظلمهم ، فقال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ والمراد بالناس هنا : الكفار ، أو جميع العصاة ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أي : على الأرض ، وإن لم يذكر فقد دلّ عليها ذكر الناس وذكر الدابة .

فإن الجميع مستقرّون على الأرض ، والمراد بالدابة الكافر ، وقيل : كل ما دبّ .

وقد قيل على هذا : كيف يعمّ بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له ؟ وأجيب بإهلاك الظالم انتقاماً منه ، وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره ، وإن كان من غيرهم ، فبشؤم ظلم الظالمين ، ولله الحكمة البالغة ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] ، ومثل هذا قوله :

﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] .

وفي معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أراد الله بقوم عذاباً ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نياتهم " وكذلك حديث الجيش الذين يخسف بهم في البيداء ، وفي آخره : أنهم يبعثون على نياتهم وقد قدّمنا عند تفسير قوله سبحانه : ﴿ واتقوا فِتْنَةً ﴾ [الأنفال : 25] الآية تحقيقاً حقيقاً بالمراجعة له ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ معلوم عنده ، وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم ، أو أجل عذابهم .

وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم ، ومنها حصول من

سبق في علمه من أولادهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ الذي سماه لهم ، حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدّم عليه ولا تأخر عنه ، والساعة المدة القليلة ، وقد تقدّم تفسيرها هذا وتحقيقه .

(198/437)

ثم ذكر نوعاً آخر من جهلهم وحمقهم فقال : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي : ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات ، وهو تكرير لما قد تقدّم لقصد التأكيد والتقرير ، ولزيادة التوبيخ والتقريع ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ هذا من النوع الآخر الذي ذكره سبحانه من قبائحهم ، وهو ، أي : هذا الذي تصفه ألسنتهم من الكذب ، هو قولهم : ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ أي : الخصلة الحسنى ، أو العاقبة الحسنى .

قال الزجاج : يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن .

قال الزجاج أيضاً والفراء : أبدل من قوله ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ قوله ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ ، و ﴿ الكذب ﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿ تصف ﴾ .

وقرأ ابن عباس ، وأبو العالية ، ومجاهد ، وابن محيصن " الكذب " برفع الكاف والذال والباء على أنه صفة للألسن .

وهو جمع كذب ، فيكون المفعول على هذا هو ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ .

ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ أي : حقاً أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار ، وقد تقدّم تحقيق هذا ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ قال ابن الأعرابي وأبو عبيدة : أي متروكون منسيون في النار .

وبه قال الكسائي والفراء ، فيكون مشتقاً من أفرطت فلاناً خلفي : إذا خلفته ونسيته .

وقال قتادة والحسن : معجلون إليها ، مقدّمون في دخولها ، من أفرطته ، أي : قدّمته في طلب الماء ، والفارط : هو الذي يتقدّم إلى الماء .

والفراط : المتقدّمون في طلب الماء ، والورّاد : المتأخرون ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا فرطكم على الحوض " ، أي : متقدّمكم ، قال القطامي :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا . . . كما تعجل فرّاط لورّاد

وقرأ نافع في رواية ورش " مفرطون " بكسر الراء وتخفيفها .

وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس .

ومعناه : مسرفون في الذنوب والمعاصي .

يقال : أفرط فلان على فلان : إذا أربى عليه ، وقال له أكثر مما قال من الشرّ .

وقرأ أبو جعفر القاري " مفرطون " بكسر الراء وتشديدها ، أي : مضيعون أمر الله ، فهو من التفريط في الواجب .

وقرأ الباقون " مفرطون " بفتح الراء مخففاً .

ومعناه : مقدمون إلى النار .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِبًا ﴾ قال : ﴿ الدين ﴾ الإخلاص ، و ﴿ واصباً ﴾ دائماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِبًا ﴾ قال : لا إله إلاّ الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَاصِبًا ﴾ قال : دائماً .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير عنه : قال واجباً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ تَجْئَرُونَ ﴾ قال : تتضرعون دعاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : تصيحون بالدعاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال : وعيد .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الآية ، قال : يعلمون أن الله خلقهم ويضرّهم وينفعهم ، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم ﴿ نَصِيبًا مّمّا

رزقناهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية ، قال : هم مشركو العرب ، جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله ، وجزءوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في الآية ، قال : هو قولهم ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ [الأنعام : 136] .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ الآية ، يقول : يجعلون لي البنات يرتضونهنّ لي ، ولا يرتضونهنّ لأنفسهم .

(200/437)

وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو دسها في التراب وهي حية .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ قال : يعني به : البنين .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التراب ﴾ قال : يئد ابنته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ قال : بئس ما حكموا ، يقول : شيء لا يرضونه لأنفسهم ، فكيف يرضونه لي .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلاّ الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن ابن عباس ﴿ وَلِلَّهِ المثل الاعلى ﴾ قال : يقول ليس كمثله شيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ قال : ما سقاهم المطر .

وأخرج أيضاً عن السدّي نحوه .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في الآية ، قال : قد فعل ذلك في زمن نوح ، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلاّ ما حمل في سفينته .

وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره ، ثم قال : أي والله زمن غرق قوم نوح .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عنه قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم .

ثم قرأ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضرّ إلاّ نفسه .

قال أبو هريرة : بلى ، والله إن الحبارى لتموت هزالاً في وكرها من ظلم الظالم .

(201/437)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ قال : يجعلون لي البنات ، ويكرهون ذلك لأنفسهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ قال : قول كفار قريش : لنا البنون ، وله البنات .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ قال : منسبون .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن

جبير نحوه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة قال: معجلون.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه. انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(202/437)

وقال الشيخ الشنقيطى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه لو اجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة. لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السموات والأرض لا يفوته شيء أراده. وذكر هذا المعنى في غير هذا الموضع. كقوله في " آخر سورة فاطر ": ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: 45] الآية، وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب ﴾ [الكهف: 58] الآية. وأشار بقوله: ﴿ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ إلى أنه تعالى يمهل ولا يهمل. وبين ذلك في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم: 42]،

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب ﴾ [العنكبوت : 53] .

وبين هنا : أن الإنسان إذا جاء أجله لا يستأخر عنه ، كما انه لا يتقدم عن وقت أجله .

وأوضح ذلك في مواضع أخر . كقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : 4] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ الله نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ ﴾ [المنافقون : 11] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

واعلم – أن قوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل : 61] فيه وجهان للعلماء :

احدهما – أنه خاص بالكفار لأن الذنب ذنبهم ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [الأنعام : 164] . ومن قال هذا القول قال : ﴿ من دابة ﴾ أي كافرة . ويروى هذا عن ابن عباس . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء .

وجمهور العلماء ، منهم ابن مسعود ، وأبو الأحوص ، وأبو هريرة ، وقال الآخر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا . . . والموت أكرم نزال على الحرم

وقد ولدت امرأة أعرابي أنثى ، فهجرها لشدة غيظه من ولادتها أنثى فقالت :

ما لأبي حمزة لا يأتينا . . . يظل بالبيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا . . . ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا . . . تنبيه

لفظة " جعل " تأتي في الغة العربية لأربعة معان :

الأول – بمعنى اعتقد . كقوله تعالى هنا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ [النحل : 57] قال

في الخلاصة : وجعل اللذ كاعتقد

الثاني – بمعنى صير كما تقدم في الحجر . كقوله : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح :

16] . قال في الخلاصة :

. . والتي كصيرا . . . وأيضاً بها انصب مبتدأ وخبرا

الثالث – بمعنى خلق . كقوله : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ

الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] أي خلق الظلمات والنور .

الرابع – بمعنى شرع . كقوله :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني . . . ثوبي فأنهض نهض الشارب السكر

قال في الخلاصة :

كأنشأ السائق يحدو وطفق . . . كذا جعلت وأخذت وعلق

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزيها له جل وعلا عما لا يليق بكماله

وجلاله ، وهو ما ادعوا له من البنات سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير وغيره – على أن الآية عامة .

حتّى إن ذنوب بني آدم لتهلك الجعل في حجره ، والحبارى في وكرها ، ونحو ذلك . لولا أن الله حليم لا يجعل بالعقوبة ، ولا يؤاخذهم بظلمهم .

قال مقيدة عفا الله عنه : وهذا القول هو الصحيح . لما تقرر في الأصول من : أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة " من " تكون نصاً صريحاً في العموم . وعليه فقول " من دابة " يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة نصاً .

وقال القرطبي في تفسيره : فإن قيل : فكيف يعم بالهالك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم ؟ يجعل هلاك الظلام انتقاماً وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أراد الله بقومٍ عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثمّ بُعِثُوا على أعمالهم " اه محل الغرض منه بلفظه . والأحاديث بمثله كثيرة معروفة .

وإذا ثبت في الأحاديث الصحيحة : أن العذاب إذا نزل بقوم عم الصالح والطالح ، فلا

إشكال في شمول الهالك للحيوانات التي لا تفعل. وإذا أراد اله إهلاك قوم أمر نبيهم ومن آمن منهم أن يخرجوا عنهم. لأن الهلاك إذا نزل عم.

تنبيه

قوله: ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ الضمير في ﴿ عليها ﴾ راجع إلى غير مذكور وهو الأرض. لأن قوله ﴿ من دابة ﴾ يدل عليه، لأن من المعلوم: أن الدواب إنما تدب على الأرض. ونظيره قوله تعالى: ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: 45]، وقوله: ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص: 32] أي الشمس ولم يجر لها ذكر، ورجوع الضمير غلى غير مذكور يدل عليه المقام كثير في كلام العربزومنه قول حميد بن ثور:

وصهباء منها كالسفينة نضجت... به الحمل حتى زاد شهراً عديدها

فقوله "صهباء منها" أي من الإبل، وتدل له قرينة "كالسفينة" مع أن الإبل لم يجر لها ذكر، ومنه أيضاً قول حاتم الطائي:

أماوى ما يغني الثراء عن الفتى... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقوله "حشرجت وضاق بها" يعني النفس، ولم يجر لها ذكر. كما تدل له قرينة "وضاق بها الصدر". ومنه أيضاً قول لبيد في معلقته:

حتى إذا ألقت يداً في كافر . . . وأجن عورات الثغور ظلامها

فقوله " ألقت " أي الشمس ، ولم يجر لها ذكر ، ولكن يدل له قوله :

وأجن عوات الثغور ظلامها . . . لأن قوله : " ألقت يداً في كافر " أي دخلت في الظلام .

ومنه ايضاً قول طرفة في معلقته :

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي . . . الا ليتني أفديك منها وأفتدي

فقوله : " افديك منها " أي الفلاة ، ولم يجر لها ذكر ، ولكن قرينة سياق الكلام تدل عليها .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يؤاخذ ﴾ الظاهر أن المفاعلة فيه بمعنى الفعل المجرد . فمعنى آخذ الناس يؤاخذهم : أخذهم بذنوبهم . لأن المفاعلة تقتضي الطرفين . ومجيئها بمعنى المجرد مسموع نحو : سافر وعافى . وقوله ﴿ يؤاخذ ﴾ إن قلنا إن المضارع فيه بمعنى الماضي فلا إشكال . وإن قلنا : إنه بمعنى الاستقبال فهو على إيلاء لو المستقبل وهو قليل . كقوله : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء : 9] ، وقول قيس بن الملوح :

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا . . . ومن دون رمسينا من الأرض سيسب

لظل صدى صوتي وإن كنت رمة . . . لصوت صدى ليلى يهش ويطرب

والجواب بحمله على المضي في الآية تكلف ظاهر ، ولا يمكن بتاتاً في البيتين ، وأمثلته كثيرة

في القرآن وفي كلام العرب. وقد أشار لذلك في الخلاصة بقوله:

لو حرف شرط في مضي ويقل... إيلاؤها مستقبلاً لكن قبل

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾.

(206/437)

أبهم جل وعلا في هذه الآية الكريمة هذا الذي يجعلونه لله ويكرهونه. لأنه عبر عنه ب " ما " الموصولة، وهي اسم مبهم، وصلة الموصول لن تبين من وصف هذا المبهم إلا أنهم يكرهونه. ولكنه بين في كواضع آخر: أنه البنات والشركاء وجعل المال الذي خلق لغيره، قال في البنات: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ [النحل: 57] ثم بين كراهيتهم لها في آيات كثيرة، كقوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ﴾ [النحل: 58] الآية. وقال في الشركاء: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ [الأنعام: 100] الآية، ونحوها من الآيات. وبين كراهيتهم للشركاء في رزقهم بقوله: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: 28] أي إذا كان الواحد منكم لا يرضى أن يكون عبده المملوك شريكاً له مثل نفسه في جميع ما عنده. فكيف تجعلون الأوثان شركاء لله في

عبادته التي هي حقه على عباده ! وبين جعلهم بعض ما خلق الله من الرزق للأوثان في قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ [الأنعام : 136] – إلى قوله – ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : 136] وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ [النحل : 56] كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ .

(207/437)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار يقولون بألسنتهم الكذب . فيزعمون أن لهم الحسنى والحسنى تأنيث الأحسن ، قيل : المراد بها الذكور . كما تقدم في قوله : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : 57] . والحق الذي لا شك فيه : أن المراد بالحسنى : هو زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقاً فسيكون لهم فيها أحسن نصيب كما كان لهم في الدنيا . ويدل على صحة هذا القول الأخير دليلان :

أحدهما – كثرة الآيات القرآنية المبينة لهذا المعنى . كقوله تعالى عن الكافر : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] ، وقوله ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي

لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] ، وقوله : ﴿ وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : 35] . وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات ﴾ [المؤمنون : 55-56] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

والدلي الثاني – أن الله أتبع قوله : ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ بقوله : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ الآيةز فدل ذلك دلالة واضحة على ما ذكرنا ، والعم عند الله . والمصدر المنسبك من " أن " وصلتها في قوله ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ في محل نصب ، بدل من قوله ﴿ الكذب ﴾ ومعنى وصف ألسنتهم الكذب قولها لكذب صريحاً لا خفاء به .

وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى :

(208/437)

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ [النحل : 116] الآية ما نصه : فإن قلت : ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبليغه ، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه . فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته . كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر اه .

قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ .

في هذا الحرف قراءتان سبعيتان ، وقراءة غير سبعية . قرأه عامة السبعة ما عدى نافعاً ﴿ مُفْرَطُون ﴾ بسكون الفاء وفتح الراء بصيغة اسم المفعول . من أفرطه . وقرأ نافع بكسر الراء بصيغة اسم الفاعل . من أفرط . والقراءة التي ليست بسبعية بفتح الفاء وكسر الراء المشددة بصيغة ايم الفاعل من فرط المضعف ، وتروى هذه القراءة عن أبي جعفر . وكل هذه القراءات له مصداق في كتاب الله .

أما على قراءة الجمهور ﴿ مفرطون ﴾ بصيغة المفعول فهو اسم مفعول أفرطه : إذا نسيه وتركع غير ملتفت إليه . فقوله : ﴿ مفرطون ﴾ أي متركون منسيون في النار . ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا ﴾ [الأعراف : 51] ، وقوله : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد ﴾ [السجدة : 14] الآية ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ [الجاثية : 34] ، فالنسيان في هذه الآيات معناه : الترك في النار . أما النسيان بمعنى زوال العلم : فهو مستحيل على الله . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] ، وقال : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] .

وممن قال بأن معنى ﴿ مفرطون ﴾ منسيون متركون في النار : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة وابن الأعرابي ، وأبو عبيدة ، والفراء ، وغيرهم .

وقال بعض العلماء : معنى قوله ﴿ مفرطون ﴾ على قراءة الجمهور : أي مقدكون إلى النار معجلون . من أفرطت فلاناً وفرطته في طلب الماء : إذا قدمته ، ومنه حديث : " أنا فرطكم على الحوض " اي متقدمكم . ومنه قول القطامي :

فاستعجلونا وكانوا من صحبتنا . . . كما تقدم فراط لوراد

قول الشنفرى :

هممت وهمت فابتدرنا وأسبلت . . . وشمر مني فارط متمهل

اي متقدم إلى الماء . وعلى قراءة نافع فهو اسم فاعل أفرط في الأمر : إذا أسرف فيه وجاوز الحد . يشهد لهذه القراءة قوله : ﴿ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أَصْحَابُ النار ﴾ [غافر : 43] ونحوها من الآيات . وعلى قراءة أبي جعفر ، فهو اسم فاعل ، فرط في الأمر : إذا ضيعه وقصر فيه ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ياحسرتا على مَا فَرَّطَتُ فِي جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] الآية . فقد عرفت أوجه القراءات في الآية ، وما يشهد له القرآن منها .

وقوله : ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ اي حقاً أن لهم النار . وقال القرطبي في تفسيره : لا رد لكلامهم (وتم

الكلام) اي ليس كما تزعمون ! جرم أن لهم النار ! حقاً أن لهم النار !وقال بعض العلماء :
"لا" صله ، و "جرم" بمعنى كسب . أي كسب لهم عملهم أن لهم النار . انتهى انتهى . ا
هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(210/437)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) ﴾

هذه الجملة معترضة جواباً عن مقالتهم التي تضمّنها قوله تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ [سورة النحل : 58] فإن لها ارتباطاً بجملة ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ [سورة النحل : 57] كما تقدّم ، فهي بمنزلة ، جملة سبحانه ، غير أن جملة سبحانه جواب بتنزيه الله عمّا نسبوه إليه ، وهذه جواب بتحقيرهم على ما يعاملون به البنات مع نسبتهم إلى الله هذا الصّنف المحقّر عندهم .

وقد جرى الجواب على استعمال العرب عندما يسمعون كلاماً مكروهاً أو منكراً أن يقولوا للنّاطق به : بِفيك الحَجَر ، وبفيك الكَثْكَث ، ويقولون : تربت يداك ، وتربت يمينك ، واخسأ .

وكذلك جاء قوله تعالى ﴿ للذين لا يؤمنون بالأخرة مثل السوء ﴾ شتماً لهم .

والمَثَل : الحال العجيبة في الحسن والقبح ، وإضافته إلى السوء للبيان .

وعُرّفوا بـ "الذين لا يؤمنون بالآخرة" لأنهم اشتهروا بهذه الصّلة بين المسلمين ، كقوله تعالى :

﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ [سورة النحل : 22] ،

وقوله : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ [سورة سبأ : 8] .

وجملة ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ عطفت على جملة ﴿ للذين لا يؤمنون بالأخرة مثل السوء ﴾ لأن بها تكملة إفساد قولهم وذمّ رأيهم ، إذ نسبوا إلى الله الولد وهو من لوازم الاحتياج والعجز .

ولّما نسبوا إليه ذلك خصّوه بأخسّ الصنفين عندهم ، كما قال تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ [سورة النحل : 62] ، وإن لم يكن كذلك في الواقع ولكن هذا جرى على اعتقادهم ومؤاخذة لهم برأيهم .

والأعلى ﴾ تفضيل ، وحذف المفضّل عليه لقصد العموم ، أي أعلى من كل مثل في العلوّ بقرينة المقام .

والسّوْء : بفتح السين مصدر ساءه ، إذا عمل معه ما يكره .

والسّوء بضم السّين الاسم ، تقدم في قوله تعالى : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ في سورة البقرة (49) .

والمثل تقدم تفصيل معانيه عند قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ في سورة البقرة (17) .

والعزيز الحكيم ﴾ تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ في سورة البقرة (209) .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

هذا اعتراض في أثناء التوبيخ على كفرهم الذي من شرائعه وأد البنات .

فأما وصف جعلهم لله البنات اللاتي يأنفون منها لأنفسهم ، ووصف ذلك بأنه حُكم سوء ، و وصف حالهم بأنها مَثَل سوء ، وعرفهم بأخصّ عقائدهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة ، أتبع ذلك بالوعيد على أقوالهم وأفعالهم .

والظّلم : الاعتداء على الحقّ .

وأعظمه الاعتداء على حقّ الخالق على مخلوقاته ، وهو حقّ إفراده بالعبادة ، ولذلك كان الظلم في القرآن إذا لم يعدّ إلى مفعول نحو ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ [سورة آل عمران : 117] مراداً منه أعظم الظلم وهو الشرك حتى صار ذلك حقيقة عرفية في مصطلح القرآن ، وهو

المراد هنا من هذا الإنذار .

وأما الظلم الذي هو دون الإشراك بالله فغير مراد هنا لأنه مراتب متفاوتة كما يأتي قريباً فلا يقتضي عقاب الاستئصال على عمومه .

والتعريف في الناس ﴾ يحمل على تعريف الجنس ليشمل جميع الناس ، لأن ذلك أنسب بمقام الزجر ، فليس قوله تعالى : ﴿ الناس ﴾ مراداً به خصوص المشركين من أهل مكة الذين عادت عليهم الضمائر المتقدمة في قوله : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ [سورة النحل : 55] وما بعده من الضمائر ، وبذلك لا يكون لفظ ﴿ الناس ﴾ إظهاراً في مقام الإضمار .

وضمير ﴿ عليها ﴾ صادق على الأرض وإن لم يجر لها ذكر في الكلام فإن المقام دالّ عليها .

(212/437)

وذلك استعمال معروف في كلامهم كقوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [سورة ص : 32] يعني الشمس ، ويقولون : أصبحت باردة ، يريدون الغَداة ، ويقول أهل المدينة : ما بين لابتيها أحد يفعل كذا ، يريدون لابتي المدينة .

والدّابة : اسم لما يدبّ على الأرض ، أي يمشي ، وتأنيثه بتأويل ذات .

وخصّ اسم دابة ﴾ في الاستعمال بالإطلاق على ما عدا الإنسان مما يمشي على الأرض .

وحرف ﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناعٍ ، أي حرف شرط يدلّ على امتناع وقوع جوابه لأجل امتناع وقوع شرطه .

وشرط ﴿ لو ﴾ ملازمٌ للزمن الماضي فإذا وقع بعد ﴿ لَوْ ﴾ مضارع انصرف إلى الماضي غالباً .

فالمعنى : لو كان الله مؤاخذاً الخلق على شركهم لأفناهم من الأرض وأفنى الدوابّ معهم ، أي ولكنه لم يؤاخذهم .

ودليل انتفاء شرط ﴿ لو ﴾ هو انتفاء جوابها ، ودليل انتفاء جوابها هو المشاهدة ، فإن الناس والدوابّ ما زالوا موجودين على الأرض .

ووجه الملازمة بين مؤاخذة الظالمين بذنوبهم وبين إفناء الناس غير الظالمين وإفناء الدوابّ أن الله خلق الناس ليعبدوه ، أي ليعترفوا له بالإلهية والوحدانية فيها ، لقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [سورة الذاريات : 56] ، وأن ذلك مودع في الفطرة لقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بني ءادم من ظهورهم ذرّياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا ﴾ [سورة الأعراف : 172] .

فنعمة الإيجاد تقضي على العاقل أن يشكر موجِدَه ، فإذا جحد وجوده أو جحد انفراده

بالإلهية فقد نقض العهد الذي وُجد على شرطه، فاستحقّ المحو من الوجود بالاستئصال والإفناء.

وبذلك تعيّن أن المراد من الظلم في قوله تعالى: ﴿ بظلمهم ﴾ الإشراكُ أو التعطيل.

(213/437)

وأما ما دون ذلك من الاهتداء على حقّ الله بمعصية أمره، أو على حقوق المخلوقات باغتصابها فهو مراتب كثيرة، منها اعتداء أحد على وجود إنسان آخر محترم الحياة فيُعدمه عمداً، لذلك جزاؤه الإفناء لأنه أفنى مماثله، ولا يتعدّاه إلى إفناء من معه، وما دون ذلك من الظلم له عقاب دون ذلك، فلا يستحقّ شيء غير الشرك الإهلاكَ، ولكنّ شأن العقاب أن يقصر على الجاني.

فوجه اقتضاء العقابِ على الشرك إفناءَ جميع المشركين ودوابّهم أن إهلاك الظالمين لا يحصل إلا بحوادث عظيمة لا تتحدّد بمساحة ديارهم، لأن أسباب الإهلاك لا تتحدّد في عادة نظام هذا العالم، فلذلك يتناول الإهلاكُ الناس غير الظالمين ويتناول دوابّهم.

وإذ قد كان الظلم، أي الإشراك لم تخل منه الأرض لزم من إهلاك أهل الظلم سريان الإهلاك إلى جميع بقاع الأرض فاضمحلّ الناس والدوابّ فيأتي الفناء في قرون متوالية من زمن نوح

مثلاً ، فلا يوجد على الأرض دابّة في وقت نزول الآية .

فأما من عسى أن يكون بين الأمّة المشركة مِن صالحين فإن الله يقدّر للصالحين أسباب النّجاة بأحوال خارقة للعادة كما قال تعالى : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ [سورة الزمر : 61] .

وقد أخبر الله تعالى بأنه نجّى هوداً والذين آمنوا معه ، وأخبر بأنه نجّى أنبياء آخرين .

وكفاك نجاة نوح عليه السلام والذين آمنوا معه من الطوفان في السفينة .

وقد دلّ قوله تعالى : ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ أن تأخيرهم متفاوت الآجال ، ففي مدد تلك الآجال تبقى أقوام كثيرة تعمُر بهم الأرض ، فذلك سبب بقاء أمم كثيرة من المشركين ومن حولهم .

واقتضى قوله تعالى : ﴿ من دابة ﴾ إهلاكَ دوابّ الناس معهم لو شاء الله ذلك ، لأن استئصال أمّة يشتمل على استئصال دوابّها ، لأنّ الدوابّ خلقت لنفع الناس فلا بدع أن يستأصلها الله إذا استأصل ذويها .

والاقتصار على ذكر دابّة في هذه الآية إيجاز ، لأنه إذا كان ظلم الناس مفضياً إلى استئصال الدوابّ كان العِلم بأنه مفض إلى استئصال الظالمين حاصلاً بدلالة الاقتضاء .

وهذا في عذاب الاستئصال ، وأما ما يصيب الناس من المصائب والفتن الوارد فيه قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [سورة الأنفال : 25] فذلك منوط بأسباب عادية ، فاستثناء الصالحين يقتضي تعطيل دواليب كثيرة من دواليب النظام الفطري العام ، وذلك لا يريد الله تعطيله لما يستتبع تعطيله من تعطيل مصالح عظيمة والله أعلم بذلك .

فقد جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله يقول : إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم ثم يُبعثون على نيّاتهم ، أي يكون للمحسن الذي أصابه العذاب تبعاً جزاءٌ على ما أصابه من مصيبة غيره .

وإنما الذي لا ينال البريء هو العقاب الأخروي الذي جعله الله جزاء على التكليف ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [سورة الأنعام : 164] .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الدوابّ التي على الأرض مخلوقة لأجل انتفاع الإنسان ، فلذلك لم يكن استعمال الإنسان إيّاها فيما تصلح له ظلماً لها ، ولا قتلها لأكلها ظلماً لها .

والمؤاخذة : الأخذ المقصود منه الجزاء ، فهو أخذ شديد ، ولذلك صيغت له صيغة المفاعلة الدالة على الكثرة ، فدلّ على أن المؤاخذة المنتفية بلو ﴾ هي الأخذ العاجل

المناسب للمجازاة ، لأن شأن الجزاء في العرف أن لا يتأخر عن وقت حصول الذنب .

ولهذا جاء الاستدراك بقوله تعالى : ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ .

فموقع الاستدراك هنا أنه تعقيب لقوله تعالى : ﴿ ما ترك عليها من دابة ﴾ .

والأجل : المدّة المعيّنة لفعل ما .

والمسمّى : المعيّن ، لأن التسمية تعيين الشيء وتمييزه ، وتسمية الآجال تحديدها .

(215/437)

وتقدم نظير هذه عند قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ في سورة الأعراف (34) .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) ﴾

هذا ضغث على إبّالة من أحوالهم في إشراكهم تخالف قصّة قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ [سورة النحل : 57] باعتبار ما يختصّ بهذه القصّة من إضافتهم الأشياء المكروهة عندهم إلى الله مما اقتضته كراهتهم البنات بقوله تعالى : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ [سورة النحل : 57] ، فكانَ ذلك الجعل ينطوي على خصلتين من دين الشرّك ، وهما :

نسبة البنوّة إلى الله ، ونسبة أخسّ أصناف الأبناء في نظرهم إليه ، فخصّت الأولى بالذكر بقوله ويجعلون لله البنات مع الإيماء إلى كراهتهم البنات كما تقدّم .

وخصّت هذه بذكر الكراهية تصريحاً ، ولذلك كان الإتيان بالموصول والصلة ﴿ ما يكرهون ﴾ هو مقتضى المقام الذي هو تفظيع قولهم وتشنيع استئثارهم .

وقد يكون الموصول للعموم فيشير إلى أنهم جعلوا لله أشياء يكرهونها لأنفسهم مثل الشريك في التصرّف ؛ وأشياء لا يرضونها لآلهتهم ونسبوها لله كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ [سورة الأنعام : 136] .

وفي الكشاف : "يجعلون لله أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها" .

فهو مراد من عموم الموصول ، فتكون هذه القصة أعمّ من قصّة قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ ، ويكون تخصيصها بالذكر من جهتين : جهة اختلاف الاعتبار ، وجهة زيادة أنواع هذا الجعل .

وجملة ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ عطف قصة على قصة أخرى من أحوال كفرهم .

ومعنى ﴿ تصف ﴾ تذكر بشرح وبيان وتفصيل ، حتى كأنها تذكر أوصاف الشيء .

وحقيقة الوصف : ذكر الصفات والحُلَى .

ثم أطلق على القول المبيّن المفصل .

قال في "الكشاف" في الآية الآتية في أواخر هذه السورة : "هذا من فصيح الكلام وبليغه .

جعل القول كأنه عين الكذب فإذا نطقت به ألسنتهم فقد صورت الكذب بصورته ، كقولهم

: وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر" اه .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ في سورة الأنعام (100) .

وسيأتي في آخر هذه السورة ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا

حرام ﴾ [سورة النحل : 116] .

ومنه قول المعرّي:

سرى برق المعرّة بعد وهن . . .

فباتَ برامةٍ يصف الكَلالا

أي يشكو الإعياء من قطع مسافة طويلة في زمن قليل ، وهو من بديع استعاراته .

والمراد من هذا الكذب كل ما يقولونه من أقوال خاصتهم ودهمائهم باعتقاد أو تهكّم .

فمن الأول قول العاصي بن وائل المحكي في قوله تعالى : ﴿ وقال لأوتينّ مالاً وولداً ﴾ [

سورة مريم : 77] وفي قوله تعالى : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ [

سورة فصلت : 50] .

ومن الثاني قولهم في البليّة : أن صاحبها يركبها يوم القيامة لكيلا يُعيى .

وانتصب الكذب ﴾ على أنه مفعول ﴿ تصف .

وأن لهم الحسنى ﴾ بدل من ﴿ الكذب ﴾ أو ﴿ الحسنى ﴾ صفة لمحذوف ، أي الحالة الحسنى .

وجملة ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ جواب عن قولهم المحكي .

ومعنى لا جرم لا شكّ ، أي حقاً .

وتقدم في سورة هود .

و ﴿ مُفْرِطُونَ ﴾ بكسر الراء المخففة في قراءة نافع : اسم فاعل من أفرط ، إذا بلغ غاية شيء ما ، أي مفرطون في الأخذ من عذاب النار .

وقرأه أبو جعفر بكسر الراء مشددة من فرّط المضاعف .

وقرأه البقية بفتح الراء مخففة على زنة اسم المفعول ، أي مجعولون فرطاً بفتحتين وهو المقدم إلى الماء ليسقي .

والمراد : أنهم سابقون إلى النار معجّلون إليها لأنهم أشدّ أهل النار استحقاقاً لها ، وعلى هذا الوجه يكون إطلاق الإفراط على هذا المعنى استعارة تهكّمية كقول عمرو بن كلثوم:

فَعَجّلْنَا القِرى أن تشتمونا . . .

أراد فبادرنا بقتالكم حين نزلتم بنا مغيرين علينا .

وفيها مع ذكر النار في مقابلتها مُحسن الطباق .

على أن قراءة نافع تحتمل التفسير بهذا أيضاً لِجواز أن يقال : أفرط إلى الماء إذا تقدّم له .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ﴾

استئناف ابتدائي داخل في الكلام الاعتراضي قصد منه تنظير حال المشركين المتحدث عنهم وكفرهم في سوء أعمالهم وأحكامهم بحال الأمم الضالّة من قبلهم الذين استهواهم الشيطان من الأمم البائدة مثل عاد وثمود ، والحاضرة كاليهود والنصارى .

ووجّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم لقصد إبلاغه إلى أسماع الناس فإن القرآن منزل لهدي الناس ، فتأكيد الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر لا إلى الموجّه إليه الخبر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يشكّ في ذلك .

ومصبّ القسم هو التفريع في قوله تعالى : ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ .

وأما الإرسال إلى أمم من قبلهم فلا يشكّ فيه المشركون .

وشأن التاء المثناة أن تقع في قَسَم على مستغرب مصبّ القسم هنا هو المفرد بقوله تعالى ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ لأن تأثير تزيين الشيطان لهم أعمالهم بعدما جاءهم من إرشاد رسلهم أمر عجيب .

وتقدم الكلام على حرف تاء القسم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ [سورة النحل : 56] .

وجملة فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ معطوفة على جملة جواب القسم .

والتقدير : أرسلنا فزّين لهم الشيطان أعمالهم .

وتزيين الشيطان أعمالهم كناية عن المعاصي .

فمن ذلك عدم الإيمان بالرسل وهو كمال التنظير .

ومنها الابتداعات المنافية لما جاءت به الرسل عليهم السلام مثل ابتداع المشركين البحيرة والسائبة .

والمقصود : أن المشركين سلكوا مسلك مَن قبلهم من الأمم التي زيّن لهم الشيطان أعمالهم .

وجملة ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ يجوز أن تكون مفرّعة على جملة القسم بتمامها ، على أن يكون التّفريع هو المقصود من جملة الاستئناف للتنظير ، فيكون ضمير ﴿ وليهم ﴾ عائداً إلى المنظّرين بقرينة السياق .

ولا مانع من اختلاف معادي ضميرين متقاربين مع القرينة ، كقوله تعالى : ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ [سورة الروم : 9] .

والمعنى : فالشيطان وليّ المشركين اليوم ، أي متولّي أمرهم كما كان وليّ الأمم من قبلهم إذ زيّن لهم أعمالهم ، أي لا وليّ لهم اليوم غيره ردّاً على زعمهم أن لهم الحسنى .

ويكون في الكلام شبه الاحتباك .

والتقدير : لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزيّن لهم الشيطان أعمالهم فكان وليّهم حينئذٍ ، وهو وليّ المشركين اليوم يُزيّن لهم أعمالهم كما كان وليّ من قبلهم .

وقوله : اليوم ﴾ مستعمل في زمان معهود بعهد الحضور ، أي فهو وليّهم الآن .

وهو كناية عن استمرار ولايته لهم إلى زمن المتكلّم مطلقاً بدون قصد ، لما يدلّ عليه لفظه من الوقت الذي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وهو منصوب على الظرفية للزمان الحاضر .

وأصله : اليوم الحاضر ، وهو اليوم الذي أنت فيه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ في سورة العقود (3) .

ولا يستعمل في يوم مضى معرّفاً باللام إلا بعد اسم الإشارة، نحو: ذلك اليوم، أو مثل: يومئذٍ. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(219/437)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ السوء . . . ﴾ [النحل: 60].

صفة السوء أي: الصفات السيئة الخسيسة من الكفر والجحود والنكْران، ومن عَمي البصيرة، وغيرها من صفات السوء.

لماذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السوء؟ لأن المعادلة التي أَجْرَوْها معادلة خاطئة؛ لأن الذي لا يؤمن بالآخرة قصّر عمره.. فعُمْر الدنيا بالنسبة له قصير، وقد قلنا: إياك أن تقيسَ الدنيا بعمرها.. ولكن قِسْ الدنيا بعمرك أنت، فعمر الدنيا مدة بقائِكَ أنت فيها.

. إنما هي باقية من بعدك لغيرك، وليس لك أنت فيها نصيب بعد انقضاء عمرك.

إذن: عمر الدنيا عمرك أنت فيها.. عمرك: شهر، سنة، عشر سنوات، مائة..

هذا هو عمر الدنيا الحقيقي بالنسبة لك أنت.

ومع ذلك، فعمر الدنيا مهما طال مُنْتَهٍ إلى زوال، فَمنْ لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخاسرة؛ لأنه لا يضمن أن يعيش في الدنيا حتى متوسط الأعمار . . وهَبْ أنك عِشْتَ في الدنيا إلى متوسط الأعمار، بل إلى أرذل العمر . . وهَبْ أنك استمتعتَ في دنياك بكل أنواع المعاصي، ماذا ستكون النهاية؟ أنْ تفوتَ هذا كله إلى الموت.

قارن إذن حال هذا بمَنْ آمن بالله وآمن بالآخرة . . نقول لمَنْ لا يؤمن بالآخرة: دنياك مظنونة، يمكن أن تعيش فيها، أو يعاجلك الموت . . حتى مَنْ عاش إلى متوسط الأعمار، فالنهاية إلى زوال.

وما نِلْتَ من مُتَع في دنياك أخذتها على قَدْر إمكاناتك أنت.

إذن: أنت أخذت صفقة محدودة غير مُتيقّنة، وتركتَ صفقة غير محدودة ومُتيقّنة . . أليستْ هذه الصفقة خاسرة؟

أما مَنْ آمن بالآخرة فقد ربحتَ صفقته، حيث اختار حياة ممتدة يجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات المنعِم سبحانه وتعالى.

إذن:

﴿ مَثَلُ السوء . . . ﴾ [النحل: 60].

أي: الصفة شديدة السوء، ذلك لأنهم خاسرون لا محالة.

وقوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى . . . ﴾ [النحل : 60] .

لله الصفة العليا ، وكأن الآية تقول لك : اترك صفة السوء ، وخُذ الصفة الأعلى التي تجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات الحق سبحانه وتعالى .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [النحل : 60] .

العزيز أي : الذي لا يُغلَب على أمره ، فإذا قيل : قد يوجد مَنْ لا يُغلب على أمره . . نعم ؛ لكنه سبحانه عزيز حكيم يستعمل القهر والغلبة بحكمة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس . . ﴾ [النحل : 61] .

عندنا هنا : الأَخْذ والمؤاخذة . . الأَخْذ : هو تحصيل الشيء واحتواؤه ، ويدل هذا على أن الآخذ له قدرةٌ على المستمسك بنفسه أو بغيره ، فمثلاً تستطيع حَمْل حصاة ، لكن لا تستطيع حمل حجر كبير ، وقد يكون شيئاً بسيطاً إلا أنه مربوط بغيره ومستمسك

به فيُؤخَذ منه قوة .

فمعنى الأخذ : أن تحتوي الشيء ، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه في ذاته ، أو استمساك غيره به ، وقد يكون الأَخْذ بلا ذنب .

أما المؤاخذة فتعني : هو أخذَ منك فأنت تأخذُ منه . . ومنه قوْل أحدنا لأخيه " لا مؤاخذة " في موقف من المواقف . . والمعنى : أنني فعلتُ شيئًا استحق عليه الجزاء والمؤاخذة ، فأقول : لا تؤاخذني . . لم أقصد .

لذلك ؛ فالحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس . . . ﴾ [النحل : 61] .

ولم يَقُلْ : يأخذ الناس .

وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] .

لماذا أخذها الله ؟ أخذها لأنها أخذتْ منه حقوقه في أن يكون إلهاً واحداً فأنكرتها ، وحقوقه في تشريع الصالح فأنكرتها .

ويُبيِّن الحق سبحانه أن هذه المؤاخذة لو حدثت ستكون بسبب من الناس أنفسهم، فيقول سبحانه:

﴿ بِظُلْمِهِمْ.. ﴾ [النحل: 61].

أول الظلم أنهم أنكروا الوحدانية، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13].

فكأنهم أخذوا من الله تعالى حقّه في الوحدانية، وأخذوا من الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالوا كذاب، وأخذوا من الكتاب فقالوا "سحر مبين".

كل هذا ظلم..

فالحق تبارك وتعالى لو آخذهم بما أخذوا، أخذوا شيئاً فأخذ الله شيئاً، لو عاملهم هذه المعاملة ما ترك على ظهرها من دابة.

لذلك نجد في آيات الدعاء: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: 286].

أي: أننا أخذنا منك يا ربّ الكثير بما حدث مِنّا من إسراف وتقصير وعمل على غير مقتضى أمرك، فلا تؤاخذنا بما بدر منا.

فلو آخذ الله الناس بما اقترفوا من ظلم..

﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ.. ﴾ [النحل: 61].

قد يقول قائل : الله عز وجل سَيُؤاخذ الناس بظلمهم ، فما ذنب الدابة ؟ ماذا فعلت ؟ نقول : لأن الدابة خُلِقَتْ من أجلهم ، وسُخِّرتْ لهم ، وهي من نعم الله عليهم ، فليست المسألة إذن نكايةً في الدابة ، بل فيمَنْ ينتفع بها ، وقد يُراد العموم لكل الخلق .

فإذا لم يؤاخذ اللّه الناس بظلمهم في الدنيا فهل يتركهم هكذا ؟ لا بل :

﴿ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى . . . ﴾ [النحل : 61] .

هذا الأجل انقضاء دُنيا ، وقيام آخرة ، حتى لو لم يؤمنوا بالآخرة ، فإن الله تعالى يُمهلهم في الدنيا ، كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ [الطور : 47] .

وقد يكون في هذا الأجل المسمى خير للحق ، فكثير من الصحابة كانوا يدخلون المعارك ، ويُحبون أنْ يقتلوا أهل الكفر فلاناً وفلاناً ، ثم لا يتمكنون من ذلك ولا يصيبونهم ، فيحزنون لذلك .

(222/437)

ولكن أَجَل هؤلاء لم يَأْتِ بَعْد ، وفي علم الله تعالى أن هؤلاء الكفار سيؤمنون ، وأن إيمانهم سينفع المسلمين ، وكأن القدر يدّخرهم : إما أنْ يؤمنوا ، وإما أن تؤمنَ ذرياتهم .

وقد آمن عمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم . ومن هؤلاء الذين نَجَوْا كان خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : 61] .

أي : إذا جاءت النهاية فلا تُؤخَّر ، وهذا شيء معقول ، ولكن كيف : ولا يستقدمون ؟ إذا جاء الأجل كيف لا يستقدِمون ؟ المسألة إذن ممتنعة مستحيلة . . كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك ؟ . . . هذا لا يستقيم ، لكن يستقيم المعنى تماماً على أن :

﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : 61] .

ليست من جواب إذا ، بل تم الجواب عند (ساعة) ، فيكون المعنى : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وإذا لم يجيء لا يستقدمون . والله أعلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ . . . ﴾ [النحل : 62] .

الأليق أن الذي يُخرج لله يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله ، فإذا أردت أن تتصدقَ تصدَّقْ بأحسن ما عندك ، أو على الأقل من أوسط ما عندك . . لكن أنْ تتصدَّق بأخسِّ الأشياء وأرذلها . . أن تتصدق مما تكرهه ، كالذي يتصدق بخبز غير جيد أو لحم

تغيِّر ، أو ملابس مُهَلْهَلة ، فهذا يجعل لله ما يكره .

والحقيقة أن الناس إذا وثِقوا بجزاء الله على ما يعطيه العبد لأَعطَوْا ربهم أفضل ما يُحبون .

. لماذا ؟ لأن ذلك دليلٌ على حبّك للآخرة ، وأنك من أهلها ، فأنت تعمرها بما تحب ، أما صاحب الدنيا المحبّ لها فيعطي أقل ما عنده ؛ لأن الدنيا في نظره أهمّ من الآخرة .

وبهذا يستطيع الإنسان أنْ يقيسَ نفسه : أهو من أهل الآخرة ، أم من أهل الدنيا بما يعطي لله عز وجل ؟

قوله تعالى :

(223/437)

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ . . . ﴾ [النحل : 62] .

أي : مما ذكر في الآيات السابقة من قولهم : ﴿ لِلَّهِ البنات . . . ﴾ [النحل : 57] .

وأن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنَّة نسباً ، إلى غير ذلك من أقوالهم ، وجعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات ؛ لذلك : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : 58] .

والمسألة هنا ليستْ مسألة جَعْل البنات لله ، بل مُطْلق الجَعْل منهم مردود عليهم ، فلو

جعلوا لله ما يحبون من الذكْران ما تُقبّل منهم أيضاً ؛ لأنهم جعلوا لله ما لم يجعل لنفسه .

فالذين قالوا : عزير ابن الله . والذين قالوا : المسيح ابن الله . لا يُقبَل منهم ؛ لأنهم جعلوا لله سبحانه ما لم يجعلْه لنفسه ، فهذا مرفوض ، وذلك مرفوض ؛ لأننا لا نجعل لله إلا ما جعله الله لنفسه سبحانه .

فنحن نجعل لله ما نحب مما أباح الله ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ . . . ﴾ [آل عمران : 92] .

وقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ . . . ﴾ [الإنسان : 8] .

ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81] .

فلو كان له ولد لآمنتُ بذلك ، لكن الحقيقة أنه ليس له ولد . . إذن : ليست المسألة في جَعْل ما يكرهون لله بل في مُطْلَق الجعل ، ذلك لأننا عبيد نتقرب إلى الله بالعبادة ، والعابد يتقرّب إلى المعبود بما يحب المعبود أن يتقرّب به إليه ، فلو جعل الله لنفسه شيئاً فهو على العين والرأس ، كما في أمره أن ننفق مما نُحب ، ومن أجود ما نملك .

ولذلك قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] .

رَاعِ حق الفقير وضرورة أنْ تجعله كنفسك، لا يكُنْ هيِّناً عليك فتعطيه أردأ ما عندك . .

والحق تبارك وتعالى لما أراد أن تتقرّب إليه بالنّسُك وذَبْح الهَدْي والأضاحي قال :

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ [الحج : 28] .

لأنك إذا علمتَ أنك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب . . ﴾ [النحل : 62] .

الكذب : قضية ينطق بها اللسان ليس لها واقع في الوجود، أي مخالفة للواقع المشهود به من القلب . . ولماذا يشهد عليه القلب ؟

قالوا : لأنه قد يطابق الكلام الواقع، ونحكم عليه مع ذلك بالكذب، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : 1] .

بالله، أهذه القضية صِدْق أم لا ؟ إنها قضية صادقة . . أنت رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله . . فلماذا شهد عليهم الحق تبارك وتعالى أنهم (كاذبون) ؟ وفي أيِّ شيء هم كاذبون ؟

قالوا : الحقيقة أنهم صادقون في قولهم : إنك لرسول الله، ولكنهم كذبوا في شهادتهم : ﴿

نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ . . . ﴾ [المنافقون : 1] .

لأنهم لا يشهدون فعلاً ؛ لأن الشهادة تحتاج أنْ يُواطئَ القلبُ اللسانَ ويسانده ، وهذه الشهادة منهم من اللسان فقط لا يساندها القلب .

الإنسان عُرْضة لأن يقول الصدق مرة والكذب مرة ، لكن هؤلاء بمجرد أن يقولوا (نشهد) فهم كاذبون ، وهذا معنى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ [النحل : 62] .

لأنهم حينما يقولون مثلاً : العزير ابن الله ، المسيح ابن الله ، الملائكة بنات الله . هذه كلها قضايا باطلة ليس لها واقع يوافق منطوق اللسان . . فألسنتهم تصف الكذب .

وإنْ أردتَ أن تعرف الكذب الذي لا يطابق الواقع فاستمع إليه فبمجرد أنْ يُقال تعلم أنه كذب . . مثل ما حدث مع مُسيْلمة الذي ادَّعى النبوة ، مجرد أنْ قال : أنا نبي قلنا : مسيلمة الكذاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى . . ﴾ [النحل : 62] .

أي : أن الكذب في قولهم (لهم الحسنى) فهذا اغترار وتمنٍّ على الله دون حق ، ومثل هذه المقولة في سورة الكهف ، في قصة أصحاب الجنتين ، يقول تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 35-36] .

فهذه مقولات ثلاث كاذبة :

قوله : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾ [الكهف : 35] .

هذه الأولى ، فكم من أشياء تغيَّرت ، ومن يضمن لك بقاء ما أنت فيه ، والحق تبارك وتعالى يقول في آية أخرى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ [القلم : 17-20] .

الكذبة الثانية : ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ [الكهف : 36] .

فقد أنكر الساعة .

الكذبة الثالثة : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] .

وهذا هو الشاهد في الآية هنا ، ففيها اغترار وتمنٍّ على الله دون حقٍّ ، كمن ادعوْا أن لهم الحسنى ، وهم ليسوا أهلاً لها .

وفي موضع آخر تأتي نفس المقولة :

﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَاءِ الخير وَإِن مَّسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 49-50] .

وهكذا الإنسان في طَبْعه أنه لا يسأم من طلب الخير ، وكلما وصل فيه إلى مرتبة تمنّى أعلى منها ، يقنط إنْ مسَّه شر ، وإنْ رفع الله عنه ورحمه قال : هذا لي . . أنا استحقه ، وأنا جدير به . . ألاَ قلتَ : هذا فضل من الله ونعمة ، ثم بعد ذلك هو يتمنى على الله الأماني ويقول : ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] .

ويُروى أن سيدنا داود عليه السلام مع ما أعطاه الله من المُلْك والعظمة أنه صعد يوماً سطح منزله ، فابتلاه الله بسِرْب من الجراد الذهب ، فحينما رآه داود جعل يجمع منه في ثوبه ، فقال له ربه : ألم أُغْنِك يا داود ؟ قال : نعم ولكن لا غِنَى لي عن فضلك .

وقوله تعالى :

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار . . . ﴾ [النحل : 62] .

لا جرم : أي حقاً أن لهم النار على ما تقدم منهم أن جعلوا لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم

الكذب، وهذه أفعال يستحقون النار عليها .

وكلمة ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ منها جارم بمعنى مجرم، فالمعنى: لا جريمة في عقاب هؤلاء، لأنه لا يُقال على عقوبة الجريمة أنها جريمة . . إذن: لها معنيان، لا بُدَّ أن لهم النار، أو لا جريمة في أن لهم النار جزاء أعمالهم .

﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ [النحل: 62] .

جاءت في كلمة مُفْرطون عدة قراءات: مفرَطون، مفرِطون، مفرّطون، مفرَّطون .

وجميعها تلتقي في المعنى .

(227/437)

نحن حينما نصلي على جنازة مثلاً، إذا كان الميت مكلّفاً نقول في الدعاء له: " اللهم اغفر له، اللهم ارحمه . . اللهم إنْ كان مُحسناً فزدْ في إحسانه، وإنْ كان مُسِيئاً فتجاوز عن سيئاته " . فإنْ كان صغيراً غير مُكلَّف قُلْنا في الدعاء له " اللهم اجعله فرَطاً وذخراً " .

فما معنى فرَطاً هنا؟

معناه: أن يكون الطفل فَرَطاً لأبويه ومُقدّمة لهما إلى الجنة . . يمرُّ بين يديْ والديْه ويسبقهما إلى الجنة، وكأنه يقدم عليهما لِيُمهد لهما الطريق ليغفر الله لهما . . إذن: معنى مُفْرطون

أي مُقدِّمون . ولكن إلى النار .

ومنه قوله تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة . . ﴾ [هود : 98] .

أي : يتقدمهم إلى النار . . كما كنتَ مُقدّماً عليهم ، وإماماً لهم في الدنيا ، فسوف تتقدمهم هنا وتسبقهم إلى النار .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ﴾

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يُقسِم بما يشاء على ما يشاء ، أما نحن فلا نقسم إلا بالله ، وفي الحديث الشريف : "مَنْ كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت" .

والحق تبارك وتعالى هنا يحلف بذاته سبحانه ﴿ تالله ﴾ ، مثل : والله وبالله .

وقد جاء القسم لتأكيد المعنى ؛ ولذلك يقول أحد الصالحين : من أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟ !

وقد يؤكد الحق سبحانه القسم بذاته ، أو القسم ببعض خَلْقه ، وقد ينفي القسم وهو يُقسِم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] .

وقوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 75- 76] .

ومعنى : لا أقسم أن هذا الأمر واضح جَلِيّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مُقسِماً لأقسمتُ به ، بدليل قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 76] .

إذن : الحق سبحانه يُقسِم بذاته ليؤكد لنا الأمر تأكيداً ، وتأكيد الأمر عند الحكم في القضاء مَثلاً : إما بالإقرار ، وإما باليمين . . فإذا ما أقسمت له وحلفتَ فقد سددْتَ عليه منافذ التكذيب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [النحل : 63] .

أي : لستَ بِدْعاً في أنْ تُكذَّب من قومك ، فهذه طبيعة الذين يستقبلون الدعوة من الله على ألسنة الرسل ؛ لأن الرسل لا يرسلهم الله إلا حينما يطمّ الفساد ويعُم .

ومعنى إرسال الرسل إذن أنه لا حَلَّ إلا أنْ تتدخلَ السماء ؛ ذلك لأن الإنسان فيه مناعات يقينية في ذاته ، وهي نفسه اللوامة التي تلومه إذا أخطأ وتُعدِّل من سلوكه ، فهي رادع له من نفسه .

فإذا ما تبلَّدتْ هذه النفس ، وتعوَّدتْ على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمة ، فمَنْ لا تُردِعه نفسه اللوامة يُردعه المجتمع من حوله . . فإذا ما فسدَ المجتمع أيضاً ، فماذا يكون الحل ؟ الحل أن تتدخل السماء لإنقاذ هؤلاء .

إذن: تتدخل السماء بإرسال الرسل حينما يعُمّ الفسادُ المجتمعَ كله؛ ولذلك فأمة محمد صلى الله عليه وسلم من شرفها عند ربها أنْ قال لهم: أنتم مأمونون على رعاية منهجي في ذواتكم، لوّامون لأنفسكم، آمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر في غيركم؛ لذلك لن أرسل فيكم رسولاً آخر، فأنتم سوف تقومون بهذه المهمة.

لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . ﴾ [آل عمران: 110].

(229/437)

فقد آمن أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أن تكون حارسة لمنهجه، إما بالنفس اللوامة، وإما بالمجتمع الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، وهذا شرف عظيم لهذه الأمة.

إذن: يأتي الرسول حينما يعُمُّ الفساد.. فما معنى الفساد؟.. الفساد: أن تُوجد مصالح طائفة على حساب طائفة أخرى، فأهل الفساد والمنتفعون به إذا جاءهم رسول ليُخلّص الناس من فسادهم، كيف يقابلونه؟ أيقابلونه بالترحاب؟ بالطبع لا.

. لا بُدّ وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار، ويعلنوا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم.

ويُتبع الحق سبحانه هذا بقوله:

﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ . . ﴾ [النحل : 63] .

هنا يتدخل الشيطان ، ويُزيّن لأهل الفساد أعمالهم ، ويحثّهم على محاربة الرسل ؛ فهؤلاء الذين سيقضون على نفوذكم ، سوف يأخذون ما في أيديكم من مُتَع الدنيا ، سوف يهزّون مراكزكم ، ويحطُّون من مكانتكم بين الناس . . هؤلاء سوف يرفعون عليكم السِّفْلة والعبيد . .

وهكذا يتمسَّك أهل الفساد والظلم بظلمهم ، ويعضون عليه بالنواجذ ، ويقفون من الرسل موقف العداء ، فوطِّنْ نفسك على هذا ، فلن تُقابل من السادة إلا بالجحود وبالإنكار وبالمحاربة .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم . . . ﴾ [النحل : 63] .

أي : في الآخرة ، فما دام الشيطان تولاَّهم في الدنيا ، وزيَّن لهم ، وأغراهم بعداء الرسل ، فَلْيتولَّهم الآن ، وليدافع عنهم يوم القيامة . . وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ إني أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ [الحشر : 16] .

وفي جدالهم يوم القيامة مع الشيطان يقولون له : أنت أغويتَنا وزيَّنْتَ لنا . . ماذا يقول ؟

يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . ﴾ [إبراهيم : 22] .

والسلطان هنا : إمّا بالحجة التي تُقنع ، وإما بالقهر والغلبة والقوة التي تفرض ما تريد ، وليس للشيطان شيء من ذلك . . لا يملك حُجة يُقنعك بها لتفعل ، ولا يملك قوة يُجبرك بها أنْ تفعل وأنت كاره .

وهكذا يجادلهم الشيطان ويردُّ عليهم دعواهم ، فليس له عليكم سلطان ، بل مجرد الإشارة أوقعتْكم في المعصية .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفئتان نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بريء مِّنْكُمْ إني أرى مَا لاَ تَرَوْنَ إني أَخَافُ الله . . ﴾ [الأنفال : 48] .

وقوله :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : 63] .

يَصف العذاب هنا بأنه أليم شديد مُهلِك ، وقد وصف الله العذاب بأنه أليم ، عظيم ، مُهين ، شديد . . والعذاب شعور بالألم وإحساسٌ به ، وقد توصَّل العلماء إلى أن الإحساس

كله في الجلد ؛ لذلك قال الحق سبحانه لِيُديمَ على هؤلاء العذاب : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذاب . . ﴾ [النساء : 56] .

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(231/437)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (النحل : 60) ، وفي سورة الروم : (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم : 27) ، للسائل أن يسأل عما زيد في آية الروم من قوله : (فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) مع أن ذلك مفهوم من الآية الأخرى وملعوم (لا يمكن خلافه) وإن يقع به إفصاح في اللفظ ؟

والجواب أن ذلك إنما جرى بحسب مقتضى المقصود في كل من الآيتين ، أما آية النحل فقد تقدمها قوله تعالى : (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ) (النحل : 60) ، فقوبل بحسب التفصيل ومقتضى التقابل بقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (النحل : 60) ، فتطابق

الكلام وتناسب موزانة لفظ وجليل تقابل ، ولم يقع قلبها ذكر السماوات والأرض ، فلم يكن ليناسب ذلك ذكرهما بعده .

وأما آية الروم فتقدمها قوله عز وجل : (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) (الروم : 26) ، ثم قال بعد : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الروم : 27) ، ووضوح التناسب في هذا غير محتاج إلى زيادة بيان .

قوله تعالى : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (النحل : 61) ، وفي سورة الملائكة : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (النحل : 61) ، فيهما سؤالان :

أحدهما ، قوله تعالى في الأولى : (بظلمهم) وفي الثانية (بما كسبوا) والثاني ، قوله في الأولى (عليها) وفي الثانية (على ظهرها) .

والجواب : أن آية النحل تقدمها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ ﴿ النحل : 58-59 ﴾ ، فإشارة الآية إلى وأدهم البنات -وهو أعظم الظلم وأشنعه إذ لم يتقدم للمؤودة جريمة ولا شبهة يتعلق بها قاتلها - ناسب هذا ذكر الظلم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ، والضمير في عليها للأرض ، يفهمه سياق الكلام ، فناسب ما أشير إليه من عظيم ظلمهم التوبيخ بذكر الظلم في قوله : ﴿ بظلمهم ﴾ .

ولما لم يتقدم في آية سورة الملائكة إفصاح بذكر الظلم بل تقدمها قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ ﴿ فاطر : 42-43 ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ فاطر : 43 ﴾ ، فأشير إلى اجترامانهم وسيء اكتسابهم بنفورهم ومكرهم السيء ، فناسب ذلك قوله : ﴿ بما كسبوا ﴾ وقيل هنا : ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ والضمير للأرض يسره السياق كالأول ، وقيل : ﴿ على ظهرها ﴾ ليناسب في طول تركيبه قوله : ﴿ بما كسبوا ﴾ ، كما ناسب قوله ﴿ عليها ﴾ في الآية الأولى قوله : ﴿ بظلمهم ﴾ في قلة حروفه تناسب التوازن والتقابل ، فورد كلّ على ما يجب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 299. 300 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ويجعلون لله البنات . . . ﴾ الآيات . يقول : يجعلون له البنات ، يرضونهن له ولا يرضونهن لأنفسهم . وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هون أو دسّها في التراب وهي حية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ قال : يعني به البنين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ قال : هذا صنيع مشركي العرب ، أخبرهم الله بخبث صنيعهم . فأما المؤمن ، فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله له ، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه . ولعمري ما ندري أنه لخير لرب جارية خير لأهلها من غلام

، وإنما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه ، فكان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : كانت العرب يقتلون ما ولد لهم من جارية فيدسونها في التراب وهي حية حتى تموت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ على هون ﴾ أي هوان بلغة قريش .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ قال : يئد ابنته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ قال : بئس ما حكموا . يقول : شيء لا يرضونه لأنفسهم ، فكيف يرضونه لي . . . . ؟

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ قال : يقول ليس كمثله شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور جـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ : العامَّةُ على أنَّ " الكذبَ " مفعولٌ به ، و ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ بدلٌ منه بدل كلٍ مِنْ كل ، أو على إسقاط الخافض ، أي : بأنَّ لهم الحسنى .

وقرأ الحسن " أَلْسِنَتْهُمْ " بسكونِ التاءِ تخفيفاً ، وهي تُشْبه تسكينَ لامِ ﴿ بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 80] ، وهمزة " بارِئْكم " ونحوه .

والأَلْسِنَةُ جمع " لِسان " مراداً به التذكير فجُمع كما يُجْمَعُ فِعال المذكر نحو : حِمار وأَحْمِرة ، وإذا أُريد به التأنيث جُمع جمعَ أَفْعُل كذِراع وأَذْرُع .

وقرأ معاذ بن جبل " الكُذُبُ " بضمِّ الكاف والذال ورفعِ الباء ، على أنه جَمْعُ كَذُوب كصَبُور وصُبُر ، وهو مقيسٌ ، وقيل : جمع كاذِب نحو : شارِف وشُرُف ، كقولها :

3988- ألا يا حَمْزُ للشُّرُفِ النَّواءِ . . . .

لكنه غيرُ مقيسٍ ، وهو حينئذٍ صفةٌ ل " ألسنتهم " ، وحينئذٍ يكون ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ مفعولاً به . وقد تقدَّم الكلامُ في " لا جَرَمَ " مستوفى في هود .

قوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ قرأ نافع بكسر الراءِ اسمَ فاعلٍ مِنْ أَفْرَط إذا تجاوَزَ ، فالمعنى : أنهم يتجاوزون الحَدَّ في معاصي الله تعالى . فأَفْعَلَ هنا قاصرٌ . والباقون بفتحها اسمَ مفعولٍ مِنْ أَفْرَطْتُه ، وفيه معنيان ، أحدُهما : أنَّه مِنْ أَفْرطته خلفي ، أي : تركتُه ونَسِيْتُه ، حكى الفراء أنَّ العرب تقول : أَفْرطْتُ منهم ناساً ، أي : خَلَّفْتُهم ، والمعنى : أنهم مَنْسِيُّون متروكون في النار . والثاني : أنه مِنْ أَفْرَطْتُه ، أي : قَدَّمْتُه إلى كذا ، وهو منقولٌ بالهمزة مِنْ فَرَط إلى كذا ، أي : تقدَّم إليه ، كذا قال الشيخ ، وأنشد للقطامي :

2989- واسْتَعْجَلُونْا وكانوا مِنْ صحابَتِنا . . . كما تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لوُرَّادِ

فَجَعَلَ " فَرَط " قاصراً و " أفرط " منقولاً . وقال الزمخشري : " بمعنى يتقدَّمون إلى النار ، ويتعجَّلون إليها ، مِنْ أَفْرَطْتُ فلاناً وفَرَطْتُه إذا قدَّمته إلى الماء " ، فجعل فَعَل وأَفْعَل بمعنى ، لا أن أَفْعل منقولٌ مِنْ فَعَل ، والقولان محتملان ، ومنه " الفَرَطُ " ، أي : المتقدم . قال عليه السلام : " أنا فَرَطُكم على الحوض " ، أي : سابِقُكم . ومنه " واجعله فَرَطاً وذُخْراً " ، أي : متقدِّماً بالشفاعةِ وتثقيلِ الموازين .

وقرأ أبو جعفر - في روايةٍ - " مُفَرِّطون " بتشديدِ الراءِ مكسورةً مِنْ فَرَّط في كذا : أي : قَصَّر ، وفي روايةٍ ، مفتوحةً ، مِنْ فَرَّطته مُعَدَّى بالتضعيفِ مِنْ فَرَط بالتخفيف ، أي : تَقَدَّم وسَبَقَ .

وقرأ عيسى بن عمر والحسن "لا جرَمَ إنَّ لهم النارَ وإنهم" بكسرِ "إنَّ فيهما على أنَّها جوابُ قسمٍ أَغْنَتْ عنه "لا جَرَمَ" .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ﴾

(237/437)

قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ : يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ ، أي : فهو ناصرُهم ، أو آتيةٍ ، ويراد باليوم يومُ القيامة ، هذا إذا عاد الضمير على "أُمَم" وهو الظاهر .

وجوَّز الزمخشريُّ أن يعودَ على قريش ، فيكونَ حكايةَ حالٍ في الحال لا ماضيةٍ ولا آتيةٍ ، وجوَّز أن يكون عائداً على "أمم" ولكنْ على حَذْفِ مضافٍ تقديره : فهو وَلِيُّ أمثالِهم اليومَ . واستبعده الشيخُ ، وكأنَّ الذي حمله على ذلك قولُه "اليومَ" فإنه ظرفٌ حالِيٌّ ، وقد تقدَّم أنه على حكايةِ الحالِ الماضية أو الآتية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 249.246 ﴾

(238/437)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) ﴾

مَثَلُ السوءِ للكفار الذين جحدوا توحيدَه فلهم صفة السوء .

ولله صفات الجلال ونعوت العِزِّ ، ومَنْ عَرَفَه بنعت الإلهية تَمّتْ سعادتُه في الدارين ، وتعجلت راحته ، وتنَزّه سِرُّه على الدوام في رياضِ عرفانه ، وطَرِبَتْ روحُه أبداً في هيجان وَجْدِه .

أمّا الذين وُسِمُوا بالشّركِ ففي عقوبة مُعَجّلَة وهموم مُحَصَّلَة . ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ . . . ﴾

أي لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لَحَلَّ الاستئصالُ بهم ، ولكنّ الحُكْمَ سَبَقَ بإمهالهم ، وسَيَلْقَوْن غِبَّ أعمالِهم في مآلهم .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) ﴾

انخدعوا لَمّا لانَ لهم العيشُ ، فظنوا أنهم ينجون ، وبما يُؤَمّلونه يحيطون ؛ فَحسُنَتْ في أعينهم مقابحُ صفاتهم ، ويوم يُكْشَفَ الغطاءُ عنهم يعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة ، فلا تسْمَعُ منهم دعوة ، ولا تتعلق بأحدهم رحمة .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ﴾

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – وذلك أنه أخبر أن مَنْ تَقَدَّمَه من الأمم كانوا في سلوك الضلالة ، والانخراط في سِلْكِ الجهالة كما كان من قومه ، ولكن اللَّهَ – سبحانه – لم يعجز عنهم . وكما سَوَّلَ الشيطانُ لأُمَّتِه ، وكان ولياً لهم ، فهو وليُّ هؤلاء . وأمّا المؤمنون فالله وليُّهم ، والكافرون لا مَوْلى لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 303 . 304 ﴾

(239/437)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾

(240/437)

التفسير : الشبهة الخامسة أن قريشاً كانوا يقولون الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله بشراً فأجاب سبحانه بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ والمراد أن هذه عادة مستمرة من أوّل زمان الخلق والتكليف . وزعم أبو علي الجبائي أنه لم يبعث إلى الأنبياء إلا من هو بصورة الرجال من الملائكة . قال القاضي : ولعله أراد الملك الذي يرسل إلى الأنبياء بحضرة أممهم كما روي أن جبرائيل عليه السلام كان يأتي في صورة دحية وفي صورة سراقة ، وإنما قيدنا بحضرة الأمم لأن الملائكة قد يبعثون على صورتهم الأصلية عند إبلاغ الرسالة من الله إلى نبيه كما روي أنه صلى الله عليه وسلم رآى جبرائيل على صورته التي هو عليها مرتين . وعليه تأوّلوا قوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ [النجم : 13] ثم إنهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله - أعني قريشاً - بأن يرجعوا إليهم في هذه المسألة ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها وذلك قوله : ﴿ فاسئلوا أهل الذكر ﴾ قال بعض الأصوليين : فيه دليل على أنه يجوز للمجتهد تقليد مجتهد آخر فيما يشتبه عليه . واحتج نفاة القياس بالآية قالوا : لو كان حجة لما وجب على المكلف السؤال بل كان عليه أن يستنبط ذلك الحكم بواسطة القياس . وأجيب بأنه قد ثبت العمل بالقياس لإجماع الصحابة ، والإجماع أقوى من ظاهر النص . أما قوله : ﴿ بالبينات ﴾ ففي متعلقه وجوه منها : أن يتعلق ب ﴿ أرسلنا ﴾ داخلاً تحت حكم الاستثناء مع ﴿ رجالاً ﴾

وأنكر الفراء ذلك قال : إن صلة ما قبل " إلا " لا تتأخر على ما بعد " إلا " لأن المستثنى منه هو مجموع ما قبل إلا مع صلته كما لو قيل : ما أرسلنا بالبينات إلا رجالاً .

(241/437)

ولما لم يصر هذا المجموع مذكوراً بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه . ومنها أن يتعلق ب ﴿ رجالاً ﴾ صفة له أي رجالاً متلبسين بالبينات . ومنها أن يتعلق ب ﴿ أرسلنا ﴾ مضمراً نظيره " ما مر إلا أخوك " ، ثم تقول " مرَّ بزيد " قاله الفراء . ومنها أن يتعلق ب ﴿ بيوحى ﴾ أي يوحى إليهم بالبينات . ومنها أن يتعلق بالذكر بناء على أنه بمعنى العلم . ومنها أن يتعلق ب ﴿ لا تعلمون ﴾ أي إن كنتم لا تعلمون بالبينات وبالزبر فاسألوا . وقال في الكشاف : الشرط ههنا في معنى التبكيت والإلزام كقول الأجير : إن كنت عملت لك فأعطني حقي . قلت : أراد أن عدم علمهم مقرر كما أن عمل الأجير ثابت . وسلم جار الله أن مثل قوله : ﴿ فاسألوا ﴾ جواب الشرط على هذا الوجه . وأما على الوجوه المتقدمة فجزم أنه اعتراض بناء على أن جواب الشرط هو ما دل عليه قوله ﴿ وما أرسلنا ﴾ الخ . وعندي أن هذا الجزم ليس بحتم ويجوز على كل الوجوه أن يكون مثل ﴿ فاسألوا ﴾ جواباً والله أعلم . وأهل الذكر أهل التوراة . كقوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد

الذكر ﴾ [الأنبياء : 105] يعني التوراة . وقال الزجاج : سلوا كل من يذكر بعلم وتحقيق . وقوله : ﴿ بالبينات والزبر ﴾ لفظ جامع لكل ما تتكامل به الرسالة لأن مدارها على المعجزات الدالة على صدق من يدعي الرسالة وهي البينات ، وعلى التكاليف التي تعتبر في باب العبادة وهي للزبر . ثم قال : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ أي القرآن الذي هو موعظة وتنبيه وتذكير لأهل الغفلة والنسيان ، وبيّن الغاية المترتبة على الإنزال وهي تبيين الأحكام والشرائع بالنسبة إلى الرسول وإرادة التأمل والتفكر في المبدإ والمعاد بالإضافة إلى المكلفين . وفي ظاهر هذا النص دلالة على أن القرآن كله مجمل ، ومن هنا ذهب بعضهم إلى أنه متى وقع التعارض بين القرآن والخبر وجب تقديم الخبر لأن القرآن مجمل والخبر مبين له . وأجيب بمنع الكلية فمن القرآن ما هو محكم ، وقوله : ﴿ لتبين ﴾ محمول

على المتشابهات المجملات . قال بعض من نفى القياس : لو كان القياس حجة لما وجب على الرسول أن يبين للمكلفين ما أنزل الله عليه من الأحكام بل كان له أن يفوض بعضها إلى رأي القائس ، وأجيب بأنه لما بيّن أن القياس من جملة الحجج فالقياس أيضاً راجع إلى بيان الرسول .

ثم لما ذكر شبهات المنكرين مع أجوبتها شرع في التهديد والوعيد والإنذار والتنبيه فقال ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ أي المكرات السيئات أراد أهل مكة ومن حول المدينة. قال الكلبي: عنى بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله، والأقرب أن المراد سعيهم في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وإيذاء أصحابه على سبيل الخفية ﴿ أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ كما خسف بقارون ﴿ أو يأتيهم العذاب ﴾ أو ملائكة العذاب من السماء ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ كما فعل بقوم لوط ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم فيما هم بمعجزين ﴾ فائتين الله، وذكر المفسرون في هذا التقلب وجوهاً منها: أنه تعالى يأخذهم في أسفارهم ومتاجرهم فإنه قادر على أن يهلكهم في السفر كما أنه قادر على أن يهلكهم في الحضر وهم لا يفوتون الله بسبب ضربهم في البلاد البعيدة.

(243/437)

ومنها أنه يأخذهم بالليل والنهار في أحوال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم، وحقيقته في حال تصرفهم في الأمور التي يتصرف فيها أمثالهم. ومنها أنه أراد في حال ما يتقلبون في قضاء أوطارهم بوجوه الحيل فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم. والتقلب بالمعنى الأوّل مأخوذ من قوله: ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ [آل عمران: 196]

وبالمعنى الثالث من قرأ ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ ﴿ التوبة : 48] . ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ على حالة تخوفهم وتوقعهم للبلاء بأن يكون قد أهلك قوماً قبلهم فكان أثر الخوف باقياً فيهم ظاهراً عليهم فهو خلاف قوله : ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ وقيل : التخوف التنقص والمعنى أنه يأخذهم بطريق النقص شيئاً بعد شيء في ديارهم وأموالهم وأنفسهم حتى يأتي الفناء على الكل . عن عمر أنه قال على المنبر : ما تقولون فيها ؟ فسكتوا : فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف التنقص فقال : فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم قال شاعرنا زهير :

تخوّف الرحل منها تامكاً قرداً . . . كما تخوف عود النبعة السفن

قوله تامكا قرداً أي سناماً مرتفعاً متراكماً ، والسفن ما ينحت به الشيء ومنه السفينة لأنها تسفن وجه الماء بالمر في البحر . فقال عمر : أيها الناس عليكم بديوانكم . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ فإن ربكم لرءُوف رحيم ﴾ فذهب المفسرون إلى أن معناه أنه يمهل في أكثر الأمر لأنه رءُوف رحيم فلا يعجل بالعذاب . وأقول : يحتمل أن يكون قوله " فإن " تعليلاً لقوله ﴿ أفأمن ﴾ كقوله : ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ [الانفطار : 6] .

ولما خوف الماكرين بما خوف أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وسكانهما فقال ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله ﴾ قال جار الله : "ما" مبهمة بيانه ﴿ من شيء ﴾ وقال أهل المعاني : قوله : ﴿ يتفيؤ ظلاله ﴾ إخبار عن شيء وليس بوصف له . ويتفيأ "يتفعل" من الفيء وأصله الرجوع ومنه فيئة المولى . وقال الأزهري : تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار . فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشيّ ، وما انصرف عنه الشمس والقمر والذي يكون بالغداة ظل .

(245/437)

وقال ثعلب : أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ، وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل . وقوله : ﴿ ظلاله ﴾ أضاف الظلال إلى مفرد ومعناه الإضافة إلى ذوي الظلال ووجه حسنه كون المرجوع إليه واحداً في اللفظ وإن كان كثيراً في المعنى وهو قوله : ﴿ إلى ما خلق ﴾ نظيره ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ [الزخرف : 13] أضاف الظهور - وهو جمع - إلى ضمير مفرد لأنه يعود إلى واحد أريد به الكثرة وهو ما تركبون . قال الجوهري : تفيأت الظلال أي تقلبت . وقوله ﴿ عن اليمين

والشمائل ﴾ قال أهل التفسير ومنهم الفراء : إنه وحد اليمين لأنه أراد واحداً من ذوات الأظلال ، وجمع الشمائل لأنه أراد كلها لأن قوله ﴿ ما خلق الله ﴾ لفظ مفرد ومعناه جمع ، وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد كقوله ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] ﴿ وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ [الأنعام : 46] وقيل : المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس وإنها واحدة ، والشمائل عبارة عن الانحراف الواقع في تلك الأظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة . وإنما عبر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه ومنه تظهر الحركة القوية ، وكذا جانب الشرق أقوى جوانب الفلك ومنه تظهر الحركة اليومية التي هي أسرع الحركات وأقواها . ويمكن أن يقال : إن الإنسان إذا توجه إلى الشرق الذي هو أولى الجوانب بالاعتبار لشرفه كان الجنوب يمينه والشمال شماله ، ولا ريب أن وصول الشمس إلى فلك نصف النهار يختلف بحسب البلاد . وقد يتفق انتقالها من الجنوب إلى الشمال وبالعكس في بلد واحد إذا كان عرضه ناقصاً عن الميل الكلي . ومن المعلوم أن الشمس حين وصولها إلى نصف النهار إن كانت في جنوب سمت الرأس وقع ظلها إلى جانب الشمال ، وإن كانت في شماله وقع ظلها إلى الجنوب ، فيحتمل أن يراد بتفيؤ الأظلال تقلبها في هاتين الجهتين والله أعلم . أما قوله ﴿

سجداً لله ﴾ فإنه حال من الظلال ، ومعنى سجودها انقيادها لأمر الله منتقلة من جانب إلى جانب حسب تحرك النير على نسب مخصوصة ومقادير معلومة ذكرنا بعضها في كتبنا النجومية . وقد نبى المتأخرون على الأظلال مسائل كثيرة منها : الشكل الموسوم بالظلي مع فروعه ، وذكر بعضهم في تفسير هذا السجود أن هذه الأظلال واقعة على الأرض ملصقة بها على هيئة الساجد . وقوله ﴿ وهم داخرون ﴾ حال أخرى من الظلال . وإنما جمع بالواو والنون لأنهم أشبهوا العقلاء من حيث طاعتها لله سبحانه . وقال جار الله : اليمين والشمائل استعارة عن يمين الإنسان وشماله بجانبي الشيء أي ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ . والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لا تمتنع ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة ﴾ قال الأخفش : أي من الدواب : وأخبر بالواحد كما تقول : ما أتاني من رجل مثله وما أتاني من الرجال مثله .

وقال ابن عباس : يريد كل ما دب على الأرض ، والوجه في تخصيص الدابة والملائكة بالذكر أنه علم من آية الظلال أن الجمادات بأسرها منقادة له ، فبين في هذه الآية أن الحيوانات بأسرها أيضاً كذلك . ثم عطف عليها الملائكة إما لشرفها وإما لأنها ليست مما يدب ولكنها تطير بالجناحين ، وبين النوعين مغايرة لقوله : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] وعلى قاعدة الحكماء : وجه المغايرة أنها أرواح مجردة ليست من شأنها الحركة والدب . قال جار الله : ومن دابة يجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً ، على أن في السموات خلقاً لله يدبون فيها كما يدب الأناسيّ في الأرض ، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح ، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده ويراد بما في السموات الملائكة . وكرر ذكرهم على معنى والملائكة خصوصاً من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعدلهم ، ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهن ، وبقوله : ﴿ والملائكة ﴾ ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم انتهى كلامه . ثم شرع سبحانه في صفة الملائكة وذكر عصمتهم قال : ﴿ وهم لا يستكبرون يخافون ﴾ على أنه حال منهم أو بيان لنفي استكبارهم لأن الخوف أثره عدم الاستكبار . وقوله ﴿ من فوقهم ﴾ إما أن يتعلق ب [يخافون] والمعنى يخافون ربهم أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ، وإما أن يكون حالاً من الرب أي يخافونه غالباً قاهراً . وبحث الفوقية قد تقدم في الأنعام في قوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ ﴿

الأنعام : 18] زعم بعض الطاعنين في عصمة الملائكة أنه تعالى وصفهم بالخوف وحصول الخوف نتيجة تجويز الإقدام على الذنوب ، وهب أنهم فعلوا كل ما أمروا به فمن أين علم أنهم تركوا كل ما نهوا عنه ؟ والجواب عن الأوّل أنهم إنما يخافون من العذاب لقوله تعالى : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ [الأنبياء : 29] فمن

(248/437)

هذا الخوف يتركون الذنب . وعن ابن عباس أن هذا الخوف خوف الإجلال كقوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] ولا ريب أنه كلما كانت معرفة جلال الله أتم كانت الهيبة والحيرة أعظم . وعن الثاني أن النهي عن الشيء أمر بتركه ، وفي الآية دلالة على أن إبليس لم يكن من الملائكة لأنه أبى واستكبر وإنهم لا يستكبرون . وقد يستدل بها على أن الملك أفضل من البشر بل من كل المخلوقات وإلا لما خصهم بالذكر من بينها ، ولخلو بواطنهم وظواهرهم عن الأخلاق الذميمة وانغماس البشر في الدواعي الشهوية والغضبية ، ولهذا ورد في حقه

﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] وقال صلى الله عليه وسلم : " ما منا إلا من قد عصى أو هم بمعصية غير يحيى بن زكريا " وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم " الشيخ في

قومه كالنبي في أمته " فضل الشيخ على الشاب لتقادم عهده وطول مدته ، ولا شك أن الملائكة خلقوا قبل البشر بسنين متطاولة وقرون متمادية ، وأنهم سنوا الطاعة والعبودية ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها . وتمام البحث في هذه المسألة مذكور في أول سورة البقرة . وفي قوله : ﴿ ما يؤمرون ﴾ دلالة على أن الملائكة مكلفون بالأمر والنهي والوعد والوعيد راجين خائفين .

(249/437)

ولما بين أن كل ما سواه في عالمي الأرواح والأجسام فإنه منقاد خاضع لجلاله وكبريائه أتبعه النهي عن الشرك قائلاً ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾ فسئل أن التثنية والواحد حيث كانا يدلان على العدد الخاص ، فما الفائدة في وصف إلهين باثنين ووصف إله بواحد ؟ وأجيب بوجوه منها : قول صاحب النظم أن فيه تقديماً وتأخيراً أي لا تتخذوا اثنين إلهين . ومنها أنه كررت العبارة لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك . ومنها قول لأهل المعاني إن فائدة الوصف والبيان هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية ، ولهذا لو قلت : إنما هو إله ولم تؤكده بواحد سبق إلى الوهم إنك تثبت الإلهية لا الوحدانية . وكيف لا يحتاج المقام إلى التوكيد والأثنينية منافية للإلهية لاستلزام تعدد

الواجب كون كل منهما مركباً من جزأين ما به الاشتراك في الوجوب الذاتي ، وما به الامتياز ولكن التركيب يوجب الافتقار إلى البسائط والافتقار ينافي الوجوب . ودليل التمانع أيضاً يعين على المطلوب كما لو أراد أحدهما تحريك جسم معين وأراد الآخر تسكينه ، أو قوي أحدهما على مخالفة الآخر أو لا يقوى ، أو قدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر . ثم نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات قائلاً : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ وقد مر مثله في أوّل " البقرة " ثم لما قرر وحدته وأنه يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة إليه ذكر أن الكل ملكه فقال : ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ فقالت الأشاعرة : ليس المراد من كونها لله أنها مفعولة لأجله ولغرض طاعته لأن فيها المباحات والمحظورات التي يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة لا لغرض الطاعة ، فالمراد أن كلها بتخليقه وتكوينه ومن جملة ذلك أفعال العباد ، ثم قال ﴿ وله الدين واصباً ﴾ فالدين الطاعة ، والواصب الدائم ، ومفازة واصبة بعيدة لا غاية لها . ويقال للمريض وصب لكون ذلك المرض لازماً له .

وانتصابه على

الحال والعامل فيه ما في الظرف من معنى الفعل . قال ابن قتيبة : ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو الموت إلا الحق سبحانه ، فإن طاعته واجبة أبداً .

ويحتمل أن يكون الدين بمعنى الملة أي وله الدين ذا كلفة ومشقة ولذلك سمي تكليفاً ، أو وله الجزاء سرمداً لا يزول يعني الثواب والعقاب . وقال بعض المتكلمين المحققين : قوله ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ إشارة إلى احتياج الكل إليه في حال حدوثه . وقوله : ﴿ وله الدين ﴾ أي الانقياد ﴿ واصباً ﴾ إشارة إلى أن جميع الممكنات مفتقرة إلى فيض وجوده في حال وجوده لأن الصحيح أن الممكن حال بقائه لا يستغني عن المرجح .

(251/437)

ثم أنكر أن يكون الممكن مع شدة افتقاره إليه يخشى غيره فقال ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ ثم منّ عليهم بقوله : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ " ما " بمعنى " الذي " وبكم صلته و ﴿ من نعمة ﴾ حال من الضمير في الجار ، أو بيان لما وقوله : ﴿ فمن الله ﴾ الخبر . وقيل : " ما " شرطية وفعل الشرط محذوف أي ما يكن . وقال جار الله : معناه أي شيء حل بكم أو اتصل بكم من نعمة فهو من الله ، قال الأشاعرة : أفضل النعم نعمة الإيمان والآية تفيد

العموم فهو من نعم الله . والنعمة إما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به ، وإما دنيوية نفسانية أو بدنية أو خارجة كالسعادات المالية وغيرها ، وكل واحدة من هذه جنس تحتها أنواع لا حصر لها والكل من الله ، فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه . ثم بين تلون حال الإنسان بعد استغراقه في بحار نعم الله قائلاً ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ ما تتضرعون إلا إليه . والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة . ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ قال جار الله : يجوز أن يكون الخطاب في قوله : ﴿ وما بكم ﴾ عاماً ، ويريد بالفريق فريق الكفرة وأن الخطاب للمشركين و ﴿ منكم ﴾ للبيان لا للتبعيض كأنه قال : فإذا فريق كافر وهم أنتم ، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله : ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ [لقمان : 32] أقول : وأظهر الوجهين الأول والمعنى أن فريقاً منكم يبقى على ما كان عليه عند الضر في أن لا يفزع إلا إلى الله ، وفريقاً يتغير عن حاله فيشرك بالله ، ولعل هذه صفة لازمة لجوهر الإنسان ولهذا قال : ﴿ ليكفروا ﴾ كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ، ويجوز أن تكون لام العاقبة يعني عاقبة تلك التضرعات ما كانت إلا هذا الكفران . والمراد بقوله : ﴿ بما آتيناهم ﴾ كشف الضر وإزالة المكروه ، أو القرآن والشرائع ، أو جميع النعم الظاهرة والباطنة التي أنعم الله بها على الإنسان . ثم قال على

سبيل التهديد وبطريقة الالتفات نظراً إلى أوّل الكلام ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ عاقبة كفركم ومثله في " الروم " كما سيجيء ، وأما في " العنكبوت " فإنه قال :

﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ [الآية : 66] بالعطف على القياس . ثم حكى نوعاً آخر من قبائح أعمال بني آدم فقال ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون ﴾ الضمير الأوّل للمشركين والثاني قيل لهم وقيل للأصنام التي لا توصف بالعلم والشعور ، ورجح الأوّل بأن نفي العلم عن الحي حقيقة وعن الجماد مجاز ، وبأن جمع السلامة بالعقلاء أليق ، وقد يرجح الثاني بأن الأوّل يفتقر إلى الإضمار كما لو قيل : ويجعلون لما لا يعلمون في طاعته نفعاً ولا في الإعراض عنه ضراً . وقال مجاهد : يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ﴿ نصيباً ﴾ أو يجعلون لما لا يعلمون إلاهيتها ، أو السبب في صيرورتها معبودة . والمراد بجعل النصيب ما مر في " الأنعام " في قوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ﴾ [الأنعام : 136] وقيل : البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . عن الحسن : وقيل هم المنجمون الذين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة فيقولون لزحل كذا وكذا من المعادن والنبات والحيوان ، وللمشتري كذا إلى آخر الكواكب . ثم أوعدهم الله بقوله : ﴿ تالله لتسئلن عما كنتم تفترون ﴾ على الله من أن له شريكاً وأن الأصنام أهل للتقرب إليها مع أنه لا شعور لها بشيء أصلاً ، أو المراد بالافتراء

قولهم هذا حلال وهذا حرام من غير إذن شرعي ، أو قولهم أن لغير الله تأثيراً في هذا العالم . ومتى يكون هذا السؤال ؟ قيل : عند القرب من الموت ومعاينة ملائكة العذاب ، وقيل : في القبر . والأقرب أنه في الآخرة وهذا في هؤلاء الأقوام خاصة كقوله : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ [الحجر : 29] في الأمم عامة .

قوله : ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ نوع آخر من القبائح وكانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله . قال الإمام فخر الدين الرازي : أظن أن ذلك لأن الملائكة يستترون عن العيون كالنساء ، ومنه إطلاق التأنيث على الشمس لاستتارها عن أن تدرك بالأبصار لضوئها الباهر ونورها القاهر . ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه لذاته عن نسبة الولد إليه أو تعجب من قولهم . ومحل " ما " في قوله ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ إما الرفع على الابتداء ، أو النصب أي وجعلوا لهم ما يشتهون يعني البنين . وأبى الزجاج جواز النصب وقال : لأن العرب لا تقول جعل له كذا وهو يعني نفسه وإنما تقول جعل لنفسه كذا . فلو كان منصوباً لقيل : و " لأنفسهم ما يشتهون " . ثم ذكر غاية كراهتهم للإناث التي جعلوها لله تعالى فقال : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه ﴾ أي صار ﴿ مسودّاً ﴾ ويحتمل أن يكون استعمل "

ظل "لان وضع الحمل يتفق بالليل غالباً فيظل نهاره مسود الوجه ﴿ وهو كظيم ﴾ مملوء غماً وحزناً وغيظاً على المرأة. قال أهل المعاني: جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم والكآبة لأن الإنسان إذا قوي فرحه انبسط الروح من قلبه ووصل إلى الأطراف ولا سيما إلى الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد فاستنار الوجه وأشرق، وإذا قوي غمه انحصر الروح في داخل القلب ولم يبق منه أثر قويّ على الوجه فيتربد الوجه لذلك ويصفر أو يسود ﴿ يتوارى ﴾ يستخفي ﴿ من القوم من سوء ما بشر به ﴾ من أجل سوء المبشر به ولم يظهر أياماً يحدث نفسه ويدبر فيها ماذا يصنع بها وذلك قوله: ﴿ أيمسكه ﴾ أي يحبسه ﴿ على هون ﴾ ذل وهوان.

والظاهر أن هذا صفة المولود أي يمسكها على هوان منه لها. وقال عطاء عن ابن عباس: إنه صفة الأب أي يمسكها مع الرضا بهوان نفسه ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي بيده. والدس إخفاء الشيء في الشيء. وإنما ذكر الضمير في ﴿ يمسكه ﴾ و ﴿ يدسه ﴾ باعتبار ما بشر به. كانوا مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنها من يذبحها. وكانوا يفعلون

ذلك تارة للغيرة والحمية ، وأخرى خوفاً من الفقر والفاقة ولزوم النفقة . روي أن رجلاً قال : يا رسول الله والذين بعثك بالحق ما أجد حلاوة الإسلام وقد كانت لي في الجاهلية ابنة وأمرت امرأتي أن تزينها وأخرجتها ، فلما انتهيت إلى وادٍ بعيد القعر ألقيتها فقال : يا أبتي قتلتني . فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء . فقال صلى الله عليه وسلم : ما في الجاهلية فقد هدمه الإسلام وما في الإسلام يهدمه الاستغفار . ولا ريب أن الأنثى التي هذا محلها عندهم كانت في غاية الكراهية والتنفير ومع ذلك أثبتوها لله المتعالي عن الصاحبة والولد فلذلك قال : ﴿ ألا ساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ ولهذا يقدمون على القتل والإيذاء ﴿ مثل السوء ﴾ وصفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق والتزام الشح البالغ ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ وهو أضداد صفات المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشامل ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغالب فلا يستضر بأن ينسب إليه ما لا يليق به ﴿ الحكيم ﴾ في خلق الذكور والإناث أو في الوعيد على قتل البنات . قال القاضي : إن هؤلاء المشركين استحقوا الذم بإضافة النبات إلى الله وإنه أسهل من إضافة الفواحش والقبائح كلها إليه وهذا شأن المجبرة . وأجابت الأشاعرة بأنه ليس كل ما قبح منا في العرف فإنه يقبح من الله . ألا ترى أن رجلاً لو زين إماءه وعبيده وبالغ في تحسين صورهن وتقوية الشهوة فيهم وفيهن ، ثم جمع بين الكل

وأزال الحائل والمانع فإن هذا بالاتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق ، فعلمنا أن التعويل على هذه الوجوه المبنية على العرف إنما يحسن إذا كانت مسبوقة بالدلائل القطعية اليقينية ، وقد ثبت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله تعالى فعلى جرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الإقناعية .

أما أفعال العباد فقد ثبت بالدلائل اليقينية أن خالقها هو الله تعالى فكيف يمكن إلحاق إحدى الصورتين بالأخرى والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 272.263﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : أن يخسف الله بهم أرض البشرية ودركات السفل أو يأتيهم العذاب بالمكر والاستدراج من حيث لا يشعرون ، أنه من أين أتاهم من قبل الأعمال الدنيوية أو من قبل الأعمال الأخروية أو يأخذهم في تقلبهم من أعمال الدنيا إلى أعمال الآخرة بالرياء ، ومن أعمال الآخرة إلى أعمال الدنيا بالهوى ﴿ أو يأخذهم على تخوّف ﴾ تنقص من مقاماتهم ودرجاتهم بلا شعورهم ﴿ فإن ربكم لرءُوف ﴾ بالعباد إذ أعطاهم حسن الاستعداد ﴿ رحيم ﴾ حين لا يأخذهم بعد إفساد الاستعداد في الحال لعلهم يتوبون في المآل فيقبل توبتهم بالفضل والنوال . ما خلق الله من شيء وهو عالم الأجسام فإن عالم الأرواح خلق من لا شيء يتفيأ ظلاله ، فإن الأجسام ظلال الأرواح فتارة تميل بعمل أهل السعادة إلى أصحاب اليمين ، وأخرى تميل بعمل أهل الشقاء إلى أصحاب الشمال ﴿ سجداً لله ﴾ منقادين لأمره مسخرين لما خلقوا لأجله . وإنما وحد اليمين وجمع الشمال لكثرة أصحاب الشمال ، وسجود كل موجود يناسب حاله كما أن تسبيح كل منهم يلائم لسانه ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ أراد بالإله الآخر الهوى لقوله صلى الله عليه وسلم : " ما عبد إله أبغض على الله من الهوى " ﴿ ويجعلون ﴾ يعني أصحاب النفوس والأهواء ﴿ لما لا يعلمون ﴾ لمن لا علم لهم بأحوالهم ﴿ نصيباً ﴾ بالرياء ﴿ مما رزقناهم ﴾ من الطاعات ﴿ تالله ليسئلن عما كنتم تفترون ﴾ والسؤال عن المعاملات إنما هو بتبديل الصفات وتغير الأحوال من سمة السعادة إلى سمة الشقاوة وبالعكس ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ أظن أن

البنات إشارة إلى صفات فيها نوع نقص كالتجسيم والتشبيه والحلول والاتحاد ، ونسبته إلى الظلم والجور والتعطيل وعدم الاستقلال بالتأثير وغير ذلك مما لا يليق بغاية جلاله ونهاية كماله فلهذا قال سبحانه : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ يعني أن كل أحد يجب أن يوصف بغاية الكمال ويتغير وجهه إذا نبه على عيب فيه ولا يعلم أن مطلق الكمال لا يليق إلا بالواجب بالذات

، ونفس الإمكان نقصان يستلزم جميع النقصانات والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 272 . 273 ﴾

(258/437)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/438)

الجزء الثامن والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 64 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 70 ﴾ من نفس السورة

(4/438)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان حاصل ما مضى الخلاف والضلال والنقمة ، كان كأنه قيل : فبين لهم وخوفهم ليرجعوا ، فإنا ما أرسلناك إلا لذلك ﴿ وما أنزلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة من جهة العلو ﴿ عليك الكتاب ﴾ أي الجامع لكل هدى .

ولما كان في سياق الدعاء والبيان عبر بما يقتضي الإيجاب فقال : ﴿ إلا لتبين ﴾ أي غاية البيان ﴿ لهم ﴾ أي لمن أرسلت إليهم وهم الخلق كافة ﴿ الذي اختلفوا فيه ﴾ من جميع الأمور ديناً ودنيا لكونك أغزرهم علماً وأثقبهم فهماً ، وعطف على موضع "لتبين" ما هو فعل المنزل ، فقال تعالى : ﴿ وهدى ﴾ أي بياناً شافياً ﴿ ورحمة ﴾ أي وإكراما بمحبة .

(5/438)

ولما كان ذلك ربما شملهم وهم على ضلالهم ، نفاه بقوله تعالى : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ والتبيين : معنى يؤدي إلى العلم بالشيء منفصلاً عن غيره ، وقد يكون عن المعنى نفسه ، وقد يكون عن صحته ، والبرهان لا يكون إلا عن صحته فهو أخص ، والاختلاف : ذهاب كل إلى غير جهة صاحبه ، والهدى : بيان طريق العلم المؤدي إلى الحق .

ولما انقضى الدليل على أن قلوبهم منكرة استكباراً وما يتعلق به ، وختمه بما أحيا به القلوب بالإيمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل ، وكان المقصود الأعظم من القرآن تقرير أصول أربعة : الإلهيات ، والنبوات ، والمعاد ، وإثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار ، وكان أجل هذه المقاصد الإلهيات ، شرع في أدلة الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الأشجار ، وأجلى من ضياء النهار فعطف على قوله : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ قوله جامعاً في الدليل بين العالم العلوي والعالم السفلي : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ أنزل من السماء ﴾ في الوقت الذي يريده ﴿ ماء ﴾ بالمطر والثلج والبرد ﴿ فأحيا به الأرض ﴾ الغبراء .

ولما كانت عادته بذلك مستمرة ، وكان السياق لإثبات دعائم الدين ، وكان الإحياء بالماء لا يزال أثره قائماً في زرع أو شجر في بعض الأراضي ، أعرى الظرف من الجار لأن المعنى به أبلغ فقال : ﴿ بعد موتها ﴾ باليبوسة والجدب وتفتت النبات أصلاً ورأساً .

ولما كان ما أقامه على ذلك في هذه السورة من الأدلة قد صار إلى حد لا يحتاج معه السامع العاقل إلى أكثر من السماع ، قال تعالى ﴿ إن في ذلك ﴾ الماء المؤثر بتدبيره هذا الأثر العظيم ﴿ لآية لقوم يسمعون ﴾ هذا التنبيه في هذا الأسلوب المتضمن لما مضى من التشبيه ، فيعلمون أنه ينزل من أمره ما يريده فيحيي به أجساد العباد بعد موتها كما أحيى أجساد النبات بالماء بعد موتها وأرواح الأشباح بالعلم بعد موتها ، والحاصل ان هذه الأدلة لا تحتاج مع الحس إلى كبير عمل بالقلب غير الانقياد إلى الحق ، وترك العناد والجهل ، فهو من سماع الأذن وما ينشأ عنه من الإجابة ، استعمالاً للشيء في حقيقته ومجازه ، ولعله لم يختمها ب " يبصرون " لئلا يظن أن ذلك من البصيرة ، فيظن أنه يحتاج فيها إلى كبير فكر فيفوت ما أريد من الإشارة إلى شدة الوضوح .

ولما ذكر سبحانه هذا الأمر العام ، ونبه على ما فيه من غريب الصنع الذي غفل عنه لشدة الألف به ، أتبعه بعض ما ينشأ عنه من تفاصيل الأمور ، المحتوية على عجائب المقدور ، وبدأ بأعمها وأشدها ملابسة لهم ، وأكثرها في نفسه وأعظمها منفعة ودخلاً في قوام عيشهم ، فقال : ﴿ وإن لكم ﴾ أي أيها المخاطبون المغمورون في النعم ! ﴿ في الأنعام ﴾

ولما كانت الأدلة يعبر بها من الجهل إلى العلم قال : ﴿ لعبرة ﴾ فكأنه قيل : ما هي ؟ فقيل : ﴿ نسقيكم ﴾ بضم النون في قراءة الجماعة من أسقاه - إذا أعد له ما يشربه دائماً من نهر أو لبن وغيرهما ، وبالفتح في قراءة نافع وابن عامر وعاصم في رواية شعبة : من سقاه - إذا ناوله شيئاً فشربه .

(7/438)

ولما كان الأنعام اسم جمع ، فكان مفرداً كما نقل ذلك سيبويه ، وذكر المسقي وهو اللبن ، لما اقتضاه سياق السورة من تعداد النعم فتعينت إرادة الإناث لذلك ، فانتفى الالتباس مع تذكير الضمير ، قال تعالى : ﴿ مما ﴾ أي من بعض الذي ﴿ في بطونه ﴾ فذكر الضمير لأمن اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة النعم بخلاف ما في المؤمنون .

ولما كان موضع العبرة تخليص اللبن من غيره ، قدم قوله تعالى : ﴿ من بين فرث ﴾ وهو الثفل الذي ينزل إلى الكرش ، فإذا خرج منه لم يسم فرثاً ﴿ ودم لبناً خالصاً ﴾ من مخالط منهما أو من غيرهما يبغي عليه بلون أو رائحة ؛ عن ابن عباس -رضى الله عنهما - : إذا أكلت البهيمة العلف واستقر في كرشها طبخته ، فكان أسفله فرثاً ، وأوسطه لبناً ، وأعلاه دماً . والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها ، فيجري الدم في العروق ، واللبن في

الضرع ، ويبقى الفرث في الكرش .

﴿ سائغاً ﴾ أي سهل المرور في الحلق ﴿ للشاربين ﴾ ثم عطف عليه ما هو أنفس منه عندهم وأقرب إليه في المعاني المذكورة ، فقال تعالى معلقاً ب " نسقيكم " ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ .

(8/438)

ولما كان لهم مدخل في اتخاذ ما ذكر منه بخلاف اللبن الذي لا صنع لهم يه أصلاً ، أسند الأمر إليهم وليكون ذلك إشارة إلى كراهة السكر وتوطئة للنهي عنه في قوله مستأنفاً : ﴿ تتخذون ﴾ أي باصطناع منكم وعلاج ، ولأجل استئناف هذه الجملة كان لا بد من قوله : ﴿ منه ﴾ أي من مائه ، وعبر عن السكر بالمصدر إبلاغاً في تقبيحه ، وزاد في الإبلاغ بالتعبير بأثقل المصدرين وهو المحرك ، يقال : سكر سكْراً وسكَراً مثل رشد رشْداً ورشَداً ، ونحل نحْلاً ونحَلاً ، فقال تعالى : ﴿ سكراً ﴾ أي ذا سكر منشّياً مطرباً سادّاً لمجاري العقل قبيحاً غير مستحسن للرزق ﴿ ورزقاً حسناً ﴾ لا ينشأ عنه ضرر في بدن ولا عقل من الخل والدبس وغيرهما ، ولا يسد شيئاً من المجاري ، بل ربما فتحها كالحلال الطيب ، فإنه ينير القلب ، ويوسع العقل ، والأدهان كلها تفتح سدد البدن ، وهذا كما

منحكم سبحانه العقل الذي لا أحسن منه فاستعمله قوم على صوابه في الوحدانية ، وعكس آخرون فدنسوه بالإشراك ؛ قال الرماني : قيل : السكر ما حرم من الشراب ، والرزق الحسن : ما أحل منه – عن ابن عباس .رضى الله عنهما .وسعيد بن جبير وإبراهيم والشعبي وأبي رزين والحسن ومجاهد وقتادة .رضى الله عنهم .م .

والسكر في اللغة على أربعة أوجه : الأول ما أسكر .

الثاني ما أطعم من الطعام .

الثالث السكون .

(9/438)

الرابع المصدر من السكر ، وأصله انسداد المجاري مما يلقي فيها ، ومنه السكر – يعني بكسر ثم سكون ، ومن حمل السكر على السكر قال : إنها منسوخة بآية المائدة ، والتعبير عنه بما يفهم سد المجاري يفهم كراهته عندما كان حلالاً ؛ والآية من الاحتباك : ذكر السكر أولاً دال على الفتح ثانياً ، وذكر الحسن دال القبيح أولاً ، فالآية أدل ما في القرآن على المعتزلة في أن الرزق يطلق على الحرام ، ولتقارب آيتي الأنعام والأشجار جمعهما سبحانه فقال تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من هذه المنافع ﴿ لآية ﴾ ولوضوح أمرهما

في كمال قدرة الخالق ووحدانيته قال تعالى : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 283. 285 ﴾

(10/438)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ لا جرم ﴾ في المد مثل ﴿ لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] ﴿ مفرطون ﴾ بكسر الراء المشددة : يزيد ﴿ مفرطون ﴾ بكسر الراء المخففة : نافع وقتيبة . الباقون بفتحها مخففة . ﴿ نسقيكم ﴾ بفتح النون : نافع وابن عامر وسهل ويعقوب وأبو بكر وحماد . الآخرون بضمها .

الوقوف : ﴿ مسمى ﴾ ج للظرف مع الفاء ﴿ ولا يستقدمون ﴾ 5 ﴿ الحسنى ﴾ ط ﴿ وقيل علي ﴾ لا ثم يبدأ بجرم وهو تكلف . ﴿ مفرطون ﴾ 5 ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ فيه ﴾ لا للعطف على موضع ﴿ لتبين ﴾ تقديره إلا تبياناً وهدى ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ موتها ﴾ ط ﴿ يسمعون ﴾ 5 ﴿ لعبرة ﴾ ط لأنه لو وصل اشتبه ما بعده بالوصف ﴿ للشاربين ﴾ 5 ﴿ حسناً ﴾ ط ﴿ يعقلون ﴾ 5 ﴿ يعرشون ﴾ 5 ج للعطف ﴿

ذللاً ﴾ ط للعدول ﴾ للناس ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ 5 ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ قدير ﴾

5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 273 ﴾

(11/438)

فصل

قال الفخر :

ثم ذكر تعالى أن مع هذا الوعيد الشديد أقام الحجة وأزاح العلة فقال : ﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ الذى اختلفوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المعنى : أنا ما أنزلنا عليك القرآن إلا لتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الأشياء التي اختلفوا فيها ، والمختلفون هم أهل الملل والأهواء ، وما اختلفوا فيه ، هو الدين ، مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر ، وإثبات المعاد ونفيه ، ومثل الأحكام ، مثل أنهم حرموا أشياء تحل كالبحيرة والسائبة وغيرهما وحللوا أشياء تحرم كالميتة .

المسألة الثانية :

اللام في قوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ تدل على أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض ، ونظيره آيات كثيرة منها قوله : ﴿ كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ [إبراهيم : 1] وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

وجوابه : أنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه إلى التأويل .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" قوله : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ معطوفان على محل قوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ إلا أنهما انتصبا على أنه مفعول لهما ، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب ، ودخلت اللام في قوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ، وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعلاً لذلك الفاعل .

المسألة الرابعة :

(12/438)

قال الكلبي : وصف القرآن بكونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، لا ينفي كونه كذلك في حق الكل ، كما أن قوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ هُدًى لّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] لا ينفي كونه هدى لكل الناس ، كما ذكره في قوله : ﴿ هُدًى لّلنَّاسِ وبينات مّنَ الهدى والفرقان ﴾

[البقرة : 185] وإنما خص المؤمنين بالذكر من حيث إنهم قبلوه فانتفعوا به ، كما في قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [النازعات : 45] لأنه إنما انتفع بإنذاره هذا القوم فقط ، والله أعلم .

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) ﴾

اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة : الإلهيات والنبوات والمعاد ، وإثبات القضاء والقدر ، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة تقرير الآلهيات ، فلهذا السبب كلما امتد الكلام في فصل من الفصول في وعيد الكفار عاد إلى تقرير الآلهيات ، وقد ذكرنا في أول هذه السورة أنه تعالى لما أراد ذكر دلائل الآلهيات ابتدأ بالأجرام الفلكية ، وثنى بالإنسان ، وثلث بالحيوان ، وربع بالنبات ، وخمس بذكر أحوال البحر والأرض ، فههنا في هذه الآية لما عاد إلى تقرير دلائل الإلهيات بدأ أولاً بذكر الفلكيات فقال : ﴿ والله أنزل مِنَ السماء مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ والمعنى : أنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سبباً لحياة الأرض ، والمراد بحياة الأرض نبات الزرع والشجر والنور والثمر بعد أن كان لا يثمر ، وينفع بعد أن كان لا ينفع ، وتقرير هذه الدلائل قد ذكرناه مراراً كثيرة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع إنصاف وتدبر لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع .

(13/438)

والنوع الثاني : من الدلائل المذكورة في هذه الآيات الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ قد ذكرنا معنى العبرة في قوله : ﴿ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار ﴾ [آل عمران : 13] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وحمزة والكسائي : ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ بضم النون ، والباقون بالفتح ، أما من فتح النون فحجته ظاهرة تقول سقيته حتى روى أسقيه قال تعالى : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] وقال : ﴿ والذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : 79] وقال : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً ﴾ [محمد : 15] ومن ضم النون فهو من قولك أسقاه إذا جعل له شراباً كقوله : ﴿ وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ [المرسلات : 27] وقوله : ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر : 22] والمعنى ههنا أنا جعلناه في كثرته وإدامته كالسقيا ، واختار أبو عبيد الضم قال لأنه شرب دائم ، وأكثر ما يقال في

هذا المقام أسقيت.

المسألة الثانية:

قوله: ﴿مما في بطونه﴾ الضمير عائد إلى الأنعام فكان الواجب أن يقال مما في بطونها، وذكر النحويون فيه وجوهاً: الأول: أن لفظ الأنعام لفظ مفرد وضع لإفادة جمع، كالرهط والقوم والبقر والنعم، فهو بحسب اللفظ لفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد، وهو التذكير، وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع، وهو التأنيث، فلهذا السبب قال ههنا ﴿فِي بُطُونِهِ﴾، وقال في سورة المؤمنين: ﴿فِى بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: 21].

الثاني: قوله: ﴿فِي بُطُونِهِ﴾ أي في بطون ما ذكرنا، وهذا جواب الكسائي.

قال المبرد: هذا شائع في القرآن.

قال تعالى: ﴿فَلَماَّ رَأَى الشمس بازغةً قَالَ هذا رَبّى﴾ [الأنعام: 78] يعني هذا الشيء الطالع ربي.

(14/438)

وقال: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: 54، 55] أي ذكر هذا الشيء.

واعلم أن هذا إنما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقي ، أما الذي يكون تأنيثه حقيقياً ، فلا يجوز ، فإنه لا يجوز في مستقيم الكلام أن يقال جاريتك ذهب ، ولا غلامك ذهب على تقدير أن نحمله على النسمة .

الثالث : أن فيه إضماراً ، والتقدير : نسقيكم مما في بطونه اللبن إذ ليس كلها ذات لبن .

المسألة الثالثة :

الفرث : سرجين الكرش .

روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً ، فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ، ويبقى الفرث كما هو ، فذاك هو قوله تعالى : ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث .

(15/438)

ولقائل أن يقول : الدم واللبن لا يتولدان ألبتة في الكرش ، والدليل عليه الحس فإن هذه الحيوانات تذبح ذبحاً متوالياً ، وما رأى أحد في كرشها لا دماً ولا لبناً ، ولو كان تولد الدم واللبن في الكرش لوجب أن يشاهد ذلك في بعض الأحوال ، والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير إليه ، بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى

معدته إن كان إنساناً ، وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها ، فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد ، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء ، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً ، وذلك هو الهضم الثاني ، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية ، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة ، والسوداء إلى الطحال ، والماء إلى الكلية ، ومنها إلى المثانة ، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة ، وهي العروق النابتة من الكبد ، وهناك يحصل الهضم الثالث ، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع ، والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن .

فإن قيل : فهذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن ؟

قلنا : الحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته ، فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حاراً يابساً ، ومزاج الأنثى يجب أن يكون بارداً رطباً ، والحكمة فيه أن الولد إنما يتكون في داخل بدن الأنثى ، فوجب أن تكون الأنثى مختصة بمزيد الرطوبات لوجهين : الأول : أن الولد إنما يتولد من الرطوبات ، فوجب أن يحصل في بدن الأنثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد .

والثاني : أن الولد إذا كبر وجب أن يكون بدن الأم قابلاً للتمدد حتى يتسع لذلك الولد ، فإذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الأم كان بدنها قابلاً للتمدد ، فيتسع للولد ، فثبت بما ذكرنا أنه تعالى خص بدن الأنثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة ، ثم إن الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الأم ، فعند انفصال الجنين تنصب إلى الثدي والضرع ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير .

إذا عرفت هذا فاعلم أن السبب الذي لأجله يتولد اللبن من الدم في حق الأنثى غير حاصل في حق الذكر فظهر الفرق .

إذا عرفت هذا التصوير فنقول : المفسرون قالوا : المراد من قوله : ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ هو أن هذه الثلاثة تتولد في موضع واحد ، فالفرث يكون في أسفل الكرش ، والدم يكون في أعلاه ، واللبن يكون في الوسط ، وقد دللنا على أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة ، ولأن الدم لو كان يتولد في أعلى المعدة والكرش كان يجب إذا قاء أن يقيء الدم وذلك باطل قطعاً .

وأما نحن فنقول : المراد من الآية هو أن اللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم ، والدم إنما يتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث ، وهو الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش ، وهذا اللبن متولد من الأجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولاً ، ثم كانت حاصلة فيما بين الدم

ثانياً ، فصفاه الله تعالى عن تلك الأجزاء الكثيفة الغليظة ، وخلق فيها الصفات التي باعتبارها صارت لبناً موافقاً لبدن الطفل ، فهذا ما حصلناه في هذا المقام ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

اعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقاً لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة ، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم ، وبيانه من وجوه : الأول : أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذاً يخرج منه ثقل الغذاء ، فإذا تناول الإنسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنقذ انطباقاً كلياً لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب إلى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفا منه إلى الكبد ويبقى الثقل هناك ، فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ ويترك منه ذلك الثقل ، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم ، لأنه متى كانت الحاجة إلى بقاء الغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ ، وإذا حصلت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح ، فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى ، بحسب الحاجة وتقدير المنفعة ، مما لا يتأتى إلا بتقدير الفاعل الحكيم .

الثاني : أنه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول أو المشروب ، ولا تجذب الأجزاء الكثيفة ، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكثيفة التي هي الثقل ، ولا تجذب الأجزاء اللطيفة ألبتة .

ولو كان الأمر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب .

الثالث : أنه تعالى أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة ، حتى أن تلك الأجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دماً ، ثم إنه تعالى أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء ، وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء ، وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية ، حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن .

وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن إلا بتقدير الحكيم العليم .

(18/438)

الرابع : أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده ، فإذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له ، فإذا كبر الولد

لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم ولا إلى الثدي ، بل ينصب على مجموع بدن المتغذي ، فانصباب ذلك الدم في كل وقت إلى عضو آخر انصبابا ً موافقاً للمصلحة والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم .

والخامس : أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث تعالى في حلمة الثدي ثقوباً صغيرة ومسام ضيقة ، وجعلها بحيث إذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها في تلك المسام الضيقة ، ولما كانت تلك المسام ضيقة جداً ، فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء واللطافة ، وأما الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل ، والحكمة في إحداث تلك الثقوب الصغيرة ، والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة ، فكل ما كان لطيفاً خرج ، وكل ما كان كثيفاً احتبس في الداخل ولم يخرج ، فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصاً موافقاً لبدن الصبي سائغاً للشاربين .

السادس : أنه تعالى ألهم ذلك الصبي إلى المص ، فإن الأم كلما ألقمت حلمة الثدي في فم الصبي فذلك الصبي في الحال يأخذ في المص ، فلولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص ، وإلا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدي .

السابع : أنا بينا أنه تعالى إنما خلق اللبن من فضلة الدم ، وإنما خلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان فالشاة لما تناولت العشب والماء فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الأجزاء ، ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم ، ثم إن اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة ، فما فيه من الدهن يكون حاراً رطباً ، وما فيه من المائية يكون بارداً رطباً ، وما فيه من الجبنية يكون بارداً يابساً ، وهذه الطبائع ما كانت حاصلة في ذلك العشب الذي تناولته الشاة ، فظهر بهذا أن هذه الأجسام لا تزال تنقلب من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة ، مع أنه لا يناسب بعضها بعضاً ولا يشاكل بعضها بعضاً ، وعند ذلك يظهر أن هذه الأحوال إنما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد ، فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الأعلى والأسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

أما قوله : ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ فمعناه : جارياً في حلوقهم لذيذاً هنيئًا .

يقال : ساغ الشراب في الحلق وأساغه صاحبه ، ومنه قوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ [إبراهيم : 17] .

المسألة الخامسة :

قال أهل التحقيق : اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه ، فكذلك يدل على إمكان الحشر والنشر ، وذلك لأن هذا العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والأرض ، فخالق العالم دبر تدبيراً ، فقلب ذلك الطين نباتاً وعشباً ، ثم إذا أكله الحيوان دبر تدبيراً آخر فقلب ذلك العشب دماً ، ثم دبر تدبيراً آخر فقلب ذلك الدم لبناً ، ثم دبر تدبيراً آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن ، فهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يقلب هذه الأجسام من صفة إلى صفة ، ومن حالة إلى حالة فإذا كان كذلك لم يمتنع أيضاً أن يكون قادراً على أن يقلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك ، فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة ، ذكر في هذه الآية بعض منافع النبات ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

فإن قيل: بم تعلق قوله: ﴿ وَمِن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ .

قلنا: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه.

وقوله: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء.

المسألة الثانية:

قال الواحدي: ﴿ الأعناب ﴾ عطف على الثمرات لا على النخيل، لأنه يصير التقدير: ومن ثمرات الأعناب، والعنب نفسه ثمرة وليست له ثمرة أخرى.

المسألة الثالثة:

في تفسير السكر وجوه: الأول: السكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً نحو: رشد رشداً ورشداً، وأما الرزق الحسن فسائر ما يتخذ من النخيل والأعناب كالرب والخل والدبس والتمر والزبيب.

فإن قيل: الخمر محرمة فكيف ذكرها الله في معرض الإنعام؟

أجابوا عنه من وجهين : الأول : أن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة ، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة .

الثاني : أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع ، وخاطب المشركين بها ، والخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقهم ، ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضاً على تحريمها ، وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السكر رزقاً حسناً ، ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة ، فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة ، وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة .

القول الثاني : أن السكر هو النبيذ ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد ، وهو حلال عند أبي حنيفة رحمه الله إلى حد السكر ، ويحتج بأن هذه الآية تدل على أن السكر حلال لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام والمنة ، ودل الحديث على أن الخمر حرام قال عليه السلام : " الخمر حرام لعينها " وهذا يقتضي أن يكون السكر شيئاً غير الخمر ، وكل من أثبت هذه المغايرة قال إنه النبيذ المطبوخ .

والقول الثالث : أن السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة : واحتج عليه بقول الشاعر :

جعلت أعراض الكرام سكراً . . أي جعلت ذمهم طعاماً لك ، قال الزجاج : هذا بالخمر أشبه منه بالطعام ، والمعنى أنك جعلت تتخمر بأعراض الكرام ، والمعنى : أنه جعل شغفه بغيبة الناس وتمزيق أعراضهم جارياً مجرى شرب الخمر .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه ، وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر ، قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ والمعنى : أن من كان عاقلاً ، علم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى ، فيحتج بحصولها على وجود الإله القادر الحكيم ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 51 . 56 ﴾

(22/438)

وقال الجصاص :

بَابُ السُّكْرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي تَأْوِيلِ السُّكْرِ ، فَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُمَا قَالَا : " السُّكْرُ مَا حُرِّمَ مِنْهُ وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا حَلَّ مِنْهُ " .

وَرُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ وَالشَّعْبِيِّ وَأَبِي رَزِينٍ قَالُوا : " السَّكَرُ خَمْرٌ " .

وَرَوَى جَرِيرٌ عَنْ مُغِيرَةَ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : " السَّكَرُ خَمْرٌ " .

وَرَوَى ابْنُ شُبْرُمَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ قَالَ : " السَّكَرُ خَمْرٌ إلَّا أَنَّهُ مِنْ التَّمْرِ " .

وَقَالَ هَؤُلَاءِ : إنَّهُ مَنْسُوخٌ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ .

وَحدَّثنا جعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: حَدَّثنا جعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ: حَدَّثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ سُفْيَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "هُوَ مَا حُرِّمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا وَمَا أُحِلَّ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا".

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذَا نَحْوُ قَوْلِ الْأَوَّلِينَ وَحدَّثنا جعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثنا جعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ وَعُثْمَانَ بْنِ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ قَالَ: "السَّكَرُ النَّبِيذُ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ الزَّبِيبُ".

(23/438)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَمَّا تَأَوَّلَهُ السَّلَفُ عَلَى الْخَمْرِ وَعَلَى النَّبِيذِ وَعَلَى الْحَرَامِ مِنْهُ، ثَبَتَ أَنَّ الِاسْمَ يَقَعُ عَلَى الْجَمِيعِ وَقَوْلُهُمْ إنَّهُ مَنْسُوخٌ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ اقْتَضَتْ إبَاحَةَ السَّكَرِ وَهُوَ الْخَمْرُ وَالنَّبِيذُ، وَالَّذِي ثَبَتَ نَسْخُهُ مِنْ ذَلِكَ إنَّمَا هُوَ الْخَمْرُ، وَلَمْ يَثْبُتْ تَحْرِيمُ النَّبِيذِ، فَوَجَبَ تَحْلِيلُهُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ؛ إذْ لَمْ يَثْبُتْ نَسْخُهُ.

وَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ لَمْ

يَصِحَّ لَهُ ذَلِكَ إلَّا بِدَلَالَةٍ؛ إذْ كَانَ اسْمُ الْخَمْرِ لَا يَتَنَاوَلُ النَّبِيذَ.

وَرَوَى سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : " السَّكَرُ خُمُورُ الْأَعَاجِمِ وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا يَنْبِذُونَ وَيُخَلِّلُونَ وَيَأْكُلُونَ ، أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَمْ تُحَرَّمْ الْخَمْرُ وَإِنَّمَا جَاءَ تَحْرِيمُهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ " .

وَقَدْ رَوَى أَبُو يُوسُفَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَيُّوبُ بْنُ جَابِرٍ الْحَنَفِيُّ عَنْ أَشْعَثَ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : ﴿ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْيَمَنِ أَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ السَّكَرِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا السَّكَرُ الْمُحَرَّمُ عِنْدَنَا هُوَ نَقِيعُ التَّمْرِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى طَهَارَةِ اللَّبَنِ الْمَحْلُوبِ مِنْ الشَّاةِ الْمَيْتَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : عُمُومُ اللَّفْظِ فِي إبَاحَةِ اللَّبَنِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ مَا يُؤْخَذُ مِنْهُ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا .

(24/438)

وَالثَّانِي : إخْبَارُهُ تَعَالَى أَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ وَحُكْمُهُ بِطَهَارَتِهِ مَعَ ذَلِكَ ؛ إذْ كَانَ ذَلِكَ مَوْضِعَ الْخِلْقَةِ فَثَبَتَ أَنَّ اللَّبَنَ لَا يُنَجَّسُ بِنَجَاسَةِ مَوْضِعِ الْخِلْقَةِ وَهُوَ ضَرْعُ الْمَيْتَةِ كَمَا لَمْ يُنَجَّسْ بِمُجَاوَرَتِهِ لِلْفَرْثِ وَالدَّمِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فِيهِ بَيَانُ طَهَارَةِ

الْعَسَلِ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ النَّحْلِ الْمَيِّتِ وَفِرَاخِهِ فِيهِ ، وَحَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ ذَلِكَ بِطَهَارَتِهِ فَأَخْبَرَ عَمَّا فِيهِ مِنْ الشِّفَاءِ لِلنَّاسِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا لَا دَمَ لَهُ لَا يُفْسِدُ مَا يَمُوتُ فِيهِ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(25/438)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ : فَجَاءَ الضَّمِيرُ بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ عَائِدًا عَلَى جَمْعٍ مُؤَنَّثٍ .

وَأَجَابَ الْعُلَمَاءُ عَنْ ذَلِكَ بِسِتَّةِ أَجْوِبَةٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ سِيبَوَيْهِ : الْعَرَبُ تُخْبِرُ عَنْ الْأَنْعَامِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ ، وَمَا أَرَاهُ عَوَّلَ عَلَيْهِ إلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

وَهَذَا لَا يُشْبِهُ مَنْصِبَهُ ، وَلَا يَلِيقُ بِإِدْرَاكِهِ .

الثَّانِي : قَالَ الْكِسَائِيُّ : مَعْنَاهُ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِ مَا ذَكَرْنَا ، وَهَذَا تَقْدِيرٌ بَعِيدٌ لَا يُحْتَاجُ

إِلَيْهِ.

الثَّالِثُ: قَالَ الْفَرَّاءُ: الْأَنْعَامُ وَالنَّعَمُ وَاحِدٌ، وَالنَّعَمُ مُذَكَّرٌ، وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ: هَذَا نَعَمٌ وَارِدٌ، فَرَجَعَ إِلَى لَفْظِ النَّعَمِ الَّذِي هُوَ مَعْنَى الْأَنْعَامِ، وَهَذَا تَرْكِيبٌ طَوِيلٌ مُسْتَغْنًى عَنْهُ.

الرَّابِعُ: قَالَ الْكِسَائِيُّ أَيْضًا: إِنَّمَا يُرِيدُ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِ بَعْضِهِ، وَهُوَ الَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ أَبُو عُبَيْدَةَ، فَإِنَّهُ قَالَ: مَعْنَاهُ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِ أَيِّهَا كَانَ لَهُ لَبَنٌ مِنْهَا.

(26/438)

الْخَامِسُ: أَنَّ التَّذْكِيرَ إِنَّمَا جِيءَ بِهِ لِأَنَّهُ رَاجِعٌ عَلَى ذِكْرِ النَّعَمِ؛ لِأَنَّ اللَّبَنَ لِلذَّكَرِ مَنْسُوبٌ؛ وَلِذَلِكَ قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ اللَّبَنَ لِلْفَحْلِ حِينَ ﴿ أَنْكَرَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي حَدِيثِ أَفْلَحَ أَخِي أَبِي الْقُعَيْسِ؛ فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ.

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ عَمُّكِ فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ ﴾.

بَيَانٌ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ اللَّبَنَ لِلْمَرْأَةِ سَقْيٌ، وَلِلرَّجُلِ إِلْقَاحٌ، فَجَرَى الِاشْتِرَاكُ بَيْنَهُمَا فِيهِ.

وَقَدْ

بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْخِلَافِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ.

السَّادِسُ: قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ: إنَّمَا يَرْجِعُ التَّذْكِيرُ إلَى مَعْنَى الْجَمْعِ، وَالتَّأْنِيثُ إلَى مَعْنَى الْجَمَاعَةِ، فَذَكَّرَ فِي آيَةِ النَّحْلِ بِاعْتِبَارِ لَفْظِ الْجَمْعِ الْمُذَكَّرِ، وَأَنَّثَ فِي آيَةِ الْمُؤْمِنِ بِاعْتِبَارِ تَأْنِيثِ لَفْظِ الْجَمَاعَةِ، وَيَنْتَظِمُ الْمَعْنَى بِهَذَا التَّأْوِيلِ انْتِظَامًا حَسَنًا.

وَالتَّأْنِيثُ بِاعْتِبَارِ الْجَمَاعَةِ وَالتَّذْكِيرُ بِاعْتِبَارِ الْجَمْعِ أَكْثَرُ فِي الْقُرْآنِ وَاللُّغَةِ مِنْ رَمْلِ يَبْرِينَ وَمَهَا فِلَسْطِينَ.

(27/438)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: نَبَّهَ اللَّهُ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ بِخُرُوجِ اللَّبَنِ خَالِصًا مِنْ بَيْنِ الْفَرْثِ وَالدَّمِ بَيْنَ حُمْرَةِ الدَّمِ وَقَذَارَةِ الْفَرْثِ، وَقَدْ جَمَعَهُمَا وِعَاءٌ وَاحِدٌ، وَجَرَى الْكُلُّ فِي سَبِيلٍ مُتَّحِدَةٍ، فَإِذَا نَظَرْتَ إلَى لَوْنِهِ وَجَدْتَهُ أَبْيَضَ نَاصِعًا خَالِصًا مِنْ شَائِبَةِ الْجَارِ، وَإِذَا شَرِبْتَهُ وَجَدْتَهُ سَائِغًا عَنْ بَشَاعَةِ الْفَرْثِ، يُرِيدُ لَذِيذًا، وَبَعْضُهُمْ قَالَ سَائِغًا، أَيْ لَا يُغَصُّ بِهِ، وَإِنَّهُ لَصِفَتُهُ، وَلَكِنَّ التَّنْبِيهَ إنَّمَا وَقَعَ عَلَى اللَّذَّةِ وَطِيبِ الْمَطْعَمِ، مَعَ كَرَاهِيَةِ الْجَارِ الَّذِي انْفَصَلَ عَنْهُ فِي الْكَرِشِ، وَهُوَ الْفَرْثُ الْقَذِرُ.

وَهَذِهِ قُدْرَةٌ لَا تَنْبَغِي إلَّا لِلْقَائِمِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِالْمَصْلَحَةِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ بَعْضُ الْمُتَصَوِّرِينَ بِصُورَةِ الْمُصَنِّفِينَ الْمُتَسَوِّرِينَ فِي عُلُومِ الدِّينِ : إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ الْمَنِيَّ نَجِسٌ ؛ لِأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ الْمَخْرَجِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ الْبَوْلُ ، وَهَذَا اللَّهُ يَقُولُ فِي اللَّبَنِ : يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ، فَكَمَا يَخْرُجُ اللَّبَنُ مِنْ بَيْنِ الْفَرْثِ وَالدَّمِ سَائِغًا خَالِصًا طَاهِرًا ، فَكَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَخْرُجَ الْمَنِيُّ عَلَى مَخْرَجِ الْبَوْلِ طَاهِرًا .

(28/438)

قَالَ الْقَاضِي : قَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ أُصُولِ الْفِقْهِ صِفَةَ الْمُجْتَهِدِ الْمُفْتِي فِي الْأَحْكَامِ الْمُسْتَنْبِطِ لَهَا مِنْ الْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ ، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الصِّفَاتُ مَوْجُودَةً فِي هَذَا الْقَائِلِ مَا نَطَقَ بِمِثْلِ هَذَا ، فَإِنَّ اللَّبَنَ جَاءَ الْخَبَرُ عَنْهُ مَجِيءَ النِّعْمَةِ وَالْمِنَّةِ الصَّادِرَةِ عَنْ الْقُدْرَةِ ، لِيَكُونَ عِبْرَةً ؛ فَاقْتَضَى ذَلِكَ كُلُّهُ لَهُ وَصْفَ الْخُلُوصِ وَاللَّذَّةِ وَالطَّهَارَةِ ، وَأَيْنَ الْمَنِيُّ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ حَتَّى يَكُونَ مُلْحَقًا بِهِ أَوْ مَقِيسًا عَلَيْهِ ؛ إنَّ هَذَا لَجَهْلٌ عَظِيمٌ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَالَ قَوْمٌ: الْمَعْنَى: وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ مَا تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ شَيْءٌ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا، وَدَلَّ عَلَى حَذْفِهِ قَوْلُهُ: ﴿ مِنْهُ ﴾ فَلِذَلِكَ سَاغَ حَذْفُهُ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ قَرِيبٌ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ سَكَرًا ﴾: فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُهُمَا.

الثَّانِي: أَنَّهُ خُمُورُ الْأَعَاجِمِ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ، وَيَرْجِعُ إلَى الْأَوَّلِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ الْخَلُّ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ أَيْضًا.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ الطَّعْمُ الَّذِي يُعْرَفُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

(29/438)

الْخَامِسُ: أَنَّهُ مَا يَسُدُّ الْجُوعَ، مَأْخُوذٌ مِنْ سَكَرْتُ النَّهْرَ، إذَا سَدَدْته.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: الرِّزْقُ الْحَسَنُ: فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمَا.

الثَّانِي: أَنَّهُ النَّبِيذُ وَالْخَلُّ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ الْأَوَّلُ، يَقُولُ: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، فَجَعَلَ لَهُ اسْمَيْنِ، وَهُوَ

وَاحِدٌ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : أَمَّا هَذِهِ الْأَقَاوِيلُ فَأَسَدُّهَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ : إنَّ السَّكَرَ الْخَمْرُ ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ بَعْدَهَا مِنْ هَذِهِ الثَّمَرَاتِ .

وَيُخَرَّجُ ذَلِكَ عَلَى أَحَدِ مَعْنَيَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اعْتِدَاءً مِنْكُمْ ، وَمَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ اتِّفَاقًا أَوْ قَصْدًا إلَى مَنْفَعَةِ أَنْفُسِكُمْ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ ، وَتَحْرِيمُ الْخَمْرِ مَدَنِيٌّ .

فَإِنْ قِيلَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : إنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ مَا يُسْكِرُ مِنْ الْأَنْبِذَةِ ، وَخَلًّا ، وَهُوَ الرِّزْقُ الْحَسَنُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ امْتَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقَعُ الِامْتِنَانُ إلَّا بِمُحَلَّلٍ لَا بِمُحَرَّمٍ ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ

دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ مَا دُونَ الْمُسْكِرِ مِنْ النَّبِيذِ ، فَإِذَا انْتَهَى إلَى السُّكْرِ لَمْ يَجُزْ ؛ قَالَهُ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ .

وَعَضَّدُوا رَأْيَهُمْ هَذَا مِنْ السُّنَّةِ بِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ لِعَيْنِهَا وَالسُّكْرَ مِنْ غَيْرِهَا ﴾ .

وَبِمَا رُوِيَ أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يُنْبَذُ لَهُ فَيَشْرَبُهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَإِذَا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي أَوْ الثَّالِثِ سَقَاهُ الْخَدَمَ إذَا تَغَيَّرَ ، وَلَوْ كَانَ حَرَامًا مَا سَقَاهُ إيَّاهُمْ .

فَالْجَوَابُ أَنَّا نَقُولُ : قَدْ عَارَضَ عُلَمَاؤُنَا هَذِهِ الْأَحَادِيثَ بِمِثْلِهَا ، فَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ ﴾ خَرَّجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَجَوَّدَهُ ، وَثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ عَنْ الْأَئِمَّةِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ﴾ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، مَا أَسْكَرَ الْفَرَقُ فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ ﴾ .

وَرُوِيَ : ﴿ فَالْحَسْوَةُ مِنْهُ حَرَامٌ ﴾ .

وَقَدْ ثَبَتَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ بِاتِّفَاقٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ مِنْ الْحِنْطَةِ خَمْرًا ، وَإِنَّ مِنْ الشَّعِيرِ خَمْرًا ، وَإِنَّ مِنْ التَّمْرِ خَمْرًا ، وَإِنْ مِنْ الزَّبِيبِ خَمْرًا ، وَإِنَّ مِنْ الْعَسَلِ خَمْرًا ﴾ .

خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَإِنْ كَانَ قَالَهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ شَرْعٌ مُتَّبَعٌ ، وَإِنْ كَانَ أَخْبَرَ بِهِ عَنْ اللُّغَةِ فَهُوَ حُجَّةٌ فِيهَا ، لَا سِيَّمَا وَهُوَ نَطَقَ بِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ مَا بَيْنَ أَظْهُرِ الصَّحَابَةِ ، فَلَمْ يَقُمْ مَنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ .

جَوَابٌ آخَرُ : أَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ اللَّهَ

امْتَنَّ ، وَلَا يَكُونُ امْتِنَانُهُ وَتَعْدِيدُهُ إلَّا بِمَا أَحَلَّ فَصَحِيحٌ ؛ بَيْدَ أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، ثُمَّ حُرِّمَتْ بَعْدُ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ هَهُنَا ، وَيَنْسَخُ هَذَا الْحُكْمَ ، وَهُوَ خَبَرٌ ، وَالْأَخْبَارُ لَا يَدْخُلُهَا النَّسْخُ .

قُلْنَا : هَذَا كَلَامُ مَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ الشَّرِيعَةَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَتَهُ قَبْلُ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ الْخَبَرَ إذَا كَانَ عَنْ الْوُجُودِ الْحَقِيقِيِّ فَذَلِكَ الَّذِي لَا يَدْخُلُهُ نَسْخٌ ، أَوْ كَانَ عَنْ الْفَضْلِ الْمُعْطَى ثَوَابًا فَهُوَ أَيْضًا لَا يَدْخُلُهُ نَسْخٌ ؛ فَأَمَّا إنْ كَانَ خَبَرًا عَنْ حُكْمِ الشَّرْعِ فَالْأَحْكَامُ تَتَبَدَّلُ وَتُنْسَخُ جَاءَتْ بِخَبَرٍ أَوْ بِأَمْرٍ ، وَلَا يَرْجِعُ ذَلِكَ إلَى تَكْذِيبٍ فِي الْخَبَرِ أَوْ الشَّرْعِ الَّذِي كَانَ مُخْبَرًا عَنْهُ قَدْ زَالَ بِغَيْرِهِ .

وَإِذَا فَهِمْتُمْ هَذَا خَرَجْتُمْ عَنْ الصِّنْفِ الْغَبِيِّ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ الْكُفَّارِ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(32/438)

يَعْنِي أَنَّهُمْ جَهِلُوا أَنَّ الرَّبَّ يَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ ، وَيُكَلِّفُ مَا يَشَاءُ ، وَيَرْفَعُ مِنْ ذَلِكَ بِعَدْلِهِ مَا يَشَاءُ ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .

جَوَابٌ ثَالِثٌ : وَأَمَّا مَا عَضَدُوهُ بِهِ مِنْ الْأَحَادِيثِ فَالْأَوَّلُ ضَعِيفٌ ، وَالثَّانِي فِي سَقْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَقِيَ لِلْخَدَمِ صَحِيحٌ ، لَكِنَّهُ مَا كَانَ يَسْقِيهِ لِلْخَدَمِ ؛ لِأَنَّهُ مُسْكِرٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَسْقِيهِ ؛ لِأَنَّهُ مُتَغَيِّرُ الرَّائِحَةِ ، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْرَهَ الْخَلْقِ فِي خَبِيثِ الرَّائِحَةِ ، وَلِذَلِكَ تَحَيَّلَ عَلَيْهِ أَزْوَاجُهُ فِي عَسَلِ زَيْنَبَ ، فَإِنَّهُنَّ قُلْنَ لَهُ : إنَّا نَجِدُ مِنْك رِيحَ مَغَافِيرَ يَعْنِي رِيحًا مُنْكَرَةً .

وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَعَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ

فِي كُتُبِ الْخِلَافِ أَثَرًا وَنَظَرًا ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ : وَإِذَا قِيلَ : إنَّ ثَمَرَاتِ الْحُبُوبِ وَغَيْرِهَا تُتَّخَذُ مِنْهُ رِزْقٌ حَسَنٌ وَسَكَرٌ .

قُلْنَا : هَذِهِ الْحُبُوبُ وَسَائِرُ الثَّمَرَاتِ وَإِنْ وَقَعَ الِامْتِنَانُ بِهَا ، وَكَانَتْ لَهَا وُجُوهٌ يُنْتَفَعُ مِنْهَا ، فَلَا يَقُومُ مَقَامَ النَّخْلِ وَالْعِنَبِ شَيْءٌ ؛ لِأَنَّ فِيهِ الْخَلَّ ، وَهُوَ أَجَلُّ مَنْفَعَةٍ فِي الْعَالَمِ ، فَإِنَّهُ دَوَاءٌ وَغِذَاءٌ ، فَلَمَّا لَمْ يَحِلَّ مَحَلَّ هَاتَيْنِ الثَّمَرَتَيْنِ شَيْءٌ خُصَّا بِالتَّنْبِيهِ عَلَيْهِمَا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(33/438)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بُطونه ﴾

أي نبيح لكم شرب ما في بطونه ، فعبر عن الإباحة بالسقي .

﴿ مِن بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خالصاً من الفرث والدم .

الثاني : أن المراد من الخالص هنا الأبيض ، قاله ابن بحر ومنه قول النابغة :

يصونون أجساداً قديماً نعيمُها . . . بخالصةِ الأردان خُضْر المناكب

فخالصة الأردان أي بيض الأكمام ، وخضر المناكب يعني من حمائل السيوف . ﴿ سائغاً للشاربين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حلال للشاربين .

الثاني : معناه لا تعافه النفس . وقيل : إنه لا يغص أحد باللبن . قوله عز وجل : ﴿ ومن ثَمَرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكراً ورزقاً حسَناً ﴾ فيها أربعة تأويلات :

أحدها : أن السكر الخمر ، والرزق الحسن التمر والرطب والزبيب . وأنزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت من بعد . قال ابن عباس : السّكر ما حرم من شرابه ، والرزق الحسن ما حل من ثمرته ، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير ومن ذلك قول الأخطل :

بئس الصُّحاة وبئس الشرب شربهم . . . إذا جرى فيهم المزاءُ والسكرُ

والسكر : الخمر ، والمزاء : نوع من النبيذ المسكر .

واختلف من قال بهذا هل خرج مخرج الإباحة أو مخرج الخبر على وجهين :

أحدهما : أنه خرج مخرج الإباحة ثم نسخ . قاله قتادة .

الثاني : أنه خرج مخرج الخبر أنهم يتخذون ذلك وإن لم يحل ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن السّكَر : النبيذ المسكر ، والرزق الحسن التمر والزبيب ، قاله الشعبي والسدي .

وجعلها أهل العراق دليلاً على إباحة النبيذ .

الثالث : أن السكر : الخل بلغة الحبشة ، الرزق الحسن : الطعام .

الرابع : أن السكر ما طعم من الطعام وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق

الحسن ، وبه قال أبو جعفر الطبري وأنشد قول الشاعر :

وَجَعلت عيب الأكرمين سكرا . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(34/438)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾

يريد القرآن ، وقوله ﴿ لتبين ﴾ في موضع المفعول من أجله ، وقوله ﴿ وهدى ورحمة ﴾ عطف عليه ، كأنه قال إلا للبيان أي لأجل البيان لهم ، وقوله ﴿ الذي اختلفوا فيه ﴾ لفظ عام لأنواع كفر الكفرة من الجحد بالله تعالى ، أو بالقيامة ، أو بالنبوءات ، أو غير ذلك ، ولكن الإشارة في هذه الآية إنما هي لجحدهم الربوبية وتشريكهم الأصنام في الألوهية ، ويدل على ذلك أخذه بعد هذا في إثبات العبر الدالة على أن الأنعم وسائر الأفعال إنما هي من الله تعالى ، لا من الأصنام . وقوله تعالى ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ الآية ، لما أمره بتبيين ما اختلف فيه ، نص العبر المؤدية إلى تبيين أمر الربوبية ، فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر ، وهي ملاك الحياة ، وهي في غاية الظهور لا يخالف فيها عاقل ، و" حياة الأرض وموتها " استعارة وتشبيه بالحيوان ، فإذ هي هامدة غبراء غير منبتة فهي كالميت ، وإذ

هي منبتة مخضرة مهتزة رابية فهي كالحي ، وقوله ﴿ يسمعون ﴾ يدل على ظهور هذا المعتبر فيه وبيانه ، لأنه لا يحتاج إلى تفكر ولا نظر قلب ، وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع القول فقط ، و﴿ الأنعام ﴾ هي الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز ، و﴿ العبرة ﴾ الحال المعتبر فيها ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وابن مسعود بخلاف والحسن وأهل المدينة "نَسقيكم" بفتح النون من سقى يسقي ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم "نُسقيكم" بضم النون من أسقى يُسقي ، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة ، قال بعض أهل اللغة ، هما لغتان بمعنى واحد ، وقالت فرقة : تقول لمن تسقيه بالشفة أو في مرة واحدة سقيته وتقول لمن تُعِدّ سقيه أو تمنحه شرباً أسقيته ، وهذا قول من قرأ "نسقيكم" ، لأن ألبان الأنعام من المستمر للبشر ، وأنشد من قال إنهما لغتان بمعنى ، قول لبيد : [الوافر]

(35/438)

سقى قومي بني بدر وأسقى . . . نميراً والقبائل من هلال

وذلك لازم لأنه لا يدعو لقومه بالقليل ، وقرأ أبو رجاء "يسقيكم" بالياء أي يسقيكم الله ، وقرأت فرقة "تسقيكم" بالتاء وهي ضعيفة وكذلك اختلف القراء في سورة المؤمنين وقوله

﴿ مما في بطونه ﴾ ، الضمير عائد على الجنس وعلى المذكور كما قال الشاعر : مثل الفراخ نتفت حواصله ، وهذا كثير لقوله تعالى ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ [الإنسان : 29] ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ [المدثر : 55] وقيل : إنما قال : ﴿ مما في بطونه ﴾ ، لأن الأنعام والنعم واحد فرد الضمير على معنى النعم وقالت فرقة : الضمير عائد على البعض ، إذ الذكور لا ألبان لها ، فكأن العبرة إنما هي في الأنعام ، و" الفرث " ما ينزل إلى الأمعاء ، و" السائغ " السهل في الشرب اللذيذ ، وقرأت فرقة " سيّغاً " بشد الياء ، وقرأ عيسى الثقفي " سيْغاً " بسكون الياء وهي تخفيف من سيغ كميت وهين ، وليس وزنهما فعلاً ، لأن اللفظة واوية ، ففعل منها سوغ ، وروي أن اللبن لم يشرق به أحد قط ، وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(36/438)

قال الطبري : التقدير ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ ما ﴿ تتخذون ﴾ ، وقالت فرقة : التقدير ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ شيء ﴿ تتخذون منه ﴾ ، ويجوز أن يكون قوله : ﴿ ومن ثمرات ﴾ ، عطفاً على ﴿ الأنعام ﴾ [النحل : 66] أي ولكم

من ثمرات النخيل والأنعام عبرة ، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ مما ﴾ [النحل : 66] ، أي ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات ، والسكر ما يسكر ، هذا هو المشهور في اللغة ، فقال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، وأراد بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن جميع ما يشرب ويؤكل حلالاً من هاتين الشجرتين وقال بهذا القول ابن جبير وإبراهيم والشعبي وأبو زيد ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ذكر الله نعمته في السكر قبل تحريم الخمر ، وقال الشعبي ومجاهد : السكر السائغ من هاتين الشجرتين كالخل والرب والنبيذ ، و" الرزق الحسن " العنب والتمر ، قال الطبري : والسكر أيضاً في كلام العرب ما يطعم ، ورجح الطبري هذا القول ، ولا مدخل للخمر فيه ولا نسخ من الآية شيء ، وقال بعض الفرقة التي رأت السكر الخمر : إن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر ، وفي هذه المقالة درك ، لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " حُرمت الخمر بعينها ، والسَّكَر من غيرها " هكذا في الرواية الصحيحة بفتح السين والكاف ، أي جميع ما يسكر منه حرم على حد تحريم الخمر قليله وكثيره ، ورواه العراقيون ، و" السُّكْر " بضم السين وسكون الكاف وهذا مبني على فقههم في أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فقليله حلال ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾

أي القرآن ﴿ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك .

وعطف ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ على موضع قوله : "لِتُبَيِّنَ" لأن محله نصب .

ومجاز الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبياناً للناس .

﴿ وَهُدًى ﴾ أي رشداً ورحمة للمؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ والله أَنْزَلَ مِنَ السمآء ﴾ أي السحاب .

﴿ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ عاد الكلامُ إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً ﴾ أي دلالة على البعث وعلى وحدانيته ؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً ، فتكون هذه الدلالة .

﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان ؛ ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ قد تقدّم القول في الأنعام ، وهي هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز .

﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته .

والعِبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لنعرف حقيقته من طريق المشاكلة ، ومنه ﴿ فاعتبروا ﴾ [الحشر : 2] .

وقال أبو بكر الورّاق : العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم ، وتمرّدك على ربك وخلافك له في كل شيء .

ومن أعظم العِبَر بريء يحمل مذنباً .

الثانية قوله تعالى : ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (بفتح النون) من سَقَى يَسْقي .

وقرأ الباقون وحفص عن عاصم (بضم النون) من أسقي يُسقي ، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة .

قيل : هما لغتان .

وقال لَبِيد :

سَقَى قَومِي بني مَجْدٍ وأسقى . . .

نُمَيْراً والقبائلَ من هِلالِ

وقيل : يقال لما كان من يدك إلى فيه سقيته ، فإذا جعلت له شِرْباً أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته ؛ قاله ابن عُزيز ، وقد تقدّم .

وقرأت فرقة "تسقيكم" بالتاء ، وهي ضعيفة ، يعني الأنعام .

وقرىء بالياء ، أي يسقيكم الله عز وجل .

والقراء على القراءتين المتقدّمتين ؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حِمير .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ اختلف الناس في الضمير من قوله "مما في بطونه" على ماذا يعود .

فقيل : هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث .

قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد .

قال ابن العربيّ : وما أراه عوّل عليه إلا من هذه الآية ، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه .

وقيل : لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال : هو الأنعام وهي الأنعام ، جاز عود الضمير بالتذكير ؛ وقاله الزجاج .

وقال الكسائيّ : معناه مما في بطون ما ذكرناه ، فهو عائد على المذكور ؛ وقد قال الله تعالى :

﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ وقال الشاعر :

مثل الفِراخ نُتِفتْ حواصلُه . . .

ومثله كثير .

وقال الكسائيّ : "مما في بطونه" أي مما في بطون بعضه ؛ إذ الذكور لا ألبان لها ، وهو الذي عوّل عليه أبو عبيدة .

وقال الفَرّاء : الأنعام والنَّعَم واحد ، والنَّعَم يذكر ، ولهذا تقول العرب : هذا نَعَم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النَّعم الذي هو بمعنى الأنعام .

قال ابن العربيّ : إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة ، فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع ، وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاماً حسناً .

والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رَمْل يَبْرِين وتَيْهَاء فِلَسْطِين .

الرابعة استنبط بعض العلماء الجِلّة وهو القاضي إسماعيل من عود هذا الضمير، أن لبن الفحل يفيد التحريم، وقال: إنما جيء به مذكّراً لأنه راجع إلى ذكر النَّعم؛ لأن اللبن للذكر محسوب، ولذلك قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرّم حين أنكرته عائشة رضي الله عنها في حديث أفْلح أخي أبي القُعَيس

"فللمرأة السّقي وللرجل اللقاح" فجرى الاشتراك فيه بينهما.

وقد مضى القول في تحريم لبن الفحل في "النساء" والحمد لله.

الخامسة قوله تعالى: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً ﴾ نبّه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصاً بين الفَرْث والدم.

والفَرْثُ: الزّبل الذي ينزل إلى الكَرِش، فإذا خرج لم يُسَمَّ فَرْثاً.

يقال: أفْرَثْت الكَرِش إذا أخرجت ما فيها.

والمعنى: أن الطعام يكون منه ما في الكَرِش ويكون منه الدّم، ثم يخلص اللبن من الدم؛ فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك وبين الدّم في العروق.

وقال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف فإذا استقرّ في كَرِشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، والكبد مسلّط على هذه الأصناف فتقسم الدم وتميّزه وتُجريه في العروق، وتجرِي اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكَرِش؛ ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النذر ﴾.

﴿ خَالِصاً ﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفَرْث وقد جمعهم وعاء واحد .

وقال ابن بحر : خالصا ً بياضه .

قال النابغة :

بخَالصة الأرْدان خُضْرِ المناكب . . .

أي بيض الأكمام .

وهذه قدرة لا تنبغي إلا للقائم على كل شيء بالمصلحة .

السادسة قال النقاش : في هذا دليل على أن المَنِيّ ليس بنجس .

وقاله أيضاً غيره واحتج بأن قال : كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً كذلك يجوز أن يخرج المني على مخرج البول طاهراً .

قال ابن العربي : إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع .

(40/438)

اللبن جاء الخبر عنه مجيء النعمة والمنة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة ، فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة ، وليس المَنِيّ من هذه الحالة حتى يكون ملحقاً به أو مَقِيساً عليه .

قلت : قد يعارَض هذا بأن يقال : وأيّ مِنّة أعظم وأرفع من خروج المني الذي يكون عنه

الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾، وقال: ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ وهذا غاية في الامتنان.

فإن قيل: إنه يتنجس بخروجه في مجرى البول، قلنا: هو ما أردناه، فالنّجاسة عارضة وأصله طاهر؛ وقد قيل: إن مَخْرَجه غير مخرج البول وخاصّةً المرأة؛ فإن مَدخل الذكر منها ومخرج الولد غيرُ مخرج البول على ما قاله العلماء.

وقد تقدّم في البقرة.

فإن قيل: أصله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك، فإن أصله دم وهو طاهر.

وممن قال بطهارته الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يابساً بظفري.

قال الشافعيّ: فإن لم يُفْرَك فلا بأس به.

وكان سعد بن أبي وقّاص يفرك المنيّ من ثوبه.

وقال ابن عباس: هو كالنُّخامة أمِطْه عنك بإذْخِرة وامسحه بخرقة.

فإن قيل: فقد ثبت عن عائشة أنها قالت: كنت أغسل المنيّ من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه.

قلنا: يحتمل أن تكون غسلته استقذاراً كالأشياء التي تزال من الثوب لا لنجاسة، ويكون

هذا جَمْعاً بين الأحاديث .

والله أعلم .

وقال مالك وأصحابه والأَوْزاعيّ : هو نجس .

قال مالك : غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا ، وهو قول الكوفيين .

ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم .

واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة .

وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارته التابعون .

السابعة في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، فأما لبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به ؛ لأنه مائع طاهر حصل في وعاء نجس ، وذلك أن ضَرْعَ الميتة نجس واللبن طاهر فإذا حلب صار مأخوذاً من وعاء نجس .

فأما لبن المرأة الميتة فاختلف أصحابنا فيه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حياً وميتاً فهو طاهر .

ومن قال : يَنْجَس بالموت فهو نجس .

وعلى القولين جميعاً تثبت الحرمة ؛ لأن الصبي قد يغتذي به كما يغتذي من الحية ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم وأنشر العظم " ولم يخصّ ؛ وقد مضى في "النساء" .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي لذيذاً هيّناً لا يَغَصّ به من شربه .

يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق ، وأساغه شاربه ، وسغته أنا أسيغه وأسوغه ، يتعدّى ولا يتعدّى ، والأجود أسغته إساغة .

يقال : أسِغ لي غُصّتي أي أمهلني ولا تُعجلني ؛ وقال تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ والسِّواغ (بكسر السين) ما أسغت به غُصّتك .

يقال : الماء سِواغ الغُصَص ؛ ومنه قول الكُمَيْت :

فكانت سِوَاغاً أن جَئِزْت بغُصّة . . .

وروي أن اللبن لم يَشْرَق به أحد قطُّ ، وروي ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

التاسعة في هذه الآية دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده ، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سَرَف ولا إكثار .

وقد تقدّم هذا المعنى في "المائدة" وغيرها .

وفي الصحيح عن أنس قال : لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدحي هذا

الشراب كله : العسل والنبيذ واللبن والماء .

وقد كره بعض القرّاء أكل الفالوذَج واللبن من الطعام ، وأباحه عامة العلماء .

(42/438)

وروي عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار ، فأتى بفالوذَج فامتنع عن أكله فقال له الحسن : كُلْ ! فإنّ عليك في الماء البارد أكثر من هذا .

العاشرة روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : " أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن فشرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللَّهُمّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه .

وإذا سُقِيَ لبناً فليقل اللّهمّ بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزي عن الطعام والشراب إلا اللبن " قال علماؤنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أوّل ما يغتذي به الإنسان وتَنْمِي به الجثث والأبدان ، فهو قوت خليّ عن المفاسد به قِوام الأجسام ، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التي هي خير الأمم أمة ؛ فقال في الصحيح : " فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لي جبريل اخترت الفِطرة أما إنك لو اخترت الخمر غوَتْ أمتك " ثم إن في الدعاء بالزيادة منه علامة الخِصب وظهور

الخيرات وكثرة البركات ؛ فهو مبارك كله .

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل ﴾ قال الطبري : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون ؛ فحذف "ما" ودلّ على حذفه قوله : "منه" .

وقيل : المحذوف شيء ، والأمر قريب .

وقيل : معنى "منه" أي منْ المذكور ، فلا يكون في الكلام حذف وهو أولى .

ويجوز أن يكون قوله : "وِمن ثمراتِ" عطفاً على "الأنعام" ؛ أي ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة .

ويجوز أن يكون معطوفاً على "مما" أي ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات .

الثانية قوله تعالى : ﴿ سَكَراً ﴾ السّكَر ما يُسْكِر ؛ هذا هو المشهور في اللغة .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر .

وأراد بالسَّكَر الخمر ، وبالرزق الحسن جميعَ ما يؤكل ويشرب حلالاً من هاتين الشجرتين .

وقال بهذا القول ابن جُبير والنَّخعِيّ والشَّعبِيّ وأبو ثور .

وقد قيل : إن السَّكَر الخَلُّ بلغة الحبشة ، والرزق الحسن الطعام .

وقيل : السكر العصير الحلو الحلال ، وسُمِّيَ سَكَراً لأنه قد يصير مسكراً إذا بقي ، فإذا بلغ الإسكار حرم .

قال ابن العربي : "أسَدّ هذه الأقوال قولُ ابن عباس ، ويخرج ذلك على أحد معنيين ، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر ، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم ، وما أحل لكم اتفاقاً أو قصداً إلى منفعة أنفسكم .

والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة ؛ فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدني" .

قلت : فعلى أن السَّكَر الخَلُّ أو العصير الحلو لا نسخ ، وتكون الآية محكمة وهو حسن .

قال ابن عباس : الحبشة يسمّون الخلّ السَّكَر ، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمر ، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن ومجاهد وابن أبي لَيلى والكَلْبِيّ وغيرهم ممن تقدّم ذكرهم ، كلهم قالوا : السّكر ما حرمه الله من ثمرتيهما .

وكذا قال أهل اللغة : السكَر اسم للخمر وما يُسكر ، وأنشدوا :

بِئْس الصُّحاة وبِئْس الشَّرْبُ شَرْبهُم . . .

إذا جرى فيهم المُزّاء والسّكَر

والرزق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما .

وقيل : إن قوله "تتخذُون مِنه سَكَرا" خبرٌ معناه الاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أي أتتخذون منه سكراً وتَدَعون رزقاً حسناً الخلَّ والزبيبَ والتمر ؛ كقوله : ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ أي أفهم الخالدون .

والله أعلم .

وقال أبو عبيدة : السكَر الطُّعم ، يقال : هذا سَكَر لك أي طُعم .

وأنشد :

جعلتَ عَيْبَ الأكْرَمِين سَكَراً . . .

أي جعلتَ ذمهم طُعماً .

(44/438)

وهذا اختيار الطبري أن السّكَر ما يُطعم من الطعام وحَلّ شربه من ثمار النخيل والأعناب ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد ؛ مثل ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى

الله ﴾ [يوسف : 86] وهذا حسن ولا نسخ ، إلا أن الزجاج قال : قول أبي عبيدة هذا لا يعرف ، وأهل التفسير على خلافه ، ولا حجة له في البيت الذي أنشده ؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس .

وقال الحنفيون : المراد بقوله : "سَكَرًا" ما لا يُسكر من الأنبذة ؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلَّل لا بمحرَّم ، فيكون ذلك دليلاً على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز ، وعَضَدوا هذا من السنة بما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حرم الله الخمر بعينها والسّكر من غيرها " وبما رواه عبد الملك بن نافع " عن ابن عمر قال : رأيت رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركْن ، ودفع إليه القدح فرفعه إلى فيه فوجده شديداً فردّه إلى صاحبه ، فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله ، أحرام هو؟ فقال : "عليّ بالرجل" فأُتِي به فأخذ منه القدح ، ثم دعا بماء فصبه فيه ثم رفعه إلى فيه فقطّب ، ثم دعا بماء أيضاً فصبّه فيه ثم قال : إذا اغتلمت عليكم هذه الأوعية فاكسروا متُونها بالماء " وروي : أنه عليه السلام كان يُنْبَذ له فيشربه ذلك اليوم ، فإذا كان من اليوم الثاني أو الثالث سقاه الخادمَ إذا تغيّر ، ولو كان حراماً ما سقاه إياه .

قال الطحاوي : وقد روى أبو عَون الثَّقَفي عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال :

حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسّكر من كل شراب ؛ خرجه الدارقطنيّ أيضاً .

ففي هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها .

(45/438)

قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضاً ما رواه شُريك بن عبد الله ، حدثنا أبو أسحاق الهمَداني عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هذه الإبل وليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ .

قال شريك : ورأيت الثّوريِ يَشرب النبيذ في بيت حَبْر أهل زمانه مالك بن مِعول .

والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بما أحل فصحيح ؛ بَيْد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخاً كما قدمناه .

قال ابن العربيّ : إن قيل كيف ينسخ هذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هذا كلام من لم يتحقق الشريعة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقيّ أو عن إعطاء ثواب فضلاً من الله فهو الذي لا يدخله النسخ ، فأما إذا تضمن الخبر حكماً شرعياً فالأحكام تتبدّل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنما يرجع

إلى ما تضمنه ، فإذا فهمتم هذا خرجتم عن الصّنف الغبيّ الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 101] .

المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أمّ الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهي أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ أختلف في ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم مّا يتضمن طلب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هو الحكم الشرعيّ الذي يُستدلّ على نسخه .

والله أعلم .

(46/438)

وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثاني ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قد روي عنه بالنقل الثابت أنه قال : "كل شراب أسكر فهو حرام" وقال : "كل مسكر خمرٌ وكل مسكر

حرام" وقال: "ما أسكر كثيره فقليله حرام".

قال النَّسائيّ: وهؤلاء أهل الثَّبَت والعدالة مشهورون بصحة النقل، وعبد الملك لا يقوم مقام واحد منهم ولو عاضده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق.

وأما الثالث وإن كان صحيحاً فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنما كان يسقيه لأنه متغير الرائحة.

وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيّل عليه أزواجه في عسل زينب بأن قيل له: إنا نجد منك ريحَ مغافِير، يعني ريحاً منكرة، فلم يشربه بعدُ.

وسيأتي في التحريم.

وأما حديث ابن عباس فقد روي عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال: ما أسكر كثيره فقليله حرام، ورواه عنه قيس بن دينار.

وكذلك فُتياه في المسكر؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ.

والحديث الأول رواه عنه عبد الله بن شدّاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وأما ما روي عن عمر من قوله: ليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا.

وقد روى النَّسائيّ عن عتبة بن فَرْقَد قال: كان النبيذ الذي شربه عمر بن الخطاب قد خُلّل.

قال النَّسائيّ: ومما يدل على صحة هذا حديثُ السائب، قال الحارث بن مِسْكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم: حدثني مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطِّلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكراً جلدته، فجلده عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحدّ تاماً.

(47/438)

وقد قال في خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمّا بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير.

والخمر ما خامر العقل.

وقد تقدم في "المائدة".

فإن قيل: فقد أحلّ شربه إبراهيم النَّخَعِيّ وأبو جعفر الطحاويّ وكان إمام أهل زمانه، وكان سفيان الثوري يشربه.

قلنا : ذكر النَّسائيّ في كتابه أن أوّل من أحل المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعيّ ، وهذه زلة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم ، ولا حجة في قول أحد مع السنة .

وذكر النسائيّ أيضاً عن ابن المبارك قال : ما وجدت الرخصة في المسكر عن أحد صحيحاً إلا عن إبراهيم .

قال أبو أسامة : ما رأيت رجلاً أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات ومصر واليمن والحجاز .

وأما الطحاويّ وسفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة ؛ على أن الطحاويّ قد ذكر في كتابه الكبير في الاختلاف خلافَ ذلك .

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له : قال أبو جعفر الطحاويّ اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغَلَىَ وقَذَف بالزّبَد فهو خمر ومستحلّه كافر .

واختلفوا في نَقِيع التمر إذا غلى وأسكر .

قال : فهذا يدلّك على أن حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب " غير معمول به عندهم ؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحلّ نقيع التمر ؛ فثبت أنه لم يدخل في الخمر المحرّمة غيرُ عصير العنب الذي قد اشتدّ وبلغ أن يسكر .

قال : ثم لا يخلو من أن يكون التحريم معلّقاً بها فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعاً قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غَلى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب .

قال : فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة .

(48/438)

قال : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل مسكر حرام" واستغنى عن سنده لقبول الجميع له ، وإنما الخلاف بينهم في تأويله ، فقال بعضهم : أراد به جنس ما يسكر .

وقال بعضهم : أراد به ما يقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلاً إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوي لقوله ، فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة .

وقد روى الدَّارَقُطْنيّ في سننه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن الله لم يحرّم الخمر لاسمها وإنما حرّمها لعاقبتها ، فكُلّ شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر .

قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة ، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب ردّ ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وما رُوي عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما مخطىء أخطأ في التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنباً لعلّه أن يكثر من الاستغفار لله تعالى ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة .

وقد قيل في تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار ، أي من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالاً أو حراماً ، فاتخاذ السّكَر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال تعالى : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 10 صـ ﴾

(49/438)

وقال الخازن :

﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ﴾

يعني في أمر الدين والأحكام فتبين لهم الهدى من الضلال ، والحق من الباطل والحلال من

الحرام ﴿ وهدى ورحمة ﴾ يعني وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بياناً وهدى ورحمة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم هم المنتفعون به قوله سبحانه وتعالى ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ يعني المطر ﴿ فأحيا به ﴾ يعني بالماء ﴿ الأرض ﴾ يعني بالنبات والزروع ﴿ بعد موتها ﴾ يعني يبسها وجدوبتها ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ يعني دلالة واضحة على كمال قدرتنا ﴿ لقوم يسمعون ﴾ يعني سماع إنصاف وتدبر وتفكر ، لأن سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات الله ، أي القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ، ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ يعني إذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا على ذلك ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ الضمير عائد إلى الأنعام ، وكان حقه أن يقال مما في بطونها ، واختلف النحوين في الجواب ، فقيل : إن لفظ الأنعام مفرد وضع لإفادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد ، وهو مذكر وبحسب المعنى جميع فيكون ضميره ضمير الجمع ، وهو مؤنث فلهذا المعنى .

قال هنا مما في بطونه وقال في سورة المؤمنين : مما في بطونها .

وهذا قول أبي عبيدة والأخفش وقال الكسائي : إنه رده إلى ما ذكر يعني مما في بطون ما ذكرنا ، وقال غيره الكناية مردودة إلى البعض وفيه إضمار كأنه قال : نسقيكم مما في بطونه اللبن فأضمر اللبن إذ ليس لكلها لبن ﴿ من بين فرث ﴾ وهو ما في الكرش من الثفل ، فإذا

خرج منها لا يسمى فرثاً ﴿ ودم لبناً خالصاً ﴾ يعني من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث .

(50/438)

قال ابن عباس : إذا أكلت الدابة العلف ، واستقر في كرشها ، وطبخته كان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الثفل كما هو ﴿ سائغاً للشاربين ﴾ يعني هنيئاً سهلاً يجري في الحلق بسهولة .

قيل : إنه لم يغص أحد باللبن قط .

هذا قول المفسرين في معنى هذه الآية .

وحكى الإمام فخر الدين الرازي قول الحكماء في ذلك فقال : ولقائل أن يقول الدم واللبن لا يتولدان في الكرش البتة ، والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحاً متوالياً ، وما رأى أحد في كرشها دماً ولا لبناً بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء ، وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنساناً وإلى كرشه إن كان من الأنعام ، وغيرها فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد ، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء ، ثم ذلك

الذي حصل في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً وهو الهضم الثاني ، ويكون ذلك مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فأما الصفراء فتذهب إلى المرارة وأما السوداء فتذهب إلى الطحال ، وأما المائية فتذهب إلى الكلية ومنها إلى المثانة ، وأما الدم فيذهب في الأوردة وهي العروق النابتة في الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث .

(51/438)

وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض ، فيقلب الله ذلك الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض ، فيصير الدم لبناً فهذا صورة تكوّن اللبن في الضرع فاللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم ، والدم إنما يتولد من بعض الأجزاء اللطيفة من الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش فاللبن توليد أولاً من الفرث ثم من الدم ثانياً ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبناً خالصاً من بين فرث ، ودم عند تولد اللبن في الضرع يخلق الله بلطيف حكمته في حلمة الثدي ثقباً صغيراً ومسام ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفاً من اللبن خرج بالمص أو الحلب وما كان كثيفاً احتبس في البدن ، وهو المراد بقوله خالصاً هنيئاً مريئاً .

قوله ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ يعني ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من

ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه ﴿ سكراً ورزقاً حسناً ﴾ قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وإبراهيم وابن أبي ليلى والزجاج وابن قتيبة : السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكراً ، وسكراً والرزق الحسن سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل ، والأعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك .

(52/438)

فإن قلت : الخمر محرمة فكيف ذكرها الله في معرض الإنعام والامتنان ؟ قلت : قال العلماء في الجواب عن هذا : إن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر إنما نزل في سورة المائدة وهي مدنية فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة ، وقيل : إن الله نبه في هذه الآية على تحريم الخمر أيضاً ، لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسناً يدل على التحريم ، وروى العوفي عن ابن عباس أن السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم : السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد ، والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعي ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الإخبار لا الإحلال ، وأولى الأقاويل أن قوله تتخذون منه سكراً منسوخ. سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر : ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت

: القول بالنسخ فيه نظر لأن قوله ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً خبر ، والأخبار لا يدخلها النسخ ، ومن زعم أنها منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت إباحة الخمر ثم إن الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة وقال أبو عبيدة في معنى الآية : السكر الطعم يقال هذا سكر لك أي طعم لك وقال غيره : السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر أي سددته والتمر والزبيب مما يسد الجوع ، وهذا شرح قول أبي عبيدة أن السكر الطعم ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني الذي ذكر من إنعامه على عباده ﴿ لآية ﴾ يعني دلالة وحجة واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يعني أن من كان عاقلاً استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة أن لهذه الأشياء خالقاً ، ومدبراً قادراً على ما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(53/438)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذى اختلفوا فِيهِ ﴾

واللام في لتبين لام التعليل ، والكتاب القرآن ، والذي اختلفوا فيه من الشرك والتوحيد والجبر

والقدر وإثبات المعاد ونفيه ، وغير ذلك مما يعتقدون من الأحكام : كتحريم البحيرة ، وتحليل الميتة والدم ، وغير ذلك من الأحكام .

وهدى ورحمة في موضع نصب على أنهما مفعول من أجله ، وانتصبا لاتحاد الفاعل في الفعل وفيهما ، لأن المنزل هو الله وهو الهادي والراحم .

ودخلت اللام في لتبين لاختلاف الفاعل ، لأن المنزل هو الله ، والتبيين مسند للمخاطب وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقول الزمخشري : معطوف محل لتبين ليس بصحيح ، لأنّ محله ليس نصباً فيعطف منصوب عليه .

ألا ترى أنه لو نصبه لم يجز لاختلاف الفاعل ؟ .

والله أنزل من السماء ماء قال أبو عبد الله الرازي : المقصود من القرآن أربعة : الإلهيات ، والنبوات ، والمعاد ، والقدر ، والأعظم منها الإلهيات فابتدأ في ذكر دلائلها بالأجرام الفلكية ، ثم بالإنسان ثم بالحيوان ، ثم بالنبات ثم بأحوال البحر والأرض ، ثم عاد إلى تقدير الإلهيات فبدأ بذكر الفلكيات انتهى ملخصاً .

وقال ابن عطية : لما أمره بتبيين ما اختلف فيه قص العبر المؤدية إلى بيان أمر الربوبية ، فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر ، وهي ملاك الحياة ، وهي في غاية الظهور ، ولا يختلف فيها عاقل انتهى .

ونقول : لما ذكر إنزال الكتاب للتبيين كان القرآن حياة الأرواح وشفاء لما في الصدور من علل العقائد ، ولذلك ختم بقوله : لقوم يؤمنون أي : يصدقون .

والتصديق محله القلب ، فكذا إنزال المطر الذي هو حياة الأجسام وسبب لبقائها .

ثم أشار بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد همودها ، كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتاً بالجهل .

(54/438)

وكذلك ختم بقوله : يسمعون هذا التشبيه المشار إليه ، والمعنى : سماع إنصاف وتدبر ، ولملاحظة هذا المعنى والله أعلم لم يختم بلقوم يبصرون ، وإن كان إنزال المطر مما يبصر ويشاهد .

وقال ابن عطية : وقوله يسمعون ، يدل على ظهور هذا المعتبر فيه وتبيانه ، لأنه لا يحتاج إلى نظر ولا تفكر ، وإنما يحتاج البتة إلى أن يسمع القول فقط .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾

الفرث : كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش أو المعى .

النحل : حيوان معروف .

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : لما ذكر الله تعالى إحياء الأرض بعد موتها ، ذكر ما ينشأ عن ما ينشأ عن المطر وهو حياة الأنعام التي هي مألوف العرب بما يتناوله من النبات الناشىء عن المطر ، ونبه على العبرة العظيمة وهو خروج اللبن من بين فرث ودم . وقرأ ابن مسعود بخلاف ، والحسن ، وزيد بن علي ، وابن عامر ، وأبو بكر ، ونافع ، وأهل المدينة .

نسقيكم هنا ، وفي قد أفلح المؤمنون : بفتح النون مضارع سقى ، وباقي السبعة بضمها مضارع أسقى ، وتقدم الكلام في سقى وأسقى في قوله ﴿ فأسقيناكموه ﴾ وقرأ أبو رجاء : يسقيكم بالياء مضمومة ، والضمير عائد على الله أي : يسقيكم الله .

قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون مسنداً إلى النعم ، وذكر لأنّ النعم مما يذكر ويؤنث ومعناه : وأنّ لكم في الأنعام نعماً يسقيكم أي : يجعل لكم سقيا انتهى .

وقرأت فرقة : بالتاء مفتوحة منهم أبو جعفر .

قال ابن عطية : وهي ضعيفة انتهى .

(55/438)

وضعفها عنده والله أعلم من حيث أنث في تسقيكم ، وذكر في قوله مما في بطونه ، ولا ضعف في ذلك من هذه الجهة ، لأن التأنيث والتذكير باعتبار وجهين ، وأعاد الضمير مذكراً مراعاة للجنس ، لأنه إذا صح وقوع المفرد الدال على الجنس مقام جمعه جاز عوده عليه مذكراً كقولهم : هو أحسن الفتيان وأنبله ، لأنه يصح هو أحسن فتى ، وإن كان هذا لا ينقاس عند سيبويه ، إنما يقتصر فيه على ما قالته العرب .

وقيل : جمع التكسير فيما لا يعقل يعامل معاملة الجماعة ، ومعاملة الجمع ، فيعود الضمير عليه مفرداً .

كقوله :

مثل الفراخ نبقت حواصله . . .

وقيل : أفرد على تقدير المذكور كما يفرد اسم الإشارة بعد الجمع كما قال :

فيها خطوط من سواد وبلق . . .

كأنه في الجلد توليع البهق

فقال: كأنه وقدر بكان المذكور.

قال الكسائي: أي في بطون ما ذكرنا.

قال المبرد: وهذا سائغ في القرآن قال تعالى: ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ ﴿ فمن شاء ذكره ﴾

أي ذكر هذا الشيء.

وقال: ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ أي هذا الشيء الطالع.

ولا يكون هذا إلا في التأنيث المجازى، لا يجوز جاريتك ذهب.

وقالت فرقة: الضمير عائد على البعض، إذ الذكور لا ألبان لها، فكأنّ العبرة إنما هي في

بعض الأنعام.

وقال الزمخشري: ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة على أفعال

كقولهم: ثواب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً، وأما في بطونها في سورة المؤمنين

فلأن معناه الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكسير نعم

كالأجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم، فإذا ذكر فكما يذكر

نعم في قوله:

في كل عام نعم تحوونه . . .

يلقحه قوم وينتجونه

وإذا أنّث ففيه وجهان : إنه تكسير نعم ، وأنه في معنى الجمع انتهى .

(56/438)

وأما ما ذكره عن سيبويه ففي كتابه في هذا في باب ما كان على مثال مفاعل ومفاعيل ما نصه : وأما أجمال وفلوس فإنها تنصرف وما أشبهها ، لأنها ضارعت الواحد .

ألا ترى أنك تقول : أقوال وأقاويل ، وإعراب وأعاريب ، وأيد وأياد ، فهذه الأحرف تخرج إلى مثال مفاعل ومفاعيل كما يخرج إليه الواحد إذا كسر للجمع ، وأما مفاعل ومفاعيل فلا يكسر ، فيخرج الجمع إلى بناء غير هذا ، لأن هذا البناء هو الغاية ، فلما ضارعت الواحد صرفت .

ثم قال : وكذلك الفعول لو كسرت مثل الفلوس لأن تجمع جمعاً لأخرجته إلى فعائل ، كما تقول : جدود وجدائد ، وركوب وركائب ، ولو فعلت ذلك بمفاعل ومفاعيل لم يجاوز هذا البناء .

ويقوي ذلك أنّ بعض العرب يقول : أتى للواحد فيضم الألف ، وأما أفعال فقد تقع للواحد من العرب من يقول هو الأنعام قال جل ثناؤه وعز : نسقيكم مما في بطونه .

وقال أبو الخطاب : سمعت العرب يقولون : هذا ثواب أكياش انتهى .

والذي ذكره سيبويه هو الفرق بين مفاعل ومفاعيل ، وبين أفعال وفعول ، وإن كان الجميع أبنية للجمع من حيث أنّ مفاعل ومفاعيل لا يجمعان ، وأفعال وفعول قد يخرجان إلى بناء شبه مفاعل أو مفاعيل لشبه ذينك بالمفرد ، من حيث أنه يمكن جمعهما وامتناع هذين من الجمع ، ثم قوى شبههما بالمفرد بأنّ بعض العرب قال في أتى : أتى بضم الهمزة يعني أنه قد جاء نادراً فعول من غير المصدر للمفرد ، وبأن بعض العرب قد يوقع أفعالاً للواحدة من حيث أفرد الضمير فتقول : هو الإنعام ، وإنما يعني أن ذلك على سبيل المجاز ، لأنّ الأنعام في معنى النعم كما قال الشاعر :

تركنا الخيل والنعم المفدى . . .

وقلنا للنساء بها أقيمي

ولذلك قال سيبويه : وأما أفعال فقد تقع للواحد دليل على أنه ليس ذلك بالوضع .

(57/438)

فقول الزمخشري : إنه ذكره في الأسماء المفردة على أفعال تحريف في اللفظ ، وفهم عن سيبويه ما لم يرده ، ويدل على ما قلناه أنّ سيبويه حين ذكر أبنية الأسماء المفردة نص على أنّ

أفعالاً ليس من ابنيتها .

قال سيبويه في باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة وليس في الكلام : أفعيل ، ولا أفعول ، ولا أفعال ، ولا أفعيل ، ولا أفعال إلا أنْ تكسر عليه اسماً للجميع انتهى .

فهذا نص منه على أنّ أفعالاً لا يكون في الأبنية المفردة .

ونسقيكم مما في بطونه تبيين للعبرة .

وقال الزمخشري : وهو استئناف كأنه قيل : كيف العبرة ؟ فقيل : نسقيكم من بين فرث ودم ، أي : يخلق الله اللبن وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من كله انتهى .

قال ابن عباس : إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً يبقى فيه ، وأعلاه دماً يجري في العروق ، وأوسطه لبناً يجري في الضرع .

وقال ابن جبير : الفرث في أوسط المصارين ، والدم في أعلاها ، واللبن بينهما ، والكبد يقسم الفرث إلى الكرش ، والدم إلى العروق ، واللبن إلى الضروع .

وقال أبو عبد الله الرازي : قال المفسرون : المراد من قوله من بين فرث ودم ، هو أنّ هذه الثلاثة تتولد في موضع واحد ، فالفرث يكون في أسفل الكرش ، والدم في أعلاه ، واللبن في الوسط ، وقد دللنا على أنّ هذا القول على خلاف الحس والتجربة ، وكان الرازي قد قدم أن الحيوان يذبح ولا يرى في كرشه دم ولا لبن ، بل الحق أنّ الغذاء إذا تناوله الحيوان وصل إلى الكرش وانطبخ وحصل الهضم الأول فيه ، فما كان منه كثيفاً نزل إلى الأمعاء ، وصافياً انحدر إلى الكبد فينطبخ فيها ويصير دماً ، وهو الهضم الثاني مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية ، فتذهب الصفراء إلى المرارة ، والسوداء إلى الطحال ، والماء إلى الكلية ، وخالص الدم يذهب إلى الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد فيحصل الهضم الثالث .
وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة ينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع ، وهو لحم رخو أبيض فينقلب من صورة الدم إلى صورة اللبن ، فهذا هو الصحيح في كيفية توالد اللبن انتهى ملخصاً .

وقال أيضاً : وأما نحن فنقول : المراد من الآية هو أنّ اللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم ، والدم إنما يتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث ، وهي الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش .

فاللبن متولد مما كان حاصلاً فيما بين الفرث أولاً ، ثم مما كان حاصلاً فيما بين الدم ثانياً انتهى ، ملخصاً أيضاً .

والذي يظهر من لفظ الآية أنّ اللبن يكون وسطاً بين الفرث والدم ، والبينية يحتمل أن تكون باعتبار المكانية حقيقة كما قاله المفسرون وادعى الرازي أنه على خلاف الحس والمشاهدة .

ويحتمل أن تكون البينية مجازية ، باعتبار تولده من ما حصل في الفرث أولاً ، وتولده من الدم الناشىء من لطيف ما كان في الفرث ثانياً كما قرره الرازي .

ومِن الأولى للتبعيض متعلقة بنسقيكم ، والثانية لابتداء الغاية متعلقة بنسقيكم ، وجاز تعلقهما بعامل واحد لاختلاف مدلوليهما .

ويجوز أن يكون من بين في موضع الحال ، فتتعلق بمحذوف ، لأنه لو تأخر لكان صفة أي : كائناً من بين فرث ودم .

ويجوز أن يكون من بين فرث بدلاً من ما في بطونه .

وقرأت فرقة : سيغاً بتشديد الياء ، وعيسى بن عمر : سيغاً مخففاً من سيغ كهين المخفف من هين ، وليس بفعل لازم كان يكون سوغاً .

والسائغ : السهل في الحلق اللذيذ ، وروي في الحديث "أنّ اللبن لم يشرق به أحد قط" ولما

ذكر تعالى ما منّ به من بعض منافع الحيوان ، ذكر ما منّ به من بعض منافع النبات .

والظاهر تعلق من ثمرات بتتخذون ، وكررت من للتأكيد ، وكان الضمير مفرداً راعياً لمحذوف أي : ومن عصير ثمرات ، أو على معنى الثمرات وهو الثمر ، أو بتقدير من المذكور .

وقيل : تتعلق بنسقيكم ، فيكون معطوفاً على مما في بطونه ، أو بنسقيكم محذوفة دل عليها نسقيكم المتقدمة ، فيكون من عطف الجمل ، والذي قبله من عطف المفردات إذا اشتركا في العامل .

وقيل : معطوف على الأنعام أي : ومن ثمرات النخيل والأعناب عبرة ، ثم بين العبرة بقوله : تتخذون .

وقال الطبري : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون .

فحذف ما هو لا يجوز على مذهب البصريين ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف كقوله : بكفي كان من أرمي البشر .

تقديره : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه انتهى .

وهذا الذي أجازه قاله الحوفي قال : أي وإن من ثمرات ، وإن شئت شيء بالرفع بالابتداء ، ومن ثمرات خبره انتهى .

والسكر في اللغة الخمر .

قال الشاعر :

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم . . .

إذا جرى منهم المزّاء والسكر

وقال الزمخشري : سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً نحو : رشد رشداً ورشداً .

قال الشاعر :

وجاءونا بهم سكر علينا . . .

فأجلى اليوم والسكران صاحي

وقاله : ابن مسعود ، وابن عمر ، وأبو رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وابن أبي ليلى ، والكلبي ، وابن جبير ، وأبو ثور ، والجمهور .

وهذه الآية مكية نزلت قبل تحريم الخمر ، ثم حرمت بالمدينة فهي منسوخة .

قال الحسن : ذكر الله نعمته في السكر قبل تحريم الخمر .

وقال ابن عباس : هو الخل بلغة الحبشة .

وقيل : العصير الحلو الحلال ، وسمي سكراً باعتبار مآله إذا ترك .

وقال أبو عبيدة : السكر الطعم ، يقال هذا سكر لك أي طعم ، واختاره الطبري قال :

والسكر في كلام العرب ما يطعم .

وأنشد أبو عبيدة :

جعلت أعراض الكرام سكراً . . .

أي : تنقلت بأعراضهم .

وقيل : هو من الخمر ، وأنه إذا ابترك في أعراض الناس فكأنه تخمر بها ، قاله الزمخشري ، وتبع الزجاج قال : يصف أنه يخمر بعيوب الناس ، وعلى هذه الأقوال لا نسخ .

وقال الزجاج : قول أبي عبيدة لا يصح ، وأهل التفسير على خلافه .

وقيل : السكر ما لا يسكر من الأنبذة ، وقيل : السكر النبيذ ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر انتهى .

وإذا أريد بالسكر الخمر فقد تقدم أنّ ذلك منسوخ ، وإذا لم نقل بنسخ فقيل : جمع بين العتاب والمنة .

يعني بالعتاب على اتخاذ ما يحرم ، وبالمنة على اتخاذ ما يحل ، وهو الخل والرب والزبيب والتمر .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً كأنه قيل : تتخذون منه ما هو سكر

ورزق حسن انتهى .

فيكون من عطف الصفات ، وظاهر العطف المغايرة .

ولما كان مفتتح الكلام : وأن لكم في الأنعام لعبرة ، ناسب الختم بقوله : يعقلون ، لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول كما قال : ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب ﴾

وانظر إلى الإخبار عن نعمة اللبن ونعمة السكر والرزق الحسن ، لما كان اللبن لا يحتاج إلى معالجة من الناس ، أخبر عن نفسه تعالى بقوله : نسقيكم .

ولما كان السكر والرزق الحسن يحتاج إلى معالجة قال : تتخذون ، فأخبر عنهم باتخاذهم منه السكر والرزق ، ولأمر ما عجزت العرب العرباء عن معارضته .

(61/438)

ولما ذكر تعالى المنة بالمشروب اللبن وغيره ، أتم النعمة بذكر العسل النحل .

ولما كانت المشروبات من اللبن وغيره هو الغالب في الناس أكثر من العسل ، قدم اللبن وغيره عليه ، وقدم اللبن على ما بعده لأنه المحتاج إليه كثيراً وهو الدليل على الفطرة .

ولذلك اختاره الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين أسري به ، وعرض عليه اللبن والخمر والعسل ، وجاء ترتيبها في الجنة لهذه الآية قال تعالى : ﴿ وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه

وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾ ففي إخراج اللبن من النعم والسكر، والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، والعسل من النحل، دلائل باهرة على الألوهية والقدرة والاختيار. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(62/438)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾

أي القرآن ﴿ إِلاَّ لِتُبَيّنَ ﴾ استثناءٌ مفرّغٌ من أعم العلل أي ما أنزلناه عليك لعلّةٍ من العلل إلا لتبين ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للناس ﴿ الذى اختلفوا فِيهِ ﴾ من التوحيد والقدَر وأحكامِ الأفعال وأحوال المعاد ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ معطوفان على محل لتبين أي وللهداية والرحمة ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وإنما انتصبا لكونهما أثرَيْ فاعلِ الفعل المعلَّل بخلاف التبيين حيث لم ينتصِبْ لفقدان شرطِه، ولعل تقديمَه عليهما لتقدُّمه في الوجود، وتخصيصُ كونهما هدًى ورحمةً بالمؤمنين لأنهم المغتنِمون آثارَه.

﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ من السحاب أو من جانب السماء حسبما مرّ، وهذا تكرير لما سبق تأكيداً لمضمونه وتوطئةً لما يعقُبه من أدلة التوحيد ﴿ مَاء ﴾ نوعاً خاصاً من الماء

هو المطرُ ، وتقديمُ المجرور على المنصوب لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرض ﴾ بما أنبت به فيها من أنواع النباتات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد يُبْسها ، وما يفيده الفاءُ من التعقيب العاديّ لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في إنزال الماء من السماء وإحياءِ الأرض الميتةِ به ﴿ لآيَةً ﴾ وأية آيةٍ دالةٍ على وحدته سبحانه وعلمه وقدرتِه وحكمتِه ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ هذا التذكيرَ ونظائرَه سماعَ تفكرٍ وتدبُّر فكأن مَنْ ليس كذلك أصمُّ .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً ﴾

(63/438)

عظيمةً وأيَّ عبرةٍ تَحار في دركها العقولُ ويهيم في فهمها ألبابُ الفحول ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ استئنافٌ لبيان ما أُبهم أولاً من العبرة ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ أي بطونِ الأنعام ، والتذكيرُ هنا لمراعاة جانبِ اللفظِ فإنه اسم جمع ولذلك عدّه سيبويه في المفردات المبنيّة على أفعال كأكباش وأخلاق كما أن تأنيثه في سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ، ومَن جعله جمعَ نَعَمٍ جعل الضميرَ للبعض فإن اللبَن ليس لجميعها ، أو له على المعنى ، فإن المرادَ به الجنسُ وقرىء بفتح النون هاهنا وفي سورة المؤمنين ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا ﴾ الفرْثُ فُضالةُ ما

يبقى من العلف في الكَرِش المنهضمةِ بعضَ الانهضام وكثيفُ ما يبقى في الأمعاء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن البهيمةَ إذا اعتلفت وانطبخ العلفُ في كرشها كان أسفلُه فرثاً ، وأوسطُه لبناً ، وأعلاه دماً . ولعل المرادَ به أن أوسطَه يكون مادةَ اللبن وأعلاه مادةَ الدم الذي يغذو البدنَ لأن عدم تكونهما في الكرش مما لا ريب فيه ، بل الكبِدُ تجذب صفاوة الطعام المنهضمِ في الكرش ويبقى ثفلُه وهو الفرثُ ثم يُمسكها ريثما يهضمها فيُحدثُ أخلاطاً أربعة معها مائيةً فتُميِّز تلك المائيةُ ما زاد على قدر الحاجة من المِرّتين الصفراءِ والسوداء وتدفعها إلى الكِلْية والمرارة والطّحال ، ثم توزّعِ الباقي على الأعضاء بحسبها فتُجري على كلٍّ حقَّه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ، ثم إن كان الحيوانُ أنثى زاد أخلاطَها على قدر غذائها لاستيلاء البردِ والرطوبةِ على مزاجها فيندفع الزائدُ أولاً لأجل الجنينِ إلى الرحم فإذا انفصل انصب ذلك الزائدُ أو بعضُه إلى الضروع فيبيّض لمجاورته لحومَها الغذوية البيضِ ويلَذّ طعمُه فيصيرُ لبناً ، ومن تدبر في بدائع صنعِ الله تعالى فيما ذكر من الأخلاط والألبانِ وإعداد مقارّها ومجاريها والأسبابِ المولّدة لها وتسخيرِ القُوى المتصرفة فيها كلَّ وقت على

ما يليق به اضطُرّ إلى الاعتراف بكمال علمِه وقدرتِه وحكمتِه وتناهي رأفته ورحمتِه .

فمِن الأولى تبعيضيةٌ لما أن اللبن بعضُ ما في بطونه لأنه مخلوقٌ من بعض أجزاءِ الدم المتولّدِ من الأجزاء اللطيفةِ التي في الفرث حسبما فصل ، والثانية ابتدائية كقولك : سقَيت من الحوض لأن بين الفرث والدمِ مبدأ الإسقاء ، وهي متعلقةٌ بنُسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مراراً من أن تقديم ما حقُّه التأخيرُ يبعث للنفس شوقاً إلى المؤخر موجباً لفضل تمكّنه عند ورودِه عليها لا سيما إذا كان المقدمُ متضمناً لوصف منافٍ لوصف المؤخَّر كالذي نحن فيه ، فإن بين وصفَيْ المقدّمِ والمؤخر تنافياً وتنائياً بحيث لا يتراءى ناراهما ، فإن ذلك مما يزيد الشوقَ والاستشرافَ إلى المؤخر كما في قوله تعالى : ﴿ الذى جعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ أو حالٌ من لبناً قُدّم عليه لتنكيره والتنبيه على أنه موضعُ العبرة ﴿ خَالِصًا ﴾ عن شائبة ما في الدم والفرثِ من الأوصاف ببرزخٍ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغي أحدِهما عليه مع كونهما مكتنفين له ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ سهلَ المرور في حلقهم ، قيل : لم يغصَّ أحدٌ باللبن ، وقرىء سيّغاً بالتشديد وبالتخفيف مثل هيْن وهيِّن .

﴿ وَمِن ثمرات النخيل والأعناب ﴾

متعلقٌ بما يدل عليه الإسقاء من مطلق الإطعامِ المنتظمِ لإعطاء المطعومِ والمشروبِ فإن اللبن مطعومٌ كما أنه مشروبٌ أي ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الأعناب أي من عصيرهما ، وقوله تعالى : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ استئنافٌ لبيان كُنه الإطعامِ وكشفِه . أو بقوله : تتخذون منه ، وتكريرُ الظرفِ للتأكيد ، أو خبر لمبتدأ محذوفٍ صفتُه تتخذون أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه ، وحَذْفُ الموصوف إذا كان في الكلام كلمةُ مِنْ سائغٌ نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ وتذكيرُ الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوفِ أعني العصيرأو لأن المراد هو الجنسُ والسَّكَر مصدرٌ سُمّي به الخمرُ ، وقيل : هو النبيذُ ، وقيل : هو الطعم ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ كالتمر والدبس والزبيب والخل ، والآية إن كانت سابقةَ النزول على تحريم الخمر فدالّةٌ على كراهتها وإلا فجامعةٌ بين العتاب والمِنّة ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ باهرةً ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولَهم في الآيات بالنظر والتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(66/438)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ الذى اختلفوا فِيهِ ﴾

شديد الملائمة على هذا الوجه لقوله سبحانه هنالك : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [النحل : 39] ، ولقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] وفيه أن من استبان له الهدى بهذا البيان استغنى عن ذلك البيان حيث لا ينفعه إلا العلم بكذبه وهذا أنسب لتأليف النظم اه .

وأنت تعلم أن احتمال العطف بعيد ، والمراد بالكتاب القرآن فإنه الحقيق بهذا الاسم ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل أي ما أنزلناه عليك لعلة من العلل إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من البعث وقد كان فيهم من يؤمن به وأشياء من التحليل والتحريم والإقرار والإنكار ومقتضى رجوع الضمائر السابقة إلى الأمم السالفة أن يرجع ضمير ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ و ﴿ اختلفوا ﴾ إليهم أيضاً لكن منع عنه عدم تأتي تبيين الذين اختلفوا فيه لهم فمنهم من جعله راجعاً إلى قريش لأن البحث فيهم ومنهم من جعله راجعاً إلى الناس مطلقاً لعدم اختصاص ذلك بقريش ويدخلون فيه دخولاً أولياً .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ عظيمين ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خصهم بالذكر لكونهم المغتنمين آثاره .

والإسمان قال أبو حيان : في موضع نصب على أنهما مفعول من أجله والناصب ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ ولما اتحد الفاعل في العلة والمعلول وصل الفعل لهما بنفسه ، ولما لم يتحد في ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ لأن فاعل الإنزال هو الله تعالى لا الرسول عليه الصلاة والسلام وصلت العلة بالحرف .

وقال الزمخشري : هما معطوفان على محل ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ وهو ليس بصحيح لأن محله ليس نصباً فيعطف منصوب عليه ، ألا ترى أنه لو نصب لم يجز لاختلاف الفاعل اه .

وتعقب بأن معنى كونه في محل نصب أنه في محل لو خلا من الموانع ظهر نصبه وهو هنا كذلك لمن تأمل فقوله : ليس بصحيح لأن محله ليس نصباً ليس على ما ينبغي .

(67/438)

وقال الحلبي : إن ذلك ممنوع إذ لا خلاف في أن محل الجار والمجرور النصب ولذا أجازوا مررت بزيد وعمراً بالعطف على المحل ، وللخفاجي ههنا كلام إن أردته فارجع إليه وراجع ، ولعله إنما قدمت علة التبيين على علتي الهدى والرحمة لتقدمه في الوجود عليهما .

(68/438)

﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءَ ﴾ تقدم الكلام في مثله ، وهذا على ما قيل تكرير لما سبق تأكيداً لمضمونه وتوحيداً لما يعقبه من أدلة التوحيد ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض ﴾ بما أنبت به فيها من أنواع النباتات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بعد يبسها فالإحياء والموت استعارة للإنبات

واليبس ، وليس المراد إعادة اليابس بل إنبات مثله ، والفاء للتعقيب العادي فلا ينافيه ما بين المتعاطفين من المهلة ، ونظير ذلك تزوج فولد له ولد ، والآية دليل لمن قال : إن المسببات بالأسباب لا عندها ومن قال به أول ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الميتة ﴿ لَآيَةً ﴾ وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته جل شأنه ، والإشارة بما يدل على البعد إما لتعظيم المشار إليه أو لعدم ذكره صريحاً ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ قال المولى ابن الكمال : أريد بالسمع القبول كما في سمع الله لمن حمده أي لقوم يتأملون فيها ويعقلون وجه دلالتها ويقبلون مدلولها ، وإنما خص كونها آية لهم لأن غيرهم لا ينتفع بها وهذا كالتخصيص في قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 64] وبما قررناه تبين وجه العدول عن يبصرون إلى ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ انتهى ، وقال الخفاجي : اللائق بالمقام ما ذكره الشيخان وبيانه أنه تعالى لما ذكر أنه أرسل إلى الأمم السالفة رسلاً وكتباً فكفروا بها فكان لهم خزي في الدنيا والآخر عقبه بأنه أرسله صلى الله عليه وسلم بسيد الكتب فكان عين الهدى والرحمن لمن أرسل إليه إشارة إلى أن مخالفة أمته لمن قبلهم تقربهم من سعادة الدارين وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بكثرة متابعيه وقلة مناويه وأنهم سيدخلون في دينه أفواجاً أفواجاً ثم أتبع ذلك على سبيل التمثيل لإنزاله تلك الرحمة التي أحيت من موتة الضلال إنزال الأمطار التي أحيت موات الأرض ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ [الشورى : 28] ولولا هذا

لكان قوله تعالى : ﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ كالأجنبي عما قبله وبعده ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ الخ تتميم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ [النحل : 64] الخ وللمقصود بالذات منه فالمناسب ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ لا يبصرون ولو كان تتميماً لملاصقه من الإنبات لم يكن ليسمعون بمعنى يقبلون مناسبة أيضاً ، ثم قال : ومن لم يقف على محط نظرهم قال في جوابه : يمكن أن يحمل على يسمعون قولي والله أنزل الخ فإنه مذكر وحامل على تأمل مدلوله انتهى ، وفي قوله عقبه : بأنه أرسله صلى الله عليه وسلم بسيد الكتب فكان عين الهدى والرحمة إشارة الخ خفاءً كما لا يخفى ، ومتى كان تتميماً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ [النحل : 64] الخ لم يظهر جعل المشار إليه ما سمعت وهو الظاهر ، وفي "البحر" أنه تعالى لما ذكر إنزال الكتاب للتبيين كان القرآن حياة للأرواح وشفاء لما في الصدور من علل العقائد ولذلك ختم بقوله سبحانه

﴿ لقوم يؤمنون ﴾ [النحل : 64] أي يصدقون والتصديق محله القلب ذكر سبحانه إنزال المطر الذي هو حياة الأجسام وسبب بقائها ثم أشار سبحانه بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122]

فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد همودها كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتاً بالجهل ولذلك ختم تعالى بقوله سبحانه : ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون هذا التشبيه المشار إليه والمعنى سماع إنصاف وتدبر ، ولملاحظة هذا المعنى والله تعالى أعلم لم يختم سبحانه بلقوم يبصرون وإن كان إنزال المطر مما يبصر ويشاهد انتهى .

(70/438)

وفيه أيضاً من التكلف ما فيه ، وأقول : لعل الأظهر أن المشار إليه ما ذكر من الإنزال والإحياء والسماع على ظاهره والكلام تتميم لملاصقه والعدول عن يبصرون إلى ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ للإشارة إلى ظهور هذا المعتبر فيه وأنه لا يحتاج إلى نظر ولا تفكر وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع القول فقط ، ويكفي في ربط الآية بما قبلها تشارك الكتاب والمطر في الإحياء لكن في ذاك إحياء القلوب وفي هذا إحياء الأرض الجدوب فتأمل .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ أي معبراً يعبر به من الجهل إلى العلم ، وأصل معنى العبر والعبور التجاوز من المحل إلى آخر ، وقال الراغب : العبور مختص بتجاوز الماء بسباحة ونحوها ، والمشهور عمومه فإطلاق العبرة على ما يعتبر به لما ذكر لكنه صار حقيقة في عرف اللغة ؟ والتنكير للتفخيم أي لعبرة عظيمة ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ ومنهم من قدر هنا مبتدأ

وهو هي نسقيكم ولا حاجة إليه ، وضمير ﴿ بُطُونِهِ ﴾ للإنعام وهو اسم جمع واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه وتأنيثه وجمعه باعتبار معناه ، ولذا جاء بالوجهين في القرآن وكلام العرب كذا قيل .

ونقل عن سيبويه أنه عد الأنعام مفرداً وكلامه رحمه الله تعالى متناقض ظاهراً فإنه قال في باب ما كان على مثال مفاعل ومفاعيل ما نصه : وأما أجمال وفلوس فإنها تنصرف وما أشبهها لأنها ضارعت الواحد ، ألا ترى أنك تقول : أقوال وأقاويل وأعراب وأعاريب وأيد وإياد فهذه الأحرف تخرج إلى مفاعل ومفاعيل كما يخرج الواحد إليه إذا فسر للجمع ، وأما مفاعل ومفاعيل فلا يكسر فيخرج الجمع إلى بناء غير هذا لأن هذا هو الغاية فلما ضارعت الواحد صرفت ، ثم قال : وكذلك الفعول لو كسرت مثل الفلوس فإنك تخرجه إلى فعائل كما تقول جدود وجدائد وركوب وركائب .

ولو فعلت ذلك بمفاعل ومفاعيل لم يجاوز هذا البناء ، ويقوي ذلك أن بعض العرب تقول : أتى للواحد فيضم الألف ، وأما أفعال فقد يقع للواحد ومن العرب من يقول هو الأنعام قال جل ثناؤه : ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ وقال أبو الخطاب .

سمعت العرب تقول : هذا ثوب أكياس انتهى .

وقال رحمه الله تعالى في باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة وليس في الكلام أفعيل ولا أفعول ولا أفعال ولا أفعل ولا أفعال إلا أن تكسر عليه أسماء للجمع انتهى ، وقد اضطرب الناس في التوفيق بين كلاميه فذهب أبو حيان إلى تأويل الأول وإبقاء الثاني على ظاهره من أن أفعالاً لا يكون من أبنيته المفرد فحمل قوله أولاً وأما أفعال فقد يقع للواحد الخ : على أن بعض العرب قد يستعمله فيه مجازاً كالأنعام بمعنى النعم كما قال الشاعر :

تركنا الخيل والنعم المفدي . . .

وقلنا للنساء بها أقيمي

وليس مراده أنه مفرد صيغة ووضعاً بدليل ما صرح به في الموضع الآخر من أنه لا يكون إلا جمعاً .

واعترض عليه بأن مقصود سيبويه بما ذكره أولاً الفرق بين صيغتي منتهى الجموع وأفعال وفعول حيث منع الصرف للأول دون الثاني بوجوه .

منها أن الأولين لا يقعان على الواحد بخلاف الآخيرين كما أوضحه فلو لم يكن وقوع أفعال على الواحد بالوضع لم يحصل الفرق فلا يتم المقصود .

نعم لا كلام في تدافع كلاميه ، وأيضاً لو كان كذلك لم يختص ببعضهم ؛ وأيضاً أن التجوز بالجمع عن الواحد يصح في كل جمع حتى صيغتي منتهى الجموع .

وتعقبه الخفاجي بقوله: والحق أنه لا تدافع بين كلاميه فإنه فرق بين صيغتي منتهى الجموع والصيغتين الأخيرتين بأن الأولتين لا تجمعان والأخيرتان تجمعان فاشبهتا الآحاد ثم قوي ذلك بأن قوماً من العرب استعملت أتى وهو على وزن فعول مفرداً حقيقة، ومنهم من استعمل الأنعام وهو على وزن أفعال كذلك، وقد أشار إلى أن ذلك لغة نادرة ببعض، ومن وما ذكره بعد بناء على اللغة المتداولة، وقوله: إن مقصوده أولاً الفرق بوجوه لا وجه له كما يعرفه حملة الكتاب انتهى، ويعلم منه أن رجوع الضمير المفرد المذكور إلى الأنعام عند سيبويه باعتبار أنه مفرد على لغة بعض العرب ومن قال: إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض أما المقدر أي بعض الأنعام أو المفهوم منها أو للأنعام باعتبار بعضها وهو الإناث التي يكون اللبن منها أو لواحدة كما في قول ابن الحاجب: المرفوعات هو ما اشتمل على علم الفاعلية أو له على المعنى لأن أل الجنسية تسوي بين المفرد والجمع في المعنى فيجوز عود ضمير كل منهما على الآخر.

وفي "البحر" أعاد الضمير مذكراً مراعاة الجنس لأنه إذا صح وقوع المفرد الدال على الجنس مقام جمعه جاز عوده عليه مذكراً كقولهم هو أحسن الفتيان وأبتله لأنه يصح هو أحسن

فتى وإن كان هذا لا ينقاس عند سيبويه ؛ وقيل جمع التكثير فيما لا يعقل يعامل معاملة

الجماعة ومعاملة الجمع فيعود الضمير عليه مفرداً كقوله :

مثل الفراخ نتفت حواصله . . .

وقال الكسائي : أفرد وذكر على تقدير المذكور كما يفرد اسم الإشارة بعد الجمع كقوله :

فيها خطوط من سواد وباق . . .

كأنه في الجلد توليع البهق

وهو في القرآن سائغ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنها تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ [المدثر : 54 ، 55] ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّى ﴾ [الأنعام : 78] ولا يكون هذا إلا في التأنيث المجازي فلا يجوز جاريتك ذهب .

(73/438)

واعترض بأنه كيف جمع نعم وهي تختص الإبل والأنعام تقال للبقر والإبل والغنم مع أنه لو اختص كان مساوياً .

وأجيب بأن من يراه جمعاً له يخص الأنعام أو يعمم النعم ويجعل التفرقة ناشئة من الاستعمال ويجعل الجمع للدلالة على تعدد الأنواع .

وقرأ ابن مسعود بخلاف عنه .

والحسن .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .

وابن عامر .

ونافع .

وأبو بكر .

وأهل المدينة ﴿ نَّسْقِيكُمْ ﴾ بفتح النون هنا وفي المؤمنين (21) على أنه مضارع سقي وهو لغة في أسقى عند جمع وأنشدوا قول لبيد :

سقى قومي بني مجد وأسقى . . .

نميراً والقبائل من هلال

وقال بعض : يقال سقيته لشفته وأسقيته لماشيته وأرضه ، وقيل : سقاه بمعنى رواه بالماء وأسقاه بمعنى جعله شراباً معداً له ، وفيه كلام بعد فتذكر .

وقرأ أبو رجاء ﴿ يسقيكم ﴾ بالياء مضمومة والضمير عائد على الله تعالى .

وقال "صاحب اللوامح" ويجوز أن يكون عائداً على النعم وذكر لأن النعم مما يذكر ويؤنث ، والمعنى وإن لكم في الأنعام نعماً يسقيكم أي يجعل لكم سقياً ، وهو كما ترى .

وقرأت فرقة منهم أبو جعفر ﴿ تسقيكم ﴾ بالتاء الفوقية مفتوحة قال ابن عطية : وهي

قراءة ضعيفة انتهى ، ولم يبين وجه ضعفها ، وكأنه والله تعالى أعلم عنى به اجتماع التأنيث والتذكير باعتبار وجهين .

﴿ بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا ﴾ افرق على ما في "الصحاح" السرجين ما دام في الكرش والجمع فروث .

وفي "البحر" كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش أو المعي ، و﴿ بَيْنَ ﴾ تقتضي متعدداً وهو هنا الفرق والدم فيكون مقتضى ظاهر النظم توسط اللبن بنيهما ، وروى ذلك الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إن البهيمة إذا عتلفت وأنضج العلف في كرشها كان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً .

(74/438)

وروى نحوه عن ابن جبير فالبينية على حقيقتها وظاهرها وتعقب ذلك الإمام الرازي بقوله : ولقائل أن يقول : اللبن والدم لا يتولدان في الكرش والدليل عليه الحسن فإن الحيوانات تذبح دائماً ولا يرى في كرشها شيء من ذلك ولو كان تولد ما ذكر فيه لوجب أن يشاهد في بعض الأحوال والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير إليه بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل إلى معدته وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها فإذا طبخ وحصل

الهضم الأول فيه فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء ثم ذلك الذي يحصل في الكبد ينضج ويصير دماً وذلك هو الهضم الثاني ويكون ذلك مخلوصاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية ، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة والسوداء إلى الطحال والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة ، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة والعروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث ، وبين الكبد والضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع ، والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم فيه إلى صورة اللبن ، لا يقال : إن هذه المعنى حاصلة في الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن لأنا نقول : الحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته فأوجبت أن يكون مزاج الذكر حاراً يابساً مزاج الأنثى بارداً رطباً فإن الولد إنما يتولد في داخل بدن الأنثى فكان اللائق بها اختصاصها بالرطوبة لتصير مادة للتولد وسبباً لقبول التمدد فتتسع للولد ، ثم إن تلك الرطوبة بعد انفصال الجنين تنصب إلى الضرع فتصير مادة لغذائه كما كانت كذلك قبل في الرحم ، ومن تدبر في بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها والأسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه سبحانه وقدرته وحكمته وتناهي رأفته ورحمته .

حكم حارت البرية فيها . . .

وحقيق بأنها تحتار

وحاصل ما ذكروه أنه إذا ورد الغذاء الكرش انطبخ فيه وتميزت منه أجزاء لطيفة تنجذب إلى الكبد فينطبخ فيها فيحصل الدم فتسري أجزاء منه إلى الضرع ويستحيل لبناً بتدبير الحكيم العليم ، وحينئذ فالمراد أن اللبن إنما يحصل من بين أجزاء الفرث ثم من بين أجزاء الدم فالبينية على هذا مجازية وفي إرشاد العقل السليم وغيره لعل المراد بما روى عن ابن عباس أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذو البدن فإن عدم تكونهما في العكرش مما لا ريب فيه والداعي إلى ذلك مخالفة ما يقتضيه الظاهر للحس ولما ذكره الحكماء أهل التشريح .

ويؤيد ما ذكروه ما أخبرني به من أثق به من أنه قد شاهد خروج الدم من الضرع بعد اللبن عند المبالغة في الحلب والله تعالى أعلم ، و﴿ مِنْ ﴾ الأولى تبعيضية لما أن اللبن بعض ما في بطون الأنعام لأنه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث حسبما سمعت ، وهي متعلقة بنسقيكم و﴿ مِنْ ﴾ الثانية ابتدائية وهي أيضاً متعلقة بنسقيكم فإن بين الدم والفرث المحل الذي يبتدأ منه الإسقاء وتعلقهما بعامل واحد لاختلاف مدلوليهما و﴿ لَّبَنًا ﴾ مفعول ثان لنسقيكم وتقديم ذلك عليه لما مر مراراً من أن

تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقاً إلى المؤخر موجباً لفضل تمكنه عند وروده عليها لا سيما إذا كان المقدم متضمناً لوصف مناف لوصف المؤخر كالذي نحن فيه ، فإن بين وصفي المقدم والمؤخر تنافياً وتنائياً بحيث لا يتراآى ناراهما فإن ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف إلى المؤخر ، وجوز أن يكون ﴿ مِن بَيْنِ ﴾ حالاً من ﴿ لَّبَنًا ﴾ قدم عليه لتنكيره وللتنبيه على أنه موضع العبرة .

(76/438)

وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ الأولى ابتدائية كالثانية فيكون ﴿ مِن بَيْنِ ﴾ بدل اشتمال مما تقدم ﴿ خَالِصًا ﴾ مصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه أو صافياً لا يستصحبه لون الدم ولا رائحة الفرث ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ سهل المرور في حلقهم لدهنيته .

أخرج ابن مردويه عن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي لبيبة عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما أشرب أحد لبناً فشرق إن الله تعالى يقول ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ "

وقرأت فرقة ﴿ سيغاً ﴾ بتشديد الياء .

وقرأ عيسى بن عمر "سيغاً" مخففاً من سيغ كهين المخفف من هين .

واستدل بالآية على طهارة لبن المأكول وإباحة شربه ، وقد احتج بعض من يرى على أن المني طاهر على من جعله نجساً لجريه في مسالك البول بها أيضاً وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً وفي "التفسير الكبير" قال أهل التحقيق : اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار يدل على إمكان الحشر والنشر ، وذلك لأن هذا العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والأرض فخالق العالم دبر تدبيراً انقلب به لبناً ثم دبر تدبيراً آخر حدث من ذلك البلن الدهن والجبن ، وهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يقلب هذه الأجسام من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة ؛ فإذا كان كذلك لم يمتنع أيضاً أن يكون قادراً على أن يقلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع .

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴾

متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما ، وحذف لدلالة ﴿ نُّسۡقِيكُمۡ ﴾ قبله عليه ، وقوله تعالى : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًا ﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء أو بتتخذون و﴿ مِنۡهُ ﴾ من تكرير الظرف للتأكيد كما في قولك زيد في الدار فيها أو خبر لمحذوف صفته ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾ أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه ، وضمير ﴿ مِنۡهُ ﴾ عائد إما على المضاف المقدر أو على الثمرات المؤولة بالثمر لأنه جمع معرفة أريد به الجنس ، وفائدة الصيغة الإشارة إلى تعداد الأنواع أو على ثمر المقدر ، و﴿ السكر ﴾ الخمر قال الأخطل :

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم . . .

إذا جرى فيهم المزاء والسكر

وهو في الأصل مصدر سكر سكراً وسكراً نحو رشد رشداً ورشداً .

واستشهد له بقوله :

وجاؤنا بهم سكر علينا . . .

فأجلى اليوم والسكران صاحي

وفسروا الرزق الحسن بالخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك ، وإليه ذهب "صاحب الكشاف" وقد ذكر في توجيه إعرابها ما ذكرناه ، وقدم الوجه الأول من أوجه الثلاثة وهو

ظاهر في ترجيحه وصرح به الطيبي وبينه بما بينه ، وأخر الثالث وهو ظاهر في أنه دون أخويه .

(78/438)

وفي "الكشف" بعد نقل كلامه في الوجه الأول فيه إضمار العصير وأنه لا يصلح عطفاً في الظاهر على السابق لأنه لا يصلح بياناً للعبرة في الإنعام ، وفيه أن ﴿ أنكاثا تَتَّخِذُونَ ﴾ لا يصلح كشفاً عن كحنه الإسقاء كيف وقد فسر الرزق الحسن بالتمر والزبيب أيضاً وأي مدخل للعصير وأين هذا البيان من البيان بقوله تعالى : ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ [النحل : 66] ليجعل مدركاً لترجيحه فهذا وجه مرجوح مؤول بأنه عطف على مجموع السابق ، وأوثر الفعلية لمكان قربه من ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ تم البيان عنده ثم أتى بفائدة زائدة ، وأظهر الأوجه ما ذكر آخر أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون ليكون عطفاً للاسمية على الاسمية أعني قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ [النحل : 66] ولما لم يكن العبرة فيه كالأول اكتفى بكونه عطفاً على ما هو عبرة ولم يصرح ، وأفيد بالتبعيض أن من ثمراتها ما يؤكل قبل الإدراك وما يتلف ويأكل الوحوش وغير ذلك اه ، وما ذكره في التأويل من بيان البيان عند ﴿ سَكَرًا ﴾ محوج إلى جعل ﴿ رِزْقاً ﴾

معمولاً لعامل آخر ولا يخفى بعده ، والظاهر أنه لا ينكره ، وما ذكره من الوجه الأظهر طكره الحوفي كصاحبه ، ولا يرد عليه أن فيه حذف الموصوف بالجملة لأن ذلك إذا كان الموصوف بعضاً من مجرور من أوفى المقدم عليه مطرد نحو منا أقام ومنا ظعن أراد فريق ، وقد يحذف موصوفاً بالجملة في غير ذلك كقول الراجز :

مالك عندي غير سهم وحجر . . .

وغير كبداء شديد الوترجادت بكفي كان من أرمى البشر

(79/438)

أراد رجل نعم قال الطبري : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه ، وتعقبه أبو حيان بأن ذلك لا يجوز على مذهب البصريين وكأنه اعتبر ﴿ مَا ﴾ موصولة وحذف الموصول مع إبقاء الصلة لا يجوز عنهم ، ولعلهم يفرقون بين الموصول والموصوف فيما ذكر ، وقال العلامة ابن كمال في بعض رسائله : لا وجه لما اختاره صاحب "الكشاف" يعني به تعليق الجار بنسقيكم محذوفاً وتقدير العصير مضافاً لأنه حينئذ لا يتناول المأكول وهو أعظم صنفي ثمراتها يعني النخيل والأعناب والمقام مقام الامتنان ومقتضاه استيعاب الصنفين ثم قال : والعجب منه وممن اتبعه كالبيضاوي كيف اتفقوا على تفسير الرزق

الحسن بما ينتظم التمر والزبيب ومع ذلك يقولون : إن المعنى ومن عصيرهما تتخذون سكراً ورزقاً حسناً فإنه لا انتظام بين هذين الكلامين فالوجه أن يتعلق الجار بتتخذون ويكون منه تكرير الظرف للتأكيد اه وهو الذي استظهره أبو حيان وقد سبقت الإشارة إلى الاعتراض بما تعجب منه مع الجواب بما فيه بعد ، ونقل عنه أنه جعله متعلقاً بما في الإسقاء من معنى الإطعام أي نطعمكم من ثمرات النخيل والأعناب لينتظم المأكول منهما والمشروب المتخذ من عصيرهما .

وفيه من البعد ما فيه .

وأنت تعلم أن تقدير العصير على الوجه الأول عند من يراه لازم ، وتقديره على الوجه الثاني جائز عند ذاك أيضاً ولا يجوز عند المعترض .

واختار أبو البقاء تعليقه بخلق لكم أو جعل وليس بذاك ، وقيل : إنه معطوف على الأنعام على معنى ومن ثمرات النخيل والأعناب عبرة ﴿ وَتَتَّخِذُونَ ﴾ بيان لها وهو غير الوجه الذي استظهره صاحب الكشف وكان الظاهر في بدل من وضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ لا يتعين فيه ما سمعت كما لا يخفى عليك بعد أن أحطت خبراً بما قيل في ضمير ﴿ بُطُونِهِ ﴾ وتفسير ﴿ السكر ﴾ بالخمر هو المروى عن ابن مسعود .

وابن عمر .

وأبي رزين .

والحسن .

ومجاهد .

والشعبي .

والنخعي .

وابن أبي ليلى .

وأبي ثور .

والكلبي .

(80/438)

وابن جبير مع خلق آخرين ، والآية نزلت في مكة والخمر إذ ذاك كانت حلالاً يشربها والفاجر وتحريمها إنما كان بالمدينة إتفاقاً واختلفوا في أنه قبل أحد أو بعدها والآية المحرمة لها ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والانصاب والازلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] على ما ذهب إليه جمع فما هنا منسوخ بها ، وروى ذلك غير واحد ممن تقدم كالنخعي وأبي ثور وابن جبير ، وقيل : نزلت قبل ولا نسخ بناء على ما روى عن ابن عباس أن ﴿ السكر ﴾ هو الخل بلغة الحبشة أو على ما نقل عن أبي عبيدة

أن ﴿ السكر ﴾ المطعوم المتفكه به كالنقل وأنشد :

جعلت إعراض الكرام سكراً . . .

وتعقب بأن كون السكر في ذلك بمعنى الخمر أشبه منه بالطعام ، والمعنى أنه لشغفه بالغيبة وتميزق الأعراض جرى ذلك عنده مجرى الخمر المسكرة ، وكأنه لهذا قال الزجاج : إن قول أبي عبيدة لا يصح ، وفيه أن المعروف في الغيبة جعلها نقلاً ولذا قيل : الغيبة فاكهة القراء وإلى عدم النسخ ذهب الحنفيون وقالوا : المراد بالسكر ما لا يسكر من الأنبذة ، واستدلوا عليه بأن الله تعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ولا يقع الامتنان إلا بمحلل فيكون ذلك دليلاً على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ فإذا انتهى إلى السكر لم يجز وعضدوا هذا من السنة بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " حرم الله تعالى الخمر بعينها القليل منها والكثير والسكر من كل شراب " أخرجه الدارقطني ، وإلى حل شرب النبيذ ما لم يصل إلى الإسكار ذهب إبراهيم النخعي : وأبو جعفر الطحاوي وكان إمام أهل زمانه .

وسفيان الثوري وهو من تعلم وكان عليه الرحمة يشربه كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره .

والبيضاوى بعد أن فسر ﴿ السكر ﴾ بالخمر تردد في أمر نزولها فقال : إلا أن الآية إن كانت سابقة على تحريم الخر فدالة على كراهيتها وإلا فجامعة بين العتاب والمنة ، ووجه دلالتها على الكراهية بأن الخمر وقعت في مقابة الحسن وهو مقتضى لقبحها والقبيح لا يخلو عن الكراهة وإن خلا عن الحرمة ، واعترض عليه بأن تردده هنا في سبقها على تحريم الخمر ينافي ما في سورة البقرة حيث ساق الكلام على القطع على أنه جزم في أول هذه السورة بأنها مكية إلا ثلاث آيات من آخرها .

وفي "الكشاف" بعد أن فسر ﴿ السكر ﴾ أيضاً بما ذكر قال : وفيه وجهان .

أحدهما : أن تكون منسوخة .

والثاني : أن يجمع بين العتاب والمنة ، ونقل "صاحب الكشاف" أن القول بكونها منسوخة أولى الأقاويل ، ثم قال : وفي الآية دليل على قبح تناولها تعريضاً من تقييد المقابل بالحسن ، وهذا وجه من ذهب إلى أنه جمع بين العتاب والمنة ، وعلى الأول يكون رمزاً إلى أن السكر وإن كان مباحاً فهو مما يحسن اجتنابه اه .

واستدل ابن كمال على نزولها قبل التحريم بأن المقام لا يحتمل العتاب فإن مساق الكلام على ما دل عليه سياقه ولحاقه في تعداد النعم العظام ، وذكر أن الكلام الزمخشري ومن تبعه ناشي عن الغفلة عن هذا ، ولعل عدم وصف ﴿ السكر ﴾ بما وصف به ما بعده لعلم الله تعالى أنه سيكون رجساً يحكم الشرع بتحريمه .

وجوز الزمخشري أن يجعل الكر رزقاً حسناً كأنه قيل : تتخذون منه ما هو مسكر ورزق حسن أي على أن العطف من عطف الصفات .

وأنت تعلم أن العطف ظاهره المغايرة .

(82/438)

هذا ولما كان اللبن نعمة عظيمة لا دخل لفعل الخلق فيه إضافة سبحانه لنفسه بقوله تعالى ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ [النحل : 66] بخلاف اتخاذ السكر وقد صرح بذلك في البحر فتأمل ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ باهرة ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل بالآيات فالفعل منزل منزلة اللازم ، قال أبو حيان : ولما كان مفتتح الكلام ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ [النحل : 66] ناسب الختم بقوله سبحانه : يعقلون لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول .

وأنا أقول : إذا كان في الآية إشارة إلى الحط من أمر السكر ففي الختم المذكور تقوية لذلك وله في النفوس موقع وأي موقع حيث أن العقار كما قيل للعقول عقال :

إذا دارها بالأكف السقاة . . .

لخطابها أمهروها العقولا

فافهم ذاك والله تعالى يتولهم هداك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(83/438)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ الآية .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن في الأنعام عبرة دالة على تفرد من خلقها ، وأخلص لبنها من بين فرث ودم – بأنه هو وحده المستحق لأن يعبد ، ويطاع ولا يعصى . وأوضح هذا المعنى أيضاً في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون : 21] ، وقوله : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : 5] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : 71–73] ، وقوله : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : 17] ، إلى غير ذلك من الآيات .

(84/438)

وقد دلت الآيات المذكورة على أن الأنعام يصح تذكيرها وتأنيثها . لأنه ذكرها هنا في قوله : ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ وأنثها " في سورة (قد أفلح المؤمنون) " في قوله : ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ [المؤمنون : 21] ومعلوم في العربية : أن أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ ، والتأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس . وقد جاء في القرآن تذكير الأنعام وتأنيثها كما ذكرناه آنفاً . وجاء فيه تذكير النخل وتانيثها . فالتذكير في قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] . والتأنيث في قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] ، ونحو ذلك وجاء في القرآن تذكير السماء وتأنيثها . فالتذكير في قوله : ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] . والتأنيث في قوله : ﴿ والسمآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [الذاريات : 47] الآية ، ونحو ذلك من الآيات . وهذا معروف في العربية ، ومن شواهده قول قيس بن الحصين الحارثي الأسدي وهو صغير في تذكير النعم :

في كل عام نعم تحوونه . . . يلحقه قوم وتنتجونه

وقرأ هذا الحرف نافع وابن عامر وشعبة عن عاصم " نسقيكم " بفتح النون . والباقون بضمها ، كما تقدم بشواهده " في سورة الحجر " .

مسائل

تتعلق بهذه الآية الكريمة :

المسألة الأولى – استنبط القاضي إسماعيل من تذكير الضمير في قوله : ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ : أن لبن الحل يفيد التحريم . وقال : غنما جيء به مذكراً لأنه راجع إلى ذكر النعم . لأن اللبن للذكر محسوب ، ولذلك قضى النَّبي صلى الله عليه وسلم " أن لبن الفحل يحرم " حيث أنكرته عائشة في حديث أفلح أخي أبي القعيس ، فللمرأة السقى ، وللرجل اللقاح . فجرى الاشتراك فيه بينهما اه . بواسطة نقل القرطبي .

(85/438)

قال مقيده عفا الله عنه : أما اعتبار لبن الفحل في التحريم فلا شك فيه ، ويدل له الحديث المذكور في قصة عائشة مع أفلح أخي أبي القعيس . فإنه متفق عليه مشهور . وأما استنباط ذلك من عود الضمير في الآية فلا يخلو عندي من بعد وتعسف .

والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية – استنبط النقاش وغيره من هذه الاية الكريمة : أن المني ليس بنجس ، قالوا : كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً ، كذلك يجوز أن يخرج المني من مخرج البول طاهراً .

قال ابن العربي : إن هذا لجهل عظيم ، وأخذ شنيع ! اللبن جاء الخبر عنه مجيء النعمة

والمنة الصادرة عن القدرة ، ليكون عبرة . فاقتضى ذلك كلع وصف الخلوص واللذة .

وليس من هذه الحالة حتّى يكون ملحقاً به ، أو مقيساً عليه .

قال القرطبي بعد أن نقل الكلام المذكور : قلتك قد يعارض هذا بأن يقال : وأي منة أعظم وأرفع من حروج المني الذي يكون عنه الإنسان المكرم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ [الطارق : 7] وقال : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : 72] وهذا غاية في الامتنان .

فإن قيل : إنه يتنجس بخروجه في مجرى البول .

قلنا : هو ما أردناه . فلانجاسة عارضة وأصله طاهر اه محل الغرض من كلام القرطبي .

قال مقيدخ عفا الله عنه : وأخذ حكم طهارة المني من هذه الآية الكريمة لا يخلوا عندي من بعد . وسنبين إن شاء الله حكم المني : هل هو نجس أو طاهر ، وأقوال العلماء في ذلك ، مع مناقشة الأدلة . اعلم – أن في مني الإنسان ثلاثة أقوال للعلماء : الأول – أنه طاهرن وأن حكمه حكم النخامة والمخاط . وهذا هو مهب الشافعي ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وبه عن سعد بن أبي وقاص ، وابن عمر ، وعائشة رضي الله عنهم . كما نقله النووي في " شرح المهذب " وغيره .

القول الثاني – أنه نجس، ولا بد في طهارته من الماء سواء كان يابساً أو رطباً. وهذا هو مذهب مالك، والثوري والأوزاعي.

القول الثالث – أنه نجس، ورطبه لا بد له من الماء، ويابسه لا يحتاج إلى الماء بل يطهر بفركه من الثوب حتّى يزول منه. وهذا هو مذهب أبي حنيفة. واختار الشوطاني في (نيل الأوطار): أنه نجس، وأن إزالته لا تتوقف على الماء مطلقاً.

أما حجة من قال إنه طاهر كالمخاط فهي بالنص والقاس معاً، ومعلوم في الأصول: أن القياس الموافق للنص لا مانع منه، لأنه دليل آخر عاضد للنص، ولا مانع من تعاضد الأدلة.

أما النص فهو ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كنت أفرك المني من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمّ يذهب فيصلي فيه". أخرجه مسلم في صحيحه، وأصحاب السنن الأربعة والإمام أحمد. قالوا: فركها له يابساً، وصلاته في الثوب من غير ذكر غسل – دليل على الطهارة. وفي رواية عند أحمد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلت المني من ثوبه بعرق الإذخر، ثم يصلي فيه، ويحته من ثوبه يابساً ثم يصلي فيه.

وفي رواية عن عائشة عند الدارقطني: "كنت أفرك المني من ثوب رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا كان يابساً ، وأغسله إذا كان رطباً " وعن إسحاق بن يوسف قال : حدثنا شريك ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : سئل النَّبي صلى الله عليه وسلم عن المني يصيب الثوب فقال : " إنما هو بمنزلة المخاط والبصاق ، وإنما يكفيك أن تمسحه بخرقة أو بإذخرة " .

قال صاحب (منتقى الأخبار) بعد أن ساق هذا الحديث كما ذكرنا : رواه الدارقطني وقال : لم يرفعه غير إسحاق الأزرق عن شريك . قلت : وهذا لا يضر . لأن إسحاق إمام مخرج عنه في الصحيحين ، فيقبل رفعه وزيادته .

(87/438)

قال مقيده عفا الله عنه : ما قاله الإمام المجد رحمه الله (في المنتقى) من قبول رفع العدل وزيادته ، هو الصحيح عند أهل الأصول وأهل الحديث كما بياه مرارا ، غلى غير ذلك من الأحاديث في رك المن وعدم الأمر بغسله .

وأما لقياس العاضد للنص فهو من وجهين : إحدهما – إلحاق المني بالبيض . بجامع أن كلاً منهما مائع يتخلق منه حيوان حي طاهر ، والبيض طاهر إجماعاً . فيلزم كون المني طاهراً أيضاً .

قال مقيده عفا الله عنه : هذا النوع من القياس هو المعروف الصوري ، وجمهور العلماء لا يقبلونه ، ولم يشتهر بالقول به إلا إسماعيل بن علية . كما اشار له في مراقي السعود بقوله :

وابن علية يرى للصوري . . . كالقيس للخيل على الحمير

وصور القياس الصوري لمختلف فيها كثيرة . كقياس الخيل على الحمير في سقوط الزكاة ، وحرمة الأكل للشبه اصوري . وكقياس المني على البيض لتولد الحيوان الطاهر من كل منهما في طهارته . وكقياس أحد التشهدين على الآخر في الوجوب أو الندب لتشابههما في الصورة . وكقياس الجلسة الأولى على الثانية في الوجوب لتشبهها بها في الصورة . وكإلحاق الهرة الوحشية بالإنسية في التحريم . وكإلحاق خنزير البحر وكلبه بخنزير البر وكلبه ، إلى غير ذلك من صوره الكثيرة المعروفة في الأصول . واستدل من قال بالقياس الصوري – بأن النصوص دلت على اعتبار المشابهة في الصورة في الأحكام . كقوله : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] . والمراد المشابهة في الصورة على قول الجمهور . وكبدل القرض فإنه يرد مثله في الصورة . وقد استسلف صلى الله عليه وسلم بكراً ورد رباعياً كما هو ثابت في الصحيح . وكسروره صلى الله عليه وسلم بقول القائف المدلجي في زيد بن حارثة وابنه أسامة : هذه الأقدام بعضها من بعض . لأن القيافة قياس صوري ، لأن اعتماد القائف على المشابهة في الصورة .

الوجه الثاني من وجهي القياس المذكور – إلحاق المني بالطين ، بجامع ان كلاً منهما مبتدأ خلق بشر . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون : 12-13] الآية .

فإن قيل : هذا القياس يلزمه طهارة العلقة ، وهي دم الجامد . لأنها أيضاً مبتدأ خلق بشر . لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون : 14] والدم نجس بلا خلاف .

فالجواب – أن قيان الدم على الطين في الطهارة فاسد الاعتبار ، لوجود النص بنجاسة الدم . اما ياس المني على الطين فليس بفاسد الاعتبار لعدم ورود النص بنجاسة المني .

وأما حجة من قال بأن المني نجس فهو بالنص والقياس أيضاً . أما النص فهو ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كنت أغسل المني من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ يخرج إلى الصَّلاة وأثر الغسل في ثوبه بقع ماء " . متفق عليه . قالوا : غسلها له دليل على أنه نجس . وفي رواية عند مسلم عن عائشة بلفظ : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغسل المني ثم يخرج إلى الصَّلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه " .

قال مقيده عفا الله عنه : وهذه الرواية الثابتة في صحيح ميلم تقوي حجة منيقول بالنجاسة . لأن المقرر في الأصول : أن الفعل المضارع بعد لفظة "كان" يدل على المداومة على ذلك الفعل ، ففول عائشة في رواية مسلم هذه : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان يغسل " تدل على كثرة وقوع ذلك منه ، ومداومته عليه ، وذلك يشعر بتحتم الغسل .

وفي رواية عن عائشة في صحيح مسلم أيضاً : أن رجلاً نزل بها فأصبح يغسل ثوبه . فقالت عائشة : إنما كان يجزئك إن رأيته أن تغسل مكانه . فإن لم ، تضحت حوله ، ولقد رأيتني أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فركاً فيصلِّي فيه . اه

(89/438)

قالوا : هذه الرواية الثابته في الصحيح عن عائشة صرحت فيها : بأنه إنما يجزئه غسل مكانه . وقد تقرر في الأصول (في مبحث دليل الخطاب) وفي المعاني (في مبحث القصر) : أن " إنما " من أدوات الحصر . فعائشة صرحت بحصر الإجزاء في الغسل . فدل ذلك على أن الفرك لا يجزىء دون الغسل ، إلى غير ذلك من الأحاديث الدلة على غسله .

وأما القياس – فقياسهم المني على البول والحيض ، قالوا ولأنه يخرج من مخرج البول ، ولأن المذي جزء من المني . لأن الشهوة تحلل كل واحد منهما فاشتركا في النجاسة .

وأما حجة من قل : أنه نجس ، وإن يابسه يطهر بالفرك ولا يحتاج إلى الغسل فهي ظواهر نصوص تدل على ذلك ، ومن أوضحا في ذلك حديث عائشة عند الدار قطني الذي قدمناه آنفاً : "كنت أفرك المني من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يابساً ،

وأغسله إذا كان رطباً " .

وقال المجد (في منتقى الأخبار) بعد أن ساق هذه الرواية ما نصه : قل : فقد بان من مجموع النصوص جواز الأمرين .

قال : مقيده عفا الله عنه : إيضاح الاستدلال بهذا الحديث لهذا القول : أن الحرص على إزالة المني بالكلية دليل على نجاسته ، والاكتفاء بالفرك في يابسه يدل على أنه لا يحتاج إلى لماء . ولا غرابة في طهارة متنجس بغير الماء . فإن ما يصيب الخفاف والنعال من النجاسات المجمع على نجاستها يطهر بالدلك حتى تزول عينه ، ومن هذا القبيل قول الشوكاني : إنه يطهر مطلقاً بالإزالة دونا لغسل ، لما جاء في بعض الروايات من سلت رطبه بإذخرة ونحوها . ورد من قال : إن المني طاهر احتجاج القائلين بنجاسته ، بأن الغسل لا يدل على نجاسة الشيء ، فلا ملازمة بين الغسل والتنجيس لجواز غسب الطاهرات كالتراب والطين ونحوه يصيب البدن أو الثوب . قالوا : ولم يثبت نقل بالأمر بغسله ، ومطلق الفعل لا يدل على شيء زائد على الجواز .

قال ابن حجر (في التلخيص) : وقد ورد الأمر بفركه من طريق صحيحه ، رواه ابن الجارود (في المنتقى) عن محسن بن يحيى ، عن أبي حذيفة عن سفيان ، عن منصور ، عن ابراهيم ، عن همام بن الحارث قال : كان عند عائشة ضيف فأجنب ، فجعل يغسل ما أصابه. فقالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بحته – غلى أن قال : وأما الأمر بغسله فلا أصل له.

وأجابوا عن قول عائشة : "إنما يجزئك أن تغسل مكانه" لحمله على الاستحباب ، لأنها احتجت بالفرك. قالوا : فلو وجب الغسل لكان كلامها حجة عليها لا لها ، وإنما أرادت الإنكار عليه في غسل كل ثوب فقالت : "غسل كل الثول بدعة منكرة ، وإنما يجزئك في تحصيل الأفضل والأكمل أن تغسل مكانه. . . "الخ.

وأجابوا عن قياس المني على البول والدم بأن المني أصل الآدمي المكرم فهو بالطين اشبه ، بخلاف البول والدم.

وأجابوا عن خروجه من مخرج البول بالمنع ، قالوا : بل مخرجهما مختلف ، وقد شق ذكر رجل بالروم ، فوجد كذلك ، لا ننجسه بالشك. قالوا : ولو بت أنه يخرج من مخرج البول لم يلزم منه النجاسة. لأن ملاقاة النجاسة في الباطن لا تؤثر ، وإنما تؤثر ملاقاتها في الظاهر.

وأجابوا عن دعوى أن المذي جزء من المني بالنع أيضاً قالوا : بل هلو مخالف له في الاسم والخلقة وكيفية الخروج. لأن النفس والذكر يفتران بخروج المني ، وأما المذي فعكسه ،

ولهذا من به سلس المذي لا يخرج منه شيء من المذي. وهذه المسألة فيها للعلماء مناقشات كثيرة، كثير منها لا طائل تحته. وهذا الذي ذكرنا فيها هو خلاصة أقوال العلماء وحججهم.

قال مقيده عفا الله عنه: أظهر الأقوال دليلاً في هذه المسالة عند والله أعلم - أن المني طاهر. لما قدمنا من حديث إسحاق الأزرق، عن شريك عن محمد بن عبد الرحمن، عن عطاء، عن ابن عباس: أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال:

(91/438)

"إنما هو بمنزله المخاط والبصاق، وإنما يكفيك أن تمسحه بخرقة أو بإذخرة" وهذا نص في محل النزاع.

وقد قدمنا علن صاحب (المنتقى) أن الدارقطني قال: لم يرفعه غير إسحاق الأزرق عن شريك، وأنه هو قالك قلت: وهذا لا يضر لأن إسحاق إمام مخرج عنه في الصحيحين، فيقبل رفعه وزيادته. انتهى.

وقد قدمنا مراراً: أن هذا هو الحق. فلو جاء الحديث موقوفاً من طريقن وجاء مرفوعاً من طريق أخرى صحيحة حكم برفعه. لأ ن الرفع زيادة، وزيادات العدول مقبولة، قال في

مراقي السعود : -

والرفع والوصل وزيد اللفظ . . . مقبوله عند إمام الحفظ - إلخ

وبه تعلم صحة الاحتجاج برواية إسحاق المذكور المرفوعن ، ولا سيما أن لها شاهداً من طريق ا×رى .

قال ابن حجر (في التلخيص) ما نصه : فائدة : -

روى الدارقطني ، والبيهقي من طريق إسحاق الأزرق ، عن شريك ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن عطاء ، عن ابن عباي ، قال : سئل النّبي صلى الله عليه وسلم عن المني يصيب الثوب ؟ قال : " إنما هو بمنزلة المخاط والبصاق - وقال - إنما يكفيك أن تمسحه بخرقة وإذخرة " ورواه الطخاوي من حديث حبيب بن أبي عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعاً ، ورواه هو البيهقي من طريق عطاء عن الن عباس موقوفاً ، قال البيهقي : الموقوف هو الصحيح انتهى .

فقد رأيت الطريق الأخرى المرفوعة من حدث حبيب بن أبي عمرة ، عن سعيد عن ابن عباس ، وهي مقوية لطريق إسحاق الأزرق المتقدمة .

واعلم أن قول البيهقي رحمه الله : والموقوف هو الصحيح لا يسقط به الاحتجاج بالرواية المرفوعة . لأنه يرى ان وقف الحديث من تلك الطريق علة في الطريق المرفوعة . وهذا قول معروف لبعض العلماء من أهل الحديث والأصول ، ولكن الحق : أن الرفع زيادة مقبوله من

العدل ، وبه تعلم صحة الاحتجاج بالرواية المرفوعة عن ابن عباس في طهارة المني ، وهي نص صريح في محل النزاع ، ولم يثبت في نصوص الشرع شيء يصرح بنجاسة المني .

(92/438)

فإن قيل : أخرج البزار ، وأبو يعلى الموصلي في مسنديهما ، وابن عدي في الكاملن والدار القطني والبيهقي والعقيلي في اضعفاء ، وأبو نعيم في المعرفة من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم مر بعمار فذكر قصة ، وفيها : " إنما تغسل ثوبك من الغائط والبول والمني والدم والقيء يا عمار . ما نخامتك ودموع عينيك والماء الذي في ركوتك إلا سواء " .

فالجواب – أن في إسناده ثابت بن حماد ، عن علي بن جدعان ، وضعفه الجماعة المذكورن كلهم إلا أبا يعاى بثابت بن حماد ، واتهمه بعضهم بالوضع . وقال اللالكائي : أجمعوا على ترك حديثه وقال البزار : لا نعلم لثابت إلا هذا الحديث .

وقال الطبراني : تفرد به ثابت بن حماد ، ولا يروى عن عمار إلا بهذا افسناد . وقال البيهقي : هذا حديث باطل ، إنما رواه ثابت بن حماد وهو متهم بالوضع . قاله ابن حجر في (التلخيص) . ثم قال : قلت رواه البزار ، والطبراني من طريق ابراهيم بن زريا العجلي ،

عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، لكن إبراهيم ضعف ، وقد غلط فيه ، إنما يرويه ثابت بن حماد . انتهى .

وبهذا تعلم أن هذا الحديث لا يصح الاحتجاج به على نجاسة المني والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة - قال القرطبي : في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره . فأما اللبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به . لأنه مائع طاهر حصل في وعاء نجس . وذلك أن ضرع الميتة نجس ، واللبن طاهر . فإذا حلب صار مأخوذاً من وعاء نجس . فأما لبن المرأة الميتة فاختلف أصحابنا فيه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حياً وميتاً فهو طاهر . ومن قال : ينجس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعاً تثبت الحرمة . لأن الصبي قد يتغذى به كما يتغذى من الحية . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم " ولم يخص - انتهى كلام القرطبي .

(93/438)

قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ .

جمهور العلماء على أن المراد بالسكر في هذه الآي الكريمة : الخمر ، لأن العرب تطلق اسم السكر على ما يحصل به السكر ، من إطلاق المصدر وإرادة الاسم . والعرب تقول : سكر

" بالكسر " سكراً " بفتحتين " وسكراً " بضم فسكون " .

وقال الزمخشري في الكشاف : والسكر الخمر . سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً

، نحو رشد رشداً ورشداً . اقل :

وجاءونا بهم سكر علينا . . . فأجلى اليوم والسكران صاحي - أه

ومن إطلاق السكر على الخمر قول الشاعر :

بئس الصحاة وابئس الشرب . . . شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر

وممن قال : بأن السكر في الآية الخمر : ابن عباس ، و ابن مسعود ، وابن عمر ، وأبو رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وابن أبي ليلى ، والكبي ، وابن جبير ، وأبو ثور ، وغيرهم . وقيل : السكر : الخل . وقيل : العصير الحلو .

وإذا عرفت أن الصحيح هو مذهب الجمهور ، وأن الله امتن على هذه الأمة بالخمر قبل تحريمها - فأعلم أن هذه الآية مكية ، نزلت بعدها آيات مدنية بينت تحريم الخمر ، وهي ثلاث آيات نزلت بعد هذه الآية الدالة على إباحو الخمر .

الأوى - آية البقرة التي ذكر فيها بعض معائبها ومفاسدها ، ولم يجزم فيها بالتحريم ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : 219] وبعد نزولها تركها فوم للإثم الذي فيها ، وشربها خرون للمنافع التي فيها .

الثانية – آية النساء الدالة على تحريمها في أوقات الصلوات ، دون الأوقات التي يصحو فيها الشارب قبل وقت الصلاة ، كما بين صلاة العشاء وصلاة الصبح ، وما بين صلاة الصبح وصلاة الظهر ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ﴾ [النساء : 43] الآية .

الثالثة – آية المائدة الدالة على تحريمها تحريماً باتاً ، وهي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 90] إلى قوله – ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] .

وهذه الآية الكريمة تدل على تحريم الخمر أتم دلالة وأوضحها . أنه تعالى صرح بأنها رجس ، وأنها من عمل الشيطان ، وأمر باجتنابها أمراً جازماً في قوله ﴿ فاجتنبوه ﴾ واجتناب الشيء : هو التباعد عنه ، بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه . وعلق رجاء الفلاح على اجتنابها في قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يفهم منه – أنه من لم يجتنبها لم يفلح ، وهو كذلك .

ثم بين بعض مفاسدها بقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي

الخمر والميسر ويَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصلاة ﴾ [المائدة : 91] . ثم أكد النهي عنها بأن أورده بصيغة الاستفهام في قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي " انتهوا " وقد تقرر في فن المعاني : أن من معاني صيغة الاستفهام التي ترد لها الأمر .

(95/438)

كقول : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكتاب والأميين أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران : 20] الآية . اي أسلموا . والجار والمجرور في قوله : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل ﴾ [النحل : 67] الآية – يتعلق ب ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾ وكرر لفظ " من " للتأكيد ، وأفرد الضمير في قوله ﴿ منه ﴾ مراعاة للمذكور . اي تتخذون منه ، أي مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب . ونظيره قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق . . . كأنه في الجلد توليع البهق

فقوله " كأنه " اي ما ذكر من خطوط السواد البلق . وقيل : الضمير راجع إلى محذوف دل المقام عليه . اي ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ، أي عصير الثمرات المذكورة وقيل : قوله ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل ﴾ معطوف على قوله ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [

النحل : 66] أي نسقيكم مما في بطونه ومن ثمارت النخيل . وقيل : يتعلق ب ﴿ نُّسْقِيكُم ﴾ [النحل : 66] محذوفة دلت عليها الأوى . فيكون من عطف الجمل . وعلى الأول يكون من عطف المفرادات إذا اشتركا في العامل . وقيل : معطوف على " الأنعام " وهو أضعفها عندي .

وقال الطبري : التقديرك ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكراً . فحذف " ما " .

قال أبو حيان (في البحر) : وهو لا يجوز على مذهب البصريين . وقيل : يجوز ئأ ، يكون صفة موصوف محذوف ، أي من ثمارت النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه . ونظير هذا كلام العرب قول الراجز :

مالك عندي غير سوط وحجر . . . وغير كبداء شديدة الوتر

جادت بكفي كان من أرمى البشر . . . أي بكفي رجل كان " الخ " ذكر الزمخشري وأبو حيان .

قال مقيده عفا الله عنه : أظهر هذه الأقوال عندي : أن قوله : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ ﴾ يتعلق ب ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾ اي تتخذون من ثمرات النخيل ، وأن " من " الثانية توكيد للأولى .

والضمير في قوله ﴿ مِنْهُ ﴾ عائد إلى جنس الثمر المفهوم من ذكر الثمرات ، والعلم عند الله

تعالى.

تنبيه

(96/438)

اعلم - أن التحقيق على مذهب الجمهور: أن هذه الآية الكريمة التي هي قوله جل وعلا: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب ﴾ [النحل: 67] منسوخة بآية المائدة المذكورة. فما جزم به صاحب مراقي السعود فيه وفي شرحه (نشر البنود) من أن تحريم الخمر ليس نسخاً لإباحتها الأولى بناء على أن إباحتها الأولى إباحة عقلية، والإباحة العقلية هي البراءة الأصلية، وهي بعينها استصحاب العدم الأصلي، وهي ليست من الأحكام الشرعية. فرفعها ليس بنسخ. وقد بين في المراقي: أنها ليست من الأحكام الشرعية بقوله: -

وما من البراءة الأصلية... قد أخذت فليست الشرعية

وقال أيضاً في اباحة الخمر قبل التحريم: -

أباحها في أول الإسلام... براءة ليست من الأحكام

كل ذلك ليس بظاهر، بل غير صحيح. لأن إباحة الخمر قبل الترحيم دلت عليها هذه الآية

الكريمة، التي هي قوله: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ .

الآية، وما دلت على إباحته آية من كتاب الله لا يصح أن يقال: إن إباحته عقلية، بل هي إباحة شرعية منصوصة في كتاب الله، فرفعها نسخ. نعم! على القول بأن معنى السكر في الآية: الخل أو الطعم أو العصير. فتحريم الخمر ليس نسخاً فباحتها، وإباحتها الأولى عقلية. وقد بينا هذا المبحث في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب).

فإن قيل: الآية واردة بصيغة الخبر، والأخبار لا يدخلها النسخ كما تقرر في الأصول:

فالجواب – أن النسخ وارد على ما يفهم من الآية من إباحة الخمر، والإباحة حكم شرعي كسائر الأحكام قابل للنسخ. فليس النسخ وارداً على نفس الخبر، بل على الإباحة المفهومة من الخبر. كما حققه ابن العربي المالكي وغيره.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي التمر والرطب والعنب والزبيب، والعصير ونحو ذلك.

تنبيه آخر

اهلم – أن النَّبيذ الذي يسكر منه الكثير لا يجوز أن يشرب منه القليل الذي لا يسكر لقلته .

وهذا مما لا شك فيه .

فمن زعم جواز شرب القليل الذي لا يسكر منه كالحنفية وغيرهم – فقط غاط غلطاً فاحشاً . لأن ما يسكر كثيره يصدق عليه بدلالة المطابقة أنه مسكر ، والنَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : "كل مسكر حرام" وقد ثبت عنه في الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام" ولو حاول الخصم أن ينازع في معنى هذه الأحاديث – فزعم أن القليل الذي لا يسكر يرتفع عنه اسم الإسكار فلا يلزم تحريمه . قلنا : صرح صلى الله عليه وسلم بأن " ما أسكر كثيره فقليله حرام " وهذا نص صريح في محل النزاع لا يمكن معه كلام . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مسكر حرام ، وما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام" رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن . وعن ابن عمر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أسكر كثيره فقليله حرام " رواه أحمد وابن ماجه ، والدارقطني وصححه . ولأبي داود وابن ماجه والترمذي مثله سواء من حديث جابر . وكذا لأحمد والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وكذلك الدارقطني من حديث الإمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه . وعن سعد بن ابي وقاص : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن قليل ما أسكر كثيره " رواه النسائي والدارقطني وعن عمر

بن شعيب ، عن أبيه عن جده : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أتاه قوم فقالوا : يا رسول الله ، إنا ننبذ النَّبيذ فنشربه على غذائنا وعشائنا ؟ فقال :

" اشربوا فكل مسكر حرام " فقالوا : يا رسول الله ، إنا نكسره بالماء ؟ فقال : " حرام قليل ما أسكر كثيره " رواه الدارقطني . اه . بواسطة نقل المجد في (منتقي الأخبار) .

(98/438)

فهذه الأحاديث لا لبس معها في تحريم قليل ما أسكر كثيره . وقال ابن حجر (في فتح الباري) في شرح قوله صلى الله عليه وسلم عند البخاري : " كل شارب أسكر فهو حرام " ما نصه : فعند أبي داود والنسائي وصححه ابن حبان من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أسكر كثيره فقليله حرام " وللنسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مثله ، وسنده إلى عمرو صحيح . ولأبي داود حديث عائشة مرفوعاً " كل مسكر حرام . وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام " ولا حبان والطحاوي من حيث عامر بن سعيد بن ابي وقاص عن أبين عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال ؟ : " أنهاكم عن قليل ما أسكره كثيره " وقد اعترف الطحاوي بصحة هذه الأحاديث – إلى أن قال – : وجاء أيضاً عن علي عند الدارقطني ، وعن ابن عمر عند ابن إسحاق

والطبراني ، وعن خوات بن جبير عند الدارقطني والحاكم والطبراني ، وعن زيد لن ثابت عند الدارقطني . وفي أسانيدها مقال . لكنها تزيد الأحاديث التي قبلها قوة وشهرة .

قال أبو المظفر بن السمعاني (وكان حنفياً فتحول شافعياً) : ثبتت الأخبار عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في تحريم المسكر .

ثم ساق كثيراً منها : ثم قال : والأخبار في ذلك كثيرة ، ولا مساغ لأحد في الدول عنها والقول بخلافها . فإنها حجج قواطع . قال : وقد زل الكوفيون في هذا الباب ، ورووا فيه أخباراً معلولة ، لا تعارض هذه الأخبار بحال . ومن ظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب مسكراً فقد دخل في أمر عظيم ، وباء بإثم كبير . وإنما الذي شربه كان حلواً ولم يكن مسكراً . وقد روى ثمامه بن حزن القشيري : أنه سأل عائشة عن النَّبيذ ؟ فدعت جارية حبشية حلواً فقالت : سل هذه ، فإنها كانت تنبذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الحبشية : كنت أنبذ له في سقاء من الليل ، وأوكئه وأعلقه فإذا أصبح شرب منه . أخرجه مسلم .

وروى الحسن البصري عن أمه عن عائشة نحوه. ثم قال فقياس النَّبيذ على الخمر بعلة الإسكار والاضطراب من أجل الأقيسة وأوضحها، والمفاسد التي توجد في الخمر توجد في النَّبيذ - إلى أن قال: وعلى الجملة، فالنصوص المصرح بتحريم كل مسكر قل او كثر مغنية عن القياس. والله أعلم.

وقد قال عبد الله بن مبارك: لا يصح في حل النَّبيذ الذي يسكر كثيره عن الصحابة شيء ولا عن التابعين.

إلا عن إبراهيم النخعي. انتهى محل الغرض من (فتح الباري) بحذف ما لا حاجة إليه.

قال مقيدة عفا الله عنه: تحريم قليل النَّبيذ الذي يسكر كثيره لا شك فيه. لما رايت من تصريح النَّبي صلى الله عليه وسلم بأن "ما أسكر كثيره فقليله حرام".

واعلم - أن قياس النَّبيذ المسكر كثيره على الخمر بجامع الإسكار لا يصح. لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم صرح بأن "كل مسكر حرام" والقياس يشترط فيه ألا يكون حكم الفرع منصوصاً عليه كحكم الأصل. كما أشار له في مراقي السعود بقوله:

وحيثما يندرج الحكمان... في النص فالأمران قل سيان

وقال ابن المنذر: وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اه. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) ﴾

عطف على جملة القسم .

والمناسبة أن القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركَتْ أمثالها في العرب وغيرهم .

فلما ذكرت ضلالاتهم وشبهاتهم عقّب ذلك ببيان الحكمة في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن إليه ، فالقرآن جاء مبيّناً للمشركين ضلالهم بياناً لا يترك للباطل مسلكاً إلى النفوس ، ومفصحاً عن الهدى إفصاحاً لا يترك للحَيرة مجالاً في العقول ، ورحمةً للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة .

وعبّر عن الضلال بطريقة الموصولية ﴿ الذين اختلفوا فيه ﴾ للإيماء إلى أن سَبَب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم ، فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام ، عبدت كل قبيلة منهم صنماً ، وعبد بعضهم الشمس والكواكب ، واتّخذت كل قبيلة لنفسها أعمالاً

يزعمونها ديناً صحيحاً .

واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدّين .

والإتيان بصيغة القصر في قوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين ﴾ لقصد الإحاطة بالأهمّ من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها .

فهو قصر ادعائي ليرغب السامعون في تلقّيه وتدّبره من مؤمن وكافر كلّ بما يليق بحاله حتى يستووا في الاهتداء .

ثم إن هذا القصر يعرّض بتفنيد أقوال من حسبوا من المشركين أن القرآن أنزل لذكر القِصص لتعليل الأنفس في الأسمار ونحوها حتى قال مضلّهم : أَنَا آتيكم بأحسن مما جاء به محمد ، آتيكم بقصة (رستم) و (اسفنديار) .

فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير ، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحقّ وحصول أثر ذَيْنِك الأمرين ، وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى .

وأدخلت لام التعليل على فعل "تبين" الواقع موقع المفعول لأجله لأنه من فعل المخاطب لا من فعل فاعل ﴿ أنزلنا ﴾ ، فالنبي هو المباشر للبيان بالقرآن تبليغاً وتفسيراً .

فلا يصحّ في العربية الإتيان بالتبيين مصدراً منصوباً على المفعولية لأجله إذ ليس متّحداً مع العامل في الفاعل ، ولذلك خولف في المعطوف فنُصب ﴿ هدى ورحمةً ﴾ لأنهما من أفعال مُنْزِل القرآن ، فالله هو الهادي والراحم بالقرآن ، وكل من البيان والهدى والرحمة حاصل بالقرآن فآلت الصفات الثلاث إلى أنها صفات للقرآن أيضاً .

والتعبير بـ ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ دون للمؤمنين ، أو للذين آمنوا ، للإيماء إلى أنهم الذين الإيمان كالسّجية لهم والعادة الراسخة التي تتقوّم بها قوميّتهم ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

وهاته الآية بمنزلة التذييل للعبر والحجج الناشئة عن وصف أحوال المخلوقات ونِعم الخالق على الناس المبتدئة من قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [سورة النحل : 17] .

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) ﴾

انتهى الكلام المعترض به وعاد الكلام إلى دلائل الانفراد بالخلق مع ما أدمج فيه ذلك من التذكير بالنّعم .

فهذه منّة من المنن وعبرة من العبر وحجّة من الحجج المتفرّعة عن التذكير بنعم الله والاعتبار بعجيب صنعه .

عاد الكلام إلى تعداد نعم جمّة ومعها ما فيها من العبر أيضاً جمعاً عجيباً بين الاستدلال ووصلاً للكلام المفارَق عند قوله تعالى : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ [سورة النحل : 16] ، كما علمته فيما تقدم .

فكان ذكر إنزال الماء في الآية السابقة مسوقاً مساق الاستدلال ، وهو هنا مسوق مساق الامتنان بنعمة إحياء الأرض بعد موتها بالماء النازل من السماء .

وبهذا الاعتبار خالفت هذه النّعمة النّعمة المذكورة في قوله سابقاً ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر ﴾ [سورة النحل : 10] باختلاف الغرض الأوّلي ، فهو هنالك الاستدلال بتكوين الماء وهنا الامْتنان .

وبناء الجملة على المسند الفعلي لإفادة التخصيص ، أي الله لا غيره أنزل من السماء ماء .

وذلك في معنى قوله تعالى : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ [سورة الروم : 40] .

وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر لقصد التّنويه بالخبر إذ افتتح بهذا الاسم ، ولأن دلالة الاسم العلم أوضح وأصرح.

فهو مقتضى مقام تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم ، لأن المشركين يقرّون بأن الله هو فاعل هذه الأشياء .

وإحياء الأرض : إخراج ما فيه الحياة ، وهو الكلأ والشجر .

وموتها ضد ذلك ، فتعدية فعل (أحيا) إلى الأرض تعدية مجازية .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ في سورة البقرة (164) ، وتقدّم وجه العبرة في آية نزول المطر هنالك .

وجملة إن في ذلك لآية ﴾ مستأنفة .

والتأكيد بـ ﴿ إنّ ﴾ ولام الابتداء لأن من لم يهتد بذلك إلى الوحدانية ينكرون أن القوم الذين يسمعون ذلك قد علموا دلالته على الوحدانية ، أي ينكرون صلاحية ذلك للاستدلال .

والإتيان باسم الإشارة دون الضمير ليكون محل الآية جميعَ المذكورات من إنزال المطر وإحياء الأرض به وموتها من قبل الإحياء .

والكلام في "قوم يسمعون" كالكلام في قوله آنفاً : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ [سورة النحل : 64] .

والسمع : هنا مستعمل في لازم معناه على سبيل الكناية ، وهو سماع التدّبر والإنصاف لما

تدّبروا به.

وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانية.

ولذلك اختير وصف السمع هنا المراد منه الإنصاف والامتثال لأن دلالة المطر وحياة الأرض به معروفة مشهورة ودلالة ذلك على وحدانية الله تعالى ظاهرة لا يصدّ عنها إلا المكابرة.

(103/438)

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) ﴾

هذه حُجّة أخرى ومنّة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج في منّتها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله تبعاً لقوله تعالى: ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ﴾ إلى قوله: ﴿ لرؤوف رحيم ﴾ [سورة النحل: 75].

ومناسبة ذكر هذه النّعمة هنا أن بألبان الأنعام حياة الإنسان كما تحيا الأرض بماءِ السماء، وأن لآثار ماء السماء أثراً في تكوين ألبان الحيوان بالمرعى.

واختصّت هذه العبرة بما تنبّه إليه من بديع الصّنع والحكمة في خلق الألبان بقوله: مما في

بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً ﴾ ، ثم بالتذّكير بما في ذلك من النّعمة على الناس إدماجاً للعبرة بالمنّة .

فجملة ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ معطوفة على جملة ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ [سورة النحل : 65] ، أي كما كان القوم يسمعون عِبرة في إنزال الماء من السماء لكم في الأنعام عبرة أيضاً ، إذ قد كان المخاطبون وهم المؤمنون القومَ الذين يسمعون .

وضمير الخطاب التفات من الغيبة .

وتوكيدها بـ ﴿ إن ﴾ ولام الابتداء كتأكيد الجملة قبلها .

و ﴿ الأنعام ﴾ : اسم جمع لكل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز .

والعبرة : ما يُتّعظ به ويُعتبر .

وقد تقدم في نهاية سورة يوسف .

وجملة ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ واقعة موقع البيان لجملة ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ .

والبطون : جمع بطن ، وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كله من معدة وكبد وأمْعاء .

و(من) في قوله تعالى : ﴿ مما في بطونه ﴾ ابتدائية ، لأن اللبن يفرز عن العلف الذي في البطون .

وما صْدَقُ "ما في بطونه" العلف .

ويجوز جعلها تبْعيضية ويكون ما صْدقُ "ما في بطونه" هو اللبن اعتداداً بحالة مُروره في داخل الأجهزة الهضمية قبل انحداره في الضرع .

(104/438)

و ﴿ من ﴾ في قوله تعالى : ﴿ من بين فرث ﴾ زائدة لتوكيد التوسّط ، أي يفرز في حالة بين حالتي الفرث والدم .

ووقع البيان بـ ﴿ نسقيكم ﴾ دون أن يقال : تشربون أو نحوه ، إدماجاً للمنّة مع العبرة .

ووجه العبرة في ذلك أن ما تحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة ، ثم الكَبِد ، ثم غدد الضرع ، مائعاً يسقى وهو مفرز من بين أفراز فرث ودم .

والفرث : الفضلات التي تركها الهضم المِعَدي فتنحدر إلى الأمعاء فتصير فَرَثا .

والدمّ : إفراز تفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيئية إلى الشرايين والعروق ويبقى يَدور كذلك بواسطة القلب .

وقد تقدم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ حرّمت عليكم الميتة والدم ﴾ في سورة العقود (3) .

ومعنى كون اللّبن من بين الفرث والدم أنه إفراز حاصل في حين إفراز الدّم وإفراز الفرث .

وعلاقته بالفرث أن الدم الذي ينحدر في عروق الضرع يمرّ بجوار الفضلات البوليّة والثفلية ، فتفرزه غدد الضرع لبَناً كما تفرزه غدد الكليتين بَولاً بدون معالجة زائدة ، وكما تفرز تكاميش الأمعاء ثَفلاً بدون معالجة بخلاف إفراز غدد المثانة للمَنِيّ لتوقّفه على معالجة ينحدر بها الدم إليها .

وليس المراد أن اللّبن يتميّع من بين طبقتيّ فرث ودم ، وإنما الذي أوهم ذلك مَن تَوهمه حمْله ﴿ بينَ ﴾ على حقيقتها من ظرف المكان ، وإنما هي تستعمل كثيراً في المكان المجازي فيراد بها الوسط بين مرتبتين كقولهم : الشجاعة صفة بين التهوّر والجبن .

فمن بلاغة القرآن هذا التعبيرُ القريب للأفهام لكل طبقة من الناس بحسب مبالغ علمهم ، مع كونه موافقاً للحقيقة .

والمعنى : إفراز ليس هو بدم لأنه ألينُ من الدم ، ولأنه غير باقٍ في عروق الضرع كبقاء الدّم في العروق ، فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه ، وليس هو بالفضلة لأنه إفراز طاهر نافع مغذّ ، وليس قذراً ضاراً غير صالح للتغذية كالبول والثفل .

وموقع ﴿ من بين فرث ودم ﴾ موقع الصفة ل ﴿ لبناً ﴾ ، قدمت عليه للاهتمام بها لأنها موضع العبرة ، فكان لها مزيد اهتمام ، وقد صارت بالتقديم حالاً .

ولما كان اللبن يحصل في الضرع لا في البطن جعل مفعولاً ل ﴿ نَسقيكم ﴾ ، وجعل ﴿ مما في بطونه ﴾ تبييناً لمصدره لا لَمورده ، فليس اللبن مما في البطون ؛ ولذلك كان ﴿ مما في بطونه ﴾ متقدماً في الذكر ليظهر أنه متعلق بفعل ﴿ نسقيكم ﴾ وليس وصفاً لِلّبْن .

وقد أحاط بالأوصاف التي ذكرناها لِلّبْن قوله تعالى : ﴿ خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ .

فخلوصه نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل ، وسوغه للشاربين سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شَربه ، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهّمه .

وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية ، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذٍ أن يعرف دقائق تكوينه ، ولا أن يأتي على وصفه بما لو وَصف به العالم الطبيعي لم يصفه بأوجز من هذا وأجمعَ .

وإفراد ضمير الأنعام في قوله تعالى : ﴿ مما في بطونه ﴾ مراعاة لكون اللفظ مفرداً لأن اسم الجمع لفظ مفرد ، إذ ليس من صيغ الجموع ، فقد يراعى اللفظ فيأتي ضميره مفرداً ، وقد يراعى معناه فيعامل معاملة الجموع ، كما في آية سورة المؤمنين (21) ﴿ نسقيكم مما في بطونها ﴾ والخالص : المجرّد مما يكدّر صفاءه ، فهو الصافي .

والسائغ : السهل المرور في الحلق .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب نسقيكم ﴾ بفتح النون مضارع سَقى . وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم النون على أنه مضارع أسْقى ، وهما لغتان ، وقرأه أبو جعفر بمثناة فوقية مفتوحة عوضاً عن النون على أن الضمير للأنعام .

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) ﴾

عطف على جملة ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ [سورة النحل : 66] .

(106/438)

ووجود من ﴾ في صدر الكلام يدلّ على تقدير فعل يدلّ عليه الفعل الذي في الجملة قبلها وهو ﴿ نسقيكم ﴾ [النحل : 66] .

فالتقدير : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب .

وليس متعلقاً بـ ﴿ تتخذون ﴾ ، كما دلّ على ذلك وجود (من) الثانية في قوله : ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ المانع من اعتبار تعلّق ﴿ من ثمرات النخيل ﴾ بـ ﴿ تتخذون ﴾ ، فإن نظم الكلام يدل على قصد المتكلم ولا يصحّ جعله متعلقاً بـ ﴿ تتخذون ﴾ مقدماً

عليه، لأنه يبعد المعنى عن الامتنان بلطف الله تعالى إذ جعل نفسه الساقي للناس.

وهذا عطف منّة على منّة، لأن ﴿ نسقيكم ﴾ وقع بياناً لجملة ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾.

ومفاد فعل ﴿ نسقيكم ﴾ مفاد الامتنان لأن السقي مزية.

وكلتا العِبرتين في السقي.

والمناسبةُ أن كلتيهما ماء وأن كلتيهما يضغط باليد، وقد أطلق العرب الحَلْب على عصير الخمر والنبيذ، قال حسّان يذكر الخمر الممزوجة والخالصة:

كلتاهما حَلَب العصير فعاطني . . .

بِزُجاجة أرخاهما للمفصل

ويشير إلى كونهما عبرتين من نوع متقارب جَعْل التذييل بقوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ عقب ذكر السقيين دون أن يُذيّل سقي الألبان بكونه آية، فالعبرة في خلق تلك الثمار صالحة للعصر والاختمار، ومشتملة على منافع للناس ولذّات.

وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾.

فهذا مرتبط بما تقدم من العبرة بخلق النبات والثمرات من قوله تعالى: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل ﴾ [سورة النحل : 11] الآية.

وجملة ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ الخ في موضع الحال.

و(من) في الموضعين ابتدائية ، فالأولى متعلّقة بفعل ﴿ نسقيكم ﴾ المقدر ، والثانية متعلقة بفعل ﴿ تتخذون ﴾ .

وليست الثانية تبعيضية ، لأن السكر ليس بعض الثمرات ، فمعنى الابتداء ينتظم كلا الحرفين .

والسكر بفتحتين : الشراب المُسْكِر .

(107/438)

وهذا امتنان بما فيه لذّتهم المرغوبة لديهم والمتفشّية فيهم (وذلك قبل تحريم الخمر لأن هذه الآية مكّية وتحريم الخمر نزل بالمدينة) فالامتنان حينئذٍ بمباح .

والرزق : الطعام ، ووصف بـ ﴿ حسناً ﴾ لما فيه من المنافع ، وذلك التمر والعنب لأنهما حلوان لذيذان يؤكلان رطبين ويابسين قابلان للادخار ، ومن أحوال عصير العنب أن يصير خلاًّ ورُبّاً .

وجملة ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ تكرير لتعداد الآية لأنها آية مستقلة .

والقول في جملة ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ مثل قوله آنفاً : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ [سورة النحل : 65] .

والإشارة إلى جميع ما ذكر من نعمة سقي الألبان وسقي السكر وطعم الثمر .

واختير وصف العقل هنا لأن دلالة تكوين ألبان الأنعام على حكمة الله تعالى يحتاج إلى تدبّر فيما وصفته الآية هنا ، وليس هو ببديهي كدلالة المطر كما تقدم . انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(108/438)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) ﴾

فالكتاب هو القرآن الكريم .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ . . ﴾ [النحل : 64] .

دليل على أن أتباع الرسل السابقين نشأ بينهم خلاف ، فأيُّ خلاف هذا طالما أنهم تابعون لنبي واحد ؟ ما سببه ؟

قالوا : سبب هذا الخلاف ما يُسمُّونه بالسلطة الزمنية . . ولتوضيح معنى السلطة الزمنية

نضرب مثلاً بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، فلما مات تنازع الخلافة أبناؤه من بعده . . كُلٌّ يريدها له ، وأخذ يجمع حوله مجموعة من أتباع أبيه .

. فلو كانت الخلافة هذه واضحة في أذهانهم ما حدث هذا الخلاف .

وكذلك السلطة الزمنية حدثت في أتباع الرسل الذين أخذوا يكتبون الصكوك ، ويذكرون ما يحبون وما يرونه صواباً من وجهة نظرهم ، كل هؤلاء كان لهم نفوذ بما نُسميه السلطة الزمنية .

فكيف إذن يتركون محمداً صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم هذه السلطة ، ويُضيع عليهم ما هم فيه من سيادة ، فقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليُبيّن لهم . أي : يردّهم إلى جَادّة الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً . . ﴾ [النحل : 64] .

الهدى : معناه بيان الطريق الواضح للغاية النافعة ، والطريق لا يكون واضحاً إلا إذا خَلا من الصِّعاب والعقبات ، وخلا أيضاً من المخاوف ، فهو طريق واضح مأمون سهل ، وأيضاً يكون قصيراً يُوصّلك إلى غايتك من أقصر الطرق .

وضد الهدى : الضلال . وهو أنْ يُضلّك ، فإنْ أردتَ طريقاً وجَّهك إلى غيره ، ودلّك على سواه ، أو دلّك على طريق به مخاوف وعقبات .

أما الرحمة، فقد وصف الحق تبارك وتعالى القرآن بأنه رحمة فقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ [الإسراء: 82]. فكيف يكون القرآن شفاءً؟ وكيف يكون رحمة؟

الشفاء: إذا أصابنا داء ربنا سبحانه وتعالى يقول: طبّبوا داءكم وداووا أمراضكم بكذا وكذا، وردُّوا الحكم إلى الله . . هذا شفاء.

أما الرحمة: فهي أن يمنع أن يأتي الداء مرة أخرى، فتكون وقاية تقتلع الداء من أصله فلا يعود.

ومِثْل هذا يحدث في عالم الطب، فقد تذهب إلى طبيب لِيُعالجك من داء معين . . بثور في الجلد مثلاً، فلا يهتم إلا بما يراه ظاهراً، ويصف لك ما يداوي هذه البثور . . ثم بعد ذلك تُعاودك مرة أخرى.

أما الطبيب الحاذق الماهر فلا ينظر إلى الظاهر فقط، بل يبحث عن سببه في الباطن، ويحاول أن يقتلع أسباب المرض من جذورها، فلا تُعاودك مرة أخرى.

ولذلك، لو نظرنا إلى قصة أيوب عليه السلام وما ابتلاه الله به نرى فيها مثالاً رائعاً لعلاج

الظاهر والباطن معاً ، فقد ابتلاه ربُّه ببلاء ظهر أثره على جسمه واضحاً ، ولما أذن له سبحانه بالشفاء قال له :

﴿ اركض برِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] .

(مُغْتَسَلٌ) : أي . يغسل ويُزيل ما عندك من آثار هذا البلاء .

(وَشَرَابٌ) : أي . شراب يشفيك من أسباب هذا البلاء فلا يعود .

وكذلك الحال في علاج المجتمع ، فقد جاء القرآن الكريم وفي العَالَم فساد كبير ، وداءاتٌ متعددة ، لا بُدَّ لها من منهج لشفاء هذه الداءاتِ ، ثم نعطيها مناعاتٍ تمنع عودة هذه الداءات مرة أخرى .

وقوله تعالى :

﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 64] .

أي : أن هذا القرآن فيه هدى ورحمة لِمَنْ آمن بك وبرسالتك ؛ لأن الطبيب الذي ضربناه مثلاً هنا لا يعالج كل مريض ، بل يعالج مَنْ وثق به ، وذهب إليه وعرض عليه نفسه ففحصه الطبيب وعرف عِلّته .

وهكذا القرآن الكريم يسمعه المؤمن به، فيكون له هدىً ورحمة، ويترك في نفسه إشراقات نورانية تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدرجات، في حين يسمعه آخر فلا يَعي منه شيئاً، ويقول كما حكى القرآن الكريم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . ﴾ [محمد: 16].

وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ . . ﴾ [فصلت: 44]. ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . ﴾ [فصلت: 44].

إذن: فالقرآن واحد، ولكن الاستقبال مختلف.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ والله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) ﴾

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينقلنا إلى آية مادية مُحسّة لا ينكرها أحد، وهي إنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته تعالى، وأنه مأمون على خَلْقه.

وكأنه سبحانه يقول لهم: إذا كنتُ أنا أعطيكم كذا وكذا، وأُوفّر لكم الأمر المادي الذي يفيد عنايتي بكم، فإذا أنزلتُ لكم منهجاً ينفعكم ويُصلح أحوالكم فصدّقوه.

فهذا دليل ماديّ مُحَسّ يُوصِّلهم إلى تصديق المنهج المعنوي الذي جاء على يد الرسول

صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . .
﴾ [الإسراء : 82] .

وقوله : ﴿ والله أَنْزَلَ مِنَ السمآء مَآءً . . . ﴾ [النحل : 65] .

هذه آية كونية مُحسَّة لا ينكرها أحد .

ثم يقول : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ . . . ﴾ [النحل : 65] .

(111/438)

موت الأرض ، أي حالة كَوْنها جدباء مُقفرة لا زرعَ فيها ولا نبات ، وهذا هو الهلاك بعينه بالنسبة لهم ، فإذا ما أجدبتْ الأرض استشرفوا لسحابة ، لغمامة ، وانتظروا منها المطر الذي يُحيي هذه الأرض الميتة . . يُحييها بالنبات والعُشْب بعد أنْ كانت هامدة ميتة .

فلو قبض ماء السماء عن الأرض لَمُتُّمْ جوعاً ، فخذوا من هذه الآية المحسَّة دليلاً على صدق الآية المعنوية التي هي منهج الله إليكم على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكما أمِنْتَنِي على الأولى فأْمنّي على الثانية .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل : 65] .

مع أن هذه الآية تُرَى بالعين ولا تُسْمع ، قال القرآن :

﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل : 65] .

. . لماذا ؟

قالوا : لأن الله سبحانه أتى بهذه الآية لِيلْفتهم إلى المنهج الذي سيأتيهم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا المنهج سَيُسمع من الرسول المبلّغ لمنهج الله .

مثال ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] .

فالضياء يُرى لا يُسمع . . لكنه قال : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ لأنه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك في الليل هي السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾

الكون الذي خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل في الأرض والجبال والمياه وغيرها ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفي الآية السابقة أعطانا الحق تبارك وتعالى نموذجاً للجماد الذي اهتزّ بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً . . . ﴾ [النحل : 66] .

والمقصود بالأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز، وقد ذُكِرتْ في سورة الأنعام في قوله تعالى:

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ . . . ﴾ [الأنعام: 143-144].

هذه هي الأنعام.

وقوله سبحانه: ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ العِبْرة: الشيء الذي تعتبرون به، وتستنجون منه ما يدلكم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدْق منهجه سبحانه فتصدقونه.

ومن معاني العبرة: العبور والانتقال من شيء لآخر.. أي: أن تأخذ من شيء عبرة تفيد في شيء آخر. ومنها العَبْرة (الدمعة)، وهي: شيء دفين نبهْتَ عنه وأظهرتَهُ.

والمراد بالعبرة في خلق الأنعام:

﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: 66].

مادة: سقى جاءت في القرآن مرة "سقى". ومرة "أَسْقى"، وبعضهم قال: إن معناهما واحد، ولكن التحقيق أن لكل منهما معنًى، وإن اتفقا في المعنى العام. سقى: كما في

قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] .

أي : أعطاهم ما يشربونه . . ومضارعه يَسقي . ومنها قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ فسقى لَهُمَا . . . ﴾ [القصص : 24] .

أما أسقى : كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : 22] .

(113/438)

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس في حال نزوله ، ولكن ليكون في الأرض لمن أراد أنْ يشربَ . . فالحق تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه . . لا . . بل هو مخزون في الأرض لمن أراده . والمضارع من أَسْقى : يُسقي .

إذن : هناك فَرْق بين الكلمتين ، وإنِ اتفقنا في المعنى العام . . وفرْق بين أن تُعطي ما يُستفادُ منه في ساعته ، مثل قوله : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ . . ﴾ [الإنسان : 21] .

وبين أنْ تعطي ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما في قوله : ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر : 22] .

لذلك يقولون : إن الذي يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطي المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ،

وقد يصنعه مؤُجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسْب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسْبه .

والحق تبارك وتعالى أعطانا هذه الفكرة في سورة الكهف ، في قصة ذي القرنين ، قال تعالى :

﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف : 93] .

فما داموا لا يفقهون قَوْلاً . . فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا : ﴿ ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ [الكهف : 94] .

نقول : الذي يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أنْ يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصّل إلى طريقة للتفاهم معهم ، في حين أنه كان قادراً على تركهم والانصراف عنهم ، وحُجّته أنهم لا يفقهون ولا يتكلمون .

(114/438)

فلما أراد ذو القرنين أن يبني لهم السد لن يَبْنِ هو بنفسه ، بل علَّمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ولا يحتاجون إليه . . فقال : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الحديد حتى إِذَا

ساوى بَيْنَ الصدفين قَالَ انفخوا حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ [الكهف : 96] .

إذن : علَّمهم وأحسن إليهم إحساناً دائماً لا ينتهي .

وقوله : ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ . . . ﴾ [النحل : 66] .

أي : مما في بطون الأنعام ، فقد ذكَّر الضمير في (بطونه) باعتبار إرادة الجنس .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً ﴾ [النحل : 66] .

والفَرْث في كرش الحيوان من فضلات طعامه .

فالعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرْث ، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطعام في كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنفّر ، ومن بين دم ، والدم له لونه الأحمر ، وهو أيضاً غير مستساغ ؛ ومنهما يُخرِج لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة الفَرْث .

ومَنْ يقدر على ذلك إلا الخالق سبحانه ؟

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

﴿ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل : 66] .

أي : يسيغه شاربه ويستلذّ به ، ولا يُغَصُّ به شاربه ، بل هو مُسْتساغ سَهْل الانزلاق أثناء

الشُّرْب ؛ لأن من الطعام أو الشراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء : 4] .

هنيئاً أي : تستلِذّون به ، ومريئاً : أي نافعاً للجسم ، يمري عليك ؛ لأنك قد تجد لَذة في شيء أثناء أَكْله أو شُرْبه ، ثم يسبِّب لك متاعب فيما بَعْد ، فهو هَنِيءٌ ولكنه غير مَرِيء .

(115/438)

فاللبن من نِعَم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفي إخراجه من بين فَرْث ودم عبرة وعِظَة ، وكأن الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسيِّ الذي نشاهده إلى المعنى القيميّ في المنهج ، فالذي صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قالبنا قادرٌ على أن يصنعَ لنا من المنهج ما يُصلِح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

ثمرات النخيل هي : البلح . والأعناب هو : العنب الذي نُسمّيه الكَرْم . والتعبير القرآني هنا وإن امتنّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكراً : أي مُسْكِراً ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرةً فقد نزلتْ هذه الآيات قبل تحريم الخمر

.

وكأن الآية تحمل مُقدّمة لتحريم الخمر الذي يستحسنونه الآن ويمتدحونه ؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذي يقرأ هذه الآية بِفطنة المستقْبل عن الله يعلم أن لله حُكْماً في السّكر سيأتي .

كيف توصّلوا إلى أن لله تعالى حُكْماً سيأتي في السّكر ؟

قالوا : لأنه قال في وصف الرزق بأنه حسن ، في حين لم يَصِفْ السّكر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسناً ؛ ذلك لأننا نأكل ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون تدخُّل مِنّا فيما خلق الله لنا .

أما أنْ نُغيّر من طبيعته حتى يصير خمراً مُسْكراً ، فهذا إفساد في الطبيعة التي اختارها الله لنا لتكون رزقاً حَسناً .

وكأنه سبحانه يُنبّه عباده ، أنَا لا أمتنُّ عليكم بما حرّمْتُ ، فأنا لم أُحرِّمه بَعْد ، فاجعلوا هذا السّكر كما ترونه متعة لكم ، ولكن خذوا منه عبرة أنِّي لم أَصِفْه بالحُسْن ؛ لأنه إنْ لم يكُنْ حَسَناً فهو قبيح ، فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الأمر .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : 67] .

لأن العقل يقتضي أنْ نُوازِنَ بين الشيئين ، وأن نسأل : لماذا لم يوصف السّكر بأنه حَسَن ؟ .

. أليس معناه أن الله تعالى لا يحب هذا الأمر ولا يرضاه لكم ؟

إذن : كأن في الآية نيّة التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر كان هذا تمهيداً له .

والآية هي : الأمر العجيب الذي يُنبئكم الله الذي خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيكم وقوالبكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرّع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمية الروحية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل : 65-69) ، في هذا ثلاثة سؤلات : الألو إفراد ((آية)) في الثلاثة مواضع مع أن الثاني منها قد تفصل فيه الاعتبار بذكر الأنعام ولبنها وذكر ثمرات النخيل والأعناب وما يتخذ منها ، فيسبق في الظاهر أن الواجب جمع آيات بخلاف الآية الأولى والثالثة (فقد) أفردت فقيل : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ، والسؤال الثاني : ما وجه ختام الأولى بقوله : (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) ، والثانية (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ، والثالثة : (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ؟ والسؤال الثالث : ورود ضمير الأنعام مفردا في قوله : (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) ، وما الفرق بين هذا وبين الوارد في سورة المؤمنون : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا) (المؤمنون : 21) والجواب عن السؤال الأول أن قوله : (لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ، راجع إلى قوله : (ومن ثمرات النخيل والاعناب) . . الآية ،

وذلك اعتبار باتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والآعناب وهو نوع واحد ، وقد أفرد فى قوله : (تتخذون منه) فجاء افراد أية عن ذلك ، واما اخراج اللبن من بين الفرث والدم في الآنعام فلا يرجع اليه قوله (ان فى ذلك لآية) اذ قد اغنى عن ذلك قوله : (وان لكم فى الآنعام لعبرة نسقيكم) ، فقوله ((لعبرة)) كاف عن ((أية)) ومغن ذلك الغنى . فلا حاجة للجميع بينهما ، وانما مرجع أية لما ذكر من المتخذ من ثمرات النخيل والآعناب كما تبين ، فليدفع هذا السؤالجملة . وكذلك الآية الآولى الاعتبار فيها بالماء المنزل من السماء ، والاعتبار فى الثانية بما تضمنت من أمر النحل والايحاء اليه بما ذكر ، فالاعتبار فى كل منها انما وقع بنوع مفرد ، وما وقع من تفصيل فمصرفه الى حال أو وصف مع وحدة النوع .

واجواب عن السؤال الثانى : أن وجه مناسبة قوله : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [النحل : 65] لقوله : (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [النحل : 65] . . . الآية ، بناء ذلك على المتصل به من قوله : (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [النحل : 64] ، ثم قال : (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) ، فاتصل ذكر انزال الكتاب بانزال الماء ، وما سماه رحمة الا لرحمته عباده به ،

وماء السماء رحمة ، وقد سماه بذلك ، وبالمنزل من الكتاب يتذكر اعتبار الرحمة (بالماء) المنزل من السماء ، ولا يحتاج

(120/438)

في ذلك إلى كبير تذكر ، بل التنبيه على إنزاله بالوارد في الكتاب مع مساهده منافعه كاف في العتبار ، وفي إحياء الأرض به بعد موتها أوضح شهادة لإحياء الموتى وإخراجهم لما وعدوا به ، فالتحم الكلام ، وتناسب النظم والمعنى . وإنما تحصل ثمرة الكتاب المنزل بسماعه ، ولذلك نهي المعرضون عنه أتباعهم فقالوا : (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) (فصلت : 26) وقال في قسم من رحم بسماعه من الجن : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي) (الجن : 1و2) ، وإنما يستجيب سامعه إذا كان غير معرض ، فإذا لم يصغ إلى اعتبار ما أعقب به من إنزال السماء ، فلهذا الالتحام أعقبت الآية المذكورة بقوله : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) ، والله أعلم .

وأما الآية الثانية فلما وقع فيها ذكر السّكَر في قوله : (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا) (النحل : 67) وذلك حكم لا يمكن الوصول إلى مرفة سببه ولا تعليله بطريق الحواس ، ولا يوصل إلى ذلك بجهة تفكر أو اعتبار ، عبر بقوله : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) إذ العقل يسلم إمكان ما لا تعلم له على مما

ليس بمحال ، فيكون مما ينفرد تعالى بعلمه ، ويعجز البشر عن فهمه . وأما الآية الثالثة فمحل ومجال للتفكر ومتسع للاعتبار فناسبه قوله : (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

(121/438)

والجواب عن السؤال الثالث : أي قوله : (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) (النحل : 66) بإفراد الضمير وتذكيره مراد به الجنس ، وقد حكى سيبويه ، رحمه الله ، أن من العرب من يقول : هو الأنعام ، وعليه حمل آية الأنعام في تذكير الضمير ، وورد في سورة المؤمنون على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله : (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) (المؤمنون : 21-22) ، فنوسب بضمير الأنعام ما أتبع به من الضمائر في قوله : فيها ، ومنها ، وعليها . فورد بصورة التأنيث والجمع . انتهى . اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 302.301﴾

(122/438)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ [67]

قال : هذه الآية نسخت بآية الخمر ، كذا قال إبراهيم والشعبي .

قال سهل : السكر عندي ما يسكر النفس في الدنيا ، ولا تؤمن عاقبته في الآخرة .

وقد دخل على سهل أبو حمزة الصوفي فقال : أين كنت يا أبا حمزة؟ قال : كنا عند فلان أخبرنا أن السكر أربعة .

فقال : اعرضها علي .

فقال : سكر الشراب وسكر الشباب وسكر المال وسكر السلطنة .

فقال : وسكرتان لم يخبرك بهما .

فقال : ما هما ؟ فقال : سكر العالم إذا أحب الدنيا وسكر العابد إذا أحب أن يشار إليه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التسترى صـ 91 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة يفهم منها أن السُكر المتخذ من ثمرات النخيل والأعناب لا بأس به لأن الله امتن به على عباده في سورة الامتنان التي هي سورة النحل, وقد حرّم تعالى الخمر بقوله: ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الآية, لأنه وصفها بأنها رجس وأنها من عمل الشيطان وأمر باجتنابها ورتب عليه رجاء الفلاح, ويفهم منه أن من لم يجتنبها لم يفلح وهو كذلك ، وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أن كل ما خامر العقل فهو خمر وأن كل مسكر حرام وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام .

والجواب ظاهر وهو أن آية تحريم الخمر ناسخة لقوله: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ . الآية . ونسخها له هو التحقيق خلافا لما يزعمه كثير من الأصوليين من أن تحريم الخمر ليس نسخا لإباحتها الأولى ؛ لأن إباحتها الأولى إباحة عقلية, وهي المعروفة عند الأصوليين بالبراءة الأصلية, وتسمى استصحاب العدم الأصلي, والإباحة العقلية ليست من الأحكام الشرعية حتى يكون رفعها نسخا, ولو كان رفعها نسخا لكان كل تكليف في الشرع ناسخا للبراءة الأصلية من التكليف به, وإلى كون الإباحة العقلية ليست من الأحكام الشرعية أشار في مراقي السعود بقوله:

وما من الإباحة العقلية

قد أخذت فليست الشرعية

كما أشار إلى أن تحريم الخمر ليس نسخا لإباحتها ؛ لأنها إباحة عقلية وليست من الأحكام الشرعية حتى يكون رفعها نسخا بقوله:

أباحها في أول الإسلام

براءة ليست من الأحكام

(124/438)

وإنما قلنا إن التحقيق هو كون تحريم الخمر ناسخا لإباحتها ؛ لأن قوله: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ يدل على إباحة الخمر شرعا , فرفع هذه الإباحة المدلول عليها بالقرآن رفع حكم شرعي فهو نسخ بلا شك, ولا يمكن أن تكون إباحتها عقلية إلا قبل نزول هذه الآية كما هو ظاهر, ومعلوم عند العلماء أن الخمر نزلت في شأنها أربع آيات من كتاب الله:

- الأولى: هذه الآية الدالة على إباحتها .

- الثانية: الآية التي ذكر فيها بعض معايبها , وأن فيها منافع وصرحت بأن إثمها أكبر من نفعها , وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾

فشَرِبها بعد نزولها قوم للمنافع المذكورة, وتركها آخرون للإثم الذي هو أكبر من المنافع .

- الثالثة: الآية التي دلت على تحريمها في أوقات الصلاة دون غيرها , وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ الآية .

- الرابعة: الآية التي حرمتها تحريما باتا مطلقا , وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ , والعلم عند الله تعالى .

وأما على قول من زعم أن السكر: الطعم, كما أختاره ابن جرير وأبو عبيدة, أو أنه الخل فلا إشكال في الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 173.175 ﴾

(125/438)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ قال : ما سقاهم المطر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية يقول : إذا قحط المطر لم يبق في الأرض دابة إلا

ماتت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ قال : قد فعل الله ذلك في زمان نوح ، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حملت سفينة نوح .

وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره ، ثم قال : أي والله . . . ومن غرق قوم نوح عليه السلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ، عن ابن مسعود قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات ، عن أنس بن مالك قال : كاد الضب أن يموت في جحره هولاً من ظلم ابن آدم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير والبيهقي في الشعب ، عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه . فقال أبو هريرة : بلى . والله ، إن الحبارى لتموت هزلاً وكرهاً من ظلم الظالم .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن الله يؤاخذني وعيسى ابن مريم بذنوبنا ، " وفي لفظ : " بما جنت هاتان – الإبهام والتي تليها –

لعذبنا ما يظلمنا شيئاً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ قال : يقول : تجعلون لي البنات وتكرهون ذلك لأنفسكم .

(126/438)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ قال : وهن الجواري .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ قال : قول كفار قريش لنا البنون ولله البنات .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ أي يتكلمون بأن ﴿ لهم الحسنى ﴾ الغلمان .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قال : مسيئون .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قال : متروكون في النار ينسون فيها أبداً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قال : قد فرطوا في النار أي معجلين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قال : معجل بهم إلى النار .

وأخرج ابن مردويه ، عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي كبشة ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما شرب أحد لبناً فيشرق ؛ إن الله يقول ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي حاتم ، عن ابن سيرين . إن ابن عباس لبناً فقال له مطرف : ألا تمضمضت ؟ فقال : ما أباليه بالة ، اسمح يسمح لك . فقال قائل : إنه يخرج من بين فرث ودم . فقال ابن عباس : قد قال الله ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ قال : السكر ما حرم من ثمرتها ، والرزق الحسن ما حل من ثمرتها .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن عباس في الآية قال: السكر الحرام منه، والرزق الحسن زبيبه وخله وعنبه ومنافعه.

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: السكر النبيذ، والرزق الحسن، فنسختها هذه الآية ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ [المائدة: 90].

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير، عن أبي رزين في الآية قال: نزل هذا وهم يشربون الخمر قبل أن ينزل تحريمها.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: السكر الخل، والنبيذ وما أشبهه. والرزق الحسن: الثمر والزبيب وما أشبهه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ قال: فحرم الله بعد ذلك السكر، مع تحريم الخمر، لأنه منه، ثم قال: ﴿ ورزقاً حسناً ﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك، فأقره الله وجعله حلالاً للمسلمين.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ قال: إن الناس يسمون الخمر سكراً، وكانوا يشربونها، ثم سماها الله بعد ذلك الخمر حين حرمت، وكان ابن عباس يزعم أن الحبشة يسمون الخل السكر. وقوله ﴿

ورزقاً حسناً ﴾ يعني بذلك الحلال التمر والزبيب، وكان حلالاً لا يسكر.

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، عن ابن مسعود قال: السكر خمر.

وأخرج ابن أبي شيبة، عن سعيد بن جبير والحسن والشعبي وإبراهيم وأبي رزين مثله.

وأخرج عبد الرزاق وابن الأنباري في المصاحف والنحاس، عن قتادة في قوله: ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ قال: خمور الأعاجم، ونسخت في سورة المائدة.

وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير قال: السكر الحرام، والرزق الحسن الحلال.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ قال: ذكر الله نعمته عليهم في الخمر قبل أن يحرمها عليهم.

(128/438)

وأخرج ابن الأنباري والبيهقي، عن إبراهيم والشعبي في قوله: ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ قالا: هي منسوخة.

وأخرج الخطيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "لكم في العنب

أشياء تأكلونه عنباً ، وتشربونه عصيراً ما لم ييبس ، وتتخذون منه زبيباً ورباً والله أعلم " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(129/438)

بحوث ذكرها صاحب الأمثل

1 ـ كيف يتكوّن اللبن ؟

يقول القرآن الكريم في ذلك كما في الآيات أعلاه: إنّه يخرج من بين "فرث" ـ الأغذية المهضومة داخل المعدة ـ و "دم" .

وقد أثبت ذلك فيزيولوجياً : حيث أنّه عندما يتمّ هضم الغذاء داخل المعدة ويكون جاهزاً للإمتصاص ينتشر داخل المعدة والأمعاء بشكل واسع وأمام الملايين من العروق الشعيرية ، فتمتص منه العناصر المفيدة المطلوبة لتوصلها إلى تلك الشجرة ذات الجذور التي تنتهي عروقها عند عروق الثدي .

عندما تتناول المرأة الحامل الغذاء تنتقل عصارته إلى الدم الذي يجري في عروقها حتى يصل نهاية العروق المجاورة لعروق الجنين ليتغذى الجنين بهذه الطريقة ما دام في بطن أمه ، وعندما ينفصل عن أُمّه يتحول طريق تغذيته إلى الثدي . . وهنا لا تستطيع الأُم أن تصل دمها إلى دم

ولدها ، ولذلك ينبغي تصفية الغذاء وتغيير حالته بما ينسجم والوضع الجديد للطفل ،

وهنا . . . يتكون اللبن من بين فرث ودم ، أيْ: من بين ما تتناوله الأم الذي يتحول إلى فرث

وما ينتقل من مواده إلى الدم ليتكون منه اللبن .

فاللبن في حقيقة . . شيء وسط بين الفرث والدم ، فلا هو دم مصفى ولا هو غذاء مهضوم

، وهو أعلى من الثّاني ودون الأوّل !

علماً بأنّ الثدي يستفيد من الحوامض الأمينية المخزونة في البدن فقط في صناعة المواد

البروتينية للبن .

وثّمة مكونات أُخرى للبن لا توجد في الدم وإنّما تنتجها غدد خاصّة في الثدي

(كالكازوئين) .

والبعض الآخر من المكونات يأتي من ترشح بلازما الدم مباشرة: ويدخل في تكوين اللبن من

دون أي تغيير (كالفيتامينات وملح الطعام والفوسفات) .

أمّا سكر اللاكتوز الموجود في اللبن فيؤخذ من السكر الموجود في الدم بعد أن تجري عليه

الغدد الخاصّة في الثدي التغييرات اللازمة لتحويله إلى نوع جديد من السكر .

ومع أنّ إنتاج اللبن يكون عن طريق جذب المواد الغذائية بواسطة الدم ، ومن خلال الإرتباط المباشر بين الدم وغدد الثدي ، إلاّ أنّنا لا نلاحظ أيّ أثر لرائحة الفرث أو لون الدم فيه ، بل يبدأ اللبن بالترشح من ثدي الأم بلون جديد ورائحة خاصّة به .

ومن لطيف ما ينقل عن العلماء المتخصصين أنّ إنتاج لتر واحد من اللبن في الثدي يحتاج بما لا يقل عن عبور (500) لتر من الدم خلال الثدي ليستطيع من امتصاص المواد اللازمة لإنتاج اللبن ، كما يلزم لإنتاج لتر واحد من الدم عبور مواد غذائية كثيرة من الأمعاء . . .

وبهذا يتّضح لنا معنى (من بين فرث ودم) كاملا (1) .

2 ـ أهم ما في اللبن من مواد غذائية

اللبن مليء بالمواد الغذائية المختلفة التي تشكل مع بعضها مجموعة عذائية كاملة .

فالمواد المعدنية في اللبن ، عبارة عن : الصوديوم ، البوتاسيوم ، الكالسيوم ، المغنيسيوم ، النحاس ، قليل من الحديد بالإضافة إلى الفسفور والكلور وغيرها .

ويوجد في اللبن كذلك غاز الأوكسجين وحامض الكاربونيك .

أمّا المواد السكرية فموجودة بكمية كافية على شكل (لاكتوز) .

والفيتامينات المحلولة في اللبن عبارة عن : فيتامين ب ، پ ، آ ، د .

---

1 ـ مقتبس من كتابي : الكيمياء الحياتية والطبية ، وأوّل جامعة وآخر نبي ، الجزء السادس .

وقد أثبت العلم الحديث أنّ الحيوان الذي يتغذى بشكل جيد يكون لبنه حاوياً لكافة أنواع الفيتامينات ، وأصبح بديهياً أنّ اللبن الطازج يعتبر غذاءً كاملا . ولا يمكن لنا تفصيل ذلك في هذا البحث المختصر .

ولعل ما روي عن النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قوله: "ليس يجزي مكان الطعام والشراب إلاّ اللبن" إشارة لهذا السبب .

ونقرأ في روايات أُخرى عن اللبن أنّه يزيد في عقل الإنسان ، ويحد النظر ، ويرفع النسيان ، ويقوي القلب والظهر (كما أصبح معلوماً أن هذه الآثار لها إرتباط وثيق بما في اللبن من مواد حياتية) .

3 ـ اللبن . . غذاء خالص وسهل الهضم

لقد أكّدت الآيات أعلاه على ميزتين مهمتين للبن ـ كونه "خالصاً" ، و"سائغاً" أي لذيذاً وسريع الهضم ـ وكما هو المعروف عن اللبن من كونه غذاءً كثير الفائدة على الرغم من قلّة حجمه . و"خالص" أي خال من المواد الزائدة وبذات الوقت فهو سهل الهضم بالشكل الذي جُعِلَ ملائماً لأي إنسان وعلى مختلف الأعمار ـ منذ الطفولة حتى الشيخوخة ـ ولهذا

يعتمده المرضى كغذاء ملائم ومفيد ومقبول ، وبالخصوص ما له من أثر فعال بالنسبة لنمو العظام ، ولهذا يوصى بالإكثار من تناوله في حالات كسور العظام وما شابهها .

ومن جملة معاني الخلوص هو (الربط) ، ولعل البعض اعتمد على هذا المعنى فيما جاء في التعبير القرآني "خالصاً" ، واعتبارهم من كون "خالصاً" إشارة إلى تأثير اللبن الخالص في بناء وربط العظام .

وكذا نجد في الإحكام الإسلامية الواردة حول الرضاعة ما يشير إلى هذا المعنى بوضوح.

ويقول الفقهاء : إنّ الطفل لو رضع من غير أُمّه حتى اشتدت عظامه وزاد لحمه فإنّ مرضعته ستحرم عليه (وما يتبع ذلك في مَنْ يعود إليه النسب) .

ويقولون أيضاً : إن (15) رضاعة متوالية ، أو رضاعة يوم وليلة متصلة ، يؤدي إلى هذه الحرمة أيضاً .

ولو جمعنا القولين ، ألا ينتج أن التغذية باللبن يوم وليلة لها أثر في تقوية العظام وزيادة اللحم ! ؟

وينبغي الإلتفات إلى أن التوجيهات الإسلامية أكّدت كثيراً على لبن "اللباء" هو أو ما ينزل من اللبن بعد الولادة ، حتى لتقول بعض كتب الفقه إنّ حياة الطفل مرهونة به ، ولهذا اعتبر إعطاء الطفل من حليب اللباء واجباً (1) .

ولعل ما في الآية (7) من سورة القصص حول موسى (عليه السلام) يتعلق بهذا الموضوع

أيضاً (وأوحينا إلى أُمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) . انتهى ا .
هـ ﴿ الأمثل حـ 8 صـ 236.233 ﴾

(132/438)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ : فيه وجهان : أحدُهما : أنهما انتصبا على أنهما مفعولان مِنْ أجلهما ، والناصبُ " أَنْزَلْنَا " ، ولَمَّا اتَّحد الفاعل في العِلَّة والمعلول وَصَلَ الفعلُ إليهما بنفسه ، ولَمَّا لم يتحَّدْ في قولِه : " وما أنْزلنا إلا لِتُبَيِّن " ؛ لأنَّ فاعلَ الإِنزال ، اللهُ وفاعلَ التبيينِ الرسول / وَصَلَ الفعلُ إلى العلةِ بالحرفِ فقيل : ﴿ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ ﴾ ، أي : لأَنْ تُبَيِّنَ ، على أنَّ هذه اللامَ لا تَلْزَمُ من جهةٍ أخرى : وهي كونُ مجرورها " أن " . وفيه خلافٌ في خصوصيةِ هذه المسألة .

وهذا معنى قولِ الزمخشري فإنه قال : " معطوفان على محلِ " لِتُبَيّنَ " إلا أنهما انتصبا على

أنهما مفعولٌ لهما ، لأَنَّهما فِعْلُ الذي أَنْزَلَ الكتابَ ، ودخلت اللامُ على " لتبيِّنَ " لأنه فِعْلُ المخاطبِ لا فِعْلُ المُنَزِّلِ ، وإنما ينتصبُ مفعولاً له ما كان فعلَ الفاعلِ الفعل المعلل " . قال الشيخ : " قوله : معطوفان على محل " لتبيِّنَ " ليس بصحيح ؛ لأنَّ مَحَلَّه ليس نصباً فيُعطفَ منصوبٌ [عليه] ، ألا ترى أنه لو نصبه لم يَجُزْ لاختلافِ الفاعل " .

(133/438)

قلت : الزمخشريُّ لم يجعلِ النصبَ لأجل العطفِ على المحلِّ ، إنما جعَلَه بوصولِ الفعلِ إليهما لاتحادِ الفاعلِ كما صرَّح به فيما حكيْتُه عنه آنفاً ، وإنما جَعَلَ العطفَ لأجل التشريكِ في العِلِّيِّةِ لا غير ، يعني أنهما علتان ، كما أنَّ " لتبيِّنَ " علةٌ . ولَئِنْ سَلَّمْنا أنه نُصِب عطفاً على المحلِّ فلا يَضُرُّ ذلك . قوله : " لأنَّ محلَّه ليس نصباً " ممنوعٌ ، وهذا ما لا خلافَ فيه : مِنْ أنَّ محلَّ الجارِّ والمجرورِ النصبُ لأنه فَضْلَةٌ ، إلا أنْ يقومَ مقامَ مرفوعٍ ، ألا ترى إلى تخريجهم قولَه ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] في قراءة النصب على العطف على محلِّ " برؤوسكم " ، ويُجيزون " مَرَرْتُ بزيدٍ وعمراً " على خلافٍ في ذلك ، بالنسبة إلى القياسِ وعدمِه لا في أصلِ المسألة . وهذا بحثٌ حسنٌ تركه المَرْدُودُ عليه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾

قوله تعالى : ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ : يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ مفسرةً للعِبْرة ، كأنه قيل : كيف العِبْرة؟ فقيل : نُسْقيكم من بين فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً . ويجوز أن تكونَ خبراً لمبتدأ مضمر ، والجملةُ جوابٌ لذلك السؤال ، أي : هي ، أي : العِبْرَةُ نُسْقيكم ، ويكون كقولهم : تَسْمَعُ بالمُعْيدِيِّ خيرٌ من أَنْ تَراه " .

وقرأ نافع وابنُ عامر وأبو بكر " نَسْقيكم " بفتح النون هنا وفي المؤمنين . والباقون بضمَّها فيهما . واختلف الناس : هل سَقَى وأَسْقى لغتان ، بمعنىً واحدٍ أم بينهما فرقٌ؟ خلافٌ مشهور . فقيل : هما بمعنىً ، وأنشد جمعاً بين اللغتين :

2290- سَقَى قومي بني مَجْدٍ وأَسْقَى . . . نُمَيْراً والقبائلَ من هلالِ

دعا للجميع بالسَّقْيِ والخِصْب . و " نُمَيْراً " هو المفعول الثاني : أي : ماءً نُمَيْراً . وقال أبو عبيد : " مَنْ سَقَى الشَّفَةِ : سَقَى فقط ، ومَنْ سقى الشجرَ والأرضَ . أَسْقَى ، وللداعي بالسُّقْيَا وغيرها : أَسْقَى فقط " . وقال الأزهري : " العربُ تقول ما كان من بطون الأنعام ، ومن السماء ، أو نهرٍ يجري ، أَسْقَيْتُ ، أي : جَعَلْتُ شِرْباً له وجَعَلْتُ له منه سُقْيَا ؟ ، فإذا كان للشَّفَة قالوا : سَقَى ، ولم يقولوا : أسقى " .

وقال الفارسي : "سَقَيْتُه حتى رَوِيَ ، وأَسْقَيْتُه نهراً ، أي : جَعَلْتُه له شِرْباً " . وقيل " سَقَاه إذا ناوله الإِناءَ ليشربَ منه ، ولا يُقال مِنْ هذا : أَسْقاه .

وقرأ أبو رجاء "يُسْقِيْكم" بضمِّ الياء من أسفلَ وفي فاعِله وجهان ، أحدُهما : هو الله تعالى ، الثاني : أنه ضميرُ النَّعَمِ المدلولُ عليه بالأنعامِ ، أي : نَعَماً يُجْعَلُ لكم سُقْيا . وقُرِئ " تَسْقيكم " بفتح التاء من فوق . قال ابن عطية : " وهي ضعيفةٌ " . قال الشيخ : " وضَعْفُها عنده - والله أعلمُ - أنه أَنَّثَ في "تِسْقِيْكم" ، وذَكَّر في قوله ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ ، ولا ضَعْفَ مِنْ هذه الجهةِ ؛ لأنَّ التذكيرَ والتأنيثَ باعتبارين " . قلت "وضَعْفُها عنده من حيث المعنى : وهو أنَّ المقصودَ الامتنانُ على الخَلْقِ فنسبةُ السَّقْيِ إلى اللهِ تعالى هو الملائِمُ ، لا لِنسْبَتِه إلى الأنعام .

(135/438)

قوله : ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ يجوز أن تكونَ "مِنْ" للتبعيض ، وأن تكونَ لابتداءِ الغاية .

وعاد الضميرُ هنا على الأنعام مفرداً مذكراً . قال الزمخشري : " ذكر سيبويه الأنعامَ في باب "ما لا ينصرف" في الأسماءِ المفردةِ الواردةِ على أَفْعال كقولهم : ثوبٌ أَكْياش ، ولذلك رَجَع الضميرُ إليه مفرداً ، وأمَّا " في بطونها " في سورة المؤمنين فلأنَّ معناه جمع . ويجوز أن يُقال في

"الأنعام" وجهان، أحدهما: أن يكون تكسير "نَعَم" كأَجْبال في جبَل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع [كنَعَم]، فإذا ذُكِّرَ فكما يُذكَّرُ "نَعَم" في قوله:

2991- في كل عام نَعَمٌ تَحْوُوْنَهُ . . . يَلْقِحُه قومٌ وتَنْتِجُونَهْ

وإذا أُنِّثَ ففيه وجهان: أنه تكسير "نَعَم"، وأنَّه في معنى الجمع" .

(136/438)

قال الشيخ: أمَّا ما ذَكَره عن سيبويه ففي كتابه في: "هذا بابُ ما كان مِثال مَفاعِل ومفاعِيل ما نصُّه: "وأمَّا أَجْمال وفُلُوس فإنها تَنْصَرِفُ وما أشبهها؛ لأنها ضارَعَتْ الواحد / ألا ترى أنك تقول: أَقْوال وأقاويل، وأعراب وأعاريب وأَيْدٍ وأيادٍ، فهذه الأحرفُ تَخْرُجُ إلى مثال مفاعِل ومفاعيل، كما يَخْرُجُ إليه الواحد إذا كُسِّر للجمع. وأمَّا مَفاعِل ومَفاعيل فلا يُكسَّرُ، فلا يَخْرُجُ الجمعُ إلى بناءٍ غيرِ هذا؛ لأن هذا البناءَ هو الغايةُ، فلمَّا ضارَعَتِ الواحدَ صُرِفَتْ" . ثم قال: "وكذلك الفُعُوْل لو كَسَّرْتَ مثل الفُلُوس لأَنْ تُجْمَعَ جميعاً لأَخْرَجْتَه إلى فعَائِل، كما تقول: جَدُود وجَدائد وركوب وركائب، ولو فَعَلْتَ ذلك بمَفاعِل ومَفاعيل لم تجاوِزْ هذا البناءَ، ويُقَوِّي ذلك أنَّ بعضَ العربِ يقول: أُتِيَّ فيَضُمُّ الألفَ . وأمَّا أَفْعَال فقد يقع للواحد، مِنَ العرب مَنْ يقول: هو الأنعام: قال الله عز وجل ﴿

نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ . وقال أبو الخطاب : " سَمِعْت مِنَ العرب مَنْ يقول : هذا ثوبٌ أكياش " .

قال : " والذي ذكر سيبويهِ هو الفرق بين مَفاعِل ومفاعِيل وبين أفعال وفُعول ، وإن كان الجميعُ أبنيةً للجمع من حيث إنَّ مفاعِل ومفاعِيل لا يُجْمعان وأَفْعالاً وفُعولاً قد يَخْرُجان إلى بناءٍ يُشبِه مَفَاعِل أو مفاعيل ، فلمّا كانا قد يَخْرُجان إلى ذلك انصرفا ، ولم يَنصَرِفْ مَفَاعِل ومفاعيل لشِبْه ذَيْنك بالمفردِ ؛ من حيث إنه يمكن جمعُها وامتناعُ هذين من الجمع ، ثم قَوِيَ شَبَهُهما بالمفرد بأنَّ بعض العرب يقول في أُتيّ : " إِتيّ " بضمِّ الهمزة ، يعني أنه قد جاءَ نادراً فُعول من غير المصدرِ للمفرد ، وبأنَّ بعضَ العربِ قد يُوْقِعُ أفعالاً للمفرد من حيث أفرد الضميرَ فيقول : " هو الأنعامُ " ، وإنما يعني أنَّ ذلك على سبيل المجاز ؛ لأن الأنعامَ في معنى النّعَم ، والنَّعَمُ مفردٌ كما قال :

2992- تَركْنا الخيلَ والنَّعَمَ المُفَدَّى . . . وقلنا للنساءِ بها أَقيمي

ولذلك قال سيبويه : " وأمّا أَفْعال فقد يقع للواحد " فقوله " قد يقع للواحد " دليلٌ على أنه ليس ذلك بالوضْعِ ، فقولُ الزمخشري : " أنه ذكره في الأسماء المفردة على أَفْعال " تحريفٌ في

اللفظ ، وفَهِمَ عن سيبويه ما لم يُرِدْه . ويَدُلُّ على ما قلناه أنَّ سيبويه حيث ذَكَرَ أبنيةَ الأسماء المفردةِ نَصَّ على أنَّ أَفْعالاً ليس من أبنيتها . قال سيبويه في باب ما لحقته الزيادةُ من بنات الثلاثة : " وليس في الكلام أُفْعِيل ولا أَفْعَوْل ولا أَفْعال ولا أُفْعِيْل ولا أَفْعال ، إلا أن تُكَسِّرَ عليه اسماً للجمع " . قال : " فهذا نصٌّ منه على أنَّ أَفْعالاً لا يكون في الأسماء المفردة " .

(138/438)

قلتُ : الذي ذكره الزمخشريُّ هو ظاهرُ عبارةِ سيبويه وهو كافٍ في تسويغ عَوْد الضمير مفرداً ، وإن كان أَفْعال قد يقع موقعَ الواحد مجازاً فإنَّ ذلك ليس بضائرٍ فيما نحن بصددِه ، ولم يُحَرِّفْ لفظَه ، ولم يَفْهَمْ عنه غيرَ مرادِه ، لِما ذكرْتُه من هذا المعنى الذي قَصَدَه .

وقيل : إنما ذَكَّر الضميرَ لأنه يعودُ على البعض وهو الإِناث ؛ لأنَّ الذكورَ لا أَلْبانَ لها ، فكأنَّ العِبْرَةَ هي بعض الأنعام . وقال الكسائي : " أي في بطونِ ما ذَكَرَ " . قال المبرد : " وهذا شائعٌ في القرآن ، قال تعالى : { كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ } [عبس : 1112] ، أي : ذَكَرَ هذا الشيءَ . وقال تعالى : { فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي } [الأنعام : 78] ، أي : هذا الشيءُ الطالعُ ، ولا يكون هذا إلا في التأنيث المجازيِّ ، لا يجوز : جاريتُك ذهب " . قلت : وعلى ذلك خُرِّج قوله :

2993- فيها خطوطٌ مِنْ سوادٍ وبَلَقْ . . . كأنه في الجلدِ تَوْلِيْعُ البَهَقْ

أي : كأنَّ المذكورَ . وقيل : جمعُ التكسير فيما لا يُعْقَل يُعامَل معاملةَ الجماعةِ ومعاملةَ الجمع ، ففي هذه السورةِ اعتُبِر معنى الجمع ، وفي سورة المؤمنين اعتُبِر معنى الجماعة ، ومن الأولِ قولُ الشاعر : /

2994- مثل الفراخِ نُتِفَتْ حواصِلُهْ . . . وقيل : أنه يَسُدُّ مَسَدَّه واحدٌ يُفْهِم الجمعَ ، فإنه يَسُدُ مَسَدَّه " نَعَم " ، و " نَعَم " يُفْهِم الجمعَ ومثلُه قولُه :

2995- وطابَ أَلْبانُ اللِّقاحِ وبَرَدْ . . . لأنه يَسُدُّ مَسَدَّها لَبَن ، ومثلُه قولهم " هو أحسنُ الفتيان وأجملُه " ، أي : أحسنُ فتىً ، إلا أن هذا لا ينقاس عند سيبويه وأتباعِه .

(139/438)

وذكر أبو البقاء ستةَ أَوجهٍ ، تقدَّم منها في غضون ما ذكرْتُه خمسةٌ . والسادس : أنه يعود على الفحل ؛ لأن اللبن يكون مِنْ طَرْقِ الفحلِ الناقةَ ، فأصلُ اللبنِ [ماءُ] الفحلِ قال : " وهذا ضعيفٌ ؛ لأنَّ اللبن وإن نُسِب إلى الفحلِ فقد جَمَعَ البطون ، وليس فحلُ الأنعام واحداً ولا للواحد بطونٌ . فإن قال : أراد الجنسَ فقد ذُكِر " . يعني أنه قد تقدَّم أن التذكيرَ باعتبارِ جنسِ الأنعام فلا حاجة إلى تقدير عَوْدِه على " فَحْل " المرادِ به الجنسُ . قلت :

وهذا القولُ نقله مكي عن إسماعيل القاضي ولم يُعْقِبْه بنكير .

قوله : ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ ﴾ يجوز فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه متعلقٌ بالسَّقْي ، على أنها لابتداءِ الغاية ، فإن جَعَلْنا ما قبلها كذلك تَعَيَّن أن يكونَ مجرورُها بدلاً مِنْ مجرور "مِنْ" الأولى ؛ لئلا يتعلَّقَ عاملان متحدان لفظاً ومعنىً بعاملٍ واحد وهو ممتنعٌ . وهو مِنْ بدل الاشتمالِ ؛ لأن المكانَ مشتمِلٌ على ما حَلَّ فيه . وإن جعلْتَها للتبعيض هان الأمرُ .

الثاني : أنها في محلِ نصبٍ على الحال مِنْ "لَبَناً" ؛ إذْ لو تأخَّرَتْ لكانَتْ مع مجرورِها نعتاً له . قال الزمخشري : "وإنما تقدَّم لأنه موضعُ العِبْرة ، فهو قَمِنٌ بالتقديم" .

الثالث : أنَّها مع مجرورِها حالٌ من الموصول قبلها .

والفَرْث : فُضالةُ ما يَبْقى مِنَ العَلَفِ في الكِرْش ، وكثيفُ ما يبقى من الأكل في المَعِيّ . ويقال : فَرَثَ كَبِدَه ، أي : فتَّتها ، وأَفْرث فلانٌ فلاناً : أوقعه في بَلِيَّةٍ تجري مجرى الفَرْث .

قوله : "لَبَنا" هو المفعولُ الثاني لنُسْقي . وقرئ "سَيِّغاً" بتشديد الياء بزنة "سَيِّد" ، وتصريفُه كتصريفِه . وخَفَّفه عيسى بن عمر نحو : مَيْت وهَيْن . ولا يجوز أن يكون فَعْلاً ؛ إذ كان يجب أن يكونَ "سَوْغاً" كقَوْل .

قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل ﴾ :

فيه أربعةُ أوجهٍ، أحدها: أنه متعلقٌ بمحذوف، فقدَّره الزمخشريُّ: "ونُسْقيكم من ثمراتِ النخيل والأعناب، أي: مِنْ عصيرِها، وحُذِف لدلالةِ "نُسْقيكم" قبلَه عليه".

قال: "وتَتَّخذون: بيانٌ وكَشْفٌ عن كيفيةِ الإِسقاء". وقدَّره أبو البقاء: "خَلَقَ لكم وجَعَلَ لكم".

وما قدَّره الزمخشريُّ أَلْيَقُ، لا يُقال: لا حاجةَ إلى تقدير "نُسْقيكم" بل قولُه ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ ﴾ عطفٌ على قولِه ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ فيكون عَطَفَ بعضَ متعلِّقاتِ الفعلِ الأولِ على بعضٍ، كما تقول: "سَقَيْتُ زيداً من اللبن ومن العسل" فلا يحتاج إلى تقديرِ فعلٍ قبل قولك "من العسل"، لا يُقال ذلك لأنَّ "نُسْقيكم" الملفوظَ به وقع تفسيراً لِعبْرة الأنعام فلا يَليقُ تَعَلُّق هذا به، لأنه ليس من العِبْرة المتعلقةِ بالأنعام. قال الشيخ: "وقيل: متعلِّقٌ ب "نُسْقيكم" فيكونُ معطوفاً على ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ أو ب "نُسقيكم" محذوفةً دلَّ عليها "نُسْقِيكم". انتهى. ولم يُعْقِبْه بنكير، وفيه ما قَدَّمْتُه آنفاً.

الثاني: أنه متعلِّقٌ ب "تَتَّخذون" و "منه" تكريرٌ للظرف توكيداً نحو: "زيدٌ في الدارِ فيها" قاله الزمخشريُّ. وعلى هذا فالهاءُ في "منه" فيها ستةُ أُوجهٍ. أحدها: أنها تعودُ على المضافِ المحذوفِ الذي هو العصيرُ، كما رَجَعَ في قوله ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [الأعراف: 4] إلى الأهلِ المحذوفِ. الثاني: أنها تعود على معنى الثمراتِ لأنها بمعنى الثَّمر. الثالث

: أنها تعودُ على النخيل . الرابع : أنها تعودُ على الجنس . الخامس : أنها تعودُ على البعض . السادس : أنها تعود على المذكور .

(141/438)

الثالث من الأوجهِ الأُوَلِ : أنه معطوفٌ على قولِه ﴿ فِي الأنعام ﴾ ، فيكونُ في المعنى خبراً عن اسم "إنَّ" في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ ، التقدير : وإنّ لكم في الأنعام ومن ثمرات النخيل لَعِبْرَةً ، ويكونُ قوله "تتخذون" بياناً وتفسيراً للعِبْرة كما وقع "نُسْقِيكم" تفسيراً لها أيضاً .

الرابع : أن يكونَ خبراً لمبتدأ محذوفٍ فقدَّره الطبريُّ : "ومن ثمراتِ النخيل ما تتَّخذون" / قال الشيخ : "وهو لا يجوزُ على مذهبِ البصريين" . قلت : وفيه نظر ؛ لأنَّ له أن يقول : ليسَتْ "ما" هذه موصولةً ، بل نكرةٌ موصوفةٌ ، وجاز حَذْفُ الموصوفِ والصفةُ جملةٌ ، لأن في الكلام "مِنْ" ، ومتى كان في الكلام "مِنْ" اطَّرد الحذفُ نحو : "منا ظَعَنَ ومنا أقام" ولهذا نظَّره مكيٌّ بقولِه تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ ﴾ [الصافات : 164] ، أي : إلا مَنْ له مقام .

قال : فَحُذِفَتْ "مَنْ" لدلالةِ "مِنْ" عليها في قوله "وما مِنَّا" . ولما قدَّر الزمخشري

الموصوفَ قدَّره : ثَمَرٌ تتخذون ، ونظَّره بقول الشاعر :

2996- يَرْمي بكفّيْ كان مِنْ أَرْمى البشر . . . تقديرُه : بكفَّيْ رجل ، إلاَّ أنَّ الحذفَ في البيت شاذٌّ لعدم " مِنْ " : ولمَّا ذكر أبو البقاء هذا الوجهَ قال : " وقيل : هو صفةٌ لمحذوفٍ تقديرُه : شيئاً تتخذون منه ، بالنصب ، أي : وإنَّ من ثمراتِ النخيل . وإن شئت " شيء " بالرفعِ بالابتداء ، و ﴿ مِن ثَمَرَاتِ ﴾ خبرُه " .

والسَّكَر : - بفتحتين - فيه أقوال ، أحدها : أنه من أسماءِ الخمر ، كقول الشاعر :

2997- بئس الصُّحاةُ وبئس الشَّرْبُ شَرْبُهُمُ . . . إذا جرَى فيهم المُزَّاءُ والسَّكَرُ

الثاني : أنه في الأصل مصدرٌ ، ثم سُمِّي به الخمرُ . يقال : سَكِرَ يَسْكَرُ سُكْراً وسَكَراً ، نحو : رَشِد يَرْشَدُ رُشْداً ورَشَداً .

قال الشاعر :

2998- وجاؤُوْنا بهم سَكَرٌ علينا . . . فَأَجْلَى اليومُ والسَّكْران صاحي

قاله الزمخشري . الثالث : أنه اسمٌ للخَلِّ بلغةِ الحبشة ، قاله ابن عباس . الرابع : أنه اسمٌ للعصير ما دام حُلْواً ، كأنه سُمِّي بذلك لمآلِه لذلك لو تُرِكَ . الخامس : أنه اسمٌ للطُّعْم قاله أبو

عبيدة ، وأنشد :

2999- جَعَلْتَ أعراضَ الكرامِ سَكَرَاً . . . أي : تتقلَّبُ بأعراضِهم . وقيل في البيت : إنه من الخمر ، وإنه إذا انتهك أعراضَ الناس كأنه تَخَمَّر بها .

وقوله : ﴿ وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ يجوز أن يكونَ مِنْ عطف المغايِرات ، وهو الظاهرُ . وفي التفسير : أنه كالزَّبيب والخَلِّ ونحو ذلك ، وأن يكونَ من عطفِ الصفاتِ بعضِها على بعضٍ ، أي : تتخذون منه ما يُجْمَعُ بين السَّكَرِ والرِّزْقِ الحسن كقوله :

3000- إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ . . . .

البيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 249.262﴾

(143/438)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) ﴾

أنت الواسطة بيننا وبين أوليائنا ، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى ؛ تُبَلِّغُ عنَّا وتؤدِّي مِنَّا ، فأنت رحمةٌ أرسلناك لأوليائنا . . . فَمَنْ تبعَكَ اهتدى ، ومَنْ عصاكَ ففي هلاكه سعى .

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) ﴾

أحيا بماء التوفيق قلوبَ العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق ، وأحيا بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال ، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِ الآثار ، وانفردت بحقائق الاتصال .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) ﴾

سَخَّرَها لكم ، وهيأها للانتفاع بلحمها وشحمها ، وجِلْدِها وشَعْرِها ودَرِّها ، وأصلها ونَسْلِها . ثم عجيبٌ ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن - مع صفائه وطعمه ونَفْعِه - من بين الروث والدم ، وذلك تقدير العزيز العليم . والذي يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الزَّلَةِ من وجوهها المختلفة .

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) ﴾

مَنَّ على العباد بما خَلَقَ لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس . .

وغير ذلك .

والرزق الحسن ما كان حلالاً . ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب ، ويقال هو الذي لا مِنّة لمخلوقٍ فيه ولا تَبِعَة عليه .

ويقال هو ما لا يعصي الله مكتسبُه في حال اكتسابه .

ويقال هو ما لا يَنْسَى الله فيه مُكْتَسِبُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 306.305﴾

(144/438)

قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان أمر النحل في الدلالة على تمام القدرة وكمال الحكمة أعجب مما تقدم وأنفس ، ثلث به وأخره لأنه أقل الثلاثة عندهم ، وغير الأسلوب وجعله من وحيه إيماء إلى ما فيه من غريب الأمر وبديع الشأن فقال تعالى : ﴿ وأوحى ربك ﴾ أي المحسن إليك بجعل العسل في مفاوز البراري المقفرة المفرطة المرارة وغيرها من الأماكن وبغير ذلك من المنافع ، الدال على الفعل بالاختيار وتمام الاقتدار ﴿ إلى النحل ﴾ أي بالإلهام ؛ قال الرازي في اللوامع : فالله تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فبعضها بالتسخير المجرد كالجمادات ، وبعضها بالإلهام والتسخير كالنحل والسرفة - أي بضم وسكون ، وهي دويبة تتخذ بيتاً من دقاق العيدان فتدخله وتموت - والعنكبوت ، وبعضها بالتسخير والإلهام والعقل المتفق على نظام واحد كالملائكة ، وبعضها بكل ذلك والفكر والتمييز والأعمال المختلفة المبنية على الفكر كالإنسان .

ولما كان في الإيحاء معنى القول ، أتى ب " أن " المفسرة فقال تعالى : ﴿ أن اتخذي ﴾ أي افعلي ما يفعله المتكلف من أن يأخذ ﴿ من الجبال بيوتاً ﴾ أيّ بيوت ! ما أعجبها ! ﴿ ومن الشجر ﴾ أي الصالحة لذلك في الغياض والجبال والصحارى ﴿ ومما يعرشون ﴾ أي يرفع الناس من السقوف والجدران وغيرها ، وبدأ بالبيوت لأنها من عجب الدهر في حسن الصنعة وبداعة الشكل وبراعة الإحكام وتمام التناسب .

ولما كان أهم شيء للحيوان بعد الراحة من همّ المقيل الأكل ، ثنى به ، ولما كان عاماً في كل

ثمر ، ذكره بحرف التراخي إشارة إلى عجيب الصنع في ذلك وتيسيره لها ، فقال تعالى :

﴿ ثم كلي ﴾ وأشار إلى كثرة الرزق بقوله تعالى : ﴿ من كل الثمرات ﴾ قالوا : من أجزاء لطيفة تقع على أوراق الأشجار من الظل ، وقال بعضهم : من نفس الأزهار والأوراق .

(145/438)

ولما أذن لها في ذلك كله ، وكان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون إلا بمشقة عظيمة في معاناة السير إليه ، نبه على خرقه للعادة في تيسيره لها فقال تعالى : ﴿ فاسلكي ﴾ أي فتسبب عن الإذن في الأكل الإذن في السير إليه ﴿ سبل ربك ﴾ أي المحسن إليك بهذه التربية العظيمة لأجل الأكل ذاهبة إليه وراجعة إلى بيوتك حال كون السبل ﴿ ذللاً ﴾ أي موطأة للسلوك مسهلة كما قال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ [الملك : 15] وأشار باسم الرب إلى أنه لولا عظيم إحسانه في تربيتها لما اهتدت إلى ذلك ؛ ثم أتبعه نتيجة ذلك جواباً لمن كأنه قال : ماذا يكون عن هذا كله ؟ فقال تعالى : - ﴿ يخرج من بطونها ﴾ - بلفت الكلام لعدم قصدها إلى هذه النتيجة ﴿ شراب ﴾ أيّ شراب ! وهو العسل لأنه مع كونه من أجلّ المآكل هو "مما يشرب " ﴿ مختلف ألوانه ﴾ من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك ، اختلافاً دالاً على أن فاعله مع تمام قدرته مختار ، ثم أوضح ذلك بقوله

تعالى : ﴿ فيه ﴾ أي مع كونه من الثمار النافعة والضارة ﴿ شفاء للناس ﴾ قال الإمام الرازي في اللوامع : إذ المعجونات كلها بالعسل ، وقال إمام الأولياء محمد بن علي الترمذي : إنما كان ذلك لأنها ذلت لله مطيعة وأكلت من كل الثمرات : حلوها ومرها محبوبها ومكروهها ، تاركة لشهواتها ، فلما ذلت لأمر الله ، صار هذا الأكل لله ، فصار ذلك شفاء للأسقام ، فكذلك إذا ذل العبد لله مطيعاً ، وترك هواه ، صار كلامه شفاء للقلوب السقيمة - انتهى .

(146/438)

وكونه شفاء - مع ما ذكر - أدل على القدرة والاختيار من اختلاف الألوان ، لا جرم وصل به قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من أمرها كله ﴿ لآية ﴾ وكما أشار في ابتداء الآية إلى غريب الصنع في أمرها ، أشار إلى مثل ذلك في الختم بقوله تعالى : ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ أي في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة واللطائف الخفية بالبيوت المسدسة ، والاهتداء إلى تلك الاجزاء اللطيفة من أطراف الأشجار والأوراق - وغير ذلك من الغرائب حيث ناطه بالفكر المبالغ فيه من الأقوياء ، تأكيداً لفخامته وتعظيماً لدقته وغرابته في دلالته على تمام العلم وكمال القدرة ، وقد كثر في هذه السورة إضافة الآيات إلى

المخاطبين ، تارة بالإفراد وتارة بالجمع ، ونوطها تارة بالعقل وتارة بالفكر ، وتارة بالذكر وتارة بغيرها .

(147/438)

وقد جعل الإمام الرباني أبو الحسن الحرالي في كتابه المفتاح لذلك باباً بعد أن جعل أسنان الألباب مثل أسنان الأجساد ما بين تمييز واحتلام وشباب وكهولة وغيرها كما تقدم نقله عنه في سورة براءة عند قوله تعالى ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ [براءة : 61] فقال : الباب التاسع في وجوه إضافات الآيات واتساق الأحوال لأسنان القلوب في القرآن - أي فإن لذلك مراتب في العلم والأفهام - : اعلم أن الآيات والأحوال تضاف وتتسق لمن اتصف بما به أدرك معناها ، ويؤنب عليها من تقاصر عنها ، وينفي منالها عمن لم يصل إليها ، وهي أطوار أظهرها آيات الاعتبار البادية لأولي الأبصار ، لأن الخلق كله إنما هو عَلَم للاعتبار منه ، لا أنه موجود للاقتناع به ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن ءاياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ [يونس : 7-8] اتخذوا ما خلق للعبرة به إلى ربه كسباً لأنفسهم حتى صار عندهم وعند أتباعهم آيتهم ، لا آية خالقه ﴿ أتبنون بكل ريع ءاية تعبثون ﴾ [الشعراء : 128] ، ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ثم يلي آيات

الاعتبار ما ينال إدراك آيته العقل الأدنى ببداهة نظره ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [النحل : 12] جمع الآيات لتعدد وجوهها في مقصد البيان ، ثم يلي ما يدرك ببداهة العقل ما يحتاج إلى فكر يثيره العقل الأدنى لشغل الحواس بمنفعته عن التفكر في وجه آيته

(148/438)

﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ [النحل : 10] أفرد الآية لاستناد كثرته إلى وحدة الماء ابتداء ووحدة الانتفاع انتهاء ؛ ثم يلي ما يدرك بفكر العقل الأدنى ما يقبل بالإيمان ويكون آية أمر قائم على خلق ، وهو مما يدرك سمعاً لأن الخلق مرئي والأمر مسموع ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ [النحل : 63-64-65] هذه آية حياة القلوب بنور العلم والحكمة الذي أخذ سمعاً عند تقرر الإيمان ، وعند هذا الحد يتناهى العقل إلى فطرة الأشد وتعلو بداهته وتترقى فطره إلى نظر ما يكون آية في نفس الناظر لأن محار غيب الكون

يرد إلى وجدان نقص الناظر ، وكما أن الماء آية حياة القلوب صار الشرابان : اللبن والخمر ، آيتين على أحوال تخص القلوب بما يغذوها من الله غذاء اللبن وينشيها نشوة السكر ، منبعثاً من بين فرث ودم ونزول الخلق المقام عن الأمر القائم عليه ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ - الآيتين إلى قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ وهذا العقل الأعلى ، وأفرد الآية لانفراد موردها في وجد القلب ، وكما للعقل الأدنى فكرة تنبىء عن بداهته فكذلك للعقل الأعلى فكرة تنبىء عن عليّ فطرته ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر - إلى قوله : لآية لقوم يتفكرون ﴾ وهذا العقل الأعلى هو اللب الذي عنه يكون التذكر بالأدنى من الخلق للأعلى من الأمر ﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ [النحل : 13] وفي مقابلة كل من هذه الأوصاف أضداد يرد البيان فيها بحسب مقابلتها ، وكذلك حكم وصف المسلمين فيها يظهر أن " لا أنجى للعبد من إسلامه نفسه لربه " ووصف المحسنين فيما

يظهر قيام ظاهر حسه ﴿ آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 1] من استغنى بما عنده من وجدٍ لم يتفرغ لقبول غيب ﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وءامنوا

برسوله ﴾ [الحديد : 28] ، ﴿ إذا ما اتقوا وءامنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وءامنوا ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ [المائدة : 93] ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ، ﴿ ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ " فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به " ﴿ وفي خلقكم وما يبث من دابة ءايات لقوم يوقنون ﴾ [الجاثية : 4] ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ [الأنعام : 75] ولجملة هذه الأوصاف أيضاً أضداد يرد بيان القرآن فيها بحسب تقابلها ويجري معها إفهامه ، وما أوصله خفاء المسمع والمرأى إلى القلب هو فقهه ، ومن فقد ذلك وصف سمعه بالصمم وعينه بالعمى ، ونفى الفقه عن قلبه ، ونسب إلى البهيمية ، ومن لم تنل فكرته أعلام ما غاب عيانه نفي عنه العلم

﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ [الكهف : 101] ، ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : 179] ، ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ﴾ [المنافقون : 8] -إلى قوله : ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ [المنافقون : 8] ، ﴿ يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ -الآية إلى قوله تعالى : ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ نفي العلم فيما ظهرت أعلامه والفقه فيما خفي

أمره ، ومراد البيان عن أضدادها هذه الأوصاف بحسب تقابلها ، وهذا الباب لمن يستفتحه من أنفع فواتح الفهم في القرآن – انتهى .

(150/438)

ولما أيقظهم من رقدتهم ، ونبههم على عظيم غفلتهم من عموم القدرة وشمول العلم ، المقتضي للفعل بالاختيار ، المحقق للبعث وغيره ، من كل ما يريده سبحانه ببعض آياته المبثوثة في الآفاق من جماد ثم حيوان ، وختم ذلك بما هو شفاء ، ثنى ببعض ما في أنفسهم من الأدلة على ذلك مذكراً بمراتب عمر الإنسان الأربع ، وهي سن الطفولية والنمو ، ثم سن الشباب الذي يكون عند انتهائه الوقوف ، ثم سن الكهولة وفيه يكون الانحطاط مع بقاء القوة ، ثم سن الانحطاط مع ظهور الضعف وهو الشيخوخة ، مضمناً ما لا يغني عنه دواء ، حثاً على التفكر في آياته والتعقل لها قبل حلول ذلك الحادث ، فيفوت الفوت ، ويندموا حيث لا ينفع الندم ، فقال : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ خلقكم ﴾ فجعلكم بعد العدم أحياء فهماً خصّماً ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ على اختلاف الأسنان ، فلا يقدر الصغير على أن يؤخر ، ولا الكبير على أن يقدم ، فمنكم من يموت حال قوته ﴿ ومنكم من يرد ﴾ أي بأيسر أمرنا ، لا يقدر على مخالفته بوجه ﴿ إلى أرذل العمر ﴾

لأنه يهرم فيصير إلى مثل حال الطفولية في الضعف مع استقذار غيره له ، ولا يرجى بعده ﴿ لكي لا يعلم ﴾ .

ولما كان مقصود السورة الدلالة على تمام القدرة وشمول العلم والتنزه عن كل شائبة نقص ، وكان السياق هنا لذلك أيضاً بدليل ختم الآية ، نزع الخافض للدلالة على استغراق الجهل لزمن ما بعد العلم ، فيتصل بالموت ، ولا ينفع فيه دواء ولا تجدي معه حيلة فقال : ﴿ بعد علم شيئاً ﴾ لا يوجد في شيء من ذلك عند إحلاله شفاء ، ولا يمنعه دواء : فبادروا إلى التفكر والاعتبار قبل حلول أحد هذين ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ عليم قدير ﴾ أي بالغ العلم شامل القدرة ، فمهما أراد كان ، ومهما أراد غيره ولم يرده هو ، أحاط به علمه ، فسبب له بقدرته ما يمنعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 285 . 290 ﴾

(151/438)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)

اعلم أنه تعالى لما بين أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاهرة ، وبينات باهرة على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً حكيماً ، فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على إثبات هذا المقصود ،

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ يقال وحى وأوحى ، وهو الإلهام ، والمراد من الإلهام أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر ، وبيانه من وجوه : الأول : أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية ، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار .

والثاني : أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة ، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة ، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب .

والثالث : أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية ، وذلك الواحد يكون

أعظم جثة من الباقي ، ويكون نافذ الحكم على تلك البقية ، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران ، وذلك أيضاً من الأعاجيب .

(152/438)

والرابع : أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر ، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى ، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى وكرها ، وهذا أيضاً حالة عجيبة ، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة ، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام وهي حالة شبيهة بالوحي ، لا جرم قال تعالى في حقها : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ .

واعلم أن الوحي قد ورد في حق الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً ﴾ [الشورى : 51] وفي حق الأولياء أيضاً قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ [المائدة : 111] وبمعنى الإلهام في حق البشر قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ [القصص : 7] وفي حق سائر الحيوانات كما في قوله : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ ولكل واحد من هذه الأقسام معنى خاص ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قال الزجاج : يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلاً ، لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها ، وقال غيره النحل يذكر ويؤنث ، وهي مؤنثة في لغة الحجاز ، ولذلك أنثها الله تعالى ، وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء .

ثم قال تعالى : ﴿ أَنِ اتخذى مِنَ الجبال بُيُوتًا وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ أَنِ اتخذى ﴾ هي "أن" المفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول ، وقرىء : ﴿ بُيُوتًا ﴾ بكسر الباء ﴿ وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أي يبنون ويسقفون ، وفيه لغتان قرىء بهما ، ضم الراء وكسرها مثل يعكفون ويعكفون .

واعلم أن النحل نوعان :

النوع الأول : ما يسكن في الجبال والغياض ولا يتعهدها أحد من الناس .

والنوع الثاني : التي تسكن بيوت الناس وتكون في تعهدات الناس ، فالأول هو المراد بقوله : ﴿ أَنِ اتخذى مِنَ الجبال بُيُوتًا وَمِنَ الشجر ﴾ .

والثاني : هو المراد بقوله : ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ وهو خلايا النحل .

فإن قيل : ما معنى "من" في قوله : ﴿ أَنِ اتخذى مِنَ الجبال بُيُوتًا وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ وهلا قيل في الجبال وفي الشجر ؟

قلنا : أريد به معنى البعضية ، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وشجر ، بل في مساكن توافق مصالحها وتليق بها .

المسألة الثانية :

ظاهر قوله تعالى : ﴿ أَنِ اتخذى مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ أمر ، وقد اختلفوا فيه ، فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ، ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهي .

وقال آخرون : ليس الأمر كذلك بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال ، والكلام المستقصى في هذه المسألة مذكور في تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [النمل : 18] .

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثمرات ﴾ لفظة "من" ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية ، ورأيت في "كتب الطب" أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه ، وهو أنه يحدث في الهواء طل لطيف في الليالي ويقع ذلك الطل على أوراق الأشجار ، فقد تكون تلك الأجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار ، وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء

محسوسة .

أما القسم الثاني : فهو مثل الترنجبين فإنه طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الطرفاء في بعض البلدان وذلك محسوس .

وأما القسم الأول : فهو الذي ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها ، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئاً من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك ، لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها ، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل ، ومن الناس من يقول : إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة أشياء ، ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلاً ، ثم إنها تقيء مرة أخرى فذاك هو العسل ، والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء ، فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل ، ولا شك أنه طل يحدث في الهواء ويقع على أطراف الأشجار والأزهار فكذا ههنا .

وأيضاً فنحن نشاهد أن هذا النحل إنما يتغذى بالعسل ، ولذلك فإنا إذا استخرجنا العسل

من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لأجل أن تغتذي بها فعلمنا أنها إنما تغتذي بالعسل وأنها إنما تقع على الأشجار والأزهار لأنها تغتذي بتلك الأجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثمرات ﴾ كلمة (من) ههنا تكون لابتداء الغاية ، ولا تكون للتبعيض على هذا القول .

ثم قال تعالى : ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبّكِ ﴾ والمعنى : ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها فاسلكي سبل ربك في الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل ، أو يكون المراد : فاسلكي في طلب تلك الثمرات سبل ربك .

أما قوله : ﴿ ذُلُلاً ﴾ ففيه قولان : الأول : أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها ، كقوله : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ [الملك : 15] الثاني : أنه حال من الضمير في ﴿ فاسلكى ﴾ أي وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة .

ثم قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي ، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال : إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب ، لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه .

البحث الثاني : أنه قد ذكرنا أن من الناس من يقول : العسل عبارة عن أجزاء طلية تحدث في الهواء وتقع على أطراف الأشجار وعلى الأوراق والأزهار ، فيلقطها الزنبور بفمه ، فإذا ذهبنا إلى هذا الوجه كان المراد من قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ أي من أفواهها ، وكل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطناً ، ألا ترى أنهم يقولون : بطون الدماغ وعنوا أنها تجاويف الدماغ ، وكذا ههنا يخرج من بطونها أي من أفواهها ، وأما على قول أهل الظاهر ، وهو أن النحلة تأكل الأوراق والثمرات ثم تقيء فذلك هو العسل فالكلام ظاهر .

ثم قال تعالى : ﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ اعلم أنه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاثة :

فالصفة الأولى : كونه شراباً والأمر كذلك ، لأنه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الأشربة .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ والمعنى : أن منه أحمر وأبيض وأصفر .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [

فاطر : 27] والمقصود منه : إبطال القول بالطبع ، لأن هذا الجسم مع كونه متساوي الطبيعة لما حدث على ألوان مختلفة ، دل ذلك على أن حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار ، لا لأجل إيجاد الطبيعة .

والصفة الثالثة : قوله : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : وهو الصحيح أنه صفة للعسل .

فإن قالوا : كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة ؟

(156/438)

قلنا : إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال ، بل لما كان شفاء للبعض من بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء ، والذي يدل على أنه شفاء في الجملة أنه قل معجون من المعاجين إلا وتمامه وكماله إنما يحصل بالعجن بالعسل ، وأيضاً فالأشربة المتخذة منه في الأمراض البلغمية عظيمة النفع .

والقول الثاني : وهو قول مجاهد أن المراد : أن القرآن شفاء للناس ، وعلى هذا التقدير فقصة تولد العسل من النحل تمت عند قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ ثم ابتدأ وقال : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي في هذا القرآن حصل ما هو شفاء للناس من

الكفر والبدعة ، مثل هذا الذي في قصة النحل .

وعن ابن مسعود : أن العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور .

واعلم أن هذا القول ضعيف ويدل عليه وجهان : الأول : أن الضمير في قوله : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ يجب عوده إلى أقرب المذكورات ، وما ذاك إلا قوله : ﴿ شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ وأما الحكم بعود هذا الضمير إلى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق ، فهو غير مناسب .

والثاني : ما روى أبو سعيد الخدري : أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن أخي يشتكي بطنه فقال : " اسقه عسلاً " فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فلم يغن عنه شيئاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : " اذهب واسقه عسلاً " فذهب فسقاه ، فكأنما نشط من عقال ، فقال : " صدق الله وكذب بطن أخيك " وحملوا قوله : " صدق الله وكذب بطن أخيك " على قوله : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ وذلك إنما يصح لو كان هذا صفة للعسل .

فإن قال قائل : ما المراد بقوله عليه السلام : " صدق الله وكذب بطن أخيك "

قلنا : لعله عليه السلام علم بنور الوحي أن ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك ، فلما لم يظهر نفعه في الحال مع أنه عليه السلام كان عالماً بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك ، كان هذا جارياً مجرى الكذب ، فلهذا السبب أطلق عليه هذا اللفظ .

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ واعلم أن تقرير هذه الآية من وجوه : الأول : اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الأحوال التي ذكرناها .

والثاني : اهتداؤها إلى جميع تلك الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق .

والثالث : خلق الله تعالى الأجزاء النافعة في جو الهواء ، ثم إلقاؤها على أطراف الأشجار والأوراق ، ثم إلهام النحل إلى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة على أن إله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة ، والله أعلم .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

لما ذكر تعالى بعض عجائب أحوال الحيوانات ، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس ، فمنها ما هو مذكور في هذه الآية وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان ، والعقلاء ضبطوها

في أربع مراتب : أولها : سن النشو والنماء .

وثانيهما : سن الوقوف وهو سن الشباب .

وثالثها : سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة .

ورابعها : سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة .

فاحتج تعالى بانتقال الحيوان من بعض هذه المراتب إلى بعض ، على أن ذلك الناقل هو الله تعالى والأطباء الطبائعيون قالوا : المقتضي لهذا الانتقال هو طبيعة الإنسان ، وأنا أحكي كلامهم على الوجه الملخص وأبين ضعفه وفساده ، وحينئذ يبقى أن ذلك الناقل هو الله سبحانه ، وعند ذلك يصح بالدليل العقلي ما ذكر الله تعالى في هذه الآية .

قال الطبائعيون : إن بدن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث ، والمني والدم جوهران حاران رطبان ، والحرارة إذا عملت في الجسم الرطب قللت رطوبته وأفادته نوع يبس ، وهذا مشاهد معلوم ، قالوا : فلايزال ما في هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل ما فيه من الرطوبة حتى تتصلب الأعضاء ويظهر فيه الانعقاد ، ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الأعضاء فإذا تم تكون البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من

رحم الأم ومع ذلك فالرطوبات زائدة ، والدليل عليه أنك ترى أعضاء الطفل بعد انفصاله من الأم لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف ، ثم إن ما في البدن من الحرارة يعمل في تلك الرطوبات ويقللها ، قالوا : ويحصل للبدن ثلاثة أحوال .

الحالة الأولى : أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته ، وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدد والازدياد والنماء ، وذلك هو سن النشو والنماء ونهايته إلى ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة .

الحالة الثانية : أن تصير رطوبات البدن أقل ما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الأصلية إلا أنها لا تكون زائدة على هذا القدر ، وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين ، وعند تمامه يتم الأربعون .

والحالة الثالثة : أن تقل الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية ، وعند ذلك يظهر النقصان ، ثم هذا النقصان قد يكون خفياً وهو سن الكهولة وتمامه إلى ستين سنة وقد يكون ظاهراً وهو سن الشيخوخة وتمامه إلى مائة وعشرين سنة فهذا هو الذي حصله الأطباء في هذا الباب ، وعندي أن هذا التعليل ضعيف ويدل على ضعفه وجوه :

الوجه الأول : أنا نقول إن في أول ما كان المني منياً وكان الدم دماً كانت الرطوبات غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب ، ثم إنها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وأبانتها من حد الدموية والمنوية إلى أن صارت عظماً وغضروفاً وعصباً ورباطاً ، وعندما تولدت الأعضاء وكمل البدن قلت الرطوبات فوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك ، فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله أزيد من تحللها قبل تولد البدن ، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك ، لأن قبل تولد البدن انتقل جسم المني والدم إلى أن صار عظماً وعصباً ، وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشره فلو كان تولد هذه الأعضاء بسبب تأثير الحرارة في الرطوبة لوجب أن يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحللها قبل تكون البدن ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أن تولد البدن إنما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها ، وأنه ما كان تولد البدن لأجل ما قالوه من تأثير الحرارة في الرطوبة .

والوجه الثاني : في إبطال هذا الكلام أن نقول : إن الحرارة الغريزية الحاصلة في بدن الإنسان الكامل إما أن تكون هي عين ما كان حاصلاً في جوهر النطفة أو صارت أزيد مما كانت ، والأول باطل ، لأن الحار الغريزي الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولا شك أن جرم النطفة كان قليلاً صغيراً ، فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزية إلا ذلك القدر كان في غاية القلة ، ولم يظهر منه في هذا البدن أثر أصلاً ، وأما الثاني : ففيه تسليم أن الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن ، وإذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة ، وثبت أن تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة ، فوجب أن يبقى البدن الحيواني أبداً في التزايد والتكامل ، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن ازدياد حال البدن الحيواني وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة ، بل بسبب تدبير الفاعل المختار .

والوجه الثالث : وهو الذي أوردناه على الأطباء في "كتابنا الكبير في الطب" فقلنا هب أن الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم إن الحرارة الغريزية يجب أن تصير أقل مما كانت ؟ وأن ينتقل الإنسان من سن الشباب إلى سن النقصان .

قالوا : السبب فيه أنه إذا حصل هذا الاستواء ، فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر في تخفيف الرطوبة الغريزية ، فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لا تفي بحفظ الحرارة الغريزية ، وإذا حصلت هذه الحالة ضعفت الحرارة الغريزية أيضاً ، لأن الرطوبة الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية ، فإذا قل الغذاء ضعف المغتذي .

فالحاصل : أن الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية ، وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية ، ويلزم من ضعف إحداهما ضعف الأخرى إلى أن تنتهي إلى حيث لا يبقى من الرطوبة الغريزية شيء ، وحينئذ تنطفىء الحرارة الغريزية ، ويحصل الموت هذا منتهى ما قالوه في هذا الباب ، وهو ضعيف ، لأنا نقول : إن الحرارة الغريزية إذا أثرت في تجفيف الرطوبة الغريزية وقلتها ، فلم لا يجوز أن يقال : إن القوة الغاذية تورد بدلها .

فعند هذا قالوا : القوة الغاذية إنما تقوى على إيراد بدلها لو كانت الحرارة الغريزية قوية ، فأما عند ضعفها فلا ، فنقول : فهنا لزم الدور ، لأن الرطوبة الغريزية إنما تقل وتنقص لو لم تكن القوة الغاذية وافية بإيراد بدلها ، وإنما تعجز القوة الغاذية عن هذا الإيراد إذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة ، وإنما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة أن لو قلت الرطوبة الغريزية ، وإنما تحصل هذه القلة إذا عجزت الغاذية عن إيراد البدل ، فثبت أن على القول الذي قالوه يلزم الدور وأنه باطل فثبت أن تعليل انتقال الإنسان من سن إلى سن بما ذكروه من اعتبار الطبائع يوجب عليهم هذه المحاولات المذكورة فكان القول به باطلاً ، ولما بطل هذا القول وجب القطع بإسناد هذه الأحوال إلى الإله القادر المختار الحكيم الرحيم الذي يدبر أبدان

الحيوانات على الوجه الموافق لمصالحها ، وذلك هو المطلوب .

وقد كنت أقرأ يوماً من الأيام سورة المرسلات فلما وصلت إلى قوله تعالى :

(162/438)

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فجعلناه فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 20 24] فقلت : لا شك أن المراد بهؤلاء المكذبين هم الذين نسبوا تكون الأبدان الحيوانية إلى الطبائع وتأثير الحرارة في الرطوبة ، وأنا أؤمن من صميم قلبي يا رب العزة بأن هذه التدبيرات ليست من الطبائع بل من خالق العالم الذي هو أحكم الحاكمين وأكرم الأكرمين .

إذا عرفت هذا فقد صح بالدليل العقلي صدق قوله : ﴿ والله خَلَقَكُمْ ﴾ لأنه ثبت أن خالق أبدان الناس وسائر الحيوانات ليس هو الطبائع بل هو الله سبحانه وتعالى ، وقوله : ﴿ ثُمَّ يتوفاكم ﴾ قد بينا أن السبب الذي ذكروه في صيرورة الموت فاسد باطل ، وأنه يلزم عليه القول بالدور ، ولما بطل ذلك ثبت أن الحياة والموت إنما حصلا بتخليق الله ، وبتقديره ، وقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ قد بينا بالدليل أن الطبائع لا يجوز أن تكون علة لانتقال الإنسان من الكمال إلى النقصان ومن القوة إلى الضعف فلزم القطع بأن انتقال

الإنسان من الشباب إلى الشيخوخة ، ومن الصحة إلى الهرم ، ومن العقل الكامل إلى أن صار خَرِفاً غافلاً ليس بمقتضى الطبيعة بل بفعل الفاعل المختار ، وإذا ثبت ما ذكرنا ظهر أن الذي دل عليه لفظ القرآن قد ثبت صحته بقاطع القرآن .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ وهذا كالأصل الذي عليه تفريع كل ما ذكرناه ، وذلك لأن الطبيعة جاهلة لا تميز بين وقت المصلحة ووقت المفسدة ، فهذه الإنفعالات في هذا الإنسان لا يمكن إسنادها إليها .

أما إله العالم ومدبره وخالقه ، فهو الكامل في العلم ، الكامل في القدرة ، فلأجل كمال علمه يعلم مقادير المصالح والمفاسد ، ولأجل كمال قدرته يقدر على تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، فلا جرم أمكن إسناد تخليق الحيوانات إلى إله العالم ، فلا يمكن إسناده إلى الطبائع ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

في تفسير ألفاظ الآية قال المفسرون : والله خلقكم ولم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، وهو أردؤه وأضعفه .

يقال: رذل الشيء يرذل رذالة وأرذلة غيره، ومنه قوله: ﴿ إِلَّا الذين هُمْ ارذالنا ﴾ [هود: 27] ومنه قوله ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء: 111] وقوله: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ هل يتناول المسلم أو هو مختص بالكافر؟ فيه قولان:

القول الأول: أنه يتناوله، قيل: إنه العمر الطويل، وعلى هذا الوجه نقل عن علي عليه السلام أنه قال: أرذل العمر خمس وسبعون سنة.

وقال قتادة: تسعون سنة.

وقال السدي: إنه الخرف.

والقول الأول أولى؛ لأن الخرف معناه زوال العقل، فقوله: ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ يدل على أنه تعالى إنما رده إلى أرذل العمر لأجل أن يزيل عقله، فلو كان المراد من أرذل العمر هو زوال العقل لصار الشيء عين الغاية المطلوبة منه وأنه باطل.

والقول الثاني: أن هذا ليس في المسلمين والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر إلا كرامة على الله تعالى ولا يجوز أن يقال في حقه إنه يرد إلى أرذل العمر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [التين: 5، 6] فبين تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا إلى أسفل سافلين.

وقال عكرمة: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر.

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : يريد بما صنع أولياؤه وأعداؤه ﴿ قدير ﴾ على ما يريد .

المسألة الثالثة :

هذه الآية كما تدل على وجود إله العالم الفاعل المختار ، فهي أيضاً تدل على صحة البعث والقيامة ، وذلك لأن الإنسان كان عدماً محضاً فأوجده الله ثم أعدمه مرة ثانية ، فدل هذا على أنه لما كان معدوماً في المرة الأولى ، وكان عوده إلى العدم في المرة الثانية جائزاً ، فكذلك لما صار موجوداً ، ثم عدم وجب أن يكون عوده إلى الوجود في المرة الثانية جائزاً ، وأيضاً كان ميتاً حين كان نطفة ثم صار حياً ثم مات فلما كان الموت الأول جائزاً كان عود الموت جائزاً ، فكذلك لما كانت الحياة الأولى جائزة ، وجب أن يكون عود الحياة جائزاً في المرة الثانية ، وأيضاً الإنسان في أول طفوليته جاهل لا يعرف شيئاً ، ثم صار عالماً عاقلاً فاهماً ، فلما بلغ أرذل العمر عاد إلى ما كان عليه في زمان الطفولية ، وهو عدم العقل والفهم ، فعدم العقل والفهم في المرة الأولى عاد بعينه في آخر العمر ، فكذلك العقل الذي حصل ، ثم زال وجب أن يكون جائز العود في المرة الثانية ، وإذا ثبتت هذه الجملة ثبت أن الذي مات وعدم

فإنه يجوز عود وجوده وعود حياته وعود عقله مرة أخرى ومتى كان الأمر كذلك ، ثبت أن القول بالبعث والحشر والنشر حق ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 56.63 ﴾

(165/438)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّك إلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّك ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ بَيَّنَّا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَكُتُبِ الْأُصُولِ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْقَسِمُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا الْإِلْهَامُ ، وَهُوَ مَا يَخْلُقُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ظَاهِرٍ ، وَهُوَ مِنْ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ الْبَهَائِمُ وَمَا يَخْلُقُ اللَّهُ فِيهَا مِنْ دَرْكِ مَنَافِعِهَا ، وَاجْتِنَابِ مَضَارِّهَا ، وَتَدْبِيرِ مَعَاشِهَا .

وَمِنْ عَجِيبِ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي النَّحْلِ أَنْ أَلْهَمَهَا لِاتِّخَاذِ بُيُوتِهَا مُسَدَّسَةً ؛ فَبِذَلِكَ اتَّصَلَتْ حَتَّى صَارَتْ كَالْقِطْعَةِ الْوَاحِدَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَشْكَالَ مِنَ الْمُثَلَّثِ إِلَى الْمُعَشَّرِ إِذَا جُمِعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى أَمْثَالِهِ لَمْ يَتَّصِلْ ، وَجَاءَتْ بَيْنَهُمَا فُرَجٌ إِلَّا الشَّكْلَ الْمُسَدَّسَ فَإِنَّهُ إِذَا جُمِعَ إِلَى أَمْثَالِهِ التَّسْدِيسُ ، يَحْمِي بَعْضُهَا بَعْضًا عِنْدَ الِاتِّصَالِ .

(166/438)

وَجُعِلَتْ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى قَدْرِهَا ، فَإِذَا تَشَكَّلَ عِنْدَ حَرَكَةِ النَّحْلَةِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ ، وَمَلَأَتْهُ عَسَلًا انْتَقَلَتْ إِلَى غَيْرِهِ بِتَسْخِيرِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَذْلِيلِهِ ، إِنْ تُرِكَتْ عَسَّلَتْ ، وَإِنْ حُمِلَتْ اتَّبَعَتْ ، وَهِيَ ذَاتُ جَنَاحٍ ، وَلَكِنَّ الْقَابِضَ الْبَاسِطَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَهَا وَدَبَّرَهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ : يَعْنِي : الْعَسَلَ ، عَدَّدَهَا اللَّهُ فِي نِعَمِهِ ، وَذَكَرَ شَرَابَهُ مُمْتَنًّا بِهِ ، وَسَمَّاهُ شَرَابًا وَإِنْ كَانَ مَطْعُومًا ؛ لِأَنَّهُ يُصْرَفُ فِي الْأَشْرِبَةِ أَكْثَرَ مِنْ تَصْرِيفِهِ فِي الْأَطْعِمَةِ ، وَلِأَنَّهُ

مَائِعٌ ، وَذَلِكَ بِالشَّرَابِيَّةِ أَخَصُّ كَمَا أَنَّ الْجَامِدَ أَخَصُّ بِالطَّعَامِيَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ : يُرِيدُ أَنْوَاعَهُ مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ وَالْأَصْفَرِ ، وَالْجَامِدِ وَالسَّائِلِ ؛ وَالْأُمُّ وَاحِدَةٌ ، وَالْأَوْلَادُ مُخْتَلِفُونَ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُدْرَةَ نَوَّعَتْهُ بِحَسَبِ

تَنْوِيعِ الْغِذَاءِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَخْرُجُ عَلَى صِفَتِهِ ، وَلَا يَجِيءُ إِلَّا مِنْ جِنْسِهِ ، وَلَكِنْ يُؤَثِّرُ بَعْضُ التَّأْثِيرِ فِيهِ لِيَدُلَّ عَلَيْهِ ؛ وَيُغَيِّرُهُ اللَّهُ ، لِتَتَبَيَّنَ قُدْرَتُهُ فِي التَّصْرِيفِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ .

(167/438)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ : وَقَدْ رَوَى الْأَئِمَّةُ ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ قَالَ عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ ﴾ .

وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ لَذْعَةِ نَارٍ ﴾ .

وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ ﴿ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إنَّ أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ .

فَقَالَ : اسْقِهِ عَسَلًا .

ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَ : اسْقِهِ عَسَلًا .

ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ ، فَقَالَ : اسْقِهِ عَسَلًا ثُمَّ أَتَاهُ ، فَقَالَ : فَعَلْت ، فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إلَّا اسْتِطْلَاقًا .

فَقَالَ : صَدَقَ اللَّهُ ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيك ، اسْقِهِ عَسَلًا ، فَسَقَاهُ فَبَرِئَ ﴾ .

وكَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَشْكُو قُرْحَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا جَعَلَ عَلَيْهِ عَسَلًا حَتَّى الدُّمَّلَ إِذَا خَرَجَ عَلَيْهِ طَلَاهُ بِعَسَلٍ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ مَرِضَ فَقِيلَ لَهُ : أَلَا نُعَالِجُكَ ، قَالَ : ائْتُونِي بِمَاءِ سَمَاءٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ وَأْتُونِي بِعَسَلٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

وَأْتُونِي بِزَيْتٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ فَجَاءُوهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، فَخَلَطَهُ جَمِيعًا ثُمَّ شَرِبَهُ فَبَرِئَ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ ، وَالْحَسَنُ ، وَالضَّحَّاكُ : إِنَّ الْهَاءَ فِي قَوْلِهِ : " فِيهِ " يَعُودُ عَلَى الْقُرْآنِ ، أَيْ الْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ .

وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ ، مَا أَرَاهُ يَصِحُّ عَنْهُمْ ; وَلَوْ صَحَّ نَقْلًا لَمْ يَصِحَّ عَقْلًا ; فَإِنَّ مَسَاقَ الْكَلَامِ كُلِّهِ لِلْعَسَلِ ، لَيْسَ لِلْقُرْآنِ فِيهِ ذِكْرٌ ; وَكَيْفَ يَرْجِعُ ضَمِيرٌ فِي كَلَامٍ
إِلَى مَا لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ مِنْهُ ؟ وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا يُرَاعَى مَسَاقُ الْكَلَامِ وَمَنْحَى الْقَوْلِ ، وَقَدْ حَسَمَ النَّبِيُّ فِي ذَلِكَ ذَا الْإِشْكَالِ ، وَأَزَاحَ وَجْهَ الِاحْتِمَالِ حِينَ أَمَرَ الَّذِي يَشْتَكِي

بَطْنَهُ بِشُرْبِ الْعَسَلِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ بِأَنَّ الْعَسَلَ لَمَّا سَقَاهُ إِيَّاهُ مَا زَادَهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا أَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَوْدِ الشُّرْبِ لَهُ ، وَقَالَ لَهُ : ﴿ صَدَقَ اللَّهُ ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ : اُخْتُلِفَ فِي مَحْمَلِهِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : هُوَ عَلَى الْعُمُومِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَلِكُلِّ أَحَدٍ ، كَمَا سُقْنَاهُ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ وَعَوْفٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ عَلَى الْعُمُومِ بِالتَّدْبِيرِ ؛ إذْ يُخْلَطُ الْخَلُّ بِالْعَسَلِ وَيُطْبَخُ ، فَيَأْتِي شَرَابًا يَنْفَعُ فِي كُلِّ حَالَةٍ مِنْ كُلِّ دَاءٍ .

وَقَدْ اتَّفَقَ الْأَطِبَّاءُ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ عَلَى مَدْحِ عُمُومِ مَنْفَعَةِ السَّكَنْجَبِينِ فِي كُلِّ مَرَضٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّ ذَلِكَ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَلَيْسَ هَذَا بِأَوَّلِ لَفْظٍ عَامٍّ حُمِلَ عَلَى مَقْصِدٍ خَاصٍّ ؛ فَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْهُ ، وَلُغَةُ الْعَرَبِ يَأْتِي فِيهَا الْعَامُّ كَثِيرًا بِمَعْنَى الْخَاصِّ ، وَالْخَاصُّ بِمَعْنَى الْعَامِّ ؛ أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ : وَتَرَاكِ أَمْكِنَةٌ إذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا وَالْمُرَادُ كُلُّ النُّفُوسِ ؛ إذْ لَا تَخْلُو نَفْسٌ مِنْ ارْتِبَاطِ الْحِمَامِ لَهَا .

وَالصَّحِيحُ عِنْدِي أَنَّهُ يَجْرِي عَلَى نِيَّةِ كُلِّ أَحَدٍ ، فَمَنْ قَوِيَتْ نِيَّتُهُ ، وَصَحَّ يَقِينُهُ فَفَعَلَ فِعْلَ عَوْفٍ وَابْنِ عُمَرَ وَجَدَهُ كَذَلِكَ ، وَمَنْ ضَعُفَتْ نِيَّتُهُ وَغَلَبَتْهُ عَلَى الدِّينِ عَادَتُهُ أَخَذَهُ مَفْهُومًا

عَلَى قَوْلِ الْأَطِبَّاءِ ، وَالْكُلُّ مِنْ حُكْمِ الْفَعَّالِ لِمَا يَشَاءُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْعَسَلَ لَا زَكَاةَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ مَطْعُومًا مُقْتَاتًا ، وَلَكِنَّهُ كَمَا رُوِيَ فِي ذِكْرِ النَّحْلِ ذُبَابُ غَيْثٍ ، وَكَمَا جَاءَ فِي الْعَنْبَرِ أَنَّهُ شَيْءٌ دَسَرَهُ الْبَحْرُ ، فَأَحَدُهُمَا يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ ، وَالْآخَرُ يَطْفُو عَلَى الْمَاءِ ، وَكِلَاهُمَا فِي هَذَا الْحُكْمِ سَوَاءٌ ، وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ الزَّكَاةَ بِمَا خَصَّهَا مِنْ الْأَمْوَالِ الْمُقْتَاتَةِ ، وَالْأَعْيَانِ النَّامِيَةِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْهَا فِي مَوَاضِعِهَا فَلْيُقَفْ عِنْدَهَا .

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ أَنَّهُ قَالَ : جَاءَ كِتَابٌ مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إلَى أَبِي ، وَهُوَ بِمِنًى ، أَلَّا يَأْخُذَ مِنْ الْعَسَلِ وَلَا مِنْ الْخَيْلِ صَدَقَةً .

(170/438)

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ الْعَسَلَ طَعَامٌ يَخْرُجُ مِنْ حَيَوَانٍ فَلَمْ يَجِبْ فِيهِ الزَّكَاةُ كَاللَّبَنِ وَلَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ ؛ فَإِنَّ الْأَصْلَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ اللَّبَنُ عَيْنٌ زَكَاتِيَّةٌ ، وَقَدْ قَضَى حَقَّ النِّعْمَةِ فِيهِ وَحَازَ الِاسْتِيفَاءَ لِمَنَافِعِهَا ، بِخِلَافِ الْعَسَلِ ، فَإِنَّهُ لَا زَكَاةَ فِي أَصْلِهِ ، فَلَا يَصِحُّ اعْتِبَارُهُ بِاللَّبَنِ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : تَجِبُ الزَّكَاةُ فِي الْعَسَلِ ، مُحْتَجًّا بِمَا رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ مِنْ الْعَسَلِ الْعُشْرَ ﴾ .

وَالْحَدِيثُ لَا أَصْلَ لَهُ ، اللَّهُمَّ إلَّا أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي ذُبَابٍ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ قَدِمْت عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ اجْعَلْ لِقَوْمِي مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَعْمَلَنِي عَلَيْهِمْ ﴾ ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَنِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ قَالَ : فَكَلَّمْت قَوْمِي فِي الْعَسَلِ ، فَقُلْت لَهُمْ : زَكُّوهُ ، فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي ثَمَرَةٍ لَا تُزَكَّى .

قَالُوا : كَمْ ؟ فَقُلْت : الْعُشْرُ .

فَأَخَذْت مِنْهُمْ الْعُشْرَ ، فَأَتَيْت عُمَرَ فَأَخْبَرْته ، فَقَبَضَهُ ،

وَبَاعَهُ ، وَجَعَلَهُ فِي صَدَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ .

فَإِنْ صَحَّ هَذَا كَانَ بِطَوَاعِيَتِهِمْ صَدَقَةً نَافِلَةً ، وَلَيْسَ كَلَامُنَا فِي ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي فَرْضِ أَصْلِ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ فِيهِ ، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ كِفَايَةٌ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(171/438)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الوحي إليها هو إلهاماً ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : يعني أنه سخرها ، حكاه ابن قتيبة .

الثالث : أنه جعل ذلك في غرائزها بما يخفى مثله على غيرها ، قاله الحسن .

﴿ أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشُون ﴾ فذكر بيوتها لما ألهمها وأودعه في غرائزها من صحة القسمة وحسن المنعة .

﴿ ومما يعرشون ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه الكرم ، قاله ابن زيد .

الثاني : ما يبنون ، قاله أبو جعفر الطبري .

﴿ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ﴾ أي طرق ربك .

﴿ ذللاً ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها : مذللة ، قاله أبو جعفر الطبري .

الثاني : مطيعة ، قاله قتادة .

الثالث : أي لا يتوعر عليها مكان تسلكه ، قاله مجاهد .

الرابع : أن الذلل من صفات النحل وأنها تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ، قاله ابن زيد .

﴿ يخرج من بطونها شرابٌ ﴾ يعني العسل .

﴿ مختلف ألوانُهُ ﴾ لاختلاف أغذيتها . ﴿ فيه شفاءٌ للناس ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن ذلك عائد إلى القرآن ، وأن في القرآن شفاء للناس أي بياناً للناس ، قاله مجاهد .

الثاني : أن ذلك عائد إلى الاعتبار بها أن فيه هدى للناس ، قاله الضحاك .

الثالث : أن ذلك عائد إلى العسل ، وأن في العسل شفاء للناس ، قاله ابن مسعود وقتادة .

روى قتادة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر أن أخاه اشتكى بطنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اذهب فاسق أخاك عسلاً " ثم جاء فقال : ما زاده إلا شدة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اذهب فاسق أخاك عسلاً " . ثم جاء فقال له : ما زاده إلا شدة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اذهب فاسق أخاك عسلاً ، صدق الله وكذب بطن أخيك ، فسقاه فكأنه نشط من عِقال
"

قوله عز وجل : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العُمرِ ﴾

فيه أربعة أقاويل : أحدها : أوضعه وأنقصة ، قاله الجمهور .

الثاني : أنه الهرم ، قاله الكلبي .

الثالث : ثمانون سنة ، حكاه قطرب .

الرابع : خمس وسبعون سنة ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ﴿ لكيلا يعلم بعد عِلْمٍ شيئاً ﴾ يعني أنه يعود جاهلاً لا يعلم شيئاً كما كان في حال صغره .

أو لأنه قد نسي ما كان يعلم ، ولا يستفيد ما لا يعلم .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن يكون معناه لكي لا يعمل بعد علم شيئاً ، فعبر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه ، لأن تأثير الكبر في عمله أبلغ من تأثيره في علمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(173/438)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ الآية ،

الوحي في كلام العرب إلقاء المعنى من الموحي إلى الموحى إليه في خفاء ، فمنه الوحي إلى الأنبياء برسالة الملك ، ومنه وحي الرؤيا ، ومنه وحي الإلهام ، وهو الذي في آيا تنا هذه باتفاق من المتأولين ، والوحي أيضاً بمعنى الأمر ، كما قال تعالى ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : 5] . وقرأ يحيى بن وثاب "إلى النّحَل" بفتح الحاء و ﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن

اتخذي ﴾ مفسرة ، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع ، إما في الجبال وكُواها ، وإما في متجوف الأشجار ، وإما فيما يعرش ابن آدم من الأجباح والحيطان ونحوها ، و" عرش " معناه هيأ ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ، ومنه العريش الذي صيغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا هي لفظة العريش ، ويقال عرش يعرِش بكسر الراء وضمها ، وقرىء بهما ، قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر ، واختلف عن عاصم ، وجمهور الناس على كسر ، وقرأ بالضم أبو عبد الرحمن وعبيد بن نضلة ، وقال ابن زيد في قوله : ﴿ يعرشون ﴾ قال الكروم ، وقال الطبري ﴿ ومما يعرشون ﴾ يعني ما يبنون من السقوف .

قال القاضي أبو محمد : وهذا منهما تفسير غير متقن ، وقوله تعالى : ﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾ الآية ، المعنى ثم ألهمها أن كلي ، فعطف ﴿ كلي ﴾ على ﴿ اتخذي ﴾ ، و﴿ من ﴾ للتبعيض ، أي كلي جزءاً أو شيئاً من كل الثمرات ، وذلك أنها إنما تأكل النوار من أشجار ، و" السبل " الطرق وهي مسالكها في الطيران وغيرها ، وأضافها إلى " الرب " من حيث هي ملكه وخلقه التي يسر لك ربك ، وقوله ﴿ ذللاً ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من

﴿ النخل ﴾ ، أي مطيعة منقادة لما يسرت له ، قاله قتادة ، وقال ابن زيد : فهم يخرجون بالنحل ينتجعون وهي تتبعهم ، وقرأ ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ [يس : 71-72] ، ويحتمل أن يكون حالاً من " السبل " أي مسهلة مستقيمة ، قال مجاهد : لا يتوعر عليها سبيل تسلكه ، ثم ذكر تعالى على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة أمر العسل في قوله ﴿ يخرج من بطونها ﴾ ، وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، وورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقير الدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة ، وأشرف شرابه رجيع نحلة ، فظاهر هذا أنه من غير الفم ، و" اختلاف الألوان " في العسل بحسب اختلاف النحل والمراعي وقد يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعي ، ومن هذا المعنى قول زينب للنبي صلى الله عليه وسلم : جرست نَحْلُهُ العرفطَ حين شبهت رائحته برائحة المغافير ، وقوله ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ الضمير للعسل ، قاله الجمهور : ولا يقتضي العموم في كل على وفي كل إنسان ، بل هو خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض دون بعض وعلى حال دون حال ، ففائدة الآية إخبار منبه منه في أنه دواء كما كثر الشفاء به وصار خليطاً ومعيناً للأدوية في الأشربة والمعاجين ، وقد روي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو شيئاً إلا تداوى بالعسل ، حتى إنه يدهن به الدمل والضرحة ويقرأ ﴿

فيه شفاء للناس ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يقتضي أنه يرى الشفاء به على العموم ، وقال مجاهد : الضمير للقرآن ، أي فيه شفاء ، وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية إنما يراد بها أهل البيت ورجال بني هاشم ، وأنهم النحل ، وأن الشراب القرآن والحكمة ، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي : فقال له رَجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم ، فأضحك الحاضرين ، وبُهت الآخر ، وظهرت سخافة قوله ، وباقي الآية بين .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾

هذا تنبيه على الاعتبار في إيجادنا بعد العدم وإماتتنا بعد ذلك ، ثم اعترض بمن ينكث من الناس لأنهم موضع عبرة ، و﴿ أرذل العمر ﴾ آخرُه الذي تفسد فيه الحواس ويخْتل النطق ، وخص ذلك بالرذيلة وإن كانت حال الطفولية كذلك ، من حيث كانت هذه لأرجاء معها ، والطفولية إنما هي بدأة والرجاء معها متمكن ، وقال بعض الناس : أول أرذل العمر خمسة وسبعون سنة روي ذلك عن علي رضي الله عنه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا في الأغلب ، وهذا لا ينحصر إلى مدة معينة وإنما هو بحسب إنسان إنسان ، والمعْنى ، منكم من يرد إلى أرذل عمره ورب من يكون ابن خمسين سنة وهو

في أرذل عمره ، ورب ابن مائة وتسعين ليس في أرذل عمره ، واللام في ﴿ لكي ﴾ يشبه أن يكون لام صيرورة ، وليس ببين ، والمعنى ليصير أمره بعد العلم بالأشياء إلى أن لا يعلم شيئاً ، وهذه عبارة عن قلة علمه لا أنه لا يعلم شيئاً البتة ، ولم تحل ﴿ لا ﴾ بين "كي" ومعمولها لتصرفها ، وأنها قد تكون زائدة ثم قرر تعالى علمه وقدرته التي لا تتبدل ولا تحملها الحوادث ولا تتغير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(176/438)

وقال القرطبى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ قد مضى القول في الوَحْي وأنه قد يكون بمعنى الإلهام ، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7-8] .

ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير

معاشها .

وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ .

قال إبراهيم الحَرْبيّ : لله عز وجل في الموت قدرة لم يُدْرَ ما هي ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرّفها ذلك ؛ أي ألهمها .

ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام .

وقرأ يحيى بن وثّاب "إلى النَّحَلِ" بفتح الحاء .

وسُمِّيَ نحلاً لأن الله عز وجل نحله العسل الذي يخرج منه ؛ قاله الزجاج .

الجوهريّ : والنحل والنحلة الدّبْر يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يَعْسُوب .

والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء .

وروي من حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" الذِبّان كلّها في النار يجعلها عذاباً لأهل النار إلا النحل " ذكره الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) .

وروي عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النملة والنحلة والهُدْهُد والصُّرَد ، خرّجه أبو داود أيضاً ، وسيأتي في "النمل" إن شاء الله تعالى .

الثانية قوله تعالى : ﴿ أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر ﴾ هذا إذا لم يكن لها مليك .

﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع ، إما في الجبال وكِوَاها ، وإما في متجوّف الأشجار ، وإما فيما يعرِش ابن آدم من الأجباح والخلايا والحيطان وغيرها .

وعرَش معناه هنا هيّأ ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ؛ ومنه العريش الذي صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا لفظة العرش .

يقال : عرش يَعْرِش ويعرُش (بكسر الراء وضمها) ، وقرىء بهما .

قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر ، واختلف في ذلك عن عاصم .

الثالثة قال ابن العربيّ : ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدّسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة ، وذلك أن الأشكال من المثلّث إلى المعشر إذا جُمع كلّ واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فُرَج ، إلا الشكل المسدّس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثمرات ﴾

وذلك أنها إنما تأكل النوّار من الأشجار .

﴿ فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ أي طرق ربك .

والسّبل : الطرق ، وأضافها إليه لأنه خالقها .

أي ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر .

﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول وهو المنقاد ؛ أي مطيعة مسخرة .

ف "ذللاً" حال من النحل .

أي تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛ لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد .

وقيل : المراد بقوله "ذُلُلاً" السبل .

واليَعْسُوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة فقال : "يخرج من بطونها شراب" يعني العسل .

وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعابُ دودة ، وأشرب شرابه رَجِيعُ نحلة .

فظاهر هذا أنه من غير الفم .

وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحَمْى أنفاسها .

وقد صنع أرسطاطاليس بيتاً من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين ؛ ذكره الغزنويّ .

وقال : "مِن بطونِها" لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطن .

الثانية قوله تعالى : ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء ، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعي ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبيّ صلى الله عليه وسلم : "جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُطَ" حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ الضمير للعسل ؛ قاله الجمهور .

أي في العسل شفاء للناس .

وروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفراء وابن كَيْسان : الضمير للقرآن ؛

أي في القرآن شفاء .

النحاس : وهذا قول حسن ؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس .

وقيل : العسل فيه شفاء ، وهذا القول بيّن أيضاً ؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يتعالج بها أصلها من العسل .

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصحّ عنهم ، ولو صح نقلاً لم يصح عقلاً ؛ فإن مساق الكلام كلّه للعسل ، ليس للقرآن فيه ذكر .

(179/438)

قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم ، وأنهم النحل ، وأن الشراب القرآن والحكمة ، وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور أبي جعفر العباسيّ ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم ، فأضحك الحاضرين وبُهت الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعة اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا ؛ فقالت طائفة : هو على العموم في كل حال ولكل أحد ، فروي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً ، حتى الدُّمّل إذا خرج عليه طَلى عليه عسلاً .

وحكى النقاش عن أبي وَجْرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشي بالعسل ويتداوى بالعسل .

وروي أن عوف بن مالك الأشجعي مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : ائتوني بالماء ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً ﴾ ثم قال : ائتوني بعسل ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ وائتوني بزيت ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرىء .

ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتي شراباً ينتفع به في كل حالة من كل داء .

وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان ، بل إنه خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض وعلى حال دون حال ؛ ففائدة الآية إخبار منه في أنه دواء لمّا كثر الشفاء به وصار خليطاً ومُعيناً للأدوية في الأشربة والمعاجين ؛ وليس هذا بأول لفظ خُصّص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيراً بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام .

ومما يدل على أنه ليس على العموم أن "شفاء" نكرة في سياق الإثبات ، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحقّقي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول .

لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض ، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان .

ابن العربي : ومن ضعفت نيته وغلبته على الدِّين عادته أخذه مفهوماً على قول الأطباء ، والكلُّ مِن حِكَم الفَعّال لما يشاء .

الخامسة إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره ، فكيف يكون شفاء للناس ؟ قيل له : الماء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذه على ما يضاده من علة في البدن ، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الأشربة ؛ قال معناه الزجاج.

وقد اتفق الأطباء عن بَكْرة أبيهم على مدح عموم منفعة السّكنجبين في كل مرض ، وأصله العسل وكذلك سائر المعجونات ، على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد حَسَم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يشتكي بطنه بشرب العسل .

فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقاً أمره بعود الشراب له فبرىء ؛ وقال : "صدق الله وكذب بطن أخيك" .

السادسة اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال : قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال ؛ فالجواب أن ذلك القول حق في نفسه لمن حصل له التصديق بنبيّه عليه السلام ، فيستعمله على الوجه الذي عينه وفي المحل الذي

أمره بعقد نية وحسن طويّة ، فإنه يرى منفعته ويدرك بركته ، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدّم .

وأما ما حكي من الإجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيّد وأطلق .

(181/438)

قال الإمام أبو عبد الله المازَري : ينبغي أن يُعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة ؛ منها الأسهال الحادث عن التُّخم والهَيْضات ؛ والأطباء مجمعون في مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها ، وإن احتاجت إلى مُعين على الإسهال أعينت ما دامت القوّة باقية ، فأما حبسها فضرر ، فإذا وضح هذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهَيْضة فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل .

فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذِن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة .

قال : ولسنا نستظهر على قول نبيّنا بأن يصدقه الأطباء بل لو كذّبوه لكذبناهم ولكفّرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فنفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريجه على ما يصح إذ قامت الدّلالة على

أنه لا يكذب .

السابعة في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافاً لمن كره ذلك من جلّة العلماء ، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضي بجميع ما نزل به من البلاء ، ولا يجوز له مداواة .

ولا معنى لمن أنكر ذلك ، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله" وروى أبو داود والترمذي عن أسامة بن شُريك قال : "قالت الأعراب : ألا نَتداوى يا رسول الله ؟ قال : "نعم . يا عباد الله تداوَوْا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً" قالوا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : "الهرم" " لفظ الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

(182/438)

وروي "عن أبي خزامة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، أرأيت رُقىً نسترقيها ودواء نتداوى به وتُقاة نتقيها ، هل تَرُدّ من قَدَرَ الله شيئاً ؟ قال : "هي من قدر الله" " قال : حديث حسن ، ولا يعرف لأبي خزامة غير هذا الحديث .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجَم أو شربة من عسل أو لَذْعة بنار وما أحب أن أكْتَوِيَ "

أخرجه الصحيح .

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى .

وعلى إباحة التداوي والاسترقاء جمهور العلماء .

روي أن ابن عمر اكتوى من اللَّقْوة ورقي من العقرب .

وعن ابن سِيرين أن ابن عمر كان يسقي ولده التّرياق .

وقال مالك : لا بأس بذلك .

وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت أمّة بقَضِّها وقَضِيضها الجنة كانوا لا يَسترقُون ولا يَكْتَوُون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون " قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاماً بالله وتوكلاً عليه وثقة به وانقطاعاً إليه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حرَص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ .

وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما .

دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه فقال له عثمان : ما تشتكي ؟ قال ذنوبي .

قال : فما تشتهي ؟ قال رحمة ربي .

قال : ألا أدعولك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضني . . .

وذكر الحديث .

وسيأتي بكماله في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى .

وذكر وكيع قال : حدثنا أبو هلال عن معاوية بن قُرّة قال : مرِض أبو الدّرداء فعادوه وقالوا : ألا ندعولك طبيباً ؟ قال : الطبيب أضجعني .

وإلى هذا ذهب الربيع بن خَيْثم .

وكره سعيد بن جُبير الرُّقَى .

وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسل .

وأجاب الأوّلون عن الحديث بأنه لا حجة فيه ، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه بدليل كي النبيّ صلى الله عليه وسلم أُبيّاً يوم الأحزاب على أكحله لما رُمِي .

وقال : " الشفاء في ثلاثة " كما تقدّم .

ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقي بما ليس في كتاب الله ، وقد قال سبحانه وتعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ على ما يأتي بيانه .

ورَقَى أصحابَه وأمرهم بالرُّقية ؛ على ما يأتي بيانه .

الثامنة ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة في العسل وإن كان مطعوماً مُقتاتاً .

واختلف فيه قول الشافعي ، والذي قطع به في قوله الجديد : أنه لا زكاة فيه .

وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل في قليله وكثيره ؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط .

وقال محمد بن الحسن : لا شيء فيه حتى يبلغ ثمانية أفراق ، والفرق ستة وثلاثون رطلاً من أرطال العراق .

وقال أبو يوسف : في كل عشرة أزقاق زق ؛ متمسكاً بما رواه الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" في العسل في كل عشرة أزقاق زق " قال أبو عيسى : في إسناده مقال ، ولا يصح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء ، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول أحمد وإسحاق ، وقال بعض أهل العلم : ليس في العسل شيء .

التاسعة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي يعتبرون ؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها .

فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة ، وحذقها باحتيالها في تفاوت

أحوالها هو الله سبحانه وتعالى ؛ كما قال : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ .

الآية ثم أنها تأكل الحامض والمُرّ والحلو والمالح والحشائش الضارة ، فيجعله الله تعالى عسلاً

حلواً وشفاء ، وفي هذا دليل على قدرته .

(184/438)

قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بيِّن معناه .

﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر ﴾ يعني أرداه وأوضعه .

وقيل : الذي ينقص قوته وعقله ويصيّره إلى الخَرَف ونحوه .

وقال ابن عباس : يعني إلى أسفل العمر ، يصير كالصبي الذي لا عقل له ؛ والمعنى متقارب .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ

يقول : " اللَّهُمّ إني أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم وأعوذ بك

من البخل " وفي حديث سعد بن أبي وقّاص : " وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر "

الحديث .

خرّجه البخاري .

﴿ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ أي يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبلُ من الأمور لفرط الكبر.

وقد قيل: هذا لا يكون للمؤمن، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه.

وقيل: المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئاً؛ فعبّر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه؛ لأن تأثير الكبر في عمله أبلغ من تأثيره في علمه.

والمعنى المقصود الاحتجاج على منكري البعث، أي الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(185/438)

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته، وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من إخراج اللبن من بين فرث، ودم وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل، والأعناب ذكر في هذه الآية إخراج العسل الذي جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة، وهي النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك إلى النحل الخطاب فيه للنبي (صلى الله عليه

وسلم) والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل ، وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته ، وقدرته وأصل الوحي الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز ، والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الإلهية التي يلقيها الله إلى أنبيائه وحي وإلى أوليائه إلهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ يعني أنه سخرها لما خلقها له ، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر ، وذلك أن النحل تبني بيوتاً على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة ، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى ، أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضاً أن تجعل عليها أميراً كبيراً نافذ الحكم فيها وهي تطيعه ، وتمتثل أمره ويكون هذا الأمير أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها كذا حكاه الجوهري وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضاً أنها تخرج من بيوتها ، فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها ، ولا تضل عنها .

ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة ، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهي فكان ذلك شبيهاً بالوحي ، فلذلك قال تبارك وتعالى : وأوحى ربك إلى النحل ، والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضاً ، قال الزجاج : يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلاً لأن الله سبحانه وتعالى ، نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم .

وقال غيره : النحل يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز ، وكذا أنثها الله تعالى فقال ﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾ يعني من بعض الثمرات لأنه لا تأكل من جميع الثمار فلفظه كل هاهنا ليست للعموم ﴿ فاسلكي سبل ربك ﴾ يعني الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها ، وتدخلي فيها لأجل طلب الثمرات ﴿ ذللاً ﴾ قيل إنها نعت للسبل يعني أنها مذللة لكل الطرق مسهلة لك مسالكها .

قال مجاهد : لا يتوعر عليها مكان تسلكه .

وقيل : الذلل نعت للنحل يعني أنها مذللة مسخرة لأربابها مطيعة منقادة لهم حتى أنهم ينقلونها من مكانها إلى مكان آخر حيث شاؤوا ! وأرادوا لا تستعصي عليهم ﴿ يخرج من بطونها شراب ﴾ يعني العسل ﴿ مختلف ألوانه ﴾ يعني ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل .

وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والأزهار ، ويستحيل في بطونها عسلاً بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب ، وزعم الإمام فخر الدين الرازي أنه رأى في بعض كتب الطب ، أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الأزهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه ، وتدخر بعضه في بيوتها لأنفسها لتتغذى به فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير ، فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب إلى العقل لأن طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل ، وأيضاً فإنا نشاهد أن النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى : يخرج من بطونها بأن كل تجويف في داخل البدن يسمى بطناً ، فقوله : يخرج من بطونها يعني من أفواهها ، وقول أهل الظاهر أولى وأصح لأنا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل ، وكذلك يوجد لونها وطعمها فيه أيضاً ويعضد هذا قول بعض أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) له : أكلت مغافير ؟

قال : لا .

قالت : فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال : سقتني حفصة شربة عسل .

قالت : جرست نحلة العرفط .

العرفط شجر الطلح ، وله صمغ يقال لهم المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحلة العرفط أكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة الكريهة ، فثبت بهذا الدليل صحة أهل الظاهر من المفسرين ، وأنه يوجد طعم العسل ، ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الأطباء من أنه طل لأنه لو كان طلاًّ لكان على لون واحد وطبيعة واحدة .

وقله : إنه طبيعة العسل تقرب من طبيعة الترنجبين فيه نظر ، لأن مزاج الترنجبين معتدل إلى الحرارة ، وهو ألطف من السكر ومزاج العسل حار يابس في الدرجة الثانية فبينهما فرق كبير .

وقوله : كل تجويف في داخل البدن يسمى بطناً فيه نظر ، لأن لفظ البطن إذا أطلق لم يرد إلا العضو المعروف مثل بطن الإنسان ، وغيره والله أعلم .

(188/438)

وقوله تعالى ﴿ فيه ﴾ يعني في الشراب الذي يخرج من بطون النحل ﴿ شفاء للناس ﴾ وهذا قول ابن عباس وابن مسعود إذ الضمير في قوله فيه شفاء للناس ، يرجع إلى العسل ، وقد اختلفوا في هذا الشفاء هل هو على العموم لكل مرض ، أو على الخصوص لمرض دون مرض ، على قولين : أحدهما أن العسل فيه شفاء من كل داء وكل مرض ، قال ابن مسعود :

" العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور " وفي رواية أخرى عنه " عليك بالشفائين القرآن والعسل " وروى نافع أن ابن عمر ما كانت تخرج به قرحة ، ولا شيء إلا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ (ق) عن أبي سعيد الخدري قال :

" جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : إن أخي استطلق بطنه فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اسقه عسلاً فسقاه ثم جاء فقال : إني سيقته عسلاً فلم يزده إلا إستطلاقاً فقال له : ثلاث مرات ثم جاء الرابعة : فقال : اسقه عسلاً ، فقال : لقد سقيته فلم يزده إلا إستطلاقاً فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ " وقد اعترض بعض الملحدين ، ومن في قلبه مرض على هذا الحديث .

فقال : إن الأطباء مجمعون على أن مسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال فنقول في الرد على هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب أن الإسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم ، والهيضات ، وقد أجمع الأطباء في مثل هذا على أن علاجه بأن تترك الطبيعة وفعلها ، فإن

احتاجت إلى معين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية فأما حبسها فمضر عندهم

، واستعجال مرض فيحتمل أن يكون إسهال الشخص المذكور في الحديث أصابه من

امتلاء أو هيضة ، فدواؤه بترك إسهاله على ما هو عليه أو تقويته فأمره رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) العسل فزاده إسهالاً فزاده عسلاً إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال و

يكون الخلط الذي كان به يوافقه شرب العسل ، فثبت بما ذكرناه أن أمره (صلى الله عليه

وسلم) لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب ، وأن المعترض عليه جاهل

لها ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الأطباء : بل لو كذبوه لكذبناهم

وكفرناهم بذلك وإنما ذكرنا هذا الجواب الجاري على صناعة الطب ، دفعاً لهذا المعترض

بأنه لا يحسن صناعة الطب التي اعترض بها والله أعلم وقوله (صلى الله عليه وسلم) : "

صدق الله وكذب بطن أخيك " يحتمل أنه (صلى الله عليه وسلم) ، علم بالوحي الإلهي

أن العسل ، الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال عندهم قال :

صدق الله يعني فيما وعد به من أن فيه شفاء وكذب بطن أخيك يعني باستعجالك للشفاء

في أول مرة والله أعلم بمراده ، وأسرار رسوله صلى لله عليه سلم فإن قالوا : كيف يكون

شفاء للناس ، وهو يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين

ويعطش ، قلنا : في الجواب عن هذا الاعتراض أيضاً : إن قوله فيه شفاء للناس مع أنه يضر

بأصحاب الصفراء ، ويهيج الحرارة أنه خرج مخرج الأغلب ، وأنه في الأغلب فيه شفاء ، ولم

يقل : إنه شفاء لكل الناس لكل داء ولكنه في الجملة دواء وإن نفعه أكثر من مضرته ، وقل

معجون من

(190/438)

المعاجين إلا وتمامه به .

والأشربة المتخذة من العسل نافعة لأصحاب البلغم والشيوخ المبرودين ، ومنافعه كثيرة جداً ، والقول الثاني : أنه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه وهذا قول السدي وقال مجاهد : في قوله فيه شفاء للناس يعني القرآن لأنه شفاء من أمراض الشرك ، والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس ، والقول الأول أصح لأن الضمير يجب أن يعود إلى أقرب المذكورات ، وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو أولى أن يرجع الضمير إليه لأنه أقرب مذكور .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ يعني فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا .

قوله ﴿ والله خلقكم ﴾ يعني أوجدكم من العدم وأخرجكم إلى الوجود ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ يعني عند انقضاء آجالكم إما صبياناً وإما شباناً وإما كهولاً ﴿ ومنكم

من يرد إلى أرذل العمر ﴾ يعني أراده وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء : عمر الإنسان له أربع مراتب أولها من النشوء والنماء ، وهو من أول العمر إلى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة ، وهو غاية سن الشاب وبلوغ الأشد ثم المرتبة الثانية : سن الوقوف ، وهو من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة ، وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة : سن الكهولة ، وهو من الأربعين إلى الستين ، وهذه المرتبة يشرع الإنسان في النقص لكنه يكون نقصاً خفياً لا يظهر ثم المرتبة الرابعة : سن الشيخوخة والانحطاط من الستين إلى آخر العمر ، وفيها يتبين النقص ، ويكون الهرم والخوف .

وقال علي بن أبي طالب : أرذل العمر خمس وسبعون سنة .

وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " اللهم أني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات " وفي رواية أخرى عنه قال كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعو بهذه الدعوات : " اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات " وقوله تعالى : ﴿ لكيلا يعلم بعد

علم شيئاً ﴾ يعني الإنسان يردع إلى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر ، وقال ابن عباس : لكي يصير كالصبي لا عقل له .

وقال ابن قتيبة : معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً لشدة هرمه .

وقال الزجاج : المعنى وإن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفاً فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً ، ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على إماته وإحيائه ، أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل هكذا ، وجدته منقولاً عنه ولو قال : ليريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماته ليكون ذلك دليلاً على صحة هذا البعث ، بعد الموت لكان أجود .

قال ابن عباس : ليس هذا في المسلمين لأن المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله وعقلاً ومعرفة .

وقال عكرمة : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئاً .

وقال في قوله : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، هم الذين قرؤوا القرآن وقال ابن عباس في قوله تعالى : ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله تعالى ﴿ إن الله عليم ﴾ يعني بما صنع بأوليائه وأعدائه ﴿ قدير ﴾ يعني على ما يريد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾

والإيحاء هنا الإلهام والإلقاء في روعها ، وتعليمها على وجه هو تعالى أعلم بكنهه لا سبيل إلى الوقوف عليه .

والنحل : جنس واحده نحلة ، ويؤنث في لغة الحجاز ، ولذلك قال : أن اتخذي .

وقرأ ابن وثاب : النحل بفتح الحاء ، وأن تفسيرية ، لأنه تقدم معنى القول وهو : وأوحى .

أو مصدرية أي : باتخاذ ، قال أبو عبد الله الرازي : أنْ هي المفسرة لما في الوحي من معنى القول ، هذا قول جمهور المفسرين وفيه نظر .

لأنّ الوحي هنا بإجماع منهم هو الإلهام ، وليس في الإلهام معنى القول ، وقال : قرر تعالى في أنفسها الأعمال العجيبة التي يعجز عنها للعقلاء من البشر منها بناؤها البيوت المسدسة من أضلاع ، متساوية بمجرد طباعها ، ولا يتم مثل ذلك العقلاء إلا بآلات كالمسطرة والبركان ، ولم تبنها بأشكال غير تلك ، فتضيق تلك البيوت عنها لبقاء فرج لا تسعها ، ولها أمير أكبر جثة منها نافذ الحكم يخدمونه ، وإذ نفرت عن وكرها إلى موضع آخر وأرادوا عودها إلى

وكرها ضربوا الطبول وآلات الموسيقا ، وبوساطة تلك الألحان تعود إلى وكرها ، فلما امتازت بهذه الخواص العجيبة وليس إلا على سبيل الإلهام ، وهي حالة تشبه الوحي لذلك قال : وأوحى ربك إلى النحل .

انتهى ملخصاً .

ومِنْ للتبعيض لأنها لا تبنى في كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش ، ولا في كل مكان منها .

والظاهر أن البيوت هنا عبارة عن الكوى التي تكون في الجبال ، وفي متجوف الأشجار .

وأما من ما يعرش ابن آدم فالخلايا التي يصنها للنحل ابن آدم ، والكوى التي تكون في الحيطان .

ولما كان النحل نوعين : منه ما مقره في الجبال والغياض ولا يتعهده أحد ، ومنه ما يكون في بيوت الناس ويتعهد في الخلايا ونحوها ، شمل الأمر باتخاذ البيوت النوعين .

وقال الزمخشري : ما يدل على أنّ البيوت ليست الكوى ، وإنما هي ما تبنيه هي ، فقال : أريد منى البعضية ، يعني بمن ، وأنْ لا يبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكلّ ما يعرش .

وقال ابن زيد : ومما يعرشون الكروم .

وقال الطبري : مما يبنون من السقوف .

قال ابن عطية : وهذا منهما تفسير غير متقن انتهى .

وقرأ السلمي ، وعبيد بن نضلة ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بضم الراء ، وباقي السبعة بكسرها ، وتقتضي ثم المهلة والتراخي بين الاتخاذ والأكل الذي تدخر منه العسل ، فلذلك كان العطف بثم وهو معطوف على اتخذي ، وهو أمر معطوف على أمر ، وسيأتي الكلام على أمر غير المكلف في قوله : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ إن شاء الله وكل الثمرات عام مخصوص أي : المعتادة ، لا كلها .

قال الزمخشري : أي ابني البيوت ثم كلي من كل ثمرة تشتهيها انتهى .

فدل قوله : أي ابني البيوت ، أنه لا يريد بقوله بيوتاً الكوى التي في الجبال ومتجوف الأشجار ولا الخلايا ، وإنما يراد البيوت المسدسة التي تبينها هي .

وظاهر مِن في قوله : من كل الثمرات أنها للتبعيض ، فتأكل من الأشجار الطيبة والأوراق العطرة أشياء يولد الله منها في أجوافها عسلاً .

قال ابن عطية : إنما تأكل النوّار من الأشجار .

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : يحدث الله تعالى في الهواء ظلاً كثيراً يجتمع منه أجزاء محسوسة مثل الترنجبين وهو محسوس ، وقليلاً لطيف الأجزاء صغيرها ، وهو الذي ألهم

الله تعالى النحل التقاطه من الأزهار وأوراق الأشجار ، وتغتذي بها فإذا شبعت التقطت بأفواهها شيئاً من تلك الأجزاء ، ووضعتها في بيوتها كأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها ، فالمجتمع من ذلك هو العسل .

وعلى هذا القول تكون من لابتداء الغاية ، لا للتبعيض انتهى .

وظاهر العطف بالفاء في فاسلكي أنه بعقيب الأكل أي : فإذا أكلت فاسلكي سبل ربك ، أي طرق ربك إلى بيوتك راجعة ، والسبل إذ ذاك مسالكها في الطيران .

(194/438)

وربما أخذت مكانها فانتجعت المكان البعيد ، ثم عادت إلى مكانها الأول .

وقيل : سبل ربك أي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل ، أو فاسلكي ما أكلت أي : في سبل ربك ، أي في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك ومنافذ مأكلك .

وعلى هذا القول ينتصب سبل ربك على الظرف ، وعلى ما قبله ينتصب على المفعول به .

وقيل : المراد بقوله ثم كلي ، ثم اقصدي الأكل من الثمرات فاسلكي في طلبها سبل ربك ، وهذا القول والقول الأول أقرب في المجاز في سبل ربك من القولين اللذين بينهما ، إلا أنّ كلي

بمعنى اقصدي الأكل ، مجاز أضاف السبل إلى رب النحل من حيث أنه تعالى هو خالقها

ومالكها والناظر في تهيئة مصالحها ومعاشها .

وقال مجاهد : ذللاً غير متوعرة عليها سبيل تسلكه ، فعلى هذا ذللاً حال من سبيل ربك

كقوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ وقال قتادة : أي مطيعة منقادة .

وقال ابن زيد : يخرجون بالنحل ينتجعون وهي تتبعهم ، فعلى هذا ذللاً حال من النحل

كقوله : ﴿ وذللناها لهم ﴾ ثم ذكر تعالى على جهة تعديد النعمة والتنبيه على المنة ثمرة

هذا الاتخاذ والأكل والسلوك وهو قوله : يخرج من بطونها شراب ، وهو العسل .

وسماه شراباً لأنه مما يشرب ، كما ذكر ثمرة الأنعام وهي سقي اللبن ، وثمرة النخيل والأعناب

وهو اتخاذ السكر والرزق الحسن .

وذكر تعالى المقر الذي يخرج منه الشراب وهو بطونها ، وهو مبدأ الغاية الأولى ، والجمهور

على أنه يخرج من أفواهها وهو مبدأ الغاية الأخيرة ولذلك قال الحريري :

تقل هذا مجاج النحل تمدحه . . .

وإن ذممت تقل قيء الزنابير

والمجاج والقيء لا يكونان إلا من الفم .

وروي عن عليّ كرم الله وجهه أنه قال في تحقير الدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة

، وأشرف شرابه رجيع نحلة .

وعنه أيضاً : أما العسل فونيم ذباب ، فظاهر هذا أن العسل يخرج من غير الفم ، وقد خفي من أي المخرجين يخرج ، أمن الفم ؟ أم من أسفل ؟ وحكي أن سليمان عليه السلام ، والاسكندر ، وأرسطاطاليس ، صنعوا لها بيوتاً من زجاج لينظروا إلى كيفية صنعها ، وهل يخرج العسل من فيها أم من أسفلها ؟ فلم تضع من العسل شيئاً حتى لطخت باطن الزجاج بالطين بحيث يمنع المشاهدة .

وقال الحسن : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما عابه مسلم ، فجعله لعاباً كالريق الدائم الذي يخرج من فم ابن آدم .

وقيل : من بطونها من أفواهها ، سمى الفم بطناً لأنه في حكم البطن ، ولأنه مما يبطن ولا يظهر .

واختلاف ألوانه بالبياض والصفرة والحمرة والسواد ، وذلك لاختلاف طباع النحل ، واختلاف المراعي .

وقد يختلف طعمه لاختلاف المرعى كما في الحديث "جرست نحلة العرفط" وقيل : الأبيض تلقيه شباب النحل ، والأصفر كهولها ، والأحمر شبيبها .

والظاهر عود الضمير فيه إلى الشراب وهو العسل ، لأنه شفاء من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة .

وقلَّ معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل ، والعسل موجود كثير في أكثر البلدان .

وأما السكر فمختص به بعض البلاد وهو محدث ، ولم يكن فيما تقدم من الأزمان يجعل في الأشربة والأدوية إلا العسل .

وليس المراد بالناس هنا العموم ، لأن كثيراً من الأمراض لا يدخل في دوائها العسل ، وإنما المعنى للناس الذي ينجع العسل في أمراضهم .

ونكر شفاء إما للتعظيم فيكون المعنى فيه شفاء أي شفاء ، وإما لدلالته على مطلق الشفاء أي : فيه بعض الشفاء .

وروي عن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، والفراء ، وابن كيسان : أن الضمير في فيه عائد على القرآن ، أي : في القرآن شفاء للناس .

قال النحاس : وهو قول حسن أي : فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : أرى هذا القول لا يصح نقله عن هؤلاء ، ولو صح نقلاً لم يصح عقلاً فإن سياق الكلام كله للعسل ليس للقرآن فيه ذكر ، ولما كان أمر النحل عجيباً في بنائها تلك البيوت المسدسة ، وفي أكلها من أنواع الأزهار والأوراق الحامض والمر والضار ، وفي طواعيتها لأميرها ولمن يملكها في النقلة معه ، وكان النظر في ذلك يحتاج إلى تأمل وزيادة تدبر ختم بقوله تعالى : إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾

لما ذكر تعالى تلك الآيات التي في الأنعام والثمرات والنحل ، ذكر ما نبهنا به على قدرته التامة في إنشائنا من العدم وإماتتنا ، وتنقلنا في حال الحياة من حالة الجهل إلى حالة العلم ، وذلك كله دليل على القدرة التامة والعلم الواسع ، ولذلك ختم بقوله : عليم قدير .

وأرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس ، ويختل النطق والفكر .

وخص بالرذيلة لأنها حالة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد ، بخلاف حال الطفولة فإنها حالة تتقدم فيها إلى القوة وإدراك الأشياء ولا يتقيد أرذل العمر بسن مخصوص ، كما روي عن علي : أنه خمس وسبعون سنة .

وعن قتادة : أنه تسعون ، وإنما ذلك بحسب إنسان إنسان فرب ابن خمسين انتهى ، إلى أرذل العمر ، ورب ابن مائة لم يرد إليه .

والظاهر أنّ من يرد إلى أرذل العمر عام ، فيمن يلحقه الخرف والهرم .

وقيل : هذا في الكافر ، لأن المسلم لا يزداد بطول عمره إلا كرامة على الله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي لم يردوا إلى أسفل سافلين .

وقال قتادة : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر .

واللام في لكي قال الحوفي : هي لام كي دخلت على كي للتوكيد ، وهي متعلقة بيرد انتهى .

(197/438)

والذي ذهب إليه محققو النحاة في مثل لكي أنّ كي حرف مصدري إذا دخلت عليها اللام وهي الناصبة كأن ، واللام جارة ، فينسبك من كي والمضارع بعدها مصدر مجرور باللام تقديراً ، فاللام على هذا لم تدخل على كي للتوكيد لاختلاف معناهما واختلاف عملهما ، لأن اللام مشعرة بالتعليل ، وكي حرف مصدري ، واللام جارة ، وكي ناصبة .

وقال ابن عطية : يشبه أن تكون لام صيرورة والمعنى : ليصير أمره بعد العلم بالأشياء إلى أن لا يعلم شيئًا .

وهذه عبارة عن قلة علمه ، لا أنه لا يعلم شيئًا البتة .

وقال الزمخشري : ليصير إلى حالة شبيهة بحالة في النسيان ، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إنْ سئل عنه .

وقيل : لئلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً .

وقيل : لئلا يعلم زيادة علم على علمه انتهى .

وانتصب شيئاً إما بالمصدر على مذهب البصريين في اختيار أعماله ما يلي للقرب ، أو بيعلم على مذهب الكوفيين في اختيار أعمال ما سبق للسبق .

ولما ذكر ما يعرض في الهرم من ضعف القوى والقدرة وانتفاء العلم ، ذكر علمه وقدرته اللذين لا يتبدلان ولا يتغيران ولا يدخلهما الحوادث ، ووليت صفة العلم ما جاورها من انتفاء العلم ، وتقدم أيضاً ذكر مناسبة للختم بهذين الوصفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(198/438)

وقال أبو السعود :

﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾

أي ألهمها وقذف في قلوبها وعلّمها بوجوه لا يعلمها إلا العليمُ الخبير وقرى بفتحتين ﴿ أَنِ

اتخذى ﴾ أي بأن اتخذي على أنّ أنْ مصدريةٌ ويجوز أن تكون مفسرةً لما في الإيحاء من معنى القول ، وتأنيثُ الضمير مع أن النحلَ مذكر للحمل على معنى الجمع أو لأنه جمعُ نحلة ، والتأنيثُ لغة أهل الحجاز ﴿ مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ أي أوكاراً مع ما فيها من الخلايا ، وقرىء بيوتاً بكسر الباء ﴿ وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أي يعرِشه الناسُ أي يرفعه من كرْم أو سقف ، وقيل : المرادُ به ما يرفعه الناسُ ويبنونه للنحل ، والمعنى اتخذي لنفسك بيوتاً من الجبال والشجر إذا لم يكن لك أرباب وإلا فاتخذي ما يعرِشونه لك ، وإيرادُ حرفِ التبعيض لما أنها لا تبنى في كل جبل وفي كل شجر وكل عرش ولا في كل مكان منها .

(199/438)

﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلّ الثمرات ﴾ من كل ثمرة تشتهينها حُلوِها ومُرّها ﴿ فاسلكى ﴾ ما أكلتِ منها ﴿ سُبُلَ رَبّكِ ﴾ أي مسالكَه التي برأَها بحيث يُحيل فيها بقدرته القاهرة النّوَر المرّ عسلاً من أجوافك أو فاسلكي الطرقَ التي ألهمك في عمل العسلِ أو فاسلكي راجعةً إلى بيوتك سبلَ ربك لا تتوعّر عليك ولا تلتبس ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذَلول وهو حال من السبل أي مذللة غيرَ متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك ، أو من الضمير في اسلكي أي اسلكي منقادةً لما أُمرتِ به ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ استئناف عُدل به عن خطاب النحلِ لبيان ما

يظهر منها من تعاجيب صنعِ الله تعالى التي هي موضعُ العبرة بعد ما أُمِرتْ بما أمرتْ ﴿ شَرَابٌ ﴾ أي عسل لأنه مشروب ، واحتج به وبقوله تعالى : ﴿ كُلِى ﴾ من زعم أن النحلَ تأكلُ الأزهار والأوراقَ العطِرة فتستحيل في بطنها عسلاً ثم تقيءُ ادّخاراً للشتاء ، ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاءً قليلةً حُلوة صغيرة متفرقةً على الأزهار والأوراق وتضعها في بيوتها ، فإذا اجتمع فيها شيءٌ كثيرٌ يكون عسلاً فسّر البطونَ بالأفواه ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أبيضُ وأسودُ وأصفرُ وأحمرُ حسب اختلاف سِنّ النحل أو الفصلِ أو الذي أخذت منه العسل ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الأمراض ، إذ قلما يكون معجونٌ لا يكون فيه عسلٌ ، مع أن التنكيرَ فيه مُشعرٌ بالتبعية ، ويجوز كونه للتفخيم ، وعن قتادةَ أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي يشتكي بطنه ، فقال عليه الصلاة والسلام :

" اسقِه العسلَ " فذهب ثم رجع فقال : قد سقَيتُه فما نفع ، فقال : " اذهبْ فاسقِه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطنُ أخيك " فسقاه فبرِىء كأنما أُنْشِط من عِقال ، وقيل : الضميرُ للقرآن أو لِما بين الله تعالى من أحوال النحل . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : " العسلُ

شفاءٌ لكل داء ، والقرآنُ شفاء لما في الصدور " " فعليكم بالشفاءَين العسلِ والقرآنِ " ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرةِ الله تعالى ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن من تفكر في اختصاص النحلِ بتلك العلومِ الدقيقة والأفعالِ العجيبةِ المشتملةِ على حسن الصنعةِ وصِحة القسمة التي لا يقدر عليها حُذّاقُ المهندسين إلا بآلات دقيقةٍ وأدواتٍ أنيقة وأنظار دقيقة ، جزم قطعاً بأن له خالقاً قادراً حكيماً يلهمها ذلك ويهديها إليه جل جلاله .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾

لما ذكر سبحانه من عجائب أحوالِ ما ذَكَر من الماء والنبات والأنعام والنحل أشار إلى بعض عجائبِ أحوالِ البشر من أول عمُره إلى آخره وتطوراتِه فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتبَ العمُر في أربع : الأولى سنُّ النشوء والنماء ، والثانية سنُّ الوقوف وهي سن الشباب ، والثالثة سنُّ الانحطاط القليل وهي سنُّ الكهولة ، والرابعة سنُّ الانحطاط الكبير وهي سنُّ الشيخوخة ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنيةُ على حِكَم بالغةٍ بآجال مختلفة أطفالاً وشباباً وشيوخاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ ﴾ قبل توفّيه أي يعاد ﴿ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ

العمر ﴾ أي أخسّه وأحقره وهو خمسٌ وسبعون سنة على ما روي عن علي رضي الله عنه ، وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة رضي الله عنه ، وقيل : خمسٌ وتسعون ، وإيثارُ الردّ على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأن بلوغه والوصول إليه رجوعٌ في الحقيقة إلى الضُّعف بعد القوة كقوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الخلق ﴾ ولا عمرَ أسوأُ حالاً من عمر الهرِم الذي يشبه الطفلَ في نقصان العقل والقوة ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ ﴾ كثير ﴿ شَيْئاً ﴾ من العلم أو من المعلومات أو لكيلا يعلم شيئاً بعد علمٍ بذلك الشيء ، وقيل : لئلا يعقِلَ بعد عقله الأولِ شيئاً ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ ﴾ بمقادير أعماركم ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على كل شيء يميت الشابَّ النشيطَ ويُبقي الهرِمَ الفانيَ ، وفيه تنبيهٌ على أن تفاوتَ الآجالِ ليس إلا بتقدير قادرٍ حكيم ركب أبنيتَهم وعدّل أمزجتَهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوتُ هذا المبلغ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(202/438)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾

ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير ؛ وفسر بعضهم الإيحاء إليها

بتسخيرها لما أريد منها ، ومنعوا أن يكون المراد حقيقة الإيحاء لأنه إنما يكون للعقلاء وليس النحل منها .

نعم يصدر مها أفعال ويوجد فيها أحوال يتخيل بها أنها ذوات عقول وصاحبة فضل تقصر عنه الفحول ، فتراها يكون بينها واحد كالرئيس هو أعظمها جثة يكون نافذ الحكم على سائرها والكل يخدمونه ويحملون عنه وسمي اليعسوب والأمير ، وذكروا أنها إذا نفرت عن وكرها ذهبت بجمعيتها إلى موضع آخر فإذا أورادوا عودها إلى وكرها ضربوا لها الطبول وآلات الموسيقى ورودها بواسطة تلك الألحان إلى وكرها ، وهي تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية والعقلاء لا يمكنهم ذلك إلا بآلات مثل المسطرة والفرجار وتختارها على غيرها من البيوت المشكلة بأشكال أخر كالمثلثات والمربعات والمخمسات وغيرها ، وفي ذلك سر لطيف فإنهم قالوا : فإنهم قالوا : ثبت في الهندسة أنها لو كانت مشكلة بأشكال أخر يبقى فيما بينها بالضرورة فرج خالية ضائعة ؛ ولها أحوال كثيرة عجيبة غير ذلك قد شاهدها كثير من الناس وسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

والصوفية على ما ذكره الشعراني في غير موضع لا يمنعون إرادة الحقيقة ، وقد أثبتوا في سائر الحيوانات رسلاً وأنبياء والشرع يأبى ذلك .

وذهب بعض حكماء الإشراق إلى ثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات وأكاد أسلم لهم ذلك ولم نسع عن أحد غير الصوفية القول بما سمعت عنهم ، والنحل جنس واحده نحلة ويؤنث في لغة الحجاز ولذلك قال سبحانه : ﴿ أَنِ اتخذى ﴾ وقرأ ابن وثاب ﴿ النحل ﴾ بفتحتين وهو يحتمل أن يكون لغة وأن يكون إتباعاً لحركة النون ، و﴿ إن ﴾ إما مصدرية بتقدير بناء الملابسة أي بأن اتخذي أو تفسيرية وما بعدها مفسر للإيحاء لأن فيه باعتبار معناه المشهور معنى القول دون حروفه ، وذلك كاف في جعلها تفسيرية : وقد غفل عن ذلك أبو حيان أو لم يعتبره فقال : إن في ذلك نظراً لأن الوحي هنا بمعنى الإلهام إجماعاً وليس في الإلهام معنى القول ﴿ مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ أوكاراً ، وأصل البيت مأوى الإنسان واستعمل هنا في الوكر الذي تبنيه النحل لتعسل فيه تشبيهاً له بما يبنيه الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة كما سمعت : وقرىء ﴿ بُيُوتًا ﴾ بكسر الباء لمناسبة الياء وإلا فجمع فعل على فعول بالضم .

﴿ وَمِنَ الشجرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أي يعرشه الناس أي يرفعه من الكروم كما روى عن ابن زيد وغيره أو السقوف كما نقل عن الطبري أو أعم منهما كما قال البعض ، و﴿ مِنْ ﴾ في المواضع الثلاثة للتبعيض بحسب الأفراد وبحسب الأجزاء فإن النحل لا يبني في كل شجر وكل جبل وكل ما يعرش ولا في كل مكان من ذلك ، وبعضهم قال : إن ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض بحسب الأفراد فقط ، والمعنى الآخر معلوم من خارج لا من مدلول ﴿ مِنْ ﴾ إذ لا يجوز استعمالها فيهما ولمولانا ابن كمال تأليف مفرد في المسألة ليراجع ، وأياً ما كان ففيه مع ما يأتي قريباً إن شاء الله تعالى من البديع صنعة الطبقا ، وتفسير البيوت بيما تبنيه هو الذي ذهب إليه غير واحد ، وقال أبو حيان : الظاهر أنها عبارة عن الكوى التي تكون في الجبال وفي متجوف الأشجار والخلايا التي يصنعها ابن آدم للنحل والكوى التي تكون في الحيطان ، ولما كان النحل نوعين منه ما مقره في الجبال والغياض ولا يتعهده أحد ومنه ما يكون في بيوت الناس ويتعهده في الخلايا ونحوها شمل الأمر بالاتخاذ البيوت النوعين .

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي من جميعها ، وهي جمع ثمرة محركة حمل الشجر ، وأخذ بظاهر ذلك ابن عطية فقال : إنما تأكل النوار من الأشجار ، وتقال الثمرة للشجرة أيضاً كما في "القاموس" ، قيل : وهو المناسب هنا إذ التخصيص بحمل الشجر خلاف الواقع لعموم أكلها للأوراق والأزهار والثمار .

وتعقب بأنه لا يخفى أن إطلاق الثمرة على الشجرة مجاز غير معروف وكونها تأكل من

غيرها غير معلوم وغي رمناف للاقتصار على أكل ما ينبت فيها والعموم في كل على ما يشير إليه كلام البعض عرفي ، وجوز أن يكون مخصوصاً بالعادة أي كلي من كل ثمرة تشتهينها ، وقيل : ﴿ كُلِّ ﴾ للتكثير ، قال الخفاجي : ولو أبقى على ظاهره أيضاً جاز لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات الأكل منها لأن الأمر للتخلية والإباحة ، وأياً ما فمن للتعيض .

(205/438)

وقال الإمام : رأيت في كتب الطب أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه يحدث في الهواء طل لطيف في الليالي ويقع على أوراق الأشجار فقد تكون تلك الأجزاء لطيفة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة وهذا مثل الترنجبين فإنه طل ينزل من الهواء ويجتمع على الأطراف في بعض البلدان ، وأما القسم الأول فهو الذي ألهم الله تعالى النحل حتى تلتقطه من الأزهار أوراق الأشجار بأفواهها وتغتذي به فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئاً من تلك الأجزاء وذهبت به إلى بيوتها ووضعته هناك كأنها تحاول أن تدخر لنفسه غذاءها فالمجتمع من ذلك هو العسل ، ومن الناس من يقول : إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق العطرة أشياء ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلاً ثم تقيئه ، والقول الأول أقرب إلى العقرب وأشد

مناسبة للاستقراء ، فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل ولا شك أنه طل يحدث في الهواء ويقع على أطراف الأسجار والأزهار فكذا ههنا ، وأيضاً فنحن نشاهد أن النحل تتغذى بالعسل حتى إنا إذا أخرجنا العسل من بيوتها تركنا لها بقية منه لغذائها ، وحينئذ فكلمة من لابتداء الغاية اه .

وأنت تعلم أن ظاهر ﴿ كُلِى ﴾ يؤيد القول الثاني وهو أشد تأيداً له من تأييد مشابهة الترنجبين للعسل في الطعم والشكل للقول الأول لا سيما وطبيعة العسل والترنجبين مختلفة فقد ذكر بعض أجلة الأطباء أن العسل حار في الثالثة يابس في الثانية والترنجبين حار في الأولى رطب في الثانية أو معتدل .

(206/438)

نعم لتلك المشابهة يطلق عليه اسم العسل فإن ترنجبين فارسي معناه عسل رطب لا طل النداء كما زعم وإن قالوا : هو في الحقيقة طل يسقط على العاقول بفارس ويجمع كالمن ، ويجلب من التكرور شيء يسمى بلسانهم طنبيط أشبه الأشياء به في الصورة والفعل لكن أغلظ ، والأمر في مشاهدة تغذيها بالعسل سهل فإنه ليس دائمياً ، وينقل عن بعض الطيور التي تكمن شتاء التغذي بالرجيع .

ويؤيد المشهور ما روى عن الأمير علي كرم الله تعالى وجهه في تحقير الدنيا أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة وأشرف شرابه رجيع نحل ، وجاء عنه كرم الله تعالى وجهه أيضاً أما العسل فونيم ذباب ، وحمله على التمثيل خلاف الظاهر وعلى ذلك نظمت الأشعار فقال المعري :

والنحل يجني المر من زهر الربا . . .

فيعود شهداً في طريق رضا به

وقال الحريري :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه . . .

وإن ترد ذمه قيء الزنابير

وأخبرني من أثق به أنه شاهد كثيراً حملها لأوراق الأزهار بفمها إلى بيوتها وهو ما يستأنس به للآكل ، وسيأتي إن شاء الله تعالى أيضاً ما يؤيده ، ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبّكِ ﴾ أي طرقه سبحانه راجعة إلى بيوتك بعد الأكل ، فالمراد بالسبل مسالكها في العود ، ويحكى أنها ربما أجدب عليها ما حولها فانتجعت الأماكن البعيدة للمرعى ثم تعود إلى بيوتها لا تضل عنها ، وفي إضافة السبل إلى الرب المضاف إلى ضميرها إشارة إلى أنه سبحانه هو المهيىء لذلك والميسر له والقائم بمصالحها ومعايشها ، وقيل : المراد من السبل طرق الذهاب إلى مظان ما تأكل منه ، وحينئذ فمعنى ﴿ كُلِى ﴾ اقصدي الأكل ، وقيل : السبل مجاز عن طرق

العمل وأنواعها أي فاسلكي الطرق التي ألهمك ربك في عمل العسل ، وقيل : مجاز عن طرق إحالة الغذاء عسلاً ، و﴿ اسلكي ﴾ متعد من سلكت الخيط في الإبرة سلكاً لا لازم من سلك في الطريق سلوكاً ، ومفعوله محذوف أي فاسلكي ما أكلت في مسالكه التي يستحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك .

(207/438)

وتعقب بأن السلك في تلك المسالك ليس فيه لها اختيار حتى تؤمر به فلا بد أن يكون الأمر تكوينياً ، ورد بأنه ليس بشيء لأن الإدخال باختيارها فلا يضره كون الإحالة المترتبة عليه ليست اختيارية وهو ظاهر فليس كما زعم ﴿ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ أي مذللة ذللها الله تعالى وسهلها لك فهو جمع ذلول حال من السبل وروى هذا عن مجاهد .

وجعل ابن عبد السلام وصف السبل بالذلل دليلاً على أن المراد بالسبل مسالك الغذاء لا طرق الذهاب أو الإياب قال : لأن النحل تذهب وتؤب في الهواء وهو ليس طرقاً ذللاً لأن الذلول هو الذي يذلل بكثرة الوطء والهواء ليس كذلك وفيه نظر .

وقال قتادة : أي مطيعة منقادة فهو حال من الضمير في ﴿ فاسلكى ﴾ ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ استئناف عدل به عن خطاب النحل إلى الكلام مع الناس لبيان ما يظهر منها من

تعاجيب صنع الله تعالى التي هي موضع عبرتهم بعد ما أمرت بما أمرت ﴿ شَرَابٌ ﴾ يعني العسل ، وسمي بذلك لأنه مما يشرب حتى قيل : إنه لا يقال : أكلت عسلاً وإنما يقال : شربت عسلاً ، وكأنه سبحانه إنما لم يعبر بالإخراج مسنداً إليه تعالى اكتفاءً بإسناد الإيحاء بالمبادىء إليه جل شأنه وفيه إيذان بعظيم قدرته عز وجل بحيث أن ما يشعر بإرادة الشيء كاف في حصوله .

و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية ، وذكر سبحانه مبدأ الغاية الأولى وهي البطون ولم يذكر سبحانه مبدأ الغاية الأخيرة والجمهور على أنه يخرج من أفواهها ، وزعم بعضهم أنه أبلغ في القدرة ، وبيت الحريري على ذلك وكذا قول الحسن : لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما عابه مسلم ، وقيل : من أدبارها وهو ظاهر ما روى عن يعسوب المؤمنين كرم الله تعالى وجهه .

وقال آخرون : لا ندري إلا ما ذكره الله تعالى .

وحكى أن سليمان عليه السلام .

والإسكندر .

وأرسطو صنعوا لها بيوتاً من زجاج لينظروا إلى كيفية صنيعها وهل يخرج العسل من فيها أم من غيره فلم تضع من العسل شيئاً حتى لطخت باطن الزجاج بالطين بحيث يمنع المشاهدة ، وقال بعضهم : المراد بالبطون الأفواه ، وسمي الفم بطناً لأنه في حكمه ولأنه مما يبطن ولا يظهر ، وهذا تأويل من ذهب إلى أنها تلتقط الذراة الصغيرة من الطل وتدخرها في بيوتها وهو العسل .

وأنت تعلم أن الظاهر من البطن الجارحة المعروفة فالآية تؤيد القول المشهور في تكون العسل .

وفي "الكشف" أن في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِى ﴾ إشارة لى أن لمعدة النحل في ذلك تأثيراً وهو المختار عند المحققين من الحكماء ، ومن جعل العسل نباتياً محضاً وفسر البطون بأفواه النحل فليست شعري ماذا يصنع بقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ كُلِى ﴾ وأجيب بأنه يفسر الأكل بالالتقاط وهو كما ترى أن دفع الفساد لا يدفع الاستبعاد ، ومن الناس من زعم أنها تجتني زهراً وطلا فالمجتنى من الزهر نفسه يكون عسلاً والمجتنى من الطل يكون موماً والعقل يجوز العكسل ولعله أقرب من ذلك ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ بالبياض والصفرة والحمرة والسواد إما لمحض إرادة الصانع الحكيم جل جلاله وإما لاختلاف المرعى أو لاختلاف الفصل أو لاختلاف سن النحل ، فالأبيض لفتيها والأصفر لكلها والأحمر لمسنها والأسود للطاعن في ذلك جداً .

وتعقب بأنه مما لا دليل عليه ، وقد سألت جمعاً ممن أثق بهم قد اختبروا أحوالها فذكروا أنهم قد استقرؤا وسبروا فرأوا أقوى الأسباب الظاهرة لاختلاف الألوان اختلاف السن بل قال بعضهم : ما علمنا لذلك سبباً إلا هذا بالاستقراء ، وحينئذٍ يكون ما ذكر مؤيداً للقول المشهور في تكون العسل كما لا يخفى على من له أدنى ذوق .

(209/438)

﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أما بنفسه كما في الأمراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الأمراض إذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل فله دخل في أكثر ما به الشفاء من المعاجين والتراكيب ، وقيل عليه : إن دخوله في ذلك لا يقتضي أن يكون له دخل في الشفاء بل عدم الضرر إذ قيل : إن إدخاله في التراكيب لحفظها ولذا ناب عنه في ذلك السكر ، والذي رأيناه في كثير من كتب الطب أنه يحفظ قوى الأدوية طويلاً ويبلغها منافعها ، ولا يخفى على المنصف أن ما يحفظ القوى ويبلغ منافع الدواء يصدق عليه أن له دخلاً في الشفاء ، ولم يشتهر أن السكر ينوب منابه في ذلك .

وفي "البحر" أن العسل موجود كثيراً في أكثر البلاد وأما السكر فمختص به بعض البلاد وهو محدث مصنوع للبشر ، ولم يكن فيما تقدم من الأزمان يجعل في الأدوية والأشربة إلا العسل اه

، وفي "شرح الشمائل" أنه عليه الصلاة والسلام لم يأكل السكر ، وذكر غير واحد أنه ليس المراد بالناس هنا العموم لأن كثيراً من الأمراض لا يدخل في دوائها العسل كأمراض الصفراء فإنه مضر للصفراوي ، ولو يسلم أن السكنجبين الذي هو خل وعسل كما ينبئ عنه أصل معناه نافع له ، والنافع نوع آخر من السكنجبين فإنه نقل إلى ما ركب من حامض وحلو ، وله أنواع كثيرة ألفت في جمعها الرسائل حتى قالوا بحرمة تناوله عليه وإنما المراد بالناس الذين ينجع العسل في أمراضهم .

والتنوين في ﴿ شِفَآء ﴾ إما للتعظيم أي شفاء أي شفاء ، وإما للتبعيض أي فيه بعض الشفاء فلا يقتضي أن كل شفاء به ولا أن كل أحد يستشفى به .

(210/438)

ولا يرد أن اللبن أيضاً كذلك بل قلما يوجد شيء من العقاقير إلا وفيه شفاء للناس بهذا المعنى لما قيل : إن التنصيص على هذا الحكم فيه لإفادة ما يكاد يستبعد من اشتمال ما يخرج على اختلاف ألوانه من هذه الدودة التي هي أشبه شيء بذوات السموم ولعلها ذات سم أيضاً فإنها تلسع وتؤلم وقد يرم الجلد من لسعها وهو ظاهر في أنها ذات سم على ﴿ شِفَآء لِلنَّاسِ ﴾ ويفهم من ظاهر بعض الآثار أن الكلام على عمومه .

فقد أخرج حميد بن زنجويه عن نافع أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً حتى الدمل إذا كان به طلاه عسلاً فقلنا له : تداوى الدمل بالعسل ؟ فقال : أليس الله تعالى يقول : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ ؟ .

وأنت تعلم أنه لا بأس بمداواة الدمل بالعسل فقد ذكر الأطباء أنه ينقي الجروح ويدمل ويأكل اللحم الزائد .

والحق أنه لا مساغ للعموم إذ لا شك في وجود مرض لا ينفع فيه العسل ، والآثار المشعرة بالعموم الله تعالى أعلم بصحتها .

وأما ما أخرجه أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

وابن مردويه "عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن أخي استطلق بطنه فقال : اسقه عسلاً فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً قال : اذهب فاسقه عسلاً فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : ما زاده إلا استطلاقاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله تعالى وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه فبرأ" فليس صريحاً في العموم لجواز أن

يكون عليه الصلاة والسلام قد علمه الله سبحانه أن داء هذا المستطلق مما يشفى بالعسل فإن بعض الاستطلاق قد يشفي بالعسل.

ففي طبقات الأطباء أنه إنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه علم أن في معدة المريض رطوبات لزجة غليظة قد أزلقت معدته فكلما مر به شيء من الأدوية القابضة لم يؤثر فيها والرطوبات باقية على حالها والأطعمة تزلق عنها فيبقى الإسهال فلما تناول العسل جلا تلك الرطوبات وأحدرها فكثر الإسهال أولاً بخروجها وتوالى ذلك حتى نفذت الرطوبة بأسرها فانقطع إسهاله وبرىء، فقوله صلى الله عليه وسلم: "صدق الله تعالى" يعني بالعلم الذي عرف نبيه عليه الصلاة والسلام به، وقوله: "كذب بطن أخيك" يعني ما كان يظهر من بطنه من الإسهال وكثرته بطريق العرض وليس هو بإسهال ومرض حقيقي فكان بطنه كاذباً اه.

وقال بعضهم: المراد بصدق الله تعالى صدق سبحانه في أن العسل فيه الشفاء، وقوله عليه الصلاة والسلام: "كذب بطن أخيك" من المشاكلة الضدية كقولهم: من طالت لحيته تكوسج عقله، وهو على الأول استعارة مبنية على تشبيه البطن بالكاذب في كون ما ظهر

من إسهالها ليس بأمر حقيقي وإنما هو لما عرض لها ، وعلى ذلك قول الأطباء : زحير كاذب وزحير صادق .

وأنكر بعضهم هذا النوع من المشاكلة وقال : إنها ليست معروفة وإنه إنما عبر به لأن بطنه كأنه كذب قول الله تعالى بلسان حاله وهو ناشىء من قلة الاطلاع .

وقد وقع نظير هذه القصة في زمن المأمون ، وذلك أن ثمامة العبسي وكان من خواصه مرض بالإسهال فكان يقوم في اليوم والليلة مائة مرة وعجز الأطباء عن علاجه فعالجه يزيد بن يوحنا طبيب المأمون بالمسهل أيضاً فبرىء وكان قد ظن الأطباء أنه يموت بسبب ذلك ولا يبقى لغده ، وذكر الطبيب حين سأله المأمون عن وجه الحكمة فيما فعل فذكر أنه كان في جوف الرجل كيموس فاسد فلا يدخله غذاءً ولا دواء إلا أفسده فعلمت أنه لا علاج له إلا قلع ذلك بالإسهال ، ومنه يعلم أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم كان من معجزاته الدالة على علمه بدقائق الطب من غير تعليم ، وكذا يعلم أن ما طعن به بعض الملحدين ومن في قلبه مرض من أنه كيف يداوي الإسهال بالعسل وهو مسهل باتفاق الأطباء ناشىء عن الجهل بالدقائق وعدم الوقوف على الحقائق .

ونقل عن مجاهد .

والضحاك .

والفراء .

وابن كيسان وهو رواية عن ابن عباس .

والحسن أن ضمير ﴿ فِيهِ ﴾ للقرآن والمراد أن في القرآن شفاء لأمراض الجهل والشرك

وهدى ورحمة ، واستحسن ذلك ابن النحاس .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : أرى هذا القول لا يصح نقله عن هؤلاء ولو صح نقلاً لم

يصح عقلاً فإن سياق الكلام كله للعسل ليس للقرآن فيه ذكر ، ورجوع الضمير للكتاب في

قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذى اختلفوا فِيهِ ﴾ [النحل :

64] مما لا يكاد يقوله أمثال هؤلاء الكرام والعلماء الأعلام .

نعم كون القرآن شفاء مما لا كلام فيه ، وقد أخرج الطبراني .

وغيره عن ابن مسعود " عليكم بالشفاءين العسل والقرآن " هذا .

وقد سبحانه الإخبار عن إنزال الماء لما أن الماء أتم نفعاً وأعظم شأناً وهو أصل أصيل لتكون اللبن وما بعده ، ثم ذكر اللبن لأنه يحتاج إليه أكثر من غيره مما ذكر بعده ، وقد يستغني بشربه عن شرب الماء كما شاهدنا ذلك من بعض متزهدي زماننا فقد ترك شرب الماء عدة من السنين مكتفياً بشرب اللبن ، وسمعنا نحو ذلك عن بعض رؤساء الأعراب ، وهو الدليل على الفطرة ولذلك اختاره صلى الله عليه وسلم حين أسري به وعرض عليه مع الخمر والعسل ، ثم الخمر لأنها أقرب إلى الماء من العسل فإنها ماء العنب ولم يعهد جعلها إداماً كالعسل فإنه كثيراً ما يؤدم به الخبز ويؤكل ، وبينها وبين اللبن نوع مشابهة من حيث أن كلاً منهما يخرج من بين أجزاء كثيفة وما أشبه ثفله بالفرث ، وإذا لوحظ السوغ في اللبن وعدمه في الخمر بناءً على ما يقولون : إنها ليست سهلة المرور في الحلق ولذا يقطب شاربها عند الشرب وقد يغص بها كان بينهما نوع من التضاد ، ويحسن إيقاع الضد بعد الضد كما يحسن إيقاع المثل بعد المثل ، وإذا لوحظ مآل أمرهما شرعاً رأيت أن الخمر لم يسغ شربها بعد نزول الآية فيه وشرب اللبن لم يزل سائغاً وبذلك يقوى التضاد ، ويقويه أيضاً أن اللبن يخرج من بطن حيوان ولا دخل لعمل البشر فيه والخمر ليست كذلك .

وأما ذكر الرزق الحسن بعد الخمر وتقديمه على العسل فالوجه فيه ظاهر جداً ، ولعل ما اعتبرناه في وجه تقديم الخمر على العسل وذكره بعد اللبن أقوى مما يصح اعتباره في العسل وجهاً لتقديمه على الخمر وذكره بعد اللبن ، فلا يرد أن في كل جهة تقديماً فاعتبارها في

أحدهما دون الآخر ترجيح بلا مرجح ، وقد جاء ذكر الماء واللبن والخمر والعسل في وصف الجنة على هذا الترتيب قال تعالى :

﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهار مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين وأنهار مّنْ عسل مصفى ﴾ [محمد : 15] فتأمل فلمسلك الذهن اتساع والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ المذكور من آثار قدرة الله تعالى ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة التي مرت الإشارة إليها وخروج هذا الشرب الحلو المختلف الألوان وتضمنه الشفاء جزم قطعاً أن لها رباً حكيماً قادراً ألهمها ما ألهم وأودع فيها ما أودع ، ولما كان شأنها في ذلك عجيباً يحتاج إلى مزيد تأمل ختم سبحانه الآية بالتفكر .

ومن بدع تأويلات الرافضة على ما في الكشاف أن المراد بالنحل علي كرم الله تعالى وجهه وقومه .

وعن بعضهم أنه قال عند المهدي : إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل

: جعل الله تعالى طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهما ، وستسمع إن شاء الله تعالى ما يقوله الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم في باب الإشارة ، ثم إنه سبحانه لما ذكر من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته بين ذلك فقال

﴿ والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يتوفاكم ﴾

حسبما تقتضيه مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة بآجال مختلفة ، والقرينة على إرادة ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ ولذا قيل : إنه معطوف على مقدر أي فمنكم من تعجل وفاته ومنكم الخ ، و﴿ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ أخسه وأحقره وهو وقت الهرم التي تنقص فيه القوى وتفسد الحواس ويكون حال الشخص فيه كحاله وقت الطفولية من ضعف العقل والقوة ، ومن هنا تصور الرد فهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكّسْهُ فِى الخلق ﴾ [يس : 68] ففيه مجاز ، وأخرج ابن جرير عن علي كرم الله تعالى وجهه أن ﴿ أَرْذَلِ العمر ﴾ خمس وسبعون سنة ؛ وعن قتادة أنه تسعون ، وقيل : خمس

وتسعون واختار جمع تفسيره بما سبق وهو يختلف باختلاف الأمزجة فرب معمر لم تنتقص قواه ومنتقص القوى لم يعمر ، ولعل التقييد بسن مخصوص مبني على الأغلب عند من قيد .

والخطاب إن كان للموجودين وقت النزول فالتعبير بالماضي والمستقبل فيه ظاهر ، وإن كان عاماً فالمضي بالنسبة إلى وقت وجودهم ، والاستقبال بالنسبة إلى الخلق ، وعلى التقديرين الظاهر أن ﴿ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ يعم المؤمن مطلقاً والكافر ، وقيل : إنه مخصوص بالكافر والمسلم لا يرد إلى إرذل العمر لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [التين : 5 ، 6] وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن عكرمة أنه قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ، والمشاهدة تكذب كلا القولين فكم رأينا مسلماً قارىء القرآن قد رد إلى ذلك ، والاستدلال بالآية على خلافه فيه نظر ، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم كما أخرجه البخاري .

وابن مردويه عن أنس " أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات "

﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ اللام للصيرورة والعاقبة وهي في الأصل للتعليل وكي مصدرية والفعل منصوب بها والمنسبك مجرور باللام والجار والمجرور متعلق يرد ، وزعم الحوفي أن اللام لام كي دخلت على كي للتوكيد وليس بشيء ، والعلم بمعنى المعرفة ، والكلام كناية عن غاية النسيان أي ليصير نساءً بحيث إذا كسب علماً في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه من ساعته يقول لك : من هذا ؟ فتقول : فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه ، وقيل : المراد لئلا يعلم زيادة علم على علمه ، وقيل : لئلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً فالعلم بمعنى العقل لا بمعناه الحقيقي كما في سابقه ، وفيه دلالة على وقوفه وأنه لا يقدر على علم زائد ، والوجه المعتمد الأول ، ونصب شيئاً على المصدرية أو المفعولية ، وجوز فيه التنازع بين يعلم وعلم ، وكون مفعول علم محذوفاً لقصد العموم أي لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء ومن ذلك وجه الحكمة في الخلق والتوفي والرد إلى أرذل العمر ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على كل شيء ومنه ما يشاؤه سبحانه من ذلك ، وقيل : عليم بمقادير أعماركم قدير على كل شيء يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفاني ، وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس إلا بتقدير قادر حكيم رتب الأبنية وعدل الأمزجة على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ هذا المبلغ ، وقيل : إنه تعالى لما ذكر ما يعرض في الهرم من ضعف القوى والقدرة وانتفاء العلم ذكر أنه جل شأنه مستمر على العلم الكامل والقدرة الكاملة لا يتغيران بمرور الأزمان كما يتغير علم البشر وقدرتهم ،

ويفيد الاستمرار الجملة الاسمية ، والكمال صيغة فعيل ، وقدم صفة العلم لتجاوز انتفاء العلم عن المخاطبين مع أن تعلق صفة العلم بالشيء أول لتعلقه صفة القدرة به ، ولا يخفى عليك ما هو الأولى من الثلاثة فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(217/438)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ﴾

بيّن سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم ، فقال : مسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا آلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ أي : رسلاً ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطن أَعْمَالَهُمْ ﴾ الخبيثة ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ يحتمل أن يكون ليوم عبارة عن زمان الدنيا ، فيكون المعنى : فهو قرينهم في الدنيا ، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده ، فيكون للحال الآتية ، ويكون الوليّ بمعنى الناصر .

والمراد : نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لا يتصوّر منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة ، وإذا كان الناصر منحصراً فيه ، لزم أن لا نصرة من غيره .

ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين : الأوّل : أن يراد البعض الذي قد مضى ، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية ، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية .

الثاني : أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية .

والمراد : تزيين الشيطان لكفار قريش ، فيكون الضمير في ﴿ وليهم ﴾ لكفار قريش : أي فهو وليّ هؤلاء اليوم .

أو على حذف مضاف ، أي : فهو وليّ أمثال أولئك الأمم اليوم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الآخرة ، وهو عذاب النار .

(218/438)

ثم ذكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلاّ بعد إقامة الحجة عليهم وإزاحة العلة منهم ، فقال : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ الذى اختلفوا فِيهِ ﴾ وهذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالكتاب : القرآن ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال أي : ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ، ولا لعلة من العلل إلاّ لعلة التبيين لهم ، أي : للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد ، وأحوال البعث ، وسائر الأحكام الشرعية ، وانتصاب ﴿

هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين.

ولا حاجة إلى اللام، لأنهما فعلاً فاعل الفعل المعلل، بخلاف التبيين، فإنه فعل المخاطب، لا فعل المنزل ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله سبحانه، ويصدّقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده وتفرّده بالإلهية بذكر آياته العظام فقال: ﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ أي: من السحاب، أو من جهة العلو كما مرّ، أي: نوعاً من أنواع الماء ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي: أحياها بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الإنزال والإحياء ﴿ لآيَةً ﴾ أي: علامة دالة على وحدانيته، وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ كلام الله ويفهمون ما يتضمنه من العبر، ويتفكرون في خلق السموات والأرض.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لِعِبْرَةً ﴾ الأنعام هي: الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز.

والعبرة أصلها: تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة.

ومنه ﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ [الحشر: 2].

وقال أبو بكر الوارق: العبرة في الأنعام: تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، والظاهر أن العبرة هي قوله: ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة.

قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر "نسقيكم" بفتح النون، من سقى يسقي.

وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقي، قيل: هما لغتان.

قال لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى . . . نميراً والقبائل من هلال

وقرئ بالتاء الفوقية، على أن الضمير راجع إلى الأنعام.

وقرئ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الله سبحانه، وهما ضعيفتان.

وجميع القراء على القراءتين الأوليين، والفتح لغة قريش، والضم لغة حمير.

وقيل: إن بين سقى وأسقى فرقاً، فإذا كان الشراب من يد الساقي إلى فم المسقى فيقال: سقيته، وإن كان بمجرّد عرضه عليه وتهيئته له، قيل: أسقاه.

والضمير في قوله: ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ راجع إلى الأنعام.

قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد.

وقال الزجاج: لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث، فيقال: هو الأنعام، وهي الأنعام جاز عود الضمير بالتذكير.

وقال الكسائي: معناه: مما في بطون ما ذكرنا، فهو على هذا عائد إلى المذكور.

قال الفراء : وهو صواب .

وقال المبرد : هذا فاش في القرآن كثير ، مثل قوله للشمس ﴿ هذا ربى ﴾ [الأنعام : 78

] يعني : هذا الشيء الطالع .

وكذلك : ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل : 35] ، ثم قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ

﴾ [النمل : 36] ، ولم يقل : جاءت ؛ لأن المعنى جاء الشيء الذي ذكرنا .

انتهى ، ومن ذلك قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [المدثر : 54 ، 55]

ومثله قول الشاعر :

مثل الفراخ نتفت حواصله . . . ولم يقل : حواصلها .

وقول الآخر :

وطاب ألبان اللقاح وبرد . . . ولم يقل : وبردت .

(220/438)

وحكي عن الكسائي أن المعنى مما في بطون بعضه وهي الإناث ؛ لأن الذكور لا ألبان لها ،

وبه قال أبو عبيدة : وحكي عن الفراء أنه قال : النعم والأنعام واحد ، يذكر ويؤنث ، ولهذا

تقول العرب : هذه نعم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام .

وهو كقول الزجاج.

ورجحه ابن العربي فقال: إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة.

فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ الفرث: الزبل الذي ينزل إلى الكرش، فإذا خرج منه لم يسم فرثاً.

يقال: أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها.

والمعنى: أن الشيء الذي تأكله يكون منه ما في الكرش، وهو الفرث، ويكون منه الدم، فيكون أسفله فرثاً، وأعلاه دماً وأوسطه لبنا فيجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو ﴿ خَالِصًا ﴾ يعني: من حمرة الدم، وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحد ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي: لذيذاً هنيئاً، لا يغصّ به من شربه: يقال: ساغ الشراب، يسوغ سوغاً، أي: سهل مدخله في الحلق.

﴿ وَمِن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ قال ابن جرير: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون، فحذف "ما" ودلّ على حذفه قوله: ﴿ منه ﴾.

وقيل: هو معطوف على الأنعام، والتقدير: وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة.

ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ مما في بطونه ﴾ أي: نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل.

ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلّ عليه ما قبله ، تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل ، ويكون على هذا ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ بياناً للإسقاء وكشفاً عن حقيقته ، ويجوز أن يتعلق ب ﴿ تتخذون ﴾ ، تقديره : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ، ويكون تكرير الظرف ، وهو قوله منه للتأكيد كقولك زيد في الدار فيها ، وإنما ذكر الضمير في ﴿ منه ﴾ لأنه يعود إلى المذكور ، أو إلى المضاف المحذوف ، وهو العصير ، كأنه قيل : ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ، والسكر : ما يسكر من الخمر ، والرزق الحسن : جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالثمر والدبس والزبيب والخل .

وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر .

وقيل : إن السكر الخلّ بلغة الحبشة ، والرزق الحسن الطعام من الشجرتين .

وقيل : السكر : العصير الحلو الحلال ، وسمي سكراً ؛ لأنه قد يصير مسكراً إذا بقي ، فإذا بلغ الإسكار حرم .

والقول الأوّل أولى وعليه الجمهور ، وقد صرّح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر ، ولم يخالف في ذلك إلاّ أبو عبيدة ، فإنه قال : السكر : الطعم ، ومما يدل على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم . . . إذا جرى فيهم الهذي والسكر

ومما يدل على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده :

جعلت عيب الأكرمين سكرا . . . أي : جعلت ذمهم طعماً ، ورجح هذا ابن جرير فقال : إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف .

والمعنى واحد ، مثل ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ ﴾ [يوسف : 86] .

قال الزجاج : قول أبي عبيدة هذا لا يعرف ، وأهل التفسير على خلافه .

ولا حجة في البيت الذي أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس ، وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ .

(222/438)

قالوا : وإنما يمتنّ الله على عباده بما أحله لهم ، لا بما حرّمه عليهم ، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر .

اهـ .

﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لدلالة لمن يستعمل العقل ، ويعمل بما يقتضيه عند

النظر في الآيات التكوينية .

﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ قد تقدّم الكلام في الوحي ، وأنه يكون بمعنى الإلهام ، وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، ومنه قوله سبحانه :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 - 8] .

ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها ، وقرأ يحيى بن وثاب " إلى النحل " بفتح الحاء .

قال الزجاج : وسمي نحلاً ، لأن الله سبحانه نحله العسل الذي يخرج منه .

قال الجوهري : والنحل والنحلة : الدبر ، يقع على الذكر والأنثى ﴿ أَنِ اتخذى مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ أي : بأن اتخذي على أن "أن" هي المصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية ؛ لأن في الإيحاء معنى القول ، وأنث الضمير في اتخذي لكونه أحد الجائزين كما تقدّم ، أو للحمل على المعنى ، أو لكون النحل جمعاً .

وأهل الحجاز يؤنثون النحل "ومن" في ﴿ من الجبال بيوتاً ﴾ وكذا في ﴿ مّنَ الشجر ﴾ وكذا في ﴿ مّمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ للتبعيض ، أي : مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال ، وتجويف الشجر ، وفي العروش التي يعرشها بنو آدم من الأجناح والحيطان وغيرها .

وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب ، يقال : عرش يعرش بكسر الراء وضمها .

وبالضم قرأ ابن عامر وشعبة ، وقرأ الباقون بالكسر .

وقرىء أيضاً " بيوتاً " بكسر الباء وضمها .

(223/438)

﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثمرات ﴾ " من " للتبغيض ، لأنها تأكل النور من الأشجار ، فإذا أكلتها ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ أي : الطرق التي فهمك الله وعلمك ، وأضافها إلى الربّ لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها ، أي : ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر ، أو اسلكي ما أكلت في سبل ربك ، أي : في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور عسلاً ، أو إذا أكلت الثمار في الأمكنة البعيدة ، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك ، لا تضلين فيها ، وانتصاب ﴿ ذُلُلاً ﴾ على الحال من السبل ، وهي جمع ذلول ، أي : مذللة ، غير متوعرة ، واختار هذا : الزجاج وابن جرير .

وقيل : حال من النحل ، يعني : مطيعة للتسخير ، وإخراج العسل من بطونها ، واختار هذا ابن قتيبة .

وجملة ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ مستأنفة عدل به عن خطاب النحل ، تعديداً للنعم ، وتعجيباً لكل سامع ، وتنبيهاً على الغير ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا

الحيوان الشبيه بالذباب .

والمراد : بالشراب هو العسل ، ومعنى ﴿ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَانُهُ ﴾ أن بعضه أبيض ، وبعضه أحمر ، وبعضه أزرق ، وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألونها ومأكولاتها .

وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل .

وقيل : من أسفلها .

وقيل : لا يدري من أين يخرج منها ، والضمير في قوله : ﴿ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ ﴾ راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل ، وهو العسل ، وإلى هذا ذهب الجمهور .

وقال الفراء ، وابن كيسان ، وجماعة من السلف : إن الضمير راجع إلى القرآن ، ويكون التقدير : فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين .

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء ، أو خاص ببعض الأمراض ؟ فقالت طائفة : هو على العموم ، وقالت طائفة : إن ذلك خاص ببعض الأمراض .

ويدل على هذا أن العسل نكرة في سياق الإثبات فلا يكون عاماً ، وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلاّ على أن فيه شفاءً عظيماً لمرض أو أمراض ، لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم ، والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب ، أنه إذا استعمل منفرداً ، كان دواء لأمراض خاصة وإن خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها ، كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض .

وبالجملة فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية ، وقليلاً ما يجتمع هذان الأمران في غيره ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من أمر النحل ﴿ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : يعملون أفكارهم عند النظر في صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته .

فإن أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وأبو داود في ناسخه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه ، وابن مردويه عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ قال : السكر ما حرم من ثمرتهما ، والرزق الحسن ما حلّ .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه قال : السكر : الحرام ، والرزق الحسن : زبيبه وخله وعنبه ومنافعه .

وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : السكر : النبيذ ،

والرزق الحسن : الزبيب .

فنسختها هذه الآية ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ [المائدة : 90] .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عنه أيضاً في الآية قال : فحرّم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه ، ثم قال : ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ فهو الحلال من الخلّ والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك ، فأقرّه الله وجعله حلالاً للمسلمين .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر ، فقال : الخمر بعينها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن مسعود قال : السكر : خمر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ قال : ألهمها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبّكِ ذُلُلاً ﴾ قال : طرقاً لا يتوعر عليها مكان سلكته .

وأخرج عبد الرازق ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة ﴿ ذللاً ﴾ قال : مطيعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال: ذليلة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ قال: العسل.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هو العسل فيه الشفاء، وفي القرآن.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن ابن مسعود قال: إن العسل شفاء من كل داء.

والقرآن شفاء لما في الصدور.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن.

وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن السني، وأبو نعيم، والخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن"

(226/438)

وقد وردت أحاديث في كون العسل شفاء: منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة

عسل، أو كية بنار، وأنا أنهي أمتي عن الكيّ" وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد : "أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله : إن أخي استطلق بطنه، فقال: "اسقه عسلاً" فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: سقيته عسلاً، فما زاده إلاّ استطلاقاً، قال "إذهب فاسقه عسلاً" فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلاّ استطلاقاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً"، فذهب فسقاه عسلاً فبرأ. انتهى انتهى. اهـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(227/438)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ .

المراد بالإيحاء هنا : الإلهام. والعرب تطلق الإيحاء على الإعلام بالشيء في خفية. ولذا تطلقه على الإشارة، وعلى الكتابة، وعلى الإلهام. ولذلك قال تعالى: ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ أي ألهمها. وقال: ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً ﴾ [مريم : 11] الآية. أي أشار إليهم. وسمى أمره للأرض إيحاء في قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ

رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 4-5] ومن إطلاق الوحي على الكتابة قول لبيد في معلقته :-

فمدافع الريان عرى رسمها . . . خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

ف " الوحي " في البيت (بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء) جمع وحي بمعنى الكتبة .

وسيأتي لهذه المسألة إن شاء الله زيادة إيضاح.

قوله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ الله عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من الناس من يموت قبل بلوغ أرذل العمر ، ومنهم من يعمر حتى يرد إلى أرذل العمر . وأرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس ، ويختل فيه النطق والفكر ، وخص بالرذيلة لأن حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد . بخلاف حال الطفولة ، فإنها حاله ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء . وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله في سورة الحج . ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [الحج : 5] ، وقوله في الروم : ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ

جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: 54] الآية.

وأشار إلى ذلك أيضاً بقوله: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر: 11]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: 67].

وقال البخاري في صحيحه في الكلام على هذه الآية الكريمة: باب قوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر ﴾ [النحل: 70] حدثنا موسى بن إسماعيل، ، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شعيب، عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو "أعوذ بالله من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات" اه وعن علي رضي الله تعالى عنه: أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة وعن قتادة: تسعون سنة. والظاهر أنه لا تحديد له بالسنين. وإنما هو باعتبار تفاوت حال الأشخاص. فقد يكون ابن خمس وسبعين أضعف بدناً وعقلاً، واشد خرفاً – من آخر ابن تسعين سنة، وظاهر قول زهير في معلقته –:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش . . . ثمانين حولا لا أبالك يسأم

أن ابن الثمانين بالغ أرذل العمر ، ويدل له قول الآخر :

إن الثمانين وبلغتها . . . قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقوله : ﴿ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ أي يرد غلى أرذل العمر ، لأجل أن يزول ما كان يلم من العم أيام الشباب ، ويبقى لا يدري شيئاً . لذهاب إدراكه بسبب الخرف . ولله في ذلك حكمة .

وقال بعض العلماء : إن العلماء العاملين لا ينالهم هذا الخرف ، وضياع العلم والعقل ومن شدة الكبر . ويستروح لهذا المعنى من بعض التفسيرات في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [التين : 5-6] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(230/438)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ﴾

عَطْف عبرة على عبرة ومنّة على منّة .

وغُيِّر أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى ، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصّنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة ، كما أودع في الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شراباً ، وكان ما في بطون النّحْل وسطاً بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار ، فإن النّحل يمتصّ ما في الثمرات والأنوار من المواد السكّرية العسليّة ثم يخرجه عسلاً كما يَخْرج اللبن من خلاصة المرعى .

وفيه عبرة أخرى وهي أن أودع الله في ذبابة النحل إدراكاً لصنع محكم مضبوط منتج شراباً نافعاً لا يحتاج إلى حلب الحالب .

فافتتحت الجملة بفعل ﴿ أوْحى ﴾ دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة ﴿ والله أنزل ﴾ [سورة النحل : 65] ، لما في أوحى ﴾ من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيراً عجيباً وعملاً متقناً وهندسة في الجبلة .

فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى فضلاً على ما بعده من دلالة على قدرة الله تعالى ومنّة منه .

والوحي : الكلام الخفيّ والإشارة الدّالة على معنى كلاميّ .

ومنه سمّي ما يلقيه الملك إلى الرسول وَحْياً لأنه خفيّ عن أسماع الناس .

وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفيّ الذي أودعه الله في طبيعة النحل ، بحيث تنساق

إلى عمل منظّم مرتّب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها تشبيهاً للإلهام بكلام خفيّ يتضمّن ذلك الترتيب الشّبيه بعمل المتعلم بتعليم المُعلّم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر، الذي تلقّاه سرّاً، فإطلاق الوحي استعارة تمثيليّة.

(231/438)

و ﴿ النّحل ﴾ : اسم جنس جمعي، واحده نحلة، وهو ذباب له جرم بقدرِ ضعفي جرم الذّباب المتعارف، وأربعة أجنحة، ولون بطنه أسمر إلى الحمرة، وفي خرطومه شوكة دقيقة كالشوكة التي في ثمرة التين البربري (المسمى بالهندي) مختفية تحت خرطومه يلسع بها ما يخافه من الحيوان، فتسمّ الموضع سمّاً غير قوي، ولكن الذبابةَ إذا انفصلت شوكتُها تموت.

وهو ثلاثة أصناف: ذكر وأنثى وخنثى، فالذكور هي التي تحرس بيوتها ولذلك تكون محوّمة بالطيران والدّوي أمام البيت وهي تُلقح الإناث لقاحاً به تلد الإناث إناثاً.

والإناثُ هي المسمّاة اليعاسيب، وهي أضخم جرماً من الذكور.

ولا تكون التي تلد في البيوت إلا أنثى واحدة، وهي قد تلد بدون لقاح ذكر؛ ولكنّها في هذه الحالة لا تلد إلا ذكوراً فليس في أفراخها فائدة لإنتاج الوالدات.

وأما الخنثى فهي التي تفرز العسل ، وهي العواسل ، وهي أصغر جرماً من الذكور وهي معظم سكان بيت النّحل .

و﴿ أنْ ﴾ تفسيرية ، وهي ترشيح للاستعارة التمثيلية ، لأنّ ﴿ أنْ ﴾ التفسيريّة من روادف الأفعال الدالة على معنى القول دون حروفه .

واتّخاذ البيوت هو أوّل مراتب الصنع الدّقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل فإنها تبني بيوتاً بنظام دقيق ، ثم تقسم أجزاءَها أقساماً متساوية بأشكال مسدّسة الأضلاع بحيث لا يتخلّل بينها فراغ تنساب منه الحشرات ، لأن خصائص الأشكال المسدّسة إذا ضُمّ بعضها إلى بعض أن تتّصل فتصير كقطعة واحدة ، وما عداها من الأشكال من المثلّث إلى المعشّر إذا جمع كلّ واحد منها إلى أمثاله لم تتّصل وحصلت بينها فُرَج ، ثم تُغشي على سطوح المسدّسات بمادة الشمع ، وهو مادة دهنية متميّعة أقربُ إلى الجمود ، تتكوّن في كيس دقيق جداً تحت حلقة بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدّس المسمى بالشُهْد لتمنع تسرّب العسل منها .

ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفي في الاعتبار بها بالتّنبيه عليها والتذكير بها .

وأشير إلى أنها تتّخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العُرُش دون بيوت الحشرات الأخرى ، وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع ، وبما تشتمل عليه من دقائق الصّنعة ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى في ضدّها : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ [سورة العنكبوت : 41] .

وتقدم الكلام على الجبال عند قوله تعالى : ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ﴾ في سورة البقرة (260) .

و﴿ من ﴾ الداخلة على ﴿ الجبال ﴾ وما عطف عليها بمعنى (في) ، وأصلها ﴿ مِن ﴾ الابتدائية ، فالتعبير بها دون (في) الظرفية لأن النحل تبني لنفسها بيوتاً ولا تجعل بيوتَها جُحور الجِبال ولا أغصان الشجر ولا أعواد العريش وذلك كقوله تعالى : ﴿ واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى ﴾ [سورة البقرة : 125] .

وليست مثل (من) التي في قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ [سورة النحل : 81] .

وما يعرشون أي ما يجعلونه عروشاً ، جمع عَرش ، وهو مجلس مرتفع على الأرض في الحائط أو الحقل يتّخذ من أعواد ويسقف أعلاه بورق ونحوه ليكون له ظل فيجلس فيه صاحبه

مُشْرفاً على ما حوله .

يقال : عرش ، إذا بنى ورفع ، ومنه سمّي السرير الذي يَرتفع عن الأرض ليجلس عليه العظماء عَرشاً .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ في سورة الأنعام (141) ، وقوله تعالى : ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ في سورة الأعراف (137) .

وقرأ جمهور القراء بكسر راء ﴿ يعرشون ﴾ .

وقرأه ابن عامر بضمّها .

و ﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي ، لأن إلهام النحل للأكل من الثمرات يترّتب عليه تكوّن العسل في بطونها ، وذلك أعلى رتبة من اتخاذها البيوت لاختصاصها بالعسل دون غيرها من الحشرات التي تبني البيوت ، ولأنه أعظم فائدة للإنسان ، ولأن منه قوتها الذي به بقاؤها .

وسُمّي امتصاصها أكلاً لأنها تقتاته فليس هو بشرب .

و ﴿ الثمرات ﴾ : جمع ثمرة .

وأصل الثمرة ما تخرجه الشجرة من غلّة ، مثل التّمْر والعنب ؛ والنحل يُمتصّ من الأزهار

قبل أن تصير ثمرات ، فأطلق ﴿ الثمرات ﴾ في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الأول .

وعطفت جملة ﴿ فاسلكي ﴾ بفاء التفريع للإشارة إلى أن الله أودع في طبع النحل عند الرعي التنقّل من زهرة إلى زهرة ومن روضة إلى روضة ، وإذا لم تجد زهرة أبعدت الانتجاع ثم إذا شبعت قصدت المبادرة بالطيران عقب الشبع لترجع إلى بيوتها فتقذف من بطونها العسل الذي يفضل عن قوتها ، فذلك السلوك مفرع على طبيعة أكلها .

وبيان ذلك أن للأزهار وللثمار غدداً دقيقة تفرز سائلاً سكرياً تمتصّه النحل وتملأ به ما هو كالحواصل في بطونها وهو يزداد حلاوة في بطون النحل باختلاطه بمواد كيميائية مودعة في بطون النحل ، فإذا راحت من مرعاها إلى بيوتها أخرجت من أفواهها ما حصل في بطونها بعد أن أخذ منه جسمها ما يحتاجه لقوته ، وذلك يشبه اجترار الحيوان المجترّ .

فذلك هو العسل .

والعسل حين القذف به في خلايا الشَهد يكون مائعاً رقيقاً ، ثم يأخذ في جفاف ما فيه من رطوبة مياه الأزهار بسبب حرارة الشمع المركّب منه الشهد وحرارة بيت النحل حتى يصير خاثراً ، ويكون أبيض في الربيع وأسمر في الصيف .

والسلوك : المرور وسط الشيء من طريق ونحوه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ في سورة الحجر (12) .

ويستعمل في الأكثر متعدّياً كما في آية الحِجر بمعنى أسلكه، وقاصراً بمعنى مَرّ كما هنا، لأن السّبل لا تصلح لأن تكون مفعول (سلك) المتعدي، فانتصاب ﴿ سبل ﴾ هنا على نزع الخافض توسعاً.

وإضافة السبل إلى ﴿ ربك ﴾ للإشارة إلى أن النحل مسخّرة لسلوك تلك السبل لا يَعدلها عنها شيء، لأنها لَوْلَمْ تسلكها لاختلّ نظام إفراز العسل منها.

و﴿ ذللاً ﴾ جمع ذلول، أي مذلّلة مسخّرة لذلك السلوك.

وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ ذلول تثير الأرض ﴾ في سورة البقرة (71).

وجملة يخرج من بطونها شراب ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأن ما تقدم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب، فيكون مضمون جملة ﴿ يخرج من بطونها شراب ﴾ بياناً لما سأل عنه.

وهو أيضاً موضع المنّة كما كان تمام العبرة.

وجيء بالفعل المضارع للدّلالة على تجدّد الخروج وتكرّره.

وعبّر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومىء إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به

وهو محل المنّة ، وليرتب عليه جملة ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ .

وسمّي شرابا ً لأنه مائع يشرب شرباً ولا يمضغ .

وقد تقدم ذكر الشراب في قوله تعالى : ﴿ لكم منه شراب ﴾ في أوائل هذه السورة [النحل : 10] .

ووصفه بـ ﴿ مختلف ألوانه ﴾ لأن له مدخلاً في العبرة ، كقوله تعالى : ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ [سورة الرعد : 4] ، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة .

وفي العسل خواص كثيرة المنافع مبيّنة في علم الطب .

وجعل الشّفاء مظروفاً في العسل على وجه الظرفية المجازية .

وهي الملابسة للدلالة على تمكّن ملابسة الشفاء إياه ، وإيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطّرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة ، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل .

فالظرفية تصلح للدّلالة على تخلّف المظروف عن بعض أجزاء الظرف ، لأن الظرف يكون أوسع من المظروف غالباً .

شبه تخلّف المقارنة في بعض الأحوال بقلّة كمية المظروف عن سعة الظرف في بعض أحوال الظروف ومظروفاتها ، وبذلك يبقى تعريف الناس على عمومه ، وإنما التخلّف في بعض

الأحوال العارضة ، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل .

وتنكير شفاء ﴿ في سياق الإثبات لا يقتضي العموم فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء ، كما أن مفاد (في) من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال .

(235/438)

وعمومُ التعريف في قوله تعالى : ﴿ للناس ﴾ لا يقتضي العموم الشمولي لكل فرد فرد بل لفظ (الناس) عمومه بَدَلي .

والشفاء ثابت للعسل في أفراد الناس بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء .

وعلى هذا الاعتبار محمل ما جاء في الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري : أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ أخي استُطلق بطْنه ، فقال : اسقه عسلاً .

فذهب فسقاه عسلاً .

ثم جاء ، فقال : يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ؛ قال : اذهب فاسقه عسلاً ، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء ، فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً .

فقال رسول الله : " صدَق الله وكذبَ بطْن أخيك ؛ فذهب فسقاه عسلاً فبرىء " .

إذ المعنى أن الشفاء الذي أخبر الله عنه بوجوده في العسل ثابت ، وأن مزاج أخي السائل لم يحْصل فيه معارض ذلك ، كما دلّ عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم إيّاه أن يسقيه العسل ، فإن خبره يتضمّن أن العسل بالنسبة إليه باقٍ على ما جعل الله فيه من الشفاء .

ومن لطيف النّوادر ما في "الكشاف" : أن من تأويلات الروافض أن المراد بالنحل في الآية عليّ وآله .

وعن بعضهم أنه قال عند المهدي : إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم ، فقال له رجل : جعَل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم ، فضحك المهدي وحدّث به المنصور فاتّخذوه أضحوكة من أضاحيكهم .

قلت : الرجل الذي أجاب الرافضي هو بَشّار بن برد .

وهذه القصّة مذكورة في أخبار بشّار .

وجملة ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ مثل الجملتين المماثلتين لها .

وهو تكرير لتعداد الاستدلال ، واختير وصف التفكّر هنا لأن الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق ، ونظر عميق .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) ﴾

انتقال من الاستدلال بدقائق صنع الله على وحدانيته إلى الاستدلال بتصرّفه في الخلق التصرّفَ الغالب لهم الذي لا يستطيعون دفعهُ ، على انفراده بربوبيّتهم ، وعلى عظيم قدرته .

كما دلّ عليه تذييلها بجملة ﴿ إن الله عليم قدير ﴾ فهو خَلقهم بدون اختيار منهم ثم يتوفّاهم كَرهاً عليهم أو يردّهم إلى حالة يكرهونها فلا يستطيعون ردّاً لذلك ولا خلاصاً منه ، وبذلك يتحقّق معنى العبودية بأوضح مظهر .

وابتدئت الجملة باسم الجلالة للغرض الذي شرحناه عند قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ [سورة النحل : 65] .

وأما إعادة اسم الجلالة هنا دون الإضمار فلأن مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسمَ المستدلّ بفتح الدال على إثبات صفاته تصريحاً واضحاً .

وجيء بالمسند فعلياً لإفادة تخصيص المسند إليه بالمسند الفعلي في الإثبات ، نحو : أنا سعيت في حاجتك .

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ .

فهذه عبرة وهي أيضاً منّة ، لأن الخلق وهو الإيجاد نعمة لشرف الوجود والإنسانية ، وفي

التوفّي أيضاً نعم على المتوفّى لأن به تندفع آلام الهَرم ، ونعم على نوعه إذ به ينتظم حال أفراد النوع الباقين بعد ذهاب من قبلهم ، هذا كلّه بحسب الغالب فرداً ونوعاً ، والله يخصّ بنعمته وبمقدارها من يشاء .

ولما قوبل "ثم توفّاكم" بقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ علم أن المعنى ثم يتوفّاكم في إبان الوفاة ، وهو السنّ المعتادة الغالبة لأن الوصول إلى أرذل العمر نادر .

والأرذل : تفضيل في الرذالة ، وهي الرداءة في صفات الاستياء .

و ﴿ العمر ﴾ : مدة البقاء في الحياة ، لأنه مشتقّ من العَمْر ، وهو شغل المكان ، أي عَمر الأرض ، قال تعالى : ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها ﴾ [سورة الروم : 9] .

فإضافة ﴿ أرذل ﴾ إلى ﴿ العمر ﴾ التي هي من إضافة الصّفة إلى الموصوف على طريقة المجاز العقلي ، لأن الموصوف بالأرذل حقيقة هو حال الإنسان في عمره لا نفسُ العُمر .

فأرذل العمر هو حال هرم البدن وضعف العقل ، وهو حال في مدة العمر .

وأما نفس مدّة العمر فهي هي لا توصف برذالة ولا شرف .

والهرم لا ينضبط حصوله بعدد من السنين، لأنه يختلف باختلاف الأبدان والبلدان والصحة والاعتلال على تفاوت الأمزجة المعتدلة، وهذه الرذالة رذالة في الصحّة لا تعلّق لها بحالة النفس، فهي مما يعرض للمسلم والكافر فتسمّى أرذل العمر فيهما، وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر.

ولام التعليل الداخلة على (كي) المصدرية مستعملة في معنى الصيرورة والعاقبة تشبيهاً للصيرورة بالعلّة استعارة تشير إلى أنه لا غاية للمرء في ذلك التعمير تعريضاً بالناس، إذ يرغبون في طول الحياة؛ وتنبيهاً على وجوب الإقصار من تلك الرغبة، كأنه قيل: منكم من يردّ إلى أرذل العمر ليصير غير قابل لعلم ما لم يعلمه لأنه يبطىء قبولُه للعلم.

وربّما لم يتصوّر ما يتلقاه ثم يسْرع إليه النسيان.

والإنسان يكره حالة انحطاط علمه لأنه يصير شبيهاً بالعجماوات.

واستعارة حرف العلّة إلى معنى العاقبة مستعملة في الكلام البليغ في مقام التوبيخ أو التخطئة أو نحو ذلك.

وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ في سورة آل عمران: (178).

وقد تقدّم القول قريباً في ذلك عند قوله تعالى: ﴿ إذا فريق منكم بربّهم يشركون ليكفروا بما ءاتيناهم ﴾ في هذه السورة (55).

وتنكير ﴿ علم ﴾ تنكير الجنس .

والمعنى : لكيلا يعلم شيئاً بعد أن كان له علم ، أي ليزول منه قبول العلم .

(238/438)

وجملة ﴿ إن الله عليم قدير ﴾ تذييل تنبيهاً على أن المقصود من الجملة الدلالة على عظم قدرة الله وعظم علمه .

وقدم وصف العليم لأن القدرة تتعلّق على وفق العلم ، وبمقدار سعة العلم يكون عظم القدرة ، فضعيف القدرة يناله تعب من قوة علمه لأن همّته تدعوه إلى ما ليس بالنائل ، كما قال أبو الطيّب:

وإذا كانت النفوس كبارا . . .

تعبت في مرادها الأجسام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(239/438)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ﴾

النحل خَلْق من خَلْق الله ، وكل خَلْق لله أودع الله فيه وفي غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 2-3] .

أي : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حَسْب ما يتناسب مع طبيعته ؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف . . فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حَدِّ التُّخْمة ، ثم بعد ذلك يشتكي مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإنْ أجبرته على الأكل ؛ ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للغريزة في الحيوان بالحمار الذي يتهمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سُقْتَه ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة . . فإذا ما وجدها في مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع ولم يُقدِم عليها ، وإنْ ضربتَه وصِحْتَ به . . فلا تستطيع أبداً إجباره على شيء فوق قدرته .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التي جعلها الله سبحانه فيه ، على خلاف الإنسان الذي يفكر في مثل هذه الأمور ليختار منها ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ،

فنستطيع أن نُشبِّه هذه الغريزة في الحيوان بالعقل الإلكتروني الذي لا يعطيك إلا ما غذَّيته به من معلومات . . أما العقل البشري الرباني فهو قادر على التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل . . . ﴾ [النحل : 68] .

(240/438)

الحق تبارك وتعالى قد يمتنّ على بعض عبادة ويُعلّمهم لغة الطير والحيوان ، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما في قصة سليمان عليه السلام . . والله سبحانه الذي خلقها وأبدعها يُوحِي إليها ما يشاء . . فما هو الوحي ؟

الوحي : إعلام من مُعْلِم أعلى لمُعْلَم أدنى بطريق خفيّ لا نعلمه نحن ، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وَحْياً .

فالوَحْي إذن يقتضي : مُوحِياً وهو الأعلى ، ومُوحَىً إليه وهو الأَدْنَى ، ومُوحًى به وهو المعنى المراد من الوَحْي .

والحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة في أنْ يُوحي ما يشاء لما يشاء من خَلْقه . . وقد

أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجماد في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 1-5] .

أعلمها بطريق خفيّ خاص بقدرة الخالق في مخلوقه .

وهنا أوحى الله إلى النحل .

وأوحى الله إلى الملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الذين آمَنُوا . . . ﴾ [الأنفال : 12] .

وأوحى إلى الرسل : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ . . . ﴾

[النساء : 163] .

وأوحى إلى المقربين من عباده : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي . . ﴾ [المائدة : 111] .

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم

وأوحى سبحانه إلى أم موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . ﴾ [القصص : 7] .

هذا هو وَحْي الله إلى ما يشاء من خَلْقه : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقرّبين ، إلى أم موسى ، إلى النحل . . الخ .

وقد يكون الوحي من غيره سبحانه ، ويُسمَّى وَحْياً أيضاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ . . ﴾ [الأنعام : 121] .

وقوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . ﴾ [الأنعام : 112] .

لكن إذا أُطلِقَتْ كلمة (الوَحْي) مُطْلقاً بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحي من الله إلى الرسل ؛ لذلك يقول علماء الفقه : الوحي هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتركون الأنواع الأخرى : وَحْي الغرائز ، وَحْي التكوين ، وَحْي الفطرة . . الخ .

وقوله : ﴿ أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : 68] .

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القدم ، ومن هؤلاء باحث تتبّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصّل إلى أن النحل أول ما وُجِد عاش في الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التي صنعها له البشر ، وهي ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووجْه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن

الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصَّل إلى أن أقدمَ أنواع العسل ما وُجِد في كهوف الجبال ، وقد توَصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصّل إلى عمره . . وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

(242/438)

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفيّ لا نعلمه نحن ، وعملية الوحي تختلف باختلاف الموحِي والموحَي إليه ، ويمكن أنْ نُمثّل هذه العملية بالخادم الفَطِن الذي ينظر إليه سيده مُجرد نظرة فيفهم منها كل شيء : أهو يريد الشراب ؟ أم يريد الطعام ؟ أم يريد كذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾

عِلّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكلَ النحل من كُلِّ الثمرات ذلك لأن تنوُّع الثمرات يجعل العسل غنيّاً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء في الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث؟ نرى بعض الناس يقول: أكلتُ كثيراً من العسل، ولم أشعر له بفائدة . . نقول: لأننا تدخّلنا في هذه العملية، وأفسدنا الطبيعة التي خلقها الله لنا . . فالأصل أن نتركَ النحل يأكل من كُلّ الثمرات . . ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزّهْر والنوار الطبيعي، ولذلك تغيّر طعم العسل، ولم تَعُدْ له مَيْزته التي ذكرها القرآن الكريم .

لذلك؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً في سعره بين نوع وآخر، ذلك حَسْب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التي حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول:

﴿ فاسلكي سُبُلَ رَبّكِ ذُلُلاً . . ﴾ [النحل: 69] .

أي: تنقّلي حُرّة بين الأزهار هنا وهناك؛ ولذلك لا نستطيع أنْ نَبني للنحل بيوتاً يقيم فيها، لا بُدّ له من التنقُّل من بستان لآخر، فإذا ما جَفَّتْ الزراعات يتغذّى النحل من عسله، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئاً، ويضعون مكانه السكر ليتغذّى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى: ﴿ ذُلُلاً . . ﴾ [النحل: 69] .

أي : مُذلَّلة مُمهّدة طيِّعة ، فتخرج النحل تسعى في هذه السُّبل ، فلا يردها شيء ، ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيت شجرة مثلاً رَدَّتْ نحلة ؟ ! .

. لا . . قد ذلَّلَ الله لها حياتها ويسَّرها .

ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّلَ لنا سُبُل الحياة . . وذلَّل لنا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها . . فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبي الصغير ، ويتحكَّم فيه يُنيخه ، ويُحمّله الأثقال ، ويسير به كما أراد ، في حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه . . وما تحكَّم فيه الصبي الصغير بقوته ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صِغَر حجمه يمثّل خطراً يفزع منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذلّله لنا ، فأفزعنا على صِغَر حجمه . . كذلك لو تأملنا البرغوث مثلاً . . كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقضّ مضاجعنا ، ويحرمنا لذة النوم في هدوء . . فهل يستطيع أحدٌ أنْ يُذلِّل له البرغوث ؟ !

وفي ذلك حكمة بالغة وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذللتُ لكم شيئاً ، ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإن لم أذلِّله لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً . . إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خُذْها كما خلقها الله لك .

﴿ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا . . ﴾ [النحل : 69] .

ذلك أن النحلة تمتصّ الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم في بطنها عملية طَهْي ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهْداً مُصفًّى ؛ لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تتقيؤه كما هو .

. فلم يَقُلْ القرآن : من أفواهها ، بل قال : من بطونها . . هذا المعمل الإلهي الذي يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

﴿ شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ . . ﴾ [النحل : 69] .

(244/438)

ما دام النحل يأكل من كُلّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءاتٌ مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طُعومها وروائحها . . إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

﴿ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ . . . ﴾ [النحل : 69] .

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزاهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجْرون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعي كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخّل الإنسان في غذاء النحل بقيت فيه فائدة، وبقيت فيه صفة الشفاء، وأهمها امتصاص المائية من الجسم، وأيّ ميكروب تريد أنْ تقضيَ عليه قم بامتصاص المائية منه يموت فوراً.

فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعي الذي خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء، ولكنه إذا تدخّل الإنسان في هذه العملية أفسدها.. فالكون كله الذي لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيْراً مستقيماً لا يتخلَّف، كالشمس والقمر والكواكب.. الخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذي يخرج عن منهج الله.

فالشيء الذي لك دَخْلٌ فيه، إما أنْ تتدخل فيه بمنهج خالقه أو تتركه؛ لأنك إذا تدخلْتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير، وإنْ تدخلْتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: 11].

إنهم لا يعرفون.. لا يُفرّقون بين الفساد والصلاح.

وفي القرآن أمثلة للناس الذين يُفسِدون في الأرض ويحسَبون أنهم يُحسِنون صُنْعاً، يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف: 103-104].

فالذي اخترع السيارة وهذه الآلات التي تنفث سمومها وتُلوّث البيئة التي خلقها الله . . صحيح وفَّر لنا الوقت والمجهود في الحمل والتنقُّل، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عَطَب بسبب هذه الآلات . . انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان . كان يجب على مخترع هذه الآلات أنْ يوازنَ بين ما تؤديه من منفعة وما تُسبِّبه من ضرر، وأضاف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مُروّعة تزهق بسببها الأرواح . . وبالله هل رأيت أن تصادمَ جملان في يوم من الأيام . . فلا بُدَّ إذن أن نقيسَ المنافع والأضرار قبل أنْ نُقدِم على الشيء حتى لا نُفسد الطبيعة التي خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ . . . . ﴾ [النحل : 69] .

الناس : جَمْعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب الداءات، فكيف يكون هذا الشراب شفاءً لجميع الداءات على اختلاف أنواعها ؟ . . نقول : لأن هذا الشراب الذي أعدَّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه . . من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر . . ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس، وتنوّع الداءات عندهم . . وكأن كل عنصر منه يُداوِي داءً من هذه الدّاءات .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 69] . التفكّر : أنْ تُفكّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده ، وبذلك تُثري المعلومات ؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحي ، وإذا أُصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء ؛ لأن الارتقاءات التي نراها في الكون هي نتيجة التفكُّر وإعمال العقل .

(246/438)

لذلك فالحق سبحانه يُنبّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألا نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار . . يقول تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

ففي الآية حَثٌّ على التفكّر في ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذي اخترع الآلة البخارية . . كيف توصل إلى هذا الاختراع الذي أفاد البشرية ؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القِدْر الذي يغلي على النار يرتفع غطاؤه مع بخار

الماء المتصاعد أثناء الغليان . . فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء ؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصَّل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة في تسيير ودفع العربات .

وكذلك أرشميدس وغيره كثيرون توصلوا بالاعتبار والتفكُّر في ظواهر الكون ، إلى قوانين في الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة تتمتع نحن بها الآن ، فالذي اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان في حَمْل الأثقال ؟ وما أقصى ما يمكن أنْ يحمله ؟ فبعد أنْ اخترعوا العجلات واستُخدِمت في الحمل تمكّن الإنسان من حَمْل وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذي اخترع خزانات المياه . . كم كانت المشقة في استخراج الماء من البئر ؟ أو من النهر ؟ فبعد عمل الخزانات وضَخِّ المياه أصبحنا نجد الماء في المنازل بمجرد فَتْح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبَّر ، وحينما يُفكِّر في ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التي خلقها الله وحثَّنا على التفكُّر فيها والاستنباط منها . . وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإنْ أردتم ترفَ الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدّبر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لَفْتةً أخرى . . وهي أنه سبحانه يجعل من المحسّات ما يُقرّب لنا المعنويّات ليلفتنا إلى منهجه سبحانه ؛ ولذلك ينقلنا هذه النَّقْلة من المحسوس إلى المعنوي ، فيقول تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ . . . ﴾ .

قوله : ﴿ والله خَلَقَكُمْ . . ﴾ [النحل : 70] .

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يَدّعِها أحدٌ لنفسه ، وقد أمدّكم بمقوِّمات حياتكم في الأرض والنبات والحيوان ، والأنعام التي تعطينا اللبن صافياً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذي فيه شفاء للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مُقوِّمات الحياة ، وأعطانا ما يُزيل معاطبَ الحياة . . وما دُمْتم صدَّقتم بهذه المحسَّات فاسمعوا :

﴿ والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر . . . ﴾ [النحل : 70] .

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعترف أن الله خلقنا ، ولكنْ كيف خلقنا ؟ هذه لا نعرفها نحن ؛ لأنها ليستْ عملية معملية . . فالذين خلق هو الحق سبحانه وحده ، وهو الذي يُخبرنا كيف خلق . . أما أنْ يتدخّل الإنسان ويُقحِمَ نفسه في مسألة لا يعرفُها ، فنرى مَنْ يقول إن الإنسان أَصلْه قرد . . إلى آخر هذا الهُراء الذي لا أَصْلَ له في الحقيقة .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول لنا : إذا أردتُمْ أن تعرفوا كيف خُلِقْتُم فاسمعوا مِمَّنْ خلقكم .

. إياكم أنْ تسمعوا من غيره؛ ذلك لأنني : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : 51] .

هذه عملية لم يُطلع الله عليها أحداً : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

أي : ما اتخذتُ مساعداً يعاونني في مسألة الخَلْق .

وما هو المضلّ؟ المضِلّ هو الذي يقول لك الكلام على أنه حقيقة، وهو يُضلُّك .

(248/438)

إذن : ربنا سبحانه وتعالى هنا يعطينا فكرة مُقدّماً : احذروا، فسوف يأتي أناس يُضلونكم في موضوع الخَلْق، وسوف يُغيّرون الحقيقة، فإياكم أنْ تُصدِّقوهم؛ لأنهم ما كانوا معي وقت أنْ خلقتكم فيدَّعُون العلم بهذه المسألة .

ونفس هذه القضية في مسألة خَلْق السموات والأرض، فالله سبحانه هو الذي خلقهما، وهو سبحانه الذي يُخبرنا كيف خلق .

فحين يقول سبحانه :

﴿ والله خَلَقَكُمْ . . ﴾ [النحل : 70] .

فعلينا أن نقول : سَمْعاً وطاعة ، وعلى العين والرأس . . يا ربِّ أنت خلقتنا ، وأنت تعلم كيف خلقتنا ، ولا نسأل في هذا غيرك ، ولا نُصدِّق في هذا غير قَوْلك سبحانك .

ثم يقول تعالى :

﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ . . ﴾ [النحل : 70] .

أي : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع . . وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين ؛ فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين ؛ لأنه لا يليق بك ذلك ، فأنت منه وإليه . . فلماذا التمرد ؟

ربُّنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه في أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين في بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يرد إلى أرذل العمر ، أي : يعيش عمراً طويلاً . . وماذا في أرذل العمر ؟ ! يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أنْ كان يأمر وينهي ويسير على الأرض مُخْتالاً ، يُرَدُّ إلى الضَّعْف في كل شيء ، حتى في أَمْيز شيء في تكوينه ، في فكره ، فبعد العِلْم والحِفْظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شيء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتية فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضي علينا بالموت فهذا رحمة بنا وسِتْر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعينُنا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنّا نأمره .

ومن هنا كان التوفّي نعمة من نِعَم الله علينا ، ولكي تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدّ الله في أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن " أرذل العمر " وما يعانونه من ضعف وما يعانيه ذووهم في خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذي قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُسْتبشراً بالموت ؛ لأنه عمَّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذي لم يُعِدّ العُدّة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزِعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْف للعطف يفيد الترتيب مع التراخي . أي : مرور وقت بين الحدثين . . فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدَث الثاني (يتوفّاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أي : تتابع الحدثين ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس : 21] .

فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر . . . ﴾ [النحل : 70] .

وأرذل العمر : أردؤه وأقله وأخسّه ؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن

أمه لا يعلم شيئاً ، فقال : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . . ﴾ [النحل : 78] .

وهذه هي وسائل العلم في الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أرذل العمر فقدتْ هذه الحواسّ قدرتها ، وضَعُفَ عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخَرف والهرم ، فقد توقفتْ آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : ﴿ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً . . ﴾ [النحل : 70] .

لذلك يُسمُّون هذه الحواس الوارث .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : 70] .

(250/438)

لأنه سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلَّب عِلْماً ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ . . ﴾ [الملك : 14] .

فلا بُدَّ من عِلم ، لأن الذي يصنع صَنْعة لا بُدَّ أن يعرف ما يُصلحها وما يُفسِدها ، وذلك

يتطلَّب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (النحل : 70) ، وفي سورة الحج : (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) (الحج : 5) ، للسائل أن يسأل عن زيادة ((من)) في قوله : (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) وسقوطها من آية النحل مع اتحاد المعنى ، هل ذلك لسبب حامل يقتضي زيادتها هنا وسقوطها هناك ؟

والجواب : أن سبب ذلك – والله أعلم – التناسب وتشاكل النظم ومراعاة اللفظ ألا ترى إلى تكرر ((من)) في قوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج : 5) ، فقد تكررت لفظة ((من)) هذه في هذا الآية في ستة مواضع ، الخمسة منها قبل قوله : (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) والواحدة بعدها ، وكلها محرزة معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله : (من بعد) إذ النظم مع سقوطها (ملتئم) والمعنى تام ، فاستوى وجودها وعدمها ، فاستعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب في النظم ، ولم يكن في آية النحل ما يستدعيها إذ لم يرد ما يقتضيها ، فورد كل على ما يجب ويناسب ، ولا يمكن العكس والأولى في قوله : (من البعث) لابتداء الغاية وما بعدها للتبعيض إلا التي في قوله : (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ) فإنها زائدة رعياً للفظ لا النافية ، وإن كانت هنا مزيدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 302 ـ 303 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ قال : ألهمها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن قال : النحل دابة أصغر من الجندب ، ووحيه إليها قذف في قلوبها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ قال : ألهمها إلهاماً ، ولم يرسل إليها رسولاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ قال : أمرها أن تأكل من كل الثمرات ، وأمرها أن تتبع سبل ربها ذللاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فاسلكي سبل ربك ذللاً ﴾ قال : طرقاً لا يتوعر عليها مكان سلكته .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ فاسلكي سبل ربك ذللاً ﴾ قال : مطيعة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في الآية قال : الذلول الذي يقاد ويذهب به حيث أراد صاحبه . قال : فهم يخرجون بالنحل وينتجعون بها . ويذهبون وهي تتبعهم . وقرأ ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لهم مالكون وذللناها لهم ﴾ [يس : 71-72] الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ فاسلكي سبل ربك ذللاً ﴾ قال : ذليلة لذلك . وفي قوله : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ قال : هذا العسل ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ يقول : فيه شفاء الأوجاع التي شفاؤها فيه .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ يعني العسل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ قال : هو العسل فيه الشفاء ، وفي القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن العسل فيه شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن .

وأخرج ابن ماجه وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليكم بالشفاءين العسل والقرآن " .

وأخرج البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنا أنهي أمتي عن الكي " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه " أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن أخي استطلق بطنه ، فقال : " اسقه عسلاً " فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : ما زاده إلا استطلاقاً : قال : " اذهب فاسقه عسلاً " فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : ما زاده إلا استطلاقاً ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً " فذهب فسقاه فبرأ " .

وأخرج ابن ماجه وابن السني والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لعق العسل ثلاث غدوات كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء " .

وأخرج البيهقي في الشعب ، عن عامر بن مالك قال : بعثت إلى النبي صلى الله عليه وسلم

من وعك كان بي ألتمس منه دواء أو شفاء ، فبعث إليّ بعَكَّة من عسل .

وأخرج حميد بن زنجويه ، عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً حتى الدُّمَّل إذا كان به طلاه عسلاً ، فقلنا له : تداوي الدُّمَّل بالعسل ؟ فقال أليس يقول الله : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ .

(255/438)

وأخرج أحمد والنسائي ، عن معاوية بن خديج قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن كان في شيء شفاء ففي شرطة من محجم أو شربة من عسل أو كية بنار تصيب ألماً ، وما أحب أن أكتوى" .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن حشرم المجمري : أن ملاعب الأسنة عامر بن مالك بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله الدواء والشفاء من داء نزل به ؟ فبعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم بعسل أو بعكة من عسل .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن عمر وقال : مثل المؤمن كمثل النحلة تأكل طيبا وتضع طيباً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الزهري قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل النمل

والنحل .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل بلالٍ كمثل النحلة ، غدت تأكل من الحلو والمر ، ثم هو حلو كله " .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش وسوء الجوار وقطيعة الرحم ، ثم قال : إنما مثل المؤمن كمثل النحلة رتعت فأكلت طيباً ثم سقطت فلم تؤذ ولم تكسر " .

وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد الساعدي : أن النبي صلى الله عليه وسلم : نهى عن قتل النملة والنحلة والهدهد والصرد والضفدع .

وأخرج الخطيب في تاريخه ، عن أبي هريرة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد .

وأخرج أبو يعلى عن أنس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " عمر الذباب أربعون يوماً ، والذباب كله في النار ، إلا النحل " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف من طريق مجاهد ، عن عبيد بن عمير أو ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل الذباب في النار إلا النحل " وكان ينهى عن قتلها .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الذباب كلها في النار إلا النحل " .

وأخرج ابن جرير ، عن علي رضي الله عنه في قوله : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ قال : خمس وسبعون سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ الآية . أرذل العمر هو الخوف .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ، ثم قرأ ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن طاوس قال : إن العالم لا يخرف .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الملك بن عمير قال : كان يقال أن أبقى الناس عقولاً قراء القرآن .

وأخرج البخاري وابن مردويه ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو ، " أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا وفتنة الممات " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : كان دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم "

أعوذ بالله من دعاء لا يسمع ومن قلب لا يخشع ومن علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ، اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع . ومن الخيانة فإنها بئست البطانة . وأعوذ بك من الكسل والهرم والبخل والجبن ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر " .

وأخرج ابن مردويه ، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يدعو " اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المولود حتى يبلغ الحنث ما يعمل من حسنة أثبت لوالده أو لوالديه ، وإن عمل سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه ، فإذا بلغ الحنث وجرى عليه القلم أمر الملكان اللذان معه فحفظاه وسددا ، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام ، آمنه الله من البلايا الثلاثة : من الجنون والجذام والبرص ، فإذا بلغ الخمسين ضاعف الله حسناته ، فإذا بلغ ستين رزقه الله الانابة إليه فيما يحب ، فإذا بلغ سبعين أحبه أهل السماء ، فإذا بلغ تسعين سنة غفر الله ما تقدم من ذنبه

وما تأخر وشفعه في أهل بيته وكان اسمه عنده أسير الله في أرضه ، فإذا بلغ إلى أرذل العمر ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير ، وإن عمل سيئة لم تكتب عليه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(258/438)

فائدة

قال صاحب الأمثل :

(وأوحى ربّك إِلى النحل) !

انتقل الأسلوب القرآني بهاتين الآيتين من عرض النعم الإِلهية المختلفة وبيان أسرار الخليقة إِلى الحديث عن "النحل" وما يدره من منتوج (العسل) ورمز إِلى ذلك الالهام الخفي بالوحي الإِلهي إِلى النحل: (أن اتّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وممّا يعرشون) .

وفي الآية المباركة جملة تعبيرات تستدعي التوقف والدقّة :

1 . ما هو "الوحي"

"الوحي" في الأصل (كما يقول الراغب في مفرداته) بمعنى الإِشارة السريعة ،

ثمّ بمعنى الإِلقاء الخفى .

وقد جاءت كلمة "الوحي" في القرآن الكريم لترمز إلى عدّة أشياء ، ولكنّها بالنتيجة تعود لذلك المعنى ، منها :

وحي النّبوة: حيث نلاحظ وروده في القرآن بهذا المعنى كثيراً . كما في الآية (51) من سورة الشورى: (وما كان لبشر أن يكلّمه اللّه إلاّ وحياً . . .) .

ومنها : الوحي بمعنى "الإلهام" سواء كان الملهَم منتبهاً لذلك (كما في الإنسان (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) ، أو مع عدم انتباه المُلهم كالإلهام الغريزي (كما في النحل) وهو ما ورد في الآية مورد البحث .

ومن المعروف أنّ الوحي في هذا المورد يعني الأمر الغريزي والباعث الباطني الذي أودعه اللّه في الكائنات الحيّة .

ومنها : أنّ الوحي بمعنى الإشارة ، كما ورد في قصّة زكريا في الآية (11) من سورة مريم (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً) .

ومنها أيضاً : إيصال الرسالة بشكل خفي ، كما في الآيه (112) من سورة الأنعام (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) .

2 . هل يختص الإلهام الغريزي بالنحل ؟

وإذا كان وجود الغرائز (الإلهام الغريزي) غير منحصر بالنحل دون جميع الحيوانات ، فلماذا ورد ذكره في الآية في النحل خاصّة؟

والإجابة على السؤال تتّضح من خلال المقدمة التالية: إنّ الدراسة الدقيقة التي قام بها العلماء بخصوص حياة النحل، قد أثبتت أنّ هذه الحشرة العجيبة لها من التمدن والحياة الإجتماعية المدهشة ما يشبه لحد كبير الجانب التمدني عند
الإنسان وحياته الإجتماعية، من عدّة جهات.

وقد توصل العلماء اليوم لاكتشاف الكثير من أسرار حياة هذه الحشرة والتي أوصلتهم بقناعة تامة إلى توحيد الخالق والإذعان لربوبيته سبحانه وتعالى.

وأشار القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز بكلمة "الوحي" ليبيّن أنّ حياة النحل لا تقاس بحياة الأنعام، وليدفعنا للتعمق في عالم أسرار هذه الحشرة العجيبة، ولنتعرف من خلالها على عظمة وقدرة خالقها، ولعل "الوحي" هو التعبير الرمزي الذي اختصت به هذه الآية نسبة إلى الآيات السابقة.

3. المهمّة الأُولى في حياة النحل:

وأوّل مهمّة أمر بها النحل في هذه الآية هي: بناء البيت، ولعل ذلك إشارة إلى أن اتّخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأوّل للحياة، ومن ثمّ القيام ببقية الفعاليات، أو لعله

إشارة إلى ما في بيوت النحل من دقة ومتانة ، حيث أن بناء البيوت الشمعية والسداسية الأضلاع ، والتي كانت منذ ملايين السنين وفي أماكن متعددة ومختلفة ، قد يكون أعجب حتى من عمليه صنع العسل (1) .

فكيف تضع هذه المادة الشمعيه الخاصة ؟ وكيف تبني الخلايا السداسية بتلك الهندسة الدقيقة ؟ وبيوت النحل ذات هيئة وأبعاد محسوبة بدقة فائقة وذات زوايا متساوية تماماً ، ومواصفاتها تخلو من أية زيادة أو نقصان . .

فقد اقتضت الحكمة الربانية من جعل بيوت النحل في أفضل صورة وأحسن اختيار وأحكم طبيعة ، وسبحان الله خالق كل شيء .

---

(1) عرف لحد الآن (4500) نوعا من النحل الوحشي ، والعجيب أنها في حال واحدة من حيث: الهجرة ، بناء الخلايا ، المكان ، تناول رحيق الأزهار . انتهى انتهى . ا هـ أول جامعة ، الجزء الخامس .

---

4. أين مكان النحل :

وقد عينت الآية المباركة مكان بناء الخلايا في الجبال ، وبين الصخور وانعطافاتها المناسبة

، وبين أغصان الإشجار ، وأحيانا في البيوت التي يصنعها لها الإنسان .

ويستفاد من تعبير الآية أن خلايا النحل يجب أن تكون في نقطة مرتفعة من الجبل أو الشجرة أو البيوت الصناعية ليستفاد منها بشكل أحسن .

ويذكر القرآن الكريم في الآية التالية المهمة الثانية للنحل: (ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) .

"الذلل" : (جمع ذلول) بمعنى التسليم والإنقياد .

ووصف الطرق بالذلل لأنها قد عينت بدقة لتكون مسلمة ومنقادة للنحل في تنقله ، وسنشير إلى كيفية ذلك قريبا .

وأخيرا يعرض القرآن المهمة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة) : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) في طبيعة حياتها وما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء) ، وهو دليل على عظمة وقدرة الباري عزوجل .

وفي الآية جملة بحوث قيمة أخرى:

1 .مم يتكون العسل ؟

يمتص النحل بعض المواد السكرية الخاصة الموجودة في مياسم الأوراد ، ويقول خبراء النحل: إن عمل النحل في واقعه لا ينحصر بأخذ المادة السكرية فقط ، بل يتعدى ذلك في بعض الأحيان للإستفادة من بعض أجزاء الورود الأخرى ، وكذا الحال مع الأثمار ، وهو ما يشير إليه القرآن بقوله: (من كل الثمرات) .

وقد نقل قول عالم البيئة (مترلينك) بما يوضح التعبير القرآني بشكل أوضح: (لو قدر أن تفنى أنواع النحل ـ الوحشي والأهلي ـ فإن مائة ألف نوع من النباتات والثمار والأوراد ستفنى ، أي أن تمدننا سيفنى أيضا) (1) .

ذلك لأن دور النحل في نقل حبوب اللقاح من ذكر الأشجار إلى مياسم إناثها من الأهمية بحيث يجعل بعض العلماء يعتقدون أن ذلك أهم من إنتاج العسل نفسه .

والحقيقة أن ما يتناوله النحل من أنواع الثمار إنما هو بالقوة لا بالفعل ، ولهذا فهو يساهم في عملية تكوينها ، فما أشمل وأدق التعبير القرآني (من كل الثمرات) !

2 .السبل المذللة !

لقد توصل العلماء المتخصصون بدراسة حياة النحل إلى ما يلي: تخرج في كل صباح

مجموعة من النحل لمعرفة أماكن وجود الأوراد وتعيينها ، ثم تعود إلى الخلية لتخبر بقية النحل عن أماكن الورود والجهات التي ينبغي التوجه إليها ، ومقدار الفاصلة بين الورود والخلية .

ويستعمل النحل أحيانا لأجل تعيين طرق وصوله إلى الأوراد علامات خاصة كأن يشخص طبيعة الروائح المنتشرة على طول الطريق أو ما شابه ذلك ، وذلك لضمان عدم إضاعة الطريق ذهابا وإيابا .

ولعل عبارة (فاسلكي سبل ربك ذللا) إشارة لهذه الحركة .

---

1 . أول جامعة ، الجزء الخامس ، ص 55 .

---

3 . أين يصنع العسل ؟

ربما ، إلى الآن يوجد من يتصور بأن النحل يمتص رحيق الأوراد ويجمعه في فمه ثم يخزنه في الخلية ، وهذا خلاف الواقع ، فالنحلة تجمع الرحيق في حفر خاصة داخل بدنها يطلق عليها علميا اسم (الحوصلة) وهي بمثابة معامل مختبرات كيمياوية خاصة تقوم بعمليات تحويل وتغيير مختلفة لرحيق الأزهار ، حتى يصل إلى إنتاج العسل ، الذي تقوم النحلة

بإخراجه وجمعه في الخلية .

والمدهش أن سورة النحل مكية ، وكما هو معلوم بأن مكة منطقة جافة ليس فيها نحل لعدم توفر النباتات والأوراد التي يحتاجها ومع ذلك فالقرآن الكريم يتحدث بكل دقة عن النحل ويشير إلى أدق أعماله (إنتاج العسل) : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) .

4. ألوان العسل المختلفة

تتفاوت ألوان العسل وفقا لتنوع الأوراد التي يؤخذ رحيقها منها . . فيبدو أحيانا بلون البن القاتم ، وأحيانا أخرى يكون أصفر اللون ، أو أبيض فضي ، أو ليس له لون ، وتارة تراه شفافا ، وتارة أخرى ذهبي أو تمري وقد تراه مائلا إلى السواد !

ولهذا التفاوت في اللون حكمة بالغة قد تبينت أخيرا مفادها : إن للون الغذاء أثر بالغ في تحريك رغبة الإنسان إليه .

وهذه الحقيقة ما كانت خافية على القدماء أيضا ، فكانوا يعتنون بإظهار لون الغذاء المشهي لدرجة كانوا يضيفون إليه بعض المواد تحصيلا لما يريدون كإضافة الزعفران وما شابهه .

ولهذا الموضوع بحوث مفصلة في كتب التغذية لا يسمح لنا المجال بعرضها كاملة خوفا من الإبتعاد عن مجال التفسير .

5. العسل . . والشفاء من الأمراض:

كما نعلم بأن للنباتات والأوراد استعمالات علاجية فعالة لكثير من الأمراض ، ولا زلنا نجهل الكثير من فوائدها على الرغم من كثرة ما عرفناه ، والشيء المهم في موضوعنا ما توصل إليه العلماء من خلال تجاربهم التي أكدت على أن للنحل من المهارة بحيث أنه في علمية صنعه للعسل لم يبذر فيما تحويه النباتات والأوراد من خواص علاجية ، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل ويجعلها في العسل !

وقد صرح العلماء بكثير من تلك الخواص الوقائية والعلاجية والمقوية .

فالعسل: سريع الإمتصاص من قبل الدم ، ولهذا فهو غذاء مقو ومؤثر جدا في تكوين الدم .

والعسل: يقي المعدة والأمعاء من العفونة .

والعسل: رافع لليبوسة .

وهو علاج ضد الأرق (على أن لا يتناول الكثير منه ، لأن الإكثار منه يقلل النوم) .

وللعسل: أثر مهم في رفع التعب وتشنج العضلات .

والعسل: يقوي الشبكية العصبية للأطفال (إذا ما أطعمت الأم أثناء الحمل) .

ويرفع نسبة الكالسيوم في الدم .

ونافع لتقوية الجهاز الهضمي (وبالخصوص لمن أبتلي بنفخ البطن) .

وبما أنه سريع الإحتراق فهو يعمل على توليد الطاقة بسرعة فائقة بالإضافة لترميمه للقوى .

والعسل أيضا : مقو للقلب ، مساعد في علاج أمراض الرئة ، نافع للإسهال لخاصيته في قتل

المكروبات .

ويعتبر العسل عاملا مهما من عوامل معالجة قرحة المعدة والأثنى عشري .

وهو دواء نافع لعلاج الروماتيزم ، ونقصان قوة نمو العضلات ، ورفع الآلام العصبية .

وبالإضافة إلى ذلك فهو نافع في رفع السعال وعامل مهم لتصفية الصوت .

والخلاصة: إن خواص العسل العلاجية أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر .

ومع ذلك كله فإنه يدخل في صناعة الأدوية لتلطيف الجلد وللتجميل ، ويستعمل لطول العمر ، ولعلاج ورم الفم واللسان والعين ، ويستعمل أيضا لمعالجة الإرهاق ، وتشقق الجلد ، وما شابه ذلك .

أما المواد والفيتامينات الموجودة في العسل فكثيرة جدا . وفيه من المواد المعدنية: الحديد ، الفسفور ، البوتاسيوم ، اليود ، المغنيسيوم ، الرصاص ، النحاس ، السلفور ، النيكل ، الصوديوم وغيرها .

ومن المواد الآلية فيه: الصمغ ، حامض اللاكتيك ، حامض الفورميك ، حامض السيتريك والتاتاريك والدهون العطرية .

أما ما يحويه من الفيتامينات ، ففيه: فيتامينات (أ ، ب ، ث ، د ، ك)

(A , B , C , D , K) .

ويعتقد البعض باحتوائه على فيتامين (پ ب) (P B) أيضا .

وأخيرا : فالعسل علاج لصحة وجمال الإنسان .

وصرحت الروايات كذلك بخواص العسل العلاجية ، وورد الكثير عن أمير المؤمنين (عليه السلام) والإمام الصادق (عليه السلام) وبعض الأئمة المعصومين (عليهم السلام) من أنهم قالوا : "ما استشفى الناس بمثل العسل" (1) .

وبرواية أخرى: "لم يستشف مريض بمثل شربة عسل" (2) .

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: "من شرب العسل في كل شهر مرة يريد ما

---

1. وسائل الشيعة ، ج17 ، ص73 إلى 75 .

2. المصدر السابق .

جاء به القرآن ، عوفي من سبعة وسبعين داءا "(1) .

وثمة أحاديث أخرى حول أهمية العسل في علاج آلام البطن .

ونذكر أن لكل حكم عام أو قاعدة كلية استثناء ، ولهذا فقد ورد النهي عن تناول العسل في بعض الحالات النادرة .

6. (للناس) :

ومما يجذب النظر أن خبراء النحل يرون كفاية امتصاص وردتين أو ثلاث لسد جوع النحلة ، إلا أنها تحط على (250) وردة في كل ساعة (كمعدل) ولأجل ذلك تقطع مسافة كليومترات ، وعلى الرغم من قصر عمر النحلة ، إلا أنها تنتج كمية لا بأس بها من العسل ، وقد لا يصدق كثرة ما تنتجه قياسا لما تعيشه من عمر ، ولكن ما تقوم به من مثابرة وعمل دؤوب لا يعرف الكلل والملل قد هيأها لأن تقوم بهذا العمل الكبير العجيب .

وكل ذلك السعي وتلك المثابرة ليس في واقعه لملء بطنها بقدر ما عبر عنه القرآن الكريم بـ (للناس) .

7. ملاحظات مهمة بخصوص العسل:

أثبت العلم الحديث أن العسل من المواد الغذائية التي تبقى على الدوام طازجة وسالمة ومحافظة على كل ما تحويه في فيتامينات مهما طالت المدة لأنه من المواد غير القابلة للفساد .

ويعزو العلماء سبب ذلك لوجود نسبة البوتاسيوم الوافية فيه المانع من نمو الجراثيم ، بالإضافة لاحتوائه على بعض المواد المقاومة للعفونة كحامض الفورميك فمضافا لكون العسل مانع من نمو الجراثيم ، فهو قاتل لها أيضا ولهذا السبب فقد استعمله المصريون القدماء في عملية التحنيط .

---

1 . سفينة البحار ، ج2 ، ص190 .

ويقول العلماء : لا ينبغي حفظ العسل في أواني فلزية .

ويقول القرآن في هذا الجانب : (. . . من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) ، أي : إن بيوت النحل لا ينبغي أن تكون إلا بين الأحجار والأخشاب .

وملاحظة مهمة أخرى : للإستفادة من خواصه الصحية والعلاجية ينبغي عدم تعريضه لحرارة الطبخ . يعتقد البعض أن تعبير القرآن بكلمة "شراب" إشارة لهذه المسألة ، فهو من المشروبات وليس من المأكولات كي يعرض لحرارة الطبخ .

وثمة ملاحظة أخرى : على الرغم مما تسببه لسعة النحل من ألم ، إلا أن لهذا أثر علاجي أيضا ، ومع ذلك ونتيجة لطبع النحل اللطيف فإنه لا يلسع أحدا بلا سبب ، بل نحن ندفعه

إلى ذلك ونضطره ليلسعنا عن علم أو جهل .

ومن الأسباب التي تدفع النحل للسع الإنسان: عدم ارتياحه للروائح الكريهة ، وعندما يقترب الإنسان من الخلية لجني تاج النحل فهي لا تلسعه إلا إذا كانت يده ملوثة أو أن في لباسه رائحة كريهة ، أو عندما يمد الإنسان يده إلى خلية ما وبدون أن يغسل يده يمدها إلى خلية أخرى ، فإن نحل الثانية ستسرع في لسعه لأنه قد نقل إليها رائحة خلية أجنبية !

وعلى الرغم من أن اللسع يحمل أهدافا دفاعية ، إلا أنه بالنسبة للنحل يعني الانتحار لأنه بمجرد أن تقوم النحلة باللسع فإنها قد كتبت على نفسها مصير الموت !

وقد وضع العلماء المتخصصون برنامجا معينا لمعالجة الأمراض كالروماتيزم والملاريا والآلام العصبية وغيرها عن طريق لسعات النحل ، والا فإن لسع النحل قد يؤدي إلى آلام مؤذية تصل في بعض حالاتها إلى مخاطر كبيرة .

وقد يتحمل الإنسان لسعة أو عدة لسعات ، ولكن الأمر حينما يصل إلى (200 . 300) لسعة فإن ذلك سيؤدي إلى التسمم واضطرابات في القلب ، وإذا ما وصل العدد إلى (500) لسعة فسوف يؤدي إلى شلل الجهاز التنفسي ، وربما يؤدي إلى الموت .

8 . عجائب حياة النحل

كان القدماء يعرفون القدر اليسير عن حياة النحل ، أما اليوم ونتيجة لدراسات العلماء الواسعة فقد تبين أن للنحل حياة منظمة جدا ويتخللها : تقسيم أعمال ، توزيع مسؤوليات

وبرنامج عمل دقيق جدا .

ومدينة النحل: أكثر المدن نظافة ، وأكثرها نظاما ، كلها عمل . . إنها مدينة على خلاف كل مدن البشر ، فليس فيها بطالة ولا فقر ، والكل يعيش حياة تمدن جميل . . . وكل أفراد المدينة يخضعون لقوانينها ولا ترى مخالفا للضوابط القانونية ولا مقصرا في عمله إلا ما ندر ، وإذا ما حدث ذلك كأن تذهب إحدى النحلات إلى وردة كريهة الرائحة وتمتص رحيقها ، فإنها ستخضع للتفتيش عند أعتاب المدينة ثم تحاكم في محكمة صحراوية ، والإعدام بالموت هو المعروف عن ارتكاب مثل هذه الأخطاء !

يقول (مترلينك) عالم البيئة البلجيكي الذي أجرى العديد من الدراسات حول حياة النحل والنظام العجيب الذي يحكم مدنها : إن ملكة النحل (أو على الأصح أم الخلية) لا تعيش في مدينتها ، كما نتصور من سلطتها وإصدارها الأوامر ، بل هي كسائر أفراد هذه المدينة في إطاعتها للقواعد والأنظمة الكلية السائدة إننا لا نعلم كيف وضعت هذه القوانين والأنظمة ، وننتظر أن نفهم هذا الأمر يوما ما ، ونعرف واضع هذه المقررات ، إلا أننا نسميه مؤقتا (روح الخلية) ! !

إن الملكة تطيع روح الخلية شأنها شأن بقية الأفراد .

إننا لا نعلم أين توجد روح هذه الخلية ؟ وفي أي فرد من سكنة مدينة النحل قد حلت ؟

إلا أننا نعلم أن روح الخلية ليست شبيهة بغريزة الطيور ، ونعلم أيضا أن روح الخلية ليست عادة وإرادة عمياء تحكم عنصر ونوع النحل ، إن روح الخلية تقوم بتحديد وظيفة كل فرد من أفراد الخلية وفق استعداده ، وتوجه كل واحد منها نحو عمل معين .

إن روح الخلية تأمر النحل المهندس والبناء والعامل ببناء البيوت ، وهي التي تأمر سكنة المدينة جميعا بالهجرة منها في يوم معين وساعة معينة ، وتتجه نحو حوادث ومشاق غير معلومة من أجل تحصيل مسكن ومأوى جديد !

إننا لا نستطيع أن نفهم في أي مجمع شورى قد طرحت قوانين مدينة النحل التي وضعتها روح الخلية واتخذ قرارها بتنفيذها ، من يصدر الأمر بالحركة في اليوم المعين ؟

نعم ، إن في الخلية مقدمات هجرة من أجل إطاعة الإله الذي

بيده مصير النحل (1) .

إن العالم المذكور قد واجه الإبهام في فهم هذه المسألة ، لما علقت في ذهنه من ترسبات

الفكر المادي !

ولكننا نفهم بيسر من أين جاءت تلك القوانين والبرامج ؟ ومن الآمر بها ؟ وذلك من خلال الإستهداء بنور القرآن .

ما أجمل ما عبر عنه القرآن حين قوله: (وأوحى ربك إلى النحل) !

أو هل ثمة تعبير أوسع وأشمل وأنطق من هذا ؟ !

لم نذكر فيما قلناه عن النحل إلا النزر اليسير لأن منهج التفسير لا يسمع لذا بمواصلة هذا الموضوع (2) .

ونظن كفاية هذا القدر للمتفكر السائر نحو معرفة عظمة الله: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل جـ 8 صـ 237 . 248 ﴾

---

1 . تلخيص من كتاب (النحل) ، تأليف مترلينك .

2 . اعتمدنا في بحثنا عن النحل وخواص العسل على جملة كتب منها : أول جامعة وآخر نبي ، والنحل ، تأليف مترليتك ، وعجائب عالم الحيوانات .

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اتخذي ﴾ : يجوز أن تكونَ مفسِّرةً ، وأن تكون مصدريةً . واستشكل بعضُهم كونَها مفسرةً . قال : " لأنَّ الوَحْيَ هنا ليس فيه معنى القول ؛ إذ هو إلهامٌ لا قولَ فيه " . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ القولَ لكلِّ شيءٍ بحسَبِه .

والنَّحْلُ : يذكَّر ويؤنَّث على قاعدةِ أسماء الأجناس . والتأنيثُ فيه لغةُ الحجاز ، وعليها جاء ﴿ أَنِ اتخذي ﴾ . وقرأ ابن وثَّاب " النَحَل " فيُحتمل أن يكون لغةً مستقلةً ، وأن يكونَ إتباعاً .

و ﴿ مِنَ الجبال ﴾ " مِنْ " فيه للتبعيض ؛ إذ لا يتهيَّأُ لها ذلك في كلِّ جبلٍ ولا شجرٍ . وتقدَّم القولُ في " يَعْرِشُونَ " ، ومَنْ قرأ بالكسر والفتح في الأعراف .

﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذُلُلاً ﴾ : جمع ذَلُول . ويجوز أن تكونَ حالاً مِن السُّبُل ، أي : ذلَّلها اللهُ تعالى ، كقوله : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ [الملك : 15] ، وأن تكونَ حالاً مِنْ فاعلِ " اسْلُكي " ، أي : مطيعةً منقادةً . وفي التفسير المعنيان منقولان .

وانتصابُ "سُبُل" يجوز أن يكونَ على الظرفية، أي: فاسْلُكي ما أَكَلْتِ في سُبُلِ ربِّك، أي في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النَّوْر ونحوه عَسَلاً، وأن يكونَ مفعولاً به، أي: اسْلكي الطرقَ التي أَفْهَمَكِ وعلَّمَكِ في عَمَلِ العسل. و "مِنْ" في ﴿ من كُلِّ الثمرات ﴾ يجوزان تكونَ تبعيضيةً، وأن تكونَ للابتداء على معنى: أنها تأكُلُ شيئاً ينزل من السماء شِبْهَ التَّرَنْجَبِيْن على وَرَق الشجر وثمارِها، لا أنها تأكُلُ نَفْسَ الثمرات، وهو بعيدٌ جداً.

(269/438)

قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ التفاتٌ وإخبارٌ بذلك، ولو جاءَ على الكلام الأوَّل لقيل: مِنْ بطونِك. والهاء في / "فيه" تعودُ على "شَراب"، وهو الظاهرُ، وقيل: تعودُ على القرآن .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) ﴾

قوله تعالى: ﴿ لِكَيْ لاَ ﴾: في هذه اللامِ وجهان، أحدهما: أنها لامُ التعليل، و "كي" بعدها مصدريةٌ ليس إلا، وهي ناصبةٌ بنفسِها للفعلِ بعدَها، وهي ومنصوبُها في تأويلِ مصدرٍ مجرورٍ باللام، واللامُ متعلقةٌ ب "يُرَدُّ". وقال الحوفيُّ: "إنها لامُ كي، وكي للتأكيد

" وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ اللامَ للتعليلِ و " كي " مصدريةٌ لا إشعارَ لها بالتعليل والحالةُ هذه ، وأيضاً فعلمُها مختلفٌ .

الثاني : إنها لامُ الصَّيْرورةِ .

قوله : " شيئاً " يجوز فيه التنازع ؛ وذلك أنه تقدمه عامِلان : "يَعْلَمَ" و " عِلْمٍ" . فعلى رأيِ البصريين – وهو المختار – يكون منصوباً ب " عِلْم " ، وعلى رأيِ الكوفيين يكون منصوباً ب "يَعلم" . وهو مردودٌ ؛ إذ لو كان كذلك لأَضْمَرَ في الثاني ، فكان يُقال : لكيلا يعلمَ بعد عِلْمٍ إياه شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 262 . 264 ﴾

(270/438)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وحى)

الوَحْىُ : ما يقعُ به الإشارةُ القائمةُ مقامَ العِبارة من غير عبارَة ، فإِنَّ العِبارةَ يجوزُ منها إِلى المعنى المقصود بها ، ولذا سُمِيّت عِبارةً ، بخلاف الإِشارة الَّتى هى الوحى فإِنها ذاتُ المُشار إِليه ، والوَحْىُ هو المفهومُ الأَوّل ، والإِفهام الأَوّل ، ولا تعجب من أَن يكون عين الفهم

عين الإفهام عين المفهوم منه ، فإن لم تحصل لك هذه النكتة فلست بصاحب وَحْيٍ ، أَلا تَرى أَنَّ الوَحْيَ هو السُّرْعة ، ولا سُرْعَةَ أَسْرَعُ ممّا ذكرنا .

فهذا الضَّرب من الكلام يُسمَّى وَحْياً ، ولما كان بهذه المَثابة وأَنَّه تجَلٍّ ذاتّيّ ، لهذا ورد في الحديث الذي رَواه ابن حبّان في صحيحه وغيره "أَنَّ الله إذا تكَلَّم بالوَحْيِ سَمع أَهلُ السّماءِ صَلْصلَةً كجَرِّ السِلْسِلَة على الصّفاة فيَصْعقُون ، فلا يزالون كذلك حَتَّى يأْتيهم جبريل ، فإذا جاءَهم فُزِّع عن قُلُوبهم فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربُّك فيقولُ : الحَقّ : فيُنادُون الحقّ وهو العَلّي الكبير" [وما سَأَلت الملائكة] عن هذه الحقيقة [وإنما عن السبب من حيث هُوِيَّته .

فالوحي : ما يسرع أَثره من كلام الحق في نفس السّامع ، ولا يَعْرف هذا إلا العارِفُون بالشؤون الإلهيّةِ فإنّها عَيْنُ الوحي الإلهيّ في العالَم وهم لا يشعرون .

فافْهَم .

وقد يكون الوَحْيُ إسراع الروح الإلهيّ بالإيمان بما يقع به الإخبار والمفطور عليه كلُّ شيء ممّا لا كَسْبَ فيه من الوحي أيضاً ، كالمولود يَلْتقِمُ ثَدْيَ أُمّه ، ذلك من أثر الوحي الإلهيّ إليه كما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ فلولا

أنها فَهِمَت من الله وَحْيَه لما صدر منها ما صدَر ، ولهذا لا تُتَصورّ معه المخالفةُ إذا كان الكلامُ وَحْياً ، فإن سلطانَه أقوى من أن يُقاوَم ، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ، ولذا فعَلَت ولم تخالِف ، والحالة تُؤذن بالهلاك ولم تُخالف ولا تَرَدَّدت ، ولا حكَمت عليها البَشَرِيّة بأن هذا من أخطر الأشياءِ ، فدلَّ على أنَّ الوحيَ أقْوَى سلطاناً فى نفس المُوحَى إليه من طَبْعه الذى هو عينُ نَفْسِه ، قال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وحَبْلُ الوَرِيد من ذاتِه .

فإذا زعمت يا وَلِيَّ الله أوحى إليك فانظر نَفْسك فى التردُّد والمُخالَفة ، فإن وجدت لذلك أثر تَدْبيرٍ أوْ تَفْضِيلٍ أو تفكُّرٍ فلستَ بصاحب وَحْيٍ ، فإن حكم عليك وأعماكَ وأَصَمّكَ وحال بَيْنَكَ وبين فِكْرِك وتَدْبيرك وأَمضى حكمَهُ فيك ، فذلك هو الوَحْى ، وأنت عند ذلك صاحب وَحْيٍ ، فإن حكم عليك وأعماكَ وأَصَمّك وحال بَيْنَكَ وبين فِكْرِك

وتَدْبيرك وأَمضى حكمَهُ فيك ، فذلك هو الوَحْى ، وأَنت عند ذلك صاحب وَحْى ، وعَلِمْتَ عند ذلك أَنَّ رِفْعَتك وعُلُوّ مرتبتك أَنْ تَلْحَقَ بمن يقول إِنَّه دونك من حيوانٍ أَو نبات أَو جماد ، فإِن كلّ شىءٍ مفطورٌ على العِلْم بالله إِلاَّ مجموع الإِنس والجانّ ، فإِنَّه من حيث تَفْصِيله مُنطوٍ على العلم بالله كسائر ما سِواهُما من المخلوقات من مَلَكٍ وحيوان ونبات وجماد ، فما من شىءٍ فيه من شَعْرٍ وجِلْدٍ ولَحْم وعَصَب ودَمٍ ورُوح ونَفَسٍ وظُفُرٍ وناب إِلاَّ وهو عالِم بالله ، حتَّى ينظر ويفكِّر ويرجع إِلى نفسه فيَعْلَم أَنَّ له صانعاً صَنَعه وخالِقاً خَلَقَه ، فلو أَسمعه الله نُطْق جِلدِه أَو يَدِه أَو لسانِه أَو عَيْنِه لَسَمِعه ناطقاً بمعرفته بربّه ، مُسَبّحاً لجلاله ، مُقَدّساً

لِجماله ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ الآية ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ .

فالإِنسان من حيث تَفْصِله عالِمٌ بالله ، ومن حيث جُمْلَته جاهِلٌ بالله حتَّى يتعلَّم ، أَى يَعْلَم بما فى تَفْصِيله ، فهو العالِم الجاهل ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

قال أَبو القاسم الأَصفهانىّ : الوَحْىُ : الإِشارةُ السَّرِيعة ، ولِتَضَمّن السُّرْعَة قيل : أَمرٌ وَحِىٌّ ، وذلك يكونُ بالكلام على سَبيل الرمزِ أَو التَّعْرِيض .

وقد يكون بصَوْت مُجرَّد عن التركيب ، وبإشارةٍ ببعض الجوارح وبالكِتابة ، وقد حُمِلَ على كل ذلك قولُه/ تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ فقد قيل : رَمَزَ وقيل : أَشارَ ، وقيل : كَتَبَ .

وحُمِلَ على هذه الوُجوه أيضاً قولُه تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ فذلك بالوَسْواس المشار إليه بقوله : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ وبقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "إِنَّ للشَّيْطان لَمَّةً" الحديث .

ويُقالُ للكلمة الإِلهيّةِ الَّتى تُلْقَى [إلى] أَنْبيائه وأَوْليائه وَحْىٌ ، وذلك أَضْرُبٌ حَسْبَ ما دلَّ عليه قولُه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ ﴾ وذلك إِمّا برَسُولٍ مشاهَدٍ تُرَى ذاتُه ويُسْمَعُ كلامُه كتَبْليغ جبريلَ عليه السّلامُ للنبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فى صُورةٍ مُعيَّنة ، وإِمّا بسَماع كلامٍ من غير مُعايَنةٍ كسَماع مُوسَى عليه السّلامَ كلامَ الله تعالى ، وإِمّا بإِلقاءٍ فى الرُّوْع كما ذَكَرَ صلَّى الله عليه وسلَّم : "إِنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوْعِى" ، وإِمّا بإِلْهامٍ نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ، وإِمَّا بتَسْخِير نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ ، وإِمّا بمَنامٍ كما قال صلىّ الله عليه وسلم : "لم يَبْقَ من النُبُوّة إِلاَّ المُبشِّرات" .

فالإلهام والتَّسخير والمَنام دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ إلَّا وَحْياً ﴾ ، وسَماعُ الكلام من غير مُعَاينة دلَّ عليه : ﴿ مِن ورَآءِ حِجَاب ﴾ ، وتَبْليغُ جبريل عليه السّلام فى صورة معيّنة دلَّ عليه : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ ، فذلك ذمّ لمن يدَّعِى شيئاً من أنواع ما ذكرنا من الوَحْى ، أىّ نوعٍ ادّعاه من غير أَنْ حَصَلَ له .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ ﴾ فهذا الوَحْىُ هو عامٌّ فى جميع أَنواعِه ، وذلك أَنَّ معرفة وَحْدانيّةِ الله تعالى ، ومعرفة وُجوب عبادتِه ليست مقصورةً على الوَحْى المختصّ بأُولِى العَزْم من الرّسل بل ذلك يُعْرف بالعقل والإِلهام ، كما يعرف بالسّمع ، فإِذاً القصدُ من الآية تنبيهٌ أَنَّه من المُحالِ أَن يكون رسول لا يَعرِف وَحْدانيّة الله تعالى ووُجوبَ عبادتِه .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ فذلك وَحْىٌ بوَساطة عيسى عليه السّلام .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ فذلك وَحْىٌ إِلى الأُمم بوَساطة الأَنبياءِ عليهم السّلام .

ومن الوَحْى المختصّ بالنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ﴾ فوحْيُه إلى موسَى بوسَاطة جبريل ، وإِلى هارون بوَساطة مُوسَى عليه السّلام .

وقوله : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ فذلك وَحْىٌ إليهم بوسَاطة اللَّوح والقَلَم فيما قيل .

(275/438)

وقولُه : ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ فإِن كان الوَحْىُ إلى أَهل السماءِ فقط فالمُوحَى إِليه مَحْذوفٌ ذِكْره كأَنَّه قال : أَوْحَى إلى الملائكة ، لأَنَّ أَهل السّماءِ هم الملائكة ، ويكون كقوله : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ ﴾ ، وإِن كان المُوحَى إليه هى السّماوات فذلك تسخيرٌ عند من يجعل السّماءَ غير حَىّ ، ونُطْقٌ عند من يجعله حَيّاً .

وقوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ قريبٌ من الأَوّل .

وقوله : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ فحثَّه على التثبتِ فى السّماع ، وعلى تَركِ الاسِتعْجال فى تَلَقّيه وتلَقُّنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 177 . 182 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ﴾

أوحى إلى النحل : أراد به وحي إلهام . . ولما حَفِظَ الأمر وأكل حلالاً ، طَابَ مأكُلُه وجعل ما يخرج منه شفاءً للناس .

ثم إن الله – سبحانه – عرّفَ الخَلْقَ أنّ التفصيل ليس من جهة القياس والاستحقاق ؛ إذ أن النحلَ ليس له خصوصية في القامة أو الصورة أو الزينة ، ومع ذلك جعل منه العَسَلَ الذي هو شفاء للناس .

والإنسان مع كمال صورته ، وتمام عقله وفطنته ، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى . . . فأيُّ فضيلةٍ للنحل ؟ وأيّ ذنبٍ لإنسان ؟ ليس ذلك إلا إختياره – سبحانه .

ويقال إن الله – سبحانه – أجرى سُنّته أنْ يُخفِيَ كلَّ شيء عزيز في شيءٍ حقير ؛ فجعل

الإِبرَيسْمَ في الدود وهو اضعف الحيوانات وجعل العسل في النحل وهو أضعف الطيور ، وجعل الدُّرَّ في الصدف وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر ، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج في الحجر . . . كذلك أودع المعرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يعصي وفيهم من يخطئ .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) ﴾

خَلَق الإنسانَ في أحسن تركيب ، وأملح ترتيب ، في الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، والنور والضياء ، والفهم الذكاء ، ورَزَقه من العقل والتفكر ، والعلم والتبصر ، وفنون المناقب التي خُصَّ بها من الرأي والتدبير ، ثم في آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً ، ويرى في كل يوم ألماً جديداً .

ويقال : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ ﴾ : وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق ؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً .

ويقال أرذل العمر أن يرغب في عنفوان شبابه في الإرادة ، ويسلك طريق الله مدةً ، ثم تقع له

فترةٌ فيفسخ عقد إرادته ، ويرجع إلى طلب الدنيا . وعند القوم وهذه رِدَّةٌ في هذا الطريق .

ويقال أرذلُ العمر رغبةُ الشيخ في طلبٍ .

ويقال أرذلُ العمر حُبُّ المرءِ للرياسة .

ويقال أرذلُ العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرْضِيَ خصومَه . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 306 . 308 ﴾

(278/438)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) ﴾

(279/438)

التفسير : لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وفظيع قولهم بين غاية كرمه وسعة رحمته حيث إنه لا يعاجلهم بالعقوبة فقال : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ الآية . فزعم بعض الطاعنين في عصمة الأنبياء أنه أضاف الظلم إلى ضمير الناس والأنبياء من جملة الناس فوجب أن يكونوا ظالمين عاصين ويؤكد هذا قوله : ﴿ ما ترك عليها من دابة ﴾ فإنه لو لم يصدر من الأنبياء ذنب لم يكن لإفنائهم وجه وحينئذ لم يصدق أنه لم يبق على الأرض واحد . والجواب لا نسلم عموم الناس في الآية لقوله سبحانه في موضع آخر ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [لقمان : 32] ولا ريب أن المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين ، فإذن المراد بالناس إما كل العصاة الذين استحقوا العقاب ، أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين . وأما قوله : ﴿ من دابة ﴾ فعن ابن عباس أنه أراد من مشرك يدب عليها نظيره قوله : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ [الأنفال : 55] ولو سلم أن المراد بها كل من يدب عليها فلعل الهلاك في حق الظلمة يكون عذاباً وفي غيرهم امتحاناً فقد وقعت هذه الواقعة في زمان نوح عليه السلام . وأيضاً من المعلوم أنه لا أحد إلا وفي آبائه من يستحق العذاب ، فلو أهلكوا لبطل نسلهم ولأدى إلى إفناء الناس ، بل الدواب كلها لأن الدواب مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم . عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال : بلى والله حتى إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم . وعن ابن مسعود : كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم . وقيل : لو يؤاخذهم لانقطع

القطر وفي انقطاعه انقطاع النبت وفي انقطاع النبت فناء الدواب. قالت المعتزلة: في الآية دلالة على أن الظلم والمعاصي ليست من أفعال الله تعالى وإلا لم يؤاخذهم بها فرضاً، ولم يضف الظلم إليهم ولم يذمهم على ذلك. وفي قوله: ﴿ بظلمهم ﴾ دليل على أن الظلم هو المؤثر في العقاب، فإن الباء للعلية.

وجواب الأشاعرة معلوم وهو أنه لا يسأل عما يفعل، وأيضاً المعارضة بالعلم والدواعي ووجوب انتهاء الكل إليه. قال بعض الأصوليين: الأصل في المضار الحرمة لأن الضرر لا يجوز أن يكون مشروعاً ابتداء بالإجماع ولقوله تعالى: ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج: 78] ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾ [البقرة: 185] ولقوله صلى الله عليه وسلم: "لا ضرر ولا ضرار" في الإسلام" ملعون من ضر مسلماً" ولا أن يكون مشروعاً على وجه يكون جزاء عن جرم سابق بهذه الآية لأن كلمة "لو" وضعت لانتفاء الشيء لانتفاء غيره. فالآية تقتضي أنه تعالى ما آخذ الناس بظلمهم وأنه ترك على ظهرها دابة كما هو المشاهد إذا ثبت هذا الأصل فنقول: إذا وقعت حادثة مشتملة على المضار فإن وجدنا نصاً على كونها مشروعة قضينا به تقديماً للخاص على العام وإلا قضينا عليها

بالحرمة بناء على هذا الأصل . ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون الضرر مشروعاً على وجه يقع جزاء عن جرم سابق والآية لا تنافي ذلك لأنها لا تدل إلا على أنه سبحانه لا يؤاخذ بكل ظلم . أما على أنه لا يؤاخذ ببعض أنواع الظلم فلا ، دليلة قوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : 30] ومنهم من قال : بناء على القاعدة المذكورة إن كل ما يريده الإنسان وجب أن يكون مشروعاً في حقه لأن المنع منه ضرر والضرر غير مشروع ، وكل ما يكرهه الإنسان لزم أن يكون محرماً لأن وجوده ضرر وأنه غير مشروع . فالذي يتمسك به في إثبات الأحكام من القياس إما أن يكون على وفق هذه القاعدة أو على خلافها والأول باطل ، لأن هذا الأصل يغني عنه ، وكذا الثاني لأن النص راجح على القياس . ولقائل أن يقول : توارد الأدلة على المدلول الواحد غير ممتنع . أما قوله : ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ فعن ابن عباس في رواية عطاء أنه يريد أجل القيامة لأن معظم العذاب يوافيهم يومئذ . وقيل : أراد منتهى العمر لأن المشركين

يؤاخذون بالذنوب إذا خرجوا من الدنيا ، وباقي الآية قد مر تفسيرها في أوائل سورة الأعراف .

واعلم أنه سبحانه قال في هذه السورة ﴿ ما ترك عليها من دابة ﴾ وفي سورة الملائكة ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ [فاطر : 45] فالهاء كناية عن الأرض ولم يتقدم ذكرها ههنا والعرب تجوّز ذلك في كلمات لحصولها بين يدي كل متكلم وسامع منها الأرض والسماء : " فلان أفضل من عليها وأكرم من تحتها " ، ومنها الغداة " إنها اليوم لباردة " . ومنها الأصابع يقول : " والذي شقهن خمساً من واحدة " يعني الأصابع من اليد . وإنما لم يذكر الظهر في هذه السورة لئلا يلتبس بظهر الداب فكثيراً ما يستعمل الظهر بمعنى الدابة بخلاف سورة " الملائكة " فإنه قد تقدم ذكر الأرض في قوله :

﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ [الآية : 44] وفي قوله : ﴿ ولا في الأرض ﴾ [الآية : 44] فلم يكن ملتبساً . ويمكن أن يقال : لما قال ههنا ﴿ بظلمهم ﴾ لم يقل : ﴿ على ظهرها ﴾ وحين قال هنالك ﴿ بما كسبوا ﴾ قال : ﴿ على ظهرها ﴾ احترازاً عن الجمع بين الظاءين لأنها تقل في الكلام وليست لأمة من الأمم سوى العرب ، فلم يجمع بينهما في شرطية واحدة . ثم عاد إلى حكاية كلمتهم الحمقاء فقال : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ لأنفسهم من البنات ولا يبعد أن يندرج فيه سائر ما يكرهون من الشركاء في الرياسة ومن

الاستخفاف والتهاون برسلهم ورسالتهم ، وأنهم يجعلون أرذل أموالهم لله وأكرمها للأصنام . وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة ، وإذا قال هاتوا ما دفع إليّ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له ، أما تستحيي من ذلك الموقف ؟ ثم قال : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ قال الفراء والزجاج : أبدل منه قوله : ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ عن مجاهد أن الحسنى البنون كانت قريش يقولون لله البنات ولنا البنون . وقال غيره : هي الجنة أي إنهم مع جعلهم لله ما يكرهون حكموا لأنفسهم بالجنة والثواب من الله ، وأنهم يفوزون برضوان الله بسبب هذا القول زعماً منهم أنهم على الدين الحق والمذهب الحسن . وكيف يحكمون بذلك وكانوا منكرين للقيامة ؟ الجواب أنه كان فيهم من يقر بالبعث ولذلك كانوا يربطون البعير على قبر الميت ويتركونه إلى أن يموت ظناً منهم أن الميت إذا حشر فإنه يحشر معه مركوبه ، وبتقدير أنهم كانوا منكرين فلعلهم قالوا إن كان محمد صلى الله عليه وسلم صادقاً في دعوى الحشر والقيامة فإنه يحصل لنا الجنة والثواب بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه نظيره ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ [فصلت : 50] ومن الناس من رجح هذا القول لأنه تعالى ردّ عليهم بعد ذلك

بقوله : ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ قال الزجاج : لا ردّ لقولهم أي ليس الأمر كما وصفوا . جرم أي كسب ذلك القول أن لهم النار ف "أنَّ" مع ما بعده في محل النصب لوقوع الكسب عليه . وقال قطرب : "أن" في موضع رفع والمعنى حق أن لهم الافتراء على الله . وجوّز أبو علي الفارسي أن يكون من أفرط أي صار ذا فرط مثل أجرب أي صار ذا جرب ، ومن قرأ بفتحها مخففة فهو من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته ، فالمعنى أنهم متروكون في النار منسيون . ومن قرأ بكسر الراء المشددة فهو من التفريط في الطاعات .

وقرىء بفتح الراء المشددة من فرّطته في طلب الماء إذا قدمته وجاء أفرطته بمعناه أيضاً ، فالمراد أنهم مقدمون إلى النار معجلون إليها .

ثم بين سبحانه أن مثل صنيع قريش قد صدر عن سائر الأمم فقال : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ أي رسلاً ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ قالت المعتزلة : لو كان خالق الأعمال هو الله تعالى فما معنى تزيين الشيطان ، ومن أي وجه توجه عليه الذم ، وأن خالق ذلك العمل أجدر بأن يكون ولياً لهم من الداعي إليه ؟ وأجيب بأن الوسائط معتبرة

وانتهاء الكل إليه ضروري. قال جار الله: ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، والمراد فهو وليهم أي قرينهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا أو اليوم عبارة عن يوم الآخرة الذي يعذبون فيه في النار، فهو حكاية للحال الآتية، والولي الناصر أي هو ناصرهم يوم القيامة فقط، والمراد نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه لأن الشيطان لا يتصوّر منه النصرة أصلاً، وإذا كان الناصر منحصراً فيه لزم أن لا نصرة بالضرورة. قال: ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿ وليهم ﴾ إلى مشركي قريش وأنه زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي فهو ولي أمثالهم اليوم. ثم ذكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة وإزاحة العلة فقال: ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ﴾ كالشرك والتوحيد والجبر والقدر والإقرار بالبعث والإنكار له، وكتحريم الأشياء المحللة كالبحيرة والسائبة وتحليل الأشياء المحرمة كالميتة والدم. ﴿ وهدى ورحمة ﴾ انتصبا على أنهما مفعول لهما ولا حاجة إلى اللام لأنهما فعلا فاعل، والفعل المعلل بخلاف التبيين فإنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ولهذا دخل عليه اللام، قال الكعبي: وصف القرآن بكونه هدى ورحمة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لا ينافي كون كذلك في حق الكل. وخص المؤمنون بالذكر من حيث إنهم قبلوه وانتفعوا به. ولما امتد الكلام في وعيد الكفار عاد إلى تقرير الإلهيات فقال: ﴿ والله أنزل من السماء ماء

فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ وفي العنكبوت : ﴿ من بعد موتها ﴾ [الآية : 63] لأن هنالك سؤال تقرير والتقرير يحتاج إلى التحقيق فقيد الظرف ب " من " للاستيعاب . وأيضاً حذف " من " في هذه السورة موافقة لقوله عما قريب : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئًا ﴾ وإنما حذف " من " هنا بخلاف ما في الحج لأنه أجمل الكلام في هذه السورة فقال : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ وأطنب في الحج فقال : ﴿ خلقناكم من تراب ثم من نطفة ﴾ [الحج : 5] الآية . فاقتضى الإيجاز الحذف والإطناب الإثبات ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ سماع تأمل وتدبر فمن لم يسمع متدبراً فكأنه أصم ، ثم استدل بعجائب أحوال الحيوانات قائلاً : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه ﴾ وفي سورة المؤمنين : ﴿ مما في بطونها ﴾ [الآية : 21] فذكر النحويون أن الأنعام من جملة الكلمات التي لفظها مفرد ومعناها جمع كالرهط والقوم والنعم . فجاز تذكيره حملاً على اللفظ وتأنيثه حملاً على المعنى . قال المبرد : هذا شائع في القرآن قال تعالى : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ [الأنعام : 78] بمعنى هذا الشيء الطالع . وقال : ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ [عبس : 11] أي ذكر هذا الشيء . وعند سيبويه الأنعام من الأسماء

المفردة الواردة على أفعال . وجوّز في الكشاف أن يكون تأنيثه على أنه تكسير نعم . وقيل : إن الأنعام بمعنى النعم لأن الألف واللام تلحق الآحاد بالجمع والجمع بالآحاد .

(286/438)

قلت : ما ذكره الأئمة حسن إلا أنه لا يقع جواباً عن التخصيص . ولعل السر فيه أن الضمير في هذه السورة يعود إلى البعض وهو الإناث ، لأن اللبن لا يكون للكل فالتقدير : وإن لكم في بعض الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه ، وأما في " المؤمنين " فإنه لما عطف عليه ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض وهو قوله : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها ﴾ [المؤمنون : 22] لم يتحمل أن يكون المراد به البعض فأنث ليكون نصاً على أن المراد بها الكل . روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : إذا استقر العلف فى الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً خالصاً فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث كما هو فذاك هو قوله تعالى : ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً ﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث . وأنكر الأطباء هذا القول لأنه على خلاف الحس والتجربة . أما الحس فلأن الأنعام تذبح ذبحاً متوالياً ولا يرى في كرشها دم ولا لبن ، وأما التجربة فلأن الدم لو كان في أعلى المعدة والكرش كان يجب إذا قاء أن يقيء الدم وليس كذلك ، بل الحق أن

الحيوان إذا تناول العلف حصل له في معدته أو كرشه هضم أوّل ، فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد ، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء . ثم الذي يحصل في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً وذلك هو الهضم الثاني . ويكون مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية . أما الصفراء فتذهب إلى المرارة ، والسوداء إلى الطحال ، والماء إلى الكلية ، ومنها إلى المثانة . وأما الدم فإنه يدخل في الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث . وبين الكبد والضرع عروق كثيرة فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع وهو لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله الدم هناك إلى صورة اللبن ، وإنما اختص هذ المعنى بالحيوان الأنثى لأن الحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به ، والذكر من كل حيوان أسخن واجف ، والأنثى أبرد

وأرطب لأن بدن الأنثى يحتاج إلى مزيد رطوبة لتصير مادة لتولد الولد ويتسع بدنها له .

ثم إن تلك الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في الرحم تنصب بعد انفصال الجنين إلى الثدي لتصير مادة لغذاء الطفل. واعلم أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذاً يخرج منه ثفل الغذاء ، فإذا تناول الإنسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقاً كلياً إلى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفا منه إلى الكبد ، ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل فهذا الانطباق والانفتاح بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتأتى إلى بتقدير الفاعل الحكيم. وأيضاً إنه أودع في الكبد قوّة جاذبة للأجزاء اللطيفة التي في ذلك المأكول والمشروب طابخة لها حتى تنقلب دماً دون الأجزاء الكثيفة وفي المعدة بالعكس ، وأودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء ، وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية ، وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بفعله الخاص به لا يمكن إلا بتدبير العليم الخبير. وكذا الكلام في انصباب مادة اللبن إلى الثدي في وقت يحتاج الطفل إلى الغذاء وتوزعها على جميع البدن في غير ذلك الوقت. ثم إنه تعالى أحدث في حلمة الثدي ثقوباً صغيرة يخرج اللبن الخالص منها وقت المص أو الحلب فهي بمنزلة المصفاة للبن يخرج اللطيف منها ويبقى الكثيف ، فبهذا الطريق يصير خالصاً سائغاً للشاربين أي سهل المرور في الحلق حتى قيل إنه لم يغص أحد باللبن قط. ومن عجائب حال اللبن اجتماعه من أجسام مختلفة الطبائع مع أنها واحدة في الحس. فمنها الدهن وهو حار رطب ، ومنها الأجزاء المائية وهي باردة رطبة ، ومنها الجبن وهو بارد يابس وكلها حاصلة من عشب

واحد . ثم إنه تعالى ألهم الطفل الصغير مص الثدي عند انفصاله من الأم وكل ذلك دليل على عناية كاملة ورحمة شاملة وعلم تام وقدرة باهرة . قال المحققون : في تقليب العشب في هذه الأطوار إلى أن يصير لبناً خالصاً سائغاً دليل على أنه تعال قادر على تقليب الإنسان في أطواره إلى أن يصير مستعداً للبقاء

الأبدي واللقاء السرمدي . قال جار الله : و " من " في ﴿ مما في بطونه ﴾ للتبعيض و " من " في قوله : ﴿ من بين فرث ﴾ لابتداء الغاية فهو صلة ﴿ لنسقيكم ﴾ كقولك : " سقيته من الحوض " . وجوز أن يكون حالاً من قوله : ﴿ لبناً ﴾ مقدماً عليه فيتعلق بمحذوف أي كائناً من بين كذا وكذا . وإنما قدم لأنه موضع العبرة فهو جدير بالتقديم . قالت الشافعية : ليس بمستنكر أن يسلك المني مسلك البول وهو طاهر كما أنه يخرج اللبن من بين الفرث والدم طاهراً .

وأما قوله : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ فإما أن يتعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل ومن الأعناب إذا عصرت وحذف لدلالة ما تقدم عليه فيكون قوله : ﴿ تتخذون منه ﴾ بياناً وكشفاً عن كنه حقيقة الاستقاء ، وإما أن يتعلق ب ﴿ تتخذون ﴾

فيكون قوله : ﴿ منه ﴾ تكريراً للظرف لأجل التأكيد نظيره قولك : " زيد في الدار فيها " وإنما ذكر الضمير في ﴿ منه ﴾ لأنه يعود إلى المذكور أو إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كأنه قيل : ومن عصير ثمرات النخيل ومن عصير الأعناب تتخذون منه ، واحتمل أن يكون ﴿ تتخذون ﴾ صفة موصوف محذوف كقوله :

﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : 164] أي وما منا إلا ملك فالتقدير : ومن ثمرات النخيل ومن الأعناب ثمر . ﴿ تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر وهو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً نحو رشد رشداً ورشداً . وعلى هذا التفسير ففي الآية قولان : أحدهما - ويروى عن الشعبي والنخعي - أنها منسوخة فإن السورة مكية وتحريم الخمر نزل في المائدة وهي مدنية ، وثانيهما أنها جامعة بين العتاب والمنة . وذكر المنفعة لا ينافي الحرمة على أن في الآية تنبيهاً على الحرمة أيضاً لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب في السكر أن لا يكون رزقاً حسناً لا بحسب الشهوة بل بحسب الشريعة . هذا ما عليه الأكثرون . وقيل : السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ، ثم يترك حتى يشتد

وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر . واحتج بأن الآية دلت على أن السكر حلال لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام والمنة ، ودل الحديث على أن الخمر حرام لعينها وهذا يقتضي أن يكون السكر شيئاً غير الخمر ، وكل من أثبت هذه المغايرة قال إنه النبيذ المطبوخ. ويحكى عن أبي علي الجبائي أنه صنف كتاباً في تحليل النبيذ ، فلما آخذت منه السن العالية قيل له : لو شربت منه ما تتقوى به فأبى فقيل له : فقد صنفت في تحليله . فقال : تناولته أيدي الشيطان فقبح عند ذوي المروءات والأقدار . وقيل : السكر الطعم قاله أبو عبيدة . وقيل : السكر والرزق الحسن واحد كأنه قيل : تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن . ومن أعجب أحوال الحيوان حال النحل المناسب عسلها اللبن في موافقة اللذة وفي الخروج من البطن فلذلك أفردها بالذكر عقيب ذلك قائلاً : ﴿ وأوحى ربك ﴾ يا محمد أو يا إنسان إلى النحل أي ألهمها وعلمها على وجه هو أعلم به ، ولقد حق لغريب أمرها وعجيب صنعتها أن يطلق عليه لفظ الإيحاء وذلك أنها تبني البيوت المسدسة من الأضلاع

المتساويات التي لا يمكن للعقلاء تركيب أمثالها إلا بالمساطر والفرجارات ، وقد علم من الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بما سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما

بينها فرج خالية ضائعة .

فاهتداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الدقيقة من الأعاجيب . ومن غرائب أمرها أن لها رئيساً هو أعظم جثة من الباقين وهم يخدمونه ويتبعون نهيه وأمره ، ومنها أنها إذا نفرت عن وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطبول والملاهي وآلات الموسيقى وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى أوكارها . وبالجملة فإن غرائب هذا الحيوان أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تخفى ، والغرض أن امتياز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على الذكاء والكياسة حالة شبيهة بالوحي بمعنى الإلهام . قال الزجاج : يجوز أن يقال سميت نحلاً لأنه تعالى نحل الناس العسل بواسطها وهي مؤنثة في لغة أهل الحجاز ولذلك قال تعالى : ﴿ أن اتخذي ﴾ وهي " أن " المفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول .

ومعنى " من " في قوله : ﴿ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ أي يبنون ويرفعون البعضية لأنها لا تبني بيوتاً في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولكنها تبني في مساكن توافقها وتليق بها وكثيراً ما يتعهدها الناس وتصلح أحوالها ﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾

أي بعضاً من كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها ﴿ فاسلكي سبل ربك ﴾ أي الطريق التي ألهمك وفهمك في عمل العسل ﴿ ذللاً ﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل لأن الله ذللها لها وسهلها عليها ، أو من الضمير في ﴿ فاسلكي ﴾ أي وأنت ذلك منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ، أو المراد فاسلكي ما أكلت في سبل ربك المذللة أي في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المن عسلاً وهي أجوافك ومنافذ مأكلك ، أو أراد أنك إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي راجعة إلى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها . فقد يحكى أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة. ويجوز أن يريد بقوله : ﴿ ثم كلي ﴾ اقصدي أكل الثمرات ﴿ فاسلكي ﴾ في طلبها من مظانها ﴿ سبل ربك ﴾ . واعلم أن ظاهر قوله : ﴿ أن اتخذي ﴾ ﴿ ثم كلي ﴾ ﴿ فاسلكي ﴾ أمر . فمن الناس من قال لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول يتوجه بها عليها من الله أمر ونهي ، ومنهم من أنكر ذلك وقال : المراد أنه سبحانه خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال. وتمام الكلام فيه سيجيء في سورة النمل . أما حدوث العسل من النحل فالأصح عند الأطباء أن الله تعالى دبر هذا العالم على وجه يحدث في الهواء طل لطيف في الليالي ويقع على أوراق الأشجار فقد يكون كثيراً يجتمع منه أجزاء محسوسة وهي الترنجبين ونحوه ، وقد يكون قليلاً متفرقاً على الأوراق والأزهار وهو الذي ألهم الله تعالى هذا النحل فتلتقط تلك الذرّات بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها فإذا شبعت

التقطت مرة أخرى وذهبت بها ووضعتها في بيوتها ادخاراً لنفسها ، فإذا اجتمع في بيوتها شيء محسوس من

تلك الأجزاء الطلية فذاك هو العسل .

ولا يبعد أن يحصل لتلك الأجزاء في أفواهها نوع هضم وتغير ونضج لخاصية فيها فلذلك قال : ﴿ يخرج من بطونها ﴾ أي من أفواهها . ومن الناس من زعم أن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق العطرية ما شاءت ، ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنه عسلاً ، ثم إنه يقيء مرة أخرى فذلك هو العسل . قال العقلاء : والقول الأول أقرب إلى التجربة والقياس : فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل ، ولا شك أنه طل محدث في الهواء ويقع على أطراف الأشجار والأزهار فكذا العسل . وأيضاً النحل إنما تغتذي بالعسل ولهذا يترك منه بقية في بيوتها بعد الأشتيار . ولكن قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب ﴾ أي ما يشرب يعضد القول الثاني .

وقوله : ﴿ مختلف ألوانه ﴾ أي منه أبيض وأصفر وأحمر وأسود بحسب اختلاف الأماكن وأمزجة النحل واختلاف الأزهار والأعشاب التي ترعى فيها . ثم وصفه بقوله : ﴿ فيه شفاء الناس ﴾ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة ولذا يقع في أكثر المعاجين . وتنكير ﴿ شفاء ﴾ لتعظيم الشفاء الذي فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء فإن كل دواء كذلك . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً جاء إليه فقال : إن أخي يشتكي بطنه . فقال : اسقه العسل . فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فما نفع . فقال : اذهب فاسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك . فسقاه فشفاه الله فبرأ كأنما نشط من عقال . قال أهل المعاني : إنه صلى الله عليه وسلم كان عالماً بأنه سيظهر نفعه فلهذا قال : كذب بطن أخيك حين لم يظهر النفع في الحال . وعن عبد الله بن مسعود : العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور ، فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل . واعلم أنه سبحانه ختم الآية الأولى بقوله : ﴿ لقوم يسمعون ﴾ لأن إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بسببه أمر مشاهد محسوس فمنكر ذلك فاقد الحس ، وإنما خص بالذكر حس السمع لأن لفظ القرآن المنبه على هذه الآية مسموع . وختم الآية الثانية بالعقل لأنه يحتاج إلى نوع تدبر فالمعرض عنه فاقد العقل دون الحس . وختم الثالثة بالتفكر لأن أمر النحل وقصتها العجيبة من انقيادها لأميرها واتخاذها البيوت على أشكال يعجز

عنها الحاذق منا ، ثم تتبعها الزهر والطل ثم خروج ذلك من بطونها لعاباً أو قيئاً يقتضي فكرة بليغة . ولما ذكر بعض عجائب أحوال الحيوان أتبعه عجيب خلق الإنسان فقال : ﴿ والله خلقكم ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ إلى أخسه وأحقره .

عن علي رضي الله عنه هو خمس وسبعون سنة . وعن قتادة تسعون سنة . وقال السدي : هو حالة الخرف دليله قوله : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ أي ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفل في النسيان وعدم التذكر وقيل : لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً أي لا يعلم زيادة علم على علمه . وقيل : إن الرد إلى أرذل العمر ليس في المسلمين والمسلم لا يزداد بسبب العمر إلا كرامة على الله تعالى ونظير الآية قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين : 5 ، 6] .

واعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع : أوّلها سن النشوء ، وثانيها سن الوقوف وهو سن الشباب ، وثالثها الانحطاط الخفي اليسير وهو سن الكهولة ، ورابعها سن الانحطاط الظاهر وهو سن الشيخوخة . وذكر الأطباء وأصحاب الطبيعي أن بدن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث وهما جوهران حارّان رطبان ، والحرارة إذا عملت في الجسم الرطب قلت رطوبته فلا يزال في هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل ما في العضو من الرطوبة حتى يتصلب ويظهر العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الأعضاء ، فإذا تم تكوين البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من رحم الأم وتكون رطوبة البدن بعد زائدة على حرارته ، فتكون الأعضاء قابلة للتمدد والازدياد والنماء وهو سن النشو وغايته إلى ثلاثين أو إلى خمس وثلاثين سنة ، ثم تصير رطوبات البدن أقل وتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الأصلية إلا أنها لا تكون زائدة على هذا القدر وهو سن الوقوف والشباب وغايته وحينئذ يظهر النقصان قليلاً إلى ستين سنة وهي سن الكهولة ، ثم يظهر جداً إلى تمام مائة وعشرين سنة . قال المتكلمون : هذا التعليل ضعيف لأن رطوبات البدن في حال كونه منياً ودماً كانت كثيرة ولذلك كانت الحرارة الغريزية مغمورة ، ثم إنها مع ذلك كانت قوية على تحليل أكثر الرطوبات حتى نقلتها من حد الدموية والمنوية إلى أن صارت عظماً وغضروفاً وعصباً ورباطاً ، فعندما تولدت الأعضاء وكمل البدن وقلت الرطوبات وجب أن تقوى الحرارة الغريزية قوّة أزيد مما كانت قبل ذلك فوجب أن

يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله أكثر من تحليلها قبل تولد البدن وليس الأمر كذلك ، لأنه قبل تولد البدن انتقل جسم الدم والمني إلى أن صار عظماً وعصباً ، أما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشيره ، فعلمنا أن البدن إنما يتولد بتدبير قادر حكيم لا لأجل ما قالوه . وبوجه آخر الحرارة الحاصلة في بدن الإنسان الكامل

الغريزة إما أن تكون هي عين ما كان حاصلاً في جوهر النطفة ، أو صارت أزيد مما كانت . والأول باطل لأن الحار الغريزي الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ، فإذا كبر البدن وجب أن لا يظهر منه في هذا البدن تأثير أصلاً .

وأما الثاني ففيه تسليم أن الحرارة تتزايد بحسب تزايد الجثة ، ولا ريب أن تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة فيلزم أن لا ينهدم البدن الحيواني أبداً وليس كذلك . وبوجه ثالث هب أن الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم إن الحرارة

الغريزية يجب أن تصير أقل مما كانت حتى ينتقل الإنسان من سن الشباب إلى سن النقصان ؟ قالوا : السبب فيه أنه إذا حصل هذا الاستواء فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر في تجفيف الرطوبة الغريزية فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لا تفي بحفظ الحرارة الغريزية ، وإذا حصلت هذه الحال ضعفت الحرارة الغريزية أيضاً لأن الرطوبات الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية ، فإذا قل الغذاء ضعف المغتذي فينتهي الأمر إلى أن لا يبقى من الرطوبة شيء ، لأن الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية فيلزم من ضعف إحداهما ضعف الأخرى فتنطفىء الحرارة أيضاً ويحصل الموت . وأورد عليهم أن الحرارة إذا أثرت في تجفيف الرطوبة وقلتها فلم لا يجوز أن تورد القوة الغاذية بدلها ؟ فأجابوا بأن القوة الغاذية لا تفي بإيراد البدل . قال الإمام فخر الدين الرازي راداً عليهم . إن القوة الغاذية إنما تعجز عن هذا الإيراد إذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة وذلك ممنوع ، وإنما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة أن لو قلت الرطوبة الغريزية ، وإنما تحصل هذه القلة إذا عجزت الغاذية عن إيراد البدل وهذا دور محال ، فيثبت أن إسناد هذه الأحوال إلى الطبائع والقوى غير ممكن فيعين إسنادها إلى القادر المختار الحكيم ، ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ إن الله عليم قدير ﴾ يعلم مقادير المصالح والمفاسد ويقدر على تحصيلها كما يريد . وأما الطبيعة فجاهلة عاجزة . قلت : لا شك أن نسبة هذه

الأمور إلى مجرد الطبيعة كفر وجهل ، لأنها ليست واجبة الوجود بالاتفاق ولكن إنكار القوى والطبائع أيضاً بعيد عن الإنصاف . والحق أنها

(299/438)

وسائط وآلات لما فوقها من المبادىء والعلل إلى أن ينتهي الأمر إلى مسبب الأسباب ومبدأ الكل ، وقد ثبت عند الحكيم أن كل قوة جسمانية فإنها متناهية الأثر فلا محالة تعجز القوة الغاذية آخر الأمر عن إيراد بدل ما يتحلل فيحل الأجل بتقدير العليم القدير . انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 274.284﴾

(300/438)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولو يؤاخذ الله ﴾ النفوس الناسية ﴿ بما ظلمت ﴾ على القلوب والأرواح ﴿ ما ترك على ﴾ أرض البشرية صفة من صفات الحيوانية . ولكن يؤخر أهل السعادة

إلى أجلهم وهو إفناء صفات النفس بصفات القلب والروح في حينه وأوانه ، ويؤخر أهل الشقاء إلى أوان العكس من ذلك . ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي يعاملون الله بأعمال يكرهون أن يعاملهم بها غيرهم وتسوّل لهم أنفسهم أن تلك المعاملة حسنة . والله أنزل من سماء العزة ماء بيان القرآن فأحيا به أرض قلوب الأمم بعد موتها باختلافهم على أنبيائهم ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ كلام الله من الله ﴿ وإن لكم في الأنعام ﴾ النفوس ﴿ لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ﴾ الخاطر الشيطاني ﴿ ودم ﴾ الخاطر النفساني ﴿ لبناً خالصاً ﴾ من الإلهام الرباني ﴿ سائغاً للشاربين ﴾ جائزاً لأهل هذا الشرب ﴿ ومن ثمرات ﴾ نخيل الطاعات وأعناب المجاهدات ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ هو ما يجعل منها شرب النفس فتسكر النفس فتارة تميل عن الحق والصراط المستقيم ميلان السكران ، وتارة تظهر رعوناتها بالأفعال والأحوال رياء وسمعة وشهوة .

والرزق الحسن ما يكون منه شرب القلب والروح فيزداد منه الشوق والمحبة والصدق والطلب :

شربت الحب كأساً بعد كأس . . . فما نفد الشراب وما رويت

﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ إشارة إلى حال السالك السائر ﴿ أن اتخذي من الجبال بيوتاً ﴾ أراد الاعتزال عن الخلق والتبتل إلى الله. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحنث في غار حراء أسبوعاً وأسبوعين وشهراً، ولا بد أن يتنظف كما أن النحل يحترز عن التلوث. وفيه أن نحل الأرواح اتخذت من جبال النفوس بيوتاً ومن شجر القلوب ومما يعرشون من الأسرار ﴿ ثم كلي من الثمرات فاسلكي سبل ربك ﴾ نظير قوله: ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ [المؤمنون: 51] فثمرات البدن الأعمال الصالحات، وثمرات النفوس الرياضيات ومخالفات الهوى، وثمرات القلوب ترك الدنيا والتوجه إلى المولى، وثمرات الأسرار شواهد الحق والتطلع على الغيوب والتقرب إلى الله، وهذه كلها أغذية نحل الأرواح فإنها بقوة هذه الأغذية تسلك السبل إلى أن تصل إلى المقعد الصدق عند مليكها، فيكون غذاؤها مكاشفات الحق ومشاهداته فتبيت عند ربها يطعمها ويسقيها، فحينئذ يخرج من بطونها شراب الحكم والمواعظ مختلف الألوان من المعاني والأسرار والدقائق والحقائق ﴿ فيه شفاء ﴾ للقلوب الناسية القاسية عن ذكر الله ﴿ والله خلقكم ﴾ أخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ عن الوجود المجازي ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو مقام الفناء في الله ﴿ لكيلا يعلم ﴾ بعد فناء علمه شيئاً يعلمه بل يعلم بربه الأشياء كما هي والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 284 . 285 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 71 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 74 ﴾ من نفس السورة

(4/439)

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر المفاوتة في الأعمار المنادية بإبطال الطبائع الموجبة للمسابقة إلى الاعتبار لأولي الأبصار للخوف كل لحظة من مصيبة الموت ، ثنى بالمفاوتة في الأرزاق فقال تعالى :

﴿ والله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ فضل بعضكم ﴾ أيها الناس ﴿ على بعض ﴾ .

ولما كانت وجوه التفضيل كثيرة ، وكان التفضيل في المعاش الذي يظن الإنسان أن له قدرة على تحصيله ، وكانت المفاوتة فيه أدل على تمام القدرة والفعل بالاختيار الذي السياق له ، قال تعالى : ﴿ في الرزق ﴾ أي ولربما جعل الضعيف العاجز الجاهل أغنى من القوي المحتال العالم ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، وأقبلوا بجميع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار ؛ قال الإمام أبو نعيم في الحلية : حدثنا سليمان بن أحمد ثنا أحمد ثنا أحمد بن أحمد بن عمرو الخلال قال : سمعت ابن أبي عمر يقول : كنا عند سفيان بن عيينة فذكروا الفضل بن الربيع ودهاءه ، فأنشأ سفيان يقول :

كم من قويّ قوي في تقلبه . . .

مهذب الرأي عنه الرزق منحرف

ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط . . .

كأنه من خليج البحر يغترف

(5/439)

وعن نوادر أبي علي القالي أنه قال : قال أبو بكر بن الأنباري : وحدثني أبي قال : بعث سليمان المهلبي إلى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم وطالبه بصحبته فرد عليه المائة ألف ، وكتب إليه هذه الأبيات :

أبلغ سليمان أني عنه في سعة . . .

وفي غنى غير أني لست ذا مال

سخي بنفسي أني لا أرى أحداً . . .

يموت هزلاً ولا يبقى على حال

فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه . . .

ولا يزيدك فيه حول محتال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه . . .

ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

ولما كان جعل المملوك في رتبة المالك مما يتعاظمهم في حقوقهم مع أنه في الحقيقة لا مالك ولا مُلك ، فلا يدينون لذلك ولا يدانونه وإن جل الخطب وأدى إلى ذهاب الأرواح ، بل من كانت أمه مملوكة حطوا رتبته وإن كان أبوه من كان ، وإن كانت العبرة عندهم في النسب بالأب ، وهذا هو الذي أحوج عنترة إلى قوله :

إني امرؤ من خير عبس منصباً . . .

شطري وأحمي سائري بالمنصل

إلى غير ذلك مما كان يعتذر به عن جهة أمه ، نبههم سبحانه على ما وقعوا فيه في حقه من ذلك بسبب الإشراك مع أنه مالك الملك وملك الملوك بعد ما اجترؤوا عليه في تفضيل أنفسهم في نسبة البنات إليه ، فقال تعالى : ﴿ فما الذين فضلوا ﴾ أي في الرزق ﴿ برادّي رزقهم ﴾ أي الذي اختصوا به ﴿ على ما ملكت أيمانهم ﴾ وإن جل نفعهم وتعاظم عندهم وقعهم ﴿ فهم فيه سواء ﴾ أي فيكون بذلك الرد المالك والمملوك سواء ، فهو جواب للنفي – نقله الرمال عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. رضى الله عنهم.

ولما وضح ذلك وضوح الشمس وظهر حتى ما به أصلاً نوع لبس ، تسبب عنه الإنكار في قوله على وجه الإعراض عن خطابهم المؤذن بالمقت : ﴿ أفبنعمة الله ﴾ أي الذي لا رب غيره ﴿ يجحدون ﴾ في جعلهم له شركاء يضيفون إليهم بعض ما أنعم به عليهم ، فيسوون بينهم وبينه في ذلك وبنعمتهم يعترفون ولها يحفظون في إنزال ما ملكت أيمانهم عنهم في المراتب والأموال .

ولما ذكر الخلق والرزق ، أتبعهما الألذاذ بالتأنس بالجنس من الأزواج والأولاد وغيرهما اللازم له القيام بالمصالح فقال تعالى : ﴿ والله ﴾ أي الذي له تمام القدرة وكمال العلم ﴿ جعل لكم ﴾ ولما كان الأزواج من الجنس ، قال : ﴿ من أنفسكم ﴾ لأن الشيء آلف لنوعه وأقرب إلى جنسه ﴿ أزواجاً ﴾ أي تتوالدون بها ويكون السكون إليها سبباً لبقاء نوعكم ﴿ وجعل لكم ﴾ أي أيها الناس الذين يوجهون رغباتهم إلى غيره ! ﴿ من أزواجكم بنين ﴾ ولعله قدمهم للشرف ؛ ثم عطف على ذلك ما هو أعم فقال : ﴿ وحفدة ﴾ أي من البنات والبنين وأولادهم والأصهار والأختان ، جمع حافد ، يخفّون في أعمالكم ويسرعون في خدمكم طاعة وموالاة ، لا كما يفعل الأجانب وبعض العاقين ، وهذا معنى ما نقله الرماني عن ابن عباس . رضى الله عنهما . من أنه فسرهم بالخدام والأعوان ، وهو الصواب لأن مادة حفد تدور على الإسراع والخفة .

حفد : خفّ في العمل وأسرع ، والحفد - محركة : الخدم - لخفتهم ، ومشي دون الخبب ، والحفدة : البنات وأولاد الأولاد أو الأصهار - لذلك ، وصناع الوشي - لإسراعهم فيه وإسراع لابسه إلى لبسه منبسط النفس ، والمحفد - كمجلس ومنبر : شيء يعلف فيه الدواب - لإسراعها إليه ، وكمنبر : طرف الثوب لإسراع حركته ، وقدح يكال به - لخفته ، وكمجلس الأصل - لدوران الأمور عليه وإسراعها إليه ، وسيف محتفد : سريع القطع ، وأحفده : حمله على الإسراع ، والفادحة : النازلة ، وفوادح الدهر - خطوبه - لإسراعها

بالمكروه وإسراع المنزول به ومن يهمه شأنه إلى مدافعتها ، ومن ذلك فدحه الأمر : أثقله - لأن المكروه يسرع فيثقل فيكثر اضطراب المنزول به .

(7/439)

ولما ذكر ذلك سبحانه ، أتبع ما لا يطيب العيش إلا به ، فقال تعالى : ﴿ ورزقكم ﴾ أي لإقامة أودكم وإصلاح أحوالكم ؛ ولما كان كل النعيم إنما هو في الجنة ، بعّض فقال : ﴿ من الطيبات ﴾ بجعله ملائماً للطباع ، شهياً للأرواح ، نافعاً للإشباع ، فعلم من هذا قطعاً أن صاحب هذه الأفعال ، هو المختص بالجلال ، ومن أنكر شيئاً من حقه فقد ضل أبعد الضلال ، فكيف بمن أنكر خيره ، وعبد غيره ، وهو باسم العدم أحق منه باسم الوجود ، فلذلك تسبب عنه قوله معرضاً عن خطابهم إعراض المغضب : ﴿ أفبالباطل ﴾ أي من الأصنام وما جعلوا لهم من النصيب ﴿ يؤمنون ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار ﴿ وبنعمت الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ هم ﴾ وله عليهم خاصة - غير ما يشاركون فيه الناس - من المنن ما له ﴿ يكفرون ﴾ حتى أنهم يجعلون مما أنعم به عليهم من السائبة والوصيلة والحامي وغيرها لأصنامهم ، وذلك متضمن لكفران النعمة الكائنة منه ، ومتضمن لنسبتها إلى غيره ، لأنه لم يأذن لهم في شيء مما حرموه ، ولا يحل التصرف في مال

المالك إلا بإذنه ؛ ثم قال عطفاً على ما أنكره عليهم هناك : ﴿ ويعبدون ﴾ وأشار إلى سفول المراتب كلها عن رتبته سبحانه فقال تعالى : ﴿ من دون الله ﴾ أي من غير من له الجلال والإكرام مما هو في غاية السفول من الأصنام وغيرها ﴿ ما لا يملك ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ لهم رزقاً ﴾ تاركين من بيده جميع الرزق ، وهو ذو العلو المطلق الذي رزقهم من الطيبات ؛ ثم بين جهة الرزق فقال تعالى : ﴿ من السماوات والأرض ﴾ ثم أكد تعميم هذا النفي بقوله – مبدلاً من ﴿ رزقاً ﴾ ، مبيناً أن تنوينه للتحقير – : ﴿ شيئاً ﴾ ثم أكد حقارتهم بقوله جامعاً لأن ما عجز عند الاجتماع فهو عند الانفراد أعجز : ﴿ ولا يستطيعون ﴾ أي ليس لهم نوع استطاعة أصلاً ، ولك أن تجعله معطوفاً على ما مضى من المعجَّب منه من أقوالهم وأفعالهم في قوله ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ ونحوه .

(8/439)

ولما دحض بهذه الحجة جميع ما أقاموه من الشبه وضربوه من الأمثال فيما ارتكبوه من قولهم إن الملك لا يتوصل إليه إلا بأعوان من حاجب ونائب ونحو ذلك ، ولا يتوصل إليه إلا بأنواع القربان ، فعبدوا الأصنام ، وفعلوا لها ما يفعل له تشبيهاً به عز شأنه ، وتعالى سلطانه ، لأن الفرق أن ملوك الدنيا المقيس عليهم إنما أقاموا مَن ذكر لحاجتهم وضعف مُلكهم ومِلكهم ،

فحالهم مخالف لوصف من لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يشغله شأن عن شأن ، وكل شيء في قبضته وتحت قهره وعظمته ، فلذلك تسبب عنها قوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ الأمثال ﴾ أي فتشبهوه تشبيهاً بغيره وإن ضرب لكم هو الأمثال ؛ قال أبو حيان وغيره : قال ابن عباس -رضى الله عنهما - : أي لا تشبهوه بخلقه - انتهى .

وهو - كما قال في الكشاف - تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به ، لأن من يضرب الأمثال مشبه حالاً بحال وقصة بقصة - انتهى .

وهذا النهي عام في كل مثل لخطر الأمر خشية أن يكون ذلك المثل غير لائق بمقداره ، وقد تقرر أن درء المفاسد أولى من جلب المصالح ، لا سيما في هذا لأن الخطأ فيه كفر ، ويدل على ذلك تعليل الحكم بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لغيره ﴿ يعلم ﴾ أي له جميع صفة العلم ، فإذا ضرب مثلاً أتقنه بإحاطة علمه بحيث لا يقدر غيره أن يبدي فرقاً ما بين الممثل والممثل به في الأمر الممثل له ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ أي ليس لكم علم أصلاً ، فلذلك تعمون عن الشمس وتلبّس عليكم ما ليس فيه لبس ، وهذا المقام عال ومسلكه وعر ، وسالكه على غاية من الخطر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 290.293 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ تجحدون ﴾ بتاء الخطاب : أبو بكر وحماد . الآخرون على الغيبة . ﴿ من بطون إمهاتكم ﴾ ونحوها بكسر الهمزة وفتح الميم : عليّ . ﴿ إمهاتكم ﴾ بكسرهما : حمزة . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم . ﴿ ألم تروا ﴾ على الخطاب : ابن عامر وحمزة وخلف وسهل ويعقوب ﴿ ظعنكم ﴾ بسكون العين : عاصم وحمزة وعلي وخلف وابن عامر الباقون بفتحها .

الوقوف : ﴿ في الرزق ﴾ ج لاختلاف الجملتين مع الفاء ﴿ سواء ﴾ ط ﴿ يجحدون ﴾ 5 ﴿ من الطيبات ﴾ ط ﴿ يكفرون ﴾ 5 لا للعطف ﴿ ولا يستطيعون ﴾ 5ج لابتداء النهي مع فاء التعقيب ﴿ الأمثال ﴾ ط ﴿ لا تعلمون ﴾ 5 ﴿ وجهراً ﴾ ط ﴿ هل يستوون ﴾ ط ﴿ الحمد لله ﴾ ط لأن " بل " للإعراض عن الأول . ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ مولاه ﴾ لا لأن الجملة بعده صفة أحدهما ﴿ بخير ﴾ ط ثم لا وقف إلى مستقيم لاتحاد الكلام ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ أقرب ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ شيئاً ﴾ لا للعطف ﴿ والأفئدة ﴾ لا لتعلق ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ 5 ﴿ السماء ﴾ ط للفصل بين الاستخبار والإخبار ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ إقامتكم ﴾ لا لوقوع ﴿

جعل ﴾ على ﴾ أثاثاً ﴾ ﴾ إلى حين ﴾ 5 ﴾ باسكم ﴾ ط ﴾ تسلمون ﴾ 5 ﴾ المبين ﴾ 5 ﴾ الكافرون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴾ غرائب القرآن حـ 4 صـ 286﴾

(10/439)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

اعلم أن هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الإنسان ، وذلك أنا نرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفنى عمره في طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ، ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلاً وفهماً تنفتح عليه أبواب الدنيا ، وكل شيء خطر بباله ودار في خياله فإنه يحصل له في الحال ، ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال ، فلما رأينا أن الأعقل أقل نصيباً ، وأن الأجهل الأخس أوفر نصيباً ، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام ، كما قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف : 32] وقال الشافعي رحمه الله

تعالى :

ومن الدليل على القضاء وكونه . . بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

واعلم أن هذا التفاوت غير مختص بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح ، وهذا بحر لا ساحل له وقد كنت مصاحباً لبعض الملوك في بعض الأسفار ، وكان ذلك الملك كثير المال والجاه ، وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه ، وما كان يمكنه ركوب واحد منها ، وربما حضرت الأطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده ، وما كان يمكنه تناول شيء منها ، وكان الواحد منا صحيح المزاج قوي البنية كامل القوة ، وما كان يجد ملء بطنه طعاماً ، فذلك الملك وإن كان يفضل على هذا الفقير في المال ، إلا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك في الصحة والقوة ، وهذا باب واسع إذا اعتبره الإنسان عظم تعجبه منه .

أما قوله : ﴿ فَمَا الذين فُضِلوا بِرَآدّى رِزقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ ففيه قولان :

(11/439)

القول الأول : أن المراد من هذا الكلام تقرير ما سبق في الآية المتقدمة من أن السعادة والنحوسة لا يحصلان إلا من الله تعالى ، والمعنى أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً فهم

في رزقي سواء فلا يحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق ، وانما ذلك رزقي أجريته إليهم على أيديهم وحاصل القول فيه أن المقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى وأن المالك لا يرزق العبد بل الرازق للعبد والمولى هو الله تعالى ، وتحقيق القول أنه ربما كان العبد أكمل عقلاً وأقوى جسماً وأكثر وقوفاً على المصالح والمفاسد من المولى ، وذلك يدل على أن ذلة ذلك العبد وعزة ذلك المولى من الله تعالى كما قال : ﴿ تُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء ﴾ [آل عمران : 26] .

والقول الثاني : أن المراد من هذه الآية الرد على من أثبت شريكاً لله تعالى ، ثم على هذا القول ففيه وجهان : الأول : أن يكون هذا رداً على عبدة الأوثان والأصنام ، كأنه قيل : إنه تعالى فضل الملوك على مماليكهم ، فجعل المملوك لا يقدر على ملك مع مولاه ، فلما لم تجعلوا عبيدكم معكم سواء في الملك ، فكيف تجعلون هذه الجمادات معي سواء في المعبودية ، والثاني : قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في نصارى نجران حين قالوا : إن عيسى ابن مريم ابن الله ، فالمعنى أنكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونوا سواء ، فكيف جعلتم عبدي ولداً لي وشريكاً في الإلهية ؟

ثم قال تعالى : ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ معنى الفاء في قوله : ﴿ فَهُمْ ﴾ حتى ، والمعنى : فما الذين فضلوا بجاعلي رزقهم لعبيدهم ، حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء في الملك .

ثم قال : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(12/439)

قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب لقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ وَفَضَّلَ بَعْضَكُمْ ﴾ والباقون بالياء لقوله : ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لقرب الخبر عنه ، وأيضاً فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين ، والمسلمون لا يخاطبون بجحد نعمة الله تعالى .

المسألة الثانية :

لا شبهة في أن المراد من قوله : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الإنكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم .

فإن قيل : كيف يصيرون جاحدين بنعمة الله عليهم بسبب عبادة الأصنام ؟

قلنا : فيه وجهان :

الوجه الأول : أنه لما كان المعطي لكل الخيرات هو الله تعالى فمن أثبت لله شريكاً فقد أضاف إليه بعض تلك الخيرات فكان جاحداً لكونها من عند الله تعالى ، وأيضاً فإن أهل

الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم إلى الطبائع وإلى النجوم ، وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى .

والوجه الثاني : قال الزجاج : المراد أنه تعالى لما قرر هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل ، كان ذلك إنعاماً عظيماً منه على الخلق ، فعند هذا قال : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ في تقريره هذه البيانات وإيضاح هذه البينات ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ .

المسألة الثالثة :

الباء في قوله : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون زائدة لأن الجحود لا يعدى بالباء كما تقول : خذ الخطام وبالخطام ، وتعلقت زيداً وبزيد ، ويجوز أن يراد بالجحود الكفر فعدي بالباء لكونه بمعنى الكفر ، والله أعلم .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

(13/439)

اعلم أن هذا نوع آخر من أحوال الناس ، ذكره الله تعالى ليستدل به على وجود الإله المختار الحكيم ، وليكون ذلك تنبيهاً على إنعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم ، فقوله :

﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال بعضهم : المراد أنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم

، وهذا ضعيف ، لأن قوله : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ خطاب مع الكل ، فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل ، بل هذا الحكم عام في جميع الذكور والإناث .

والمعنى : أنه تعالى خلق النساء ليتزوج بهن الذكور ، ومعنى : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ مثل قوله : ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] وقوله : ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور : 61] أي بعضكم على بعض ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا ﴾ [الروم : 21] قال الأطباء وأهل الطبيعة : التفاوت بين الذكر والأنثى إنما كان لأجل أن كل من كان أسخن مزاجاً فهو الذكر ، وكل من كان أكثر برداً ورطوبة فهو المرأة .

ثم قالوا : المني إذا انصب إلى الخصية اليمنى من الذكر ، ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكراً تاماً في الذكورة ، وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل ، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم ، كان الولد أنثى تاماً في الأنوثة ، وإن انصب إلى الخصية اليمنى ، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم ، كان الولد ذكراً في طبيعة الإناث وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم ، كان هذا الولد أنثى في طبيعة الذكور .

واعلم أن حاصل هذا الكلام أن الذكورة علتها الحرارة واليبوسة ، والأنوثة علتها البرودة والرطوبة ، وهذه العلة في غاية الضعف ، فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان مزاجه في غاية البرودة ، ولو كان الموجب للذكورة والأنوثة ذلك لامتنع ذلك ، فثبت أن خالق الذكر والأنثى هو الإله القديم الحكيم وظهر بالدليل الذي ذكرناه صحة قوله تعالى : ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أزواجكم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قال الواحدي : أصل الحفدة من الحفد وهو الخفة في الخدمة والعمل .

يقال : حفد يحفد حفداً وحفوداً وحفداناً إذا أسرع ، ومنه في دعاء القنوت وإليك نسعى ونحفد ، والحفدة جمع الحافد ، والحافد كل من يخف في خدمتك ويسرع في العمل بطاعتك ، يقال في جمعه الحفد بغير هاء كما يقال الرصد ، فمعنى الحفدة في اللغة الأعوان والخدام ، ثم يجب أن يكون المراد من الحفدة في هذه الآية الأعوان الذين حصلوا للرجل من قبل المرأة ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أزواجكم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ فالأعوان الذين لا يكونون من قبل المرأة لا يدخلون تحت هذه الآية .

إذا عرفت هذا فنقول : قيل هم الأختان ، وقيل : هم الأصهار ، وقيل : ولد الولد ، والأولى دخول الكل فيه ، لما بينا أن اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك الذي ذكرناه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ لما ذكر تعالى إنعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطيبة ، سواء كانت من النبات وهي الثمار والحبوب والأشربة أو كانت من الحيوان ، ثم قال : ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني بالأصنام ، وقال مقاتل : يعني بالشيطان ، وقال عطاء : يصدقون أن لي شريكاً وصاحبة وولداً : ﴿ وبنعمت الله هم يكفرون ﴾ أي بأن يضيفوها إلى غير الله ويتركوا إضافتها إلى الله تعالى .

وفي الآية قول آخر وهو أنه تعالى لما قال : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ قال بعده : ﴿ أفبالباطل يؤمنون زبنعمت الله هم يكفرون ﴾ والمراد منه أنهم يحرمون على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة ويبيحون لأنفسهم محرمات حرمها الله عليهم وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب يعني لم يحكمون بتلك الأحكام الباطلة ، وبإنعام الله في تحليل الطيبات ، وتحريم الخبيثات يجحدون ويكفرون والله أعلم .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ﴾

(16/439)

اعلم أنه تعالى لما شرح أنواعاً كثيرة في دلائل التوحيد ، وتلك الأنواع كما أنها دلائل على صحة التوحيد ، فكذلك بدأ بذكر أقسام النعم الجليلة الشريفة ، ثم أتبعها في هذه الآية بالرد على عبدة الأصنام فقال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مّنَ السموات والأرض شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أما الرزق الذي يأتي من جانب السماء فيعني به الغيث الذي يأتي من جهة السماء ، وأما الذي يأتي من جانب الأرض فهو النبات والثمار التي تخرج منها وقوله : ﴿ مِنْ السموات والأرض ﴾ من صفة النكرة التي هي قوله : ﴿ رِزْقًا ﴾ كأنه قيل : لا يملك لهم رزقاً من الغيث والنبات وقوله : ﴿ شَيْئًا ﴾ قال الأخفش : جعل قوله : ﴿ شَيْئًا ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ رِزْقًا ﴾ والمعنى : لا يملكون رزقاً لا قليلاً ولا كثيراً ، ثم قال : ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ والفائدة في هذه اللفظة أن من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعته أن يتملكه بطريق من الطرق ، فبين تعالى أن هذه الأصنام لا تملك وليس لها أيضاً استطاعة تحصيل الملك .

فإن قيل: إنه تعالى قال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ ﴾ فعبر عن الأصنام بصيغة "ما" وهي لغير أولي العلم، ثم قال: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ والجمع بالواو والنون مختص بأولى العلم فكيف الجمع بين الأمرين؟

والجواب: أنه عبر عنها بلفظ "ما" اعتباراً لما هو الحقيقة في نفس الأمر وذكر الجمع بالواو والنون اعتباراً لما يعتقدون فيها أنها آلهة.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال المفسرون: يعني لا تشبهوه بخلقه.

الثاني: قال الزجاج: أي لا تجعلوا لله مثلاً، لأنه واحد لا مثل له.

(17/439)

والثالث: أقول يحتمل أن يكون المراد أن عبدة الأوثان كانوا يقولون: إن إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هذه الأصنام، ثم إن الكواكب والأصنام عبيد الإله الأكبر الأعظم، والدليل عليه العرف، فإن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فكذا ههنا فعند هذا قال الله تعالى لهم اتركوا عبادة هذه الأصنام والكواكب ولا تضربوا لله الأمثال التي ذكرتموها وكونوا

مخلصين في عبادة الإله الحكيم القدير .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب العظيم ، بسبب عبادة هذه الأصنام وأنتم لا تعلمون ذلك ، ولو علمتموه لتركتم عبادتها .

الثاني : أن الله تعالى لما نهاكم عن عبادة هذه الأصنام فاتركوا عبادتها ، واتركوا دليلكم الذي عولتم عليه وهو قولكم الاشتغال بعبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك ، لأن هذا قياس ، والقياس يجب تركه عند ورود النص ، فلهذا قال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 63 . 67 ﴾

(18/439)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : " أَنَّهُمْ لَا يُشْرِكُونَ عَبِيدَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا

فِيهِ سَوَاءً وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ وَهُمْ يُشْرِكُونَ عَبِيدِي فِي مُلْكِي وَسُلْطَانِي " .

وَقِيلَ : " مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ سَوَاءٌ فِي أَنِّي رَزَقْت الْجَمِيعَ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَحَدٌ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ إلَّا بِرِزْقِي إيَّاهُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ تَضَمَّنَتْ الْآيَةُ انْتِفَاءَ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمَوْلَى وَبَيْنَ عَبْدِهِ فِي الْمِلْكِ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَوْ جَازَ أَنْ يَمْلِكَ الْعَبْدُ مَا يُمَلِّكُهُ الْمَوْلَى إيَّاهُ لَجَازَ أَنْ يُمَلِّكَهُ مَالَهُ فَيَمْلِكُهُ حَتَّى يَكُونَ مُسَاوِيًا لَهُ وَيَكُونَ مِلْكُ الْعَبِيدِ مِثْلَ مِلْكِ الْمَوْلَى ، بَلْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ أَفْضَلَ فِي بَابِ الْمِلْكِ وَأَكْثَرَ مِلْكًا ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ وَإِنْ مَلَّكَهُ الْمَوْلَى إيَّاهُ لِأَنَّ الْآيَةَ قَدْ اقْتَضَتْ نَفْيَ الْمُسَاوَاةِ لَهُ فِي الْمِلْكِ .

وَأَيْضًا لَمَّا جَعَلَهُ مَثَلًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَوْثَانَ ، وَكَانَ مَعْلُومًا أَنَّ الْأَوْثَانَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا ، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْيِهِ الشَّرِكَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحُرِّ كَمَا نَفَى الشَّرِكَةَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْأَوْثَانِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " أَنَّ الْحَفَدَةَ الْخَدَمُ وَالْأَعْوَانُ " وَقَالَ الْحَسَنُ : " مَنْ أَعَانَك فَقَدْ حَفَدَك " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَطَاوُسٌ : " الْحَفَدَةُ الْخَدَمُ " .

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي الضُّحَى وَإِبْرَاهِيمَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالُوا : " الْحَفَدَةُ الْأُخْتَانِ " .

وَيُقَالُ : إنَّ أَصْلَ الْحَفْدِ الْإِسْرَاعُ فِي الْعَمَلِ ، وَمِنْهُ : وَإِلَيْك نَسْعَى وَنَحْفِدُ ، وَالْحَفَدَةُ جَمْعُ حَافِدٍ كَقَوْلِك : كَامِلٌ وَكَمَلَةٌ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا تَأَوَّلَهُ السَّلَفُ عَلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ مِنْ الْخَدَمِ وَالْأَعْوَانِ وَمِنْ الْأُخْتَانِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِمَا ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَبَ يَسْتَحِقُّ عَلَى ابْنِهِ الْخِدْمَةَ وَالْمَعُونَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : إنَّ الْأَبَ إذَا اسْتَأْجَرَ ابْنَهُ لِخِدْمَتِهِ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْأَجْرَ إنْ خَدَمَهُ لِأَنَّهَا مُسْتَحَقَّةٌ عَلَيْهِ بِغَيْرِ الْإِجَارَةِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاَللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ : يَعْنِي مِنْ جِنْسِكُمْ ، يَعْنِي مِنْ الْآدَمِيِّينَ ، رَدًّا عَلَى الْعَرَبِ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَتَزَوَّجُ الْجِنَّ وَتُبَاضِعُهَا ، حَتَّى رَوَتْ أَنَّ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ غُولًا ، وَكَانَ يَخْبَؤُهَا عَنْ الْبَرْقِ ، لِئَلَّا تَرَاهُ فَتَنْفِرَ ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي لَمَحَ الْبَرْقُ وَعَايَنَتْهُ السِّعْلَاةُ فَقَالَتْ : عَمْرُو ، وَنَفَرَتْ فَلَمْ يَرَهَا أَبَدًا ، وَهَذَا مِنْ أَكَاذِيبِهَا ، وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي حُكْمِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ ، رَدًّا عَلَى الْفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الْجِنِّ ، وَيُحِيلُونَ طَعَامَهُمْ وَنِكَاحَهُمْ .

وَقِيلَ : أَرَادَ بِهِ قَوْلَهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ : زَوْجُ الْمَرْأَةِ هِيَ ثَانِيَتُهُ ، فَإِنَّهُ فَرْدٌ ، فَإِذَا انْضَافَتْ إلَيْهِ كَانَا زَوْجَيْنِ ، وَإِنَّمَا جُعِلَتْ الْإِضَافَةُ إلَيْهِ دُونَهَا ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُهَا فِي الْوُجُودِ ، وَقِوَامُهَا فِي الْمَعَاشِ ، وَأَمِيرُهَا فِي التَّصَرُّفِ ، وَعَاقِلُهَا فِي النِّكَاحِ ، وَمُطْلِقُهَا مِنْ قَيْدِهِ ، وَعَاقِلُ الصَّدَاقِ وَالنَّفَقَةِ عَنْهَا فِيهِ ، وَوَاحِدٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ يَكْفِي لِلْأَصَالَةِ ، فَكَيْفَ بِجَمِيعِهَا ؟ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ : وُجُودُ الْبَنِينَ يَكُونُ مِنْهُمَا مَعًا ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ تَخَلُّقُ الْمَوْلُودِ فِيهَا ، وَوُجُودُهُ ذَا رُوحٍ وَصُورَةٍ بِهَا ، وَانْفِصَالُهُ كَذَلِكَ عَنْهَا ، أُضِيفَ إلَيْهَا ، وَلِأَجْلِهِ تَبِعَهَا فِي الرِّقِّ

وَالْحُرِّيَّةِ ، وَصَارَ مِثْلَهَا فِي الْمَالِيَّةِ .

(22/439)

سَمِعْت إمَامَ الْحَنَابِلَةِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ أَبَا الْوَفَاءِ عَلِيَّ بْنَ عَقِيلٍ يَقُولُ : إنَّمَا تَبِعَ الْوَلَدُ الْأُمَّ فِي الْمَالِيَّةِ ، وَصَارَ بِحُكْمِهَا فِي الرِّقِّ وَالْحُرِّيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ انْفَصَلَ عَنْ الْأَبِ نُطْفَةً لَا قِيمَةَ لَهُ ، وَلَا مَالِيَّةَ فِيهِ ، وَلَا مَنْفَعَةَ مَثْبُوتَةً عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا اكْتَسَبَ مَا اكْتَسَبَ بِهَا وَمِنْهَا ، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ تَبِعَهَا ، كَمَا لَوْ أَكَلَ رَجُلٌ تَمْرًا فِي أَرْضِ رَجُلٍ ، فَسَقَطَتْ مِنْهُ نَوَاةٌ فِي الْأَرْضِ مِنْ يَدِ الْآكِلِ ، فَصَارَتْ نَخْلَةً ، فَإِنَّهَا مِلْكُ صَاحِبِ الْأَرْضِ دُونَ الْآكِلِ بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْأُمَّةِ ؛ لِأَنَّهَا انْفَصَلَتْ مِنْ الْآكِلِ وَلَا قِيمَةَ

لَهَا ؛ وَهَذِهِ مِنْ الْبَدَائِعِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ : وَفِيهَا ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُمْ الْأَخْتَانُ ؛ قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ الْأَصْهَارُ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّالِثُ : قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ : الْخَتَنُ الزَّوْجُ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ ذَوِي رَحِمِهِ .

وَالصِّهْرُ مَنْ كَانَ مِنْ قِبَلِ الْمَرْأَةِ مِنْ الرِّجَالِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا ضِدُّ ذَلِكَ ؛ قَالَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ .

الْخَامِسُ : قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْخَتَنُ مَنْ كَانَ مِنْ الرِّجَالِ مِنْ قِبَلِ الْمَرْأَةِ ، وَالْأَصْهَارُ مِنْهُمَا جَمِيعًا .

السَّادِسُ : الْحَفَدَةُ : أَعْوَانُ الرَّجُلِ وَخَدَمِهِ ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ أَعَانَك فَقَدْ حَفَدَك ؛ وَبِهِ قَالَ عِكْرِمَةُ .

السَّابِعُ : حَفَدَةُ الرَّجُلِ أَعْوَانُهُ مِنْ وَلَدِهِ .

الثَّامِنُ : أَنَّهُ وَلَدُ الرَّجُلِ وَوَلَدُ وَلَدِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: هَذِهِ الْأَقْوَالُ كَمَا سَرَدْنَاهَا إمَّا أُخِذَتْ عَنْ لُغَةٍ، وَإِمَّا عَنْ تَنْظِيرٍ، وَإِمَّا عَنْ اشْتِقَاقٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾؛ فَالنَّسَبُ مَا دَارَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَالصِّهْرُ مَا تَعَلَّقَ بِهِمَا،

وَيُقَالُ أَخْتَانُ الْمَرْأَةِ وَأَصْهَارُ الرَّجُلِ عُرْفًا وَلُغَةً، وَيُقَالُ لِوَلَدِ الْوَلَدِ: الْحَفِيدُ، وَيُقَالُ: حَفِيدُهُ يَحْفِدُهُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ فِي الْمَاضِي وَكَسْرِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ إذَا خَدَمَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي الدُّعَاءِ: وَإِلَيْك نَسْعَى وَنَحْفِدُ.

فَالظَّاهِرُ عِنْدِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ بَنِينَ ﴾ أَوْلَادُ الرَّجُلِ مِنْ صُلْبِهِ، وَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿ حَفَدَةً ﴾ أَوْلَادُ وَلَدِهِ.

وَلَيْسَ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا.

وَنَقُولُ: تَقْدِيرُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا: وَاَللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا، وَمِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ، وَمِنْ الْبَنِينَ حَفَدَةً.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ: وَاَللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، فَيَكُونُ الْبَنُونَ مِنْ الْأَزْوَاجِ، وَالْحَفَدَةُ مِنْ الْكُلِّ مِنْ زَوْجٍ وَابْنٍ، يُرِيدُ بِهِ خُدَّامًا يَعْنِي أَنَّ الْأَزْوَاجَ وَالْبَنِينَ يَخْدُمُونَ الرَّجُلَ بِحَقِّ قِوَامِيَّتِهِ وَأُبُوَّتِهِ.

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا: يَخْدُمُ الرَّجُلُ زَوْجَهُ فِيمَا خَفَّ مِنْ الْخِدْمَةِ وَيُعِينُهَا.

وَقَدْ قَالُوا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : يَخْدُمُهَا .

وَقَالُوا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : يُنْفِقُ عَلَى خَادِمٍ وَاحِدَةٍ .

(24/439)

وَفِي رِوَايَةٍ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ عَلَى قَدْرِ الثَّرْوَةِ وَالْمَنْزِلَةِ ؛ وَهَذَا أَمْرٌ دَائِرٌ عَلَى الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ الَّذِي هُوَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ ؛ فَإِنَّ نِسَاءَ الْأَعْرَابِ وَسُكَّانَ الْبَادِيَةِ يَخْدُمْنَ أَزْوَاجَهُنَّ حَتَّى فِي اسْتِعْذَابِ الْمَاءِ وَسِيَاسَةِ الدَّوَابِّ .

وَنِسَاءَ الْحَوَاضِرِ يَخْدُمُ الْمُقِلُّ مِنْهُمْ زَوْجَهُ فِيمَا خَفَّ وَيُعِينُهَا .

وَأَمَّا أَهْلُ الثَّرْوَةِ فَيَخْدُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَيَتَرَفَّهْنَ مَعَهُمْ إذَا كَانَ لَهُمْ مَنْصِبٌ فِي ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا مُشْكِلًا شَرَطَتْ عَلَيْهِ الزَّوْجَةُ ذَلِكَ ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ أَنَّهَا مِمَّنْ لَا تَخْدُمُ نَفْسَهَا ، فَالْتَزَمَ إخْدَامَهَا ؛ فَيَنْفُذُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَتَنْقَطِعُ الدَّعْوَى فِيهِ .

وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ فِي الْآيَةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : وَسَأَلْته عَنْ قَوْلِ اللَّهِ : { بَنِينَ وَحَفَدَةً } مَا الْحَفَدَةُ ؟ قَالَ : الْخَدَمُ وَالْأَعْوَانُ فِي رَأْيِي .

وَيُرْوَى أَنَّ الْحَفَدَةَ الْبَنَاتُ يَخْدُمْنَ الْأَبَوَيْنِ فِي الْمَنَازِلِ .

وَيُرْوَى أَنَّ نَافِعَ بْنَ الْأَزْرَقِ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ قَالَ : هُمُ الْأَعْوَانُ ؛ مَنْ أَعَانَكَ فَقَدْ حَفَدَكَ .

قَالَ : فَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَتَقُولُهُ .

أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ : حَفَدَ الْوَلَائِدُ حَوْلَهُنَّ وَأُلْقِيَتْ بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةُ الْأَجْمَالِ وَتَصْرِيفُ الْفِعْلِ حَفَدَ يَحْفِدُ كَمَا قَدَّمْنَا حَفْدًا وَحُفُودًا وَحَفَدَانًا .

(25/439)

وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ : إِنَّ الْحَفَدَةَ عِنْدَ الْعَرَبِ الْخَدَمُ ، وَكَفَى بِمَالِكٍ فَصَاحَةً ، وَهُوَ مَحْضُ الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِ : إِنَّهُمُ الْخَدَمُ .

وَبِقَوْلِ الْخَلِيلِ ، وَهُوَ ثِقَةٌ فِي نَقْلِهِ عَنِ الْعَرَبِ ؛ فَخَرَجَتْ خِدْمَةُ الْوَلَدِ وَالزَّوْجَةِ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَبْدَعِ بَيَانٍ .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ ﴿ أَبَا أُسَيْدٍ السَّاعِدِيَّ دَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُرْسِهِ ، فَكَانَتْ امْرَأَتُهُ خَادِمَهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَهِيَ الْعَرُوسُ ، فَقَالَ : أَوَتَدْرُونَ مَا أَنْقَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ؟ أَنْقَعْتُ لَهُ تَمَرَاتٍ مِنْ اللَّيْلِ فِي تَوْرٍ ﴾ .

وَكَذَلِكَ رُوِيَ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، فَإِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ ﴾ .

وَهَذَا هُوَ قَوْلُ مَالِكٍ : وَيُعِينُهَا .

وَفِي أَخْلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ كَانَ يَخْصِفُ النَّعْلَ ، وَيَقُمُّ الْبَيْتَ ، وَيَخِيطُ الثَّوْبَ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يَعُودُ الْمَرِيضَ ، وَيَشْهَدُ الْجِنَازَةَ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ عَلَيْهِ إكَافٌ مِنْ لِيفٍ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ وَقَدْ قِيلَ لَهَا : مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْمَلُ فِي الْبَيْتِ ؟ قَالَتْ : كَانَ بَشَرًا مِنْ الْبَشَرِ ، يُفَلِّي ثَوْبَهُ ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ ﴾ .

(26/439)

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ : حَتَّى فِي وُضُوئِهِ ؛ فَرُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ ﴿ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِ خَالَتِهِ مَيْمُونَةَ فِي لَيْلَةٍ كَانَتْ لَا تُصَلِّي فِيهَا ، فَأَوَى رَسُولُ اللَّهِ إلَى فِرَاشِهِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ قَامَ فَخَرَجَ إلَى الْحُجْرَةِ فَقَلَّبَ فِي أُفُقِ

السَّمَاءِ وَجْهَهُ ، ثُمَّ قَالَ : نَامَتْ الْعُيُونُ ، وَغَارَتْ النُّجُومُ ، وَاَللَّهُ حَيٌّ قَيُّومٌ ثُمَّ عَمَدَ إلَى قِرْبَةٍ فِي جَانِبِ الْحُجْرَةِ فَحَلَّ شِنَاقَهَا ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ﴾ .

خَرَّجَهُ ابْنُ حَمَّادٍ الْحَافِظُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ التَّقَصِّي وَغَيْرِهِ .

وَمِنْ أَفْضَلِ مَا يَخْدُمُ الْمَرْءُ فِيهِ نَفْسَهُ الْعِبَادَاتُ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَتَّى يَكُونَ عَمَلُهَا كُلُّهَا لِوَجْهِ اللَّهِ ، وَعَمَلُ شُرُوطِهَا وَأَسْبَابِهَا كُلِّهَا مِنْهُ ؛ فَذَلِكَ أَعْظَمُ لِلْأَجْرِ إذَا أَمْكَنَ .

وَقَدْ خَرَّجَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ : ﴿ سَأَلْت عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَ : كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ ﴾ .

وَمِنْ الرُّوَاةِ مَنْ قَالَ : إذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ قَالَ الْإِمَامُ يَعْنِي الْإِقَامَةَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(27/439)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها: أنه أغنى وأفقر، ووسّع وضيّق.

الثاني: في القناعة والرغبة.

الثالث: في العلم والجهل. قال الفضيل بن عياض: أجلُّ ما رزق الإنسان معرفة تدله على ربه، وعقل يدله على رشده.

وفي التفضيل وجهان:

أحدهما: أنه فضل السادة على العبيد، قاله ابن قتيبة ومن يرى أن التفضيل في المال.

الثاني: أنه فضل الأحرار بعضهم على بعض، قاله الجمهور.

﴿ فما الذين فُضِّلُوا بِرادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانُهم فهم فيه سواء ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن عبيدهم لما لم يشركوهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في ملكه، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وفي هذا دليل على أن العبد لا يملك.

الثاني: أنهم وعبيدهم سواء في أن الله تعالى رزق جميعهم، وأنه لا يقدر أحد على رزق عبده إلا أن يرزقه الله تعالى إياه كما لا يقدر أن يرزق نفسه، حكاه ابن عيسى.

﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: بما أنعم الله عليهم من فضله ورزقه ينكرون.

الثاني: بما أنعم الله عليهم من حججه وهدايته يضلون.

قوله عز وجل: ﴿ واللّهُ جَعَل لكُم مِن أنفسِكم أزواجاً ﴾

فيه وجهان : أحدهما : يعني جعل لكم من جنسكم مثلكم ، فضرب المثل من أنفسكم ، قاله ابن بحر . الثاني : يعني آدم خلق منه حوّاء ، قاله الأكثرون . ﴿ وجعل لكم مِن أزواجكم بنين وحفدة ﴾ وفي الحفدة خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم الأصهار أختان الرجل على بناته ، قاله ابن مسعود وأبو الضحى . وسعيد بن جبير وإبراهيم ، ومنه قول الشاعر :

ولو أن نفسي طاوعتني لأصبحت . . . لها حَفَدٌ مما يُعَدّث كثيرُ

ولكنها نفس عليَّ أبيّة . . . عَيُوفٌ لأَصهارِ اللئام قذور

الثاني : أنهم أولاد الأولاد ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنهم بنو امرأة الرجل من غيره ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الرابع : أنهم الأعوان ، قاله الحسن .

الخامس : أنهم الخدم ، قاله مجاهد وقتادة وطاووس ، ومنه قول جميل :

حفد الولائدُ حولهم وأسلمت . . . بأكفهن أزِمّةَ الأجمال

وقال طرفة بن العبد :

يحفدون الضيف في أبياتهم . . . كرماً ذلك منهم غير ذل

وأصل الحفد الإسراع ، والحفدة جمع حافد ، والحافد هو المسرع في العمل ، ومنه قولهم في القنوت وإليك نسعى ونحفد ، أي نسرع إلى العمل بطاعتك ، منه قول الراعي :

كلفت مجهولها نوقاً ثمانية . . . إذا الحداة على أكسائها حفدوا

وذهب بعض العلماء في تفسير قوله تعالى ﴿ بنين وحفدة ﴾ البنين الصغار والحفدة الكبار . ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من الفيىء والغنيمة .

الثاني : من المباحات في البوادي .

الثالث : ما أوتيه عفواً من غير طلب ولا تعب .

﴿ أفبالباطِل يؤمنون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالأصنام .

الثاني : يجحدون البعث والجزاء .

﴿ وبنعمة الله يكفرون ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : بالإسلام .

الثاني : بما رزقهم الله تعالى من الحلال آفة من أصنامهم . حكاه الكلبي . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾

إخبار يراد به العبرة ، وإنما هي قاعدة يبنى المثل عليها ، والمثل هو أن المفضلين لا يصح منهم أن يساهموا مماليكهم فيما أعطوا حتى تستوي أحوالهم ، فإذا كان هذا في البشر فكيف تنسبون أنتم أيها الكفرة إلى الله تعالى أنه يسمح بأن يشرك في ألوهيته الأوثان والأنصاب ، وهم خلقه وغيرها مما عبد كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه ، هذا تأويل الطبري ، وحكاه عن ابن عباس وحكي عنه أن الآية مشيرة إلى عيسى ابن مريم عليه السلام ، قال المفسرون : هذه الآية كقوله تعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ [الروم : 28] ، ثم وقفهم على جحدهم نعمة الله في تنبيهه لهم على مثل هذا من مواطن النظر المؤدية إلى الإيمان ، وقرأ الجمهور وحفص عن عاصم " يجحدون " بالياء من تحت ، وقرأ أبو بكر عن عاصم " تجحدون " بالتاء ، وهي قراءة أبي عبد الرحمن والأعرج بخلاف عنه ، وهي على معنى قل لهم يا محمد . قال قتادة : لا يكون الجحد إلا بعد معرفة ، وقوله ﴿ والله جعل لكم ﴾

الآية ، آية تعديد نعم ، و" الأزواج" الزوجات ، ولا يترتب في هذه الآية الأنواع ولا غير ذلك ، وقوله ﴿ من أنفسكم ﴾ يحتمل أن يريد خلقته حواء من نفس آدم وجسمه ، فمن حيث كانا مبتدأ الجميع ساغ حمل أمرهما على الجميع حتى صار الأمر كأن النساء خلقن من أنفس الرجال ، وهذا قول قتادة ، والأظهر عندي أن يريد بقوله ﴿ من أنفسكم ﴾ ، أي من نوعكم وعلى خلقتكم ، كما قال تعالى

(30/439)

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة : 128] وقوله ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين ﴾ ، ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء ، واختلف الناس في قوله ﴿ وحفدة ﴾ فقال ابن عباس : " الحفدة " أولاد البنين ، وقال الحسن : هم بنوك وبنو بنيك ، وقال ابن مسعود وأبو الضحى وإبراهيم وسعيد بن جبير : " الحفدة " الأصهار وهم قرابة الزوجة ، وقال مجاهد : " الحفدة " الأنصار والأعوان والخدم ، وحكى الزجاج أن الحفدة البنات في قول بعضهم ، قال الزهراوي لأنهن خدم الأبوين لأن لفظة البنين لا تدل عليهن ، ألا ترى أنهن ليس في قول الله تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] وإنما الزينة في الذكور ، وقال ابن عباس أيضاً : " الحفدة " أولاد زوجة الرجل من غيره ، ولا خلاف أن

معنى الحفد الخدمة والبر والمشي مسرعاً في الطاعة ومنه في القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، والحفدان خبب فوق المشي ، ومنه قول الشاعر وهو جميل بن معمر : [الكامل]

حفد الولائد بينهن وأسلمت . . . بأكفهن أزمة الإجمال

ومنه قول الآخر : [البسيط]

كلفت مجهولها نوقاً ثمانية . . . إذا الحداة على أكسائها حفدوا

قال القاضي أبو محمد : وهذه الفرق التي ذكرت أقوالها إنما بنيت على أن كل أحد جعل له من زوجه بنون وحفدة ، وهذا إنما هو في الغالب وعظم الناس ، ويحتمل عندي أن قوله : ﴿ من أزواجكم ﴾ إنما هو على العموم والاشتراك ، أي من أزواج البشر جعل الله لهم البنين ، ومنهم جعل الخدمة فمن لم تكن له قط زوجة فقد جعل الله له حفدة ، وحصل تحت النعمة ، وأولئك الحفدة هم من الأزواج ، وهكذا تترتب النعمة التي تشمل جميع العالم ، وتستقيم لفظة " الحفدة " على مجراها في اللغة ، إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحد منهم عن حفدة ، وقالت فرقة : " الحفدة " هم البنون .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يستقيم على أن تكون الواو عاطفة صفة لهم ، كما لو قال جعلنا لهم بنين وأعواناً أي وهم لهم أعوان ، فكأنه قال : وهم حفدة وقوله ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ يريد الله : من الأشياء التي تطيب لمن رزقها ، ولا يقتصر هنا على الحلال لأنهم كفار لا يكتسبون بشرع ، وفي هذه الآية رد على من قال من المعتزلة : إن الرزق إنما يكون الحلال فقط ، و﴿ لكم ﴾ تعلق في لفظة ﴿ من ﴾ إذ هي للتبعيض ، فيقولون : ليس الرزق المعدد عليهم من جميع ما بأيديهم إلا ما كان حلالاً ، وقرأ الجمهور " يؤمنون " ، وتجيء الآية على هذه القراءة توقيفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم على إيمانهم بالباطل وكفرهم بنعمة الله ، وقرأ أبو عبد الرحمن " تؤمنون " بالتاء من فوق ، ورويت عن عاصم على معنى قل لهم يا محمد ، ويجيء قوله بعد ذلك ﴿ وبنعمت الله هم يكفرون ﴾ إخباراً مجرداً عنهم وحكماً عليهم لا توقيفاً ، وقد يحتمل التوقيف أيضاً على قلة اطراد في القول .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ﴾

هذه آية تقريع للكفار وتوبيخ وإظهار لفساد نظرهم ووضع لهم من الأصنام في الجهة التي فيها سعي الناس وإليها هممهم ، وهي طلب الرزق ، وهذه الأصنام لا تملك إنزال المطر ولا إثبات نعمة ، ومع أنها لا تملك لا تستطيع أن تحاول ذلك من ملك الله تعالى ، وقوله ﴿ رزقاً ﴾ مصدر ونصبه على المفعول ب ﴿ يملك ﴾ ، وقوله ﴿ شيئاً ﴾ ذهب كثير من النحويين إلى أنه منصوب على البدل ، من قوله ﴿ رزقاً ﴾ و﴿ رزقاً ﴾ اسم ، وذهب الكوفيون وأبو علي معهم إلى أنه منصوب بالمصدر في قوله ﴿ رزقاً ﴾ ولا نقدره اسماً ، وهو كقوله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً ﴾ [المرسلات : 25-26] فت ﴿ كفاتاً ﴾ [المرسلات : 25] مصدر منصوب به ﴿ أحياء ﴾ [المرسلات : 26] ومنه أيضاً في قوله عز وجل ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة ﴾ [البلد : 14-15] فنصب ﴿ يتيماً ﴾ [البلد : 15] ب ﴿ إطعام ﴾ [البلد : 14] ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

فلولا رجاء النصر منك ورهبة . . . عقابك قد صاروا لنا كالموارد

والمصدر يعمل مضافاً باتفاق لأنه في تقدير الانفصال ، ولا يعمل إذا دخله الألف اللام لأنه قد توغل في حال الأسماء وبعُد عن حال الفعلية ، وتقدير الانفصال في الإضافة حسن عمله ، وقد جاء عاملاً مع الألف واللام في قول الشاعر :

ضعيف النكاية أعداءه . . . البيت :

وقوله : عن الضرب مسمعاً ، وقوله ﴿ يملك ﴾ على لفظ ﴿ ما ﴾ ، وقوله ﴿ يستطيعون ﴾ على معناها بحسب اعتقاد الكفار في الأصنام أنها تعقل ، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ يستطيعون ﴾ للذين يعبدون ، المعنى لا يستطيعون ذلك ببرهان يظهرونه وحجة يثبتونها ، وقوله ﴿ فلا تضربوا ﴾ أي لا تمثلوا لله الأمثال ، وهو مأخوذ من قولك : ضريب هذا أي مثله ، والضرب النوع ، تقول : الحيوان على ضروب ، وهذان من ضرب واحد ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(33/439)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق ﴾

أي جعل منكم غنياً وفقيراً وحراً وعبداً .

﴿ فَمَا الذين فُضِّلُواْ ﴾ أي في الرزق .

﴿ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رُزق شيئاً حتى يستوي المملوك والمالك في المال .

وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام ، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون

عبيدي معي سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عُبد ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه.

حكى معناه الطبري ، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

وعن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في نصارى نَجْران حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم : ﴿ فَمَا الذين فُضِلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ ﴾ أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد في المال شرعاً سواء ، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لي ولداً من عبيدي.

ونظيرها : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ على ما يأتي.

ودل هذا على أن العبد لا يملك ، على ما يأتي آنفاً.

قوله تعالى : ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾

جعل بمعنى خلق ؛ وقد تقدم.

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ يعني آدم خلق منه حواء.

وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم ، أي من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم ؛ كما قال : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من الآدميين.

وفي هذا ردّ على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوّج الجن وتباضعها ، حتى روي أن عمرو بن هند تزوج منهم غُولاً وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر ، فلما كان في بعض الليالي لمع البرق وعاينته السِّعلاة فقالت : عمرو ! ونفرت ، فلم يرها أبداً .

وهذا من أكاذيبها ، وإن كان جائزاً في حكم الله وحكمته فهو ردّ على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجانّ ويحيلون طعامهم .

﴿ أَزْوَاجاً ﴾ زوج الرجل هي ثانيته ، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين ، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها في الوجود كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء ، ووجود الأبناء يكون منهما معاً ؛ ولكنه لما كان خلق المولود فيها وانفصاله عنها أضيف إليها ، ولذلك تبعها في الرّق والحرية وصار مثلها في المالية .

قال ابن العربيّ : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية ؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا

مالية فيه ولا منفعة ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها .

كما لو أكل رجل تمراً في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ روى ابن القاسم عن مالك قال وسألته عن قوله تعالى : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قال : الحَفَدة الخدم والأعوان في رأيي .

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ قال هم الأعوان ، من أعانك فقد حفدك .

قيل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم وتقوله ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَد الولائدُ حولهن وأسلَمتْ . . .

بأكفّهنّ أزِمّةَ الأجمال

أي أسرعن الخدمة .

والولائد : الخدم ، الواحدة وليدة ؛ قال الأعشى :

كلّفت مجهولها نُوقاً يمانية . . .

إذا الحُداة على أكسائها حَفَدُوا

أي أسرعوا .

وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمل عملاً أطاع فيه وسارع فهو حافد ، قال : ومنه قولهم "إليك نسعى ونحفِد" ، والحَفَدان السرعة .

قال أبو عبيد : الحفد العمل والخدمة .

وقال الخليل بن أحمد : الحَفَدة عند العرب الخدم ، وقاله مجاهد .

وقال الأزهري : قيل الحفدة أولاد الأولاد .

وروي عن ابن عباس .

وقيل : الأختان ؛ قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحا وسعيد بن جُبير وإبراهيم ؛ ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحتْ . . .

لها حَفَدٌ ما يُعَدُّ كثيرُ

ولكنها نفس عليّ أبيّة . . .

عيوف لإصهار اللئام قذور

وروى زِرّ عن عبد الله قال : الحفدة الأصهار ؛ وقاله إبراهيم ، والمعنى متقارب .

قال الأصمعي : الخَتَن من كان من قِبَل المرأة ، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما ؛ والأصهار منهما جميعاً .

يقال : أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر .

وقول عبد الله "هم الأختان" يحتمل المعنيين جميعاً .

يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها ، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن ، فيكون لكم بسببهن أختان .

وقال عكرمة : الحفدة من نفع الرجل من ولده ؛ وأصله من حَفَد يحفِد (بفتح العين في الماضي وكسرها في المستقبل) إذا أسرع في سيره ؛ كما قال كُثَيِّر :

* حفد الولائد بينهن . . .

* البيت . . .

.

ويقال : حفدت وأحفدت ، لغتان إذا خدمت .

ويقال : حافد وحَفَد ؛ مثل خادم وخَدَم ، وحافد وحفدة مثل كافر وكفرة .

قال المهدوي : ومن جعل الحفدة الخدم جعله منقطعاً مما قبله ينوي به التقديم ؛ كأنه قال : جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين .

قلت : ما قاله الأزهري من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه ؛ ألا ترى أنه قال : "وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة" فجعل الحفدة والبنين منهن .

وقال ابن العربيّ : الأظهر عندي في قوله "بنين وحفدة" أن البنين أولاد الرجل لصُلْبه والحفدة أولاد ولده ، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا ، ويكون تقدير الآية على هذا : وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة .

وقال معناه الحسن .

الثالثة : إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة في قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان ، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان ؛ قاله ابن العربيّ .

روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد : أن أبا أُسَيِّد الساعدي دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم لعرسه فكانت امرأته خادمهم . . .

الحديث ، وقد تقدم في سورة "هود" .

وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا فتلت قلائد بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيدي .

الحديث .

ولهذا قال علماؤنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القِدْر وتَقُمّ الدار ، بحسب حالها

وعادة مثلها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : 189] فكأنه جمع لنا فيها السَّكَن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جري العادة .

الرابعة : ويخدُم الرجُل زوجتَه فيما خفّ من الخدمة ويُعينها ، لما روته عائشة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكون في مهْنة أهله فإذا سمع الأذان خرج .

وهذا قول مالك : ويعينها .

وفي أخلاق النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنه كان يخصِف النعل ويَقُمّ البيت ويَخِيط الثوب .

وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشراً من البشر يَفْلِي ثوبه ويحلب شاته ويخدُم نفسه .

الخامسة : وينفق على خادمة واحدة ، وقيل على أكثر ؛ على قدر الثروة والمنزلة .

(37/439)

وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة ، فإن نساء الأعراب وسكان البوادي يخدمن أزواجهن حتى في استعذاب الماء وسياسة الدواب ، ونساء الحواضر يخدم المقِل منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فيَخدِمون أزواجهن ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمراً مشكلاً شرطت عليه الزوجة ذلك ، فتشهد

أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها ، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ أي من الثمار والحبوب والحيوان .

﴿ أفبالباطل ﴾ يعني الأصنام ؛ قاله ابن عباس .

﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قراءة الجمهور بالياء .

وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء .

﴿ وَبِنِعْمَةِ الله ﴾ أي بالإسلام .

﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

[

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السماوات ﴾ يعني المطر .

﴿ والأرض ﴾ يعني النبات .

﴿ شَيْئاً ﴾ قال الأخفش : هو بدل من الرزق .

وقال الفرّاء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه ؛ أي يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً .

﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي لا يقدرون على شيء ، يعني الأصنام .

﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ أي لا تشبّهوا به هذه الجمادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له .

وقد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله تعالى ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾

يعني أن الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر، وكما فضل بعضكم على بعض في الرزق، كذلك فضل بعضكم على بعض في الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن، والقبح والعلم والجهل وغير ذلك.

فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله، وهذا مما اقتضته الحكمة الإلهية والقدرة الربانية ﴿ فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ﴾ يعني من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيد هم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الأصنام شركاء لله قال قتادة: هذا مثل ضربه الله.

يقول: هل منكم أحد يرضى أن يشركه مملوكه في جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده، وقيل: في معنى الآية أن الموالي والمماليك الله رازقهم جميعاً ﴿ فهم فيه ﴾ يعني في رزقه ﴿ سواء ﴾ فلا تحسبن أن الموالي يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم، بل ذلك رزق الله أجراه على أيدي الموالي للمماليك، والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وأن الموالي والمماليك في الرزق سواء وأن المالك لا يرزق

المملوك ، بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى .

وقوله ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ فيه إنكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره .

قوله : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾

(39/439)

يعني النساء فخلق من آدم حواء زوجته وقيل : جعل لكم من جنسكم أزواجاً لأنه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الليل ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ الحفدة جمع حافد وهو المسرع في الخدمة المسارع إلى الطاعة ومنه قوله في الدعاء " وإليك نسعى ونحفد " أي نسرع إلى طاعتك ، فهذا أصله في اللغة ثم اختلفت أقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعي : الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضاً ، أنه أصهاره فهو بمعنى الأول فعلى هذا القول ، يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات ، فزوجوهم فيجعل لكم بسببهم الأختان والأصهار .

وقال الحسن وعكرمة والضحاك : هم الخدم .

وقال مجاهد : هم الأعوان وكل من أعانك قد حفدك وقال عطاء : هم ولد الرجل الذين

يعينونه ويخدمونه وقيل : هم أهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الأولاد وقال مقاتل والكلبي : البنين هم الصغار والحفدة كبار الأولاد الذي يعينون الرجل على عمله ، وقال ابن عباس : هم ولد الولد .

(40/439)

وفي رواية آخرى عنه أنهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الأقوال متقاربة لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك ، وبالجملة فإن الحفدة هم غير البنين ، لأن الله سبحانه وتعالى قال : بنين وحفدة فجعل بينهما مغايرة ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ يعني النعم التي أنعم عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ، والأشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ يعني بالأصنام وقيل : بالشيطان يؤمنون وقيل : معناه يصدقون أن لي شريكاً وصاحبة وولداً وهذا استفهام إنكار أي ليس لهم ذلك ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ يعني أنهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم إلى غيره ، وقيل معناه إنهم يجحدون ما أحل الله لهم ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض ﴾ يعني الأصنام التي لا تقدر على إنزال المطر الذي في السموات خزائنه ، ولا يقدرون على إخراج النبات الذي في الأرض معدنه ﴿ شيئاً ﴾ يعني لا يملك من الرزق

شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، وقيل معناه يعبدون ما لا يرزق شيئاً ﴿ ولا يستطيعون ﴾ يعني ولا يقدرون على شيء يذكر عجز الأصنام عن ايصال نفع أو دفع ضر .

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾

يعني لا تشبهوا الله بخلقه فإنه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه ، لأن الخلق كلهم عبيده ، وفي ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق ، أو الرازق بالمرزوق ، أو القادر بالعاجز ﴿ إن الله يعلم ﴾ يعني ما أنتم عليه من ضرب الأمثال له ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ خطأ ما تضربون له من الأمثال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(41/439)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

الحفدة : الأعوان والخدم ، ومن يسارع في الطاعة حفد يحفد حفداً وحفوداً وحفداناً ، ومنه : وإليك نسعى ونحفد أي : نسرع في الطاعة .

وقال الشاعر :

حفد الولائد حولهنّ وأسلمت . . .

بأكفهنّ أزمة الأجمال

وقال الأعشى :

كلفت مجهودها نوقاً يمانية . . .

إذا الحداة على أكسائها حفدوا

وتتعدى فيقال : حفدني فهو حافدي .

قال الشاعر :

يحفدون الضيف في أبياتهم . . .

كرماً ذلك منهم غير ذل

قال أبو عبيدة : وفيه لغة أخرى ، أحفد إحفاداً ، وقال : الحفد العمل والخدمة .

وقال الخليل : الحفدة عند العرب الخدم .

وقال الأزهري : الحفدة أولاد الأولاد ، وقيل : الأختان .

وأنشد :

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت . . .

لها حفد مما يعد كثير ولكنها نفس عليّ أبية

عيوف لأصحاب اللئام قذور . . .

ولما ذكر تعالى خلقنا ، ثم إماتتنا وتفاوتنا في السن ، ذكر تفاوتنا في الرزق ، وأن رزقنا أفضل من رزق المماليك وهم بشر مثلنا ، وربما كان المملوك خيراً من المولى في العقل والدين والتصرف ، وأن الفاضل في الرزق لا يساهم مملوكه فيما رزق فيساويه ، وكان ينبغي أن يردّ فضل ما رزق عليه ويساويه في المطعم والملبس ، كما يحكى عن أبي ذرّ أنه ريء عبده وإزاره ورداؤه مثل ردائه من غير تفاوت ، عملاً بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إنما هم أخوانكم فاكسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون " وعن ابن عباس وقتادة : أنّ الإخبار بقوله : فما الذين فضلوا برادي رزقهم على سبيل المثل أي : إنّ المفضلين في الرزق لا يصح منهم أن يساهموا مماليكهم فيما أعطوا حتى تستوي أحوالهم ، فإذا كان هذا في البشر فكيف تنسبون أنتم أيها الكفرة إلى الله تعالى أنه يشرك في ألوهيته الأوثان والأصنام ، ومن عبد من الملائكة وغيرهم والجميع عبيده وخلقه ؟ وعن ابن عباس : أن الآية مشيرة إلى عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وقال المفسرون : هذه الآية كقوله : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ الآية .

وقيل : المعنى أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً ، فهم في رزقي سواء ، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق ، فإنما ذلك أجريه إليهم على أيديهم .

وعلى هذا القول يكون فهم فيه سواء جملة إخبار عن تساوي الجميع في أكن الله تعالى هو رازقهم ، وعلى القولين الآخرين تكون الجملة في موضع جواب النفي كأنه قيل : فيستووا .

وقيل : هي جملة استفهامية حذف منها الهمزة التقدير : أفهم فيه سواء أي : ليسوا مستوين في الرزق ، بل التفضيل واقع لا محالة .

(43/439)

ثم استفهم عن جحودهم نعمة استفهام إنكار ، وأتى بالنعمة الشاملة للرزق وغيره من النعم التي لا تحصى أي : إنّ من تفضل عليكم بالنشأة أولاً ثم مما فيه قوام حياتكم جدير بأن تشكر نعمه ولا تكفر .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وأبو عبد الرحمن ، والأعرج بخلاف عنه : تجحدون بالتاء على الخطاب لقوله : فضل ، تبكيتاً لهم في جحد نعمة الله .

ولما ذكر تعالى امتنانه بالإيجاد ثم بالرزق المفضل فيه ، ذكر امتنانه بما يقوم بمصالح الإنسان مما يأنس به ويستنصر به ويخدمه ، واحتمل أن أنفسكم أن يكون المراد من جنسكم ونوعكم ، واحتمل أن يكون ذلك باعتبار خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم ، فنسب ذلك إلى بني آدم ، وكلا الاحتمالين مجاز .

والظاهر أن عطف حفدة على بنين يفيد كون الجميع من الأزواج ، وأنهم غير البنين .

فقال الحسن : هم بنو ابنك .

وقال ابن عباس والأزهري : الحفدة أولاد الأولاد ، واختاره ابن العربي .

وقال ابن عباس أيضاً : البنون صغار الأولاد ، والحفدة كبارهم .

وقال مقاتل : بعكسه ، وقيل : البنات لأنهنّ يخدمن في البيوت أتم خدمة .

ففي هذا القول خص البنين بالذكران لأنه جمع مذكر كما قال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ وإنما الزينة في الذكورة .

وعن ابن عباس : هم أولاد الزوجة من غير الزوج التي هي في عصمته .

وقيل : وحفدة منصوب بجعل مضمرة ، وليسوا داخلين في كونهم من الأزواج .

فقال ابن مسعود ، وعلقمة ، وأبو الضحى ، وابراهيم بن جبير : الأصهار ، وهم قرابة الزوجة كأبيها وأخيها .

وقال مجاهد : هم الأنصار والأعوان والخدم .

وقالت فرقة : الحفدة هم البنون أي : جامعون بين البنوة والخدمة ، فهو من عطف الصفات لموصوف واحد .

قال ابن عطية ما معناه : وهذه الأقوال مبنية على أن كل أحد جعل له من زوجه بنين وحفدة ، وهذا إنما هو في الغالب وعظم الناس .

ويحتمل عندي أن قوله من أزواجكم ، إنما هو على العموم والاشتراك أي : من أزواج البشر جعل الله منهم البنين ، ومنهم جعل الخدمة ، وهكذا رتبت الآية النعمة التي تشمل العالم . ويستقيم لفظ الحفدة على مجراها في اللغة ، إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحد منهم عن حفدة انتهى .

وفي قوله : من أنفسكم أزواجاً دلالة على كذب العرب في اعتقادها أن الآدمي قد يتزوج من الجن ويباضعها ، حتى حكوا ذلك عن عمرو بن هندانة تزوج سعلاة .

ومِن في الطيبات للتبعيض ، لأن كل الطيبات في الجنة ، والذي في الدنيا أنموذج منها .

والظاهر أنّ الطيبات هنا المستلذات لا الحلال ، لأن المخاطبين كفار لا يتلبسون بشرع .

ولما ذكر تعالى ما امتن به من جعل الأزواج وما ننتفع به من جهتين ، ذكر مننه بالرزق .

والطيبات عام في النبات والثمار والحبوب والأشربة ، ومن الحيوان .

وقيل : الطيبات الغنائم .

وقيل : ما أتى من غير نصب .

وقال مقاتل : الباطل الشيطان ، ونعمة لله محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الكلبي : طاعة الشيطان في الحلال والحرام .

وقيل : ما يرجى من شفاعة الأصنام وبركتها .

قال الزمخشري : أفبالباطل يؤمنون وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها

، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة ، فليس لهم إيمان إلا به .

كأنه شيء معلوم مستيقن .

ونعمة الله المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل ، وتمييزهم كافرون بها منكرون لها

كما ينكر المحال الذي لا تتصوره العقول .

وقيل : الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ، ونعمة الله ما

أحل لهم انتهى .

وقرأ الجمهور : يؤمنون بالياء ، وهو توقيف للرسول (صلى الله عليه وسلم) على إيمانهم

بالباطل ، ويندرج في التوقيف المعطوف بعدها .

وقرأ السلمي بالتاء ، ورويت عن عاصم ، وهو خطاب إنكار وتقريع لهم ، والجملة بعد

ذلك مجرد إخبار عنهم .

فالظاهر أنه لا يندرج في التقريع .

ويعبدون ، استفهام أخبار عن حالهم في عبادة الأصنام ، وفي ذلك تبيين لقوله : أفبالباطل يؤمنون ، نعى عليهم فساد نظرهم في عبادة ما لا يمكن أن يقع منه ما يسعى عابده في تحصيله منه وهو الرزق ، ولا هو في استطاعته .

فنفى أولاً أن يكون شيء من الرزق في ملكهم ، ونفى ثانياً قدرتها على أن تحاول ذلك ، وما لا تملك في جميع من عبد من دون الله من ملك أو آدمي أو غير ذلك .

وأجازوا في شيئًا انتصابه بقوله : رزقاً ، أجاز ذلك أبو عليّ وغيره .

ورد عليه ابن الطراوة بأنّ الرزق هو المرزوق كالرعي والطحن ، والمصدر هو الرزق بفتح الراء كالرعي والطحن .

ورد على ابن الطراوة بأنّ الرزق بالكسر يكون أيضاً مصدراً ، وسمع ذلك فيه ، فصح أنْ يعمل في المفعول به والمعنى : ما لا يملك أن يرزق من السموات والأرض شيئاً .

ومن السموات متعلق إذ ذاك بالمصدر .

قال ابن عطية بعد أن ذكر أعمال المصدر منوناً : والمصدر يعمل مضافاً باتفاق ، لأنه في تقدير الانفصال ، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام لأنه قد توغل في حال الأسماء وبعد عن الفعلية .

وتقدير الانفصال في الإضافة حسن عمله ، وقد جاء عاملاً مع الألف واللام في قول الشاعر

:

ضعيف النكاية أعداءه . . .

البيت وقوله :

لحقت فلم أنكل عن الضرب مسمعا . . .

انتهى .

أما قوله : يعمل مضافاً بالاتفاق إنْ عنى من البصريين فصحيح ، وإن عنى من النحويين فغير صحيح ، لأنّ بعض النحويين ذهب إلى أنه وإن أضيف لا يعمل ، وإن نصب ما بعده أو رفعه إنما هو على إضمار الفعل المدلول عليه بالمصدر .

وأما قوله : لأنه في تقدير الانفصال ليس كذلك ، لأنه لو كان في تقدير الانفصال لكانت الإضافة غير محضة ، وقد قال بذلك أبو القاسم بن برهان ، وأبو الحسين بن الطراوة ، ومذهبهما فاسد لنعت هذا المصدر المضاف ، وتوكيده بالمعرفة .

وأما قوله : ولا يعمل إلى آخره فقد ناقض في قول أخيراً : وقد جاء عاملاً مع الألف واللام .

وأما كونه لا يعمل مع الألف واللام فهو مذهب منقول عن الكوفيين ، ومذهب سيبويه جواز أعماله .

قال سيبويه : وتقول عجبت من الضرب زيداً ، كما تقول : عجبت من الضارب زيداً ، تكون الألف واللام بمنزلة التنوين .

وإذا كان رزقاً يراد به المرزوق فقالوا : انتصب شيئاً على أنه بدل من رزقاً ، كأنه قيل : ما لا يملك لهم من السموات والأرض شيئاً ، وهو البدل جارياً على جهة البيان لأنه أعم من رزق ، ولا على جهة التوكيد لأنه لعمومه ليس مرادفاً ، فينبغي أن لا يجوز ، إذ لا يخلو البدل من أحد نوعيه هذين .

إما البيان ، وإما التوكيد .

وأجازوا أيضاً أن يكون مصدراً أي : شيئاً من الملك كقوله : ولا تضرونه شيئاً أي شيئاً من الضرر .

وعلى هذين الإعرابين تتعلق من السموات بقوله : لا يملك ، أو يكون في موضع الصفة لرزق فيتعلق بمحذوف .

ومن السموات رزقاً يعني به المطر ، وأطلق عليه رزق لأنه عنه ينشأ الرزق .

والأرض يعني : الشجر ، والثمر ، والزرع .

والظاهر عود الضمير في يستطيعون على ما على معناها ، لأنه يراد بها آلهتهم ، بعدما عاد

على اللفظ في قوله : ما لا يملك ، فأفرد وجاز أن يكون داخلاً في صلة ما ، وجاز أنْ لا يكون داخلاً ، بل إخبار عنهم بانتفاء الاستطاعة أصلاً ، لأنهم أموات .

وأما قول الزمخشري : إنه يراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة التوكيد فليس كما ذكر ، لأنّ نفي الملك مغاير لنفي الاستطاعة .

وقال ابن عباس : ولا يستطيعون أن يرزقوا أنفسهم .

وجوز الزمخشري وابن عطية : أن يعود الضمير على ما عاد عليه في قوله : ويعبدون ، وهم الكفار أي : ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب من ذلك شيئاً ، فكيف بالجماد الذي لا حس به ؟ قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : لا يستطيعون ذلك ببرهان يظهرونه وحجة يثبتونها انتهى .

(47/439)

ونهى تعالى عن ضرب الأمثال لله ، وضرب الأمثال تمثيلها والمعنى هنا : تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به ، لأن من يضرب الأمثال مشبه حالاً بحال .

وقصة بقصة من قولهم : هذا ضرب لهذا أي : مثل ، والضرب النوع .

تقول : الحيوان على ضروب أي أنواع ، وهذا من ضرب واحد أي : من نوع واحد .

وقال ابن عباس : معناه لا تشبهوه بخلقه انتهى .

وقال : إن الله يعلم أثبت العلم لنفسه ، والمعنى : أنه يعلم ما تفعلون من عبادة غيره والإشراك به ، وعبر عن الجزاء بالعلم : وأنتم لا تعلمون كنه ما أقدمتم عليه ، ولا وبال عاقبته ، فعدم علمكم بذلك جركم وجرأكم وهو كالتعليل للنهي عن الإشراك .

قال الزمخشري : ويجوز أن يراد أنّ الله يعلم كيف نضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون انتهى .

وقاله ابن السائب قال : يعلم بضرب المثل ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

وقال مقاتل : يعلم أنه ليس له شريك ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

وقيل : يعلم خطأ ما تضربون من الأمثال ، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(48/439)

وقال أبو السعود :

﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِى الرزق ﴾

أي جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم ﴿ فَمَا الذين فُضّلُواْ ﴾ فيه على غيرهم ﴿ بِرَآدّى رِزْقِهِمْ ﴾ الذي رزقهم الله ﴿ على مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ على

مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية ﴿ فَهُمْ ﴾ أي المُلاّك والمماليك ﴿ فِيهِ ﴾ أي في الرزق ﴿ سَوَآءٌ ﴾ أي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف ويشاركونهم في التدبير، والفاء للدِلالة على ترتيب التساوي على الرد أي لا يردونه عليهم ردًّا مستتبعاً للتساوي، وإنما يردون عليهم منه شيئاً يسيراً فحيث لا يرضَون بمساواة مماليكِهم لأنفسهم وهم أمثالُهم في البشرية والمخلوقية لله عز سلطانُه في شيء لا يختصّ بهم بل يعُمهم وإياهم من الرزق الذي هم أُسوةٌ لهم في استحقاقه، فما بالُهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق إلا به من الألوهية والمعبوديةِ الخاصّة بذاته تعالى لذاته بعضَ مخلوقاته الذي هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثَلٌ ضُرب لكمال قباحةِ ما فعله المشركون تقريعاً عليهم كقوله تعالى: ﴿ هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أيمانكم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رزقناكم فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ الآية ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضةَ عليهم إلى شركائهم ويجحدوا كونَها من عند الله تعالى، أو حيث أنكروا أمثالَ هذه الحجج البالغةِ بعد ما أنعم الله بها عليهم، والباء لتضمين الجحودِ معنى الكفر نحو ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ والفاء للعطف على مقدر وهي داخلةٌ في المعنى على الفعل أي أيشركون به فيجحدون نعمتَه، وقرىء تجحدون على الخطاب، أو ليس الموالي برادّي رزقهم على مماليكهم بل أنا الذي

أرزقهم وإياهم فلا يحسبوا أنهم يعطونهم شيئاً وإنما هو رزقي أُجريه على أيديهم فهم جميعاً في ذلك سواءٌ لا مزيةَ لهم على مماليكهم ، ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة

(49/439)

الله ؟ فهو ردّ على زعم المفضَّلين أو على فعلهم المؤذِن بذلك أو ما المفضَّلون برادّي بعضِ فضلهم على مماليكهم فيتساووا في ذلك جميعاً مع أن التفضيل ليس إلا ليبلوَهم أيشكرون أم يكفرون ، ألا يعرِفون ذلك فيجحدون نعمةَ الله تعالى ؟ كأنه قيل : فلم يردوه عليهم ، والجملةُ الاسميةُ للدلالة على استمرارهم على عدم الرد . يحكى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما هم إخوانكم فاكسُوهم مما تلبَسون وأطعِموهم مما تَطعَمون " فما رؤيَ عبدُه بعد ذلك إلا ورداؤُه رداؤُه وإزارُه إزاره من غير تفاوت .

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أزواجا ﴾ لتأنَسوا بها وتقيموا بذلك جميعَ مصالِحكم ويكون أولادكم أمثالَكم ، وقيل : هو خلقُ حواءَ من ضِلْعِ آدمَ عليه الصلاة والسلام ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مّنْ أزواجكم ﴾ وضع الظاهرُ موضعَ المضمر للإيذان بأن المرادَ جعلَ لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره ﴿ بنيان ﴾ وبأن نتيجةَ الأزواج هو

التوالد ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ جمعُ حافد وهو الذي يسرع في الخِدمة والطاعة ، ومنه قولُ القانت : "وإليك نسعى ونحفد" أي جعل لكم خدماً يسرعون في خدمتكم وطاعِتكم .

(50/439)

وقيل : المرادُ بهم أولادُ الأولاد ، وقيل : البناتُ عبّر عنهن بذلك إيذاناً بوجه المنة بأنهن يخْدُمن البيوت أتَمَّ خدمة ، وقيل : أولادُ المرأة من الزوج الأول ، وقيل : البنون ، والعطفُ لاختلاف الوصفين ، وقيل : الأختان على البنات ، وتأخيرُ المنصوب في الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديمُ المجرور باللام على المجرور بمن للإيذان من أول الأمر بعَود منفعةِ الجعل إليهم إمداداً للتشويق وتقويةً له ، أي جعل لمصلحتكم مما يناسبكم أزواجاً وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبةٍ لكم بنين وحفَدة ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ، ومن للتبعيض إذ المرزوقُ في الدنيا أنموذجٌ لما في الآخرة ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو أن الأصنامَ تنفعهم وأن البحائرَ ونحوها حرامٌ والفاء في المعنى داخلةٌ على الفعل وهي للعطف على مقدر أي أيكفرون بالله الذي شأنُه هذا فيؤمنون بالباطل ؟ أو أبعد تحقّقِ ما ذُكر من نعم الله تعالى بالباطل أو أبعد تحققِ ما ذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه ﴿ وَبِنِعْمَتِ الله ﴾ تعالى الفائضةِ عليهم مما ذكر

ومما لا يحيط به دائرةُ البيان ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام ، وتقديمُ الصلة على الفعل للاهتمام أو لإيهام الاختصاص مبالغةً أو لرعاية الفواصل ، والالتفات إلى الغيبة للإيذان باستيجاب حالِهم للإعراض عنهم وصرفِ الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيباً لهم مما فعلوه .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

(51/439)

لعله عطفٌ على يكفرون داخلٌ تحت الإنكار التوبيخيّ ، أي أيكفرون بنعمة الله ويعبدون مِن دونه ﴿ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مّنَ السموات والأرض شَيْئاً ﴾ إنْ جُعل الرزقُ مصدراً فشيئاً نُصب على المفعولية منه أي ما لا يقدر على أن يرزقَهم شيئاً لا من السموات مطراً ولا من الأرض نباتاً ، وإن جُعل اسماً للمرزوق فنصْبُه على البدلية منه بمعنى قليلاً ، ومن السموات والأرض صفةٌ لرزقاً أي كائناً منهما ويجوز كونه تأكيداً للايملك أي لا يملك رزقاً ما شيئاً من الملك ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أن يملكوه إذ لا استطاعةَ لهم رأساً لأنها مَواتٌ لا حَراكَ بها ، فالضميرُ للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة على معنى أنهم مع كونهم أحياءً متصرفين في الأمور لا يستطيعون من ذلك شيئاً فكيف بالجماد الذي لا حِسّ به .

﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي أي لا تشركوا به شيئاً ، والتعبيرُ عن ذلك بضرب المثَل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشؤون ، فإن ضربَ المثلِ مبناه تشبيهُ حالة بحالة وقصةٍ بقصة أي لا تُشبّهوا بشأنه تعالى شأناً من الشؤون ، واللامُ مَثَلُها في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ ﴾ ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً لّلَّذِينَ ءامَنُواْ امرأة فِرْعَوْنَ ﴾ لا مثلُها في قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية ﴾ ونظائرِه ، والفاءُ للدلالة على ترتب النهي على ما عدّه من النعم الفائضةِ عليهم من جهته سبحانه ، وكونِ ما يشركون به تعالى بمعزل من أن يملِك لهم من إمطار السموات والأرض شيئاً من رزق ما ، فضلاً عما فُصّل من نعمة الخلق والتفضيل في الرزق ونعمةِ الأزواج والأولاد ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ ﴾ تعليلٌ للنهي المذكور ووعيدٌ على المنهيّ عنه ، أي إنه تعالى يعلم كنهَ ما تأتون وما تذرون وأنه في غاية العِظم والقبح ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك وإلا لما فعلتموه أو أنه تعالى يعلم كُنهَ الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم وقِفوا مواقفَ الامتثالِ لما ورد عليكم من الأمر والنهي ، ويجوز أن يُراد فلا

تضرِبوا لله الأمثالَ إن الله يعلم كيف تُضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوي الردى والضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(53/439)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

أي جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم ﴿ فَمَا الذين فُضّلُواْ ﴾ فيه على غيرهم وهم الملاك ﴿ برَادّى ﴾ أي بمعطي ﴿ رِزْقَهُمُ ﴾ الذي رزقهم إياه ﴿ على مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية ﴿ فَهُمْ ﴾ أي الملاك الذين فضلوا والمماليك ﴿ فِيهِ ﴾ أي في الرزق ﴿ سَوَآء ﴾ لا تفاضل بينهم ، والجملة الاسمية واقعة موقع فعل منصوب في جواب النفي أي لا يردونه عليهم فيستووا فيه ويشتركوا ، وجوز أن تكون في تأويل فعل مرفوع معطوف على قوله تعالى : ﴿ برَادّى ﴾ أي لا يردونه عليهم فلا يستوون ، والمراد بذلك توبيخ الذين يشركون به سبحانه بعض مخلوقاته وتقريعهم والتنبيه على كمال قبح فعلهم كأنه قيل : إنكم لا ترضون بشركة عبيدكم لكم بشيء لا يختص بكم بل يعمكم وإياهم من الرزق الذي هم أسوة لكم في

استحقاقه وهم أمثالكم في البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه فما بالكم تشركون به سبحانه وتعالى فيما لا يليق إلا به جل وعلا من الألوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذي هو بمعزل عن درجة الاعتبار ، وهو على ما صرح به جماعة على شاكلة قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أيمانكم مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رزقناكم فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ [الروم : 28] يعنون بذلك أنه مثل ضرب لكمال قباحة ما فعلوه ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ قرينة كما قيل على ذلك ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الامثال ﴾ [النحل : 74] والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر وهي داخلة في الحقيقة على الفعل أعني ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ ولتضمن الجحود معنى الكفر جيء بالباء في معموله المقدم عليه للاهتمام أو لإيهام الاختصاص مبالغة أو لرعاية رؤوس الآي ، والمراد بالنعمة قيل الرزق وقيل ولعله الأولى : ما يشمله وغيره

من النعم الفائضة عليهم منه سبحانه أي يشركون به تعالى فيجحدون نعمته تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا ما أفيض عليهم من الله تعالى من

النعم إلى شركائهم ويجحدوا كونها من عنده جل وعلا ، وجوز كون المراد بنعمة الله تعالى ما أنعم سبحانه به من إقامة الحجج وإيضاح السبل وإرسال الرسل عليهم السلام ولا نعمة أجل من ذلك ، فمعنى جحودهم ذلك إنكاره وعدم الالتفات إليه ، وصيغة الغيبة لرعاية "فما الذين" وقرأ أبو بكر عن عاصم.

وأبو عبد الرحمن.

والأعرج بخلاف عنه "تجحدون" بالتاء على الخطاب رعاية لبعضكم ، هذا وجوز أن يكون معنى الآية أن الله تعالى فضل بعضاً على بعض في الرزق وأن المفضلين لا يردون من رزقهم على من دونهم شيئاً وإنما أنا رازقهم فالمالك والمملوك في أصل الرزق سواء وإن تفاوتا كماً وكيفاً ، والمراد النهي عن الإعجاب والمن اللذين هما مقدمتا الكفران.

والعطف على مقدر أيضاً أي أيعجبون ويمنون فيجحدون نعمة الله تعالى عليهم ، وقيل : التقدير ألا يفهمون فيجحدون ؛ واختار في "الكشاف" أن المعنى أنه سبحانه جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهو بشر مثلكم وإخوانكم وكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تساووا في الملبس والمطعم كما يحكى عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون " فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت ، وحاصله أن الله تعالى فضلكم على أمثالكم فكان عليكم أن

تردوا من ذلك الفضل عليهم شكراً لنعمته تعالى لتكونوا سواء في ذلك الفضل ويبقى لكم فضل الإفضال والتفضل .

(55/439)

فالآية حث على حسن الملكة وأدمج أنهم وعبيدهم مربوبون بنعمته تعالى ذلك مع تقلبهم فيها ليكون تمهيداً لكفرانهم نعمه سبحانه السوابغ إلى أن جعلوا له عز وجل أنداداً لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً فعبدوها عبادته تعالى أو أشد وأسد ، وفي ذلك من البعد ما فيه ، والعطف فيه على مقدر أيضاً كألا يعرفون ذلك فيجحدون .

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ونوعكم وهو مجاز في ذلك ، والأشهر من معاني النفس الذات ولا يستقيم هنا كغيره فلذا ارتكب المجاز وهو إما في المفرد أو الجمع ، واستدل بذلك بعضهم على أنه لا يجوز للإنسان أن ينكح من الجن ﴿ أزواجا ﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم .

وأخرج غير واحد عن قتادة أن هذا خلق آدم وحواء عليهما السلام فإن حواء خلقت من نفسه عليه السلام ، وتعقب بأنه لا يلائمه جمع الأنفس والأزواج ، وحمله على التغليب تكلف غير مناسب للمقام ، وكذا كون المراد منهما بعض الأنفس وبعض الأزواج ﴾

وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أزواجكم ﴾ أي منها فوضع الظاهر موضع الضمير للإيذان بأن المراد جعل لكم منكم من زوجه لا من زوج غيره ﴿ بنيان ﴾ وبأن نتيجة الأزواج هو التوالد ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ جمع حافد ككاتب وكتبة، وهو من قولهم: حفد يحفد حفداً وحفوداً وحفداناً إذا أسرع في الخدمة والطاعة، وفي الحديث " إليك نسعى ونحفد " وقال جميل:

حفد الولائد حولهن وأسلمت . . .

بأكفهن أزمة الأجمال

وقد ورد الفعل لازماً ومتعدياً كقوله:

يحفدون الضيف في أبياتهم . . .

كرماً ذلك منهم غير ذل

وجاء في لغة كما قال أبو عبيدة أحفد أحفاداً، وقيل: الحفد سرعة القطع، وقيل: مقاربة الخطو، والمراد بالحفدة على ما روي عن الحسن.

والأزهري وجاء في رواية عن ابن عباس واختاره ابن العربي أولاد الأولاد، وكونهم من الأزواج حينئذٍ بالواسطة، وقيل: البنات عبر عنهن بذلك إيذاناً بوجه المنة فإنهن في

الغالب يخدمن في البيوت أتم خدمة ، وقيل : البنون والعطف لاختلاف الوصفين البنوة والخدمة ، وهو منزل منزلة تغاير الذات ، وقد مر نظيره فيكون ذلك امتناناً بإعطاء الجامع لهذه الوصفين الجليلين فكأنه قيل : وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون وهم حافدون أي جامعون بين هذين الأمرين ، ويقرب منه ما روي عن ابن عباس من أن البنين صغار الأولاد والحفدة كبارهم ، وكذا ما نقل عن مقاتل من العكس ، وكأن ابن عباس نظر إلى أن الكبار أقوى على الخدمة ومقاتل نظر إلى أن الصغار أقرب للانقياد لها وامتثال الأمر بها واعتبر الحفد بمعنى مقاربة الخط ، وقيل : أولاد المرأة من الزوج الأول ، وأخرجه ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

وأخرج الطبراني .

والبيهقي في سننه .

والبخاري في تاريخه .

والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنهم الأختان وأريد بهم على ما قيل أزواج البنات ويقال لهم أصهار ، وأنشدوا :

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت . . .

لها حفد مما يعد كثير

ولكنها نفس على أبية . . .

عيوني لأصهار اللئام تدور

والنصب على هذا بفعل مقدر أي وجعل لكم حفدة لا بالعطف على ﴿ بنيان ﴾ لأن القيد إذا تقدم يعلق بالمتعاطفين وأزواج البنات ليسوا من الأزواج.

وضعف بأنه لا قرينة على تقدير خلاف الظاهر وفيه دغدغة لا تخفى.

وقيل: لا مانع من العطف بأن يراد بالأختان أقارب المرأة كأبيها وأخيها لا أزواج البنات فإن إطلاق الأختان عليه إنما هو عند العامة وأما عند العرب فلا كما في "الصحاح"، وتجعل ﴿ مِنْ ﴾ سببية ولا شك أن الأزواج سبب لجعل الحفدة بهذا المعنى وهو كما ترى.

وتعقب تفسيره بالأختان والربائب بأن السياق للامتنان ولا يمتن بذلك.

وأجيب بأن الامتنان باعتبار الخدمة ولا يخفى أنه مصحح لا مرجح.

وقيل: الحفدة هم الخدم والأعوان وهو المعنى المشهور له لغة.

والنصب أيضاً بمقدر أي وجعل لكم خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم في أموركم.

وقال ابن عطية بعد نقل عدة أقوال في المراد من ذلك: وهذه الأقوال مبنية على أن كل أحد جعل له من زوجته بنون وحفدة ولا يخفى أنه باعتبار الغالب، ويحتمل أن يحمل قوله تعالى

: ﴿ من أزواجكم ﴾ على العموم والاشتراك أي جعل من أزواج البشر البنين والحفدة ويستقيم على هذا إجراء الحفدة على مجراها في اللغة إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحدهم عن حفدة اه ، وحينئذٍ لا يحتاج إلى تقدير لكن لا يخفى أن فيه بعداً ، وتأخير المنصوب في الموضعين عن المجرور لما مر غير مرة من التشويق ، وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للإيذان من أول الأمر بعود منفعة الجعل إليهم إمداداً للتشويق وتقوية له .

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ أي اللذائذ وهو معناها اللغوي ، وجوز أن يراد بالطيب ما هو متعارف في لسان الشرع وهو الحلال .

وتعقبه أبو حيان بأن المخاطبين بهذا الكفار وهم لا شرع لهم فتفسيره بذلك غير ظاهر .

وأجيب بأنهم مكلفون بالفروع كالأصول فيوجد في حقهم الحلال والحرام ، وأيضاً هم مرزوقون بكثير من الحلال الذي أكلوا بعضه ولا يلزم اعتقادهم للحل ونحوه ، و﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض لأن ما رزقوه بعض من كل الطيبات فإن ما في الدنيا منها بأسره أنموذج لما في الآخرة إذ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وما في الدنيا لم يصل كثير منه إليهم ، والظاهر على ما ذكرنا عموم الطيبات للنبات والثمار والحبوب والأشربة والحيوان ، وقيل : المراد بها ما أتى من غير نصب ، وقيل : الغنائم ، وليس بشيء .

﴿ أفبالباطل ﴾ وهو منفعة الأصنام وبركتها وما ذاك إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة ، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقدم للحصر فيفيد أن ليس لهم إيمان إلا بذلك كأنه شيء معلوم مستيقن ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللهِ ﴾ المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز مما ذكر ومما لا تحيط به دائرة البيان ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يستمرون على الكفر بها والإنكار لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول وذلك بإضافتها إلى أصنامهم ، وقيل : الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله تعالى ما أحل لهم .

والآية على هذا ظاهرة التعلق بقوله سبحانه : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ فقط دون ما قبله أيضاً والظاهر تعلقها بهما ، ومن ذلك يظهر حال ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج من أن الباطل الشيطان ونعمة الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم ، وما ذكرناه قد صرح بأكثره الزمخشري ، واستفادة الحصر من التقديم ظاهرة ، وأما كأنه شيء معلوم مستيقن فمستفاد من حصرهم الإيمان فيما ذكر لأن ذلك شأن المؤمن به لا سيما وقد حصروا ، وأيضاً المقابلة بالمشاهد المحسوس أعني نعمة الله تعالى دلت على تعكيسهم فيدل على أنهم جعلوا الموهوم بمنزلة المتيقن وبالعكس ، والفاء التي للتعكيس شديدة الدلالة على هذا الأمر والحمل على أنها للعطف على محذوف ليس بالوجه كذا في "الكشف" ، وفيه رد

على ما قيل إن في كلا التركيبين تأكيداً وتخصيصاً ، أما التخصيص فيهما فمن تقديم المعمول ، وأما التأكيد في الأول فلأن الفاء تستدعي معطوفاً عليه تقديره أيكفرون بالحق ويؤمنون بالباطل والكفر بالحق مستلزم للإيمان بالباطل فقد تكرر الإيمان بالباطل والتكرير يفيد التأكيد ، وأما التأكيد في الثاني فمن بناء ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ على هم المفيد لتقوى الحكم ، وجعل كلام الزمخشري مشيراً إلى ذلك كله فتدبر .

(59/439)

وما ذكر من أن تقديم الجار في التركيبين للتخصيص مما صرح به غير واحد ، والعلامة البيضاوي جوز ذلك لكنه أقحم الإيهام هنا نظير ما فعلناه فيما سلف آنفاً .

ووجه ذلك بأن المقام ليس بمقام تخصيص حقيقة إذ لا اختصاص لإيمانهم بالباطل ولا لكفرانهم بنعم الله سبحانه ولم يقحمه في تفسير نظير ذلك في العنكبوت فإن وجه بأنهم إذا آمنوا بالباطل كان إيمانهم بغيره بمنزلة العدم وإن النعم كلها من الله تعالى إما بالذات أو بالواسطة فليس كفرانهم إلا لنعمه سبحانه كما قيل لا يشكر الله من لا يشكر الناس بقي المخالفة .

وأجيب بأنه إذا نظر للواقع فلا حصر فيه وإن لوحظ ما ذكر يكون الحصر ادعائياً وهو

معنى الإيهام للمبالغة فلا تخالف ، وجوز أن يكون التقديم للاهتمام لأن المقصود بالإنكار الذي سيق له الكلام تعلق كفرانهم بنعمة الله تعالى واعتقادهم للباطل لا مطلق الإيمان والكفران ، وأن يكون لرعاية الفواصل وهو دون النكتتين ، والالتفات إلى الغيبة للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرف الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيباً لهم مما فعلوه .

وفي "البحر" أن السلمي قرأ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب وأنه روى ذلك عن عاصم ، والجملة فيما بعده على هذا كما استظهره في "البحر" مجرداً عن الكفرة غير مندرج في التقريع .

(60/439)

هذا بقي أنه وقع في العنكبوت (67) ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ بدون ضمير ووقع هنا ما سمعت بالضمير ، وبين الخفاجي سر ذلك بأنه لما سبق في هذه السورة قوله تعالى : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [النحل : 71] أي يكفرون كما مر فلو ذكر ما نحن فيه بدون الضمير لكانت الآية تكراراً بحسب الظاهر فأتى بالضمير الدال على المبالغة والتأكيد ليكون ترقياً في الذم بعيداً عن اللغوية ، ثم قال : وقيل إنه أجرى على عادة العباد

إذا أخبروا عن أحد بمنكر يجدون موجدة فيخبروا عن حاله الأخرى بكلام آكد من الأول ، ولا يخفى أن هذا إنما ينفع إذا سئل لم قيل : ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 67] بدون ضمير وقيل : ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ به ، وأما في الفرق بين ما هنا وما هناك فلا ، وقيل : آيات العنكبوت استمرت على الغيبة فلم يحتج إلى زيادة ضمير الغائب وأما الآية التي نحن فيها فقد سبق قبلها مخاطبات كثيرة فلم يكن بد من ضمير الغائب المؤكد لئلا يلتبس بالخطاب ، وتخصيص هذه بالزيادة دون ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ مع أنها الأولى بها بحسب الظاهر لتقدمها لئلا يلزم زيادة الفاصلة الأولى على الثانية ، واعترض عليه بأنه لا يخفى أنه لا مقتضى للزوم الغيبة ولا لبس لو ترك الضمير .

(61/439)

وقد يقال : إنما لم يؤت في آية العنكبوت بالضمير ويبنى الفعل عليه إفادة للتقوى استغناءً بتكرر ما يفيد كفر القوم بالنعم مع قربه من تلك الآية عن ذلك ، على أنه قد تقدم هناك ما تستمد منه الجملتان أتم استمداد وإن كان فيه نوع بعد ومغايرة ما وذلك قوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ بالباطل وَكَفَرُواْ بالله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ [العنكبوت : 52] ولما لم تكن آية النحل فيما ذكر بهذه المرتبة جيء فيها بما يفيد التقوى ، أو يقال : إنه لما كان سرد

النعم هنا على وجه ظاهر في وصولها إليهم والامتنان بها عليهم كان ذلك أوفق بأن يؤتى بما فيه بما ذكر، ولعل التعبير هنا بيكفرن وفيما قبل ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ [النحل : 71] لأن ما قبل كان مسبوقاً على ما قيل بضرب مثل لكمال قباحة ما فعلوه والجحود أوفق بذلك لما أن كمال القبح فيه أتم ولا كذلك فيما البحث فيه كذا قيل فافهم والله تعالى بأسرار كتابه أعلم.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ قال أبو حيان : هو استئناف اخبار عن حالهم في عبادة الأصنام وفيه تبيين لقوله تعالى : ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 72] وقال بعض أجلة المحققين : لعله عطف على ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل : 72] داخل تحت الإنكار التوبيخي أي أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه سبحانه ﴿ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مّنَ السموات والأرض شَيْئًا ﴾ أي ما لا يقدر أن يرزقهم شيئاً لا من السموات مطراً ولا من الأرض نباتاً فرزقاً مصدر، و﴿ شَيْئًا ﴾ نصب على المفعولية له وإلى ذلك ذهب أبو علي.

وغيره.

وتعقبه ابن الطراوة بأن الرزق هو المرزوق كالرعي والطحن والمصدر إنما هو الرزق بفتح الراء كالرعي والطحن.

ورد عليه بأن مكسور الراء مصدر أيضاً كالعلم وسمع ذلك فيه فصح أن يعمل في المفعول ، وقيل : هو اسم مصدر والكوفي يجوز عمله في المفعول فشيئاً مفعوله على رأيهم ، وجوز أن يكون بمعنى مرزوق و ﴿ شَيْئًا ﴾ بدل منه أي لا يملك لهم شيئاً .

وأورد عليه السمين .

وأبو حيان أنه غير مفيد إذ من المعلوم أن الرزق من الأشياء والبدل يأتي لأحد شيئين البيان والتأكيد وليسا بموجودين هنا .

وأجيب بأن تنوين ﴿ شَيْئًا ﴾ للتقليل والتحقير فإن كان تنوين ﴿ رِزْقًا ﴾ كذلك فهو مؤكد وإلا فمبين وحينئذٍ فيصح فيه أن يكون بدل بعض أو كل ولا إشكال .

وجوز أن يكون ﴿ شَيْئًا ﴾ مفعولاً مطلقاً ليملك أي لا يملك شيئاً من الملك و ﴿ مِنْ السموات ﴾ اما متعلق بقوله تعالى : ﴿ لاَ يَمْلِكُ ﴾ أو بمحذوف وقع صفة لرزقا أي رزقاً كائناً منهما ، واطلاق الرزق على المطر لأنه ينشأ عنه .

﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ جوز أن يكون عطفاً على صلة ﴿ مَا ﴾ وأن يكون مستأنفاً للأخبار عن حالة الآلهة ؛ واستطاع متعد ومفعوله محذوف هو ضمير الملك أي لا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم ، فالكلام تتميم لسابقه وفيه من الترقي ما فيه فلا يكون نفي استطاعة الملك بعد نفي ملك الرزق غير محتاج إليه ، وان جعل المفعول ضمير

الرزق كما جوزه في الكشاف يكون هذا النفي تأكيداً لما قبله .

وأورد عليه أنه قد قرر في المعاني أن حرف العطف لا يدخل بين المؤكد والمأكد لما بينهما من كمال الاتصال .

ودفع بأن ذلك غير مسلم عند النحاة وليس مطلقاً عند أهل المعاني ألا ترى قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 4 ، 5] نعم يرد عليه حديث أن التأسيس خير من التأكيد ، ويجوز ولعله الأولى أن يكون الفعل منزلاً منزلة اللازم فيكون المراد نفي الاستطاعة عنهم مطلقاً على حد يعطي ويمنع المعنى أنهم أموات لا قدرة لهم أصلاً فيكون تذييلاً للكلام السابق ، وفيه ما فيه على الوجه الأول وزيادة .

وجمع الضمير فيه وتوحيده في "لا يملك" لرعاية جانب اللفظ أولا والمعنى ثانياً فإن "ما" مفرد بمعنى الآلهة ومثل هذه الرعاية وارد في الفصيح وان أنكره بعضهم لما يلزمه من الإجمال بعد البيان المخالف للبلاغة فإنه مردود كما بين في محله ، وقد روعي أيضاً في التعبير حال معبوداتهم في نفس الأمر فإنها أحجار وجمدات فعبر عنها بما الموضوعة في المشهور لغير العالم وحالها باعتبار اعتقادهم فيها أنها آلهة فعبر عنها بضمير الجمع الموضوع لذوي العلم ،

هذا إذا كان المراد بما الأصنام، ولا يخفى عليك الحال إذا كان المراد بها المعبودات الباطلة مطلقاً ملكاً كانت أو بشراً أو حجراً أو غيرها.

وجوز أن يكون ضمير الجمع عائداً على الكفار كضمير ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ و﴿ مَا ﴾ على المعنى المشهور فيها على معنى أنهم مع كونهم أحياء متصرفين في الأمور لا يستطيعون من ذلك شيئاً فكيف بالجماد الذي لا حس له، فجملة ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ معترضة لتأكيد نفي الملك عن الآلهة والمفعول محذوف كما أشير إليه، وهذا وان كان خلاف الظاهر لكنه سالم عن مخالفة المشهور في العود على المعنى بعد مراعاة اللفظ.

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾

التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي، والفاء للدلالة على ترتيب النهي على ما عدد من النعم الفائضة عليهم منه تعالى وكون آلهتهم بمعزل من أن يملكوا لهم رزقاً فضلاً عما فضل، والأمثال جمع مثل كعلم، والمراد من الضرب الجعل فكأنه قيل: فلا تجعلوا لله تعالى الأمثال والأكفاء فالآية كقوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ [البقرة: 22] وهذا ما يقتضيه ظاهر كلام ابن عباس، فقد أخرج ابن جرير.

وابن المنذر.

وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال في الآية: يقول سبحانه لا تجعلوا معي إلهاً غيري فإنه لا إله غيري.

وجعل كثير الأمثال جمع مثل بالتحريك ، والمراد من ضرب المثل لله سبحانه الإشراك والتشبيه به جل وعلا من باب الاستعارة التمثيلية ، ففي الكشف إن الله تعالى جعل المشرك به الذي يشبهه تعالى بخلقه بمنزلة ضارب المثل فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة وذاتاً بذات كما ان ضارب المثل كذلك فكأنه قيل : ولا تشركوا بالله سبحانه ، وعدل عنه إلى المنزل دلالة على التعميم في النهي عن التشبية وصفاً وذاتاً ، وفي لفظ ﴿ الامثال ﴾ لمن لا مثال له أصلاً نعى عظيم عليهم بسوء فعلهم ، وفيه ادماج أن الأسماء توقيفية وهذا هو الظاهر لدلالة الفاء وعدم ذكر ضرب مثل منهم سابقاً ، وهذا الوجه هو الذي اختاره الزمخشري وكلام الحبر رضي الله تعالى عنه لا يأباه فقوله تاعلى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تعليل للنهي أي أنه تعالى يعلم كنه ما تفعلون وعظمه وهو سبحانه معاقبكم عليه أعظم العقاب وأنتم لا تعلمون كنهه وكنه عقابه فلذا صدر منكم وتجاسرتم عليه .

وجوز أن يكون المراد النهي عن قياس الله تعالى على غيره بجعل ضرب المثل استعارة للقياس ، فإن القياس الحاق شيء بشيء وهو عند التحقيق تشبيه مركب بمركب ، والفرق بينه وبين الوجه السابق قليل ، وأمر التعليل على حاله ، وجوز الزمخشري وغيره أن يكون المراد النهي عن ضرب الأمثال لله سبحانه حقيقة والمعنى فلا تضربوا لله تعالى الأمثال التي يضربها بعضكم لبعض ان الله تعالى يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ، ووجه التعليل ظاهر ، واللام على سائر الأوجه متعلقة بتضربوا وعزم ابن المنير تعلقها بالأمثال فيما إذا كان المراد التمثيل للإشراك والتشبيه ثم قال : كأنه قيل فلا تمثلوا الله تعالى ولا تشبهوه ، وتعلقها بتضربوا على هذا الوجه ثم قال كأنه قيل فلا تمثلوا لله تعالى الأمثال فإن ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم ليبين له ما خفي عنه والله تعالى هو العالم وأنتم لا تعلمون فتمثيل غير العالم للعالم عكس للحقيقة ، وليس بشيء ؛ والمعنى الذي ذكره على تقدير تعلقه بالفعل خلاف ما يقتضيه السياق وان كان التعليل عليه أظهر ، ومن هنا قال العلامة المدقق في الكشف في ذلك بعد أن قال إنه نهى عن ضرب الأمثال حقيقة : كأنه أريد المبالغة في أن لا يلحدوا في أسمائه تعالى وصفاته فإنه إذا لم يجز ضرب المثل والاستعارات يكفي فيها سبه ما والإطلاق لتلك العلاقة كاف فعدم جواز إطلاق الأسماء من غير سبق تعليم منه تعالى وإثبات الصفات أولى وأولى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكاني :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) ﴾

لما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان ، وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة ، وخصائص القدرة القاهرة ، أتبعه بعجائب خلق الإنسان ، وما فيه من العبر فقال : ﴿ والله خَلَقَكُمْ ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثُمَّ يتوفاكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ يقال : رذل يرذل رذالة ، والأرذل والرذالة : أردأ الشيء وأوضعه .

قال النيسابوري : واعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع : أولاها سنّ النشوّ ، وثانيها : سنّ الوقوف ، وهو سنّ الشباب ، وثالثها : سنّ الانحطاط اليسير ، وهو سنّ الكهولة ، ورابعها : سنّ الانحطاط الظاهر ، وهو سنّ الشيخوخة .

قيل : وأرذل العمر هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف ، وهو أن يصير بمنزلة الصبيّ الذي لا عقل له ؛ وقيل : خمس وسبعون سنة ، وقيل : تسعون سنة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ [التين :

4 – 5] ثم علل سبحانه ردّ من يرده إلى أرذل العمر بقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ ﴾ كان قد حصل له ﴿ شَيْئًا ﴾ من العلم ، لا كثيراً ولا قليلاً ، أو شيئاً من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم .

وقيل : المراد : بالعلم هنا العقل ، وقيل : المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك .

(67/439)

ثم لما بين سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر ، ذكر طرفاً من أحواله ، لعله يتذكر عند ذلك ، فقال : ﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِى الرزق ﴾ فجعلكم متفاوتين فيه ، فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلفة من بني آدم ، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلاّ بسؤال الناس والتكفف لهم ، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها ، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال ، جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوّة البدن وضعفه ، والحسن والقبح ، والصحة والسقم ، وغير ذلك من الأحوال ، وقيل : معنى الآية : أن الله سبحانه أعطى

الموالي أفضل مما أعطى مماليكهم، بدليل قوله: ﴿ فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ أي: فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برادّي رزقهم الذي رزقهم الله إياه على ما ملكت أيمانهم من المماليك ﴿ فَهُمْ ﴾ أي: المالكون والمماليك ﴿ فِيهِ ﴾ أي: في الرزق ﴿ سَوَآءٌ ﴾ أي: لا يردّونه عليهم بحيث يساوونهم، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوي مترتب على الترادّ، أي: لا يردّونه عليهم رداً مستتبعاً للتساوي، وإنما يردّون عليهم منه شيئاً يسيراً، وهذا مثل ضربه الله سبحانه بعبدة الأصنام، أي: إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء، ولا ترضون بذلك، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء.

(68/439)

والحال أن عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم، فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه؟ أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة؟ ذكر معنى هذا ابن جرير، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أيمانكم مّن شُرَكَاء فِيمَا رزقناكم ﴾ [الروم: 28] وقيل: إن الفاء في ﴿ فهم فيه سواء

﴿ بمعنى حتى ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ تجحدون ﴾ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك ، والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك .

وقد قرىء ﴿ يجحدون ﴾ بالتحتية والفوقية .

قال أبو عبيدة ، وأبو حاتم : وقراءة الغيبة أولى ، لقرب المخبر عنه ، ولأنه لو كان خطاباً ، لكان ظاهره للمسلمين ، والاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر ، أي : يشركون به ، فيجحدون نعمته ، ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّي رزقهم على مماليكم ، بل أنا الذي أرزقهم وإياهم ، فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئاً ، وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم ، وهم جميعاً في ذلك سواء ، لا مزية لهم على مماليكهم ، فيكون المعطوف عليه المقدّر فعلاً يناسب هذا المعنى ، كأن يقال : لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله .

ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال : ﴿ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال المفسرون : يعني النساء فإنه خلق حوّاء من ضلع آدم .

أو المعنى : خلق لكم من جنسكم أزواجاً لتستأنسوا بها ، لأن الجنس يأنس إلى جنسه ، ويستوحش من غير جنسه ، وبسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي هو المقصود بالزواج ، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أزواجكم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ الحفدة : جمع حافد ، يقال : حفد يحفد حفداً وحفوداً : إذا أسرع ، فكل من أسرع في الخدمة ، فهو حافد ، قال أبو عبيد : الحفد : العمل والخدمة .

قال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب : الخدم ، ومن ذلك قول الشاعر ، وهو الأعشى :

كلفت مجهولنا نوقا يمانية . . . إذ الحداة على أكتافها حفدوا

أي : الخدم والأعوان .

وقال الأزهري : قيل : الحفدة أولاد الأولاد .

وروي عن ابن عباس ، وقيل : الأختان .

قاله ابن مسعود ، وعلقمة ، وأبو الضحى ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي ، ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت . . . لها حفد مما تعدّ كثير

ولكنها نفس عليّ أبية . . . عيوف لأصهار اللئام قذور

وقيل : الحفدة الأصهار .

قال الأصمعي : الختن : من كان من قبل المرأة ، كابنها ، وأخيها وما أشبههما .

والأصهار منهما جميعاً .

يقال : أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر .

وقيل : هم أولاد امرأة الرجل من غيره .

وقيل : الأولاد الذين يخدمونه .

وقيل : البنات الخادمات لأبيهنّ .

ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد ، لأنه سبحانه امتنّ على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة .

فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين ، وإن كان يجوز أن يكون المعنى : جعل لكم من أزواجكم بنين ، وجعل لكم حفدة .

ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم ، وبالحفدة من يخدم الأب منهم ، أو يراد بالحفدة البنات فقط .

ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلاّ إذا كان تقدير الآية : وجعل لكم من أزواجكم بنين ، ومن البنين حفدة .

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ التي تستطيبونها وتستلذونها ، و " من " للتعبيض ؛ لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلاّ في الجنة ، ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ والاستفهام للإنكار التوبيخي ، والفاء للعطف على مقدّر ، أي : يكفرون بالله ، فيؤمنون بالباطل ، وفي تقدّم ﴿ بالباطل ﴾ على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به .

والباطل : هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع .

وقيل : الباطل ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما .

قرأ الجمهور ﴿ يؤمنون ﴾ بالتحتية ، وقرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ أي : ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر .

وفي تقديم النعمة ، وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك ، لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ هو معطوف على ﴿ يكفرون ﴾ داخل تحت الإنكار التوبيخي ، إنكاراً منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام ، وهي لا تنفع ولا تضرّ ، ولهذا قال ﴿ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السموات والأرض شَيْئًا ﴾ قال الأخفش : إن ﴿ شيئًا ﴾ بدل من الرزق .

وقال الفراء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه ، فجعل ﴿ رزقاً ﴾ مصدراً عاملاً في ﴿ شيئًا ﴾ ، والأخفش جعله اسماً للرزق .

وقيل : يجوز أن يكون تأكيداً لقوله : ﴿ لا يملك ﴾ أي : لا يملك شيئاً من الملك ، والمعنى : أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقاً ، أيّ رزق ، و ﴿ من السموات والأرض ﴾ صفة لرزق ، أي : كائناً منهما ، والضمير في ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ راجع إلى " ما " ، وجمع جمع العقلاء بناءً على زعمهم الباطل ، والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعة التملك بطريق من الطرق .

فبين سبحانه أنها لا تملك ولا تستطيع .

(71/439)

وقيل : يجوز أن يكون الضمير في ﴿ يستطيعون ﴾ للكفار ، أي : لا يستطيع هؤلاء الكفار ، مع كونهم أحياء متصرّفين ، فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرّف ؟

ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه ، فقال : ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ فإن ضارب المثل يشبه حالاً بحال وقصة بقصة .

قال الزجاج : لا تجعلوا لله مثلاً لأنه واحد لا مثل له ، وكانوا يقولون : إن إله العالم أجلّ من أن يعبده الواحد منا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك ، وعلل النهي بقوله : ﴿

إِنَّ اللَّهَ ﴾ عليم ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ما عليكم من العبادة ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما في عبادتها من سوء العاقبة، والتعرّض لعذاب الله سبحانه، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخاطر باطل وخيال مختلّ، ويجوز أن يراد فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك.

وقد أخرج ابن جرير عن عليّ في قوله: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ العمر ﴾ قال: خمس وسبعون سنة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال: هو الخرف.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: من قرأ القرآن، لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة عن طاوس، قال: العالم لا يخرف.

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح وغيره أنه كان يتعوّذ بالله أن يردّ إلى أرذل العمر.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ قال: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هذا مثل لآلهة الباطل مع الله.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال: خلق آدم، ثم خلق زوجته منه.

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قال: الحفدة: الأختان.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: الحفدة: الأصهار، وأخرجا عنه، قال: الحفدة: الولد وولد الولد.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحفدة بنو البنين.

وأخرج ابن جرير، عن أبي جمرة قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قال: من أعانك فقد حفدك، أما سمعت الشاعر يقول:

حفد الولائد حولهنّ وأسلمت . . . بأكفهن أزمة الأجمال

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً، قال: الحفدة: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ قال : الشرك .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : هو الشيطان ﴿ وبنعمة الله ﴾ قال : محمد .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ الآية ، قال : هذه الأوثان التي تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها ﴿ رِزْقاً مّنَ السموات والأرض ﴾ ولا خيراً ولا حياة ولا نشوراً ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لله الامثال ﴾ فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ يعني : اتخاذهم الأصنام .

يقول : لا تجعلوا معي إلهاً غيري ، فإنه لا إله غيري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

أظهر التفسيرات في هذه الآية الكريمة : أن الله ضرب فيها مثلاً للكفار ، بأنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق ، ومن ذلك تفضيله المالكين على المملوكين في الرزق ، وأن المالكين لا يرضون لأنفسهم ان يكون المملوكون شركاءهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء وجميع نعم الله . ومع هذا يجعلون الأصنام شركاء لله في المملوكون شركاءهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء وجميع نعم الله . ومع هذا يجعلون الأصنام شركاء لله في حقه على خلقه ، الذي هو إخلاص العبادة له وحده ، اي إذا كنتم لا ترضون بإشراك عبيدكم معكم في اموالكم ونسائكم - فكيف تشركون معي في سلطاني ! .

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِن مَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ مِن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الروم : 28] الآية . ويؤيده أن " ما " في وقوله ﴿ فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ ﴾ نافيه . اي ليسوا برادي رزقهم عليهم حتى يسووهم مع أنفسهم اه .

فإذا كانوا يكرهون هذا لأنفسهم - فكيف يشركون الأوثان مع الله في عبادته ! مع اعترافهم بأنها ملكه ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

وهذا الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل : بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق ، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة . قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] الآية ، وقال : ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقَدِرُ ﴾ [الرعد : 26] ، وقال : ﴿ عَلَى الموسع قَدَرُهُ وَعَلَى المقتر قَدْرُهُ ﴾ [البقرة : 236] إلى غير ذلك من الآيات .

وفي معنى هذا الآية الكريمة قولان آخران :

أحدهما - أن معناها أنه جعلكم متفاوتين في الرزق . فرزقكم أفضل مما رزق مما ليككم وهو بشر مثلكم وإخوانكم . فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تساووا في الملبس والمطعم . كما ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : أنه أمر مالكي العبيد " أن يطعموهم مما يطعمون ، ويكسوهم مما يلبسون " . وعلى هذا القول فقوله تعالى : ﴿ فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ لوم لهم ، وتقريع على ذلك .

القول الثاني - أن معنى الآية - أنه جلَّ وعلا هو رازق المالكين والمملوكين جميعاً . فهم في

رزقه سواء ، فلا يحسبن المالكون أنهم يريدون على مما ليكهم شيئاً من الرزق ، فإنما ذلك رزق الله يجريه لهم على ايديهم . والقول الأول هو الأظهر وعليه جميهو العلماء ، ويدل له القرآن كما بينا . والعلم عند الله تعالى .

(76/439)

وقوله ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ إنكار من الله عليهم جحودهم بنعمته . لأن الكافر يستعمل نعم الله في معصية الله ، فيستعين بكل ما أنعم به عليه على معصيته ، فإنه يرزقهم ويعافيهم ، وهم يعبدون غيره . وجحد : تتعدى بالباء في اللغة العربية . كقوله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ [النمل : 14] الآية ، وقوله : ﴿ فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف : 51] الجحود بالنعمة هو كفرانها .

قوله تعالى : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه امتن على بني آدم أعظم مِنَّة بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً

للذكور ، وهذا من أعظم الآيات الدالة من بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً

للذكور ، وهذا ن أعظم المنن ، كما ، ه من أعط الآيات الدالة على أنه جل وعلا هو

المستحق أن يعبد وحده .

وأوضح في غير هذا الموضع : أن هذه نعمة عظيمة ، وأنها من آياته جل وعلا . كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : 21] وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 36-39] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : 189] الآية .

(77/439)

واختلف العلماء في المراد بالحفدة في هذه الآية الكريمة . فقال جماعة من العلماء الحفدة : أولاد الأولاد . أي وجعل لكم من أزواجكم بنين ، ومن البنين حفدة . وقال بعض اللعلماء : الحفدة الأعوان والخدم مطلقاً . ومنه قول جميل : -

حفد الولائد حولهن وأسلمت . . . بأكفهن أزمة الأجمال

أي أسرعت الولائد الخدمة ، والولائد الخدم . الواحدة وليدة ، ومنه قول الأعشى :

كلفت مجهولها نوقاً يمانية . . . إذا الحداة على أكشائها حفدوا

اي أسرعوا في الخدمة . ومنه قوله في سورة الحفد التي نسخت : وإليك نسعى ونحفد .

أي نسرع في طاعتك . وسورة الخلع وسورة الحفد اللتان نسختا يسن عند المالكية القنوت بهما في صلاة الصبح كما هو معروف .

وقيل : الحفدة الأختان ، وهم أزواج البنات ، ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت . . . لها حفد مما يعد كثير

ولكنها نفس علي أبية . . . عيوف لإصهار اللئام قذور

والقذور : التي تتنزه عن الوقوع فيما لا ينبغي ، تباعداً عن التدنس بقذره .

قال مقيده عفا الله عنه : الحفدة : جمع حافد ، اسم فاعل من الحفد وهو الإسراع في الخدمة والعمل . وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة قول بعض العلماء في الآية . فنبن ذلك .

وفي هذه الآية الكريمة قرينة دالة على أن الحفدة أولاد الأولاد . لأن قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ دليل ظاهر على اشتراك البنين والحفدة في كونهم من أزواجهم ، وذلك دليل على ، هم كلهم من أولاد أزواجهم . ودعوى أن قوله ﴿ وحفدةً ﴾ معطوف على قوله ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ غير ظاهرة .

كما أن دعوى أنهم الأختان ، وأن الأختان أزواج بناتهم ، وبناتهم من أزواجهم ، وغير ذلك من الأقوال – كله غير ظاهر . وظاهر القرآن هو ما ذكر ، وهو اختيار ابن العربي المالكي والقرطبي وغيرهما . ومعلوم : أن أولاد الرجل ، وأولاد أولاده : من خدمه المسرعين في خدمته عادة . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

في قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ الآية – رد على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها . حتى روي أن عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك تزوج سعلاة منم ، وكان يخبؤوا عن سنا البرق لئلا تراه فتنفر . فلما كان في بعض الليالي لمع البرق وعاينته السعلاة ، فقالت : عمرو ونفرت . فلم يرها ابداً . ولذا قال علباء بن أرقم يهجو أولاد عمرو المذكور :

ألا لحى الله بني السعلاة . . . عمرو بن يربوع لئام النات

ليسوا بأعفاف ولا أكيات . . . ابدلت فيه السين تاء أيضاً . وقال المعري يصف مراكب إبل متغربة عن الأوطان ، إذا رأت لمعان البرق تشتاق إلى أوطانها . فزعم أنه يستر عنها

لبرق لئلا يشوقها إلى أوطانها كما كان عمرو يستره عن سعلاته :

والسعلاة : عجوز الجن . وقد روي منحديث أبي هريرة : ان النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " أحد أبوي بلقيس كان جِنّيًّا " .

قال صاحب الجامع الصغير : أخرجه ابو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه في التفسير ، وابن عساكر : وقال شارحه المنَاوي : في إسناده سعيد بن بشر قال في الميزان عن ابن معين : ضعيف . وعن ابن مسهر : لم يكن ببلدنا أحفظ منه ، وهو ضعيف منكر الحديث ، ثم ساق من مناكيره هذا الخبر ه . وبشير بن نهيك أورده الذهبي في الضعفاء . وقال أبو حاتم : لا يحتج به . ووثقه النسائي . انتهى .

(79/439)

وقال المناوي في شرح حديث " أحد أبوي بلقيس جنياً " قال قتادة : ولهذا كان مؤخر قدميها كحافر الدابة . وجاء في آثار : أن الجني الأم . وذلك أن أباها ملك اليمن خرج ليصيد فعطش ، فرفع له خباء فيه شيخ فاستسقاه ، فقال : يا حسنة اسقي عمك . ففخرجت كأنها شمس بيدها كأس من ياقوت . فخطبها من أبيها ، فذكر أنه جني ، وزوجها منه بشرط أنه إن سألها عن شيء عملته فهو طلاقها . فأتت منه بولد ذكر ، ولم

يذكر قبل ذلك ، فذبحته فكرب لذلك ، وخاف أن يسألها فتبين منه . ثم أتت ببلقيس فأظهرت البشر فاغتم فلم يملك ان سألها ، فقالت : هذا جزائي منك ! باشرت قتل ولدي من أجلك ! وذلك أن أبي يسترق السمع فسمع الملائكة تقول : إن الولد إذا بلغ الحلم ذبحك ، ثم استرق السمع في هذه فسمعهم يعظمون شأنها ، ويصفون ملكها ، وهذا فراق بيني وبينك . فلن يرها بعد . هذا محصول ما رواه ابن عساكر عن يحيى الغساني اه من شرح المنَاوي للجامع الصغير .

وقال القرطبي في تفسيره " سورة النحل " : كان أبو بلقيس وهو السرح بن الهداهد بن شراحي ، ملكاً عظيم الشأن ، وكان يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفأ لي . وأبي أن يتزوج منهم ، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن . فولدت له بلقمة وهي بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها .

وقال أبو هريرة : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : "كان أحد ابوي بلقيس جنياً " - إلى أن قال : إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيراً لملك عات ، يغتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوج . فصحب مرة في الطريق رجلاً لا يعرفه فقال : هل لك من زوجة ؟ فقال : لا اتزوج أبداً . فإن ملك بلدنا يغتصب الناسر من أزواجهن . فقال : لئن تزوجت ابنتي لا يغتصبها أبداً . قال : بل يغتصبها ! قال : إنا قوم من الجن لا يقدر علينا . فتزوج ابنته فولدت له بلقيس - غلى غير ذلك من الروايات .

وقال القرطبي ايضاً : وروى وهيب بن جرير بن حازم ، عن الخليل بن أحمد ، عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس من الجن ، يقال لها : بلعمة بنت شيصان .

قال مقيده عفا الله عنه : الظاهر أن الحديث الوارد في كون أحد أبوي بلقيس جنياً ضعيف ، وكذلك الآثار الواردة في ذلك ليس منها شيء يثبت .

مسألة

اختلف العلماء في جواز المناكحة بين بني آدم والجن . فمنعها جماعة من أهل العلم ، وأباحها بعضهم .

قال المناوي (في شرح الجامع الصغير) : ففي الفتاوى السراجية للحنفية : لا تجوز المناكحة بين الإنس والجن وإنسان الماء . لاختلاف الجنس . وفي فتاوي البارزي من الشافعية : لا يجوز التناكح بينهما . ورجح ابن العماد جوازه اه .

وقال الماوردي : وهذا مستنكر للعقول . لتباين الجنسين ، واختلاف الطبعين . إذا الآدمي جسماني ، والجني روحاني . وهذا من صلصال كالفخار ، وذلك من مارج من نار ، والامتزاج مع هذا التباين مدفوع ، والتناسل مع هذا الاختلاف ممنوع اه .

وقال ابن العربي المالكي : نكاحهم جائز عقلاً . فإن صح نقلاً فبها ونعمت .

قال مقيده عفا الله عنه : لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم نصاً يدل على جواز مناكحة الإنس الجن ، بل الذي يستروح من ظواهر الايات عدم جوازه .

فقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [النحل : 72] الآية . ممتناً على بني آدم بأن أزواجهم من نوعهم وجنسهم – يفهم منه أنه كا جعل لهم ازواجاً تباينهم كمباينة الإنس والجن ، وهو ظاهر . ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : 21] . فقوله : ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجا ﴾ في معرض الامتنان – يدل على أ ، ه ما خلق لهم أزواجاً من غير أنفسهم .

(81/439)

ويؤيد ذلك ما تقر في الأصول من " أن النكرة في سياق الامتنان تعم " فقله : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ جمع منكر في سياق الامتنان فهويعم ، وإذا عم دل ذلك على حصر الأزواج المخلوقة لنا فيما هو من أنفسنا ، أي من نوعنا وشكلنا . مع أن قوماً من أهل الأصول زعموا " أن الجموع المنكرة في سياق الإثبات من صيغ العموم " . والتحقيق أنها في

سياث الإثبات لا تعم ، وعليه درج في مراقي السعود حيث قال في تعداده للمسائل التي عدم العموم فيها أصح :

منه منكر الجمع عرفا . . . وكان والذي عليه انعطفا

اما في سياق الامتنان فالنكرة تعم . وقد تقرر في الأصول " أن النكرة في سياق الامتنان تعم " ، كقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السماَءِ مَاَءً طَهُوراً ﴾ [الفرقان : 48] اي فكل ماء نازل من السماء طهور وكذلك النكرة في سياق النفي أو الشرط أو النهي . كقوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] ، وقوله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين ﴾ [التوبة : 6] الآية ، وقوله : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] الآية . ويستأنس لهذا بقوله : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : 166] فإنه يدل في الجملة على أن تركهم ما خلق الله لهم من أزواجهم ، وتعديه إلى غير يستوجب الملام ، وإن كان أصل التوبيخ والتقريع على فاحشة اللواط . لأن أول الكلام ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [الشعراء : 165-166] فإنه وبخهم على أمرين : أحدهما - إتيان الذكور . والثاني - ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم .

وقد دلت الآيات المتقدمة على أن ما خلق لهم من أزواجهم، هو الكائن من أنفسهم. أي من نوعهم وشكلهم. كقوله: ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾، وقوله: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ [الروم: 21]، فيفيد أنه لم يجعل لهم أزواجاً من غير أنفسهم. والعلم عند الله تعالى.

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون (73) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ان الكفار يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات بإنزال المطر، ولا من الأرض بإنبات النبات. وأكد عجز معبوداتهم عن ذلك بأنهم لا يستطيعون، أي لا يملكون أن يرزقوا. والاستطاعة منفية عنهم أصلاً. لأنهم جماد ليس فيه قابلية استطاعة شيء.

ويفهم من الآية الكريمة: أنه لا يصح ان يعبد إلا من يرزق الخلق. لأن أكلهم رزقه، وعبادتهم غيره كفر ظاهر لكل عاقل. وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية الكريمة بينه جل وعلا في

مواضع أخر، كقوله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فابتغوا عِندَ اللهِ الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 17]، وقوله: ﴿ أَمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: 21]، وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [الذاريات: 56-58] وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السماوات والأرض وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: 14]، وقوله: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ والعاقبة للتقوى ﴾ [طه: 132]، وقوله: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [فاطر: 3] الآية، وقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [يونس: 31] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه

في قوله ﴿ شَيْئًا ﴾ في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من الإعراب:

الأول – أنه قوله ﴿ رزقاً ﴾ مصدر ، وأن ﴿ شيئاً ﴾ مفعول به لهذا المصدر . اي ويعبدون من دون الله ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً من الرزق . ونظير هذا الإعراب قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 14-15] فقوله ﴿ يَتِيماً ﴾ مفعول به للمصدر الذي هو إطعام . اي أن يطعم يتيماً ذا مقربة . ونظيره من كلام العرب قوله المرار بن منقذ التميمي : بضرب بالسيوف رؤوس قوم أزلنا هامهن عن القميل

فقوله " رؤوي قوم " مفعول به للمصدر المنكر الذي هو قوله " بضرب " بناء على ان المراد بالرزق هو ما يرزقه اله عباده . لا المعنى المصدري .

الوجه الثالث – ان يكون قوله ﴿ شيئاً ﴾ ما ناب عن المطلق من قوله ﴿ يملك ﴾ أي لا يملك شيئاً من الملك ، بمعنى لا يملك ملكاً قليلاً أن يرزقهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ .

نهى جل وعلا في هذه الآية الكريمة خلقه أن يضربوا له الأمثال . اي يجعلوا به اشباهاً ونظراء من خلقه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً !

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الاخلاص : 4] ، إلى غير ذلك من الآيات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

هذا من الاستدلال على أن التّصرف القاهر لله تعالى .

وذلك أنه أعقب الاستدلال بالإحياء والإماتة وما بينهما من هرم بالاستدلال بالرّزق .

ولما كان الرّزق حاصلاً لكل موجود بُني الاستدلال على التّفاوت فيه بخلاف الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ [سورة النحل : 70] .

ووجه الاستدلال به على التصرّف القاهر أن الرزق حاصل لجميع الخلق وأن تفاضل الناس فيه غير جار على رغباتهم ولا على استحقاقهم ؛ فقد تجد أكيس الناس وأجودهم عقلاً وفهماً مقتّراً عليه في الرزق ، وبضدّه ترى أجهل الناس وأقلّهم تدبيراً موسّعاً عليه في الرزق ، وكلا الرجلين قد حصل له ما حصل قهراً عليه ، فالمقتّر عليه لا يدري أسباب التّقتير ، والموسّع عليه لا يدري أسباب تيسير رزقه ، ذلك لأن الأسباب كثيرة متوالدة ومتسلسلة ومتوغّلة في الخفاء حتى يُظن أن أسباب الأمرين مفقودة وما هي بمفقودة ولكنها غير محاط بها .

ومما ينسب إلى الشافعي:

ومن الدّليل على القضاء وكونه . . .

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ولذلك أسند التفضيل في الرزق إلى الله تعالى لأن أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر ، والحكيم لا يستفزّه ذلك بعكس قول ابن الراوندي:

كم عاقل عاقل أعيَت مذاهبه . . .

وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة . . .

وصيّر العالم النّحرير زنديقا

وهذا الحكم دلّ على ضعف قائله في حقيقة العلم فكيف بالنّحريرية .

وتفيد وراء الاستدلال معنى الامتنان لاقتضائها حصول الرزق للجميع .

فجملة والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ مقدمة للدّليل ومنّة من المنن لأن التفضيل في الرزق يقتضي الإنعام بأصل الرزق .

وليست الجملة مناط الاستدلال ، إنما الاستدلال في التمثيل من قوله تعالى : ﴿ فما الذين فضلوا برادي رزقهم ﴾ الآية .

والقول في جعل المسند إليه اسم الجلالة وبناء المسند الفعلي عليه كالقول في قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ [سورة النحل : 70] .

والمعنى : الله لا غيره رزقكم جميعاً وفضّل بعضكم على بعض في الرزق ولا يسعكم إلا الإقرار بذلك له .

وقد تمّ الاستدلال عند قوله تعالى : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ بطريقة الإيجاز ، كما قيل : لمحة دالة .

وفرع على هذه الجملة تفريع بالفاء على وجه الإدماج قولُه تعالى : ﴿ فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ﴾ .

وهو إدماج جاء على وجه التمثيل لتبيان ضلال أهل الشرك حين سَوّوا بعض المخلوقات بالخالق فأشركوها في الإلهية فساداً في تفكيرهم .

وذلك مثل ما كانوا يقولون في تلبية الحجّ (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) .

فمثّل بطلان عقيدة الإشراك بالله بعضَ مخلوقاته بحالة أهل النّعمة المرزوقين ، لأنهم لا يرضون أن يُشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم فكيف يسوّون بالله عبيده في صفته العظمى وهي الإلهيّة .

ورشاقة هذا الاستدلال أن الحالتين المشبّهتين والمشبّه بهما حالتا مولى وعبد ، كما قال

تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ [سورة الروم : 28] .

والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف ، ثم زيادة التشنيع بأنهم رضوا لله ما يرضونه لأنفسهم ، كقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ إلى قوله : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [سورة النحل : 57 ، 60] .

وقرينة التمثيل والمقصد منه دلالة المقام .

وقوله تعالى : ﴿ فما الذين فضلوا ﴾ نفيٌ .

و(ما) نافية ، والباء في ﴿ برادي رزقهم ﴾ الباءُ التي تزاد في خبر النفي بـ(ما) و(ليس) .

والرادّ : المعطي .

(87/439)

كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم " والخُمس مردود عليكم " أي فما هم بمعطين رزقهم لعبيدهم إعطاء مشاطرة بحيث يسوّونهم بهم ، أي فما ذلك بواقع .

وإسناد الملك إلى اليمين مجاز عقلي ، لأن اليمين سبب وَهمِي للمِلك ، لأن سبب الملك إما

أسر وهو أثر للقتال بالسيف الذي تمسكه اليد اليمنى ، وإما شراء ودفع الثمن يكون باليد اليمنى عرفاً ، فهي سبب وهَمي ناشىء عن العادة .

وفرعت جملة ﴿ فهم فيه سواء ﴾ على جملة ﴿ فما الذين فضلوا برادي رزقهم ﴾ ، أي لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه ، أي لا يقع ذلك فيقع هذا .

فموقع هذه الجملة الإسميّة شبيه بموقع الفعل بعد فاء السببية في جواب النفي .

وأما جملة ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ فصالحة لأن تكون مفرّعة على جملة ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ باعتبار ما تضمّنته من الامتنان ، أي تفضّل الله عليكم جميعاً بالرزق أفبنعمة الله تجحدون ، استفهاماً مستعملاً في التوبيخ ، حيث أشركوا مع الذي أنعم عليهم آلهة لا حظّ لها في الإنعام عليهم .

(وذلك جحود النعمة كقوله تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ [سورة العنكبوت : 17] .

وتكون جملة ﴿ فما الذين فضلوا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فهم فيه سواء ﴾ معترضة بين الجملتين .

وعلى هذا الوجه يكون في ﴿ يجحدون ﴾ على قراءة الجمهور بالتحتية التفات من الخطاب إلى الغيبة .

ونكتته أنهم لما كان المقصود من الاستدلال المشركين فكانوا موضع التوبيخ ناسب أن يعرض

عن خطابهم وينا لهم المقصود من التوبيخ بالتعريض كقول:

أبى لك كسب الحمد رأي مقصّر . . .

ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثّته على الخير مرّة . . .

عصاها وإن همّت بشر أطاعها

ثم صرّح بما وقع التعريض به بقوله : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ .

(88/439)

وقرأ أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب ﴿ تجحدون ﴾ بالمثناة الفوقية على مقتضى الظاهر ويكون الاستفهام مستعملاً في التحذير .

وتصلح جملة ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ أن تكون مفرّعة على جملة ﴿ فما الذين فضلوا برادي رزقهم ﴾ ، فيكون التوبيخ متوجّهاً إلى فريق من المشركين وهم الذين فضلوا بالرزق وهم أولو السّعة منهم وسادتهم وقد كانوا أشدّ كفراً بالدين وتألّباً على المسلمين ، أي أيجحد الذين فضلوا بنعمة الله إذْ أفاض عليهم النّعمة فيكونوا أشد إشراكاً به ، كقوله تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلا ﴾ [سورة المزمل : 11] .

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى : ﴿ يجحدون ﴾ في قراءة الجمهور بالتحتية جارياً على مقتضى الظاهر .

وفي قراءة أبي بكر عن عاصم بالمثناة الفوقية التفاتاً من الغيبة إلى خطابهم إقبالاً عليهم بالخطاب لإدخال الروع في نفوسهم .

وقد عُدّي فعل ﴿ يجحدون ﴾ بالباء لتضمّنه معنى يكفرون ، وتكون الباء لتوكيد تعلّق الفعل بالمفعول مثل ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [سورة المائدة : 6] .

وتقديم بنعمة الله على متعلّقه وهو ﴿ يجحدون ﴾ للرعاية على الفاصلة .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

عطف على التي قبلها ، وهو استدلال ببديع الصنع في خلق النسل إذ جعل مقارناً للتأنّس بين الزوجين ، إذ جعل النسل منهما ولم يجعله مفارقاً لأحد الأبوين أو كليهما .

وجعل النسل معروفاً متصلاً بأصوله بما ألهمه الإنسان من داعية حفظ النسب ، فهي من الآيات على انفراده تعالى بالوحدانية كما قال تعالى في سورة الروم (21) : ﴿ ومن ءاياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ فجعلها آية تنطوي على آيات ، ويتضمّن ذلك الصنع نعماً كثيرة ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وبنعمت الله هم يكفرون ﴾ .

والقول في جملة ﴿ والله جعل لكم ﴾ كالقول في نظيرتيها المتقدمتين .

واللام في ﴿ جعل لكم ﴾ لتعدية فعل ﴿ جعل ﴾ إلى ثانٍ .

ومعنى ﴿ من أنفسكم ﴾ من نوعكم ، كقوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسَلّموا على أنفسكم ﴾ [سورة النور : 21] أي على الناس الذين بالبيوت ، وقوله : ﴿ رسولا من أنفسهم ﴾ [سورة آل عمران : 164] وقوله : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ [سورة البقرة : 85] .

والخطاب بضمير الجماعة المخاطبين موجّه إلى الناس كلّهم ، وغلب ضمير التذكير .

وهذه نعمة إذ جعل قرين الإنسان متكوّناً من نوعه ، ولو لم يجعل له ذلك لاضطُرّ الإنسان إلى طلب التأّنس بنوع آخر فلم يحصل التأّنس بذلك للزوجين .

وهذه الحالة وإن كانت موجودة في أغلب أنواع الحيوان فهي نعمة يدركها الإنسان ولا يدركها غيره من الأنواع .

وليس من قوام ماهيّة النّعمة أن ينفرد بها المنعم عليه .

والأزواج : جمع زوج ، وهو الشيء الذي يصير مع شيء آخر اثنين ، فلذا وصف بزوج المرادف لثان .

وقد مضى الكلام عليه في قوله تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ في [سورة البقرة

: 35] .

والوصف بالزوج يؤذن بملازمته لآخر ، فلذا سمّي بالزوج قرين المرأة وقرينةُ الرجل .

وهذه نعمة اختصّ بها الإنسان إذ ألهمه الله جعل قرين له وجبله على نظام محبّة وغيرة لا يسمَحان له بإهمال زوجه كما تُهمل العجماوات إناثها وتنصرف إناثها عن ذكورها .

و﴿ من ﴾ الداخلة على ﴿ أنفسكم ﴾ للتّبعيض .

وجعل البنين للإنسان نعمة ، وجعل كونهم من زوجة نعمة أخرى ، لأن بها تحقّق كونهم أبناءه بالنسبة للذكر ودوام اتّصالهم به بالنّسبة ، ووجود المشارك له في القيام بتدبير أمرهم في حالة ضعفهم .

و﴿ من ﴾ الداخلة على ﴿ أزواجكم ﴾ للابتداء ، أي جعل لكم بنين منحدرين من أزواجكم .

والحفدة : جمع حافد ، مثل كَملة جمع كامل .

والحافد أصله المسرع في الخدمة .

وأطلق على ابن الابن لأنه يكثر أن يخدم جدّه لضعف الجدّ بسبب الكبر ، فأنعم الله على الإنسان بحفظ سلسلة نسبه بسبب ضبط الحلقة الأولى منها ، وهي كون أبنائه من زوجه ثم كون أبناء أبنائه من أزواجهم ، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النظام المحكم البديع .

وغير الإنسان من الحيوان لا يشعر بحفدته أصلاً ولا يَشعر بالبنوّة إلا أنثى الحيوان مدة قليلة قريبَة من الإرضاع .

والحفدة للإنسان زيادة في مسرّة العائلة ، قال تعالى : ﴿ فبشرّناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ [سورة هود : 71] .

وقد عملت من ﴾ الابتدائية في ﴿ حفدة ﴾ بواسطة حرف العطف لأن الابتداء يكون مباشرة وبواسطة .

وجملة ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ معطوفة على جملة ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ وما بعدها ، لمناسبة ما في الجمل المعطوف عليها من تضمّن المنّة بنعمة أفراد العائلة ، فإن من مكمّلاتها سعة الرزق ، كما قال تعالى في آل عمران ﴿ زيّن للناس حبّ الشّهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ [سورة النحل : 14] الآية .

وقال طرفة:

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي . . .

بنون كرام سادة لمسود

فالمال والعائلة لا يروق أحدها بدون الآخر .

ثم الرزق يجوز أن يكون مراداً منه المال كما في قوله تعالى في قصة قارون : ﴿ وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ [سورة القصص : 82] .

وهذا هو الظاهر وهو الموافق لما في الآية المذكورة آنفاً .

ويجوز أن يكون المراد منه إعطاء المأكولات الطيّبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ [سورة آل عمران : 37] و ﴿ من ﴾ تبعيضية .

و ﴿ الطيبات ﴾ : صفة لموصوف محذوف دلّ عليه فعل رزقكم ، أي الأرزاق الطيّبات .

والتأنيث لأجل الجمع .

والطيّب : فَيْعِلٍ صفة مبالغة في الوصف بالطِّيب .

والطِيبُ : أصله النزاهة وحسن الرائحة ، ثم استعمل في الملائم الخالص من النّكد ، قال تعالى : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [سورة النحل : 97] .

واستعمل في الصالح من نوعه كقوله تعالى : ﴿ والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ في سورة الأعراف (58) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ الذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين ﴾ [سورة النحل : 32] وقد تقدم آنفاً .

فالطيّبات هنا الأرزاق الواسعة المحبوبة للناس كما ذكر في الآية في سورة آل عمران ؛ أو المطعومات والمشروبات اللذيذة الصالحة .

وقد تقدم ذكر الطيّبات عند قوله تعالى : ﴿ اليوم أحل لكم الطيّبات ﴾ في سورة العقود (5) ، وذكر الطيّب في قوله تعالى : ﴿ كلوا مما في الأرض حلالاً طيّباً ﴾ في سورة البقرة (168) .

وفرع على هذه الحجّة والمنّة استفهامُ توبيخ على إيمانهم بالباطل البيّن ، فتفريع التوبيخ عليه واضح الاتجاه .

والباطل : ضد الحقّ لأن ما لا يخلق لا يُعبد بحقّ .

وتقديم المجرور في قوله تعالى : ﴿ أفبالباطل ﴾ على متعلّقه للاهتمام بالتعريف بباطلهم .

والالتفات عن الخطاب السابق إلى الغيبة في قوله تعالى : ﴿ أفبالباطل ﴾ يجري الكلام فيه على نحو ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ [سورة النحل : 71] .

وقوله تعالى : ﴿ وبنعمت الله هم يكفرون ﴾ عطف على جملة التوبيخ ، وهو توبيخ

متوجّه على ما تضمّنه قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ إلى قوله : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ من الامتنان بذلك الخلق والرزق بعد كونهما دليلاً على انفراد الله بالإلهية .

وتقديم المجرور في قوله تعالى : ﴿ بنعمت الله هم يكفرون ﴾ على عامله للاهتمام .

(92/439)

وضمير الغيبة في قوله تعالى : ﴿ هم يكفرون ﴾ ضمير فصل لتأكيد الحكم بكفرانهم النّعمة لأن كفران النّعمة أخفى من الإيمان بالباطل ، لأن الكفران يتعلّق بحالات القلب ، فاجتمع في هذه الجملة تأكيدان : التأكيد الذي أفاده التقديم ، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل .

والإتيان بالمضارع في ﴿ يؤمنون ﴾ و ﴿ يكفرون ﴾ للدّلالة على التجدّد والتّكرير .

وفي الجمع بين ﴿ يؤمنون ﴾ و ﴿ يكفرون ﴾ محسنّ بديع الطباق .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ﴾

عطف على جملتي التّوبيخ وهو مزيد من التّوبيخ فإن الجملتين المعطوف عليهما أفادتا

توبيخاً على إيمانهم بالآلهة الباطل وكفرهم بنعمة المعبود الحقّ .

وهذه الجملة المعطوفة أفادت التّوبيخ على شكر ما لا يستحقّ الشكر ، فإن العبادة شكر ، فهم عبدوا ما لا يستحقّ العبادة ولا بيده نعمة ، وهو الأصنام ، لأنها لا تملك ما يأتيهم من الرزق لاحتياجها ، ولا تستطيع رزقهم لعجزها .

فمفاد هذه الجملة مؤكّد لمفاد ما قبلها مع اختلاف الاعتبار بموجب التّوبيخ في كلتيهما .

وملك الرزق القدرة على إعطائه .

والمِلك يطلق على القدرة ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ في سورة العقود (17) .

والرزق هنا مصدر منصوب على المفعوليّة ، أي لا يملك أن يرزق .

ومِن ﴾ في ﴿ من السموات والأرض ﴾ ابتدائية ، أي رزقاً موصوفاً بوروده من السماوات والأرض .

و﴿ شيئاً ﴾ مبالغة في المنفيّ ، أي ولا يملكون جزءاً قليلاً من الرزق ، وهو منصوب على البدلية من ﴿ رزقاً ﴾ .

فهو في معنى المفعول به كأنه قيل : لا يملك لهم شيئاً من الرزق .

﴿ ولا يستطيعون ﴾ عطف على ﴿ يملك ﴾ ، فهو من جملة صلة ﴿ ما ﴾ ، فضمير الجمع عائد إلى ﴿ ما ﴾ الموصولة باعتبار دلالتها على جماعة الأصنام المعبودة لهم .

وأجريت عليها صيغة جمع العقلاء مجاراة لاعتقادهم أنها تعقل وتشفع وتستجيب.

وحذف مفعول ﴿ يستطيعون ﴾ لقصد التعميم، أي لا يستطيعون شيئاً لأن تلك الأصنام حجارة لا تقدر على شيء.

والاستطاعة: القدرة.

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ﴾

تفريع على جميع ما سبق من الآيات والعبر والمنن، إذ قد استقام من جميعها انفراد الله تعالى بالإلهية، ونفي الشريك له فيما خلق وأنعم، وبالأولى نفي أن يكون له ولد وأن يشبه بالحوادث؛ فلا جرم استتبّ للمقام أن يفرع على ذلك زجر المشركين عن تمثيلهم غير الله بالله في شيء من ذلك، وأن يمثّلوه بالموجودات.

وهذا جاء على طريقة قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم ﴾ [سورة البقرة: 21] إلى قوله تعالى: ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ [سورة البقرة: 22]، وقوله: ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ [سورة يس: 78].

و﴿ الأمثال ﴾ هنا جمع مَثَل بفتحتين بمعنى المماثل، كقولهم: شبه بمعنى مشابه.

وضرب الأمثال شاع استعماله في تشبيه حالة بحالة وهيئة بهيئة، وهو هنا استعمال آخر.

ومعنى الضرب في قولهم: ضَرب كذا مثلاً، بَيّنّاه عند قوله تعالى: ﴿ إنا الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾ في سورة البقرة (26).

واللاّم في لله ﴾ متعلقة بـ ﴿ الأمثال ﴾ لا بـ ﴿ تضربوا ﴾، إذ ليس المراد أنهم يضربون مَثَل الأصنام بالله ضرباً للناس كقوله تعالى: ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ [سورة الروم: 28].

ووجه كون الإشراك ضرب مثل لله أنهم أثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبّهوها بالخالق، فإطلاق ضرب المثل عليه مثل قوله تعالى: ﴿ وقالوا أءالهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ [سورة الزخرف: 58].

(94/439)

وقد كانوا يقولون عن الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والملائكة هنّ بنات الله من سروات الجِنّ، فذلك ضرب مثل وتشبيه لله بالحوادث في التأّثر بشفاعة الأكفاء والأعيان

والازدهاء بالبنين .

وجملة إن الله يعلم ﴾ تعليل للنّهي عن تشبيه الله تعالى بالحوادث ، وتنبيه على أن جهلهم هو الذي أوقعهم في تلك السخافات من العقائد ، وأن الله إذ نهاهم وزجرهم عن أن يشبّهوه بما شبّهوه إنما نهاهم لعلمه ببطلان اعتقادهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ استدعاء لإعمال النّظر الصحيح ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(95/439)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أننا لا نتساوى إلا في شيء واحد فقط ، هو أننا عبيدٌ لله . . نحن سواسية في هذه فقط ، وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه ، تختلف ألواننا ، تختلف أجسامنا . . صورنا . . مواهبنا . . أرزاقنا .

والعجيب أن هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتفاق ؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثلاً : إذا دخلتَ أنت وصديقك أحد المطاعم وطلبتما دجاجة . . أنت بطبيعتك تحب صدر الدجاجة وصديقك يحب جزءاً آخر منها . . هذا خلاف . . فساعة أن يأتي الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق حيث تأخذ أنت ما تحب ، وهو كذلك . . هذا خلاف أدى إلى وفاق . . فلو فرضنا أن كلانا يحب الصدر مثلاً . . هذا وفاق قد يؤدي إلى خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أينا يأخذ الصدر ؟ !

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين في أشياء ، وأراد أن يكون هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا . . فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجَد إنسان مجمعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بنا بيت مثلاً كان هو المهندس الذي يرسم ، والبنَّاء الذي يبني ، والعامل الذي يحمل ، والنجار والحداد والسباك . . الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ . . لا . .

ولكن الخالق سبحانه نَثَر هذه المواهب بين الناس نَثْراً لكي يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل في الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَين الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جَلَّ وعَلا ، فقال : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود : 118] .

فقد خلقنا هكذا .

وإلا فلو اتحدنا واتفقنا في المواهب ، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ،

فمَنْ يبني ؟ ومَنْ يزرع ؟ ومَنْ يصنع ؟ . . الخ .

إذن : من رحمة الله أنْ جعلنا مختلفين متكاملين .

(96/439)

فالحق سبحانه يقول :

﴿ فِي الرزق . . . ﴾ [النحل : 71] .

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنيّ وهذا فقير . .

والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كُلّ شيء تنتفع به فهو رِزْقك . . فهذا رِزْقه عقله ، وهذا رِزْقه قوته العضلية . . هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألاَّ ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حِلْم ، شجاعة . . كل هذا من الرزق الذي يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهماً ، ولم تحدد الآية مَنِ الفاضل ومَنِ المفضول ، فكلمة بَعْضٍ مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض منَ الأبعاض فاضل في ناحية ، ومفضول في ناحية أخرى .

. فالقوي فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة . . وهكذا .

إذن : فكلُّ واحد من خَلْق الله رزَقه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر في الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون . . وإذا وجدت موهبة في واحد وكانت مفقودة في الآخر فالمصلحة تقتضي أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة . . كيف؟

القويُّ يعمل للضعيف الذي لا قوةَ له يعمل بها ، فهو إذن فاضل في قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوي من مال وأجر يحتاجه القوي ليقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التي يستبقي بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتي هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضَّلاً من أحد على أحد ؛ لأن التفضُّل غير مُلْزَم به فليس كل واحد قادراً على أن يعطي دون مقابل ، أو يعمل دون أجر . . إنما الحاجة هي التي تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذي ربط المجتمع ؟ هي الحاجة لا التفضُّل ، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً في ناحية لا يغترّ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء في الناس ، فكلٌّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغني صاحب العظمة والجاه . . والذي قد تُلْجِئه الظروف وتُحوجه لعامل بسيط يُصلح له عُطْلاً في مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نَكِداً مُؤرّقاً حتى يُسعفه هذا العامل البسيط ، ويقضي له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضي مثل هذه المهام البسيطة في المنزل . . وهو في نفس الوقت فاضل على الباشا في هذا الشيء .

فالجميع إذن في الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله . . كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهبَ في الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط في المجتمع .

وقد عُرِضَتْ هذه القضية في آية أخرى في قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . ﴾ [الزخرف : 32] .

البعض يفهم أن الفقير مُسخّر للغنيّ ، لكن الحقيقة أن كلاً منهما مُسخَّر للآخر . . فالفقير

مُسخّر للغني حينما يعمل له العمل ، والغني مُسخّر للفقير حينما يعطي له أجره . .

ولذلك فالشاعر العربي يقول :

النّاسُ لِلْناسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرة . . . بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ونضرب هنا مثلاً بأخسّ الحرف في عُرْف الناس وإنْ كانت الحِرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسَّة طالما يقوت الإنسان منها نفسه وعياله من الحلال .

(98/439)

. فالخِسَّة في العاطل الأخرق الذي يُتقِن عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم افضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التي يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشتري علبة الورنيش هذه . . لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط .

فقوله تعالى : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . ﴾ [الزخرف : 32] .

مَنْ مِنّا يُسخّر الآخر ؟ ! كُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، أنت مُسخَّر لي فيما تتقنه ، وأنا مُسخَّر لك فيما أتقنه . . هذه حكمة الله في خَلْقه ليتم التوازن والتكامل بين أفراد المجتمع .

وربُّنا سبحانه وتعالى لم يجعل هذه المهن طبيعية فينا . . يعني هذا لكذا وهذا لكذا . .

لا . . الذي يرضى بقدر الله فيما يُناسبه من عمل مهما كان حقيراً في نظر الناس ، ثم يُتقن هذا العمل ويجتهد فيه ويبذل فيه وُسْعه يقول له الحق سبحانه : ما دُمْتَ رضيتَ بقدري في هذا العمل لأرفعنّك به رِفْعة يتعجَّب لها الخَلْق . .

وفعلاً تراهم ينظرون إلى أحدهم ويشيرون إليه : كان شيالاً . . كان أجيراً . . نعم كان . . لكنه رَضِي بما قسم الله وأتقن وأجاد ، فعوَّضه الله ورفعه وأعلى مكانته .

ولذلك يقولون : مَنْ عمل بإخلاص في أيّ عمل عشر سنين يُسيّده الله بقية عمره ، ومَنْ عمل بإخلاص عشرين سنة يُسيّد الله أبناءه ، ومَنْ عمل ثلاثين سنة سيَّد الله أحفاده . . لا شيء يضيع عند الله سبحانه .

فليس فينا أَعْلى وأَدْنى ، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلى من الناس ، نحن سواسية ، ولكن مِنّا من يُتقِن عمله ، ومِنّا مَنْ لا يتقن عمله ؛ ولذلك قالوا : قيمة كل امرئ ما يُحسِنه .

ولا تنظر إلى زاوية واحدة في الإنسان ، ولكن انظر إلى مجموع الزوايا ، وسوف تجد أن الحق سبحانه عادلٌ في تقسيم المواهب على الناس .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلة بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوي مجموع كُلِّ إنسان، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً: الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة.. الخ لوجدت نصيب كُلٍّ منّا في نهاية المعادلة يساوي نصيب الآخر، فأنت تزيد عني في القوة، وأنا أزيد عنك في العلم، وهكذا.. لأننا جميعاً عبيدٌ لله، ليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة.

وقوله تعالى:

﴿ فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ... ﴾ [النحل: 71].

فما ملكت أيمانهم: هم العبيد المماليك.. والمعنى: أننا لم نَرَ أحداً منكم فضّله الله بالرزق، فأخذه ووزّعه على عبيده ومماليكه، أبداً.. لم يحدث ذلك منكم.. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف، ولا يطلب منهم أنْ يُوزّعوا رزق الله على عبيدهم، ولكن في الآية إقامةٌ للحجة عليهم، واستدلال على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى.

وكأن القرآن يقول لهم: إذا كان الله قد فُضَّل بعضكم في الرزق، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له، ووزَّعه على عبيده؟.. أبداً.. لم يحدث منكم هذا.. فكيف تأخذون حق الله في العبودية والألوهية وحقّه في الطاعة والعبادة والنذر والذبح، وتجعلونه للأصنام والأوثان؟!

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون.. فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقّ الله،

وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ . . ﴾ [الروم : 28] .

أي : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟ فهذه لَقْطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ . . . ﴾ [النحل : 71] .

(100/439)

أي : أنكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضّلنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطي أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ، فإذا ما طلب منك أن تعطي أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من زكاة يقول لك : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . ﴾ [البقرة : 245] .

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنِّعَم ، يطلب منك أنْ تُقرِضه ، وكأنه سبحانه يحترم

عملك ومجهودك، ويحترم ملكيتك الخاصة التي وهبها لَك . . فيقول: أقرضني . لعلمه سبحانه بمكانة المال في النفوس، وحِرْص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقترض، فجعل القرض له سبحانه لتثقَ أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [النحل: 71] .

أي: بعد أنْ أنعم الله عليهم بالرزق، ولم يطلب منهم أنْ ينثروه على الغير، جحدوا هذه النعمة، وأنكروا فَضْل الله، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان، وأخذوا حَقّ الله في العبودية والألوهية وأعطوه للأصنام والأوثان، وهذا عَيْنُ الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

الحق سبحانه في الآية السابقة قنّن لنا قضية القمة قضية العقيدة في أننا لا نعطي شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والألوهية والطاعة وغيرها، لا نعطيها لغيره سبحانه . . وإذا صَحَّتْ هذه القضية العَقَدية صَحَّتْ كل قضايا الكون .

ثم بيّن سبحانه أنه خلقنا من واحد، ثم خلق من الواحد زوجة له، ليتم التناسل والتكاثر . . إذ إن استمرارَ بقائكم خاضعٌ لأمرين:

الأمر الأول: استبقاء الحياة، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق، فنأكل ونشرب فنستبقي الحياة، فبعد أنْ تحدّث عن استبقاء الحياة بالرزق في الآية السابقة ذكر:

الأمر الثاني: وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع، فقال سبحانه:

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . ﴾ [النحل: 72].

والأزواج: جمع زوج، والزوج لا يعني الرجل فقط، بل يعني الرجل والمرأة؛ لأن كلمة (زوج) تُطلَق على واحد له نظير من مثله، فكلٌّ واحد منهما زَوْج. الرجل زوج، والمرأة زوج، فتُطلق إذن على مُفْرد، لكن له نظير من مثل.

و﴿ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [النحل: 72].

أي: من نَفْس واحدة، كما قال في آية أخرى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ﴾ [الزمر: 6].

يعني: أخذ قطعة من الزوج، وخلق منها الزوجة، كما خلق سبحانه حواء من آدم عليهما السلام.

أو: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا . . ﴾ [النساء: 1].

أي: من جنسها، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . ﴾ [التوبة: 128].

أي : من جنسكم .

فالمسألة تحتمل المعنيين . . مَن اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضِلع آدم أي : منه ، من بعضه فلا مانع ، ومَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خَلْقاً مستقلاً ، ثم زَاوَج بينهما بالزواج فلا مانع . . فالأول على معنى البَعْضية ، والثاني على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمة آُحاداً . . كما لو قال المعلم لتلاميذه : أخرجوا كتبكم ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جمع . وكتبهم جمع ، فهل سيُخرِج كل تلميذ كُتب الآخرين ؟ ! . . . لا . . . بل كل منهم سيُخرج كتابه هو فقط . . إذن : القسمة هنا تقتضي آحاداً . . وكذلك المعنى في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . ﴾ [الروم : 21] .

أي : خلق لكل منكم زَوْجاً .

(102/439)

ولكي تتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخَلْق بدأ بآدم عليه السلام نردُّ الأشياء إلى الماضي ، وسوف نجد أن كُلَّ متكاثر في المستقبل يتناقص في الماضي . . فمثلاً سُكّان العالم اليوم أكثر من العام الماضي . . وهكذا تتناقص الأعداد كلما أوغلنا في الماضي ، إلى أن نصلَ

إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . ﴾ [النساء : 1] .

كلام صحيح يؤيّده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أن جعل هذا الزوج من أنفسنا ، وليس من جنس آخر ، لأن إلْفَ الإنسان وأُنْسه لا يتم إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوّر الحال إذا جعل الله لنا أزواجاً من غير جنسنا ! ! كيف يكون ؟ !

هذا الزوج اشترك معنا في أشياء ، واختلف عنّا في شيء واحد ، اتفقنا في أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عينان وأذنان . . يدان ورجْلان . . الخ ، وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأُنس والأُلْفة .

واختلفنا في شيء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جمعنا جنس ، وفرّقنا النوع ليتمّ بذلك التكامل الذي أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثَدْي صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دَعَتْ الحاجة لتغيير النوع . . فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [النحل : 72] .

(103/439)

ليزداد الإلْف والمحبة والأُنس والمودّة بينكم ؛ ولذلك نجد في قصة سيدنا سليمان عليه السلام والهدهد ، حينما تفقَّد الطير وعرف غياب الهدهد قال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 21] .

وهذا سلطان المُلْك الذي أعطاه الله لسليمان . . قالوا في : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً . . ﴾ [النمل : 21] .

أي : يضعه في غير جنْسه . . إذن : وَضْعه في غير جنسه نوع من العذاب . . وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفي الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : 21] .

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى

الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته . . فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبة التي تُمسِك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قَدْراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة ، فيرحم كل منهما صاحبه . . يرحم ضَعْفه . . يرحم مرضه . . وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف في رحلة الحياة .

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل ، فلم يَعُدْ بينهما سَكَن ولا مودّة ، ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك جعله ربنا سبحانه أبغض الحلال ، حتى لا نقدم عليه إلا مُضطرّين مُجْبرين .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .

. ﴾ [النحل : 72] .

البنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحَفَدة وهم وَلَدُ الولد ، هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ؛ ذلك لأن الإنسان بطبْعه يحب الحياة ويكره الموت ، وهو يراه كل يوم يحصد النفوس من حَوْله . . فإيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقَّن أن الحياة تفوته في نفسه أراد أنْ يستبقيَها في وَلَده . . ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين مِنّا ، للذكور الذين يُمثِّلون امتداداً للآباء .

فإذا ما رزقه الله الأبناء ، وضمن له الجيل الأول تطلّع إلى أنْ يرى أبناء الأبناء ؛ ليستبقي الحياة له ولولده من بعده ؛ ولذلك فالشاعر الذي يخاطب ابنه يقول له :

أُبنيّ . . يَا أَنَا بَعْدَمَا أَقْضِي . . . وهذه هي نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذِكْر لهم بعد موتهم . . وكأن اسمه موصولٌ لا ينتهي .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً . . . ﴾ [النحل : 72] .

تدلُّنا على ضرورة الحرص على اندماج الأجيال . . زوجين ، ثم أبناء وحفدة . . فما فائدة اندماج الأجيال ؟ ما فائدة المعاصرة والمخالطة بين الجدّ وحفيده ؟

نلاحظ أن الوليد الصغير يبدأ عنده الإدراك بمجرد أنْ تعملَ وسائل الإدراك عنده ، فيبدأ يلتقط مِمَّنْ حوله ويتعلَّم منهم . . فإذا كان له أخوة أكبر منه تعلّم منهم مثلاً بابا . . ماما .

. فإذا لم يكُنْ له أخوة نعلّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الطفل الثاني أذكى من الأول ، والثالث أذكى من الثاني . . وهكذا لأنه يأخذ ممَّنْ قبله وممَّنْ حوله ، فيزداد بذلك إدراكه ، وتزداد خبراته ومعلوماته .

ولنتصور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجاء الحفيد الذي يعاصر الجيلين ؛ جيل الأب وجيل الجدِّ ، يشبّ الصغير في أحضانهما ، فتراه يأخذ من أبيه نشاطه في حركة الحياة وسَعْيه للرزق .

(105/439)

في حين أنه يأخذ من جَدِّه القيم الدينية حيث الجد في البيت باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فأقبل على الطاعة والعبادة . . فيسمع منه الصغير قراءة القرآن . . متى يؤذن للظهر . . يا ولد هات المصحف . . يا ولد هات السجادة لأصلي ، إلى غير هذه من الكلمات التي يأخذ منها الصغير هذه القيم .

إذن : الحفيد يلتقط لوناً من النشاط والحركة في جيل أبيه ، ويلتقط لوناً من القيم في جيل جَدِّه ؛ ولذلك فإن ابتعاد الأجيال يُسبِّب نقصاً في تكوين الأطفال ، والحق سبحانه يريد أنْ تلتحمَ الأجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .

وقوله تعالى :

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات . . . . ﴾ [النحل : 72] .

الطيبات في الرزق الذي جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفي الزواج الذي جعله الله لاستبقاء النوع .

ثم يقول تعالى :

﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ الله هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل : 72] .

الباطل : هو الأصنام التي اتخذوها من دون الله .

وفي الآية استفهام للتعجُّب والإنكار . . كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم في البَدْء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .

. وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً . . وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نِعم الحياة ما يستبقي حياتكم ، ومن نِعَم الأزواج ما يستبقي نوعكم ، وجعلكم في نعمة ورفاهية . . خلقكم من عدم ، وأمدَّكم من عُدم .

أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبدل أنْ تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع . . وهل عملتْ لكم الأصنامُ شيئاً من ذلك ؟ ! هل أنعمتْ عليكم بنعمة من هذه النعم ؟ !

هذه الأصنام محتاجة إليكم . . تأخذ منكم ولا تعطيكم . . فهذا مائل يريد مَنْ يقيمه .

. وهذا كُسِر يحتاج لمن يُصلحه . . انقل الإله . . ضَع الإله في مكان كذا . . الخ .

ولذلك يقول تعالى في الآية بعدها :

(106/439)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ﴾

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضي تنفيذ الأمر واجتناب النهي . .

فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهي فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة في الحياة تُعين على عبادة فهي عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردتَ أن تُؤدّي فرض الله في الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدي هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام . .

رغيف العيش . . فانظر كم يدٍ شاركتْ فيه منذ كان حبةَ قمح تلقى في الأرض إلى أنْ أصبح رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية في الحياة هي في حَدّ

ذاتها عبادة لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أنْ تُصلّي ، فواجب عليك أنْ تستر عورتك . . انظر إلى هذا القماش الذي لا تتم الصلاة إلا به . . كُلّ مَنْ أسهم في زراعته وصناعته حتى وصل إليك . . جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم في صناعة هذا القماش .

إذن : كل شيء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة في الكون تؤدي إلى شيء من هذا فهي عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع . . . ﴾ [الجمعة : 9] .

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا البَيْعَ) . . لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُستْهلك . . ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتي ثمرتها في ساعتها . . فمَنْ يزرع

ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع، والصانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته . . لكن البيع صفقة حاضرة، فهي محلّ الاهتمام . . وكذلك لم يَقُلْ: ذروا الشراء، قالوا: لأن البائع يجب أن يبيعَ، ولكن المشتري قد يشتري وهو كاره . . فأتى القرآن بأدقّ شيء يمكن أن يربطك بالزمن، وهو البيع .

فإذا ما انقضتْ الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله . . . ﴾ [الجمعة: 10] .

فقوله تعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله . . ﴾ [النحل: 73] .

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التي يُؤثِرونها على الله . . وهي الأصنام . . فالله سبحانه الذي خلقهم ورزقهم من الطيبات، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، وجعل لهم بنين وحفدة . . كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله . . فالذي لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبده لنعمه وحاجته إليه . . فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة لذاته، وعبادة لصفات الذات في معطياتها، فمَنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضي تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي . . فكيف تكون العبادة إذن في حق هذه الأصنام التي اتخذوها؟! كيف تعبدونها وهي لم تأمركم بشيء ولم تنهكُمْ عن شيء؟! .

وهذا أول نَقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك . . ماذا تعطي الأصنام أو غيرها من معبوداتكم لمن عبدها ، وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب ؟ ! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ . . إذن : فهو إله بلا منهج .

(108/439)

والتديّن غريزة في النفس يلجأ إليها الإنسان في وقت ضعفه وحاجته . . والله سبحانه هو الذي يجب أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات . . وله منهج يقتضي مطلوبات تدكُّ السيادة والطغيان في النفوس ويقتضي تكليفات شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمحّك إنسان في إله ويقول : أنا أعبده دون أن يأمر بشيء أو ينهى عن شيء !

ما أسهل أن يُرضي في نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألاّ تنسوا أن هذا الإله الذي ليس له تكليف لن تستطيعوا أنْ تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه في شدة . . فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبوا منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نَفْعاً ولا ضرا .

لذلك وجدنا الذين يدَّعُون النبوة . . هؤلاء الكذابون يُيسِّرون على الناس سُبُل العبادة ، ويُبيحون لهم ما حرَّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع .

فجاء مسيلمة الكذاب وأراد أن يُسهِّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة . . وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضِيقون بالتكليف ، ويميلون لدين سَهْل يناسب هِمَمهم الدَّنية .

وهكذا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يُؤيِّدونهم ويُناصرونهم . . ولكن سرعان ما تنكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخدوعون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً . . ﴾ [النحل : 73] .

نلاحظ في هذه الآية نَوْعاً من الارتقاء في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم في آية أخرى : ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : 20] .

فنفى عنهم القدرة على الخَلْق ، بل إنهم هم المخلوقون . . يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيه مِعْوله حتى يُصوِّره على صورة ما ، ثم يتخذه إلهاً يعبده من دون الله .

فلما نفى عنهم القدرة على الخَلْق أراد هنا أنْ يترقّى في الاستدلال ، فنفى عنهم مجرد أنْ يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فتُقرِّر الآية هنا أنهم لا يملكون . . مجرد الملك .

وقوله تعالى :

﴿ مِّنَ السماوات والأرض شَيْئاً .

﴾ [النحل : 73] .

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتي رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإنْ أردتُمْ ترفَ الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة لِتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقي المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فأنبت لنا نبات الأرض .

ونُوضِّح ذلك فنقول : هَبْ أن عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضَّك الجوع في يوم من الأيام . . هل تستطيع أنْ تأكلَ من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن في حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة . . رغيف العيش الذي

يحفظ لك حياتك في هذا الموقف افضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذي رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رِزْق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أي : أقلّ ما يُقَال له شيء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلَّ ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رِزْقاً يكفيهم . . لا . . بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل : 73] .

(110/439)

أي : لا يملكون لهم رِزْقاً في الحاضر ، ولن يملكوا في المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهُمْ لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً . . وأشياء مُعلّقة يمكن أن تُسْتأنَف فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل : 73] .

حُكْم قاطع لا استئناف له فيما بَعْد .

ولذلك ؛ نجد هؤلاء الذين يُحِبّون أنْ يجدوا في القرآن مَأْخذاً يجادلون في قوله تعالى : ﴿ قُلْ

يا أَيُّهَا الكافرون * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 1-5] .

فهؤلاء يرون في السورة تكراراً يتنافى وبلاغةَ القرآن الكريم . . نقول : ليس في السورة تكرار لو تأملتُم . . ففي السورة قَطْع علاقات على سبيل التأبيد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 6] .

في الحاضر ، وفي المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 2-3] .

وهذا قَطْع علاقات في الوقت الحاضر . . ولكن مَنْ يُدرينا لعلَّنا نستأنف علاقات أخرى فيما بعد . . فجاء قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 4-5] .

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل في إعادة العلاقات في المستقبل ، فالقضية إذن منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ . . . ﴾ [النحل : 73] .

أي : لا يستطيعون الآن ، ولا في المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ﴾

الأمثال: جمع مِثْل، وهو النِّد والنظير.

(111/439)

وفي الآية نَهْي عن أن نُشبِّه الله سبحانه بشيء آخر؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله.. إياك أن تقول عن ذات: إنها تشبه ذاته سبحانه، أو صفات تشبه صفاته سبحانه، فإنْ وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها في البشر فاعلم أنها على مقياس. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11].

فالحق سبحانه ينهانا أنْ نضرب له الأمثال، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال؛ لأنه حكيم يضرب المثَل في محلّه لِيُوضّح القضية الغامضة بالقضية المشاهدة؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى.. ﴾ [النحل: 60].

أي: الصفة العليا في كل شيء، فإذا وجدت صفات مشتركة بينكم وبين الحق سبحانه فنزِّه الله عن الشبيه والنظير والنِّد والمثيل وقل: (ليس كمثله شيء).

فأنت موجود والله موجود، ولكن وجودك مسبوقٌ بعدم ويلحقه العدم، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه العدم.

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه لِيُوضِّح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثَلاً لنوره كما نظنّ . . بل هو مثَل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى في سورة النور : ﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِه كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي اللهِ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثال لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيِمٌ ﴾ [النور : 35] .

(112/439)

نور السموات والأرض ؛ لأنه بالنور تكون الهداية حِسّية أو معنوية . . فالنور الحسّيُّ مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من مصادر الضوء . . هذا النور الحسي هو الذي يُبيِّن لنا الأشياء لتسير في الكون على بصيرة وهدى . . فلو حاولتَ السَّيْر ليلاً دون ضوْء يهديك فسوف تصطدم بالأشياء من حولك : إما أقوى منك يُحطِّمك ويُؤذيك ، وإما تكون أنت أقوى منه فتُحطّمه أنت . . فالذي يهدي خُطَاك هو النور الحسيُّ .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القيَم والأخلاق ، وهذا النور يجعلك أيضاً تسير في الحياة على بصيرة وهُدًى ، ويحميك من التخبّط في مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور

القِيمي الذي أنزله الله لنا في كتابه الكريم، وقال عنه: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 15-16].

فهو نور لكن معنوي.. بالقيم والأخلاق والفضائل.. ولا تقلْ في هذا المثل: إنه مَثَلٌ لنور الله.. بل مَثَلٌ لسلطان تنويره للكون، ولو تأمّلنا بقية الآية لأدركنا ذلك.

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ... ﴾ [النور: 35].

البعض يقولون: المشكاة هي المصباح.. لا.. المشكاة هي الكُوّة أو الطاقة المسدودة في الجدار يعرفها أهل الريف في بناياتهم القديمة، وهي تجويف غير نافذ في الجدار يُوضَع فيه المصباح. ﴿ المصباح فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: 35].

أي: ليس مصباحاً عادياً بل في زجاجة، وهي تحمي ضوْء المصباح أنْ يبعثره الهواء من كل ناحية، وفي نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافي من الهواء لاستمرار الاشتعال، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دُخان يُعكِّر صَفْو الزجاجة.

وأهل الريف يعرفون شعلة الجاز التي ليس لها زجاجة، وما يصدر عنها من دُخان أسود ضارّ.. إذن: المصباح هنا في غاية الصفاء والقوة؛ لأن الزجاجة أيضاً ليستْ زجاجة عادية، بل زجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ، وكَوْنها كالكوكب الدريّ يعني أنها تُضِيء بنفسها.

﴿الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ...﴾ [النور: 35].

هذا المصباح يُوقد بزيت ليس عادياً، بل هو زيت من زيتونه.. شجرة زيتون معتدلة المناخ. ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ...﴾ [النور: 35].

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقاء أنه يُضيء، ولو لم تمسسه نار؛ ولذلك أعطانا منتهى القوة: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ..﴾ [النور: 35].

ولذلك قال تعالى في وصف هذا المصباح: ﴿نُّورٌ على نُورٍ..﴾ [النور: 35].

وبعد أنْ وقفتَ على أوصاف هذا المصباح، وأنه يُوضَع في كُوَّة صغيرة، بالله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوّة؟

إذن: فهذا مَثَلٌ ليس لنوره سبحانه.. فنُوره لا يُدرك، وإنما هو مَثَلٌ لتنويره للكون، الذي هو كالكُوّة والطاقة في هذا المثل.. فمعنى قوله تعالى: ﴿الله نُورُ السماوات والأرض.﴾ [النور: 35].

أي: مُنوِّرهما، فكما أنه لا يُعقل وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوّة، فكذلك نوره سبحانه وتنويره للكون.. وهذا هو النور الحسيّ الذي أمدّ الله به الكون.

ثم تحدّث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوي الذي يُنزل على عباد الله الصالحين تجليّاتٍ نورانية ، وفيُوضاتٍ ربانية تتلقّاها في بيوت الله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال * رِجَالٌ . . . ﴾ [النور : 36-37] .

وهكذا نجمع بين النور الحسيّ والنور المعنوي صلى الله عليه وسلم .

ولذلك ، فأبو تمام حينما أراد أن يمدح الخليفة شبَّهه بمشاهير العرب في الشجاعة والكرم والحِلْم والذكاء ، فقال :

إقْدام عَمْروٍ في سَمَاحَةِ حَاتِم . . . فِي حِلْمِ أَحْنَفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ

فاعترض على هذا التشبيه أحد حُسَّاد أبي تمام ، وقال له : كيف تُشبّه الخليفة بأجلاف العرب ؟ ففي جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن خزَنته ألف واحد كحاتم . . ولكن يخرج أبو تمام من هذا المأزق ، ويُفلِت من هذا الفخ الذي نصبه له حاسده ، قال على البديهة :

لاَ تُنكِرُوا ضَرْبي لَهُ مَنْ دُونَهُ . . . مَثَلاً شَرُوداً في النَّدى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضربَ الأَقَلَّ لِنُوره . . . مثلاً مِنَ المشْكَاةِ وَالنّبْراسِ

والحق سبحانه وتعالى وإنْ نهانا نحن أن نضرب له مثلاً لِقلّة عِلْمنا ، فهو سبحانه القادر

على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات ، وأتفهها في نظرنا .

. فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثلاً ؛ لأنه سبحانه لا يستحي أن يضرب بها المثل ؛ لأن في هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التي فيك ، وفي أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ؛ ولأن هذه البعوضة التي تستحقرها قد تكون أقوى منك ، وقد تُعجِزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] .

(115/439)

بالله عليك ، هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أنْ تستردَ من الذبابة ما أخذتْه من طعامك ؟ هل تقدر على هذه العملية ؟

إذن : حينما يضرب الله لك مَثَلاً يجب أن تحترم ضَرْب الله للمثل ، وأنْ تبحثَ فيما وراء المثل من الحكمة . . وأنه سبحانه جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الحقير في نظرك لِيُوضّح لك

قضية غامضة يُنبّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثَل في توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة . . مثل قضية الحاسد الذي يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً في رِفْعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربي هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً توضيحياً ، فقال :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ . . . أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ . . . مَا كَانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها الرجل العادي ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُشوّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل . . وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذي لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثَل الشّعريّ أن أحد أهل الخير كان يتردد من حين لآخر على أحد بُيوت البلدة وبها عجوز مُقْعدة في حاجة إلى مساعدة ، فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى الجميلات التي قد تكون مطمعاً . . فاستغل أحد الحُسَّاد هذه الجيرة ، واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسناء . . وفعلاً تتبعه الناس ،

فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة . . ومن هنا عرف الناس عنه فضيلةً لم يكن يعرفها أحد .

(116/439)

وقد رأينا على مَرّ التاريخ مَن اتهِمُوا ظلماً ، وقيل في حقهم ما يندي له الجبين . . ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم ومكارمهم .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 74] .

وهذه عِلّة النهي عن ضَرْب الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال ؛ لأنه سبحانه يعلم ، ويأتي بالمثَل في محلّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(117/439)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) (النحل : 72) ، وفي العنكبوت : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) (العنكبوت : 67) ، للسائل أن يسأل عن ثبوت الضمير المنفصل المبتدإ في قوله : (هُمْ يَكْفُرُونَ) في آية النحل وسقوطه من آية العنكبوت مع أن المعنى متحد والعبارة متكررة أعني قوله : (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ. . . .) الآية ، فما وجه ذلك ؟

والجواب ، والله أعلم : أن الوارد في آية لانحل راجع إلى من قدم ذكرهم في قوله : (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) (النحل : 56) ، وفي قوله : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ) (النحل : 57) إلى قوله : (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (النحل : 60) ، وقوله : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) (النحل : 72) ، فلما كان قوله : (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) راجعاً إلى ما تباعد أتى بضميرهم المشعر بالبعد هو ضمير الغائبين فقيل : ((هم)) ، وارتفع بالإتيان به توهم عودة ضمير يُؤمنون إلى المقول لهم : (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) .

فإن قيل : لو قيل تؤمنون وتكفرون على الخطاب لكان للمخاطبين بقوله : (لكم)) أما على وروده على طريقة الإخبار عن الغائبين فلا يوهم ما ذكرت فلا ضرورة تدعو إلى

ضميرهم . قلت : هذا لو لم يكن الالتفات من فصيح كلام العرب ، وهو الرجوع عن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب وإلى المتكلم كقوله :

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخلي ولم ترقدِ

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمدِ

(118/439)

وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسودِ

فتأمل كيف التفت في قوله : (وبات وباتت له ليلة)) بعد الخطاب بقوله : (تطاول ليلك . .) ((ولم ترقد)) ، (فرجع) الخطاب إلى الغيبة . ثم قال : (وذلك من نبأ جاءني) –فرجع إلى المتكلم ، وإنما خاطب بكل ذلك نفسه ، وفي الكتاب العزيز (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) (يونس : 22) ، فقوله : (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) رجوع من الخطاب إلى الغيبة ، وفي الكتاب من ذلك كثير . فإذا تقرر أن الالتفات من فصيح كلامهم فما يمنع من احتمال أن يفهم قوله : (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) على أنه راجع إلى المخاطبين بقوله : (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) على طريقة الالتفات رجوعاً من الخطاب إلى الغيبة ، فجاء قوله : (وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ) بضمير الغائبين رافعاً لهذا

الإبهام وما للمعنى المقصود بالكلام من رجوعه إلى من تقدم ذكره ، فهذا موجب ورود هذا الضمير المبتدأ هنا .

أما قوله في سورة العنكبوت : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ﴿العنكبوت : 67 ﴾ ، فكرمهم لا يرجع شيء منه إلى متقدم قبله فيتباعد عنه بل هو مستقل بنفسه ، والمعّنيون بوقله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ هم المراد ﴿ بقوله ﴾ ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، وليست هذه الآية مثل آية النحل فيما إلى ما احتيج هناك ، فكل من الآيتين وارد على ما يجب ويناسب ، ولا يمكن عكس الوارد على ما تمهد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 303.304 ﴾

(119/439)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ الآية . يقول : لم يكونوا يشركون عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، وكيف تشركون

عبيدي معي في سلطاني ؟ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في الآية قال : هذا مثل الآلهة الباطل مع الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ الآية . قال : هذا مثل ضربه الله ، فهل منكم من أحد يشارك مملوكه في زوجته وفي فراشه ؟ ! أفتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا ، فالله أحق أن تبرئه من ذلك ، ولا تعدل بالله أحداً من عباده وخلقه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عطاء الخراساني في الآية . قال : هذا مثل ضربه الله في شأن الآلهة ، فقال كيف تعدلون بي عبادي ، ولا تعدلون عبيدكم بأنفسكم ، وتردون ما فضلتم به عليهم فتكونون أنتم وهم في الرزق سواء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ، اقنع برزقك في الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق ، بلاء يبتلى به كلا ، فيبتلي به من بسط له ، كيف شكره فيه ، وشكره لله أداؤه الحق الذي افترض عليه مما رزقه وخوله .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ والله

جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ قال : خلق آدم ثم خلق زوجته منه .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه ، عن ابن مسعود في قوله : ﴿ بنين وحفدة ﴾ قال الحفدة الأختان .

(120/439)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : الحفدة الأصهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : الحفدة الولد وولد الولد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : الحفدة بنو البنين .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ وحفدة ﴾ قال : ولد الولد وهم الأعوان قال : وهل تعرف العرب ذلك قال : نعم أما سمعت الشاعر وهو يقول :

حفد الولائد حولهن وأسلمت . . . بأكفهن أزمة الاجمال

وأخرج ابن جرير ، عن أبي حمزة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ بنين وحفدة ﴾ قال : من أعانك فقد حفدك ، أما سمعت قول الشاعر :

حفد الولائد حولهن وأسلمت . . . بأكفهن أزمة الاجمال

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : الحفدة بنو امرأة الرجل ليسوا منه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي مالك قال : الحفدة الأعوان .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال : الحفدة الخدم .

وأخرج ابن جرير ، عن الحسن قال : الحفدة البنون وبنو البنين ، ومن أعانك من أهل أو خادم فقد حفدك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ قال : الشرك .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ قال : الشيطان ﴿ وبنعمة الله ﴾ قال : محمد . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(121/439)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ

أَيمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ : في هذه الجملةِ أوجهٌ ، أحدُها : أنها على حَذْفِ أداةِ الاستفهام تقديرُه : أَفَهُمْ فيه سواءٌ ، ومعناه النفيُ ، أي : ليسوا مُسْتَوِين فيه . الثاني : أنها إخبارٌ بالتساوي ، بمعنى : أن ما تُطْعِمونه وتُلْبِسونه لمماليككم إنما هو رِزْقي أَجْرَيْتُه على أيديهم ، فهم فيه سواءٌ . الثالث : قال أبو البقاء : " إنها واقعةٌ موقعَ فعلٍ " ، ثم جَوَّز في ذلك الفعلِ وَجْهَيْنِ ، أحدهما : أنه منصوبٌ في جوابِ النفي تقديرُه : فما الذين فُضِّلوا برادِّي رزقِهم على ما ملكَتْ أيمانهم فيَسْتَوُوا . والثاني : أنه معطوفٌ على موضع " برادِّي " فيكون مرفوعاً تقديرُه : فما الذين فُضِّلوا يَرُدُّون فما يَسْتَوُوْن .

وقرأ أبو بكر " تَجْحَدون " بالخطابِ مراعاةً لقولِه " بعضكم " ، والباقونَ بالغَيْبَةِ مراعاةً لقولِه ﴿ فَمَا الذين فُضِّلُواْ ﴾ .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ : في " حَفَدَة " أوجهٌ . أظهرُها : أنه معطوفٌ على " بنين " بقيدِ كونِه من الأزواج ، وفُسِّر هنا بأنه أولادُ الأولادِ . الثاني : أنه مِنْ عطفِ الصفاتِ لشيءٍ واحدٍ ، أي : جَعَلَ لكم بنينَ خَدَماً ، والحَفَدَةُ : الخَدَمُ . الثالث : أنه منصوبٌ بـ " جَعَلَ " مقدرةً ، وهذا عند مَنْ يُفَسِّر الحَفَدة بالأعوان والأَصْهار ، وإنما احتيج إلى تقدير " جَعَلَ " لأنَّ " جَعَلَ " الأولى مقيدةٌ بالأزواج ، والأعوانُ والأَصهارُ ليسوا من الأزواج .

والحَفَدَةُ: جمع حافِد كخادِم وخَدَم . وفيهم للمفسرين أقوالٌ كثيرةٌ، واشتقاقُهم مِنْ قولِهم: حَفَدَ يَحْفِد حَفْداً وحُفوداً وحَفَداناً، أي: أسرع في الطاعة . وفي الحديث: "وإليك نَسْعَى ونَحْفِدُ"، أي: نُسْرِع في طاعتِك . قال الأعشى:

3001- كَلَّفْتُ مجهولَها نُوْقاً يَمانيةً . . . إذا الحُداة على أَكْسائها حَفَدُوا

وقال الآخر:

3002- حَفَدَ الولائدُ حولَهُنَّ وأَسْلَمَتْ . . . بأكُفِّهِنَّ أَزِمَّةَ الأَجْمالِ

ويستعمل "حَفَدَ" أيضاً متعدياً . يقال: حَفَدَني فهو حافِدٌ، وأُنْشِد:

3003- يَحْفِدون الضيفَ في أبياتِهمْ . . . كَرَماً ذلك منهم غيرَ ذُلّْ

وحكى أبو عبيدة أنه يقال: "أَحْفَدَ" رباعياً . وقال بعضهم: "الحَفَدَةُ: الأَصْهار، وأنشد:

3004- فلو أنَّ نفسي طاوَعَتْني لأصبحَتْ . . . لها حَفَدٌ مِمَّا يُعَدُّ كثيرُ

ولكنها نَفْسٌ عليَّ أَبِيَّةٌ . . . عَيُوفٌ لإِصهارِ اللِّئامِ قَذُوْرُ

ويقال: سيفٌ مُحْتَفِدٌ، أي: سريعُ القطع . وقال الأصمعيُّ: "أصلُ الحَفْدِ: مقارَبَةُ

الخَطْوِ " .

و" مِنْ " في ﴿ مِّنَ الطيبات ﴾ للتبعيض .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ﴾

قوله تعالى : ﴿ شَيْئاً ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه منصوبٌ على المصدرِ ، أي : لا يَمْلِكُ لهم مِلْكاً ، أي : شيئاً من المِلْك . والثاني : أنه بدلٌ مِنْ " رِزْقاً " ، أي : لا يَمْلِكُ لهم شيئاً . وهذا غيرُ مفيدٍ ؛ إذ من المعلومِ أنَّ الرزقَ شيءٌ من الأشياء ، ويؤيِّد ذلك : أنَّ البدلَ يأتي لأحدِ معنيين : البيانِ أو التأكيد ، وهذا ليس فيه بيانٌ ؛ لأنه أعمُّ ، ولا تأكيدَ . الثالث : أنه منصوبٌ ب " رِزْقاً " على أنه اسمُ مصدرٍ ، واسمُ المصدرِ يعمل عملَ المصدرِ على خلافٍ في ذلك .

ونقل مكيٌّ أن اسمَ المصدرِ لا يعمل عند البصريين إلا في شعرٍ . قلت : وقد اختلفتِ النقلةُ /عند البصريين : فمنهم مَنْ نَقَلَ المَنْعَ ، ومنهم مَنْ نَقَلَ الجوازَ . وقد ذكر الفارسيُّ انتصابه ب " رِزْقاً " كما تقدَّم . وردَّ عليه ابنُ الطَّراوة بأن الرزْقَ اسم المرزوق كالرَّعْيِ والطَّحْن .

ورُدَّ على ابنِ الطراوة : بأنَّ الرِّزْقَ بالكسرِ أيضاً مصدرٌ ، وقد سُمِعَ فيه ذلك . قلت : فظاهرُ هذا أنه مصدرٌ بنفسِه لا اسمُ مصدرٍ .

وقوله : ﴿ مِّنَ السماوات ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ : أحدُها : أنه متعلقٌ ب " يملك " ، وذلك على الإِعرابين الأوَّلَيْن في نصب " شيئاً " . الثاني : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل " رزقاً " . الثالث : أن يتعلَّقَ بنفس " رِزْقاً " إن جعلناه مصدراً . وقال ابن عطية : - بعد أن ذكر إعمالَ المصدرِ منوَّناً - " والمصدرُ يعمل مضافاً باتفاق ؛ لأنه في تقديرِ الانفصالِ ، ولا يَعْمَل إذ دخله الألفُ واللام ؛ لأنه قد توَغَّلَ في حالِ الأسماءِ ، وبَعُد عن الفعليَّة ، وتقدير الانفصالِ في الإِضافةِ حَسَّنَ عملَه ، وقد جاء عاملاً مع الألف واللام في قول الشَّاعر :

3005- ضعيفُ النكايةِ أعداءَه . . . .

[وقوله] :

3006- . . . . فلم أَنْكِلْ

عن الضرْبِ مِسْمَعا

(124/439)

قال الشيخ : " أمَّا قولُه " باتفاق " : إن عَنَى من البصريين فصحيحُ ، وإن عَنَى مِنَ النحويين فليس بصحيح ؛ إذ قد ذهب بعضُهم إلى أنه لا يعمل . فإن وُجِد بعده منصوبٌ أو مرفوعٌ قَدَّر له عاملاً . وأمَّا قولُه " في تقدير الانفصال " فليس كذلك ؛ لئلا تكون إضافتُه غيرَ محضةٍ ، كما قال به ابن الطراوة وابن بَرْهان . ومذهبُهما فاسدٌ ؛ لأنَّ هذا المصدرَ قد نُعِتَ وأُكِّد بالمعرفة . وقوله " لا يعمل " إلى آخره ناقَضَه بقولِه " وقد جاء عاملاً " إلى آخره .

قلت : فغايةُ ما في هذا أنه نحا إلى أقوالٍ قال بها غيرُه . وأمَّا المناقضةُ فليست صحيحةً ؛ لأنه عَنَى أولاً أنه لا يَعْمل في السَّعَة ، وثانياً أنه قد جاء عاملاً في الضرورة ، ولذلك قيَّده فقال : " في قول الشاعر " .

قوله : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يجوز في الجملة وجهان : العطفُ على صلةِ " ما " ، والإِخبارُ عنهم بنفي الاستطاعةِ على سبيلِ الاستئنافِ ، ويكون قد جَمَع الضميرَ العائدَ على " ما " باعتبارِ معناها ؛ إذ المرادُ بذلك آلهتُهم ، ويجوز أن يكونَ الضميرُ عائداً على العابدين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 264. 268 ﴾

(125/439)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

أرزاق المخلوقات مختلفة ؛ فَمِنْ مضيَّقٍ عليه رزقُه ، ومَنْ مُوَسَّع عليه رزقه ، ومِنْ أرزاق هي أرزاق النفوس ، وأرزاقٍ للقلوب وأرزاق للأرواح ، وأرزاق للأسرار ؛ فأرزاقُ النفوسِ لقوم بتوفيق الطاعات ، ولآخرين بخذلان المعاصي . وأرزاق القلوب لقومٍ حضورُ القلب باستدامة الفكر ، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة . وأرزاق الأرواح لقوم صفاء المحبة ، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم ، فيكون بلاؤهم في محبتهم لأمثالهم . وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحقِ ، فأمّا من لم يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ .

شَغَلَ الخَلْقَ لأنَّ الجنس أَوْلى بالجنس . ولمَّا أراد الحقُّ – سبحانه – بقاء الجنس هَيَّأَ سبب التناسب والتناسل لاستيفاء مثل الأصل ، ثم مَنَّ على البعض بخَلْق البنين ، وابتلى قوماً بالبنات – كلٌّ بتقديره على ما يشاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

والرزق الطيب لعبدٍ ما تستطيبه نَفْسُه ، ولآخر ما يستطيبه سِرُّه .

فمنهم من يستطيب مأكولاً ومشروباً ، ومنهم من يستطيب خلوةً وصفوة . . . إلى غير ذلك من الأرزاق .

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وهو حسبان حصول شيءٍ من الأغيار ، وتعلُّق القلب بهم استكفاءً منهم أو استدفاعاً لمحذور أو استجلاباً لمحبوب .

﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ والنعمة التي كفروا بها هي الثقةُ بالله ، وانتظارُ الفَرَجِ منه ، وحسنُ التوكل عليه .

(126/439)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ﴾

ومَنْ يَتَعَلَّقُ بشخص أو بسببٍ مُضاهٍ لعُبَّاد الأصنام من حيث إنه يضيِّعُ وقتَه فيما لا يُعِينُه ، فالرزقُ ، من الله - في التحقيق - مُقدَّرٌ .

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ﴾

كيف تُضْرَبُ الأمثالُ لمن لا يساويه أحدٌ في الذات والصفات وأحكام الأفعال ؟

ومَنْ نَظَرَ إلى الحقِّ من حيث الخَلْق وقع في ظلمات التشبيه ، وبقي عن معرفة المعبود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 308 . 309 ﴾

(127/439)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين ﴾

أي : لا تقولوا ، ولا تصفوا إلهين اثنين ، أي : نفسه ، والأصنام .

ويقال : نزلت الآية في صنف من المجوس ، إنهم وصفوا إلهين اثنين .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ فإياي فارهبون ﴾ أي : فاخشوني ، ووحدوني ، وأطيعوني ، ولا تعبدوا غيري ﴿ وَلَهُ مَا فِى السموات ﴾ من الملائكة ﴿ والأرض ﴾ من الخلق ، الجن ، والإنس ، كلهم عبيده وإماؤه ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِبًا ﴾ أي : دائماً ، خالصاً .

ويقال : الألوهية .

والربوبية له خالصاً .

ويقال : دينه واجب أبداً لا يجوز لأحد أن يميل عنه .

ويقال : معناه : وله الدين والطاعة ، رضي العبد بما يؤمر به أو لم يرض ، والوصب في اللغة : الشدة والتعب .

ثم قال : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي : تعبدون غيره ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ يعني : إن الذي بكم من الغنى ، وصحة الجسم ، من قبل الله تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر ﴾ يعني : الفقر ، والبلاء في جسدكم .

﴿ وَمَا بِكُم ﴾ يعني : إليه تتضرعون ليكشف الضر عنكم ، كما قال في سورة الدخان ﴿ رَبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : 12] ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم ﴾ يعني : الكفار ﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي : يعبدون غيره .

قوله : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ أي : يجحدوا بما أعطيناهم من النعمة ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به التهديد ، كقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يلقى فِى النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتى ءَامِناً يَوْمَ القيامة اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : 40] يعني : تمتعوا بقية آجالكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : تعرفون في الآخرة ماذا نفعل بكم .

قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ أي : يجعلون لآلهتهم نصيباً من الحرث والأنعام ، كقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والانعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : 136] وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رزقناهم تالله لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل : 56] قال بعضهم : يعني : الكفار جعلوا لأصنامهم نصيباً ، ولا يعلمون منهم ضرا ولا نفعاً .

وبعضهم قال : معناه يجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئاً نصيباً ، أي : حظاً ﴿ مِّمَّا رزقناهم ﴾ من الحرث والأنعام .

قال تعالى : ﴿ تالله لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أي : تكذبون على الله ، لأنهم كانوا يقولون إنَّ الله أمرنا بهذا .

قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ يعني : يصفون لله ، ويقولون : الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزيهاً له عن الولد ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني : الأولاد الذكور .

أي : يصفون لغيرهم البنات ، ولأنفسهم الذكور .

ثم وصف كراهتهم البنات لأنفسهم فقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالانثى ﴾ يقول : إذا بشر أحد الكفار بالأنثى ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ أي : صار وجهه متغيراً من الحزن ،

والخجل ، ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يعني : مكروباً ، مغموماً من الحزن ، يتردد حزنه في جوفه .

قوله : ﴿ يتوارى مِنَ القومِ مِن سُوءِ ﴾ يعني : يكتم ما به من القوم .

(129/439)

ويقال : يستر وجهه من القوم ، ويختفي من سوء ﴿ مَا بُشّرَ بِهِ ﴾ أي : ما ظهر على وجهه من الكراهية ، ويدبر في نفسه كيف أصنع بها ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ ﴾ أي : الأنثى التي ولدت له على هوان يعني : أيحفظه على هوان ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ﴾ أي : يدقه ﴿ التراب أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : بئسما يقضون به ، لأنفسهم الذكور ، وله الإناث .

ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي : المشركين ﴿ مَثَلُ السوء ﴾ أي : جزاء السوء النار في الآخرة .

ويقال : يعني : عاقبة السوء .

ويقال : لآلهتهم صفة السوء صم ، بكم ، عمي .

﴿ وَلِلَّهِ المثل الاعلى ﴾ أي : الصفة العليا ، وهي شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ﴿ فَاطِرُ السماوات والأرض جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا وَمِنَ الأنعام أزواجا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ

يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : 4/3] فهذه الصفة العليا ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في ملكه ، ﴿ الحكيم ﴾ في أمره ، أَمَرَ الخلق أن لا يعبدوا غيره .

قوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِظُلْمِهِمْ ﴾ أي : بشركهم ومعصيتهم ، ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي : لم يترك على ظهر الأرض من دابة ، ودل الإضمار على الأرض ، لأن الدواب إنما هي على الأرض .

يقول : أنا قادر على ذلك .

﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ أي : إلى وقت معلوم ، ويقال : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ لأنه لو أخذهم بذنوبهم ، لمنع المطر .

وإذا منع المطر ، لم يبق في الأرض دابة إلا أهلكت ، ولكن يؤخر العذاب إلى أجلٍ مسمًّى .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم ، لأصاب العذاب جميع الخلائق ، حتى الجُعْلاَن في جحرها ، ولأمسكت السماء عن الأمطار ، ولكن يؤخرهم بالفضل والعفو .

ثم قال: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي: أجل العذاب ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ أي: لا يتأخرون عن الوقت ﴿ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي: لا يتقدمون قبل الوقت.

ثم قال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ أي: يصفون ويقولون ﴿ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم، وهو البنات ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ أي: يقولون الكذب ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ أي: الذكور من الولد.

ويقال: الجنة أي: يصفون لأنفسهم مع أعمالهم القبيحة أن لهم في الآخرة الجنة.

ثم قال: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ يعني: حقاً ويقال: لا بد، ولا محالة ﴿ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ وهو كقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَوَآءً محياهم ومماتهم سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: 21] ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ قرأ نافع: بكسر الراء.

يعني: أفرطوا في القول، وأفرطوا في المعصية.

وقرأ الباقون: ﴿ مُّفْرَطُونَ ﴾ بفتح الراء أي: متروكون في النار.

ويقال: منسيون في النار، وهو قول سعيد بن جبير.

وقال قتادة: أي معلجون في النار.

ويقال: الفارط في اللغة الذي يتقدم إلى الماء، وهذا قول يوافق قول قتادة.

ثم قال: ﴿ تالله ﴾ يقول والله ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ ﴾ أي: بعثنا ﴿ إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ أي

: بعثنا إلى أمم من قبلك الرسل، كما أرسلناك إلى قومك ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطن أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي: ضلالهم حتى أطاعوا الشيطان، وكذبوا الرسل ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ أي: قرينهم في النار ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فهذا تهديد لكفار مكة أنه يصيبهم مثل ما أصابهم، وتعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذاهم.

(131/439)

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ أي: القرآن ﴿ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذى اختلفوا فِيهِ ﴾ من الدين، لأنهم كانوا في طرق مختلفة، اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وغيرهم.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبيّن لهم طريق الهدى.

ثم قال: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي: أنزلنا القرآن بياناً من الضلالة، ونعمة من العذاب لمن آمن به ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالقرآن.

قوله: ﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾ أي: المطر ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي: بعد يبسها ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أي: في إحيائها لعلامة لوحدانيته، إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي: يطيعون، ويصدقون، ويعتبرون،

ويبصرون .

قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر ،

وعاصم ، في رواية أبي بكر : ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ بنصب النون ، وقرأ الباقون : بضم النون .

ومعناهما قريب .

يقال : سقيته وأسقيته بمعنى واحد ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ ولم يقل : مما في بطونها .

والأنعام جماعة مؤنثة .

وفي هذا قولان : إن شئت رددت إلى واحد من الأنعام ، وواحدها نعم ، والنعم تذكر ،

وتؤنث ، كقوله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِىَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ

الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

خَشْيَةِ الله وَمَا الله بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : 74] أي : من الحجر .

وإن شئت قلت على تأويل آخر ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ وهو ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ أي : بطون ما

ذكرنا .

وهذا مثل قوله: ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات وَغَيْرَ معروشات والنخل والزرع مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ والزيتون والرمان متشابها وَغَيْرَ متشابه كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ [الأنعام: 141] وقال: ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والانصاب والازلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90] ولم يقل فاجتنبوها.

أي: فاجتنبوا ما ذكرنا.

ثم قال تعالى: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ يعني: يخرج اللبن من بين الفرث والدم.

قال ابن عباس، في رواية أبي صالح: إن الدابة تأكل العلف، فإذا استقر في كرشها، طحنته الكبد فكان أسفله فرث، وأوسطه لبن، وأعلاه دم الكبد مسلط على هذه الأصناف الثلاثة.

فيقسم الدم، فيجري في العروق، ويجري اللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو في الكرش.

وقال بعضهم: إذا استقر العلف في الكرش، صار دماً بحرارة الكبد، ثم ينصرف الدم في العروق، فمقدار ما ينتهي إلى الضرع صار لبناً، لبرودة الضرع، بدليل أنَّ الضرع إذا كانت فيه آفة، يخرج منه الدم مكان اللبن.

ثم قال: ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ صار اللبن نصباً على معنى التفسير ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي: سهلاً في الشرب لا يغص به شاربه.

ويقال : يشتهي شاربه (إليه) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن ثمرات النخيل والاعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ ﴾ أي : من التمر .

ويقال : ﴿ مِنْهُ ﴾ كناية عن الأول ، وهو قوله ﴿ وَمِن ثمرات النخيل والاعناب تَتَّخِذُونَ ﴾ من ذلك ﴿ سَكَرًا ﴾ والسكر هو نقيع التمر ، إذا غلى واشتد قبل أن يطبخ .

ويقال سكراً أي : خمراً .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية وهي يومئذٍ كانت لهم حلال .

(133/439)

وهكذا قال الحسن والقتبي : إن هذه الآية نزلت في الخمر ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعني : الخل ، والزبيب ، والرُّبُّ .

وروي عن ابن عباس أنه قال : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ يعني : ما حرم منه ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ما أحل منه .

وقال الشعبي : السكر : النبيذ ، والخل ، والرزق الحسن : التمر ، والزبيب .

وقال الضحاك : السكر : الحرام ، والرزق الحسن : الحلال .

وهؤلاء كلهم قالوا : قبل تحريم الخمر .

وقال الأخفش : سكراً طعاماً .

يقال : هذا سكر لك أي : طعام لك .

وقال القتبي : لست أدري هذا .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : لعبرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ توحيد الله تعالى .

وقوله : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ أي : ألهمها إلهاماً مثل قوله ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] ﴿ أَنِ اتخذى مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ أي : مسكناً ﴿ وَمِنَ الشجر ﴾ يعني : أن اتخذي من الجبال ، ومن الشجر ، مسكناً ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ يعني : ومما يبنون من سقوف البيت .

قرأ ابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ بضم الراء والباقون : بالكسر . ومعناهما واحد .

أي : ومما يبنون من سقوف البيت ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي من ألوان الثمرات .

أي : ألهمها بأكل الثمرات ، ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ أي : ادخلي الطريق الذي يسهل عليك .

ويقال : خذي طرق ربك مذللاً أي مسخراً لك .

وقال مقاتل : ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ يعني : ادخلي طرق ربك في الجبال ، وفي خلال الشجر ﴿ ذُلُلاً ﴾ لأنَّ الله تعالى ذلل لها طرقها حيثما توجهت ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾

أي : من بطون النحل ، من قبل أفواهها مثل اللعاب ﴿ شَرَابٌ ﴾ يعني : العسل ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أي : العسل أبيض ، وأصفر ، وأحمر .

(134/439)

ويقال : يخرج من أفواه الشباب من النحل الأبيض ، ومن الكهول الأصفر ، ومن الشيوخ الأحمر ﴿ فِيهِ ﴾ أي : في العسل ﴿ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ روى أبو المتوكل الناجي ، عن أبي سعيد الخدري .

قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي استطلق بطنه .

فقال له : " اسْقِهِ عَسَلاً " .

فسقاه .

ثم جاء فقال : سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً .

فقال له : " اسْقِهِ عَسَلاً " .

فسقاه .

ثم جاءه فقال : سقيته فلم يزده إلاَّ استطلاقاً .

فقال له : " اسْقِهِ عَسَلاً .

صَدَقَ اللهُ وكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ" .

فسقاه فبرىء .

قال الفقيه أبو الليث : إنما يكون العسل شفاء إذا عرف الإنسان مقداره ، ويعرف لأي داء هو .

فإذا لم يعرف مقداره ، ولم يعرف موضعه ، فربما يكون فيه ضرر .

كما أن الله تعالى جعل الماء حياة كل شيء ، وربما يكون الماء سبباً للهلاك .

وقال السدي : العسل شفاء الأوجاع التي يكون شفاؤها فيه .

وقال مجاهد : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أي : في القرآن بيان للناس من الضلالة .

وروى أبو الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور .

وروى الأسود عن ابن مسعود أنه قال : عليكم بالشفاء من القرآن ، والعسل .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : فيما ذكر من أمر النحل لعلامة لوحدانيتي ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يعني : علموا أن معبودهم لم يغنهم من شيء .

ثم قال : ﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يتوفاكم ﴾ أي : يقبض أرواحكم ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ أي : إلى أسفل العمر ، وهو الهرم ﴿ لِكَىْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أي : صار

بحال لا يعلم ما علم من قبل .

ويقال : لكيلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً .

(135/439)

ويقال : إن الهرم اسوأ العمر ، وشره ، وقوله : ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ ﴾ أي : حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً ، لشدة هرمه ، بعد ما كان يعلم الأمور قبل الهرم ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ على تحويلكم .

ويقال : معناه ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر ﴾ أي : إني محولكم من حال إلى حال تكرهونه ، ولا يقدر معبودكم أن يمنعني عن ذلك ، والله عليم قدير على ذلك .

قوله : ﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق ﴾ أي : فضّل الموالي على العبيد في المال ﴿ فَمَا الذين فُضّلُواْ بِرَآدّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ أي : الموالي لا يرضون بدفع المال إلى المماليك ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ أي : لا ترضون لأنفسكم أن يكون عبيدكم معكم شركاء في أموالكم ، فكيف ترضون لله تعالى أن تصفوا له شريكاً في ملكه ، وصفاته ، وتصفوا له ولداً من عباده .

وقال قتادة : هو الذي فضل في المال والولد لا يشرك عبيده في ماله .

فقد رضيتم بذلك لله تعالى ، ولم ترضوا به لأنفسكم .

وقال مجاهد : ضرب الله مثلاً للآلهة الباطلة مع الله تعالى .

ويقال نزلت الآية في وفد نجران حين قالوا في عيسى عليه السلام ما قالوا .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ يقول : بوحدانية الله تعالى تكفرون ، وترضون له ما لا ترضون لأنفسكم .

قوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعني : خلق لكم من جنسكم إناثاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أزواجكم بَنِينَ ﴾ أي : خلق لكم من نسائكم بَنِينَ ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ أي : ولد الولد .

ويقال : هم الأَعوان ، والخدم ، والأصهار .

وروي عن زر بن حبيش ، عن ابن مسعود أنه قال : الحفدة : الأختان .

وقال مجاهد : الخدم ، وأنصاره ، وأعوانه .

وعن ابن مسعود أنه قال : هم أصهاره .

وقال الربيع بن أنس : البنون بنو الرجل من امرأته .

والحفدة بنو المرأة من غيره .

وقال زر بن حبيش : الحفدة : حشم الرجل .

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : الولد الصالح .

وقال أَهل اللغة : أصله في اللغة السرعة في المشي ، ويقال : في دعاء التوتر : ونحفد أي : ونجتهد في الخدمة والطاعة .

ثم قال : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ قال الكلبي : يعني : الحلال إن أخذتم به .

وقال مقاتل : ﴿ الطيبات ﴾ الخبز ، والعسل ، وغيرهما من الأشياء الطيبة ، بخلاف رزق البهائم والطيور .

ثم قال : ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ قال الكلبي : يعني : الآلهة وقال مقاتل : ﴿ أفبالباطل ﴾ يقول : بالشيطان يصدقون بأن مع الله إلهاً آخر .

ويقال ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : أفيعبدون الأصنام التي لا تقدر على مضرتهم ، ولا على منفعتهم ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ ﴾ أي : يجحدون بوحدانية الله تعالى ويقال : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ ﴾ فلا يؤمنون برب هذه النعمة .

قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : الأصنام ﴿ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ﴾ أي : لا يقدر لهم ﴿ رِزْقاً مِّنَ السموات ﴾ أي : إنزال المطر ﴿ والأرض ﴾ أي : والنبات ﴿ شَيْئًا ﴾ يعني : لا يملكون شيئاً من ذلك .

وقال القتبي : إنما نصب ﴿ شَيْئًا ﴾ بإيقاع الرزق عليه .

ومعناه : يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً .

كما تقول : ويخدم من لا يستطيع إعطاءه درهماً .

ثم قال : ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعني : ذلك ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الامثال ﴾ يعني : لا تصفوا لله شريكاً فإنه لا إله غيره ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ﴾ أنه لا شريك له ويقال إن الله يعلم ضرب الأمثال ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ضرب المثل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 283.276 ﴾

(137/439)

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ فَإيَّايَ فارهبون * وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَلَهُ الدين ﴾

الطاعة والإخلاص .

﴿ وَاصِباً ﴾ دائماً ثابتاً .

وقال ابن عبّاس : واجباً ، تعني الآية أنه ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع عنه بزوال أو هلاك غير الله عزّ وجلّ ، فإن الطاعة تدوم له وتصيب واصباً على القطع .

قال أبو الأسود الدؤلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه . . . يوماً بذم الدهر أجمع واصباً

أي دائماً .

وقال الفراء : ويقال خالصاً .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم ﴾ .

قال الفراء : (ما) في معنى الجزاء ولها فعل مضمر ، كأنه قال : وما يكون لكم من نعمة فمن الله .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [. . . . .] أن لاّ تتقوا سواه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ لذلك دخلت الفاء في قوله : ﴿ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ .

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ يصيحون بالدعاء ويضجون بالاستغاثة .

وأصله من جؤار الثور إذا رفع صوتاً شديداً من جوع أو فزع . قال القتيبي يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة . . . وكأن النكير أن تضيف وتجأرا

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ بعد ما خلصوا له بالدعاء في حال البلاء ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ ﴾ كفروا نعمته فيما أعطيناهم من النعماء وكشف الضرّ والبلاء ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا وعيد لهم .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ له نفعاً ولا فيه ضراً ولا نفعاً ﴿ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من

الأموال وهو ما حملوا لأوثاونهم من هديهم وأنعامهم نظيره قوله ﴿ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام : 136] .

(138/439)

ثمّ رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : ﴿ تاالله لَتُسْأَلُنَّ ﴾ يوم القيامة ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ ﴾ وهم خزاعة وكنانة قالوا : الملائكة بنات الله سبحانه .

﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني البنين ، وفي قوله : ﴿ مَا ﴾ وجهان من الأعراب : أحدهما الرفع على الابتداء ، ومعنى الكلام : يجعلون لله البنات ولهم البنين ، والثاني : النصب عطفاً على البنات تقديره : ويجعلون لله البنات ويجعلون لهم البنين الذي يشتهون .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ من الكراهة ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ممتلىء غماً وغيظاً ﴿ يتوارى ﴾ يخفى ويغيب ﴿ مِنَ القوم مِن سوء مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ من الخزي والعار والحياء ثمّ يتفكر ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ ذكر الكناية لأنه مردود إلى (ما) ﴿ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ ﴾ يخفيه ﴿ فِي التراب ﴾ فيئده .

وذلك أن مضر وخزاعة وتميماً كانوا يدفنون الإناث أحياء زعموا خوف الفقر عليهن وطمع

غير الأكفاء فيهن ، وكان صعصعة عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت يستحييها بذلك ، ولذلك قال الفرزدق :

ومنا الذي منع الوائدات . . . فأحيا الوئيد فلم يوأد

﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ بئس ما [يجعلون لله الإناث] ولأنفسهم البنين ، نظيره قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 2122] .

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ يعني لهؤلاء الواضعين لله سبحانه البنات ﴿ مَثَلُ السوء ﴾ احتياجهم إلى الأولاد وكراهيتهم الإناث منهم أو قتلهم إياها خوف الفقر وإقراراً على أنفسهم بالهتك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "أكبر الكبائر أن تدعو لله نداً وهو خلقك ، وأن تقتل ولدك من أجل أن يأكل معك وأن تزني بحليلة جارك" .

﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ الصفة العليا وهي التوحيد والإخلاص .

وقال ابن عبّاس : مثل السوء : النار ، والمثل الأعلى : شهادة أن لا إله إلاّ الله .

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ ﴾ فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم ﴿ مَّا تَرَكَ

عَلَيْهَا ﴾ أي على ظهر الأرض كناية عن غير مذكور ﴿ مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يمهلهم عليه ﴿ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ منتهى آجالهم ساعة وانقضاء أعمارهم ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ولا يقال موت قبله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم، يعني البنات ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ محل (ان) نصب بدل عن الكذب لأنه بيان وترجمة له.

وقرأ ابن عبّاس: والحسنى (الكذب) برفع الكاف والذال والباء على نعت الألسنة، والكذب: جمع كذوب، مثل رسول ورسل وصبور وصبر وشكور وشكر.

﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ يعني اليقين ومعنى الآية: ويجعلون له البنات ويزعمون أن لهم البنين.

وقال حيان: يعني بالحسنى الجنة في المعاد إن كان محمّد صادقاً في البعث.

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ حقاً، وقال ابن عبّاس: بلى.

﴿ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ في الآخرة ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ منسيون في النار.

قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير: مبعدون.

مقاتل: متروكون.

قتادة: معجلون إلى النار.

الفراء: مقدمون على النار.

وقرأ نافع: (مفرطون) بكسر الراء مع التخفيف أي مسرفون، وقرأ أبو جعفر: بكسر

الراء مع التشديد أي مضيّعون أمر الله تعالى .

﴿ تاالله لقد أرسلنا إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ كما أرسلناك إلى هذه الأمة ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ الخبيثة التي كانوا عليها مقيمين ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ ناصرهم ومعينهم وقرينهم ومتولي أمورهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ ﴾ من الدين والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ عطف الهدى والرحمة على موضع قوله (لتبين) لأن محله نصب ومجاز الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ بيانا للناس وهدى ورحمة .

﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ يعني المطر ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ جدوبها ودروسها ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ بسمع القلوب ولا بسمع الآذان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ لعظة ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ .

قرأ أهل المدينة وابن عامر ونافع وعاصم بفتح النون .

وقرأ الباقون بضمه . واختاره أبو عبيد قال : لأنه شراب دائم .

وحكى عن الكسائي أن العرب تقول : أسقيته نهراً وأسقيته لبناً إذا جعلت له سقياً دائماً

، فإذا أراد أنهم أعطوه شربة قالوا : سقيناه .

وقال غيره : هما لغتان يدل عليه قول لبيد في صفة السقاية :

سقى قومي بني مجد وأسقى . . . نميراً والقبائل من هلال

فجمع بين اللغتين .

﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ ولم يقل بطونها والأنعام جميع ، قال المبرد : كناية إلى النعم والنعم والأنعام واحد ولفظ النعم ، واستشهد لذلك برجز بعض الأعراب .

إذا رأيت أنجما من الأسد . . . جبهته أو الخراة والكند

بال سهيل في الفضيح ففسد . . . وطاب ألبان اللقاح فبرد

ولم يقل فبردت لانه رد إلى [اللبن أو الخراة] .

قال أبو عبيدة والأخفش : النعم يذكر ويؤنث فمن أنّث فلمعنى الجمع ، ومن ذكر فلحكم اللفظ ، ولأنه لا واحد له من لفظه .

وقال الشاعر يذكره :

أكل عام نِعَم تحوونه . . . يلقحه قوم وتنتجونه

إن له نخيل فلا يحمونه .

وقال الكسائي : ردّ الكناية إلى المراد في بطون ما ذكر .

وقال بعضهم : أراد بطون هذا الشيء ، كقول الله : ﴿ فَلَمَّا رَءَا الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 78] وقوله : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل : 35] الآية ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ ﴾ [النمل : 36] ولم يقل : جاءت .

وقال : الصلتان العبدي .

إن السماحة والمرؤة ضمّنا . . . قبراً بمرو على الطريق الواضح

وقال الآخر :

وعفراء أدنى الناس مني مودة . . . وعفراء عني المعرض المتواني

وقال الآخر :

إذا الناس ناس والبلاد بغبطة . . . وإذ أُم عمّار صديق مساعف

كل ذلك على معنى هذا الشخص وهذا الشيء .

وقال المؤرج : الكناية مردودة إلى البعض والجزء ، كأنه قال : نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونه اللبن ، إذ ليس لكلّها لبن وإنما يسقى من ذوات اللبن ، فاللبن فيه مضمر .

﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ ﴾ وهو ما في الكرش فإذا أُخرج منه لا يسمى فرثاً ﴿ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً ﴾ خلص من الفرث والدم ولم يختلط بهما ﴿ سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ جاهزاً هنيئاً يجرى في الحلق ولا يغص شاربه ، وقيل : إنه لم يغص أحد باللبن قط .

قال ابن عبّاس : إذا أكلت الدابة العلف واستقرّ في كرشها لحينه ، وكان أسفله فرث وأوسطه لبن وأعلاه دم الكبد [فما كان] على هذه الأصناف الثلاثة يقسم فيجري الدم في العروق ، ويجري اللبن في الضرع ، ويبقى الفرث كما هو .

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب ﴾ يعني ذلكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ ﴾ الكناية في قوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ عائدة إلى المذكورين .

﴿ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ .

(142/439)

قال قوم : السكر : الخمر ، والرزق الحسن : الخل والعنب والتمر والزبيب ، قالوا : وهذا قول تحريم الخمر ، وإلى هذا القول ذهب ابن مسعود وابن عمرو وسعيد بن جبير وأيوب وإبراهيم والحسن ومجاهد وعبد الرحمن بن أبي ليلى والكلبي ، وهي رواية عمرو بن سفيان البصري عن ابن عبّاس قال : السكر : ما حرم من ثمرتها ، والرزق الحسن : ما حل من ثمرتهما .

أما السكر فخمور هذه الأعاجم ، وأما الرزق الحسن فما تنتبذون وما تخلّلون وما

تأكلون .

قال : ونزلت هذه الآية ولم يحرم الخمر يومئذ ، وإنما نزل تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة .

وقال الشعبي : السكر : ما شربت ، والرزق الحسن : ما أكلت .

وروى العوفي عن ابن عبّاس : أن الحبشة يسمّون الخل السكر .

وقال بعضهم : السكر : النبيذ المسكر وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد ، والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والشعبي برواية مجالد وأبي روق وقول النخعي ورواية الوالبي عن ابن عبّاس ، وقيل : هو نبيذ التمر .

قال النبي صلى الله عليه وسلم " الخمر ما اتخذ من العنب ، والسكر من التمر ، والبتع من العسل ، والمزر من الذرة [والبيرا] من الحنطة ، وأنا أنهاكم عن كل مسكر " .

وقال أبو عبيدة : السكر : الطعم ، يقال : هذا سكر لك ، أي طُعم لك .

وأنشد :

جعلت عيب الأكرمين سكراً . . . ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ أي ألقى [على مسامعها] أو قذف في أنفسها ففهمته ، والنحل : زنابير العسل ، واحدها نحلة

﴿ أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ يبنون ، وقال ابن زيد : هو الكرم .

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ليس معنى الكل العموم وهو كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] وقوله : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : 25] .

﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ فأدخلي طرق ربك ﴿ ذُلُلاً ﴾ .

(143/439)

قال بعضهم : الذلل يعني الطرق ، ويقول هي مذللة للنحل .

قال مجاهد : [لا يتوعر عليها مكان سلكته] .

قال آخرون : الذلل نعت [النحل] .

قال قتادة وغيره : يعني مطيعة منقادة .

﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أبيض وأحمر وأصفر ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

يروى " أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي يشتكي بطنه ، فقال : " اسقه عسلاً " فذهب ثمّ رجع فقال : سقيته فلم يغن عنه شيئاً . فقال عليه الصلاة والسلام : " إذهب واسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك " فسقاه فكأنما نشط من عقال " ، [رواه] عطية عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري .

وقال مجاهد : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أي في القرآن . والقول الأوّل أولى بالصواب وأليق بظاهر الكتاب .

روى وكيع عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء ما في الصدور .

الأعمش عن خيثم عن الأسود قال : قال عبد الله : عليكم بالشفائين : العسل والقرآن .

﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ أي فيما ذكرنا ﴿ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعتبرون ﴿ والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ صبياناً وشباباً وكهولاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ أي أردؤه ، يقال منه : (ذل الرجل وفسل ، يرذل رذالة ورذولة ورذلته أنا) .

قال ابن عبّاس : يعني إلى أسفل العمر .

مقاتل : وابن زيد : يعني الهرم .

قتادة : أرذل العمر سبعون سنة .

وروى الأصبغ بن نباتة عن علي (رضي الله عنه) قال : أرذل العمر خمس وسبعون سنة .

﴿ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ أي لا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئاً .

﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ نظيرها في سورة الحج .

﴿ واللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق فَمَا الذين فُضِّلُواْ ﴾ في الرزق ﴿ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ ﴾ من العبيد حتّى يستووا هم وعبيدهم في ذلك ، يقول الله جل ثناؤه : فهم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني . يلزم بهذا المثل الحجة على المشركين ، وهذا مثل ضربه الله عزّوجل ، فما منكم من يشرك مملوكه في زوجته وقرابته وماله أفتعدلون بالله خلقه وعباده ، فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه من ذلك ولا تعدل به أحدا من عباده وخلقه .

عبد الله بن عبّاس : نزلت هذه الآية في نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله ، يقول : لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتّى يكون [المولى والملوك] في المنال شرعاً سواء فكيف ترضون لي مالا ترضون لانفسكم نظيرها في سورة الروم ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم : 28] [مثلا تعاينه] .

قال ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ بالاشراك به .

قرأ عاصم : بالتاء على الخطاب ، لقوله : ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ ﴿ واللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ﴾ .

وقرأ الباقون : بالياء لقوله : ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ [النحل : 71] واختاره أبو عبيد وأبو حاتم : لقرب المخبر منه .

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ يعني أنه خلق من آدم زوجته حوّاء ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ .

ابن عبّاس والنخعي وابن جبير وأبو الأضحى : هم الأصهار أختان الرجل على بناته .

روى شعبة عن عاصم : بن بهدلة قال : سمعت زر بن حبيش وكان رجلاً غريباً أدرك الجاهلية قال : كنت أمسك على عبد الله المصحف فأتى على هذه الآية قال : هل تدري ما الحفدة ، قلت : هم حشم الرجل .

قال عبد الله : لا ، ولكنهم الأختان . وهذه رواية الوالي عن ابن عبّاس .

(145/439)

وقال عكرمة والحسن والضحاك : هم الخدم .

مجاهد وأبو مالك الأنصاري : هم الأعوان ، وهي رواية أبي حمزة عن ابن عبّاس قال : من أعانك حفدك .

وقال الشاعر :

حفد الولائد حولهن وأسلمت . . . بأكفهنّ أزمّة الأجمال

وقال عطاء : هم ولد الرجل يعينونه ويحفدونه ويرفدونه ويخدمونه .

وقال قتادة : [مهنة يمتهنونكم] ويخدمونكم من أولادكم .

الكلبي ومقاتل : البنين : الصغار ، والحفدة : كبار الأولاد الذين يعينونه على عمله .

مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عبّاس : إنهم ولد الولد .

ابن زيد : هم بنو المرأة من الزوج الأوّل . وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس : هم بنو امرأة الرجل الأوّل .

وقال العتبي : أصل الحفد : مداركة الخطر والإسراع في المشي .

فقيل : لكل من أسرع في الخدمة والعمل : حفدة ، واحدهم حافد ، ومنه يقال في دعاء الوتر : إليك نسعى ونحفد ، أي نسرع إلى العمل بطاعتك .

وأنشد ابن جرير [للراعي] :

كلفت مجهولها نوقاً يمانية . . . إذا الحداة على أكسائها حفدوا

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : بالأصنام .

﴿ وَبِنِعْمَتِ الله هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ يعني التوحيد الباطل فالشيطان أمرهم بنحر البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿ وَبِنِعْمَتِ الله ﴾ بما أحلّ الله لهم ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ يجحدون تحليله .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السماوات ﴾ يعني المطر ﴿ والأرض

﴾ يعني النبات .

﴿ شَيْئًا ﴾ ، قال الأخفش : هو بدل من الرزق وهو في معنى : ما لا يملكون من الرزق شيئاً قليلاً ولا كثيراً .

قال الفراء : نصب [شيئاً] بوقوع الرزق عليه . كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرض كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْواتاً ﴾ [المرسلات : 25-26] أي يكفت الأحياء والأموات .

ومثله قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 14-15] .

(146/439)

﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ولا يقدرون على شيء ، ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ يعني الأشباه والأشكال فيشبهوه بخلقه ويجعلون له شريكاً فإنه واحد لا مثيل له ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ﴾ خطأ ما يضربون له من الأمثال ﴿ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ صواب ذلك من خطأه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 22 . 31 ﴾

(147/439)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

فإن قلت : إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين ، فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص . وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان ، فمعدودان فيهما دلالة على العدد ، فلا حاجة إلى أن يقال : رجل واحد ورجلان اثنان ، فما وجه قوله إلهين اثنين «2» ؟ قلت : الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنىّ به منهما ، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه والعنايه به . ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحد : لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم ، وجاز لأنّ الغالب هو المتكلم ، وهو من طريقة الالتفات ، وهو أبلغ في الترهيب من قوله : وإياه فارهبوه ، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم .

---

(1) . قال محمود : «يجوز أن يكون حالا من الضمير . . . الخ» قال أحمد : هذا الثاني هو الوجه ليس الأول ، وأما الحال فيعطى انتقالا ، ويوهم تقيد العدم استكبارهم ، مع أن الواقع

أو عدم استكبارهم مطلق غير مقيد بحال ، واللّه الموفق .

(2) . قال محمود : «إن قلت ما فائدة قوله اثنين مع إغناء التثنية عن ذلك . . . الخ» قال أحمد : وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(148/439)

[سورة النحل (16) : آية 52]

وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52)

الدِّينُ الطاعة واصِباً حال عمل فيه الظرف . والواصب : الواجب الثابت ، لأنّ كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه . ويجوز أن يكون من الوصب ، أى : وله الدين ذا كلفة ومشقة ، ولذلك سمى تكليفا . أو : وله الجزاء ثابتا دائما سرمدا لا يزول ، يعنى الثواب والعقاب .

[سورة النحل (16) : الآيات 53 إلى 55]

وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (53) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ وأىّ شيء حل بكم ، أو اتصل بكم من نعمة ، فهو من اللّه فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ فما تتضرعون إلا إليه ، والجؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة . قال الأعشى يصف راهبا :

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جُؤَارَا «1»

وقرئ : تجرون ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم . وقرأ قتادة : كاشف الضرّ على : فاعل بمعنى فعل ، وهو أقوى من كشف ، لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة . فإن قلت : فما معنى قوله إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ؟ قلت : يجوز أن يكون الخطاب في قوله وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ عاما ، ويريد بالفريق : فريق الكفرة وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان ، لا للتبعيض ، كأنه قال فإذا فريق كافر ، وهم أنتم . ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر ، كقوله فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ من نعمة الكشف عنهم ،

---

(1) وما آبلى على هيكل بناء وصلب فيه وصارا

يراوح من صلوات المليـ ك طورا سجودا وطورا جؤارا

بأعظم منك تقى في الحساب إذا النسمات نفضن الغبارا

للأعشى . والآبلى : الراهب ، نسبة إلى آبل وهو قيم البيعة . والهيكل : بيت الصنم . وصلب : أى صور الصليب .

وألف صارا للإطلاق. ويراوح: خبره، وإن لزم عليه التضمين مراعاة لجزالة المعنى، والمراوحة في العمل:

الانتقال من حالة إلى أخرى. والصلوات: الدعوات. والسجود: الانخفاض والخشوع. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء. وبأعظم: خبر آبلى. وتقى: تمييز. يقول: ليس الراهب العاكف على هيكله الذي صور فيه الصليب، وصار يتابع ويتنقل من بعض دعوات اللّه إلى بعض، فتارة يسجد سجوداً، وتارة يجأر جؤارا، تقاه أعظم من تقاك يوم الحساب إذا قام الناس من قبورهم، فنفضهم الغبار، كناية عن ذلك.

(149/439)

كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ تخلية ووعيد. وقرئ:

فيمتعوا، بالياء مبنيا للمفعول، عطفا على لِيَكْفُرُوا ويجوز أن يكون: ليكفروا فيمتعوا، من الامر الوارد في معنى الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر.

[سورة النحل (16) : آية 56]

وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56)

لِما لا يَعْلَمُونَ أى لآلهتهم. ومعنى لا يعلمونها : أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند اللّه، وليس كذلك. وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذاً جاهلون بها. وقيل : الضمير في لا يَعْلَمُونَ للآلهة. أى : لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر اجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا إليهم لَتُسْئَلُنَّ وعيد عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

[سورة النحل (16) : الآيات 57 إلى 59]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59)

كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات اللّه سُبْحانَهُ تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه. أو تعجب من قولهم وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ يعنى البنين. ويجوز في ما يَشْتَهُونَ الرفع على الابتداء، والنصب على أن يكون معطوفا على البنات، أى : وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. وظَلَّ بمعنى صار «1» كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى الصيرورة. ويجوز أن يجيء ظل، لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتما مربد الوجه «2» من الكآبة والحياء من الناس وَهُوَ كَظِيمٌ مملوء حنقاً على المرأة يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ يستخفى منهم مِنَ أجل سُوءِ المبشر به، ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به عَلى

هُونٍ

---

(1) . قال محمود : «ظل بمعنى صار» قال أحمد : وجاز أن يراد الظلول نهاراً لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار وأنهم لو عرجوا نهارا في الوقت الذي لا يتغابى على البصر فيه شيء إلى السماء لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم ، واللَّه أعلم .

(2) . قوله «ويجوز أن يجيء ظل . . . الخ» أي يرد ويستعمل في الآية بمعناه الأصلى ، وهو اتصاف الشيء بصفة نهاراً فقط ، لأن أكثر الوضع . . . الخ . ومربد الوجه : متغبسه من الغضب ، كما يفيده الصحاح . (ع)

(150/439)

على هوان وذل أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أم يئده «1» . وقرئ : أيمسكها على هون أم يدسها ، على التأنيث . وقرئ : على هوان أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم للَّه ، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف .

[سورة النحل (16) : آية 60]

لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)

مَثَلُ السَّوْءِ صفة السوء : وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية

الإملاق ، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وهو الغنى عن العالمين ، والنزاهة عن صفات المخلوقين وهو الجواد الكريم .

[سورة النحل (16) : آية 61]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (61)

بِظُلْمِهِمْ بكفرهم ومعاصيهم ما تَرَكَ عَلَيْها أى على الأرض مِنْ دَابَّةٍ قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين . وعن أبى هريرة : أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه ، فقال : بلى واللّه ، حتى أنّ الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم «2» . وعن ابن مسعود : كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم «3» . أو من دابة ظالمة . وعن ابن عباس مِنْ دَابَّةٍ من مشرك يدب عليها . وقيل : لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء .

[سورة النحل (16) : آية 62]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم ، ومن الاستخفاف برسلهم «4»

(1) . قوله «أم يدسه» أى يدفنه في القبر حيا . (ع)

(2) . أخرجه الطبري والبيهقي في الشعب التاسع والأربعين . وفي إسناده محمد بن جابر التمامى . وهو متروك .

(3) . أخرجه ابن أبى شيبة والحاكم والطبراني من طريق أبى الأحوص قال : قرأ ابن مسعود وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ – الآية قال : كاد الجعل يعذب في جحره يذنب ابن آدم» .

(4) . قال محمود : «المراد بما يكرهونه البنات ، وشركاء في رياستهم ، واستخفاف برسلهم . . . الخ» قال أحمد :

ونقيض هؤلاء من إذا أعجبه شيء من ماله جعله للّه ، بل إذا أحب أمة له أعتقها ، وإذا اشتهى طعاما قدم إليه تصدق به على حبه ، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة ، كابن عمر ونظرائه ومن تابعهم فيها ، ويجعلون للّه ما يشتهون . اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك فأنلنا محبتهم ، فمن أحب قوما حشر معهم .

(151/439)

والتهاون برسالاتهم . ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ مع ذلك أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى عند اللّه كقوله وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى . وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوى اليسار : كيف تكون يوم القيامة إذا قال اللّه تعالى : هاتوا ما دفع إلى

السلاطين وأعوانهم ، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة . وإذا قال : هاتوا ما دفع إلىّ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له ، أما تستحيي من ذلك الموقف ؟ وقرأ هذه الآية .

وعن مجاهد : أنّ لهم الحسنى ، هو قول قريش : لنا البنون ، وأن لهم الحسنى : بدل من الكذب .

وقرئ الْكَذِبَ جمع كذوب ، صفة للألسنة مُفْرَطُونَ قرئ مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدّداً ، فالمفتوح بمعنى مقدّمون إلى النار معجلون إليها ، من أفرطت فلانا ، وفرّطته في طلب الماء ، إذا قدمته . وقيل . منسيون متروكون ، من أفرطت فلانا خلفي إذا خلفته ونسيته .

والمكسور المخفف ، من الإفراط في المعاصي . والمشدّد ، من التفريط في الطاعات وما يلزمهم .

[سورة النحل (16) : آية 63]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63)

فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها . أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا . ومعنى وَلِيُّهُمُ قرينهم وبئس القرين . أو يجعل

فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ حكاية للحال الآتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره، نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش، أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم، فهو ولى وهؤلاء، لأنهم منهم. ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: فهو ولى أمثالهم اليوم.

[سورة النحل (16): الآيات 64 إلى 65]

وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)

وَهُدىً وَرَحْمَةً معطوفان على محل لِتُبَيِّنَ إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على لتبين: لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل. وإنما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل. والذي اختلفوا فيه: البعث، لأنه كان فيهم من يؤمن به، ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

سماع إنصاف وتدبر ، لأنّ من لم يسمع بقلبه ، فكأنه أصم لا يسمع .

[سورة النحل (16) : آية 66]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66)

ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال ، كقولهم : ثوب أكياش ، ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً . وأمّا فِي بُطُونِها في سورة المؤمنين ، فلأنّ معناه الجمع . ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان ، أحدهما : أن يكون تكثير نعم «1» كأجبال في جبل ، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم ، فإذا ذكر فكما يذكر «نعم» في قوله :

فِى كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَنْتِجُونَهُ «2»

وإذا أنث ففيه وجهان : أنه تكسير نعم . وأنه في معنى الجمع . وقرئ نُسْقِيكُمْ بالفتح والضم ، وهو استئناف ، كأنه قيل : كيف العبرة ، فقيل نسقيكم مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ أى يخلق اللّه اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة اللّه لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله . قيل : إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته ، فكان أسفله فرثا ، وأوسطه لبنا ، وأعلاه دما . والكبد مسلطة على هذه الأصناف

(1) . قوله «أن يكون تكثير نعم» لعله «تكسير» بالسين . (ع)

(2) في كل عام نعم تحوونه يلقحه قوم وتنتجونه

أربابه نوكى فلا يحمونه ولا يلاقون طعانا دونه

أنعم الأبناء تحسبونه هيهات هيهات لما ترجونه

لصبي من بنى أسد اسمه قيس بن الحصين الحارثي . والنعم : أسم جمع يعامل معاملة المفرد . وقد يراعى معناه فيعامل كالجمع . والأنعام عده سيبويه من المفردات المبنية على أفعال ، كأخلاق وأمشاج ، فيعامل بالتذكير تارة اعتباراً بلفظه ، وبالتأنيث أخرى اعتباراً بمعناه . وقيل : هو جمع نعم كأسباب وسبب ، والكلام تحسر وتحزن في صورة الاخبار ، ويحتمل تقدير همزة الاستفهام التوبيخي أو التعجبي قبل في ، أى : أفى كل عام تفعلون ذلك . وروى :

أكل عام ، بالاستفهام . وكل : نصب على الظرفية . وفيه الاخبار بالزمان عن اسم العين وهو نعم . إما لأنه يشبه المعنى لتجدده كل عام كما قاله ابن مالك وغيره في مثله . أو على تقدير مضاف كما ذهب إليه جمهور البصريين» أى :

نهب نعم . وجملة تحوونه : صفة نعم ، ويجوز أنها خبره ، وكل عام : ظرف لتحوونه ، وقدم لأنه محط الاستفهام .

وعليه فالمسوغ للابتداء بنعم وقوعه في حيز الاستفهام . أو تقديم معمول الخبر عليه لأنه

كتقديم الخبر . ويلقحه قوم أى يطلقون فحوله على إناثه فتحمل عندهم . وتنتجونه أنتم : أى تستولدونه عندكم ، كناية عن نهبه منهم . والأرباب الأصحاب . والنوكى : جمع أنوك كحمقى جمع أحمق وزنا ومعنى . والطعان : المطاعنة بالرماح ، أى : لا يحاربون أمامه ويصبرون للحرب . وقوله أنعم : استفهام إنكارى توبيخي ، أى : لا تحسبوا نعمنا نعم أولئك الحمقى الضعاف .

وهيهات بمعنى بعد ، وكرره للتوكيد وقطع الأطماع . وقوله «لما ترجونه» متعلق بمحذوف ، أى : أقول ذلك لما ترجونه ، واللام فيه لتبيين الفاعل . ويجوز أنها زائدة فيه ، والرجا : الطمع ، ويجوز أنه الظن .

(153/439)

الثلاثة تقسمها ، فتجرى الدم في العروق ، واللبن في الضرع ، وتبقى الفرث في الكرش . فسبحان اللّه ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمّل . وسئل شقيق عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من بين فرث ودم سائِغاً سهل المرور في الحلق .

ويقال : لم يغص أحد باللبن قط . وقرئ : سيغاً ، بالتشديد . وسيغاً ، بالتخفيف . كهين

ولبن.

فإن قلت: أى فرق بين «من» الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض، لأن اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوبا. والثانية لابتداء الغاية، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ، فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالا من قوله لَبَناً مقدما عليه، فيتعلق بمحذوف، أى: كائنا من بين فرث ودم. ألا ترى أنه لو تأخر فقيل: لبنا من بين فرث ودم كان صفة له، وإنما قدم لأنه موضع العبرة، فهو قمن بالتقديم. وقد احتج بعض من يرى أن المنى طاهر على من جعله نجسا، لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهرا.

[سورة النحل (16): آية 67]

وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)

فإن قلت: بم تعلق قوله وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ؟ قلت: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أى: من عصيرها، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً بيان وكشف عن كنه الإسقاء. أو يتعلق بتتخذون، ومنه من تكرير الظرف للتوكيد، كقولك: زيد في الدار فيها. ويجوز أن يكون تَتَّخِذُونَ

صفة موصوف محذوف ، كقوله :

. . . بِكَفّيْ كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرْ «1»

---

(1) مالك عندي غير سوط وحجر وغير كبداء شديدة الوتر

جادت بكفى كان من أرمى البشر

السوط : آلة للضرب ، معمولة من الجلد . وكبداء صفة لمحذوف ، أى قوس كبداء غليظة الكبد ، أى المقبض .

وقيل : واسعته . والوتر : حبل تشد به القوس . وجادت : صارت جيدة . ويروى بدله : ترمى . وشبه الرمي لها مجاز عقلى . وكفى مضاف لمحذوف قامت صفته في اللفظ مقامه ، وهي جملة «كان» وحذف المنعوت الأول مطرد ، والثاني ضرورة ، لأنه لا يجوز حذف المنعوت إلا إذا كان بعض اسم مجرور بمن أو «في» ، أو صلح نعته لمباشرة العامل . و«كان» هنا ليس للمضى ، بل لمجرد الثبوت والدوام ، أى : بكفى رجل متصف بأنه دائما من أشد الناس رميا ، يعنى نفسه . ففيه تجريد . يقول لعدوه : ليس لك عندي غير هذه الأشياء ، وهو ضرب من التهديد والتقريع : هدده بالسوط عند القرب ، وبالحجر عند المفارقة ، وبالسهم عند البعد : ويروى «سهم» بدل سوط ، فيضيع الترتيب .

تقديره : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ورزقا حسناً ، لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر . فإن قلت : فإلام يرجع الضمير في منه إذا جعلته ظرفا مكرّراً ؟

قلت : إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى أَوْ هُمْ قائِلُونَ إلى الأهل المحذوف ، والسكر : الخمر ، سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً . نحو رشد رشداً ورشداً . قال :

وَجَاؤُنَا بهم سَكَرٌ عَلَيْنَا فَأَجْلَى اليَوْمُ وَالسَّكْرَانُ صَاحِى «1»

وفيه وجهان : أحدهما أن تكون منسوخة . وممن قال بنسخها : الشعبي والنخعي . والثاني أن يجمع بين العتاب والمنة . وقيل : السكر النبيذ ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ، ثم يترك حتى يشتدّ ، وهو حلال عند أبى حنيفة إلى حدّ السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى اللّه عليه وسلم «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب» «2» وبأخبار جمة . ولقد صنف شيخنا أبو على الجبائي قدّس اللّه روحه غير كتاب في تحليل النبيذ ، فلما شيخ «3» وأخذت منه السنّ العالية قيل له : لو شربت منه ما تتقوى به ، فأبى . فقيل له : فقد صنفت في تحليله ، فقال : تناولته الدعارة «4» فسمج في المروءة . وقيل : السكر الطعم «5» وأنشد :

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سَكَرَا

أى تنقلت بأعراضهم «6» . وقيل هو من الخمر ، وإنه إذا ابترك «7» في أعراض الناس ، فكأنه تخمر بها . والرزق الحسن : الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك . ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً ، كأنه قيل : تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن .

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء ص 395 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . أخرجه النسائي من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما مرفوعا . ورواه العقيلي من وجه آخر عن على مرفوعا . وفيه محمد بن الفرات الكوفي ، وهو منكر الحديث .

(3) . قوله «فلما شيخ وأخذت منه السن العالية» في الصحاح : شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك ، وشيخ تشييخا : أى شاخ . (ع)

(4) . قوله «فقال تناولته الدعارة» في الصحاح : الدعارة الفسق والخبث . (ع)

[. . . . .]

(5) . قوله «وقيل السكر الطعم» في الصحاح : الطعم بالضم : الطعام . (ع)

(6) . قوله «أى تنقلت بأعراضهم» في الصحاح : النقل بالضم ما ينتقل به على الشراب . (ع)

(7) . قوله «وإنه إذا ابترك» في الصحاح : ابترك ، أى أسرع في العدو وجد . (ع)

[سورة النحل (16) : الآيات 68 إلى 69]

وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

الإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنيقتها «1» في صنعتها، ولطفها في تدبير أمرها، وإصابتها فيما يصلحها، دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علماً بذلك وفطنها، كما أولى أولى العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب إِلَى النَّحَلِ بفتحتين. وهو مذكر كالنخل، وتأنيثه على المعنى أَنِ اتَّخِذِي هي أن المفسرة، لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. وقرئ: «بيوتا» بكسر الباء لأجل الياء. ويَعْرِشُونَ بكسر الراء وضمها: يرفعون من سقوف البيوت. وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تعسل فيها. والضمير في يَعْرِشُونَ للناس. فإن قلت: ما معنى «من» في قوله أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ قلت: أريد معنى البعضية، وأن لا تبنى بيوتها

«2» في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل «3» وتعتاد أكلها ، أى ابني البيوت ، ثم كلى من كل ثمرة تشتهينها ، فإذا أكلتها فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ أى الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل . أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك ، أى في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المرّ عسلا من أجوافك ومنافذ مآكلك . أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها ،

---

(1) . قوله «وإلا فنيقتها» أى تأنقها . أفاده الصحاح. (ع)

(2) . قال محمود : «قلت أريد معنى البعضية وأن لا تبنى بيوتها . . . الخ» قال أحمد : ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري في تبعيض «من» المتعلقة باتخاذ البيوت بإطلاق الأكل ، كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجر عليها فيه وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض ، لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع ، ولهذا المعنى دخلت ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والإطلاق لها في تناول الثمرات ، كما تقول : راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شيء شئت ، فتوسط ثم لتفاوت الحجر والإطلاق ، فسبحان اللطيف الخبير .

(3) . قوله «بالثمرات التي تجرسها النحل» في الصحاح «الجرس» الصوت الخفي ،

وجرست النحل العرفط إذا أكلته. وفيه أيضا «العرفط» شجر من العضاه. وفيه «العضاه» كل شجر يعظم وله شوك. (ع)

(156/439)

فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة. أو أراد بقوله ثُمَّ كُلِي ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك ذُلُلًا جمع ذلول، وهي حال من السبل، لأنّ اللّه ذللها لها ووطأها وسهلها، كقوله هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا أو من الضمير في فَاسْلُكِي أى: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة شَرابٌ يريد العسل، لأنه مما يشرب مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقلّ معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك. وتنكيره إمّا لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أن رجلا جاء إليه فقال: إن أخى يشتكى بطنه، فقال: «اذهب واسقه العسل» فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «اذهب واسقه عسلا» فقد صدق اللّه وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه اللّه فبرأ، كأنما أنشط

من عقال «1» . وعن عبد اللّه بن مسعود :

العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور ، فعليكم بالشفاءين : القرآن والعسل «2» .

ومن بدع تأويلات الرافضة : أن المراد بالنحل علىّ وقومه : وعن بعضهم أنه قال عند المهدى :

إنما النحل بنو هاشم ، يخرج من بطونهم العلم ، فقال له رجل : جعل اللّه طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدى وحدث به المنصور ، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم .

[سورة النحل (16) : آية 70]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)

إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة عن علىّ رضى اللّه عنه . وتسعون سنة عن قتادة ، لأنه لا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان ، وأن يعلم شيئا ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى سعيد وغفل الحاكم فاستدركه .

(2) . لم أره هكذا . وفي الكامل لابن عدى من رواية لابن إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد اللّه رفعه «عليكم بالشفاءين : العسل : شفاء من كل داء . والقرآن شفاء لما في الصدور» وقال : لم يرفعه عن وكيع عن الثوري إلا سفيان بن وكيع . قال ورواه زيد بن الحباب عن الثوري أيضا مرفوعا اه وأخرجه ابن ماجة وابن خزيمة والحاكم من رواية زيد بن الحباب بهذا الاسناد مرفوعا بلفظ «عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن» وابن أبى شيبة عن وكيع مرفوعا ولفظه «العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور» ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم والثعلبي أيضا . قال ابن أبى شيبة : وحدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حيية عن الأسود عن عبد اللّه قال «عليكم بالشفاءين القرآن والعسل» .

سئل عنه . وقيل : لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئاً : وقيل : لئلا يعلم زيادة علم على علمه .

[سورة النحل (16) : آية 71]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71)

أي : جعلكم متفاوتين في الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا في الملبس والمطعم ، كما يحكى عن أبى ذرّ أنه سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تطعمون « 1 » فما رئي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من عير تفاوت « 2 » أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة . وقيل : هو مثل ضربه اللّه للذين جعلوا له شركاء ، فقال لهم : أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ، ولا تجعلونهم فيه شركاء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء . وقيل المعنى أنّ الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً ، فهم في رزقي سواء ، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق . فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم . وقرئ : يجحدون ، بالتاء والياء .

[سورة النحل (16) : آية 72]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)

مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم . وقيل : هو خلق حواء من ضلع آدم . والحفدة : جمع حافد ، وهو الذي يحفد ، أى يسرع في الطاعة والخدمة . ومنه قول القانت . وإليك نسعى ونحفد

وقال :

حَفَدَ الْوَلَائِدَ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَتْ بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةَ الأَجْمَالِ «3»

واختلف فيهم فقيل : هم الأختان على البنات «4» وقيل : أولاد الأولاد . وقيل : أولاد المرأة

---

(1) . متفق عليه . وأخرجه أصحاب السنن .

(2) . لم أره .

(3) . يقول ، حفد من باب ضرب ، أى أسرع . الولائد : جمع وليدة وهي البنت الصغيرة ، بينهن : أى بين النساء الطاعنات . وأسلمت : مبنى للمجهول ، أى تركت في أكف الظعائن والولائد . أزمة الأجمال : جمع زمام ، وذلك دليل على حفظهن وصونهن ، حتى لا يتخلل ركبهن إلا الولائد .

(4) . قوله «فقيل هم الأختان على البنات» في الصحاح : الحفدة الأعوان والخدم . وفيه أيضا : الخبن بالتحريك كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ ، وهم الأختان ، كذا عند العرب وأما عند العامة فختن الرجل زوج ابنته اه فلعله أيضا ضمن الأختان معنى الأعوان أو الخلفاء فعداء بعلى . وفي الخازن عن ابن مسعود : الحفدة أختان الرجل على بناته . (ع)

من الزوج الأوّل. وقيل: المعنى وجعل لكم حفدة، أى خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً كأنه قيل: وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون وهم حافدون، أى جامعون بين الأمرين مِنَ الطَّيِّباتِ يريد بعضها، لأنّ كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم إيمان إلا به، كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة اللّه المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز: هم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول.

وقيل: الباطل ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما. ونعمة اللّه: ما أحل لهم.

[سورة النحل (16): آية 73]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73)

الرزق يكون بمعنى المصدر، وبمعنى ما يرزق، فإن أردت المصدر نصبت به شَيْئاً كقوله أَوْ إِطْعامٌ . . . . . . يَتِيماً على: لا يملك أن يرزق شيئاً. وإن أردت المرزوق كان شيئاً بدلا

منه بمعنى قليلا. ويجوز أن يكون تأكيداً للا يملك: أى لا يملك شيئاً من. الملك. وَمِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ: صلة للرزق إن كان مصدراً بمعنى: لا يرزق من السموات مطرا، ولا من الأرض نباتاً. أو صفة إن كان اسما لما يرزق. والضمير في وَلا يَسْتَطِيعُونَ لما، لأنه في معنى الآلهة، بعد ما قيل لا يَمْلِكُ على اللفظ. ويجوز أن يكون للكفار، يعنى: ولا يستطيع هؤلاء - مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب - من ذلك شيئا، فكيف بالجماد الذي لا حسن به.

فإن قلت: ما معنى قوله وَلا يَسْتَطِيعُونَ بعد قوله لا يَمْلِكُ؟ وهل هما إلا شيء واحد؟

قلت:

ليس في لا يَسْتَطِيعُونَ تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلا، لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفى الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد: أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

[سورة النحل (16): آية 74]

فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (74)

فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به «1»، لأنّ من يضرب الأمثال

---

(1). قال محمود: «تمثيل للاشراك بالله والتشبيه به... الخ» قال أحمد: فعلى تفسيره

الأول يكون قوله لِلَّهِ متعلقا بالأمثال ، كأنه قيل : فلا تمثلوا اللّه ولا تشبهوه . وعلى الثاني يكون متعلقا بالفعل الذي هو تضربوا ، كأنه قيل : فلا تمثلوا للّه الأمثال ، فان ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم ، ليبين له ما خفى عنه ، واللّه تعالى هو العالم وأنتم لا تعلمون ، فتمثيل غير العالم للعالم عكس الحقيقة ، واللّه أعلم .

مشبه حالا بحال وقصة بقصة إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كنه ما تفعلون وعظمه ، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم ، لأنّ العقاب على مقدار الإثم وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ كنهه وكنه عقابه ، فذاك هو الذي جرّكم إليه وجرأكم عليه ، فهو تعليل للنهى عن الشرك . ويجوز أن يراد : فلا تضربوا للّه الأمثال ، إنّ اللّه يعلم كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 610.622 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾

سبب نزولها : أن رجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته ، ودعا الرحمن ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قال الزجاج : ذِكْر الاثنين توكيد ، كما قال تعالى : ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وله الدِّين واصِباً ﴾ في المراد بالدِّين أربعة أقوال :

أحدها : أنه الإخلاص ، قاله مجاهد .

والثاني : العبادة ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وإقامة الحدود ، والفرائض ، قاله عكرمة .

والرابع : الطاعة ، قاله ابن قتيبة .

وفي معنى "واصباً" أربعة أقوال :

أحدها : دائماً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، والثوري ، واللغويون .

قال أبو الأسود الدؤلي :

لا أَبْتَغِي الحمدَ القَليل بَقَاؤُه . . .

يوماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أجْمَعَ وَاصِبَا

قال ابن قتيبة: معنى الكلام: أنه ليس من أحدٍ يُدان له ويُطاع إلاّ انقطع ذلك عنه بزوالٍ أو هَلَكةٍ، غيرَ الله عز وجل، فإن الطاعة تدوم له.

والثاني: واجباً، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: خالصاً، قاله الربيع بن أنس.

والرابع: وله الدين موصباً، أي: متعباً، لأن الحق ثقيل، وهو كما تقول العرب: همٌّ ناصب، أي: مُنْصِبٌ، قال النابغة:

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ . . .

وليلٍ أقاسيه بطيىءِ الكواكبِ

ذكره ابن الأنباري.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون المعنى: له الدين، والطاعة، رضي العبد بما يُؤمَر به وسهل عليه، أو لم يسهل، فله الدين وإن كان فيه الوصب، والوصب، شدة التعب.

قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة ﴾ قال الزجاج : المعنى : ما حل بكم من نعمة ، من صحة في جسم ، أو سَعَةٍ في رزق ، أو متاعٍ من مال وولد ﴿ فمن الله ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة : "فَمَنَّ اللهُ" بتشديد النون .

قوله تعالى : ﴿ ثم إِذا مسكم الضُّرُّ ﴾ قال ابن عباس : يريد الأسقام ، والأمراض ، والحاجة .

قوله تعالى : ﴿ فإليه تجأرون ﴾ قال الزجاج : "تجأرون" : ترفعون أصواتكم إِليه بالاستغاثة ، يقال : جأر يجأر جُؤاراً ، والأصوات مبْنية على "فُعَالٍ" و "فَعِيل" فأما "فُعَال" فنحو "الصُّرَاخ" و "الخُوَار" ، وأما "الفَعِيل" فنحو "العويل" و "الزَّئير" ، والفُعَال أكثر .

قوله تعالى : ﴿ إِذا فريق منكم ﴾ قال ابن عباس : يريد أهل النفاق .

قال ابن السائب : يعني الكفار .

قوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ قال الزجاج : المعنى : ليكفروا بأنَّا أنعمنا عليهم ، فجعلوا نِعَمَنا سبباً إِلى الكفر ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ربنا إِنك آتيت فرعون ﴾ إِلى قوله : ﴿ ليضلوا عن سبيلك ﴾ [يونس 88] ، ويجوز أن يكون "ليكفروا" ، أي : ليجحدوا نعمة الله في ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فتمتعوا ﴾ تهدّد ، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة أمركم .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون ﴾ يعني : الأوثان .

وفي الذين لا يعلمون قولان :

أحدهما : أنهم الجاعلون ، وهم المشركون ، والمعنى : لما لا يعلمون لها ضراً ولا نفعاً ؛

فمفعول العلم محذوف ، وتقديره : ما قلنا ، هذا قول مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنها الأصنام التي لا تعلم شيئاً ، وليس لها حس ولا معرفة ، وإنما قال : يعلمون ،

لأنهم لمَّا نحلوها الفهم ، أجراها مجرى مَنْ يعقل على زعمهم ، قاله جماعة من أهل المعاني .

قال المفسرون : وهؤلاء مشركو العرب جعلوا لأوثانهم جزءاً من أموالهم ، كالبَحِيرَةِ

والسائِبَةِ وغير ذلك مما شرحناه في [الأنعام : 139] .

(162/439)

قوله تعالى : ﴿ تالله لتُسألُنّ ﴾ رجع عن الإِخبار عنهم إِلى الخطاب لهم ، وهذا سؤال

توبيخ .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ قال المفسرون : يعني : خزاعة وكنانة ، زعموا أن

الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزه عما زعموا .

﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ يعني : البنين .

قال أبو سليمان: المعنى: ويتمنَّون لأنفسهم الذكور.

قوله تعالى: ﴿ وإذا بُشِّر أحدهم بالأُنثى ﴾ أي: أُخبر بأنه قد وُلد له بنت ﴿ ظل وجهه مُسودّاً ﴾ قال الزجاج: أي: متغيِّراً تغيُّر مغتمٍّ، يقال لكل من لقي مكروهاً: قد اسود وجهه غَمّاً وحَزَناً.

قوله تعالى: ﴿ وهو كظيم ﴾ أي: يكظم شدة وَجْدِهِ، فلا يظهره، وقد شرحناه في سورة [يوسف: 84].

قوله تعالى: ﴿ يتوارى من القوم ﴾ قال المفسرون: وهذا صنيع مشركي العرب، كان أحدُهم إِذا ضرب امرأتَه المخاضُ، توارى إِلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً، سُرَّ به، وإِن كانت أنثى، لم يظهر أياماً يُدبِّر كيف يصنع في أمرها، وهو قوله تعالى: ﴿ أيمسِكُهُ على هُونٍ ﴾ فالهاء ترجع إِلى ما في قوله: ﴿ ما بُشِّر به ﴾، والهُون في كلام العرب: الهوان.

وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة، والجحدري: "على هوان" والدس: إِخفاء الشيء، في الشيء، وكانوا يدفنون البنت وهي حية ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ إِذْ جعلوا لله البنات اللاتي مَحلُّهن منهم هذا، ونسبوه إِلى الولد، وجعلوا لأنفسهم البنين.

قوله تعالى: ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء ﴾ أي: صفة السَّوْء من احتياجهم إِلى الولد، وكراهتهم للإناث، خوف الفقر والعار ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي: الصفة العليا

من تنزُّهه وبراءته عن الولد .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناسَ بظلمهم ﴾ أي : بشركهم ومعاصيهم ، كلما وُجد شيء منهم أُوخذوا به ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ يعني : الأرض ، وهذه كناية عن غير مذكور ، غير أنه مفهوم ، لأن الدوابّ إِنما هي على الأرض .

(163/439)

وفي قوله : ﴿ من دابة ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه عنى جميع ما يدبُّ على وجه الأرض ، قاله ابن مسعود .

قال قتادة : وقد فعل ذلك في زمن نوح عليه السلام ، وقال السدي : المعنى : لأقحط المطر فلم تبق دابة إِلا هلكت ، وإِلى نحوه ذهب مقاتل .

والثاني : أنه أراد من الناس خاصة ، قاله ابن جريج .

والثالث : من الإِنس والجن ، قاله ابن السائب ، وهو اختيار الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤخرهم إِلى أجل مسمى ﴾ وهو منتهى آجالهم ، وباقي الآية قد تقدم [الأعراف : 34] .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ المعنى : ويحكمون له بما يكرهونه لأنفسهم ،

وهو البنات ، ﴿ وتصف ألسنتُهم الكذبَ ﴾ أي : تقول الكذب ، وقرأ أبو العالية ، والنخعي ، وابن أبي عبلة : "الكُذُب" بضم الكاف والذال .

ثم فسر ذلك الكذب بقوله : ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ وفيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها البنون ، قاله مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل .

والثاني : أنها الجزاء الحسن من الله تعالى ، قاله الزجاج .

والثالث : [أنها] الجنة ، وذلك أنه لما وعد الله المؤمنين الجنة ، قال المشركون : إن كان ما تقولونه حقاً ، لندخلَنّها قبلكم ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ لا جرم ﴾ قد شرحناها فيما مضى [هود : 22] .

وقال الزجاج : "لا" ردٌّ لقولهم ، والمعنى : ليس ذلك كما وصفوا "جرم" أنَّ لهم النار ، المعنى : جرم فعلهم ، أي : كسب فعلهم هذا ﴿ أنَّ لهم النار وأنهم مفرَطون ﴾ وفيه أربعة أوجه ، قرأ الأكثرون : "مُفْرَطون" بسكون الفاء وتخفيف الراء وفتحها ، وفي معناها قولان :

أحدهما : مُتْرَكون ، قاله ابن عباس .

وقال الفراء : منسيُّون في النار .

والثاني : مُعْجَّلون ، قاله ابن عباس أيضاً .

وقال ابن قتيبة : مُعْجَّلون إلى النار .

قال الزجاج: معنى "الفرط" في اللغة: المتقدم، فمعنى "مفرطون": مقدَّمون إلى النار، ومَنْ فسرها "مُتْرَكون" فهو كذلك [أيضاً]، أي: قد جُعلوا مقدَّمين إلى العذاب أبداً، متروكين فيه.

وقرأ نافع، ومحبوب.

عن أبي عمرو، وقتيبة عن الكسائي "مُفْرِطون" بسكون الفاء وكسر الراء وتخفيفها، قال الزجاج: ومعناها: أنهم أفرطوا في معصية الله.

وقرأ أبو جعفر وابن أبي عبلة "مُفَرِّطُون" بفتح الفاء وتشديد الراء وكسرها، قال الزجاج. ومعناها: أنهم فرَّطوا في الدنيا فلم يعملوا فيها للآخرة، وتصديق هذه القراءة ﴿ يا حسرتي على ما فرَّطتُ في جنب الله ﴾ [الزمر: 56].

وروى الوليد بن مسلم عن ابن عامر "مُفَرَّطُون" بفتح الفاء والراء وتشديدها، قال الزجاج: وتفسيرها كتفسير القراءة الأولى، فالمفرَّط والمفرَط بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ قال المفسرون: هذه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ الخبيثة حتى عصَوا وكذَّبوا، ﴿

﴿ فهو وليُّهم اليوم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله ابن السائب ، ومقاتل ، كأنهما أرادا : فهو وليهم يوم تكون لهم النار .

والثاني : أنه الدنيا ، فالمعنى : فهو مواليهم في الدنيا ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ إلا لِتُبيِّنَ لهم ﴾ يعني : الكفار ﴿ الذي اختلفوا فيه ﴾ أي : ما خالفوا فيه المؤمنين من التوحيد والبعث والجزاء ، فالمعنى : أنزلناه بياناً لما وقع فيه الاختلاف .

قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماءً ﴾ يعني : المطر ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ أي : بعد يُبْسها ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ أي : يعتبرون .

قوله تعالى : ﴿ وإنَّ لكم في الأنعام لعبرةً نُسقيكم ﴾ قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : "نُسقيكم" بضم النون ، ومثله في [المؤمنين : 21] .

(165/439)

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "نَسقيكم" بفتح النون فيهما .

وقرأ أبو جعفر : "تَسْقِيكم" بتاء مفتوحة ، وكذلك في [المؤمنين : 21] ، وقد سبق بيان

الأنعام.

وذكرنا معنى "العبرة" في [آل عمران: 13]، والفرق بين "سقى" و "أسقى" في [الحجر: 22].

فأما قوله: ﴿ مما في بطونه ﴾ فقال الفراء: النَّعَم والأنعام شيء واحد، وهما جمعان، فرجع التذكير إلى معنى "النَّعَم" إذ كان يؤدي عن الأنعام، أنشدني بعضهم.

وَطَابَ أَلْبَانُ اللِّقَاحِ وَبَرَدْ . . .

فرجع إلى اللبن، لأن اللبن والألبان في معنى؛ قال: وقال الكسائي: أراد: نسقيكم مما في البطون ما ذكرنا، وهو صواب، أنشدني بعضهم:

مِثْلَ الفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُه . . .

وقال المبرِّد: هذا فاشٍ في القرآن، كقوله للشمس: ﴿ هذا ربي ﴾ [الأنعام: 78] يعني: هذا الشيء الطالع؛ وكذلك ﴿ وإني مرسلة إليهم بهديَّة ﴾ ثم قال: ﴿ فلما جاء سليمانَ ﴾ [النمل: 35، 36] ولم يقل: "جاءت" لأن المعنى: جاء الشيء الذي ذكرنا، وقال أبو عبيدة: الهاء في "بطونه" للبعض، والمعنى: نُسقيكم مما في بطون البعض الذي له لبن، لأنه ليس لكل الأنعام لبن، وقال ابن قتيبة: ذهب بقوله: ﴿ مما في بطونه ﴾ إلى النَّعَم، والنَّعَم تذكَّر وتؤنَّث، والفَرْث: ما في الكرش، والمعنى: أن اللبن كان طعاماً، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فرث في الكرش، وخلص من ذلك الدم ﴿ لبناً

خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ أي : سهلاً في الشرب لا يشجى به شاربه ، ولا يَغص .

وقال بعضهم : سائغاً ، أي : لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : إذا استقر العَلَف في الكَرِش ، طحنه ، فصار أسفله فرثاً ، وأعلاه دماً ، وأوسطه لَبَناً ، والكبد مسلَّطة على هذه الأصناف الثلاثة ، فيجري الدم في العروق ، واللبن في الضَّرع ، ويبقى الفرث في الكرش .

(166/439)

قوله تعالى : ﴿ ومِن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ تقدير الكلام : ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سَكَرا .

والعرب تضمر ﴿ ما ﴾ كقوله : ﴿ وإِذا رأيت ثَمَّ ﴾ [الإنسان : 20] أي : ما ثَمَّ .

والكناية في "منه" عائدة على "ما" المضمرة .

وقال الأخفش : إِنما لم يقل : منهما ، لأنه أضمر الشيء ، كأنه قال : ومنها شيء تتخذون منه سَكَراً .

وفي المراد بالسّكر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الخمر ، قاله ابن مسعود ، وابن عمر ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ،

وإبراهيم ابن أبي ليلى ، والزجاج ، وابن قتيبة ، وروى عمرو بن سفيان عن ابن عباس قال : السَّكَرُ : ما حرِّم من ثمرتها ، وقال هؤلاء المفسرون : وهذه الآية نزلت إذْ كانت الخمرة مباحة ، ثم نسخ [ذلك] بقوله : ﴿ فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] وممن ذكر أنها منسوخة ، سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي .

والثاني : أن السَّكَر : الخَلّ ، بلغة الحبشة ، رواه العَوفي عن ابن عباس .

وقال الضحاك : هو الخل ، بلغة اليمن .

والثالث : أن "السَّكَر" الطُّعْم ، يقال : هذا له سَكَر ، أي : طُعْم ، وأنشدوا :

جَعَلْتَ عَيْبَ الأَكْرَمِيْن سَكَرا . . .

قاله أبو عبيدة : فعلى هذين القولين ، الآية محكمة .

فأما الرزق الحسن ، فهو ما أُحِلَّ منهما ، كالتمر ، والعنب ، والزبيب ، والخل ، ونحو ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ في هذا الوحي قولان :

أحدهما : أنه إلهام ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والضحاك ، ومقاتل .

والثاني : أنه أمر ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وروى ابن مجاهد عن أبيه قال : أَرسل إليها .

والنحل : زنابير العسل ، واحدتها نحلة .

و"يَعرِشون" يجعلونه عريشاً .

وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم "يَعْرُشُون" بضم الراء ، وهما لغتان ، يقال : "يعرِش" و ﴿ يعرُش ﴾ مثل ﴿ يعكِف ﴾ ﴿ ويعكُف ﴾ .

ثم فيه قولان :

أحدهما : ما يعرشون من الكروم ، قاله ابن زيد .

(167/439)

والثاني : أنها سقوف البيوت ، قاله الفراء .

وقال ابن قتيبة : كل شيء عُرِش ، من كرم ، أو نبات ، أو سقف ، فهو عَرْش ، ومعروش .

وقيل : المراد ب ﴿ مما يعرشون ﴾ : مما يبنون لهم من الأماكن التي تلقي فيها العسل ، ولولا التسخير ، ما كانت تأوي إليها .

قوله تعالى : ﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾ قال ابن قتيبة : أي : من الثمرات ، و"كلّ" هاهنا ليست على العموم ، ومثله قوله : ﴿ تدمّر كل شيء ﴾ [الأحقاف : 25] .

قال الزجاج : فهي تأكل الحامض ، والمرَّ ، وما لا يوصَف طعمه ، فيُحيل الله عز وجل من ذلك عسلاً .

قوله تعالى : ﴿ فاسلكي سُبُل ربِّك ﴾ السُّبل : الطُّرُق ، وهي التي يطلب فيها الرعي .

"والذُّلُل" جمع ذَلول.

وفي الموصوف بها قولان:

أحدهما: أنها السُّبُل، فالمعنى: اسلكي السُّبُل مُذَلَّلَةً لكِ، فلا يتوعَّر عليها مكان سلكته، وهذا قول مجاهد، واختيار الزجاج.

والثاني: أنها النحل، فالمعنى: إِنك مُذَلَّلَةً بالتسخير لبني آدم، وهذا وقول قتادة، واختيار ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿ يخرج من بطونها شراب ﴾ يعني: العسل ﴿ مختلف ألوانه ﴾ قال ابن عباس: منه أحمر، وأبيض، وأصفر.

قال الزجاج: "يخرج" من بطونها، إِلاَّ أنها تلقيه من أفواهها، وإِنما قال.

من بطونها، لأن استحالة الأطعمة لا تكون إِلاَّ في البطن، فيخرج كالريق الدائم الذي يخرج من فم ابن آدم.

قوله تعالى: ﴿ فيه شفاءٌ للناس ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إِلى العسل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود.

واختلفوا، هل الشفاء الذي فيه يختص بمرض دون غيره، أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه عامّ في كل مرض.

قال ابن مسعود : العسل شفاء من كل داء .

وقال قتادة : فيه شفاء للناس من الأدواء .

(168/439)

وقد روى أبو سعيد الخدري قال : " جاء رجل إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إِن أخي استطلق بطنُه ، فقال : "اسقه عسلاً" فسقاه ، ثم أتى فقال : قد سقيتُه فلم يزده إِلاَّ استطلاقاً ، قال : "اسقه ، عسلاً" ، فذكر الحديث .

.

إِلى أن قال : فَشُفِيَ ، إِما في الثالثة ، وإِما في الرابعة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "صدق الله ، وكذب بطن أخيك" " أخرجه البخاري ، ومسلم .

ويعني : بقوله "صدق الله" : هذه الآية .

والثاني : فيه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه ، قاله السدي .

والصحيح أن ذلك خرج مخرج الغالب .

قال ابن الأنباري : الغالب على العسل أنه يعمل في الأدواء ، ويدخل في الأدوية ، فإذا لم

يوافق آحادَ المرضى ، فقد وافق الأكثرين ، وهذا كقول العرب : الماء حياة كل شيء ، وقد نرى من يقتله الماء ، وإِنما الكلام على الأغلب .

والثاني : أن الهاء ترجع إِلى الاعتبار .

والشفاء : بمعنى الهدى ، قاله الضحاك .

والثالث : أنها ترجع إِلى القرآن ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ﴾ أي : أوجدكم ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثم يتوفَّاكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ، ﴿ ومنكم من يُرَدُّ إِلى أرذل العمر ﴾ وهو أردؤه ، وأَدْوَنُه ، وهي حالة الهرم .

وفي مقداره من السنين ثلاثة أقوال :

أحدها : خمس وسبعون سنة ، قاله عليّ عليه السلام .

والثاني : تسعون سنة ، قاله قتادة .

والثالث : ثمانون سنة ، قاله قطرب .

قوله تعالى : ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ قال الفراء : لكي لا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً .

وقال ابن قتيبة : أي : حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً ، لشدة هرمه .

وقال الزجاج : المعنى : أن منكم من يَكْبُرُ حتى يذهب عقله خَرَفاً ، فيصير بعد أن كان

عالماً جاهلاً ، ليريَكم من قدرته ، كما قَدِر على إماتته وإحيائه ، أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل .

(169/439)

وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : ليس هذا في المسلمين ، المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله ، وعقلاً ، ومعرفة .

وقال عكرمة : من قرأ القرآن ، لم يُردّ إلى أرذل العمر .

قوله تعالى : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ يعني : فضل السادة على المماليك ﴿ فما الذين فُضّلوا ﴾ يعني : السادة ﴿ برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ﴾ فعبرت "ما" عن "مَنْ" لأنه موضع إبهام ، تقول : ما في الدار ؟ فيقول المخاطب : رجلان أو ثلاثة ، ومعنى الآية : أن المولى لا يردّ على ما ملكت يمينه من ماله حتى يكون المولى والمملوك في المال سواءً ، وهو مَثَل ضربه الله تعالى للمشركين الذين جعلوا الأصنام شركاء له ، والأصنامَ ملكاً له ، يقول : إذا لم يكن عبيدكم معكم في المُلك سواءً ، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء ، وترضون لي ما تأنفون لأنفسكم منه ؟ ! وروى العوفي عن ابن عباس ، قال : لم يكونوا أشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي

في سلطاني ؟

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم : "تَجحدون" بالتاء وفي هذه النعمة قولان :

أحدهما : حُجته وهدايته .

والثاني : فضله ورزقه .

قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ يعني النساء .

وفي معنى ﴿ من أنفسكم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه خلَق آدم ، ثم خلَق زوجته منه ، قاله قتادة .

والثاني : "من أنفسكم" ، أي : من جنسكم من بني آدم ، قاله ابن زيد .

وفي الحَفَدَة خمسة أقوال :

أحدها : أنهم الأصهار ، أختان الرجل على بناته ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس في رواية ، ومجاهد في رواية ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، وأنشدوا من ذلك :

ولو أنَّ نَفْسِي طاوعتني لأَصْبَحَتْ . . .

لها حَفَدٌ مِمَّا يُعدّ كثيرُ

ولكنَّها نَفْسٌ عَلَيَّ أَبِيّةٌ . . .

(170/439)

عَيُوفٌ لأصهار اللِئام قذورُ

والثاني : أنهم الخدم ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في رواية الحسن ، وطاووس وعكرمة في رواية الضحاك ، وهذا القول يحتمل وجهين : أحدهما : أنه يراد بالخدم : الأولاد .

فيكون المعنى : أن الأولاد يَخدمون .

قال ابن قتيبة : الحفدة : الخدم والأعوان ، فالمعنى : هم بنون ، وهم خدم .

وأصل الحَفْد : مداركة الخطو والإِسراع في المشي ، وإِنما يفعل الخدم هذا ، فقيل لهم : حَفَدَة .

ومنه يقال في دعاء الوتر : "وإِليك نسعى ونحفِد" .

والثاني : أن يراد بالخدم ، المماليك ، فيكون معنى الآية : وجعل لكم من أزواجكم بنين ، وجعل لكم حفدة من غير الأزواج ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنهم بنو امرأة الرجل من غيره ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والرابع : أنهم ولد الولد ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والخامس : أنهم كبار الأولاد ، والبنون : صغارهم ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

قال مقاتل : وكانوا في الجاهلية تخدمهم أولادهم .

قال الزجاج : وحقيقة هذا الكلام أن الله تعالى جعل من الأزواج بنين ، ومن يعاون على ما يُحتاج إِليه بسرعة وطاعة .

قوله تعالى : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ قاله ابن عباس : يريد : من أنواع الثمار والحبوب والحيوان .

قوله تعالى : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الأصنام ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الشريك والصاحبة والولد ، فالمعنى : يصدِّقون أن لله ذلك ؟ ! قاله عطاء .

والثالث : أنه الشيطان ، أمرهم بتحريم البحيرة والسائبة ، فصدَّقوا .

وفي المراد بـ "نعمة الله" ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها التوحيد ، قاله ابن عباس .

والثاني : القرآن والرسول .

والثالث : الحلال الذي أحلَّه الله لهم .

قوله تعالى : ﴿ ويعبُدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً ﴾ وفي المشار إليه قولان :

أحدهما : أنها الأصنام ، قاله قتادة .

والثاني : الملائكة ، قاله مقاتل .

(171/439)

قوله تعالى : ﴿ من السموات ﴾ يعني : المطر ، ﴿ و ﴾ من ﴿ الأرض ﴾ النبات ، والثمر .

قوله تعالى : ﴿ شيئاً ﴾ قال الأخفش : جعل "شيئاً" بدلاً من الرزق ، والمعنى : لا يملكون رزقاً قليلا ولا كثيرا ، ﴿ ولا يَستطيعون ﴾ أي : لا يقدرون على شيء .

قال الفراء : وإنما قال في أول الكلام : "يملك" وفي آخره : "يستطيعون" ، لأن "ما" في مذهب : جمعٍ لآلهتهم ، فوحَّد "يملك" على لفظ "ما" وتوحيدها ، وجمع في "يستطيعون" على المعنى ، كقوله :

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ [يونس : 42] .

قوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي : لا تشبِّهوه بخَلْقه ، لأنه لا يُشْبِه شيئاً ، ولا يُشبِهه شيء ، فالمعنى : لا تجعلوا له شريكا .

وفي قوله : ﴿ إِن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : يعلم ضرب المثل ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، قاله ابن السائب .

والثاني : يعلم أنه ليس له شريك ، وأنتم لا تعلمون أنه ليس له شريك ، قاله مقاتل .

والثالث : يعلم خطأ ما تضربون من الأمثال ، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه .

والرابع : يعلم ما كان ويكون ، وأنتم لا تعلمون قدر عظَمته حين أشركتم به ، ونسبتموه إِلى العجز عن بعث خلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(172/439)

وقال النسفى :

﴿ وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾

فإن قلت : إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة ، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص ، فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال "رجل واحد ورجلان اثنان" .

قلت : الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص .

فإذا أريدت الدلالة على أن المعنيّ به منهما هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت "إنما هو إله" ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ﴿ فإياي فارهبون ﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترغيب من قوله "فإياي فارهبوه" .

(173/439)

﴿ فارهبوني ﴾ يعقوب ﴿ وَلَهُ مَا فِى السموات والأرض وَلَهُ الدين ﴾ أي الطاعة ﴿ وَاصِبًا ﴾ واجباً ثابتاً لأن كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه ، وهو حال عمل فيه الظرف ، أو وله الجزاء دائماً يعني الثواب والعقاب ﴿ أفغير الله تَتَّقُونَ وَمَا بِكُم مّن نّعْمَةٍ ﴾ وأي شيء اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب ﴿ فَمِنَ الله ﴾ فهو من الله ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر ﴾ المرض والفقر والجدب ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ﴾ فما تتضرعون إلا إليه ، والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مّنْكُم بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ الخطاب في و ﴿ ما بكم من نعمة ﴾ إن كان عاماً فالمراد بالفريق الكفرة ، وإن كان الخطاب للمشركين فقوله ﴿ منكم ﴾ للبيان لا للتبعيض كأنه قال : فإذا فريق كافر وهم أنتم ، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله ﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ

مُّقْتَصِدٌ ﴾ [لقمان : 32] ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ، ثم أوعدهم فقال ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هو عدول إلى الخطاب على التهديد ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رزقناهم ﴾ أي لآلهتهم ، ومعنى ﴿ لا يعلمون ﴾ أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لأنها جماد لا تضر ولا تنفع ، أو الضمير في ﴿ لا يعلمون ﴾ للآلهة أي لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا ، وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرباً إليهم ﴿ تالله لَتُسْئَلُنَّ ﴾ وعيد ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ من أنها آلهة وأنها أهل للتقرب إليها ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه أو تعجب من قولهم ﴿ وَلَهُمْ

(174/439)

مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني البنين .

ويجوز في "ما" الرفع على الابتداء و ﴿ لهم ﴾ الخبر ، والنصب على العطف على ﴿ البنات ﴾ ، و ﴿ سبحانه ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه أي وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي

صار فظل وأمسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصيرورة لأن أكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتماً مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوء حنقاً على المرأة ﴿ يتوارى مِنَ القوم مِن سُوءِ مَا بُشّرَ بِهِ ﴾ يستخفى منهم من أجل سوء المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ ﴾ أيمسك ما بشر به على هون وذل ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التراب ﴾ أم يئده ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف .

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة مَثَلُ السوء ﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ، ووأدهن خشية الإملاق ﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ وهو الغني عن العالمين والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الغالب في تنفيذ ما أراد ﴿ الحكيم ﴾ في إمهال العباد ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ ﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ على الأرض ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين .

عن أبي هريرة رضي الله عنه : إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ من دابة ﴾ من مشرك يدب ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ أي أجل كل أحد أو وقت تقتضيه الحكمة أو القيامة ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ ما يكرهونه لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم ، ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ مع ذلك أي ويقولون الكذب ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ عند الله وهي الجنة إن كان البعث حقاً كقوله ﴿ وَلَئِن رُّجّعْتُ إلى رَبّى إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] و ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ بدل من ﴿ الكذب ﴾ ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ ﴿ مفرِطون ﴾ نافع ﴿ مفرّطون ﴾ أبو جعفر .

فالمفتوح بمعنى مقدمون إلى النار معجلون إليها من أفرطت فلاناً وفرطته في طلب الماء إذا قدمته ، أو منسيون متروكون من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته .

والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي ، والمشدد من التفريط في الطاعات أي التقصير فيها .

﴿ تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ أي أرسلنا رسلاً إلى من تقدمك من الأمم ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطن أَعْمَالَهُمْ ﴾ من الكفر والتكذيب بالرسل ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ أي قرينهم في الدنيا تولى إضلالهم بالغرور ، أو الضمير لمشركي قريش أي زين للكفار قبلهم

أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم ، أو هو على حذف المضاف أي فهو ولي أمثالهم اليوم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في القيامة ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ القرآن ﴿ إِلاَّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ ﴾ للناس ﴿ الذى اختلفوا فِيهِ ﴾ هو البعث لأنه كان فيهم من يؤمن به ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ معطوفان على محل ﴿ لتبين ﴾ إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب .

(176/439)

ودخلت اللام على ﴿ لتبيين ﴾ لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ والله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذلك لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع إنصاف وتدبر لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه لا يسمع .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ وبفتح النون : نافع وشامي وأبو بكر .

قال الزجاج : سقيته وأسقيته بمعنى واحد .

ذكر سيبويه الأنعام في الأسماء المفردة الواردة على أفعال ولذا رجع الضمير إليه مفرداً ، وأما في بطونها في سورة "المؤمنين" فلأن معناه الجمع وهو استئناف كأنه قيل : كيف العبرة ؟ فقال

﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ أي يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله .

قيل إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً ، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش ثم ينحدر ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر .

وسئل شقيق عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ سهل المرور في الحلق ، ويقال : لم يغص أحد باللبن قط .

و"من" الأولى للتبعيض لأن اللبن بعض ما في بطونها ، والثانية لابتداء الغاية .

(177/439)

ويتعلق ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ ﴾ بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما وحذف لدلالة ﴿ نسقيكم ﴾ قبله عليه وقوله ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء ، أو تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد ، والضمير في ﴿ منه ﴾ يرجع إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير ، والسكر الخمر

سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً نحو رشد رشداً ورشداً .

ثم فيه وجهان : أحدهما أن الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة ، وثانيهما أن يجمع بين العتاب والمنة .

وقيل : السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ، ثم يترك حتى يشتد ، وهو حلال عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله إلى حد السكر ، ويحتجان بهذه الآية وبقوله عليه السلام : " الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب " وبأخبار جمة ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ وألهم ﴿ أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ هي "أن" المفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول .

قال الزجاج : واحد النحل نحلة كنخل ونخلة والتأنيث باعتبار هذا ، و"من" في ﴿ من الجبال ﴾ ﴿ وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ يرفعون من سقوف البيت أو ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تعسل فيها للتبعيض لأنها لا تبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش والضمير في ﴿ يعرشون ﴾ للناس ، وبضم الراء : شامي وأبو بكر

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي ابني البيوت ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ فادخلي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل ، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل لأن الله تعالى ذللها وسهلها ، أو من الضمير في ﴿ فاسلكي ﴾ أي وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ يريد العسل لأنه مما يشرب تلقيه من فيها ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ منه أبيض وأصفر وأحمر من الشباب والكهول والشيب أو على ألوان أغذيتها ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ لأنه من جملة الأدوية النافعة ، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل .

وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض كما أن كل دواء كذلك ، وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء لأن النكرة في الإثبات تخص ، وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال عليه السلام : " اسقه عسلاً " فجاءه وقال : زاده شراً فقال عليه السلام : " صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً " فسقاه فصح .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : " العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور ، فعليكم بالشفاءين : القرآن والعسل " ومن بدع الروافض أن المراد بالنحل عليّ وقومه .

وعن بعضهم أن رجلاً قال عند المهدي : إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم .

فقال له رجل : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدي ، وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في عجيب أمرها فيعلمون أن الله أودعها علماً بذلك وفطنها كما أعطى أولي العقول عقولهم .

﴿ والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يتوفاكم ﴾ بقبض أرواحكم من أبدانكم ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ العمر ﴾ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة أو ثمانون أو تسعون ﴿ لِكَىْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ لينسى ما يعلم أو لئلا يعلم زيادة علم على علمه ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ ﴾ بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل أو إلى الإفناء من الإحياء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء ﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِى الرزق ﴾ أي جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم ﴿ فَمَا الذين فُضّلُواْ ﴾ في الرزق يعني الملاك ﴿ بِرَآدّي ﴾ بمعطي ﴿ رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ جملة اسمية وقعت في موضع جملة فعلية في موضع النصب لأنه جواب النفي بالفاء

وتقديره : فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا مع عبيدهم في الرزق ، وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم : أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ، ولا تجعلونهم فيه شركاء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم ، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء ؟ ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وبالتاء : أبو بكر ، فجعل ذلك من جملة جحود النعمة .

﴿ والله جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي من جنسكم ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أزواجكم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت وإليك نسعى ونحفد . . .

واختلف فيه فقيل : هم الأختان على البنات وقيل : أولاد الأولاد .

(180/439)

والمعنى وجعل لكم حفدة أي خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ أي بعضها لأن كل الطيبات في الجنة وطيبات الدنيا أنموذج منها ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ هو ما يعتقدونه من منفعة الأصنام وشفاعتها ﴿ وَبِنِعْمَتِ الله ﴾ أي الإسلام ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أو الباطل الشيطان والنعمة محمد صلى الله عليه وسلم أو الباطل ما

يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السماوات والأرض شَيْئًا ﴾ أي الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيئاً ، فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق ، فإن أردت المصدر نصبت به ﴿ شيئًا ﴾ أي لا يملك أن يرزق شيئًا ، وإن أردت المرزوق كان ﴿ شيئًا ﴾ بدلاً منه أي قليلاً ، و ﴿ من السماوات والأرض ﴾ صلة للرزق إن كان مصدراً أي لا يرزق من السماوات مطراً ولا من الأرض نباتاً ، وصفة إن كان اسماً لما يرزق ، والضمير في ﴿ ولاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لما لأنه في معنى الآلهة بعدما قال لا يملك على اللفظ ، والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ولا يتأتى ذلك منهم ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ فلا تجعلوا لله مثلًا فإنه لا مثل له أي فلا تجعلوا له شركاء ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ﴾ أنه لا مثل له من الخلق ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك أو إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك والوجه الأول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 288. 294 ﴾

(181/439)

وقال البيضاوى :

﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين ﴾

ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه ، أو إيماءِ بأن الاثنينية تنافي الألوهية كما ذكر الواحد في قوله : ﴿ إِنَّمَا هُوَإِله وَاحِدٌ ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإِلهية ، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإِلهية . ﴿ فإياي فارهبون ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال : فأنا ذلك الإِله الواحد فإياي فارهبون لا غير .

﴿ وَلَهُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ خلقاً وملكاً . ﴿ وَلَهُ الدين ﴾ أي الطاعة . ﴿ وَاصِبًا ﴾ لازماً لما تقرر من أنه الإله وحده والحقيق بأن يرهب منه . وقيل ﴿ وَاصِبًا ﴾ من الوصب أي وله الدين ذا كلفة . وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر . ﴿ أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ ﴾ ولا ضار سواه كما لا نافع غيره كما قال تعالى .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾ أي وأي شيء اتصل بكم من نعمة فهو من الله ، ﴿ وَمَا ﴾ شرطية أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الإِخبار دون الحصول ، فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإِخبار بأنها من الله لا لحصولها منه . ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ فما تتضرعون إلا إليه ، والجؤار رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة .

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم ﴾ وهم كفاركم. ﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ بعبادة غيره، هذا إذا كان الخطاب عاماً، فإن كان خاصاً بالمشركين كان من للبيان كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون من للتبعيض على أن يعتبر بعضهم كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو إنكار كونها من الله تعالى. ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ أمر تهديد. ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أغلظ وعيده، وقرىء "فيمتعوا" مبنياً للمفعول عطفاً على ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد والفاء للجواب.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد فيكون الضمير ﴿ لِمَا ﴾، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن العائد إلى ما محذوف، أو لجهلهم على أن ما مصدرية والمجعول له محذوف للعلم به. ﴿ نَصِيبًا مِّمَّا رزقناهم ﴾ من الزروع والأنعام. ﴿ تالله لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرب إليها وهو وعيد لهم عليه.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله. ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له من قولهم، أو تعجب منه. ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما

يشتهون الرفع بالابتداء والنصب بالعطف على البنات على أن الجعل بمعنى الاختيار ، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعد تجويزه في المعطوف .

(183/439)

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ﴾ أخبر بولادتها . ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ صار أو دام النهار كله . ﴿ مُسْوَدّاً ﴾ من الكآبة والحياء من الناس . واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوء غيظاً من المرأة .

﴿ يتوارى مِنَ القوم ﴾ يستخفى منهم . ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشّرَ بِهِ ﴾ . من سوء المبشر به عرفاً . ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ محدثاً نفسه متفكراً في أن يتركه . ﴿ على هُونٍ ﴾ ذل ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب ﴾ أي يخفيه فيه ويئده ، وتذكير الضمير للفظ ﴿ مَا ﴾ وقرىء بالتأنيث فيهما . ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محله عندهم .

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة مَثَلُ السوء ﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكراهة الإِناث ووأدهن خشية الإِملاق .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأعلى ﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ ﴾ بكفرهم ومعاصيهم. ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ على الأرض، وإنما أضمرها من غير ذكر للدلالة الناس والدابة عليها. ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ قط بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كاد الجعل يهلك في حجره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة. وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء. ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ سماه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا. ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ بل هلكوا أو عذبوا حينئذ لا محالة، ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلهم ظالمين حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم.

(184/439)

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسل وأراذل الأموال. ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ مع ذلك وهو.

﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ أي عند الله كقوله: ﴿ وَلَئِن رُّجّعْتُ إلى رَبّي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى

﴿ وقرئ ﴿ الكذب ﴾ جمع كذوب صفة للألسنة. ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ رد لكلامهم وإثبات لضده. ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ مقدمون إلى النار من أفرطته في طلب الماء إذا قدمته. وقرأ نافع بكسر الراء على أنه من الإفراط في المعاصي. وقرئ بالتشديد مفتوحاً من فرطته في طلب الماء ومكسوراً من التفريط في الطاعات.

﴿ تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطن أَعْمَالَهُمْ ﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين. ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ أي في الدنيا، وعبر باليوم عن زمانها أو فهو وليهم حين كان يزين لهم، أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية، ويجوز أن يكون الضمير لقريش أي زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولي هؤلاء اليوم يغريهم ويغويهم، وإن يقدر مضاف أي فهو ولي أمثالهم، والولي القرين أو الناصر فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في القيامة.

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ للناس. ﴿ الذي اختلفوا فِيهِ ﴾ من التوحيد والقدر وأحوال المعاد وأحكام الأفعال. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ معطوفان على محل لتبين فإنهما فعلا المنزل بخلاف التبيين.

﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها. ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر وإنصاف.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم. ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ استئناف لبيان العبرة، وإنما ذكر الضمير ووحده ها هنا للفظ وأنثه في سورة "المؤمنين" للمعنى، فإن ﴿ الأنعام ﴾ اسم جمع ولذلك عده سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأكياس، ومن قال إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها أو لواحده أو له على المعنى، فإن المراد به الجنس.

(186/439)

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب ﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ بالفتح هنا وفي "المؤمنين". ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا ﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها كان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذي البدن، لأنهما لا يتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفارة الطعام المنهضم في الكرش، ويبقي ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها هضماً ثانياً فيحدث

أخلاطاً أربعة معها مائية ، فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال ، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها فيجري إلى كل حقه على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم ، ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها ، فيندفع الزائد أولاً إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع ، فيبيض بمجاورة لحومها الغددية البيض فيصير لبناً ، ومن تدبر صنع الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها والأسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به ، اضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته ، و﴿ مِنْ ﴾ الأولى تبعيضية لأن اللبن بعض ما في بطونها والثانية ابتدائية كقولك : سقيت من الحوض ، لأن بين الفرث والدم المحل الذي يبتدأ منه الإسقاء وهي متعلقة ب ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ أو حال من ﴿ لَبَنًا ﴾ قدم عليه لتنكيره وللتنبيه على أنه موضع العبرة . ﴿ خَالِصًا ﴾ صافياً لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث ، أو مصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه . ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ سهل

المرور في حلقهم، وقرىء "سَيِّغاً" بالتشديد والتخفيف.

﴿ وَمِن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ متعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقوله: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ استئناف لبيان الإسقاء أو ب ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾، ومنه تكرير للظرف تأكيداً أو خبر لمحذوف صفته ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه، وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن ال ﴿ ثمرات ﴾ بمعنى الثمر وال ﴿ سكر ﴾ مصدر سمي به الخمر. ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل، والآية إن كانت سابقة على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجامعة بين العتاب والمنة. وقيل ال ﴿ سكر ﴾ النبيذ وقيل الطعم قال:

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سُكْراً... أي تنقلت بأعراضهم. وقيل ما يسد الجوع من السكر فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه. ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ ألهمها وقذف في قلوبها، وقرىء ﴿ إلى النحل ﴾ بفتحتين. ﴿ أَنِ اتخذي ﴾ بأن اتخذي ويجوز أن تكون ﴿ أن ﴾ مفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وتأنيث الضمير على المعنى فإن النحل مذكر. ﴿ مِنَ الجبال بُيُوتًا وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ذكر بحرف التبعيض لأنها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما

يعرش من كرم أو سقف ، ولا في كل مكان منها وإنما سمي ما تبنيه لتتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان ، لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها أحذق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة ، ولعل ذكره للتنبيه على ذلك وقرىء ﴿ بُيُوتًا ﴾ بكسر الباء ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿ يَعْرُشُونَ ﴾ بضم الراء .

(188/439)

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثمرات ﴾ من كل ثمرة تشتهينها مرها وحلوها . ﴿ فاسلكي ﴾ ما أكلت . ﴿ سُبُلَ رَبّكِ ﴾ في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك ، أو ﴿ فاسلكي ﴾ الطرق التي ألهمك في عمل العسل ، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك ﴿ سُبُلَ رَبّكِ ﴾ لا تتوعر عليك . ولا تلتبس . ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل ، أي مذللة ذللها الله تعالى وسهلها لك ، أو من الضمير في أسلكي أي وأنت ذلل منقادة لما أمرت به . ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ كأنه عدل به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس ، لأنه محل الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم . ﴿ شَرَابٌ ﴾ يعني العسل لأنه مما يشرب ، واحتج به من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة فتستحيل في بطنها عسلاً ، ثم تقيء ادخاراً للشتاء ، ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاء طلية حلوة

صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار ، وتضعها في بيوتها ادخاراً فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل فسر البطون بالأفواه .

(189/439)

﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسود بحسب اختلاف سن النحل والفصل . ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية ، أو مع غيره كما في سائر الأمراض ، إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه ، مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعيض ، ويجوز أن يكون للتعظيم . وعن قتادة أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي يشتكي بطنه فقال : " اسقه العسل " فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فما نفع فقال : " اذهب واسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك " فسقاه فشفاه الله تعالى فبرأ فكأنما أنشط من عقال . وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من أحوال النحل . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعاً أنه لا بد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه .

﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يتوفاكم ﴾ بآجال مختلفة . ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ ﴾ يعاد . ﴿ إلى أَرْذَلِ

العمر ﴾ أخسه يعني الهرم الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل . وقيل هو خمس وتسعون سنة وقيل خمس وسبعون . ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية في النسيان وسوء الفهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بمقادير أعماركم . ﴿ قَدِيرٌ ﴾ يميت الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني ، وفيه تنبيه على أن تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم ، ركب أبنيتهم وعدّل أمزجتهم على قدر معلوم ، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ .

(190/439)

﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير ، ومنكم موال يتولون رزقهم ورزق غيرهم ومنكم مماليك حالهم على خلاف ذلك . ﴿ فَمَا الذين فُضّلُواْ بِرَآدّي رِزْقِهِمْ ﴾ بمعطي رزقهم . ﴿ على مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ على مماليكهم فإنما يردون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم . ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ فالموالي والمماليك سواء في أن الله رزقهم ، فالجملة لازمة للجملة المنفية أو مقررة لها ، ويجوز أن تكون واقعة موقع الجواب كأنه قيل : فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا في الرزق ، على أنه رد وإنكار على المشركين فإنهم يشركون بالله بعض مخلوقاته في الألوهية ولا يرضون

أن يشاركهم عبيدهم . فيما أنعم الله عليهم فيساورهم فيه . ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ حيث يتخذون له شركاء ، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ويجحدوا أنه من عند الله ، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحهم ، والباء لتضمن الجحود معنى الكفر . وقرأ أبو بكر "تجحدون" بالتاء لقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ و ﴿ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ ﴾ .

(191/439)

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي من جنسكم لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلكم . وقيل هو خلق حواء من آدم . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أزواجكم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ وأولاد أولاد أو بنات ، فإن الحافد هو المسرع في الخدمة والبنات يخدمن في البيوت أتم خدمة . وقيل هم الأختان على البنات . وقيل الربائب ويجوز أن يراد بها البنون أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين . ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ من اللذائذ أو الحلالات و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض فإن المرزوق في الدنيا أنموذج منها . ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم ، أو أن من الطيبات ما يحرم كالبحائر والسوائب . ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ حيث أضافوا نعمه إلى الأصنام ، أو حرموا ما أحل الله لهم ، وتقديم الصلة على الفعل إما

للاهتمام أو لإيهام التخصيص مبالغة ، أو للمحافظة على الفواصل .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السموات والأرض شَيْئًا ﴾ من مطر ونبات ، و﴿ رزْقًا ﴾ إن جعلته مصدرا فشيئاً منصوب به وإلا فبدل منه . ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أن يتملكوه أو لا استطاعة لهم أصلاً ، وجمع الضمير فيه وتوحيده في ﴿ لَا يَمْلِكُ ﴾ لأن ﴿ مَا ﴾ مفرد في معنى الألهة ، ويجوز أن يعود إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد .

(192/439)

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأمثال ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به ، أو تقيسونه عليه فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال . ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ﴾ فساد ما تعولون عليه من القياس على أن عبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من عبادته وعظم جرمكم فيما تفعلون . ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جرأتم عليه فهو عليم للنهي ، أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم دون نصه ، ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال فإنه يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون . ثم علمهم كيف يضرب فضرب مثلاً لنفسه ولمن عبد دونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 403 . 411 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

وصف الإلهين باثنين تأكيداً وبياناً للمعنى وقيل : إن اثنين مفعول أول وإلهين مفعول ثاني ، فلا يكون في الكلام تأكيد ﴿ فإياي فارهبون ﴾ خرج من الغيبة إلى التكلم ، لأن الغائب هو المتكلم ، وإياي مفعول بفعل مضمر ، ولا يعمل فيه فارهبون لأنه قد أخذ معموله .

﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ أي واجباً وثابتاً ، وقيل : دائماً ، وانتصابه على الحال من الدين .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ يحتمل أن تكون الواو للاستئناف أو الحال ، فيكون الكلام متصلاً بما قبله : أي كيف تتقون غير الله ، وما بكم من نعمة فمنه وحده ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أي ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والتضرع ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتيناهم ﴾ اللام لام الأمر على وجه التهديد لقوله بعد : فتمتعوا فسوف تعلمون ، فعلى هذا يبتدئ بها ، وقيل : هي لام يحتمل أن يريد به كفر النعم لقوله : بما آتيناهم ، أو كفر الجحود والشرك لقوله : بربهم يشركون ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ يريد التمتع في الدنيا ، وذلك أمر على وجه التهديد .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رزقناهم ﴾ الضمير في يجعلون لكفار العرب فإنهم كانوا يجعلون للأصنام نصيباً من ذبائحهم وغيرها ، والمراد بقوله لما لا يعلمون الأصنام ، والضمير في لا يعلمون للكفار أي لا يعلمون ربوبيتهم ببرهان ولا بحجة ، وقيل : الضمير في لا يعلمون للأصنام أي الأشياء غير عالمة وهذا بعيد ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ﴾ إشارة إلى قول الكفار : إن الملائكة بنات الله ، ثم نزه تعالى نفسه عن ذلك بقوله : ﴿ سبحانه وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ المعنى أنهم يجعلون لأنفسهم ما يشتهون يعني بذلك الذكور من الأولاد ، وأما الإعراب فيجوز أن يكون ما يشتهون مبتدأ وخبره المجرور قبله ، وأن يكون مفعولاً بفعل مضمر تقديره : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ، وأن يكون معطوفاً على البنات على أن هذا يمنعه البصريون ، لأنه من باب ضربتني وكان يلزم عندهم أن يقال لأنفسهم .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ إخبار عن حال العرب في كراهتهم البنات ، وظل هنا يحتمل أن تكون على بابها ، أو بمعنى صار ، والسواد عبارة عن العبوس والغم ، وقد يكون معه سواد حقيقة ، وكظيم قد ذكر في [يوسف : 84] ﴿ يتوارى مِنَ القوم ﴾ أي يستخفي من أجل سوء ما بشر به ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب ﴾ المعنى يدبر وينظر هل يمسك الأنثى التي بشر بها على هوان وذل لها ، أو يدفنها في التراب حية ، وهي المؤودة ، وهذا معنى يدسه في التراب ﴿ مَثَلُ السوء ﴾ أي

صفة السوء من الحاجة إلى الأولاد وغير ذلك من الافتقار والنقص ﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ أي الوصف الأعلى من الغنى عن كل شيء ، والنزاهة عن صفات المخلوقين .

(195/439)

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ﴾ يعني لو يعاقبهم في الدنيا ﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أي بكفرهم ومعاصيهم ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ الضمير للأرض ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ يعم بني آدم وغيرهم وهذا يقتضي أن تهلك الحيوانات بذنوب بني آدم ، وقد ورد ذلك في الأثر ، وقيل : يعني بني آدم خاصة .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ يعني البنات ﴿ أَنَّ لَهُمُ الحسنى ﴾ أي بدل من الكذب ، والحسنى هنا قيل : هي الجنة ، وقيل : ذكور الأولاد ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ بكسر الراء والتخفيف من الإفراط : أي متجاوزون الحدّ في المعاصي ، أو بفتح الراء والتخفيف من الفرط أي معجلون إلى النار ، وبكسر الراء والتشديد من التفريط .

﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ﴾ يحتمل أن يريد باليوم وقت نزول الآية أو يوم القيامة ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ معطوفان على موضع لنبين ، وانتصبا على أنهما مفعول من أجله : أي لأجل البيان والهدى والرحمة .

(196/439)

﴿ نُّسْقِيكُمْ ﴾ بفتح النون وضمها لغتان ، يقال سقى وأسقى ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ الضمير للأنعام ، وإنما ذكر لأنه مفرد بمعنى الجمع كقوله : ثوب أخلاق لأنه اسم جنس ، وإذا أنث فهو جمع نعم ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ الفرث هي ما في الكرش من الروث ، والمعنى أن الله يخلق اللبن متوسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه ، ومع ذلك فلا يغيران له لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، ومن في قوله من بين فرث لابتداء الغاية ﴿ سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ يعني سهلاً للشرب حتى قيل : لم يغص أحد باللبن ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب ﴾ المجرور يتعلق بفعل نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرها ، ويدل عليه نسقيكم الأول أو يكون من ثمرات معطوف على مما في بطونها ، أو يتعلق من ثمرات بتتخذون ، وكرر منه توكيداً أو يكون تتخذون صفة لمحذوف تقديره : شيئاً تتخذون ﴿ سَكَراً ﴾ يعني الخمر ، ونزل ذلك قبل تحريمها فهي منسوخة بالتحريم ، وقيل إن هذا على وجه المنة بالمنفعة التي في الخمر ، ولا تعرض فيها لتحليل ولا تحريم ، فلا نسخ ، وقيل : السكر المائع من هاتين الشجرتين كالخل والرب . والرزق الحسن : العنب والتمر والزبيب .

﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ الوحي هنا بمعنى الإلهام ، فإن الوحي على ثلاثة أنواع : وحي كلام ، ووحي منام ، ووحي إلهام ﴿ أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أن مفسرة للوحي الذي أوحي إلى النحل ، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع إما في الجبال وكواها ، وإما في متجوف الأشجار وإما فيما يعرش بني آدم من الأجباح [مفردها : جبح] والحيطان ونحوها ، ومن المواضع الثلاثة للتبعيض لأن النحل إنما تتخذ بيوتاً في بعض الجبال ، وبعض الشجر ، وبعض الأماكن ، وعرش معناه هيأ أو بني ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الأغصان والخشب ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثمرات ﴾ عطف كلي على اتخذي ، ومن للتبعض ، وذلك إنها إنما تأكل النوار من الأشجار ، وقيل : المعنى من كل الثمرات التي تشتهيها ﴿ فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ يعني الطرق من الطيران ، وأضافها إلى الرب لأنها ملكه وخلقه ﴿ ذُلُلاً ﴾ أي مطيعة منقادة ويحتمل أن يكون حالاً من السبل ، قال مجاهد : لم يتوعر قط على النحل طريق ، أو حالاً من النحل أي منقادة لما أمرها الله به ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ يعني العسل ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوانه ﴾ أي منه أبيض وأصفر وأحمر ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الضمير للعسل ، لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل ، كالمعاجين والأشربة النافعة من الأمراض ، وكان ابن عمر يتداوى به من كل شيء ، فكأنه أخذه على العموم . وعلى ذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً جاء إليه ، فقال : إن أخي يشتكي بطنه ، فقال اسقه عسلاً ، فذهب ثم رجع فقال

: فقد سقيته فما نفع ، قال فاذهب فاسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك ، فسقاه فبرأ .

(198/439)

﴿ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ أي إلى أخسه وأحقره ، وهو الهرم . وقيل : حدّه خمسة وسبعون عاماً ، وقيل : ثمانون ، والصحيح أنه لا يحصر إلى مدة معينة ، وأنه يختلف بحسب الناس ﴿ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ اللام لام الصيرورة أي يصير إذا هرم لا يعلم شيئاً بعد أن كان يعلم قبل الهرم ، وليس المراد نفي العلم بالكلية ، بل ذلك عبارة عن قلة العلم لغلبة النسيان ، وقيل : المعنى لئلا يعلم زيادة على علمه شيئاً .

﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق ﴾ الآية في معناها قولان : أحدهما أنها احتجاج على الوحدانية ، وكأنه يقول أنتم لا تسوّون بين أنفسكم وبين ممالككم في الرزق ، ولا تجعلونهم شركاء لكم ، فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي ، والآخر : أنها عتاب وذم لمن لا يحسن إلى مملوكه حتى يرد ما رزقه الله عليه كما جاء في الحديث : " أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون " والأول أرجح ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ ﴾ الجحد هنا

على المعنى الأول إشارة إلى الإشراك بالله ، وعبادة غيره ، وعلى المعنى الثاني إشارة إلى جنس المماليك فيما يجب لهم من الإنفاق .

(199/439)

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أزواجا ﴾ يعني الزوجات ، ومن انفسكم يحتمل أن يريد من نوعكم وعلى خلقتكم ، أو يريد أن حواء خلقت من ضلع آدم ، وأسند ذلك إلى بني آدم لأنهم من ذرتيه ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ جمع حافد قال ابن عباس : هم أولاد البنين ، وقيل : الأصهار وقيل الخدم ، وقيل : البنات إلا أن اللفظ المذكور لا يدل عليهم ، والحفدة في اللغة الخدمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ الآية : توبيخ للكفار ، وردّ عليهم في عبادتهم للأصنام ، وهي لا تملك لهم رزقاً ، وانتصب رزقاً لأنه مفعول بيملك ، ويحتمل أن يكون مصدراً أو اسماً لما يرزق ، فإن كان مصدراً فإعراب شيئاً مفعول به ، لأن المصدر ينصب المفعول ، وإن كان اسماً فإعراب شيئاً بدل منه ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ الضمير عائد على ما لأن المراد به الإلهية ، ونفي الاستطاعة بعد نفي الملك ، لأن نفيها أبلغ في الذم . انتهى ا. هـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 155. 158﴾

(200/439)

وقال الخطيب الشربيني :

ولما بيّن تعالى أنّ كل ما سوى الله تعالى سواء أكان من عالم الأرواح أم من عالم الأجساد فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه أتبعه بالنهي عن الشرك وبالأمر بأنّ كل ما سواه فهو ملكه وأنه غني عن الكل بقوله تعالى : ﴿ وقال الله ﴾ فعبّر لأجل تعظيم المقام بالاسم الأعظم الخاص ﴿ لا تتخذوا ﴾ أي : لا تكلفوا فطرتكم الأولى السليمة المجبولة على معرفة أنّ الإله واحد أن تأخذ في اعتقادها ﴿ إلهين اثنين ﴾ . فإن قيل : إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين ، فقالوا : عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة لأنّ المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص . فأمّا رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان ، فما وجه قوله تعالى : ﴿ إلهين اثنين ﴾ ؟

أجيب : بأجوبة أوّلها : قال الرازي : وهو الأقرب عندي أنّ الشيء إذا كان مستنكراً مستقبحاً فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك

العبارات سبباً لوقوف العقل على ما فيه من القبح والقول بوجود إلهين مستقبح في العقول فإن أحداً من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال فالمقصود من تكرار اثنين تأكيد التنفير عنه وتوقيف العقل على ما فيه من القبح . الثاني : أنّ قوله تعالى : ﴿ إلهين ﴾ لفظ واحد يدل على أمرين ثبوت الإله وثبوت التعدّد فإذا قيل : لا تتخذوا إلهين لم يعرف من هذا اللفظ أن النهي وقع عن إثبات الإلهين أو عن اثبات التعدّد أو عن مجموعهما فلما قال : لا تتخذوا إلهين اثنين ظهر أنّ قوله لا تتخذوا نهي عن إثبات التعدّد فقط . الثالث : في الآية تقديم وتأخير والتقدير : لا تتخذوا اثنين إلهين . الرابع : أنّ الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنيّ به منهما والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد

إليه والعناية به . ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ، ثم علل تعالى ذلك النهي بما اقتضاه السياق من الوحدانية فقال جل ذكره : ﴿ إنما هو ﴾ أي : الإله المفهوم من لفظ إلهين الذي لا يستحق غيره أن يطلق عليه هذا الضمير إلا مجازاً لأنه لا يطلق إطلاقاً حقيقياً إلا على من وجوده من ذاته .

﴿ إله ﴾ أي : مستحق هذا الوصف على الإطلاق ﴿ واحد ﴾ لا يمكن أن يثنى بوجه ولا أن يجزأ بغاية وغير غاية لغناه المطلق عن كل شيء واحتياج كل شيء إليه . ولما دلت الدلائل على أنه لا بدّ للعالم من إله وثبت أنّ القول بوجود إلهين محال ، وثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الفرد الصمد ، قال تعالى بعده : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ أي : خافون دون غيري والرهبة مخافة مع حزن واضطراب وإنما نقل الكلام من الغيبة إلى خطاب الحضور وهو من طريقة الالتفات لأنه أبلغ في الترهيب من قوله فإياه فارهبوه ، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم . ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أنّ إله العالم لا شريك له في الإلهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيده وفي ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى:

أي : الله وأعاد الضمير في قوله تعالى له على الله الاسم الأعظم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنى . ﴿ ما في السموات والأرض ﴾ أي : ما تعبدونه وغيره فكيف يتصوّر أن يكون شيء من ذلك إلهاً ، وهو ملكه مع كونه محتاجاً إلى الزمان والمكان وغيرهما . ﴿ وله

الدين ﴾ أي : الطاعة وقوله تعالى : ﴿ واصباً ﴾ أي : دائماً حال من الدين والعامل فيه ما في الظرف من معنى الفعل . قال ابن قتيبة : ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك لسبب في حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه وتعالى فإطاعته واجبة أبداً ، ولأنه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائماً أبداً . وقوله تعالى : ﴿ أفغير الله ﴾ أي : الذي له العظمة كلها ﴿ تتقون ﴾ استفهام إنكار والمعنى : أنكم بعدما عرفتم أنّ إله العالم واحد وعرفتم أنّ كل ما سواه محتاج إليه في وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل أن يكون للإنسان رغبة في غير الله تعالى أو رهبة من غير الله تعالى ولما بيّن تعالى أنّ الواجب على العاقل أن لا يتقي غير الله بيّن أنه يجب عليه أن لا يشكر أحداً إلا الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة ﴾ أي : من نعمة الإسلام وصحة الأبدان وسعة في الأرزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد أو جاه ﴿ فمن الله ﴾ هو المتفضل على عباده فيجب عليكم شكره على جميع إنعامه لأنّ الشكر إنما يجب على النعمة ، فثبت بهذا أنّ العاقل يجب عليه أن لا يخاف ، وأن لا يشكر إلا الله تعالى . تنبيه : احتج أصحابنا بهذه الآية على أنّ الإيمان حصل بخلق الله فقالوا : الإيمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج أنّ الإيمان من الله وأيضاً النعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعاً به وأعظم الأشياء في النفع هو الإيمان فثبت أنّ الإيمان نعمة والمسلمون مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الإيمان والنعم إمّا

دينية وإمّا دنيوية . أمّا النعم الدينية فهي إمّا معرفة الحق لذاته وإمّا معرفة الخير لأجل العمل به . والنعم

(204/439)

الدنيوية إمّا

نفسانية وإمّا بدنية وإمّا خارجية ، وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر . كما قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (إبراهيم ،) وقد مرّت الإشارة إلى ذلك عند ذكر هذه الآية . ولما كان إخلاصهم له مع ادعائهم ألوهية غيره أمراً مستبعداً عبر بأداة التراخي والبعد في قوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم ﴾ أي : أصابكم أدنى مس ﴿ الضرّ ﴾ بزوال نعمة مما أنعم به عليكم . وقال ابن عباس : يريد الأسقام والأمراض والحاجة . ﴿ فإليه ﴾ أي : لا إلى غيره ﴿ تجأرون ﴾ أي : ترفعون أصواتكم بالاستغاثة لما ركز في فطرتكم الأوّلية السليمة من أنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

﴿ ثم إذا كشف ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ الضرّ ﴾ أي : الذي مسكم ﴿ عنكم ﴾ ونبه على مسارعة الإنسان في الكفران فقال : ﴿ إذا فريق ﴾ أي : جماعة هم أهل فرقة

وضلال ﴿ منكم ﴾ أي : أيها العباد ﴿ بربهم ﴾ الذي تفرّد بالإنعام عليهم ﴿ يشركون ﴾ أي : يوقعون الإشراك بعبادة غيره .

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ أي : من النعم . تنبيه : في هذه اللام وجهان : الأوّل : أنها لام كي فيكون المعنى على هذا أنهم إنما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر .

الثاني : أنها لام العاقبة كما في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ﴾ (القصص ،)

والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء ، وكشفنا عنهم الضر والبلاء . ثم إنه تعالى توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿ فتمتعوا ﴾ أي : باجتماعكم على عبادة الأصنام وهذا لفظه أمر والمراد منه التهديد كقوله تعالى : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ (الإسراء ،)

. وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف ،)

. ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب . ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول أهل الشرك والتشبيه شرح تفاصيل أقوالهم ، وبين فسادها بأنواع الأوّل قوله تعالى:

﴿ ويجعلون ﴾ أي : المشركون ﴿ لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم ﴾ من الحرث والأنعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا . تنبيه : الضمير في قوله تعالى : ﴿ لما لا يعلمون ﴾ عائد على الأصنام ، أي : أنّ الأصنام لا تعي شيئاً البتة لأنها جماد والجماد لا علم له . وقيل : عائد إلى المشركين ، ومعنى لا يعلمونها أنهم يسمونها آلهة فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم وليس الأمر كذلك . ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله تعالى : ﴿ تالله لتسألنّ ﴾ سؤال توبيخ وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه . ﴿ عما كنتم تفترون ﴾ على الله من أنه أمركم بذلك . تنبيه : في وقت السؤال احتمالان الأوّل : أنه يقع عند القرب من الموت . الثاني : أنه يقع في الآخرة . قال الرازي : وهذا أولى . النوع الثاني قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله . قال الرازي : أظنّ أنّ العرب إنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون ، فأشبهوا النساء في الاستتار فأطلقوا عليهم البنات . قال ابن عادل : وهذا الذي ظنه ليس بشيء فإنّ الجنّ أيضاً مستترون عن العيون ، ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات . ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول ، قال تعالى :

﴿ سبحانه ﴾ وفيه وجهان : الأوّل : أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد إليه الثاني :

تعجيب الخلق من هذا الأمر والجهل الصريح وهو وصف الملائكة بالأنوثة ثم نسبتها بالولدية إلى الله تعالى ، قيل في التفسير : معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الأوّل . ولما ذكر الله تعالى إلى ما جعلوا له مع الغنى المطلق بين ما نسبوا لأنفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ من البنين وقد يكونون أعداء أعدائهم . ثم إنه تعالى ذكر أنّ الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد

البنت لنفسه فكيف

يثبته لله تعالى ؟ فقال:

﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ أي : أخبر بولادتها ﴿ ظل وجهه ﴾ أي : صار أو دام النهار كله ﴿ مسودًّا ﴾ من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتخجيل كما أنّ بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح والسرور . ﴿ وهو كظيم ﴾ أي : مملوء غيظاً على المرأة ولا ذنب لها بوجه والبشارة في أصل اللغة الخبر الذي يغير البشرة من حزن أو سرور ، ثم خص في عرف اللغة بالسرور ولا يكون إلا بالخبر الأوّل فالمراد بالبشارة

هنا الإخبار كما مرّ. وقول الرازي: إنّ إطلاقه على الخير والشر داخل في التحقيق خلاف المشهور.

(207/439)

﴿ يتوارى ﴾ أي: يستحي ﴿ من القوم ﴾ أي: من الرجال الذين هو فيهم ﴿ من سوء ما بشر به ﴾ خوفاً من التعيير وذلك أنّ العرب كانوا في الجاهلية إذا قرب ولادة زوجة أحدهم توارى عن القوم إلى أن يعلم ما ولد له فإن ولد له ذكر ابتهج وسرّ بذلك وظهر، وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياماً متردّداً ماذا يفعل بذلك الولد ﴿ أيمسكه ﴾ أي: يتركه بغير قتل ﴿ على هون ﴾ هوان وذل ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ وذكر الضمير في يمسكه ويدسه نظراً للفظ الولد أو لكون الأنثى ولداً كما علم مما مرّ. قال ابن ميلق: قال المفسرون: كانت المرأة إذا أدركها المخاض احتفرت حفرة وجلست على شفيرها فإن وضعت ذكراً أظهرته وظهر السرور على أهله، وإن وضعت أنثى استأذنت مستولدها فإن شاء أمسكها على هون وإن شاء أمرها بإلقائها في الحفرة وردّت التراب عليها وهي حية لتموت انتهى. وعن قيس بن عاصم أنه قال: يا رسول الله، إني واريت ثمان بنات في الجاهلية. فقال له صلى الله عليه وسلم "أعتق عن كل واحدة منهنّ رقبة. فقال: يا نبيّ الله إني ذو إبل. قال: إهد

عن كل واحدة منهن هدياً" . وروي أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ما أجد حلاوة الإسلام مذ قد أسلمت ، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فأمرت امرأتي أن تزينها فأخرجتها فلما انتهيت إلى واد فيه بئر بعيدة القعر ألقيتها فيها فقالت : يا أبت قتلتني ، فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء . فقال صلى الله عليه وسلم "ما كان في الجاهلية فقد هدمه الإسلام وما في الإسلام يهدمه الاستغفار" ، وكانوا في الجاهلية مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها إلى أن تموت ، ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية خوفاً من أن يطمع فيهنّ غير الأكفاء وتارة خوفاً من الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة . وكان الذي منهم يريد أن يحيي ابنته تركها حتى تكبر ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر

ويجعلها ترعى

الإبل والغنم في البادية . قال الله تعالى : ﴿ ألا ساء ﴾ أي : بئس ﴿ ما يحكمون ﴾ حكمهم هذا وذلك لأنهم بلغوا في الاستنكاف من البنت إلى أعظم الغايات فأوّلها : أنه يسود وجهه ، وثانيها : أنه يختفي من القوم من شدّة نفرته عن البنت . وثالثها : أنّ الولد

محبوب بحسب الطبيعة ثم إنه بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على أنّ النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغاً لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل أن يثبت ذلك لإله عالم مقدس عال عن مشابهة جميع المخلوقات ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ (النجم : ،)

ثم قال تعالى : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وهم الكفار ﴿ مثل السوء ﴾ أي : الصفة السوء بمعنى القبيحة وهي قتلهم البنات مع احتياجهم إليهنّ للنكاح ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي : الصفة العليا وهي أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدي وغير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه . وقال ابن عباس : مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله . فإن قيل : كيف جاء لله المثل الأعلى مع قوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ (النحل ،)

أجيب : بأنّ المثل الذي يضربه الله تعالى حق وصدق والذي يذكره غيره باطل . ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يمتنع عليه شيء فلا نظير له . ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يوقع شيئاً إلا في محله . ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين أنه تعالى يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة إظهاراً للفضل والرحمة والكرم بقوله تعالى:

أي : بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿ ما ترك عليها ﴾ أي : على الأرض وإنما أضمر ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها . ﴿ من دابة ﴾ أي : أنّ الله تعالى لو آخذ الناس

بظلمهم لأهلك جميع الدواب التي على وجه الأرض . فإن قيل : اسم الناس جنس يشمل الكل فيدخل في ذلك الأنبياء فيدل على عدم عصمتهم ؟

(209/439)

أجيب : بأنّ ذلك عام مخصوص بقوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ (فاطر ،) فالمذكور في هذه الآية ، إما كل العصاة المستحقين العقاب أو الذين تقدّم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات ، أو جميع الكفار بدليل قوله تعالى : ﴿ إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ (الأنفال ،)

. وقال قتادة : قد فعل الله تعالى ذلك في زمن نوح عليه السلام فأهلك جميع الدواب التي على وجه الأرض إلا من كان في السفينة مع نوح عليه السلام . روي أنّ أبا هريرة رضي الله تعالى عنه سمع رجلاً يقول : إنّ الظالم لا يضر إلا نفسه . فقال : بئسما قلت إنّ الحبارى تموت هزالاً من ظلم الظالم . وقال ابن مسعود : إنّ الجعل تعذب في حجرها بذنب ابن آدم ، والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهريّ . وقيل في معنى الآية : ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ، ولم توجد الأبناء ولم يبق في الأرض أحد .

﴿ ولكن يؤخرهم ﴾ أي : يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي : إلى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم ، ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ﴾ عنه ﴿ ولا يستقدمون ﴾ أي : لا يؤخرون ساعة من الأجل الذي جعله الله تعالى لهم ولا ينتقصون منه . تنبيه : ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط إحدى الهمزتين مع المدّ والقصر . وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وإبدالها حرف مدّ والباقون بتحقيق الهمزتين .

(210/439)

والنوع الثالث من الأقاويل الفاسدة التي كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ لأنفسهم من البنات وأراذل الأحوال والشركاء في الرياسة . ثم وصف الله تعالى جراءتهم مع ذلك بقوله تعالى : ﴿ وتصف ﴾ أي : وتقول ﴿ ألسنتهم الكذب ﴾ أي : مع ذلك مع أنه قول لا ينبغي أن يتخيله عاقل ، ثم بيّنه بقوله تعالى : ﴿ أنّ لهم الحسنى ﴾ أي : عنده ، أي : الجنة كقوله تعالى : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى ﴾ ولا جهل أعظم ولا أحكم سوءاً من أن تقطع بأنّ من تجعل له ما تكره أن يجعل لك ما تحب فكأنه قيل ما لهم عنده ؟ فقيل : ﴿ لا جرم ﴾ أي لا ظن ولا تردّد في ﴿ أن لهم

النار ﴾ أي : هي جزاء الظالمين وقيل لا جرم بمعنى حقاً . ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ أي : متركون فيها أو مقدّمون إليها وقرأ نافع بكسر الراء ، أي : متجاوزون الحد والباقون بالفتح . فإن قيل : إنهم لم يقرّوا بالبعث فكيف يقولون إن لنا الحسنى عند الله ؟ أجيب : بأنهم قالوا إن كان محمد صادقاً في البعث بعد الموت فإن لنا الجنة ، وقيل إنه كان في العرب جمع يقرّون بالبعث والقيامة وأنهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه إلى أن يموت ويقولون إنّ ذلك الميت إذا حشر فإنه يحشر معه مركوبه ، ثم بين تعالى أنّ مثل هذا الصنيع الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الأمم السابقين في حق الأنبياء المتقدّمين بقوله تعالى:

(211/439)

﴿ تالله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ لقد أرسلنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة رسلاً من الماضين ﴿ إلى أمم من قبلك ﴾ كما أرسلنا إلى هؤلاء ﴿ فزين لهم الشيطان ﴾ أي : المحترق بالغضب المطرود باللعنة ﴿ أعمالهم ﴾ الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهؤلاء فضلوا كما ضلوا فأهلكناهم ، وهذا يجري مجرى التسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل

السنة وإنما جعل الشيطان آلة بالإلقاء للوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة على أن يضلّ أحداً أو يهدي أحداً وإنما له الوسوسة فقط فمن أراد الله تعالى شقاوته سلطه الله عليه حتى يقبل وسوسته ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ أي : في الدنيا وإنما عبر باليوم عن زمانها ، أي : فهو وليهم حين كان يزين لهم أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية ، أي : لا ولي لهم غيره وهو عاجز عن نصر نفسه فكيف ينصرهم . وقيل : الضمير لقريش ، أي : زين الشيطان للكفرة المتقدّمين أعمالهم وهو وليّ هؤلاء القوم يغرّهم ويغريهم ، وقيل : يجوز أن يقدّر مضاف ، أي : فهو ولي أمثالهم والوليّ القرين والناصر فيكون نعتاً للناصر لهم على أبلغ الوجوه ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم في الآخرة . ثم ذكر تعالى أنه مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الحجة وأزاح العلة بقوله تعالى:

﴿ وما أنزلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة من جهة العلوّ . ﴿ عليك ﴾ يا أشرف المرسلين ﴿ الكتاب ﴾ أي : القرآن ﴿ إلا لتبين لهم ﴾ أي : للناس ﴿ الذي اختلفوا فيه ﴾ من أمر الدين مثل التوحيد والشرك وإثبات المعاد ونفيه فإنه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليلهم أشياء محرّمة كالميتة . فإن قيل : اللام في لتبين لهم تدل على أنّ أفعال الله تعالى معللة بالأغراض كقوله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس ﴾ (إبراهيم ،)

. وقوله : ﴿ وما خلقت الجنّ والأنس إلا ليعبدون ﴾ (الذاريات ،)

أجيب : بأنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه إلى التأويل وقوله تعالى : ﴿ وهدى ورحمة ﴾ أي : وإكراماً بمحبة معطوفان على محل لتبين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل ، ولما كان ذلك ربما شملهم وهم على ضلالهم نفاه بقوله تعالى : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ ونظيره قوله تعالى في أوّل البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ (البقرة ،)

. وإنما خص المؤمنين بالذكر من حيث أنهم قبلوه وانتفعوا به كما في قوله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ (النازعات ،)

لأنه إنما انتفع بإنذاره هذا القوم فقط . ولما انقضى الدليل على أنّ قلوبهم منكرة استكباراً وما يتعلق به ، وختمه بما أحيا به القلوب في الإيمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل ، وكان المقصود الأعظم من القرآن تقرير أصول أربعة : الإلهيات والنبوّات والمعاد وإثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان أجلّ هذه المقاصد الإلهيات شرع في ذكر الوحدانية والقدرة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدّم ليعلم أنّ أدلة

ذلك أكثر من أوراق الأشجار وأجلى من ضياء النهار فعطف على قوله : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ (النحل ،)

. قوله جامعاً في الدليل بين العالم العلوي والعالم السفلي .

﴿ والله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ أنزل من السماء ﴾ في الوقت الذي يريده ﴿ ماء ﴾ بالمطر والثلج والبرد ﴿ فأحيا به ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ الأرض ﴾ بأنواع النبات ﴿ بعد موتها ﴾ أي : يبسها ﴿ إنّ في ذلك ﴾ المذكور ﴿ لآية ﴾ أي : دلالة واضحة على كمال قدرته تعالى ﴿ لقوم يسمعون ﴾ أي : سماع تدبر وإنصاف ونظر لأنّ سماع القلوب هو النافع لاسماع الآذان فمن سمع آيات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع فلم ينتفع بالآيات ومن الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله:

﴿ وإنّ لكم في الأنعام لعبرة ﴾ أي : اعتباراً إذا تفكرتم فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى : ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ استئناف بيان للعبرة وإنما ذكر لفظ الضمير لأنه لفظ الأنعام مفرد وضع لإفادة الجمع كالرهط والقوم ولا من اللبس والدلالة على قوّة المعنى لكونها

سورة النعم وأنثه في سورة المؤمنون للمعنى فإنّ الأنعام اسم جمع ولذلك عدّه سيبويه في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم: ثوب أكياش بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض فإنّ اللبن لبعضها دون جميعها. وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون تقول: سقيته حتى روي.

قال تعالى: ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ (الإنسان،)

. والباقون بضمها من قولك: اسقاه إذا جعل له شراباً كقوله تعالى: ﴿ وأسقيناكم ماءً فراتاً ﴾ (المرسلات،)

. ولما كان في موضع العبرة تخليص اللبن من غيره قدم قوله تعالى: ﴿ من بين فرث ﴾ وهو الثفل الذي نزل إلى الكرش فإذا خرج منه لم يسم فرثاً. ﴿ ودمٍ لبناً خالصاً ﴾ أي: صافياً خلقه الله وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي عليه أحدهما بلون أو رائحة أو طعم.

(214/439)

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إذا أكلت البهيمة العلف واستقرّ في كرشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً والكبد متسلطة على هذه الأصناف

الثلاثة تقتسمها فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمّل، وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم. ﴿ سائغاً للشاربين ﴾ أي: سهل المرور في الحلق. وقيل: لم يغص أحد باللبن قط. تنبيه: قال أهل التحقيق: اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار فكذلك يدل على إمكان الحشر والنشر، وذلك لأنّ هذا العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والأرض فخالق العالم دبر تدبيراً آخر بقلب ذلك الدم لبناً ثم دبر تدبيراً آخر فأحدث من ذلك اللبن السمن والجبن فهذا الاستقرار يدلّ على أنه تعالى قادر على أن يقلب هذه الأجسام من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة فإذا كان كذلك لم يمتنع أيضاً أن يكون قادراً على أن يقلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أنّ البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع وفي حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقاً لتغذية الطفل مشتملة على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه: الأوّل أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذاً يخرج منه ثفل الغذاء فإذا تناول الإنسان غذاء أو شراباً انطبق ذلك المنفذ انطباقاً كلياً لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب إلى أن يكمل انهضامه في المعدة، ويجذب ما صفي منه إلى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه

ذلك الثقل وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم لأنه متى كانت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصول الانطباق

(215/439)

تارة

والانفتاح تارة أخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتأتى إلا بتقدير الفاعل الحكيم .

الثاني : عند تولد اللبن في الضرع يحدث الله تعالى في حلمة الثدي ثقباً صغيرة ومسامّ ضيقة وجعلها بحيث إذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدّاً كان لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء واللطافة . وأمّا الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل فالحكمة في أحداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أنها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفاً خرج وكل ما كان كثيفاً احتبس في الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصاً موافقاً لبدن الطفل سائغاً للشاربين . الثالث : أنه تعالى ألهم ذلك الطفل إلى المص فإنّ الأمّ كلما ألقت حلمة الثدي في فم الطفل فذلك الطفل في الحال يأخذ في المص ، ولولا أنّ الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص وإلا لم يحصل الانتفاع

بتخليق ذلك اللبن في الثدي .

وقوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ، أي : من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم عليه ، وقوله تعالى : ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء . قال الواحدي : الأعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لأنه يصير التقدير : ومن ثمرات الأعناب والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة أخرى ﴿ ورزقاً حسناً ﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل . تنبيه : في تفسير السكر وجوه : الأوّل : هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً نحو : رشد رشداً ورشداً . فإن قيل : الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى في معرض الأنعام ؟

أجيب : عن ذلك بوجهين : أحدهما : أنّ هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة ، فكأنّ نزول هذه الآية كان في الوقت الذي كانت الخمرة فيه غير محرمة وممن قال بنسخها النخعي والشعبي . الثاني : أنّ الآية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة إلى السكر والمنة بالنسبة إلى رزقاً حسناً . الوجه الثاني : أنّ السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر فإذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ، ثم يترك حتى يشتد فهو حلال عند

أبي حنيفة رحمه الله تعالى إلى حد السكر ، ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم "الخمر حرام لعينها" وهذا يقتضي أن يكون السكر شيئاً غير الخمر وكل من أثبت هذه المغايرة قال : إنه النبيذ المطبوخ. الوجه الثالث : أنّ السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر :

* جعلت إعراض الكرام سكراً

أي تنقلب بإعراضهم بأن جعلتها نقلاً وتناولتها والنقل ما ينتقل به على الشراب . قال البغوي : وأولى الأقاويل أن قوله تعالى : ﴿ تتخذون منه سكراً ﴾ منسوخ انتهى . ويدل له قول الحسن : ذكر الله نعمته عليهم في الخمر قبل أن يحرّمها عليهم . وروي عن ابن عباس قال : السكر ما حرم من ثمرها ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرها . وروي عنه أيضاً السكر الحرام منه والرزق زبيبه وعنبه ومنافعه . ثم قال تعالى : ﴿ إنّ في ذلك ﴾ المذكور ﴿ لآية ﴾ أي : دلالة على قدرته تعالى : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي : يستعملون عقولهم بالنظر والتأمّل في الآيات فيعلمون أنّ هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله تعالى فيحتج بحصولها على وجود الإله القادر الحكيم . ولما بيّن أنّ إخراج الألبان وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على أنّ لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً حكيماً . ذكر أنّ إخراج العسل الذي جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهي النحل دليل قاطع . وبرهان ساطع على إثبات هذا المقصود بقوله تعالى:

﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ وحي إلهام. قال الضحاك: ألهمها ولم يرسل إليها رسولاً والمراد من الإلهام أنه تعالى قدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه: الأوّل: ما ذكر الله بقول تعالى: ﴿ أن اتخذي ﴾ أي: بأن اتخذي ويجوز أن تكون مفسرة لأنّ في الإيحاء معنى القول: ﴿ من الجبال بيوتاً ﴾ تأوين إليها وإنما سمي ما تبنيه لتتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببيت الإنسان، فتبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرّد طبعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم، مثل تلك البيوت إلا بآلات وأنظار دقيقة. الثاني: أنه ثبت في الهندسة أنّ تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدّسات كأن كانت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الأشكال فإنه تبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتداء هذا الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب. الثالث: أنّ النحل يحصل بينها واحد كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك أيضاً من الأعاجيب.

الرابع: أنها إذا انفردت عن وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر فإذا أرادوا عودها

إلى وكرها ضربوا الطبول وآلات الموسيقى فبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى أوكارها ، وهذه أيضاً حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة كان ليس إلا على سبيل الإلهام وهو حالة شبيهة بالوحي ، والوحي قد ورد في حق الأنبياء كقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ (الشورى)

وفي حق الأولياء قال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ (المائدة ،)

وبمعنى الإلهام في حق البشر قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أمّ موسى ﴾ . (القصص ،)

وفي حق سائر الحيوانات خاص . قال الزجاج : يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلاً لأنّ الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها . وقال غيره : النحل يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز ، ولذلك أنثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء .

﴿ و ﴾ اتخذي ﴿ من الشجر ﴾ أي : الصالحة بيوتاً ﴿ و ﴾ اتخذي ﴿ مما يعرشون ﴾ أي : الناس فيبنون تلك الأماكن وذلك أنّ النحل منه وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر والكهوف ، ومنه أهليّ وهو الذي يأوي إلى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد

جرت العادة أنّ الناس يبنون للنحل الأماكن حتى يأوي إليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لأنها لا تبنى في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم أو سقف ولا في كل مكان منها . وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها .

تنبيه : ظاهر قوله تعالى : ﴿ اتخذي ﴾ أمر ، وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول : لا بُعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا بدع أن يتوجه عليها من الله أمر ونهي . وقال آخرون : بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال ، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله في سورة النمل ، عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ .

(النمل ،)

ولما كان أهم شيء للحيوانات بعد الراحة من همّ المقيل أكل شيء ، ثنى به فقال:

(219/439)

﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾ أي : من كل ثمرة يشتهيها مرّها وحلوها ، وذكر ذلك بحرف التراخي إشارة إلى عجيب الصنع في ذلك وتيسيره لها . تنبيه : لفظ من هذا للتبعيض أو لابتداء الغاية . ولما أذن لها في ذلك كله ، وكان من المعلوم عادة أنّ تعاطيه لا يكون إلا بمشقة عظيمة في معاناة السير إليه نبه على خرقه العادة في تيسيره لها بقوله تعالى : ﴿ فاسلكي

سبل ربك ﴾ أي: الطرق التي ألهمك الله تعالى أن تسلكيها وتدخلي فيها لأجل طلب الثمار وقوله تعالى: ﴿ ذللاً ﴾ جمع ذلول حال من السبل، أي: مسخرة لك فلا تعسر عليك وإن توعرت ولا تضلي عن العود وإن بعدت. وقيل: من الضمير في اسلكي، أي: منقادة لأربابها حتى أنهم ينقلونها من مكان إلى مكان آخر حيث شاؤوا وأرادوا لا تستعصي عليهم. وقوله تعالى: ﴿ يخرج من بطونها ﴾ فيه عدول عن خطاب النحل إلى خطاب الناس لأنه محل الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم

﴿ شراب ﴾ أي: عسل ﴿ مختلف ألوانه ﴾ ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والأزهار ويستحيل في بطونها عسلاً بقدرة الله تعالى، ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب. وقال الرازي: إنه رأى في بعض كتب الطب أنّ العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الأزهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدّخر بعضه في بيوتها لأنفسها لتتغذى به فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب إلى العقل لأنّ طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضاً إنا نشاهد أنّ النحل يتغذى بالعسل وأجاب، عن قوله تعالى: ﴿ يخرج من بطونها شراب ﴾ إنّ كل تجويف داخل البدن يسمى بطناً فقوله: ﴿ يخرج من بطونها ﴾ أي: من أفواهها انتهى.

والأوّل كما قال ابن الخازن وغيره أظهر لأنا نشاهد أنّ العسل يوجد فيه طعم تلك الأزهار التي يأكلها النحل وكذا توجد لذتها وريحها وطعمها فيه أيضاً ، ويعضد هذا قول بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم له : "أكلت مغافير؟ قال : لا ، قالت : ما هذه الريح التي أجد منك؟ قال : سقتني حفصة شربة عسل . قالت : جرست نحله العرفط" . والعرفط شجر الطلع له صبغ يقال له : المغافير كريه الرائحة ، فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة الكريهة ، فثبت بهذا أنه يوجد في طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الأطباء من أنه طل لأنه لو كان طلاً لكان على لون واحد وقوله : كل تجويف في داخل البدن يسمى بطناً خلاف الظاهر لأنّ لفظ البطن إذا أطلق لم يرد به إلا العضو المعروف بطن الإنسان وغيره . ﴿ فيه ﴾ أي : الشراب الذي يخرج من بطون النحل ﴿ شفاء للناس ﴾ من الأوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود ، إمّا لبعضها كما دلّ عليه تنكير شفاء ، وإمّا لكلها بضميمته إلى غيره إذ قل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل أو بدونه بنيته وبهذا سقط ما قيل إنه يضرّ بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ، ويضرّ بالشباب المحرورين ويعطش . قال ابن مسعود : العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور . وفي رواية عنه : عليكم بالشفاءين

القرآن والعسل. وروى نافع أنّ ابن عمر ما كانت قرحة ولا شيء إلا لطخ الموضع بالعسل. ويقرأ ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ .

(221/439)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ أخي يشتكي بطنه. فقال صلى الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع؟ فقال: اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه، فشفاه الله، فبرأ، فكأنما نشط من عقال" فقوله صلى الله عليه وسلم "صدق الله وكذب بطن أخيك" يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحي الإلهي، أنّ العسل الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك، فلما لم يظهر نفعه في الحال قال: صدق الله يعني فيما وعده من أنّ فيه شفاء للناس، وكذب بطن أخيك، يعني باستعجالكم للشفاء في أوّل مرّة. وقال مجاهد: الضمير في ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ راجع للقرآن، لأنّ فيه شفاء من أمراض الشرك، والجهالة والضلالة. وهو هدى ورحمة للناس وعلى هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى: ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أي: في هذا القرآن. قال الرازي: وهذا

قول ضعيف ، ويدل عليه وجهان : الأوّل أنّ الضمير في قوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ يجب عوده إلى أقرب المذكورات ، وما ذاك إلا قوله تعالى : ﴿ شراب مختلف ألوانه ﴾ . وأمّا الحكم بعود هذا الضمير إلى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب . والثاني : حديث أبي سعيد الخدري المتقدّم . ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إنّ في ذلك ﴾ أي : المذكور ﴿ لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي : في اختصاص النحل بتلك الطعوم الرقيقة واللطائف الخفية مثل بناء البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا وقد كثر في هذه السورة إضافة الآيات إلى المخاطبين تارة بالإفراد وتارة بالجمع ، ونوّعها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها . ثم إنه تعالى لما أيقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم ثنى ببعض ما في أنفسهم من الأدلة على ذلك فقال:

﴿ والله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ خلقكم ﴾ أي : أوجدكم من العدم وأخرجكم إلى الوجود ولم تكونوا شيئاً . ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ أي : عند انقضاء آجالكم على اختلاف الإنسان فلا يقدر الصغير أن يؤخر ولا الكبير على أن يقدّم فمنكم من يموت على

حال قوّته . ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ أي : أخسه من الهرم والخرف . قال بعض العلماء : عمر الإنسان له أربع مراتب سنّ الطفولية والنمو وهو أوّل العمر إلى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سنّ الشباب ، وبلوغ الأشدّ ثم المرتبة الثانية سنّ الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة إلى أربعين سنة وهو غاية القوّة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سنّ الكهولة وهو من الأربعين إلى الستين وهذه المرتبة يشرع فيها الإنسان في النقص لكنه يكون نقصاً خفياً لا يظهر ، ثم المرتبة الرابعة سنّ الشيخوخة والانحطاط من الستين إلى آخر العمر خمسة وستون سنة يتبين النقص ويكون الهرم والخرف .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أرذل العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة . وقال قتادة : تسعون سنة . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهمّ إني أعوذ بك من العجز والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات" . وفي رواية عنه كان يقول : "اللهمّ إني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات" . ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ أي : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان القوّة والعقل وسوء الفهم .

تنبيه : هل ذلك عام في المسلم والكافر أو مختص بالكافر فيه قولان : أحدهما : أنه عامّ ، والقول الثاني : أنه مختص إذ المسلم لا يزداد بطول العمر إلا كرامة على الله تعالى ، ولا يقال

في حقه : إنه ردّ إلى أرذل العمر . قال الرازي : والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (التين : ،)

فبين أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردّوا إلى أسفل السافلين . وقال عكرمة : من قرأ القرآن لم يصر إلى هذه الحالة . وقال في قوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ : هم الذين قرؤوا القرآن . وقال ابن عباس : قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهذا يؤيد ما مرّ . ﴿ إن الله عليم ﴾ بمقادير أعمارهم ﴿ قدير ﴾ يميت الشاب النشيط ، ويبقي الهرم الفاني ، وفي ذلك تنبيه على أن تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم ، ركب أبنيتهم وعدّل أمزجتهم على قدر معلوم ، ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبائعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ . ولما ذكر تعالى المفاوتة في الأعمار المنادية بإبطال الطبائع الموجبة للمسابقة إلى الاعتبار لأولي الأبصار للخوف كل لحظة من مصيبة الموت أتبعها بالمفاوتة في الأرزاق فقال:

﴿ والله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ فضل بعضكم ﴾ أيها الناس ﴿ على بعض في

الرزق ﴾ فمنكم غني ، ومنكم فقير ، ومنكم مالك ، ومنكم مملوك ، كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم ، فيجعل الضعيف العاجز الجاهل أغنى من القوي المحتال العالم فنرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً يفني عمره في طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ، ونرى أجلف الخلق وأقلهم عقلاً وفهماً تفتح له أبواب الدنيا فكل شيء خطر بباله ، أو دار في خياله ، فإنه يحصل له بسهولة ولو كان السبب في ذلك هو جهل الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال فلما رأينا أنّ الأعقل أقل نصيباً وأنّ الأجهل الأخس أوفر نصيباً علمنا أنّ ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ (الزخرف ،)

فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق وأقبلوا في جمع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار

وأنشد سفيان بن عيينة يقول:

*كم من قويّ قويّ في تقلبه ** مهذب الرأي عنه الرزق منحرف

*ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط ** كأنه من خليج البحر يغترف

وحكي أنّ سليمان المهلبي أرسل إلى الخليل بن أحمد بمئة ألف درهم فردّها الخليل وكتب

إليه هذه الأبيات:

*أبلغ سليمان أني عنه في سعة

** وفي غنى غير أني لست ذا مال

*شحي بنفسي أني لا أرى أحداً

** يموت جوعاً ولا يبقى على حال

*فالعجز عن قدرها العجز ينقصه

** ولا يزيدك فيه حول محتال

*والفقر في النفس لا في المال تعرفه

** ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

*ومن الدليل على القضاء وكونه

** بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

تنبيه : هذا التفاوت ليس مختصاً بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة ، والحسن والقبح ، والعقل والحمق ، والصحة والسقم ، والاسم الحسن والاسم القبيح ، وهذا بحر لا ساحل له . قال الرازي : وقد كنت مصاحباً لبعض الملوك في بعض الأسفار ، وكان ذلك الملك كثير المال والجاه ، فكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه ، وما كان يمكنه ركوب واحد منها ،

وربما أحضرت الأطعمة الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده ، وما كان يمكنه أن يتناول شيئاً منها وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج وقوي البنية كامل القوّة وما كان يجد ملء بطنه طعاماً فذلك الملك وإن كان يفضل هذا الفقير في المال إلا أنّ هذا الفقير كان يفضل ذلك الملك في الصحة والقوّة وهذا باب واسع إذا اعتبره الإنسان عظم تعجبه فيه ، فنسأل الله تعالى أن يغنينا من فضله وأن يرضينا بما قسم لنا إنه كريم جواد .

(225/439)

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى : ﴿ فما الذين فضلوا ﴾ أي : في الرزق وهم الموالي ﴿ برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ﴾ أي : بجاعلي ما رزقناهم من الأموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم ﴿ فهم ﴾ أي : المماليك والموالي ﴿ فيه سواء ﴾ أي : شركاء يقول الله تعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء فكيف يجعلون بعض عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني ، وقيل : معنى الآية أنّ الموالي والمماليك الله رازقهم جميعاً فهم في رزقه سواء فلا تحسبن الموالي يردّون أرزاقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله أجراه على أيدي الموالي للماليك .

والمقصود منه بيان أنّ الرازق هو الله تعالى لجميع خلقه وأنّ الموالي والمماليك في ذلك الرزق

سواء وأنّ المالك لا يرزق المملوك وإنما ذلك رزقي أجريته إليهم على أيديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله تعالى .

ولما قرّر سبحانه وتعالى هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك إنعاماً عظيماً منه على الخلق فعند هذا قال : ﴿ أفبنعمة الله ﴾ في تقرير هذه البيانات وإيضاح هذه البينات ﴿ يجحدون ﴾ أن يكفرون وفي ذلك إنكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره وجعلوا له شركاء يضيفون إليهم بعض ما أنعم به عليهم فيسوّون بينهم وبينه في ذلك . وقرأ شعبة بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم إنه تعالى ذكر نوعاً آخر من أحوال الناس ليستدلّ به على وجود الإله المختار الحكيم وتنبيهاً على إنعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى:

﴿ والله ﴾ أي : الذي له تمام القدرة وكمال العلم ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي : من جنسكم لتستأنسوا بها ولتكون أولادكم منكم فخلق حوّاء من ضلع آدم وسائر الناس من نطف الرجال والنساء فهو خطاب عام فتخصيصه بآدم وحوّاء فقط خلاف الدليل ، والمعنى أنه تعالى خلق النساء لتتزوّج بهنّ الذكور ومعنى من أنفسكم كقوله تعالى :

﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ (البقرة ،)

﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ (النور ،)

أي : بعضكم بعضاً ونظيره قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ (الروم ،)

﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ والحفدة جمع حافد وهو المسرع بالخدمة المسارع إلى الطاعة ومنه قول القانت : وإليك نسعى ونحفد ، أي : نسرع إلى طاعتك هذا أصله في اللغة .

واختلف فيه أقوال المفسرين فقال ابن مسعود والنخعي : الحفدة أختان الرجل على بناته . وعن ابن مسعود أنهم أصهاره فهو بمعنى الأوّل وعلى هذا يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوّجونهنّ فيحصل لكم بسببهنّ الأختان والأصهار . وقال الحسن وعكرمة والضحاك : هم الخدم . وقال مجاهد : هم الأعوان وكل من أعانك فهو حفيدك . وقال عطاء : هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه . وقال الكلبي ومقاتل : البنون هم الصغار والحفدة كبار الأولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه ، أي : أولاد المرأة من الزوج الأوّل . قال الرازي : والأولى دخول الكل فيه لأنّ اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك . قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم كأنه قيل : جعل لكم منهنّ

أولاداً هم بنون وهم حافدون ، أي : جامعون بين الأمرين انتهى . ومع هذا فالمشهور أنّ الحافد ولد الولد من الذكور والإناث .

فائدة : قال الأطباء وأهل الطبيعة : المني إذا انصب إلى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكراً تاماً في الذكورة ، وإذا انصب من الخصية اليسرى ثم انصب إلى الجانب الأيسر من الرحم كان الولد أنثى تاماً في الأنوثة ، وإذا انصب إلى الخصية اليمنى وانصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم كان ذكراً في طبيعة الإناث ، وإذا انصب إلى الخصية اليسرى ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم كان هذا الولد أنثى في طبيعة الذكور . وحاصل كلامهم أنّ الذكور الغالب عليهم الحرارة واليبوسة والغالب على الإناث البرودة والرطوبة ، وهذه العلة ضعيفة فإنّ في النساء من مزاجها في غاية السخونة وفي الرجال من مزاجه في غاية البرودة فخالق الذكر والأنثى هو الإله القادر الحكيم . ولما ذكر تعالى إنعامه على عبيده بالمنكوح وما بينه فيه من المنافع والمصالح ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ سواء كانت من النبات وهي الثمار والحبوب والأشربة أو كانت من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ أو

الحلال ومن في من الطيبات للتبعيض لأنّ كل الطيبات في الجنة وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها واختلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ أفباطل يؤمنون ﴾ فقال ابن عباس : يعني بالأصنام . وقال مقاتل : يعني بالشيطان ، وقال عطاء : يصدّقون أنّ لي شريكاً وصاحبة وولداً . ﴿ وبنعمت الله هم يكفرون ﴾ أي : بأن يضيفوها إلى غير الله تعالى ، ويتركون إضافتها إلى الله تعالى . وقيل : الباطل ما سوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم من هذه الطيبات وتحريم الخبائث . فائدة : رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقرأ بالإمالة . ولما شرح الله تعالى الدلائل على صحة التوحيد وأتبعها بذكر أقسام النعم العظيمة أتبعها بالرد على عبدة الأصنام فقال:

(228/439)

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ أي : غيره ﴿ ما لا يملك لهم رزقاً ﴾ أي : تاركين عبادة من بيده جميع الأرزاق وهو ذو العلو المطلق الذي رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ، ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى : ﴿ من السموات والأرض ﴾ أمّا الرزق الذي يأتي من جانب السماء فالمطر ، وأمّا الذي من جانب الأرض فالنبات والثمار التي تخرج منها ، وقوله تعالى

: ﴿ شيئاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه منصوب على المصدر ، أي : لا يملك لهم ملكاً ، أي : شيئاً من الملك . والثاني : أنه بدل من رزقاً ، أي : لا يملك لهم شيئاً . قال ابن عادل : وهذا غير مفيد إذ من المعلوم أنّ الرزق شيء من الأشياء ويؤيد ذلك أنّ البدل لا يأتي إلا لأحد معنيين البيان أو التأكيد ، وهذا ليس فيه بيان لأنه أعمّ ولا تأكيد . الثالث : أنه منصوب على أنه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك . ولما كان من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعة أن يتملك بطريق من الطرق نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولا يستطيعون ﴾ أي : وليس لهم نوع استطاعة أصلاً .

فإن قيل : إنه تعالى قال : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك ﴾ فعبر عن الأصنام بصيغة ما وهي لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون . وقال : ﴿ ولا يستطيعون ﴾ وهو مختص بمن يعقل ؟

أجيب : بأنه عبر عنها ثانياً اعتباراً باعتقادهم أنها آلهة .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ وجهان : الأوّل : قال أكثر المفسرين : ولا تشبهوا الله بخلقه فإنه واحد لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لأنّ الخلق كلهم

عبيده وفي ملكه ، فكيف يشبه الخالق بالمخلوق ، والرازق بالمرزوق ، والقادر بالعاجز .

الثاني : أنّ عبدة الأوثان كانوا يقولون أنّ إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا ، بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هؤلاء الأصنام ، ثم إنّ الكواكب والأصنام عبيد الإله الأكبر الأعظم كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حفدة الملك ، وأولئك الأكابر كانوا يخدمون الملك فكذا ههنا . ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ولا أمر لغيره ﴿ يعلم ﴾ أي : خطأ ما أنتم عليه من ضرب الأمثال له . ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك وقيل معناه : وأنتم لا تعلمون ما عليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الأصنام ولو علمتموه لتركتم عبادتها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 341 . 361 ﴾

(230/439)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلـهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد ؛ لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والمثنى نص في معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكر مع الجميع . أي : في نحو رجال ثلاثة ، وأفراس أربعة ؛ لأن

المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص ، فلِمَ ذكر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد المخصوص . فلما أريد الثاني صرح به للدلالة على أنه المقصود الذي سيق له الكلام وتوجه له النهي دون غيره . فإنه قد يراد بالمفرد الجنس ، نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثنى كقوله :

~فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الاثنينية تنافي الألوهية . فهو في معنى قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] ، فلذا صرح بها ، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ أو على قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ وقيل : إنه معطوف على : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ على أسلوب :

~علفتها تبنا وماء باردا

أي : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ ولم يسمعوا ما قال الله ؟ ولا يخفى تكلفه . وفي قوله : ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ التفات عن الغيبة ، مبالغة في الترهيب . فإن تخويف الحاضر مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لا سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة

والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(231/439)

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [52 - 55] .

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أو على الخبر ، أو مستأنف ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ أي : العبادة لازمة له وحده . ولزومها له ينافي خوف الغير ؛ إذ يقتضي تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عِمْرَان : 83] .

﴿ أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي : وهو مالك النفع والضر .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ﴾ أي فمن فضله وإحسانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أي : لا تتضرعون إلا إليه ؛ لعلمكم أنه لا يقدر على كشفه إلا هو سبحانه .

والجؤار : رفع الصوت . يقال : جأر إذا أفرط في الدعاء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي : بنسبة النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب في ذلك عليه ، والاستعانة في رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله :

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي : من نعمة الكشف عنهم . واللام للعاقبة والصيرورة : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .

وللقاشانيّ وجه آخر ، قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لا تأثير لغير الله في شيء . ثم بيّن تعالى من مثالب المشركين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [56 - 57] .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لآلهتهم التي لا علم لها ؛ لأنها جماد : ﴿ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي : من الزرع والأنعام وغيرهما تقرباً إليها : ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أي : من أنها آلهة يتقرب إليها . ومرّ نظير الآية في سورة الأنعام في قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً ﴾ [الأنعام : 136] الآية ، فانظر تفصيلها ثمة .

(233/439)

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ هذا بيان لعظيمة من عظائمهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين هم عبّاد الرحمن بنات لله ، فنسبوا له تعالى ولداً ولا ولد له .

واجترءوا على التفوه بمثل ذلك ، وعلى نسبة أدنى القسمين له من الأولاد ، وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ؛ لأنهم يشتهون الذكور ، أي : يختارونهم لأنفسهم ويأنفون من البنات . وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي : عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجب من جراءتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ، ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستئثار كما قال سبحانه : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم : 21 - 22] . وقال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات : 151 - 154] .

ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجناب الأقدس وفظاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [58 - 59] .

(234/439)

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أي : صار أو دام النهار كله : ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ أي : متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهية التي حصلت له عند هذه البشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر عن المساءة والمسرة ، كناية أو مجازاً ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي : مشتد الغيظ على امرأته ؛ لأنه بزعمه ، حصل له منها ما يوجب أشد الحياء ، حتى أنه : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي : يستخفي منهم : ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ أي : من أجله وخوف التعيير به . ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ ﴾ أي : محدثاً نفسه متفكراً في أن يتركه على هوانٍ وذلٍّ ، لا يورّثه ولا يعتني به ، ويفضل ذكور ولده

عليه : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أي : يخفيه ويدفنه فيه حياً : ﴿ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : حيث يجعلون الولد الذي هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس ، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [60] .

﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أي : مثل من ذكرت مساوئهم : ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي : صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكراهية الإناث ووأدهن ، خشية الإملاق ، المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ؛ للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ أي : الوصف العالي الشأن ، وهو الغني عن العالمين ، والكمال المطلق والتقدس عن سمات المخلوقين : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقه ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ [61 – 62] .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ أي : بكفرهم ومعاصيهم التي منها ما عدد من المساوئ المتقدمة : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أي : على الأرض المدلول عليها بالناس ، وبقوله تعالى : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي : لأهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين : ﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : وقت معين تقتضيه الحكمة . يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له ، ويصر من يصر فيزداد عذاباً : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي : المسمى : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ﴾ أي : ينسبون إليه : ﴿ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي : من البنات ومن الشركاء . وهم يأنفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم في مالهم . وهو تكرير لما سبق ، تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ أي : يجعلون لله ذلك ، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد ، كما قصه تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصلت : من الآية 50] ، يعني جَمَعَ هؤلاء بين عمل السوء وتمني المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روي أنه وجد في أحد أحجار الكعبة لما جدِّدت مكتوباً (تعملون السيئات وتَجْزَوْنَ الحسنات . أجل . كما يجتبى من الشوك العنب) و : ﴿ أَنَّ لَهُمُ ﴾ الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى : قوله : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : (عينها تصف السحر) أي : ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أي : هيفاء .

قال أبو العلاء المعري :

~سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

ثم رد كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ أي : معجَّلون إليها ومُقدَّمونَ . من (الفرط) وهو السابق إلى الورد . يقال : أفرطته في طلب الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيّون في النار . من (أفرطته) بمعنى تركته ونسيته ، على ما حكاه الفراء ، كقوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ [الأعراف : 51] وقرأ نافع (مُفْرِطُونَ) بكسر الراء . اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز ، أي : متجاوزو الحد في معاصي الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من (فرّط في كذا)

إذا قصر . ويقرب من الآية ما قص عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت : 50] . وقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 35 – 36]

.

ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل وتكذيب أممهم ؛ ليتأسى صلوات الله عليه بهم بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

(237/439)

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [63 – 64] .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : من الكفر

والتكذيب والعناد : ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي : قرينهم ، يُغويهم . أو المراد باليوم : يوم القيامة . والولي بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ؛ مبالغة في نفيه وتهكم ، على حدّ (عتابه السيف) : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أي : فالقرآن هو الفرقان الفاصل بين الحق والباطل ، وكل ما يتنازع فيه : ﴿ وَهُدًى ﴾ أي : للقلوب : ﴿ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم أشار إلى عظيم قدرته في آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثر قدرته في إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله من وحيه وهداه ورحمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [65 – 66] .

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : المزن : ﴿ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي : بالنبات والزرع ، بعد جدبها ويبسها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : هذا التذكير ، ويعقلون وجه دلالته .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ ﴾ وهو ما في الكرش من الثفل : ﴿ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي : سهل المرور في حلقهم .

بيَّن تعالى آيته في الأنعام بما ذكر ؛ ليستدل به على وحدانيته وانفراده بالألوهية ، وليستدل به أيضاً على الحشر . فإن العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب . فقلبُ الطين نباتاً وعشباً ، ثم تبديله دماً في جوف الحيوان ، ثم تحويله إلى لبن ؛ أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة . وإنما ذكر الضمير في بطونه هنا ، وأنثه في سورة المؤمنين ؛ لكون الأنعام اسم جمع ، فيذكر ويفرد ضميره ، باعتبار لفظه . ويؤنث ويجمع باعتبار معناه .

وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [67] .

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ بيان لآيته تعالى في الثمرات المذكورة ، ومنته في المشروب منها والمطعوم . و (السَّكَرُ) : مصدر سمي به الخمر . فهو بمعنى السُّكْر كالرُّشَد والرُّشْد .

قال الفراء : السَّكَر : الخمر نفسها . والرزق الحسن : الزبيب والتمر وما أشبههما ، ولا يقال : الخمر محرمة ، فكيف ذكرها الله في معرض الإنعام ؟ لأن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة . وكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة . وأجاب الرازي بجواب ثان .

وهو : أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع ، وخاطب المشركين بها ، والخمر من أشربتهم ، فهي منفعة في حقهم .

قال : ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السَّكَر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفي "فتح البيان" قد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر. كما في "الكشاف".

قالوا: إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم. وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر. انتهى.

وليس هذا موضع بسط ذلك. قال ابن كثير: وقد ناسب ذكر العقل ها هنا في قوله تعالى: ﴿ لِقَومٍ يعقِلُونَ ﴾ فإنه أشرف ما في الإنسان. ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة؛ صيانة لعقولها. انتهى.

ولما بيَّن تعالى أن إخراج الألبان من النعم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، دلائل قاهرة وبينات باهرة، على أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادراً مختاراً حكماً؛ أرشد إلى آيته الساطعة في النحل أيضاً بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [68 - 69].

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

المراد من الوحي : الإلهام والهداية إلى بنائها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض ، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بنائها بيوتاً تأوي إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت الناس ، حيث يعرشون ، أي : يبنون العروش ، جمع (عرش) وهو البيت الذي يستظل به كالعريش . وليس للنحل بيت في غير هذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتها ما كان في الجبال ، وهو المتقدم في الآية ، ثم في الشجر دون ذلك ، ثم في الثالث أقل . فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن في الجبال والفيافي لا يتعهدها أحد من الناس . وأهلية تأوي إلى البيوت وتتعهد في الخلايا . ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى . فهي تتخذها أولاً . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت ، وأكلت من الثمرات ، ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي : من كل ثمرة تشتهيها ، حلوها ومرها . فالعموم عرفي ، أو لفظ (كُل) للتكثير ، أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقي الأمر على ظاهره لجاز ؛ لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات الأكل منها ؛ لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة :

إنما أوثر (من) في قوله تعالى : ﴿ مِنَ الجِبَالِ ﴾ الخ ، على (في) دلالة على معنى التبعيض . وأن لا تبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا في كل مكان منها . نبه عليه الزمخشري .

(241/439)

قال الناصر : ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه في تبعيض (من) المتعلقة باتخاذ البيوت ، بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها ، فلم يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض ؛ لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها في تناول الثمرات . كما تقول : راعِ الحلال فيما تأكله ، ثم كل أي : شيء شئت . فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

(242/439)

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أي : الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها ، أو على حقيقتها . أي : إذا أكلت الثمار في المواضع النائية ، فاسلكي راجعة إلى بيوتك سبل ربك ، لا تتوعَّر عليك ولا تضلين فيها . و (ذللاً) جمع ذلول ، حال من (السبل) أي : مذللة ذللها الله لك وسهلها . فهي تسلك من هذا الجو العظيم ، والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ استئناف ، عدل به عن خطاب النحل ؛ لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ؛ تعديداً للنعم ، وتنبيهاً على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمي العسل شراباً ؛ لأنه يشرب مع الماء وغيره : ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أي فمنه أبيض وأصفر وأحمر ؛ لاختلاف ما يؤكل من النَّور أو مزاجها : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ لأنه من جملة الأشفية والأدوية في بعض الأمراض . وله دخل في أكثر ما به الشفاء والمعاجين ، وقلَّ معجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرته بالنسبة إليه . وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي استطلق بطنه فقال : < اسقه عسلاً > فذهب فسقاه عسلاً ، فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلاً ما زاده إلا استطلاقاً . قال : < اذهب فاسقه عسلاً > فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله ! ما زاده

إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < صدق الله وكذب بطن أخيك

، اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فبرأ > .

(243/439)

قال ابن كثير : قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلاً وسكر حارّ تحللت فأسرعت في الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وفي " العناية " للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء فيها تأييد لقصة الأعرابي فانظرها .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه ، وانفراده بألوهيته . وأنه هو الذي ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلمت مساقط الأنداء ، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنقة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضاباً ، وتلفظه شراباً .

قال الحجة الغزالي " في الإحياء " : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدهما ضياءً والآخر شفاءً . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ما سخر الله لأميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة ؛ لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً في نفسك ، وفارغاً من هم بطنك وفرجك ، وشهوات نفسك في معاداة أقرانك ، وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبني بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً ، بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقي خارج البيوت فرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل في الأشكال

ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تتراص الجملة منه بحيث لا تبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك ؛ لطفاً به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه ؛ ليهنأ عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفي طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقاتل بعضه بعضاً في الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك الملسوع . وإذا أهلك شيء منها داخل الخلايا أخرجته الأحياء إلى خارج . وفي طبعه أيضاً النظافة . فلذلك يخرج رجيعه من الخلية ؛ لأنه منتن الريح . وهو يعلم زماني الربيع والخريف . والذي يعمله في الربيع أجود

(245/439)

. والصغير أعمل من الكبير ، وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذباً ، يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قلَّ العسل في الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفاً على نفسه من نفاذه ؛ لأنه إذا نفد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لتلامذته : كونوا كالنحل في الخلايا . قالوا : وكيف النحل في الخلايا ؟

قال : إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية ، لأنه يضيق المكان ، ويفني العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يسلخ جلده كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة ، ويضره السوس . ودواؤه أن يطرح له في كل خلية كف ملح . وأن يفتح في كل شهر مرة ، ويدخن بأخثاء البقر . وفي طبعه أنه متى طار من الخلية ، يرعى ثم يعود ، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه . كذا في " حياة الحيوان " .

(246/439)

وذكر الإمام الغزالي أيضاً في كتاب " الحكمة في خلق المخلوقات " : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه ؛ قتل أحدهما الآخر ، وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق ؛ لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجّاً ، افترق النحل خلفهما . ثم إنها أُلهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار . فيستحيل في أجوافها عسلاً . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد ، من شراب فيه شفاء للناس ، كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وملاذ للعباد . وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم . فهي مثل ما يفضل

من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس . ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها ، لتوعي فيه العسل وتحفظه . فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح . فانظر في هذه الذبابة ، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ، ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعداً عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ؛ أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك . وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع : الأولى : سن النشوء والنماء . والثانية : سن الوقوف وهي سن الشباب . والثالثة : سن الانحطاط القليل وهي سن الكهولة . والرابعة

: سن الانحطاط الكبير وهي سن الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [70 – 71] .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ أي : أنشأكم من العدم : ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أي : أضعفه وأردئه وهو الهرم . وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ اللام للصيرورة والعاقبة . أي : فيصيرُ ، إن كان عالماً جاهلاً ، فيريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال في " العناية " : وكونه غير عالم بعد علمه ، كناية عن النسيان ؛ لأن الناسي يعلم الشيء ثم ينساه ، فلا يعلم بعد ما علم . أو العالم بمعنى الإدراك والتعقل ، والمعنى : لا يترقى في إدراك عقله وفهمه ؛ لأن الشاب في الترقي ، والشيخ في التوقف والنقصان .

وفي "الكشاف" : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في النسيان . وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل : لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً . وقيل : لئلا يعلم زيادة علم على علمه الأول . و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية .

وجوّز فيه التنازع بين (يعلم) و (علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم . أي : لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ أي : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم ، وهم بشر مثلكم : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أي : في الرزق ، وهم الملاك : ﴿ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي : بمعطيهم إياه : ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أي : فيستووا مع عبيدهم في الرزق .

والآية مثلٌ ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أي : أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ، ولا تجعلونهم فيه شركاء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي شركاء في الإلهية والتعظيم ؟ كما قال في الأخرى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الروم : 28] .

﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : فيشركون معه غيره وهو المنعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم بها عليهم ؟ ! فإنه لا نعمة على العالم أجل من

إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

القول في تأويل قوله تعالى :

(249/439)

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [72 - 74] .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : في جنسكم وشكلكم إناثاً أزواجاً لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ أي : بنات وأولاد أولاد : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو منفعة الأصنام وشفاعتها : ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : في إضافة نعمه إلى الأصنام ، أو في تحريم ما أحل لهم .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً ﴾ أي : من مطر أو نبات و (شيئاً) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدراً ، وإن جعل اسماً

للمرزوق فـ (شيئاً) بدل منه بمعنى قليلاً . و (من السماوات) متعلق بـ (يملك) على كون الرزق مصدراً . أو هو صفة لـ (رزقاً) : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي : أن يتملكوه . أو لا استطاعة لهم أصلاً . أو الضمير للمشركين . أي : ولا يستطيعون مع أنهم أحياء متصرفون فكيف بالجماد ؟ ! .

(250/439)

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أي : فلا تجعلوا له أنداداً وأمثالاً . والضرب للمثل فيه معنى الجعل . والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا ، وقيل : جمع (مَثَل) بفتحتين ، والآية استعارة تمثيلية للإشراك به . حيث جعل المشرك به الذي يشبهه بخلقه ، بمنزلة ضارب المثل . فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشركوا . وعدل عنه لما ذكر ؛ دلالة على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفي لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له ، نعيٌ عظيم على سوء فعلهم . كذا في " شرح الكشاف " .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه

لما جرأتم عليه، فهو تعليل للنهي. أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 10 صـ 394. 408﴾

(251/439)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة النّحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)

الإعراب

(أتى) فعل ماض " 1 " مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (أمر) فاعل مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 2 "، (لا) ناهية جازمة (تستعجلوه) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.. و(الواو) فاعل، و(الهاء) ضمير في محلّ نصب مفعول به (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (تعالى) فعل ماض مثل أتى، والفاعل هو (عن) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 3 " (يشركون) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع ثبوت النون...

و(الواو) فاعل.

---

(1) إمّا على بابه وهو بمعنى قرب.. أو هو مستقبل معنى لأنّه محقّق الوقوع، فكأنه وقع.

(2) أو عاطفة لربط المسبّب بالسبب..

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف أي يشركونه.

والمصدر المؤوّل (ما يشركون) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (تعالى).

جملة: "أتى أمر اللّه..." لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: "لا تستعجلوه..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن طلبتم الأمر فلا تستعجلوه.

وجملة: "(نسبّح) سبحانه..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تعالى..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يشركون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

الفوائد

1 - أَتى أَمْرُ اللَّهِ عبّر سبحانه عن المستقبل بالماضي إيذانا بوقوع أمره ولزوم تحقيقه ، وهذه من لطائف بلاغة القرآن الكريم فتأمل .

2 - تعَالى هذا الفعل ناقص التصرف وقد قيل : الفعل من حيث أداؤه معنى لا يتعلق بزمان أو يتعلق به قسمان : جامد ومتصرف .

لأنه إذا تعلق بزمان كان ذلك داعيا لاختلاف صوره لإفادة حدوثه في زمان مخصوص .

وإن لم يتعلق بزمان كان هذا موجبا لجموده على صورة واحدة .

من ذلك الترجي بواسطة الفعل " عسى " ، والذم بواسطة الفعل " بئس " ، وكذلك المدح بالفعل " نعم " ، ثم التعجب ، كل ذلك لا يختلف باختلاف الزمان ، ولذلك كانت أفعاله جامدة . وهو إما أن يلازم صيغة الماضي مثل عسى وليس ونعم وبئس وتبارك وتعالى . أو صيغة المضارع ، أو صيغة الأمر مثل هب وهات وتعال وهلمّ في لغة تميم .

[سورة النحل (16) : آية 2]

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2)

الإعراب

(ينزّل) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الملائكة) مفعول به منصوب (بالروح) جارّ ومجرور حال من الملائكة أي مصحوبة بالوحي " 1 " ، (من أمره) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الروح " 2 " ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (على) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينزّل) ، (يشاء) مثل ينزّل (من عباده) جارّ ومجرور حال من الموصول .. و(الهاء) مضاف إليه (أن) حرف مصدريّ " 3 " ، (أنذروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون .. و(الواو) فاعل (أنّ) حرف توكيد ونصب و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب ، وخبر لا محذوف تقديره موجود (إلّا) حرف استثناء (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع بدل من الضمير المستكنّ في الخبر .

والمصدر المؤوّل (أن أنذروا ...) في محلّ جرّ بدل من الروح .

والمصدر المؤوّل (أنّه لا إله إلّا أنا ..) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي بأنه لا إله إلّا أنا .. متعلّق بـ (أنذروا ..) .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اتّقون) مثل أنذروا ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) المحذوفة مفعول به .

---

(1) الروح جاء تفسيره : الوحي والقرآن وأرواح الخلق والرحمة والهداية وجبريل .. إلخ .

(2) أو متعلّق بـ (ينزّل) ومن للتبعيض.

(3) أو حرف تفسير لأنّ التنزيل وحي فيه معنى القول لا بحروفه.

(254/439)

وجملة: "ينزّل ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يشاء ... " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "أنذروا ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "لا إله إلّا أنا " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: "اتّقون " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا كان الأمر كما ذكر من تنزّل الملائكة على الأنبياء فاتّقون " 1 ".

[سورة النحل (16) : آية 3]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3)

الإعراب

(خلق) فعل ماض، والفاعل هو (السموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة

(الأرض) معطوف على السموات بالواو منصوب (بالحقّ) جارّ ومجرور حال من فاعل

خلق (تعالى عمّا يشركون) مرّ إعرابها " 2 " .

جملة : " خلق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعالى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشركون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الاسميّ أو الحرفيّ (ما) .

[سورة النحل (16) : الآيات 4 إلى 8]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (8)

---

(1) أو إذا أردتم النجاة في الآخرة فاتّقوني بتوحيدي .

(2) في الآية (1) من هذه السورة .

الإعراب

(خلق الإنسان) مثل خلق السموات " 1 " ، (من نطفة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلق) ،

(الفاء) عاطفة (إذا) فجائية (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (خصيم) خبر مرفوع (مبين) نعت لخصيم مرفوع.

جملة: " خلق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هو خصيم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

(الواو) عاطفة (الأنعام) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره ما بعده أي خلق الأنعام (خلقها) مثل الأول، و(ها) ضمير مفعول به، والفاعل هو (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خلقها) " 2 "، (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (دفء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (منافع) معطوف على دفء بالواو مرفوع (الواو) عاطفة (فيها) مثل منها متعلّق بـ (تأكلون) وهو مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل.

---

(1) في الآية (3) السابقة.

(2) يجوز الوقف في قوله خلقها، فيتعلّق (لكم) بخبر مقدّم لدفء، وهذا يتوافق مع الآية 6 الآتية . . . ويجوز أن يكون (لكم) حالا من دفء، و(فيها) خبر . .

وجملة : " (خلق) الأنعام . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق الإنسان .

وجملة : " خلقها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فيها دفء . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " منها تأكلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة فيها دفء .

(الواو) عاطفة (لكم فيها جمال) مثل لكم فيها دفء ، خبر مقدّم ومبتدأ مؤخّر " 2 " ، (حين) ظرف زمان منصوب متعلّق بجمال " 3 " ، (تريحون) مثل تأكلون (الواو) عاطفة (حين تسرحون) مثل حين تريحون .

وجملة : " لكم فيها جمال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة فيها دفء .

وجملة : " تريحون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تسرحون " في محلّ جرّ بإضافة حين الثاني إليها .

(الواو) عاطفة (تحمل) مضارع مرفوع ، والفاعل هي أي الأنعام (أثقالكم) مفعول به منصوب . . و(كم) ضمير مضاف إليه (إلى بلد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تحمل) (لم) حرف نفي وجزم (تكونوا) مضارع ناقص ومجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . و(الواو) اسم تكون (بالغيه) خبر منصوب وعلامة النصب الياء . . . و(الهاء) مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (بشقّ) جارّ ومجرور حال من الضمير المستكنّ في بالغيه (الأنفس) مضاف إليه مجرور (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّكم) اسم إنّ منصوب . . و(كم) ضمير مضاف إليه

(اللام) المزحلقة (رؤف) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الهاء في (خلقها). [. . . . . .]

(2) يجوز أن يكون (لكم) حالا من جمال، والعامل فيها معنى الاستقرار.

(3) أو متعلّق بنعت لجمال.

(257/439)

وجملة: "تحمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة فيها دف ء.

وجملة: "لم تكونوا بالغيه . . . " في محلّ جرّ نعت لبلد.

وجملة: "إنّ ربّكم لرؤوف . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ.

(الواو) عاطفة (الخيل) مثل الأنعام " 1 "، (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (البغال، الحمير) اسمان معطوفان على الخيل منصوبان مثله (اللام) للتعليل (تركبوها) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل، و(ها) ضمير مفعول به.

والمصدر المؤوّل (أن تركبوها . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل خلق المقدّر.

(زينة) مفعول لأجله منصوب معطوف على محلّ المصدر المؤوّل " 2 " (تخلق) مثل تحمل،

والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 3 " ، والعائد محذوف أي تعلمونه (لا) نافية (تعلمون) مثل تأكلون .

وجملة : " (خلق) الخيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (خلق) الأنعام .

وجملة : " يخلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (خلق) الخيل " 4 " .

وجملة : " تعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(الإنسان) ، اسم معروف ، أصله إنسيان لأن العرب قاطبة

---

(1) يجوز أن يكون معطوفا على الأنعام منصوبا مثله .

(2) أو مفعول مطلق لفعل محذوف : تتزيّنوا زينة بها .

(3) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، والجملة بعده نعت له .

(4) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة .

قالوا في تصغيره أنيسيان ، فدلّت الياء الأخيرة على الياء في تكبيره ، إلّا أنّهم حذفوها لمّا كثر في كلامهم ، جمعه الناس ، وإذا قالوا أنا سين فهو جمع بيّن مثل بستان وبساتين ، وإذا

قالوا أناسيّ كثيرا فخفّفوا الياء أسقطوا الياء التي تكون فيما بين عين الفعل ولامه ، يبيّن جواز أناسي ، بالتخفيف ، قول العرب أناسية كثيرة ، والواحد إنسيّ وأناس ، ووزن إنسيان إفعلان – بكسر الهمزة – من النسيان ، وقد حذفت الياء فقيل إنسان . . وانظر الآية (8) من سورة البقرة .

(نطفة) ، اسم لماء الرجل والمرأة ، جمعه نطف بضمّ وفتح ونطاف بضم النون ، ولا فعل للنطفة على رأي أبي زيد .

(دفء) ، في المختار : الدفء نتاج الإبل وما ينتفع به فهو اسم ، وهو السخونة اسم من دفئ يدفأ باب طرب وسلم ، فالذكر دفئان والأنثى دفأى .

وفي المصباح لا يقال اسم الفاعل دفيء وزان كريم بل وزان تعب . وفي القاموس الدفء بالكسر ويحرّك نقيض حدّة البرد ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(جمال) ، مصدر جمل يجمل باب كرم ، وزنه فعال بفتح الفاء والعين .

(أثقال) ، جمع ثقل ، اسم لمتاع المسافر ، وزنه فعل بفتحتين ، وأثقال وزنه أفعال .

(بلد) ، اسم على وزن فعل بفتحتين ، جمعه بلاد وبلدان .

(شقّ) ، اسم لنصف الشيء ، والمعنى على المجاز أيّ لم يكونوا بالغيه إلّا بنقصان قوّة النفس وذهاب نصفها . وفي المختار : الشقّ أيضا المشقّة ، وقيل المفتوح الصدر والمكسور

الاسم، وزنه فعل بكسر فسكون.

(الخيل)، انظر الآية (14) من سورة آل عمران.

(البغال)، جمع بغل، اسم للحيوان المتولّد بين الخيل والحمير، وزنه فعل بفتح فسكون.

(الحمير)، جمع الحمار اسم للحيوان المعروف، وزنه فعال بكسر الفاء، ويجمع أيضا على أحمرة بفتح الهمزة وكسر الميم، وحمر بضمّتين، وحمور بضمّ الحاء وحمرات بضمّتين، ومؤنّثه بتاء.

البلاغة

- التقديم: في قوله تعالى حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وتقديم الإراحة على السرح، مع أنها متأخرة في الوجود عنه، لكونها أظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال وأتم في استجلاب الأنس والبهجة، إذ فيها حضور بعد غيبة، وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون، ملأى البطون حافلة الضروع.

[سورة النحل (16) : آية 9]

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (قصد) مبتدأ مؤخّر على حذف مضاف أي بيان قصد السبيل (السبيل) مضاف إليه مجرور (الواو) اعتراضيّة (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (جائر) مبتدأ مؤخّر مرفوع، وهو في الأصل نعت لمنعوت محذوف أي سبيل جائر (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض، والفاعل هو ومفعوله محذوف أي هدايتكم (اللام) واقعة في جواب لو (هداكم) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف.. و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (أجمعين) توكيد لضمير الخطاب في (هداكم)، منصوب وعلامة النصب الياء "1".

---

(1) أو حال من الضمير المذكور، منصوبة.

جملة: "على اللّه قصد... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "منها جائر... " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "شاء... " لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة.

وجملة: " هداكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم

الصرف:

(قصد) ، مصدر قصد بمعنى إقامة السبيل أو تعديل السبيل وليس مصدر (قصدته) بمعنى أتيته. وهو مصدر يوصف به . . يقال سبيل قصد بمعنى قاصد أي مستقيم كأنّه يقصد الوجه الذي يؤمّه السالك لا يعدل عنه، وزنه فعل بفتح فسكون.

(جائر) ، اسم فاعل من جار يجوز أي حاد عن الاستقامة، وزنه فاعل، وفيه إبدال حرف العلّة الواو همزة لمجيئه بعد ألف فاعل، وهذا شأن اسم الفاعل من كلّ فعل معتّل أجوف.

[سورة النحل (16) : آية 10]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10)

الإعراب

(هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (أنزل) فعل ماض والفاعل هو (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) " 1 "، (ما) مفعول به منصوب (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم " 2 "، (من) حرف جرّ و(الهاء)

---

(1) أو حال من ماء . .

(2) يصحّ الوقوف عند (لكم) ، فهو إذا نعت لماء ، (ومنه) خبر مقدّم للمبتدأ شراب .

(261/439)

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من شراب (شراب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (منه شجر) مثل منه شراب ومعطوف عليه (فيه) مثل منه متعلّق بفعل (تسيمون) وهو مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لكم منه شراب " في محلّ نصب نعت لماء " 1 " .

وجملة : " تسيمون " في محلّ رفع نعت لشجر .

الصرف :

(شجر) ، اسم جمع واحدته شجرة ، وهو ما قام على ساق من نبات الأرض ، وجمع شجر أشجار وشجراء وجمع شجرة شجرات ووزن شجر فعل بفتحتين .

[سورة النحل (16) : الآيات 11 إلى 13]

(1) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها لبيان فائدة الماء، فهي استئناف بيانيّ.

(262/439)

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)

الإعراب

(ينبت) مضارع مرفوع، والفاعل هو (لكم) متعلّق بـ (ينبت)، (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينبت)،

والباء سببيّة، والضمير يعود على الماء (الزرع) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الزيتون، النخيل، الأعناب) أسماء معطوفة على الزرع بحروف العطف منصوبة مثله (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لمنعوت محذوف أي وشيئا من كلّ...

ومن تبعيضيّة (الثمرات) مضاف إليه مجرور (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (في) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر إنّ.. و(اللام) للبعد

، و(الكاف) للخطاب (اللام) الثانية للتوكيد (آية) اسم إنّ مؤخّر منصوب (لقوم) جارّ ومجرور نعت لآية (يتفكّرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " ينبت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يتفكّرون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

(263/439)

(الواو) عاطفة (سخّر) فعل ماض ، والفاعل هو (لكم) متعلّق بـ (سخّر) ، (الليل) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (النهار ، الشمس ، القمر ،) أسماء معطوفة على الليل منصوبة مثله (النجوم) مبتدأ مرفوع (مسخّرات) خبر مرفوع (بأمره) جارّ ومجرور متعلّق بمسخّرات . . .

و(الهاء) مضاف إليه (إنّ في . . . يعقلون) مثل إنّ في . . يتفكّرون وعلامة نصب آيات الكسرة .

وجملة : " سخّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينبت .

وجملة : " النجوم مسخّرات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سخّر .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يعقلون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

(الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف أيّ سخّر لكم ما . . . " 1 " ، (ذرأ) فعل ماض ، والفاعل هو (لكم) متعلّق بـ (ذرأ) ، (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ذرأ) ، (مختلفا) حال منصوبة من العائد أي ما ذرأ لكم مختلفا (ألوانه) فاعل لاسم الفاعل مختلفا . . و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إنّ في . . يذّكّرون) مثل إنّ في . .

يتفكّرون .

وجملة : " (سخّر) ما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سخّر لكم الليل .

وجملة : " ذرأ لكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يذّكّرون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

[سورة النحل (16) : الآيات 14 إلى 16]

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول في محلّ رفع خبر (سخّر البحر) مثل سخّر الليل " 2 " .

---

(1) يجوز أن يكون معطوفا بالواو على الليل فيكون من عطف المفردات، ولا جملة .

(2) في الآية (12) من هذه السورة .

(اللام) للتعليل (تأكلوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون .. و(الواو) فاعل (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تأكلوا) على حذف مضاف أي من حيواناته " 1 " ، (لحما) مفعول به منصوب (طريّا) نعت لـ (لحما) منصوب (الواو) عاطفة (تستخرجوا) مثل تأكلوا ومعطوف عليه (منه) مثل الأول متعلّق بـ (تستخرجوا) ، (حلية) مفعول به منصوب (تلبسونها) مضارع مرفوع .. و(الواو) فاعل، و(ها) ضمير مفعول به (الواو) اعتراضيّة (ترى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، والفاعل أنت (الفلك) مفعول به منصوب (مواخر) حال منصوبة (فيه) مثل منه متعلّق بمواخر (الواو) عاطفة (لتبتغوا) مثل لتأكلوا (من فضله) جارّ ومجرور

متعلّق بـ (تبتغوا) ، (الواو) عاطفة (لعلّكم) حرف ترجّ ونصب . . و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تشكرون) مثل تلبسون .

والمصدر المؤوّل (أن تأكلوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (سخّر) .

والمصدر المؤوّل (أن تبتغوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (سخّر) لأنه معطوف عليه .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " سخّر البحر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تأكلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تستخرجوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تأكلوا .

وجملة : " تلبسونها . . . " في محلّ نصب نعت لحلية .

وجملة : " ترى الفلك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من (لحما) ، نعت تقدّم على المنعوت .

(2) أو هي معطوفة بالواو على استئناف متقدّم . [. . . . .]

وجملة : " تبتغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة : " لعلّكم تشكرون . . . " لا محلّ لها تعليليّة ، وهي معطوفة على التعليل المتقدّم المستعمل له اللام " 1 " .

وجملة : " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(الواو) عاطفة (ألقى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ألقى) مضمّنا معنى خلق (رواسي) مفعول به منصوب – صفة لموصوف محذوف أي جبالا رواسي – ومنع من التنوين لأنه جمع على صيغة منتهى الجموع (أن) حرف مصدريّ ونصب (تميد) مضارع منصوب ، والفاعل هي (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تميد) .

والمصدر المؤوّل (أن تميد) في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي مخافة أن تميد بكم ، (الواو) عاطفة في الموضعين (أنهارا ، سبلا) اسمان معطوفان على رواسي منصوبان مثله (لعلّكم تهتدون) مثل لعلكم تشكرون .

وجملة : " ألقى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سخّر البحر .

وجملة : " لعلّكم تهتدون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليل – .

وجملة : " تهتدون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(الواو) عاطفة (علامات) معطوف على رواسي منصوب مثله وعلامة النصب الكسرة

(الواو) استئنافيّة (بالنجم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يهتدون) ،

---

(1) أو معطوفة على تعليل متقدّم مقدّر أي لعلّكم تدركون فضله ولعلّكم تشكرون .

(266/439)

(هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يهتدون) مثل تلبسون .

وجملة : " هم يهتدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يهتدون " في محلّ رفع خبر .

الصرف :

(طريّا) ، صفة مشبّهة من طرو يطرو باب كرم وطري يطري باب فرح ، فإذا جاء من باب كرم ففيه إعلال بالقلب ، أصله طريو فيه واو والياء المتقدمة ساكنة ، قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأولى فأصبح طريّ زنة فعيل .

(مواخر) ، جمع ماخرة مؤنّث ماخر ، اسم فاعل من مخر البحر أي جرى فيه وشقّه ، وزن مواخر فواعل .

(علامات) ، جمع علامة ، اسم للإشارة من أعلمت على كذا من الكتاب وغيره ، وزنه فعالة بفتح الفاء .

البلاغة

1 - التتميم: في قوله تعالى لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا تتميم احتياط. والتتميم فن يشتمل على كلمة لو طرحت من الكلام نقص معناه. وهو ثلاثة أنواع: تتميم نقص، وتتميم احتياط، وتتميم مبالغة. ونقول هنا إنه علم سبحانه أنه إذا لم يصف اللحم بالطراوة لم يكن مظنة للفساد، ولكن المعروف أن الفساد إلى اللحم الطري أكثر من غيره، فلزم وصفه بها ليسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه.

2 - الالتفات: في قوله تعالى وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ فإخراج الكلام عن سنن الخطاب، وتقديم الجار والضمير للتخصيص كأنه قيل: وبالنجم خصوصا

هؤلاء خصوصا يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه بالتوحيد الزم لهم وأوجب عليهم.

[سورة النحل (16): آية 17]

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (17)

الإعراب

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يخلق) مضارع مرفوع، والفاعل هو وهو العائد (الكاف) حرف جرّ (من) موصول في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ (لا) نافية (يخلق) مثل الأول (الهمزة) مثل الأولى (الفاء) عاطفة

(لا) مثل الأولى (تذكّرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " من يخلق كمن لا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

(267/439)

وجملة : " لا يخلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) (الثاني) .

وجملة : " تذكّرون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 1 " .

لبلاغة

1 - التشبيه المقلوب : وذلك في قوله تعالى أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ إذ مقتضى الظاهر عكسه ، لأن الخطاب لعباد الأوثان ، حيث سموها آله تشبيها به تعالى ، فجعلوا غير الخالق كالخالق ، فجاءت المخالفة في الخطاب ، كأنهم لمبالغتهم في عبادتها ولإسفافهم - بالتالي - وارتكاس عقولهم صارت عندهم كالأصل ، وصار الخالق الحقيقي هو الفرع ، فجاء الإنكار على وفق ذلك .

2 - التغليب : في الآية الكريمة .

حيث أتى " بمن " تغليبا لذوي العلم على غيرهم ، مع ما فيه من

(1) أو معطوفة على استئناف متقدّم مقدّر أي أجهلتم هذا فلا تذكّرون .

المشاكلة ، أو ذوو العلم خاصة ، ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص ، فإن من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة ذوي العلم . فما ظنك بالجماد .

فالمراد إذا بمن لا يخلق الأصنام ، وجاء بمن الذي هو للعقلاء ذوي العلم ، وذلك لأنهم لما عبدوها وسموها آلهة ، أجروها مجرى أولى العلم ، فجيء بمن على اعتقادهم ، ووفق ما هو مركوز في سلائقهم .

الفوائد

1 - من طرائف الفقهاء أنهم يقولون : إذا حلف الرجل لا يأكل لحما فأكل سمكا لم يحنث . فإذا اعترض عليهم معترض بأن اللّه تعالى سماه لحما ، قالوا : إن الأمر مبنيّ على العادة ، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على إطلاقه لا يفهم منه السمك . قالوا : ألا ترى أنه لو حلف لا يركب دابة فركب كافرا لا يحنث ، وإن اللّه سماه دابة في قوله : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى آخر هذه المباحث التي يرجع إليها في المطولات من كتب الفقه .

2 - كتابة الهمزة :

أ – القياس في كتابة الهمزة أن تكتب على الحرف الذي تسهل إليه فيما لو خففت .

والتخفيف جائز في اللغة العربية فتقول : سال وقرا ولولو وذياب وخطيّة وميّة إلخ .

ب – الهمزة المبدوء بها : لا تكون إلا متحركة محققة النطق بها ، ويجب إثباتها كتابة على صورة الألف بأية حركة تحركت .

مثل : أمل وإبل وأحد .

ج – الهمزة المتطرفة في آخر الكلمة .

إمّا أن يكون ما قبلها ساكنا أو متحركا :

1 – ان كان ما قبلها ساكنا كتبت على السطر مثل المرء الجزء الخب ء المقروء الشي ء النوء .

2 – ان كان ما قبلها متحركا كتبت بحرف يناسب حركة ما قبلها نحو :

الخطأ ، والتواطؤ ، ويستهزئ .

ج – الهمزة المتوسطة :

إذا كانت ساكنة تكتب على حرف يناسب حركة الحرف الذي قبلها . مثل رأس وسؤل

وبئر ، وإن كانت متحركة تكتب على حرف يجانس حركة الأقوى منها ومن الحرف الذي

قبلها ، مثل : سأل ، سئم ، تؤجج ، خؤون ، فئات .

وثمة شواذات عن هذه القواعد الكلية نضرب صفحا عن ذكرها خشية التطويل

وخروجنا عن خطة الكتاب .

[سورة النحل (16) : الآيات 18 إلى 21]

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ

(19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ

وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (تعدّوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة

الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (نعمة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف

إليه مجرور (لا) نافية (تحصوها) مثل تعدّوا جواب الشرط . . و(ها) ضمير مفعول به

(إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب ، (اللام) المزحلقة للتوكيد

(غفور) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " إن تعدّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تحصوها . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء

وجملة : " إنّ الله لغفور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(الواو) عاطفة (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف أي تسرّونه " 1 " ، (تسرّون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (الواو) عاطفة (ما تعلنون) مثل ما تسرّون .

وجملة : " الله يعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن تعدّوا . . .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الله) .

وجملة : " تسرّون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " تعلنون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

(الواو) عاطفة (الّذين) موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يدعون) مثل تسرّون (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بحال من العائد المحذوف (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يخلقون) مثل تسرّون (شيئا) مفعول به منصوب (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يخلقون) مضارع مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل .

وجملة : " الّذين يدعون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الله يعلم .

وجملة : " يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " لا يخلقون شيئا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الّذين) .

وجملة : " يخلقون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " هم يخلقون " في محلّ نصب حال " 2 " .

---

(1) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل مفعول به . .

(2) أو في محلّ رفع معطوفة بالواو على جملة (لا يخلقون . .) .

(271/439)

(أموات) خبر ثان للمبتدأ (هم) " 1 " ، مرفوع (غير) نعت لأموات مرفوع وأفاد التوكيد (أحياء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ما) نافية (يشعرون) مثل تسرّون (أيّان) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانيّة متعلّق بـ (يبعثون) ، وهو مثل يخلقون بالبناء للمجهول .

وجملة : " ما يشعرون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخلقون (الخبر) .

وجملة : " يبعثون . . . " في محلّ نصب مفعول به للفعل يشعرون المعلّق .

بالاستفهام أيّان . . . أو على نزع الخافض .

الفوائد

- أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

تأتي " أيان " بدون " ما " وتأتي متصلة بها . وفي كلتا الحالتين هي اسم شرط جازم

للزمان.

أ- مجردة، نحو:

أيان نؤمنك تأمن غيرنا وإذا لم تدرك الأمن منا لم تزل حذرا

ب - متصلة - بـ " ما " نحو

إذا ما النعجة الأدماء باتت بقفرة فأيان ما تعدل به الريح تنزل

ملاحظة: قد تكون " أيان " اسم استفهام عن الزمان وهي مركبة من كلمتين " أي وآن " .

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم والجملة استئنافيّة.

[سورة النحل (16) : آية 22]

إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22)

الإعراب

(إلهكم) مبتدأ مرفوع . . و(كم) مضاف إليه (إله) خبر مرفوع (واحد) نعت لإله مرفوع (الفاء) استئنافيّة (الذين) موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون) ، (قلوبهم) مبتدأ مرفوع . . و(هم) مضاف إليه (منكرة) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (هم) ضمير في محلّ رفع مبتدأ (مستكبرون) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " إلهكم إله واحد " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الّذين لا يؤمنون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يؤمنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

(273/439)

وجملة : " قلوبهم منكرة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الّذين) .

وجملة : " هم مستكبرون " في محلّ رفع معطوفة على جملة قلوبهم منكرة " 1 " .

الصرف :

(مستكبرون) ، جمع مستكبر ، اسم فاعل من استكبر السداسيّ ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة النحل (16) : آية 23]

لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)

---

(1) يجوز أن تكون حالية فهي في محلّ نصب.

الإعراب

(لا) نافية للجنس (جرم) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب " 1 "، (أنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل هو (ما يسرّون وما يعلنون) مرّ إعرابها " 2 ".

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يعلم..) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي لا جرم من أنّ اللّه.. متعلّق بخبر لا (إنّه) حرف توكيد ونصب.. و(الهاء) ضمير اسم إنّ (لا) نافية (يحبّ) مثل يعلم (المستكبرين) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الياء.

جملة: " لا جرم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يعلم... " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: " يسرّون... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: " يعلنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: " إنّه لا يحبّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا يحبّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة النحل (16) : آية 24]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (قالوا) (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قيل) ، (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ذا) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر "3" ،

---

(1) انظر الآية (22) من سورة هود ففي إعراب (لا جرم) مزيد شرح.

(2) في الآية (19) من هذه السورة.

(3) أو (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله أنزل.

(أنزل) فعل ماض (ربّكم) فاعل مرفوع . . و(كم) مضاف إليه ، والعائد محذوف أي أنزله

(قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل (أساطير) خبر لمبتدأ محذوف

تقديره المنزل " 1 " (الأوّلين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ماذا أنزل . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

وجملة : " أنزل ربّكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ذا) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " (المنزل) أساطير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة النحل (16) : آية 25]

لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (25)

" 3 "

الإعراب

(اللام) لام العاقبة (يحملوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . . . و(الواو) فاعل (أوزارهم) مفعول به منصوب . . و(هم) ضمير مضاف إليه (كاملة) حال منصوبة من أوزار (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يحملوا) ، (القيامة)

مضاف إليه مجرور .

---

(1) أو ما تدّعون نزوله .

(2) لأنها في الأصل جملة مقول القول ، وهي عند الجمهور تفسير لنائب الفاعل المقدّر أي قيل القول . . .

(3) انظر إعراب القسم الأخير من الآية في سورة الأنعام (الآية 31) .

(276/439)

والمصدر المؤوّل (أن يحملوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (قالوا) " 1 " .

(الواو) عاطفة (من أوزار) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحملوا) ومن تبعيضيّة (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (يضلّونهم) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل ، و(هم) مفعول به (بغير) جارّ ومجرور حال من فاعل يضلّون أو من مفعوله بحسب تخريج المعنى (علم) مضاف إليه مجرور (ألا) حرف تنبيه (ساء) فعل ماض لإنشاء الذمّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) نكرة تمييز الفاعل في محلّ نصب (يزرون) مثل يضلّون .

جملة : " يحملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة: "يضلّونهم... "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين).

وجملة: "ساء ما يزرون... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يزرون... "في محلّ نصب نعت لـ (ما).

[سورة النحل (16): الآيات 26 إلى 29]

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

---

(1) في الآية السابقة (24).. هذا وقد علّقه ابن عطيّة بمحذوف تقديره قدّر ذلك ليحملوا أوزارهم، وعنده اللام للتعليل.

الإعراب

(قد) حرف تحقيق (مكر) فعل ماض (الذين) اسم موصول في محلّ رفع فاعل (من قبلهم)

جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول . .

و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أتى) ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع وهو على حذف مضاف أي أتى أمر اللّه (بنيانهم) مفعول به منصوب . . و(هم) مثل الأخير (من القواعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أتى) أي من ناحية القواعد (الفاء) عاطفة (خرّ) مثل مكر (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خرّ) ، (السقف) فاعل مرفوع (من فوقهم) جارّ ومجرور حال من السقف وهو توكيد لما قبله و(هم) مثل الأخير (الواو) عاطفة (أتاهم) مثل الأول . . و(هم) ضمير مفعول به (العذاب) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ (حيث) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أتاهم) ، (لا) نافية (يشعرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " مكر الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتى اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " خرّ عليهم السقف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتى اللّه . .

وجملة : " أتاهم العذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتى اللّه . . .

وجملة : " لا يشعرون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(ثمّ) حرف عطف (يوم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يخزيهم) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (يخزيهم) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (يقول) مثل يخزي ، وعلامة رفعه الضمّة الظاهرة (أين) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بخبر مقدّم (شركائي) مبتدأ مؤخّر وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . . و(الياء) مضاف إليه (الّذين) موصول في محلّ رفع نعت لشركاء (كنتم) فعل ماض ناقص ناسخ . . و(تم) ضمير في محلّ رفع اسم كان (تشاقّون) مثل يشعرون (في) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بفعل تشاقّون (قال) مثل مكر (الّذين) اسم موصول فاعل (أوتوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) نائب الفاعل (العلم) مفعول به منصوب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ (الخزي) اسم إنّ منصوب (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالخزي (الواو) عاطفة (السوء) معطوف على الخزي منصوب (على الكافرين) جارّ ومجرور خبر إنّ وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " يخزيهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مكر الذين . . .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخزيهم .

وجملة : " أين شركائي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنتم تشاقّون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " تشاقّون فيهم "في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة : " قال الذين . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "أوتوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : "إنّ الخزي . . على الكافرين "في محلّ نصب مقول القول .

(279/439)

(الّذين) موصول في محلّ جرّ نعت للكافرين " 1 " ، (تتوفّاهم) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف . . و(هم) ضمير مفعول به (الملائكة) فاعل مرفوع (ظالمي) حال من ضمير المفعول منصوبة وعلامة النصب الياء (أنفسهم) مضاف إليه مجرور . . و(هم) مضاف إليه (الفاء) استئنافيّة - أو عاطفة - (ألقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل (السّلم) مفعول به منصوب (ما) نافية (كنّا) فعل ماض ناقص . . و(نا) ضمير اسم كان (نعمل) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن (من) حرف جرّ زائد (سوء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (بلى) حرف جواب (إنّ الله) مثل إنّ الخزي (عليم) خبر إنّ مرفوع (الباء) حرف

جرّ (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (كنتم تعملون) مثل كنتم تشاقّون .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (عليم) .

وجملة : " تتوفّاهم الملائكة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " ألقوا السلم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما كنّا نعمل . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 3 " .

وجملة : " نعمل من سوء . . . " في محلّ نصب خبر كنّا .

وجملة : " إنّ الله عليم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر

---

(1) أو في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف وجوبا على الذمّ تقديره هم . . وعلى مذهب الأخفش هو مبتدأ خبره جملة ألقوا بزيادة الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط. [. . . . .]

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي تعملونه ، والجملة بعده صلة .

أو معطوفة على جملة الصلة - تتوفّاهم - . . وقيل هي معطوفة على جملة هم الذين . . إذا أعرب الموصول خبرا .

(3) أو تفسيريّة للسلم إذا كان بمعنى القول ، فلا محلّ لها .

وجملة : "كنتم تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم .

(الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (ادخلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (أبواب) مفعول به منصوب (جهنّم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (خالدين) حال من فاعل ادخلوا منصوبة ، وعلامة النصب الياء (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخالدين (الفاء) استئنافيّة (اللام) لام التوكيد (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (مثوى) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (المتكبّرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هي أي جهنّم .

وجملة : " ادخلوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول إنّ اللّه عليم . .

وجملة : " لبئس مثوى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(السقف) ، اسم جامد لما يقابل الأرض من البيت ، جمعه سقوف بضمّ السين وسقف بضمّتين .

(المتكبّرين) ، جمع المتكبّر ، اسم فاعل من تكبّر الخماسيّ ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين .

(1) الاستعارة التمثيلية: في قوله تعالى قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ الكلام تمثيل، يعني أن حالهم في تسويتهم المنصوبات والحيل ليمكروا بها رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وإبطال الله تعالى إياها وجعلها سببا لهلاكهم، كحال قوم

بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين، فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا تحته ووجه الشبه أن ما نصبوه وخيلوه سبب التحصن والاستيلاء صار سبب البوار والفناء، فالأساطين بمنزلة المنصوبات، وانقلابها عليهم مهلكة كانقلاب تلك الحيل على أصحابها، والبنيان ما كان زوروه ورجوا فيه تلك المنصوبات وتطأطؤوا عليه من الرأي المدعم بالمكائد، ويشبه ذلك قولهم: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا.

---

2 - الاحتراس: في قوله تعالى فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فإن لقائل أن يقول: السقف لا يكون إلا من فوق، فما معنى ذكر من فوقهم. والجواب أنه احتراس من احتمال أن السقف قد يكون أرضا بالنسبة لغيرهم، فإن كثيرا من السقوف يكون أرضا لقوم وسقفا لقوم

آخرين، فرفع الله تعالى هذا الاحتمال بعبارتين، وهما قوله "عليهم" وقوله "خر" لأنها لا تستعمل إلا فيما يهبط أو يسقط من العلو إلى الأسفل.

الفوائد

- بلى: حرف جواب، وتختص بإبطال النفي، سواء النفي المحض نحو زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ: بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ.

أو مقرونا بالاستفهام الحقيقي نحو "أليس عليّ بآت" والجواب: بلى..

أو بالاستفهام الذي خرج عن حقيقته للتوبيخ نحو أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى. أو للتقرير نحو قوله تعالى: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا: بَلى..

والفرق بين: بلى ونعم، أن بلى لا تأتي الا بعد نفي، وأن نعم تأتي بعد النفي والإثبات..!

[سورة النحل (16): آية 30]

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (30)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (قيل . . ماذا أنزل ربّكم قالوا) مرّ إعرابها " 1 " ، (اللام) حرف جرّ (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قيل) ، (ألقوا) مثل اتقوا " 2 " ، (خيرا) مفعول به لفعل محذوف أي: أنزل خيرا (للّذين) مثل الأول متعلّق بخبر مقدّم (أحسنوا) فعل ماض وفاعله (في) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحسنوا) ، (الدنيا) بدل من ذه تبعه في الجرّ ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (حسنة) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (اللام) لام الابتداء (دار) مبتدأ مرفوع (الآخرة) مضاف إليه مجرور (خير) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (اللام) لام التأكيد (نعم) فعل ماض جامد لإنشاء المدح (دار) فاعل مرفوع (المتّقين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره هي أي دار الآخرة.

جملة: " قيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " اتّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) في الآية (24) من هذه السورة ، هذا والأنسب في (ماذا) أن يكون اسما واحدا في محلّ نصب مفعول به لأن جملة الجواب فعلية - أي أنزل خيرا - وليكون ثمّة تناسب بين السؤال والجواب.

(2) في الآية (28) من هذه السورة.

وجملة: "أنزل ربّكم ... " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة: " قالوا ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " (أنزل) خيرا ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " للذين أحسنوا .. حسنة " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة: " أحسنوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " لدار الآخرة خير " لا محلّ لها معطوفة على جملة للذين أحسنوا.

وجملة: " لنعم دار المتّقين " لا محلّ لها معطوفة على جملة دار الآخرة خير " 3 " .

[سورة النحل (16) : الآيات 31 إلى 32]

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32)

الإعراب

(جنّات) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي " 4 " ، (عدن) مضاف إليه مجرور (يدخلونها)

مضارع مرفوع و(الواو) فاعل، و(ها) ضمير مفعول به

---

(1) انظر حاشية (2) في الصفحة (34).. ويجوز أن تكون الجملة صلة (ذا) الخبر، وجملة:

ماذا تصبح نائب الفاعل.

(2) جعلها الزمخشريّ بدلا من (خيرا) حكاية لقول الذين اتّقوا...

(3) أو هي جواب قسم مقدّر.

(4) أو مبتدأ خبره جملة يدخلونها، أو لهم مضمر.

(284/439)

(تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحتها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) "1" وفيه حذف مضاف أي من تحت بيوتها أو أشجارها.. و(ها) مضاف إليه (الأنهار) فاعل تجري مرفوع (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (فيها) مثل لهم متعلّق بالخبر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يشاءون) مضارع مرفوع..

و(الواو) فاعل (الكاف) حرف جرّ وتشبيه "2" (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ

متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يجزي ، والإشارة إلى الجزاء ، و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (يجزي اللّه) مثل تجري الأنهار (المتّقين) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء .

جملة : " (هي) جنّات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدخلونها . . . " في محلّ رفع نعت لجنّات .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (يدخلونها) .

وجملة : " لهم فيها ما يشاءون " في محلّ نصب حال من ضمير فاعل يدخلونها أو مفعوله .

وجملة : " يشاءون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يجزي اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(الّذين تتوفّاهم الملائكة) مرّ إعرابها " 3 " ، (طيّبين) حال منصوبة من مفعول تتوفّاهم (يقولون) مثل يدخلون (سلام) مبتدأ مرفوع " 4 " ، (على) حرف

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الأنهار .

(2) أو هي اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نعت له . . أو حال من ضمير المصدر ، أو هي خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر كذلك . .

(3) في الآية (28) من هذه السورة .

(4) جاز أن يكون مبتدأ وهو نكرة لأنه بمعنى الدعاء .

جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ (أدخلوا الجنة) مثل ادخلوا أبواب . . " 1 " ، (بما كنتم تعملون) مرّ إعرابها " 2 " .

وجملة : " تتوفّاهم الملائكة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ نصب حال من الملائكة .

وجملة : " سلام عليكم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ادخلوا الجنّة . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " كنتم تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم .

[سورة النحل (16) : الآيات 33 إلى 34]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (34)

الإعراب

(هل) حرف استفهام فيه معنى النفي (ينظرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (إلّا) للحصر (أن) حرف مصدريّ ونصب (تأتيهم) مضارع منصوب . . و(هم) ضمير مفعول به (الملائكة) فاعل مرفوع (أو) حرف عطف (يأتي) مثل الأول ومعطوف عليه (أمر) فاعل مرفوع (ربّك) مضاف إليه مجرور . . و(الكاف) مضاف إليه.

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة.

(2) في الآية (28) من هذه السورة. [. . . . . .]

والمصدر المؤوّل (أن تأتيهم . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله ينظرون (كذلك فعل الذين) مثل كذلك يجزي اللّه " 1 " ، (من قبلهم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين . . . و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (ظلمهم) فعل ماض . . و(هم) مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - والواو اسمه (أنفس) مفعول به مقدّم منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (يظلمون) مثل ينظرون.

جملة: " هل ينظرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " تأتيهم الملائكة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) ، وجملة : " يأتي أمر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تأتيهم . .

وجملة : " فعل الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما ظلمهم اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " كانوا . . . يظلمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظلمهم اللّه .

وجملة : " يظلمون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(الفاء) عاطفة (أصابهم سيّئات) مثل ظلمهم اللّه (ما) حرف مصدريّ (عملوا) فعل ماض وفاعله .

والمصدر المؤوّل (ما عملوا . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الواو) عاطفة (حاق) فعل ماض (الباء) حرف جرّ و(هم) ضمير في

---

(1) في الآية (31) السابقة . . ويقتصر هنا على تعليق الكاف بمفعول مطلق محذوف عامله فعل .

(2) يجوز أن تكون الجملة حالية بعد واو الحال . .

محلّ جرّ متعلّق بـ (حاق) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل " 1 " ، (كانوا . . . يستهزئون) مثل كانوا يظلمون (به) مثل بهم متعلّق بـ (يستهزئون) .

وجملة : " أصابهم سيّئات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظلمهم اللّه " 2 " .

وجملة : " حاق بهم ما كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أصابهم .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الفوائد

1 - النظم القرآني :

كل من اوتي حظا من ذوق وملكة من فن يدرك إدراكا واعيا وعميقا كيف يلعب التقديم والتأخير دورا كبيرا في تحقيق النظم القرآني وما فيه من جرس موسيقى فانظر إلى قوله تعالى : لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

كيف قدم المفعول " أنفسهم " على الفعل يظلمون ، والحظ أثر ذلك في تحقيق محط الآية .

ومثله قوله تعالى : وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ فقد قدم " به " على الفعل لنفس الغاية

وهذه الملحوظة جديرة بالدراسة على مستوى كتاب الله جملة ، لبيان أبعاد هذه الخاصة والوسائل التي تضافرت لتحقيق هذه الغاية .

2 - علاقة الحال بالزمان ، لو استقرأنا جميع ما يرد في كتاب الله أو غيره من صور الحال

لوجدناها بالنسبة لعلاقتها بالزمان لا تخرج عن حالات ثلاث :

---

(1) أو حرف مصدريّ، والمصدر المؤوّل فاعل على حذف مضاف أي جزاء استهزائهم.

(2) أو معطوفة على جملة فعل الذين. . إن أعربت جملة ما ظلمهم اللّه حالا.

(288/439)

---

1 - إما أن تكون الحال مقترنا وقوعها بزمانها، نحو: هذا بَعْلِي شَيْخاً.

2 - وإما أن يكون وقوعها ملحوظا في زمن المستقبل، نحو: فَادْخُلُوها خالِدِينَ.

3 - وإما أن تكون محكية عن الماضي، نحو جاء خالد البارحة راكبا.

وقوله تعالى سَلامٌ عَلَيْكُمْ يتأرجح بين الزمن الحاضر والمستقبل أي بين الدنيا والآخرة.

فكلا الوجهين جائز.

[سورة النحل (16) : آية 35]

وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (الذين) موصول فاعل (أشركوا) فعل ماض وفاعله (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) مثل قال (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ما) نافية (عبدنا) فعل ماض وفاعله (من دونه) جارّ ومجرور حال من شيء . . و(الهاء) مضاف إليه (من) حرف جرّ زائد (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد لضمير المتكلّم نا (الواو) عاطفة (لا) زائد لتأكيد النفي (آباؤنا) معطوف على ضمير المتكلّم الفاعل . . . و(نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (حرّمنا من دونه من شيء) مثل عبدنا من . . . من شيء (كذلك . . من قبلهم) مرّ إعرابها " 1 " ، (الفاء) استئنافيّة (هل) حرف استفهام بمعنى النفي (على الرسل) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (إلّا) أداة حصر (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع

---

(1) في الآية (33) من هذه السورة .

(المبين) نعت للبلاغ مرفوع .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أشركوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "لو شاء الله . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ما عبدنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "حرّمنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة: "فعل الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "هل على الرسل إلّا البلاغ" لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة النحل (16) : آية 36]

وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (بعثنا) فعل ماض وفاعله (في كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعثنا) ، (أمّة) مضاف إليه مجرور (رسولا) مفعول به منصوب (أن) حرف تفسير لأن بعثنا بمعنى قلنا . . " 1 " ، (اعبدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . و(الواو) فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (اجتنبوا الطاغوت) مثل اعبدوا اللّه (الفاء) عاطفة تفريعيّة (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر " 2 " ، (هدى)

---

(1) يجوز أن تكون (أن) مصدريّة، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي بأن اعبدوا . . والجارّ متعلّق بـ (بعثنا) .

(2) أو هو نكرة في محلّ رفع مبتدأ .

(290/439)

فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (منهم من حقّت . . الضلالة) منهم من هدى اللّه، و(التاء) للتأنيث (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ متعلّق بـ (حقّت)، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر، (سيروا) مثل اعبدوا (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سيروا) " 1 "، (الفاء) عاطفة (انظروا) مثل اعبدوا (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب خبر كان الفعل الناقص (عاقبة) اسم كان مرفوع (المكذّبين) مضاف إليه مجرور . . .

جملة: " بعثنا . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّر لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " اعبدوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة: " اجتنبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

وجملة: " منهم من هدى اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فكانوا أقساما فمنهم من . .

وجملة: " هدى اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول " 2 " .

وجملة: " منهم من حقّت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من هدى اللّه .

وجملة: " حقّت عليه الضلالة . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة: " سيروا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردتم البرهان واليقين فسيروا .

---

(1) أو متعلّق بحال من فاعل سيروا أي مفكرين أو معتبرين في الأرض .

(2) أو في محلّ رفع نعت لـ (من) النكرة الموصوفة .

وجملة: " انظروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيروا .

وجملة: "كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام .

[سورة النحل (16) : آية 37]

إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (37)

الإعراب

(إن) حرف شرط جازم (تحرص) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل أنت (على هداهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تحرص) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف . . و(هم) مضاف إليه (الفاء) تعليليّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يهدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء . . والفاعل هو (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به، والعائد محذوف أي يضلّه (يضلّ) مضارع مرفوع والفاعل هو أي اللّه (الواو) عاطفة (ما) نافية (اللام) حرف جرّ (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (ناصرين) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

جملة: " تحرص . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " إنّ اللّه لا يهدي . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي: إن تحرص على هداهم لا تقدر لأنّ اللّه لا يهدي .

وجملة: "لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "يضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "ما لهم من ناصرين" لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة.

[سورة النحل (16) : الآيات 38 إلى 39]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (39)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة "1"، (أقسموا) فعل ماض وفاعله (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أقسموا)، (جهد) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مبيّن لنوعه (أيمانهم) مضاف إليه مجرور، و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يبعث) مضارع مرفوع (اللّه) فاعل مرفوع (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يموت) مثل يبعث، والفاعل هو وهو العائد (بلى) حرف جواب لإيجاب المنفيّ أي بلى يبعثهم (وعدا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي وعد ذلك وعدا (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (وعدا)، (حقّا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي: حقّ حقّا "2"، (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف استدراك ونصب (أكثر) اسم لكنّ منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . و(الواو) فاعل.

جملة: "أقسموا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يبعث الله . . "لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: "يموت . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من).

(1) أو عاطفة، والجملة بعدها - أقسموا - معطوفة على جملة: قال الذين أشركوا - الآية (35) - وما بين المعطوف والمعطوف عليه من نوع الاعتراض.

(2) يجوز أن يكون المصدر نعتا لـ (وعدا) منصوب مثله.

(293/439)

وجملة: "لكنّ أكثر الناس . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يبعثهم المقدّرة.

وجملة: "لا يعلمون" في محلّ رفع خبر لكنّ . . وجملة: (وعد) وعدا والجملة المبدلة منها حقّ حقّا . . من نوع الاعتراض لا محلّ لها.

(اللام) للتعليل (يبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل هو أي الله (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبيّن)، (الّذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يختلفون) مضارع مثل يعلمون (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يختلفون).

والمصدر المؤوّل (أن يبيّن) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل يبعثهم المقدّر .

(الواو) عاطفة (ليعلم) مثل ليبيّن (الذين) موصول فاعل (كفروا) مثل أقسموا (أنّهم) حرف توكيد ونصب . . و(هم) ضمير في محلّ اسم أنّ (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - . . و(الواو) اسم كان (كاذبين) خبر كانوا منصوب وعلامة النصب الياء .

والمصدر المؤوّل (أن يعلم . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل يبعثهم المقدّر فهو معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كانوا . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم .

وجملة : "يبيّن . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : "يختلفون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذي) .

وجملة : "يعلم الذين . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : "كانوا . . . "في محلّ رفع خبر أنّ .

[سورة النحل (16) : آية 40]

إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

الإعراب

(إنّما) كافّة ومكفوفة (قولنا) مبتدأ مرفوع . . و(نا) ضمير مضاف إليه (لشيء) جارّ ومجرور متعلّق بقولنا (إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرّد من الشرط متعلّق بـ (قولنا) (أردناه) فعل ماض وفاعله ، و(الهاء) مفعول به (أن) حرف مصدريّ ونصب (نقول) مضارع منصوب ، والفاعل نحن (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقول) ، (كن) فعل أمر تامّ ، والفاعل أنت (الفاء) استئنافيّة (يكون) مضارع تامّ مرفوع ، والفاعل هو.

والمصدر المؤوّل (أن نقول) في محلّ رفع خبر المبتدأ قولنا . .

جملة : " قولنا . . أن نقول " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " أردناه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " نقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة : "كن . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " يكون " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي : فهو يكون ، والجملة على الاستئناف " 1 " .

البلاغة

- الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى كُنْ فَيَكُونُ فهو تمثيل لسهولة تأتيّ المقدورات حسب

تعلق مشيئته تعالى بها ، وتصوير لسرعة حدوثها بما علم من

---

(1) أوجملة يكون . . استئنافيّة أصلا خلافا لابن هشام ، وانظر الآية (117) من سورة البقرة ، والآية (47) من سورة آل عمران ، والآية (73) من سورة الأنعام .

ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع ، فالمعنى إنما إيجادنا لشيء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون ، وفي الآية من الفخامة والجزالة ما تحار فيه العقول والألباب .

الفوائد

- " إنما " :

يرى الإمام عبد القاهر الجرجاني أن الوقوف في " إنما " عند قول النحاة : انه ليس في انضمام " ما " إلى " إن " فائدة أكثر من أنها تبطل عملها ، خطأ بين إذ أصل " إنما " أن تأتي لخبر لا يجهله المخاطب ، ولا ينكر صحته ، كقوله تعالى " إنما يستجيب الذين يسمعون " ومنه قول ابن الرقيات :

انما مصعب شهاب من الله تجلت بوجهه الظلماء

كما أنها تفيد فيما يليها من كلام إيجاب الفعل لشيء ، ونفيه عن غيره. فإذا قلت: إنما جاءني خالد ، فكأنك قلت جاءني خالد وليس سعيد.

فأنت تدرك معها إيجاب الفعل لجهة ، ونفيه عن جهة أخرى ، دفعة واحدة.

فتحقق هديت إلى الصواب.

[سورة النحل (16) : آية 41]

وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ "

، (هاجروا) فعل ماض وفاعله (في اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هاجروا) على حذف مضاف أي في سبيل اللّه ، أو في إعلاء كلمة اللّه (من

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف يفسّره المذكور نبوّئنّهم . . .

بعد جارّ ومجرور متعلّق بـ (هاجروا) ، (ما) حرف مصدريّ (ظلموا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) نائب الفاعل (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نبوّئنّهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون التوكيد ، و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نبوّئنّ) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (حسنة) مفعول به ثان منصوب بتضمين الفعل معنى نعطينّ " 1 " ، (الواو) عاطفة (اللام) لام الابتداء للتوكيد (أجر) مبتدا مرفوع (الاخرة) مضاف إليه مجرور (أكبر) خبر مرفوع (لو) حرف شرط غير جازم (كانوا يعلمون) مثل كانوا يظلمون " 2 " .

جملة : " الذين هاجروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هاجروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " نبوّئنّهم " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر ، وجملة القسم المقدّر في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 3 " .

وجملة : " أجر الآخرة أكبر " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كانوا يعلمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلمون " في محلّ نصب خبر كانوا . . وجواب لو محذوف أي لو كان المتخلّفون عن الهجرة يعلمون مقدار ثواب المهاجرين لوافقوهم .

[سورة النحل (16) : آية 42]

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

---

(1) أو بمعنى ننزلّنهم أي دارا حسنة . . واختار أبو حيّان أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر أي تبوئة حسنة أو أن الفعل بمعنى نحسننّ إليهم حسنة . . [. . . . .]

(2) في الآية (33) من هذه السورة.

(3) والخبر محذوف عند بعضهم دلّ عليه جواب القسم.

(297/439)

الإعراب

(الّذين) موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم (صبروا) مثل هاجروا " 1 "، (الواو) عاطفة (على ربّهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتوكّلون) ، و (هم) مضاف إليه (يتوكلون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل.

جملة: " (هم) الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة.

وجملة: " صبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " يتوكّلون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة - أو على الصلة - .

البلاغة

- الإخبار عن الماضي بالمستقبل: أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي. وذلك في قوله تعالى وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فالظاهر أن المعنى على المضي، والتعبير بالمضارع لاستحضار تلك الصورة البديعة حتى كأن السامع يشاهدها.

[سورة النحل (16) : الآيات 43 إلى 44]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (أرسلنا) فعل ماض وفاعله (من قبلك) جارّ ومجرور متعلّق ب (أرسلنا).. و(الكاف) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (رجالا) مفعول به منصوب (نوحي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء.. والفاعل نحن للتعظيم (إلى) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (نوحي)، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر

---

(1) في الآية (41) السابقة.

(اسألوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (أهل) مفعول به منصوب (الذّكر) مضاف إليه مجرور (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(تم) ضمير اسم كان (لا) نافية (تعلمون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " أرسلنا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نوحي . . . " في محلّ نصب نعت لـ (رجالا) .

وجملة : " اسألوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتم لا تعلمون إرسالنا الرجال أنبياء فاسألوا . . .

وجملة : " إن كنتم لا تعلمون " لا محلّ لها اعتراضيّة بين الجارّ - بالبيّنات - ومتعلّقة .

وجملة : " لا تعلمون " في محلّ نصب خبر كنتم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله " 1 " .

(بالبيّنات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نوحي) " 2 " ، (الواو) عاطفة (الزّبر) معطوف على البيّنات مجرور (الواو) عاطفة (أنزلنا الذّكر) مثل أرسلنا رجالا (إليك) مثل إليهم متعلّق بـ (أنزلنا) ، (اللام) للتعليل (تبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل أنت (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تبيّن) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به

(نزّل) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إليهم) مثل الأول متعلّق بـ (نزّل).

---

(1) يجوز أن تكون جملة كنتم لا تعلمون تفسيريّة للشرط المقدّر في حالات تعليق الجارّ الأخرى..

---

(2) يجوز تعليقه بمحذوف نعت لـ (رجالا) أي رجالا محمّلين بالبيّنات أو مصاحبين لها.. أو هو متعلّق بفعل أرسلنا داخلا بالحصر مع رجال، أي ما أرسلنا إلّا رجالا بالبينات.. ويجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف بعد إلّا تقديره أرسلناهم.

والمصدر المؤوّل (أن تبيّن...) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلنا).

(الواو) عاطفة (لعلّهم) حرف مشبه بالفعل للترجّي.. و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يتفكّرون) مثل تعلمون.

وجملة: "أنزلنا إليك..." لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا.

وجملة: "تبيّن..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "نزّل..." لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة : " لعلّهم يتفكّرون " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي فيسمعون ذلك ولعلّهم يتفكّرون .

الصرف :

(الذّكر) ، هو القرآن الكريم ، وجاء بلفظ المصدر لأنّ فيه مواعظ وتنبيها للغافلين .

الفوائد

- تفسير القرآن :

تحرّج الصحابة في صدر الإسلام ، عن الخوض في شرح ما غمض من ألفاظ القرآن ، ومن هذه الزمرة أبو بكر وعمر ، رغم أن عمر قد أشار إلى شعر العرب في جاهليتهم ، وانه ديوان العرب ، وفيه تفسير كتابهم . ولكن هذا التحرج لم يمنع أن تنهض فئة من الصحابة وتشق طريقها في تفسير غريب القرآن ، وعلى رأس هذه الفئة عبد الله بن عباس وعلي بن أبي طالب ، وتبعهما ابن مسعود وأبيّ بن كعب والحسن البصري ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي . يقول أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام ما فحواه : إن هؤلاء المفسرين من الصحابة والتابعين ، كانوا ينهجون منهجا يتلخص في الاسترشاد بحديث رسول الله وبروح القرآن وبالشعر العربي والأدب الجاهلي بوجه عام ، ثم بعادات العرب في جاهليتها وصدر إسلامها ، وما قابلهم من أحداث ، وما لقي الرسول من عداء ومنازعات وهجرة وحروب .

[سورة النحل (16) : الآيات 45 إلى 47]

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (47)

الإعراب

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) استئنافيّة (أمن) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (مكروا) فعل ماض وفاعله (السيّئات) مفعول به منصوب " 1 " بتضمينه معنى عملوا، وعلامة النصب الكسرة (أن) حرف مصدريّ ونصب (يخسف) مضارع منصوب (اللّه) لفظ الجلالة فاعل (الباء) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يخسف) ، (الأرض) مفعول به منصوب.

والمصدر المؤوّل (أن يخسف) في محلّ نصب مفعول به عامله أمن.

(أو) حرف عطف (يأتيهم) مثل يخسف ومعطوف عليه. و (هم) ضمير مفعول به (العذاب) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ (حيث) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ

(يأتيهم) ، (لا يشعرون) مثل لا تعلمون " 2 " .

جملة : " أمن الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي مكروا المكرات السيّئات ، والمكرات بفتح الكاف جمع مكرة بسكون الكاف مصدر المرّة من المكر . . ويجوز أن يكون مفعولا به لـ (أمن) ، أي أمنوا العقوبات السيّئات ، وعلى هذا فالمصدر المؤوّل (أن يخسف) بدل منه .

(2) في الآية (43) من هذه السورة .

(3) أو هي معطوفة بحرف العطف على مقدّر مستأنف أي ألم يتفكّروا فأمنوا - قاله الزمخشريّ - ولكن ما جرينا عليه يبعدنا عن التأويل ولا يأباه المعنى ولا قواعد الإعراب .

(301/439)

وجملة : " مكّروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يخسف بهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يأتيهم العذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخسف . . .

وجملة : " لا يشعرون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(أو) مثل الأول (يأخذهم) مثل يأتيهم (في تقلّبهم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من المفعول أي متلبّسين في تقلّبهم (الفاء) تعليليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (معجزين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما، وعلامة الجرّ الياء.

وجملة: "يأخذهم..." لا محلّ لها معطوفة على جملة يأتيهم.

وجملة: "ما هم بمعجزين..." لا محلّ لها تعليليّة.

(أو يأخذهم على تخوّف) مثل أو يأخذهم في تقلّبهم (الفاء) تعليليّة (إنّ) حرف توكيد ونصب (ربّكم) اسم إنّ منصوب.. و(كم) ضمير مضاف إليه (اللام) المزحلقة للتوكيد (رؤف) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

وجملة: "يأخذهم..." لا محلّ لها معطوفة على جملة يأخذهم الأولى.

وجملة: "إنّ ربّكم لرؤوف..." لا محلّ لها تعليليّة.

[سورة النحل (16): آية 48]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (48)

الإعراب

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الواو) استئنافيّة (لم) حرف نفي وجزم (يروا) مضارع مجزوم

وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) فاعل (إلى) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يروا) بتضمينه

(302/439)

معنى ينظروا (خلق) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (من شيء) جارّ ومجرور حال " 1 " من العائد المحذوف (يتفيّأ) مضارع مرفوع (ظلاله) فاعل مرفوع . . و(الهاء) مضاف إليه (عن اليمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتفيّأ) " 2 " ، (الواو) عاطفة (الشمائل) معطوف على اليمين مجرور (سجّدا) حال من الظلال منصوبة (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سجّدا) (الواو) حالية (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، ويعود على الظلال وقد نزّلت منزلة العقلاء (داخرون) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " يروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يتفيّأ ظلاله " في محلّ جرّ نعت لشيء .

وجملة : " هم داخرون " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(اليمين) ، اسم للجهة المعاكسة للشمال ، وزنه فعيل .

(داخرون) ، جمع داخر ، اسم فاعل للثلاثيّ دخر ، وزنه فاعل .

[سورة النحل (16) : الآيات 49 إلى 50]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49)

يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (50)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسجد) وهو مضارع مرفوع (ما) اسم

موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (في السموات) جارّ

---

(1) أو تمييز للموصول (ما) .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من الظلال .

ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (ما في الأرض) مثل نظيرها ومعطوفة

عليها (من دابّة) جارّ ومجرور حال من ضمير الاستقرار في الصلة " 1 " ، (الملائكة)

معطوف على الموصول الأول (ما) بالواو مرفوع (وهم لا يستكبرون) و(هم) مثل الأول " 2

" (لا) نافية (يستكبرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " يسجد ما في السموات " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم لا يستكبرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يستكبرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(يخافون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (ربّهم) مفعول به منصوب . . و(هم) مضاف إليه (من فوقهم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من رب " 3 " أي عاليا من فوقهم بالقهر . . و(هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يفعلون) مثل يخافون (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (يؤمرون) مضارع مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل والعائد محذوف .

وجملة : " يخافون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يستكبرون " 4 " .

البلاغة

(1) التغليب : في قوله تعالى وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ .

---

(1) أو تمييز للموصول (ما) الثاني .

(2) في الآية السابقة (48) .

(3) أو متعلّق بـ (يخافون) على حذف مضاف أي يخافون عذاب ربّهم من فوقهم لأنّ العذاب ينزل من فوق .

(4) أو هي عطف بيان لنفي الاستكبار . [. . . . .]

فإن قلت: فهلا جيء بمن دون "ما" تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟

قلت: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولا للعقلاء خاصة، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم، إرادة العموم. وقد ذكر في روح المعاني أن "ما" إذا قلنا: أنها مختصة بغير العقلاء فاستعمالها هنا في العقلاء وغيرهم للتغليب.

الفوائد

قال ابن الصائغ: "أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين لأن ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى منه إلا اليسير، فكأنه في جهة واحدة. وهو بالعشي على العكس، لاستيلائه على جميع الجهات فلحظت الغايتان في الآية. هذا من جهة المعنى، وفيه من جهة اللفظ المطابقة، لأن سجّدا جمع، فطابقه جمع الشمائل، لاتصاله به، فحصل في الآية مطابقة اللفظ للمعنى ولحظهما معا، وتلك الغاية في الإعجاز".

[سورة النحل (16): الآيات 51 إلى 52]

وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لا) ناهية جازمة (تتّخذوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف

النون.. و(الواو) فاعل (إلهين) مفعول به منصوب " 1 "، وعلامة النصب الياء (اثنين) نعت لإلاهين منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بالمثنّى " 2 " (إنّما) كافّة ومكفوفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إله) خبر مرفوع (واحد) نعت لإله مرفوع مثله (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (إيّاي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف يفسّره المذكور ويلي الضمير أي إيّاي ارهبوا (الفاء) زائدة للتزيين (ارهبون) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. و(الواو) فاعل، و(النون) للوقاية، و(الياء) المحذوفة ضمير مفعول به.

جملة: " قال اللّه... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا تتّخذوا... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " هو إله واحد... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " إيّاي (ارهبوا) . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن نالكم الخوف فارهبوني أنا دون سواي .

وجملة : " ارهبون (المذكورة) " لا محلّ لها تفسيريّة .

(الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الأرض) معطوف على السموات بالواو ومجرور (الواو) عاطفة (له الدين) مثل له ما في السموات (واصبا) حال من الضمير المستكنّ في الخبر أي : الدين ثابت له حال كونه واصبا (الهمزة)

---

(1) والمفعول الثاني محذوف تقديره معبودين ، وإذا ضمّن الفعل معنى تعبدوا فله مفعول واحد .

(2) أو هو عطف بيان على جهة التبيين والتوضيح . .

للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (غير) مفعول به مقدم منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (تتّقون) مضارع مرفوع و(الواو) فاعل .

وجملة : " له ما في السموات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو إله واحد .

وجملة : " له الدين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة له ما في السموات .

وجملة : " تتّقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة له الدين " 1 " .

الصرف :

(واصبا) ، اسم فاعل من وصب الشيء يصب باب ضرب بمعنى دام وثبت ، وزنه فاعل .

البلاغة

(1) الاحتراس : وذلك في قوله تعالى وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ . والمعروف أنه لا يجمع بين العدد والمعدود إلا فيما وراء الواحد والاثنين ، فيقولون : عندي رجال ثلاثة ونساء ثلاث ، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص ، فلو لم تشفعه بصفته لما فهمت العدد المراد . وأما رجل وامرأة ورجلان وامرأتان ، فمعدودان فيهما دلالة على العدد ، فلا حاجة إلى أن يقال : رجل واحد وامرأة واحدة ورجلان اثنان وامرأتان اثنتان . أما في الآية الكريمة ، فالاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أن المراد به منها ، والذي يساق إليه الحديث هو العدد ، شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه والعناية به . ألا

---

(1) هي – وعلى رأي الزمخشريّ – معطوفة على استئناف مقدّر أي أ تجهلون فتتقون غير اللّه . .

(307/439)

ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحد لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الواحدانية فكان لا بد من الاحتراس .

(2) الالتفات : في قوله تعالى وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ففيه التفات من الغيبة إلى التكلم ، على مذهب الجمهور للمبالغة في التخويف والترهيب ، فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب ، سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام .

[سورة النحل (16) : الآيات 53 إلى 55]

وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (ما) موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة ما (من نعمة) جارّ ومجرور حال من الضمير العائد في الصلة – أو تمييز ما – (الفاء) زائدة لمشابهة ما للشرط (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر ما (ثمّ) حرف عطف (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (مسّكم) فعل ماض . . و(كم) ضمير مفعول به (الضمير) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إلى) حرف جرّ و(الهاء)

---

(1) لم يعرب اسم شرط حتّى لا يقدّر فعل بعده ، إذ لا يحذف فعل الشرط إلّا بعد إن في موضعين : الأول في باب الاشتغال كقوله تعالى : وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ، والثاني أن يكون إن متلوا بلا ، وما تقدّمه يدلّ على الشرط ، كقول القائل :

فطلّقها فلست لها بكفء وإلّا يعل مفرقك الحسام .

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تجأرون) وهو مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " ما بكم من نعمة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مسّكم الضرّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تجأرون . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم " 1 " .

(ثمّ إذا كشف) مثل ثمّ إذا مسّكم " 2 " (الضرّ) مفعول به منصوب (عنكم) مثل بكم متعلّق بـ (كشف) ، (إذا) فجائيّة (فريق) مبتدأ مرفوع " 3 " ، (منكم) مثل بكم متعلّق بنعت لفريق (بربّهم) جار ومجرور متعلّق بـ (يشركون) . . و(هم) مضاف إليه (يشركون) مثل تجأرون .

وجملة : "كشف . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فريق منكم . . يشركون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " يشركون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (فريق) .

(اللام) لام العاقبة " 4 " ، (يكفروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ (ما) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (يكفروا) ، (آتيناهم) فعل ماض وفاعله . . و(هم) مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن يكفروا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يشركون) .

---

(1) مجيء الجارّ قبل هو الذي استدعى الفاء . . ويجوز أن تكون الجملة خبرا لمبتدأ محذوف تقديره أنتم ، والجملة الاسمية جواب الشرط غير الجازم .

(2) الظرف متعلّق بفعل محذوف تقديره أشرك بعضكم ، لأن ما بعد (إذا) الفجائيّة لا يعمل في ما قبلها .

(3) جاز أن يكون مبتدأ وهو نكرة لأنه وصف.

(4) أو لام التعليل.

(الفاء) استئنافيّة (تمتّعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون... و(الواو) فاعل (الفاء) تعليليّة (سوف) حرف استقبال (تعلمون) مثل تجأرون.

وجملة: "يكفروا..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "آتيناهم..." لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "تمتّعوا..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "سوف تعلمون" لا محلّ لها تعليليّة.

البلاغة

- الالتفات: في قوله تعالى فَتَمَتَّعُوا التفات إلى الخطاب، للإيذان بتناهي السخط.

[سورة النحل (16): الآيات 56 إلى 59]

وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (يجعلون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (اللام) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق

ب (يجعلون) " 1 "، (لا) نافية (يعلمون) مثل يجعلون (نصيبا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ (ما) مثل الأول متعلّق بنعت لـ (نصيبا)، (رزقناهم) فعل ماض وفاعله.. و(هم) ضمير مفعول به (تالّله) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم (تسألنّ) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع، وعلامة الرفع ثبوت النون، وقد حذفت لتوالي الأمثال، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين نائب فاعل، و(النون) نون التوكيد (عن) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 2 "، (كنتم) فعل ماض ناقص.. و(تم) اسم كان (تفترون) مثل يجعلون.

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تفترون) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (تسألنّ).

جملة: "يجعلون... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يعلمون... "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: "رزقناهم... "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: "القسم المقدّرة... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تسألنّ... "لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: "كنتم تفترون... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "تفترون... "في محلّ نصب خبر كنتم.

(الواو) عاطفة (يجعلون للّه البنات) مثل يجعلون لما.. نصيبا، وعلامة النصب للمفعول الكسرة (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف و(الهاء)

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان.

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف، والجملة صلة.

ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يجعلون) الثاني فهو معطوف على الجارّ للّه.. "1"، (ما) موصول في محلّ نصب

معطوف على البنات مفعولي يجعلون " 2 " ، (يشتهون) مثل يجعلون .

وجملة : " يجعلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجعلون (الأولى) .

وجملة : " (نسبّح) سبحانه " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة " 3 " .

وجملة : " يشتهون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (ظلّ) ، (بشّر) فعل ماض مبنيّ للمجهول (أحدهم) نائب الفاعل مرفوع . . و(هم) مضاف إليه (بالأنثى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بشّر) وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (ظلّ) فعل ماض - ناسخ - (وجهه) اسم ظلّ مرفوع . . و(الهاء) مضاف إليه (مسودّا) خبر ظلّ منصوب (الواو) واو الحال (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كظيم) خبر مرفوع .

وجملة : " بشّر أحدهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ظلّ وجهه مسودّا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هو كظيم . . . " في محلّ نصب حال .

(يتوارى) ، مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل هو أي أحدهم (من القوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتوارى) ، (من

---

(1) أو خبر مقدّم و(ما يشتهون) مبتدأ مؤخّر . . والجملة حال من الفاعل في (يجعلون)

.. أو استئنافيّة.

(2) والمعنى: ويجعلون لهم ما يشتهون أي يختارون لأنفسهم ما يشتهون والإعراب الوارد في الحاشية (2) من الصفحة السابقة.

(3) يجوز أن تكون الجملة حاليّة من لفظ الجلالة أي: يجعلون للّه البنات وهو منزّه عن ادّعائهم - وهو غير جائز عند ابن هشام لأن الجملة دعائيّة وهي إنشاء - .

(312/439)

سوء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتوارى) " 1 "، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (بشّر) مثل الأول (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (بشّر)، (الهمزة) للاستفهام (يمسكه) مضارع مرفوع، و(الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل هو أي أحدهم (على هون) جارّ ومجرور حال من مفعول يمسكه (أم) حرف عطف (يدسّه) مثل يمسكه (في التراب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدسّه)، (ألا) حرف تنبيه (ساء) فعل ماض لإنشاء الذمّ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) نكرة موصوفة في محلّ نصب تمييز لضمير الفاعل " 2 " (يحكمون) مثل يجعلون.

وجملة: " يتوارى... " في محلّ نصب حال من الضمير في كظيم " 3 " .

وجملة: " بشّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: " يمسكه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 4 " .

وجملة: " يدسّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يمسكه .

وجملة: " ساء ما يحكمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " يحكمون " في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

الصرف:

(مسودّا) ، اسم فاعل - أو اسم مفعول - من فعل اسودّ الخماسيّ ، وزنه مفعلّ ، بضمّ الميم وتشديد اللام وفتح العين ، والظاهر أنّه اسم فاعل لأن اسم المفعول يحتاج إلى الجارّ .

---

(1) تعلّق جارّان من لفظ واحد بالفعل نفسه لأن معناهما مختلف ، فالأول للابتداء ، والثاني للتعليل أي من أجل سوء ما بشّر به . . ويجوز أن يكون المجرور والجارّ الأول حالا من فاعل يتوارى . [. . . . .]

(2) أو هو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل فاعل ساء .

(3) أو هي خبر ثان للمبتدأ هو ، في محلّ رفع . . أو هي استئناف بيانيّ .

(4) أو هي مقول القول لقول مقدّر هو حال من فاعل يتوارى أي قائلا لنفسه أ يمسكه . . .

الفوائد

التاء :

التاء ستة أنواع وهي :

أ- " تا " اسم إشارة للمفردة المؤنثة ، وبناؤه على السكون .

ب- و " تاء التأنيث " وتأتي في الفعل ساكنة ومتحركة ، أما في الاسم فلا تكون الا متحركة ، وبما أنها للتفريق بين المذكر والمؤنث فلا تدخل على الصفات الخاصة بالنساء مثل : حامل ، حائض ، عانس ، مرضع . . إلخ.

ج- تاء الجمع المكسر الأعجمي مثل : صولج وصوالجة ، وطيلسان وطيالسة وصيرف وصيارفة .

ء - تاء التمييز ، لتمييز الواحد من جنسه ، مثل : تمر وتمرة .

ه- تاء العوض : وهي التي تلحق اسما حذفت فاؤه ، مثل : زنة أصلها " وزن " .

و- تاء القسم ، كما هي في الآية التي بين أيدينا . يقول سيبويه : إن العرب لا يدخلون تاء القسم في غير " لفظ الجلالة " . فلا يقال : " تربّ الكعبة " .

[سورة النحل (16) : الآيات 60 إلى 62]

لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤاخِذُ

اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)

الإعراب

(اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون)، (مثل) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السوء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (للّه المثل) مثل للذين مثل (الأعلى) نعت للمثل مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (العزيز) خبر مرفوع (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "للذين... مثل السوء" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يؤمنون" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "للّه المثل..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "هو العزيز..." لا محلّ لها معطوفة على جملة للّه المثل...

(الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (يؤاخذ) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الناس) مفعول به منصوب (بظلمهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤاخذ) ، و(الباء) سببيّة . . و(هم) مضاف إليه (ما) نافية (ترك) فعل ماض ، والفاعل هو (على) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ترك) ، (من) حرف جرّ زائد (دابّة) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (يؤخّرهم) مثل يؤاخذ . .

و(هم) ضمير مفعول به (إلى أجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤخّرهم) ، (مسمّى) نعت لأجل مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الفاء)

عاطفة (إذ) ظرف للمستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (لا يستأخرون) ، (جاء) فعل ماض (أجلهم) فاعل مرفوع و(هم) مضاف إليه (لا) نافية (يستأخرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (الواو) عاطفة (لا يستقدمون) مثل لا يستأخرون .

وجملة : " يؤاخذ اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " ما ترك . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: "يؤخّرهم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤاخذ اللّه..

وجملة: "جاء أجلهم ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "لا يستأخرون ... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (إذا).

وجملة: "لا يستقدمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يستأخرون.

(الواو) عاطفة (يجعلون للّه ما) مثل يجعلون للّه البنات " 1 "، (يكرهون) مثل يستأخرون

(الواو) عاطفة (تصف) مثل يؤاخذ (ألسنتهم) فاعل مرفوع..

و(هم) مضاف إليه (الكذب) مفعول به منصوب (أنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (الحسنى) اسم أن مؤخّر منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف.

والمصدر المؤوّل (أنّ لهم الحسنى) في محلّ نصب بدل من الكذب " 2 ".

(لا) نافية للجنس (جرم) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب " 3 "، (أنّ لهم النار) مثل أنّ لهم الحسنى.

---

(1) في الآية (57) من هذه السورة.

(2) أو في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي بأنّ لهم الحسنى، والجارّ متعلّق بالكذب.

(3) انظر حالات إعراب لا جرم في الآيات (22) من سورة هود و(23) من هذه السورة.

(316/439)

والمصدر المؤوّل (أنّ لهم النار) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره في أنّ لهم .. متعلّق بخبر لا .

(الواو) عاطفة (أنّ) مثل الأول و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (مفرطون) خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

والمصدر المؤوّل (أنهم مفرطون) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل (أنّ لهم النار) .

وجملة : " يجعلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤاخذ الله .

وجملة : " يكرهون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تصف ألسنتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجعلون .

وجملة : " لا جرم أنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مفرطون) ، اسم مفعول من أفرط فلانا أي تركه ، وزنه مفعلون بضمّ الميم وفتح العين .

الفوائد

(317/439)

- قال أحد النحاة : الفاء العاطفة تكون للترتيب والتعقيب ، فإذا قلت :

جاء علي فسعيد ، فالمعنى أن عليا جاء أولا ، وسعيد جاء بعده ، بلا مهلة بين مجيئهما .

وقد اعترض على هذا الاشتراط بعض النحاة فقال : لا يشترط فيها التعقيب الفوري بل هي للتعقيب على ضوء الاصطلاح العقلي أو الاعتيادي ، وضرب لذلك مثلا فقال : لهذا صح أن يقال دخلت البصرة فبغداد ، وإن كان بين دخولهما زمان كبير . ولكن يفهم من الكلام أنه طوى المنازل بعد البصرة ، ولم يقم بواحد منها إقامة يخرج بها عن حد السفر إلى أن دخل بغداد .

وهكذا يتبين معنا أن الفاء ليست للفور الحقيقي . ومثله قوله تعالى : " فإذا جاء أجلهم " فإن مجيء الأجل متراخ عن التعقيب الفوري فتأمل . . . !

[سورة النحل (16) : الآيات 63 إلى 64]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63) وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)

الإعراب

(تاللّه) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم (قد) حرف

تحقيق (أرسلنا) فعل ماض وفاعله (إلى أمم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا) ، (من قبلك) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لأمم . .

(318/439)

و(الكاف) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (زيّن) فعل ماض (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (زيّن) ، (الشيطان) فاعل مرفوع (أعمالهم) مفعول به منصوب . . و(هم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (وليّهم) خبر مرفوع . . و(هم) مثل الأخير (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بوليّ " 1 " ، (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع .

جملة : " القسم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " زيّن لهم الشيطان " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

---

(1) في الزمن الماضي أو الحاضر . . وإن دلّ الظرف (اليوم) على المستقبل أي يوم القيامة فهو متعلّق بحال من الضمير في وليّهم ، أي معذّبين اليوم .

وجملة : " هو وليّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّن . . الشيطان .

وجملة : " لهم عذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو وليّهم .

(الواو) عاطفة (ما) نافية (أنزلنا) مثل أرسلنا (على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ (الكتاب) مفعول به منصوب (إلّا) أداة حصر (اللام) للتعليل (تبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . والفاعل أنت (لهم) مثل الأول متعلّق بـ (تبيّن) ، (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (اختلفوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و(الواو) فاعل (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اختلفوا) ، (الواو) عاطفة (هدى) مفعول لأجله عامله محذوف تقديره أنزلنا " 1 " ، (رحمة) معطوف على هدى بالواو منصوب (لقوم) جار ومجرور متعلّق برحمة (يؤمنون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " تبيّن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن تبيّن) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلنا) .

وجملة: "اختلفوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "يؤمنون" في محلّ جرّ نعت لقوم.

[سورة النحل (16) : الآيات 65 إلى 67]

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)

---

(1) لا يجوز عطف (هدى) على محلّ المصدر المؤوّل لأنّ محلّه الجرّ وقد اختلف الفاعل في الفعل أنزلنا وفي المصدر المؤوّل لذلك جرّ باللام بخلاف هدى الذي اتّفق فاعله مع فاعل الفعل فالعطف أصبح من عطف الجمل، وهذا خلاف رأي الزمخشريّ الذي أجاز عطف (هدى) على محل (أن تبيّن)، وهو النصب.

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أنزل) فعل ماض، والفاعل هو (من

(السماء) جار ومجرور متعلّق بـ (أنزل) " 1 " ، (ماء) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (أحيا) مثل أنزل والفتح مقدّر على الألف (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحيا) ، و(الباء) سببيّة (الأرض) مفعول به منصوب (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أحيا) ، (موتها) مضاف إليه مجرور . . و(ها) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف توكيد ونصب (في) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر إنّ . . . و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (اللام) الثانية للتوكيد (آية) اسم إنّ مؤخّر منصوب (لقوم) جارّ ومجرور نعت لآية (يسمعون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل .

جملة : " اللّه أنزل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " أحيا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنزل .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) أو بحال من ماء .

وجملة: "يسمعون" في محلّ جرّ نعت لقوم.

(الواو) عاطفة (إنّ) مثل الأول (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر إنّ (في الأنعام) جار ومجرور متعلّق بالخبر المقدّر و(في) سببيّة (لعبرة) مثل لآية (نسقيكم) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء.. و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل نحن للتعظيم (من) حرف جرّ و(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (نسقيكم)، (في بطونه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما.. و(الهاء) مضاف إليه (من بين) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (لبنا) "1"، (فرث) مضاف إليه مجرور (دم) معطوف على فرث بالواو مجرور (لبنا) مفعول به ثان منصوب (خالصا) نعت لـ (لبنا) منصوب (سائغا) نعت ثان منصوب (للشاربين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سائغا).

وجملة: "إنّ لكم.. لعبرة" لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه أنزل.

وجملة: "نسقيكم..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

(الواو) عاطفة (من ثمرات) جار ومجرور خبر لمبتدأ مقدّر أي ثمر "2" (النخيل) مضاف إليه مجرور (الأعناب) معطوف على النخيل بالواو مجرور (تتّخذون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تتّخذون)، (سكرا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (رزقا) معطوف على (سكرا) منصوب (حسنا) نعت لـ (رزقا) منصوب (إنّ

---

(1) أو بـ (نسقي) ومن لابتداء الغاية.

(2) واختار أبو حيّان تعليقه بـ (تتّخذون) ، وتكرّرت (منه) للتوكيد ، والضمير مفرد بمعنى العصير . . أو هو متعلّق بـ (نسقيكم) المذكور أو مقدّرا . . ويجوز عطف الجارّ على قوله (في الأنعام) فيكون خبرا أيضا لـ (إنّ) ، أي إنّ لكم في الأنعام ومن ثمرات النخيل لعبرة . .

في . . . يعقلون) مثل إنّ في . . . يسمعون.

وجملة : " من ثمرات . . . ثمر " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه أنزل . .

وجملة : " تتّخذون . . " في محلّ رفع نعت لثمر - المبتدأ المقدّر - .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " يعقلون " في محلّ جرّ نعت لقوم.

الصرف :

(فرث) ، اسم للأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش ، وزنه فعل بفتح فسكون.

(لبنا) ، اسم للطعام المعروف ، وزنه فعل بفتحتين .

(خالصا) ، اسم فاعل من خلص الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(سائغا) ، اسم فاعل من ساغ الثلاثيّ وزنه فاعل وفيه قلب حرف العلّة همزة لمجيئها بعد ألف فاعل شأن كلّ فعل معتلّ أجوف .

(الشاربين) ، جمع الشارب ، اسم فاعل من شرب الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(سكرا) ، هو في الأصل مصدر لفعل سكر يسكر باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين ، ثمّ سمّي به الخمر أو الخلّ أو العصير ما دام حلوا . .

[سورة النحل (16) : الآيات 68 إلى 69]

وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

(323/439)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (أوحى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (ربّك) فاعل

مرفوع . . و(الكاف) مضاف إليه (إلى النحل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوحى) ، (أن) حرف تفسير " 1 " ، (اتّخذي) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الياء) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ رفع فاعل (من الجبال) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اتّخذي) و(من) تبعيضيّة (بيوتا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (من الشجر) جار ومجرور متعلّق بما تعلّق به الجارّ الأول فهو معطوف عليه (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بالفعل الأخير ومعطوف على الجارّ الأول (يعرشون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " أوحى ربّك . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّخذي . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " يعرشون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(ثمّ) حرف عطف (كلي) مثل اتخذي (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كلي) ، (الثمرات) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة (اسلكي) مثل اتّخذي ، (سبل) مفعول به (ربّك) مضاف إليه مجرور . . و(الكاف) مضاف إليه (ذللا) حال من (سبلا) " 2 " منصوب (يخرج) مضارع مرفوع (من بطونها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يخرج) ، و(ها) مضاف إليه (شراب) فاعل مرفوع (مختلف) نعت لشراب مرفوع (ألوانه) فاعل اسم الفاعل مختلف مرفوع . .

و(الهاء) مضاف إليه (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر

---

(1) أو مصدريّة، والمصدر المؤوّل مفعول به عامله أوحى أو مجرور بحرف الجرّ الباء.

(2) أو من فاعل اسلكي..

(324/439)

مقدّم (شفاء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بشفاء " 1 ". (إنّ في..

يتفكّرون) مثل إنّ... يسمعون " 2 ".

وجملة: "كلي... " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّخذي.

وجملة: " اسلكي... " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلي.

وجملة: " يخرج.. شراب " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " إنّ في ذلك لآية... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " فيه شفاء... " في محلّ رفع نعت ثان لشراب.

الصرف:

(النحل)، اسم جنس الواحدة نحلة وزن فعلة بفتح فسكون ووزن النحل فعل بفتح

فسكون.

البلاغة

1 - التنكيت: في قوله تعالى أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً :

ويتزين هذا المعنى في تبعيض "من" المتعلقة باتخاذ البيوت بإطلاق الأكل، كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهواتها واختيارها، فلم يحجر عليها فيه، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض، لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه. وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع. ولهذا المعنى دخلت "ثم" تفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تأكله، ثم كل أي شيء شئت، فتوسط ثم لتفاوت الحجر والإطلاق.

---

(1) أو هي لام التقوية، والمجرور بها منصوب محلا مفعول به للمصدر شفاء. [.....]

(2) في الآية (65) من هذه السورة.

---

2 - التنكير: في قوله تعالى "فيه شفاء". وتنكيره إما لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، و

عن النبي صلّى اللّه عليه واله وسلّم أن رجلا جاء إليه فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فقال

: " اذهب واسقه العسل " فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فما نفع ، فقال : " اذهب واسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك " فسقاه فشفاه الله فبرئ .

3 - الالتفات : في قوله تعالى " يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه " إلى آخر الآية : التفات من الخطاب إلى الغيبة ، ولو جاء الكلام على النسق الأول لقيل من بطونك ، وإنما صرف الكلام ها هنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة ، وهي أنه ذكر للبشر العسل وأوصافه وألوانه المختلفة ، وأخبرهم أن فيه فوائد شتى لهم ، ليلفت انتباههم إليه . ولو قال من بطونك لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة .

الفوائد

- " أن التفسيرية " هي الواقعة بعد جملة تشتمل على معنى القول دون حروفه ، وثمة خلاف بين العاملين في العلوم اللغوية حول كونها في هذه الآية تفسيرية أم مصدرية .

و" أن " التفسيرية هي بمنزلة " أي " كقوله تعالى : ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .

وهكذا ففي الأمر معنى القول . وأتى بعدها جملة .

[سورة النحل (16) : الآيات 70 إلى 73]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ

عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ
السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73)

(326/439)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (خلقكم) فعل ماض، و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (ثمّ) حرف عطف (يتوفّاكم) مثل خلقكم (الواو) عاطفة (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يردّ) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إلى أرذل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يردّ)، (العمر) مضاف إليه مجرور (اللام) حرف جرّ (كي) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية (يعلم) مضارع منصوب، والفاعل هو (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يعلم)، (علم) مضاف إليه مجرور (شيئا) مفعول به للمصدر علم " 1 " .

---

(1) ومفعول يعلم ضمير مستتر يعود على (شيئا) على سبيل التنازع . . وقد يصحّ العكس على مذهب الكوفيّين.

(327/439)

والمصدر المؤوّل (كي لا يعلم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يردّ) .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - ، (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (عليم) خبر إنّ مرفوع (قدير) خبر ثان مرفوع.

جملة: " اللّه خلقكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " خلقكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة: " يتوفّاكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خلقكم.

وجملة: " منكم من يردّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة.

أي: منكم من يبقى سليم الجسم حتّى يموت ومنكم من يردّ . . .

وجملة: " يردّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "لا يعلم" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (كي).

وجملة: "إنّ الله عليم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

(328/439)

(الواو) عاطفة (الله فضّل) مثل الله خلقكم (بعضكم) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (على بعض) جار ومجرور متعلّق بـ (فضّل)، (الفاء) عاطفة (ما) نافية عاملة ليس (الذين) اسم موصول في محلّ رفع اسم ما (فضّلوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ..

و(الواو) نائب الفاعل (الباء) حرف جرّ زائد (رادّي) خبر ما منصوب محلّا مجرور لفظا، وعلامة الجرّ الياء (رزقهم) مضاف إليه مجرور، و(هم) مضاف إليه (على) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (رادّي) (ملكت) فعل ماض.. و(التاء) للتأنيث (أيمانهم) فاعل مرفوع.. و(هم) مضاف إليه، (الفاء) عاطفة (هم) ضمير منفصل مبتدأ (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من (سواء) وهو خبر مرفوع (الهمزة) للاستفهام

الإنكاريّ التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (بنعمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يجحدون) - بتضمينه

معنى يكفرون (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (يجحدون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل .

وجملة : " اللّه فضّل . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ اللّه عليم .

وجملة : " ما الذين فضّلوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه فضّل .

وجملة : " فضّلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ملكت أيمانهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " هم فيه سواء " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما الذين فضّلوا " 1 " .

وجملة : " يجحدون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : يشركون .

به فيجحدون نعمته " 2 " .

(الواو) عاطفة (اللّه جعل) مثل اللّه خلقكم . . (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جعل) " 3 " (من أنفسكم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جعل) " 4 " . . و(كم) مضاف إليه (أزواجا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (جعل لكم من أزواجكم بنين) مثل جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وعلامة النصب في بنين الياء ، فهو ملحق بجمع المذكّر (الواو) عاطفة (حفدة) معطوف على بنين منصوب (الواو) عاطفة (رزقكم) مثل خلقكم (من الطّيّبات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رزقكم) ، (الهمزة) مثل الأولى (الفاء) عاطفة (بالباطل) جار ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون) وهو مثل يجحدون (الواو) عاطفة

(1) أو هي تعليل لجملة النفي المتقدّمة فلا محلّ لها .

(2) أو هي استئنافيّة غير معطوفة .

(3) بتضمينه معنى خلق . . أو متعلّق بمفعول ثان إن كان بمعنى صيّر .

(4) أو بمحذوف حال من أزواج .

(بنعمة اللّه . . يكفرون) مثل بنعمة اللّه يجحدون و(هم) ضمير منفصل مبتدأ . .

وجملة : " اللّه جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه فضّل . .

وجملة : " جعل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " جعل (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة جعل (الأولى) .

وجملة : " رزقكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة جعل .

وجملة : " يؤمنون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أيكفرون باللّه الذي هذا شأنه ويؤمنون بالباطل . . " 1 " .

وجملة : " هم يكفرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤمنون .

وجملة : " يكفرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(الواو) عاطفة (يعبدون) مثل يجحدون (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بحال من ما (اللّه)

لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول " 2 " في محلّ نصب مفعول به (لا) نافية

(يملك) مضارع مرفوع، والفاعل هو وهو العائد (لهم) مثل لكم متعلّق بحال من (رزقا) وهو

مفعول به منصوب (من السموات) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (رزقا) " 3 " (الأرض)

معطوف على السموات بالواو مجرور (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر أي: لا

يملكون ملكا لا قليلا ولا كثيرا " 4 "، (الواو) عاطفة (لا) نافية (يستطيعون) مضارع

مرفوع.. و(الواو) فاعل والمفعول محذوف.

---

(1) أو هي استئنافيّة غير معطوفة.

(2) أو نكرة موصوفة، والجملة بعده نعت في محلّ نصب.

(3) أو متعلّق بـ (رزقا) على أنه مصدر.. ويجوز تعليقه بالفعل يملك.

(4) أو هو مفعول به للمصدر (رزقا) والسيوطيّ جعله بدلا من (رزقا).. وردّ ذلك الجمل في حاشيته.

وجملة : " يعبدون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يكفرون " 1 " وجملة : " لا يملك لهم رزقا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا يستطيعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(أرذل) ، اسم تفضيل من رذل الثلاثيّ ، وزنه أفعل .

(حفدة) ، جمع حافد ، وهو المسرع في الخدمة ، المسارع في الطاعة ، وقيل ولد الولد ، اسم على وزن اسم الفاعل ، ووزن حفدة فعلة بفتحتين .

البلاغة

- الكناية : في قوله تعالى لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً الكلام كناية عن غاية النسيان ، أي ليصير نساء ، بحيث إذا كسب علما في شي ء لم يلبث أن ينساه ويزول عنه علمه من ساعته . يقول لك : من هذا ؟ فتقول : فلان ، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه .

الفوائد

- لِكَيْ لا يَعْلَمَ .

في هذه الآية اجتمع ناصبان لام التعليل و " كي " ثم أعقبهما " لا " النافية ، فحالت بين الناصب ومنصوبة الفعل المضارع ، وهنا نلاحظ أمرين :

الأول : أن " لا " لا تحول دون الناصب ومنصوبه . ولذلك نصب الفعل " يعلم " والثاني : أن

الناصب هو "كي "لأنها أقرب إلى الفعل وألصق به من اللام. وقد يكون ثمة اجتهادات أخرى لمن شاء التوغّل في خلافات النحاة.

---

(1) أو هي استئنافية بيانيّة لقوله أ فبالباطل يؤمنون.

[سورة النحل (16) : آية 74]

فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (74)

الإعراب

(الفاء) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (تضربوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون ... و (الواو) فاعل (للّه) جارّ ومجرور متعلّق ب (تضربوا) ، (الأمثال) مفعول به منصوب (إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل هو (الواو) عاطفة (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (تعلمون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل.

جملة: "لا تضربوا ... "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 ".

وجملة: "إنّ اللّه يعلم ... "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أنتم لا تعلمون " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " لا تعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 14 صـ 357.279 ﴾

(332/439)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(16) سورة النحل

مكية وآياتها ثمان وعشرون ومائة

[سورة النحل (16) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ
عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)
وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ

وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

اللغة :

(

نُطْفَةٍ) : في المصباح : " نطف الماء ينطف من باب قتل سال ، وقال أبو زيد : نطفت القربة تنطف وتنطف نطفانا إذا قطرت والنقطة ماء الرجل والمرأة وجمعها نطف ونطاف مثل برمة وبرام والنطفة أيضا الماء الصافي قلّ أو كثر ولا فعل للنطفة أي لا يستعمل لها فعل من لفظها " وفي المختار أن نطف من بابي قتل وضرب .

(خَصِيمٌ) : شديد الخصومة وفيه معنيان أحدهما أنه خصيم لربه منكر على خالقه قائل " من يحيي العظام وهي رميم " والثاني فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم باللدد والجدل والسفسطة وما إلى ذلك من ضروب الوقاحة والشرة وسيأتي المزيد من هذا في باب البلاغة .

(دِفْءُ) : في المختار : " الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها قال اللّه تعالى : " لكم فيها دفء " وفي الحديث : " لنا من دفئهم ما سلموا بالميثاق " وهو أيضا السخونة اسم من دفئ الرجل : من باب طرب وسلم فالذكر دفآن والأنثى دفأى مثل غضبان وغضبى ورجل دفئ بالقصر ورجل دفيء بالمد " وفي المصباح : " دفيء البيت يدفأ مهموز من باب تعب قالوا : ولا يقال في اسم الفاعل دفيء وزان كريم بل وزان تعب ودفئ الشخص فالذكر دفآن والأنثى دفأى مثل غضبان وغضبى إذا لبس ما يدفئه ودفؤ اليوم مثل قرب والدفء وزان حمل خلاف البرد " وفي القاموس : " والدفء بالكسر ويحرك نقيض حدة البرد كالدفاءة والجمع أدفاء دفئ كفرح وكرم وتدفأ واستدفأ وادّفأ وأدفأه ألبسه الدفء والدفآن المستدفئ كالدفئ والدفء

بالكسر نتاج الإبل وأوبارها والانتفاع بها وما أدفأ من الأصواف والأوبار " وقال الزمخشري : " والدفء اسم ما يدفأ به كما أن الملء اسم ما يملأ به وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر " فتلخص أن للدفء ثلاثة معان :

1- ضد البرودة أي السخونة .

2- ما يتدفأ به من الثياب .

3- ما يتحصل من الإبل من نتاج ولبن ومنافع .

)

(تُرِيحُونَ) : تردونها إلى مراحها بالعشي .

(تَسْرَحُونَ) : تخرجونها إلى المرعى بالغداة وسيرد المزيد من بحث الاراحة والتسريح في باب البلاغة وفي المصباح : سرحت الإبل سرحا من باب نفع وسروحا رعت بنفسها وسرحتها يتعدى ولا يتعدّى وسرحتها بالتثقيل مبالغة وتكثير .

(بِشِقِّ الْأَنْفُسِ) : بجهدها بكسر الشين وفتحها وهما لغتان في معنى المشقة وبينهما فرق وهو ان المكسور بمعنى النصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد وأما المفتوح فهو مصدر شق عليه الأمر شقا وحقيقته راجعة إلى الشق وهو الصدع وفي المختار : " الشق بالكسر نصف الشيء والشق أيضا المشقة ومنه قوله تعالى : " إلا بشق الأنفس " وهذا قد يفتح " .

(قَصْدُ السَّبِيلِ) : القصد : مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه .

(جائِرٌ) : حائد عن الاستقامة .

الاعراب :

)

(335/439)

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ) أتى فعل ماض وأمر اللّه فاعله عبر عن المستقبل بالماضي لأنه بمثابة الأمر الواقع الذي لا محيد عنه، والفاء عاطفة ولا ناهية وتستعجلوه فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل والهاء مفعول به. (سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) سبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف وتعالى فعل ماض وعما تنازعه كل من سبحانه وتعالى وما يحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى عائد ويحتمل أن تكون موصولة فتحتاج إلى تقدير عائد وجملة يشركون لا محل لها على كل حال. (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ) ينزل الملائكة فعل وفاعل مستتر ومفعول به وبالروح متعلقان بينزل أو بمحذوف حال أي ملتبسة بالروح ومن أمره متعلقان بمحذوف حال وعلى من يشاء متعلقان بينزل ومن عباده حال. (أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) أن مخففة وهي وما في حيزها بدل من قوله بالروح أي ينزل الملائكة بأن أنذروا وتقديره بأنه أنذروا فاسم أن ضمير الشأن وجملة أنذروا مقول قول محذوف أي بأن الشأن أقول لكم أنذروا ولك أن تجعل أن

مفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الذي فيه معنى القول دون حروفه وأنه سدت مع ما في حيزها مسد مفعول أنذروا لأنه متضمن معنى أعلموا الناس أو تكون أنذروا على معناها الأصلي وأنه نصب بنزع الخافض أي أنذروا بأنه وجملة لا إله إلا أنا خبر أنه وقد تقدم القول مفصلا في "لا إله إلا اللّه" ، فاتقون: الفاء الفصيحة أي إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبياء وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له في الألوهية فاتقون في الإخلال بمضمونه ، واتقون فعل أمر وفاعل والنون للوقاية وياء المتكلم

حذفت لمراعاة الفواصل . (خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) خلق السموات والأرض فعل وفاعل مستتر والسموات مفعول به والأرض عطف على السموات وبالحق في محل نصب على الحال أي محقا وتعالى فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وعما متعلقان بتعالى وجملة يشركون صلة لما . (خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) خلق الإنسان فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومن نطفة متعلقان بخلق ومن للابتداء فإذا الفاء عاطفة وإذا الفجائية وهو مبتدأ وخصيم خبر ومبين صفة . (وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ) الواو عاطفة والأنعام منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده

وخلقها فعل وفاعل مستتر ومفعول به والجملة مفسرة ولكم خبر مقدم وفيها حال ودفء مبتدأ مؤخر والجملة حالية ويجوز أن تكون مستأنفة ويجوز أن يكون لكم حالا من دفء وفيها الخبر ، وقع الاسم المشتغل عنه وهو الانعام بعد عاطف غير مفصول من الاسم بأما مسبوق بفعل وهو خلق الإنسان من نطفة فترجح نصبه لأن المتكلم عاطف جملة فعلية على جملة فعلية والرافع عاطف جملة اسمية على جملة فعليه وتشاكل الجملتين أحسن من تخالفهما وقد يقال : إن في الرفع تخلصا من تقدير العامل فلكل مرجح فكان ينبغي التساوي لا أرجحية النصب ويجاب بأن مراعاة التشاكل أقوى مما ذكر ومنافع عطف على دفء ومنها متعلقان بتأكلون وتأكلون فعل مضارع وفاعل وتقديم الجار والمجرور وهو معمول للفعل يوجب حصره فيه . (وَلَكُمْ فِيهَا جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) الواو عاطفة ولكم خبر مقدم وفيها حال وجمال مبتدأ مؤخر وحين ظرف متعلق بمحذوف صفة وجملة تريحون مضاف إليها وكذلك قوله وحين تسرحون وسيأتي مزيد بحث عن الإراحة والتسريح في باب البلاغة . (

وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ)

الواو عاطفة وتحمل أثقالكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به والى بلد متعلقان بتحمل وجملة لم تكونوا بالغيه صفة لبلد وبالغيه خبر تكونوا وإلا أداة حصر وبشق الأنفس في موضع نصب على الحال من الضمير المرفوع في بالغيه أي مشقوقا عليكم. (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ) ان واسمها واللام المزحلقة ورءوف رحيم خبران. (وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً) والخيل وما بعده عطف على الانعام أي وخلق هؤلاء للركوب والزينة ولتركبوها مضارع منصوب

بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور في موضع نصب مفعول لأجله وزينة عطف على محل لتركبوها وجر الأول بالجر لاختلاف الفاعل لأن الركوب فعل المخاطبين وفاعل الخلق هو اللّه تعالى أما زينة فهي من فعله تعالى ولذلك نصبت فالمزين والخالق هو اللّه ويجوز أن تعرب نصبا على الحال من الهاء في تركبوها. (وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته تعالى وقدرته وان ما تناهى إليهم علمه يعد ضئيلا جدا بالنسبة إلى علمه الواسع. (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ) على اللّه خبر مقدم وقصد السبيل مبتدأ مؤخر ومنها خبر مقدم وجائر صفة لموصوف هو المبتدأ المؤخر أي سبيل جائر أي حائد عن الاستقامة. (وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ) الواو عاطفة ولو امتناعية شرطية ومفعول شاء محذوف أي شاء هدايتكم واللام رابطة لجواب لو وهداكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وأجمعين تأكيد.

البلاغة :

1- الإيجاز في قوله تعالى " حين تريحون وحين تسرحون " فقد انطوت كلمتا " تريحون " و " تسرحون " على الكثير من المعاني والصور ، مما يضفي على مقتني هذه الأنعام جمالا ورواء وأبهة ليس

(338/439)

في المكنة تصوره لأن الرعاة إذا ردوا الأنعام بالعشي إلى مراحها أي مأواها بالليل أو سرحوها عند الغداة إلى المراعي المعشوشبة وعرجوا على الأفنية والبيوت رغت الإبل وخارت البقر وثغت الشاء فتجاوب ذلك كله مع صياح الصبيان وحديث العقائل والأوانس وهن يتهادين متخطرات متوثبات شمل الفرح الجميع ، ورقصت النعمة ، ورفرفت السعادة وقدم الإراحة على التسريح لأن الجمال في الإراحة أكثر تقبل وهي ملأى البطون حافلة الضروع معسولة الحلب .

2- المجاز المرسل في قوله " فإذا هو خصيم مبين " لأن الفاء تدل على التعقيب وكونه خصيما مبينا لا يكون عقب خلقه من نطفة ولكنه إشارة إلى ما تؤول إليه حاله فهو مجاز مرسل والعلاقة اعتبار ما سيكون كقوله تعالى " إني أراني أعصر خمرا " أي عنبا يئول إلى

الخمر.

[سورة النحل (16) : الآيات 10 إلى 17]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)

وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (17)

اللغة:

(تُسِيمُونَ) : ترعون دوابكم من سامت الماشية إذا رعت فهي سائمة وأسامها صاحبها وهي من السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

قال السيوطي : لم يأت اسم المفعول من أفعل على فاعل إلا في حرف واحد وهو قول العرب : أسمت الماشية من المرعى فهي سائمة ولم يقولوا مسامة وقوله تعالى : " فيه تسيمون " من أسام يسيم واجب المراد أسمتها أنا فسامت هي فهي سائمة كما تقول : أدخلته الدار فدخل فهو داخل .

(

ذَرَأَ) : خلق وذرأنا الأرض وذروناها : بذرناها وذرأ اللّه الخلق وبرأ ومن الذارىء البارئ سواه واللهم لك الذّرء والبرء ، ومنك السّقم والبرء ، وقد علته ذرأة وهي بياض الشيب أول ما يبدو في الفودين وقد ذرىء رأسه ذرءا ورجل أذرأ وامرأة ذرءاء بيضاء الرأس أو بيضاء الوجه قال :

فمرّ ولما تسخن الشمس غدوة بذرءاء تدري كيف تمشي المنائح

أي منحت كثيرا فاعتادت ذلك فهي تسامح بالمشي لا تأبى .

(طَرِيًّا) : الطراوة ضد اليبوسة أي غضا جديدا ويقال طريت كذا أي جددته وفي المصباح : طرو الشيء وزان قرب فهو طري أي غضّ بين الطراوة وطرىء بالهمز وزان تعب لغة فهو طريء بين الطراوة وطرأ فلان علينا يطرأ مهموز بفتحتين طروءا طلع فهو طارئ وطرأ الشيء يطرأ أيضا طرآنا مهموز حصل بغتة فهو طارئ وأطريت العسل بالياء عقدته

وأطريت فلانا مدحته بأحسن ما فيه وستأتي النكتة في وصف اللحم بالطراوة أو الطراءة في باب البلاغة.

(حِلْيَةً) : في المصباح: " حلي الشيء بعيني وبصدري يحلى من باب تعب حسن عندي وأعجبني وحليت المرأة حليا ساكن اللام لبست الحلي وجمعه حلي والأصل على فعول مثل فلس وفلوس والحلية بالكسر الصفة والجمع حلى مقصور وتضم الحاء وتكسر وحلية السيف زينته، قال ابن فارس: ولا تجمع وتحلت المرأة لبست الحلي أو اتخذته وحليتها بالتشديد ألبستها الحلي أو اتخذته لها لتلبسه وحليت السويق جعلت فيه شيئا حلوا حتى حلا " وفي القاموس وشرحه وغيرهما: الحلي وجمعه حلي وحليّ والحلية وجمعها حليّ وحلى على غير القياس ما يزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة وقول بعض المفسرين: اللؤلؤ والمرجان تفسير معنى للحلية لا تفسير لغة والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم ولأنهن إنما يتزين من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم.

)

مَواخِرَ) : جواري والمخر شق الماء بجيزومها وعن الفراء هو صوت جري الفلك بالرياح

وفي المختار : " مخرت السفينة من باب قطع ودخل جرت تشق الماء مع صوت ومنه قوله تعالى : وترى الفلك مواخر فيه أي جواري " وفي الأساس : " فلك مواخر تمخر الماء تشقه مع صوت ونشأت بنات مخر وهي سحاب الصيف تمخر الجو مخرا واستمخرت الريح استقبلتها بأنفي وخرجت أتمخر الريح وأستنشئها ومخرت الأرض مخرا سقيتها لتطيب "

.

(341/439)

(تَمِيدَ) : تميل بكم وفي المختار : " ماد الشيء يميد ميدا من باب باع ومادت الأغصان والأشجار تمايلت وماد الرجل : تبختر " وفي القاموس : " ماد يميد ميدا وميدانا تحرك وزاغ والسراب اضطرب والرجل تبختر وأصابه غثيان ودوار من سكر أو ركوب بحر ومنه المائدة : الطعام والخوان عليه الطعام كالميدة فيهما " (عَلاماتٍ) جمع علامة ففي المصباح : " وأعلمت على كذا بالألف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة وأعلمت الثوب جعلت له علما من طراز وغيره وهو العلامة وجمع العلم أعلام وجمع العلامة علامات وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له أمارة يعرفها " .

الاعراب :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة أنزل صلة ومن السماء جار ومجرور متعلقان بأنزل وماء مفعول به ولكم خبر مقدم ومنه متعلقان بمحذوف حال من شراب وشراب مبتدأ مؤخر والجملة صفة لماء

ومنه

شراب جملة مستأنفة متألفة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر وفيه متعلقان بتسيمون وجملة تسيمون صفة لشجر والباء للسببية أي بسببه ينبت الشجر . (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) ينبت فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره هو ولكم متعلقان بينبت وبه متعلقان بينبت أيضا والباء للسببية والزرع مفعول به والزيتون والنخيل والأعناب عطف على الزرع ومن كل الثمرات عطف على ما تقدم أيضا ومن تبعيضية أي وبعض كل الثمرات .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآية اسم إن المؤخر ولقوم صفة لآية وجملة يتفكرون صفة لقوم . (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) وسخر لكم الليل فعل وفاعل مستتر ومفعول به ولكم

متعلقان بسخر والشمس والقمر معطوفان على الليل والنهار . (وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) الواو عاطفة والنجوم مبتدأ ومسخرات خبر والجملة عطف على الجملة السابقة وبأمره متعلقان بمسخرات . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) تقدم اعراب نظيرتها . (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ) الواو عاطفة وما عطف على الليل والنهار يعني ما خلق فيها من حيوان ونبات وجماد ويجوز أن تنصبه بفعل محذوف أي وخلق وأنبت والمعنى واحد ولكم متعلقان بذرأ وفي الأرض متعلقان بذرأ أيضا ومختلفا حال وألوانه فاعل مختلفا . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) تقدم اعرابها .

(

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا) الواو عاطفة وهو مبتدأ والذي خبر وجملة سخر صلة والبحر مفعول به ولتأكلوا اللام للتعليل وتأكلوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بسخر ومنه متعلقان بتأكلوا ولحما مفعول به وطريا صفة . (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) وتستخرجوا عطف على لتأكلوا ومنه متعلقان بتستخرجوا وحلية مفعول به وجملة تلبسونها صفة لحلية . (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الواو اعتراضية وترى الفلك فعل وفاعل مستتر ومفعول به والجملة معترضة ومواخر حال لأن الرؤية بصرية وفيه متعلقان بمواخر ولتبتغوا عطف على لتأكلوا ولعل واسمها وجملة تشكرون خبرها .

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) وألقى عطف على وسخر وفي الأرض متعلقان بألقى ورواسي صفة لمفعول به محذوف أي جبالا رواسي وأن وما في حيزها مفعول لأجله أي كراهة أن تميل بكم وتضطرب كالمائد الذي يدار به إذا ركب البحر وبكم متعلقان بتميد .

(

وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) وأنهارا وسبلا عطف على رواسي أو مفعول به لفعل محذوف والتقدير وجعل فيها لأن ألقى فيه معنى جعل قال تعالى : " ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا " ولعل واسمها وجملة تهتدون خبرها . (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) وعلامات عطف على أنهارا وسبلا وبالنجم متعلقان بيهتدون وهم مبتدأ وجملة يهتدون خبره وقال ابن عطية : وعلامات نصب كالمصدر أي فعل هذه الأشياء لعلكم تعتبرون بها وعلامات أي عبرة وإعلاما في كل سلوك فقد يهتدى بالجبال والأنهر وبالسبل ، وهذا كلام غير مفهوم ولعل أبا البقاء كان على حق حين أعربها مفعولا لفعل محذوف أي ووضع فيها علامات .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف ومن مبتدأ وجملة يخلق صلة والكاف خبر من وجملة لا يخلق صلة لمن الثانية والهمزة انكار ثان والفاء عاطفة ولا نافية وتذكرون أصله تتذكرون فحذفت إحدى التاءين.

البلاغة:

1- التتميم:

في قوله تعالى " لتأكلوا منه لحما طريا " تتميم احتياط وقد تقدم أن التتميم فن يشتمل على كلمة لو طرحت من الكلام نقص معناه كما تقدم أنه ثلاثة أنواع تتميم نقص وتتميم احتياط وتتميم مبالغة وتقدمت الأمثلة عليه ونقول هنا انه علم سبحانه انه إذا لم يصف اللحم بالطراوة لم يكن مظنة للفساد ولكن المعروف أن الفساد إلى اللحم الطري أكثر من غيره فلزم وصفه بها ليسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه، وللفقهاء مباحث في لحم السمك تدل على ذكاء وألمعية وسنشير إليها في باب الفوائد إشارة سريعة، ولهذا التتميم فائدة عامة وهي التعليم والإرشاد إلى أن اللحم لا ينبغي أن يتناول إلا طريا والأطباء يقولون: إن تناوله بعد

ذهاب طراوته أضر شيء يكون .

2- الالتفات :

في قوله تعالى : " وبالنجم هم يهتدون " التفات من الخطاب إلى الغيبة والفائدة منه انه لما كانت الدلالة من النجم أنفع الدلالات وأوضحها في البر والبحر نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة لإفهام العموم ولئلا يظن أن المخاطب مخصوص بذلك وزاد التأكيد بتقديم الجار والمجرور كأنما يشير من طرف خفي إلى أن دلالة غير النجم ضئيلة لا يؤبه لها .

3- التشبيه المقلوب :

وذلك في قوله تعالى " أفمن يخلق كمن لا يخلق " إذ مقتضى الظاهر عكسه لأن الخطاب لعباد الأوثان حيث سموها آلهة تشبيها به تعالى فجعلوا غير الخالق كالخالق فجاءت المخالفة في الخطاب كأنهم لمبالغتهم في عبادتها ولا سفافهم- بالتالي- وارتكاس عقولهم صارت عندهم كالأصل وصار الخالق الحقيقي هو الفرع فجاء الإنكار على وفق ذلك . وللتشبيه المقلوب أسرار كثيرة ومنها هذا السر الذي ألمعنا اليه ومنها أن ينسى الإنسان أن المشبه به هو المقدّم لشدة ولعه بالمشبه فيعكس التشبيه كما فعل البحتري في وصف البركة التي بناها المتوكل على اللّه إذ قال :

كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لمّا سال واديها

والمعهود أن تشبه يد الخليفة في تدفقها بالكرم بالبركة إذا تدفقت بالماء .

هذا وقد جرى الشعراء على مذهب القلب كثيرا فمنهم من أصاب كما أصاب أبو عبادة البحتري ومنهم من أخطأ وتعسف ، وزعم أبو بكر الصولي أن أبا تمام قد أخطأ في قلبه بقوله :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئي بذاك شهيدا

قال أبو بكر : " أراد وكفى بأنه مضى حميدا شاهدا على اني رزئت وكان وجه الكلام أن يقول : وكفى برزئي شاهدا على أنه مضى حميدا لأن حمد أمر الطلل قد مضى وليس بشاهد ولا بمعلوم ورزؤه بما ظهر من تفجعه شاهد معلوم فلأن يكون الحاضر شاهدا على الغائب أولى من أن يكون الغائب شاهدا على الحاضر " ومضى الصولي في نقده منكرا أن يكون القلب قد ورد في القرآن وان ما احتج به أصحاب

أبي تمام من قلب في القرآن على ما جاء به في بيته من قلب ليس صحيحا رغم قول المفسرين وانه لهذا لا يصحّ القياس عليه فلا يصح القلب في بيت أبي تمام .

وهذا تعسف وتحامل من الصولي حدا به إلى انكار ما انعقد الإجماع ودل المنطق عليه وسنعود إلى مناقشته في مكان آخر من هذا الكتاب .

4- التغليب :

في قوله تعالى أيضا "أفمن يخلق كمن لا يخلق" إذ المراد بمن لا يخلق الأصنام وجاء بمن الذي هو للعقلاء ذوي العلم وذلك لأنهم لما عبدوها وسموها آلهة أجروها مجرى أولي العلم فجيء بمن على اعتقادهم ووفق ما هو مركوز في سلائقهم، وأيضا للمشاكلة بينها وبين الخالق الحقيقي وهو المعبر عنه بقوله "أفمن يخلق كمن لا يخلق" قال العز بن عبد السلام هذه الآية مشكلة لأن قاعدة التشبيه تقتضي أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق ولا يقال انهم كانوا يعظمون الأصنام أكثر من اللّه لأنهم لم يقولوا ذلك وإنما قالوا: نعبدهم ليقربونا إلى اللّه زلفى بخلاف قوله تعالى: أفنجعل المسلمين كالمجرمين وقوله: أم نجعل المتقين كالفجار فإنهم لما كانوا يقولون نحن نسود في الآخرة كما سدنا في الدنيا جاء الجواب على وفق معتقدهم انهم أعلى والمؤمنون أدنى.

وأجاب شيخ الإسلام زكريا في فتح الرحمن: "بأن الخطاب لعباد الأوثان وهم بالغوا في عبادتها حتى صارت عندهم أصلا في العبادة والخالق فرعا فجاء الإنكار على وفق ذلك ليفهموا المراد على معتقدهم.

الفوائد:

اللحم الطري ولحم السمك :

من طرائف الفقهاء أنهم يقولون : إذا حلف الرجل لا يأكل لحما فأكل سمكا لم يحنث فإذا اعترض عليهم معترض بأن اللّه تعالى سماه لحما قالوا إن الأمر مبني على العادة وعادة الناس إذا ذكر اللحم على إطلاقه لا يفهم منه السمك قالوا : ألا ترى أنه لو حلف لا يركب دابة فركب كافرا لا يحنث وإن سماه اللّه دابة في قوله : "إن شر الدواب عند اللّه الذين كفروا " وكذا لو خرب بيت العنكبوت لا يحنث بيمينه لا يخرب بيتا وكذلك الألية وشحم البطن ليسا بلحم لأنهما لا يستعملان استعمال اللحم ولا يتخذ منهما ما يتخذ من اللحم ولا يسميان لحما عرفا إلى آخر هذه المباحث التي يرجع إليها في المطولات من كتب الفقه .

[سورة النحل (16) : الآيات 18 إلى 23]

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22)

لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)

الاعراب:

)

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها) جملة مستأنفة مسوقة للتذكير الاجمالي بأنعم اللّه وآلائه وإن شرطية وتعدوا فعل الشرط والواو فاعل ونعمة اللّه مفعول به ولا نافية وتحصوها جواب الشرط والواو فاعل والهاء مفعول به. (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) إن واسمها واللام المزحلقة للتوكيد وغفور خبر إن الاول ورحيم خبرها الثاني. (وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ) اللّه مبتدأ وجملة يعلم خبر وفاعل يعلم مستتر تقديره هو وما مفعول به وجملة تسرون صلة وما تعلنون عطف على ما تسرون. (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) والذين مبتدأ وجملة يدعون صلة ومن دون اللّه حال وجملة لا يخلقون خبر الذين وشيئا مفعول به والواو عاطفة أو حالية وهم مبتدأ وجملة يخلقون خبر وهو بالبناء للمجهول. (أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) أي هم أموات فهو خبر لمبتدأ محذوف وهو أولى من جعله خبرا ثانيا للذين وان كان لا يمتنع وغير أحياء صفة

لأموات قصد به التأكيد وما يشعرون عطف على أموات فهو بمثابة الجزء الثاني ل " هم " المقدرة أو خبر ثالث للذين وأيان ظرف ليبعثون فهو متعلق به واختلف في ضمير يبعثون فقيل هو للاصنام والمعنى وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء وفي ذلك من التهكم ما فيه وهذا أرجح ما قيل فيه ولهذا اقتصرنا عليه واجتزأنا به . (

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) إلهكم مبتدأ وإله خبر وواحد صفة والفاء الفصيحة والذين مبتدأ وجملة لا يؤمنون بالآخرة صلة وقلوبهم مبتدأ ومنكرة خبر لقلوبهم والجملة الاسمية خبر الذين وهم الواو حالية وهم مبتدأ ومستكبرون خبر والجملة في محل نصب على

(349/439)

الحال . (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) لا جرم تقدم القول فيه في سورة هود ونضيف هنا ان لا نافية وجرم بمعنى بد وهذا بحسب الأصل أما هنا فقد ركبت لا مع جرم تركيب خمسة عشر وجعلا بمعنى فعل معناه حق وثبت وأن وما في حيزها فاعله وجملة يعلم خبر أن وجملة يسرون صلة وما يعلنون عطف على ما يسرون . (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) ان واسمها وجملة لا يحب خبرها والمستكبرين مفعول يحب .

الفوائد :

(أَيَّانَ) : اسم شرط للزمان يجزم فعلين ملحقا بما أو غير ملحق بها ، كقول الشاعر :

أيان نؤمنك تأمن غيرنا وإذا لم تدرك الأمن منا لم تزل حذرا

وقول الآخر وقد ألحقها ما الزائدة للتوكيد :

إذا النعجة الأدماء باتت بقفره فأيان ما تعدل به الريح تنزل

وتكون اسم استفهام عن الزمان مثل متى وأصلها "أي آن" فهي مركبة من أي المتضمنة معنى الشرط وآن بمعنى حين فصارتا بعد التركيب اسما للشرط أو للاستفهام مبنيا على الفتح في محل نصب على الظرفية الزمانية.

[سورة النحل (16) : الآيات 24 إلى 29]

(350/439)

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ

الَّذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

اللغة :

(أَساطِيرُ) : جمع أسطورة كأحاديث وأضاحيك وأعاجيب جمع أحدوثة وأضحوكة وأعجوبة وفي القاموس والتاج : الإسطار والأسطار والأسطور والأساطير وأيضا كلها بالهاء ما يكتب والجمع أساطير والحديث الذي لا أصل له .

(أَوْزارَهُمْ) جمع وزر وهو الذنب .

الاعراب :

)

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ : ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) إذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة قيل لهم مضاف إليها الظرف وجملة ماذا أنزل ربكم نائب فاعل لقيل والكلام مستأنف مسوق للشروع في ذكر نماذج من مثالب المشركين ، وماذا : تقدم انه يجوز فيها وجهان فإما

أن تكون كلها اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لأنزل وإما أن تكون ما وحدها اسم استفهام وذا اسم موصول في محل رفع خبر ، وأنزل ربكم فعل وفاعل وجملة قالوا لا محل لها وأساطير الأولين خبر لمبتدأ محذوف أي هي أساطير الأولين أو المنزل أساطير الأولين وفي تقديره المنزل بلاغة زائدة لأنه يكون تهكما أي على فرض أنه منزل فهو أساطير لا طائل تحتها . (لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ) اللام للتعليل ويحملوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل وأوزارهم مفعول به وكاملة حال ويوم القيامة ظرف متعلق بيحملوا ولك أن تجعل اللام للعاقبة وعلى كل حال هي متعلقة بقوله قالوا أساطير الأولين فإما أن يكون المعنى أنهم جنوا على أنفسهم بأيديهم وقالوا ما يسبب لهم حمل الأوزار أو أنهم فعلوا ذلك جاهلين غافلين فكانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعني ذنوب أنفسهم التي اجترحوها سيأتي سر قوله "كاملة" في باب البلاغة . (وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ) ومن أوزار عطف على أوازرهم فالجار والمجرور متعلقان بيحملوا ومن للتبعيض أي وبعض أوزار من يضل بضلالهم وهذا ما ذهبت إليه طائفة من المفسرين على رأسهم الزمخشري والبيضاوي والجلال وقال الواحدي : " ولفظ من في قوله " ومن أوزار الذين يضلونهم " ليست للتبعيض لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الأوزار وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام :

"

لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا " لكنها للجنس أي ليحملوا من جنس أوزار الكفار " وهو كلام جميل أيضا وجملة يضلونهم صلة الذين وبغير علم حال من المفعول به أي يضلون من لا يعلم انهم ضلال ويجوز أن تكون من الفاعل المسند إليه الإضلال والمعنى أنهم يقدمون على الإضلال جهلا منهم بما يترتب عليهم من العذاب الشديد . وألا أداة تنبيه وساء فعل ماض لانشاء الذم وما تمييز أي شيئا أو فاعل ساء وجملة يزرون صفة لما على الاول أو صلة لها على الثاني وعلى كل حال المخصوص بالذم محذوف تقديره وزرهم . (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) جملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما كابده من تعنتهم ومكرهم وقد حرف تحقيق ومكر الذين فعل وفاعل ومن قبلهم صلة الذين فأتى الله بنيانهم عطف على ما تقدم وهو فعل وفاعل ومفعول به ومن القواعد حال أو جار ومجرور متعلقان بأتى . (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) الفاء عاطفة وخر فعل ماض وعليهم جار ومجرور متعلقان بخر والسقف فاعل ومن فوقهم حال وأتاهم العذاب فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ومن حيث متعلقان بأتاهم وجملة لا يشعرون مضافة إلى الظرف . (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ)

ثم حرف عطف ويوم ظرف متعلق بيخزيهم والقيامة مضاف اليه ويخزيهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به. (وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) أين اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم وشركائي مبتدأ مؤخر والذين صفة لشركائي وجملة كنتم صلة وجملة تشاقون خبر كنتم وفيهم متعلقان بتشاقون.

(

قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) قال الذين فعل

(353/439)

و فاعل وجملة أوتوا صلة والواو نائب فاعل والعلم مفعول به ثان وإن واسمها واليوم ظرف متعلق بالخزي لأنه مصدر يعمل عمل الفعل والسوء عطف على الخزي وعلى الكافرين خبر إن. (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) الذين نعت للكافرين أو بدل منه وجملة تتوفاهم الملائكة صلة والجملة فعل ومفعول به وفاعل وظالمي أنفسهم حال من مفعول تتوفاهم وأنفسهم مضاف اليه وتتوفاهم مضارع بمعنى الماضي.

(فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) يجوز أن تكون الفاء عاطفة وألقوا معطوف على توفاهم لأنه بمعنى توفتهم ويجوز أن يكون ألقوا معطوفا على قال الذين أوتوا العلم ويجوز أن

تكون للاستئناف ، وألقوا فعل وفاعل والسلم مفعول به ، والسلم المسالمة والإخبات وجملة ما كنا مقول لقول محذوف أي قائلين وما نافية وكنا كان واسمها وجملة نعمل خبر كنا ومن زائدة وسوء مجرور لفظا منصوب محلا على انه مفعول به .

(بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) بلى حرف جواب وان واسمها وخبرها وبما متعلقان بعليم وجملة كنتم تعملون صلة ما وجملة تعملون خبر كنتم . (فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) الفاء الفصيحة وادخلوا فعل أمر وفاعل وأبواب مفعول به على السعة وجهنم مضاف اليه وخالدين حال من فاعل ادخلوا وفيها متعلقان بخالدين والفاء استئنافية واللام للابتداء وبئس فعل ماض لانشاء الذم ومثوى المتكبرين فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي هي .

البلاغة :

1- في قوله تعالى : " قد مكر الذين من قبلهم فأتى اللّه بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم " استعارة تمثيلية فقد شبه حال

جميع الماكرين المبطلين المدبرين للمكايد والمؤامرات والذين يحاولون إيقاع الضرر والمكر بالمؤمنين ونصب الشباك لهم بحال قوم بنوا بنيانا شامخا ودعموه بأساطين البناء وقواعده فطاح البنيان من الأساطين نفسها بأن وهنت ولم تقو على إمساك ما أقيم عليها فتهدم السقف وهوى عليها .

هذا وقد ذكر علماء البلاغة ان للتمثيل مظهرين أحدهما أن يظهر المعنى ابتداء في صورة التمثيل وثانيهما ما يجيء في أعقاب المعاني لإيضاحها وتقريرها في النفوس وهو على الحالين يكسو المعاني أبهة ويرفع من أقدارها ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعوة القلوب إليها . تأمل قول أبي الطيب :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

لو كان عبر عن المعنى بقوله مثلا : ان الجاهل لمفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل اليه في الصواب انه خطأ فهل كنت تجد هذه الروعة ؟ وهل كان يبلغ من التهجين للجاهل والكشف عن نقصه ما بلغ التمثيل في البيت ؟ ومهما بالغت في تصوير المؤامرات المبطلة يدبرها المبطلون ، ويحوكونها من خلف ستار حتى إذا خيل لهم انها قد أحكمت واستطاعت أن توقع الخصوم في شراكها إذا بها تحبط فجأة فهل يبلغ ذلك من نفسك مبلغ مشهد البناء وقد تطاول وتسامق وتشامخ وأحكمه بانيه إحكاما خيل اليه معه أنه ضمن له الخلود فما عتم أن تزلزلت منه أواخيه وصياصيه وانهار بمن وعلى من فيه وفيما يلي

طائفة من أبيات التمثيل لتقيس عليها :

قال ابن لنكك يهجو قوما حسنت مناظرهم وقبحت مخابرهم .

في شجر السرو منهم مثل له رواء وما له ثمر

وقال ابن الرومي في المعنى نفسه :

فغدا كالخلاف يورق للعي ين ويأبى الإثمار كل الإباء

وتأمل كذلك قول أبي تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعا عن البيت الذي يليه برغم أن البيت واضح المعنى ثم اتبعه بالبيت التالي :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته وأظهر المكنون من حليته وزينته واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير، وما فيه من التمثيل والتصوير .

وسيأتي من روائع التمثيل في كتابنا ما يذهل الألباب .

عودة إلى الآية :

والآية التي نحن بصددها من أرقى ما يصل اليه التمثيل وهي خالدة لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة فالبناء كان ولا يزال يمثل القوة والجدّة والثراء ، وتداعيه وتطوحه يمثل قديما وحديثا زوال ذلك كله وفناءه ذلك لأن الاستعارة التمثيلية أساسها التشبيه فلا عجب أن تختلف فبها الأذواق باختلاف الأزمنة كما اختلفت في تقدير التشبيه وها نحن أولاء اليوم لا نستسيغ كثيرا من الاستعارات التي أوحت بها البيئة

الماضية والتي تبقى رواسم جامدة يبهرنا لفظها أكثر مما يوضحه في نفوسنا معناها أما الاستعارة التي تتجاوز ظروف الزمان والمكان وتضمن لها الجدّة الباقية بقاء الدهر فهي الاستعارة التي تحقق غرض القائل وتكون فيها الصورة المشبهة بها واضحة معروفة تصور ما تريد أن تصوره بوضوح وتأثير وإيجاز وتضاف إليها روافد كهذه الآية عند ما قال " فخر عليهم السقف من فوقهم " فقد أكد التمثيل بقوله من فوقهم لأن السقف لا يخر إلا من فوق لأنه أشعر بخروره فوقهم أنهم تحته فأزال احتمال أن يكونوا غير موجودين تحته وأكد إبطال مؤامراتهم بموتهم متأثرين بما نصبوه للآخرين على حد قول المثل : " من حفر حفرة لأخيه وقع فيها " .

2-الاحتراس :

في قوله تعالى " فخر عليهم السقف من فوقهم " فإن لقائل أن يقول : السقف لا يكون إلا من فوق فما معنى ذكر من فوقهم والجواب انه احتراس من احتمال أن السقف قد يكون أرضا

بالنسبة لغيرهم ، فإن كثيرا من السقوف يكون أرضا لقوم وسقفا لقوم آخرين فرفع اللّه تعالى هذا الاحتمال بجملتين وهما قوله " عليهم " وقوله " خر " لأنها لا تستعمل إلا فيما يهبط أو يسقط من العلو إلى السفل .

(356/439)

هذا وقد ساق بعض النقاد بيتا في شواهد العيوب وهو :

زياد بن عين عينه تحت حاجبه وبيض الثنايا تحت خضرة شاربه

فقال : وجه العيب فيه كون العين لا تكون إلا تحت الحاجب .

والثنايا تحت الشارب ، وقيل في الرد على هذا العائب : ان الشاعر أراد أن هذا الممدوح خلق في أحسن تقويم وولد كذلك ولم يولد مشوه الخلق ولا معيب الصورة ولم يطرأ عليه وهو جنين ما ينقص خلقه أو يشوهه .

وقال ابن الاعرابي : " وإنما قال : من فوقهم ليعلمك انهم كانوا حالين تحته والعرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه فجاء بقوله : من فوقهم ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب " وهو كلام لا بأس به .

[سورة النحل (16) : الآيات 30 إلى 34]

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34)

الاعراب :

)

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا) وقيل للذين قيل فعل ماض مبني للمجهول واختلف في ضميره وأقرب الأقوال انهم وفود العرب الذين كانت تبعثهم القبائل إلى مكة وللذين متعلقان بقيل وجملة اتقوا صلة وماذا تقدم القول فيها كثيرا وأنزل ربكم فعل وفاعل وخيرا مفعول لفعل محذوف أي أنزل خيرا وعبارة الزمخشري " فإن قلت لم رفع الأول ونصب هذا قلت فرقا بين جواب المقر وجواب الجاحد يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا

وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا : خيرا أي أنزل خيرا وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الأولين وليس من الانزال في شيء " .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ) للذين خبر مقدم وجملة أحسنوا صلة وفي هذه متعلقان بأحسنوا والدنيا بدل وحسنة مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة ويجوز أن تكون مفسرة لقوله " خيرا " ولدار الآخرة اللام للابتداء ودار الآخرة مبتدأ وخير خبر ولنعم دار المتقين اللام للابتداء ايضا ونعم فعل ماض لإنشاء المدح ودار المتقين فاعل والمخصوص بالمدح محذوف أي هي (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها) جنات خبر لمبتدأ محذوف ويجوز أن تكون هي المخصوص بالمدح فتعرب مبتدأ خبره جملة نعم دار المتقين أو خبرا لمبتدأ محذوف والأول أرجح وأقل تكلفا وجملة يدخلونها حالية .

)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ) جملة تجري من تحتهم الأنهار حال أيضا ولهم خبر مقدم وفيها حال وما مبتدأ مؤخر وجملة يشاءون صلة وجملة لهم فيها حال ثالثة .

(كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) الكاف نعت لمصدر محذوف ويجوز أن تعرب حالا وقد تقدم تقرير ذلك كثيرا ويجزي الله المتقين فعل وفاعل ومفعول به . (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ

الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ)

الذين نعت للمتقين أو بدل منه وجملة تتوفاهم صلة والهاء مفعول به والملائكة فاعل وطيبين حال من المفعول في تتوفاهم أي طاهرين من الشوائب. (يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) جملة يقولون حال من الملائكة مقارنة أو مقدرة وسيأتي تعريفهما في باب الفوائد وسلام مبتدأ وعليكم خبر وادخلوا الجنة فعل أمر وفاعل ومفعول به وبما متعلقان بادخلوا وجملة كنتم صلة وجملة تعملون خبر كنتم ويجوز أن تكون ما مصدرية والاعراب واحد.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ)

هل حرف استفهام ومعناه النفي وينظرون فعل مضارع وفاعل وإلا أداة حصر وأن وما في حيزها مصدر مؤول مفعول ينظرون وأو حرف عطف ويأتي أمر ربك عطف على تأتيهم الملائكة أي العذاب. (كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

تقدم إعراب كذلك قريبا فجدد به عهدا وفعل الذين فعل وفاعل ومن قبلهم صلة الموصول. (وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

الواو عاطفة وما نافية وظلمهم الله فعل ومفعول به وفاعل والواو حالية أو اعتراضية ولكن مخففة مهملة وكان واسمها وجملة يظلمون خبرها وأنفسهم مفعول مقدم لقوله يظلمون.

(فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا) الفاء عاطفة وأصابهم فعل ومفعول به مقدم وسيئات فاعل وما موصولة أو مصدرية وهي على كل مضافة لسيئات. (وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الواو عاطفة وبهم متعلقان بحاق وما فاعل وجملة كانوا صلة وبه متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا.

الفوائد:

الحال بالنسبة للزمان:

للحال بالنسبة للزمان ثلاثة أقسام:

1- مقارنة وهي الغالبة نحو: "هذا بعلي شيخا".

2- مقدرة وهي المستقبلة نحو: "ادخلوها خالدين".

3- ومحكية وهي الماضية نحو: جاء زيد أمس راكبا.

وفي الآية التي نحن بصددها وهي "يقولون سلام عليكم" يجوز أن تكون مقارنة إن كان القول واقعا منهم في الدنيا وأن تكون مقدرة إن كان القول واقعا منهم في الآخرة.

[سورة النحل (16) : الآيات 35 إلى 36]

وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36)

الإعراب:

(

وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا) الواو استئنافية والجملة مستأنفة لتقرير مغالطتهم وقولهم كلمة حق أريد بها باطل واحتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة

لهم فيها مع ما خلق لها من اختيار النجدين وسلوك أحد الطريقين.

وقال الذين فعل وفاعل وجملة أشركوا صلة ولو امتناعية شرطية وشاء الله فعل وفاعل والمفعول محذوف أي لو شاء خلاف طريقتنا وما يصدر عنا وسيأتي مزيد بحث عن حذف المفعول به في باب البلاغة وما نافية وعبدنا فعل وفاعل ومن دونه حال ومن زائدة وشيء مجرور لفظا مفعول عبدنا محلا ونحن تأكيد لفاعل عبدنا والمعنى ما عبدنا شيئا حال كونه دونه ولا الواو عاطفة ولا نافية وآباؤنا عطف على نحن. (وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ

شَيْءٍ) الواو عاطفة وحرمنا فعل وفاعل ومن دونه حال من شيء ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا مفعول به منصوب محلا .

(360/439)

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كذلك نعت لمصدر محذوف مفعول مطلق وفعل الذين فعل وفاعل ومن قبلهم صلة . (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) الفاء عاطفة وهل حرف استفهام معناه النفي وعلى الرسل خبر مقدم وإلا أداة حصر والبلاغ مبتدأ مؤخر والمبين صفته . (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وبعثنا فعل وفاعل وفي كل أمة متعلقان ببعثنا ورسولا مفعول به .

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) أن يجوز أن تكون مصدرية وهي مع مدخولها نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان ببعثنا ويجوز أن تكون مفسرة لأن البعث فيه معنى القول واعبدوا فعل أمر وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به واجتنبوا الطاغوت فعل أمر وفاعل ومفعول به .

(

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) الفاء تفريعية استئنافية ومنهم خبر

مقدم ومن مبتدأ مؤخر وهي نكرة موصوفة وجملة هدى اللّه صفة لمن ومنهم من حقت عليه الضلالة عطف على سابقتها وهي مثلها في الإعراب. (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا

كَيْفَ كانَ

عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

الفاء الفصيحة أي إن أردتم الاهتداء والاستدلال على الطريق المثلى فسيروا وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بسيروا فانظروا الفاء عاطفة وانظروا فعل أمر وفاعل وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وعاقبة المكذبين اسمها المؤخر.

البلاغة:

إيجاز الحذف:

الحذف للايجاز فقد حذف مفعول شاء في قوله "لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه" أي لو شاء هدايتنا، ولحذف المفعول به لطائف هي أكثر من أن تذكر، ذلك أن أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية فتارة يذكرونها ويريدون أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين وعندئذ يكون الفعل المتعدي كغير

المتعدي ومثال ذلك قول الناس : فلان يحلّ ويعقد ، ويأمر وينهى ، ويضر وينفع ، والقسم الثاني أن يكون للفعل مفعول مقصود إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل يدل عليه وقد يكون ذلك جليا لا صنعة فيه كقولهم : "أصغيت اليه" أي بأذني ، والخفي منه ما تدخله الصنعة ، فمن الخفي أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص إلا أنك تنساه وتخفيه عن نفسك وتوهم أنك إنما تذكر الفعل لتثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى مفعول كقول البحتري :

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

المعنى أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره ، ومن الخفي

ايضا أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قد علم انه ليس للفعل الذي ذكرت مفعول سواه بدليل الحال أو ما سبق من الكلام إلا أنك تطرحه وتتناساه لكي تتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتخلص له وتنصرف بجملتها اليه ، قال طفيل الغنوي في بني جعفر بن كلاب :

جزى اللّه عنا جعفرا حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمّنا تلاقي الذي يلقون منا لملّت

هم خلطونا بالنفوس وألجئوا إلى حجرات أدفأت وأظلت

حذف المفعول في أربعة مواضع هي " مللت " و" ألجئوا " و" أدفأت " و" أظلت " لأن الأصل لملتنا وألجئونا إلى حجرات أدفأتنا وأظلتنا وقول الشاعر " ولو أن أمنا تلاقي الذي لا قوه منا لملت " يتضمن أن ما لا قوه منا قد بلغ من القوة إلى أن يجعل كل أم تملّ وتسأم وان المشقّة بلغت من ذلك حدا يجعل الأم له تمل الابن وتتبرم به مع ما في طباع الأمهات من الصبر على المكاره في مصالح الأولاد وذلك انه وإن قال " أمنا " فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها ولو قال لملتنا لم يصلح لأنه يراد به معنى العموم وان بحيث يملّ كل أم من كل ابن ، ومن ذلك حذف المفعول بعد فعل المشيئة كقوله :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرما ولم تهدم مآثر خالد

والأصل : لو شئت أن تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالة في الثاني عليه ثم هو على ما تراه من الحسن والغرابة لأن الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف

فليس يخفى أنك لو رجعت إلى الأصل لصرت إلى كلام غث وإلى شيء يمجه السمع وتعافه النفس .

ويعلل عبد القاهر الجرجاني لجمال حذف المفعول بعد فعل المشيئة بأن في البيان بعد الإبهام وبعد تحريك النفس إلى معرفته لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك فأنت إذا قلت لو شئت علم السامع انك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء فهو يضع في نفسه أن

هاهنا شيئا تقتضيه المشيئة فاذا قلت لم تفسد سماحة حاتم عرف ذلك الشيء .

[سورة النحل (16) : الآيات 37 إلى 42]

إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (37) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (39) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41)

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

الإعراب :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) إن شرطية

وتحرص فعل الشرط وعلى هدا هم متعلقان بتحرص أي ترغب فيه ، فإن الفاء رابطة لجواب الشرط وان واسمها وجملة لا يهدي خبرها ومن اسم موصول مفعول به وجملة يضل صلة وقيل جواب الشرط محذوف وجملة فإن الله لا يهدي تعليل للجواب والتقدير لا تقدر أنت ولا يقدر أحد على هدايتهم . (وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ) الواو عاطفة وما نافية حجازية ولهم خبر ما مقدم ومن حرف جر زائد وناصرين اسم ما محلا أو مبتدأ مؤخر ومجرور لفظا . (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ) وأقسموا فعل وفاعل وبالله جار ومجرور متعلقان بأقسموا وجهد أيمانهم نصب على المصدرية وقيل مصدر في موضع الحال أي جاهدين والجملة عطف على وقال الذين أشركوا أو استئنافية إخبارية . (لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا) لا نافية ويبعث الله من يموت فعل وفاعل ومفعول والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وسمي الحلف قسما لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب وبلى حرف جواب أي بلى يبعثهم لأنه إثبات لما بعد النفي ووعدا عليه حقا مصدران مؤكدان لما دل عليه بلى وقيل حقا صفة لوعدا وكذا عليه ، وعليه متعلقان بحقا . (وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) الجملة حالية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها . (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ) اللام للتعليل ويبين فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بما دل عليه بلى أي يبعثهم ليبين ولهم متعلقان بيبين والذي مفعول به وجملة يختلفون صلة وفيه متعلقان بيختلفون . (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ) وليعلم

عطف على ليبين والذين فاعل وجملة كفروا صلة وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي يعلم وان واسمها وجملة كانوا خبرها وكاذبين خبر كانوا .)

(365/439)

إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْ ءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) إنما كافة ومكفوفة وقولنا مبتدأ ولشيء جار ومجرور متعلقان بقولنا وإذا ظرف متعلق بقولنا وجملة أردناه مضافة للظرف وأن ومدخولها مصدر مؤول خبر قولنا وله متعلقان بنقول وكن فعل أمر من كان التامة وجملة كن مقول القول ، فيكون : الفاء عاطفة ويكون معطوف على مقدر تفصح منه الفاء وينسحب عليه الكلام أي فنقول له ذلك فيكون ، واما جواب لشرط محذوف فتكون فصيحة أي فإذا قلنا ذلك فهو يكون وسيأتي مزيد بحث عن هذا القول والمقول والأمر والمأمور في باب البلاغة والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير القدرة على البعث أو كيفية التكوين على الإطلاق إبداء وإعادة . (وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا) والذين مبتدأ وجملة هاجروا صلة أي انتقلوا من مكة إلى المدينة ، ومنهم من هاجر إلى الحبشة فجمع بين الهجرتين وفي اللّه متعلقان بهاجروا وفي للتعليل أي لإقامة دين اللّه ومن بعد حال وما مصدرية مؤولة مع مدخولها بمصدر مضاف إلى بعد ، أي من بعد ظلمهم بالأذى من أهل

مكة . (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً) اللام موطئة للقسم وجملة نبوئنهم خبر الذين وفي الدنيا حال وحسنة صفة لمصدر محذوف أي تبوئة حسنة فهي نائب مفعول مطلق ولك أن تعربها مفعولا ثانيا لنبوئنهم لتضمن معناه نعطينهم فتكون صفة لمحذوف أي دارا حسنة (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) الواو حالية واللام للابتداء وأجر الآخرة مبتدأ وأكبر خبر ولو شرطية وكان واسمها وخبرها . (

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الذين خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين صبروا فمحله الرفع أو منصوب على المدح أي أعني الذين صبروا فمحله النصب وجملة صبروا صلة وعلى ربهم جار ومجرور متعلقان بيتوكلون ويتوكلون فعل مضارع وفاعل .

البلاغة :

1- إنما :

" إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون " عقد الامام عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز فصلا ممتعا عن إنما ننقل خلاصته ، فقد وقف يستلهم معاني " إنما " ويرى أن الوقوف فيها عند قول النحاة : انه ليس في انضمام " ما

" إلى " ان " فائدة أكثر من أنها تبطل عملها خطأ بيّن ، وأصل انما أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا ينكر صحته أو لما ينزل هذه المنزلة فمن الاول قوله تعالى " انما يستجيب الذين يسمعون " فكل عاقل يعلم انه لا تكون استجابة إلا ممن يعقل ما يقال له ويدعى اليه ومثال ما ينزل هذه المنزلة قول ابن الرقيات :

انما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظلماء وتفيد انما في الكلام الذي بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره وتجعل الأمر ظاهرا فإذا قلت إنما جاءني زيد عقل منه أنك أردت أن يكون الجائي غيره فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك : جاءني زيد لا عمرو إلا أن لها مزية وهي انك تعقل معها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة وتجعل الأمر ظاهرا في أن الجائي زيد .

2- الاستعارة التمثيلية : في قوله " كن فيكون " فهي استعارة للكينونة تمثل سرعة الإيجاد عند تعلق الارادة وليس هناك أمر حقيقة ولا كاف ولا نون وإلا لو كان هناك أمر لتوجه أن يقال إن كان الخطاب للشيء حال عدمه فلا يعقل لأن خطاب المعدوم لا يعقل وإن كان بعد وجوده ففيه تحصيل الحاصل وإنما القصد منه تصوير سرعة الحدوث بما لا يتجاوز أمده النطق بلفظ كن وما أسهلها .

3- الاخبار عن الماضي بالمستقبل أبلغ من الاخبار بالفعل الماضي وذلك في قوله تعالى " وعلى ربهم يتوكلون " فالظاهر أن المعنى على

المضي والتعبير بالمضارع لاستحضار تلك الصورة البديعة حتى كأن السامع يشاهدها وقد تقدم بحثه.

[سورة النحل (16) : الآيات 43 إلى 47]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (47)

اللغة:

(الزُّبُر) : الكتب جمع زبور بمعنى مزبور.

(تَخَوُّفٍ) : تنقص وهو من قولك تخوفته وتخونته إذا تنقصته قال زهير بن أبي سلمى - وقيل هو لأبي كبير الهذلي - :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السبفن

والمعنى يأخذهم على أن ينتقصهم شيئا بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا وعن عمر بن الخطاب أنه سأل عن معنى التخوف

في قوله تعالى " أو يأخذهم على تخوف " فيقوم له رجل من هذيل ويقول : هذه لغتنا التخوف التنقص قال عمر : فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم وأنشد البيت الآنف فقال عمر : عليكم بديوانكم لا يضل ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم .

الصحابة والغريب في القرآن :

بدأت مدرسة الرسول صلى اللّه عليه وسلم تترسّم خطاه في التفسير وتحفظ ما نقل عنه وترويه وقد تتزيد فيه بشرح لفظ غريب وعلى الرغم من هذا لا نعدم بعض الغريب في آيات الكتاب توقفوا عنده من ذلك ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن ابراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى : " وفاكهة وأبّا " فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب اللّه ما لا أعلم ؟ ونقل عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر " وفاكهة وأبّا " فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو

الكلف يا عمر ، وقد انقسم الصحابة في صدر الإسلام إلى قسمين : متحرج من القول في القرآن ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعبد اللّه بن عمر وكان عبد اللّه يأخذ على عبد اللّه بن عباس تفسيره القرآن بالشعر ، والقسم الثاني الذين لم يتحرجوا وفسروا القرآن حسب ما فهموا من الرسول أو حسب فهمهم الخاص بالمقارنة إلى الشعر العربي وكلام العرب ومن هؤلاء علي ابن أبي طالب وعبد اللّه بن عباس ومن أخذ عنهما وقد وقف ابن عباس على رأس المفسرين بالرأي المتخذين شعر العرب وسيلة إلى كشف معاني القرآن وكان علي بن أبي طالب يثني على عبد اللّه بن عباس ويقول :

كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ومن هؤلاء أيضا ابن مسعود وأبي ابن كعب وغيرهما وتبعهم الحسن البصري ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم ويقول أحمد أمين في كتابه الممتع فجر الإسلام ما خلاصته ان هؤلاء المفسرين من الصحابة والتابعين كانوا ينهجون منهجا يتلخص في الاسترشاد بحديث رسول اللّه وبروح القرآن وبالشعر العربي والأدب الجاهلي بوجه عام ثم عادات العرب في جاهليتها وصدر إسلامها وما قابلهم من أحداث وما لقي رسول اللّه من عداء ومنازعات وهجرة وحروب

لمحة عن ابن عباس ومدرسته :

وشق ابن عباس طريقه بين هؤلاء جميعا متزعما مدرسة خاصة تسلطت على التفسير وطبعته بطابعها وقد أورد السيوطي في " الإتقان " مسائل ابن الأزرق المائة في القرآن وجواب ابن عباس عليها بالشعر مفسرا غريب كل آية ببيت ويقول ابن عباس في تفسير القرآن بالشعر :

إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي ويقول :

إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إلمام ابن عباس واسعا بلغة القرآن ومعانيه حتى انه قال : كل القرآن أعلم إلا أربعا : غسلين وحنانا والأواه والرقيم .

وقد بدأت بمحاولات ابن عباس مدرسة جديدة في التفسير تكشف عن أسلوب القرآن ومعانيه بمقارنته بالأدب العربي شعره ونثره ومهدت هذه المدرسة لقيام حركة واسعة لجمع اللغة والشعر من مضارب الخيام وبوادي العرب ليواجهوا ما في القرآن من الغريب الذي ابتعدت به الشقة عن الحجاز وقلب الجزيرة العربية في العراق وفارس والشام وغيرها من الأمصار الاسلامية وتلقط العلماء ما كانت تجود به ألسنة الأعراب من أمثلة توافق ما يجري في آيات القرآن وكانت هذه الحركة الكبرى سببا في حفظ العربية من

الضياع.

الاعراب:

(370/439)

(وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) الواو عاطفة ليتناسق الكلام يورد ناحية أخرى من نواحي تعنتهم وإصرارهم على القول: ان اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا فهلا بعث إلينا ملكا، ولك أن تجعلها استئنافية قائمة بنفسها والجملة مسوقة لما ذكرناه، وما نافية وأرسلنا فعل وفاعل ومن قبلك حال وإلا أداة حصر ورجالا مفعول أرسلنا وجملة نوحي إليهم صفة. (فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) الفاء الفصيحة أي إن شككتم فيما ذكر فاسألوا، واسألوا فعل أمر وفاعل وأهل الذكر مفعوله وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف دل عليه فاسألوا وكان واسمها وجملة لا تعلمون خبرها. (بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) بالبينات يحتمل متعلقات شتى فإما أن يتعلقا بأرسلنا داخلا تحت حكم الاستثناء مع رجالا أي وما أرسلنا إلا رجالا بالبينات ومثل له الزمخشري بقول القائل: ما ضربت إلا زيدا بالسوط لأن أصله ضربت زيدا بالسوط وإما متعلقان بمحذوف صفة لرجالا أي

رجالا ملتبسين بالبينات أي مصاحبين لها وإما بأرسلنا مضمرا كأنما قيل بم أرسلوا فقيل بالبينات وإما بنوحي أي نوحي إليهم بالبينات وهناك أوجه أخرى ضربنا عنها صفحا ، وأنزلنا عطف على أرسلنا وإليك متعلقان بأنزلنا والذكر مفعول به ولتبين اللام للتعليل وتبين منصوب

بأن مضمرة وهو متعلق بأنزلنا وللناس جار ومجرور متعلقان بتبين .

)

(371/439)

ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ما مفعول تبين وجملة نزل إليهم صلة ولعلهم لعل واسمها وجملة يتفكرون خبرها . (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والفاء عاطفة على محذوف - كما تقدم - يرشد اليه النظم أي أنزلنا إليك الذكر لتبين لهم مضمونه ولم يتفكروا في ذلك فكأنه قيل ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئات ؟ وأمن الذين فعل وفاعل وجملة مكروا صلة والسيئات صفة لمفعول مطلق محذوف أي المكرات السيئات ويجوز أن يكون مفعولا به لأمن أي أمنوا العقوبات السيئات أو منصوبا بنزع الخافض أي مكروا بالسيئات وان يخسف أن وما في حيزها

مصدر مفعول أمن على الوجه الأول في السيئات وبدل من السيئات على الوجه الثاني والله فاعل يخسف ، وبهم متعلقان بيخسف والأرض مفعول به . (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) عطف على أن يخسف ومن حيث حال وجملة لا يشعرون مضافة للظرف .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ) عطف أيضا على أن يخسف وفي تقلبهم حال من المفعول أي حال كونهم متقلبين في الأسفار والمتاجر وأسباب الدنيا والفاء عاطفة وما نافية حجازية وهم اسمها والباء حرف جر زائد ومعجزين مجرور بالباء لفظا منصوب محلا على انه خبر ما .

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ) عطف ثالث على أن يخسف وعلى تخوف حال أيضا من الفاعل أو المفعول أي يأخذهم متنقصا إياهم شيئا بعد شيء أو وهم متخوفون والفاء تعليل لما تقدم وان واسمها واللام المزحلقة ورؤوف خبر إن الاول ورحيم خبر إن الثاني .

[سورة النحل (16) : الآيات 48 إلى 52]

أَولَمْ يروْا إلى ما خلَقَ اللَّهُ مِنْ شيْ ءٍ يتفيَّؤُا ظِلالُه عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (50) وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52)

اللغة :

(يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ) تفيأ الظل تقلب وانتقل من جانب إلى آخر والمصدر التفيؤ من فاء يفيء إذا رجع ، وفاء لازم فإذا أريد تعديته عدي بالهمزة كقوله تعالى : " ما أفاء اللّه على رسوله " أو بالتضعيف نحو فيأ الله الظل فتفيأ ، وتفيأ مطاوع فيها فهو لازم واختلف في الفيء فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال أو بعده وهو ينسجم مع الآية وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظل فقط وما كان بعده فهو ظل وفيء فالظل أعم وقيل بل يختص الظل بما قبل الزوال والفيء بما بعده فالفيء لا يكون إلا في العشي وهو ما انصرفت عنه الشمس والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله . وفي القاموس والتاج وغيرهما : الظل : الفيء والجمع ظلال وأظلال وظلول وظل الليل سواده ، يقال أتانا في ظل الليل ، قال ذو الرمة :

قد أسعف النازح المجهول مسعفه في ظل أخضر يدعو هامة البوم

وهو استعارة لأن الظل في الحقيقة إنما هو ضوء شعاع الشمس دون الشعاع فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمة وليس بظل وقال أصحاب العلم : الظل مطلقا هو الضوء الثاني ومعنى ذلك أن النير إذا ارتفع عن الأفق استضاء الهواء بإثبات الشعاع فيه فهذا هو الضوء الأول فإذا حجب هذا الضوء حاجب كان ما وراء ذلك الحاجب ضوءا ثانيا بالنسبة إلى الضوء الاول لأنه مستفاد منه وهذا الضوء الثاني هو الظل وقد أوحى خيال الظل إلى الشعراء طرائف بديعة فمن ذلك قول المناوي في راقصة :

إذا ما تغنت قلت : سكرى صبابة وإن رقصت قلنا احتكام مدام

أرتنا خيال الظل والستر دونها فأبدت خيال الشمس وهو غمام

وذكر ابن قتيبة في كتابه (أدب الكاتب) ما نصه : " يذهب الناس إلى أن الظل والفيء واحد وليس كذلك لأن الظل يكون من أول النهار إلى آخره ، ومعنى الظل الستر والفيء لا يكون إلا بعد الزوال ولا يقال لما كان قبل الزوال فيء وانما سمي فيئًا لأنه ظل فاء من جانب إلى جانب أي رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق والفيء الرجوع قال اللّه تعالى : " حتى تفيء إلى أمر اللّه " أي ترجع .

(الشَّمَائِلِ) : جمع شمال أي عن جانبيهما أول النهار وآخره قال العلماء : إذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه إلى القبلة كان

ظلك عن يمينك فإذا ارتفعت الشمس واستوت في وسط السماء كان ظلك خلفك فإذا مالت الشمس إلى الغروب كان ظلك عن يسارك .

(داخِرُونَ) : خاضعون صاغرون .

الاعراب :

(أَ وَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي والواو عاطفة على محذوف مقدر يقتضيه السياق أي ألم ينظروا ولم يروا متوجهين إلى ما خلق اللّه والى ما جار ومجرور متعلقان بيروا ، وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بإلى لأن المراد منها الاعتبار وذلك الاعتبار لا يتأتى إلا بنفس الرؤية التي يكون معها النظر إلى الشيء لتدبره والتبصر فيه والتأمل بمغابه وعواقبه ، وجملة خلق اللّه صلة ومن شيء حال من ما خلق اللّه وصح أن تكون مبنية لوصفها مع أن كلمة شيء مبهمة وجملة يتفيأ ظلاله صفة لشيء وظلاله فاعل يتفيأ وعن اليمين حال وعن الشمائل عطف ويصح أن تكون "عن" اسما بمعنى جانب فعلى هذا تنتصب على الظرف ويصح أن تتعلق بتتفيأ ومعناه المجاوزة أي تتجاوز الظلال عن اليمين

إلى الشمال ، بقي هنا سؤال وهو لما ذا أفرد اليمين وجمع الشمال وأجاب العلماء بأجوبة عديدة أقربها إلى المنطق أن الابتداء يقع من اليمين وهو شيء واحد فلذلك وحد اليمين ثم ينتقص شيئًا فشيئًا وحالا بعد حال فهو بمعنى الجمع فصدق على كل حال لفظ الشمائل فتعدد بتعدد الحالات ، وللفراء رأي طريف قال : كأنه إذا وحّد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال وإذا جمع ذهب إلى كلها لأن قوله " ما خلق اللّه من شيء " لفظه واحد ومعناه الجمع ،

فعبر عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى " وجعل الظلمات والنور " وقال ابن الصائغ : " أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين لأن ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقي منه إلا اليسير فكأنه في جهة واحدة وهو بالعشي على العكس لاستيلائه على جميع الجهات فلحظت الغايتان في الآية ، هذا من جهة المعنى وفيه من جهة اللفظ المطابقة لأن سجّدا جمع فطابقه جمع الشمائل لاتصاله به فحصل في الآية مطابقة اللفظ للمعنى ولحظهما معا وتلك الغاية في الإعجاز " . وقيل أفرد اليمين مراعاة للفظ ما وجمع ثانيا مراعاة لمعناها و قد أفرد السهيلي رسالة لطيفة على هذه الآية .

وسجّدا حال من ظلاله والواو للحال وهم مبتدأ وداخرون خبر والجملة حالية من الضمير المستتر في سجدا فهي حال متداخلة. (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ) للّه جار ومجرور متعلقان بيسجد وما فاعل ليسجد وفي السموات صلة وما في الأرض عطف على ما في السموات ومن دابة في موضع نصب على الحال المبنية والملائكة عطف على ما ، وخصهم بالذكر بعد العموم تنويها بفضلهم.

)

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) الواو عاطفة وهم مبتدأ وجملة لا يستكبرون خبر. (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) جملة يخافون نصب على الحال من ضمير يستكبرون أو بدل من جملة لا يستكبرون لأن من خاف اللّه لم يستكبر عن عبادته ويخافون ربهم فعل مضارع وفاعل ومفعول به ومن فوقهم حال من ربهم أي يخافون ربهم عاليا عليهم في الرتبة على حد قوله " وهو القاهر فوق عباده " ويفعلون عطف على يخافون وما مفعول به وجملة يؤمرون صلة. (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) الواو استئنافية وقال اللّه فعل وفاعل ولا ناهية وتتخذوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وإلهين مفعول به واثنين صفة لإلهين ومن طريف المفارقات أن جميع المفسرين تقريبا يعربونها توكيدا

لإلهين وليست اثنين من ألفاظ التوكيد المعنوي وليست من باب التوكيد اللفظي ويظهر أن إعرابهم لها كذلك قائم على المعنى لأن معنى الوصف هو التوكيد وسترى بحثا طريفا عن ذلك في باب البلاغة وقد اضطر بعضهم إلى القول أن لفظ اثنين تأكيد لما فهم من إلهين من التثنية وقيل :

إن في الكلام تقديما وتأخيرا والتقدير : لا تتخذوا إثنين إلهين . إنما هو إله واحد (إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) إنما كافة ومكفوفة وهو مبتدأ وإله خبر وواحد صفة للتأكيد أيضا ، فإياي : الفاء الفصيحة وإياي مفعول به لفعل مضمر يفسره ما بعده أي بقوله ارهبون ، وارهبون فعل أمر والواو فاعل والنون للوقاية والياء المحذوفة لمراعاة الفواصل مفعوله .

(

وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) لك أن تجعل الواو عاطفة والجملة معطوفة على قوله إنما هو إله واحد ولك أن تجعلها استئنافية والجملة مستأنفة وله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات صلة والأرض عطف على ما في السموات . (وَلَهُ الدِّينُ واصِباً) الواو عاطفة وله خبر مقدم والدين مبتدأ مؤخر وواصبا حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور والتقدير والدين ثابت له حال كونه واصبا وفي معنى الوصب قولان أحدهما الدوام أي له الدين ثابتا سرمدا وثانيهما المشقة والكلفة ، أي له الدين ذا كلفة ومشقة . (أَفَغَيْرَ اللَّهِ

تَتَّقُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف والتقدير أبعد ما تقرر من توحيد اللّه وبعد ما عرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه كيف يعقل أن تتقوا غيره وترهبوا من غيره وغير اللّه مفعول مقدم لتتقون وتتقون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعله.

البلاغة:

اشتملت هذه الآيات على وجازتها على فنون من البلاغة تستوعب الأجلاد، وسنحاول تلخيصها في العبارات الآتية:

1- التغليب:

(377/439)

في قوله تعالى "ولّله يسجد ما في السموات وما في الأرض إلخ" فقد أتى بلفظ ما الموصولية في قوله ما في السموات وما في الأرض للتغليب لأن ما لا يعقل أكثر ممن يعقل في العدد والحكم للأغلب وما الموصولة في أصل وضعها لما لا يعقل كما أن من موضوعة في الأصل لمن يعقل وقد تتخالفان، ومن استعمال "من" لغير العاقل في الشعر قول العباس بن الأحنف:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلّي إلى من قد هويت أطير

فأوقع من على سرب القطا وهو غير عاقل وقول امرؤ القيس :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

فأوقع من على الطلل وهو غير عاقل .

وفيما يلي ضابط هام نوجزه فبما يلي :

- قد تستعمل " من " لغير العقلاء في ثلاث مسائل :

آ- أن ينزل غير العاقل منزلة العاقل كقوله تعالى " ومن أضل ممن يدعو من دون اللّه من لا يستجيب له إلى يوم القيامة " وقول امرئ القيس السابق .

وكذلك قول العباس بن الأحنف السابق الذكر .

فدعاء الأصنام التي لا تستجيب الدعاء في الآية الكريمة ونداء الطلل والقطا في البيتين سوغا تنزيلها منزلة العاقل إذ لا ينادى إلا العقلاء .

ب- أن يندمج غير العاقل مع العاقل في حكم واحد كقوله تعالى :

" أ فمن يخلق كمن لا يخلق " وقوله " ألم تر أن اللّه يسجد له من في السموات ومن في الأرض "

.

ح- أن يقترن غير العاقل بالعاقل في عموم مفصل كقوله تعالى :

" واللّه خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع " فالدابة تعم أصناف من يدب عن وجه الأرض وقد فصلها على ثلاثة

أنواع.

-وقد تستعمل (ما) للعاقل إذا اقترن العاقل بغير العاقل في حكم واحد كما في الآية

المتقدمة.

2-الاحتراس:

وذلك في قوله تعالى " وقال اللّه لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد " والمعروف انه لا يجمع بين العدد والمعدود إلا فيما وراء الواحد والاثنين فيقولون عندي رجال ثلاثة ونساء ثلاث لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فلو لم تشفعه بصفته لما فهمت العدد المراد وأما رجل وامرأة ورجلان وامرأتان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد وامرأة واحدة ورجلان اثنان وامرأتان اثنتان أما في الآية فالاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية وهو إله وإلهان دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريد

الدلالة على أن المراد الذي يساق إليه الحديث هو العدد كان لا بد من أن يشفع بما يؤكده ألا ترى أنك لو قلت إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل إليك أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية

فكان لا بد من الاحتراس وهذا من روائع البلاغة التي تتقطع دونها الأعناق.

3- الالتفات:

عن الغيبة إلى التكلم فقد قال: "وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إلخ" ثم عدل إلى الحضور وهو قوله "وإياي فارهبون" لأن ذلك أبلغ في الرهبة من أن يقول جريا على السياق فإياه فارهبون.

[سورة النحل (16): الآيات 53 إلى 60]

وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57)

وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)

اللغة :

(تَجْأَرُونَ) تتضرعون والجؤار بوزن الزكام رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الأعشى يصف راهبا :

يراوح من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا والمراوحة في العمل الانتقال من حالة إلى أخرى ولا يفوتنك ما في هذا الوصف من دقة ، وقبله :

وما آبلي على هيكل بناه وصلب فيه وصارا

والآبلي الراهب نسبة إلى آبل وهو قيم البيعة وصلب أي صور الصليب وفي القاموس : " جأر كمنع جأرا وجؤارا بوزن غراب رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث والبقرة والثور صاحا والنبت جأرا طال والأرض طال نبتها " .

(ظَلَّ) هنا بمعنى صار وليست على بابها من كونها تدل على الإقامة نهارا على الصفة المسندة إلى اسمها وعلى التقديرين هي ناقصة ومصدرها الظلول ويجوز ابقاؤها على معناها الأصلي وهو اتصاف الشيء بصفة ما نهارا فقط لأن الأوضاع تتشابه في الليل أي يظل سحابة نهاره مغتما مربدّ الوجه من الكآبة والحياء من الناس .

(كَظِيمٌ) : مملوء حنقا على الأنثى وفي المصباح : "كظمت الغيظ كظما من باب ضرب وكظوما أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ وفي التنزيل " الكاظمين الغيظ " وربما قيل كظمت على الغيظ وكظمني الغيظ فأنا كظيم ومكظوم وكظم البعير كظوما لم

يجتر " .

(هُونٍ) : هوان وذل قال اليزيدي : والهون الهوان بلغة قريش .

وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائي وحكى الكسائي انه البلاء والمشقة قالت الخنساء :

نهين النفوس وهون النفوس يوم الكريهة أبقى لها

الاعراب :

)

وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) ما شرطية في محل رفع مبتدأ وفعل الشرط محذوف وبكم متعلقان بفعل الشرط المحذوف ومن نعمة حال من اسم الشرط واختار أبو البقاء أن تكون حالا من الضمير في الجار والفاء رابطة لجواب الشرط ومن الله خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهو من الله والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط المحذوف والجواب في محل رفع خبر ما ويجوز أن تكون ما موصولة مبتدأ والجار والمجرور صلتها والخبر قوله فمن الله والفاء رابطة لتضمن الموصول معنى الشرط والتقدير والذي استقر بكم وسيأتي مزيد بحث عن حذف فعل الشرط والجواب في باب الفوائد . (ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) ثم

حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب تجأرون وجملة مسكم مضافة للظرف ومسكم فعل ومفعول به مقدم والضر فاعل مؤخر والفاء رابطة واليه متعلقان بتجأرون وتجأرون فعل مضارع وفاعل وجملة فإليه تجأرون لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم. (ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) ثم حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بما في إذا من معنى المفاجأة ولا يجوز أن يكون العامل

في إذا هو الجواب لأنه لا يعمل ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها وجملة كشف مضافة والضر مفعول به وعنكم متعلقان بكشف وإذا فجائية لا محل لها وقد تقدم القول فيها وفريق مبتدأ ساغ الابتداء به لأنه وصف بقوله منهم وبربهم جار ومجرور متعلقان يشركون وجملة يشركون خبر فريق ومن العجيب أن أبا البقاء تورط فقاس إذا الفجائية على إذا الشرطية فقال " فريق فاعل لفعل محذوف " وهذا طائح من أساسه. (لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) ليكفروا اللام لام التعليل ويكفروا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بيشركون أي اشراكهم سببه كفرهم بربهم ويجوز أن تكون اللام لام

الصيرورة أو العاقبة أي فعاقبة إشراكهم بالله غيره كفرهم بالنعمة التي هي كشف الضر عنهم فيكون متعلق ليكفروا بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف وبما متعلقان بيكفروا وجملة آتيناهم صلة ، فتمتعوا جملة معمولة لقول محذوف أي قل لهم يا محمد تمتعوا ، فسوف تعلمون الفاء الفصيحة وسوف حرف استقبال وتعلمون فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره عاقبة ذلك . (وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ) عطف على ما سبق ويجعلون فعل مضارع وفاعل ولما متعلقان بيجعلون وجملة لا يعلمون صلة لما والضمير في يعلمون عائد على المشركين والعائد محذوف يقدر بأنها تضر ولا تنفع ولك أن تجعله عائدا على الأصنام المدلول عليها بما أي الأشياء غير موصوفة بالعلم لا تشعر أجعلوا لها نصيبا في أنعامهم وزروعهم أم لا ، ونصيبا مفعول يجعلون ومما صفة لنصيبا وجملة رزقناهم صلة . (تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) التاء تاء القسم الجارة ولفظ الجلالة مجرور بتاء القسم والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره قسمي واللام واقعة في جواب القسم وتسألن فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون

المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون المشددة نون التوكيد

الثقيلة وقد تقدم لهذا الاعراب نظائر وعما متعلقان تسألن وجملة كنتم صلة وجملة تفترون

خبر كنتم . (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ) ويجعلون عطف على ما تقدم

ولّله متعلقان بيجعلون والبنات مفعول يجعلون وسبحانه منصوب على المصدرية بفعل

محذوف والجملة معترضة لكونه بتقدير الفعل وقد وقعت في مطاوي الكلام لأن قوله تعالى

ولهم ما يشتهون عطف على قوله لله البنات على رأي الزمخشري والفراء ، ولهم خبر مقدم

وما مبتدأ مؤخر وجملة يشتهون صلة وبعضهم أعراب ما في محل نصب فعل مقدر وجملة

ولهم ما يشتهون إما استئنافية وإما حالية ولك أن تعطف ما على البنات ولهم على للّه

فيكون من قبيل عطف المفردات وهذا رأي الزمخشري والفراء وتعقبهما أبو حيان فقال "

وذهلوا عن قاعدة في النحو وهي أن الفعل إذا رفع ضميرا وجاء بعده ضمير منصوب لا

يجوز أن ينصبه الفعل إلا إن كان من باب ظن وأخواتها من الأفعال القلبية أو فقد وعدم

فيجوز زيد ظنه قائما تريد ظن نفسه ، ولو قلت زيد ضربه فتجعل في ضرب ضمير رفع

عائدا على زيد وقد تعدي للضمير المنصوب لم يجز والمجرور يجري مجرى المنصوب فلو قلت

زيد غضب عليه لم يجز كما لم يجز زيد ضربه فلذلك امتنع أن يكون قولهم لهم متعلقا

بيجعلون .

)

وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) الواو حالية من ضمير يجعلون أي الواو أي كيف يستسيغون نسبة البنات اليه تعالى وهذه حالتهم وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة بشر أحدهم مضافة للظرف وبالأنثى جار ومجرور متعلقان ببشر وجملة ظل لا محل لها ووجهه اسم ظل ومسودا خبرها والواو حالية أيضا وهو مبتدأ وكظيم خبر والجملة حال متداخلة، وليس المراد السواد الذي

هو ضد البياض بل المراد الكناية بالسواد عن التغير والانكسار بما يحصل من الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا قاله الزجاج وقال الماوردي: بل المراد سواد اللون حقيقة قال: وهو قول الجمهور والأول أولى فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي. (يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ) جملة يتوارى حالية من الضمير في كظيم ومن القوم متعلقان به ومن سوء متعلق به أيضا فالأولى للابتداء والثانية للعلة وما اسم موصول مضاف لسوء وجملة بشر به صلة أي من الأنثى وسوءها حسب اعتقاداتهم أنها مستهدفة للغواية ويخافون عليها من الزنا ومن حيث كونها لا تكسب. (أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ) الهمزة للاستفهام وجملة يمسكه الاستفهامية معمولة لشيء محذوف هو حال من فاعل يتوارى أي يتوارى حائرا مترددا مترجحا بين اليقين والشك أيمسكه محتملا الذل أم يئده في الحياة ويمسكه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وعلى هون حال من الفاعل المستتر أو من المفعول به وأم حرف عطف ويدسه عطف على يمسكه وفي التراب متعلقان بيدسه والتذكير في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ .

(أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ) ألا حرف تنبيه وساء فعل ماض لإنشاء الذم وما نكرة منصوبة على التمييز أو موصولة فاعل ساء وجملة يحكمون صلة ولك أن تجعلها مصدرية والمصدر المؤول فاعل أي ساء حكمهم .

(لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) للذين خبر مقدم وجملة لا يؤمنون صلة وبالآخرة متعلقان بيؤمنون ومثل السوء مبتدأ مؤخر ولله المثل الأعلى عطف على ما سبق وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان .

الفوائد :

حذف فعل الشرط وجوابه :

يجوز حذف ما علم ما شرط إن كانت الأداة إن مقرونة بلا النافية كقول الأحوص يخاطب مطرا وكان مطر دميم الخلقة وتحته امرأة وسيمة :

فطلّقها فلست لها بكفء وإلّا يعل مفرقك الحسام

فحذف فعل الشرط لدلالة قوله فطلقها عليه وأبقى جوابه أي وإن لا تطلقها يعل ولهذه الشروط منع بعض المفسرين إعراب " وما بكم من نعمة فمن اللّه " شرطية واكتفى بأن جعلها موصولة لكن نقل النحاة ان هذه الشروط ليست ملزمة فقد يتخلف واحد من إن والاقتران بلا وقد يتخلفان معا فالأول ما حكاه ابن الأنباري في الإنصاف عن العرب : من يسلم عليك فسلم عليه ومن لا فلا تعبأ به أي ومن لا يسلم عليك فلا تعبأ به قال الشاطبي وهذا نص في الجواز والثاني نحو " وإن امرأة خافت من بعلها " فحذف الشرط مع انتفاء اقتران إن بلا والثالث كقوله :

متى تؤخذوا قسرا بظنة عامر ولم ينج إلا في الصفاد يزيد

أي متى تثقفوا تؤخذوا فحذف الشرط مع انتفاء الأمرين ويجوز حذف ما علم من جواب شرط ماض نحو " فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية " فإن استطعت شرط حذف جوابه لدلالة الكلام عليه والتقدير فافعل والشرط الثاني وجوابه جواب للشرط الأول والمعنى إن استطعت منفذا تحت الأرض تنفذ فيه فتطلع

لهم بآية أو سلما تصعد به إلى السماء فتنزل منها بآية فافعل وسيأتي تفصيل ذلك في مواضعه.

وفيما يلي عبارة ابن هشام في المغني قال عند الكلام على ما الشرطية: "وقد جوزت في: وما بكم من نعمة فمن الله على أن الأصل وما يكن ثم حذف فعل الشرط كقوله:

إن العقل في أموالنا لا نضق بها ذراعا وإن صبرا فنصبر للصبر

أي إن يكن العقل وان نحبس حبسا والأرجح في الآية أنها موصولة وان الفاء داخلة على الخبر لا شرطية والفاء داخلة على الجواب".

[سورة النحل (16) : الآيات 61 إلى 64]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63) وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)

اللغة :

(

مُفْرَطُونَ) : اسم مفعول من أفرط أي أعجل يقال : أفرطت فلانا وفرطته في طلب الماء إذا قدمته وقيل منسيون متروكون من أفرطت فلانا خلفي إذا خلفته ونسيته وفي المختار : " وفرط القوم سبقهم إلى الماء فهو فارط والجمع فراط بوزن كتاب وبابه نصر وأفرطه تركه ومنه قوله تعالى " وانهم مفرطون " أي متروكون في النار منسيون وأفرط في الأمر جاوز الحدّ فيه " وفي القاموس : " وأفرط فلانا : تركه وتقدمه وجاوز الحد وأعجل بالأمر وانهم مفرطون أي منسيون متروكون في النار أو مقدمون معجلون إليها .

وفي الحديث : عن أنس عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : إني فرطكم على الحوض من مرّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا ، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم " وقال القطامي :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تعجل فراط لورّاد

الاعراب :

(وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ) الواو استئنافية ولو شرطية ويؤاخذ

اللّه الناس فعل مضارع وفاعل ومفعول به وبظلمهم الباء حرف جر للسببية أي بسبب

ظلمهم متعلقان بيؤاخذ وجملة ما ترك لا محل لها وترك فعل وفاعل مستتر وعليها متعلقان

بمحذوف حال لأنه كان صفة لدابة ومن حرف جر زائد ودابة مجرور

لفظا مفعول به محلا والضمير يعود على الأرض وان لم تذكر فقد دلّ عليها ذكر الناس وذكر

الدابة فإن الجميع مستقرون على الأرض.

)

(387/439)

وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) الواو عاطفة ولكن حرف استدراك مهمل لأنها مخففة

ويؤخرهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإلى أجل متعلقان بيؤخرهم ومسمى

صفة أي معين. (فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) الفاء عاطفة أو

استئنافية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة جاء أجلهم مضافة للظرف

وجملة لا يستأخرون لا محل لها وساعة ظرف متعلق بيستأخرون ولا يستقدمون عطف

على لا يستأخرون وقد تقدمت الاشارة في آية مماثلة لها إلى معنى لا يستأخرون ولا

يستقدمون . (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) ويجعلون فعل مضارع وفاعل ولله متعلقان بيجعلون وما مفعول يجعلون وجملة يكرهون صلة وتصف ألسنتهم الكذب فعل مضارع وفاعل ومفعول به وقد فسر الكذب بقوله : (أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى) فأن وما في حيزها بدل من الكذب بدل الكل من الكل ولهم خبر أن المقدم والحسني اسمها المؤخر . (لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) تقدم القول في لا جرم ، وأن وخبرها المقدم واسمها المؤخر وإنهم مفرطون عطف على أن لهم النار . (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ) التاء تاء القسم والجر والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المقدر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل والى أمم متعلقان بأرسلنا ومن قبلك صفة . (فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ) الفاء عاطفة وزين فعل ماض ولهم متعلقان بزين والشيطان فاعل وأعمالهم مفعول به . (فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) الفاء عاطفة وهو مبتدأ ووليهم خبر واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال إذا

أردت حكاية الحال الآتية أو في الدنيا أو متعلق بوليهم إذا أردت حكاية الحال الماضية التي كان الشيطان يزين لهم أعمالهم فيها بمعنى ناصرهم ومعينهم ، ولهم خبر مقدم وعذاب

مبتدأ مؤخر وأليم صفة . (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ) الواو عاطفة وما نافية وأنزلنا فعل وفاعل وعليك متعلقان بأنزلنا والكتاب مفعول به وإلا أداة حصر ولتبين لام التعليل ومدخولها متعلقة بأنزلنا على معنى التعليل وإنما جر المفعول لأجله باللام لاختلاف فاعله مع فاعل الفعل فإن المنزل هو الله والمبين هو النبي . (وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) هدى ورحمة عطف على محل لتبين وقد انتصبا نصب المفعول لأجله لاتحاد فاعلهما مع فاعل الفعل لأن الهادي والرحم هو الله كما هو المنزل ولقوم صفة أو متعلقان بالمصدر وجملة يؤمنون صفة لقوم .

الفوائد :

بحث مهم عن فاء التعقيب :

المعروف عن الفاء العاطفة أنها للعطف مع التعقيب ولكنه ليس التعقيب الفوري بل هي للتعقيب حسب ما يصح إما عقلا وإما عادة ولهذا صح أن يقال دخلت البصرة فبغداد وإن كان بينهما زمان كثير لكن يعقب دخول هذه دخول تلك على ما يمكن بمعنى انه لم يمكث بواسط مثلا سنة أو مدة طويلة بل طوى المنازل بعد البصرة ولم يقم بواحد منها إقامة يخرج بها عن حد السفر إلى أن دخل بغداد ، هذا الذي يقوله أهل اللغة وأهل الأصول وليست الفاء للفور الحقيقي الذي معناه حصول هذا بعد هذا بغير فصل ولا زمان ، ألا ترى إلى قوله تعالى " فإذا جاء أجلهم " فإن مجيء الأجل متراخ عن التأخير وسيأتي لهذا

نظائر.

[سورة النحل (16) : الآيات 65 إلى 69]

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

اللغة:

(الْأَنْعامِ) : تقدم شرحها في سورة الانعام وقد ذكر سيبويه الانعام في باب مالا ينصرف في الأسماء الواردة على أفعال ولذلك رجع الضمير اليه مفردا وقد رجع الضمير إليها مؤنثا في سورة المؤمنون لأن معناها الجمع ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان أحدهما أن يكون تكسير نعم كأجبال في جبل وأن يكون اسما مفردا مقتضيا لمعنى الجمع فاذا ذكر فكما يذكر

نعم في قوله :

في كل عام نعم تحوونه يلقحه قوم وتنتجونه

وإذا أنث ففيه وجهان انه تكسير نعم وانه في معنى الجمع ، ولسيبويه بحث طريف كما قلنا فقد عدّ المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأمشاج فيعامل بالتذكير تارة باعتبار لفظه وبالتأنيث أخرى اعتبارا بمعناه وقيل هو جمع نعم كأسباب وسبب .

وقال ابن يعيش : " واعلم أن أبنية القلة أقرب إلى الواحد من أبنية الكثرة ولذلك يجري عليها كثير من أحكام المفرد ومن ذلك جواز تصغيره على لفظه خلافا للجمع الكثير ومنها جواز وصف المفرد بها :

غرب ثوب أسمال وبرمة اكسار ومنها جواز عود الضمير إليها بلفظ الإفراد نحو قوله تعالى : " وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه " .

(عبرة) : عظة أي دلالة يعبر عليها من الجهل إلى العلم فهي مصدر بمعنى العبور أطلق على ما يعبر به إلى العلم مبالغة في كونه سببا إلى العبور .

(فَرْثٍ) : الفرث الروث والأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش .

قال الحريري في درة الغواص : " ويقولون : فرث لما يخرج من الكرش وهو وهم لأنه إنما يسسى به ما دام فيها فإذا خرج سمي سرجينا

ومن أمثال العرب فيمن يحفظ الحقير ويضع الجليل : " فلان يحفظ الفرث ويفسد الحرث "

وأجيب عن هذا بأن ذلك القول باعتبار ما كان ومثله كثير مطرد .

(سائِغاً) : سهل المرور في الحلق لا يغص به .

(سَكَراً) : السكر بفتحتين الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا ، قال :

فجاءونا لهم سكر علينا فأجلى اليوم والسكران صاح

وفي القاموس والتاج : سكر يسكر من باب تعب سكرا بفتحتين وسكرا بضم فسكون وسكرا بضمتين وسكرا بفتح فسكون وسكرانا بفتحتين من الشراب نقيض صحا فهو سكر وسكران وهي سكرة وسكرى وسكرانة والجمع سكرى وسكارى بفتح السين وسكارى بضمها وجاء في غيره : " في السكر أربعة أقوال : الأول أنه من أسماء الخمر والثاني أنه مصدر في الأصل ثم سمي به الخمر والثالث أنه اسم للخل بلغة الحبشة والرابع أنه اسم للعصير ما دام حلوا كأنه سمي مجازا لمآله لذلك لو ترك " .

(يَعْرِشُونَ) : يبنون وبابه ضرب ونصر كما في المختار وفي القاموس : وعرش يعرش بنى عريشا كأعرش وعرش بالتثقيل .

الاعراب :

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) الله مبتدأ وجملة أنزل خبر ومن السماء متعلقان بأنزل وماء مفعول به فأحيا عطف

على أنزل وبه متعلقان بأحيا والأرض مفعول وبعد موتها الظرف متعلق بمحذوف حال .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) إن وخبرها المقدم واللام المزحلقة وآية اسم ان ولقوم صفة لآية وجملة يسمعون صفة لقوم . (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً) الواو عاطفة وإن حرف مشبه بالفعل ولكم خبرها المقدم وفي الأنعام حال لأنه كان صفة لعبرة واللام المزحلقة وعبرة اسمها المؤخر . (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) نسقيكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومما متعلقان بنسقيكم وفي بطونه صلة ما وجملة نسقيكم مفسرة لعبرة أو خبر لمبتدأ محذوف على حد قوله " تسمع بالمعيدي خير من أن تراه " كأنه قيل : العبرة هي نسقيكم ومن بين فرث ودم حال لأنه كان في الأصل صفة لقوله لبنا وقدم عليه ولك أن تجعله حالا من ما التي قبله ومعنى من الأولى للتبعيض لأن اللبن بعض ما في بطونها والثانية ابتدائية لأن بين الفرث والدم مكان الاسقاء الذي منه يبتدأ ولبنا مفعول ثان

لنسقيكم وسائغا صفة وللشاربين متعلقان بسائغا . (

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) ومن ثمرات النخيل خبر مقدم وجملة تتخذون صفة لموصوف محذوف هو المبتدأ المؤخر أي ثمر كانوا يتخذون منه سكرا ورزقا حسنا لأنهم كانوا يأكلون منه بعضا ويتخذون السكر من بعضه الآخر ولك أن تعلقه بمحذوف دل عليه نسقيكم أي نسقيكم من عصير النخيل والأعناب وعندئذ تكون جملة تتخذون حالا وقال أبو حيان : " والظاهر تعلق من ثمرات بتتخذون وكررت من للتوكيد وكان الضمير مفردا راعيا لمحذوف أي ومن عصير ثمرات أو على معنى الثمرات وهو الثمر وقيل تتعلق بنسقيكم فيكون معطوفا على مما في بطونه أو بنسقيكم محذوفة دل عليها نسقيكم المتقدمة فيكون من عطف الجمل والذي قبله من عطف المفردات إذا اشتركا في العامل

و قيل معطوف على الأنعام أي ومن ثمرات النخيل والأعناب عبرة ثم بيّن العبرة بقوله تتخذون " وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون تتخذون صفة موصوف محذوف كقوله " بكفي كان من أرمى البشر " تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه .

والضمير في منه يعود على العصير المقدر والأول أضبط وسكرا مفعول تتخذون ورزقا عطف على سكرا وحسنا صفة ولا يخفى ما يتولد عن العنب والتمر من خل وزبيب ودبس وفي المختار : الدبس ما يسيل من الرطب . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) إن وخبرها المقدم واللام المزحلقة وآية اسمها المؤخر وجملة يعقلون صفة لقوم. (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) الواو عاطفة على ما قبلها لتتساوق الدلائل على عجائب صنعته تعالى وبدائع قدرته ولك أن تجعلها مستأنفة مسوقة لما ذكر وأوحى ربك فعل وفاعل والى النحل متعلقان بأوحى وأن هي المفسرة لأن في الإيحاء معنى القول دون حروفه وهو الشرط المعقود لأن التفسيرية ، ولك أن تجعلها مصدرية وهي مع مدخولها نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بأوحينا أي بأن اتخذي وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب الفوائد فتنبّه له ومن الجبال متعلقان باتخذي فمن للتبعيض لأنها لا تبني بيوتها في كل جبل وشجر وكل ما يعرش وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب البلاغة وبيوتا مفعول اتخذي ومن الشجر عطف على من الجبال وكذلك مما يعرشون . (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) ثم حرف عطف للتراخي والسرّ فيه أن سعيها لطلب الرزق بعد اتخاذها البيوت نسكناها لتطلب بعد ذلك الرزق في مظانه ، وكلّيّ فعل أمر وفاعل ومن كل الثمرات متعلقان بكلّيّ فاسلكي الفاء عاطفة واسلكي عطف على كلّيّ وسبل ربك مفعول به وذللا حال من السبل لأن اللّه ذللها لها ووطأ لها

مهادها ومسالكها أو من فاعل اسلكي أي وأنت منقادة لما أمرت به وهيئت له . (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة سيأتي الكلام عنه في باب البلاغة ويخرج فعل مضارع ومن بطونها متعلقان بيخرج وشراب فاعل يخرج ومختلف صفة لشراب وألوانه فاعل مختلف لأنه اسم فاعل وفيه خبر مقدم وشفاء مبتدأ مؤخر وللناس جار ومجرور متعلقان بشفاء والجملة صفة ثانية لشراب . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) تقدم إعراب نظيرتها قريبا فجدد به عهدا .

البلاغة :

1- الالتفات :

في قوله تعالى " يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه " إلى آخر الآية ، التفات من الخطاب إلى الغيبة ولو جاء الكلام على النسق الأول لقيل من بطونك ، وإنما صرف الكلام ها هنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة وهي انه ذكر للبشر العسل وأوصافه وألوانه المختلفة وأخبرهم أن فيه فوائد شتى لهم ليلفت انتباههم اليه ولو قال من بطونك لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام .

2- التنكير :

ونكر قوله " فيه شفاء " ولم يقل فيه الشفاء لكل الناس فاندفع الاعتراض بأن كثيرين يأكلون العسل ولا يشفون مما ألم بهم . فيلاحظ أن النكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد أن رجلا أتى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول اللّه إن أخي استطلق بطنه فقال : اسقه عسلا فسقاه عسلا ثم جاء فقال سقيته عسلا فما زاد إلا استطلاقا ، قال اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه ، ثم جاء فقال ما زاده إلا استطلاقا فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : صدق اللّه وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه عسلا فبرىء .

3- التنكيت :

في قوله تعالى : " أن اتخذي من الجبال بيوتا " وقد تقدمت الإشارة إليه وهو هنا في قوله من الجبال إذ معنى من هنا للتبعيض ولم يقل في الجبال لأنها لا تبني بيوتها في كل جبل وفي كل شجر وكل ما يعرش فلم يترك لها الحرية في بناء البيوت ولم يكل الأمر إلى شهواتها كما وكله إليها في قوله ثم كلّي من الثمرات وإنما خولف ذلك وحجر عليها في المسكن ولم يحجر عليها

في المأكل لأن مصلحة الآكل حاصلة على الإطلاق لاستمراء مشتهاها منه وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع ولهذا المعنى بالذات دخلت ثم لتفاوت الأمر وتباعده بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والإطلاق لها في تناول الثمرات .

الفوائد :

أن التفسيرية :

تقدم القول في " أن التفسيرية " وانها الواقعة بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه وقد وقعت هنا بعد الإيحاء لما فيه من معنى القول فما بعدها لا محل له من الاعراب ومن طريف المناقشات أن أبا عبد اللّه الرازي وهو الفخر المشهور منع ذلك وقال إننا لا نسلم أنها مفسرة كيف

وقد انتفى شرط التفسير لأن الوحي هنا إلهام باتفاق وليس في الإلهام معنى القول قال : وإنما هي مصدرية أي باتخاذ الجبال بيوتا ولكن الفخر الرازي جنح به الخيال هذه المرة فلم يقع على الصواب إذ المقصود من القول الإعلام والإلهام فعل من أفعال اللّه يتضمن الإعلام بحيث يكون الملهم عالما بما ألهم به وإلهام اللّه النحل من هذا القبيل .

[سورة النحل (16) : الآيات 70 إلى 72]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)

اللغة:

(حَفَدَةً): الحفدة: جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة، قال:

حفد الولائد بينهن وأسلمت بأكفهنّ أزمة الأجمال

وفي الصحاح: "الحفدة الأعوان والخدم أيضا" وفي المختار:

"الحفد السرعة وبابه ضرب وحفدا أيضا بفتح الفاء ومنه قولهم في الدعاء وإليك نسعى ونحفد، وأحفده حمله على الحفد وبعضهم يجعل أحفد لازما والحفد بفتحتين الأعوان والخدم وقيل ولد الولد واحدهم حافد" وفي القاموس والتاج: "حفد يحفد من باب ضرب حفدا بسكون الفاء وحفودا وحفدانا واحتفد في العمل أسرع وحفده خدمه وأحفد الظلم أسرع وأحفده حمله على الحفد أي الإسراع والحفيد ولد الولد وجمعه حفداء والحافد: الخادم والتابع والناصر وولد الولد وجمعه حفدة وحفد والحفدة أيضا:

صناع الوشي " وللمفسرين كلام طويل حول المراد بهم واللفظ يحتمل الجميع لاشتمال الحفدة على الكثير من المعاني كما تقدم.

الاعراب:

(396/439)

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) الله مبتدأ وجملة خلقكم خبر ثم حرف عطف للتراخي كما تقدم ومنكم الواو حرف عطف ومنكم خبر مقدم وهو معطوف على مقدر أي فمنكم من يبقى محتفظا بقوة جسمه وعقله ومنكم، ومن مبتدأ مؤخر وجملة يرد صلة ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وإلى أرذل العمر متعلقان بيرد وأرذل العمر هو الهرم حيث تغور الأعين وتضعف الحركات وترتعش المفاصل ويدب الوهن إلى جميع أنحاء الجسم ويستولي الخرف عليه.

(لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) اللام لام التعليل وكي حرف مصدري ونصب ولا نافية ويعلم منصوب بكي واللام ومدخولها متعلقة بيرد ويجوز أن تكون اللام للصيرورة أي فكانت عاقبته أنه رجع إلى حال الطفولة في النسيان وعدم الإدراك، وبعد علم ظرف متعلق

بيعلم وشيئا مفعول به ليعلم ولك أن تجعل المسألة من باب التنازع فتنصب شيئا بالعلم وهو مصدر وإن واسمها وعليم خبرها الأول وقدير خبرها الثاني . (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) الله مبتدأ وجملة فضل خبر وبعضكم مفعول به وعلى بعض جار ومجرور متعلقان بفضل وفي الرزق حال أي حالة كونكم مرزوقين فمنكم غني ومنكم فقير . (فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) الفاء عاطفة وما نافية حجازية والذين اسمها وجملة فضلوا صلة والباء حرف جر زائد ورادي مجرور لفظا خبر ما محلا ورزقهم مضاف اليه من إضافة المصدر إلى مفعوله وعلى ما متعلقان برادي وملكت أيمانهم صلة .

(فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) الفاء عاطفة للدلالة على أن التساوي مترتب على التراد أي لا يردون عليهم ردا مستتبعا للتساوي وإنما يردون عليهم شيئا يسيرا وهم مبتدأ وفيه متعلقان بسواء وسواء خبرهم وسيأتي بحث هذا الإيجاز البليغ في باب البلاغة . (أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) استفهام إنكار وتوبيخ والفاء عاطفة على مقدر أي يشركون به فيجحدون نعمته وبنعمة الله متعلقان بيجحدون لأنه متضمن معنى الكفران . (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً) الله مبتدأ وجملة جعل خبر ولكم متعلقان بجعل ومن أنفسكم حال لأنه

كان في الأصل صفة لأزواجا وأزواجا مفعول جعل (وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) عطف على ما تقدم والاعراب مماثل لها (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) ورزقكم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ومن الطيبات متعلقان برزقكم والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والفاء عاطفة على مقدر أي يكفرون بالّله فيؤمنون بالباطل وبنعمة اللّه متعلقان يكفرون وهم مبتدأ وجملة يكفرون خبر.

البلاغة:

الإيجاز:

في قوله تعالى "فهم فيه سواء" إيجاز بليغ، وإشارة إلى أرفع النظم التي يتحتم على البشر سلكوكها في دنياهم لتستقيم أمورهم، وتزول أسباب العداوة والخصام من قلوبهم وليسود السلام بينهم فقد أخبر تعالى أنه جعلهم متفاوتين في الرزق ولكن هذا التفاوت لا يعني تفضيلهم عليهم في الانسانية أو كأنه يشير إلى أن الواجب يحتم عليكم أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملابس والمطاعم روي عن أبي ذر الغفاري أنه سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول:

"

إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون " ويزداد هذا المعنى رسوخا بما تلاه من توبيخ لهم وتقريع لأنهم فرقوا بين الناس وما يزوا بين الطبقات . وفي قوله تعالى " إلى أرذل العمر " إيجاز آخر ، إلى الهرم وما يستوجبه من حالات الضعف والخرف التي تدنو بالعاجز والهرم إلى عالم الطفولة الأول مع الفارق البيّن بين الأمل المترتب على الطفولة ومخايلها المبشرة بالفوز في المستقبل والأمل بالحياة الراغد في الآتي أما الآن فليس أمامه إلا مكابدة الحالات التي كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتعوذ منها وهي قوله : " اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات " .

[سورة النحل (16) : الآيات 73 إلى 76]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (74)

اللغة :

(أَبْكَمُ) : الأبكم الذي ولد أخرس فهو أخص من مطلق الأخرس وفي القاموس : " البكم

محرك الخرس كالبكامة أو مع عيّ وبله أو أن يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر وبكم كفرح فهو أبكم وبكيم والجمع بكم ، وبكم ككرم امتنع عن الكلام تعمدا " وروى ثعلب عن ابن الاعرابي : الأبكم الذي لا يسمع ولا يبصر وعلى هذا يتميز عن الأخرس بأنه لا يفهم ولا يفهم أما الأخرس فيفهم بالسماع أو بالاشارة ويفهم بالاشارة .

(كَلٌّ) : ثقيل على من يلي أمره ويعوله وفي القاموس وغيره :

" مصدر كل يكل من باب تعب كلّا وكلة وكلالة وكلولا وكلالة وكلولة تعب وأعيا والضعيف والذي لا ولد له ولا والد وقفا السكين أو السيف والوكيل والصنم والمصيبة تحدث والعيّل والعيال والثقل ويطلق الكلّ على الواحد وغيره وبعضهم يجمع المذكر والمؤنث على كلول "

.

الاعراب :

(400/439)

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) الواو عاطفة ويعبدون فعل مضارع وفاعل ومن دون اللّه حال وما مفعول به وجملة لا يملك صلة ورزقا مفعول به ومن السموات والأرض صفة لرزقا أو متعلقان برزقا . (شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ) شيئا مفعول

به لرزقا إذا أردت به المصدر أو اسم المصدر كقوله تعالى : " أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما . . . " ، وان أردت به المرزوق كان شيئا بدلا منه بمعنى قليلا وسيأتي في باب الفوائد تفصيل حول إعراب شيئا لا بد من معرفته ، ولا يستطيعون يجوز في هذه الجملة العطف على صلة ما والاخبار عنهم بعدم الاستطاعة باعتبار معناها لأن ما هنا مفردة لفظا جمع معنى ويجوز أن تكون مستأنفة وعلى كل حال الواو عائدة على ما والمراد بها آلهتهم (فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ) الفاء استئنافية ولا ناهية وتضربوا فعل مضارع مجزوم والواو فاعل ولله متعلقان بتضربوا والأمثال مفعول به لأن ضرب المثل تشبيه حال بحال وذلك يتنافى مع الذات الإلهية . (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) إن واسمها وجملة يعلم خبر والجملة تعليلية وأنتم الواو حالية وأنتم مبتدأ وجملة لا تعلمون خبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 268. 339 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 75 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 79 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ختم سبحانه بذلك تأكيداً لإبطال مذهب عبدة الأصنام بسلب العلم الذي هو مناط السداد عنهم ، حسن أن يصل به قوله – إقامة للدليل على علمه بأن أمثاله لا يتطرق إليها الطعن ، ولا يتوجه نحوها الشكوك – : ﴿ ضرب الله ﴾ أي الذي له كمال العلم وتمام القدرة ﴿ مثلاً ﴾ بالأحرار والعبيد له ولما عبدتموه معه ؛ ثم أبدل من مثلاً : ﴿ عبداً ﴾ ولما كان العبد يطلق على الحر بالنسبة إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿مملوكاً ﴾ لا مكاتباً ولا فيه شائبة للحرية ﴿ ولا يقدر على شيء ﴾ بإذن سيده ولا غيره ، وهذا مثل شركائهم ، ثم عطف على "عبداً" قوله : ﴿ ومن رزقناه منا ﴾ من الأحرار ﴿ رزقاً حسناً ﴾ واسعاً طيباً ﴿ فهو ينفق منه ﴾ دائماً ، وهو معنى ﴿ سراً وجهراً ﴾ وهذا مثل الإله وله المثل الأعلى ؛ ثم بكتهم إنكاراً عليهم بقوله تعالى : ﴿ هل يستوون ﴾ أي هذان الفريقان

الممثل بهما ، لأن المراد الجنس ، فإذا كان لا يسوغ في عقل أن يسوي بين مخلوقين : أحدهما حر مقتدر والآخر مملوك عاجز ، فكيف يسوي بين حجر موات أو غيره وبين الله الذي له القدرة التامة على كل شيء ؟

ولما كان الجواب قطعاً : لا ، وعلم أن الفاضل ما كان مثالاً له سبحانه ، على أن من سوى بينهما أو فعل ما يؤول إلى التسوية أجهل الجهلة .

(5/440)

فثبت مضمون ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ وأن غيره تعالى لا يساوي شيئاً ، فثبت بلا ريب أنه المختص بالمثل الأعلى ، فعبر عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ أي له الإحاطة بالعلم وجميع صفات الكمال التي منها اختصاصه بالشكر ، لكونه هو المنعم وليس لغيره إحاطة بشيء من ذلك ولا غيره ، فكأنهم قالوا : نحن نعلم ذلك ، فقيل : ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي في الظاهر والباطن - بما أشار إليه الإضمار ﴿ لا يعلمون ﴾ لكونهم يسوون به غيره ، ومن نفى عنه العلم - الذي هو أعلى صفات الكمال - كان في عداد الأنعام ، فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ، ويضربون الأمثال الباطلة ، ويضيفون نعمه إلى ما لا يعد ، ولعله أتى بضمير الغيبة لقصر ذلك على من ختم بموته على الضلال ، أو يقال وهو أرشق : لما كان

الجواب قطعاً : لا يستووت والفاضل مثالك ، فقد علم كل ذي لب أن لك المثل الأعلى ، فترجم عن وصفه بقوله " الحمد لله " أي الإحاطة بصفات الكمال للملك الأعظم ، وعن نسبتهم إلى علم ذلك بقوله تعالى ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم علم بشيء أصلاً ، لأنهم يعملون في هذا بالجهل ، فنسبتهم إلى الغباوة أحسن في حقهم من نسبتهم إلى الضلال على علم ، وسيأتي في سورة لقمان إن شاء الله تعالى ما يكون نافعاً في هذا المقام ، وإنما فسرت الحمد بما تقدم لأنه قد مضى في سورة الفاتحة أن مادة " حمد " تدور على بلوغ الغاية ، ويلزمه منه الاتساع والإحاطة والاستدارة ، فيلزمها مطأطأة الرأس وقد يلزم الغاية الرضى فيلزمه الشكر ، وبيانه أن الحمد بمعنى الرضا والشكر لأنهما يكونان غالباً من غاية الإحسان ، ويرجع إلى ذلك الحمد بمعنى الجزاء وقضاء الحق ، وحماداك - بالضم ، أي غايتك ، ويوم محتمد : شديد الحر ، وحمد النار - محركة : صوت التهابها ، وأما يتحمد عليّ - بمعنى يمتن - فأصله : يذكر ما يلزم منه حمده ، ومنه المدح : وهو حسن الثناء ، وتمدح بمعنى تكلف أن يمدح وافتخر وتشبع بما ليس عنده ، فإنه في

كل ذلك بذل جهده ، ودحمه - كمنع : دفعه شديداً ، والمرأة : نكحها - لما في ذلك من بلوغ الغاية في الشهوة وما يلزمها من الدفع ونحوه ، والدحم - بالكسر : الأصل - لأنه غاية الشيء الذي ينتهي إليه ، وحدم النار - ويحرك : شدة احتراقها وحميها ، واحتدم الدم : اشتدت حمرته حتى يسود ، والحدمة - محركة : النار - لأنها غاية الحر ، والحدمة أيضاً : صوتها - لدلالته على قوة التهابها ، ومن ذلك الحدمة أيضاً لصوت جوف الحية ، أو صوت في الجوف كأنه تغيظ - لأنه يدل على غاية التهاب الباطن ، والحدمة - كفرحة : السريعة الغلي من القدور ؛ ومن الاتساع : تمدحت الأرض أي اتسعت ؛ ومن الاستدارة : الداحوم لحبالة الثعلب - لأنها بلغت الغاية من مراد الصائد ، ولأنه لما لم يقدر على الخلاص منها كانت كأنها قد أحاطت به ، والدمحح : المستدير الململم ، ودمح تدميحاً : طأطأ رأسه - لأن الانعطاف مبدأ الاستدارة - والله سبحانه وتعالى الموفق .

(7/440)

ولما انقضى هذا المثل كافياً في المراد ، ملزماً لهم لاعترافهم بأن الأصنام عبيد الله في قولهم " لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وكان ربما كابر مكابر فقال : إنهم ليسوا ملكاً له ، أتبعه مثلاً آخر لا تمكن المكابرة فيه ، فقال تعالى : ﴿ وضرب

الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة أيضاً ﴿ مثلاً ﴾ ثم أبدل منه ﴿ رجلين ﴾ ثم استأنف البيان لما أجمل فقال تعالى : ﴿ أحدهما أبكم ﴾ أي ولد أخرس ؛ ثم ترجم بكمته التي أريد بها أنه لا يَفهم ولا يُفهِم بقوله : ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ أي أصلاً ﴿ وهو كل ﴾ أي ثقل وعيال ، والأصل فيه الغلظ الذي يمنع من النفوذ ، كلت السكين كلولاً - إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكل لسانه - إذا لم ينبعث في القول ، لغلظه وذهاب حده - قاله الرماني ﴿ على مولاه ﴾ الذي يلي أمره ؛ ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ أينما يوجهه ﴾ أي يرسله ويصرفه ذلك المولى ﴿ لا يأت بخير ﴾ وهذا مثل شركائهم الذين هم عيال ووبال على عبدتهم .

ولما انكشف ضلالهم في تسويتهم الأنداد - الذين لا قدرة لهم على شيء ما - بالله الذي له الإحاطة بكل شيء قدرة وعلماً ، حسن كل الحسن توبيخهم والإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ هل يستوي هو ﴾ أي هذا المذكور ﴿ ومن ﴾ أي ورجل آخر على ضد صفته ، فهو عالم فطن قوي خبير مبارك الأمر ميمون النقيبة ﴿ يأمر ﴾ بما له من العلم والقدرة ﴿ بالعدل ﴾ أي ببذل النصيحة لغيره ﴿ وهو ﴾ في نفسه ظاهراً وباطناً ﴿ على صراط ﴾ أي طريق واضح واسع ﴿ مستقيم ﴾ أي عامل بما يأمر به ، وهذا مثال للمعبود بالحق الذي يكفي عابده جميع المؤن ، وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 293. 295 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾

اعلم أنه تعالى أكد إبطال مذهب عبدة الأصنام بهذا المثال وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير هذ المثل قولان :

القول الأول : أن المراد أنا لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق سراً وجهراً ، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة والبشرية ، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال ، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر ألبتة .

والقول الثاني : أن المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر ، فإنه من حيث

إنه بقي محروماً عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز ، والمراد بقوله : ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو المؤمن فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله فبين تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى .

واعلم أن القول الأول أقرب ، لأن ما قبل هذه الآية وما بعدها إنما ورد في إثبات التوحيد ، وفي الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى .

المسألة الثانية :

اختلفوا في المراد بقوله : ﴿ عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ فقيل : المراد به الصنم لأنه عبد بدليل قوله : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ﴾ [مريم : 93] وأما أنه مملوك ولا يقدر على شيء فظاهر ، والمراد بقوله : ﴿ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً ﴾ عابد الصنم لأن الله تعالى رزقه المال وهو ينفق من ذلك المال على نفسه وعلى أتباعه سراً وجهراً .

إذا ثبت هذا فنقول : هما لا يستويان في بديهة العقل ، بل صريح العقل يشهد بأن ذلك القادر أكمل حالاً وأفضل مرتبة من ذلك العاجز ، فهنا صريح العقل يشهد بأن عابد الصنم أفضل من ذلك الصنم فكيف يجوز الحكم بكونه مساوياً لرب العالمين في العبودية .

والقول الثاني : أن المراد بقوله : ﴿ عبداً مملوكاً ﴾ عبد معين ، وقيل : هو عبد لعثمان بن عفان ، وحملوا قوله : ﴿ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾ على عثمان خاصة .

والقول الثالث : أنه عام في كل عبد بهذه الصفة وفي كل حر بهذه الصفة ، وهذا القول هو الأظهر ، لأنه هو الموافق لما أراده الله تعالى في هذه الآية ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً .

فإن قالوا : ظاهر الآية يدل على أن عبداً من العبيد لا يقدر على شيء ، فلم قلتم : إن كل عبد كذلك ؟ فنقول : الذي يدل عليه وجهان : الأول : أنه ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، وكونه عبداً وصف مشعر بالذل والمقهورية .

وقوله : ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ حكم مذكور عقيبه فهذا يقتضي أن العلة لعدم القدرة على شيء هو كونه عبداً ، وبهذا الطريق يثبت العموم .

الثاني : أنه تعالى قال بعده : ﴿ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾ فميز هذا القسم الثاني عن

القسم الأول وهو العبد بهذه الصفة وهو أنه يرزقه رزقاً ، فوجب أن لا يحصل هذا الوصف للعبد حتى يحصل الامتياز بين القسم الثاني وبين القسم الأول ، ولو ملك العبد لكان الله قد آتاه رزقاً حسناً ، لأن الملك الحلال رزق حسن سواء كان قليلاً أو كثيراً .

فثبت بهذين الوجهين أن ظاهر الآية يقتضي أن العبد لا يقدر على شيء ولا يملك شيئاً .

ثم اختلفوا فروي عن ابن عباس وغيره التشدد في ذلك حتى قال : لا يملك الطلاق أيضاً .

وأكثر الفقهاء قالوا يملك الطلاق إنما لا يملك المال ولا ما له تعلق بالمال .

واختلفوا في أن المالك إذا ملكه شيئاً فهل يملكه أم لا ؟ وظاهر الآية ينفيه ، بقي في الآية سؤالات :

السؤال الأول : لم قال : ﴿مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ وكل عبد فهو مملوك وغير قادر على التصرف ؟

قلنا : أما ذكر المملوك فليحصل الامتياز بينه وبين الحر لأن الحر قد يقال : إنه عبد الله ، وأما قوله : ﴿لا يقدر على شيء﴾ قد يحصل الامتياز بينه وبين المكاتب وبين العبد المأذون ، لأنهما لا يقدران على التصرف .

السؤال الثاني : ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ ومن رزقناه ﴾ ما هي ؟

قلنا : الظاهر إنها موصوفة كأنه قيل : وحراً ورزقناه ليطابق عبداً ، ولا يمتنع أن تكون موصولة .

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ يستوون ﴾ على الجمع ؟

قلنا : معناه هل يستوي الأحرار والعبيد .

ثم قال : ﴿ الحمد لله ﴾ وفيه وجوه : الأول : قال ابن عباس : الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد .

والثاني : المعنى أن كل الحمد لله ، وليس شيء من الحمد للأصنام ، لأنها لا نعمة لها على أحد .

وقوله : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني أنهم لا يعلمون أن كل الحمد لله وليس شيء منه للأصنام .

الثالث : قال القاضي في "التفسير" : قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ قل الحمد لله ﴾ ويحتمل أن يكون خطاباً لمن رزقه الله رزقاً حسناً أن يقول : الحمد لله على أن ميزه في هذه القدرة عن ذلك العبد الضعيف .

الرابع : يحتمل أن يكون المراد أنه تعالى لما ذكر هذا المثل ، وكان هذا مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال بعده : ﴿ الحمد لله ﴾ يعني الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور

هذه البينة .

ثم قال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني أنها مع غاية ظهورها ونهاية وضوحها لا يعلمها ولا يفهمها هؤلاء الضلال .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾

(11/440)

اعلم أنه تعالى أبطل قول عبدة الأوثان والأصنام بهذا المثل الثاني ، وتقريره : أنه كما تقرر في أوائل العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساوياً في الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية ، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في المعبودية كان أولى ، ثم نقول : في الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

أنه تعالى وصف الرجل الأول بصفات :

الصفة الأولى : الأبكم وفي تفسيره أقوال نقلها الواحدي .

الأول : قال أبو زيد رجل أبكم ، وهو العيي المفحم ، وقد بكم بكماً وبكامة ، وقال أيضاً :

الأبكم الأقطع اللسان وهو الذي لا يحسن الكلام .

الثاني : روى ثعلب عن ابن الأعرابي : الأبكم الذي لا يعقل .

الثالث : قال الزجاج : الأبكم المطبق الذي لا يسمع ولا يبصر .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل .

والصفة الثالثة : قوله : ﴿ كل على مولاه ﴾ أي هذا الأبكم العاجز كل على مولاه .

قال أهل المعاني : أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة .

يقال : كل السكين إذا غلظت شفرته فلم يقطع ، وكل لسانه إذا غلظ فلم يقدر على الكلام ، وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه .

فقوله : ﴿ كل على مولاه ﴾ أي غليظ وثقيل على مولاه .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾ أي أينما يرسله ، ومعنى التوجيه أن ترسل صاحبك في وجه معين من الطريق .

يقال : وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه .

وقوله : ﴿ لا يأت بخير ﴾ معناه لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم .

ثم قال تعالى : ﴿ هل يستوي هو ﴾ أي هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع : ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ واعلم أن الآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفاً بالنطق وإلا لم يكن آمراً ويجب أن

يكون قادراً ، لأن الأمر مشعر بعلو المرتبة وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادراً ، ويجب أن يكون عالماً حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور .

(12/440)

فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادراً عالماً ، وكونه آمراً يناقض كون الأول أبكم ، وكونه قادراً يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شيء وبأنه كل على مولاه ، وكونه عالماً يناقض وصف الأول بأنه لا يأت بخير .

ثم قال تعالى : ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾ معناه كونه عادلاً مبرأ عن الجور والعبث .

إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر في بديهة العقل أن الأول والثاني لا يستويان ، فكذا ههنا والله أعلم .

المسألة الثانية :

في المراد بهذا المثل أقوال كما في المثل المتقدم .

فالقول الأول : قال مجاهد : كل هذا مثل إله الخلق وما يدعى من دونه من الباطل .

وأما الأبكم فمثل الصنم ، لأنه لا ينطق ألبتة وكذلك لا يقدر على شيء ، وأيضاً كل على عابديه لأنه لا ينفق عليهم وهم ينفقون عليه ، وأيضاً إلى أي مهم توجه الصنم لم يأت بخير ،

وأما الذي يأمر بالعدل فهو الله سبحانه وتعالى .

والقول الثاني : أن المراد من هذا الأبكم : هو عبد لعثمان بن عفان كان ذلك العبد يكره الإسلام ، وما كان فيه خير ، ومولاه وهو عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل ؛ وكان على الدين القويم والصراط المستقيم .

والقول الثالث : أن المقصود منه : كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة ، وهذا القول أولى من القول الأول ، لأن وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن ، وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى ، وأيضاً فالمقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور ، وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى .

وأما القول الثاني : فضعيف أيضاً ، لأن المقصود إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة ، وذلك غير مختص بشخص معين ، بل أيما حصل التفاوت في الصفات المذكورة حصل المقصود ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 67.

71﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تعَالَى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ : " أَنَّهُ مَثَلٌ ضُرِبَ لِلْكَافِرِ الَّذِي لَا خَيْرَ عِنْدَهُ وَالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَكْتَسِبُ الْخَيْرَ " وَقَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ : " هُوَ مَثَلٌ ضُرِبَ لِعِبَادَتِهِمْ الْأَوْثَانَ الَّتِي لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَالْعُدُولِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ حَوَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ضُرُوبًا مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ : أَحَدُهَا : قَوْلُهُ : ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ نَكِرَةً ، فَهُوَ شَائِعٌ فِي جِنْسِ الْعَبِيدِ ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ : لَا تُكَلِّمْ عَبْدًا وَأَعْطِ هَذَا عَبْدًا ، أَنَّ ذَلِكَ يَنْتَظِمُ كُلَّ مَنْ يُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ فَكُلُّ مَنْ لَحِقَهُ هَذَا الِاسْمُ قَدْ انْتَظَمَهُ الْحُكْمُ ؛ إذْ كَانَ لَفْظًا مَنْكُورًا ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ قَدْ انْتَظَمَ سَائِرَ الْعَبِيدِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْقُدْرَةِ أَوْ نَفْيَ الْمِلْكِ أَوْ نَفْيَهُمَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ نَفْيَ الْقُدْرَةِ ؛ إذْ كَانَ الْعَبْدُ وَالْحُرُّ لَا يَخْتَلِفَانِ فِي الْقُدْرَةِ مِنْ حَيْثُ اخْتَلَفَا فِي الرِّقِّ وَالْحُرِّيَّةِ ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ أَقْدَرَ مِنْ الْحُرِّ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ نَفْيَ الْقُدْرَةِ ، فَثَبَتَ أَنَّهُ أَرَادَ نَفْيَ الْمِلْكِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ .

ووَجْهٌ آخَرُ : وَهُوَ أَنَّهُ تعَالَى جعَلَهُ مَثَلًا لِلْأَصْنَامِ فشَبَّهَهَا بِالْعَبيدِ الْمَمْلُوكِينَ فِي نَفْيِ الْمِلْكِ ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا ، فوَجبَ أَنْ يكُونَ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِهِ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَإِلَّا زَالَتْ فَائِدَةُ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِهِ ، وكَانَ يَكُونُ حِينَئِذٍ ضَرْبُ الْمَثَلِ بِالْعَبْدِ وَالْحُرِّ سوَاءً وأَيْضًا لَوْ أَرَادَ عَبْدًا بِعَيْنِهِ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وجَازَ

أَنْ يَكُونَ مِنْ الْعَبِيدِ مَنْ يَمْلِكُ لَقَالَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، فَلَمَّا خَصَّ الْعَبْدَ بِذَلِكَ دلَّ عَلَى أَنَّ وَجْهَ تَخْصِيصِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَمْلِكُ .

فَإِنْ قِيلَ : رَوَى إبْرَاهِيمُ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ يَعْلَى بْنِ مُنْيَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وعَبْدِهِ ثُمَّ أَسْلَمَا ، فَنَزَلَتْ الْأُخْرَى فِي رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ إلَى قَوْلِهِ ﴿ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قَالَ : كَانَ مَوْلًى لِعُثْمَانَ كَانَ عُثْمَانُ يَكْفُلُهُ ويُنْفِقُ عَلَيْهِ ، فَعُثْمَانُ الَّذِي يُنْفِقُ بِالْعَدْلِ وهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَالْآخَرُ أَبْكَمُ وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي عَبْدٍ بِعَيْنِهِ ، وقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَبِيدِ مَنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا كَمَا يَكُونُ فِي الْأَحْرَارِ مَنْ لَا يَمْلِكُ .

قِيلَ لَهُ : هَذِهِ الرِّوَايَةُ ضَعِيفَةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَظَاهِرُ اللَّفْظِ يَنْفِيهَا لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ عَبْدًا بِعَيْنِهِ لَعَرَّفَهُ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ وَلَمْ يَذْكُرْهُ بِلَفْظٍ مَنْكُورٍ .

(15/440)

وَأَيْضًا مَعْلُومٌ أَنَّ الْخِطَابَ فِي ذِكْرِ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ مَثَلَ مَا يَعْبُدُونَ مَثَلُ الْعَبِيدِ الْمَمَالِيكِ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَمْلِكُوا تَأْكِيدًا لِنَفْيِ أَمْلَاكِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ عَبْدًا بِعَيْنِهِ وَكَانَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مِمَّنْ يَجُوزُ أَنْ يُمَلَّكَ ، مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحُرِّ فَرْقٌ وَكَانَ تَخْصِيصُهُ الْعَبْدَ بِالذِّكْرِ لَغْوًا فَثَبَتَ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ نَفْيُ مِلْكِ الْعَبِيدِ رَأْسًا .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْأَبْكَمَ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا .

(16/440)

قِيلَ لَهُ : إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ عَبْدًا أَبْكَمَ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ فَذِكْرُ الْمَوْلَى وَتَوْجِيهُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْعَبْدُ ، كَأَنَّهُ ذَكَرَ أَوَّلًا عَبْدًا غَيْرَ أَبْكَمَ وَجَعَلَهُ مَثَلًا لِلصَّنَمِ فِي نَفْيِ الْمِلْكِ ، ثُمَّ زَادَهُ نَقْصًا بِقَوْلِهِ ﴿ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ عَبْدًا أَبْكَمَ مُبَالَغَةً فِي وَصْفِ الْأَصْنَامِ بِالنَّقْصِ وَقِلَّةِ الْخَيْرِ وَأَنَّهُ مَمْلُوكٌ مُتَصَرَّفٌ فِيهِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ ابْنَ عَمِّهِ لِأَنَّ ابْنَ الْعَمِّ يُسَمَّى مَوْلًى .

قِيلَ لَهُ : هَذَا خَطَأٌ ، لِأَنَّ ابْنَ الْعَمِّ لَا تَلْزَمُهُ نَفَقَةُ ابْنِ عَمِّهِ وَلَا أَنْ يَكُونَ كَلًّا عَلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُ تَوْجِيهُهُ فِي أُمُورِهِ ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ لِلْأَبْكَمِ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الْحُرَّ الَّذِي لَهُ ابْنُ عَمٍّ وَأَنَّهُ أَرَادَ عَبْدًا مَمْلُوكًا أَبْكَمَ وَعَلَى أَنَّهُ لَا مَعْنَى لِذِكْرِ ابْنِ الْعَمِّ هَهُنَا لِأَنَّ الْأَبَ وَالْأَخَ وَالْعَمَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ ابْنِ الْعَمِّ وَأَوْلَى بِهِ ، فَحَمْلُهُ عَلَى ابْنِ الْعَمِّ يُزِيلُ فَائِدَتَهُ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَوْلَى إِذَا أُطْلِقَ يَقْتَضِي مَوْلَى الرِّقِّ أَوْ مَوْلَى النِّعْمَةِ وَلَا يُصْرَفُ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ إِلَّا بِدَلَالَةٍ .

فَإِنْ قِيلَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْأَصْنَامَ لِأَنَّهُ قَالَ : عَبْدًا مَمْلُوكًا وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ لِلصَّنَمِ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ أَغْفَلْتَ مَوْضِعَ الدَّلَالَةِ لِأَنَّهُ إنَّمَا ذَكَرَ عَبْدًا مَمْلُوكًا لَنَا وَجَعَلَهُ مَثَلًا لِلْأَصْنَامِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَأَخْبَرَ أَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ مَمَالِيكِنَا الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، فَكَمَا أَنَّ الصَّنَمَ لَا يَمْلِكُ بِحَالٍ كَذَلِكَ الْعَبْدُ ، وَعَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمَّى الْأَصْنَامَ عِبَادًا بِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي مِلْكِ الْعَبْدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالشَّافِعِيُّ : " الْعَبْدُ لَا يَمْلِكُ وَلَا يَتَسَرَّى " .

وَقَالَ مَالِكٌ : " يَمْلِكُ وَيَتَسَرَّى " .

وَقَدْ رَوَى أَبُو حَنِيفَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْمَكِّيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : " لَا يَحِلُّ فَرْجُ الْمَمْلُوكِ إلَّا لِمَنْ إنْ بَاعَ أَوْ وَهَبَ أَوْ تَصَدَّقَ أَوْ أَعْتَقَ جَازَ " يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَمْلُوكَ وَكَذَلِكَ رَوَى يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ .

وَرُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ وَابْنِ سِيرِينَ وَالْحَكَمِ : " أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَتَسَرَّى " .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " أَنَّ الْعَبْدَ يَتَسَرَّى " ، وَرَوَى يَعْمُرُ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : " أَنَّهُ كَانَ يَرَى بَعْضَ رَقِيقِهِ يَتَّخِذُ السُّرِّيَّةَ فَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ " وَقَالَ الْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ : " يَتَسَرَّى الْعَبْدُ بِإِذْنِ سَيِّدِهِ " .

وَرَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ كَثِيرٍ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْعَبْدُ لَا يَتَسَرَّى ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِأَنَّهُ لَوْ مَلَكَ لَجَازَ لَهُ التَّسَرِّي بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلْبَائِعِ إلَّا أَنْ يَشْتَرِطَهُ الْمُبْتَاعُ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا أَنْ جَعَلَهُ لِلْبَائِعِ أَوْ لِلْمُشْتَرِي أَخْرَجَ الْعَبْدَ مِنْهُ صِفْرًا بِلَا شَيْءٍ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ لِلْمَوْلَى أَخْذَ مَا فِي يَدِهِ وَهُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْهُ لِأَجْلِ مِلْكِهِ لِرَقَبَتِهِ ، فَلَوْ كَانَ الْعَبْدُ مِمَّنْ يَمْلِكُ لَمَا كَانَ لَهُ أَخْذُ مَا فِي يَدِهِ لِأَنَّ مَا بَانَ بِهِ

الْعَبْدُ عَنْ مَوْلَاهُ فَلَا سَبِيلَ لِلْمَوْلَى عَلَيْهِ فِيهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَبْدَ لَمَّا مَلَكَ طَلَاقَ امْرَأَتِهِ وَوَطْءَ زَوْجَتِهِ فَهِيَ أَمَةٌ لِلْمَوْلَى لَمْ يَمْلِكْهُ الْمَوْلَى ؟ وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا يَمْلِكُهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لَمْ يَمْلِكْهُ الْمَوْلَى مِنْهُ ، فَلَوْ مَلَكَ الْعَبْدُ الْمَالَ لَمَا كَانَ لِلْمَوْلَى أَخْذُهُ مِنْهُ لِأَجْلِ مِلْكِهِ لَهُ كَمَا لَمْ يَمْلِكْ طَلَاقَ امْرَأَتِهِ لِأَجْلِ مِلْكِهِ .

فَإِنْ قِيلَ جَوَازُ أَخْذِ الْمَوْلَى مَالَهُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَالِكٍ لِأَنَّ لِلْغَرِيمِ أَنْ يَأْخُذَ مَا فِي يَدِ الْمَدِينِ بِدَيْنِهِ وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْمَدِينَ غَيْرُ مَالِكٍ .

(19/440)

قِيلَ لَهُ: لِأَنَّهُ يَأْخُذُهُ لَا لِأَنَّهُ مَالِكٌ لِلْمَدِينِ بَلْ لِأَجْلِ دَيْنِهِ الَّذِي عَلَيْهِ، وَالْمَوْلَى يَسْتَحِقُّهُ لِأَجْلِ مِلْكِهِ لِرَقَبَتِهِ، فَلَوْ كَانَ الْعَبْدُ مَالِكًا لَمْ يَسْتَحِقَّ الْمَوْلَى لِأَجْلِ مِلْكِهِ لِرَقَبَتِهِ كَمَا لَمْ يَمْلِكْ طَلَاقَ امْرَأَتِهِ لِأَجْلِ مِلْكِهِ لِرَقَبَتِهِ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ.

وَدَلِيلٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّ مَنْ كَاتَبَ عَبْدَهُ عَلَى مَالٍ فَأَدَّاهُ أَنَّهُ يَعْتِقُ وَيَكُونُ الْوَلَاءُ لِلْمَوْلَى وَأَنَّهُ مُعْتَقٌ عَلَى مِلْكِ مَوْلَاهُ، فَلَوْ كَانَ مِمَّنْ يَمْلِكُ لَمَلَكَ رَقَبَتَهُ بِالْمَالِ الَّذِي أَدَّاهُ وَلَا يَنْتَقِلُ إلَيْهِ كَمَا يَنْتَقِلُ إلَى غَيْرِهِ لَوْ أَمَرَهُ بِأَنْ يُعْتِقَهُ عَنْهُ عَلَى مَالٍ وَلَوْ مَلَكَ رَقَبَتَهُ لَعَتَقَ عَلَى نَفْسِهِ لَكَانَ لَا يَكُونُ الْوَلَاءُ لِلْمَوْلَى بَلْ كَانَ يَكُونُ وَلَاؤُهُ لِنَفْسِهِ، فَلَمَّا لَمْ يَصِحَّ انْتِقَالُ مِلْكِ رَقَبَتِهِ إلَيْهِ بِالْمَالِ وَعَتَقَ عَلَى مِلْكِ الْمَوْلَى دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَمْلِكُ لَكَانَ بِمِلْكِ رَقَبَتِهِ أَوْلَى إذْ كَانَتْ رَقَبَتُهُ مِمَّا يَجُوزُ فِيهِ التَّمْلِيكُ.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلْبَائِعِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ

يَمْلِكُ لِإِضَافَتِهِ الْمَالَ إلَيْهِ.

(20/440)

قِيلَ لَهُ : قَدْ أَثْبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَالَ لِلْبَائِعِ فِي حَالِ الْبَيْعِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِلْكًا لِلْمَوْلَى وَمِلْكًا لِلْعَبْدِ لِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَمْلِكَ ، وَإِلَّا لَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ جَمِيعُ الْمَالِ فَفِي هَذَا الْخَبَرِ بِعَيْنِهِ إثْبَاتُ مَا أَضَافَ إلَى الْعَبْدِ مِلْكًا لِلْبَائِعِ ، فَثَبَتَ أَنَّ إضَافَتَهُ إلَى الْعَبْدِ عَلَى وَجْهِ الْيَدِ كَمَا تَقُولُ : " هَذِهِ دَارُ فُلَانٍ " وَهُوَ سَاكِنٌ فِيهَا وَلَيْسَ بِمَالِكٍ ، وَكَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيك ﴾ وَلَمْ يُرِدْ إثْبَاتَ مِلْكِ الْأَبِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ رَوَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ بُكَيْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَشَجِّ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ أَعْتَقَ عَبْدًا فَمَالُهُ لَهُ إلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ السَّيِّدُ مَالَهُ فَيَكُونُ لَهُ ﴾ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَمْلِكُ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَمْلِكْهُ قَبْلَ الْعِتْقِ لَمْ يَمْلِكْهُ بَعْدَهُ .

قِيلَ لَهُ : لَا دَلَالَةَ فِي هَذَا عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَمْلِكُ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَرَيَانُ الْعَادَةِ بِأَنَّ مَا عَلَى الْعَبْدِ مِنْ الثِّيَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ عِنْدَ الْعِتْقِ ، جَعَلَهُ كَالْمَنْطُوقِ بِهِ وَجَعَلَ تَرْكَ الْمَوْلَى لِأَخْذِهِ مِنْهُ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْهُ بِتَمْلِيكِهِ إيَّاهُ بَعْدَ الْعِتْقِ وَأَيْضًا فَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ

مِنْ أَهْلِ النَّقْلِ تَضْعِيفُهُ ، وَقَدْ قِيلَ : إنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي جَعْفَرٍ غَلِطَ فِي رَفْعِ هَذَا الْحَدِيثِ وَفِي مَتْنِهِ ، وَإِنَّ أَصْلَهُ مَا رَوَاهُ أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ إذَا أَعْتَقَ عَبْدًا لَمْ يَعْرِضْ لِمَالِهِ ، فَهَذَا هُوَ أَصْلُ الْحَدِيثِ ، فَأَخْطَأَ عُبَيْدُ اللَّهِ فِي رَفْعِهِ وَفِي لَفْظِهِ .

وَقَدْ رُوِيَ خِلَافُ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَبُو مُسْلِمٍ الْكَجِّيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ أَبِي الْمَسَاوِرِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : وَكَانَ مَمْلُوكًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : يَا عُمَيْرُ بَيِّنْ لِي مَالَك فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْتِقَك ، إنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : { مَنْ أَعْتَقَ عَبْدًا فَمَالُهُ لِلَّذِي أَعْتَقَ } وَكَذَلِكَ رَوَاهُ يُونُسُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا .

وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ الْمَسْعُودِيَّ رَوَاهُ مَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَذَلِكَ لَا يُفْسِدُهُ عِنْدَنَا .

(22/440)

فَإِنْ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } وَذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورِينَ مِنْ الْأَيَامَى وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ، فَأَثْبَتَ لِلْعَبْدِ الْغِنَى وَالْفَقْرَ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَمْلِكُ ؛ إذْ لَوْ لَمْ يَمْلِكْ لَكَانَ أَبَدًا

فَقِيرًا .

قِيلَ لَهُ : لَا يَخْلُو قَوْلُهُ : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْغِنَى بِالْوَطْءِ الْحَلَالِ عَنْ الْحَرَامِ أَوْ الْغِنَى بِالْمَالِ فَلَمَّا وَجَدْنَا كَثِيرًا مِنْ الْمُتَزَوِّجِينَ لَا يَسْتَغْنُونَ بِالْمَالِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُخْبِرَ أَخْبَارِ اللَّهِ لَا مَحَالَةَ كَائِنٌ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الْغِنَى بِالْمَالِ وَإِنَّمَا أَرَادَ الْغِنَى بِالْوَطْءِ الْحَلَالِ عَنْ الْحَرَامِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَ الْغِنَى بِالْمَالِ فَإِنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى الْأَيَامَى وَالْأَحْرَارِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ دُونَ الْعَبِيدِ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ الدَّلِيلِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَسْتَغْنِي بِالْمَالِ عِنْدَ مُخَالِفِنَا لِأَنَّ الْمَوْلَى أَوْلَى بِجَمِيعِ مَالِهِ مِنْهُ ، فَأَيُّ غِنًى فِي مَالٍ يَحْصُلُ لَهُ وَغَيْرُهُ أَوْلَى بِهِ

مِنْهُ ، فَالْغِنَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِلْمَوْلَى دُونَ الْعَبْدِ .

(23/440)

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَكُونُ غَنِيًّا بِالْمَالِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ﴾ .

وَعِنْدَ مُخَالِفِنَا أَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ مِنْ مَالِ الْعَبْدِ ، فَلَوْ كَانَ غَنِيًّا لَوَجَبَ فِي مَالِهِ الزَّكَاةُ ؛ إذْ هُوَ مُسْلِمٌ

غَنِيٌّ مِنْ أَهْلِ التَّكْلِيفِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا كَانَ الْعَبْدُ يَمْلِكُ الطَّلَاقَ وَجَبَ أَنْ يَمْلِكَ الْمَالَ كَالْحُرِّ .

قِيلَ لَهُ : إنَّمَا مَلَكَ الْعَبْدُ الطَّلَاقَ لِأَنَّ الْمَوْلَى لَا يَمْلِكُهُ مِنْهُ ، فَلَوْ مَلَكَ الْعَبْدُ الْمَالَ وَجَبَ أَنْ لَا يَمْلِكَ الْمَوْلَى مِنْهُ وَأَنْ لَا يَجُوزَ لَهُ أَخْذُهُ مِنْهُ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَمْلِكُهُ الْمَوْلَى مِنْ عَبْدِهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُهُ مِنْهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَبْدَ الْمَحْجُورَ عَلَيْهِ لَوْ أَقَرَّ بِدَيْنٍ لَمْ يَلْزَمْهُ فِي الرِّقِّ وَلَوْ أَقَرَّ الْمَوْلَى عَلَيْهِ بِهِ لَزِمَهُ ؟ وَكَذَلِكَ لِلْمَوْلَى أَنْ يُزَوِّجَ عَبْدَهُ وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُزَوِّجَ نَفْسَهُ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ مَعْنًى يَمْلِكُهُ الْمَوْلَى مِنْهُ ، وَلَوْ أَقَرَّ الْمَوْلَى عَلَيْهِ بِقِصَاصٍ أَوْ حَدٍّ لَمْ يَلْزَمْهُ لِأَنَّ الْعَبْدَ يَمْلِكُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ ؛ إذْ لَوْ مَلَكَهُ لَمَا جَازَ لِلْمَوْلَى أَنْ يَتَصَرَّفَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ كَمَا لَا يَتَصَرَّفُ عَلَيْهِ فِي الطَّلَاقِ حِينَ كَانَ الْعَبْدُ يَمْلِكُهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(24/440)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ فِي قَوْلٍ ، وَلِلْمَخْلُوقِ وَالْخَالِقِ فِي [قَوْلٍ] آخَرَ ، مَعْنَاهُ أَنَّ الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ هُوَ الْكَافِرُ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا هُوَ الْمُؤْمِنُ ، آتَاهُمَا اللَّهُ مَالًا كَثِيرًا وَرِزْقًا وَاسِعًا ، فَأَمَّا الْكَافِرُ فَبَخِلَ بِهِ وَأَمْسَكَ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَقَلَّبَ بِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ يَمِينًا وَشِمَالًا هَكَذَا وَهَكَذَا سِرًّا وَجِهَارًا .

وَأَمَّا الْمَعْنَى عَلَى ضَرْبِ الْمَثَلِ لِلْمَخْلُوقِ وَالْخَالِقِ فَهُوَ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ هُوَ الصَّبِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لِغَرَارَتِهِ وَجَهَالَتِهِ ، كَمَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَاَللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ .

وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ لِلَّهِ .

وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِنَفْسِهِ عَلَى وَجْهٍ بَدِيعٍ بَيَّنَّاهُ فِي قَانُونِ التَّأْوِيلِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ فِيهِ ، وَقَالَ : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [يَعْنِي لَا تَضْرِبُوا] أَنْتُمْ الْأَمْثَالَ لِلَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَقُولُ وَيُرِيدُ ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ وَمَا تُرِيدُونَ ، إلَّا إذَا عَلِمْتُمْ وَأَذِنَ لَكُمْ فِي

الْقَوْلِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: إثْبَاتٌ فِي نَكِرَةٍ، فَلَيْسَ يَقْتَضِي الشُّمُولَ، وَلَا يُعْطِي الْعُمُومَ؛ وَإِنَّمَا يُفِيدُ وَاحِدًا بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ يَقْدِرُ بِأَنْ يُقْدِرَهُ مَوْلَاهُ، فَيَنْقَسِمُ حَالُ الْعَبِيدِ الْمَمَالِيكِ إلَى قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا يَكُونُ فِي أَصْلِ وَضْعِهِ لَا يَقْدِرُ.

الثَّانِي: أَنْ يَقْدِرَ بِأَنْ تُوضَعَ لَهُ الْقُدْرَةُ، وَيُمَكَّنَ مِنْ التَّصَرُّفِ وَالْمَنْفَعَةِ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَا يَقْدِرُ وَإِنْ أُقْدِرَ وَلَا يَمْلِكُ وَإِنْ مُلِّكَ.

وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلَانِ.

وَتَعَلَّقَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ بِأَنَّهُ مَمْلُوكٌ، فَلَا يَمْلِكُ.

أَصْلُهُ الْبَهِيمَةُ قَالَ أَهْلُ خُرَاسَانَ: وَهَذَا الْفِقْهُ صَحِيحٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَمْلُوكِيَّةَ تُنَافِي الْمَالِكِيَّةَ؛ فَإِنَّ الْمَمْلُوكِيَّةَ تَقْتَضِي الْحَجْرَ وَالْمَنْعَ، وَالْمَالِكِيَّةَ تَقْتَضِي الْإِذْنَ وَالْإِطْلَاقَ؛ فَلَمَّا تَنَاقَضَا لَمْ يَجْتَمِعَا.

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ الْحَيَاةَ وَالْآدَمِيَّةَ عِلَّةُ الْمِلْكِ ، فَهُوَ آدَمِيٌّ حَيٌّ ، فَجَازَ أَنْ يَمْلِكَ كَالْحُرِّ ، وَإِنَّمَا طَرَأَ عَلَيْهِ الرِّقُّ عُقُوبَةً ، فَصَارَ لِلسَّيِّدِ عَلَيْهِ حَقُّ الْحَجْرِ ، وَذِمَّتُهُ خَالِيَةٌ عَنْ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَذِنَ لَهُ سَيِّدُهُ وَفَكَّ الْحَجْرَ عَنْهُ رَجَعَ إلَى أَصْلِهِ فِي الْمَالِكِيَّةِ بِعِلَّةِ الْحَيَاةِ وَالْآدَمِيَّةِ وَبَقَاءِ ذِمَّتِهِ خَالِيَةً عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلْبَائِعِ ، إلَّا أَنْ يَشْتَرِطَهُ الْمُبْتَاعُ ﴾ ، فَأَضَافَ الْمَالَ إلَى الْعَبْدِ ، وَمَلَّكَهُ إيَّاهُ ، وَجَعَلَهُ فِي الْبَيْعِ تَبَعًا لَهُ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذِهِ إضَافَةُ مَحَلٍّ ، كَمَا يُقَالُ سَرْجُ الدَّابَّةِ وَبَابُ الدَّارِ ، فَيُضَافُ ذَلِكَ إلَيْهِمَا ، إضَافَةَ مَحَلٍّ لَا إضَافَةَ تَمْلِيكٍ .

قُلْنَا : إنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ إضَافَةُ مَحَلٍّ ؛ لِأَنَّ

الدَّابَّةَ وَالدَّارَ لَا يَصِحُّ مِنْهُمَا الْمِلْكُ وَلَا يَصِحُّ لَهُمَا التَّمْلِيكُ ؛ بِخِلَافِ الْعَبْدِ ، فَإِنَّهُ آدَمِيٌّ حَيٌّ ، فَصَحَّ أَنْ يَمْلِكَ وَيُمَلَّكَ ، وَجَازَ أَنْ يَقْدِرَ وَيُقَدَّرَ .

وَالدَّلِيلُ الْقَاطِعُ لِرَأْيِهِمْ الْمُفْسِدُ لِكَلَامِهِمْ أَنَّهُ إذَا أَذِنَ لَهُ سَيِّدُهُ فِي النِّكَاحِ جَازَ ، فَنَقُولُ : مَنْ مَلَكَ الْأَبْضَاعَ مَلَكَ الْمَتَاعَ كَالْحُرِّ ، وَهَذَا لِأَنَّ الْبُضْعَ أَشْرَفُ مِنْ الْمَالِ ، فَإِذَا مَلَكَ الْبُضْعَ بِالْإِذْنِ فَأَوْلَى وَأَحْرَى أَنْ يَمْلِكَ الْمَالَ الَّذِي هُوَ دُونَهُ فِي الْحُرْمَةِ بِالْإِذْنِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا جَازَ لَهُ النِّكَاحُ ضَرُورَةً ؛ لِأَنَّهُ آدَمِيٌّ يَشْتَهِي طَبْعًا ؛ فَلَوْ مَنَعْنَاهُ اسْتِيفَاءَ شَهْوَتِهِ الْجِبِلِّيَّةِ لَأَضْرَرْنَا بِهِ ، وَلَوْ سَلَّطْنَاهُ عَلَى اقْتِضَائِهَا بِصِفَةِ الْبَهَائِمِ ، لَعَطَّلْنَا التَّكْلِيفَ ؛ فَدَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَى الْإِذْنِ فِي النِّكَاحِ لَهُ ؛ إِذْ لَا يَصِحُّ الِانْتِفَاعُ بِالْبُضْعِ عَلَى مِلْكِ الْغَيْرِ ، بِخِلَافِ الْمَالِ ، فَإِنَّهُ يُسْتَبَاحُ عَلَى مِلْكِ الْغَيْرِ بِالْأَكْلِ وَاللِّبَاسِ وَالرُّكُوبِ ، وَيَكْفِي فِيهِ مُجَرَّدُ الْإِذْنِ وَالْإِبَاحَةِ دُونَ التَّمْلِيكِ ، وَهَذِهِ عُمْدَتُهُمْ .

وَقَدْ أَجَابَ عَنْهَا عُلَمَاؤُنَا بِأَجْوِبَةٍ كَثِيرَةٍ ؛ عُمْدَتُهَا أَنَّ الضَّرُورَةَ لَا تُبِيحُ الْفُرُوجَ ، وَإِنَّمَا إبَاحَتُهَا فِي الْأَصْلِ طَلَبًا لِلنَّسْلِ بِتَكْثِيرِ الْخَلْقِ ، وَتَنْفِيذًا لِلْوَعْدِ ؛ فَبِهَذِهِ الْحِكْمَةِ وُضِعَتْ إبَاحَتُهَا ، وَشُرِعَ النِّكَاحُ لِاسْتِبْقَائِهَا .

فَقَوْلُهُمْ : إِنَّهَا أُبِيحَتْ ضَرُورَةً غَلَطٌ .

وَقَدْ أَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّ النِّكَاحَ لَوْ كَانَ مُبَاحًا لَهُ بِالضَّرُورَةِ لَتَقَدَّرَ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ ، فَلَا يَجُوزُ لَهُ إِلَّا نِكَاحُ وَاحِدَةٍ .

فَإِنْ قُلْتُمْ : إِنَّهَا رُبَّمَا لَا تَعْصِمُهُ ، فَكَانَ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تُبَلِّغُوهُ إِلَى أَرْبَعٍ ، كَمَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا ، فَلَمَّا لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ اسْتَدْلَلْنَا بِهِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ إِنَّمَا جَرَى عَلَى مُقْتَضَى الدَّلِيلِ ، لَا بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ الْمَمْلُوكِيَّةَ تُنَاقِضُ الْمَالِكِيَّةَ عَلَى مَا بَسَطُوهُ ، فَلَا يَلْزَمُ ؛ لِأَنَّهَا إنَّمَا تُنَاقِضُهَا إذَا تَقَابَلَتَا بِالْبُدَاءَةِ .

(28/440)

فَأَمَّا إذْ كَانَ الْحَجْرُ طَارِئًا بِالرِّقِّ ، وَكَانَ الْأَصْلُ بِالْحَيَاةِ وَالْآدَمِيَّةِ الْإِطْلَاقُ ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَرْفَعَ الْمَالِكُ لِلْحَجْرِ حُكْمَهُ بِالْإِذْنِ ، كَمَا يَرْتَفِعُ فِي النِّكَاحِ .

وَلَا جَوَابَ لَهُمْ عَنْ هَذَا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(29/440)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنه لا يملك ما لم يؤذن وإن كان باقياً معه .

الثاني : أن لسيده انتزاعه من يده وإن كان مالكاً له . ﴿ ومَن رزقناه مِنّا رزقاً حسناً ﴾

يعني الحُرّ ، وفيه وجهان :

أحدهما : ملكه ما بيده .

الثاني : تصرفه في الاكتساب على اختياره .

وفي هذا المثل قولان :

أحدهما : أنه مثل ضربه الله للكافر لأنه لا خير عنده ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً هو المؤمن ، لما عنده من الخير ، وهذا معنى قول ابن عباس وقتادة .

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه والأوثان ، لأنها لا تملك شيئاً ، وإنهم عدلوا عن عبادة الله تعالى الذي يملك كل شيء ، قاله مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكمُ لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأْتِ بخير هل يستوي هو ومن يأمُرُ بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾

اختلف المفسرون في المثل المضروب بهذه الآية على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ، وهذا معنى قول قتادة .

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فالأبكم : الكافر ، والذي يأمر بالعدل : المؤمن ، قاله ابن عباس .

الثالث : أن الأبكم : عبد كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه كان يعرض عليه الإسلام فيأبى . ومن يأمر بالعدل : عثمان ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(30/440)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ الآية ،

هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه ، وإنما هو مسخر بإرادة سيده مدبر ، ولا يلزم من هذا أن العبيد كلهم بهذه الصفة كما انتزع بعض من ينتحل الفقه ، وقد قال في المثال : لا يقدر على شيء فيلزم على هذا الانتزاع أن يكون مؤمنا ينفق بحسب الطاعة ، وذلك أنه أشرف أن يكون مثالاً ، والرزق ما صح الانتفاع به ، وقال أبو منصور في عقيدته : الرزق ما وقع الاغتذاء به ، وهذه الآية ترد على هذا التخصيص ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : 30] و﴿ أنفقوا مما رزقناكم ﴾ [البقرة : 254] وغير ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم : " جعل رزقي في ظل رمحي " ، وقوله : " أرزاق أمتي في سنابك خيلها ، وأسنة

رماحها ، فالغنيمة كلها رزق " ، والصحيح أن ما صح الانتفاع به هو الرزق ، وهو مراتب أعلاها ما تغذي به ، وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفاع في قوله : "يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت " .

قال القاضي أبو محمد : وفي معنى اللباس يدخل المركوب ونحوه ، واختلف الناس في الذي هو له هذا المثيل فقال قتادة وابن عباس : هو مثل الكافر والمؤمن فكأن الكافر مملوك مصروف عن الطاعة فهو لا يقدر على شيء لذلك . ويشبه ذلك العبد المذكور .

قال القاضي أبو محمد : والتمثيل على هذا التأويل إنما وقع في جهة الكافر فقط ، جعل له مثالاً ، ثم قرن بالمؤمن المرزوق إلا أن يكون المرزوق ليس بمؤمن ، وإنما هو مثال للمؤمن ، فيقع التمثيل من جهتين ، وقال مجاهد والضحاك : هذا المثال والمثال الآخر الذي بعده إنما هو لله تعالى والأصنام ، فتلك هي للعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى تتصرف قدرته دون معقب ، وكذلك فسر الزجاج على نحو قول مجاهد .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل أصوب ، لأن الآية تكون من معنى ما قبلها وبعدها في تبين أمر الله والرد على أمر الأصنام ، وذكر الطبري عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ، وعبد كان له ، وروي تعيين غير هذا ولا يصح إسناده .

قال القاضي أبو محمد : والمثل لا يحتاج إلى تعيين أحد ، وقوله ﴿ الحمد لله ﴾ شكر على بيان الأمر بهذا المثال وعلى إذعان الخصم له ، وهذا كما تقول لمن أذعن لك في حجة وسلم ما تبني أنت عليه قولك : الله أكبر ، على هذا يكون كذا وكذا ، فلما قال هنا ﴿ هل يستوون ﴾ ؟ فكأن الخصم قال له لا فقال الحمد لله ظهرت الحجة ، وقوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ يريد لا يعلمون أبداً ولا يداخلهم إيمان ، ويتمكن على هذا قوله : ﴿ أكثرهم ﴾ ، لأن الأقل من الكفار هو الذي آمن من أولئك ، ولو كان معنى قوله ﴿ لا يعلمون ﴾ أي الآن ، لكان قوله ﴿ أكثرهم ﴾ بمعنى الاستيعاب لأنه لم يكن أحد منهم يعلم .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾

هذا مثل لله عز وجل والأصنام ، فهي كالأبكم الذي لا نطق له ولا يقدر على شيء وهو عيال على من والاه من قريب أو صديق ، و" الكَلّ " الثقل والمؤنة ، وكل محمول فهو كَلّ ، وسمي اليتيم كلاً ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

أكول المال الكَلِّ قبل شبابه . . . إذا كان عظم الكَلِّ غير شديد

كما الأصنام تحتاج إلى أن تنقل وتخدم ويتعذب بها ثم لا يأتي من جهتها خير البتة ، هذا قول قتادة ، وقال ابن عباس : هو مثل للكافر ، وقرأ ابن مسعود "يوجه" ، وقرأ علقمة "يوجِّهُ" وقرأ الجمهور ، "يوجهه" ، وهي خط المصحف ، وقرأ يحيى بن وثاب "يُوجَّه" ، وقرأ ابن مسعود أيضاً "توجهه" على الخطاب ، وضعف أبو حاتم قراءة علقمة لأنه لازم ، والذي ﴿ يأمر بالعدل ﴾ هو الله تعالى ، وقال ابن عباس : هو المؤمن . و"الصراط" الطريق . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(33/440)

وقال القرطبى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ نبّه تعالى على ضلالة المشركين ، وهو منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم .

"ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً" أي بيّن شبها ؛ ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ عَبْداً مَّمْلُوكاً ﴾ أي كما لا يستوي

عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حُرٌّ قد رزق رزقاً حسناً فكذلك أنا وهذه الأصنام.

فالذي هو مثالٌ في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخَّر بإرادة سيده.

ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة؛ فإن النكرة في الإثبات لا تقتضي الشمول عند أهل اللسان كما تقدم، وإنما تفيد واحداً، فإذا كانت بعد أمر أو نهي أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعي؛ كقوله: أعتق رجلاً ولا تهن رجلاً، والمصدر كاعتاق رقبة، فأيّ رجل أعتق فقد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء.

وقال قتادة: هذا المثل للمؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك وهو الكافر؛ لأنه لا ينتفع في الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى "وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً" المؤمن.

والأول عليه الجمهور من أهل العلم والتأويل.

قال الأَصَمّ: المراد بالعبد المملوك الذي ربما يكون أشدّ من مولاه أسْراً وأنضر وجهاً، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه؛ فقال الله تعالى ضرباً للمثال.

أي فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجاراً مواتاً شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقل ولا تسمع.

الثانية : فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر في الملك ، وأنه لا يملك شيئاً وإن مُلِّك .

(34/440)

قال أهل العراق : الرِّق ينافي الملك ، فلا يملك شيئاً ألْبَتَّةَ بحال ، وهو قول الشافعيّ في الجديد ، وبه قال الحسن وابن سِيرين .

ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك ، لأن لسيده أن ينتزعه منه أي وقت شاء ، وهو قول مالك ومن اتبعه ، وبه قال الشافعيّ في القديم .

وهو قول أهل الظاهر ؛ ولهذا قال أصحابنا : لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده كالحج والجهاد وغير ذلك .

وفائدة هذه المسألة أن سيده لو مَلّكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين ، ولو ملكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره ، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر .

والعراقيّ يقول : لا يجوز له أن يطأ الجارية ، والزكاة في النصاب واجبة على السيد كما كانت .

ودلائل هذه المسألة للفريقين في كتب الخلاف .

وأدلّ دليل لنا قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ثمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ [الروم : 40] فسوّى بين العبد والحرّ في الرزق والخلق .

وقال عليه السلام : " من أعتق عبداً وله مال . . .

" فأضاف المال إليه .

وكان ابن عمر يرى عبده يتسرّى في ماله فلا يعيب عليه ذلك .

وروي عن ابن عباس أن عبداً له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين ؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك في ملكه ما لم ينتزعه سيده .

والله أعلم .

الثالثة : وقد استدّل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده ، وعلى أن بيع الأمة طلاقها ؛ معوِّلاً على قوله تعالى : ﴿ لاَ يَقْدِرُ على شَيْءٍ ﴾ .

قال : فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلاً ، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه ، إلا أن يدل دليل على خلافه .

وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص .

والله تعالى أعلم .

الرابعة : قال أبو منصور في عقيدته : الرزق ما وقع الاغتذاء به .

وهذه الآية ترد هذا التخصيص ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] .

و ﴿ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : 254] وغير ذلك من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " جعل رزقي تحت ظِلّ رُمْحِي " وقوِله : " أرزاق أمتي في سنابك خيلها وأسِنة رماحها " .

فالغنيمة كلها رزق ، وكل ما صحّ به الانتفاع فهو رزق ، وهو مراتب : أعلاها ما يغذّي .

وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفاع في قوله : " يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت " .

وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك .

وفي ألسنة المحدّثين : السماع رزق ، يعنون سماع الحديث ، وهو صحيح .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ﴾ هو المؤمن ، يطيع الله في نفسه وماله .

والكافر لما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً .

﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ أي لا يستوون ، ولم يقل يستويان لمكان "من" لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث .

وقيل : "إنّ عبداً مملوكاً" ، "ومن رزقناه" أريد بهما الشيوع في الجنس .

﴿ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي هو المستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه ؛ إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يدٍ ولا معروف فتُحمد عليه ، إنما الحمد الكامل لله ؛ لأنه المنعم الخالق .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر المشركين ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الحمد لي ، وجميعَ النعمة مني .

وذكر الأكثر وهو يريد الجميع ، فهو خاص أريد به التعميم .

وقيل : أي بل أكثر الخلق لا يعلمون ، وذلك أن أكثرهم المشركون .

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾

هذا مَثَلٌ آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثَن ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ؛ قاله قَتادة وغيره .

وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لعثمان رضي الله عنه ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى ، ويأمر بالعدل عثمانُ .

وعنه أيضاً أنه مَثَلٌ لأبي بكر الصدّيق ومولًى له كافر .

وقيل : الأبكم أبو جهل ، والذي يأمر بالعدل عَمّار بن ياسر العَنْسِيّ ، وعَنْس (بالنون) حَيّ من مَذْحِج ، وكان حليفاً لبني مخزوم رهط أبي جهل ، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمّه سُمَيّة ، وكانت مولاة لأبي جهل ، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بمحمد لأنك تحبّينه لجماله ، ثم طعنها بالرمح في قُبُلِها فماتت ، فهي أوّل شهيد مات في الإسلام ، رحمها الله .

من كتاب النقاش وغيره .

وسيأتي هذا في آية الإكراه مبيّنا إن شاء الله تعالى .

وقال عطاء : الأبكم أُبَيّ بن خلَف ، كان لا ينطق بخير .

﴿ وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ ﴾ أي قومه لأنه كان يؤذيهم ويؤذي عثمان بن مَظْعُون .

وقال مقاتل : نزلت في هشام بن عمرو بن الحارث ، كان كافراً قليلَ الخير يعادي النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إن الأبكم الكافرُ ، والذي يأمر بالعدل المؤمنُ جملةً بجملة ؛ روي عن ابن عباس وهو حسَن لأنه يَعُمّ .

والأبكم الذي لا نطق له.

وقيل الذي لا يعقل.

وقيل الذي لا يسمع ولا يبصر.

وفي التفسير إن الأبكم هنا الوَثَنُ.

بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر، وأن غيره ينقله ويَنْحِته فهو كَلٌّ عليه.

والله الآمر بالعدل، الغالب على كل شيء.

وقيل: المعنى "وهو كَلٌّ على مولاه" أي ثِقْل على وَلِيّه وقرابته، ووبال على صاحبه وابن عمه.

وقد يسمَّى اليتيم كَلاًّ لثقله على من يكفله؛ ومنه قول الشاعر:

أكُولٌ لمال الكَلّ قبل شبابه . . .

إذا كان عظم الكَلّ غيرَ شديد

والكَلُّ أيضاً الذي لا ولد له ولا والد.

والكَلُّ العيال، والجمع الكُلُول؛ يقال منه: كَلّ السكينُ يَكِل كَلاًّ أي غلظت شفرته فلم يقطع.

﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ قرأ الجمهور "يُوَجِّهُّه" وهو خط المصحف ؛ أي أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير ، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يُفهم عنه .

وقرأ يحيى بن وَثّاب "أينما يُوَجَّهُ" على الفعل المجهول .

وروي عن ابن مسعود أيضاً "تَوَجّه" على الخطاب .

﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل وَهُوَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي هل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(38/440)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾

لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال ، لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلاً ، فقال تعالى : مثلكم في إشراككم بالله الأوثان ، كمثل من سوّى بين عبد مملوك

عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر ، قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف يشاء ، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال ، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية ، فكيف يجوز للعقل أن يسوي بين الله الخالق القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء البتة ؟ وقيل : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر ، لأنه لما كان محروماً من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيء ، وقيل : إن الكافر لما رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً ، والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والإنفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سراً وجهراً في طاعة الله ، وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ فهو ينفق منه سراً وجهراً ﴾ فأثابه الله الجنة على ذلك .

(39/440)

فإن قلت : لم قال عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف ؟ قلت : إنما ذكر المملوك ليتميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً لأنهما

من عباد الله ، وقوله : لا يقدر على شيء احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف ، لأنهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً ﴿ هل يستوون ﴾ ولم يقل هل يستويان يعني هل يستوي الأحرار والعبيد ، والمعنى كما لا يستوي هذا الفقير البخيل ، والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي ، والمؤمن الطائع ، وقال عطاء في قوله : عبداً مملوكاً هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، هو أبو بكر الصديق ثم قال تعالى ﴿ الحمد لله ﴾ حمد الله نفسه لأنه المستحق لجميع المحامد لأنه المنعم المتفضل على عباده ، وهو الخالق الرازق لا هذه الأصنام التي عبدها هؤلاء ، فإنها لا تستحق الحمد لأنها جماد عاجز ، لا يد لها على أحد ولا معروف ، فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله لا لغيره فيعجب على جميع العباد ، حمد الله لأنه أهل الحمد والثناء الحسن ﴿ بل أكثرهم ﴾ يعني الكفار ﴿ لا يعلمون ﴾ يعني أن الحمد لله لا لهذه الأصنام ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم ، والأبكم الذي لا يفهم ولا يفهم ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ هو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل ، ﴿ وهو كل على مولاه ﴾ أي ثقيل على من يلي أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ وهو نقيض الحدة ، يقال كل السكين إذا غلظت شفرته وكل اللسان إذا غلظ فلم يقدر على النطق ، وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه ، فقوله وهو كل على مولاه أي غليظ ثقيل على مولاه ﴿

أينما يوجهه ﴾ اي حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهم ﴿ لا يأت بخير ﴾ يعني لا يأت بجنح لأنه أخرس عاجز لا يحسن ولا يفهم ﴿ هل يستوي ﴾ يعني من هذه صفته ﴿ هو ﴾

(40/440)

يعني صاحب هذه الصفات المذمومة ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ يعني ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير ﴿ وهو ﴾ في نفسه ﴿ على صراط مستقيم ﴾ يعني على سيرة صالحة ودين قويم ، فيجب أن يكون الآمر بالعدل ، عالماً قادراً مستقيماً في نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل ، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده من إنعامه ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللأصنام التي هي أموات جماد ، لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل ، وهي كل على عابديها ، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة .

وقيل : كلا المثلين للمؤمن والكافر ، والمؤمن : هو الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم .

والكافر : هو الأبكم الثقيل الذي لا يأمر بخير فعلى هذا القول تكون الآية على العموم في كل

مؤمن وكافر .

وقيل : هي على الخصوص فالذي يأمر بالعدل هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو على صراط مستقيم .

والذي يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل .

وقيل : الذي يأمر بالعدل عثمان بن عفان ، وكان له مولى يأمره بالإسلام وذلك المولى يأمر عثمان بالإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تعالى ، فهو الذي لا يأت بخير .

وقيل : المراد بالأبكم الذي لا يأت بخير أبي بن خلف ، وبالذي يأمر العدل حمزة وعثمان بن عفان ، وعثمان بن مظعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(41/440)

وقال أبو السعود :

ثم علمهم كيفيةَ ضرب الأمثال في هذا الباب فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ﴾

أي ذكر وأورد شيئاً يُستدل به على تباين الحالِ بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به ، وعلى تباعدهما بحيث ينادي بفساد ما ارتكبوه نداء جلياً ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ على

شَىْءٍ ﴾ بدلٌ من مثلاً وتفسيرٌ له ، والمَثَلُ في الحقيقة حالتُه العارضة له من المملوكية والعجزِ التامّ ، وبحسَبها ضربُ نفسِه مثلاً ، ووصفُ العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما في كونهما عبدين لله سبحانه وقد أُدمج فيه أن الكل عبيدٌ له تعالى ، وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتَب والمأذون اللَّذين لهما التصرّف في الجملة ، وفي إبهام المثلِ أولاً ثم بيانِه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ ﴾ مَنْ موصوفةٌ معطوفة على عبداً أي رزقناه بطريق المُلك ، والالتفاتُ إلى التكلم للإشعار باختلاف حالَيْ ضرب المثل والرزق ﴿ مِنَّا ﴾ من جنابنا الكبير المتعالي ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ حلالاً طيباً أو مستحسَناً عند الناس مرضياً ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ ﴾ تفضّلاً وإحساناً ، والفاءُ لترتيب الإنفاق على الرزق كأنه قيل : ومَنْ رزقناه منا رزقاً حسناً فأنفق ، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم من الجلمة الاسميةِ الفعليةِ الخبر للدلالة على ثبات الإنفاقِ واستمرارِه التجدديّ ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ أي حالَ السر والجهر أو إنفاقَ سرٍ وإنفاقَ جهر ، والمرادُ بيانُ عمومِ إنفاقِه للأوقات وشمولِ إنعامه لمن يجتنب عن قبوله جهراً ، والإشارةُ إلى أصناف نعمِ الله تعالى الباطنةِ والظاهرةِ وتقديمُ السر على الجهر للإيذان بفضله عليه ، والعدولُ عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرّاً مالكاً للأموال مع كونه أدلَّ على تباين الحالِ بينه وبين قسميه لتوخّي تحقيقِ الحقّ بأن الأحرارَ أيضاً تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وأن مالكيتَهم لما يملكونه

ليست إلا بأن يرزقهم الله تعالى إياه من غير أن يكون لهم مدخلٌ في ذلك مع محاولة المبالغة في الدِلالة

(42/440)

على ما قُصد بالمثل من تباين الحالِ بين الممثَّلين فإن العبدَ المملوك حيث لم يكن مثلَ العبد المالكِ فما ظنُّك بالجماد ومالكِ المُلك خلاّق العالمين.

﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ جمعُ الضمير للإيذان بأن المرادَ بما ذكر مَن اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أي يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيانِ في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ما ينفقه الأحرارُ ليس مما لهم دخلٌ في إيجاده ولا في تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم فحيث لم يستوِ الفريقان فما ظنُّكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا ذليلَ أذلُّ منه وهو الأصنام ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ أي كلُّه له لأنه مولى جميع النعم لا يستحقه أحدٌ غيرُه وإن ظهرت على أيدي بعض الوسايط فضلاً عن استحقاق العبادة، وفيه إرشادٌ إلى ما هو الحقُّ من أنّ ما يظهر على يد مَنْ ينفق مما ذكر ارجعٌ إليه سبحانه كما لوح به قوله تعالى: ﴿ رَّزَقْنَاهُ ﴾ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ما ذكر فيُضيفون نعمَه تعالى إلى غيره ويعبدونه لأجلها، ونفيُ العلم

عن أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وإنما لا يعملون بموجبه عناداً كقوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون . ﴾

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾

(43/440)

أي مثلاً آخرَ يدل على ما دل عليه المثلُ السابقُ على وجه أوضحَ وأظهرَ وبعد ما أبهم ذلك لتنتظرَ النفسُ إلى وروده وتترقبه حتى يتمكّن لديها عند ورودِه (فضل تمكن) بيّن فقيل : ﴿ رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ وهو من وُلد أخرسَ ﴿ لاَّ يَقْدِرُ على شَىْءٍ ﴾ من الأشياء المتعلّقةِ بنفسه أو بغيره بحدْس أو فراسة لِقلة فهمِه وسوءِ إدراكه ﴿ وَهُوَ كَلٌّ ﴾ ثِقلٌ وعِيالٌ ﴿ على مَوْلاهُ ﴾ على مَن يعوله ويلي أمرَه ، وهذا بيانٌ لعدم قدرِته على إقامة مصالحِ نفسه بعد ذكر عدم قدرِته على شيء مطلقاً ، وقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا يُوَجّههُّ ﴾ أي حيث يرسله مولاه في أمر ، بيانٌ لعدم قدرته على إقامة مصالحِ مولاه ولو كانت مصلحةً يسيرة ، وقرىء على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضي من التوجه ﴿ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ بنُجح وكفايةِ مُهمّ البتةَ .

﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ ﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورة ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ أي مَنْ

هو مِنطيقٌ فِهمٌ ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناسَ بحثهم على العدل الجامع لمجامعِ الفضائل ﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ومقابلةُ الصفاتِ المذكورة عدمُ استحقاقِ المأمورية ، وملخصُ هذين استحقاقُ كمالِ الآمرية المستتبعِ لحيازة المحاسنِ بأجمعها ، وتغييرُ الأسلوب حيث لم يقل : والآخر آمرٌ بالعدل الآية ، لمراعاة الملاءمةِ بينه وبين ما هو المقصودُ من بيان التباُينِ بين القرينتين . واعلم أن كلاًّ من الفعلين ليس المرادُ بهما حكايةَ الضربِ الماضي بل المرادُ إنشاؤُه بما ذُكر عَقيبه ، ولا يبعُد أن يقال : إن الله تعالى ضرب مثلاً بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقُهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يشركون ، فيكون كلٌّ من الفعلين حكايةً للضرب الماضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(44/440)

وقال الآلوسى :

ووجه ربط قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ الخ على هذا عند المدقق أنه تعالى بعد أن نهاهم عن ضرب الأمثال له سبحانه ضرب مثلاً دل به على أنهم ليسوا أهلاً لذلك وانهم

إذا كانوا على هذا الحد من المعرفة والتقليد أو المكابرة فليس لهم إلى ضرب الأمثال المطابقة المستدعي ذكاء وهداية سبيل، وقال غيره في ذلك ولعله أظهر منه: إنه تعالى لما ذكر أنه يعلم كيف تضرب الأمثال وانهم لا يعلمون علمهم كيف تضرب الأمثال في هذا الباب فقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ﴾ الخ.

(45/440)

ووجه الربط على ما تقدم من أن النهي عن الإشراك أنه سبحانه لما نهاهم عن ضرب المثل الفعلي وهو الإشراك عقبه بالكشف لذي البصيرة عن فساد ما ارتكبوه بقوله سبحانه: ﴿ ضَرَبَ ﴾ الخ أي أورد وذكر ما يستدل به على تباين الحال بين جنابه تعالى شأنه وبين ما أشركوه به سبحانه وينادي بفساد ما هم عليه نداء جلياً ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلى شَىْءٍ ﴾ بدل من مثلا وتفسير له والمثل في الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما في كونهما عبداً لله تعالى، وقد أدمج فيه على ما قيل إن الكل عبيد له تعالى وبعدم القدر لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف في الجملة، وفي إبهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر ما لا يخفى من الجزالة ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ نكرة موصوفة على ما استظهره

الزمخشري ليطابق ﴿ عَبْداً ﴾ فإنه أيضاً نكرة موصوفة وإلى ذلك ذهب أبو البقاء ، وقال الحوفي : هي موصولة واستظهره أبو حيان ، وزعم بعضهم ان ذلك لكون استعمالها موصولة أكثر من استعمالها موصوفة ، والأول مختار الأكثرين أي حرا رزقناه بطريق الملك ؛ والالتفات إلى التكلم للإشعار باختلاف حال ضرب المثل والرزق ، وفي اختيار ضمير العظمة تعظيم لأمر ذلك الرزق ويزيد ذلك تعظيماً قوله سبحانه : ﴿ مِنَّا ﴾ أي من جنابنا الكبير المتعالي ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ حلالاً طيباً أو مستحسناً عند الناس مرضياً ويؤخذ منه على ما قيل كونه كثيراً بناء على أن القلة التي هي أخت العدم لا حسن في ذتها ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ ﴾ تفضلاً وإحساناً ، والفاء لترتب الانفاق على الرزق كأنه قيل : ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فأنفق وإيثار المنزل من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق واستمراره التجددي ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ أي حال السر وحال الجهر أو إنفاق سر وإنفاق جهر والمراد

بيان عموم انفاقه للأوقات وشمول انعامة لمن يجتنب عن قبوله جهراً .

وجوز أن يكون وصفه بالكثرة مأخوذاً من هذا بناء أن المراد منه كيف يشاء وهو يدل

على انحاء التصرف وسعة المتصرف منه ، وتقديم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه ، وقد مر الكلام في ذلك ؛ والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال : وحرا مالكاً للأموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لما في ارشاد العقل السليم من توخي تحقيق الحق بأن الأحرار أيضاً تحت ربقة عبوديته تعالى وأن مالكيتهم لما يملكونه ليست إلا بأن يرزقهم الله تعالى إياه من غير أن يكون لهم مدخل في ذلك مع محاولة المبالغة في الدلالة على ما قصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فإن العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ جمع الضمير وأن تقدمه اثنان وكان الظاهر يستويان للإيذان بأن المراد بما ذكر من اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما وان أخرج ابن عساكر .

وجماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الآية نزلت في هشام بن عمرو وهو الذي ينفق ماله سراً وجهراً وفي عبده أبي الجوزاء الذي كان بنهاه والله تعالى أعلم بصحته .

(47/440)

وقيل نزلت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وعبد له ولا يصح إسناده كما في البحر ، وفيه أنه يحتمل أن يكون الجمع باعتبار أن المراد بمن الجمع وأن يكون باعتبار عود الضمير

على العبيد والأحرار وإن لم يجر لهما ذكر لدلالة ﴿ عَبْدُ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ ﴾ عليهما ، والمعول عليه ما ذكر أولاً ، والمعنى هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ما ينفقه الأحرار ليس مما لهم دخل في إيجاده ولا تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا ذليل أذله منه وهو الاصنام ، وقيل : إن هذا تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق شبه الأول بمملوك لا تصرف له لأنه لا حباط عمله وعدم الاعتداد بأفعاله واتباعه لهواه كالعبد المنقاد الملحق بالبهائم بخلاف المؤمن الموفق ، وجعله تمثيلاً لذلك مروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقتادة ولا تعيين أيضاً وإن قيل : إن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

وأبي جهل ، على أن أبا حيان قال إنه لا يصح إسناد ذلك ، هذا ثم أعلم أنهم اختلفوا في العبد هل يصح له ملك أم لا قال في الكشاف : المذهب الظاهر أنه لا يصح وبه قال الشافعي ، وقال ابن المنير على ما لخصه في الكشف من كلام طويل إنه يصح له الملك عند مالك : وظاهر الآية تشهد له لأنه أثبت له العجز بقوله تعالى : ﴿ مَّمْلُوكًا ﴾ ثم نفى القدرة

العارضة بتمليك السيد بقوله سبحانه : ﴿ لَّا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ ﴾ وليس المعنى القدرة على التصرف لأن مقابله ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ والحمل على إخراج المكاتب مع شذوذه إيجاز مع اخلال كما قال امام الحرمين رحمه الله تعالى في "أيما أمرأة نكحت بغير اذن وليها" الحمل على المكاتبة بعيد لا يجوز والمأذون لم يخرج لما مر من أن المراد بالقدرة ما هو ، وليس لقائل أن يقول : إنه صفة لازمة موضحة فالأصل في الصفات التقييد اه .

وتعقبه المدقق بقوله : والجواب أن المعنى على نفي القدرة عن التصرف فالآية واردة في تمثيل حال الاصنام به تعالى عن ذلك علوا كبيرا وكلما بولغ في حال عجز المشبه به وكمال المقابل دل في المشبه به أيضاً على ذلك فالذي يطابق المقام القدرة على التصرف وهو في مقابلة قوله تعالى : ﴿ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ وما ذكره لا حاصل له ولا إخلال في إخراج المكاتب لشمول اللفظ مع أن المقام مقام مبالغة فما يتوهم دخوله بوجه ينبغي أن ينفي وأين هذا مما نقله عن إمام الحرمين اه .

واستدل بالآية أيضاً على أن العبد لا يملك الطلاق أيضاً وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال : ليس للعبد طلاق إلا باذن سيده وقرأ الآية ؛ وقد فصلت أحكام العبيد في حكم الفقه على أتم وجه ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ أي كله له سبحانه لا يستحقه أحد غيره تعالى لأنه جل شأنه المولى للنعم وإن ظهرت على أيدي بعض الوسائل فضلاً عن استحقاق العبادة .

وفيه إرشاد إلى ما هو الحق من أن ما يظهر على يد من ينفق فيما ذكر راجع إليه تعالى كما لوح به ﴿ رَّزَقْنَاهُ ﴾ وقال غير واحد هذا حمد على ظهور المحجة وقوة هذه الحجة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره ويعبدونه لأجل أو لا يعلمون ظهور ذلك وقوة ما هنالك فيبقون على شركهم وضلالهم ، ونفي العلم عن أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وإنما لم يعملوا بموجبه عناداً ؛ وقيل : المراد بالأكثر الكل فكأنه قيل : هم لا يعلمون ، وقيل : ضمير ﴿ هُمْ ﴾ للخلق والأكثر هم المشركون ، وكلا القولين خلاف الظاهر .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ أي مثلاً آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح ، وأبهم ثم بين بقوله تعالى : ﴿ رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا ﴾ لما تقدم والبكم الخرس المقارن للخلقة ويلزمه الصمم فصاحبه لا يفهم لعدم السمع ولا يفهم غيره لعدم النطق ، والإشارة لا يعتد بها لعدم تفهيمها حق التفهيم لكل أحد فكأنه قيل : أحدهما أخرس أصم لا يفهم ولا يفهم ﴿ مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو غيره بحدس أو فراسة لسوء فهمه وإدراكه ﴿ وَهُوَ كَلٌّ ﴾ ثقيل وعيال ﴿ عَلَى مَوْلاَهُ ﴾ على

من يعوله ويلي أمره ، وهذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته مطلقاً ، وقوله سبحانه :

﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَيَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ أي حيثما برسله مولاه في أمر لا يأت بنجح وكفاية مهم ، بيان لعدم قدرته على مصالح مولاه .

وقرأ عبد الله في رواية ﴿ توجهه ﴾ على الخطاب ، وقرأ علقمة .

وابن وثاب .

ومجاهد .

(50/440)

وطلحة وهي رواية أخرى عن عبد الله ﴿ يوجه ﴾ بالبناء للفاعل والجزم ، وخرج على أن الفاعل يعود على المولى والمفعول محذوف وهو ضمير الا بكم أي يوجهه ، ويجوز أن يكون ضمير الفاعل عائداً على الا بكم ويكون الفعل لازم وجه بمعنى توجه ، وعلى ذلك جاء قول الاضبط بن قريع السعدي :

أينما أوجه ألق سعدا . . .

وعن علقمة .

وطلحة.

وابن وثاب أيضاً ﴿ يوجه ﴾ بالجزم والبناء للمفعول، وفي رواية أخرى عن علقمة.

وطلحة أنهما قرءا ﴿ يوجه ﴾ بكسر الجيم وضم الهاء، قال صاحب اللوامح.

فإن صح ذلك فالهاء التي هي لام الفعل محذوفة فراراً من التضعيف أو لم يرد بأينما الشرط، والمراد أينما هو يوجه وقد حذف منه ضمير المفعول به فيكون حذف الياء من آخر ﴿ لَمْ يَأْتِ ﴾ للتخفيف، وتعقبه أبو حيان بأن أين لا تخرج عن الشرط أو الاستفهام.

ونقل عن أبي حاتم أن هذه القراءة ضعيفة لأن الجزم لازم، ثم قال: والذي توجه به هذه القراءة أن ﴿ أَيْنَمَا ﴾ شرط حملت على إذا بجامع ما اشتركا فيه من الشرط ثم حذفت ياء ﴿ يَأْتِ ﴾ تخفيفاً أو جزم على توهم أنه جيء بأينما جازمة كقراءة من قرأ ﴿ إنه من يتقي ويصبر ﴾ [يوسف: 90] في أحد الوجهين، ويكون معنى يوجه يتوجه كما مر آنفاً ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ ﴾ أي ذلك الأبكم الموصوف بتلك الصفات المذكورة ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ ومن هو منطيق فهم ذو رأي ورشد يكفي الناس في مهماتهم وينفعهم بحثهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل ﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه مع ما ذكر من نفعه الخاص والعام ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعي، فالجملة حالية مبينة لكماله في نفسه ولما كان ذلك مقدماً على تكميل الغير أتى بها اسمية فإنها تشعر بذلك مع الثبوت إلى مقارنة ذي الحال، فلا يقال.

الأنسب تقديمها في النظم الكريم ، ومقابلة تلك الصفات الأربع بهذين الوصفين لأنهما كمال ما يقابلها ونهايته فاختير آخر صفات الكامل المستدعية لما ذكر وأزيد حيث جعل هادياً مهدياً ، وتغيير الأسلوب حيث لم يقل : والآخر يأمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين الفريقين ، ويقال هنا كما قيل في المثل السابق : إنه حيث لم يستو الفريقان في الفضل والشرف مع استوائهما في الماهية والصورة فلأن يحكم بأن الصنم الذي لا ينطق ولا يسمع وهو عاجز لا يقدر على شيء كل على عابده يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويمسح عنه الأذى إذا وقع عليه ويخدمه وإن وجهه إلى أي مهم من مهماته لا ينفعه ولا يأت له به لا يساوي رب العالمين وهو هو في استحقاق المعبودية أحرى وأولى ، وقيل : هذا تمثيل للمؤمن والكافر فالأبكم هو الكافر ومن يأمر بالعدل هو المؤمن ، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وإياماً كان فليس المراد برجلين رجلان متصفان بما ذكر من الصفات مطلقاف ، وما روي من أن الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عمار أو الأبكم أبي ابن خلف والآمر عثمان بن مظعون فقال أبو حيان : لا يصح إسناده ، وما أخرج ابن جرير .

وابن عساكر .

وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ الخ في عثمان بن عفان ومولى له كافر وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما

فبعد تحقق صحته لا يضرنا في إرادة الموصوفين مطلقاً بحيث يدخل فيهما من ذكر .

فقد صرحوا بأن خصوص السبب لا ينافي العمون .

(52/440)

هذا وقد اقتصر شيخ الإسلام على كون الغرض من التمثيلين نفي المساواة بينه جل جلاله وبين ما يشركون ، وهو دليل على أنه مختاره ثم قال : اعلم أن كلا الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضي بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ، ولا يبعد أن يقال : إن الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وتعالى وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضي اه ، ولا يخفى أنه لا كلام في حسن اختياره لكن في النفس من قوله لا يبعد شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾

أعقب زجرهم عن أن يشبّهوا الله بخلقه أو أن يشبّهوا الخلق بربّهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثل عبداً بسيّده في الإنفاق ، فجملة ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً ﴾ الخ مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ [سورة النحل : 73] .

فشبّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرّف في نفسه ولا يملك مالاً ، وشبّه شأن الله تعالى في رَزقه إيّاهم بحال الغنيّ المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره ، ومعرفة الحالين المشبّهتين يدلّ عليها المقام ، والمقصود نفي المماثلة بين الحالتْين ، فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية ، ولذلك أعقب بجملة ﴿ هل يستوون ﴾ .

وذيّل هذا التمثيل بقوله تعالى : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ كما في سورة إبراهيم (26)

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ومثل كلمة خبيثة

كشجرة خبيثة ﴾ الآية ، فإن المقصود في المقامين متّحد ، والاختلافُ في الأسلوب إنما يومىء إلى الفرق بين المقصود أولاً والمقصود ثانياً كما أشرنا إليه هنالك .

والعبد : الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشّراء أو بالإرث .

وقد وُصف ﴿ عبداً ﴾ هنا بقوله : ﴿ مملوكاً ﴾ تأكيداً للمعنى المقصود وإشعاراً لما في لفظ عبد من معنى المملوكية المقتضية أنه لا يتصرّف في عمله تصرف الحرّية .

وانتصب ﴿ عبداً ﴾ على البدلية من قوله تعالى : ﴿ مثلاً ﴾ وهو على تقدير مضاف ، أي حال بعد ، لأن المثل هو للهيئة المنتزعة من مجموع هذه الصّفات .

وجملة ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ صفة ﴿ عبداً ﴾ ، أي عاجزاً عن كلّ ما يقدر عليه الناس ، كأن يكون أعمى وزمناً وأصمّ ، بحيث يكون أقل العبيد فائدة .

فهذا مَثَل لأصنامهم ، كما قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء ﴾ [سورة النحل : 20] ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾ [سورة العنكبوت : 17] .

ومن ﴾ موصولة ما صدْقها حُرّ ، بقرينة أنه وقع في مقابلة عبد مملوك ، وأنه وصف بالرزق

الحسن فهو ينفق منه سرّاً وجهراً ، أي كيف شاء .

وهذا من تصرّفات الأحرار ، لأن العبيد لا يملكون رزقاً في عرف العرب .

وأما حكم تملّك العبد مالاً في الإسلام فذلك يرجع إلى أدلّة أخرى من أصول الشريعة الإسلامية ولا علاقة لهذه الآية به .

والرزق : هنا اسم للشيء المرزوق به .

والحَسن : الذي لا يشوبه قبح في نوعه مثل قِلّة وجدان وقت الحاجة ، أو إسراع فسادٍ إليه كسوس البُرّ ، أو رداءة كالحشف .

ووجه الشبه هو المعنى الحاصل في حال المشبّه به من الحقارة وعدم أهليّة التصرّف والعجز عن كل عمل ، ومن حال الحرية والغنى والتصرّف كيف يشاء .

وجعلت جملة ﴿ فهو ينفق منه ﴾ مفرّعة على التي قبلها دون أن تجعل صفة للرزق للدّلالة على أن مضمون كلتا الجملتين مقصودٌ لذاته كمالٌ في موصوفه ، فكونه صاحب رزق حَسَن كمال ، وكونه يتصرّف في رزقه بالإعطاء كمال آخر ، وكلاهما بضدّ نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء من الإنفاق ولا ما ينفق منه .

وجعل المسند فعلاً للدّلالة على التقوّي ، أي ينفق إنفاقاً ثابتاً .

وجعل الفعل مضارعاً للدّلالة على التجدّد والتكرر .

أي ينفق ويزيد .

و﴿ سراً وجهراً ﴾ حالان من ضمير ﴿ ينفق ﴾ ، وهما مصدران مؤوّلان بالصّفة ، أي مُسرّاً وجاهراً بإنفاقه .

والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق ، كناية عن استقلال التصرّف وعدم الوقاية من مانع إيّاه عن الإنفاق .

وهذا مثَل لغنى الله تعالى وجوده على الناس .

(55/440)

وجملة ﴿ هل يستوون ﴾ بيان لجملة ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ ، فبُيّن غرض التشبيه بأنّ المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين ليستدلّ به على عدم مساواة أصحاب الحالة الأولى لصاحب الصّفة المشبّهة بالحالة الثانية .

والاستفهام مستعمل في الإنكار .

وأما جملة ﴿ الحمد لله ﴾ فمعترضة بين الاستفهام المفيد للنفي وبين الإضراب بـ ﴿ بل ﴾ الانتقالية .

والمقصود من هذه الجملة أنه تبيّن من المثل اختصاص الله بالإنعام فوجب أن يختصّ بالشكر وأن أصنامهم لا تستحقّ أن تشكر .

ولما كان الحمد مظهراً من مظاهر الشكر في مظهر النّطق جعل كناية عن الشكر هنا ، إذ كان الكلام على إخلال المشركين بواجب الشكر إذْ أثنوا على الأصنام وتركوا الثناء على الله ، وفي الحديث " الحمدُ رأس الشّكر " .

جيء بهذه الجملة البليغة الدّلالة المفيدة انحصار الحمد في مِلْك الله تعالى ، وهو إما حصر ادّعائي لأن الحمد إنما يكون على نعمة ، وغير الله إذا أنعم فإنما إنعامه مظهر لنعمة الله تعالى التي جرت على يديه ، كما تقدم في صدر سورة الفاتحة ، وإما قصر إضافي قصرَ إفراد للردّ على المشركين إذ قسموا حمدهم بين الله وبين آلهتهم .

ومناسبة هذا الاعتراض هنا تقدُّم قوله تعالى : ﴿ وبنعمت الله هم يكفرون ﴾ [سورة النحل : 72] ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً ﴾ [سورة النحل : 73] . فلما ضرب لهم المثل المبيّن لخطئهم وأعقب بجملة هل يستوون ﴾ ثُني عنان الكلام إلى الحمد لله لا للأصنام .

وجملة ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب للانتقال من الاستدلال عليهم إلى تجهيلهم في عقيدتهم .

وأسند نفي العلم إلى أكثرهم لأن منهم من يعلم الحقّ ويكابر استبقاء للسيادة واستجلاباً لطاعة دهمائهم ، فهذا ذَمّ لأكثرهم بالصراحة وهو ذمّ لأقلّهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض .

وهذا نظير قوله تعالى في سورة الزمر (29) ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلَما لرجل هل يستويان مثلاً الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ وإنما جاءت صيغة الجمع في قوله تعالى هل يستوون ﴾ لمراعاة أصحاب الهيئة المشبّهة ، لأنها أصنام كثيرة كل واحد منها مشبّه بعبد مملوك لا يقدر على شيء ، فصيغة الجمع هنا تجريد للتمثيلية ، أي هل يستوي أولئك مع الإله الحقّ القادر المتصرّف .

وإنما أجري ضمير جمعهم على صيغة جمع العالم تغليباً لجانب أحد التمثيلين وهو جانب الإله القادر .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾

هذا تمثيل ثانٍ للحالتين بحالتين باختلاف وجه الشبّه .

فاعتبر هنا المعنى الحاصل من حال الأبكم ، وهو العجز عن الإدراك ، وعن العمل ، وتعذّر الفائدة منه في سائر أحواله ؛ والمعنى الحاصل من حال الرجل الكامل العقل والنّطق في إدراكه الخيرَ وهديه إليه وإتقانِ عمله وعمل من يهديه ، ضربه الله مثلاً لكماله وإرشاده الناس إلى الحقّ ، ومثلاً للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضرّ .

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء ، ثم فصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التّسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز ، إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية تفنّنا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾ [سورة النحل : 75] .

ومثْل هذا التفنّن من مقاصد البلغاء كراهية للتكرير لأن تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ .

والأبكم : الموصوف بالبَكم بفتح الباء والكاف وهو الخَرَس في أصل الخلقة من وقت الولادة بحيث لا يفهم ولا يُفهم .

وزيد في وصفه أنه زَمِنٌ لا يقدر على شيء .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي ﴾ في أول سورة البقرة (18) .

والكَلّ بفتح الكاف العالَة على الناس .

وفي الحديث مَن ترَك كلاّ فعلينا ، أي من ترك عِيالاً فنحن نكفلهم .

وأصل الكلّ : الثّقَل .

ونشأت عنه معانٍ مجازية اشتهرت فساوت الحقيقة .

والمولى : الذي يلي أمر غيره .

والمعنى : هو عالة على كافله لا يدبّر أمر نفسه .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ بل الله مولاكم ﴾ في سورة آل عمران (15) ، وقوله تعالى :

﴿ وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ ﴾ في سورة يونس (30) .

ثم زاد وصفه بقلّة الجدوى بقوله تعالى : ﴿ أينما يوجّهه ﴾ ، أي مولاه في عمل ليعمله أو يأتي به لا يأتِ بخير ، أي لا يهتدي إلى ما وجّه إليه ، لأن الخير هو ما فيه تحصيل الغرض من الفعل ونفعه .

ودلّت صلة ﴿ يأمر بالعدل ﴾ على أنه حكيم عالم بالحقائق ناصح للناس يأمرهم بالعدل لأنه لا يأمر بذلك إلا وقد علمه وتبصّر فيه .

والعدل : الحقّ والصواب الموافق للواقع .

والصراط المستقيم : المحجّة التي لا التواء فيها .

وأطلق هنا على العمل الصالح ، لأن العمل يشبّه بالسيرة والسلوك فإذا كان صالحاً كان كالسلوك في طريق موصلة للمقصود واضحة فهو لا يستوي مع من لا يعرف هدى ولا يستطيع إرشاداً ، بل هو محتاج إلى من يكفله .

فالأول مثَل الأصنام الجامدة التي لا تفقه وهي محتاجة إلى من يحرسها وينفض عنها الغبار والوسخ، والثاني مثل لكماله تعالى في ذاته وإفاضته الخير على عباده. انتهى انتهى. ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(58/440)

وقال الشيخ الشعراوى:

وبعد أنْ هيّأنا ربنا سبحانه لتلقِّي الأمثال، وأعدّ أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه.

. أتى بهذا المثل.

فيقول الحق سبحانه:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان:

الطرف الأول: عبد: أي مَوْلى، وصفه بأنه مملوك التصرّف، وأنه لا يقدر على شيء من العمل؛ ذلك لأن العبد قد يكون عَبْداً ولكنه يعمل، كمَنْ تسمح له بالعمل في التجارة مثلاً وهو عبد، وهناك العبد المكاتب الذي يتفق مع سيده على مال يُؤدّيه إليه لينال حريته، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمعَ المال المتفق عليه. فهذا عَبْد، ومملوك، ولا يقدر

على شيء من السَّعْي والعمل .

والطرف الثاني : سيد حُرٌّ ، رزقه الله وأعطاه رزْقاً حَسناً أي : حلالاً طيّباً . . ثم وفّقه الله للإنفاق منه بشتى أنواع الإنفاق : سِراً وجَهْراً . . وهذه منزلة عالية : رزْق من الله وصفه بأنه حلال طَيب لا شُبْهة فيه ، بعد ذلك وفّقه الله للإنفاق منه . . كُلٌّ حَسْب ما يناسبه ، فمن الإنفاق ما يناسبه السِّرّ ، ومنه ما يُناسبه الجَهْر : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] .

هذان هما طَرَفا المثَل المضروب لَنَا . . ويترك لنا السياق القرآني الحكْم بينهما . . وكأن الحق سبحانه يقول : أنا أرتضي حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب ، إلا إذا كان الجواب سيأتي على وَفْق ما يريد . . ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أن نقولَ : لا يستوون . . وكأن الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد ضرب الله هذا المثل لعبدة الأصنام ، الذين أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، فمثَّل الحق سبحانه الأصنامَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء .

وضرب المثل الآخر للسيد الذي رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سِرّاً وجَهْراً ، ألم تَرَ إلى قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . . ﴾ [لقمان : 20] .

ليُبين لهم خطأهم في الانصراف عن عبادة الله مع ما أعطاهم من رزق إلى عبادة الأصنام التي لا تعطيهم شيئاً .

ومن هنا تتضح الحكمة في أن الله تعالى ترك الحكم بنفسه في هذا المثَل ، وأتى به على صورة سؤال ليأخذ الحكم من أفواههم ويشهدوا هم على أنفسهم ؛ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والجدال . ولنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ . . . ﴾ [النحل : 75] .

فالحديث عن مُثّنى ، وكان القياس أن يقول : هل يستويان ، فلماذا عدل عن المثنى إلى الجمع ؟

نقول : لأن المثل وإنْ ضُرِب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين . . مفرد شائع في عديد مملوكين ، وفي عديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك لِيُعمّم ضَرْب المثل .

إذن : ليس في اختلاف الضمير هنا ما يتعارض وبلاغة القرآن الكريم ، بل هي دِقّة أداء ؛ لأن المتكلّم هو الحق سبحانه وتعالى .

وكذلك في قوله تعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا . . ﴾ [الحجرات: 9] .

بعضهم يرى في الآية مَأخذاً، حيث تتحدث عن المثنى، ثم بضمير الجمع في (اقْتَتَلُوا)، ثم تعود للمثنى في (بَيْنَهُمَا) .

نقول لهؤلاء: لو تدبرتُم المعنى لَعرفتم أن ما تتخذونه مأخذاً، وتعتبرونه اختلافاً في الأسلوب هو منتهى الدقة في التعبير القرآني . . ذلك أن الحديث عن طائفتين: مُثنّى . . نعم . . فلو تقاتلا، هل ستمسك كل طائفة سَيْفاً لتقاتل الأخرى؟

(60/440)

لا . . بل سيُمسِك كُلُّ جندي منها سَيْفاً . . فالقتال هناك بالمجموع . . مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى، فناسب أن يقول: اقتتلوا؛ لأن القتال حركة ذاتية من كُلّ فرد في الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصُّلح، هل نصالح كل جندي من هذه على كل جندي من هذه؟ لا . . بل الصُّلْح شأْنُ السادة والزعماء والقادة لكل طائفة، ففي الصُّلْح نعود للمثنى، حيث ينوب هؤلاء عن طائفة، وهؤلاء عن طائفة، ويتم الصُّلْح بينهما .

إذن: اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البياني؛ لأن المتكلم هو الحق سبحانه

وتعالى .

وقوله : ﴿ الحمد لِلَّهِ . . . ﴾ [النحل : 75] .

كأن الحق سبحانه يقول : الحمد لله أنْ وافق حُكْمكم ما أريد ، فقد نطقتُم أنتم وحكمتُمْ .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 75] .

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا ما يُسمُّونه " صيانة الاحتمال " ؛ لأنه لما نزلَ القرآن الكريم كان هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكّرون في الإيمان واعتناق هذا الدين ، فلو نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ، وربما صرفهم عمّا يُفكِّرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون الاحتمال في أن أُناساً منهم عندهم عِلْم ، ويرغبون في الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً . . . ﴾ .

وهذا مَثَل آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والأبكم هو الذي لا يتكلم . . ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ ؛ لأن الكلام وليد السَّمْع ، فإذا أخذنا طفلاً عربياً وربَّيناه في بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس صحيح ؛ ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً ، بل هو وليد البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان . . فإذا لم يسمع شيئاً فكيف يتكلم ؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ . . ﴾ [البقرة : 18] .

هذا الأبكم لا يقدر على شيء من العمل والنفع لك، يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ . . ﴾ [النحل: 76].

أي: عَالَة على سيده، لا ينفع حتى نفسه، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضي بها شيئاً لسيده، حتى هذه ليست عنده.

﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ . . ﴾ [النحل: 76].

إذن: لا خيرَ فيه، ولا منفعةَ ألبتة، لا له ولا لغيره، هذه صفات الرجل الأول.

فماذا عن مقابله؟

﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل . . . ﴾ [النحل: 76].

وهذه أول صفات الرجل الآخر، أنه يأمر بالعدل، وصفة الأمر بالعدل تقتضي أنه سمع منهجاً، ووعتْهُ أذنه، وانطلق به لسانه آمراً بالعدل، وهذه الصفة تقابل: الأبكم الذي لا يقدر على شيء.

﴿ وَهُوَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: 76].

أي: أنه يذهب إلى الهدف مباشرة، ومن أقصر الطرق، وهذه تقابل: أينما يوجهه لا يَأْتِ بخير.

والسؤال هنا أيضاً: هل يستويان؟ والإجابة التي يقول بها العقل: لا.

وهذا مَثَلٌ آخر للأصنام . . فهي لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تُفصح ، وهي لا تقدر على شيء لا لَها ولا لعابديها . . بل هي عَالَة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها وينصبونها ، ويُصلِحون كَسْرها ، وهكذا هم الذين يخدمونها ولا ينتفعون منها بشيء .

فإذا كنتم لا تُسوُّون بين الرجل الأول والرجل الآخر الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فكيف تسوون بين إله له صفة الكمال المطلق ، وأصنام لا تملك لكم نفعاً ولا ضراً ؟ !

أو نقول : إن هذا مَثَلٌ للمؤمن والكافر ، بدليل أن الحق سبحانه في المثل السابق قال : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً . . . ﴾ [النحل : 75] .

وفي مقابله قال : ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً . . . ﴾ [النحل : 75] .

ولم يقُلْ عبد أو رجل .

إنما هنا قال : ﴿ رَّجُلَيْنِ . . . ﴾ [النحل : 76] .

فيمكن أن نفهم منه أنه مَثَلٌ للرجل الكافر الذي يمثله الأبكم ، وللرجل المؤمن الذي يمثله مَنْ يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/440)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس وهو نفي الحكم لنفي علته وموجبه فإن القياس نوعان قياس طرد يقتضي إثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه وقياس عكس يقتضي نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه فالمثل الأول ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان فالله سبحانه هو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سرا وجهرا وليلا ونهارا يمينه ملأى لا

يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء فكيف يجعلونها شركاء لي ويعبدونها من دوني

(64/440)

مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين هذا قول مجاهد وغيره وقال ابن عباس: "هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقا حسنا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرا وجهرا والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء لأنه لا خير عنده" فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء ؟ والقول الأول أشبه بالمراد فإنه أظهر في بطلان الشرك وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسبا بقوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموجد كمن رزقه منه رزقا حسنا والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء فهذا ما نبه عليه المثل وأرشد إليه فذكره ابن عباس منبها على إرادته لا أن الآية اختصت به فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن فيظن الظان أن

ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله .

فصل

وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبد من دونه أيضا فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه

سبحانه عالم به معلم له راض به آمر لعباده به محب لأهله لا يأمر بسواه بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل بل أمره وشرعه عدل كله وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه وهو المجاورون له عن يمينه على منابر من نور وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما كما في الحديث الصحيح: "اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك"

فقضاؤه هو أمره الكوني ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فلا يأمر إلا بحق وعدل وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل وإن كان في المقضي المقدر ما هو جور وظلم فالقضاء غير المقضي والقدر غير المقدر ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فقوله ﴿ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ نظير قوله ناصيتي بيدك وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ نظير قوله: "عدل في قضاؤك" فالأول ملكه والثاني حمده وهو سبحانه له الملك وله الحمد وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل فهو على الحق في أقواله وأفعاله فلا يقضي يقضى على العبد بما يكون ظالما له به ولا يأخذه بغير ذنبه ولا ينقصه من حسناته شيئًا ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئًا ولا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يقول:

إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته لا يظلم أحدا منهم شيئا ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبي نجيح عنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: "الحق" وكذلك رواه ابن جريج عنه.

وقالت فرقة: هي مثل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وهذا اختلاف عبارة فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقالت فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر وقد فرق سبحانه بين كونه آمرا بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا.

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم أن مراد العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه فهو حق.

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقهره وفي ملكه وقبضته وهذا وإن كان حقا فليس هو معنى الآية وقد فرق شعيب بين قوله ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها وبين

قوله ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فهما معنيان مستقلان.

فالقول قول مجاهد وهو قول أئمة التفسير ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه وقال

جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وقد قال تعالى ﴿ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله وبالله التوفيق.

فصل

وفي الآية قول ثان مثل الأية سواء أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر وقد تقدم ما في هذا القول وبالله التوفيق. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 164.160 ﴾

وقال فى مفتاح دار السعادة

فالمثل الأول للصنم وعابديه والمثل الثاني ضربه الله تعالى لنفسه وأنه يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فكيف يسوى بينه وبين الصنم الذي له مثل السوء فما فعله الرب تبارك وتعالى مع عباده هو غاية الحكمة والإحسان والعدل في اقدارهم واعطائهم ومنعهم وأمرهم ونهيهم فدعوى المدعى أن هذا نظير تخلية السيد بين عبيده وامائه يفجر بعضهم ببعض ويسيء بعضهم بعضا اكذب دعوى وأبطلها والفرق بينهما أظهر وأعظم من أن يحتاج إلى ذكره والتنبيه عليه والحمد لله الغني الحميد فغناه التام فارق وحمده وملكه وعزته وحكمته وعلمه وإحسانه وعدله ودينه وشرعه وحكمه وكرمه ومحبته للمغفرة والعفو عن الجناة والصفح عن المسيئين وتوبة التائبين وصبر الصابرين وشكر الشاكرين الذين يؤثرونه على غيره ويتطلبون مراضيه ويعبدونه وحده ويسيرون في عبيده بسيرة العدل والإحسان والنصائح ويجاهدون أعداءه فيبذلون دماءهم وأموالهم في محبته ومرضاته فيتميز الخبيث من الطيب ووليه من عدوه ويخرج طيبات هؤلاء وخبائث أولئك إلى الخارج فيترتب عليها آثارها المحبوبة للرب تعالى من الثواب والعقاب والحمد لأوليائه والذم لأعدائه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 79 . 80 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ ﴾ : يجوزُ في " مَنْ " هذه أن تكونَ موصولةً ، وأن تكونَ موصوفةً . واختاره الزمخشري قال : "كأنه قيل : وحُرَّاً رَزَقْناه ، ليطابِقَ عَبْداً " . ومحلُّها النصبُ عطفاً على " عبداً " . وقد تقدَّم الكلامُ في المَثَلِ الواقعِ بعد " ضَرَبَ " .

قوله : ﴿ سِرّاً وَجَهْراً ﴾ يجوز أن يكونَ منصوباً على المصدر ، أي : إنفاقَ سِرٍ وجَهْر ، ويجوز أن يكونَ حالاً .

قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ إنما جُمِعَ الضميرُ وإن تَقَدَّمَه اثنان ؛ لأنَّ المرادَ جنسُ العبيدِ والأحرارِ المدلولِ عليهما بعبد وبِمَنْ رَزَقْنَاه . وقيل : على الأغنياءِ والفقراءِ المدلولِ عليهما بهما أيضاً . وقيل : اعتباراً بمعنى " مَنْ " فإنَّ معناها جمعٌ ، راعى معناها بعد ان راعَى لفظَها .

قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 74] حُذِفَ مفعولُ العِلْمِ اختصاراً أو اقتصاراً .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾

والكَلُّ : الثقيل ، والكَلُّ : العِيال ، والجمع : كُلُول . والكَلُّ : مَنْ لا وَلَدَ له ولا والدَ ، والكَلُّ أيضاً : اليتيم ، سُمِّي بذلك لثِّقْلِه على كافِلِه . قال الشاعر :

3007- أَكُولٌ لِمالِ الكَلِّ قبلَ شبابِه . . . إذا كان عَظْمُ الكَلِّ غيرَ شديدِ

(70/440)

قوله : ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ ﴾ شرطٌ وجزاؤُه . وقرأ ابنُ مسعودٍ وابن وثاب وعلقمةُ " يُوَجِّهْ " بهاءٍ ساكنةٍ للجزم . وفي فاعِلِه وجهان ، أحدُهما : أنه ضميرُ الباري تعالى ، ومفعولُه محذوفٌ ، تقديرُه كقراءةِ العامة . والثاني : أنه ضميرُ الأبكم ، ويكون " يُوَجِّه " لازماً بمعنى تَوَجَّه ، يقال : وَجَّه وتَوَجَّه بمعنى .

وقرأ علقمةُ أيضاً وطلحةُ كذلك ، إلا أنه بضم الهاء ، وفيها أوجهُ ، أحدها : أنَّ " أينما " ليست هنا شرطيةً و " يُوَجِّهُ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : أينما هو يُوَجِّهُ ، أي : الله تعالى ، والمفعولُ محذوفٌ/ أيضاً ، وحُذِفَتْ الياءُ مِنْ ﴿ لاَ يَأْتِ ﴾ تخفيفاً ، كما حُذِفَتْ في قوله

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ [هود : 106] و ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] . ورُدَّ هذا بأن " أينما " إما شرط أو استفهام فقط ، والاستفهام هنا غير لائق . والثاني أنَّ لامَ الكلمةِ حُذِفَتْ تخفيفاً لأجلِ التضعيفِ ، وهذه الهاءُ هي هاءُ الضمير فلم يُحِلَّها جزم . ذكر هذين الوجهين أبو الفضل الرازي .

الثالث : أن " أينما " أُهْمِلَتْ حَمْلاً على " إذا " لما بينهما من الأُخُوَّة في الشرط ، كما حُمِلَتْ " إذا " عليها في الجزم في نفسِ المواضع ، وحُذِفت الياءُ مِنْ " يَأْتِ " تخفيفاً أو جزماً على التوهم ، ويكون " يُوَجِّهُ " لازماً بمعنى يَتَوَجَّه كما تقدَّم .

[وقرأ عبدُ الله أيضاً] . وقال أبو حاتم - وقد حكى هذه القراءة - " هذه ضعيفة ؛ لأنَّ الجزمَ لازمٌ " وكأنه لم يعرف توجيهها .

وقرأ علقمة وطلحة " يُوَجَّهْ " بهاءٍ واحدة ساكنةٍ للجزم والفعل مبنيٌّ للمفعول ، وهي واضحة .

وقرأ ابن مسعود أيضاً " تُوَجِّهْه " كالعامَّةِ ، إلا أنه بتاء الخطاب وفيه التفات .

وفي الكلام حَذْفٌ ، وهو حَذْفُ المقابلِ لقوله ﴿ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ كأنه قيل : والآخرُ ناطِقٌ متصرفٌ في مالِه ، وهو خفيفٌ على مولاه ، أينما يُوَجِّهْهُ يأتِ بخيرٍ . ودَلَّ على ذلك قولُه : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ .

ونَقَلَ أبو البقاء أنه قُرِئَ " أينما تَوَجَّهَ " فعلاً ماضياً ، فاعلُه ضميرُ الأبكم .

وقوله : ﴿ وَمَن يَأْمُرُ ﴾ الراجحُ أَنْ يكونَ مرفوعاً عطفاً على الضميرِ المرفوعِ في "يَسْتَوي" ، وسَوَّغَه الفصلُ بالضمير . والنصبُ على المعيَّة مرجوحٌ . ﴿ وَهُوَ على صِرَاطٍ ﴾ الجملةُ : إمَّا إستئنافٌ أو حالٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 268 .

271﴾

(72/440)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾

شبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا مِلْكَ له في الشرع ، والمؤمنَ المخلص

بمَنْ رزَقَه الخيراتِ ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثوابَ وحُسْنَ المآبِ على ما أنفقه .

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفْسِه ، ملاحظاً لأبناء جنْسِه ، متمادياً في حسبان مغاليطه كمَنْ كان مُدْرِكاً بربّه مصْطَلماً عن شاهده ، غائباً عن غيره ، والمُجري عليه ربُّه ولا حوْلَ له إلا به .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾

هذا المَثَل أيضاً للمؤمن والكفار ؛ فالكافر كالجاهل الأبكم الذي لا يجيء منه شيءٌ ، ولا يحصل منه نفع ، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حوْلِه وقُوّته ، ولا يعْترف إلا بطوْلِه – سبحانه – ومِنّته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 309 . 310 ﴾

(73/440)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) ﴾

هذا الشوط الثالث في قضية الألوهية الواحدة التي لا تتعدد ، يبدأ فيقرر وحدة الإله ،

ووحدة المالك ، ووحدة المنعم في الآيات الثلاث الأولى متواليات ، ويختم بمثلين يضربهما للسيد المالك الرازق ، والعبد المملوك لا يقدر على شيء ، ولا يملك شيئاً . . هل يستوون ؟ فكيف يسوي الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؟ فيقال : هذا إله وهذا إله ؟ ! .

وفي خلال الدرس يعرض نموذجا بشريا للناس حين يصيبهم الضر فيجأرون إلى الله وحده ، حتى إذا كشف عنهم الضرر راحوا يشركون به غيره ! .

ويعرض كذلك صورا من أوهام الوثنية وخرافاتها . في تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدعاة ، في حين أنهم لا يردون شيئاً مما يملكون على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه ! وفي نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ ! وفي الوقت الذي يجعلون لله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدق بأن لهم الحسنى ، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيرا ! وهذه الأوهام التي ورثوها من المشركين قبلهم هي التي جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين لهم الحقيقة فيها هدى ورحمة للمؤمنين .

ثم يأخذ في عرض نماذج من صنع الألوهية الحقة في تأملها عظة وعبرة فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهي هي دلائل الألوهية لا سواها : فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . والله يسقي الناس غير الماء لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم . والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكراً ورزقاً حسنا . والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس . . ثم الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجاً لا يعلم شيئاً . والله فضل بعضهم على بعض في الرزق . والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة . . . وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض ولا يقدرون على شيء . ويجعلون لله الأشباه والأمثال ! .

هذه اللمسات كلها في أنفسهم وفيما حولهم ، يوجههم إليها لعلهم يستشعرون القدرة وهي تعمل في ذواتهم وفي أرزاقهم وفي طعامهم وفي شرابهم ، وفي كل شيء حولهم . . ثم يختمها بالمثلين الواضحين اللذين أشرنا إليهما آنفا . فهي حملة على الوجدان البشري والعقل البشري ، ذات إيقاعات عميقة ، تضرب على أوتار حساسة في النفس البشرية يصعب ألا تهتز لها وتتأثر وتستجيب .

﴿ وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون .

وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا . أفغير الله تتقون . وما بكم من نعمة فمن الله ؛ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ . .

(75/440)

لقد أمر الله الا يتخذ الناس إلهين اثنين . إنما هو إله واحد لا ثاني له . ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين ، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد . ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر ﴿ فإياي فارهبون ﴾ دون سواي بلا شبيه أو نظير . ويذكر الرهبة زيادة في التحذير . . ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها ، لا تقوم إلا بها ، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض .

إنما هو إله واحد . . وإنما هو كذلك مالك واحد : ﴿ وله ما في السماوات والأرض ﴾ . . ودائن واحد ﴿ وله الدين واصبا ﴾ (أي واصلاً منذ ما وجد الدين ، فلا دين إلا دينه) ومنعم واحد : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ وفطرتكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، وتنتفي عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك : ﴿

ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه .

وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه ؛ وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك . . ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر المحيق ! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم ، وبالهدى الذي آتاهم . . فلينظروا إذن ما يصيبهم بعد المتاع القصير : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ . . . .

هذا النموذج الذي يرسمه التعبير هنا ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ . . نموذج متكرر في البشرية . ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه . وفي الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو في الشرك به وتبدو في صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله .

ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها ، فإذا بعضهم في ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله ؛

ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ، بحجة أنها ذات جاه أو

منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحجة في بعض الأحيان ، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب . . فهؤلاء أشد انحرافا من مشركي الجاهلية الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذي رأيناه ! .

﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم ﴾ . فإذا هم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام . لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها . أو يبيحونها للذكور دون الإناث كما أسلفنا في سورة الأنعام باسم الآلهة المدعاة ؛ التي لا يعلمون عنها شيئًا ، إنما هي أوهام موروثة من الجاهلية الأولى .

والله هو الذي رزقهم هذه النعمة التي يجعلون لما لا يعلمون نصيبا منها ، فليست هي من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها ، إنما هي من رزق الله ، الذي يدعوهم إلى توحيده فيشركون به سواه ! .

وهكذا تبدو المفارقة في تصورهم وفي تصرفهم على السواء . . الرزق كله من الله . والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة . وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه ! وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة ! .

وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت ، يجعلون نصيبا من رزق الله لهم موقوفاً على ما يشبه آلهة الجاهلية . ما يزال بعضهم يطلق عجلا يسميه ﴿ عجل السيد البدوي ﴾ يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد ، ولا ينتفع به أحد ، حتى يذبح على اسم

السيد البدوي لا على اسم الله ! وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله ، ولا باسم الله ، ولكن باسم ذلك الولي ، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقنهم الله . وهو حرام نذره على هذا الوجه . حرام لحمه . ولو سمي اسم الله عليه . لأنه أهلّ لغير الله به ! .

(77/440)

﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ بالقسم والتوكيد الشديد . فهو افتراء يحطم العقيدة من أساسها لأنه يحطم فكرة التوحيد .

﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون ! ﴾ . .

إن الانحراف في العقيدة لا تقف آثاره عند حدود العقيدة ، بل يتمشى في أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها . فالعقيدة هي المحرك الأول للحياة ، سواء ظهرت أو كمنت .

وهؤلاء عرب الجاهلية كانوا يزعمون أن لله بنات هن الملائكة على حين أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم ولادة البنات ! فالبنات لله أما هم فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ! .

وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة . ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات . إذ البنات لا يقاتلن ولا يكسبن ؛ وقد يقعن في السبي عند الغارات فيجلبن العار ، أو يعشن كلاً على أهليهن فيجلبن الفقر .

والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله . إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ؛ ولا يصيب أحدا إلا ما كتب له ؛ ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله ، والأنثى من حيث إنسانيتها صنو الرجل وشطر نفسه كما يقرر الإسلام .

ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ﴾ مسودا من الهم والحزن والضيق ، وهو كظيم ، يكظم غيظه وغمه ، كأنها بلية ، والأنثى هبة الله له كالذكر ، وما يملك أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكرا ، وما يملك أن ينفخ فيه حياة ، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنسانا سويا .

(78/440)

وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر بإذن الله ليكفي لاستقبال المولود أيا كان جنسه بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال ، لمعجزة الله التي تتكرر ، فلا يبلي جدتها

التكرار ! فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به وهو لم يخلق ولم يصور . إنما كان أداة القدرة في حدوث المعجزة الباهرة ؟ .

وحكمة الله ، وقاعدة الحياة ، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى . فالأنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر ؛ بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر . فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ، وكيف يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائما ؟ .

إنه انحراف العقيدة ينشئ آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده . . ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ وما أسوأه من حكم وتقدير .

وهكذا تبدو قيمة العقيدة الإسلامية في تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية . وتتجلى النظرة الكريمة القويمة التي بثها في النفوس والمجتمعات تجاه المرأة ، بل تجاه الإنسان . فما كانت المرأة هي المغبونة وحدها في المجتمع الجاهلي الوثني إنما كانت " الإنسانية " في أخص معانيها . فالأنثى نفس إنسانية ، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم ، ووأدها قتل للنفس البشرية ، وإهدار لشطر الحياة ؛ ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة ، التي اقتضت أن يكون الأحياء جميعا لا الإنسان وحده من ذكر وانثى .

وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها . . وفي كثير من المجتمعات اليوم تعود تلك التصورات إلى الظهور . فالأنثى لا يرحب

بمولدها كثير من الأوساط وكثير من الناس ، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام . وهذه وثنية جاهلية في إحدى صورها ، نشأت من الانحراف الذي أصاب العقيدة الإسلامية .

(79/440)

ومن عجب أن ينعق الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية في مسألة المرأة ، نتيجة لما يرونه في هذه المجتمعات المنحرفة ولا يكلف هؤلاء الناعقون اللامزون أنفسهم أن يراجعوا نظرة الإسلام ، وما أحدثته من ثورة في التطورات والأوضاع . وفي المشاعر والضمائر . وهي بعد نظرة علوية لم تنشئها ضرورة واقعية ولا دعوة أرضية ولا مقتضيات اجتماعية أو اقتصادية . إنما أنشأتها العقيدة الإلهية الصادرة عن الله الذي كرم الإنسان ، فاستتبع تكريمه للجنس البشري تكريمه للأنثى ، ووصفها بأنها شطر النفس البشرية ، فلا تفاضل بين الشطرين الكريمين على الله .

والفارق بين طبيعة النظرة الجاهلية والنظرة الإسلامية ، هو الفارق بين صفة الذين لا يؤمنون بالآخرة وصفة الله سبحانه ولله المثل الأعلى :

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء . ولله المثل الأعلى . وهو العزيز الحكيم ﴾ . .

وهنا تقترن قضية الشرك بقضية إنكار الآخرة، لأنهما ينبعان من معين وانحراف واحد. ويختلطان في الضمير البشري، وينشئان آثارهما في النفس والحياة والمجتمع والأوضاع.

فإذا ضرب مثل للذين لا يؤمنون بالآخرة فهو مثل السوء. السوء المطلق في كل شيء: في الشعور والسلوك، في الاعتقاد والعمل. في التصور والتعامل، في الأرض والسماء.. ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ الذي لا يقارن ولا يوازن بينه وبين أحد، بله الذين لا يؤمنون بالآخرة هؤلاء.. ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ ذو المنعة وذو الحكمة الذي يتحكم ليضع كل شيء موضعه، ويحكم ليقر كل شيء في مكانه بالحق والحكمة والصواب.

وإنه لقادر أن يأخذ الناس بظلمهم الذي يقع منهم ولو فعل لدمرها عليهم تدميرا؛ ولكن حكمته اقتضت أن يؤخرهم إلى أجل. وهو العزيز الحكيم:

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾..

والله خلق هذا الخلق البشري وأنعم عليه بآلائه. وهو وحده الذي يفسد في الأرض ويظلم، وينحرف عن الله ويشرك؛ ويطغى بعضه على بعض، ويؤذي سواه من الخلق.. والله

بعد هذا كله يحلم عليه ويرأف به ، ويمهله وإن كان لا يهمله . فهي الحكمة تصاحب القوة ، وهي الرحمة تصاحب العدل . ولكن الناس يغترون بالإمهال ، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته ، حتى يأخذهم عدله وقوته . عند الأجل المسمى الذي ضربه الله لحكمة ، وأمهلهم إليه لرحمة . ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

وأعجب ما في الأمر أن المشركين ، يجعلون لله ما يكرهون من البنات وغير البنات ، ثم يزعمون كاذبين أن سينالهم الخير والإحسان جزاء على ما يجعلون ويزعمون ! والقرآن يقرر ما ينتظرهم وهو غير ما يزعمون :

﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى . لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾ .

والتعبير يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها . كما تقول قوامه يصف الرشاقة وعينه تصف الحور . لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة مفصح عنها ، ولأن هذه العين بذاتها تعبير عن الحور مفصح عنه . كذلك قال : تصف ألسنتهم الكذب ، فهي بذاتها تعبير عن الكذب مفصح عنه مصور له ، لطول ما قالت الكذب وعبرت عنه حتى صارت رمزاً عليه ودلالة له ! .

وقولهم : أن لهم الحسنى ، وهم يجعلون لله ما يكرهون هو ذلك الكذب الذي تصفه ألسنتهم أما الحقيقة التي يجبههم بها النص قبل أن تكمل الآية ، فهي ان لهم النار دون شك ولا ريب ،

وعن استحقاق وجدارة : ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ وأنهم معجلون إليها غير مؤخرين عنها : ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ والفرط هو ما يسبق ، والمفرط ما يقدم ليسبق فلا يؤجل .

(81/440)

وبعد فإن القوم ليسوا أول من انحرف ، وليسوا أول من جدف ، فقد كان قبلهم منحرفون ومجدفون ، أغواهم الشيطان ، وزين لهم ما انحرفوا إليه من تصورات وأعمال ، فصار وليهم الذي يشرف عليهم ويصرفهم ؛ وإنما أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليستنقذهم ، وليبين لهم الحق من الباطل ، ويفصل فيما وقع بينهم من خلاف في عقائدهم وكتبهم ؛ وليكون هدى ورحمة لمن يؤمنون .

﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . .

فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم . إذ الأصل هو التوحيد ، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك في صورة من الصور ، ومن تشبيه وتمثيل . . كله باطل جاء القرآن

الكريم ليجلوه وينفيه . وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيما ن وتفتحت لتلقيه .

وعند هذا الحد يأخذ السياق في استعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله في الكون ، وفيما أودع الإنسان من صفات واستعدادات ، وفيما وهبه من نعم وآلاء ، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله .

وقد ذكر في الآية السابقة إنزال الكتاب وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء ، وفيه حياة الأجسام :

﴿ والله أنزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها . إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ . .

والماء حياة كل حي . والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها . والذي يحول الموت إلى حياة هو الذي يستحق أن يكون إلها : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ فيتدبرون ما يسمعون . فهذه القضية . قضية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه الأنظار إليها كثيرا ، ففيها آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال .

وعبرة أخرى في الأنعام تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب :

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونه – من بين فرث ودم – لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ فهذا اللبن الذي تدره ضروع الأنعام مم هو ؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم . والفرث ما يتبقى في الكرش بعد الهضم ، وامتصاص الأمعاء للعصارة التي تتحول إلى دم . هذا الدم الذي يذهب إلى كل خلية في الجسم ، فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب ، الذي لا يدري أحد كيف يكون .

وعملية تحول الخلاصات الغذائية في الجسم إلى دم ، وتغذية كل خلية بالمواد التي تحتاج إليها من مواد هذا الدم ، عملية عجيبة فائقة العجب ، وهي تتم في الجسم في كل ثانية ، كما تتم عمليات الاحتراق . وفي كل لحظة تتم في هذا الجهاز الغريب عمليات هدم وبناء مستمرة لا تكف حتى تفارق الروح الجسد . . ولا يملك إنسان سوي الشعور أن يقف أمام هذه العمليات العجيبة لا تهتف كل ذرة فيه بتسبيح الخالق المبدع لهذا الجهاز الإنساني ، الذي لا يقاس إليه أعقد جهاز من صنع البشر ، ولا إلى خلية واحدة من خلاياه التي لا تحصى . ووراء الوصف العام لعمليات الامتصاص والتحول والاحتراق تفصيلات تدير العقل ، وعمل الخلية الواحدة في الجسم في هذه العملية عجب لا ينقضي التأمل فيه .

وقد بقي هذا كله سرا إلى عهد قريب . وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن

خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر ، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلا على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة . وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل . ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن . فالبشرية كلها كانت تجهل يومذاك هذه الحقيقة .

(83/440)

والقرآن يعبر هذه الحقائق العلمية البحته يحمل أدلة الوحي من الله في خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه الخصائص ويقدرها ؛ ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين .

﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً . إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ . .

هذه الثمرات المنبثقة عن الحياة التي بثها الماء النازل من السماء . تتخذون منه سكرا (والسكر الخمر ولم تكن حرمت بعد) ورزقاً حسناً . والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر وأن الخمر ليست رزقاً حسناً ، وفي هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص

بحلها ، بل فيه توطئة لتحريمها ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ . . فيدركون أن من يصنع هذا الرزق هو الذي يستحق العبودية له وهو الله . .

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ . .

والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق ، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه . وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها ، أو في تقسيم العمل بينها ، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى .

وهي تتخذ بيوتها حسب فطرتها في الجبال والشجر وما يعرشون أي ما يرفعون من الكروم وغيرها وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق . والنص على أن العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب . شرحاً فنياً . وهو ثابت بمجرد نص القرآن عليه . وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استنادا إلى الحق الكلي الثابت في كتاب الله ؛ كما أثر عن رسول الله .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري " أن رجلاً جاء إلى الرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخي استطلق بطنه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم - : " اسقه عسلاً " فسقاه عسلاً . ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً . قال : " اذهب فاسقه عسلاً " فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً " فذهب فسقاه عسلاً فبرئ " .

ويروعنا في هذا الأثر يقين الرسول صلى الله عليه وسلم أمام ما بدا واقعاً عملياً من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه . وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية . وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله . مهما بدا في ظاهر الأمر ما يسمى الواقع يخالفها . فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري ، الذي ينثني في النهاية ليصدقها . .

ونقف هنا أمام ظاهرة التناسق في عرض هذه النعم : إنزال الماء من السماء . وإخراج اللبن من بين فرث ودم . واستخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب . والعسل من بطون النحل . . إنها كلها أشربه تخرج من أجسام مخالفة لها في شكلها . ولما كان الجو جو أشربة فقد عرض من الأنعام لبنها وحده في هذا المجال تنسيقاً لمفردات المشهد كله . وسنرى في الدرس التالي أنه عرض من الأنعام جلودها وأصوافها وأوبارها

لأن الجو هناك كان جو أكنان وبيوت وسرابيل فناسب أن يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد . . . وذلك أفق من آفاق التناسق الفني في القرآن .

ومن الأنعام والأشجار والثمار والعسل إلى لمسة أقرب إلى أعماق النفس البشرية ، لأنها في صميم ذواتهم : في أعمارهم وأرزاقهم وأزواجهم وبنيهم وأحفادهم . فهم أشد حساسية بها ، وأعمق تأثراً واستجابة لها :

(85/440)

﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير ﴾ .

﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء . أفبنعمة الله يجحدون ﴾ ؟

﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ؟ ﴾ . .

واللمسة الأولى في الحياة والوفاة ، وهي متصلة بكل فرد وبكل نفس ؛ والحياة حبيبة ،

والتفكر في أمرها قد يرد القلب الصلد إلى شيء من اللين ، وإلى شيء من الحساسية بيد الله ونعمته وقدرته . والخوف عليها قد يستجيش وجدان التقوى والحذر والالتجاء إلى واهب الحياة . وصورة الشيخوخة حين يرد الإنسان إلى أرذل العمر ، فينسى ما كان قد تعلم ، ويرتد إلى مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة . هذه الصورة قد ترد النفس إلى شيء من التأمل في أطوار الحياة ، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته . ويجيء التعقيب : ﴿ إن الله عليم قدير ﴾ ليرد النفس إلى هذه الحقيقة الكبيرة . أن العلم الشامل الأزلي الدائم لله ، وأن القدرة الكاملة التي لا تتأثر بالزمن هي قدرة الله . وأن علم الإنسان إلى حين ، وقدرته إلى أجل ، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان .

واللمسة الثانية في الرزق . والتفاوت فيه ملحوظ . والنص يرد هذا التفاوت إلى تفضيل الله لبعضهم على بعض في الرزق . ولهذا التفضيل في الرزق أسبابه الخاضعة لسنة الله . فليس شيء من ذلك جزافاً ولا عبثاً . وقد يكون الإنسان مفكراً عالماً عاقلاً ، ولكن موهبته في الحصول على الرزق وتنميته محدودة ، لأن له مواهب في ميادين أخرى . وقد يبدو غبياً جاهلاً ساذجاً ، ولكن له موهبة في الحصول على المال وتنميته .

والناس مواهب وطاقات. فيحسب من لا يدقق أن لا علاقة للرزق بالمقدرة، وإنما هي مقدرة خاصة في جانب من جوانب الحياة. وقد تكون بسطة الرزق ابتلاء من الله، كما يكون التضييق فيه لحكمة يريدها ويحققها بالابتلاء.. وعلى أية حال فإن التفاوت في الرزق ظاهرة ملحوظة تابعة لاختلاف في المواهب وذلك حين تمتنع الأسباب المصطنعة الظالمة التي توجد في المجتمعات المختلة والنص يشير إلى هذه الظاهرة التي كانت واقعة في المجتمع العربي؛ ويستخدمها في تصحيح بعض أوهام الجاهلية الوثنية التي يزاولونها، والتي سبقت الإشارة إليها. ذلك حين كانوا يعزلون جزءاً من رزق الله الذي أعطاهم ويجعلونه لآلهتهم المدعاة. فهو يقول عنهم هنا: إنهم لا يردون جزءاً من أموالهم على ما ملكت أيمانهم من الرقيق. (وكان هذا أمراً واقعاً قبل الإسلام) ليصبحوا سواء في الرزق. فما بالهم يردون جزءاً من مال الله الذي رزقهم إياه على آلهتهم المدعاة؟ ﴿ أفبنعمة الله يجحدون؟ ﴾ فيجازون النعمة بالشرك، بدل الشكر للمنعم المتفضل الوهاب؟

واللمسة الثالثة في الأنفس والأزواج والأبناء والأحفاد وتبدأ بتقرير الصلة بين الجنسين: ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ فهن من أنفسكم، شطر منكم، لا جنس أحط يتوارى من يبشر به ويحزن! ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ والإنسان الفاني يحس الامتداد في الأبناء والحفدة، ولمس هذا الجانب في النفس يثير أشد الحساسية.

ويضم إلى هبة الأبناء والأحفاد هبة الطيبات من الرزق للمشاكلة بين الرزقين ليعقب.

عليها بسؤال استنكاري : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ﴾ فيشركون به ويخالفون عن أمره . وهذه النعم كلها من عطائه . وهي آيات على ألوهيته وهي واقعة في حياتهم ، تلابسهم في كل آن . .

(87/440)

أفبالباطل يؤمنون ؟ وما عدا الله باطل ، وهذه الآلهة المدعاة ، والأوهام المدعاة كلها باطل لا وجود له ، ولا حق فيه . وبنعمة الله هم يكفرون ، وهي حق يلمسونه ويحسونه ويتمتعون به ثم يجحدونه

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئًا ولا يستطيعون ﴾ . .

وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقاً وما هو بقادر في يوم من الأيام ، ولا في حال من الأحوال . ويدعون الله الخالق الرازق ، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها ، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال !

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . .

إنه ليس لله مثال ، حتى تضربوا له الأمثال .

ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق وللمملوك العاجز الذي لا يملك ولا يكسب . لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها . حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا في العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم لهم عبيد :

﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً . هل يستوون ؟ الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

﴿ وضرب الله مثلاً رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ ﴾

والمثل الأول مأخوذ من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون ، لا يملكون شيئاً ولا يقدرون على شيء . وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف . فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق . وكل مخلوقاته له عبيد ؟

(88/440)

والمثل الثاني يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري ولا يعود بخير . والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل ، العامل المستقيم على طريق الخير . . ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك . فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر

بالمعروف ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟

وبهذين المثلين يختم الشوط الذي بدأ بأمر الله للناس ألا يتخذوا إلهين اثنين ، وختم بالتعجيب من أمر قوم يتخذون إلهين اثنين ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال جـ 4 صـ 2184.2175 ﴾

(89/440)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم هذان المثلان ، الدالان على تمام علمه وشمول قدرته ، والقاضيان بأن غيره عدم ، عطف على قوله ﴿ إن الله يعلم ﴾ قوله مصرحاً بتمام علمه وشمول قدرته : ﴿ ولله ﴾ أي هذا علم الله في المشاهدات الذي علم من هذه الأدلة أنه مختص به ، ولذي الجلال والإكرام

وحده ﴿ غيب السماوات والأرض ﴾ كما أن له وحده شهادتهما ، فما أراد من ذلك كانت قدرته عليه كقدرته على الشهادة من الساعة التي تتكرونها استعظاماً لها ، ومن غيرهما بما فصله لكم من أول السورة إلى هنا من خلق السماوات والأرض وما فيهما ﴿ وما أمر الساعة ﴾ وهي الوقت الذي يكون فيه البعث ، على اعتقادكم أنها لا تكون استبعاداً لها واستصعاباً لأمرها في سرعته عند الناس لو رأوه ، ولذا عبر عنه بالساعة ﴿ إلا كلمح البصر ﴾ أي كرجع الطرف المنسوب إلى البصر أيّ بصر كان ﴿ أو هو أقرب ﴾ وإذا الخلق قد قاموا من قبورهم مهطعين إلى الداعي – هذا بالنسبة إلى علمهم وقياسهم ، وأما بالنسبة إليه سبحانه فأمره في الجلالة والعظم والسرعة والإتقان يجل عن الوصف ، وتقصر عنه العقول ، ولا شك فيه ولا تردد ، ولذلك علله بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ على كل شيء ﴾ أي ممكن ﴿ قدير ﴾ .

(90/440)

ولما انقضى توبيخهم على إيمانهم بالباطل وكفرانهم بالحق وما استتبعه ، وختم بأمر الساعة ، عطف على قوله تعالى ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ ما هو من أدلة الساعة وكمال القدرة والفعل بالاختيار من النشأة الأولى ، فقال تعالى : ﴿ والله ﴾ أي

الذي له العظمة كلها ﴿ أخرجكم ﴾ بعلمه وقدرته ﴿ من بطون أمهاتكم ﴾ والذي أخرجكم منها قادر على إخراجكم من بطن الأرض بلا فرق بل بطريق الأولى ، حال كونكم عند الإخراج ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ من الأشياء قل أو جل ، وعطف على ﴿ أخرجكم ﴾ قوله : ﴿ وجعل لكم ﴾ بذلك أيضاً ﴿ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ آلات لإزالة الجهل الذي وقعت الولادة عليه ، وفتق مواضعها وسواها وعدلها وأنتم في البطون حيث لا تصل إليه يده ، ولا يتمكن من شق شيء منه بآلة ، فالذي قدر على ذلك في البطون إبداعاً قادر على إعادته في بطن الأرض ، بل بطريق الأولى ، ولعله جمعهما دون السمع ، لأن التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه إلا الله ؛ والأفئدة هي القلوب التي هيأها للفهم وإصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة القابلة للمعاني الدقيقة ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي لتصيروا - بمعارف القلوب التي وهبكموها إذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات - في حال يرجى فيها شكركم لما أفاض عليكم من لطائف صنعه ، بأن تعرفوا ما له من العلم والقدرة وحسن التعرف ، فتعترفوا له بجميع ما أتتكم به رسله ، وأهمه الذي تبنى عليه جميع مقاصد الأصول أو المنعم عليكم بهذه النعم إله واحد عالم بكل شيء قادر على كل شيء فاعل بالاختيار ، وأن الطبائع من جملة مقدوراته ، لا فعل لها إلا بتصريفه .

ولما كان المقصود من تعداد هذه النعم الإعلام بأنه الفاعل بالاختيار وحده لا الطبائع ولا غيرها ، دلهم على ذلك مضموناً إلى ما مضى بقوله مقرراً لهم : ﴿ ألم يروا ﴾ بالخطاب والغيبة – على اختلاف القراءتين لأن سياق الكلام وسباقه يحتمل المقبل والمعرض بخلاف سياق الملك فإنه للمعرض فقط ، فلذا اختلف القراء هنا وأجمعوا هناك ﴿ إلى الطير مسخرات ﴾ أي مذللات للطيران بما أقامهن الله فيه من المصالح والحكم بالطيران وغيره ﴿ في جو السماء ﴾ في الهواء بين الخافقين بما لا تقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم لها في السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول ، فعلم قطعاً ما وصل بذلك من قوله : ﴿ ما يمسكهن ﴾ أي في الجو عن الوقوع .

ولما كان للسياق هنا مدخل عظيم في الرد على أهل الطبائع وهم الفلاسفة ، ولهم وقع عظيم في قلوب الناس ، عبر بالاسم الأعظم ، إشارة إلى أنه لا يقوى على رد شبههم إلا من أحاط علماً بمعاني الأسماء الحسنى ، فكان متمكناً من علم أصول الدين فقال : ﴿ إلا الله ﴾ أي الملك الأعظم ، لأن نسبتكم وإياها إلى الطبيعة واحدة ، فلو كان ذلك فعلها لا ستويتم ؛ ثم نبههم على ما في ذلك من الحكم بقوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من إخراجكم على تلك الهيئة ، والإنعام عليكم بما ليس لها ، وتقديرها على ما لم تقدروا عليه مع نقصها عنكم ﴿ لآيات ﴾ ولما كان من لم ينتفع بالشيء كأنه لم يملكه ، قال تعالى : ﴿ لقوم

يؤمنون ﴾ أي هيأهم الفاعل المختار للإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 297.295﴾

(92/440)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى مثل الكفار بالأبكم العاجز ، ومثل نفسه بالذي يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ، ومعلوم أنه يمتنع أن يكون آمراً بالعدل ، وأن يكون على صراط مستقيم إلا إذا كان كاملاً في العلم والقدرة ، وذكر في هذه الآية بيان كونه كاملاً في العلم والقدرة ، أما بيان كمال العلم فهو قوله : ﴿ولله غيب السموات والأرض ﴾ والمعنى : علم الله غيب السموات والأرض وأيضاً فقوله : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ يفيد الحصر معناه : أن العلم بهذه الغيوب ليس إلا الله وأما بيان كمال القدرة فقوله : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة سميت ساعة لأنها تفجأ الإنسان في ساعة فيموت الخلق بصيحة واحدة ، وقوله : ﴿ إلا

كلمح البصر ﴾ اللمح النظر بسرعة يقال لمحه ببصره لمحاً ولمحاناً ، والمعنى : وما أمر قيام القيامة في السرعة إلا كطرف العين ، والمراد منه تقرير كمال القدرة ، وقوله : ﴿ أو هو أقرب ﴾ معناه أن لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، ولا شك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ ، فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الأجزاء التي منها تألف سطح الحدقة ، ولا شك أن تلك الأجزاء كثيرة ، والزمان الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة ، والله تعالى قادر على إقامة القيامة في آن واحد من تلك الآنات فلهذا قال : ﴿ أو هو أقرب ﴾ إلا أنه لما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره .

ثم قال : ﴿ أو هو أقرب ﴾ تنبيهاً على ما ذكرناه ، ولا شبهة في أنه ليس المراد طريقة الشك ، بل المراد .

بل هو أقرب ، وقال الزجاج : المراد به الإبهام عن المخاطبين أنه تعالى يأتي بالساعة إما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع .

قال القاضي : هذا لا يصح ، لأن إقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال إنه تعالى

يأتي بها في زمان ، بل الواجب أن يخلقها دفعة واحدة في وقت واحد ، ويفارق ما ذكرناه في ابتداء خلق السموات والأرض لأن تلك الحال حال تكليف ، فلم يمتنع أن يخلقهما كذلك لما فيه من مصحلة الملائكة .

واعلم أن هذا الاعتراض إنما يستقيم على مذهب القاضي ، أما على قولنا في أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فليس له قوة والله أعلم ، ثم إنه تعالى عاد إلى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فقال : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ إمهاتكم ﴾ بكسر الهمزة ، والباقون بضمها .

المسألة الثانية :

أمهاتكم أصله أماتكم ، إلا أنه زيد الهاء فيه كما زيد في أراق فقيل : إهراق وشذت زيادتها في الواحدة في قوله :

أمهتي خندف والياس أبي . المسألة الثالثة :

الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء .

ثم قال تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ والمعنى : أن النفس الإنسانية لما كانت في أول الخلقة خالية عن المعارف والعلوم بالله ، فالله أعطاه هذه الحواس ليستفيد بها

المعارف والعلوم ، وتمام الكلام في هذا الباب يستدعي مزيد تقرير فنقول : التصورات والتصديقات إما أن تكون كسبية ، وإما أن تكون بديهية ، والكسبيات إنما يمكن تحصيلها بواسطة تركيبات البديهيات ، فلا بد من سبق هذه العلوم البديهية ، وحينئذ لسائل أن يسأل فيقول : هذه العلوم البديهية إما أن يقال إنها كانت حاصلة منذ خلقنا أو ما كانت حاصلة .

والأول باطل لأنا بالضرورة نعلم أنا حين كنا جنيناً في رحم الأم ما كنا نعرف أن النفي والإثبات لا يجتمعان ، وما كنا نعرف أن الكل أعظم من الجزء .

(94/440)

وأما القسم الثاني : فإنه يقتضي أن هذه العلوم البديهية حصلت في نفوسنا بعد أنها ما كانت حاصلة ، فحينئذ لا يمكن حصولها إلا بكسب وطلب ، وكل ما كان كسبياً فهو مسبق بعلوم أخرى ، فهذه العلوم البديهية تصير كسبية ، ويجب أن تكون مسبوقة بعلوم أخرى إلى غير نهاية ، وكل ذلك محال ، وهذا سؤال قوي مشكل .

وجوابه أن نقول : الحق أن هذه العلوم البديهية ما كانت حاصلة في نفوسنا .

ثم إنها حدثت وحصلت ، أما قوله فيلزم أن تكون كسبية .

قلنا : هذه المقدمة ممنوعة ، بل نقول : أنها إنما حدثت في نفوسنا بعد عدمها بواسطة إعانة الحواس التي هي السمع والبصر ، وتقريره أن النفس كانت في مبدأ الخلقة خالية عن جميع العلوم إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر ، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر ، وكذلك إذا سمع شيئاً مرة بعد أخرى ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول في سائر الحواس ، فيصير حصول الحواس سبباً لحضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل ثم إن تلك الماهيات على قسمين : أحد القسمين : ما يكون نفس حضوره موجباً تاماً في جزم الذهن بإسناد بعضها إلى بعض بالنفي أو الإثبات ، مثل أنه إذا حضر في الذهن أن الواحد ما هو ، وأن نصف الاثنين ما هو كان حضور هذين التصورين في الذهن علة تامة في جزم الذهن بأن الواحد محكوم عليه بأنه نصف الاثنين ، وهذا القسم هو عين العلوم البديهية .

والقسم الثاني : ما لا يكون كذلك وهو العلوم النظرية ، مثل أنه إذا حضر في الذهن أن الجسم ما هو وأن المحدث ما هو ، فإن مجرد هذين التصورين في الذهن لا يكفي في جزم الذهن بأن الجسم محدث ، بل لابد فيه من دليل منفصل وعلوم سابقة .

والحاصل : أن العلوم الكسبية إنما يمكن اكتسابها بواسطة العلوم البديهية ، وحدوث هذه العلوم البديهية إنما كان عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها .

وحدوث هذه التصورات إنما كان بسبب إعانة هذه الحواس على جزئياتها ، فظهر أن السبب الأول لحدوث هذه المعارف في النفوس والعقول هو أنه تعالى أعطى هذه الحواس .

فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ ليصير حصول هذه الحواس سبباً لانتقال نفوسكم من الجهل إلى العلم بالطريق الذي ذكرناه ، وهذه أبحاث شريفة عقلية محضة مدرجة في هذه الآيات .

وقال المفسرون : ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ لتسمعوا مواعظ الله ﴿ والأبصار ﴾ لتبصروا دلائل الله ، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله ، والأفئدة جمع فؤاد نحو أغربة وغراب .

قال الزجاج : ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد ، وما قيل فيه فئدان كما قيل : غراب وغربان .

وأقول : لعل الفؤاد إنما جمع على بناء جمع القلة تنبيهاً على أن السمع والبصر كثيران وأن الفؤاد قليل ، لأن الفوائد إنما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية ، وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل يكونون مشغولين بالأفعال البهيمية والصفات السبعية ، فكأن فؤادهم ليس بفؤاد ، فلهذا السبب ذكر في جمعه صيغة جمع القلة .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار ﴾ عطف على قوله : ﴿ أخرجكم ﴾ وهذا يقتضي أن يكون جعل السمع والبصر متأخراً عن الإخراج عن البطن ، ومعلوم أنه ليس كذلك .

والجواب : أن حرف الواو لا يوجب الترتيب ؛ وأيضاً إذا حملنا السمع على الاستماع والأبصار على الرؤية زال السؤال ، والله أعلم .

أما قوله : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي : ﴿ ألم تروا ﴾ بالتاء والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره من الكفار .

المسألة الثانية :

(96/440)

هذا دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ، فإنه لولا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران فيه لما أمكن ذلك فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويكسره أخرى مثل ما يعمله السابح في الماء ، وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً .

وأما قوله تعالى : ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ فالمعنى : أن جسد الطير جسم ثقيل ، والجسم

الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقاً من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه ، فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى ، ثم من الظاهر أن بقاءه في الجو معلقاً فعله وحاصل باختياره ، فثبت أن خالق فعل العبد هو الله تعالى .

قال القاضي : إنما أضاف الله تعالى هذا الإمساك إلى نفسه ، لأنه تعالى هو الذي أعطى الآلات التي لأجلها يمكن الطير من تلك الأفعال ، فلما كان تعالى هو المسبب لذلك لا جرم صحت هذه الإضافة إلى الله تعالى .

والجواب : أن هذا ترك للظاهر بغير دليل وأنه لا يجوز ، لا سيما والدلائل العقلية دلت على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

ثم قال تعالى في آخر الآية : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وخص هذه الآيات بالمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها وإن كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ، والله أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 74.71 ﴾

(97/440)

وقال الماوردى :

قوله عزوجل : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾

يحتمل خمسة أوجه :

أحدها : ولله علم غيب السموات والأرض ، لأنه المنفرد به دون خلقه .

الثاني : أن المراد بالغيب إيجاد المعدومات وإعدام الموجودات .

الثالث : يعني فعل ما كان وما يكون ، وأما الكائن في الحال فمعلوم .

الرابع : أن غيب السماء الجزاء بالثواب العقاب . وغيب الأرض القضاء بالأرزاق والآجال .

﴿ وما أمْرُ الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ لأنه بمنزلة قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ وإنما سماها ساعة لأنها جزء من يوم القيامة وأجزاء اليوم ساعاته . وذكر الكلبي ومقاتل : أن غيب السموات هو قيام الساعة .

قال مقاتل : وسبب نزولها أن كفار قريش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة استهزاء بها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ الآية ،

(99/440)

أخبر الله تعالى أن الغيب له يملكه ويعلمه ، وقوله ﴿ وما أمر الساعة ﴾ آية إخبار بالقدرة وحجة على الكفار ، والمعنى على ما قال قتادة وغيره : ما تكون الساعة وإقامتها في قدرة الله إلا أن يقول لها كن ، فلو اتفق أن يقف على ذلك محصل من البشر لكانت من السرعة بحيث يشك هل هي كلمح البصر أو هي أقرب من ذلك ، ف ﴿ أو ﴾ على هذا على بابها في الشك ، وقيل هي للتخيير ، و" لمح البصر " هو وقوعه على المرئي ، وقوى هذا الإخبار بقوله ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ . ومن قال ﴿ وما أمر الساعة ﴾ له وما إتيانها ووقوعها بكم على جهة التخويف من حصولها ففيه بعد تجوز كثير ، وبُعْد من قول النبي صلى الله عليه وسلم " بعثت أنا والساعة كهاتين " ، ومن ذكره ما ذكر من أشراط الساعة ومهلتها ، ووجه التأويل أن القيامة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب ﴿ كلمح البصر ﴾ كما يقال : ما السنة إلا لحظة ، إلا أن قوله ﴿ أو هو أقرب ﴾ يرد أيضاً هذه المقالة ، وقوله ﴿ والله أخرجكم ﴾ الآية ، آية تعديد نعمة بينة لا ينكرها عاقل ، وهي

نعمة معها كفرها وتصريفها في الإشراك بالذي وهبها ، فالله عز وجل أخبر بأنه أخرج ابن آدم لا يعلم شيئاً ، ثم جعل حواسه التي قد وهبها له في البطن سلماً إلى درك المعارف ، ليشكر على ذلك ويؤمن بالمنعم عليه ، و" أمهات " أصله أمات ، وزيدت الهاء مبالغة وتأكيداً ، كما زادوا الهاء في أهرقت الماء ، قاله أبو إسحاق ، وفي هذا المثل نظر وقول غير هذا ، وقرأ حمزة والكسائي " إمهاتكم " بكسر الهمزة ، وقرأ الأعمش " في بطون أمِّهاتكم " بحذف الهمزة وكسر الميم المشددة ، وقرأ ابن أبي ليلى بحذف الهمزة وفتح الميم مشددة ، قال أبو حاتم : حذف الهمزة ردي ولكن قراءة ابن أبي ليلى أصوب والترجي الذي في " لعل " هو بحسبنا ، وهذه الآية تعديد نعم وموضع اعتبار ، وقوله ﴿ ألم تروا إلى الطير ﴾ الآية ، وقرأ طلحة بن مصرف والأعمش وابن هرمز " ألم تروا " بالتاء

(100/440)

، وقرأ أهل مكة والمدينة " ألم يروا " بالياء على الكناية عنهم ، واختلف عن الحسن وعاصم وأبي عمرو وعيسى الثقفي ، و" الجو " مسافة ما بين السماء والأرض ، وقيل هو ما يلي الأرض منها ، وما فوق ذلك هو اللوح ، و" الآية " عبرة بينة تفسيرها تكلف بحت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾

تقدّم معناه .

وهذا متصل بقوله ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي شرعُ التحليل والتحريم إنما يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلِمَ تتحكمون .

﴿ وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ وتجازَوْن فيها بأعمالكم .

والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة ؛ سُميّت ساعةً لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق بصيحة .

واللّمح : النظر بسرعة ؛ يقال : لَمَحه لَمْحاً ولَمَحانا .

ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بُدّ جُعلت من القرب كلمح البصر .

وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ؛ أي يقول للشيء كن فيكون .

وقيل : إنما مَثّل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هي عليه من البعد من الأرض .

وقيل : هو تمثيل للقرب ؛ كما يقول القائل : ما السَّنة إلا لحظة ، وشبهه .

وقيل : المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين ؛ دليله قوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج: 6] .

﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ليس "أو" للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل .

وقيل : دخلت لشك المخاطب .

وقيل : "أو" بمنزلة بل .

﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾

ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء .

وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم .

الثاني لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء .

الثالث لا تعلمون شيئاً من منافعكم ؛ وتَمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي التي تعلمون بها وتدركون ؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل

إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ؛ أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته .

والأفئدة : جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة .

وقد قيل في ضمن قوله "وجعل لَكُمُ السَّمْعَ" إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق .

وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة "إمّهاتكم" هنا وفي النور والزُمَر والنجم ، بكسر الهمزة والميم .

وأما الكسائي فكسر الهمزة وفتح الميم ؛ وإنما كان هذا للإتباع .

الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل .

وأصل الأمهات : أمّات ، فزيدت الهاء تأكيداً كما زادوا هاء في أهرقت الماء وأصله أرقت .

وقد تقدّم هذا المعنى في "الفاتحة" .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما تشكرون نعمه .

الثاني يعني تبصرون آثار صنعته ؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله ﴾

قرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب "تروا" بالتاء على الخطاب ،

واختاره أبو عبيد .

الباقون بالياء على الخبر.

﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مُذَللات لأمر الله تعالى ؛ قاله الكلبي .

وقيل : "مسخراتٍ" مذللات لمنافعكم .

﴿ فِي جَوِّ السمآء ﴾ الجوُّ ما بين السماء والأرض ؛ وأضاف الجَوّ إلى السماء لارتفاعه عن الأرض .

وفي قوله "مسخراتٍ" دليلٌ على مُسَخِّر سَخّرها ومُدَبِّر مَكّنها من التصرف .

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف .

بيّن لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ ﴾ أي علامات وعبرا ودلالات .

﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبما جاءت به رسله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال الخازن:

﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾

أخبر الله في الآية عن كمال علمه، وأنه عالم بجميع الغيوب، فلا تخفى عليه خافية ولا يخفى عليه شيء منها، وقيل الغيث هنا هو علم قيام الساعة وهو قوله ﴿ وما أمر الساعة ﴾ يعني في قيامها، والساعة هي الوقت الذي يقوم الناس فيه لموقف الحساب ﴿ إلا كلمح البصر ﴾ يعني في السرعة، ولمح البصر هو انطبقا جفن العين وفتحه وهو طرف العين أيضاً ﴿ أو هو أقرب ﴾ يعني أن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون في أسرع من لمح البصر وهو قوله ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالى مهما أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

قال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه سبحانه وتعالى وصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء، لا يعجزه شيء.

قوله: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾

تم الكلام هنا لأن الإنسان خلق في أول الفطرة، ومبدئها خالياً عن العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلاً ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع

لتسمعوا به نصوص الكتاب ، والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم ، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته ، وغرائب مخلوقاته ، فتستدلوا بها على وحدانيته .

(104/440)

وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها ، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته ، وقال ابن عباس : في هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من إخراجكم من بطون أمهاتكم ، إلى أن صرتم رجالاً وتعقلوا عظمة الله ، وقيل في معنى الآية : والله خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة ، وجعل لكم الحواس آلات : لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به ، من شكر المنعم وعبادته ، والقيام بحقوقه والترقي إلى ما يسعدكم به في الآخرة .

فإن قلت : ظاهر الآية يدل على أن جعل الحواس الثلاث بعد الإخراج من البطون ، وإنما خلقت هذه الحواس للإنسان من جملة خلقه ، وهو في بطن أمه .

قلت : ذكر العلماء أن تقديم الإخراج ، وتأخير ذكر هذه الحواس لا يدل على أن خلقها كان بعد الإخراج لأن الواو لا توجب الترتيب ولأن العرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها .

وأقول لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن ، فكأنما خلقت في ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه وإن كانت قد خلقت قبل ذلك .

وقوله تعالى ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ يعني إنما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات ﴾ يعني مذللات ﴿ في جو السماء ﴾ الجو الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء .

قال كعب الأحبار : إن الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلاً ولا ترتفع فوق ذلك ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفاقها في الهواء ، وفي هذا حيث على الاستدلال بها على أن لها مسخراً سخرها ، ومذللاً ذللها ، وممسكاً أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء ، وهو الله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ إنما خص المؤمنين بالذكر ، لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(105/440)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ

مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾

الكَل : الثقيل ، وقد يسمى اليتيم كلاًّ لثقله على من يكفله .

وقال الشاعر :

أكول لمال الكل قبل شبابه . . .

إذا كان عظم الكل غير شديد

والكل أيضاً الذي لا ولد له ولا والد ، والكل العيال ، والجمع كلول .

اللمح : النظر بسرعة ، لمحه لمحاً ولمحاناً .

الجو : مسافة ما بين السماء والأرض ، وقيل : هو ما يلي الأرض في سمت العلو ، واللوح والسكاك أبعد منه .

﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ : مناسبة

ضرب هذا المثل أنه لما بين تعالى ضلالهم في إشراكهم بالله غيره وهو لا يجلب نفعاً ولا ضراً لنفسه ولا لعابده ، ضرب لهم مثلاً قصة عبد في ملك غيره ، عاجز عن التصرف ، وحر غني متصرف فيما آتاه الله .

فإذا كان هذان لا يستويان عندكم مع كونهما من جنس واحد ، ومشتركين في الإنسانية ، فكيف تشركون بالله وتسوون به من مخلوق له مقهور بقدرته من آدمي وغيره ، مع تباين الأوصاف .

وأنّ موجد الوجود لا يمكن أن يشبهه شيء من خلقه ، ولا يمكن لعاقل أن يشبه به غيره .

قال مجاهد : هذا مثل لله وللأصنام .

(106/440)

وقال قتادة : للمؤمن والكافر فالكافر العبد المملوك لا ينتفع بعبادته في الآخرة ، ومن رزقناه المؤمن .

وقال ابن جبير : مثل للبخيل والسخي انتهى .

ولما كان لفظ عبد قد يطلق على الحر ، خصص بمملوك .

ولما كان المملوك قد يكون له تصرف وقدرة كالمأذون له والمكاتب ، خصص بقوله : لا يقدر

على شيء ، والمعنى : على شيء من التصرف في المال ، لأنه يقدر على أشياء من حركاته : كالقيام ، والقعود ، والأكل ، والشرب ، والنوم ، وغير ذلك .

والظاهر كون ومن موصولة أي : والذي رزقناه ، ودلت الصلة وما عطف على أنه يراد به الحر .

وقال أبو البقاء : موصوفة .

قال الزمخشري : الظاهر أنها موصوفة كأنه قال : وحراً رزقناه ليطابق عبداً ، ولا يمتنع أن تكون موصولة .

وقال الحوفي : مَن بمعنى الذي ، ولا يقتضي ضرب المثل لشخصين موصوفين بأوصاف متباينة تعيينهما ، بل ما روي في تعيينهما من أنهما : عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبد له أو أنهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأبو جهل ، لا يصح إسناده .

وجمع الضمير في يستوون ولم يثن لسبق اثنين ، لأن مَن يحتمل أن يراد بها الجمع فيصير إذ ذاك جمع الضمير لانتظام العبد المملوك والأغنياء في الجمع ، وكأنه قيل : عبداً مملوكاً .

والملاك المرزوقون المنفقون .

ويحتمل أن يراد بعبداً مملوكاً الجنس ، فيصلح عود الضمير جمعاً عليه ، وعلى جنس الأغنياء .

ويحتمل أن يعود على العبيد والأحرار وإن لم يجر للجمعين ذكر ، لدلالة عبد مملوك ومن

رزقناه عليهما .

قل : الحمد لله ، الظاهر أنه خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : يحتمل أن يكون خطاباً لمن رزقه الله ، أمره أن يحمد الله على أنّ ميزه بهذه القدرة على ذلك الضعيف .

(107/440)

وقال ابن عطية : الحمد لله شكر على بيان الأمر بهذا المثل ، وعلى إذعان الخصم له كما تقول لمن أذعن لك في حجة وسلم تبنى أنت عليه ، قولك : الله أكبر على هذا يكون كذا وكذا ، فلما قال هنا : هل يستوون ، فكأن الخصم قال له : لا ، فقال : الحمد لله ظهرت الحجة انتهى .

وقيل : الحمد لله أي : هو المستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه ، إذ لا نعمة للأصنام عليهم فتحمد عليها ، إنما الحمد الكامل لله لأنه المنعم الخالق .

وقال ابن عباس : الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد .

والظاهر نفي العلم عن أكثرهم ، لأنّ منهم من بان له الحق ورجع إليه ، أو أكثر الخلق لأن الأكثر هم المشركون .

وقيل : المراد به العموم أي : بل هم لا يعلمون .

ومتعلق يعلمون محذوف ، إما لأنّ المعنى نفي العلم عن الأكثر ولم يلحظ متعلقه ، وإما لأنه محذوف يترتب على الأقوال التي سببها قوله الحمد لله .

وضرب الله مثلاً رجلين أي قصة رجلين .

قال الزمخشري : وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، والأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع .

والأبكم الذي ولد أخرس لا يفهم ولا يفهم .

وهو كلٌّ على مولاه أي : ثقيل ، وعيال على من يلي أمره ويعوله .

أينما يوجهه : حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح .

هل يستوي هو ، ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة ، فهو يأمر الناس بالعدل ، وهو في نفسه على صراط مستقيم على سيرة صالحة ، ودين قويم انتهى .

وقال ابن عباس : أحدهما أبكم مثل للكافر ، والذي يأمر بالعدل المؤمن .

وقال قتادة : هذا مثل لله تعالى ، والأصنام فهي الأبكم الذي لا نطق له ولا يقدر على شيء ، وهو عيال على من والاه من قريب أو صديق ، كما الأصنام تحتاج أن تنقل وتخدم ويتعذب بها ، ثم لا يأتي من جهتها خير البتة .

وعن قتادة أيضاً وغيره : هذا مثل ضربه الله لنفسه وللوثن ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ، وهذا ليس كذلك لأنه قال : مثلاً رجلين ، فلا بد أن يكون عديل الأبكم الموصوف بتلك الصفات ، ومقابله رجل موصوف بما يقابل تلك الصفات من النطق والقدرة والكفاية ، ولكنه حذف المقابل لدلالة مقابله عليه ، ثم قيل : هل يستوي ذلك الأبكم الموصوف بتلك الصفات ، وهذا الناطق : ففي ذكر استوائهما أيضاً دليل على حذف المقابل .

ولما كان البكم هو المبدأ به من الأوصاف ، وعنه تكون الأوصاف التي بعده قابلة في الاستواء بالنطق ، وثمرته من الأمر بالعدل غيره وهو في نفسه على طريقة مستقيمة ، فحيثما توجه صدر منه الخير ونفع ، وليس بكالّ على أحد .

وقد تقرر في بداية العقول أنّ الأبكم العاجز لا يكون مساوياً في العقل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية ، فلأن يحكم بأنّ الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في المعبودية أحرى وأولى .

وكما قلنا في المثل السابق : لا يحتاج إلى تعيين المضروب بهما المثل ، فكذلك هنا ، فتعيين الأبكم بأبي جهل ، والآمر بالعدل : بعمار ، أو بأبيّ بن خلف ، وعثمان بن مظعون ، أو بهاشم بن عمرو بن الحرث كان يعادي الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يصح إسناده .

وقرأ عبد الله ، وعلقمة ، وابن وثاب ، ومجاهد ، وطلحة يوجه بهاء واحدة ساكنة مبنياً ، وفاعله ضمير يعود علىى مولاه ، وضمير المفعول محذوف لدلالة المعنى عليه .

ويجوز أن يكون ضمير الفاعل عائداً على الأبكم ، ويكون الفعل لازماً وجه بمعنى توجه ، كان المعنى : أينما يتوجه .

وعن عبد الله أيضاً : توجهه بهاءين ، بتاء الخطاب ، والجمهور بالياء والهاءين .

وعن علقمة وابن وثاب ، وطلحة ، يوجه بهاء ، واحدة ساكنة ، والفعل مبني للمفعول .

وعن علقمة ، وطلحة : يوجه بكسر الجيم وهاء واحدة مضمومة .

(109/440)

قال صاحب اللوامح : فإنْ صح ذلك فإنّ الهاء التي هي لام الفعل محذوفة فراراً من التضعيف ، ولأن اللفظ به صعب مع التضعيف ، أو لم يرد به الشرط ، بل أمر هو بتقدير أينما هو يوجه ، وقد حذف منه ضمير المفعول به ، فيكون حذف الياء من لا يأت بخير على التخفيف نحو : يوم يأت .

وإذا يسر انتهى .

ولا يخرج أين عن الشرط أو الاستفهام .

وقال أبو حاتم : هذه القراءة ضعيفة ، لأن الجزم لازم انتهى .

والذي توجه عليه هذه القراءة إن صحت أنّ أينما شرط حملت على إذا لجامع ما اشتركا فيه من الشرطية ، ثم حذفت الياء من لا يأت تخفيفاً ، أو جزمه على توهم أنه نطق بأينما المهملة معملة لقراءة من قرأ أنه من يتقي ويصبر في أحد الوجهين ، ويكون معنى يوجه يتوجه ، فهو فعل لازم لا متعد .

ثم ذكر تعالى أنه له غيب السموات والأرض ، وهو ما غاب عن العباد وخفي فيهما عنهم علمه .

والظاهر اتصاله بقوله : ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أخبر باستئثاره بعلم غيب السموات والأرض ، بكمال قدرته على الإتيان بالساعة التي تنكرونها في لمحة البصر أو أقرب ، والمعنى بهذا الإخبار : أنّ الآلهة التي تعبدونها منتف عنها هذان الوصفان اللذان للإله وهما : العلم المحيط بالمغيبات ، والقدرة البالغة التامّة .

ومن ذكر أنّ قوله : ومن يأمر بالعدل هو الله تعالى ، ذكر ارتباط هذه الجملة بما قبلها بأنّ من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم هو الكامل في العلم والقدرة ، فبين ذلك بهذه الجملة .

قيل : والغيب هنا ما لا يدرك بالحس ، ولا يفهم بالعقل .

وقال المفضل : ما غاب عن الخلق هو في قبضته لا يعزب عنه .

وقيل : هو ما في قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ وقال الزمخشري : أو أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة ، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم .

قيل : لما كانت الساعة آتية ولا بد ، جعلت من القرب كلمح البصر .

(110/440)

وقال الزجاج : لم يرد أنّ الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها أي : يقول للشيء كن فيكون .

وقيل : هذا تمثيل للقرب كما تقول : ما السنة إلا لحظة .

وقال الزمخشري : هو عند الله وإن تراخى ، كما يقولون أنتم في الشيء التي تستقربونه : كلمح البصر ، أو هو أقرب إذا بالغتم في استقرابه ونحوه قوله : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ ﴿ وأن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدُّون ﴾ أي هو عنده دان ، وهو عندكم بعيد .

وقيل : المعنى أنّ إقامة الساعة وإماتة الأحياء ، وإحياء الأموات من الأولين والآخرين ، يكون في أقرب وقت أوحاه .

أنّ الله على كل شيء قدير ، فهو يقدر على أنْ يقيم الساعة ، ويبعث الخلق ، لأنه بعض المقدورات .

وقال ابن عطية : والمعنى على ما قال قتادة وغيره ، وما تكون الساعة وإقامتها في قدرة الله تعالى إلا أن يقول لها : كن فلو اتفق أن يقف على ذلك شخص من البشر لكانت من السرعة بحيث يشك هل هي كلمح البصر ؟ أو هي أقرب من ذلك ؟ فأو على هذا على بابها في الشك .

وقيل : هي للتخيير انتهى .

والشك والتخيير بعيدان ، لأنّ هذا إخبار من الله تعالى عن أمر الساعة ، فالشك مستحيل عليه .

ولأنّ التخيير إنما يكون في المحظورات كقولهم : خذ من مالي ديناراً أو درهماً ، أو في التكليفات كآية الكفارات : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ وأو هنا للإبهام على المخاطب كقوله : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ وقوله : ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ وهو تعالى قد علم عددهم ، ومتى يأتيها أمره ، كما علم أمر الساعة ، لكنه أبهم على المخاطب .

وكون أو هنا للإبهام ذكره الزجاج هنا .

وقال القاضي : هذا لا يصح ، لأنّ إقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال : إنه تعالى

يأتي بها في زمان يعني القاضي فيكون الإبهام على المخاطب في ذلك الزمان ، وليس زمان تكليف .

(111/440)

والذي نقوله : إن الإبهام وقع وقت الخطاب المتقدم على أمر الساعة ، لا وقت الإتيان بها . وليس من شرط الإبهام على المخاطب في الإخبار عن شيء اتحاد زمان الإخبار وزمان وقوع ذلك الشيء ، ألا ترى في قوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ كيف تأمر زمان الإخبار عن زمان وقوع ذلك الإرسال ، ووجودهم مائة ألف أو يزيدون .

وقال أبو عبد الله الرازي : لمح البصر انتقال الجسم بالطرف من أعلى الحدقة ، وهي مؤلفة من أجزاء وتلك الأجزاء كثيرة ، والزمان الذي يحصل فيه للمح مركب من آناء متعاقبة ، والله تعالى قادر على إقامة القيامة في آن واحد من تلك الآناء ، فلذلك قال : ﴿ أو هو أقرب ﴾ ولما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا هو لمح البصر ذكره ، ثم قال : أو هو أقرب تنبيهاً على ما ذكرناه ، وليس المراد طريقة الشك ، والمراد بل هو أقرب انتهى . وفيه بعض تلخيص .

وما ذكره من أنّ أو بمعنى بل ، هو قول الفراء ، ولا يصح لأنّ الإضراب على قسمين كلاهما لا

يصح هنا .

أما أحدهما : فإن يكون إبطالاً للإسناد السابق ، وأنه ليس هو المراد ، وهذا مستحيل هنا

، لأنه يؤول إلى إسناد غير مطابق .

والثاني : أن يكون انتقالاً من شيء إلى شيء من غير إبطال لذلك الشيء السابق ، وهذا

مستحيل هنا للتنافي الذي بين الإخبار بكونه مثل لمح البصر في السرعة ، والإخبار

بالأقربية ، فلا يمكن صدقهما معاً .

وقال صاحب الغنيان : وهذا وإن كان يعتبر إدراكه حقيقة ، إلا أن المقصود المبالغة على

مذهب العرب وأرباب النظم .

وما أحسن قول الأبله الشاعر في المعنى :

قال له البرق وقالت له الريح . . .

جميعاً وهما ما هما

أأنت تجري معنا قال إن . . .

نشطت أضحكتكما منكما

أنا ارتداد الطرف قد فته . . .

إلى المدى سبقاً فمن أنتما

ولما ذكر تعالى أمر الساعة وأنها كائنة لا محالة ، فكان في ذلك دلالة على النشأة الآخرة .

وتقدم وصفهم بانتفاء العلم ، ذكر تعالى النشأة الأولى وهي إخراجهم من بطون أمهاتهم غير عالمين شيئاً ، تنبيهاً على وقوع النشأة الآخرة .

ثم ذكر تعالى امتنانه عليهم بجعل الحواس التي هي سبب لإدراك الأشياء والعلم ، ولما كانت النشأة الأولى ، وجعل ما يعلمون به لهم من أعظم النعم عليهم قال : لعلكم تشكرون ، وتقدّم الكلام في أمهات في النساء .

وقرأ حمزة : بكسر الهمزة ، والميم هنا وفي النور ، والزمر ، والنجم ، والكسائي بكسر الهمزة فيهن ، والأعمش بحذف الهمزة وكسر الميم ، وابن أبي ليلى بحذفها وفتح الميم .

قال أبو حاتم : حذف الهمزة رديء ، ولكنّ قراءة ابن أبيّ أصوب انتهى .

وإنما كانت أصوب لأنّ كسر الميم إنما هو لاتباعها حركة الهمزة ، فإذا كانت الهمزة محذوفة زال الاتباع ، بخلاف قراءة ابن أبي ليلى فإنه أقرّ الميم على حركتها .

ولا تعلمون جملة حالية أي : غير عالمين .

وقالوا : لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم ، أو شيئاً مما قضى عليكم من السعادة أو الشقاوة ، أو شيئاً من منافعكم .

والأولى عموم لفظ شيء ، ولا سيما في سياق النفي .

وقال وهب : يولد المولود حذراً إلى سبعة أيام لا يدرك راحة ولا ألماً .

ويحتمل وجعل أن يكون معطوفاً على أخرجكم ، فيكون واحداً في حيز خبر المبتدأ ،

ويحتمل أن يكون استئناف إخبار معطوفاً على الجملة الابتدائية كاستئنافها .

والمراد بالسمع والأبصار والأفئدة إحساسها وإدراكها ، فعبر عن ذلك بالآية .

وقال أبو عبد الله الرازي ما معناه : إنما جمع الفؤاد جمع قلة ، لأنه إنما خلق للمعارف الحقيقية اليقينية ، وأكثر الخلق مشغولون بالأفعال البهيمية ، فكان فؤادهم ليس بفؤاد ، فلذلك ذكر في جمعه جمع القلة انتهى ملخصاً .

(113/440)

وهو قول هذياني ، ولولا جلالة قائله وتسطيره في الكتب ما ذكرته ، وإنما يقال في هذا ما قاله الزمخشري : أنه من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة والقلة ، إذا لم يرد في السماع غيرها كما جاء : شسوع في جمع شسع لا غير ، فجرى ذلك المجرى انتهى .

إلا أنّ دعوى الزمخشري أنه لم يجيء في جمع شسع إلا شسع لا غير ، ليس بصحيح ، بل جاء فيه جمع القلة قالوا : أشساع ، فكان ينبغي له أن يقول : غلب شسوع .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وطلحة ، والأعمش ، وابن هرمز : ألم تروا بتاء الخطاب ، وباقي السبعة بالياء .

قال ابن عطية : واختلف عن الحسن ، وعيسى الثقفي ، وعاصم ، وأبي عمرو .

ولما ذكر تعالى مدارك العلم الثلاثة : السمع ، والنظر ، والعقل ، والأوّلان مدرك المحسوس ، والثالث مدرك المعقول ، اكتفى من ذكر مدرك المحسوس بذكر النظر ، فإنه أغرب لما يشاهد به من عظيم المخلوقات على بعدها المتفاوت ، كمشاهدته النيرات التي في الأفلاك .

وجعل هنا موضع الاعتبار والتعجب الحيوان الطائر ، فإنّ طيرانه في الهواء مع ثقل جسمه مما يعجب منه ويعتبر به .

وتضمنت الآية أيضاً ذكر مدرك العقل في كونه لا يسقط ، إذ ليس تحته ما يدعمه ، ولا فوقه ما يتعلق به ، فيعلم بالعقل أنه له ممسك قادر على إمساكه وهو الله تعالى ، كما قال تعالى :

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ فانتظم في الآية ذكر مدرك الحس ومدرك العقل .

ومعنى مسخرات : مذللات ، وبني للمفعول دلالة على أن له مسخراً .

وقال أبو عبد الله الرازي : هذا دليل على كمال قدرة الله وحكمته ، فإنه تعالى خلق الطائر خلقه معها يمكنه الطيران ، أعطاه جناحاً يبسطه مرة ، ويكنه أخرى مثل ما يعمل السابح

في الماء ، وخلق الجو خلقه معها يمكن الطيران خلقه خلقة لطيفة ، يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً انتهى .

وكلامه منتزع من كلام القاضي قال : إنما أضاف الإمساك إلى نفسه ، لأنه تعالى هو الذي أعطى الآلات لأجلها تمكن الطائر من تلك الأفعال ، فلما كان هو المتسبب لذلك صحت هذه الإضافة انتهى .

والذي نقوله : إنه كان يمكنه أن يطير ولو لم يخلق له جناح ، وأنه كان يمكنه خرق الشيء الكثيف وذلك بقدرة الله تعالى ، وأن الممسك له في جو السماء هو الله تعالى .

وقد قام الدليل على أنّ جميع الأفعال كلها مخلوقة لله ، وقام الدليل على أنه تعالى هو الفاعل المختار ، فلا نقول : إنه لولا الجناح ولطف الجو ما أمكن الطيران ، ولا لولا الآلات ما أمكن .

وقال الزمخشري : ما يوافق كلامهما قال : مسخرات ، مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة ، والأسباب المواتية لذلك .

ثم أحسن أخيراً في قوله : ما يمسكهن في قبضهن وبسطهن ووقوفهن إلا الله بقدرته انتهى .

لآيات : جمع ولم يفرد ، لما في ذلك من الآيات خفة الطائر التي جعلها الله فيه لأن يرتفع بها ،

وثقله الذي جعله فيه لأن ينزل ، والفضاء الذي بين السماء والأرض ، والإمساك الذي لله تعالى ، أو جمع باعتبار ما في هذه الآية والتي قبلها وقال : لقوم يؤمنون ، فإنهم هم الذين ينتفعون بالاعتبار ، ولتضمن الآية أن المسخر والممسك لها هو الله ، فهو إخبار منه تعالى ما يصدق به إلا المؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(115/440)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ ﴾

تعالى خاصةً لا لأحد غيرِه استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ أي الأمورُ الغائبةُ عن علوم المخلوقين قاطبةً بحيث لا سبيلَ لهم إليها لا مشاهدةً ولا استدلالاً ، ومعنى الإضافةِ إليهما التعلقُ بهما إما باعتبار الوقوعِ فيهما حالاً أو مآلاً وإما باعتبار الغَيبة عن أهلهما ، والمرادُ بيانُ الاختصاص به تعالى من حيث المعلوميةُ حسبما ينبىء عنه عنوانُ الغيبية لا من حيث المخلوقيةُ والمملوكيةُ وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر ، وفيه إشعارٌ بأن علمه سبحانه حضوريٌّ فإن تحقق الغيوبِ في أنفسها عِلمٌ بالنسبة إليه تعالى ،

ولذلك لم يقل : ولله علمُ غيبِ السموات والأرض ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ التي هي أعظمُ ما وقع في المماراةُ من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتُها عن أهلهما أو ظهورُ آثارها فيهما عند وقوعها ، فأن وقتَ وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وإن كانت آنيّتُها من الغيوب التي نُصبت عليها الأدلة ، أي ما شأنُها في سرعة المجيء ﴿ إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ أي كرجع الطرفِ من أعلى الحدَقة إلى أسفلها ﴿ أَوْ هُوَ ﴾ أي بل أمرُها فيما ذكر ﴿ أَقْرَبُ ﴾ من ذلك وأسرعُ زمانا بأن يقع في بعضٍ من زمانه ، فإن ذلك وإنْ قصُر حركةٌ آنيةٌ لها هُويةٌ اتصاليةٌ منطبقةٌ على زمان له هوية كذلك قابلٌ للانقسام إلى أبعاض هي أزمنة أيضاً ، بل في آن غيرِ منقسمٍ من ذلك الزمان وهو آنُ ابتداءِ تلك الحركةِ ، أو ما أمرُها إلا كالشيء الذي يُستقرب ويقال : هو كلمح البصر ، أو هو أقرب .

وأياً ما كان فهو تمثيلٌ لسرعة مجيئها حسبما عبّر عنها في فاتحة السورة الشريفة بالإتيان .

﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ ومن جملة الأشياء أن يجيء بها أسرعَ ما يكون فهو قادرٌ على ذلك ، أو وما أمرُ إقامةِ الساعة التي كنهُها وكيفيتُها من الغيوب الخاصةِ به سبحانه ، وهي إماتةُ الأحياءِ وإحياءُ الأمواتِ من الأولين والآخرين ، وتبديل صُورِ الأكوان أجمعين ،

وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخُل تحت الإمكان في سرعة الوقوعِ وسهولةِ التأتي إلا كلمح البصر أو هو أقرب على ما مر من الوجهين إن الله على كل شيء قدير فهو قادر على ذلك لا محالة ، وقيل : غيبُ السموات والأرض عبارةٌ عن يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائبٌ عن أهلهما ، فوضْعُ الساعة موضعَ الضمير لتقوية مضمونِ الجملة .

﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾

عطف على قوله تعالى : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ منتظمٌ معه في سلك أدلةِ التوحيد من قوله تعالى : ﴿ والله أَنزَلَ مِنَ السماء مَآء ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ﴾ والأمهات بضم الهمزة وقرىء بكسرها أيضاً جمعُ الأم زيدت الهاء فيه كما زيدت في أهراق من أراق وشذّت زيادتُها في الواحدة ، قال

أُمهتي خِندِفُ والياسُ أبي . . . ﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ في موقع الحال أي غيرَ عالمين شيئاً أصلاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والافئدة ﴾ عطف على (أخرجكم) وليس فيه

دلالةٌ على تأخر الجمعِ المذكورِ عن الإخراجِ لما أن مدلولَ الواو هو الجمعُ مطلقاً لا الترتيبُ ، على أن أثر ذلك الجعلِ لا يظهر قبل الإخراج أي جعل لكم هذه الأشياءَ آلاتٍ تحصّلون بها العلمَ والمعرفة بأن تُحِسوا بمشاعركم جزئياتِ الأشياء وتُدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الإحساسِ فيحصل لكم علومٌ بديهيةٌ تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلومِ الكسبية . والأفئدة جمع فؤاد وهو وسطُ القلب وهو للقلب كالقلب من الصدر ، وهو من جموع القلة التي جرت مَجرى جموعِ الكثرة ، وتقديمُ المجرور على المنصوبات لما مر من الإيذان من أول الأمر بكون المجعول نافعاً لهم وتشويقِ النفس إلى المؤخر ليتمكن عند ورودِه عليها فضل تمكن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تعرِفوا ما أنعم به عليكم طوراً غِبَّ طَورٍ فتشكروه ، وتقديمُ السمع على البصر لما أنه طريق تلقي الوحي أو لأن إدراكه أقدمُ من إدراك البصر ، وإفرادُه باعتبار كونه مصدراً في الأصل .

(118/440)

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ وقرىء بالتاء ﴿ إِلَى الطير ﴾ جمع طائر أي ألم ينظروا إليها ﴿ مسخرات ﴾ مذلّلاتٍ للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسبابِ المساعدة له ، وفيه مبالغةٌ من حيث إن معنى التسخيرِ جعلُ الشيء منقاداً لآخرَ يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير

البحر والفُلك والدوابّ للإنسان ، والواقعُ هاهنا تسخيرُ الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعةِ الطيرِ السقوطَ فسخرها الله تعالى للطيران ، وفيه تنبيهٌ على أن الطيرانَ ليس بمقتضى طبعِ الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿ فِى جَوِّ السَّمَآءِ ﴾ أي في الهواء المتباعدِ من الأرضِ والسكاك واللوح أبعدُ منه ، وإضافتُه إلى السماء لما أنه في جانبها من الناظر ولإظهار كمالِ أجلِّ القدرة .

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجو حين قبْضِ أجنحتهن وبسطِها ووقوفهن ﴿ إِلاَّ اللهُ ﴾ عز وجل بقدرته الواسعة ، فإن ثقلَ جسدها ورِقّةَ قوامِ الهواء يقتضيان سقوطَها ولا عِلاقةَ من فوقها ولا دِعامة من تحتها ، وهو إما حالٌ من الضمير المستتر في مسخّرات أو من الطير وإما مستأنف ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خِلْقةً تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحةً خفيفة وأذناباً كذلك وجعل أجسادها من الخِفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابَها لا يطيق ثقلها يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لأنها لا تلاقيه بحجم كبير ﴿ لآيَاتٍ ﴾ ظاهرة ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا وإنما خص ذلك بهم لأنهم المنتفعون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ ﴾ تعالى خاصة لا لأحد غيره استقلال ولا اشتركا ﴿ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ أي جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين بحيث لا سبيل لهم إلى إدراكها حسا ولاً إلى فهمها عقلاً ، ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما إما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا واما باعتبار الغيبة عن أهلهما ، ولا حاجة إلى تقدير هذا المضاف ، والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبىء عنه عنوان الغيبة لا من حيث المخلوقية والمملوكية وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر ، وفيه كما في إرشاد العقل السليم اشعار بأن علمه تعالى حضوري وأن تحقق الغيوب في نفسها بالنسبة إليه سبحانه وتعالى ولذلك لم يقل تعالى : ولله علم غيب السموات والأرض ، وقيل : المراد بغيب السموات والأرض ما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ [لقمان : 34] الآية ، وقيل : يوم القيامة ، ولا يخفى أن القول بالعموم أولى .

﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ التي هي أعظم ما وقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بالسموات والأرض من حيث الغيبة عن أهلهما أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها أي وما شأنها في سرعة المجيء ، ﴿ إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ أي كرجع الطرف من أعلا الحدقة إلى أسفلها .

وفي البحر اللمح النظر بسرعة يقال: لمحه لمحا ولمحانا إذا نظره بسرعة ﴿ أَوْ هُوَ ﴾ أي أمرها ﴿ أَقْرَبُ ﴾ أي من ذلك وأسرع بأن يقع في بعض أجزاء زمانه فإن رجع الطرف من أعلا الحدقة إلى أسفلها وإن قصر حركة أينية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هو كذلك قابل للانقسام إلى أبعاض هي أزمنة أيضاً بل بأن يقع فيما يقال به آن وهو جزء غير منقسم من أجزاء الزمان كآن ابتداء الحركة، و﴿ أَوْ ﴾ قال الفراء: بمعنى بل.

(120/440)

ورده في البحر بأن بل للإضراب وهو لا يصح هنا بقسيمه، أما الإبطال فلأنه يؤل إلى أن الحكم السابق غير مطابق فيكون الأخبار به كذباً والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك، وأما الانتقال فلأنه يلزمه التنافي بين الأخبار بكونه مثل لمح البصر وكونه أقرب فلا يمكن صدقهما معا ويلزم الكذب المحال أيضاً.

وأجيب باختيار الثاني ولا تنافي بين تشبيهه في السرعة بما هو غاية ما يتعارفه الناس في بابه وبين كونه في الواقع أقرب من ذلك، وهذا بناء على أن الغرض من التشبيه بيان سرعته لا بيان مقدار زمان وقوعه وتحديده.

وأجيب أيضاً بما يصححه بشقيه وهو أنه ورد على عادة الناس يعني أن أمرها إذا سئلتم

عنها أن يقال فيه : هو كلمح البصر ثم يضرب عنه إلى ما هو أقرب .

وقيل : هي للتخيير .

ورده في البحر أيضاً بأنه إنما يكون في المحظورات كخذ من مالي ديناراً أو درهماً أو في التكليفات كآية الكفارات .

وأجيب بأن هذا مبني على مذهب ابن مالك من أن ﴿ أَوْ ﴾ تأتي للتخيير وأنه غير مختص بالوقوع بعد الطلب بل يقع في الخبر ويكثر في التشبيه حتى خصه بعضهم به .

وفي شرح الهادي اعلم أن التخيير والإباحة مختصان بالأمر إذ لا معنى لهما في الخبر كما أن الشك والإبهام مختصان بالخبر .

وقد جاءت الإباحة في غير الأمر كقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الذى استوقد نَاراً ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَصَيّبٍ مّنَ السماء ﴾ [البقرة : 19] أي بأي هذين شبهت فأنت مصيب وكذا ان شبهت بهما جميعاً ، ومثله في الشعر كثير ، وقيل : إن المراد تخيير المخاطب بعد فرض الطلب والسؤال فلا حاجة إلى البناء على ما ذكر ، وهو كما ترى ،

وزعم بعضهم أن التخيير مشكل من جهة أخرى وهي أن أحد الأمرين من كونه كلمح البصر أو أقرب غير مطابق للواقع فكيف يخير الله تعالى بين ما لا يطابقه ، وفيه أن المراد التخيير في التشبيه وأي ضرر في عدم وقوع المشبه به بل قد يستحسن فيه عدم الوقوع كما في قوله :

أعلام ياقوت نشر . . .

ن على رماح من زبرجد

وقال ابن عطية : هي للشك على بابها على معنى أنه لو اتفق أن يقف على أمرها شخص من البشر لكانت من السرعة بحيث يشك هل هو كلمح البصر أو أقرب .

وتعقبه في البحر أيضاً بأن الشك بعيد لأن هذا اختبار من الله تعالى عن أمر الساعة والشك مستحيل عليه سبحانه أي فلا بد أن يكون ذلك بالنسبة إلى غير المتكلم ، وفي ارتكابه بعد ، ويدل على أن هذا مراده تعليله البعد بالاستحالة فليس اعتراضه مما يقضي منه العجب كما توهم ، وقال الزجاج : هي للإبهام وتعقب بأنه لا فائدة في إبهام أمرها في السرعة وإنما الفائدة في إبهام وقت مجيئها .

وأجيب بأن المراد أنه يستبهم على ما يشاهد سرعتها هل هي كلمح البصر أو أقل فتدبر .

والمأثور عن ابن جريج أنها بمعنى بل وعليه كثيرون ، والمراد تمثيل سرعة مجيئها واستقرابه على وجه المبالغة ، وقد كثر في النظم مثل هذه المبالغة ، ومنه قول الشاعر :

قالت له البرق وقالت له الريح جميعا وهما ما هما . . .

أأنت تجري معنا قال إن . . .

نشطت أضحكتكما منكما

ان ارتداد الطرف قد فته . . .

إلى المدى سبقا فمن أنتما

وقيل : المعنى وما أمر إقامة الساعة المختص علمها به سبحانه وهي اماتة الاحياء واحياء الأموات من الأولين والآخرين وتبديل صور الأكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخل تحت دائرة الإمكان في سرعة الوقوع وسهولة التأتي إلا كلمح البصر أو هو أقرب على ما مر من الأقوال في ﴿ أَوْ ﴾ ﴿ إِنَّ اللهَ على شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن جملة الأشياء أن يجيء بها في أسرع ما يكون فهو قادر على ذلك ، وتقول على الثاني : ومن جملة ذلك أمر إقامتها فهو سبحانه قادر عليه فالجملة في موضع التعليل .

(122/440)

وفي الكشف على تقدير عموم الغيب وشموله لجميع ما غاب في السموات والأرض ان قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ كالمستفاد من الأول وهو كالتمهيد له أي يختص به علم كل غيب الساعة وغيرها فهو الآتي بها للعلم والقدرة ، ولهذا عقب بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهِ ﴾ الخ ، وأما إذا أريد بالغيب الساعة فهو ظاهر اه .

ولا يخفي الحال على القول بأن المراد بالغيب ما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة

وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ [لقمان : 34] الآية ، وعلى القول الأخير في الغيب يكون ذكر الساعة من وضع الظاهر موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة .

﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النحل : 72] منتظم معه في سلك أدلة التوحيد ، ويفهم من قول العلامة الطيبي أنه تعالى عقب قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : 77] بقوله جل وعلا : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم ﴾ الخ معطوفاً بالواو إيذاناً بأن مقدوراته تعالى لا نهاية لها والمذكور بعض منها أن العطف على قوله سبحلنه : ﴿ إِنَّ اللهَ ﴾ الخ ، والذي تنبسط له النفس هو الأول .

والأمهات بضم الهمزة وفتح الهمزة جمع أم والهاء فيه مزيدة وكثر زيادتها فيه وورد بدونها ، والمعنى في الحالين واحد ، وقيل : ذو الزيادة للإناسي والعاري عنها للبهائم ، ووزن المفرد فعل لقولهم الأمومة ، وجاء بالهاء كقول قصى بن كلاب عليهما الرحمة :

أمهتي خندف والياس أبى . . .

وهو قليل ، وأقل من ذلك زيادة الهاء في الفعل كما قيل في إهراق ، وفيه بحث فارجع إلى الصحاح وغيره .

وقرأ حمزة بكسر الهمزة والميمي هنا ، وفي الزمر ، والنجم .

والورم ، والكسائي بكسر الميم فيهن ؛ والأعمش بحذف الهمزة وكسر الميم ، وابن أبي ليلى بحذفها وفتح الميم ، قال أبو حاتم : حذف الهمة رديء ولكن قراءة ابن أبي ليلى أصوب ، وكانت كذلك على ما في البحر لأن كسر الميم إنما هو لإتباعها حركة الهمزة فإذا كانت الهمزة محذوفة زال الإتباع بخلاف قراءة ابن أبي ليلى فإنه أقر الميم على حركتها ﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ في موضع الحال و ﴿ شَيْئًا ﴾ منصوب على المصدرية أو مفعول ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ ، والنفي منصب عليه ، والعلم بمعنى المعرفة أي غير عارفين شيئاً أصلاً من حق المنعم وغيره ، وقيل : شيئاً من منافعكم ، وقيل : مما قضى عليكم من السعادة أو الشقاوة ، وقيل : مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم ، والظاهر العموم ولا داعي إلى التخصيص .

وعن وهب يولد المولود خدراً إلى سبعة أيام لا يدرك راحة ولا ألماً .

وادعى بعضهم أن النفس لا تخلو في مبدأ الفطرة عن العلم الحضوري وهو علمها بنفسها إذ المجرد لا يغيب عن ذاته أصلاً ، فقد قال الشيخ في بعض تعليقاته عند إثبات تجرد النفس :

إنك لا تغفل عن ذاتك أصلاً في حال من الأحوال ولو في حال النوم والسكر ، ولو جوز مجوز أن يغفل عن ذاته في بعض الأحوال حتى لا يكون بينه وبين الجماد في هذه الحالة فرق فلا يجدي هذا البرهان معه ، وقال بهمنيار في التحصيل في فصل العقل والمعقول : ثم إن النفس الإنسانية تشعر بذاتها فيجب أن يكون وجودها عقلياً فيكون نفس وجودها نفس إدراكاً ولهذا لا تعزب عن ذاتها البتة ، ومثله في الشفاء ، وأنت تعلم أن عدم الخلو مبني على مقدمات خفية كتجرد النفس الذي أنكره الطبيعيون عن آخرهم وأن كل مجرد عالم ولا يتم البرهان عليه ، وأيضاً ما نقل من أن علم النفس بذاتها عين ذاتها لا ينافي أن يكون لكون الذات علماً بها شرط فما لم يتحقق ذلك الشرط لم تكن الذات علماً بها كما أن لكون المبتدأ الفياض خزانة لمعقولات زيد مثلاً شرطاً إذا تحقق تحقق وإلا فلا ، ويؤيد ذلك أن علم النفس بصفاتها أيضاً نفس صفاتها عندهم ؛ ومع ذلك يجوز الغفلة عن الصفة في بعض الأحيان كما لا يخفى .

وأيضاً إذا قلنا : إن حقيقة الذات غير غائبة عنها ، وقلنا : إن ذلك علم بها يلزم أن يكون حقيقة النفس المجردة معلومة لكل أحد ؛ ومن البين أنه ليس كذلك ، على أن المحقق

الطوسي قد منع قولهم : إنك لا تغفل عن ذاتك أبداً ، وقال : إن المغمى عليه ربما غفل عن ذاته في وقت الإغماء ، ومثله كثير من الأمراض النفسانية ، ومن العجائب أن بعض الأجلة ذكر أن المراد بخلوها في مبدأ الفطرة خلوها حال تعلقها بالبدن ، وقال : إنه لا ينافي ذلك ما قاله الشيخ من أن الطفل يتعلق بالثدي حال التولد بإلهام فطري لأن حال التعلق سابق على ذلك ، وذلك بعد أن ذكر أن الخلو في مبدأ الفطرة إنما يظهر لذوي الحدس بملاحظة حال الطفل وتجارب أحواله ووجه العجب ظاهر فافهم ولا تغفل .

وتفسير العلم بالمعرفة مما ذهب إليه غير واحد ، وفي أمالي العز لا يجوز أن يجعل باقياً على بابا ويكون ﴿ شَيْئاً ﴾ مصدراً أي لا تعلمون علماً لوجهين .

الأول : الأول أنه يلزم حذف المفعولين وهو خلاف الأصل .

الثاني : أنه لو كان باقياً على بابه لكان الناس يعلمون المبتدأ الذي هو أحد المفعولين قبل الخروج من البطون وهو محال لاستحالة العلم على من لم يولد ، بيان ذلك أنا إذا قلنا : علمت زيداً مقيماً يجب أن يكون العلم بزيد متقدماً قبل هذا العلم وهذا العلم إنما يتعلق بإقامته ، وكذلك إذا قلت : ما علمت زيداً مقيماً فالذي لم يعلم هو إقامة زيد وأما هو فمعلوم وذلك مستفاد من جهة الوضع فحيث أثبت العلم أو نفى فلا بد أن يكون الأول معلوماً فيتعين حمل العلم على المعرفة اه .

ويعلم منه عدم استقامة جعل العلم على بابه ، و﴿ شَيْئًا ﴾ مفعوله الأول والمفعول الثاني محذوف .

(126/440)

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار والافئدة ﴾ يحتمل أن يكون جملة ابتدائية ويحتمل أن يكون معطوفاً على الجملة الواقعة خبراً والواو لا تقتضي الترتيب ، ونكتة تأخيره أن السمع ونحوه من آلات الإدراك إنما يعتد به إذا أحس وأدرك وذلك بعد الإخراج ، وجعل إن تعدى لواحد بأن كان بمعنى خلق فلكم متعلق به وإن تعدى لاثنين بأن كان بمعنى صير فهو مفعوله الثاني ، وتقديم الجار والمجرور على المنصوبات لما مر غير مرة .

والمعنى جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرير الإحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية ، وهذا خلاصة ما ذكره الإمام في هذا المقام ومستمد ما ذهب إليه الكثير من الحكماء من أن النفس في أول أمرها خالية عن العلوم فإذا استعملت الحواس الظاهرة أدركت بالقوة الوهمية أموراً جزئية بمشاركات ومباينات جزئية بينها فاستعدت لأن يفيض عليها المبدأ

الفياض المشاركات الكلية، ويثبتون للنفس أربع مراتب.

مرتبة العقل الهيولاني.

ومرتبة العقل بالملكة.

ومرتبة العقل بالفعل.

ومرتبة العقل المستفاد، ويزعمون أن النفس لا تدرك الجزئي المادي، ولهم في هذا المقام كلام طويل وبحث عريض.

وأهل السنة يقولون: إن النفس تدرك الكلي والجزئي مطلقاً باستعمال المشاعر وبدونه كما فصل في محله، وتحقيق هذا المطلب بماله وما عليه يحتاج إلى بسط كثير، وقد عرض والمستعان بالحي القيوم جل جلاله وعم نواله من الحوادث الموجبة لاختلال أمر الخاصة والعامة ما شوش ذهني وحال بين تحقيق ذلك وبيني، أسأل الله سبحانه أن يمن علينا بما يسر الفؤاد وييسر لنا ما يكون عوناً على تحصيل المراد وبالجملة المأثور عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في هذه الآية أنه قال: يريد سبحانه أنه جعل لكم ذلك لتسمعوا مواعظ الله تعالى وتبصروا ما أنعم الله تعالى به عليكم من إخراجكم من بطون أمهاتكم إلى

أن صرتم رجالاً وتعقلوا عظمته سبحانه .

وقيل : المعنى جعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة التي هي دلائل سمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم والأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته تعالى وغرائب مخلوقاته سبحانه فتستدلوا بها على وحدانيته جل وعلا .

والأفئدة لتعقلوا بها معاني الأشياء التي جعلها سبحانه دلائل لكم ، والسمع والأبصار على هذين القولين على ظاهرهما ولم نر من جوز إخراجهما عن ذلك .

(128/440)

وجوز أن يراد بهما الحواس الظاهرة على الأول ، والأفئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من اقلب كالقلب من الصدر ، وهذا الجمع على ما في "الكشاف" من جموع القلة الجارية مجرى جموع الكثرة والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير فجرى ذلك المجرى ، وقال الزجاج : لم يجمع فؤاد على أكثر العدد وربما قيل : أفئدة وفئدان كما قيل : أغربة وغربان في جمع غراب ، وفي "التفسير الكبير" لعل الفؤاد إنما جمع على بناء القلة تنبيها على أن السمع والبصر كثر وأما الفؤاد فقليل لأنه إنما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية وأكثر الخلق ليس لهم ذلك بل يكونون مشتغلين بالأفعال البهيمية والصفات

السبعية فكأن فؤادهم ليس بفؤاد فلذا ذكر في جمعه جمع القلة اه ، ويرد عليه الأبصار فإنه جمع قلة أيضاً .

وفي "البحر" بعد نقله أنه قول هذياني ولولا جلالة قائله لم نسطره في الكتب وإنما يقال في هذا ما قاله الزمخشري مما ذكر سابقاً إلا أن قوله : لم يجىء في جمع شسع إلا شسوع لس بصحيح بل جاء فيه إشساع جمع قلة على قلة اه فاحفظ ولا تغفل .

وزعم بعضهم أن الفؤاد إنما يدرك ما ليس بمحدود بنحو أين وكيف وكم وغير ذلك وإن لكل مدرك قوة مدركة له تناسبه لا يمكن أن يدرك بغيرها على نحو المحسوسات الظاهرة من الأصوات والألوان والطعوم ونحوها والحواس الظاهرة من السمع والبصر والذوق إلى غير ذلك وهو كما ترى .

وإفراد السمع باعتبار أنه مصدر في الأصل ، وقيل : إنما أفرد وجمع الأبصار للإشارة إلى أن من مدركاته نوع واحد ومدركات البصر أكثر من ذلك وتقديمه لما أنه طريق تلقي الوحي أو لأن إدراكه من إدراك البصر ، وقيل : لأن مدركاته أقل من مدركاته ، والخلاف في الأفضل منهما شهير وقد مر ، وتقديمها على الأفئدة المشار بها إلى العقل لتقدم الظاهر على الباطن

أو لأن لهما مدخلاً في إدراكه في الجملة بل هما من خدمه والخدم تتقدم بين يدي السادة ، وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة أو لأن مدركاتهما أقل قليل بالنسبة إلى مدركاته كيف لا ومدركاته لا تكاد تحصى وإن قيل : إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً كذلك ، واستأنس بعضهم بذكر ما يشير إليه فقط دون ضم ما يشير إلى سائر المشاعر الباطنة إليه لنفي الحواس الخمس الباطنة التي أثبتها الحكماء بما لا يخلو عن كدر ، وتفصيل الكلام في محله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تعرفوا ما أنعم سبحانه به عليكم طوراً غب طور فتشكروه ، وقيل : المعنى جعل ذلك كي تشكروه تعالى باستعمال ما ذكر فيما خلق لأجله .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ وقرأ حمزة .

وابن عامر .

وطلحة .

والأعمش .

وابن هرمز ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ بالتاء الفوقية على أنه خطاب العامة ، والمراد بهم جميع الخلق المخاطبون قبل في قوله تعالى : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾ [النحل : 78] لا على أن المخاطب من وقع في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [النحل : 73] بتلوين الخطاب لأنه المناسب للاستفهام الإنكاري ولذا جعل قراءة الجمهور بياء الغيبية باعتبار غيبة ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ ولم يجعلوا ذلك التفاتاً حينئذ فالإنكار باعتبار اندراجهم في العامة ، والرؤية بصرية أي ألم ينظروا ﴿ إِلَى الطير ﴾ جمع طائر كركب وراكب ويقع على الواحد أيضاً وليس بمراد ويقال في الجمع أيضاً طيور وأطيار ﴿ مسخرات ﴾ مذللات للطيران ، وفيه إشارة إلى أن طيرانها ليس بمقتضى طبعها ﴿ فِى جَوّ السمآء ﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض واللوح السكاك أبعد منه ، وقيل : الجو مسافة ما بين السماء والأرض والجوة لغة فيه ، وإضافته إلى السماء لما أنه في جانبها من الناظر ولا إظهار كمال القدرة ، وعن السدي تفسير الجو بالجوف وفسرت السماء على هذا بجهة العلو والطير قد يطير في هذه الجهة حتى يغيب عن النظر ولم يعلم منتهى ارتفاعه في الطيران إلا الله تعالى ، وعن كعب أن الطير لا ترتفع أكثر من اثني عشر ميلاً .

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجو عن الوقوع ﴿ إِلَّا اللهُ ﴾ عز وجل بقدرته الواسعة فإن ثقل جسدها ورقة الهواء يقتضيات سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها ، والجملة إما حال من الضمير المستتر في ﴿ مسخرات ﴾ أو من ﴿ الطير ﴾ وإما مستأنفة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر من التسخير في الجو والإمساك فيه ، وقيل المشار إليه ما اشتملت عليه هذه الآية والتي قبلها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دالة على كمال قدرته جل شأنه ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ن شأنهم أن يؤمنوا ، وخص ذلك بهم لأنهم المنتفعون به ، واقتصر الإمام على جعل المشار إليه ما فيه هذه الآية قال : وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته سبحانه فإنه جل شأنه خلق الطائر خلقة معها يمكه الطيران أعطاه جناحاً يبسطه مرة ويكنه أخرى مثل ما يعمل السابح في الماء وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران خلقه خلقة لطيفة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً اه .

وكذا المولى أبو السعود قال : إن في ذلك الذي ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذناباً كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها أن يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لأنها لا تلاقيه بحجم كبير لآيات ظاهرة ، وذكر أن تسخرها بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة .

وتعقب ذلك أبو حيان بقوله : والذي نقوله إنه كان يمكن الطائر أن يطير ولو لم يخلق له جناح

وأنه كان يمكنه خرق الشيء الكثيف وذلك بقدرة الله تعالى ولا نقول : إنه لولا الجناح ولطف الجو والآلات ما أمكن الطيران اه وأنا لا أظن أن أحداً ينفي الإمكان الذاتي للطيران بدون الجناح مثلاً لكن لا يبعد نفيه بدون لطف المطار والكثيف متى خرق كان المطار لطيفاً فافهم .

واستدل بالآية على أن العبد خالق لأفعاله ، وأولها القاضي وهو ارتكاب لخلاف الظاهر لغير دليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(132/440)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) ﴾

قوله : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ لما قال سبحانه : ﴿ إن الله يعلم ﴾ أي : بالمعلومات التي من جملتها كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون ؟ علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال ، فقال : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ أي : ذكر شيئاً يستدلّ به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه ، وبين ما جعلوه شريكاً له من الأصنام .

ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ والمثل في الحقيقة هي حالة للعبد عارضة له ، وهي المملوكية والعجز عن التصرف ، فقوله : ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ تفسير للمثل وبدل منه ، ووصفه بكونه مملوكاً ؛ لأن العبد والحرّ مشتركان في كون كل واحد منهما عبد الله سبحانه .

ووصفه بكونه لا يقدر على شيء ؛ لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات .

فهذا الوصف لتمييزه عنهما ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ ﴾ " من " هي الموصولة ، وهي معطوفة على ﴿ عبداً ﴾ أي : والذي رزقناه ﴿ مِنَّا ﴾ أي : من جهتنا ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاءوا ، والمراد بكون الرزق حسناً : أنه مما يحسن في عيون الناس ، لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها .

والفاء في قوله : ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ ﴾ لترتيب الإنفاق على الرزق ، أي : ينفق منه في وجوه الخير ويصرف منه إلى أنواع البرّ والمعروف ، وانتصاب ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ على الحال ، أي : ينفق منه في حال السرّ وحال الجهر .

والمراد : بيان عموم الإنفاق للأوقات ، وتقديم السرّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه ، وأن الثواب فيه أكثر .

وقيل: إن "من" في ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ ﴾ موصوفة، كأنه قيل: وحرّاً رزقناه، ليطابق عبداً.

﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ أي: الحرّ والعبد الموصوفان بالصفات المتقدّمة، وجمع الضمير لمكان من، لأنه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث.

وقيل: إنه أريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن الحرّ الجنس؛ أي من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين، والاستفهام للإنكار، أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر، ومن المعلوم أنهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرّاً ولا نفعاً، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه؟ وحاصل المعنى: أنه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حرّ قد رزقه الله رزقاً حسناً، فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الربّ الخالق الرازق، والجمادات من الأصنام التي تعبدونها، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع.

وقيل: المراد بالعبد المملوك في الآية: هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته، والآخر: هو المؤمن.

والغرض: أنهما لا يستويان في الرتبة والشرف، وقيل: العبد: هو الصنم، والثاني: عابد الصنم، والمراد: أنهما لا يستويان في القدرة والتصرّف؛ لأن الأوّل جماد، والثاني إنسان.

﴿ الحمد للَّهِ ﴾ أي : الحمد لله كله ، لأنه المنعم ، لا يستحق غيره من العباد شيئاً منه ، فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً ولا نعمة منها أصلاً لا بالأصالة ولا بالتوسط ؛ وقيل : أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد ؛ وقيل : أراد قل الحمد لله ، والخطاب إما لمحمد صلى الله عليه وسلم أو لمن رزقه الله رزقاً حسناً ، وقيل : إنه لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود ، قال : الحمد لله أي : على قوّة هذه الحجة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك حتى يعبدوا من تحقّ له العبادة ، ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة ، ونفي العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم ، أو هم يتركون الحق عناداً مع علمهم به ، فكانوا كمن لا علم له ، وخصّ الأكثر بنفي العلم : إما لكونه يريد الخلق جميعاً ، وأكثرهم المشركون ، أو ذكر الأكثر ، وهو يريد الكلّ ، أو المراد أكثر المشركين ؛ لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم .

ثم ذكر سبحانه مثلاً ثانياً ضربه لنفسه ، ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لا تضرّ ولا تنفع فقال : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ أي : مثلاً آخر أوضح مما قبله وأظهر منه ، و ﴿ رَّجُلَيْنِ ﴾ بدل من مثل وتفسير له ، والأبكم العييّ

المفحم .

وقيل : هو الأقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام ، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه الذي لا يسمع ولا يبصر ، ثمّ وصف الأبكم فقال : ﴿ لاَّ يَقْدِرُ على شَىْء ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه ، وعدم قدرته على النطق ، ومعنى ﴿ كَلٌّ على مَوْلاهُ ﴾ ثقيل على وليه وقرابته وعيال على من يلي أمره ويعوله ، ووبال على إخوانه ، وقد يسمى اليتيم : كلا ؛ لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر :

أكول لمال الكلّ قبل شبابه . . . إذا كان عظم الكلّ غير شديد

(135/440)

وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقاً ، ثم وصفه بصفة رابعة فقال : ﴿ أَيْنَمَا يُوَجّهّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ أي : إذا وجهه إلى أيّ جهة لا يأت بخير قط ؛ لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول .

وقرأ يحيى بن وثاب "أينما يوجه" على البناء للمجهول ، وقرأ ابن مسعود "أينما توجه" على صيغة الماضي ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ ﴾ في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ أي : يأمر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به

ويفهم .

ويقدر على التصرّف في الأشياء .

﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ على دين قويم ، وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط ، قابل أوصاف الأوّل بهذين الوصفين المذكورين للآخر ، لأن حاصل أوصاف الأوّل عدم استحقاقه لشيء ، وحاصل وصفي هذا أنه مستحق أكمل استحقاق ، والمقصود الاستدلال بعدم تساوي هذين المذكورين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكاً له .

ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين ، مدح نفسه بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ أي : يختصّ ذلك به ، لا يشاركه فيه غيره ، ولا يستقل به ، والمراد : علم ما غاب عن العباد فيهما ، أو أراد بغيبهما يوم القيامة ، لأن علمه غائب عن العباد ، ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما .

والمعنى : التوبيخ للمشركين والتقريع لهم ، أي : أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلاً عاجزاً لا يضرّ ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم ﴿ وَمَا أَمْرُ

الساعة ﴾ التي هي أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه ﴿ إِلَّا كَلَمْحِ البصر ﴾ اللمح : النظر بسرعة ، ولا بدّ فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي ، وكل زمان قابل للتجزئة ، ولذا قال : ﴿ أَوْ هُوَ ﴾ أي : أمرهما ﴿ أَقْرَبُ ﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة ، بل هو كلام في غاية الصدق ، لأن مدّة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية ، ومنها إلى الأبد غير متناه ، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي .

أو يقال : إن الساعة لما كانت آتية ولا بدّ جعلت من القرب كلمح البصر .

وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ، لأنه يقول للشيء كن فيكون ، وقيل : المعنى هي عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6 – 7] .

ولفظ " أو " في ﴿ أو هو أقرب ﴾ ليس للشك ، بل للتمثيل .

وقيل : دخلت لشك المخاطب ، وقيل : هي بمنزلة بل ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته .

ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ، ونهاية رأفته ، فقال : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ وهذا معطوف على قوله : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ منتظم معه في سلك أدلة التوحيد ، أي : أخرجكم من

بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء ، وجملة ﴿ لا تعلمون شيئًا ً ﴾ في محل نصب على الحال ، وقيل : المراد : لا تعلمون شيئًا ًمما أخذ عليكم من الميثاق .

وقيل : لا تعلمون شيئًا ًمما قضي به عليكم من السعادة والشقاوة .

(137/440)

وقيل : لا تعلمون شيئًا ً من منافعكم .

والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتبارا ً بعموم اللفظ ، فإن ﴿ شيئًا ً ﴾ نكرة واقعة في سياق النفي .

وقرأ الأعمش ، وابن وثاب ، وحمزة " إمهاتكم " بكسر الهمزة والميم هنا ، وفي النور ، والزمر ، والنجم .

وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم .

وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي : ركب فيكم هذه الأشياء ، وهو معطوف على ﴿ أخرجكم ﴾ وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع .

والمعنى : جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوباً عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم ، وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه ، والأفئدة : جمع فؤاد ، وهو وسط القلب ، منزل منه بمنزلة القلب من الصدر ، وقد قدّمنا الوجه في إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة ، وهو أن إفراد السمع لكونه مصدراً في الأصل يتناول القليل والكثير ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له ، فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه ، أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر .

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير مسخرات ﴾ أي : ألم ينظروا إليها حال كونها مسخرات أي : مذللات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة ، وسائر الأسباب المواتية لذلك ، كرقة قوام الهواء وإلهامها بسط الجناح وقبضه ، كما يفعل السابح في الماء ﴿ فِى جَوّ السماء ﴾ أي : في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو ، وإضافته إلى السماء لكونه في جانبها ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجوّ ﴿ إِلاَّ الله ﴾ سبحانه بقدرته الباهرة ، فإن ثقل أجسامها ، ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ، لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ، ولا اعتمدت على شيء تحتها .

وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش ، وابن عامر ، وحمزة ، ويعقوب " ألم تروا " بالفوقية على الخطاب .

واختار هذه القراءة أبو عبيد .

وقرأ الباقون بالتحتية ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهرات تدلّ على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله سبحانه ، وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها الله .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ الآية قال : يعني الكافر أنه لا يستطيع أن ينفق نفقة في سبيل الله ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ الآية ، قال : يعني : المؤمن وهذا المثل في النفقة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم نحوه بأطول منه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية ، وفي قوله : ﴿ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ قال : كل هذا مثل إله الحق وما تدعون من دونه الباطل .

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال : في المثل الأوّل ، يعني بذلك : الآلهة التي لا تملك ضرّاً ولا نفعاً ، ولا تقدر على شيء ينفعها ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا

حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ قال : علانية الذي ينفق سرّاً وجهراً لله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم وابن مردويه ، وابن عساكر عنه ، قال : نزلت هذه الآية ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ في رجل من قريش ، وعبدة بن هشام بن عمرو ، وهو الذي ينفق سرّاً وجهراً ، وفي عبدة أبي الجوزاء الذي كان ينهاه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ الآية قال : يعني بالأبكم : الذي هو كلّ على مولاه الكافر ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ المؤمن ، وهذا المثل في الأعمال .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر عنه أيضاً قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر ، وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام ، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة ، وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبي شيبة ، والبخاري في تاريخه ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ قال : عثمان بن عفان .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ كَلٌّ ﴾ قال : الكلّ : العيال ، كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير ذلول ، وجعلوا معه نفراً يمسكونه خشية أن يسقط عليهم ، فهو عناء وعذاب وعيال عليهم ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالعدل وَهُوَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني : نفسه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ هو أن يقول : كن فهو كلمح البصر ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ فالساعة كلمح البصر أو هي أقرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾ قال : من الرحم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فِى جَوّ السماء ﴾ أي : في كبد السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير ـ 3 ص ﴾

(140/440)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ الآية .

أظهر الأقوال فيها : ان معنى أن الله إذا أراد الإتيان بها فهو قادر على ن يا تي بها في أسرع من لم البصر . لأنه يقول للشيء كن فيكون . ويدل لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ [القمر : 50] .

وقال بعض العلماء : المعنى هي قريب عنده تعالى كلمح البصر وإن كانت بعيداً عندكم . قل قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6-7] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] . واختار أبو حيان (في البحر المحيط) : أن " أو " في قوله " أو هو أقرب " للإبهام على المخاطب ، وتبع في ذلك الزجاج ، قال : ونظيره ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] ، وقوله : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [يونس : 24] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أخرج بين آدم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، وجعل لهم الأسماع والأبصار والأفئدة . لأجل ان يشكروا له نعمه . وقد قدمنا : أن " لعل " للتعليل . ولم يبين هنا هل شكروا أو لم يشكروا . ولكنه بين في مواضع أخر : ان أكثرهم لم يشكروا . كما قال تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : 243] ، وقال : ﴿ قُلْ هُوَ الذي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [

الملك : 23] ، إلى غير ذلك من الآيات .

تنبيه

(141/440)

لم يأت السمع في القرآن مجموعاً ، وإنما يأتي فيه بصيغة الإفراد دائماً ، مع أنه يجمع ما يذكر معه كالأفئدة والأبصار .

وأظهر الأقوال في نكتة إفراده دائماً : أن أصله مصدر سمع سمعاً ، والمصدر إذا جعل اسماً ذكر وأفرد . كما قال في الخلاصة :

ونعتوا بمصدر كثيرا . . . فالتزموا الإفراد والتذكيرا

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمه : أن تسخيره الطير في و السماء ما يمسكها إلا هو – من آياته الدالة على قدرته ، واستحقاقه لأن يعبد وحده . وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرحمن إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : 19] .

تنبيه

لم يذر علماء العربية الفعل (بفتح فسكون) من صيغ جموع التكسير . قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية : أن الفعل (بفتح السكون) جمع تكسير لفاعل وصفاً لكثرة وروده في اللغة جمعاً له . كقوله هنا : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير ﴾ فالطير جمع طائر ، وكالصحب فإنه جمع صاحب . قال امرؤ القيس :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم . . . يقولون لا تهلك أسى وتجمل

فقوله " صحبي " أي أصحابي . وكالركب فإنه جمع راكب . قال تعالى : ﴿ والركب أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال : 42] وقال ذو الرمة :

أستحث الركب عن أشياعهم خبراً . . . أو راجع القلب من أطرابه طرب

فالركب جمع راكب . وقد رد عليه ضمير الجماعة في قوله " عن أشياعهم " . وكالشرب فإنه جمع شارب . ومن قوله نابغة ذبيان :

كأنه خارجاً من جنب صفحته . . . سفود شرب نسوه عند مفتأد

فإنه رد على الشرب ضمير الجماعة في قوله " نسوه . . " إلخ وكالسفر فإنه جمع سافر . ومنه حديث : " أتموا فأنا قوم سفر " وقول الشنفرى :

كأن وغاها حجرتيه وجاله . . . اضاميم من سفر القبائل نزل

وكالرجل جمع راجل . ومنه قراءة الجمهور ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء : 64] بسكون الجيم . وأما على قراءة حفص عن عاصم بكسر الجيم فالظاهر أن كسرة الجيم إتباع لكسرة اللام . فمعناه معنى قراءة الجمهور . ونحو هذا كثير جداً في كلام العرب ، فلا نطيل به الكلام . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(143/440)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

كان ممّا حكي من مقالات كفرهم أنهم أقسموا بالله لا يبعث الله من يموت ، لأنهم توهّموا أن إفناء هذا العالم العظيم وإحياء العظام وهي رميم أمر مستحيل ، وأبطل الله ذلك على الفور بأن الله قادر على كل ما يريده .

ثم انتقل الكلام عقب ذلك إلى بسط الدلائل على الوحدانية والقدرة وتسلسل البيان ، وتفنّنت الأغراض بالمناسبات ، فكان من ذلك تهديدهم بأن الله لو يؤاخذ الناس بظلمهم

ما ترك على الأرض من دابّة ، ولكنه يمهلهم ويؤخّرهم إلى أجل عيّنه في علمه لحكمته وحذّرهم من مفاجأته ، فثنى عِنان الكلام إلى الاعتراض بالتذكير بأن الله لا يخرج عن قدرته أعظم فعل مما غاب عن إدراكهم وأن أمر الساعة التي أنكروا إمكانها وغرّهم تأخير حلولها هي مما لا يخرج عن تصرّف الله ومشيئته متى شاءه .

فذلك قوله تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ بحيث لم يغادر شيئاً مما حكي عنهم من كفرهم وجدالهم إلا وقد بيّنه لهم استقصاءً للإعذار لهم .

ومن مقتِضيات تأخير هذا أنه يشتمل بصريحه على تعليم ، وبإيمائه إلى تهديد وتحذير .

فاللام في قوله : ﴿ ولّله غيب السماوات والأرض ﴾ لام الملك .

والغيب : مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أي الأشياء الغائبة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [سورة البقرة : 3] .

وهو الغائب عن أعين الناس من الأشياء الخفيّة والعوالم التي لا تصل إلى مشاهدتها حواسّ المخلوقات الأرضية .

والإخبار بأنها ملك لله يقتضي بطريق الكناية أيضاً أنه عالم بها .

وتقديم المجرور أفاد الحصر ، أي له لا لغيره .

ولام الملك أفادت الحصر ، فيكون التقديم مفيداً تأكيد الحصر أو هو للاهتمام .

وأمر ﴿ الساعة ﴾ : شأنها العظيم .

فالأمر : الشأن المهمّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [سورة النحل : 1] ، وقول أبي بكر رضي الله عنه : ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ، أي شأن وخطب .

(144/440)

و ﴿ الساعة ﴾ : علم بالغلبة على وقت فناء هذا العالم ، وهي من جملة غيب الأرض .

ولمح البصر : توجّهه إلى المرئيّ لأن اللّمح هو النظر .

ووجه الشّبه هو كونه مقدوراً بدون كلفة ، لأن لَمح البصر هو أمكن وأسرع حركات الجوارح فهو أيسر وأسرع من نقل الأرجل في المشي ومن الإشارة باليد .

وهذا التشبيه أفصح من الذي في قول زهير:

فهُنّ ووادي الرّسّ كاليَد للفم . . .

ووجه الشّبه يجوز أن يكون تحقّق الوقوع بدون مشقّة ولا إنظار عند إرادة الله تعالى وقوعه ، وبذلك يكون الكلام إثباتاً لإمكان الوقوع وتحذيراً من الاغترار بتأخيره .

ويجوز أن يكون وجهُ الشّبه السرعةَ ، أي سرعة الحصول عند إرادة الله ، أي ذلك يحصل فَجْأة بدون أمارات كقوله تعالى : ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ [سورة الأعراف : 187] .

والمقصود : إنذارهم وتحذيرهم من أن تبغتهم الساعة ليقلعوا عمّا هم فيه من وقتِ

الإنذار .

ولا يتوهّم أن يكون البصر تشبيهاً في سرعة الحصول إذ احتمال معطّل لأن الواقع حارس منه .

وأو » في « أو هو أقرب » للإضراب الانتقالي ، إضراباً عن التشبيه الأول بأن المشبّه أقوى في وجه الشبّه من المشبّه به ، فالمتكلّم يخيّل للسامع أنه يريد تقريب المعنى إليه بطريق التّشبيه ، ثم يعرض عن التّشبيه بأن المشبّه أقوى في وجه الشّبه وأنه لا يجد له شبيهاً فيصرّح بذلك فيحصل التقريب ابتداء ثم الإعراب عن الحقيقة ثانياً .

ثم المراد بالقرب في قوله تعالى : « أقرب » على الوجه الأول في تفسير لمح البصر هو القرب المكاني كناية عن كونه في المقدوريّة بمنزلة الشيء القريب التّناول كقوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » [سورة ق : 16] .

وعلى الوجه الثاني في تفسيره يكون القرب قرب الزمان ، أي أقرب من لمح البصر حصّة ، أي أسرع حُصولاً .

والتذييل بقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » صالح لكلا التفسيرين .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

عود إلى إكثار الدلائل على انفراد الله بالتصرّف وإلى تعداد النّعم على البشر عطفاً على جملة ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم ﴾ [النحل : 72] بعد ما فصل بين تعداد النّعم بما اقتضاه الحال من التذكير والإنذار .

وقد اعتبر في هذه النّعم ما فيها من لطف الله تعالى بالناس ليكون من ذلك التخلّص إلى الدعوة إلى الإسلام وبيان أصول دعوة الإسلام في قوله تعالى : ﴿ كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلّكم تسلمون ﴾ [سورة النحل : 81] إلى آخره .

والمعنى : أنه كما أخرجكم من عدم وجعل فيكم الإدراك وما يتوقّف عليه الإدراك من الحياة فكذلك ينشئكم يوم البعث بعد العدم .

وإذ كان هذا الصّنع دليلاً على إمكان البعث فهو أيضاً باعث على شكر الله بتوحيده ونبذ الإشراك فإن الإنعام يبعث العاقل على الشكر .

وافتتاح الكلام باسم الجلالة وجعل الخبر عنه فعلاً تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ [سورة النحل : 65] والآيات بعدهُ .

والإخراج الإبراز من مكان إلى آخر .

والأمّهات : جمع أمّ .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ حرّمت عليكم أمّهاتكم ﴾ في سورة النساء (23) .

والبَطن : ما بين ضلوع الصدر إلى العانة ، وفيه الأمعاء والمعدة والكبد والرحم .

وجملة لا تعلمون شيئاً ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ أخرجكم ﴾ .

وذلك أن الطفل حين يولد لم يكن له علم بشيء ثم تأخذ حواسّه تنقل الأشياء تدريجاً

فجعل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكّر .

فقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ تفسيره أنه أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل ، أي كوّنها في الناس حتى بلغت مبلغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة ، كما دلّت عليه مقابلته بقوله تعالى : ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ ، أي فعلمتم أشياء .

ووجه إفراد السّمع وجمع الأبصار تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أمّن يملك السمع والأبصار ﴾ في سورة يونس (31) ، وقوله تعالى ؛ ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ في سورة الأنعام (46) .

و﴿ الأفئدة ﴾ : جمع الفؤاد ، وأصله القلب .

ويطلق كثيراً على العقل وهو المراد هنا .

فالسمع والبصر أعظم آلات الإدراك إذ بهما إدراك أهم الجزئيّات ، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضرورية .

فالمراد بالسمع : الإحساس الذي به إدراك الأصوات الذي آلته الصمّاخ ، وبالإبصار : الإحساسُ المدرك للذّوات الذي آلته الحدقة .

واقتصر عليهما من بين الحواس لأنهما أهمّ ، ولأن بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحقّ .

ثم ذكر بعدهما الأفئدة ، أي العقل مقرّ الإدراك كلّه ، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتِها ، وهي العلم بالتصوّرات المفردة .

وللعقل إدراك آخر وهو إدراك اقتران أحد المعلومين بالآخر ، وهو التصديقات المنقسمة إلى البديهيّات : ككون نفي الشيء وإثباته من سائر الوجوه لا يجتمعان ، وككون الكلّ أعظم من الجزء .

وإلى النظريات وتُسمّى الكسبيّات ، وهي العلم بانتساب أحد المعلومين إلى الآخر بعد حركة العقل في الجمع بينهما أو التّفريق ، مثل أن يحضر في العقل : أن الجسم ما هو ، وأن المحدَث بفتح الدال ما هو .

فإن مجرد هذين التصوّرين في الذهن لا يكفي في جزم العقل بأن الجسم محدث بل لا بد فيه من علوم أخرى سابقة وهي ما يدلّ على المقارنة بين ماهية الجسمية وصفةِ الحدوث .

فالعلوم الكسبية لا يمكن اكتسابها إلا بواسطة العلوم البديهية .

وحصول هذه العلوم البديهية إنما يحصل عند حدوث تصوّر موضوعاتها وتصوّر محمولاتها .

وحدوث هذه التصوّرات إنما هو بسبب إعانة الحواس على جزئياتها ، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم ، وكان السمع والبصر أول الحواس تحصيلاً للتصوّرات وأهمّها .

وهذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف ، لأن بها إدراك الإنسان لما ينفعه وعمَل عقله فيما يدلّه على الحقائق ، ليسلم من الخطأ المفضي إلى الهلاك والأرزاء العظيمة ، فهي نعمة كبرى .

ولذلك قال تعالى عقب ذكرها ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ، أي هي سبب لرجاء شكرهم واهبَها سبحانه .

والكلام على معنى ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ مضى غير مرة في نظيره ومماثله .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾

موقع هذه الجملة موقع التّعليل والتّدليل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وعلى لطفه

بالمخلوقات ، فإنه لما ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار نبّه الناس إلى لطف يشاهدونه أجلَى مشاهدةً لأضعف الحيوان ، بأن تسخير الجوّ للطير وخلْقَها صالحة لأن ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنيّاتها ، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها ، فجعل الله لها سرعة الانتقال مع الابتعاد عن تناول ما يعدو عليها من البشر والدوابّ .

فلأجل هذا الموقع لم تعطف الجملة على التي قبلها لأنها ليس في مضمونها نعمةٌ على البشر ، ولكنها آية على قدرة الله تعالى وعلمه ، بخلاف نظيرتها في سورة المُلك (19) ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ﴾ فإنها عُطفت على آيات دالّة على قدرة الله تعالى من قوله : ﴿ ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [الملك : 5] ، ثم قال : ﴿ وللذين كفروا بربّهم عذاب جهنّم وبئس المصير ﴾ [الملك : 6] ثم قال : ﴿ أأمنتم من السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ [سورة الملك : 16] ثم قال : أولم يروا إلى الطير الآية .

ولذلك المعنى عقبت هذه وحدها بجملة إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

والتّسخير : التّذليل للعمل .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ﴾ في سورة الأعراف (54) .

والجوّ : الفضاء الذي بين الأرض والسماء ، وإضافته إلى السماء لأنه يبدو متّصلاً بالقبّة الزرقاء في ما يخال النّاظر .

والإمساك : الشدّ عن التّفلّت .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف ﴾ في سورة البقرة (229) .

والمراد هنا : ما يمسكهنّ عن السقوط إلى الأرض من دون إرادتها ، وإمساك الله إيّاها خلقه الأجنحة لها والأذنَاب ، وجعله الأجنحة والأذناب قابلة للبسط ، وخلق عظامها أخفّ من عظام الدوابّ بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفّتْ خفّة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأن يخرق ما تحتها من الهواء إلا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوّست أعصاب أصلابها عند إرادتها النّزول إلى الأرض أو الانخفاضَ في الهواء .

فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متى شاءت أو عييت .

فلولا أن الله خلقها على تلك الحالة لما استمسكت ، فسُمّي ذلك إمساكاً على وجه الاستعارة ، وهو لطف بها .

والرؤية : بصرية .

وفعلها يتعدّى بنفسه ، فتعديته بحرف إلى لتضمين الفعل معنى (ينظروا) .

ومسخرات ﴿ حال.

وجملة ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ حال ثانية.

وقرأ الجمهور ﴿ ألم يروا ﴾ بياء الغائب على طريقة الالتفات عن خطاب المشركين في قوله تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ [سورة النحل : 78].

وقرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب وخلف ﴿ ألم تَرَوْا ﴾ بتاء الخطاب تبعاً للخطاب المذكور.

والاستفهام إنكاري.

معناه: إنكار انتفاء رؤيتهم الطير مسخّرات في الجوّ بتنزيل رؤيتهم إيّاها منزلة عدم الرؤية، لانعدام فائدة الرؤية من إدراك ما يدلّ عليه المرئيّ من انفراد الله تعالى بالإلهية.

وجملة ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأن الإنكار على المشركين عدم الانتفاع بما يرونه من الدلائل يثير سؤالاً في نفس السامع: أكان عدم الانتفاع بدلالة رؤية الطير عاماً في البشر، فيجاب بأن المؤمنين يستدلّون من ذلك بدلالات كثيرة.

والتأكيد بـ ﴿ إنّ ﴾ مناسب لاستفهام الإنكار على الذين لم يروا تلك الآيات، فأكّدت الجملة الدّالة على انتفاع المؤمنين بتلك الدّلالة، لأن الكلام موجّه للذين لم يهتدوا بتلك الدّلالة

، فهم بمنزلة من ينكر أن في ذلك دلالة للمؤمنين لأن المشركين ينظرون بمرآة أنفسهم .

وبين الإنكار عليهم عدم رؤيتهم تسخير الطير وبين إثبات رؤية المؤمنين لذلك محسّن الطباق .

وبين نفي عدم رؤية المشركين وتأكيد إثبات رؤية المؤمنين لذلك محسّن الطباق أيضاً .

وبين ضمير ﴿ يروا ﴾ وقوله : "قوم يؤمنون" التضادّ أيضاً ، فحصل الطباق ثلاث مرّات .

وهذا أبلغ طباق جاء محوياً للبيان .

وجمع الآيات لأن في الطير دلائل مختلفة : من خلقة الهواء ، وخلقة أجساد الطير مناسبة للطيران في الهواء ، وخلق الإلهام للطير بأن يسبح في الجو ، وبأن لا يسقط إلى الأرض إلا بإرادته .

وخصّت الآيات بالمؤمنين لأنهم بخُلق الإيمان قد ألفوا إعمال تفكيرهم في الاستدلال على حقائق الأشياء ، بخلاف أهل الكفر فإن خلق الكفر مطبوع على النفرة من الاقتداء بالنّاصحين وعلى مكابرة الحقّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(150/440)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا منه عالم المُلْك ، ومنه عالم الملكوت . . عالم المُلْك هو العالم المحسّ لنا ، وعالم الملكوت المخفي عنّا فلا نراه .

ولذلك ، فربنا سبحانه وتعالى لما تكرّم على سيدنا إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [الأنعام : 75] .

إذن : لله تعالى في كونه ظاهر وغَيْب . . الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبيّة لا يراها أحد ، ولا يطّلع عليها . . حتى في ذاتك أنت أشياء غَيْب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غَيْب لا تعرفها أنت . . وهذا الغيب نُسميّه : غَيْب الإنسان .

إذن : فأنا غائب عنّي أشياء ، وغيري غائب عنه أشياء . . هذا الغيب الذي لا نعرفه يَعُدّه بعض الناس نَقْصاً فينا ، وهو في الحقيقة نوع من الكمال في النفس البشرية ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلمَ غيبَ الناس فاسمح لهم أنْ يعلموا غَيْبك .

ولو خُيّرت في هذه القضية لاخترتَ أنْ يحتفظ كلٌّ منكم بغَيْبه لا يطلع عليه أحد . . لا أعرف غَيْب الناس ، ولا يعرفون غَيْبي ؛ ولذلك يقولون : " المغطى مليح " .

فستْر الغيب كمال في الكون ؛ لأنه يُربِّي ويُثْري الفائدة فيه . . كيف ؟

هَبْ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسنات ، ثم اطلعتَ على سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسوف ترى هذه السيئة كفيلة بأن تزهِّدك في كل حسناته وتُكرِّهك فيه ، وتدعوك إلى النُّفْرة منه ، فلا تستفيد منه بشيء ، في حين لو سُترتْ عنك هذه السيئةُ لاستطعت الانتفاع بحسناته . . وهكذا يُنمي الغيبُ الفائدةَ في الكون .

(151/440)

وفي بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه : " يا ابْنَ آدم سَترْتُ عنك وسترْتُ منك ، فإنْ شئتَ فضحْنَا لك وفضحناك ، وإنْ شئت أسبلنَا عليك سِبالَ السّتر إلى يوم القيامة "

فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار ؟

أعتقد أن الجميع سيختار السِّتْر . . فما دُمْتَ تحب الستر وتكره أنْ يطلعَ الناس على غَيْبك فإياك أنْ تتطاول لتعرف غَيْب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسَّة من السمع والبصر والشَّمِّ والذَّوْق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غَيْب وضع الله في كونه مقدمات تُوصِّل إليه وأسباباً لئلا يكونَ غَيْباً . . كالكهرباء والجاذبية وغيرها . . كانت غَيْباً قبل أنْ تُكتشفَ . . وهكذا كل الاكتشافات

والأسرار التي يكشفها لنا العلم ، كانت غَيْباً عنّا في وقت ، ثم صارت مُشاهدة في وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كُلَّ أسرار كَوْنه مرة واحدة ، بل يُنزله بقَدر ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

فالذي كان غَيْباً في الماضي أصبح ظاهراً مُشَاهداً اليوم ؛ لأن الله سبحانه كشف لنا أسبابه فتوصَّلْنا إليه . . فهذا غَيْب جعل الله له مُقدّمات يصل إليها مَنْ يبحث في الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحان وقت ميلاده وَفَّق الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ في المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثْتَ في كل المخترعات والمكتشفات لوجدت 90% منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما نسميه " غيب الأكوان " .

(152/440)

ومثال هذا الغيب : إذا كلفتَ ولدك بحلِّ تمرين هندسيٍّ . . ومعنى حَلِّ التمرين أنْ يصلَ الولدُ إلى نقطة تريد أنت أنْ يصلَ إليها . . ماذا يفعل الولد ؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطيات ،

ثم يستخدم ما لديْه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يَأْتِ بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة في الكون هي المعطيات مَنْ بحث فيها توصَّل إلى غيبيّات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه : ﴿ اللهُ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ الحي القيوم لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلي العظيم ﴾ [البقرة : 255] .

فإذا أذنَ اللهُ لهم تكشفتْ لهم الأسرار : إما بالبحث ، وإما بالخطأ ، أو حتى بالمصادفة .

. فطالما حان وقت ميلاد هذا الغيْب واكتشافه ؛ فإن صادف بَحْثاً من البشر التقيا ، وإلاَّ أظهره اللهُ لنَا دون بَحْث ودون سَعْي مِنَّا .

وهناك نوع آخر من الغيب ، وهو الغَيْب المطلق ، وهو غَيْب عن كل البشر استأثر الله به ، وليس له مُقدّمات وأسباب تُوصِّل إليه ، كما في النوع الأول . . هذا الغَيْب ، قال تعالى في شأنه : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . ﴾ [الجن : 26-27] .

فإذا ما أعلمنا الرسول غَيْباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب . . لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب . . إذن : هذا غَيْب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغَيْب المطلق غَيْبٌ استأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحداً حتى الرسل . . " ولما سُئِل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، قال : " ما المسئول عنها بأعلم من السائل " .

وفي الإسراء والمعراج يحدثنا صلى الله عليه وسلم أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، ووعاء خَيَّره فيه فلا يعطيه إلا لأهل الاستعداد السلوكي الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك يقول راوي الحديث : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثْتُه أي رويْته وقلْته للناس ، وأما الآخر فلو بُحْت به لَقُطِع حلقومي هذا ، فهذا من الأسرار التي يختار الرسول صلى الله عليه وسلم لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض . . ﴾ [النحل : 77] .

هذا يُسمُّونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أي قصر غيب السموات والأرض عليه

سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض . . ﴾ [النحل : 77] .

أي : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض ، أي : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ . . . ﴾ [النحل : 77] .

جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد ؛ لأنه الغيب الذي استأثر الله به . . ولا يُجلّيها لوقتها إلا هو . . فناسب الحديث عن الغيب أنْ يأتيَ بهذا الغَيْب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله .

وما هو لَمْح البصر ؟

عندنا أفعال متعددة تدل كلّها على الرؤية العامة ، وإنْ كان لكل منها معنًى خاصٌّ بها نقول : رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح . . فرأى مثلاً أي بجُمع عينه ، ورمق بأعلى ، ولحظَ بجانب

، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة ، هذه الحركة ما نسميه باللمح .

إذن : لمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشيء المرئي . فإنْ أردتَ أن ترى ما فوقك تحركتْ الحدقة إلى أعلى ، وإنْ أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحركتْ الحدقة إلى أسفل وهكذا .

هذه الحركة هي لَمْح البصر ، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع .

إذن : شبَّه الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر ، ولكن اللمح حدث ، والأحداث تحتاج إلى أزمان ، وقد تطول الأزمان في ذاتها ولكنها تقصر عند الرائي .

وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصَّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطيء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة ، فنراهم مثلاً يُعيدون لك مَشْهداً كروياً لترى كل تفاصيله ، فتجد المشهد الذي مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامك بطيئاً في زمن أطول ، في حين أن الزمن في السرعة يتجمع تجمّعاً لا تدركه أنت بأيّ معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن : فهي جزئيات حركة في جزئيات زمان ، فلَمْح البصر الذي هو تحرُّك حَدقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمْر الساعة ، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان ، وأقرب تشبيه لِفَهْم أمْر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قيل لك : ما أمر فلان ؟ وما شأنه ؟ . تأخذ في سَرْد الأحداث . . حدث كيت وكيت . . فإذا قلنا : ما أمْر الساعة ؟ ما شأنها ساعةَ تقوم ، حيث يموت الأحياء أولاً ،

ثم يحيا الجميع من لَدُنْ آدم عليه السلام ثم حَشْر وحساب وثواب وعقاب .

أحداث كثيرة وعظيمة لخلْق متعددين من الإنس والجن . . يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا ، ولكن إياك أنْ تتصوّر أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

(155/440)

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج ، وإنما هي كُنْ فيكون ، حتى كُنْ مكوّنة من حرفين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أَمْر الساعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا في فَهْمنا .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن أهل القبور ، قال : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] .

في حين أننا نرى أنهم غابوا كثيراً في قبورهم . . إذن : كيف يُقَاسُ الزمن ؟ . . يُقاس بتتبُّعك للأحداث ، فحينما لا يُوجد حَدَث لا يُوجَد زمن . . وهذا ما نراه في حال النائم الذي لا يستطيع تحديد الزمن الذي نامه إلا على غالب ما يكون في البشر .

ولذلك ، في قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مائة عام وتسعة أعوام قالوا : ﴿ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . ﴾ [المؤمنون : 113] .

فهذا هو الغالب في عُرْف الناس؛ ذلك لأنهم استيقظوا فلم يجدوا شيئاً حولهم يدل على زمن طويل.. الحال كما هو لم يتغيَّر فيهم شيء.. فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيوخاً بعد أن كانوا فتية لَعلموا بمرور الزمن.. إذن: الزمن بالنسبة لعدم الحدث زمن مَلْغيّ.

أو نقول: إن أَمْر الساعة في أن الحق سبحانه يجعلها جامعة للناس إلا كلمْح البصر، فكلّ ما يحدث فيها لا تقيسه بزمن، لأن الذي يُقاسُ بالزمن إنما هي الأحداث الناشئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن.

فلو أردْتَ نَقْل هذا الشيء من هنا إلى هنا فسوف يحتاج منك وقتاً ومجهوداً، أما لو كلفتَ طفلاً بنقل هذا الشيء فسوف يأخذ وقتاً أكثر ويحتاج مجهوداً أكثر.. إذن: فالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً.

(156/440)

ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدّث الناس بالإسراء والمعراج قالوا: أتدّعي أنك أتيتها في ليلة، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً.. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومُزَاولة، تأخذ وَقْتاً يتناسب وقدراتهم في الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس

. . ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يقل: أسريْتُ، بل قال: أُسْرِي بي، الذي أَسْرى به هو الله سبحانه، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى.

وكذلك إذا قِيس زَمن أَمْر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر، أو هو أقرب من ذلك.. إنما هو تشبيه لِنُقرِّب لكم الفهم.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: 77].

أي: يكون أمر الساعة كذلك؛ لأن الله قادر على كل شيء، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات، فقدرة الله هي القدرة العُلْيا التي لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

(مِنْ بُطُونِ أُمهَاتِكُم) المراد الأرحام؛ لأنها في البطون، والمظروف في مظروف يعتبر مظروفاً، كما لو قلت: في جيبي كذا من النقود أو في حافظتي كذا من النقود.. العبارتان معناهما واحد.

وأمهاتكم: جمع أم، والقياس يقتضي أن نقول في جمع أُم: أُمّات ولكنه قال: ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النحل: 78].

بزيادة الهاء.

وساعةَ يكون الجنين في بطن أمه تكون حياته حياة تبعية، فكل أجهزته تابعة لأمه.. فإذا

شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية مستقلة . . وعند الولادة نرى أطباء التوليد يقولون : الجنين في الوضع الطبيعي أو في غير الوضع الطبيعي . . فما معنى الوضع الطبيعي للجنين عند الولادة ؟

(157/440)

الوضع الطبيعي أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل ، هذا هو الوضع الطبيعي ؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يُخرجه خَلْقاً آخر : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [المؤمنون : 14]

.

كأنه كان خلقاً لكنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقاً آخر مُسْتقلاً بذاته . . فتكون الرأس إلى أسفل ، وهي أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس .

ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية ، فإذا ما تعسَّر خروج باقي جسمه فتكون له فرصة التنفس وهذا من لُطْف الله سبحانه ؛ لأن الجنين في هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقي جسمه .

أما إذا حدث العكس فكان الرأس إلى أعلى ، ونزل الجنين بقدميْه ، فبمجرد نزول الرِّجْليْن ينفصل عن أمه ، ويحتاج إلى حياة ذاتية ويحتاج إلى تنفس ، فإذا ما تعسَّرت الولادة حدث

اختناق ، ربما يؤدي إلى موت الجنين .

العلم أَخْذ قضية من قضايا الكون مجزوم بها وعليها دليل ؛ وقوله تعالى :

﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . ﴾ [النحل : 78] .

ذلك لأن وسائل العلم والإدراك لم تعمل بَعْد ، فإذا أراد الله له أنْ يعلم يخلق له وسائل العلم ، وهي الحواس الخمس : السمع والبصر والشّم واللمس والتذوّق ، هذه هي الحواس الظاهرة التي بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف ، وبها يُدرِك ما حوله .

وإنْ كان العلم الحديث قد أظهر لنا بعض الحواسّ الأخرى ، ففي علم وظائف الأعضاء يقولون : إنك إذا حملتَ قطعتين من الحديد مثلاً فبأيّ حاسة تُميّز بينهما من حيث الثقل ؟ هذه لا تُعرف باللمس أو السمع أو البصر أو التذوّق أو الشّم . . إذن : هناك حاسة جديدة تُميّز الثقَل هي حاسة العضَل .

وكذلك تُوجَد حاسة البَيْن ، التي تتمكن بها من معرفة سُمْك القماش مثلا وأنت في محل الأقمشة ، حيث تفرك القماش بين أصابعك ، وتستطيع أن تُميّز بين الرقيق والسَّميك .

فالطفل المولود إذن لا يعلم شيئاً ، فهذا أمر طبيعي لأن وسائل العلم والإدراك لديه لم تُؤدِّ مهمتها بَعْد .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . . ﴾ [النحل : 78] .

وقد بيّن لنا علماء وظائف الأعضاء أن هذا الترتيب القرآني للأعضاء هو الترتيب الطبيعي ، فالطفل بعد الولادة يسمع أولاً ، ثم بعد حوالي عشرة أيام يُبصر . . وتستطيع تجربة ذلك ، فترى الطفل يفزع من الصوت العالي بعد أيام من ولادته ، ولكن إذا وضعت أصبعك أمام عينيه لا يطرف ؛ لأنه لم يَرَ بعد .

ومن السمع والبصر وهما السادة على جميع الحواس تتكون المعلومات التي في الأفئدة ، هذا الترتيب القرآني الوجودي ، وهو الترتيب الطبيعي الذي وافق العلمَ الحديث .

ونلاحظ في الآية إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . . ﴾ [النحل : 78] .

فلماذا لم يأْتِ السمع جَمْعاً ؟

المتحدث هنا هو الحق سبحانه ؛ لذلك تأتي الألفاظ دقيقة معجزة . . ولننظر لماذا السمع هنا مفرد ؟

فَرْقٌ بين السمع وغيره من الحواس ، فحين يوجد صوت في هذا المكان يسمعه الجميع ، فليس في الأذن ما يمنع السمع ، وليس عليها قفل نقفله إذا أردنا ألاَّ نسمع ، فكأن السمع واحد عند الجميع ، أما المرئي فمختلف ؛ لأننا لا ننظر جميعاً إلى شيء واحد . . بل المرائي عندنا مختلفة فهذا ينظر للسقف ، وهذا ينظر للأعمدة . . إلى آخره .

إذن : المرائي لدينا مختلفة . . كما أن للعين قفلاً طبيعياً يمكن إسْداله على العين فلا ترى ، فكأن الأبصار لدينا مختلفة متعددة .

وكذلك الحال في الأفئدة ، جاءت جَمْعاً ؛ لأنها متعددة مختلفة ، فواحد يَعِي ويُدرك ، وآخر لا يعي ولا يدرك ، وقد يعي واحد أكثر من الآخر .

إذن : إفراد السمع هنا آيةٌ من آيات الدقة في التعبير القرآني المعجز ؛ لأن المتكلمَ هو ربّ العزة سبحانه .

(159/440)

ونلاحظ أيضاً تقديم السمع على باقي الحواس ؛ لأنه أول الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أنْ يُولدَ إلى أنْ يفارق الحياة ، ولا يغيب عنه حتى لو كان نائماً ؛ لأن بالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد قُلْنا في قصة أهل الكهف أنهم ما كان لهم أن يناموا في سُبات عميق ثلاثمائة وتسع سنين إلا إذا حجب الله عنهم هذه الحاسة، فلا تزعجهم الأصوات. فقال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: 11].

أي: قُلْنا للأذن تعطّلي هذه المدة حتى لا تزعجهم أصوات الصحراء، وتقلق مضاجعهم، والله تعالى يريد لهم السُّبات والنوم العميق.

وفي قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع.. ﴾ [النحل: 78].

هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج (الميلاد) أم هي موجودة قبله؟.. يجب أنْ نُفرّق بين السمع وآلته، فقبل الإخراج تكون للجنين آلات البصر والسمع والتذوّق وغيرها.. لكنها آلات لا تعمل، فالجنين في بطن أمه تابع لها، وليست له حياة ذاتية، فإذا ما نزل إلى الدنيا واستقلّ بحياته يجعل الله له هذه الآلات تعمل عملها.

إذن: فمعنى:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع... ﴾ [النحل: 78].

أي: جعل لكم الاستماع، لا آلة السمع.

وقوله:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78].

تُوحي الآية بأن السمع والأبصار والأفئدة ستعطي لنا كثيراً من المعلومات الجديدة والإدراكات التي تنفعنا في حياتنا وفي مُقوّمات وجودنا ، وننفع بها غيرنا ، وهذه النعم تستحقّ منا الشكر .

فكلما سمعتَ صَوْتاً أو حكمة تحمد الله أن جعل لك أُذناً تسمع ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعلَ لك عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشمُّ . . وهكذا تستوجب النعم شُكْر المنعم سبحانه .

(160/440)

ولكي تقف على نِعَم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرِموا منها ، وتأمّل حالك وحالهم ، وما أنتَ فيه من نعم الحياة ولذّاتها ، وما هُمْ فيه من حِرْمَان .

ثم ينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير . . . ﴾ .

فالحق سبحانه ينقلنا هنا إلى صورة أخرى من صُوَر الكون . . بعد أن حدّثنا عن الإنسان وما حوله . . فالإنسان قبل أنْ يخلقه الله في هذا الوجود أعدّ له مُقوّمات حياته ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء والمياه والهواء ، كل هذه أشياء وُجِدتْ قبل الإنسان ، لِتُهيئ له الوجود في هذا الكون .

والله سبحانه يريد منّا بعد أنْ كفل لنا استبقاء الحياة بالرزق، واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر، يريد منّا إثراء عقائدنا بالنظر في ملكوت الله وما فيه من العجائب؛ لنستدل على أنه سبحانه هندس كَوْنه هندسة بديعة متداخلة، وأحكمه إحكاماً لا تصادم فيه.

﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: 40].

فالنظر إلى كَوْن الله الفسيح، كم فيه من كواكب ونجوم وأجرام. كم هو مليء بالحركة والسكون والاستدارة. ومع ذلك لم يحدث فيه تصادم، ولم تحدث منه مضرة أبداً في يوم من الأيام.. الكون كله يسير بنظام دقيق وتناسق عجيب؛ ولكي تتجلى لك هذه الحقيقة انظر إلى صَنْعة الإنسان، كم فيها من تصادم وحوادث يروح ضحيتها الآلاف.

هذا مَثَلٌ مُشَاهَد للجميع، الطير في السماء.. ما الذي يُمسكها أنْ تقع على الأرض؟ وكأن الحق سبحانه يجب أنْ يُلفتنا إلى قضية أكبر: ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ.. ﴾ [فاطر: 41].

فعلينا أن نُصدّق هذه القضية . . فنحن لا ندرك بأعيننا جرْم الأرض ، ولا جرْم الشمس والنجوم والكواكب . . نحن لا نقرر على معرفة كل مَا في الكون . . إذن : يجب علينا أن نُصدّق قوْل ربنا ولا نجادل فيه .

وإليكم هذا المثل الذي تشاهدونه كل يوم :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله . . . ﴾ [النحل : 79] .

إياك أنْ تقول إنها رَفْرفة الأجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثبّت أجنحته في الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض ، فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع ؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ . . . ﴾ [الملك : 19] .

أي : أنها في حالة بَسْط الأجنحة ، وفي حالة قبْضِها تظل مُعلّقة لا تسقط .

وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور .

إذن : ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هي آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جَوِّ السماء . . فتراه حُراً طليقاً لا يجذبه شيء إلى الأرض ، ولا يجذبه شيء إلى السماء ، بل هو حُرٌّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع ، وينزل إنْ أراد النزول .

فهذه آية مُحسَّة لنستدلّ بها على قدرة الله غير المحسَّة إلا بإخبار الله عنها ، فإذا ما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ .

. . ﴾ [فاطر : 41] .

آمنا وصدّقنا .

وقوله تعالى :

﴿ فِي جَوِّ السمآء . . . ﴾ [النحل : 79] .

أي : في الهواء المحيط بالأرض ، والمتأمل في الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسي في ثبات الأشياء في الكون ، فالجبال والعمارات وغيرها . . ما الذي يمسكها أنْ تقع ؟

(162/440)

إياك أن تظن أنه الأسمنت والحديد وهندسة البناء . . لا . . بل يمسكها الهواء الذي يحيط بها من كل جانب ، بدليل أنك لو فرّغتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فوراً نحو هذا الجانب ؛ لأن للهواء ضغطاً ، فإذا ما فرّغْتَ جانباً منها قَلَّ فيه الضغط فانهارتْ .

فالهواء إذن هو الضابط لهذه المسألة ، وبالهواء يتوازن الطير في السماء ، ويسير كما يهوى ، ويتحرك كما يحب .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 79] .

أي : أن الطير الذي يطير في السماء فيه آيات أي عجائب ، عجائب صَنْعة وعجائب خَلْق ، يجب أنْ تتفكَّرُوا فيها وتعتبروا بها .

ولكي نقف على هذه الآية في الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران . . إنه العربي عباس بن فرناس ، أول مَنْ حاول الطيران في الأندلس ، فعمل لنفسه جناحين ، وألقى بنفسه من مكان مرتفع . . فماذا حدث لأول طائر بشرى ؟

طار مسافة قصيرة ، ثم هبط على مُؤخرته فكُسرت ؛ لأنه نسي أن المسألة ليست مجرد الطيران ، فهناك الهبوط الذي نسي الاستعداد له ، وفاته أن يعمل له (زِمكّي) ، وهو الذيل الذي يحفظ التوازن عند الهبوط .

وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف ؟ وكم فيها من أجهزة ومُعدِات قياس وانضباط ؟ وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو مُوجِّه يُوجّهها ، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير في السماء له جناحان ومقدمة وذيل ، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطّل محركها . . أو اختلّ توازنها ؟ !

إذن : الطير في السماء آية تستحق النظر والتدبُّر ؛ لنعلمَ منها قدرة الخالق سبحانه .

ويقول تعالى :

﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 79] .

يؤمنون بوجود واجب الوجود ، يؤمنون بحكمته ودقّة صنعه ، وأنها لا مثيلَ لها من صنعة البشر مهما بلغتْ من الدقة والإحكام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(163/440)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل : 78) ، وفي سورة المؤمنون : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) (المؤمنون : 78) ، وفي سورة الملك : (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) (الملك : 23) ، فورد في هاتين الآيتين نفي شكرهم على المعروف من هذه العبارة أو تقليله بمقتضى اللفظ ، وورد في آية سورة النحل ترجي (شكرهم) مع اتحاد المقصود من إبداء عظيم النعمة بالإسماع والإبصار ، فللسائل أن يسأل عن الفرق ؟

والجواب ، والله أعلم : أن آية النحل مبتدأة بقوله تعالى : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) (النحل) : 78) ، فناسب هذا –لكونه وصف حال قبل تعيين

التكليف ورود الترجي لأن يكون منهم الشكر لذكره إياهم في حال لم يتهيؤوا فيها بعد لقبول أمر أو نهي أو إعراض عن ذلك ، ولا يتعلق بهم التكليف ، فناسب هذا ذكر الترجي .

أما الآيتان بعد فالإخبار فيهما عن أحوال من استوفى سن التكليف وعقل الخطاب (وشاهد العضات) وفهمها ، وتكرر عليه التذكار فلم يجد عليه شيئًا ، ألا ترى أن قبل آية المؤمنون (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ) (المؤمنون : 76) ، إلى ما اتصل بهذا .

فقد صدر عن هؤلاء التعامي فخالف الوارد في آية النحل ، فناسب ذلك هنا نفي شكرهم .

وأما آية الملك المخاطب بها من قيل له تعريفاً وتوبيخاً (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ) (الملك : 20) إلى قوله : (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ) (الملك : 23) ، والآي مشيرة إلى موالاة إنعامه سبحانه على عبادة وإدرار أرزاقهم إلى ما يجري مع هذا ، فناسب ذلك الحين لم يجد عليهم مستمر إحسانه ومتوالي إنعامه أن نفى تعالى

شكرهم ، فقد وضح التناسب في هذه الآي ، ووردت كل واحدة منها على ما يجب ، وإن عكس الوارد غير مناسب .

(165/440)

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النحل : 79) ، وفي سورة الملك : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ (الملك : 19) ، فورد في الأولى : ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ وفي الثانية : ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ ومقصود الآيتين في التنبيه على الاعتبار بعظيم قدرته تعالى وعلى حكمته في تسخير الطير في جو السماء وتسخير الهواء وتهيئة (لذلك) بتقدير العزيز الحكيم مقصود واحد ، للسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب ، والله أعلم : أن آية سورة الملك لما انطوت على ذكر حالين للطائر من صفة جناحية وقبضهما ، وهما حالتان يستريح إليهما الطائر ، فتارة يصف جناحية كأنه لا حركة به ، وتارة يقبضهما إلى جنبيه حتى يلزقهما بهما ، ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة كما يفعل السابح ، فناسب هذا الإنعام منه تعالى وورد اسمه الرحمان . أما آية النحل لم يرد فيها ذكر هذه الاستراحة فقيل هنا : ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النحل : 79) ،

وتناسب ذلك وامتنع عكس الوارد بما تبين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 304.306 ﴾

(166/440)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض ﴾ قال : هذه الأوثان التي تعبد من دون الله ، لا تملك لمن يعبدها رزقاً ولا ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا نشوراً ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ فإنه أحد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص : 3] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ يعني اتخاذهم الأصنام . يقول : لا تجعلوا معي إلهاً غيري ، فإنه لا إله غيري .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ يعني الكافر، إنه لا يستطيع أن ينفق نفقة في سبيل الله ﴿ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً ﴾ يعني المؤمن وهو المثل في النفقة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للكافر رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً ولم يعمل فيه بطاعة الله. ﴿ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾ قال: هو المؤمن أعطاه الله مالاً رزقاً حلالاً، فعمل فيه بطاعة الله، وأخذه بشكر ومعرفة حق الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الجنة. قال الله: ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ قال: لا والله لا يستويان.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾ و ﴿ رجلين أحدهما أبكم ﴾ ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ قال: كل هذا مثل إله الحق، وما يدعون من دونه الباطل.

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ قال : يعني بذلك الآلهة التي لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ولا تقدر على شيء . ينفعها ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً قال علانية المؤمن الذي ينفق سراً وجهراً لله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ قال الصنم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس قال : إن الله ضرب الأمثال على حسب الأعمال ، فليس عمل صالح ، إلا له المثل الصالح ، وليس عمل سوء ، إلا له مثل سوء ، وقال : إن مثل العالم المتفهم ، كطريق بين شجر وجبل ، فهو مستقيم لا يعوّجه شيء ، فذلك مثل العبد المؤمن الذي قرأ القرآن وعمل به .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر . عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ في رجل من قريش وعبده ، في هشام بن عمر ، وهو الذي ينفق ماله سراً وجهراً ، وفي عبده أبي الجوزاء الذي كان ينهاه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : ليس للعبد طلاق إلا بإذن سيده . وقرأ ﴿ عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ .

وأخرج البيهقي في سننه . عن ابن عباس أنه سئل عن المملوك يتصدق بشيء ؟ قال : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ لا يتصدق بشيء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ إلى آخر الآية . يعني بالأبكم الذي ﴿ هو كل على مولاه ﴾ الكافر . وبقوله : ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ المؤمن . وهذا المثل في الأعمال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ في رجلين أحدهما عثمان بن عفان ، ومولى له كافر ، وهو أسيد بن أبي العيص ، كان يكره الإسلام ، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة ، وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ قال : عثمان بن عفان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في الآية قال : هذا مثل ضربه الله للآلهة أيضا . أما الأبكم فالصنم ، فإنه أبكم لا ينطق ﴿ وهو كل على مولاه ﴾ ينفقون عليه وعلى من يأتيه ،

ولا ينفق عليهم ولا يرزقهم ﴿ هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ﴾ وهو الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ أحدهما أبكم ﴾ قال : هو الوثن ﴿ هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ﴾ قال : الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ كل ﴾ قال : الكل العيال . كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير ذلول ، وجعلوا معه نفراً يمسكونه خشية أن يسقط ، فهو عناء وعذاب وعيال عليهم ﴿ هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ يعني نفسه .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود أنه قرأ خبر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾ هو أن يقول : كن أو أقرب ، فالساعة ﴿ كلمح البصر أو أقرب ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ كلمح البصر ﴾ يقول : كلمح ببصر العين من السرعة . أو ﴿ أقرب ﴾ من ذلك إذا أردنا .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ قال : هو أقرب ، وكل شيء في القرآن أو ، فهو هكذا (مائة ألف أو يزيدون) والله أعلم .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ قال : من الرحم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ قال : كرامة أكرمكم الله بها ، فاشكروا نعمه .

وأخرج أحمد وابن ماجه وابن حبان والطبراني وابن مردويه ، عن حبة وسواء ابنَيْ خالد أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم : وهو يعالج بناء ، فقال لهما : هلم ، فعالجا معه ، فعالجا فلما فرغ ، أمر لهما بشيء وقال لهما : " لا تَيْأَسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما . فإنه ليس من مولود يولد من أمة إلا أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله " .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ في جوّ السماء ﴾

في كبد السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ في جو السماء ﴾ قال : جوف السماء ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ قال : يمسكه الله على كل ذلك والله أعلم بالصواب . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(170/440)

بحوث مهمة ذكرها صاحب الأمثل

1 ـ أسرار تحليق الطيور في السماء

إننا لا نشعر بأهمية الكثير من عجائب عالم الوجود لاعتيادنا على كثرة مشاهدتها ولعدم انشغالنا بالتدقيق العلمي عند المشاهدة ، حتى باتت هذه العادة كحجاب يغطي تلك العظمة ، ولو استطاع أي منا رفع ذلك الحجاب عن ذهنه لرأى العجائب الكثيرة من حوله .

وتحليق الطيور في السماء لا تبتعد عن هذه الحقيقة ، فحركة جسم ثقيل بخلاف قانون الجاذبية من دون أية صعوبة ، وارتفاعه بسرعة حتى ليغيب عن أعيننا في لحظات لأمر يدعو إلى التأمل والدراسة .

ولو دققنا النظر في بناء جسم الطائر لوجدنا ذلك الترابط الدقيق بين كل صفاته وحالاته

التي تساعده على الطيران ، فهيكله العام مدبب ليقلل من مقاومة الهواء على بدنه لأقصى حد ممكن ، وريشه خفيف مجوف ، وصدره مسطح يمكنه من ركوب أمواج الهواء ، وطبيعة أجنحته الخاصة تمنحة القوة الرافعة (1) التي تساعده على الإرتفاع ، وكذلك الطبيعة الخاصة لذيل الطائر التي تعينه على تغيير اتجاه طيرانه وسرعة التحول يمينا وشمالا وأعلى وأسفل (كذيل الطائرة) ، وذلك التناسق الموجود بين النظر وبقية الحواس التي تشترك جميعا في عملية الطيران . . . وكل ذلك يعطي للطائر إمكانية الطيران السريع .

ثم إن طريقة تناسل الطير (وضع البيض) ، وعملية تربية الجنين ونموه تجري خارج رحم الأم مما يرفع عنها حالة الحمل والتي تعيق (بلا شك) عملية الطيران . . وثمة أمور كثيرة تعتبر من العوامل المؤثرة فيزيائيا في عملية الطيران .

وكل ما ذكر يكشف عن وجود علم وقدرة فائقين لخالق ومنظم بناء وحركة هذه الكائنات الحية ، وكما يقول القرآن: (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

---

1 . "القوة الرافعة" : اصطلاح فيزيائي حديث يستعمل في حقل الطائرات ، وخلاصته: أن الجسم إذا كان له سطحين متفاوتين بالإستواء (كجناح الطائرة حيث سطحه الأسفل مستويا والأعلى محدبا) وتحرك أفقيا فستتولد فيه قوة خاصة ترفعه إلى الأعلى ، تنشأ من ضغط الهواء على سطحه الأسفل والذي يكون أكثر منه على السطح الأعلى ، لأن

الأسفل مساحته أصغر ، والسطح العلوي اوسع مساحة ، وهذا ما تعتمد عليه حركة الطائرات . . وإذا ما دققنا النظر في اجنحة الطيور فسنرى هذه الظاهرة بوضوح. فتأمل .

(171/440)

إن عجائب الطيور لأكثر من أن تسطر في كتاب أو عدة كتب ، فهناك مثلا الطيور المهاجرة وما يكتنف رحلاتها من عجائب ، وحياة هذه الطيور مبنية على التنقل بين أرجاء المعمورة المختلفة حتى أنها لتقطع المسافة ما بين القطبين الشمالي والجنوبي على طولها ، وتعتمد في تعيين اتجاهات رحلاتها على إشارات رمزية تمكنها من عبور الجبال والأودية والبحار ، ولا يعيق تحركها رداءة الجو أو حلكة الظلام في الليالي التي يتيه فيها حتى الإنسان وبما يملك .

ومن غريب ما يحدث في رحلاتها أنها : قد تنام أحيانا بين عباب السماء

وعموما ، ينبغي القول: ما بناء الطائرات إلا تقليد لأجسام الطيور فى جوانب مختلفة ! وهي طائرة ! وقد تستغرق بعض رحلاتها عدة أسابيع دون توقف ليل نهار وبدون أن يتخلل تلك المدة أية فترة لتناول الطعام ! حيث أنها تناولت الطعام الكافي قبل بدءها حركة الرحيل (بإلهام داخلي) ويتحول ذلك الطعام إلى دهون تدخرها في أطراف بدنها !

وثمة أسرار كثيرة تتعلق في: بناء الطير لعشه، تربية أفراخه، كيفية التحصن من الأعداء، كيفية تحصيل الغذاء اللازم، تعاون الطيور فيما بينها بل ومع غير جنسها أيضا... إلخ، ولكل مما ذكر قصة طويلة.

نعم، وكما تقول الآية المباركة: (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون). انتهى. اهـ ﴿الأمثل حـ 8 صـ 275. 277﴾

(172/440)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾: أي: أو أَمْرٌ، فالضميرُ للأمر، والتقدير: أو أمرُ الساعةِ أقربُ من لَمْحِ البصر.

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾: الجملة حالٌ مِنْ مفعول "أَخْرجكم"، أي: أخرجكم غيرَ عالِمين. و "شيئاً" إمَّا مصدرٌ، أي: شيئاً من العلم، وإمَّا مفعولٌ به. والعِلْمُ هنا

العِرْفان . وقد تقدَّمَ الكلامُ في " أمَّهاتكم " في النساء .

قوله : " وَجَعَلَ " يجوز أن يكونَ معطوفاً على " أَخْرجكم " فيكونَ داخلاً فيما أَخْبر به عن المبتدأ ، ويجوز أن يكونَ مستأنفاً .

والأَفْئِدَةُ : جمعُ " فؤاد " وقد تقدَّم . وقال الرازي : " إنما جُمِع جَمْعَ قِلَّة ؛ لأنَّ أكثرَ الناسِ مشغولون بأفعالٍ بهيمية فكأنهم لا فؤادَ لهم " . وقال الزمخشري : " إنه من الجموع التي استُعْمِلت للقلة والكثرة ، ولم يُسمع فيها غيرُ القلة ، نحو : " شُسُوع " فإنها للكثرة ، ويستعمل في القِلة ، ولم يُسْمَع غيرُ شُسُوع " . كذا قال ، وفيه نظر . سُمِع منهم " أَشْسَاع " فكان ينبغي أن يقول : غَلَبَ شُسُوع .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ : يجوز أن تكون الجملةُ حالاً من الضمير المستتر في " مُسَخَّراتٍ " ، ويجوز ان تكونَ من " الطير " ، ويجوز أن تكونَ مستأنفةً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 271 . 272 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) ﴾

استأثر الحقُّ – سبحانه – بعلم الغيبيات ، وسَتَرهَا على الخلْق ؛ فيخرِجُ قوماً في الضلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية ، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية . . فالعواقبُ مستورة ، والخواتيم مبهمة ، والخَلْقُ في غفلة عما يُرادُ بهم .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) ﴾

خلقَهُم مِنْ غيرِ أنْ شاورهم ، وأثبتهم – على الوصف الذي أراده – دون أن خيَّرهم ، ولم يعلموا بماذا سبق حُكْمُهم . . أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العدَم أخرجهم من بطون أمهاتهم ؟ فلا صلاحَ أنفُسِهِمْ عَلِمُوا ، ولا صفةَ ربِّهم عرَفوا . ثمَّ بحُكْمِ الإلهام هداهم حتى قبِّلَ الصبيُّ ثديَ أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ : لتسمعوا خطابه ، ﴿ وَالْأَبْصَارَ ﴾ لتُبصِروا أفعالَه ، ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ لِتَعْرفُوا حقَّه ، ثم لتَشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ (79) ﴾

الطائر إذا حلّقَ في الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط ، وقد قامت الدلالة على أن الحقّ- سبحانه - متفرِّدٌ بالإيجاد ، ولا يَخْرُجُ حادثٌ عن قدرته ، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 310. 311 ﴾

(174/440)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 80 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 88 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ

﴿ (83)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكرهم سبحانه بنعمة الإدراك بعد ابتداء الخلق ، وأتبعه ما منّ به على الطير من الارتفاع الحامي لها من الحر ، أتبعه ما يسكنون إليه فيظلهم ويجمعهم لأنه أهم الأشياء للحيوان ، فقال تعالى : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الحكمة البالغة والقدرة الشاملة ﴿ جعل لكم ﴾ أي أيها الغافلون ﴿ من بيوتكم ﴾ أصل البيت المأوى ليلاً ثم اتسع فيه ﴿ سكناً ﴾ هو مصدر بمعنى مفعول ، ولم يسلط عليكم فيها الحشرات والوحوش كما سلطكم عليهم ؛ ثم أتبع ما يخص الحضر ما يصلح له وللسفر بما ميزهم به عن الطير وغيرها من سائر الحيوانات ، فقال تعالى : ﴿ وجعل لكم ﴾ أي إنعاماً عليكم ﴿ من جلود الأنعام ﴾ التي سلطكم عليها .

(5/441)

ولما كانت الخيام ، التي من جلود الأنعام ، في ظلها الظليل تقارب بيوت القرى ، جمعها جمعاً فقال تعالى : ﴿ بيوتاً ﴾ فإنهم قالوا : إن هذا الجمع بالمسكن أخص ، والأبيات بالشعر

أخص ﴿ تستخفونها ﴾ أي تطالبون بالاصطناع خفها فتجدونها كذلك ﴿ يوم ظعنكم ﴾ أي وقت ارتحالكم، وعبر به لأنه في النهار أكثر ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ ثم أتبعه ما به كمال السكن فقال تعالى: ﴿ ومن أصوافها ﴾ أي الضأن منها ﴿ وأوبارها ﴾ وهي للإبل كالصوف للغنم ﴿ وأشعارها ﴾ وهي ما كان من المعز ونحوه من المساكن والملابس والمفارش والأخبية وغيرها ﴿ أثاثاً ﴾ أي متاعاً من متاع البيت كثيراً، من قولهم: شهر أثيث أي كثير، وأث النبت.

إذا كثر ﴿ ومتاعاً ﴾ تتمتعون به ﴿ إلى حين ﴾ أي وقت غير معين بحسب كل إنسان في فقد ذلك، وأعرض عن ذكر الحرير والكتان والقطن لأنها لم تكن من صناعتهم، وإشارة إلى الاقتصاد وعدم الإسراف.

ولما ذكر ما يخصهم، أتبعه ما يشاركون فيه سائر الحيوانات فقال: ﴿ والله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ جعل لكم ﴾ أي من غير حاجة منه سبحانه ﴿ مما خلق ظلالاً ﴾ من الأشجار والجبال وغيرها ﴿ وجعل لكم ﴾ أي مع غناه المطلق ﴿ من الجبال أكناناً ﴾ جمع كن وهو ما يستكن به - أي يستتر - من الكهوف ونحوها، ولو كان الخالق غير مختار لكانت على سنن واحد لا ظلال ولا أكنان؛ ثم أتبع ذلك ما هداهم إليه عوضاً مما جعله لسائر الحيوان فقال: ﴿ وجعل لكم ﴾ أي مَنّاً منه عليكم ﴿ سرابيل ﴾ أي ثياباً ﴿ تقيكم الحر ﴾ وهي كل ما لبس من قميص وغيره - كما قال الزجاج.

(6/441)

ولما كانت السرابيل نوعاً واحداً ، لم يكرر " جعل " فقال تعالى : ﴿ وسرابيل ﴾ أي دروعاً ومغافر وغيرها ﴿ تقيكم بأسكم ﴾ أضافه إليهم إفهاماً لأنه الحرب ، وذلك كما جعل لبقية الحيوان - من الأصواف ونحوها والأنياب والأظفار ونحوها - ما هو نحو ذلك يمنع من الحر والبرد ، ومن سلاح العدو ، ولم يذكر سبحانه هنا وقاية البرد لتقدمها في قوله تعالى ﴿ لكم فيها دفء ﴾ [النحل : 5] .

ولما تم ذلك كان كأنه قيل : نبهنا سبحانه بهذا الكلام على تمام نعمة الإيجاد ، فهل بعدها من نعمة ؟ فقال : نعم ! ﴿ كذلك ﴾ أي كما أتم نعمة الإيجاد عليكم هذا الإتمام العظيم بهذه الأمور ونبهكم عليها ﴿ يتم نعمته عليكم ﴾ في الدنيا والدين بالهداية والبيان لطريق النجاة والمنافع ، والتنبيه على دقائق ذلك بعد جلائله ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ أي ليكون حالكم - بما ترون من كثرة إحسانه بما لا يقدر عليه غيره مع وضوح الأمر - حال من يرجى منه إسلام قياده لربه ، فلا يسكن ولا يتحرك إلا في طاعته .

(7/441)

فلما صار هذا البيان ، إلى أجلى من العيان ، كان ربما وقع في الوهم أنهم إن لم يجيبوا لِحق الداعي بسبب إعراضهم حرج ، فقال تعالى نافياً لذلك معرضاً عنهم بإعراض المغضب ، مقبلاً عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم إقبال المسلي ، معبراً بصيغة التفعل المفهمة لأن الفطر الأولى داعية إلى الإقبال على الله فلا يعرض صاحبها عما يرضيه سبحانه إلا بنوع معالجة : ﴿ فإن تولوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم الإعراض ومتابعة الأهواء فلا تقصير عليك بسبب توليهم ولا حرج ﴿ فإنما ﴾ أي بسبب أنه إنما ﴿ عليك البلاغ المبين ﴾ وليس عليك أن تردهم عن العناد ، فكأنه قيل : فهل كان إعراضهم عن جهل أو عناد ؟ فقيل فيهم وفيهم : ﴿ يعرفون ﴾ أي كلهم ﴿ نعمت الله ﴾ أي الملك الأعظم ، التي تقدم عد بعضها في هذه السورة وغيرها ﴿ ثم ينكرونها ﴾ بعبادتهم غير المنعم بها أو بتكذيب الآتي بالتنبيه عليها ، بعضهم لضعف معرفته ، وبعضهم عناداً ، وكان بعضهم يقول : هي من الله ولكن بشفاعة آلهتنا ﴿ وأكثرهم ﴾ أي المدعوين بالنسبة إلى جميع أهل الأرض الذين أدركتهم دعوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ الكافرون ﴾ أي المعاندون الراسخون في الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 297 . 299 ﴾

(8/441)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد ، وأقسام النعم والفضل ، والسكن المسكن ،

وأنشد الفراء :

جاء الشتاء ولما اتخذ سكناً . . يا ويح كفي من حفر القراميص

والسكن ما سكنت إليه وما سكنت فيه .

قال صاحب "الكشاف" : السكن فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو ألف .

واعلم أن البيوت التي يسكن الإنسان فيها على قسمين :

القسم الأول : البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله ، بل الإنسان ينتقل إليه .

والقسم الثاني : القباب والخيام والفساطيط ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴾ وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان .

واعلم أن المراد الأنطاع، وقد تعمل العرب البيوت من الأدم وهي جلود الأنعام أي يخف عليكم حملها في أسفاركم.

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿ يوم ظعنكم ﴾ بفتح العين والباقون ساكنة العين.

قال الواحدي: وهما لغتان كالشعر والشعر والنهر والنهر.

واعلم أن الظعن سير البادية لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مرتع، وقد يقال لكل شاخص لسفر: ظاعن، وهو ضد الخافض.

وقوله: ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ بمعنى لا يثقل عليكم في الحالين.

وقوله: ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ قال المفسرون وأهل اللغة: الأصواف للضأن والأوبار للإبل والأشعار للمعز.

وقوله: ﴿ أثاثاً ﴾ الأثاث أنواع متاع البيت من الفرش والأكسية.

قال الفراء: ولا واحد له، كما أن المتاع لا واحد له.

قال: ولو جمعت، فقلت: آثثة في القليل وأثث في الكثير لم يبعد.

وقال أبو زيد: واحدها أثاثة.

قال ابن عباس في قوله: ﴿ أثاثاً ﴾ يريد طنافس وبسطاً وثياباً وكسوة.

قال الخليل : وأصله من قولهم : أث النبات والشعر إذا كثر .

وقوله : ﴿ متاعاً ﴾ أي ما يتمتعون به .

وقوله : ﴿ إلى حين ﴾ يريد إلى حين البلا ، وقيل : إلى حين الموت .

وقيل : إلى حين بعد الحين ، وقيل : إلى يوم القيامة .

فإن قيل : عطف المتاع على الأثاث والعطف يقتضي المغايرة ، وما الفرق بين الأثاث والمتاع ؟

قلنا : الأقرب أن الأثاث ما يكتسي به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء ، والمتاع ما يفرش في المنازل ويزين به .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾

اعلم أن الإنسان إما أن يكون مقيماً أو مسافراً ، والمسافر إما أن يكون غنياً يمكنه استصحاب الخيام والفساطيط ، أو لا يمكنه ذلك فهذه أقسام ثلاثة :

أما القسم الأول : فإليه الإشارة بقوله : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ .

وأما القسم الثاني : فإليه الإشارة بقوله : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾

وأما القسم الثالث : فإليه الإشارة بقوله : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾ وذلك لأن المسافر إذا لم يكن له خيمة يستظل بها فإنه لا بد وأن يستظل بشيء آخر كالجدران

والأشجار وقد يستظل بالغمام كما قال : ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ [البقرة : 57] .
ثم قال : ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ واحد الأكنان كن على قياس أحمال وحمل ، ولكن المراد كل شيء وقى شيئاً ، ويقال استكن وأكن إذا صار في كن .
واعلم أن بلاد العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة ، وأيضاً البلاد المعتدلة والأوقات المعتدلة نادرة جداً والغالب إما غلبة الحر أو غلبة البرد .

(10/441)

وعلى كل التقديرات فلا بد للإنسان من مسكن يأوي إليه ، فكان الإنعام بتحصيله عظيماً ، ولما ذكر تعالى أمر المسكن ذكر بعده أمر الملبوس فقال : ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ السرابيل القمص واحدها سربال ، قال الزجاج : كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره ، والذي يدل على صحة هذا القول أنه جعل السرابيل على قسمين : أحدهما : ما يكون واقياً من الحر والبرد .
والثاني : ما يتقى به عن البأس والحروب ، وذلك هو الجوشن وغيره ، وذلك يدل على أن كل واحد من القسمين من السرابيل .

فإن قيل : لم ذكر الحر ولم يذكر البرد ؟

أجابوا عنه من وجوه :

الوجه الأول : قال عطاء الخراساني : المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم إلى ما يدفع الحر فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد كما قال : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ [النحل : 80] وسائر أنواع الثياب أشرف ، إلا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لأنه كان إلفتهم بها أشد ، واعتيادهم للبسها أكثر ، ولذلك قال : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ [النور : 43] لمعرفتهم بذلك وما أنزل من الثلج أعظم ولكنهم كانوا لا يعرفونه .

والوجه الثاني : في الجواب قال المبرد : إن ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر ، قلت ثبت في العلوم العقلية أن العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر ، فإن الإنسان متى خطر بباله الحر خطر بباله أيضاً البرد ، وكذا القول في النور والظلمة والسواد والبياض ، فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعاً للشعور بالآخر ، كان ذكر أحدها مغنياً عن ذكر الآخر .

والوجه الثالث : قال الزجاج : ما وقى من الحر وقى من البرد ، فكان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر .

فإن قيل : هذا بالضد أولى ، لأن دفع الحر يكفي فيه السرابيل التي هي القمص من دون تكلف زيادة ، وأما البرد فإنه لا يندفع إلا بتكليف زائد .

قلنا : القميص الواحد لما كان دافعاً للحر كان الاستكثار من القميص دافعاً للبرد فصح ما ذكرناه ، وقوله : ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ يعني دروع الحديد ، ومعنى البأس الشدة ويريد ههنا شدة الطعن والضرب والرمي .

واعلم أنه تعالى لما عدد أقسام نعمة الدنيا قال : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم : ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ قال ابن عباس : لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية ، وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحد سواه ، ونقل عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ بفتح التاء ، والمعنى : أنا أعطيناكم هذه السرابيلات لتسلموا عن بأس الحرب ، وقيل أعطيتكم هذه النعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فتسلموا من عذاب الله .

ثم قال تعالى : ﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ أي فإن تولوا يا محمد وأعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة في الكفر فعلى أنفسهم جنوا ذلك ، وليس عليك إلا ما فعلت من التبليغ التام ، ثم إنه تعالى ذمهم بأنهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وذلك نهاية في كفران النعمة .

فإن قيل : ما عنى ثم ؟

قلنا : الدلالة على أن إنكارهم أمر يستبعد بعد حصول المعرفة ، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر .

وفي المراد بهذه النعمة وجوه : الأول : قال القاضي : المراد بها جميع ما ذكره الله تعالى في الآيات المتقدمة من جميع أنواع النعم ؛ ومعنى أنهم أنكروه هو أنهم ما أفردوه تعالى بالشكر والعبادة ، بل شكروا على تلك النعم غير الله تعالى ولأنهم قالوا : إنما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الأصنام .

والثاني : أن المراد أنهم عرفوا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرونها ، ونبوته نعمة عظيمة كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة العالمين ﴾ .

الثالث : يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، أي لا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى .

(12/441)

ثم قال تعالى : ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ .

فإن قيل : ما معنى قوله ؛ ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ مع أنه كان كلهم كافرين .

قلنا : الجواب من وجوه : الأول : إنما قال : ﴿ وأكثرهم ﴾ لأنه كان فيهم من لم تقم عليه

الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل معتوهاً ، فأراد بالأكثر البالغين والأصحاء .

الثاني : أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند ، وحينئذ نقول إنما قال : ﴿ وأكثرهم ﴾ لأنه كان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلاً بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وما ظهر له كونه نبياً من عند الله .

الثالث : أنه ذكر الأكثر والمراد الجميع ، لأن أكثر الشيء يقوم مقام الكل ، فذكر الأكثر كذكر الجميع ، وهذا كقوله : ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [لقمان : 25] والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 74 . 77 ﴾

(13/441)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إلَى حِينٍ ﴾

فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى جَوَازِ الِانْتِفَاعِ بِمَا يُؤْخَذُ مِنْهَا مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ إذْ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ أَخْذِهَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَقَبْلَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربي :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاَللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إلَى حِينٍ ﴾ .

فِيهَا ثَمَانِي مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ : اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ لِسُلُوكِ سَبِيلِ الْمَعَارِفِ أَنَّ كُلَّ مَا عَلَاك فَأَظَلَّك فَهُوَ سَقْفٌ ، وَكُلَّ مَا أَقَلَّك فَهُوَ أَرْضٌ ، وَكُلَّ مَا سَتَرَك مِنْ جِهَاتِك الْأَرْبَعِ فَهُوَ جِدَارٌ ، فَإِذَا انْتَظَمَتْ وَاتَّصَلَتْ فَهُوَ بَيْتٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَكَنًا ﴾ : يَعْنِي مَحَلًّا تَسْكُنُونَ فِيهِ ، وَتَهْدَأُ جَوَارِحُكُمْ عَنْ الْحَرَكَةِ ، وَقَدْ تَتَحَرَّكُ فِيهِ ، وَتَسْكُنُ فِي غَيْرِهِ ، إلَّا أَنَّ الْقَوْلَ خَرَجَ فِيهِ عَلَى غَالِبِ الْحَالِ ، وَهُوَ أَنَّ الْحَرَكَةَ تَكُونُ فِيمَا خَرَجَ عَنْ الْبَيْتِ ، فَإِذَا عَادَ الْمَرْءُ إلَيْهِ سَكَنَ .

وَبِهَذَا سُمِّيَتْ مَسَاكِنَ لِوُجُودِ السُّكُونِ فِيهَا فِي الْأَغْلَبِ ، وَعَدَّ هَذَا فِي جُمْلَةِ النِّعَمِ ، فَإِنَّهُ لَوْ خَلَقَ الْعَبْدُ مُضْطَرِبًا أَبَدًا كَالْأَفْلَاكِ لَكَانَ ذَلِكَ كَمَا خَلَقَ وَأَرَادَ ، وَلَوْ خَلَقَ سَاكِنًا كَالْأَرْضِ

لَكَانَ كَمَا خُلِقَ وَأَرَادَ ، وَلَكِنَّهُ أَوْجَدَهُ خَلْقًا يَتَصَرَّفُ بِالْوَجْهَيْنِ ، وَيَخْتَلِفُ حَالُهُ بَيْنَ الْحَالَيْنِ ، وَرَدَّدَهُ بَيْنَ كَيْفَ وَأَيْنَ .

(15/441)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : { جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا } : يَعْنِي جُلُودَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ، فَإِنَّهُ يُتَّخَذُ مِنْهَا بُيُوتًا ، وَهِيَ الْأَخْبِيَةُ ، فَتُضْرَبُ فَيُسْكَنُ فِيهَا ، وَيَكُونُ بُنْيَانًا عَالِيهَا وَنَوَاحِيهَا ، وَهَذَا أَمْرٌ انْتَشَرَ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَعَرِيَتْ عَنْهُ بِلَادُنَا ، فَلَا تُضْرَبُ الْأَخْبِيَةُ إلَّا مِنْ الْكَتَّانِ وَالصُّوفِ .

وَقَدْ { كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ } ، وَنَاهِيك بِأَدِيمِ الطَّائِفِ غَلَاءً فِي الْقِيمَةِ ، وَاعْتِلَاءً فِي الصِّفَةِ ، وَحُسْنًا فِي الْبَشَرَةِ .

وَلَمْ يَعُدَّ ذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَفًا وَلَا رَآهُ سَرَفًا ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَذِنَ فِيهِ مِنْ مَتَاعِهِ ، وَظَهَرَتْ وُجُوهُ مَنْفَعَتِهِ فِي الِاكْتِنَانِ وَالِاسْتِظْلَالِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ عَنْهُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ .

وَمِنْ غَرِيبِ مَا جَرَى أَنِّي زُرْت بَعْضَ الْمُتَزَهِّدِينَ مِنْ الْغَافِلِينَ مَعَ بَعْضِ رِجَالِ الْمُحَدِّثِينَ ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فِي خِبَاءِ كَتَّانٍ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ صَاحِبِي الْمُحَدِّثُ أَنْ يَحْمِلَهُ إلَى مَنْزِلِهِ ضَيْفًا ،

وَقَالَ : إنَّ هَذَا مَوْضِعٌ يَكْثُرُ فِيهِ الْحَرُّ ، وَالْبَيْتُ أَرْفَقُ بك ، وَأَطْيَبُ لِنَفْسِي فِيك .

فَقَالَ لَهُ : هَذَا الْخِبَاءُ لَنَا كَثِيرٌ ، وَكَانَ فِي صِنْفِهَا مِنْ الْحَقِيرِ .

(16/441)

فَقُلْت لَهُ : لَيْس كَمَا زَعَمْت ، قَدْ كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَئِيسُ الزُّهَّادِ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ طَائِفِيٍّ يُسَافِرُ مَعَهَا ، وَيَسْتَظِلُّ بِهَا ، فَبُهِتَ وَرَأَيْته عَلَى مَنْزِلَةٍ مِنْ الْعِيِّ ، فَتَرَكْته مَعَ صَاحِبِي ، وَخَرَجْت عَنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : { وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا } : أَذِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالِانْتِفَاعِ بِصُوفِ الْغَنَمِ ، وَوَبَرِ الْإِبِلِ ، وَشَعْرِ الْمَعْزِ ، كَمَا أَذِنَ فِي الْأَعْظَمِ ، وَهُوَ ذَبْحُهَا وَأَكْلُ لُحُومِهَا .

كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ لَنَا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَعَلِمَ كَيْفِيَّةَ الِانْتِفَاعِ بِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : { أَثَاثًا } : هُوَ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ الْمَرْءُ إلَى اسْتِعْمَالِهِ مِنْ آلَةٍ ، وَيَفْتَقِرُ إلَيْهِ فِي تَصْرِيفِ مَنَافِعِهِ مِنْ حَاجَةٍ ، وَمِنْهُ أَثَاثُ الْبَيْتِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ الْكَثْرَةِ ، يُقَالُ : أَثَّ النَّبْتُ يَئِثُّ ، إذَا كَثُرَ ، وَكَذَلِكَ الشَّعْرُ يُقَالُ : شَعْرٌ أَثِيثٌ ، إذَا كَانَ كَثِيرًا مُلْتَفًّا .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْلُهُ : { وَمَتَاعًا } : وَهُوَ كُلُّ مَا

انْتَفَعَ بِهِ الْمَرْءُ فِي مَصَالِحِهِ، وَصَرَفَهُ فِي حَوَائِجِهِ، يُقَالُ: تَمَتَّعَ الرَّجُلُ بِمَالِهِ إذَا نَالَ لَذَّتَهُ، وَبِبَدَنِهِ إذَا وَجَدَ صِحَّتَهُ، وَبِأَهْلِهِ إذَا أَصَابَ حَاجَتَهُ، وَبِبَنِيهِ إذَا ظَهَرَ بِنُصْرَتِهِمْ، وَبِجِيرَتِهِ إذَا رَأَى مَنْفَعَتَهُمْ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ إلَى حِينٍ ﴾: وَاخْتُلِفَ فِيهِ، فَقِيلَ: إلَى أَنْ يَفْنَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالِاسْتِعْمَالِ.

(17/441)

وَقِيلَ: إلَى حِينِ الْمَوْتِ.

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ التَّأْوِيلِ، فَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ: إنَّ الْمَوْتَ لَا يُؤَثِّرُ فِي تَحْرِيمِ الصُّوفِ وَالْوَبَرِ، وَالشَّعْرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهَا إذْ الْمَوْتُ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْنًى يَحِلُّ بَعْدَ عَدَمِ الْحَيَاةِ، وَلَمْ تَكُنْ الْحَيَاةُ فِي الصُّوفِ وَالْوَبَرِ وَالشَّعْرِ فَيَخْلُفُهَا الْمَوْتُ فِيهَا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: إنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَحْرُمُ بِالْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْمَيْتَةِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ وَذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ الْجُمْلَةِ، وَإِنْ كَانَ الْمَوْتُ يَحِلُّ بِبَعْضِهَا.

وَالْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ هَذَا أَنَّ الْمَيْتَةَ وَإِنْ كَانَ اسْمًا يَنْطَلِقُ عَلَى الْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ إنَّمَا يَرْجِعُ بِالْحَقِيقَةِ

إِلَى مَا فِيهِ حَيَاةٌ ، فَنَحْنُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا نَعْدِلُ عَنْهَا إِلَى سِوَاهَا .

وَقَدْ تَعَلَّقَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِمْ بِأَنَّ الْمَوْتَ وَإِنْ كَانَ لَا يَحِلُّ الصُّوفَ وَالْوَبَرَ وَالشَّعْرَ ، وَلَكِنَّ الْأَحْكَامَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْجُثَّةِ تَتَعَدَّى إِلَى هَذِهِ الْأَجْزَاءِ مِنْ الْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ وَالْأَرْشِ ، وَتَتْبَعُهَا فِي حُكْمِ الْإِحْرَامِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْكَامِ ، فَكَذَلِكَ الطَّهَارَةُ وَالتَّنْجِيسُ .

(18/441)

وَتَحْرِيرُهُ أَنْ نَقُولَ : حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَجْزَاءِ مِنْ الْجُمْلَةِ ، أَصْلُهُ سَائِرُ الْأَحْكَامِ الْمَذْكُورَةِ ، وَهَذَا لَا تَعْوِيلَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّا بَيَّنَّا أَنَّ الْحَقِيقَةَ مَعَنَا ، وَأَمَّا الْأَحْكَامُ فَهِيَ مُتَعَارِضَةٌ ، فَلَئِنْ شَهِدَ لَهُ مَا ذُكِرَ مِنْ الْأَحْكَامِ عَلَى اتِّبَاعِ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ لِلْجُمْلَةِ فَلَيَشْهَدَنَّ لَنَا بِانْفِصَالِ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ عَنْ الْجُمْلَةِ الْحُكْمُ الْأَكْبَرُ ، وَهِيَ إبَانَتُهَا عَنْ الْجُثَّةِ فِي حَالَةِ الْحَيَاةِ وَإِزَالَتُهَا مِنْهَا ، وَهُوَ دَلِيلٌ

يَعْضُدُنَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَجْزَاءُ تَابِعَةً فِي الْجُمْلَةِ لَتَنَجَّسَتْ بِإِبَانَتِهَا عَنْهَا ، كَأَجْزَاءِ الْأَعْضَاءِ ؛ وَإِذَا تَعَارَضَتْ الْأَحْكَامُ وَجَبَ التَّرْجِيحُ بِالْحَقِيقَةِ ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الَّتِي تَعَلَّقُوا بِهَا لَا حُجَّةَ فِيهَا ؛ أَمَّا الْحِلُّ وَالْحُرْمَةُ فَإِنَّمَا يَتَعَلَّقَانِ بِاللَّذَّةِ ، وَهِيَ فِي الشَّعْرِ كَمَا تَكُونُ فِي الْبَدَنِ .

وَأَمَّا الْإِحْرَامُ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِإِلْقَاءِ التَّفَثِ ، وَإِذْهَابِ الزِّينَةِ ، وَالشَّعْرِ مِنْ ذَلِكَ الْوَصْفِ .

وَأَمَّا الْأَرْشُ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِإِبْطَالِ الْجَمَالِ تَارَةً وَإِبْطَالِ الْمَنْفَعَةِ أُخْرَى ، وَالْجَمَالُ وَالْمَنْفَعَةُ مَعًا مَوْجُودَانِ فِي الشَّعْرِ أَوْ أَحَدُهُمَا ، بِخِلَافِ الطَّهَارَةِ وَالتَّنْجِيسِ ، فَإِنَّهُ حُكْمٌ يَتَرَتَّبُ عَلَى الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، وَلَيْسَ لِلصُّوفِ وَلَا لِلْوَبَرِ وَلَا لِلشَّعْرِ مَدْخَلٌ بِحَالٍ .

(19/441)

وَقَدْ عَوَّلَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ إِمَامُ الشَّافِعِيَّةِ بِبَغْدَادَ عَلَى أَنَّ الشَّعْرَ وَالصُّوفَ وَالْوَبَرَ جُزْءٌ مُتَّصِلٌ بِالْحَيَوَانِ اتِّصَالَ خِلْقَةٍ ، يُنَمَّى بِنَمَائِهِ ، فَيَنْجُسُ بِمَوْتِهِ ، كَسَائِرِ الْأَجْزَاءِ .

وَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا بِأَنَّ النَّمَاءَ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى الْحَيَاةِ ؛ فَإِنَّ النَّبَاتَ يُنَمَّى وَلَيْسَ بِحَيٍّ ، وَإِذَا عَوَّلُوا عَلَى النَّمَاءِ الْمُتَّصِلِ بِالْحَيَوَانِ عَوَّلْنَا عَلَى الْإِبَانَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْإِحْسَاسِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْحَيَاةِ ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا الْقَوْلَ فِيهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَأَشَرْنَا إِلَيْهِ فِيمَا تَقَدَّمَ وَبِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ يَتَحَصَّلُ الْعِلْمُ لَكُمْ ، وَيَخْلُصُ مِنْ الْأَشْكَالِ عِنْدَكُمْ .

(20/441)

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾: وَلَمْ يَذْكُرْ الْقُطْنَ وَلَا الْكَتَّانَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا عَدَّدَ عَلَيْهِمْ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَخُوطِبُوا فِيمَا عَرَفُوا بِمَا فَهِمُوا، وَمَا قَامَ مَقَامَ هَذِهِ وَنَابَ مَنَابَهَا يَدْخُلُ فِي الِاسْتِعْمَالِ وَالنِّعْمَةِ مَدْخَلَهَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾؛ فَخَاطَبَهُمْ بِالْبَرَدِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ نُزُولَهُ كَثِيرًا عِنْدَهُمْ، وَسَكَتَ عَنْ ذِكْرِ الثَّلْجِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِهِمْ، وَهُوَ مِثْلُهُ فِي الصِّفَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، وَقَدْ ذَكَرَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعًا فِي التَّطْهِيرِ فَقَالَ: ﴿ اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي بِمَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ، وَنَقِّنِي مِنْ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ الدَّنَسُ بِالْمَاءِ ﴾.

قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَاَللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾.

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: عَدَّدَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ نِعَمِهِ مَا شَرَحَ فِيهَا، فَمِنْهَا الظِّلَالُ تَقِي مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ الَّذِي لَا تَحْتَمِلُهُ الْأَبْدَانُ، وَلَا يَبْقَى مَعَهُ، وَلَا دُونَهُ الْإِنْسَانُ، مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ

وغَمَامٍ ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا الْجِبَالُ ، وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : خَلَقَهَا اللَّهُ عُدَّةً لِلْخَلْقِ ، يَأْوُونَ إلَيْهَا ، وَيَتَحَصَّنُونَ بِهَا ، وَيَعْتَزِلُونَ الْخَلْقَ فِيهَا ، فَقَدْ ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَبَّدُ بِغَارِ حِرَاءٍ ، وَيَمْكُثُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى أَهْلِهِ وَقَدْ خَرَجَ مُهَاجِرًا إلَى رَبِّهِ ، هَارِبًا مِنْ قَوْمِهِ ، فَارًّا بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ مَعَ أَصْحَابِهِ ، وَاسْتَحْصَنَ بِغَارِ ثَوْرٍ ، وَأَقَامَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ مَعَ الصِّدِّيقِ صَاحِبِهِ ، ثُمَّ أَمْضَى هِجْرَتَهُ ، وَأَنْفَذَ عَزْمَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إلَى دَارِ هِجْرَتِهِ ﴾ .

وَقَدْ قِيلَ : أَرَادَ بِهِ السَّهْلَ وَالْجِبَالَ ، وَلَكِنَّهُ حَذَفَ أَحَدَهُمَا لِدَلَالَةِ الْآخَرِ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : وَمَا أَدْرِي إذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي أَأَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا مُبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي وَكَمَا قَالَ فِي الْحَرِّ بَعْدَ هَذَا : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ أَرَادَ وَالْبَرْدَ ، فَحُذِفَ ؛ لِأَنَّ مَا بَقِيَ أَحَدُهُمَا بَقِيَ الْآخَرُ .

(22/441)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ : وَالسِّرْبَالُ : كُلُّ مَا سَتَرَ بِاللِّبَاسِ مِنْ ثَوْبٍ مِنْ صُوفٍ أَوْ وَبَرٍ أَوْ شَعْرٍ أَوْ قُطْنٍ أَوْ كَتَّانٍ .

وَهَذِهِ نِعْمَةٌ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْآدَمِيِّ فَإِنَّهُ خَلَقَهُ عَارِيًا ، ثُمَّ جَعَلَهُ بِنِعْمَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ كَاسِيًا ؛

وَسَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ سَرَابِيلُهَا جُلُودُهَا أَوْ مَا يَكُونُ مِنْ صُوفٍ أَوْ شَعْرٍ أَوْ وَبَرٍ عَلَيْهَا ؛ فَشَرَّفَ الْآدَمِيَّ بِأَنْ كُسِيَ مِنْ أَجْزَاءٍ سِوَاهُ .

(23/441)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ : يَعْنِي دُرُوعَ الْحَرْبِ ؛ مَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعِبَادِ عُدَّةً لِلْجِهَادِ ، وَعَوْنًا عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَعَلَّمَهَا ، كَمَا عَلَّمَ صَنْعَةَ غَيْرِهَا ، وَلَبِسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ظَاهَرَ يَوْمَ أُحُدٍ بَيْنَ دِرْعَيْنِ ، تُقَاةَ الْجِرَاحَةِ ، وَإِنْ كَانَ يَطْلُبُ الشَّهَادَةَ ، كَمَا يُعِدُّ السَّيْفَ وَالرُّمْحَ وَالسَّهْمَ لِلْقَتْلِ بِهَا لِغَيْرِهِ ، وَالْمُدَافَعَةِ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، ثُمَّ يُنْفِذُ اللَّهُ مَا شَاءَ مِنْ حُكْمِهِ ، وَلَيْسَ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَطْلُبَ الشَّهَادَةَ بِأَنْ يَسْتَقْتِلَ مَعَ الْأَعْدَاءِ ، وَلَا بِأَنْ يَسْتَسْلِمَ لِلْحُتُوفِ ، وَلَكِنَّهُ يُقَاتِلُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَيَأْخُذُ حِذْرَهُ ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ الشَّهَادَةَ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ ، وَيُعْطِيهِ اللَّهُ بَعْدُ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ ﴾ بِفَتْحِ التَّاءِ عَلَى [قِرَاءَةِ] مَنْ قَرَأَهَا كَذَلِكَ ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِالضَّمِّ فَمَعْنَاهُ لَعَلَّكُمْ تَنْقَادُونَ إلَى طَاعَتِهِ شُكْرًا عَلَى نِعْمَتِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(24/441)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : البيوت ، قاله الكلبي .

الثاني : الشجر ، قاله قتادة .

﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ الأكنان : جمع كِنّ وهو الموضع الذي يستكن فيه ، وفيه وجهان :

أحدهما أنه ظل الجبال .

الثاني : أنه ما فيها من غار أو شَرَف .

﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ يعني ثياب القطن والكتّان والصوف .

﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ يعني الدروع التي تقي البأس ، وهي الحرب .

قال الزجاج : كل ما لبس من قميص ودروع فهو سربال .

فإن قيل : فكيف قال : ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ ولم يذكر السهل وقال ﴿ تقكيم الحر ﴾ ولم يذكر البرد ؟

فعن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حر ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه عليه مما هو مختص بهم ، قاله عطاء .

الثاني : أنه اكتفى بذكر احدهما عن ذكر الآخر ، إذ كان معلوماً أن من اتخذ من الجبال أكناناً اتخذ من السهل ، واسرابيل التي تقي الحر تقي البرد ، قاله الفراء ، ومثله قول الشاعر :

وما أدري إذا يممتُ أرضاً . . . أريد الخير أيهما يليني .

فكنى عن الشر ولم يذكره لأنه مدلول عليه .

الثالث : أنه ذكر الجبال لأنه قدم ذكر السهل بقوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ وذكر الحرَّ دون البرد تحذيراً من حر جهنم وتوقياً لاستحقاقها بالكف عن المعاصي .

﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ أي تؤمنون بالله إذا عرفتم نعمه عليكم .

وقرأ ابن عباس ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ بفتح التاء أي تسلمون من الضرر ، فاحتمل أن يكون عنى ضرر الحر والبرد واحتمل أن يكون ضرر القتال والقتل ، واحتمل أن يريد ضرر العذاب في الآخرة إن اعتبرتم وآمنتم .

قوله عز وجل : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أنه عنى النبي صلى الله عليه وسلم يعرفون نبوته ثم ينكرونها ويكذبونه ، قاله السدي .

الثاني : أنهم يعرفون منا عدد الله تعالى عليهم في هذه السورة من النعم وأنها من عند الله وينكرونها بقولهم أنهم ورثوا ذلك عن آبائهم ، قاله مجاهد .

الثالث : أن انكارها أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا ولولا فلانٌ ما أصبت كذا ، قاله عون بن عبد الله .

الرابع : أن معرفتهم بالنعمة إقرارهم بأن الله رزقهم ، وإنكارهم قولهم : رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا .

الخامس : يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها ، وينكرونها بترك الشكر عليها .

ويحتمل سادساً : يعرفونها في الشدة ، وينكرونها في الرخاء .

ويحتمل سابعاً يعرفونها بأقوالهم ، وينكرونها بأفعالهم . قال الكلبي : هذه السورة تسمى سورة النعم ، لما ذكر الله فيها من كثرة نعمه على خلقه .

﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه وجميعهم كافرون ، فعبر عن الجميع بالأكثر ، وهذا معنى قول الحسن .

الثاني : أنه قال ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ لأن فيهم من جرى عليه حكم الكفر تبعاً لغيره كالصبيان والمجانين ، فتوجه الذكر إلى المكلفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(26/441)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

هذه آية تعديد نعمة الله على الناس في البيوت ، فذكر أولاً بيوت التمدن وهي التي للإقامة الطويلة وهي أعظم بيوت الإنسان ، وإن كان الوصف ب ﴿ سكناً ﴾ يعم جميع البيوت ، والسكن مصدر يوصف به الواحد ، ومعناه يسكن فيها وإليها ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة ، وقوله ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ يحتمل أن يعم به بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ، لأن هذه هي من الجلود ، لكونها نابتة فيها ، نحا إلى ذلك ابن سلام ، ويكون قوله ﴿ ومن أصوافها ﴾ عطفاً على قوله ﴿ من جلود الأنعام ﴾ ، أي جعل بيوتاً أيضاً ، ويكون قوله ﴿ أثاثاً ﴾ نصباً على الحال ، و﴿ تستخفونها ﴾ أي

تجدونها خفافاً وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " ظعَنكم " بفتح العين ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي " ظعْنكم " بسكون العين ، وهما لغتان ، وليس بتخفيف ، و" ظعن " معناه رحل والأصواف للغنم ، والأوبار للإبل ، والأشعار للمعز والبقر ، ولم تكن بلادهم بلاد قطن وكتان فلذلك اقتصر على هذه ، ويحتمل أن ترك ذلك القطن والحرير والكتّان إعراضاً والكتان في لفظ السرابيل ، والأثاث متاع البيت واحدتها أثاثة ، هذا قول أبي زيد الأنصاري ، وقال غيره الأثاث جميع أنواع المال ولا واحد له من لفظه .

قال القاضي أبو محمد : والاشتقاق يقوي هذا المعنى الأعم : لأن حال الإنسان تكون بالمال أثيثة ، تقول شعر أثيث ونبات أثيث إذا كثر والتف ، وقوله ﴿ إلى حين ﴾ يريد به وقتاً غير معين ، وهو بحسب كل إنسان إما بموته وإما بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر : [الوافر]

أهاجتك الظعائن يوم بانوا . . . بذي الزيّ الجميل من الأثاث

وقوله : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ الآية ، نعم عددها الله عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم ، وأنها الأشياء

المباشرة لهم ، لأن بلادهم من الحرارة وقهر الشمس بحيث للظل غناء عظيم ونفع ظاهر ، وقوله ﴿ مما خلق ﴾ يعم جميع الأشخاص المظلة ، و" الأكنان " جمع كن وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ، و" السرابيل " جميع ما يلبس على جميع البدن كالقميص والقرقل ، والمجول والدرع والجوشن والخفتان ونحوه ، وذكر وقاية الحر إذا هو أمس في تلك البلاد على ما ذكرنا ، والبرد فيها معدوم في الأكثر ، وإذا جاء في الشتوات فإنما يتوقى بما هو أكثف من السربال المتقدم الذكر ، فتبقى السرابيل لتوقي الحر فقط ، قاله الطبري عن عطاء الخراساني ، الا ترى أن الله قد نبههم إلى العبرة في البرد ولم يذكر لهم الثلج لأنه ليس في بلادهم ، قال ابن عباس : إن الثلج شيء أبيض ينزل من السماء ما رأيته قط .

قال القاضي أبو محمد : وأيضاً فذكر أحدهما يدل على الآخر ، ومنه قول الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضاً . . . أريد الخير أيهما يليني

قال القاضي أبو محمد : وهذه التي ذكرناها هي بلاد الحجاز ، وإلا ففي بلاد العرب ما فيه برد شديد ، ومنه قول متمم :

إذ القشع من برد الشتاء تقعقعا . . . . ومنه قول الآخر :

في ليلة من جمادى ذات أندية . . . . البيتين ، وغير هذا ، والسرابيل التي تقي البأس هي الدرع ، ومنه قول كعب بن زهير : [البسيط]

شم العرانين أبطال لبوسهمُ . . . من نسج داود في الهيجا سرابيل

وقال أوس بن حجر :

(28/441)

ولنعم حشو الدرع والسربال . . . فهذا يراد به القميص ، و" البأس " مس الحديد في الحرب ، وقرأ الجمهور " يتم نعمته " ، وقرأ ابن عباس " تتم نعمته " على أن النعمة هي تتم ، وروي عنه " تتم نعمه " على الجمع وقرأ الجمهور " تسلمون " من الإسلام ، وقرأ ابن عباس " تَسلمون " من السلامة ، فتكون اللفظة مخصوصة في بأس الحرب ، وما في " لعل " من الترجي والتوقع فهو في حيز البشر المخاطبين ، أي لو نظر الناظر هذه الحال لترجى منها إسلامهم .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) ﴾

هذه الآية فيها موادعة نسختها آية السيف ، والمعنى إن أعرضوا فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم ، وإنما عليك أن تبين وتبلغ أمر الله ونهيه ، ثم قرعهم ووبخهم بأنهم يعرفون نعمة الله في هذه الأشياء المذكورة ، ويقرون أنها من عنده ثم يكفرون به تعالى ، وذلك فعل المنكر للنعمة الجاحد لها ، هذا قول مجاهد ، فسماهم منكرين للنعمة تجوزاً ، إذ كانت لهم

أفعال المنكر من الكفر برب النعمة وتشريكهم في النعمة الأوثان على وجه ما ، وهو ما كانوا يعتقدون للأوثان من الأفعال من الضر والنفع ، وقال السدي : " النعمة " هاهنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ووصفهم تعالى بأنهم يعرفون بمعجزاته وآيات نبوته وينكرون ذلك بالتكذيب ، ورجحه الطبري ، ثم حكم على أكثرهم بالكفر وهم أهل مكة ، وذلك أنه كان فيهم من قد داخله الإسلام ، ومن أسلم بعد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(29/441)

وقال القرطبى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ معناه صيّر .

وكلُّ ما علاك فأظلّك فهو سقف وسماء ، وكل ما أَقَلّك فهو أرض ، وكلُّ ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار ؛ فإذا انتظمتْ واتصلت فهو بيت .

وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت ، فذكر أولا بيوت المدن وهي

التي للإقامة الطويلة .

وقوله : ﴿ سَكَناً ﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة ، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره ؛ إلا أن القول خرج على الغالب .

وعدّ هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطرباً أبداً كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد ، ولو خلقه ساكناً كالأرض لكان كما خلق وأراد ، ولكنه أوجده خلقاً يتصرّف للوجهين ، ويختلف حاله بين الحالتين ، وردّده كيف وأين .

والسَّكَن مصدر يوصف به الواحد والجمع .

ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرِّحلة وهي :

الثانية فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أي من الأنطاع والأَدم .

﴿ بُيُوتاً ﴾ يعني الخيام والقِباب يَخفّ عليكم حملها في الأسفار .

﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ الظّعن : سير البادية في الانتجاع والتحول من موضع إلى موضع ؛ ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقَهم أتوقّع . . .

وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضاً ؛ قال :

ألا هل هاجك الأظعان إذ بانوا . . .

وإذ جادت بوشك البين غربا ن

وقرىء بإسكا ن العين وفتحها كالشّعْر والشّعَر .

وقيل : يحتمل أن يعم به بيوت الأَدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ؛ لأن هذه من الجلود

لكونها ثابتة فيها ؛ نحا إلى ذلك ابن سَلام .

وهو احتمال حسن ، ويكون قوله : "ومنْ أَصْوَافِهَا" ابتداء كلام ، كأنه قال : جعل أثاثاً ؛

يريد الملابس والوطاء ، وغير ذلك ؛ قال الشاعر :

أهاجتك الظعائن يوم بانوا . . .

بذي الزّيِّ الجميل من الأثاث

(30/441)

ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ مِّن جُلُودِ الأنعام ﴾ بيوت الأَدَم فقط كما قدمناه أولاً .

ويكون قوله : "ومن أصوافها" عطفاً على قوله : "من جلود الأنعام" أي جعل بيوتاً أيضاً .

قال ابن العربي : "وهذا أمر انتشر في تلك الديار ، وعَزَبت عنه بلادنا ، فلا تُضرب الأخبِيَة

عندنا إلاّ من الكتّان والصوف ، وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم قُبّة من أَدَم ، وناهيك

من أدم الطائف غلاء في القيمة ، واعتلاء في الصنعة ، وحسنا في البشرة ، ولم يعدّ ذلك

صلى الله عليه وسلم تَرفا ولا رآه سرفاً ؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه ، وظهرت وجوه منفعته في الاكتنان والاستظلال الذي لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان .

ومن غريب ما جرى أني زرت بعض المتزهدين من الغافلين مع بعض المحدثين ، فدخلنا عليه في خباء كَتّان فعرض عليه صاحبي المحدث أن يحمله إلى منزله ضيفاً ، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحَرّ والبيت أرفق بك وأطيب لنفسي فيك ؛ فقال : هذا الخباء لنا كثير ، وكان في صنعنا من الحقير ؛ فقلت : ليس كما زعمت ! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الزهاد قبّة من أَدَم طائفيّ يسافر معها ويستظلّ بها ؛ فبُهت ، ورأيته على منزلة من العيّ فتركته مع صاحبي وخرجت عنه" .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز ، كما أذِن في الأعظم ، وهو ذبحها وأكل لحومها ، ولم يذكر القطن والكتّان لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به ، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم ، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا .

وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [النور : 43] ؛ فخاطبهم بالبَرَد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيراً عندهم ، وسكت عن ذكر الثلج ؛ لأنه لم يكن في بلادهم ، وهو مثله في الصفة والمنفعة ، وقد ذكرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم معاً في التطهير فقال : " اللَّهُمّ اغسلني بماء وثلج وبَرَدَ " قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قَطّ .

وقيل : إن ترك ذكر القطن والكتّان إنما كان إعراضاً عن التَّرَف ؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف .

وهذا فيه نظر ؛ فإنه سبحانه يقول : ﴿ يا بني آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ [الأعراف : 26] حسبما تقدّم بيانه في "الأعراف" .

وقال هنا : "وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ" فأشار إلى القطن والكتّان في لفظة "سرابيل" والله أعلم .

و﴿ أَثَاثاً ﴾ قال الخليل : متاعاً منضماً بعضه إلى بعض ؛ من أثّ إذا كثر .

قال :

وفَرْعٍ يزين المَتْنَ أسودَ فاحمٍ . . .

أثيثٍ كقِنْوِ النخلة المُتَعَثْكِلِ

ابن عباس : "أَثَاثاً" ثياباً .

وقد تقدّم.

وتضمّنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، ولذلك قال أصحابنا: صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به على كل حال، ويغسل مخافة أن يكون عَلِق به وسخ؛ وكذلك روت أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا بأس بجلد الميتة إذا دُبغ وصوفِها وشعرِها إذا غُسل" أنهما لا يَحُلّه الموت، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا، كشعر ابن آدم والخنزير، فإنه طاهر كله؛ وبه قال أبو حنيفة، ولكنه زاد علينا فقال: القَرْن والسِّن والعظم مثل الشعر؛ قال: لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان.

(32/441)

وقال الحسن البَصْرِيّ والليث بن سعد والأوزاعِيّ: إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل.

وعن الشافعي ثلاث روايات: الأولى طاهرة لا تنجس بالموت.

الثانية تنجس.

الثالثة الفرق بين شعر ابن آدم وغيره، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس.

ودليلنا عموم قوله تعالى : "ومن أصوافها" الآية .

فمَنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخص شعر الميتة من المُذَكّاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل .

وأيضاً فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل .

فإن قيل قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [المائدة : 3] وذلك عبارة عن الجملة .

قلنا : نخصه بما ذكرناه ؛ فإنه منصوص عليه في ذكر الصوف ، وليس في آيتكم ذكره صريحاً ، فكان دليلنا أوْلى .

والله أعلم .

وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خِلْقة ، فهو يَنْمِي بنمائه ويتنجس بموته كسائر الأجزاء .

وأجيب بأن النّماء ليس بدليل على الحياة ؛ لأن النبات ينمِي وليس بَحيّ .

وإذا عوّلوا على النماء المتصل لما على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التي تدل على عدم الإحساس الذي يدل على عدم الحياة .

وأما ما ذكره الحنفيُّون في العظم والسن والقَرْن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم .

وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة .

ولنا قول ثالث هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر ، قولان .

وكذلك الشَّعرِيّ من الريش حكمه حكم الشعر ، والعظمِيّ منه حكمه حكمه .

(33/441)

ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تنتفعوا من الميتة بشيء " وهذا عام فيها وفي كل جزء منها ، إلا ما قام دليله ؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحيي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] وقال تعالى : ﴿ وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ [البقرة : 259] وقال : ﴿ فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ﴾ [المؤمنون : 14] ، وقال : ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ [النازعات : 11] فالأصل هي العظام ، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد .

وفي حديث عبد الله ابن عُكَيم : " لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب " فإن قيل : قد ثبت في الصحيح " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في شاة ميمونة : ألاَّ انتفعتم بجلدها

فقالوا : يا رسول الله ، إنها ميّتة .

فقال : إنما حَرُمَ أكلها " والعظم لا يؤكل .

قلنا : العظم يؤكل ، وخاصّةً عظم الجمل الرضيع والجَدْي والطير ، وعظم الكبير يشوى ويؤكل .

وما ذكرناه قبل يدُلّ على وجود الحياة فيه ، وما كان طاهراً بالحياة ويستباح بالذّكاة ينجس بالموت .

والله أعلم .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ مِّن جُلُودِ الأَنعامِ ﴾ عامٌّ في جلد الحيّ والميت ، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ ؛ وبه قال ابن شهاب الزهريّ والليث بن سعد .

قال الطحاويّ : لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث .

قال أبو عمر : يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين ، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح ، وهو قول أباه جمهور أهل العلم .

وقد روي عنهما خلاف هذا القول ، والأول أشهر .

قلت : قد ذكر الدّارَقُطْنيّ في سننه حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهريّ ، وحديث بقية عن الزَّبيدي ، وحديث محمد بن كثير العبدي وأبي سلمة المنقريّ عن سليمان بن كثير عن الزهريّ ، وقال في آخرها : هذه أسانيد صحاح.

السادسة : اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك .

وذكره ابن خُوَيْزِ مَنْداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضاً .

قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : وهو قول الزهريّ والليث .

قال : والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم ، وهو أن الدباغ لا يطهِّر جلد الميتة ، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة ، ولا يصلى عليه ولا يؤكل فيه .

وفي المدوّنة لابن القاسم "من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليه قيمته" وحكي أن ذلك قول مالك .

وذكر أبو الفرج أن مالكاً قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليه .

قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسي .

وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز بيعه ، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى .

قال أبو عمر : وكل جلد ذُكِّي فجائز استعماله للوضوء وغيره .

وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا في خاصة نفسه ، وتكره الصلاة عليه وبيعه ، وتابعه على ذلك جماعة من

أصحابه .

وأما أكثر المدنيين فعلى إباحة ذلك وإجازته ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيُّما إهاب دبغ فقد طهر " .

وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث ، وهو اختيار ابن وهب .

السابعة ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دبغت ؛ لأنها كلحم الميتة .

والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ تردّ قوله .

واحتج بحديث عبد الله بن عكيم رواه أبو داود قال : " قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام شاب : "ألاّ تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب" .

وفي رواية : "قبل موته بشهر" " رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عُكيم ، قال : حدثنا مَشيخة لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إليهم . . .

قال داود بن عليّ : سألت يحيى بن مَعين عن هذا الحديث فضعّفه وقال : ليس بشيء ،

إنما يقول حدثني الأشياخ.

قال أبو عمر : ولو كان ثابتاً لاحتمل أن يكون مخالفاً للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المُحَبِّق وغيرهم ، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عُكيم " ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب " قبل الدباغ ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفاً فليس لنا أن نجعله مخالفاً ، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر فيمكن أن تكون قصّة ميمونة وسماع ابن عباس منه

" أيما إهاب دبغ فقد طهر " قبل موته بجمعة أو دون جمعة ، والله أعلم .

الثامنة المشهور عندنا أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث ولا يتناوله العموم ، وكذلك الكلب عند الشافعيّ .

وعند الأوزاعي وأبي ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه .

وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه .

قال ابن وَضّاح : وسمعت سُحْنُونا يقول لا بأس به ؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن عليّ وأصحابه ؛ لقوله عليه السلام : " أيُّما مَسْك دبغ فقد طهر " قال أبو عمر : يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها ، فأما الخنزير فلم يدخل في المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده ، إذ لا تعمل فيه الذكاة .

ودليل آخر وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل ، وما عداه فإنما يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضاً غير معهود الانتفاع به فلا يطهر ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "أكل كلّ ذي ناب من السباع حرام" فليست الذكاة فيها ذكاة ، كما أنها ليست في الخنزير ذكاة .

(36/441)

وروى النَّسائيّ عن المقدام بن معد يكرب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب ومَيَاثر النمور .

التاسعة اختلف الفقهاء في الدباغ الذي تطهر به جلود الميتة ما هو ؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبه : كل شيء دَبغ الجلد من ملح أو قَرَظ أو شَبّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به .

وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه ، وهو قول داود .

وللشافعيّ في هذه المسألة قولان : أحدهما هذا ، والآخر أنه لا يُطَهّر إلا الشبّ والقَرَظ ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعليه خرّج الخطابِيّ والله أعلم

ما رواه النّسائيّ عن ميمونة زوجِ النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنه " مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من قريش يجرّون شاة لهم مثل الحصان ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أخذتم إهابها" قالوا : إنها ميتة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يطهرها الماء والقرظ" " .

العاشرة قوله تعالى : ﴿ أَثَاثاً ﴾ الأثاث متاع البيت ، واحدها أَثَاثة ؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري .

وقال الأمويّ : الأثاث متاع البيت ، وجمعه آثّة وأُثُث .

وقال غيرهما : الأثاث جميع أنواع المال ولا واحد له من لفظه .

وقال الخليل : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنه شعر أثيث أي كثير .

وأَثّ شعر فلان يَأَث أَثّاً إذا كثر والتفّ ؛ قال امرؤ القيس :

وفَرْعٍ يَزِين المتنَ أسودَ فاحم . . .

أَثيث كقِنْو النّخلة المُتَعَثْكِلِ

وقيل : الأثاث ما يلبس ويفترش .

وقد تأثّثت إذا اتخذت أثاثاً .

وعن ابن عباس رضي الله عنه "أثاثا" مالاً .

وقد تقدم القول في الحين ؛ وهو هنا وقت غير معيّن بحسب كل إنسان ، إما بموته وإمّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث .

ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أهاجتك الظعائن يوم بانوا . . .

بذي الزّيّ الجميل من الأثاث

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾

فيه ست مسائل :

(37/441)

الأولى قوله تعالى : ﴿ ظِلَالًا ﴾ الظّلال : كلّ ما يستظَلّ به من البيوت والشجر .

وقوله ﴿ مِمَّا خَلَقَ ﴾ يعمّ جميع الأشخاص المظِلّة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَكْنَانًا ﴾ الأكنان : جمع كِنّ ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ؛ وهي هنا الغيران في الجبال ، جعلها الله عدّة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها .

وفي الصحيح أنه عليه السلام كان في أول أمره يتعبّد بغار حِرَاء ويمكث فيه الليالي . . .

الحديث .

وفي صحيح البخاريّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً هارباً من قومه فاراً بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغار في جبل ثَوْر ، فكَمَنَا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن فيُدْلِج من عندهما بسحَر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر مِنْحَةً من غنم فيرِيحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيَبِيتان في رِسْل ، وهو لبن مِنحتهما ورَضِيفُهما حتى ينعِق بهما عامر بن فُهيرة بغَلَس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث . . .

وذكر الحديث .

انفرد بإخراجه البخاري .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ يعني القُمص ، واحدها سربال . ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب ؛ ومنه قول كعب بن زهير :

شُمُّ العرانين أبطال لَبُوسهمُ . . .

من نَسْج داودَ في الهَيْجَا سَرابيلُ

الرابعة إن قال قائل : كيف قال "وجعل لكم من الجبال أكنانا" ولم يذكر السهل ، وقال "تقيكم الحرّ" ولم يذكر البرد ؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حَرٍّ ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التي تختص بهم كما خصّهم بذكر الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكَتّان ولا الثلج كما تقدم فإنه لم يكن ببلادهم ؛ قال معناه عطاء الخراسانيّ وغيره .

وأيضاً : فذكر أحدهما يدل على الآخر ؛ ومنه قول الشاعر :

وما أدري إذا يمّمت أرضاً . . .

أريد الخير أيهما يَليني

أألخير الذي أنا أبتغيه . . .

أم الشر الذي هو يبتغيني

الخامسة قال العلماء : في قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدّة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبيّ صلى الله عليه وسلم تقاة الجراحة وإن كان يطلب الشهادة ، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف ، ولكنه يلبس لأْمة حرب لتكون له قوّة على قتال عدوّه ، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ويفعل الله بعدُ ما يشاء .

السادسة قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وحميد "تتم" بتاءين ، "نعمتُه" رفعاً على أنها الفاعل .

الباقون "يتم" بضم الياء على أن الله هو يتمها .

و"تسلمون" قراءة ابن عباس وعكرمة "تَسْلَمون" بفتح التاء واللام ، أي تسلمون من الجراح ، وإسناده ضعيف ؛ رواه عَباد بن العوّام عن حنظلة عن شَهْر عن ابن عباس .

الباقون بضم التاء ، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكراً على نعمه .

قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامّة ؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان .

(39/441)

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغ ﴾ أي ليس عليك إلا التبليغ ، وأما الهداية فإلينا .

قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾

قال السُّدِّي : يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، أي يعرفون نبوّته ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ويكذبونه .

وقال مجاهد : يريد ما عدّد الله عليهم في هذه السورة من النعم ؛ أي يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم .

وبمثله قال قتادة .

وقال عَوْن بن عبد الله : هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا ، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله .

وقال الكَلْبِيّ : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا : نَعم ، هي كلها نِعم من الله ، ولكنها بشفاعة آلهتنا .

وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلّبهم فيها ، وينكرونها بترك الشكر عليها .

ويحتمل سادساً يعرفونها في الشدّة وينكرونها في الرخاء .

ويحتمل سابعاً يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم .

ويحتمل ثامناً يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم ؛ نظيرها ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ يعني جميعهم ؛ حسبما تقدّم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(40/441)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم ﴾

يعني التي هي من الحجر والمدر ﴿ سكناً ﴾ يعني مسكناً تسكنونه ، والسكن ما سكنت إليه وفيه من ألف أو بيت ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ يعني الخيام والقباب والأخبية ، والفساطيط المتخذة من الأدم والأنطاع .

واعلم أن المساكن على قسمين : أحدهما : ما لم يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر ، وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما ، والقسم الثاني : ما يمكن نقله من مكان إلى آخر وهي الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الأنعام ، وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿ تستخفونها ﴾ يعني يخف عليكم حملها ﴿ يوم ظعنكم ﴾ يعني في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم وظعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى ، نحو ذلك ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ يعني وتخف عليكم أيضاً في إقامتكم وحضركم ، والمعنى : لا تثقل عليكم في الحالتين ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ الكناية عائدة إلى الأنعام ، يعني ومن أصواف الضأن ، وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿ أثاثاً ﴾ يعني تتخذون أثاثاً .

الأثاث .

متاع البيت الكبير ، وأصله من أث إذا كثر وتكاثف ، وقيل للمال أثاث إذا كثر .

قال ابن عباس : أثاثاً يعني مالاً : وقال مجاهد : متاعاً .

وقال القتيبي : الأثاث المال أجمع من الإبل والغنم والعبيد والمتاع .

وقال غيره الأثاث هو متاع البيت من الفرش والأكسية ونحو ذلك ﴿ ومتاعاً ﴾ يعني وبلاغاً وهو ما يتمتعون به ﴿ إلى حين ﴾ يعني إلى حين يبلى ذلك الأثاث ، وقيل : إلى حين الموت .

فإن قلت : أي فرق بين الأثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف ، والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق ؟ .

قلت : الأثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال ، والمتاع ما ينتفع به في البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم .

﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾

(41/441)

يعني جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد ، وهي ظلال الأبنية والجدران والأشجار ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد ، كالأسراب والغيران ونحوها وذلك لأن الإنسان إما أن يكون غنياً أو فقيراً ، فإذا سافر احتاج في سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فأما الغني فيستصحب معه الخيام في

سفره، ليستكن فيها وإليه الإشاره بقوله ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ وأما الفقير فيستكن في ظلال الأشجار والحيطان والكهوف ونحوها، وإليه الإشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً ولأن بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الضلال وما يدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنان عليهم بها، لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ يعني وجعل لكم قمصاً وثياباً من القطن والكتان والصوف وغير ذلك، تمنعكم من شدة الحر قال أهل المعاني والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ يعني الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في الحرب من السلاح، والبأس الحرب يعني تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم.

قال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكناناً، وما جعله لهم من السهول أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتاب أكثر، ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر، وكما قال تعالى ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقي من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ كذلك ﴾ يعني كما أنعم عليكم بهذه النعم ﴿ يتم نعمته عليكم ﴾ يعني نعم الدنيا والدين ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ يعني لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون ، أنه لا يقدر على هذه الإنعامات إلا الله تعالى ﴿ فإن تولو ﴾ يعني فإن أعرضوا عن الإيمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية ، فإنما وبال ذلك عليهم لا عليك ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ يعني ليس عليك في ذلك عتب ، ولا سمة تقصير إنما عليك البلاغ ، وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى بقوله ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ قال السدي : نعمة الله يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) أنكروه وكذبوه .

وقيل : نعمة الله هي الإسلام لأنه من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده ، ثم إن كفار مكة أنكروه وجحدوه ، وقال مجاهد وقتادة : نعمة الله ما عدد عليهم في هذه السورة من النعم يقرون بأنها من الله ، ثم إذا قيل لهم : صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا .

وقال الكلبي : إنه لما ذكر هذه النعم قالوا : هذه نعم كلها من الله تعالى لكنهم بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل إنهم يعترفون بأن الله أنعم بهذه النعم ، ولكنهم لا يستعملونها في طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها ﴿ وأكثرهم

الكافرون ﴾ إنما قال الله سبحانه وتعالى أكثرهم الكافرون مع أنهم كانوا كلهم كافرين ، لأنه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالأكثر عن البالغين ، وقيل : أراد بالأكثر الكافرين الحاضرين المعاندين ، وقد كان فيهم من ليس بمعاند وإن كان كافراً وقيل إنه عبر بالأكثر عن الكل لأنه قد يذكر الأكثر ، ويراد به الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(43/441)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

الظعن : سير البادية في الانتجاع والتحول من موضع إلى موضع ، والظعن الهودج أيضاً .

الصوف للضأن ، والوبر للإبل ، والشعر للمعز ، قاله أهل اللغة في قوله : ومن أصوافها الآية .

الأثاث : قال المفضل متاع البيت كالفرش والأكسية ، وقال الفراء : لا واحد له من لفظه ، كما أنّ المتاع لا واحد له من لفظه ، ولو جمعت لقلت : أأثثة في القليل ، وأثث في الكثير .

وقال أبو زيد : واحده أثاثه ، وقال الخليل : أصله من قولهم أثث النبات والشعر ، فهو أثيث إذا كثر .

قال امرؤ القيس :

وفرع يزين المتن أسود فاحم . . .

أثيث كقنو النخلة المتعثكل

الكن ما حفظ ، ومنع من الريح والمطر وغير ذلك ، ومن الجبال الغار .

﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ : لما ذكر تعالى ما منَّ به عليهم من خلقهم ، وما خلق لهم من مدارك العلم ، ذكر ما امتن به عليهم مما ينتفعون به في حياتهم من الأمور الخارجية عن دوابهم من البيوت التي يسكنونها ، من الحجر والمدر والأخشاب وغيرها .

والسكن فعل بمعنى مفعول ، كالقنص ، والنفص .

وأنشد الفراء :

جاء الشتاء ولما أتخذ سكناً . . .

يا ويح نفسي من حفر القراميص

وليس السكن بمصدر كما ذهب إليه ابن عطية ، وكأنه تعالى ذكر أولاً ما غالب البيوت عليه من كونها لا تنقل ، بل ينتقل الناس إليها .

(44/441)

ثم ذكر ثانياً ما منّ به علينا من المتخذ من جلود الأنعام ، وهو ما ينتقل من القباب والخيام والفساطيط التي من الأدم ، أو ذكر أولاً البيوت على طريق العموم ، ثم ذكر بيوت الجلود خصوصاً تنبيهاً على حال أكثر العرب ، فإنهم لانتجاعهم إنما بيوتهم من الجلود ، والظاهر أنه لا يندرج في البيوت التي من جلود الأنعام بيوت الشعر ، وبيوت الصوف والوبر .

وقال ابن سلام : تندرج لأنها ثابتة فيها ، فهي منها .

ومعنى تستخفونها : تجدونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل .

يوم ظعنكم : يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها ، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها .

وقد يراد بالاستخفاف في وقتي السفر والحضر أي : مدة النجعة والإقامة .

وقرأ الحرميان وأبو عمرو : ظعنكم بفتح العين ، وباقي السبعة بسكونها ، وهما لغتان .

وليس السكون بتخفيف كما جاء في نحو الشعر والشعر لمكان حرف الخلق ، والظاهر أنّ

أثاثاً مفعول ، والتقدير : وجعل من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً .

وقيل : أثاثاً منصوب على الحال على أنّ المعنى : جعل من أصوافها وأوبارها وأشعارها بيوتاً ، فيكون ذلك معطوفاً على من جلود الأنعام ، كما تقول : جعلت لك من الماء شراباً ومن اللبن ، وفي التقدير الأول يكون قد عطف مجروراً على مجرور ، ومنصوباً على منصوب كما تقول : ضربت في الدار زيداً وفي القصر عمراً ، ولما لم تكن بلادهم بلاد قطن وكتّان وحرير اقتصر على هذه الثلاثة هنا ، واندرجت في قوله سرابيل تقيكم الحر .

والمتاع : ما يتمتع به أي : ينتفع به .

وقال ابن عباس : الزينة .

وقال المفضل : المتجر والمعاش .

وقال الخليل : الأثاث والمتاع واحد وجمع بينهما لاختلاف اللفظين كقوله : وألفى قولها كذباً وميناً .

وغياً ؛ تعالى ذلك بقوله : إلى حين ، فقال ابن عباس : إلى الموت .

وقال مقاتل : إلى بلى ذلك الشيء .

وقيل : إلى انقضاء حاجتكم منه .

ولما ذكر تعالى ما منّ به عليهم ما سبق ذكره ، وكانت بلادهم غالباً عليها الحر ، ذكر امتنانه عليهم بما يقيهم الحر من خلق الأجرام التي لها ظل كالشجر وغيره مما يمنع من أذى الشمس .

وقال ابن عباس ومجاهد : ظلال الغمام .

وقال ابن السائب : ظلال البيوت .

وقال قتادة ، والزجاج : ظلال الشجر .

وقال ابن قتيبة : ظلال الشجر والجبال والأكنان من الجبال هي الغيران ، والكهوف ، والبيوت المنحوتة منها .

والسربال ما لبس على البدن من : قميص ، وقرقل ، ومجول ، ودرع ، وجوشن ، ونحو ذلك من صوف وكتان وقطن وغيرها .

واقتصر على ذكر الحر إما لأن ما يقي الحر يقي البرد قاله الزجاج ، أو حذف البرد لدلالة ضده عليه قاله المبرد ، أو لأنه أمس في تلك البلاد والبرد فيها معدوم في الأكثر .

وإذا جاء توقى بالأثاث فيخلص السربال لتوقي الحر فقط ، قاله عطاء الخراساني .

وهذا في بلاد الحجاز ، وأما غيرها من بلاد العرب فيوجد فيها البرد الشديد كما قال متمم :

إذا القشع من برد الشتاء تقعقعا . . .

وقال آخر :

في ليلة من جمادى ذات أندية . . .

والسرابيل التي تقي الناس هي الدروع .

قال كعب بن زهير :

شم العرانين أبطال لبوسهم . . .

من نسج داود في الهيجا سرابيل

والسربال عام ، يقع على ما كان من حديد وغيره .

والبأس في أصل اللغة الشدة ، وهنا الحرب .

وفي الحديث : "كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) "والمعنى : تقيكم أذى الحرب وهو ما يعرض فيها من الجراح الناشئة من ضرب السيف ، والدبوس ، والرمح ، والسهم ، وغير ذلك مما يعد للحديث .

كذلك أي مثل ذلك الإتمام للنعمة فيما سبق ، يتم نعمته في المستقبل .

وقرأ ابن عباس : تتم بتاء مفتوحة نعمته بالرفع ، أسند التمام إليها اتساعاً ، وعنه نعمه جمعاً .

وقرأ : لعلكم تسلمون بفتح التاء ، واللام من السلامة والخلاص ، فكأنه تعليل لوقاية السرابيل من أذى الحرب ، أو تسلمون من الشرك .

وأما تسلمون في قراءة الجمهور فالمعنى : تؤمنون ، أو تنقادون إلى النظر في نعم الله تعالى مفض إلى الإيمان والانقياد .

روي أن أعرابياً سمع قوله تعالى : والله جعل لكم من بيوتكم سكناً إلى آخر الآيتين فقال : عند كل نعمة اللهم نعم ، فلما سمع : لعلكم تسلمون ، قال : اللهم هذا فلا ، فنزلت .

فإن تولوا ، يحتمل أن يكون ماضياً أي : فإن أعرضوا عن الإسلام .

ويحتمل أن يكون مضارعاً أي : فإن تتولوا ، وحذفت التاء ، ويكون جارياً على الخطاب السابق والماضي على الالتفات ، والفاء وما بعدها جواب الشرط صورة ، والجواب حقيقة محذوف أي : فأنت معذور إذ أدّيت ما وجب عليك ، فأقيم سبب العذر وهو البلاغ مقام المسبب لدلالته عليه .

وقال ابن عطية : المعنى إن أعرضوا فلست بقادر على حق الإيمان في قلوبهم ، فإنما عليك أن تبين وتبلغ أمر الله ونهيه انتهى .

ثم أخبر عنهم على سبيل التقريع والتوبيخ بأنهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وعرفانهم للنعم التي عدت عليهم حيث يعترفون بها ، وأنها منه تعالى ، وإنكارهم لها حيث يعبدون

غير الله ، وجعل ذلك إنكاراً على سبيل المجاز ، إذ لم يرتبوا على معرفة نعمه تعالى مقتضاها من عبادته ، وإفراده بالعبادة دون ما نسبوا إليه من الشركاء ، قال قريباً من هذا المعنى مجاهد .

وقال السدّي : النعمة هنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والمعنى : يعرفون بمعجزاته وآيات نبوته ، وينكرون ذلك بالتكذيب ، ورجحه الطبري .

وعن مجاهد أيضاً : إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا .

وعن ابن عون : إضافتها إلى الأسباب لا إلى مسببها ، وحكى صاحب الغنيان : يعرفونها في الشدة ، ثم ينكرونها في الرخاء .

وقيل : إنكارهم هي بشفاعة آلهتهم عند الله .

وقيل : يعرفونها بقلوبهم ثم ينكرونها بألسنتهم .

والظاهر أنّ المراد مِن وأكثرهم موضوعه الأصلي .

وقال الحسن : وكلهم : ما من أحد يقوم بواجب حق الشكر ، فجعله من كفران النعمة .

وظاهر أن الكفر هنا هو مقابل الإيمان .

وقيل : أكثر أهل مكة ، لأنّ منهم من أبى .

وقيل : معنى الكافرون الجاحدون المعاندون ، لأنّ فيهم من كان جاهلاً لم يعرف فيعاند .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى ثم ؟ (قلت) : الدلالة على أنّ إنكارهم مستبعد بعد حصول المعرفة ، لأنّ حق من عرف النعمة أنْ يعترف لا أنْ ينكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(48/441)

وقال أبو السعود :

﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ ﴾

معطوف على ما مر وتقديم لكم على ما سيأتي من المجرور والمنصوب لما مر من الإيذان من أول الأمر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس إلى وروده ، وقولُه تعالى : ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ أي المعهودة التي تبنونها من الحجر والمدَر تبيينٌ ذلك المجعول المبهمِ في الجملة وتأكيدٌ لما سبق من التشويق ﴿ سَكَنًا ﴾ فَعَلٌ بمعنى مفعول أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتِكم أو تسكنون إليه من غير أن ينتقل من مكانه ، أي جعل بعضَ بيوتكم بحيث تسكنون إليه

وتطمئنون به ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتًا ﴾ أي بيوتا أُخَرَ مغايرةً لبيوتكم المعهودةِ هي الخيامُ والقِباب والأخبية والفساطيط.

﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ تجدونها خفيفةً سهلةَ المأخذ ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ وقت ترحالِكم في النقض والحمل والنقل، وقرىء بفتح العين ﴿ وَيَوْمَ إقامتكم ﴾ وقت نزولِكم في الضرب والبناء ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿ مّن جُلُودِ ﴾ والضمائر للأنعام على وجه التنويع، أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبارِ الإبل وأشعارِ المعز ﴿ أَثَاثاً ﴾ أي متاعَ البيت وأصلُه الكثرةُ والاجتماعُ ومنه شعرٌ أثيثٌ ﴿ ومتاعا ﴾ أي شيئاً يُتمتّع به بفنون التمتع ﴿ إلى حِينٍ ﴾ إلى أن تقضوا منه أوطارَكم أو إلى أن يبلى ويفنى فإنه في معرض البلى والفناء، وقيل: إلى أن تموتوا، والكلامُ في ترتيب المفاعيل مثلُ ما مر من قبل.

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ﴾

من غير صنعٍ من قِبلكم ﴿ ظلالا ﴾ أشياءَ تستظلون بها من الحر كالغمام والشجرِ والجبل وغيرِها. امتنّ سبحانه بذلك لِما أن تلك الديارَ غالبةُ الحرارة ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مّنَ الجبال أكنانا ﴾ مواضعَ تسكنون فيها من الكهوف والغِيران والسُّروب، والكلامُ في الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مرّ غير مرة.

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ جمع سِربال وهو كل ما يُلبس ، أي جعل لكم ثيابا ً من القُطن والكَتان والصوف وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ خصّه بالذكر اكتفاءً بذكر أحد الضدّين عن ذكر الآخر أو لأن وقايتَه هي الأهم عندهم لما مر آنفاً ﴿ وسرابيل ﴾ من الدروع والجواشن ﴿ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أي البأسَ الذي يصل إلى بعضكم من بعض في الحرب من الضرب والطعن ، ولقد منّ الله سبحانه علينا حيث ذكر جميعَ نعمِه الفائضةِ على جميع الطوائف فبدأ بما يخُص المقيمين حيث قال : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرةٌ على الخيام وأضرابها حيث قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام ﴾ الخ ، ثم بما يعم من لا يقدر على ذلك ولا يأويه إلا الظلالُ حيث قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ * مِّمَّا خَلَقَ ظلالا ﴾ الخ ، ثم بما لا بد منه لأحد حيث قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ الخ ، ثم بما لا غنى عنه في الحروب حيث قال : ﴿ وسرابيل تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الإتمامِ البالغ ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي إرادةَ أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرةِ والباطنةِ والأنفسيةِ والآفاقية فتعرِفوا حقَّ مُنعمِها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لأمره ، وإفرادُ النعمة إما لأن المرادَ بها المصدرُ أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياءِ شيءٌ قليل ، وقرىء تَسلمون أي تسلمون من العذاب أو من الشرك ، وقيل : من الجراح بلبس الدروع .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات ، وصرفُ الخطابِ عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليةٌ له أي فإن أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا منك ما أُلقيَ إليهم من البينات والعِبر والعظات ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ المبين ﴾ أي فلا قصور من جهتك لأن وظيفتك هي البلاغُ الموضح أو الواضح وقد فعلتَه بما لا مزيد عليه فهو من باب وضعِ السببِ موضعَ المسبب .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ﴾

استئنافٌ لبيان أن تولّيَهم وإعراضَهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم بما عُدد من نعم الله تعالى أصلاً فإنهم يعرِفونها ويعترفون أنها من الله تعالى ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غيرَ مُنعمها أو بقولهم : إنها بشفاعة آلهتِنا أو بسبب كذا ، وقيل : نعمةُ الله تعالى نبوةُ محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءَهم ثم أنكروها عِناداً ، ومعنى ثم استبعادُ الإنكار بعد المعرفة لأن حق مَنْ عرف النعمة الاعترافُ بها لا الإنكارُ ، وإسنادُ المعرفة والإنكارِ المتفرِّعِ عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق من باب إسنادِ حالِ البعض إلى الكل كقولهم : بنو فلان قتلوا فلاناً وإنما القاتل واحدٌ منهم ، فإن بعضهم

ليسوا كذلك لقوله سبحانه : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ أي المنكرون بقلوبهم غيرُ المعترفين بما ذكر ، والحُكم عليهم بمطلق الكفر المؤذِن بالكمال من حيث الكمية لا ينافي كمالَ الفِرقة الأولى من حيث الكيفية . هذا وقد قيل : ذكرُ الأكثر إما لأن بعضهم لم يَعرِفوا لنقصان العقل أو التفريطِ في النظر ، أو لم يقُم عليه الحجةُ لأنه لم يبلغ حد التكليف فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(51/441)

وقال الآلوسى :

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ ﴾

معطوف على ما مر ، وتقديم ﴿ لَكُمْ ﴾ على ما بعده للتشويق والإيذان من أول الأمر بأن هذا الجعل لمنفعتهم ، وقوله تعالى : ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ تبيين لذلك المجعول المبهم في الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق والإضافة للعهد أي من بيوتكم المعهودة التي تبنونها من الحجر والمدر والأخشاب ﴿ سَكَناً ﴾ فعل بمعنى مفعول كنقض وأنشد الفراء :

جاء الشتاء ولما أتخذ سكنا . . .

يا ويح نفسي من حفر القراميص

وليس بمصدر كما ذهب إليه ابن عطية أي موضعاً تسكنون فهي وقت إقامتكم ، وجوز أن يكون المعنى تسكنون إليه من غير أن ينتقل من مكانه أي جعل بعض بيوتكم بحيث تسكنون إليه وتطمئنون به .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتًا ﴾ أي بيوتاً أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة وهي القباب المتخذة من الأدم والظاهر أنه لا يندرج في هذه البيوت البيوت المتخذة من الشعر والصوف ولوبر ، وقال ابن سلام وغيره : بالإندراج لأنها من حيث أنها ثابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها .

واعترض بأن ﴿ مِنْ ﴾ على الأول تبعيضية وعلى إرادة البيوت التي من الشعر ونحوه ابتدائية ، فإذا عمم ذلك يلزم استعمال المشترك في معنييه وأجيب بأن القائل بذلك لعله يرى جواز هذا الاستعمال ، وممن قال بذلك البيضاوي وهو شافعي .

(52/441)

وقيل : الجلود مجاز عن المجموع ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أي تجدونها خفيفة سهلة المأخذ فالسين ليست للطلب بل للوجدان كأحمدته وجدته محموداً ﴿ يَوْمَ ﴾ وقت ترحالكم في النقض والحمل ﴿ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقامتكم ﴾ ووقت نزولكم وإقامتكم في مسايركم حسبما

يتفق في الضرب والبناء ، وجوز أن يكون المعنى تجدونها خفيفة في أوقات السفر وفي أوقات الحضر ، واختار ابن المنير الأول وقال : إنه التفسير لأن المنة في خفتها في السفر أتم وأقوى إذا لا يهم المقيم أمرها ، قال في "الكشف" : وهو حق ، وقال بعض الفضلاء : ينبغي أن يكون الثاني أولى للعموم فإن حالتي السفر اندرجتا في يوم ظعنكم حيث أريد به مقابل الحضر والخفة على المقيم نعمة في حقه أيضاً فإنه يضربها وقد ينقلها من مكان إلى مكان قريب لداع يدعو إليه فالأولى أن لا تخلو الآية عن التعرض لذلك اه ولا يخفى أن الاندراج ظاهر إن أريد بالظعن مقال الحضر وأما إذا أريد به مقابل النزول كما سمعت فغير ظاهر . نعم يجوز إرادة ذلك ، وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو ﴿ ظَعَنِكُمْ ﴾ بفتح العين .

وباقي السبعة بسكونها وهما لغتان والفتح على ما في المعالم أجزلهما ، وقيل : الأصل الفتح والسكون تخفيف لأجل حرف الحلق كالشعر والشعر .

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ جُلُودِ ﴾ والضمير للأنعام على وجه التنويع أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿ أَثَاثاً ﴾ أي متاع البيت كالفرش وغيرها كما قال المفضل ، قال الفراء : لا واحد له من لفظه كما أن المتاع كذلك ولو جمعت قلت : أأثثة في القليل وأثث في الكثير .

وقال أبو زيد : واحده أثاثة وأصله كما قال الخليل من قولهم : أثث النبات والشعر وهو

أثيث إذا كثر قال امرؤ القيس :

وفرع يزين المتن أسود فاحم . . .

أثيث كقنو النخلة المتعثكل

(53/441)

ونصبه على أنه معطوف على ﴿ بُيُوتًا ﴾ مفعول جعل فيكون مما عطف فيه جار ومجرور مقدم ومنصوب على مثلهما نحو ضربت في الدار زيداً وفي الحجرة عمراً وهو جائز وليس بمستقبح كما زعم في الإيضاح.

وجوز أن يكون نصباً على الحال فيكون من عطف الجار والمجرور فقط على مثله أي وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها حال كونها أثاثاً .

وتعقبه السمين بأن المعنى ليس على ذا وهو ظاهر .

﴿ ومتاعا ﴾ أي شيئاً يتمتع به وينتفع في المتجر والمعاش قاله المفضل ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المتاع الزينة ، وقال الخليل : الأثاث والمتاع واحد ، والعطف لتنزيل تغاير اللفظ منزلة تغاير المعنى كما في قوله :

وألفى قولها كذباً وميناً . . .

والأولى أولى ﴿ إلى حِينٍ ﴾ إلى انقضاء حاجاتكم منه ، وعن مقاتل إلى بلى ذلك وفنائه ؛ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إلى الموت ، والكلام في ترتيب المفاعيل مثله في مر غير مرة .

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مّمَّا خَلَقَ ﴾ من غير صنع منكم ﴿ ظلالا ﴾ أشياء تستظلون بها من الغمام والشجر والجبال وغيرها وهو الذي يقتضيه الظاهر وروى ذلك عن قتادة ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد الاقتصار على الغمام ، وعن الزجاج. وقتادة أيضاً الاقتصار على الشجر ، وعن ابن قتيبة الاقتصار على الشجر والجبال ولعل كل ذلك من باب التمثيل ، وعن ابن السائب أن المراد ظلال البيوت وهو كما ترى ، ومن سبحانه بما ذكر لأن تلك الديار كانت غالبة الحرارة ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مّنَ الجبال أكنانا ﴾ مواضع تستكنون فيها من الغيران ونحوها ، والواحد كن وأصله السترة من أكنه وكنه أي ستره ويجمع على أكنان وأكنة .

(54/441)

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ جمع سربال وهو كل ما يلبس أي جعل لكم لباساً من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ خصه بالذكر كما قال المبرد اكتفاء بذكر

أحد الضدين عن الآخر أعني البرد ، ولم يخص هو بالذكر اكتفاء لأن وقاية الحر أهم عندهم لما مر آنفاً .

وقال بعضهم : من الرأس خص الحر بالذكر لأن وقايته أهم .

وتعقب دعوى الأهمية بأنه يبعدها ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ [النحل : 5] ثم قيل : وهذا وجه الاقتصار على الحر هنا لتقدم ذكر خلافه ثمت .

واعترض بأنا لا نسلم أن إثبات الدفء هناك يبعد دعوى الأهمية بل في تغاير الأسلوبين ما يشعر بهذه الأهمية ، وقال الزجاج : خص الحر بالذكر لأن ما يقي من الحر يقي من البرد ، وذكر ذلك الزمخشري بعد ذكر الأهمية ، وقال في "الكشف" : هو الوجه ، وتخصيص الحر بالذكر لما قدمه في الوجه الأول يعني الأهمية ، وما قيل : من أولوية الأول لقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَلَقَ ظِلالا ﴾ فليس بيء لأنه تعالى عقبه بقوله بسحانه : ﴿ مِّنَ الْجِبالِ أَكْناناً ﴾ كيف وهو في مقام الاستيعاب اه ، وصاحب القيل هو ابن المنير ، وقد اعترض أيضاً على قوله : إن ما يقي من الحر يقي من البرد بأنه خلاف المعروف فإن المعروف أن وقاية الحر رقيق القمصان ورفيعها ووقاية البرد ضده ولو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين القيظ والشتاء لباس الآخر لعد من الثقلاء اه فتدبر .

﴿ وسرابيل ﴾ من الجواشن والدروع ﴿ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أي البأس الذي يصل من بعضكم إلى بعض في الحروب من الضرب والطعن ، وقال بعضهم : أصل البأس الشدة وأريد

به هنا الحرب ، والكلام على حذف مضاف أي إذا بأسكم وعلى الأول لا حاجة إليه وقد رجح لذلك ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الاتمام للنعمة في الماضي ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ في المستقبل ، ومن هنا قيل :

كما أحسن الله فيما مضى . . .

كذلك يحسن فيما بقي

(55/441)

أو مثل هذا الاتمام البالغ يتم نعمته عليكم ، وإفراد النعمة أما لأن المراد بها المصدر أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل .

وقرأ ابن عباس ﴿ تتم ﴾ بتاء مفتوحة و ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ ﴾ بالرفع على الفاعلية وإسناد التمام إليها على الاتساع ، وعنه أيضاً رضي الله تعالى عنه ﴿ نِعَمَهُ ﴾ بصيغة الجمع ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به تعالى وحده وتذروا ما كنتم به تشركون على أن الإسلام بمعناه المعروف أي رديف الإيمان ، ويجوز أن يكون بمعناه اللغوي وهو الاستسلام والانقياد أي لعلكم تستسلمون له سبحانه وتنقادون لأمره عز وجل ، وأياً ما كان فهو موضوع موضع سببه كما

أشير إليه أو مكني به عنه .

وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ تَسْلِمُونَ ﴾ بفتح التاء واللام من السلامة أي تشكرون فتسلمون من العذاب أو تنظرون فيها فتسلمون من الشرك ، وقيل : تسلمون من الجراح بلبس تلك السرابيل ، ولا بأس أن يفسر ذلك بالسلامة من الآفات مطلقاً ليشمل آفة الحر والبرد ، والأقرب إلى معنى قراءة الجمهور التفسير الثاني .

هذا وفي بعض الآثار أن أعرابياً سمع قوله تعالى : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ [النحل : 80] إلى آخر الآيتين فقال عند كل نعمة : اللهم نعم فلما سمع قوله سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ اللهم هذا فلا فنزلت .

(56/441)

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وتوجيه الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له عليه الصلاة والسلام أي فإن داموا على التولي والإعراض وعدم قبول ما ألقي إليهم من البينات ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ المبين ﴾ أي فلا يضرك لأن وظيفتك هي البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب ، وقال ابن عطية : تقدير المعنى إن أعرضوا فلست بقادر

على خلق الإيمان في قلوبهم فإنما عليك البلاغ لا خلق الإيمان ، وجوز أن يكون ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ مضارعاً حذفت إحدى تاءيه وأصله تتولوا فلا التفات لكن قيل عليه : إنه لا يظهر حينئذ ارتباط الجزاء بالشرط إلا بتكلف ولذا لم يلتفت إليه بعض المحققين ، وفي التعبير بصيغة التفعيل إشارة كما قيل إلى أن الفطرة الأولى داعية إلى الإقبال على الله تعالى والإعراض لا يكون إلا بنوع تكلف ومعالجة .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ استئناف لبيان أن تولي المشركين وإعراضهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم نعمة الله سبحانه أصلاً فإنهم يعرفونها أن من الله تعالى ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بأفعالهم حيث لم يفردوا منعمها بالعبادة فكأنهم لم يعبدوه سبحانه أصلاً وذلك كفران منزل منزلة الإنكار .

وأخرج ابن جرير .

وغيره عن مجاهد أنه قال : إنكارهم إياها قولهم : ورثناها من آبائنا ، وأخرج هو وغيره أيضاً عن عون بن عبد الله أنه قال : إنكارهم إياها أن يقول الرجل : لولا فلان أصابني كذا وكذا ولولا فلان لم أصب كذا وكذا وفي لفظ إنكارها إضافتها إلى الأسباب ، وقيل : قولهم هي بشفاعة آلهتهم عند الله تعالى ، وحكى صاحب الغنيان يعرفونها في الشدة ثم ينكرونها في الرخاء ، وقيل : يعرفونها بقلوبهم ثم ينكرونها بألسنتهم .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن السدي أنه قال النعمة هنا محمد صلى الله عليه وسلم ورجح ذلك الطبري أي يعرفون أنه عليه الصلاة والسلام نبي بالمعجزات ثم ينكروه ذلك ويجحدونه عناداً ، وفي لفظ ابن أبي حاتم أنه قال هذا في حديث أبي جهل والأخنس حين سأل الأخنس أبا جهل عن محمد صلى الله عليه وسلم فقال : هو نبي .

ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ الاستبعاد الإنكار بعد المعرفة لأن حق من عرف النعمة الاعتراف بها وأداء حقها لا إنكارها ، وإسناد المعرفة والإنكار المتفرع عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق من باب حال البعض إلى الكل فإن بعضهم ليسوا كذلك كما هو ظاهر قوله سبحانه : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ أي المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر ، والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لا ينافي كمال الفرقة الأولى من حيث الكيفية كذا قيل ، وجوز أن يكون الإسناد السالف على ظاهره والمراد أن أكثرهم المصرون الثابتون على كفرهم إلى يوم يلقونه فالتعبير بالأكثر لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن ، وقيل : المعنى وأكثرهم الجاحدون عناداً ، والتعبير بالأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان عقله وعدم اهتدائه إليه أو لعدم نظره في الأدلة نظراً يؤدي إلى المطلوب أو لأنه لم يقم عليه الحجة لكونه لم يصل إلى حد المكلفين لصغر ونحوه وإما لأنه يقام مقام الكل فتأمل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكاني :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

قوله : ﴿ والله جعل لكم ﴾ معطوف على ما قبله .

وهذا المذكور من جملة أحوال الإنسان ، ومن تعديد نعم الله عليه ، والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع .

وهو بمعنى : مسكون ، أي : تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة .

وهذه نعمة ، فإن الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطرباً دائماً كالأفلاك ، ولو شاء لخلقه ساكناً أبداً كالأرض ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتاً ﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن ، وهي التي للإقامة الطويلة ، عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة ، أي : جعل لكم من جلود الأنعام ، وهي الأنطاع والأدم بيوتاً كالخيام والقباب ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أي : يخفّ عليكم حملها في الأسفار وغيرها ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ والظعن بفتح العين وسكونها ، وقرىء بهما : سير أهل البادية للانتجاع والتحوّل من موضع إلى موضع ، ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع . . . وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضاً ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ﴾ معطوف على ﴿ جعل ﴾ أي : وجعل لكم من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها .

والأنعام : تعمّ الإبل والبقر والغنم كما تقدّم .

والأصواف : للغنم ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز ، وهي من جملة الغنم ، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها لواحد من الثلاثة ، أعني : الإبل ، ونوعي الغنم ، والأثاث متاع البيت ، وأصله الكثرة والاجتماع ، ومنه شعر أثيث ، أي : كثير مجتمع ، قال الشاعر :

وفرع يزين المتن أسود فاحم . . . أثيث كقنو النخلة المتعثكل

قال الخليل أثاثاً ، أي : منضماً بعضه إلى بعض ، من أثّ إذا أكثر ، قال الفراء : لا واحد له ، والمتاع : ما يتمتع به بأنواع التمتع ، وعلى قول أبي زيد الأنصاري : إن الأثاث المال أجمع : الإبل والغنم والعبيد والمتاع ، يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام ، وقيل : إن الأثاث ما يكتسي به الإنسان ويستعمله من الغطاء والوطاء ، والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به ، ومعنى ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى أن تقضوا أوطاركم منه ، أو إلى أن يبلى

ويفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة.

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر، فيحتاج إلى أن يستظلّ بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك، نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ أي: أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة، والحاصل: أن الظلال تعم الأشياء التي تظلّ.

ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوي إليه في نزوله، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحرّ والبرد، نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ وهي جمع كنّ: وهو ما يستكنّ به من المطر، وهي هنا الغيران في الجبال، جعلها الله سبحانه عدّة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها، ويعتزلون عن الخلق فيها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ جمع سربال، وهي: القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها.

قال الزجاج: كل ما لبسته فهو سربال.

ومعنى ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ تدفع عنكم ضرر الحرّ، وخصّ الحرّ ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر، لأن ما وقى من الحرّ وقى من البرد.

ووجه تخصيص الحرّ بالذكر أن الوقاية منه كانت أهمّ عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحرّ في بلادهم ﴿ وسرابيل تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ وهي الدروع والجواشن، يتقون بها الطعن

والضرب والرمي .

والمعنى : أنها تقيهم البأس الذي يصل من بعضهم إلى بعض في الحرب .

(60/441)

﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : مثل ذلك الإتمام البالغ يتمّ نعمته عليكم ، فإنه سبحانه قد منّ على عباده بصنوف النعم المذكورة ها هنا وبغيرها ، وهو بفضله وإحسانه سيتمّ لهم نعمة الدين والدنيا .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ إرادة أن تسلموا ، فإن من أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه إلاّ الإسلام والانقياد للحق .

وقرأ ابن محيصن ، وحميد " تتم نعمته " بتاءين فوقيتين ، على أن فاعله نعمته ، وقرأ الباقون بالتحتية على أن الفاعل هو الله سبحانه .

وقرأ ابن عباس ، وعكرمة " تسلمون " بفتح التاء واللام من السلامة من الجراح ، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر اللام من الإسلام .

قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامة ، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح .

وقيل : الخطاب لأهل مكة أي : لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية ، والأولى الحمل على العموم ، وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ المبين ﴾ أي : إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به ، فقد تمهد عذرك ، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم ﴿ المبين ﴾ أي : الواضح ، وليس عليك غير ذلك ، وصرف الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له .

وجملة ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ استئناف لبيان توليهم ، أي : هم يعرفون نعمة الله التي عدّدها ، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ، ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة ، حيث يقولون : هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام .

وحيث يقولون : إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم ، وأيضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الربّ سبحانه ، وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها .

(61/441)

وقيل : نعمة الله نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونه ، ثم ينكرون نبوّته ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ أي : الجاحدون لنعم الله ، أو الكافرون بالله .

وعبر هنا بالأكثر عن الكلّ ، أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر بعضهم كفر جهل ، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ، ومثل هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ [النمل : 14] .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ سكنا ﴾ قال : تسكنون فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي نحوه قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتًا ﴾ وهي خيام العرب ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ يقول : في الحمل ﴿ ومتاعا ﴾ يقول بلاغاً ﴿ إلى حِينٍ ﴾ قال : إلى الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ قال : بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة ، وفي قوله : ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ قال : الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ قال : الغنم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ أَثَاثاً ﴾ قال : الأثاث المتاع .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : الأثاث المال ﴿ ومتاعا إلى حِينٍ ﴾ يقول : تنتفعون به إلى

حين.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا ﴾ قال: من الشجر ومن غيرها ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾ قال: غارات يسكن فيها ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ قال: من القطن والكتان والصوف ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ من الحديد ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم.

(62/441)

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ قال: يعني: الثياب، ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ قال: يعني: الدروع والسلاح ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ يعني: من الجراحات، وكان ابن عباس يقرؤها "تسلمون" كما قدمنا، وإسناده ضعيف. انتهى. اهـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(63/441)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ الآية .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة منته على خلقه . بأنه جعل لهم سرابيل تقيهم الحر . اي والبرد . لأن ما يقي الحر من اللباس يقي البرد . والمراد بهذه السرابيل : القمصان ونحوها من ثياب القطن والكتان والصوف . وقد بين هذه النعمة الكبرى في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ﴾ [الأعراف : 26] الآية ، وقوله : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : 31] الآية . أي وتلك الزينة هي ما خلق الله لهم من اللباس الحسن . وقوله هنا ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ [النحل : 81] المراد بها الدروع ونحوها ، مما يقي لابسه وقع السلاح ، ويسلمه من بأسه .

وق بن أيضاً هذه النعمة الكبرى ، واستحقاق من أنعم بها لأن يشكر له في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ [الأنبياء : 80] . وإطلاق السرابيل على الدروع ونحوها معروف . ومنه قوله كعب بن زهير :

شم العارنين أبطال لبوسهم . . . من نسج داود في الهيجا سرابيل

قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار يعرفون نعمه الله . لأنهم يعلمون أنه هو الذي يرزقهم ويعافيهم ، ويدبر شؤونهم ، ثم ينكرون هذه النعمة . فيعبدون معه غيره ، ويسوونه بما لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني شيئاً .

(64/441)

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَمَن يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 31] . فقوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ دليل على معرفتهم نعمته . وقوله : ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ دليل على إنكارهم لها .

والآيات بمثل هذا كثيرة جداً .

وروي عن مجاهد : ان سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن أعرابياً أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم فسأله . فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾ [النحل : 80] فقال الأعرابي : نعم ! قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام

بُيُوتاً ﴾ [النحل: 80] الآية. قال الأعرابي: نعم! ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي: نعم! حتى بلغ ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: 81] فولى الأعرابي. فأنزل الله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: 83] الآية. وعن السدي رحمه الله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ اي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم ينكرونها. اي يكذبونه وينكرون صدقه.

(65/441)

وقد بين جل وعلا: أن بعثة نبيه صلى الله عليه وسلم فيهم من منن الله عليهم. كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: 164] الآية. وبين في موضع آخر: أنهم قابلوا هذه النعمة بالكفران. وذلك في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ [إبراهيم: 28]. وقيل: يعرفون نعمة الله في الشدة، ثم ينكرونها في الرخاء. وقد تقدمت الآيات الدالة على ذلك، كقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: 65]، ونحوها من الآيات – إلى غير ذلك من الأقوال في الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ [النحل: 83] قال بعض

العلماء : معناه أنهم كلهم كافرون . أطلق الأكثر وأراد الكل . قاله القرطبي والشوكاني .
وقال الشوكاني : أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم . أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر بعضهم كفر جهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(66/441)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

هذا من تعداد النّعم التي ألهم الله إليها الإنسان ، وهي نعمة الفكر بصنع المنازل الواقية والمرفّهة وما يشبهها من الثياب والأثاث عطفاً على جملة ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ [سورة النحل : 78] .

وكلّها من الألطاف التي أعدّ الله لها عقل الإنسان وهيّأ له وسائلها .

وهذه نعمة الإلهام إلى اتّخاذ المساكن وذلك أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجوّ من شدّة برد أو حرّ ومن غوائل السباع والهوامّ .

وهي أيضاً أصل الحضارة والتمدّن لأن البلدان ومنازل القبائل تتقوّم من اجتماع البيوت .

وأيضاً تتقوّم من مجتمع الحِلل والخيام .

والقول في نظم جملة والله جعل لكم ﴾ كالقول في التي قبلها .

وبيوت : يجوز فيه ضمّ الموحدة وكسرها ، وهو جمع بيت .

وضمّ الموحّدة هو القياس لأنه على وزن فُعول ، وهو مطرد في جمع فَعْل بفتح الفاء وسكون العين .

وأما لغة كسر الباء فلمناسبة وقوع الياء التحتية بعد الموحّدة المضمومة ، لأن الانتقال من حركة الضمّ إلى النّطق بالياء ثقيل .

وقال الزجاج : أكثر النحويين لا يعرفون الكسر (أي لا يعرفونه لغة) وبيّن أبو عليّ جوازه .

وتقدم في سورة البقرة .

وبالكسر قرأ الجمهور .

وقرأها بالضمّ أبو عمرو وورش عن نافع وحَفص عن عاصم .

والبيت : مكان يجعل له بناء وفسطاط يحيط به يعين مكانه ليتّخذه جاعلُه مقَراً يأوي إليه ويستكنّ به من الحرّ والقُرّ .

وقد يكون محيطُه من حجر وطين ويسمّى جداراً ، أو من أخشاب أو قصب أو غير ذلك وتُسمّى أيضاً الأخصاص .

ويوضع فوق محيطه غطاء ساتر من أعلاه يسمّى السقْف ، يتّخذ من أعواد ويُطيّن عليها ، وهذه بيوت أهل المدن والقرى .

(67/441)

وقد يكون المحيط بالبيت متّخذاً من أديم مدبوغ ويسمى القبّة ، أو من أثواب تُنْسج من وَبر أو شَعَر أو صُوف ويسمّى الخَيمة أو الخباءَ ، وكلّها يكون بشكل قريب من الهرميّ تلتقي شُقّتاه أو شُققه من أعلاه معتمدةً على عمود وتنحدر منه متّسعَة على شكل مخروط .

وهذه بيوت الأعراب في البوادي أهل الإبل والغنم يتّخذونها لأنها أسعد لهم في انتجاعهم ، فينقلونها معهم إذا انتقلوا يتبّعون مواقع الكَلأ لأنعامهم والكَمْأة لعَيشهم .

وقد تقدّم ذكر البيت عند قوله تعالى : { وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً } في سورة البقرة (125) .

و { جَعَل } هنا بمعنى أوجد ، فتتعدّى إلى مفعول واحد .

والسَكَن : اسم بمعنى المسكون .

والسكنى : مصدر سكن فلان البيتَ ، إذا جعله مقرّاً له ، وهو مشتقّ من السكون ، أي القرار .

وانتصب قوله تعالى: ﴿ سكناً ﴾ على المفعولية ل ﴿ جعل ﴾ .

وقوله: ﴿ من بيوتكم ﴾ بيان للسكن، فتكون ﴿ من ﴾ بيانية، أو تجعل ابتدائية ويكون الكلام من قبيل التجريد بتنزيل البيوت منزلة شيء آخر غير السكن، كقولهم: لئن لقيت فلاناً لتلقينّ منه بحراً .

وأصل التركيب: والله جعل لكم بيوتكم سكنا .

وقيل: إن ﴿ سكناً ﴾ مصدر وهو قول ضعيف، وعليه فيكون الامتنان بالإلهام الذي دلّ عليه السكون، وتكون ﴿ من ﴾ ابتدائية، لأن أول السكون يقع في البيوت .

وشمل البيوت هنا جميع أصنافها .

وخُصّ بالذّكر القباب والخيام في قوله تعالى: ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ لأن القباب من أدم، والخيام من منسوج الأوبار والأصواف والأشعار، وهي ناشئة من الجلد، لأن الجلد هو الإهاب بما عليه، فإذا دبغ وأزيل منه الشّعر فهو الأديم .

وهذا امتنان خاص بالبيوت القابلة للانتقال والارتحال، والبشر كلّهم لا يعدون أن يكونوا أهل قرى أو قبائل رحلاً .

والسين والتاء في ﴿ تستخفونها ﴾ للوجدان ، أي تجدونها خفيفة ، أي خفيفة المحمل حين ترحلون ، إذ يسهل نقضها من مواضعها وطيّها وحملها على الرواحل ، وحين تنيخون إناخة الإقامة في الموضع المنتقل إليه فيسهل ضربها وتوثيقها في الأرض .

والظعن بفتح الظاء والعين وتسكن العينُ ، وقد قرأه بالأول نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ، وبالثاني الباقون ، وهو السّفر .

وأطلق اليوم على الحين والزمن ، أي وقت سفركم .

والأثاث بفتح الهمزة اسم جمع للأشياء التي تفرش في البيوت من وسائد وبُسط وزرابيّ ، وكلها تنسج أو تُحْشى بالأصواف والأشعار والأوبار .

والمتاع أعمّ من الأثاث ، فيشمل الأعدال والخُطُم والرحائل واللّبود والعُقُل .

فالمتاع : ما يتمتّع به وينتفع ، وهو مشتقّ من المتع ، وهو الذهاب بالشيء ، ولِملاحظة اشتقاقه تعلّق به إلى حين .

والمقصود من هذا المتعلّق الوعظ بأنها أو أنهم صائرون إلى زوال يحول دون الانتفاع بها ليكون الناس على أهبة واستعداد للآخرة فيتّبعوا ما يرضي الله تعالى .

كما قال : ﴿ أذهبتم طيّبا تكم في حيا تكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ [سورة الأحقاف : 20] .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾

عطف على أخواتها .

والقول في نظم ﴿ والله جعل لكم ﴾ كالقول في نظائره المتقدّمة .

وهذا امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقّي من أضرار الحرّ والقُرّ في حالة الانتقال ، أعقبت به المنّة بذلك في حال الإقامة والسكنى ، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقّي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس ، إذ خلق الله الظّلال صالحة للتوقّي من حَرّ الشمس ، وخلقَ الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها ، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها ، وخلق الحديد لاتّخاذ الدروع للقتال .

و(من) في ﴿ مما خلق ﴾ ابتدائية .

(69/441)

والظلال تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ﴾ [سورة النحل : 48] آنفاً ، لأن الظلال آثار حجب الأجسام ضوء الشمس من الوقوع على الأرض .

والأكنان : جمع كِنّ بكسر الكاف وهو فعل بمعنى مفعول ، أي مكنون فيه ، وهي الغيران والكهوف .

و(مِن) في قوله تعالى : ﴿ مما خلق ﴾ ، و ﴿ من الجبال ﴾ ، للتبعيض .

كانوا يأوون إلى الكهوف في شدّة حرّ الهجير أو عند اشتداد المطر ، كما ورد في حديث الثلاثة الذين سألوا الله بأفضل أعمالهم في "صحيح البخاري" .

والسّرابيل : جمع سربال ، وهو القميص يقي الجسد حرّ الشمس ، كما يقيه البرد .

وخص الحرّ هنا لأنه أكثر أحوال بلاد المخاطبين في وقت نزولها ، على أنه لما ذكر الدفء في قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ﴾ [سورة النحل : 5] ذكر ضدّه هنا .

والسّرابيل التي تقي البأس : هي دروع الحديد .

ولها من أسماء القميص الدرع ، والسّربال ، والبدن .

والبأس : الشدّة في الحرب .

وإضافته إلى الضمير على معنى التوزيع ، أي تقي بعضكم بأس بعض ، كما فسر به قوله تعالى : ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ [سورة الأنعام : 65] ، وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ [سورة الحديد : 25] ، وهو بأس السيوف ، وقوله تعالى : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم ﴾ [سورة الأنبياء : 80] .

وجملة كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ تذييل لما ذكر من النّعم ، والمشار إليه هو ما في النّعم المذكورة من الإتمام ، أو إلى الإتمام المأخوذ من ﴿ يتم ﴾ .

و(لعلّ) للرجاء ، استعملت في معنى الرّغبة ، أي رغبةً في أن تسلموا ، أي تتّبعوا دين

الإسلام الذي يدعوكم إلى ما مآله شكر نعم الله تعالى.

وتقدم تأويل معنى الرجاء في كلام الله تعالى من سورة البقرة.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) ﴾

(70/441)

تفريع على جملة ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ [سورة النحل : 81] وقع اعتراضاً بين جملة ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ [سورة النحل : 81] وجملة ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾ [سورة النحل : 84].

وقد حوّل الخطاب عنهم إلى خطاب النبي وهو نوع من الالتفات فيه التفات من أسلوب إلى أسلوب والتفات عمّن كان الكلام موجّهاً إليه بتوجيه الكلام إلى شخص آخر.

والمعنى: كذلك يتمّ نعمته عليكم لتسلموا فإن لم يُسلموا فإنما عليك البلاغ.

والمقصود: تسلية النبي على عدم استجابتهم.

والتّولي: الإعراض.

وفعل ﴿ تولوا ﴾ هنا بصيغة الماضي، أي فإن أعرضوا عن الدعوة فلا تقصير منك ولا غضاضة عليك فإنك قد بلّغت البلاغ المبين للمحجّة.

والقصر إضافي ، أي ما عليك إلا البلاغ لا تقليب قلوبهم إلى الإسلام ، أو لا تولى جزاءهم على الإعراض ، بل علينا جزاؤهم كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ [سورة الرعد : 40] .

وجَعْل هذا جواباً لجملة فإن تولوا ﴾ من إقامة السبب والعلّة مقام المسبّب والمعلُول :

وتقدير الكلام : فإن تولّوا فلا تقصير ولا مؤاخذة عليك لأنك ما عليك إلا البلاغ .

ونظير هذه قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعو الرسول واحذروا فإن تولّيتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ [سورة المائدة : 92] .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) ﴾

استئناف بياني لأن تولّيهم عن الإسلام مع وفرة أسباب اتّباعه يثير سؤالاً في نفس السامع : كيف خفيت عليهم دلائل الإسلام ، فيجاب بأنهم عرفوا نعمة الله ولكنهم أعرضوا عنها إنكاراً ومكابرة .

ويجوز أن تجعلها حالاً من ضمير ﴿ تولوا ﴾ [سورة النحل : 82] .

ويجوز أن تكون بدل اشتمال لجملة تولوا ﴾ .

وهذه الوجوه كلها تقتضي عدم عطفها على ما قبلها .

والمعنى: هم يعلمون نعمة الله المعدودة عليهم فإنهم منتفعون بها ، ومع تحقّقهم أنها نعمة من الله ينكرونها ، أي ينكرون شكرها فإن النّعمة تقتضي أن يشكرُ المنعَمُ عليه بها من أنعم عليه؛ فلما عبدوا ما لا ينعم عليهم فكأنهم أنكروها ، فقد أطلق فعل "ينكرون" بمعنى إنكار حقّ النّعمة ، فإسناد إنكار النّعمة إليهم مجاز لغوي ، أو هو مجاز عقلي ، أي ينكرون مُلابسها وهو الشكر .

و﴿ ثمّ ﴾ للتراخي الرتبي ، كما هو شأنها في عطف الجمل ، فهو عطف على جملة ﴿ يعرفون نعمت الله ﴾ ، وكأنه قيل: وينكرونها ، لأن ﴿ ثمّ ﴾ لما كانت للعطف اقتضت التّشريك في الحكم ، ولما كانت للتراخي الرتبي زال عنها معنى المهلة الزمانية الموضوعة هي له فبقي لها معنى التّشريك وصارت المهلة مهلة رتبية لأن إنكار نعمة الله أمر غريب .

وإنكار النّعمة يستوي فيه جميع المشركين أيمتهم ودهماؤهم ، ففريق من المشركين وهم أئمة الكفر شأنهم التعقّل والتأمّل فإنهم عرفوا النّعمة بإقرارهم بالمنعِم وبما سمعوا من دلائل القرآن حتى تردّدوا وشكّوا في دين الشّرك ثم ركبوا رؤوسهم وصمّموا على الشّرك .

ولهذا عبّر عن ذلك بالإنكار المقابل للإقرار .

وأما قوله تعالى: ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ فظاهر كلمة "أكثر" وكلمة ﴿ الكافرون ﴾ أن الذين وصفوا بأنهم الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم ، فيحمل المراد بالغالب

على دهماء المشركين.

فإن معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النّظر فهم لا يشعرون بنعمة الله، فإن نعمة الله تقتضي إفراده بالعبادة.

فكان إشراكهم راسخاً، بخلاف عقلائهم وأهل النظر فإن لهم تردّداً في نفوسهم ولكن يحملهم على الكفر حبّ السيادة في قومهم.

وقد تقدم قوله تعالى فيهم: ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ في سورة العقود (103).

(72/441)

وهم الذين قال الله تعالى فيهم في الآية الأخرى ﴿ فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [سورة الأنعام: 33]. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(73/441)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله : ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً . . . ﴾ [النحل : 80] .

كلمة سكن مأخوذة من السكون ، والسكون ضد الحركة ، فالبيت نُسمّيه سكناً ؛ لأن الإنسان يلجأ إليه ليرتاح فيه من حركة الحياة خارج البيت ، إذن : في الخارج حركة ، وفي البيت سكن .

والسكن قد يكون مادياً كالبيت وهو سكن القالب ، وقد يكون معنوياً ، كما قال تعالى في حَقِّ الأزواج : ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا . . ﴾ [الروم : 21] .

فالزوجة سكَنٌ معنويٌّ لزوجها ، وهذا يُسمّونه سكن القلب .

فإنْ قال قائل :

﴿ مِّن بُيُوتِكُمْ . . . ﴾ [النحل : 80] .

يعني : نحن الذين صنعناها وأقمناها . فكيف جعلها الله لنا ؟ .

نقول : وأنت كيف صنعتها ؟ ومِمَ بنيْتها ؟ صنعتَها من غابٍ أو خشب ، أو بنيْتها من طين أو طوب . . كل هذه المواد من مادةَ الأرض من عطاء الله لك ، وكذلك العقل الذي يُفكّر ويرسم ، والقوة التي تبني وتُشيّد كلها من الله .

إذن : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ إما أنْ يكون جَعْلاً مباشراً ، وإما أنْ يكون غير مباشر . . فالله سبحانه جعل لنا هذه المواد . . هذا جَعْل مباشر ، وأعاننا وقوّانا على البناء . . هذا

جَعْلٌ غير مباشر .

لكن في أيّ الأماكن تُبنى البيوت ؟

البيوت لا تُبنَى إلا في أماكن الاستقرار ، التي تتوفّر لها مُقوّمات الحياة . . فقبل أن نُنظّم مدينة سكنية نبحث أولاً عن مُقوّمات الاستقرار فيها من مأكل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه وصرف . . إلى آخره .

فإن وجدت هذه المقوّمات فلا مانعَ من البناء هنا . . فإذا لم توجد المرافق في الصحراء ومناطق البدو ، هنا لا يناسبها البيوت والبناء الدائم ، بل يناسبها :

(74/441)

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ . . ﴾ [النحل : 80] . فنرى أهل البدو يتخذون من الجلود بُيُوتاً مثل الخيمة والفسطاط . . حيث نراهم كثيري التنقُّل يبتغون مواطن الكلأ والعشب ، ويرحلون طَلباً للمرعى والماء ، وهكذا حياتُهم دائمة التنقّل من مكان لآخر . . فيناسبهم بيت من جلد أو من صوف أو من وَبَر خفيف الحَمْل ، يضعونه أينما حطُّوا رحالهم ، ويرفعونه أينما ساروا . . والظّعْن هو التنقُّل من مكان لآخر .

إذن: كلمة (سكن) تفيد الاستقرار، وتُوفّر كل مُقوّمات الحياة؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لآدم: ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة . . ﴾ [البقرة: 35].

أي: المكان الذي فيه راحتكم، وفي نعيمكم، فحدّد له مكان إقامة وسكَن . .

ومكان الإقامة هذا قد يكون عامّاً، وقد يكون خاصاً، مثل لو قُلْت: أسكن الإسكندرية . . هذا سكَنٌ عام، فلو أردتَ السكن الحقيقي الخاص بك لَقُلْتَ: أسكن في شارع كذا، وفي عمارة رقم كذا، وفي شقة رقم كذا، وربما كان لك حجرة خاصة من الشقة هذه.

إذن: هذا سكَنٌ خاص بك . . سكنُك الحقيقي الذي تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتيٍّ لا يشاركك فيه أحد؛ ولذلك نرى بعض سكان العمارات يشكُون من الإزعاج والضوضاء، ويتمنوْنَ أن يعيشوا في بيوت مستقلة تُحقّق لهم الراحة الكافية التي لا يضايقهم فيها أحد.

إذن: حينما ننظر إلى السكون . . إلى السكن، نحتاج المكان الضيق الذي يُحقّق لن الخصوصية التامة التي تصل إلى حجرة، مجرد حجرة، ولكنها تعني السكن الحقيقي الخاص بي، وقد تصل الخصوصية أنْ نجعلَ لكل ولد من الأولاد سريراً خاصاً به في نفس الحجرة.

فإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة وجدنا الإنسان على العكس يطلب السعة ؛ لأن الحركة تقتضي السعة في المكان ، فمَنْ كان عنده مزرعة يطلب عزبة ، ومن كان عنده عزبة يتمنى ثانية وثالثة وهكذا لأن حركة الحياة تحتاج مجالاً واسعاً فسيحاً .

هذا عن النوع الأول ، وهو السكن المادي سكن القالب ، وهو من أعظم نِعَم الله على عباده . . أن يكون لهم سكَن يأوون إليه ، ويرتاحون فيه من عناء وحركة الحياة .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه أن يُعذِّب بني إسرائيل ، أشاع سكنهم في الأرض كلها ، وحرمهم من نعمة السكن الحقيقي الخاص ، فقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . ﴾ [الإسراء : 104] .

فالأرض هي المكان العام الذي يسكن فيه كل الناس . . فليس لهم بلد تجمعهم ، بل بدَّدهم الله في الأرض ولم يجعل لهم وطناً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . . ﴾ [الأعراف : 168] .

حتى في البلاد التي يعيشون فيها تراهم معزولين عن الناس في أماكن خاصة بهم لا يذوبون في غيرهم ، وهكذا سكنوا الأرض ولم تحدد لهم بلد .

أما النوع الثاني من السكن ، وهو السكن المعنوي أو سكن القلب ، فهو سكن الزوج إلى زوجته الصالحة التي تُخفّف عنه عناء الحياة وهمومها ، تبتسم في وجهه إنْ كان مسروراً

وتُهدِّيء من غضبه إنْ كان مُغْضَباً ، تحتويه بما لديها من حُب وحنان وإخلاص . . هذا هو السكن المعنوي ، سكن القلب .

وقوله :

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ [النحل : 80] .

الأصواف للغنم ، والأوبار للإبل ، والشعر للماعز . . فما الفرْق بين هذه الثلاث في الاستعمال ؟

يستعمل الناس كلاًّ من الصوف والوبر ؛ لأن الشُّعيرات فيها دقيقة جداً يمكن نَدْفها وغَزْلها والانتفاع بها في الفُرش والأبسطة والألحفة والملابس وغيرها مما يحتاجه الناس .

(76/441)

أما شعر الماعز فالشعيرات فيه ثخينة لا يمكن نَدْفها أو غَزْلها ، فلا يمكن الانتفاع به في هذه المنسوجات ، وقوله تعالى :

﴿ أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ [النحل : 80] .

الأثاث : هو ما يوجد في البيت مما تتطلبه حركة الحياة كالأبسطة والمفارش والملابس والستائر .

والمتاع: هو ما يُستمتع ويُنتفع به . . والفرْق بينهما أن الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغير كثيراً ، أما المتاع فقد يتغير حسب الحاجة .

فأنت مثلاً قد تحتاج إلى تغيير التلفاز القديم لتأتي بآخر حديث ، مُلوّن مثلاً ، لكن قلّما تُغير الثلاجة أو الغسالة مثلاً .

وقوله: ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل : 80] .

لأن الإنسان قد يغتر حين يستوفي متطلبات حياته ، وقد تلهيه هذه النعم عن مطلوب المنعم سبحانه ، فينشغل بالنعمة التي هو فيها عن المنعم الذي أنعم عليه بها . . فتأتي هذه الآية مُحذّرة .

إياك أنْ تغترّ بالمتاع والأثاث ؛ لأنها متاع إلى حين . . متاعٌ موقوت لا يدوم ، ومهما استوفيت حظّك منها في الدنيا فإنها صائرة إلى أمرين :

إما أن تفوتها بالموت ، وإما أنْ تفوتَك بالفقر والحاجة . . إذن : هي ذاهبة ذاهبة . .

فتذكّروا دائماً قوله تعالى :

﴿ إِلَىٰ حِينٍ . . . ﴾ [النحل : 80] . فمتاع النعمة موقوت ، لكن متاع المنعِم سبحانه خالد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار ، ويجدون مُقوّمات الحياة ، وتكلم عن أهل الترحال والتنقُّل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم . ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً ، ولا حتى جلود الأنعام . ماذا يفعل هؤلاء ؟ .

(77/441)

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظِلّون به من وهج الشمس ، وجعل لهم من الكهوف والسراديب في الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه . وهكذا استوعبتْ الآيات جميع الحالات التي يمكن أن يكون عليها بشر ، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس ، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله .

أما مَنْ لا يملك بيتاً يأويه ، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتاً ، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حَرِّ الشمس ، وجعل له كهوف الجبال تُكِنّه وتأويه .

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرتْ الظل الذي يقينا حَرَّ الشمس ، ولم تذكر مثلاً البرد ؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهي بلاد حارة ، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدِّفء .

وقوله :

﴿ ظِلاَلاً . . ﴾ [النحل : 81] .

الظلال جمع ظِل ، وهو الواقي من الشمس ومن إشعاعاتها ، وقد يُوصَف الظل بأنه ظِل ظليل . أي : الظل نفسه مُظلل ، وهذا ما نراه في صناعة الخيام مَثلاً ، حيث يجعلونه لها سقفاً من طبقة واحدة تتلقّى حرارة الشمس ، وإنْ حجبت أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة ، وهنا يلجأون إلى جَعْل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس .

وهنا نقول : إن الظلّ نفسه مُظلّل ، وكذلك الحال في ظِل الأشجار حيث يظلّل الورق بعضه بعضاً ، فتشعر تحت ظِلّ الأشجار بجوّ لطيف باردٍ حيث يغطيك ظِلٌّ ظليل يحجب عنك ضوء الشمس ، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق .

لذلك فالشاعر يقول في وصف روضة :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرمْضَاءِ وَادٍ . . . سَقَاهُ مضاعف الغيْثِ العَمِيمِ

يَصُدُّ الشمسَ أَنَّى وَاجهتْنا . . . فَيحجُبُها وَيأذنُ للنسِيمِ

وقوله : ﴿ أَكْنَاناً . . . ﴾ [النحل : 81] .

جمع كِنْ ، وهو الكهف أو المغارة في الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمي بها ، والكِنّ من الستر ؛ لأنها تستر الناس ونحن نقول مثلاً للولد : انكنْ يعني : اسكُنْ واستتر .

ويقول تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ . . . ﴾ [النحل : 81] .

السرابيل : هي ما يُلبس من الثياب أو الدروع :

﴿ تَقِيكُمُ الحر . . . ﴾ [النحل : 81] .

أي : تحميكم من الحر . . فقال هنا الحر أيضاً ؛ لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية فقال : المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ، ففي الآية اكتفاءٌ بالحر عن البرد ؛ لأن الشيء إذا جاء يأتي مقابله . . فليس بالضرورة ذِكر الحالتين ، فإحداهما تعني الأخرى .

هذا دفاع مشكور منهم ، ومعنى مقبول حول هذه الآية .

. لكن لو فطَنّا إلى باقي الآيات التي تحدثتْ في هذا الموضوع لوجدناها : واحدة تتكلم عن الحر ، وهي هذه الآية ، وأخرى تتكلَّم عن البرد في قوله تعالى : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ . . . ﴾ [النحل : 5] .

أي : من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد ، وما نستدفئ به . . وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى .

والمتأمل في تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملبوسات لا يعطي للإنسان حرارة تُدفِئه ، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط ، فحرارة الإنسان ذاتية من داخله ، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان .

والأطباء يقولون : إن الجسم السليم حرارته 37 درجة لا تختلف إنْ عاش عند خط الاستواء أو عاش في بلاد الاسكيمو في القطب الشمالي ، فهذه هي الحرارة العامة للجسم .

في حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفتْ درجة حرارتها ، كُلٌّ حَسب ما يناسبه : فالكبد مثلاً درجة حرارته 40 درجة ، وتختلّ وظيفته إذا نقصت عن هذه الدرجة ، في حين أن درجة حرارة جَفْن العين مثلاً 9 درجة ، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبّة العين ، ويفقد الإنسان البصر . . فسبحان الله الذي حفظ حرارة هذه الأعضاء في الجسم لا يطغى أحدها على الآخر .

(79/441)

لذلك حينما سافرنا إلى أمريكا ، وفي إحدى مناطق البرودة الشديدة كانت أول نصائحهم لنا ألاَّ نمسك آذاننا بأيدينا . . لماذا ؟ قالوا : لأن درجة حرارة اليد أقلّ من درجة حرارة

الأذن ، ووَضْع اليد الباردة على الأذن قد تُسبِّب كثيراً من الأضرار .

إذن : كل ما نستخدمه من ملابس وأعطية تقينا برد الشتاء لا تعطينا حرارة ، بل تحفظ علينا حرارتنا الطبيعية فلا تتسرب ، وبذلك تتم التدفئة . . وتستطيع أنْ تضعَ يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً ، أما في الصباح فتجده دافئاً . . فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك ، وليس العكس .

وقوله :

﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ . . . ﴾ [النحل : 81] .

البأس هنا : أي الحرب ، والسرابيل التي تقي من البأس هي الدروع التي يلبسها الجنود في الحرب لتقيهم الضربات .

ولكن هذه الآية في سياق الحديث عن بعض نِعَم الله علينا في الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال . . حياة دَعَة وسلام ونعمة ، فما الداعي لذكر الحرب هنا ؟

ذلك لأن الحياة لها منطق سلامة للجميع ، فإن اختلّ منطق السلامة فعلى الناس أنْ يقفوا في وجه مَنْ يُخِلّ بسلامة المجتمع . . وأن يكون على استعداد لذلك في كل وقت ، لا بُدّ في وقت السِّلْم أنْ نُعِدَّ العُدّة للحرب ؛ لذلك تحدث عن الحرب وعُدتها ، وهو يتحدث عن السكون والاستقرار والنعمة .

والحق سبحانه وتعالى حين يُنزِل الآيات البينات التي تحمل لنا منهج السماء يقول : ﴿ لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط . . . ﴾ [الحديد : 25] .

هذا هو المنهج الذي يعتمد على الحجة والإقناع . فإن لم يصلح هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر ، يقول تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . ﴾ [الحديد : 25] .

وقوله :

(80/441)

﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ [النحل : 81] .

كأن من تمام نعمة الله أنْ نحفظها ممنْ يُفسدها علينا ، ونقف له بالمرصاد ونضرب على يده ؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسدين في مجتمعنا فسوف يُفسِدون علينا هذه النِّعم ، وسنظل مُهددّين ، لا نشعر بلذة الحياة ومُتعِها .

إذن : لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ . . ﴾ [النحل : 81] .

تُسلِمون : أي تلْقُون زمام الاستسلام إلى الله الذي أسلمتَ له ، وأنت لا تُلَقي زمامك إلا لمنْ

تثق فيه . . والإنسان قد يُلقي زمامه في أمر لا يجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر ، فإذا كنتَ في حاجات نفسك تُلقي زمامك لمن هو مثلك ، ويساويك في قِلّة المعلومات ، ويساويك في قِلّة الحكمة ، ومع ذلك تُسلِم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت ، أفلا تُلقي زمامك وتُسلِم أمرك إلى ربك وخالقك ، وخالق كُلّ هذه النعم من أجلك ؟

إذن : جاء ذِكْر هذه النعم ، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى نُسلمَ عن يقين واقتناع ، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة في طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، إنْ أطعناه فلن نزيد في مُلْكه سبحانه ، وإنْ عصيناه فلن ننقصَ من مُلْكه سبحانه .

إذن : تسليمنا الأمر والزمام لله من مصلحتنا نحن . . فالإنسان حينما يُسلِم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تَلْوي رأيه في المسألة ، إنما ربُّنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكْماً فليس له مصلحة فيه فلا يُلْوَى ، لا يكون إلاّ لصالحك .

وبعد أنْ عدّد هذه النعم في الذات والمحيطات وفي السكن وفي الانطباعات . قال : إياك بعد ذلك أن تُسلِمَ زمامك لغيري ، وإنْ أجريتُ عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة ؛ لأنني لا أجري عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه .

لذلك نقول : لا عبادة كالتسليم ؛ لأن التسليم لحُكْمِه تسليمٌ لحكيم ، تسليمٌ لغير منتفع . .

وما دُمْتَ قد سلمْتَ زمامك لربك عز وجل يُجلِّي لك الحكمة فيما جرى لك من الأحداث لتعلمَ رضاك عن حُكْمه لحكمته ، فتقول : أنا رضيتُ بحكمك يا رب .

ولذلك نقول في الدعاء : أحمدك على كُلِّ قضائك ، وجميع قَدَرِك حَمْد الرِّضا بحكمك لليقين بحكمتك .

أي : لك حكمة يا رب فيما أجريتَ عليَّ من أحداث ، ولكني لا أراها .

والذي يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط ؛ لأنه بذلك يُطيل على نفسه أمدَ القضاء ؛ لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به ، فالله تعالى لا مُجبر له .

فإن أردت رَفْع القضاء فارْضَ به أولاً ، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضى من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضَجِراً .

فالذي يُسلم زمامه إلى الله ويردّ كل حدث وقع أو بلاء نزل بِهِ يردُّه إلى الله ، وإلى حكمة مُجريه ، الله تعالى يقول له : لقد فهمتَ عني ، ويرفع عنه البلاء .

وفي مقام التسليم لله دائماً نذكر قصة سيدنا إبراهيم حينما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام . . وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبتلَى الرجل بذبح ولده الذي رُزِقه على كِبَر ، ويذبحه هو بيده .

إنه ابتلاء من مراتب مُتعدِّدة، ومن نَواحٍ مختلفة، وليْتَ الأمر بوحي ظاهر، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأوَّل فيه، ولكن رؤيا الأنبياء حق.

ونرى إبراهيم عليه السلام يقصُّ على ولده المسألة حِرْصاً عليه أنْ يتحوّل قلبه عن أبيه ساعةَ يأخذه ليذبحه، وأيضاً لكي يشاركه ولده في الرضا بقدر الله، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء.. فقال له: ﴿ إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ... ﴾ [الصافات: 102]

.

(82/441)

فليس الغرض هنا أنْ يزعجه أو يُخيفه، ولكن ليقول له: هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضاً، ولا يتغير قلبه على أبيه.

ولذلك كان الولد حكيماً في الرد، فقال: ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ.. ﴾ [الصافات: 102].

ما دام الأمر من الله فافعل، وهكذا سلّم إسماعيل كُما سلَّم إبراهيم، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: 103].

أسلما: أي الأب والابن، ورَضيا بقضاء الله، جاء الفرج ورُفع القضاء، فقد فهم كل

منهما الأمر عن الله ، فلم يرفع القضاء وفقط ، بل وفديناه بذبح عظيم ، ليس هذا وفقط ، بل ومنّنا عليه بولد آخر : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ [الصافات : 112] .

إذن : لعلكم تُسْلِمون زمامكم إلى الله ، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجد كم فيه ، وأمدّكم بكل متطلبات الحياة ضماناً لبقاء حياتكم ، وضماناً لبقاء نوعكم ، ومتّعكم هذه المتع .

فالذي أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جديرٌ أنْ تُسلِموا له زمام أمركم وتُسلموا له .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ . . . ﴾ .

أي : لا تحزن يا محمد إذا أعرض قومك ، فلست مأموراً إلا بالبلاغ ، ويخاطبه الحق سبحانه في آية أخرى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] .

أي : مهلكها . وقال تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4] .

لكن الدين لا يقوم على السيطرة على القالب ، وفَرْق بين السيطرة على القالب والسيطرة على القلب ، فيمكنك بمسدس في يدك أنْ تُرغمني على ما تريد ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبي على شيء لا يؤمن به ، والله يريد مِنّا القلوب لا القوالب ، ولو أراد مِنّا القوالب لجعلها راغمة خاضعة لا يشذّ منها واحد عن مراده سبحانه .

ولذلك حينما أرسل الله سليمان عليه السلام وجعله ملكاً رسولاً لم يقدر أحد أن يقف في وجهه، أو يعارضه لما له من السلطان والقوة إلى جانب الرسالة.. أمّا الأمر في دعوته صلى الله عليه وسلم فقائم على البلاغ فقط دون إجبار.

وقوله: ﴿ البلاغ المبين ﴾ [النحل: 82].

أي: البلاغ التام الكامل الذي يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها، فقد جاء المنهج الإلهي شاملاً للحياة بداية بقول: لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق، فلم يترك شيئاً إلا حدّثنا فيه، فهذا بلاغ مبين محيط لمصالح الناس.. فلا يأتي الآن مَنْ يتمحّك ويقول: ربنا ترك كذا أو كذا.. فمنهج الله كامل، فلو لم تأخذوه ديناً لوجب عليكم أن تأخذوه نظاماً.

ونرى الآن الأمم التي تُعادي الإسلام تتعرّض لمشاكل في حركة الحياة لا يجدون لها حَلاًّ في قوانينهم، فيضطرون لحلول أخرى تتوافق تماماً أو قريباً من حَلّ القرآن ومنهج الحق سبحانه وتعالى.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله.. ﴾.

وقد حكى القرآن عنهم في آيات أخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 87] .

وقال عنهم : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ . . . ﴾ [النمل : 14] .

ذلك لأنهم يعلمون تماماً أن الله خلقهم ، وأنه خلق السموات والأرض . . يعلمون كل نِعَم الله عليهم ، ومع ذلك يُنكرونها ويجحدونها . . لماذا ؟

لأن الإيمان بالله والاعتراف بنعمه مسألة شاقة عليهم ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها .

. ما أسهل أنْ يقولوا " لا إله إلا الله " لكنهم يعلمون أن : لا إله إلا الله لها مطلوبات ، فما دام لا إله إلا الله ، فلا يُشرِّع إلا الله ، ولا يأمر إلا الله ، ولا يَنْهى إلا الله ، ولا يُحِلُّ إلا الله ، ولا يُحرِّم إلا الله .

(84/441)

إذن : مطلوبات لا إله إلا الله جعلتهم في قالب من حديد ، منضبطين بمنهج يهدم سيادتهم ، ويمنع الطغيان والجبروت ، منهج يُسوِّي بين السادة والعبيد .

إذن : الدين الحق يُقيِّد حركتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، فتراهم يعرفون الله ولا يؤمنون به ؛ لأنهم يعلمون مطلوبات لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإلا لو كانت مجرد كلمة لقالوها .

وقوله :

﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ [النحل : 83] .

بعض العلماء يقولون : أكثرهم يعني كلهم . . لا . . بل هذا أسلوب قرآني لصيانة الاحتمال وللاحتياط للقلة التي تفكر في الإسلام ويراودها أمر هذا الدين الجديد من هؤلاء الكفار ، لا بُدَّ أنْ نُراعي أمر هذه القلة ، ونترك لهم الباب مفتوحاً ، فالاحتمال هنا قائم . .

فلو قال القرآن : كلهم كافرون لتعارض ذلك مع هؤلاء الذين يفكرون في أنْ يُسلِموا . .

وكذلك مراعاة لهؤلاء الذين لم يبلُغوا حَدَّ التكليف من أبناء الكفار .

إذن : قوله ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ﴾ تعبير دقيق ، فيه ما نُسمّيه صيانة الاحتمال . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(85/441)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في

قوله : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ قال : تسكنون فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ قال : تسكنون وتقرون فيها ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ وهي خيام الأعراب ﴿ تستخفونها ﴾ يقول في الحمل ﴿ ومتاعا إلى حين ﴾ قال : إلى الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ﴾ قال بعض : بيوت السيارة في ساعة وفي قوله : ﴿ وأوبارها ﴾ قال : الإبل ﴿ وأشعارها ﴾ قال : الغنم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أثاثاً ﴾ قال : الأثاث المال ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ يقول تنتفعون به إلى حين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن عطاء قال : إنما أنزل القرآن على قدر معرفة العرب . ألا ترى إلى قوله : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها ﴾ وما جعل الله لهم من غير ذلك أعظم منه وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر . ألا ترى إلى قوله : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب جبال . ألا ترى إلى قوله : ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ وما يقي البرد أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب حر . ألا ترى إلى قوله : (من جبال فيها من برد) يعجبهم بذلك ، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا لا يعرفونه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ قال : إلى أجل ، وبلغة .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾

(86/441)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾ قال : من الشجر ومن غيرها ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ قال : غارات يسكن فيها . ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ من القطن والكتان والصوف ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ من الحديد ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الكسائي ، عن حمزة عن الأعمش وأبي بكر وعاصم ، أنهم قرأوا ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ برفع التاء من أسلمت .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ قال : يعني الثياب ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ قال : يعني الدروع والسلاح ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ يعني من

الجراحات. وكان ابن عباس يقرؤها ﴿ تسلمون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه: أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله؟ فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ قال: الأعرابي نعم، قال: ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها ﴾ قال: الأعرابي نعم ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول نعم، حتى بلغ ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ فولى الأعرابي، فأنزل الله ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ قال: هي المساكن والأنعام وما ترزقون منها، وسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورثونا إياه.

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير في الآية قال: يعلمون أن الله خلقهم وأعطاهم، بعدما أعطاهم يكفرون، فهو معرفهم نعمته، ثم إنكارهم إياها كفرهم بعد.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عون بن عبد الله في قوله : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ قال : انكارهم إياها ، أن يقول الرجل : لولا فلان أصابني كذا وكذا ، ولولا فلان لم أصب كذا وكذا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ قال محمد : – صلى الله عليه وسلم – ولفظ ابن أبي حاتم قال : هذا في حديث أبي جهل والأخنس ، حين سأل الأخنس أبا جهل عن محمد : فقال : هو نبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(88/441)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَكَناً ﴾ : يجوز أن يكونَ مفعولاً اول ، على أنَّ الجَعْل تصييرٌ ، والمفعولُ الثاني أحدُ الجارَّيْنِ قبله . ويجوز أن يكونَ الجَعْل بمعنى الخَلْق فيتعدَّى لواحدٍ . وإنما وَحَّد السَّكَن لأنه بمعنى ما تَسْكُنُون فيه ، قاله أبو البقاء : وقد يُقال : إنه في الأصل مصدرٌ ، وإليه

ذهب ابن عطية فتوحيدُه واضحٌ . إلا أنَّ الشيخ منه كونَه مصدراً ، ولم يذكر وَجْهَ المنعِ ، وكأنه اعتمد على قولِ أهل اللغة أن " السَّكَن " فَعَل بمعنى مَفْعُول كالقَبْضِ والنَّقَض بمعنى المقبوض والمنقوض ، وأنشد الفراء :

3008- جاء الشتاءُ ولَمَّا أتخِذْ سَكَناً . . . يا ويحَ نفسي مِنْ حَفْرِ القراميصِ

قوله : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ قرأ نافعٌ وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين ؛ والباقون بإسكانها ، وهما لغتان بمعنىً كالنَّهْر والنَّهَر . وزعم بعضُهم أن الأصلَ الفتحُ ، والسكونُ تخفيفٌ لأجلِ حرفِ الحلق كالشَّعْر في الشعَر .

قوله : ﴿ أَثَاثاً ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ عطفاً على " بُيوتاً " ، أي " وَجَعَلَ لكم من أصوافِها أثاثاً ، وعلى هذا فيكونُ قد عطف مجروراً على مجرور ومنصوباً على منصوبٍ ، ولا فَصْلَ هنا بين حرفِ العطفِ والمعطوف حينئذٍ . وقال أبو البقاء : " وقد فُصِلَ بينه وبين حرفِ العطفِ بالجارِّ والمجرور وهو قولُه ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ ، وهو ليس بفصلٍ مستقبَحٍ كما زعم في " الإِيضاح " ؛ لأنَّ الجارَّ والمجرورَ مفعول ، وتقديمُ / مفعولٍ على مفعولٍ قياسٌ " . وفيه نظرٌ ؛ لِما عَرَفْتَ من أنه عَطْفُ مجرورٍ على مثلِه ومنصوبٍ على مثله .

والثاني : أنه منصوبٌ على الحالِ ، ويكون قد عَطَفَ مجروراً على مثِله ، تقديرُه : وجَعَل لكم مِنْ جلودِ الأنعام ومِنْ أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها بيوتاً حال كَونِها أثاثاً ، فَفَصَل بالمفعول بين المتعاطفين . وليس المعنى على هذا ، إنما هو على الأول .

وقوله : ﴿ كَلَمْحِ البصر ﴾ [النحل : 77] : اللَّمْحُ مصدرُ لَمَحَ يَلْمَح لَمْحاً ولَمَحاناً ، أي : أَبصَرَ بسرعة . وقيل : أصلُه من لَمْحِ البرق ، وقولهم " لأُرِيَنَّك لَمْحاً باصراً " ، أي : أمراً واضحاً .

وقوله : ﴿ فِي جَوِّ السمآء ﴾ [النحل : 79] : الجَوُّ : الهواء ، وهو ما بين السماءِ والأرض . قال :

3009- فلستَ لإِنْسيٍّ ولكنْ لِمَلأَكٍ . . . تنزَّلَ مِنْ جَوِّ السماء يَصُوبُ

وقيل : الجَوُّ ما يلي الأرضَ في سَمْتِ العُلُوِّ ، واللُّوح والسُّكاك أبعدُ منه .

وقوله : " ظَعْنِكم " مصدرُ ظَعَن ، أي : ارْتَحَلَ ، والظَّعِيْنَةُ الهَوْدَجُ فيه المرأةُ ، وإلا فهو مَحْمَلٌ ، ثم كَثُر حتى قيل للمرأة ، ظَعينة .

وقال أهل اللغة : الأصوافُ للضَّأْن ، والأَوْبار للإِبل ، والشَّعْر للمَعِز . والأَثاث : مَتاعُ البيت إذا كان كثيراً . وأصلُه مِنْ أثَّ الشعرُ والنَّباتُ إذا كَثُفا وتكاثرا . قال امرؤ القيس :

3010- وفَرْعٍ يُغْشَي المَتْنَ أسودَ فاحمٍ . . . أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المُتَعَثْكِلِ

ونساء أَثائِثُ، أي: كثيراتُ اللحمِ، كأنَّ عليهن أَثاثاً، وتَأَثَّث فلانٌ: كَثُر أثاثه. وقال الزمخشري: "الأثاث ما جَدَّ مِنْ فَرْشِ البيت، والخُرْثيُّ: ما قَدُم منها"، وأنشد:

3011- تقادَمَ العهدُ مِنْ أُمِّ الوليد بنا . . . دَهْراً وصار أثاثُ البيتِ خُرْثيّا

(90/441)

وهل له واحدٌ من لفظه؟ فقال الفراء: لا. وقال أبو زيد: "واحدة: أَثاثَةٌ، وجمعُه في القلَّة "أَثِثَّة، كبَتات وأَبِتَّة". قال الشيخ: "وفي الكثير على "أُثُثٍ". وفيه نظر؛ لأنَّ فَعالاً المُضَعَّف يلزمُ جَمْعُه على أَفْعِلَة في القلة والكثرة، ولا يُجْمع على فُعُل إلا في لفظتين شَذَّتا، وهما: عُنُن وحُجُج جمع عِنان وحِجاج، وقد نصَّ النحاة على مَنْع القياس عليهما، فلا يجوز: زِمام وزُمُم بل أَزِمَّة. وقال الخليل: "الأَثاثُ والمَتاع واحدٌ، وجُمِع بينهما لاختلافِ لَفْظَيْهما كقوله:

3012- . . . .

وأَلْفى قولَها كَذِباً ومَيْنا

[وقوله]:

3013- . . . .

. . . أتى مِنْ دونِها النّأْيُ والبُعْدُ

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَكْنَانًا ﴾: جمع "كِنّ" وهو ما حَفِظ مِن الريح والمطرِ، وهو في الجبل: الغار.

قوله: ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ قيل: حُذِف المعطوفُ لفَهْمِ المعنى، أي: والبردَ كقوله:

3014- كأنَّ الحصى مِنْ خلفِها وأمامِها . . . إذا نَجَلَتْه رِجْلُها حَذْفُ أَعْسرا

أي: ويدُها، وقيل: لا حاجةَ إلى ذلك لأنَّ بلادَهم حارَّة. وقال الزجاج: "اقتصر على ذِكْرِ الحرِّ؛ لأنَّ ما يقيه يَقي البردَ". وفيه نظرٌ للاحتياجِ إلى زيادةٍ كثيرةٍ لوقاية البرد.

(91/441)

قوله: ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ ﴾ أي: مِثْلَ ذلك الإِتمامِ السابقِ يُتِمُّ نعمتَه عليكم في المستقبل. وقرأ ابن عباس: "تَتِمُّ" بفتح التاءِ الأولى، "نِعْمَتُه" بالرفع على الفاعلية. وقرأ أيضاً "نِعَمه" جمع "نعمة" مضافةً لضميرِ الله تعالى. وعنه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ ﴾ بفتح التاءِ واللامِ مضارع "سَلِم" من السَّلامة، وهو مناسبٌ لقوله ﴿ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾؛ فإنَّ المرادَ به الدُّروعُ الملبوسةُ في الحرب.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يجوز أن يكونَ ماضياً ، ويكون التفاتاً مِن الخطاب المتقدَّم ، وأن يكونَ مضارعاً ، والأصل : تَتَوَلَّوا بتاءَيْن فحذف نحو : ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ [القدر : 4] و ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152] ، ولا التفاتَ على هذا بل هو جارٍ على الخطابِ السابق .

قوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ هو جوابُ الشرط ، وفي الحقيقة جوابُ الشرطِ محذوفٌ ، أي : فأنت معذورٌ ، وإنما ذلك على إقامةِ السببِ مُقامَ المسبب ؛ وذلك لأنَّ تبليغه سببٌ في عُذْره ، فأُقيم السببُ مُقامَ المُسَبَّب .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ : جِيْءَ ب " ثُمَّ " هنا للدلالةِ على أنَّ إنكارَهم أمرٌ مستبعدٌ بعد حصولِ المعرفة ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَ النعمة حقُّه أن يَعْتَرِفَ لا أَنْ يُنْكِرَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 272 . 277 ﴾

(92/441)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾

للنفوس وطن ، وللقلوب وطن . والناس على قسمين مستوطنٌ ومسافر : فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم ؛ فالمريد أو الطالب مسافِرٌ بقلبه لأنه يَتَلَوَّنُ ، ويرتقي من درجة إلى درجة ، والعارف مقيمٌ ومستوطِنٌ لأنه واصل متمكن . والطريق منازلُ ومراحلُ ، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب ، والمريد سالِكٌ والعارف واصِلٌ .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً . . . كذلك جعل في ظل عنايته لأوليائه مثوًى وقراراً .

وكما سَتَرَ ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم - كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به في السراء والضراء ، ولباسَ العصمة يحميكم من مخالفته ، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته ، وكساكم بحُلَلِ الوصل مما يؤهلكم لقربته وصحبته .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ ، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتُهم مختومة بالخير ، ويكفيهم أمورَ الدين والدنيا ، ويصونهم عن اتباع الهوى ، ويُسَدِّدُهم حتى يؤثروا ما يوجِبُ

من الله الرضاء .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) ﴾

إذا بَلَّغْتَ الرسالة فما جعلنا إليك حكم الهداية والضلالة .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) ﴾

يَسْتَوْفِقُونَ إلى الطاعةِ ، فإذا فعلوا أُعجِبُوا بها .

ويقال يستغيثون ، فإذا أجابهم قَصَّروا في شُكْرِه .

(93/441)

ويقال إذا وَقَعَتْ لهم محنةٌ استجاروا بربهم ، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة ، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة . ويقال يعرفون في حال توبتهم قُبْحَ ما كانوا فيه حال زلتهم ، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 311 . 313 ﴾

(94/441)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) ﴾

التفسير : لما بين خلق الإنسان وتقلبه في أطوار مراتب العمر أراد أن يذكره طرفاً من سائر أحواله لعله يتذكر فقال : ﴿ والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ ولا ريب أن ذلك أمر مقسوم من قبل القسام وإلا لم يكن الغافر رخي البال والعاقل ردي الحال ، وليس هذا التفاوت مختصاً بالمال وإنما هو حاصل في الحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك ، فلرب ملك تقاد الجنائب بين يديه ولا يمكنه ركوب واحدة منها ، وربما أحضرت الأطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده ولا يقدر على تناول شيء منها ، وربما نرى إنساناً كامل القوة صحيح المزاج شديد البطش ولا يجد ملء بطنه طعاماً . وللمفسرين في الآية قولان : أحدهما أن المراد تقرير كون السعادة والنحوسة والغنى والفقر بقسمة الله تعالى ، وأنه جعل بعض الناس موالي وبعضهم مماليك وليس المالك رازقاً للعبد وإنما الرازق للعبد والمولى هو الله ، فلا تحسبن الموالي المفضلين أنهم يرزقون مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق وإنما ذلك رزقي لهم أجريته لهم على أيديهم . وثانيهما أن المراد الرد على من أثبت لله شريكاً كالصنم أو كعيسى ، فضرب له مثلاً فقال : أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به

عليكم ولا تردّون رزقكم عليهم حتى تتساووا في المطعم والملبس . فالفاء في قوله : ﴿ فهم فيه سواء ﴾ للتعليل . ولك أن تقول بمعنى " حتى " أي حتى يكون عبيدهم معهم سواء في الرزق ، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء ؟ ! " عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في العبيد : " إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون "

(95/441)

فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت ﴿ أفبنعمة الله ﴾ وهي أنه جعلهم موالي مفضلين لا عبيداً مفضولين ﴿ يجحدون ﴾ أو جعل عدم التسوية بينهم وبين عبيدهم من جملة جحود النعمة ، أو جعل اعتقاد أهلية العبادة لغير الله كفراً بنعمة الله والجحود في معنى الكفران فلذلك عداه بالباء . قال أبو عبيدة وأبو حاتم . قراءة الغيبة – وهي الكثرى – أولى لقرب المخبر عنه ، ولأنه لو كان خطاباً كان ظاهره للمسلمين وإنهم لا يخاطبون بجحد نعمة البتة . الحالة الأخرى من أحوال الإنسان قوله عم طوله : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم ﴾ أي من جنسكم ﴿ أزواجاً ﴾ ليكون الأنس به أتم . ولا ريب أن تخليق الذكور والإناث مستند إلى قدرة الله وتكوينه . والطبيعيون قد يذكرون له

وجهاً قالوا : إن المني إذا انصب من الخصية اليمنى إلى الذكر ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكراً تاماً في الذكورة بناء على أن الذكر أسخن مراجاً وكذا الجانب الأيمن ، وإن انصب من الخصية اليسرى إلى الجانب الأيسر من الرحم كان الولد تاماً في الأنوثية ، وإذا انصب من اليمنى إلى الأيسر كان ذكراً في طبيعة الإناث ، وإن كان بالعكس كان بالعكس . قال الإمام فخر الدين الرازي : هذه العلة ضعيفة فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان في غاية البرودة . ولقائل أن يقول : الكلام في المزاج الصنفي لا في المزاج الشخصي ، وهذا الإمام لم يفرق بينهما فاعترض بأحدهما على الآخر . ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ أصل الحفد الإسراع في الخدمة . والفاعل حافد والجمع حفدة . فقيل : أراد بها في الآية الأختان على البنات . وقيل : أولاد الأولاد . وقيل : أولاد المرأة من الزوج الأوّل وقيل : الخدم والأعوان . وقيل : البنون أنفسهم الجامعون بين الأمرين البنوّة والخدمة . وقيل : الأولى دخول الكل فيه . ثم ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطيبة لأن لذة

المنكوح لا تهنأ إلا بعد الفراغ من لذة المطعوم أو بعد الفراغ من تحصيل أسبابها . وأورد " من " التبعيضية لأن لذة كل الطيبات لا تكون إلا في الجنة . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ فقيل : الباطل هو ما اعتقدوه من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها ونعمة الله ما عدده في الآيات السابقة . وقيل : الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ، ونعمة الله ما أحل لهم . وإنما قال ههنا : ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ وفي آخر " العنكبوت " ﴿ وبنعمة الله يكفرون ﴾ [الآية : 67] لأن تلك الآيات استمرت على الغيبة فلم يحتج إلى زيادة ضمير الغائب . وأما في الآية فقد سبق مخاطبات كثيرة فلم يكن بد من ضمير الغائب المؤكد لئلا يلتبس بالخطاب .

(97/441)

ولما عدّد بعض الآيات الدالة على الإقرار بالتوحيد أنكر صنيع أهل الشرك عليهم قائلاً ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً ﴾ قال جار الله : إن كان بمعنى المصدر نصبت به شيئاً أي لا يملك أن يرزق شيئاً ، وإن أردت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه بمعنى قليلاً أو يكون تأكيداً للا يملك أي لا يملك شيئاً من الملك . و ﴿ من السموات والأرض ﴾ صلة للرزق إن كان مصدراً بمعنى لا يرزق من السموات مطراً ولا من الأرض نباتاً وصفة إن كان

اسماً لما يرزق. أما الضمير في ﴿ ولا يستطيعون ﴾ فعائد إلى ما بعد أن قيل لا يملك على اللفظ المفرد وجمع بالواو والنون بناء على زعمهم أن الأصنام آلهة. والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعة أن يتملك بطريق من الطرق، فبيّن تعالى أنها لا تملك ولا تستطيع تحصيل الملك. وجوّز في الكشاف أن يكون الضمير للكفار أي لا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون فكيف بالجماد الذي لا حس له؟ ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي لا تشبهوه بخلقه فإن ضارب المثل مشبه حالاً بحال وقصة بقصة. وقال الزجاج: لا تجعلوا لله مثلاً لأنه واحد لا مثل له. وكانوا يقولون إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن غير الحنيفية والإخلاص. وعلل النهي بقوله: ﴿ إن الله يعلم ﴾ ما عليكم من العقاب ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ما في عبادتها من العذاب. وفيه أن القياس الذي توهموه ليس بصحيح والنص يجب تقديمه على ذلك. وقيل: إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف تضرب فقال: ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ ثم أبدل من المثل قوله: ﴿ عبداً مملوكاً ﴾ لا حراً فإن جميع الناس عبيد لله فلا يلزم من كونه عبداً كونه مملوكاً. وقوله: ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ ليخرج العبد المأذون والمكاتب فإنهما

يقدران على التصرف . احتج الفقهاء بالآية على أن العبد لا يملك شيئاً وإن ملكه السيد لأن قوله : ﴿ لا يقدر ﴾ حكم مذكور عقيب الوصف المناسب ، فدل على أن العبدية أينما وجدت فهي علة للذل والمقهورية وعدم القدرة ، فثبت العموم وهو أن كل عبد فهو لا يقدر على التصرف . وأيضاً قوله : ﴿ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾ يقتضي أن لا يحصل للقسم الأوّل هذا الوصف . فلو ملك العبد شيئاً ما صدق عليه أن الله قد آتاه الرزق الحسن فلم يثبت الامتياز ، والأكثرون على أن عدم اقتدار العبد مخصوص بما له تعلق بالمال . وعن ابن عباس أنه لا يملك الطلاق أيضاً .

قال جار الله : الظاهر أن " من " في قوله : ﴿ ومن رزقناه ﴾ موصوفة كأنه قيل : وحراً رزقناه ليطابق عبداً . ولا يمتنع أن تكون موصولة . وجمع قوله : ﴿ هل يستوون ﴾ لأنه أراد الأحرار والعبيد . وللمفسرين في مضرب المثل أقوال : فالأكثرون على أنه أراد أنا لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق سراً وجهراً ، فصريح العقل يشهد بأنه لا يجوز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة ، فكيف يجوز للعاقل أن يسوّى بين الله القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر ألبتة ؟ ! وقيل : العبد المملوك هو الكافر المحروم عن طاعة الله وعبوديته ، والآخر هو المؤمن المشتغل بالتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله . والغرض أنهما لا يستويان في

الرتبة والشرف والقرب من رضوان الله . وقيل : العبد هو الصنم لقوله : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ [مريم : 93] . والثاني عابد الصنم . والمراد أنهما لا يستويان في القدرة والتصرف . لأن الأوّل جماد وهذا إنسان فكيف يجوز الحكم بأن الأول مساوٍ لرب العالمين ؟ ! .

(99/441)

﴿ الحمد لله ﴾ قال ابن عباس : أراد الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد . وقيل : معناه كل الحمد لله وليس شيء من الحمد للأصنام لأنه لا نعمة لها على أحد ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن كل الحمد لي . وقيل : أراد قل الحمد لله . والخطاب إما للرسول صلى الله عليه وسلم وإما لمن رزقه الله رزقاً حسناً وميزه بالقدرة والاختيار والتصرف من العبد الذليل الضعيف . وقيل : لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال : ﴿ الحمد لله ﴾ أي على قوة هذه الحجة وظهور هذه البينة ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ قوّتها وظهورها . ثم ضرب مثلاً ثانياً لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع بل يصل منها إلى من يعبدها أعظم المضار . أما تفسير الألفاظ فالأبكم العي المفحم وقد بكم بكماً وبكامة . وقيل :

هو الأقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام. وروى ثعب عن ابن الأعرابي أنه الذي لا يسمع ولا يبصر. وقوله: ﴿ وهو كلٌّ على مولاه ﴾ أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة. يقال: كَلَّ السكين إذا غلظت شفرته، وكَلَّ اللسان إذا غلظ فلم يقدر على الكلام، وكَلَّ فلان عن الكلام إذا ثقل عليه ولم ينبعث فيه، وفلان كَلٌّ على مولاه أي ثقيل وعيال على من يلي أمره. وقوله: ﴿ أينما يوجهه ﴾ حيثما يرسله ﴿ لا يأت بخير ﴾ لم ينجح في مطلبه. والتوجيه أن ترسل صاحبك في وجه معين من الطريق ﴿ هل يستوي هو ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات المذكورة. ﴿ ومن يأمر ﴾ الناس ﴿ بالعدل وهو ﴾ في نفسه ﴿ على صراط مستقيم ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم غير منحرف إلى طرفي الإفراط والتفريط.

(100/441)

ولا شك أن الآمر بالعدل يجب أن يكون عالماً حتى يمكنه التمييز بين العدل والجور. قادراً حتى يتأتى منه الإتيان بالخير والأمر به، وكلا الوصفين يناقض كونه أبكم لا يقدر. قال مجاهد: هذا مثل لإله الخلق وما يدعى من دونه. أما الأبكم فمثل الصنم لأنه لا ينطق ألبتة ولا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على عابديه لأنه لا ينفق عليهم وهم ينفقون عليه وإلى أيّ مهم

يوجه الصنم لا يأتي بخير، وأما الذي يأمر بالعدل فهو الله سبحانه. وروى الواحدي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت الآية المتقدمة في هشام بن عمرو وهو الذي ينفق ماله سراً وجهراً، ومولاه أبو الحوار الذي كان ينهاه عنه. وهذه الآية نزلت في سعيد بن أبي العيص وفي عثمان بن عفان مولاه. والأصح أن المقصود من الآية الأولى كل عبد موصوف بالصفات الذميمة وكل حر موصوف بالخصال الحميدة. ومن الآية الثانية كل رجل جاهل عاجز وكل من هو بضد ذلك من كونه شامل العلم كامل القدرة وليس إلا الله سبحانه فلذلك مدح نفسه بقوله: ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ أي يختص به علم ما غاب عنه العباد فيهما، أو أراد بغيبهما يوم القيامة لأن علمه غائب عن غير الله ويؤيد هذا التفسير قوله: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾ اللمح النظر بسرعة ولا بد فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزئة فلذلك قال: ﴿ أو هو أقرب ﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة وإنما هو كلام في غاية الصدق لأن مدّة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية، ومنها إلى الأبد غير متناه ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي. وقيل: معنى أمر الساعة أن إماتة الأحياء وإحياء الأموات كلهم يكون في أقرب وقت وأقله. ثم أكده بقوله: ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾.

ثم زاد في التأكيد بذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ قال جار الله : هو في موضع الحال أي غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسوّاكم وصوّركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة . وقوله : ﴿ وجعل لكم ﴾ معناه وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا الآلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقي إلى ما يسعدكم . ﴿ والأفئدة ﴾ في فؤاد كالأغربة في غراب ، وهو من جموع القلة التي تستعمل في مقام الكثرة أيضاً لعدم ورود غيرها . واعلم أن جمهور الحكماء زعموا أن الإنسان في مبدأ فطرته خال عن المعارف والعلوم إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر والفؤاد وسائر القوى المدركة حتى ارتسم في خياله بسبب كثرة ورود المحسوسات عليه حقائق تلك الماهيات وحضرت صورها في ذهنه ، ثم إن مجرد حضور تلك الحقائق إن كان كافياً في جزم الذهب بثبوت بعضها لبعض أو انتفاء بعضها عن بعض فتلك الأحكام علوم بديهية ، وإن لم تكن كذلك بل كانت متوقفة على علوم سابقة عليها ولا محالة تنتهي إلى البديهيات قطعاً للدور أو التسلسل فهي علوم كسبية .

وظهر أن السبب الأول لحدوث هذه المعارف في النفوس الإنسانية هو أن الله تعالى أعطى الحواس والقوى الدرّاكة للصور الجزئية . وعندي أن النفس قبل البدن موجودة عالمة بعلوم جمة وهي التي ينبغي أن تسمى بالبديهيات ، وإنما لا يظهر آثارها عليها عند انفصال الجنين من الأم لضعف البدن واشتغالها بتدبيره ، حتى إذا قوي وترقى ظهرت آثارها شيئاً فشيئاً وقد برهنا على هذه المعاني في كتبنا الحكمية . فالمراد بقوله : ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ أنه لا يظهر أثر العلم عليكم . ثم إنه بتوسط الحواس الظاهرة والباطنة يكتسب العلوم المتوقفة على التعلق . ومعنى ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ إرادة أن تصرفوا كل آلة فيما خلقت لأجله . وليس الواو للترتيب حتى يلزم من عطف ﴿ جعل ﴾ على ﴿ أخرج ﴾ أن يكون جعل السمع والبصر متأخراً عن الإخراج من البطن ، وقد مر في أول البقرة في تفسيره قوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ [البقرة : 7] أنه لم وحد السمع وجمع غيره ؟ ثم ذكر دليلاً آخر على كمال قدرته فقال : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك كرقة قوام الهواء وإلهامهن بسط الجناح وقبضه فيه عمل السابح في الماء . وفي ﴿ جوّ السماء ﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو وهو مضاعف عينه ولامه واو ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ بقدرته أو بإعطاء الآلات التي لأجلها يتسهل عليها الطيران . ومن جملة أحوال الإنسان قوله : ﴿

والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ هو ما يسكن إليه من بيت أو إلف ﴿ جعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ هي القباب والأبنية من الأدم والأنطاع ﴿ تستخفونها ﴾ أي تعدونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿ يوم ظعنكم ﴾ أي في وقت ارتحالكم . والظعن بفتح العين وسكونها سير أهل البادية لنجعة ، ثم استعمل في كل شخوص لسفر . ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ لا يثقل عليكم حفظها ونقلها من مكان إلى مكان ، ويمكن أن يكون اليوم على

(103/441)

حقيقته أي يوم ترجعون خف عليكم حملها ونقلها ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها ﴿ ومن أصوافها ﴾ وهي للضأن ﴿ وأوبارها ﴾ وهي للإبل ﴿ وأشعارها ﴾ وهي للمعز ﴿ أثاثاً ﴾ وهو متاع البيت . قال الفراء لا واحد له . وقال أبو زيد : الأثاث المال أجمع الإبل والغنم والعبيد والمتاع الواحدة أثاثة . قال ابن عباس : أراد طنافس وبسطاً وثياباً وكسوة .

وقال الخليل : أصله من أن النبات والشعر يئث إذا كثر . قيل : إنه تعالى عطف قوله : ﴿ ومتاعاً ﴾ على ﴿ أثاثاً ﴾ فوجب أن يتغايرا فما الفرق ؟ وأجيب بأن الأثاث ما

يكتسي به المرء ويستعمله من الغطاء والوطاء . والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به . قلت : لا يبعد أن يراد بالأثاث والمتاع ما هو الجامع بين الوصفين كونه أثاثاً وكونه مما يتمتع به ﴿ إلى حين ﴾ أي إلى أن تقضوا أوطاركم منه أو إلى أن تبلى وتفنى أو إلى الموت أو إلى القيامة .

(104/441)

ثم إن المسافر قد لا يكون له خيام وأبنية يستظل بها لفقر أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام ونحوها فذلك قال : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾ وقد يحتاج المسافر إلى حصن يأوي إليه في نزوله وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد وسائر المكاره وكذا المقيم فلذلك منّ بقوله : ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ هي جمع "كن" وهو ما يستكن به ويتوقى بسببه الأمطار كالبيوت المنحوته في الجبال وكالغيران والكهوف ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها . وإنما لم يذكر البرد لأن الوقاية من الحر أهم عندهم لغلبة الحرارة في بلادهم على أن ذكر أحد الضدين يغني في الأغلب عن ذكر الآخرة لتلازمهما في الخطور بالبال غالباً بشهادة الوجدان . قال الزجاج : كل ما لبسته فهو سربال فعلى هذا يشمل الرقيق والكثيف والساذج والمحشوّ من الثياب ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾

كالدروع والجواشن ﴿ كذلك يتم نعمته ﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يتم نعم الدين والدنيا ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ قال ابن عباس : لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الإنعامات سواه . وعنه أنه قرأ بفتح التاء واللام من السلامة أي تسلم قلوبكم من الشرك ، أو تشكرون فتسلمون من العذاب . وقيل : تسلمون من الجرح بلبس الدروع ﴿ فان تولوا ﴾ فقد تمهد عذرك ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وليس إليك الهداية . ثم ذمهم بأنهم ﴿ يعرفون نعمة الله ﴾ التي عددناها حيث يعترفون بها وبأنها من عند الله ﴿ ثم ينكرونها ﴾ بعبادة غير من أنعم بها وبقولهم هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا . ومعنى " ثم " تبعيد رتبة الإنكار عن العرفان : وقيل : إنكارها قولهم ورثناها من آبائنا أو وصل إلينا بتربية فلان ، أو أنهم لا يستعملونها في طلب رضوان الله . وقيل : نعمة الله نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونه ثم

(105/441)

ينكرون نبوّته عناداً . وإنما قال : ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ لأنه استعمل الأكثر مقام الكل أو أراد البالغين العقلاء منهم دون الأطفال والمجانين ، أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك بل كان فيهم من كفر للجهل بصدق الرسول ، أو لأنه لم تقم الحجة عليه بعد هذا ما

قاله المفسرون .

قلت : ويحتمل أن يراد بالكافرين المصرين الثابتين على كفرهم وقد علم الله أن في مطلق الكفرة من يؤمن فلهذا استثناهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 286.293 ﴾

(106/441)

" فصل "

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

(107/441)

التأويل : فضل الأرواح على القلوب في رزق المكاشفات والمشاهدات بعد الفناء والرد إلى البقاء ، وفضل القلوب على النفوس في رزق الزهد والورع والتقوى والصدق واليقين والإيمان والتوكل والتسليم والرضا ، وفضل النفوس على الأبدان في رزق التزكية والتخلية والتحلية ، وفضل أبدان المؤمنين على أبدان الكافرين بحمل أعباء الشريعة . فما الأرواح

برادّي رزقهم على القلوب ، ولا القلوب على النفوس ، ولا النفوس على الأبدان . أفبنعمة الله التي أنعم بها على أوليائه تجحدون يا منكري هذا الحديث ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ يعني ازدواج الأرواح والأشباح ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين ﴾ وهم القلوب ﴿ وحفدة ﴾ وهن النفوس ﴿ أفبالباطل ﴾ وهو الزخارف والوساوس ﴿ يؤمنون وبنعمة الله ﴾ التي أنعم بها على أرباب القلوب ﴿ يكفرون ﴾ ويعبدون من دون الله كالدنيا والهوى ﴿ ما لا يملك لهم رزقاً ﴾ من سموات القلوب وأرض النفوس شيئاً من الكمالات التي أودع الله فيهن ، ولا يستخرج منها إلا بعبادة الله ولا يستطيعون استخراجها بعبادة غير الله ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ بأن تريدوا أن تصلوا إلى المقاصد بغير طريق الله ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾ للهوى وللدنيا ﴿ ومن رزقناه ﴾ ولاية كاملة يتصرف بها في بواطن المستعدين وظواهرهم . ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أولياء الله لأنهم تحت قباب الله لا يعرفهم غيره . ﴿ أحدهما أبكم ﴾ هو النفس الحيوانية التي لا تقدر على شيء من العلم والعقل والإيمان وهو ثقل على مولى الروح المسمى بالنفس الناطقة . ﴿ لا يأت بخير ﴾ لأنها أمارة بالسوء ﴿ ولله غيب ﴾ سموات الأرواح النفوس لا يقف على خاصيتهما غيره ، ولو وكل كلاً منهما إلى طبعها لم ترجع إلى ربها ، ورجوعها يكون بالإماتة والإحياء ويميتها عن أوصافها ويحييها بصفاته وهو المراد بأمر الساعة لأن

الإماتة بتجلي صفات الجلال والإحياء بتجلي صفات الجمال ، وإذا تجلى الله لعبد لم يبق له زمان

ولا مكان فلذلك قال : ﴿ أو هو أقرب ﴾ وحنيئذ يكون فانياً عن وجوده باقياً ببقائه ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ من أمور الدنيا والآخرة ولاَّما كانت أرواحكم تعلم في عالم الأرواح ولاَّما كانت تعلم ذراتكم من فهم خطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] وجواب ﴿ بلى ﴾ [الأعراف : 172] وجعل لأجسادكم السمع والأبصار والأفئدة كما للحيوانات ولأرواحكم كما للملائكة . ولأسراركم سمعاً يسمع به من الله وبصراً يبصر به الله وفؤاداً يعرف به الله . وبوجه آخر : ﴿ والله أخرجكم من العدم وهو الأم الحقيقي ، لا تعلمون شيئاً قبل أن يعلمكم الله سبحانه أسماء كل شيء ، فتجلى لكم بربوبيته فبنور سمعه أعطاكم سمعاً تسمعون به خطاب ألست بربكم ، وبنور بصره أعطاكم بصراً تبصرون به جماله ، وبنور علمه أعطاكم فؤاداً تعرفون به كماله ، وبنور كلامه أعطاكم لساناً .

تجيبونه بقولكم " بلى " ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ فلا تسمعون بهذا السمع إلا كلامه ، ولا تبصرون بهذا البصر إلا جماله ، ولا تحبون بهذا الفؤاد إلا ذاته ، ولا تكلمون بهذا الكلام إلى معه ﴿ ألم يروا إلى ﴾ طير الأرواح ﴿ مسخرات في جوّ ﴾ سماء القلوب ﴿ ما يمسكهن ﴾ في سفل الأجساد ﴿ إلا الله ﴾ بحكمته فلذلك قال : ﴿ والله جعل لكم ﴾ أيها الأرواح ﴿ من بيوتكم ﴾ وهي الأجساد ﴿ سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام ﴾ التي هي أجساد اشتركت فيها سائر الحيوانات ﴿ بيوتاً ﴾ تستخف أرواحكم إياها وهي النفوس الحيوانية ، وقواها وقت السير إلى الله والوقفة للاستراحة والتربية ﴿ ومن أصوافها ﴾ هي الصفات الحيوانية والحواس والقوى ﴿ أثاثاً ﴾ آلات للسير ﴿ ومتعاً ﴾ ينتفع بها ﴿ إلى حين ﴾ الوصول والوصال . ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾ أي جعل عالم الخلق ظل عالم الأمر تستظل أيها الأرواح به عند طلوع شمس التجلي وإلا لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره . و ﴿ وجعل لكم من ﴾ جبال القلوب ما يكن به الأرواح ، وجعل لأرواحكم سرابيل من الصفات البشرية تقيكم حر نار المحبة ، وسرابيل من الصفات الروحانية تقيكم من سهام الوساوس والهواجس كذلك يحفظكم من الآفات من الصفات بالكرامات حتى يتم نعمة الوصول عليكم وتسلموا من قطع الطريق ﴾

يعرفون نعمة الله ﴾ بتعريفك ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ بك وبنعمة الله إظهاراً للقهر والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 293. 294 ﴾

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى الآيات :

قال عليه الرحمة :

فَصْلٌ :

اللِّبَاسُ لَهُ مَنْفَعَتَانِ : إحْدَاهُمَا : الزِّينَةُ بِسَتْرِ السَّوْأَةِ . وَالثَّانِيَةُ : الْوِقَايَةُ لِمَا يَضُرُّ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ أَوْ عَدُوٍّ . فَذَكَرَ اللِّبَاسَ فِي (سُورَةِ الْأَعْرَافِ) لِفَائِدَةِ الزِّينَةِ وَهِيَ الْمُعْتَبَرَةُ فِي الصَّلَاةِ وَالطَّوَافِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ رَدًّا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ تَحْرِيمِ الطَّوَافِ فِي الثِّيَابِ الَّذِي قَدِمَ بِهَا غَيْرُ الْحُمْسِ وَمِنْ أَكْلِ مَا سَلَوْهُ مِنْ الْأَدْهَانِ .

وَذَكَرَهُ فِي النَّحْلِ لِفَائِدَةِ الْوِقَايَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْفَائِدَةُ حَيَوَانِيَّةً طَبِيعِيَّةً لَا قِوَامَ لِلْإِنْسَانِ إلَّا بِهَا جَعَلَهَا مِنْ النِّعَمِ وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ فَائِدَةً كَمَالِيَّةً قَرَنَهَا بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ وَتِلْكَ الْفَائِدَةُ مِنْ بَابِ جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ بِالتَّزَيُّنِ وَهَذِهِ مِنْ بَابِ دَفْعِ الْمَضَرَّةِ فَالنَّاسُ إلَى هَذِهِ أَحْوَجُ . فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ " الْبَرْدَ " فَقَدْ قِيلَ لِأَنَّ التَّنْزِيلَ كَانَ بِالْأَرْضِ الْحَارَّةِ فَهُمْ يَتَخَوَّفُونَهُ وَقِيلَ : حُذِفَ الْآخَرُ لِلْعِلْمِ بِهِ وَيُقَالُ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ ؛ فَإِنَّهُ إذَا امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَقِي الْحَرَّ فَالِامْتِنَانُ بِمَا يَقِي الْبَرْدَ أَعْظَمُ ؛ لِأَنَّ الْحَرَّ أَذًى ؛ وَالْبَرْدَ بُؤْسٌ وَالْبَرْدُ الشَّدِيدُ يَقْتُلُ وَالْحَرُّ قَلَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ هَكَذَا فَإِنَّ بَابَ التَّنْبِيهِ وَالْقِيَاسِ كَمَا يَكُونُ فِي خِطَابِ الْأَحْكَامِ يَكُونُ فِي خِطَابِ الْآلَاءِ وَخِطَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ كَمَا قُلْته فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مِثْلُهُ مَنْ يَقُولُ لَا تَنْفِرُوا فِي الْبَرْدِ فَإِنَّ جَهَنَّمَ أَشَدُّ زَمْهَرِيرًا " وَمَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ " فَالْوَحْلُ وَالثَّلْجُ أَعْظَمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَفِي الْآيَةِ شَرَعَ لِبَاسَ جُنَنِ الْحَرْبِ ؛ وَلِهَذَا قَرَنَ مَنْ قَرَنَ بَابَ

اللِّبَاسِ وَالتَّحَلِّي بِالصِّلَاةِ لِأَنَّ لِلْحَرْبِ لِبَاسًا مُخْتَصًّا مَعَ اللِّبَاسِ الْمُشْتَرَكِ وَطَابَقَ قَوْلُهُمْ اللِّبَاسُ وَالتَّحَلِّي قَوْلَهُ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ . وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ وِقَايَةِ الْبَرْدِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فَيُقَالُ لِمَ فَرَّقَ هَذَا ؟ فَيُقَالُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : الْمَذْكُورُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ النِّعَمُ الضَّرُورِيَّةُ الَّتِي لَا يَقُومُونَ بِدُونِهَا : مِنْ الْأَكْلِ وَشُرْبِ الْمَاءِ الْقَرَاحِ وَدَفْعِ الْبَرْدِ وَالرُّكُوبِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فِي النُّقْلَةِ وَفِي آخِرِهَا ذِكْرُ كَمَالِ النِّعَمِ : مِنْ الْأَشْرِبَةِ الطَّيِّبَةِ وَالسُّكُونِ فِي الْبُيُوتِ وَبُيُوتِ الْأُدْمِ وَالِاسْتِظْلَالِ بِالظِّلَالِ وَدَفْعِ الْحَرِّ وَالْبَأْسِ بِالسَّرَابِيلِ فَإِنَّ هَذَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ فِي الْجُمْلَةِ . فَفِي الْأَوَّلِ الْأُصُولُ وَفِي الْآخِرِ الْكَمَالُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ .

(113/441)

وَأَيْضًا : فَالْمَسَاكِنُ لَهَا مَنْفَعَتَانِ : إحْدَاهُمَا السُّكُونُ فِيهَا لِأَجْلِ الِاسْتِتَارِ فَهِيَ كَلِبَاسِ الزِّينَةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . وَالثَّانِي : وِقَايَةُ الْأَذَى مِنْ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ وَالرِّيحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَجَمَعَ اللَّهُ الِامْتِنَانَ بِهَذَيْنِ فَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ هَذِهِ بُيُوتُ الْمَدَرِ ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ ﴾ هَذِهِ بُيُوتُ الْعَمُودِ

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ أُهْبَةُ الْبَيْتِ مِنْ الْبُسُطِ وَالْأَوْعِيَةِ وَالْأَغْطِيَةِ وَنَحْوِهَا وَقَالَ ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ الْمَدَرِ بُيُوتًا كَمَا قَالَ: ﴿ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ لِأَنَّ السَّكَنَ بَيَانُ مَنْفَعَةِ الْبَيْتِ فَبِهِ تَظْهَرُ النِّعْمَةُ وَاتِّخَاذُ

(114/441)

الْبُيُوتِ مِنْ الْمَدَرِ مُعْتَادٌ فَالنِّعْمَةُ بِظُهُورِ أَثَرِهَا ؛ بِخِلَافِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّ الْهِدَايَةَ إلَى اتِّخَاذِ الْبُيُوتِ مِنْ جُلُودِهَا أَظْهَرُ مِنْ الْهِدَايَةِ إلَى نَفْسِ اتِّخَاذِ الْبُيُوتِ . وَأَمَّا فَائِدَةُ الْوِقَايَةِ فَقَالَ: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ فَالظِّلَالُ يَعُمُّ جَمِيعَ مَا يُظِلُّ مِنْ الْعَرْشِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالسُّقُوفِ مِمَّا يَصْطَنِعُهُ الْآدَمِيُّونَ وَقَوْلُهُ: ﴿ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ لِأَنَّ الْجَبَلَ يَكُنُّ الْإِنْسَانَ مِنْ فَوْقِهِ وَيَمِينِهِ وَيَسَارِهِ وَأَسْفَلَ مِنْهُ لَيْسَ مَقْصُودُهُ الِاسْتِظْلَالَ ؛ بِخِلَافِ الظِّلَالِ فَإِنَّ مَقْصُودَهَا الِاسْتِظْلَالُ ؛ وَلِهَذَا قَرَنَ بِهَذِهِ مَا فِي السَّرَابِيلِ مِنْ مَنْفَعَةِ الْوِقَايَةِ فَجَمَعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ وِقَايَةِ اللِّبَاسِ الْمُنْتَقِلِ مَعَ الْبَدَنِ وَوِقَايَةِ الظِّلَالِ الثَّابِتَةِ عَلَى الْأَرْضِ ؛ وَلِهَذَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُسَوُّونَ بَيْنَهُمَا فِي حَقِّ الْمُحْرِمِ فَكَمَا نَهَى عَنْ تَغْطِيَةِ الرَّأْسِ نَهَوْهُ عَنْ الدُّخُولِ تَحْتَ سَقْفٍ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ .

وَجَازَ لِلْمُحْرِمِ أَنْ يَسْتَظِلَّ بِالثَّابِتِ مِنْ الْخِيَامِ وَالشَّجَرِ وَأَمَّا الشَّيْءُ الْمُنْتَقِلُ مَعَهُ الْمُتَّصِلُ كَالْمَحْمَلِ فَفِيهِ مَا فِيهِ لِتَرَدُّدِهِ بَيْنَ السَّرَابِيلِ وَبَيْنَ الْمُسْتَقِرِّ مِنْ الظِّلَالِ وَالْأَكِنَّةِ . كَمَا أَنَّهُ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ ذَكَرَ أَصْنَافَ الْأَشْرِبَةِ مِنْ اللَّبَنِ وَالْخَمْرِ وَالْعَسَلِ وَذَكَرَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الْمَرَاكِبَ

(115/441)

وَالْأَطْعِمَةَ وَهَذِهِ مَجَامِعُ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَرَاكِبِ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ الْآيَتَيْنِ . لَفْظُ " الْإِنْزَالِ " فِي الْقُرْآنِ يَرِدُ " مُقَيَّدًا " بِأَنَّهُ مِنْهُ كَالْقُرْآنِ وَبِالْإِنْزَالِ مِنْ السَّمَاءِ وَيُرَادُ بِهِ الْعُلُوُّ كَالْمَطَرِ و " مُطْلَقًا " فَلَا يَخْتَصُّ بِنَوْعِ (*) ؛ بَلْ يَتَنَاوَلُ إنْزَالَ الْحَدِيدِ مِنْ الْجِبَالِ وَالْإِنْزَالَ مِنْ ظُهُورِ الْحَيَوَانِ وَغَيْرَ ذَلِكَ فَقَوْلُهُ : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بَيَانٌ لِنُزُولِ جِبْرِيلَ بِهِ مِنْ اللَّهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ أَيْ أَنَّهُ مُؤْتَمَنٌ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ؛ فَإِنَّ الْخَائِنَ قَدْ يُغَيِّرُ الرِّسَالَةَ . وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أُمُورٍ . مِنْهَا : بُطْلَانُ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ خَلْقَهُ فِي جِسْمٍ كَالْجَهْمِيَّةِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ ؛ فَإِنَّ السَّلَفَ يُسَمُّونَ مَنْ قَالَ بِخَلْقِهِ وَنَفَى الصِّفَاتِ وَالرُّؤْيَةَ جهميا ؛ فَإِنَّ جَهْمًا أَوَّلُ مَنْ ظَهَرَتْ عَنْهُ بِدْعَةُ نَفْيِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ فَلَهُ مَزِيَّةُ الْمُبَالَغَةِ وَالِابْتِدَاءِ

بِكَثْرَةِ إظْهَارِهِ وَإِنْ كَانَ جَعْدٌ سَبَقَهُ إلَى بَعْضِ ذَلِكَ ؛ لَكِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَإِنْ وَافَقُوهُ فِي الْبَعْضِ فَهُمْ يُخَالِفُونَهُ فِي مِثْلِ مَسَائِلِ الْإِيمَانِ وَالْقَدَرِ وَبَعْضِ الصِّفَاتِ وَجَهْمٌ يَقُولُ إنَّ اللَّهَ لَا

يَتَكَلَّمُ أَوْ يَتَكَلَّمُ مَجَازًا وَهُمْ يَقُولُونَ يَتَكَلَّمُ حَقِيقَةً وَلَكِنَّ قَوْلَهُمْ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ وَهُوَ يَنْفِي الْأَسْمَاءَ كَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ . وَمِنْهَا : بُطْلَانُ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فَاضَ مِنْ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ أَوْ غَيْرِهِ وَهَذَا أَعْظَمُ كُفْرًا وَضَلَالًا مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ . وَمِنْهَا إبْطَالُ قَوْلِ الْأَشْعَرِيَّةِ إنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَعْنًى وَهَذَا الْعَرَبِيُّ خُلِقَ لِيَدُلَّ عَلَيْهِ سَوَاءٌ قَالُوا : خُلِقَ فِي بَعْضِ الْأَجْسَامِ أَوْ أَلْهَمَهُ جِبْرِيلَ أَوْ أَخَذَهُ مِنْ اللَّوْحِ فَإِنَّ هَذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُتَكَلِّمٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَوَّلًا وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَ مَنْ قَالَ إنَّهُ مَخْلُوقٌ ؛ لَكِنْ يُفَارِقُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّ أُولَئِكَ يَقُولُونَ الْمَخْلُوقُ كَلَامُ اللَّهِ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ إنَّهُ كَلَامٌ مَجَازًا وَهَذَا أَشَرُّ مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ ؛ بَلْ هُوَ قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ الْمَحْضَةِ ؛ لَكِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ يُوَافِقُونَهُمْ فِي الْمَعْنَى . الثَّانِي : أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلَّهِ كَلَامٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ وَالْخَلْقِيَّةُ يَقُولُونَ لَا يَقُومُ بِذَاتِهِ ؛ فَإِنَّ الْكُلَّابِيَةَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فِي الظَّاهِرِ ؛ لَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يُثْبِتُوا كَلَامًا لَهُ غَيْرَ الْمَخْلُوقِ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْآيَةَ تُبْطِلُ هَذَا و " الْقُرْآنُ " اسْمٌ لِلْعَرَبِيِّ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ عَائِدٌ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ

(117/441)

أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فَالَّذِي نَزَّلَهُ اللَّهُ هُوَ الَّذِي نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ وَأَيْضًا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ الْآيَةَ وَهُمْ يَقُولُونَ : إنَّمَا يُعَلِّمُهُ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ بَشَرٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ ﴾ - إلَخْ فَعُلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُؤَلِّفْ نَظْمًا بَلْ سَمِعَهُ مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ وَرُوحُ الْقُدُسِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ مِنْ اللَّهِ فَعُلِمَ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهُ لَمْ يُؤَلِّفْهُ هُوَ . وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ وَ " الْكِتَابُ " اسْمٌ لِلْقُرْآنِ بِالضَّرُورَةِ وَالِاتِّفَاقِ ؛ فَإِنَّهُمْ أَوْ بَعْضَهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ وَلَفْظُ " الْكِتَابِ " يُرَادُ بِهِ الْمَكْتُوبُ فِيهِ فَيَكُونُ هُوَ الْكَلَامُ وَيُرَادُ بِهِ مَا يُكْتَبُ فِيهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ إخْبَارٌ مُسْتَشْهَدٌ بِهِمْ فَمَنْ لَمْ يُقِرَّ بِهِ مِنَّا فَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ : أَنَّهُ أُنْزِلَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يُنَافِي أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ قَبْلَ نُزُولِهِ سَوَاءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُرْسِلَ بِهِ جِبْرِيلَ أَوْ بَعْدَهُ . فَإِذَا أُنْزِلَ جُمْلَةً إلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فَقَدْ كَتَبَهُ كُلَّهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزِلَهُ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ لَوْ كَانَ

(118/441)

كَيْفَ يَكُونُ وَهُوَ قَدْ كَتَبَ الْمَقَادِيرَ وَأَعْمَالَ الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهَا ثُمَّ يَأْمُرُ بِكِتَابَتِهَا بَعْدَ أَنْ يَعْمَلُوهَا فَيُقَابِلُ بَيْنَ

(119/441)

الْكِتَابَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَالْمُتَأَخِّرَةِ فَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا تَفَاوُتٌ هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ . فَإِذَا كَانَ مَا يَخْلُقُهُ بَائِنًا عَنْهُ قَدْ كَتَبَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ فَكَيْفَ لَا يَكْتُبُ كَلَامَهُ الَّذِي يُرْسِلُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُرْسِلَهُمْ ؟ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ جبرائيل أَخَذَهُ عَنْ الْكِتَابِ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ . مِنْهَا : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ كَتَبَ التَّوْرَاةَ لِمُوسَى بِيَدِهِ ؛ فَبَنُو إسْرَائِيلَ أَخَذُوا كَلَامَهُ مِنْ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ وَمُحَمَّدٌ عَنْ جِبْرِيلَ عَنْ الْكِتَابِ فَهُمْ أَعْلَى بِدَرَجَةِ وَمَنْ قَالَ : إنَّهُ أُلْقِيَ إلَى جِبْرِيلَ مَعَانِيَ وَعَبَّرَ بِالْعَرَبِيِّ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ أَلْهَمَهُ إلْهَامًا وَهَذَا يَكُونُ لِآحَادِ الْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ فَيَكُونُ هَذَا أَعْلَى مِنْ أَخْذِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَيْضًا : فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ - إلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أُمُورٍ : عَلَى أَنَّهُ يُكَلِّمُ الْعَبْدَ تَكْلِيمًا زَائِدًا عَلَى الْوَحْيِ

الَّذِي هُوَ قَسِيمُ التَّكْلِيمِ الْخَاصِّ . فَإِنَّ لَفظَ التَّكْلِيمِ وَالْوَحْيِ كُلٌّ مِنْهُمَا يَنْقَسِمُ إلَى عَامٍّ وَخَاصٍّ فَالتَّكْلِيمُ

الْعَامُّ هُوَ الْمَقْسُومُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ الْآيَةُ . فَالتَّكْلِيمُ الْمُطْلَقُ قَسِيمُ الْوَحْيِ الْخَاصِّ لَا قِسْمًا مِنْهُ وَكَذَلِكَ الْوَحْيُ يَكُونُ عَامًّا فَيَدْخُلُ فِيهِ التَّكْلِيمُ الْخَاصُّ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ . وَيَكُونُ قَسِيمًا لَهُ كَمَا فِي الشُّورَى وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالذَّاتِ فَإِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْعَامِّ وَمَا لِمُوسَى . وَفَرَّقَ سُبْحَانَهُ فِي " الشُّورَى " بَيْنَ الْإِيحَاءِ وَبَيْنَ التَّكْلِيمِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَبَيْنَ إرْسَالِ رَسُولٍ فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ 15 ص 225.217 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من أجل المقاصد بهذه الأساليب التخويف من البعث ، وكان من المعلوم أنه ليس بعد الإعراض عن البيان والإصرار على كفران المعروف من الإحسان إلا المجازاة لأن الحكيم يمهل ولا يهمل ، قال تعالى : عاطفاً على ثمرة ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وهي : فبلغهم وبين لهم ولا تيأس من رجوعهم : ﴿ ويوم ﴾ أي وخوفهم يوم ﴿ نبعث ﴾ بعد البعث ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾ يحكم بقوله الملك إجراء للأمر على ما يتعارفون وإن كان غنياً عن شهيد .

ولما كان الإذن لهم في الاعتذار في بعض المواقف الطويلة في ذلك اليوم متعذراً ، عبر عنه سبحانه بأداة البعد فقال تعالى : ﴿ ثم لا يؤذن ﴾ أي لا يقع إذن على تقدير من التقادير ﴿ للذين كفروا ﴾ أي بعد شهادة الشهداء في الاعتذار كما يؤذن في هذه الدار للمشهود

عليه عند السؤال في الإعذار ، لأنه لا عذر هناك في الحقيقة ﴿ ولا هم ﴾ أي خاصة ﴿ يستعتبون ﴾ أي ولا يطلب منهم الإعتاب المؤثر للرضى وهو إزالة العتب وهو الموجدة المعبر بها عن الغضب المعبر به عن آثاره من السطوة والانتقام ، وأخذ العذاب لأهل الإجرام من قبيح ما ارتكبوا ، لأن تلك الدار ليست بدار تكليف ؛ ثم وصل به أن ما يوجبه الغضب يدوم عليهم في ذلك اليوم ، فقال تعالى عاطفاً على ما بعد " ثم " : ﴿ وإذا رءا ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً فقال تعالى : ﴿ الذين ظلموا ﴾ فعبر بالوصف الموجب للعذاب ﴿ العذاب ﴾ بعد الموقف وشهادة الشهداء ، وجزاء الشرط محذوف لدلالة ما قرن بالفاعلية تقديره : لابسهم ﴿ فلا يخفف ﴾ أي يحصل تخفيف بنوع من الأنواع ولا بأحد من الخلق ﴿ عنهم ﴾ شيء منه ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ بالتأخير ولا لحظة بوجه من الوجوه على تقدير من التقادير من أحد ما .

(122/441)

ولما بين سبحانه حاصل أمرهم في البعث وما بعده ، وما من أهم المهم أمرهم في الموقف مع شركائهم الذين كانوا يترجونهم ، عطف على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا رءا ﴾ أي بالعين يوم القيامة ﴿ الذين أشركوا ﴾ فأظهر أيضاً الوصف المناسب للمقام ﴿ شركاءهم ﴾ أي

الآلهة التي كانوا يدعونها شركاء ﴿ قالوا ربنا ﴾ يا من أحسن إلينا وربانا ! ﴿ هؤلاء شركاؤنا ﴾ أضافوهم إلى أنفسهم لأنه لا حقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجب لضرهم ؛ ثم بينوا المراد بقولهم : ﴿ الذين كنا ندعوا ﴾ أي نعبد .

(123/441)

ولما كانت المراتب متكثرة دون رتبته سبحانه لأن علوه غير منحصر ، أدخل الجار فقال تعالى : ﴿ من دونك ﴾ ليقربونا إليك ، فأكرمنا لأجلهم جرياً على منهاجهم في الدنيا في الجهل والغباوة ، فخاف الشركاء من عواقب هذا القول والإقرار عليه سطوات الغضب ﴿ فألقوا ﴾ أي الشركاء ﴿ إليهم ﴾ أي المشركين ﴿ القول ﴾ أي بادروا به حتى كان إسراعه إليهم إسراع شيء ثقيل يلقى من علو ؛ وأكدوا قولهم لأنه مطاعنة لقول المشركين فقالوا : ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ في جعلنا شركاء وأنا نستحق العبادة أو نشفع أو يكون لنا أمر نستحق به أن نذكر ﴿ وألقوا ﴾ أي الشركاء ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة إذ نبعث من كل أمة شهيداً ﴿ السلم ﴾ أي الانقياد والاستسلام بما علم به الكفار أنهم من جملة العبيد لا أمر لهم أصلاً ، فأصلد زندهم ، وخاب قصدهم ، وقيد بذلك اليوم لأنهم كانوا في الدنيا - بتزيين الشياطين لأمورهم ونطقهم على ألسنتهم - بحيث

يظن عابدوهم أن لهم منعة، وبهم قوة ويجوز أن يكون ضمير "ألقوا" للمشركين ﴿ وضل عنهم ﴾ أي عن الكفار ﴿ ما كانوا ﴾ أي بجبلاتهم ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون من دعوى النفع لهم والضر كذباً وفجوراً، فكأنه قيل: هذا للذين أشركوا، فما للذين كانوا دعاة إلى الشرك مانعين من الانتقال عنه؟ فقيل: ﴿ الذين كفروا ﴾ أي أوجدوا الكفر في أنفسهم ﴿ وصدوا ﴾ مع ذلك غيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الذي له الإحاطة كلها ﴿ زدناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة، بصدهم غيرهم ﴿ عذابا فوق العذاب ﴾ الذي استحقوه على مطلق الشرك ﴿ بما كانوا ﴾ أي كوناً جبلياً ﴿ يفسدون ﴾ أي يوقعون الفساد ويجددونه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 299.301 ﴾

(124/441)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات: ﴿ ولنجزين ﴾ بالنون: ابن كثير وعاصم ويزيد وعباس والنقاش عن ابن ذكوان. الآخرون بالياء. ﴿ قرأت القرآن ﴾ مثل ﴿ أنشأنا ﴾.

الوقوف: ﴿ يستعتبون ﴾ 5 ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ 5 ﴿ من دونك ﴾ ج لاختلاف

الجملتين مع الفاء ﴿ لكاذبون ﴾ 5 ج للعطف مع أنه رأس آية ﴿ يفترون ﴾ 5 ﴿ يفسدون ﴾ 5 ﴿ على هؤلاء ﴾ ط لواو الاستئناف ﴿ للمسلمين ﴾ 5 ﴿ والبغي ﴾ ج لاحتمال ما بعده الحال والاستئناف ﴿ تذكرون ﴾ 5 ط ﴿ كفيلاً ﴾ 5 ط ﴿ تفعلون ﴾ 5 ﴿ أنكاثاً ﴾ ط بناء على أن التقدير أتتخذون ﴿ من أمة ﴾ ط ﴿ به ﴾ ط ﴿ تختلفون ﴾ 5 ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ عن سبيل الله ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتصال المعنى ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ قليلاً ﴾ ط ﴿ تعلمون ﴾ 5 ﴿ باق ﴾ ط ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ طيبة ﴾ ج للعدول عن الوحدان إلى الجمع مع أنهما ضميراً من ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ يتوكلون ﴾ 5 ﴿ مشركون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 295 ﴾

(125/441)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضاً من حالهم أن

أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد ، فذكر حال يوم القيامة فقال : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾ وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار وبذلك الكفر ، والمراد بهؤلاء الشهداء الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] وقوله : ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ فيه وجوه : أحدها : لا يؤذن لهم في الاعتذار لقوله : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : 36] .

وثانيها : لا يؤذن لهم في كثرة الكلام .

وثالثها : لا يؤذن لهم في الرجوع إلى دار الدنيا وإلى التكلف .

ورابعها : لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود ، بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود .

وخامسها : لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى .

ثم قال : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ الاستعتاب طلب العتاب ، والرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان على جزم أنه إذا عاتبه رجع إلى الرضا ، فإذا لم يطلب العتاب منه دل على أنه راسخ في غضبه وسطوته ، ثم إنه تعالى أكد هذا الوعيد فقال : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ﴾ والمعنى أن المشركين إذا رأوا العذاب ووصلوا إليه ، فعند ذلك لا يخفف عنهم العذاب ﴿ ولا هم ﴾ أيضاً ﴿ ينظرون ﴾ أي لا يؤخرون ولا يمهلون ، لأن التوبة هناك غير موجودة ، وتحقيقه ما يقوله المتكلمون من أن العذاب يجب أن

يكون خالصاً عن شوائب النفع ، وهو المراد من قوله : ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ [البقرة : 162] ويجب أن يكون العذاب دائماً وهو المراد من قوله : ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ .

(126/441)

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ﴾

اعلم أن هذا أيضاً من بقية وعيد المشركين ، وفي الشركاء قولان :

القول الأول : أنه تعالى يبعث الأصنام التي كان يعبدها المشركون ، والمقصود من إعادتها أن المشركين يشاهدونها في غاية الذلة والحقارة .

وأيضاً أنها تكذب المشركين ، وكل ذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ، وإنما وصفهم الله بكونهم شركاء لوجهين : الأول : أن الكفار كانوا يسمونها بأنها شركاء الله .

والثاني : أن الكفار جعلوا لهم نصيباً من أموالهم .

والقول الثاني : أن المراد بالشركاء الشياطين الذين دعوا الكفار إلى الكفر ، وهو قول الحسن ، وإنما ذهب إلى هذا القول ، لأنه تعالى حكى عن أولئك الشركاء أنهم ألقوا إلى

الذين أشركوا إنهم لكاذبون ، والأصنام جمادات فلا يصح منهم هذا القول ، فوجب أن يكون المراد من الشركاء الشياطين حتى يصح منهم هذا القول وهذا بعيد ، لأنه تعالى قادر على خلق الحياة في تلك الأصنام وعلى خلق العقل والنطق فيها ، وحينئذ يصح منها هذا القول ، ثم حكى تعالى عن المشركين أنهم إذا رأوا تلك الشركاء قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك .

فإن قيل : فما فائدتهم في هذا القول ؟

قلنا : فيه وجهان : الأول : قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين إحالة الذنب على هذه الأصنام وظنوا أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم ، فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام .

قال القاضي : هذا بعيد ، لأن الكفار يعلمون علماً ضرورياً في الآخرة أن العذاب سينزل بهم وأنه لا نصرة ولا فدية ولا شفاعة .

والقول الثاني : أن المشركين يقولون هذا الكلام تعجباً من حضور تلك الأصنام مع أنه لا ذنب لها واعترافاً بأنهم كانوا مخطئين في عبادتها .

ثم حكى تعالى أن الأصنام يكذبونهم ، فقال : ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾

والمعنى : أنه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتى تقول هذا القول ، وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ بدل من القول ، والتقدير : فألقوا إليهم إنكم لكاذبون .

فإن قيل : إن المشركين ما قالوا إلا أنهم لما أشاروا إلى الأصنام قالوا : إن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك وقد كانوا صادقين في كل ذلك ، فكيف قالت الأصنام إنكم لكاذبون ؟ .

قلنا : فيه وجوه : والأصح أن يقال المراد من قولهم هؤلاء شركاؤنا هو أن هؤلاء الذين كنا نقول إنهم شركاء الله في المعبودية ، فالأصنام كذبوهم في إثبات هذه الشركة .

وقيل : المراد إنكم لكاذبون في قولكم إنا نستحق العبادة ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ [مريم : 82] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَوْاْ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ قال الكلبي : استسلم العابد والمعبود وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والأنداد : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

وفيه وجهان : وقيل : ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان من أن لله شريكاً وصاحبة وولداً .

وقيل : بطل ما كانوا يأملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الذين كفروا ، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صد الغير عن سبيل الله .

(128/441)

وفي تفسير قوله : ﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ وجهان : قيل : معناه الصد عن المسجد الحرام ، والأصح أنه يتناول جملة الإيمان بالله والرسول وبالشرائع ، لأن اللفظ عام فلا معنى للتخصيص وقوله : ﴿ زدناهم عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾ فالمعنى أنهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الإيمان فهم في الحقيقة ازدادوا كفراً على كفر ، فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذاباً على عذاب ، وأيضاً أتباعهم إنما اقتدوا بهم في الكفر ، فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم لقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] ولقوله عليه السلام : " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " ، ومن المفسرين من ذكر تفصيل تلك الزيادة فقال ابن عباس : المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار ، وقال بعضهم زدناهم عذاباً بحيات وعقارب كأمثال البخت ، فيستغيثون بالهرب منها إلى النار ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلثمائة فقرة في كل فقرة ثلثمائة قلة من سم .

وقيل : عقارب لها أنياب كالنخل الطوال .

ثم قال تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ أي هذه الزيادة من العذاب إنما حصلت معللة بذلك الصد ، وهذا يدل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال فقد عظم عذابه ، فكذلك إذا دعا إلى الدين واليقين ، فقد عظم قدره عند الله تعالى ، والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 77.79 ﴾

(129/441)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : استسلامهم لعذابه ، وخضوعهم لعزه .

الثاني : إقرارهم بما كانوا ينكرون من طاعته .

﴿ وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : وبطل ما كانوا يأملون .

الثاني : خذلهم ما كانوا به يستنصرون .

قوله عز وجل : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زِدناهُم عذاباً فوق العذاب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الزيادة هي عذاب الدنيا مع ما يستحق من عذاب الآخرة .

الثاني : أن أحد العذابين على كفرهم ، والعذاب الآخر على صدهم عن سبيل الله ومنعهم لغيرهم من الإيمان .

﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ في الدنيا بالمعاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(130/441)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ويوم نبعث ﴾ الآية وعيد ، والتقدير واذكر يوم نبعث ويرد ﴿ شهيداً ﴾ على كفرهم وإِيمانهم ، ف " شهيد " بمعنى ، شاهد وذكر الطبري أن المعنى ثم ينكرونها اليوم ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾ ، أي ينكرون كفرهم فيكذبهم الشهيد وقوله ﴿ ثم لا يؤذن ﴾ أي لا يؤذن لهم في المعذرة ، وهذا في موطن دون موطن ، لأن في القرآن أن ﴿ كل نفس تأتي تجادل عن نفسها ﴾ [النحل : 111] ويترتب أن تجيء كل نفس تجادل فإذا

استقرتَ أقوالهم بعث الله الشهود من الأمم فتكذب الكفار ، فلم يؤذن للمكذبين بعد في معذرة ، و ﴿ يستعتبون ﴾ معناه يعتبون ، يقال أعتبت الرجل إذا كفيته ما عتب فيه ، كما تقول أشكيته إذا كفيته ما شكا ، فكأنه قال ولا هم يكفون ما يعتبون فيه ويشق عليهم والعرب تقول استفعل بمعنى أفعل ، تقول أدنيت الرجل واستدنيته وقال قوم معناه لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا .

قال القاضي أبو محمد : فهذا استعتاب معناه طلب عتابهم ، وقال الطبري معنى ﴿ يستعتبون ﴾ يعطون الرجوع إلى الدنيا فيقع منهم توبة عمل . وقوله ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ﴾ الآية ، أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفرة الظالمين في كفرهم إذا أراهم الله عذاب الله وشارَفُوها وتحققوا كنه شدتها ، فإن ذلك الأمر الهائل الذي نزل بهم لا يخفف بوجه ولا يؤخر عنهم ، وإنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا ، فإن الإنسان لا يتوقع أمراً من خطوب الدنيا إلا وله طمع في أن يتأخر عنه وفي أن يجيئه في أخف ما يتوهم برجائه ، وكذلك متى حل به كان طامعاً في أن يخف ، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيراً ، فأخبر الله تعالى أن عذاب الآخرة إذا عاينه الكافر لا طماعية فيه بتخفيف ولا بتأخير .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ﴾

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن المشركين إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكل معبود من دون الله لأنها تحشر معهم توبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد أشاروا إليهم وقالوا هؤلاء كنا نعبد من دون الله ، أرادوا بذلك تذنيب المعبودين وإدخالهم في المعصية ، وأضافوا الشركاء إلى أنفسهم من حيث هم جعلوهم شركاء ، وهذا كما يصف رجل آخر بأنه خير فتقول أنت ما فعل خيرك فأضفته إليه من حيث وصفه هو بتلك الصفة ، والضمير في ﴿ أقول ﴾ عائد على الشركاء ، فمن كان من المعبودين من البشر ألقى القول المعهود بلسانه ، وما كان من الجمادات تكلمت بقدرة الله بتكذيب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة وشركاء لله ، ففي هذا وقع الكذب لا في العبادة وقال الطبري : المعنى إنكم لكاذبون ، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا .

قال القاضي أبو محمد : فكأنهم كذبوهم في التذنيب لهم وقوله ﴿ وألقوا إلى الله ﴾ ، الضمير في ﴿ ألقوا ﴾ عائد على المشركين ، والمعنى ألقوا إليه الاستسلام ، وألقوا ما بأيديهم وذلوا لحكمه ، ولم تكن لهم حيلة ولا دفع ، و﴿ السلم ﴾ الاستسلام ، وقرأ الجمهور " السلَم " بفتح اللام ، وروى يعقوب عن أبي عمرو سكون اللام ، وقرأ مجاهد " السُّلُم " بضم السين واللام ، وقوله ﴿ وضل عنهم ﴾ معناه وتلف عنهم كذبهم على الله وافتراؤهم الكفر والتشريك ، وقوله ﴿ الذين كفروا ﴾ الآية ، في ضمن ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ لأنه حل بهم عذاب الله وباشروا نقمته ، ثم فسروه فأخبر أن الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الدخول في الدين وسلوك سبيل الله زادهم عذاباً أجلّ من العذاب العام لجميع الناس عقوبة على إفسادهم ، فيحتمل أن يكون قوله ﴿ الذين ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿ يفترون ﴾ ، و﴿ زدناهم ﴾ فعل مستأنف إخباره ، ويحتمل أن يكون ﴿ الذين ﴾ ابتداء و﴿ زدناهم ﴾ خبره ، وروي في ذلك أن الله تعالى يسلط عليهم عقارب وحيات لها أنياب كالنخل الطوال ، قاله ابن مسعود ، وقال عبيد بن عمير : لها أنياب كالنخل وعقارب كالبغال الدهم ، ونحو هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاصي ، إن لجهنم سواحل فيها هذه الحيات وهذه العقارب ، فيفر الكافر إلى السواحل من النار ، فتلقاهم هذه الحيات والعقارب ، فيفرون منها إلى النار فتتبعهم حتى تجد حر النار ، فترجع ، قال وهي في أسراب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾

نظيره : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء : 41] وقد تقدّم .

﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي في الاعتذار والكلام ؛ كقوله : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] .

وذلك حين تطبق عليهم جهنم ، كما تقدّم في أوّل "الحجر" ويأتي .

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يعني يسترضون ، أي لا يكلفون أن يرضوا ربّهم ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون .

وأصل الكلمة من العَتْب وهي المَوْجِدة ؛ يقال : عَتَب عليه يعتُب إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه ما عَتَب عليه فيه قيل عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرّتك فقد أعتَب ، والاسم العُتبى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتبَ ؛ قاله الهَروِيّ .

وقال النابغة :

فإن كنتُ مظلوماً فعبداً ظلمتَه . . .

وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي أشركوا .

﴿ العذاب ﴾ أي عذاب جهنم بالدخول فيها .

﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون ؛ إذ لا توبة لهم ثَمَّ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾

أي أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها ؛ وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُورِدوهم النار .

وفي صحيح مسلم : " من كان يعبد شيئاً فَلْيَتَّبِعْه فيتّبِع من كان يعبد الشمس الشمسَ ويتّبع من كان يعبد القمر القمرَ ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت " الحديث ، خرجه من حديث أنس ، والترمذي من حديث أبي هريرة ، وفيه : " فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون " وذكر الحديث .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هؤلاءآء شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُوْا مِن دُونِكَ ﴾ أي الذين جعلناهم لك شركاء .

﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي ألقت إليهم الآلهة القول ، أي نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فيُنطق الله الأصنامَ حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار .

وقيل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم .

﴿ وَأَلْقَوْا إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ يعني المشركين ، أي استسلموا لعذابه وخضعوا لعزّه .

وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي زال عنهم ما زيّن لهم الشيطان وما كانوا يؤمّلون من شفاعة آلهتهم .

قوله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾

قال ابن مسعود : عقارب أنيابها كالنخل الطوال ، وحيات مثل أعناق الإبل ، وأفاعي كأنها البَخَاتِيّ تضربهم ، فتلك الزيادة .

وقيل : المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار .

وقيل : المعنى زدنا القادة عذابا فوق السّفلة ، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدّهم .

﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(135/441)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وإنكارهم لها ، وذكر أن أكثرهم كافرون ، أتبعه بذكر الوعيد لهم في الآخرة فقال تعالى : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾ يعني رسولاً وذلك اليوم ، هو يوم القيامة والمراد بالشهداء : الأنبياء يشهدون على أممهم بإنكار نعم الله عليهم وبالكفر ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ يعني في الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم في الكلام أصلاً .

(136/441)

وقيل لا يؤذن لهم بالرجوع إلى دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل : لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ الاستعتاب : طلب العتاب ، والمعتبة : هي الغلظة والموجدة التي يجدها الإنسان في نفسه على غيره ، والرجل إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما في نفسه عليه من الموجدة والغضب ، ويرجع إلى الرضا عنه وإذ لم يطلب العتاب منه دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه ، ومعنى الآية : أنهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم ، لأن الآخرة ليست دار غضبه عليه ، ومعنى الآية أنهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم لأن الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا يرضوا ربهم فالاستعتاب : التعرض لطلب الرضا ، وهذا باب مسند على الكفار في الآخرة ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ يعني ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ العذاب ﴾ يعني عذاب جهنم ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ يعني العذاب ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ يعني لا يؤخرون ولا يمهلون ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ شركاءهم ﴾ يعني أصنامهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ يعني أرباباً وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة ﴿ فألقوا ﴾ يعني الأصنام ﴿ إليهم ﴾ يعني إلى عابديها ﴿ القول إنكم لكاذبون ﴾ يعني أن الأصنام قالت للكفار : إنكم لكاذبون يعني في تسميتنا آلهة وما دعوناكم إلى عبادتنا .

فإن قلت : الأصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام ؟ .

قلت : لا يبعد أن الله سبحانه وتعالى لما بعثها ، وأعادها في الآخرة ، خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك .

(137/441)

والمقصود من إعادتها وبعثها ، أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهي في غاية الذلة والحقارة ، فيزدادون بذلك غماً وحسرة ﴿ وألقوا ﴾ يعني المشركين ﴿ إلى الله يومئذ السلم ﴾ يعني أنهم استسلموا له ، وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئاً ﴿ وضل عنهم ﴾ يعني وزال عن المشركين ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ يعني ما كانوا يكذبون في الدنيا في قولهم ، إن الأصنام تشفع لهم ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ يعني ضموا مع كفرهم أنهم منعوا الناس عن الدخول في الإيمان بالله ورسوله ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ يعني زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على كفرهم الأصلي ، واختلفوا في هذه الزيادة ما هي فقال عبد الله بن مسعود : عقارب لها أنياب ، كأمثال النخل الطوال .

وقال سعيد بن جبير : حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال ، تلسع إحداهن اللسعة ، فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفاً .

وقال ابن عباس ومقاتل : يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار ، وقيل : إنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها وقيل : يضاعف لهم العذاب ضعفاً بسبب كفرهم وضعفاً بسبب صدهم الناس عن سبيل الله ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ يعني أن الزيادة إنما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله ، وبسبب ما كانوا يفسدون مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(138/441)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

استعتبت الرجل بمعنى أعتبته أي : أزلت عنه ما يعتب عليه ويلام ، والاسم العتبى ، وجاءت استفعل بمعنى أفعل نحو استدينته وأدينته .

﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا

ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ : لما ذكر إنكارهم لنعمة الله تعالى ، ذكر حال يوم القيامة حيث لا ينفع فيه الإنكار على سبيل الوعيد لهم بذلك اليوم .

وانتصب يوم بإضمار اذكر قاله : الحوفي ، والزمخشري ، وابن عطية ، وأبو البقاء .

وقال الزمخشري : أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه .

وقال الطبري : هو معطوف على ظرف محذوف العامل فيه : ثم ينكرونها ، أي ينكرونها اليوم .

ويوم نبعث أي : ينكرون كفرهم ، فيكذبهم الشهيد ، والشهيد نبي تلك الأمة يشهد عليهم بإيمانهم وبكفرهم ، ومتعلق الأذن محذوف .

فقيل : في الرجوع إلى دار الدنيا .

وقيل : في الكلام والاعتذار كما قال : ﴿ هذا يوم لا ينطقون .

ولا يؤذن لهم ﴾ فيعتذرون أي بعد شهادة أنبيائهم عليهم ، وإلا فقبل ذلك تجادل كل أمة عن نفسه .

وجاء كلامهم في ذلك ، ولكنها مواطن يتكلمون في بعضها ولا ينطقون في بعضها ولا هم يستعتبون أي : مزال عنهم العتب .

وقال قوم : معناه لا يسألون أن يرجعوا عن ما كانوا عليه في الدنيا ، فهذا استعتاب معناه طلب عتباهم ، ونحوه قول من قال : ولا هم يسترضون أي : لا يقال لهم ارضوا ربكم ، لأنّ الآخرة ليست بدار عمل قاله الزمخشري .

وقال الطبري : معناه يعطون الرجوع إلى الدنيا فيقع منهم توبة وعمل .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فما معنى ثم هذه ؟ (قلت) : معناها انهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منه ، وأنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ، ولا إدلاء بحجة انتهى .

ولما كانت حالة العذاب في الدنيا مخالفة لحال الآخرة إذ من رأى العذاب في الدنيا رجا أن يؤخر عنه ، وإن وقع فيه أن يخفف عنه ، أخبر تعالى أن عذاب الآخرة لا يكون فيه تخفيف ولا نظرة .

والظاهر أنّ جواب إذا قوله فلا يخفف ، وهو على إضمار هو أي : فهو لا يخفف ، لأنه لولا

تقدير الإضمار لم تدخل الفاء ، لأن جواب إذا إذا كان مضارعاً لا يحتاج إلى دخول الفاء ، سواء كان موجباً أم منفياً ، كما قال تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ﴾ وتقول : إذا جاء زيد لا يجيء عمرو .

قال الحوفي : فلا يخفف جواب إذا ، وهو العامل في إذا ، وقد تقدم لنا أنّ ما تقدم فاء الجواب في غير أما لا تعمل فيما قبله ، وبينا أنّ العامل في إذا الفعل الذي يليها كسائر أدوات الشرط ، وإن كان ليس قول الجمهور .

وجعل الزمخشري جواب إذا محذوفاً فقال : وقد قدر العامل في يوم نبعث مجزوماً قال : ويوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وكذلك وإذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم فلا يخفف ولا هم ينظرون كقوله : ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ فتبهتهم الآية انتهى .

والظاهر أن قوله : شركاءهم ، عام في كل من اتخذوه شريكاً لله من صنم ووثن وآدمي وشيطان وملك ، فيكذبهم من له منهم عقل ، فيكون : فألقوا عائداً على من له الكلام ، ويجوز أن يكون عاماً ينطق الله تعالى بقدرته الأوثان والأصنام .

وإضافة الشركاء إليهم على هذا القول لكونهم هم الذين جعلوهم شركاء لله .

وقال الحسن : شركاؤهم الشياطين ، شركوهم في الأموال والأولاد كقوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ وقيل : شركاؤهم في الكفر .

وعلى القول الأول شركاؤهم في أنْ اتخذوهم آلهة مع الله وعبدوهم ، أو شركاؤهم في أنْ جعلوا لهم نصيباً من أموالهم وأنعامهم ، والظاهر أنّ القول منسوب إليهم حقيقة .

وقيل : منسوب إلى جوارحهم ، لأنهم لما أنكروا الإشراك بقولهم : ﴿ إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ أصمت الله ألسنتهم وأنطق جوارحهم .

ومعنى : تدعو ، ونعبد قالوا ذلك رجاء أن يشركوا معهم في العذاب ، إذ يحصل التأسي ، أو اعتذاراً عن كفرهم إذ زين لهم الشيطان ذلك وحملهم عليه ، إن كان الشركاء هم الشياطين .

وقال أبو مسلم الأصبهاني .

قالوا : ذلك إحالة هذا الذنب على تلك الأصنام ، وظناً أن ذلك ينجيهم من عذاب الله أو من عذابهم ، فعند ذلك تكذيبهم تلك الأصنام .

وقال القاضي : هذا بعيد ، لأنّ الكفار يعلمون علماً ضرورياً في الآخرة أن العذاب سينزل بهم ، ولا نصرة ، ولا فدية ، ولا شفاعة .

وتقدم الإخبار بأنهم شركاء ، والإخبار أنهم كانوا يدعونهم : أي يعبدونهم ، فاحتمل

التذكيب أن يكون عائداً للإخبار الأول أي : لسنا شركاء لله في العبادة ، ولا آلهة نزهوا الله تعالى عن أن يكونوا شركاء له .

واحتمل أن يكون عائداً على الإخبار الثاني وهو العبادة ، لما لم يكونوا راضين بالعبادة جعلوا عبادتهم كلا عبادة ، أو لما لم يدعوهم إلى العبادة .

ألا ترى أنّ الأصنام والأوثان لا شعور لها بالعبادة ، فضلاً عن أن يدعو وإن من عبد من صالحي المؤمنين والملائكة ، لم يدع إلى عبادته .

وإن كان الشركاء الشياطين جاز أن يكونوا كاذبين في إخبارهم بكذب من عبدهم ، كما كذب إبليس في قوله :

﴿ إني كفرت بما اشركتمون من قبل ﴾ والضمير في فألقوا إلى الله فألقوا عائد على الذين أشركوا ، قاله الأكثرون .

والسلم : الاستسلام والانقياد لحكم الله بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ، فلم يكن لهم إذ ذاك حيلة ولا دفع .

وروى يعقوب عن أبي عمرو : السلم بإسكان اللام .

وقرأ مجاهد : بضم السين واللام .

وقيل : الضمير عائد على الذين أشركوا ، وشركائهم كلهم .

قال الكلبي : استسلموا منقادين لحكمه ، والضمير في وضلوا عائد على الذين أشركوا خاصة أي : وبطل عنهم ما كانوا يفترون من أنّ لله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرأوا منهم ، والظاهر أنّ الذين مبتدأ وزدناهم الخبر .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون قوله : الذين ، بدلاً من الضمير في يفترون .

وزدناهم فعل مستأنف إخباره .

وصدوا عن سبيل الله أي : غيرهم زدناهم عذاباً بسبب الصد فوق العذاب ، أي : الذي ترتب لهم على الكفر ضاعفوا كفرهم ، فضاعف الله عقابهم .

وهذا المزيد عن ابن مسعود عقارب كأمثال النخل الطوال ، وعنه : حيات كأمثال الفيلة ، وعقارب كأمثال البغال .

وعن ابن عباس : أنها من صفر مذاب تسيل من تحت العرش يعذبون بها ، وعن الزجاج : يخرجون من حر النار إلى الزمهرير ، فيبادرون من شدة برده إلى النار ، وعلل تلك الزيادة بكونهم مفسدين غيرهم ، وحاملين على الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾

يشهد لهم بالإيمان والطاعةِ وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في الاعتذار إذ لا عذرَ لهم وثم للدّلالة على أن ابتلاأهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الإقناط الكليّ وهو عندما يقال لهم : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تكلّمُونِ ﴾ أشدُّ من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم السلام عليهم وأطمُّ ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يُسترضَون أي لا يقال لهم : ارضُوا ربكم إذ الآخرةُ دارُ الجزاء لا دارُ العمل ، وانتصابُ الظرف بمحذوف تقديرُه اذكرْ أو خوّفْهم يوم نبعث الخ ، أو يوم نبعث بهم ما يحيق مما لا يوصف وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب ﴾ الذي يستوجبونه بظلمهم وهو عذابُ جهنم ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ﴾ ذلك ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يُمهلون كقوله تعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ . ﴾ ﴿ وَإِذَا رَءَا الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الأوثانُ أو الشياطينُ الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقارنوهم في الغيّ والضلال ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلآءِ شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُوْاْ مِن دُونِكَ ﴾ أي نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه : ﴿ فَأَلْقَوْاْ ﴾ أي شركاؤهم ﴿ إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة

والتخلص عن غائلة مضمونه ، وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لأن الأوثانَ ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتَهم لهم كما قالت الملائكةُ عليهم السلام : ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ يعنون أن الجنَّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن أو كذبوهم في تسميتهم شركاءَ وآلهةً تنزيهاً لله سبحانه عن الشريك . والشياطينُ وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه

(143/441)

القسر والإلجاءِ كما قال إبليسُ : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ فكأنهم قالوا : ما عبدتمونا حقيقة بل إنما عبدتم أهواءكم .

﴿ وَأَلْقَوْاْ ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ الاستسلامَ والانقيادَ لحُكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه في الدنيا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ضاع وبطل ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن لله سبحانه شركاءَ وأنهم ينصرُون ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم .

﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ في أنفسهم ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ الذي كانوا يستحقونه

بكفرهم ، قيل في زيادة عذابهم : حياتٌ أمثال البُخْت وعقاربُ أمثال البغال تلسَع إحداهن فيجد صاحبها حُمَتَها أربعين خريفاً ، وقيل : يُخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد إلى النار ﴿ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ متعلق بقوله : زدناهم ، أي زدنا عذابَهم بسبب استمرارِهم على الإفساد وهو الصدّ المذكور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(144/441)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلّ أُمَّةٍ ﴾

جماعة من الناس ﴿ شَهِيداً ﴾ يشهد لهم بالإيمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان ، والمراد به كما روى ابن المنذر .

وغيره عن قتادة نبي تلك الأمة ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي في الاعتذار كما قال سبحانه : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35 ، 36] والظاهر أنهم يستأذنون في ذلك فلا يؤذن لهم ، ويحتمل أنهم لا استئذان منهم ولا إذن إلا لا حجة لهم حتى تذكر ولا عذر حتى يعتذر ، وقال أبو مسلم : المعنى لا يسمع كلامهم بعد

شهادة الشهداء ولا يلتفت إليه كما في قول عدي بن زيد :

في سماع يأذن الشيخ له . . .

وحديث مثل ماذي مشار

وقيل : لا يؤذن لهم في الرجوع إلى دار الدنيا ، والأول مروي عن ابن عباس وأبي العالية وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بعدم الإذن المنبىء عن الاقناط الكلي وذلك عندما يقال لهم : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : 108] أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم السلام فهي للتراخي الرتبي ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم أي غضبه بالتوبة والعمل الصالح إذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل والرجوع إلى الدنيا مما لا يكون ، وقول الزمخشري : أي لا يقال لهم ارضوا ربكم تفسير باللازم ، وقيل : المعنى ولا يطلب رضاهم في أنفسهم بالتلطف بهم من استعتبه كأعتبه إذا أعطاه العتبي وهي الرضا وأياً ما كان فالمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار ، وانتصاب الظرف على ما قال الحوفي .

وغيره بمحذوف تقديره اذكر وقدره بعضهم خوفهم وهو في ذلك مفعول به ، وقيل : وهو نصب على الظرفية بمحذوف أي يوم نبعث يحيث بهم ما يحيق ، وقال الطبري : هو معطوف على ظرف محذوف العامل فيه ينكرونها أي ثم ينكرونها اليوم ويوم نبعث من كل أمة شهيداً فيشهد عليهم ويكذبهم وليس بشيء وتجري هذه الاحتمالات في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب ﴾ أي الذين يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم ، والمراد من الذين ظلموا الذين كفروا وكان الظاهر الضمير إلا أنه أقيم المظهر مقامه للنعي عليهم بما ذكر في حيز الصلة وتعليق الرؤية بالعذاب للمبالغة ، وقيل : المراد به جهنم نفسها مجازاً ، ويراد بضميره في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ﴾ معناه الحقيقي على سبيل الاستخدام وليس بذاك وهذه الجملة قيل : مستأنفة ، وقيل : جواب إذا بتقدير فهو لا يخفف لأن المضارع مثبتاً كان أو منفياً إذا وقع جواب إذا لا يقترن بالفاء ، واستظهره ذلك أبو حيان ونقل عن الحوفي القول بأنه جواب وأنه العامل في ﴿ إِذَا ﴾ ثم قال : وقد تقدم لنا أن ما تقدم فاء الجواب في الجواب في غير أما لا يعمل فيما قبله وبينا أن العامل في ﴿ إِذَا ﴾ ثم قال : وقد تقدم لنا أن ما تقدم فاء الجواب في غير أما لا يعمل فيما قبله وبينا أن العامل في ﴿ إِذَا ﴾ الفعل الذي يليها كسائر أدوات الشرط وإن كان ليس قول الجمهور تعقب الخفاجي القول بالجوابية بأنه محتاج إلى ما سمعت من التقدير وهو مع كونه خلاف الأصل مناف للغرض في تغاير الجملتين في النظم يعني قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب ﴾

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون وهو أن عدم التخفيف واقع بعد رؤية العذاب فلذا لم يؤت بجملة اسمية بخلاف عدم الإمهال فإنه ثابت لهم في تلك الحالة اه .

(146/441)

وفي كلام الزمخشري كما في "الكشف" إشعار بأن الناصب المحذوف لإذا بغتهم وإنه هو الجواب حيث قال بعد أن بين وجه انتصاب اليوم وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون كقوله تعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 40] الآية ، وفيه إشعار أيضاً بأن عدم التخفيف والأنظار يدل على أثقاله ومباغتته كما صرح به الآية الأخرى حيث أبت الإتيان بغتة والبهت هو الأثقال وزيادة ورتب عليه ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 40] ومثل هذه الفاء فصيحة عندهم فافهم ، وفي "التفسير الكبير" قال المتكلمون إن العذاب يجب أن يكون خالصاً عن شوائب النفع وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ﴾ ويجب أن يكون دائمياً وهو المراد من قوله سبحانه : ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وفيه نظر .

﴿ وَإِذَا رَءَا الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ الذين كانوا يزعمونهم شركاء الله سبحانه وتعالى ويعبدونهم معه عز وجل ؛ والمراد بهم كل من اتخذوه شريكاً له جل وعلا من صنم ووثن

وشيطان وآدمي وملك وإضافتهم إلى ضمير المشركين لهذا الاتخاذ ، وقيل : أريد بهم معبوداتهم الباطلة كما تقدم ، والإضافة إليهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم وأنعامهم ، واقتصر بعضهم على الأصنام ولعل التعميم أولى ، وقال الحسن : شركاؤهم الشياطين شركوهم في الأموال والأولاد ، وقيل : شركوهم في الكفر أي كفروا مثل كفرهم ، وقيل : شركوهم في وبال ذلك حيث حملوهم عليه ﴿ قَالُواْ ﴾ أي بألسنتهم وقيل : ختم الله تعالى على أفواههم وأنطق جوارحهم فقالت عنهم ﴿ رَبَّنَا هَؤُلآء شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُوْا مِن دُونِكَ ﴾ أي نعبدهم ونطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم .

واعترض بأنه لا يناسب تفسير الشركاء بالأصنام وفيه أنها تجيء على حالة يعقل معها عذابها فلا بأس في ذلك سواء فسرت الشركاء بالأصنام فقط أو بما يعمها وغيرها ، وقال أبو مسلم : مقصودهم من ذلك إحالة الذنب على الشركاء ظناً منهم أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم شيئاً .

وتعقبه القاضي بأنه بعيد لأن الكفار يعلمون علماً ضرورياً في الآخرة أن العذاب سينزل بهم ولا نصرة ولا فدية ولا شفاعة ، وأورد نحوه على ما ذكرنا بناء على أنهم يعلمون علماً

ضروريا ًأيضا ًأنه لا يحمل أحد من عذابهم شيئًا ً.

وأجيب بأنه على تقدير تسليم حصول العلم الضروري لهم بذلك إذ ذاك يجوز أن يدهشوا فيغفلوا عن ذلك فيقولوا ما يقولون طامعين فيما ذكر وهو نظير قولهم : ﴿ يخفف عنا يوما ً من العذاب ﴾ [غافر : 49] ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ [الزخرف : 77] ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا ً ﴾ [فاطر : 37] إلى غير ذلك مما لهم علم ضروري عند بعضهم بأنه لا يكون.

وقيل : إن القوم مع علمهم بأن ما يرجونه ويطمعون فيه لا يحصل لهم أصلاً وعدم غفلتهم عن ذلك تغلبهم أنفسهم بمقتضى الطبيعة لشدة ما هم فيه والعياذ بالله تعالى حتى تعلق آمالها بالمحال ، وقيل : قالوا ذلك اعترافا ً بأنهم كانوا مخطئين في عبادتهم.

وتعقب بأنه لا يناسب قوله تعالى : ﴿ مِن دُونِكَ ﴾ وفيه تأمل.

(148/441)

نعم قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا ْ ﴾ أي شركاؤهم ﴿ إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ أظهر ملاءمة للأول فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ظاهر في كونه للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه والظاهر أن التكذيب راجع إلى دعوى أنهم كانوا يعبدونهم أو يطيعونهم من دون الله تعالى

ومرادهم على ما قيل : إنكم ما عبدتمونا حقيقة وإنما عبدتم أشياء تصورتموها بأذهانكم الفاسدة وزعمتم أنا هاتيك الأشياء وهيهات هيهات ليس بيننا وبينها جهة جامعة ولا علاقة نافعة ، وقيل : إنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام :

(149/441)

﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 41] يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن ، والشياطين وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال إبليس : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ [إبراهيم : 22] فكأنهم قالوا : ما عبدتمونا حقيقة وإنما عبدتم أهواءكم ، وقيل : يجوز أن يكون الشياطين كاذبين في أخبارهم بكذب من عبدهم كما كذب إبليس عليه اللعنة في قوله : ﴿ إِنّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم : 22] وجوز أن يكون التكذيب راجعاً إلى أنهم شركاء الله سبحانه لا إلى أنهم كانوا يعبدونهم ومرادهم تنزيه الله جل وعلا عن الشريك في ذلك الموقف ، وخص هذا بعضهم بتقدير إرادة الشياطين من الشركاء فافهم ، والظاهر أن قائل هذا جميع الشركاء ولا يمنع من ذلك

تفسيره بما يعم الأصنام إذ لا بعد في أن ينطقها الله تعالى الذي أنطق كل شيء بذلك ، وجوز على التعميم أن يكون القائل بعضهم وهو من يعقل منهم ؛ وكان الظاهر فقالوا لهم أنكم لكاذبون إلا أنه عدل إلى ما في "النظم الكريم" للإشارة إلى أنهم قالوا ذلك لهم على وجه الإفصاح بحيث يدرك ويمتاز عن غيره ، وفيه من الإشعار بالحرص على تكذيبهم ما فيه ، ويؤيد ذلك تأكيدهم الجملة الدالة على تكذيبهم أتم تأكيد ، وهي في موضع البدل من القول كما قال الإمام أي ألقوا إليهم أنكم لكاذبون .

﴿ وَأَلْقَوْا ﴾ أي الذين أشركوا ، وقيل : هم وشركاؤهم جميعاً ، والأكثرون على الأول ﴿ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ الاستسلام الانقياد لحكمه تعالى العزيز الغالب بعد الإباء والاستكبار في الدنيا فلم يكن لهم إذا ذاك حيلة ولا دفع .

(150/441)

وروى يعقوب عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿ السلام ﴾ بإسكان اللام ، قرأ مجاهد السلم بضم السين واللام ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ضاع وبطل ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين سمعوا ما سمعوا .

هذا ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مّنْكُم بِرَبّهِمْ

يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 54] بنسبة ذلك إلى غيره سبحانه ورؤيته منه ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ من النعمة بالغفلة عن منعها ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 55] وبال ذلك أو فسوف تعلمون بظهور التوحيد أن لا تأثير لغيره تعالى في شيء ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيعتقدون فيه من الجهالات ما يعتقدون وهو السوي ﴿ نَصِيباً مِّمَّا رزقناهم ﴾ [النحل : 56] فيقولون هو أعطاني كذا ولو لم يعطني لكان كذا ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل : 66] الإشارة فيه على ما في أسرار القرآن إلى ما تشربه الأرواح مما يحصل في العقول الصافية بين النفس والقلب من زلال بحر المشاهدة وهناك منازل اعتبار المعتبرين ، والإشارة في قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثمرات النخيل والاعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : 67] على ما فيه أيضاً إلى ما تتخذه الأرواح والأسرار من ثمرات نخيل القلوب وأعناب العقول من خمر المحبة والانس الآخذة بها إلى حضيرة القدس :

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت . . .

لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ قيل أي نحل الأرواح ﴿ أَنِ اتخذى مِنَ الجبال ﴾ أي جبال أنوار الذات ﴿ بُيُوتًا ﴾ مقار لتسكنين فيها ﴿ وَمِنَ الشجر ﴾ أي ومن أشجار أنوار الصفات ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : 68] أنوار عروش الأفعال ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثمرات ﴾ أي من ثمرات تلك الأشجار الصفاتية ونور بهاء الأنوار الذاتية وأزهار الأنوار الأفعالية ﴿ فاسلكى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ وهي صحارى قدسه تعالى وبراري جلاله جل شأنه ﴿ ذُلُلاً ﴾ منقادة لما أمرت به ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ وهو شراب معرفته تعالى بقدم جلاله وعز بقائه وتقدس ذاته سبحانه ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ باختلاف الثمرات ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل : 69] لكل مريض المحبة وسقيم الألفة ولديغ الشوق ، وقيل : الإشارة بالنحل إلى الذين هم في مبادىء السلوك من أرباب الاستعداد ، ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدس سره في مولانا ابن الفارض قدس سره حين سئل عنه : نحلة تدندن حول الحمى أمرهم الله تعالى أولاً أن يتخذوا مقار من العقائد الدينية التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات ومن العبادات الشرعية التي هي كالشجر في التشعب ومن المعاملات المرضية التي هي كالعروض في الارتفاع ثم يسلكوا سبله سبحانه وطرقه الموصلة إليه جل شأنه من تهذيب الباطن والمراقبة والفكر ونحو ذلك متذللين خاضعين غير معجبين ، وفي ذلك إشارة إلى أن السلوك إنما يصح بعد تصحيح العقائد ومعرفة الأحكام الشرعية ليكون السالك على بصيرة في أمره وإلا فهو كمن ركب متن عمياء وخبط

خبط عشواء ، ومتى سلك على ذلك الوجه حصل له الفوز بالمطلوب وتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه وصار ما يقذف به قلبه كالعسل شفاء من علل الشهوات وأمراض النفس لا سيما مرض التثبط والتكاسل عن العبادة وهو المرض البلغمي .

(152/441)

وقال أبو بكر الوراق : النحلة لما اتبعت الأمر وسلكت سبل ربها على ما أمرت به جعل لعابها شفاءً للناس كذلك المؤمن إذا اتبع الأمر وحفظ السر وأقبل على ربه عز وجل جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاءً للخلق فمن نظر إليه اعتبر ومن سمع كلامه اتعظ ومن جالسه سعد انتهى .

(153/441)

وفي الآية إشارة أيضاً إلى أنه تعالى قد يودع الشخص الحقير الشيء العزيز فإنه سبحانه أودع النحل وهي من أحقر الحيوانات وأضعفها العسل وهو من ألذ المذوقات وأحلاها فلا ينبغي التقيد بالصور والاحتجاب بالهيآت ، وفي الحديث " رب أشعث أغبر ذي طمرين لو

أقسم على الله تعالى لأبره " وعن يعسوب المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال ﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِى الرزق ﴾ [النحل : 71] قيل : الإشارة فيه إلى تفاوت أرزاق السالكين فرزق بعضهم طاعات ، وبعض آخر مقامات وبعض حالات وبعض مكاشفات وبعض مشاهدات وبعض معرفة وبعض محبة وبعض توحيد إلى غير ذلك ، وذكروا أن رزق الأشباح العبودية ورزق الأرواح رؤية أنوار الربوبية ورزق العقول الأفكار ورزق القلوب الأذكار ورزق الأسرار حقائق العلوم الغيبية المكشوفة لها في مجالس القرب ومشاهدة الغيب ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الامثال ﴾ لتقدسه تعالى عن الأوهام والإشارات والعبارات وتنزهه سبحانه عن درك الخليقة فإن الخلق لا يدرك إلا خلقاً ، ولذا قال علي كرم الله تعالى وجهه : إنما تحد الأدوات أنفسها وتشير الآلات إلى نظائرها فلا يعرف الله تعالى إلا الله عز وجل وعل النهي بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 74] ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ محباً لغير الله تعالى ولا شك أن المحب أسير بيد المحبوب لا يقدر على شيء لأنه مقيد بوثاق المحبة ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ فجعلناه محباً لنا مقبلاً بقلبه علينا متجرداً عما سوانا وآتيناه من لدنا علماً ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّا ﴾ وذلك من النعم الباطنة

﴿ وَجَهْرًا ﴾ [النحل : 75] وذلك من النعم الظاهرة ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ لا استعداد فيه للنطق وهو مثل المشرك ﴿ لاَّ يَقْدِرُ على شَىْءٍ ﴾ لعدم استطاعته وقصور قوته للنقص اللازم لاستعداده ﴿ وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ ﴾ لعجزه بالطبع عن تحصيل حاجة ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ لعدم استعداده وشرارته بالطبع فلا يناسب إلا الشر الذي هو العدم ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ وهو الموحد القائم بالله تعالى الفاني عن غيره، والعدل على ما قيل : ظل الوحدة في عالم الكثرة ﴿ وَهُوَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : 76] صراط العزيز الحميد الذي عليه خاصته تعالى من أهل البقاء بعد الفناء الممدود على نار الطبيعة لأهل الحقيقة يمرون عليه كالبرق اللامع ﴿ وَللَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ علم مراتب الغيوب أو ما غاب من حقيقتهما أو ما خفي فيهما من أمر القيامة الكبرى ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ أي القيامة الكبرى بالقياس إلى الأمور الزمانية ﴿ إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ وهو بناءً على التمثيل وإلا فقد قيل : إن أمر الساعة ليس بزماني وما كان كذلك يدركه من يدركه لا في الزمان ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : 77] ومن ذلك أمر الساعة ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل : 78] الآية، قال في أسرار القرآن : أخبر سبحانه أنه أخرجهم من بطون الأقدار وأرحام العدم وأصلاب المشيئة على نعت الجهل لا يعلمون

شيئاً من أحكام الربوبية وأمور العبودية وأوصاف الأزل فألبسهم أسماعاً من نور سمعه وكساهم أبصاراً من نور بصره وأودع في قلوبهم علوم لعلهم يشكرونه انتهى .

وهو ظاهر في أن المراد بالأفئدة القلوب .

(155/441)

وذكر بعض من أدركناه من المرتاضين في كتابه "الفوائد" وشرحه أن مشاعر الإنسان الصدر ، والمراد به الخيال والنفس الكلية التي هي محل الصور العلمية كلية أو جزئية فهو محل العلم المقابل للجهل ، والقلب وهو محل المعاني واليقين بالنسب الحكمية ويقابله الشك والريب ، والفؤاد وهو محل المعارف الإلهية المجرد عن جميع الصور والنسب والأوضاع والإشارات والجهات والأوقات ويقابلها الإنكار وهو أعلى المشاعر ، ونور الله تعالى المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى " وهو الوجود لأنه الجهة العليا من الإنسان أعني وجهه من جهة ربه وبه يعرف الله تعالى وهو في الإنسان بمنزلة الملك في المدينة والقلب بمنزلة الوزير له انتهى ، وله أيضاً كلام في الأم وكذا في الأب غير ما ذكر ، وذلك أنه يطلق الأب على المادة والأم على الصورة ، وزعم أن قول الصادق رضي الله تعالى عنه : إن الله تعالى خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته

فالمؤمن أخوا لمؤمن لأبيه وأمه أبوه النور وأمه الرحمة إشارة إلى ذلك وأن ما اصطلح عليه المتقدمون والحكماء من أن الأب هو الصورة والأم هي المادة وأن الصورة إذا نكحت المادة تولد عنهما الشيء توهماً منهم أن النشور والخلق في بطن المادة بعيد من جهة المناسبة إلى آخر ما قال فتفطن وإياك أن تعدل عن الطريق السوي ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير مسخرات فِى جَوّ السمآء ﴾ فيه إشارة إلى تسخير طير القوى الروحانية والنفسانية من الفكر والعقل النظري والعملي بل الوهم والتخيل في فضاء عالم الأرواح ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل

(156/441)

﴿ إِلاَّ الله ﴾ [النحل : 79] عز وجل ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مّمَّا خَلَقَ ظلالا ﴾ وهو ما يستظل به من وهج نار الحاجة فالماء ظل للعطشان والطعام ظل للجيعان وكل ما يقوم بحاجة شخص ظل له ، وفي الخبر " السلطان ظل الله تعالى في الأرض يأوي إليه كل مظلوم " ، وقيل : الظلال الأولياء يستظل بهم المريدون من شدة حر الهجران ويأوون إليهم من قهر الطغيان ، وقد يؤل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مّنَ الجبال أكنانا ﴾ بنحو هذا فما أشبه الأولياء بالجبال ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ فيه إشارة إلى ما جعل للعارفين من

سرابيل روح الأنس لئلا يحترقوا بنيران القدس وأشار تعالى بقوله جل جلاله : ﴿ وسرابيل تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ إلى ما من به من المعرفة والمحبة ليدفع بذلك كيد الشياطين والنفوس ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل : 81] تنقادون لأمره سبحانه في العبودية وتخضعون لعز الربوبية ، قال ابن عطاء : تمام النعمة السكون إلى المنعم ، وقال حمدون : تمامها في الدنيا المعرفة وفي الآخرة الرؤية ، وقال أبو محمد الحريري : تمامها خلو القلب من الشرك الخفي وسلامة النفس من الرياء والسمعة ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ﴾ وهي هداية النبي أو وجوده بقوة الفطرة ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ لعنادهم وغلبة صفات نفوسهم ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ [النحل : 83] لشهادة فطرهم بحقيته ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ كُلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الاعتذار عن التخلف عن دعوته إذ لا عذر لهم ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] لأنهم قد حق عليهم القول بمقتضى استعدادهم نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿ وَأَلْقَوْا إلى اللهِ يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ [النحل : 87] قيل : هذا في الموقف الثاني حين تضعف غواشي أنفسهم المظلمة وترق حجبها الكثيفة وأما في الموقف الأول حين قوة

هيآت الرذائل وشدة شكيمة النفس في الشيطنة فلا يستسلمون كما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : 18] وقيل :

المستسلمون بعض والحالفون بعض فافهم والله تعالى أعلم .

﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ في أنفسهم ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ بمنع من يريد

الإسلام عنه وبحمل من استخفوه على الكفر فالصد عن السبيل أعم من المنع عنه ابتداءً

وبقاءً كذا قيل : والظاهر الأول ، والظاهر أن الموصول مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ زدناهم

عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾ خبره ، وجوز ابن عطية كون الموصول بدلاً من فاعل ﴿ يَفْتَرُونَ

﴾ [النحل : 87] ويكون ﴿ زِدْنَاهُمْ ﴾ مستأنفاً ، وجوز بعضهم كون الأول نصباً على

الذم أو رفعاً عليه فيضمر الناصب والمبتدأ وجوباً و ﴿ زِدْنَاهُمْ ﴾ بحاله ، وهذه الزيادة

إما بالشدة أو بنوع آخر من العذاب والثاني هو المأثور ، فقد أخرج ابن مردويه .

والخطيب عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال : " عقارب أمثال

النخل الطوال ينهشونهم في جهنم " وروى نحوه الحاكم وصححه .

والبيهقي .

وغيره عن ابن مسعود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال : إن أهل النار إذا جزعوا من حرها استغاثوا بضحضاح في النار فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنهن البغال الدهم وأفاعي كأنهم البخاتي فتضربهم فذلك الزيادة ، وعن ابن عباس أنها أنهار من صفر مذاب يسيل من تحت العرش يعذبون بها ، وعن الزجاج يخرجون من حر النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ متعلق بزدناهم أي زدناهم عذاباً فوق العذاب الذي يستحقونه بكفرهم بسبب استمرارهم على الإفساد وهو الصد عن السبيل ، وجوز أن يفسر ذلك بما هو أعم من الكفر والصد ، والمعنى زدناهم عذاباً فوق عذابهم الذي يستحقونه بمجرد الكفر والصد بسبب استمرارهم على هذين الأمرين القبيحين ، ووجه ذلك أن البقاء على المعصية يومين مثلاً أقبح من البقاء عليها يوماً والبقاء ثلاثة أيام أقبح من البقاء يومين وهكذا ، ومن هنا قالوا : الإصرار على الصغيرة كبيرة ، وقيل : إن أهل جهنم يستحقون من العذاب مرتبة مخصوصة هي ما يكون لهم أول دخولها والزيادة عليها إنما هي لحفظها إذ لو لم تزد لألفوها وطابت أنفسهم بها كمن وضع يده في ماء حار مثلاً فإنه يجد أول زمان وضعها ما لا يجده بعد مضي ساعة وهو كما ترى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة متعلق الإذن في قوله ﴿ لَا يُؤْذَنُ ﴾ ولكنه بين في (المرسلات) أن متعلق الإذن الاعتذار . اي لا يؤذن لهم في الاعتذار ، لأنهم ليس لهم عذر يصح قبوله ، وذلك في قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35-36] .

فإن قيل : ما وجه الجمع بين نفي اعتذارهم المذكور هنا ، وبين ما جاء في القرآن من اعتذارهم . كقوله تعالى عنهم : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، وقوله : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سوء ﴾ [النحل : 28] ، وقوله : ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ [غافر : 74] ، ونحو ذلك من الآيات .

فالجواب – من أوجه :

منها – أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم : اخسؤوا فيها ولا تكلمون ، انقطع نطقهم ولم يبق إلا

الزفير والشهيق. كما قال تعالى: ﴿ ووَقَعَ القول بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: 85].

ومنها – أن نفي اعتذارهم يراد به اعتذار فيه فائدة. أما الاعتذار الذي لا فائدة فيه فهو كالعدم، يصدق عليه في لغة العرب: أنه ليس بشيء، ولذا صرح تعالى بأن المنافقين بكم في قوله: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ [البقرة: 18] مع قوله عنهم: ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: 4] أب لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. وقال عنهم أيضاً: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الخوف سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: 19] فهذا الذي ذكره جل وعلا من فصاحتهم وحدة ألسنتهم، مع تصريحه بأنهم بكم – يدل على أن الكلام الذي لا فائدة فيه كلا شيء، كما هو واضح. وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

وإن كلام المرء فيغير كنهه... لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

وقد بينا هذا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في مواضع منه.

والترتيب ب " ثمّ " فيقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ على قوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ لأجل الدلالة على ان ابتلاءهم بالمنع من الاعتذار المشعر

بالإقناط الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

اعلم أولاً - أن استعتب تستعمل في اللة بمعنى طلب العتبى . اي الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره . تستعمل أيضاً في اللغة بمعنى أعتب : إذا أعطى العتبى . أي رجع إلى ما يجب العاتب ويرضى ، فإذا علمت ذلك - فاعلم أن في قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ وجهين من التفسير متقاربي المعنى .

قال بعض أهل العلم : ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا تطلب منهم العتبى ، بمعنى لا يكلفون ان يرضوا ربهم ، لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا .

وقال بعض العلماء : ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي يعتبون ، بمعنى يزال عنهما لعتب ، وعطون العتبى وهي الرضا .

لأن الله لا يرضى عن القوم الكافرين . وهذا المعنى كقوله تعالى في قراءة الجمهور : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ [فصلت : 24] أيى وإن يطلبوا العتبيى - وهي الرضا عنهم لشدة جزعهم - فما هم من المعتبين . بصيغة اس المفعول : أي المعطين العتبى وهي الرضا عنهم . لأن العرب تقول : أعتبه إذا رجع إلى ما يرضيه ويسره ، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي :

أمن المنون وريبه تتوجع . . . والدهر ليس بمعتب من يجزع

أي لا يرجع الدهل إلى مسرة من جزع ورضاه . وقول النابغة :

فإن كنت مظلوماً فعبد ظلمته . . . وإن كن ذا عتبى فمثلك يعتب

(161/441)

وأما قول بشر بن أبي خازم :

غضبت تميم ان تقتل عامر . . . يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

يعني أعتبناهم بالسيف ، أي أرضيناهم بالقتل . فهو من قبيل التهكم ، كقول عمرو بن معدي كرب :

وخيل قد دلفت لها بخيل . . . تحية بينهم ضرب وجيع

لأن القتل ليس بإرضاء ، والضرب الوجيع ليس بتحية .

وأما على قراءة من قرأ ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ [فصلت : 24] بالبناء للمعفول ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ [فصلت : 24] بصيغة اسم الفاعل ، فالمعنى : أنهم لو طلبت منهم العتبى ورزا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله وطاعة رسله ، فما هم من المعتبين : اي الراجعين إلى ما يرضي ربهم ، بل يرجعون إلى كفرهم الذي كانوا عليه أولاً ، وهذه القراءة كقوله تعالى

: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) ﴾

(162/441)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار إذا رأوا العذاب لا يخفف عنهم ، ولا ينظرون اي لا يمهلون ، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر . وبين أنهم يرون النار وأنها تراهم ، وأنها تكاد تتقطع من شدة الغيظ عليهم . كقوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 39-40] ، وقوله : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ [الكهف : 53] ، وقوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] ، وقوله : ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغيظ ﴾ [الملك : 7-8] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ يَرَى الذين ظلموا إِذْ يَرَوْنَ العذاب أَنَّ القوة للَّهِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 165] إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ

﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا معبوداتهم التي كانوا يشركونها بالله في عبادته قالوا لربهم: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك! وأن معبوداتهم تكذبهم في ذلك فيقولون لهم: كذبتم! ما كنتم أيانا تعبدون!

(163/441)

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة. كقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: 5-6]، وقوله: ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم: 81-82]، وقوله: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 25]، وقوله: ﴿ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [القصص: 64]، وقوله: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس: 28]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإن قيل : كيف كذبتهم آلهتهم ونفوا أنهم عبدوهم مع أن الواقع خلاف ما قالوا ، وأنهم كانوا يعبدونهم في دار الدنيا من دون الله !

(164/441)

فالجواب –أن تكذيبهم لهم منصب على زعمهم أنهم آلهة ، وان عبادتهم حق ، وأنها تقربهم إلى الله زلفى . ولا شك أن كل ذلك من أعظم الكذب واشنع الافتراء . ولذلك هم صادقون فيما ألقوا إليهم من القول ، ونطقوا فيه بأنهم كاذبون . ومراد الكفار بقولهم لربهم : هؤلاء شركاؤنا ، قيل ليحملوا شركاءهم تبعة ذنبهم . وقيل : ليكونوا شركاءهم في العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] ، وقد نص تعالى على أنهم وما يعبدونه من دون الله في النار جميعاً في قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] الآية . وأخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيزاً بقوله : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] الآية ، لأنهم ما عبدوهم برضاهم . لل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده جلّ وعلا .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَوْاْ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

إلقاؤهم إلى الله السلم: هو انقيادهم له، وخضوعهم. حيث لا ينفعهم ذلك كما تقدم في قوله: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سواء ﴾ [النحل: 28]. والآيات الدالة على ذلك كثيرة. كقوله: ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ [الصافات: 26] وقوله: ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ [طه: 111] ونحو ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من ذلك في الكلام على قوله: ﴿ فألقوا السلم ما كنا نعمل من سواء ﴾.

(165/441)

وقوله: ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي غاب عنهم عنهم واضمحل ما كانوا يفترونه. من أن شركاءهم تشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى. كما قال تعالى: ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس: 18] الآية، وكقوله: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر: 3]. وضلال ذلك عنهم مذكور في آيات كثيرة. كقوله تعالى: ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [يونس: 30]، وقوله: ﴿ فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [القصص: 75]. وقد قدمنا معاني " الضلال " في القرآن وفي اللغة بشواهدها.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) ﴾

اعلم اولاً أن " صد " تيتعمل في اللغة العربية استعمالين : أحدهما – أن تستعمل متعدية إلى المفعلو ، كقوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] الآية ، ومضارع هذه المتعدية " يصد " بالضم على القياس ، ومصدرها " الصد " على القياس أيضاً . والثاني – أن تستعمل " صد " لازمة غير متعدية إلى المفعول ، ومصدر هذه " الصدود " على القياس ، وفي مضارعها الكسر على القياس ، والضم على السماع . وعليهما القراءتان السبعيتان في قوله : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف : 57] بالكسر والضم .

فإذا عرفت ذلك – فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ محتمل لأن تكون " صد " متعدية ، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه . على حد قوله في الخلاصة :

وحذف فضلة أجز أن لم يضر . . . كحذف ما سيق جواباً أو حصر

ومحتمل لأن تكون " صد " لازمة غير متعدية إلى المفعول ، ولكن في الآية الكريمة ثلاث قرائن

تدل على أن " صد " متعدية ، والمفعول محذوف ، اي وصدوا الناس عن سبيل الله .

الأولى – أنا لو قدرنا " صد " لازمة ، وأن معناها : صدودهم في أنفسهم عن الإسلام –

لكان ذلك تكراراً من غير فائدة مع قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ بل معنى الآية : كفروا في

أنفسهم ، وصدوا غيرهم عن الدين فحملوه على الكفر ايضاً .

القرينة الثانية – قوله تعالى : ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾ [النحل : 88] فإن هذه

الزيادة من العذاب لأجل إضلالهم غيرهم ، والعذاب المزيد فوقه : هو عذابهم على

كفرهم في أنفسهم . بدليل قوله في المضلين الذين أضلوا غيرهم : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً

يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُم ﴾ [النحل : 25] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ

أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] الآية كما تقدم إيضاحه .

القرينة الثالثة – قوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ فإنه يدل على أنهم كانوا يفسدون على

غيرهم مع ضلالهم في أنفسهم ، وقوله ﴿ فَوْقَ العذاب ﴾ اي الذي استحقوه بضلالهم

وكفرهم . وعن ابن مسعود . أن هذا العذاب المزيد : عقارب أنيابها كالنخل الطوال ،

وحيات مثل أعناق الإبل ، وأفاعي كأنها البخاتي تضربهم . أعاذنا الله وإخواننا المسلمين

منها ! والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

الواو عاطفة جملة ﴿ يوم نبعث ﴾ الخ على جملة ﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ [سورة النحل : 82] بتقدير : واذكر يوم نبعث من كل أمّة شهيداً .

فالتذكير بذلك اليوم من البلاغ المبين .

والمعنى : فإن تولّوا فإنما عليك البلاغ المبين ، وسنجازي يوم نبعث من كل أمّة شهيداً عليها .

ذلك أن وصف شهيد يقتضي أنه شاهد على المؤمنين به وعلى الكافرين ، أي شهيد لأنه بلّغهم رسالة الله .

وبعْثُ شهيدٍ من كل أمّة يفيد أن محمداً شهيد على هؤلاء الكافرين كما سيجيء عقبه قوله تعالى : ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ [سورة النساء : 41] ، وبذلك انتظم أمر العطف والتخلّص إلى وصف يوم الحساب وإلى التّنويه بشأنه .

وانتصب يوم نبعث ﴾ على المفعول به للفعل المقدّر .

ولك أن تجعل ﴿ يوم ﴾ منصوباً على الظرفية لعامل محذوف يدلّ عليه الكلام المذكور يقدرّ بما يسمح به المعنى ، مثل : نحاسبهم حساباً لا يستعتبون منه ، أو وقعوا فيما وقعوا

من الخطب العظيم .

والذي دعا إلى هذا الحذف هو أن ما حقّه أن يكون عاملاً في الظرف وهو ﴿ لا يؤذن للذين كفروا ﴾ قد حوّل إلى جعله معطوفاً على جملة الظرف بحرف ﴿ ثمّ ﴾ الدال على التراخي الرتبي ، إذ الأصْل : ويوم نبعث من كل أمّة شهيداً لا يؤذن للذين كفروا . . . إلى آخره ، فبقي الظرف بدون متعلّق فلم يكن للسامع بُدّ من تقديره بما تذهب إليه نفسه . وذلك يفيد التهويل والتفظيع وهو من بديع الإيجاز .

والشّهيد : الشّاهد .

وقد تقدم نظيره عند قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد ﴾ في سورة النساء (41) .

والبعث : إحضاره في الموقف .

و﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي ، لأن إلجامهم عن الكلام مع تعذّر الاستعتاب أشدّ هولاً من الإتيان بالشهيد عليهم .

وليست ﴿ ثم ﴾ للتراخي في الزمن ، لأن عدم الإذن لهم مقارن لبعث الشّهيد عليهم .

والمعنى : لا يؤذن لهم بالمجادلة عن أنفسهم ، فحذف متعلق ﴿ يؤذن ﴾ لظهوره من قوله تعالى : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ .

ويجوز أن يكون نفي الإذن كناية عن الطّرد كما كان الإذن كناية عن الإكرام ، كما في حديث جرير بن عبد الله "ما استأذنتُ رسول الله منذ أسلمت إلا أذن لي" .

وحينئذٍ لا يقدّر له متعلّق أو لا يؤذن لهم في الخروج من جهنّم حين يسألونه بقولهم : ﴿ ادعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب ﴾ [سورة غافر : 49] فهو كقوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾ [سورة الجاثية : 35] .

والاستعتاب : أصله طلب العُتبى ، والعتبى : الرضى بعد الغضب ، يقال : استعتب فلان فلاناً فأعتبه ، إذا أرضاه ، قال تعالى : ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ [سورة فصلت : 24] .

وإذا بُني للمجهول فالأصل أن يكون نائب فاعله هو المطلوبَ منه الرضى ، تقول : استُعتِب فلانٌ فلم يُعْتب .

وأما ما وقع في القرآن منه مبنيّاً للمجهول فقد وقع نائب فاعله ضمير المستعتبين كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى في سورة الروم (57) :

﴿ فيومئذٍ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ وفي سورة الجاثية (35) :

﴿ فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾ ففسّره الراغب فقال : الاستعتاب أن يُطلب من الإنسان أن يَطلب العُتبى اه .

وعليه فيقال : استُعتِبَ فلم يَستَعْتِب ، ويقال : على الأصل استُعتب فلان فلم يُعْتب .

وهذا استعمال نشأ عن الحذف .

وأصله : استعتب له ، أي طلب منه أن يستعتب ، فكثر في الاستعمال حتى قلّ استعمال استُعتِب مبنيّاً للمجهول في غير هذا المعنى .

(169/441)

وعطف ولا هم يستعتبون ﴾ على ﴿ لا يؤذن للذين كفروا ﴾ وإن كان أخصّ منه ، فهو عطف خاص على عام ، للاهتمام بخصوصه للدّلالة على أنهم مأيوس من الرضى عنهم عند سائر أهل الموقف بحيث يعلمون أن لا طائل في استعتابهم ، فلذلك لا يشير أحد عليهم بأن يستعتبوا .

فإن جعلتَ ﴿ لا يؤذن ﴾ كناية عن الطّرد فالمعنى : أنهم يطردون ولا يجدون من يشير عليهم بأن يستعتبوا .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) ﴾

عطف على جملة ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ [سورة النحل : 84] .

و﴿ إذا ﴾ شرطية ظرفية .

وجملة ﴿ فلا يخفف ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ .

وقرن بالفاء لتأكيد معنى الشرطية والجوابية لدفع احتمال الاستئناف .

وصاحب "الكشاف" جعل ﴿ إذا ﴾ ظرفاً مجرّداً عن معنى الشرطية منصوباً بفعل محذوف لقصد التهويل يقتضي تقديره عدمُ وجود متعلّق للظرف ليقدّر له متعلّق بما يناسب ، كما قدّر في قوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث ﴾ [سورة النحل : 84] .

والتقدير : إذا رأى الذين ظلموا العذاب ثقل عليهم وبغتهم ، وعلى هذا فالفاء في قوله : فلا يخفف ﴾ فصيحة وليست رابطة للجواب .

و﴿ الذين ظلموا ﴾ هم الذين كفروا ، فالتعبير به من الإظهار في مقام الإضمار لقصد إجراء الصفات المتلبّسين بها عليهم .

والمعنى : فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، ثم يساقون إلى العذاب فإذا رأوه لا يخفّف عنهم ، أي يسألون تخفيفه أو تأخير الإقحام فيه فلا يستجاب لهم شيء من ذلك .

وأطلق العذاب على آلاته ومكانه .

وجاء المسند إليه مُخبراً عنه بالجملة الفعلية ، لأن الإخبار بالجملة الفعلية عن الاسم يفيد تقوّي الحكم ، فأريد تقوّي حكم النفي ، أي أن عدم تخفيف العذاب عنهم محقّق الوقوع لا

طماعية في إخلافه ، فحصل تأكيد هذه الجملة كما حصل تأكيد الجملة التي قبلها بالفاء ، أي فهم يلقون بسرعة في العذاب .

(170/441)

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ﴾

﴿ الذين أشركوا ﴾ هم الذين ظلموا الذين يرون العذاب ، وهم الذين كفروا الذين لا يؤذن لهم .

وإجراء هذه الصّلات الثلاث عليهم لزيادة التسجيل عليهم بأنواع إجرامهم الراجعة إلى تكذيب ما دعاهم الله إليه ، وهو نكتة الإظهار في مقام الإضمار هنا ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وإذا رءا الذين ظلموا العذاب ﴾ [سورة النحل : 85] .

فالإشراك المقصود هنا هو إشراكهم الأصنام في صفة الإلهية مع الله تعالى ، فيتعيّن أن يكون المراد بالشركاء الأصنام ، أي الشركاء لله حسب اعتقادهم .

وبهذا الاعتبار أضيف لفظ شركاء إلى ضمير الذين ظلموا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ شركاءهم ﴾ ، كقول خالد بن الصقعب النهدي لعمرو بن معديكرب وقد تحدّث عَمْرو في

مجلس قوم بأنه أغار على بني نهد وقتل خالداً ، وكان خالد حاضراً في ذلك المجلس فناداه : مهلاً أبا ثور قتيلُك يسمع ، أي قتيلك المزعوم ، فالإضافة للتهكّم .

والمعنى : إذا رأى الذين أشركوا الشركاء عندهم ، أي في ظنّهم .

ولك أن تجعل لفظ "شركاء" لقباً زال منه معنى الوصف بالشركة وصار لقباً للأصنام ، فتكون الإضافة على أصلها .

والمعنى : أنهم يرون الأصنام حين تقذف معهم في النار ، قال تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [سورة البقرة : 24] .

وقولهم : ربنا هؤلاء شركاؤنا ﴾ إما من قبيل الاعتراف عن غير إرادة فضحاً لهم ، كقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم ﴾ [سورة النور : 24] ، وإما من قبيل التنصّل وإلقاء التّبعة على المعبودات كأنهم يقولون هؤلاء أغرونَا بعبادتهم من قبيل قوله تعالى : ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّأوا منا ﴾ [سورة البقرة : 167] .

والفاء في ﴿ فألقوا ﴾ للتّعقيب للدّلالة على المبادرة بتكذيب ما تضمّنه مقالهم ، أنطق الله تلك الأصنام فكذّبت ما تضمّنه مقالهم من كون الأصنام شركاء لله ، أو من كون

عبادتهم بإغراء منها تفضيحاً لهم وحسرة عليهم .

والجمع في اسم الإشارة واسم الموصول جمعُ العقلاء جرياً على اعتقادهم إلهية الأصنام .

ولما كان نطق الأصنام غير جار على المتعارف عبّر عنه بالإلقاء المؤذن بكون القول أجراه الله على أفواه الأصنام من دون أن يكونوا ناطقين فكأنه سقط منها .

وإسناد الإلقاء إلى ضمير الشركاء مجاز عقلي لأنها مَظهره .

وأجرى عليهم ضمير جمع العقلاء في فعل "ألقوا" مُشاكلةً لاسم الإشارة واسم الموصول للعقلاء .

ووصفهم بالكذب متعلّق بما تضمّنه كلامهم أن أولئك آلهة يُدعون من دون الله على نحو ما وقع في الحديث : " فيقال للنّصارى : ما كنتم تعبدون ، فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ما اتّخذَ الله من ولد " .

وأما صريح كلامهم وهو قولهم : ﴿ هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ﴾ فهم صادقون فيه .

وجملة ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ بدل من ﴿ القول ﴾ .

وأعيد فعل ﴿ ألقَوا ﴾ في قوله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذٍ السلم ﴾ لاختلاف فاعل الإلقاء ، فضمير القول الثاني عائد إلى ﴿ الذين أشركوا ﴾ .

ولك أن تجعل فعل ﴿ ألقوا ﴾ الثاني مماثلاً لفعل "ألقوا" السابق .

ولك أن تجعل الإلقاء تمثيلاً لحالهم بحال المحارب إذا غُلب إذ يلقي سلاحه بين يدي غالبه ،

ففي قوله : ﴿ ألقوا ﴾ مكنية تمثيلية مع ما في لفظ ﴿ ألقوا ﴾ من المشاكلة .

و﴿ السلم ﴾ بفتح اللام : الاستسلام ، أي الطاعة وترك العناد .

﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي غاب عنهم وزايلهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الاختلافات للأصنام من أنها تسمع لهم ونحو ذلك .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) ﴾

(172/441)

لما ذكر العذاب الذين هم لاقوه على كفرهم استأنف هنا بذكر زيادة العذاب لهم على الزّيادة في كفرهم بأنهم يصدّون الناس عن اتّباع الإسلام ، وهو المراد بالصدّ عن سبيل الله ، أي السبيل الموصلة إلى الله ، أي إلى الكون في أوليائه وحزبه .

والمقصود : تنبيه المسلمين إلى كيدهم وإفسادهم ، والتّعريض بالتّحذير من الوقوع في شراكهم .

وزيادة العذاب : مضاعفته .

والتّعريف في قوله تعالى : ﴿ فوق العذاب ﴾ تعريف الجنس المعهود حيث تقدّم ذكره في قوله تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ﴾ [سورة النحل : 85] ، لأن عذاب كفرهم لما كان معلوماً بكثرة الحديث عنه صار كالمعهود ؛ وأما عذاب صدّهم الناس فلا يخطر بالبال فكان مجهولاً فناسبه التنكير .

والباء في بما كانوا يفسدون ﴾ للسببية .

والمراد : إفسادهم الراغبين في الإسلام بتسويل البقاء على الكفر ، كما فعلوا مع الأعشى حين جاء مكّة راغباً في الإسلام مادحاً الرسول عليه الصلاة والسلام بقصيدة:

هَل اغتمضَتْ عيناكَ ليلةَ أَرْمَدَا . . .

وقصّته في كتب السيرة والأدب .

وكما فعلوا مع عامر بن الطّفيل الدّوسي فإنه قدم مكّة فمشى إليه رجال من قريش فقالوا : يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا وإنما قوله كالسحر ، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه ولا تسمعَنّ منه .

وقد ذكر في قصة إسلام أبي ذرّ كيف تعرّضوا له بالأذى في المسجد الحرام حين علموا إسلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

الحق تبارك وتعالى يُنبِّهنا هنا إلى أن المسألة ليست ديناً ، وتنتهي القضية آمن مَنْ آمن ، وكفر مَنْ كفر . . إنما ينتظرنا بعث وحساب وثواب وعقاب . . مرجع إلى الله تعالى ووقوف بين يديه ، فإنْ لم تذكر الله بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للقائك به لاحقاً .

والشهيد : هو نبيُّ الأمة الذي يشهد عليهم بما بلَّغهم من منهج الله .

وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . ﴾ [البقرة : 143] .

فكأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعطاها الله أمانة الشهادة على الخَلْق لأنها بلغتهم ، فكل مَنْ آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم مطلوب منه أن يُبلِّغ ما بلَّغه الرسول ، ليكون شاهداً على مَنْ بلغه أنه بلَّغه :

﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ . . ﴾ [النحل : 84] .

فحينما يشهد عليهم الشهيد لا يُؤذَن لهم في الاعتذار ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] .

أو حينما يقول أحدهم : ﴿ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ . . ﴾ [

المؤمنون : 99–100] .

فلا يُجَاب لذلك ؛ لأنه لو عاد إلى الدنيا لفعل كما كان يفعل من قبل ، فيقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ . . . ﴾ [الأنعام : 28] .

وقوله :

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . . ﴾ [النحل : 84] .

يستعتبون : مادة استعتب من العتاب ، والعتاب مأخوذ من العَتْب ، وأصله الغضب والموجدة تجدها على شخص آخر صدر منه نحوك ما لم يكن مُتوقّعاً منه . . فتجد في نفسك موجدة وغضباً على مَنْ أساء إليك .

(174/441)

فإن استقرّ العَتْب الذي هو الغضب والموجدة في النفس ، فأنت إمّا أنْ تعتب على مَنْ أساء إليك وتُوضّح له ما أغضبك ، فربما كان له عُذْر ، أو أساء عن غير قصد منه ، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك . . فنقول : عتَب فلان على فلان فأعتبه ، أي : أزال عَتْبه .

والإنسان لا يُعاتب إلا عزيزاً عليه يحرص على علاقته به ، ويضعه موضعاً لا تتأتى منه

الإساءة ، ومن حقه عليك أن تعاتبه ولا تدعْ هذه الإساءة تهدم ما بينكما .

إذن : معنى :

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] .

أي : لا يطلب أحد منهم أنْ يرجعوا عما أوجب العَتْب وهو كفرهم . . فلم يَعُد هناك وقت لعتاب ؛ لأن الآخرة دار حساب ، وليست دار عمل أو توبة . . لم تَعُدْ دارَ تكليف .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ . . . ﴾ .

﴿ وإذا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب . . . ﴾ [النحل : 85] .

كأن العذاب سيُنصب أمامهم ، فيرونه قبل أن يباشروه ، وهكذا يجمع الله عليهم ألواناً من العذاب ؛ لأن إدراكات النفس تتأذى بالمشاهدة قبل أنْ تألم الأحاسيس بالعذاب ؛ لذلك قال :

﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ . . ﴾ [النحل : 85] .

وقوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [النحل : 85] .

أي : لا يُمْهَلون ولا يُؤجَّلون .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين أَشْرَكُواْ . . . ﴾ .

ذلك حينما يجمع الله المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس والجن والأصنام ، وكل مَنْ

أشركوه مع الله وَجْهاً لوجه يوم القيامة ، وتكون بينهما هذه الواجهة . . حينما يرى المشركون شركاءهم الذين أضلّوهم وزيّنوا لهم المعصية ، وزيّنوا لهم الشرك والكفر بالله . . يقولون : هؤلاء هم سببُ ضلالنا وكُفْرنا . . كما قال تعالى عنهم في آية أخرى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ﴾ [البقرة : 166] .

(175/441)

ويقول تعالى : ﴿ يَقُولُ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ : 31] .

وقوله :

﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول . . . ﴾ [النحل : 86] .

أي : ردُّوا عليهم بالمثل ، وناقشوهم بالحجة ، كما قال تعالى في حقِّ الشيطان . ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . ﴾ [إبراهيم : 22] .

إذن : ردّوا عليهم القول : ما كان عليكم سلطان . نحن دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن

لنا قوة تُرغمكم على الفعل ، ولا حُجّة تُقنعكم بالكفر ؛ ولذلك يتهمونهم بالكذب :

﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [النحل : 86] .

أي : كاذبون في هذه الدعوى .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ . . . . ﴾ .

السَّلَم : أي الاستسلام . . فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهْلة ، تعمل أو لا تعمل . إنما الآن ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ ؟ الأمر والملك لله ، وما داموا لم يُسلّموا طواعية واختياراً ، فَلْيُسلّموا له قَهْراً ورَغْماً عن أنوفهم .

وهنا تتضح لنا مَيْزة من مَيْزات الإيمان ، فقد جعلني استسلم لله عز وجل مختاراً ، بدل أنْ استسلمَ قَهْراً يوم أنْ تتكشّف الحقيقة على أنه لا إله إلا الله ، وسوف يُواجهني سبحانه وتعالى في يوم لا اختيار لي فيه .

وقوله :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [النحل : 87] .

كلمة : الضلال تردُ بمعانٍ متعددة ، منها : ضلَّ أي غاب عنهم شفعاؤهم ، فأخذوا يبحثون عنهم فلم يجدوهم ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . ﴾ [السجدة : 10] .

أي : يغيبوا في الأرض ، حيث تأكل الأرض ذرّاتهم ، وتُغيّبهم في بطنها . . وكذلك تقول : الضالة أي الدابة التي ضلّتْ أي : غابتْ عن صاحبها .

(176/441)

ومن معاني الضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى . . ﴾ [البقرة : 282] .

ومن معانيه : التردد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] .

فلم يكُنْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ثم تركه وانصرف عنه وفارقه ، ثم هداه الله . . بل كان صلى الله عليه وسلم مُتحيّراً مُتردّداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقول الراجحة من أفعال تتنافى مع العقل السليم والفطرة النّيرة ، فكانت حيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها .

فقوله :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم . . ﴾ [النحل : 87] .

أي : غاب عنهم :

﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [النحل : 87] .

أي : يكذبون من ادعائهم آلهة وشفعاءَ من دون الله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين كَفَرُواْ . . . ﴾ .

هنا فرْق بين الكفر والصَّدّ عن سبيل الله ، فالكفر ذنب ذاتيّ يتعلق بالإنسان نفسه ، لا يتعدّاه إلى غيره . . فاكفُرْ كما شئت والعياذ بالله أنت حر ! !

أما الصدُّ عن سبيل الله فذنبٌ مُتعدٍّ ، يتعدَّى الإنسان إلى غيره ، حيث يدعو غيره إلى الكفر ، ويحمله عليه ويُزيّنه له . . فالذنب هنا مضاعف ، ذنب لكفره في ذاته ، وذنب لصدّه غيره عن الإيمان ، لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . . ﴾ [العنكبوت : 13] .

فإنْ قال قائل : كيف وقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى . . ﴾ [الأنعام : 164] .

نقول : لا تعارضَ بين الآيتين ، فكل واحد سيحمل وزْره ، فالذي صَدَّ عن سبيل الله يحمل وِزْرَيْن ، أما مَنْ صدَّه عن سبيل الله فيحمل وِزْر كفره هو .

وقوله :

﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب . . ﴾ [النحل : 88] .

العذاب الأول على كفرهم ، وزِدْناهم عذاباً على كفر غيرهم مِمَّنْ صدُّوهم عن سبيل الله .

(177/441)

ولذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة" .

فإياك أنْ تقعَ عليك عيْن المجتمع أو أُذنه وأنت في حال مخالفة لمنهج الله ؛ لأن هذه المخالفة ستؤثر في الآخرين ، وستكون سبباً في مخالفة أخرى بل مخالفات ، وسوف تحمل أنتَ قِسْطاً من هذا . . فأنت مسكين تحمل سيئاتك وسيئات الآخرين .

وقوله :

﴿ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] .

والإفساد : أنْ تعمدَ إلى شيء صالح أو قريب من الصلاح فتُفسده ، ولو تركتَه وشأنه لربما يهتدي إلى منهج الله . . إذن : أنت أفسدتَ الصالح ومنعت القابل للصلاح أن يُصلح .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(178/441)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) (النحل : 84) ، وفي آية سادسة من هذه : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) (النحل : 89) ، ففي الأولى (مِن كُلِّ أُمَّةٍ) وفي الثانية (فِي كُلِّ أُمَّةٍ) ، وفي الأولى : (شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وفي الثانية : (شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) ، فللسائل أن يسأل عن موجب الاختلاف في الآيتين ؟

(179/441)

واعلم أن الآية الأولى متفق فيها على أن المراد بها الأنبياء ، عليهم السلام ، مع أممهم ، وكل نبي شاهد على أمته ولها بإيمان مؤمنها وكفر كافرها ، ولم يختلف المفسرون في هذا ، وإنما السؤال في الآية الثانية لاختلافهم فيها ، فأكثر المفسرين لم يفرق بينها وبين الأولى فيما قصد بها ، وأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم شاهد على أمته كشهدة الرسل على أممهم ، ثم إن هذه تضمنت زائداً على ذلك حسبما نبينه ، وأشار بعضهم إلى الفرق بين الآيتين من

غير تحرير ولا ركون إلى توجيه يعتمد ، فأقول –وأسأل الله توفيقه : إن هذه الآية لثانية المراد بها تخصيص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالإفصاح فيها – ما شاركت فيه الأولى – بما منح من الكتاب العزيز وعظيم النعمة عليه وعلى أمته ، فاستؤنف وقوله تعالى : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) . وكرر ليبنى عليه ما بعد من قوله : (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ . . .) الآية ، فهذا من قبيل قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا) (الأعراف : 90) ، وقد تقدم هذا قوله تعالى : (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ) (الأعراف : 88) ، فكرر : (قَالَ الْمَلَأُ) ليبني عليه ما اتصل به ، ونحو هذا قوله تعالى : (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) (البقرة : 150) ، وقد تقدم أمره عليه السلام ، (بهذا) إلا أنه أعيد ليبنى عليه ما بعد من قوله تعالى : (وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) (البقرة : 150) ليفهم وحيث ما كنتم من البلاد أو المواضع التي خرجتم إليها ، ولم تكن الآية المتقدمة لتعطي ذلك إلا باعتماد من غير تحرير ، فلم يكن بد من إعادة

ما ذكر ليتحرر المعنى المراد من الآية ، وقد مر بيان ذلك في سورة البقرة عند ذكر الآية المشار إليها . ومن نحو هذا في الإخبار قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ (المؤمنون : 35) ، فكرر (أنكم) ليبنى عليه (الخبر) بالإعادة والإخراج بما بعد من قوله في أول الآية : (إنكم) ، وهو مرتكب بليغ متكرر في الكتاب العزيز ، فكذا الوارد في هذه الآية من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ ، تكرر لعظيم ما بني عليه وقصد الإخبار والبشارة من قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل : 89) . فلما بين هذا الإنعام العظيم وبين الحاصل طي الآية المتقدمة من مخوف الوعيد ، أعقب به التعريف فيها بالشهادة ، من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (النحل : 84) ، إلى ما تلاهذا .

فالآيتان فيما أعقبتا به ، وأنيط بكل واحدة منها ، معرفتان بالحال في الطرفين ، الأولى معقب فيها التخويف والتهديد بأشد الوعيد ، والثانية أعقب مخوف تهديدها بترجي السلامة من مهول وعيدها بما اتبعت به ، مما يفهم البشارة والتلطف والإنعام بقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل : 89) . بعد ذكر نبينا عليه السلام . المراد بهذا الخطاب التعريف بشهادته لأمته مفصحاً بالإشارة إليه تخويفاً وتعظيماً ، وبالإنعام بما أولاه ومنح أمته من الرحمة بالكتاب المهيمن

على سواه من الكتب والمبين لك شيء والهدى والرحمة والبشرى ، أوزعنا الله شكر نعمه ، وجعلنا من أمة هذا النبي الكريم بمنه .

(181/441)

ولما كان قوله تعالى : (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) (النحل : 89) حاصلاً منه تعقيبه ، عليه السلام ، وتحقيق كونه الشهيد على أمته ، وكونه من أنفسنا ورد ما قبله محرراً فيه ذلك الغرض من تحقيق ذلك الحكم ، من أن كل نبي قبله إنما كان من أنفس القوم المرسل إليهم ذلك الرسول لا من غيرهم ، وهو الشهيد عليهم ، وحقق ذلك في الثانية بما يحرزه حرف الوعاء الذي هو ((في)) ويقتضيه من استحكام الإخبار بكون الشهيد من نفس الأمة ، لأن قوله : (مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ) يحتمل أن يراد به أن يكون منهم في مذهب أو جامع بينهم وبينه ، من غير أن يكون من أنفسهم ، أما قوله : (فِي كُلِّ أُمَّةٍ) فأنص في الاتصال واللزوق ، لاسيما بما اتبع به من قوله : (مِنْ أَنْفُسِهِمْ) ، فطوبق بين المتقابلين من قوله : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) (النحل : 89) وقوله : (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) (الحل : 89) ، فقد وضح ما باينت هذه الآية (به الآية) ، وبانت جلالة هذا النظم العجيب ، وأن ما توهم تكراره ليس بتكرار ، إذا كان مقصود ما أعيد مما (تقدم) ذكره

الشهيد لما بني عليه . فتحصل من هذه الآية العظيمة جليل الاعتناء بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تأنيسه ، ما الآية في قوله تأنيساً للأمة وإعلاماً بعظيم مكانته صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ (التوبة : 128) فهذا –والله أعلم– فصل ما بين الآيتين ، وقد بان فيه التناسب ، وجلالة النظم ، وحسن الالتئام ، والله أعلم بما أراد .

(182/441)

فصل : لم يتعرض لهذه الآية أكثر المفسرين ، ومن تعرض منهم لها ألحقها بالأول ، وقد وقفت في التفسير الكبير المنسوب للإمام أبي الفضل بن الخطيب ، وقد تعرض لهذه الآية فأورد مأخذ الإمامية بأن كل عصر لا يخلو من إمام معصوم ، وذكر تخريج الآية عندهم ، ثم محله ، واتبع بأن قال : فثبت أنه لابد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم ، ثم حكى عن أبي بكر الأصم أن المراد بالشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أجزاء الإنسان تشهد عليه ، وهي : الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان ، قال والتدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد : أنه من أنفسهم ، وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم وذكر أن القاضي أجاب عن هذا من وجوه : الأول أنه تعالى قال : ﴿ شهيد ﴾) فيجب أن يكون غيرهم ،

والثاني أنه من كل أمة فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمة وآحاد الأعضاء لا يصح وصفها بأنه من الأمة ، هذا حاصل ما وقع في هذا التفسير ، ولم يقع فيه تعرض لشيء من ألفاظ الآية ، وتنزيل هذه المآخذ على الآية ، وأخذها من أبعد شيء ، وقد ذكرت في ذلك منزلاً عن الآية ما أراه الأولى في المراد بها ، والله أعلم .

وأما قول الإمامية : إنه لا بد في كل عصر وقرن من إمام معصوم يشهد عليها في القيامة فباطل ، وقد كفانا وجه فساده من تقدم ، وقول الأصم بعيد لما قاله القاضي ، وأما ما اعتمده أبو الفضل فبعيد أيضاً ، فيه ما يشبه الصغو إلى قول الإمامية ، وقد ورد في الصحيح أن الرسل هم الذين يشهدون على أممهم ، وعلى ذلك حمل المفسرون قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء : 41) ، ولا فرق بين هذه الآي ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 306. 308﴾

(183/441)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84)﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ بإضمارِ اذكر . الثاني : بإضمارِ " خَوِّفْهم " . الثالث : تقديره : ويوم نَبْعَثُ وقعوا في أمرٍ عظيم . الرابع : أنه معطوفٌ على ظرفٍ محذوف ، أي : ينكرونها اليومَ ويوم نَبْعَثُ .

/قوله : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ ﴾ قال الزمخشري : " فإن قلتَ : ما معنى " ثم " هذه؟ قلت : معناه أنهم يُمَنَّوْن بعد شهادةِ الأنبياء بما هو أَطَمُّ منه ، وهو أنهم يُمْنَعُون الكلام ، فلا يُؤْذَنُ لهم في إلقاءِ مَعْذرةٍ ولا إدلاءٍ بحجةٍ " . انتهى . ومفعولُ الإِذنِ محذوفٌ ، أي : لا يُؤْذَنُ لهم في الكلامِ ، كما قاله الزمخشري ، أو : في الرجوعِ إلى الدنيا .

قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : لا تُزال عُتْباهم ، وهي ما يُعْتَبُون عليها ويُلامون . يقال : اسْتَعْتَبْتُ فلاناً بمعنى أَعْتَبْتُه ، أي : أزلت عُتْباه ، واستفعل بمعنى أَفْعل غيرُ مُسْتَنْكَرٍ . قالوا : اسْتَدْنَيْتُ فلاناً ، وأَدْنَيْتُه ، بمعنىً واحد . وقيل : السين على بابها من الطلب ، ومعناه : أنهم لا يُسْأَلون أن يَرْجِعُوا عَمَّا كانوا عليه في الدنيا ، فهذا استعتابٌ معناه طَلَبُ عُتْباهم . وقال الزمخشري : " ولا هم يُسْتَرْضَوْن أي : لا يُقال لهم : أَرْضُوا ربَّكم ؛ لأن الآخرةَ ليست بدارِ عملٍ " . وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ إن شاء الله في سورة حم السجدة ؛ لأنه أَلْيَقُ به لاختلافِ القرَّاء فيه .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ ﴾ : هذه الفاءُ وما في حيِّزِها جوابُ " إذا " ولا بُدَّ من إضمارِ مبتدأ قبلَ هذه الفاءِ ، أي : فهو لا يُخَفَّفُ ، لأنَّ جوابَ " إذا " متى كان مضارعاً لم يَحْتَجْ إلى فاءٍ سواءٌ كان موجَباً كقولِه تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ ﴾ [الحج : 72] أم منفيّاً نحو : " إذا جاء زيدٌ لا يكرُمك " .

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87) ﴾

قوله تعالى : ﴿ السلم ﴾ : العامَّةُ على فتحِ السينِ واللام وقرأ أبو عمروٍ في روايةٍ بسكونِ اللامِ . ومجاهدٌ بضم السين واللام . وكأنه جمع " سَلام " نحو قَذَال وقُذُل ، والسَّلام والسَّلَم واحدٌ ، وقد تقدَّم الكلامُ عليهما في سورة النساء .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ : يجوز أن يكونَ مبتدأً ، والخبرُ " زِدْناهم " وهو واضحٌ . وجوَّز ابنُ عطية أن يكونَ ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ بدلاً مِنْ فاعلِ " يَفْتَرُوْن " ، ويكون " زِدْناهم " مستأنفاً . ويجوز أن يكونَ ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ نصباً على الذمِّ أو رفعاً عليه ، فيُضْمَرُ الناصبُ والمبتدأُ وجوباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 277 . 279 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

إذا كان يومُ الحشر سأل الرسلَ عن أحوال أُمَمِهم ، فمن نَطَقَ بحجةٍ أُكْرِمَ ، ومَنْ لم يُدْلِ بحجةٍ لا تُراعى له حُرْمةٌ .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) ﴾

أي يُشَدَّد عليهم الأمرُ ولا يُسَهَّل .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) ﴾

تمنوا أن يَنْتَقِموا من إخوانهم الذين عاشروهم ، وحملوهم على الزَّلَّة ، فيتبرأون من شركائهم ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وتضيق صدورهم من بعض .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ واستسلمو

لأمر الله وحُكْمه ، ويؤمئذ لا تضرُّع منهم يُرَى ، ولا مِحْنَة َ- يصرخون من ويلها - عنهم تُكْشَف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 313 ﴾

(186/441)

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/442)

الجزء الثانى والأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 89 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 96 ﴾ من نفس السورة

(4/442)

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم كرر التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السالفة ، وهو أن الشهادة تقع على الأمم لا لهم ، وتكون بحضرتهم ، فقال تعالى : ﴿ ويوم ﴾ أي وخوفهم يوم ﴿ نبعث ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ في كل أمة ﴾ من الأمم ﴿ شهيداً ﴾ أي هو في أعلى

رتب الشهادة ﴿ عليهم ﴾ .

ولما كانت بعثة الأنبياء السابقين عليهم السلام خاصة بقومهم إلا قليلاً ، قال : ﴿ من أنفسهم ﴾ وهو نبيهم .

(5/442)

ولما كان لذلك اليوم من التحقق ما لا شبهة فيه بوجه وكذا شهادة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، عبر بالماضي إشارة إلى ذلك ، وإلى أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يزل من حين بعثه متصفاً بهذه الصفة العلية فقال تعالى : ﴿ وجئنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بك شهيداً ﴾ أي شهادة هي مناسبة لعظمتنا ﴿ على هؤلاء ﴾ أي الذين بعثناك إليهم وهم أهل الأرض ، وأكثرهم ليس من وقوعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولذلك لم يقيد بعثته بشيء ؛ ثم بين أنه لا إعذار في شهدائه فإنه لا حجة في ذلك اليوم لمن خالف أمره اليوم ، لأنه سبحانه أزاح العلل ، وترك الأمر على بيضاء نقية ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾ - الآية ، المتعقب لقوله ﴿ لا جرم ﴾ - الآيتين : ﴿ ونزلنا ﴾ أي بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم ﴿ عليك الكتاب ﴾ الجامع للهدى ﴿ تبياناً ﴾ أي لأجل البيان التام ، قالوا : وهو اسم وليس بمصدر

كتلقاء ﴿ لكل شيء ﴾ ورد عليك من أسئلتهم ووقائعهم وغير ذلك ، وهو في أعلى طبقات البيان كما أنه في أعلى طبقات البلاغة ، لأن المعنى به أسرع إلى الأفهام وأظهر ، في الإدراك ، والنفس أشد تقبلاً له لما هو عليه من حسن النظام والقرب إلى الافهام ، وإنما احتيج إلى تفسيره مع أنه في نهاية البيان لتقصير الإنسان في العلم بمذاهب العرب الذين هم الأصل في هذا اللسان ، وتقصير العرب عن جميع مقاصده كما قصروا عن درجته في البلاغة ، فرجعت الحاجة إلى تقصير الفهم لا إلى تقصير الكلام في البيان ، ولهذا تفاوت الناس في فهمه لتفاوتهم في درجات البلاغة ومعرفة طرق العرب في جميع أساليبها ؛ قال الإمام الشافعي -رضى الله عنهم- في آخر خطبة الرسالة بعد أن دعا الله تعالى أن يرزقه فهماً في كتابه ثم في سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم : فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها ، واحتج

(6/442)

بآيات منها هذه ، وذلك لأنه سبحانه بين فيه التوحيد والمبدأ والمعاد والأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام بالنص على بعضها ، وبالإحالة على السنة في الآخر ، وعلى الإجماع في نحو قوله تعالى ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ [النساء : 115] وعلى

الاقتداء بالخلفاء الراشدين في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي " وبالاقتداء بجميع أصحابه . رضى الله عنهم . م في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤوا طرق القياس والاجتهاد ولم يخرج أحد منهم عن الكتاب والسنة ، فهو من دلائل النبوة في كونه صلى الله عليه وعلى آله وسلم شهيداً لكونه ما أخبر عنهم إلا بما هم أهله .

ولما كان لتبيان قد يكون للضلال ، قال تعالى : ﴿ وهدى ﴾ أي موصلاً إلى المقصود .

ولما كان ذلك قد لا يكون على سبيل الإكرام ، قال تعالى : ﴿ ورحمة ﴾ ولما كان الإكرام قد لا يكون بما هو في أعلى طبقات السرور ، قال سبحانه : ﴿ وبشرى ﴾ أي بشارة عظيمة جداً ﴿ للمسلمين ﴾ ويجوز أن يكون التقدير ﴿ في كل أمة شهيداً عليهم ﴾ وهو رسولهم الذي أرسلناه إليهم في الدنيا ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ لكوننا أرسلناك إليهم وجعلناك أميناً عليهم ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ فلا عذر لهم ، فيكون معطوفاً على ما دل الكلام السابق دلالة واضحة على تقديره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 301.302 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصي .

واعلم أن الأمة عبارة عن القرن والجماعة .

إذا ثبت هذا فنقول : في الآية قولان : الأول : أن المراد أن كل نبي شاهد على أمته .

والثاني : أن كل جمع وقرن يحصل في الدنيا فلا بد وأن يحصل فيهم واحد يكون شهيداً عليهم .

أما الشهيد على الذين كانوا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الرسول بدليل قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] وثبت أيضاً أنه لا بد في كل زمان بعد زمان الرسول من الشهيد فحصل من هذا أن عصراً من الإعصار لا يخلو من شهيد على الناس وذلك الشهيد لا بد وأن يكون غير جائز الخطأ ، وإلا لافتقر إلى شهيد آخر ويمتد ذلك إلى غير النهاية وذلك باطل ، فثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم وذلك يقتضي أن يكون إجماع الأمة حجة .

قال أبو بكر الأصم : المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الإنسان حتى أنها تشهد عليه وهي : الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان .

قال : والدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم .

أجاب القاضي عنه من وجوه : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الأمة فيجب أن يكون غيرهم .

الثاني : أنه قال : ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمة وآحاد الأعضاء لا يصح وصفها بأنها من الأمة ، وأما حمل هؤلاء الشهداء على الأنبياء فبعيد ، وذلك لأن كونهم أنبياء مبعوثين إلى الخلق أمر معلوم بالضرورة فلا فائدة في حمل هذه الآية عليه .

(8/442)

ثم قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

وجه تعلق هذا الكلام بما قبله أنه تعالى لما قال : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا على هؤلاءآء ﴾ بين أنه أزاح علتهم فيما كلفوا فلا حجة لهم ولا معذرة .

المسألة الثانية :

من الناس من قال : القرآن تبيان لكل شيء وذلك لأن العلوم إما دينية أو غير دينية ، أما العلوم التي ليست دينية فلا تعلق لها بهذه الآية ، لأن من المعلوم بالضرورة أن الله تعالى إنما مدح القرآن بكونه مشتملاً على علوم الدين فأما ما لا يكون من علوم الدين فلا التفات إليه ، وأما علوم الدين فإما الأصول ، وإما الفروع ، أما علم الأصول فهو بتمامه موجود في القرآن وأما علم الفروع فالأصل براءة الذمة إلا ما ورد على سبيل التفصيل في هذا الكتاب ، وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله تعالى إلا ما ورد في هذا القرآن ، وإذا كان كذلك كان القول بالقياس باطلاً ، وكان القرآن وافياً ببيان كل الأحكام ، وأما الفقهاء فإنهم قالوا : القرآن إنما كان تبياناً لكل شيء ، لأنه يدل على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة ، فإذا ثبت حكم من الأحكام بأحد هذه الأصول كان ذلك الحكم ثابتاً بالقرآن ، وهذه المسألة قد سبق ذكرها بالاستقصاء في سورة الأعراف ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

روى الواحدي بإسناده عن الزجاج أنه قال : تبياناً في معنى اسم البيان ومثل التبيان التلقاء ، وروى ثعلب عن الكوفيين ، والمبرد عن البصريين أنهم قالوا : لم يأت من المصادر على تفعال إلا حرفان تبياناً وتلقاء ، وإذا تركت هذين اللفظين استوى لك القياس فقلت : في كل

مصدر تفعال بفتح التاء مثل تسيار وتذكار وتكرار ، وقلت : في كل اسم تفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 79. 80 ﴾

(9/442)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْك الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

يَعْنِي بِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ بِالنَّصِّ وَالدَّلَالَةِ ، فَمَا مِنْ حَادِثَةٍ جَلِيلَةٍ وَلَا دَقِيقَةٍ إلَّا وَلِلَّهِ فِيهَا حُكْمٌ قَدْ بَيَّنَهُ فِي الْكِتَابِ نَصًّا أَوْ دَلِيلًا ، فَمَا بَيَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّمَا صَدَرَ عَنْ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّك لَتَهْدِي إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ فَمَا بَيَّنَهُ الرَّسُولُ فَهُوَ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ مِنْ تِبْيَانِ الْكِتَابِ لَهُ لِأَمْرِ اللَّهِ إيَّانَا بِطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ ، وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ فَمَصْدَرُهُ أَيْضًا عَنْ الْكِتَابِ لِأَنَّ الْكِتَابَ قَدْ دَلَّ عَلَى صِحَّةِ حُجَّةِ الْإِجْمَاعِ وَأَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَلَالٍ ، وَمَا أَوْجَبَهُ الْقِيَاسُ وَاجْتِهَادُ الرَّأْيِ وَسَائِرُ ضُرُوبِ الِاسْتِدْلَالِ مِنْ الِاسْتِحْسَانِ وَقَبُولِ خَبَرِ

الْوَاحِدِ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنْ تِبْيَانِ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ قَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعَ ، فَمَا مِنْ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ إلَّا وَفِي الْكِتَابِ تِبْيَانُهُ مِنْ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا .

(10/442)

وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لِأَنَّا إذَا لَمْ نَجِدْ لِلْحَادِثَةِ حُكْمًا مَنْصُوصًا فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا فِي الْإِجْمَاعِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْكِتَابِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ، ثَبَتَ أَنَّ طَرِيقَهُ النَّظَرُ وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْقِيَاسِ عَلَى حُكْمِهِ ؛ إذْ لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ وَجْهٌ يُوَصِّلُ إلَى حُكْمِهَا مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْجِهَةِ وَمَنْ قَالَ بِنَصٍّ خَفِيٍّ أَوْ بِالِاسْتِدْلَالِ فَإِنَّمَا خَالَفَ فِي الْعِبَارَةِ وَهُوَ مُوَافِقٌ فِي الْمَعْنَى وَلَا يَنْفَكُّ مِنْ اسْتِعْمَالِ اجْتِهَادِ الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ وَالْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(11/442)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ويوم نبعث في كل أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم ﴾

وهم الأنبياء شهداء على أممهم يوم القيامة وفي كل زمان شهيد وإن لم يكن نبياً . وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء .

الثاني : أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم شهيداً على أمته .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(12/442)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ويوم نبعث ﴾ الآية ،

هذه الآية في ضمنها وعيد ، والمعنى واذكر يوم نبعث في كل أمة شهيداً عليها ، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها ، وإيمانها وهداها ، ويجوز أن يبعث الله شهيداً من الصالحين مع الرسل ، وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحداً على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيداً عليه يوم القيامة ، ﴿ من أنفسهم ﴾ بحسب أن بعثة الرسل كذلك ، في الدنيا وذلك أن الرسول الذي من نفس الأمة في اللسان والسير وفهم

الأغراض والإشارات يتمكن له إفهامهم والرد على معانديهم ، ولا يتمكن ذلك من غير من هو من الأمة ، فلذلك لم يبعث الله قط نبياً إلا من الأمة المبعوث إليهم ، وقوله ﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى هذه الأمة و﴿ الكتاب ﴾ القرآن ، وقوله ﴿ تبياناً ﴾ اسم وليس بالمصدر ، وهو كالنقصان ، والمصادر في مثل هذا ، التاء فيها مفتوحة كالترداد والتكرار ، ونصب ﴿ تبياناً ﴾ على الحال .

وقوله ﴿ لكل شيء ﴾ أي مما يحتاج في الشرع ولا بد منه في الملة كالحلال والحرام والدعاء إلى الله والتخويف من عذابه ، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين ، وقال ابن مسعود : أنزل في هذا القرآن كل علم ، وكل شيء قد بين لنا في القرآن ، ثم تلا هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(13/442)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾

وهم الأنبياء ، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعَوْهم إلى الإيمان ، في كل زمان شهيد وإن لم يكن نبياً ؛ وفيهم قولان : أحدهما أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء

الأنبياء .

الثاني أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحّد الله ؛ كقُس بن ساعدة ، و " زيد بن عمرو بن نُفيل الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : يُبعث أمةً وحده " ، وسَطِيح ، و " وَرَقة بن نَوْفل الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "رأيته ينغمس في أنهار الجنة" " فهؤلاء ومن كان مثلهم حجةٌ على أهل زمانهم وشهيد عليهم .

والله أعلم .

وقوله ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاَءِ ﴾ تقدّم في البقرة والنساء .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] وقد تقدّم ، فلينظر هناك .

وقال مجاهد : تبيانا للحلال والحرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(14/442)

وقال الخازن :

﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم ﴾

قال ابن عباس : يريد الأنبياء .

قال المفسرون : كل نبي شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها ﴿ من أنفسهم ﴾ يعني منهم لأن كل نبي إنما بعث من قومه الذين بعث إليهم ليشهدوا عليهم وبما فعلوا من كفر وإيمان وطاعة وعصيان ﴿ وجئنا بك ﴾ يا محمد ﴿ شهيداً على هؤلاء ﴾ يعني على قومك وأمتك وتم الكلام هنا ثم قال تبارك وتعالى ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ اسم من البيان قال مجاهد : يعني لما أمر به وما نهى عنه .

وقال أهل المعاني : تبياناً لكل شيء يعني من أمور الدين إما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبي صلى الله عليه سلم لأن النبي صلى الله عليه سلم بيّن ما في القرآن من الأحكام والحدود والحلال والحرام ، وجميع المأمورات والمنهيات وإجماع الأمة فهو أيضاً أصل ومفتاح لعلوم الدين ﴿ وهدى ﴾ يعني من الضلالة ﴿ ورحمة ﴾ يعني لمن آمن به وصدقه ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ يعني وفيه بشرى للمسلمين من الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم ﴾

وفي كل أمة فيها منها حذف في السابق من أنفسهم وأثبته هنا وحذف هناك في وأثبته هنا ، والمعنى في كليهما : أنه يبعث الله أنبياء الأمم فيهم منهم ، والخطاب في ذلك للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والإشارة بهؤلاء إلى أمته .

وقال ابن عطية : ويجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع الرسل .

وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحداً على معصية فانهه ، فإنْ أطاعك وإلا كنت عليه شهيداً يوم القيامة انتهى .

وكان الشهيد من أنفسهم ، لأنه كان كذلك حين أرسل إليهم في الدنيا من أنفسهم .

وقال الأصم أبو بكر المراد الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أجزاء الإنسان حتى تشهد عليه ، لأنه قال في صفة الشهيد من أنفسهم ، وهذا بعيد لمقابلته بقوله : وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، فيقتضي المقابلة أنّ الشهداء على الأمم أنبياؤهم كرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ونزلنا استئناف إخبار ، وليس داخلاً مع ما قبله لاختلاف الزمانين .

لما ذكر ما شرفه الله به من الشهادة على أمته ، ذكر ما أنزل عليه مما فيه بيان كل شيء من أمور الدين ، ليزيح بذلك علتهم فيما كلفوا ، فلا حجة لهم ولا معذرة .

والظاهر أنّ تبياناً مصدر جاء على تفعال ، وإن كان باب المصادر أن يجيء على تفعال بالفتح كالترداد والتطواف ، ونظير تبيان في كسر تائه تلقاء .

وقد جوّز الزجاج فتحه في غير القرآن .

وقال ابن عطية : تبياناً اسم وليس بمصدر ، وهو قول أكثر النحاة .

وروى ثعلب عن الكوفيين ، والمبرد عن البصريين : أنه مصدر ولم يجيء على تفعال من المصادر إلا ضربان : تبيان وتلقاء .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟ (قلت) : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها وإحالة على السنة ، حيث أمر فيه باتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وطاعته .

(16/442)

وقيل : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ وحثاً على الإجماع في قوله ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ وقد رضي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأمته اتباع أصحابه ، والاقتداء بآثارهم في قوله : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " وقد اجتهدوا ، وقاسوا ، ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى

تبيين الكتاب ، فمن ثم كان تبياناً لكل شيء .

وقوله : وقد رضي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى قوله : اهتديتم ، لم يقل ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو حديث موضوع لا يصح بوجه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم في رسالته في إبطال الرأي ، والقياس ، والاستحسان ، والتعليل ، والقليد ما نصه : وهذا خبر مكذوب موضوع باطل لم يصلح قط ، وذكر إسناده إلى البزار صاحب المسند قال : سألتم عما روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) مما في أيدي العامة ترويه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : إنما مثل أصحابي كمثل النجوم أو كالنجوم ، بأيها اقتدوا اهتدوا .

وهذا كلام لم يصح عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، رواه عبد الرحيم بن زيد العمي ، عن أبيه ، عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وإنما أتى ضعف هذا الحديث من قبل عبد الرحيم ، لأن أهل العلم سكتوا عن الرواية لحديثه .

والكلام أيضاً منكر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يثبت ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) لا يبيح الاختلاف بعده من أصحابه ، هذا نص كلام البزار .

قال ابن معين : عبد الرحيم بن زيد كذاب خبيث ليس بشيء .

وقال البخاري : هو متروك ، رواه أيضاً حمزة الجزري ، وحمزة هذا ساقط متروك .

ونصبوا تبياناً على الحال .

ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله .

وللمسلمين متعلق ببشرى ومن حيث المعنى هو متعلق بهدى ورحمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(17/442)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾

تكريرٌ لما سبق تثنيةً للتهديد ﴿ فِى كُلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ ﴾ أي نبياً ﴿ مّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من جنسهم قطعاً لمعذرتهم وفي قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ إشعارٌ بأن شهادةَ أنبيائِهم على الأمم تكون بمحضر منهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ إيثارُ لفظ المجيء على البعث لكمال العنايةِ بشأنه عليه السلام ، وصيغةُ الماضي للدِلالة على تحقق الوقوع ﴿ شَهِيدًا على هَؤُلآء ﴾ الأممِ وشهدائِهم كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ وقيل : على أمتك والعامل في الظرف محذوفٌ كما مر والمراد يوم القيامة

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ ﴾ الكامل في الكتابية الحقيقَ بأن يُخَص باسم الجنس ، وهو إما استئنافٌ أو حال بتقدير قد ﴿ تِبْيَانًا ﴾ بياناً بليغاً ﴿ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يتعلق بأمور الدين ، ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيداً عليهم وكذا من جملته ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداءِ وبعثِه عليه السلام شهيداً عليهم عليهم الصلاة والسلام ، والتبيانُ كالتِلقاء في كسر أوله ، وكونُه تبياناً لكل شيء من أمور الدين باعتبار أن فيه نصاً على بعضها وإحالةً لبعضها على السنة حيث أُمر باتباع النبي عليه السلام وطاعته ، وقيل فيه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ وحثّاً على الإجماع وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه حيث قال : " أصحابي كالنّجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " وقد اجتهدوا وقاموا ووطّأوا طرقَ الاجتهاد فكانت السنة والإجماعُ والقياسُ مستندةً إلى تبيان الكتاب ولم يضُرَّ ما في البعض من الخفاء في كونه تبياناً فإن المبالغةَ باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلامٍ لّلْعَبِيدِ ﴾ إنه من قولك : فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا

للظالمين مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ للعالمين فإن حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿ وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ خاصة أو يكون كلُّ ذلك خاصاً بهم لأنهم المنتفِعون بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(19/442)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ ﴾

وهو كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نبيهم الذي بعث فيهم في الدنيا ، ومعنى كونه ﴿ مّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أنه منهم ، وذلك ليكون أقطع للمعذرة ، ولا يرد لوط عليه السلام فإنه لما تأهل فيهم وسكن معهم عد منهم أيضاً ، وقال ابن عطية : يجوز أن يبعث الله تعالى شهداء من الصالحين مع الأنبياء عليهم السلام ، وقد قال بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم : إذا رأيت أحداً على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيداً عليه يوم القيامة ، وذكر الإمام في الآية قولين الأول أن كل نبي شاهد على قومه كما تقدم ، والثاني إن كل قرن وجمع يحصل في الدنيا فلا بد أن يحصل فيهم من يكون شهيداً عليهم ولا بد أن لا يكون جائز الخطأ وإلا لاحتاج إلى آخر وهكذا فيلزم التسلسل ، ووجود الشهيد كذلك في

عصر النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر وأما بعده فلا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم وهم قائمون مقام الشهيد المعصوم ، ثم قال : وهذا يقتضي أن يكون إجماع الأمة حجة انتهى ، وإلى أنه لا بد في كل عصر ممن يكون قوله حجة على أهل عصره ذهب الجبائي وأكثر المعتزلة ، قال الطبرسي في "مجمع البيان" : ومذهبهم يوافق مذهب أصحابنا يعني الشيعة وإن خالفه في أن ذلك الحجة من هو .

وأنت تعلم أن الاستدلال بالآية على هذا المطلب ضعيف ، وتحقيق الكلام في ذلك يطلب من محله .

وقال الأصم : المراد بالشهيد أجزاء من الإنسان ، وذلك أنه تعالى ينطق عشرة أجزاء منه وهي الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان فتشهد عليه لأنه سبحانه قال في صفة الشهيد من أنفسهم .

وتعقبه القاضي .

وغيره بأن كونه شهيداً على الأمة يقتضي أن يكون غيرهم ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ يأبى ذلك إذ لا يصح وصف آحاد الأعضاء بأنها من الأمة ؛ وأيضاً مقابلة ذلك

بقوله سبحانه : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا على هَؤُلَآء ﴾ بعد ما ذكر كما لا يخفى ، والمراد بهؤلاء أمته صلى الله عليه وسلم عند أكثر المفسرين ، ولم يستبعد أن يكون المراد بهم ما يشمل الحاضرين وقت النزول وغيرهم إلى يوم القيامة فإن أعمال أمته عليه الصلاة والسلام تعرض عليه بعد موته .

فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ومماتي خير لكم تعرض علي أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله تعالى عليه وما رأيت من شر استغفرت الله تعالى لكم " بل جاء أن أعمال العبد تعرض على أقاربه من الموتى ، فقد أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لا تفضحوا أمواتكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور "

وأخرج أحمد عن أنس مرفوعاً " إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتعهم حتى تهديهم كما هديتنا " وأخرجه أبو داود من حديث جابر بزيادة " وألهمهم أن يعملوا بطاعتك "

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء أنه قال : "إن أعمالكم تعرض على موتاكم فيسرون ويساؤن" فكان أبو الدرداء يقول عند ذلك : اللهم إني أعوذ بك أن يمقتني خالي عبد الله بن رواحة إذا لقيته يقول ذلك في سجوده .

والنبي صلى الله عليه وسلم لأمته بمنزلة الوالد بل أولى ، ولم أقف على عرض أعمال الأمم السابقة على أنبيائهم بعد الموت ولم أر من تعرض لذلك لا نفياً ولا إثباتاً ، فإن قيل : إنها تعرض فأمر الشهادة مما لا غبار عليه في نبي لم يبعث في أمته بعد خلوهم عنه نبي آخر ، وإن قيل : إنها لا تعرض احتاج أمر الشهادة إلى الفحص عن وجود أمر يفيد العلم المصحح لها أو التزام أن الشهيد ليس هو النبي وحده كما سمعت فيما سبق ، ثم إن حديث العرض على نبينا عليه الصلاة والسلام يشكل عليه حديث " ليذادن عن الحوض أقوام " الخبر ، وقد ذكر ذلك المناوي ولم يجب عنه ، وقد أجبت عنه في بعض تعليقاتي فتأمل ، وقيل : المراد بهم شهداء الأمم وهم الأنبياء عليهم السلام لعلمه عليه الصلاة والسلام بعقائدهم واستجماع شرعه لقواعدهم لا الأمة لأن كونه صلى الله عليه وسلم شهيداً على أمته علم مما تقدم فالآية مسوقة لشهادته عليه الصلاة والسلام على الأنبياء صلى الله عليه وسلم فتخلو عن التكرار .

ورد بأن المراد بشهادته عليه الصلاة والسلام على أمته تزكيته وتعديله لهم بعد أن يشهدوا على تبليغ الأنبياء عليهم السلام حسبما علموه من كتابهم وهذا لم يعلم مما مر ليكون تكراراً وهو الوارد في الحديث ، وقد ذكره غير واحد في تفسيره قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143

] و﴿ على ﴾ لا مضرة فيها وإن ضرت فالضرر مشترك .

نعم لم يفهم مما قبل شهادة هذه الأمة على تبليغ الأنبياء عليهم السلام ليظهر كون هذه الشهادة للتزكية كما في آية البقرة ، ولعل الأمر في ذلك سهل .

(22/442)

وفي إرشاد العقل السليم أن قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ تكرير لما سبق تثنية للتهديد ، والمراد بهؤلاء الأمم وشهداؤهم ، وإيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه صلى الله عليه وسلم ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع انتهى .

وتعقب بأن حمل ﴿ هَؤُلاء ﴾ على ما ذكر خلاف الظاهر ، وجوز أن يكون إيثار المجيء على البعث للإيذان بالمغايرة بين الشهادتين بناءً على أن شهادته صلى الله عليه وسلم على أمته للتزكية ولا كذلك شهادة سائر الأنبياء عليهم السلام على أممهم .

والظرف معمول لمحذوف كما مر ، والمراد به يوم القيامة ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ الكامل في الكتابية الحقيق بأن يخص به اسم الجنس ، وهذا على ما في "البحر" استئناف أخبار وليس داخلاً مع ما قبله لاختلاف الزمانين .

وجوز غير واحد كونه حالاً بتقدير قد ، وذكر بعض الأفاضل أن قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا

بِكَ ﴾ الخ إن كان كلاماً مبتدأ غير معطوف على قوله سبحانه : ﴿ نَبْعَثَ ﴾ و ﴿ شَهِيداً ﴾ حالاً مقدرة فلا إشكال في الحالية وإن كان عطفاً عليه ، والتعبير بالماضي لما عرف في أمثاله ، فمضمون الجملة الحالية متقدم بكثير فلا يتمشى التأويل الذي ذكروه في تصحيح كون الماضوية حالاً هنا ، ففي صحة كونه حالاً كلام إلا أن يبني على عدم جريان الزمان عليه سبحانه وتعالى .

وتعقب بأنه ليس شيء لأن قوله سبحانه : ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يدخل فيه العقائد والقواعد بالدخول الأولى ، وذلك مستمر إلى البعث وما بعده ، ولا حاجة إلى ما قيل من أن المعنى بحيث أو بحال أنا كنا نزلنا عليك وتلك الحيثية ثابتة له سبحانه وتعالى إلى الأبد انتهى ، وفيه نظر .

وزعم بعضهم أن الجملة حال من ضمير الرفع في الفعل العامل في الظرف أي خوفهم ذلك اليوم وقد نزلنا عليك الكتاب ، وهو كما ترى والأسلم الاستئناف ؛ والتبيان مصدر يدل على التكثير على ما روى ثعلب عن الكوفيين .

(23/442)

والمبرد عن البصريين ، قال سلامة الأنباري في "شرح المقامات" : كل ما ورد من المصادر عن العرب على تفعال فهو بفتح التاء إلا لفظتين وهما تبيان وتلقاء ، وقال ابن عطية : هو اسم وليس بمصدر ، وهذه الصيغة أيضاً في الأسماء قليلة ، فعن ابن مالك أنه قال في "نظم الفوائد" : جاء على تفعال بالكسر وهو غير مصدر رجل تكلام وتلقام وتلعاب وتمساح للكذاب وتضراب للناقة القريبة بضراب الفحل وتمراد لبيت الحمام وتلفاف لثوبين ملفوفين وتجفاف لما تجلل به الفرس وتهواء لجزء ماض من الليل وتنبال للقصير اللئيم وتعشار وتبارك لموضعين ، وزاد ابن جعوان تمثال وتيفاق لموافقة الهلال ، واقتصر أبو جعفر النحاس في "شرح المعلقات" على أقل من ذلك فقال : ليس في كلام العرب على تفعال إلا أربعة أسماء وخامس مختلف فيه يقال تبيان ويقال لقلادة المرأة تقصار وتعشار وتبراك والخامس تمساح وتمسح أكثر وأفصح انتهى ، والمعروف أن ﴿ تِبْيَانًا ﴾ مصدر وليس باسم وإن قيل : إنه قول أكثر النحويين ، وجوز الزجاج فيه الفتح في غير القرآن ، والمراد من ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على ما ذهب إليه جمع ما يتعلق بأمور الدين أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام ، وكذا ما أخبرت به هذه الآية من بعث الشهداء وبعثه عليه الصلاة والسلام ، فانتظام الآية بما قبلها ظاهر ، والدليل على تقدير الوصف المخصص لشيء المقام وأن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما هي لبيان الدين ، ولذا أجيب السؤال عن الأهلة بما أجيب ، وقال صلى الله عليه وسلم :

" أنتم أعلم بأمور دنياكم " وكون الكتاب تبياناً لذلك باعتبار أن فيه نصاً على البعض وإحالة للبعض الآخر على السنة حيث أمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل فيه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] وحثا على الإجماع في قوله سبحانه : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين ﴾ [النساء : 115] الآية فإنها على ما روي عن الشافعي وجماعة دليل الإجماع ، وقد رضي صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه حيث قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب ، وقال بعض : ﴿ قَدِيرٌ ءامَنَ الرسول بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبّهِ والمؤمنون كُلٌّ ﴾ للتكثير والتفخيم كما في قوله تعالى : ﴿ تُدَمّرُ كُلَّ شَىْء بِأَمْرِ رَبّهَا ﴾ [الأحقاف : 25] إذ يأبى الإحاطة والتعميم ما في التبيان من المبالغة في البيان وأن من أمور الدين تخصيصاً لا يقتضيه المقام .

ورد الثاني بما سمعت آنفاً ؛ والأول بأن المبالغة بحسب الكمية لا الكيفية كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] إنه من قولك : فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا للظالمين مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة : 270] وقال

بعضهم : لكل من القولين وجهة والمرجح للأول إبقاء ﴿ كُلٌّ ﴾ على حقيقتها في الجملة ، وتعقب بأنه يرجح الثاني إبقاء ﴿ شَيْءٌ ﴾ على العموم وسلامته من التقدير الذي هو خلاف الأصل ومن المجاز على قول .

نعم ذهب أكثر المفسرين إلى اعتبار التخصيص وروي ذلك عن مجاهد .

(25/442)

وقال الجلال المحلي في الرد على من لم يجوز تخصيص السنة بالكتاب : إنه يدل على الجواز قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وإن خص من عمومه ما خص بغير القرآن ، وتوجيه كونه تبياناً لكل ما يتعلق بالدين بما تقدم هو الذي يقتضيه كلام غير واحد من الأجلة ، فعن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال مرة بمكة : سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالى فقيل له : ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ؟ فقال : بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر " وحدثنا سفيان عن مسعر بن كدام عن قيس

بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه أمر بقتل المحرم الزنبور ، وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : "لعن الله تعالى الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى" فقالت له امرأة في ذلك فقال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله تعالى فقالت له : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] قالت : بلى .

قال : فإنه عليه الصلاة والسلام قد نهى عنه .

(26/442)

وذهب بعضهم إلى ما يقتضيه ظاهر الآية غير قائل بالتخصيص ولا بأن ﴿ كُلٌّ ﴾ للتكثير فقال : ما من شيء من أمر الدين والدنيا ألا يمكن استخراجه من القرآن وقد بين فيه كل شيء بياناً بليغاً واعتبر في ذلك مراتب الناس في الفهم فرب شيء يكون بياناً بليغاً لقوم ولا يكون كذلك لآخرين بل قد يكون بياناً لواحد ولا يكون بياناً لآخر فضلاً عن كون البيان بليغاً أو غير بليغ وليس هذا التفاوت قوى البصائر ، ونظير ذلك اختلاف مراتب الإحساس

لتفاوت قوى الإبصار ، وقيل : معنى كونه تبياناً أنه كذلك في نفسه وهو لا يستدعي وجود مبين له فضلاً عن تشارك الجميع في تحقق هذا الوصف بالنسبة إليهم بأن يفهموا حال كل شيء منه على أتم وجه ، ونظير ذلك الشمس فإنها منيرة في حد ذاتها ، وإن لم يكن هناك مستنير أو ناظر ، ويغني عن هذا الاعتبار اعتبار أن المبالغة بحسب الكمية لا الكيفية ، ويؤيد القول بالظاهر أن الشيخ الأكبر قدس سره وغيره قد استخرجوا منه ما لا يحصى من الحوادث الكونية .

وقد رأيت جد ولا حرفياً منسوباً إلى الشيخ كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل المحشر ، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل الجنة ، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل النار وكل ذلك على ما يزعمون مستخرج من الكتاب الكريم ، ومثل هذا الجفر الجامع المنسوب إلى أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه فإنهم قالوا : إنه جامع لما شاء الله تعالى من الحوادث الكونية وهو أيضاً مستخرج من القررن العظيم .

وقد نقل الجلال السيوطي عن المرسي أنه قال : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به

سبحانه ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة ومثل ابن عباس وابن مسعود حتى قال الأول : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه ، وقيل : لا يخلو الزمان من عارف بجميع ذلك وهو الوارث المحمدي ويسمى الغوث وقطب الأقطاب والمظهر الأتم ومظهر الاسم الأعظم إلى غير ذلك ، ويرد على هؤلاء القائلين حديث التأبير وقوله صلى الله عليه وسلم :

(28/442)

" أنتم أعلم بأمور دنياكم " وأجيب بأنه يحتمل أن يكون ذلك منه صلى الله عليه وسلم قبل نزول ما يعلم منه عليه الصلاة والسلام حال التأبير ، ويحتمل أن يكون بعد النزول وقال ذلك صلى الله عليه وسلم قبل الرجوع إليه والنظر فيه ولو رجع ونظر لعلم فوق ما علموا فأعلميتهم بأمور دنياهم إنما جاءت لكون علمهم بذلك لا يحتاج إلى الرجوع والنظر وعلمه عليه الصلاة والسلام يحتاج إلى ذلك وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : " لو استقبلت ما استدبرت لما سقت الهدى " مع أن سوق الهدى من الأمور الدينية ، وقد قالوا : إن

القرآن العظيم تبيان لها ، وهذا يرد عليهم لولا هذا الجواب فتأمل فالبحث بعد غير خال عن القيل والقال ، وقال بعضهم : إن الأمور إما دينية أو دنيوية والدنيوية لا اهتمام للشارع بها إذ لم يبعث لها والدينية إما أصلية أو فرعية والاهتمام بالفرعية دون الاهتمام بالأصلية فإن المطلوب أولاً بالذات من بعثة الأنبياء عليهم السلام هو التوحيد وما أشبهه بل المطلوب من خلق العباد هو معرفته تعالى كما يشهد له قوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] بناءً على تفسير كثير العبادة بالمعرفة ، وقوله تعالى في الحديث القدسي المشهور على الألسنة المصحح من طريق الصوفية : "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف " والقرآن العظيم قد تكفل ببيان الأمور الدينية الأصلية على أتم وجه فليكن المراد من (كُلّ شَىْء) ذلك ، ولا يحتاج هذا إلى توجيه كونه تبياناً إلى ما احتاج إليه حمل (كُلّ شَىْء) على أمور الدين مطلقاً من قولنا : إنه باعتبار أن فيه نصاً على البعض وإحالة للبعض الآخر على السنة الخ ، واختار بعض المتأخرين أن (كُلّ شَىْء) على ظاهره إلا أن المراد بالتبيان التبيان على سبيل الإجمال وما من شيء إلا بين في الكتاب حاله إجمالاً ، ويكفي في ذلك بيان بعض أحواله والمبالغة باعتبار الكمية

لا الكيفية على ما علمت سابقاً ، ولو حمل التبيان على ما يعم الإجمال والتفصيل مع اعتبار مراتب المبين لهم واعتبر التوزيع جاز أيضاً فليتدبر ، ونصب ﴿ تِبْيَانًا ﴾ على الحال كما قال أبو حيان .

وجوز أن يكون مفعولاً من أجله أي نزلنا عليك الكتاب لأجل التبيان ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ للجميع بقرينة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] وحرمان الكفرة من جهة تفريطهم ﴿ وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ خاصة ، وجوز صرف الجميع لهم لأنهم المنتفعون بذلك أو لأنه الهداية الدلالة الموصلة والرحمة الرحمة التامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(30/442)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاء وَنَزَّلْنَا ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يوم القيامة يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم يشهد عليهم بما أجابوا به رسولهم ، وأنه ياي بنبينا صلى الله عليه وسلم شاهداً

علينا . وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاء شَهِيداً يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض ﴾ [النساء : 41-42] الآية ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] ، وكقوله : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] ، إلى غير ذلك من الآيات . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرأ علي " قال : فقلت يا رسول الله ، أأقرأ عليك وعليك نزل ؟ ! قال : " نعم . أني إحب أن أسمعه من غيري " فقرأت " سورة النساء " حتى اتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] فقال : " حسبك الآن " فإذا عيناه تذرفان اه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

(31/442)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه نزل على رسوله هذا الكتاب العظيم تبياناً لكل شيء . وبين ذلك في غير هذا الموضع ، كقوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [

الأنعام : 38] على القول بأن المراد بالكتاب فيها القرآن . أما على القول بأنه اللوح المحفوظ . فلا بيان بالآية . وعلى كل حال فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء . والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه . وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

وقال السيوطي في " الإكليل في استنباط التنزيل " قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقال ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] ، وقال صلى الله عليه وسلم : " ستكون فتنة " قيل : وما المخرج منها ؟ قال : " كتب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم " أخرجه الترمذي ، وغيره وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا خديج بن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن مرة ، عن ابن مسعود قال : من أراد العلم فعليه بالقرآن . فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال البيهقي : اراد به أصول العلم . وقال الحسن البصري : أنزل الله مائة وأربعة كتب ، أودع علومها أربعة : التوارة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان . ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصل ، ثم أودع علوم المفصل : فاتحة الكتاب . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير الكتب المنزلة .

أخرجه البيهقي " في الشعب " .

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : جميع ما تقوله الأمة للسنة ، وجميع شرح السنة شرح

للقرآن.

وقال بعض السلف: ما سمعت حديثاً إلا التمست له آية من كتاب الله.

وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهة إلا وجدت مصداقه في كتاب الله. أخرجه ابن أبي حاتم.

(32/442)

وقال ابن مسعود: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله. أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال ابن مسعود أيضاً: أنزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن. أخرجه ابن جريرن وابن أبي حاتم.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة".

وقال الشافعي أيضاً: جميع ما حكم به النّبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن.

قلت: ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه" رواه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط من حديث عائشة.

وقال الشافعي أيضاً : ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها . فإن قيل : من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة ؟ قلنا : ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة . لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفرض علينا الأخذ بقوله .

وقال الشافعي مرة بمكة : سلوني عما شئتم ، أخبركم عنه من كتاب الله . فقيل له : ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ؟ فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] وحدثنا سفيان بن عيينة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن ربعي بن حراش ، عن حذيفة بن اليمان ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اقتدوا باللذين من بعدي : ابي بكر وعمر " وحدثنا سفيان ، عن مسعر بن كدام ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب ، عن عمر بن الخطاب : أنه أمر بقتل المحرم الزنبور .

وروى البخاري عن ابن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنصمات والمتفلجات للحسن ، المغيرات لخلق الله ، فقالت له امرأة في ذلك . فقال : وما لي لا ألعن من

لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فيكتاب الله . فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول ؟ ! قال : لئن لقد وجدتيه ! أما قرأت ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] ؟ قالت : بلى . قال : فإنه قد نهى عنه .

وقال ابن برجان : ما قال النَّبي صلى الله عليه وسلم من شيء فهو من القرآن ، أو فيه أصله قرب أو بعد ، فهمه من فهم ، أو عمه عنه من عمه ، وكذا كل ما حكم أو قضلا به .

وقال غيره : ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله تعالى . حتى إن بعضهم اتنبط عمر النَّبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين من قوله " في سورة المنافقين " : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ الله نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ ﴾ [المنافقون : 11] فإنها راس ثلاث وستين سورة ، وعقبها " بالتغابن " ليظهر التغابن في فقده .

وقال المرسي : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلا ما استأثر الله به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم . مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل ابن مسعود ، وابن عباس حتى قال : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله . ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه . فنوعوا علومه ، وقامن كل طائفة بفن منفنونه .

فاعتنى قوم بضبط لغاته ، وتحرير كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه وعددها ، وعدد كلماته وآياته ، وسوره وأجزائه ، وأنصافه وأرباعه ، وعدد سجداته ، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة ، والآيات المتماثلة . من غير تعرض لمعانيه ، ولا تدبر لما أودع فيه .

فسموا القراء .

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال ، والحروف العاملة وغيرها .

وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها ، وضروب الأفعال ، واللازم والمتعدي ، ورسوم خط الكلمات ، وجميع ما يتعلق به . حتى إن بعضهم عرب مشكله . وبعضهم أعربه كلمة كلمة .

واعتنى المفسرون بألفاظه ، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ، ولفظاً يدل على معنيين ، ولفظاً يدل على أكثر ، فأجروا الأول على حكمه ، وأوضحوا الخفي منه ، وخاضوا إلى ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين أو المعاني ، وأعمل كل منهم فكره ، وقال بما اقتضاه نظره .

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية ، والشواهد الأصلية والنظرية . مثل قوله : ﴿

لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده ، وبقائه وقدمه ، وقدرته وعلمه ، وتنزيهه عما لا يليق به . وسموا هذا العلم ب " أصول الدين " .

وتأملت طائفة معاني خطابه . فرأت منها ما يقتضي العموم ، ومنها ما يقتضي الخصوص ، إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام الغة من الحقيقة والمجاز ، وتكلموا في التخصيص والإضمار ، والنص والظاهر ، والمجمل والمحكم والمتاشبه ، والأمر والنهي والنسخ ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة ، واستصحاب الحال والاستقراء . وسموا هذا الفن " أصول الفقه " .

وأحكمت طائفة صحيح النظر ، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام ، وسائر الأحكام ، فأسسوا أصوله وفروعه ، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً .

وسموه ب " علم الفروع " وب " الفقه أيضاً " .

(35/442)

وتلمحت طائفة ما غفيه من قصص القرون السابقة ، والأمم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ، ودنوا آثارهم ووقائعهم . حتى ذكروا بدء الدنيا ، وأول الأشياء : وسموا ب " التاريخ

والقصص " .

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال ، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال ، وتكاد تدكدك الجبال . فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد ، والتحذير والتبشير ، وذكر الموت والمعاد ، والنشر والحشر ، والحساب والعقاب ، والجنة والنار – فصولاً من المواعظ ، وأصولاً من الزواجر . فسموا بذلك " الخطباء والوعاظ " .

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير . مثل ما ورد في قصة يوسف : من البقرات السمان ، وفي منامي صاحبي السجن ، وفي رؤية الشمس والقمر والنجوم ساجدات ، وسموه " تعبير الرؤيا " . واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب . فإن عز عليهم رؤية الشمس والقمر والنجوك ساجدات ، وسموه " تعبير الرؤيا " . واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب . فإن عز عليهم إخراجها منه ، وفمن السنة التي هي شارحة الكتاب ، فإن عسر فمن الحكم والأمثال . ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم ، وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله : ﴿ وَأْمُرْ بالعرف ﴾ [الأعراف : 199] .

وأخذ قوم مما في آيات المواريث من ذكر الشهام وأربابها ، وغير ذلك " علم الفرائض " واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث ، والربع والسدس والثمن " حساب الفرائض " ، ومسائل العول . واستخرجوا منه أحكام الوصايا .

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار ، والشمس

والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك – فاستخرجوا " علم المواقيت " .

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم، وحسن السياق والمبادئ، والمقاطيع والمخالص والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك .

فاستنبطوا منه " علم المعاني والبيان والبديع " .

(36/442)

ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها ، مثل الفناء والبقاء ، والحضور والهوف والهيبة، والأنس والوحشة، والقبض والبسط ، وما أشبه ذلك .

هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه .

وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل، مثل : الطب والجدل والخيئة، والهندسة والجبر، والمقابلة والنجامةن وغير ذلك .

أما الطب – فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة . وذلك إنما يكون باعتدال المزاج تبعاً للكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في ىية واحدة وهي قوله : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] .

وعرفناه فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله ، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله : ﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل : 69] .

ثم زاد على طب الأجساد بطب القلوب ، وشفاء الصدور .

وأما الهيئة – ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها من ملكوت السموات والأرض ، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات .

وأما الهندسة – ففي قوله : ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللهب ﴾ [المرسلات : 30-31] فإن فيه قاعدة هندسية ، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له .

وأما الجدل – فقد حوت آياته من الراهين والمقدمات والنتائج ، والقول بالموجبن والمعارضة ، وغير ذلك شيئًا كثيرا ، ومناظرة إبراهيم أصل في ذلك عظيم .

وأما الجبر والمقابلة – فقد قيل : إن أوائل السور ذكر وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة ، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة الدنيا ، وما مضى وما بقي ، مضروبا بعضها في بعض .

وأما التجامة – ففي قوله : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ [الأحقاف : 4] فقد فسره ابن عباس بذلك .

وفيه من أصول الصنائع ، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها – فمن الصنائع الخياطة في قوله : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ [الأعراف : 22] الآية . والحدادة في قوله تعالى : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الحديد ﴾ [الكهف : 96] ، وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الحديد ﴾ [سبأ : 10] الآية . والبناء في آيات ، والنجارة ﴿ أَنِ اصنع الفلك ﴾ [المؤمنون : 27] ، والغزل ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ [النحل : 92] ، والنسج ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ﴾ [العنكبوت : 41] ، والفلاحة ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة : 63] في آيات أخر ، والصيد في آيات ، والغوص ﴿ والشياطين كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ [ص : 37] ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً ﴾ [فاطر : 12] ، والصياغة ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً ﴾ [الأعراف : 148] الآية . والزجاجة ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوارِيرَ ﴾ [النمل : 44] ، ﴿ المصباح فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور : 35] ، والفخارة ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين ﴾ [القصص : 38] ، والملاحة ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾ [الكهف : 79] ، والكتابة ﴿ عَلَّمَ بالقلم ﴾ [العلق : 4] في آيات أخر ، والخبز والطحن ﴿ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ ﴾ [يوسف : 36] ، والطبخ ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] ، والغسل والقصارة ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : 4] ، ﴿ قَالَ الحواريون ﴾ [آل عمران : 52] وهم القصارون ، والجزارة ﴿ إِلاَّ

مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة : 3] ، والبيع والشراء في آيات كثيرة ، والصبغ ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 138] الآية ، ﴿ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ﴾ [فاطر : 27] الآية ، والحجارة ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ [الشعراء : 149] ، والكيالة والوزن في آيات كثيرة ، والرمي ﴿ وَمَا

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ [الأنفال : 17] ، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : 60] .

وفيه من أسماء الآلات ، وضروب المأكولا والمشروبات والمنكوحات ، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات – ما يحقق معنى قوله ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] انتهى كلام المرسي ملخصاً مع زيادات .

قلت : قد اشتمل كتاب الله على كل شيء . أما أنواع العلوم فبيس منها باب ولا مسألة هي أصل ، غلا وفي القرآن ما يدل عليها . وفيه علم عجائب المخلوقات ، وملكوت السموات والأرض ، وما في الأفق الأعلى ، وما تحت الثرى ، وبدء الخلق ، وماأسماء مشاهير الرسل والملائكة ، وعيون أخبار الأمم السالفة . كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة ، وفي

الولد الذي سماه عبد الحارث ، ورفع إدريس وإغراق قوم نوح ، وقصة عاد الأولى والثانية ، وثمود ، والناقة ، وقوم لوط ، وقوم شعيب الأولين والآخرين فإنه أرسل مرتين .

وقوم تبعن ويونس ، وإلياس ، واصحاب الرس ، وقصة موسى في ولادته وفي إلقائه في اليم ، وقتله القبطي ، ومسيره إلى مدين وتزوجه ابنه شعيب ، وكلامه تعالى بجانب الطور ، وبعثه إلى فرعون ، وخروجه وإغراق عدوه ، وقصة العجل ، والقوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة ، وقصة القتال وذبح البقرة ، وقصته في قتال الجبارين ، وقصته مع الخضر والقوم الذين ساروا في سرب من الأرض إلى الصين ، وقصة طالوت وداود مع جالوت وقتله ، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ وفتنته ، وقصة الوقم الذين خرجوا فراراً من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم ، وقصة إبراهيم في مجادلته قومه ، ومناظرته النمرود ، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة ، وبنائه البيت ، وقصة الذبيح ، وقصة يوسف وما أبسطها ، وقصة مريم وولادتها عيسى وإرساله ورفعهن وقصة زكريا وابنه يحيى ، وأيوب وذي الكفل ، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مطلع الشمس ومغربها وبنائه السد ، وقصة أصحاب الكهف والرقيم ، وقضة بختنصر ، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة ، وقصة

أصحاب الجنة الذين اقسموا ليصرمنها مصبحين ، وقصة مؤمن آل فرعون ، وقصة أصحاب الفيل ، وقصة الجبار الذي أراد أن يعد إلى السماء .

وفيه من شأن النَّبي صلى الله عليه وسلم دعوة إبراهيم به ، وبشارة عيسى وبعثه وهجرته . ومن غزواته : غزوة بدر ﴿ في سورة الأنفال) وأحد (في آل عمران) وبدر الصغرى فيها ، والخندق (في الأحزاب) ، والنضير (في الحشر) ، والحديبية (في الفتح) ، وتبوك (في براءة) ، وحجة الوداع (في المائدة) ، ونكاحه زينب بنت جحش ، وتحريم سريته ، وتظاهر أزواجه عليه ، وقصة الإفك ، وقصة الإسراء ، وانشقاق القمر ، وسحر اليهود إياه .

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته ، وكيفية الموت ، وقبض الروح ما يفعل بها بعد صعودها إلى السماء ، وفتح الباب للمؤمنة وإلقاء الكافرة ، وعذاب القبر والسؤال فيه ، ومقر الأرواح ، وأشراط الساعة الكبرى العشرة ، وهي :

نزول عيسى ، وخروج الدجال ، ويأجوج ومأجوج ، والدابة ، والدخال ، ورفع القرآن ، وطلوع الشمس من مغربها ، وإغلاق باب التوبة ، والخسف .

وأحوال البعث : من نفخة الصور ، والفزع ، والصعق ، والقيام ، والحشر والنشر ، وأهوال الموقف ، وشدة حر الشمس ، وظل العرش ، والصراط ، والميزان ، والحوض ، والحساب لقوم ، ونجاة آخرين منه ، وشهادة الأعضاء ، وإيتاء الكتب بالإيمان والشمائل وخلف الظهور ، والشفاعة ، والجنة وأبوابها ، وما فيها م الأشجار والثمار والأنار ، والحلي والألوان ، والدرجات ، ورؤيته تعالى ، والنار وما فيها من الأودية ، وأنواع العقاب ، وألوان العذاب ، والزقوم والحميم ، إلى غير ذلك مما لو بسط جاء في مجلدات .

وفي القرآن جميع اسمائه تعالى الحسنى كما ورد في حديث . وفيه أسمائه مطلقاً ألف اسم ، وفيه من أسماء النَّبي صلى الله عليه وسلم جملة .

وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون .

وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمس عشرة . وفيه أنواع الكبائر وكثير من الصغائر .

وفيه تصديق كل حديث ورد عن النَّبي صلى الله عليه وسلم – هذه جملة القول في ذلك اه كلام السيوطي (في الإكليل) .

وإنما أوردناه برمته مع طوله . لما فيه من إضاح : أن القرآن فيه بيان كل شيء . وإن كانت في الكلام المذكور أشياء جديرة بالانتقاد تركنا مناقشتها خوف الإطالة المملة ، مع كثرة الفائدة في الكلام المذكور في الجملة .

وفي قوله تعالى : ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وجهان من الإعراب :

أحدهما – أنه مفعول من أجله. والثاني – أنه مصدر منكر واقع حالاً. على حدّ قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالا يقع... بكثرة كبغتة زيد طلع

تنبيه

(41/442)

أظهر القولين: أن التبيان مصدر، ولم يسمع كسر تاء التفعال مصدراً إلا في التبيان والتلقاء. وقال بعض أهل العلم: التبيان اسم لا مصدر. قال أبو حيان (في البحر): والظاهر أن "تبياناً" مصدر جاء على تفعال، وإن كان باب المصادر يجيء على تفعال (بالفتح) كالترداد والتطواف. ونظير تبيان في كسر تائه: تلقاء، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. وقال ابن عطية: "تِبْيَاناً" اسم وليس بمصدر. وهو قوله أكثر النحاة. وروى ثعلب عن الكوفيين، والمبرد عن البصريين: أنه مصدر، ولم يجىء على تفعال من المصادر إلا ضربانك تبيان وتلقاء اه – والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم هدى ورحمة وبشرى

للمسلمين . ويفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة – أي مفهوم مخالفتها – : أن غير المسلمين ليسوا كذلك . وهذا المفهوم من هذه الآية صرح به جل وعلا في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] ، وقوله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً ﴾ [الإسراء : 82] ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 124-125] ، وقوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [المائدة : 64] في الموضعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(42/442)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾

تكرير لجملة ﴿ ويوم نبعث من كل أمةٍ شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ [سورة النحل : 84] ليبنى عليه عطف جملة وجئنا بك شهيداً على هؤلاء وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا على هؤلاءآء ﴾ على جملة ﴿ ويوم نبعث في كل أمةٍ شهيداً عليهم ﴾ .

ولما كان تكريراً أعيد نظير الجملة على صورة الجملة المؤكّدة مقترنة بالواو ، ولأن في هذه الجملة زيادة وصف ﴿ من أنفسهم ﴾ فحصلت مغايرة مع الجملة السابقة والمغايرة مقتضية للعطف أيضاً .

ومن دواعي تكرير مضمون الجملة السابقة أنه لبعد ما بين الجملتين بما اعترض بينهما من قوله تعالى : ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ إلى قوله : ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ [سورة النحل : 84 ، 88] ، فهو كالإعادة في قول لبيد :

فتنازعا سبطاً يطير ظلالُه . . .

كدخان مشعلة يشبّ ضِرامها

مشمولةٍ غلثت بنابت عرفج . . .

كدخان نار ساطع أسنامها

مع أن الإعادة هنا أجدر لأن الفصل أطول .

وقد حصل من هذه الإعادة تأكيد التهديد والتسجيل .

وعُدّي فعل ﴿ نبعث ﴾ هنا بحرف ﴿ في ﴾ ، وعُدّي نظيره في الجملة السابقة بحرف (مِن) ليحصل التفنّن بين المكرّرين تجديداً لنشاط السامعين .

وزيد في هذه الجملة أن الشهيد يكون من أنفسهم زيادة في التذكير بأن شهادة الرسل على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها لأنها شهود من قومهم لا يجد المشهود عليهم فيها مساغاً للطعن .

ولم تخل أيضاً بعد التعريض بالتحذير من صدّ الكافرين عن سبيل الله من حسن موقع تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم إذ بعث فيهم شهيداً يشهد لهم بما ينفعهم وبما يضرّ أعداءهم .

والقول في بقيّة هذه الجملة مثل ما سبق في نظيرتها .

(43/442)

ولمّا كان بعث الشهداء للأمم الماضية مراداً به بعثهم يوم القيامة عبّر عنه بالمضارع .

وجملة ﴿ وجئنا بك شهيداً ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ ويوم نبعث ﴾ كلّها .

فالمعنى : وجئنا بك لما أرسلناك إلى أمّتك شهيداً عليهم ، أي مقدّراً أن تكون شهيداً عليهم يوم القيامة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان حيّاً في آن نزول هذه الآية كان شهيداً في الحال والاستقبال ، فاختير لفظ الماضي في ﴿ جئنا ﴾ للإشارة إلى أنه مجيء حصل من يوم بعثته .

ويعلم من ذلك أنه يحصل يوم القيامة بطريق المساواة لبقيّة إخوانه الشهداء على الأمم ، إذ المقصود من ذلك كلّه تهديد قومه وتحذيرهم .

وهذا الوجه شديد المناسبة بأن يعطف عليه قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ [سورة النحل : 89] الآية .

وقد علمت من هذا أن جملة ﴿ وجئنا بك شهيداً ﴾ ليست معطوفة على ﴿ نبعث ﴾ بحيث تدخل في حيّز الظرف وهو ﴿ يوم ﴾ ، بل معطوفة على مجموع جملة ﴿ يوم نبعث ﴾ ، لأن المقصود وجئنا بك شهيداً من وقت إرسالك .

وعلى هذا يكون الكلام تَمّ عند قوله : ﴿ من أنفسهم ﴾ ، فيحسن الوقف عليه لذلك .

ويجوز أن تعطف على جملة ﴿ نبعث في كل أمّة شهيداً ﴾ فتدخل في حيّز الظرف ويكون الماضي مستعملاً في معنى الاستقبال مجازاً لتحقّق وقوعه ، فشابه به ما حصل ومضى ، فيكون الوقف على قوله : ﴿ شهيداً ﴾ .

ويتحصّل من تغيير صيغة الفعل عن المضارع إلى الماضي تهيئة عطف ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ .

ولم يوصف الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه من أنفسهم لأنه مبعوث إلى جميع الأمم ، وشهيد عليهم جميعاً ، وأما وصفه بذلك في قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفُسكم

﴾ في سورة التوبة (128) فذلك وصف كاشف اقتضاه مقام التّذكير للمخاطبين من المنافقين الذين ضَمّوا إلى الكفر بالله كفران نعمة بعث رسول إليهم من قومهم .

(44/442)

وليس في قوله : ﴿ على هؤلاء ﴾ ما يقتضي تخصيص شهادته بكونها شهادة على المتحدّث عنهم من أهل الشرك ، ولكن اقتصر عليهم لأن الكلام جار في تهديدهم وتحذيرهم .

و﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى حاضر في الذّهن وهم المشركون الذين أكثر الحديث عليهم .

وقد تتبّعتُ مواقع أمثال اسم الإشارة هذا في القرآن فرأيته يُعنى به المشركون من أهل مكّة .

وتقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ في سورة النساء (41) ، وقوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾ في سورة الأنعام (89) .

عطف على جملة ﴿ وجئنا بك شهيداً ﴾ أي أرسلناك شهيداً على المشركين وأنزلنا عليك القرآن لينتفع به المسلمون ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد على المكذّبين ومرشد للمؤمنين .

وهذا تخلّص للشروع في تعداد النّعم على المؤمنين من نعم الإرشاد ونعم الجزاء على الامتثال وبيان بركات هذا الكتاب المنزّل لهم .

وتعريف الكتاب للعهد ، وهو القرآن .

و﴿ تبياناً ﴾ مفعول لأجله .

والتّبيان مصدر دالّ على المبالغة في المصدرية ، ثم أريد به اسم الفاعل فحصلت مبالغتان ، وهو بكسر التاء ، ولا يوجد مصدر بوزن تفعال بكسر التاء إلا تِبيان بمعنى البيان كما هنا .

وتِلقاء بمعنى اللّقاء لا بمعنى المكان ، وما سوى ذلك من المصادر الواردة على هذه الزّنة فهي بفتح التاء .

وأما أسماء الذوات والصفاتُ الواردة على هذه الزنة فهي بكسر التاء وهي قليلة ، عدّ منها : تمثال ، وتنبال ، للقصير .

وأنهاها ابن مالك في نظم الفوائد إلى أربع عشرة كلمة .

و"كلّ شيء" يفيد العموم ؛ إلا أنه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشّرائع : من إصلاح النفوس ، وإكمال الأخلاق ، وتقويم المجتمع المدنيّ ، وتبيّن الحقوق ، وما تتوقّف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية ، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية ، ووصف أحوال الأمم ، وأسباب فلاحها وخسارها ، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ ، وما يتخلّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم .

وفي خلال ذلك كلّه أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأن تكون بياناً لكل شيء على وجه العموم الحقيقي إن سلك في بيانها طريق التفصيل واستنير فيها بما شرح الرسول صلى الله عليه وسلم وما قفّاه به أصحابه وعلماء أمّته ، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعدّ للطائعين وما أعدّ للمعرضين ، ووصف عالم الغيب والحياة الآخرة .

ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه للتبصّر في هذا الغرض الجليل ، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه .

وهذا من أبدع الإعجاز .

وخصّ بالذّكر الهدى والرحمة والبُشرى لأهميتها ؛ فالهدى ما يرجع من التّبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال .

والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى ، والبُشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيوية والأخروية .

وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم لأن غيرهم لما أعرضوا عنه حَرموا أنفسهم الانتفاع بخواصّه كلها .

فاللام في ﴿ لكل شيء ﴾ متعلق بالتبيان ، وهي لام التقوية ، لأن "كل شيء" في معنى المفعول به ل ﴿ تبياناً ﴾ .

واللام في ﴿ للمسلمين ﴾ لام العلّة يتنازع تعلّقها "تبيان وهدى ورحمة وبُشرى" وهذا هو الوجه . انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(46/442)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾

قوله : ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . ﴾ [النحل : 89] .

يعني من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعَاة والوعاظ والأئمة الذين بلّغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون أمام الله سبحانه على مَنْ قصّر في منهج الله .

وقد يكون معنى :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . ﴾ [النحل : 89] .

أي : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] .

وقوله : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا . . . ﴾ [فصلت : 21] .

والشهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شكّ أن حجته قوية وبيّنته واضحة .

وقوله :

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء ﴾ [النحل : 89] .

أي : شهيداً على أمتك كأنه صلى الله عليه وسلم شهيد على الشهداء .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ . . ﴾ [النحل : 89] .

الكتاب : القرآن الكريم . . تبياناً : أي بياناً تاماً لكل ما يحتاجه الإنسان ، وكلمة (شيء) تُسمّى جنس الأجناس . أي : كل ما يُسمّى " شيء " فبيانُه في كتاب الله تعالى .

فإنْ قال قائل : إنْ كان الأمر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن يجتهدوا لِيُخرجوا لنا حُكْماً مُعيّناً ؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً في الأصول ، وقد أعطى الحق تبارك وتعالى

لرسوله صلى الله عليه وسلم حق التشريع ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . ﴾ [الحشر : 7] .

(47/442)

إذن : فسُنة الرسول صلى الله عليه وسلم قَوْلاً أو فِعْلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ، وهي شارحة له ومُوضّحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين هذا في كتاب الله؟ نقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ . . . ﴾ [الحشر : 7] . " وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكانياته في القضاء . فسأله : " بِمَ تقضي؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإنْ لم تجد؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإنْ لم تجد؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو أي لا أُقصّر في الاجتهاد .

فقال صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي الله ورسوله " .

إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نصّ فيها ، لا في الكتاب ولا في السنة ، فقد أبيح لنا الاجتهادُ فيها .

ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده رحمه الله حُدِّث عنه وهو في باريس أن أحد المستشرقين قال له: أليس في آيات القرآن: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . ﴾ [الأنعام: 38].

قال: بلى، قال له: فهات لي من القرآن: كم رغيفاً يوجد في أردب القمح؟

فقال الشيخ: نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال . . فقال المستشرق: أريد الجواب من القرآن الذي ما فرط في شيء، فقال الشيخ: هذا القرآن هو الذي علَّمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر فقال:

﴿ فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: 7].

إذن: القرآن أعطاني الحجة، وأعطاني ما أستند إليه حينما لا أجد نصاً في كتاب الله، فالقرآن ذكر القواعد والأصول، وأعطاني حَقّ الاجتهاد فيما يعِنّ لي من الفروع، وما يستجدّ من قضايا، وإذا وُجِد في القرآن حكم عام وجب أن يُؤخذ في طيّه ما يُؤخذ منه من أحكام صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله وكله.

فقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . ﴾ [الحشر : 7] .

وكذلك الإجماع من الأمة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُوَلِّهِ مَا تولى . . ﴾ [النساء : 115] .

وكل اجتهاد يُرَدُّ إلى أهل الاجتهاد : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . . ﴾ [النساء : 83] .

إذن : فكلّ ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الإجماع وعن الأئمة المجتهدين موجود في القرآن ، فهو إذن صادق .

ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فهي كثيرة ، فما الذي يتعرّض له القرآن ؟ يتعرض القرآن للأحكام التكليفية المطلوبة من العبد الذي آمن بالله ، وهناك أمور كونية لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأنْ يعلمها ، فهو ينتفع بها سواء علمها أو جهلها ، فكَوْنُ الأرض كُروية الشكل ، وكَوْنها تدور حول الشمس ، وغير هذه الأمور من الكونيات إنْ علمها فبها ونعمتْ ، وإنْ جهلها لا يمنعه جهله من الانتفاع بها .

فالأُميّ الذي يعيش في الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيئاً عن طبيعتها وكيفية عملها ، ومع ذلك ينتفع بها ، بمجرد أن يضع أصبعه على زِرّ الكهرباء تُضيء له .

فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانةً واضحة ربما صَدَّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مقاصد القرآن حول الآيات

الكونية ؛ ولذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهِلّة ، كما حكى القرآن الكريم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة . . ﴾ [البقرة : 189] .

(49/442)

والأهلة : جمع هلال ، وهو ما يظهر من القمر في بداية الشهر حيث يبدو مثل قلامة الظفر ، ثم يزداد تدريجياً إلى أنْ يصل إلى مرحلة البدر عند تمام استدارته ، ثم يتناقص تدريجياً أيضاً إلى أنْ يعودَ إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف رَدَّ عليهم القرآن ؟ لم يُوضح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الأرض إذا حالتْ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية ؛ لذلك يقول لهم : اصرفوا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه في الأهلة :

﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج . . ﴾ [البقرة : 189] .

فردّهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدي ، فاهتمّ ببيان الحكمة منها ، وفي نفس الوقت ترك

هذه المسألة للزمن يشرحها لهم، حيث سيجدون في القرآن ما يُعينهم على فَهْم هذا الموضوع.

إذن: قوله تعالى: ﴿ مِن شَيْءٍ . . ﴾ [الأنعام: 38].

أي: من كل شيء تكليفيّ، إنْ فعله المؤمن أثيب، وإنْ لم يفعله يُعاقب، أما الأمور الكونية فيعطيهم منها على قدر وَعْيهم لها، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد.

(50/442)

لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله في القرآن الذي نزل فيه، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء، فالعقول تتفتّح على مَرِّ العصور وتتفتّق عن فكر جديد، ولا يصح أنْ يظلَّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد، لا بُدَّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتقاءات البشر في علومه الكونية. "والرسول صلى الله عليه وسلم حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل، أي: يُلقّحونه. وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب، حيث يأخذون من الذكر ويضعون في الأنثى، فماذا قال لهم؟ قال: لو لم تفعلوا لأثمر، ففي الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل، فلما سئل صلى الله عليه وسلم قال: "أنتم أعلم بشئون

دنياكم " .

فهذا أمر دنيوي خاضع للتجربة ووليد بَحْث معمليّ ، وليس من مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم توضيح هذه الأمور التي يتفق فيها الناس وتتفق فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التي تختلف فيها الأهواء فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً في العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات والاستنباطات التي تُسخر أسرار الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف الناس حول مُعْطيات هذه الموجة المادية ؟ هل نقول مثلاً : هذه كهرباء أمريكاني ، وهذه كهرباء روسي ؟ هل نقول : هذه كيمياء إنجليزي ، وهذه كيمياء ألماني ؟

فهذه مسألة وليدة المعمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، في حين نجدهم يختلفون في أشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية . . الخ ، فجاء الدين ليحسمَ ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك نرى كل معسكر يحاول أنْ يسرقَ ما توصَّل إليه المعسكر الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليتابعوا أحداث ما توصّل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً ؟ لا . . بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكي لا تنتقل هذه المبادئ إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنيهم .

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح في حَقّ رسول الله أن يُشير على الناس بشيء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أنْ يُوصّل قاعدة في نفوس المتكلمين في شئون الدين : إياكم أنْ تُقحِموا أنفسكم في الأمور المادية المعملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوي فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كُروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم في قضية لا دَخْل للدين فيها ، وقد حذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كُروية فعلاً ؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غَلْقه .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : 89] .

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدىً) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضي أن يقول : وهادياً ، لكن لم يَصف القرآن بأنه هادٍ ، بل هُدىً ، وكأنه نفس الهدى ؛ لأن هادياً ذاتٌ ثبت لها الهداية ، إنما هُدى : يعني هو جوهر الهدى ، كما نقول :

فلان عادل . وفي المبالغة نقول : فلان عَدْل . كأن العَدْل مجسّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] .

فما معنى الهدى ؟ هو الدلالة على الطريق الموصّل للغاية من أقرب الطرق .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ مرّة يُوصف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه : ﴿ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء : 82] .

والشفاء : أن يُوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هي الوقاية التي تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فمَنْ عمل بمنهجه فقد بُشِر بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد في نعيم دائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(52/442)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (

النحل : 89) ، وفيما بعد من هذه السورة : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل : 102) ، فورد في الأولى زيادة (رحمة) مع اتحاد المقصود في الموضعين من وصف الكتاب ، وهذا يظاهر الوارد في الموضعين ، فيسأل عن ذلك ؟

والجواب عن ذلك أن الأولى مقصود بها بشارة وإنعام لا يشوبه غيره ، وقد تبين ذلك ، أما الثانية فوارده مورد الزجر والتعنيف لمن لم يؤمن مع البشارة للمؤمنين ، ألا ترى ما تقدمها من قوله : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) (النحل : 101) ، فجووبوا عن هذا بقوله : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) (النحل : 102) ، أي قل لهم يا محمد هذا الكلام ، وورد بعدها : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) (النحل : 103) ، فاكتنف الآية المذكورة ما يفهم التعنيف لهم والوعيد على مرتكبهم ، ووضح أن المقصود لم يتحد في الآيتين كما يوهم للبادي من ظاهرهما ، وأن زيادة قوله : (ورحمة) في الأولى مناسب لمقصودها من البشارة والإنعام المجرد عن اتصال ما يفهم تعنيفاً أو وعيداً ، ولم يكن ورود ذلك ليناسب الوارد في الثانية ، فورد في كل على ما يجب ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 308 . 309 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89) ﴾

قوله تعالى : ﴿ تِبْيَاناً ﴾ : يجوز أن يكونَ في موضع الحال ، ويجوز أن يكونَ مفعولاً مِنْ أجله وهو مصدرٌ ، ولم يَجِيءْ من المصادرِ على هذه الزِّنَةِ إلا لفظان : هذا وتِلْقاء ، وفي الأسماء كثيرٌ نحو : التِّمْساح والتِّمْثال . وأمَّا المصادرُ فقياسُها فتحُ الأولِ دلالةً على التكثير كالتَّطواف والتَّجْوال . وقال ابن عطية : " إن التِّبْيان اسمٌ وليس بمصدرٍ " ، والنَّحْويون على خلافِه .

قوله : " للمُسْلمين " متعلقٌ ب " بُشْرَى " وهو متعلقٌ من حيث المعنى ب ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أيضا . وفي جوازِ كونِ هذا من التنازعِ نظرٌ من حيث لزومُ الفصلِ بين المصدرِ معمولِه بالمعطوفِ حالَ إعمالِك غيرَ الثالث فتأمَّله . وقياسُ مَنْ جوَّز التنازعَ في فعلِ التعجبِ والتزم إعمال الثاني لئلا يَلْزَمَ الفصل أن يُجوِّز هذا على هذه الحالةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 279 ﴾

(54/442)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾

تأتي – يومَ القيامة – كلُّ أمة مع رسولها ، فلا أُمة كهذه الأمةِ فضلاً ، ولا رسول كرسولنا صلى الله عليه وسلم – رتبةً وقَدْرًا .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أي القرآن تبياناً لكل شيء ، فيه للمؤمنين شفاء ، وهو لهم ضياء ، وعلى لكافرين بلاء ، وهو لهم سبب محنة وشقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 314 ﴾

(55/442)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾

أي: وصف الله شبهاً ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ وهو الكافر ﴿ لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ يقول: لا يقدر على مال ينفقه في طاعة الله ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي: مالاً حلالاً ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ ﴾ أي: يتصدق منه ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ يقول: يتصدق خفية وعلانية وهو المؤمن ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ في الطاعة مثلاً ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ضرب المثل.

وروي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان.

والآخر أبو الفيض بن أمية وهو كافر، لا يقدر أن ينفق خيراً لمعاده، وعثمان أنفق لآخرته فهل يستويان؟ أي: هل يستوي الكافر والمؤمن؟ ويقال ضرب المثل للآلهة.

ومعناه: أن الاثنين المتساويين في الخلق، إذا كان أحدهما قادراً على الإنفاق، والآخر عاجزاً، لا يستويان.

فكيف يسوون بين الحجارة التي لا تتحرك ولا تعقل، وبين الذي هو على كل شيء قدير؟

فبيّن الله تعالى علامة ضلالتهم، ثم حمد نفسه، ودل خلقه على حمده، فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم زاد في البيان، وضرب مثلاً آخر فقال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ يعني أخرس وهو الصنم ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ من مال ولا منفعة ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ﴾ يعني: ثقل على وليه، وقرابته.

يعني: الصنم عيال، ووبال على عابده.

﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ يعني: حيث يبعثه لا يجيء بخير ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ يعني: بالتوحيد ﴿ وَهُوَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يدل الخلق على التوحيد.

(56/442)

ويقال: هذا المثل للكافر مع النبي صلى الله عليه وسلم يعني: الكافر الذي لا يتكلم بالخير، هل يستوي هو ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ أي: التوحيد ويدعو الناس إليه ﴿ وَهُوَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يدعو الناس إليه وهو دين الإسلام.

وقال السدي: المثلان ضربهما الله لنفسه وللآلهة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَللَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ يعني: ما غاب عن العباد ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ يعني: قيام الساعة ﴿ إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ كرجع البصر ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ يقول: بل هو أقرب.

أي أسرع.

قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن البعث والإحياء في قدرة الله تعالى، ومشيئته كلمح

البصر .

ولم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، ولكنه وصف سرعة القدرة على الإتيان بها .

ويقال : أو هو أقرب الألف زيادة ، ومعناه : وهو أقرب .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني : من البعث وغيره .

قوله : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾ قرأ حمزة والكسائي "أُمَّهاتكم" بكسر الألف .

والباقون : بالضم .

ومعناهما واحد .

وقال الزجاج : الأصل في الأمهات ، ولكن الهاء زيدت مؤكدة ، كما زادوها في قولهم : أهرقت الماء ، وأصله أرقت الماء .

﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ يعني : لا تعقلون شيئاً .

ويقال : لا تعلمون الأشياء كلها .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار والافئدة ﴾ تعقلون بها الخير والشر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : لكي تشكروا النعمة .

ثم بيّن لهم العبرة ليعتبروا بها ، ويعرفوا بها وحدانيته فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ إِلى الطير مسخرات ﴾ يقول : مذللات ﴿ فِى جَوِّ السمآء ﴾ قال ابن عباس أي : في الهواء ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ

﴿ عند قبض الأَجنحة ، وعند بسطها ﴿ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذلك ﴾ أي : فيما ذكرت ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي : علامات لوحدانية الله ، لمن علم أن معبودهم لم يعنه في ذلك .

(57/442)

يعني : الكفار لا يعلمون متى يبعثون وأيان كلمة الاختصار وأصله أي أوان ؟ .

ثم قال تعالى ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ يعني : ربكم رب واحد فاعبدوه ، ولا تعبدوا غيره ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لمن آمن به .

قرأ ابن عامر وحمزة ﴿ أَلَمْ تروْا ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

وقرأ الباقون بالياء .

ثم قال : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ أي : خلق لكم البيوت قراراً ومأوى لكم .

ويقال : معناه سخر لكم الأرض ، لتبنوا فيها البيوت .

ويقال : معناه وفقكم لبناء البيوت لسكناكم ، وقراركم ، فذكر النعم ، والمنن ، والدلائل لوحدانيته .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام ﴾ أي : من الشعر ، والصوف ، والوبر ، ﴿ بُيُوتًا

﴾ أي : الفساطيط والخيام ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أي : تستخفون حملها ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقامتكم ﴾ أي : يوم انتقالكم ، وسفركم ، ويوم نزولكم ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أي : من أصواف الغنم ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ يعني : الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ يعني : أشعار المعز ﴿ أَثَاثاً ﴾ أي : متاع البيت من الفرش ، والأكسية .

وقال قتادة والكلبي : يعني : المال .

﴿ ومتاعا إلى حِينٍ ﴾ يعني : المنفعة حتى تعيشون فيه إلى الموت .

ويقال : تنتفعون بها إلى حين تبلى ، وتهلك .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ﴿ ظَعَنِكُمْ ﴾ بنصب العين .

وقرأ الباقون : بالجزم ومعناهما واحد .

قوله : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مّمَّا خَلَقَ ظلالا ﴾ أي : أشجارا تستظلون بها .

ويقال : بيوتاً تسكنون فيها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مّنَ الجبال أكنانا ﴾ أي : جعل لكم من الجبال بيوتاً تسكنون فيها .

ويقال : أكناناً يعني : الغيران ، والأسراب واحدها كنّ ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ أي : القمص ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ يعني : والبرد اكتفاء أحدهما إذا كان يدل على الآخر .

وقال قتادة في قوله : ﴿ مِّمَّا خَلَقَ ظِلالا ﴾ أي : من الشجر وغيره ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الجبال أكنانا ﴾ يعني : غيراناً في الجبال يسكن فيها ﴿ تَقِيكُمُ مِنَ الحرث ﴾ أي : من القطن ، والكتان ، والصوف .

قال : وكانت تسمى هذه السورة سورة النعم .

﴿ وسرابيل تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ وهي الدروع من الحديد تدفع عنكم قتال عدوكم .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : ما ذكر من النعم في هذه السورة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي : تعرفون رب هذه النعم .

فتوحّدوه ، وتخلصوا له بالعبادة .

وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ بنصب التاء واللام ، ومعناه : تسلمون من الجراحات إذا لبستم الدروع ، وتسلمون من الحر والبرد إذا لبستم القمص .

ثم قال : بعد ما بيّن العلامات : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي : أعرضوا عن الإيمان ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ المبين ﴾ تبلغهم رسالتي ، وتبيّن لهم الهدى من الضلالة .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أي : يعرفون أن خالق هذه الأشياء هو الله تعالى ، ثم ينكرونها .

ويقولون : هي بشفاعة آلهتنا ، وهذا قول الكلبي .

وقال السدي : يعني : يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم أنه نبي ، وأنه صادق ، ولا يؤمنون به .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال : هي المساكن ، والأنعام ، وما يرزقون منها .

وسرابيل الحديد والثياب ، يعرف هذا الكافرون ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ويقولون : هذا كان لآبائنا ، وورثناها .

ويقال : إنكارهم قولهم : لولا كذا لكان كذا .

ويقال : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ﴾ وذلك أنهم إذا سئلوا من خلقهم ؟ يقولون : الله ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ يعني : البعث ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ يعني : كلهم كافرون بالتوحيد .

ويقال : جاحدون بالنعم .

(59/442)

قوله ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ اذكر يوم نبعث ﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أي : نبياً شاهداً على أمته بالرسالة أنه بلغها ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : في الكلام ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يقول : لا يرجعون من الآخرة إلى الدنيا .

وقال أهل اللغة : عَتَبَ يَعْتِبُ إذا وجد عليه ، وأَعْتَبَ يُعْتِبُ إذا رجع عن ذنبه ، واستعتب يستعتب إذا طلب منهم الرجوع ، أي : لا يطلب منهم الرجوع إلى الدنيا .

قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب ﴾ أي : الكفار ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ﴾ أي : لا يهوّن عليهم العذاب حين رأوها ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي : لا يمهلون ، ولا يؤجلون ، ولا يتركون ساعة ، ليستريحوا .

قوله : ﴿ وَإِذَا رَءا الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءهُمْ ﴾ أي : آلهتهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلآء شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُوْا ﴾ يعني : نعبد ﴿ مِن دُونِكَ ﴾ يقولون : نعبد دونك ، وهم أمرونا بذلك .

ويقال : يعني : السفلة إذا رأوا شركاءهم .

يعني : أمراءهم ورؤساءهم قالوا : ربنا هؤلاء قادتنا الذين كنا ندعو من دونك .

أي : هم أَمرونا بالمعصية فأطعناهم ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول ﴾ يعني : الآلهة ، والقادة ، وأجابوهم ﴿ إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ ما أمرناكم بذلك .

قوله : ﴿ وَأَلْقَوْاْ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ أي : استسلموا ، وخضعوا ، وانقادوا . العابد والمعبود ، والتابع والمتبوع ، يومئذٍ خضعوا كلهم لله تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي : اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : يختلفون .

ويقال : بطل عنهم ما كانوا يقولون من الكذب في الدنيا .

ثم بيّن عذابهم فقال تعالى : ﴿ الذين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : صرفوا الناس عن دين الإسلام ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ يعني : القادة ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ من الشرك والتكذيب .

(60/442)

زدناهم عذاباً فوق عذاب السفلة .

ويقال : التابع والمتبوع زدناهم في كل وقت عذاباً مع العذاب .

وقال مقاتل : يجري الله عليهم خمسة أنهار من نحاس ذائب .

ثلاثة أنهار في مقدار وقت الليل ، واثنان في مقدار وقت النهار بما كانوا يفسدون في الدنيا .

وقال الكلبي نحو هذا .

قال الفقيه أبو الليث : حدثنا محمد بن الفضل .

قال : حدثنا محمد بن جعفر .

قال : حدثنا إبراهيم بن يوسف ، عن عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن السدي ، عن مرة ، عن عبد الله بن مسعود في قوله : ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ قال : أفاعي في النار .

وعن ابن مسعود أيضاً قال : زيدوا عقارب في النار .

أنيابها كالنخيل الطوال .

وعن مجاهد أنه قال : في النار عقارب كالبغال ، أنيابهن كالرماح ، تضرب إحداهن على رأسه ، فيسقط لحمه على قدميه .

وقال : يسألون الله تعالى المطر في النار ألف سنة ، ليسكن ما بهم من شدة الحر ، والغم ، فيظهر لهم سحابة ، فيظنون ، أنها تمطر عليهم ، فجعلت السحابة تمطر عليهم الغيث .

فإذا هي تمطر عليهم بالحيات ، والعقارب .

ويقال : يسلط عليهم الجوع .

ويقال : الجرب .

ويقال : الخوف .

قوله ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : رسولاً من الآدميين ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا على هَؤُلَآءِ ﴾ أي : على أمتك ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ أي : القرآن ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأمر والنهي .

إلا أن بعضه مفسر ، وبعضه مجمل ، يحتاج إلى الاستخراج ، والاستنباط .

وقال مجاهد : ما يسأل الناس عن شيء إلا في كتاب الله تبيانه ، ثم قرأ : ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ وقال علي بن أبي طالب : كل شيء علمه في الكتاب إلا أن آراء الرجال تعجز عنه .

ثم قال : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي ﴿ هُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : نعمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه ﴿ وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ بالجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 283.287 ﴾

(61/442)

وقال الثعلبى :

ثمّ ضرب الله تعالى مثلا المؤمن والكافر فقال عز من قائل : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ على شَيْءٍ ﴾

هو مثل الكافر رزقه الله مالاً فلم يقدّم خيراً ولم [يعمل] فيه بطاعة الله تعالى ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً ﴾ هو مثل المؤمن أعطاه الله مالاً فعمل فيه بطاعة الله وأنفقه فيما يرضي الله سراً وجهراً فأثابه الله على ذلك النعيم المقيم في الجنة ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ ولم يقل يستويان لمكان (من) لأنه اسم مبهم يصلح للواحد ، والاثنين ، والجميع ، والمؤنث ، والمذكر ، وكذلك قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً ﴾ ثمّ قال : ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالجمع لأجل (ما) ومعنى الآية : هل يستوي هذا الفقر والبخل والغنى [والسخاء] فكذلك لا يستوي الكافر العاصي المخالف لأمر الله والمؤمن

المطيع له .

روى ابن جريج عن عطاء : ﴿ عَبْداً مَّمْلُوكاً ﴾ قال : هو أبو جهل بن هشام ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ﴾ أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) .

ثمّ قال : ﴿ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يقول الله تعالى : ليس الأمر كما يفعلون ولا القول كما يقولون ، ما للأوثان عندهم من يد ، ولا معروف فيحمد عليه ، إنما الحمد هو الكامل لله خالصاً ، لأنه هو المنعم والخالق والرازق ولكن أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون أنها كذلك . ثمّ ضرب مثلاً آخر بنفسه والأصنام فقال : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ على شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ برسله ﴿ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ لأنه لا يفهم ما يقال ، ولا يفهم عنه .

(62/442)

وقال ابن مسعود : أينما توجهه لا يأت بخير ، هذا مثل للصنم الذي لا يسمع ولا ينطق ولا يعقل ولا يفعل وهو كلّ على [عائده] يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ يعني الله قادر متكلم بأمر التوحيد فليس كصنمكم ، فإنه لا يأمر بالتوحيد ﴿ وَهُوَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

قال الكلبي : يعني وهو يدلكم على صراط مستقيم ، وقيل : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم هو على صراط مستقيم .

قال الكلبي : يعني وهو يدلكم على صراط مستقيم .

آخر : ومن قال : كل المسلمين المؤمن والكافر ، وهي رواية عقبة عن ابن عبّاس .

وروى إبراهيم بن عكرمة بن يعلي بن منبّه عن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية في عثمان ابن عفان (رضي الله عنه) ومولاه . وكان عثمان ينفق عليه ويكفيه المؤنة وكان مولاه يكره الإسلام [ويأباه وينهاه عن] الصدقة ويمنعه من النفقة .

وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في هاشم بن عمرو بن الحرث بن ربيعة القرشي وكان رجلاً قليل الخير يعادي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عطاء : [الأبكم أبي بن حلف] ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ في قريب كونها وسرعة قيامها ﴿ إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ [كالنظر في البصر] ورجع الطرف ؛ لأن ذلك هو أن يقال له : كن فيكون ، ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ بل هو أقرب ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ نزلت في الكفار الذين استعجلوا القيامة إستهزاء منهم .

﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ .

قرأ الأعمش : ﴿ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ بكسر الألف والميم .

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الألف وفتح الميم .

وقرأ الباقون بضم الألف وفتح الميم .

وأصل الأمهات : أمات ، فزيدت الهاء للتأكيد كما زادوها في أهرقت الماء وأصله أرقت

﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ هذا كلام تام .

(63/442)

ثمّ ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ لأن الله تعالى جعل [لعباده السمع] والأبصار والأفئدة قبل إخراجهم من بطون أمهاتهم وإنما [أعطاهم العلم] بعد ما أخرجهم منها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمه .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة ويعقوب بالتاء .

وقرأ عاصم بضمر التاء . واختاره أبو عبيد لما قبلها .

﴿ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات ﴿ فِي جَوِّ السمآء ﴾ أي في الهواء بين الأرض والسماء ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الهواء ﴿ إِلاَّ الله إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ ﴾ التي هي من الحجر والمدر ﴿ سَكَناً ﴾ مسكناً تسكنونه .

قال الفراء : السكن : الدار ، والسكن بجزم الكاف : أهل البلد .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنعَامِ بُيُوتاً ﴾ يعني الخيام والقباب والأخبية [والفساطيط من الأنطاع] والأدم وغيرها ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ رحلكم وسفركم ﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ في بلادكم [لا يثقل] عليكم في الحالتين.

واختلف القرّاء في قوله : ﴿ يَوْمَ ظَعَنِكُمْ ﴾ .

فقرأ الكوفيون بجزم العين، وقرأ الباقون : بفتحه . وإختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لأنه [أشهر] اللغتين وأفصحهما . ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ يعني أصواف الضان وأوبار الإبل وأشعار المعز . والكنايات كلها راجعة إلى الأنعام.

﴿ أَثَاثاً ﴾ قال ابن عبّاس : مالا، مجاهد : [متاعاً] .

حميد بن عبد الرحمن : [أثاثاً يعني] الأثاث : المال أجمع من الإبل والغنم والعبيد ، والمتاع غيره هو متاع البيت من الفرش والأكسية وغيرها ولم يسمع له واحد مثل المتاع.

وقال أبو زيد : واحد الأثاث أثاثة . قال الخليل : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتّى يكثر ومنه شعر الشعراء كثر وأثّ شعر فلان أي إذا كثر والتف .

قال أمرؤ القيس :

أثيث كقنو النخلة المتعال . . . قال محمّد بن نمير الثقفي في الأثاث :

أهاجتك الظعائن يوم بأتوا . . . بذي الزي الجميل من الأثاث

﴿ وَمَتَاعاً ﴾ [بلاغاً] تنتفعون بها ﴿ إلى حِينٍ ﴾ يعني الموت . وقيل : إلى حين يبلى ويفنى .

﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً ﴾ تستظلون بها من شدة الحر وهو ظلال الأشجار والسقوف والأبنية ﴿ مِّنَ الجبال أَكْنَاناً ﴾ يعني الغيران والأسراب والمواضع التي تسكنون فيها واحدها كنّ ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ قمصاً من الكتان والقطن والخز والصوف ﴿ تَقِيكُمُ ﴾ تمنعكم . ﴿ الحر ﴾ .

[وقال] أهل المعاني : [أراد] الحر والبرد فاكتفى بأحدهما عن الآخر بدلالة الكلام عليه نظيره قوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ [الليل : 12] يعني الهدي والإضلال .

﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ يعني الدروع ولباس الحرب والمعنى : تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ يخضعون له بالطاعة ويخلصون له بالعبادة .

وروى نوفل بن أبي [عقرب] عن ابن عبّاس أنه قرأ : (يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) بالفتح ، يعني من الجراحات .

قال أبو عبيد : الاختيار قراءة العامّة ، لأن ما أنعم الله علينا في الإسلام أكثر من إنعامه

علينا في السلامة من الجراح.

وقال عطاء الخراساني في هذه الآية: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الجبال أَكْنَاناً ﴾ وما جعل لكم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال.

(65/442)

وقال: ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر. الا ترى إلى قوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: 43] وما ينزل من [الثلج] أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه، ألا ترى إلى قوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ وما يقي من البرد أعظم وأكثر ولكنهم ظلوا أصحاب حر.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ المبين * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ﴾.

قال السدي: يعني محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ يكذبون ويجحدون نبوّته.

قال مجاهد: يعني ما عدد عليهم في هذه السورة من النعم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوا

ذلك عن آبائهم ، وبمثله قال قتادة .

وقال الكلبي : وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هذه النعم لهم فقالوا : نعم هذه كلها من الله تعالى ولكنها بشفاعة آلهتنا . وقال عون بن عبد الله : هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ، لولا فلان ما أصبت كذا .

﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ الجاحدون .

(66/442)

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ يعني رسولها ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في الاعتذار ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون ، يعني لا يكلّفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون للرجوع إلى دار الدنيا [فيتوبون] ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ العذاب فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يؤخّرون ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين أَشْرَكُواْ ﴾ يوم القيامة ﴿ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أوثانهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هؤلاء شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ أرباباً ونعبدهم ﴿ فَأْلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول ﴾ أي قالوا لهم ، يقال : ألقيت إليك كذا ، يعني : قلت لك ﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا علمنا بعبادتكم إيانا ﴿ وَأَلْقَوْاْ ﴾ يعني المشركين ﴿ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾

استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئاً ﴿ وَضَلَّ ﴾ زال [. . . . .] ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من إنها تشفع لهم .

﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾ .

روى عبد الله بن مرة عن مسروق قال : قال عبد الله : ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾ ، قال : عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال ، ابن عبّاس ومقاتل : يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار يسيل من تحت العرش ، يعذبون بها ثلث على مقدار الليل وثلثان على مقدار النهار .

سعيد بن جبير : حيّات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة يجد صاحبها حمّتها أربعين خريفاً .

وقيل : إنهم يخرجون من حر النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار .

ويقال : هو أنهم يحملون أثقال أتباعهم . كما قال الله تعالى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] .

ويقال : إنه يضاعف لهم العذاب .

﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر وصد الناس عن الإيمان ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني عليها ، وإنما قال : ﴿ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ لأنه كان يبعث إلى الأُمم أنبياءها منها ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمّد ﴿ شَهِيداً على هؤلاء ﴾ الذين بُعثت إليهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه من الأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والحدود والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 31 . 37 ﴾

(68/442)

وقال الزمخشرى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ على شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ﴾

ثم علمهم كيف تضرب فقال : مثلكم في إشراككم بالله الأوثان : مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حرّ مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء .

فإن قلت : لم قال مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ على شَيْءٍ «1» وكل عبد مملوك ، وغير قادر على

التصرف؟

قلت: أما ذكر المملوك فليميز من الحرّ، لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا، لأنهما من عباد اللّه.

وأما لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له، لأنهما يقدران على التصرف.

---

(1). عاد كلامه. قال: «فان قلت لم قال مملوكا لا يقدر على شيء... الخ» قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الامام مالك رضى اللّه عنه. وفي هذه الآية له معتصم، لأن اللّه تعالى مثل بالمملوك لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالبا، ثم أفصح عن المعنى المقصود: وهو أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في المماليك عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصورا ومعهودا شرعا وعرفا، لكان قوله تعالى لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ كالتكرار لما فهم من قوله عَبْداً مَمْلُوكاً وقول القائل يقول إنه احتراز من المكاتب، بعيد من فصاحة القرآن: فانه لو كان العبد لا يصح منه ملك البتة إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالألغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن واستيلائه على صنوف البلاغة. ومثل هذا أنكره الامام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتبة لبعد القصد إليها على شذوذها.

وأما الاحتراز به عن المأذون له فيبنى على القول بأن المراد بعدم القدرة عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المأذون له مالكا عند هذا القائل. وهذا بعيد عن مطابقة قوله وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فإنها توجب أن يكون المراد بقوله لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أى لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه. فتلخص من هذا البحث أن في الآية مجالا لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول: هذه الصفة لازمة كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل: وإنما ضربنا المثل بالمملوك، لأن صفته اللازمة له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء. أى لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة لا يقصد بواحد منهما تقييده ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير. ومن ذلك قوله تعالى وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فقوله لا برهان له به. لا يقصد به تمييز له سوى اللَّه من «إله» لأن كل مدعو إلها غير اللّه تعالى، لا برهان به. وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير اللّه تعالى، فهذا أقصى ما يمكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد. ولنا أن نقول في دفعه أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد. وأما الوارد من ذلك لازما فنادر على خلاف الأصل، واللّه الموفق. [. . . . .]

واختلفوا في العبد هل يصح له ملك ؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصحّ له. فإن قلت : مَنْ في قوله وَمَنْ رَزَقْناهُ ما هي ؟ قلت : الظاهر أنها موصوفة ، كأنه قيل : وحراً رزقناه ، ليطابق عبداً . ولا يمتنع أن تكون موصولة . فإن قلت : لم قيل يَسْتَوُونَ على الجمع ؟ قلت : معناه : هل يستوي الأحرار والعبيد ؟

[سورة النحل (16) : آية 76]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)

الأبكم الذي ولد أخرس ، فلا يَفهم ولا يُفهم وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أى ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله أَيْنَما يُوَجِّهْهُ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم ، لم ينفع ولم يأت بنجح هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ هو سليم الحواس نفاعا ذو كفايات ، مع رشد وديانة ، فهو يَأْمُرُ الناس بِالْعَدْلِ والخير وَهُوَ في نفسه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ على سيرة صالحة ودين قويم .

وهذا مثل ثان ضربه اللّه لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع وقرئ : أينما يوجه ، بمعنى أينما يتوجه ، من قولهم : أينما أوجه ألق سعداً : وقرأ ابن مسعود : أينما يوجه ، على البناء للمفعول .

[سورة النحل (16) : آية 77]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أى يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه. أو أراد بغيب السموات والأرض: يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى هو عند اللّه وإن تراخى، كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر أو هو أقرب، إذا بالغتم في استقرابه.

ونحوه قوله: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ أى هو عنده دان وهو عندكم بعيد. وقيل: المعنى أن إقامة الساعة وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه «1»، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

---

(1) . قوله «وأوحاه» أى: وأسرعه. أفاده الصحاح. (ع)

فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، لأنه بعض المقدورات . ثم دل على قدرته بما بعده .

[سورة النحل (16) : آية 78]

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)

قرئ أُمَّهاتِكُمْ بضم الهمزة وكسرها ، والهاء مزيدة في أمات ، كما زيدت في أراق ، فقيل : أهراق . وشذت زيادتها في الواحدة قال :

أُمَّهَتِى خِنْدِفُ وَإلْيَاسُ أبى «1»

لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً في موضع الحال . ومعناه : غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون ، وسوّاكم وصوّركم ، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة . وقوله وَجَعَلَ لَكُمُ معناه : وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به ، من شكر المنعم وعبادته ، والقيام بحقوقه ، والترقي إلى ما يسعدكم . والأفئدة في فؤاد ، كالأغربة في غراب ، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة ، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها ، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير ، فجرت ذلك المجرى .

[سورة النحل (16) : آية 79]

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ (79)

قرئ: لم يروا، بالتاء والياء مُسَخَّراتٍ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية «2» لذلك. والجوّ: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ والسكاك «3»

---

(1) إني لدى الحرب رخى اللبب معتزم الصولة عالى النسب

أمهتى خندف وإلياس أبى

لقصي بن كلاب بن مرة جد النبي صلى اللّه عليه وسلم. ورخى اللبب. رحب الصدر واسع البال. واللبب في الأصل جبل في صدر المطية يمنع الرحلة من الاستئخار، أطلق على ذلك للمجاورة. ومعتزم: مصمم. والصولة: تجشم المكروه واقتحامه. وزيادة الهاء في أمهة شاذ. وخندف، بكسر الخاء والدال: امرأة إلياس بن مضر، وهذا لقبها، واسمها ليلى. والخندفة: مشية كالهرولة. وإطلاق الأم والأب على الجدة والجد: مجاز لمطلق الأصالة.

(2). قوله «والأسباب المواتية لذلك» في الصحاح آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته والعامة تقول:

وأتيته. (ع)

(3). قوله «والسكاك أبعد منه» في الصحاح السكاك والسكاكة الهواء الذي يلاقي

أعنان السماء وفيه أيضاً أعنان السماء صفائحها وما اعترض من أقطارها . والعنان بالفتح السحاب . (ع)

(71/442)

أبعد منه ، واللوح مثله ما يُمْسِكُهُنَّ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن إِلَّا اللَّهُ بقدرته .

[سورة النحل (16) : آية 80]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (80)

مِنْ بُيُوتِكُمْ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها . والسكن : فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف بُيُوتاً هي القباب والأبنية من الأدم والأنطاع تَسْتَخِفُّونَها ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ أى يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها «1» ، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها . أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً ، على أنّ اليوم بمعنى الوقت وَمَتاعاً وشيئاً ينتفع به إِلى حِينٍ إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو إلى أن تموتوا . وقرئ : يوم ظعنكم ، بالسكون .

[سورة النحل (16) : آية 81]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)

مِمَّا خَلَقَ من الشجر وسائر المستظلات أَكْناناً جمع كنّ، وهو ما يستكنّ به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف سَرابِيلَ هي القمصان والثياب من الصوف والكتان «2» والقطن وغيرها تَقِيكُمُ الْحَرَّ لم يذكر البرد، لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملا. وقيل: ما يقي من الحرّ يقي من البرد «3» فدل ذكر الحرّ

---

(1). قال محمود: «المراد يخف عليكم حملها ونقلها ... الخ» قال أحمد: والتفسير الأول أولى، لأن ظهور المنة في خفتها إنما يتحقق في حال السفر. وأما المستوطن فغير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم:

أن المراد خفة ضربها وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

(2). قال محمود: «هي القمصان والثياب من الصوف والكتان وغيرها ... الخ» قال أحمد: يعنى عند العرب وخصوصا قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(3). عاد كلامه. قال: «وقيل إن ما بقي الحر بقي البرد فدل ذكره عليه» قال أحمد: والأول أظهر. ألا ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقى من الضحا، في قوله تعالى جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية الحر، فامتن الله عليهم بأعظم

نعمه موقعا عندهم. وقول القائل «إن ما يقي الحريقي البرد» مشهود عليه بالعرف، فان الذي يتقى به الحر من القمصان رقيقها ورفيعها، وليس ذلك من البوس البرد، بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين - القيظ والبرد - لباس الآخر، يعد من الثقلاء.

(72/442)

على البرد وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ يريد الدروع والجواشن «1» والسربال عامّ يقع على كل ما كان من حديد وغيره لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ أى تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له. وقرئ: تسلمون، من السلامة: أى تشكرون فتسلمون من العذاب. أو تسلم قلوبكم من الشرك. وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

[سورة النحل (16) : الآيات 82 إلى 83]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (83)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعد ما أدّيت ما وجب عليك من التبليغ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من اللّه ثُمَّ يُنْكِرُونَها بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من اللّه ولكنها بشفاعة

آلهتنا. وقيل: إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا. وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم اللّه. وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من اللّه وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً في نيلها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ أى الجاحدون غير المعترفين. وقيل نِعْمَتَ اللَّهِ نبوّة محمد عليه السلام، كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم. فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة، لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

[سورة النحل (16) : الآيات 84 إلى 85]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (85)

شَهِيداً نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق، والكفر والتكذيب ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا في الاعتذار. والمعنى. لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر، وكذا عن الحسن وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ولا هم يسترضون، أى: لا يقال لهم أرضوا ربكم: لأن الآخرة ليست بدار عمل. فإن قلت: فما معنى ثم هذه؟ قلت: معناها أنهم يمنون «2» بعد

---

(1) . قوله «والجواشن» في الصحاح: الجوشن الصدر. والجوشن الدرع. (ع)

(2) . قوله «يمنون» في الصحاح: منوته ومنيته إذا ابتليته. (ع)

شهادة الأنبياء بما هو أطم منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة . وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره : واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ كقوله بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ . . . الآية .

[سورة النحل (16) : الآيات 86 إلى 87]

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (87)

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم ، فمعنى شُرَكاؤُنَا آلهتنا التي دعوناها شركاء . وإن أرادوا الشياطين ، فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغىّ : ونَدْعُوا بمعنى نعبد . فإن قلت : لم قالوا إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ وكانوا يعبدونهم على الصحة ؟ قلت : لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة . والدليل عليه قول الملائكة كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن ، فهم المعبودون دوننا . أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة

تنزيها للّه من الشريك. وإن أريد بالشركاء الشياطين، جاز أن يكون «كاذبين» في قولهم إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ كما يقول الشيطان: إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل وَأَلْقَوْا يعنى الذين ظلموا. وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر اللّه وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا وَضَلَّ عَنْهُمْ وبطل عنهم ما كانُوا يَفْتَرُونَ من أن للّه شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

[سورة النحل (16) : آية 88]

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (88)

الَّذِينَ كَفَرُوا في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف اللّه عقابهم كما ضاعفوا كفرهم. وقيل في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها «1» أربعين خريفا. وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار بِما كانُوا يُفْسِدُونَ بكونهم مفسدين الناس بصدّهم عن سبيل اللّه.

---

(1) . قوله «حمتها» حمة العقرب بالتخفيف، والهاء عوض عن اللام وهي سمها. واما حمة الحر، فبالتشديد، وهي معظمه، أفاده الصحاح. (ع)

[سورة النحل (16) : آية 89]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يعنى نبيهم، لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم وَجِئْنا بِكَ يا محمد شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ على أمتك تِبْياناً بيانا بليغا. ونظير «تبيان» «تلقاء» في كسر أوله، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. فإن قلت: كيف كان القرآن تبيانا لِكُلِّ شَيْءٍ؟ قلت: المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين، حيث كان نصا على بعضها وإحالة على السنة، حيث أمر فيه باتباع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وطاعته. وقيل: وما ينطق عن الهوى. وحثاً على الإجماع في قوله وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وقد رضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأمته اتباع أصحابه، والاقتداء بآثارهم في قوله صلى اللّه عليه وسلم «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» «1» وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد، مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثمّ كان تبيانا لكل شيء. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 622. 628﴾

(1) . أخرجه الدارقطني في المؤتلف من رواية سلام بن سليم عن الحرث بن غصن عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعا . وسلام ضعيف . وأخرجه في غرائب مالك من طريق حميد بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر في أثناء حديث : وفيه «فبأى قول أصحابى أخذتم اهتديتم ، إنما مثل أصحابى مثل النجم من أخذ بنجم منها اهتدى» وقال : لا يثبت عن مالك . ورواته دون مالك مجهولون . ورواه عبد بن حميد والدارقطني في الفضائل من حديث حمزة الحريري عن نافع عن ابن عمر . وحمزة اتهموه بالوضع . ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبى هريرة وفيه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وقد كذبوه . ورواه ابن طاهر من رواية بشر بن الحسين عن الزبير بن عدى عن أنس . وبشر كان متهما أيضاً . وأخرجه البيهقي في المدخل من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وجويبر متروك . ومن رواية جويبر أيضا عن حواب بن عبد اللّه مرفوعا وهو مرسل ، قال البيهقي هذا المتن مشهور وأسانيده كلها ضعيفة . وروى في المدخل أيضا عن عمر ورفعه «سألت ربى فيما يختلف فيه أصحابى من بعدي . فأوحي إلى : يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء ، بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشيء مما هو عليه من اختلافهم فهو عندي على هدى» وفي إسناده عبد الرحيم بن زيد السهمي ، وهو متروك .

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾

أي : بيّنَ شَبَهاً فيه بيان المقصود ، وفيه قولان :

أحدهما : انه مَثَلٌ للمؤمن والكافر .

فالذي ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ هو الكافر ، لأنه لا خير عنده ، وصاحب الرزق هو المؤمن ، ابن لما عنده من الخير ، هذا قول عباس ، وقتادة .

والثاني : أنه مَثَل ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان ، لأنه مالكُ كل شيء ، وهي لا تملك شيئاً ، هذا قول مجاهد ، والسدي .

وذُكر في التفسير أن هذا المثل ضُرب بِقوم كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم قولان :

أحدهما : أن المملوك : أبو الجوار ، وصاحب الرزق الحسن : سيده هشام ابن عمرو ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

وقال مقاتل : المملوك : أبو الحواجر .

والثاني : أن المملوك : أبو جهل بن هشام ، وصاحب الرزق الحسن : أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، قاله ابن جريج .

فأما قوله : ﴿ هل يستوون ﴾ ولم يقل : يستويان ، لأن المراد : الجنس .

وقال ابن الأنباري : لفظ "مَنْ" لفظ توحيد ، ومعناها معنى الجمع ، ولم يقع المَثَل بعبد معيَّن ، ومالك معين ، لكن عُنِيَ بهما جماعة عبيد ، وقومٌ مالكون ، فلما فارق من تأويل الجمع ، جمع عائدها لذلك .

وقوله تعالى : ﴿ الحمد الله ﴾ أي : هو المستحق للحمد ، لأنه المنعم ، ولا نعمة للأصنام ، ﴿ بل أكثرهم ﴾ يعني المشركين ﴿ لا يعلمون ﴾ أن الحمد لله .

قال العلماء : وصف أكثرهم بذلك ، والمراد : جميعهم .

قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ قد فسرنا "البَكَم" في [البقرة : 18] .

ومعنى "لا يقدر على شيء" أي : من الكلام ، لأنه لا يَفْهَم ولا يُفهَم عنه .

﴿ وهو كَلٌّ على مولاه ﴾ قال ابن قتيبة : أي : ثِقل على وليِّه وقرابته .

وفيمن أُريد بهذا المَثَل أربعة أقوال :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فالكافر هو الأبكم ، والذي يأمر بالعدل [هو] المؤمن ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في عثمان بن عفان ، هو الذي يأمر بالعدل ، وفي مولى له كان يكره الإِسلام وينهى عثمان عن النَّفقة في سبيل الله ، وهو الأبكم ، رواه إِبراهيم بن يعلى بن مُنْيَة عن ابن عباس .

والثالث : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه ، وللوثن .

فالوثن : هو الأبكم ، والله تعالى : هو الآمر بالعدل ، وهذا قول مجاهد ، وقتادة ، وابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : أن المراد بالأبكم : أُبيُّ بن خلف ، وبالذي يأمر بالعدل : حمزة ، وعثمان ابن عفان ، وعثمان بن مظعون ، قاله عطاء .

فيخرج على هذه الأقوال في معنى "مولاه" قولان .

أحدهما : أنه مولىً حقيقة ، إِذا قلنا : إِنه رجل من الناس .

والثاني : أنه بمعنى الولي ، إِذا قلنا : إِنه الصنم ، فالمعنى : وهو ثِقل على وليِّه الذي يخدمه ويزيِّنه .

ويخرج في معنى "أينما تُوَجِّه" قولان .

إِن قلنا : إِنه رجل ، فالمعنى : أينما يرسله .

والتوجيه : الإِرسال في وجه من الطريق .

وإِن قلنا : إِنه الصنم ، ففي معنى الكلام قولان :

أحدهما : أينما يدعوه ، لا يجيبه ، قاله مقاتل .

والثاني : أينما توجَّه تأميله إِيّاه ورجاه له ، لا يأتِه ذلك بخير ، فحذف التأميل ، وخلفه الصنم ، كقوله : ﴿ ما وعدتنا على رسلك ﴾ [آل عمران : 194] أي : على ألسنة رسلك .

وقرأ البزي عن ابن محيصن "أينما تُوَجِّهْهُ" بالتاء على الخطاب .

فأما قوله : ﴿ لا يأت بخير ﴾ فإن قلنا : هو رجل ، فانما كان كذلك ، لأنه لا يفهم ما يقال له ، ولا يُفْهَمُ عنه ، إِما لكفره وجحوده ، أو لِبَكَمٍ به .

وإِن قلنا : إِنه الصنم ، فلكونه جماداً .

﴿ هل يستوي هو ﴾ أي : هذا الأبكم ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ أي : ومن هو قادر على التكلم ، ناطق الحق .

قوله تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ قد ذكرناه في آخر [هود : 123]

وسبب نزول هذه الآية أن كفار مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ متى الساعة ؟ فنزلت هذه ، قاله مقاتل .

وقال ابن السائب : المراد بالغيب هاهنا : قيام الساعة .

قوله تعالى : ﴿ وما أمر الساعة ﴾ يعني : القيامة ﴿ إِلاَّ كلمح البصر ﴾ واللمح : النظر بسرعة ، والمعنى : إِن القيامة في سرعة قيامها وبعث الخلائق ، كلمح العين ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ كن فيكون ﴾ [البقرة : 117] .

﴿ أو هو أقرب ﴾ قال مقاتل : بل هو أسرع .

وقال الزجاج : ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر ، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء .

قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أُمَّهاتكم ﴾ قرأ حمزة : "إِمِّهاتِكم" بكسر الألف والميم ، وقرأ الكسائي بكسر الإِلف وفتح الميم ، والباقون بضم الألف وفتح الميم ، وكذلك في [النور : 61] و [الزمر : 6] و [النجم : 32] ، ولا خلاف بينهم في الابتداء بضم الهمزة .

قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ لفظه لفظ الواحد ، والمراد به الجميع ، وقد بيَّنَّا علة ذلك في أول [البقرة : 7] .

والأفئدة : جمع فؤاد .

قال الزجاج : مثل : غراب وأغربة ، ولم يجمع "فؤاد" على أكثر العدد ، لم يقل فيه : "فئدان"

مثل غُراب وغِربان.

وقال أبو عبيدة: وإنما جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم، غير أن العرب تقدّم وتؤخّر، وأنشد:

ضَخْمٌ تُعَلَّقُ أَشْنَاقُ الدِّيات به . . .

إذا المِؤُونَ أُمِرَّتْ فَوْقَهُ حَمَلا

[الشَّنَق: ما بين الفريضتين].

والمِؤُون أعظم من الشَّنَق، فبدأ بالأقل قبل الأعظم.

قال المفسرون: ومقصود الآية: أن الله تعالى أبان نعمه عليهم حيث أخرجهم جهّالاً بالأشياء، وخلق لهم الآلات التي يتوصلون بها إلى العلم.

قوله تعالى: ﴿ مسخرات في جو السماء ﴾ قال الزجاج: هو الهواء البعيد من الأرض.

قوله تعالى: ﴿ ما يُمسِكُهُنَّ إلاَّ الله ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ما يمسكهنّ عند قبض أجنحتهن وبسطِها أن يَقَعْنَ على الأرض إلا الله، قاله الأكثرون.

والثاني: ما يُمسكهنّ أن يرسِلن الحجارة على شرار هذه الأمة، كما فُعِل بغيرهم، إلا الله، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سَكَناً ﴾ أي: موضعاً تسكنون فيه، وهي المساكن المتَّخَذة من الحجر والمدر تستر العورات والحُرَم، وذلك أن الله تعالى خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن بناء البيت وتسقيفه، ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ﴾ وهي القباب والخيم المتخذة من الأدم ﴿ تستخفُّونها ﴾ أي: يخفُّ عليكم حملها ﴿ يوم ظعنكم ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو "ظَعَنِكُم" بفتح العين.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بتسكين العين، وهما لغتان، كالشّعَر والشّعْر، والنّهَر والنّهْر، والمعنى: إذا سافرتم، ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ أي: لا تثقل عليكم في الحالين.

﴿ ومن أصوافها ﴾ يعني: الضأن ﴿ وأوبارها ﴾ يعني: الإبل ﴿ وأشعارها ﴾ يعني: المعز ﴿ أثاثاً ﴾ قال الفراء: الأثاث: المتاع، لا واحد له، كما أن المتاع لا واحد له.

والعرب تقول: جمع المتاع أمتعه، ولو جمعت الأثاث، لقلت: ثلاثة أَإِثَّة، وأُثُث: مثل أعثة وغُثث لا غير.

وقال ابن قتيبة: الأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية.

قال أبو زيد: واحد الأثاث: أثاثة.

وقال الزجاج: يقال: قد أثَّ يأَث أثّاً: إذا صار ذا أثاث.

وروي عن الخليل أنه قال: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض، ومنه: شَعَر أثيث.

فأما قوله: ﴿ ومتاعاً ﴾ فقيل: إنما جمع بينة وبين الأثاث، لاختلاف اللفظين.

وفي قوله: ﴿ إلى حين ﴾ قولان:

أحدهما: أنه الموت، والمعنى: ينتفعون به إلى حين الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد.

والثاني: أنه إلى حين البلى، فالمعنى: إلى أن يَبلى ذلك الشيء، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظِلالا ﴾ أي: ما يقيكم حر الشمس، وفيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه ظلال الغمام، قاله ابن عباس.

والثاني: ظلال البيوت، [قاله ابن السائب.

والثالث: ظلال الشجر، قاله قتادة، والزجاج.

والرابع: ظلال الشجر والجبال]، قاله ابن قتيبة.

والخامس : انه كل شيء له ظل من حائط ، وسقف ، وشجر ، وجبل ، وغير ذلك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ أي : ما يَكُنُّكم من الحرِّ والبرد ، وهي الغيران والأسراب .

وواحد الأكنان "كِنّ" وكل شيء وقى شيئاً وستره فهو "كِنّ" ﴿ وجعل لكم سرابيل ﴾ وهي القُمُص ﴿ تقيكم الحر ﴾ ولم يقل : البرد ، لأن ما وقى من الحر ، وقى من البرد ، وأنشد :

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضاً . . .

أُرِيْدُ الخَيْرَ أَيُّهما يَلِيْنِي

وقال الزجاج : إنما خص الحرَّ ، لأنهم كانوا في مكاناتهم أكثر معاناةً له من البرد ، وهذا مذهب عطاء الخراساني .

قوله تعالى : ﴿ وسرابيل تقيكم بأْسكم ﴾ يريد الدروع التي يتَّقون بها شدّة الطعن والضرب في الحرب .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي : مثلما أنعم الله عليكم بهذه الأشياء ، يتم نعمته عليكم في الدنيا ﴿ لعلكم تُسلِمون ﴾ والخطاب لأهل مكة ، وكان أكثرهم حينئذٍ كفاراً ، ولو قيل : إنه خطاب للمسلمين ، فالمعنى : لعلكم تدومون على الإسلام ، وتقومون

بحقه .

وقرأ ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وأبو رجاء : "لعلكم تَسلَمون" بفتح التاء واللام ، على معنى : لعلكم إذا لبستم الدروع تَسلَمون من الجراح في الحرب .

قوله تعالى : ﴿ فإن تَوَلَّوا ﴾ أعرضوا عن الإِيمان ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وهذه عند المفسرين منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ وفي هذه النعمة قولان :

أحدهما : أنها [المساكن] نعم الله عز وجل عليهم في الدنيا .

وفي إِنكارها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم يقولون : هذه ورثناها [عن آبائنا] .

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : نِعَم الله : المساكن ، والأنعام ، وسرابيل الثياب ، والحديد ، يعرفه كفار قريش ، ثم ينكرونه بأن يقولوا : هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم ، وهذا عن مجاهد .

والثاني : أنهم يقولون : لولا فلان ، لكان كذا ، فهذا إِنكارهم ، قاله عون بن عبد الله .

والثالث: يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا، قاله ابن السائب، والفراء وابن قتيبة.

والثاني: أن المراد بالنعمة هاهنا: محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه نبيٌّ ثم يكذِّبونه، وهذا مروي عن مجاهد، والسدي، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ قال الحسن: وجميعهم كفار، فذكر الأكثر، والمراد به الجميع.

قوله تعالى: ﴿ ويوم نبعث من كل أُمةٍ شهيداً ﴾ يعني: يوم القيامة، وشاهد كلِّ أُمةٍ نبيُّها يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها، ﴿ ثم لا يؤذَن للذين كفروا ﴾ في الاعتذار ﴿ ولا هم يُستعتبون ﴾ أي: لا يُطلب منهم أن يرجعوا إِلى ما أمر الله به، لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

قوله تعالى: ﴿ وإِذا رأى الذين ظَلموا ﴾ أي: أشركوا ﴿ العذاب ﴾ يعني: النار ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ العذاب ﴿ ولا هم يُنظرون ﴾ لا يؤخَّرون، ولا يمهلون.

﴿ وإِذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء لله في العبادة، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه، فيقول المشركون: ﴿ ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذِين كنا ندعو ﴾ أي: نعبد من دونك.

فإن قيل: فهذا معلوم عند الله تعالى، فما فائدة قولهم: "هؤلاء شركاؤنا"؟ فعنه جوابان:

أحدهما : أنهم لما كتموا الشرك في قولهم : واللهِ ما كنا مشركين ، عاقبهم الله تعالى باصمات ألسنتهم ، وإنطاق جوارحهم ، فقالوا عند معاينه آلهتهم : ﴿ ربنا هؤلاء شركاؤنا ﴾ أي : قد أقررنا بعد الجحد ، وصدّقنا بعد الكذب ، التماساً للرحمة ، وفراراً من الغضب ، وكأنَّ هذا القول منهم على وجه الاعتراف بالذنْب ، لا على وجه إعلام من لا يعلم .

والثاني : أنهم لما عاينوا عِظَم غضب الله تعالى قالوا : هؤلاء شركاؤنا ، تقديرَاً أن يعود عليهم من هذا القول روح ، وأن تلزم الأصنام إجرامهم ، أو بعض ذنوبهم إذْ كانوا يدّعون لها العقل والتمييز ، فأجابتهم الأصنام بما حسم طمعهم .

قوله تعالى : ﴿ فألقَوا إليهم القول ﴾ أي : أجابوهم وقالوا لهم ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ قال الفراء : ردت عليهم آلهتهم قولهم .

وقال أبو عبيدة : "فألقوا" أي : قالوا لهم .

يقال : ألقيت إلى فلان كذا .

أي : قلت له .

قال العلماء : كذَّبوهم في عبادتهم إياهم ، وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف عابديها

، فظهرت فضيحتهم يومئذٍ إذْ عبدوا مَن لم يعلم بعبادتهم ، وذلك كقوله : ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ [مريم : 83] .

قوله تعالى : ﴿ وأَلْقَوا إِلى الله يومئذٍ السَّلَم ﴾ المعنى : أنهم استسلموا له .

وفي المشار إِليهم قولان : أحدهما : أنهم المشركون ، قاله الأكثرون .

ثم في معنى استسلامهم .

قولان : أحدهما : أنهم استسلموا [له] بالإِقرار بتوحيده وربوبيته .

والثاني : أنهم استسلموا لعذابه .

والثاني : أنهم المشركون والأصنام كلُّهم .

قال الكلبي : والمعنى : أنهم استسلموا لله منقادين لحُكمه .

قوله تعالى : ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بطَل قولهم أنها تشفع لهم .

والثاني : ذهب عنهم ما زيَّن لهم الشيطان أن لله شريكاً وولداً .

قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصُدّوا عن سبيل الله ﴾ قال ابن عباس : منعوا النَّاس من طاعة الله والإِيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ إنما نكَّر العذاب [الأول] ، لأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم ، وعرَّف العذاب الثاني ، لأنه العذاب الذي يعذَّب به أكثر أهل النار ، فكان في شهرته بمنزلة النار في قول القائل : نعوذ بالله من النار ، وقد قيل : إنما زِيدوا هذا العذاب على ما يستحقونه من عذابهم ، بصدِّهم عن سبيل الله .

وفي صفة هذا العذاب الذي زِيدوا أربعة أقوال :

أحدها : أنها عقارب كأمثال النخل الطوال ، رواه مسروق عن ابن مسعود .

والثاني : أنها حيَّات كأمثال الفِيَلَة ، وعقارب كأمثال البغال ، رواه زِرٌّ عن ابن مسعود .

والثالث : أنها خمسة أنهار من صُفْر مُذَابٍ تسيل من تحت العرش يعذَّبون بها . ثلاثة على مقدار الليل ، واثنان على مقدار النهار ، قاله ابن عباس .

والرابع : أنه الزمهرير ، ذكره ابن الأنباري .

قال الزجاج : يخرجُون من حرِّ النار إلى الزمهرير ، فيتبادرون من شدة برده إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ وفي المشار إليهم قولان :

أحدهما : أنهم قومه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أُمَّته ، قاله مقاتل .

وتم الكلام ها هنا .

ثم قال : ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً ﴾ قال الزجاج : التبيان : اسم في معنى البيان .

فأما قوله تعالى : ﴿ لكل شيء ﴾ فقال العلماء بالمعاني : يعني : لكل شيء من أمور الدين ، إِما بالنص عليه ، أو بالإِحالة على ما يوجب العلم ، مثل بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إِجماع المسلمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(83/442)

وقال النسفى :

ثم ضرب المثل فقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا ﴾

هو بدل من ﴿ مثلاً ﴾ ﴿ مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ على شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ مصدران في موضع الحال أي مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه ما شاء .

وقيد بالمملوك ليميزه من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً إذ هما من عباد الله وب ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ ليمتاز من المكاتب والمأذون فيهما يقدران على التصرف .

و"من" موصوفة أي وحراً رزقناه ليطابق عبداً ، أو موصولة ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ جمع

الضمير لإرادة الجمع أي لا يستوي القبيلان ﴿ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بأن الحمد والعبادة لله ثم زاد في البيان فقال :

(84/442)

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ على شَىْءٍ ﴾ الأبكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم ﴿ وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ ﴾ أي ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿ أَيْنَمَا يُوَجّهْهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ أي ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير ﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم ، وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه ، أو أراد بغيب السماوات والأرض يوم القيامة على أن علمه غائب عن أهل السماوات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ في قرب كونها وسرعة قيامها ﴿ إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ كرجع طرف ، وإنما ضرب به المثل لأنه لا يعرف زمان أقل منه ﴿ أَوْ هُوَ

﴿ أي الأمر ﴿ أَقْرَبُ ﴾ وليس هذا لشك المخاطب ولكن المعنى ، كونوا في كونها على هذا الاعتبار .

وقيل : بل هو أقرب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق لأنه بعض المقدورات ثم دل على قدرته بما بعده فقال :

(85/442)

﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾ وبكسر الألف وفتح الميم : عليّ اتباعاً لكسرة النون وبكسرهما : حمزة ، والهاء مزيدة في أمهات للتوكيد كما زيدت في "أراق" فقيل "أهراق" وشذت زيادتها في الواحدة ﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ حال أي غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه ، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه .

والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة لعدم السماع في غيرها ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ وبالتاء : شامي وحمزة ﴿ إلى الطير مسخرات ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك ﴿ فِى جَوِّ السمآء ﴾

هو الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ بقدرته، وفيه نفي لما يصوره الوهم من خاصية القوى الطبيعية ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الخلق لا غنى به عن الخالق ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ هو فعل بمعنى مفعول أي ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتًا ﴾ هي قباب الأدم ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ بسكون العين: كوفي وشامي، وبفتح العين: غيرهم.

والظعن بفتح العين وسكونها الارتحال ﴿ وَيَوْمَ إقامتكم ﴾ قراركم في منازلكم، والمعنى أنها خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر على أن اليوم بمعنى الوقت ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أي أصواف الضأن ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ وأوبار الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ وأشعار المعز ﴿ أَثَاثاً ﴾ متاع البيت ﴿ ومتاعا ﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿ إلى حِينٍ ﴾ مدة من الزمان

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظلالا ﴾ كالأشجار والسقوف ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الجبال أكنانا ﴾ جمع كن وهو ما ستره من كهف أو غار ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ هي القمصان

والثياب من الصوف والكتاب والقطن ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ وهي تقي البرد أيضاً إلا أنه اكتفى بأحد الضدين ، ولأن الوقاية من الحر أهم عندهم لكون البرد يسيراً محتملاً ﴿ وسرابيل تَقِيكم بَأْسَكُمْ ﴾ ودروعاً من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم في قتالكم ، والبأس : شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد أو غيره ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ المبين ﴾ أي فلا تبعة عليك في ذلك لأن الذي عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ التي عددناها بأقوالهم فإنهم يقولون إنها من الله ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم أو في الشدة ثم في الرخاء ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ﴾ أي الجاحدون غير المعترفين ، أو نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم ، و"ثم" يدل على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر

﴿ وَيَوْمَ ﴾ انتصابه ب "اذكر" ﴿ نَبْعَثُ ﴾ نحشر ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ نبياً يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والإيمان والكفر ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الاعتذار ، والمعنى لا حجة لهم ولا عذر ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ولا هم يسترضون ، أي : لا يقال لهم ارضوا ربكم لأن الآخرة ليست بدار عمل .

ومعنى "ثم" أنهم يمنون أي : يبتلون بعد شهادة الأنبياء عليهم السلام بما هو اطم وأغلب منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة ﴿ وَإِذَا رَءَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ العذاب فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أي العذاب بعد الدخول ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يمهلون قبله ﴿ وَإِذَا رَءَا الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أوثانهم التي عبدوها ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلآءِ شُرَكَآؤُنَا ﴾ أي آلهتنا التي جعلناها شركاء ﴿ الذين كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ أي نعبد ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب لأنها كانت جماداً لا تعرف من عبدها ، ويحتمل أنهم كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهاً لله عن الشرك ﴿ وَأَلْقَوْاْ ﴾ يعني الذين ظلموا ﴿ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ إلقاء السلم الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وبطل عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن لله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ في أنفسهم ﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ وحملوا غيرهم على الكفر ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ أي عذاباً بكفرهم وعذاباً بصدهم عن سبيل الله ﴿ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ بكونهم مفسدين الناس بالصد

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني نبيهم لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا على هَٰؤُلَآءِ ﴾ على أمتك ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانًا ﴾ بليغاً ﴿ لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من أمور الدين.

(88/442)

أما في الأحكام المنصوصة فظاهر، وكذا فيما ثبت بالسنة أو بالإجماع أو بقول الصحابة أو بالقياس، لأن مرجع الكل إلى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله: ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [المائدة: 92] وحثنا على الإجماع فيه بقوله: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين ﴾ [النساء: 115] وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه بقوله: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وقد اجتهدوا وقاسوا ووطّئوا طرق الاجتهاد والقياس مع أنه أمرنا به بقوله ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر: 2] فكانت السنة والإجماع وقول الصحابي والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب فتبين أنه كان تبياناً لكل شيء ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ودلالة إلى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 294.297 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ على شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يستوون ﴾

مثل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً ومثل نفسه بالحر المالك الذي رزقه الله مالاً كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء ، واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر على الإطلاق . وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق ، وتقييد العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر فإنه أيضاً عبد الله وبسلب القدرة للتمييز عن المكاتب والمأذون وجعله قسيماً للمالك المتصرف يدل على أن المملوك لا يملك ، والأظهر أن ﴿ مَنْ ﴾ نكرة موصوفة ليطابق ﴿ عَبْداً ﴾ ، وجمع الضمير في ﴿ يَسْتَوُونَ ﴾ لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرار والعبيد ؟ . ﴿ الحمد لِلَّهِ ﴾ كل الحمد له ، لا يستحقه غيره فضلاً عن العبادة لأنه مولى النعم كلها . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيضيفون نعمة إلى غيره ويعبدونه لأجلها .

(90/442)

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ ولد أخرس لا يَفهم ولا يُفهِم . ﴿ لاَّ يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله . ﴿ وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ ﴾ عيال وثقل على من يلي أمره . ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر ، وقرىء ﴿ يوجه ﴾ على البناء للمفعول و ﴿ يوجه ﴾ بمعنى يتوجه كقوله أينما أوجه ألق سعداً وتوجه بلفظ الماضي . ﴿ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ بنجح وكفاية مهم . ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل ﴾ ومن هو فهم منطيق ذو كفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل . ﴿ وَهُوَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعي ، وإنما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين لأنهما كمال ما يقابلهما ، وهذا تمثيل ثان ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام لإِبطال المشاركة بينه وبينها أو للمؤمن والكافر .

(91/442)

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ يختص به علمه لا يعلمه غيره ، وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً ولم يدل عليه محسوس . وقيل يوم القيامة فإن علمه غائب عن أهل السموات والأرض . ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته . ﴿ إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها . ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ أو أمرها أقرب منه بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي تبتدىء فيه ، فإنه تعالى يحيي الخلائق دفعة وما يوجد دفعة كان في آن ، و﴿ أَوْ ﴾ للتخيير أو بمعنى بل . وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقرب مبالغة في استقرابه . ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر أن يحيي الخلائق دفعة كما قدر أن أحياهم متدرجاً ، ثم دل على قدرته فقال : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الهمزة على أنه لغة أو إتباع لما قبلها ، وحمزة بكسرها وكسر الميم والهاء مزيدة مثلها في أهراق . ﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ جهالاً مستصحبين جهل الجمادية . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أداة تتعلمون بها فتحسون بمشاعركم جزئيات الأشياء فتدركونها ثم تتنبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها بتكرر الإحساس حتى تتحصل لكم العلوم البديهية ، وتتمكنوا من تحصيل المعالم الكسبية بالنظر فيها . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تعرفوا ما أنعم عليكم طوراً بعد طور فتشكروه .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطير ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للعامة. ﴿ مسخرات ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المؤاتية له. ﴿ فِي جَوّ السمآء ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ فيه. ﴿ إِلاَّ الله ﴾ فإن ثقل جسدها يقتضي سقوطها ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها. ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة يمكن معها الطيران، وخلق الجو بحيث يمكن الطيران فيه وإمساكها في الهواء على خلاف طبعها. ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها.

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر، فعل بمعنى مفعول. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتًا ﴾ هي القباب المتخذة من الأدم، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها. ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها. ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ وقت ترحالكم. ﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ ووضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول. وقرأ الحجازيان والبصريان "يَوْمَ

ظَعْنِكُمْ" بالفتح وهو لغة فيه. ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ الصوف للضائنة والوبر للإبل والشعر للمعز، وإضافتها إلى ضمير ﴿ الأنعام ﴾ لأنها من جملتها. ﴿ أَثَاثاً ﴾ ما يلبس ويفرش. ﴿ ومتاعا ﴾ ما يتجر به. ﴿ إلى حِينٍ ﴾ إلى مدة من الزمان فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدة، أو إلى حين، مماتكم أو إلى أن تقضوا منه أوطاركم.

(93/442)

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها. ﴿ ظلالا ﴾ تتقون بها حر الشمس. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الجبال أكنانا ﴾ مواضع تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها جمع كن. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها. ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ خصه بالذكر اكتفاء بأحد الضدين أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم. ﴿ وسرابيل تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ يعني الدروع والجواشن، والسربال يعم كل ما يلبس. ﴿ كذلك ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت. ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي تنظرون في نعمه فتؤمنون به وتنقادون لحكمه. وقرىء "تَسْلَمُونَ" من السلامة أي تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تنظرون فيها فتسلمون من الشرك. وقيل ﴿ تُسْلِمُونَ ﴾ من الجراح بلبس الدروع.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا ولم يقبلوا منك . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ فلا يضرك فإنما عليك البلاغ وقد بلغت ، وهذا من إقامة السبب مقام المسبب .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ أي يعرف المشركون نعمة الله التي عددها عليهم وغيرها حيث يعترفون بها وبأنها من الله تعالى . ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم إنها بشفاعة آلهتنا ، أو بسبب كذا أو بأعراضهم عن أداء حقوقها . وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عناداً ومعنى ثم استبعاد الإنكار بعد المعرفة . ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ الجاحدون عناداً ، وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان العقل أو التفريط في النظر ، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف وإما لأنه يقام مقام الكل كما في قوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(94/442)

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر . ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الاعتذار إذ لا عذر لهم . وقيل في الرجوع إلى الدنيا . و﴿ ثُمَّ ﴾ لزيادة ما يحيق بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الإقناط الكلي على ما يمنون به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ولا هم يسترضون ،

من العتبى وهي الرضا وانتصاب يوم بمحذوف تقديره اذكر، أو خوفهم أو يحيق بهم ما يحيق وكذا قوله:

﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب ﴾ عذاب جهنم. ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أي العذاب. ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يمهلون. ﴿ وَإِذَا رَءا الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أوثانهم التي ادعوها شركاء، أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه. ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلآءِ شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُوْا مِن دُونِكَ ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس لأن يشطر عذابهم. ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة وإنما عبدوا أهواءهم كقوله تعالى: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم ﴾ ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به حينئذ، أو في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياه كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ ﴿ وَأَلْقَوْاْ ﴾ وألقى الذين ظلموا. ﴿ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في الدنيا. ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وضاع عنهم وبطل. ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿ الذين كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر . ﴿ زدناهم عَذَابًا ﴾ لصدهم . ﴿ فَوْقَ العذاب ﴾ المستحق بكفرهم . ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ بكونهم مفسدين بصدهم .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني نبيهم فإن نبي كل أمة بعث منهم . ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد . ﴿ شَهِيدًا على هَٰؤُلَآءِ ﴾ على أمتك . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ استئناف أو حال بإضمار قد . ﴿ تِبْيَانًا ﴾ بيانا بليغاً . ﴿ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالة إلى السنة أو القياس . ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ للجميع وإنما حرمان المحروم من تفريطه . ﴿ وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ خاصة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 412. 416 ﴾

(96/442)

وقال ابن جزى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾

الآية : مثل لله تعالى وللأصنام ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله

تعالى له الملك، وبيده الرزق ويتصرف فيه كيف يشاء، فكيف يسوي بينه وبين الأصنام، وإنما قال: لا يقدر على شيء، لأن بعض يقدرون على بعض الأمور كالمكاتب والمأذون له ﴿ وَمَن رزقناه ﴾ من هنا نكرة موصوفة، والمراد بها من هو حر قادر كأنه قال: حرّاً رزقناه ليطابق عبداً، ويحتمل أن تكون موصولة ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذي ضرب لهم المثل ﴿ الحمد لِلَّهِ ﴾ شكراً لله على بيان هذا المثال ووضوح الحق ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني الكفار.

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ الآية: مثل لله تعالى وللأصنام كالذي قبله، والمقصود منهما إبطال مذاهب المشركين، وإثبات الوحدانية لله تعالى، وقيل: إن الرجل الأبكم أبو جهل، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر، والأظهر عدم التعيين ﴿ وَهُوَ كَلٌّ على مولاه ﴾ الكلّ: الثقيل يعني أنه عيال على وليه أو سيده، وهو مثل للأصنام والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى.

(97/442)

﴿ وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ بيان لقدرة الله على إقامتها، وأن ذلك يسير عليه كقوله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ [لقمان: 28] وقيل:

المراد سرعة إتيانها ﴿ والله أَخْرَجَكم مِّن بُطُونِ أمهاتكم ﴾ الأمهات جمع أم زيدت فيه الهاء فرقاً بين من يعقل ومن لا يعقل ، وقرئ بضم الهمزة وبكسرها إتباعاً للكسرة قبلها ﴿ فِي جَوِّ السمآء ﴾ أي في الهواء البعيد من الأرض ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾ السكن مصدر يوصف به ، وقيل : هو فعل بمعنى مفعول ومعناه ما يسكن فيه كالبيوت أو يسكن إليه ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتاً ﴾ يعني الأدم من القباب وغيرها ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أي تجدونها خفيفة ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ يعني في السفر والحضر ، واليوم هنا بمعنى الوقت ويقال : ظعن الرجل إذا رحل ، وقرئ ظعنكم بفتح العين ، وإسكانها تخفيفاً ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ ﴾ الأصواف للغنم ، والأوبار للإبل ، والأشعار للمعز والبقر ﴿ أَثَاثاً ﴾ الأثاث متاع البيت من البسط وغيرها ، وانتصابه على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره جعل ﴿ وَمَتَاعاً إلى حِينٍ ﴾ أي إلى وقت غير معين ، ويحتمل أن يريد أن تبلى وتغنى أو إلى أن تموت .

(98/442)

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً ﴾ أي نعمة عددها الله عليهم بالظل ، لأن الظل مطلوب في بلادهم محبوب لشدّة حرها ، ويعني بما خلق من الشجر وغيرها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ

مِّنَ الجبالِ أكناناً ﴾ الأكنان جمع كن ، وهو ما يقي من المطر والريح وغير ذلك ، ويعني بذلك الغيران والبيوت المنحوتة في الجبال ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سرابيل تَقِيكُمُ الحر ﴾ السرابيل هي الثياب من القمص وغيرها ، وذكر وقاية الحر ولم يذكر وقاية البرد ، لأن وقاية الحر عندهم لحرارة بلادهم ، وقيل : لأن ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ يعني دروع الحديد .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ﴾ إشارة إلى ما ذكر من النعم من أول السورة إلى هنا والضمير في يعرفون للكفار ، وإنكارهم لنعم الله إشراكهم به وعبادة غيره ، وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ أي يشهد عليهم بإيمانهم وكفرهم ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي لا يؤذون لهم في الاعتذار ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يسترضون ، وهو من العتب بمعنى الرضى ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى التأخير أو بمعنى النظر : أي لا ينظر الله إليهم .

﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ الضمير في القول للمعبودين والمعنى أنهم كذبوهم في قولهم أنهم كانوا يعبدونهم ، كقولهم : ﴿ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء : 75] فإن قيل : كيف كذبوهم وهم قد كانوا يعبدونهم ؟ فالجواب أنهم لما كانوا غير راضين بعبادتهم ، فكأن عبادتهم لم تكن عبادة ، ويحتمل أن يكون تكذيبهم لهم في تسميتهم شركاء لله ، لا في العبادة ﴿ وَأَلْقَوْاْ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ أي استسلموا له وانقادوا ﴿ زدناهم عَذَاباً فَوْقَ

العذاب ﴾ رُوي أن الزيادة في العذاب هي حيات وعقارب كالبغال تلسعهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 160.158 ﴾

(99/442)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما ختم تعالى إبطال مذهب عبدة الأصنام بسبب العلم الذي هو مناط السداد عنهم ،

أكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى:

﴿ ضرب الله ﴾ أي : الذي له كمال العلم وتمام القدرة . ﴿ مثلاً ﴾ بالأحرار والعبيد ثم

أبدل من مثلاً ﴿ عبداً ﴾ وقيده بقوله تعالى : ﴿ مملوكاً ﴾ ليخرج الحرّ . لأنّ العبد يطلق

على الحرّ بالنسبة إلى الله تعالى وقيده بقوله تعالى : ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ ليخرج

المكاتب ومن فيه شائبة حرّية وهذا مثل شركائهم ثم عطف على عبداً قوله : ﴿ ومن ﴾

أي : وحرًّا فهي نكرة موصوفة ليطابق عبداً ﴿ رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾ أي : واسعاً

طيباً ﴿ فهو ينفق منه ﴾ دائماً وهو معنى قوله تعالى : ﴿ سراً وجهراً ﴾ أي : يتصرف فيه

كيف يشاء وهذا مثل الإله وله المثل الأعلى ثم بكتهم إنكاراً عليهم بقوله تعالى : ﴿ هل

يستوون ﴾ أي : هذان الفريقان الممثل بهما لأن المراد الجنس فإذا كان لا يسوغ في عقل أن

يسوّى بين مخلوقين أحدهما حرّ مقتدر والآخر مملوك عاجز ، فكيف يسوّى بين حجر من صوّان أو غيره وبين الله تعالى الذي له القدرة التامّة على كل شيء ، وقيل : ذلك تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق . تنبيه : جواب هل يستوون هو لا يستوون . وقوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ قال ابن عباس : الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد ، وقيل المعنى : أن كل الحمد لله ، وليس شيء من الحمد للأصنام لأنه لا نعمة لها على أحد لأنها جماد عاجز ، أي : إنما الحمد لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لأنه تعالى أهل المحامد والثناء الحسن ، فكأنهم قالوا : نحن نعلم ذلك فقيل : ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي : الكفار ﴿ لا يعلمون ﴾ لكونهم يسوّونه غيره ومن نفى عنه أصل العلم الذي هو أعلى صفات الكمال . كان في عداد الأنعام فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ويضربون له الأمثال الباطلة ويضيفون نعمه إلى غيره .

(100/442)

ثم إنه تعالى ضرب لعبدة الأوثان مثلاً آخر بقوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً ﴾ ثم أبدل منه ﴿ رجلين ﴾ ثم استأنف البيان لما أجمل فقال ﴿ أحدهما أبكم ﴾ وهو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم وروى ثعلب عن ابن الأعرابي : الأبكم الذي لا

يسمع ولا يبصر وصف الله تعالى هذا الرجل بصفة ثانية بقوله تعالى: ﴿لا يقدر على شيء﴾ لأنه لا يفهم ولا يُفهم وفي ذلك إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى: ﴿وهو﴾ أي: ذلك الأبكم العاجز ﴿كلّ على مولاه﴾ أي: ثقيل على من ولي أمره ويعوله، قال أهل المعاني: أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة يقال: كلّ السكين إذا غلظت شفرته فلم تقطع وكلّ اللسان إذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينهض فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله: ﴿أينما يوجهه﴾ أي: يرسله ويصرفه ذلك المولى ﴿لا يأت بخير﴾ لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم، قيل: هذا مثل شركائهم الذين هم عيال ووبال على عبدتهم ووبخهم الله تعالى بقوله: ﴿هل يستوي هو﴾ أي: هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع ﴿ومن﴾ أي: ورجل آخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن قوي خبير مبارك ميمون ﴿يأمر﴾ أي: ورجل آخر بما له من العلم والقدرة ﴿بالعدل﴾ أي: يبذل النصيحة لغيره ﴿وهو﴾ في نفسه ظاهراً وباطناً ﴿على صراط﴾ أي: طريق واضح ﴿مستقيم﴾ أي: عامل فيه بما يأمر به، قيل: هذا مثال المعبود بالحق الذي يكفي عابديه جميع المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته، وقيل: المراد من هذا الأبكم عبد لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الإسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو عثمان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقيل: المراد كل عبد موصوف بهذه الصفات

المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازي أولى من الأول لأن وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين

(101/442)

يمنع من حمل ذلك على

الوثن وكذلك بالبكم وبالكلّ وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى و أيضاً المقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى ، وأمّا القول الثاني فضعيف أيضاً لأنّ المقصود إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل إذا حصل التفاوت في الصفات المذكورة فإنه يحصل المقصود .

(102/442)

ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى : ﴿ ولله ﴾ أي : لا لغيره ﴿ غيب السموات والأرض ﴾ وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً و لم يدل

عليه محسوس ، وقيل : الغيب هنا هو قيام الساعة فإن علمه غائب عن أهل السموات و الأرض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته بقوله تعالى : ﴿ وما أمر الساعة ﴾ وهو الوقت الذي يكون فيه البعث ﴿ إلا كلمح البصر ﴾ أي : إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، والمعنى : وما أمر قيام الساعة في السرعة والسهولة إلا كطرف العين والمراد منه تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى : ﴿ أو هو أقرب ﴾ إنّ لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها و لا شك أنّ الحدقة مؤلفة من أجزاء فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الأجزاء التي منها تألف الحدقة و لاشك أن تلك الأجزاء كثيرة والزمان الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على إقامة القيامة في آن واحد من تلك الآنات فلذلك قال أو هو أقرب إلا أنه لما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره ، ثم قال : ﴿ أو هو أقرب ﴾ تنبيهاً على ما مرّ و لا شبهة في أنه ليس المراد طريقة الشك فالمراد إذاً بل هو أقرب ، وقال الزجاج : المراد به الإبهام على المخاطبين لا أنه تعالى يأتي بالساعة إمّا بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع ، وقيل معناه : إنّ قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقرب مبالغة كقوله تعالى : ﴿ وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ (الرحمن ،)

. ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ على كل شيء قدير ﴾ فيقدر على أن يحي الخلائق دفعة واحدة كما قدر على إحيائهم ، فإنه تعالى مهما أراده كان في أسرع ما يكون ثم إنه تعالى عاد إلى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فعطف على قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ قوله عز وجل:

﴿ والله ﴾ أي : الذي له العظمة كلها ﴿ أخرجكم ﴾ بقدرته وعلمه ﴿ من بطون أمّهاتكم ﴾ حال كونكم عند الإخراج ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ من الأشياء قلّ أو جلّ فالذي أخرجكم منها قادر على إخراجكم من بطون الأرض بلا فرق بل بطريق الأولى . وقرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة والباقون بضمها ، وقرأ حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على أخرجكم قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ آلات لإزالة الجهل الذي وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها وسوّاها وعدلها ، وأنتم في البطون حيث لا تصل إليه يد ولا يتمكن من شق شيء منه بآلة فالذي قدر على ذلك في البطن إبداعاً قادر على إعادته في بطن الأرض ، بل بطريق الأولى .

قال البقاعيّ : ولعله تعالى جمعهما ، أي : الأبصار والأفئدة دون السمع لأنّ التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه إلا الله ، والأفئدة هي القلوب التي هيأها الله تعالى للفهم وإصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة للمعاني الدقيقة ﴿ لعلكم تشكرون ﴾

لتصيروا بمعارف القلوب التي وهبكموها إذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات في حال يرجى فيها شكركم لما أفاض عليكم من لطائف صنعه بأن تعرفوا ما له من العلم والقدرة فإنه إنما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم .

فإن قيل : عطف وجعل لكم السمع على أخرجكم يقتضي أن يكون جعل السمع والبصر متأخرين عن الإخراج من البطون مع أنّ الأمر ليس كذلك ؟

(104/442)

أجيب : بأنّ حرف الواو لا يوجب الترتيب وأيضاً إذا حملنا السمع على الاستماع والأبصار على الرؤية زال السؤال ثم إنه تعالى ذكر دليلاً آخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى:

﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات ﴾ أي : مذللات للطيران ﴿ في جوّ السماء ﴾ أي : في الهواء بين الخافقين مما لا يقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتكم لها في السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعاً أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران فيها وإلا لما أمكن ذلك لأنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويكسره مرّة أخرى مثل ما يعمل السابح في الماء ، وخلق الجوّ خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ فيه ، ولولا ذلك لما كان

الطيران ممكناً ومع ذلك ﴿ ما يمسكهنّ ﴾ في الجوّ عن الوقوع ﴿ إلا الله ﴾ أي : الملك الأعظم فإنّ جسد الطير جسم ثقيل ، والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجوّ معلقاً من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجوّ هو الله تعالى . وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه خطاب العامّة والباقون بالياء على الغيبة ﴿ إنّ في ذلك ﴾ المذكور ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ وخصهم بذلك لأنهم هم المنتفعون بها وإن كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء .

(105/442)

ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من دلائل التوحيد بقوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الحكمة البالغة . ﴿ جعل لكم من بيوتكم ﴾ وأصل البيت المأوى ليلاً ثم اتسع فيه ﴿ سكناً ﴾ أي : موضعاً لتسكنوا فيه . تنبيه : البيوت التي يسكن الإنسان فيها على قسمين : أحدهما : البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت ، وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها ، بل الإنسان ينتقل إليها . والقسم الثاني : القباب والخيام والفساطيط ، وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ المتخذة من الأدم ويجوز أن يتناول

المتخذة من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث أنها ثابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها ﴿ تستخفونها ﴾ أي : تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها .

﴿ يوم ظعنكم ﴾ أي : وقت ترحالكم وعبر باليوم لأنّ الترحال في النهار ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ أي : وقت الحضر أو وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان إلى مكان . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون ، وأضاف قوله تعالى : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ إلى ضمير الأنعام لأنها من جملتها . قال المفسرون وأهل اللغة : الأصواف للضأن والأوبار للإبل والأشعار للمعز .

﴿ أثاثاً ﴾ أي : ما يلبس ويفرش ﴿ ومتاعاً ﴾ أي : ما يتجر به ، وقيل : الأثاث ما يكتسي به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء ، والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ إلى حين ﴾ فقيل : إلى حين تبلى ، وقيل : إلى حين الموت ، وقيل : إلى حين بعد حين ، وقيل : إلى يوم القيامة .

تنبيه : في نصب أثاثاً وجهان : أحدهما : أنه منصوب عطفاً على بيوتاً ، أي : وجعل لكم من أصوافها أثاثاً . والثاني : أنه منصوب على الحال ، واعلم أنّ الإنسان إمّا أن يكون مقيماً

أو مسافراً والمسافر إمّا أن يكون غنياً يستصحب معه الخيام أولا فالقسم الأوّل أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ وأشار إلى القسم الثاني بقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ وأشار إلى القسم الثالث بقوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الجلال والإكرام ﴿ جعل لكم ﴾ أي : من غير حاجة منه تعالى ﴿ مما خلق ﴾ من شجر وجبال وأبنية وغيرها . وقوله تعالى : ﴿ ظلالاً ﴾ جمع ظل تتقون به شدّة الحرّ . وقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم ﴾ مع غناه المطلق ﴿ من الجبال أكناناً ﴾ جمع كنّ موضع تسكنون فيه من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها ﴿ وجعل لكم ﴾ أي : امتناناً منه عليكم ﴿ سرابيل ﴾ جمع سربال . قال الزجاج : كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره ، أي : وسواء كان من صوف أو كتان أو قطن أو غير ذلك ﴿ تقيكم الحرّ ﴾ ولم يقل تعالى والبرد لتقدّمه في قوله تعالى : ﴿ فيها دفء ﴾ (النحل ،)

(107/442)

. وقيل : إنه اكتفى بأحد المتقابلين . وقيل : كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارّة فكان حاجتهم إلى ما يدفع الحرّ فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد كما قال تعالى : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ وسائر أنواع الثياب أشرف إلا أنه تعالى ذكر ذلك

النوع لأنه كان الفهم بها أشدّ واعتيادهم للبسها أكثر ، ولما كانت السرابيل نوعاً واحداً لم يكرّر لفظ جعل فقال : ﴿ وسرابيل ﴾ أي : دروعاً من حديد وغيرها ﴿ تقيكم بأسكم ﴾ أي : حربكم ، أي : في الطعن والضرب فيها . ولما عدّد الله تعالى أنواع نعمه قال : ﴿ كذلك ﴾ أي : كإتمام هذه النعمة المتقدّمة ﴿ يتمّ نعمته عليكم ﴾ في الدنيا والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دقائق ذلك ﴿ لعلكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ تسلمون ﴾ أي : تخلصون لله الربوبية وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الأنعامات أحد سواه ، وقيل : تسلمون من الجراح بلبس الدروع . m

﴿ فإن تولوا ﴾ فلم يقبلوا منك وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة في الكفر ﴿ فإنما عليك ﴾ يا أفضل الخلق ﴿ البلاغ المبين ﴾ هذا جواب الشرط وفي الحقيقة جواب الشرط محذوف ، أي : فقد تمهد عذرك بعد ما أدّيت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب وذلك لأنّ تبلغيه سبب في عذره فأقيم السبب مقام المسبب وهذا قبل الأمر بالقتال ، ثم إنه تعالى ذمّهم بأنهم

﴿ يعرفون نعمة الله ﴾ أي: الملك الأعظم التي تقدّم عدّ بعضها في هذه السورة وغيرها ﴿ ثم ينكرونها ﴾ بعبادتهم غير المنعم بها ، وقال السدي: نعمة الله يعني محمداً صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه. وقيل: نعمة الله هي الإسلام وهو من أعظم النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده ، ثم إنّ كفار مكة أنكروه وجحدوه ، واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ مع أنهم كلهم كانوا كافرين على وجوه؛ الأوّل: إنما قال تعالى: ﴿ وأكثرهم ﴾ لأنه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ، ممن لم يبلغ حدّ التكليف أو كان ناقص العقل فأراد بالأكثر البالغين الأصحاء. الثاني: أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معانداً بل كان جاهلاً بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبياً حقاً من عند الله. الثالث: أنه ذكر الأكثر والمراد الجميع لأنّ أكثر الشيء يقوم مقام الكل ، فذكر الأكثر كذكر الجميع ، وهذا كقوله تعالى: ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (الزمر ،) ولما بين تعالى من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضاً من حالهم أن أكثرهم كافرون أتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿ ويوم ﴾ أي: وخوّفهم يوم أو واذكر لهم يوم ﴿ نبعث ﴾ بعد البعث ﴿ من كل أمّة شهيداً ﴾ هو نبيها كما قال تعالى: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (النساء ،)

يشهد نبيها لها وعليها يوم القيامة ليحكم تعالى بقوله إجراء للأمر على ما يتعارفون وإن كان

تعالى غنياً عن شهيد . وقوله تعالى : ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ فيه وجوه : أحدها : لا يؤذن لهم في الاعتذار كقوله تعالى : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (المرسلات ،) . ثانيها : لا يؤذن لهم في كثرة الكلام . ثالثها : لا يؤذن لهم في الرجوع إلى دار الدنيا وإلى التكليف . رابعها : لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود . فإن قيل : ما معنى ثم ههنا ؟

(109/442)

أجيب : بأنّ معناها أنهم يمتحنون ، أي : يبتلون بغير شهادة الأنبياء عليهم السلام بما هو أطمّ منها وأنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي : لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون ، يقال : استعتبت فلاناً بمعنى اعتبته ، أي : أزلت عتباه .

﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ أي : ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ العذاب ﴾ أي : عذاب جهنم بعد الموقف وشهادة الشهداء ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ ذلك العذاب ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي : لا يمهلون . ولما بين تعالى حاصل أمرهم في البعث وما بعده وكان من أهمّ المهمّ أمرهم في الموقف مع شركائهم الذين كانوا يرجونهم عطف على ذلك بقوله تعالى :

﴿ وإذا رأى ﴾ أي : بالعين يوم القيامة ﴿ الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي : الآلهة التي كانوا يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها ﴿ قالوا ربنا ﴾ أي : يا من أحسن إلينا وربانا ﴿ هؤلاء شركاؤنا ﴾ أضافوهم إلى أنفسهم لأنه لا حقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجبة لضرّهم ثم بينوا المراد بقولهم : ﴿ الذين كنا ندعوا ﴾ أي : نعبدهم ﴿ من دونك ﴾ ليقرّبونا إليك فأكرمنا لأجلهم جرياً على مناهجهم في الدنيا في الجهل والغباوة فخاف شركاؤهم من عواقب هذا القول والإقرار عليه سطوات الغضب ﴿ فألقوا ﴾ أي : الشركاء ﴿ إليهم ﴾ أي : المشركين ﴿ القول ﴾ أي : بادروا به حتى كان إسراعهم إليه إسراع شيء ثقيل يلقى من علو وأكدوا قولهم فقالوا : ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ في جعلنا شركاء أو أنكم عبدتمونا حقيقة وإنما عبدتم أهواءكم كقوله تعالى : ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ (مريم ،)

ولا يبعد أن تنطق الأصنام بذلك يومئذ في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياه كقوله : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ (إبراهيم ،)

(110/442)

. ﴿ وألقوا ﴾ أي: الشركاء ﴿ إلى الله ﴾ أي: الملك الأعلى ﴿ يومئذٍ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ السلم ﴾ أي: الاستسلام بحكمه بعد الاستكبار في الدنيا ﴿ وضلّ ﴾ أي: غاب ﴿ عنهم ﴾ أي: الكفار ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي: من أنّ آلهتهم تشفع لهم. ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا أتبعه بوعيد من ضمّ إلى كفره صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى:

﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ﴾ أي: ضموا مع كفرهم أنهم منعوا الناس عن الدخول في الإيمان بالله وبرسوله ﴿ زدناهم عذاباً ﴾ لصدّهم ﴿ فوق العذاب ﴾ المستحق بكفرهم ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ أي: بكونهم مفسدين بصدّهم، وقيل: زدناهم عذاباً بحيات وعقارب كأمثال البخت يستغيثون بالهرب منها إلى النار ومنهم من ذكر أنّ لكل عقرب ستمائة نقرة في كل نقرة ثلاثمائة قلة من سم، وقيل: عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ثم كرّر سبحانه وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو أنّ الشهادة تقع على الأمم لا لهم وتكون بحضرتهم فقال:

﴿ ويوم ﴾ أي : وخوفهم أو واذكر لهم يوم ﴿ نبعث ﴾ أي : بما لنا من القدرة ﴿ في كل أمّة ﴾ من الأمم والأمّة عبارة عن القرن والجماعة ﴿ شهيداً عليهم ﴾ قال ابن عباس : يريد الأنبياء قال المفسرون : كل نبيّ شاهد على أمّته وهو أعدل شاهد عليها ﴿ من أنفسهم ﴾ أي : منهم لأنّ كل نبيّ إنما بعث من قومه الذين بعث إليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وإيمان وطاعة وعصيان ﴿ وجئنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ بك ﴾ يا خير المرسلين ﴿ شهيداً على هؤلاء ﴾ أي : الذين بعثناك إليهم وهم أهل الأرض وأكثرهم ليس من قومه صلى الله عليه وسلم ولذلك لم تقيد بعثته بشيء ، وقال أبو بكر الأصم : المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الإنسان حتى أنها تشد عليه وهو الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان ، قال : والدليل عليه ما قاله في صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم ، ورد بأنه تعالى قال : ﴿ شهيداً عليهم ﴾ يجب أن يكون غيرهم ، وأيضاً قال ﴿ من كل أمّة ﴾ فيجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمّة وآحاد هذه الأعضاء لا يصح وصفها بأنها من الأمّة ، ثم بيّن تعالى أنه أزاح علتهم فيما كلفوا به فلا حجة لهم ولا معذرة بقوله تعالى : ﴿ ونزلنا ﴾ أي : بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم ﴿ عليك ﴾ يا خير خلق الله ﴿ الكتاب ﴾ أي : القرآن الجامع للهدى ﴿ تبياناً ﴾ أي : بياناً بليغاً ﴿ لكل شيء ﴾ فإن قيل : كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟

أجيب : بأن المعنى من كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه بإتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم وطاعته . وقد قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (النجم ،)

وحثاً على الاجماع في قوله تعالى : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ (النساء ،)

(112/442)

وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمّته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤوا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مسندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبياناً لكل شيء ﴿ وهدى ﴾ أي : من الضلالة ﴿ ورحمة ﴾ لمن آمن به وصدّقه ﴿ وبشرى ﴾ بالجنة ﴿ للمسلمين ﴾ أي : الموحدين خاصة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 361 . 369 ﴾

(113/442)

وقال القاسمي :

ولما نهاهم عن ضرب المثل الفعلي وهو الإشراك ؛ عقبه بالكشف لذي البصيرة ، عن حالهم في تلك الغفلة ، وحال من تابعهم ، بقوله سبحانه :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

يعني أن مثل هؤلاء في إشراكهم ، مثلُ من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك يتصرف في ماله كيف يشاء ، ولا مساواة بينهما ، مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟ ! وإيثار قوله : ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ ﴾ الخ على (مالكاً) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكيره الإنفاق منه في السر والجهر ، ليكون عاملاً بأمر الله فيه .

وقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على ما هدى أولياءه . وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لا يستحقه شيء من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور المحبة وأكثرهم لا يعلمونها ، مع أنها في غاية ظهورها ونهاية وضوحها .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا

يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [76]

.

(114/442)

﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً ﴾ أي : مثلاً آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح : ﴿ رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ أي : أخرس : ﴿ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ ﴾ أي : مما يقدر عليه المنطيق المفصح عما في نفسه : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ ﴾ أي : ثقيل على من يلي أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه : ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ أي : حيث يرسله في أمر لا يأت بنجحه وكفاية مهمه : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي : ومن هو بليغ منطيق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحثهم على العدل الشامل لجميع الفضائل

.

﴿ وَهُوَ ﴾ أي : في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام : ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : على سيرة صالحة ودين قويم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعي وأسهله .

قال الأزهري : ضرب تعالى مثلاً للصنم الذي عبدوه وهو لا يقدر على شيء ، فهو كلٌّ على مولاه ؛ لأنه يحمله إذا ظعن فيحوله من مكان إلى مكان . فقال الله تعالى : هل يستوي

هذا الصنم الكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال : لا تسووا بين الصنم وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزمخشري بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية . وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع . انتهى .

وناقش الرازي في حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وبالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف في الثاني بأنه على صراط مستقيم ، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

(115/442)

وقد يقال في جوابه : بأن الأوصاف الأول ، وإن كانت ظاهرة في الإنسان (والأصل في الإطلاق ما يتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن ؛ لأن الآيات في بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لا يصلح للألوهية بوجه ما ؛ لما فيه من صفات النقص . وأما الوصف في قوله : ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] ، فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيم في " أعلام الموقعين " ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال في بحث أمثال القرآن ، في هذين المثلين ما صورته :

فالمثل الأول : يعني قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شيء . ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً وليلاً ونهاراً . يمينه ملأى لا يغيضها نفقة ، سحّاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إلي ويعبدونها من دوني ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

(116/442)

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه [رزقاً] حسناً ، فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سراً وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء ؛ لأنه لا خير عنده . فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء ؟ والقول الأول أشبه بالمراد ، فإنه أظهر في بطلان الشرك ، وأوضح عند المخاطب ، وأعظم في إقامة الحجة ، وأقرب نسباً بقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 73 – 74] ، ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد ممن رزقه منه رزقاً حسناً . والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء . فهذا مما ينبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس منبهاً على إرادته ، لا أن الآية اختصت به . فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن . فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره ، فيحكيه قوله .

(117/442)

وأما المثل الثاني ، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضاً . فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق . بل وهو أبكم القلب واللسان ، قد عدم النطق القلبي واللساني ، مع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة . وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة . والله سبحانه حيّ قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . فإن أمره بالعدل ، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له ، راض به آمر لعباده به ، محب لأهله لا يأمر بسواه ، بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل . بل

أمره وشرعه عدل كله . وأهل العدل هم أولياءه وأحباؤه . وهم المجاورون له عند يمينه ، على منابر من نور . وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني . وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه . كما في الحديث الصحيح : < اللهم إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فِيَّ حكمك ، عدل فِيَّ قضاؤك > . فقضاؤه هو أمره الكوني : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان في المقضي المقدر ما هو جور وظلم ، فالقضاء غير المقضي ، والقدر غير المقدر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم ، وهذا نظير قوله رسوله شعيب [كذا في المطبوع ، و هذا القول لهود لا لشعيب] : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] ، وقوله : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ نظير قوله (ناصيتي بيدك) وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ نظير قوله (عدل فِيَّ قضاؤك) فالأول ملكه ، والثاني حمده

. وهو سبحانه له الملك وله الحمد . وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق ، ولا يأمر إلا بالعدل ، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق في أقواله وأفعاله . فلا يقضي على العبد بما يكون ظالماً به ولا يؤخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ، ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة . فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبري : وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يقول : إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكي عن مجاهد من طريق شِبْل بن أبي نَجِيْح عنه : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال : الحق . وكذلك رواه ابن جريج عنه .

وقالت فرقة : هي مثل قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : 14] ، وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقالت فرقة : في الكلام حذف تقديره : إن ربي يحثكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها . فليس كما زعموا ولا دليل

على هذا المقدر . وقد فرّق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم . وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم : أن مَرَدَّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

(119/442)

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شيء تحت قدرته وقهره في ملكه وقبضته ، وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية . وقد فرّق شعيب [الصواب : هود] بين قوله : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود : 56] ، وبين قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] . فهما معنيان مستقلان .

فالقول قول مجاهد . وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه .

وقال جرير يمدح عُمَر بن عبد العزيز :

~أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وقد قال تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : 39] . وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذي هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قوله الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم ما في هذا القول ، وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [77] .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

الآية إما جواب لاستعجالهم ما يوعدون، أو لاستبطائهم الساعة، أو لبيان كماله في العلم والقدرة؛ تعريضاً بأن معبوداتهم عريّة منهما. فأشار إلى الأول بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه، أو غيبهما: هو يوم القيامة، فإن علمه غائب عن أهلهما، لم يطلع عليه أحد منهم، وأشار إلى الثاني بقوله: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ و(الساعة): الوقت الذي تقوم فيه القيامة. و(اللمح): النظر بسرعة. أي: كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) من ذلك، أي: أسرع زماناً، بأن يقع في بعض زمانه. وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لا يخفى. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل له، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لا تتناهى، وأن ما يذكر بعض منها. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [78 - 79].

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ وقوله تعالى : : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أفاده أبو السعود . و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو مفعول (تعلمون) والنفي منصب عليه . أي : لا تعلمون شيئاً أصلاً من حق المنعم وغيره .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ أي : فتدركون به الأصوات : ﴿ وَالأَبْصَارَ ﴾ فتحسون المرئيات : ﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ أي : العقول : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها ، والمشي على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته في خلقه الطير بقوله :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ أي : مذللات : ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ أي : ما يمسكهن في الجو من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل إلا هو سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال الحجة الغزالي في " الحكمة في خلق المخلوقات " ، في حكمة الطير ، في هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران . ولم يخلق فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه ، فقسم لكل عضو منه ما يناسبه . فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك ، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به . فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه . وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغني به عن الريش في الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة ؛ لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء . فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه . فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذ لو طالت رجله وقصر عنقه لم يمكنه الرعي في البراري ولا في البحائر حتى ينكبّ على صدره . وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ؛ ليزداد مطلبه عليه سهولة . ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائره ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يخرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً

يناسب رعيه ويصلح لما يغتذي به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخلب لتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، وما هي في العظم ؛ لكثرة الحاجة إلى استعماله . وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب

(123/442)

في الأجنحة ولأجل كثرة الطيران ، ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه ؛ لكثرة دعاء الحاجة إليه . وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له . وجعل في ريشه من الحكمة ، أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه . فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله ، فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته . وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه ، فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً ، فكان

له بمنزل رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها . وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته .

ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بل مضغ ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية . وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغني به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحب العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً ، وينسحق في أجواف الطير . ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد ، لئلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوق عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة ؟ !

انتهى ملخصاً .

ثم بيّن تعالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيته ، بقوله ، عطفاً على ما مرّ :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ [80]

.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾ أي : موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليه لما لا يحصى من وجوه منافعكم : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً ﴾ أي : بيوتاً أخرى وهي الخيام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها أو الجلود مجاز عن المجموع : ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ أي : تجدونها خفيفة المحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم في مراحلكم . لا يثقل عليكم ضربها . أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً . قيل : والأول أولى ؛ لأن ظهور المنة في خفتها إنما يتحقق في حال السفر . وأما المستوطن فغير متنقل : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ أي : وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز : ﴿ أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتاع ما يتخذه للتجارة . وقيل هما بمعنى . ومعنى (إلى حين) أي : إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويفنى . أو إلى أن تموتوا .

تنبيه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت في الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا في " الإكليل " .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [81] .

(125/442)

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ أي : من الشجر والجبال والأبنية وغيرها : ﴿ ظِلاَلاً ﴾ أي : أفياء تستظلون بها من حر الشمس : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ﴾ أي : بيوتاً ومعاقل وحصوناً تستترون بها : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ جمع سربال ، وهو كل ما يلبس من القطن والصوف ونحوها . وإنما خص الحر ؛ اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أو لأن الوقاية من الحر أهم عند العرب ؛ لشدته بأكثر بلادهم وخصوصاً قُطَّان الحجاز وهم الأصل في هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ [النحل : 5] وهو وجه الاقتصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ كالدروع من الحديد والزرد ونحوها ، التي يتقى بها سلاح العدو في الحرب : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي : إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية ، فتسلموا

وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إما لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل . وقرئ (تسلمون) بفتح اللام أي : من العذاب أو الجراح .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ * وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [82 - 84] .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي : بعد هذا البيان وهذا الامتنان : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

(126/442)

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ أي : التي عددت ، وأنها بخلقه : ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أي : بعبادتهم غير المنعم بها ، وقولهم : هي من الله ، ولكنها بشفاعة آلهتنا : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن شأنهم في معادهم بقوله :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيما

بلغها : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : في الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كقوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35 - 36] ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : لا يطلب منهم العتبى . أي : إزالة عتب ربهم وغضبه . (والعتبى) بالضم : الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضي العاتب . يقال : استعتبه : أعطاه العتبى بالرجوع إلى مسرته . والعتب : لومك الرجل على إساءة كانت له إليك ، والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ؛ ليزيل ما في نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [85 - 86] .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي : يؤخرون .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءهُمْ ﴾ يعني أوثانهم التي عبدوها : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ ﴾ أي : أربابا أو نعبدها : ﴿ فَألْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : أجابوهم بالتكذيب في تسميتهم شركاء وآلهة ؛ تنزيها لله عن الشرك .

أو بالتكذيب في دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام .

وظنوا أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم . فعند هذا تكذبهم بتلك الأصنام . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 5 – 6] ، وقال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : 81 – 82] . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [87] .

﴿ وَأَلْقَوْا ﴾ أي : وألقى الذين ظلموا : ﴿ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ أي : الاستسلام لحكمه بعد إبائهم في الدنيا : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

أي من أن لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : 18] والجواب (كما قال القاشاني) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار في الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس في الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهي ، للاحتجاب بالحجب الغليظة والغواشي المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه ، والاستسلام في الموقف الثاني بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذي كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شراشر النفس في رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لرقة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطفئ نور استعدادهم . والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكثف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [88 - 89] .

(129/442)

﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ أي : يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْه ﴾ [الأنعام : 26] . وفي الآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 38] .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهو نبيهم : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ ﴾ أي : اذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من تمني كونهم تراباً ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك في آية النساء في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 41 - 42] . وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ مستأنف، أو حال بتقدير (قد).

[في المطبوع وقع خطأ في الآية]

قال الرازي: وجه تعلق هذا الكلام بما قبله، أنه تعالى لما قال: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ ﴾ بيّن أنه أزاح علتهم فيما كلفوا. فلا حجة لهم ولا معذرة.

(130/442)

وقال ابن كثير في وجه ذلك: إن المراد، والله أعلم، إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: 6]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: 92 - 93]، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: 109]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص: 85]. أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادّك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن. انتهى.

و(التبيان) من المصادر التي بنيت على هذه الصيغة؛ لتكثير الفعل والمبالغة فيه. أي:

تبييناً لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام ، وما الناس محتاجون إليه في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم : ﴿ وَهُدًى ﴾ أي : هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 408.419 ﴾

(131/442)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) ﴾

يستمر السياق في هذا الدرس في استعراض دلائل الألوهية الواحدة التي يتكئ عليها في هذه السورة : عظمة الخلق ، وفيض النعمة وإحاطة العلم . غير أنه يركز في هذا الشوط على قضية البعث . والساعة أحد أسرار الغيب الذي يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحداً . وموضوعات هذا الدرس تشمل ألواناً من أسرار غيب الله في السماوات والأرض ، وفي الأنفس والآفاق . غيب الساعة . التي لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهي عليه هينة :

﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ . . وغيب الأرحام والله وحده هو الذي يخرج الأجنة من هذا الغيب . لا تعلم شيئاً ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون نعمته . . وغيب أسرار الخلق يعرض منها تسخير الطير في جو السماء ما يمسكهن إلا الله .

يلي هذا في الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهي بجانب تلك الأسرار وفي جوها ، نعم السكن والهدوء والاستظلال . في البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار . وهي كذلك الظلال والأكنان والسرابيل تقي الحر وتقي البأس في الحرب : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ .

ثم تفصيل لأمر البعث في مشاهد يعرض فيها المشركين وشركاءهم ، والرسل شهداء عليهم . والرسول صلى الله عليه وسلم شهيداً على قومه . وبذلك تتم هذه الجولة في جو البعث والقيامة .

﴿ ولله غيب السماوات والأرض . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير ﴾ . .

وقضية البعث إحدى قضايا العقيدة التي لقيت جدلاً شديداً في كل عصر، ومع كل رسول. وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه. ﴿ لله غيب السماوات والأرض ﴾ وإن البشر ليقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين، مهما يبلغ علمهم الأرضي، ومهما تتفتح لهم كنوز الأرض وقواها المذخورة. وإن أعلم العلماء من بني البشر ليقف مكانه لا يدري ماذا سيكون اللحظة التالية في ذات نفسه. أيرتد نفسه الذي خرج أم يذهب فلا يعود! وتذهب الآمال بالإنسان كل مذهب، وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدري متى يفجؤه، وقد يفجؤه اللحظة. وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا، ويخلفوا وراءهم ما بدؤوه يتمه الخلف حتى يأتيهم ما خبئ لهم خلف الستار الرهيب.

والساعة من هذا الغيب المستور. ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة، أو اختلت، ولما سارت الحياة وفق الخط الذي رسمته لها القدرة، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود!

﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾.

. فهي قريب. ولكن في حساب غير حساب البشر المعلوم. وتدبير أمرها لا يحتاج إلى وقت. طرفة عين. فإذا هي حاضرة مهيأة بكل أسبابها ﴿ إن الله على كل شيء قدير

﴿ وبعث هذه الحشود التي يخطئها الحصر والعد من الخلق ، وانتفاضها ، وجمعها ، وحسابها ، وجزاؤها . . كله هين على تلك القدرة التي تقول للشيء : كن . فيكون . إنما يستهول الأمر ويستصعبه من يحسبون بحساب البشر ، وينظرون بعين البشر ، ويقيسون بمقاييس البشر ، ومن هنا يخطئون التصور والتقدير !

ويقرب القرآن الأمر بعرض مثل صغير من حياة البشر ، تعجز عنه قواهم ويعجز عنه تصورهم ، وهو يقع في كل لحظة من ليل أو نهار :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ . .

(133/442)

وهو غيب قريب ، ولكنه موغل بعيد . وأطوار الجنين قد يراها الناس ، ولكنهم لا يعلمون كيف تتم ، لأن سرها هو سر الحياة المكنون . والعلم الذي يدعيه الإنسان ويتطاول به ويريد أن يختبر به أمر الساعة وأمر الغيب ، علم حادث مكسوب : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ ومولد كل عالم وكل باحث ، ومخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً قريب قريب ! وما كسبه بعد ذلك من علم هبة من الله بالقدر الذي أراده للبشر ،

وجعل فيه كفاية حياتهم على هذا الكوكب ، في المحيط المكشوف لهم من هذا الوجود :

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة ﴾ والقرآن يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية ؛ وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل ، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعمل . جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ حين تدركون قيمة النعمة في هذه وفي سواها من آلاء الله عليكم . وأول الشكر : الإيمان بالله الواحد المعبود .

وعجيبة أخرى من آثار القدرة الإلهية يرونها فلا يتدبرونها وهي مشهد عجيب معروض للعيون :

﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ، ما يمسكهن إلا الله . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . .

ومشهد الطير مسخرات في جو السماء مشهد مكرور ، قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب ، وما يتلفت القلب البشري عليه إلا حين يستيقظ ، ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب . وإن تحليقة طائر في جو السماء لتستجيش الحس الشاعر إلى القصيدة حين

تلمسه . فينتفض للمشهد القديم الجديد . . ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ بنواميسه التي أودعها فطرة الطير وفطرة الكون من حولها ، وجعل الطير قادرة على الطيران ، وجعل الجو من حولها مناسباً لهذا الطيران ؛ وأمسك بها الطير لا تسقط وهي في جو السماء : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . . فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدائع الخلق والتكوين ، المدرك لما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر . وهو يعبر عن أحساسه بروعة الخلق ، بالإيمان والعبادة والتسبيح ؛ والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير ، قادرون على إبداع ألوان من رائع القول في بدائع الخلق والتكوين ، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضيء .

ويخطو السياق خطوة أخرى في أسرار الخلق وآثار القدرة ومظاهر النعمة ، يدخل بها إلى بيوت القوم وما يسر لهم فيها وحولها من سكن ومتاع وأكنان وظلال !

﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ؛ وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ . .

والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة . وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب ، وظل السكن

ليس غريباً عن ظل الغيب ، فكلاهما فيه خفاء وستر . والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة .

(135/442)

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت ، بمناسبة هذا التعبير الموحي : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ . . فهكذا يريد الإسلام البيت مكاناً للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري . هكذا يريده مريحاً تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض ، وبسكن من فيه كل إلى الآخر . فليس البيت مكاناً للنزاع والشقاق والخصام ، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام .

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته ، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه . فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد بغير حق باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب ، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة ، فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت ، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق !

ولأن المشهد بيوت وأكنان وسرابيل ، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق

مع مفردات المشهد : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ . وهو هنا كذلك يستعرض من نعمة الأنعام ما يلبي الضرورات وما يلبي الأشواق ، فيذكر المتاع ، إلى جانب الأثاث . والمتاع ولو أنه يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات ، إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح.

ويرق التعبير في جو السكن والطمأنينة ، وهو يشير إلى الظلال والأكنان في الجبال ، وإلى السرابيل تقي في الحر وتقي في الحرب : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ وللنفس في الظلال استرواح وسكن ، ولها في الأكنان طمأنينة ووسن ، ولها في السرابيل التي تقي الحر من الأردية والأغطية راحة وفي السرابيل التي تقي البأس من الدروع وغيرها وقاية .

. وكلها بسبيل من طمأنينة البيوت وأمنها وراحتها وظلها . . ومن ثم يجيء التعقيب : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ والإسلام استسلام وسكن وركون . .

وهكذا تتناسق ظلال المشهد كله على طريقة القرآن في التصوير .

فإن أسلموا فبها . وإن تولوا وشردوا فما على الرسول إلا البلاغ . وليكونن إذا جاحدين منكرين ، بعد ما عرفوا نعمة الله التي لا تقبل النكران !

﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها . وأكثرهم الكافرون ﴾ . .

ثم يعرض ما ينتظر الكافرين عندما تأتي الساعة التي ذكرت في مطلع الحديث :

﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون . وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك . فألقوا إليهم القول : إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ . .

والمشهد يبدأ بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت

الحساب والعقاب. ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ . . ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله. فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون! ﴿ ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ فاليوم يقرون: ﴿ ربنا ﴾ واليوم لا يقولون عن هؤلاء إنهم شركاء لله. إنما يقولون: ﴿ هؤلاء شركاؤنا ﴾ . . ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل، فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد: ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ . . وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب: ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . . وينتهي الموقف بتقرير مضاعفة العذاب للذين كفروا وحملوا غيرهم على الكفر وصدوهم عن سبيل الله: ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ فالكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى، فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقاً.

ذلك شأن عام مع جميع الأقوام. ثم يخصص السياق موقفاً خاصاً للرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه:

﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ . .

(138/442)

وفي ظل المشهد المعروض للمشركين ، والموقف العصيب الذي يكذب الشركاء فيه شركاءهم ، ويستسلمون لله متبرئين من دعوى عبادهم الضالين ، يبرز السياق شأن الرسول مع مشركي قريش يوم يبعث من كل أمة شهيد . فتجيء هذه اللمسة في وقتها وقوتها : ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ . . ثم يذكر أن في الكتاب الذي نزل على الرسول ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ فلا حجة بعده لمحتج ، ولا عذر معه لمعتذر . ﴿ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ . . فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتي اليوم المرهوب ، فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . .

وهكذا تجيء مشاهد القيامة في القرآن لأداء غرض في السياق ، تتناسق مع جوه وتؤديه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2188.2185 ﴾

(139/442)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين تعالى فضل هذا القرآن بما يقطع حجتهم ، وكان قد قدم فضل من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، أخذ يبين اتصاف القرآن ببيان كل شيء ، وتضمنه لذلك الطريق الأقوم ، فقال تعالى جامعاً لما يتصل بالتكاليف فرضاً ونفلاً ، وما يتصل بالأخلاق والآداب عموماً وخصوصاً : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك المستجمع لصفات الكمال ﴿ يأمر بالعدل ﴾ وهو الإنصاف الذي لا يقبل عمل يدونه ، وأول درجاته التوحيد الذي بنيت السورة عليه ، والعدل يعتبر تارة في المعنى فيراد به هيئة في الإنسان تطلب بها المساواة ، وتارة في العقل فيراد به التقسيط القائم على الاستواء ، وتارة يقال : هو الفضل كله من حيث إنه لا يخرج شيء من الفضائل عنه ، وتارة يقال : هو أكمل الفضائل من حيث إن صاحبه يقدر على

استعماله في نفسه وفي غيره ، وهو ميزان الله المبرأ من كل زلة وبه يستتب أمر العالم ، وبه قامت السماوات والأرض ، وهو وسط كل أطرافه جور ، وبالجملة الشرع مجمع العدل ، وبه تعرف حقائقه ، ومن استقام على نهج الحق فقد استتب على منهج العدل – ذكره الرازي في اللوامع وفيه تلخيص ، وفي آخر الجزء الخامس عشر من الثقفيات أن عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنهم ـ قال لمحمد بن كعب القرظي ـ رضى الله عنهم ـ : صف لي العدل ، فقال : كن لصغير الناس أباً ، ولكبيرهم ابناً ، وللمثل أخاً ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم ، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتعدّى فتكون من العادين انتهى .

(140/442)

﴿ والإحسان ﴾ وهو فعل الطاعة على أعلى الوجوه ، فالعدل فرض ، والإحسان فضل ، وهو مجاوزة النصفة إلى التحامل على النفس ، لأنه ربما وقع في الفرض نقص فجبر بالنفل ، وهو في التوحيد الارتقاء عن أول الدرجات ، ومن أعلاه الغنى عن الأكوان ، وتكون الأكوان في غيبتها عند انبساط نور الحق كالنجوم في انطماسها عند انتشار نور الشمس ، وغايته الفناء حتى عن هذا الغنى ، وشهود الله وحده ، وهو التوحيد على الحقيقة كما في

حديث أبي هريرة -رضى الله عنهم- المتفق عليه " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وهو روح الإنسانية ، ففي الجزء الثامن من الثقفيات عن عاصم بن كليب الجرمي قال : : " حدثني أبي كليب أنه شهد مع أبيه جنازة شهدها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : وأنا غلام أعقل وأفهم ، قال : فانتهى بالجنازة إلى القبر ولما يمكن لها فجعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقولسوّ ذا أو خذ ذا ! قال : حتى ظن الناس أنها سنة ، فالتفت إليهم فقال : أن هذا لا ينفع الميت ولا يضره ، ولكن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل أن يحسن "

﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ فإنه من الإحسان ، وهو أولى الناس بالبر ، وذلك جامع للاحسان في صلة الرحم .

ولما أمر بالمكارم ، نهى عن المساوىء والملائم فقال تعالى : ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ وهي ما اشتد تقصيره عن العدل فكان ضد الإحسان ﴿ والمنكر ﴾ وهو ما قصر عن العدل في الجملة ﴿ والبغي ﴾ وهو الاستعلاء على الغير ظلماً ، وقال البيضاوي في سورة الشورى : هو طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتجزأ كمية أو كيفية .

وهو من المنكر ، صرح به اهتماماً ، وهو أخو قطيعة الرحم ومشارك لها في تعجيل العقوبة " ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم " رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي بكرة . رضى الله عنهم . ورفعه ، وأصل البغي الإدارة ، كأنه صار بفهم هذا المعنى المحظور - المحذور عند حذف مفعوله ، لأن الإنسان - لكونه مجبولاً على النقصان - لا يكاد يصلح منه إرادة ، فعليه أن يكون مسلوب الاختيار ، مع الملك الجبار ، الواحد القهار ، فتكون إرادته تابعة لإرادته ، واختياره من وراء طاعته ، وعن الحسن أن الخلقين الأولين ما تركا طاعة إلا جمعاها والأخيرين ما تركا معصية إلا جمعاها .

ولما دعا هذا الكلام على وجازته إلى أمهات الفضائل لي هي العلم والعدل والعفة والشجاعة ، وزاد من الحسن ما شاء ، فإن الإحسان من ثمرات العفة ، والنهي عن البغي الذي هو من ثمرات الشجاعة المذمومة إذن فيما سواه منها ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالعلم وكان هذا أبلغ وعظ ، نبه عليه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ يعظكم ﴾ أي يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة ثلاثة ومجانبة ثلاثة ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى تذكره ، لما في ذلك من المعالي بما وهب الله من العقل ، الداعي إلى كل خير ، الناهي عن كل ضير ، فإن كل أحد من طفل وغيره يكره أن يفعل معه شيء من هذه المنهيات ، فمن كان له عقل واعتبر بعقله علم أن غيره يكره منه ما يكره هو منه ، ويعلم أنه

إن لم يكف عن فعل ما يكره أخوه وقع التشاجر ، فيحصل الفساد المؤدي إلى خراب الأرض ، هذا في الفعل مع أمثاله من المخلوقين ، فكيف بالخالق بأن يصفه بما لا يليق به سبحانه ، وعز اسمه ، وتعالى جده ، وعظم أمره ! .

ولما تقررت هذه الجمل التي جمعت – بجمعها للمأمورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر والصدور ، وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب أنها بلغت قاموس البحر وتعالت عن طوق البشر ، عطف على ما أفهمه السياق – من نحو : فتذكروا أو فالزموا ما أمرتم به ونابذوا ما نهيتم عنه – بعض ما أجملته ، وبدأ بما هو مع جمعه أهم وهو الوفاء بالعهد الذي يفهم منه العلماء بالله ما دل عليه العقل من الحجج القاطعة بالتوحيد وصدق الرسل ووجوب اتباعهم ، فكانت أعظم العهود ، ويفهم منه غيرهم ما يتعارفونه مما يجري بينهم من المواثيق ، فإذا ساروا فيها بما أمر سبحانه وتحروا رضاه علماً منهم بأنه العدل ، قادهم ذلك إلى رتبة الأولين فقال تعالى : ﴿ وأوفوا ﴾ أي أوقعوا الوفاء الذي لا وفاء في الحقيقة غيره ﴿ بعهد الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي عاهدكم عليه بأدلة العقل والنقل من التوحيد وغيره من أصول الدين وفروعه

﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ [الرعد : 20] ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ [البقرة : 27] ﴿ إذا عاهدتم ﴾ بتقبلكم له بإذعانكم لأمثاله من الأدلة فيما عرف من عوائدكم ، وصرحتم به عند شدائدكم ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ ثم عطف عليه ما هو من جنسه وأخص منه فقال تعالى : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى : ﴿ بعد توكيدها ﴾ وحذف الجار لأن المنهي عنه إنما هو استغراق زمان البعد بالنقض ، وذلك لا يكون إلا بالكذب الشامل له كله ، بعضه بالقوة وبعضه بالفعل ، ولعله جمع إشارة إلى أن المذموم استهانتها من غير توقف على كفارة ، لأن من فعل ذلك ولو في واحدة كان فاعلاً ذلك في الجميع ، بخلاف من ينقض ما نقضه خير بالكفارة فإنه ناقض للبعض لا للكل ، لأنه دائر مع الخير والأول دائر مع الهوى ؛ ثم حذرهم من النقض بأنه مطلع قادر ، فقال تعالى مقبحاً حالهم إذ ذاك : ﴿ وقد جعلتم الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها ﴿ عليكم كفيلاً ﴾ أي شاهداً ورقيباً .

ولما كان من شأن الرقيب حفظ أحوال من يراقبه ، قال تعالى مرغباً مرهباً : ﴿ إن الله ﴾

أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ يعلم ما تفعلون ﴾ فلم تفعلوا شيئاً إلا بمشيئته وقدرته ، فكانت كفالته مجعولة بهذا الاعتبار وإن لم يصرح بالجعل ، فمتى نقضتم فعل بكم فعل الكفيل القادر بالمكفول المماطل من أحد الحق والعقوبة .

(144/442)

ولما أمر بالوفاء ونهى عن النقض ، شرع في تأكيد وجوب الوفاء وتحريم النقض وتقبيحه تنفيراً منه فقال تعالى : ﴿ ولا تكونوا ﴾ أي في نقضكم لهذا الأمر المعنوي ﴿ كالتي نقضت غزلها ﴾ ولما كان النقض لم يستغرق زمان البعد ، قال تعالى : ﴿ من بعد قوة ﴾ عظيمة حصلت له ﴿ أنكاثاً ﴾ أي أنقاضاً ، جمع نكث وهو كل شيء نقض بعد الفتل سواء كان حبلاً أو غزلاً ، فهو مصدر مجموع من نقضت لأنه بمعنى نكثت ، قال في القاموس : النكث - بالكسر أن تنقض أخلاق الأكسية لتغزل ثانية .

فيكون مثل جلست قعوداً ، أي فتكونوا بفعلكم ذلك كهذه المرأة التي ضربتم المثل بها في الخرق مع ادعائكم أنه يضرب بأدناكم المثل في العقل ، ثم وصل بذلك ما يعرف أنهم أسفه من تلك المرأة بسبب أن ضررها لا يتعداها ، وأما الضرر بفعلهم فإنه مفسد لذات البين فقال تعالى : ﴿ تتخذون ﴾ أي بتكليف الفطرة الأولى ضد ما تدعو إليه من الوفاء

﴿ أيمانكم دخلاً ﴾ أي فيضمحل كونها أيماناً إلى كونها ذريعة إلى الفساد بالخداع والغرور ﴿ بينكم ﴾ من حيث إن المحلوف له يطمئن فيفجأه الضرر ، ولو كان على حذر لما نيل منه ولا جسر عليه ، وكل ما أدخل في الشيء على فساد فهو دخل ﴿ إن ﴾ أي تفعلون ذلك بسبب أن ﴿ تكون أمة ﴾ أي وهي الخادعة أو المخدوعة لأجل سلامتها ﴿ هي ﴾ أي خاصة ﴿ أربى ﴾ أي أزيد وأعلى ﴿ من أمة ﴾ في القوة أو العدد ، فإذا وجدت نفاداً لزيادتها غدرت .

(145/442)

ولما عظم عليهم النقض ، وبين أن من أسبابه الزيادة ، حذرهم غوائل البطر فقال تعالى :

﴿ إنما يبلوكم ﴾ أي يختبركم ﴿ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ به ﴾ أي يعاملكم معاملة المختبر بالأيمان والزيادة ليظهر للناس تمسككم بالوفاء أو انخلاعكم منه اعتماداً على كثرة أنصاركم وقلة أنصار من نقضتم عهده من المؤمنين " أو غيرهم " مع قدرته سبحانه على ما يريد ، فيوشك أن يعاقب بالمخالفة فيضعف القوي ويقلل الكثير ﴿ وليبينن لكم ﴾ أي إذا تجلى لفصل القضاء ﴿ يوم القيامة ﴾ مع هذا كله ﴿ ما كنتم ﴾ أي بجبلاتكم ﴿ فيه تختلفون ﴾ فاحذروا يوم العرض على ملك الملوك بحضرة الرؤساء والملوك وجميع

المعبودات والكل بحضرته الشماء داخرون ، ولديه صاغرون ، ومن نوقش الحساب يهلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 303.307 ﴾

(146/442)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

واعلم أنه تعالى لما استقصى في شرح الوعد والوعيد والترغيب والترهيب أتبعه بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ فجمع في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضاً ونفلاً ، وما يتصل بالأخلاق والآداب عموماً وخصوصاً ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(147/442)

في بيان فضائل هذه الآية روي عن ابن عباس أن عثمان بن مظعون الجمحي قال : ما أسلمت أولاً إلا حياء من محمد عليه السلام ولم يتقرر الإسلام في قلبي فحضرته ذات يوم فبينما هو يحدثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء ثم خفضه عن يمينه ، ثم عاد لمثل ذلك فسألته فقال : " بينما أنا أحدثك إذا بجبريل نزل عن يميني فقال : يا محمد إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان القيام بالفرائض وإيتاء ذي القربى ، أي صلة ذي القرابة وينهى عن الفحشاء الزنا ، والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة والبغي الاستطالة" قال عثمان : فوقع الإيمان في قلبي فأتيت أبا طالب فأخبرته فقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ولئن كان صادقاً أو كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمه اللين قال : يا عماه أتأمر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك وجهد عليه ، فأبى أن يسلم فنزل قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : 56] وعن ابن مسعود رضي الله عنه : إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية ، وعن قتادة ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعمل ويستحب إلا أمر الله تعالى به في هذه الآية وليس من خلق سيء إلا نهى الله عنه في هذه الآية ، وروى القاضي في "تفسيره" عن ابن ماجه عن علي عليه السلام أنه قال : أمر الله تعالى نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، فخرج وأنا معه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر : ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فإن قريشاً كذبوه فقال مقرون بن عمرو : إلام تدعونا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ الآية فقال مقرون بن عمرو : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ، وعن

عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على الوليد فاستعاده ، ثم قال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته "

والله أعلم .

المسألة الثانية :

في تفسير هذه الآية ، أكثر الناس في تفسير هذه الآية قال ابن عباس في بعض الروايات العدل شهادة أن لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض وقال في رواية أخرى : العدل خلع الأنداد والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فإن كان مؤمناً أحببت

أن يزداد إيماناً ، وإن كان كافراً أحببت أن يصير أخاك في الإسلام .

وقال في رواية ثالثة : العدل هو التوحيد والإحسان الإخلاص فيه .

وقال آخرون : يعني بالعدل في الأفعال والإحسان في الأقوال ، فلا تفعل إلا ما هو عدل ولا تقل إلا ما هو إحسان وقوله : ﴿ وَإِيتَآئِ ذِى القربى ﴾ يريد صلة الرحم بالمال فإن لم يكن فبالدعاء ، روى أبو مسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم إن أهل البيت ليكونوا فجاراً فتنمى أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم " وقوله : ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ قيل : الزنا ، وقيل : البخل ، وقيل : كل الذنوب سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، وسواء كانت في القول أو في الفعل ، وأما المنكر فقيل : إنه الكفر بالله تعالى ، وقيل : المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ، وأما البغي فقيل : الكبر والظلم ، وقيل : أن تبغي على أخيك .

واعلم أن في المأمورات كثرة وفي المنهيات أيضاً كثرة ، وإنما حسن تفسير لفظ معين لشيء معين إذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة .

أما إذا لم تحصل هذه الحالة كان ذلك التفسير فاسداً ، فإذا فسرنا العدل بشيء والإحسان بشيء آخر وجب أن نبين أن لفظ العدل يناسب ذلك المعنى ، ولفظ الإحسان يناسب هذا المعنى ، فلما لم نبين هذا المعنى كان ذلك مجرد التحكم ، ولم يكن جعل بعض تلك المعنى تفسيراً لبعض تلك الألفاظ أولى من العكس ، فثبت أن هذه الوجوه التي ذكرناها ليست قوية في تفسير هذه الآية ، وأقول ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى أمر بثلاثة أشياء ، وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن ثلاثة أشياء هي : الفحشاء ، والمنكر ، والبغي فوجب أن يكون العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ثلاثة أشياء متغايرة ووجب أن تكون الفحشاء والمنكر والبغي ثلاثة أشياء متغايرة ، لأن العطف يوجب المغايرة فنقول : أما العدل فهو عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، وذلك أمر واجب الرعاية في جميع الأشياء ، ولا بد من تفصيل القول فيه فنقول : الأحوال التي وقع التكليف بها إما الاعتقادات وإما أعمال الجوارح.

أما الاعتقادات : فالعدل في كلها واجب الرعاية فأحدها : قال ابن عباس : إن المراد بالعدل هو قول لا إله إلا الله ، وتحقيق القول فيه أن نفي الإله تعطيل محض وإثبات أكثر من إله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان ، والعدل هو إثبات الإله الواحد وهو قول لا إله إلا الله.

وثانيها : أن القول بأن الإله ليس بموجود ولا شيء تعطيل محض ، والقول بأنه جسم وجوهر

مركب من الأعضاء ، ومختص بالمكان تشبيه محض ، والعدل إثبات إله موجود متحقق بشرط أن يكون منزهاً عن الجسمية والجوهرية والأعضاء والأجزاء والمكان ، وثالثها : أن القول بأن الإله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض ، والقول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض .

والعدل هو إثبات أن الإله عالم قادر حي مع الإعتراف بأن صفاته ليست حادثة ولا متغيرة .

(150/442)

ورابعها : أن القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض ، والقول بأن العبد مستقل بأفعاله قدر محض وهما مذمومان ، والعدل أن يقال : إن العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه ، وخامسها : القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شيء من الذنوب مساهلة عظيمة ، والقول بأنه تعالى يخلد في النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم ، والعدل أنه يخرج من النار كل من قال واعتقد أنه لا إله إلا الله ، فهذه أمثلة ذكرناها في رعاية معنى العدل في الاعتقادات ، وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح ، فنذكر ستة أمثلة منها : أحدها : أن قوماً من نفاة التكاليف يقولون : لا

يجب على العبد الاشتغال بشيء من الطاعات ولا يجب عليه الاحتراز عن شيء من المعاصي ، وليس لله عليه تكليف أصلاً وقال قوم من الهند ؛ ومن المانوية إنه يجب على الإنسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ في تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه حتى أن المانوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزوج ويحترزون عن أكل الطعام الطيب والهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل ، فهذان الطريقان مذمومان ، والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم .

وثانيها : أن التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جداً ، والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جداً والوسط العدل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل : كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة ، وفي شرع عيسى عليه السلام العفو .

أما في شرعنا فإن شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة ، وإن شاء استوفى الدية وإن شاء عفا ، وأيضاً شرع موسى يقتضي الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسى يقتضي حل وطء الحائض ، والعدل ما حكم به شرعنا وهو أنه يحرم وطؤها احترازاً عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة أما لا يجب إخراجها عن الدار .

وثالثها : أنه تعالى قال :

﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾

[البقرة : 143] يعني متباعدين عن طرفي الإفراط والتفريط في كل الأمور ، وقال :

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ [الفرقان : 67] وقال :

﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ [الإسراء : 29] ولما بالغ

رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات قال تعالى : ﴿ طه * مَا أنزلنا عَلَيْكَ القرءان

لتشقى ﴾ [طه : 1 ، 2] ولما أخذ قوم في المساهلة قال : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم

عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] والمراد من الكل رعاية العدل والوسط .

ورابعها : أن شريعتنا أمرت بالختان ، والحكمة فيه أن رأس العضو جسم شديد الحس ولأجله عظم الالتذاذ عند الوقاع ، فلو بقيت الجلدة على ذلك العضو بقي ذلك العضو على كمال القوة وشدة الإحساس فيعظم الإلتذاذ أما إذا قطعت تلك الجلدة وبقي ذلك العضو عارياً فيلقى الثياب وسائر الأجسام فيتصلب ويضعف حسه ويقل شعوره فيقل الالتذاذ

بالوقاع فتقل الرغبة فيه ، فكأن الشريعة إنما أمرت بالختان سعياً في تقليل تلك اللذة ، حتى يصير ميل الإنسان إلى قضاء شهوة الجماع إلى حد الاعتدال ، وأن لا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع ، فالإخصاء وقطع الآلات على ما تذهب إليه المانوية مذموم لأنه إفراط ، وإبقاء تلك الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة ، والعدل الوسط هو الإتيان بالختان ، فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجب الرعاية في جميع الأحوال ، ومن الكلمات المشهورة قولهم : وبالعدل قامت السموات والأرض ، ومعناه : أن مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة ، بل كان بعضها أزيد بحسب الكمية وبحسب الكيفية من الآخر ، لاستولى الغالب على المغلوب ووهى المغلوب ، وتنقلب الطبائع كلها إلى طبيعة الجرم الغالب ، ولو كان بعد الشمس من الأرض أقل مما هو الآن ، لعظمت السخونة في هذا العالم واحترق كل ما في هذا العالم ، ولو كان بعدها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم ، وكذا القول في مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها ، فإن الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن أو كان أنقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم فظهر بهذا السبب الذي ذكرناه صدق قولهم : وبالعدل قامت السماوات والأرض ، فهذه إشارة مختصرة إلى شرح حقيقة العدل .

وأما الإحسان فاعلم أن الزيادة على العدل قد تكون إحساناً وقد تكون إساءة مثاله : أن العدل في الطاعات هو أداء الواجبات أما الزيادة على الواجبات فهي أيضاً طاعات وذلك من باب الإحسان ، وبالجملة فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الإحسان .

والدليل عليه : أن جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان قال : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

فإن قالوا : لم سمي هذا المعنى بالإحسان ؟

قلنا : كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن إلى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن إلى نفسه ، والحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات ، والإحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية ، وبحسب الدواعي والصوارف ، وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية ، فهذا هو الإحسان .

واعلم أن الإحسان بالتفسير الذي ذكرناه دخل فيه التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، ومن الظاهر أن الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة وأشرفها وأجلها صلة الرحم لا جرم أنه سبحانه أفرده بالذكر فقال : ﴿ وَإِيتَآءِ ذِى القربى ﴾ فهذا تفصيل القول في هذه الثلاثة التي أمر الله تعالى بها .

وأما الثلاثة التي نهى الله عنها ، وهي الفحشاء والمنكر والبغي فنقول : إنه تعالى أودع في

النفس البشرية قوى أربعة ، وهي الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية وهذه القوة الرابعة أعني العقلية الملكية لا يحتاج الإنسان إلى تأديبها وتهذيبها ، لأنها من جواهر الملائكة ، ومن نتائج الأرواح القدسية العلوية ، إنما المحتاج إلى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاثة الأولى .

أما القوة الشهوانية ، فهي إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية ، وهذا النوع مخصوص باسم الفحش ، ألا ترى أنه تعالى سمى الزنا فاحشة فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [النساء : 22] فقوله تعالى : ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة ، وأما القوة الغضبية السبعية فهي : أبداً تسعى في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس ، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة ، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية .

وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبداً تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدم ، وذلك هو المراد من البغي ، فإنه لا معنى للبغي إلا التطاول على الناس والترفع عليهم ، فظهر بما ذكرنا أن هذه الألفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى

الثلاثة ، ومن العجائب في هذا الباب أن العقلاء قالوا : أخس هذه القوى الثلاثة هي الشهوانية ، وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية .

والله تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التي هي نتيجة القوة الشهوانية ، ثم بالمنكر الذي هو نتيجة القوة الغضبية ، ثم بالبغي الذي هو نتيجة القوة الوهمية ، فهذا ما وصل إليه عقلي وخاطري في تفسير هذه الألفاظ ، فإن يك صواباً فمن الرحمن ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله عنه بريئان والحمد لله على ما خصنا بهذا النوع من الفضل والإحسان إنه الملك الديان .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ والمراد بقوله تعالى : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أمره تعالى بتلك الثلاثة ونهيه عن هذه الثلاثة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لّكُلّ شَىْء ﴾

[النحل : 89] أردفه بهذه الآية مشتملة على الأمر بهذه الثلاثة ، والنهي عن هذه الثلاثة ، كان ذلك تنبيهاً على أن المراد بكون القرآن تبياناً لكل شيء هو هذه التكاليف الستة

وهي في الحقيقة كذلك ، لأن جوهر النفس من زمرة الملائكة ومن نتائج الأرواح العالية القدسية إلا أنه دخل في هذا العالم خالياً عارياً عن التعلقات فتلك الثلاثة التي أمر الله بها هي التي ترقيها بالمعارف الإلهية والأعمال الصالحة ، وتلك المعارف والأعمال هي التي ترقيها إلى عالم الغيب وسرادقات القدس ، ومجاورة الملائكة المقربين في جوار رب العالمين ، وتلك الثلاثة التي نهى الله عنها هي التي تصدها عن تلك السعادات وتمنعها عن الفوز بتلك الخيرات ، فلما أمر الله تعالى بتلك الثلاثة ، ونهى عن هذه الثلاثة فقد نبه على كل ما يحتاج إليه المسافرون من عالم الدنيا إلى مبدأ عرصة القيامة .

المسألة الثانية :

قال الكعبي : الآية تدل على أنه تعالى لا يخلق الجور والفحشاء ، وذلك من وجوه : الأول : أنه تعالى كيف ينهاهم عما يخترعه فيهم ، وكيف ينهى عما يريد تحصيله فيهم ولو كان الأمر كما قالوا لكان كأنه تعالى قال : إن الله يأمركم أن تفعلوا خلاف ما خلقه فيكم وينهاكم عن أفعال خلقها فيكم ، ومعلوم أن ذلك باطل في بديهة العقل .

والثاني : أنه تعالى لما أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، فلو أنه تعالى أمر بتلك الثلاثة ثم إنه ما فعلها لدخل تحت قوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 44] .

وتحت قوله : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون* كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [

الصف : 2 ، 3] الثالث : أن قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ليس المراد منه الترجي والتمني ، فإن ذلك محال على الله تعالى ، فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تتذكروا طاعته ، وذلك يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل .

(156/442)

الرابع : أنه تعالى لو صرح وقال : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ولكنه تمنع منه ويصد عنه ولا يمكن العبد منه .

ثم قال : ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ ولكنه يوجد كل هذه الثلاثة في العبد شاء أم أبى وأراده منه ومنعه من تركه ، ومن الاحتراز عنه لحكم كل أحد عليه بالركاكة وفساد النظم والتركيب ، وذلك يدل على كونه سبحانه متعالياً عن فعل القبائح .

واعلم أن هذا النوع من الاستدلال كثير ، وقد مر الجواب عنه والمعتمد في دفع هذه المشاغبات التعويل على سؤال الداعي وسؤال العلم ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

اتفق المتكلمون من أهل السنة ومن المعتزلة على أن تذكر الأشياء من فعل الله لا من فعل العبد ، والدليل عليه هو أن التذكرة عبارة عن طلب المتذكر فحال الطلب إما أن يكون له به

شعور أو لا يكون له به شعور .

فإن كان له شعور فذلك الذكر حاصل ، والحاصل لا يطلب تحصيله .

وإن لم يكن له به شعور فكيف يطلبه بعينه ، لأن توجيه الطلب إليه بعينه حال ما لا يكون هو بعينه متصوراً محال .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ معناه أن المقصود من هذا الوعظ أن يقدموا على تحصيل ذلك التذكر ، فإذا لم يكن التذكر فعلاً له فكيف طلب منه تحصيله ، وهذا هو الذي يحتج به أصحابنا على أن قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لا يدل على أنه تعالى يريد منه ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما جمع كل المأمورات والمنهيات في الآية الأولى على سبيل الإجمال ، ذكر في هذه الآية بعض تلك الأقسام ، فبدأ تعالى بالأمر بالوفاء بالعهد وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في تفسير قوله : ﴿ بِعَهْدِ الله ﴾ وجوهاً : الأول : قال صاحب "الكشاف" : عهد الله هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام لقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] أي ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توكيدها ، أي بعد توثيقها باسم الله .

الثاني : أن المراد منه كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره قال ابن عباس : والوعد من العهد ، وقال ميمون بن مهران من عاهدته وف بعهده مسلماً كان أو كافراً فإنما العهد لله تعالى .

الثالث : قال الأصم : المراد منه الجهاد وما فرض الله في الأموال من حق .

الرابع : عهد الله هو اليمين بالله ، وقال هذا القائل : إنما يجب الوفاء باليمين إذا لم يكن الصلاح في خلافه ، لأنه عليه السلام قال : " من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ثم ليكفر " الخامس : قال القاضي : العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، ومعلوم أن أدلة العقل والسمع أوكد في لزوم الوفاء بما يدلان على وجوبه من اليمين ولذلك لا يصح في هذين الدليلين التغير والاختلاف ، ويصح ذلك في اليمين وربما ندب فيه خلاف الوفاء .

ولقائل أن يقول : إنه تعالى قال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عاهدتم ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصاً بالعهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله : ﴿ إِذَا عاهدتم ﴾ يدل على هذا المعنى وحينئذ لا يبقى المعنى الذي ذكره القاضي معتبراً ولأنه تعالى قال في آخر الآية : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ وهذا يدل على أن الآية واردة فيمن آمن بالله والرسول ، وأيضاً يجب أن لا يحمل هذا العهد على اليمين ، لأنا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ تكراراً لأن الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان ، لأن الأمر بالفعل يستلزم النهي عن الترك إلا إذا قيل إن الوفاء بالعهد عام فدخل تحته اليمين ، ثم إنه تعالى خص اليمين بالذر تنبيهاً على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية ، وعند هذا نقول الأولى أن يحمل هذا العهد على ما يلتزمه الإنسان باختياره ويدخل فيه المبايعة على الإيمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد ، وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات ، والأشياء التي أكدها بالحلف واليمين ، وفي قوله : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ مباحث :

البحث الأول : قال الزجاج : يقال وكدت وأكدت لغتان جيدتان ، والأصل الواو ، والهمزة بدل منها .

البحث الثاني : قال أصحاب أبي حنيفة رحمه الله : يمين اللغو هي يمين الغموس ، والدليل عليه أنه تعالى قال : ﴿ ولا تَنقُضُوا الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ فنهى في هذه الآية عن نقض

الأيمان ، فوجب أن يكون كل يمين قابلاً للبر والحنث ، ويمين الغموس غير قابلة للبر والحنث فوجب أن لا تكون من الأيمان .

واحتج الواحدي بهذه الآية على أن يمين اللغو هي قول العرب لا والله وبلى والله .

قال إنما قال تعالى : ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم وبالعقد وبين لغو اليمين .

(159/442)

البحث الثالث : قوله : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ عام دخله التخصيص ، لأنا بينا أن الخبر دل على أنه متى كان الصلاح في نقض الأيمان جاز نقضها .

ثم قال : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ هذه واو الحال ، أي لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلاً عليكم بالوفاء ، وذلك أن من حلف بالله تعالى فكأنه قد جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب ذلك الحلف .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وفيه ترغيب وترهيب ، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم إنه تعالى أكد وجوب الوفاء ، وتحريم النقض وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كالتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا

مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أنكاثا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في المشبه به قولان :

القول الأول : أنها امرأة من قريش يقال لها رايطة ، وقيل ريطة ، وقيل تلقب جعراء وكانت حمقاء تغزل الغزل هي وجواريها فإذا غزلت وأبرمت أمرتهن فنقضن ما غزلن .

والقول الثاني : أن المراد بالمثل الوصف دون التعين ، لأن القصد بالأمثال صرف المكلف عنه إذا كان قبيحاً ، والدعاء إليه إذا كان حسناً ، وذلك يتم به من دون التعيين .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أي من به قوة الغزل بإبرامها وفتلها .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أنكاثا ﴾ قال الأزهري : واحدها : نكث وهو الغزل من الصوف والشعر يبرم وينسج فإذا أحكمت النسيجة قطعتها ونكثت خيوطها المبرمة ونفشت تلك الخيوط وخلطت بالصوف ثم غزلت ثانية ، والنكث المصدر ، ومنه يقال نكث فلان عهده إذا نقضه بعد إحكامه كما ينكث خيط الصوف بعد إبرامه .

المسألة الرابعة :

في انتصاب قوله : ﴿ أنكاثا ﴾ وجوه : الأول : قال الزجاج : أنكاثاً منصوب لأنه بمعنى المصدر لأن معنى نكثت نقضت ومعنى نقضت نكثت ، وهذا غلط منه ، لأن الأنكاث جمع نكث وهو اسم لا مصدر فكيف يكون قوله : ﴿ أنكاثا ﴾ بمعنى المصدر ؟ الثاني : قال الواحدي : أنكاثاً مفعول ثان كما تقول كسره أقطاعاً وفرقه أجزاء على معنى جعله أقطاعاً وأجزاء فكذا ههنا قوله : نقضت غزلها أنكاثاً أي جعلت غزلها أنكاثاً .

الثالث : إن قوله : ﴿ أنكاثا ﴾ حال مؤكدة .

المسألة الخامسة :

قال ابن قتيبة : هذه الآية متصلة بما قبلها ، والتقدير : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل المرأة التي غزلت غزلاً وأحكمته فلما استحكم نقضته فجعلته أنكاثاً .

ثم قال تعالى : ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ قال الواحدي : الدخل والدغل الغش والخيانة .

قال الزجاج : كل ما دخله عيب قيل هو مدخول وفيه دخل ، وقال غيره : الدخل ما أدخل في الشيء على فساد .

ثم قال : ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أربى أي أكثر من ربا الشيء يربو إذا زاد ،

وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف .

قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك .

وقوله : ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ معناه أنكم تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم بسبب أن تكون أمة أربى من أمة في العدد والقوة والشرف .

فقوله : ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار ، والمعنى : أتتخذون أيمانكم دخلاً بينكم بسبب أن أمة أزيد في القوة والكثرة من أمة أخرى .

(161/442)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ ﴾ أي بما يأمركم وينهاكم ، وقد تقدم ذكر الأمر والنهي : ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيتميز المحق من المبطل بما يظهر من درجات الثواب والعقاب ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 88.81 ﴾

(162/442)

وقال الجصاص :

قَوْله تعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

أَمَّا الْعَدْلُ فَهُوَ الْإِنْصَافُ ، وَهُوَ وَاجِبٌ فِي نَظَرِ الْعُقُولِ قَبْلَ وُرُودِ السَّمْعِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَ السَّمْعُ بِتَأْكِيدِ وُجُوبِهِ .

وَالْإِحْسَانُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ التَّفَضُّلُ ، وَهُوَ نَدْبٌ وَالْأَوَّلُ فَرْضٌ وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى فِيهِ الْأَمْرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ وقَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قَدْ انْتَظَمَ الْعَدْلَ فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ فَأَمَرَ بِالْعَدْلِ فِي الْقَوْلِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَنْتَظِمُ الْأَمْرَيْنِ .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ فَإِنَّهُ قَدْ انْتَظَمَ سَائِرَ الْقَبَائِحِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالضَّمَائِرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا .

وَالْفَحْشَاءُ قَدْ تَكُونُ بِمَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ مِمَّا لَا يَظْهَرُ أَمْرُهُ وَهُوَ مِمَّا يَعْظُمُ قُبْحُهُ ، وَقَدْ تَكُونُ مِمَّا يَظْهَرُ مِنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَدْ تَكُونُ لِسُوءِ الْعَقِيدَةِ وَالنِّحَلِ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْبَخِيلَ فَاحِشًا .

وَالْمُنْكَرُ مَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مِمَّا يَجِبُ إنْكَارُهُ ، وَيَكُونُ أَيْضًا فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَالضَّمَائِرِ وَهُوَ مَا

تَسْتَنْكِرُهُ الْعُقُولُ وَتَأْبَاهُ وَالْبَغْيُ مَا يَتَطَاوَلُ بِهِ مِنْ الظُّلْمِ لِغَيْرِهِ .

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ لَهُ فِي نَفْسِهِ مَعَانٍ خَاصَّةٌ تَنْفَصِلُ بِهَا مِنْ غَيْرِهِ .

(163/442)

الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْعَهْدُ يَنْصَرِفُ عَلَى وُجُوهٍ : فَمِنْهَا الْأَمْرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ وَالْمُرَادُ الْأَمْرُ .

وَقَدْ يَكُونُ الْعَهْدُ يَمِينًا ، وَدَلَالَةُ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْيَمِينُ ظَاهِرَةٌ .

لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : إنَّ مَنْ قَالَ : " عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ إنْ فَعَلْت كَذَا " أَنَّهُ حَالِفٌ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ حِينَ أَخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ وَأَبَاهُ فَأَخَذُوا مِنْهُ عَهْدَ اللَّهِ أَنْ لَا يُقَاتِلُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا قَدِمَا الْمَدِينَةَ ذَكَرَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ﴿ نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ وَعَامِرٍ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَمُجَاهِدٍ : " إذَا قَالَ : عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ إنْ فَعَلْت كَذَا فَهُوَ يَمِينٌ " .

(164/442)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ عَقَدَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا لِلَّهِ تَعَالَى فِيهِ قُرْبَةٌ ثُمَّ فَسَخَهُ وَلَمْ يُتِمَّهُ بِالْمَرْأَةِ الَّتِي تَغْزِلُ شَعْرًا أَوْ مَا أَشْبَهَهُ ثُمَّ نَقَضَتْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ فَتَلَتْهُ فَتْلًا شَدِيدًا ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْفَتْلَ قُوَّةً ، فَمَنْ عَقَدَ عَلَى نَفْسِهِ عَقْدًا أَوْ أَوْجَبَ قُرْبَةً أَوْ دَخَلَ فِيهَا أَنْ لَا يُتِمَّهَا فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا بَعْدَ قُوَّةٍ ، وَهَذَا يُوجِبُ أَنَّ كُلَّ مَنْ دَخَلَ فِي صَلَاةِ تَطَوُّعٍ أَوْ صَوْمِ نَفْلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْقُرَبِ أَنْ لَا يَجُوزَ لَهُ الْخُرُوجُ مِنْهُ قَبْلَ إتْمَامِهِ ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(165/442)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِل :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى " قَوْلُه تَعَالَى : " بِالْعَدْلِ " : وَهُوَ مَعَ الْعَالِمِ ، وَحَقِيقَتُهُ التَّوَسُّطُ بَيْنَ طَرَفَيْ النَّقِيضِ ، وَضِدُّهُ الْجَوْرُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْبَارِيَ خَلَقَ الْعَالَمَ مُخْتَلِفًا مُتَضَادًّا مُتَقَابِلًا مُزْدَوِجًا ، وَجَعَلَ الْعَدْلَ فِي اطِّرَادِ الْأُمُورِ بَيْنَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ جَارِيًا فِيهِ عَلَى الْوَسَطِ فِي كُلِّ مَعْنًى ، فَالْعَدْلُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ إيثَارُ حَقِّ اللَّهِ عَلَى حَظِّ نَفْسِهِ ، وَتَقْدِيمُ رِضَاهُ عَلَى هَوَاهُ ، وَالِاجْتِنَابُ لِلزَّوَاجِرِ ، وَالِامْتِثَالُ لِلْأَوَامِرِ .

وَأَمَّا الْعَدْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ فَمَنْعُهَا عَمَّا فِيهِ هَلَاكُهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى ﴾ وَعُزُوبُ الْأَطْمَاعِ عَنْ الِاتِّبَاعِ ، وَلُزُومُ الْقَنَاعَةِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَمَعْنًى .

وَأَمَّا الْعَدْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ فَفِي بَذْلِ النَّصِيحَةِ ، وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ فِيمَا قَلَّ وَكَثُرَ ، وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِك لَهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ ، وَلَا يَكُونُ مِنْك إلَى أَحَدٍ مَسَاءَةٌ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ، لَا فِي سِرٍّ وَلَا فِي عَلَنٍ ، حَتَّى بِالْهَمِّ وَالْعَزْمِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى مَا يُصِيبُك مِنْهُمْ مِنْ الْبَلْوَى ، وَأَقَلُّ ذَلِكَ الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِك وَتَرْكُ الْأَذَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْإِحْسَانُ : وَهُوَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ : فَأَمَّا فِي الْعِلْمِ فَبِأَنْ تَعْرِفَ حُدُوثَ نَفْسِك وَنَقْصَهَا ، وَوُجُوبَ الْأَوَّلِيَّةِ لِخَالِقِهَا وَكَمَالِهِ .

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ فِي الْعَمَلِ فَالْحَسَنُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، حَتَّى إنَّ الطَّائِرَ فِي سِجْنِك ، وَالسِّنَّوْرَ فِي دَارِك ، لَا يَنْبَغِي أَنْ تُقَصِّرَ فِي تَعَهُّدِهِ ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ النَّارَ فِي

هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ سَقَتْهَا وَلَا أَطْعَمَتْهَا وَلَا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ ﴾ .

وَيُقَالُ : الْإِحْسَانُ أَلَّا تَتْرُكَ لِأَحَدٍ حَقًّا ، وَلَا تَسْتَوْفِيَ مَا لَك .

وَقَدْ ﴿ قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك ﴾ .

وَهَذَا إشَارَةٌ إلَى مَا تَعْتَقِدُهُ الصُّوفِيَّةُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْحَقِّ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْك ؛ فَلَيْسَ مِنْ الْأَدَبِ أَنْ تَعْصِيَ مَوْلَاك بِحَيْثُ يَرَاك .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ : يَعْنِي : فِي صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَإِيفَاءِ الْحُقُوقِ ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْعَدْلُ أَدَاءُ الْفَرَائِضِ .

وَكَذَلِكَ يَلْزَمُ إيتَاءُ حُقُوقِ الْخَلْقِ إلَيْهِمْ .

وَإِنَّمَا خَصَّ ذَوِي الْقُرْبَى ؛ لِأَنَّ حُقُوقَهُمْ أَوْكَدُ ، وَصِلَتَهُمْ أَوْجَبُ ، لِتَأْكِيدِ حَقِّ الرَّحِمِ الَّتِي اشْتَقَّ اللَّهُ اسْمَهَا مِنْ اسْمِهِ ، وَجَعَلَ صِلَتَهَا مِنْ صِلَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْفَحْشَاءُ : وَذَلِكَ كُلُّ قَبِيحٍ ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، وَغَايَتُهُ الزِّنَا ؛ وَالْمُنْكَرُ مَا أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ بِالنَّهْيِ عَنْهُ ؛ وَالْبَغْيُ هُوَ الْكِبْرُ وَالظُّلْمُ وَالْحَسَدُ وَالتَّعَدِّي ، وَحَقِيقَتُهُ تَجَاوُزُ الْحَدِّ ، مِنْ بَغَى الْجُرْحُ .

فَهَذِهِ سِتُّ مَسَائِلَ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ وَشَرٍّ يُجْتَنَبُ ، وَأَرَادَ مَا قَالَ قَتَادَةُ : إنَّهُ لَيْسَ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ إلَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا مِنْ خُلُقٍ سَيِّئٍ كَانُوا يَتَعَايَرُونَهُ بَيْنَهُمْ إلَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَنْ يُرِيدَ الْخَيْرَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ ؛ إنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَيَزْدَادُ إيمَانًا ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَيَتَبَدَّلُ إسْلَامًا ، وَمُوَالَاةُ الْخَلْقِ بِالْبِشْرِ وَالسِّيَاسَةِ .

وَلِهَذَا يُرْوَى أَنَّ عِيسَى عَرَضَ لَهُ كَلْبٌ أَوْ خِنْزِيرٌ فَقَالَ لَهُ :

اذْهَبْ بِسَلَامٍ ، إشَارَةً إلَى تَرْكِ الْإِذَايَةِ حَتَّى فِي الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُؤْذِيَةِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: فِي ذِكْرِ الْعَهْدِ وَالْوَفَاءِ بِهِ: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَائِدَةِ وَالرَّعْدِ شَرْحُهُ وَأَشَرْنَا إلَيْهِ حَيْثُ وَقَعَ ذِكْرُهُ بِمَا أَمْكَنَ فِيهِ.

(168/442)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾: قَالَ ابْنُ وَهْبٍ، وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ: أَمَّا التَّوْكِيدُ فَهُوَ حَلِفُ الْإِنْسَانِ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مِرَارًا، يُرَدِّدُ فِيهِ الْأَيْمَانَ يَمِينًا بَعْدَ يَمِينٍ، كَقَوْلِهِ: وَاَللَّهِ لَا أَنْقُصُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا، يَحْلِفُ بِذَلِكَ مِرَارًا ثَلَاثَةً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: كَفَّارَةُ ذَلِكَ وَاحِدَةٌ [إنَّمَا عَلَيْهِ] مِثْلُ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: هِيَ فِي الْعُهُودِ، وَالْعَهْدُ يَمِينٌ، وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْعَهْدَ لَا يُكَفَّرُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ ﴾.

وَأَمَّا الْيَمِينُ فَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ فِيهَا الْكَفَّارَةَ مُخَلِّصَةً مِنْهَا، وَحَالَّةً مَا انْعَقَدَتْ عَلَيْهِ.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: التَّوْكِيدُ فِي الْيَمِينِ الْمُكَرَّرَةِ هُوَ أَنْ يَحْلِفَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ حَلَفَ مَرَّةً وَاحِدَةً فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَأَوْضَحْنَا صِحَّةَ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ ، وَضَعْفَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ .

(169/442)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إنْ كَرَّرَ الْيَمِينَ مِرَارًا أَوْ كَثَّرَهَا أَعْدَادًا فَلَا يَخْلُو أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ التَّأْكِيدَ مَعَ التَّوْحِيدِ ، أَوْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ التَّأْكِيدَ مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَمِينِ ، فَإِنْ قَصَدَ بِذَلِكَ التَّأْكِيدَ مَعَ التَّوْحِيدِ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهَا كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِنْ كَانَ قَصَدَ التَّوْكِيدَ مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَمِينِ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : تَكُونُ يَمِينَيْنِ ، وَقَالَ مَالِكٌ : تَكُونُ يَمِينًا وَاحِدَةً إلَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ كَفَّارَتَيْنِ .

وَتَعَلَّقَ الْفُقَهَاءُ بِأَنَّهَا تَثْنِيَةُ يَمِينٍ ، فَتَثْنِيَةُ الْكَفَّارَةِ أَصْلٌ ، فَلَهُ أَنْ يَعْقِدَهَا بِذَلِكَ .

وَعَوَّلَ مَالِكٌ عَلَى أَنَّهُ إذَا قَصَدَ الْكَفَّارَةَ فَيَلْزَمُهُ مَا الْتَزَمَ ، وَأَمَّا إذَا لَمْ يَقْصِدْ الْكَفَّارَةَ ، وَإِنَّمَا قَصَدَ إلَى تَثْنِيَةِ الْيَمِينِ فَلَا يَفْتَقِرُ إلَى كَفَّارَتَيْنِ كَمَا لَوْ حَلَفَ بِيَمِينٍ وَاحِدَةٍ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أَوْ شَيْئَيْنِ ، فَإِنَّ كَفَّارَةً وَاحِدَةً تُجْزِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(170/442)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى " قَوْله تعَالَى : " بِالْعَدْلِ " : وَهُوَ مَعَ الْعَالَمِ ، وَحَقِيقَتُهُ التَّوَسُّطُ بَيْنَ طَرَفَيْ النَّقِيضِ ، وَضِدُّهُ الْجَوْرُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْبَارِيَ خَلَقَ الْعَالَمَ مُخْتَلِفًا مُتَضَادًّا مُتَقَابِلًا مُزْدَوِجًا ، وَجَعَلَ الْعَدْلَ فِي اطِّرَادِ الْأُمُورِ بَيْنَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ جَارِيًا فِيهِ عَلَى الْوَسَطِ فِي كُلِّ مَعْنًى ، فَالْعَدْلُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ إيثَارُ حَقِّ اللَّهِ عَلَى حَظِّ نَفْسِهِ ، وَتَقْدِيمُ رِضَاهُ عَلَى هَوَاهُ ، وَالِاجْتِنَابُ لِلزَّوَاجِرِ ، وَالِامْتِثَالُ لِلْأَوَامِرِ .

وَأَمَّا الْعَدْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ فَمَنْعُهَا عَمَّا فِيهِ هَلَاكُهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى ﴾ وَعُزُوبُ الْأَطْمَاعِ عَنْ الِاتِّبَاعِ ، وَلُزُومُ الْقَنَاعَةِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَمَعْنًى .

وَأَمَّا الْعَدْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ فَفِي بَذْلِ النَّصِيحَةِ ، وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ فِيمَا قَلَّ وَكَثُرَ ، وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِك لَهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ ، وَلَا يَكُونُ مِنْك إلَى أَحَدٍ مَسَاءَةٌ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ، لَا فِي سِرٍّ وَلَا فِي عَلَنٍ ، حَتَّى بِالْهَمِّ وَالْعَزْمِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى مَا يُصِيبُك مِنْهُمْ مِنْ الْبَلْوَى ، وَأَقَلُّ ذَلِكَ الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِك وَتَرْكُ الْأَذَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْإِحْسَانُ : وَهُوَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ : فَأَمَّا فِي الْعِلْمِ فَبِأَنْ تَعْرِفَ حُدُوثَ نَفْسِك وَنَقْصَهَا ، وَوُجُوبَ الْأَوَّلِيَّةِ لِخَالِقِهَا وَكَمَالِهِ .

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ فِي الْعَمَلِ فَالْحَسَنُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، حَتَّى إنَّ الطَّائِرَ فِي سِجْنِك ، وَالسِّنَّوْرَ فِي دَارِك ، لَا يَنْبَغِي أَنْ تُقَصِّرَ فِي تَعَهُّدِهِ ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ النَّارَ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ سَقَتْهَا وَلَا أَطْعَمَتْهَا وَلَا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ ﴾ .

وَيُقَالُ : الْإِحْسَانُ أَلَّا تَتْرُكَ لِأَحَدٍ حَقًّا ، وَلَا تَسْتَوْفِي مَا لَك .

وَقَدْ ﴿ قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك ﴾ .

وَهَذَا إشَارَةٌ إلَى مَا تَعْتَقِدُهُ الصُّوفِيَّةُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْحَقِّ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْك ؛ فَلَيْسَ مِنْ الْأَدَبِ أَنْ تَعْصِيَ مَوْلَاك بِحَيْثُ يَرَاك .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ : يَعْنِي : فِي صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَإِيفَاءِ الْحُقُوقِ ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْعَدْلُ أَدَاءُ الْفَرَائِضِ .

وَكَذَلِكَ يَلْزَمُ إِيتَاءُ حُقُوقِ الْخَلْقِ إِلَيْهِمْ .

وَإِنَّمَا خَصَّ ذَوِي الْقُرْبَى ؛ لِأَنَّ حُقُوقَهُمْ أَوْكَدُ ، وَصِلَتَهُمْ أَوْجَبُ ، لِتَأْكِيدِ حَقِّ الرَّحِمِ الَّتِي اشْتَقَّ اللَّهُ اسْمَهَا مِنْ اسْمِهِ ، وَجَعَلَ صِلَتَهَا مِنْ صِلَتِهِ .

(172/442)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْفَحْشَاءُ : وَذَلِكَ كُلُّ قَبِيحٍ ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، وَغَايَتُهُ الزِّنَا ؛ وَالْمُنْكَرُ مَا أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ بِالنَّهْيِ عَنْهُ ؛ وَالْبَغْيُ هُوَ الْكِبْرُ وَالظُّلْمُ وَالْحَسَدُ وَالتَّعَدِّي ، وَحَقِيقَتُهُ تَجَاوُزُ الْحَدِّ ، مِنْ بَغَى الْجُرْحُ.

فَهَذِهِ سِتُّ مَسَائِلَ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ وَشَرٍّ يُجْتَنَبُ ، وَأَرَادَ مَا قَالَ قَتَادَةُ : إنَّهُ لَيْسَ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ إلَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا مِنْ خُلُقٍ سَيِّئٍ كَانُوا يَتَعَايَرُونَهُ بَيْنَهُمْ إلَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَنْ يُرِيدَ الْخَيْرَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ ؛ إنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَيَزْدَادُ إيمَانًا ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَيَتَبَدَّلُ إسْلَامًا ، وَمُوَالَاةُ الْخَلْقِ بِالْبِشْرِ وَالسِّيَاسَةِ .

وَلِهَذَا يُرْوَى أَنَّ عِيسَى عَرَضَ لَهُ كَلْبٌ أَوْ خِنْزِيرٌ فَقَالَ لَهُ :

اذْهَبْ بِسَلَامٍ ، إشَارَةً إلَى تَرْكِ الْإِذَايَةِ حَتَّى فِي الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُؤْذِيَةِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي ذِكْرِ الْعَهْدِ وَالْوَفَاءِ بِهِ : وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَائِدَةِ وَالرَّعْدِ شَرْحُهُ وَأَشَرْنَا إلَيْهِ حَيْثُ وَقَعَ ذِكْرُهُ بِمَا أَمْكَنَ فِيهِ .

(173/442)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : أَمَّا التَّوْكِيدُ فَهُوَ حَلِفُ الْإِنْسَانِ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مِرَارًا ، يُرَدِّدُ فِيهِ الْأَيْمَانَ يَمِينًا بَعْدَ يَمِينٍ ، كَقَوْلِهِ : وَاَللَّهِ لَا أَنْقُصُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا ، يَحْلِفُ بِذَلِكَ مِرَارًا ثَلَاثَةً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : كَفَّارَةُ ذَلِكَ وَاحِدَةٌ [إنَّمَا عَلَيْهِ] مِثْلُ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ : هِيَ فِي الْعُهُودِ ، وَالْعَهْدُ يَمِينٌ ، وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْعَهْدَ لَا يُكَفَّرُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ ، يُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ ﴾ .

وَأَمَّا الْيَمِينُ فَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ فِيهَا الْكَفَّارَةَ مُخَلِّصَةً مِنْهَا ، وَحَالَّةً مَا انْعَقَدَتْ عَلَيْهِ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: التَّوْكِيدُ فِي الْيَمِينِ الْمُكَرَّرَةِ هُوَ أَنْ يَحْلِفَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ حَلَفَ مَرَّةً وَاحِدَةً فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَأَوْضَحْنَا صِحَّةَ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ، وَضَعْفَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: إنْ كَرَّرَ الْيَمِينَ مِرَارًا أَوْ كَثَّرَهَا أَعْدَادًا فَلَا يَخْلُو أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ التَّأْكِيدَ مَعَ التَّوْحِيدِ، أَوْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ التَّأْكِيدَ مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَمِينِ، فَإِنْ قَصَدَ بِذَلِكَ التَّأْكِيدَ مَعَ التَّوْحِيدِ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهَا كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِنْ كَانَ قَصَدَ التَّوْكِيدَ مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَمِينِ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ: تَكُونُ يَمِينَيْنِ، وَقَالَ مَالِكٌ: تَكُونُ يَمِينًا وَاحِدَةً إلَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ كَفَّارَتَيْنِ.

وَتَعَلَّقَ الْفُقَهَاءُ بِأَنَّهَا تَثْنِيَةُ يَمِينٍ، فَتَثْنِيَةُ الْكَفَّارَةِ أَصْلٌ، فَلَهُ أَنْ يَعْقِدَهَا بِذَلِكَ.

وَعَوَّلَ مَالِكٌ عَلَى أَنَّهُ إذَا قَصَدَ الْكَفَّارَةَ فَيَلْزَمُهُ مَا الْتَزَمَ، وَأَمَّا إذَا لَمْ يَقْصِدْ الْكَفَّارَةَ، وَإِنَّمَا قَصَدَ إلَى تَثْنِيَةِ الْيَمِينِ فَلَا يَفْتَقِرُ إلَى كَفَّارَتَيْنِ كَمَا لَوْ حَلَفَ بِيَمِينٍ وَاحِدَةٍ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أَوْ شَيْئَيْنِ، فَإِنَّ كَفَّارَةً وَاحِدَةً تُجْزِيهِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان . . . ﴾ الآية .

في تأويل هذه الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن العدل : شهادة أن لا إله إلا الله ، والإحسان : الصبر على أمره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ صلة الرحم ، ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ يعني الزنى ، ﴿ والمنكر ﴾ القبائح . ﴿ والبغي ﴾ الكبر والظلم حكاه ابن جرير الطبري .

الثاني : أن العدل : القضاء بالحق ، والإحسان : التفضل بالإنعام ، وإيتاء ذي القربى : ما يستحقونه من النفقات . وينهى عن الفحشاء ما يستسر بفعله من القبائح . والمنكر : ما يتظاهر به منها فينكر . والبغي : منا يتطاول به من ظلم وغيره ، وهذا معنى ما ذكره ابن عيسى .

الثالث : أن العدل ها هنا استواء السريرة والعلانية في العمل لله . والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته . والفحشاء والمنكر : أن تكون علانيته أحسن من سريرته ،

قاله سفيان بن عيينة . فأمر بثلاث ونهى عن ثلاث .

﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : تتذكرون ما أمركم به وما نهاكم عنه .

الثاني : تتذكرون ما أعده من ثواب طاعته وعقاب معصيته .

قوله عز وجل : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾

يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه النذور .

الثاني : ما عاهد الله عليه من عهد في طاعة الله .

الثالث : أنه التزام أحكام الدين بعد الدخول فيه .

﴿ ولا تنقضوا الأيمان بَعْدَ توكيدها ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : لا تنقضوها بالامتناع بعد توكيدها بالالتزام .

الثاني : لا تنقضوها بالعذر بعد توكيدها بالوفاء .

الثالث : لا تنقضوها بالحنث بعد توكيدها بِالبّر .

وفي هذه الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم . الثاني : أنها نزلت في الحلف الذي كان في الجاهلية بين أهل الشرك ، فجاء الإسلام بالوفاء به .

الثالث : أنها نزلت في كل عقد يمين عقده الإنسان على نفسه مختاراً يجب عليه الوفاء به ما لم تدع ضرورة إلى حله .

(176/442)

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " فليأت الذي هو خير " محمول على الضرورة دون المباح. وأهل الحجاز يقولون. وكّدت هذه اليمين توكيداً ، وأهل نجد يقولون أكدتها تأكيداً .

قوله عز وجل : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ﴾ وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن نقض عهده ، وفيه قولان :

أحدها : أنه عنى الحبْل ، فعبر عنه بالغزل ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه عنى الغزل حقيقة .

﴿ من بعد قوة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من بعد إبرام . قاله قتادة .

الثاني : أن القوة ما غزل على طاق ولم يثن .

﴿ أنكاثاً ﴾ يعني أنقاضاً ، واحده نكث ، وكل شيء نقض بعد الفتل أنكاثٌ .

وقيل أن التي نقضت غزلها من بعد قوة امرأة بمكة حمقاء ، قال الفراء : إنها ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة ، سميت جعدة لحمقها ، كانت تغزل الصوف ثم تنقضه بعدما تبرمه ، فلما كان هذا الفعل لو فعلتموه سفهاً تنكرونه كذلك نقض العهد الذي لا تنكرونه .

﴿ تتخذون أيمانكُمْ دَخَلاً بينكُمْ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن الدخل الغرور .

الثاني : أن الدخل الخديعة .

الثالث : أنه الغل والغش .

الرابع : أن يكون داخل القلب من الغدر غير ما في الظاهر من لزوم الوفاء .

الخامس : أنه الغدر والخيانة ، قاله قتادة .

السادس : أنه الحنث في الأيمان المؤكدة .

﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أن أكثر عدداً وأزيد مدداً ، فتطلب بالكثرة أن تغدر بالأقل بأن تستبدل بعهد الأقل عهد الأكثر . وأربى : أفعل الربا ، قال الشاعر :

أسمر خطيّاً كأنّ كعوبه . . . نوى القسب أو أربى ذراعاً على عشر . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أجمل آية في كتاب الله آية في سورة النحل ، وتلا هذه الآية ، وروي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب ، فتعجب وقال : يا آل غالب ، اتبعوه تفلحوا فوالله ، إن الله أرسله ليأمر بمكارم الأخلاق ، وحكى النقاش قال : يقال زكاة العدل الإحسان ، وزكاة القدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف ، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى إخوانه .

قال القاضي أبو محمد : و﴿ العدل ﴾ هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع وسير مع الناس في أداء الأمانات ، وترك الظلم ، والإنصاف وإعطاء الحق ، ﴿ والإحسان ﴾ هو فعل كل مندوب إليه ، فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنها ما هو فرض ، إلا أن حد الاجزاء منه داخل في العدل ، والتكميل الزائد على حد الاجزاء داخل في الإحسان ، وقال ابن عباس فيما حكى الطبري : ﴿ العدل ﴾ لا إله ألا الله ، و﴿ الإحسان ﴾ أداء الفرائض .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا القسم الأخير نظر ، لأن أداء الفرائض هي الإسلام حسبما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل عليه السلام ، وذلك هو العدل ، وإنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه ، حسبما يقتضيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم أنه في حديث سؤال جبريل عليه السلام ، بقوله : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد أداء الفرائض مكملة ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ لفظ يقتضي صلة الرحم ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة ، وتركه مبهماً أبلغ ، لأن كل من وصل في ذلك إلى غاية وإن علت يرى أنه مقصر ، وهذا المعنى المأمور به في جانب ﴿ ذي القربى ﴾ داخل تحت ﴿ العدل ﴾ و ﴿ الإحسان ﴾ ، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به وخصاً عليه ، و ﴿ الفحشاء ﴾ الزنى ، قاله ابن عباس .

قال القاضي أبو محمد : وغيره من المعاصي التي شنعتها ظاهرة وفاعلها أبداً متستر بها ، وكأنهم خصوها بمعاني الفروج ، والمنكر أعم منه ، لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل والإذايات على اختلاف أنواعها ، و ﴿ البغي ﴾ هو إنشاء ظلم الإنسان والسعاية فيه ،

وهو داخل تحت ﴿ المنكر ﴾ لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره بالناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ذنب أسرع عقوبة من بغي" ، وقال صلى الله عليه وسلم : "الباغي مصروع ، وقد وعد الله تعالى من بُغِي عليه بالنصر" ، وفي بعض الكتب المنزلة : لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً .

(179/442)

قال القاضي أبو محمد : وتغيير المنكر فرض على الولاة ، إلا أن المغير لا يعنّ لمستور ، ولا يعمل ظناً ، ولا يتجسس ، ولا يغير إلا ما بدت صفحته ، ويكون أمره ونهيه بمعروف ، وهذا كله لغير الولاة ألزم وفرض على المسلمين عامة ، ما لم يخف المغير إذاية أو ذلاً ، ولا يغير المؤمن بيده ما وجد سلطاناً ، فإن عدمه غير بيده ، إلا أنه لا يصل إلى نصب القتال والمدارأة وإعمال السلاح إلا مع الرياسة والإمام المتبع ، وينبغي للناس أن يغير المنكر منهم كل أحد تقي وغير تقي ، ولو لم يغير إلا تقي لم يتغير منكر في الأغلب ، وقد ذم الله تعالى قوماً بأنهم لم يتناهوا عن منكر فعلوه ، فقد وصفهم بفعله وذمهم لما لم يتناهوا عنه وكل منكر فيه مدخل للنظر فلا مدخل لغير حملة العلم فيه ، فهذه نبذة من القول في تغيير المنكر تضمنت ثمانية شروط ، وروي أن جماعة رفعت على عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي ،

فحاجها العامل وغلبها بأنهم لم يبينوا عليه كبيرة ظلم ، ولا جوروه له في شيء ، فقام فتى من القوم ، فقال يا أمير المؤمنين : إن الله أمر ﴿ بالعدل والإحسان ﴾ ، وأنه عدل ولم يحسن ، قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل ، وقوله ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ ، الآية مضمن قوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية ، افعلوا كذا وانتهوا عن كذا ، فعطف على ذلك التقدير قوله ﴿ وأوفوا ﴾ ، و" عهد الله " لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة ، وبالجملة كل ما كان طاعة بين العاهد وبين ربه ، كان فيه نفع للغير أو لم يكن ، وقوله ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ خص في هذه الألفاظ العهود التي تقترن بها أيمان تهمماً بها وتنبيهاً عليها .

(180/442)

قال القاضي أبو محمد : وهذا في كل ما كان الثبوت فيه على اليمين طاعة لله وما كان الانصراف عنه أصوب في الحق فهو الذي قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير " ويقال تأكيد وتوكيد ووكد وأكد وهما لغتان ، وقال الزجاج : الهمزة مبدلة من الواو .

قال القاضي أبو محمد : وهذا غير بين ، لأنه ليس في وجوه تصريفه ما يدل على ذلك ، و ﴿

كفيلاً ﴾ معناه متكفلاً بوفائكم ، وباقي الآية وعيد في ضمن خبر بعلم الله تعالى بأفعال عباده ، وقالت فرقة : نزلت هذه الآية في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، رواه أبو ليلى عن مزيدة ، وقال قتادة ومجاهد وابن زيد : نزلت فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، فزادها الإسلام شدة .

قال القاضي أبو محمد : كما قال صلى الله عليه وسلم : " لا حلف في الإسلام وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة " ، وهذا حديث معنى ، وإن كان السبب بعض هذه الأشياء ، فألفاظ الآية عامة على جهة مخاطبة العالمين أجمعين .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾

شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد أو يبرم عقدة بالمرأة التي تغزل غزلها وتفتله محكماً ، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قوى ذلك الغزل فحلته بعد إبرامه ، ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت سعد كانت تفعل ذلك ، فبها وقع التشبيه ، قاله عبد الله بن كثير والسدي ولم يسميا المرأة ، وقيل كانت امرأة موسوسة تسمى خطية تغزل عند الحجر وتفعل ذلك ، وقال مجاهد وقتادة ، ذلك ضرب مثل لا على امرأة معينة و﴿ أنكاثاً ﴾ نصب على الحال ، والنكث النقض ، و" القوة " في اللغة واحدة قوى الغزل والحبل ، وغير ذلك مما يظفر ، ومنه قول الأغلب الراجز :

حبل عجوز فتلت سبع قوى . . . ويظهر لي أن المراد ب " القوة " في الآية الشدة التي تحدث من تركيب قوى الغزل ولو قدرناها واحدة القوى لم يكن معها ما ينقض ﴿ أنكاثاً ﴾ ، والعرب تقول أنكثت الحبل إذا انتقضت قواه ، أما إن عرف الغزل أنه قوة واحدة ، ولكن لها أجزاء كأنها قوة كثيرة له ، قال مجاهد : المعنى من بعد إمرار قوة ، و" الدخل " الدغل بعينه ، وهي الذرائع إلى الخدع والغدر ، وذلك أن المحلوف له مطمئن فيتمكن الحالف من ضره بما يريده ، وقوله ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ ، قال المفسرون : نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت الأخرى ثم جاءت إحداهما قبيلة كبيرة ، قوية فداخلتها ، غدرت الأولى ونقضت معها ورجعت إلى هذه الكبرى ، فقال الله تعالى ولا تنقضوا العهود من أجل أن تكون قبيلة أزيد من قبيلة في العدد والعزة و" الربا " الزيادة ، ويحتمل أن يكون القول معناه لا تنقضوا الأيمان من أجل أن تكونوا أربى من غيركم أي أزيد خيراً ، فمعناه لا تطلبوا الزيادة بعضكم على بعض بنقض العهود ، و﴿ يبلوكم ﴾ معناه يختبركم ، والضمير في ﴿ به ﴾ يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به ، ويحتمل أن يعود على الربا ، أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض ، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه ممن يتبعها هواها ، وباقي الآية وعيد بين بيوم القيامة ، وقوله ﴿ هي أربى ﴾ موضع ﴿ أربى ﴾ عند البصريين رفع وعند الكوفيين نصب ،

وهي عماد ولا يجوز العماد هنا عند البصريين لأنه لا يكون مع النكرة ، و﴿ أمة ﴾ نكرة ، وحجة الكوفيين أن ﴿ أمة ﴾ وما جرى مجراها من أسماء الأجناس تنكيرها قريب من التعريف ، ألا ترى أن إدخال الألف واللام عليها لا يخصصها كبير تخصيص ، وفي هذا نظر . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(182/442)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ رُوي عن عثمان بن مَظْعُون أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتُها على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فتعجّب فقال : يا آل غالب ، اتبعوه تفلحوا ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق .

وفي حديثٍ إن أبا طالب لما قيل له : إن ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" الآية ، قال : اتبعوا ابن أخي ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق .

وقال عكرمة : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" إلى آخرها ، فقال : يا ابن أخي أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لَطَلاوة ، وإن أصله لمُورِق ، وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر ! وذكر الغَزْنَوِيّ أن عثمان بن مظعون هو القارئ .

قال عثمان : ما أسلمت ابتداءً إلاّ حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي ، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يا ابن أخي أعد ! فأعدت فقال : والله إن له لحلاوة ، . . .

وذكر تمام الخبر .

وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب .

وحكى النقاش قال : يقال زكاة العدل الإحسان ، وزكاة القدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف ، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه .

الثانية : اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العدل لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض .

وقيل : العدل الفرض ، والإحسان النافلة .

وقال سفيان بن عُيينة : العدل ها هنا استواء السريرة ، والإحسان أن تكون السريرة أفضل

من العلانية .

عليّ بن أبي طالب : العدل الإنصاف ، والإحسان التفضل .

قال ابن عطية : العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات ، وترك الظلم والإنصاف ، وإعطاء الحق .

والإحسان هو فعل كل مندوب إليه ؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنها ما هو فرض ، إلا أن حَدّ الإجزاء منه داخل في العدل ، والتكميلُ الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان .

وأما قول ابن عباس ففيه نظر ؛ لأن أداء الفرائض هي الإسلام حسبما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل ، وذلك هو العدل ، وإنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل بقوله : " أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة .

وقال ابن العربي : العدل بين العبد وبين ربه إيثارُ حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديمُ رضاه

على هواه ، والاجتنابُ للزواجر والامتثال للأوامر .

وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ [النازعات : 40] وعُزوبُ الأطماع عن الاتباع ، ولزومُ القناعة في كل حالٍ ومعنًى .

وأما العدل بينه وبين الخلق فبذلُ النصيحة ، وتركُ الخيانة فيما قَلّ وكَثُر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سِرٍّ ولا في عَلَن ، والصبرُ على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقلّ ذلك الإنصافُ وتركُ الأذى .

قلت : هذا التفصيل في العدل حَسَنٌ وعدل ، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا : الإحسان مصدر أحسن يُحْسن إحسانًا .

ويقال على معنيين : أحدهما متعد بنفسه ؛ كقولك : أحسنت كذا ، أي حسّنته وكمّلته ، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشيء .

وثانيهما متعدٍّ بحرف جر ؛ كقولك : أحسنت إلى فلان ، أي أوصلت إليه ما ينتفع به .

قلت : وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معاً ؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض ، حتى أن الطائر في سجنك والسِّنّوْر في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهّده بإحسانك ؛ وهو تعالى غنيّ عن إحسانهم ، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن .

وهو في حديث جبريل بالمعنى الأوّل لا بالثاني ؛ فإن المعنى الأوّل راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة والمكملة ، ومراقبة الحق فيها ، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار .

وهو المراد بقوله " أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين : أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه .

ولعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله : " وجُعلت قرّة عيني في الصلاة " وثانيهما لا تنتهي إلى هذا ، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له ، وإليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ [الشعراء : 218- 219] وقوله : ﴿ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : 61] .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَآءِ ذِي القربى ﴾ أي القرابة ؛ يقول : يعطيهم المال كما قال ﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ [الإسراء : 26] يعني صلته .

وهذا من باب عطف المندوب على الواجب ، وبه استدّل الشافعيّ في إيجاب إيتاء

المُكاتَب؛ على ما يأتي بيانه.

وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوْكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حق الرّحِم التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال في الصحيح: "أمَا تَرْضَيْن أن أصِل من وصلك وأقطعَ من قطعك" ولا سِيّما إذا كانوا فقراء.

الرابعة قوله تعالى: ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ الفحشاء: الفُحْش، وهو كل قبيح من قول أو فعل.

ابن عباس: هو الزنى.

(185/442)

والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها.

وقيل هو الشرك.

والبغي: هو الكِبر والظلم والحِقد والتّعدّي؛ وحقيقته تجاوز الحدّ، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره.

وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا ذنب أسرع عقوبةً من بَغْيٍ".

وقال عليه السلام : " الباغي مصروع " .

وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر .

وفي بعض الكتب المنّزلة : لو بَغَى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكًّا .

الخامسة ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه فقال : (باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ ، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة في سِحْر لبيد بن الأَعْصَم النبيَّ صلى الله عليه وسلم .

قال ابن بطال : فتأوّل رضي الله عنه من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر ؛ كما دلّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : " أمّا الله فقد شفاني وأما أنا فأكره أن أُثير على الناس شرا " .

ووجه ذلك والله أعلم أنه تأوّل في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ الندب بالإحسان إلى المسيء وترك معاقبته على إساءته .

فإن قيل : كيف يصح هذا التأويل في آيات البغي .

قيل : وجه ذلك والله أعلم أنه لمّا أعلم الله عباده بأن ضرر البغي ينصرف على الباغي بقوله : "إنما بغيكم على أنفسكم" وضمِن تعالى نُصرة من بُغِيَ عليه ، كان الأولى بمن بغي عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بَغى عليه ؛ وكذلك فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم باليهودي الذي سحره ، وقد كان له الانتقام منه بقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] ولكن آثر الصفح أخذاً بقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] .

السادسة تضمنت هذه الآية الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ، وقد تقدّم القول فيهما .

روي أن جماعة رفعت عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي ، فحاجّها العامل وغلبها ، بأنهم لم يُثبتوا عليه كبير ظلم ولا جوره في شيء ؛ فقام فتًى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإنه عدل ولم يحسن .

قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله ﴾ لفظٌ عام لجميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان

من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة.

وهذه الآية مضمّن قوله ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، وانتهوا عن كذا ؛ فعطف على ذلك التقدير.

وقد قيل : إنها نزلت في بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

وقيل : نزلت في التزام الحِلف الذي كان في الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به ؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد.

والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه.

(187/442)

روى الصحيح عن جُبير بن مُطْعِم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا حِلْف في الإسلام وأيُّما حِلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة" يعني في نصرة الحق والقيام به والمواساة.

وهذا كنحو حِلف الفُضُول الذي ذكره ابن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مَظْلِمته ؛ فسمت قريش ذلك الحِلف حِلْفَ

الفضول، أي حلف الفضائل.

والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس.

روى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدْعانٍ حلفاً ما أحِبّ أن لي به حُمْرَ النَّعَم لو أدعى به في الإسلام لأجبت" وقال ابن إسحاق: تحامل الوليد بن عُتبة على حسين بن عليّ في مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميراً على المدينة؛ فقال له حسين بن عليّ: أحلِفُ بالله لَتُنْصِفَنّي من حقي أو لآخذنّ سيفي ثم لأقومنّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعونّ بحِلف الفضول.

قال عبد الله بن الزبير: وأنا أحلف والله لئن دعانا لآخذن سيفي ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعاً.

وبلغت المِسْوَرَ بن مَخْرمة فقال مثل ذلك.

وبلغت عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك.

فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصفه.

قال العلماء : فهذا الحِلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شدّه الإسلام وخصّه النبيّ عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : " لا حِلْف في الإسلام " والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم ، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عاماً على من قدر من المكلّفين ، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس وَيَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[الشورى : 42] .

وفي الصحيح من قوله : " أُنصر أَخاك ظالماً أو مظلوماً " قالوا : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : "تأخذ على يديه " في رواية : " تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره " وقد تقدّم قوله عليه السلام : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تنقُضُواْ الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها ؛ يقال : توكيد وتأكيد ، ووكّد وأكّد ، وهما لغتان .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ يعني شهيداً .

ويقال حافظاً ، ويقال ضامناً .

وإنما قال "بَعْدَ تَوْكِيدِها" فَرْقاً بين اليمين المؤكّدة بالعزم وبين لَغْو اليمين .

وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حِلف الإنسان في الشيء الواحد مراراً ، يردّد فيه الأيمان ثلاثاً أو أكثر من ذلك ؛ كقوله : والله لا أُنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا .

قال : فكفارة ذلك واحدةٌ مثل كفّارة اليمين .

قال يحيى بن سعيد : هي العهود ، والعهد يمين ، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفّر .

(189/442)

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غَدْرته يقال هذه غدرة فلان" وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة ، وحلّ ما انعقدت عليه اليمين .

وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه .

وقد تقدّم في المائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً ﴾

النّقض والنّكث واحد ، والاسم النكث والنقض ، والجمع الأنكاث .

فشبّهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتِله

مُحْكَماً ثم تَحُلّه .

ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة كانت تفعل ذلك ، فبها وقع التشبيه ؛ قاله الفراء ، وحكاه عبد الله بن كثير والسُّدّي ولم يسمِّيا المرأة .

وقال مجاهد وقتادة : وذلك ضَرْبُ مثلٍ ، لا على امرأة معيّنة .

و"أنكاثا" نصب على الحال .

والدَّخَل : الدَّغَل والخديعة والغش .

قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دَخَل .

﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قال المفسرون : نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى قاله مجاهد فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالاً فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين .

والمقصود النّهْي عن العَوْد إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم .

وقال الفراء : المعنى لا تغدِروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عززتموهم بالأيمان .

﴿ أَرْبَى ﴾ أي أكثر ؛ من ربَا الشيء يربو إذا كثر .

والضمير في "به" يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به .

(190/442)

ويحتمل أن يعود على الرباء ؛ أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضِهم الظهورَ على بعض ، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من البعث وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(191/442)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾

قال ابن عباس : العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض .

وفي رواية عنه قال : العدل خلع الأنداد ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب

للناس ما تحب لنفسك إن كان مؤمناً تحب أن يزداد إيماناً ، وإن كان كافراً تحب أن يكون أخاك في الإسلام .

وقال في رواية أخرى عنه : العدل التوحيد والإحسان الإخلاص ، وأصل العدل في اللغة المساواة في كل شيء من غير زيادة في شيء ولا غلو ولا نقصان فيه ، ولا تقصير فالعدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر والإحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفوا عنه : وقيل : العدل الإنصاف ولا إنصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بإنعامه ، والإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وقيل يأمر بالعدل في الأفعال والإحسان في الأقوال فلا يفعل إلا ما هو عدل ، ولا يقول إلا ما هو حسن ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ يعني ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة الأدنون والأبعدون منك فيستحب أن تصلهم من فضل ما رزقك الله فإن لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ قال ابن عباس : يعني الزنا .

وقال غيره الفحشاء ، وما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الأقوال والأفعال المذمومة ﴿ والمنكر ﴾ قال ابن عباس : يعني الشرك والكفر .

وقال غيره : المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ﴿ والبغي ﴾ يعني الكبر والظلم .

وقيل : البغي هو التطاول على الغير على سبيل الظلم والعدوان .

قال بعضهم : إن أعجل المعاصي البغي ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغي .

(192/442)

وقال ابن عيينة في هذه الآية : العدل استواء السر والعلانية ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر البغي ، أن تكون علانتيه أحسن من سريرته ، وقال بعضهم : إن الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ، ومن المنهيات ثلاثة أشياء ، فذكر : العدل وهو الإنصاف ، والمساواة في الأقوال والأفعال وذكر في مقابلته الفحشاء ، وهي ما قبح من الأقوال والأفعال وذكر الإحسان ، وهو أن تعفو عمن ظلمك وتحسن إلى من أساء إليك وذكر في مقابلته المنكر ، وهو أن تنكر إحسان من أحسن إليك ، وذكر إيتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتودد إليهم ، والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي ، وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ثم قال تعالى ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ يعني إنما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه ، لكي تتعظوا وتتذكروا فتعملوا ، بما فيه رضا الله تعالى .

قال ابن مسعود : إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية .

وقال أهل المعاني : لما قال الله تعالى في الآية الأولى ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء بيَّن في هذه الآية المأمور به والمنهي عنه على سبيل الإجمال ، فما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ، مما يجب أن يؤتى أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، قرأ على الوليد بن المغيرة أنّ الله يأمر بالعدل إلى آخر والآية ، فقال له : " يا ابن أخي أعد عليّ " فأعادها عليه فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر .

(193/442)

قوله ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل الإجمال ، ذكر هذه الآية بعض ذلك الإجمال على التفصيل فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد ، لأنه آكد الحقوق فقال تعالى ﴿ وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ نزلت في الذين بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الإسلام ، فأمرهم بالوفاء بهذه البيعة ، وقيل : المراد منه كل ما يلتزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد أيضاً لأن الوعد من العهد ، وقيل : العهد هاهنا اليمين .

قال القتيبي : العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء إذا كان فيه صلاح أما إذا

لم يكن فيه صلاح، فلا يجب الوفاء به لقوله (صلى الله عليه وسلم) : "من حلف يميناً ثم رأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير، وليكفّر عن يمينه" فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من العام الذي خصصته السنة.

وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية، ويشهد لهذا التأويل قوله (صلى الله عليه وسلم) :

"كل حلف كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدة" ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ يعني تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لأنه أعم منها ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ يعني شهيداً بالوفاء بالعهد ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ يعني من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لنقض العهد فقال تعالى ﴿ ولا تكونوا ﴾ يعني في نقض العهد ﴿ كالتي نقضت غزلها من بعد قوة ﴾ يعني من بعد إبرامه وإحكامه.

قال الكلبي ومقاتل: هذه امرأة من قريش يقال لها ربطة بن عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة، وكانت قد اتخذت مغزلاً قدر ذراع

وصنارة مثل الإصبع وفلكه عظيمة على قدرها ، وكانت تغزل الغزل من الصوف ، أو الشعر أو الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار ، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن ، فكان هذا دأبها .

والمعنى : أن هذه المرأة ، لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به ﴿ أنكاثاً ﴾ جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل أو الحبل بعد الفتل ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ يعني دغلاً وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد ، وقيل : الدخل والدغل أن يظهر الرجال الوفاء بالعهد ويبطن نقضه ﴿ أن تكون ﴾ يعني لأن تكون ﴿ أمة هي أربى من أمة ﴾ يعني أكثر وأعلى من أمة .

قال مجاهد : وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوماً أكثر من أولئك وأعز نقضوا حلف هؤلاء ، وحالفوا الأكثر .

والمعنى : أنكم طلبتم العز بنقض العهد لأن كانت أمة أي جماعة أكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك ، وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا ، ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ يعني يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ يعني في الدنيا فيثيب الطائع المحق ، ويعاقب المسيء الخالف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

النقض ضد الإبرام ، وفي الجرم فك أجزائه بعضها من بعض .

التوكيد : التثبيت ويقال : توكيد ، وتأكيد ، وهما لغتان .

وزعم الزجاج أنّ الهمزة بدل من الواو ، وليس بجيد .

لأن التصريف جاء في التركيبين فدل على أنهما أصلان .

الغزل : معروف ، وفعله غزل يغزل بكسر الزاي غزلاً ، وأطلق المصدر على المغزول .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ : عن ابن عباس في حديث فيه طول منه : أن عثمان بن مظعون كان جليس النبي (صلى الله عليه وسلم) وقتاً فقال له : عثمان ما

رأيتك تفعل فعلتك الغداة؟ قال: "وما رأيتني فعلت؟" قال: شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته على يمينك فتحرفت عني إليه وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك قال: أو فطنت لذلك؟ أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس قال: فماذا قال لك: قال لي: ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾: الآية.

قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، فأحببت محمداً (صلى الله عليه وسلم) لما ذكر الله تعالى.

ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وصل به ما يقتضي التكاليف فرضاً ونفلاً وأخلاقاً وآداباً.

والعدل فعل كل مفروض من عقائد، وشرائع، وسير مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق والإحسان فعل كل مندوب إليه قاله ابن عطية.

(196/442)

وقال الزمخشري: العدل هو الواجب، لأن الله عز وجل عدل فيه على عباده، فجعل ما فرضه عليهم واقعاً تحت طاقتهم.

والإحسان الندب، وإنما علق أمره بهم جميعاً، لأنّ الفرض لا بد أن يقع فيه تفريط فيجبره

الندب انتهى .

وفي قوله : تحت طاقتهم ، نزغة الاعتزال .

وعن ابن عباس : العدل لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض .

وعنه أيضاً أنّ العدل هو الحق .

وعن سفيان بن عيينة : أنه أسوأ السريرة والعلانية في العمل .

وذكر الماوردي أنه القضاء بالحق قال تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ وقال أبو سليمان : العدل في لسان العرب الانصاف .

وقيل : خلع الأنداد .

وقيل : العدل في الأفعال والإحسان في الأقوال .

وإيتاء ذي القربى : هو صلة الرحم ، وهو مندرج تحت الإحسان ، لكنه نبه عليه اهتماماً به وحضاً على الإحسان إليه .

والفحشاء : الزنا ، أو ما شنعته ظاهرة من المعاصي .

وفاعلها أبداً مستتربها ، أو القبيح من فعل أو قول ، أو البخل ، أو موجب الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أو مجاوزة حدود الله أقوال ، أولها لابن عباس .

والمنكر : الشرك عن مقاتل ، أو ما وعد عليه بالنار عن ابن السائب ، أو مخالفة السريرة للعلانية عن ابن عيينة ، أو ما لا يوجب الحد في الدنيا لكن العذاب في الآخرة .

أو ما تنكره العقول أقوال ، ويظهر أنه أعم من الفحشاء لاشتماله على المعاصي والرذائل والبغي : التطاول بالظلم والسعاية فيه ، وهو داخل في المنكر ، ونبه عليه اهتماماً باجتنابه .

وجمع في المأمور به والمنهي عنه بين ما يجب ويندب ، وما يحرم ويكره ، لاشتراك ذلك في قدر مشترك وهو الطلب في الأمر ، والترك في النهي .

وقال أبو عبد الله الرازي : أمر بثلاثة ، ونهى عن ثلاثة .

فالعدل التوسط بين الإفراط والتفريط ، وذلك في العقائد وأعمال الرعاة .

فقال ابن عباس : العدل لا إله إلا الله ، وهو إثبات الإله الواحد ، فليس تعطيلاً محضاً ولا إثبات أكثر من إله .

(197/442)

وإثبات كونه عالماً قادراً واجب الصفات فليس نفياً للصفات ، ولا إثبات صفة حادثة متغيرة .

وكون فعل العبد بواسطة قدرته تعالى ، والداعية التي جعلها فيه فليس جبراً محضاً ، ولا استقلالاً بالفعل .

وكونه تعالى يخرج من النار من دخلها من أهل التوحيد ، فليس إرجاء ولا تخليداً بالمعصية .

وأما أعمال الرعاة فالتكاليف اللازمة لهم ، فليس قولاً بأنه لا تكليف ، ولا قولاً بتعذيب النفس واجتناب ما يميل الطبع إليه من : أكل الطيب ، والتزوج ، ورمي نفسه من شاهق ، والقصاص ، أو الدية ، أو العفو ، فليس تشديداً في تعيين القصاص كشريعة موسى عليه السلام ، ولا عفواً حتماً كشريعة عيسى عليه السلام ، وتجنب الحائض في اجتناب وطئها فقط فليس اجتناباً مطلقاً كشريعة موسى عليه السلام ، ولا حل وطئها حالة الحيض كشريعة عيسى عليه السلام ، والاختتان فليس إبقاء للقلفة ولا قطعاً للآلة كما ذهب إليه المانوية .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ ﴿ والذين إذا أنفقوا ﴾ ولا تجعل الآيتين .

ومن المشهور قولهم بالعدل : قامت السموات والأرض ، ومعناه : إن مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة ، وكان بعضها أزيد ، لغلب الازدياد وانقلبت الطبائع .

فالشمس لو قربت من العالم لعظمت السخونة واحترق ما فيه ، ولو زاد بعدها لاستوى الحر والبرد .

وكذا مقادير حركات الكواكب ، ومراتب سرعتها ، وبطئها .

والإحسان : الزيادة على الواجب من الطاعات بحسب الكمية والكيفية ، والدواعي ، والصوارف ، والاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية .

ومن الإحسان الشفقة على الخلق ، وأصلها صلة الرحم ، والمنهي عنه ثلاثة .

وذلك أنه أودع في النفس البشرية قوى أربعة : الشهوانية وهي تحصيل اللذات ، والغضبية وهي : إيصال الشر ، ووهمية : وهي شيطانية تسعى في الترفع والتراوس على الناس .

فالفحشاء ما نشأ عن القوّة الشهوانية الخارجة عن أدب الشريعة ، والمنكر ما نشأ عن الغضبية ، والبغي ما نشأ عن الوهمية انتهى ما تخلص من كلامه عفا الله عنه .

ولما أمر تعالى بتلك الثلاث ، ونهى عن تلك الثلاث قال : يعظكم به ، أي بما ذكر تعالى من أمر ونهي ، والمعنى : ينبهكم أحسن تنبيه لعلكم تذكرون أي : تتنبهون لما أمرتم به ونهيتم عنه ، وعقد الله علم لما عقده الإنسان والتزمه مما يوافق الشريعة .

وقال الزمخشري : هي البيعة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ وكأنه لحظ ما قيل أنها نزلت في الذين بايعوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الإسلام ، رواه عن بريدة .

وقال قتادة ومجاهد : فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر .

وقال ميمون بن مهران : الوفاء لمن عاهدته مسلماً كان أو كافراً ، فإنما العهد لله .

وقال الأصم : الجهاد وما فرض في الأموال من حق .

وقيل : اليمين بالله ، ولا تنقضوا العهود الموثقة بالإيمان ، نهى عن نقضها تهمماً بها بعد توكيدها أي : توثيقها باسم الله وكفالة الله وشهادته ، ومراقبته ، لأن الكفيل مراع لحال المكفول به .

ولا تكونوا أي : في نقض العهد بعد توكيده بالله كالمرأة الورهاء تبرم فتل غزلها ثم تنقضه نكثاً ، وهو ما يحل فتله .

والتشبيه لا يقتضي تعيين المشبه به .

وقال السدي ، وعبد الله بن كثير : هي امرأة حمقاء كانت بمكة .

وعن الكلبي ومقاتل : هي من قريش خرقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تيم ، تلقب بجفراء ، اتخذت مغزلاً قدر ذراع ، وصنارة مثل أصبع ، وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن .

وعن مجاهد : هذا فعل نساء أهل نجد ، تنقض إحداهن غزلها ثم تنفشه ، وتخلطه بالصوف فتغزله .

وقال ابن الأنباري : ريطة بنت عمرو المرية ، ولقبها الجفراء من أهل مكة ، وكانت معروفة عند المخاطبين .

(199/442)

والظاهر أنّ المراد بقوله : من بعد قوّة أي : شدة حدثت من تركيب قوى الغزل .

ولو قدرناها واحدة القوى لم تكن تنتقض أنكاثاً .

والنكث في اللغة الحبل إذا انتقضت قواه .

وقال مجاهد : المعنى من بعد إمرار قوة .

والدخل : الفساد والدغل ، جعلوا الإيمان ذريعة إلى الخدع والغدر ، وذلك أن المحلوف له مطمئن ، فيمكن الحالف ضره بما يريده .

قالوا : نزلت في العرب كانوا إذا حالفوا قبيلة فجاء أكثر منها عدداً حالفوه وغدروا بالتي كانت أقل .

وقيل : أن تكونوا أنتم أزيد خبراً ، فأسند إلى أمة ، والمراد المخاطبون .

وقال ابن بحر : الدخل والداخل في الشيء لم تكن منه ، ودخلاً مفعول ثان .

وقيل : مفعول من أجله ، وأن تكون أي : بسبب أن تكون وهي أربى مبتدأ وخبر .

وأجاز الكوفيون أن تكون هي عماداً يعنون فضلاً ، فيكون أربى في موضع نصب ، ولا يجوز ذلك عند البصريين لتنكير أمة .

والضمير في به عائد على المصدر المنسبك من أن تكون أي : بسبب كون أمة أربى من أمة يختبركم بذلك .

قال الزمخشري : لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله ، وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم وليبينن لكم : إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام انتهى .

وقيل : يعود على الوفاء بالعهد .

وقال ابن جبير ، وابن السائب ، ومقاتل : يعود على الكثرة .

قال ابن الأنباري : لما كان تأنيثها غير حقيقي حمل على معنى التذكير ، كما حملت الصيحة على الصياح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(200/442)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ ﴾

أي فيما نزّله تبياناً لكل شيء وهدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجددِ والاستمرار ﴿ بالعدل ﴾ بمراعاة التوسطِ بين طرفي الإفراطِ والتفريطِ وهو رأسُ الفضائل كلّها يندرج تحته فضيلةُ القوةِ العقلية الملكية من الحِكمة المتوسطةِ بين الجُربزة والبَلادة ، وفضيلةُ القوةِ الشهوية البهيمية من العِفة المتوسّطة بين الخلاعة والخمود ، وفضيلةُ القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهوُّرِ والجُبن ، فمن الحِكم الاعتقادية التوحيدُ المتوسطُ بين التعطيل والتشريك . نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما : "أن العدلَ هو التوحيدُ" والقولُ بالكسب المتوسّطِ بين الجبر والقدَر ، ومن الحِكم العملية التعبدُ بأداء الواجبات المتوسطِ بين البَطالة والترهب ، ومن الحِكم الخُلقية الجودُ المتوسط بين البخل والتبذير ﴿ والإحسان ﴾ أي الإتيانِ بما أمر به على الوجه اللائقِ وهو إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفيةِ كما يشير إليه قولُه صلى الله عليه وسلم : "الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ﴿ وَإِيتَآءِ ذِى القربى ﴾ أي إعطاءِ الأقارب ما يحتاجون إليه ، وهو تخصيصٌ إثرَ تعميمٍ اهتماماً بشأنه ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ الإفراطِ في مشايعة القوةِ الشهوية كالزنى مثلاً ﴿ والمنكر ﴾ ما يُنكَر شرعاً أو عقلاً من الإفراط في إظهار آثار القوةِ الغضبية ﴿ والبغى ﴾ الاستعلاءُ والاستيلاءُ على الناس والتجبرُ عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانيةِ التي هي حاصلةٌ من رذيلتَيْ القوتين المذكورتين الشهويةِ والغضبية ، وليس في البشر شرٌّ إلا

وهو مندرجٌ في هذه الأقسام صادرٌ عنه بواسطة هذه القُوى الثلاث ، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : " هي أجمعُ آيةٍ في القرآن للخير والشر " ولو لم يكن فيه غيرُ هذه الآية الكريمة لكفَتْ في كونه تبياناً لكل شيءٍ وهدى (ورحمة) ﴾

(201/442)

يَعِظُكُمْ ﴾ بما يأمر وينهى ، وهو إما استئنافٌ وإما حالٌ من الضميرين في الفعلين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ طلباً لأن تتعظوا بذلك .

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله ﴾ هو البَيعةُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها مبايعةٌ لله سبحانه لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ ﴿ إِذَا عاهدتم ﴾ أي حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيمان ﴾ التي تحلِفون بها عند المعاهدة ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ حسبما هو المعهودُ في أثناء العهودِ لا على أن يكون النهيُ مقيداً بالتوكيد مختصاً به ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ شاهداً رقيباً ، فإن الكفيلَ مُراعٍ لحال المكفول به محافظٌ عليه ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من نقض الأيمان والعهودِ فيجازيكم على ذلك .

(202/442)

﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ فيما تصنعون من النقض ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ أي ما غزلتْه ، مصدرٌ بمعنى المفعول ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ متعلق بنقضت أي كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد إبرامه وإحكامِه ﴿ أَنكَاثًا ﴾ طاقاتٍ نكثتْ فتلَها جمع نِكْث ، وانتصابه على الحالية من غزْلَها أو على أنه مفعولٌ ثانٍ لنقضت فإنه بمعنى صيّرت ، والمرادُ تقبيحُ حالِ النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاءِ المعتوهةِ . قيل : هي (ريْطةُ بنتُ سعد بن تيم) وكانت خرقاءَ اتخذت مِغزلاً قدرَ ذراعٍ وصنّارةً مثلَ أصبع وفلكةً عظيمةً على قدرها فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقُضْن ما غزلْن ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ حالٌ من الضمير في لا تكونوا أو في الجار والمجرور الواقعِ موقعَ الخبر أي مشابهين لامرأة شأنُها هذا حال كونِكم متّخذين أيمانَكم مفسدةً ودخَلاً بينكم ، وأصلُ الدخَل ما يدخُل الشيء ولم يكن منه ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ أي بأن تكون جماعة ﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ أي أزيد عدداً وأوفر مالاً ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ من جماعة أخرى أي لا تغدُروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة مُنابذيهم وقوتهم كقريش ، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائِهم نقضوا عهدَهم وحالفوا أعداءهم ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ أي بأن تكون أمةٌ أربى من أمة ، أي يعاملكم بذلك معاملةَ من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاءِ بعهد الله وبَيعةِ رسولِه عليه السلام أم تغترّون بكثرة قريشٍ وشوكتِهم وقلةِ المؤمنين وضعفهم بحسب

ظاهر الحال ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ حين جازاكم بأعمالكم ثواباً وعقاباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(203/442)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ ﴾

أي فيما نزله عليك تبياناً لكل شيء ، وإيثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدد والاستمرار ﴿ بالعدل ﴾ أي بمراعاة التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجربزة والبلادة ، وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والجمود ، وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن .

فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل ونفي الصنائع كما تقوله الدهرية والتشريك كما تقوله الثنوية والوثنية ، وعليه اقتصر ابن عباس في تفسير ﴿ العدل ﴾ على ما رواه عنه البيهقي في الأسماء والصفات .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهم ، وضم إليه بعضهم القول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر .

ومن الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة وترك العمل لزعم أنه لا فائدة فيه إذ الشقي والسعيد متعينان في الأزل كما ذهب إليه بعض الملاحدة والترهب بترك المباحات تشبيهاً بالرهبان .

ومن الحكم الخلقية الجد المتوسط بين البخل والتبذير .

وعن سفيان بن عيينة أن العدل استواء السريرة والعلانية في العمل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : دعاني عمر بن عبد العزيز فقال لي : صف لي العدل فقلت بخ سألت عن أمر جسيم كن لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً وللمثل منهم أخاً وللنساء كذلك وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين ، ولعل اختيار ذلك لأنه الأوفق بمقام السائل وإلا فما تقدم في تفسير أولى .

﴿ والإحسان ﴾ أي إحسان الأعمال والعبادة أي الإتيان بها على الوجه اللائق ، وهو إما بحسب الكيفية كما يشير إليه ما رواه البخاري من قوله صلى الله عليه وسلم : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " أو بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل الجابرة لما في الواجبات من النقص ، وجوز أن يراد بالإحسان الإحسان المتعدي بإلى لا المتعدي بنفسه فإنه يقال : أحسنه وأحسن إليه أي الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم ، فقد أخرج ابن النجار في تاريخه من طريق العكلي عن أبيه قال : مر علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه بقوم يتحدثون فقال : فيم أنتم ؟ فقالوا : نتذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذاك في كتابه إذ يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ فالعدل الانصاف والإحسان التفضل فما بقي بعد هذا ، وأعلى مراتب الإحسان على هذا الإحسان إلى المسيء وقد أمر به نبينا صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، وابن عباس رضي الله تعالى عنهما بعد ما فسر العدل بالتوحيد فسر الإحسان بإداء الفرائض ، وفيه اعتبار الإحسان متعدياً بنفسه ، وقيل : العدل أن ينصف وينتصف والإحسان أن ينصف ولا ينتصف ؛ وقيل : العدل في الأفعال والإحسان في الأقوال .

﴿ وَبِذِى القربى واليتامى ﴾ أي إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر، وهذا داخل في العدل أو الإحسان وصرح به اهتماماً بشأنه، والظاهر أن المراد بذي القربى ما يعم سائر الأقارب سواء كانوا من جهة الأمم أو من جهة الأب، وهذا هو المراد بذوي الأرحام الذين حث الشارع صلى الله عليه وسلم على صلتهم على الأصح، وقيل: ذوو الأرحام الأقارب من جهة الأم، وذكر الطبرسي أن المروي عن أبي جعفر أن المراد من ذي القربى هنا قرابته صلى الله عليه وسلم المرادون في قوله سبحانه: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القربى ﴾ [الأنفال: 41].

﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ الإفراد في متابعة القوة الشهوية كالزنا مثلاً، وفسر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الفحشاء به، ولعله تمثيل لا تخصيص ﴿ والمنكر ﴾ ما ينكر على متعاطيه من الإفراط في إظهار القوة الغضبية، وعن ابن عباس.

ومقاتل تفيسره بالشرك، وعن ابن السائب أنه ما وعد عليه بالنار، وعن ابن عيينة أنه مخالفة السريرة للعلانية، وقيل: ما لا يوجب الحد في الدنيا لكن يوجب العذاب في الآخرة.

وقال الزمخشري: ما تنكره العقول.

وتعقبه ابن المنير فقال : إنه لفتة إلى الاعتزال ولو قال : المنكر ما أنكره الشرع لوافق الحق لكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل ، وقال في "الكشف" بعد قوله : ما تنكره العقول أي بعد رده إلى قوانين الشرع فالأنكار بالعقل بالضرورة ، وإنما الخلاف في مأخذه والمقصود أن ما يمكن أن يجري على المذهبين لا يحق المحاقة فيه وهو كالتعريض بابن المنير ، واستظهر أبو حيان أن المنكر أعم من الفحشاء قال : لاشتماله على المعاصي والرذائل ، وعلى أولاً ليس الأمر كذلك وسيأتي إن شاء الله تعالى ﴿ والبغى ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم ، وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التي هي حاصلة من رذيلتي القوتين المذكورتين الشهوانية والغضبية ، وأصل معنى البغي الطلب ثم اختص بطلب التطاول بالظلم والعدوان ، ومن ثم فسر بما فسر وبذلك فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وتخصيص كل من المتعاطفات الثلاثة المنهي عنها بالإشارة إلى قوة من القوى الثلاث مما ذهب إليه غير واحد .

واعترض بأن ذلك مما لا دليل عليه ، وقال بعضهم : المنكر أعم الثلاثة باعتبار أن المراد به ما ينكره الشرع ويقبحه من الأقوال أو الأفعال سواء عظم قبحه ومفسدته أم لا وسواء كان متعدياً إلى الغير أم لا ، وأن المراد بالفحشاء ما عظم قبحه من ذلك ، ومنه قيل لمن عظم قبحه في البخل فاحش ، وعلى ذلك حمل الراغب قول الشاعر :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي . . .

عقيلة مال الفاحش المتشدد

(207/442)

والبغي التطاول بالظلم والعدوان ففي الآية عطف العام على الخاص وعطف الخاص على العام ، وقيل : المراد بالفحشاء مقابل العدل ويفسر بما خرج عن سنن الاعتدال إلى جانب الإفراط ، وبالمنكر ما يقابل ما فيه الإحسان ويفسر بما أتى به على غير الوجه اللائق بل على وجه ينكر ويستقبح وبالبغي ما يقابل إيتاء ذي القربى ويفسر بما فسر ويكو قد قوبل في الآية الأمر بالنهي وكل من المأمور به بكل من المنهي عنه وجمع بين الأمر والنهي مع أن الأمر بالشيء نهى عن ضده والنهي عن الشيء أمر بضده لمزيد الاهتمام والاعتناء .

(208/442)

والإمام الرازي قد أطال الكلام في هذا المقام وذكر أن ظاهر الآية يقتضي المغايرة بين الثلاثة المأمور بها ويقتضي أيضاً المغايرة بين الثلاثة المنهي عنها وشرع في بيان المغايرة بين الأول ثم

قال : والحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات والإحسان عبارة عن الزيادة في الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية وبحسب الدواعي والصوارف وبحب الاستغراق في شهود مقام العبودية والربوبية ، ويدخل في تفسيره التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خليقه سبحانه ، ومن الظاهر أن الشفقة على الخلق أقسام كثيرة أشرفها وأجلبها صلة الرحم لا جرم أنه سبحانه أفرده بالذكر ، ثم شرع في بيان المغايرة بين الأخيرة وقال : تفصيل القول في ذلكم أنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة وهي الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية ، وهذه الأخيرة لا يحتاج الإنسان إلى تهذيبها لأنها من جوهر الملائكة عليهم السلام ونتائج الأرواح القدسية العلوية وإنما المحتاج إلى التهذيب الثلاثة قبلها ، ولما كانت الأولى أعني القوة الشهوانية إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية وكان هذا النوع مخصوصاً باسم الفحش ألا ترى أنه تعالى سمي الزنا فاحشة أشار إلى تهذيبها بقوله سبحانه : ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة ، ولما كانت الثانية أعني القوة الغضبية السبعية تسعى أبداً في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس أشار سبحانه إلى تهذيبها بنهيه تعالى عن المنكر إذ لا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة فالمنكر عبارة عن الإفراد الحاصل في آثار القوة الغضبية ، ولما كانت الثالثة أعني القوة الوهمية الشيطانية تسعى أبداً في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدم

أشار سبحانه إلى تهذيبها بالنهي عن البغي إذ لا معنى له إلا التطاول والترفع على الناس ، ثم قال : ومن العجائب

(209/442)

في هذا الباب أن العقلاء قالوا : أخس هذه القوى الثلاث الشهوانية وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية ، ولله تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ سبحانه بذكر الفحشاء التي هي نتيجة القوة الشهوانية ثم بالمنكر الذي هو نتيجة القوة الغضبية ثم بالبغي الذي هي نتيجة القوة الوهمية اه .

وما تقدم عن غير واحد مأخوذ من هذا ، ولينظر هل يثبت بما قرره دليل التخصيص فيندفع الاعتراض السابق أم لا ، ثم إن الظاهر عليه أن عطف البغي على ما قبله كعطف ﴿ إيتاء ذي القربى ﴾ على ما قبله .

وبالجملة أن الآية كما أخرج البخاري في الأدب .

والبيهقي في شعب الإيمان .

والحاكم وصححه عن ابن مسعود أجمع آية للخير والشر ، وأخرج البيهقي عن الحسن نحو ذلك ، وأخرج الباوردي .

وأبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير قال : بلغ أكثم بن صيفي مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فأتى قومه فانتدب رجلان فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكثم يسألك من أنت وما جئت به ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله ثم تلا عليهم هذه الآية ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ ﴾ الخ قالوا : ردد علينا هذا القول فردده عليه الصلاة والسلام عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فأخبراه فلما سمع الآية قال : إني لأراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مذامها فكونوا في هذا الأمر رأساً ولا تكونوا فيه أذناباً ، وقد صارت هذه الآية أيضاً كما أخرج أحمد . والطبراني .

(210/442)

والبخاري في الأدب عن ابن عباس سبب استقرار الايمان في قلب عثمان بن مظعون ومحبته للنبي صلى الله عليه وسلم ولجمعها ما جمعت أقامها عمر بن عبد العزيز حين آلت الخلافة إليه مقام ما كانو بنو أمية غضب الله تعالى عليهم يجعلونه في أواخر خطبهم من سب علي كرم الله تعالى وجهه ولعن كل من بغضه وسبه وكان ذلك من أعظم مآثره رضي الله تعالى عنه ، وقال غير واحد : لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً

لكل شيء وهدى.

ولعل إيرادها عقيب قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ [النحل: 89] للتنبيه عليه فإنها إذا نظر إلى أنها قد جمعت ما جمعت مع وجازتها استيقظن عيون البصائر وتحركت للنظر فيما عداها.

وأخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إذ شخص بصره فقال أتاني: جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع أن الله يأمر الخ.

واستدل بها على أن صيغة أمر تتناول الواجب والمندوب وموضوعها القدر المشترك وتحقيق ذلك في الأصول.

﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي ينبهكم بما يأمر وينهى سبحانه أحسن تنبيه، وهو إما استئناف وإما حال من الضمير في الفعلين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ طلباً لأن تتعظوا بذلك وتتنبهوا.

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله ﴾ قال قتادة.

ومجاهد: نزلت فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، وأخرج ابن جرير.

وابن أبي حاتم عن مزيدة بن جابر أنها نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع على الإسلام، وظاهره أنها في البيعة على الإسلام مطلقاً، فالمراد بعهد الله تعالى

البيعة كما نص عليه غير واحد .

واعترض بأن الظاهر أنه عام في كل موثق وهو الذي يقتضيه كلام ميمون بن مهران ، وسبب النزول ليس من المخصصات ، ولذا قالوا : الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(211/442)

وأجيب بأن قرينة التخصيص قوله تعالى فيما قبل : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ [النحل : 88] الآية ، وفيه نظر ، وقال الأصم : المراد به الجهاد وما فرض في الأموال من حق ولا يلائمه قوله تعالى : ﴿ إِذَا عاهدتم ﴾ وقيل : المراد به النذر ، وقيل : اليمين وتعقب ذلك الإمام بأنه حينئذ يكون قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الايمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ تكراراً لأن الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان لأن الأمر بالفعل يستلزم النهي عن الترك ، وإذا حمل العهد على العموم بحيث دخل تحته اليمين كان هذا من باب تخصيص بعض الأفراد بالذكر للاعتناء به وبعض من فسر العهد بالبيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الأيمان على ما وقع عند تلك البيعة ، وجوز بعضهم حملها على مطلق الأيمان .

وفي "الحواشي السعدية" أن الظاهر أن المراد بها الأشياء المحلوف عليها كما في قوله عليه

الصلاة والسلام : " من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه " لأنه لو كان المراد ذكر اسم الله تعالى كان عين التأكيد لا المؤكد فلم يكن محل ذكر العطف كما تقرر في المعاني ورد بأن المراد بها العقد لا المحلوف عليه لأن النقض إنما يلائم العقد ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لأن المراد كون العقد مؤكداً بذكر الله تعالى لا بذكر غيره كما يفعله العامة الجهلة فالمعنى أن ذلك النهي لما ذكر لا عن نقض الحلف بغير الله تعالى وقال الواحدي : إن قوله سبحانه : ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لإخراج لغو اليمين نحو لا والله بلى والله بناء على أن المعنى بعد توكيدها بالعزم والعقد ولغو اليمين ليست كذلك .

ثم إذا حمل الأيمان على مطلقها فهو كما قال الإمام عام دخله التخصيص بالحديث السابق الدال على أنه متى كان الصلاح في نقض اليمين جاز نقضها .

وتعقب بأن فيه تأملاً لأن الحظر لو لم يكن باقياً لما احتيج إلى الكفارة الساترة للذنب .

وأجيب بأن وجوب الكفارة بطريق الزجر إذ أصل الايمان الانعقاد ولو محظورة فلا ينافي لزوم موجبها ، وجوز أن يقال : إن ذلك للإقدام على الحلف بالله تعالى في غير محله فليتأمل ،

والتوكيد التوثيق ، ومنه أكد بقلب الواو همزة على ما ذهب إليه الزجاج وغيره ، من النحاة ، وذهب آخرون إلى أن وكد وأكد لغتان أصليتان لأن الاستعمالين في المادة متساويان فلا يحن القول بأن الواو بدل من الهمزة كما في "الدر المصون" وهو الذي اختاره أبو حيان .

﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ أي شاهداً رقيباً فإن الكفيل مراع لحال المكفول به رقيب عليه واستعمال الكفيل في ذلك إما من باب الاستعارة أو المجاز المرسل والعلاقة اللزوم .

والظاهر أن جعلهم مجاز أيضاً لأنهم لما فعلوا ذلك والله تعالى مطلع عليهم فكأنهم جعلوه سبحانه شاهداً قاله الخفاجي ثم قال : ولو أبقى الكفيل على ظاهره وجعل تمثيلاً لعدم تخلصهم من عقوبته وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله كما يقال : من ظلم فقد أقام كفيلاً بظلمه تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب لكان معنى بليغاً جداً فتدبر ، والظاهر أن الجملة في موضع الحال من فاعل ﴿ تَنقُضُواْ ﴾ وجوز أن تكون حالاً من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي من النقض فيجازيكم على ذلك في موضع التعليل للنهي السابق ، وقال الخفاجي : إنه كالتفسير لما قبله .

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ ﴾ فيما تصنعون من النقض ﴿ كَالتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ مصدر بمعنى المفعول أي مغزولها ، والفعل منه غزل يغزل بكسر الزاي ، والنقض ضد الإبرام ، وهو في

الجرم فك أجزائه بعضاً من بعض، وقوله تعالى: ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ متعلق بنقضت على أنه ظرف له لا حال ومن زائدة مطردة في مثله أي كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد إبرامه وإحكامه.

﴿ أنكاثا ﴾ جمع نكث بكسر النون وهو ما ينكث فتله وانتصابه قيل على أنه حال مؤكدة من ﴿ غزالها ﴾ وقيل: على أنه مفعول ثان لنقض لتضمنه معنى جعل، وجوز الزجاج كون النصب على المصدرية ﴿ لِأنْ نَقَضَتْ ﴾ بمعنى نكثت فو ملاق لعامله في المعنى. وقال في "الكشف": إن جعله مفعولاً على التضمين أولى من جعله حالاً أو مصدراً، وفي الإتيان به مجموعاً مبالغة وكذلك في حذف الموصوفة ليدل على الخرقاء الحمقاء وما أشبه ذلك، وفي "الكشاف" ما يشير إلى اعتبار التضمين حيث قال: أي لا تكونوا كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته فجعلته أنكاثاً، وفي قوله: أنحت على ما قال القطب إشارة ءلى أن ﴿ نَقَضَتْ ﴾ مجازاً عن أرادت النقض على حد قوله تعالى: ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ [المائدة: 6] وذكر أنه فسر بذلك جمعاً بين القصد والفعل ليدل على حماقتها واستحقاقها اللوم بذلك فإن نقضها لو كان من غير قصد لم تستحق ذلك ولأن

التشبيه كلما كان أكثر تفصيلاً كان أحسن ، ولا يخفى ما في اعتبار التضمين وهذا المجاز من التكليف وكأنه لهذا قيل : إن اعتبار القصد لأن المتبارد من الفعل الاختياري وفي الكشف خرج ذلك المعنى من قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ فإن نقض المبرم لا يكون إلا بعد انحاء بالغ وقصد تام ولم يرد بالموصول امرأة بعينها بل المراد من هذه صفته ففي الآية تشبيه حال الناقض بحال الناقض في أخس أحواله تحذيراً منه وأن ذلك ليس من فعل العقلاء وصاحبه داخل في عداد حمقى النساء ، وقيل : المراد امرأة معلومة عند المخاطبين كانت تغزل فإذا برمت غزلها تنقضه وكانت تسمى خرقاء مكة ، قال ابن الأنباري : كان اسمها ربطة بنت عمرو المرية تلقب الحفراء ، وقال الكلبي ومقاتل : هي امرأة من قريش اسمها ربطة بنت سعد التيمي اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي وجوارها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال : كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ وروى ابن مردويه عن ابن عطاء أنها شكت جنونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبت أن يدعو

لها بالمعافاة فقال لها عليه الصلاة والسلام :

" إن شئت دعوت فعافاك الله تعالى وإن شئت صبرت واحتسبت ولك الجنة " فاختارت الصبر والجنة ، وذكر عطاء أن ابن عباس أراه إياها ، وعن مجاهد هذا فعل نساء نجد تنقض أحداهن غزلها ثم تنفشه فتغزله بالصوف ، وإلى عدم التعيين ذهب قتادة عليه الرحمة ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيمانكم دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ حال من الضمير في ﴿ لَا تَكُونُواْ ﴾ أو في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر .

وجوز أن يكون خبر تكونوا و ﴿ كالتى ﴾ نقضت في موضع الحال وهو خلاف الظاهر ، وقال الإمام : الجملة مستأنفة على سبيل الاستفهام الإنكاري أي أتتخذون ، والداخل في الأصل ما يدخل الشيء ولم يكن منه ثم كنى به عن الفساد والعداوة المستبطنة كالدغل ، وفسره قتادة بالغدر والخيانة ، ونصبه على أنه مفعول ثان ، وقيل : على المفعولية من أجله ، وفائدة وقوع الجملة حالاً الإشارة إلى وجه الشبه أي لا تكونوا مشبهين بامرأة هذا شأنها متخذين أيمانكم وسيلة للغدر والفساد بينكم ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ أي بأن تكون جماعة ﴿ هِىَ أَرْبَى ﴾ أي أزيد عدداً وأوفر مالاً ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي من جماعة أخرى ، والمعنى لا تغدروا بقوم بسبب كثرتكم وقلتهم بل حافظوا على أيمانكم معهم ، وأخرج ابن جرير . وابن المنذر .

وغيرهما عن مجاهد أنه قال : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلفهم ويحالفون الذين هم أعز فنهوا عن ذلك فالمعنى لا تغدروا بجماعة بسبب أن تكون جماعة أخرى أكثر منها وأعزل بل عليكم الوفاء بالأيمان والمحافظة عليها وإن قل من خلفتم له وكثر الآخر وجوز فيه ﴿ تَكُونُ ﴾ أن تكون تامة وناقصة هي أن يكون مبتدأ وعمادا ﴿ فأربى ﴾ إما مرفوع أو منصوب وأنت تعلم أن البصريين لا يجوزون كون ﴿ بالتى هِىَ ﴾ عماد التنكر ﴿ أُمَّةٍ ﴾ وزعم بعض الشيعة أن هذه الآية قد حرفت وأصلها أن تكون أئمة هي أزكى من أئمتكم ؛ ولعمري قد ضلوا سواء السبيل ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ﴾ الضمير المجرور عائد إما على المصدر المنسبك من ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ أو على المصدر المنفهم من ﴿ أَرْبَى ﴾ وهو الربو بمعنى الزيادة ، وقول ابن جبير .

وابن السائب .

ومقاتل يعني بالكثرة مرادهم من هذا واكتفوا ببيان حاصل المعنى ، وظن ابن الأنباري أنهم أرادوا أن الضمير راجع إلى نفس الكثرة لكن لما كان تأنيثها غير حقيقي صح التذكير وهو كما ترى ، وقيل : إنه لأربى لتأويله بالكثير ، وقيل : للأمر بالوفاء المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ وأوفوا ﴾ [النحل : 91] الخ ولا حاجة إلى جعله منفهماً من النهي عن الغدر بالعهد واختار بعضهم الأول لأنه أسرع تبادراً أي يعاملكم معاملة المختبر بذلك الكون لينظر

أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى وبيعة رسوله عليه الصلاة والسلام أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ثواباً وعقاباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(216/442)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

لما بين سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، وأن أكثرهم كافرون ، أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أي : واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لهم بالإيمان والتصديق ، وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي : في الاعتذار ، إذ لا حجة لهم ولا عذر ، كقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] أو في كثرة الكلام ، أو في الرجوع إلى دار الدنيا ، وإيراد " ثم " ها هنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبيء عن الإقناط الكلي أشد من ابتلائهم

بشهادة الأنبياء ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا ، فإذا كان على عزم السخط ، فلا فائدة في العتاب .

والمعنى : أنهم لا يسترضون أي : لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون ، وأصل الكلمة من العتب وهو الموجد ، يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا أفاض عليه ما عتب فيه عليه قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرّته قيل : أعتبه ، والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب قاله الهروي ، ومنه قول النابغة :

فإن كنت مظلوماً فعبداً ظلمته . . . وإن كنت ذا عتبى فمثلك يعتب

﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب ﴾ أي : وإذا رأى الذين أشركوا العذاب الذي يستحقونه بشركهم ، وهو عذاب جهنم ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ ﴾ ذلك العذاب ﴿ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي : ولا هم يمهلون ليتوبوا ، إذ لا توبة هنالك ﴿ وَإِذَا رَءَا الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أي : أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها ، لما تقرّر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم " من كان يعبد شيئاً فليتبعه " ، كما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه

وسلم .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلَآء شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا نَدْعُوْا مِن دُونِكَ ﴾ أي : الذين كنا نعبدهم من دونك .

قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللاً بذلك ، واسترواحاً ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه .

﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ القول ﴾ أي : ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم إلى المشركين القول ﴿ إِنَّكُمْ لكاذبون ﴾ أي قالوا لهم : إنكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذي هو مقصودكم من هذا القول .

فإن قيل : إن المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، وقد كانوا صادقين في ذلك ، فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها ؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم ﴿ هؤلاء شركاؤنا ﴾ هؤلاء شركاء الله في المعبودية ، فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشركة .

والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق ، فإن الله سبحانه ينطقها في تلك الحال ، لتخجيل المشركين وتوبيخهم ، وهذا كما قالت الملائكة ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 41] .

يعنون : أن الجنّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم .

﴿ وَأَلْقَوْاْ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ أي : ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه ، والخضوع لعزته .

(218/442)

وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي : ضاع وبطل ما كانوا يفترونه من أن لله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم ، وأن عبادتهم لهم تقرّبهم إلى الله سبحانه .

﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ في أنفسهم ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي : عن طريق الحق ، وهي : طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر .

وقيل : المراد بالصدّ عن سبيل الله : الصدّ عن المسجد الحرام .

والأولى العموم .

ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله : ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ أي : زادهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم .

وقيل : المعنى : زدنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم ، أي : أشد منه .

وقيل : إن هذه الزيادة هي إخراجهم من النار إلى الزمهرير ، وقيل غير ذلك .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : نبياً يشهد عليهم ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من جنسهم ، إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة ، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا على هَؤُلآءِ ﴾ أي : تشهد على هذه الأمم وتشهد لهم .

وقيل : على أمتك ، وقد تقدّم مثل هذا في البقرة والنساء ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ أي : القرآن .

والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال بتقدير قد ﴿ تِبْيَانًا لّكُلّ شَىْء ﴾ أي : بياناً له ، والتاء : للمبالغة ، ونظيره من المصادر التلقاء ، ولم يأت غيرهما .

ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْء ﴾ [الأنعام : 38] .

ومعنى كونه ﴿ تبياناً لكلّ شيء ﴾ أن فيه البيان لكثير من الأحكام ، والإحالة فيما بقي منها على السنة ، وأمرهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يأتي به من الأحكام ، وطاعته كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك .

وقد صحّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني أوتيت القرآن ومثله معه " ﴿ وهدى ﴾ للعباد ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لهم ﴿ وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ خاصة دون غيرهم ، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم ؛ لأنهم المنتفعون بذلك .

ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبة آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك ، فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ .

وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان ؛ فقيل : العدل لا إله إلاّ الله ، والإحسان : أداء الفرائض .

وقيل : العدل الفرض .

والإحسان : النافلة .

وقيل : العدل : استواء العلانية والسريرة ، والإحسان .

أن تكون السريرة أفضل من العلانية .

وقيل : العدل : الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، والأولى : تفسير العدل بالمعنى اللغوي ، وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط .

فمعنى أمره سبحانه بالعدل : أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة ، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط ، وهو الغلوّ المذموم في الدين ، ولا إلى جانب التفريط ، وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين .

وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب ، كصدقة التطوّع ، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها .

وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه ، فقال في حديث ابن عمر الثابت في الصحيحين : " والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وهذا هو معنى الإحسان شرعاً .

﴿ وَإِيتَآءِ ذِى القربى ﴾ أي : إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم .

وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب وترغيب في التصدق عليهم .

وهو من باب عطف الخاص على العام ، إن كان إعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والإحسان .

وقيل : من باب عطف المندوب على الواجب .

ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وَءاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ [الإسراء : 26] .

(220/442)

وإنما خصّ ذوي القربى لأن حقهم آكد ، فإن الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه ، وجعل صلتها من صلته ، وقطيعتها من قطيعته .

﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ هي الخصلة المتزايدة في القبح من قول أو فعل .

وقيل : هي الزنا .

وقيل : البخل ﴿ والمنكر ﴾ ما أنكره الشرع بالنهي عنه ، وهو يعمّ جميع المعاصي على اختلاف أنواعها .

وقيل : هو الشرك وأما ﴿ البغى ﴾ فقيل : هو الكبر ، وقيل : الظلم .

وقيل : الحقد ، وقيل : التعدّي ، وحقيقته تجاوز الحدّ فيشمل هذه المذكورة ، ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر .

وإنما خصّ بالذكر اهتماماً به لشدّة ضرره ووبال عاقبته .

وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [يونس : 23] ، وهذه الآية هي من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : يعظكم بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه .

فإنها كافية في باب الوعظ والتذكير ، ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ إرادة أن تتذكروا ما ينبغي تذكره ، فتتعظوا بما وعظكم الله به .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ قال: شهيدها نبيّها على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا على هَؤُلآء ﴾ قال: ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية، فاضت عيناه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول ﴾ قال: حدّثوهم.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وَأَلْقَوْا إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ قال: استسلموا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه.

(221/442)

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السرّي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ قال: زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال.

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء: "أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله تعالى: ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾، فقال: " عقارب أمثال النخل الطوال

ينهشونهم في جهنم " وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ أنهار من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل، وببعضها بالنهار، وقد روى ابن مردويه من حديث جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " الزيادة خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رءوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار النهار فذلك قوله: ﴿ زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ " وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود، قال: إن الله أنزل في هذا الكتاب تبياناً لكل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن، ثم قرأ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانًا لّكُلّ شَىْء ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الضريس في فضائل القرآن، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود، قال: من أراد العلم، فليثور القرآن، فإن فيه علم الأوّلين والآخرين.

وأخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص، قال: "كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً، إذ شخص بصره فقال: " أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة: ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ الآية " وفي إسناده شهر بن حوشب.

وقال ابن كثير في تفسيره : إسناده لا بأس به .

وقد أخرجه مطوّلاً أحمد ، والبخاري في الأدب ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه من حديث ابن عباس .

وحسن ابن كثير إسناده .

وأخرج الماوردي ، وابن السكن ، وابن منده ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير ، أن هذه الآية لما بلغت أكثم بن صيفي ، حكيم العرب قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، ثم قال لقومه : كونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه أذناباً ، وكونوا فيه أوّلاً ولا تكونوا فيه آخراً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلاّ الله .

﴿ والإحسان ﴾ أداء الفرائض ﴿ وَإِيتَآء ذِى القربى ﴾ قال : إعطاء ذوي الأرحام الحق الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم .

﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ قال : الزنا ﴿ والمنكر ﴾ قال : الشرك ﴿ والبغى ﴾ قال :

الكبر والظلم ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ قال : يوصيكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبخاري في الأدب ، ومحمد بن نصر في الصلاة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب قال : أعظم آية في كتاب الله ﴿ الله لاَ إله إلاَّ هُوَ الحى القيوم .

. .

﴾ [البقرة : 255] .

وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان .

. .

﴾ .

وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2 - 3] .

وأشدّ آية في كتاب الله رجاء : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ .

. .

﴾ [الزمر : 53] الآية .

وأخرج البيهقي في الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل

والإحسان .

. .

(223/442)

﴿ إلى آخرها ، ثم قال : إن الله عزّ وجلّ جمع لكم الخير كله ، والشرّ كله ، في آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلاّ جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلاّ جمعه .

وأخرج البخاري في تاريخه من طريق الكلبي عن أبيه قال : مرّ عليّ بن أبي طالب بقوم يتحدثون ، فقال : فيم أنتم ؟ قالوا : نتذاكر المروءة .

فقال : أو ما كفاكم الله عزّ وجلّ ذلك في كتابه ، إذ يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ فالعدل : الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، فما بقي بعد هذا ! . انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(224/442)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يأمر العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى . وانه يناهم عن الفحشاء والمنكر والبغي . لأجل أن يتّعظوا بأوامره ونواهيه ، وفيمتثلوا أمره ، ويجتنبوا نهيه . وحذف مفعول " يأمر " ، " وينهى " لقصد التعميم .

ومن الآيات التي أمر فيها بالعدل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلَّا تَعْدِلُوا اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأمانات إلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ [النساء : 58] .

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة وأحسنوا إِنَّ الله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [البقرة : 195] ، وقوله : ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ [البقرة : 83] ، وقوله : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفساد فِي الأرض ﴾ [القصص : 77] ، وقوله : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [البقرة : 83] وقوله : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : 91] .

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربي قوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الروم : 38] ، وقوله ﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ [الإسراء : 26] وقوله : ﴿ وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى ﴾ [البقرة : 177] الآية ، وقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 14-15] ، إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الآيات التي نهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغي قوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : 151] الآية ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغي بِغَيْرِ الحق ﴾ [الأعراف : 33] الآية ، وقوله : ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإثم وَبَاطِنَهُ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : 120] والمنكر وإن لم يصرح باسمه في هذه الآيات ، فهو داخل فيها .

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] فهذا عدل ، ثم دعا إلى الإحسان بقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ [النحل : 126] وقوله ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] فهذا عدل . ثم دعا إلى الإحسان بقوله ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى : 40] .

وقوله : ﴿ والجروح قِصَاصٌ ﴾ [المائدة : 45] فهذا عدل . ثم دعا إلى الإحسان بقوله ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة : 45] ، وقوله [الشورى : 41] الآية ، فهذا عدل . ثم دعا إلى الإحسان بقوله : [الشورى : 43] ، وقوله [النساء : 148] فهذا عدل . ثم دعا إلى الإحسان بقوله : [النساء : 149] إلى غير ذلك من الآيات .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن العدل في اللغة : القسط وانُصا ، وعدم الجور . وأصله التوسط بين المرتبتين . اي الإفراط والتفريط . فمن جانب الإفراط والتفريط فقد عدل . والإحسان مصدر أحسن ، وهي تستعمل متعدية بالحرف نحوك أحسن إلى والديك . ومنه قوله تعالى عن يوسف : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن ﴾ [يوسف : 10] الآية . وتستعمل متعدية بنفسها .

كقولك : أحسن العامل عمله ، أي اجاده وجاء به حسناً . والله جل وعلا يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين ، فهما داخلان في الاية الكريمة ، لأن الإحسان إلى عباد الله لوجه الله

عمل أحسن فيه صاحبه . وقد فسر النَّبي صلى الله عليه وسلم الإحسان في حديث جبريل بقوله : " أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وقد قدمنا ذلك (في سورة هود) .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا . كقول ابن عباس : العدل : لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفارئض . لأن عابدة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط ، وتجنب التفريط والإفراط . ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد حسن . ولذا قال النَّبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي حلف لا يزيد على الواجبات : " أفلح إن صدق " وكقول سفيان : العدل : استواء العالنية والسريرة . والإحسانك ان تكون السريرة أفضل من العلانية . وكقول علي رضي الله عنه : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل . إلى غير ذلك من أقوال السلف . والعلم عند الله تعالى :

(227/442)

وقوله ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

الوعظ : الكلام الذي تلين له القلوب .

تنبيه

فإن قيل: يكثر في القرآن إطلاق الوعظ على الأوامر والنواهي. كقوله هنا ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ مع أنه ما ذكر إلا الأمر والنهي في قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بالعدل ﴾ [النحل: 90] إلى قوله ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ [النحل: 90] الآية، وكقوله في (سورة البقرة) بعد أن ذكر أحكام الطلاق والرجعة: ﴿ ذلك يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ [البقرة: 232]، وقوله (في الطلاق) في نحو ذلك ايضاً: ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ [الطلاق: 2]. وقوله في النهي عن مثل قذف عائشة: ﴿ يَعِظُكُمُ الله أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً ﴾ [النور: 17] الآية. مع أن المعروف عند الناس: أن الوعظ يكون بالترغيب والترهيب ونحو ذلك، لا بالأمر والنهي.

فالجواب- أن ضابط الوعظ: هو الكلام الذي تلين له القلوب وأعظم ما تلين له قلوب العقلاء أوامر ربهم ونواهيه. فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا من سخط الله في عدم امتثاله، وطمعوا فيما عند الله من الثواب في امتثاله. وإذا سمعوا النهي خافوا من سخط الله في عدم اجتنابه، وطمعوا فيما عنده من الثواب في اجتنابه. فحداهم احادي الخوف والطمع إلى الامتثال، فلانت قلوبهم للطاعة خوفاً وطمعاً. والفحسائ في لغة العرب: الخصلة المتناهية في القبح. ومنه قيل لشديد البخل: فاحش. كما في قول طرفة في معلقته:

ارى الموت يعتام الكرام ويصطفي... عقيلة مال الفاحش المتشدد

والمنكر اسم مفعول أنكر . وهو في الشرع : ما أنكره الشرع ونهى عنهن وأوعد فاعله العقاب . والبغي : الظلم . وقد بين تعالى : أن الباغي يرجع ضرر بغيه على نفسه في قوله : ﴿ يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [يونس23] ، وقوله : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

وقوله : ﴿ ذِي القربى ﴾ .

أي صحاب القرابة من جهة الأب أو الأم ، أو هما معاً . لأن إيتاء ذي القربى صدقة وصلة رحم . والإيتاء : الإعطاء . وأحد المفعولين محذوف . لأن المصدر أضيف إلى المفعول الأول وحذف الثاني . والأصل وإيتاء صاحب القرابة . كقوله : ﴿ ذَوِي القربى ﴾ [البقرة : 177] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدتُّم ﴾ .

أمر جل وعلا في هذه الآية الكريمه عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا . وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربه ، وفيما بينه وبين الناس . وكرر هذا في مواضع أخر . كقوله (في الأنعام) ﴿ وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام : 152] الآية

، وقوله في (الإسراء) : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 34] .

وقد قدمنا هذا (في الأنعام) .

وبين في موضع آخر : أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه ، وأن من أوفى به يؤتسه الله الأجر العظيم علة ذلك . زذلك في قوله : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ وَمَنْ أوفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 10] . ويبن في موضع آخر : أن نقض الميثاق يستوجب اللعن . وذلك في قوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ ﴾ [المائدة : 13] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(229/442)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أنه وقد ذكر اللّه سبحانه وتعالى فى الآية السابقة : « وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ » ناسب أن يجىء بعدها بيان لما فى القرآن الكريم من تبيان لكل شىء ، وهدى ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين . . وهذا ما ضمت عليه هذه الآية :

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ . . »

فما فى القرآن الكريم كله ، هو دعوة إلى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ونهى عن الفحشاء ، والمنكر والبغي . .

فالعدل هو القيام على طريق الحق فى كل أمر . . فمن أقام وجوده على العدل استقام على طريق مستقيم ، فلم ينحرف عنه أبدا ، ولم تتفرق به السبل إلى غايات الخير . .

ومن أتبع العدل بالإحسان ، انما الخير فى يده ، وطابت مغارسه التي يغرسها فى منابت العدل . .

وقد جاء الأمر بالعدل والإحسان مطلقا ، ليحتوى العدل كله ، ويشمل الإحسان جميعه . . فهو عدل عام شامل . . حيث يعدل الإنسان مع نفسه ، فلا يجوز عليها بإلقائها فى التهلكة ، وسوقها فى مواقع الإثم والضلال . . ويعدل مع الناس فلا يعتدى على حقوقهم ، ولا يمدّ يده إلى ما ليس له . ويعدل مع خالقه ، فلا يجحد فضله ، ولا يكفر بنعمه ، ولا ينكر وجوده وقيّومته عليه ، وعلى كل موجود . .

كذلك الإحسان ، هو إحسان مطلق ، يتناول كل قول يقوله الإنسان ، وكل عمل يعمله . .

وإحسان القول أن يقوم على سنن العدل ، والحق والخير . .

وإحسان العمل ينضبط على موازين الكمال والإتقان . . كما بقول سبحانه :

«وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (195 : البقرة) .

بل إن الإحسان ، هو الإيمان بالله على أتم صورة وأكملها ، بحيث لا يبلغ درجة الإحسان ، إلا من عبد الله على هذا الوجه الذي بينه الرسول الكريم ، فى قوله حين سأله جبريل ، وقد جاء على صورة أعرابى ، فقال : « ما الإحسان ؟

فقال صلوات الله وسلامه عليه : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . »

.وقوله تعالى : « وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى » هو عدل وإحسان معا . . والإيتاء هو الإعطاء ، وفعله آتى ، بمعنى أعطى . . ولا يستعمل الإيتاء إلا فى مقام البرّ والإحسان . . والبر بذي القربى هو عدل ، لأنه وفاء لحق القرابة ، وهو إحسان إذا قدمته النفس فى سماحة ورضى .

.وقوله تعالى : « وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ » هو نهى عن محظورات ، فى مقابل ما أمر الله به من عدل وإحسان ، وبرّ بالأقارب . . وفى توارد الأمر والنهى على أمر من الأمور ، توكيد للإتيان بالمأمور به . .

فالفحشاء ، ما قبح من الأمور ، وعلى رأسها « الزنا » . . وإتيان الفاحشة ظلم للنفس ، وعدوان على حرمات الناس . . وفى هذا مجافاة للعدل . .

والمنكر ، كل ما تنكره العقول السليمة على من يفعله . . سواء أكان قولا أو فعلا . . ولا يكون هذا إلا بالتخلي عن الإحسان فى القول أو العمل . .

والبغي : الجور ، والظلم ، وهضم الحقوق . وهو مجف للعدل والإحسان معا . .

.وقوله تعالى : « يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » هو تنبيه لما تحمل آيات اللّه للناس من آداب . وأحكام ، تدعو إلى الحق ، والخير ، وتذكّر بهما ، وتفتح للعقول الراشدة والقلوب السليمة طريقا إليهما . .

(231/442)

وهذه الآية الكريمة ، تجمع أصول الشريعة الإسلامية كلها . . فهى أقرب شىء إلى أن تكون عنوانا للرسالة لإسلامية ، ولكتابها الكريم ، إذ لا تخرج أحكام الشريعة وآدابها عن هذا المحتوى الذي ضمت عليه تلك الآية : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ » . وما فى كتاب للّه كله هو شرح لما أمر اللّه سبحانه به من العدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وما نهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغي .

قوله تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ » .

العهد : الميثاق ، يكون بين الناس والناس ، أو بين الناس ورب الناس . .

وعهد اللّه . . هو العهد الذي يوثق باسمه ، ويقام تحت ظل سلطانه . .

ونقض العهد : نكثه ، وعدم الوفاء به . .

والكفيل : هو الضامن لما كفل من عهد .

ومعنى الآية الكريمة ، هو أمر ملزم للمؤمنين باللّه بالوفاء بعهد اللّه ، الذي وثقوه باسمه ، وجعلوه كفيلا وضامنا لما عاهدوا عليه . . إذ كان باسمه تعالى أمضى المتعاهدان ما تعاهدا عليه . . فأعطى أحدهما ما تعهّد به وعدا ، وأقام اسم اللّه تعالى كفيلا على هذا الوعد ، وقبل الآخر ما أعطى الأول ، مطمئنا إلى كفالة اللّه ، وإلى أن صاحبه لن يخون عهد اللّه ! وإنه لجرم عظيم أن يعطى الإنسان عهدا باسم اللّه ، ويتخذ من هذا الاسم الكريم مدخلا إلى ثقة الناس به ، واطمئنانهم إليه ، ثم يكون منه غدر وخيانة ! إنه عدوان على اللّه ، ومخادعة باسمه ، وسرقة تحت ستار من جلال اللّه وخشيته . . . !

وتلك جرأة على اللّه ، واستخفاف بقدره ، وليس لمن يتعرض لهذا ، إلا أن ينتظر ما يحلّ به من غضب اللّه ونقمته .

وفى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ » تحذير من نكث العهد ، ومن التلاعب باسم الحق جل وعلا . . فهو ـ سبحانه ـ يعلم من بفي بعهده ، ويعرف لاسمه الكريم جلاله ، ومن لا يوقّر اللّه ، ولا يحفل بالعهد الذي قطعه ، وأشهد اللّه عليه . . واللّه ـ سبحانه ـ غيور على حماء أن يستباح . . فمن استباحه ، فقد أورد نفسه موارد الهالكين . .

قوله تعالى : « وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » .

الغزل : ما يغزل من صوف ، وغيره . . ونقض الغزل : حلّه بعد فتله وغزله ، فيتقطع ، ويتفتت ، ولا يعود إلى مثل حالته الأولى لو أعيد غزله ، كشأن من يبنى ثم يهدم ما بنى . . فلو أراد أن يبنى بما هدم ، لا يستقيم له بناء . .

والأنكاث : جمع نكث ، وهو ما يكون من خيوط النسيج بعد نقضها ، لإعادة غزلها ونسجها ، بعد أن تصبح قطعا مهلهلة .

الدّخل : الفساد . والأمة : الجماعة . وأربى : أكبر قوة ، وأكثر عددا .

وهذا مثل ضربه اللّه سبحانه وتعالى لمن يعطون العهد باسمه تعالى ، ثم ينقضون ما عاهدوا عليه . . فهؤلاء هم أشبه بامرأة خرقاء ، تغزل غزلا محكما ، ثم تعود بعد هذا فتنقض ما غزلته ، وأجهدت نفسها فيه . . وهذا لا يكون من عاقل ، يحترم عقله ، ويعرف لآدميته

قدرها . . وهؤلاء الذين أعطوا العهد باسم اللّه ثم نقضوه ، كانوا قد أحكموا أمرهم ، ووثقوه ثم أفسدوه ، وأحلّوا أنفسهم من هذا الميثاق الذي واثقوا اللّه عليه . .

(233/442)

.وقوله تعالى : « تَتَّخِذُونَ أَيمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » جملة حالية . . فهم إذ يتخذون أيمانهم التي يوثّقون بها العهود بينهم . ثم ينقضونها .هم أشبه بتلك المرأة التي تغزل غزلا ، ثم تعود فتنقضه ، قبل أن تنسجه ، وينتفع به ! وقوله تعالى : « أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ » هو تعليل لنقض العهد ، واتخاذ الأيمان ذريعة للإفساد ، وتلبيس الأمور على الناس ، وذلك أن هذا النكث بالعهد كان ممالأة لجماعة قوية على حساب جماعة ضعيفة . أي أنكم تتخذون أيمانكم التي لا تبرّون بها ، للإفساد لا للإصلاح ، حين تميلون عن الحق ، وتنحازون إلى جانب الأقوياء ، فتنقضون العهد الذي كان بينكم وبين الجانب الضعيف ، لتتحولوا بذلك إلى الجانب القو

وهذه الآية خاصة بحال من أحوال نقض العهد ، وهى تلك الحال التي يكون الداعي فيها إلى نقض العهد هو الميل إلى جانب الأقوياء ، والتخلّي عن جانب الضعفاء ، وذلك بأن يكون الناقض للعهد ، بينه وبين جماعة عهد موثق ، فإذا رأى جماعة أخرى ذات شوكة وقوة

انضمّ إليها ، ونقض عهده الذي كان بينه وبين الجماعة الضعيفة ، غير ملتفت إلى هذا العهد الذي بينه وبينها .

أما ما يتصل بنقض العهود عامة ، فقد جاء فى قوله تعالى بعد هذه الآية :

« وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها . . . الآية » .

.قوله تعالى : « إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ » . . الضمير فى به ، يعود إلى « عهد اللّه » الذي جاء ذكره فى قوله تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ » . . أي أن هذا العهد يقطعه المرء على نفسه ، ويجعل اللّه كفيلا عليه فيه.هذا العهد ، هو ابتلاء من اللّه ، وأمانة من الأمانات التي يطالب الإنسان بصيانتها والوفاء بها . .

فمن وفّى بالعهد فقد أبرأ ذمته ، واستحق الجزاء الحسن من ربه ، ومن نكث ، فهو غريم للّه سبحانه وتعالى ، وسيقتصّ اللّه منه .

قوله تعالى : « وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » . . هو معطوف على محذوف تقديره : « ليعلم » . ومعنى الآية مرتبط بالآية قبلها ، والمعنى : أن اللّه سبحانه وتعالى ، إنما ابتلاكم بهذا التكليف ، وهو الوفاء بالعهود ، ليعلم المفسد من المصلح ،

والناكث للعهد والموفى به ، وليبين لكم يوم القيامة هذا الذي أنتم مختلفون فيه ، يين مفسد ومصلح ، وعاص ومطيع ، وناقص للعهد ، وموف به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن جـ 7 صـ 350 . 354 ﴾

(235/442)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) ﴾

لما جاء أن هذا القرآن تبيان لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين حسن التخلّص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي ، إذ الشريعة كلها أمر ونهي ، والتّقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب ، فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبياناً لكل شيء ، فهي جامعة أصول التّشريع .

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد للاهتام بشأن ما حوته .

وتصديرُهما باسم الجلالة للتّشريف ، وذكر ﴿ يأمر ﴾ ﴿ وينهى ﴾ دون أن يقال : اعدلوا واجتنبوا الفحشاء ، للتّشويق .

ونظيره ما في الحديث " إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً " الحديث .

والعدل : إعطاء الحقّ إلى صاحبه .

وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المُعاملات ، إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته ، قال تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [سورة البقرة : 191] ، ومأمور بالعدل في المعاملة ، وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه ؛ ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائلية والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال ، قال تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ [سورة الأنعام : 152] ، وقال تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ وقد تقدم في سورة النساء (58) .

ومن هذا تفرّعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب ، وحقوق وأقضية ، وشهادات ، ومعاملة مع الأمم ، قال تعالى : ﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [سورة المائدة : 8] .

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلّة الشريعة .

فالعدل هنا كلمة مُجملة جامعة فهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكّة ، فيصار فيها إلى ما هو مقرّر بين الناس في أصول الشرائع وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء ، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوّة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية .

وأما الإحسان فهو معاملة بالحسنى ممن لا يلزمه إلى من هو أهلها .

والحسَن : ما كان محبوباً عند المعامَل به ولم يكن لازماً لفاعله ، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى مما فسّره النبي بقوله : الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ودون ذلك التقرّب إلى الله بالنوافل .

ثم الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب ، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف إلا ما حُرم الإحسانَ بحكم الشرع .

ومن أدْنى مراتب الإحسان ما في حديث الموطأ : "أن امرأة بَغِيّا رأت كلباً يلهث من العطش يأكل الثّرى فنزعت خُفَّها وأدْلَتْه في بئر ونزعت فسقته فغفر الله لها" .

وفي الحديث " إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبْحة " .

ومن الإحسان أن يجازي المحسَنُ إليه المحسِن على إحسانه إذ ليس الجزاء بواجب .

فإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع آداب المعاشرة كلها في العائلة والصحبة .

والعفوُ عن الحقوق الواجبة من الإحسان لقوله تعالى : ﴿ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين ﴾ [سورة آل عمران : 134] .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ في سورة الأنعام (151) .

وخَصّ الله بالذّكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعاً مُهمّاً يكثر أن يغفل الناس عنه ويتهاونوا بحقّه أو بفضله ، وهو إيتاء ذي القربى فقد تقرّر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعدِ واتّقاء شرّه ، كما تقرّر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعوّد التساهل في حقوقه .

(237/442)

ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليهم ، قال تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ [سورة النساء : 2] ، وقال : ﴿ وآت ذا القربى حقّه ﴾ [سورة الإسراء : 26] ، وقال : ﴿ وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء ﴾ [سورة النساء : 127] الآية .

ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحمدة وحسن الذّكر بين الناس .

ولم يزل هذا الخلق متفشّياً في الناس حتى في الإسلام إلى الآن ولا يكترثون بالأقربين .

وقد كانوا في الجاهلية يقصدون بوصايا أموالهم أصحابهم من وجوه القوم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ﴾ [سورة البقرة : 180] .

فخصّ الله بالذكر من بين جنس العدل وجنس الإحسان إيتاء المال إلى ذي القربى تنبيهاً للمؤمنين يومئذٍ بأن القريب أحقّ بالإنصاف من غيره .

وأحقّ بالإحسان من غيره لأنه محل الغفلة ولأن مصلحته أجدى من مصلحة أنواع كثيرة .

وهذا راجع إلى تقويم نظام العائلة والقبيلة تهيئةً بنفوس الناس إلى أحكام المواريث التي شرعت فيما بعد .

وعطف الخاص على العام اهتماماً به كثير في الكلام ، فإيتاء ذي القربى ذو حكمين : وجوب لبعضه ، وفضيلة لبعضه ، وذلك قبل فرض الوصية ، ثم فرض المواريث .

وذو القربى : هو صاحب القرابة ، أي من المؤتي .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ في سورة الأنعام (152) .

والإيتاء الإعطاء .

والمراد إعطاء المال ، قال تعالى : ﴿ قال أتمدّونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ [

سورة النمل : 76] ، وقال : ﴿ وآتى المال على حبّه ﴾ [سورة البقرة : 177] .

ونهى الله عن الفحشاء والمنكر والبغي وهي أصول المفاسد .

فأما الفحشاء : فاسم جامع لكل عمل أو قول تستفظعه النفوس لفساده من الآثام التي تفسد نفس المرء : من اعتقاد باطل أو عمل مفسد للخلق ، والتي تضرّ بأفراد الناس بحيث تلقي فيهم الفساد من قتل أو سرقة أو قذف أو غصب مال ، أو تضرّ بحال المجتمع وتدخل عليه الاضطراب من حرابة أو زنا أو تقامر أو شرب خمر .

فدخل في الفحشاء كل ما يوجب اختلال المناسب الضروري ، وقد سمّاها الله الفواحش .

وتقدم ذكر الفحشاء عند قوله تعالى : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ في سورة البقرة (169) ، وقوله : ﴿ قل إنما حرّم ربّي الفواحش ﴾ في سورة الأعراف (33) وهي مكية .

وأما المنكر فهو ما تستنكره النفوس المعتدلة وتكرهه الشريعة من فعل أو قول ، قال تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ [سورة المجادلة : 2] ، وقال : ﴿ وتأتون في

ناديكم المنكر ﴾ [سورة العنكبوت : 29] .

والاستنكار مراتب ، منها مرتبة الحرام ، ومنها مرتبة المكروه فإنه منهيّ عنه .

وشمل المنكر كل ما يفضي إلى الإخلال بالمناسب الحاجي ، وكذلك ما يعطّل المناسب التحسيني بدون ما يفضي منه إلى ضرّ .

وخصّ الله بالذّكر نوعاً من الفحشاء والمنكر ، وهو البغي اهتماماً بالنّهي عنه وسدّاً لذريعة وقوعه ، لأن النفوس تنساق إليه بدافع الغضب وتغفل عما يشمله من النهي من عموم الفحشاء بسبب فُشُوّه بين الناس ؛ وذلك أن العرب كانوا أهل بأس وشجاعة وإباء ، فكانوا يكثر فيهم البغي على الغير إذا لقي المُعجَب بنفسه من أحد شيئاً يكرهه أو معاملةً يعُدّها هضيمة وتقصيراً في تعظيمه .

وبذلك كان يختلط على مُريد البغي حُسْنُ الذبّ عما يسمّيه الشرف وقُبْحُ مجاوزة حدّ الجزاء .

فالبغيُ هو الاعتداء في المعاملة ، إما بدون مقابلة ذنب كالغارة التي كانت وسيلة كسب في الجاهلية ، وإما بمجاوزة الحدّ في مقابلة الذنب كالإفراط في المؤاخذة ، ولذا قال تعالى : ﴿

فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله ﴾ [سورة البقرة : 194] .

وقال : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغِيَ عليه لينصرنّه الله ﴾ [سورة الحج : 60] .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ والإثم والبغي بغير الحقّ ﴾ في سورة الأعراف (33) .

فهذه الآية جمعت أصول الشريعة في الأمر بثلاثة ، والنهي عن ثلاثة ، بل في الأمر بشيئين وتكملة ، والنّهي عن شيئين وتكملة .

روى أحمد بن حنبل : أن هذه كانت السبب في تمكّن الإيمان من عثمان بن مظعون ، فإنها لما نزلت كان عثمان بن مظعون بجانب رسول الله وكان حديثَ الإسلام ، وكان إسلامه حياءً من النبي وقرأها النبي عليه .

قال عثمان : فذلك حين استقرّ الإيمان في قلبي .

وعن عثمان بن أبي العاص : كنت عند رسول الله جالساً إذ شخص بصره ، فقال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ الآية أ هـ .

وهذا يقتضي أن هذه الآية لم تنزل متّصلة بالآيات التي قبلها فكان وضعها في هذا الموضع صَالحاً لأن يكون بياناً لآية ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ [سورة النحل : 89] الخ ، ولأن تكون مقدّمة لما بعدها ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ [سورة

النحل : 91] الآية .

وعن ابن مسعود : أن هذه الآية أجمع آية في القرآن .

وعن قتادة : ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به في هذه الآية ، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدح فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها .

وروى ابن ماجه عن عليّ قال : أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، فخرج ، فوقف على مجلس قوم من شيبان بن ثعلبة في الموسم .

فدعاهم إلى الإسلام وأن ينصروه ، فقال مفروق بن عمرو منهم : إلاَم تدعونا أخا قريش ، فتلا عليهم رسول الله : إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية .

فقال : دعوتَ والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك .

وقد روي أن الفقرات الشهيرة التي شهد بها الوليد بن المغيرة للقرآن من قوله : "إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بكلام بشر" قالها عند

سماع هذه الآية .

وقد اهتدى الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى ما جمعته هذه الآية من معاني الخير فلما استخلف سنة 99 كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه الآية في الخطبة يوم الجمعة وتُجعل تلاوتها عوضاً عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات سبّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

وفي تلاوة هذه الآية عوضاً عن ذلك السبّ دقيقة أُنها تقتضي النّهي عن ذلك السبّ إذ هو من الفحشاء والمنكر والبغي .

ولم أقف على تعيين الوقت التي ابتدع فيه هذا السبّ ولكنه لم يكن في خلافة معاوية رضي الله عنه .

وفي "السيرة الحلبية" أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ألّف كتاباً سماه "الشجرة" بيّن فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية وسمّاه السبكي في الطبقات "شجرة المعارف" .

وجملة ﴿ يعظكم ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة .

والوعظ : كلام يقصد منه إبعاد المخاطب به عن الفساد وتحريضه على الصلاح .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ في سورة النساء (63) .

والخطاب للمسلمين لأن الموعظة من شأن من هو محتاج للكمال النفساني ، ولذلك قارنها

بالرجاء بلعلكم تذكّرون ﴾ .

والتذكر : مراجعة المنسيّ المغفول عنه ، أي رجاء أن تتذكروا ، أي تتذكروا بهذه الموعظة ما اشتملت عليه فإنها جامعة باقية في نفوسكم .

(241/442)

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) ﴾

لما أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [سورة النحل : 90] .

فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنّن القرآن ، وأوضح لهم أنهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبيّن لكل شيء .

لا جرم ذكرهم الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عندما أسلموا ، وهو ما بايعوا عليه النبي مما فيه : أن لا يعصوه في معروف .

وقد كان النبي يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكّة .

وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى ، مثل النّصرة التي بايع عليها الأنصار

ليلة العقبة ، ومثل بيعة الحديبية .

والخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة ، وإضافة العهد إلى الله لأنهم عاهدوا النبي على الإسلام الذي دعاهم الله إليه ، فهم قد عاهدوا الله كما قال : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [سورة الفتح : 10] ، وقال : ﴿ من المؤمنين رجال صَدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [سورة الأحزاب : 23] .

والمقصود : تحذير الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من أن ينقضوا عهد الله .

و﴿ إذا ﴾ لمجرّد الظرفية ، لأنّ المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة ، فالإتيان باسم الزمان لتأكيد الوفاء .

فالمعنى : أن من عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد .

والقرينة على ذلك قوله : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ [سورة النحل : 91] والعهد : الحلف .

وتقدّم في قوله تعالى : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ .

وكذلك النقض تقدم في تلك الآية ، ونقض الأيمان : إبطال ما كانت لأجله .

فالنقض إبطال المحْلوف عليه لا إبطال القسم ، فجُعِل إبطال المحلوف عليه نقضاً لليمين في قوله : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ تهويلاً وتغليظاً للنّقض لأنه نقض لحرمة اليمين .

و﴿ بعد توكيدها ﴾ زيادة في التحذير ، وليس قيْداً للنهي بالبعدية ، إذ المقصود أيمان معلومة وهي أيمان العهد والبيعة ، وليست فيها بعدية .

و﴿ بعد ﴾ هنا بمعنى (مع) ، إذ البعدية والمعيّة أثرهما واحد هنا ، وهو حصول توثيق الأيمان وتوكيدها ، كقول الشميذر الحارثي:

بني عمّنا لا تذكروا الشعر بعدما . . .

دفنتم بصحراء الغُمَيْر القوافيا

أي لا تذكروا أنّكم شعراء وأن لكم شعراً ، أو لا تنطقوا بشعر مع وجود أسباب الإمساك عنه في وقعة صحراء الغُمير ، وقوله تعالى : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ [سورة الحجرات : 11] ، وقوله : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

والتّوكيد : التوثيق وتكرير الفتل ، وليس هو توكيد اللفظ كما توهّمه بعضهم فهو ضدّ النقض .

وإضافته إلى ضمير الأيمان ﴾ ليس من إضافة المصدر إلى فاعله ولا إلى مفعوله إذ لم يقصد بالمصدر التجدّد بل الاسم ، فهي الإضافة الأصلية على معنى اللام ، أي التوكيد الثابت لها المختصّ بها .

والمعنى : بعد ما فيها من التوكيد ، ويبّنه قوله : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ .

والمعنى : ولا تنقضوا الأيمان بعد حلفها .

وليس في الآية إشعار بأن من اليمين ما لا حرج في نقضه ، وهو ما سمّوه يمين اللّغو ، وذلك انزلاق عن مهيع النظم القرآني .

ويؤيّد ما فسرناه قوله : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ الواقع موقع الحال من ضمير ﴿ لا تنقضوا ﴾ ، أي لا تنقضوا الأيمان في حال جعلكم الله كفيلاً على أنفسكم إذا أقسمتم باسمه ، فإن مدلول القسم أنه إشهاد الله بصدق ما يقوله المقسم : فيأتي باسم الله كالإتيان بذات الشاهد .

(243/442)

ولذلك سُمّيَ الحلف شهادة في مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ﴾ [سورة النور : 6] .

والمعنى أن هذه الحالة أظهر في استحقاق النّهي عنها .

والكفيل : الشاهد والضامن والرقيب على الشيء المراعى لتحقيق الغرض منه .

والمعنى : أن القسم باسم الله إشهاد لله وكفالة به .

وقد كانوا عند العهد يحلفون ويشهدون الكفلاء بالتنفيذ ، قال الحارث بن حلّزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُ . . .

دّم فيه العهود والكفلاء

و ﴿ عليكم ﴾ متعلّق بـ ﴿ جعلتم ﴾ لا بـ ﴿ كفيلاً ﴾ أي أقمتموه على أنفسكم مقام الكفيل ، أي فهو الكفيل والمكفول له من باب قولهم : أنت الخصم والحكم ، وقوله تعالى :

﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ [سورة التوبة : 118] .

وجملة ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ معترضة .

وهي خبر مراد منه التحذير من التساهل في التمسّك بالإيمان والإسلام لتذكيرهم أن الله يطّلع على ما يفعلونه ، فالتوكيد بـ ﴿ إن ﴾ للاهتمام بالخبر .

وكذلك التأكيد ببناء الجملة بالمسند الفعلي دون أن يقال : إن الله عليم ، ولا : قد يعلم الله .

واختير الفعل المضارع في ﴿ يعلم ﴾ وفي ﴿ تفعلون ﴾ لدلالته على التجدّد ، أي كلما فعلوا فعلاً فالله يعلمه .

والمقصود من هذه الجمل كلها من قوله : ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ إلى هنا تأكيد الوصاية بحفظ عهد الأيمان .

وعدم الارتداد إلى الكفر ، وسدّ مداخل فتنة المشركين إلى نفوس المسلمين ، إذ يصدّونهم

عن سبيل الإسلام بفنون الصدّ ، كقولهم : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ [سورة سبأ : 35] ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ وقد تقدم ذلك في سورة الأنعام (53) .

ولم يذكر المفسّرون سبباً لنزول هذه الآية ، وليست بحاجة إلى سبب .

(244/442)

وذكروا في الآية الآتية وهي قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ [سورة النحل : 106] أن آية ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ إلى آخرها نزلت في الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان لما فتنهم المشركون كما سيأتي ، فجعلوا بين الآيتين اتصالاً .

قال في "الكشاف" : كأن قوماً ممن أسلم بمكة زَيّنَ لهم الشيطان لجزعهم ما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم ، ولِمَا كانوا يَعِدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبّتهم الله اه .

يريد أن لهجة التحذير في هذا الكلام إلى قوله : ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ [سورة النحل : 92] تنبىء عن حالة من الوسوسة داخلت قلوب بعض حديثي الإسلام فنبّأهم الله بها

وحذّرهم منها فسلموا .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾

تشنيع لحال الذين ينقضون العهد .

وعطف على جملة ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ [سورة النحل : 91] .

واعتمد العطف على المغايرة في المعنى بين الجملتين لما في هذه الثانية من التمثيل وإن كانت

من جهة الموقع كالتوكيد لجملة ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ .

نُهوا عن أن يكونوا مَضْرِب مثل معروف في العرب بالاستهزاء ، وهو المرأة التي تَنقض غزلها

بعد شَدّ فتله .

فالتي نقضت غزلها امرأة اسمها رَيطة بنت سعد التيمية من بني تيم من قريش .

وعُبّر عنها بطريق الموصولية لاشتهارها بمضمون الصّلة ولأن مضمون الصّلة ، هو الحالة

المشبّه بها في هذا التمثيل ، ولأن القرآن لم يذكر فيه بالاسم العلم إلا من اشتهر بأمر عظيم

مثل جالوت وقارون .

وقد ذُكر من قصّتها أنها كانت امرأة خرقاء مختلّة العقل ، ولها جوارٍ ، وقد اتّخذت مِغْزلاً قدر ذراع وصِنّارَة مثل أصبع وَفَلْكَةً عظيمة على قدر ذلك ، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فتنقض ما غزلته ، وهكذا تفعل كل يوم ، فكان حالها إفساد ما كان نافعاً محكماً من عملها وإرجاعه إلى عدم الصلاح ، فنهوا عن أن يكون حالهم كحالها في نقضهم عهد الله وهو عهد الإيمان بالرجوع إلى الكفر وأعمال الجاهلية .

ووجه الشّبه الرجوع إلى فساد بعد التلّبس بصلاح .

والغزل : هنا مصدر بمعنى المفعول ، أي المغزول ، لأنه الذي يقبل النقض .

والغَزل : فتل نتف من الصوف أو الشعر لتُجعل خيوطاً محكمة اتصال الأجزاء بواسطة إدارة آلة الغَزل بحيث تلتفّ النتف المفتولة باليد فتصير خيطاً غليظاً طويلاً بقدر الحاجة ليكون سَدًى أو لُحْمَة للنسج .

والقوة : إحكام الغزل ، أي نقضته مع كونه محكم الفتل لا موجب لنقضه ، فإنه لو كان فتله غير محكم لكان عذرٌ لنقضه .

والأنكاث بفتح الهمزة : جمع نِكْث بكسر النّون وسكون الكاف أي منكوث ، أي منقوض ، ونظيره نِقض وأنقاض .

والمراد بصيغة الجمع أن ما كان غزلاً واحداً جعلتْه منقوضاً ، أي خيوطاً عديدة .

وذلك بأن صيّرته إلى الحالة التي كان عليها قبل الغزل وهي كونه خيوطاً ذات عدد .

وانتصب ﴿ أنكاثاً ﴾ على الحال من ﴿ غزلها ﴾ ، أي نقضته فإذا هو أنكاث .

وجملة ﴿ تتخذون أيمانكم ﴾ حال من ضمير ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ [سورة النحل : 91] .

والدخَل بفتحتين : الفساد ، أي تجعلون أيمانكم التي حلفتموها .

.

والدّخل أيضاً : الشيء الفاسد .

ومن كلام العرب : تَرى الفتيان كالنخْل وما يدريك ما الدَخْل (سكن الخاء لغةً أو للضرورة إن كان نظماً ، أو للسجع إن كان نثراً) ، أي ما يدريك ما فيهم من فساد .

(246/442)

والمعنى : تجعلون أيمانكم الحقيقة بأن تكون معظّمة وصالحة فيجعلونها فاسدة كاذبة ، فيكون وصف الأيمان بالدّخل حقيقة عقلية ؛ أو تجعلونها سبب فساد بينكم إذ تجعلونها وسيلة للغَدر والمكر فيكون وصف الأيمان بالدّخل مجازاً عقلياً .

ووجه الفساد أنها تقتضي اطمئنان المتحالفين فإذا نقضها أحد الجانبين فقد تسبّب في الخصام والحقد .

وهذا تحذير لهم وتخويف من سوء عاقبة نقض اليمين ، وليس بمقتضٍ أن نقضاً حدَث فيهم .

و ﴿ أن تكون أمة ﴾ معمول للام جرّ محذوفة كما هو غالب حالها مع ﴿ أنْ ﴾ .

والمعنى التعليل ، وهو علّة لنقض الأيمان المنهيّ عنه ، أي تنقضون الأيمان بسبب أن تكون أمّة أربى من أمّة ، أي أقوى وأكثر .

والأمّة : الطائفة والقبيلة .

والمقصود طائفة المشركين وأحْلافهم .

و ﴿ أربى ﴾ : أزيد ، وهو اسم تفضيل من الرُّبوّ بوزن العُلوّ ، أي الزيادة ، يحتمل الحقيقة أعني كثرة العدد ، والمجاز أعني رفاهية الحال وحسن العيش .

وكلمة ﴿ أربى ﴾ تعطي هذه المعاني كلها فلا تَعد لها كلمة أخرى تصلحُ لجميع هذه المعاني ، فوقعها هنا من مقتضى الإعجاز .

والمعنى : لا يبعثكم على نقض الأيمان كونُ أمّة أحسن من أمّة .

ومعلوم أن الأمّة التي هي أحسن هي المنقوض لأجلها وأن الأمّة المفضولة هي المنفصَل عنها ، أي لا يحملكم على نقض الحلف أن يكون المشركون أكثر عدداً وأموالاً من المسلمين فيبعثكم ذلك على الانفصال عن جماعة المسلمين وعلى الرجوع إلى الكفّار .

وجملة ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً للتعليل بما يقتضي الحكمة ، وهو أن

ذلك يبتلي الله به صدق الإيمان كقوله تعالى : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ [سورة الأنعام : 165] .

والقصر المستفاد من قوله تعالى : إنما يبلوكم الله به ﴾ قصر موصوف على صفة .

والتقدير : ما ذلك الرُبُوّ إلا بلوى لكم .

والبَلْو : الاختبار .

ومعنى إسناده إلى الله الكناية عن إظهار حال المسلمين .

(247/442)

وله نظائر في القرآن .

وضمير ﴿ به ﴾ يعود إلى المصدر المنسبك من قوله : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ .

ثم عطف عليه تأكيدُ أنه سيبيّن لهم يوم القيامة ما يختلفون فيه من الأحوال فتظهر الحقائق كما هي غير مغشّاة بزخارف الشّهوات ولا بمكاره مخالفة الطباع ، لأن الآخرة دار الحقائق لا لبس فيها ، فيومئذٍ تعلمون أنّ الإسلام هو الخير المحض وأن الكفر شرّ محض .

وأكّد هذا الوعد بمؤكّدين : القسم الذي دلّت عليه اللام ونون التوكيد .

ثم يظهر ذلك أيضاً في ترتّب آثاره إذ يكون النعيم إثر الإيمان ويكون العذاب إثر الشرك ، وكل ذلك بيان لما كانوا مختلفين فيه في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(248/442)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

للحق تبارك وتعالى في هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذي القُرْبى .

وثلاثة نَواهٍ : عن الفحشاء والمنكر والبغي . ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه الآية لأنها جمعتْ كل الفضائل التي يمكن أن تكون في القرآن الكريم .

" ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب له أن يُسلِم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحب عَرْض الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشِيَماً تحسن في الإسلام .

وكأنه صلى الله عليه وسلم ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون في غير مسلم ، لذلك كان حريصاً

على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث في الأمر، إلى أن جلس مع الرسول صلى الله عليه وسلم في مجلس، فرآه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه، فقال له ابن مظعون: ما حدث يا رسول الله؟ فقال: إن جبريل عليه السلام قد نزل عليَّ الساعة بقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90].

قال ابن مظعون رضي الله عنه: فاستقر حبُّ الإيمان في قلبي بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير.

ثم ذهب فأخبر أبا طالب، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون في هذه الآية قال: يا معشر قريش آمِنُوا بالذي جاء به محمد، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق".

"ويُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعرض نفسه على قبائل العرب، وكان معه أبو بكر وعلي، قال علي: فإذا بمجلس عليه وقار ومهابة، فأقبل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام إليه

مقرون بن عمرو وكان من شيبان ابن ثعلبة فقال : إلى أي شيء تدعونا يا أخا قريش ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 90] .

فقال مقرون : إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، أفِكتْ قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك " .

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبي جهل ، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له : إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا ، فأفكر الوليد بن المغيرة أي : فكَّر فيما سمع وقال : والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما هو بقول بشر .

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن ، فقالوا : حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر .

وهكذا دخلتْ هذه الآية قلوبَ هؤلاء القوم ، واستقرتْ في أفئدتهم ؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ ، دعَتْ لكل خير ، ونَهتْ عن كل شر .

قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل . . ﴾ [النحل : 90] .

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين

، لذلك سُمِّي الحاكم العادل مُنْصِفاً ؛ لأنه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه ، وكأنه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان ، والميزان تختلف دِقّته حَسْب الموزون ، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلّ زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً في الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر في كل أقضية الحياة من القمة في شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب في أمور التكليف كلها ، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب ، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح في حركة الحياة .

فكيف يكون العدل في الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود إله في الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة ، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء ، فجاء العدل في الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنزّه عمّا يُشبه الحوادث ، كما

وقف موقفَ العدل في صفاته سبحانه وتعالى .

فلله سَمْع ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا ننفي عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطّلة ، ولا نُشبّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة ، بل نقول : ليس كمثله شيء ، ونقف موقف العَدْل والوسطية .

كذلك من الأمور العقدية التي تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه في أعمال العبد ؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً . ومن يقول : لا ؛ بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها .

فيأتي الإسلام بالعدالة والوسطية في هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التي خلقها الله فيه للاختيار .

وفي التشريع والأحكام حدث تباُين كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام في القصاص مثلاً : في شريعة موسى حيث طغتْ المادية على بني إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً . . ﴾ [النساء : 153] .

فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم القِصَاص ولا بُدَّ ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكَثُر فيهم القتل ، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع : مَنْ قَتَل يُقتلُ ، والقتل أَنْفى للقتل .

وقد تعدّى بنو إسرائيل في طلبهم رؤية الله ، فكوْنُك ترى الإله تناقض في الألوهية ؛ لأنك حين تراه عينُك فقد حددّتَه في حيّز .

إذن : كونه لا يرى عَيْن الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع في رؤيته جَلَّ وعلاَ ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التي بين جَنْبي كل مِنّا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها في الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكّر ، وبها نعيش ، أين هي ؟ !

فإذا ما فارقتْ الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس في موارانها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأي حاسّة من حواسِّك ؟ !

فإذا كانت الروح وهي مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمَنْ خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تُدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنًى من المعاني التي يدّعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها ، هذا الحق ما شَكْله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟ ! فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع في رؤيته ؟ !

ومن إسراف بني إسرائيل في المادية أن جعلوا لله تعالى في التلمود جماعة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قاعداً على صخرة يُدلي رِجْليْه في قصعة من المرمر ، ثم أتى حوت . . الخ . . سبحان الله ؛ ألهذا الحدّ وصلتْ بهم المادية ؟

(252/442)

ومن هنا كان الكون في حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هي أيضاً مُسرفة في الروحانية ليحدث نوع من التوازن في الكون ، فجاءت شريعة عيسى عليه السلام بعد مادية مُفْرطة وإسراف في الموسَوية ، فكيف يكون حُكْم القصاص فيها وهي تهدف إلى أنْ تسموَ بروحانيات الناس ؟

جاءت شريعة عيسى عليه السلام تُهدّيء الموقف إذا حدث قتل ، فيكفي أن قُتِل واحد ولنستبقي الآخر ولا نثير ضجّة ، ونهيج الأحقاد والترة بين الناس ، فدَعَتْ هذه الشريعة إلى العفو عن القاتل .

ثم جاء الإسلام ووقف موقف العدل والوسطية في هذا الحكم ، فأقرّ القصاص ودعا إلى العفو ، فأعطى وليّ المقتول حَقّ القصاص ، ودعاه في نفس الوقت إلى العفو في قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . . ﴾ [البقرة :

. [178

ونلاحظ هنا أن القرآن جعلهم إخوة لِيُرقّق القلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص في الإسلام حكَم عالية ، فليس الهدف منه أن يُضخّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ يا أولي الألباب ﴾ [البقرة : 179] .

فمن أراد أنْ يحافظَ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينما يُعطي ربُّنا تبارك وتعالى حقّ القصاص لوليّ المقتول ويُمكّنه منه تبردُ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر في العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الغِلَّ من الصدور ويُطفِيء نار الثأر بين الناس .

ولذلك نرى في بعض البلاد التي تنتشر فيها عملية الثأر يأتي القاتل حاملاً كفنه على يده إلى وليّ المقتول ، ويضع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديْك اقتلني وهذا كفِني .

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق ووليّ الدم ، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من وليّ الدم أداةُ بِنَاء ، ووسيلة محبة ، فحين نعطيه حَقّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصبحت حياة القاتل هبةً من وليّ الدم ، فكأنه استأثره واستبقاه بعفوه عنه ، وهذا جميل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حَقَن دم ابننا .

موقف آخر لعدالة الإسلام ووسطيته نراها في حُكْم الحيض مثلاً ، ففي شريعة موسى عليه السلام يُخرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفي شريعة عيسى عليه السلام لا مانع من وجودها في البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل في هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض في بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآءَ فِي المحيض وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله إِنَّ الله يُحِبُّ التوابين وَيُحِبُّ المتطهرين ﴾ [البقرة : 222] .

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية في حياتنا ، والتي هي عصب الحياة ، والتي بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملْبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكُل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث في المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ،

وما يعرفه الكل يَخدمني به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذي تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتُراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ في حركة الحياة واكتسبتَ المال الذي هو عصبُ الحياة فعليك أن تُوازنَ بين متطلباتك العاجلة وآمالك في المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبت في نفقاتك الحاضرة فقد ضيَّعتَ على نفسك تحقيق الآمال في المستقبل ، فلن تجد ما تبني به بيتاً مثلاً أو تشتري به سيارة ، أو ترتقي بمستواك ببعض كماليات الحياة . وهذا ما نسميه الإسراف .

وفي المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء ، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسِك الرمَق ؛ لأنك في هذه الحالة لن تساهم في عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً في بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾

[الإسراء : 29] .

أي : لا تُمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون ملُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقَّق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقّى هو في حياته وأنت مُعْدم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدّخر جُزْءاً من كَسْبك يمكنك أن ترتقي به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى : ﴿ إنَّ المبذرين كانوا إخْوانَ الشياطين ﴾ [الإسراء : 27] .

وقال : ﴿ والذين إِذآ أَنفقوا لَمْ يُسْرِفوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَان بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] .

إذن : فالعَدْل أمر دائر في كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عَقَدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال في حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْر الأمور الوسط .

وقوله : ﴿ والإحسان . . ﴾ [النحل : 90] .

ما الإحسان؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك ، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ . . ﴾ [البقرة : 194] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . ﴾ [النحل : 126] .

فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحق ، وأنْ تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] .

والناس في الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستِعداده الخُلُقي .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كَظْم القِرْبة المملوءة ، فالإنسان يكظم غَيْظه في نفسه ، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والردّ بالمثل ، ولكنه يظل يعاني ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره في قلبه .

لذلك يحسُن الترقي إلى المرتبة الأعلى ، وهي مرتبة العفو ، فيأتي الإنسان ويقول : لماذا أدَعْ نفسي فريسة لهذا الغيظ ؟ لماذا أشغل به نفسي ، وأُقَاسي ألمه ومرارته ؟ فيميل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمَّنْ أساء إليه ، ويُخرِج المسألة كلها من قلبه .

فإنِ ارتقى الإنسان في العفو ، سعى المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردِّ بالمثل ، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ، فالذي اعتدى اعتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسبه ، والذي ترقّى في درجات الإحسان ترك

الأمر لقدرة الله تعالى ، وأين قدرتُك من قدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسان اجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أنْ تعفوَ عمَّنْ أساء ، بل إلى أنْ تُحسِن إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولدين اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيهما يميل قلبك ؟

لا شكَّ أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه ، وقد يتعدَّى الأمر إلى أنْ تُرضيه بهدية وتُربه من حنانك وألطافك ما يُذهِب عنه ما يُعاني ، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهي التي عطفَتْ قلبك إليه ، وعادتْ عليه بالهدايا والألطاف .

إذن : من الطبيعي أنْ يُحسِنَ المعتَدى عليه إلى المعتدِي ، وأنْ يشكرَ له أنْ تسبَّب له في هذه النعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصري رحمه الله : أفلا أُحسِن لمن جعل الله في جانبي ؟

فالإحسان : أنْ تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكونَ من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبَّدنا الله به ، فمثلاً تعبدنا الله بخمس صلوات في اليوم والليلة فلا مانعَ من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر في الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا

يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسان في الكيفية دون زيادة في العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أُحسِن ما أنا بصدده من الفرْض ، وأُتقِن ما أنا فيه من العمل ، وأُخلِص في ذلك عملاً بحديث جبريل عليه السلام حينما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، فقال : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك " .

فعليك أن تستحضر في عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإنْ لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقلّ من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأنْ تُعطي العبادة حقّها ولا تسرق منها ، فاللصُّ لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه ، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين ، أيليق بنا أنْ نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا ؟ !

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي : " يا عبادي ، إنْ كنتم تعتقدون أنِّي لا أراكم فالخلَل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أني أراكم ، فلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم ؟ " .

وقال بعضهم في معنى العدل والإحسان :

العدل : أن تستوي السريرة مع العلانية .

والإحسان : أن تعلو السريرة وتكون افضل من العلانية .

والمنكر : إنْ علَتْ العلانية على السريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيتَآءِ ذِي القربى ﴾ [النحل : 90] .

إيتاء : أي إعطاء .

قالوا : لأن العالم حَلَقات مقترنة ، فكل قادر حوله أقرباء ضُعَفاء محتاجون ، فلو أعطاهم من خيْره ، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه لَعَمَّ الخير كل المجتمع ، وما وجدنا مُعْوزاً محتاجاً ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعطي مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى في مجتمعنا فقيراً ، وقد حثتْ الآية على القريب ، وحنَّنَتْ عليه القلوب ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل في دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قرابة النبي صلى الله عليه وسلم حرَّمتْ عليهم الزكاة التي أُحِلَّت لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مَيْزة يمتازون بها عن قرابة

الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى الزكاة ، وإنْ كان أقرباؤكم أصحابَ رحم ، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلى من أرحامكم ، كما قال تعالى :

﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ . . ﴾ [الأحزاب : 6] .

هذه هي مجموعة الأوامر الواردة في هذه الآية ، وإنّ مجتمعاً يُنفّذ مثل هذه الأوامر ويتحلَّى بها أفراده ، مجتمع ترتقي فيه الاستعدادات الخُلقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع تعمُّ فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمِنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي . . ﴾ [النحل : 90] .

وهذه مجموعة من النواهي تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قويماً يضمن سلامة المجتمع

، وأُولى هذه النواهي النهي عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذي سماه القرآن فاحشة ، فهي إذن الزنا ، أو كل شيء يخدش حُكْماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلَّق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنَسُ الأعراض ، وبه يشكُّ الرجل في أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32] .

ومن أقوال العلماء في الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذي يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصحّ ، ولا ينبغي لأحد أن يطلع عليه .

(والمنكر) هو الذنب يتجرّأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرَّج أن يعرفه المجتمع فيستره في نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية : ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .

(والبغْي) هو الظلم في أيّ لَوْنٍ من ألوانه ، وهو داخل في أشياء كثيرة أعظمها ما يقع في العقيدة من الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

(259/442)

والظلم هنا أنْ تسلبَ الحق تبارك وتعالى صِفة من صفاته ، وتشرك معه غيره وهو خلقك ورزقك ، ومنه ظلم الرسول صلى الله عليه وسلم حيث لم يُجرَّب عليه في يوم من الأيام أنْ قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما لم يُجرِّب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة ، ومع هذا كله قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون ، وأيُّ ظلم أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسان لنفسه حينما يُحقّق لها شهوة عاجلة ومُتعةً زائفة ، تُورثه ندماً وحَسْرة وألماً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجرّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمتْ مجموعة من الأوامر والنواهي التي تضمن سلامة المجتمع بما جمعتْ من مكارم الأخلاق ، والأخلاق أعمّ من أن تكون في الاعتقادات ، وأعمُّ من أن تكون في المعجزة إيماناً بها ، وأعمّ من أن تكون في التكاليف ، وأعمُّ من أن تكون في أمر لا حَدّ فيه ولا

حُكْمَ ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعِظُكُمْ . . ﴾ [النحل : 90] .

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكي نعرفه ، ولكنه عُرْضة لأنْ نغفلَ عنه ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العِظَة إلا فيما له قيمة ، وما دام الشيء له قيمة فلا تصطفي له إلا مَنْ تحب ، كذلك الحق تبارك وتعالى يحب خَلْقه وصَنْعته ؛ لذلك يَعِظهم ويُذكّرهم باستمرار لكي يكونوا دائماً على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبِّب في الآخرة ، كما تمتعوا بنعمة الأسباب في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ . . . . ﴾ .

الوفاء : أنْ تفِيَ بما تعاهدتَ عليه ، والعهود لا تكون في المفروض عليك ، إنما تكون في المباحات ، فأنت حُرٌّ أن تلقاني غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً في الساعة كذا ومكان كذا فقد تحوّل الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كُلٌّ مِنّا ملزماً

بأن يفي بعهده ؛ لأن كل واحد مِنّا عطَّل مصالحه ورتَّب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أنْ يفي أحدنا ويُخلِف الآخر ، لأن ذلك يتسبب في عدم تكافؤ الفُرص ، ومعلوم أن مصالح العبادِ في الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

وقد ينظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه مُلْزَمٌ به وحده ، أو أنه عِبْءٌ عليه دون غيره ، لكنه في الحقيقة عليك وعلى غيرك ، فكما طلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين ، فكلّ تكليف لك لا تنظر إليه هذه النظرة ، بل تنظر إليه على أنه لصالحك .

فمن أخذ التكليف وأحكام الله من جانبه فقط يتعب ، فالحق تبارك وتعالى كما كلفك لصالح الناس فقد كلَّف الناس جميعاً لصالحك ، فحين نهاك عن السرقة مثلاً إياك أنْ تظنَّ أنه قيّد حريتك أمام الآخرين ؛ لأنه سبحانه نهى جميع الناس أن يسرقوا منك ، فمَنِ الفائز إذن ؟ أنا قيّدت حريتك بالحكم ، وأنت فرْد واحد ، ولكني قيّدتُ جميع الخلق من أجلك .

كذلك حين أمرك الشرع بغضِّ بصرك على محارم الناس ، أمر الناس جميعاً بغضِّ أبصارهم عن محارمك . إذن : لا تأخذ التكليف على أنه عليك ، بل هو لك ، وفي صالحك أنت .

كثيرون من الأغنياء يتبرّمون من الإنفاق ، ويضيقون بالبذْل ، ومنهم مَنْ يَعُد ذلك مَغْرماً لأنه لا يدري الحكمة من تكليف الأغنياء بمساعدة الفقراء ، لا يدري أننا نُؤمِّن له حياته .

وها نحن نرى الدنيا دُوَلاً وأغياراً ، فكم من غنيٍّ صار فقيراً ، وكم من قوي صار ضعيفاً .

إذن : فحينما يأخذ منك وأنت غنيّ نُطمئنك : لا تخَفْ إذا ضاقتْ بك الحال ، وإذا تبدّل غِنَاك فقراً ، فكما أخذنا منك في حال الغنى سنُعطيك في حال الفقر ، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى الأمور التكليفية .

وقوله تعالى :

﴿ بِعَهْدِ الله . . . ﴾ [النحل : 91] .

عهد الله : هو الشيء الذي تعاهد الله عليه ، وأول عَهْد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلّفك به ، وإياك أن تُخِلّ بأمر من أموره ؛ لأن الاختلال في أي أمر تكليفي من الله يُعَدُّ نَقْصاً في إيمانك ؛ لأنك حينما آمنت بالله شهدتَ بما شهد الله به لنفسه سبحانه في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . ﴾ [آل عمران : 18] .

فأوّل مَنْ شهد الله سبحانه لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات (والملاِئكة) أي : شهادة المشاهدة (وَأُولوا العِلْم) أي : بالدليل والحجة .

إذن : فأوّل عَهْد بينك وبين الله تعالى أنك آمنتَ به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مُربِّياً ، فاستمع

إلى ما يطلبه منك ، فإنْ لم تستمع وتُنفّذ فاعلم أن العهد الإيماني الأول قد اختلَّ .

ولذلك ، فالحق تبارك وتعالى لم يُكلِّف الكافر ، لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يُكلّف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيماني : ﴿ يا أيُّهَا الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [البقرة : 183] .

كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيُّهَا الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام . . . ﴾ [البقرة : 183]

.

فيا مَنْ آمن بي رَباً ، ورضيتني إلهاً اسمع مِنّي ؛ لأني سأعطيك قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذي يُسعدك بالمسبِّب في الآخرة بعد أن أسعدك بالأسباب في الدنيا .

وقوله :

﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا . . ﴾ [النحل : 91] .

الأَيمان : جمع يمين ، وهو الحلف الذي نحلفه ونُؤكّد عليه فنقول : والله ، وعهد الله . . الخ . إذن : فلا يليق بك أنْ تنقض ما أكَّدته من الأَيمان ، بل يلزمك أنْ تُوفِّي بها ؛ لأنك إنْ وفَّيت بها وُفِّي لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد الإيماني بالله تعالى؛ لأننا حينما نتعاهد نُشهد الله على هذا العهد، فنقول: بيني وبينك عَهْد الله، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى لِنُوثّق ما تعاهدنا عليه، وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ... ﴾ [النحل: 91].

أي: شاهداً ورقيباً وضامناً.

وقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: 91].

أي: اعلم أن الله مُطَّلع عليك، يعلم خفايا الضمائر وما تُكِنّه الصدور، فاحذر حينما تعطي العهد أن تعطيه وأنت تنوي أن تخالفه، إياك أنْ تُعطي العهد خِدَاعاً، فربُّك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل.

ثم يُعقّب الحق سبحانه:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا في هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينقضون العهد والأيمان، ولا يُوفون بها، بهذه المرأة القرشية الحمقاء رَيْطة بنت عامر، وكانت تأمر جواريها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر، ثم تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر، والمتأمل في هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة.

أولاً : ما الغزل ؟

الغَزْل عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فكُنَّ يُحضِرْن المادة التي تصلح للغزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف في طولها من نوع لآخر يُسمُّونها التيلة ، فيقولون " هذه تيلة قصيرة " وهذه طويلة " .

(263/442)

والغَزْل هو أن نُكوِّن من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً ممتداً وانسيابياً دون عُقَد فيه لكي يصلح للنسجْ بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المغزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرْمِها بالمغزل ، ليخرج في النهاية خيطٌ طويل مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه .

والآية هنا ذكرتْ المرأة في هذا العمل ؛ لأنه عمل خاص بالنساء في هذا الوقت دون الرجال ، فكانت المرأة تكنّ في بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التي تكوِّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره .

وإلى الآن نرى المرأة التي تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْترك الاختلاط ، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائي .

وقد تطور المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة، مما يُيسِّر للنساء هذه الأعمال، ويحفظهُنَّ في بيوتهن، وينشر في البيت جوًا من التعاون بين الأم وأولادها، وأمامنا مثلاً مشروع الأسر المنتجة حيث تشارك المرأة بجزء كبير في رُقِّي المجتمع، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصون حرمتها.

فالقرآن ضرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجاهلية، هذا العمل الذي يحتاج إلى جَهْد ووقت في الغزل، ويحتاج إلى أكثر منه في نَقْضه وفكِّه، فهذه عملية شاقة جداً، وربما أمرت الجواري بفكِّ الغزل والنسيج أيضاً؛ ولذلك أطلقوا عليها حمقاء قريش.

وقوله:

﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ . . . ﴾ [النحل: 92].

(264/442)

كلمة قوة هنا تدلُّنا على المراحل التي تمرُّ بها عملية الغَزْل، وكم هي شاقة، بداية من جَزِّ الصوف من الغنم أو الوبر من الجمال، ثم خَلْط أطراف كل تيلة من هذه الشعيرات، بحيث تكون طرف كل تيلة منها في وسط الأخرى لكي يتم التلاحم بينها بهذا المزج، ثم تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخرج لنا في النهاية بضعة سنتيمترات من الخيط، ولو قارنَّا بين هذه

العملية اليدوية، وبين ما توصلتْ إليه صناعة الغزل الآن لَتبيّن لنا كم كانت شاقة عليهم.

فكأن القرآن الكريم شبَّه الذي يُعطِي العهد ويُوثّقه بالأيمان المؤكدة، ويجعل الله وكيلاً وشاهداً على ما يقول بالتي غزلتْ هذا الغزل، وتحملت مشقته، ثم راحتْ فنقضت ما أنجزته، وفكّتْ ما غزلته.

وكذلك كلمة (قوة) تدلُّنا على أن كل عمل يحتاج إلى قوة، هذه القوة إما أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرِّك؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ.. ﴾ [البقرة: 63].

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه.

وهذه يسمونها في عالم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل مُتحرِّكاً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُسكنه، والساكن يظل ساكناً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُحرِّكه.

ومن هنا يتعجَّب الكثيرون من الأقمار الصناعية التي تدور أعواماً عدة في الفضاء: ما الوقود الذي يُحرِّك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذْب، فإذا ما استقرّ القمر أو السفينة الفضائية في منطقة عدم الجذب تدور وتتحرك بنفسها دون وقود، فهناك الشيء المتحرك يظل متحركاً، والساكن يظل ساكناً.

والحق تبارك وتعالى بهذا المَثَل المشَاهد يُحذرنا من إخلاف العهد ونقْضه ؛ لأنه سبحانه يريد أن يصونَ مصالح الخلق ؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيمان التي تبرم بينهم ، فمَنْ خان العهد أو نقضَ الأيمان لا يُوثق فيه ، ولا يُطْمأنُ إلى حركته في الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

وقوله : ﴿ أَنكَاثاً . . ﴾ [النحل : 92] .

جمع نِكْث ، وهو ما نُقِض وحُلَّ فَتْله من الغزل .

وقوله :

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ . . ﴾ [النحل : 92] .

الدَّخَل : أنْ تدخل في الشيء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغِشّ والخداع ، كأن تدخل في الذهب عيار 24 قيراطاً مثلاً ذهباً من عيار 18 قيراطاً ، أو كأن تُدخِل في اللوز مثلاً نَوى المشمش على أنه منه . فكأن الأَيمان القائمة على الصدق والوفاء يعطيها صاحبها وهو ينوي بها الخداع والغش ، فيحلف لصاحبه وهو يقصد تنويمه والتغرير به .

وقوله :

﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ . . . ﴾ [النحل : 92] .

هذه هي العلة في أنْ نتخذَ الأَيمان دَخَلاً فيما بيننا ، الأَيمان الزائفة الخادعة ؛ ذلك لأن

الذي باع نوى المشمش مثلاً على أنه لوز ، فقد أَرْبى أي : أخذ أزْيد من حقه ونقص حَقّ الآخرين ، فالعلة إذن في الخداع بالأَيمان الطمع وطلب الزيادة على حساب الآخرين .

وقد تأتي الزيادة بصورة أخرى ، كأن تُعاهِد شخصاً على شيء ما ، وأدَّيت له بالعهود والأيمان والمواثيق ، ثم عنَّ لك مَنْ هو أقوى منه سواء كان بالقهر والسلطان أو بالإغراء ، فنقضت العهد الأول لأن الثاني أرْبى منه وأزيد .

وفي مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حِذْره ، فمَنْ يُدريك لعله يُفعل بك كما فعلت ، ويُكال لك بنفس المكيال الذي كِلْتَ به لغيرك ، فاحذر إذا تجرأتَ على خَلْق الله أن يُجرِّيء الله عليك مَنْ يسقيك من نفس الكأس .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أنْ تغشَّ الناس ، وتذكَّر أن لك عندهم مصالح ، وفي أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأْتَ عليهم جرّأهم الله عليك ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا القيُّوم ، أي : القائم على أمركم ، فناموا أنتم فأنا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلحظها جيداً .

مَنْ تَجرّأ على الناس جرّأهم الله عليه ، ومَنْ أخلص عمله وأتقنه قذف الله في قلوب الخلق

أنْ يُتقنوا له حاجته .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ . . . ﴾ [النحل : 92] .

أي : يختبركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أنْ عقدتم العهد ، أَفي نيتكم الوفاء ، أم في نيتكم الغدر والخداع ؟

وهَبْ أنك تنوي الوفاء ثم عرضَ لك ما حال بينك وبينه ، فالله سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفَى عليه شيء .

إذن : الابتلاء هنا لا يعني النكبة والبلاء ، بل يعني مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذي يفشل في الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .

وقوله :

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل : 92] .

فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشّف الحقائق ، ويأتي القضاء فيما اختلفنا فيه في الدنيا ، وهَبْ أن إنساناً عمِّى على قضاء الأرض في أشياء ، نقول له : إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمىَ على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ويوم نبعث من كل شهيداً ﴾ قال : شهيدها نبيها على أنه قد بلغ رسالات ربه .

قال الله : ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا قرأ هذه الآية ، فاضت عيناه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن العالية في قوله : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ قال : هذا ، كقوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فألقوا إليهم القول ﴾ قال : حدثوهم .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ قال : استسلموا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ

السلم ﴾ يقول : ذلوا واستسلموا يومئذ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد بن السري وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور ، عن ابن مسعود في قوله : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ قال : زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال .

وأخرج ابن مردويه والخطيب في تالي التلخيص ، عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم - سئل عن قول الله : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ قال : " عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم في جهنم " .

وأخرج هناد عن ابن مسعود قال : أفاعي في النار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية : إن أهل النار إذا جزعوا من حرها استغاثوا بضحضاح في النار ، فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنهن البغال الدهم ، وأفاع كأنهن البخاتي فضربنهم ، فذلك الزيادة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن عبيد بن عمير قال : إن في جهنم لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال ، يستغيث أهل النار من تلك الجباب إلى الساحل ، فتثب إليهم فتأخذ جباههم وشفارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فيستغيثون منها إلى النار ، فتتبعهم حتى تجد حرها فترجع وهي في أسراب .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال : إن لجهنم سواحل فيها حيات وعقارب ، أعناقها كأعناق البخت .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الأعمش ، عن مالك بن الحارث قال : إذا طرح الرجل في النار هوى فيها ، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل : مكانك حتى تتحف ، فيسقى كأساً من سم الأساود والعقارب ، فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ قال : خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم ، يعذبون ببعضها بالليل وببعضها بالنهار .

وأخرج ابن مردويه عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الزيادة خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار ، ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على

مقدار النهار ، فذلك قوله : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا . قال : إن ما بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً ، تجري أودية القيح والدم . قلت له : الأنهار ؟ قال : لا . . . بل الأودية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن مسعود قال : إن الله أنزل في هذا الكتاب تبياناً لكل شيء ، ولقد علمنا بعضاً مما بين لنا في القرآن . ثم تلا ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ .

(269/442)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن الضريس في فضائل القرآن ومحمد بن نصر في كتاب الله والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن مسعود قال : من أراد العلم فليثوّر القرآن ، فإنه فيه علم الأوّلين والآخرين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : لا تهذوا القرآن كهذا الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل ، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن دخل فيه فهو

آمن.

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: إن هذه القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ قال: مما أمروا به ونهوا عنه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي رضي الله عنه في قوله: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ قال: بالسنة.

وأخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إذ شخص بصره فقال: "أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة" ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان.... ﴾ إلى قوله: ﴿ تذكرون ﴾.

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته جالساً، إذ مر به

عثمان بن مظعون رضي الله عنه ، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يحدثه إذ شخص بصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض ، فتحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان إلى حيث وضع رأسه فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له ، فلما قضى حاجته شخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما شخص أول مرة ، فاتبعه بصره حتى توارى في السماء فأقبل إلى عثمان كجلسته الأولى ، فسأله عثمان رضي الله عنه فقال : أتاني جبريل آنفاً . قال : فما قال لك ؟ قال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ تذكرون . . . ﴾ قال عثمان : – رضي الله عنه – فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج الباوردي وابن السكن وابن منده وأبو نعيم في معرفة الصحابة ، عن عبد الملك بن عمير رضي الله عنه قال : " بلغ أكثم بن صيفي مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يأتيه . فأتى قومه فانتدب رجلين فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكثم ، يسألك من أنت وما جئت به ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أنا محمد

بن عبد الله ، عبد الله ورسوله " ثم تلا عليهما هذه الآية ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ إلى ﴿ تذكرون ﴾ قالا : ردد علينا هذا القول . فردده عليهما حتى حفظاه ، فأتيا أكثم فأخبراه . فلما سمع الآية قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساء ، ولا تكونوا فيه أذناباً " ورواه الأموي في مغازيه وزاد ، فركب متوجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فمات في الطريق : قال : ويقال نزلت فيه هذه الآية ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ﴾ [النساء : 100] الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ﴿ والإحسان ﴾ قال : أداء الفرائض ، ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ قال : إعطاء ذوي الرحم الحق الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ قال : الزنا ﴿ والمنكر ﴾ ، قال : الشرك ﴿ والبغي ﴾ قال : الكبر والظلم : ﴿ يعظكم ﴾ يوصيكم ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في الأدب، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه في شعب الإيمان، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أعظم آية في كتاب الله تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [آل عمران: 2] وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر - الآية التي في النحل - ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق: 2-3] وأشد آية في كتاب الله رجاء ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ [الزمر: 53] الآية.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ إلى آخرها ثم قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله، والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئًا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئًاً إلا جمعه.

وأخرج ابن النجار في تاريخه من طريق العكلي، عن أبيه قال: مر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوم يتحدثون فقال: فيم أنتم؟! فقالوا: تتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عز وجل ذاك في كتابه؟! إذ يقول الله: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ فالعدل، الانصاف. والاحسان، التفضل، فما بقي بعد هذا؟.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾

الآية . قال : ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : دعاني عمر بن عبد العزيز فقال : صف لي العدل ، فقلت : بخ . . . سألت عن أمر جسيم ، كُنْ لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً ، وللمثل منهم أخاً وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذُنوبهم وعلى قدر أجسادهم ولا تضربن بغضبك سوطاً واحداً متعدياً فتكون من العادين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى ابن مريم : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك والله أعلم .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مزيدة بن جابر في قوله : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ قال : نزلت هذه الآية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ، كان من أسلم بايع

على الإسلام فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ قال : تغليظها في الحلف : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ قال : وكيلاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ يقول : بعد تشديدها وتغليظها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ يعني ، بعد تغليظها وتشديدها ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ يعني في العهد شهيداً ، والله أعلم بالصواب .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

﴿ (92) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال : كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف ، فنزلت هذه الآية ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس : يا عطاء ، ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فأراني حبشية صفراء ، فقال : " هذه أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن بي هذه الموتة – يعني الجنون – فادع الله أن يعافيني . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئت دعوت الله فعافاك ، وإن شئت صبرت واحتسبت ولك الجنة ، فاختارت الصبر والجنة "

قال : وهذه المجنونة سعيدة الأسدية ، وكانت تجمع الشعر والليف فنزلت هذه الآية ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير في قوله : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها ﴾ قال : خرقاء كانت بمكة تنقضه بعدما تبرمه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها ﴾ قال : كانت امرأة بمكة ، كانت تسمى خرقاء مكة كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها تنقضه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها

﴿ قال : نقضت حبلها بعد إبرامها إياه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في الآية : لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم : ما أحمق هذه . . . ! وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده . وفي قوله : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ قال : خيانة وغدراً .

(275/442)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ قال : ناس أكثر من ناس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ قال : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهوا عن ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في الآية قال : ولا تكونوا في نقض العهد بمنزلة التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً ، يعني بعد ما أبرمته ﴿ تتخذون أيمانكم ﴾ يعني العهد ﴿ دخلاً بينكم ﴾ يعني بين أهل العهد ، يعني مكراً أو خديعة ليدخل العلة فيستحل به نقض العهد ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ يعني أكثر ﴿ إنما يبلوكم الله

به ﴾ يعني بالكثرة ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(276/442)

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ يعني المسلمة والمشركة ﴿ أمة واحدة ﴾ يعني ملة الإسلام وحدها ﴿ ولكن يضل من يشاء ﴾ يعني عن دينه ، وهم المشركون ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ يعني المسلمين ﴿ ولتسألن ﴾ يوم القيامة ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ ثم ضرب مثلاً آخر للناقض العهد فقال : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم ﴾ يعني العهد ﴿ دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ يقول : إن ناقض العهد يزل في دينه كما يزل قدم الرجل بعد الاستقامة ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ﴾ يعني العقوبة ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ يعني عرضاً من الدنيا يسيراً ﴿ إنما عند الله ﴾ يعني الثواب ﴿ هو خير لكم ﴾ يعني أفضل لكم من العاجل ﴿ ما عندكم ينفد ﴾ يعني ما عندكم من الأموال يفنى ﴿ وما عند الله باق ﴾ يعني وما عند الله في الآخرة من الثواب دائم لا يزول عن أهله ، وليجزين ﴿ الذين صبروا بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا ويعفو عن سيئاتهم .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني ، عن ابن مسعود قال : إياكم وأرأيت فإنما هلك من

كان قبلكم بأرأيت، ولا تقيسوا الشيء بالشيء ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل: لا أعلم، فإنه ثلث العلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(277/442)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِيتَآءِ ذِي القربى ﴾: مصدرٌ مضافٌ لمفعوله ولم يَذْكر متعلّقاتِ العدلِ والإِحسانِ والبَغْيِ لِيَعُمَّ جميعَ ما يُعْدَلُ فيه، ويُحْسَنُ به إليه، ويُبغى فيه؛ فلذلك لم يذكُرِ المفعولَ الثانيَ للإِيتاء، ونَصَّ على الأول حَضَّاً عليه لإِدلائه بالقرابة، فإنَّ إيتاءَه صدقةٌ وصِلَةٌ.

قوله: "يَعِظُكم" يجوز ان يكونَ مستأنفاً في قوة التعليل للأمرِ بما تقدَّم، أي: إنَّ الوعظَ سببٌ في أمره لكم بذلك. وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ حالاً من الضمير في "يَنْهَى"، وفي

تخصيصِه الحالَ بهذا العاملِ فقط نظرٌ ؛ إذ يظهر جَعْلُه حالاً مِنْ فاعل " يأمرُ " أيضاً ، بل أَوْلى ؛ فإن الوعظ يكونُ بالأوامر والنواهي ، فلا خصوصيةَ له بالنهي .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ : متعلقٌ بفعل النهي . والتوكيدُ مصدرُ وكَّدَ يُوَكِّدُ بالواو ، وفيه لغةٌ أخرى : أَكَّد يُؤَكِّد بالهمز ، وهذا كقولِهم : ورَّخْتُ الكتابَ وأرَّخْتُه ، وليست الهمزة بدلاً من واوٍ كما زعم أبو إسحق ؛ لأنَّ الاستعمالين في المادتين متساويان ، فليس ادِّعاءُ كونِ أحدهما أصلاً أَوْلَى من الآخر .

وتبع مكيٌّ الزجاجَ في ذلك ثم قال : " ولا يَحْسُن أَنْ يقال : الواوُ بدلٌ من الهمزة ، كما لا يَحْسُنُ أن يقالَ ذلك في " أَحَد " ؛ إذ أصلُه " وَحَد " ، فالهمزةُ بدل من الواو " . يعني أنه لا قائلَ بالعكس ، وكذلك تَبِعه في ذلك الزمخشري أيضاً . و " تَوْكِيدها " مصدرٌ مضافٌ لمفعوله .

(278/442)

وأدغم أبو عمروٍ الدالَ في التاء ، ولا ثانيَ له في القرآنِ ، أعني أنه لم تُدْغَمْ دالٌ مفتوحةٌ بعد ساكنٍ إلا في هذا الحرفِ .

قوله : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ﴾ الجملةُ حالٌ : إمَّا مِنْ فاعلِ " تَنْقُضوا " ، وأما من فاعلِ المصدرِ ، وإن كان محذوفاً .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنكَاثاً ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه حالٌ مِنْ " غَزْلها " . والأنكاث : جمعُ نكْث بمعنى مَنْكوث ، أي : منقوضٌ . والثاني : أنه مفعولٌ ثانٍ لتضمين " نَقَضَتْ " معنى " صَيَّرَتْ " . وجوَّز الزجاجُ فيه وجهاً ثالثاً وهو : النصبُ على المصدرية ؛ لأنَّ معنى نَقَضَتْ : نَكَثَتْ ، فهو مُلاقٍ لعاملِه في المعنى .

قوله : " تَتَّخذون " يجوز أن تكونَ الجملةُ حالاً من واو " تكونوا " أو من الضمير المستترِ في الجارِّ ، إذ المعنى : لا تكونوا مُشْبهين كذا حال كَوْنِكم متَّخذين .

قوله : ﴿ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ هو المفعولُ الثاني ل " تَتَّخذون " . والدَّخَل : الفسادُ والدَّغَلُ . وقيل : " دَخَلاً " : مفعولٌ من أجله . وقيل : الدَّخَل : الداخلُ في الشيءِ ليس منه .

قوله : ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ ، أي : بسببِ أَنْ تكونَ ، أو مخافةَ أَنْ تكونَ . و " تكون " يجوز أَنْ تكونَ تامةً ، فتكون " أمَّةٌ " فاعلَها ، وأن تكونَ ناقصةً ، فتكون " أمَّةٌ " اسمَها ، و " هي " مبتدأ ، وأَرْبَى " خبرُه . والجملةُ في محلِّ نصب على الحال ، على الوجه الأول ، وفي موضعِ الخبرِ على الثاني . وجوَّز الموفيون أن تكونَ " أُمَّةٌ " اسمَها ، و " هي " عمادٌ ، أي : ضميرُ

فَصْلٍ ، و " أربَى " خبرُ " تكون " ، والبصريون لا يُجيزون ذلك لأجل تنكيرِ الاسمِ ، فلو كان الاسمُ معرفةً لجاز ذلك عندهم .

قوله : " به " يجوز أن يعودَ الضميرُ على المصدر المنسبك مِنْ ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ تقديره : إنما يَبْلُوكم الله بكونِ أُمَّة ، أي : يختبركم بذلك . وقيل : يعودُ على " الربا " المدلولِ عليه بقولِه ﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ وقيل : على الكثرة ، لأنها في معنى الكثير . قال ابن الأنباري : " لَمَّا كان تأنيثُها غيرَ حقيقي حُمِلَتْ على معنى التذكير ، كما حُمِلت الصيحة على الصِّياح " ولم يتقدمْ للكثرة لفظٌ ، وإنما هي مدلولٌ عليها بالمعنى مِنْ قوله ﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 280 . 282﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عدل)

العَدْل والعِدْل واحد فى معنى المِثْل ، قاله الزَّجَّاج .

قال : والمعنى واحد ، كان المثلُ من الجنس أَو من غير الجنس ، قال : ولم يقولوا إِن العرب غَلِطَتْ ، وليس إِذا أَخطأَ مخطئٌ وجب أَن تقول : إِن بعض العرب غَلِطَ .

وقال ابن الأَعرابىّ : عَدْل الشىءِ وعِدْله سواءٌ أَى مثله .

وقال الفرّاءُ : العَدْل –بالفتح– : ما عادل الشى من غير جنسه ، والعِدْل –بالكسر– المِثْل ، تقول : عندى عِدْل غلامك وعِدْل شاتك : إِذا كان غلامًا يعدل غلامًا أَو شاة تعدل شاة ، فإِذا أَردت قيمته من غير جنسه نصبت العين .

وربّما كسرها بعض العرب فكأَنّه منهم غلط .

وقد أَجمعوا على واحد الأَعدال أَنّه عِدْل بالكسر .

والعَدْل : خلاف الجَوْر .

يقال : عدل عليه فى القضيّة فهو عادل ، وبسط الوالى عَدله ومَعْدِلته ومَعدَلته ، وفلان من أَهل المعدَلة أَى من أَهل العَدْل .

ورجل عَدْلٌ ، أَى رِضًا ومَقْنع فى الشهَادة ؛ وهو فى الأَصل مصدر .

وهو عادل من قوم عُدُول وعَدْل ، الأَخيرة اسم للجمع كتَجْر وشَرْب .

ورجل عَدْل ، وصف بالمصدر وعلى هذا لا يثنَّى ولا يجمع ولا يؤَنَّث .

فإن رأيته مجموعاً أو مثنى أو مؤنّثًا فعلى أنّه قد أُجرى مُجرى الوصف الذّى ليس بمصدر .

وقد حكى ابن جنىّ : امرأة عَدْلة ، أنّوا المصدر لمّا جرى وصفا على المؤَنّث وإن لم يكن على صورة اسم الفاعل ولا هو الفاعل فى الحقيقة .

وقيل : العَدّل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام ، كقوله تعالى : ﴿ أَو عَدْل ذُلك صِيَاماً ﴾ .

والعِدل -بالكسر- والعَدِيل فيما يدرك بالحاسّة كالموزونات والمعدودات والمكِيلات .

والعَدْل : هو التقسيط على سواء ، وعلى هذا رُوى : بالعَدْل قامت السّماوات والأَرض ، تنبيهاً أَنّه لو كان ركن من الأَركان الأَربعة فى العالم زائدا على الآخر أَو ناقصاً عنه على مقتضى الحكمة لم يكن العالَمُ منتظمًا .

(281/442)

والعَدل ضربان : مطلق يقتضى العقلُ حسنه ، ولا يكون فى شىءٍ من الأَزمنة منسوخاً ، ولا يوصف بالاعتداءِ بوجه ، نحو الإِحسان إِلى من أَحسن إِليك ، وكفّ الأَذى عمّن كَفّ أَذاه عنك .

وعَدْل يعرف كونه عدلا بالشرع ، ويمكن أَن يكون منسوخاً فى بعض الأَزمنة كالقصاص

وأَرش الجنايات وأَخذ المال المرتدّ ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ ﴾ ، قال : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فسمّى ذلك سيّئة واعتداء .

وهذا النحو هو المعنىّ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ ، فإِنَّ العدل هو المساواة فى المكافأَة إِنْ خيرا فخير وإِن شرًّا فشرّ ، والإِحسان أَن يقابل الخير بأَكثر منه والشر بأَقلّ منه .

وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أَى ذوَىْ عدالة .

وقوله : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ ﴾ [فإِشارةٌ] إِلى ما عليه جبلّة الإِنسان من الميل ؛ فإِن الإِنسان لا يقدر على أَن يسوّى بينهنّ فى المحبة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾ إِشارة إِلى العدل الذى هو القَسْم والنفقة .

وقوله : ﴿ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾ أَى ما يعادل من / الصّيام الطعام .

ويقال للفِداء إِذا اعتبر فيه معنى المساواة .

وفى الحديث : "لا يُقبل منه صَرْف ولا عَدْل" .

قيل : الصرف : التوبة ، وقيل : النافلة .

والعدل : الفِدْية ، وقيل : الفريضة .

وقيل : الصّواب أَنَّ الصرف بمعنى التصرّف والتّدبير والحيلة ، والعدل بمعنى الفدية .

قال تعالى : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ أَى تصرّفاً وتدبيراً .

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ وكأَن المعنى: ما يقبل منه ما تصرَّف فيه بحيلة وكَدَح له وتعب ونصِب، ولا فداء ولو افتدى به.

وقيل: العدل السويّة، وقيل العدل: التطوّع، والصرف: الفريضة.

ومعنى: (لا يقبل منه) أَى لا يكون له خير يقبل منه.

وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَى يجعلون له عديلا، فصار كقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، وقيل: يعدلون بأَفعاله عنه وينسُبونها إِلى غيره.

وقيل: يعدلون بعبادتهم عنه تعالى، وقيل: الباءُ بمعنى عن.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يصحّ أَن يكون من قولهم: عدل عن الحقّ: إِذا جار.

وفلان يعادل هذا الأَمر: إِذا ارتبك فيه ولم يُمضِه.

قال:

*إِذا الهَمُّ أَمسى وهْو داء فأَمضِه * فلستَ بمضيه وأَنت تعادلُه* . انتهى انتهى. اهـ

﴿بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 28. 30﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) ﴾

العدل ما هو صواب وحسن ، وهو نقيض الجور والظلم .

أمر اللَّهُ الإنسانَ بالعدل فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخَلْق ؛ فالعدلُ الذي بينه وبين نفسه مَنْعُها عما فيه هلاكُها ، قال تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النازعات : 40] ، وكمالُ عدلِه مع نفسه كيُّ عُروقِ طمعِه .

والعدلُ الذي بينه وبين ربِّه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسه ، وتقديمُ رضا مولاه على ما سواه ، والتجرد عن جميع المزاجر ، وملازمة جميع الأوامر .

أو العدل الذي بينه وبين الخَلْق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر ، والإنصاف بكل وجه وألا تَشِيَ إلى أحد بالقول أو بالفعل ، ولا بالهَمِّ أو العزم .

وإذا كان نصيبُ العوام بَذْلَ الإنصافِ وكَفِّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواص تَرْكُ الانتصاف ، وإسداءُ الإِنْعَام ، وترك الانتقام ، والصبرُ ، على تَحَمُّلِ ، ما يُصيبُكَ من البلوى .

وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم - والعلمُ مأمورٌ به - أي العلم بحدوثِ نَفْسه ، وإثباتِ

مُحْدِثه بصفات جلاله ، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها . وأما الإحسانُ في الفعل فالحَسَنُ منه ما أمر الله به ، وأَذِنَ لنا فيه ، وحَكَمَ بمدح فاعله .

ويقال الإحسان أن تقوم بكل حقٍّ وَجَبَ عليك حتى لو كان لطيرٍ في مِلكِك ، فلا تقصر في شأنه .

ويقال أن تَقْضِيَ ما عليك من الحقوق وألا تقتضِيَ لك حقاً من أحد .

ويقال الإحسان أن تترك كل ما لَكَ عند أحد ، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً .

وجاء في الخبر : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه" وهذه حال المشاهدة التي أشار إليها القوم .

(284/442)

قوله : ﴿ وَإِيتَآئِ ذِى الْقُرْبَى ﴾ إعطاء ذي القرابة ، وهو صلة الرَّحِمِ ، مع مُقاساةِ ما منهم من الجَوْرِ والجفاءِ والحَسَدِ .

﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ : وذلك كلُّ قبيح مزجور عنه في الشريعة .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) ﴾

يُفْرَضُ على كافةِ المسلمين بعهد الله في قبول الإسلام والإيمان ، فتجبُ عليهم استدامةُ الإيمان . ثم لكلِّ قوم منهم عهدٌ مخصوص عاهدوا الله عليه ، فهم مُطَالَبُون بالوفاء به ؛ فالزاهدُ عَهْده ألا يرجعَ إلى الدنيا ، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد نَقَضَ عهده ولم يفِ به . والعابد عاهده في تَرْكِ الهوى . والمريدُ عَاهَدَه في ترك العادة ، وآثره بكل وجه . والعارف عهده التجرد له ، وإنكار ما سواه . والمحب عهده ترك نُفْسِهِ معه بكل وجه والموحّد عهده الامتحاء عنه ، وإفراده إياه بجميع الوجوه والعبد مَنْهِيٌّ عن تقصير عهده ، مأمورٌ بالوفاء به .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ مَنْ نَقَضَ عهده أفسد بآخِرِ أمره أوّلَه ، وهَدَمَ بِفِعْلِه ما أَسَّسَه ، وقَلَعَ بيده ما غَرَسَه ، وكان كمن نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً أي من بعد ما أبرمت فَتْلَه .

وإنَّ السالكَ إذا وقعت له فترة ، والمريدَ إذا حصلت له في الطريق وقفةٌ ، والعارف إذا حصلت له حجَبَةٌ ، والمحبِّ إذا استقبلته فرقةٌ - فهذه مِحَنٌ عظيمةٌ ومصائِبُ فجيعةٌ ، فكما قيل :

فَلأَبْكِيَنَّ على الهلالِ تأسُّفاً . . . خوفَ الكسوفِ عليه قبل تمامه

فما هو إلا أَنْ تُكْشَفُ شَمْسُهُم ، وينطفِئَ - في الليلة الظلماءِ - سِرجُهم ، ويتشتَّتَ من السماء نجومهم ، ويصيب أزهار أُنْسِهم وربيعَ وَصْلِهم إعصارٌ فيه بلاءٌ شديدٌ ، وعذابٌ أليم ، فإنَّ الحقَّ - سبحانه إذا أراد بقوم بلاءً فكما يقوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 10] فإنَّ آثار سُخْطِ الملوكِ مُوجِعةٌ ، وقصةَ إعراضِ السلطانِ مُوحِشَةٌ وكما قيل :

والصبر يَحْسُنُ في المواطن كلها . . . إلا عليكَ - فإنَّه مذمومٌ

هنالك تنسكب العَبَرَاتُ ، وتُشَقّ الجيوب ، وتُلْطَم الخدود ، وتُعطَّلُ العِشار ، وتخَرَّبُ المنازلُ ، وتسودُّ الأبواب ، وينوح النائح :

وأتى الرسول فأخ . . . بر أنهم رحلوا قريبا

رجعوا إلى أوطانهم . . . فجرى لهم دمعي صبيبا

وتركن ناراً في الضلوع . . . وزرعن في رأسي مشيبا

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

بلاءُ كلِّ واحدٍ على ما يليق بحاله ؛ فمن كان بلاؤه بحديث النَّفْسِ أو ببقائه عن هواه ، وبحرمانه لكرائمه في عُقْباه فاسمُ البلاءِ في صفته مَجَازٌ ، وإنما هذا بلاء العوام . ولكنَّ بلاءَ هذا غيرُ الكرامِ فهو كما قيل :

مَنْ لمْ يَبِتَ - والحبُّ مِلْءُ فؤادِهِ . . . لمْ يَدْرِ كيف تَفَتَّتُ الأكبادِ انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 317.314 ﴾

(286/442)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمر ونهى ، وخوف من العذاب في القيامة ، وكان ربما ظن من لا علم له - وهم الأكثر - من كثرة التصريح بالحوالة على القيامة نقص القدرة في هذه الدار ، صرح بنفي ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه ، أن يجعلكم أمة واحدة لا خلاف بينكم في أصول الدين ولا فروعه ﴿ لجعلكم أمة واحدة ﴾ متفقة على أمر

واحد لا تؤم غيره ، منفياً عنها أسباب الخلاف ﴿ ولكن ﴾ لم يشأ ذلك وشاء اختلافكم ، فهو ﴿ يضل من يشاء ﴾ عدلاً منه ، لأنه تام الملك عام الملك ولو كان الذي أضله على أحسن الحالات ﴿ ويهدي ﴾ بفضله ﴿ من يشاء ﴾ ولو كان على أخس الأحوال ، فبذلك يكونون مختلفين في المقاصد ، يؤم هذا غير ما يؤمه هذا ، فيأتي الخلاف مع تأدية العقل إلى أن الاجتماع خير من الافتراق فالاختلاف مع هذا من قدرته الباهرة .

ولما تقرر بهذا أن الكل فعله وحده فلا فعل لغيره أصلاً ، كان ربما أوقع في الوهم أنه لا حرج على أحد في شيء يفعله بين أن السؤال يكون عن المباشرة ظاهراً على ما يتعارف الناس في إسناد الفعل إلى من ظهر اكتسابه له ، فقال تعالى مرغباً مرهباً مؤكداً لإنكارهم البعث عما ينشأ عنه : ﴿ ولتسئلن عما كنتم ﴾ أي كوناً أنتم مجبولون عليه ﴿ تعلمون ﴾ وإن دق ، فيجازي كلاًّ منكم على عمله وإن كان غنياً عن السؤال ، فهو بكل شيء عليم .

(287/442)

ولما بين أن الكذب وما جر إليه أقبح القبائح ، وأبعد الأشياء عن المكارم ، وكان من أعظم أسباب الخلاف ، فكان أمره جديرا بالتأكيد ، أعاد الزجر عنه بأبلغ مما مضى بصريح النهي مرهباً مما يترتب على ذلك ، فقال معبرا بالافتعال إشارة إلى أن ذلك لا يفعل إلا بعلاج شديد

من النفس لأن الفطرة السليمة يشتد نفارها منه : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً ﴾ أي فساداً ومكراً وداء وخديعة ﴿ بينكم ﴾ أي في داخل عقولكم وأجسامكم ﴿ فتزل ﴾ أي فيكون ذلك سبباً لأن تزل ﴿ قدم ﴾ هي في غاية العظمة بسبب الثبات ﴿ بعد ثبوتها ﴾ عن مركزها الذي كانت به من دين أو دنيا ، فلا يصير لها قرار فتسقط عن مرتبتها ، وزلل القدم تقوله العرب لكل ساقط في ورطة بعد سلامة ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ مع تلك الزلزلة ﴿ بما صددتم ﴾ أي أنفسكم ومنعتم غيركم بأيمانكم التي أردتم بها الإفساد لإخفاء الحق ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الملك الأعلى ، يتجدد لكم هذا الفعل ما دمتم على هذا الوصف ﴿ ولكم ﴾ مع ذلك ﴿ عذاب عظيم ﴾ ثابت غير منفك إذا متم على ذلك .

(288/442)

ولما كان هذا خاصاً بالأيمان ، أتبعه النهي عن الخيانة في عموم العهد تأكيداً بعد تأكيد للدلالة على عظيم النقض فقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا ﴾ أي تكلفوا أنفسكم لجاجاً وتركاً للنظر في العواقب أن تأخذوا وتستبدلوا ﴿ بعهد الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ أي من حطام الدنيا وإن كنتم ترونه كثيراً ، ثم علل قلته بقوله تعالى : ﴿ إنما عند

الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام من ثواب الدارين ﴿ هو خير لكم ﴾ ولا يعدل عن الخير إلى ما دونه إلا لجوج ناقص العقل ؛ ثم شرط علم خيريته بكونهم من ذوي العلم فقال تعالى : ﴿ إن كنتم ﴾ أي بجبلاتكم ﴿ تعلمون ﴾ أي ممن يتجدد له علم ولم تكونوا في عداد البهائم ، فصار العهد الشامل للأيمان مبدوءاً في هذه الآيات بالأمر بالوفاء به ومختوماً بالنهي عن نقضه ، والأيمان التي هي أخص منه وسط بين الأمر والنهي المتعلقين به ، فصار الحث عليها على غاية من التأكيد عظيمة ورتبة من التوثيق جليلة ، ثم بين خيريته وكثرته بقوله تعالى على سبيل التعليل : ﴿ ما عندكم ﴾ أي من أعراض الدنيا ، وهو الذي تتعاطونه بطباعكم ﴿ ينفد ﴾ أي يفنى ، فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطاً بانقطاعه أو بتجويز انقطاعه إن كان في عداد من يعلم ﴿ وما عند الله ﴾ أي الذي له الأمر كله من الثواب ﴿ باق ﴾ فليؤتينكم منه إن ثبتم على عهده ؛ ثم لوح بما في ذلك من المشقة عطفاً على هذا المقدر فقال تعالى مؤكداً لأجل تكذيب المكذبين : ﴿ ولنجزين ﴾ أي الله - على قراءة الجماعة بالياء ونحن - على قراءة ابن كثير وعاصم بالنون التفاتاً إلى التكلم للتعظيم ﴿ الذين صبروا ﴾ على الوفاء بما يرضيه من الأوامر والنواهي ﴿ أجرهم ﴾ ولما كان كرماء الملوك يوفون الأجور بحسب الأعمال من الأحسن وما دونه ، أخبر بأنه يعمد إلى الأحسن فيرفع الكل إليه ويسوي الأدون به فقال : ﴿ بأحسن ما كانوا ﴾ أي كوناً هو جبلة لهم ﴿ يعملون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 307 . 309 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93) ﴾

اعلم أنه تعالى لما كلف القوم بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه ، أتبعه ببيان أنه تعالى قادر على أن يجمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الإيمان ، ولكنه سبحانه بحكم الإلهية يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

أما المعتزلة : فإنهم حملوا ذلك على الإلجاء ، أي لو أراد أن يلجئهم إلى الإيمان أو إلى الكفر لقدر عليه ، إلا أن ذلك يبطل التكليف ، فلا جرم ما ألجأهم إليه وفوض الأمر إلى اختيارهم في هذه التكاليف ، وأما قول أصحابنا فيه فهو ظاهر ، وهذه المناظرة قد تكررت مراراً كثيرة ، وروى الواحدي أن عزيراً قال : يا رب خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدي من تشاء ، فقال : يا عزير أعرض عن هذا ، فأعاده ثانياً : فقال : أعرض عن هذا ، فأعاده ثالثاً ، فقال : أعرض عن هذا وإلا محوت اسمك من النبوة .

قالت المعتزلة : ومما يدل على أن المراد من هذه المشيئة مشيئة الإلجاء ، أنه تعالى قال بعده : ﴿ ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ فلو كانت أعمال العباد بخلق الله تعالى لكان سؤالهم عنها عبثاً ، والجواب عنه قد سبق مرارا ، والله أعلم .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) ﴾

(290/442)

اعلم أنه تعالى لما حذر في الآية الأولى عن نقض العهود والإيمان على الإطلاق ، حذر في هذه الآية فقال : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الإيمان ، وإلا لزم التكرير الخالي عن الفائدة في موضع واحد ، بل المراد نهي أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها ، فلهذا المعنى قال المفسرون : المراد من هذه الآية نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض عهده ، لأن هذا الوعيد وهو قوله : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ لا يليق بنقض عهد قبله ، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان به وشرائعه .

وقوله : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية ، ومحنة بعد نعمة ، فإن من نقض عهد الإسلام فقد سقط عن الدرجات العالية ووقع في مثل هذه الضلالة ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَتَذُوقُواْ السوء ﴾ أي العذاب : ﴿ بما صَدَدتُّمْ ﴾ أي بصدكم : ﴿ عَن سَبِيلِ الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي ذلك السوء الذي تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد ، ثم أكد هذا التحذير فقال : ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ يريد عرض الدنيا وإن كان كثيراً ، إلا أن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ، يعني أنكم وإن وجدتم على نقض عهد الإسلام خيراً من خيرات الدنيا ، فلا تلتفتوا إليه ، لأن الذي أعده الله تعالى على البقاء على الإسلام خير وأفضل وأكمل مما يجدونه في الدنيا على نقض عهد الإسلام إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة ، ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند الله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة ، والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية ، والباقي خير من المنقطع ، والدليل عليه أن هذا المنقطع إما أن يقال : إنه كان

خيراً عالياً شريفاً أو كان خيراً دنياً خسيساً ، فإن قلنا : إنه كان خيراً عالياً شريفاً فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصاً حال حصوله ، وأما حال حصول ذلك الانقطاع فإنها تعظم الحسرة والحزن ، وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها ، وأما إن قلنا : إن تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر أن ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع ، فثبت بهذا أن قوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ برهان قاطع على أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا .

البحث الثاني : أن قوله : ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ يدل على أن نعيم أهل الجنة باق لا ينقطع .

وقال جهم بن صفوان : إنه منقطع والآية حجة عليه .

واعلم أن المؤمن إذا آمن بالله فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان ، وحينئذ يجب عليه أمران : أحدهما : أن يصبر على ذلك الإلتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته .

والثاني : أن يأتي بكل ما هو من شرائع الإسلام ولوازمه .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى رغب المؤمنين في القسم الأول وهو الصبر على ما التزموه ، فقال : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُوا ْ ﴾ أي على ما التزموه من شرائع الإسلام ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا ْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي يجزيهم على أحسن أعمالهم ، وذلك لأن المؤمن قد يأتي بالمباحات

وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك أنه على فعل المندوبات والواجبات يثاب لا على فعل المباحثات ، فلهذا قال : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 88. 90 ﴾

(292/442)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يريد به أن الدنيا فانية ، والآخرة باقية .

الثاني : أن طاعتكم تفنى وثوابها يبقى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(293/442)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ﴾ الآية ،

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يبتلي عباده بالأوامر والنواهي ليذهب كل أحد إلى ما يسر له ، وذلك منه تعالى بحق الملك ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، ولو شاء لكان الناس كلهم في طريق واحد ، إما في هدى وإما في ضلالة ، ولكنه تعالى شاء أن يفرق بينهم ، ويخص قوماً بالسعادة وقوماً بالشقاوة و﴿ يضل ﴾ و﴿ يهدي ﴾ معناه يخلق ذلك في القلوب خلافاً لقول المعتزلة ، ثم توعد في آخر الآية بسؤال كل أحد يوم القيامة عن عمله ، وهذا سؤال توبيخ ، وليس ثم سؤال تفهم ، وذلك هو المنفي في آيات .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾

كرر النهي عن اتخاذ الأيمان ﴿ دخلاً بينكم ﴾ تهمماً بذلك ومبالغة في النهي عنه ، لعظم موقعه من الدين وتردده في معاشرات الناس ، و" الدخل " كما قلنا الغوائل الخدائع ، وقوله ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط لأن القدم إذا زلت نقلت الإحسان من حال خير إلى حال شر ، ومن هذا المعنى قول كثير :

فلما توافينا ثبت وزلت . . . أي تنقلت من حال إلى حال ، فاستعار لها الزلل ، ومنه يقال لمن أخطأ في شيء : زل فيه ، ثم توعد بعد بعذاب في الدنيا و ﴿ عذاب عظيم ﴾ في الآخرة ، وقوله ﴿ بما صددتم عن سبيل الله ﴾ يدل على أن الآية فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ﴾ الآية ، هذه آية نهي عن الرشا وأخذ الأموال على فعل ما يجب على الأخذ أو تركه ، أو فعل ما يجب عليه تركه ، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها ، فمن أخذ على ذلك مالاً فقد أعطى عهد الله وأخذ قليلاً من الدنيا ، ثم أخبر تعالى أن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخرة خير لمن اتقى وعلم واهتدى ، ثم بين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان ، أو ينقضي عنها ، ومنن الآخرة باقية دائمة ، وقرأ ابن كثير وعاصم " ولنجزين " بنون ، وقرأ الباقون " وليجزين " بالياء ولم يختلفوا في قوله ﴿ ولنجزينهم ﴾ أنه بالنون ، كذا قال أبو علي ، وقال أبو حاتم : إن نافعاً روي عنه " وليجزينهم " بالياء ، و ﴿ صبروا ﴾ معناه عن الشهوات وعلى مكاره الطاعة وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المذكورة ، وقوله ﴿ بأحسن ﴾ أي بقدر أحسن ما كانوا يعملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

أي على ملة واحدة .

﴿ ولكن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ بخذلانه إياهم ؛ عَدْلاً منه فيهم .

﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ بتوفيقه إياهم ؛ فضلاً منه عليهم ، ولا يُسأل عما يفعل بل تسألون أنتم .

والآية ترد على أهل القدر كما تقدم .

واللام في "وليبينن ولتسئلن" مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر ، أي والله ليبينن لكم ولَتُسْأَلُنَّ .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تتخذوا أَيمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾

كرر ذلك تأكيداً .

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدِّين وتردده في معاشرات الناس ؛ أي لا تعقِدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزِل قدم بعد ثبوتها ، أي عن الأيمان بعد المعرفة بالله .

وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه ؛ لأن القدم إذا زلّت نقلت

الإنسان من حال خير إلى حال شر ؛ ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر :

فلما توافينا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ . . .

والعرب تقول لكل مبتلًى بعد عافية أو ساقط في وَرْطة : زلّت قدمه ؛ كقول الشاعر :

سَيُمْنَعُ منك السبقُ إن كنتَ سابقا . . .

وتقتل إن زلّت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ في شيء : زلّ فيه .

ثم توعّد تعالى بعدُ بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة .

وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج عن الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ وَتَذُوقُوا السوء بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي بصدّكم .

وذَوْقُ السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً ﴾

نهى عن الرُّشا وأخذ الأموال على نقض العهد ؛ أي لا تنقضوا عهودكم لعَرَض قليل من الدنيا .

وإنما كان قليلاً وإن كثر لأنه مما يزول ، فهو على التحقيق قليل ، وهو المراد بقوله : "مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عند اللَّهِ باقٍ" فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول ، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وَفّى بالعهد وثَبَت على العقد .

ولقد أحسن من قال :

المال يُنفَدُ حِلُّه وحرامه . . .

يوماً وتبقى في غدٍ آثامُه

ليس التَّقِيُّ بمتَّقٍ لإلهه . . .

حتى يطيب شرابه وطعامه

آخر :

هَبِ الدنيا تساق إليك عفْوًا . . .

أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل فُيْءٍ . . .

أظلّك ثم آذن بالزوال

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا ﴾ أي على الإسلام والطاعات وعن المعاصي .

﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من الطاعات ، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح ، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله .

وقرأ عاصم وابن كثِير "ولنجزِيَنّ" بالنون على التعظيم .

الباقون بالياء .

وقيل : إن هذه الآية "ولا تشتروا" إلى هنا نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندي وخصمه ابن أَسْوع ، اختصما في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقَرّ له بحقه ؛ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(297/442)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾

يعني على ملة واحدة ودين واحد ، وهو دين الإسلام ﴿ ولكن يضل من يشاء ﴾ يعني بخذلانه إياه عدلاً منه ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ بتوفيقه إياه فضلاً منه وذلك مما اقتضته الحكمة الإلهية لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، وهو قوله تعالى ﴿ ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ يعني في الدنيا فيجازى المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته أو يغفر له .

قوله ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ يعني خديعة وفساداً بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا إلى أيمانكم، ويأمنوا إليكم ثم تنقضونها .

وإنما كرر هذا المعنى تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم أمر نقض العهد .

قال المفسرون : وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الإسلام نهاهم عن نقض عهده، لأن الوعيد الذي بعده وهو قوله سبحانه وتعالى : فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره، إنما يليق بنقض عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الإيمان به وبشريعته وقوله ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ مثل يذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط في ورطة بعد سلامة .

(298/442)

تقول العرب لكل واقع في بلاء بعد عافية : زلت قدمه، والمعنى : فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام، بعد ثبوتها عليها ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ يعني العذاب ﴿ بما صددتم عن سبيل الله ﴾ يعني بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لأن من نقض العهد ، فقد علّم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ يعني بنقضكم العهد ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ يعني ولا تنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضاً من

الدنيا قليلاً ، ولكن أوفوا بها ﴿ إنما عند الله ﴾ يعني فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد ﴿ هو خير لكم ﴾ يعني من عاجل الدنيا ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ يعني فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك فقال تبارك وتعالى ﴿ ما عندكم ينفد ﴾ يعني من متاع الدنيا ، ولذاتها يفنى ويذهب ﴿ وما عند الله باق ﴾ يعني من ثواب الآخرة ونعيم الجنة ﴿ ولنجزين الذين صبروا ﴾ يعني على الوفاء بالعهد على السراء والضراء ﴿ أجرهم ﴾ يعني ثواب صبرهم ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(299/442)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

نفذ الشيء ينفذ فنى .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

هذه المشيئة مشيئة اختيار على مذهب أهل السنة ، ابتلى الناس بالأمر والنهي ليذهب

كل إلى ما يسر له ، وذلك لحق الملك لا يسأل عما يفعل .

ولو شاء لكانوا كلهم على طريق واحدة ، إما هدى ، وإما ضلالة ، ولكنه فرق ، فناس للسعادة ، وناس للشقاوة .

فخلق الهدى والضلال ، وتوعد بالسؤال عن العمل ، وهو سؤال توبيخ لا سؤال تفهم ، وسؤال التفهم هو المنفى في آيات .

ومذهب المعتزلة أن هذه المشيئة مشيئة قهر .

قال العسكري : المراد أنه قادر على أن يجمعكم على الإسلام قهراً ، فلم يفعل ذلك ، وخلقكم ليعذب من يشاء على معصيته ، ويثيب من يشاء على طاعته ، ولا يشاء شيئاً من ذلك إلا أن يستحقه .

ويجوز أن يكون المعنى : أنه لو شاء خلقكم في الجنة ، ولكن لم يفعل ذلك ليثيب المطيعين منكم ، ويعذب العصاة .

ثم قال : ولتسألن عما كنتم تعملون يعني : سؤال المحاسبة والمجازاة .

وفيه دليل على أنّ الإضلال في الآية العقاب ، ولو كان الإضلال عن الدين لم يكن لسؤاله إياهم معنى .

وقال الزمخشري : أمة واحدة حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار ، وهو قادر على ذلك ، ولكن الحكمة اقتضت أن يضل من يشاء ، وهو أن يخذل من علم أنه يختار

الكفر ويصمم عليه ، ويهدي من يشاء وهو أنْ يلطف بمن علم الله أنه يختار الإيمان ، يعني : أنه بنى الأمر على الاختيار ، وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب ، ولم ينبه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك ، وحققه بقوله : ولتسألن عما كنتم تعملون .

ولو كان هذا المضطر إلى الضلال والاهتداء ، لما أثبت لهم عملاً يسألون عنه انتهى .

قالوا : كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً تهمماً بذلك ، ومبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين .

قال ابن عطية : وتردده في معاملات الناس .

(300/442)

وقال الزمخشري : تأكيداً عليهم ، وإظهار العظم ما يرتكب منه انتهى .

وقيل : إنما كرر لاختلاف المعنيين : لأن الأول نهى فيه عن الدخول في الحلف ونقض العهد بالقلة والكثرة ، وهنا نهي عن الدخل في الإيمان التي يراد بها اقتطاع حقوق ، فكأنه قال : دخلاً بينكم لتتوصلوا بها إلى قطع أموال المسلمين ، وأقول : لم يتكرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً ، وإنما سبق إخبار بأنهم اتخذوا أيمانهم دخلاً معللاً بشيء خاص وهو : أن تكون

أمة هي أربى من أمة .

وجاء النهي بقوله : ولا تتخذوا ، استئناف إنشاء عن اتخاذ الإيمان دخلاً على العموم ، فيشمل جميع الصور من الحلف في المبايعة ، وقطع الحقوق المالية ، وغير ذلك .

وانتصب فتزل على جواب النهي ، وهو استعارة لمن كان مستقيماً ووقع في أمر عظيم وسقط ، لأنّ القدم إذا زلت تقلب الإنسان من حال خير إلى حال شر .

وقال كثير : فلما توافينا ثبت وزلت .

قال الزمخشري : فنزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها .

(فإن قلت) : لم وجدت القدم ونكرت ؟ (قلت) : لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة انتهى ؟ ونقول : الجمع تارة يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع ، وتارة يلحظ فيه اعتبار كل فرد فرد ، فإذا لوحظ فيه المجموع كان الإسناد معتبراً فيه الجمعية ، وإذا لوحظ كل فرد فرد كان الإسناد مطابقاً للفظ الجمع كثيراً ، فيجمع ما أسند إليه ، ومطابقاً لكل فرد فرد فيفرد كقوله : ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ أفرد متكأ لما كان لوحظ في قوله لهن معنى لكل واحدة ، ولو جاء مراداً به الجمعية أو على الكثير في الوجه الثاني لجمع المتكأ ، وعلى هذا المعنى ينبغي أن يحمل قول الشاعر :

فإني وجدت الضامرين متاعهم . . .

يموت ويفنى فارضخي من وعائيا

أي : رأيت كل ضامر .

ولذلك أفرد الضمير في يموت ويفنى .

(301/442)

ولما كان المعنى هنا : لا يتخذ كل واحد منكم ، جاء فنزل قدم مراعاة لهذا المعنى ثم قال :

وتذوقوا ، مراعاة للمجموع ، أو للفظ الجمع على الوجه الكثير .

إذا قلنا : إن الإسناد لكل فرد فرد ، فتكون الآية قد تعرضت للنهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً

باعتبار المجموع وباعتبار كل فرد فرد ، ودل على ذلك بإفراد قدم وبجمع الضمير في :

وتذوقوا .

وما مصدرية في بما صددتم ، أي : بصدودكم أو بصدكم غيركم ، لأنهم لو نقضوا الأيمان

وارتدوا لاتخذ نقضها سنة لغيرهم فيسبون بها ، وذوق السوء في الدنيا .

ولكم عذاب عظيم أي : في الآخرة .

والسوء : ما يسوءهم من قتل ، ونهب ، وأسر ، وجلاء ، وغير ذلك مما يسوء .

قال ابن عطية : وقوله صددتم عن سبيل الله ، يدل على أنّ الآية فيمن بايع رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) ، وعلى هذا فسر الزمخشري قال : لأنهم قد نقضوا أيمان البيعة .

ولا يدل على ذلك لخصوصه ، بل نقض الأيمان في البيعة مندرج في العموم .

ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ، هذا نهي عن نقض ما بين الله تعالى والعبد لأخذ حطام من عرض الدنيا .

قال الزمخشري : كان قوم ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم إنْ رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فثبتهم الله .

ولا تشتروا : ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسول الله ثمناً قليلاً عرضاً من الدنيا يسيراً ، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا أنّ ما عند الله من إظهاركم وتغنيمكم ومن ثواب الآخرة خير لكم .

وقال ابن عطية : هذه آية نهي عن الرشا وأخذ الأموال على ترك ما يجب على الآخذ فعله ، أو فعل ما يجب عليه تركه ، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها وبين تعالى الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة ، بأنّ هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان ، وينقضي عنها ، والتي في الآخرة باقية دائمة .

ودل قوله : وما عند الله باق ، على أن نعيم الجنة لا ينقطع ، وفي ذلك حجة على جهم بن صفوان إذ زعم أن نعيم الجنة منقطع .

وقرأ عاصم ، وابن كثير : ولنجزين بالنون ، وباقي السبعة بالياء .

وصبروا : أي جاهدوا أنفسهم على ميثاق الإسلام وأذى الكفار ، وترك المعاصي ، وكسب المال بالوجه الذي لا يحل بأحسن ما كانوا يعملون .

قيل : من التنفل بالطاعات ، وكانت أحسن لأنها لم يحتم فعلها ، فكان الإنسان يأتي بالتنفلات مختاراً غير ملزوم بها .

وقيل : ذكر الأحسن ترغيباً في عمله ، وإن كانت المجازاة على الحسن والأحسن .

وقيل : الأحسن هنا بمعنى الحسن ، فليس أفعل التي للتفضيل .

والذي يظهر أنّ المراد بالأحسن هنا الصبر أي : وليجزين الذين صبروا بصبرهم أي : بجزاء صبرهم ، وجعل الصبر أحسن الأعمال لاحتياج جميع التكاليف إليه ، فالصبر هو رأسها ، فكان الأحسن لذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

مشيئةَ قسرٍ وإلجاءٍ ﴿ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ متفقةً على الإسلام ﴿ ولكن ﴾ لا يشاء ذلك لكونه مزاحِماً لقضية الحِكمة بل ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ إضلالَه أي يخلق فيه الضلالَ حسبما يصرِفُ اختيارَه الجزئيَّ إليه ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته حسبما يصرِف اختيارَه إلى تحصيلها ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ ﴾ جميعاً يوم القيامة ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا ، وهذا إشارةٌ إلى ما لُوِّح به من الكسب الذي عليه يدور أمرُ الهداية والضلال .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾

تصريحٌ بالنهي عنه بعد التضمين تأكيداً ومبالغةً في بيان قبحِ المنهيِّ عنه وتمهيداً لقوله سبحانه : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ ﴾ عن محجّة الحق ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ عليها ورسوخِها فيها بالإيمان ، وإفرادُ القدم وتنكيرُها للإيذان بأن زَلَلَ قدمٍ واحدة أيَّ قدمٍ كانت عزّت أو هانت محذورٌ عظيم فكيف بأقدام كثيرة ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ أي العذابَ الدنيوي ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ بصدودكم أو بصدّكم غيركم ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الذين ينتظم الوفاءَ بالعهود والأيمان ، فإن من نقض البَيعة وارتدّ جعل ذلك سنةً لغيره ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ أي لا تأخذوا بمقابلة عهدِه تعالى وبَيعةِ رسوله عليه السلام أو آياتِه الناطقةِ بإيجاب المحافظةِ على العهود والأيمان ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ أي لا تستبدلوا بها عرَضاً يسيراً وهو ما كانت قريشٌ يعِدّون ضعفةَ المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حُطام الدنيا ﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ ﴾ عز وجل من النصر والتنعيم والثوابِ الأخرويّ ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما يعدونكم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم من أهل العلمِ والتمييزِ ، وهو تعليلٌ للنهي على طريقة التحقيقِ كما أن قوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ ﴾ تعليلٌ للخيرية بطريق الاستئنافِ أي ما تتمعون به من نعيم الدنيا وإن جل بل الدنيا وما فيها جميعاً ﴿ يَنفَدُ ﴾ وإن جمّ عددُه ، وينقضي وإن طال أمدُه ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ ﴾ من خزائن رحمتِه الدنيوية والأخروية ﴿ بَاقٍ ﴾ لا نفادَ له ، أما الأخروية فظاهرةٌ وأما الدنيويةُ فحيث كانت موصولةً بالأخروية ومستتبعةً لها فقد انتظمت في سِمْط الباقيات .

وفي إيثار الاسمِ على صيغة المضارعِ من الدلالة على الدوام ما لا يخفى ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفاتِ تكريرُ الوعد المستفادِ من قوله تعالى : ﴿

إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ على نهج التوكيدِ القسميّ مبالغةٌ في الحمل على الثبات في الدين ، والالتفاتُ عما يقتضيه ظاهرُ الحال من أن يقال : ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون ، للتوسل إلى التعرض لأعمالهم والإشعارِ بعليتها للجزاء أي والله لنجزين ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على أذية المشركين ومشاقّ الإسلام التي من جملتها الوفاءُ بالعهود والفقرُ ، وقرىء بالياء من غير التفاتٍ ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ مفعولٌ ثانٍ لنجزين أي لنُعطِينّهم أجرَهم الخاصَّ بهم بمقابلة صبرِهم على ما مُنوا به من الأمور المذكورة ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكورِ ، وإنما أُضيف إليه الأحسنُ للإشعار بكمال حسنِه كما في قوله سبحانه : ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الأخرة ﴾ لا لإفادة قصرِ الجزاءِ على الأحسن منه دون الحسَن ، فإن ذلك مما لا يخطر ببال أحد ، لا سيما بعد قوله تعالى : ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ و ﴿ لنجزينهم ﴾ بحسب أحسنِ أفرادِ أعمالِهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفردِ الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفردِ الأعلى منها من الأجر الجزيلِ لا أنا نُعطي الأجر بحسب أفرادِها المتفاوتةِ في مراتب الحسن بأن نجزيَ الحسنَ منها بالأجر الحسَنِ والأحسنَ بالأحسن .

وفيه ما لا يخفى من العُهدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من بعض جزَعٍ ، ونظمِه في سلك الصبر الجميل ، أو لنجزينهم بجزاءٍ أحسنَ من أعمالهم .

وأما التفسيرُ بما ترجح فعلُه من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركُه أيضاً كالمحرمات والمكروهات دلالةً على أن ذلك هو المدارُ للجزاء دون ما يستوي فعلُه وتركُه كالمباحات ، فلا يساعده مقامُ الحثِّ على الثبات على ما هم عليه من الأعمال الحسنةِ المخصوصة والترغيبِ في تحصيل ثمراتها ، بل التعرضُ لإخراج بعض أعمالِهم عن مدارية الجزاءِ من قبيل تحجيرِ الرحمةِ الواسعة في مقام توسيعِ حِماها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(307/442)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾

أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ متفقة على الإسلام ﴿ ولكن ﴾ لا يشاء ذلك رعاية للحكمة بل ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ إضلاله بأن يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره التابع لاستعداده له ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره التابع لاستعداده لتحصيلها ﴿ وَلَتُسْئَلُنَّ ﴾ جميعاً يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة لا سؤال

استفسار وتفهم ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تستمرون على عمله في الدنيا بقدركم المؤثرة بإذن الله تعالى ، والآية ظاهرة في أن مشيئة الله تعالى لإسلام الخلق كلهم ما وقعت وأنه سبحانه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف ، فإيمان وكفر وتصديق وتكذيب ووقع الأمر كما شاء جل وعلا ، والمعتزلة ينكرون كون الضلال بمشيئته تعالى ويزعمون أنه سبحانه إنما شاء من الجميع الايمان ووقع خلاف ما شاء عز شأنه .

وأجاب الزمخشري عن الآية بأن المعنى لو شاء على طريقة الإلجاء والقسر لجعلكم أمة واحدة مسلمة فإنه سبحانه قادر على ذلك لكن اقتضت الحكمة أن يضل ويخذل من يشاء ممن علم سبحانه أنه يختار الكفر ويصمم عليه ويهدي من يشاء بأن يلطف بمن علم أنه يختار الايمان ، والحاصل أنه تعالى بني الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب ولم ينبه على الاجبار الذي لا يستحق به شيء ولو كان العبيد مضطرين للهداية والضلال لما أثبت سبحانه لهم عملاً يسئلون عنه بقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ اه ، وللعسكري نحوه ، وقد قدمنا لك غير مرة أن المذهب الحق على ما بينه علامة المتأخرين الكوراني وألف فيه عدة رسائل أن للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى لا أنه لا قدرة

له أصلاً كما يقول الجبرية ولا أن له قدرة مقارنة غير مؤثرة كما هو المشهور عند الأشعرية ولا أن له قدرة مؤثرة وإن لم يؤذن الله تعالى كما يقول المعتزلة وإن له اختياراً أعطيه بعد طلب استعداده الثابت في علم الله تعالى له فللعبد في هذا المذهب اختيار والعبد مجبور فيه بمعنى أنه لا بد من أن يكون له لأن استعداده الأزلي الغير المجعول قد طلبه من الجواد المطلق والحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها والإثابة والتعذيب إنما يترتبان على الاستعداد للخير والشر الثابت في نفس الأمر والخير والشر يدلان على ذلك نحو دلالة الأثر على المؤثر والغاية على ذي الغاية وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ومن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجه غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وقال ابن المنير: إن أهل السنة عن الإجبار بمعزل لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالاً وهم مع ذلك يوحدون الله تعالى حق توحيده فيجعلوه قدرته سبحانه هي الموجدة والمؤثرة وقدرة العبد مقارنة فحسب وبذلك يميز بين الاختياري والقسري وتقوم حجة الله تعالى على عباده اه وهذا هو المشهور من مذهب الأشعرية وهو كما ترى، وسيأتي أن شاء الله تعالى تمام الكلام في هذا المقام وما فيه من النقض والإبرام.

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أيمانكم دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾

قالوا هو تصريح بالنهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بعد التضمين لأن الاتخاذ المذكور فيما سبق وقع قيداً للمنهي عنه فكان منهياً عنه ضمناً تأكيداً ومبالغة في قبح النهي عنه وتمهيداً لقوله تعالى : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ ﴾ عن محجة الحق ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ عليها ورسوخها فيها بالأيمان ، وقيل ما تقدم كان نهياً عن الدخول في الحلف ونقض العهد بالقلة والكثرة وما هنا نهى عن الدخل في الأيمان التي يراد بها اقتطاع الحقوق فكأنه قيل : لا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم لتتوصلوا بذلك إلى قطع حقوق المسلمين .

وقال أبو حيان : لم يتكرر النهي فإن ما سبق إخبار بأنهم اتخذوا أيمانهم دخلاً معللاً بشيء خاص وهو أن تكون أمة هي أربى من أمة وجاء النهي المستأنف الإنشائي عن اتخاذ الايمان دخلاً على العموم فيشمل جميع الصور من الحلف في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك .

ورد بأن قيد المنهي عنه منهى عنه فليس إخباراً صرفاً ولا عموم في الثاني لأن قوله تعالى : ﴿ فَتَزِلَّ ﴾ الخ إشارة إلى العلة السابقة إجمالاً على أنه قد يقال : إن الخاص مذكور في

ضمن العام أيضاً فلا محيص عن التكرار أيضاً ولو سلم ما ذكره فتأمل ، ونصب تزل بأن مضمرة في جواب النهي لبيان ما يترتب عليه ويقتضيه ، قال في "البحر" وهو استعارة للوقوع في أمر عظيم لأن القدم إذا زلت انقلبت الإنسان من حال خير إلى حال شر ، وتوحيد القدم وتنكيرها كما قال الزمخشري للإيذان بأن زلل قدم واحدة أي قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام ، وقال أبو حيان : إن الجمع تارة يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع وتارة يلحظ فيه كل فرد فرد وفي الأول يكون الإسناد معتبراً فيه الجمعية وفي الثاني يكون الإسناد مطابقاً للفظ الجمع كثيراً فيجمع ما أسند إليه ومطابقاً لكل فرد فيفرد كقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتكأً ﴾ [يوسف : 31] فأفرد المتكأ لما لوحظ في ﴿ قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ كل واحدة منهن ولو جاء مراداً به الجمعية أو على الكثير في الوجه الثاني لجمع وعلى هذا ينبغي أن يحمل قوله :

فإن يوجدت الضامرين متاعهم . . .

يموت ويفنى فارضخي من وعائيا

أي كل ضامر ، ولذا أفرد الضمير في يموت ويفنى ، ولما كان المعنى هنا لا يتخذ كل واحد منكم جاء ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ ﴾ مراعاة لهذا المعنى ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَتَذُوقُوا السوء ﴾ مراعاة للمجموع أو للفظ الجمع على الوجه الكثير إذ قلنا : إن الإسناد لكل فرد فرد

فتكون الآية قد تعرضت للنهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً باعتبار المجموع وباعتبار كل فرد ودل على ذلك بإفراد ﴿ قَدَمٌ ﴾ وجمع الضمير في ﴿ وَتَذُوقُواْ ﴾ .

(311/442)

وتعقب بأن ما ذكره الزمخشري نكتة سرية وهذا توجيه للأفراد من جهة العربية فلا ينافي النكتة المذكورة ، والمراد من السوء العذاب الدنيوي من القتل والأسر والنهب والجلاء غير ذلك مما يسوء ولا يخفى ما في ﴿ تذوقوا ﴾ من الاستعارة ﴿ السوء بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ بسبب صدودكم وإعراضكم أو صد غيركم ومنعه ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره يتبعه فيها من بعده من أهل الشقاء والإعراض عن الحق فيكون صاداً عن السبيل .

وجعل ذا بعضهم دليلاً أن الآية فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كما ترى ﴿ وَلَكُمْ فِى الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يعلم عظمه إلا الله تعالى .

﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ الله ﴾

(312/442)

المراد به عند كثير بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان والاشتراء مجاز عن الاستبدال لمكان قوله تعالى : ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ فإن الثمن مشترى لا مشترى به أي لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى عوضاً يسيراً من الدنيا ، قال الزمخشري : كان قوم ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم ولما كانوا يعدونهم من المواعيد إن رجعوا أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله تعالى بهذه الآية ونهاهم عن أن يستبدلوا ذلك بما وعدوهم به من عرض الدنيا ، وقال ابن عطية : هذا نهي عن الرشا وأخذ الأموال على ترك ما يجب على الآخذ فعله أو فعل ما يجب عليه تركه ، فالمراد بعهد الله تعالى ما يعم ما تقدم وغيره ولا يخفى حسنه ﴿ إِنَّمَا عِندَ اللهِ ﴾ أي ما أخبأه وادخره لكم في الدنيا والآخرة ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من ذلك الثمن القليل ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز ، فالفعل منزل منزلة اللازم ، وقيل : متعد والمفعول محذوف وهو فضل ما بين العوضين والأول أبلغ ومستغن عن التقدير ، وفي التعبير بأن ما لا يخفى ، والجملة تعليل للنهي على طريقة التحقيق

كما أن قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ ﴾ الخ تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أي ما تتمتعون به من نعيم الدنيا بل

الدنيا وما فيها جميعاً ﴿ يَنفَدُ ﴾ ينقضي ويفنى وإن جم عدده وطال مدده ، يقال : نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفاداً ونفوداً إذا ذهب وفنى ، وأما نفذ بالذال المعجمة فبفتح العين ومضارعه ينفذ بضمها ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ ﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿ بَاقٍ ﴾ لا نفاد له ؛ أما الأخروية فظاهر ، وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالأخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت في سلك الباقيات الصالحات .

(313/442)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أن المراد بما عند الله في الموضعين الثواب الأخروي واختاره بعض الأئمة ، وفي إيثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام ما لا يخفى .

ورد بالآية على جهم بن صفوان حيث زعم أن نعيم اجلنة منقطع ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بنون العظمة وهي قراءة عاصم .

وابن كثير على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلم تكرير للوعد المستفاد من قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النحل : 95] على نهج التوكيد القسمي مبالغة في الحمل على الثبات على العهد .

وقرأ باقي السبعة بالياء فلا التفات.

والعدول عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال: ولنجزينكم بالنون أو بالياء أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل إلى التعرض لأعمالهم والأشعار بعليتها للجزاء أي والله لنجزين ﴿ الذين ﴾ على العهد أو على أذية المشركين ومشاف الإسلام التي من جملتها الوفاء بالعهود وإن وعد المعاهدون على نقضها بما وعدوا ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ مفعول ﴿ لنجزين ﴾ أي لنعطينهم أجرهم اخلاص بهم بمقابلة صبرهم ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهو الصبر فإنه من الأعمال القلبية، والكلام على حذف مضاف أي لنجزينهم بجزاء صبرهم، وكان الصبر أحسن الأعمال لاحتياج جميع التكاليف إليه فهو رأسها قاله أبو حيان.

وفي إرشاد العقل السليم إنما أضيف الأحسن إلى ما ذكر الأشعار بكمال حسنة كما في قوله تعالى: ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة ﴾ [آل عمران: 148] لا لإفادة قصر الجزاء على الأحسن منه دون الحسن فإن ذلك مام لا يخطر ببال أحد لا سيما بعد قوله تعالى: ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ فالإضافة للترغيب.

وجوز أن يكون المعنى لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم أي لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها من الأجر الجزيل لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالحسن والأحسن بالأحسن ، وفيه ما لا يخفي من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه في سلك الصبر الجميل ، وأن يكون ﴿ أَحْسَنُ ﴾ صفة جزاء محذوفاً والإضافة على معنى من التفضيلية أي لنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم ، وكونه أحسن لمضاعفته ، وقيل : المراد بالأحسن ما ترجح فعله على تركه كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضاً كالمحرمات والمكروهات والحسن ما لم يترجح فعله ولا تركه وهو لا يثاب عليه .

وتعقبه في الإرشاد بأنه لا يساعده مقام الحث على الثبات على ما هم عليه من الأعمال الحسنة المخصوصة والترغيب في تحصيل ثمراتها بل التعرض لإخراج بعض أعمالهم من مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة في مقام توسيع حماها ، وقيل : المراد بالأحسن النفل ، وكان أحسن لأنه لم يحتم بل يأتي الإنسان به مختاراً غير ملزم ، وإذا علمت المجازاة على النفل الذي هو أحسن علمت المجازاة على الفرض الذي هو حسن ، ولا يخفى أنه ليس بحسن أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) ﴾

خصّ سبحانه من جملة المأمورات التي تضمنها قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل ﴾ الوفاء بالعهد ، فقال : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عاهدتم ﴾ وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره .

وخصّ هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله .

ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود ، لم يكن ذلك موجباً لقصره على السبب ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، وفسره بعضهم باليمين ، وهو مدفوع بذكر الوفاء بالأيمان بعده حيث قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ أي : بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها ، وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالأيمان المؤكدة ، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه .

فإن تحريم النقض يتناول الجميع ، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذي في

نقض ما لم يوكد منها .

يقال : وكد وأكد توكيداً وتأكيداً ، وهما لغتان .

(316/442)

وقال الزجاج : الأصل الواو ، والهمزة بدل منها ، وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله صلى الله عليه وسلم فقال : " من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه " ، حتى بالغ في ذلك صلى الله عليه وسلم فقال : والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما ، ويخصّ أيضاً من هذا العموم يمين اللغو ، لقوله سبحانه : ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو فى أيمانكم ﴾ [البقرة : 225] ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللغو .

وقد تقدّم بسط الكلام على الأيمان في البقرة .

﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ أي : شهيداً .

وقيل : حافظاً .

وقيل : ضامناً .

وقيل : رقيباً ؛ لأن الكفيل يراعي حال المكفول به .

وقيل : إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مراراً .

وحكى القرطبي عن ابن عمر : أن التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ ، وفيه ترغيب وترهيب .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ أي لا تكونوا فيما تصنعون من النقض ، بعد التوكيد كالتي نقضت غزلها ، أي : ما غزلته ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أي : من بعد إبرام الغزل وإحكامه ، وهو متعلق ب ﴿ نقضت ﴾ ﴿ أنكاثا ﴾ جمع نكث بكسر النون ، ما ينكث فتله .

قال الزجاج : انتصب ﴿ أنكاثاً ﴾ على المصدر ؛ لأن معنى نقضت : نكثت .

وردّ بأن ﴿ أنكاثاً ﴾ ليس بمصدر ، وإنما هو جمع كما ذكرنا .

وقال الواحدي : هو منصوب على أنه مفعول ثانٍ كما تقول كسرته أقطاعاً وأجزاء ، أي : جعلته أقطاعاً وأجزاء .

ويحتمل أن يكون حالاً .

قال ابن قتيبة : هذه الآية متعلقة بما قبلها ، والتقدير : وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأَيمان ، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً .

وجملة ﴿ تَتَّخِذُونَ أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ في محل نصب على الحال .

قال الجوهري : والدخل : المكر والخديعة ، وقال أبو عبيدة : كلّ أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ، وقيل : الدخل ما أدخل في الشيء على فساده .

وقال الزجاج : غشاً وغلاً ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي : بأن تكون جماعة هي أربى من جماعة ، أي : أكثر عدداً منها وأوفر مالاً .

يقال : ربا الشيء يربو إذا كثر ، قال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم ، أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عزرتموهم بالأَيمان .

قيل : وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم ، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم .

وقيل : هو تحذير للمؤمنين أن يغترّوا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ ﴾ أي : يختبركم بكونكم أكثر وأوفر ، لينظر هل تمسكون بحبل الوفاء ، أم تنقضون اغتراراً بالكثرة ؟ فالضمير في ﴿ به ﴾ راجع إلى مضمون جملة : ﴿

أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي : إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ، ليعلم ما تصنعون ، أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم .

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيوضح الحق والمحقين ، ويرفع درجاتهم ، ويبين الباطل والمبطلين ، فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه .

وفي هذا إنذار وتحذير من مخالفة الحق والركون إلى الباطل .

أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار .

(318/442)

ثم بيّن سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيمان فقال :

﴿ وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ متفقة على الحق ﴿ ولكن ﴾ بحكم الإلهية ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ بخذلانه إياهم عدلاً منه فيهم ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ بتوفيقه إياهم فضلاً منه عليهم ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] .

ولهذا قال : ﴿ ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ من الأعمال في الدنيا ، واللام في ﴿ وليبيننّ لكم ﴾ وفي ﴿ ولتسألنّ ﴾ هما الموطئتان للقسم .

ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأيمان ، نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة ، فقال : ﴿

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُم دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ وهي أيمان البيعة .

قال الواحدي : قال المفسرون : وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين .

واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ من المبالغة ، وبما في قوله : ﴿ وَتَذُوقُوا السوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صدّوا غيرهم عن الدخول في الإسلام .

وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سبب نزول هذه الآية ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقال جماعة من المفسرين : إن هذا تكرير لما قبله ، لقصد التأكيد والتقرير .

ومعنى ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزلّ قدم من اتخذ يمينه دخلاً عن محجة الحق ﴿ بعد ثبوتها ﴾ عليها ورسوخها فيها .

قيل : وأفرد القدم للإيذان بأن زلل قدم واحد ، أيّ قدم كانت عزّت أو هانت محذور عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ وهذا استعارة للمستقيم الحال ، يقع في شرّ عظيم ويسقط فيه ، لأن القدم إذا زلت ، نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ .

ويقال لمن أخطأ في شيء : زلت به قدمه ، ومنه قول الشاعر :

تداركتما عبساً وقد ثلّ عرشها . . . وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

﴿ وَتَذُوقُواْ السوء بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ أي : تذوقوا العذاب السيء في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما بما صددتم ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي : بسبب صدودكم أنتم عن سبيل الله ، وهو الإسلام ، أو بسبب صدّكم لغيركم عن الإسلام ، فإن من نقض البيعة وارتدّ ، اقتدى به غيره في ذلك ، فكان فعله سنّة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ولهذا قال : ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : متبالغ في العظم ، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا .

ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال : ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ أي : لا تأخذوا في مقابلة عهدكم عوضاً يسيراً حقيراً . وكل عرض دنيوي وإن كان في الصورة كثيراً ، فهو لكونه ذاهباً زائلاً يسير ، ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال : ﴿ إِنَّمَا عِندَ الله هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : ما عنده من النصر في الدنيا والغنائم والرزق الواسع ، وما عنده في الآخرية من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع هو خير لهم .

ثم علل النهي عن أن يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ، وأن ما عند الله هو خير لهم بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الأشياء .

ثم ذكر دليلاً قاطعاً على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ ومعلوم لكل عاقل أن ما ينفد ويزول وإن بلغ في الكثرة إلى أي مبلغ فهو حقير يسير ، وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل .

أما نعيم الآخرة فظاهر ، وأما نعيم الدنيا الذي أنعم الله به على المؤمنين فهو وإن كان زائلاً ، لكنه لما كان متصلاً بنعيم الآخرة ، كان من هذه الحيثية في حكم الباقي الذي لا ينقطع ، ثم قال : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُواْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ اللام هي الموطئة ، أي : لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاقّ التكليف وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات .

قيل : وإنما خصّ أحسن أعمالهم ؛ لأن ما عداه وهو الحسن مباح ، والجزاء إنما يكون على الطاعة ، وقيل : المعنى : ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم ، كقوله : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] ، أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأعلى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل ، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب

الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن ، والأحسن بالأحسن ، كذا قيل .

قرأ عاصم وابن كثير ﴿ لنجزين ﴾ بالنون .

وقرأ الباقون بالياء التحتية .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن مزيدة بن جابر في قوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عاهدتم ﴾ قال : أنزلت هذه الآية في بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنّ من أسلم بايع على الإسلام ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله .

. .

﴾ الآية ، فلا يحملنكم قلة محمد وأصحابه ، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول : بعد تغليظها .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه .

وأخرج ابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس ، أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشعر والليف ، فنزلت فيها هذه الآية ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص مثله .

وفي الروايتين جميعاً أنها كانت مجنونة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن السدّي في سبب نزول الآية ، قال : كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير معناه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قال : ناس أكثر من ناس .

وأخرجوا عن مجاهد في الآية قال : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزّ ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ ، فنهوا عن ذلك . انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ .

بين جل وعلا في هذه لآية الكريمة : أن ما عنده من نعيم باق لا يفنى . وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] ، وقوله : قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54] ، وقوله : ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ [الكهف : 2-3] إلى غير ذلك من الآيات .

قوهل تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

اقسم جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه سيجزي الذين صبروا أجرهم - اي جزاء عملهم - بأحسن ما كانوا يعلمون .

ويبن في موضع آخر : نه جزاء بلا حساب . كما في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] .

تنبيه

استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة : أن فعل المباح حسن . لأن قوله في هذه الآية ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ صيغة تفضيل تدل على المشاركة ، والواجب أحسن من المندوب ، والمندوب أحسن من المباح . فيجازون بالأحسن الذي هو الواجب والمندوب

، دون مشاركهما في الحسن وهو المباح. وعليه درج في مراقي السعود في قوله:

ما ربنا لم ينه عنه حسن . . . وغيره القبيح والمستهجن

إلا أن الحسن ينقسم إلى حسن وأحسن. ومن ذلك قوله تعالى لموسى ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: 145] الآية. فالجزاء المنصوص عليه في قوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: 126] حسن. والصبر المذكور في قوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: 126] أحسن. وهكذا. وقرأ هذا الحرف ابن كثير وعاصم وابن ذكوان بخلف عنه " ولنجزين " بنون العظمة. وقرأه الباقون بالياء، وهو الطريق الثاني لابن ذكوان. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

لما أحال البيان إلى يوم القيامة زادهم إعلاماً بحكمة هذا التأخير فأعلمهم أنه قادر على أن يبيّن لهم الحقّ من هذه الدار فيجعلهم أمّة واحدة .

ولكنه أضلّ من شاء ، أي خلق فيه داعية الضلال ، وهدى من شاء ، أي خلق فيه داعية الهُدى .

وأحال الأمر هنا على المشيئة إجمالاً ، لتعذّر نشر مطاوي الحكمة من ذلك .

ومرجعها إلى مشيئة الله تعالى أن يخلق الناس على هذا الاختلاف الناشىء عن اختلاف أحوال التفكير ومراتب المدارك والعقول ، وذلك يتولّد من تطوّرات عظيمة تعرض للإنسان في تناسله وحضارته وغير ذلك مما أجمله قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ [سورة الانشقاق : 25] .

وهذه المشيئة لا يطّلع على كنهها إلا الله تعالى وتظهر آثارها في فرقة المهتدين وفرقة الضالين .

ولما كان قوله : ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ قد يغترّ به قصّار الأنظار فيحسبون أن الضالين والمهتدين سواء عند الله وأن الضالين معذورون في ضلالهم إذ كان

من أثر مشيئة الله فعقّب ذلك بقوله : ﴿ ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ مؤكّداً بتأكيدين كما تقدم نظيره آنفاً ، أي عما تعملون من عللٍ ضلالٍ أو عمل هدى .

والسؤال : كنية عن المحاسبة ، لأنه سؤال حكيم تترتّب عليه الإنارة وليس سؤال استطلاع .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾

(325/442)

لما حذّرهم من النّقض الذي يؤول إلى اتخاذ أيمانهم دخلاً فيهم ، وأشار بالإجمال إلى ما في ذلك من الفساد فيهم ، أعاد الكرّة إلى بيان عاقبة ذلك الصنيع إعادة تفيد التصريح بالنهي عن ذلك ، وتأكيد التحذير ، وتفصيل الفساد في الدنيا ، وسوء العاقبة في الآخرة ، فكان قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا ﴾ تصريحاً بالنهي ، وقوله تعالى : ﴿ تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ تأكيداً لقوله قبله : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ [سورة النحل : 92] ، وكان تفريع قوله تعالى : ﴿ فتزل قدم ﴾ إلى قوله : ﴿ عن سبيل الله ﴾ تفصيلاً لما أجمل في معنى الدَخَل .

وقوله تعالى : ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ المعطوف على التفريع وعيد بعقاب الآخرة .

وبهذا التّصدير وهذا التّفريع الناشىء عن جملة ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ فارقت هذه نظيرتَها السابقة بالتفصيل والزيادة فحقّ أن تعطف عليها لهذه المغايرة وإن كان شأن الجملة المؤكدة أن لا تعطف .

والزّلل : تزلّق الرّجل وتنقّلها من موضعها دون إرادة صاحبها بسبب ملاسة الأرض من طين رطب أو تخلخل حصى أو حجر من تحت القدم فيسقط الماشي على الأرض .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فأزلّهما الشيطان عنها ﴾ في سورة البقرة (36) .

وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرّض للضرّ ، لأنه يترتّب عليه السقوط أو الكسر ، كما أن ثبوت القدم تمكّن الرّجل من الأرض ، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير .

ولما كان المقصود تمثيل ما يجرّه نقض الأيمان من الدخل شبّهت حالهم بحال الماشي في طريق بينما كانت قدمه ثابتة إذا هي قد زلّت به فصرع .

فالمشبه بها حال رجل واحد ، ولذلك نكرت قدم ﴾ وأفردت ، إذ ليس المقصود قدماً معيّنة ولا عدداً من الأقدام ، فإنك تقول لجماعة يترددون في أمر : أراكم تقدّمون رجلاً وتؤخّرون أخرى .

تمثيلاً لحالهم بحال الشخص المتردّد في المشي إلى الشيء .

وزيادة ﴿ بعد ثبوتها ﴾ مع أن الزّلل لا يتصوّر إلا بعد الثبوت لتصوير اختلاف الحالين ، وأنه انحطاط من حال سعادة إلى حال شقاء ومن حال سلامة إلى حال محنة .

والثبوت : مصدر ثبت كالثّبات ، وهو الرسوخ وعدم التنقّل ، وخصّ المتأخرون من الكتاب الثبوت الذي بالواو بالمعنى المجازي وهو التحقّق مثل ثبوت عدالة الشاهد لدى القاضي ، وخصّوا الثبات الذي بالألف بالمعنى الحقيقي وهي تفرقة حسنة .

والذّوق : مستعار للإحساس القويّ كقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ وتقدم في سورة العقود (95) .

والسّوء : ما يؤلم .

والمراد به : ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين أو الخائنين عهودهم .

و﴿ صددتم ﴾ هنا قاصر ، أي بكونكم معرضين عن سبيل الله .

وتقدّم آنفاً .

ذلك أن الآيات جاءت في الحفاظ على العهد الذي يعاهدون الله عليه ، أي على التمسّك بالإسلام .

فسبيل الله : هو دين الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ هو عذاب الآخرة على الرجوع إلى الكفر أو على معصية غدْر العهد .

وقد عصم الله المسلمين من الارتداد مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة .

وما ارتدّ أحد إلا بعد الهجرة حين ظهر النفاق ، فكانت فلتة عبد الله بن سعد بن أبي سرح واحدة في المهاجرين وقد تاب وقبل توبته النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) ﴾

الثمن القليل هو ما يعدهم به المشركون إن رجعوا عن الإسلام من مال وهناء عيش .

وهذا نهي عن نقض عهد الإسلام لأجل ما فاتهم بدخولهم في الإسلام من منافع عند قوم الشّرك ، وبهذا الاعتبار عطفت هذه الجملة على جملة ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ [سورة النحل : 91] وعلى جملة ﴿ وَلَا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة النحل : 94] لأن كل جملة منها تلتفت إلى غرض خاص مما قد يبعث على النّقض .

والثّمن : العوض الذي يأخذه المعاوض .

وتقدّم الكلام على نظير هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فاتّقون

﴾ في سورة البقرة (41) .

وذكرنا هناك أن ﴿ قليلاً ﴾ صفة كاشفة وليست مقيدة ، أي أن كل عوض يؤخذ عن نقض عهد الله هو عوض قليل ولو كان أعظم المكتسبات .

وجملة ﴿ إنما عند الله هو خير لكم ﴾ تعليل للنّهي باعتبار وصف عوض الاشتراء المنهي عنه بالقلّة ، فإن ما عند الله هو خير من كل ثمن وإن عظم قدره .

و"ما عند الله" هو ما ادّخره للمسلمين من خير في الدنيا وفي الآخرة ، كما سننبّه عليه عند قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ [سورة النحل : 97] الآية ؛ فخير الدنيا الموعود به أفضل مما يبذله لهم المشركون ، وخير الآخرة أعظم من الكلّ ، فالعندية هنا بمعنى الادِّخار لهم ، كما تقول : لك عندي كذا ، وليست عندية ملك الله تعالى كما في قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [سورة الأنعام : 59] وقوله ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ [سورة الحجر : 21] وقوله : وما عند الله باق ﴾ .

و﴿ إنما ﴾ هذه مركّبة من (إن) و (مَا) الموصولة ، فحقّها أن تكتب مفصولة (ما) عن (إنّ) لأنها ليست (ما) الكافّة ، ولكنها كتبت في المصحف موصولة اعتباراً لحالة النّطق ولم يكن وصل أمثالها مطّرداً في جميع المواضع من المصحف .

ومعنى ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ إن كنتم تعلمون حقيقة عواقب الأشياء ولا يغرّكم العاجل .

وفيه حثّ لهم على التأمّل والعلم .

وجملة ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ تذييل وتعليل لمضمون جملة ﴿ إنما عند الله هو خير لكم ﴾ بأن ما عند الله لهم خير متجدّد لا نفاد له ، وأن ما يعطيهم المشركون محدود نافد لأن خزائن الناس صائرة إلى النفاد بالإعطاء وخزائن الله باقية .

والنفاد : الانقراض .

والبقاء : عدم الفناء .

(328/442)

أي ما عند الله لا يفنى فالأجدر الاعتماد على عطاء الله الموعود على الإسلام دون الاعتماد على عطاء الناس الذين ينفَد رزقهم ولو كَثُر .

وهذا الكلام جرى مجرى التذييل لما قبله ، وأرسل إرسال المثل فيحمل على أعمّ ، ولذلك كان ضمير ﴿ عندكم ﴾ عائداً إلى جميع الناس بقرينة التذييل والمثل ، وبقرينة المقابلة بما عند لله ، أي ما عندكم أيها الناس ما عند الموعود وما عند الواعد ، لأن المنهيّين عن نقض العهد ليس بيدهم شيء .

ولما كان في نهيهم عن أخذ ما يعدهم به المشركون حَمْلٌ لهم على حرمانِ أنفسهم من ذلك النّفع العاجل وُعِدوا الجزاء على صبرهم بقوله تعالى : ﴿ وليجزينّ الذين صبروا أجرهم .

قرأه الجمهور وليجزين ﴾ بياء الغيبة .

والضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله تعالى : ﴿ بعهد الله ﴾ وما بعده ، فهو النّاهي والواعد فلا جرم كان هو المجازي على امتثال أمره ونهيه .

وقرأه ابن كثير وعاصم وابن ذكوان عن ابن عمر في إحدى روايتين عنه وأبو جعفرَ بنون العظمة فهو التفات .

و﴿ أجرهم ﴾ منصوب على المفعولية الثانية ل"يَجزين" بتضمينه معنى الإعطاء المتعدّي إلى مفعولين .

والباء للسببية .

و"أحسن" صيغة تفضيل مستعملة للمبالغة في الحسن .

كما في قوله تعالى : ﴿ قال ربّ السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه ﴾ [سورة يوسف : 33] ، أي بسبب عملهم البالغ في الحسن وهو عمل الدوام على الإسلام مع تجرّع ألم الفتنة من المشركين .

وقد أكد الوعد بلام القسم ونون التوكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

لو حرف امتناع لامتناع . أي : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

فقد امتنع الفساد لامتناع تعدّد الآلهة .

فلو شاء الله لجعلَ العالم كله أمةً واحدة على الحق ، لا على الضلال ، أمة واحدة في الإيمان والهداية ، كما جعل الأجناس الأخرى أمةً واحدة في الانصياع لمرادات الله منها .

ذلك لأن كل أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يفِدَ إلى الحياة مخلوقة بالحق خَلْقاً تسخيرياً ، فلا يوجد جنس من الأجناس تأبَّى عما قصد منه ، لا الجماد ولا النبات ولا الحيوان .

كل هذه الأكوان تسير سَيْراً سليماً كما أراد الله منها ، والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختلّ في الكون ، ذلك لما له من حرية الاختيار ، يفعل أو لا يفعل .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . ﴾ [الحج : 18] .

هكذا تسجد كل هذه المخلوقات لله دون استثناء ، إلا في الإنسان فقال تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ . . ﴾ [الحج : 18] .

فلماذا حدث هذا الاختلاف عند الناس ؟ لأنهم أصحاب الاختيار ، فيستطيع الواحد منهم أن يفعلَ أو لا يفعل ، هل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ، أم أرادها الله سبحانه وتعالى ؟

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة في خَلْق الأشياء المُسخرة ، بحيث لا يخرج شيء عما أريد منه ، وكان من الممكن أنْ يأتيَ الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه في هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً في الكون ، أليستْ الملائكة قائمة على التسخير ؟

فالتسخير يُثبت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شيء ، لكن الاختيار يثبت المحبوبية لله تعالى ، وهذا فَرْقٌ يجب أنْ نتدبّره .

فمثلاً لو كان عندك عبدان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيّدته إليك في حبل ، في حين تركت مسعوداً حراً طليقاً ، وحين أمرت كلاً منهما لَبى وأطاع ، فأيّ طاعة ستكون أحبّ إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة

بالاختيار؟

فكأن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرّمه بأنْ جعلَه مختاراً في أنْ يطيعَ أو أنْ يعصيَ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً، وهو قادر على المعصية، فقد أثبتَ المحبوبية لربه سبحانه وتعالى.

ولا بُدَّ أنْ تتوافرَ للاختيار شروطٌ. أولها العقل، فهو آلة الاختيار، كذلك لا يُكلّف المجنون، فإذا توفّر العقل فلا بُدَّ له من النُّضْج والبلوغ، ويتمّ ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مِثْله، وأصبحتْ له ذاتية مولده.

وهذه سِمَة اكتمال الذات؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين، وليس أَهْلاً للتكليف، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات، فلا بُدَّ له أن يكون مختاراً غَيْرَ مُكْرهٍ، فإنْ أُكْرِه على الشيء فلن يسأل عنه، فإنِ اختلَّ شَرْط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة في الاختيار.

والحق تبارك وتعالى وإن كرَّم الإنسان بالاختيار، فمن رحمته به أنْ يجعلَ فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسخّرة لا دَخْلَ له فيها.

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية، وتتوقف عليها حياة الإنسان، فكان من رحمة الله بنا أنْ جعل هذه الأعضاء تعمل وتُؤدّي وظيفتها دون أنْ نشعرَ.

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام في اليقظة والمنام دون أن نشعرَ به ، وكذلك التنفس والكُلَى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسخَّرة ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لُطْفِ الله بخَلْقه أنْ جعلَ هذه الأعضاء مُسخَّرة ، لأنه بالله لو أنت مختار في عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم ؟ !

إذن : من رحمة الله أنْ جعلكَ مختاراً في الأعمال التي تعرِض لك ، وتحتاج فيها إلى النظر في البدائل ؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديْه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا آذيتَ حيواناً فإنه يُؤذيك ، وليس لديه بديل آخر .

ولكن إذا آذيْت إنساناً ، فيحتمل أن يردّ عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلتَ ، أو أقلّ ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذي يُرجِّح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى : ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس ﴾ [الرعد : 31] .

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشَأْ ذلك ، بدليل قوله :

﴿ ولكن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ . . . ﴾ [النحل : 93] .

وهذه الآية يقف عندها المتمحّكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم في فهْم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذي يضِلّ الناس ، فلماذا يُعذّبهم ؟ وتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء : لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى ؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذي يهدي ، فلماذا يُدخِلنا الجنة ؟ إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون ؛ لأن معنى :

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ . . ﴾ [النحل : 93] .

أي : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان ، فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق تبارك وتعالى لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ ؛ فالمعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهُدى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر

إلى عكس هذا الفهم، بدليل قوله تعالى بعدها:

﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 93].

فالعبد لا يُسأل إلا عَمَّا عملتْ يداه، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار في العمل، وكيف تسأل عن شيء لا دَخْل لك فيه؟ فلنفهم إذن عن الحق تبارك وتعالى مُرادَهُ من الآية.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾

وردتْ كلمة الدّخَل في الآية قبل السابقة وقلنا: إن معناها: أن تُدخِلَ في الشيء شيئاً أدْنى منه من جنسه على سبيل الغشّ والخداع، وإن كان المعنى واحداً في الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدّخَل وعِلّته، وهي أن تكون أُمة أَرْبى من أمة، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر. أما في هذه الآية فجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدّخَل، وهي:

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا .. ﴾ [النحل: 94].

ففي الآية نَهْيٌ عن اتخاذ الأيمان للغش والخداع والتدليس؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتي على المجتمع من أساسه، وفَقْد للثقة المتبادلة بين الناس والتي عليها يقوم التعامل، وتُبنَى حركة الحياة، فالذي يُعطي عهداً ويُخْلفه، ويحلف يميناً ويحنث فيه يشتهر عنه أنه مُخلِف للعهد ناقض للميثاق.

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجرؤ أحد على الصَّفَق معه ، فيصبح مَهيناً ينفضُ الناس أيديهم منه ، بعد أنْ كان أميناً وأهلاً للثقة ومَحلاً للتقدير .

هذا معنى قوله تعالى :

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا . . . ﴾ [النحل : 94] .

(333/442)

وبذلك يسقط حقُّه مع المجتمع ، ويحيق به سوء فِعْله ، ويجني بيده ثمار ما أفسده في المجتمع ، وبانتشار هذا الخُلق السيئ تتعطّل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زلّة وكَبْوة بعد ثبات وقوة ، بعد أنْ كان أَهْلاً للثقة صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقبِل عليه الناس ، ويُحبُّون التعامل معه بما لديْه من شرف الكلمة وصِدْق الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مركزه في السوق أي : زلَّتْ قدمه بما حدث منه من نقْضٍ للعهود ، وحِنْث في الأيمان وغير ذلك مما لا يليق بأهل الثقة في السوق ، ومثل هذا ينتهي به الأمر إلى أنْ يعلنَ إفلاسه في دنيا التعامل مع الناس .

أما الوفاء بالعهود والمواثيق والأَيمان فيجعل قدمك في حركة الحياة ثابتة لا تتزحزح ولا تهتزّ

، فترى مال الناس جميعاً ماله ، وتجد أصحاب الأموال مقبلين عليك يضعون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة في التعامل .

ولذلك ، فالتشريع الإسلامي حينما شرع لنا الشركة راعى هذا النوع من الناس الذي لا يملك إلا سمعة طيبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإنْ دخل شريك بما لديْه من رأس المال ، فهذا شريك بما لديْه من شرف الكلمة وشرف السلوك ، ووجاهة بين الناس ، وماضٍ مُشرِّف من التعامل .

وهذه يسمونها " شركة الوجوه والأعيان " وهذا الوجيه في دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قد نرى هذه الثقة لا في شخص من الأشخاص ، بل نراها في ماركة من الماركات أو العلامات التجارية ، فنراها تُبَاع وتُشْتري ، ولها قيمة غالية في السوق بما نالتْه من احترام الناس وتقديرهم ، وهذا أيضاً نتيجة الصدق والالتزام والأمانة وشرف الكلمة .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَذُوقُواْ السواء بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : 94] .

السوء : أي العذاب الذي يسُوء صاحبه في الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكسَاد في الحال ، بعد أنْ سقط من نظر المجتمع ، وهدم جِسْر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [النحل : 94] .

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأَيمان ولا يُوفُونَ بها ، فهل في هذا صَدٌّ عن سبيل الله ؟

نقول : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شيء يجعل حركة الحياة منتظمة تُدار بشرف وأمانة وصِدْق ونفاذ عهد .

ومن هنا ، فالذي يُخلف العهد ، ولا يفي بالمواثيق يعطي للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يضنُّ بماله ، وصاحب المعروف يتراجع ، فلو أقرضتَ إنساناً وغدر بكَ فلا أظنُّك مُقرِضاً لآخر .

إذن : لا شَكَّ أن في هذا صداً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس في فعْل الخير .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : 94] .

فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة في الدنيا ، وبعد أنْ زَلَّتْ بهم القدم ، ونزل بهم من

عذاب الدنيا ألوانٌ ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أي في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) ﴾

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينهانا ويُحذِّرنا : إياك أنْ تجعلَ عهد الله الذي أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كفيلاً ، فبعد أن كنت حُراً في أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك .

(335/442)

أو : عهد الله أي شرعه الذي تعاهدتَ على العمل به والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيماني الأعلى ، وهو أن تؤمنَ بالله وبصدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول من أحكام ، إياك أنْ تقابله بشيء آخر تجعله أغْلى منه ؛ لأنك إنْ نقضْتَ عهد الله لشيء آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلتَ هذا الشيء أغلى من عهد الله ؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلاً .

ثم يأتي تعليل ذلك في قوله :

﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . ﴾ [النحل : 95] .

فالخير في الحقيقة ليس في متاع الدنيا مهما كَثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، وقد أوضح ذلك في قوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . . ﴾ [النحل : 95] .

فهذا أسلوب توكيد بالقصر بإعادة الضمير (هو) ، فلم يَقُلِ الحق سبحانه إنما عند الله خير لكم ، فيحتمل أن ما عند غيره أيضاً خيرٌ لكم ، أما في تعبير القرآن ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : الخير فيما عند الله على سبيل القَصْر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] .

فجاء بالضمير " هو " ليؤكد أن الشافي هو الله لوجود مَظَنّة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما في الأشياء التي لا يُظَنّ فيها المشاركة فتأتي دون هذا التوكيد كما في قوله تعالى : ﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 81] .

فلم يقل : هو يميتني هو يُحيين ؛ لأنه لا يميت ولا يُحيي إلا الله ، فلا حاجة للتوكيد هنا .

ما الذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد ؟

الذي يُخرِج الإنسان عن الوفاء بالعهد أنْ يرى مصلحة سطحية فوق ما تعاقد عليه تجعله يخرج عما تعاهد عليه إلى هذه السطحية، ولكنه لو عقل وتدبَّر الأمر لعلم أنّ ما يسعى إليه ثمن بَخْسٌ، ومكسب قليل زائل إذا ما قارنه بما ادخِر له في حالة الوفاء؛ لأن ما أخذه حظاً من دنياه لا بُدّ له من زوال.

والعقل يقول: إن الشيء، إذا كان قليلاً باقياً يفضل الكثير الذي لا يبقى، فما بالك إذا كان القليل هو الذي يفنى، والكثير هو الذي يبقى.

ومثال ذلك: لو أعطيتُك فاكهة تكفيك أسبوعاً أو شهراً فأكلتها في يوم واحد، فقد تمتعْتَ بها مرة واحدة، وفاتَكَ منها مُتَعٌ وأكلاتٌ متعددة لو أكلتَها في وقتها.

لذلك؛ فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهك أنّ ما عند الله هو الخير الحقيقي، فجعل موازينك الإيمانية دقيقة، فمن الحُمْق أن تبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني:

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 95].

في الآية دِقَّة الحساب، ودِقَّة المقارنة، ودِقَّة حَلِّ المعادلات الاقتصادية.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ .. ﴾.

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن حظَّ الإنسان من دُنْياه عَرَضٌ زائل، فإمَّا أن تفوته بالموت، أو يفوتك هو بما يجري عليك من أحداث، أما ما عند الله فهو بَاقٍ لا نفاد له.

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا .. ﴾ [النحل: 96].

كلمة ﴿ صبروا ﴾ تدلُّ على أن الإنسان سيتعرّض لِهزّاتٍ نفسية نتيجة ما يقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نَقْضه، حينما يلوح له بريق المال وتتحرّك بين جنباته شهوات النفس، فيقول له الحق تبارك وتعالى: اصبر.. اصبر لا تكُنْ عَجُولاً، وقارن المسائل مقارنة هادئة، وتحمَّل كل مشقة نفسية، وتغلّب على شهوة النفس؛ لتصل إلى النتيجة المحمودة.

(337/442)

فالتلميذ الذي يجتهد ويتعب ويتحمَّل مشقة الدرس والتحصيل يصبر على الشهوات العاجلة لما ينتظره من شهوات باقية آجلة، فوراء الدرس والتحصيل غاية أكبر وهَدَفٌ أَسْمى.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ولَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا.. ﴾ [النحل: 96].

أي: على مشقّات الوفاء بالعهود.

﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 96].

أي: أجراً بالزيادة في الجزاء على أحسن ما يكون؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً

فله الجزاء ، أما المباح فالمفروض ألا جزاء له ، ولكنّ فضل الله يجزي عليه أيضاً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ النحل : 96 ﴾ ، وقال بعد ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ النحل : 97 ﴾ ، وفي آية الزمر : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ الزمر : 35 ﴾ ، فورد هنا ﴿ ﴿ الذي ﴾ ﴾ مكان ﴿ ﴿ ما ﴾ ﴾ في الآيتين في سورة النحل ،

فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن آية النحل الأولى لما افتتحت بما الموصولة في قوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ ، والمراد بها الإطلاق والعموم ، كانت في هذا الموضوع أولى من لفظ ((الذي)) وإن اشتركا في الموصولية ، إلا أن ((الذي)) لا تفارق الموصولية ، فهي كأنها أعرق في التعريف من ((ما)) ، لخروج ((ما)) عن الموصلية من حيث إنها تكون حال اسميتها شرطاً واستفهاماً ، ولا يفارقها العموم والإطلاق في هذين الموضعين ، ولا الإبهام إذا كانت صفة أو نكرة موصوفة أو تعجباً ، وبالجملة فالإطلاق أملك (بها) ، وهو هنا مقصود ، وأما (الذي) فلا تفارق الموصولية ، والعهدية فيها أغلب من الجنسية ، فما في الآية أحرز للمقصود منها فوردت فيها ، وتكررت في قوله : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، ومعنى الحصر والتعميم فيهما واحد ، والكلام مراعى فيه معناه ، وكأن قد قيل : كل ما عندكم ينفذ وكل ما عند الله باق ، ولفظ ((ما)) أجرى هنا من ((الذي)) لما يحرزه من معنى الإطلاق ، ولما تقرر من التزامها العموم في الشرط والاستفهام ، وأنها لا تمنع الاشتراك حال إبهامها فيما عدا الموضعين .

ومن أهل النظر من يطلق العموم بمعنى منع الشركة ، والذي لا يقول هذا لا يمكنه إنكار الإبهام الإطلاقي وكيفما قيل فإن معنى التوسعة لا يفارقها ، وليست ((الذي)) كذلك ، فكانت ((ما)) أملك بالمعنى المقصود في الموضع ، ثم ناسبها وجرى معها ورودها في قوله : ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، ولم تكن ((الذي)) لتناسب فجاء كل على ما يجب .

وقوله في الآية الثانية : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) (النحل : 97) ، الآية جارية مجرى الآية التي قبلها ، و ((من)) أقرب لها من ((الذي)) لما بينهما من الاشتراك في المعاني التي لا تشاركها فيها ((الذي)) ، ألا ترى أن ((الذي)) لا تكون استفهاماً البتة ، ولا نكرة موصوفة ولا مبهمة ، إذ لا يفارقها التعريف . فإن قلت قد يدخلها معنى الشرط في نحو قوله : الذي يأتيني فله درهم ، وهو المسوغ لدخول الفاء في خبرها في مثل هذا المثال ففيها إذ ذاك عموم . قلت ذلك متوقف على شروط معلومة ، ولو لم يتوقف ذلك على شرط لبقي اشتراك فيما لا تدخل فيه ((الذي)) . فمن على كل حال أجري مع ما يناسبها وما انجر معها من تقوية قصد الاستغراق من قوله : (مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) ، وهذا المنجر في هذه الآية يقابل تكرار ما في الآية قبل ، هذه كتلك بهذا النظير من غير فرق ، فلم يكن ليناسب ذلك ورود ((الذي)) مكان ((ما)) في قوله : (بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، فتناسب هذا كله أوضح شيء ، ولا يمكن في هاتين الآيتين ورود لفظ ((الذي)) مكان ((ما)) لمن لحظ المراعى في الآية من عليّ ، نظم الكتاب العزيز ، واعتبر التناسب الذي يعجز البشر عن محافظه رعية ، ولا يمكن الوفاء به بوجه إلا في كتاب الله سبحانه .

وأما آية الزمر فوارده في معنى الخصوص المقصود به طائفة بعينها ألا ترى ما قبلها من قوله تعالى : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) (الزمر : 33) ، والمراد بالذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاذي صدق به متقدمو أصحابه ممن سبق وحسن تصديقه كأبي بكر ، رضي الله عنه ، ومن قارب حاله وجرى في (نحو) مضماره ، وهؤلاء مخصوصون لا يشاركهم في حالهم غيرهم ، وفيهم ورد ما بعد ، وإليهم ترجع الضمائر من قوله : (هُمُ الْمُتَّقُونَ) ، وقوله : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (الزمر : 34) ، وقوله : (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ) (الزمر : 35) ، فلم يكن ليصلح هنا غير الأداة العهدية ، فجاء ((بالذي)) في الموضعين من قوله : (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الزمر : 35) ، ولم تكن ((ما)) لتناسب هنا لما تقدم ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، ولا يمكن فيه عكس الوارد في الضربين على ما تقدم ، والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل ص 310.309 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ يعني المسلمة والمشركة ﴿ أمة واحدة ﴾ يعني ملة الإسلام وحدها ﴿ ولكن يضل من يشاء ﴾ يعني عن دينه ، وهم المشركون ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ يعني المسلمين ﴿ ولتسألن ﴾ يوم القيامة ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ ثم ضرب مثلاً آخر للناقض العهد فقال : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم ﴾ يعني العهد ﴿ دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ يقول : إن ناقض العهد يزل في دينه كما يزل قدم الرجل بعد الاستقامة ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ﴾ يعني العقوبة ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ يعني عرضاً من الدنيا يسيراً ﴿ إنما عند الله ﴾ يعني الثواب ﴿ هو خير لكم ﴾ يعني أفضل لكم من العاجل ﴿ ما عندكم ينفد ﴾ يعني ما عندكم من الأموال يفنى ﴿ وما عند الله باق ﴾ يعني وما عند الله في الآخرة من الثواب دائم لا يزول عن أهله ، وليجزين ﴿ الذين صبروا بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا ويعفو عن سيئاتهم .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني ، عن ابن مسعود قال : إياكم وأرأيت فإنما هلك من كان قبلكم بأرأيت ، ولا تقيسوا الشيء بالشيء ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ وإذا سئل

أحدكم عما لا يعلم فليقل : لا أعلم ، فإنه ثلث العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(343/442)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَزِلَّ ﴾ : منصوبٌ بإضمار " أَنْ " على جوابِ النهي .

قوله : ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ : " ما " مصدريةٌ ، و " صَدَدْتُمْ " يجوز أن يكونَ من الصُّدود ، وأن يكونَ مِن الصَدّ ، ومفعولُه محذوفٌ . ونُكِّرت " قَدَمٌ " : قال الزمخشري : " فإن قلت : لِمَ وُحِّدَتِ القَدَمُ ونُكِّرَتْ ؟ قلت : لاستعظامِ أن تَزِلَّ قدمٌ واحدةٌ عن طريقِ الحق بعد أن ثَبَتَتْ عليه فكيف بأقدامٍ كثيرة " ؟ .

قال الشيخ : " الجمع تارةً يُلْحَظُ فيه المجموعُ من حيث هو مجموعٌ ، وتارةً يُلحظ فيه كلُّ فردٍ فردٍ . فإذا لُوْحظ فيه المجموعُ كان الإِسنادُ معتبراً فيه الجمعيَّةُ ، وإذا لُوْحظ فيه كلُّ فردٍ فردٍ

كان الإِسناد مطابقاً للفظِ الجمع كثيراً ، فيُجْمع ما أُسند إليه ، ومطابقاً لكلِّ فردٍ فرد فيُفْرد ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ ﴾ لَمَّا كان لُوْحِظ في قوله " لهنَّ " معنى لكلِّ واحدة ، ولو جاء مُراداً به الجمعية أو الكثيرُ في الوجهِ الثاني لجُمِع المتكأ ، وعلى هذا المعنى يُحمل قول الشاعر :

3015- فإني وَجَدْتُ الضَّامِرين متاعُهمْ . . . يَمُوْتُ ويَفْنَى فارْضَخِي مِنْ وعائيا

(344/442)

أي : رأيتُ كلَّ ضامر ؛ ولذلك أَفْرَدَ الضميرَ في " يموتُ ويَفْنى " ولَمَّا كان المعنى : لا يَتَّخِذ كُلُّ واحدٍ منكم جاء " فَتَزِلَّ قَدَمٌ " ، مراعاةً لهذا المعنى ، ثم قال : وتَذُوْقُوا ، مراعاةً للمجموع [أو] لِلَفْظِ الجمع على الوجهِ الكثيرِ إذا قلنا : إن الإِسنادَ لكل فردٍ فرد ، فتكون الآية قد تعرَّضَتْ للنهي عن اتخاذ الأَيمانِ دَخَلاً باعتبار المجموعِ ، وباعتبارِ كل فردٍ فرد ، ودَلَّ على ذلك بإفراد " قَدَم " وبجَمْعِ الضمير في " وتَذُوْقُوا " .

قلت : وبهذا التقديرِ الذي ذكره الشيخ يفوتُ المعنى الجَزْلُ الذي اقتنصه أبو القاسم مِنْ تنكير " قَدَم " وإفرادها . وأمَّا البيتُ المذكورُ فإنَّ النَّحْويين خَرَّجوه على أن المعنى : يموت مَنْ ثَمَّ ، ومَنْ ذُكِرَ ، فأفرد الضميرَ لذلك لما لا لِما ذكر .

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ ﴾ : مبتدأ وخبر . والنَّفَادُ : الفناءُ والذَّهابُ يقال : نَفِدَ بكسر العين يَنْفَدُ بفتحها نَفَاذاً ونُفُوذاً . وأمَّا " نَفَذَ " بالذال المعجمة فَفِعْلُه نَفَذَ بالفتح يَنْفُذُ بالضم ، وسيأتي . ويُقال : أَنْفَد القومُ . فَنِيَ زادُهم ، وخَصْمٌ مُنافِدٌ ، لِيَنْفِد حجةَ صاحِبِه ، يقال : نافَدْتُه فَنَفِدْتُه .

وقوله " باقٍ " قد تقدَّم الكلامُ في الوقف عليه في الرعد .

قوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم وابن ذكوان ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بنونِ العظمة ، التفاتاً من الغَيْبة إلى التكلم . وتقدَّم تقريرُ الالتفاتِ . والباقون بياء الغَيْبة رجوعاً إلى الِه لتقدُّم ذكرِه العزيز في قولِه تعالى / ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ .

(345/442)

وقوله : ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ ﴾ يجوز أن تكونَ أَفْعَل على بابها من التفضيل ، وإذا جازاهم بالأحسنِ فَلأَنْ يُجازِيَهم بالحَسَن من باب الأَوْلَى . وقيل : ليسَتْ للتفضيل ، وكأنهم فَرُّوا مِنْ مفهومِ أَفْعل ؛ إذ لا يلزم من المجازاةِ بالأحسنِ المجازاةُ بالحَسَن . وهو وَهْمٌ لما تقدَّم مِنْ أنه

مِنْ مفهوم الموافقة بطريق الأَوْلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 282 . 284 ﴾

فصل فى منزلة الزهد

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الزهد

قال الله تعالى ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ وقال تعالى اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وقال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ وقال: ﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والقرآن مملوء من التزهيد فى الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها

(347/442)

وسرعة فنائها والترغيب فى الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام فى قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار

وقد أكثر الناس من الكلام في الزهد وكل أشار إلى ذوقه ونطق عن حاله وشاهده فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم والكلام بلسان العلم: أوسع من الكلام بلسان الذوق وأقرب إلى الحجة والبرهان وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها

وقال سفيان الثورى: الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء

وقال الجنيد : سمعت سريا يقول: إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم وقال: الزهد في قوله تعالى: لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك والحب يورث السخاء بالروح

وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينك فيسهل عليك الإعراض عنها

وقال ابن خفيف: الزهد وجود الراحة في الخروج من الملك

وقال أيضا: الزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الأملاك وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد وقال الإمام أحمد الزهد في الدنيا قصر الأمل وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه بإقبالها ولا حزنه على إدبارها فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهدا فقال: نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت

وقال عبد الله بن المبارك: هو الثقة بالله مع حب الفقر وهذا قول شقيق ويوسف بن أسباط

وقال عبد الواحد بن زيد الزهد: الزهد في الدينار والدرهم وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله وهو قول الشبلي

وسأل رويم الجنيد عن الزهد فقال: استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب وقال مرة: هو خلو اليد عن الملك والقلب عن التتبع وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة وقال أيضا: الزاهد يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر وقيل: حقيقته هو الزهد في النفس وهذا قول ذي النون المصري

وقيل: الزهد الإيثار عند الاستغناء والفتوة الإيثار عند الحاجة قال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزاهدين وأقعد معهم فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك إلى حد لو قطع الله الرزق عنك ثلاثة أيام لم تضعف نفسك فأما ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه الأول: ترك الحرام

وهو زهد العوام والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء

أحدها: الزهد والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد كالزهد لعبد الله ابن المبارك وللإمام أحمد ولوكيع ولهناد بن السري ولغيرهم ومتعلقه ستة أشياء: لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي المال والصور والرياسة والناس والنفس وكل ما دون الله وليس المراد رفضها من الملك فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك والنساء ما لهما وكان نبينا من أزهد البشر على الإطلاق وله تسع نسوة وكان علي بن أبي طالب

وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحا لهن وأغناهم وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه وقد روي مرفوعا

فصل:

وقد اختلف الناس فى الزهد هل هو ممكن في هذه الأزمنة أم

لا فقال أبو حفص الزهد لا يكون إلا في الحلال ولا حلال في الدنيا فلا زهد

وخالفه الناس في هذا وقالوا: بل الحلال موجود فيها وفيها الحرام كثيرا وعلى تقدير: أن لا يكون فيها الحلال فهذا أدعى إلى الزهد فيها وتناول ما يتناوله المضطر منها كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغني أن رجلا بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له

زاهد لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا وأما الحرام: فإن ارتكبته عذبك الله عز وجل

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال لأن ترك الحرام فريضة وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام وأما الحلال: فنعمة من الله تعالى على عبده والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فشكره على نعمه والاستعانة بها على طاعته واتخاذها طريقا إلى جنته: أفضل من الزهد فيها والتخلي عنها ومجانبة أسبابها .

والتحقيق: أنها إن شغلته عن الله فالزهد فيها أفضل وإن لم تشغله عن الله بل كان شاكرا لله فيها فحاله أفضل والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها والطمأنينة إليها والله أعلم

فصل: قال صاحب المنازل: "الزهد : هو إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية"

يريد بالشيء المزهود فيه: ما سوى الله والإسقاط عنه: إزالته عن القلب وإسقاط تعلق الرغبة به

وقوله: "بالكلية" أي بحيث لا يلتفت إليه ولا يتشوق إليه

قال: وهو للعامة: قربة وللمريد : ضرورة وللخاصة: خشية يعني أن العامة تتقرب به إلى الله والقربة ما يتقرب به المتقرب إلى محبوبه

وهو ضرورة للمريد لأنه لا يحصل له التخلي بما هو بصدده إلا بإسقاط الرغبة فيما سوى

مطلوبه فهو مضطر إلى الزهد كضرورته إلى الطعام والشراب إذ التعلق بسوى مطلوبه لا يعدم منه حجابا أو وقفة أو نكسة على حسب بعد ذلك الشيء من مطلوبه وقوة تعلقه به وضعفه

وإنما كان خشية للخاصة: لأنهم يخافون على ما حصل لهم من القرب والأنس بالله وقرة عيونهم به: أن يتكدر عليهم صفوه بالتفاتهم إلى ما سوى الله فزهدهم خشية وخوف قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة والأنفة من المنقصة وكراهة مشاركة الفساق

أما الزهد في الشبهة: فهو ترك ما يشتبه على العبد: هل هو حلال أو حرام كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام وقد

جعل الله عز وجل بين كل

متباينين برزخا كما جعل الموت وما بعده برزخا بين الدنيا والآخرة وجعل المعاصي برزخا

بين الإيمان والكفر وجعل الأعراف برزخا بين الجنة والنار وكذلك جعل بين كل مشعرين من

مشاعر المناسك برزخا حاجزا بينهما ليس من هذا ولا هذا فمحسر برزخ بين منى

ومزدلفة ليس من واحد منهما فلا يبيت به الحاج ليلة جمع ولا ليالي منى وبطن عرنة برزخ بين

عرفة وبين الحرم فليس من الحرم ولا من عرفة وكذلك ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس

برزخ بين الليل والنهار ليس من الليل لتصرمه بطلوع الفجر ولا من النهار لأنه من طلوع

الشمس وإن دخل في اسم اليوم شرعا وكذلك منازل السير: بين كل منزلتين برزخ يعرفه

السائر في تلك المنازل وكثير من الأحوال والواردات تكون برازخ فيظنها صاحبها غاية

وهذا لم يتخلص منه إلا فقهاء الطريق والعلماء هم الأدلة فيها

وقوله: بعد ترك الحرام أي ترك الشبهة لا يكون إلا بعد ترك الحرام

وقوله: بالحذر من المعتبة يعني أن يكون سبب تركه للشبهة: الحذر من توجه عتب الله عليه

وقوله: والأنفة من المنقصة أي يأنف لنفسه من نقصه عند ربه وسقوطه من عينه عينيه لا

أنفته من نقصه عند الناس وسقوطه من عيونهم وإن كان ذلك ليس مذموما بل هو محمود

أيضا ولكن المذموم: أن تكون أنفته كلها من الناس ولا يأنف من الله

وقوله: وكراهة مشاركة الفساق يعنى أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف ويرفع نفسه عنها لخسة شركائه فيها كما قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا قال: قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها

إذا لم أترك الماء اتقاء تركت لكثرة الشركاء فيه

إذا وقع الذباب على طعام . . . رفعت يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء . . . إذا كان الكلاب يلغن فيه

قال: الدرجة الثانية: الزهد في الفضول وهو ما زاد على المسكة والبلاغ من القوت باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت وحسم الجأش والتحلي بحلية الأنبياء والصديقين

الفضول ما يفضل عن قدر الحاجة والمسكة ما يمسك النفس من القوت والشراب واللباس والمسكن والمنكح إذا احتاج إليه والبلاغ هو البلغة من ذلك الذي يتبلغ به المسافر في منازل السفر فيزهد فيما وراء ذلك اغتناما لتفرغه لعمارة وقته

ولما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى: خوفا من المعتبة وحذرا من المنقصة: كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت فالوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك

وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات

فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه وجماع أهله وراحته أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان

وقد حكي عن بعضهم: أنه كان يرد عليه وهو على بطن امرأته حال لا يعهدها في غيرها

ولهذا سبب صحيح وهو اجتماع قوى النفس وعدم التفاتها حينئذ إلى شيء مع ما يحصل لها من السرور والفرح والسرور يذكر بالسرور واللذة تذكر باللذة فتنهض الروح من تلك الفرحة واللذة إلى ما لا نسبة بينها وبينها بتلك الجمعية والقوة والنشاط وقطع أسباب الالتفات فيورثه ذلك حالا عجيبة

ولا تعجل بالإنكار وانظر إلى قلبك عند هجوم أعظم محبوب له عليه في هذه الحال كيف تراه فهكذا حال غيرك ولا ريب أن النفس إذا نالت حظا صالحا من الدنيا قويت به وسرت

واستجمعت قواها وجمعيتها وزال تشتتها

اللهم اغفر فقد طغى القلم وزاد الكلم فعياذا بك اللهم من مقتك

وأما حسم الجأش فهو قطع اضطراب القلب المتعلق بأسباب الدنيا رغبة ورهبة وحبا وبغضا وسعيا فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه بأن لا يلتفت إليها ولا يتعلق بها في حالتي مباشرته لها وتركه فإن الزهد زهد القلب لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء فهو تخلي القلب عنها لا خلو اليد منها

وأما التحلى بحلية الأنبياء والصديقين فإنهم أهل الزهد في الدنيا حقا إذ هم مشمرون إلى علم قد رفع لهم غيرها فهم زاهدون وإن كانوا لها مباشرين

فصل قال: الدرجة الثالثة: الزهد في الزهد وهو بثلاثة أشياء:

استحقار ما زهدت فيه واستواء الحالات فيه عندك والذهاب عن شهود الاكتساب ناظرا إلى وادي الحقائق وقد فسر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء

أحدها: احتقاره ما زهد فيه فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قربانا لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له فيستحي من صح له الزهد أن يجعل لما تركه لله قدرا يلاحظ زهده فيه بل يفنى عن زهده فيه كما فنى عنه ويستحي من ذكره بلسانه وشهوده بقلبه

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه: متساويين عنده إذ ليس له عنده قدر وهذا من دقائق فقه الزهد فيكون زاهدا في حال أخذه كما هو زاهد في حال تركه إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذا وتركا لصغره في عينه

وأما الذهاب عن شهود الاكتساب فمعناه: أن من استصغر الدنيا بقلبه واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده: لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة ألبتة لأنها أصغر في عينه من أن يرى أنه اكتسب بتركها الدرجات

وفيه معنى آخر: وهو أن يشاهد تفرد الله عز وجل بالعطاء والمنع فلا يرى أنه ترك شيئا ولا أخذ شيئا بل الله وحده هو المعطي المانع فما أخذه فهو مجري لعطاء الله إياه كمجرى الماء في النهر وما تركه لله فالله سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه فإذا نظر إلى الأشياء بعين الجمع وسلك في وادي الحقيقة غاب عن شهود اكتسابه وهو معنى قوله: ناظرا إلى وادي الحقائق وهذا أليق المعنين بكلامه فهذا زهد الخاصة قال الشاعر

إذا زهدتني في الهوى خشية الردى . . . جلت لي عن وجه يزهد في الزهد . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 20.9 ﴾

(355/442)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93) ﴾

ليست واقعةُ القوم بخسرانٍ يُصيبهم في أموالهم ، أو من جهة تقصيرهم في أعمالهم ولِمَا صنيّعوه من أحوالهم . . فهذه - لعمري - وجوهٌ وأسبابٌ ، ولكنَّ سِرَّ القصةِ كما قيل :

أَنَا صَبٌّ لِمَنْ هَوِيْتُ ولكن . . . ما احتيالي بسوء رأي الموالي ؟

قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ : لو شاء الله سعادتَهم لَرَحِمَهُم ، وعن المعاصي عَصَمَهُم ، وبدوامِ الذكر - بَدَلَ الغفلة - ألهمهم . . . ولكن سَبَقَتْ القسمةُ في ذلك ، وما أحسن ما قالوا :

شكا إليك ما وَجَدْ . . . مَنْ خانه فيك الجَلَدْ

حيرانُ . . لو شِئْتَ اهتدى . . . ظمآنُ . . لو شِئْتَ وَرَدْ

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾

أَبعدَكُم عَدَمُ صِدْقِكم في إيمانِكم عن تحقُّقكم ببرهانكم ، لأنكم وقفتم على حَدِّ التردد دون القطع والتعيين ، فأفضى بكم تردُّدُكم إلى أوطانِ شِرْكِكُم ، إذ الشكُّ في الله والشِّركُ به قرينان في الحُكْم .

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) ﴾

لا تختاروا على القيام بحقِّ اللَّهِ والوفاءِ بعهده عِوَضاً يسيراً مما تنتفعون به من حُطام دنياكم من حلالكم وحرامكم ، فإنَّ ما أعدَّ اللَّهُ لكم في جناته - بشرط وفائكم لإيمانكم - يوفي ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم .

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) ﴾

(356/442)

الذي عندكم عَرَضٌ حادثٌ فانٍ ، والذي عند الله من ثوابكم في مآلِكُم نِعَمٌ مجموعةٌ ، لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة .

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو مالكم أفعالٌ معلولة وأحوالٌ مدخولة ، وما عند الله فثوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ .

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبةٌ ، وأصناف متناوبة ، أعيانُها غيرُ باقية وإنكات أحكامُها غير باطلة والذي يتصف الحقُّ به من رحمته بكم ومحبته لكم وثباته عليكم فصفاتُ أزلية ونعوتٌ سرمدية .

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمُعرَّضُ للزوال ، وقابلٌ للانقضاء ، وما وَصَفْنَا به أَنْفُسَا من الإقبال لا يتناهي وأفضال لا تفْنى ، كما قيل :

ألا طال شوقُ الأبرار الى لقائي . . . وإني للقائهم لأَشَدُّ شوقا

قوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا . . . ﴾ : جزاءُ الصبر الفوزُ بالطَّلِبَةِ ، والظَّفَرُ بالبُغية . وما لهم في الطلبات يختلف : فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقةٍ في الله . فعِوضُه وثوابُه عظيمٌ من قِبَل الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] .

ومَنْ صبر عن اتباع شهوةٍ لِأَجْل الله ، وعن ارتكاب هفوةٍ مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى :
﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ [الفرقان : 57] .

ومَنْ صبر تحت جريان حُكْمِ الله ، متحققاً بأنه بِمَرْآةٍ من الله فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : 153] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 317 .319 ﴾

(357/442)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/443)

الجزء الثالث والأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 97 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 105 ﴾ من نفس السورة

(4/443)

قوله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وعد بعد أن توعد ، أتبعه ما يبين أن ذلك لا يخص شريفاً ولا وضيعاً ، وإنما هو دائر مع

الوصف الذي رمز إليه فيما مضى بالعدل تارة، وبالعهد أخرى، وهو الإيمان، فقال تعالى جواباً لمن كأنه قال: هذا خاص بأحد دون أحد، مرغباً في عموم شرائع الإسلام: ﴿من عمل صالحاً﴾ ولما كانت عامة، وكانت ربما خصت الذكور، بين المراد من عمومها بقوله تعالى: ﴿من ذكر أو أنثى﴾ فعم ثم قيد مشيراً بالإفراد إلى قلة الراسخين بقوله تعالى: ﴿وهو مؤمن﴾.

ولما كان الإنسان كلما علا في درج الإيمان، كان جديراً بالبلاء والامتحان، بين تعالى أن ذلك لا ينافي سعادته، ولذلك أكد قوله: ﴿فلنحيينه﴾ دفعاً لما يتوهمه المستدرجون بما يعجل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ﴿حياة طيبة﴾ أي في الدنيا بما نؤتيه من ثبات القدم، وطهارة الشيم ﴿ولنجزينهم﴾ كلهم ﴿أجرهم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿بأحسن ما كانوا﴾ أي كوناً جبلياً ﴿يعملون﴾ قال العلماء ـ رضى الله عنهم ـ م: المطيع في عيشه هنيئة، إن كان موسراً فلا كلام فيه، وإن كان معسراً فبالقناعة والرضى بحكم النفس المطمئنة، والفاجر بالعكس، إن كان معسراً فواضح، وإن كان موسراً فحرصه لا يدعه يتهنأ فهو لا يزال في عيشة ضنك.

ولما تقررت هذه الأحكام على هذه الوجوه الجليلة ، وأشارت بحسن ألفاظها وشرف سياقها إلى أغراض هي مع جلالتها غامضة دقيقة ، فلاح بذلك أن القرآن تبيان لكل شيء في حق من سلم من غوائل الهوى وحبائل الشيطان ، وختم ذلك بالحث على العمل الصالح ، وكان القرآن تلاوة وتفكراً وعملاً بما ضمن أجل الأعمال الصالحة ، تسبب عن ذلك الأمر بأنه إذا قرىء هذا القرآن المنزل على مثل تلك الأساليب الفائقة يستعاذ من الشيطان لئلا يحول بوساوسه بين القارىء وبين مثل تلك الأغراض والعمل بها ، وحاصله الحث على التدبر وصرف جميع الفكر إلى التفهم والالتجاء إليه تعالى في كل عمل صالح لئلا يفسده الشيطان بوساوسه ، أو يحول بين الفهم وبينه ، بياناً لقدر الأعمال الصالحة ، وحثاً على الإخلاص فيها وتشمير الذيل عند قصدها ، لا سيما أفعال القلوب التي هي أغلب ما تقدم هنا ، فقال تعالى مخاطباً لأشرف خلقه ليفهم غيره من باب الأولى فيكون أبلغ في حثه وأدعى إلى اتباعه : ﴿ فإذا قرأت ﴾ أي أردت أن تقرأ مثل ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ [الأعراف : 4] ﴿ القرآن ﴾ الذي هو قوام العمل الصالح والداعي إليه والحاث عليه ، مع كونه تبياناً لكل شيء ، وهو اسم جنس يشمل القليل منه والكثير ﴿ فاستعذ ﴾ أي إن شئت جهراً وإن شئت سراً ؛ قال الإمام الشافعي : والإسرار أولى في الصلاة ، وفي قول : يجهر كما يفعل خارج الصلاة .

﴿ بالله ﴾ أي سل الذي له الكمال كله أن يعيذك ﴿ من الشيطان ﴾ أي المحترق باللعنة ﴿ الرجيم ﴾ أي المطرود عن الرحمة من أن يصدك بوساوسه عن اتباعه ، فإنه لا عائق عن الإذعان ، لأساليبه الحسان ، إلا خذلان الرحمن ، بوساوس الشيطان ، فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لأن ذلك أوفق للقرآن ، وقد ورد به بعض الأخبار عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ مرفوعاً وهو المشهور ونص عليه الإمام الشافعي ـ رضى الله عنهم ـ ، والصارف لهذا الأمر عن الوجوب أحاديث كثيرة فيها القراءة بدون ذكر تعوذ كحديث البخاري وغيره " عن أبي سعيد بن المعلى ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له ما منعك أن تجيبني ؟ قال : كنت أصلي ، قال : ألم يقل الله : ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ [الأنفال : 24] ثم قال : لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ " وفي رواية الموطأ " أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم نادى أبياً وأنه قال : كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ قال أبي : فقرأت ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ حتى أتيت على آخرها "

ومن طالع كتابي " مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور " رأى مثل هذا أحاديث جداً من أحسنها حديث نزول سورة الكوثر ، وقيل : التعوذ بعد القراءة لظاهر الآية ،

وختام القرآن بالمعوذتين موافق لهذا القول بالنسبة إلى الحال ، والقول الأول الصحيح بالنسبة إلى ما ندب إليه المرتحل من قراءة الفاتحة وأول البقرة .

(7/443)

ولما كان ذلك ربما هو أوهم تعظيمه ، نفى ذلك بقوله جواباً لمن كأنه قال : هل له سلطان ؟ : ﴿ إنه ليس له سلطان ﴾ أي بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه ﴿ على الذين ءامنوا ﴾ بتوفيق ربهم لهم ﴿ وعلى ربهم ﴾ أي وحده ﴿ يتوكلون ﴾ ويجوز أن يكون المعنى أنه لما تقرر في الأذهان أنه لا نجاة من الشيطان ، لأنه سلط علينا بأنه يرانا من حيث لا نراه ويجري فينا مجرى الدم ، وكانت فائدة الاستعاذة الإعاذة ، أشير إلى حصولها بقوله على سبيل التعليل " إنه " أي استعذ بالله يعذك منه ، لأنه ليس له سلطان على الذين آمنوا بالله ليردهم كلهم عما يرضي الله ، وعلى ربهم وحده يتوكلون ، ثم وصل بذلك ما أفهمه من أن له سلطاناً على غيرهم فقال تعالى : ﴿ إنما سلطانه ﴾ أي الذي يتمكن به غاية التمكن بإمكان الله له ﴿ على الذين يتولونه ﴾ أي تولوه وأصروا على ذلك بتجديد ولايته كل حين ﴿ والذين هم ﴾ أي بظواهرهم وبواطنهم ﴿ به ﴾ أي بالشيطان ﴿ مشركون ﴾ دائماً لأنهم إذا تبعوا وساوسه ، وأطاعوا أوامره فقد عبدوه فجعلوه بذلك شريكاً ، فهم لا

يتأملون دقائق القرآن بل ولا يفهمون ظواهره على ما هي عليه لما أعماهم به الشيطان من وساوسه ، وحبسهم به عن هذه الأساليب من محابسه ، فهم لا يزالون يطعنون فيه بقلوب عمية وألسنة بذية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 309. 311 ﴾

(8/443)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى رغب المؤمنين في القسم الثاني وهو الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : لفظة "من" في قوله : ﴿ مِّنْ عَمِلَ صالحا ﴾ تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والأنثى ؟

والجواب : أن هذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتاً للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص .

السؤال الثاني : هل تدل هذه الآية على أن الأيمان مغاير للعمل الصالح ؟

والجواب : نعم لأنه تعالى جعل الإيمان شرطاً في كون العمل الصالح موجباً للثواب .

وشرط الشيء مغاير لذلك الشيء .

السؤال الثالث : ظاهر الآية يقتضي أن العمل الصالح إنما يفيد الأثر بشرط الإيمان ، فظاهر قوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ يدل على أن العمل الصالح يفيد الأثر سواء كان مع الإيمان أو كان مع عدمه .

والجواب : أن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان ، أما إفادته لأثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان .

السؤال الرابع : هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة .

والجواب فيه ثلاثة أقوال :

القول الأول : قال القاضي : الأقرب أنها تحصل في الدنيا بدليل أنه تعالى أعقبه بقوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولا شبهة في أن المراد منه ما يكون في الآخرة .

ولقائل أن يقول : لا يبعد أن يكون المراد من الحياة الطيبة ما يحصل في الآخرة ، ثم إنه مع ذلك وعدهم الله على أنه إنما يجزيهم على ما هو أحسن أعمالهم فهذا لا امتناع فيه .

فإن قيل : بتقدير أن تكون هذه الحياة الطيبة إنما تحصل في الدنيا فما هي ؟

والجواب : ذكروا فيه وجوهاً قيل : هو الرزق الحلال الطيب .

وقيل : عبادة الله مع أكل الحلال ، وقيل : القناعة ، وقيل : رزق يوم بيوم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : " قنعني بما رزقتني " وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : " اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً " قال الواحدي وقول من يقول : إن القناعة حسن مختار لأنه لا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع وأما الحريص فإنه يكون أبداً في الكد والعناء .

واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه : الأول : أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى ، وعرف أنه تعالى محسن كريم لا يفعل إلا الصواب كان راضياً بكل ما قضاه وقدره ، وعلم أن مصلحته في ذلك ، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبداً في الحزن والشقاء .

وثانيها : أن المؤمن أبداً يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها وعلى تقدير وقوعها يرضى بها ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، فعند وقوعها لا يستعظمها بخلاف الجاهل فإنه يكون غافلاً عن تلك المعارف ، فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في

قلبه .

وثالثها : أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى ، والقلب إذا كان مملوءاً من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا ، أما قلب الجاهل فإنه خال عن معرفة الله تعالى فلا جرم يصير مملوءاً من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا .

ورابعها : أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها ، أما الجاهل فإنه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها .

وخامسها : أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة التقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه .

(10/443)

واعلم أن ما كان واجب التغير فإنه عند وصوله إليه لا تنقلب حقيقته ولا تتبدل ماهيته ، فعند وصوله إليه يكون أيضاً واجب التغير ، فعند ذلك لا يطبع العاقل قلبه عليه ولا يقيم له في قلبه وزناً بخلاف الجاهل فإنه يكون غافلاً عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه فعند فوته وزواله يحترق قلبه ويعظم البلاء عنده ، فهذه وجوه

كافية في بيان أن عيش المؤمن العارف أطيب من عيش الكافر هذا كله إذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها في الدنيا .

والقول الثاني : وهو قول السدي إن هذه الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر .

والقول الثالث : وهو قول الحسن وسعيد بن جبير إن هذه الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبّكَ كَدْحاً فملاقيه ﴾ [الإنشقاق : 6] فبين أن هذا الكدح باقٍ إلى أن يصل إلى ربه وذلك ما قلناه ، وأما بيان أن الحياة الطيبة في الجنة فلأنها حياة بلا موت وغنى بلا فقر ، وصحة بلا مرض ، وملك بلا زوال ، وسعادة بلا شقاء ، فثبت أن الحياة الطيبة ليست إلا تلك الحياة ، ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقد سبق تفسيره ، والله أعلم .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

اعلم أنه لما قال قبل هذه الآية : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] أرشد إلى العمل الذي به تخلص أعماله عن الوساوس فقال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى : الشيطان ساع في إلقاء الوسوسة في القلب حتى في حق الأنبياء بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من إلقاء الوسوسة بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 201] فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة .

المسألة الثانية : قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به الكل ، لأن الرسول لما كان محتاجاً إلى الاستعاذة عند القراءة فغير الرسول أولى بها .

المسألة الثالثة : الفاء في قوله : ﴿ فاستعذ بالله ﴾ للتعقيب فظاهر هذه الآية يدل على أن الاستعاذة بعد قراءة القرآن وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين قال الواحدي : وهو قول أبي هريرة ومالك وداود قالوا : والفائدة فيه أنه إذا قرأ القرآن استحق به ثواباً عظيماً ، فإن لم يأت بالاستعاذة وقعت الوسوسة في قلبه ، وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة أما إذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوساوس وبقي الثواب مصوناً عن الإحباط .

أما الأكثرون من علماء الصحابة والتابعين فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، وقالوا: معنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ، وليس معناه استعذ بعد القراءة، ومثله إذا أكلت فقل: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ وإذا سافرت فتأهب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إلى الصلاة فاغسلوا ﴾ [المائدة: 6] أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا، وأيضاً لما ثبت أن الشيطان ألقى الوسوسة في أثناء قراءة الرسول بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج: 52] ومن الظاهر أنه تعالى إنما أمر الرسول بالاستعاذة عند القراءة لدفع تلك الوساوس، فهذا المقصود إنما يحصل عند تقديم الإستعاذة.

المسألة الرابعة: مذهب عطاء: أنه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت القراءة في الصلاة أو غيرها، وسائر الفقهاء اتفقوا على أنه ليس كذلك، لأنه لا خلاف بينهم أنه إن لم يتعوذ قبل القراءة في الصلاة، فصلاته ماضية، وكذلك حال القراءة في غير الصلاة لكن حال القراءة في الصلاة آكد.

المسألة الخامسة : المراد بالشيطان في هذه الآية قيل إبليس ، والأقرب أنه للجنس ، لأن لجميع المردة من الشياطين حظاً في الوسوسة .

(13/443)

واعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الناس ، فأزال الله تعالى هذا الوهم ، وبين أنه لا قدرة له ألبتة إلا على الوسوسة فقال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين ءامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ويظهر من هذا أن الاستعاذة إنما تفيد إذا حضر في قلب الإنسان كونه ضعيفاً وأنه لا يمكنه التحفظ عن وسوسة الشيطان إلا بعصمة الله تعالى ، ولهذا المعنى قال المحققون : لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله تعالى ، والتفويض الحاصل على هذا الوجه هو المراد من قوله : ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ قال ابن عباس : يطيعونه يقال : توليته أي أطعته وتوليت عنه أي أعرضت عنه : ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ الضمير في قوله : (به) إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه راجع إلى ربهم .

والثاني : أنه راجع إلى الشيطان والمعنى بسببه ، وهذا كما تقول للرجل إذا تكلم بكلمة

مؤدية إلى الكفر كفرت بهذه الكلمة أي من أجلها ، فكذلك قوله : ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أي من أجله ومن أجل حمله إياهم على الشرك بالله صاروا مشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 90.93 ﴾

(14/443)

وقال الجصاص :

بَابُ الِاسْتِعَاذَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْت الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ رَوَى عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْت ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ : اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِك مِنْ الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ .

﴾ وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَوَّذُ فِي صَلَاتِهِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ ﴾ وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ عُمَرَ : " الِاسْتِعَاذَةُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ " وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ : " الِاسْتِعَاذَةُ وَاجِبَةٌ لِكُلِّ قِرَاءَةٍ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا " .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : " إذَا تَعَوَّذْت مَرَّةً أَوْ قَرَأْت مَرَّةً بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَجْزَأَ عَنْك " ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَكَانَ الْحَسَنُ يَسْتَعِيذُ فِي الصَّلَاةِ حِينَ يَسْتَفْتِحُ قَبْلَ أَنْ

يَقْرَأَ أُمَّ الْقُرْآنِ.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ رِوَايَةٌ أُخْرَى قَالَ: "كُلَّمَا قَرَأْت فَاتِحَةَ الْكِتَابِ حِينَ تَقُولُ آمِينَ فَاسْتَعِذْ".

وَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ: "يَتَعَوَّذُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ" وَقَالَ مَالِكٌ: "لَا يَتَعَوَّذُ فِي الْمَكْتُوبَةِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ وَيُتَعَوَّذُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ إذَا قَرَأَ".

(15/443)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَوْلُهُ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ ﴾ يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ أَنْ تَكُونَ الِاسْتِعَاذَةُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ وَلَكِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ السَّلَفِ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ الِاسْتِعَاذَةُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ. وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِإِطْلَاقِ مِثْلِهِ.

وَالْمُرَادُ إذَا أَرَدْت ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ تَسْأَلَهَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ بَعْدَ سُؤَالٍ مُتَقَدِّمٍ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ ﴾ مَعْنَاهُ: إذَا قَرَأْت فَقَدِّمْ

الِاسْتِعَاذَةَ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ، وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهُ: إذَا أَرَدْت الْقِرَاءَةَ فَاسْتَعِذْ، وَكَقَوْلِ الْقَائِلِ: إذَا قُلْت فَاصْدُقْ وَإِذَا أَحْرَمْت فَاغْتَسِلْ يَعْنِي قَبْلَ الْإِحْرَامِ، وَالْمَعْنَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ إذَا أَرَدْت ذَلِكَ كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ مَعْنَاهُ: إذَا أَرَدْت قِرَاءَتَهُ.

(16/443)

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: "الِاسْتِعَاذَةُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ الْقِرَاءَةِ شَاذٌّ، وَإِنَّمَا الِاسْتِعَاذَةُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ لِنَفْيِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ فَإِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ بِتَقْدِيمِ الِاسْتِعَاذَةِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ.

وَالِاسْتِعَاذَةُ لَيْسَتْ بِفَرْضٍ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُعَلِّمْهَا الْأَعْرَابِيَّ حِينَ عَلَّمَهُ الصَّلَاةَ، وَلَوْ كَانَتْ فَرْضًا لَمْ يُخْلِهِ مِنْ تَعْلِيمِهَا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 3 صـ ﴾

(17/443)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : انْتَهَى الْعِيُّ بِقَوْمٍ إلَى أَنْ قَالُوا : إنَّ الْقَارِئَ إذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ حِينَئِذٍ يَسْتَعِيذُ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ : إذَا أَرَادَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ تَعَوَّذَ بِاللَّهِ ، وَتَأَوَّلُوا ظَاهِرَ " إذَا قَرَأْت " عَلَى أَنَّهُ إذَا أَرَدْت ، كَمَا قَالَ : ﴿ إذَا قُمْتُمْ إلَى الصَّلَاةِ ﴾ مَعْنَاهُ ، إذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ إلَى الصَّلَاةِ ، وَكَقَوْلِهِ : إذَا أَكَلْت فَسَمِّ اللَّهَ ؛ مَعْنَاهُ : إذَا أَرَدْت الْأَكْلَ .

وَحَقِيقَةُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ " فَعَلَ " يَحْتَمِلُ ابْتِدَاءَ الْفِعْلِ ، وَيَحْتَمِلُ تَمَادِيَهُ فِي الْفِعْلِ ، وَيَحْتَمِلُ تَمَامَهُ لِلْفِعْلِ .

وَحَقِيقَتُهُ تَمَامُ الْفِعْلِ وَفَرَاغُهُ عِنْدَنَا ، وَعِنْدَ قَوْمٍ أَنَّ حَقِيقَتَهُ كَانَ فِي الْفِعْلِ ، وَاَلَّذِي رَأَيْنَاهُ أَوْلَى ؛ لِأَنَّ بِنَاءَ الْمَاضِي هُوَ فَعَلَ ، كَمَا أَنَّ بِنَاءَ الْحَالِ هُوَ يَفْعَلُ ، وَهُوَ بِنَاءُ الْمُسْتَقْبَلِ بِعَيْنِهِ . وَيُخَلِّصُهُ لِلْحَالِ تَعْقِيبُهُ بِقَوْلِك الْآنَ ، وَيُخَلِّصُهُ لِلِاسْتِقْبَالِ قَوْلُك سَيَفْعَلُ ، هَذَا مُنْتَهَى الْحَقِيقَةِ فِيهِ .

وَإِذَا قُلْنَا : قَرَأَ ، بِمَعْنَى أَرَادَ ، كَانَ مَجَازًا ، وَوَجَدْنَا مُسْتَعْمَلًا ، وَلَهُ مِثَالٌ فَحَمَلْنَاهُ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : وَمَا الْفَائِدَةُ فِي الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ الشَّيْطَانِ وَقْتَ الْقِرَاءَةِ ؟ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قُلْنَا : فَائِدَتُهُ امْتِثَالُ الْأَمْرِ ؛ وَلَيْسَ لِلشَّرْعِيَّاتِ فَائِدَةٌ إلَّا الْقِيَامُ بِحَقِّ الْوَفَاءِ فِي امْتِثَالِهَا أَمْرًا ، أَوْ اجْتِنَابِهَا نَهْيًا .

وَقَدْ قِيلَ : فَائِدَتُهَا الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ يَعْنِي فِي تِلَاوَتِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا

ذَلِكَ فِي جُزْءِ تَنْبِيهِ الْغَبِيِّ عَلَى مِقْدَارِ النَّبِيِّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا افْتَتَحَ الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ كَبَّرَ ، ثُمَّ يَقُولُ : سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك ، وَتَبَارَكَ اسْمُك ، وَتَعَالَى جَدُّك ، وَلَا إلَهَ غَيْرُك ، ثُمَّ يَقُولُ : لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ ، ثَلَاثًا .

ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا ، ثَلَاثًا ، أَعُوذُ بِاَللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ ﴾ ، ثُمَّ يَقْرَأُ .

هَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ ، وَاللَّفْظُ لَهُ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَوَّذُ فِي صَلَاتِهِ قَبْلَ

الْقِرَاءَةِ ﴾ ، وَهَذَا نَصٌّ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ يَرَى الْقِرَاءَةَ قَبْلَ الِاسْتِعَاذَةِ بِمُطْلَقِ ظَاهِرِ اللَّفْظِ .

وَقَالَ مَالِكٌ : لَا يَتَعَوَّذُ فِي الْفَرِيضَةِ ، وَيَتَعَوَّذُ فِي النَّافِلَةِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : فِي قِيَامِ رَمَضَانَ .

(19/443)

وَكَانَ مَالِكٌ يَقُولُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ : " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ " قَبْلَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ .

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَجْهَرُ بِذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ ، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ قَالَ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْكُتُ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ إِسْكَاتَةً فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِسْكَاتُكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ فِيهِ ؟ قَالَ : أَقُولُ : اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ ﴾ .

وَمَا أَحَقَّنَا بِالِاقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ ، لَوْلَا غَلَبَةُ الْعَامَّةِ عَلَى الْحَقِّ .

وَتَعَلَّقَ مَنْ أَخَذَ بِظَاهِرِ الْمُدَوَّنَةِ بِمَا كَانَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ الْعَمَلِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدَكَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَئِمَّةِ الْأُمَّةِ تَرَكَ الِاسْتِعَاذَةَ فَإِنَّهُ أَمْرٌ يُفْعَلُ سِرًّا ، فَكَيْفَ يُعْرَفُ جَهْرًا .

(20/443)

وَمِنْ أَغْرَبِ مَا وَجَدْنَاهُ قَوْلُ مَالِكٍ فِي الْمَجْمُوعَةِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ الْآيَةَ قَالَ: ذَلِكَ بَعْدَ قِرَاءَةِ أُمِّ الْقُرْآنِ لِمَنْ قَرَأَ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذَا قَوْلٌ لَمْ يَرِدْ بِهِ أَثَرٌ، وَلَا يُعَضِّدُهُ نَظَرٌ؛ فَإِنَّا قَدْ بَيَّنَّا حُكْمَ الْآيَةِ، وَحَقِيقَتَهَا فِيمَا تَقَدَّمَ، وَلَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ إنَّ الِاسْتِعَاذَةَ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ لَكَانَ تَخْصِيصُ ذَلِكَ بِقِرَاءَةِ أُمِّ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ دَعْوَى عَرِيضَةً لَا تُشْبِهُ أُصُولَ مَالِكٍ، وَلَا فَهْمَهُ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِسِرِّ هَذِهِ الرِّوَايَةِ. انتهى انتهى. اهـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(21/443)

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينهُ حياةً طيبة ﴾

فيها خمسة تأويلات:

أحدها: أنها الرزق الحلال، قاله ابن عباس. الثاني: أنها القناعة، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن البصري.

الثالث: أن يكون مؤمناً بالله عاملاً بطاعته، قاله الضحاك.

الرابع : أنها السعادة ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الخامس : أنها الجنة ، قاله مجاهد وقتادة . ويحتمل سادساً : أن تكون الحياة الطيبة العافية والكفاية . ويحتمل سابعاً : أنها الرضا بالقضاء . ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يجازى على أحسن الأعمال وهي الطاعة ، دون المباح منها . الثاني : مضاعفة الجزاء وهو الأحسن ، كما قال تعالى ﴿ من جاءَ بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] .

قوله عز وجل : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله تعالى ، قاله الزجاج .

الثاني : فإذا كنت قارئاً فاستعذ بالله .

الثالث : أنه من المؤخر الذي معناه مقدم ، وتقديره : فإذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم فاقرأ القرآن .

والاستعاذة هي استدفاع الأذى بالأعلى من وجه الخضوع والتذلل والمعنى فاستعذ بالله من وسوسة الشيطان عند قراءتك لتسلم في التلاوة من الزلل ، وفي التأويل من الخطأ . وقد ذكرنا في صدر الكتاب معنى الرجيم .

قوله عز وجل : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : ليس له قدرة على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ، قاله سفيان .

الثاني : ليس له حجة على ما يدعوهم إليه من المعاصي ، قاله مجاهد .

الثالث : ليس له عليهم سلطان لاستعاذتهم باللَّه منه ، لقوله تعالى ﴿ وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ [فصلت : 36] .

(22/443)

الرابع : أنه ليس له عليهم سلطان بحال لأن الله تعالى صرف سلطانه عنهم حين قال عدو الله إبليس ﴿ ولأغوينهم أجميعن إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [الحجر : 39-40] فقال الله تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : 42] وفي معنى السلطان وجهان :

أحدهما : الحجة ، ومنه سمي الوالي سلطاناً لأنه حجة الله تعالى في الأرض .

الثاني : أنها القدرة ، مأخوذ من السُّلْطَة ، وكذلك سمي السلطان سلطاناً لقدرته . ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ يعني يتبعونه .

﴿ والذين هُمْ به مشركون ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : والذين هم بالله مشركون ، قاله مجاهد . الثاني : والذين أشركوا الشيطان في أعمالهم ، قاله الربيع بن أنس .

الثالث : والذين هم لأجل الشيطان وطاعته مشركون ، قاله ابن قتيبة . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(23/443)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ من عمل صالحاً ﴾

يعم جميع أعمال الطاعة ، ثم قيده بالإيمان ، واختلف الناس في ﴿ الحياة الطيبة ﴾ فقال ابن عباس والضحاك : هو الرزق الحلال ، وقال الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي القناعة وهذا طيب عيش الدنيا ، وقال ابن عباس أيضاً : هي السعادة ، وقال الحسن البصري : " الحياة الطيبة " هي حياة الآخرة ونعيم الجنة .

قال القاضي أبو محمد : وهناك هو الطيب على الإطلاق ، ولكن ظاهر هذا الوعد أنه في الدنيا ، والذي أقول : إن طيب الحياة اللازم للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم ونيلها وقوة

رجائهم ، والرجاء للنفس أمر ملذ ، فبهذا تطيب حياتهم وأنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم ، فإن انضاف إلى هذا مال حلال وصحة ، أو قناعة فذلك كمال ، وإلا فالطيب فيما ذكرناه راتب وجاء قوله ﴿ فلنحيينه ﴾ على لفظ ﴿ من ﴾ ، وقوله ﴿ ولنجزينهم ﴾ على معناها ، وهذا وعد بنعيم الجنة ، وباقي الآية بين ، وحكى الطبري عن أبي صالح أنه قال : نزلت هذه الآية بسبب قوم من أهل الملل تفاخروا ، وقال كل منهم ملتي أفضل ، فعرفهم الله تعالى في هذه الآية أفضل الملل .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

(24/443)

الفاء في قوله ﴿ فإذا ﴾ واصلة بين الكلامين ، والعرب تستعملها في مثل هذا ، وتقدير الآية فإذا أخذت في قراءة القرآن كما قال عز وجل ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] ، وكما تقول لرجل إذ أكلت فقُل : بسم الله ، و" الاستعاذة " ندب عند الجميع ، وحكى النقاش عن عطاء أن التعوذ واجب ، ولفظ الاستعاذة هو على رتبة الآية ، وقد ذكرت الخلاف الذي قيل فيه في صدر هذا الكتاب ، و ﴿ الرجيم ﴾ المرجوم باللغة وهو إبليس ، ثم أخبر الله تعالى أن إبليس ليس له ملكة ولا رياسة ، هذا

ظاهر " السلطان " عندي في هذه الآية ، وذلك أن " السلطان " إن جعلناه الحجة فليس له حجة في الدنيا على أحد لا مؤمن ولا كافر ، اللهم إلا أن يتأول متأول ﴿ ليس له سلطان ﴾ يوم القيامة ، فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة لأن إبليس له حجة على الكافرين أنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له من قبل أنفسهم ، وهؤلاء الذين لا سلطان ولا رياسة لإبليس عليهم هم المؤمنون أجمعون ، لأن الله لم يجعل سلطانه إلا على المشركين الذين يتولونه ، والسلطان منفي هاهنا في الإشراك ، إذ له عليهم ملكة ما في المعاصي وهم الذين قال الله فيهم ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر : 42] وهم الذين قال إبليس فيهم ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [الحجر : 40] ، و ﴿ يتولونه ﴾ معناه يجعلونه ولياً ، والضمير فيه يحتمل أن يعود على اسم الله عز وجل ، والظاهر أنه يعود على اسم إبليس ، بمعنى من أجله وبسببه ، كما تقول لمعلمك : أنا عالم بك ، أي بسببك ، فكأنه قال : والذين هم بسببه مشركون بالله ، وهذا الإخبار بأن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأمر بالاستعاذة ، تقتضي أن الاستعاذة تتصرف كيده ، كأنها متضمنة للتوكل على الله والانقطاع إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(25/443)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

شرط وجوابه .

وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال : الأوّل أنه الرزق الحلال ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير وعطاء والضحاك .

الثاني القناعة ؛ قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبّه ، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

الثالث توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله ؛ قال معناه الضحاك .

وقال أيضاً : من عمل صالحاً وهو مؤمن في فاقة ومَيْسرة فحياتُه طيبة ، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحاً فمعيشته ضَنْكٌ لا خير فيها .

وقال مجاهد وقَتادة وابن زيد : هي الجنة ، وقاله الحسن ، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة .

وقيل هي السعادة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

وقال أبو بكر الورّاق : هي حلاوة الطاعة .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هي أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق .

وقال جعفر الصادق : هي المعرفة بالله ، وصدقُ المقام بين يدي الله .

وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق .

وقيل : الرضا بالقضاء .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ أي في الآخرة .

﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال "فلنحيينه" ثم قال "ولنجزينهم" لأن "مَن" يصلح للواحد والجمع ، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى ؛ وقد تقدّم .

وقال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان ، فقال هؤلاء : نحن أفضل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل ؛ فنزلت .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

(26/443)

فيه مسألة واحدة وهي أن هذه الآية متصلة بقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ فإذا أخذْتَ في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدّك عن تدبّره والعمل بما فيه ؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة ؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل بسم الله ؛ أي إذا أردت أن تأكل .

وقد روى جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة قال : " اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه " وروى أبو سعيد الخُدْريّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ في صلاته قبل القراءة.

قال الكِيَا الطبري : ونُقل عن بعض السلف التعوّذ بعد القراءة مطلقاً ، احتجاجاً بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة فاذكروا الله قِيَاماً وَقُعُوداً ﴾ [النساء : 103] إلا أن غيره محتمل ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا ﴾ [الأنعام : 152] ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فاسألوهن مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : 53] وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم.

ومثله قول القائل : إذا قلت فاصدق ، وإذا أحرمت فاغتسل ؛ يعني قبل الإحرام.

والمعنى في جميع ذلك : إذا أردت ذلك ؛ فكذلك الاستعاذة.

وقد تقدم هذا المعنى ، وتقدّم القول في الاستعاذة مستوفًى.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذين آمَنُواْ ﴾

أي بالإغواء والكُفْر ، أي ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر ؛ قاله سفيان.

وقال مجاهد : لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصي.

وقيل: إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف سلطانه عليهم حين قال عدوّ الله إبليس لعنه الله ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر: 42].

قلت: قد بينا أن هذا عامٌّ يدخله التخصيص، وقد أغوى آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام بسلطانه، وقد شوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله: من خلق ربّك؟ حسبما تقدّم في آخر الأعراف بيانه.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أي يطيعونه.

يقال: تولّيته أي أطعته، وتوليت عنه، أي أعرضت عنه.

﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أي بالله؛ قاله مجاهد والضحاك.

وقيل: يرجع "به" إلى الشيطان؛ قاله الربيع بن أنس والقُتَبيّ.

والمعنى: والذين هم من أجله مشركون.

يقال: كفرت بهذه الكلمة، أي من أجلها.

وصار فلان بك عالماً، أي من أجلك.

أي والذي تولّى الشيطانَ مشركون بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(28/443)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾

فإن قلت : من عمل صالحاً يفيد العموم فما فائدة الذكر والأنثى ؟ قلت : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر وأطلق ، كان الظاهر تناوله للذكر دون الأنثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين ، ليعلم الوعد للنوعين جميعاً وجواب آخر وهو أن الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة في تقرير الوعد ، من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتاً للتأكد وإزالة لِوَهْمِ التخصيص وقوله : وهو مؤمن ، جعل الإيمان شرطاً في كون العمل الصالح موجباً للثواب ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء : هي الرزق الحلال ، وقال مقاتل : هي العيش في الطاعة ، وقيل : هي حلاوة الطاعة .

وقال الحسن هي القناعة وقيل رزق يوم بيوم ، واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا ، وإن كان فقيراً أطيب من عيش الكافر وإن كان غنياً لأن المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله ، وذلك

بتقديره وتدبيره وعرف أن الله محسن كريم متفضل لا يفعل إلا الصواب ، فكان المؤمن راضياً عن الله وراضياً بما قدره الله له ورزقه إياه ، وعرف أنه له مصلحة في ذلك القدر الذي رزقه إياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر أو الجاهل بهذه الأصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبداً في حزن وتعب وعناء وحرص وكد ولا ينال من الرزق إلا ما قدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره .

وقال السدي : الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها .

وقال مجاهد وقتادة : في قوله فلنحيينه حياة طيبة هي الجنة .

(29/443)

وروى العوفي عن الحسن ، قال : لا تطيب لأحد الحياة إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة ، فثبت بهذا أن الحياة الطيبة لا تكون إلا في الجنة ، ولقوله في سياق الآية ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ لأن ذلك الجزاء إنما يكون في الجنة .

قوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾

الخطاب فيه للنبي (صلى الله عليه وسلم) ويدخل فيه غيره من أمته، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما كان غير محتاج إلى الاستعاذة، وقد أمر بها فغيره أولى بذلك، ولما كان الشيطان ساعياً في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك، فلهذا السبب أمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة، حتى تكون مصونة من وسواس الشيطان عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي صلاة، قال عمر: ولا أدري أي صلاة هي.

قال: الله أكبر كبيراً ثلاثاً والحمد لله كثيراً ثلاثاً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته ونفثه وهمزته.

قال: نفخته الكبر ونفثه السحر وهمزته المونة أخرجه أبو داود.

المونة الجنون والفاء في قوله فاستعذ بالله للتعقيب.

فظاهر لفظ الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة وإليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهري.

قالوا : لأن قارئ القرآن يستحق ثواباً عظيماً وربما حصلت الوساوس في قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أم لا ؟ فإذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصاً فأما مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار ، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة ، قالوا : ومعنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴾ الخ ومثله من الكلام إذا أردت أن تأكل فقل : بسم الله وإذا أردت أن تسافر فتأهب ، وأيضاً فإن الوسوسة إنما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة ، لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة إليها ، ومذهب عطاء أنه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها ، واتفق سائر الفقهاء على أن الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها ، واتفق سائر الفقهاء على أن الاستعاذة سنة في الصلاة وغيرها ، وقد تقدمت هذه المسألة والخلاف فيها في أول سورة الفاتحة ، والاستعاذة : الاعتصام بالله والالتجاء إليه من شر الشيطان ووسوسته .

والمراد من الشيطان إبليس .

وقيل : هو اسم جنس يطلق على المردة من الشياطين ، لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم بإقدار الله إياهم على ذلك ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ لما أمر الله رسوله صلى الله عليه سلم بالاستعاذة من الشيطان فكأن ذلك أوهم أن له سلطان يعني ليس له قدرة ، ولا ولاية على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون ، قال سفيان ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ويظهر من هذا (1) أن الاستعاذة ، إنما تفيد إذا حضر بقلب الإنسان كونه ضعيفاً ، وأنه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان إلا بعصمة الله ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة إلا بتوفيق الله ثم قال تعالى ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ يعني يطيعونه ويدخلون في ولايته يقال : توليته إذا أطعته وتوليت عنه إذا أعرضت عنه ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ يعني بالله ، وقيل : الضمير في به راجع إلى الشيطان ، والمعنى هم من أهله مشركون بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

---

(1) قوله ويظهر من هذا ، اسم الإشارة راجع لما ذكره قبل قول سفيان كما يعلم من الفخر فإنه لم يذكر في هذا المحل قول سفيان وذكر ما قبله وما بعده وعبارته صحيحة بخلاف ما هنا فإنه يوهم رجوع اسم الإشارة لقول سفيان وهو غير ظاهر اهـ .

وقال أبو حيان :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾

ومن صالحة للمفرد والمذكر وفروعهما .

لكن يتبادر إلى الذهن الإفراد والتذكير ، فبين بالنوعين ليعم الوعد كليهما .

وهو مؤمن : جملة حالية ، والإيمان شرط في العمل الصالح مخصص لقوله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ أو يراد بمثقال ذرة من إيمان ، كما جاء في من يخرج من النار من عصاة المؤمنين ، والظاهر من قوله تعالى : فلنحيينه حياة طيبة ، أنّ ذلك في الدنيا وهو قول الجمهور ؛ ويدل عليه قوله : ولنجزينهم أجرهم يعني في الآخرة ، وقال الحسن ، ومجاهد ، وابن جبير ، وقتادة ، وابن زيد : ذلك في الجنة .

وقال شريك : في القبر .

وقال عليّ ، ووهب بن منبه ، وابن عباس ، والحسن في رواية عنهما هي : القناعة ، وعن ابن عباس والضحاك : الرزق الحلال ، وعنه أيضاً : السعادة .

وقال عكرمة : الطاعة .

وقال قتادة : الرزق في يوم بيوم ، وقال إسماعيل بن إبي خالد : الرزق الطيب والعمل الصالح ، وقال أبو بكر الورّاق : حلاوة الطاعة ، وقيل : العافية والكفاية ، وقيل : الرضا بالقضاء ، ذكرهما الماوردي .

وقال الزمخشري : المؤمن مع العمل الصالح إنْ كان موسراً فلا مقال فيه ، وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه ، وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى .

والفاجر إن كان معسراً فلا إشكال في أمره ، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه .

وقال ابن عطية : طيب الحياة للصالحين بانبساط نفوسهم ونيلها وقوة رجائهم ، والرجاء للنفس أمر ملذ ، وبأنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم ، فإن انضاف إلى هذا مال حلال وصحة وقناعة فذاك كمال ، وإلا فالطيب فيما ذكرنا راتب .

وعاد الضمير في فلنحيينه على لفظه من مفرداً ، وفي ولنجزينهم على معناها من الجمع ، فجمع .

وروي عن نافع : وليجزينهم بالياء بدل النون ، التفت من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة .

وينبغي أن يكون على تقدير قسم ثان لا معطوفاً على فلنحيينه ، فيكون من عطف جملة قسمية على جملة قسمية ، وكلتاهما محذوفتان .

ولا يكون من عطف جواب على جواب ، لتغاير الإسناد ، وإفضاء الثاني إلى إخبار المتكلم عن نفسه بإخبار الغائب ، وذلك لا يجوز .

فعلى هذا لا يجوز : زيد قلت والله لأضربن هنداً ولينفينها ، يريد ولينفيها زيد .

فإنْ جعلته على إضمار قسم ثان جاز أي : وقال زيد لينفينها لأن ، لك في هذا التركيب أن تحكى لفظه ، وأن تحكى على المعنى .

فمن الأول : ﴿ وليحلفن بالله إن أردنا إلا الحسنى ﴾ ومن الثاني : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ ولو جاء على اللفظ لكان ما قلنا .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

لما ذكر تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ وذكر أشياء مما بين في الكتاب ، ثم ذكر قوله : ﴿ من عمل صالحاً ﴾ ذكر ما يصون به القارىء قراءته من وسوسة الشيطان ونزغه ، فخاطب السامع بالاستعادة منه إذا أخذ في القراءة .

فإن كان الخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) لفظاً فالمراد أمته ، إذ كانت قراءة القرآن من أجل الأعمال الصالحة كما ورد في الحديث : " إن ثواب قراءة كل حرف عشر حسنات " والظاهر بعقب الاستعاذة .

وقد روى ذلك بعض الرواة عن حمزة ، وروي عن ابن سيرين أنه قال : كلما قرأت الفاتحة حين تقول : آمين ، فاستعذ .

وروي عن أبي هريرة ، ومالك ، وداود .

تعقبها القراءة كما روي عن حمزة والجمهور : على ترك هذا الظاهر وتأويله بمعنى : فإذا أردت القراءة .

قال الزمخشري : لأنّ الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه ، فكان بسبب قوي وملابسة ظاهرة كقوله : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ وكقوله : "إذا أكلت فسم الله" وقال ابن عطية : فإذا وصلة بين الكلامين والعرب تستعملها في مثل هذا ، وتقدير الآية : فإذا أخذت في قراءة القرآن فاستعذ ، أمر بالاستعاذة .

(34/443)

فالجمهور على الندب ، وعن عطاء الوجوب .

والظاهر : طلب الاستعاذة عند القراءة مطلقاً ، والظاهر : أنّ الشيطان المراد به إبليس وأعوانه .

وقيل : عام في كل متمرد عاتٍ من جن وإنس ، كما قال شياطين الإنس والجن .

واختلف في كيفية الاستعاذة ، والذي صار إليه الجمهور من القراء وغيرهم واختاروه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لما روى عبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة ، وجبير بن مطعم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : "نه استعاذ عند القراءة بهذا اللفظ بعينه" ونفى تعالى سلطان الشيطان عن المؤمنين .

والسلطان هنا التسليط والولاية ، والمعنى : أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته كما قال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وكما أخبر تعالى عنه فقال في قصة أوليائه : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ وقيل : المراد بالسلطان الحجة ، وظاهر الإخبار انتفاء سلطنته على المؤمنين مطلقاً .

وقيل : ليس له عليهم سلطان لاستعاذتهم منه .

وقيل : ليس له قدرة أن يحملهم على ذنب ، والضمير في به عائد على بهم ، وقيل : على الشيطان ، وهو الظاهر لاتفاق الضمائر والمعنى : والذين هم بإشراكهم إبليس مشركون بالله ، أو تكون الباء للسببية ، والأمر بالاستعاذة يقتضي أنها تصرف كيد الشيطان ، كأنها متضمنة التوكل على الله والانقطاع إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا ﴾ أي عملاً صالحاً أيَّ عملٍ كان ، وهذا شروعٌ في تحريض كافةِ المؤمنين على كل عملٍ صالح غِبَّ ترغيب طائفةٍ منهم في الثبات على ما هم عليه من عمل صالحٍ مخصوصٍ دفعاً لتوهم اختصاصِ الأجر الموفورِ بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى : ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ﴾ مبالغةٌ في بيان شمولِه للكل ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ قيّده به إذ لا اعتدادَ بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب أو تخفيفِ العذاب لقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ وإيثارُ إيرادِه بالجملة الاسميةِ الحالية على نظمه في سلك الصلةِ لإفادة وجوبِ دوامه ومقارنته للعمل الصالح ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيّبَةً ﴾ أما إن كان موسراً فظاهرٌ وأما إن كان معسِراً فيطيب عيشُه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقعِ الأجرِ العظيم كالصائم يطيب نهارُه بملاحظة نعيمِ ليلِه بخلاف الفاجر ، فإنه إن كان معسراً فظاهرٌ وإن كان موسراً فلا يدعه الحِرصُ وخوفُ الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبةُ تكرار ، والجمعُ في الضمائر العائدةِ إلى الموصول لمراعاة جانبِ المعنى كما أن الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ ، وإيثار ذلك على العكس لما أن وقوعَ الجزاءِ بطريق الاجتماعِ المناسبِ للجمعية ووقوعَ ما في حيز الصلةِ وما يترتب عليه بطريق الافتراقِ والتعاقُب

الملائمِ للإفراد ، وإذ قد انتهى الأمرُ إلى أن مدار الجزاءِ المذكورِ وهو صلاحُ العمل وحسنُه رُتّب عليه بإلغاء الإرشاد إلى ما به يحسُن العمل الصالح ويخلُص عن شَوب الفساد فقيل :

(36/443)

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءانَ ﴾ أي إذا أردت قراءتَه عبّر بها عن إرادتها على طريقة إطلاقِ اسم المسبّب على السبب إيذاناً بأن المرادَ هي الإرادةُ المتصلةُ بالقراءة ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فاسألْه عز جارُه أن يعيذك ﴿ مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ من وساوسه وخطَراتِه كيلا يوسوسَك عند القراءة فإن له هَمّةً بذلك ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الآية ، وتوجيهُ الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيصُ قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفي سائر الأعمال الصالحةِ أهمّ فإنه عليه السلام حيث أُمر بها عند قراءةِ القرآن الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام وفيما عدا القراءةَ من الأعمال والأمرُ للندب وهذا مذهبُ الجمهور ، وعند عطاءٍ للوجوب وقد أخذ بظاهر النظمِ الكريم فاستعاذ عَقيبَ القراءة أبو هريرة رضي الله عنه ومالكٌ وابنُ سيرينَ وداودُ وحمزةُ من القراء ، وعن ابن

مسعودٍ رضي الله عنه : قرأتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال عليه السلام : " قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ "

(37/443)

﴿ إِنَّهُ ﴾ الضمير للشأن أو للشيطان ﴿ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تسلّطٌ وولاية ﴿ على الذين ءامَنُواْ وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي إليه يفوضون أمورَهم وبه يعوذون في كل ما يأتون وما يذرون فإن وسوستَه لا تؤثر فيهم ودعوتَه غيرُ مستجابة عندهم ، وإيثارُ صيغةِ الماضي في الصلة الأولى للدِلالة على التحقق كما أن اختيارَ صيغةِ الاستقبال في الثانية لإفادة الاستمرارِ التجدّدي ، وفي التعرض لوصف الربوبية عِدَةٌ كريمةٌ بإعادة المتوكلين ، والجملة تعليلٌ للأمر بالاستعاذة أو لجوابه المنويّ أي يُعِذْك أو نحوه .

(38/443)

﴿ إِنَّمَا سلطانه ﴾ أي تسلّطه وولايتُه بدعوته المستتبعةِ للاستجابة لا سلطانُه بالقسر والإلجاء فإنه مُنتفٍ عن الفريقين لقوله سبحانه حكايةً عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلآَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ وقد أفصح عنه قولُه تعالى : ﴿ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أي يتخذونه وليًّا ويستجيبون دعوتَه ويُطيعونه فإن المقسورَ بمعزل من ذلك ﴿ والذين هُم بِهِ ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ مُّشْرِكُونَ ﴾ أو بسبب الشيطانِ مشركون إذ هو الذي حملهم على الإشراك بالله سبحانه ، وقصرُ سلطانه عليهم غِبَّ نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليلٌ على أنْ لا واسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولي الشيطان وإن كان بينهما واسطةٌ في المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظمُ في سلك مَنْ يتولّى الشيطانَ من حيث لا يحتسب إذ به يتم التعليلُ ففيه مبالغةٌ في الحمل على التوكل والتحذيرِ عن مقابله ، وإيثارُ الجملة الفعليةِ الاستقبالية في الصلة الأولى لما مر من إفادة الاستمرارِ التجدّدي كما أن اختيارَ الجملةِ الاسميةِ في الثانية للدلالة على الثبات ، وتكريرُ الموصولِ للاحتراز عن توهم كونِ الصلةِ الثانية حاليةً مفيدةً لعدم دخول غيرِ المشركين من أولياء الشيطانِ تحت سلطانِه ، وتقديمُ الأولى على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنةِ بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ، ولو رُوعيَ الترتيبُ السابق لانفصل كلٌّ من القرينتين عما يقابلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾

أي عملاً صالحاً أي عمل كان ، وهذا كما قيل شروع في تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم في الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعاً لتوهم الأجر الموفور بهم وبعملهم ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ دفع لتوهم تخصيص ﴿ مِنْ ﴾ بالذكور لتبادرهم من ظاهر لفظ ﴿ مِنْ ﴾ فإنه مذكر وعاد عليه ضميره وإن شمل النوعين وضعاً على الأصح ، واستدل عليه بما رواه الترمذي من قوله صلى الله عليه وسلم : " من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله تعالى إليه " ، وقول أم سلمة : "فكيف تصنع النساء بذيولهن" الحديث فإن أم سلمة رضي الله تعالى عنها فهمت دخول النساء في ﴿ مِنْ ﴾ وأقرها على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأنهم أجمعوا على أنه لو قال : من دخل داري فهو حر فدخلها الاماء عتقن ، وبعضهم يستدل على ذلك أيضاً بهذه الآية إذ لولا تناوله الأنثى وضعاً لما صح أن يبين بالنوعين .

وفي الكشف كان الظاهر تناوله للذكور من حيث أن الإناث لا يدخلن في أكثر الأحكام والمحاورات وإن كان التناول على طريق التعميم والتغليب حاصلاً لكن لما أريد التنصيص ليكون أغبط للفريقين ونصا في تناولهما بين بذكر النوعين اه ، والقول الأصح أن التناول لا

يحتاج إلى التغليب ، وتمام الكلام في ذلك في كتب الأصول ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ عَمِلَ ﴾ وقيد به إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة الصالحة في استحقاق الثواب إجماعاً ، واختلف في ترتب تخفيف العقاب عليها ، فقال بعضهم : لا يترتب أيضاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ [النحل : 85] وقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [الفرقان : 23].

(40/443)

وقال الإمام : إن إفادة العمل الصالح لتخفيف العقاب غير مشروطة بالإيمان لقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ [الزلزلة : 7] وحديث أبي طالب أنه اخف الناس عذاباً لمحبته وحمايته النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي البحر أن قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ [الزلزلة : 7] مخصص بهذه الآية ونحوها أو يراد بمثقال ذرة مثقال ذرة من إيمان كما جاء فيمن يخرج من النار من عصاة المؤمنين ، وقال الكرماني : إن تخفيف العذاب عن أبي طالب ليس جزاء لعمله بل هو لرجاء غيره أو هو من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام ، وقال بعضهم : الإيمان

شرط لترتب التخفيف على الأعمال الصالحة إذا كانت مما يتوقف صحتها على النية التي لا تصح من كافر وليس شرطاً للترتب عليها إذا لم تكن كذلك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في هذا المقام ، وإيثار الجملة الاسمية لإفادة وجوب دوام الإيمان ومقارنته للعمل الصالح في ترتب قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً ﴾ الخ ، والمراد بالحياة الطيبة الحياة التي تكون في الجنة إذ هناك حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة ، أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهما عن الحسن قال : ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة ، وروي نحوه عن مجاهد .

وقتادة .

وابن زيد ، ولله تعالى در من قال :

لا طيب للعيش ما دامت منغصة . . .

لذاته بادكار الموت والهرم

وقال شريك : هي حياة تكون في البرزخ فقد جاء "القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار" .

وقال غير واحد : هي في الدنيا وأريد بها حياة تصحبها القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى له وقدره ، فقد أخرج البيهقي في الشعب .

والحاكم وصححه .

وابن أبي حاتم .

(41/443)

وغيرهم عن ابن عباش رضي الله تعالى عنهما أنه فسرها بذلك وقال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف على كل غائبة لي بخير" وجاء "القناعة مال لا ينفد" .

وقال أبو بكر الوراق : هي حياة تصحبها حلاوة الطاعة ، وأخرج عبد الرزاق .

وغيره عن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال : الحياة الطيبة الرزق الحلال ، وروى عن الضحاك .

ووجه بعضهم طيب هذه الحياة بأنه لا يترتب عليها عقاب بخلاف الحياة بالرزق الحرام فقد جاء "أيما لحم نبت من سحت فالنار أولى به" وهو كما ترى ، وقيل : غير ذلك ؛ وأولى الأقوال على تقدير أن يكون ذلك في الدنيا تفسيرها بما يصحبه القناعة .

قال الواحدي : إن تفسيرها بذلك حسن مختار فإنه لا يطيب في الدنيا إلا عيش القانع وأما الحريض فإنه أبدا في الكد والعناء ، وقال الإمام : إن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش

الكافر لوجوه .

الأول أنه لما عرف أن رزقع إنما حصل بتدبير الله تعالى وأنه سبحانه محسن كريم لا يفعل إلا الصواب كان راضياً بكل ما قضاه وقدره وعرف أن مصلحته في ذلك ، وأما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبدا في الحزن والشقاء .

الثاني أن المؤمن يستحضر أبداً في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها ويجد نفسه راضية بذلك فعند الوقوع لا يستعظمها بخلاف الجاهل فإنه غافل عن تلك المعارف فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه .

الثالث أن المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى والقلب إذا كان مملوءاً بالمعرفة لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا وأما الجاهل فقلبه خال عن المعرفة متفرغ للأحزان من المصائب الدنيوية .

الرابع أن المؤمن عارف أن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة فلا يعظم فرحه بوجداناه ولا غمه بفقدانها والجاهل لا يعرف سعادة أخرى تغايرها فيعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها .

الخامس أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة الزوال ولولا تغيرها وانقلابها ما وصلت إليه فعند وصولها إليه لا يتعلق بها قلبه ولا يعانقها معانقة العاشق فلا يحزنه فواتها والجاهل بخلاف ذلك اه، وللبحث فيه مجال.

وأورد على التفسير المختار أن بعض من عمل صالحاً وهو مؤمن لم يرزق القناعة بل قد ابتلى بالقنوع، وأجيب بأن المراد بالمؤمن من كمل إيمانه أو يقال: المراد بمن عمل صالحاً من كان جميع عمله صالحاً.

وقال البيضاوي في بيان ترتب احيائه حياة طيبة: إنه إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً فطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقف الأجر العظيم في الأخرة أي على تخلف بعض مراداته عنه وضنك عيشه فقال الخفاجي: إن هذه الأمور لا بد من وجود بعضها في المؤمن والأخير يعني توقع الأجر في الآخرة عام شامل لكل مؤمن فلا يرد عليه أن هذا لا يوجد في كل من عمل صالحاً حتى يؤول المؤمن بمن كمل إيمانه إلى آخر ما سمعت.

وتعقب بأن القناعة هي الرضا بالقسم كما في القاموس وغيره وتوقع الأجر العظيم لا يوجد بدون ذلك ويكف يحصل الأجر على تخلف المراد وضنك العيش مع الجزع وعدم الرضا، وكلامه ظاهر في تحقق هذا التوقع وإن لم يكن هناك قناعة ورضا ولا يكاد يقع هذا من مؤمن عارف فلا بد من التأويل.

وبحث بعضهم فيه أيضاً بأن كمال الإيمان لا يكون بدون الرضا وكذا كون جميع الأعمال

صالحة لا يوجد بدونه لأن الأعمال تشمل القلبية والقالبية والرضا من النوع الأول .

والمراد من ﴿ لنحيينه حياة طيبة ﴾ لنعطينه ما تطيب به حياته فيؤول معنى الآية حينئذ على تقدير أن يراد القناعة الرضا من رضى بالقسمة وفعل كذا وكذا وهو مؤمن أو من عمل صالحاً وهو راض بالقسمة متصف بكذا وكذا مما فيه كمال الإيمان فلنعطينه الرضا بالقسمة الذي تطيب به حياته ويتضمن من رضى بالقسمة فلنعطينه الرضا بالقسمة الذي تطيب به حياته وهو كما ترى وفيه ما لا يخفى .

(43/443)

نعم تفسير الحياة الطيبة بما يكون في الجنة سالم عن هذا القيل والقال ، ويراد بها ما سلمت من توعم الموت والهرم وحلول الالم والسقم فيكون قوله تعالى : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ إشارة إلى درء المفاسد ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إشارة إلى جلب المصالح ولكون الأول أهم قدم فليتأمل ، وكأن المراد ولنجزينهم الخ حسبما يفعل بالصابرين فليس في الآية شائبة تكرار كما زعم الطبرسي ، والجمع في الضمائر العائدة إلى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما أن الأفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ ، وإيثار ذلك على العكس بناءاً على كون الأحياء حياة طيبة في الدنيا وجزاء الأجر في

الآخرة لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما في حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للأفراد ، وقيل بناءاً على كون ذلك في الآخرة : إن الجمع والأفراد لما تقدم ، وكذا إيثار ذلك على العكس فيما عدا ضمير ﴿ لنحيينه ﴾ واما في ضميره فلما أن الأحياء حياة طيبة بمعنى ما سلمت مما تقدم أمر واحد في الجميع لا يتفاوت فيه أهل الجنة فكأنهم في ذلك شيء واحد ، ولما لم يكن الجزاء كذلك وكان أهل الجنة فيه متفاوتين جيء بضمير الجمع معه فتأمل كل ذلك .

وروي عن نافع أنه قرأ ﴿ وليجزينهم ﴾ بالياء على الالتفات من التكلم إلى الغيبة .

(44/443)

قال أبو حيان : وينبغي أن يكون ذلك على تقدير قسم ثان لا معطوفاً على ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ ﴾ فيكون من عطف جملة قسمية على مثلها وكلتاهما محذوفتان ، ولا يكون من عطف جواب على مثله لتغاير الإسناد وإفضاء الثاني إلى إخبار المتكلم عن نفسه اخبار الغائب وذلك لا يجوز ، وعلى هذا لا يجوز زيد قال لأضربن هند أو لينفينها تريد ولينفينها زيد فإن جعلته على إضماء قسم ثان جاز أي وقال زيد لينفينها لأن لك في هذا التركيب حكاية المعنى وحكاية اللفظ ، ومن الثاني ﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الحسنى ﴾ [التوبة : 107

] ومن الأول ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ﴾ [التوبة : 74] ولو حكى اللفظ قيل ما قلنا ا ه .

واستدل بالآية على أن الإيمان مغاير للعمل الصالح مغايرة الشرط للمشروط .

هذا وإذ قد انتهى الأمر إلى مدار الجزاء وهو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الإرشاد إلى ما به يحسن العمل الصالح ، ويخلص عن شوب الفساد فقيل :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ﴾ أي إذا أردت قراءة القرآن فاسأله عز جاره أن يعيذك ﴿ مِنْ ﴾ وساوس ﴿ الشيطان الرجيم ﴾ كيلا يوسوسك في القراءة ، فالقراءة مجاز مرسل عن إرادتها إطلاقاً لاسم المسبب على السبب ، وكيفية الاستعاذة عند الجمهور من القراء وغيرهم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتظافر الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ كذلك .

وروى الثعلبي .

والواحدي أن ابن مسعود قرأ عليه عليه الصلاة والسلام فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال له صلى الله عليه وسلم : " يا ابن أم عبد قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ " نعم أخرج أبو داود .

والبيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها في ذكر الافك قالت : " جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكشف عن وجهه وقال : اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ إن الذين جاؤوا بالافك ﴾ [النور : 11] " الآية ، وأخرجا عن سعيد انه قال : " كان رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل فاستفتح الصلاة قال : سبحانك للهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم " الخ وبذلك أخذ من استعاذ كذلك ، وفي الهداية الأولى أن يقول : أستعيذ بالله ليوافق القرآن ويقرب أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اه ، والمختار ما سمعت أولا لأن لفظ ﴿ استعذ ﴾ طلب العوذ وقوله : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ ﴾ امتثال مطابق لمقتضاه .

والقرب من اللفظ مهدر ، ويكفي لأولوية ما عليه الجمهور مجيؤه في المأثور : وقال بعض أصحابنا ، ولا ينبغي أن يزيد المتعوذ السميع العليم لأنه ثناء وما بعد التعوذ محل القراءة لا محل الثناء وفيه أن هذا بعد تسليم الخبرين السابقين غير سديد على أنه ليس في ذلك اتيان بالثناء بعد التعود بل اتيان به في أثنائه كما لا يخفى ، والأمر بها للندب عندهم ، وأخرج عبد الرزاق في المصنف .

وابن المنذر عن عطاء وروي عن الثوري أنها واجبة لكل قراءة في الصلاة أو غيرها لهذه الآية فحملا الأمر فيها على الوجوب نظراً إلى أنه حقيقة فيه ، وعدم صلاحية كونها لدفع الوسوسة في القراءة صارفا عنه بل يصح شرع الوجوب معه ، وأجيب بأنه خلاف الإجماع

، ويبعد منهما أن يبتدعا قولاً خارقاً له من بعد علمهما بأن ذلك لا يجوز فالله تعالى أعلم بالصارف على قول الجمهور ، وقد يقال : هو تعليمه صلى الله عليه وسلم الاعرابي الصلاة ولم يذكرها عليه الصلاة والسلام .

(46/443)

وقد يجاب بأن تعليمه إياها بتعليمه ما هو من خصائصها وهي ليست من واجباتها بل من واجبات القراءة أو إن كونها تقال عند القراءة كان ظاهراً معهوداً فاستغنى عن ذكرها ، وفيه أنه لا يتأتى على ما ستسمع قريباً إن شاء الله تعالى من قول أبي يوسف عليه الرحمة ، وقال الخفاجي : إن حمل الأمر على الندب لما روي من ترك النبي صلى الله عليه وسلم لها ، وإذا ثبت هذا كفى صارفاً ؛ ومذهب ابن سيرين .

والنخعي وهو أحد قولي الشافعي أنها مشروعة في القراءة في كل ركعة لأن الأمر معلق على شرط فيتكرر بتكرره كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا ﴾ [المائدة : 6] وأيضاً حيث كانت مشروعة في الركعة الأولى فهي مشروعة في غيرها من الكرعات قياساً للاشتراك في العلة ، ومذهب أبي حنيفة وهو القول الآخر للشافعي أنها مشروعة في الأول فقط لأن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة ، وقيل : إنها عند الإمام أبي حنيفة للصلاة ولذا

لا تكرر ، والمذكور في الهداية وغيرها أنها عند الإمام ومحمد للقراءة دون الثناء حتى يأتي بها المسبوق دون المقتدى ، وقال أبو يوسف : انها للثناء وفي الخلاصة أنه الأصح ، وتظهر ثمرة الخلاف في ثلاثة مسائل ذكرت فيها فما ذكره صاحب القيل لم نعثر عليه في كتب الاصحاب ، ومالك لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة ويراه في غيرها كقيام رمضان ، والمروى عنه في غير الصلاة فيما سمعت من بعض مقلديه وعن أبي هريرة .

وان سيرين .

وداود .

وحمزة من القراء أن الاستعاذة عقب القراءة أخذا بظاهر الآية .

(47/443)

وللجمهور ما رواه أئمة القراءة مسنداً عن نافع عن جبير بن مطعم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل القراءة : ﴿ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ : قال في الكشف ، دل الحديث على أن التقديم هو السنة فبقي سببية القراءة لها ، والفاء في ﴿ فاستعذ ﴾ دلت على السببية فلتقدر الإرادة ليصح ، وأيضاً الفراغ عن العمل لا يناسب الاستعاذة من العدو وإنما يناسبها الشروع فيه والتوسط فلتقدر ليكونا أي القراءة والاستعاذة مسببتين

عن سبب واحد لا يكون بينهما مجرد الصحبة الاتفاقية التي تنافيها الفاء ، وإليه أشار صاحب المفتاح بقوله : بقرينة الفاء والسنة المستفيضة انتهى .

ومنه يعلم أن ما قيل من أن الفاء لا دلالة فيها على ما ذكر وأن اجماعهم على صحة هذا المجاز يدل على أن القرينة المانعة عن إرادة الحقيقة ليس بشرط فيه ليس بشيء ؛ وكذا القول بالفرق بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إلى الصلاة فاغسلوا ﴾ [المائدة : 6] الخ بأن ثمة دليلاً قائماً على المجاز فترك الظاهر له بخلاف ما نحن فيه ، والظاهر أن المراد بالشيطان ابليس وأعوانه ، وقيل : هو عام في كل متمردعات من جن وإنس ، وتوجيه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفي سائر الأعمال الصالحة أهم فإنه صلى الله عليه وسلم حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما الظن بمن عداه عليه الصلاة والسلام فيما عدا القراءة من الأعمال .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا ﴾

﴿ إِنَّهُ ﴾ الضمير للشأن أو للشيطان ﴿ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط واستيلاء عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه يفوضون أمورهم وبه يعوذون فالمراد نفي التسلط بعد الاستعاذة فتكون الجملة تعليلاً للأمر بها أو لجوابه المنوى أي أن يعذك ونحوه .

وقال البعض : المراد نفي ذلك مطلقاً ، قال أبو حيان : وهو الذي يقتضيه ظاهر الأخبار وتعقب بأنه إذا لم يكن له تسلط فلم أمروا بالاستعاذة منه .

وأجيب بأن المراد نفي ما عظم من التسلط .

وقد أخرج ابن جرير .

وغيره عن سفيان الثوري أنه قال في الآية : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم والاستعاذة من المحتقران فهم لا يطيعون أوامره ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرونه على ندور غفلة فأمروا بالاستعاذة منه لمزيد الاعتناء بحفظهم ، وقد ذهب إلى هذا البيضاوي ثم قال : فذكر السلطنة بعد الأمر بالاستعاذة لئلا يتوهم منه أن له سلطاناً .

وفي الكشف أن هذه الجملة جارية مجرى البيان للاستعاذة المأمور بها وأنه لا يكفي فيها مجرد القول الفارغ عن اللجأ إلى الله تعالى واللجأ إنما هو بالإيمان أولا والتوكل ثانياً ، وأياً ما كان فوجه ترك العطف ظاهر وايثار صيغة الماضي في الصلة الأولى للدلالة على التحقيق كما أن اختيار صيغة الاستقبال في الثانية لإفادة الاستمرار التجددي ، وفي التعرض

لوصف الربوبية تأكيد لنفي السلطان عن المؤمنين المتوكلين.

﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾

(49/443)

أي يجعلونه والياً عليهم فيحبونه ويطيعونه ويستجيبون دعوته فالمراد بالسلطان التسلط والولاية بالدعوة المستتبعة للاستجابة لا ما يعم ذلك والتسلط بالقسر والإلجاء فإن في جعل التولي صلة ﴿ مَا ﴾ يفصح بنفي أرادة التسلط القسري فإن المقسور بمعزل عنه بهذا المعنى، وقد نفى هذا أيضاً عن الكفرة في قوله تعالى حكاية عن اللعين: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم: 22] فاستجبتم لي ﴿ والذين هُم بِهِ ﴾ أي بسبب الشيطان وإغوائه إياهم ﴿ مُّشْرِكُونَ ﴾ بالله تعالى، وقيل: أي بإشراكهم الشيطان مشركون بالله تعالى، وجوز أن يكون الضمير للرب تعالى شأنه والباء للتعدية، وروي ذلك عن مجاهد ورجح الأول باتحاد الضمائر فيه مع تبادره إلى الذهن، وفي إرشاد العقل السليم ما يشعر باختيار الأخير، وذكر فيه أيضاً أن قصر سلطان اللعين على المذكورين غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أنه لا واسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وتولي الشيطان وإن كان بينهما واسطة في المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم

في سلك من يتولي الشيطان من حيث لا يحتسب إذ به يتم التعليل ، ففيه مبالغة في الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله .

وإيثار الجملة الفعلية الاستقبالية في الصلة الأولى لما مر آنفاً والاسمية في الثانية للدلالة على الثبات ، وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه .

وتقديم الأولى على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعي الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها اه ، وقيل لما كان كل من الإيمان والتولي منشأ لما بعده قدم عليه ، وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(50/443)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الاية الكريمة : أن كل عامل سواء كان ذكراً أو أنثى عمل عملاً صالحاً فإنه جل وعلا يقسم ليحيينه حياة طيبة ، وليجزينه أجره بأحسن ما كان يعمل .

اعلم أولاً - أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور :

الأول - موافقته لما جاء به النّبي صلى الله عليه وسلم . لأن الله يقول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

الثاني - أن يكون خالصاً لله تعالى . لأن الله جل وعلا يقول : ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] ، ﴿ قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ [الزمر : 14-15] .

الثالث - أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة . لأن الله يقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فقيّد ذلك بالإيمان ، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العلم الصالح .

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة ، كقوله في عمل غير المؤمن : ﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] ، وقوله : ﴿ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 16] ، وقوله : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور : 39] الآية ، وقوله : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] ، إلى غير ذلك من الآيات .

واختلف العلماء في المراد بالحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة .

فقال قومك لا تطيب الحياة إلا في الجنة، فهذه الحياة الطيبة في الجنة. لأن الحياة الدنيا لا تخلو من المصائب والأكدار، والأمراض والآلام والأحزان، ونحو ذلك وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64]. والمراد بالحيون: الحياة.

وقال بعض العلماء: الحياة الطيبة في هذها لآية الكريمة في الدنيا، وذلك بأن يوفق الله عبده إلى ما يرضيه، ويرزقه العافية والرزق الحلال. كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار ﴾ [البقرة: 201].

قال مقيدة عفا الله عنهك وفي الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة. وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ صار قوله: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تكراراً معه. لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم. بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا. فإنه يصير المعنى: فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة، ولتجزينه في الآخرة بأحسن ما كان يعملن وهو واضح.

وهذا المعنى الذي دل عليه القرآن تؤيده السنة الثابته عنه صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الاية الكريمة: والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من

أي جهة كانت .

وقد روي عن ابن عباس وجماعتك أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه فسرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ، ووهب بم منبه – إلى أن قال – وقال الضحاك : هي الرزق الحلال ، والعبادة في الدنيا . وقال الضحاك أيضاً – هي العمل بالطاعو والانشراح بها .

(52/443)

والصحيح – ان الحياة الطيبة تشمل هذا كله . كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الله ابن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني شرحبيل بن شريك ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه " ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرى به . وروى الترمذي والنسائي من حديث ابي هانيء . عن أب على الجنبي ، عن فضالة بن عبيد : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قد افلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به " وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا همام عن يحي عن قتادة عن أنس بن مالك قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً " انفرد بإخراجه مسلم اه من ابن كثير .

وهذه الأحاديث ظاهرة في ترجيح القول : بأن الحياة الطيبة في الدنيا . لأن قوله صلى الله عليه وسلم : " أفلح " يدل على ذلك لأن من نال الفلاح نال حياة طيبة . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " يعطى بها في الدنيا " يدل على ذلك أيضاً . وابن كثير إنما ساق الأحاديث المذكورة لِيُنَبِّهَ على أنها ترجح القول المذكور . والعلم عند الله تعالى .

وقد تقرر في الأصول : أنه إذا دار الكلام بين التوكيد والتاسيس رجح حمله على التأسيس : وإليه أشار في مراقي السعود جامعاً له مع نظائر يجب فيها تقديم الراجح من الاحتمالين بقوله :

كذلك ما قابل ذا اعتلال . . . من التأصل والاستقلال

ومن تأسس عموم وبقا . . . الأفراد والإطلاق مما ينتقى

كذاك ترتيب لإيجاب العمل . . . بماله الرجحان مما يحتمل

ومعنى كلام صاحب المراقي : أنه يقدم محتمل اللفظ الراجح على المحتمل المرجوحن كالتَّأصل ، فإنه يقدم على الزيادة : نحو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] يحتمل كون الكاف زائدة ، ويحمل أنها غي زائدة . فالمراد بالمثل الذات . كقول العرب : مثلك لا يفعل هذا . يعنون أنت لا ينبغي لك أن تفعل هذا فالمعنى : ليس كالله شيء .

ونظيره من إطلاق المثل وإرادة الذات ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ ﴾ [الأحقاف : 10] أي على نفس القرآن لا شيء آخر مماثل له ، وقوله : ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ [الأنعام : 122] أي كمن هو في الظلمات . وكالاستقلال فإنه يقدَّم على الإضمار . كقوله تعالى : ﴿ أَن يقتلوا أَوْ يصلبوا ﴾ [المائدة : 33] الآية . فكثير من العلماء يضمرون قيوداً غير مذكورة فيقولون : أن يقتلوا إذا قتلوا ، أو يصلبوا إذا قتلوا وأخذوا المال ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم إذا أخذوا المال ولم يقتلوا . . الخ .

(54/443)

فالمالكية يرجحون أن الإمام مخير بين المذكورات مطلقاً . لأن استقلال اللفظ أرجح من إضمار قيود غير مذكورة . لأن الأصل عدمها حتى تثبت بدليل . كما اشرنا إليه سابقاً (في المائدة) وكذلك التأسيس يقدم على التأكيد وهو محل الشاهد . كقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (في سورة الرحمن)، وقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (في المرسلات). قيل: تكرار اللفظ فيهما توكيد، وكونه تأسيساً أرجح لما ذكرنا. فتحمل الآلاء في كل موضع على ما تقدم. قبل: لفظ ذلك التكذيب فلا يتكرر منها لفظ. وكذا يقال (في سورة المرسلات) فيحمل على المكذبين بما ذكر، قيل كل لفظ الخ. فإذا علمت ذلك فاعلم – أنا إن حلمنا الحياة الطيبة في الآية على الحياة الدنيا كان ذلك تاسيساً. وإن حملناها على حياة الجنة تكرر ذلك مع قوله بعده: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ الآية. لأن حياة الجنة الطيبة هي أجرهم الذي يجزونه.

وقال أبو حيان (في البحر): والظاهر من قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ أن ذلك في الدنيا. وهو قوله الجمهور. ويد عليه قوله ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ يعني في الآخرة.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

(55/443)

أظهر القولين في هذه الآية الكريمة: أن الكلام على حذف الإرادة. اي فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله.. الآية. وليس المراد أنه إذا قرأ القرآن وفرغ من قراءته استعاذ بالله من الشيطان كما يفهم من ظاهر الآية، وذهب إليه بعض أهل العلم. والدليل على ما ذكرنا

تكرر حذف الإرادة في القرآن وفي كلام العرب لدلالة المقام عليها . كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] الآية ، اي أردتم القيام إليها كما هو ظاهر .

وقوله : ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ بالإثم والعدوان ﴾ [المجادلة : 9] الآية . اي إذا أردتم أن تتناجوا فلا تتناجوا بالإثم . لأن النهي إنما هو عن أمر مستقبل يراد فعله ، ولا يصح النهي عن فعل مضى وانقضى كما هو واضح .

وظاهر هذه الآية الكريمة : أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم واجبة عند القراءة . لأن صيغة افعل للوجوب كما تقرر في الأصول .

وقال كثير من أهل العلم : إن الأمر في الآية للندب والاستحباب ، وحكى عليه الإجماع أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة ، وظاهر الآية أيضاً : الأمر بالاستعاذة عن القراءة في الصلاة لعموم الآية . والعلم عند الله تعالى .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله ، وأن سلطانه إنما هو على أتباعه الذين يتولّنه ، والذين هو به مشركون .

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر: 42]، وقوله ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص: 82-83]، وقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 65]، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بالآخرة مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ [سبأ: 21] الآية، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم: 22].

واختلف العلماء في معنى السلطان في هذه الآيات.

فقال أكثر أهل العمل: هو الحجة، أي ليس للشيطان عليهم حجة فيما يدعوهم إليه من عبادة الأوثان.

وقال بعضهم: ليس له سلطان عليهم. أي تسلط وقدرة على أن يوقعهم في ذنب لا توبة منه. وقد قدمنا هذا. والمراد ب، ﴿ الَّذِينَ يتولونه ﴾ الذين يطيعونه الذين يطعيونه فيوالونه بالطاعة.

وأظهر الأقوال في قوله: ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 100] أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى الله. ومعنى كونهم مشركين به هو طاعتهم له في الطفر والمعاصي. كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: 60]، وقوله عن إبراهيم: ﴿ يا أبت لَا تَعْبُدِ الشيطان إِنَّ الشيطان ﴾ [

مريم : 44] إلى غير ذلك من الآيات . وأما سلطانه على الذين يتولونه فهو ما جعلوه له عل أنفسهم من الطاعة والاتباع والموالاة ، بغير موجب يستوجب ذلك .

تنبيه

(57/443)

فإن قيل : اثبت الله للشيطان سلطاناً على أوليائه في آيات . كقوله هنا ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل : 100] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] فالاستثناء يدل على أن له سلطاناً على من اتبعه من الغاوين : مع أنه نفى عنه السلطان عليهم في آيات أخر . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [سبأ : 20-21] الآية .

وقوله تعالى حاطياً عنه مقرراً له : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم : 22] .

فالجواب هو : أن اسلطان الذي أثبته له عليهم غير السلطان الذي نفاه ، وذلك من وجهين :

الأول – أن السلطان المثبت له هو سلطان إضلاله لهم بتزينه ، والسلطان المنفي هو

سلطان الحجة. فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها ، غير أَنه دعاهم فاجابوه بلا حجة ولا برهان. وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن.

الثاني – أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة ولكنهم هم الذين سلّطوه على أنفسهم بطاعاته ودخولهم في حزبه ، فلم يتسلط عليهم بقوة. لأن الله يقول: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء: 76]. وإنما تسلط عليهم بإرادتهم واختيارهم.

ذكر هذا الجواب بوجهيه العلامة ابن القيم رحمه الله. وقد بيناها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب). انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 ص﴾

(58/443)

وقال ابن عاشور:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

لما كان الوعد المتقدم بقوله تعالى: ﴿ وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [سورة النحل: 96] خاصاً بأولئك الذين نهوا عن أن يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً عُقب بتعميمه لكل من ساواهم في الثبات على الإسلام والعمل الصالح مع التبيين للأجر ، فكانت هذه الجملة بمنزلة التذييل للتي قبلها ، والبيان لما تضمّنته من مجمل الأجر.

وكلا الاعتبارين يوجب فصلها عمّا قبلها .

وقوله تعالى : ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ تبيين للعموم الذي دلّت عليه ﴿ مَن ﴾ الموصولة .

وفي هذا البيان دلالة على أن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصّصه الدين بأحد الصّنفين .

وأكّد هذا الوعدُ كما أكّد المبيّن به .

وذُكر "لنحيينّه" ليبنى عليه بيان نوع الحياة بقوله تعالى : ﴿ حياة طيبة ﴾ .

وذلك المصدر هو المقصود ، أي لنجعلنّ له حياة طيّبة .

وابتدىء الوعد بإسناد الإحياء إلى ضمير الجلالة تشريفاً له كأنه قيل : فله حياة طيبة مِنّا .

ولما كانت حياة الذّات لها مدّة معيّنة كثُر إطلاق الحياة على مدّتها ، فوصفها بالطيّب بهذا الاعتبار ، أي طيب ما يحصل فيها ، فهذا الوصف مجاز عقلي ، أي طيّباً ما فيها .

ويقارنها من الأحول العارضة للمرء في مدّة حياته ، فمن مات من المسلمين الذين عملوا صالحاً عوّضه الله عن عمله ما فاته من وعده .

ويفسّر هذا المعنى ما ورد في الصحيح عن خباب بن الأرت قال : "هاجرنا مع رسول الله نبتغي بذلك وجه الله فوجب أجرنا على الله ، فمنّا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً ، كان منهم مُصعَب بنُ عمير قتل يوم أُحد فلم يترك إلا نَمِرة كنّا إذا غطّينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غُطي بها رجلاه خرج رأسه ، ومنّا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدُبُها" .

والطِّيِّب : ما يطيب ويحسن .

وضد الطيّب : الخبيث والسيّىء .

(59/443)

وهذا وعد بخيرات الدنيَا .

وأعظمها الرضى بما قسم لهم وحسن أملهم بالعاقبة والصحّة والعافية وعزّة الإسلام في نفوسهم .

وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس ، ويعطي الله فيه عبادهُ المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم .

ومن راقب نفسه رأى شواهد هذا .

وقد عُقب بوعد جزاء الآخرة بقوله تعالى : ﴿ ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ، فاختص هذا بأجر الآخرة بالقرينة بخلاف نظيره المتقدّم آنفاً فإنه عامّ في الجزاءين .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

موقع فاء التّفريع هنا خفيّ ودقيق ، ولذلك تصدّى بعض حذّاق المفسّرين إلى البحث عنه .

فقال في "الكشاف" : "لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه وصل به قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ إيذاناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال التي يجزل عليها الثواب" أ هـ .

وهو إبداء مناسبة ضعيفة لا تقتضي تمكّن ارتباط أجزاء النظم .

وقال فخر الدين : "لما قال : ﴿ ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [سورة النحل : 97] أرشد إلى العلم الذي تَخلُص به الأعمال من الوسواس أ هـ .

وهو أمكن من كلام الكشاف .

وزاد أبو السعود : "لما كان مدار الجزاء هو حسن العمل رتّب عليه الإرشاد إلى ما به يحسن العَمل الصالح بأن يخلُص من شوب الفساد" .

وفي كلاميهما من الوهن أنه لا وجه لتخصيص الاستعاذة بإرادة قراءة القرآن .

وقول ابن عطية : "الفاء في ﴿ فإذا ﴾ واصلة بين الكلامين والعرب تستعملها في مثل هذا" ، فتكون الفاء على هذا المجرّد وصل كلام بكلام واستشهد له بالاستعمال والعهدة عليه .

وقال شرف الدين الطيبي : "قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ متّصل بالفاء بما سبق من قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ [سورة النحل : 89] .

وذلك لأنه تعالى لما منّ على النبي بإنزال كتاب جامع لصفات الكمال وأنه تبيان لكل شيء ، ونبّه على أنه تبيان لكل شيء بالكلمة الجامعة وهي قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ [سورة النحل : 90] الآية .

وعطف عليه ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ [سورة النحل : 91] ، وأكّده ذلك التأكيد ، قال بعد ذلك ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ ، أي إذا شرعت في قراءة هذا الكتاب الشريف الجامع الذي نُبهتَ على بعض ما اشتمل عليه ، ونازعك فيه الشيطان بهمزه ونفثه فاستعذ بالله منه والمقصود إرشاد الأمّة" اه .

وهذا أحسن الوجوه وقد انقدح في فكري قبل مطالعة كلامه ثم وجدته في كلامه فحمدت الله وترحّمته عليه .

وعليه فما بين جملة ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً ﴾ [النحل : 89] الخ ، وجملة ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ جملة معترضة .

والمقصود بالتفريع الشروع في التنويه بالقرآن .

وإظهار اسم ﴿ القرآن ﴾ دون أن يضمر للكتاب لأجل بعد المعاد .

والأظهر أن ﴿ قرأت ﴾ مستعمل في إرادة الفعل ، مثل قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [سورة المائدة : 6] ، وقوله : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ [

سورة الإسراء : 35] وقوله : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ [سورة المجادلة : 3] ، أي يريدون العَود إلى أزواجهم بقرينة قوله بعده ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ في سورة المجادلة (3) ، وقوله تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرّية ضعافا ﴾ في سورة النساء (9) ، أي أوشكوا أن يتركوا بعد موتهم ، وقوله ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ [سورة الأحزاب : 53] ، أي إذا أردتم أن تسألوهن ، وفي الحديث إذا بايعت فقل : لا خلابة .

وحَملهُ قليل من العلماء على الظاهر من وقوع الفعل فجعلوا إيقاع الاستعاذة بعد القراءة .

ونُسب إلى مالك في المجموعة .

والصحيح عن مالك خلافه ، ونسب إلى النخعي وابن سيرين وداود الظاهري وروي عن أبي هُريرة .

(61/443)

والباء في بالله ﴾ لتعدية فعل الاستعاذة .

يقال : عاذ بحصن ، وعاذ بالحرم .

والسين في ﴿ فاستعذ بالله ﴾ للطلب ، أي فاطلب العوذ بالله من الشيطان ، والعوذ :

اللجأ إلى ما يعصم ويقي من أمر مضرّ .

ومعنى طلب العوذ بالله محاولة العوذ به .

ولا يتصوّر ذلك في جانب الله إلا بالدعاء أن يعيذه .

ومن أحسن الامتثال محاكاة صيغة الأمر فيما هو من قبيل الأقوال بحيث لا يغيّر إلا التغيير الذي لا مناص منه فتكون محاكاة لفظ "استعذ" بما يدلّ على طلب العوذ بأن يقال : أستعيذ ، أو أعوذ ، فاختير لفظ أعوذ لأنه من صيغ الإنشاء ، ففيه إنشاء الطلب بخلاف لفظ أستعيذ فإنه أخفى في إنشاء الطلب ، على أنه اقتداء بما في الآية الأخرى ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ [سورة المؤمنون : 97] وأبقي ما عدا ذلك من ألفاظ آية الاستعاذة على حاله .

وهذا أبدع الامتثال ، فقد ورد في عمل النبي بهذا الأمر أنه كان يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يحاكي لفظ هذه الآية ولم يقل في الاستعاذة ﴿ أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ لأن ذلك في غير قراءة القرآن ، فلذلك لم يحاكه النبي صلى الله عليه وسلم في استعاذته للقراءة .

قال ابن عَطية : لم يصح عن النبي زيادة على هذا اللفظ .

وما يروى من الزيادات لم يصحّ منه شيء .

وجاء حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : "كان رسول الله إذا قام من الليل يقول

: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه الخ " .

فتلك استعاذة تعوّذ وليست الاستعاذةَ لأجل قراءة القرآن .

واسم الشيطان تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إلى شياطينهم ﴾ في سورة البقرة (14) .

والرجيم ﴾ تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ في سورة الحجر (17) .

والخطاب للنبيء والمراد عمومه لأمّته بقرينة قوله تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

(62/443)

وإنما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذاناً بنفاسة القرآن ونزاهته ، إذ هو نازل من العالم القدسي الملَكي ، فجعل افتتاح قراءته بالتجرّد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص عن نفسه إلا بأن يسأل الله تعالى أن يبعد الشيطان عنه بأن يعُوذ بالله ، لأن جانب الله قدسيّ لا تسلك الشياطين إلى من يأوي إليه ، فأرشد الله رسوله إلى سؤال ذلك ، وضمن له أن يعيذه منه ، وأن يعيذ أمّته عوذاً مناسباً ، كما شرعت التسمية في الأمور ذوات البال وكما شرعت الطهارة للصلاة .

وإنما لم تشرع لذلك كلمة (باسم الله) لأن المقام مقام تخلّ عن النقائص ، لا مقام استجلاب التيّمن والبركة ، لأن القرآن نفسه يُمن وبركة وكمال تامّ ، فالتيّمن حاصل وإنما يخشى الشيطان أن يغشى بركاته فيُدخل فيها ما ينقصها ، فإن قراءة القرآن عبارة مشتملة على النطق بألفاظه والتّفهّم لمعانيه وكلاهما معرّض لوسوسة الشيطان وسوسة تتعلّق بألفاظه مثل الإنساء ، لأن الإنساء يضيع على القارىء ما يحتوي عليه المقدار المنسي من إرشاد ، ووسوسةٌ تتعلّق بمعانيه مثل أن يخطىء فهماً أو يقلب عليه مراداً ، وذلك أشد من وسوسة الإنساء .

وهذا المعنى يلائم محمل الأمر بالاستعاذة عند الشروع في القراءة .

فأما الذين حملوا تعلّق الأمر بالاستعاذة أنها بعد الفراغ من القراءة ، فقالوا لأن القارىء كان في عبادة فربما دخله عُجب أو رياء وهما من الشيطان فأمر بالتعوّذ منه للسلامة من تسويله ذلك .

ومحمل الأمر في هذه الآية عند الجمهور على النّدب لانتفاء أمارات الإيجاب ، فإنه لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّنه .

فمن العلماء من ندبه مطلقاً في الصلاة وغيرها عند كل قراءة .

وجعل بعضُهم جميعَ قراءة الصلاة قراءة واحدة تكفي استعاذة واحدة في أوّلها ، وهو قول

جمهور هؤلاء .

ومنهم من جعل قراءة كل ركعة قراءة مستقلة .

(63/443)

ومن العلماء من جعله مندوباً للقراءة في غير الصلاة ، وهو قول مالك ، وكرهها في قراءة صلاة الفريضة وأباحها بلا ندب في قراءة صلاة النافلة .

ولعلّه رأى أن في الصلاة كفاية في الحفظ من الشيطان .

وقيل : الأمر للوجوب ، فقيل في قراءة الصلاة خاصة ونسب إلى عطاء .

وقد أطلق القرآن على قرآن الصلاة في قوله تعالى : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ [سورة الإسراء : 78] وقال : الثوري بالوجوب في قراءة الصلاة وغيرها .

وعن ابن سيرين تجب الاستعاذة عند القراءة مرّة في العمر ، وقال قوم : الوجوب خاص بالنبي والنّدب لبقية أمّته .

ومدارك هذه الأقوال ترجع إلى تأويل الفعل في قوله تعالى : قرأت ﴾ ، وتأويل الأمر في قوله تعالى : ﴿ فاستعذ ﴾ ، وتأويل القرآن مع ما حفّ بذلك من السّنة فعلاً وتركاً .

وعلى الأقوال كلها فالاستعاذة مشروعة للشروع في القراءة أو لإرادته ، وليست مشروعة

عند كلّ تلفّظ بألفاظ القرآن كالنّطق بآية أو آيات من القرآن في التعليم أو الموعظة أو شبههما ، خلافاً لما يفعله بعض المتحذّقين إذا ساق آية من القرآن في غير مقام القراءة أن يقول كقوله تعالى بعدَ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويسوق آية .

وجملة ﴿ إنه ليس له سلطان ﴾ الآية تعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان عند إرادة قراءة القرآن وبيان لصفة الاستعاذة .

فأما كونها تعليلاً فلزيادة الحثّ على الامتثال للأمر بأن الاستعاذة تمنع تسلّط الشيطان على المستعيذ لأن الله منعه من التسلّط على الذين آمنوا المتوكّلين ، والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكّل على الله لأن اللّجأ إليه توكّل عليه .

وفي الإعلام بالعلّة تنشيط للمأمور بالفعل على الامتثال إذ يصير عالماً بالحكمة وأما كونها بياناً فلما تضمّنته من ذكر التوكّل على الله ليبيّن أن الاستعاذة إعراب عن التوكّل على الله تعالى لدفع سلطان الشيْطان ليعقد المستعيذ نيّتَه على ذلك .

(64/443)

وليست الاستعاذة مجرّد قول بدون استحضار نيّة العَوذ بالله .

فجملة ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ صفة ثانية للموصول .

وقدّم المجرور على الفعل للقصر ، أي لا يتوكّلون إلا على ربّهم .

وجعل فعلها مضارعاً لإفادة تجدّد التوكّل واستمراره .

فنَفي سلطان الشيطان مشروط بالأمرين : الإيمان ، والتوكّل .

ومن هذا تفسير لقوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [سورة الحجر : 42] .

والسّلطان : مصدر بوزن الغُفران ، وهو التسلّط والتصرّف المكين .

فالمعنى أن الإيمان مبدأ أصيل لتوهين سلطان الشيطان في نفس المؤمن فإذا انضمّ إليه التوكّل على الله اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكّل .

وجملة إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن مضمون الجملة قبلها يثير سؤال سائل يقول : فسلطانه على من ؟ .

والقصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ قصر إضافي بقرينة المقابلة ، أي دون الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون ، فحصل به تأكيد جملة ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ لزيادة الاهتمام بتقرير مضمونها ، فلا يفهم من القصر أنه لا سلطان له على غير هذين الفريقين وهم المؤمنون الذين أهملوا التوكّل والذين انخدعوا لبعض وسوسة الشيطان .

ومعنى ﴿ يتولونه ﴾ يتّخذونه ولياً لهم ، وهم الملازمون للمِلل المؤسّسة على ما يخالف الهدي الإلهي عن رغْبة فيها وابتهاج بها .

ولا شكّ أن الذين يتولّونه فريق غير المشركين لأن العطف يقتضي بظاهره المغايرة ، وهم أصناف كثيرة من أهل الكتاب .

وإعادة اسم الموصول في قوله : ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ لأن ولايتهم للشيطان أقوى .

وعبّر بالمضارع للدّلالة على تجدّد التولّي ، أي الذين يجدّدون تولّيه ، للتّنبيه على أنهم كلما تولّوه بالميل إلى طاعته تمكّن منهم سلطانه ، وأنه إذا انقطع التولّي بالإقلاع أو بالتوبة انسلخ سلطانه عليهم .

(65/443)

وإنما عطف ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ دون إعادة اسم الموصول للإشارة إلى أن الوصفين كصلة واحدة لموصول واحد لأن المقصود اجتماع الصّلتين .

والباء في ﴿ به مشركون ﴾ للسببية ، والضمير المجرور عائد إلى الشيطان ، أي صاروا مشركين بسببه .

وليست هي كالباء في قوله تعالى : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ﴾ [سورة الأعراف : 33] .

وجعلت الصّلة جملة اسمية لدلالتها على الدّوام والثّبات ، لأن الإشراك صفة مستمرّة لأن

قرارها القلب ، بخلاف المعاصي لأن مظاهرها الجوارح ، للإشارة إلى أن سلطان الشيطان على المشركين أشدّ وأدوم لأن سببه ثابت ودائم .

وتقديم المجرور في به مشركون ﴾ لإفادة الحصر ، أي ما أشركوا إلا بسببه ، ردّاً عليهم إذ يقولون ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ [سورة الأنعام : 148] وقولهم : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ [سورة النحل : 35] وقولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ [سورة الأعراف : 28] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(66/443)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

الحق تبارك وتعالى يُعطينا قضية عامة ، هي قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرجال ، وليس للمرأة تدخُّل في إعطاء العهود ، حتى إنها لما دخلتْ في عهد مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم بيعة العقبة جعل واحداً من الصحابة يبايع النساء نيابة عنه .

إذن : المرأة بعيدة عن هذا المعترك نظراً لأن هذا من خصائص الرجال عادةً ، أراد سبحانه أن يقول لنا : نحن لا نمنع أن يكونَ للأنثى عملٌ صالح .

ولا تظنّ أن المسألة منسحبة على الرجال دون النساء ، فالعمل الصالح مقبول من الذكر والأنثى على حدٍّ سواء ، شريطة أنْ يتوفّر له الإيمان ، ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . . ﴾ [النحل : 97] .

وبذلك يكون العمل له جَدْوى ويكون مقبولاً عند الله ؛ ولذلك نرى كثيراً من الناس الذين يُقدِّمون أعمالاً صالحة ، ويخدمون البشرية بالاختراعات والاكتشافات ، ويداوون المرضى ، ويبنون المستشفيات والمدارس ، ولكن لا يتوفر لهم شرط الإيمان بالله .

فنرى الحق تبارك وتعالى لا يبخس هؤلاء حقهم ، ولكن يُعجّله لهم في الدنيا ؛ لأنه لا حَظَّ لهم في أجر الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] .

وهذا كله خاصٌّ بأمور الدنيا ، فالذي يحسن شيئاً ينال ثمرته ، لكن في جزاء الآخرة تقول لهؤلاء : لا حَظَّ لكم اليوم ، وخذوا أجركم مِمَّنْ عملتم له فقد عملتُم الخير للإنسانية للشهرة وخلود الذكْر ، وقد أخذتم ذلك في الدنيا فقد خَلَّدوا ذِكْراكم ، ورفعوا شأنكم ، وصنعوا لكم التماثيل ، ولم يبخسوكم حَقَّكم في الشُّهْرة والتكريم .

ويوم القيامة يواجههم الحق سبحانه وتعالى : فعلتم ليقال . . وقد قيل ، فاذهبوا وخذوا ممَّنْ عملتم لهم .

هؤلاء الذين قال الله في حقهم : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39] .

يُفاجأ يوم القيامة أن له إلهاً كان ينبغي أنْ يؤمن به ويعمل ابتغاء وجهه ومرضاته .

إذن : فالإيمان شَرْطٌ لقبول العمل الصالح ، فإذا ما توفر الإيمان فقد استوى الذّكَر والأنثى في الثواب والجزاء .

يقول تعالى :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً . . ﴾ [النحل : 97] .

هذه هي النتيجة الطبيعة للعمل الصالح الذي يبتغي صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظين من الجزاء ، حظاً في الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة ، وحظاً في الآخرة :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

الاستعاذة : اللجوء والاعتصام بالله من شيء تخافُه ، فأنت لا تلجأ ولا تعتصم ، ولا تستجير ولا تستنجد إلا إذا استشعرتَ في نفسك أنك ضعيف عن مقاومة عدوك .

(68/443)

فإذا كان عدوك الشيطان بما جعل الله له من قوة وسلطان ، وما له من مداخل للنفس البشرية فلا حَوْلَ لك ولا قُوّة في مقاومته إلا أنْ تلجأ إلى الله القوي الذي خلقك وخلق هذا الشيطان ، وهو القادر وحده على رَدّه عنك ؛ لأن الشيطان في معركة مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة .

وقد أقسم الشيطان للحق تبارك وتعالى ، فقال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82-83] .

فما عليك إلا أن تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أنْ ترتمي في حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوي القادر على أنْ يدفعَ عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك ، فلا

تقاومه بقوتك أنت ؛ لأنه لا طاقة لك به ، ولا تدعه ينفرد بك ؛ لأنه إن انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغلبة .

ولذلك نقول دائماً : لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله ، أي : لا حول : لا تحوُّل عن المعصية . ولا قوة . أي : على الطاعة إلا بالله .

ونحن نرى الصبي الصغير الذي يسير في الشارع مثلاً قد يتعرَّض لمَنْ يعتدي عليه من أمثاله من الصبية ، أما إذا كان في صُحْبة والده فلا يجرؤ أحد منهم أنْ يتعرضَ له ، فما بالك بمَنْ يسير في صُحْبة ربه تبارك وتعالى ، ويُلْقي بنفسه في حماية الله سبحانه ؟ !

وفي مقام الاستعاذة بالله نذكر قاعدة إيمانية علَّمنا إياها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف : " من استعاذ بالله فأعيذوه " .

فيلزم المؤمن أنْ يعيذ من استعاذ بالله ، وإنْ كان في أحب الأشياء إليه ، " والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا القدوة في ذلك ، حينما تزوج من فتاة على قدر كبير من الحسن والجمال لدرجة أن نساءه غِرْنَ منها ، وأخذْنَ في الكَيْد لها وزحزحتها من أمامهن حتى لا تغلبهن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن كيف لهُنَّ ذلك ؟

حاولْنَ استغلال أن هذه الفتاة ما تزال صغيرة غِرة ، تتمتع بسلامة النية وصفاء السريرة ، ليس لديها من تجارب الحياة ما تتعلم منه لؤْماً أو مكْراً ، وهي أيضاً ما تزال في نشوة فرحتها بأنْ أصبحت أماً للمؤمنين ، وتحرص كل الحرص على إرضاء النبي صلى الله عليه وسلم فاستغل نساء النبي صلى الله عليه وسلم هذا كله ، وقالت لهن إحداهن : إذا دخلتِ على رسول الله فقولي له : أعوذ بالله منك ، فإنه يحب هذه الكلمة .

أخذت الفتاة هذه الكلمة بما لديها من سلامة النية ، ومحبة لرسول الله ، وحرص على إرضائه ، وقالت له : أعوذ بالله منك ، وهي لا تدري معنى هذه العبارة فقال صلى الله عليه وسلم : " لقد عُذْت بمعاذ ، الحقي بأهلك " .

أي : ما دُمْت استعذت بالله فأنا قبلت هذه الاستعاذة ؛ لأنكِ استعذت بمعاذ أي : بمن يجب علينا أن نتركك من أجله ، ثم طلقها النبي صلى الله عليه وسلم امتثالاً لهذه الاستعاذة .

إذن : مَن استعاذ بالله لا بُدَّ للمؤمن أنْ يُعيذه ، ومن استجار بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يكون جندياً من جنود الله ، ويجيره حتى يبلغ مأمنه .

وفي الآية الكريمة أسلوب شرط ، اقترن جوابه بالفاء في قوله تعالى :

﴿ فاستعذ . . . ﴾ [النحل : 98] .

فإذا رأيت الفاء فاعلم أن ما بعدها مترتبٌ على ما قبلها ، كما لو قُلْتَ : إذا قابلت محمداً

فقُلْ له كذا . . فلا يتم القول إلا بعد المقابلة . أما في الآية الكريمة فالمراد : إذا أردت قراءة القرآن فاستعِذْ ؛ لأن الاستعاذة هنا تكون سابقة على القراءة ، كما جاء في قَول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ . . ﴾ [المائدة : 6] .

فالمعنى : إذا أردتُمْ إقامة الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وكذلك إذا أردتَ قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأن القرآن كلام الله .

(70/443)

ولو آمنّا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتكلم لعلمنا أن قراءة القرآن تختلف عن أي قراءة أخرى ، فأنت كي تقرأ القرآن تقوم بعمليات متعددة :

أولها : استحضار قداسة المُنْزِل سبحانه الذي آمنتَ به وأقبلتَ على كلامه .

ثانيها : استحضار صدق الرسول في بلاغ القرآن المنزّل عليه .

ثالثها : استحضار عظمة القرآن الكريم ، بما فيه من أوجه الإعجاز ، وما يحويه من الآداب والأحكام .

إذن : لديك ثلاث عمليات تستعد بها لقراءة كلام الله في قرآنه الكريم ، وكل منها عمل صالح

لن يدعكَ الشيطانُ تؤديه دون أنْ يتعرّضَ لك ، ويُوسوس لك ، ويصرفك عما أنت مُقبِلٌ عليه .

وساعتها لن تستطيع منعه إلا إذا استعنت عليه بالله ، واستعذتَ منه بالله ، وبذلك تكون في معية الله منزل القرآن سبحانه وتعالى ، وفي رحاب عظمة المنزل عليه محمد صدقاً ، ومع استقبال ما في القرآن من إعجاز وآداب وأحكام .

ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن .

ومع ذلك لا مانع من حَمْل المعنى على الاستعاذة أيضاً بعد قراءة القرآن ، فيكون المراد : إذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله . . أي : بعد القراءة ؛ لأنك بعد أن قرأتَ كتاب الله خرجتَ منه بزاد إيماني وتجلّيات ربانية ، وتعرّضْتَ لآداب وأحكام طُلبت منك ، فعليك إذن أن تستعيذ بالله من الشيطان أن يفسِد عليك هذا الزاد وتلك التجليات أو يصرفك عن أداء هذه الآداب والأحكام .

وقوله تعالى :

﴿ مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] .

أي : الملعون المطرود من رحمة الله ؛ لأن الشيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أنْ نُجرّبه لنعرف طبيعته وكيفية التعامل معه ، بل له معنا سوابق عداء منذ أبينا آدم عليه السلام .

وقد حذر الله تعالى آدم منه فقال: ﴿ يَاآدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ . . ﴾ [طه: 117].

(71/443)

وسبق أنْ رُجم ولُعِن وأُبعِد من رحمة الله، فقد هددنا بقوله: ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ . . ﴾ [الإسراء: 62].

إذن: هناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خُلِق الإنسان، وإلى قيام الساعة.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) ﴾

لحكمة أرادها الخالق سبحانه أنْ جعل للشيطان سلطاناً. أي: تسلطاً.

وكلمة (السلطان) مأخوذة من السَّليط، وهو الزيت الذي كانوا يُوقِدون به السُّرُج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء، فكانوا يضعون هذا الزيت في إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة، وعندما توقد تمتصّ من هذا الزيت وتُضيء؛ ولذلك سُمّيتْ الحجة سُلْطاناً؛ لأنها تنير لصاحبها وَجْه الحق.

والسلطان، إما سلطان حجة تقنعك بالفعل، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به. وإما سلطان

قَهْر وغلبة يجبرك على الفعل ويحملك عليه قَهْراً دون اقتناع به .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التي تُضيء لك وتُوضّح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التي تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع وإنْ لم ترها .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيّاً من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة والإقناع ، ولا قوة القهر .

وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى على لسان الشيطان يوم القيامة : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22] .

(72/443)

هذا حوار يدور يوم القيامة بعد أن انتهتْ المسألة وتكشفتْ الحقيقة ، وجاء وقت المصارحة والمواجهة . يقول الشيطان لأوليائه مُتنصلاً من المسئولية : ما كان عندي من سلطان عليكم ، لا سلطان حجة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضاً ، ولا سلطان قَهْر أجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فأتيتموني طائعين . ﴿ مَّآ أَنَاْ

بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . ﴾ [إبراهيم : 22] .

أي : نحن في الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتي ؛ لأن الصُّراخ يكون من شخص وقع في ضائقة أو شدة لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عالٍ لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلِّصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أي : أزالوا سبب صُرَاخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالة سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صُرَاخي .

وكذلك في حوار آخر دار بين أهل الباطل الذين تكاتفوا عليه في الدنيا ، وها هي المواجهة يوم القيامة : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين * قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ [الصافات : 24-30] .

والمراد بقوله : (عَنِ اليَمِينِ) أن الإنسان يزاول أعماله بكلتا يديه ، لكن اليد اليمنى هي العُمْدة في العمل ، فأتيته عن اليمين أي : من ناحية اليد الفاعلة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ [الصافات : 30] .

أي : في انتظار إشارة منّا ، مجرد إشارة ، فسارعتم ووقعتم فيما وقعتُم فيه .

فعلى مَنْ يكون تسلط الشيطان وتلك الغلبة والقهر ؟

(73/443)

يُوضّح الحق تبارك وتعالى أن تسلّط الشيطان لا يقع على مَنْ آمن به رباً ، ولجأ إليه واعتصم به ، وما دُمْتَ آمنتَ بالله فأنت في مَعيّته وحِفْظه ، ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق لله تعالى أنْ يتسلط عليك أو يغلبك .

إذن : الحصن الذي يقينا كيْدَ الشيطان هو الإيمان بالله والتوكّل عليه سبحانه .

فعلى مَنْ إذن يتسلّط الشيطان ؟

يُوضّح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ . . . ﴾ .

معنى يتولونه : أي يتخذونه وَلِيّاً يطيعون أمره ، ويخضعون لوسوسته ، ويتبعون خطواته :

﴿ الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 100] .

أي : مشركون بالله ، أو يكون المعنى : وهُمْ به أي بسببه أشركوا ؛ لأنه أصبح له أوامر ونواه وهم يطيعونه ، وهذه هي العبادة بعينها ، فكأنهم عبدوه من دون الله بما قدّموه من طاعته في أمره ونَهْيه .

وقد سَمَّى الله طريقة الشيطان في الإضلال والغواية وَسْوسةً ، والوسوسة في الحقيقة هي صَوْت الحُليّ حينما يتحرك في أيدي النساء ، فيُحدِث صوتاً رقيقاً فيه جاذبية وإغراء تهيج له النفس ، وكذلك الشيطان يدخل إليك عن طريق الإغراء والتزيين ، فإذا ما هاجتْ عليك نفسُك وحدّثتْك بالمعصية تركك لها ، فعند هذه النقطة تنتهي مُهمته .

ولكن ، هل النفس لا تفعل المعصية إلا بوسوسة الشيطان ؟

قالوا : لا ، فالنفس والمراد هنا النفس الأمّارة بالسوء قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشيطان ، وقد يُوسْوِسُ الشيطان لها ، وينزغها نَزغاً ويُؤلّبها ، ويُزيّن لها معصية ما كانت على بالها .

فكيف إذن يُفرّق بين هاتين المعصيتين ؟

النفس حينما ترغب في معصية أو شهوة تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، وإذا قاومتَ نفسك ، وحاولتَ صَرْفها عن هذه الشهوة ألَحّتْ عليك بها ، وطلبتها بعينها ، فشهوة النفس إذن ثابتة ؛ لأنها تشتهي شيئاً واحداً تُلح عليه .

ولكن حينما يُوسوِسُ الشيطان لك بشهوة فوجد منك مقاومة وقدرة على مجابهته صرف نظرك إلى أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً بأيِّ شكل من الأشكال ، فتراه يُزيِّن لك معصية أخرى وأخرى ، إلى أنْ ينال منك ما يريد .

ومن ذلك ما نراه في الرشوة مثلاً والعياذ بالله فإنْ رفضتَ رشوة المال زيَّن لك رشوة الهدية ، وإنْ رفضتَ رشوة الهدية زيَّنَ لك الرشوة بقضاء مصلحة مقابلة .

وهكذا يظل هذا اللعين وراءك حتى يصل إلى نقطة ضَعْف فيك ، إذن : فهو ليس كالنفس يقف بك عند شهوة واحدة ، ولكنه يريد أن يُوقِع بك على أيِّ صورة من الصور .

ولكي نقفَ على مداخل الشيطان ونكون منه على حَذر يجب أنْ نعلم أن الشيطان على علم كبير وصل به إلى صفوف الملائكة ، بل سَمَّوه " طاووس الملائكة " ، ويمكن أن نقف على شيء من علم الشيطان في دِقّة قَسَمه ، حينما أقسم للحق تبارك وتعالى أن يُغوي بني آدم ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82-83] .

هكذا عرف الشيطان أنْ يُقسِم القسَم المناسب ، فلم يَقُلْ : بقوتي ولا بحجتي سأغوي الخَلْق ، بل عرف لله تعالى صفة العزة ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلب ؛ لذلك ترك لخَلْقه حرية الإيمان به ، فقال : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

فالمعنى : فبعزتك عن خَلْقك : يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، سوف أدخل من هذا

الباب لإغواء البشر ، ولكني لا أجرؤ على الاقتراب ممَّنْ اخترتَهم واصطفيتَهم ، لن أتعرَّضَ لعبادك المخلصين ، ولا دَخْلَ لي بهم ، ولا سلطان لي عليهم .

(75/443)

كذلك يجب أن نعلم أن الشيطان دقيق في تخطيطه ، وهذا من مداخله وتلبيسه الذي يدعونا إلى الحذر من هذا اللعين . فالشيطان لا حاجة له في أن يذهب إلى الخمارات مثلاً ، فقد كفاه أهلُها مشقة الوَسْوسة ، ووفّروا عليه المجهود ، هؤلاء هم أولياؤه وأحبابه ومُريحوه بما هم عليه من معصية الله ، ولكنه في حاجة إلى أن يكون في المساجد ليُفسِد على أهل الطاعة طاعتهم .

وقد أوضح هذه القضية وفطن إليها الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان ، وكان مشهوراً بالفِطْنة ، وعلى دراية بمداخل الشيطان وتلبيسه ، وكل هذا جعل له باعاً طويلاً في الإفتاء ، وقد عرض عليه أحدهم هذه المسألة :

قال : يا إمام كان لديّ مال دفنته في مكان كذا ، وجعلتُ عليه علامة ، فجاء السَّيْل وطمس هذه العلامة ، فلم أَهتدِ إليه ، فماذا أفعل ؟

فتبسَّم أبو حنيفة وقال : يا بُني ليس في هذا علم ، ففي أيّ باب من أبواب الفقه سيجد أبو

حنيفة هذه القضية ؟ ! ولكني سأحتال لك .

وفعلاً تفتقتْ قريحة الإمام عن هذه الحيلة التي تدل على عِلْمه وفقهه ، قال له : إذا جئتَ في الليل فتوضّأ ، وقُمْ بين يدي ربّك مُتهجّداً . وفي الصباح أخبرني خبرك .

وفي صلاة الفجر قابله الرجل مُبتسِماً . يقول : لقد وجدتُ المال ، فقال : كيف ؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يديْ ربي في الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدت مالي ، فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعَك تُتِم ليلتك مع ربك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(76/443)

فائدة

قال ابن القيم :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ .

فإن قيل فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيا عنه مقررا له ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا

كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين أحدهما أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه اياهم كيف أراد بتمكينهم اياه من ذلك بطاعته وموالاته والسلطان الذى نفاه سلطان الحجة فلم يكن لابليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان الثانى أن الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة ولكن هم سلطوه على انفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه فلم يتسلط عليهم بقوته فإن كيده ضعيف وانما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه. انتهى انتهى. اهـ

﴿ عدة الصابرين صـ 26 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الشيطان له سلطان على أوليائه, و نظيرها الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ .

وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على نفي سلطانه عليهم كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ الآية, وقوله تعالى حاكيا عنه مقررا له: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ الآية .

والجواب: هو أن السلطان الذي أثبته له عليهم غير السلطان الذي نفاه ؛ وذلك من وجهين:

الأول: أن السلطان المثبت له هو سلطان إضلاله لهم بتزيينه, والسلطان المنفي هو سلطان الحجة, فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان, وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن .

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة, ولكنهم هم الذين سلّطوه على أنفسهم بطاعته, ودخولهم في حزبه فلم يتسلط عليهم بقوة ؛ لأن الله يقول: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

ضَعِيفاً ﴾ , وإنما تسلّط عليهم بإرادتهم واختيارهم, ذكر هذا الجواب بوجهيه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 176.175 ﴾

(78/443)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه سئل عن هذه الآية ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال : الحياة الطيبة ، الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا . وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال : الحياة الطيبة ، الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا ، وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلنحييه حياة طيبة ﴾ قال :

يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ويلبس حلالاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ حياة طيبة ﴾ قال : الكسب الطيب والعمل الصالح .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ حياة طيبة ﴾ قال : السعادة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال : القنوع . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : " اللهم قنّعني بما رزقتني وبارك لي فيه ، واخلف على كل غائبة لي بخير " .

وأخرج وكيع في الغرر ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال : القناعة .

وأخرج وكيع عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القناعة مال لا ينفد " .

وأخرج مسلم عن ابن عمرو ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه " .

وأخرج الترمذي والنسائي عن فضالة بن عبيد ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قد أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به " .

وأخرج وكيع في الغرر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القناعة مال لا ينفد " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ حياة طيبة ﴾ قال : ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ قال : هذا دليل من الله دل عليه عباده .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر ، عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة في الصلاة أو غيرها ، من أجل قوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في سننه ، عن جبير بن مطعم : " أن النبي لما دخل في الصلاة كبر ثم قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه ، أنه كان يتعوذ يقول : أعوذ بالله من

الشيطان الرجيم .

وأخرج أبو داود والبيهقي ، عن أبي سعيد قال : "كان رسول الله إذا قام من الليل فاستفتح الصلاة قال : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا غيرك ، ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم " .

وأخرج أبو داود والبيهقي ، عن عائشة رضي الله عنها في ذكر الإفك قالت : " جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكشف عن وجهه وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم . . . ﴾ [النور : 11] الآيات " .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) ﴾

(80/443)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن سفيان الثوري في قوله : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ قال : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في قوله ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ قال : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ قال : حجته على الذين يتولونه ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ قال : يعدلونه برب العالمين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ يقول : سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في الآية قال : إن عدو الله إبليس حين غلبت عليه الشقاوة قال : ﴿ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [ص : 82-83] فهؤلاء الذين لم يجعل للشيطان عليهم سبيل ، وإنما سلطانه على قوم اتخذوه ولياً فأشركوه في أعمالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(81/443)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّن ذَكَرٍ ﴾ : " مِنْ " للبيان فتتعلقُ بمحذوفٍ ، أي : أَعْنِي مِنْ ذَكَر . ويجوزُ

أن يكونَ حالاً مِنْ فاعل " عَمِل " .

قوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ جملةٌ حاليةٌ أيضاً .

قوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ راعى معنى " مَنْ " فَجَمع الضميرَ بعد أن راعَى لفظَهَا فَأَفْرَدَ في " فَلَنُحْيِيَنَّهُ " وما قبله ، وقرأ العامَّةُ " وَلَجْزِيَنَّهم " بنونِ العظمةِ مراعاةً لما قبله . وقرأ ابنُ عامر في روايةٍ بياء الغيبة ، وهذا ينبغي أن يكونَ على إضمارِ قَسَمٍ ثانٍ ، فيكونَ من عطفِ جملةٍ قَسَميةٍ على قَسَميةٍ مثلِها ، حُذِفتا وبقي جوابا ها .

ولا جائزٌ أن يكونَ مِنْ عطفِ جوابٍ على جوابٍ لإِفضائِه إلى أخبارِ المتكلم عن نفسِه بإخبارِ الغائب ، وهو لا يجوزُ . لو قلت : " زيد قال : واللهِ لأَضْرِبَنَّ هنداً ولَيَنفيَنَّها " تريد : ولَيَنفيَنَّها زيدٌ ، لم يَجُزْ . فإن أَضْمَرْت قسماً آخرَ جاز ، أي : وقال : والله لينفيَنَّها ؛ لأنَّ لك في مثلِ هذا التركيبِ أن تحكيَ لفظه ، ومنه ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ [التوبة : 107] وأن تحكيَ معناه ، ومنه ﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾ [التوبة : 74] ولو جاء على اللفظِ لقيل : ما قلنا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ﴾ أي : فإذا أَرَدْتَ ، فأضمرتَ الإِرادةَ . قال الزمخشري : " لأنَّ الفعلَ يوجد عند القصدِ والإِرادةِ من غير فاصلٍ وعلى حسبه ، فكان منه بسببٍ قوي وملابسةٍ ظاهرة " . وقال ابن عطية : " ف " إذا " وَصْلَةٌ بين الكلامين ، والعربُ تستعملها في مثل هذا ، وتقدير الآية : فإذا أَخَذْتَ في قراءةِ القرآن فاسْتَعِذْ " . قلت : وهذا هو مذهبُ الجمهورِ من القُرَّاء والعلماء ، وقد أخذ بظاهرِ الآية ، فاستعاذ بعد أن قرأ ، من الصحابة أبو هريرة ، ومن الأئمة مالك وابن سيرين ، ومن القرَّاء حمزة .

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ : يجوز أن يعودَ الضميرُ على الشيطانِ ، وهو الظاهرُ ؛ لتتحدَ الضمائرُ . والمعنى : والذين هم مشركون بسببه . وقيل : والذين هم بإشراكهم إبليس مشركون باللهِ . ويجوز أن يعودَ على " ربهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 284.286 ﴾

(83/443)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97) ﴾

الصالح ما يصلح للقبول، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به. وقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً ﴾ : في الحال، ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ : في المآل؛ فصفاءُ الحالِ يستوجِبُ وفاءَ المآلِ، والعملُ الصالحُ لا يكون من غير إيمان، ولذا قال: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

ويقال ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي مصدِّقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح. ويقال ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي مصدِّقٌ بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه. قوله: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ : الفاء للتعقيب، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ. . . ﴾ الواو للعطف ففي الأولى مُعَجَّل، وفي الثانية مؤجَّل، ثم ما تلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق، وإنما يعرف ذلك بالذوق؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة، وقوم قالوا إنه القناعة، وقوم قالوا إنه الرضا، وقوم قالوا إنه النجوى، وقوم قالوا إنه نسيم القرب. . . والكل صحيحٌ ولكلِّ واحدٍ أهل.

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

نحن في أكمل السرور ولكنْ. . . ليس إلا بكم يَتِمُّ السرورُ

عَيْبُ ما نحن فيه يا أهلَ ودِّي. . . أنكم غُيَّبٌ ونحن حُضورُ

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجةٌ ولا سؤالٌ ولا أَرَبٌ ولا مُطَالَبَةٌ وفرقٌ بين من

له إرادة فتُرْفَع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً ، الأولون قائمون بشرط العبودية ، والآخرون مُعْتَقُون بشرط الحرية .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) ﴾

(84/443)

شيطانُ كُلِّ واحدٍ ما يشغله عن ربه ، فمن تَسَلَّطَتْ عليه نَفْسُه حتى شَغَلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعةٍ أو استحلاءِ عبادة أو ملاحظةِ حال - فذلك شيطانُه . والواجبُ عليه أن يستعيذَ بالله من شرِّ نَفْسِه ، وشرِّ كل ذي شر .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) ﴾

أَنَّى يكون للشيطانِ سلطانٌ على العبد والحقُّ - سبحانه - متفرِّدٌ بالإبداع ، متوحِّدٌ بالاختراع ؟

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) ﴾

إنما سلطانُه على الذين هم في غطاء غفلتهم ، وستر ظنونهم ومشتبهاتهم . فأمَّا أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثاتِ بالله ظهورُها ، ومن اللَّهِ ابتداؤها ، وإلى الله مآلها وانتهاؤها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 319 . 321 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) ﴾

التفسير : لما بين من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وأن أكثرهم كافرون أتبعه أصناف وعيد يوم القيامة والتقدير ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾ أو يوم وقعوا فيما وقعوا فيه . وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق والكفر والتكذيب ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أي في الاعتذار إذ لا حجة لهم ولا عذر ، أو في كثرة الكلام ، أو في الرجوع إلى دار الدنيا ، أو إلى التكليف ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى ، أو المراد أن يسكت أهل الجمع كلهم حتى يشهد الشهود . ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ لأن العتاب إنما بطلب لأجل العود إلى الرضا ، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب فلهذا قيل :

إذا ذهب العتاب فليس ود . . . ويبقى الود ما بقي العتاب

وقال في الكشاف : أي لا يقال لهم أرضوا ربكم لأن الآخرة ليست بدار عمل . ومعنى " ثم " أن المنع من الكلام أصعب من شهادة الأنبياء عليهم . ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ العذاب ﴾ بعينهم وثقل عليهم ﴿ فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ ليتوبوا فإن التوبة هناك غير موجودة أو غير مقبولة وفيه أنت عذابهم خالص عن النفع دائم كما يقوله المتكلمون . ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ وهي الأصنام أو الشياطين الذين دعوا الكفار إلى الكفر وكانوا قرناءهم في الغي . قاله الحسن . ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا ﴾ أي نعبدهم من دونك . قال أبو مسلم الأصبهاني : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على تلك الأصنام ظناً منهم أن ذلك ينجيهم من عذاب الله أو ينقص منه ، وزيفه القاضي بأن الكفار يعلمون في الآخرة علماً ضرورياً أن العذاب ينزل بهم ولا نصرة ولا شفاعة فما الفائدة في هذا القول ؟ والإنصاف أن الغريق يتعلق بكل شيء والمبهوت قد يقول ما لا فائدة فيه ، على أن العلم الضروري الذي ادعاه القاضي ممنوع .

وقيل : إن المشركين يقولون هذا الكلام تعجباً من حضور تلك الأصنام مع أنه لا ذنب لها واعترافاً بأنهم كانوا خاطئين في عبادتها . ﴿ فألقوا إليهم القول ﴾ أي قال الأصنام أو الشياطين للكفار ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ فإن قيل : إن المشركين أشاروا إلى الأصنام أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوهم من دونك وقد كانوا صادقين في ذلك فكيف كذبتهم الأصنام ؟ فالجواب أن المراد من قولهم : ﴿ هؤلاء شركاؤنا ﴾ هؤلاء شركاء الله في المعبودية فكذبتهم الأصنام في إثبات هذه الشركة وفي قولهم إنها تستحق العبادة . قال جار الله : إن أراد بالشركاء الشياطين جاز أن يكونوا كاذبين في قوله : ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ كما يقول الشيطان ﴿ إني كفرت بما أشركتموني من قبل ﴾ [إبراهيم : 22] . ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ عن الكلبي : استسلم العابد والمعبود وأقروا لله الربوبية والبراءة من الشركاء والأنداد . وقال آخرون : الضمير للذين ظلموا . وإلقاء السلم والاستسلام لأمر الله بعد الإباء في الدنيا ﴿ وضل ﴾ أي غاب ﴿ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من أن لله شريكاً أو أن آلهتهم تشفع لهم حين كذبوهم وتبرأوا منهم .

﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ قيل : معناه الصد عن المسجد الحرام والأصح العموم ﴿ زدناهم عذاباً ﴾ لأجل الإضلال . ﴿ فوق العذاب ﴾ الذي استحقوه للضلال . وأيضاً عذاب الاستنان " من سن سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها " . ومن المفسرين من فصل تلك الزيادة ؛ فعن ابن عباس : هي خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ، ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار . وقيل : حيات أمثال البخت وعقارب أشباه البغال أنيابها كالنخل الطوال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفاً . وقيل : يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار . ثم علل زيادة عذابهم بكونهم مفسدين أمور الناس بالصد والإضلال فيعلم منه أن من دعا إلى الدين القويم باليد واللسان فإنه يزيده الله تعالى أجراً على أجر . ثم أعاد حكاية بعث الشهداء لما نيط بها من زيادة فائدتين : إحداهما كون الشهداء من أنفسهم لأن كل نبي فهو من جنس أمته ، والأخرى أن الشهيد يكون وقتئذ في الأمة لا مفارقاً إياهم . وفسر الأصم الشهيد في هذه الآية بأنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الإنسان حتى تشهد عليه وهن : الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان . ولهذا ذكر لفظة " في " ووصف الشيهد بكونه من أنفسهم . ثم شرف نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ أي على أمتك . . ولا ريب أن في تخصيصه بعد التعميم

دلالة على فضله نظيره قوله في سورة النساء : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾

(89/443)

[النساء : 41] قال الإمام فخر الدين الرازي . الأمة عبارة عن القرن والجماعة فيعلم من الآية أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم ويكونون شهداء على غيرهم وهم أهل الحل والعقد فيكون إجماعهم حجة . ولقائل أن يقول : الأمة في الآية هي الجماعة الذين بعث النبي إليهم وإلى من سيوجد منهم إلى آخر زمان دينه ، فيكون نبي تلك الأمة وحده شهيداً عليهم . ولا دلالة للآية إلا على هذا القدر فمن أين حل لك أن إجماع أهل الحل والعقد في كل عصر حجة ؟ ثم بين أنه أزاح علتهم فيما كلفوا فيه فلا حجة لهم ولا معذرة فقال : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ أي بياناً له والتاء للمبالغة ونظيره من المصادر " التلقاء " ولم يأت غيرهما وقد مر في " الأعراف " . قال الفقهاء . إنما كان القرآن بيان جميع الأحكام لأن الأحكام المستنبطة من السنة والإجماع والقياس والاجتهاد كلها تستند إلى الكتاب حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته ، وورد فيه : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ [النساء : 115] وجاء ﴿ فاعتبروا ﴾ [الحشر

: 2] .

وقال آخرون : إن علم أصول الدين كلها في القرآن . وأما علم الفروع فالأصل براءة الذمة إلا ما ورد به نص القرآن فإذن القرآن وافٍ ببيان جميع الأحكام ، والقياس ضائع ولعل التبيان إنما هو للعلماء خاصة ، والهدى لجميع الخلق في أوّل أحوالهم ، والرحمة في وسطها وهو مدة العمر بعد الإسلام ، والبشرى في أوان الأجل كما قال سبحانه : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ [فصلت : 30] إلى قوله : ﴿ وأبشروا ﴾ [فصلت : 30] والله أعلم بمراده .

(90/443)

ولِما ذكر أن في القرآن تبيان كل شيء ذكر عقيبه آية جامعة لأصول التكاليف كلها تصديقاً لذلك فقال : ﴿ أن الله يأمر ﴾ الآية ، عن ابن عباس أن عثمان بن مظعون الجمحي قال : ما أسلمت أوّلاً إلا حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتقرر الإسلام في قلبي . فحضرته ذات يوم فبينا هو يحدثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء ثم خفضه عن يمينه ثم عاد لمثل ذلك فسألته فقال : بينا أنا أحدثك إذا جبرائيل عليه السلام نزل عن يميني فقال : يا محمد ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ الآية . قال عثمان : فمن وقته استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم . وعن ابن مسعود : هي أجمع آية في القرآن . وعن

قتادة : ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعمل ويستحسن إلا أمر الله تعالى به في هذه الآية ، وليس من خلق سيء إلا وقد نهى الله تعالى عنه فيها . قال المفسرون : العدل هو أداء الفرائض . وعن ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله ﴿ والإحسان ﴾ هو الإتيان بالمندوبات والمستحسنات شرعاً وعرفاً وأقربها صلة الرحم بالمال فلذلك أفردها بالذكر بقوله : ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ والفحشاء هي الأمور المتزايدة في القبح فلذلك أفردها بالذكر وهي الكبائر .

(91/443)

وقد يخص بالزنا أو بالبخل والمنكر ما تنكره العقول ولا يعرف في شريعة ولا سنة والبغي هو الاستطالة . قال جار الله : حين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وعلى نبينا الصلاة والسلام أقيمت هذه الآية مقامها . واعلم أن العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وأنه واجب الرعاية في جميع الأشياء ولنذكر له أمثلة : أما في الاعتقادات فالقول بنفي الإله تعطيل محض ، وإثبات أكثر من إله واحد تشريك وتعجيز ، والعدل هو قول : " لا إله إلا الله " . كما نقل عن ابن عباس ، هذا ما اتفق عليه أرباب المذاهب . ثم إن الأشعري يقول : القول بنفي الصفات عنه سبحانه

تعطيل ، والقول بإثبات المكان والأعضاء تشبيه ، والعدل إثبات صفات الكمال من الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام ونفي غيرها . وبوجه آخر . نفي الصفات تعطيل ، وإثبات الصفات الحادثة تشبيه ، العدل إثبات صفات أزلية قديمة غير متغيرة .

وأيضاً القول بأن العبد لا قدرة له أصلاً جبر محض ، والقول بأنه مستقل في التصرف قدر محض وتفويض ، والعدل أمر بين الأمرين وهو أن العبد يفعل الأفعال ولكن بواسطة قدرة وداعية يخلقها الله تعالى فيه . وأيضاً القول بأن الله لا يؤاخذ عبده بشيء من الذنوب مساهلة عظيمة ، والقول بأنه يخلد في النار عبده العارف به بالمعصية الواحدة تشديد عظيم ، والعدل أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان .

والمعتزلي يقول : العدل في هذه الأصول بنوع آخر وقد مر مراراً . وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح فإن قوماً من نفاة التكليف يقولون : لا يجب على العبد الاشتغال بشيء من الطاعات ولا الاحتراز عن شيء من المعاصي . وقال : قوم من الهند وطائفة من المانوية : يجب على الإنسان أن يجتنب عن أكل الطيبات ويبالغ في تعذيب نفسه ، وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه حتى التزوّج ، والأولى بالمرء أن

يختصي فهذان الطريقان مذمومان والوسط هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لأن التشديد غالب في دين موسى فليس في شرعه على القاتل إلا القصاص ويحرم مخالطة الحائض ، والتساهل في دين عيسى غالب فلا قصاص على القاتل ولا يحرم وطء الحائض ، والعدل ما حكم به شرعنا من جواز العفو وأخذ الدية وحرمة وطاء الحائض دون مخالطتها ، ولذلك قال : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] ، وقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ [الفرقان : 67] ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات قيل له : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾

(93/443)

[طه : 1] ولما أخذ قوم في المساهلة نزل : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ [المؤمنون : 115] والمراد رعاية الوسط في كل الأمور وقد ورد في شرعنا الختان فقال بعض العقلاء : الحكمة فيه أن رأس ذلك العضو جسم شديد الحس فإذا قطعت تلك الجلدة بقي رأسه عارياً فيصلب بكثرة ملاقاة الثياب وغيرها فيضعف حسه ويقل شعوره فتقل لذة الوقاع فتقل الرغبة فيه . فالاختصاء وقطع الآلات كما ذهب إليه المانوية مذموم ، وإبقاء تلك

الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة مذموم ، والوسط العدل هو الختان . هذا ما قيل . وعندي أن الحكمة في الختان بعد التعبد هو التنظيف وسهولة غسل الحشفة وإلا فلعل اللذة بعد الختان أكثر لملاقاة الحاس والمحسوس بلا حائل . ومن الكلمات المشهورة قولهم : " بالعدل قامت السموات والأرضون " . ومعناه أن مقادير العناصر لو لم تكن معادلة مكافية بحسب الكمية والكيفية لا ستولى الغالب على المغلوب وتنقلب الطبائع كلها إلى طبيعة الجرم الغالب ، ولو كان بعد الشمس من الأرض أقل مما هو الآن لاحتراق كل ما في هذا العالم ، وإن كان أكثر استولى البرد والجمود ، وكذا القول في مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وإبطائها فإن كلاً منها مقدر على ما يليق بنظام العالم وقوامه وقيامه . فهذه إشارة مختصرة إلى تحقيق العدل .

(94/443)

وأما الإحسان فهو المبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية ومن هنا قال : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه " فكأن المبالغ المخلص في أداء الطاعات يوصل الفعل الحسن إلى نفسه وبالحقيقة يدخل في الإحسان أنواع التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وأشرف أنواع الإشفاق صلة الرحم بالمال فلا جرم أفرد بالذكر كما مر . ثم إنه تعالى

أودع في النفس البشرية قوى أربعاً : الشهوية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية . وهذه الأخيرة لا تحتاج إلى التهذيب لأنها من نتائج الأرواح القدسية ، وأما الثلاث الأول فتحتاج إلى التأديب والتهذيب بمقتضى الشريعة وقانون العقل والطريقة . والنهي عن الفحشاء عبارة عن المنع من تحصيل اللذات الشهوية الخارجة عن إذن الشريعة ، والنهي عن المنكر عبارة عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية من إيذاء الناس وإيصال الشر إليهم من غير ما استحقاق ، والنهي عن البغي إشارة إلى المنع من إفراط القوة الوهمية كالاستعلاء على الناس والترفع وحب الرياسة والتقدم ممن ليس أهلاً لذلك ، واخس هذه المراتب عند العقلاء القوة الشهوانية ، وأوسطها الغضبية ، وأعلاها الوهمية فلهذا بدأ سبحانه بالفحشاء ثم بالمنكر ثم بالبغي ، ولأن أصول الأخلاق والتكاليف كلها مذكورة في الآية لا جرم ختمها بقوله : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ لأنها كافية في باب العظة والتذكر والارتقاء من حضيض عالم البشرية إلى ذروة عالم الأرواح المقدسة . قال الكعبي : في الآية دلالة على أنه تعالى لا يخلق الجور والفحشاء وإلا فكيف ينهاهم عما يخلقها فيهم ؟ وعورض بالعلم والداعي كما مر مراراً .

واعلم أنه لا يلزم من إرادة الله تذكر العبد – والتذكر من فعل الله بالاتفاق لا من فعل العبد – أن يطلب الله منه التذكر فإن طلب ما ليس في وسعه محال . فمعنى ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ إرادة أن تكونوا على حالة التذكر لا إرادة أن تحصلوا التذكر .

ثم خص من جملة المأمورات الوفاء بالعهد فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ خصصه جار الله بالبيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [الفتح : 10] . وقال الأصم : المراد منه الجهاد وما فرض الله في الأموال من حق الشرائع . وقيل : هو اليمين والأصح العموم وهو كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره بدليل قوله : ﴿ إذا عاهدتم ﴾ وقوله من قال : العهد هو اليمين يلزم منه أن يكون قوله سبحانه : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ أي بعد توثيقها باسم الله تكراراً . وأكد ووكد لغتان فصيحتان . قال الزجاج : الأصل الواو والهمزة بدل . وفي الآية دلالة على الفرق بين الأيمان المؤكدة وبين لغو اليمين كقولهم " لا والله " و " بلى والله " . وأيضاً الآية من العمومات التي دخلها التخصيص لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فيأت بالذي هو خير ثم ليكفر " وقد مر بحث الأيمان في " البقرة " وفي " المائدة " في قوله : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ [الآية : 225] الآية . ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ أي شاهداً ورقيباً لأن الكفيل مراع لحال المكفول به . ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك خيراً وشراً . وفيه ترغيب وترهيب . ثم

أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض بقوله : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة ﴾ أي من بعد قوّة الغزل بإمرارها وفتلها . قال الزجاج : انتصب ﴿ أنكاثاً ﴾ على المصدر لأن معنى نقضت نكثت . وزيف بأن ﴿ أنكاثاً ﴾ ليس مصدراً وإنما هو جمع نكث بكسر النون وهو ما ينكث فتله . وقال الواحدي : هو مفعول ثان كما تقول كسره أقطاعاً وفرقه أجزاء أي جعله أقطاعاً وأجزاء فكذا ههنا أي جعلت غزلها أنكاثاً . قلت : ويحتمل أن يكون حالاً مؤكدة . قال ابن قتيبة : هذه الآية متصلة بما قبلها والتقدير : وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل

(96/443)

امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً . فعلى هذا المشبه به امرأة غير معينة ، ولا حاجة في التشبيه إلى أن يكون للمشبه به وجود في الخارج . وقيل : المراد امرأة معينة من قريش ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء ، اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وهي الحديدة في رأس المغزل وفلكة عظيمة على قدرها ، وكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن .

قال جار الله : ﴿ تتخذون ﴾ حال و ﴿ دخلاً ﴾ مفعول ثان لتتخذ أي لا تنقضوا

أيمانكم متخذيها دخلاً بينكم أي مفسدة ودغلاً . وقال الواحدي : أي غشاً وخيانة .

وقال الجوهري : أي مكراً وخديعة . وقال غيره : الدخل ما أدخل في الشيء على فساد .

وقوله : ﴿ أن تكون ﴾ أي لأن تكون ﴿ أمة ﴾ يعني جماعة قريش هي أربى أزيد وأوفر عدداً ومالاً ﴿ من أمة ﴾ هي جماعة المؤمنين . قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأولين ويحالفون الذين هم أعز وأمنع .

﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ أي بما يأمركم وينهاكم . وقد تقدم ذكر الأمر والنهي . وقال جار الله : الضمير لقوله : ﴿ أن تكون ﴾ لأنه في معنى المصدر أي يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء مع قلة المؤمنين وفقرهم أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم .

(97/443)

ثم حذرهم من مخالفة ملة الإسلام وأنذرهم بقوله : ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ﴾ بإظهار الدرجات والكرامات للأولياء وتعيين الدركات والبليات للأشقياء . ﴿ ما كنتم فيه تختلفون ﴾ حيث تدعون أنكم على الحق والمؤمنون على الباطل فتنقضون عهودهم . ثم بين أنه سبحانه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء وسائر أبواب الإيمان ولكنه بحكم الإلهية ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ والمعتزلة حملوا المشيئة على

مشيئة الإلجاء بدليل قوله : ﴿ ولتسئلن عما كنتم تعملون ﴾ ولو كانت أعمال العباد بخلق الله تعالى لكان سؤالهم عبثاً . أجابت الأشاعرة بأنه لا يسأل عما يفعل . روى الواحدي أن عزيراً قال : يا رب خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدي من تشاء . فقال : يا عزير أعرض عن هذا فأعاده ثانياً فقال : أعرض عن هذا وإلا محوت اسمك من النبوّة . قال المفسرون : لما نهاهم عن نقض مطلق الأيمان أراد أن ينهاهم عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها وهو نقض بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدليل على هذا التخصيص قوله : ﴿ فتزلَّ قدم بعد ثبوتها ﴾ لأن هذا الوعيد لا يليق بنقض عهد قبيله وإنما يليق بنقض عهد النبي صلى الله عليه وسلم . قال جار الله : وحدت القدم ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة . وهذا مثل يضرب لمن وقع في بلاء بعد عافية ، ولا ريب أن من نقض عهد الإسلام وزلت قدمه عن محجة الدين القويم فقد سقط من الدرجات العالية إلى الدركات الهاوية بيانه قوله : ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ في الدنيا ﴿ بما صددتم ﴾ بصدودكم أو بصدكم غيركم ﴿ عن سبيل الله ﴾ لأن المرتد قد يقتدي به غيره . ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ في الآخرة . ويحتمل أن يراد أن ذلك السوء الذي تذوقونه هو عذاب عظيم . قال جار الله : كان قوم أسلموا بمكة ثم زين لهم الشيطان نقض البيعة لكونهم مستضعفين هناك فأوعدهم الله على ذلك ، ثم نهاهم عن الميل إلى ما كان يعدهم قريش من عرض

الدنيا إن رجعوا عن الإسلام فقال : ﴿ ولا تشتروا ﴾ الآية .

ثم ذكر دليلاً قاطعاً على أن ما عند الله خير فقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله ﴾ من خزائن رحمته ﴿ باق ﴾ وفيه دليل على أن نعيم الجنة باقٍ لأهلها لا ينقطع . وقال جهم بن صفوان : إنه منقطع والآية حجة عليه ﴿ ولنجزين الذين صبروا ﴾ على ما التزموه من شرائع الإسلام ﴿ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي بالواجبات والمندوبات لا بالمباحات فإنه لا ثواب على فعلها ولا عقاب ، أو نجزيهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم كقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] . ثم عمم الوعد على أي عمل صالح كان فقال : ﴿ من عمل صالحاً ﴾ ولا كلام في عمومه إلا أنه زاد قوله : ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ تأكيداً وإزالة لوهم التخصيص ، والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم .

ثم جعل الإيمان شرطاً في كون العمل الصالح منتجاً للثواب حيث قال : ﴿ وهو مؤمن ﴾ فاستدل به على أن الإيمان مغاير للعمل الصالح فإن شرط الشيء مغاير لذلك الشيء .

واختلف في الحياة الطيبة فقيل : هي في الجنة . عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة ، لأن الإنسان في الدنيا لا يخلو من مشقة وأذية ومكروه لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ [الانشقاق : 6] بيّن أن هذا الكدح - وهو التعب في العمل - باقٍ إلى أن يصل إلى ربه ، وأما بعد ذلك فحياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا مرض وملك بلا زوال وسعادة بلا انتقال . وقال السدي : إن هذه الحياة في القبر . والأكثرون على أنها في الدنيا لقوله بعد ذلك ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كان يعملون ﴾ وعلى هذا فما سبب طيب الحياة قيل : هو الرزق الحلال . وقيل : عبادة الله مع أكل الحلال . وقيل : القناعة أو رزق يوم كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو : " اللَّهم اجعل رزق آل محمد كفافاً " قال المحققون : وهذا هو المختار لأن المؤمن الذي صلح عمله إن كان موسراً فذاك ، وإن كان معسراً فمعه من القنوع والعفة والرضا بالقضاء ما يطيب عيشه . لأنه الكافر والفاجر فإن الحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه أبداً ويعظم أسفه على ما يفوته لأنه عانق الدنيا معانقة العاشق لمعشوقه ، بخلاف المؤمن المنشرح قلبه بنور المعرفة والجمال فإنه قلما ينزع لحب الدنيا مالها وجاهها ويستوي عنده وجودها وفقدها وخيرها وشرها ونفعها وضرها . وبركة الصلاح والقنوع مما لا ينكرها عاقل اللَّهم اجعلنا من أهلها . ثم إن ظاهر

الآية يقتضي أن العلم الصالح إنما يفيد الأثر المخصوص بشرط الإيمان وظاهر قوله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾

[الزلزلة : 7] يدل على أن العمل الخير مطلقاً يفيد أثراً مطلقاً فلا منافاة بينهما . ثم ذكر الاستعاذة التي هي من جملة الأعمال الصالحة وبها تخلص الأعمال عن الوساوس فقال : ﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ أي أردت قراءته إطلاقاً لاسم المسبب على السبب . وقد مر بحث الاستعاذة مستوفى في أول هذا الكتاب . ﴿ إنه ليس له سلطان ﴾ تسلط وولاية ﴿ على الذين آمنوا على ربهم يتوكلون ﴾ وهذا معنى الاستعاذة . فإن معناها بالحقيقة راجع إلى التبري عما سوى الله والتوجه بالكلية إليه والاعتماد في جميع الأمور عليه . ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ عن ابن عباس : أي يطيعونه . يقال : توليته أي أطعته . وتوليت عنه أي أعرضت عنه . أما الضمير الواحد في قوله : ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ فقيل : راجع إلى الرب . وقيل : إلى الشيطان أي بسببه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 296.304 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

(102/443)

التأويل : ﴿ ويوم نبعث ﴾ فيه إشارة إلى أن لأرواح الأنبياء إشرافاً على أممهم في حال حياتهم وبعد وفاتهم ، وفيه أن الدنيا مزرعة الآخرة فلا يقبل في القيامة اعتذار ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ أي وضعوا الكفر وأعمال الطبيعة موضع الإيمان وأعمال الشريعة ﴿ فلا يخفف ﴾ عن أرواحهم أثقال الأخلاق المذمية ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ لتبديل مذمومها بمحمودها ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا ﴾ وهم عبدة الدنيا والهوى ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ في أنا دعوناكم إلى عبادتنا فإنا كنا مشغولين بتسبيح الله سبحانه وطاعته ﴿ وصدوا عن سبيل الله ﴾ منعوا الأرواح والقلوب عن طلب الله ﴿ زدناهم ﴾ عذاب الحرمان عن الكمال فوق خسران النسيان بإفساد الاستعداد الفطري . ﴿ وجئنا بك شهيداً ﴾ لأن روحه شاهد على جميع الأرواح والقلوب والنفوس لقوله : " أول ما خلق الله روحي " ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ يحتاج إليه السالك في أثناء سلوكه ﴿ إن الله يأمر

بالعدل ﴾ وهو وضع الآلات وأسباب تحصيل الكمال في مواضعها بحيث يؤدي إلى مقام الوصال والكمال ﴿ والإحسان ﴾ وهو أن تحسن إلى الخلق بما أعطاك الله كقوله : ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ [القصص : 77] . وفي قوله : ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ إشارة إلى أن من جملة العدالة رعاية حال الأقرب فالأقرب . فيبدأ بتكميل نفسه ثم بما هو أقرب إليه قرباً معنوياً لا صورياً ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ وهو صرف ما آتاه الله في غير مصرفها ﴿ والمنكر ﴾ وهو ضد المعروف وهو أن لا يحسن إلى غيره ﴿ والبغي ﴾ وهو أن لا يراعي الترتيب المذكور في باب الإرشاد والتكميل . ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ يوم الميثاق . ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ بجزاء وفائكم ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها ﴾ فيه إشارة إلى حال المريد المرتد ﴿ أن تكون أمة ﴾ هي أهل الدنيا في الدنيا أعلى حالاً من أمتهم أهل الآخرة . ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم ﴾ عهودكم مع المشايخ شبكة تصطادون بها الدنيا . وقبول الخلق فتزل أقدامكم عن صراط

(103/443)

الطلب ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ هما القلب والنفس . والعمل الصالح من النفس استعمال الشريعة والطريقة ، ومن القلب التوجه إلى الله بالكلية ، والحياة الطيبة للنفس أن تصير

مطمئنة مستعدة لقبول فيض

﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] وللقلب أن يصير فانياً عن أنانيته باقياً بشهود الحق وجماله ، وحينئذ يطيب عن دنس الاثنينية ولوث الحدوث . ﴿ فاستعذ بالله ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وآله ظاهراً وبالحقيقة هو لأمته ، لأن شيطانه أسلم على يده فلم يحتج إلا الاستعاذة من شياطنه بل هو وخواص أمته كقوله : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ [النحل : 99] وفيه أن الشيطان ليس له تسلط على أولياء الله إلا بالوسوسة ، وفيها صلاح المؤمن فإن إبريز إخلاص قلبه لا يتخلص عن غش صفات نفسه إلا بنار الوسوسة ، لأن المؤمن يطلع على بقايا صفات نفسه . بما تكون الوسوسة من جنسه فيزيد في الرياضة وملازمة الذكر حتى تتمحي تلك البقايا والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 304.305 ﴾

(104/443)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم عطف على هذا المقدر - الذي دل عليه الكلام - ما أنتجه تسلط الشيطان عليهم فقال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا ﴾ أي بعظمتنا بالنسخ ﴿ ءاية ﴾ سهلة كالعدة بأربعة أشهر وعشر ، وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار ، أو شاقّة كتحريم الخمر وإيجاب صلوات خمس ، فجعلناها ﴿ مكان ءاية ﴾ شاقة كالعدة بحول ، ومصابرة عشرة من الكفار ، أو سهلة كالآيات المتضمنة لإباحة الخمر وإيجاب ركعتين أول النهار وركعتين آخره ، فكانت الثانية مكان الأولى وبدلاً منها ، أو يكون المعنى : نسخنا آية صعبة فجعلنا مكانها آية سهلة ؛ والتبديل : رفع الشيء مع وضع غيره مكانه ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الشاملة ﴿ أعلم بما ينزل ﴾ من المصالح بحسب الأوقات والأحوال بنسخ أو بغيره ﴿ قالوا ﴾ أي الكفار ﴿ إنما أنت ﴾ أي يا محمد ! ﴿ مفتر ﴾ أي فإنك تأمر اليوم بشيء وغداً تنهى عنه وتأمر بضده ، وليس الأمر كما قالوا ﴿ بل أكثرهم ﴾ وهم الذين يستمرون على الكفر ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا يتجدد لهم علم ، بل هم في عداد البهائم ، لعدم انتفاعهم بما وهبهم الله من العقول ، لانهماكهم في اتباع الشيطان ، حتى زلت أقدامهم في هذا الأمر الواضح بعد إقامة البرهان بالإعجاز على أن كل ما كان معجزاً كان من عند الله ، سواء كان ناسخاً أو منسوخاً أو لا ، فصارت معرفة أن هذا القرآن وهذا غير قرآن بعرضه على

هذا البرهان من أوضح الأمور وأسهلها تناولاً لمن أراد ذلك منهم أو من غيرهم من فرسان البلاغة فكأنه قيل : فما أقول ؟ فقال : ﴿ قل ﴾ لمن واجهك بذلك منهم : ﴿ نزله ﴾ أي القرآن بحسب التدريج لأجل اتباع المصالح لإحاطة علم المتكلم به ﴿ روح القدس ﴾ الذي هو روح كله ، ليس فيه داعٍ إلى هوى ، فكيف يتوهم فيما ينزله افتراء لا سيما مع إضافته الطهر البالغ ، فهو ينزله ﴿ من ربك ﴾ أيها المخاطب الذي أحسن إليك بإنزاله ثم بتبديله بحسب المصالح كما أحسن تربيتك بالنقل من حال إلى حال لا يصلح في واحدة منها ما يصلح في غيرها من الظهر إلى

البطن ، ثم من الرضاع إلى الفطام ، فما بعده ، فكيف تنكر تبديل الأحكام للمصالح ولا تنكر تبديل الأحوال لذلك ، حال كون ذلك الإنزال ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي جل عن دعوى الافتراء بأنه لا يستطاع نقضه ﴿ ليثبت ﴾ أي تثبيتاً عظيماً ﴿ الذين آمنوا ﴾ في دينهم بما يرون من إعجاز البدل والمبدل مع تضاد الأحكام ، وما فيه من الحكم والمصالح بحسب تلك الأحوال – مع ما كان في المنسوخ من مثل ذلك بحسب الأحوال السالفة – وليتمرنوا على حسن الانقياد ، ويعلم بسرعة انقيادهم في ترك الألف تمام استسلامهم

وخلوصهم عن شوائب الهوى ؛ ثم عطف على محل ﴿ ليثبت ﴾ قوله : ﴿ وهدى ﴾ أي بياناً واضحاً ﴿ وبشرى ﴾ أي بما فيه من تجدد العهد بالملك الأعلى وتردد الرسول بينه وبينهم بوساطة نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ للمسلمين ﴾ المنقادين المبرئين من الكبر الطامس للأفهام ، المعمي للأحلام ، ولولا مثل هذه الفوائد لفاتت حكمة تنجيمه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 311.312 ﴾

(106/443)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ بما ينزل ﴾ من الإنزال . ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يلحدون ﴾ بفتح الياء والحاء : حمزة وعلي وخلف . ﴿ فتنوا ﴾ مبنياً للفاعل : ابن عامر . ﴿ والخوف ﴾ بالنصب : عباس ﴿ إبراهام ﴾ هشام وما بعده والأخفش عن ابن ذكوان . ﴿ في ضيق ﴾ بالكسر : ابن كثير وكذلك في " النمل " . الآخرون بالفتح .

الوقوف : ﴿ مكان آية ﴾ لا لأن جواب " إذا " هو " قالوا " وقوله : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ جملة معترضة ﴿ مفتر ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ للمسلمين ﴾ 5 ﴿ بشر ﴾

ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ بآيات الله ﴾ لا لأن ما بعده خبر "إن" ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ بآيات الله ﴾ ج لاختلاف الجملتين مع العطف ﴿ الكاذبون ﴾ 5 ﴿ غضب من الله ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتصال المعنى. ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ على الآخرة ﴾ لا للعطف ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ وأبصارهم ﴾ ط لاختلاف الجملتين ﴿ الغافلون ﴾ 5 ﴿ الخاسرون ﴾ 5 ﴿ وصبروا ﴾ لا لأن "إن" الثانية تكرار الأولى لطول الكلام بصلته وخبرهما واحد ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ لا يظلمون ﴾ 5 ﴿ يصنعون ﴾ 5 ﴿ ظالمون ﴾ 5 ﴿ طيباً ﴾ ص لعطف المتفقتين ﴿ تعبدون ﴾ 5 ﴿ لغير الله به ﴾ ج ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ على الله الكذب ﴾ ط ﴿ لا يفلحون ﴾ ط، 5 ﴿ قليل ﴾ ص لعطف المتفقتين ولا سيما إذا قدر لهم متاع ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ من قبل ﴾ ج لابتداء النفي مع العطف ﴿ يظلمون ﴾ 5 ﴿ وأصلحوا ﴾ لا لما مر ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ حنيفاً ﴾ ط ﴿ من المشركين ﴾ 5 لا لأن ﴿ شاكر ﴾ وصف آخر أو بدل من ﴿ حنيفاً ﴾ ﴿ لا نعمة ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ 5 ﴿ حسنة ﴾ ط ﴿ الصالحين ﴾ ط 5 لأن "ثم" لترتيب الأخبار ﴿ حنيفاً ﴾ ط 5 ﴿ المشركين ﴾ ط 5 ﴿ اختلفوا فيه ﴾ ط ﴿ يختلفون ﴾ 5 ﴿ أحسن ﴾ ط ﴿ بالمهتدين ﴾ 5 ﴿ عوقبتم به ﴾ ط ﴿ للصابرين ﴾ 5 ﴿ يمكرون ﴾ 5 ﴿ محسنون ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 307.306 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

اعلم أنه تعالى شرع من هذا الموضوع في حكاية شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان إذا نزلت آية فيها شدة ، ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه ، اليوم يأمر بأمر وغداً ينهى عنه ، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ ﴾ ومعنى التبديل ، رفع الشيء مع وضع غيره مكانه .

وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها ، وقوله : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا

يُنَزِّلُ ﴾ اعتراض دخل في الكلام ، والمعنى : والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف ، أي هو أعلم بجميع ذلك في مصالح العباد ، وهذا توبيخ للكفار على قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ أي إذا كان هو أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمد صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء لأجل التبديل والنسخ ، وقوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وأن ذلك لمصالح العباد كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة ، ثم بعد مدة ينهاه عنها ، ويأمره بضد تلك الشربة ، وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ ﴾ تفسير روح القدس مر ذكره في سورة البقرة .

(108/443)

وقال صاحب "الكشاف" : روح القدس جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال : حاتم الجود وزيد الخير ، والمراد الروح المقدس ، وحاتم الجواد وزيد الخير ، والمقدس المطهر من الماء و "من" في قوله : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ صلة للقرآن أي أن جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا أي ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب : ﴿ وَهُدًى وبشرى ﴾ مفعول لهما معطوف على محل ليثبت ، والتقدير : تثبيتاً

لهم وإرشاداً وبشارة .

وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

المسألة الثانية :

قد ذكرنا أن مذهب أبي مسلم الأصفهاني : أن النسخ غير واقع في هذه الشريعة ، فقال المراد ههنا : إذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل أنه حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، قال المشركون : أنت مفتر في هذا التبديل ، وأما سائر المفسرين فقالوا : النسخ واقع في هذه الشريعة ، والكلام فيه على الاستقصاء في سائر السور .

المسألة الثالثة :

قال الشافعي رحمه الله : القرآن لا ينسخ بالسنة ، واحتج على صحته بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ وهذا يقتضي أن الآية لا تصير منسوخة إلا بآية أخرى ، وهذا ضعيف لأن هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى ولا دلالة فيها على أنه تعالى لا يبدل آية إلا بآية ، وأيضاً فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية ، وأيضاً فالسنة قد تكون مثبتة للآية ، وأيضاً فهذا حكاية كلام الكفار ، فكيف يصح التعلق به ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 93. 94 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإذا بدّلنا آيةً مكان آيةٍ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : شريعة تقدمت بشريعة مستأنفة ، قاله ابن بحر .

الثاني : وهو قول الجمهور أي نسخنا آية بآية ، إما نسخ الحكم والتلاوة وإما نسخ الحكم مع بقاء التلاوة .

﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ يعني أعلم بالمصلحة فيه ينزله ناسخاً ويرفعه منسوخاً . ﴿ قالوا إنما مفْتَرٍ ﴾ أي كاذب .

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ فيه وجهان : أحدهما : لا يعلمون جواز النسخ . الثاني : لا يعلمون سبب ورود النسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(110/443)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾

كان كفار مكة إذا نسخ الله لفظ آية بلفظ أخرى ومعناها وإن بقي لفظها ، لأن هذا كله يقع عليه التبديل ، يقولون : لو كان هذا من عند الله لم يتبدل ، وإنما هو من افتراء محمد ، فهو يرجع من خطأ يبدلونه إلى صواب يراه بعد ، فأخبر الله عز وجل أنه أعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر ، ثم ما يصلح لهم بعد ذلك ، وأنهم لا يعلمون هذا ، وقرأ الجمهور " ينَزّل " بفتح النون وشد الزاي ، وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي ، وعبّر ب " الأكثر " مراعاة لما كان عند قليل منهم من توقف وقلة مبالغة في التكذيب والظن ، ويحتمل أن يكون هذا اللفظ قرر على قليل منهم أنهم يعلمون ويكفرون تمرداً وعناداً ، وأمر نبيه أن يخبر أن القرآن وناسخه ومنسوخه إنما جبريل عليه السلام وهو ﴿ روح القدس ﴾ ، لا خلاف في ذلك ، و﴿ القدس ﴾ الموضع المطهر ، فكأن جبريل أضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق ، وسمي روحاً إما لأنه ذو روح من جملة روح الله الذي بثه في خلقه ، وخص هو بهذا الاسم ، وإما لأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضاً مجرى الروح من الأجساد لشرفه ومكانته ، وقرأ ابن كثير " القدْس " بسكون الدال ، وقرأ الباقون " القدُس " بضمها ، وقوله ﴿ بالحق ﴾ أي مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه ، وأخباره ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ بالحق ﴾ بمعنى حقاً ، ويحتمل أن يريد ﴿ بالحق ﴾ في أن ينزل أي أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل ، وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أصول الدين ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾

قيل : المعنى بدلنا شريعة متقدّمة بشريعة مستأنفة ؛ قاله ابن بحر .

مجاهد : أي رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها .

وقال الجمهور : نسخنا آية بآية أشدّ منها عليهم .

والنسخ والتبديل رفعُ الشيء مع وضع غيره مكانه .

وقد تقدّم الكلام في النسخ في البقرة مستوفًى .

﴿ قالوا ﴾ يريد كفار قريش .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ أي كاذبٌ مختلِق ، وذلك لما رأوا من تبديل الحكم .

فقال الله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض بالبعض .

وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس ﴾ يعني جبريل ، نزل بالقرآن كلِّه ناسخه ومنسوخه .

وروي بإسناد صحيح عن عامر الشّعْبيّ قال : وُكِّل إسرافيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين ، فكان يأتيه بالكلمة والكلمة ، ثم نزل عليه جبريل بالقران .

وفي صحيح مسلم أيضاً أنه نزل عليه بسورة "الحمد" مَلَك لم ينزل إلى الأرض قَطُّ .

كما تقدّم في الفاتحة بيانه .

﴿ مِن رَّبِّكَ بالحق ﴾ أي من كلام ربك .

﴿ لِيُثَبِّتَ الذين آمَنُواْ ﴾ أي بما فيه من الحجج والآيات .

﴿ وَهُدًى ﴾ أي وهو هدى .

﴿ وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ . انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(112/443)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل ﴾

وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا : إن محمداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر

وينهاهم عنه غداً ، ما هو إلا مفترٍ يتقوله من تلقاء نفسه فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض

دخل في الكلام ، والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه ، وبما يغير

ويبدل من أحكامه أي هو أعلم بجميع ذلك مما هو من مصالح عباده ، وهذا نوع من توبيخ

وتقريع للكفار على قولهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) وهو قوله تعالى ﴿ قالوا إنما أنت مفتر ﴾ أي تختلقه من عندك، والمعنى: إذا كان الله تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمداً إلى الافتراء والكذب لأجل التبديل والنسخ؟ وإنما فائدة ذلك ترجع إلى مصالح العباد، كما يقال: إن الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه ويأمر بغيره لما يرى فيه من المصلحة ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ ﴿ قل ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ نزله ﴾ يعني القرآن ﴿ روح القدس ﴾ يعني جبريل (صلى الله عليه وسلم) أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير، والمعنى الروح المقدس المطهر ﴿ من ربك ﴾ يعني أن جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد ﴿ بالحق ليثبت الذين آمنوا ﴾ يعني ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿ وهدى وبشرى ﴾ يعني وهو هدى وبشرى ﴿ للمسلمين ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(113/443)

وقال أبو حيان:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ ﴾

ولما ذكر تعالى إنزال الكتاب تبييناً لكل شيء ، وأمر بالاستعاذة ند قراءته ، ذكر تعالى نتيجة ولاية الشيطان لأوليائه المشركين ، وما يلقيه إليهم من الأباطيل ، فألقى إليهم إنكار النسخ لما رأوا تبديل آية مكان آية .

وتقدم الكلام في النسخ في البقرة .

والظاهر أنّ هذا التبديل رفع آية لفظاً ومعنى ، ويجوز أن يكون التبديل لحكم المعنى وإبقاء اللفظ .

ووجد الكفار بذلك طعناً في الدين ، وما علموا أنّ المصالح تختلف باختلاف الأوقات والأشخاص ، وكما وقع نسخ شريعة بشريعة يقع في شريعة واحدة .

وأخبر تعالى أنه العالم بما ينزل لا أنتم ، وما ينزل مما يقره وما يرفعه ، فمرجع علم ذلك إليه ، وهو على حسب الحوادث والمصالح ، وهذه حكمة إنزاله شيئاً فشيئاً ، وهذه الجملة اعتراض بين الشرط وجوابه .

قيل : ويحتمل أن يكون حالاً .

وبالغوا في نسبة الافتراء للرسول بلفظ إنما ، وبمواجهة الخطاب ، وباسم الفاعل الدال على الثبوت ، وقال : بل أكثرهم ، لأن بعضهم يعلم ويكفر عناداً .

ومفعول لا يعلمون محذوف لدلالة المعنى عليه أي : لا يعلمون أنّ الشرائع حكم ومصالح .

هذه الآية دلت على وقوع نسخ القرآن بالقرآن .

وروح القدس : هنا هو جبريل عليه السلام بلا خلاف ، وتقدم لم سمي روح القدس .

وأضاف الرب إلى كاف الخطاب تشريفاً للرسول (صلى الله عليه وسلم) باختصاص الإضافة ، وإعراضاً عنهم ، إذ لم يضف إليهم .

وبالحق حال أي : ملتبساً بالحق سواء كان ناسخاً أو منسوخاً ، فكله مصحوب بالحق لا يعتريه شيء من الباطل .

وليثبت معناه أنهم لا يضطربون في شيء منه لكونه نسخ ، بل النسخ مثبت لهم على إيمانهم ، لعلمهم أنه جميعه من عند الله ، لصحة إيمانهم واطمئنان قلوبهم يعلمون أنه حكيم ، وأنّ أفعاله كلها صادرة عن حكمة ، فهي صواب كلها .

(114/443)

ودل اختصاص التعليل بالمسلمين على اتصاف الكفار بضده من لحاق الاضطراب لهم وتزلزل عقائدهم وضلالهم .

وقرىء : ليثبت مخففاً من أثبت .

قال الزمخشري : وهدى وبشرى مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت انتهى .

وتقدم الرد عليه في نحو هذا ، وهو قوله : ﴿ لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ﴾ وهدى ورحمة

في هذه السورة .

ولا يمتنع عطفه على المصدر المنسبك من أن والفعل ، لأنه مجرور ، فيكون وهدى وبشرى مجرورين كما تقول : جئت لأحسن إلى زيد وإكرام لخالد ، إذ التقدير : لإحسان إلى زيد .

وأجاز أبو البقاء أن يكون ارتفاع هدى وبشرى على إضمار مبتدأ أي : وهو هدى وبشرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(115/443)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ ﴾

أي إذا أنزلنا آيةً من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها بها ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزّلُ ﴾ أولاً وآخِراً وبأن كلاًّ من ذلك ما نزلت حيثما نزلت إلا حسبما تقتضيه الحِكمةُ والمصلحة ، فإن كل وقت له مقتضًى غيرُ مقتضى الآخَر ، فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخرَ مفسدةً وبالعكس ، لانقلاب الأمورِ الداعية إلى ذلك وما الشرائعُ إلا مصالحُ للعباد في المعاش والمعاد ، تدور حسبما تدور المصالحُ ، والجملةُ إما معترضةٌ لتوبيخ الكفرةِ والتنبيهِ على فساد رأيهم ، وفي الالتفات إلى الغَيبة مع إسناد الخبرِ

إلى الاسم الجليلِ المستجمعِ للصفات ما لا يخفى من تربية المهابةِ وتحقيقِ معنى الاعتراض أو حالية وقرىء بالتخفيف من الإنزال ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ أي متقوّلٌ على الله تعالى تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه ، وحكايةُ هذا القول عنهم هاهنا للإيذان بأن ذلك كَفْرةٌ ناشئةٌ من نزغات الشيطان وأنه وليُّهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون شيئاً أصلاً أو لا يعلمون أن في النسخ حِكَماً بالغةً ، وإسنادُ هذا الحكمِ إلى الأكثر لما أن منهم مَنْ يعلم ذلك وإنما ينكره عِناداً .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ ﴾

(116/443)

أي القرآنَ المدولَ عليه بالآية ﴿ رُوحُ القدس ﴾ يعني جبريلُ عليه السلام أي الروحُ المطهّر من الأدناس البشرية ، وإضافةُ الروحِ إلى القدس وهو الطُهْرُ كإضافة حاتم إلى الجود حيث قيل : حاتمُ الجودِ للمبالغة في ذلك الوصفِ كأنه طبعٌ منه ، وفي صيغة التفعيل في الموضعين إشعارٌ بأن التدريجَ في الإنزال مما تقتضيه الحِكَمُ البالغة ﴿ مِن رَّبّكَ ﴾ في إضافة الربّ إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق إفاضةِ آثارِ الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المبنيةِ على التلقين المحض ﴿ بالحق ﴾ أي

ملتبساً بالحق الثابتِ الموافقِ للحكمة المقتضيةِ له بحيث لا يفارقها إنشاءً ونسخاً ، وفيه دَلالةٌ على أن النسخ حق ﴿ لِيُثَبّتَ الذين ءامَنُواْ ﴾ على الإيمان بأنه كلامُه تعالى فإنهم إذا سمعوا الناسخَ وتدّبروا ما فيه من رعاية المصالحِ اللائقة بالحال رسَخت عقائدُهم واطمأنت قلوبُهم ، وقرىء ليُثبت من الإفعال ﴿ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحُكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أي تثبيتاً وهدايةً وبشارةً ، وفيه تعريضٌ بحصول أضدادِ الأمورِ المذكورة لمن سواهم من الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(117/443)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ ﴾

أي إذا نزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها بها ، والظاهر على ما في البحر أن المراد نسخ اللفظ والمعنى ، ويجوز أن يراد نسخ المعنى مع بقاء اللفظ ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزّلُ ﴾ من المصالح فكل من الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فإن كل وقت له مقتضى غير الآخر فكم من مصلحة تنقلب مفسدة في

وقت آخر لانقلاب الأمور الداعية إليها ، ونرى الطبيب الحاذق قد يأمر المريض بشربة ثم بعد ذلك ينهاه عنها ويأمره بضدها ، وما الشرائع إلا مصالح للعباد وأدوية لأمراضهم المعنوية فتختلف حسب اختلاف ذلك في الأوقات وسبحان الحكيم العليم ، والجملة اما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم ، وفي الالتفات إلى الغيبة مع الإسناد إلى الاسم الجليل ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية كما قال أبو البقاء وغيره ، وقرأ ابن كثير.

وأبو عمرو ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ من الإنزال ﴿ قَالُوا ﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ مقتول على الله تعالى تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه ، وقد بالغوا قاتلهم الله تعالى في نسبه الافتراء إلى حضرة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث وجهوا الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام وجاؤوا بالجملة الاسمية مع التأكيد بإنما ، وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان بأنه كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم. وفي الكشف أن وجه ذكره عقيب الأمر بالاستعاذة عند القراءة أنه باب عظيم من أبوابه يفتن به الناقصين يوسوس إليهم البداء والتضاد وغير ذلك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون شيئاً أصلاً أو لا يعلمون أن في التبديل المذكور حكماً بالغة ، وإسناد هذا الحكم إلى أكثرهم لما أن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكر عناداً.

والآية دليل على نسخ القرآن بالقرآن وهي ساكتة عن نفي نسخه بغير ذلك مما فصل في كتب الأصول.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ ﴾ أي القرآن المدلول عليه بالآية، وقال الطبرسي: أي الناسخ المدلول عليه بما تقدم ﴿ رُوحُ القدس ﴾ يعني جبريل عليه السلام وأطلق عليه ذلك من حيث انه ينزل بالقدس من الله تعالى أي مما يطهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهي، وقيل: لطهره من الادناس البشرية، والإضافة عند بعض للاختصاص كما في ﴿ رَبِّ العزة ﴾ [الصافات: 180] وجعلها بعض المحققين من إضافة الموصوف للصفة على جعله نفس القدس مبالغة نحو خبر سوء ورجل صدق على ما ارتضاه الرضى، ومثل ذلك حاتم الجود وسحبان الفصاحة وخالف في ذلك صاحب الكشف مختاراً أنها للاختصاص، ولا يخفى ما في صيغة الاتفعيل بناء على القول بأنها تفيد التدريج من المناسبة لمقتضى المقام لما فيها من الإشارة إلى أنه أنزل دفعات على حسب المصالح ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ في إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية عليه عليه الصلاة والسلام ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المنبئة عن التلقين المحض كما في إرشاد العقل السليم، وكأنه اعتناء بأمر هذه الدلالة لم يقل من ربكم على أن في ترك خطابهم من حط قدرهم ما فيه، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية مجازاً ﴿ بالحق ﴾ أي ملتبساً بالحكمة

المقتضية له بحيث لا يفارقها ناسخاً كان أو منسوخاً ﴿ لِيُثَبِّتَ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي على الإيمان بما يجب الإيمان به لما فيه من الحجج القاطعة والأدلة الساطعة أو على الإيمان بأنه كلامه تعالى فانهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح رسخت عقائدهم واطمأنت به قلوبهم ، وأول بعضهم الآية على هذا الوجه بقوله : ليبين ثباتهم وتعقب بأنه لا حاجة إليه إذا لتثبيت بعد النسخ لم يكن قبله فإن نظر إلى مطلق الإيمان صح .

وقرىء ﴿ لِيُثَبِّتَ ﴾ من الأفعال .

(119/443)

﴿ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ عطف على محل ﴿ لِيُثَبِّتَ ﴾ عند الزمخشري ومن تابعه وهو نظير زرتك لأحدثك واجلالاً لك أي تثبيتاً وهداية وبشارة ، وتعقب بأنه إذا اعتبر الكل فعل المنزل على الإسناد المجازي لم يكن للفرق بادخال اللام في البعض والترك في البعض وجه ظاهر ، وكذا إذا اعتبر فعل الله تعالى كما هو كذلك على الحقيقة وإذا اعتبر البعض فعل المنزل ليتحد فاعل المصدر وفاعل المعلل به فيترك اللام له والبعض الآخر فعل الله تعالى ليختلف الفاعل فيؤتي باللام لم يكن لهذا التخصيص وجه ظاهر أيضاً ويفوت به حسن النظم .

وقال الخفاجي يوجه ترك اللام في المعطوف دون المعطوف عليه مع وجود شرط الترك فيهما بأن المصدر المسبوك معرفة على ما تقرر في العربية والمفعول له الصريح وإن لم يجب تنكيره كما عزى للرياشي فخلافه قليل كقوله :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره . . .

ففرق بينهما تفنناً وجرياً على الأفصح فيهما ، والنكتة فيه أن التثبيت أمر عارض بعد حصول المثبت عليه فاختير فيه صيغة الحدوث مع ذكر الفاعل إشارة إلى أنه فعل لله تعالى مختص به بخلاف الهداية والبشارة فإنهما يكونان بالواسطة ، وقيل : إن وجود الشرط مجوز لا موجب والاختيار مرجح مع ما في ذلك من فائدة بيان جواز الوجهين ، وفيه أنه لا يصلح وجهاً عند التحقيق ، وقد اعترض أبو حيان هنا بما تقدم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذى اختلفوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [النحل : 64] ، وذكر أنه لا يمتنع أن يكون العطف على المصدر المنسبك لأنه مجرور فيكون ﴿ هُدًى وبشرى ﴾ مجرورين ، وجوز أبو البقاء أن يكونا مرفوعين على أنهما خبراً مبتدأ محذوف أي وهو هدى وبشرى ، والجملة في موضع الحال من الهاء في دنزله ﴾ .

والمراد بالمسلمين الذين آمنوا ، والعدول عن ضميرهم لمدحهم بكلا العنوانين ، وفسر بعضهم الإسلام بمعناه اللغوي فقيل : إن ذلك ليفيد بعد توصيفهم بالإيمان ، والظاهر أن ﴿ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ قيد للهدى والبشرى ولم أر من تعرض لجواز كونه قيداً للبشرى فقط كما تعرض لذلك في قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : 89] على ما سمعت هناك .

وفي هذه الآية على ما قالوا تعريض لحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سوى المذكورين من الكفار من حيث ان قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ ﴾ جواب لقولهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل : 101] فيكفي فيه ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس ﴾ فالزيادة لمكان التعريض وقال الطيبي إن ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس ﴾ بدل نزل الله فيه زيادة تصوير في الجواب وزيد قوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ لينبه على دفع الطعن بألطف الوجوه ثم نعى قبيح أفعالهم بقوله تعالى : ﴿ لِيُثَبِّتَ ﴾ الخ تعريضاً بأنهم متزلزلون ضالوان موبخون منذرون بالخزى والنكال واللعن في الدنيا والآخة ﴿ وَأَنْ ﴾ عذابهم في خلاف ذلك ليزيد في غيظهم وحنقهم ، وفي الكلام ما هو قريب من الأسلوب الحكيم اه فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه إذا بدل آية مكان آية ، بأنه نسخ آية أو أنساها ، وأتى بخير منها أو مثلها – أن الكفار يجعلون ذلك سبباً للطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم . بادعاء أنه كاذب على الله ، مفتر عليه زعماً منهم أن نسخ الآية بالآية يلزمه البداء ، وهو الراي المجدد ، وأن ذلك مستحيل على الله . فيفيهم عندهم من ذلك أن النَّبي صلى الله عليه وسلم مفتر على الله ، زاعمين أنه لو كان من اله لأقره واثبته ، ولم يطرأ له فيه رأي متجدد حتى ينسخه .

والدليل على أن قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ معناه : نسخنا آية وأ ، سيناها – قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة : 106] ، وقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ [الأعلى : 6-7] أي أن تنساه .

والدلي على أنه إت نسخ آية أو أنساها ، لا بد أن يأتي ببدل خير منها أو مثلها – قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : 106] ، وقوله هنا ﴿ بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ .

وما زعمه المشركون واليهود : من أن النسخ مستحيل على الله لأنه يلزمه البداء ، وهو الرأي المتجدد – ظاهر السقوط ، واضح البطلان لكل عاقل . لأن النسخ لا يلزمه البداء البتة ، بل الله جل وعلا يشرِّع الحكم وهو عالم بأن مصلحته ستنقضي في الوقت المعين ، وأ ، ه عند ذلك الوقت ينسخ ذلك الحكم ويبدله بالحكم الجديد الذي فيه المصلحة . فإذا جاء ذلك الوقت المعين أنجز جل وعلا ما كان في عمله السابق من نسخ ذلك الحكم ، الذي زالت مصلحته بذلك الحكم الجديد الذي فيه المصلحة . كما أن حدوث المرض بعد الصحة وعكسه ، وحدوث الغنى بعد الفقر وعكسه ، ونحو ذلك لا يلزم فيه البداء ، لأن الله عالم بأن حكمته الإلهية تقتضي ذلك التغيير في وقته المعين له ، على وفق ما سبق في العلم الأزلي كما هو واضح .

وقد أشار جل وعلا إلى علمه بزوال المصلحة من المنسوخ ، وتمحضها في الناسخ بقوله هنا : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ وقوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 106] ، وقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى إِلاَّ مَا شَآءَ الله إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ [الأعلى : 6–7] فقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ بعد قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ يدل عى أنه أعلم بما ينزل . فهو عالم بمصلحة الإنساء ، ومصلحة تبديل الجديد من الأول المنسي .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة :

المسألة الأولى - لا خلاف بين المسلمين في جواز النسخ عقلاً وشرعاً ، ولا في وقوعه فعلاً ، ومن ذكر عنه خلاف في ذلك كأبي مسلم الأصفهاني - فإنه إنما يعني أن النسخ تخصيص لزمن الحكم بالخطاب الجديد .

(123/443)

لأن ظاهر الخكاب الأول استمرار الحكم في جميع الزمن . والخطاب الثاني دلَّ على تخصيص الحكم الأول بالزمن الذي قبل النسخ . فليس النسخ عنده رفعاً للحكم الأول .

وقد أشار إليه في مراقي السعود بقوله في تعريف النسخ :

رفع لحكم أو بيان الزمن . . . بمحكم القرآن أو بالسنن

وإنما خالف فيه اليهود وبعض المشركين ، زاعمين أنه يلزمه البداء كما بينا . ومن هنا قالت اليهود : إن شريعة موسى يستحيل نسخها .

المسألة الثانية - لا يصح نسخ حكم شرعي إلا بوحي من كتاب أو سنة . لأن الله جلَّ وعلا يقول : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] - وبه تعلم أن النسخ بمجرد العقل ممنوع ،

وكذلك لا نسخ بالإجماع. لأن الإجماع لا ينعقد إلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم: لأنه ما دام حياً فالعبرة بقوله وفعله وتقريره صلى الله عليه وسلم، ولا حجة معه في قول الأمة، لأن اتّباعه فرض على كل أحد ولذا لا بد في تعريف الإجماع من التقييد بكونه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، كما قال صاحب المراقي في تعريف الإجماع:

وهو الاتفاق من مجتهدي . . . الأمة من بعد وفاة أحمد

وبعد وفاته ينقطع النسخ. لأنه تشريع، ولا تشريع البتة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وإلى كون العقل والإجماع لا يصح النسخ بمجرهما – أشار في مراقي السعود أيضاً بقوله في النسخ:

فلم يكن بالعقل أو مجرد . . . الإجماع بل ينمى إلى المستند

(124/443)

وقوله "بل ينمى إلى المستند" يعني أنه إذا وجد في كلام العلماء أن نصاً منسوخ بالإجماع، فإنهم إنما يعنون أنه منسوخ بالنص الذي هو مستند الإجماع، لا بنفس الإجماع. لما ذكرنا من منع النسخ به شرعاً. وكذلك لا يجوز نسخ الوحي بالقياس على التحقيق، وإليه أشار في المراقي بقوله:

وينسخ الخف بما له ثقل . . . وقد يجيء عاريا من البدل

أنه باطل بلا شك . والعجب ممن قال به العلماء الأجلاء مع كثرتهم ، مع أنه مخالف مخالفة صريحة لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : 106] فلا كلام البتة لأحد بعد كلام الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء : 122] ، ﴿ اومن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 87] ، ﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة : 140] فقد ربط جل وعلا في هذه الآية الكريمة بين النسخ ، وبين الإتيان ببدل المنسوخ على سبيل الشرط والجزاء . ومعلوم أن الصدق والكذب في الشرطية يتواردان على الربط . فيلزم أنه كلما وقع النسخ وقع الإتيان بخير من المنسوخ أو مثله كما هو ظاهر .

وما زعمه بعض أهل العلم من أن النسخ وقع في القرآن بلا بدل وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة : 12] فإنه نسخ بقوله : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ [المجادلة : 13] الآية ، ولا بدل لهذا المنسوخ.

فالجواب – أنه له بدلاً ، وهو أن وجوب تقديم الصدقة أمام المناجاة لما نسخ بقي استحباب الصدقة وندبها ، بدلاً من الوجوب المنسوخ كما هو ظاهر .

المسألة الرابعة – اعلم أنه يجوز نسخ الأخف بالأثقل ، والأثقل [الخف . فمثال نسخ الأخف بالأثقل : نسخ التخيير بين الصوم والإطعام المنصوص عليه في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة : 184] بأثقل منه ، وهو تعيين إيجاب الصوم في قوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : 185] . ونسخ حبس الزواني في البيوت المنصوص عليه بقوله : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البيوت ﴾ [النساء : 15] الآية ، بأثقل منه وهو الجلد والرجم المنصوص على الأول منهما في قوله : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : 2] ، وعلى الثاني منهم بية الرجم التس تسخت تلاوتها وبقي حكمها ثابتاً ، وهي قوله : " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم " ومثال نسخ الأثقل بالأخف : نسخ وجوب مصابرة المسلم عشرة من الكفار المنصوص عليه في قوله : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : 65] الآية ، بأخف منه وهو مصابرة المسلم اثنين منهم المنصوص عليه في قوله : ﴿ الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : 66] الآية . وكنسخ قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله ﴾ [البقرة : 284] الآية ، بقوله : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] . فإنه نسخ للاثقل بالأخف كما هو

ظاهر . وكنسخ اعتداد المتوفى عنها بحول ، المنصوص عليه في قوله : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الحول ﴾ [البقرة : 240] الآية ، بأخف منه هو الاعتداد بأربعة أشهر وعشر ، المنصوص عليه في

(126/443)

قوله : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة : 234] .

تنبيه

اعلم - أن في قوله جل وعلا : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : 106] إشكالاً من جهتين :

الأولى - ان يقال : إما أن يكون الأثقل خيراً من الأخف . لأنه أكثر أجراً ، أو الأخف خير من الأثقل لأنه أسهل منه ، واقرب إلى القدرة على الامتثال . وكون الأثقل خيراً يقتضي منه نسخه بالأخف ، كما أن كون الأخف خيراً يقتضي منع نسخه بالأثقل . لأن الله صرح بأنه يأتي بما هو خير من المنسوخ أو مماثل له ، لا ما هو دونه . وقد عرفت : ان الواقع جواز نسخ كل منهما بالآخر .

الجهة الثانية من جهتي الإشكال في قوله ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ لأنه يقال : ما الحكمة في نسخ المثل ليبدل منه مثله ؟ وأي مزية للمثل على المثل حتى ينسخ ويبدل به ؟

والجواب عن الإشكال الأول – هو أن الخيرية تارة تكون في الأثقل لكثرة الأجر ، وذلك إذا كان الأجر كثيراً جداً والامتثال غير شديد الصعوبة ، كنسخ التخيير بين الإطعام والصوم بإيجاب الصوم .

(127/443)

فإن في الصوم أجراً كثيراً كما في الحديث القدسي " إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به " ، والصائمون من خيار الصابرين . لأنهم صبروا لله عن شهوة بطونهم وفروجهم . والله يقول : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] ومشقة الصوم عادية ليس فيها صعوبة شديدة تكون مظنة لعدم القدرة على الامتثال ، وإن عرض ما يقتضي ذلك كمرض أو سفر . فالتسهيل برخصة الإفطار منصوص بقوله ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : 184] . وتارة تكون الخيرة في الأخف ، وذلك فيما إذا كان الأثقل المنسوخ شديد الصعوبة بحيث يعسر فيه الامتثال . فإن الأخف يكون خيراً منه ، لأن مظنة عدم الامتثال تعرض المكلف للوقوع فيما لا يرضي

الله ، وذلك قوله : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ ﴾ [البقرة : 284] فلو لم تنسخ المحاسبة بخطرات القلوب لكان الامتثال صعباً جداً ، شاقاً على النفوس ، لا يكاد يسلم من الإخلال به ، إلى من سلمه الله تعالى – فلا شك أن نسخ ذلك بقوله : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] خير للمكلف من بقاء ذلك الحكم الشاق ، وهكذا .

والجواب عن الإشكال الثاني – هو أن قوله ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : 106] يراد به مماثلة الناسخ والمنسوخ في حد ذاتيهما . فلا ينافي أن يكون الناسخ يستلزم فوائد خارجة عن ذاته يكون بها خيراً من المنسوخ ، فيكون باعتبار ذاته مماثلاً للمنسوخ ، وباعتبار ما يستلزمه من الفوائد التي لا توجد في المنسوخ خيراً من المنسوخ .

(128/443)

وإيضاحه – أن عامة المفسرين يمثلون لقوله ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ بنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام . فإن هذا الناسخ والمنسوخ بالنظر إلى ذاتيهما متماثلان . لأن كل واحد منهما جهة من الجهات ، وهي في حقيقة أنفسها متساوية ، فلا ينافي أن يكون الناسخ مشتملاً على حكم خارجة عن ذاته تصيره خيراً من المنسوخ بذلك الاعتبار . فإن

استقبال بيت الله الحرام تلزمه نتائج متعددة مشار لها في القرآن ليست موجودة في استقبال بيت المقدس ، منها – أنه يسقط به احتجاج كفار مكة على النّبي صلى اله عليه وسلم بقولهم : تزعم أنك على ملة إبراهيم ولا تستقبل قبلته ! وتسقط به حجة اليهود بقولهم : تعيب ديننا وتستقبل قبلتنا ، وقبلتنا ديننا ! وتسقط به أيضاً حجة علماء اليهو فإنهم عندهم في التوراة : أنه صلى الله عليه وسلم سوف يؤمر باستقبال بيت المقدس ، ثم يؤمر بالتحول عنه إلى استقبال بيت الله الحرام . فلو لم يؤمر بذلك لاحتجوا عليه بما عندهم في التوراة من أنه سيحول إلى بيت الله الحرام ، والفرض أنه لم يحول .

وقد اشار تعالى إلى هذه الحكم التي هي إدخاص هذه الحجج الباطلة بقوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : 150] ثم بين الحكمة بقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة : 150] الآية . وإسقاط هذه الحج من الدواعي التي دعته صلى الله عليه وسلم إلى حب التحويل إلى بيت الله الحرا المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] الآية .

المسالة الخامسة – اعلم أن النسخ على ثلاثة اقسام :

الأول – نسخ التلاوة والحكم معاً ومثاله ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : "كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن . . " الحديث . فآية عشر رضعات منسوخة التلاوة الحكم إجماعاً .

الثاني – نسخ التلاوة وبقاء الحكم ، ومثاله آية الرجم المذكورة آنفاً ، وأية خمس رضعات على قول الشافعي وعائشة ومن وافقهما .

الثالث – نسخ الحكم وبقاء التلاوة ، وهو غالب ما في القرآن من المنسوخ . كآية المصابرة ، والعدة ، والتخيير بين الصوم والإطعام ، وحبس الزواني . كما ذكرنا ذلك كله آنفاً .

المسألة السادسة – اعلم انه لا هلاف بين العلماء في نسخ القران باقرأن ، ونسخ السنة بمتواتر السنة واختلفوا في نسخ القرآن بالسنة كعكسه ، وفي نسخ المتواتر بأخبار الآحاد . وخلافهم فيه هذه المسائل معروف .

وممن قال : بأن الكتاب لا ينسخ إلا بالكتاب ، وأن السنة لا تنسخ إلا بالسنة الشافعي رحمه الله .

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر لي – والله تعالى أعلم – هو أن الكتاب والسنة كلاهما ينسخ بالآخر . لأن الميع وحي من الله تعالى . فمثال نسخ السنة بالكتاب : نسخ استقبال بيت المقدي باستقبال بيت الله الحرام . فإن استقبال بيت المقدس أولاً إنما وقع بالسنة لا

بالقرآن، وقد نسخه الله بالقرآن في قوله: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة: 144] الآية. ومثال نسخ الكتاب بالسنة: نسخ آية عشر رضعات تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. ونسخ سورة الخلع وسورة الحفد تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. وسورة الخلع وسورة الحفد: هما القنوت في الصبح عند المالكية. وقد أوضح صاحب (الدر المنثور) وغيره تحقيق أنهما كانتا سورتين من كتاب الله لم نسختا.

(130/443)

وقد قدمنا (في سورة الأنعام) أن الذي يظهر لنا أنه الصواب: هو أن أخبار الآحاد الصحيحة يجوز نسخ المتواتر بها إذا ثبت تأخرها عنه، وانه لا معارضة بينهما. لأن المتواتر حق، والسنة الورادة بعده إنما بنيت شيئاً جديداً لم يكن موجوداً قبل، فلا معارضة بينهما ألبتة لاختلاف زمنهما.

فقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام: 145] الآية.

يدل بدلالة المطابقة دلالة صريحة على إباحة لحوم الحمر الأهلية.

لصراحة الحصر بالنفي والإثبات في الآية في ذلك. فإذا صرح النّبي صلى الله عليه وسلم

بعد ذلك يوم خيبر في حديث صحيح " بأن لحوم الحمر الأهلية غير مباحة " فلا معارضة البتة بين ذلك الحديث الصحيح وبين تلك الآية النازلة قبله بسنين . لأن الحديث دل على تحريم جديد ، والآية ما نفت تجدد شيء في المستقبل كما هو واضح .

فالتحقيق إن شاء الله – هو جواز نسخ المتواتر بالآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عنه ، وإن خالف فيه جمهور الأصوليين ، ودرج على خلافه وفاقا لجمهور صاحب المراقي بقوله :

والنسخ بالآحاد للكتاب ليس بواقع على الصواب

ومن هنا تعلم – أنه لا دليل على بطلان قول من قال : إن الوصية للوالدين الأقربين منسوخة بحديث ﴿ لا وصية لوارث ﴾ والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة – اعلم أن التحقيق هو جواز النسخ قبل التمكن من الفعل . فإن قيل : ما الفائدة في تشريع الحكم أولاً إذا كان سينسخ قبل التمكن من فعله ؟

فالجواب – أن الحكمة ابتلاء المكلفين بالعزم على الامتثال . ويوضح هذا – أن الله إبراهيم أن يذبح ولده ، وقد نسخ عنه هذا الحكم بفدائه بذبح عظيم قبل أن يتمكن من الفعل . وبين

أن الحكمة في ذلك : الابتلاء بقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 106-107] ومن أمثلة النسخ قبل التمكن من الفعل : نسخ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء ، بعد أن فرضت الصلاة خمسين صلاة ، كما هو معروف . وقد أشار إلى هذا المسألة في مراقي السعود بقوله :

والنسخ من قبل وقوع الفعل . . . جاء وقوعاً في صحيح النقل

المسألة الثامنة – اعلم أن التحقيق : أنه ما كل زيادة على النص تكون نسخاً ، وإن خالف في ذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله . بل الزيادة على النص قسمان :

قسم مخالف النص المذكور قبله ، وهذه الزيادة تكون نسخاً على التحقيق . كزيادة تحريم الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع مثلاً ، على المحرمات الأربعة المذكورة في آية : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام : 145] الاية . لأن الحمر الأهلية وحوها لم يسكت عن حكمه في الآية ، بل مقتضى الحصر بالنفي والإثبات في قوله : ﴿ لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام : 145] الآية – صريح في إباحة الحمر الأهلية وما ذكر معها .

فكون زيادة تحريمها نسخاً أمر ظاهر .

وقسم لا تكون الزيادة فيه مخالفة للنص، بل زيادة شيء سكت عنه النص الأول، وهذا لا يكون نسخاً، بل بيان حكم شيء كان مسكوتاً عنه. كتغريب الزاني البكر، وكالحكم بالشاهد، واليمين في الأموال. فإن القرآن في الأول أوجب الجلد وسكت عما سواه، فزاد النّبي حكماً كان مسكوتاً عنهن وهو التغريب. كما أن القرآن في الثاني فيه ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان ﴾ [البقرة: 282] الآية. وسكت عن حكم الشاهد واليمين، فزاد النّبي صلى الله عليه وسلم حكماً مسكوتاً عنه. وإلى هذا أشار في مراقي السعود بقوله:

وليس نسخاً كل ما أفاد... فيما رسا بالنص إلا ازديادا

وقد قدمنا (في الأنعام) في الكلام على قوله: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ بالحق ﴾ الآية.

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة: أن يقول إن هذا القرآن الذي زعموا أنه افتراء بسبب تبديل الله آية مكان آية - أنه نزل عليه روح القدس من ربه جل وعلا. فليس مفترياً له. وروح القدس: جبريل، ومعناه الروح المقدس. أي الطاهر من كل ما لا يليق.

(133/443)

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 97] الآية، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: 192-195] ، وقوله: ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه: 114] ، وقوله: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: 16-18] ، إلى غير ذلك من الآيات. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(134/443)

وقال ابن عاشور:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

استمرّ الكلام على شأن القرآن وتنزيهه عما يوسوسه الشيطان في الصدّ عن متابعته.

ولما كان من أكبر الأغراض في هذه السورة بيان أن القرآن منزل من عند الله ، وبيان فضله وهديه فابتدىء فيها بآية ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾ [سورة النحل : 2] ، ثم قفّيت بما اختلقه المشركون من الطّعن فيه بعد تنقلات جاء فيها ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ [سورة النحل : 24] ، وأتبع ذلك بتنقلات بديعة فأُعيد الكلام على القرآن وفضائله من قوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه ﴾ [سورة النحل : 64] ثم قوله ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ [سورة النحل : 89] .

وجاء في عقب ذلك بشاهد يجمع ما جاء به القرآن ، وذلك آية ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ [سورة النحل : 90] ، فلما استقرّ ما يقتضي تقرّر فضل القرآن في النفوس نبّه على نفاسته ويمنه بقوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [سورة النحل : 98] ، لا جرم تهيأ المقام لإبطال اختلاق آخر من اختلاقهم على القرآن اختلاقاً مموّهاً بالشبهات كاختلاقهم السابق الذي أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ [سورة النحل : 24] .

ذلك الاختلاق هو تعمّدهم التّمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفاً لآيات أخرى لاختلاف المقتضي والمقام .

والمغايرة باللين والشدّة، أو بالتعميم والتخصيص، ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلّق بها، فيتّخذون من ظاهر ذلك دون وضعه مواضعه وحمله محاملهُ مغامز يتشدّقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطراباً من القول ويزعمونه شاهداً باقتداء قائله في إحدى المقالتين أو كلتيهما.

وبعض ذلك ناشئ عن قصور مداركهم عن إدراك مرامي القرآن وسموّ معانيه، وبعضه ناشئ عن تعمّد للتجاهل تعلّقاً بظواهر الكلام يلبّسون بذلك على ضعفاء الإدراك من أتباعهم، ولذلك قال تعالى: بل أكثرهم لا يعلمون ﴾، أي ومنهم من يعلمون ولكنهم يكابرون.

روي عن ابن عباس أنه قال: "كان إذا نزلت آية فيها شدّة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمرٍ وغداً ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه" أهـ.

وهذه الكلمة أحسن ما قالهُ المفسّرون في حاصل معنى هذه الآية.

فالمراد من التبديل في قوله تعالى: ﴿ بدلنا ﴾ مطلقُ التغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها.

والمرد بالآية الكلام التام من القرآن، وليس المراد علامة صدق الرسول صلى الله عليه

وسلم أعني المعجزة بقرينة قوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ .

فيشمل التبديل نُسخ الأحكام مثل نسخ قوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾

[سورة الإسراء : 110] بقوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ [سورة الحجر : 94] .

وهذا قليل في القرآن الذي يقرأ على المشركين لأن نسخ الأحكام إنما كثر بعد الهجرة حين تكوّنت الجامعة الإسلامية ، وأما نسخُ التلاوة فلم يرد من الآثار ما يقتضي وقوعه في مكّة فمن فسّر به الآية كما نقل عن مجاهد فهو مشكل .

ويشمل التعارض بالعموم والخصوص ونحو ذلك من التعارض الذي يحمل بعضه على بعض ، فيفسّر بعضه بعضاً ويؤوّل بعضه بعضاً ، كقوله تعالى : ﴿ والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ في سورة الشورى (5) مع قوله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ في سورة المؤمن (7) ، فيأخذون بعموم ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [سورة الشورى : 5]

فيجعلونه مكذّباً لخصوص ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [سورة غافر : 7] فيزعمونه إعراضاً عن أحد الأمرين إلى الأخير منهما .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ [سورة المزمل : 10] يأخذون من ظاهره أنه أمر بمتاركتهم فإذا جاءت آيات بعد ذلك لدعوتهم وتهديدهم زعموا أنه انتقض كلامه وبدا له ما لم يكن يبدو له من قبل .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ [سورة الأحقاف : 9] مع آيات وصف عذاب المشركين وثواب المؤمنين .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [سورة الإسراء : 15] مع قوله تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [سورة النحل : 25] ومن هذا ما يبدو من تخالف باديء الأمر كقوله بعد ذكر خلق الأرض ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ في [سورة فصلت : 11] مع قوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ من سورة النازعات (30) ، فيحسبونه تناقضاً مع الغفلة عن محمل بعد ذلك من جعل (بعد) بمعنى (مع) وهو استعمال كثير ، فهم يتوهّمون التناقض مع جهلهم أو تجاهلهم بالوَحَدات الثماني المقرّرة في المنطق .

فالتبديل في قوله تعالى : بدلنا ﴾ هو التعويض ببدل ، أي عوض .

والتعويض لا يقتضي إبطال المعوّض بفتح الواو بل يقتضي أن يجعل شيء عوضاً عن شيء .

وقد يبدو للسامع أن مثل لفظ المعوّض بفتح الواو جعل عِوضاً عن مثل لفظ العوض بالكسر في آيات مختلفة باختلاف الأغراض من تبشير وإنذار ، أو ترغيب وترهيب ، أو إجمال وبيان ، فيجعله الطاعنون اضطراباً لأن مثله قد كان بُدل ولا يتأملون في اختلاف الأغراض .

وقد تقدم شيء من هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ ائت بقرآن غيرِ هذا أو بدّله ﴾ في سورة يونس (15) .

ومكان آية ﴾ منصوب على الظرفية المكانية بأن تأتي آية في الدعوة والخطاب في مكان آية أخرى أتت في مثل تلك الدعوة ، فالمكان هنا مكان مجازي ، وهو حالة الكلام والخطاب ، كما يسمّى ذلك مقاماً ، فيقال : هذا مقام الغضب ، فلا تأت فيه بالمزح .

وليس المرَاد مكانَها من ألواح المُصْحَف ولا بإبدالها مَحوُها منه .

وجملة ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ معترضة بين شرط ﴿ إذا ﴾ وجوابها .

والمقصود منها تعليم المسلمين لا الردّ على المشركين ، لأنهم لو علموا أن الله هو المنزل للقرآن لارتفع البهتان .

والمعنى : أنه أعلم بما ينزل من آية بدل آية ، فهو أعلم بمكان الأولى ومكان الثانية ومحملِ كلتيهما ، وكل عنده بمقدار وعلى اعتبار .

وقرأ الجمهور ﴿ بما ينزل ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي .

وحكاية طعنهم في النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة قصر الموصوف على الصّفة ، فجعلوه لا صفة له إلا الافتراء ، وهو قصر إضافي ، أي لستَ بمرسل من الله .

وهذا من مجازفتهم وسرعتهم في الحكم الجائر فلم يقتصروا على أن تبديله افتراء بل جعلوا الرسول مقصوراً على كونه مفترياً لإفادة أن القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء .

وأصل الافتراء : الاختراع ، وغَلَب على اختراع الخبر ، أي اختلاقه ، فساوَى الكذب في المعنى ، ولذلك قد يطلق وحده كما هنا ، وقد يطلق مقترناً بالكذب كقوله الآتي : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ [سورة النحل : 105] إرجاعاً به إلى أصل الاختراع فيجعل له مفعول هو آيل إلى معناه فصار في معنى المفعول المطلق .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في [سورة

العقود : 103] .

و﴿ بل ﴾ للإضراب الإبطالي على كلامهم ، وهو من طريقة النقض الإجمالي في علم المناظرة .

وضمير ﴿ أكثرهم ﴾ للذين قالوا إنما أنت مفتر ، أي ليس كما قالوا ولكن أكثر القائلين ذلك لا يعلمون ، أي لا يفهمون وضع الكلام مواضعه وحَمله محامله .

وفهم من الحكم على أكثرهم بعدم العلم أن قليلاً منهم يعلمون أن ذلك ليس افتراء ولكنهم يقولون ذلك تلبيساً وبهتاناً ولا يعلمون أن التّنزيل من عند الله لا ينافي إبطال بعض الأحكام إذا اختلفت المصالح أو روعي الرّفق .

ويجوز حمل لفظ أكثر على إرادة جميعهم كما تقدّم في هذه السورة .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) ﴾

جواب عن قولهم : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ [سورة النحل : 101] فلذلك فصل فعل قل ﴿ لوقوعه في المحاورة ، أي قل لهم : لسْت بمفتر ولا القرآن بافتراء بل نزّله روح القدس من الله .

وفي أمره بأن يقول لهم ذلك شدّ لعزمه لكيلا يكون تجاوزه الحدّ في البهتان صارفاً إيّاه عن محاورتهم .

فبعد أن أبطل الله دعواهم عليه أنه مفتر بطريقة النّقض أمر رسوله أن يبيّن لهم ماهيّة القرآن.

(139/443)

وهذه نكتة الالتفات في قوله تعالى: ﴿ من ربك ﴾ الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حكاية المقول المأمور بأن يقوله، لأن مقتضى الظاهر أن يقول: من ربي، فوقع الالتفات إلى الخطاب تأنيساً للنبيء صلى الله عليه وسلم بزيادة توغّل الكلام معه في طريقة الخطاب.

واختير اسم الربّ لما فيه من معنى العناية والتدبير.

و﴿ روح القدس ﴾: جبريل.

وتقدّم عند قوله تعالى ﴿ وأيّدناه بروح القدس ﴾ في سورة البقرة (87).

والروح: المَلَك، قال تعالى: ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ [سورة مريم: 17]، أي ملَكاً من ملائكتنا.

والقُدس ﴾: الطُهر.

وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر.

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصّفة، كقولهم: حاتم الجود، وزيد

الخَير.

والمراد: حَاتم الجواد، وزيد الخيّر.

فالمعنى: الملك المقدس.

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة، وهي ظرف مستقرّ في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿ نزله ﴾ مثل ﴿ تَنبُتُ بالدُهن ﴾ [سورة المؤمنون: 20]، أي ملابساً للحقّ لا شائبة للباطل فيه.

وذكرت علّة من عِلل إنزال القرآن على الوصف المذكور، أي تبديل آية مكان آيةٍ، بأن في ذلك تثبيتاً للذين آمنُوا إذ يفهمون محمل كل آية ويهتدون بذلك وتكون آيات البشرى بشارة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر.

ففي قوله تعالى: ﴿ نزله روح القدس من ربك ﴾ إبطال لقولهم: ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ [سورة النحل: 101]، وفي قوله تعالى؛ ﴿ بالحق ﴾ إيقاظ للناس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنها حقّ.

وفي التعليل بحكمة التثبيت والهدى والبُشرى بيانٌ لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي، وأنه تثبيت لقلوبهم بصحة اليقين وهدًى وبشرى لهم.

وفي تعلّق الموصولِ وصلته بفعل التثبيت إيماء إلى أن حصول ذلك لهم بسبب إيمانهم، فيفيد تعريضاً بأن غير المؤمنين تقصر مداركهم عن إدراك ذلك الحقّ فيختلط عليهم الفهم ويزدادون كفراً ويضلّون ويكونُ نذارة لهم.

والمراد بالمسلمين الذين آمنوا، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف.

وقوله تعالى: ﴿ وهدى وبشرى ﴾ عطف على الجار والمجرور من قوله: ﴿ ليثبت ﴾، فيكون ﴿ هدى وبشرى ﴾ مصدرين في محل نصب على المفعول لأجله، لأن قوله ﴿ ليثبت ﴾ وإن كان مجرور اللفظ باللام إذ لا يسوغ نصبه على المفعول لأجله لأنه ليس مصدراً صريحاً.

وأما ﴿ هدى وبشرى ﴾ فلما كانا مصدرين كانا حقيقين بالنصب على المفعول لأجله بحيث لو ظهر إعرابهما لكانا منصوبين كما في قوله تعالى: ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ [سورة النحل: 8]. انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(141/443)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ ومنها : أبدلت واستبدلْتُ ، أي : رفعتُ آية وطرحتُها . وجئت بأخرى بدلاً منها ، وقد تدخل الباء على الشيء المتروك ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ . . ﴾ [البقرة : 61] .

أي : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية ؟ كلمة آية لها مَعَانٍ متعددة منها :

الشيء العجيب الذي يُلفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول : هذا آية في الجمال ، أو في الشجاعة ، أو في الذكاء ، أي : وصل فيه إلى حَدّ يدعو إلى التعجُّب والانبهار .

ومنها الآيات الكونية ، حينما تتأمل في كون الله من حولك تجد آياتٍ تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [فصلت : 37] . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام ﴾ [الشورى : 32] .

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبّدل ، كما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً . . ﴾ [الفتح : 23] .

ومن معاني الآية : المعجزة ، وهي الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتي المعجزة على أيدي الأنبياء لتكون حُجّة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ في هذا النوع من الآيات أنه يتبدّل ويتغيّر من نبي لآخر ؛ لأن المعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان في شيء نبغ فيه القوم ؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة في مجال لا عِلْمَ لهم به لقالوا : لو أن لنا عِلْماً بهذا لأتيْنا بمثله ؛ لذلك تأتي المعجزة فيما نبغوا فيه ، وعَلموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغَ قوم موسى عليه السلام في السحر كانت معجزته من نوع السحر الذي يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى عليه السلام ونبغ قومه في الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان عليه السلام يبريء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

فلما بُعِث محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبغ قومه في البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلّقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازاً بها ، فكان لا بُدَّ أنْ يتحدّاهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه وهي القرآن الكريم ، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كُلٌّ منها حال القوم ، وتتحدّاهم بما اشتهروا به ، لتكون أَدْعى للتصديق وأثبت

للحجة .

ومن معاني كلمة آية : آيات القرآن الكريم التي نُسميّها حاملة الأحكام ، فإذا كانت الآية هي الأمر العجيب ، فما وجه العجب في آيات القرآن ؟

وجه العجب في آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات في أُمّة أُمية ، وأُنزِلتْ على نبي أُميّ في قوم من البدو الرُّحل الذين لا يجيدون شيئاً غير صناعة القول والكلام الفصيح ، ثم تجد هذه الآيات تحمل من القوانين والأحكام والآداب ما يُرهب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما حضارة فارس في الشرق ، وحضارة الرومان في الغرب ، فنراهم يتطّلعون للإسلام ، ويبتغون في أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا عجيباً ؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التي هي آيات الكتاب الكريم ، والتي نُسمّيها حاملة الأحكام ، هل تتبدّل هي الأخرى كسابقتها ؟

نقول : آيات الكتاب لا تتبدّل ؛ لأن أحكام الله المطلوبة مِمَّن عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأحكام المطلوبة مِمَّنْ تقوم عليه الساعة .

وقد سُبق الإسلام باليهودية والمسيحية، فعندنا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة. اعترض على ذلك اليهود وقالوا: ما بال محمد لا يثبتُ على حال، فيأمر بالشيء اليوم، ويأمر بخلافه غداً، فإنْ كان البيت الصحيح هو الكعبة فصلاتكم لبيت المقدس باطلة، وإنْ كان بيت المقدس هو الصحيح، فصلاتكم للكعبة باطلة.

لذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. ﴾ [النحل: 101].

فالمراد بقوله الحق سبحانه:

﴿ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ... ﴾ [النحل: 101].

أي: جِئْنا بآية تدلُّ على حكم يخالف ما جاء في التوراة، فقد كان استقبال الكعبة في القرآن بدل استقبال بيت المقدس في التوراة.

وقوله: ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. ﴾ [النحل: 101]

أي: يُنزل كل آية حَسْب ظروفها: أمةً وبيئةً ومكاناً وزماناً.

وقوله: ﴿ قالوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. ﴾ [النحل: 101].

أي: اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب المتعمد، وأن هذا التحويل من عنده

، وليس وَحْياً من الله تعالى ؛ لأن أحكام الله لا تتناقض . ونقول : نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض في الدين الواحد ، أما إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القرآن الكريم لا تتبدّل ، ولكن يحدث فيها نَسْخ ، كما قال الحق تبارك وتعالى :
﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . ﴾ [البقرة : 106] .
وإليك أمثلة للنسْخ في القرآن الكريم :
حينما قال الحق سبحانه : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم . . ﴾ [التغابن : 16] .

(144/443)

جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل ، فالمشرّع سبحانه حين يرى أن الاستطاعةَ لا تكفي يُخفّف عنّا الحكم ، حتى لا يُكلّفنا فوق طاقتنا ، كما في صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . . ﴾ [البقرة : 286] .
وقال : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : 7] .
فليس لنا بعد ذلك أنْ نلويَ الآيات ونقول : إن الحكم الفلاني لم تَعُدْ النفس تُطيقه ولم يَعُد في وُسْعنا ، فالحق سبحانه هو الذي يعلم الوُسْع ويُكلّف على قَدْره ، فإنْ كان قد كلّف فقد

علم الوُسْع ، بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خفَّف عنكم من تلقاء نفسه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً . . ﴾ [الأنفال : 66] .

ففي بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : 65] .

أي : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضَعْفاً ، قال : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ . . ﴾ [الأنفال : 66] .

أي : نسبة واحد إلى اثنين . فالله تعالى هو الذي يعلم حقيقة وُسْعنا ، ويُكلّفنا بما نقدر عليه ، ويُخفّف عَنَّا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أنْ نُقحِم أنفسنا في هذه القضية ، ونُقدّر نحن الوُسْع بأهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُنْتَه ذاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ . . ﴾ [البقرة: 180].

فلما استقر الإيمان في النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً، وغَيَّر الحكم من الوصية إلى خير منها وهو الميراث، فقال تعالى: ﴿ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السدس . . ﴾ [النساء: 11].

إذن: الحق تبارك وتعالى حينما يُغيّر آية ينسخها بأفضل منها.

وهذا واضح في تحريم الخمر مثلاً، حيث نرى هذا التدريج المحكم الذي يراعي طبيعة النفوس البشرية، وأن هذا الأمر من العادات التي تمكَّنَتْ من النفوس، ولا بُدَّ لها من هذا التدرُّج، فهذا ليس أمراً عَقَدياً يحتاج إلى حُكْم قاطع لا جدال فيه.

فانظر إلى هذا التدرج في تحريم الخمر: قال تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ [النحل: 67].

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا: لقد بيَّت الله للخمر أمراً في هذه الآية؛ ذلك لأنه وصف الرزق بأنه حَسَن، وسكت عن السَّكَر فلم يصفه بالحُسْن، فدلَّ ذلك على أن الخمر سيأتي فيه كلام فيما بعد.

وحينما سُئِل صلى الله عليه وسلم عن الخمر ردَّ القرآن عليهم: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . ﴾ [البقرة: 219].

جاء هذا على سبيل النصح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مَخْرجاً من أَسرْ هذه العادة السيئة .

(146/443)

ثم لُوحِظ أن بعض الناس يُصلي وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون ، فجاء الحكم : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . ﴾ [النساء : 43] .

ومقتضى هذا الحكم أنْ يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تتأتى لهم الصلاة دون سُكْر إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كافٍ ، وهكذا عوّدهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذي يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكّن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة ألَفَتْ فيها تَرْك الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مُهيّئة لتقبُّل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه . . ﴾ [المائدة : 90] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحُكْماً بما هو أحسن منه .

والعجيب أنْ نرى من علمائنا مَنْ يتعصّب للقرآن ، فلا يقبل القول بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . ﴾ [البقرة : 106] .

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمَّى البداء . . ففي النسخ كأن الله تعالى أعطى حُكْماً ثم تبيّن له خطؤه ، فعدل عنه إلى حُكْم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب في هذا القول ، فمعنى النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا المعنى يقع النسخ في القرآن الكريم .

ومنهم مَنْ يقف عند قوه الحق تبارك وتعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . ﴾ [البقرة : 106] .

فيقول : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ فيها عِلّة للتبديل ، وضرورة تقتضي النسخ وهي الخيرية ، فما عِلّة التبديل في قوله : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ؟

أولاً : في قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا لم يَأْتِ بالخيرية من البداية؟

نقول : لأن الحق سبحانه حينما قال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ . . ﴾ [آل عمران : 102] .

وهذه منزلة عالية في التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ، شَقَّتْ هذه الآية على الصحابة وقالوا : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله؟

فنزلت : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم . . ﴾ [التغابن : 16] .

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الأولى مطلوباً ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فَمنْ أراد أنْ يرتقي بتقواه إلى (حَقّ تُقَاتِهِ) فبها ونِعْمت ، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ . . . ﴾ [آل عمران : 102] .

وإنْ كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قِلّة ، في حين أن الثانية : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم . . ﴾ [التغابن : 16] .

وإنْ جعلتَ التقوى على قَدْر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ، ومن هنا كانت الثانية خَيْراً من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أي: أن الأولى مِثْل الثانية، فما وَجْه التغيير هنا، وما سبب التَبديل؟

نقول: سببه هنا اختبار المكلَّف في مدى طاعته وانصياعه، إنْ نُقِل من أمر إلى مثله، حيث لا مشقَّة في هذا، ولا تيسيرَ في ذاك، هل سيمتثل ويطيع، أم سيجادل ويناقش؟

(148/443)

مثل هذه القضية واضحة في حادث تحويل القبلة، حيث لا مشقة على الناس في الاتجاه نحو بيت المقدس، ولا تيسير عليهم في الاتجاه نحو الكعبة، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله، فكان من الناس مَنْ قال: سمعاً وطاعة ونفّذوا أمر الله فوراً دون جدال، وكان منهم مَن اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله.

ومن ذلك أيضاً ما نراه في مناسك الحج مما سنَّه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث نُقبل الحجر الأسعد وهو حجر، ونرمي الجمرات وهي أيضاً حجر، إذن: هذه أمور لا مجال للعقل فيها، بل هي لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى.

ثم يقول تعالى:

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 101].

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ، فالحق سبحانه وتعالى يُلغي كلامهم السابق :

﴿ قالوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ . . . ﴾ [النحل : 101] .

ويقول لهم : لا ليس بمفترٍ ولا كذاب ، فهذا اتهام باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ هنا ليس بالضرورة أنْ تقابل بالأقل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون . وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء في قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . ﴾ [الحج : 18] .

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمنه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حَقَّ عليه العذاب ، فلم يقُلْ القرآن : وقليل حَقَّ عليه العذاب .

وعلى فَرْض أن :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 101] .

إذن : هناك أقلية تعلم صِدْق رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صِدْق كل آية في مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية .

فَمنْ هم هؤلاء الذين يعلمون في صفوف الكفار والمشركين ؟

قالوا : لقد كان بين هؤلاء قَوْم أصحاب عقول راجحة ، وفَهْم للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب في هذه المسألة ، ولكنهم أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

وأيضاً من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون في الهدى ، ويُراودهم الإسلام ، وكأن لديهم مشروعَ إسلام يُعِدون أنفسهم له ، وهم على علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضاً من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التي تدفع عنهم ، والعصبية التي تردّ عنهم كَيْد الكفار ، وليس عندهم أيضاً طاقة أنْ يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم مؤمنون ويعلمون صِدْق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرة لهم على إعلان إيمانهم .

وفي هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ

عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾ [الفتح : 24-25] .

(150/443)

أي : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم . ﴿ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفتح : 25] .

أي : لو كانوا مُميّزين ، الكفار في جانب ، والمؤمنون في جانب لَعذَّبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإنّ غير الأكثرية يعلم أنهم كاذبون في قولهم :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل : 101] .

وما داموا اتهموك بالافتراء فقُلْ رداً عليهم :

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) ﴾

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يرد على الكفار افتراءهم على رسول الله ، واتهامهم له بالكذب المتعمد ، وأنه جاء بهذه الآيات من نفسه ، فقال له : يا محمد قُلْ لهؤلاء : بل نزَّله روح القُدس .

والقدس : أي المطهّر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول : حاتم الجود مثلاً . والمراد ب " روح القُدُس " سفير الوحي جبريل عليه السلام ، وقد قال عنه في آية أخرى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] .

وقال عنه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 19-21] .

وقوله الحق سبحانه :

﴿ مِن رَّبِّكَ بالحق . . . ﴾ [النحل : 102] .

أي : أن جبريل لم يأتِ بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمُحمد صلى الله عليه وسلم لم يَأْتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

﴿ لِيُثَبِّتَ الذين آمَنُواْ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : 102] .

أي : لِيُثبِّتَ الذين آمنوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلمُ بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسِبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفي هذا دليلٌ على أن المؤمنين طائعون مُنصَاعون لله تعالى مُصدِّقون للرسول صلى الله عليه وسلم في كُلِّ ما بلغ عن ربه تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(152/443)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

أخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ وقوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ [النحل : 110] قال : عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار . وأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يقتل يوم الفتح ، فاستجار له عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاره .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ قال : هو كقوله ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ [البقرة : 106] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ قال : هذا في الناسخ والمنسوخ. قال : إذا نسخنا آية وجئنا بغيرها . قالوا ما بالك ؟ قلت : كذا وكذا ، ثم نقضته أنت تفتري . قال الله : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(153/443)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ : في هذه الجملةِ وجهان ، أظهرهما : أنها اعتراضيةٌ بين الشرطِ وجوابه . والثاني : أنها حاليةٌ ، وليس بظاهرٍ . وقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ نسبوا إليه صلى الله عليه وسلم الافتراءَ بأنواعٍ من المبالغات : الحصرِ والخطابِ واسمِ

الفاعل الدالّ على الثبوتِ والاستقرار . ومفعول "لا يَعْلمون" محذوفٌ للعلمِ به ، أي : لا يعلمون أنّ في نَسْخِ الشرائع وبعضِ القرآن حِكَماً بالغة .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُثَبِّتَ ﴾ : متعلقٌ ب "نَزَّلَه" . و "هدى وبشرى" يجوز أَنْ يكونا عطفاً على محلِ "لِيُثَبِّتَ" فيُنْصبان ، أو على لفظِه باعتبارِ المصدرِ المُؤَوَّلِ فيُجَرَّان . وقد تقدَّم كلامُ الزمخشريّ في نظيرِهما ، وما ردَّ به الشيخُ ، وما رُدَّ به عليه . وجوَّز أبو البقاء ارتفاعَهما خَبَرَيْ مبتدأ محذوفٍ ، أي : وهو هُدَىً ، والجملةُ حالٌ .

وقرئ "لِيُثْبِتَ" مخففاً مِنْ أَثْبتَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 286 . 287﴾

(154/443)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

﴿ (101) ﴾

ما زادوا في طول مدتهم إلا شكاً على شكٍ، وجحدوا على جحدٍ، وجرَوْا على منهاجهم في التكذيب، فلم يُصَدِّقوه صلى الله عليه وسلم، وما زادوا في ولايته إلا شكاً ومُرْية:

وكذا الملولُ إذا أَرَادَ قطيعةً... مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾: ردٌّ على فرط جهلهم بربهم، وبُعْدِ رتبتهم عن التحصيل، فلمّا كانوا متفرقين في شهود المَلِكِ رُدُّوا في حين التعريف إليهم بِذِكْرِ المَلَكِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 321﴾

(155/443)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما نقض شبههم هذه إشارة وعبارة بما فضحهم ، نقض لهم شبهة أخرى بأوضح من ذلك وأفضح فقال تعالى : ﴿ ولقد نعلم ﴾ أي علماً مستمراً ﴿ أنهم يقولون ﴾ أي أيضاً قولاً متكرراً لا يزالون يلهجون به ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ وهم يعلمون أن ذلك سفساف من القول ؛ ثم استأنف الرد عليهم فقال تعالى : ﴿ لسان ﴾ أي لغة وكلام ﴿ الذين يلحدون ﴾ أي يميلون أو يشيرون ﴿ إليه ﴾ بإن علمه إياه ، مائلين عن القصد جائرين عادلين عن الحق ظالمين ﴿ أعجمي ﴾ أي غير لغة العرب ، وهو مع ذلك ألكن في النادية غير بين ، وهو غلام كان نصرانياً لبعض قريش اختلف في اسمه ، وهذا التركيب وضع في لسان العرب للإبهام والإخفاء ، ومنه عجم الزبيب - لاستتاره ، والعجماء : البهيمة - لأنها لا تقدر على أيضاح ما في نفسها ، وأما أعجمت الكتاب فهو للإزالة .

﴿ وهذا ﴾ أي القرآن ﴿ لسان عربي مبين ﴾ أي هو من شدة بيانه مظهر لغيره أنه ذو بيان عظيم ، فلو أن المعلم عربي للزمهم أن لا يعجزوا عن الإتيان بمثل ما علم ، فكيف وهو أعجمي .

فلما بانت بهذا فضيحتهم ، كان كأنه قيل : إن من العجب إقدامهم على مثل هذا العار وهم يدعون النزاهة ؟ فأجاب بقوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون ﴾ أي يصدقون كل تصديق معترفين ﴿ بآيات الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها ﴿ لا يهديهم الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الغنى المطلق ، بل يضلهم عن القصد ، فلذلك يأتون بمثل هذه الخرافات

فأبشر لمن بالغ في العناد ، بسد باب الفهم والسداد .

ولما كان ربما توهم أنه لكونه هو المضل لا يتوجه اللوم عليهم نفى ذلك بقوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي بذلك ، لمباشرتهم له مع حجب المراد عنهم وخلق القدرة لهم ، إجراء على عوائد بعض الخلق مع بعض .

ولما زيف شبههم ، أثبت لهم ما قذفوه به وهو بريء منه مقصوراً عليهم ، فقال تعالى :

﴿ إنما يفتري ﴾ أي يتعمد ﴿ الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد منهم الإيمان ﴿ بآيات الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ، فإن ردهم لما قام الدليل على أنه حق وعجزوا عنه تعمد منهم للكذب ؛ ثم قصر الكذب عليهم فقال : ﴿ وأولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الكاذبون ﴾ أي العريقون في الكذب ظاهراً وباطناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 313 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾

اعلم أن المراد من هذه الآية حكاية شبهة أخرى من شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم كانوا يقولون إن محمداً إنما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات لأنه يستفيدها من إنسان آخر ويتعلمها منه .

واختلفوا في هذا البشر الذي نسب المشركون النبي صلى الله عليه وسلم إلى التعلم منه قيل : هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له يعيش ، وكان يقرأ الكتب ، وقيل : عداس غلام عتبة بن ربيعة ، وقيل : عبد لبني الحضرمي صاحب كتب ، وكان اسمه جبرا ، وكانت قريش تقول : عبد بني الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمداً ، وقيل : كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ويقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية وقيل : سلمان الفارسي ، وبالجملة فلا فائدة في تعديد هذه الأسماء والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه .

ثم إنه تعالى أجاب عنه بأن قال : ﴿ لِّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ومعنى الإلحاد في اللغة الميل يقال : لحد وألحد إذا مال عن القصد ، ومنه يقال للعادل عن الحق ملحد .

وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ يَلْحِدُونَ ﴾ بفتح الياء والحاء ، والباقون بضم الياء وكسر الحاء قال الواحدي : والأولى ضم الياء لأنه لغة القرآن ، والدليل عليه قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ [الحج : 25] والإلحاد قد يكون بمعنى الإمالة ، ومنه يقال : ألحدت له لحداً إذا حفرته في جانب القبر مائلاً عن الاستواء وقبر ملحد وملحود ، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن دين إلى دين آخر وفسر الإلحاد في هذه الآية بالقولين : قال الفراء : يميلون من الميل ، وقال الزجاج : يميلون من الإمالة ، أي لسان الذين يميلون القول إليه أعجمي ، وأما قوله : ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ فقال أبو الفتح الموصلي : تركيب ع ج م وضع في كلام العرب للإبهام والإخفاء ، وضد البيان والإيضاح ، ومنه قولهم : رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان ، وعجم الذنب سمي بذلك لاستتاره واختفائه ، والعجماء البهيمة لأنها لا توضح ما في نفسها ، وسموا صلاتي الظهر والعصر عجماوين ، لأن القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر ، فأما قولهم : أعجمت الكتاب فمعناه أزلت عجمته ، وأفعلت قد يأتي والمراد منه السلب كقولهم : أشكيت فلاناً إذا أزلت ما يشكوه ، فهذا هو الأصل في هذه الكلمة ، ثم إن العرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بلسانهم أعجم

وأعجمياً .

قال الفراء وأحمد بن يحيى : الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمي والعجمي الذي أصله من العجم قال أبو علي الفارسي : الأعجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم ، ألا ترى أنهم قالوا : زيادة الأعجم لأنه كانت في لسانه عجمة مع أنه كان عربياً ، وأما معنى العربي واشتقاقه فقد ذكرناه عند قوله : ﴿ الأعراب أَشَدّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة : 97] وقال الفراء والزجاج : في هذه الآية يقال عرب لسانه عرابة وعروبة هذا تفسير ألفاظ الآية .

(159/443)

وأما تقرير ووجه الجواب فاعلم أنه إنما يظهر إذا قلنا : القرآن إنما كان معجزاً لما فيه من الفصاحة العائدة إلى اللفظ وكأنه قيل : هب أنه يتعلم المعاني من ذلك الأعجمي إلا أن القرآن إنما كان معجزاً لما في ألفاظه من الفصاحة فبتقدير أن تكونوا صادقين في أن محمداً صلى الله عليه وسلم يتعلم تلك المعاني من ذلك الرجل إلا أنه لا يقدح ذلك في المقصود إذ القرآن إنما كان معجزاً لفصاحته وما ذكرتموه لا يقدح في ذلك المقصود ، ولما ذكر الله تعالى هذا الجواب أردفه بالتهديد والوعيد ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله لاَ يَهْدِيهِمُ

الله ﴾ أما تفسير أصحابنا لهذه الآية فظاهر ، وقال القاضي : أقوى ما قيل في ذلك إنه لا يهديهم إلى طريق الجنة ، ولذلك قال بعده : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والمراد أنهم لما تركوا الإيمان بالله لا يهديهم الله إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار ، ثم إنه تعالى بين كونهم كذابين في ذلك القول فقال : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المقصود منه أنه تعالى بين في الآية السابقة أن الذي قالوه بتقدير أن يصح لم يقدح في المقصود ، ثم إنه تعالى في هذه الآية أن الذي قالوه لم يصح وهم كذبوا فيه ، والدليل على كونهم كاذبين في ذلك القول وجوه : الأول : أنهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كافرون ، ومتى كان الأمر كذلك كانوا أعداء للرسول صلى الله عليه وسلم وكلام العدا ضرب من الهذيان ولا شهادة لمتهم .

والثاني : أن أمر التعلم لا يتأتى في جلسة واحدة ولا يتم في الخفية ، بل التعلم إنما يتم إذا اختلف المعلم إلى المتعلم أزمنة متطاولة ومدداً متباعدة ، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق أن محمداً عليه السلام يتعلم العلوم من فلان وفلان .

الثالث : أن العلوم الموجودة في القرآن كثيرة وتعلمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلم في غاية الفضل والتحقيق ، فلو حصل فيهم إنسان بلغ في التعليم والتحقيق إلى هذا الحد لكان مشاراً إليه بالأصابع في التحقيق والتدقيق في الدنيا ، فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان ؟

واعلم أن الطعن في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمثال هذه الكلمات الركيكة يدل على أن الحجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ظاهرة باهرة ، فإن الخصوم كانوا عاجزين عن الطعن فيها ، ولأجل غاية عجزهم عدلوا إلى هذه الكلمات الركيكية .

المسألة الثانية :

في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش والدليل عليه أن كلمة "إنما" للحصر ، والمعنى : أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى ، وإلا من كان كافراً وهذا تهديد في النهاية .

فإن قيل : قوله : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ فعل وقوله : ﴿ وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ اسم وعطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية قبيح فما السبب في حصوله ههنا ؟

قلنا : الفعل قد يكون لازماً وقد يكون مفارقاً ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِينٍ ﴾ [يوسف : 35] ذكره بلفظ الفعل ، تنبيهاً على أن ذلك السجن لا يدوم .

وقال فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] ذكره بصيغة الاسم تنبيهاً على الدوام ، وقال أصحابنا : إنه تعالى قال : ﴿ وعصى ءَادَمَ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] ولا يجوز أن يقال إن آدم عاص وغاوٍ ، لأن صيغة الفعل لا تفيد الدوام ، وصيغة الاسم تفيده .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : قوله : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ ذكر ذلك تنبيهاً على أن من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر ، ثم قال : ﴿ وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ تنبيهاً على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة .

وهذا كما تقول : كذبت وأنت كاذب فيكون قولك وأنت كاذب زيادة في الوصف بالكذب .

ومعناه : أن عادتك أن تكون كاذباً .

المسألة الثانية :

ظاهر الآية يدل على أن الكاذب المفتري الذي لا يؤمن بآيات الله والأمر كذلك ، لأنه لا معنى للكفر إلا إنكار الإلهية ونبوة الأنبياء ، وهذا الإنكار مشتمل على الكذب والافتراء .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : " لا " ثم قرأ هذه الآية ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 94. 96 ﴾

(162/443)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمُه بشرٌ ﴾

اختلف في اسم من أراده المشركون فيما ذكروه من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أربعة أقاويل :

أحدها : أنه بلعام وكان قيناً بمكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه يعلمه ، فاتهمته قريش أنه كان يتعلم منه ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه كان عبداً أعجمياً لامرأة بمكة ، يقال له أبو فكيهة ، كان يغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقرأ عليه ويتعلم منه ، فقالوا لمولاته احبسيه فحبسْته ، وقالت له : اكنس البيت وكل كناسته ، ففعل وقال : والله ما أكلت أطيب منه ولا أحلى ، وكان يسأل مولاته بعد ذلك أن تحبسه فلا تفعل .

الثالث : أنهما غلامان لبني الحضرمي ، وكانا من أهل عين التمر صيقلين يعملان السيوف

اسم أحدها يسار ، والآخر جبر ، وكانا يقرآن التوراة ، وكان رسول الله ربما جلس إليهما ، قاله حصين بن عبد الله بن مسلم .

الرابع : أنه سلمان الفارسي ، قاله الضحاك .

﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ في يلحدون تأويلان : أحدهما : يميلون إليه .

الثاني : يعترضون به ، يعني أن لسان من نسبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التعلم منه أعجمي .

﴿ وهذا لسانٌ عربيٌ مبين ﴾ يعني باللسان القرآن لأنه يقرأ باللسان ، والعرب تقول : هذا لسان فلان ، تريد كلامه ، قال الشاعر :

لسان السوء تهديها إلينا . . . وخُنْتَ وما حسبتُك أن تخونا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(163/443)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون ﴾ ،

قال ابن عباس : كان في مكة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له بلعام ، فكان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يكلمه ويعلمه الإسلام ويرومه عليه فقالت قريش : هذا يعلم محمداً من جهة الأعاجم ، فنزلت الآية بسببه ، وقال عكرمة وسفيان : كان اسم الغلام يعيش ، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي : كان بمكة غلامان أحدهما اسمه جبر والآخر يسار ، وكانا يقرآن بالرومية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليهما ، فقالت قريش ذلك ، ونزلت الآية ، وقال ابن إسحاق : الإشارة إلى جبر ، وقال الضحاك : الإشارة إلى سلمان الفارسي .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، لأن سلمان إنما أسلم بعد الهجرة بمدة وقرأت فرقة "لسان الذي" ، وقرأ الحسن البصري "اللسان الذي" بالتعريف وبغير تنوين في رأي بشر ، وقرأ نافع وابن كثير "يُلحدون" بضم الياء من ألحدَ إذا مال ، وهي قراءة أبي عمرو وعاصم وابن عامر وأبي جعفر بن القعقاع ، وقرأ حمزة والكسائي "يَلحدون" بفتح الياء من لحد ، وهي قراءة عبد الله وطلحة وأبي عبد الرحمن والأعمش ومجاهد ، وهما بمعنى ، ومنه قول الشاعر : [الرمل]

قدني من نصر الخبيبين قدي . . . ليس أمري بالشحيح الماحد

يريد المائل عن الجود وحال الرياسة ، وقوله ﴿ أعجمي ﴾ إضافة إلى أعجم لا إلى العجم لأنه كان يقول عجمي ، والأعجمي هو الذي لا يتكلم بالعربية ، وأما العجمي فقد يتكلم بالعربية ونسبته قائمة ، وقوله ﴿ وهذا ﴾ إشارة إلى القرآن والتقدير ، وهذا سرد لسان

، أو نطق لسان ، فهو على حذف مضاف ، وهذا على أن يجعل اللسان هنا الجارحة ، و " اللسان " في كلام العرب اللغة ، ويحتمل أن يراد في هذه الآية ، واللسان الخبر ومنه قول الأعشى : إني أتتني لسان غير كاذبة .

ومنه قول الآخر : [الوافر]

لسان السوء يهديها إلينا . . . وجيت وما حسبتك أن تجينا

وحكى الطبري عن سعيد بن المسيب أن الذي ذكر الله : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ، ﴿ إنما ﴾ هي إشارة إلى كاتب كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم في أواخر الآيات : " والله سميع عليم " ، أو " عزيز حكيم " ، أو نحو هذا ، ثم يشتغل بسماع الوحي ، فيبدل هو بغفور رحيم أو نحوه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الآيات : هو كما كتبت ، ففتن ، وقال أنا أعلم محمداً ، وارتد ولحق بمكة ، ونزلت الآية فيه . قال القاضي أبو محمد : هذا نصراني أسلم وكتب ، ثم ارتد ولحق بمكة ومات ، ثم لفظته الأرض ، وإلا فهذا القول يضعف لأن الكاتب المشهور الذي ارتد لهذا السبب ولغيره من نحوه هو عبد الله بن أبي سرح العامري ، ولسانه ليس بأعجمي

فتأمله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

(165/443)

المفهوم من الوجود أن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته ، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخر ، تهمماً بتقبيح فعلهم والتشنيع لخطابهم ، وذلك كقوله تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : 5] والمراد ما ذكرناه فكأنه قال إن الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله ، وقوله : ﴿ إنما يفتري الكذب ﴾ بمعنى يكذب ، وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : إنما أنت مفتر ، و﴿ إنما ﴾ أبداً حاصرة ، لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها ، فقد يربط المعنى أن يكون حصرها حقيقياً كقوله تعالى : ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ [النساء : 171] وقد يقتضي المعنى أن يكون حصرها تجوزاً ومبالغة ، كقولك : إنما الشجاع عنترة ، وهكذا هي في هذه الآية ، قال الزجاج : يفتري هذا الصنف لأنهم إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله ، كذبوا بها ، فهذا أفحش الكذب ، وكرر المعنى في قوله : ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به ، لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر فبدأ في هذه الآية بالخبر ، ثم أكد

بالصفة ، وقد اعترض هذا النظر مكي ، وليس اعتراضه بالقوي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(166/443)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾

اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلّمه ؛ فقيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر ، كان نصرانياً فأسلم ؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أمّيٌّ لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي ؛ فقال الله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي كيف يعلّمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها .

وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلّم محمداً ، فيقول : لا والله ، بل هو يعلمني ويهديني .

وقال ابن إسحاق : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المَرْوَة إلى غلام نصراني يقال له جبر ، عبدُ بني الحضرمي ، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون :

والله ما يعلم محمداً ما يأتي به إلا جبر النصراني .

وقال عكرمة : اسمه يعيش عبدٌ لبني الحضرمي ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلّقنه القرآن ؛ ذكره الماورديّ .

وذكر الثعلبيّ عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية ، فقالت قريش : إنما يعلّمه بشر ، فنزلت .

المهدويّ عن عكرمة : هو غلام لبني عامر بن لؤي ، واسمه يعيش .

وقال عبد الله بن مسلم الحضرميّ : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر ، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر .

كذا ذكر الماورديّ والقشيريّ والثعلبي ؛ إلا أن الثعلبيّ قال : يقال لأحدهما نَبْت ويكنى أبا فُكَيْهة ، والآخر جبر ، وكانا صَيْقَلَين يعملان السيوف ؛ وكانا يقرأان كتاباً لهم .

الثعلبي : يقرأان التوراة والإنجيل .

الماورديّ والمهدويّ : التوراة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمرّ بهما ويسمع قراءتهما ، وكان المشركون يقولون : يتعلّم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم .

وقيل : عنَوْا سلمان الفارسي رضي الله عنه ؛ قاله الضحاك .

وقيل : نصرانيا بمكة اسمه بلعام ، وكان غلاماً يقرأ التوراة ؛ قاله ابن عباس .

وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام .

وقال القُتَبِيّ : كان بمكة رجل نصراني يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية ، فربما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الكفار : إنما يتعلّم محمد منه ، فنزلت .

وفي رواية أنه عدّاس غلام عتبة بن ربيعة .

وقيل : عابس غلام حويطب بن عبد العُزَّى ويسار أبو فكيهة مولى ابن الحضرمي ، وكانا قد أسلما .

والله أعلم .

قلت : والكل محتمل ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله ، وكان ذلك بمكة .

وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأنه يجوز أن يكونوا أَوْمَأُوا إلى هؤلاء جميعاً ، وزعموا أنهم يعلمونه .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعْدٌ ، لأن سلمان إنما أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهذه الآية مكية .

﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ الإلحاد : الميل ؛ يقال : لحد وألحد ، أي مال عن القصد .

وقد تقدّم في الأعراف .

وقرأ حمزة "يَلْحَدون" بفتح الياء والحاء ؛ أي لسان الذي يميلون إليه ويشيرون أعجميّ .

والعُجْمة : الإخفاء وضدّ البيان .

ورجل أعجم وامرأة عجماء ، أي لا يُفصح ؛ ومنه عُجْم الذنب لاستتاره .

والعجماء : البهيمة ؛ لأنها لا توضح عن نفسها .

وأعجمت الكتاب أي أزلت عجمته .

والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجمياً .

وقال الفَرّاء : الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمي أو العجمي الذي أصله من العجم .

وقال أبو علي : الأعجمي الذي لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً .

وأراد باللسان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت : لسان ؛ قال الشاعر :

لسانُ الشر تهديها إلينا . . .

وخُنت وما حسبتك أن تخونا

يعني باللسان القصيدة .

﴿ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي أفصح ما يكون من العربية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله ﴾ أي هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن .

﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله ﴾ هذا جواب وصفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالافتراء .

﴿ وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ هذا مبالغة في وصفهم بالكذب ؛ أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم .

ويقال : كذب فلان ولا يقال إنه كاذب ؛ لأنّ الفعل قد يكون لازماً وقد لا يكون لازماً .

فأما النعت فيكون لازماً ولهذا يقال : عصى آدمُ ربّه فغوَى ، ولا يقال : إنه عاصٍ غاوٍ .

فإذا قيل: كذب فلان فهو كاذب، كان مبالغة في الوصف بالكذب؛ قاله القشيري. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(169/443)

وقال الخازن:

قوله عز وجل: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ﴾

وذلك أن كفار مكة قالوا: إنما يتعلم هذه القصص وهذه الأخبار من إنسان آخر وهو آدمي مثله، وليس هو من عند الله كما يزعم فأجابهم الله بقوله ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر واختلفوا في ذلك البشر من هو فقال ابن عباس: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعلم قيناً بمكة اسمه بلعام وكان نصرانياً أعجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدخل عليه ويخرج من عنده، فكانوا يقولون إنما يعلمه بلعام.

وقال عكرمة: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرىء غلاماً لبني المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب؟ فقالت قريش: إنما يعلمه يعيش، وقال محمد بن إسحاق: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي

نصراني عبد لبعض بني الحضرمي يقال له : جبر وكان يقرأ الكتب .

وقال عبيد الله بن مسلمة : كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لأحدهما : يسار ويكنى أبا فكيهة ، ويقال للآخر : جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل بمكة فربما مر بهما النبي (صلى الله عليه وسلم) وهما يقرآن فيقف ويستمع قال الضحاك : وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا آذاه الكفار يقعد إليهما فيتروح بكلامهما ، فقال المشركون إنما يتعلم محمد منهما .

(170/443)

وقال الفراء : قال المشركون إنما يتعلم محمد من عائش المملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانياً ، وقد أسلم وحسن إسلامه وكان أعجمياً ، وقيل : هو عداس غلام عتبة بن ربيعة ، والحاصل أن الكفار اتهموا رسول الله صلى الله عليه سلم وقالوا إنما يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يضيفها لنفسه ويزعم أنه وحي من الله وهو كاذب في ذلك فأجاب الله عنه ، وأنزل هذه الآية تكذيباً لهم فيما رموا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الكذب فقال تعالى ﴿ لسان الذي يلحدون إليه ﴾ يعني يميلون ، ويشيرون إليه ﴿ أعجمي ﴾ يعني هو أعجمي والأعجمي هو الذي لا يفصح في كلامه ، وإن كان يسكن

البادية ومنه سمي زياد الأعجم لأنه كان في لسانه عجمة مع أنه كان من العرب ، والعجمي منسوب إلى العجم ، وإن كان فصيحاً بالعربية والأعرابي الذي يسكن البادية ، والعربي الذي يسكن الأمصار من بلاد العرب وهو منسوب إلى العرب ﴿ وهذا لسان عربي مبين ﴾ يعني بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب ، هو أن الذي يشيرون إليه رجل أعجمي في لسانه عجمة تمنعه من الإتيان بفصيح الكلام ومحمد (صلى الله عليه وسلم) جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم أنتم عنه ، وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة ، فكيف يقدر من هو أعجمي على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي يشيرون إليه ، فثبت بهذا البرهان ، أن جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) وحي أوحاه الله إليه وليس هو من تعليم الذي يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ يعني لا يصدقون أنه من عند الله ﴿ لا يهديهم الله ﴾ يعني لا يرشدهم ولا يوفقهم للإيمان ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ يعني إنما يقدم على فرية الكذب من لا يؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش إنما أنت مفترٍ ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ يعني في قولهم ، إنما يعلمه بشر لا محمد (صلى الله عليه وسلم) .

فإن قلت : قد قال تبارك وتعالى إنما يفترى الكذب فما معنى قوله تعالى وأولئك هم الكاذبون والثاني هو الأول ؟ قلت : قوله سبحانه وتعالى إنما يفترى الكذب أخبار عن حال قولهم ، وقوله : وأولئك الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب ، أي كذبت في هذا القول ومن عادتك الكذب وفي الآية دليل على أن الكذب من أفحش الذنوب الكبار لأنه الكذاب المفتري ، هو الذي لا يؤمن بآيات الله .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عبد الله بن جراد قال : " قلت يا رسول الله المؤمن يزني ؟

قال : قد يكون ذلك .

قلت : المؤمن يسرق ؟ قال : قد يكون ذلك .

قلت : المؤمن يكذب قال : لا قال الله تعالى إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(172/443)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾

ولما نسبوه عليه السلام للافتراء وهو الكذب على الله ، لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا ذلك

الافتراء الذي نسبوه هو من تعليم بشر إياه ، فليس هو المختلق بل المختلق غيره ، وهو ناقل عنه .

وظاهر قولهم : إنما أنت مفتر .

إنّ معناه : مختلق الكذب ، وهو ينافي التعلم من البشر ، فيحتمل أن يكون قوله : مفتر ، في نسبة ذلك إلى الله ، ويحتمل أن يكونوا فيه طائفتين : طائفة ذهبت إلى أنه هو المفتري ، وطائفة أنه يتعلم من البشر .

ويعلم مضارع اللفظ ومعناه : المضي أي : ولقد علمنا ، وجاء إسناد التعليم إلى مبهم لم يعين .

فقيل : هو جبر غلام ورمى كان لعامر بن الحضرمي ، وقيل : عائش أو يعيش ، وكان صاحب كتب مولى حويطب بن عبد العزى وكان قد أسلم فحسن إسلامه قاله : الفراء ، والزجاج .

وقيل : أبو فكيهة أعجمي مولى لمرأة بمكة .

قيل : واسمه يسار وكان يهودياً قاله : مقاتل ، وابن جبير ، إلا أنه لم يقل كان يهودياً .

وقال ابن زيد : كان رجلاً حداداً نصرانياً اسمه عنس .

وقال حصين بن عبد الله بن مسلم : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر ، يسار وجبر ، كانا يقرآن كتباً لهما بلسانهم ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يمر بهما فيسمع

قراءتهما .

قيل : وكانا حدادين يصنعان السيوف ، فقال المشركون : يتعلم منهما فقيل لأحدهما ذلك

فقال : بل هو يعلمني ، فقال ابن عباس : كان في مكة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له :

بلعام ، فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعلمه الإسلام فقالت قريش : هذا يعلم

محمداً من جهة الأعاجم .

وقال الضحاك : الإشارة إلى سلمان الفارسي ، وضعف هذا من جهة أنّ سلمان إنما أسلم

بعد الهجرة ، وهذا السورة مكية إلا ما نبه عليه أنه مدني .

واللسان : هنا اللغة .

وقرأ الحسن : اللسان الذي بتعريف اللسان بأل ، والذي صفته .

(173/443)

وقرأ حمزة والكسائي : يلحدون من لحد ثلاثياً ، وهي قراءة عبد الله بن طلحة ، والسلمي

، والأعمش ، ومجاهد ، وقرأ باقي السبعة ، وابن القعقاع : بضم الياء وكسر الحاء من ألحد

رباعياً وهما بمعنى واحد .

قال الزمخشري : يقال ألحد القبر ولحده ، فهو ملحد وملحوداً ذا أمال حفره عن الاستقامة

فحفر في شق منه ، ثم استعير لكل إمالة عن استقامة فقالوا : ألحد فلان في قوله : وألحد في دينه لأنه أمال دينه عن الأديان كلها ، لم يمله من دين إلى دين .

والمعنى : لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمي غير بين ، وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة ، ردّاً لقولهم وإبطالاً لطعنهم انتهى .

وظاهر قول الزمخشري : إن اللسان في الموضعين اللغة .

وقال ابن عطية : وهذا على أن يجعل اللسان هنا الجارحة .

واللسان في كلام العرب اللغة ، ويحتمل أن يراد وهذا على أن يجعل اللسان هنا الجارة .

واللسان في كلام العرب اللغة ، ويحتمل أن يراد في هذه الآية .

وقال الكرماني : المعنى أنتم أفصح وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظماً ونثراً ، وقد عجزتم وعجز جميع العرب ، فكيف تنسبونه إلى أعجمي ألكن ؟

قال الزمخشري : (فإن قلت) : الجملة التي هي قوله لبيان الذي يلحدون إليه أعجمي ، ما محلها ؟ (قلت) : لا محل لها ، لأنها مستأنفة جواب لقولهم ، ومثله قول الله : أعلم ، حيث يجعل رسالاته بعد قوله : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ انتهى .

ويجوز عندي أن تكون جملة حالية فموضعها نصب وذلك أبلغ في الإنكار عليهم أي : يقولون ذلك والحالة هذه أي : علمهم بأعجمية هذا البشر وإبانة عربية هذا القرآن كان

يمنعهم من تلك المقالة ، كما تقول : تشتم فلاناً وهو قد أحسن إليك أي : علمك بإحسانه لك كان يقتضي منعك من شتمه .

(174/443)

وإنما ذهب الزمخشري إلى الاستئناف ولم يذهب إلى الحال ، لأن من مذهبه أن مجيء الجملة الحالية الاسمية بغير واو شاذ ، وهو مذهب مرجوح جداً ، ومجيء ذلك بغير واو لا يكاد ينحصر كثرة في كلام العرب ، وهو مذهب تبع فيه الفراء ، وأما الله أعلم فظاهر قوله فيها ، لأنها جملة خالية من ضمير يعود على ذي الحال ، لأن ذا الحال هو ضمير قالوا ، وفي هذه الآية ذو الحال ضمير يقولون ، والضمير الذي في جملة الحال هو ضمير الفاعل في يلحدون ، فالجملة وإن عريت عن الواو ففيها ضمير ذي الحال .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

لما ذكر تعالى نسبتهم إلى الافتراء إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأنّ ما أتى به من عند الله إنما يعلمه إياه بشر ، كان ذلك تسجيلاً عليهم بانتفاء الإيمان ، فأخبر تعالى عنهم أنهم لا يهديهم الله أبداً إذ كانوا جاحدين آيات الله ، وهو ما أتى به الرسول من المعجزات وخصوصاً القرآن ، فمن بالغ في جحد آيات الله سد الله عليه باب الهداية .

وذكر تعالى وعيده بالعذاب الأليم لهم ، ومعنى لا يهديهم : لا يخلق الإيمان في قلوبهم .

وهذا عام مخصوص ، فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى .

وقال الزمخشري : لا يهديهم الله لا يلطف بهم ، لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة ، لا من أهل اللطف والثواب انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

وقال ابن عطية : المفهوم من الوجود أنّ الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته ، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخبرتهما بتقبيح فعلهم والتشنيع بخطئهم ، وذلك كقوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ والمراد ما ذكرناه ، فكأنه قال : إن الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله انتهى .

(175/443)

وقال القاضي : أقوى ما قيل في ذلك لا يهديهم إلى طريق الجنة ، ولذلك قال بعده : ولهم عذاب أليم ، والمراد أنهم لما تركوا الإيمان بالله لا يهديهم الله إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار .

وقال العسكري : يجوز أن يكون المعنى أنهم إن لم يؤمنوا بهذه الآيات لم يهتدوا ، والمراد بقوله : لا يهديهم الله أي لا يهتدون ، وإنما يقال : هدى الله فلاناً على الإطلاق إذا اهتدى هو ، وأما من لم يقبل الهدى فإنه يقال : إن الله هداه فلم يهتد ، كما قال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم

فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ ثم ردّ تعالى قولهم : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ بقوله : إنما يفتري الكذب ، أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه يترقب عقاباً عليه .

ولما كان في كلامهم إنما وهو يقتضي الحصر عند بعضهم ، جاء الرد عليهم بإنما أيضاً ، وجاء بلفظ يفتري الذي يقتضي التجدد ، ثم علق الحكم على الوصف المقتضي للافتراء وهو : انتفاء الإيمان ، وختم بقوله : وأولئك هم الكاذبون .

فاقتضى التوكيد البالغ والحصر بلفظ الإشارة ، والتأكيد بلفظ هم ، وإدخال أل على الكاذبون ، وبكونه اسم فاعل يقتضي الثبوت والدوام ، فجاء يفتري يقتضي التجدد ، وجاء الكاذبون يقتضي الثبوت والدوام .

وقال الزمخشري : وأولئك إشارة إلى قريش هم الكاذبون ، هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون .

أو إلى الذين لا يؤمنون أي : وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب ، لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب .

أو أولئك هم الكاذبون عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء ، لا يحجبهم عنه مروءة ولا دين .

أو أولئك هم الكاذبون في قولهم : إنما أنت مفتر انتهى .

والوجه الذي بدأ به بعيد ، وهو أن وأولئك إشارة إلى قريش .

والظاهر أن من شرطية في موضع رفع على الابتداء ، وهو استئناف إخبار لا تعلق له بما قبله من جهة الإعراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(176/443)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾

غيرَ ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء ﴿ إِنَّمَا يُعَلّمُهُ ﴾ أي القرآنَ ﴿ بُشّرَ ﴾ على طريق البتّ مع ظهور أنه نزّله روحُ القدس عليه الصلاة والسلام ، وتحليةُ الجملةِ بفنون التأكيدِ لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد ، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرارِ العلم بحسب الاستمرارِ التجدّدي في متعلَّقه فإنهم مستمرون على تفوّه تلك العظيمةِ ، يعنون بذلك جبراً الروميَّ غلامَ عامر بنِ الحضرمي ، وقيل : جبرًا ويساراً كانا يصنعان السيفَ بمكة ويقرآن التوارةَ والإنجيل وكان الرسولُ عليه الصلاة والسلام يمرّ عليهما ويسمع ما يقرآنه ، وقيل : عابساً غلامَ حويطِب بنِ عبدِ العزى (كان) قد أسلم وكان صاحبَ كتب ، وقيل : سلمانَ الفارسي ، وإنما لم يصرَّح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخلَ في ظهور كذبِهم للإيذان بأن مدار خطابهم ليس نسبتَه عليه السلام إلى التعلم من شخص معينٍ بل من البشر

كائناً مَنْ كان مع كونه عليه السلام معدِناً لعلوم الأولين والآخرين ﴿ لِّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ الإلحادُ الإمالةُ ، مِنْ ألحد القبرَ إذا أمال حفرَه عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استُعير لكل إمالةٍ عن الاستقامة فقالوا : ألحد فلانٌ في قوله وألحد في دينه ، أي لغةُ الرجلِ الذي يُميلون إليه القول عن الاستقامة أعجميةٌ غيرُ بيّنةٍ ، وقرىء بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان ﴿ وهذا ﴾ أي القرآنُ الكريم ﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحةٍ ، والجملتان مستأنَفتان لإبطال طعنهم ، وتقريرُه أن القرآن معجزٌ بنظمه كما أنه معجزٌ بمعناه فإن زعمتم أن بشراً يعلّمه معناه فكيف يعلّمه هذا النظمَ الذي أعجز جميعَ أهل الدنيا والتشبثُ في أثناء الطعن بأذيال أمثالِ هذه الخرافاتِ الركيكة دليلٌ على كمال عجزهم .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾

(177/443)

أي لا يصدّقون أنها من عند الله بل يقولون فيها ما يقولون ، يسمّونها تارة افتراءً وأخرى أساطيرَ معلَّمةً من البشر ﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاةِ هدايةً موصلة إلى المطلوب لما عليم أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴾ وهذا تهديدٌ لهم ووعيدٌ على ما هم عليه من الكفر بآياتِ الله تعالى ونسبة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء والتعلم من البشر بعد إماطةِ شبُهِهم وردّ طعنهم .

(178/443)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ ردٌّ لقولهم : إنما أنت مفترٍ ، وقلبٌ للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزلٌ من عند الله بواسطة روحِ القدس ، وإنما وُسّط بينهما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ الآية ، لما لا يخفى من شدة اتصالِه بالرد الأول ، والمعنى والله تعالى أعلم أن المفتريَ هو الذي يكذّب بآيات الله ويقول إنه افتراءٌ ومعلَّمٌ من البشر أي تكذيبُها على الوجه المذكور هو الافتراءُ على الحقيقة لأن حقيقتَه الكذبُ ، والحكم بأن ما هو كلامُه تعالى ليس بكلامه تعالى في كونه كذباً وافتراءً كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامُه تعالى ، والتصريحُ بالكذب للمبالغة في بيان قُبحِه ، وصيغةُ المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارةٌ عنه أعني قوله : لا يؤمنون ، وقيل : المعنى إنما يفتري الكذبَ ويليق ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لأنه لا يترقب عقاباً عليه ليرتدعَ عنه ، وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراءٌ ألبتةَ ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الإيمانِ بآيات الله ﴿

هُمُ الكاذبون ﴾ على الحقيقة أو الكاملون في الكذب إذ لا كَذِبَ أعظمُ من تكذيب آياتِه تعالى والطعنِ فيها بأمثال هاتيك الأباطيلِ ، والسرُّ في ذلك أن الكذِبَ الساذَجَ الذي هو عبارةٌ عن الإخبار بعدم وقوعِ ما هو واقعٌ في نفس الأمرِ بخلق الله تعالى أو بوقوعِ ما لم يقعْ كذلك مدافعةٌ لله تعالى في فعله فقط ، والتكذيبُ مدافعةٌ له سبحانه في فعله وقولِه المنبىءِ عنه معاً ، أو الذين عادتُهم الكذبُ لا يزَعُهم عنه وازعٌ من دين أو مروءةٍ ، وقيل : الكاذبون في قولهم : إنما أنت مفتر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(179/443)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾

غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء ﴿ إِنَّمَا يُعَلّمُهُ ﴾ أي يعلم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ، وهو الذي يقتضيه ظاهر كلام قتادة .

ومجاهد : وغيرهما واختير كون الضمير للقرآن ليوافق ضمير ﴿ نَزَلَهُ ﴾ [النحل : 102] أي يقولون إنما يعلم القرآن النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ بُشّرَ ﴾ على طريق البت مع ظهور أنه نزوله روح القدس عليه عليه الصلاة والسلام ، وتأكيد الجملة لتحقيق ما تضمنه

من الوعيد ، وصيغة الاستقبال لإفادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددي في متعلقه فانهم مستمرون على التفوه بتلك العظيمة ، وفي البحر أن المعنى على المضي فالمراد علمنا وعنوا بهذا البشر قيل : جبرا الرومي غلام عامر بن الحضرمي وكان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان صلى الله عليه وسلم يجلس إليه إذا آذاه أهل مكة فقالوا ما قالوا .

وروي ذلك عن السدي ، وقيل : مولى الحويطب بن عبد العزى اسمه عائش أو يعيش كان يقرأ الكتب وقد أسلم وحسن إسلامه قاله الفراء .

والزجاج ، وقيل : أبا فكيهة مولى لامرأة بمكة قيل اسمه يسار وكان يهودياً قاله مقاتل .

وابن جبير إلا أنه لم يقل كان يهودياً .

وأخرج آدم بن أبي إياس .

والبيهقي .

وجماعة عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال : كان لنا عبدان نصرانيان من أهل عين التمر يقال لأحدهما يسار وللآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرءان الإنجيل فربما مر بهما النبي صلى الله عليه وسلم وهما يقرءان فيقف ويستمع فقال المشركون : إنما يتعلم

منهما ، وفي بعض الروايات أنه قيل لأحدهما أنك تعلم محمداً صلى الله عليه وسلم فقال لا بل هو يعلمني ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : كان بمكة غلام أعجمي رومي لبعض قريش يقال : له بلعام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه الإسلام فقالت قريش : هذا يعلم محمداً عليه الصلاة والسلام من جهة الأعاجم ؛ وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن الضحاك أنه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ، وضعف هذا بأن الآية مكية وسلمان أسلم بالمدينة ، وكونها إخباراً بأمر مغيب لا يناسب السباق ، ورواية أنه أسلم بمكة واشتراه أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأعتقه بها قيل ضعيفة لا يعول عليها كاحتمال أن هذه الآية مدنية .

وقد أخبرني من أثق به عن بعض النصارى أنه قال له : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم يتردد إليه في غار حراء رجلان نصراني ويهودي يعلمانه ، ولم أجد هذا عن أحد من المشركين وهو كذب بحت لا منشأ له وبهت محض لا شبهة فيه ، وإنما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه عليه الصلاة والسلام مع أنه أدخل في ظهور كذبهم للإيذان بأن مدار

خطئهم ليس بنسبته صلى الله عليه وسلم إلى التعلم من شخص معين بل من البشر كائناً من كان مع كونه عليه الصلاة والسلام معدناً لعلوم الأولين والآخرين ﴿ لِّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ اللسان مجاز مشهور عن التكلم ، والإلحاد الميل يقال : لحد وألحد إذا مال عن القصد ، ومنه لحد القبر لأنه حفرة مائلة عن وسطه ، والملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها ، والأعجمي الغير البين ، قال أبو الفتح الموصلي : تركيب ع ج م في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان والإيضاح ، ومنه قولهم : رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان ؛ وعجم الزبيب سمي بذلك لاستتاره واختفائه ويقال للبهيمة العجماء لأنه لا توضح ما في نفسها وسموا صلاتي الظهر والعصر العجماوين لأن القراءة فيهما سر وأما قولهم : أعجمت الكتاب فمعناه أزلت عجمته كأشكيت زيداً أزلت شكواه ، والأعجمي والأعجم الذي في لسانه عجمة من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم وكان عربياً في لسانه لكنة وكذاك حبيب الأعجمي تلميذ الحسن البصري قدس الله تعالى سرهما على ما رأيته في بعض التواريخ .

والمراد من ﴿ الذى ﴾ على القول بتعدد من زعموا نسبة التعليم إليه الجن ومفعول ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ محذوف أي تكلم الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه أي ينسبون التعليم إليه غير بين لا يتضح المراد منه .

وظاهر كلام ابن عطية أن اللسان على معناه الحقيقي وهو الجارحة المعروفة .

وقرأ الحسن ﴿ فَلْيُؤَدّ الذى ﴾ بتعريف اللسان بآل ووصفه بالذي .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

(182/443)

وعبد الله بن طلحة .

والسلمي .

والأعمش ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بفتح الياء والحاء من لحد ، وألحد ولحد لغتان فصيحتان مشهورتان ﴿ وهذا ﴾ القرآن الكريم ﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة على ما يشعر به وصفه بمبين بعد وصفه بعربي والكلام على حذف مضاف عند ابن عطية أي سرد لسان أو نطق لسان ، والجملتان مستأنفتان عند الزمخشري لإبطال طعنهم ، وجوز أبو حيان أن يكونا حالين من فاعل ﴿ يَقُولُونَ ﴾ ثم قال : وهو أبلغ في الإنكار أي يقولون هذا والحال أن علمهم بأعجمية هذا البشر وعربية هذا القرآن كان ينبغي أن يمنعهم عن مثل تلك المقالة كقولك : أتشتم فلاناً وهو قد أحسن إليك وإنما ذهب الزمخشري إلى الاستئناف لأن مجيء الاسمية حالاً بدون واو شاذ عنده ، وهو مذهب مرجوح تبع فيه

الفراء إذ مجيئها كذلك في كلام العرب أكثر من أن يحصى اه ، وتقرير الإبطال كما قال العلامة البيضاوي يحتمل وجهين ، أحدهما أن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل فكيف يكون ما تلقفه منه .

(183/443)

وثانيهما هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه ولكن لم يلقف منه اللفظ لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة فكيف تعلم جميع ذلك من غلام سوقى سمع منه بعض المنقولات بكلمات أعجمية لعله لم يعرف معناها ، وحاصل ذلك منع تعلمه عليه الصلاة والسلام منه مع سنده ثم تسليمه باعتبار المعنى إذ لفظه مغاير للفظ ذلك بديهية فيكفي دليلاً له ما أتى به من اللفظ المعجز ويمكن تقريره بنحو هذا على سائر الأقوال السابقة في البشر ، وقال الكرماني : المعنى أنتم أفصح الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظماً ونثراً وقد عجزتم وعجز جميع العرب عن الإتيان بمثله فكيف تنسبونه إلى أعجمي ألكن وهو كما ترى ، وبالجملة التشبث في أثناء الطعن بمثل هذه الخرافات الركيكة دليل قوي على كمال عجزهم فقد راموا اجتماع اليوم والأمس

واستواء السها والشمس :

فدعهم يزعمون الصبح ليلا . . .

أيعمى الناظرون عن الضياء

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾

أي يصدقون بأنها من عنده تعالى بل يقولون فيها ما يقولون يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر ، وقيل : المراد بالآيات المعجزات الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيها الآيات القرآنية دخولاً أولياء والأول على ما قيل أوفق بالمقام .

﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله ﴾ قيل : أي إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

(184/443)

وقال بعض المحققين : المعنى لا يهديهم إلى ما ينجيهم من الحق لما يعلم من سوء استعدادهم ، وقال في "البحر" : أي لا يخلق الإيمان في قلوبهم ، وهذا عام مخصوص فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى ، وقال الجلبي : المعنى أن سبب عدم إيمانهم هو أنه تعالى لا يهديهم لختمه على قلوبهم أو لا يهديهم سبحانه مجازاة لعدم إيمانهم بأن تلك الآيات من عنده تعالى ، وقال

العسكري : يجوز أن يكون المعنى أنهم إن لم يؤمنوا بهذه الآيات لم يهتدوا ، والمراد بلا يهديهم الله لا يهتدون فإنه إنما يقال هدى الله تعالى فلاناً على الإطلاق إذا اهتدى هو ، وأما من لم يقبل الهدى فإنه يقال فيه : إن الله تعالى هداه فلم يهتد كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] وقيل : المعنى إن الذين لا يصرفون اختيارهم إلى الإيمان بآياته تعالى لا يخلقه سبحانه في قلوبهم ، وقال ابن عطية : المفهوم من الوجود أن الذين لا يهديهم الله تعالى لا يؤمنون بآياته ولكنه قدم وأخر تتميماً لتقبيح حالهم وللتشنيع بخطئهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] ويؤدي مؤدى التقديم والتأخير ما ذكره الجلبي ، أولاً والأكثر لا يخلو عن دغدغة .

وقال القاضي : أقوى ما قيل في الآية ما ذكر أولاً ، وكونه تفسيراً للمعتزلة مناسباً لأصولهم فيه نظر ، وأياً مّا كان فالمراد من الآية التهديد والوعيد لأولئك الكفرة على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء والتعلم من البشر بعد إماطة شبههم ورد طعنهم وقوله سبحانه :

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾

تمهيد لكونهم هم المفترين وقلب عليهم بعد أن حقق بالبيان البرهاني براءة ساحته صلى الله عليه وسلم عن لوث الافتراء ، وقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الكاذبون ﴾ إشارة إلى قريش القائلين : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ [النحل : 101] وهو تصريح عبد التعريض ليكون كالوسم عليهم ، وهذا الأسلوب أبلغ من أن يقال : أنتم معشر قريش مفترون لما أشير إليه ، وإقامة الدليل على أنهم كذلك وأن من زنوه به لا يجوز أن يتعلق بذيله نشب منه أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لأنه لا يترقب عقاباً عليه وقريش كذلك فهم الكاذبون أو إشارة إلى ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 104] فيستمر الكلام على وتيرة واحدة ، والمعنى أن الكاذب بالحقيقة هذا الكاذب على ما قرروه في قوله تعالى : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [البقرة : 5] واللام للجنس وهو شهادة عليهم بالكمال في الافتراء ، فالكذب في الحقيقة مقيد بالكذب بآيات الله تعالى ، وأطلق إشعاراً بأن لا كذب فوقه ليكون كالحجة على كمال الافتراء أو الكذب غير مقيد على هذا الوجه على معنى أنهم الذين عادتهم الكذب فلذلك اجترؤا على تكذيب آيات الله تعالى دلالة على أن ذلك لا يصدر إلا ممن لهج بالكذب قبله ، ويدل على اعتبار هذا المعنى التعبير بالجملة الاسمية ولذا عطفت على الفعلية ، وفيه قلب حسن وإشارة إلى أن قريشاً لما كان من عادتهم الكذب أخذوا يكذبون

بآيات الله تعالى ومن أتى بها ، ثم لم يرضوا بذلك حتى نسبوا من شهدوا له بالأمانة والصدق إلى الافتراء .

(186/443)

وموضع الحسن الإيماء إلى سبق حالتي النبي صلى الله عليه وسلم وقريش أو الكذب مقيد على هذا الوجه أيضاً بما نسبوا إليه عليه الصلاة والسلام من الافتراء ، و﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 104] على هذا المراد به قريش من إقامة الظاهر مقام المضمر ، وإيثار المضارع على الماضي دلالة على استمرار عدم إيمانهم وتجدده عقب نزول كل آية واستحضاراً لذلك وهذا الوجه أيضاً بما نسبوا إليه عليه الصلاة والسلام من الافتراء ، و﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ على هذا المراد به قريش من إقامة الظاهر مقام المضمر ، وإيثار المضارع على الماضي دلالة على استمرار عدم إيمانهم وتجدده عقب نزول كل آية واستحضاراً لذلك وهذا الوجه مرجوح بالنسبة إلى السوابق ، وقد ذكر هذه الأوجه صاحب الكشاف وقد حررها بما ذكر المولى المدقق في كشفه ، والحصر في سائرها غير حقيقي ، ولا استدراك في الآية لا سيما على الأول منها ، وهي من الكلام المنصف في بعضها .

وتعلقها بقوله سبحانه حكاية عنهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل : 101] لأنها كما سمعت لرده ، وتوسيط ما وسط لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الأول . انتهى ا . هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(187/443)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97) ﴾

هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح ، وتعميم للوعد .

ومعنى ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا ﴾ من عمل عملاً صالحاً أي : عمل كان .

وزيادة التمييز بذكر أو أنثى مع كون لفظ ﴿ من ﴾ شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد .

وقيل : إن لفظ ﴿ من ﴾ ظاهر في الذكور ، فكان في التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين ، وجملة ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ في محل نصب على الحال ، جعل سبحانه الإيمان قيداً في الجزاء المذكور ؛ لأن عمل الكافر لا اعتداد به ، لقوله سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا

عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيّبَةً ﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون ؟ فقيل : بالرزق الحلال ، روي ذلك عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، والضحاك .

وقيل : بالقناعة ، قاله الحسن البصري ، وزيد بن وهب ، ووهب بن منبه .

وروي أيضاً عن عليّ وابن عباس .

وقيل : بالتوفيق إلى الطاعة ، قاله الضحاك .

وقيل : الحياة الطيبة : هي حياة الجنة .

روي عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وحكي عن الحسن أنه قال : لا تطيب الحياة لأحد إلاّ في الجنة ، وقيل : الحياة الطيبة . هي السعادة .

روي ذلك عن ابن عباس .

وقيل : هي المعرفة بالله ، حكي ذلك عن جعفر الصادق .

وقال أبو بكر الوراق : هي حلاوة الطاعة .

وقال سهل بن عبد الله التستري : هي أن ينزع عن العبد تدبير نفسه ، ويردّ تدبيره إلى

الحق .

وقيل : هي الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق .

وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا ، لا في الآخرة ؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقد قدّمنا قريباً تفسير الجزاء بالأحسن .

ووحد الضمير في "لنحيينه" وجمعه في ﴿ ولنجزينهم ﴾ حملاً على لفظ ﴿ من ﴾ وعلى معناه .

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية ، فقال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ والفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح ، وقيل : هذه الآية متصلة بقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانًا لّكُلّ شَيْءٍ ﴾ والتقدير : فإذا أخذت في قراءته ، فاستعذ .

قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة : معناه : إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ : وليس معناه :

أستعذ بعد أن تقرأ القرآن ، ومثله : إذا أكلت فقل : بسم الله .

قال الواحدي : وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة ، إلاّ ما روي عن أبي هريرة ، وابن سيرين ، وداود ، ومالك ، وحمزة من القراء ، فإنهم قالوا : الاستعاذة بعد القراءة ، ذهبوا إلى ظاهر الآية ، ومعنى ﴿ فاستعذ بالله ﴾ اسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم ، أي : من وساوسه .

وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهمّ ؛ لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى ، كذا قيل .

وتوجيه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة ؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته ، فكيف بسائر أمته ؟ وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر في الآية للندب .

وروي عن عطاء الوجوب أخذاً بظاهر الأمر .

وقد تقدّم الكلام في الاستعاذة مستوفى في أوّل هذا التفسير .

والضمير في ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ للشأن أو للشيطان ، أي : ليس له تسلط " على " إغواء ﴿ الذين ءامَنُواْ وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وحكى الواحدي عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة .

وقالوا : المعنى : ليس له حجة على المؤمنين في إغوائهم ودعائهم إلى الضلالة .

ومعنى ﴿ وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يفوّضون أمورهم إليه في كل قول وفعل .

فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم ، وإن وسوس لأحد منهم ، لا تؤثر فيه وسوسته .

وهذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة ، وهؤلاء الجامعون بين الإيمان والتوكل هم الذين قال فيهم إبليس : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [الحجر : 40] وقال الله فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] .

ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا سلطانه ﴾ أي : تسلطه على الإغواء ﴿ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أي : يتخذونه ولياً ويطيعونه في وساوسه ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ الضمير في ﴿ به ﴾ يرجع إلى الله تعالى ، أي : الذين هم بالله مشركون .

وقيل : يرجع إلى الشيطان .

والمعنى : والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آَيَةً مَّكَانَ آَيَةٍ ﴾ هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبه كفرية ودفعها .

ومعنى التبديل : رفع الشيء مع وضع غيره مكانه .

وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها .

وقد تقدّم الكلام في النسخ في البقرة ﴿ قَالُوا ﴾ أي : كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ ﴾ يا محمد ﴿ مُفْتَرٍ ﴾ أي : كاذب مختلق على الله ، متقوّل عليه بما لم يقل ، حيث تزعم أنه أمرك بشيء .

ثم تزعم أنه أمرك بخلافه ، فردّ الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم ، فقال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ شيئاً من العلم أصلاً ، أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ ، فإنه مبنيّ على المصالح التي يعلمها الله سبحانه ، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت ، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره ، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة ، لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف .

ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ ، الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله ، وأن رسوله افتراه فقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ ﴾ أي : القرآن المدلول عليه بذكر الآية .

﴿ رُوحُ القدس ﴾ أي: جبريل، والقدس: التطهير.

والمعنى: نزله الروح المطهر من أدناس البشرية، فهو من إضافة موصوف إلى الصفة ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي: ابتداء تنزيله من عنده سبحانه، و ﴿ بالحق ﴾ في محل نصب على الحال، أي: متلبساً بكونه حقاً ثابتاً لحكمة بالغة ﴿ لِيُثَبِّتَ الذين ءامَنُواْ ﴾ على الإيمان، فيقولون: كلّ من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا؛ ولأنهم أيضاً إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الإيمان ورسخت عقائدهم.

وقرىء ﴿ ليثبت ﴾ من الإثبات ﴿ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وهما معطوفان على محل ﴿ ليثبت ﴾ أي: تثبيتاً لهم وهداية وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم.

ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلّمُهُ بَشَرٌ ﴾ اللام هي الموطئة، أي: ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون: إنما يعلم محمداً القرآن بشر من بني آدم غير ملك.

وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا ، فقيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة ، واسمه جبر ، وكان نصرانياً فأسلم ، وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم أخبار القرون الأولى مع كونه أمياً ، قالوا : إنما يعلمه جبر ، وقيل : اسمه يعيش ، عبد لبني الحضرميّ ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية .

وقيل : غلام لبني عامر بن لؤيّ ، وقيل : هما غلامان : اسم أحدهما يسار ، واسم الآخر جبر ، وكانا صيقليين يعملان السيوف ، وكانا يقرآن كتاباً لهم .

وقيل : كانا يقرآن التوراة والإنجيل .

وقيل : هو سلمان الفارسي .

وقيل : عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام ، وكان يقرأ التوراة .

وقيل : عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية ، وفي رواية اسمه عداس .

قال النحاس : وهذه الأقوال غير متناقضة ، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه ، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال : إنه سلمان ، لأن هذه الآية مكية ، وهو إنما أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال : ﴿ لِّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ الإلحاد : الميل ، يقال : لحد وألحد أي : مال عن القصد .

وقد تقدّم في الأعراف .

وقرأ حمزة والكسائي "يلحدون" بفتح الياء والحاء .

وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء ، أي : لسان الذين يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجميّ ، يقال : رجل أعجم وإمرأة عجماء ، أي : لا يفصحان ، والعجمة : الإخفاء ، وهي ضدّ البيان .

والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً .

قال الفراء : الأعجم : الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجميّ : هو العجمي الذي أصله من العجم .

وقال أبو علي الفارسي : العجمي المنسوب إلى العجم الذي لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم .

والأعجمي : المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً .

﴿ وهذا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ الإشارة إلى القرآن ، وسماه لساناً لأن العرب تقول للقصيدة والبيت : لساناً ، ومنه قول الشاعر :

لسان الشر تهديها إلينا . . . وخنت وما حسبتك أن تخونا

أو أراد باللسان : البلاغة ، فكأنه قال : وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح ، فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه من العجم ؟ وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه ، وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة ، وقادة البلاغة ، وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفع كذبهم .

ولما ذكر سبحانه جوابهم ، وبخهم وهددّهم فقال : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ أي : لا يصدّقون بها ﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله ﴾ إلى الحق الذي هو سبيل النجاة ، هداية موصلة إلى المطلوب لما علم من شقاوتهم ﴿ وَلَهُمْ فِى الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله .

ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّ عليهم بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ فكيف يقع الافتراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو رأس المؤمنين بها ، والداعين إلى الإيمان بها .

وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها ، فهم المفترون للكذب .

قال الزجاج : المعنى : إنما يفتري الكذب الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلاّ الله كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة ، ثم سماهم الكاذبين .

فقال : ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ أي : المتصفون بذلك ﴿ هُمُ الكاذبون ﴾ أي : إن الكذب نعت لازم لهم وعادة من عادتهم فهم الكاملون في الكذب ، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات

الله .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد ابن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، أنه سئل عن الحياة الطيبة : المذكورة في الآية فقال : الحياة الطيبة الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا ، وإذا صار إلى ربه ، جازاه بأحسن ما كان يعمل .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : الكسب الطيب ، والعمل الصالح .

وأخرج العسكري في الأمثال عن عليّ في الآية قال : القناعة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال : القنوع ، قال : "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللّهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه ، واخلف عليّ كل غائبة لي بخير" .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه عن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنّعه الله بما آتاه "

وأخرج الترمذي ، والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قد أفلح من هدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً وقنع به " وأخرج عبد

الرزاق في المصنف وابن المنذر عن عطاء قال: الاستعاذة واجبة لكل قراءة في الصلاة وغيرها من أجل قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾.

وقد ورد في مشروعية الاستعاذة عند التلاوة ما لعلنا قد قدّمنا ذكره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ يقول: سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله.

وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ ﴾ وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ قال: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاره.

(194/443)

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ ﴾ قال: هو كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: 106].

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه قال السيوطي : بسندٍ ضعيف عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم بمكة قينا اسمه بلعام ، وكان أعجمياً ، فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ .

. ﴾ الآية .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان عنه في الآية ، قال : قالوا إنما يعلم محمداً عبد بن الحضرمي وهو صاحب الكتب ، فأنزل الله هذه الآية .

وأخرج آدم بن أبي إياس ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن عبد الله ابن مسلم الحضرمي قال : كان لنا عبدان من أهل عين التمر ، يقال لأحدهما : يسار .

والآخر : جبر ، وكان يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن الإنجيل ، فربما مر بهما النبي صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف ويستمع ، فقال المشركون : إنما يتعلم منهما ، فنزلت هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ .

أقسم جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يعلم أن الكفار يقولون : إن هذا القرآن الذي جاء به النّبي صلى اله عليه وسلم ليس وحياً من الله ، وإنما تعلمه من بشر من الناس .

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع ، كقوله ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5] ، وقوله : ﴿ فَقَالَ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : 24] أي يرويه محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره ، وقوله : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ [الأنعام : 105] الآية كما تقدم (في الأنعام) .

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا البشر الذي زعموا أنه يعلم النّبي صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح القرآن بأنه أعجمي اللسان . فقيل : هو غلام الفاكة بن المغيرة ، واسمه جبر ، وكان نصرانياً فاسلم . وقيل : اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية . وقيل : غلام لبني عامر بن لؤي . وقيل : هما غلامان : اسم أخدهما يسار ، واسم الآخر جبر ، وكانا صيقليين يعملان السيوف ، وكانا يقرآن كتاباً لهم . وقيل : كانا يقرآن التوراة والإنجيل ، إلى غير ذلك من الأقوال .

وقد يين جل وعلا كذبهم وتعنتهم في قولهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ بقوله : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] . أي كيف يكون

تعلمه من ذلك البشر ، مع أن ذلك البشر أعجمي اللسان . وهذا القرآن عربي مبين فصيح ، لا شائبة فيه من العجمة . فهذا غير معقول .

(196/443)

ويين شدة تعنتهم أيضاً بأنه لو جلع لاالقرآن أعجمياً لكذبوه ايضاً وقالوا : كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي . وذلك في قوله ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت : 44] أي أقرآن أعجمي ، ورسول عربي . فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي ، ول ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي ، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي .

كما ين تعنتهم أيضاً ، بأنه لو نزل هذا القرآن العربي المبين ، على أعجمي فقرأه عليهم عربيّاً لكذبوه أيضاً ، مع ذلك الخارق للعادة . لشدة عنادهم وتعنتهم ، وذلك في وقوله ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 198 : 199] .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ يلحدون ﴾ أي يميلون عن الحث . والمعنى لسان البشر يلحدون ، أي يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه – أعجمي غير بين ، وهذا القرآن

لسان عربي مبين ، أي ذو بيان وفصاحة وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي ﴿ يلحدون ﴾ بفتح الياء والحاء ، من لحد الثلاثي . وقرأه الباقون ﴿ يلحدون ﴾ بضم الياء وكسر الحاء من ألحد الرباعي ، وهما لغتان ، والمعنى واحد . أي يميلون عن الحق إلى الباطل .

وأما ﴿ يلحدون ﴾ التي في (الأعراف ، والتي في فصلت) فلم يقرأهما بفتح الياء والحاء إلا حمزة وحده دون الكسائي . وإنما وافقه الكسائي في هذه التي في (النحل) وأطلق اللسان على القرآن لأن العرب تطلق اللسان وتريد به الكلام . فتؤنثها وتذكرها . ومنه أعشى باهلة :

إني أتتني لسان لا أسر بها . . . من علو لا عجل فيها ولا سخر

وقوله الآخر :

لسان الشر تهديها إلينا . . . وخنت وما حسبتك أن تخونا

قوله الآخر :

أتتني لسان بني عامر . . . أحاديثها بعد قول نكر

ومنه قوله تعالى : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] أي ثناءً حسناً باقياً . ومن إطلاق اللسان بمعنى الكلام مذكراً قوله الحطيئة :

ندمت على لسان فات مني . . . فليت بأنه في جوف عكم . انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(198/443)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾

عطف على جملة ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ [سورة النحل : 101] .

وهذا إبطال لتلبيس آخر مما يلبّسون به على عامّتهم ، وذلك أن يقولوا : إن محمداً يتلقّى القرآن من رجل من أهل مكة .

قيل : قائل ذلك الوليدُ بن المغيرة وغيره ، قال عنه تعالى : ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ﴾ [سورة المدثر : 24] ، أي لا يلّقنه مَلَك بل يعلّمه إنسان ، وقد عيّنوه بما دلّ عليه قوله تعالى ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ .

وافتتاح الجملة بالتأكيد بلام القسم و (قدْ) يشير إلى أن خاصة المشركين كانوا يقولون ذلك

لعامّتهم ولا يجهرون به بين المسلمين لأنه باطل مكشوف ، وأن الله أطلع المسلمين على ذلك .

فقد كان في مكّة غلام روميّ كان مولى لعامر بن الحضرمي اسمه جَبر كان يصنع السيوف بمكّة ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثالُه من عامّة النصارى من دعوات الصلوات ، فاتّخذ زعماء المشركين من ذلك تمويهاً على العامة ، فإن معظم أهل مكّة كانوا أمّيين فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرّفة ، أو يكتب حروفاً يتعلّمها ، يحسبونه على علم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لما جَانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام ، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام فقالت قريش .

هذا يعلّم محمداً ما يقوله .

وقيل : كان غلام رومي اسمه بلعام ، كان عبداً بمكة لرجل من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف عليه يدعوه إلى الإسلام ، فقالوا : إن محمداً يتعلّم منه ، وكان هذا العبد يقول : إنّما يقف عليّ يعلّمني الإسلام .

وظاهر الإفراد في ﴿ إليه ﴾ أن المقصود رجل واحد .

وقد قيل : المراد عَبدَان هما جَبر ويَسار كانا قنّين ، فيكون المراد بـ ﴿ بشر ﴾ الجنس ، وبإفراد ضميره جريانه على أفراد معاده .

وقد كشف القرآن هذا اللّبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولاً فصلاً دون طول جدال ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ ، أي كيف يعلّمه وهو أعجميّ لا يكاد يبين ، وهذا القرآن فصيح عربي معجز .

والجملة جواب عن كلامهم ، فهي مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن قولهم : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ يتضمنّ أنه ليس منزّلاً من عند الله فيسأل سائل : ماذا جواب قولهم ؟ فيقال : ﴿ لِسانُ الذي . . .

﴾ الخ ، وهذا النّظم نظير نظم قوله تعالى : ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [سورة الأنعام : 124] .

وألْحَد : مثل لَحَد ، أي مال عن القويم .

فهو مما جاء من الأفعال مهموز بمعنى المجرد ، كقولهم : أبان بمعنى بان .

فمعنى ﴿ يلحدون ﴾ يميلون عن الحقِ لأن ذلك اختلاقُ معاذير ، فهم يتركون الحقّ القويم من أنه كلام منزّل من الله إلى أن يقولوا ﴿ يعلمه بشر ﴾ ، فذلك ميل عن الحقّ وهو إلحاد .

ويجوز أن يراد بالإلحاد الميْل بكلامهم المبهم إلى قَصدٍ معين لأنهم قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ وسكتوا عن تعيينه توسعة على أنفسهم في اختلاق المعاذير ، فإذا وجدوا ساذجاً أبْلَهَ يسأل عن المعني بالبشر قالوا له : هو جَبر أو بَلعام ، وإذا توسّموا نباهة السائل تجاهلوا وقالوا

: هو بشر من الناس ، فإطلاق الإلحاد على هذا المعنى مثل إطلاق الميَل على الاختيار .

وقرأ نافع والجمهور ﴿ يلحدون ﴾ بِضمّ الياءِ مضارع ألحد .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يَلحَدون ﴾ بِفتح الياءِ من لَحد مرادف أَلحد .

وقد تقدّم الإلحاد في قوله تعالى : ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ في سورة الأعراف (180) .

وليست هذه الهمزة كقولهم : ألحد الميتَ ، لأن تلك للجعل ذا لَحد .

واللسان : الكلام .

سمّي الكلام باسم آلته .

والأعجمي : المنسوب إلى الأعجم ، وهو الذي لا يبين عن مراده من كل ناطق لا يفهمون ما يريده .

ولذلك سمّوا الدوابّ العجماوات .

فالياء فيه ياء النسب .

ولما كان المنسوب إليه وصفاً كان النسب لتقوية الوصف .

والمبين : اسم فاعل من أبان ، إذا صار ذا إبانة ، أي زائد في الإبانة بمعنى الفصاحة والبلاغة ، فحصل تمام التضادّ بينه وبين لسان الذي يلحدون إليه ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

جملة معترضة .

وورود هذه الآية عقب ذكر اختلاق المتقعّرين على القرآن المرجفين بالقالة فيه بين الدهماء يومىء إلى أن المراد بالذين لا يؤمنون هم أولئك المردود عليهم آنفاً .

وهم فريق معلوم بشدة العداوة للنبيء صلى الله عليه وسلم وبالتصلّب في التصدّي لصرف الناس عنه بحيث بلغوا من الكفر غايةً ما وراءها غايةٌ ، فحقّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون ، فهؤلاء فريق غير معيّن يومئذٍ ولكنهم مشار إليهم على وجه الإجمال ، وتكشف عن تعيينهم عواقب أحوالهم .

فقد كان من الكافرين بالنبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل وأبو سفيان .

وكان أبو سفيان أطولَ مدة في الكفر من أبي جهل ؛ ولكن أبا جهل كان يخلط كفره بأذَى النبي صلى الله عليه وسلم والحنقِ عليه .

وكان أبو سفيان مقتصراً على الانتصار لدينه ولقومه ودفْع المسلمين عن أن يغلبوهم فحرم الله أبا جهل الهداية فأهلكه كافراً ، وهدى أبا سفيان فأصبح من خيرة المؤمنين ، وتشرف

بصهر النبي صلى الله عليه وسلم وكان الوليد بن المغيرة وعمر بن الخطاب كافرين وكان كلاهما يدفع الناس من اتّباع الإسلام ، ولكن الوليد كان يختلق المعاذير والمطاعن في القرآن وذلك من الكيد ، وعمر كان يصرف الناس بالغلظة علناً دون اختلاق ، فحرم الله الوليد بن المغيرة الاهتداء ، وهدى عمر إلى الإسلام فأصبح الإسلام به عزيز الجانب .

فتبيّن الناس أن الوليد من الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأن عمر ليس منهم ، وقد كانا معاً كافرين في زمن ما .

ويشير إلى هذا المعنى الذي ذكرناه قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ [سورة الزمر : 3] فوَصف من لا يهديه الله بوصفين الكذب وشدة الكفر .

فتبيّن أن معنى قوله تعالى : الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ من كان الإيمان منافياً لجبلّة طبعهِ لا لأميال هواه .

وهذا يعلم الله أنه لا يؤمن وأنه ليس معرّضاً للإيمان ، فلذلك لا يهديه الله ، أي لا يكوّن الهداية في قلبه .

وهذا الأسلوب عكس أسلوب قوله تعالى : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمات ربّك لا

يؤمنون ﴾ [سورة يونس : 96] ، وكل يرمي إلى معنى عظيم .

فموقع هذه الجملة من التي قبلها موقع التعليل لجميع أقوالهم المحكيّة والتذييل لخلاصة أحوالهم ، ولذلك فصلت بدون عطف .

وعطْفُ ولهم عذاب أليم ﴾ على ﴿ لا يهديهم ﴾ للدّلالة على حرمانهم من الخير وإلقائهم في الشرّ لأنهم إذا حُرموا الهداية فقد وقعوا في الضلالة ، وماذا بعد الحقّ إلا الضلال ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ كتب عليه أنه من تولّاه فأنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ [سورة الحج : 4] .

ويشمل العذاب عذاب الدنيا وهو عذاب القتل مثل ما أصاب أبا جهل يوم بدر من ألم الجراح وهو في سكرات الموت ، ثم من إهانة الإجهاز عليه عقب ذلك .

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) ﴾

هذا ردّ لقولهم : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ [سورة النحل : 101] بقلب ما زَعموه عليهم ، كما كان قوله تعالى : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ [سورة النحل : 103] جواباً عن قولهم : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [سورة النحل : 103] .

فبعد أن نزّه القرآن عن أن يكون مفترى والمنزّل عليه عن أن يكون مفترياً ثني العنان لبيان من هو المفتري .

وهذا من طريقة القلب في الحال .

ووجه مناسبة ذكره هنا أن قولهم : إنما يعلمه بشر يستلزم تكذيب النبي في أن ما جاء به منزّل إليه من عند الله ، فصاروا بهذا الاعتبار يؤكّدون بمضمونه قولَهم : إنّما أنت مفتر ﴾ يؤكّد أحد القولين القولَ الآخر ، فلما رُدّ قولهم : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ بقوله : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ [سورة النحل : 101 102] .

ورُدّت مقالتهم الأخرى في صريحها بقوله ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ ، ورُدّ مضمونها هنا بقوله ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ الآية ، حاصلاً به ردّ نظيرها أعني قولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ بكلام أبلغ من كلامهم ، لأنهم أتوا في قولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ بصيغة قصر هي أبلغ مما قالوه ، لأن قولهم : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ قصر للمخاطب على صفة الافتراء الدائمة ، إذ الجملة الاسمية تقتضي الثبات والدّوام ، فردّ عليهم بصيغة تقصرهم على الافتراء المتكرّر المتجدّد ، إذ المضارع يدلّ على التجدّد .

وأكّد فعل الافتراء بمفعوله الذي هو بمعنى المفعول المطلق لكونه آيلاً إليه المعنى .

وعُرّف ﴿ الكذب ﴾ بأداة تعريف الجنس الدّالة على تميّز ماهية الجنس واستحضارها ، فإن تعريف اسم الجنس أقوى من تنكيره ، كما تقدّم في قوله تعالى ﴿ الحمد لله رب

العالمين ﴾ [سورة الفاتحة : 2] .

وعبّر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم ، فيقال : إنما يفتري الكذب أنتم ، ليفيد اشتهارهم بمضمون الصّلة ، ولأن للصّلة أثراً في افترائهم ، لما تفيده الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر .

وعليه فإن من لا يؤمن بالدلائل الواضحة التي هي آيات صدق لا يسعه إلا الافتراء لترويج تكذيبه بالدلائل الواضحة .

وفي هذا كناية عن كون تكذيبهم بآيات الله عن مكابرة لا عن شبهة .

ثم أردفت جملة القصر بجملة قصرٍ أخرى بطريق ضمير الفصل وطريق تعريف المسند وهي جملة ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ .

(203/443)

وافتتحت باسم الإشارة ، بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم ، لينبه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة ، وهو قصرهم على الكذب ، لأن من لا يؤمن بآيات الله يتّخذ الكذب ديدناً له متجدّداً .

وجعل المسند في هذه الجملة معرّفاً باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتّحد بهم وصار

منحصراً فيهم ، أي الذين تَعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء .

وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه ، فيحصل قصران في هذه الجملة : قصر موصوف على صفة ، وقصر تلك الصفة على ذلك الموصوف .

والقصران الأوّلان الحاصلان من قوله : ﴿ إنما يفتري ﴾ وقوله : ﴿ وأولئك هم ﴾ إضافيان ، أي لا غيرهم الذي رموه بالافتراء وهو محاشًى منه ، والثالث ﴿ أولئك هم الكاذبون ﴾ قصر حقيقي ادّعائي للمبالغة ، إذ نزل بلوغ الجنس فيهم مبلغاً قوياً منزلة انحصاره فيهم .

واختير في الصّلة صيغة ﴿ لا يؤمنون ﴾ دون : لم يؤمنوا ، لتكون على وزان ما عُرفوا به سابقاً في قوله : ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ ، ولما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمرّون على انتفاء الإيمان لا يثبت لهم ضدّ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) ﴾

وفي هذه الآية اتهام آخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وافتراء جديد عليه، لا يأنف القرآن من إذاعته، فمَنْ سمع الاتهام والافتراء يجب أن يسمع الجواب، فالقرآن يريد أنْ يفضحَ أمر هؤلاء، وأنْ يُظهِر إفلاس حُججهم وما هم فيه من تخبُّط.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴾ [النحل: 103].

وقد سبق أنْ قالوا عن رسول الله "مجنون" وبرَّأه الله بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

والخلقُ العظيم لا يكون في مجنون؛ لأن الخُلق الفاضل لا يُوضع إلا في مكانه، بدليل قوله تعالى: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: 2].

وسبق أنْ قالوا: ساحر وهذا دليل على أنهم مغفلون يتخبَّطون في ضلالهم، فلو كان محمد ساحراً، فَلِمَ لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهي المسألة؟

وسبق أنْ قالوا "شاعر" مع أنهم أدْرى الناس بفنون القول شِعْراً ونثراً وخطابة، ولم يُجرِّبوا على محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك، لكنه الباطل حينما يَلِجّ في عناده، ويتكبَّر عن قبول الحق.

وهنا جاءوا بشيء جديد يُكذِّبون به رسول الله، فقالوا:

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . ﴾ [النحل : 103] .

أي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه القرآن فقالوا : إنه غلام لبني عامر بن لؤي اسمه (يعيش) ، وكان يعرف القراءة والكتاب ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرأ قصص السابقين مثل عنترة وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربتْ أقوالهم في تحديد هذا الشخص الذي يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلّم على يديه ، فقالوا : اسمه " عداس " وقال آخرون : سلمان الفارسي . وقال آخرون : بَلْعام وكان حداداً رومياً نصرانياً يعلم كثيراً عن أهل الكتاب . . الخ .

والحق تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء ، ويُظهِر إفلاسهم الفكري ، وإصرارهم على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

اللسان هنا : اللغة التي يُتحدَّث بها .

ويُلحِدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعلِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أعجمي : أي لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقُلْ (عجمي) ، لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبويْه صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عَجمي .

أما الأعجمي فهو الذي لا يُفصح ولا يُبين ، حتى وإنْ كان عربياً . وقد كان في قبيلة لؤي رجل اسمه زياد يُقال له " زياد الأعجمي " لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربي .

إذن : كيف يتأتّى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أنْ يُعلِّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء بمعجزة في الفصاحة والبلاغة والبيان ؟

كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم تردَّد إلى معلم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم ؟

كما أن ما يحويه القرآن من آيات وأحكام ومعجزات ومعلومات يحتاج في تعلُّمه إلى وقت طويل يتتلمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جرّبْتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعقل أن ما في القرآن يمكن أن يطويه صَدْرُ واحدٍ من هؤلاء ؟ ! لو حدث لكان له من المكانة والمنزلة بين قومه ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم من منزلة ، ولأشاروا إليه بالبنان ولذَاع صِيتُه ، واشتُهر أمره ، وشيء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

﴿ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

أي : لغته صلى الله عليه وسلم ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبِينة ، لا لَبْسَ فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ . . . ﴾ .

الحق تبارك وتعالى في قوله :

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله . . ﴾ [النحل : 104] .

ينفي عن هؤلاء صفة الإيمان ، فكيف يقول بعدها :

﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله . . . ﴾ [النحل : 104] .

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مُهْتدين ؟

قُلْنا : إن الهداية نوعان :

هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوي فيها المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله الجميع ، وأوضح

الطريق للجميع، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى . . . ﴾ [فصلت: 17] أي: أرشدناهم ودَلَّلْناهم .

وهداية المعونة والتوفيق، وهذه لا تكون إلا للمؤمن، ومنها قوله تعالى: ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: 17] .

إذن: معنى:

﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله . . ﴾ [النحل: 104] .

أي: هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً: إن الجهة هنا مُنفكّة إلى شيء آخر، فيكون المعنى: لا يهديهم إلى طريق الجنة، بل إلى طريق النار، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ . . ﴾ [النساء: 168-169] .

بدليل قوله تعالى بعدها:

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: 104] .

ولأنه سبحانه في المقابل عندما تحدّث عن المؤمنين قال : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : 6] .

أي : هداهم لها وعرّفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله واتهمتموه بالكذب الحقيقي أنْ تُكذِّبوا بآيات الله ، ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ في تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يَقُلْ : وأولئك هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما " سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيسرق المؤمن ؟ قال : " نعم " لأن الله قال : ﴿ والسارق والسارقة ﴾ [المائدة : 38] .

فما دام قد شرَع حُكْماً ، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر وارداً ومحتمل الحدوث . "

وسئل : أيزني المؤمن ؟ قال : " نعم " ، لأن الله قال : ﴿ الزانية والزاني ﴾ [النور : 2] .

" وسئل : أيكذب المؤمن ؟ قال : " لا " .

والحديث يُوضّح لنا فظاعة الكذب وشناعته ، وكيف أنه أعظم من كل هذه المنكرات ، فقد جعل الله لكل منها عقوبة معلومة في حين ترك عقوبة الكذب ليدل على أنها جريمة

أعلى من العقوبة وأعظم .

إذن : الكذب صفة لا تليق بالمؤمن ، ولا تُتصوّر في حقّه ؛ ذلك لأنه إذا اشتُهِر عن واحد أنه كذاب لما اعتاده الناس من كذبه ، فنخشى أن يقول مرة : أشهد ألّا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فيقول قائل : إنه كذاب وهذه كذبة من أكاذيبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(208/443)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قيناً بمكة اسمه بلعام ، وكان عجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . . . ﴾ الآية .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ قال : قالوا إنما يعلم محمداً عبدة بن الحضرمي – وهو صاحب الكتب – فقال الله : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاماً لبني المغيرة أعجمياً ، يقال له مقيس . وأنزل الله ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون . . . ﴾ الآية .

وأخرج آدم بن أبي إياس وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن مجاهد ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ﴾ قال : قول قريش : إنما يعلم محمداً بن الحضرمي وهو صاحب كتب ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ يتكلم بالرومية ﴿ وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : يقولون إنما يعلم محمداً عبدة بن الحضرمي كان يسمى مقيس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في الآية قال : كانوا يقولون : إنما يعلمه سلمان الفارسي ، وأنزل الله ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب : " إن الذي ذكر الله في كتابه أنه قال : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ إنما افتتن من أنه كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يملي عليه سميع عليم ، أو عزيز حكيم أو نحو ذلك من خواتيم الآية ، ثم يشتغل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : " يا رسول الله ، أعزيز حكيم أو سميع عليم ؟ فيقول : أي ذلك كتبت فهو كذلك ، فافتتن وقال : إن محمداً ليكل ذلك إلي فأكتب ما شئت " فهذا الذي ذكر لي سعيد بن المسيب من الحروف السبعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آذاه أهل مكة ، دخل على عبد لبني الحضرمي يقال له : أبو يسر ، كان نصرانياً وكان قد قرأ التوراة والإنجيل ، فساءله وحدثه . فلما رآه المشركون يدخل عليه قالوا : يعلمه أبو اليسر . قال الله : ﴿ هذا لسان عربي مبين ﴾ ولسان أبي اليسر عجمي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن معاوية بن صالح قال : ذكر الكذب عند أبي أمامة فقال : اللهم عفواً ، أما تسمعون الله يقول : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ .

وأخرج الخرائطي في مساوئ الأخلاق وابن عساكر في تاريخه ، عن عبد الله بن جراد أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم : " هل يزني المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك . قال : هل

يسرق المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك . قال : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم أتبعها نبي الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ " .

وأخرج الخطيب في تاريخه ، عن عبد الله بن جراد قال : قال أبو الدرداء " يا رسول الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر من إذا حدث كذب " .

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أخوف ما أخاف عليكم ثلاثاً : رجل آتاه الله القرآن ، حتى إذا رأى بهجته وتردى الإسلام ، أعاره الله ما شاء ، اخترط سيفه ، وضرب جاره ، ورماه بالكفر . قالوا : يا رسول الله ، أيهما أولى بالكفر ، الرامي أو المرمي به ؟ قال : الرامي ، وذو خليفة قبلكم آتاه الله سلطاناً فقال : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، وكذب ما جعل الله خليفة حبه دون الخالق ، ورجل استهوته الأحاديث كلما كذب كذبة وصلها بأطول منها ، فذاك الذي يدرك الدجال فيتبعه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي ﴾ : العامَّة على إضافة " لسان " إلى ما بعدَه . واللِّسانُ : اللغة . وقرأ الحسن " اللسان " معرَّفاً بأل ، و " الذي " نعتٌ له . وفي هذه الجملة وجهان ، أحدُهما : لا محلَّ لها لاستئنافِها ، قاله الزمخشري . والثاني : أنها حالٌ مِنْ فاعل " يقولون " ، أي : يقولون ذلك والحالُ هذه ، أي : عِلْمُهم بأعجميةِ هذا البشرِ وإبانةِ عربيَّةِ هذا القرآنِ كان ينبغي أَنْ يمنَعهم من تلك المقالةِ ، كقولِك : " تَشْتُمُ فلاناً وهو قد أحسنَ إليك " ، أي : وعِلْمُك بإحسانِه إليك كان يمنعُك مِنْ شَتْمِه ، قاله الشيخ . ثم قال : " وإنما ذهب إلى الاستئنافِ لا إلى الحالِ ؛ لأنَّ مِنْ مذهبِه أنَّ مجيءَ الحالِ اسميةً من غيرِ واوٍ شاذٌ ، وهو مذهبٌ مرجوحٌ تَبعَ فيه الفراءَ " .

و "أعجميٌّ" خبرٌ على كلتا القراءتين . والأعجميُّ : مَنْ لم يتكلَّمْ بالعربية . وقال الراغب : "العَجَمُ خلافُ العرب ، والعجميُّ منسوبٌ إليهم ، والأَعْجَم مَنْ في لسانه عُجْمَةٌ عربياً كان أو غيرَ عربي ؛ اعتباراً بقلة فَهْمِه من العُجْمة . والأعجميُّ منسوبٌ إليه ، ومنه قيل للبهيمة "عَجْماءُ" من حيث إنها لا تُبِيْنُ ، و "صلاةُ النهارِ عَجْماء" ، أي : لا يُجْهَرُ فيها . والعَجَمُ : النَّوَى لاختفائِه . وحروف المعجم ، قال الخليل : "الحروفُ المقطَّعة لأنها أعجمية" قال بعضهم : معناه أنَّ الحروفَ المجردة لا تَدُلُّ على ما تَدُلُّ عليه الموصولةُ . وأَعْجمتُ الكتاب ضِدُّ أَعْرَبْتُه ، وأَعْجَمْتُه : أَزَلْتُ عُجْمَتَه كأَشْكَيْتُه ، أي : أَزَلْتُ شِكايتَه ، وسيأتي لهذا أيضاً مزيدُ بيانٍ إنْ شاء الله في الشعراء ، وحم السجدة . وتقدَّم خلافُ القرَّاءِ في "يُلْحِدُون" في الأعراف . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 288.287﴾

(213/443)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) ﴾

لم يستوحش الرسولُ – صلى الله عليه وسلم – من تكذيبهم، وخفاءِ حاله وقَدْره عليهم. . وأيُّ ضررٍ يلحق مَنْ كانت مع السلطان مُجَالَستُه إذا خَفِيَت على الأخسِّ مِنَ ابرعيةِ حالتُه؟

ثم إنه أقام الحجةَ في الردّ عليهم حيث قال: ﴿ لِسَانُ الذِّى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾: فَمِن فَرْطِ جهلهم توهموا أنَّ القرآنَ – الذي عجز كافةُ الخَلْقِ عن معارضته في فصاحته بلاغته – مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بمَنْ هو أعجمي النطق.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) ﴾

إنَّ مَنْ سَبَقَتْ بالشقاوة قسمتُه لم تتعلق من الحق – سبحانه – به رحمتُه، ومَنْ لم يَهْدِهِ اللَّهُ في عاجله إلى معرفته لا يهديه اللَّهُ في آجِلِه إلى جنته.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) ﴾

هذا من لطائف المعاريض؛ إذ لمَّا وصفوه – عليه السلام – بالافتراء أنار الحقُّ – سبحانه – في الجواب، فقال: لستَ أنت المفتري إنما المفتري مَنْ كذَّبَ معبودَه وجهِلَ توحيدَه.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 321. 322 ﴾

(214/443)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 106 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 110 ﴾ من نفس السورة

(4/444)

قوله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر الذين لا يؤمنون مطلقاً ، أتبعهم صنفاً منهم هم أشدهم كفراً فقال تعالى :

﴿ من ﴾ أي أي مخلوق وقع له أنه ﴿ كفر بالله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ، بأن قال أو

عمل ما يدل على الكفر ، ولما كان الكفر كله ضاراً وإن قصر زمنه ، أثبت الجار فقال تعالى : ﴿ ومن بعد إيمانه ﴾ بالفعل أو بالقوة ، لما قام على الإيمان من الأدلة التي أوصلته إلى حد لا يلبس فصار استكباره عن الإيمان ارتداداً عنه وجوب الشرط دل ما قبله وما بعده على أنه : فهو الكاذب ، أو فعليه غضب من الله ﴿ إلا من أكره ﴾ أي وقع إكراهه على قول كلمة الكفر ﴿ وقلبه ﴾ أي والحال أن قلبه ﴿ مطمئن بالإيمان ﴾ فلا شيء عليه ، وأجمعوا – مع إباحة ذلك له – أنه لا يجب عليه التكلم بالكفر ، بل إن ثبت كان ذلك أرفع درجة ، والآية

" نزلت في عمار بن ياسر - رضى الله عنهم - أكرهوه فتابعهم وهو كاره ، فأخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه كفر ، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : كلا ! إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكي ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يمسح عينيه ويقول : إن عادوا فعد لهم بمثل ما قلت " ﴿ ولكن من شرح ﴾ أي فتح فتحاً صار يرشح به ﴿ بالكفر صدراً ﴾ أي منه أو من غيره بالتسبب فيه لأن حقيقة الإيمان والكفر يتعلق بالقلب دون اللسان ، وإنما اللسان معبر وترجمان معرف بما في القلب لتوقع الأحكام الظاهرة ﴿ فعليهم ﴾ لرضاهم به ﴿ غضب ﴾ أي غضب ؛ ثم بين جهة عظمه بكونه

﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ ولهم ﴾ أي بظواهرهم وبواطنهم ﴿ عذاب عظيم ﴾ لارتدادهم على أعقابهم.

(5/444)

ولما كان من يرجع إلى الظلمات بعد خروجه منها إلى النور جديراً بالتعجب منه، كان كأنه قيل: لم يفعلون، أو لم يفعل بهم ذلك؟ فقال تعالى: ﴿ ذلك ﴾ الارتداد أو الوعيد العظيم ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ استحبوا ﴾ أي أحبوا حباً عظيماً ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي الدنيئة الحاضرة الفانية، فآثروها ﴿ على الآخرة ﴾ الباقية الفاخرة لأنهم رأوا ما فيه المؤمن من الضيق والكافر من السعة ﴿ و ﴾ بسبب ﴿ أن الله ﴾ أي الملك الذي له الغنى الأكبر ﴿ لا يهدي القوم الكافرين ﴾ الذين علم استمرارهم عليه، بل يخذلهم ويسلط الشيطان عليهم يحتالهم عن دينهم.

ولما كان استمرارهم على الكفر أعجب من ارتدادهم، أتبعه سببه فقال تعالى: ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ الذين طبع ﴾ أي ختم ختماً هو كفيل بالعطب ﴿ الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه ﴿ على قلوبهم ﴾ ولما كان التفاوت في السمع نادراً، وحده فقال تعالى: ﴿ وسمعهم وأبصارهم ﴾ فصاروا - لعدم انتفاعهم بهذه

المشاعر - كأنهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ﴿ وأولئك ﴾ أي الأباعد من كل خير ﴿ هم الغافلون ﴾ أي الكاملو الغفلة ؛ ثم أتبع ذلك جزاءهم عليه فقال تعالى : ﴿ لا جرم ﴾ أي لا شك ﴿ أنهم في الآخرة هم ﴾ أي خاصة ﴿ الخاسرون ﴾ أي أكمل خسارة لأنهم خسروا رأس المال وهو نفوسهم ، فلم يكن لهم مرجع يرجعون إليه .

ولما قدم الفاتن والمفتون ، أتبع ذلك ذكر حكمهما على القراءتين فقال تعالى : بحرف التراخي إشارة إلى تقاصر رتبتهما عن رتبة من لم يفعل ذلك : ﴿ ثم إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بالعفو عن أمتك وتخفيف الآصار عنهم في قبول توبة من ارتد بلسانه أو قلبه ﴿ للذين هاجروا ﴾ أهل الكفر بالنزوح من بلادهم توبة إلى الله تعالى مما كانوا فيه .

(6/444)

ولما كان سبحانه يقبل اليسير من العمل في أي وقت كان ، أشار إلى ذلك بالجار فقال تعالى مبيناً أن الفتنة بالأذى - وإن كان بالغاً - غير قادحة في الهجرة وما تبعها ، فيفيد ذلك في الهجرة بدونها من باب الأولى ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ بالبناء للمجهول - على قراءة الجماعة ، لأن المضر هو الفتنة مطلقاً ، وللفاعل على قراءة ابن عامر ، أي ظلموا بأن فتنوا من آمن بالله حين كانوا كفاراً ، أو أعطوا الفتنة من أنفسهم ففتنوها بأن أطاعوا في كلمة

الكفر، أو في الرجوع مع من ردهم إلى بلاد الكفر بعد الهجرة من بعد إيمانهم ﴿ ثم جاهدوا ﴾ أي أوقعوا جهاد الكفار مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم توبة إلى الله تعالى ﴿ وصبروا ﴾ على ذلك إلى أن ماتوا عليه ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بتسخير من هذه صفاتهم لك.

ولما كان له سبحانه أن يغفر الذنوب كلها ما عدا الشرك، وأن يعذب عليها كلها وعلى بعضها، وأن يقبل الصالح كله، وأن يرد بعضه، أشار إلى ذلك بالجار فقال تعالى: ﴿ من بعدها ﴾ أي هذه الأفعال الصالحة الواقعة بعد تلك الفاسدة وهي الفتنة ﴿ لغفور ﴾ أي بليغ المحو للذنوب ﴿ رحيم ﴾ أي بليغ الإكرام فهو يغفر لهم ويرحمهم. انتهى. اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 314.316 ﴾

(7/444)

فصل

قال الفخر:

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم تهديد الكافرين ذكر في هذه الآية تفصيلاً في بيان من يكفر بلسانه لا

بقلبه ، ومن يكفر بلسانه وقلبه معاً ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ مبتدأ خبره غير مذكور ، فلهذا السبب اختلف المفسرون وذكروا فيه وجوهاً : الأول : أن يكون قوله : ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ والتقدير : إنما يفتري من كفر بالله من بعد إيمانه ، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ، وعلى هذا التقدير : فقوله : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الكاذبون ﴾ اعتراض وقع بين البدل والمبدل منه .

الثاني : يجوز أيضاً أن يكون بدلاً من الخبر الذي هو الكاذبون ، والتقدير : وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه ، والثالث : يجوز أن ينتصب على الذم ، والتقدير : وأولئك هم الكاذبون ، أعني من كفر بالله من بعد إيمانه وهو أحسن الوجوه عندي وأبعدها عن التعسف ، والرابع : أن يكون قوله : ﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ شرطاً مبتدأ ويحذف جوابه ، لأن جواب الشرط المذكور بعده يدل على جوابه كأنه قيل : من كفر بالله من بعد إيمانه فعليهم غضب من الله إلا من أكره : ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله .

المسألة الثانية :

أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بالكفر يدل عليه وجوه : أحدها : أنا روينا أن بلالاً صبر على ذلك العذاب ، وكان يقول : أحد أحد .

(8/444)

روي ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه ، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه ، مع أنه كان بقلبه مصراً على الإيمان ، منهم : عمار ، وأبواه ياسر وسمية ، وصهيب ، وبلال ، وخباب ، وسالم ، عذبوا ، فأما سمية فقيل : ربطت بين بعيرين ووخزت في قبلها بحربة وقالوا : إنك أسلمت من أجل الرجال وقتلت ، وقتل ياسر وهما أول قتيلين قتلاً في الإسلام ، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، فقيل : يا رسول الله إن عماراً كفر ، فقال : كلا إن عماراً ملئ إيماناً من فرقه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول : " ما لك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ، ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ ليس باستثناء ، لأن المكره ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر ، لكن المكره لما ظهر منه بعد الإيمان ما مثله يظهر من الكافر طوعاً صح هذا الاستثناء لهذه المشاكلة .

المسألة الرابعة :

يجب ههنا بيان الإكراه الذي عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر ، وهو أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به ، مثل التخويف بالقتل ، ومثل الضرب الشديد والإيلامات القوية .

قال مجاهد : أول من أظهر الإسلام سبعة ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وخباب ، وصهيب ، وبلال ، وعمار ، وسمية .

أما الرسول عليه السلام فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أجلسوا في الشمس فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية ، ثم طعن الحربة في فرجها .

وقال الآخرون : ما نالوا منهم غير بلال فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول : أحد أحد ، حتى ملوا فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتركوه .

قال عمار : كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال ، فهانت عليه نفسه فتركوه .

قال خباب : لقد أوقدوا لي ناراً ما أطفأها إلا ودك ظهري .

المسألة الخامسة :

أجمعوا على أن عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه أن يبرىء قلبه من الرضا به وأن يقتصر على التعريضات مثل أن يقول : إن محمداً كذاب ، ويعني عند الكفار أو يعني به محمداً آخر أو يذكره على نية الاستفهام بمعنى الإنكار وههنا بحثان :

البحث الأول : أنه إذا أعجله من أكرهه عن إحضار هذه النية أو لأنه لما عظم خوفه زال عن قلبه ذكر هذه النية كان ملوماً وعفو الله متوقع .

البحث الثاني : لو ضيق المكره الأمر عليه وشرح له كل أقسام التعريضات وطلب منه أن يصرح بأنه ما أراد شيئاً منها ، وما أراد إلا ذلك المعنى ، فههنا يتعين إما التزام الكذب ، وإما تعريض النفس للقتل .

فمن الناس من قال : يباح له الكذب هنا ، ومنهم من يقول : ليس له ذلك وهو الذي اختاره القاضي .

قال : لأن الكذب إنما يقبح لكونه كذباً ، فوجب أن يقبح على كل حال ، ولو جاز أن يخرج عن القبيح لرعاية بعض المصالح لم يمنع أن يفعل الله الكذب لرعاية بعض المصالح وحينئذ لا يبقى وثوق بوعد الله تعالى ولا بوعيده لاحتمال أنه فعل ذلك الكذب لرعاية بعض المصالح

التي لا يعرفها إلا الله تعالى .

المسألة السادسة :

(10/444)

أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر ، ويدل عليه وجوه : أحدها : أنا روينا أن بلالاً صبر على ذلك العذاب ، وكان يقول : أحد أحد ، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس ما صنعت بل عظمه عليه ، فدل ذلك على أنه لا يجب التكلم بكلمة الكفر ، وثانيها : ما روي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما قتلو في محمد ؟ فقال رسول الله ، فقال : ما تقول في ؟ قال أنت أيضاً ، فخلاه وقال للآخر : ما تقول في محمد ؟ قال رسول الله ، قال : ما تقول في ؟ قال : أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

" أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثاني فقد صدع بالحق ، فهنيئاً له " وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين : الأول : أنه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة .

والثاني : أنه عظم حال من أمسك عنه حتى قتل .

وثالثها : أن بذل النفس في تقرير الحق أشق ، فوجب أن يكون أكثر ثواباً لقوله عليه السلام :

"أفضل العبادات أحمزها " أي أشقها .

ورابعها : أن الذي أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر .

أما الذي تلفظ بها فهب أن قلبه طاهر عنه إلا أن لسانه في الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة ، فوجب أن يكون حال الأول أفضل ، والله أعلم .

المسألة السابعة :

اعلم أن للإكراه مراتب .

المرتبة الأولى : أن يجب الفعل المكره عليه مثل ما إذا أكرهه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة فإذا أكرهه عليه بالسيف فههنا يجب الأكل ، وذلك لأن صون الروح عن الفوات واجب ، ولا سبيل إليه في هذه الصورة إلا بهذا الأكل ، وليس في هذا الأكل ضرر على حيوان ولا فيه إهانة لحق الله تعالى ، فوجب أن يجب لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] .

(11/444)

المرتبة الثانية : أن يصير ذلك الفعل مباحاً ولا يصير واجباً ، ومثاله ما إذا أكرهه على التلفظ بكلمة الكفر فههنا يباح له ولكنه لا يجب كما قررناه .

المرتبة الثالثة : أن لا يجب ولا يباح بل يحرم ، وهذا مثل ما إذا أكرهه إنسان على قتل إنسان آخر أو على قطع عضو من أعضائه فههنا يبقى الفعل على الحرمة الأصلية ، وهل يسقط القصاص عن المكره أم لا ؟ قال الشافعي رحمه الله : في أحد قوليه يجب القصاص ويدل عليه وجهان .

الأول : أنه قتله عمداً عدواناً فيجب عليه القصاص لقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى ﴾ [البقرة : 178] .

والثاني : أجمعنا على أن المكره إذا قصد قتله فإنه يحل له أن يدفعه عن نفسه ولو بالقتل ، فلما كان توهم إقدامه على القتل يوجب إهدار دمه ، فلأن يكون عند صدور القتل منه حقيقة يصير دمه مهدراً كان أولى ، والله أعلم .

المسألة الثامنة :

من الأفعال ما يقبل الإكراه عليه كالقتل والتكلم بكلمة الكفر ، ومنه ما لا يقبل الإكراه عليه قيل : وهو الزنا .

لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة ، فحيث دخل الزنا في الوجود علم أنه وقع بالاختيار لا على سبيل الإكراه .

المسألة التاسعة :

قال الشافعي رحمه الله : طلاق المكره لا يقع ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : يقع ، وحجة

الشافعي رحمه الله: قوله: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِى الدين ﴾ ولا يمكن أن يكون المراد نفي ذاته لأن ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره، والمعنى: أنه لا أثر له ولا عبرة به، وأيضاً قوله عليه السلام:

" رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " وأيضاً قوله عليه السلام: " لا طلاق في إغلاق " أي إكراه فإن قالوا: طلقها فتدخل تحت قوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ ﴾ [البقرة: 230] فالجواب لما تعارضت الدلائل، وجب أن يبقى ما كان على ما كان على ما هو قولنا، والله أعلم.

المسألة العاشرة:

(12/444)

قوله: ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ يدل على أن محل الإيمان هو القلب والذي محله القلب إما الاعتقاد، وإما كلام النفس، فوجب أن يكون الإيمان عبارة إما عن المعرفة وإما عن التصديق بكلام النفس، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بالكفر صَدْرًا ﴾ أي فتحه ووسعه لقبول الكفر وانتصب صدراً على أنه مفعول لشرح، والتقدير: ولكن من شرح بالكفر صدره، وحذف الضمير

لأنه لا يشكل بصدر غيره إذ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره فهو نكرة يراد بها المعرفة.

ثم قال: ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ ﴾ والمعنى أنه تعالى حكم عليهم بالعذاب ثم وصف ذلك العذاب فقال: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا على الأخرة ﴾ أي رجحوا الدنيا على الآخرة، والمعنى: أن ذلك الارتداد وذلك الإقدام على الكفر لأجل أنه تعالى ما هداهم إلى الإيمان وما عصمهم عن الكفر.

قال القاضي: المراد أن الله لا يهديهم إلى الجنة فيقال له هذا ضعيف، لأن قوله: ﴿ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الكافرين ﴾ معطوف على قوله: ﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا على الأخرة ﴾ فوجب أن يكون قوله: ﴿ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الكافرين ﴾ علة وسبباً موجباً لإقدامهم على ذلك الارتداد، وعدم الهداية يوم القيامة إلى الجنة ليس سبباً لذلك الارتداد، ولا علة له بل مسبباً عنه ومعلولاً له فبطل هذا التأويل، ثم أكد بيان أنه تعالى صرفهم عن الإيمان فقال: ﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ قال القاضي: الطبع ليس يمنع من الإيمان ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى ذكر ذلك في معرض الذم لهم، ولو كانوا عاجزين عن الإيمان به لما استحقوا الذم بتركه.

والثاني : أنه تعالى أشرك بين السمع والبصر وبين القلب في هذا الطبع ومعلوم من حال السمع والبصر أن مع فقدهما قد يصح أن يكون مؤمناً فضلاً عن طبع يلحقهما في القلب .

والثالث : وصفهم بالغفلة .

ومن منع من الشيء لا يوصف بأنه غافل عنه ، فثبت أن المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التي يخلقها في القلب ، وقد ذكرنا في سورة البقرة معنى الطبع والختم ، وأقول هذه الكلمات مع التقريرات الكثيرة ، ومع الجوابات القوية مذكورة في أول سورة البقرة وفي سائر الآيات فلا فائدة في الإعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ وأولئك هُمُ الغافلون ﴾ قال ابن عباس : أي عما يراد بهم في الآخرة .

ثم قال : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ واعلم أن الموجب لهذا الخسران هو أن الله تعالى وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستة .

الصفة الأولى : أنهم استوجبوا غضب الله .

والصفة الثانية : أنهم استحقوا العذاب الأليم .

والصفة الثالثة : أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

والصفة الرابعة : أنه تعالى حرمهم من الهداية .

والصفة الخامسة : أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

والصفة السادسة : أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لا يسعون في دفعها ، فثبت أنه حصل في حقهم هذه الصفات الستة التي كل واحد منها من أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات ، ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة ، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه ، فلهذا السبب قال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الخاسرون ﴾ أي هم الخاسرون لا غيرهم ، والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم ، والله أعلم .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة حال من كفر بالله من بعد إيمانه وحال من أكره على الكفر ، فذكر بسبب الخوف كلمة الكفر وحال من لم يذكرها ، ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما

فتن فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ .

المسألة الثانية :

قرأ ابن عامر : ﴿ فَتَنُوا ﴾ بفتح الفاء على إسناد الفعل إلى الفاعل ، والباقون بضم الفاء على فعل ما لم يسم فاعله .

أما وجه القراءة الأولى فأمور .

الأول : أن يكون المراد أن أكابر المشركين وهم الذين آذوا فقراء المسلمين لو تابوا وهاجروا وصبروا فإن الله يقبل توبتهم .

والثاني : أن فتن وأفتن بمعنى واحد ، كما يقال : مان وأمان بمعنى واحد ، والثالث : أن أولئك الضعفاء لما ذكروا كلمة الكفر على سبيل التقية فكأنهم فتنوا أنفسهم ، وإنما جعل ذلك فتنة ، لأن الرخصة في إظهار كلمة الكفر ما نزلت في ذلك الوقت .

وأما وجه القراءة بفعل ما لم يسم فاعله فظاهر ، لأن أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الإيمان ، فبين تعالى أنهم إذا هاجروا وجاهدوا وصبروا فإن الله تعالى يغفر لهم تكلمهم بكلمة الكفر .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ يحتمل أن يكون المراد بالفتنة هو أنهم عذبوا ، ويحتمل أن يكون المراد هو أنهم خوفوا بالتعذيب ، ويحتمل أن يكون المراد أن أولئك المسلمين ارتدوا .

قال الحسن : هؤلاء الذين هاجروا من المؤمنين كانوا بمكة ، فعرضت لهم فتنة فارتدوا وشكوا في الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إنهم أسلموا وهاجروا فنزلت هذه الآية فيهم ، وقيل : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتد ، فلما كان يوم الفتح أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إنه أسلم وحسن إسلامه ، وهذه الرواية إنما تصح لو جعلنا هذه السورة مدنية أو جعلنا هذه الآية منها مدنية ، ويحتمل أن يكون المراد أن أولئك الضعفاء المعذبين تكلموا بكلمة الكفر على سبيل التقية ، فقوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ يحتمل كل واحد من هذه الوجوه الأربعة ، وليس في اللفظ ما يدل على التعيين .

إذا عرفت هذا فنقول : إن كانت هذه الآية نازلة فيمن أظهر الكفر ، فالمراد أن ذلك مما لا إثم فيه ، وأن حاله إذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لم يكره ، وإن كانت واردة فيمن ارتد فالمراد أن التوبة والقيام بما يجب عليه يزيل ذلك العقاب ويحصل له الغفران والرحمة ، فالهاء في قوله : ﴿ مِن بَعْدِهَا ﴾ تعود إلى الأعمال المذكورة فيما قبل ، وهي الهجرة والجهاد والصبر . انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 96 .101﴾

(16/444)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ : ﴿ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ قَالَ : أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارًا وَجَمَاعَةً مَعَهُ فَعَذَّبُوهُمْ حَتَّى قَارَبُوهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا ، فَشَكَا ذَلِكَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : كَيْفَ كَانَ قَلْبُك ؟ قَالَ : مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، قَالَ : فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ ﴾ .

(17/444)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا أَصْلٌ فِي جَوَازِ إظْهَارِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ فِي حَالِ الْإِكْرَاهِ ، وَالْإِكْرَاهُ الْمُبِيحُ لِذَلِكَ هُوَ أَنْ يَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ بَعْضِ أَعْضَائِهِ التَّلَفَ إنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ ، فَأُبِيحَ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يُظْهِرَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَيُعَارِضَ بِهَا غَيْرَهُ إذَا خَطَرَ ذَلِكَ بِبَالِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مَعَ خُطُورِهِ بِبَالِهِ كَانَ كَافِرًا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ : " إذَا أَكْرَهَهُ الْكُفَّارُ عَلَى أَنْ يَشْتُمَ مُحَمَّدًا

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَرَ بِبَالِهِ أَنْ يَشْتُمَ مُحَمَّدًا آخَرَ غَيْرَ فَلَمْ يَفْعَلْ وَقَدْ شَتَمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ كَافِرًا ، وَكَذَلِكَ لَوْ قِيلَ لَهُ لَتَسْجُدَنَّ لِهَذَا الصَّلِيبِ فَخَطَرَ بِبَالِهِ أَنْ يَجْعَلَ السُّجُودَ لِلَّهِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَسَجَدَ لِلصَّلِيبِ كَانَ كَافِرًا ، فَإِنْ أَعْجَلُوهُ عَنْ الرَّوِيَّةِ وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ ، وَقَالَ مَا أُكْرِهَ عَلَيْهِ أَوْ فَعَلَ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا إذَا كَانَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إذَا خَطَرَ بِبَالِهِ مَا ذَكَرْنَا فَقَدْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَفْعَلَ الشَّتِيمَةَ لِغَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ مُكْرَهًا عَلَى الضَّمِيرِ وَإِنَّمَا كَانَ مُكْرَهًا عَلَى الْقَوْلِ وَقَدْ أَمْكَنَهُ صَرْفُ الضَّمِيرِ إلَى غَيْرِهِ فَمَتَى لَمْ يَفْعَلْهُ فَقَدْ اخْتَارَ

إظْهَارَ الْكُفْرِ مِنْ غَيْرِ إكْرَاهٍ فَلَزِمَهُ حُكْمُ الْكُفْرِ .

(18/444)

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمَّارٍ : { إنْ عَادُوا فَعُدْ } إنَّمَا هُوَ عَلَى وَجْهِ الْإِبَاحَةِ لَا عَلَى جِهَةِ الْإِيجَابِ وَلَا عَلَى النَّدْبِ ، وَقَالَ أَصْحَابُنَا : الْأَفْضَلُ أَنْ لَا يُعْطِيَ التَّقِيَّةَ وَلَا يُظْهِرَ الْكُفْرَ حَتَّى يُقْتَلَ وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ مُبَاحًا لَهُ وَذَلِكَ لِأَنَّ خُبَيْبَ بْنَ عَدِيٍّ لَمَّا أَرَادَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لَمْ يُعْطِهِمْ التَّقِيَّةَ حَتَّى قُتِلَ فَكَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلَ مِنْ عَمَّارٍ فِي إعْطَائِهِ التَّقِيَّةَ وَلِأَنَّ فِي تَرْكِ إعْطَاءِ التَّقِيَّةِ إعْزَازًا لِلدِّينِ وَغَيْظًا

لِلْمُشْرِكِينَ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَاتَلَ الْعَدُوَّ حَتَّى قُتِلَ ، فَحَظُّ الْإِكْرَاهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِسْقَاطُ الْمَأْثَمِ عَنْ قَائِلِ هَذَا الْقَوْلِ حَتَّى يَكُونَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يَقُلْ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ ﴾ ، فَجَعَلَ الْمُكْرَهَ كَالنَّاسِي وَالْمُخْطِئِ فِي إِسْقَاطِ الْمَأْثَمِ عَنْهُ ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ فَسَبَقَ لِسَانُهُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهَا مَأْثَمٌ وَلَا تَعَلَّقَ بِهَا حُكْمٌ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي طَلَاقِ الْمُكْرَهِ وَعَتَاقِهِ وَنِكَاحِهِ وَأَيْمَانِهِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " ذَلِكَ كُلُّهُ لَازِمٌ " .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : " لَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ " .

(19/444)

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى لُزُومِ حُكْمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ طَلَاقِ الْمُكْرَهِ وَالطَّائِعِ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ عَهْدِ الْمُكْرَهِ وَغَيْرِهِ ، وَقَالَ : ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كُلُّ طَلَاقٍ جَائِزٌ إِلَّا طَلَاقَ الْمَعْتُوهِ ﴾ .

وَيدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا مَا رَوَى .

يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ جُمَيْعٍ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : ﴿ أَقْبَلْت أَنَا وَأَبِي وَنَحْنُ نُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ تَوَجَّهَ إلَى بَدْرٍ ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ : إنَّكُمْ لَتُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ؟ فَقُلْنَا : لَا نُرِيدُهُ إنَّمَا نُرِيدُ الْمَدِينَةَ ، قَالَ : فَأَعْطُونَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَتَنْصَرِفُنَّ إلَى الْمَدِينَةِ وَلَا تُقَاتِلُونَ مَعَهُ فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَهْدَ اللَّهِ ، فَمَرَرْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُرِيدُ بَدْرًا فَأَخْبَرْنَاهُ بِمَا كَانَ مِنَّا وَقُلْنَا : مَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فَانْصَرَفْنَا إلَى الْمَدِينَةِ فَذَلِكَ مَنَعَنَا مِنْ الْحُضُورِ مَعَهُمْ .

فَأَثْبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحْلَافَ الْمُشْرِكِينَ إيَّاهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِكْرَاهِ وَجَعَلَهَا كَيَمِينِ الطَّوْعِ ، فَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْيَمِينِ فَالطَّلَاقُ وَالْعَتَاقُ وَالنِّكَاحُ مِثْلُهَا لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ :

النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ ﴾ .

فَلَمَّا سَوَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِنَّ بَيْنَ الْجَادِّ وَالْهَازِلِ وَلِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْجِدِّ وَالْهَزْلِ أَنَّ الْجَادَّ قَاصِدٌ إلَى اللَّفْظِ وَإِلَى إيقَاعِ حُكْمِهِ وَالْهَازِلُ قَاصِدٌ إلَى اللَّفْظِ غَيْرُ مُرِيدٍ لِإِيقَاعِ حُكْمِهِ ، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا حَظَّ لِلْإِرَادَةِ فِي نَفْيِ الطَّلَاقِ وَأَنَّهُمَا جَمِيعًا مِنْ حَيْثُ كَانَا قَاصِدَيْنِ لِلْقَوْلِ أَنْ يُثْبِتَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمَا ، وَكَذَلِكَ الْمُكْرَهُ قَاصِدٌ لِلْقَوْلِ غَيْرُ مُرِيدٍ لِإِيقَاعِ حُكْمِهِ فَهُوَ كَالْهَازِلِ سَوَاءٌ .

فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا كَانَ الْمُكْرَهُ عَلَى الْكُفْرِ لَا تَبِينُ مِنْهُ امْرَأَتُهُ وَاخْتَلَفَ حُكْمُ الطَّوْعِ وَالْإِكْرَاهِ فِيهِ وَكَانَ الْكُفْرُ يُوجِبُ الْفُرْقَةَ كَالطَّلَاقِ ، وَجَبَ أَنْ يَخْتَلِفَ حُكْمُ طَلَاقِ الْمُكْرَهِ وَالطَّائِعِ .

(21/444)

قِيلَ لَهُ : لَيْسَ لَفْظُ الْكُفْرِ مِنْ أَلْفَاظِ الْفُرْقَةِ لَا كِنَايَةً وَلَا تَصْرِيحًا ، وَإِنَّمَا تَقَعُ بِهِ الْفُرْقَةُ إذَا حَصَلَ كَافِرًا ، وَالْمُكْرَهُ عَلَى الْكُفْرِ لَا يَكُونُ كَافِرًا ، فَلَمَّا لَمْ يَصِرْ كَافِرًا بِإِظْهَارِهِ كَلِمَةَ الْكُفْرِ عَلَى وَجْهِ الْإِكْرَاهِ لَمْ تَقَعْ الْفُرْقَةُ ، وَأَمَّا الطَّلَاقُ فَهُوَ مِنْ أَلْفَاظِ الْفُرْقَةِ وَالْبَيْنُونَةِ وَقَدْ وُجِدَ إيقَاعُهُ فِي لَفْظٍ مُكَلَّفٍ فَوَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُهُ فِي حَالِ الْإِكْرَاهِ وَالطَّوْعِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ تَسَاوِي حَالِ الْجِدِّ وَالْهَزْلِ فِي الطَّلَاقِ لَا يُوجِبُ تَسَاوِيَ حَالِ الْإِكْرَاهِ وَالطَّوْعِ

فِيهِ لِأَنَّ الْكُفْرَ يَسْتَوِي حُكْمُ جِدِّهِ وَهَزْلِهِ وَلَمْ يَسْتَوِ حَالُ الْإِكْرَاهِ وَالطَّوْعِ فِيهِ .

قِيلَ لَهُ : نَحْنُ لَمْ نَقُلْ إِنَّ كُلَّ مَا يَسْتَوِي جِدُّهُ وَهَزْلُهُ يَسْتَوِي حَالُ الْإِكْرَاهِ وَالطَّوْعِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا قُلْنَا :

(22/444)

إنَّهُ لَمَّا سَوَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْجَادِّ وَالْهَازِلِ فِي الطَّلَاقِ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا اعْتِبَارَ فِيهِ بِالْقَصْدِ لِلْإِيقَاعِ بَعْدَ وُجُودِ الْقَصْدِ مِنْهُ إلَى الْقَوْلِ فَاسْتَدْلَلْنَا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا اعْتِبَارَ فِيهِ لِلْقَصْدِ لِلْإِيقَاعِ بَعْدَ وُجُودِ لَفْظِ الْإِيقَاعِ مِنْ مُكَلَّفٍ ، وَأَمَّا الْكُفْرُ فَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ حُكْمُهُ بِالْقَصْدِ لَا بِالْقَوْلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ قَصَدَ إلَى الْجِدِّ بِالْكُفْرِ أَوْ الْهَزْلِ أَنَّهُ يَكْفُرُ بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْفِظَ بِهِ وَأَنَّ الْقَاصِدَ إلَى إيقَاعِ الطَّلَاقِ لَا يَقَعُ طَلَاقُهُ إلَّا بِاللَّفْظِ ؟ وَيُبَيِّنُ لَك الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ النَّاسِيَ إذَا تَلَفَّظَ بِالطَّلَاقِ وَقَعَ طَلَاقُهُ وَلَا يَصِيرُ كَافِرًا بِلَفْظِ الْكُفْرِ عَلَى وَجْهِ النِّسْيَانِ ، وَكَذَلِكَ مَنْ غَلَطَ بِسَبْقِ لِسَانِهِ بِالْكُفْرِ لَمْ يَكْفُرْ وَلَوْ سَبَقَ لِسَانُهُ بِالطَّلَاقِ طَلُقَتْ امْرَأَتُهُ ، فَهَذَا يُبَيِّنُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَعُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَشُرَيْحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَالنَّخَعِيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَقَتَادَةَ قَالُوا : " طَلَاقُ الْمُكْرَهِ جَائِزٌ " .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَالْحَسَنِ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَطَاوُسٍ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ قَالُوا : " طَلَاقُ الْمُكْرَهِ لَا يَجُوزُ " .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : " إذَا أَكْرَهَهُ السُّلْطَانُ عَلَى الطَّلَاقِ فَهُوَ جَائِزٌ وَإِنْ أَكْرَهَهُ غَيْرُهُ لَمْ يَجُزْ " .

(23/444)

وَقَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ أُكْرِهَ بِالْقَتْلِ وَتَلَفِ بَعْضِ الْأَعْضَاءِ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ أَوْ أَكْلِ الْمَيْتَةِ لَمْ يَسَعْهُ أَنْ لَا يَأْكُلَ وَلَا يَشْرَبَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ حَتَّى قُتِلَ كَانَ آثِمًا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ ذَلِكَ فِي حَالِ الضَّرُورَةِ عِنْدَ الْخَوْفِ عَلَى النَّفْسِ فَقَالَ : ﴿ إلَّا مَا اُضْطُرِرْتُمْ إلَيْهِ ﴾ وَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ الْمَيْتَةَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ حَتَّى مَاتَ جُوعًا كَانَ آثِمًا بِمَنْزِلَةِ تَارِكِ أَكْلِ الْخُبْزِ حَتَّى يَمُوتَ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الْكُفْرِ فِي أَنَّ تَرْكَ إعْطَاءِ التَّقِيَّةِ فِيهِ أَفْضَلُ لِأَنَّ أَكْلَ الْمَيْتَةِ وَشُرْبَ الْخَمْرِ تَحْرِيمُهُ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ فَمَتَى أَبَاحَهُ السَّمْعُ فَقَدْ زَالَ الْحَظْرُ وَعَادَ إلَى حُكْمِ سَائِرِ الْمُبَاحَاتِ ، وَإِظْهَارُ الْكُفْرِ مَحْظُورٌ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ لَا يَجُوزُ اسْتِبَاحَتُهُ لِلضَّرُورَاتِ ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ لَهُ إظْهَارُ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَى الْمَعَارِيضِ وَالتَّوْرِيَةِ بِاللَّفْظِ إلَى غَيْرِ مَعْنَى الْكُفْرِ مِنْ غَيْرِ

اعْتِقَادٍ لِمَعْنَى مَا أُكْرِهَ عَلَيْهِ فَيَصِيرُ اللَّفْظُ بِمَنْزِلَةِ لَفْظِ النَّاسِي وَالَّذِي يَسْبِقُهُ لِسَانُهُ بِالْكُفْرِ ، فَكَانَ تَرْكُ إظْهَارِهِ أَوْلَى وَأَفْضَلَ وَإِنْ كَانَ مُوَسَّعًا عَلَيْهِ إظْهَارُهُ عِنْدَ الْخَوْفِ .

(24/444)

وَقَالُوا فِيمَنْ أُكْرِهَ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ أَوْ عَلَى الزِّنَا بِامْرَأَةٍ : لَا يَسَعُهُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ النَّاسِ وَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ فِي الْحُقُوقِ ، فَلَا يَجُوزُ إحْيَاءُ نَفْسِهِ بِقَتْلِ غَيْرِهِ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَكَذَلِكَ الزِّنَا بِالْمَرْأَةِ فِيهِ انْتِهَاكُ حُرْمَتِهَا بِمَعْنَى لَا تُبِيحُهُ الضَّرُورَةُ وَإِلْحَاقُهَا بِالشَّيْنِ وَالْعَارِ .

وَلَيْسَ كَذَلِكَ عِنْدَهُمْ الْإِكْرَاهُ عَلَى الْقَذْفِ ، فَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْقَذْفَ الْوَاقِعَ عَلَى وَجْهِ الْإِكْرَاهِ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْمَقْذُوفِ وَلَا يَلْحَقُهُ بِهِ شَيْءٌ .

فَأَحْكَامُ الْإِكْرَاهِ مُخْتَلِفَةٌ عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا ، مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ فِيهِ إعْطَاءُ التَّقِيَّةِ وَهُوَ الْإِكْرَاهُ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا طَرِيقُ حَظْرِهِ السَّمْعُ ، وَمِنْهَا مَا لَا يَجُوزُ فِيهِ إعْطَاءُ التَّقِيَّةِ وَهُوَ الْإِكْرَاهُ عَلَى قَتْلِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ وَنَحْوِ الزِّنَا وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ مَظْلَمَةٌ لِآدَمِيٍّ وَلَا يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُهُ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ جَائِزٌ لَهُ فِعْلُ مَا أُكْرِهَ عَلَيْهِ وَالْأَفْضَلُ تَرْكُهُ كَالْإِكْرَاهِ عَلَى الْكُفْرِ وَشِبْهِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فِيهَا تِسْعُ مَسَائِل :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْمُرْتَدِّينَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضٍ مِنْ أَحْكَامِ الرِّدَّةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ كَبِيرَةٌ مُحْبِطَةٌ لِلْعَمَلِ ، سَوَاءٌ تَقَدَّمَهَا إيمَانٌ أَوْ لَمْ يَتَقَدَّمْ ، وَالْكَافِرُ أَوْ الْمُرْتَدُّ هُوَ الَّذِي جَرَى بِالْكُفْرِ لِسَانُهُ ، مُخْبِرًا عَمَّا انْشَرَحَ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ صَدْرُهُ ، فَعَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ الْغَضَبُ ، وَلَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ، إلَّا مَنْ أُكْرِهَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَذَكَرَ اسْتِثْنَاءَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْكُفْرِ بِلِسَانِهِ عَنْ إكْرَاهٍ ، وَلَمْ يَعْقِدْ عَلَى ذَلِكَ قَلْبَهُ ، فَإِنَّهُ خَارِجٌ عَنْ هَذَا الْحُكْمِ ، مَعْذُورٌ فِي الدُّنْيَا ، مَغْفُورٌ فِي الْأُخْرَى .

وَالْمُكْرَهُ: هُوَ الَّذِي لَمْ يُخَلَّ وَتَصْرِيفَ إِرَادَتِهِ فِي مُتَعَلَّقَاتِهَا الْمُحْتَمِلَةِ لَهَا، فَهُوَ مُخْتَارٌ، بِمَعْنَى أَنَّهُ بَقِيَ لَهُ فِي مَجَالِ إِرَادَتِهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عَلَى الْبَدَلِ، وَهُوَ مُكْرَهٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ حُذِفَ لَهُ مِنْ مُتَعَلَّقَاتِ الْإِرَادَةِ مَا كَانَ تَصَرُّفُهَا يَجْرِي عَلَيْهِ قَبْلَ الْإِكْرَاهِ، وَسَبَبُ حَذْفِهَا قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ؛ فَالْقَوْلُ هُوَ التَّهْدِيدُ، وَالْفِعْلُ هُوَ أَخْذُ الْمَالِ، أَوِ الضَّرْبُ، أَوِ السَّجْنُ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي التَّهْدِيدِ، هَلْ هُوَ إِكْرَاهٌ أَمْ لَا؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ إِكْرَاهٌ؛ فَإِنَّ الْقَادِرَ الظَّالِمَ إِذَا قَالَ لِرَجُلٍ: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ كَذَا وَإِلَّا قَتَلْتُكَ، أَوْ ضَرَبْتُكَ، أَوْ أَخَذْتُ مَالَكَ، أَوْ سَجَنْتُكَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْ يَحْمِيهِ إِلَّا اللَّهُ، فَلَهُ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى الْفِعْلِ، وَيَسْقُطَ عَنْهُ الْإِثْمُ فِي الْجُمْلَةِ، إِلَّا فِي الْقَتْلِ، فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْأُمَّةِ أَنَّهُ إِذَا أُكْرِهَ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَفْدِيَ نَفْسَهُ بِقَتْلِ غَيْرِهِ؛ وَيَلْزَمُهُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْبَلَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ بِهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَاخْتُلِفَ فِي الزِّنَا، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ، وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ، خِلَافًا لِابْنِ الْمَاجِشُونِ، فَإِنَّهُ أَلْزَمَهُ الْحَدَّ؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّهَا شَهْوَةٌ خُلُقِيَّةٌ لَا يُتَصَوَّرُ عَلَيْهَا إِكْرَاهٌ، وَلَكِنَّهُ غَفَلَ

عَنْ السَّبَبِ فِي بَاعِثِ الشَّهْوَةِ ، وَأَنَّهُ بَاطِلٌ .

وَإِنَّمَا وَجَبَ الْحَدُّ عَلَى شَهْوَةٍ بَعَثَ عَلَيْهَا سَبَبٌ اخْتِيَارِيٌّ ، فَقَاسَ الشَّيْءَ عَلَى ضِدِّهِ ، فَلَمْ يَحِلَّ بِصَوَابٍ مِنْ عِنْدِهِ .

وَأَمَّا الْكُفْرُ بِاَللَّهِ فَذَلِكَ جَائِزٌ لَهُ بِغَيْرِ خِلَافٍ عَلَى شَرْطِ أَنْ يَلْفِظَ بِلِسَانِهِ ، وَقَلْبُهُ مُنْشَرِحٌ بِالْإِيمَانِ ، فَإِنْ سَاعَدَ قَلْبُهُ فِي الْكُفْرِ لِسَانَهُ كَانَ آثِمًا كَافِرًا ؛ لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا سُلْطَانَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ ، وَإِنَّمَا سُلْطَتُهُ عَلَى الظَّاهِرِ ؛ بَلْ قَدْ قَالَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ عُلَمَائِنَا : إنَّهُ إذَا تَلَفَّظَ بِالْكُفْرِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَى لِسَانِهِ إلَّا جَرَيَانَ الْمَعَارِيضِ ، وَمَتَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَافِرًا أَيْضًا .

وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ فَإِنَّ الْمَعَارِيضَ أَيْضًا لَا سُلْطَانَ لِلْإِكْرَاهِ عَلَيْهَا ، مِثَالُهُ أَنْ يُقَالَ لَهُ : اُكْفُرْ بِاَللَّهِ ، فَيَقُولُ : أَنَا كَافِرٌ بِاَللَّهِ ، يُرِيدُ بِاللَّاهِي ، وَيَحْذِفُ الْيَاءَ كَمَا تُحْذَفُ مِنْ الْغَازِي وَالْقَاضِي وَالرَّامِي ، فَيُقَالُ : الْغَازِ وَالْقَاضِ ذَرَّةً .

وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ لَهُ : اُكْفُرْ بِالنَّبِيِّ ، فَيَقُولُ : هُوَ كَافِرٌ بِالنَّبِيِّ ، وَهُوَ يُرِيدُ بِالنَّبِيِّ الْمَكَانَ الْمُرْتَفِعَ مِنْ الْأَرْضِ .

فَإِنْ قِيلَ لَهُ: اُكْفُرْ بِالنَّبِيءِ مَهْمُوزًا ، يَقُولُ: أَنَا كَافِرٌ بِالنَّبِيءِ بِالْهَمْزِ ، وَيُرِيدُ بِهِ الْمُخَبِّرَ أَيَّ مُخَبِّرٍ كَانَ ، أَوْ

يُرِيدُ بِهِ النَّبِيءَ الَّذِي قَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ: فَأَصْبَحَ رَتْمًا دُقَاقَ الْحَصَى مَكَانَ النَّبِيءِ مِنْ الْكَاثِبِ وَلِذَلِكَ يُحْكَى عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مِنْ زَمَنِ فِتْنَةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ عَلَى خَلْقِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ دُعِيَ إلَى أَنْ يَقُولَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ: الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ يُعَدِّدُهُنَّ بِيَدِهِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ مَخْلُوقَةٌ ، يَقْصِدُ هُوَ بِقَلْبِهِ أَصَابِعَهُ الَّتِي عَدَّدَ بِهَا ، وَفَهِمَ الَّذِي أَكْرَهَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ الْكُتُبَ الْأَرْبَعَةَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ اللَّهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ، فَخَلَصَ فِي نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَضُرَّهُ فَهْمُ الَّذِي أَكْرَهَهُ .

وَلَمَّا كَانَ هَذَا أَمْرًا مُتَّفَقًا عَلَيْهِ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ ، مَشْهُورًا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَلَّفَ فِي ذَلِكَ شَيْخُ اللُّغَةِ وَرَئِيسُهَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ كِتَابَ الْمَلَاحِنِ لِلْمُكْرَهِينَ ، فَجَاءَ بِبِدْعٍ فِي الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ رَكَّبَ عَلَيْهِ الْمُفَجِّعُ الْكَاتِبُ ، فَجَمَعَ فِي ذَلِكَ مَجْمُوعًا وَافِرًا حَسَنًا ، اسْتَوْلَى فِيهِ عَلَى الْأَمَدِ ، وَقَرْطَسَ الْغَرَضَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ لَيْسَ بِقَبِيحٍ لِعَيْنِهِ وَذَاتِهِ ؛ إذْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا حَسَّنَهُ الْإِكْرَاهُ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ لَا تَقْبُحُ لِذَوَاتِهَا وَلَا تَحْسُنُ

لِذَوَاتِهَا ؛ وَإِنَّمَا تَقْبُحُ وَتَحْسُنُ بِالشَّرْعِ ؛ فَالْقَبِيحُ مَا نَهَى الشَّرْعُ عَنْهُ ، وَالْحَسَنُ مَا أَمَرَ الشَّرْعُ بِهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ أَنَّ الْقَتْلَ الْوَاقِعَ اعْتِدَاءً يُمَاثِلُ الْقَتْلَ الْمُسْتَوْفَى قِصَاصًا فِي الصُّورَةِ وَالصِّفَةِ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْغَافِلَ عَنْ سَبَبِهِمَا لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا ، وَكَذَلِكَ الْإِيلَاجُ فِي الْفَرْجِ عَنْ نِكَاحٍ ، يُمَاثِلُ الْإِيلَاجَ عَنْ سِفَاحٍ فِي اللَّذَّاتِ وَالْحَرَكَاتِ ، إنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْإِذْنُ ؛ وَكَذَلِكَ الْكُفْرُ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْ الْإِكْرَاهِ يُمَاثِلُ الصَّادِرَ عَنْ الِاخْتِيَارِ ؛ وَلَكِنْ فَرَّقَ
بَيْنَهُمَا إذْنُ الشَّرْعِ فِي أَحَدِهِمَا وَحَجْرُهُ فِي الْآخَرِ ، وَقَدْ أَحْكَمْنَا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إنَّ الْكُفْرَ وَإِنْ كَانَ بِالْإِكْرَاهِ جَائِزًا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّ مَنْ صَبَرَ عَلَى الْبَلَاءِ وَلَمْ يُفْتَتَنْ حَتَّى قُتِلَ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ ، وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ آثَارُ الشَّرِيعَةِ الَّتِي يَطُولُ سَرْدُهَا ، وَإِنَّمَا وَقَعَ الْإِذْنُ رُخْصَةً مِنْ اللَّهِ رِفْقًا بِالْخَلْقِ ، وَإِبْقَاءً عَلَيْهِمْ ، وَلِمَا فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ السَّمَاحَةِ ، وَنَفْيِ الْحَرَجِ ، وَوَضْعِ الْإِصْرِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَدْ آنَ الْآنَ أَنْ نَذْكُرَ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْمَكِّيَّةِ ، وَفِي ذَلِكَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ : الْأُولَى : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ، وَأُمِّهِ سُمَيَّةَ ، وَخَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ، وَسَلَمَةَ

بْنِ هِشَامٍ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَعَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَالْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ ، وَقَوْمٍ أَسْلَمُوا ، فَفَتَنَهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ دِينِهِمْ ، فَثَبَتَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَافْتُتِنَ بَعْضُهُمْ ، وَصَبَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْبَلَاءِ وَلَمْ يَصْبِرْ بَعْضٌ ، فَقُتِلَتْ سُمَيَّةُ ، وَافْتُتِنَ عَمَّارٌ فِي ظَاهِرِهِ دُونَ بَاطِنِهِ ، وَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ .

الثَّانِيَةُ : قَالَ عِكْرِمَةُ : نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ ، وَلَمْ يُمْكِنُهُمُ الْخُرُوجُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مَعَهُمْ كُرْهًا فَقُتِلُوا .

قَالَ : وَفِيهِمْ نَزَلَتْ : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

(31/444)

الثَّالِثَةُ : قَالَ مُجَاهِدٌ : أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ سَبْعَةٌ : رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ وَخَبَّابٌ وَعَمَّارٌ ، وَصُهَيْبٌ ، وَسُمَيَّةُ ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنَعَهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ قَوْمُهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ ، وَأَوْقَفُوكُمْ فِي الشَّمْسِ ، فَبَلَغَ مِنْهُمُ الْجَهْدُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ ، مِنْ حَرِّ الْحَدِيدِ وَالشَّمْسِ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْعِشَاءِ أَتَاهُمْ أَبُو جَهْلٍ ، وَمَعَهُ حَرْبَةٌ فَجَعَلَ يَشْتُمُهُمْ وَيُوَبِّخُهُمْ ، ثُمَّ أَتَى سُمَيَّةَ

فَطَعَنَ بِالْحَرْبَةِ فِي قُبُلِهَا حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ فَمِهَا ، فَهِيَ أَوَّلُ شَهِيدٍ اُسْتُشْهِدَ فِي الْإِسْلَامِ .

وَقَالَ الْآخَرُونَ : مَا سَأَلُوهُمْ إلَّا

بِلَالًا ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، فَجَعَلُوا يُعَذِّبُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ : ارْجِعْ إلَى رَبِّك ، وَهُوَ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ ، حَتَّى مَلُّوهُ ، ثُمَّ كَتَّفُوهُ ، وَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ حَبْلًا مِنْ لِيفٍ ، وَدَفَعُوهُ إلَى صِبْيَانِهِمْ يَلْعَبُونَ بِهِ بَيْنَ أَخْشَبَيْ مَكَّةَ ، حَتَّى مَلُّوهُ وَتَرَكُوهُ ، فَقَالَ عَمَّارٌ : كُلُّنَا قَدْ تَكَلَّمَ بِاَلَّذِي قَالُوا لَهُ ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَدَارَكَنَا ، غَيْرَ بِلَالٍ ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ ، فَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ ، حَتَّى تَرَكُوهُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي هَؤُلَاءِ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ اشْتَرَى بِلَالًا فَأَعْتَقَهُ .

(32/444)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : لَمَّا سَمَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكُفْرِ بِهِ ، وَهُوَ أَصْلُ الشَّرِيعَةِ ، عِنْدَ الْإِكْرَاهِ ، وَلَمْ يُؤَاخِذْ بِهِ ، حَمَلَ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ فُرُوعَ الشَّرِيعَةِ ، فَإِذَا وَقَعَ الْإِكْرَاهُ عَلَيْهَا لَمْ يُؤَاخَذْ بِهِ ، وَلَا يَتَرَتَّبُ حُكْمٌ عَلَيْهِ ، وَعَلَيْهِ جَاءَ الْأَثَرُ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ : ﴿ رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ ﴾ .

وَالْخَبَرُ ، وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ سَنَدُهُ ، فَإِنَّ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ بِاتِّفَاقٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ ، وَلَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي

تَفَاصِيلَ : مِنْهَا : قَوْلُ ابْنِ الْمَاجِشُونِ فِي حَدِّ الزِّنَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

وَمِنْهَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ : إنَّ طَلَاقَ الْمُكْرَهِ يَلْزَمُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ الرِّضَا ، وَلَيْسَ وُجُودُهُ بِشَرْطٍ فِي الطَّلَاقِ كَالْهَازِلِ .

وَهَذَا قِيَاسٌ بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ الْهَازِلَ قَاصِدٌ إلَى إيقَاعِ الطَّلَاقِ ، رَاضٍ بِهِ وَالْمُكْرَهُ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ ، وَلَا نِيَّةَ لَهُ فِي الطَّلَاقِ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ﴾ .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمُكْرَهَ عَلَى الْقَتْلِ إذَا قَتَلَ يُقْتَلُ ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ مَنْ يُكَافِئُهُ ظُلْمًا اسْتِبْقَاءً لِنَفْسِهِ ، فَقُتِلَ ، كَمَا لَوْ قَتَلَهُ الْجَمَاعَةُ .

(33/444)

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَسَحْنُونٌ : لَا يُقْتَلُ ، وَهِيَ عَثْرَةٌ مِنْ سَحْنُونٍ وَقَعَ فِيهَا بِأَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ الَّذِي تَلَقَّفَهَا عَنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ بِالْعِرَاقِ ، وَأَلْقَاهَا إلَيْهِ ، وَمَنْ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقِيَ نَفْسَهُ بِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَثْلِمُهُ وَلَا يَظْلِمُهُ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ اُنْصُرْ أَخَاك ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا .

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ : تَكُفُّهُ عَنْ الظُّلْمِ

فَذَلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : مِنْ غَرِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ عُلَمَاءَنَا اخْتَلَفُوا فِي الْإِكْرَاهِ عَلَى الْحِنْثِ فِي الْيَمِينِ ، هَلْ يَقَعُ بِهِ أَمْ لَا ؟ وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ عِرَاقِيَّةٌ سَرَتْ لَنَا مِنْهُمْ ، لَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ ، وَلَا كَانُوا هُمْ ، وَأَيُّ فَرْقٍ يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِنَا بَيْنَ الْإِكْرَاهِ عَلَى الْيَمِينِ فِي أَنَّهَا لَا تَلْزَمُ وَبَيْنَ الْحِنْثِ فِي أَنَّهُ لَا يَقَعُ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَرَاجِعُوا بَصَائِرَكُمْ ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِذِكْرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ فَإِنَّهَا وَصْمَةٌ فِي الدِّرَايَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : إذَا أُكْرِهَ الرَّجُلُ عَلَى إسْلَامِ أَهْلِهِ لِمَا لَا يَحِلُّ أَسْلَمَهَا ، وَلَمْ يَقْتُلْ نَفْسَهُ دُونَهَا ، وَلَا احْتَمَلَ إذَايَةً فِي تَخْلِيصِهَا .

(34/444)

وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَيُّوبَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَلِيِّ بْنُ حَاجِبٍ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إسْمَاعِيلَ ، أَنْبَأَنَا أَبُو الْيَمَانِ ، أَنْبَأَنَا شُعَيْبٌ أَبُو الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَاجَرَ إبْرَاهِيمُ بِسَارَةَ ، وَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنْ الْمُلُوكِ ، أَوْ جَبَّارٌ مِنْ الْجَبَابِرَةِ ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ أَنْ أَرْسِلْ إلَيَّ بِهَا ، فَقَامَ إلَيْهَا ، فَقَامَتْ تَتَوَضَّأُ وَتُصَلِّي ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ إنْ كُنْت آمَنْت بِك وَبِرَسُولِك فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ ، فَغُطَّ حَتَّى

رَكَضَ بِرِجْلِهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : فَإِنْ كَانَ الْإِكْرَاهُ بِحَقٍّ عِنْدَ الْإِبَايَةِ مِنْ الِانْقِيَادِ إلَيْهِ فَإِنَّهُ جَائِزٌ شَرْعًا تَنْفُذُ مَعَهُ الْأَحْكَامُ ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِي رَدِّ شَيْءٍ مِنْهَا .

وَلَا خِلَافَ فِيهِ .

وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ دَلِيلَ ذَلِكَ مَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : انْطَلِقُوا إلَى يَهُودَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ ، حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمَدَارِسِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَادَاهُمْ : يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا .

فَقَالُوا لَهُ : قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ .

(35/444)

فَقَالَ : ذَلِكَ أُرِيدُ ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ ، فَقَالُوا : قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ ، فَقَالَ : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْأَرْضُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ .

وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ ، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الْأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وَلِهَذَا الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِعْلِهِ ، وَمِنْ حُكْمِ عُمَرَ

بْنِ الْخَطَّابِ وَعَمَلِهِ نَظَائِرُ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى بَيْعِ الْمُضْطَرِّ أَحْكَامٌ ، بَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(36/444)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ مَن كفر بالله من بعد إيمانه ﴾

ذكر الكلبي أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح ومقيس بن صبابة وعبد الله بن خطل وقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم ثم قال تعالى :

﴿ إلا من أُكره وقلبُه مطمئن بالإيمان ﴾ قال الكلبي : نزل ذلك في عمار بن ياسر وأبويه ياسر وسُمية وبلال وصهيب وخبّاب ، أظهروا الكفر بالإكراه وقلوبهم مطمئنة بالإيمان .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن من شرح بالكُفْر صدراً ﴾ وهم من تقدم ذكرهم ، فإذا أُكره على الكفر فأظهره بلسانه وهو معتقد الإيمان بقلبه ليدفع عن نفسه بما أظهر ، ويحفظ دينه بما أضمر فهو على إيمانه ، ولو لم يضمره لكان كافراً .

وقال بعض المتكلمين : إنما يجوز للمكرَه إظهارُ الكفر عل وجه التعريض دون التصريح البات . لقبح التصريح بالتكذيب وخطره في العرف والشرع ، كقوله إن محمداً كاذب في

اعتقادكم ، أو يشير لغيره ممن يوافق اسمه لاسمه إذا عرف منه الكذب ، وهذا لعمري أولى الأمرين ، ولم يَصِرِ المكرَه بالتصريح كافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(37/444)

وقال ابن عطية :

﴿ مَن كَفَرَ بالله ﴾

و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من كفر ﴾ بدل من قوله ﴿ هم الكاذبون ﴾ ولم يجز الزجاج غير هذا الوجه لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله ، والذي أبى الزجاج سائغ على ما أورده الآن إن شاء الله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يتأكد بما روي من أن قوله ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ يراد به عبد الله بن أبي سرح ومقيس بن صبابة وأشباههما ممن كان آمن برسول الله ثم ارتد ، فلما بين في هذه الآية أمر الكاذبين بأنهم الذين كفروا بعد الإيمان أخرج من هذه الصفة القوم المؤمنون المعذبون بمكة ، وهم بلال وعمار وسمية أمه وخباب وصهيب وأشباههم ، وذلك أن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أسلم من هؤلاء الضعفة ، يعذبونهم

ليرتدوا ، فربما سامعهم بعضهم بما أرادوا من القول ، يروى أن عمار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية ، وبقيت الرخصة عامة في الأمر بعده ، ثم ابتدأ الإخبار : " أن من شرح صدراً بالكفر فعليهم " ، وهذا الضمير على معنى من لا على لفظها .

(38/444)

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا من الاعتراض أن أمر ابن أبي سرح وأولئك إنما كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، والظاهر من هذه الآية أنها مكية وقالت فرقة ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من كفر ﴾ ابتداء ، وقوله ﴿ من شرح ﴾ تخصيص منه ، ودخل الاستثناء لما ذكرنا من إخراج عمار وشبهه ، وردنا من الاستثناء إلى المعنى الأول الاستدراك ب ﴿ ولكن ﴾ ، وقوله ﴿ فعليهم ﴾ خبر ﴿ من ﴾ الأولى والثانية ، إذ هو واحد بالمعنى ، لأن الإخبار في قوله ﴿ من كفر ﴾ إنما قصد به الصنف الشارح بالكفر ، و﴿ صدراً ﴾ نصب على التمييز ، وقوله ﴿ شرح بالكفر صدراً ﴾ معناه انبسط إلى الكفر باختباره ، ويروى أن عمار بن ياسر شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع به من العذاب ، وما سامع به من القول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان ، قال فأجبهم بلسانك فإنه لا يضرك وإن عادوا

فعد .

قال القاضي أبو محمد : ويتعلق بهذه الآية شيء من مسائل الإكراه ؛ أما من عذبه كافر قادر عليه ليكفر بلسانه ، وكان العذاب يؤدي إلى قتله فله الإجابة باللسان ، قوْلاً واحداً فيما أحفظ ، فإن أراد منه الإجابة بفعل كالسجود إلى صنم ونحو ذلك ففي هذا اختلاف ، فقالت فرقة هي الجمهور : يجيب بحسب التقية ، وقالت فرقة : لا يجيب ويسلم نفسه ، وقالت فرقة : إن كان السجود نحو القبلة أجاب ، واعتقد السجود لله .

قال القاضي أبو محمد : وما أحراه أن يسجد لله حينئذ حيثما توجه ، وهذا مباح في السفر لتعب النزول عن الدابة في التنفل ، فكيف لهذا ، وإذا احتجت فرقة المنع بقول ابن مسعود : ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلماً به ، فقصر الرحمة على القول ، ولم يذكر الفعل .

(39/444)

قال القاضي أبو محمد : وليس هذا بحجة لأنه يحتمل أن جعل الكلام مثالاً وهو يريد أن الفعل في حكمه ، فأما الإكراه على البيع والإيمان والطلاق والعتق والفطر في رمضان وشرب الخمر ونحو هذا من المعاصي التي بين العبد والله عز وجل ، فلا يلزم المكره شيء

من ذلك ، قاله مطرف ، ورواه عن مالك ، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ ، وروياه عن ابن القاسم عن مالك ، وفرق ابن عباس بين ما هنا قول كالعتق والطلاق فجعل فيها التقية ، وقال : لا تقية فيما كان فعلاً كشرب الخمر والفطر في رمضان ، ولا يحل فعلها لمكره ، فأما المظلوم يضغط حتى يبيع متاعه فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن ، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم ، فإن أفات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه ، قال مطرف : ومن كان من المشترين يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وأما من لا يعلم فلا يضمن العروض والحيوان وإنما يضمن ما كان تلفه بسببه مثل طعام أكله أو ثوب لبسه ، والغلة إذا علم أو لم يعلم ليست له بحال ، هو لها ضامن كالغاصب ، وقاله أصبغ وابن عبد الحكم ، قال مطرف : وكل ما أحدث المبتاع في ذلك من عتق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره ، وله أخذ متاعه ، وأما الإكراه على قتل مسلم أو جلده أو أخذ ماله أو بيع متاعه فلا عذر فيه ، ولا استكراه في ركوب معصية تنتهك مثل حد كالزنا والقتل أو نحوه ، قال مطرف وأصبغ وابن عبد الحكم : لا يفعل أحد ذلك وإن قتل إن لم يفعله ، فإن فعل فهو آثم ، ويلزمه الحد والقود ، قال مالك : والقيد إكراه ، والسجن إكراه ، والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المتعدي وإنفاذه لما يتوعد .

قال القاضي أبو محمد : ويعتبر الإكراه عندي بحسب همة المكره وقدره في الدين ، وبحسب قدر الشيء الذي يكره عليه ، فقد يكون الضرب إكراهاً في شيء دون شيء ، فلهذه النوازل فقه الحال ، وأما يمين المكره كما قلنا فهي غير لازمة ، قال ابن الماجشون : وسواء حلف فيما هو لله طاعة ، أو فيما هو لله معصية ، أو فيما ليس في فعله طاعة ولا معصية ، فاليمين فيه ساقطة ، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالي رجلاً فاسقاً فيكرهه أن يحلف بالطلاق أن لا يشرب خمراً أو لا يفسق أو لا يغش في عمله ، أو الوالد يحلف ولده في مثل هذا تأديباً له ، فإن اليمين تلزم ، وإن كان المكره قد أخطأ فيما تكلف من ذلك ، وقال به ابن حبيب ، وأما إن أكره رجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المسكن وظلمة السعاة وأهل الاعتداء ، فقال مطرف : لا تقية في ذلك ، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا عن ماله ، وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه ، وقال ابن القاسم بقول مطرف ، ورواه عن مالك ، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ وابن حبيب ، قال مطرف وابن الماجشون : وإن بدر الحالف يمينه للوالي الظالم قبل أن يسألها ليذب بها عما خاف عليه من بدنه وماله فحلف له فإنه يلزمه ، قاله ابن عبد الحكم وأصبغ ، وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق البتة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب وإنما حلف خوفاً من ضربه أو قتله أو أخذ ماله فإن كان إنما

يتبرع باليمين غلبة خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه ، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث ، وإذا اتهم الوالي أحداً بفعل أمر فقال لا بد من عقوبتك إلا أن تحلف لي ، فإن كان ذلك الأمر مما لذلك المكروه فعله إما أن يكون طاعة وإما أن يكون لا طاعة ولا معصية ، فالتقية في هذا ، وأما إن كان ذلك الأمر مما لا يحل لذلك الرجل فعله ويكون نظر الوالي فيه صواباً فلا تقية في

اليمين ، وهو حانث ، قاله مالك وابن الماجشون .

قال القاضي أبو محمد : فهذه نبذة من مسائل الإكراه .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) ﴾

قوله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الغضب والعذاب الذي توعد به قبل هذه الآية ، والضمير في ﴿ أنهم ﴾ ل ﴿ من شرح بالكفر صدراً ﴾ [النحل : 106] ، ولما فعلوا فعل من استحب ألزموا ذلك وإن كانوا مصدقين بآخرة لكن الأمر في نفسه بين ، فمن حيث أعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره ، وهذه الآية علق فيها العقاب بتكسبهم وذلك أن استحبابهم زينة الدنيا ولذات الكفر هو التكسب ، وقوله ﴿ وأن الله لا يهدي ﴾ إشارة إلى اختراع الله تعالى الكفر في قلوبهم ، ولا شك أن كفر الكافر الذي يتعلق به العقاب إنما هو باختراع من الله تعالى وتكسب من الكافر ، فجمعت الآية بين الأمرين ، وعلى هذا مرت عقيدة أهل السنة ، وقوله ﴿ لا يهدي القوم الكافرين ﴾ عموم على أنه لا يهديهم من حيث إنهم كفار في نفس كفرهم ، أو عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي ، وقوله ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ الآية ، عبارة عن صرف الله لهم عن طريق الهدى ، واختراع الكفر المظلم في قلوبهم ، وتغليب الإعراض على نظرهم ، فكأنه سد بذلك طرق هذه الحواس حتى لا ينتفع بها في اعتبار وتأمل ، وقد تقدم القول وذكر الاختلاف في الطبع والختم في سورة البقرة ، وهل هو حقيقة أو مجاز ؟ و" السمع " اسم جنس وهو مصدر في الأصل ، فلذلك وحد ، ونبه على تكسبهم الإعراض عن النظر ، فوصفهم ب " الغفلة " ، وقد تقدم شرح ﴿ لا جرم ﴾ في هذه السورة ، وقوله ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ الآية ، قال ابن عباس : كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون

يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ [النساء: 97] إلى آخر الآية قال: وكتب بها إلى من بقي بمكة من المسلمين وأن لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ [البقرة: 8 العنكبوت:

(43/444)

10] إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا ويئسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ الآية، فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل.

قال القاضي أبو محمد: جاءت هذه الرواية هكذا أن بعد نزول الآية خرجوا فجيء الجهاد الذي ذكر في الآية جهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروت طائفة أنهم خرجوا وأتبعوا، وجاهدوا متبعيهم، فقتل من قتل، ونجا من نجا فنزلت الآية حينئذ، فعنى بالجهاد المذكور جهادهم لمتبعيهم، وقال ابن إسحاق: ونزلت هذه الآية في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد.

قال القاضي أبو محمد : وذكر عمار في هذا عندي غير قويم ، فإنه أرفع من طبقة هؤلاء ، وإنما هؤلاء من شرح بالكفر صدراً فتح الله لهم باب التوبة في آخر الآية ، وقال عكرمة والحسن : نزلت هذه الآية في شأن عبد الله بن أبي سرح وأشباهه ، فكأنه يقول من بعد ما فتنهم الشيطان وهذه الآية مدنية ، ولا أعلم في ذلك خلافاً ، وإن وجد فهو ضعيف ، وقرأ الجمهور " من بعد ما فُتِنوا " بضم الفاء وكسر التاء ، وقرأ ابن عامر وحده " فَتَنوا " بفتح الفاء والتاء ، فإن كان الضمير للمعذبين فيجيء بمعنى فتنوا أنفسهم بما أعطوا للمشركين من القول ، كما فعل عمار ، وإن كان الضمير للمعذبين فهو بمعنى من بعد ما فتنهم المشركون ، وإن كان الضمير للمشركين فهو بمعنى من بعد ما فتنهم الشيطان ، والضمير في ﴿ بعدها ﴾ عائد على الفتنة ، أو على الفعلة ، أو الهجرة ، أو التوبة ، والكلام يعطيها ، وإن لم يجر لها ذكر صريح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(44/444)

وقال القرطبى :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ الأَيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ فكان مبالغة في الوصف بالكذب ؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أي من كفر من بعد إيمانه وارتد فعليه غضب الله .

قال الكلبي : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ومِقْيَس بن صُبابة وعبد الله بن خَطَل ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم .

ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ .

وقال الزجاج : "من كفر باللَّهِ مِن بعد إيمانِهِ" بدل ممن يفتري الكذب ؛ أي إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلّقه بما قبله .

وقال الأخفش : "مَن" ابتداء وخبره محذوف ، اكتُفِي منه بخبر "من" الثانية ؛ كقولك : مَن يأتنا مَن يحسن نكرمه .

الثانية قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ هذه الآية نزلت في عَمّار بن ياسر ، في قول أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه .

قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمّه سُمَيّة وصُهَيباً وبلالاً وخَبّاباً وسالما فعذّبوهم ، ورُبطت سُمَيَة بين بعيرين ووُجِىء قُبُلها بحربة ، وقيل لها إنك أسلمت من أجل

الرجال ؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام .

وأما عَمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكْرَهاً فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف تجد قلبك" ؟ قال : مطمئن بالإيمان .

(45/444)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فإن عادوا فَعُدْ " وروى منصور بن المُعْتَمِر عن مجاهد قال : أول شهيدة في الإسلام أمّ عمار ، قتلها أبو جهل ، وأول شهيد من الرجال مِهْجَع مولى عمر .

وروى منصور أيضاً عن مجاهد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وبلال ، وخبّاب ، وصهيب ، وعَمّار ، وسُمَيّة أمّ عمار .

فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد ، ثم صَهَروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من العشيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يَسُبُّهم ويوبخهم ، وأتى سُمَيّة فجعل يسبّها ويَرْفُث ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها

فقتلها ؛ رضي الله عنها .

قال : وقال الآخرون ما سُئلوا ؛ إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يعذبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أَحَدٌ أحد ؛ حتى ملّوه ، ثم كتّفوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَيْ مكة حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذي قالوا لولا أن الله تداركنا غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه .

والصحيح أن أبا بكر اشترى بلالاً فأعتقه .

وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أن ناساً من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، ففتنوهم فكفروا مكرهين ، ففيهم نزلت هذه الآية .

ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق .

وروى الترمذيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما خُيِّر عَمّار بين أمرين إلا اختار أرشدهما " هذا حديث حسن غريب .

وروي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة عليّ وعمّار وسلمان بن ربيعة " قال الترمذيّ : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثة : لما سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلّها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم ؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " الحديث .

والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربيّ .

وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح ، قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع .

الرابعة : أجمع أهل العلم على أن من أُكرِه على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتل ، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبُه مطمئن بالإيمان ، ولا تَبِين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر ؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعيّ ؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتداً في الظاهر ، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام ، وتَبِين منه امرأته ولا يصلَّى عليه

إن مات ، ولا يَرِث أباه إن مات مسلماً .

وهذا قول يرده الكتاب والسنة ، قال الله تعالى : "إلاّ مَن أكرِه" الآية .

وقال : ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران : 28] وقال : ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض ﴾ [النساء : 97] الآية .

وقال : ﴿ إِلاَّ المستضعفين مِنَ الرجال والنسآء والولدان ﴾ [النساء : 98] الآية .

فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به ، والمكره لا يكون إلا مستضعفاً غير ممتنع من فعل ما أمر به ؛ قاله البخاريّ .

(47/444)

الخامسة ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول ، وأما في الفعل فلا رخصة فيه ، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة ، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله ، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا ؛ يروى هذا عن الحسن البصريّ ، رضي الله عنه .

وهو قول الأوزاعيّ وسُحْنون من علمائنا .

وقال محمد بن الحسن : إذا قيل للأسير : اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك .

فقال : إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيته لله تعالى ، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه .

والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة ، وما أحراه بالسجود حينئذ ؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : 115] في رواية : ويُوتِر عليها ، غير أنه لا يصلّى عليها المكتوبة .

فإذا كان هذا مباحاً في السفر في حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا .

واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يَدرأ عنّي سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلّماً به .

فقصَر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل ، وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه يحتمل أن يجعل الكلام مثالاً وهو يريد أن الفعل في حكمه .

وقالت طائفة : الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسرّ الإيمان .

روي ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول ، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق .

روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان ، أن الإثم عنه مرفوع .

السادسة أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحلّ له أن يَفْدِي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

(48/444)

واختلف في الزنى ، فقال مُطَرِّف وأَصْبَغ وابن عبد الحكم وابن الماجِشُون : لا يفعل أحد ذلك ، وإن قُتل لم يفعله ، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحَدّ ؛ وبه قال أبو ثَوْر والحسن .

قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حَدّ عليه ، خلافاً لمن ألزمه ذلك ؛ لأنه رأى أنها شهوة خُلقية لا يتصوّر الإكراه عليها ، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك ، وهو الذي أسقط حكمه ، وإنما يجب الحَدّ على شهوة بعث عليها سبب اختياري ، فقاس الشيء على ضده ، فلم يحل بصواب من عنده .

وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد في أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى ؛ فقال بعضهم : عليه الحدّ ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره .

وقال بعضهم : لا حدّ عليه .

قال ابن خُوَيْزِ منداد : وهو الصحيح ، وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حُدّ ، وإن

أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ ، ولكن أستحسن ألا يحدّ .

وخالفه صاحباه فقالا : لا حدّ عليه في الوجهين ، ولم يراعوا الانتشار ، وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر .

قال ابن المنذر : لا حدّ عليه ، ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان .

السابعة اختلف العلماء في طلاق المكره وعتاقه ؛ فقال الشافعيّ وأصحابه : لا يلزمه شيء .

وذكر ابن وهب عن عمر وعليّ وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئاً .

وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس والحسن وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور .

وأجازت طائفة طلاقه ؛ روي ذلك عن الشّعْبيّ والنّخَعِيّ وأبي قلابة والزهري وقتادة ، وهو قول الكوفيين .

قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالهازل .

(49/444)

وهذا قياس باطل؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راضٍ به ، والمكره غير راض ولا نية له في الطلاق ، وقد قال عليه السلام : " إنما الأعمال بالنيات " وفي البخاري : وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق : ليس بشيء ؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن .

وقال الشعبي : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق ، وإن أكرهه السلطان فهو طلاق .

وفسّره ابن عيينة فقال : إن اللّص يقدُِم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنة وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان .

الأولى أن يبيع ماله في حق وجب عليه ؛ فذلك ماضٍ سائغٌ لا رجوع فيه عند الفقهاء ؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختياراً منه فلزمه .

وأما بيع المكره ظلماً أو قهراً فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن ، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم ؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه .

قال مُطرِّف : ومن كان من المشترين يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وكلما أحدث المبتاع في ذلك من عتق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره ، وله أخذ متاعه .

قال سُحْنون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجَوْر لا يجوز .

وقال الأَبْهَرِيّ : إنه إجماع .

التاسعة وأما نكاح المكره ؛ فقال سُحْنون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة ، وقالوا : لا يجوز المقام عليه ، لأنه لم ينعقد .

قال محمد بن سُحنون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره ، وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم ، وصداق مثلها ألف درهم ، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل .

قال محمد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه .

(50/444)

وقولهم خلاف السنة الثابتة في حديث خَنْساء بنت خِذام الأنصارية ، ولأمره صلى الله عليه وسلم بالاستئمار في أبضاعهن ، وقد تقدّم ، فلا معنى لقولهم .

العاشرة فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمَّى من الصداق ودُرِئ عنه الحد .

وإن قال : وطئتها على غير رضاً مني بالنكاح فعليه الحد والصداق المسمَّى ؛ لأنه مدّعٍ لإبطال الصداق المسمى ، وتُحَدّ المرأة إن أقدمت وهي عالمة أنه مكره على النكاح .

وأما المكرهة على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولها الصداق ، ويحدّ الواطىء ؛ فاعلمه .

قاله سحنون .

الحادية عشرة إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها ؛ لقوله "إلا من أكره" وقوله عليه السلام : " إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " ولقول الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : 33] يريد الفتيات .

وبهذا المعنى حكم عمر في الوليدة التي استكرهها العبد فلم يحدّها .

والعلماء متفقون على أنه لا حدّ على امرأة مستكرَهة .

وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملاً وليس لها زوج فقالت استكرهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحَدّ ، إلا أن تكون لها بيّنة أو جاءت تَدْمِي على أنها أوتيت ، أو ما أشبه ذلك .

واحتج بحديث عمر بن الخطاب أنه قال : الرجم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة ، أو كان الحَبَل أو الاعتراف .

قال ابن المنذر : وبالقول الأوّل أقول .

الثانية عشرة واختلفوا في وجوب الصداق للمستكرهة ؛ فقال عطاء والزُّهْرِيّ : لها صداق مثلها ؛ وهو قول مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور .

وقال الثَّوْرِيّ : إذا أقيم الحدّ على الذي زنى بها بطل الصداق .

وروي ذلك عن الشعبي ، وبه قال أصحاب مالك وأصحاب الرأي .

قال ابن المنذر : القول الأوّل صحيح .

(51/444)

الثالثة عشرة إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لم يَحِلّ أسلمها ، ولم يقتل نفسه دونها ولا احتمل أذية في تخليصها .

والأصل في ذلك ما خَرّجه البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاجر إبراهيمُ عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إليّ فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّي فقالت اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك فلا تسلّط عليّ هذا الكافر فغُطّ حتى ركَض برجله " ودل هذا الحديث أيضاً على أن سارة لما لم يكن عليها ملامة ، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة ، ولا حدّ فيما هو أكبر من الخلوة .

والله أعلم .

الرابعة عشرة وأما يمين المكره فغير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء .

قال ابن الماجِشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصية إذا أكره على

اليمين ؛ وقاله أصْبَغ .

وقال مطرّف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالي رجلاً فاسقاً فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمراً ، أو لا يفسق ولا يَغُشّ في عمله ، أو الوالد يحلّف ولده تأديباً له فإن اليمين تلزم ؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلّف من ذلك .

وقال به ابن حبيب .

وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنِث ، قالوا : لأن المكره له أن يورّيَ في يمينه كلها ، فلما لم يورّ ولا ذهبت نيّته إلى خلاف ما أكره عليه فقد قصد إلى اليمين .

احتج الأوّلون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيّته مخالفة لقوله ؛ لأنه كاره لما حلف عليه .

(52/444)

الخامسة عشرة قال ابن العربيّ : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا ؛ وهذه مسألة عراقية سرت لنا منهم ، لا كانت هذه المسألة ولا كانوا ! وأيّ فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تلزم وبين الحِنث في أنه لا

يقع ! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم ، ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمة في الدراية .

السادسة عشرة إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المَكْس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء ؛ فقال مالك : لا تَقِيّة له في ذلك ، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله .

وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه .

وقال ابن القاسم بقول مطرّف ، ورواه عن مالك ، وقاله ابن عبد الحكم وأصْبَغ .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح ؛ لأن المدافعة عن المال كالمدافعة عن النفس ؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتي .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وقال : "كُلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" وروى أبو هريرة قال : "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : "فلا تُعْطِه مالك" .

قال : أرأيت إن قاتلني ؟ قال : "قاتله" قال : أرأيت إن قتلني ؟ قال : "فأنت شهيد" قال : أرأيت إن قتلته ؟ قال : "هو في النار" " خرجه مسلم .

وقد مضى الكلام فيه .

وقال مطرّف وابن الماجشون : وإن بدر الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يُسألها ليَذُبّ بها

عما خاف عليه من ماله وبدنه فحلف له فإنها تلزمه .

وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ .

(53/444)

وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق ألبّتّةَ من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب ، وإنما حلف خوفاً من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه ، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث .

السابعة عشرة قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض ؛ فإن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب .

ومتى لم يكن كذلك كان كافراً ؛ لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها .

مثاله أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللاهي ؛ فيزيد الياء .

وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبيّ فيقول هو كافر بالنبيّ ، مشدداً وهو المكان المرتفع من الأرض .

ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة ، فيقصد أحدَهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ

من إثمه .

فإن قيل له : أكفر بالنبيء (مهموزاً) فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبر ، أي مخبر كان كطليحة ومُسَيْلِمة الكذاب .

أو يريد به النبيء الذي قال فيه الشاعر :

فأصبح رَتْماً دُقاق الحَصَى . . .

مكان النبيء من الكاثب

الثامنة عشرة أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة .

واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدّة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة ، ذكره ابن حبيب وسُحنون .

وذكر ابن سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تهدّد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير ؛ فإن لم يفعل حتى قتل خِفنا أن يكون آثماً لأنه كالمضطر .

وروى خبّاب بن الأَرَتّ قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلت : أَلاَ تَسْتَنْصِرْ لنا أَلاَ تدعو لنا ؟ فقال : " قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يَصُدّه ذلك عن دينه والله لَيَتِمَّنّ هذا الأمرُ حتى يسير الرّكْبُ من صنعاءَ إلى حَضرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون " فوَصْفُه صلى الله عليه وسلم هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه في ذات الله ، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطّنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم .

وهذه حجة مَن آثر الضرب والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة "الأخدود" إن شاء الله تعالى .

وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البَغْدادِيّ قال : حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن .

" أن عيونا لمسيلِمَة أخذوا رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيلمة ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم .

قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال نعم .

فخلّى عنه .

وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم .

قال : وتشهد أني رسول الله ؟ قال : أنا أصمّ لا أسمع ؛ فقدّمه وضرب عنقه .

فجاء هذا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هلكت قال : "وما أهلكك" ؟ فذكر الحديث ، قال : "أمّا صاحبك فأخذ بالثقة وأما أنت فأخذت بالرخصة .

على ما أنت عليه الساعة" ؟ قال : أشهد أنك رسول الله .

قال : "أنت على ما أنت عليه" " الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل ؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر يمينه ؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه .

(55/444)

وقد تقدّم ما للعلماء في هذا .

وذكر موسى بن معاوية أن أبا سعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه ، ولا يعلم له موضعاً ؛ قال : فحلف له ابن أشرس ؛ وابن أشرس يومئذ قد علم موضعه وآواه ، فحلفه بالطلاق ثلاثاً ، فحلف له ابن أشرس ، ثم

قال لامرأته : اعتزلي فاعتزلته ؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان ، فأخبره بالخبر ؛ فقال له البهلول : قال مالك إنك حانث .

فقال ابن أشرس : وأنا سمعت مالكاً يقول ذلك ، وإنما أردت الرخصة ، أو كلام هذا معناه ؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصري إنه لا حنث عليك .

قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن .

وذكر عبد الملك بن حبيب قال : حدّثني معبد عن المسيب بن شريك عن أبي شيبة قال : سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل ، هل ترى أن يحلف لِيقِيه بيمينه ؟ فقال نعم ؛ ولأن أحلف سبعين يميناً وأحنث أحبّ إليّ أن أدلّ على مسلم .

وقال إدريس بن يحيى كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار ، قال : فجلس رجل منهم في حَلْقة رجاء بن حَيْوة فسمع بعضَهم يقع في الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أُذْكَرُ بالسوء في مجلسك ولم تغيّر ! فقال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ؛ فقال له الوليد : قل : آللّه الذي لا إله إلا هو ، قال : الله الذي لا إله إلا هو ؛ فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطا ، فكان يلقى رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يستقى المطر ، وسبعون سوطاً في ظهري ! فيقول رجاء : سبعون سوطاً في ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة واختلف العلماء في حَدّ الإكراه ؛ فروي عن عمر بن الخطاب رضي الله

عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته .

وقال ابن مسعود : ما كلام يدرأ عني سوطين إلا كنتُ متكلماً به .

(56/444)

وقال الحسن : التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة ؛ إلا أن الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تقيّة .

وقال النَّخَعِيّ : القيد إكراه ، والسجن إكراه .

وهذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوّف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المتعدي وإنفاذه لما يتوعّد به ، وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيت ، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره .

وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه .

وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراهاً على شرب الخمر وأكل الميتة ؛ لأنه يخاف منهما التلف .

وجعلوهما إكراهاً في إقراره لفلان عندي ألف درهم .

قال ابن سحنون : وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدل على أن الإكراه

يكون من غير تلف نفس .

وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أو سجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه ؛ وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثَوْر وأكثر العلماء .

الموفية عشرين ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعاريض لمندوحةً عن الكذب .

وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنه قال : لا بأس إذا بلغ الرجلَ عنك شيء أن تقول : والله ، إن الله يعلم ما قلتُ فيك من ذلك من شيء .

قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذي قلت ، وهو في ظاهره انتفاء من القول ، ولا حنث على من قال ذلك في يمينه ولا كذب عليه في كلامه .

وقال النخعِيّ : كان لهم كلام من ألغاز الأيمان يدرءون به عن أنفسهم ، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث .

قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام ، إذا كان ذلك في غير مكر ولا خديعة في حق .

وقال الأعمش : كان إبراهيم النخعي إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس في مسجد بيته وقال لجاريته : قولي له هو والله في المسجد .

وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجيز للرجل من البَعْث إذا عُرضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهتدي إلا ما سدّد لي غيري ، ولا أركب إلا ما حملني غيري ؛ ونحو هذا من الكلام .

قال عبد الملك : يعني بقوله "غيري" اللَّهَ تعالى ، هو مسدّده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حنثا في يمينه ، ولا كذباً في كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هذا في خديعة وظلم وجُحدان حق فمن اجترأ وفعل أثم في خديعته ولم تجب عليه كفارة في يمينه .

الحادية والعشرون قوله تعالى : ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ أي وسّعه لقبول الكفر ، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله ؛ فهو يرد على القدرية .

و"صدرا" نصب على المفعول .

﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الغضب .

﴿ بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا ﴾ أي أختاروها على الآخرة .

﴿ وَأَنَّ الله ﴾ "أنّ" في موضع خفض عطفا على "بأنهم" .

﴿ لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ ثم وصفهم فقال : ﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾

أي عن فهم المواعظ .

﴿ وَسَمْعِهِمْ ﴾ عن كلام الله تعالى .

﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ عن النظر في الآيات .

﴿ وأولئك هُمُ الغافلون ﴾ عما يراد بهم .

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ ﴾

هذا كله في عَمّار .

والمعنى وصبروا على الجهاد ؛ ذكره النحاس .

وقال قتادة : نزلت في قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم ،

وقد تقدّم ذكرهم في هذه السورة .

وقيل : نزلت في ابن أبي سَرْح ، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة ، فاستجار بعثمان فأجاره النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره

النسائي عن عكرمة عن ابن عباس قال : في سورة النحل "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره إلى قوله ولهم عذاب عظيم" فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال "ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصَبَرُوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم" وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان على مصر ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح ؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(59/444)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾

نزلت في عمار بن ياسر وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسر وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً فعذبوهم ليرجعوا عن الإسلام فأما سمية أم عمار فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قلبها بحربة ، فقتلت ، وقتل زوجها ياسر فهما أول قتيلين قتلا في الإسلام وأما عمار فإنه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرهاً .

قال قتادة أخذ بنو المغيرة عمار وغطوه في بئر ميمون وقالوا له : اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره ، وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن عماراً كفر .

فقال "كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يبكي فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ما وراءك قال : شر يا رسول الله نلت منك وذكرت .

فقال : كيف وجدت قلبك قال : مطمئناً بالإيمان فجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) يمسح عينيه .

وقال : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " فنزلت هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت في أناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) أن هاجروا إلينا فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا ، فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين ، وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية وكان هذا في أول الإسلام قبل أن يؤمروا بالهجرة ، وقال مقاتل : نزلت في جبر مولى عامر ابن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر ، فكفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان ثم أسلم عامر بن الحضرمي مولى جبر ، وحسن إسلامه وهاجر إلى المدينة والأولى أن يقال إن الآية عامة في كل من أكره على الكفر ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، وإن كان السبب خاصاً .

فإن قلت : المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر ، فما معنى هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله أعلم .

(60/444)

فصل في حكم الآية

قال العلماء : يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به ، مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والإيلامات القوية ، مثل التحريق بالنار ونحوه .

قال العلماء : أول من أظهر الإسلام مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سبعة : أبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبوه ياسر وأمه سمية فأما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبي طالب وأما أبو بكر ، فمنعه قومه وعشيرته وأخذ الآخرون ، وألبسوا أدراع الحديد وأجلسوا في حر الشمس بمكة ، فأما بلال فكانوا يعذبونه وهو يقول أحد أحد حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم .

وقال خباب : لقد أوقدوا لي ناراً ما أطفأها إلا ودك ظهري .

وأجمعوا على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة تصريحاً بل يأتي بالمعاريض ،

وبما يوهم أنه كفر ، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان غير معتقد ، ما يقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لأن ياسراً وسمية قتلا ولم يتلفظا بكملة الكفر ، ولأن بلالاً صبر على العذاب ولم يلم على ذلك .

قال العلماء : من الأفعال ما يتصور الإكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، والميتة ونحوها فمن أكره بالسيف أو القتل على أن يشرب الخمر أو يأكل الميتة أو لحم الخنزير أو نحوها ، جاز له ذلك لقوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ وقيل : لا يجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل ، ومن الأفعال ما لا يتصور الإكراه عليه كالزنا لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد ، وذلك يمنع انتشار الآلة فلا يتصور فيه الإكراه واختلف العلماء في طلاق المكره ، فقال الشافعي رضي الله تعالى عنه وأكثر العلماء : لا يقع طلاق المكره .

وقال أبو حنيفة : يقع .

حجة الشافعي ومن وافقه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ولا يمكن أن يكون المراد نفي ذاته ، لأن ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره والمعنى أنه لا أثر له ولا عبرة به ، وقوله تعالى ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فيه دليل على أن محل الإيمان هو القلب

﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ يعني فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضي به ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ يعني يكون ذلك الإقدام على الارتداد إلى الكفر ، لأجل أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ يعني لا يرشدهم إلى الإيمان ولا يوفقهم للعمل به ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾ تقدم تفسيره ﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ يعني عما يراد بهم من العذاب في الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ يعني أن الإنسان إنما يعمل في الدنيا ، ليربح في الآخرة فإذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لأنه ضيع رأس ماله ، وهو الإيمان ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر .

قوله ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ يعني عذبوا ومنعوا من الدخول في الإسلام فتنهم المشركون ﴿ ثم جاهدوا وصبروا ﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ يعني من بعد الفتنة التي فتنوها ﴿ لغفور رحيم ﴾ نزلت هذه الآية في عياش بن ربيعة وكان أخا أبي جهل من الرضاعة ، وقيل كان أخاه لأمه وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام وعبد الله ابن أسد الثقفي فتنهم المشركون ، وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا .

وقال الحسن وعكرمة : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي سرح كان قد أسلم ، وكان يكتب للنبي (صلى الله عليه وسلم) فاستنزله الشيطان ، فارتد ولحق بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بقتله فاستجاره عثمان ، وكان أخاه لأمه فأجاره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأسلم وحسن إسلامه وهذا القول إنما يصح إذا قلنا : إن هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات في السور المكيات ، والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾

ولما كان الكفر يكون باللفظ وبالاعتقاد ، استثنى من الكافرين من كفر باللفظ وقلبه مطمئن بالإيمان ، ورخص له في النطق بكلمة الكفر إذ كان قلبه مؤمناً ، وذلك مع الإكراه .

والمعنى : إلا من أكره على الكفر ، تلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .

وجواب الشرط محذوف لدلالة ما بعده عليه تقديره : الكافرون بعد الإيمان غير المكرهين ، فعليهم غضب .

ويصح أن يكون الاستثناء من ما تضمنه جواب الشرط المحذوف أي : فعليهم غضب ، إلا من أكره فلا غضب عليه ولا عذاب ، ولكنْ من شرح وكذا قدره الزمخشري أعني الجواب قبل الاستثناء في قول مَن جعل مَن شرطاً .

وقال ابن عطية : وقالت فرقة مَن في قوله مَن كفر ابتداء ، وقوله : من شرح تخصيص منه ، ودخل الاستثناء لإخراج عمار وشبهه .

ودنا من الاستثناء الأول الاستدراك بلكن وقوله : فعليهم ، خبر عن مَن الأولى والثانية ، إذ هو واحد بالمعنى لأن الإخبار في قوله : من كفر ، إنما قصد به الصنف الشارح بالكفر انتهى .

وهذا وإن كان كما ذكر فهاتان جملتان شرطيتان ، وقد فصل بينهما بأداة الاستدراك ، فلا بد لكل واحدة منهما من جواب على انفراده لا يشتركان فيه ، فتقدير الحذف أحرى على صناعة الإعراب .

وقد ضعفوا مذهب أبي الحسن في ادعائه أن قوله : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ وقوله : ﴿ فروح وريحان ﴾ جواب لأما ، ولأنّ هذا وهما أداتا شرط ، إحداهما تلي

الأخرى ، وعلى كون مَن في موضع رفع على الابتداء ، يجوز أن تكون شرطية كما ذكرنا ، ويجوز أن تكون موصولة وما بعدها صلتها ، والخبر محذوف لدلالة ما بعده عليه ، كما ذكرنا في حذف جواب الشرط .

إلا أنْ من الثانية لا يجوز أنْ تكون شرطاً حتى يقدر قبلها مبتدأ لأنّ من وليت لكنْ فيتعين إذ ذاك أن تكون مَن موصولة ، فإن قدر مبتدأ بعد لكن جاز أن تكون شرطية في موضع خبر ذلك المبتدأ المقدر كقوله :

ولكن متى يسترقد القوم أرفد . . . .

أي : ولكن أنا متى يسترقد القوم أرقد .

وكذلك تقدر هنا ، ولكن هم من شرح بالكفر صدراً أي : منهم .

وأجاز الحوفي والزمخشري : أن تكون بدلاً من الذين لا يؤمنون ، ومن الكاذبون .

ولم يجز الزجاج إلا أن يكون بدلاً من الكاذبون ، لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام ، فعلقه بما قبله .

وأجاز الزمخشري أن يكون بدلاً من أولئك ، فإذا كان بدلاً من الذين لا يؤمنون فيكون قوله :

وأولئك هم الكاذبون ، جملة اعتراض بين البدل والمبدل منه ، والمعنى : إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء .

وإذا كان بدلاً من الكاذبون فالتقدير : وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه ، وإذا كان بدلاً من أولئك فالتقدير : ومَن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون .

وهذه الأوجه الثلاثة عندي ضعيفة .

لأنّ الأول يقتضي أنه لا يفتري الكذب إلا من كفر بالله من بعد إيمانه ، والوجود يقتضي أنّ من يفتري الكذب هو الذي لا يؤمن ، وسواء كان ممن كفر بعد الإيمان أنه كان ممن لم يؤمن قط ، بل من لم يؤمن قط هم الأكثرون المفترون الكذب .

وأما الثاني فيؤول المعنى إلى ذلك ، إذ التقدير : وأولئك أي الذين لا يؤمنون هم من كفر بالله من بعد إيمانه ، والذين لا يؤمنون هم المفترون .

وأما الثالث فكذلك .

إذ التقدير : أن المشار إليهم هم من كفر بالله من بعد إيمانه ، مخبر عنهم بأنهم الكاذبون .

وقال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب على الذم انتهى .

وهذا أيضاً بعيد ، والذي تقتضيه فصاحة الكلام جعل الجمل كلها مستقلة لا ترتبط بما قبلها من حيث الإعراب ، بل من حيث المعنى .

والمناسبة وفي قوله : إلا من أكره دليل على أنّ من فعل المكره لا يترتب عليه شيء ، وإذا كان قد سومح لكلمة الكفر أو فعل ما يؤدي إليه ، فالمسامحة بغيره من المعاصي أولى .

(65/444)

وقد تكلموا في كيفية الإكراه المبيح لذلك ، وفي تفصيل الأشياء التي يقع الإكراه فيها ، وذلك كله مذكور في كتب الفقه .

والمكرهون على الكفر المعذبون على الإسلام : خباب ، وصهيب ، وبلال ، وعمار ، وأبواه ياسر وسمية ، وسالم ، وجبر ، عذبوا فأجابهم عمار وجبر باللفظ فخلى سبيلهما ، وتمادى الباقون على الإسلام فقتل ياسر وسمية ، وهما أول قتيل في الإسلام ، وعذب بلال وهو يقول : (أحد أحد) وعذب خباب بالنار فما أطفأها إلا ودك ظهره .

وجمع الضمير في فعليهم على معنى من ، وأفرد في شرح على لفظها .

والظاهر أنّ ذلك إشارة إلى ما استحقوه من الغضب والعذاب أي : كائن لهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة .

وقال الزمخشري : واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم انتهى .

وهي نزغة اعتزالية .

والضمير في بأنهم عائد على من في من شرح : ولما فعلوا فعل من استحب ، ألزموا ذلك وإن كانوا غيره مصدقين بآخره ، لكن من حيث أعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره .

وقوله : استحبوا ، هو تكسب منهم علق به العقاب ، وأنّ الله لا يهدي إشارة إلى اختراع الله الكفر في قلوبهم ، فجمعت الآية بين الكسب والاختراع ، وهذا عقيدة أهل السنة .

وقيل : ذلك إشارة إلى الارتداد والإقدام على الكفر ، لأجل أنهم رجحوا الدنيا على الآخرة ، ولأنه تعالى ما هداهم إلى الإيمان .

وتقدم الكلام على الطبع على القلوب والسمع والأبصار والختم عليها .

وأولئك هم الغافلون : قال ابن عباس : عن ما يراد منهم في الآخرة .

وقال الزمخشري : الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم ، لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها .

ولما كان الإسناد ليكتسب بالطاعات سعادة الآخر ، فعمل على عكس ذلك من المعاصي الكفر وغيره عظم خسرانه فقيل فيهم : هم الخاسرون ولا غيرهم .

ومن أخسر ممن اتصف بتلك الأوصاف السابقة من كينونة غضب الله عليهم ، والعذاب الأليم ، واستحباب الدنيا ، وانتفاء هدايتهم ، والإخبار بالطبع وبغفلتهم .

ولما ذكر تعالى حال من كفر بعد الإيمان ، وحال من أكره ، ذكر حال من هاجر بعد ما فتن .

قال ابن عطية : وهذه الآية مدنية ، ولا أعلم في ذلك خلافاً .

وقال ابن عباس : نزلت فكتب بها المسلمون إلى من كان أسلم بمكة أنّ الله قد جعل لكم مخرجاً ، فخرجوا ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل ، فعلى هذا السبب يكون جهادهم مع الرسول على الإسلام .

وروي أنهم خرجوا واتبعوا وجاهدوا متبعيهم ، فقتل من قتل ، ونجا من نجا ، فنزلت حينئذ ، فعنى بالجهاد جهادهم لمتبعيهم .

وقال ابن إسحاق : نزلت في عمار ، وعياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد .

قال ابن عطية : وذكر عمار في هذا غير قويم ، فإنه أرفع من طبقة هؤلاء ، وإنما هؤلاء من باب ممن شرح بالكفر صدراً أفتح الله لهم باب التوبة في آخر الآية .

وقال عكرمة والحسن : نزلت في شأن عبد الله بن أبي سرح وأشباهه ، فكأنه يقول : من بعد ما فتنهم الشيطان .

وقال الزمخشري : ثم إن ربك دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه .

وللذين عند الزمخشري في موضع خبر ان قال : ومعنى إن ربك لهم إنه لهم لا عليهم ، بمعنى أنه وليهم وناصرهم ، لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل : لا عليه ، فيكون محمياً منفوعاً غير مضرور انتهى .

وقوله : منفوعاً اسم مفعول من نفع ، وهو قياسه لأنه متعد ثلاثي .

وزعم الأهوازي النحوي أنه لا يستعمل من نفع اسم مفعول ، فلا يقال منفوع وقفت له عليه في شرحه موجز الرماني .

وقال أبو البقاء : خبر إن الأولى قوله : إن ربك لغفور ، وأن الثانية واسمها تكرير للتوكيد انتهى .

(67/444)

وإذا كانت أنّ الثانية واسمها تكريراً للتوكيد كما ذكر ، فالذي يقتضيه صناعة العربية أن يكون خبر إنّ الأولى هو قوله : لغفور ، ويكون للذين متعلقاً بقوله : لغفور ، أو برحيم على الأعمال ، لأنّ إن ربك الثانية لا يكون لها طلب لما بعدها من حيث الإعراب .

كما أنك إذا قلت : قام قام زيد ، فزيد إنما هو مرفوع بقام الأولى ، لأن الثانية ذكرت على سبيل التوكيد للأولى .

وقيل : لا خبر لأن الأولى في اللفظ لأن خبر الثانية أغنى عنه انتهى .

وهذا ليس بجيد ، لأنه ألغى حكم الأولى وجعل الحكم للثانية ، وهو عكس ما تقدم ، ولا يجوز .

وقيل : للذين متعلق بمحذوف على جهة البيان كأنه قيل : أعني للذين ، أي الغفران للذين .

وقرأ الجمهور : فتنوا مبنياً للمفعول أي : بالعذاب والإكراه على كلمة الكفر .

وقرأ ابن عامر : فتنوا مبنياً للفاعل ، والظاهر أن الضمير عائد على الذين هاجروا ،

فالمعنى : فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول كما فعل عمار .

أو لما كانوا صابرين على الإسلام وعذبوا بسبب ذلك صاروا كأنهم هم المعذبون أنفسهم ،

ويجوز أن يكون عائداً على المشركين أي : من بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه .

والضمير في مَن بعدها عائد على المصادر المفهومة من الأفعال السابقة أي : من بعد الفتنة والهجرة والجهاد والصبر .

وقال ابن عطية : والضمير في بعدها عائد على الفتنة ، أو الهجرة ، أو التوبة ، والكلام يعطيها وإن لم يجر لها ذكر صريح . انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ ﴾

أي تلفظ بكلمة الكفر ﴿ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ به تعالى ، وهو ابتداءُ كلامٍ لبيان حالِ من كفر بآيات الله بعدما آمن بها بعد بيان حالِ من لم يؤمن بها رأساً ، ومَنْ موصولةٌ ومحلُّها الرفعُ على الابتداء ، والخبرُ محذوفٌ لدِلالة الخبرِ الآتي عليه أو هو خبرٌ لهما معاً ، أو النصبُ على الذم ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه ، وهو استثناءٌ متّصلٌ من حكم الغضبِ والعذاب أو الذمّ لأن الكفرَ لغةٌ تتم بالقول كما أشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ حالٌ من المستثنى والعاملُ هو الكفرُ الواقع بالإكراه ، لأن مقارنةَ اطمئنان القلبِ بالإيمان للإكراه لا تجدي نفعاً ، وإنما المجدي مقارنتُه للكفر الواقعِ به أي إلا مَنْ كفر بإكراه وإلا من أُكره فكفر ، والحالُ أن قلبه مطمئنٌّ بالإيمان لم تتغير عقيدتُه ، وإنما لم يصرّح به إيماءً إلى أنه ليس بكفر حقيقة ، وفيه دليلٌ على أن الإيمانَ هو التصديقُ بالقلب ﴿ ولكن مَّن ﴾ لم يكن كذلك بل ﴿ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي اعتقده وطاب به نفساً ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم لا يُكتنه كُنهه ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ إظهارُ الاسم الجليلِ لتربية المهابة وتقويةٌ لعظيم العذاب ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إذ لا جُرمَ أعظمُ

من جرمهم ، والجمعُ في الضميرين المجرورين لمراعاة جانبِ المعنى كما أن الإفراد في المستكنّ في الصلة لرعاية جانبِ اللفظ .

(69/444)

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى الكفر بعد الإيمان أو إلى الوعيد المذكور ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ استحبوا الحياة الدنيا ﴾ آثروها ﴿ على الآخرة وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِى ﴾ إلى الإيمان وإلى ما يوجب الثباتَ عليه هدايةَ قسرٍ وإلجاءٍ ﴿ القوم الكافرين ﴾ في علمه المحيطِ فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدّي إليه من الغضب والعذابِ العظيم ، ولولا أحدُ الأمرين : إما إيثارُ الحياة الدنيا على الآخرة وإما عدمُ هدايةِ الله سبحانه للكافرين هدايةَ قسرٍ بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هدايةَ قسرٍ ، لَما كان ذلك لكنّ الثانيَ مخالفٌ للحكمة والأولُ مما لا يدخُل تحت الوقوعِ وإليه أشير بقوله تعالى :

﴿ أولئك ﴾ أي أولئك الموصوفين بما ذكر من القبائح ﴿ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ فأبت عن إدراك الحقِّ والتأمل فيه ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الغافلون ﴾ أي الكاملون في الغفلة إذ لا غفلةَ أعظمُ من الغفلة عن تدبر العواقب .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

إذْ ضيّعوا أعمارَهم وصرفوها إلى ما لا يفضي إلا إلى العذاب المخلد .

(70/444)

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إلى دار الإسلام وهم عمارٌ وأصحابُه رضي الله عنهم ، أي لهم بالولاية والنصرِ لا عليهم كما يوجبه ظاهرُ أعمالِهم السابقةِ ، فالجارُّ والمجرور خبرٌ لإن ويجوز أن يكون خبرُها محذوفاً فالدلالة الخبرِ الآتي عليه ويجوز أن يكون ذلك خبراً لها وتكون إن الثانية تأكيداً للأولى ، وثم للدِلالة على تباعد رتبةِ حالهم التي يفيدها الاستثناءُ من مجرد الخروجِ عن حكم الغضب والعذابِ بطريق الإشارة ، لا عن رتبة حالِ الكفرة ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ أي عُذّبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبِهم بالإيمان ، وقرىء على بناء الفاعل أي عذّبوا المؤمنين كالحضْرمي أكره مولاه جبراً حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا ﴿ ثُمَّ جاهدوا ﴾ في سبيل الله ﴿ وَصَبَرُواْ ﴾ على مشاقّ الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ من بعد المهاجرةِ والجهاد والصبرِ ، فهو تصريحٌ بما أشعر به بناءُ الحُكم على الموصول من علّية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدمِ إخلالِ ذلك بالحكم ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فعلوا من قبلُ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يُنعم عليهم مجازاةً على ما صنعوا من

بعد ، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ في الموضعين إيماءٌ إلى علة الحكمِ ، وفي إضافة الربِّ إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثرِ في الطائفة المذكورة إظهارٌ لكمال اللطفِ به عليه السلام وإشعارٌ بأن إفاضة آثارِ الربوبيةِ عليهم من المغفرة والرحمةِ بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعاً له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(71/444)

وقال الآلوسى :

﴿ مَن كَفَرَ بالله ﴾

أي بكلمة الكفر ﴿ مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ به تعالى .

وهذا بحسب الظاهر ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله تعالى بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأساً و﴿ مِنْ ﴾ موصولة محلها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ الآتي عليه وحذف مثل ذلك كثير في الكلام ، وجوز أيضاً الرفع وكذا النصب على القطع لقصد الذم أي هم أو أذم من كفر والقطع للذم والمدح وإن تعورف في النعت ، و﴿ مِنْ ﴾ لا يوصف بها لكن لا مانع من اعتباره في غيره كالبدل وقد نص عليه سيبويه .

نعم قال أبو حيان : إن النصب على الذم بعيد .

وأجاز الحوفي .

والزمخشري كونها بدلاً من ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ [النحل : 104] وقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الكاذبون ﴾ [النحل : 105] اعتراض بينهما .

واعترضه أبو حيان .

وغيره بأنه يقتضي أن لا يفتري الكذب إلا من كفر بعد إيمانه والوجود يقتضي أن من يفتري الكذب هو الذي لا يؤمن مطلقاً وهم أكثر المفترين .

وأيضاً البدل هو المقصود والآية سيقت للرد على قريش وهم كفار أصليون .

ووجه ذلك الطيبي بأن يراد بقوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ من بعد تمكنه منه كقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 16] وذكر أن فيه ترشيحاً لطريق الاستدراج وتحسيراً لهم على ما فاتهم من التصديق وما اقترفوه من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الافتراء وفيه كما في "الكشف" أن قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ لا يساعد عليه ، وحمل التمكن منه على ما هو أعم من التمكن في إحداثه وبقائه لا يخفى ما فيه .

وقال المدقق : الأولى في التوجيه أن يجعل المعنى من وجد الكفر فيما بينهم تعييراً على الارتداد أيضاً وأن من وجد فيهم هذه الخصلة لا يبعد منهم الافتراء ويجعل ذلك ذريعة إلى أن ينعى عليهم ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين من المثلة ويدمج فيه الرخصة بإجراء كلمة الكفر على اللسان على سبيل الإكراه وتفاوت ما بين صاحب العزيمة والرخصة ، ولا يخفى ما فيه أيضاً وأنه غير ملائم لسبب النزول ، وقال الخفاجي : لك أن تقول : الأقرب أن يبقى الكلام على ظاهره من غير تكلف وأن هذا تكذيب لهم على أبلغ وجه كما يقال لمن قال : إن الشمس غير طالعة في يوم صاح هذا ليس بكذب لأن الكذب يصدر فيما قد تقبله العقول ويكون هذا على تقدير أن يكون المراد في ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ ﴾ لا يهديهم إلى الحق فالله تعالى لما لم يهدهم إلى الحق والصدق وختم على حواسهم نزلوا منزلة من لم يعرفه حتى يساعده لسانه على النطق به فقبح إنكارهم له أجل من أن يسمى كذباً وإنما يكذب من تعمد ذلك ونطق به مرة ، فتكون الآية الأولى للرد على قريش صريحاً والأخرى دلالة على أبلغ وجه انتهى ، ولعمري إنه نهاية في التكلف ، ومثل هذا الإبدال الإبدال من ﴿ أولئك ﴾ [النحل : 105] والإبدال من ﴿ الكاذبون ﴾ [النحل : 105] وقد جوزهما الزمخشري أيضاً ؛ وجوز الحوفي الأخير أيضاً ولم يجوز الزجاج غيره .

وجوز غير واحد كون ﴿ مَنْ ﴾ شرطية مرفوعة المحل على الابتداء واستظهره في

"البحر" والجواب محذوف لدلالة الآتي عليه كما سمعت في الوجه الأول ، والكلام في خبر من الشرطية مشهور ، وظاهر صنيع الزمخشري اختيار الإبدال وهو عندي غريب منه .

(73/444)

وفي "الكشف" أن كون ﴿ مِنْ ﴾ شرطية مبتدأ وجه ظاهر السداد إلا أن الذي حمل جار الله على إيثار كون ﴿ مِنْ ﴾ بدلاً طلب الملاءمة بين أجزاء النظم الكريم لا أن يكون ابتداء بيان حكم ، ولا يخفى ما في هذا العذر من الوهن ، والظاهر أن استثناء ﴿ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ أي على التلفظ بالكفر بأمر يخاف منه على نفسه أو عضو من أعضائه ممن كفر استثناء متصل لأن الكفر التلفظ بما يدل عليه سواء طابق الاعتقاد أولاً .

قال الراغب : يقال كفر فلان إذا اعتقد الكفر ويقال إذا أظهر الكفر وإن لم يعتقد ، فيدخل هذا المستثنى في المستثنى منه المذكور ، وقيل : مستثنى من الخبر الجواب المقدر ، وقيل : مستثنى مقدم من قوله تعالى : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ وليس بذاك ، والمراد إخراجه من حكم الغضب والعذاب أو الذم ؛ وقوله سبحانه : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ حال من السمثنى ، والعامل كما في إرشاد العقل السليم هو الكفر الواقع بالإكراه لا نفس الإكراه لأن مقارنة اطمئنان القلب بالإيمان للإكراه لا تجدي نفعاً وإنما المجدي مقارنته للكفر الواقع به أي

إلا من كفر بإكراه أو إلا من أكره فكفروا الحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته ، وأصل معنى الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد هنا السكون والثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه ، وإنما لم يصرح بذلك العامل إيماءً إلى أنه ليس بكفر حقيقة .

واستدل بالآية على أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار ليس ركناً فيه كما قيل .

واعترض بأن من جعله ركناً لم يرد أنه ركن حقيقي لا يسقط أصلاً بل أنه دال على الحقيقة التي هي التصديق إذ لا يمكن الاطلاع عليها فلا يضره عند سقوطه لنحو الإكراه والعجز فتأمل .

(74/444)

﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي اعتقده وطاب به نفساً و﴿ صَدْرًا ﴾ على معنى صدره إذ البشر في عجز عن شرح صدر غيره ، ونصبه كما قال الإمام على أنه مفعول به لشرح وجوز بعضهم كونه على التمييز ، و﴿ مِنْ ﴾ إما شرطية أو موصولة لكن إذا جعلت شرطية قال أبو حيان لا بد من تقدير مبتدأ قبلها لأن لكن لا تليها الجمل الشرطية ، والتقدير هنا ولكن هم من شرح بالكفر صدراً أي منهم ومثله قوله :

ولكن متى تسترفد القوم أرفد . . .

أي ولكن أنا متى تسترفد الخ.

وتعقب بأنه تقدير غير لازم، وقوله تعالى: ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ جواب الشرط على تقدير شرطية ﴿ مَنْ ﴾ وهي على التقديرين مبتدأ وهذا خبرها على تقدير الموصولية وكذا على تقدير الشرطية في رأي والخلاف مشهور، وجعله بعضهم خبراً لمن هذه ولمن الأولى للاتحاد في المعنى إذ المراد بمن كفر الصنف الشارح بالكفر صدراً.

وتعقبه في "البحر" بأن ههنا جملتين شرطيتين وقد فصل بينهما بأداة الاستدراك فلا بد لكل واحدة منهما من جواب على حدة فتقدير الحذف أحرى في صناعة الإعراب.

وقد ضعفوا مذهب أبي الحسن في إدعائه أن قوله تعالى: ﴿ فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة: 91] وقوله سبحانه: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: 89] جواب لأما ولأن هذا وهما أداتا شرط تلي إحداهما الأخرى، ويبعد بهذا عندي جعله خبراً لهما على تقدير الموصولية والاستدراك من الإكراه على ما قيل؛ ووجه بأن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ يوهم أن المكره مطلقاً مستثنى مما تقدم، وقوله سبحانه: ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ لا ينفي ذلك الوهم فاحتيج إلى الاستدراك لدفعه وفيه بحث ظاهر، وقيل: المراد مجرد التأكيد كما في نحو قولك: لو جاء زيد لأكرمتك لكنه لم يجيء.

وأنت تعلم ما في ذلك فتأمل جداً ، وتنوين ﴿ غَضَبَ ﴾ للتعظيم أي غضب عظيم لا يكتنه كنهه كائن ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ جل جلاله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لعظم جرمهم فجوزوا من جنس عملهم ، وفي اختيار الاسم الجليل من تربية المهابة وتقوية وتعظيم العذاب ما فيه ، والجمع في الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الإفراد في المستكن في الصلة لرعاية جانب اللفظ .

(76/444)

روي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد فأبوا فربطوا سمية بين بعيرين ووجىء بحربة في قبلها وقالوا إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسراً وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه فقيل يا رسول الله إن عماراً كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : مالك إن عادوا فعد لهم بما قلت ، وفي رواية أنهم أخذوه فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم

بخير ثم تركوه فلما أتى رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : ما وراءك ؟ قال : شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان قال صلى الله عليه وسلم إن عادوا فعد فنزلت هذه الآية ، وكأن الأمر بالعود في الرواية الأولى للترخيص بناءً على ما قال النسفي أنه أدنى مراتبه وكذا الأمر في الرواية الثانية أن اعتبر مقيداً بما قيد به في الرواية الأولى ، وأما إن اعتبر مقيداً بطمأنينة القلب كما في الهداية أي عد إلى جعلها نصب عينيك وأثبت عليها فالأمر للوجوب ، والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازاً للدين ولو تيقن القتل كما فعل ياسر وسمية وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة بل هو كالقتل في الغزو كما صرحوا به .

وقد أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن وعبد الرازق في تفسيره عن معمر أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله قال : فما تقول في ؟ فقال : أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد ذلك في جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما فقال : أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى ، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له .

وفي أحكام الجصاص أنه يجب على المكره على الكفر إخطار أنه لا يريده فإن لم يخطر بباله ذلك كفر .

وفي "شرح المنهاج" لابن حجر لا توجد ردة مكره على مكفر قلبه مطمئن بالإيمان للآية ، وكذا إن تجرد قلبه عنهما فيما يتجه ترجيحه لإطلاقهم أن المكره لا يلزمه التورية فافهم ، وقال القاضي : يجب على المكره تعريض النفس للقتل ولا يباح له التلفظ بالكفر لأنه كذب وهو قبيح لذاته فيقبح على كل حال ولو جاز أن يخرج عن القبح لرعاية بعض المصالح لم يمتنع أن يفعل الله سبحانه الكذب لها وحينئذٍ لا يبقى وثوق بوعده تعالى ووعيده لاحتمال أنه سبحانه فعل الكذب لرعاية المصلحة التي لا يعلمها إلا هو ، ورده ظاهر ، وهذا الخلاف فيما إذا تعين على المكره إما التزام الكذب وإما تعريض النفس للتلف وإلا فمتى أمكنه نحو التعريض أو إخراج الكلام على نية الاستفهام الإنكاري لم يجب عليه تعريض النفس لذلك إجماعاً .

واستدل بإباحة التلفظ بالكفر عند الإكراه على إباحة سائر المعاصي عنده أيضاً وفيه بحث ، فقد ذكر الإمام أن من المعاصي ما يجب فعله عند الإكراه كشرب الخمر وأكل الميتة ولحم الخنزير فإن حفظ النفس عن الفوات واجب فحيث تعين الأكل سبيلاً ولا ضرر فيه لحيوان ولا إهانة لحق الله تعالى وجب لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [

البقرة : 195] ومنها ما يحرم كقتل إنسان محترم أو قطع عضو من أعضائه وفي وجوب القصاص على المكره قولان للشافعي عليه الرحمة ، وذكر أن من الأفعال ما لا يقبل الإكراه ومثل بالزنا لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة فحيث دل الزنا في الوجود علمنا أنه وقع بالاختيار لا على سبيل الإكراه ، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) ﴾

(78/444)

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : 106] أو المذكور من الغضب والعذاب ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أن الشارحين صدورهم بالكفر ﴿ استحبوا الحياة الدنيا ﴾ أي آثروها وقدموها ولتضمن الاستحباب معنى الإيثار قيل ﴿ على الآخرة ﴾ فعدى بعلى ، والمراد على ما في "البحر" أنهم فعلوا فعل المستحبين ذلك وإلا فهم غير مصدقين بالآخرة .

﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي ﴾ إلى الإيمان وإلى ما يوجب الثبات عليه ، وقيل : إلى الجنة .

ورده الإمام وفسر بعضهم الهداية المنفية بهداية القسر أي لا يهدي هداية قسر وإلجاء ونسب إلى المعتزلة ﴿ القوم الكافرين ﴾ أي في علمه تعالى المحيط فلا يعصمهم تعالى عن الزيغ وما يؤدي إليه من الغضب والعذاب ، ولولا أحد الأمرين إما إيثار الحياة الدنيا على الآخرة وإما عدم هداية الله تعالى إياهم بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله سبحانه لما كان ذلك لكن كلاهما لا يكون لأنه خلاف ما في العلم بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر وقال البعض : لكن الثاني مخالف للحكمة والأول مما لا يدخل تحت الوقوع وإليه الإشارة بقوله سبحانه :

(79/444)

﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفون بما ذكر ﴿ الذين طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ فلم تفتح لإدراك الحق واكتساب ما يوصل إليه ، واستظهر أبو حيان كون ذلك إشارة إلى ما استحقوه من الغضب والعذاب ، وقال : إن قوله تعالى ﴿ استحبوا ﴾ [النحل : 107] إشارة إلى الكسب ﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الكافرين ﴾ [النحل : 107] إشارة إلى الاختراع فجمعت الآية الأمرين وذلك عقيدة أهل السنة فافهم ، وقد تقدم للكلام على الطبع ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الغافلون ﴾ أي الكاملون في الغفلة إذ لا غفلة أعظم من الغفلة

عن تدبر العواقب والنظر في المصالح ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : غافلون عما يراد منهم في الآخرة .

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ إذ ضيعوا رؤوس أموالهم وهي أعمارهم وصرفوها فيما لا يفضي إلا إلى العذاب المخلد ولله تعالى من قال :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس . . .

عليه من الإنفاق في غير واجب

ووقع في آية أخرى ﴿ الاخسرون ﴾ [هود : 22] وذلك لاقتضاء المقام على ما لا يخفى على الناظر فيه أو لأنه وقع في الفواصل هنا اعتماد الألف كالكافرين والغافلين فعبر به لرعاية ذلك وهو أمر سهل ، وتقدم الكلام في ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ فتذكره فما في العهد من قدم .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا ﴾

إلى دار الإسلام وهم عمار .

(80/444)

وأضرابه أي لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يقتضيه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور في موضع الخبر لإن ، وجوز أن يكون خبرها محذوفاً لدلالة خبر إن الثانية عليه ،

والجار والمجرور متعلق بذلك المحذوف ، وقال أبو البقاء : الخبر هو الآتي وإن الثانية واسمها تكرير للتأكيد ولا تطلب خبراً من حيث الإعراب ، والجار والمجرور متعلق بأحد المرفوعين على الأعمال ، وقيل : بمحذوف على جهة البيان كأنه قيل : أعني للذين أي الغفران وليس بشيء ، وقيل : لا خبر لأن هذه في اللفظ لأن خبر الثانية أغنى عنه وليس بجيد كما لا يخفى و﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب لا عن رتبة حال الكفرة ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ أي عذبوا على الارتداد ، وأصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ثم تجوز به عن البلاء وتعذيب الإنسان .

وقرأ ابن عامر ﴿ فَتَنُواْ ﴾ مبنياً للفاعل ، وهو ضمير المشركين عند غير واحد أي عذبوا المؤمنين كالحضرمي أكره مولاه جبراً حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا أو وقعوا في الفتينة فإن فتن جاء متعدياً ولازماً وتستعمل الفتنة فيما يحصل عنه العذاب .

وقال أبو حيان : الظاهر أن الضمير عائد على ﴿ الذين ﴾ والمعنى فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول كما فعل عمار أو كانوا صابرين على الإسلام وعذبوا بسبب ذلك صاروا كأنهم عذبوا أنفسهم ﴿ فُتِنُواْ ثُمَّ جاهدوا ﴾ الكفار ﴿ وَصَبَرُواْ ﴾ على مشاق الجهاد أو على ما أصابهم من المشاق مطلقاً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي

المذكورات من الفتنة والهجرة والجهاد والصبر ، وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة .

(81/444)

وجوز أن يكون الضمير للفتنة المفهومة من الفعل السابق ويكون ما ذكر بياناً لعدم إخلال ذلك بالحكم ، وقال ابن عطية : يجوز أن يكون للتوبة والكلام يعطيها وإن لم يجر لها ذكر صريح ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فعلوا من قبل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ ينعم عليهم مجازاة لما صنعوا من بعد ، وفي التعرض لعنوان الربوبية في الموضعين إيماءً إلى علة الحكم وما في إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهار لكمال اللطف به صلى الله عليه وسلم بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه الصلاة والسلام ولكونهم أتباعاً له .

هذا وكون الآية في عمار واضرابه رضي الله تعالى عنهم مما ذكره غير واحد ، وصرح ابن إسحاق بأنها نزلت فيه وفي عياش بن أبي ربيعة .

والوليد بن أبي ربيعة .

والوليد بن الوليد ، وتعقبه ابن عطية بأن ذكر عمار في ذلك غير قويم فإنه أرفع طبقة هؤلاء ،

وهؤلاء ممن شرح بالكفر صدراً فتح الله تعالى لهم باب التوبة في آخر الآية ، وذكر أن الآية مدنية وأنه لا يعلم في ذلك خلافاً ، ونقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت فكتب بها المسلمون إلى من كان أسلم بمكة إن الله تعالى قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل ، وأخرج ذلك ابن مردويه ، وفي رواية أنهم خرجوا واتبعوا وقاتلوا فنزلت ، وأخرج هذا ابن المنذر .

وغيره عن قتادة ، فالمراد بالجهاد قتالهم لمتبعيهم ، وأخرج ابن جرير عن الحسن .

(82/444)

وعكرمة أنها نزلت في عبد الله ابن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به النبي عليه الصلاة والسلام أن يقتل يوم فتح مكة فاستجار له عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد نزلت فيه وفي أشباهه كما صرح به في بعض الروايات ، وفسروا ﴿ فُتِنُواْ ﴾ على هذا بفتنهم الشيطان وأزلهم حتى ارتدوا باختيارهم ، وما ذكره ابن عطية فيمن ذكر مع عمار غير مسلم ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن عياشاً رضي الله تعالى عنه كان أخاً أبي جهل لأمه وكان يضربه سوطاً وراحلته سوطاً ليرتد عن الإسلام .

وفي التفسير الخازني أن عياشاً وكان أخاً أبي جهل من الرضاعة، وقيل: لأمه.

وأبا جندل بن سهل بن عمرو.

وسلمة بن هشام.

والوليد بن المغيرة.

وعبد الله بن سلمة الثقفي فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا والآية نزلت فيهم، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(83/444)

وقال ابن عاشور:

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

لما سبق التّحذير من نقض عهد الله الذي عاهدوه، وأن لا يغرّهم ما لأمّة المشركين من السّعة والرُّبو، والتحذير من زلَل القدم بعد ثبوتها، وبشروا بالوعد بحياة طيبة، وجزاء أعمالهم الصالحة من الإشارة إلى التّمسك بالقرآن والاهتداء به، وأن لا تغرّهم شُبه المشركين وفتونهم في تكذيب القرآن، عقب ذلك بالوعيد على الكفر بعد الإيمان، فالكلام

استئناف ابتدائي .

ومناسبة الانتقال أن المشركين كانوا يحاولون فتنة الراغبين في الإسلام والذين أسلموا ، فلذلك ردّ عليهم بقوله : ﴿ قل نزّله روح القدس ﴾ إلى قوله : ﴿ ليثبّت الذين آمنوا ﴾ [سورة النحل : 102] ، وكانوا يقولون : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [سورة النحل : 103] فردّ عليهم بقوله : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ [سورة النحل : 103] .

وكان الغلام الذي عنوه بقولهم إنما يعلمه بشر ﴾ قد أسلم ثم فتنهُ المشركون فكفر ، وهو جَبر مولى عامر بن الحَضرمي .

وكانوا راودوا نفراً من المسلمين على الارتداد ، منهم : بلال ، وخَبّاب بن الأرتّ ، وياسر ، وسُميّة أَبَوَا عمار بن ياسر ، وعمّارٌ ابنهما ، فثبتوا على الإسلام .

وفتنوا عماراً فأظهر لهم الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .

وفتنوا نفراً آخرين فكفروا ، وذُكر منهم الحارث بن ربيعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبّه بن الحجّاج ، وأحسب أن هؤلاء هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله في سورة العنكبوت (10) ، فكان مِن هذه المناسبة ردّ لعجز الكلام على صدره .

على أن مضمون من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ مقابل لمضمون ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ [سورة النحل : 97] ، فحصل الترهيب بعد الترغيب ، كما ابتدىء بالتحذير تحفّظاً على الصالح من الفساد ، ثم أعيد الكلام بإصلاح الذين اعتراهم الفساد ، وفُتح باب الرخصة للمحَافظين على صلاحهم بقدر الإمكان .

واعلم أن الآية إن كانت تشير إلى نفَر كفروا بعد إسلامهم كانت مَن ﴾ موصولة وهي مبتدأ والخبر ﴿ فعليهم غضب من الله ﴾ .

وقرن الخبر بالفاء لأن في المبتدإ شبهاً بأداة الشرط .

وقد يعامل الموصول معاملة الشرط ، ووقع في القرآن في غير موضع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنّم ﴾ [سورة البروج : 10] ، وقوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ إلى قوله ﴿ فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ في سورة براءة (34) .

وقيل إن فريقاً كفروا بعد إسلامهم ، كما رُوي في شأن جبر غلام ابن الحَضرمي .

وهذا الوجه أليق بقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ [سورة النحل : 108] الآية .

وإن كان ذلك لم يقع فالآية مجرّد تحذير للمسلمين من العود إلى الكفر ، ولذلك تكون ﴿ مَن

﴾ شرطية ، والشرط غير مراد به معيّن بل هو تحذير ، أي مَن يَكْفروا بالله ، لأن الماضي في الشرط ينقلب إلى معنى المضارع ، ويكون قوله : ﴿ فعليهم غضب من الله ﴾ جواباً . والتّحذير حاصل على كلا المعنيين .

وأما قوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو ترخيص ومعذرة لِمَا صدر من عمار بن ياسر وأمثالِه إذا اشتدّ عليهم عذاب من فتنوهم .

وقوله : ﴿ إلا من أكره ﴾ استثناء من عموم ﴿ من كفر ﴾ لئلا يقع حكم الشرط عليه ، أي إلا مَن أكرهه المشركون على الكفر ، أي على إظهاره فأظهره بالقول لكنه لم يتغير اعتقاده .

وهذا فريق رخّص الله لهم ذلك كما سيأتي .

ومصحّح الاستثناء هو أن الذي قال قول الكفّار قد كفر بلفظه .

(85/444)

والاستدراك بقوله : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ استدراك على الاستثناء ، وهو احتراس من أن يفهم من الاستثناء أن المكره مرخّص له أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه .

و﴿ من شرح ﴾ معطوف بـ﴿ لكن ﴾ على ﴿ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ، لأنه

في معنى المنفي لوقوعه عقب الاستثناء من المثبت ، فحرف ﴿ لكن عاطف ولا عبرة بوجود الواو على التحقيق .

واختير فعليهم غضب ﴾ دون نحو : فقد غضب الله عليهم ، لما تدلّ عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات ، أي غضب لا مغفرة معه .

وتقديم الخبر المجرور على المبتدإ للاهتمام بأمرهم ، فقدّم ما يدلّ عليهم ، ولتصحيح الإتيان بالمبتدإ نكرة حين قصد بالتّنكير التعظيم ، أي غضب عظيم ، فاكتفي بالتنكير عن الصفة .

وأما تقديم ﴿ لهم ﴾ على ﴿ عذاب عظيم ﴾ فللاهتمام .

والإكراه : الإلجاء إلى فعل ما يُكْرَه فِعلُه .

وإنما يكون ذلك بفعل شيء تضيق عن تحمّله طاقة الإنسان من إيلام بالغ أو سجن أو قيد أو نحوه .

وقد رخّصت هذه الآية للمكره على إظهار الكفر أن يظهره بشيء من مظاهره التي يطلق عليها أنها كفر في عرف الناس من قول أو فعل .

وقد أجمع علماء الإسلام على الأخذ بذلك في أقوال الكفر ، فقالوا : فمن أكره على الكفر غير جارية عليه أحكام الكفر ، لأن الإكراه قرينة على أن كفره تقية ومصانعة بعد أن كان مسلماً .

وقد رخّص الله ذلك رفقاً بعباده واعتباراً للأشياء بغاياتها ومقاصدها .

وفي الحديث : أن ذلك وقع لعمار بن ياسر ، وأنه ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فصوّبه وقال له : " وإن عادوا لك فعُد " .

وأجمع على ذلك العلماء .

وشذّ محمد بن الحسن فأجرى على هذا التظاهر بالكفر حكمَ الكفّار في الظاهر كالمرتدّ فيستتاب عن المِكنة منه .

وسوّى جمهور العلماء بين أقوال الكفر وأفعاله كالسجود للصنم .

وقالت طائفة : إن الإكراه على أفعال الكفر لا يبيحها .

ونُسب إلى الأوزاعي وسحنون والحسن البصري ، وهي تفرقة غير واضحة .

(86/444)

وقد ناط الله الرخصة باطمئنان القلب بالإيمان وغفر ما سوّل القلب .

وإذا كان الإكراه موجب الرخصة في إظهار الكفر فهو في غير الكفر من المعاصي أولى كشرب الخمر والزنا ، وفي رفع أسباب المؤاخذة في غير الاعتداء على الغير كالإكراه على الطلاق أو البيع .

وأما في الاهتداء على الناس من ترتّب الغُرْم فبين مراتب الإكراه ومراتب الاعتداء المكره عليه تفاوت ، وأعلاها الإكراه على قتل نفس .

وهذا يظهر أنه لا يبيح الإقدام على القتل لأن التوعّد قد لا يتحقق وتفوت نفس القتيل .

على أن أنواعاً من الاعتداء قد يُجعل الإكراه ذريعة إلى ارتكابها بتواطوء بين المكرِه والمكرَه .

ولهذا كان للمكره بالكسر جانب من النظر في حمل التبعة عليه .

وهذه الآية لم تتعرّض لغير مؤاخذة الله تعالى في حقّه المحض وما دون ذلك فهو مجال الاجتهاد .

والخلاف في طلاق المكره معلوم ، والتفاصيل والتفاريع مذكورة في كتب الفروع وبعض التفاسير .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) ﴾

هذه الجملة واقعة موقع التعليل فلذلك فصلت عن التي قبلها ، وإشارة ذلك إلى مضمون قوله ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [سورة النحل : 106] .

وضمير بأنهم ﴾ عائد إلى ﴿ من كفر بالله ﴾ [سورة النحل : 106] سواء كان ما صْدق مَن ﴾ معيّناً أو مفروضاً على أحد الوجهين السابقين .

والباء للسببية، فمدخولها سبب.

و﴿ استحبّوا ﴾ مبالغة في (أحبوا) مثل استأخر واستكان.

وضمن (استحبّوا) معنى (فضّلوا) فعدي بحرف (على)، أي لأنهم قدّموا نفع الدنيا على نفع الآخرة، لأنهم قد استقر في قلوبهم أحقّية الإسلام وما رجعوا عنه إلا خوفَ الفتنة أو رغبة في رفاهية العيش، فيكون كفرهم أشدّ من كفر المستصحبين للكفر من قبل البعثة.

(87/444)

﴿ وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ سبب ثَان للغضب والعذاب، أي وبأن الله حرمهم الهداية فهم موافونه على الكفر.

وقد تقدم تفسير ذلك عند قوله تعالى: ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ﴾ [سورة النحل: 104].

وهو تذييل لِما في صيغة القوم الكافرين ﴾ من العموم الشامل للمتحدّث عنهم وغيرهم، فليس ذلك إظهاراً في مقام الإضمار ولكنه عموم بعد خصوص.

وإقحام لفظ (قوم) للدّلالة على أن من كان هذا شأنهم فقد عرفوا به وتمكّن منهم وصار

سجيّة حتى كأنهم يجمعهم هذا الوصفُ .

وقد تقدّم أن جريان وصف أو خبر على لفظ (قوم) يؤذن بأنه من مقوّمات قوميتهم كما في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) ، وقوله تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ في سورة يونس (101) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾

جملة مبيّنة لجملة ﴿ وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ [سورة النحل : 107] بأن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها : من النظر الصادق في دلائل الوحدانية ، ومن الوعي لدعوة الرسول والقرآن المنزّل عليه ، ومن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان ، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبّسوا به .

وافتتاح الجملة باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز تبييناً لمعنى الصّلة المتقدمة ، وهي اتصافهم بالارتداد إلى الكفر بعد الإيمان بالقول والاعتقاد .

وأخبر عن اسم الإشارة بالموصول لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الحكم المبين بهذه الجملة .

وهو مضمون جملة ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [النحل : 106] .

والطّبع : مستعار لمنع وصول الإيمان وأدلّته ، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس .

وقد تقدّم مفصّلاً عند قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ في سورة البقرة (7)

(88/444)

وجملة وأولئك هم الغافلون ﴾ تكملة للبيان ، أي الغافلون الأكملون في الغفلة ، لأن الغافل البالغ الغاية ينافي حالة الاهتداء .

والقصر قصر موصوف على صفة ، وهو حقيقي ادعائي يقصد به المبالغة ، لعدم الاعتداد بالغافلين غيرهم ، لأنهم بلغوا الغاية في الغفلة حتى عُدّ كل غافلٍ غيرهم كمن ليس بغافل .

ومن هنا جاء معنى الكَمال في الغفلة لا من لام التّعريف .

وجملة ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ واقعة موقع النتيجة لما قبلها ، لأن ما قبلها صار كالدليل على مضمونها ، ولذلك افتتحت بكلمة نفي الشكّ .

فإن ﴿ لا جَرَم ﴾ بمعنى (لا محالة) أو (لا بُد) .

وقد تقدّم آنفاً في هذه السورة عند قوله تعالى : ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون ﴾ وتقدم بسط تفسيرها عند قوله تعالى : ﴿ لا جرم أنّهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ في سورة هود (22) .

والمعنى : أن خسارتهم هي الخسارة ، لأنهم أضاعوا النعيم إضاعة أبدية .

ويجري هذا المعنى على كلا الوجهين المتقدّمين في ما صْدق (مَن) من قوله : ﴿ من كفر بالله ﴾ [سورة النحل : 106] الآية .

ووقع في سورة هود (22) ﴿ هم الأخسرون ﴾ ووقع هنا هم الخاسرون ﴾ لأن آية سورة هود (21) تقدّمها ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، فكان المقصود بيان أن خسارتهم في الآخرة أشدّ من خسارتهم في الدنيا .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) ﴾

عطف على جملة ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلى قوله : ﴿ هم الخاسرون ﴾ [سورة النحل : 106 109] .

و﴿ ثمّ ﴾ للترتيب الرتبي ، كما هو شأنها في عطفها الجمل .

وذلك أن مضمون هذه الجلة المعطوفة أعظمُ رُتبة من المعطوف عليها ، إذ لا أعظم من رضى الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [سورة آل عمران : 15] .

والمراد ﴿ بالذين هاجروا ﴾ المهاجرون إلى الحبشة الذين أذِن لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة للتخلّص من أذى المشركين .

ولا يستقيم معنى الهجرة هنا إلا لهذه الهجرة إلى أرض الحبشة .

قال ابن إسحاق : " فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمّه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مِلكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مَخافة الفتنة وفراراً بدينهم " أ هـ .

فإن الله لما ذكر الذين آمنوا وصبروا على الأذى وعذر الذين اتّقوا عذاب الفتنة بأن قالوا كلام الكفر بأفواههم ولكن قلوبهم مطمئنة بالإيمان ذكر فريقاً آخر فازوا بفرار من الفتنة ، لئلا يتوهّم متوهّم أن بعدهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الشدّة يوهن جامعة المسلمين فاستُوفِيَ ذكر فرق المسلمين كلها .

وقد أومَأ إلى حظّهم من الفضل بقوله : ﴿ هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ ، فسمّى عملهم هِجرة .

وهذا الاسم في مصطلح القرآن يدل على مفارقة الوطن لأجل المحافظة على الدين ، كما حكي عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ [سورة العنكبوت : 26

.[

وقال في الأنصار يحبّون من هاجر إليهم، أي المؤمنين الذين فارقوا مكّة.

وسمّى ما لقوه من المشركين فتنة.

والفتنة: العذاب والأذى الشديد المتكرّر الذي لا يترك لمن يقع به صبراً ولا رأياً، قال تعالى: ﴿ يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم ﴾ [سورة الذاريات: 14]، وقال: ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ [سورة البروج: 10].

وتقدم بيانها عند قوله تعالى: ﴿ والفتنة أشدّ من القتل ﴾ في سورة البقرة (191).

أي فقد نالهم الأذى في الله.

والمجاهدة: المقاومة بالجُهد، أي الطاقة.

(90/444)

والمراد بالمجاهدة هنا دفاعهم المشركين عن أن يردّوهم إلى الكفر.

وهاتان الآيتان مكّيتان نازلتان قبل شرع الجهاد الذي هو بمعنى قتال الكفار لنصر الدين.

والصبر: الثبات على تحمّل المكروه والمشاق، وتقدم في قوله تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ في سورة البقرة (45).

وأكّد الخبر بحرف التوكيد وبالتوكيد اللفظي لتحقيق الوعد ، والاهتمام يدفع النقيصة عنهم في الفضل .

ويدلّ على ذلك ما في صحيح البخاري : أن أسماء بنت عُميس ، وهي ممّن قدم من أرض الحبشة ، دخلت على حفصة فدخل عمر عليهما فقال لها : سبقناكم بالهجرة فنحن أحقّ برسول الله منكم ، فغضبت أسماء وقالت : كلا والله ، كنتم مع النبي يُطعم جائعَكم ويعظ جاهلكم ، وكنّا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة ونحن كنا نؤذى ونُخاف ، وذلك في الله ورسوله ، وأيم الله لا أطعَم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بيتَ حفصة قالت أسماء : يا رسول الله إن عمر قال كذا وكذا ، قال : فما قلتِ له ؟ قالت : قلت له كذا وكذا ، قال:

" ليست بأحقّ بي منكم وله ولأصحابه هِجرة واحدة ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان " .

واللام في قوله : ﴿ للذين هاجروا ﴾ متعلّق ب"غفور" مقدّم عليه للاهتمام .

وأعيد ﴿ إن ربك ﴾ ثانياً لطول الفصل بين اسم ﴿ إن ﴾ وخبرها المقترن بلام الابتداء مع إفادة التأكيد اللّفظي .

وتعريف المسند إليه الذي هو اسم ﴿ إن ﴾ بطريق الإضافة دون العلمية لما يُومىء إليه إضافة لفظ (ربّ) إلى ضمير النبي من كون المغفرة والرحمة لأصحابه كانت لأنهم أوذوا لأجل الله ولأجل النبي صلى الله عليه وسلم فكان إسناد المغفرة إلى الله بعنوان كونه ربّ

محمد صلى الله عليه وسلم حاصلاً بأسلوب يدلّ على الذّات العليّة وعلى الذّات المحمدية .

وهذا من أدقّ لطائف القرآن في قرن اسم النبي باسم الله بمناسبة هذا الإسناد بخصوصه .

(91/444)

وضمير ﴿ من بعدها ﴾ عائد إلى الهجرة المستفادة من ﴿ هاجروا ﴾ ، أو إلى المذكورات : من هجرة وفتنة وجهاد وصبر ، أو إلى الفتنة المأخوذة من ﴿ فتنوا ﴾ .

وكل تلك الاحتمالات تشير إلى أن المغفرة والرحمة لهم جزاء على بعض تلك الأفعال أو كلّها .

وقرأ ابن عامر ﴿ فَتَنوا ﴾ بفتح الفاء والتاء على البناء للفاعل ، وهي لغة في افتتن ، بمعنى وقع في الفتنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(92/444)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

الحق سبحانه وتعالى سبق وأنْ تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدّث عن الذين يخلفون العهد ولا يُوفون به ، ثم تحدث عن الذين افتروْا على رسول الله والذين كذَّبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لا بُدَّ أنْ تُثار .

وفي هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فالقول وحده لا يكفي ولا بُدَّ وأنْ تشهدَ بذلك ، ومعنى تشهد أنْ يُواطِيء القلب واللسان كل منهما الآخر في هذه المقولة .

والمتأمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضي أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أنْ يُواطِيءَ القلب اللسان إيجاباً بالإيمان ؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقيّ في إيمانه ؛ لأنه يقول ما يُضمره قلبه .

الثانية : أنْ يُواطِيءَ القلب اللسان سلباً أي : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقي في كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أنْ يؤمن بلسانه ويُضمِرَ الكفر في قلبه ، وهذه حالة المنافق ، وهو غير منطقيّ في إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هي المرادة في هذه الآية . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر ؟ وما جزاؤه ؟

قوله :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ . . ﴾ [النحل : 106] .

هذه جملة الشرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخْلَ للإنسان فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، في حين قلبه مطمئن بالإيمان .

﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ . . ﴾ [النحل : 106]

.

(93/444)

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلنا على أنه لا شيء عليه ، ولا بأس أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهي رخصة تقي الإنسان موارد الهلاك في مثل هذه الأحوال .

وفي تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقتْ كلمة الكفر وهي مطمئنة بالإيمان .

وفي الحديث الشريف : " رفع عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه " .

ويذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين في الإسلام ، فكيف استشهدا ؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرّضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة مقابل العفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين ؟ صَدَعا بالحق وأصرّا على الإيمان حتى نالا الشهادة في سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أخذ بها ، حينما تعرّض لتعذيب المشركين . " وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمار بن ياسر كفر ، فأنكر صلى الله عليه وسلم هذا ، وقال : " إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان في عمار قد اختلط بلحمه ودمه "

.

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكي ، ثم قص عليه ما تعرّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلَّصني من أيديهم إلا أنِّي تناولتك وذكرت آلهتهم بخير ، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له " إنْ عادوا إليك فَقُلْ لهم ما قلت " .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : فما بال بلال ؟ فقال : " عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق " .

ولا شكَّ أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأهله ، وأن الصَّدْعَ بالحق والصبر على البلاء

أعْلَى منزلةً ، وأَسْمَى درجة من الأَخْذ بالرخصة ؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

(94/444)

لذلك ، " ففي حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نُبوّته ، فقال لرجل : ما تقول في محمد ؟ قال : رسُول الله ، قال : فما تقول فيَّ ؟ فقال الرجل في لباقة : وأنت كذلك ، يعني أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحة بنبوة هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : وما تقول فيَّ ؟ فقال الرجل متهكماً : اجهر لأني أصبحت أصمَّ الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما قال : " أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق " .

وقد تحدَّث العلماء عن الإكراه في قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ . . ﴾ [النحل : 106] .

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالي :

إذا أكره الإنسان على أمر ذاتيٍّ فيه . كأن قيل له : اشرب الخمر وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك قالوا : يجب عليه في هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه ؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس مَنْ يعصون الله بشربها . فإنْ قيل له : اكفر بالله وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك ، قالوا : هو مُخيَّر بين أن يأخذ بالتقيّة هنا ، ويستخدم الرخصة التي شرعها الله له ، أو يصدع بالحق ويصمد .

أما إذا تعلّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير ، كأنْ قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلتك ، ففي هذه الحالة لا يجوز لك قَتْله ؛ لأنك لو قتلتهُ لقُتلت قِصَاصاً ، فما الفائدة إذن ؟ .

وبعد أن تحدّث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أُكرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ، يتحدث عن النوع الآخر :

﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً . . ﴾ [النحل : 106] .

أي : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُنْشرِحاً بها صدره ، وهذا النوع هو المقصود في جواب الشرط .

﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : 106] .

فإنْ كانت الآيات قد سكتت عَمَّنْ أُكرِهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكره ، فقد بيَّنت أن من شرح بالكفر صدراً عليه غضب من الله أي : في الدنيا . ولهم عذاب عظيم أي : في الآخرة .

وكما رأينا في تاريخ الإسلام نماذج للنوع الأول الذي أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صَدْراً ، وهم المنافقون ، ومنهم مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبي السرح من عامر بن لؤي .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا . . . ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ أي : ما استحقوه من العذاب السابق .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة . . ﴾ [النحل : 107] .

استحب : أي آثر وتكلَّف الحب ؛ لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أَنْ تُحبَّ لذاتها ، ولَوجدَ الأغيار بها كثيرة تتقلَّب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدّل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السَّقَم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة ؟ !

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أنْ نعطي كلاًّ من الدنيا والآخر ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة في حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلاَّ ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله ؟

لذلك نقول: إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسى، وأتفه من أن تكون غاية، وقد قال الحق سبحانه:

﴿ وَلاَ تنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا .. ﴾ [القصص: 77].

ففهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأخذ الحظوظ منها، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيّناً مُعرَّضاً للنسيان والإهمال، فيُذكِّرنا بها، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب، فأنا لا أقول لك: لا تنسَ الشيء الفلاني إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام.

(96/444)

ويكفينا وَصْف هذه الحياة بالدنيا، فليس هناك وَصْفٌ أقلّ من هذا الوصف، والمقابل لها يقتضي أن نقول: العُلْيا وهي الآخرة، نعم نحن لا ننكر قَدْر الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها، ففيها الحياة والحسّ والحركة، وفيها العمل الصالح والذكْرى الطيبة .. الخ.

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء، في حين أن الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التي لا يعتريها زوال، ولا يهددها موت، كما قال الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64].

أي: الحياة الحقيقية التي يجب أن نحرص عليها ونحبها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . ﴾ [الأنفال: 24].

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرزَقُون؟ قالوا: يُحييكم أي: الحياة الحقيقية الباقية التي لا تزول.

وقوله:

﴿ على الآخرة . . . ﴾ [النحل: 107].

لقائل أن يقول: إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة، فكيف يُقَال عنهم:

﴿ استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة . . ﴾ [النحل: 107].

نقول: من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم:

﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: 38].

وأيضاً منهم مَنْ قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف: 36].

إذن: من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة، ولكنه يُفضّل عليها الدنيا.

قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [النحل: 107].

أي : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوي فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

(97/444)

إذن : إذا نفيتَ الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصبتْ على الكافر لكونه كافراً ، فكأن كُفْره سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يَهْده الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108) ﴾

طبع : أي ختم عليها ، وإذا تأملتَ الخَتْم وجدتَ المقصود منه أن الشيء الداخل يظلّ داخلاً لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجاً لا يدخل .

وفَرْقٌ بين ختم البشر وختم ربِّنا سبحانه ، فقصارى ما نفعله أن نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلاً ، أو نريد إغلاق مكان ما نختم عليه بالشمع الأحمر لنتأكد من غلقه ، ومع ذلك نجد مَنْ يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا ختم الحق سبحانه وتعالى على شيء فلا يستطيع أحد التحايل عليه سبحانه .

فالمراد إذن بقوله تعالى :

﴿ طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ . . ﴾ [النحل : 108] .

أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل فيها ؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذي تصبّ فيه الحواس التي هي وسائل الإدراكات المعلومية ، وأهمها السمع والبصر .

فالبسمع تسمع الوحي والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله في كونه وعجيب صُنْعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفتْ هذه الحواسّ عما أراده الله منها ، وبدل أن تمدّ القلب بدلائل الإيمان تعطَّلتْ وظيفتها .

فالسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْع اعتباريّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبصر ما حرم الله فلا يوجد بصر اعتباري ، فما الذي سيصل إلى القلب إذن من خلال هذه الحواس ؟

(98/444)

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله في كونه فلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أراد الإيمان قلنا له : لا بُدَّ أن تُخرِج الكفر من قلبك أولاً ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان

في قلب واحد ؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى في الماديات يسمونه (عدم التداخل)

يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فترى أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء .

فكذلك الحال في الأوعية المعنوية .

فإن أردت الإيمان أيها الكافر فأخرجْ أولاً ما في قلبك من الكفر ؛ واجعله مُجرّداً من كل هوى ، ثم ابحث بعقلك في أدلة الكفر وأَدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدْخله في قلبك ، لكن أنْ تبحث أدلة الإيمان وفي جوفك الكفر فهذا لا يصحّ ، لا بُدّ من إخلاء القلب أولاً وتجعل الأمرْين على السواء .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : 4] .

وفي الأثر : " لا يجتمع حب الدنيا وحب الله في قلب واحد " .

لأن الإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعلْه مزدحماً بالمظروف فيه .

كما أن طَبْع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعطي عبده مراده ، حتى وإنْ كان مراده الكفر ، وكأنه سبحانه يقول لهؤلاء : إنْ كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنشرح له صدوركم فسوف اطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، بل

وأزيدكم منه إنْ أحببتُمْ، كما قال تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً . . ﴾ [البقرة: 10].

فهنيئاً لكم بالكفر، واذهبوا غيْرَ مأسوف عليكم.

وقوله: ﴿ وأولئك هُمُ الغافلون ﴾ [النحل: 108].

الغافل: مَنْ كان لديه أمر يجب أن يتنبه إليه، لكنه غفل عنه، وكأنه كان في انتظار إشارة تُنبّه عقله ليصل إلى الحق.

(99/444)

ثم يُنهي الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى:

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109) ﴾

فقوله تعالى:

﴿ لاَ جَرَمَ . . ﴾ [النحل: 109].

أي: حقاً ولا بُدَّ، أولاً جريمة في أن يكون هؤلاء خاسرين في الآخرة، بما اقترفوه من مُوجبات الخسارة، وبما أَتَوْا به من حيثيّات ترتّبَ عليها الحكم بخسارتهم في الآخرة، فقد حقّ لهم وثبت لهم ذلك.

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحيثيات ، بدايةً من قَوْلهم عن رسول الله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ . . . ﴾ [النحل : 101] .

وقولهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . ﴾ [النحل : 103] .

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانشراح صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبتْ لهم الخسران في الآخرة يوم تُصفّي الحسابات ، وتنكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْراناً مَن اقتراف كل هذه الجرائم ؟ !

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فُتِنُواْ . . . ﴾ [النحل : 110] .

أي : ابتلوا وعُذّبوا عذاباً أليماً ؛ لأنهم أسلموا .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 110] .

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعبادة الذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب ؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب ليئسَ من رحمة الله ، ولتحوّل وإن أذنب ولو ذنباً واحداً إلى مجرم يشقَى به المجتمع ، فلم يرَ أمامه بارقة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويغفر ذنب المسيء ، كما جاء في الحديث الشريف : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها " .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إنْ أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدِّل سيئاته حسناتٍ ، كما قال سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : 70] .

لو رأى المذنب ذلك كان أَدْعى لإصلاحه ، وأجْدَى في انتشاله من الوَهْدة التي تردَّى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . . ﴾ [التوبة : 118] .

أي : شرع لهم التوبة ودلَّهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإنْ اغترَّ مُغْترٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لي حسنات . نقول له : ومَنْ يدريك لعله لا ينطبق عليك شروط الذين يُبدّل الله سيئاتهم حسنات ،

وهل تضمن أنْ يُمهِلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتي بغتة ؟ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(101/444)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : " لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلى المدينة ، قال لأصحابه : تفرقوا عني ، فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل ، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل ، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض ، فالحقوا بي . فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت ، فأصبحوا بمكة فأخذهم المشركون وأبو جهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه ، فإذا ألبسوها إياه قال : أحد . . أحد . . وأما خباب ، فجعلوا يجرونه في الشوك ، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقيةً ، وأما الجارية ، فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدها فأدخل الحربة في قلبها

حتى قتلها ، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار ، فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بالذي كان من أمرهم ، واشتد على عمار الذي كان تكلم به . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت : أكان منشرحاً بالذي قلت أم لا ؟ قال : لا . قال : وأنزل الله ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار ، عن أبيه قال : " أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم . بخير ، ثم تركوه فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالايمان . قال : إن عادوا فعد . فنزلت ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ " .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين : " إن النبي لقي عماراً وهو يبكي ، فجعل يمسح عن عينيه ويقول : أخذك الكفار فغطوك في الماء فقلت كذا وكذا . . . فإن عادوا فقل ذلك لهم " .

وأخرج ابن سعد عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر في قوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ قال : ذلك عمار بن ياسر ، وفي قوله : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ قال : ذاك عبد الله بن أبي سرح.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن أبي مالك في قوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ قال : نزلت في عمار بن ياسر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحكم ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ قال : نزلت في عمار .

وأخرج ابن جرير عن السدي ، أن عبد الله بن أبي سرح أسلم ثم ارتد فلحق بالمشركين ، ووشى بعمار وخباب عند ابن الحضرمي ، أو ابن عبد الدار فأخذوهما وعذبوهما حتى كفرا ، فنزلت ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه ، عن أبي المتوكل الناجي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمار بن ياسر إلى بئر للمشركين يستقي منها ، وحولها ثلاث صفوف يحرسونها ، فاستقى في قربة ثم أقبل ، فأخذوه فأرادوه على أن يتكلم بكلمة الكفر ، فأنزلت هذه الآية فيه ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ نزلت في عمار بن ياسر ، أخذه بنو المغيرة فغطوه في بئر وقالوا : اكفر

بمحمد صلى الله عليه وسلم . فاتبعهم على ذلك وقلبه كاره فنزلت . . .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : نزلت هذه الآية ﴿ إلا من أكره ﴾ في عياش بن أبي ربيعة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة : أن هاجروا فإنا لا نرى أنكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم ، فكفروا مكرهين ، ففيهم نزلت هذه الآية .

وأخرج ابن سعد عن عمر بن الحكم قال : كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وكان صهيب يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وبلال وعامر وابن فهيرة وقوم من المسلمين ، وفيهم نزلت هذه الآية ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه من طريق علي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ من كفر بالله ﴾ الآية ، قال : أخبر الله سبحانه أن ﴿ من كفر بالله من

بعد إيمانه ﴾ فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم ، فأما من أكره ، فتكلم بلسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو بذلك من عدوه ، فلا حرج عليه ، لأن الله سبحانه إنما يؤاخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا في سورة النحل ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ وهو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له أبو بكر وعمر وعثمان بن عفان فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا . . . ﴾ الآية ، قال : ذكر لنا أنه لما أنزل الله أن أهل مكة لا يقبل

منهم إسلام حتى يهاجروا ، كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة فخرجوا فأدركهم المشركون فردوهم ، فأنزل الله ﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ [العنكبوت : 1-2] فكتب بهذا أهل المدينة إلى أهل مكة ، فلما جاءهم ذلك تبايعوا على أن يخرجوا ، فإن لحق بهم المشركون من أهل مكة قاتلوهم حتى ينجوا أو يلحقوا بالله ، فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا . فأنزل الله ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي نحوه .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية فيمن كان يفتن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام ، فنزلت فيهم ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا . . . ﴾ الآية ، فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً فاخرجوا . فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه ، " أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال :

أتشهد أني رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه فقال : إني أَصَمّ . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم . فأرسله . . . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : " أما صاحبك فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخِذْتَ الرخصة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ قال : نزلت في عياش بن أبي ربيعة ، أحد بني مخزوم ، وكان أخا أبي جهل لأمه ، وكان يضربه سوطاً وراحلته سوطاً .

وأخرج ابن جرير عن أبي إسحق في قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ قال : نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد رضي الله عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بالله ﴾ : يجوز فيه أوجهُ ، أحدُها : أن يكونَ بدلاً من ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، أي : إنما يفترى الكذبَ مَنْ كفر . الثاني : أنه بدلٌ مِنَ " الكاذبون " . والثالث : / مِنْ " أولئك " قاله الزمخشريُّ ، فعلى الأولِ يكون قولُه ﴿ وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ جملةً معترضةً بين البدلِ والمُبْدلِ منه .

واستضعف الشيخُ الأوجهَ الثلاثةَ فقال : " لأنَّ الأولَ يقتضي أنه لا يَفْتري الكذبَ إلا مَنْ كفر بالله من بعدِ إيمانِه ، والوجودُ يَقْضي أنَّ المفتريَ مَنْ لا يؤمن ، سواءً كفر بالله من بعدِ إيمانِه ، أم لا ، بل الأكثرُ الثاني وهو المفتري " قال : " وأمَّا الثاني فيَؤُول المعنى إلى ذلك ؛ إذ التقديرُ : وأولئك : أي : الذين لا يؤمنون هم مَنْ كفر بالله من بعدِ إيمانِه ، والذين لا يؤمنون هم المُفْترون . وأمَّا الثالثُ فكذلك ؛ إذ التقديرُ : إنَّ المشارَ إليهم هم مَنْ كفرَ بالله من بعد إيمانه ، مُخْبراً عنهم بأنهم الكاذبون " .

الوجه الرابع : أن ينتصبَ على الذمِّ ، قاله الزمخشري . الخامس : أن يرتفعَ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ على الذمِّ أيضاً . السادس : أن يرتفعَ على الابتداء ، والخبرُ محذوفٌ ، تقديره : فعليهم غضبٌ لدلالةِ ما بعد " مَنْ " الثانيةِ عليه .

السابع: أنها مبتدأً أيضاً، وخبرُها وخبرُ "مَنْ" الثانيةِ أيضاً قولُه ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾، قاله ابن عطية، قال: "إذ هو واحدٌ بالمعنى؛ لأنَّ الإِخبارَ في قولِه ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾ إنما قَصَدَ به الصنفَ الشارِحَ بالكفر". قال الشيخ: "وهذا وإنْ كان كما ذكر، إلا أنهما جملتان شرطيتان، وقد فُصِل بينهما بأداةِ الاستدراك، فلا بد لكلّ واحدةٍ منهما على انفرادِها مِنْ جوابٍ لا يشتركان فيه، فتقديرُ الحَذْفِ أَجْرَى على صناعةِ الإِعراب، وقد ضَعَّفوا مذهبَ الأخفشِ في ادّعائه أنّ قولَه ﴿ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: 91]، وقولُه ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: 89] جوابُ "أمَّا"، و"إنْ" هذا، وهما أداتا شرطٍ وَلِيَتْ إحداهما الأخرى".

الثامن: أن تكونَ "مَنْ" شرطيةً وجوابُها مقدرٌ تقديره: فعليهم غضبٌ؛ لدلالةِ ما بعد "مَنْ" الثانيةِ عليه. وقد تقدَّم أن ابنَ عطيةَ جَعَلَ الجزاءَ لهما معاً، وتقدَّم الكلامُ معه فيه.

قولِه: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ فيه أوجهٌ، أحدُها: أنه مستثنى مقدَّمٌ مِنْ قولِه ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾، وهذا يكونُ فيه منقطعاً؛ لأنَّ المُكْرَهَ لم يَشْرَحْ بالكفرِ صدراً. وقال أبو البقاء: "وقيل: ليس بمقدَّمٍ فهو كقول لبيد:

3016- ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ . . . .

فظاهرُ كلامِه يَدُلُّ على أنَّ بيتَ لبيدٍ لا تقديمَ فيه ، وليس كذلك فإنه ظاهرٌ في التقديمِ جداً .

(108/444)

الثاني : أنه مستثنى مِنْ جوابِ الشرط ، أو مِنْ خبر المبتدأ المقدر ، تقديرُه : فعليهمْ غضبٌ من الله إلا مَنْ أُكْرِه ، ولذلك قَدَّر الزمخشري جزاءَ الشرط قبل الاستثناء ، وهو استثناءٌ متصلٌ ؛ لأنَّ الكفرَ يكون بالقول مِنْ غير اعتقادٍ كالمُكْرَه ، وقد يكون - والعياذُ بالله - باعتقادٍ ، فاستثنى الصِّنفَ الأول .

قوله : { وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ } جملةٌ حالية ، أي : إلا مَنْ أُكْرِهَ في هذه الحالة .

قوله : { ولكن مَّن شَرَحَ } الاستدراكُ واضحٌ ؛ لأنَّ قوله : { إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ } قد يَسْبق الوهمُ إلى الاستثناء مطلقاً فاستدرك هذا . وقوله { وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ } لا ينفي ذلك الوهم . و " مَنْ " : إمَّا شرطيةٌ أو موصولةٌ ، ولكن متى جُعِلَتْ شرطيةً فلا بدُّ من إضمارِ مبتدأ قبلها ؛ لأنه لا يليها الجملُ الشرطية ، قاله الشيخ ثم قال : " ومثلُه :

3017- . . . .

ولكن متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ

أي : ولكن أنا متى يَسْتَرْفِد " وإنما لم تقعِ الشرطية بعد " لكن " لأنَّ الاستدراكَ لا يقع في الشُّروط . هكذا قيل ، وهو ممنوع .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ ﴾ : مبتدأ وخبر ، كنظائرَ مَرَّتْ ، والإشارةُ ب " ذلك " إلى ما ذُكِرَ من الغضبِ والعذاب ؛ ولذلك وُحِّد كقوله : ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] و [قوله]

3018- كأنه في الجِلْدِ . . . . وقد مَرَّ ذلك .

(109/444)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ : في خبر " إنَّ " هذه ثلاثةُ أوجهٍ ، إنه قولُه ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، و ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الثانيةُ واسمُها تأكيدٌ للأولى واسمِها ، فكأنه قيل :

ثم إنَّ ربَّك إنَّ ربَّك لغفورٌ رحيم، وحينئذٍ يجوز في قولِه "للذين" وجهان: أن يتعلَّقَ بالخبرين على سبيل التنازعِ، أو بمحذوفٍ على سبيلِ البيان كأنه قيل: الغُفرانُ والرحمةُ للذين هاجرُوا. الثاني: أن الخبرَ هو نفسُ الجارِّ بعدها كما تقول: إنَّ زيداً لك، أي: هُوَ لك لا عليك بمعنى هو ناصرُهم لا خاذِلُهم، قال معناه الزمخشريُّ [ثم قال "كما يكون المَلِكُ للرجل لا عليه، فيكون مَحْمِيَّاً مَنْفُوْعاً].

الثالث: أن خبرَ الأولى مستغنى عنه بخبر الثانية، / يعني أنه محذوفٌ لفظاً لدلالةِ ما بعده عليه، وهذا معنى قولِ أبي البقاء: "وقيل: لا خبرَ لـ"إنَّ" الأولى في اللفظ؛ لأنَّ خبرَ الثانيةِ أغنى عنه" وحينئذٍ لا يَحْسُنُ رَدُّ الشيخِ عليه بقوله: "وهذا ليس بجيدٍ أنه أُلْغَى حكمَ الأولى، وجَعَلَ الحكمَ للثانيةِ، وهو عكسُ ما تقدَّمَ ولا يجوز".

قولِه: ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ قرأ ابنُ عامر "فَتَنوا" مبنياً للفاعل، أي: فَتَنُوا أَنْفُسَهم، فإن عاد الضميرُ على المؤمنين فالمعنى: فَتَنُوا انفسَهم بما أَعْطَوا المشركين من القولِ ظاهراً، أو أنهم لَمَّا صبروا على عذابِ المشركين فكأنهم فَتَنُوا أنفسَهم، وإنْ عاد على المشركين فهو واضحٌ، أي: فتنُوا المؤمنين.

والباقون "فُتِنُوا" مبنياً للمفعول. والضميرُ في "بعدها" للمصادرِ المفهومةِ من الأفعالِ المتقدمةِ، أي: مِنْ بعد الفتنةِ والهجرةِ والجهادِ والصبرِ. وقال ابن عطية: "عائدٌ على

الفتنةِ أو الفَعْلة أو الهجرة أو التوبة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 288 . 293 ﴾

(110/444)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عبده بقلبه ، وإخلاصَه في عَقْدِه ، ولحقته ضرورة في حاله خَفَّفَ عنه حُكْمَه ، ودَفَع عنه عناءَه فلا يَلْفِظ بكلمة الكفر إلا مُكْرَهاً - وهو مُوَحِّدٌ ، وهو مستحقٌ العُذْرَ فيما بينه وبين الله تعالى . . . وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ، وتجردوا لسلوكِ طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسبابٌ ، واتفقت لهم أعذارٌ ، كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ أو إلى شيءٍ من العلوم رجوعٌ . . . لم يكن ذلك قادحاً في صحة إرادتهم ، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم ، ولا ينفي بذلك عنهم سِمَةَ القَصْدِ إلى الله تعالى .

أَمَّا ﴿ مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ : فرجع باختياره ، ووضع قَدَماً - كان قد رَفَعَه في طريق الله - بِحُكْمِ هواه فقد نَقَضَ عهْدَ إرادته ، وفَسَخَ عقده ، وهو مستوجب (. . . .

) إلى (. . .) تتداركه الرحمة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108)

﴾

إذا تمادى في غفلته ، ولم يتدارك حالَه بملازمةِ حَسْرَته ، ازداد قسوةً على قسوة ، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة ، وكما قال جل ذكره :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109) ﴾

هم في الآخرة محجوبون ، وبِذُلِّ البعد موسومون .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) ﴾

(111/444)

ومَنْ صبَرَ حين عزم الأمر ، ولم يجنح إلى جانب الرُّخَصِ ، وأخذ في الأمور بالأشقّ أكرم اللَّهُ حقّه ، وقرّب مكانَه ، ولَقَّاه في كل حالةِ بالزيادة ، وربحت صفقتُه حين خسِرَ أشكالُه ، وتَقَدَّمَ على الجملةِ وإنْ قَلَّ احتيالُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 324.322﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾

أي : بتوحيد الله ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، والإحسان إلى الناس ، والعفو عن الناس .

ويقال : الإحسان القيام بالفرائض ﴿ وَإِيتَآءِ ذِى القربى ﴾ أي : صلة الرحم ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ أي : عن الزنى ويقال : جميع المعاصي ﴿ والمنكر ﴾ يعني : ما لا يعرف في شريعة ، ولا في سنة .

ويقال : المنكر ما وعد الله عليه النار ﴿ والبغى ﴾ يعني : الاستطالة ، والكبر .

فقد أمر بثلاثة أشياء ، ونهى عن ثلاثة أشياء ، وجمع في هذه الأشياء الستة علم الأولين والآخرين ، وجميع الخصال المحمودة .

وروي عن عثمان بن مظعون أنه قال : ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه كان يدعوني ، فيعرض عليَّ الإِسلام ، فاستحييت منه ، فأسلمت ، ولم يقر الإِسلام في قلبي ، فمررت به ذات يوم وهو بفناء بابه ، جالساً محتبياً ،

فدعاني ، فجلست إليه ، فبينما هو يحدثني ، إذ رأيت بصره شخص إلى السماء حتى رأيت طرفه قد انقطع ، ثم رأيته خفضه عن يمينه ، ثم ولاَّني وركه ينفض رأسه كأنه يستفهم شيئاً يقال له : ثم دعا فرفع رأسه إلى السماء ، ثم خفضه حتى وضعه عن يساره ، ثم أقبل عليَّ محمراً وجهه ، يفيض عرقاً ، فقلت : يا رسول الله ما رأيتك صنعت هذا في طول ما كنت أجالسك فقال : " وَلَقَدْ رَأَيتُ ذَلِكَ " قلت : نعم .

قال : " بَيْنَمَا أُحَدِّثُكَ إِذْ رَفَعْتُ بَصَرِي إلى السَّمَاءِ ، فَرَأَيتُ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ عَلَيَّ ، فَلَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةٌ غَيْرُهُ ، حَتَّى نَزَلَ عَنْ يَمِينِي فَقَالَ : يا مُحَمَّدُ ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآء ذِى القربى ﴾ إلى آخر الآية " .

قال عثمان : فوقر الإيمان في قلبي ، فآمنت ، وصدقته .

(113/444)

قال : فأتيت أبا طالب ، فأخبرته بما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر قريش ، اتبعوا ابن أخي ، ترشدوا ، وتفلحوا ، ولئن كان محمد صادقاً أو كاذباً ، ما يأمركم إلاَّ بمكارم الأخلاق .

فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من عمه اللين ، قال : " يا عَمَّاهُ أَتَأْمُرُ النَّاسَ أَنْ يَتَّبِعُونِي

وَتَدَعُ نَفْسَكَ " وجهد عليه ، فأبى أن يسلم فنزل ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : 56] إلى آخر الآية .

قال الفقيه أبو الليث : حدثنا أبو منصور عبد الله الفرائضي بسمرقند بإسناده عن عكرمة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ إلى آخر الآية .

فقال له : يا ابن أخي أعد عليَّ ، فأعاد عليه ، فقال : والله يا ابن أخي إنّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هذا بقول البشر .

وقال قتادة في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ الآية .

قال : ليس من خلق حسن ، كان أهل الجاهلية يستحسنونه بينهم إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيّئٍ يتعايرونه بينهم إلاَّ نهى الله عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي : يأمركم ، وينهاكم عن هذه الأَشياء التي ذكرها الله في الآية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون .

قوله : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عاهدتم ﴾ يقول : إذا حلفتم بالله ، فأتموا له بالفعل .

ويقال : ﴿ أَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ يعني : العهود التي بينكم وبين الله تعالى ، والعهود التي بينكم وبين الناس .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ الايمان ﴾ يعني : لا تنكثوا العهود ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يعني : بعد

تغليظها ، وتشديدها ، ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ أي : شهيداً على إتمام العهود ، والوفاء بها .

(114/444)

ويقال : حفيظاً على ما قال الفريقان ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ في وفاء العهد ، والنقض .

ثم ضرب الله تعالى مثلاً فقال عز وجل : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ ﴾ في نقض العهد ﴿ كالتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ وهي ريطة الحمقاء بنت عمرو بن كعب بن سعد وهي أم أخنس بن شريق الزهري ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أنكاثا ﴾ أي : من بعد ما أبرمته ، وأحكمته ، كانت إذا غزلت الشعر والكتان نقضته ، ثم غزلته .

فقال : ولا تنقضوا العهد بعد توكيده ، كما نقضت المرأة غزلها ، وقال القتبي : أي لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمان ، والعهود ، ثم تنقضوا ذلك ، فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت ، ثم نقضت ذلك النسج فجعلته أنكاثاً ، والأنكاث ما نقض من غزل الشعر وغيره ، واحدها نكث .

ثم قال : ﴿ تَتَّخِذُونَ أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ أي : دغلاً وخيانة ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ أي

: فريق منكم ﴿ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي : هي أكثر وأغنى من أمة ، من فريق .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في كندة ، ومراد ، وذلك أنه كان بينهم قتال ، حتى كَلَّ الظهر .

ثم توادعوا لستة أشهر ، حتى يصلح الظهر أي : الدواب ، ويجم الخيل .

(115/444)

فلما مضت خمسة أشهر ، أمر قيس بن معديكرب بالجهاد إليهم ، فقالوا : قد بقي من الأجل شهر ، فمكث حتى علم أنه يأتيهم بعد انقضاء الأجل بيوم ، ثم سار إليهم ، فإذا هو يوم انقضاء الأجل ، فقتلوه ، وهزموا قومه ، فذلك قوله : ﴿ وَلَا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السواء بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : 94] يعني : عهودكم بالله دخلاً أي : مكراً وخديعة بينكم ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ يعني : أن تكون أمة أكثر من أمة فينقضون العهد ، لأجل كثرتهم ، فلا تحملنكم الكثرة على نقض العهد ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ ﴾ يعني : إنما يبتليكم الله بالكثرة ، لنقض العهد والوفاء .

وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز ، نقضوا ، وحالفوا

الأعز ، فنزل ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ﴾ أي : يختبركم بنقض العهود وبالكثرة ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين ويبيّن لكم ما نقضتم من العهود ، ويجازيكم به .

قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ أي : على ملة واحدة .

وهي الإسلام ﴿ ولكن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ يعني : يخذل من علم أنه ليس من أهل الإسلام ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ أي : يكرم بالإسلام من هو أهل لذلك ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ ﴾ فهذه اللام لام القسم ، والتأكيد يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : يسألكم ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الوفاء ، والنقض بالعهد .

(116/444)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ أي : إنّ ناقض العهد يزل عن الطاعة ، كما تزل قدم الرجل بعد الاستقامة ﴿ وَتَذُوقُواْ السوء ﴾ أي : تجرعوا العقوبة ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : صرفتم الناس عن دين الإسلام ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : شديد في الآخرة ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ﴾ أي : لا تختاروا على عهد الله ، والحلف به ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ أي : عرضاً يسيراً من الدنيا ﴿ إِنَّمَا

عِنْدَ اللَّهِ ﴾ في الآخرة من الثواب الدائم ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : ثواب الجنة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أن الآخرة خير من الدنيا .

ويقال : إن كنتم تصدقون بثوابه .

قال الكلبي : نزلت الآية في رجل من حضرموت يقال له : عبدان بن الأشوع .

قال : يا رسول الله إنّ امرأ القيس الكندي جاورني في أرض ، فاقتطع أرضي ، فذهب بها ، وغلبني عليها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَيَشْهَدُ لَكَ أَحَدٌ عَلَى ما تَقُولُ " قال : يا رسول الله إنَّ القوم كلهم يعلمون أنّي صادق فيما أقول ، ولكنه أكرم عليهم مني عليهم : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرىء القيس "مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ" قال : الباطل ، والكذب .

فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف .

فقال عبدان : إنه لفاجر ، وما يبالي أن يحلف .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "إنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ شُهُودٌ فَخُذْ يَمِينَهُ" فقال عبدان : وما لِي يا رسول الله إلا يمينه ؟ فقال : "لا" فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يحلف .

فلما قام ليحلف ، أخره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : "انْصَرِفْ" .

فانصرف من عنده .

فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ أي : ما عندكم من أمور الدنيا يفنى ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ أي : ثواب الله في الجنة دائم لأهلها ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ عن اليمين وأقروا بالحق .

ويقال : الذين صبروا على الإيمان ، وأقروا بالحق ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : بالإحسان الذي كانوا يعملون في الدنيا .

ويقال : يجزيهم بأحسن أعمالهم ، ويبقى سائر أعمالهم فضلاً .

قال الكلبي : فلما نزلت هاتان الآيتان ، قال امرؤ القيس : أَمَّا ما عندي فينفد ، وأَمَّا صاحبي فيجزى بأَحسن ما كان يعمل .

اللَّهم إنه صادق فيما قال .

لقد اقتطعت أرضه ، والله ما أدري كم هي ، ولكنه يأخذ ما يشاء من أرض ومثلها معها بما أكلت من ثمارها .

فنزل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ يعني : لا يقبل العمل منه ما لم يكن مؤمناً .

فإذا كان مؤمناً ، وعمل صالحاً ، يقبل منه .

ثم قال : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيّبَةً ﴾ في الجنة .

ويقال: يجعل حياته في طاعة الله.

ويقال: فلنقنع منه باليسير من الدنيا.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الكسب الطيب، والعمل الصالح.

وعن علّي أنه قال: القناعة.

وقال الحسن: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة.

وقال الضحاك: الرزق الحلال، وعبادة الله تعالى.

ثم قال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ أي: ثوابهم ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: يثيبهم بإحسانهم، ويعفو عن سيئاتهم.

قرأ ابن كثير، وعاصم وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ بالنون.

وقرأ الباقون: بالياء.

واتفقوا في قوله: "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ" بالنون.

قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله ﴾ يعني: إذا أردت أن تقرأ القرآن في الصلاة، وفي غير الصلاة، فتعوذ بالله.

وهذا كقولك : إذا أكلت فقل : بسم الله يعني : إذا أردت أن تأكل وهذا مثل قوله ﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكعبين وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا وَإِن كُنتُم مرضى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الغائط أَوْ لامستم النسآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ولكن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : 6] يعني : إذا أردتم القيام للصلاة .

وقوله ﴿ مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ يعني : اللعين .

ويقال : الخبيث .

ويقال : المرجوم .

ويقال : فيه تقديم .

ومعناه : فاستعذ بالله ، إذا قرأت القرآن .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ ليس له غلبة ، ولا حجة .

ويقال : ليس له نفاذ الأمر ﴿ عَلَى الذين ءامَنُواْ ﴾ أي : صدقوا بتوحيد الله تعالى ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : يثقون به ، ولا يثقون بغيره .

قوله : ﴿ إِنَّمَا سلطانه ﴾ أي غلبته وحجته ﴿ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أي : يطيعونه من

دون الله تعالى .

فمن أطاعه فقد تولاه ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أي : أشركوا بعبادة ربهم إياه .

وقال مقاتل : أي بالله تعالى .

وقال القتبي : ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ لم يرد أنهم بإبليس كافرون ، ولو كان هكذا ، لكانوا مؤمنين .

وإنَّما أراد به الذين هم من أجله مشركون بالله تعالى ، كما يقال : صار فلان بك عالماً أي : من أجلك .

قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءايَةً ﴾ يعني : ناسخة ﴿ مَّكَانَ ءايَةٍ ﴾ يعني : منسوخة .

أي : نسخنا آية بآية .

قال ابن عباس : إِنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت عليه آية فيها شدة ، أخذ الناس بها ، وعملوا ما شاء الله أن يعملوا ، فيشق ذلك عليهم .

فينسخ الله تعالى هذه الشدة ، ويأتيهم بما هي ألين منها ، وأهون عليهم ، رحمة من الله لهم ، فيقول لهم كفار قريش : والله ما محمد إِلاَّ يسخر بأصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر ، وغداً

يأتيهم بما هو أهون عليهم منه .

وما يعلمه إلا عابس ، غلام حويطب بن عبد العزى ، ويسار بن فكيهة مولى ابن الحضرمي ، وكانا قد أسلما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهما ، فيحدثهما ، ويعلمهما ، وكانا يقرآن كتابهما بالعبرانية .

فنزل ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ يعني : بما يصلح للخلق ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ أي : مختلق من تلقاء نفسك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله أمرك بما يشاء ، نظراً لصلاح العباد .

وقال مقاتل : في الآية تقديم ، ومعناه : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ فتقول على الله تعالى الكذب .

قلت : كذا ثم نقضته ، فجئت بغيره .

ثم قال في التقديم : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ يعني : قل يا محمد نزل جبريل بالقرآن ، والتشديد لكثرة نزوله .

ويقال : نَزَّلَ بمعنى تَنَزَّلَ .

كما يقال : قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ .

وبَيَّنَ : بمعنى تَبَيَّنَ .

ويقال : ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ بمعنى : تلاه ، وبلغه .

ويقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس ﴾ يعني : جبريل الذي يأتيك بالناسخ والمنسوخ ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : من عند ربك .

ويقال : من كلام ربك ﴿ بالحق ﴾ أي : بالوحي .

ويقال : بالصدق .

ويقال : للحق .

ويقال : لصلاح الخلق ﴿ لِيُثَبِّتَ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي : ليحفظ قلوب الذين آمنوا على الإسلام .

(120/444)

ويقال : لِتطمئن إليه قلوب الذين آمنوا ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة ﴿ وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ بالجنة .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ يعني : أن كفار قريش يقولون : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ يعنون : جبراً ويساراً .

وروى حصين عن عبد الله بن مسلم قال : كان لنا غلامان من أهل اليمن نصرانيان ، اسم

أحدهما يسار ، والآخر جبر ، صيقليان .

وكانا يقرآن بلسانهما ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ، يسمع منهما .

فقال المشركون : إنما يتعلم منهما ، فأكذبهم الله تعالى حيث قال : ﴿ لِّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ أي : رومي اللسان .

وقال مقاتل كان غلام لعامر بن الحضرمي اسمه يسار ، يهودي أعجمي اللسان ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا آذاه كفار قريش يدخل عليه ، ويحدثه ، فقال المشركون : إنما يعلمه يسار .

فقال الله تعالى رداً عليهم : ﴿ لِّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ أي : يميلون إليه ، ويزعمون أنه يعلمه أعجمي أي : عبراني .

وأصل الإلحاد الميل ﴿ وهذا ﴾ يعني : القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ يعني : مفقه بلغتهم .

وروي عن طلحة بن عمير أنه قال : بلغني أن خديجة كانت تختلف إلى غلام ابن الحضرمي ، وكان نصرانياً ، وكان صاحب كتب .

يقال له : جبر وكانت قريش تقول : إنَّ عبد ابن الحضرمي يعلم خديجة ، وخديجة تعلم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فنزل ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ ثم أسلم جبر بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وهاجر مع سيده .

قرأ ابن كثير ﴿ رُوحُ القدس ﴾ بجزم الدال.

وقرأ الباقون: ﴿ القدس ﴾ بضم الدال وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بنصب الياء والحاء.

وقرأ الباقون: ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بضم الياء وكسر الحاء ومعناهما واحد.

(121/444)

ثم قال: ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ أي: القرآن ﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله ﴾ أي: لا يوفقهم الله، ولا يكرمهم، لقلة رغبتهم في الإيمان.

ويقال: لا ينجيهم في الآخرة من النار ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة.

ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله وَأُوْلَئِكَ هُمُ الكاذبون ﴾ قال الزجاج: معناه ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلاَّ الله، كذبوا بها، وهؤلاء أكذب الكذبة.

قوله ﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ فعليهم غضب من الله على معنى التقديم.

ثم استثنى فقال: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ أي: أكره على الكفر، وتكلم بالكفر مكرهاً ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ أي: قلبه معتقد عليه.

وهو عمار بن ياسر ، وأصحابه .

وذلك أن ناساً من أهل مكة آمنوا ، فخرجوا مهاجرين ، فأدركتهم قريش بالطريق ، فعذبوهم ، فكفروا مكرهين ، فنزلت هذه الآية فيهم .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

وروي عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن عمار بن ياسر أخذه بنو المغيرة ، فطرحوه في بئر ميمونة حتى أمسى ، فقالوا له : اكفر بمحمد ، وأشرك بالله فبايعهم على ذلك ، وقلبه كاره فنزلت الآية .

وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى عمار بن ياسر وهو يبكي ، فجعل يمسح الدموع من عينيه ، ويقول : أخذني الكفار ، ولم يتركوني حتى نلت منك ، وذكرت آلهتهم بخير .

فقال : "كَيْفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ" قال : مطمئن بالإيمان .

فقال : "إِنْ عَادُوا فَعُدْ" .

وقال مقاتل : أسلم جبر مولى ابن الحضرمي ، فأخذه مولاه وعذبه ، حتى رجع إلى اليهودية .

ثم رجع إلى هؤلاء النفر ، فنزلت الآية ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ ثم بيّن حال الذين ثبتوا على الكفر فقال : ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي : فتح صدره بالقبول .

يعني: قبل الكفر طائعاً وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتدّ ولحق بمكة ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: شديد في الآخرة ﴿ ذلك ﴾ العذاب ﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة ﴾ أي: اختاروا الدنيا ﴿ على الآخرة وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى ﴾ أي: لا يرشد إلى دينه ﴿ القوم الكافرين ﴾ أي: لا يرشدهم إلى دينه.

قوله: ﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ مجازاة لهم ﴿ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ أي: ختم على قلوبهم، وسمعهم، وأبصارهم، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الغافلون ﴾ أي: التاركون لأمر الله تعالى ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي: حقاً ﴿ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا ﴾ قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر، وأبويه، وبلال، وصهيب، وخباب بن الأرت، عذبهم المشركون، ثم هاجروا إلى المدينة، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا ﴾ ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ يقول: عذبهم أهل مكة ﴿ ثُمَّ جاهدوا ﴾ مع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَصَبَرُواْ ﴾ على البلاء، وصبروا على دينهم، وصبروا مع النبي صلى الله عليه وسلم على طاعة الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي: من بعد الفتن.

ويقال: من بعد الهجرة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ .

ويقال: نزلت الآية في عياش بن أبي ربيعة.

وقد ذكرناه في سورة النساء .

قرأ ابن عامر ﴿ مِن بَعْدِ مَا فَتَنُواْ ﴾ بفتح الفاء والتاء ، أي: أصابتهم الفتنة.

وقرأ الباقون ﴿ فُتِنُواْ ﴾ على معنى فعل ما لم يسم فاعله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 287. 294 ﴾

(123/444)

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل ﴾

يعني بالإنصاف ﴿ والإحسان ﴾ إلى الناس ، الوالبي عن ابن عبّاس: العدل: التوحيد ، والإحسان أداء الفرائض.

[وقيل:] العدل: شهادة أن لا إله إلاّ الله ، والاحسان: الاخلاص فيه .

عطاء عنه: العدل: مصطلح الأنداد ، والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، مقاتل:

العدل: التوحيد ، والإحسان: العفو عن الناس ، وقيل: العدل في الأفعال والإحسان في

الأقوال . كقوله : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [البقرة : 83] .

﴿ وَإِيتَآءِ ذِي القربى ﴾ صلة الرحم ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ القبيح من الأقوال والأفعال .

وقال ابن عبّاس : الزنا .

﴿ والمنكر ﴾ ما لا يُعرف في شريعة ولا سنّة ﴿ والبغي ﴾ الفسق والظلم .

وقال ابن عيينة : [والعدل في مستوى] السر والعلانية .

والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته . والفحشاء أن تكون علانيته أحسن من سريرته .

﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون .

قتادة : إن الله تعالى أمر عباده بمكارم الأخلاق ومعاليها ، ونهاهم عن سفاسف الأخلاق ومذاقها .

وقال ابن مسعود : وأجمع آية في القرآن هذه الآية .

شهر بن حوشب عن ابن عبّاس قال : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته بمكة جالساً إذ مرَّ به عثمان بن مظعون فكسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله : " ألا تجلس " قال : بلى ، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقبله فبينما هو يحدّثه إذ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره إلى السماء فنظر ساعة فأخذ يضع بصره حتّى وقع على يمينه في الأرض فتحرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنّه يستفهم شيئاً يقال له ، ثمّ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتّى توارى في السماء فأقبل إلى عثمان كحالته الأولى ، فقال : يا محمّد فيما كنت أُجالسك ما رأيتك تفعل فعلتك لغداة ؟ قال : " وما رأيتني فعلت " ؟ قال : رأيتك تشخص بصرك إلى السماء ثمّ وضعته على يمينك فتحرّفت إليه وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفهم شيئاً يقال لك . فقال : " أو فطنت إلى ذلك " ؟ قال : نعم ، قال : " أتاني رسول الله جبرائيل آنفاً وأنت جالس " قال : نعم : فماذا قال : لك ؟ قال : قال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ إلى آخره " .

قال عثمان : فذلك الحين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

وروى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ على الوليد بن المغيرة ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل ﴾ إلى آخر الآية ، قال له : يا بن أخ أعد ، فأعاد عليه .

فقال : إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة فإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر ، ثمّ لم يسلم ، فأنزل الله فيه : ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ [النجم : 34] .

(125/444)

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ تشديدها [ويحنثوا فيها] ، والتوكيد لغة أهل الحجاز ، أمّا أهل نجد فإنهم يقولون : أُكّدت تأكيداً ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ بالوفاء ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية وإن كان حكمها عاماً .

فقال بعضهم : نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم الله بالوفاء بها .

وقال مجاهد وقتادة : نزلت في حِلف أهل الجاهلية .

ثمّ ضرب جلّ ثناؤه مثلاً لنقض العهد ، فقال عز من قائل : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أي من بعد إبرامه وإحكامه ، وكان بعض أهل اللغة يقول : القوة ما غزل على طاقة واحدة ولم يثن .

الكلبي ومقاتل : هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها : ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم كانت اتخذت مغزلاً بقدر ذراع وصنارة مثل الإصبع وفلل عظمة

على قدرها وكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر وتأمر جواريها بذلك فكنّ يغزلنّ من الغداة إلى نصف النهار ، فإذا إنتصف النهار أمرت جواريها بنقض جميع ما غزلن فهذا كان دأبها .

وقوله ﴿ أَنكَاثاً ﴾ يعني أنقاضاً واحدتها نكثة ، وهو كل ما نقض بعد الفتل غزلاً كان أو حبالاً ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ أي دخلاً وخيانة وخديعة .

قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل .

﴿ أَن تَكُونَ ﴾ أي لأن تكون ﴿ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى ﴾ أكثر وأجلّ ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ .

(126/444)

قال مجاهد : ذلك أنهم كانوا يحالفون الحلف فيجدون أكبر منهم وأعز ويستيقنوه فيحلف هؤلاء ويحالفون الأكثر فنهاهم الله تعالى عن ذلك ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ﴾ يختبركم بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على ملّة واحدة ، ﴿ ولكن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ بخذلانه إياهم عدلاً منه فيهم ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ بتوفيقه إياهم فضلاً منه ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَا تتخذوا أَيمَانَكُمْ دَخَلاً ﴾ خديعة وفسادا ً ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ يغرون بها الناس فتسكنون إلى إيمانكم ويأمنون ثم ّينقضونها ويختلفون فيها ﴿ فَتَزِلَ قَدَّمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتهلكوا بعد ما كنتم آمنين ، والعرب تقول لكل مبتّل بعد عافية أو ساقط في ورطة بعد سلامة : زلّت قدميه .

كقول الشاعر :

سيمنع منك السبق إن كنت سابقاً . . . وتلطع إن زلت بك القدمان

﴿ وَتَذُوقُواْ السواء ﴾ العذاب ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ يعني ولا تنقظوا عهودكم تطلبون بنقضها عوضاً قليلاً من الدنيا ، ولكن أوفوا بها فإنما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بذلك ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنُتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فصل ما بين العوضين ثم ّبين ذلك ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بالنون عاصم . الباقون بالياء .

﴿ الذين صبروا ﴾ على الوفاء في السرّاء والضراء ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ دون أسوأها ويغفر سيئاتهم بفضله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ اختلفوا فيها :

فقال سعيد بن جبير وعطاء والضحاك : هي الرزق الحلال ، وهو رواية ابن أبي مالك وأبي الربيع عن ابن عبّاس .

وقال الحسن وعلي وزيد ووهب بن منبّه : هي القناعة والرضا بما قسم الله ، وهذه رواية عكرمة عن ابن عبّاس .

وقال مقاتل بن حيان : يعني أحسن في الطاعة ، وهي رواية عبيد بن سليم عن الضحاك ، فقال : من يعمل صالحاً وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة فحياة طيبة . ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل عملاً صالحاً فمعيشة ضنك لا خير فيها .

أبو بكر الوراق : هي حلاوة الطاعة .

الوالبي عن ابن عبّاس : هي السعادة ، مجاهد وقتادة وابن زيد : هي الجنة ، ومثله روي عن الحسن وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلاّ في الجنة .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وأهل الإنجيل وأهل الأوثان ، فقال هؤلاء : نحن أفضل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقرآنَ ﴾ يعني فإذا كنت قارئاً للقرآن ﴿ فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ .

قال محمّد بن جرير ، وقال الآخرون : مجازه : فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ ، كقوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا ﴾ [المائدة : 6] الآية ، أي الطهارة مقدمة على الصلاة ، وقوله : و ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : 1] معناها وإذا أردتم تطليق النساء لأنه محال أن يأمرهم بالتطليق المعين بعد ما مضى التطليق . وأما حكم الآية : فاعلم أن الاستعاذة عند قراءة القرآن مستحبة في الصلاة وغير الصلاة ، هذا قول جماعة الفقهاء إلاّ مالكاً ، فإنه لا يتعوذ إلاّ في قيام رمضان ، واحتج بما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين ، وإنما تأويل هذا الحديث أنه كان يفتتح القراءة في الصلاة بالحمد لله رب العالمين ، يدل عليه أن الصلاة تفتتح بالتكبير بلا خلاف على أن الخبر متروك الظاهر .

ويدل على صحة ما قلنا حديث " جبير بن مطعم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي فقال : الله أكبر كبيراً والحمد لله وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخة ونفثة وهمزة " .

وقال ابن مسعود : نفخة الكبر ونفثة الشعر وهمزة المرض يعني الجنون ، فإذا تقرر هذا ثبت

أن الخبر المتقدم متروك بالظاهر مأخوذ المعنى .

واختلف الفقهاء في وقت الاستعاذة :

فقال أكثرهم : قبل القراءة ، وهو قول الجمهور ، وهو الصحيح المشهور .

وقال أبو هريرة : يتعوذ بعد القراءة وإليه ذهب داود بن علي .

(129/444)

وقال مالك في الصلاة التي يتعوذ فيها وهي قيام رمضان : يتعوذ بعد القراءة واحتج بظاهر الآية ، وقد بيّنا وجهها ، والدليل على أنها قبل القراءة ، ما روى أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " ثمّ يقرأ ، وأما الكلام في محل الاستعاذة في الصلاة ، فقد قال الشافعي : يقولها في أول الركعة ، وقيل : إن قال حيث يفتتح كل ركعة قبل القراءة فحسن ما يقرأ به في شيء من الصلاة كما أمره به في أول ركعة . هذا قول عامة الفقهاء .

وقال ابن سيرين : يتعوذ في كل ركعة قبل القراءة . والصحيح المذهب الأوّل ، لأن المروي في الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يتعوّذ إلاّ في الأولى ، وأما صفتها وفي الصلاة فهي أن ينظر فإن كانت صلاة يسرّ فيها بالقراءة أسرّ فيها بالاستعاذة ، وإن كانت يجهر فيها

بالقراءة :

فقال الشافعي في (الأم) : روي أن أبا هريرة أمّ الناس رافعاً صوته : ربنا إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم ، وكان ابن عمر يعوذ في نفسه .

قال الشافعي : فإن شاء جهر بها وإن شاء أسرّ بها .

قال الثعلبي : والاختيار الاخفاء ليفرّق بين ما هو قرآن وما هو ليس بقرآن .

(130/444)

فأما لفظة الاستعاذة فالأولى والمستحب أن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لنص القرآن والخبر المتصل المتسلسل ، وهو أني قرآت على الشيخ أبي الفضل محمّد بن أبي جعفر الخزاعي ، فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم في المواضع كلّها فأني قرأت على أبي الحسين عبد الرحمن بن محمّد بالبصرة فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فأني قرأت على عبد الله أبي حامد الزنجاني فقلت : أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فأني قرأت على أبي عثمان إسماعيل بن إبراهيم الأهوازي فقلت : أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان

الرجيم ، فأني قرأت على محمّد بن عبد الله بن بسطام فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فأني قرأت على روح بن عبد المؤمن فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فأني قرأت على يعقوب الحضرمي فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فأني قرأت على سلام بن المنذر ، فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فلقد قرأت على عاصم فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فلقد قرأت على زر بن حبيش فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فلقد قرأت على عبد الله بن مسعود فقلت : أعوذ بالسميع العليم ، فقال لي : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فلقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أعوذ بالله السميع العليم ، فقال لي : "يا ابن أم عبد قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبرائيل عن القلم عن اللوح المحفوظ " .

قال ابن عجلان : وهكذا علمني أخي أحمد ، وقال : هكذا علمني أخي ، وقال : هكذا علمني وكيع بن الجراح ، وقال : هكذا علمني سفيان الثوري .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ حجة وولاية ﴿ على الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

قال سفيان : ليس له سلطان أن يحملهم على ذنب لا يغفر .

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ يطيعونه ﴿ والذين هُم بِهِ ﴾ أي بالله ﴿ مُشْرِكُونَ ﴾ .

وقال بعضهم : الكناية راجعة إلى الشيطان ، ومجاز الكلام : الذين يسمعون قوله مشركون بالله ، وهذا كما يقال : صار فلان بك عالماً ، أي من أجلك وبسببك عالماً .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ يعني وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر ، ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فيما يغيّر ويبدل أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما عدّل من أحكامه ﴿ قالوا إِنَّمَا أَنتَ ﴾ يا محمّد ﴿ مُفْتَرٍ ﴾ وذلك أن المشركين قالوا : إن محمداً يسجد بأصحابه يأمرهم اليوم ويأمّرهم غداً ويأتيهم بما هو أهون عليهم ، وما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه .

قال الله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة القرآن وبيان الناسخ والمنسوخ من الأحكام ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ رُوحُ القدس ﴾ جبرئيل ﴿ مِن رَّبِّكَ بالحق لِيُثَبِّتَ الذين آمَنُواْ ﴾ تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لإيمانهم [. . . . . .] تصديقاً ويقيناً ﴿ وَهُدًى

وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ آدمي وما هو من عند الله ، واختلف العلماء في هذا البشر من هو :

قال ابن عبّاس : كان قيناً بمكة اسمه بلعام وكان نصرانياً يسمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج منه فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(132/444)

وقال عكرمة وقتادة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرّي غلاماً لبني المغيرة يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب ، [فقالوا] : إنما يعلمه يعيش فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال الفراء : قال المشركون إنما يتعلّم محمّد عن مملوك كان لحويطب بن عبد العزى وكان قد أسلم فحسن إسلامه وكان أعجمي فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال ابن إسحاق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني ، يقال له : خير ، عبد لبعض بني الحضرمي وكان يقرأ الكتب .

وقال المشركون : والله ما يعلم محمداً كثيراً ما يأتي به إلاّ خير النصراني ، فأنزل الله تعالى

هذه الآية .

وقال طلحة بن عمر : بلغني أن خديجة رضي الله عنها كانت تختلف إلى خير فكانت قريش تقول : إن عبد بني الحضرمي يعلّم خديجة وخديجة ، تعلّم محمّداً فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال عبيد الله بن مسلم الحضرمي : كان لنا عبدان من أهل [عين التمر] يقال لأحدهما يسار وللآخر خير ، وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن بالتوراة والإنجيل ، فربما مرّ بهما النبي صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف فيسمع .

وقال الضحاك : وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا آذاه الكفار يقصد إليهما فيستروح بكلامهما ، فقال المشركون : إنما يتعلم محمّد منهما ، فنزلت هذه الآية .

وقال السدي : كان بمكة رجل نصراني يقال له ابن يسرة يتكلّم بالرومي ، فربما يقعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الكفار : إنما يتعلم محمّد منه ، فنزلت هذه الآية .

وروى علي بن الحكم وعبيد بن سليمان عن الضحاك : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ قال : كانوا يقولون : إنما يعلمه سلمان الفارسي ، وهذا قول غير مرضي ؛ لأن سلمان إنما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهذه الآية مكية .

قال الله تكذيباً لهم [وإلزاماً] للحجة عليهم : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يميلون إليه ويشيرون إليه . وخص الكسائي هذا الحرف من بين سائره فقرأ بفتح الياء والحاء ؛ لأنه كان يحدّثه عن سفيان عن أبي إسحاق عن أصحاب عبد الله كذلك .

﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ والفرق بين الأعجمي والعجمي ، والعربي والإعرابي : أن الأعجمي لا يفصح وأنه كان نازلاً بالبادية والعجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً . والإعرابي : البدوي ، والعربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن فصيحاً .

﴿ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فصيح ، وأراد باللسان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة واللغة : لسان ، كقول الشاعر :

لسان السوء تهديها إلينا . . . وحنت ما حسبتك أن تحينا

يعني باللسان القصيدة والكلمة .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله لاَ يَهْدِيهِمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثمّ إن الله تعالى بعدما أخبر عن إغراء المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نسبوه إليه من الافتراء على الله وتبين أنهم المفترون دونه ، فقال عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ لا محمدا .

روى يعلي بن الأشدق " عن عبد الله بن حماد قال : قلت يا رسول الله المؤمن يزني ؟ قال : "

يكون ذلك " . قال : قلت : يارسول الله المؤمن يسرق ؟ قال : " قد يكون ذلك " . قال : قلت : يارسول الله المؤمن يكذب ؟ قال : "لا ، قال الله ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب الذين لاَ يُؤْمِنونَ بِآيَاتِ الله ﴾ " " .

وروى [سهيل] بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال : سمعت أبا بكر يقول : إيّاكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان . ﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمَانِهِ ﴾ اختلف النحاة في العامل في (من) في قوله (من كفر) ومن يؤله ولكن من شرح بالكفر صدراً .

فقال نحاة الكوفة : جوابهما جميعاً في قوله : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ إنّما هذان جزءان إن إجتمعا أحدهما منعقد بالآخر فجوابهما واحد ، كقول القائل : من يأتنا فمن يحسن نكرمه ، بمعنى من يحسن ممن يأتينا نكرمه .

وقال أهل البصرة : بل قوله (من كفر) مرفوع بالرد على الذي في قوله ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله ﴾ ومعنى الكلام : إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ، ثمّ استثنى فقال ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ .

قال ابن عبّاس : نزلت هذه الآية في عمار وذلك ، أن المشركين أخذوه وأباه ياسر وأُمه سمية

وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً فعذبوهم ، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قلبها بحربة ، وقيل : لما أسلمت من أجل الرجال فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين في الاسلام رحمة الله ورضوانه عليهما ، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً .

قال قتادة : " أخذ بنو المغيرة عماراً وغطوه في بئر مصون وقالوا له : أكفر بمحمد [ولم يتعمد] ذلك وقلبه كان مطمئناً فأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عماراً كفر . فقال : " كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه وإختلط الايمان بلحمه ودمه " .

فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ، وقال : " مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " " .

فأنزل الله هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في ناس من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمّد : إن هاجروا إلينا فإنا [لا نرى أنكم] منّا حتّى تهاجروا الينا ، فخرجوا يريدون المدينة فأدركهم قريش بالطريق ففتنوهم فكفروا كارهين .

وروى ابن عون عن محمّد بن سيرين قال : تحدثنا أن هذه الآية نزلت في شأن عياش بن أبي ربيعة ، وكان عياش من المهاجرين الأولين [وألجأ يضربه] أن يكون بلغ ما بلغ أصحابه هذه [الفعلة] وكان قدم مهاجراً وكان براً بأُمه ، فحلفت أن لا تأكل خبزاً ولا تستظل بظل حتّى يرجع إليها إبنها قال : فقدم عليه أبو جهل وكان أخاه لأُمه ورجل آخر فأراد أن يرجع معه فقال له أبو جهل : أُمك [لو قد جاعت ما أكلت ولو قد شمست] ما أستظلت ، فقال ابنها : بلى القاها ثمّ أرجع . فقال : أما إذا أتيت فلا [تعطين راحلتك] أحداً ، فإنه لا يزال لك من أمرك النصف ما لم تعط راحلتك أحداً فإنطلق هو وأبو جهل والرجل ، فلما كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل : لو تحوّل كل واحد منا على راحلة صاحبه فتحول كل واحد منهم على راحلة صاحبه فساروا . وضربه أبو جهل بالسوط على رأسه وحلّفه باللات والعزى فلم يزل به حتّى أعطاه الذي أراد بلسانه ، ثمّ انطلق فرجع ، وفيه نزلت هذه الآية ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ .

وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في جبر مولى عامر بن الحضرمي ، أكرهه سيّده على الكفر فكفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالايمان ، وأسلم مولى جبر وحسُن إسلامه وهاجر خير مع سيده . ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ أي فتح صدراً وكفر بالقبول وأتى على اختيار واستحباب ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن حقيقة الايمان والكفر تتعلق بالقلب دون اللسان وأن اللسان هو المعبّر والترجمان .

حكم الآية

إتفق الفقهاء على أن المكره على الكفر ، وعلى شتم الرسول صلى الله عليه وسلم والأصحاب وترك الصلاة وقذف المحصنة وما أشبهها من ترك الطاعات وارتكاب الشبهات بوعيد متلف أو ضرب شديد لا يحتمله إن له أن يفعل ما أكره عليه ، وإن أبى ذلك حتى يغضب في الله فهو أفضل له .

وأما الإكراه على الطلاق فاختلفوا فيه :

(136/444)

فأجاز أهل العراق الطلاق المكره ، وكذلك قالوا في الأكراه على النذور والايمان [والرجعة] ونحوها ، رأوا ذلك [جائزاً] ورووا في ذلك أحاديثاً واهية الأسانيد .

وأما مالك والأوزاعي والشافعي : فإنهم أبطلوا طلاق المكره وقالوا : لما وجدنا الله سبحانه وتعالى عذر المكره على شيء ، ليس [وراءه] في الشر مذهب وهو الكفر ولم يحكم به مع الإكراه ، علمنا أن ما دونه أولى بالبطول وأجرى في العذر .

وهو قول عمر بن الخطاب وابنه وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عبّاس وعبد الله بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن المسيب والقاسم بن مخيمرة وعبيد بن عمير ، وللشافعي

في هذه المقالة مذهب ثالث : وهو أنه أجاز طلاق المكره إذا كان الإكراه من السلطان ، ولم يجوّز ذلك إذا كان الأكراه من غير السلطان .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ أي [طردوا] ومنعوا من الاسلام [ففتنهم] المشركون ﴿ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ ﴾ على الايمان والهجرة والجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد تلك الفتنة [والفعلة] ﴿ لغفورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخو أبي جهل من الرضاعة ، وأبي جندل بن سهل بن عمرو والوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسيد الثقفي ، فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثمّ إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا ، فأنزل الله فيهم هذه الآية .

وقال الحسن وعكرمة : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي سرخ ، وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فاستزّله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له عثمان وكان أخاه لأُمه فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ أسلم وحسن إسلامه ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وأما قوله (فتنوا) فقرأ عبد

الله بن عامر : (فتنوا) بفتح الفاء والتاء ، ردّه إلى من أسلم من المشركين الذين فتنوا المسلمين واعتبر بقوله جاهدوا وصبروا فأخبر بالفعل عنهم .

وقرأ الباقون : بضم الفاء وكسر التاء ، اعتبارا بما قبله إلا من أُكره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 37.47 ﴾

(138/444)

وقال الزمخشري :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

العدل هو الواجب ، «1» لأن اللّه تعالى عدل فيه على عباده «2» فجعل ما فرضه عليهم واقعاً

---

(1) . قال محمود : «العدل : الواجب . والإحسان : الندب» قال أحمد : وفي جمعهما تحت الأمر ما يدل لمن قال إن صيغة الأمر - أعنى هذه المبنية من الهمزة والميم والراء لا صيغة أفعل - تتناول القبيلين بطريق التواطؤ وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب واللّه أعلم .

(2) . عاد كلامه . قال : «وإنما كان الواجب عدلا لأن اللّه تعالى عدل فيه على عباده . . . الخ» قال أحمد :

وهذه وليجة من الاعتزال . ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق لأنه ظلم وجور ، وذلك على اللّه محال .

والحق والسنة أن كل قضاء اللّه عدل ، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه وعدل منه لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة ، على مقتضى توحيد أهل السنة ، المعتقدين أن كل موجود بقدرة اللّه تعالى حدث ووجد ، لا شريك له في ملكه ، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه ، هذا هو التوحيد المحض . وإذا كان العبد مكلفا بما هو من فعل اللّه ، فهذا عين التكليف بما لا يطاق ، ولكن ذلك عدل من اللّه تعالى ، وحجته البالغة قائمة على المكلف بما خلقه له من التأتى والتيسر في الأفعال الاختيارية التي هي محال التكاليف ،

(139/444)

تحت طاقتهم وَالْإِحْسانِ الندب ، وإنما علق أمره بهما جميعاً ، لأنّ الفرض لا بدّ من أن يقع فيه تفريط «1» فيجبره الندب ، ولذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - لمن علمه

الفرائض فقال : والله لا زدت فيها ولا نقصت - : «أفلح إن صدق» «2» فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط وقال صلى الله عليه وسلم «استقيموا ولن تحصوا» «3» فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل . والفواحش : ما جاوز حدود الله وَالْمُنْكَرِ ما تنكره العقول «4» وَالْبَغْيِ طلب التطاول بالظلم ، «5» وحين أسقطت من الخطب «6» لعنة الملاعين على أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه ، أقيمت هذه الآية مقامها . ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً ، ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكالا وخزيا ، إجابة لدعوة نبيه :

---

(1) . عاد كلامه . قال : «وإنما قرنهما في الأمر ، لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفريط يجبره الندب . . .

الخ» قال أحمد : وهذه نكتة حسنة يجاب بها عن قول القائل : لم حكم عليه الصلاة والسلام بفلاح المصر على ترك السنن ، فيقال : المحكوم بفلاحه لأجله إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة ، والله أعلم . [. . . . .]

(2) . متفق عليه من رواية طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضى الله عنهم .

(3) . أخرجه ابن ماجة والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والدارمي وأبو يعلى من رواية سالم بن أبى الجعد عن ثوبان . وهو منقطع . ورواه ابن حبان والطبراني من وجه آخر عن ثوبان . ورواه الحاكم من رواية الأعمش عن أبى سفيان عن جابر . ورواه الطبراني

والعقيلي من حديث سلمة بن الأكوع وفيه الواقدي . وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق والبزار والطبراني عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن عبد اللّه بن عمرو ، وليث ضعيف . وأشار البزار إلى أنه تفرد به .

(4) . عاد كلامه . قال : «والفواحش ما جاوز حدود اللّه ، والمنكر ما تنكره العقول» قال أحمد : وهذه أيضا لفتة إلى الاعتزال ، ولو قال : والمنكر ما أنكره الشرع لوافق الحق ، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل ، واللّه الموفق .

(5) . عاد كلامه . قال : «والبغي طلب التطاول بالظلم» قال أحمد : وأصل موضوعه الطلب ، ومنه ابتغاء وجه اللّه ، ابتغاء مرضاة اللّه ، ولكن صار مطلقه خاصا بطلب الظلم عرفا .

(6) . عاد كلامه . قال : «وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم اللّه وجه . . . الخ» قال أحمد : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهى عن البغي فيها ، وبين الحديث الوارد : في أن المناصب لعلى باغ ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب على : تقتلك الفئة الباغية ، واللّه أعلم ، فقتل مع على يوم صفين .

«وعاد من عاداه» «1» وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

[سورة النحل (16) : الآيات 91 إلى 92]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (91) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92)

عهد الله: هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ. وَلا تَنْقُضُوا أيمان البيعة بَعْدَ تَوْكِيدِها أى بعد توثيقها باسم الله. وأكد ووكد: لغتان فصيحتان، والأصل الواو، والهمزة بدل كَفِيلًا شاهداً ورقيباً، لأن الكفيل

---

(1) . هذا طرف من حديث غدير خم الوارد في فضل على بن أبى طالب رضى الله عنه. وقد أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن الطفيل عن زيد بن أرقم. وفيه هذا اللفظ.

ورواه النسائي أيضا من رواية شريك: قلت لأبى إسحاق: أسمعت البراء يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قال يوم غدير خم «من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال : نعم . وأخرجه ابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من وجه آخر عن شريك عن إدريس بن يزيد الأودي عن أبيه عن أبى هريرة وتابعه عكرمة بن إبراهيم عن إدريس عند الطبراني ، ورواه الطبري أيضا من طريق سليمان بن قوم عن أبى إسحاق عن حبشي بن جنادة . وأخرجه النسائي أيضا من طريق مهاجر بن مسمار عن عائشة بنت سعد عن أبيها أن النبي صلى اللّه عليه وسلم «أخذ بيد على يوم غدير خم فقال : من كنت وليه فهذا وليه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وأخرجه الحاكم من رواية مسلم الملائى عن حثمة بن عبد الرحمن عن سعد بن مالك نحوه وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني من طريق عطية عنه والبزار من طريق جميل بن عمارة عن سالم عن أبيه وعن أنس وغيره أخرجه الطبراني في الصغير من رواية طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال : شهدت علياً على المنبر ناشد الصحابة : من سمعه يقول يوم غدير خم ما قال ؟ فقام اثنا عشرة ، منهم أبو هريرة وأبو سعيد وأنس» وعن جرير أخرجه الطبراني مطولا : وعن طلحة أخرجه الحاكم من رواية رفاعة بن إياس العمى عن أبيه عن جده قال «كنا مع على يوم الجمل فبعث إلى طلحة فقال له : نشدتك اللّه ، ألم تسمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول – فذكره ، فقال : نعم . قال :

فلم تقاتلني ؟ قال : لم أذكره وانصرف طلحة» وعن جابر أخرجه أبو يعلى ، والطبراني في

مسند الشاميين من طريق ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن قبيصة بن ذؤيب وأبى سلمة عن جابر ، وعن حذيفة بن أسيد أخرجه الطبراني وجمع ابن عقدة طرف حديث غدير خم . فأخرجه من رواية جماعة آخرين من الصحابة مع هؤلاء : منهم عمار بن ياسر ، والعباس وابنه ، والحسن بن على والحسين بن على ، وعبد اللّه بن جعفر ، وسلمان الفارسي ، وسمرة بن جندب ، وسلمة بن الأكوع ، وزيد بن حارثة . وأبو رافع ، وزيد بن ثابت الأنصارى ، ويعلى بن مرة وآخرون .

(141/444)

مراع لحال المكفول به مهيمن عليه وَلا تَكُونُوا في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أَن أحكمته وأبرمته فجعلته أَنكاثاً جمع نكث وهو ما ينكث فتله . قيل : هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء ، اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن تَتَّخِذُونَ حال ودَخَلًا أحد مفعولي اتخذ . يعنى : ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلا بَيْنَكُمْ أى مفسدة ودغلا «1» أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ بسبب أن تكون أمة يعنى جماعة قريش هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ هي أزيد عددا وأوفر مالا . من أمة من جماعة المؤمنين إِنَّما

يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ الضمير لقوله : أن تكون أمة ، لأنه في معنى المصدر ، أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد اللّه وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيما ن البيعة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوّتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ؟ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام .

[سورة النحل (16) : آية 93]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93)

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار ، «2» وهو قادر على ذلك وَلكِنْ الحكمة اقتضت أن يضل مَنْ يَشاءُ وهو أن يخذل من علم أنه يختار «3» الكفر ويصمم عليه وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيما ن . يعنى : أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان ، والثواب والعقاب ، ولم يبنه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك ، وحققه بقوله وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

---

(1) . قوله «و دغلا» في الصحاح «الدغل» بالتحريك : الفساد ، مثل الدخل (ع)

(2) . قال محمود : «معناه على طريقة الإلجاء والقسر» قال أحمد : وهذا تفسير اعتزالى قد قدم أمثاله في أخوات هذه الآية ، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو

، الدالة على أن مشيئة اللّه تعالى لايمان الخلق كلهم ما وقعت ، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف ، فايمان وكفر ، وتصدق وتكذيب كما وقع منهم ، ولو شاء شمولهم بالايمان لوقع ، فيصادم الزمخشري هذا النص ويقول : قد شاء جعلهم أمة واحدة حنيفة مسلمة ، ولكن لم يقع مراده . فإذا قيل له : فعلام تحمل المشيئة في الآية ؟ قال : على مشيئة إيمانهم قسراً لا اختياراً ، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقا .

(3) . قوله «وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة ، فالاضلال :

خلق الضلال في القلب ، لأنه يجوز على اللّه خلق الشر عندهم دون المعتزلة ، كما بين في محله . (ع)

(142/444)

ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال «1» والاهتداء ، لما أثبت لهم عملا يسئلون عنه «2» .

[سورة النحل (16) : آية 94]

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (94)

ثم كرر النهى عن اتخاذ الأيمان دخلا بينهم ، تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يركب منه فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها وَتَذُوقُوا السُّوءَ في الدنيا بصدودكم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وخروجكم من الدين. أو بصدّكم غيركم ، لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا ، لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ في الآخرة.

[سورة النحل (16) : آية 95]

وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95)

كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان - لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ، وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد - أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثبتهم الله ، وَلا تَشْتَرُوا ولا تستبدلوا بِعَهْدِ اللَّهِ وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمَناً قَلِيلًا عرضاً من الدنيا يسيراً ، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ من إظهاركم وتغنيمكم ، ومن ثواب الآخرة خَيْرٌ لَكُمْ.

[سورة النحل (16) : آية 96]

ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (96)

ما عِنْدَكُمْ من أعراض الدنيا يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ من خزائن رحمته باقٍ لا ينفد.

وقرئ لَنَجْزِيَنَّ بالنون والياء الَّذِينَ صَبَرُوا على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام. فإن

---

(1). قوله «ولو كان هو المضطر إلى الضلال» على معنى اسم الفاعل، أى الذي يضطر العباد ويلجئهم. وقوله «لما أثبت ... الخ» مسلم، ولكنه لم يضطرهم ولم يلجئهم ولو كان هو الخالق لأعمالهم في الحقيقة، لما لهم فيها من الكسب كما قرره أهل السنة في علم التوحيد، فلينظر. (ع)

(2). عاد كلامه. قال محمود: ومما يدل على أن اللّه لم يبن الأمر على الإجبار وإنما بناه على الاختيار قوله تعالى وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ولو كان هو المضطر للهداية والضلال لما أثبت لهم ما يسألون عنه» قال أحمد:

أما أهل السنة الذين يسميهم المصنف مجبرة فهم من الإجبار بمعزل، لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختيارا وأفعالا، وهم مع ذلك يوحدون اللّه حق توحيده، فيجعلون قدرته تعالى هي الموجدة والمؤثرة، وقدرة العبد مقارنة فحسب، تمييزا بين الاختياري والقسري وتقوم بها حجة اللّه على عبده، واللّه الموفق.

قلت : لم وحدت القدم ونكرت؟ «1» قلت : لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة؟

[سورة النحل (16) : آية 97]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (97)

فإن قلت : مَنْ متناول في نفسه للذكر والأنثى ، فما معنى تبيينه بهما؟ قلت : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقيل مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى على التبيين ، ليعمّ الموعد النوعين جميعا حَياةً طَيِّبَةً يعنى في الدنيا وهو الظاهر ، لقوله وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا يعيش عيشا طيبا إن كان موسرا ، فلا مقال فيه . وإن كان معسرا ، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله . وأمّا الفاجر فأمره على العكس : إن كان معسرا فلا إشكال في أمره ، وإن كان موسرا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : الحياة الطيبة : الرزق الحلال .

وعن الحسن : القناعة . وعن قتادة : يعنى في الجنة . وقيل : هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه .

[سورة النحل (16) : الآيات 98 إلى 100]

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه، وصل به قوله فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إيذانا بأن الاستعاذة من جمله الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب. والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ كقوله إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وكقولك: إذا أكلت فسمّ الله. فإن قلت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه، فكان منه بسبب قوىّ وملابسة ظاهرة. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم،

---

(1). قال محمود: «إن قلت لم وحدت القدم ونكرت... الخ» قال أحمد: ومن جنس إفادة التنكير هاهنا التقليل: إفادته له في قوله تعالى وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ وفي قوله عز وجل اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ فنكر الأذن والنفس تقليلا للواعى من الناس لما يقضى بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

فقال لي : «يا ابن أمّ عبد . قل : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ» «1» لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ أى تسلط وولاية على أولياء اللّه ، يعنى :

أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته إِنَّما سُلْطانُهُ على من يتولاه ويطيعه بِهِ مُشْرِكُونَ الضمير يرجع إلى ربهم . ويجوز أن يرجع إلى الشيطان ، على معنى : بسببه وغروره ووسوسته .

[سورة النحل (16) : آية 101]

وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101)

تبديل الآية مكان الآية : هو النسخ ، واللّه تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم ، وخلافه مصلحة . واللّه تعالى عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته . وهذا معنى قوله وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ وجدوا مدخلا للطعن فطعنوا ، وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون : إن محمدا يسخر من أصحابه : يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم

عنه غدا ، فيأتيهم بما هو أهون ، ولقد افتروا ، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون ، والأهون بالأشق ، والأهون بالأهون ، والأشق بالأشق ، لأنّ الغرض المصلحة ، لا الهوان والمشقة .

فإن قلت : هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس ؟

قلت : فيه أن قرآناً ينسخ بمثله وليس فيه نفى نسخه بغيره ، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم ، فنسخه بها كنسخه بمثله ، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها .

[سورة النحل (16) : آية 102]

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (102)

في يُنَزِّلُ ونَزَّلَهُ وما فيهما من التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح : إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل ، وأنّ ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة . ورُوحُ الْقُدُسِ جبريل عليه السلام ، أضيف إلى القدس وهو الطهر ، كما يقال :

حاتم الجود وزيد الخير ، والمراد الروح المقدّس ، وحاتم الجواد ، وزيد الخير . والمقدّس : المطهر

---

(1) . رواه الثعلبي مسلسلا عن شيخه أبى الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود . ورواه الواحدي في الوسيط عن الثعلبي .

(145/444)

من المآثم . وقرئ : بضم الدال وسكونها بِالْحَقِّ في موضع الحال ، أى نزله ملتبساً بالحكمة ، يعنى أن النسخ من جملة الحق لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ليبلوهم بالنسخ ، حتى إذا قالوا فيه : هو الحق من ربنا والحكمة ، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب ، على أن اللّه حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب وَهُدىً وَبُشْرى مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت . والتقدير : تثبيتا لهم وإرشادا وبشارة ، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم . وقرئ : ليثبت ، بالتخفيف .

[سورة النحل (16) : آية 103]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

أرادوا بالبشر : غلاما كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب . وقيل : هو جبر ، غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي .

وقيل عبدان : جبر ويسار ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا مرّ وقف عليهما يسمع ما يقرآن ، فقالوا : يعلمانه ، فقيل لأحدهما ، فقال : بل هو يعلمني.

وقيل : هو سلمان الفارسي. واللسان : اللغة. ويقال : ألحد القبر ولحده ، وهو ملحد وملحود ، إذا أمال حفره عن الاستقامة ، فحفر في شق منه ثم استعير لكل إمالة عن استقامة ، فقالوا :

ألحد فلان في قوله ، وألحد في دينه. ومنه الملحد ، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها ، لم يمله عن دين إلى دين. والمعنى : لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أَعْجَمِيٌّ غير بين وَهذا القرآن لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ذو بيان وفصاحة ردّا لقولهم وإبطالا لطعنهم. وقرئ يُلْحِدُونَ بفتح الياء والحاء. وفي قراءة الحسن : اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قلت : الجملة التي هي قوله لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ما محلها ؟ قلت : لا محل لها ، لأنها مستأنفة جواب لقولهم. ومثله قوله اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ بعد قوله وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ.

[سورة النحل (16) : الآيات 104 إلى 105]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ

الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105)

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ أى يعلم اللّه منهم أنهم لا يؤمنون لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ لا يلطف بهم، لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة، لا من أهل اللطف والثواب إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ ردّ لقولهم إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ يعنى: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن، لأنه لا يترقب عقابا عليه وَأُولئِكَ إشارة إلى قريش هُمُ الْكاذِبُونَ أى هم

الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون. أو إلى الذين لا يؤمنون. أى أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب، لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب: أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين. أو أولئك هم الكاذبون في قولهم إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ.

[سورة النحل (16): الآيات 106 إلى 109]

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (107) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ

وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (108) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (109)

مَنْ كَفَرَ بدل من الذين لا يؤمنون بآيات الله، على أن يجعل وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ اعتراضا بين البدل والمبدل منه. والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه.

واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أى طاب به نفسا واعتقده فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ويجوز أن يكون بدلا من المبتدإ الذي هو أُولئِكَ على: ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون. أو من الخبر الذي هو الكاذبون، على: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه. ويجوز أن ينتصب على الذمّ. وقد جوّزوا أن يكون مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ شرطا مبتدأ، ويحذف جوابه، لأنّ جواب مَنْ شَرَحَ دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب، إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب. روى أنّ ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار، وأبواه - ياسر وسمية - وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: عذبوا، فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجيء في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فقيل يا رسول الله، إن عمارا كفر، فقال: «كلا، إنّ عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى،

فجعل النبي صلى اللّه عليه وسلم يمسح عينيه ، وقال : «مالك ! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» ومنهم جبر مولى الحضرمي ، أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه

(147/444)

وأسلم ، وحسن إسلامهما ، وهاجرا «1» . فإن قلت : أى الأمرين أفضل ، أفعل عمار أم فعل أبويه ؟ قلت : بل فعل أبويه ، لأنّ في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام . وقد روى أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول اللّه . قال : فما تقول فىّ ؟

قال أنت أيضاً ، فخلاه . وقال للآخر : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول اللّه . قال : فما تقول فىّ ؟

قال أنا أصمّ . فأعاد عليه ثلاثاً ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «أما الأوّل فقد أخذ برخصة اللّه . وأمّا الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له «2»» ذِلكَ إشارة إلى الوعيد ، وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة ، واستحقاقهم خذلان اللّه بكفرهم وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ الكاملون في الغفلة ، الذين لا أحد أغفل منهم ، لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها .

[سورة النحل (16) : الآيات 110 إلى 111]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك، وهم عمار وأصحابه. ومعنى: إنّ ربك لهم، أنه لهم لا عليهم، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لا عدوّهم وخاذلهم، كما يكون الملك الرجل لا عليه، فيكون محميا منفوعا غير مضرور مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا بالعذاب والإكراه على

---

(1) . هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند. وروى الحاكم من حديث زر عن ابن مسعود قال: «أول من أظهر إسلامه سبعة: فذكرهم إلى أن قال: فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد - الحديث» ورواه ابن سعد من طريق منصور عن مجاهد قال «أول من أظهر فذكر مثله - وزاد فجاء أبو جهل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها. فهي أول شهيد في الإسلام. قلت قوله صلى الله عليه وسلم «إن عمارا مليء إيمانا» رواه [بياض في الأصلين] وقوله «اختلط الايمان بلحمه ودمه» رواه [بياض في الأصلين] وقوله «إن عادوا لك فعد لهم» رواه [بياض في الأصلين] [.....]

(2) . أخرجه ابن أبى شيبة قال: حدثنا إسماعيل بن علية عن يونس عن الحسن «أن

عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه وقال : إنى أصم ، فأعاد عليه ، فقال مثله ، فأمر بقتله . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فأرسله . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هلكت .

فقال : وما شأنك ؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه فقال أما صاحبك فمضى على إيمانه . وأما أنت فأخذت بالرخصة .

وأخرجه عبد الرزاق في التفسير عن معمر قال : سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه . وذكر الواحدي في المغازي أن اسم المقتول : حبيب بن زيد عم عباد بن تميم ، واسم الآخر : عبد الله بن وهب الأسلمي . قال : وكان في الساقة . وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار .

الكفر . وقرئ فُتِنُوا على البناء للفاعل ، أي : بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمى وأشباهه مِنْ بَعْدِها من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 628 . 638 ﴾

(149/444)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾

فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه شهادة أن لا إله إلا الله ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه الحق ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى ، قاله سفيان بن عيينة .

والرابع : أنه القضاء بالحق ، ذكره الماوردي .

قال أبو سليمان : العدل في كلام العرب : الإنصاف ، وأعظمُ الإنصاف : الاعتراف للمنعِم بنعمته .

وفي المراد بالإحسان خمسة أقوال :

أحدها : أنه أداء الفرائض ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : العفو ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : الإِخلاص ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أن تعبد الله كأنك تراه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والخامس : أن تكون السريرة أحسن من العلانية ، قاله سفيان بن عيينة .

فأما قوله تعالى : ﴿ وإِيتاءِ ذي القربى ﴾ فالمراد به : صلة الأرحام .

وفي الفحشاء قولان :

أحدهما : أنها الزنا ، قاله ابن عباس .

والثاني : المعاصي ، قاله مقاتل .

وفي ﴿ المنكر ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : أنه الشرك ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه ما لا يُعرَف في شريعة ولا سُنَّة .

والثالث : أنه ما وعد الله عليه النار ، ذكرهما ابن السائب .

والرابع : أن تكون علانية ، الإِنسان أحسن من سريرته قاله سفيان بن عيينة .

فأما ﴿ البغي ﴾ فقال ابن عباس : هو الظلم ، وقد سبق شرحه في مواضع [البقرة : 173 ، والأعراف : 33 ، ويونس : 23 ، 90] .

قوله تعالى : ﴿ يعظكم ﴾ قال ابن عباس : يؤدِّبكم ، وقد ذكرنا معنى الوعظ في [سورة النساء : 58] و ﴿ تذكَّرون ﴾ بمعنى : تتَّعظون .

قال ابن مسعود : هذه الآية أجمع آية في القرآن لخير أو لشر .

وقال الحسن : والله ما ترك العدلُ والاحسانُ شيئاً من طاعة [الله] إِلاَّ جمعاه ، ولا تركت الفحشاء والمنكر والبغي شيئاً من معصية الله إِلاّ جمعوه .

(150/444)

قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين :

أحدهما : أنها نزلت في حلف أهل الجاهلية ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنها نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال المفسرون : العهد الذي يجب الوفاء به ، هو الذي يحسن فعله ، فإذا عاهد العبد عليه ، وجب الوفاء به ، والوعد من العهد ﴿ ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدها ﴾ أي : بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين ، بخلاف لغو اليمين ، ووكدت الشيء توكيداً ، لغة أهل الحجاز .

فأما أهل نجد ، فيقولون : أكدته تأكيداً .

وقال الزجاج : يقال : وكَّدت الأمر ، وأكّدت ، لغتان جيدتان ، والأصل الواو ، والهمزة بدل منها .

قوله تعالى : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ أي : بالوفاء ، وذلك أن من حلف بالله ، فكأنه أكفل الله بالوفاء بما حلف عليه .

وللمفسرين في معنى "كفيلا" ثلاثة أقوال :

أحدها : شهيداً ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : وكيلا ، قاله مجاهد .

والثالث : حفيظاً مراعياً لعقدكم ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها ﴾ قال مجاهد : هذا فعل نساء أهل نجد ، تنقض إِحداهن حبلها ، ثم تنفشه ، ثم تخلطه بالصوف فتغزله ، وقال مقاتل : هي امرأة من قريش تسمى "رَيْطة" بنت عمرو بن كعب ، كانت إِذا غزلت ، نقضته .

وقال ابن السائب : اسمها "رائطة" وقال ابن الأنباري : اسمها "رَيطة" بنت عمرو المرِّية ، ولقبها الجعراء ، وهي من أهل مكة ، وكانت معروفة عند المخاطبين ، فعرفوها بوصفها ، ولم يكن لها نظير في فعلها ذلك ، كانت متناهية الحمق ، تغزِل الغزلُ من القطن أو الصوف فتُحكِمُه ، ثم تأمر جاريتها بتقطيعه .

وقال بعضهم : كانت تغزل هي وجواريها ، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن ، فضربها الله مثلاً

لناقضي العهد "ونقضت" ، بمعنى : تنقض ، كقوله : ﴿ ونادى أصحابُ الجنة ﴾ [الأعراف : 43] بمعنى : وينادي .

وفي المراد بالغَزْل قولان :

(151/444)

أحدهما : أنه الغَزْل المعروف ، سواء كان من قطن أو صوف أو شعر ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنه الحَبْل ، قاله مجاهد .

وقوله : ﴿ من بعد قوة ﴾ قال قتادة : من بعد إبرام ، وقوله : ﴿ أنكاثاً ﴾ أي : أنقاضاً .

قال ابن قتيبة : الأنكاث : ما نُقض من غَزْل الشَّعْر وغيره .

وواحدها : نِكْث .

يقول : لا تؤكدوا على أنفسكم الأَيمان والعهود ، ثم تنقضوا ذلك وتحنثوا فيه ، فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت ، ثم نقضت ذلك النسج ، فجعلته أنكاثاً .

قوله تعالى : ﴿ تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم ﴾ أي : دغلاً ، ومكراً ، وخديعة ، وكل شيء دخله عيب ، فهو مدخول ، وفيه دَخَلٌ .

قوله تعالى : ﴿ أن تكون أمة ﴾ قال ابن قتيبة : لأن تكون أمة ، ﴿ هي أربى ﴾ أي : هي

أغنى ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ وقال [الزجاج] : المعنى : بأن تكون أمة هي أكثر ، يقال : ربا الشيء يربو : إذا كثر .

قال ابن الأنباري : قال اللغويون : "أربى" : أَزْيَد عدداً .

قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزّ ، فينقضون حِلف هؤلاء ويحالفون أولئك ، فنُهوا عن ذلك .

وقال الفراء : المعنى : لا تغدِروا بقوم لقلَّتِهم وكثرتكم ، أو قِلَّتكم وكثرتهم وقد غرَّرتموهم بالأَيمان .

قوله تعالى : ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ في هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى الكثرة ، قاله سعيد بن جبير ، وابن السائب ، ومقاتل ، فيكون المعنى : إنما يختبركم الله بالكثرة ، فإذا كان بين قومين عهد ، فكثر أحدهما ، فلا ينبغي أن يفسخ الذي بينه وبين الأقلِ .

فإن قيل : إذا كنى عن الكثرة ، فهلاّ قيل بها ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، بأن الكثرة ليس تأنيثها حقيقياً ، فحملت على معنى التذكير ، كما حملت الصيحة على معنى الصياح .

والثاني : أنها ترجع إلى العهد ، فانَّه لدلالة الأَيمان عليه ، يجرى مجرى المظهر ، ذكره ابن

الأنباري.

والثالث: أنها ترجع إِلى الأمر بالوفاء، ذكره بعض المفسرين.

(152/444)

قوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ قد فسرناه في آخر [هود : 118].

قوله تعالى: ﴿ ولكن يُضِلُّ من يشاء ﴾ صريح في تكذيب القَدَرية، حيث أضاف الإِضلال والهداية إِليه، وعلَّقهما بمشيئته.

قوله تعالى: ﴿ ولا تتخذوا أَيمانكم دَخَلا ﴾ هذا استئناف للنهي عن أيمان الخديعة. ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها ﴾ قال أبو عبيدة: هذا مَثَل يقال لكل مبتَلَىً بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة: زلّت به قدَمه.

قال مقاتل: ناقض العهد يَزِلُّ في دينه كما تَزِلُّ قَدَم الرَّجُل بعد الاستقامة.

قال المفسرون: وهذا نهي للذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإِسلام ونصرة الدين عن نقض العهد، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ يعني: العقوبة ﴿ بما صددتم عن سبيل الله ﴾ يريد أنهم إِذا نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، صدّوا الناس عن الإِسلام، فاستحقُّوا العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ يعني: في الآخرة.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في رجُلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض، يقال لأحدهما "عِيدان بن أشوع" وهو صاحب الأرض، وللآخر: "امرؤ القيس" وهو المدعى عليه، فهمّ امرؤ القيس أن يحلف، فأخّره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية.

وذكر أبو بكر الخطيب أن اسم صاحب الأرض "ربيعة بن عبْدان" وقيل: "عَيدان"، بفتح العين وياء معجمه باثنتين.

ومعنى الآية: لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها عَرَضاً يسيرا من الدنيا، إن ما عند الله من الثواب على الوفاء هو خير لكم من العاجل.

﴿ ما عندكم ينفد ﴾ أي: يفنى ﴿ وما عند الله ﴾ في الآخرة ﴿ باقٍ ﴾ وقف بالياء ابن كثير في رواية عنه، ولا خلاف في حذفها في الوصل.

(153/444)

﴿ ولَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: "ولَيَجْزِيَنَّ" بالياء.

وقرأ ابن كثير، وعاصم: "وَلَنَجْزِيَنَّ" بالنون.

ولم يختلفوا في ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهم أجرهم ﴾ أنها بالنون، ومعنى هذه الآية: ولَيَجْزِيَنَّ الذين صبروا على أمره أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون في الدنيا، ويتجاوز عن سيئاتهم.

قوله تعالى: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمن ﴾ في سبب نزولها قولان:

أحدهما: أن امرأ القيس المتقدِّم ذكره أقرَّ بالحق الذي هَمَّ أن يحلف عليه، فنزلت فيه: ﴿ من عمل صالحاً ﴾، وهو إقراره بالحق، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن ناساً من أهل التوارة، وأهل الإنجيل، وأهل الأوثان، جلسوا، فتفاضلوا، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿ فلَنُحيِيَنَّهُ حياة طيبة ﴾ اختلفوا أين تكون هذه الحياة الطيبة على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها في الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس.

ثم فيها للمفسرين تسعة أقوال:

أحدها: أنها القناعة، قاله علي عليه السلام، وابن عباس في رواية، والحسن في رواية، ووهب بن منبه.

والثاني: أنها الرزق الحلال، رواه أبو مالك عن ابن عباس.

وقال الضحاك: يأكل حلالاً ويلبس حلالاً.

والثالث: أنها السعادة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والرابع : أنها الطاعة ، قاله عكرمة .

والخامس : أنها رزق يوم بيوم ، قاله قتادة .

والسادس : أنها الرزق الطيِّب ، والعمل الصالح ، قاله إِسماعيل بن أبي خالد .

والسابع : أنها حلاوة الطاعة ، قاله أبو بكر الوراق .

والثامن : العافية والكفاية .

والتاسع : الرضى بالقضاء ، ذكرهما الماوردي .

والثاني : أنها في الآخرة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن زيد ، وذلك إِنما يكون في الجنة .

والثالث : أنها في القبر ، رواه أبو غسان عن شريك .

قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : فإذا أردتَ القراءة فاستعذ ، ومثله ﴿ إِذا قمتم إِلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] وقوله : ﴿ وإِذا سألتموهُنَّ متاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ من وراء حجاب ﴾ [الأحزاب 53] وقوله : ﴿ إِذا ناجيتم الرسول فقدِّموا بين يَدَيْ نجواكم

صدقة ﴾ [المجادلة : 12] .

ومثله في الكلام : إذا أكلت فقل : باسم الله ، هذا قول عامة العلماء واللغويين .

والثاني : أنه على ظاهره ، وأن الاستعاذة بعد القراءة .

روي عن أبي هريرة ، وداود .

والثالث : أنه من المقدَّم والمؤخَّر ، فالمعنى : فإذا استعذت بالله فاقرأ ، قاله أبو حاتم السجستاني ، والأول أصح .

فصل

والاستعاذة عند القراءة سُنَّة في الصلاة وغيرها .

وفي صفتها عن أحمد روايتان :

إحدهما : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم ، رواها أبو بكر المروزي .

والثانية : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم ، رواها حنبل .

وقد بيَّنَّا معنى "أعوذ" في أول الكتاب [ص : 7] ، وشرحنا اشتقاق الشيطان في [البقرة : 14] ، والرجيم في [آل عمران : 36] .

قوله تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين امنوا ﴾ في المراد بالسلطان قولان :

أحدهما : أنه التسلُّط .

ثم فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ليس له عليهم سلطان بحال ، لأن الله صرف سلطانه عنهم بقوله : ﴿ إِن عبادي ليس لك عليهم سلطان إِلاَّ من اتَّبعك من الغاوين ﴾ [الحجر 42] .

والثاني : ليس له عليهم سلطان ، لاستعاذتهم منه .

والثالث : ليس له قُدْرة على أن يحملهم على ذنْب لا يُغْفَر .

والثاني : أنه الحُجَّة .

فالمعنى : ليس له حُجَّة على ما يدعوهم إِليه من المعاصي ، قاله مجاهد .

فأما قوله : ﴿ يَتَوَلَّوْنه ﴾ معناه : يطيعونه .

وفي هاء الكناية في قوله : ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ قولان :

أحدهما : أنها ترجع إِلى الله تعالى ، قاله مجاهد ، والضحاك .

والثاني : أنها ترجع إِلى الشيطان ، فالمعنى : الذين هم من أجله مشركون بالله ، وهذا كما يقال : صار فلان بك عالماً ، أي : من أجلك ، هذا قول ابن قتيبة .

وقال ابن الأنباري: المعنى: والذين هم باشراكهم إبليسَ في العبادة، مشركون بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وإِذا بدّلنا آية مكان آية ﴾ سبب نزولها أن الله تعالى كان ينزِّل الآية، فيُعمَل بها مدة، ثم ينسخها، فقال كفار قريش: والله ما محمد إِلاَّ يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، ويأتيهم غداً بما هو أهون عليهم منه، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والمعنى: إِذا نسخنا آية بآية، إِما نسخ الحكم والتلاوة، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ﴿ والله أعلم بما يُنزِل ﴾ من ناسخٍ ومنسوخ، وتشديد وتخفيف، فهو عليم بالمصلحة في ذلك ﴿ قالوا إِنما أنت مفترٍ ﴾ أي: كاذب ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ فيه قولان:

أحدهما: لا يعلمون أن الله أنزله.

والثاني: لا يعلمون فائدة النسخ.

قوله تعالى: ﴿ قل نزَّله ﴾ يعني: القرآن ﴿ روح القُدُس ﴾ يعني: جبريل.

وقد شرحنا هذا الاسم في [البقرة: 87].

قوله تعالى: ﴿ مِن ربك ﴾ أي: من كلامه ﴿ بالحق ﴾ أي: بالأمر الصحيح ﴿ ليثبِّت الذين آمنوا ﴾ بما فيه من البيِّنات فيزدادوا يقيناً.

قوله تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون ﴾ يعني: قريشاً ﴿ إِنما يعلِّمه بشر ﴾ أي: آدمي، وما هو من عند الله.

وفيمن أرادوا بهذا البشر تسعة أقوال :

أحدها : أنه كان لبني المغيرة غلام يقال له "يعيش" يقرأ التوراة ، فقالوا : منه يتعلم محمد ، فنزلت هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

وقال عكرمة في رواية : كان هذا الغلام لبني عامر بن لؤي ، وكان رومياً .

(156/444)

والثاني : أنه فتى كان بمكة يسمى "بلعام" وكان نصرانياً أعجمياً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعلِّمه ، فلما رأى المشركون دخوله إليه وخروجه ، قالوا ذلك ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنه نزلت في كاتب كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيملى عليه "سميع عليم" فيكتب هو "عزيز حكيم" أو نحو هذا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أي ذلك كتبت فهو كذلك" ، فافتتن ، وقال : إِن محمداً يَكِل ذلك إِليَّ فأكتب ما شئت ، روي عن سعيد بن المسيب .

والرابع : أنه غلام أعجمي لامرأة من قريش يقال له : "جابر" ، وكان جابر يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتعلم منه ، فقال المشركون : إِنما يتعلم محمد من هذا ، قاله سعيد بن

جبير.

والخامس: أنهم عَنَوا سلمان الفارسي، قاله الضحاك؛ وفيه بُعْدٌ من جهة أن سلمان أسلم بالمدينة، وهذه [الآية] مكية.

والسادس: أنهم عَنَوا به رجلاً حدّاداً كان يقال "يُحُنّس" النّصراني، قاله ابن زيد.

والسابع: أنهم عَنَوا به غلاماً لعامر بن الحضرمي، وكان يهودياً أعجمياً، واسمه "يسار"، ويكنى "أبا فُكَيهة"، قاله مقاتل.

وقد روي عن سعيد بن جبير نحو هذا، إلاَّ أنه لم يقل: إنه كان يهودياً.

والثامن: أنهم عَنَوا غلاماً أعجمياً اسمه "عايش" وكان مملوكاً لحويطب، وكان قد أسلم، قاله الفراء، والزجاج.

والتاسع: أنهما رجلان، قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: "يسار" وللآخر "جبر" وكانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن الإنجيل، فربما مرَّ بهما النبي صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن، فيقف يستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما.

قال ابن الأنباري: فعلى هذا القول، يكون البشر واقعاً على اثنين، والبشر من أسماء الأجناس، يعبّر عن اثنين، كما يعبر "أحد" عن الاثنين والجميع، والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى : ﴿ لسان الذي يُلحِدون إلِيه أعجمي ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبوعمرو ، وابن عامر ، وعاصم : "يُلحِدون" بضم الياء وكسر الحاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي : "يَلحَدون" بفتح الياء والحاء .

فأما القراءة الأولى ، فقال ابن قتيبة : "يُلحدون" أي : يميلون إِليه ، ويزعمون أنه يعلِّمه ، وأصل الإِلحاد المَيْل .

وقال الفراء : "يُلحِدون" بضم الياء : يعترضون ، ومنه قول : ﴿ ومَنْ يُرِدْ فيه بالحادٍ بظلم ﴾ [الحج : 25] أي : باعتراض ، "ويَلحَدون" بفتح الياء : يميلون .

وقال الزجاج : يَلحدون إِليه ، أي : يُميلون القول فيه أنه أعجمي .

قال ابن قتيبة : لا يكاد عوام الناس يفرِّقون بين العجمي والأعجمي ، والعربيّ والأعرابي ، فالأعجمي : الذي لا يُفصح وإِن كان نازلا بالبادية ، والعجمي : منسوب إِلى العجم وإِن كان فصيحاً ؛ والأعرابي : هو البدوي ، والعربي : منسوب إِلى العرب وإِن لم يكن بدوياً .

قوله تعالى : ﴿ وهذا لسانٌ ﴾ يعني : القرآن ، ﴿ عربي ﴾ قال الزجاج : أي : أن صاحبه يتكلم بالعربية .

قوله تعالى : ﴿ إِنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ أي : الذين إِذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إِلاَّ الله ، كذَّبوا بها ، ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ أي : أن الكذب نعت

لازم لهم ، وعادة من عاداتهم ، وهذا ردّ عليهم إِذ قالوا : ﴿ إِنما أنت مُفْترٍ ﴾ [النحل : 101] .

وهذه الآية من أبلغ الزجر عن الكذب ، لأنه خُص به مَن لا يؤمن .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كفر بالله من بعد إِيمانه ﴾ قال مقاتل : نزلت في عبد الله بن سعد بن أَبي سرح القرشي ، ومِقْيَس بن صُبابة ، وعبد الله بن أنس بن خَطَل ، وطعمة بن أُبيرِق ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، وقيس بن الفاكه المخزومي .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ من أُكره ﴾ فاختلفوا فيمن نزل على أربعة أقوال .

(158/444)

أحدها : أنه نزل في عمار بن ياسر ، أخذه المشركون فعذّبوه ، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : أنه لما نزل قوله : ﴿ إِن الذين توَفّاهُمُ الملائكة ظالمي أنفسهم . . .

﴾ إِلى آخر الآيتين اللتين في سورة النساء [96 ، 97] كتب بها المسلمون الذين بالمدينة إِلَى من كان بمكة ، فخرج ناس ممن أقرّ بالإِسلام ، فاتّبعهم المشركون ، فأدركوهم ، فأكرهوهم حتى أعطوا الفتنة ، فنزل ﴿ إِلاَّ من أُكره وقلبه مطمئن بالإِيمان ﴾ ، رواه

عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثالث : أنه نزل في عياش بن أبي ربيعة ، كان قد هاجر فحلفت أُمُّه ألاَّ تستظل ولا تشبع من طعام حتى يرجع ، فرجع إِليها ، فأكرهه المشركون حتى أعطاهم بعض ما يريدون ، قاله ابن سيرين .

والرابع : أنه نزل في جبر ، غلام ابن الحضرمي ، كان يهودياً فأسلم ، فضربه سيِّده حتى رجع إِلى اليهودية ، قاله مقاتل .

وأما قوله : ﴿ ولكنْ مَن شرح بالكفر صدراً ﴾ فقال مقاتل : هم النفر المسَمَّوْن في أول الآية .

فأما التفسير ، فاختلف النحاة في قوله : ﴿ من كفر ﴾ وقوله : ﴿ ولكن من شرح ﴾ فقال الكوفيون : جوابهما جميعاً في قوله : ﴿ فعليهم غضب ﴾ ، فقال البصريون : بل قوله : ﴿ من كفر ﴾ مرفوع بالرد على ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ .

قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون خبرُ ﴿ مَن كفر ﴾ محذوفاً ، لوضوح معناه ، تقديره : من كفر بالله ، فالله عليه غضبان .

قوله تعالى : ﴿ وقلبه مطمئن بالإِيمان ﴾ أي : ساكن إِليه راضٍ به .

﴿ ولكنْ مَن شرح بالكفر صدراً ﴾ قال قتادة : من أتاه بايثار واختيار .

وقال ابن قتيبة : من فتح له صدره بالقبول .

وقال أبو عبيدة : المعنى : من تابعته نفسه ، وانبسط إِلى ذلك ، يقال : ما ينشرح صدري بذلك ، أي : ما يطيب .

وجاء قوله : ﴿ فعليهم غضب ﴾ على معنى الجميع ، لأن "مَنْ" تقع على الجميع .

فصل

الإِكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها .

(159/444)

وفي الإِكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان :

إِحداهما : أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إِن لم يفعل ما أُمر به .

والثانية : أن التخويف لا يكون إِكراها حتى يُنَال بعذاب .

وإِذ ثبت جواز "التَّقِيَة" فالأفضل ألاّ يفعل ، نص عليه أحمد ، في أسير خُيِّر بين القتل وشرب الخمر ، فقال : إِن صبر على القتل فله الشرف ، وإِن لم يصبر ، فله الرخصة ، فظاهر هذا ، الجوازُ .

وروى عنه الأثرم أنه سئل عن التَّقيَّة في شرب الخمر فقال : إِنما التقية في القول .

فظاهر هذا أنه لا يجوز له ذلك .

فأما إِذا أُكره على الزنا ، لم يجزله الفعل ، ولم يصح إِكراهه ، نص عليه أحمد .

فإن أُكره على الطلاق ، لم يقع طلاقه ، نص عليه أحمد ، وهو قول مالك ، والشافعي .

وقال أبو حنيفة : يقع .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم استحبَّوا الحياة الدنيا ﴾ في المشار إِليه بذلك قولان :

أحدهما : أنه الغضب والعذاب ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه شرح الصدر للكفر .

و"استحبُّوا" بمعنى : أحبوا الدنيا واختاروها على الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وأن الله ﴾ أي : وبأن الله لا يريد هدايتهم .

وما بعد هذا قد سبق شرحه [البقرة : 7 ، والنساء : 155 ، والمائدة : 67] إِلى قوله :

﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ ففيه قولان :

أحدهما : الغافلون عما يراد بهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : عن الآخرة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ لا جرم ﴾ قد شرحناها في [هود : 22] .

قوله تعالى : ﴿ ثم إِنَّ ربك للذين هاجروا مِنْ بعد ما فُتنوا ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال :

أحدها : أنها نزلت فيمن كان يُفْتَن بمكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

(160/444)

والثاني : أن قوماً من المسلمين خرجوا للهجرة ، فلحقهم المشركون فأعطَوهم الفتنة ، فنزل فيهم ﴿ ومِنَ الناس من يقول آمنّا بالله فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ [العنكبوت 10] ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فخرجوا ، وأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى من نجا ، وقُتِل من قتل ، فنزلت فيهم هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان الشيطان قد أزلّه حتى لحق بالكفار ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُقتَل يوم الفتح ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا مروي عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وفيه بُعد ، لأن المشار إليه وإن كان [قد] عاد إلى الإسلام ، فإن الهجرة انقطعت بالفتح .

والرابع : أنها نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة ، وأبي جندل بن سهيل عمرو ، وعبد الله بن أَسيد الثقفي ، قاله مقاتل .

فأما قوله تعالى : ﴿ من بعد ما فُتنوا ﴾ فقرأ الأكثرون : "فُتنوا" بضم الفاء وكسر التاء ، على معنى : من بعد ما فتنهم المشركون عن دينهم .

قال ابن عباس : فُتنوا بمعنى : عُذِّبوا .

وقرأ عبد الله بن عامر : "فَتَنوا" بفتح الفاء والتاء ، على معنى : من بعد ما فتنوا الناس عن دين الله ، يشير إِلى من أسلم من المشركين .

وقال أبو علي : من بعد ما فَتنوا أنفسهم باظهار ما أظهروا للتقية ، لأن الرخصة لم تكن نزلت بعدُ .

قوله تعالى : ﴿ ثم جاهدوا ﴾ أي : قاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وصبروا ﴾ على الدين والجهاد .

﴿ إِن ربك من بعدها ﴾ في المكنيِّ عنها أربعة أقوال :

أحدها : الفتنة ، وهو مذهب مقاتل .

والثاني : الفَعلة التي فعلوها ، قاله الزجاج .

والثالث : المجاهدة ، والمهاجرة ، والصبر .

والرابع : المهاجرة .

ذكرهما واللَّذَين قبلهما ابن الأنباري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال النسفي :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل ﴾

بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وترك الظلم وإيصال كل ذي حق إلى حقه ﴿ والإحسان ﴾ إلى من أساء إليكم أو هما الفرض والندب لأن الفرض لا بد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب ﴿ وَإِيتَآءِ ذِى القربى ﴾ وإعطاء ذي القرابة وهو صلة الرحم ﴿ وينهى عَنِ الفحشآء ﴾ عن الذنوب المفرطة في القبح ﴿ والمنكر ﴾ ما تنكره العقول ﴿ والبغي ﴾ طلب التطاول بالظلم والكبر ﴿ يَعِظُكُمُ ﴾ حال أو مستأنف ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون بمواعظ الله .

وهذه الآية سبب إسلام عثمان بن مظعون فإنه قال : ما كنت أسلمت إلا حياء منه عليه السلام لكثرة ما كان يعرض علي الإسلام ، ولم يستقر الإيمان في قلبي حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

وقال أبو جهل : إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق وهي أجمع آية في القرآن للخير والشر ، ولهذا يقرءُها كل خطيب على المنبر في آخر كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهي .

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عاهدتم ﴾ هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على

الإسلام ﴿ إِنَّ الذين يُبايعونك إِنَّما يُبايِعون الله ﴾ [الفتح : 10] ﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيمان ﴾ أيمان البيعة ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ بعد توثيقها باسم الله .

و"أكد" و"وكد" لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل منها ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ شاهداً ورقيباً لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من البر والحنث فيجازيكم به

(162/444)

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ ﴾ في نقض الأيمان ﴿ كالتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿ أنكاثا ﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فتله .

قيل : هي ريطة وكانت حمقاء تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقض ما غزلن ﴿ تَتَّخِذُونَ أيمانكم ﴾ حال ك﴿ أنكاثا ﴾ ﴿ دَخَلاً ﴾ أحد مفعولي ﴿ تتخذ ﴾ أي ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ أي مفسدة وخيانة ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش ﴿ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ هي أزيد عدداً وأوفر مالاً من أمة من جماعة المؤمنين .

﴿ هي أربى ﴾ مبتدأ وخبر ، في موضع الرفع صفة ل﴿ أمة ﴾ و﴿ أمة ﴾ فاعل ﴿

تكون ﴾ وهي تامة و ﴿ هي ﴾ ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ﴾ الضمير للمصدر أي إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من أيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب ، وفيه تحذير عن مخالفة ملة الإسلام ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ حنيفة مسلمة ﴿ ولكن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يوم القيامة فتجزون به .

﴿ وَلاَ تَتَّخِذُواْ أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ كرر النهي عن اتخاذ الإيمان دخلاً بينهم تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظمه ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها .

وإنما وحدت القدم ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه فكيف بأقدام كثيرة ﴿ وَتَذُوقُواْ السوء ﴾ في الدنيا ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ بصدودكم

﴿ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾

وخروجكم عن الدين ، أو بصدكم غيركم لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة

(164/444)

﴿ وَلاَ تَشْتَرُوا ﴾ ولا تستبدلوا ﴿ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ عرضاً من الدنيا يسيراً كأن قوماً ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله ﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِندَكُمْ ﴾ من أعراض الدنيا ﴿ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ ﴾ من خزائن رحمته ﴿ بَاقٍ ﴾ لا ينفد ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ وبالنون : مكي وعاصم ﴿ الذين صَبَرُوا ﴾ على أذى المشركين ومشاق الإسلام ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ "من" مبهم يتناول النوعين إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ ليعم الموعد النوعين ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ شرط الإيمان لأن أعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على أن العمل ليس من الإيمان ﴿

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً ﴾ أي في الدنيا لقوله ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله ﴿ فآتاهم الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة ﴾ [آل عمران : 148] وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً فظاهر ، وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى .

وأما الفاجر فأمره بالعكس ، إن كان معسراً فظاهر ، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه .

وقيل : الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله ، وصدق المقام مع الله ، وصدق الوقوف على أمر الله ، والإعراض عما سوى الله

(165/444)

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان ﴾ فإذا أردت قراءة القرآن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل لأنها سبب له ، والفاء للتعقيب إذ القراءة المصدرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور ﴿ مِنَ الشيطان ﴾ يعني إبليس ﴿ الرجيم ﴾ المطرود أو الملعون .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أعوذ

بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لي : "قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام" ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ ﴾ لإبليس ﴿ سلطان ﴾ تسلط وولاية ﴿ على الذين ءَامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه ﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ يتخذونه ولياً ويتبعون وساوسه ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ الضمير يعود إلى ربهم أو إلى الشيطان أي بسببه ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ وبالتخفيف : مكي وأبو عمرو ﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ هو جواب ﴿ إذاً ﴾ .

وقوله : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ اعتراض ، كانوا يقولون إن محمداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون ، ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحكمة في ذلك

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس ﴾ أي جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال "حاتم الجود" ؛ والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم ﴿ مِن رَّبِّكَ

﴿ من عنده وأمره ﴾ ﴿ بالحق ﴾ حال أي نزله ملتبساً بالحكمة ﴿ لِيُثَبِّتَ الذين ءَامَنُواْ ﴾ ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا ، والحكمة لأنه حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب ﴿ وَهُدًى وبشرى ﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ﴿ ليثبت ﴾ والتقدير تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارة ﴿ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلّمُهُ بَشَرٌ ﴾ أرادوا به غلاماً كان لحويطب قد أسلم وحسن إسلامه ، اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب ، أو هو جبر غلام رومي لعامر بن الحضرمي ، أو عبدان : جبر ، ويسار ، كانا يقرآن التوراة والإنجيل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقرآن ، أو سلمان الفارسي ﴿ لّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ وبفتح الياء والحاء : حمزة وعلي ﴿ أَعْجَمِىٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمي غير بيّن ، وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم ، وهذه الجملة أعني ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم .

واللسان اللغة .

ويقال : ألحد القبر ولحده وهو ملحد وملحود إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق

منه ، ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا : ألحد فلان في قوله ، وألحد في دينه ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها

(167/444)

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ أي القرآن ﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله ﴾ ما داموا مختارين الكفر ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة على كفرهم ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الكذب ﴾ على الله ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لأنه لا يترقب عقاباً عليه وهو رد لقولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ أي وأولئك ﴿ هُمُ الكاذبون ﴾ على الحقيقة الكاملون في الكذب ، لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب أو وأولئك هم الكاذبون في قولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ جوزوا أن يكون ﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ شرطاً مبتدأ وحذف جوابه لأن جواب من شرح دال عليه كأنه قيل : من كفر بالله فعليهم غضب ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ ساكن به . ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بالكفر صَدْرًا ﴾ أي طاب به نفساً واعتقده ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وأن يكون بدلاً من ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ على أن يجعل ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ اعتراضاً بين البدل والمبدل منه .

والمعنى : إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الإفتراء ثم قال : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ﴾ وأن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو ﴿ أولئك ﴾ أي ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون ، أو من خبر الذي هو ﴿ الكاذبون ﴾ أي وأولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه وأن ينتصب على الذم .

(168/444)

رُوى أنَّ ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا ، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان منهم عمار ، وأما أبواه ياسر وسمية فقد قتلا وهما أول قتيلين في الإسلام فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عماراً كفر فقال : " كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنة إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه " فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : " مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " وما فعل أبو عمار أفضل لأن في الصبر على القتل إعزازاً للإسلام

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم ﴿ بِأَنَّهُمُ استحبوا ﴾

آثروا ﴿ الحياة الدُّنْيَا علىوا الآخِرَة ﴾ أي بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة ﴿ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ ما داموا مختارين للكفر ﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ فلا يتدبرون ولا يصغون إلى المواعظ ولا يبصرون طريق الرشاد ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الغافلون ﴾ أي الكاملون في الغفلة لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ "يدل" على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ﴿ لِلَّذِينَ هاجروا ﴾ من مكة أي أنه لهم لا عليهم يعني أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محمياً منفوعاً غير مضرور ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر ﴿ فَتَنوا ﴾ : شامي أي بعد ما عذبوا المؤمنين ثم أسلموا ﴿ ثُمَّ جاهدوا ﴾ المشركين بعد الهجرة ﴿ وَصَبَرُواْ ﴾ على الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ لا يعذبهم على ما قالوا في حالة الإكراه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 297 . 301 ﴾

وقال البيضاوي :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بالعدل ﴾

بالتوسط في الأمور اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك ، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير . ﴿ والإحسان ﴾ إحسان الطاعات ، وهو إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

﴿ وَإِيتَآءِ ذِي القربى ﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة . ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها . ﴿ والمنكر ﴾ ما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية .

﴿ والبغي ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم ، فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوة الوهمية ، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث ، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : هي أجمع آية في القرآن للخير والشر . وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه ، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة

للعالمين ، ولعل إيرادها عقب قوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَاب ﴾ للتنبيه عليه . ﴿ يَعِظُكُمُ ﴾ بالأمر والنهي والميز بين الخير والشر . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون .

(170/444)

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله ﴾ يعني البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ وقيل كل أمر يجب الوفاء به ولا يلائمه قوله : ﴿ إِذَا عاهدتم ﴾ وقيل النذور . وقيل الإيمان بالله ﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيمان ﴾ أي أيمان البيعة أو مطلق الأيمان . ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ، ومنه أكد بقلب الواو همزة ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ شاهداً بتلك البيعة فإن الكفيل مراع لحال المكفول به رقيب عليه ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من نقض الأيمان والعهود .

(171/444)

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ ما غزلته ، مصدر بمعنى المفعول . ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ متعلق ب ﴿ نَقَضَتْ ﴾ أي نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام . ﴿ أنكاثا ﴾

طاقات نكث فتلها جمع نكث ، وانتصابه على الحال من ﴿ غَزْلَهَا ﴾ أو المفعول الثاني لنقضت فإنه بمعنى صيرت ، والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه . وقيل هي ريطة بنت سعد بن تيم القرشية فإنها كانت خرقاء تفعل ذلك . ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ حال من الضمير في ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ ﴾ ، أو في الجار الواقع موقع الخبر أي لا تكونوا متشبهين بامرأة هذا شأنها ، متخذي أيمانكم مفسدة ودخلاً بينكم ، وأصل الدخل ما يدخل الشيء ولم يكن منه . ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ لأن تكون جماعة أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة ، والمعنى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش ، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم . ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ ﴾ الضمير لأنه تكون أمة لأن بمعنى المصدر أي يختبركم بكونهم أربى لينظر . أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم . وقيل الضمير للرباء وقيل للأمر بالوفاء . ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب .

﴿ وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ متفقة على الإسلام . ﴿ ولكن يُضِلُّ مَن يَشَآء ﴾ بالخذلان . ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ بالتوفيق . ﴿ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ سؤال تبكيت ومجازاة .

﴿ وَلاَ تَتَّخِذُواْ أيمانكم دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمين تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي. ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ ﴾ أي عن محجة الإسلام. ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ عليها والمراد أقدامهم، وإنما وحد ونكر للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة.

﴿ وَتَذُوقُواْ السوء ﴾ العذاب في الدنيا. ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ بصدكم عن الوفاء أو صدكم غيركم عنه، فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره. ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة.

﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ الله ﴾ ولا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله صلى الله عليه وسلم. ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ عرضاً يسيراً، وهو ما كانت قريش يعدون لضعفاء المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد. ﴿ إِنَّمَا عِندَ الله ﴾ من النصر والتغنيم في الدنيا والثواب في الآخرة. ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما يعدونكم. ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿ مَا عِندَكُمْ ﴾ من أعراض الدنيا. ﴿ يَنفَدُ ﴾ ينقضي ويفنى. ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ من خزائن رحمته. ﴿ بَاقٍ ﴾ لا ينفد، وهو تعليل للحكم السابق ودليل على أن نعيم أهل الجنة باق. ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صَبَرُواْ أَجْرَهُمْ ﴾ على الفاقة وأذى الكفار، أو على مشاق التكاليف. وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون. ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات، أو بجزاء أحسن من أعمالهم.

﴿ مَنْ عَمِلَ صالحا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ﴾ بينه بالنوعين دفعاً للتخصيص. ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب. ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً ﴾ في الدنيا يعيش عيشاً طيباً فإنه إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً يطيب بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر فإنه إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه. وقيل في الآخرة. ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الطاعة.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان ﴾ إذا أردت قراءته كقوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ ﴾ ﴿ فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ فاسأل الله أن يعيذك من وساوسه لئلا يوسوسك في القراءة، والجمهور على أنه للاستحباب. وفيه دليل على أن المصلي يستعيذ في كل ركعة لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً، وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه إيذان بأن الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل. وعن ابن مسعود (قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال: " قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ " ﴾

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ ﴾ تسلط وولاية ﴿ على الذين ءَامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرون على ندور وغفلة ولذلك أمروا بالاستعاذة فذكر السلطنة بعد الأمر باستعاذة لئلا يتوهم منه أن له سلطاناً .

﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ يحبونه ويطيعونه . ﴿ والذين هُم بِهِ ﴾ بالله أو بسبب الشيطان . ﴿ مُشْرِكُونَ ﴾ .

(174/444)

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً . ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ من المصالح فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه ، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "يُنزل" بالتخفيف . ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الكفرة . ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه ، وجواب ﴿ إِذَا ﴾ ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ، اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم ويجوز أن يكون حالاً . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس ﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام ، وإضافة الروح إلى القدس وهو الطهر كقولهم : حاتم الجود وقرأ ابن كثير "رُوحُ القدس" بالتخفيف وفي ﴿ ينزل ﴾ و ﴿ نزله ﴾ تنبيه على أن إنزاله مدرجاً على حسب المصالح بما يقتضي التبديل . ﴿ مّن رّبّكَ بالحق ﴾ ملتبساً بالحكمة . ﴿ لِيُثَبّتَ الذين ءَامَنُواْ ﴾ ليثبت الله الذين آمنوا على الإيمان بأنه كلامه ، وأنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم . ﴿ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه ، وهما معطوفان على محل ﴿ لِيُثَبّتَ ﴾ أي تثبيتاً وهداية وبشارة ، وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم وقرىء ﴿ لِيُثَبّتَ ﴾ بالتخفيف .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلّمُهُ بَشَرٌ ﴾ يعنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي . وقيل جبراً ويساراً كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه . وقيل عائشاً غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب . وقيل سلمان الفارسي . ﴿ لّسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه ، مأخوذ من لحد القبر .

وقرأ حمزة والكسائي يلحدون بفتح الياء والحاء ، لسان أعجمي غير بين . ﴿ وهذا ﴾ وهذا القرآن . ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة ، والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم ، وتقريره يحتمل وجهين أحدهما : أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون ما تلقفه منه . وثانيهما : هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يتلقف منه اللفظ ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة ، فكيف تعلم جميع ذلك من غلام سوقي سمع منه في بعض أوقات مروره عليه كلمات أعجمية لعلهما لم يعرفا معناها ، وطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ لا يصدقون أنها من عند الله . ﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ الله ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة . وقيل إلى الجنة . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة ، هددهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أماط شبهتهم ورد طعنهم فيه ، ثم قلب الأمر عليهم فقال :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه .

﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى الذين كفروا أو إلى قريش . ﴿ هُمُ الكاذبون ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة ، أو الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب ، أو الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة ، أو الكاذبون في قولهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ ﴿ إِنَّمَا يُعَلّمُهُ بَشَرٌ ﴾ .

(177/444)

﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ بدل من الذين لا يؤمنون وما بينهما اعتراض ، أو من ﴿ أولئك ﴾ أو من ﴿ الكاذبون ﴾ ، أو مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ ويجوز أن ينتصب بالذم وأن تكون من شرطية محذوفة الجواب دل عليه قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر ، استثناء متصل لأن الكفر لغة يعم القول والعقد كالإيمان . ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ لم تتغير عقيدته ، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب . ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بالكفر صَدْرًا ﴾ اعتقده وطاب به نفساً . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مّنَ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إذ لا أعظم من جرمه . روي " أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد ، فربطوا سمية بين بعيرين وجيء بحربة في

قبلها وقالوا : أنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت ، وقتلوا ياسراً وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرهاً فقيل : يا رسول الله إن عماراً كفر فقال : كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار : رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول : ما لك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " . وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه لما روي (أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فما تقول فيَّ فقال : أنت أيضاً فخلاه ، وقال للآخر ما تقول في محمد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال فما تقول في ؟ قال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

" أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له " ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد . ﴿ بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا على ﴾ بسبب أنهم آثروها عليها . ﴿ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ أي الكافرين في علمه إلى ما

يوجب ثبات الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ .

﴿ أُولَئِكَ الذين طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ فأبت عن إدراك الحق والتأمل فيه . ﴿ وأولئك هُمُ الغافلون ﴾ الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الحالة الراهنة عن تدبر العواقب .

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ أي عذبوا كعمار رضي الله تعالى عنه بالولاية والنصر ، و﴿ ثُمَّ ﴾ لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك ، وقرأ ابن عامر فتنوا بالفتح أي من بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي أكره مولاه جبراً حتى ارتد ثم أسلم وهاجر . ﴿ ثُمَّ جاهدوا وَصَبَرُواْ ﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر . ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ ، لما فعلوا قبل . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ منعم عليهم مجازاة على ما صنعوا بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 416 . 423 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾

يعني بالعدل : فعل الواجبات ، وبالإحسان : المندوبات ، وذلك في حقوق الله تعالى وفي حقوق المخلوقين ، قال ابن مسعود : هذه أجمع آية في كتاب الله تعالى ﴿ وَإِيتَآءِ ذِي القربى ﴾ الإيتاء مصدر آتى بمعنى أعطى ، وقد دخل ذلك في العدل والإحسان ، ولكنه جرده بالذكر اهتماماً به ﴿ وينهى عَنِ الفحشاء ﴾ قيل : يعني الزنا ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ والمنكر ﴾ هو أعم من الفحشاء ، لأنه يعم جميع المعاصي ﴿ والبغي ﴾ يعني الظلم .

﴿ وَلاَ تنقُضُواْ الأيمان ﴾ هذا في الأيمان التي في الوفاء بها خير ، وأما ما كان تركه أولى ، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير منه ، كما جاء في الحديث ، أو تكون الأيمان هنا ما يحلفه الإنسان في حق غيره ، أو معاهدة لغيره ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ أي رقيباً ومتكفلاً بوفائكم بالعهد ، وقيل : إن هذه الآية نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : فيما كان بين العرب من حلف في الجاهلية ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ شبّه الله من يحلف ولم يفِ بيمينه بالمرأة التي تغزل غزلاً قوياً ثم تنقضه .

ورُوي أنه كان بمكة امرأة حمقاء تسمى ريطة بنت سعد ، كانت تفعل ذلك وبها وقع التشبيه ، وقيل إنما شبه بامرأة غير معينة ﴿ أنكاثا ﴾ جمع نكث ، وهو ما ينكث أن ينقض ، وانتصابه على الحال ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ الدخل الدغل ، وهو قصد الخديعة ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أن في موضع المفعول من أجله : أي بسبب أن تكون أمة ، ومعنى أربى : أكثر عدداً أو أقوى ، ونزلت الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى ، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها وغدرت بالأولى وحالفت الثانية ، وقيل : الإشارة بالأربى هنا إلى كفّار قريش ؛ إذ كانوا حينئذٍ أكثر من المسلمين . ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ﴾ الضمير للأمر بالوفاء ، أو لكون أمة أربى من أمة ، فإن ذلك يظهر من يحافظ على الوفاء أولاً .

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ استعارة في الرجوع عن الخير إلى الشر ، وإنما أفرد القدم ونكّرها : لاستعظام الزلل في قدم واحدة فكيف في أقدام كثيرة ﴿ وَتَذُوقُواْ السوء ﴾ يعني في الدنيا ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ يدل على أن الآية فيمن بايع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني في الآخرة .

[البقرة : 41] الثمن القليل عرض الدنيا ، وهذا نهي لمن بايع النبي صلى الله عليه وسلم أن ينكث ، لأجل ضعف الإسلام حينئذٍ وقوة الكفّار ، ورجاء الانتفاع في الدنيا إن رجع عن البيعة ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ أي يفنى .

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياوة طَيِّبَةً ﴾ يعني في الدنيا ، قال ابن عباس : هي الرزق الحلال ، وقيل : هي القناعة ، وقيل : هي حياة الآخرة ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله ﴾ ظاهر اللفظ أن يستعاذ بعد القراءة ، لأن الفاء تقتضي الترتيب ، وقد شذ قوم فأخذوا بذلك ، وجمهور الأمة على أن الاستعاذة قبل القراءة ، وتأويل الآية : إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سلطان على الذين آمَنُواْ ﴾ أي ليس له عليهم سبيل ولا يقدر على إضلالهم

﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أي يتخذونه ولياً ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ الضمير لإبليس ، والباء سببية .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً ﴾ التبديل هنا النسخ ، كان الكفار إذا نسخت آية ، يقولون : هذا افتراء ولو كان من عند الله لم يبدل ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ جملة اعتراض بين الشرط وجوابه . وفيها رد على الكفار أي الله أعلم بما يصلح للعباد في وقت ثم ما يصلح لهم بعد ذلك ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس ﴾ يعني جبريل ﴿ بالحق ﴾ أي مع الحق في أوامره ونواهيه وأخباره ، ويحتمل أن يكون قوله بالحق بمعنى حقاً أو بمعنى أنه واجب النزول .

﴿ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ كان بمكة غلام أعجمي أسمه يعيش ، وقيل : كانا غلامين

اسم أحدهما جبر والآخر يسار ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس إليهما ويدعوهما إلى الإسلام ، فقالت قريش : هذان يعلمان محمداً ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ اللسان هنا بمعنى اللغة والكلام ، ويلحدون من ألحد إذا مال ، وقرئ بفتح الياء من لحد ، وهما بمعنى واحد ، وهذا ردّ عليهم فإن الشخص الذي أشاروا إليه يعلمه أعجمي اللسان ؛ وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة فلا يمكن أن يأتي به أعجمي .

(182/444)

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله لاَ يَهْدِيهِمُ الله ﴾ هذا في حق من علم الله منه أنه لا يؤمن كقوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 96] ، فاللفظ عام يراد به الخصوص ، كقوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة : 6] ، وقال ابن عطية : المعنى إن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بالله ، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخر ، تهكماً لتقبيح أفعالهم ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله ﴾ ردّ على قولهم : إنما أنت مفتر ؛ يعني : إنما يليق الكذب بمن لا يؤمن لأنه لا يخاف الله ، وأما من يؤمن بالله فلا يكذب عليه ﴿ وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ الإشارة إلى الذين لا يؤمنون بالله : أي هم الذين عادتهم الكذب لأنهم لا يبالون بالوقوع في المعاصي ، ويحتمل أن يكون المنسوب

إليهم قولهم إنما أنت مفتر .

﴿ مَن كَفَرَ بالله ﴾ الآية : من شرطية في موضع رفع بالابتداء ، وكذلك من في قوله من شرح ، لأنه تخصيص من الأول ، وقوله : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ : جواب على الأولى والثانية ، لأنهم بمعنى واحد أو يكون جواباً للثانية ، وجواب الأولى محذوف يدل عليه جواب الثانية ، وقيل : من كفر بدل من الذين لا يؤمنون أو من المبتدأ في قوله أولئك هم الكاذبون ، أو من الخبر ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ استثنى من قوله من كفر ، وذلك أن قوماً ارتدوا عن الإسلام ، فنزلت فيهم الآية ، وكان فيهم من أكره على الكفر فنطق بكلمة الكفر ، وهو يعتقد الإيمان منهم عمار بن ياسر ، وصهيب ، وبلال فعذرهم الله .

روي أن عمار بن ياسر شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع به من العذاب وما تسامح به من القول ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف تجد قلبك ؟ قال أجده مطمئناً بالإيمان ، قال فأجبهم بلسانك ، فإنه لا يضرك" وهذا الحكم في من أكره بالنطق على الكفر ، وأما الإكراه على فعل هو كفر كالسجود للصنم فاختلف هل تجوز الإجابة إليه أم لا ؟ فأجازه الجمهور ، ومنعه قوم وكذلك قال مالك : لا يلزم المكره يمين ولا

طلاق ولا عتق ولا شيء فيما بينه وبين الله ، ويلزمه ما كان من حقوق الناس ، ولا تجوز الإجابة إليه كالإكراه على قتل أحد أو أخذ ماله .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا ﴾ الإشارة إلى العذاب ، والباء للتعليل ، فعلل عذابهم بعلتين : إحداهما إيثارهم الحياة الدنيا ، والأخرى أن الله لا يهديهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ قرأ الجمهور فتنوا بضم الفاء : أي عذبوا فالآية على هذا في عمار وشبهه من المعذبين على الإسلام ، قرأ ابن عامر بفتح الفاء : أي عذاب المسلمين ، فالآية على هذا فيمن عذّب المسلمين ، ثم هاجر وجاهد كالحضرمي وأشباهه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ كرر إن ربك توكيداً ، والضمير في بعدها يعود على الأفعال المذكورة وهي الجهاد والصبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 160 . 163﴾

(184/444)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما استقصى سبحانه وتعالى في شرح الوعد والوعيد والرغبة والترهيب أتبعه بقوله :

﴿ إنّ الله ﴾ أي : الملك المستجمع لصفات الكمال ﴿ يأمر بالعدل ﴾ قال ابن عباس : في

بعض الروايات العدل شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ والإحسان ﴾ أداء الفرائض ، وقال في رواية أخرى : العدل خلع الأنداد والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحبّ للناس ما تحبّ لنفسك فإن كان مؤمناً أحببت له أن يزداد إيماناً وإن كان كافراً أحببت له أن يكون أخاك في الإسلام ، وقال في رواية ثالثة : العدل هو التوحيد والإحسان هو الإخلاص فيه وقال آخرون : يعني بالعدل في الأفعال والإحسان في الأقوال فلا تفعل إلا ما هو عدل ولا تقل إلا ما هو إحسان وأصل العدل المساواة في كل شيء من غير زيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر والإحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشرّ بأن تعفو عنه ، وعن الشعبي قال عيسى ابن مريم : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . وقيل : العدل الإنصاف ، والإنصاف أعدل من الاعتراف للمنعم بإنعامه ، والإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وعن محمد بن كعب القرظي قال : دعاني عمر بن عبد العزيز فقال : صف لي العدل ؟ فقلت : بخ سألت عن أمر جسيم كن لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً وللمثل منهم أخاً وللنساء كذلك . ﴿ وإيتاء ﴾ أي : ومن الإحسان إيتاء ﴿ ذي القربى ﴾ أي : القرابة القربى والبعدى فيندب أن تصلهم من فضل ما رزقك الله فإن لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودّد . وروى أبو سلمة عن أبيه أنّ رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، إنّ أهل هذا البيت ليكونون تجاراً فتنمى أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم" .

(185/444)

ولما أمر تعالى بالمكارم نهى عن المساوئ بقوله تعالى : ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ قال ابن عباس: ، أي : الزنا ، فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها . وقال غيره : الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الأقوال والأفعال المذمومة جميعها .

﴿ والمنكر ﴾ قال ابن عباس : يعني الشرك والكفر . وقال غيره : المنكر ما لا يعرف في شريعة أو سنة . ﴿ والبغي ﴾ هو الاستيلاء على الناس والتجبر عليهم قيل : إنّ أعجل المعاصي عقاباً البغي ، ولو أنّ جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغي . ونص تعالى على البغي مع دخوله في المنكر اهتماماً به ، كما بدأ بالفحشاء لذلك . وقال ابن قتيبة في هذه الآية : العدل استواء السرّ والعلانية والإحسان أن تكون سريرته خيراً من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي أن تكون علانيته أحسن من سريرته . وقال بعض العلماء : إنّ الله تعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ، ومن المنهيات ثلاثة أشياء ، فذكر العدل وهو الإنصاف والمساواة في الأقوال والأفعال ، وذكر في مقابلته الفحشاء وهو ما قبح من الأقوال

والأفعال ، وذكر الإحسان وهو أن يعفو عمن ظلمه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، وذكر في مقابلته المنكر وهو أن ينكر إحسان من أحسن إليه ، وذكر إيتاء ذي القربى ، والمراد به صلة القرابة والتودّد إليهم والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم . ولما كان هذا المذكور من أبلغ المواعظ نبه عليه بقوله تعالى :

﴿ يعظكم ﴾ أي : يأمركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الأول وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ومجانبة الثلاثة الأخيرة وهي الفحشاء والمنكر والبغي .

﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي : لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى . وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون

(186/444)

بالتشديد وفيه ادغام التاء في الأصل في الذال . وروى البيهقي في "شعب الإيمان" عن ابن مسعود أنه قال : أعظم آية في كتاب الله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم ﴾ (البقرة ،)

وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل : ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من

حيث لا يحتسب ﴾ (الطلاق : ،)

وأشدّ آية في كتاب الله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ (الزمر ،) الآية . وقال أهل المعاني : لما قال الله تعالى في الآية الأولى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ بيّن في هذه الآية المأمور به والمنهي عنه على سبيل الإجمال فما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر دينهم مما يجب أن يؤتى به أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية .

وعن قتادة : ليس من خلق حسن كان من أهل الجاهلية يعملون به ويعظونه ويخشونه إلا أمر الله تعالى به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه . وعن عكرمة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ إلى آخر الآية . فقال له : يا ابن أخي أعد عليّ فأعادها عليه ؟ فقال الوليد : والله إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر ، ولما تقرّرت هذه الجمل التي جمعت بجمعها المأمورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر والصدور ، وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب أنها بلغت من البلاغة مبلغاً يحصل به غاية السرور . ذكر بعض تلك الأقسام وبدأ بما هو مع جمعه أهمّ وهو الوفاء بالعهد بقوله

تعالى : ﴿ وأوفوا ﴾ أي : أوقعوا الوفاء الذي لا وفاء في الحقيقة غيره ﴿ بعهد الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي عاهدكم عليه بأدلة العقل من التوحيد والبيع والإيمان وغيرها من أصول الدين وفروعه ﴿ إذا عاهدتم ﴾ بتقلبكم له بإذعانكم لامتثاله ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ واحترز عن لغو اليمين بقوله تعالى : ﴿ بعد توكيدها ﴾ أي : تشديدها فتحنثوا فيها ، وفي ذلك دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لأنه أعم منه . وقرأ أبو عمرو بادغام الدال في التاء بخلاف عنه . ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ قد جعلتم الله ﴾ أي : الذي له العظمة كلها ﴿ عليكم كفيلاً ﴾ أي : شاهداً ورقيباً . وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام . وعن جابر رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع على الإسلام فقال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها ﴾ فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام . ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ يعلم ما تفعلون ﴾ من وفاء العهد ونقضه . ثم ضرب

الله تعالى

لنقض العهد مثلاً فقال:

(189/444)

﴿ ولا تكونوا ﴾ أي : في نقض العهد ﴿ كالتي نقضت غزلها ﴾ أي : ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول ﴿ من بعد قوّة ﴾ أي : إبرام وإحكام ، وقوله تعالى : ﴿ أنكاثاً ﴾ جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل . قال مقاتل : هذه إمرأة من قريش يقال لها : رائطة ، وقيل : ريطة وتلقب بجعواء وكان خرقاء حمقاء لها وسوسة اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل إصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن وكان هذا دأبها . وقال السدّي : كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة تغزل فإذا برمت غزلها نقضته . وقال مجاهد : نقضت حبلها بعد إبرامها إياه . وقال قتادة : لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم ما أحمق هذه ، وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده . وقال في قوله تعالى : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ خيانة وغدراً انتهى . والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد ، وقيل : الدخل والدغل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه وإنما كانوا

يفعلون ذلك ﴿ أن ﴾ أي : بسبب أن ﴿ تكون ﴾ أو مخافة أن تكون ، وتكون يجوز أن تكون تامّة فتكون ﴿ أمّة ﴾ أي : جماعة فاعلها وأن تكون ناقصة فتكون أمّة اسمها و﴿ هي ﴾ مبتدأ و﴿ أربى ﴾ أي : أكثر ﴿ من أمّة ﴾ خبره ، والجملة في محل نصب على الحال على الوجه الأوّل وفي موضع الخبر على الثاني ، وأربى مأخوذ من ربا الشيء يربو إذا زاد ، وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوّة وفي الشرف . قال مجاهد : وكانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأوّلين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك ﴿ إنما يبلوكم الله ﴾ الذي له الملك كله ، أي : يختبركم ﴿ به ﴾ أي : يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفاء وانخلاعكم عنه اعتماداً على كثرة أنصاركم وقلة أنصار من نقضتم عهده من المؤمنين أو غيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك

أن يعاقب

بالمخالفة فيضعف القويّ ويقلل الكثير ويكثر القليل . ﴿ وليبينن لكم ﴾ أي : إذا تجلى لفصل القضاء ﴿ يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي : إذا جازاكم على أعمالكم

بالثواب والعقاب، فاحذروا يوم العرض على مالك السموات والأرض، وأنّ من نوقش الحساب يهلك.

﴿ ولو شاء الله ﴾ أي: الملك الأعلى الذي لا أثر لأحد معه أن يجعلكم أمّة واحدة لا خلاف بينكم في أصول الدين ولا فروعه ﴿ لجعلكم أمّة واحدة ﴾ أي: متفقة على أمر واحد وهو دين الإسلام ﴿ ولكن ﴾ لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى: ﴿ يضلّ من يشاء ﴾ عدلاً منه تعالى لأنه تامّ الملك، ولو كان الذي أضله على أحسن الحالات ﴿ ويهدي ﴾ بفضله ﴿ من يشاء ﴾ ولو كان على أخس الحالات والأحوال فبذلك تكونون مختلفين لا يسئل عما يفعل سبحانه وتعالى ﴿ ولتسئلنّ عما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بعدله تعالى. ولما حذر سبحانه وتعالى عن نقض العهد والأيمان مطلقاً قال تعالى:

(191/444)

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً ﴾ أي: فساداً ومكراً وخديعة ﴿ بينكم ﴾ وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الأيمان وإلا لزم التكرار الخالي عن الفائدة في موضع واحد بل المراد نهي أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن بعض أيمان مخصوصة أقدموا عليها

فلهذا المعنى قال المفسرون : المراد نهي الذين بايعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد لأنّ قوله تعالى : ﴿ فتزلَّ ﴾ أي : فيكون ذلك سبباً لأن تزل ﴿ قدم ﴾ هي في غاية العظمة ﴿ بعد ثبوتها ﴾ أي : عن مركزها التي كانت به من دين أو دنيا فلا يصير لها قرار فتسقط عن مرتبتها لا يليق بنقض عهد قبله وإنما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان به وبشرائعه . تنبيه : فتزل منصوب بإضمار أن على جواب النهي وزلل القدم مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية أو سقط في ورطة بعد سلامة أو محنة بعد نعمة ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ أي : العذاب في الدنيا ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ صددتم ﴾ أي : أنفسكم ومنعتم بأيمانكم التي قد أردتم بها الإفساد وخفاء الحق .

﴿ عن سبيل الله ﴾ أي : دينه وذلك أنّ من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به ﴿ ولكم ﴾ مع ذلك ﴿ عذاب عظيم ﴾ أي : ثابت غير منفك إذا متم على ذلك ثم أكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى:

﴿ ولا تشتروا ﴾ أي : ولا تكلفوا أنفسكم لجاجاً وتركاً للنظر أن تأخذوا وتستبدلوا .

﴿ بعهد الله ﴾ الذي له الكمال كله ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ أي : من حطام الدنيا وإن كنتم ترونه كثيراً ثم علل قلته بقوله تعالى : ﴿ إنما عند الله ﴾ أي : الذي له الجلال والإكرام من ثواب الدارين ﴿ هو خير لكم ﴾ ولا يعدل عن الخير إلى غيره إلا لجوج ناقص العقل ، ثم شرط

علم خيريته لكونهم من ذوي العلم بقوله تعالى : ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي : إن كنتم من أهل العلم والتمييز فتعلمون فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك بقوله تعالى:

(192/444)

﴿ ما عندكم ﴾ أي : من متاع الدنيا ولذاتها ﴿ ينفد ﴾ أي : يفنى فصاحبه منغص العيش أشدّ ما يكون به اغتباطاً بانقطاعه ﴿ وما عند الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة ﴿ باق ﴾ أي : دائم . روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أحب دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى" . وقرأ ابن كثير باقي في الوقف بالياء ، والباقون بغير ياء . وأمّا في الوصل فالجميع بالتنوين . ﴿ وليجزينّ الذين صبروا ﴾ على الوفاء بما يرضيه من الأوامر والنواهي في السرّاء والضرّاء . ﴿ أجرهم ﴾ أي : ثواب صبرهم ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي : بجزاء أحسن من أعمالهم أو يجزيهم على أحسن أعمالهم وذلك لأنّ المؤمن قد يأتي بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شكّ أنّ الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها لا على فعل المباحات .

وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون قبل الجيم ، أي : ولنجزين نحن والباقون بالياء ، أي : وليجزين

الله . ثم إنه تعالى رغب المؤمنين في الإيمان بكل ما كان من شرائع الإسلام بقوله تعالى: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفار في استحقاق الثواب وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب . فإن قيل : من عمل صالحاً يفيد العموم فما فائدة من ذكر أو أنثى ؟

أجيب : بأنه ذكر دفعاً للتخصيص بأحد الفريقين . واختلف في قوله تعالى : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فقال سعيد بن جبير وعطاء : هي الرزق الحلال . وقال مقاتل : هي العيش في الطاعة . وقال الحسن : هي القناعة لأنّ عيش المؤمن في الدنيا وإن كان فقيراً أطيب من عيش الكافر وإن كان غنياً ، لأنّ المؤمن لما علم أنّ رزقه من عند الله تعالى وذلك بتقديره وتدبيره تعالى . وعرف أنّ الله تعالى محسن كريم حكيم يضع الأشياء في محلها فكان المؤمن راضياً بقضاء الله وبما قدّره له ورزقه إياه ، وعرف أنّ مصلحته في ذلك القدر الذي رزقه فاستراحت نفسه من الكدر والحرص فطاب عيشه بذلك ، وأمّا الكافر والجاهل بهذه الأصول فدائم الحرص على طلب الرزق فيكون أبداً في حزن وتعب وعناء وحرص في الدنيا ولا يناله من الرزق إلا ما قدّر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب

من غيره. وقال السدّي: الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر لأنّ المؤمن يستريح بالموت من كدّ الدنيا وتعبها. وقال مجاهد وقتادة: هي الجنة لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وملك بلا هلك، وسعادة بلا شقاوة. فأثبت بهذا أنّ الحياة الطيبة لا تكون إلا في الجنة، ولا مانع من أنّ المؤمن الكامل يحصل جميع ذلك ثم إنّ الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ولنجزينهم أجرهم﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي: من الطاعة وقد سبق تفسيره. ولما قال تعالى: ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أرشد به إلى العمل الذي به تخلص أعماله من الوسواس بقوله تعالى:

﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أي: أردت قراءته ﴿فاستعذ﴾ أي: إن شئت جهراً وإن شئت سرًّا. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: والإسرار أولى في الصلاة. وفي قول يجهر كما يفعل خارج الصلاة. ﴿بالله﴾ أي: سل الذي له الكمال كله أن يعيذك ﴿من الشيطان﴾ أي: المحترق باللعنة ﴿الرجيم﴾ أي: المطرود عن الرحمة من أن يصدّك بوساوسه عن اتباعه ويدخل في ذلك جميع المردة من الشياطين لأنّ لهم قدرة على إلقاء

الوسوسة في قلوب بني آدم بإقدار الله تعالى على ذلك. وقيل: المراد إبليس خاصة والاستعاذة بالله تعالى هي الاعتصام به، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمّته وظاهر الآية وجوب الاستعاذة، وإليه ذهب عطاء سواء كانت القراءة في الصلاة أم في غيرها، واتفق سائر الفقهاء على أنها سنة في الصلاة وغيرها والصارف لهذا الأمر عن الوجوب أحاديث كثيرة منها القراءة بدون ذكر تعوّذ كحديث البخاري وغيره عن أبي سعيد بن العلاء رضي الله تعالى عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما منعك أن تجيبني؟ قال: كنت أصلي. قال ألم يقل الله: ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ (الأنفال،)

ثم قال: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾". وفي رواية الموطأ أنه صلى الله عليه وسلم نادى أبيّاً وأنه قال له: "كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟ قال: أبيّ: فقرأت ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ حتى أتيت إلى آخرها"، وظاهر الآية يدل على أنّ الاستعاذة بعد القراءة وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة وإليه ذهب مالك وداود الظاهريّ. قالوا: لأنّ قارئ القرآن يستحق ثواباً

عظيماً وربما حصل الوسواس في قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أو لا ، فإذا استعاذ بعد القرءاة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصاً والذي ذهب إليه الأكثرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار أنّ الاستعاذة مقدّمة على القراءة قالوا : ومعنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله وتبعتهم على ذلك فلهذا قدّرت ذلك في الآية الكريمة ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ (المائدة ،)

ومثله من الكلام إذا أكلت فسمّ ، ، أي : إذا أردت أن تأكل فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا سافرت فتأهب ، أي : إذا أردت السفر فتأهب ، وأيضاً الوسوسة إنما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة إليها . ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان ، وكان ذلك يوهم أنّ للشيطان قدرة على التصرّف في إتيان الإنسان أزال الله تعالى ذلك الوهم وبيّن أنه لا قدرة له ألبتة إلا على الوسوسة بقوله تعالى:

﴿ إنه ليس له سلطان ﴾ أي : بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه . ﴿ على الذين آمنوا ﴾ أي : بتوفيق ربهم لهم . ﴿ وعلى ربهم ﴾ وحده ﴿ يتوكلون ﴾ أي : على أوليائه المؤمنين به والمتوكلين عليه ، فإنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته . وعن سفيان الثوريّ قال : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ، ثم وصل تعالى بذلك ما أفهمه من أنّ له سلطاناً على غيرهم بقوله:

﴿ إنما سلطانه ﴾ أي : الذي يتمكن به غاية التمكن بإمكان الله تعالى له : ﴿ على الذين يتولونه ﴾ أي : يحبونه ويطيعونه ﴿ والذين هم به ﴾ أي : بالله تعالى ﴿ مشركون ﴾ وقيل الضمير راجع إلى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله . ولما كان المشركون إذا نزلت آية فيها شدّة ثم نزلت آية ناسخة لها يقولون إن محمداً يستهزئ بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً ما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه نزل .

﴿ وإذا بدّلنا ﴾ أي : بقدرتنا بالنسخ ﴿ آية ﴾ سهلة كالعدّة بأربعة شهور وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار ، أو شاقة كتحريم الخمر وإيجاب الصلوات الخمس فجعلناها ﴿ مكان آية ﴾ شاقة كالعدّة بحول ومصابرة عشرة من الكفار أو سهلة كالآيات

المتضمنة لإباحة الخمر والتبديل رفع الشيء ووضع غيره مكانه ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الشاملة ﴿ أعلم بما ينزل ﴾ من المصالح بحسب الأوقات والأحوال بنسخ أو غيره ﴿ قالوا ﴾ أي : الكفار ﴿ إنما أنت ﴾ يا محمد ﴿ مفتر ﴾ أي : متقوّل على الله تعالى تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب إذا . ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ اعتراض ، والمعنى : والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف ، أي : هو أعلم بجميع ذلك ومصالح العباد ، وهذا توبيخ للكفار على قولهم إنما أنت مفتر ، أي : إذا كان هو أعلم بما ينزل فما لهم ينسبون محمداً إلى الافتراء لأجل التبديل والنسخ ﴿ بل أكثرهم ﴾ وهم الذين يستمرّون على الكفر ﴿ لا يعلمون ﴾ حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطأ من الصواب ، فإن الله تعالى أعلم بمصالح العباد كما أنّ الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدّة ينهاه عنها ، ويأمره بغيرها بضدّ تلك الشربة ، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالردّ عليهم بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ لمن واجهك بذلك منهم ﴿ نزّله ﴾ أي : القرآن بحسب التدريج لأجل أتباع المصالح بإحاطة علم المتكلم به ﴿ روح القدس ﴾ أي : جبريل عليه السلام وإضافة الروح

إلى القدس وهو الطهر كما يقال: حاتم الجود، وزيد الخير، والمراد الروح المقدّس، وحاتم الجواد، وزيد الخير. والمقدّس المطهر من المآثم ﴿ من ربك بالحق ﴾ أي: متلبساً بالحكمة ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ أي: ليثبت بالقرآن قلوب الذين آمنوا فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿ وهدى ﴾ أي: بياناً واضحاً ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ أي: المنقادين لحكمك. فإن قيل: ظاهر الآية أن القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى: ﴿ وإذا بدّلنا آية مكان آية ﴾ إذ متقضاه أنّ الآية لا تنسخ إلا بأخرى؟

أجيب: بأنّ هذه الآية دلت على أنه تعالى يبدّل آية بآية ولا دلالة فيها على أنه لا يبدّل آية إلا بآية، وأيضاً فجبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية. ولما كان المشركون يقولون: إن محمداً إنما يتعلم هذه القصص وهذه الأخبار من إنسان آخر وهو آدمي مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله تعالى:

﴿ ولقد نعلم ﴾ أي: علماً مستمرّاً ﴿ أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر ﴾ واختلف في البشر الذي قال المشركون إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل: هو عبد لبني عامر بن لؤيّ يقال له: يعيش كان يقرأ الكتب، وقيل: عداس غلام عتبة بن ربيعة، وقيل: عبد لبني

الحضرمي صاحب كتب، وكان اسمه خيراً فكانت قريش تقول: عبد بني الحضرمي يعلّم خديجة وخديجة تعلّم محمداً، وقيل: كان بمكة نصراني أعجميّ اللسان اسمه بلعام، ويقال: ابن ميسرة يتكلم بالرومية، وقيل: سلمان الفارسي، وبالجملة فلا فائدة في تعداد هذه الأسماء والحاصل أنّ القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه، ويزعم أنه إنما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه فأجاب الله تعالى عنه تكذيباً لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى: ﴿لسان الذي يلحدون﴾ أي: يميلون إليه أو يشيرون ﴿إليه﴾ أي: أنه يعلمه ﴿أعجميّ﴾ أي: لا يعرف لغة العرب وهو مع ذلك الكن في التأدية غير مبين ﴿وهذا﴾ أي: القرآن ﴿لسان عربيّ مبين﴾ أي: ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه أعجميّ. وروي أنّ الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه.

﴿إنّ الذين لا يؤمنون﴾ أي: لا يصدقون كل تصديق معترفين ﴿بآيات الله﴾ أي: الذي له العظمة كلها ﴿لا يهديهم الله﴾ أي: لا يرشدهم ولا يوفقهم للإيمان ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: مؤلم في الآخرة. ثم أخبر الله تعالى أنّ الكفار المفترون بقوله تعالى:

﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي: القرآن بقولهم: هذا من قول البشر ﴿وأولئك﴾ أي: البعداء البغضاء ﴿هم الكاذبون﴾ أي: الكاملون في الكذب لأنّ تكذيب آيات الله أعظم من الكذب أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل

شيء لا يحجبهم عنه مروءة ولا دين . ولما ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقاً أتبعهم صنفاً منهم هم أشدّ كفراً بقوله تعالى :

﴿ من ﴾ أي : أيّ مخلوق وقع له أنه ﴿ كفر بالله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال بأن قال أو عمل ما يدل على الكفر ﴿ من بعد إيمانه ﴾ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إلا من أكره ﴾ أي : على التلفظ بالكفر فتلفظ به ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فلا شيء عليه لأنّ محل الإيمان هو القلب . روي أنّ قريشاً أكرهوا عماراً وأباه ياسراً وأمّه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا : إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما أوّل قتيل في الإسلام ، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرهاً وهو كاره بقلبه فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنه كفر فقال صلى الله عليه وسلم "كلا إنّ عماراً امتلأ إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول : ما لك إن عادوا لك فقل لهم مثل ما قلت" . تنبيه : في الآية دليل على إباحة التلفظ بالكفر وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه . ولما روي أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما

تقول في محمد ؟ فقال : رسول الله . قال : فما تقول فيّ ؟ قال : أنت أيضاً ، فخلاه . وقال للآخر : ما تقول في محمد ؟ فقال : رسول الله . قال : فما تقول فيّ ؟ قال : أنا أصمّ . فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأمّا الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له" . واختلف الأئمة في وقوع الطلاق بالإكراه فقال الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى : لا يقع طلاق المكره . وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : يقع . واستدل الشافعي بقوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (البقرة ،)

(201/444)

ولا يمكن أن يكون المراد نفي ذاته لأنّ ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره ، أي : لا أثر له ولا عبرة به . وقال عليه الصلاة والسلام : "رفع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" . وقال أيضاً : "لا طلاق في إغلاق" ، أي : إكراه . وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى : ﴿ فإن طلقها فلا تحلّ له ﴾ (البقرة ،)

وهذا قد طلقها . وأجيب بأنّ الآية مخصوصة بغير ذلك جمعاً بين الأدلة . ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ أي : فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضي به ﴿ فعليهم

غضب ﴾ أي: غضب لم تبين جهة عظمه لكونه ﴿ من الله ﴾ أي: الملك الأعظم ﴿ ولهم ﴾ أي: بظواهرهم وبواطنهم ﴿ عذاب عظيم ﴾ في الآخرة لارتدادهم على أعقابهم.

﴿ ذلك ﴾ أي: الوعيد العظيم ﴿ بأنهم ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ استحبوا ﴾ أي: أحبوا حباً عظيماً ﴿ الحياة الدنيا ﴾ الكائنة الحاضرة الفانية فآثروها ﴿ على الآخرة ﴾ الباقية الفاخرة لأنهم رأوا ما فيه المؤمنون من الضيق والكافرون من السعة ﴿ وأنّ الله ﴾ أي: الذي له الغنى المطلق ﴿ لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي: لا يرشدهم إلى الإيمان ولا يوفقهم للعمل.

﴿ أولئك ﴾ أي: البعداء البغضاء ﴿ الذين طبع الله ﴾ أي: الملك الذي لا أمر لأحد معه ﴿ على قلوبهم ﴾ أي: ختم عليها واستوثق. ولما كان التفاوت في السمع نادراً وحده بقوله تعالى: ﴿ وسمعهم ﴾ أو بمعنى أسماعهم ليناسب قوله تعالى: ﴿ وأبصارهم ﴾ فصاروا بعدم انتفاعهم بهذه المشاعر كأنهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ﴿ وأولئك ﴾ أي: الأباعد من كل خير ﴿ هم الغافلون ﴾ عما يراد بهم من العذاب في الآخرة.

﴿ لا جرم ﴾ أي : لا شك ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي : أكمل الناس خسارة لأنّ الله تعالى وصفهم بست صفات الأولى : أنهم استوجبوا غضب الله تعالى . الثانية : أنهم استوجبوا العذاب الأليم . الثالثة : أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة . الرابعة : أنّ الله تعالى حرمهم من الهداية . الخامسة : أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم . السادسة : أنه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد يوم القيامة إذ كل واحدة من هذه الصفات من أعظم الأحوال المانعة من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان في الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادات الآخرة فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه ، فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران . ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد إيمانه ، وحال من أكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى:

﴿ ثم إنّ ربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ للذين هاجروا ﴾ إلى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى : ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء على استناد الفعل إلى الفاعل والباقون بضم الفاء وكسر التاء على فعل ما لم يسمّ فاعله وجه القراءة الأولى أنه عاد الضمير على المؤمنين ، فالمعنى : فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول ظاهراً ، وأنهم لما صبروا على عذاب المشركين فكأنهم فتنوا أنفسهم وإن عاد على

المشركين فهو ظاهر ، أي : فتنوا المؤمنين لأنّ أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردّة والرجوع عن الإيمان فبيّن تعالى أنهم هاجروا ﴿ ثم جاهدوا وصبروا ﴾ على الطاعة ﴿ إنّ ربك من بعدها ﴾ أي : الفتنة ﴿ لغفور ﴾ أي : بليغ الإكرام ﴿ رحيم ﴾ فهو يغفر لهم ويرحمهم . تنبيه : حذف خبر إنّ الأولى لدلالة خبر الثانية عليه أو مقدّر بما مرّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 369 . 381 ﴾

(203/444)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [90] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ ﴾ أي : فيما نزله تبياناً لكل شيء : ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ وهو القسط والتسوية في الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذي حق حقه : ﴿ وَالْإِحْسَانِ ﴾ أي : التفضيل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ أي : إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه : ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ أي : عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها ، كالزنى : ﴿ وَالْمُنكَرِ ﴾ أي : كل ما أنكره الشرع : ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ أي :

العدوان على الناس : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي : بما يأمركم وينهاكم : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

وروى ابن جرير عن ابن مسعود : إن أجمع آية في القرآن ، لخير وشر ، هذه الآية . وروى الإمام أحمد : أن عثمان بن مظعون مرّ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس بفناء بيته . فكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : < ألا تجلس ؟ > فقال : بلى . فجلس . ثم أوحي إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما تليت الآية على أكثم بن صيفي قال لقومه : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها . فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناباً . وعن عِكْرِمَة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي ! أعد عليّ ، فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

وقد نقل أن بني أمية كانوا يسبون علياً ، كرم الله وجهه ، في خطبهم . فلما آلت الخلافة إلى عُمَر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أسقط ذلك منها ، وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم مآثره .

قال الناصر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها ، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعليّ باغ . حيث يقول صلى الله عليه وسلم لعمار (وكان من حزب علي) : < تقتلك الفئة الباغية > . فقتل مع علي يوم صفين . انتهى .

ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوي القربى ، وكونها أجمع آية ؛ لاندراج ما ذكر فيها . والله أعلم .

ثم بيّن تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [91] .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

روى ابن جرير عن بريدة قال : نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم . كان من أسلم بايع النبي على الإسلام ، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقصوها بعد توكيدها بالأيمان . أي : لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام .

وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره ، كالمبايعة على الإسلام ، وعهد الجهاد ، وما التزمه من نذر وما أكده بحلف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ؛ للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية . و (التوكيد والتأكيد) ، لغتان فصيحتان . والأصل الواو ، والهمزة بدل منها . والواو في قوله : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ للحال من فاعل : ﴿ تَنقُضُواْ ﴾ أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى : ﴿ كَفِيلاً ﴾ شهيداً رقيباً . و (الجعل) مجاز ، فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبقى (الكفيل) على ظاهره ، وجعل تمثيلاً لعدم تخلصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال : (من ظلم فقد أقام كفيلاً بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب ؛ لكان معنى بليغاً جداً . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

في الآية الحث على البر في الأيمان . وجلي أنها فيما فيه طاعة وبر وتقوى . وأما فيما عدا ذلك فالخير في نقضها . وقد دل عليه ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين أنه قال : < إني ، والله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها > . وفي رواية : < وكفَّرت عن يميني > . فالحديث في معنى ، والآية في معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(206/444)

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [92] .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً ﴾ تأكيد لوجوب الوفاء وتحريم النقص . أي : لا تكونوا في نقص الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها ، بعد أن أحكمته وأبرمته ، فجعلته أنكاثاً ، أي : أنقاضاً ، جنوناً منها وحمقاً .

ففي التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكمّل ، داخل في زمرة النساء . بل

في أدناهن ، وهي الخرقاء .

وقوله تعالى : ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ حال من الضمير في : ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ أي : لا تكونوا مشابهين لامرأة هذا شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة بينكم : ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي : سبب أن تكون جماعة ، كقريش ، هي أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة كالمؤمنين : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ أي : يعاملكم معاملة من يختبركم بكونهم أربى ؛ لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ؟ : ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : فيتميز المحق من المبطل ، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام .

تنبيه :

قال أبو علي الزجاجي ، من أئمة الشافعية : في هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا ، من إبطال الدور ؛ لأن الله تعالى ذم من أعاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه . نقله في " الإكليل " .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [93] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : حنيفة مسلمة : ﴿ وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : في الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لا استفسار وتفهم . وهو المنفي في غير هذه الآية . أو في موقف دون موقف كما مر .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [94] .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ تصريح بالنهي عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً ، لأخذه فيا تقدم قيداً للمنهي عنه ، تأكيداً عليهم ومبالغة في قبح المنهي : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ أي : فتزل أقدامكم عن محجة الحق ، بعد رسوخها فيه : ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ أي : ما يسوءكم في الدنيا : ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ أي : بصدودكم عن الوفاء ، أو بصدكم غيركم : ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : في الآخرة .

لطيفة :

تنكير (قدم) للإيذان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ وأشار في " البحر " إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ [يوسف : 31] ، أي : لكل واحدة منهن متكئاً . ولما كان المعنى : لا يفعل هذا كل واحد منكم ؛ أفرد : ﴿ قَدَمٌ ﴾ مراعاة لهذا المعنى . ثم قال : ﴿ وَتَذُوقُوا ﴾ مراعاة للفظ الجمع .

(208/444)

قال الشهاب : هذا توجيه للإفراد من جهة العربية ، فلا ينافي النكتة الأولى .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [95]

.

﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ أي : لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنّونهم ، إن ارتدوا : ﴿ إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ

خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : من إظهاركم في الدنيا وإثابتكم في الآخرة : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : من ذوي العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [96] .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ ﴾ تعليل للخيرية بطريق الاستئناف . أي : ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص ، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه . وما عنده تعالى من ثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم ﴾ أي : على أذى المشركين ومشاق الإسلام : ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [97] .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحاً . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنثى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايمي : أي : فيتلذذ بعمله في الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعساره ؛ إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه ؛ إذ يزداد حرصاً وخوف فوات . ويجزون بالأحسن في الآخرة . فلا يقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : 20] بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى . انتهى .

وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيه ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء . وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد ، والتنور بسر الوجود الذي قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها . هذا في الدنيا . وأما في الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [98 - 100] .

(210/444)

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ .

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه ، ويفسد القلوب بدسائسه ؛ أمر صلى الله عليه وسلم بأن يستعيذ بالله ويلتجئ إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته ؛ لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه . وقد بينت آية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : 52] ، أن هذه عادة الشيطان إثر ما يتلوه كل نبي على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ، ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه

الشيطان ؛ ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادته ، ولها من الأثر ما لها ، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه .

ثم بيّن تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أي : تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على المكاره ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات ؛ فليس له عليهم سلطان . فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه ؛ لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة ، أي : الملعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالكواكب . والضمير في (به) لربهم والباء للتعدية ، أو للشيطان ، والباء للسببية ، أي : بسببه وغروره ووسوسته . ورجح باتحاد الضمائر فيه . وأشار بعضهم إلى أن المعنى : أشركوه في عبادة الله تعالى ، وكله مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

تنبيه :

في الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم

بوجوبها لظاهر الأمر . وسرها في غيره صلى الله عليه وسلم : التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة ، وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [101 - 102] .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

(212/444)

التبديل : رفع الشيء مع وضع غيره مكانه ، فتبديل الآية : رفعها بآية أخرى . والأكثرون : على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكماً بآية أخرى غيرها ؛ لحكمة باهرة أشير إليها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين ، كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية ، وهي كون المنزل هدى

ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطري . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ؛ لأن يخاطب عقله ويستصرخ فمه ولبه . فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نَبيٍ أُمِّيّ لم يقرأ ولم يكتب . وكون الكتاب بيّن الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتي ورزق الفهم . وهذا التأويل الثاني يرجحه على الأول ؛ أن السورة مكية ، وليس في المكي منسوخ بالمعنى الذي يريدونه . وللبحث تفصيل في موضع آخر . وقد أشرنا إلى ذلك في آيتين من سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ الخ [البقرة : 23] ، وقوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ [البقرة : 106] ، والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ؛ رداً للحق ، وعناداً للهدى ، وتولياً للشيطان ، وتعبداً لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهي ، كما قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ واعتراض قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق في شأنه بقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ ﴾ أي : القرآن المدلول عليه بالآية : ﴿ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ يعني جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر ، كما يقال : (حاتم الجود ، وزيد الخير ، وخبر السوء ، ورجل صدق) والمراد : الروح المقدس ، وحاتم الجود ، وزيد الخيِّر ، والخبر السيئ ، والرجل الصادق . وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة في كثرة ملابسته له واختصاصه به . والمقدس : المطهر من الأدناس البشرية . وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه في قوله تعالى : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ للدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية . وقوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التي اقتضاها دور عصره . وقوله تعالى : ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أي : على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفي قوله تعالى : ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [103] .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين في قولهم غير ما نقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذي يتلوه من القرآن ، بشر . يعنون رجلاً أعجمياً كان بين أظهرهم يقرأ في الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح ؛ باسمه للإيذان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى وضوح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير مبين . وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين ، ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلاً أن ينطق به ، فضلاً أن يكون معلماً له ! . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [104 - 105] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تهديد لهم على كفرهم بالقرآن ، بعد ما أماط شبهتهم ورد طعنهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ﴾ رد لقولهم : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ وقلب للأمر عليهم ، ببيان أنهم هم المفترون لا هو . يعني : إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه عنه . وقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ إشارة إلى الذين لا يؤمنون ، ويدخل فيهم قريش دخولاً أولياً . أي : الكاذبون في الحقيقة ونفس الأمر . أو الكاملون فيه ؛ لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى ما في الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه . وقد كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بـ (الأمين محمد) .

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش . والدليل عليه : أن كلمة : ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر . والمعنى : أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان

غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد في النهاية .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازي . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(216/444)

﴿ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ *لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴾ [106 - 109] .

﴿ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴾ .

لما بيَّن تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، في المحاماة عن الدين ، تأثره ببيان ما للردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد ، بهذه الآيات . واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله ؛ فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإيلام قوي وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً ، أي : طاب به نفساً واعتقده ، استحباباً للحياة الدنيا الفانية ، أي : إيثاراً لها على الآخرة الباقية ، فذاك الذي له من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولاً ، وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم ينفتح لهم طريق الفهم ، وعلى سمعهم وأبصارهم بسد طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجليٌّ ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من

أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها ! .

قال الرازي : ومعلوم أنه إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه . فلهذا قال : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴾ أي : الذين ضاعت دنياهم التي استنفدوا في تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا في طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة في شيء إلا في وبال التحسرات .

تنبيهات :

(218/444)

الأول : (من) في قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ موصول مبتدأ خبره : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله : ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبين لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غيره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثاني : استدل بالآية على أن المكره غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلفظ بكلمة الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفي طلاق المكره وعتاقه

، وكل قول أو فعل صدر منه ، إلا ما استثنى . أفاده السيوطي في " الإكليل " .

الثالث : روي عن ابن عباس : أنها نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذراً . قال ابن جرير : أخذ المشركون عماراً فعذبوه ، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : <كيف تجد قلبك ؟ > قال : مطمئناً بالإيمان . قال صلى الله عليه وسلم : <إن عادوا فَعُدْ > .

وقال ابن إسحاق : إن المشركين عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر . يفتنونهم عن دينهم . فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذي يصيبه . ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضي الله عنه عبداً لبعض بني جُمح ، يخرجه أمية بن خلف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول (وهو في ذلك البلاء) : أحدٌ ، أحدٌ ، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، رضي الله عنهم ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : < صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة > فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل ليمر بهم فيقولون له : هذا الجُعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ؛ افتداء منهم ، مما يبلغون من جَهده .

وقد ذكر ابن هشام في " السيرة " في بحث " عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة " غرائب في هذا الباب ، فانظره .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي ؛ إبقاء لمهجته . ويجوز له أن يأبى ، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ، وهو يفعلون به الأفاعيل ، وهو يقول : أحدٌ ، أحدٌ . ويقول : والله ! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها . رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري ، لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن

محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً ، وهو ثابت على ذلك .

(220/444)

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي ، أحد الصحابة ، أنه أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم . فقال له : تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذاً أقتلك . فقال : أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل . ثم أمر بقدر فأحميت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع بالبكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه ، فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة ، تلقى في هذا القدر الساعة . فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي ، نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي بعض الروايات : أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل إليه بخمر ولحم

خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما هو فقد حلّ لي . ولكن لم أكن لأُشَمِّتَكَ فِيَّ . فقال له الملك : فقبِّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين . قال : فقبَّل رأسه . وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عُمَر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَاهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [110] .

(221/444)

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَاهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاقّ الجهاد . أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة ، أي : إجابتهم إليها : ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيغفر لهم ما فرط منهم ويرحمهم

بالجزاء الحسن .

والجار في قوله : ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر لـ (إن) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله : ﴿ هَاجَرُوا ﴾ من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة ، ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما شمل قوله : ﴿ جَاهَدُوا ﴾ في بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا في سبيل الله ، ولأجل هذا الاحتمال في الفعلين قيل : الآية مدنية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 419.432 ﴾

(222/444)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/445)

الجزء الخامس والأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 111 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 124 ﴾ من نفس السورة

(4/445)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ

بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقدم كثير من التحذير والتبشير ، وتقدم أنه لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، وختم ذلك بانحصار الخسار في الكفار ، بيّن اليوم الذي تظهر فيه تلك الآثار ، ووصفه بغير الوصف المقدم باعتبار المواقف ، فقال تعالى مبدلاً من ﴿ يوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾ ﴿ يوم تأتي ﴾ أي فيه ﴿ كل نفس ﴾ أي إنسان وإن عظم جرمها ﴿ تجادل ﴾ أي تعتذر ، وعبر بالمجادلة إفهاماً للذفع بأقصى ما تقدر عليه ، وأظهر في قوله : ﴿ عن نفسها ﴾ أي ذاتها بمفردها لا يهمها غير ذلك لما يوهم الإضمار من أن كل أحد يجادل عن جميع الأنفس . ولما كان مطلق الجزاء مخوفاً مقلقاً ، بني للمفعول قوله : ﴿ وتوفّى كل نفس ﴾ صالحة وغير صالحة ﴿ ما عملت ﴾ أي جزاء من جنسه ﴿ وهم ﴾ ولما كان المرهوب مطلق الظلم ، وكان البناء للمفعول أبلغ جزاء في نفيه قال تعالى : ﴿ لا يظلمون ﴾ أي لا يتجدد عليهم ظلم لا ظاهراً ولا باطناً ، ليعلم بإبدال " يوم " من ذلك المتقدم أن الخسارة بإقامة الحق عليهم لا بمجرد إسكاتهم .

ولما عقب سبحانه ما ضرب سابقاً من الأمثال بقوله تعالى ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ وتلاه بذكر الساعة بقوله تعالى : ﴿ وما أمر الساعة ﴾ إلى آخره ، واستمر فيما مضت مناسباته آخذاً بعضه بحجز بعض حتى ختم بالساعة وآمن من الظلم فيها ، وبين أن الأعمال هناك هي مناط الجزاء ، عطف على ما مضى - من الأمثال المفروضة المقدرة المرغبة - مثلاً محسوساً موجوداً ، مبيناً أن الأعمال في هذه الدار أيضاً مناط الجزاء ، مرهباً من المعاجلة فيها بسوط من العذاب فقال تعالى : ﴿ وضرب الله ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً لكم أيها المعاندون ! ﴿ مثلاً قرية ﴾ من قرى الماضين التي تعرفونها كقرية هود أو صالح أو لوط أو شعيب عليهم السلام كان حالها كحالهم ، وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنها مكة ﴿ كانت ءامنة ﴾ أي ذات أمن يأمن به أهلها في زمن الخوف ﴿ مطمئنة ﴾ أي قارة بأهلها ، لا يحتاجون فيها إلى نجعة وانتقال بسبب زيادة الأمن بكثرة العدد وقوة المدد ، وكف الله الناس عنها ، ووجود ما يحتاج إليه أهلها ﴿ يأتيها ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ رزقها رغداً ﴾ أي واسعاً طيباً ﴿ من كل مكان ﴾ براً وبحراً بتيسير الله تعالى لهم ذلك .

ولما كانت السعة تجر إلى البطر غالباً ، نبه تعالى لهم ذلك بالفاء فقال تعالى : ﴿ فكفرت ﴾ ونبه سبحانه على سعة فضله بجمع القلة الدال على أن كثرة فضلة عليهم تافهة بالنسبة إلى

ما عنده سبحانه وتعالى فقال : ﴿ بأنعم الله ﴾ أي الذي له الكمال كله كما كفرتم ﴿ فأذاقها الله ﴾ أي المحيط بكل شيئ قدرة وعلماً ﴿ لباس الجوع ﴾ بعد رغد العيش ﴿ والخوف ﴾ بعد الأمن والطمأنينة حتى صار لهم ذلك بشموله لهم لباساً ، وبشدة عركهم ذواقاً ، فكأن النظر إلى المستعار له ، وهو هنا أبلغ لدلالته على الإحاطة والذوق ، ولو نظر إلى المستعار لقال : فكساها ، فكان يفوت الذوق ، وذلك كما نظر إليه كثيّر في قوله :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً . . .

غلقت لضحكته رقاب المال

(6/445)

استعار الرداء للمعروف لأنه يصون صون الرداء لما يلقى عليه ، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال ، لا وصف الرداء الذي هو المستعار ، ولو نظر إليه لوصفه بالسعة أو الطول مثلاً كما نظر إليه من قال ذاكراً السيف الذي يصون به الإنسان نفسه :

ينازعني ردائي عبد عمرو . . .

رويدك يا أخا بكر بن عمرو

لي الشطر الذي ملكت يميني . . .

ودونك فاعتجر منه بشطر

فنظر إلى المستعار وهو الرداء في لفظ الاعتجار ، فبانت فضيحة ابن الراوندي في زندقته إذ قال لابن الأعرابي : هل يذاق اللباس ؟ فقال له : لا بأس يا أيها النسناس ! هب أن محمداً ما كان نبياً ، أما كان عربياً ؟ ﴿ بما كانوا ﴾ أي بجبلاتهم ﴿ يصنعون ﴾ من الكفر والكبر ، قد مرنوا عليه بكثرة المداومة مرون الإنسان على صنعته .

ولما كان تعالى لا يعذب حتى يبعث رسولاً ، حقق ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم ﴾ أي أهل هذه القرية ﴿ رسول منهم ﴾ كما وقع لكم ﴿ فكذبوه ﴾ كما فعلتم ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ كما سمعتم ، وإن كان المراد بها مكة فالمراد به الجوع الذي دعا عليهم به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما قال " اللهم أعني بسبع كسبع يوسف " وأما الخوف فما كان من جهاد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لهم ﴿ وهم ظالمون ﴾ أي عريقون في وضع الأشياء في غير مواضعها ، لأنهم استمروا على كفرهم مع الجوع ، وسألوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الإغاثة فدعا لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 318.316 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾

ففيه أبحاث :

البحث الأول : قال الزجاج : (يوم) منصوب على وجهين .

أحدهما : أن يكون المعنى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ يَوْمَ تَأْتِي ﴾ يعني أنه تعالى يعطي الرحمة والغفران في ذلك اليوم الذي يعظم احتياج الإنسان فيه إلى الرحمة والغفران .

والثاني : أن يكون التقدير : وذكرهم أو اذكر يوم كذا وكذا ، لأن معنى القرآن العظمة والإنذار والتذكير .

البحث الثاني : لقائل أن يقول : النفس لا تكون لها نفس أخرى ، فما معنى قوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ .

والجواب : النفس قد يراد به بدن الحي وقد يراد به ذات الشيء وحقيقته ، فالنفس الأولى هي الجثة والبدن .

والثانية : عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ولا يهمه شأن غيره .

قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ امرىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] وعن بعضهم : تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : يا رب نفسي نفسي حتى أن إبراهيم الخليل عليه السلام يفعل ذلك .

ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم : ﴿ هَؤُلاء أَضَلُّونَا ﴾ [الأعراف : 38] وقولهم : ﴿ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

ثم قال تعالى : ﴿ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ فيه محذوف ، والمعنى : توفى كل نفس جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان ، وقوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ قال الواحدي : معناه لا ينقضون .

قال القاضي : هذه الآية من أقوى ما يدل على ما نذهب إليه في الوعيد ، لأنها تدل على أنه تعالى يوصل إلى كل أحد حقه من غير نقصان ، ولو أنه تعالى أزال عقاب المذنب بسبب الشفاعة لم يصح ذلك .

(8/445)

والجواب : لا نزاع أن ظاهر العمومات يدل على قولكم ، إلا أن مذهبنا أن التمسك بظواهر العمومات لا يفيد القطع ، وأيضاً فظواهر الوعيد معارضة بظواهر الوعد ، ثم بينا في سورة

البقرة في تفسير قوله : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وأحاطت بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ [البقرة : 81] أن جانب الوعد راجح على جانب الوعيد من وجوه كثيرة ، والله أعلم .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هددهم أيضاً بآفات الدنيا وهو الوقوع في الجوع والخوف ، كما ذكره في هذه الآية .

المسألة الثانية :

المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشيء موجوداً أو لم يكن موجوداً وقد يضرب بشيء موجود معين ، فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئاً مفروضاً ويحتمل أن تكون قرية معينة ، وعلى هذا التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها ، والأكثرون من المفسرين على أنها مكة ، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلاً لمكة ، ومثل مكة يكون غير مكة .

المسألة الثالثة :

ذكر الله تعالى لهذه القرية صفات :

الصفة الأولى : كونها آمنة أي ذات أمن لا يغار عليهم كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] والأمر في مكة كان كذلك ، لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض .

أما أهل مكة ، فإنهم كانوا أهل حرم الله ، والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم .

واعلم أنه يجوز وصف القرية بالأمن ، وإن كان ذلك لأهلها لأجل أنها مكان الأمن وظرف له ، والظروف من الأزمنة والأمكنة توصف بما حلها ، كما يقال : طيب وحار وبارد .

(9/445)

والصفة الثانية : قوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ قال الواحدي : معناه أنها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق .

أقول : إن كان المراد من كونها مطمئنة أنهم لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب الخوف ، فهذا هو معنى كونها آمنة ، وإن كان المراد أنهم لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب الضيق ، فهذا هو معنى قوله : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلّ مَكَانٍ ﴾ وعلى كلا التقديرين فإنه يلزم التكرار .

والجواب : أن العقلاء قالوا :

ثلاثة ليس لها نهاية . . الأمن والصحة والكفاية

قوله : ﴿ ءَامِنَةً ﴾ إشارة إلى الأمن ، وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ إشارة إلى الصحة ، لأن هواء ذلك البلد لما كان ملائماً لأمزجتهم اطمأنوا إليه واستقروا فيه ، وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ إشارة إلى الكفاية .

قال المفسرون وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ السبب فيه إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام وهو قوله : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات ﴾ [إبراهيم : 37] ثم إنه تعالى لما وصف القرية بهذه الصفات الثلاثة قال : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله ﴾ الأنعم جمع نعمة مثل أشد وشدة أقول ههنا سؤال : وهو أن الأنعم جمع قلة ، فكان المعنى : أن أهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم فعذبها الله ، وكان اللائق أن يقال : إنهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب ، فما السبب في ذكر جمع القلة ؟

والجواب : المقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى يعني أن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب ، وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا في إيذائه فلا جرم سلط الله عليهم البلاء .

قال المفسرون : عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والعلهز والقد ، أما الخوف فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث إليهم السرايا فيغيرون عليهم .

ونقل أن ابن الراوندي قال لابن الأعرابي الأديب : هل يذاق اللباس ؟ قال ابن الأعرابي : لا باس ولا لباس يا أيها النسناس ، هب أنك تشك أن محمداً ما كان نبياً أما كان عربياً وكان مقصود ابن الراوندي الطعن في هذه الآية ، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس فكان الواجب أن يقال : فكساهم الله لباس الجوع ، أو يقال : فأذاقهم الله طعم الجوع .

وأقول جوابه من وجوه :

الوجه الأول : أن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان .

أحدهما : أن المذوق هو الطعم فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع .

والثاني : أن ذلك الجوع كان شديداً كاملاً فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات ، فأشبه اللباس .

فالحاصل أنه حصل في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق ، وحالة تشبه الملبوس ، فاعتبر الله تعالى كلا الاعتبارين ، فقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف ﴾ .

والوجه الثاني : أن التقدير أن الله عرفها لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة وأصل الذوق بالفم ، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار ،

تقول : ناظر فلاناً وذق ما عنده .

قال الشاعر :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها . . وسيق إلينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف هو ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال فكما تقول : تعرفت سوء أثر الخوف والجوع على فلان ، كذلك يجوز أن تقول : ذقت لباس الجوع والخوف على فلان .

والوجه الثالث : أن يحمل لفظ اللبس على المماسة ، فصار التقدير : فأذاقها الله مساس الجوع والخوف .

ثم قال تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ قال ابن عباس : يريد بفعلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم حين كذبوه وأخرجوه من مكة وهموا بقتله .

(11/445)

قال الفراء : ولم يقل بما صنعت ، ومثله في القرآن كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَجَاءهَا بَأْسُنَا بياتا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [الأعراف : 4] ولم يقل قائلة ، وتحقيق الكلام أنه تعالى وصف القرية بأنها مطمئنة يأتيها رزقها رغداً فكفرت بأنعم الله ، فكل هذه الصفات ، وإن أجريت

بحسب اللفظ على القرية، إلا أن المراد في الحقيقة أهلها، فلا جرم قال في آخر الآية: ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المثل ذكر الممثل فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني من أنفسهم يعرفونه بأصله ونسبه ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الجوع الذي كان بمكة.

وقيل: القتل يوم بدر، وأقول قول ابن عباس أولى لأنه تعالى قال بعده: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 101. 104 ﴾

(12/445)

وقال الماوردى:

قوله تعالى: ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنةً ﴾

يريد بالقرية أهلها ﴿ آمنة ﴾ يعني من الخوف. ﴿ مطمئنة ﴾ بالخصب والدعة.

﴿ يأتيها رِزقُها ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : أقواتها .

الثاني : مرادها . ﴿ رغداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : طيباً .

الثاني : هنيئاً .

﴿ من كُلِّ مكانٍ ﴾ يعني منها بالزراعة ، ومن غيرها بالتجارة ، ليكون اجتماع الأمرين لهم أوفر لسكنهم وأعم في النعمة عليها .

﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ يحتمل وجهين .

أحدهما : بترك شكره وطاعته .

الثاني : بأن لا يؤدوا حقها من مواساة الفقراء وإسعاف ذوي الحاجات .

وفي هذه القرية التي ضربها الله تعالى مثلاً أقاويل :

أحدها : أنها مكة ، كان أمنها أن أهلها آمنون لا يتفاوزون كالبوادي .

﴿ فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوْف ﴾ وسماه لباساً لأنه قد يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس ، وقيل إن القحط بلغ بهم إلى أن أكلوا القد والعلهز وهو الوبر يخلط بالدم ، والقِد أديم يؤكل ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

الثاني : أنها المدينة آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كفرت بأنعم الله بقتل عثمان بن عفان وما حدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بها من الفتن ، وهذا قول

عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

الثالث : أنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى . انتهى ا . هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/445)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ يوم تأتي كل نفس ﴾

المعنى لغفور رحيم يوم ، وقوله : ﴿ كل نفس ﴾ أي كل ذي نفس ، ثم أجري الفعل على المضاف إليه المذكور ، فأتت العلامة ، و﴿ نفس ﴾ الأولى هي النفس المعروفة ، والثانية هي بمعنى الذات ، كما تقول نفس الشيء وعينه أي ذاته ، ﴿ وتوفى كل نفس ﴾ أي يجازى كل من أحسن بإحسانه وكل من أساء بإساءته .

قال القاضي أبو محمد : وظاهر الآية أن كل نفس ﴿ تجادل ﴾ كانت مؤمنة أو كافرة ، فإذا جادل الكفار بكذبهم وجحدهم للكفر شهدت عليهم الجوارح والرسل وغير ذلك بحسب الطوائف ، فحينئذ لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، فتجتمع آيات القرآن باختلاف المواطن ، وقالت فرقة : " الجدال " قول كل أحد من الأنبياء وغيرهم : نفسي نفسي ،

وهذا ليس بجدال ولا احتجاج إنما هو مجرد رغبة .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة والقرية المضروب بها المثل مكة كانت بهذه الصفة التي ذكر الله لأنها كانت لا تغزى ولا يغير عليها أحد . وكانت الأرزاق تجلب إليها ، وأنعم الله عليها رسوله والمراد بهذه الضمائر كلها أهل القرية ، فكفروا بأنعم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية ، فأصابتهم السنون والخوف ، وسرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته ، هذا إن كانت الآية مدنية وإن كانت مكية فجوع السنين وخوف العذاب من الله بحسب التكذيب .

قال القاضي أبو محمد : وإن كانت هي التي ضربت مثلاً فإنما ضربت لغيرها مما يأتي بعدها ليحذر أن يقع فيما وقعت هي فيه ، وحكى الطبري عن حفصة أم المؤمنين أنها كانت تسأل في وقت حصر عثمان بن عفان رضي الله عنه ما صنع الناس وهي صادرة من الحج من مكة ، فقيل لها قتل فقالت : والذي نفسي بيده ، إنها القرية تعني المدينة التي قال الله لها ، ﴿ وضرب الله مثلاً ﴾ الآية .

قال القاضي أبو محمد : فأدخل الطبري هذا على أن حفصة قالت : إن الآية نزلت في المدينة وإنها هي التي ضربت مثلاً ، والأمر عندي ليس كذلك وإنما أرادت أن المدينة قد حصلت في محذور المثل وحل بها ما حل بالتي جعلت مثلاً ، وكذلك يتوجه عندي في الآية أنها قصد بها قرية غير معينة ، جعلت مثلاً لكة على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة ، و﴿ رغداً ﴾ نصب على الحال و﴿ أنعم ﴾ جمع نعمة كشدة وأشد كذا قال سيبويه وقال قطرب ﴿ أنعم ﴾ جمع نعم وهي التنعيم ، يقال هذه أيام طعم ونعم وقوله ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع ﴾ استعارات أي لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الأعشى : [المتقارب]

إذا ما الضجيع ثنى جيدها . . . تثنّتْ عليه فصارت لباسا

ونحوه قوله تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ [البقرة : 187] ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

وقد لبست بعد الزبير مجاشع . . . ثياب التي حاضت ولم تغسل الدما

كأن العار لما باشرهم وألصق بهم جعلهم لبسوه ، قوله " أذاقها " نظير قوله تعالى ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] ونظير قول الشاعر :

دونك ما جنيته فأحسن وذق . . . وقرأ الجمهور : " والخوفِ " عطفاً على ﴿ الجوع ﴾ وقرأ أبو عمرو : بخلاف عنه " والخوفَ " عطفاً على قوله ﴿ لباس ﴾ ، وفي مصحف أبي بن كعب " لباس الخوف والجوع " ، وقرأ ابن مسعود ، " فأذاقها الله الخوف والجوع " ولا بذكر ﴿ لباس ﴾ ، والضمير في ﴿ جاءهم ﴾ لأهل مكة ، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، و ﴿ العذاب ﴾ الجوع وأمر بدر ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة وكانت الآية مدنية ، وإن كانت مكية فهو الجوع فقط ، وذكر الطبري أنه القتل ببدر ، وهذا يقتضي أن الآية نزلت بالمدينة ، وإن كان التمثيل بمدينة قديمة غير معينة ، فيحتمل أن يكون الضمير في ﴿ جاءهم ﴾ لأهل تلك المدينة ، ويكون هذا مما جرى فيها كمدينة شعيب وغيره ويحتمل أن يكون الضمير المذكور لأهل مكة وتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(16/445)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾

أي إن الله غفور رحيم في ذلك .

أو ذَكِّرهم "يوم تأتِي كلُّ نفسٍ تجادِل عن نفسِها" أي تخاصم وتحاجّ عن نفسها ؛ جاء في الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسي نفسي ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يسأل في أمته .

وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا .

فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبياً لأتت عليك تارات لا يهمّك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة لا يبقى مَلَك مقرّب ولا نبيّ منتخب إلا وقع جاثياً على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل لَيُدْلِي بالخُلّة فيقول : يا رب ، أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسي ! قال : يا كعب ، أين تجد ذلك في كتاب الله ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ .

وقال ابن عباس في هذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد ؛ فتقول الروح : ربِّ ، الروح منك أنت خلقته ، لم تكن لي يد أَبْطِشُ بها ، ولا رجل أمشي بها ، ولا عين أبصِر بها ، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به ، حتى جئت فدخلت في هذا الجسد ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجني ؛ فيقول الجسد : ربّ ، أنت خلقتني بيدك فكنتُ كالخشبة ، ليس لي يد أبطش بها ، ولا قدم أسعى به ، ولا بصر أبصِر به ، ولا

سمع أسمع به ، فجاء هذا كشعاع النور ، فبه نطق لساني ، وبه أبصرت عيني ، وبه مشت رجلي ، وبه سمعت أذني ، فضعِّف عليه أنواع العذاب ونجني منه .

(17/445)

قال : فيضرب الله لهما مثلاً أعمى ومُقْعداً دخلا بستاناً فيه ثمار ، فالأعمى لا يبصِر الثمرة والمُقْعد لا ينالها ، فنادى المقعدُ الأعمى ايتني فاحملني آكل وأطعِمك ، فدنا منه فحمله ، فأصابوا من الثمرة ؛ فعلى من يكون العذاب ؟ قالا : عليهما قال : عليكما جميعاً العذاب ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً ﴾

هذا متصل بذكر المشركين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركي قريش وقال : " اللَّهُمّ اشدد وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سِنِينَ كَسِنِي يوسف " فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، ووجّه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً ففرّق فيهم .

﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ لا يُهاج أهلها .

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر ؛ نظيره ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ

شَيْءٍ ﴾ [القصص: 57] الآية.

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ الأنعم: جمع النِّعمة؛ كالأَشُدّ جمع الشِّدة.

وقيل: جمع نُعْمَى؛ مثل بؤسى وأبؤس.

وهذا الكفران تكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ ﴾ أي أذاق أهلها.

﴿ لِبَاسَ الجوع والخوف ﴾ سماه لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي من الكفر والمعاصي.

وقرأه حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس "والخوفَ" نصبا بإيقاع أذاقها عليه، عطفاً على "لباسَ الجوعِ" أي أذاقها الله لباس الجوع وأذاقها الخوف.

وهو بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم سراياه التي كانت تُطيف بهم.

وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء.

وضرب مكة مثلاً لغيرها من البلاد؛ أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لمّا كفر أهلها أصابهم القَحْط فكيف بغيرها من القرى.

وقد قيل : إنها المدينة ، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كفرت بأَنْعُم الله لقتل عثمان بن عفان ، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن .

وهذا قول عائشة وحفصة زَوْجَي النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إنه مَثَل مضروب بأيّ قرية كانت على هذه الصفة من سائر القُرَى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾

هذا يدل على أنها مكة .

وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة .

﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة .

وقيل : الشدائد والجوع منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(19/445)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾

يعني تخاصم وتحتج عن نفسها أي بما أسلفت من خير وشر ، واشتغلت بالمجادلة لا تتفرغ

إلى غيرها .

فإن قلت : النفس هي نفس واحدة ، وليس لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها ؟ قلت : إن النفس قد يراد بها بدن الإنسان ، وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الأولى هي مجموع ذات الإنسان وحقيقته والنفس الثانية ، هي بدنه فهي عينها وذاتها أيضاً ، والمعنى : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ، ولا يهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ، ونحو ذلك من الاعتذارات ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ يعني جزاء ما عملت في الدنيا من خير أو شر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ يعني لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ، بل يوفون ذلك كاملاً من غير زيادة ولا نقصان .

روي أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار : خوفنا فقال يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبياً ، لأتت عليك ساعات وأنت لا يهمك إلا نفسك وإن جهنم لتزفر زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم خليل الرحمن يقول : يا رب لا أسألك إلا نفسي ، وإن تصديق ذلك فيما أنزل الله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها .

وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال : ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد ، فتقول الروح : يا رب لم تكن لي أيدٍ أبطش بها ، ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها ، ويقول الجسد : يا رب خلقتني كالخشبة ، ليست لي يد أبطش بها ، ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فيه نطق لساني ، وبه أبصرت عيناني وبه مشت رجلاي فضرب الله لهما مثلاً أعمى ومقعد دخلا حائطاً ، يعني بستاناً فيه ثمار فالأعمى لا يبصر الثمار والمقعد لا يناله فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب .

(21/445)

قوله ﴿ وضرب الله مثلاً قرية ﴾ المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً من شيء آخر بينهما مشابهة ، ليبين أحدهما الآخر ويصوره ، وقيل : هو عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، قال الإمام فخر الدين الرازي : المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء ، كان ذلك الشيء موجوداً أو لم يكن وقد يضرب بشيء موجود معين ، فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا

المثل يحتمل أن تكون شيئاً مفروضاً ، ويحتمل أن تكون قرية معينة ، وعلى التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها والأكثر من المفسرين على أنها مكة ، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلاً لمكة ومثل مكة يكون غير مكة ، وقال الزمخشري في كتابه الكشاف : وضرب الله مثلاً قرية أي جعل القرية التي هذه حالها ، مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضرب الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها وقال الواحدي : ضرب المثل ببيان المشبه والمشبه به ، وهاهنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين ، والآية عند عامة المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الأمن ، والنعمة بتكذيبهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فتقدير الآية ضرب الله مثلاً لقريتكم أي بين الله لها شبهاً ثم قال : قرية فيجوز أن تكون القرية بدلاً من مثلاً لأنها هي الممثل بها ، ويجوز أن يكون المعنى ضرب الله مثلاً ، مثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرون كلهم قالوا : أراد بالقرية مكة يعنون أنه أراد مكة في تمثيلها بقرية صفتها ما ذكر .

وقال ابن الجوزي : في هذه القرية قولان : أحدهما أنها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الصحيح ، والثاني أنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع ، قاله الحسن .

وأقول : هذه الآية نزلت بالمدينة في قول مقاتل وبعض المفسرين ، وهو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة في أهل مكة ، فضربها الله مثلاً لأهل المدينة يحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم ، فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف ، ويشهد لصحة ما قلت إن الخوف المذكور في هذه الآية في قوله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يبعثها في قول جميع المفسرين لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يؤمر بالقتال ، وهو بمكة وإنما أُمر بالقتال لما هاجر إلى المدينة ، فكان يبعث البعوث والسرايا إلى حول مكة يخوّفهم بذلك ، وهو بالمدينة والله أعلم بمراده ، وأما تفسير قوله تعالى : وضرب الله مثلاً قرية يعني مكة ﴿ كانت آمنة ﴾ يعني ذات أمن لا يهاج أهلها ولا يغار عليهم ﴿ مطمئنة ﴾ يعنى قارة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاج إليه سائر العرب ﴿ يأتيها رزقها رغداً ﴾ يعني واسعاً ﴿ من كل مكان ﴾ يعني يحمل إليها الرزق والميرة من البر والبحر .

نظيره قوله سبحانه وتعالى تجبى إليه ثمرات كل شيء وذلك بدعوة إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) وهو قوله ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ ﴿ فكفرت ﴾ يعني هذه القرية والمراد أهلها ﴿ بأنعم الله ﴾ جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التي أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر ، لا جرم أن الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ وذلك أن الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين ، فقطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف الكلاب والميتة والعهن ، وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل ، حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك ، وقالوا : ما هذا هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان ، فأذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون .

والخوف يعني خوف بعوث النبي (صلى الله عليه وسلم) وسراياه التي كان يبعثها للإغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم .

فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما ، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة أيقاعها عليه ، وهو أن اللباس لايذاق بل يلبس ، فيقال كساهم الله لباس الجوع أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع قلت : قال صاحب الكشاف : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر ، والألم بما يدرك من طعم المر البشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشي الأنسان ، والتبليس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ، ثم ذكر بعده من علم المعاني والبيان ما يشهد لصحة ما قال .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : جوابه من وجوه ، الأول ، أن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان : أحدهما أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع .

والثاني ، أن ذلك الجوع كان شديداً كاملاً فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس ، والحاصل أنه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق ، وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فأذاقهما الله لباس الجوع والخوف ، الوجه الثاني : أن

التقدير أن الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة ، وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فوضع موضع التعرف ، وهو الاختبار تقول ناظر فلاناً وذاق ما عنده :

ومن يذق الدنيا طعمتها . . .

وسيق إلينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ما ظهر عليهم من الضمور ، وشحوب اللون ونهكة البدن وتغيير الحال وكسوف البال ، كما تقول : تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان ، كذلك يجوز أن تقول : ذقت لباس الجوع والخوف على فلان .

(25/445)

الوجه الثالث : أن يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة ، فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى ﴿ بما كانوا يصنعون ﴾ ولم يقل بما صنعت لأنه أراد أهل القرية ، والمعنى : فعلنا بهم ما فعلنا بسبب ما كانوا يصنعون وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهي إرسال محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو منهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا في إيذائه ، وأرادوا قتله

فأخرجه الله من بينهم وأمره بالهجرة إلى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك بسبب تكذيبهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخروجه من بين أظهرهم .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد جاءهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ رسول منهم ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) يعرفون نسبه ، ويعرفونه قبل النبوة وبعدها ﴿ فكذبوه فأخذهم العذاب ﴾ يعني الجوع والخوف وقيل القتل يوم بدر ، والقول الأول أولى لما تقدم في الآية ﴿ وهم ظالمون ﴾ يعني كافرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(26/445)

وقال أبو حيان :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) ﴾

يوم منصوب على الظرف ، وناصبه رحيم ، أو على المفعول به ، وناصبه اذكر .

والظاهر عموم كل نفس ، فيجادل المؤمن والكافر ، وجداله بالكذب والجحد ، فيشهد عليهم الرسل والجوارح ، فحينئذ لا ينطقون .

وقالت فرقة : الجدال قول كل أحد من الأنبياء وغيرهم : نفسي نفسي .

قال ابن عطية : وهذا ليس بجدال ولا احتجاج ، إنما هو مجرد رغبة .

واختار الزمخشري هذا القول ، وركب معه ما قبله فقال : كأنه قيل يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسي نفسي .

ومعنى المجادلة الاعتذار عنها كقولهم : ﴿ هؤلاء أضلونا ما كنا مشركين ﴾ ﴿ ما كنا مشركين ﴾ ونحو ذلك .

وقال : يقال لعين الشيء وذاته نفسه ، وفي نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هي ، فالنفس الأولى هي الجملة ، والثانية عينها وذاتها .

وقال ابن عطية : أي كل ذي نفس ، ثم أجرى الفعل على المضاف إليه المذكور ، فأثبت العلامة .

ونفس الأولى هي النفس المعروفة ، والثانية هي بمعنى البدن كما تقول : نفس الشيء وعينه أي ذاته .

وقال العسكري : الإنسان يسمي نفساً تقول العرب : ما جاءني إلا نفس واحدة أي : إنسان واحد .

والنفس في الحقيقة لا تأتي ، لأنها هي الشيء الذي يعيش به الإنسان انتهى .

(فإن قلت) : لِمَ لم يتعد الفعل إلى الضمير ، لا إلى لفظ النفس ؟ (قلت) : منع من ذلك أنّ الفعل إذا لم يكن من باب ظن ، وفقد لا يتعدى فعل ظاهر فاعله ، ولا مضمره إلى مضمره المتصل ، فلذلك لم يجيء التركيب تجادل عنها ، ولذلك لا يجوز : ضربتها هند ولا هند ضربتها ، وإنما تقول : ضربت نفسها هند ، وضربت هند نفسها ، ما عملت أي : جزاء ما عملت من إحسان أو إساءة ، وأنث الفعل في تأتي ، والضمير في تجادل وفي عن نفسها ، وفي توفي ، وفي عملت ، حملاً على معنى كل ، ولو روعي اللفظ لذكر .

وقال الشاعر :

جادت عليها كل عين ثرة . . .

فتركن كل حديقة كالدرهم

فأنث على المعنى .

وما ذكر عن ابن عباس : أنّ الجدال هنا هو جدال الجسد للروح ، والروح للجسد لا يظهر قال : يقول الجسد : رب جاء الروح بأمرك به نطق لساني وأبصرت عيني ومشت رجلي ، فتقول الرّوح : أنت كسبت وعصيت لا أنا ، وأنت كنت الحامل وأنا المحمول ، فيقول الله عز وجل : أضرب لكما مثل أعمى حمل مقعداً إلى بستان فأصابا من ثماره ، فالعذاب عليكما .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد ، وقتادة : أن القرية المضروب بها المثل مكة ، كانت لا تغزي ولا يغار عليها ، والأرزاق تجلب إليها ، وأنعم الله عليها بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فكفرت ، فأصابها السنون والخوف .

وسرايا الرسول وغزواته ضربت مثلاً لغيرها مما يأتي بعدها .

وهذا وإن كانت الآية مدنية ، وإن كانت مكية فجوع السنين وخوف العذاب بسبب التكذيب .

ويؤيد كونها مكية قوله : ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، ويجوز أن يكون قرية من قرى الأولين .

وعن حفصة : أنها المدينة .

وقال ابن عطية : يتوجه عندي أنها قصد بها قرية غير معينة ، جعلت مثلاً لمكة على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة .

(28/445)

وقال الزمخشري : يجوز أن يراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن يكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها انتهى .

ولا يجوز أنْ يراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، بل لا بد من وجودها لقوله : ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون .

كانت آمنة ابتدأ بصفة الأمن ، لأنه لا يقيم لخائف .

والاطمئنان زيادة في الأمن ، فلا يزعجها خوف .

يأتيها رزقها أقواتها واسعة من جميع جهاتها ، لا يتعذر منها جهة .

وأنعم جمع نعمة ، كشدّة وأشد .

وقال قطرب : جمع نعم بمعنى النعيم ، يقال : هذه أيام طعم ونعم انتهى .

فيكون كبؤس وأبؤس .

وقال الزمخشري : جمع نعمة على ترك التاء ، والاعتداد بالتاء كدرع وأدرع .

وقال العقلاء : ثلاثة ليس لها نهاية : الأمن ، والصحة والكفاية .

قال أبو عبد الله الرازي : أمنة إشارة إلى الأمن ، مطمئنة إشارة إلى الصحة ، لأن هواء ذلك لما كان ملازماً لأمزجتهم اطمأنوا إليها واستقروا ، يأتيها رزقها السبب في ذلك دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات ﴾

وقال : الأنعم جمع نعمة وجمع قلة ، ولم يأت بنعم الله وذلك أنه قصد التنبيه بالأدنى على الأعلى بمعنى أنّ كفران النعم القليلة أوجب العذاب ، فكفران الكثيرة أولى بإيجابه .

قال ابن عطية : لما باشرهم ذلك صار كاللباس ، وهذا كقول الأعشى :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها . . .

تثنت فكانت عليه لباسا

ونحو قوله تعالى : ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ومنه قول الشاعر :

وقد لبست بعد الزبير مجاشع . . .

ثياب التي حاضت ولم تغسل الدما

كأن العار لما باشرهم ولصق بهم جعلهم لبسوه .

وقوله : فأذاقها الله ، نظير قوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ونظير قول الشاعر :

دونك ما جنيته فاحس وذق . . .

وقال الزمخشري : الإذاقة واللباس استعارتان ، فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس فما وجه صحة إيقاعها ؟ (قلت) : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وإذاقة العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع .

وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض

الحوادث .

وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة : عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ، ولهم في نحو هذا طريقان : أحدهما : أن ينظروا فيه إلى المستعار له ، كما نظر إليه ههنا ، ونحوه قول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً . . .

غلقت لضحكته رقاب المال

استعار الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه ، صون الرداء لما يلقى عليه .

ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال ، لا صفة الرداء ، نظراً إلى المستعار له .

والثاني : أن ينظروا فيه إلى المستعار كقوله :

ينازعني ردائي عبد عمرو . . .

رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لي الشطر الذي ملكت يميني . . .

ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد بردائه سيفه ثم قال : فاعتجر منه بشطر ، فنظر إلى المستعار في لفظ : الاعتجار ، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لبس الجوع والخوف ، ولقال كثير : ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكاً انتهى .

وهو كلام حسن .

ولما تقدم ذكر الأمن وإتيان الرزق ، قابلهما بالجوع الناشئ عن انقطاع الرزق وبالخوف .

وقدم الجوع ليلى المتأخر وهو إتيان الرزق كقوله : ﴿ يوم تبيضّ وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ وأما قوله : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ فأما الذين شقوا ففي النار فقدم ما بدئ به وهما طريقان .

وقرأ الجمهور : والخوف بالجرّ عطفاً على الجوع .

وروي العباس عن أبي عمرو : والخوف بالنصب عطفاً على لباس .

(30/445)

قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل .

وقال الزمخشري : يجوز أن يكون على تقدير حذف المضاب وإقامة المضاف إليه مقامه ، أصله ولباس الخوف .

وقرأ عبد الله فأذاقها الله الخوف والجوع ، ولا يذكر لباس .

والذي أقوله : إنّ هذا تفسير المعنى لا قراءة ، لأن المنقول عنه مستفيضاً مثل ما في سواد المصحف .

وفي مصحف أبي بن كعب لباس الخوف والجوع ، بدأ بمقابل ما بدأ به في قوله : كانت آمنة ، وهذا عندي إنما كان في مصحفه قبل أن يجمعوا ما في سواد المصحف الموجود الآن شرقاً وغرباً ، ولذلك المستفيض عن أبي في القراءة إنما هو كقراءة الجماعة بما كانوا يصنعون من كفران نعم الله ، ومنها تكذيب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي جاءهم .

والضمير في بما كانوا يصنعون عائد على المحذوف في قوله : وضرب الله مثلاً قرية ، أي : قصة أهل قرية ، أعاد الضمير أولاً على لفظ قرية ، ثم على المضاف المحذوف كقوله : ﴿ فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ والظاهر أن الضمير في ولقد جاءهم ، عائد على ما عاد عليه في قوله : بما كانوا يصنعون .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون الضمير في جاءهم لأهل تلك المدينة ، يكون هذا بما جرى فيها كمدينة شعيب عليه السلام وغيره ، ويحتمل أن يكون لأهل مكة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(31/445)

وقال أبو السعود :

﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ ﴾

منصوب برحيم وما رُتِّب عليه ، أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناسُ لرب العالمين ﴿ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ عن ذاتها تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يُهمّها شأنُ غيرها فتقول نفسي نفسي ﴿ وتوفى كُلُّ نفسٍ ﴾ أي تعطى وافيا كاملاً ﴿ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي جزاءَ ما عملت بطريق إطلاقِ اسمِ السبب على المسبَّب إشعاراً بكمال الاتصال بين الأجزية والأعمال ، وإيثارُ الإظهار على الإضمار لزيادة التقريرِ وللإيذان باختلاف وقتي المجادلةِ والتوفيةِ وإن كانتا في يوم واحد ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ لا يُنقصون أجورَهم أو لا يعاقبون بغير موجب ولا يُزاد في عقابهم على ذنوبهم .

(32/445)

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ قيل : ضربُ المثل صنعُه واعتماله ، وقد مرَّ تحقيقُه في سورة البقرة ، ولا يتعدى إلا إلى مفعول واحدٍ وإنما عُدّيَ لاثنين لتضمينه معنى الجعْل ، وتأخيرُ قريةً مع كونها مفعولاً أولاً لئلا يحول المفعولُ الثاني بينها وبين صفتِها وما يترتب عليها ، إذ التأخيرُ عن الكل مُخِلٌّ بتجاذب أطرافِ النظم وتجاوبها ، ولأن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ مما يورث النفسَ ترقباً لوروده تشوقاً لا سيما إذا كان في المقدّم ما يدعو إليه ، فإن المثَل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوالِ ما هو مثلٌ فيتمكن المؤخرُ عند ورودِه لديها فضلَ تمكنٍ ،

والقريةُ إما محققةٌ في الغابرين ، وإما مقدرةٌ أي جعلها مثلاً لأهل مكةَ خاصةً ، أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمةُ ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمةً ودخل فيهم أهلُ مكةَ دخولاً أولياً ﴿ كَانَتْ ءامِنَةً ﴾ ذاتَ أمنٍ من كل مَخُوف ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ لا يُزعج أهلَها مزعجٌ ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ أقواتُ أهلها ، صفةٌ ثانيةٌ لقريةً وتغييرُ سبكها عن الصفة الأولى لما أن إتيانَ رزقِها متجددٌ وكونَها آمنةً مطمئنةً ثابتٌ مستمرٌّ ﴿ رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مّن كُلّ مَكَانٍ ﴾ من نواحيها .

(33/445)

﴿ فَكَفَرَتْ ﴾ أي كفرَ أهلُها ﴿ بِأَنْعُمِ الله ﴾ أي بنِعَمه ، جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدِرع وأدرُع ، أو جمع نُعْم كبُؤس وأبؤس ، والمراد بها نعمةُ الرزقِ والأمن المستمرّ ، وإيثارُ جمعِ القلةِ للإيذان بأن كفرانَ نعمةٍ قليلة حيث أوجب هذا العذابَ فما ظنك بكفران نِعمٍ كثيرة ﴿ فَأَذَاقَهَا الله ﴾ أي أذاق أهلها ﴿ لِبَاسَ الجوع والخوف ﴾ شُبّه أثرُ الجوعِ والخوف وضررُهما المحيطُ بهم باللباس الغاشي للاّبس فاستُعير له اسمُه وأُوقع عليه الإذاقةُ المستعارة لمطلق الإيصالِ المنبئةِ عن شدة الإصابةِ بما فيها من اجتماع إدراكَيْ اللامسةِ والذائقة على نهج التحرير ، فإنها لشيوع استعمالِها في ذلك وكثرةِ جريانها على الألسنة

جرت مجرى الحقيقةِ كقول كثّير

غمْرُ الرداءِ إذا تبسم ضاحكا . . . غلقت لضحكته رقابُ المال

(34/445)

فإن الغمْرَ مع كونه في الحقيقة من أحوال الماءِ الكثير لمّا كان كثيرَ الاستعمال في المعروف المشبَّهِ بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقةِ فصارت إضافتُه إلى الرداء المستعارِ للمعروف تجريداً . أو شبّه أثرُهما وضررُهما من حيث الإحاطةُ بهم والكراهةُ لديهم تارة باللباس الغاشي للآبس المناسب للخوف بجامع الإحاطةِ واللزوم تشبيهَ معقولٍ بمحسوس فاستُعير له اسمُه استعارةً تصريحيةً ، وأخرى بطعم المرّ البشعِ الملائمِ للجوع الناشيءِ من فقد الرزق بجامع الكراهة ، فأُوميَ إليه بأن أوقع عليه الإذاقةُ المستعارةُ لإيصال الضارّ المنبئةَ عن شدة الإصابة بما فيها من اجتماع إدراكَيْ اللامسة والذائقة ، وتقديمُ الجوعِ الناشىء مما ذكر من فقدان الرزقِ على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدمِ فيما تقدم على إتيان الرزق لكونه أنسبَ بالإذاقة أو لمراعاةٍ بينها وبين إتيان الرزقِ ، وقد قرىء بتقديم الخوفِ وبنصبه أيضاً عطفاً على المضاف ، أو إقامةً له مُقامَ مضافٍ محذوف وأصله ولباسَ الخوف ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ فيما قبلُ أو على وجه الاستمرار وهو الكفرانُ المذكور أسند ذلك إلى أهل

القريةِ تحقيقاً للأمر بعد إسنادِ الكفرانِ إليها وإيقاعِ الإذاقة عليها إرادةً للمبالغة ، وفي صيغة الصنعة إيذانٌ بأن كفرانَ النعمة صار صنعةً راسخةً لهم وسنةً مسلوكة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾

(35/445)

من تتمة المَثَل ، جيء بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمةً منهم لقضية العقلِ فقط بل كان ذلك معارضةً لحجة الله على الخلق أيضاً ، أي ولقد جاء أهلَ تلك القرية ﴿ رَسُولٌ مّنْهُمْ ﴾ أي من جنسهم يعرِفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكرِ على النعمة وأنذرهم سوءَ عاقبة ما يأتون وما يذرون ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ في رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر ، فالفاءُ فصيحةٌ وعدم ذكرِه للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ المستأصِلُ لشأفتهم غِبَّ ما ذاقوا نُبذةً من ذلك ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ أي حالَ التباسهم بما هم عليه من الظلم الذي هو كفرانُ نعمِ الله تعالى وتكذيبُ رسوله غيرَ مُقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه ، وفيه دلالةٌ على تماديهم في الكفر والعِناد وتجاوزِهم في ذلك كلَّ حدَ معتاد . وترتيبُ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد إليه قولُه سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وبه يتم

التمثيلُ فإن حالَ أهل مكةَ سواءٌ ضُرب المثلُ لهم خاصة أو لمن سار سيرتَهم كافةً محاذيةٌ لحال أهلِ تلك القريةِ حذوَ القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو في خصلة فَذّة ، كيف لا وقد كانوا في حرمٍ آمنٍ ويُتخطف الناسُ من حولهم وما يمر ببالهم طيفٌ من الخوف وكانت تجبى إليه ثمراتُ كل شيء ، ولقد جاءهم رسولٌ منهم وأيُّ رسول ، يحار في إدراك سموِ رتبتِه العقولُ صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبور ، فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فأذاقهم الله لباسَ الجوعِ والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله : " اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبع يوسفَ " ما أصابهم من جدب شديدٍ وأزمة خصّت كلَّ شيء حتى اضطرتهم إلى أكل الجِيف والكلابِ الميتة والعظامِ المحرقة والعلهز وهو الوبرُ المعالَجُ بالدم وقد ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت من سرايا رسول

(36/445)

الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يُغيرون على مواشيهم وعِيرهم وقوافلهم ، ثم أخذهم يومَ بدرٍ ما أخذهم من العذاب .

هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسنُ النظام ، وأما ما أجمع عليه أكثرُ أهل التفسير من أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ لأهل مكةَ قد ذُكر حالُهم صريحاً بعد ما

ذكر مَثَلهم وأن المرادَ بالرسول محمدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من وقعة بدر فبمعزل من التحقيق ، كيف لا وقوله سبحانه : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ مفرّعٌ على نتيجة التمثيل وصدٌّ لهم عما يؤدّي إلى مثل عاقبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(37/445)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ ﴾

نصب على الظرفية ب ﴿ رحيم ﴾ [النحل : 110] وقيل : على أنه مفعول به لأذكر محذوفاً ، ورجح الأول بارتباط النظم عليه ومقابلته لقوله تعالى : ﴿ فِى الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ [النحل : 109] ولا يضر تقييد الرحمة بذلك اليوم لأن الرحمة في غيره تثبت بالطريق الأولى ، والمراد بهذا اليوم يوم القيامة ﴿ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ تدافع وتسعى في خلاصها بالاعتذار ولا يهمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب .

أخرج أحمد في الزهد .

وجماعة عن كعب قال : كنت عند عمر بن الخطاب فقال : خوفنا يا كعب فقلت : يا أمير

المؤمنين أوليس فيكم كتاب الله تعالى وحكمة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ولكن خوفنا قلت : يا أمير المؤمنين لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً لازدرأت عملك مما ترى قال : زدنا قلت : يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الآخر جاثياً إلى ركبتيه حتى أن إبراهيم خليله ليخر جاثياً على ركبتيه فيقول : رب نفسي نفسي لا أسألك اليوم إلا نفسي فأطرق عمر ملياً قلت : يا أمير المؤمنين أو ليس تجدون هذا في كتاب الله ؟ قال : كيف ؟ قلت : قول الله تعالى في هذه الآية : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ ﴾ الخ ، وجعل بعضهم هذا القول هو الجدال ولم يرتضه ابن عطية ، والحق أنه ليس فيه إلا الدلالة على عدم الاهتمام بشأن الغير وهو بغض ما تدل عليه الآية وعن ابن عباس أن هذه المجادلة بين الروح والجسد يقول الجسد : بك نطق لساني وأبصرت عيني ومشت رجلي ولولاك لكنت خشبة ملقاة وتقول الروح : أنت كسبت وعصيت لا أنا وأنت كنت الحامل وأنا المحمول فيقول الله تعالى : أضرب لكما مثلاً أعمى حمل مقعداً إلى بستان فأصابا من ثماره فالعذاب عليكما ، والظاهر عدم صحة هذا عن هذا الحبر وهو أجل من أن يحمل المجادلة في الآية على ما ذكر .

وضمير ﴿ نَفْسِهَا ﴾ عائد على النفس الأولى فكأنه قيل : عن نفس النفس ، وظاهره إضافة الشيء إلى نفسه ، فوجه بأن النفس الأولى هي الذات والجملة أي الشخص بأجزائه كما في قولك ، نفس كريمة ونفس مباركة ، والثانية عينها أي التي تجري مجرى التأكيد ويدل على حقيقة الشيء وهويته بحسب المقام ، والفرق بينهما أن الأجزاء ملاحظة في الأول دون الثاني ، والأصل هو الثاني لكن لعدم المغايرة في الحقيقة بين الذات وصاحبها استعمل بمعنى الصاحب ثم أضيف الذات إليه ، فوزان ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ وزان قولك : كل أحد كذا في "الكشف" وفي "الفرائد" المغايرة شرط بين المضاف والمضاف إليه لامتناع النسبة بدون المنتسبين فلذلك قالوا : يمتنع إضافة الشيء إلى نفسه إلا أن المغايرة قبل الإضابة كافية وهي محققة ههنا لأنه لا يلزم من مطلق النفس نفسك ويلزم من نفسك مطلق النفس فلما أضيف ما لا يلزم أن يكون نفسك إلى نفسك صحت الإضافة وإن اتحدا بعد الإضافة ، ولذا جاز عين الشيء وكله ونفسه بخلاف أسد الليث وحبس المنع ونحوهما ، وقال ابن عطية : النفس الأولى هي المعروفة والثانية هي البدن ، وقال العسكري : الإنسان يسمى نفساً تقول العرب : ما جاءني إلا نفس واحدة أي إنسان واحدة ، والنفس في الحقيقة لا تأتي لأنها هي الشيء الذي يعيش به الإنسان فتأمل ففي النفس من بعض ما قالوه شيء ، والظاهر أن السؤال والجواب المشهورين في كل رجل وضيعته يجريان ههنا فتفطن .

وفي "البحر" إنما لم تجيء تجادل عنها بدل ﴿ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ لأن الفعل إذا لم يكن من

باب ظن وفقد لا يتعدى ظاهراً كان فاعله أو مضمراً إلى ضميره المتصل فلا يقال .

ضربتها هند أو هند ضربتها وإنما يقال : ضربت نفسها هند وهند ضربت نفسه ،

وتأنيث ﴿ تَأْتِى ﴾ مع إسناده إلى ﴿ كُلُّ ﴾ وهو مذكر لرعاية المعنى ؛ وكذا يقال فيما

بعد ، وعلى ذلك جاء قوله :

جادت عليها كل عين ثرة . . .

فتركن كل حديقة كالدرهم

(39/445)

﴿ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي تعطي وافياً كاملاً ﴿ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي جزاء عملها أو الذي

عملته إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب إشعاراً

بكمال الاتصال بين الأجزية والأعمال ، والإظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير وللإيذان

باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وإن كانتا في يوم واحد .

﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بزيادة العقاب أو بالعقاب بغير ذنب ، وقيل : بنقص أجورهم .

وتعقب بأنه علم من السابق .

وأجيب بأن القائل به لعله أراد بجزاء ما عملت العقاب ، وعلى تقدير إرادة الأعم فهذا

تكرار للتأكيد ووجه ضمير الجمع ظاهر .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً ﴾

أي أهل قرية وذلك إما بإطلاق القرية وإرادة أهلها وإما بتقدير مضاف ، وانتصابه على أنه مفعول أول لضرب على تضمينه معنى الجعل ، وأخر لئلا يفصل الثاني بين الموصوف وصفته وما يترتب عليها ، وتأخيره عن الكل مخل بتجاوب أطراف النظم الجليل وتجاذبه ، ولأن تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس شوقاً لوروده لا سيما إذا كان في المقدم ما يدعو إليه كما هنا فيتمكن عند وروده فضل تمكن ، وعن الزجاج أن النصب على البدلية والأصل عندهم ضرب الله مثلاً مثل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، والمراد بالقرية إما قرية محققة من قرى الأولين ، وإما مقدرة ووجود المشبه به غير لازم ، ولم يجوز ذلك أبو حيان لمكان ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النحل : 113] وأنت تعلم أنه غير مانع .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس .

ومجاهد أنها مكة ، وروى هذا عن ابن زيد .

وقتادة .

وعطية ، وأخرج ابن أبي حاتم .

وغيره عن سليم بن عمر قال : صحبت حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهي خارجة من مكة إلى المدينة فأخبرت أن عثمان قد قتل فرجعت وقالت : ارجعوا بي فوالذي نفسي بيده إنها للقرية التي قال الله تعالى وتلت ما في الآية ، ولعلها أرادت أنها مثلها ؛ ويمكن حمل ما روى عن الحبر ومن معه على ذلك ، والمعنى جعلها الله تعالى مثلاً لأهل مكة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فجوزوا بما جوزوا ، ودخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً .

ولعله المختار ﴿ كَانَتْ ءامِنَةً ﴾ قيل : ذات أمن لا يأتي عليها ما يوجب الخوف كما يأتي على بعض القرى من إغارة أهل الشر عليها وطلب الإيقاع بها ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ ساكنة قارة لا يحدث فيها ما يوجب الانزعاج كما يحدث في بعض القرى من الفتان بين أهاليها ووقوع بعضهم في بعض فإنها قلما تأمن من إغارة شرير عليها وهيهات هيهات أن ترى شخصين متصادقين فيها :

والمرء يخشى من أبيه وابنه . . .

ويخونه فيها أخوه وجاره

وقيل : يفهم من كلام بعضهم أن الاطمئنان أثر الأمن ولازمه من حيث أن الخوف يوجب الانزعاج وينافي الاطمئنان ، وفي "البحر" أنه زيادة في الأمن ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ إقواتها ﴿

رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من جميع نواحيها ، وغير أسلوب هذه الصفة عما تقدم إلى ما ترى لما أن إتيان الرزق متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر ، وذكر الإمام أن الآية تضمنت ثلاث نعم جمعها قولهم :

ثلاثة ليس لها نهاية . . .

الأمن والصحة والكفاية

(41/445)

فآمنة إشارة إلى الأمن و ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ إلى الصحة و ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ الخ إلى الكفاية ، وجعل سبب الاطمئنان ملاءمة هواء البلد لأمزجة أهله وفيه تأمل ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ جمع نعمة كشدة وأشد على ترك الاعتداد بالتاء لأن المطرد جمع فعل على أفعال لا فعلة ، وقال الفاضل اليمني : اسم جمع للنعمة ، وقطرب جمع نعم بضم النون كبؤس وأبؤس ، والنعم عنده بمعنى النعيم ، وحمل على ذلك قولهم : هذا يوم طعم ونعم ، وعند غيره بمعنى النعمة ، والمراد بالنعم ما تضمنته الآية قبل ؛ ولعله في قوة نعم كثيرة بل هو كذلك ، وفي إيثار جمع القلة إيذان بأن كفران نعم قليلة أوجبت هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ شبه أثر الجوع والخوف وضررهما الغاشي باللباس

بجامع الإحاطة والاشتمال فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة المستعارقة للإصابة ، وأوثرت للدلالة على شدة التأثير التي تفوت لو استعملت الإصابة ، وبينوا العلاقة بأن المدرك من أثر الضرر شبه بالمدرك من طعم المر البشع من باب استعارة محسوس لمعقول لأن الوجدانيات لزت في قرن العقليات ، وكذا يقال في الأول ، ولشيوع استعمال الإذاقة في ذلك وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة ولذا جعل إيقاعها على اللباس تجريداً ، فإن التجريد إنما يحسن أو يصح بالحقيقة أو ما ألحق بها من المجاز الشائع ، فلا فرق في هذا بين أذاقها إياه وأصابها به ، وإنما لم يقل : فكساها إيثاراً للترشيح لئلا يفوت ما تفيده الإذاقة من التأثير والإدراك وطعم الجوع لما في اللباس من الدلالة على الشمول وصاحب المفتاح حمل اللباس على انتقاع اللون ورثاثة الهيئة اللازمين للجوع والخوف ، والاستعارة حينئذ من باب استعارة المحسوس للمحسوس ، وما ذكر أولاً أولى إذ لا يحل موقع الإذاقة وتكون الإصابة أبلغ موقعاً .

(42/445)

ونقل عن الأصحاب أن لفظ اللباس عندهم تخييل ، وبين ذلك بأن يشبه الجوع والخوف في التأثير بذي لباس قاصد للتأثير مبالغ فيه فيخترع له صورة كاللباس ويطلق عليها اسمه

واعترض بأن ذلك لا يلائم بلاغة القرآن العظيم لأن الجوع إذا شبه بالمؤثر القاصد الكامل فيما تولاه ناسب أن تخترع له صورة ما يكون آلة للتأثير لا صورة اللباس الذي لا مدخل له فيه ، وتعقب بأن صاحب المفتاح يرى أن التخييلية مسعملة في أمر وهيم توهمه المتكلم شبيهاً بمعناه الحقيقي فاللباس إذا كان تخييلاً يجوز أن يكون المراد به أمراً مشتملاً على الجوع اشتمال اللباس كالقحط ومشتملاً على الخوف كإحاطة العدو فلا وجه لقوله : صورة اللباس مما لا دخل له في التأثير ، والقول بأنه لا يناسب مع الفاعل إلا ذكر الآلة للتثير ما لم يصرح به أحد من القوم ولا يتأتى التزامه في كل مكنية ، ألا تراك لو قلت .

مسافة القريض ما زال يطويها حتى نزل ببابه على تشبيه المدح بمسافر ثبت له المسافة تخييلاً وما بعده ترشيح كانت استعارة حسنة وليس قرينتها آلة لذلك الفاعل بل أمر من لوازمه ، ومثله كثير في كلام البلغاء اه .

وأنت تعلم أن هذا على ما فيه لا يفيد عند صحيح التخيل تمييز ما نقل عن الأصحاب على ما ذكر أولاً ولا مساواته له ، والمشهور أن في ﴿ لِبَاسَ ﴾ استعارتين تصريحية ومكنية ، وبين ذلك بأن شبه ما غشى الإنسان عند الجوع والخوف من أثر الضرر من حيث الاشتمال باللباس فاستعير له اسمه ومن حيث الكراهة بالطعم المر البشع فيكون استعارة مصرحة نظر إلى الأول ومكنية إلى الثاني وتكون الإذاقة تخييلاً ، وفيه بحث مشهور بين الطلبة ، وجوز أن يكون لباس ﴿ الجوع ﴾ كلجين الماء أي أذاقها الله الجوع الذي هو في

الإحاطة كاللباس ، والأول أيضاً أولى ، ومثل ذلك قول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا . . .

غلقت لضحكته رقاب المال

(43/445)

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صوت الرداء لما يلقى عليه وأضاف إليه الغمر وهو في وصف المعروف استعارة جرت مجرى الحقيقة وحقيقته من الغمرة وهي معظم الماء وكثرته ، وتقديم ﴿ الجوع ﴾ الناشيء من فقدان الرزق على ﴿ الخوف ﴾ المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على إتيان الرزق لكونه أنسب بالإذاقة أو لمراعاة المقارنة بين ذلك وبين إتيان الرزق .

وفي مصحف أبي ﴿ لِبَاسَ الخوف والجوع ﴾ بتقديم الخوف ، وكذا قرأ عبد الله إلا أنه لم يذكر اللباس وعد ذلك أبو حيان تفيراً لا قراءة ، وروى العباس عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿ والخوف ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ لِبَاسَ ﴾ وجعله الزمخشري على حذف مضاف وإقامة المضاف مقامه أي ولباس الخوف .

وقال "صاحب اللوامح" يجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل ، وفي مقابلة ما تقدم بالجوع

والخوف فقط ما يشير إلى عد الأمن والاطمئنان كالشيء الواحد وإلا فكان الظاهر فإذاقها الله لباس الجوع والخوف والانزعاج ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ فيما قبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور ، و﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي يصنعونه ، وجوز أن تكون مصدرية والباء على الوجهين سببية والضميران قيل : عائدان على أهل المقدر المضاف إلى القرية بعد ما عادت الضمائر السابقة إلى لفظها ، وقيل : عائدان إلى القرية مراداً بها أهلها .

وفي إرشاد العقل السليم أسند ما ذكر إلى أهل القرية تحقيقاً للأمر بعد إسناد الكفران إليها وإيقاع الإذاقة عليها إرادة للمبالغة ، وفي صيغة الصنعة إيذان بأن كفران الصنيعة صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة .

(44/445)

﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ من تتمة التمثيل ، والضمير فيه عائد على من عاد إليه الضميران قبله ، وجيء بذلك لبيان أن ما صنعوه من كفران أنعم الله تعالى لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله تعالى على الخلق أيضاً أي ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكر على

النعمة وأنذرهم بسوء عاقبة ما هم عليه ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ في رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر ، فالفاء فصيحة وعدم ذكر ما أفصحت عنه للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ المستأصل لشأفتهم غب ما ذاقوا منه ما سمعت ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ أي حال التباسهم بالظلم وهو الكفران والتكذيب غير مقلعين عنه بما ذاقوا من المقدمات الزاجرة عنه ، وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد وتجاوزهم في ذلك كل حد معتاد .

(45/445)

وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد إليه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وبه يتم التمثيل فإن حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لهما ولمن سار سيرتهم كافة أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب فقد كانوا في حرم آمن يتخطف الناس من حولهم ولا يمر ببالهم طيف من الخوف ولا يزعج قطا قلوبهم مزعج وكانت تجيء إليه ثمرات كل شيء ولقد جاءهم رسول منهم وأي رسول تحار في إدراك سمو مرتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فأنذرهم وحذرهم فكفروا بأنعم الله تعلى وكذبوه

عليه الصلاة والسلام فأذاقهم الله تعالى لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " ما أصابهم من جدب شديد وأزمة ما عليها مزيد فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحروقة والعلهز وهو طعام يتخذ في سني المجاعة من الدم والوبر وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا ما اختاره شيخ الإسلام وقال : إنه الذي يقتضيه المقام ويستدعيه النظام ، وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ لأهل مكة والكلام انتقال إلى ذكر حالهم صريحاً بعد ذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من الجدب ووقعة بدر فبمعزل عن التحقيق كيف لا وقوله تعالى :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ مفرع على نتيجة التمثيل وصد لهم عما يؤدي إلى مثل عاقبته . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ﴾

قوله : ﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمانه ﴾ قد اختلف أهل العلم في إعرابه ، فذهب الأكثرون على أنه بدل إما من ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بآيات الله ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : إنما يفتري الكذب من كفر ، واستثنى منهم المكره ، فلا يدخل تحت حكم الافتراء .

ثم قال : ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي : اعتقده وطابت به نفسه واطمأن إليه ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ وإما من المبتدأ الذي هو ﴿ أولئك ﴾ أو من الخبر الذي هو ﴿ الكاذبون ﴾ .

وذهب الزجاج إلى الأوّل .

وقال الأخفش : إن ﴿ من ﴾ مبتدأ وخبره محذوف اكتفي منه بخبر ﴿ من ﴾ الثانية ، كقولك : من يأتنا منكنّ نكرمه .

وقيل : هو أي : ﴿ من ﴾ في ﴿ من كفر ﴾ منصوب على الذمّ ؛ وقيل : إن من شرطية والجواب محذوف لأن جواب "من شرح" دالّ عليه ، وهو كقول الأخفش ، وإنما خالفه في إطلاق لفظ الشرط على من والجواب على خبرها ، فكأنه قيل على هذا من كفر بالله فعليهم غضب إلاّ من أكره ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب ، وإنما صح

استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلاّ من الكافر لولا الإكراه.

قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر.

وحكي عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر الكفر، كان مرتداً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله على الإسلام، وتبين منه امرأته، ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلماً، وهذا القول مردود على قائله، مدفوع بالكتاب والسنّة.

وذهب الحسن البصري، والأوزاعي، والشافعي، وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة في هذه الآية إنما جاءت في القول.

وأما في الفعل فلا رخصة، مثل أن يكره على السجود لغير الله، ويدفعه ظاهر الآية، فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوص السبب، لا اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر في علم الأصول.

وجملة ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ في محل نصب على الحال من المستثنى ، أي : إلا من كفر بإكراه ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته ، وليس بعد هذا الوعيد العظيم ، وهو الجمع للمرتدين ، بين غضب الله وعظيم عذابه .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الكفر بعد الإيمان ، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب ، والباء في ﴿ بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا ﴾ للسببية ، أي : ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا ﴿ على الآخرة وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الكافرين ﴾ معطوف على ﴿ أَنَّهُمْ استحبوا ﴾ أي : ذلك بأنهم استحبوا ، وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين إلى الإيمان به .

ثم وصفهم بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي : الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة ﴿ الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وأبصارهم ﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق .

وقد سبق تحقيق الطبع في أول البقرة ، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدّمة ، فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الغافلون ﴾ عما يراد بهم ، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة ، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه .

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الخاسرون ﴾ أي : الكاملون في الخسران ، البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية ، وقد تقدّم تحقيق الكلام في معنى ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ في مواضع ، منها ما هو في هذه السورة .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وخبر " إن " محذوف ، والتقدير : لغفور رحيم ، وإنما حذف لدلالة خبر ﴿ إن ربك ﴾ المتأخرة عليه .

وقيل : الخبر هو ﴿ للذين هاجروا ﴾ أي : إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم ، وفيه بعد .

وقيل : إن خبرها هو قوله ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، و ﴿ إن ربك ﴾ الثانية تأكيد للأولى .

قال في الكشاف : "ثم" ها هنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء ، يعني : الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه ، ويدل على ذلك ما روي أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح ، وسيأتي بيان ذلك ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ أي : فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر ، وقرىء " فتنوا " على البناء للفاعل ، أي : الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ﴿ ثُمَّ جاهدوا ﴾ في سبيل الله ﴿ وصبروا ﴾ على ما أصابهم من الكفار ، وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : كثير الغفران والرحمة لهم .

ومعنى الآية على قراءة من قرأ " فتنوا " على البناء للفاعل واضح ظاهر ، أي : إن ربك

لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم، ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم.

وأما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور، فالمعنى: أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة للكفر إذا صلحت أعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على المكاره لغفور لهم، رحيم بهم.

وأما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبي سرح الذي ارتدّ عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فالمعنى: أن هذا المفتون في دينه بالردّة إذا أسلم وجاهد وصبر، فالله غفور له، رحيم به.

(49/445)

والضمير في ﴿ بعدها ﴾ يرجع إلى الفتنة، أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر، أو إلى الجميع.

﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ قال الزجاج: ﴿ يوم تأتي ﴾ منتصب بقوله: ﴿ رحيم ﴾، أو بإضمار اذكر، أو ذكرهم، أو أنذرهم، وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس، ولا بدّ من التغاير بين المضاف والمضاف إليه.

وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى: جملة بدن الإنسان، وبالنفس الثانية: الذات، فكأن

قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهمه غيرها .

ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها ، فهو مجادل ومخاصم عن نفسه ، لا يتفرّغ لغيرها يوم القيامة .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه : " تفرّقوا عني ، فمن كانت به قوّة فليتأخر إلى آخر الليل ، ومن لم تكن به قوّة فليذهب في أوّل الليل ، فإذا سمعتم بي قد استقرّت بي الأرض فالحقوا بي " ، فأصبح بلال المؤذن ، وخباب ، وعمار ، وجارية من قريش كانت أسلمت ، فأخذهم المشركون وأبو جهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ، ثم يلبسونها إياه ، فإذا ألبسوها إياه ، قال : أحد أحد ، وأما خباب ، فجعلوا يجرّونه في الشوك ، وأما عمار ، فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية ، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربع أوتاد ، ثم مدّها فأدخل الحربة في قبلها حتى قتلها ، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار ، فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بالذي كان من أمرهم ، واشتدّ على عمار الذي كان تكلم به .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت ؟ أكان منشرحاً بالذي قلت أم لا " ؟ قال لا ، فأنزل الله ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فتركوه، فلما أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما وراءك؟" قال: شرّ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: "كيف تجد قلبك"؟ قال: مطمئناً بالإيمان.

قال: "إن عادوا فعد" فنزلت ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ قال: ذاك عمار بن ياسر ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ عبد الله بن أبي سرح.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عساكر عن أبي مالك في قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ قال: نزلت في عمار بن ياسر، وفي الباب روايات مصرّحة بأنها نزلت في عمار ابن ياسر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال: نزلت هذه الآية ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ في عياش بن أبي ربيعة.

وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: في سورة النحل ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ

لِلَّذِينَ هاجروا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ الآية قال : وهو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأزله الشيطان ، فلحق بالكفار .

فأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله .

(51/445)

وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ فيمن كان يفتن من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان قوم من أهل مكة قد أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فنزلت فيهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا ﴾ الآية ، فكتبوا إليهم بذلك : إنّ الله قد جعل لكم مخرجاً فأخرجوا ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم ، فنجا من نجا ، وقتل من قتل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن : أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين ، فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم .

قال : أتشهد أني رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه فقال : إنّي أصمّ ، فأمر به فقتل .

وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ، فأرسله فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : " أما صاحبك ، فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة " وهو مرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(52/445)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾

قال بعض أهل العلم : " إن هذا مثلٌ ضربه الله لأهل مكة " ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس ، وإليه ذهب مجاهد وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله ، نقله عنهم ابن كثير وغيره .

(53/445)

وهذا الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذا القرية – تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن. فقوله عن هذه القرية ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ قال نظيره عن أهل مكة. كقوله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ [القصص : 57] الآية، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] الآية، وقوله : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 4]، وقوله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : 97]، وقوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة : 125] الآية، وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال نظيره عن أهل مكة أيضاً كقوله : ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص : 57]، وقوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 1-4] فإن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام، وكانت تأتيهم من كلتا الرحلتين أموال وأرزاق. ولذا أتبع الرحلتين بامتنانه عليهم : بأن أطعمهم من جوع. وقوله في دعوة إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة : 126] ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [إبراهيم : 37] الآية.

وقوله : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ ذكره نظيره عن أهل مكة في آيات كثيرة. كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : 28].

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في الكام على قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل : 83] الآية .

وقوله : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وقع نظيره قطعاً لأهل مكة . لما لجوا في الكفر والعناد ، ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : " اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف " فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء ، حتى أكلوا الجيف والعله . (وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه) ، وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن . وذلك الخوف من جيوش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعزواته وبعوثه وسراياه . وهذا الجوع والخوف أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات . فقد فسر ابن مسعود آية (الدخان) بما يدل على ذلك .

قال البخاري في صحيحه : باب ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان : 10] فارتقب : فانتظر ، حدثنا عبدان ، عن أبي حمزة عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، عن عبد الله قال : مضى خمس : الدخان ، والروم والقمر ، والبطشة ، واللزام . ﴿ يَغْشَى الناس هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان : 11] حدثنا يحيى ، حدثنا أبو

معاويه. عن الأعمش، عن مسلمن عن مسروق قالك قال عبد الله: "إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

فأنزل الله تعالى ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِي السماآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى الناس هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان: 10-11] فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت! قال: "لمضر؟! إنك لجريء!" فاستسقى فسقوا. فنزلت ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ [الدخان: 15] فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية. فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: 16] يعني يوم بدر.

(55/445)

باب قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مْؤْمِنُون ﴾ [الدخان: 12] حدثنا يحيى، حدثنا وكيع عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: دخلت على عبد الله فقال: "إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين ﴾ [ص: 86] إن قريشاً لما غلبوا النّبي صلى الله عليه وسلم واستعصوا عليه قال: "اللهم أعني عليهم بسبع كسبع

يوسف " فأخذتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد ، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع قالوا . ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان 12] فقيل له : إن كشفنا عنهم عادوا . فدعا فكشف عنهم فعادوا ، فانتقم الله منهم يوم بدر . فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان : 10] إلى قوله جل ذكره ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان : 16] انتهى بلفظه من صحيح البخاري .

وفي تفسير ابن مسعود رضي الله عنه لهذه الآية الكريمة – ما يدل دلالة واضحة أن ما أذيقت هذه القرية المذكورة في (سورة النحل) من لباس الجوع أذيقه أهل مكة ، حتى أكلوا العظام ، وصار الرجل منهم يتخيل له مثل الدخان من شدة الجوع . وهذا التفسير من ابن مسعود رضي الله عنه له حكم الرفع . لما تقرر في علم الحديث : من أن تفسير الصحابي المتعلق بسبب النزول له حكم الرفع . كما أشار له صاحب طلعة الأنوار بقوله :

تفسير صاحب له تعلق . . . بالسبب الرفع له محقق

وكما هو معروف عند أهل اعلم . وقد قدمنا ذلك في (سورة البقرة) في الكلان : على قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : 222] .

وقد ثبت في صحيح مسلم أن الدخان من أشراط الساعة . ولا مانع من حمل الآية الكريمة على الدخانين : الدخان الذي مضى ، والدخان المستقبل - جمعاً بين الأدلة . وقد قدمنا التفسيرات المتعددة في الآية إن كان يمكن حمل الآيه على جميعها فهو أولى . وقد قدمنا أن ذلك هو الذي حققه أبو العباس بن تيمية رحمه الله في رسالته ، في علوم القرآن ، بأدلته .

وأما الخوف المذكور في آية النحل - فقد ذكر جل وعلا مثله عن أهل مكة أيضاً على بعض تفسيرات الآية الكريمة التي

هي

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ﴾ [الرعد : 31] فقد جاء عن جماعة من السلف تفسير القارعة التي تصيبهم بسرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال صاحب الدر المنثور : أخرج الفريابي وابن جرير ، وابن مردويه من طريق عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال السرايا " . وأخرج الطيالسي وابن جريرن وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو

الشيخ وابن مردويه، والبهقي في الدلائل، من طريق سعيد بن جبير رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُ الذين كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد: 31] قال: سرية ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ﴾ [الرعد: 31] قال: أنت يا محمد ﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ [الرعد: 31] قال فتح مكة". وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد رضي الله عنه في قوله " ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ﴾ يا محمد ﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ ". وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير، وابن المنذر وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد رضي الله عنه قال: " ﴿ القارعة ﴾ السرايا ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ﴾ قال الحديبية ﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ قال: فتح مكة".

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُ الذين كَفَرُوا ﴾ الآية - نزلت بالمدينة في سرايا النّبي صلى الله عليه وسلم. أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم اه محل الغرض منه.

فهذا التفسير المذكور في آية (الرعد) هذه ، والتفسير المذكور قبله في آية (الدخان) - يدل على أن أهل مكة أبدلوا بعد سعة الرزق والجوع ، وبعد الأمن والطمأنينة بالخوف . كما قال في القرية المذكورة ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ . وقوله في القريه المذكورة ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ الآية - لا يخفي أنه قال مثل ذلك عن قريش في آيات كثيرة . كقوله ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] الآية ، وقوله ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : 164] الآية . والآيات المصرحة بكفرهم وعنادهم كثيرة جداً كقوله : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا وَاْصْبِرُواْ على آلِهَتِكُمْ ﴾ [ص : 6] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أهذا الذي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبْرَنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان : 41-42] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

فمجموع ما ذكرنا قول من قال : إن المراد بهذه القرية المضروبة مثلاً في آية (النحل) ، هذه : هي مكة .

وروي عن حفصة وغيرها : " أنها المدينة ، قالت ذلك لما بلغها قتل عثمان رضي الله عنه " وقال بعض العلماء : هي قرية غير معينت ، ضربها الله مثلاً للتخويف من مقابلة نعمة

الأمن والاطمئنان والرزق ، بالكفر والطغيان . وقال من قال بهذا القول : إنه يدل عليه تنكير القرية في الآية الكريمة في قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ الآية .

(59/445)

قال مقيده عفا الله عنه : وعلى كل حال ، فيجب على كل عاقل أن يعتبر بهذا المثل ، وألا يقابل نعم الله بالكفر والطغيان . لئلا يحل به ما حل بهذه القرية المذكورة . ولكن الأمثال لا يعقلها عن الله إلا من أعطاه الله علماً . لقوله : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] .

وفي قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ قرية ﴾ وجهان من الإعراب .

أحدهما – أنه بدل من قوله ﴿ مثلاً ﴾ . الثاني – أن ﴿ ضرب ﴾ مضمن معنى جعل ، وأن ﴿ قرية ﴾ هي المفعول الأول ، و ﴿ مثلاً ﴾ المفعول الثاني وإنما أخرت قرية لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاته المذكورة في قوله : ﴿ كانت آمنة . . ﴾ الخ .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ مطمِئنة ﴾ أي لا يزعجها خوف . لأن الطمأنينة مع الأمن ، والانزعاج والقلق مع الخوف .

وقوله : ﴿ رغداً ﴾ أي واسعاً لذيذاً . والأنعام قيل جمع نعمة كشدة واشد . أو على ترك

الاعتداد بالتاء . كدرع وأدرع . أو جمع نعم كبؤس وأبؤس . كما تقدم في (سورة الأنعام) في الكلام على قوله : ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام : 152] الآية .

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف ، هو أن يقال : كيف أوقع الإذاقة على اللباس في قوله ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع ﴾ الآية . وروي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب : هل يُذاق اللباس ؟ ! يريد الطعن في قوله تعالى ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع ﴾ الآية . فقال له ابن الأعرابي : لا بأس أيها النسناس ! هب أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان نبياً ! أما كان عربياً ؟

(60/445)

قال مقيده عفا الله عنه : والجواب عن هذا السؤال ظاهر ، وهو أنه أطلق اسم اللباس على ما أصابهم من الجوع والخوف . لأن آثار الجوع والخوف تظهر على أبدانهم ، وحيط بها كاللباس . ومن حيث وجانهم ذلك اللباس المعبّر به عن آثار الجوع والخوف ، أوقع عليه الإذاقة ، فلا حاجة إلى ما يذكره البيانيون من الاستعارات في هذه الآية الكريمة وقد أوضحنا في رسالتنا التي سميناها (منع المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) : أنه لا يجوز لأحد أن يقول إن في القرآن مجازاً ، وأوضحنا ذلك بأدلته ، وبينا أن ما يسميه البيانيون

مجازاً أنه أسلوب من أساليب اللغة العربية .

وقد اختلف أهل البيان في هذه الآية ، فبعضهم يقول : فيها استعارة مجردة . يعنون أنها جيء فيها بما يلائم المستعار له .

وذلك في زعمهم أنه استعار اللباس لما غشيهم من بعض الحوادث كالجوع ولخوف ، بجامع اشتماله عليهم كاشتمال اللباس على اللابس على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية التحقيقية ، ثم ذكر الوصف ، الذي هو الإذاقة ملائماً للمستعار له ، الذي هو الجوع والخوف . لأن إطلاق الذوق على وجدان الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة لكثرة الاستعمال . فيقولون : ذاق البؤس والضر ، وأذاقه غيره إياهما . فكانت الاستعارة مجردة لذكر ما يلائم المستعار له ، الذي هو المشبه في الأصل في التشبيه الذي هو أصل الاستعارة . ولو أريد ترشيح هذه الاستعارة في زعمهم لقيل : فكساها . لأن الإتيان بما يلائم المستعار منه الذي هو المشبه به في التشبيه الذي هو أصل الاستعارة يسمى " ترشيحاً " والكسوة تلائم اللباس ، فذكرها ترشيح للاستعارة . قالوا : وإن كانت الاسعارة المرشحة أبلغ من المجردة ، فتجريد الاستعارة في الآية أبلغ . من حيث إنه روعي المستعار له الذي هو الخوف والجوع ، وبذكر الإذاقة المناسبة لذلك ليزداد الكلام وضوحاً .

وقال بعضهم : هي استعارة مبنية على استعارة . فإنه أولاً استعار لما يظهر على أبدانهم من الاصفرار والذبول والنحول اسم اللباس ، بجامع الإحاطة بالشيء والاشتمال عليه ، فصار اسم اللباس مستعاراً لآثار الجوع والخوف على أبدانهمن ثم استعار اسم الإذاقة لما يجدونه من ألم ذلك الجوع والخوف ، المعبر عنه باللباس ، بجامع التعرف والاختبار في كل من الذوق بالفم ، ووجود الألم من الجوع والخوف . وعليه ففي اللباس استعارة أصلية كما ذكرنا . وفي الإذاقة المستعارة لمس لم لجمع ، والخوف استعارة تبعية .

وقد ألممنا هنا بطرف قليل من كلام البيانيين هنا ليفهم الناظر مرادهم ، مع ان التحقيق الذي لا شك فيه : أن كل ذلك لا فائدة فيه ، ولا طائل تحته ، وأن العرب تطلق الإذاقة على الذوق وعلى غيره من وجود الألم واللذة ، وأنها تطلق اللباس على المعروف ، وتطلقه على غيره مما فيه معنى اللباس من الاشتمال . كقوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 187] ، وقول الأعشى :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها . . . تثنت فكانت لباسا

وكلها أساليب عربية . ولا إشكال في أنه إذا أطلق اللباس على مؤثر مؤلم يحيط بالشخص إحاطة اللباس ، فلا مانع من إيقاع الإذاقة على ذلك الألم المحيط المعبر باسم اللباس . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) ﴾

يجوز أن يكون هذا استئنافاً وتذييلاً بتقدير : اذْكر يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، وقع عقب التحذير والوعيد وعيداً للذين أنذروا ووعداً للذين بُشّروا .

ويجوز أن يكون متّصلاً بقوله : ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [سورة النحل : 110] ، فيكون انتصاب يوم تأتي كل نفس ﴾ على الظرفية ﴿ لغفور رحيم ﴾ ، أي يغفر لهم ويرحمهم يوم القيامة بحيث لا يجدون أثراً لذنوبهم التي لا يخلو عنها غالب الناس ويجدون رحمة من الله بهم يومئذٍ .

فهذا المعنى هو مقتضى الإتيان بهذا الظرف .

والمجادلة : دفاع بالقول للتخلّص من تبعة فِعل .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تجادِل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ في سورة النساء (107) .

والنّفس الأول : بمعنى الذات والشخصِ كقوله : ﴿ أنّ النفس بالنفس ﴾ سورة المائدة (45) .

والنّفس الثانية ما به الشخص شخص ؛ فالاختلاف بينهما بالاعتبار كقول أعرابي قَتل أخُوه ابناً له (من الحماسة) :

أقول للنفس تَأْسَاءً وَتسلية . . .

إحدى يديّ أصابتني ولم تُرِد

وتقدم في قوله : ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ في سورة البقرة (44) .

وذلك أن العرب يستشعرون للإنسان جملة مركّبة من جَسد وروح فيسمونها النفس ، أي الذات وهي ما يعبّر عنه المتكّلمُ بضمير (أنا) ، ويستشعرون للإنسان قوّة باطنيّة بها إدراكه ويسمّونها نفساً أيضاً .

ومنه أخذ علماء المنطق اسمَ النفس الناطقة .

والمعنى : يأتي كل أحد يدافع عن ذاته ، أي يدافع بأقواله ليدفع تبعات أعماله .

ففاعلُ المجادلة وما هو في قوّة مفعوله شيءٌ واحد .

وهذا قريب من وقوع الفاعل والمفعول شيئاً واحداً في أفعال الظنّ والدّعاء ، بكثرة مثل : أراني فاعلاً كذا ، وقولهم : عَدِمْتُني وَفقَدْتُني ، وبقلّة في غير ذلك مع الأفعال نحو قول امرىء القيس:

قد بتّ أحرُسُني وحْدي ويمنعني . . .

صوت السّباع به يضبَحْن والهام

﴿ وتُوَفّى ﴾ تعطَى شيئاً وافياً ، أي كاملاً غير منقوص ، و ﴿ ما عملت ﴾ مفعول ثانٍ ل ﴿ توفّى ﴾ ، وهو على حذف مضاف تقديره : جزاء ما عملت ، أي من ثواب أو عقاب ، وإظهار كل نفس في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلّة فتجري مجرى المَثل .

والظّلم : الاعتداء على الحق .

وأطلق هنا على مجاوزة الحدّ المعيّن للجزاء في الشر والإجحاف عنه في الخير ، لأن الله لما عيّن الجزاء على الشرّ ووعد بالجزاء على الخير صار ذلك كالحقّ لكل فريق .

والعلمُ بمراتب هذا التحديد مفوّض لله تعالى : ﴿ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾ [سورة الكهف : 49] .

وضميرا ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ عائدان إلى كل نفس بحسب المعنى ، لأن ﴿ كل نفس ﴾ يدلّ على جمع من النفوس .

وزيادة هذه الجملة للتصريح بمفهوم ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ ، لأن توفية الجزاء

على العمل تستلزم كون تلك التوفية عدلاً ، فصرّح بهذا اللازم بطريقة نفي ضدّه وهو نفي الظلم عنهم ، وللتّنبيه على أن العدل من صفات الله تعالى .

وحصل مع ذلك تأكيد المعنى الأول .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾

عطف عظة على عظة .

والمعطوف عليها هي جمل الامتنان بنعم الله تعالى عليهم من قوله : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : 53] وما اتّصل بها إلى قوله : ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ [سورة النحل : 83] .

فانتقل الكلام بعد ذلك بتهديد من قوله : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ﴾ [سورة النحل : 84] .

(64/445)

فبعد أن توعّدهم بقوارع الوعيد بقوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ [سورة النحل : 104] وقوله : ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [سورة النحل : 106] إلى قوله ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ [سورة النحل : 109] عاد الكلام إلى

تهديدهم بعذاب في الدنيا بأن جعلهم مضرب مثل لقرية عذبت عذاب الدنيا ، أو جعلهم مثَلاً وعظة لمن يأتي بمثل ما أتوا به من إنكار نعمة الله .

ويجوز أن يكون المعطوف عليها جملة ﴿ يوم تأتي كل نفس ﴾ [سورة النحل : 111] الخ .

على اعتبار تقدير (اذكر) ، أي اذكر لهم هول يوم تأتي كل نفس تجادل الخ .

وضرب الله مثلاً لعذابهم في الدنيا شأن قرية كانت آمنة الخ .

و ﴿ ضربَ ﴾ : بمعنى جعل ، أي جعل المركّب الدّال عليه وكوّن نظمه ، وأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم كما يقال : أرسل فلان مثلاً قوله : كيْت وكيْت .

والتعبير عن ضرب المثل الواقع في حال نزول الآية بصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه ، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه ، مثل ﴿ أتى أمر الله ﴾ [سورة النحل : 1] أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال ، مثل قد قامت الصلاة .

ويجوز أن يكون ﴿ ضرب ﴾ مستعملاً في معنى الطلب والأمر ، أي اضرب يا محمد لقومك مثلاً قرية إلى آخره ، كما سيجيء عند قوله تعالى ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء ﴾ في سورة الزمر (29) .

وإنما صيغ في صيغة الخبر توسّلاً إلى إسناده إلى الله تشريفاً له وتنويهاً به .

ويفرّق بينه وبين ما صيغ بصيغة الطلب نحو ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ [

سورة يس : 13] بما سيذكر في سورة الزمر فراجعه .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ﴾ في سورة البقرة (26) ، وقوله في سورة إبراهيم (24) ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ﴾ وجُعل المثلُ قريةً موصوفة بصفات تبيّن حالها المقصود من التمثيل ، فاستغني عن تعيين القرية .

(65/445)

والنكتة في ذلك أن يصلح هذا المثل للتعريض بالمشركين باحتمال أن تكون القرية قريتهم أعني مكة بأن جعلهم مثلاً للناس من بعدهم .

ويقْوَى هذا الاحتمالُ إذا كانت هذه الآية قد نزلت بعد أن أصاب أهلَ مكّة الجوع الذي أنذروا به في قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ [سورة الدخان : 10] .

وهو الدخان الذي كان يراه أهل مكة أيام القحط الذي أصابهم بدعاء النبي .

ويؤيد هذا قوله بعد

﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ [سورة النحل : 113].

ولعلّ المخاطب بهذا المثل هم المسلمون الذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ، أي أصحاب هجرة الحبشة تسليةً لهم عن مفارقة بلدهم ، وبعثاً لهم على أن يشكروا الله تعالى إذ أخرجهم من تلك القرية فسلموا مما أصاب أهلها وما يصيبهم .

وتقدّم معنى القرية عند قوله تعالى : ﴿ أو كالذي مرّ على قرية ﴾ في سورة البقرة (259) .

والمراد بالقرية أهلها إذ هم المقصود من القرية كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [سورة يوسف : 82] .

والأمن : السلامة من تسلّط العدو .

والاطمئنان : الدّعة وهدوء البال .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولكن ليطمئنّ قلبي ﴾ في سورة البقرة (260) ، وقوله : ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ في [سورة النساء : 103] .

وقدم الأمن على الطمأنينة إذ لا تحصل الطمأنينة بدونه ، كما أن الخوف يسبّب الانزعاج والقلق .

وقوله : ﴿ يأتيها رزقها رغداً ﴾ تيسير الرزق فيها من أسباب راحة العيش ، وقد كانت مكّة كذلك .

قال تعالى : ﴿ أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ [سورة القصص :

57] .

والرزق : الأقوات .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في سورة يوسف (37) .

والرّغد : الوافر الهنيء .

وتقدم عند قوله : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ في سورة البقرة (35) .

ومن كل مكان ﴾ بمعنى من أمكنة كثيرة .

(66/445)

و ﴿ كل ﴾ تستعمل في معنى الكثرة ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ في سورة الأنعام (25) .

والأنعمُ : جمع نعمة على غير قياس .

ومعنى الكفر بأنعم الله : الكفر بالمنعِم ، لأنهم أشركوا غيره في عبادته فلم يشكروا المنعم الحَقّ .

وهذا يشير إلى قوله تعالى : ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ [سورة النحل : 83] .

واقتران فعل كفرت بفاء التعقيب بعد كانت آمنة مطمئنة ﴾ باعتبار حصول الكفر عقب النعم التي كانوا فيها حين طرأ عليهم الكفر ، وذلك عند بعثة الرسول إليهم .

وأما قَرْن ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع ﴾ بفاء التعقيب فهو تعقيب عُرفي في مثل ذلك المعقّب لأنّه حصل بعد مضي زمن عليهم وهم مصرّون على كفرهم والرسول يكرّر الدعوة وإنذارهم به ، فلما حصل عقب ذلك بمدة غير طويلة وكان جزاءً على كفرهم جعل كالشيء المعقّب به كفرهم .

والإذاقة : حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم .

وهي مستعارة هنا وفي مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى إحساساً مَكيناً كتمكّن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعاً ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ في سورة العقود (95) .

واللباس : حقيقته الشيء الذي يلبس .

وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشَى من حالة إنسان ملازمةٍ له كملازمة اللباس لابسَه ، كقوله تعالى : ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ [سورة البقرة : 187] بجامع الإحاطة والملازمة .

ومن قبيلها استعارة (البِلى) لزوال صفة الشخص تشبيهاً للزوال بعد التمكّن ببلى الثوب بعد جدته في قول أبي الغول الطهوي:

ولا تَبَلَى بسالتهم وإن هم . . .

صُلوا بالحرب حيناً بعد حين

واستعارة سلّ الثياب إلى زوال المعاشرة في قول امرىء القيس:

فسُلي ثيابي عن ثيابكِ تَنْسِلِ . . .

ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين ، لأن تمام اللبسة أن يلبس المرء إزاراً ودرعاً .

ولما كان اللباس مستعاراً لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف وملازمتِه أريد إفادة أن ذلك متمكّن منهم ومستقرّ في إدراكهم استقرار الطعام في البَطن إذ يُذاق في اللسان والحلق ويحسّ في الجَوف والأمعاء .

فاستعير له فعل الإذاقة تمليحاً وجمعاً بين الطعام واللباس ، لأن غاية القرى والإكرام أن يُؤْدَب للضيف ويُخلع عليه خلعة من إزار وبرد ، فكانت استعارتان تهكّميتان .

فحصل في الآية استعارتان : الأولى : استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة ، والثانية : اللباس وهي أصليّة مصرّحة .

ومن بديع النظم أن جعلت الثانية متفرّعة على الأولى ومركّبة عليها بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأولى.

وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغاً أليماً.

وأجمل بما كانوا يصنعون ﴾ اعتماداً على سبق ما يبيّنه من قوله: ﴿ فكفرت بأنعام الله ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) ﴾

لما أخبر عنهم بأنهم أذيقوا لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وكان إنما ذكر من صُنعهم أنهم كفروا بأنعم الله، زيد هنا أن ما كانوا يصنعون عامّ لكل عمل لا يرضي الله غير مخصوص بكفرهم نعمةَ الله، وإن من أشنع ما كانوا يصنعون تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه منهم.

وذلك أظهر في معنى الإنعام عليهم والرّفق بهم.

وما من قرية أُهلكت إلا وقد جاءها رسول من أهلها ﴿ وما كان ربّك مهلك القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ [سورة القصص: 59].

والأخذ: الإهلاك.

وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ في سورة الأعراف (

95] .

وتأكيد الجملة بلام القسم وحرف التّحقيق للاهتمام بهذا الخبر تنبيهاً للسامعين المعرّض بهم لأنه محل الإنذار .

(68/445)

وتعريف العذاب ﴾ للجنس ، أي فأخذهم عذاب كقوله : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضرّاء لعلّهم يضرّعون ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضرّاء والسرّاء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ [سورة الأعراف : 95] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(69/445)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) ﴾

قد يكون المعنى في هذه الآية على اتصال بالآية السابقة، ومتعلق بها، فيكون المراد: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: 110].

يحدث هذا:

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا . . . ﴾ [النحل: 111].

أي: يوم القيامة. أو يكون المعنى: اذكر يا محمد:

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: 111].

وهل للإنسان أكثر من نفس، فتجادل إحداهما عن الأخرى؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة في الدنيا والآخرة، ولكنها تختلف في الدنيا عنها يوم القيامة؛ لأن الحق سبحانه منحها في الدنيا الاختيار، وجعلها حرة في أن تفعل أو لا تفعل، فكان من النفوس: الطائعة، والعاصية، والمنصاعة، والمكابرة.

فإذا ما وقفت النفس في موقف القيامة، وواجهتْ الحق الذي كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها، فكأن النفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا في موقف ينادي فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر: 16].

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 23].

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زلفى . . ﴾ [الزمر : 3] .

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا . . . ﴾ [فصلت : 29] .

(70/445)

إذن : هي نفس واحدة ، تجادل عن نفسها في يوم لا تجزي فيه نفس عن نفس ، فكلٌّ مشغول بكَرْبه ، مُحاسَب بذنبه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 34-37] .

وقوله تعالى :

﴿ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل : 111] .

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ، فالميزان ميزان عَدْل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً . ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] .

وقوله تعالى : ﴿ وتوفى . . ﴾ [النحل : 111] .

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جَوْر ، فالجميع عبيد الله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإنْ رحمهم فبفضله ، وإنْ عذَّبهم فبعدْله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً . . . ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن الإيمان بالله والإيمان بصدق رسوله في البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله في الكتاب والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله وللرسول وللمنهج . أراد سبحانه أنْ يعطينا واقعاً ملموساً في الحياة لكل ذلك ، فضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابهاً تاماً في ناحية معينة بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماماً .

والهدف من ضرب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً تتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل فلان المعلوم لك في الطول ومثل فلان في اللون . . إلخ من الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تُكوِّن صورة كاملة لهذا الشخص الذي لا تعرفه .

لذلك، فالشيء الذي لا مثيل له إياك أن تضرب له مثلاً، كما قال الحق سبحانه: ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال ﴾ [النحل: 74].

لأنه سبحانه لا مثيل له، ولا نظير له، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهو سبحانه الذي يضرب المثل لنفسه، أما نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه.

لذلك نجد في القرآن الكريم أمثالاً كثيرة توضح لنا المجهول بمعلوم لنا، وتوضح الأمر المعنوي بالأمر الحسيّ الملموس لنا.

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً في الإنفاق في سبيل الله، وأن الله يضاعف النفقة، ويُخلِف على صاحبها أضعافاً مضاعفة، فانظر كيف صوّر لنا القرآن هذه المسألة: ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 261].

وهكذا أوضح لنا المثل الأمر الغيبي المجهول بالأمر المحسّ المُشَاهد الذي يعلمه الجميع، حتى استقرّ هذا المجهول في الذهن، بل أصبح أمراً مُتيقّناً شاخصاً أمامنا.

والمتأمل في هذا المثل التوضيحي يجد أن الأمر الذي وضّحه الحق سبحانه أقوى في العطاء من الأمر الذي أوضح به، فإنْ كانت هذه الأضعاف المضاعفة هي عطاء الأرض، وهي

مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى ؟

وكلمة (ضَرَبَ) مأخوذة من ضَرْب العملة ، حيث كانت في الماضي من الذهب أو الفضة ، ولخوف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النقاد أي : الخبراء في تمييز العملة يضربونها أي : يختمون عليها فتصير مُعتمدة موثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مثلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرَّ في الذهن واعتُمِد .

فقال تعالى في هذا المثل :

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً . . ﴾ [النحل : 112] .

(72/445)

الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها ، ولم يشكره عليها ، ولم يُؤدّ حق الله فيها ، واستعمل نعمة الله في معصيته فقد عرّضها للزوال ، وعرّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ، لذلك قال الشاعر :

إذَا كُنْتَ في نعمةٍ فَارْعَها . . . فَإنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَم

وحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإلهِ . . . فَإنَّ الإلَه شَدِيدُ النِّقَم

ولكن ، القرية التي ضربها الله لنا مثلاً هنا ، هل هي قرية معينة أم المعنى على الإطلاق ؟

قد يُراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة ، أو غيرها من القرى ، وعلى كلٍّ

فتحديدها أمر لا فائدة منه ، ولا يُؤثِّر في الهدف من ضَرْب المثل بها .

والقرية : اسم للبلد التي يكون بها قِرىً لمن يمرُّ بها ، أي : بلد استقرار . وهي اسم للمكان

فإذا حُدِّث عنها يراد المكين فيها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير

التي أَقْبَلْنَا فِيهَا . . ﴾ [يوسف : 82] .

فالمراد : اسأل أهل القرية ؛ لأن القرية كمكان لا تُسأل . . هكذا قال علماء التفسير ،

على اعتبار أن في الآية مجازاً مرسلاً علاقته المحلية .

ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مدداً جديداً ، كما قال سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ . . ﴾ [فصلت : 53] .

والآن تطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين ، فمثلاً

يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجِّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .

ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن القرية يمكن أنْ تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجِّل وتحتفظ بما سجَّلته ، بل وأكثر من ذلك يتطلعون لإعادة الصور والأصوات من بَدْء الخليقة على اعتبار أنها موجودة في الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تَضِع .

وما أشبه هذه الموجات باندياح الماء إذا ألقيتَ فيه بحجر ، فينتج عنه عدة دوائر تبتعد عن مركزها إلى أنْ تتلاشى بالتدريج .

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ، لأن أهلها قد يكذبون ، أما هي فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الأداء القرآني .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً . . . ﴾ [النحل : 112] .

آمنةً : أي في مأْمَن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نِعَم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً . . ﴾ [النحل : 112] .

أي : لديها مُقوِّمات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقرَّة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا في المكان الخالي من المنغِّصات ، والذي يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال : ﴿ لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 1-4] .

فطالما شبعت البطن ، وأمنتْ النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا صورة مُثْلى للحياة الدنيا ، فيقول : " مَنْ أصبح معافىً في بدنه ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها " .

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

(74/445)

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ . . . ﴾ [النحل : 112] .

معلوم أن الناس هم الذين يخرجون لطلب الرزق ، لكن في هذه القرية يأتي إليها الرزق ، وهذا يُرجِّح القول بأنها مكة ؛ لأن الله تعالى قال عنها : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 57] .

ومن تيسَّر له العيش في مكة يرى فيها الثمرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمَّتْ لهم النعمة واكتملتْ لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم ؟ هل

استقبلوها بشكر الله ؟ هل استخدموا نعمة عليهم في طاعته ومَرْضاته ؟ لا . . بل :

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ . . ﴾ [النحل : 112] .

أي : جحدت بهذه النعم ، واستعملتها في مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

وكأن في الآية تحذيراً من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ، واستعمل النعمة في مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ . . ﴾ [النحل : 112] .

من الذوق ، نقول : ذاق وتذوّق الطعام إذا وضعه على لسانه وتذوّقه . والذّوْق لا يتجاوز حلمات اللسان . إذن : الذوْق خاصٌّ بطعْم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقُلْ : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

﴿ لِبَاسَ الجوع والخوف . . ﴾ [النحل : 112] .

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباس يلبسه الإنسان ، والمتأمل في الآية يطالع دقّة التعبير القرآني ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك ؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس في البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون في الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهتْ الشحوم تغذّى الجسم على اللحم ، ثم بدأ ينحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هُزَالاً وذبولاً ، ثم ينكمش ويجفّ ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجي على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً . . ﴾ [البقرة : 273] .

وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كثوب يرتديه .

وهكذا جَسَّد لنا التعبير القرآني هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسَّة التذوق ؛ لأنها أقوى الحواسّ .

وفي تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يُوحي بشمولهما الجسم كله ، كما يلفّه اللباس فليس الجوع في المعدة فقط ، وليس الخوف في القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتُهِر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فنراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيغُ مودَّتي . . . فَأُحِسُّ مِنْها في الفُؤادِ دَبِيبَا

فإذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحوَّل الحب من القلب ، وسكَن جميع الجوارح ، وخالط كل الأعضاء ، على حدّ قول الشاعر :

لاَ عُضْوِلي إلاَّ وَفِيه صَبَابَةٌ . . . فَكَأَنَّ أَعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبَا

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

(76/445)

أي : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنَّى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصُّدود والجحود والنكران ، وتعرَّضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيَّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً : " اللهم اشْدُدْ وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " .

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ، حتى إنهم كانوا يأكلون الجيف ، ويخلطون الشعر والوبر بالدم فيأكلوه .

وظلوا على هذا الحال سبع سنين حتى ضَجُّوا ، وبلغ بهم الجَهْد والضَّنْك مُنْتهاه ، فأرسلوا وفداً منهم لرسول الله ، فقالوا : هذا عملك برجال مكة ، فما بال صبيانها ونسائها ؟

فكان صلى الله عليه وسلم يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطيب .

أما لباس الخوف فتمثّل في السرايا التي كان يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لترهبهم وتزعجهم ؛ ليعلموا أن المسلمين أصبحتْ لهم قوة وشوكة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ . . . ﴾ .

رأينا كيف كانت النعمة تامة على أهل مكة ، وقد تمثلت هذه النعمة في كَوْنها آمنة مطمئنة ، وهذه نعمة مادية يحفظ الله بها القالب الإنساني ، لكنه ما يزال في حاجة إلى ما يحفظ قِيمه وأخلاقه .

وهذه هي نعمة النعم ، وقد امتنّ الله عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولاً منهم ، فما فائدة النعم المادية في بلد مهزوزة القيم ، مُنْحلة الأخلاق ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُقوّم ما اعوجّ من سلوكهم ، ويُصلح ما فسد من قِيَمهم ومبادئهم .

وقوله : ﴿ مِّنْهُمْ . . . ﴾ [النحل : 113] .

أي : من جنسهم ، وليس غريباً عنهم ، وليس من مُطْلق العرب ، بل من قريش أفضل العرب وأوسطها .

يقول تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ . . ﴾ [النحل : 113] .

وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال ، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة ، ولكنهم كما كفروا بالنعم المادية كفروا أيضاً بالنعم القيمية متمثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب . . ﴾ [النحل : 113] .

مَن الذي أخذهم ؟

لم تقُلْ الآية : أخذهم الله بالعذاب ، بل : أخذهم العذاب ، كأن العذابَ نفسه يشتاق لهم ، وينقضُّ عليهم ، ويسارع لأخذهم ، ففي الآية تشخيص يُوحي بشدة عذابهم .

كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(78/445)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)

﴾

أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن كعب قال : كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : خوفنا يا كعب ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أوليس فيكم كتاب الله وحكمة رسوله ؟ قال : بلى ، ولكن خوفنا ، قلت : يا أمير المؤمنين ، لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبياً لازدريت عملك مما ترى . قال : زدنا . قلت : يا أمير المؤمنين ، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب ، لغلا دماغه حتى يسيل من حرّها . قال : زدنا . قلت : يا أمير المؤمنين ، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة ، لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر جاثياً على ركبتيه ، حتى أن إبراهيم خليله ليخرّ جاثياً على ركبتيه ، فيقول : ربّ نفسي . . . نفسي . . . لا أسألك اليوم إلا نفسي فأطرق عمر ملياً . قلت : يا أمير المؤمنين ، أوليس تجدون هذا في كتاب الله ؟ قال : كيف ؟ قلت : قول الله في هذه الآية ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة . . . ﴾ الآية . قال : يعني مكة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية رضي الله عنه في قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية ﴾ قال : هي مكة ، ألا ترى أنه قال : ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ﴾ .

(79/445)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ قرية كانت آمنة ﴾ قال : مكة . ألا ترى إلى قوله : ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب ﴾ قال : أخذهم الله بالجوع والخوف والقتل الشديد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ قال : فأخذهم الله بالجوع والخوف والقتل . وفي قوله : ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ﴾ قال : أي والله يعرفون نسبه وأمره .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن سليم بن عمر قال : صحبت حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهي خارجة من مكة إلى المدينة ، فأخبرت أن عثمان قد قتل فرجعت . وقالت : ارجعوا بي ، فوالذي نفسي بيده إنها للقرية التي قال الله : ﴿ قرية كانت آمنة مطمئنة . . . ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب . قال : القرية التي قال الله : ﴿ كانت آمنة مطمئنة ﴾ هي يثرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(80/445)

بحوث ذكرها صاحب الأمثل

قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾

1 .أهو مثال أم حدث تاريخي ؟

لقد عبرت الآيات أعلاه عند حديثها عن تلك المنطقة العامرة بكثرة النعم ، والتي أصاب أهلها بلاء الجوع والخوف نتيجة كفرهم بأنعم الله ، عبرت عن ذلك بكلمة "مثلا" وبذات الوقت فإن الآية استخدمت الأفعال بصيغة الماضي ، مما يشير إلى وقوع ما حدث فعلا في زمن ماض ، وهنا حصل اختلاف بين المفسرين في الهدف من البيان القرآني ، فقسم قد احتمل أن الهدف هو ضرب مثال عام ، وذهب القسم الثاني إلى أنه لبيان واقعة تأريخية معينة .

وتطرق مؤيدو الإحتمال الثاني إلى تحديد المنطقة التي حدثت فيها هذه الواقعة . فذهب بعضهم أنها أرض مكة ، ولعل (يأتيها رزقها رغدا من كل مكان) تدعو إلى تقوية هذا

الاحتمال ، لأنه دليل على أن هذه المنطقة مجدبة ، وما تحتاج إليه يأتيها من خارجها ، وما جاء في الآية (57) من سورة القصص (يجبى إليه ثمرات كل شيء) يعضد هذا المعنى ، خصوصا وأن المفسرين قد قطعوا بأنها إشارة إلى مكة المكرمة .

ويرد هذا الزعم بعدم معرفة حادثة كهذه في تأريخ مكة على ما للحادثة من وضوح ، فغير معروف عن مكة أنها عاشت أياما رغيدة ومن ثم جاءها القحط والجوع !

وقال بعض آخر : حدثت هذه القصة لجمع من بني إسرائيل في منطقة ما ، وأنهم أبتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم الله .

وما يؤيد ذلك ما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال : "إن قوما في بني إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت في بلادهم يستنجون بها فلم يزل الله بهم حتى اضطروا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلونها وهو قول الله" (ضرب الله مثلا . . .) .

ورويت روايات أخرى قريبة من هذا المضمون عن الإمام الصادق (عليه السلام) وتفسير علي بن إبراهيم مما لا يمكن الإعتماد الكامل على أسانيدها ، وإلا لكانت المسألة واضحة .

وثمة احتمال آخر وهو أن الآية تشير إلى قوم "سبأ" الذين عاشوا في اليمن ، وقد ذكر القرآن الكريم قصتهم في الآيات (15.19) من سورة سبأ ، وكيف أنهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار والخيرات في أمن وسلام ، حتى أصابهم الغرور والطغيان والإستكبار وكفران النعم الإلهية ، فأهلكهم الله وشتت جمعهم وجعلهم عبرة للآخرين .

وجملة (يأتيها رزقها رغدا من كل مكان) ليست دليلا قاطعا على أنها لم تكن عامرة بذاتها ، لأنه من الممكن أن يقصد بـ "كل مكان" أطرافها وضواحيها ، وكما هو معروف فإن المحاصيل الزراعية لإقليم كبير تنتقل إلى المدينة أو القرية المركزية في تلك المنطقة .

وينبغي التذكير مرة أخرى بعدم وجود المانع من شمولية إشارة الآية إلى كل ما ذكر من احتمالات .

وعلى أية حال ، فليس ثمة مشكلة مهمة في تفسير هذه الآية وذلك لكثرة المناطق التي أصابها مثل هذه العاقبة عبر التاريخ .

وإذا كان عدم الإطمئنان الكافي في تعيين محل المنطقة قد دفع بعض المفسرين إلى اعتبار الموضوع مثالا عاما مجردا وليس منطقة معينة ، فظاهر الآيات مورد البحث لا يناسب ذلك التفسير ، بل يشير إلى وجود منطقة معينة وحادثة تأريخية .

2 . الرابطة ما بين الأمن والرزق الكثير

ذكرت الآيات ثلاث خصائص لهذه المنطقة العامرة المباركة:

الخاصية الأولى: الأمن.

الخاصية الثانية: الإطمئنان في إدامة الحياة.

الخاصية الثالثة: جلب الأرزاق والمواد الغذائية الكثيرة إليها.

وترتبط هذه الخواص فيما بينها ترابطا عليا وحسب تسلسلها، فكل خاصية ترتبط بما قبلها ارتباط علة ومعلول، فلو فقد الأمن لما اطمأن الإنسان على إدامة حياته في مكانه المعين، وإذا فقد الإثنان فلا رغبة حقيقية لأحد على الإنتاج وتحسين الوضع الإقتصادي هناك.

(82/445)

فالآية تقدم درسا عمليا لمن يرغب في بلاد عامرة وحرة ومستقلة، فقبل كل شيء لابد من توفير حالة الأمن، ومن ثم بعث الإطمئنان في قلوب الناس بخصوص مستقبل وجودهم في تلك المنطقة، ومن بعد ذلك يأتي دور تحريك عجلة الإقتصاد.

فبهذه النعم المادية الثلاثة تصل المجتمعات إلى درجة تكامل حياتها المادية فقط، ووصولا للحياة المتكاملة من كافة الجوانب (ماديا ومعنويا) تحتاج المجتمعات إلى نعمة الإيمان

والتوحيد ، ولهذا فقد جاء بعد ذكر هذه النعم: (ولقد جاءهم رسول منهم) .

3 ـ لباس الجوع والخوف

ذكرت الآيات في بيان عاقبة الكافرين بنعم الله ، قائلة: (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فمن جهة: شبهت الجوع والخوف باللباس ، ومن جهة أخرى: عبرت بـ "أذاقها" بدلا من (ألبسها) .

وحمل هذا التفاوت في التعبير المفسرين إلى التوقف والتأمل في الآية. . .

فالتعبير يحمل بين طياته إشارة لطيفة ، فمثلا:

قال ابن الراوندي لابن الأعرابي الأديب: هل يذاق اللباس ؟

قال ابن الأعرابي: لا بأس ولا لباس يا أيها النسناس ، هب أنك تشك أن محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا ! ! .

وعلى أية حال ، فالتعبير إشارة إلى أن القحط والخوف كانا من الشدة وكأنهما لباس قد أحاط بأبدانهم من كل الجهات ، وأبدانهم في تماس معه ، ومن جهة أخرى فقد وصلت حالة لمسهم للخوف والقحط كأنهم يتذوقونه بألسنتهم .

وهو تعبير عن أشد حالات الخوف ومنتهى حالات الفقر والذي يمكن أن يصيب جميع وجود الإنسان .

فكما أن نعمة الأمن والرفاه قد غطت كامل وجودهم في البداية ، فها هم وقد حال بهم الأمر لأن يحل الفقر والخوف محلها في آخر مطافهم نتيجة لكفرانهم بنعم الله سبحانه .

(83/445)

---

4 . أثر كفران النعمة في تضييع المواهب الإلهية

رأينا في الرواية المتقدمة كيف راح أولئك المرفهون بتطهير أجسادهم بواسطة المواد الغذائية بعد أن تسلطت عليهم الغفلة وساورهم الغرور ، حتى ابتلاهم الله بالقحط والخوف .

وعرض الحادثة ما هو إلا تنبيه للناس ولكل الأمم الغارقة بالنعم الإلهية ، على أن الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع .

وهو تنبيه أيضا للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) في أكياس الأوساخ دائما .

وهو تنبيه كذلك لأولئك الذين يهيئون غذاء يكفي لعشرين شخصا ، وليس لهم من الضيوف إلا أربعة ، ولا يصل الزائد منه إلى بطون الجياع من الناس .

وهو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية في بيوتهم لاستعمالهم الخاص ، ويملؤون مخازنهم انتظارا لارتفاع سعرها في الأسواق حتى يفسد ويذهب هباء من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها .

نعم ، فلا يخلو أي عمل مما ذكر من عقوبة إلهية ، وأقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم .

وتتضح أهمية المسألة إذا علمنا أن المواد الغذائية على سطح الكرة الأرضية محددة بنسبة ، فأي إفراط في أي نوع من المواد يؤدي إلى حرمان نسبة من البشر من تلك المواد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 5 صـ 344.345 ﴾

(84/445)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ﴾ : يجوز أَنْ ينتصبَ ب " رحيم " ، ولا يلزمُ مِنْ ذلك تقييدُ رحمته بالظرف ؛ لأنه إذا رَحِم في هذا اليوم فرحمتُه في غيرِه أَوْلَى وأحْرَى ، وأن ينتصِبَ ب " اذكر " مقدرةً ، وراعى معنى " كل " فأنَّثَ الضمائر في قوله " تجادل " إلى آخره ، ومثلُه :

3019- جادَتْ عليه كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ . . . فتركْنَ كلَّ . . . .

. . . .

إلا أنَّه زاد في البيت الجمعَ على المعنى، وقد تقدَّم ذلك أولَ هذا الموضوع. وقوله ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ حَمَلَ على المعنى فلذلك جَمَعَ.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والخوف ﴾: العامَّةُ على جرِّ "الخوف" نسقاً على "الرجوع"، ورُوي عن أبي عمرو نصبُه، وفيه أوجه، أحدها: أن يُعطف على "لباس". الثاني: أن يُعْطَفَ على موضعِ "الجوع"؛ لأنه مفعولٌ في المعنى للمصدرِ. التقدير: "أَنْ أُلْبَسَهم الجوعَ والخوفَ"، قاله أبو البقاء، وهو بعيدٌ؛ لأنَّ اللباسَ اسمُ ما يُلْبَسُ، وهو استعارةٌ بليغةٌ كما سأُنبِّهك عليه. الثالث: أن ينتصِبَ بإضمارِ فعلٍ قاله أبو الفضل الرازي. [الرابع: أن يكونَ حَذْفِ مضافٍ، أي:] ولباس الخوف، ثم حُذِف وأُقيم [المضافُ إليه] مُقامَه قاله الزمخشري.

ووجه الاستعارةِ ما قاله الزمخشري ، فإنه قال : " فإن قُلْتَ ، الإذاقةُ واللباسُ استعارتان فما وجهُ صحتِهما ؟ والإذاقةُ المستعارةُ مُوَقَّعَةٌ على اللباس المستعار فما وجهُ صحةِ إيقاعِها عليه ؟ قلت : الإذاقةُ جَرَتْ عندهم مَجْرَى الحقيقةِ لشيوعِها في البلايا والشدائد وما يَمَسُّ الناسَ منها ، فيقولون ، ذاقَ فلانٌ البؤْسَ والضُّرَّ ، وإذاقة العذابِ ، شَبَّه ما يُدْرِكُ مِنْ أثرِ الضررِ والألمِ بما يُدْرِكُ مِنْ طَعْمِ المُرِّ والبَشِع ، وأمَّا اللباسُ فقد شبَّه به لاشتمالِه على اللابسِ ما غَشِيَ الإنسانَ والتبس به من بعض الحوادث . وأمَّا إيقاعُ الإذاقةِ على لباسِ الجوعِ والخوفِ فلأنه لمَّا وقع عبارةً عَمَّا يُغْشَى منهما ويُلابَسُ ، فكأنه قيل : فأذاقهم ما غَشِيهم من الجوعِ والخوفِ . ولهم في هذا طريقان ، أحدهما : أن ينظروا فيه إلى المستعار له كما نَظَرَ إليه ههنا ، ونحوُه قول كثيِّر :

3020- غَمْرُ الرِّداءِ إذا تَبَسَّم ضاحكاً . . . غَلِقَتْ لضَحْكَتِهِ رقابُ المالِ

استعار الرداءَ للمعروفِ لأنه يَصُون عِرْضَ صاحبه صَوْنَ الرداءِ لما يُلْقى عليه ، ووصفَه بالغَمْرِ الذي هو وصفُ المعروفِ والنَّوال ، لا وصفُ الرداء ، نظراً إلى المستعار له .

والثاني : أن ينظروا فيه المستعار كقوله :

3021- يُنازعني ردائي عَبْدُ عَمْرٍو . . . رُوَيْدَكَ يا أخا عمرِو بن بكرِ

لِيَ الشَّطْرُ الذي ملكَتْ يميني . . . ودونَك فاعْتَجِر منه بشَطْرِ

أراد بردائِه سيفَه ثم قال : " فاعتجِرْ منه بِشَطْر " فنظر إلى المستعارِ في لفظِ الاعتجار ، ولو

نظر إليه فيما نحن فيه لقال: " فكساهُمْ لباسَ الجوعِ والخوف"، ولقال كثّير: " ضافي الرداءِ إذا تبسَّم" . انتهى . وهذا نهايةٌ ما يُقال في الاستعارة .

وقال ابن عطية: " لمَّا باشرهم ذلك صار كاللباس، وهذا كقول الأعشى:

(86/445)

3022- إذا ما الضَّجيعُ ثنى جيْدَها . . . تَثَنَّتْ عليه فكانَتْ لباسا

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: 187]، ومثلُه قولُ الشاعر:

3022- وقد لَبِسَتْ بعد الزبيرِ مُجاشِعٌ . . . لباسَ التي حاضَتْ ولن تَغْسِلِ الدَّما

كأنَّ العارَ لمَّا باشرهم ولصِقَ بهم كأنهم لَبِسُوه" .

وقوله: " فأذاقهم" نظيرُ قولِه تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان: 49]، ونظيرُ قولِ الشاعر:

3023- دونَكَ ما جَنَيْتَه فاحسُ وذُقْ . . . وفي قراءةِ عبد الله " فأذاقها اللهُ الخوفَ والجوعَ"، وفي مصحف أُبَيّ " لباسَ الخوفِ والجوعِ" .

وقوله: ﴿ بِأَنْعُمِ الله ﴾ أتى بجمعِ القلَّة، ولم يَقُلْ " بِنعَمِ الله" جمعَ كثرةٍ تنبيهاً بالأدْنى على

الأَعْلى ؛ لأنَّ العذابَ إذا كان على كُفْرانِ الشيءِ القليلِ فكونُه على النِّعَم الكثيرةِ أَوْلَى .

و" أَنْعُم " فيها قولان ، أحدُهما : أنها جمعُ " نِعْمةٍ " نحو : شِدَّة : أَشُدّ . قال الزمخشري : " جمعُ " نِعمة " على تَرْكِ الاعتداد بالتاء كدِرْع وأَدْرُع " . وقال قطرب : " هي جمع نُعْم ، والنُّعْمُ : النَّعيم ، يقال : " هذه أيام طُعْم ونُعْم " . وفي الحديث : " نادى مُنادي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالمَوْسِم بمنى : " إنها أيام طُعْمٍ ونُعْمٍ فلا تَصُوموا " .

قوله : { بِمَا كَانُواْ } يجوز أَنْ تكونَ مصدريةً ، أو بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : بسبب صُنْعهم أو بسببِ الذي كانوا يصنعونه . والواو في " يَصْنعون " عائدةٌ على أهل المعذَّب . قيل : قرية ، وهي نظيرةُ قوله { أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ } [الأعراف : 4] بعد قوله { وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } . انتهى انتهى . ا هـ { الدر المصون حـ 7 صـ 293.
297 }

(87/445)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى لبس)

اللُبْس – بالضمّ – مصدر قولك : لبِست الثوب أَلْبَسه .

ولبِست امرأَة ، أَى تمتَّعت بها زمانًا ؛ ولبِستها عُمُرى ، أَى كانت معى شبابى كلّه ، قال النابغة الجعدىّ رضى الله عنه : .

*لَبِسْتُ أُناسا فأَفنيتهم * وأَفنيت بعد أُناس أُناسا*

*ثلاثة أَهلين أَفنيتهم * وكان الإِله هو المستآسًا*

وقال عمرو بن أَحمر الباهلىّ :

*لبِست أَبِى حتى تبَلَّيْتُ عُمْرَه * وبَلَّيْت أَعمامى وبَلَّيت خاليا*

واللباس والمَلْبس واللِبْس – بالكسر – ما يُلبس .

ولباس الرَّجل : امرأَته .

وزوجها لِباسها ، قال النابغة الجعدى رضى الله عنه :

*إِذا ما الضجيع ثَنى جيدها * تداعى عليه وكانت لباسا*

وروى أَبو عمرو ثنى عطفها تثنّت عليه .

قال الله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ أَى بمنزلة اللباس .

وقال ابن عرفة : اللباس من الملابسة أَى الاختلاط والاجتماع .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ ، قيل : هو الحياء والعمل الصالح ، وقيل : الغليظ الخشن القصير .

قال السُدّىّ : هو الإيمان ، وقيل : هو ستر العورة ، وهو لباس المتقين .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ أى يستر الناس بظلمته .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ أَى جاعوا حتى أَكلوا الوَبَر بالدم وهو العِلْهِز ، وبلغ بهم الجوعُ الحالَ التى لا غاية بعدها ، فضُرب اللباس لما نالهم من ذلك مثلا لاشتماله على لابسه .

واللَّبوس : ما يلبس ، قال بَيْهس :

*إلبس لكلّ حالة لبوسها * إمّا نعيمها وإمّا بوسها*

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ يعنى الدرع ، سمِّيت لبوسا لانها تُلْبس ، كالرَّكوب ما يُركب .

(88/445)

ولَبَست عليك الأَمر أَلبسه – كضربته أَضربه – أَى خلطته قال الله تعالى : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أَى شبَّهنا عليهم وأَضللناهم كما ضلَّوا .

قال ابن عرفة : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ ، أَى لا تخلطوه به .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ أَى يخلط أَمركم خلط اضطراب لا خلط اتِّفاق .

وقوله جل ذكره : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أى لم يخلطوه بشرك .

قال العجاج .

*ويفصلون اللَّبْسَ بعد الَّبْسِ * من الأُمور الرُبْس بعد الرُبْس*

واللبس أَيضا : اختلاط الكلام .

وفى الامر لُبسة - بالضم - أَى شبهة وليس بواضح .

والتلبيس التخليط ، قال الأَسْعر الجعفىّ :

*وكتيبة لَبَّسْتُها بكتيبة * فيها السَنَوَّر والمغافر والقنا*

وتلبَّس بالأَمر وبالثواب ، قال :

*تلبَّس حبَّها بدمى ولحمى * تلبُّس عَصْبة بفروع ضال*

وقال آخر :

*تلبَّسْ لباس الرضا بالقضاء * وخلِّ الأُمور لمن يملكْ*

*تُقدِّر أَنت وجارى القضا * مما تقدّره يضحكُ*

وقوله تعالى جلّ شأنه : ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ فيه تنبيه على أَن جلّ المقصود من اللباس ستر العورة ، وما زاد فتحسّن وتزيّن ، إلاَّ ما كان لدفع حرّ وبرد ، قال الشاعر :

*إِن العيون رمتك إِذ فاجأتها * وعليك من شُهَر الثياب لباس*

*أَمّا الطعام فكُلْ لنفسك ما اشتهت * واجعل ثيابك ما اشتهاه النّاس*

وفى بعض الآثار : من ترك اللباس وهو يقدر عليه خيَّره الله يوم القيامة بين حُلَل الإِيمان يلبس أَيَّها شاءَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 417.419 ﴾

(89/445)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) ﴾

غداً كلٌّ مشغولٌ بنْفسه ، ليس له فراغ إلى غيره . وعزيزٌ لا يشتغل بنفسه ، قال صلى الله عليه وسلم : " من كان بحالٍ لقي الله بها " إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغاً ، ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمامٌ بنفسه . والمؤمن لا نَفْسَ له ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 111] اشتراها الحقُّ منهم ، وأودعها عندهم ، فليس لهم فيها حق ، وإنما يراعون فيها أمرَ الحق .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ

اللَّهِ ﴾

فراغ القلبِ من الاشغال نعمة عظيمة ، فإذا كفر عبدٌ بهذه النعمة بأَن فتح على نَفْسِه بابَ الهوى ، وانجرف ففي فساد الشهوة ، شَوَّشَ الله عليه قلبه ، وسَلَبَه ما كان يَجدُه من صفاء وقته ؛ لأنَّ طوارقَ النفسِ تُوجِبُ غروبَ شوارقِ القلب ، وفي الخبر : " إذا أقبل الليلُ من ها هنا أدبر النهارُ من ها هنا " وكذلك القلبُ إذا انقطع عنه معهودُ ما كان الحقُّ أتاحه له أصابه عطَشٌ شديد ولهبٌ عظيم .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) ﴾

كما جاءهم الرسولُ جهراً فإنه تتأدّى إليهم منْ قِبَل خواطرهم إشاراتٌ تترى ، فمَنْ لم يستجبْ لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق أخذه العذابُ من حيث لا يشعر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 324 . 325 ﴾

(90/445)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) ﴾

ختم الدرس الماضي بقوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ وفي هذا الدرس بيان لبعض ما في الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى . فيه الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وفيه الأمر بالوفاء بالعهد والنهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها . . وكلها من مبادئ السلوك الأساسية التي جاء بها هذا الكتاب .

وفيه بيان الجزاء المقرر لنقض العهد واتخاذ الأيمان للخداع والتضليل ، وهو العذاب العظيم . والبشرى للذين صبروا وتوفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

ثم يذكر بعض آداب قراءة هذا الكتاب . وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم . كما يذكر بعض تقولات المشركين عن هذا الكتاب .

فمنهم من يرمي الرسول صلى الله عليه وسلم بافترائه على الله . ومنهم من يقول : إن غلاماً أعجمياً هو الذي يعلمه هذا القرآن !

وفي نهاية الدرس يبين جزاء من يكفر بعد أيمانه ، ومن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ومن فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا . . وكل أولئك تبيان ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ . .

لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعاً ، ثم لينشئ عالماً ويقيم نظاماً . جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ؛ إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية .

ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات ، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب ، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود :

جاء ﴿ بالعدل ﴾ الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف . إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان واحد للجميع .

وإلى جوار العدل . . ﴿ الإحسان ﴾ . . يلطف من حدة العدل الصارم الجازم ، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب ، وشفاء لغل الصدور .

ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحاً أو يكسب فضلاً .

والإحسان أوسع مدلولاً ، فكل عمل طيب إحسان ، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل ، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاته بالبشرية جميعاً .

(92/445)

ومن الإحسان ﴿ إيتاء ذي القربى ﴾ إنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه ، وتوكيداً عليه .

وما يبني هذا على عصبية الأسرة ، إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام . وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل .

﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ . . والفحشاء كل أمر يفحش أي يتجاوز الحد . ومنه ما خصص به غالباً وهو فاحشة الاعتداء على العرض ، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها . والمنكر كل فعل تنكره الفطرة ومن ثم تنكره الشريعة فهي شريعة الفطرة . وقد تنحرف الفطرة أحياناً فتبقى

الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها . والبغي الظلم وتجاوز الحق والعدل .

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغي . . ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكل مدلولاتها ، والمنكر بكل مغرراته ، والبغي بكل معقباته ، ثم يقوم . . والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة ، مهما تبلغ قوتها ، ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها . وتاريخ البشرية كله انتفاضات وانتفاضات ضد الفحشاء والمنكر والبغي . فلا يهم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حيناً من الدهر ، فالانتقاض عليها دليل على أنها عناصر غريبة على جسم الحياة ، فهي تنتفض لطردها ، كما ينتفض الحي ضد أي جسم غريب يدخل إليه . وأمر الله بالعدل والإحسان ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي يوافق الفطرة السليمة الصحيحة ، ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم الله . لذلك يجيء التعقيب : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ فهي عظة للتذكر تذكر وحي الفطرة الأصيل القويم .

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ . .

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله. والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع، ولا تقوم إنسانية. والنص يخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله كفيلاً عليهم، وأشهدوه عهدهم، وجعلوه كافلاً للوفاء بها. ثم يهددهم خفياً ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾.

وقد تشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً، لأنها قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال، وتقبيح نكث العهد، ونفي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات:

﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، أن تكون أمة هي أربى من أمة.

إنما يبلوكم الله به. وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾.

فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأي، تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعاً منكوثة ومحلولة! وكل جزئية من جزئيات التشبيه تشي بالتحقير والترذيل والتعجب. وتشوه الأمر في النفوس وتقبحه في القلوب. وهو المقصود. وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاثة العقل،

التي تقضي حياتها فيما لا غناء فيه!

وكان بعضهم يبرر لنفسه نقض عهده مع الرسول صلى الله عليه وسلم بأن محمداً ومن معه قلة ضعيفة، بينما قريش كثرة قوية. فنبههم إلى أن هذا ليس مبرراً لأن يتخذوا أقسامهم غشاً وخديعة فيتخلوا عنها: ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي بسبب كون أمة أكثر عدداً وقوة من أمة. وطلباً للمصلحة مع الأمة الأربى.

(94/445)

ويدخل في مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يسمى الآن "مصلحة الدولة" فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى في الصف الآخر، تحقيقاً "لمصلحة الدولة"! فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر، ويجزم بالوفاء بالعهد، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل. ذلك في مقابل أنه لا يقر تعاهداً ولا تعاوناً على غير البر والتقوى. ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان، وأكل حقوق الناس، واستغلال الدول والشعوب. . وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام.

والنص هنا يحذر من مثل ذلك المبرر، وينبه الى قيام مثل هذه الحالة: ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ هو ابتلاء من الله لهم ليمتحن إرادتهم ووفاءهم وكرامتهم على أنفسهم وتحرجهم من نقض العهد الذي أشهدوا الله عليه: ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ :

ثم يكل أمر الخلافات التي تنشب بين الجماعات والأقوام إلى الله في يوم القيامة للفصل فيه:

﴿ وليبيِّنن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ يمهد بهذا لترضية النفوس بالوفاء بالعهد حتى لمخالفيهم في الرأي والعقيدة: ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ .. ولو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد، ولكنه خلقهم باستعدادات متفاوتة، نسخاً غير مكررة ولا معادة، وجعل نواميس للهدى والضلال، تمضي بها مشيئته في الناس، وكل مسؤول عما يعمل.

فلا يكون الاختلاف في العقيدة سبباً في نقض العهود.

فالاختلاف له أسبابه المتعلقة بمشيئة الله. والعهد مكفول مهما اختلفت المعتقدات.

وهذه قمة في نظافة التعامل، والسماحة الدينية، لم يحققها في واقع الحياة إلا الإسلام في ظل هذا القرآن.

ويمضي السياق في توكيده للوفاء بالعهود ، ونهيه عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة ، وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة من منافع هذه الدنيا الفانية . ويحذر عاقبة ذلك في زعزعة قوائم الحياة النفسية والاجتماعية ، وزلزلة العقائد والارتباطات والمعاملات . وينذر بالعذاب العظيم في الآخرة ، ويلوح بما عند الله من عوض عما يفوتهم بالوفاء من منافع هزيلة . وينوه بفناء ما بأيديهم وبقاء ما عند الله الذي لا تنفد خزائنه ، ولا ينقطع رزقه :

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً . إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير ، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين . فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ، ولا أن تثبت له قدم على صراطها . وهو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل ؛ ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيئ الذي يضربه للمؤمنين بالله .

ولقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ،

ومن صدقهم في وعدهم ، ومن إخلاصهم في أيمانهم ، ومن نظافتهم في معاملاتهم . فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم .

(96/445)

ولقد ترك القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاماً في هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز . . روي أنه كان بين معاوية بن أبي سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم في أخر الأجل . (حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون) فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية . وفاء لا غدر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمدها " فرجع معاوية بالجيش .

والروايات عن حفظ العهود مهما تكن المصلحة القريبة في نقضها متواترة مشهورة .

وقد ترك هذا القرآن في النفوس ذلك الطابع الإسلامي البارز . وهو يرغب ويرهب ، وينذر ويحذر ويجعل العهد عهد الله ، ويصور النفع الذي يجره نقضه ضئيلاً هزيلاً ، وما عند الله على الوفاء عظيماً جزيلاً : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً .

إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ . . ويذكر بأن ما عند البشر ولو ملكه فرد

فإنه زائل ، وما عند الله باق دائم : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ ، ويقوي العزائم على الوفاء ، والصبر لتكاليف الوفاء ، ويعد الصابرين أجراً حسناً ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ والتجاوز عما وقع منهم من عمل سيئ ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه .

وبمناسبة العمل والجزاء ، يعقب بالقاعدة العامة فيهما :

﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . . فيقرر بذلك القواعد التالية :

أن الجنسين : الذكر والأنثى . متساويان في قاعدة العمل والجزاء ، وفي صلتهما بالله ، وفي جزائهما عند الله . ومع أن لفظ ﴿ من ﴾ حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل : ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ لزيادة تقرير هذه الحقيقة . وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى ، وضيق المجتمع بها ، واستياء من يبشر بمولدها ، وتواريه من القوم حزناً وغماً وخجلاً وعاراً !

وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها . قاعدة الإيمان بالله ﴿ وهو

مؤمن ﴾ فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء ، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته ، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . والعقيدة هي المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعاً ، وإلا فهي أنكاث . فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية . فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير . لا عارضاً مزعزعاً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل .

وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض . لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال . فقد تكون به ، وقد لا يكون معها . وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية : فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه . وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة ، وسكن البيوت ومودات القلوب . وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة . . وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .

وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة .

وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا ، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات . فما أكرمه من جزاء ! .

ثم يأخذ السياق في شيء عن خاصة الكتاب . عن آداب قراءته . وعن تقولات المشركين عليه :

﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ .

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان .

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . . ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه ، وينقادوا إليه . وقد يخطئون ، لكنهم لا يستسلمون ، فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب . . ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم ، ومنهم من يشرك به . فقد عرفت عبادة الشيطان وعبادة إله الشر عند بعض الأقوام . على أن أتباعهم للشيطان نوع من الشرك بالولاء والاتباع .

وعند ذكر المشركين يذكر تقولاتهم عن القرآن الكريم :

﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لا يعلمون .

قل : نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين .

ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان

عربي مبين . إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفتري

الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون ﴾ . .

(99/445)

إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب . لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني ، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي . وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة ؛ وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع . فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها ، ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة ، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه إلا هو ، فالشأن له ، ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفى ، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية .

إن المشركين لا يدركون شيئاً من هذا كله ، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فحسبوها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذباً قط. ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . .

﴿ قل: نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ . . فما يمكن أن يكون افتراء. وقد نزله ﴿ روح القدس ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ من ربك ﴾ لا من عندك ﴿ بالحق ﴾ لا يتلبس به الباطل ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ الموصولة قلوبهم بالله، فهي تدرك أنه من عند الله، فتثبت على الحق وتطمئن إلى الصدق ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ بما يهديهم إلى الطريق المستقيم، وبما يبشرهم بالنصر والتمكين.

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون إليه أعجمي. وهذا لسان عربي مبين ﴾ . . .

والفرية الأخرى بزعمهم أن الذي يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا القرآن إنما هو بشر. سموه باسمه، واختلفت الروايات في تعيينه. . قيل: كانوا يشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه.

وقال محمد بن اسحاق في السيرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المروة إلى سبيعة . غلام نصراني يقال له : جبر . عبد لبعض بني الحضرمي ، فأنزل الله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

وقال عبد الله بن كثير وعن عكرمة وقتادة كان اسمه " يعيش " .

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قنا بمكة وكان اسمه بلعام . وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام . فأنزل الله هذه الآية . .

وأما ما كان فقد رد عليهم الرد البسيط الواضح الذي لا يحتاج إلى جدل : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي . وهذا لسان عربي مبين ﴾ فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين ؟

وهذه المقالة منهم يصعب حملها على الجد ، واغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذي كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه وافتراءه . وإلا فكيف يقولون وهم أخبر بقيمة هذا الكتاب وإعجازه إن أعجميا يملك أن يعلم محمدا هذا الكتاب . ولئن كان قادرا على مثله ليظهرن به لنفسه !

واليوم ، بعد ما تقدمت البشرية كثيرا ، وتفتقت مواهب البشر عن كتب ومؤلفات ، وعن نظم وتشريعات ؛ يملك كل من يتذوق القول ، وكل من يفقه أصول النظم الاجتماعية ، والتشريعات القانونية أن يدرك أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من عمل البشر .

وحتى الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية ، عندما أرادوا أن يطعنوا في هذا الدين في مؤتمر المستشرقين عام 1954 كانت دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد هو محمد بل من عمل جماعة كبيرة . وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية بل إن بعض أجزائه كتب خارجها ! ! !

دعاهم إلى هذا استكثار هذا الكتاب على موهبة رجل واحد .

وعلى علم أمة واحدة .

(101/445)

ولم يقولوا ما يوحي به المنطق الطبيعي المستقيم : إنه من وحي رب العالمين . لأنهم ينكرون أن يكون لهذا الوجود إله ، وأن يكون هناك وحي ورسل ونبوات !

فكيف كان يمكن وهذا رأي جماعة من العلماء في القرن العشرين أن يعلمه بشر لسانه أعجمي عبد لبني فلان في الجزيرة العربية ؟ !

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول :

﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾ . .

فهؤلاء الذين لم يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة في أمر هذا الكتاب ، ولا يهديهم إلى الحقيقة في شيء ما . بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ بعد ذلك الضلال المقيم .

ثم يثني بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون . ولا يمكن أن يصدر من الرسول الأمين :

﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . وأولئك هم الكاذبون ﴾ . .

فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن . وقد نفى الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث له صدورها عن المسلم ، وإن كان يصدر عنه غيرها من الذنوب .

ثم ينتقل السياق إلى بيان أحكام من يكفر بعد الإيمان :

﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ . .

ولقد لقي المسلمون الأوائل في مكة من الأذى ما لا يطيقه إلا من نوى الشهادة ، وآثر الحياة الأخرى ، ورضي بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال .

(102/445)

والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه . لأنه عرف الإيمان وذاقه ، ثم ارتد عنه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة . فرماهم بغضب من الله ، وبالعذاب العظيم ، والحرمان من الهداية ؛ ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار ؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون . . ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة ، وحساب للربح والخسارة . ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض ؛ فللأرض حساب ، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان . وليست العقيدة هزلا ، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد فهي أعلى من هذا وأعز . ومن ثم كل هذا التغليظ في العقوبة ، والتفظيع للجريمة .

واستثنى من ذلك الحكم الدامغ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

أي من أظهر الكفر بلسانه نجاة لروحه من الهلاك ، وقلبه ثابت على الإيمان مرتكن إليه مطمئن به . وقد روي أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر .

روى ابن جرير بإسناده عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : " أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبي – صلى الله عليه وسلم "كيف تجد قلبك " ؟ قال : مطمئنا بالإيمان . قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن عادوا فعد " . فكانت رخصة في مثل هذه الحال .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظة باللسان . كذلك صنعت سمية أم ياسر ، وهي تطعن بالحربة في موضع العفة حتى تموت وكذلك صنع أبوه ياسر .

وقد كان بلال رضوان الله عليه يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد . أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها .

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدا رسول الله . فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا

إربا ، وهو ثابت على ذلك .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذيفة السهمي أحد الصحابة رضوان الله عليهم أنه أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له : تَنَصَّر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت . فقال : إذن أقتلك ، فقال : أنت وذاك . قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل . ثم أمر بقدر . وفي رواية : بقرة من نحاس فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها . فرفع في البكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه . فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي رواية أنه سجنه ، ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ، ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبل رأسي .

وأنا أطلقك . فقال : تطلق معي جميع أسارى المسلمين . فقال : نعم . فقبل رأسه ، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق

على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ . فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما .

(104/445)

ذلك أن العقيدة أمر عظيم ، لا هوادة فيها ولا ترخص ، وثمن الاحتفاظ بها فادح ، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن ، وعند الله . وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته وهانت الحياة وهان كل ما فيها من نعيم .

﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم . يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها . وتوفى كل نفس ما عملت ، وهم لا يظلمون ﴾ .

وقد كانوا من ضعاف العرب ، الذين فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره . ولكنهم هاجروا بعد ذلك عندما أمكنتهم الفرصة ، وحسن إسلامهم ، وجاهدوا في سبيل الله ، صابرين على تكاليف الدعوة . فالله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم ﴿ إن ربك لغفور رحيم ﴾ .

ذلك يوم تشغل كل نفس بأمرها ، لا تتلفت إلى سواها ؛ ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن

نفسها ﴾ وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرئ بنفسه ، يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب . ولا غناء في انشغال ولا جدال . إنما هو الجزاء . كل نفس وما كسبت . ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2189 . 2197 ﴾

(105/445)

قوله تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقرر بما مضى من أدلة التوحيد ، فثبت ثباتاً لا يتطرق إليه شك أن الله هو الإله وحده كما أنه هو الرازق وحده ، ونبههم على دقائق في تقديره للأرزاق تدل على عظمته وشمول علمه وقدرته واختياره ، فثبت أنهم ظالمون فيما جعلوا للأصنام من رزقه ، وأنه ليس لأحد أن يتحرك إلا بأمره سبحانه ، وختم ذلك بهذا المثل المحذر من كفران النعم ، عقبه بقوله تعالى صاداً لهم عن أفعال الجاهلية : ﴿ فكلوا ﴾ أي فتسبب عن جميع ما مضى أن

يقال لهم : كلوا ﴿ مما رزقكم الله ﴾ أي الذي له الجلال والجمال مما عده لكم في هذه السورة وغيرها ، حال كونه ﴿ حلالاً طيباً ﴾ أي لا شبهة فيه ولا مانع بوجه ﴿ واشكروا نعمت الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال حذراً من أن يحل بكم ما أحل بالقرية الممثل بها ﴿ إن كنتم إياه ﴾ أي وحده ﴿ تعبدون ﴾ كما اقتضته هذه الأدلة ، لأن وحده هو الذي يرزقكم وإلا عاجلكم بالعقوبة لأنه ليس بعد العناد عن البيان إلا الانتقام ، فصار الكلام في الرزق والتقريع على عدم الشكر مكتنفاً الأمثال قبل وبعد .

ولما كان الإذن إنما هو في بعض الرزق في الحال المذكور فاحتيج إلى معرفته ، وكانت المباحات أكثر من المحظورات ، حصر القليل ليعلم منه الكثير ، لأن كل ضدين معروفين إجمالاً عُين أحدهما ، عرف من تعيينه الآخر ، فقال تعالى : ﴿ إنما حرم ﴾ أي الله الذي لا أمر لأحد معه ﴿ عليكم الميتة ﴾ التي بينت على لسان الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنها ميتة وإن ذكيت ﴿ والدم ولحم الخنزير ﴾ خصه بالذكر بعد دخوله في الميتة لاتخاذ النصارى أكله كالدين ﴿ وما أهل ﴾ أي بأيّ إهلال كان من أي مهل كان .

ولما كان مقصود السورة لبيان الكمال ، كان تقديم غيره لتقبيح حال المعتنى به أولى فقال تعالى : ﴿ لغير الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا ملك سواه ﴿ به ﴾ .

ولما كان الإنسان قد يضطر إلى أكل كلّ ما يمكن أكله ، بين لهم أنه رفق بهم فأباح لهم سد الرمق من الحرام فقال تعالى : ﴿ فمن اضطر ﴾ أي كيفما وقع له الاضطرار ﴿ غير باغ ﴾ على مضطر آخر ﴿ ولا عاد ﴾ سدّ الرمق .

ولما كان الإذن في الأكل من هذه الأشياء حال الضرورة إنما هو رخصة ، وكانت الشهوة داعية إلى ما فوق المأذون فيه قال تعالى : ﴿ فإن الله ﴾ أي المختص بصفات الكمال ، بسبب تناوله منها على ما حده ﴿ غفور رحيم ﴾ فمن زاد على ما أذن له فيه فهو جدير بالانتقام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 318.319 ﴾

(107/445)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

يعني أن ذلك الجوع إنما كان بسبب كفركم فاتركوا الكفر حتى تأكلوا ، فلهذا السبب قال : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : فكلوا يا معشر المسلمين مما

رزقكم الله يريد من الغنائم .

وقال الكلبي : إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النسوان والصبيان .

وكانت الميرة قد قطعت عنهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن في حمل الطعام إليهم فحمل إليهم العظام فقال الله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلَالاً طَيّباً ﴾ والقول ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ويدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ ﴾ [النحل : 115] الآية يعني أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

اعلم أن هذه الآية إلى آخرها مذكورة في سورة البقرة مفسرة هناك ولا فائدة في الإعادة وأقول : إنه تعالى حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة في هذه السورة لأن لفظة : ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر وحصرها أيضاً في هذه الأربعة في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ ﴾ [الأنعام : 145] وهاتان السورتان مكيتان ، وحصرها أيضاً في هذه الأربعة في سورة البقرة لأن هذه الآية بهذه اللفظة وردت في سورة البقرة وحصرها أيضاً في سورة المائدة فإنه تعالى قال في أول هذه السورة :

﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنعامِ إِلَّا مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : 1] فأباح الكل إلا ما يتلى عليهم .

(108/445)

وأجمعوا على أن المراد بقوله : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ هو قوله تعالى في تلك السورة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ولَحْمُ الخنزير ومَا أُهِلَّ لغيرِ الله بِهِ ﴾ [المائدة : 3] فذكر تلك الأربعة المذكورة في تلك السور الثلاثة ثم قال : ﴿ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ومَا أَكَلَ السبع إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة : 3] وهذه الأشياء داخلة في الميتة ، ثم قال : ﴿ ومَا ذُبِحَ عَلَى النصب ﴾ وهو أحد الأقسام الداخلة تحت قوله : ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله ﴾ فثبت أن هذه السور الأربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الأربع سورتان مكيتان ، وسورتان مدنيتان ، فإن سورة البقرة مدنية .

وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة ، فمن أنكر حصر التحريم في هذه الأربع إلا ما خصه الإجماع والدلائل القاطعة كان في محل أن يخشى عليه ، لأن هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الأربع كان شرعاً ثابتاً في أول أمر مكة وآخرها ، وأول المدينة

وآخرها وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الأربع قطعاً للأعذار وإزالة للشبهة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 104. 105 ﴾

(109/445)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾ الآية ،

هذا ابتداء كلام آخر ، ومعنى حكم ، والفاء في قوله ﴿ فكلوا ﴾ الصلة الكلام واتساق الجمل خرج من ذكر الكافرين والميل عليهم إلى أمر المؤمنين بشرع ما فوصل الكلام بالفاء وليست المعاني موصولة ، هذا قول ، والذي عندي أن الكلام متصل المعنى ، أي وأنتم المؤمنون لستم كهذه القرية ، ﴿ فكلوا ﴾ واشكروا الله على تباين حالكم من حال الكفرة وهذه الآية هي بسبب أن الكفار كانوا سنوا في الأنعام سنناً وحرموا بعضاً وأحلوا بعضاً فأمر الله تعالى المؤمنين بأكل جميع الأنعام التي رزقها الله عباده وقوله ﴿ حلالاً ﴾ حال ، وقوله ﴿ طيباً ﴾ أي مستلذاً ، ووقع النص في هذا على المستلذات ففيه ظهور النعمة وهو عظم النعم وإن كان الحلال قد يكون غير مستلذ ، ويحتمل أن يكون الطيب بمعنى الحلال وكرره مبالغة وتوكيداً وباقي الآية بين ، قوله ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ إقامة

للنفوس كما تقول الرجل : إن كنت من الرجال فافعل كذا ، على معنى إقامة نفسه ، وذكر الطبري : أن بعض الناس قال نزلت هذه الآية خطاباً للكافر عن طعام كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إليهم في جوعهم ، وأنحى الطبري على هذا القول وكذلك هو فاسد من غير وجه .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾

حصرت ﴿ إنما ﴾ هذه المحرمات وقت نزول الآية ، ثم نزلت المحرمات بعد ذلك وقرأ جمهور الناس : " الميْتة " ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " الميّتة " وهذا هو الأصل وتخفيف الياء طارىء عليه ، والعامل في نصبها ﴿ حرم ﴾ ، وقرأت فرقة " الميتةُ " بالرفع على أن تكون ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي .

(110/445)

قال القاضي أبو محمد : وكون ﴿ ما ﴾ متصلة ب ﴿ إن ﴾ يضعف هذا ويحكم بأنها حاصرة و ﴿ ما ﴾ كافة ، وإذا كانت بمعنى الذي فيجب أن تكون منفصلة ، وذلك خلاف خط المصحف ، وقرأ الجمهور " حرم " على معنى حرم الله ، وقرأت فرقة " حُرِّم " على ما لم يسم فاعله ، وهذا برفع " الميتةُ " ولا بد .

قال القاضي أبو محمد : و﴿ الميتة ﴾ المحرمة هي ما مات من حيوان البر الذي له نفس سائلة حتف أنفه ، وأما ما ليس له نفس سائلة كالجراد والبراغيث والذباب ودود التين وحيوان الفول وما مات من الحوت حتف أنفه وطفا على الماء ففيه قولان في المذهب ، وما مات حتف أنفه من الحيوان الذي يعيش في الماء وفي البر كالسلاحف ونحوها ففيه قولان والمنع هنا أظهر إلا أن يكون الغالب عليه العيش في الماء ﴿ والدم ﴾ المحرم هو المنسفح الذي يسيل إن ترك مفرداً وأما ما خالط اللحم وسكن فيه فحلال طبخ ذلك اللحم فيه ، ولا يكلف أحد تتبعه ، ودم الحوت مختلف فيه وإن كان ينسفح لو ترك ، ﴿ ولحم الخنزير ﴾ هو معظمه والمقصود الأظهر فيه ، فلذلك خصه بالذكر ، وأجمعت الأمة على تحريم شحمه وغضاريفه ومن تخصيصه استدلت فرقة على جواز الانتفاع بجلده إذا دبغ ولبسه ، والأولى تحريمه جملة ، وأما شعره فالانتفاع به مباح ، وقالت فرقة ذلك غير جائز ، والأول أرجح ، وقوله : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ يريد كل ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله والقرب إلى سواه ، وسواء تكلم بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم ، لكن خَرجت العبارة عن ذلك ب ﴿ أهلّ ﴾ ومعناه صحيح على عادة العرب وقصد الغض منها وذلك أنها كانت

إذا ساقت ذبيحة إلى صنم جهرت باسم ذلك الصنم وصاحت به ، وقوله : ﴿ فمن اضطر ﴾ قالت فرقة : معناه أكره وقال الجمهور : معناه اضطره جوع واحتياج ، وقرأت فرقة " فمنُ " بضم النون " اضطُر " بضم الطاء ، وقرأت فرقة " فمنِ " بكسر النون " اضطِر " بكسر الطاء ، على أن الأصل اضطرت ، فنقلت حركة الراء إلى الطاء وأدغمت الراء في الراء ، وقالت فرقة : " الباغي " صاحب البغي على الإمام ، أو في قطع الطريق وبالجملة في سفر المعاصي ، و" العادي " بمعناه في أنه ينوي المعصية ، وقال الجمهور : ﴿ غير باغ ﴾ معناه غير مستعمل لهذه المحرمات مع وجود غيرها ، ﴿ ولا عاد ﴾ معناه لا يعدو حدود الله في هذا ،

(112/445)

وهذا القول أرجح وأعم في الرخصة ، وقالت فرقة : ﴿ باغ ﴾ و ﴿ عاد ﴾ في الشبع والتزود ، واختلف الناس في صورة الأكل من الميتة ، فقالت فرقة : الجائز من ذلك ما يمسك الرمق فقط ، وقالت فرقة : بل يجوز الشبع التام ، وقالت فرقة منهم مالك رحمه الله : يجوز الشبع والتزود ، وقال بعض النحويين في قوله ﴿ عاد ﴾ إنه مقلوب من عائد ، فهو كشاكي السلاح وكيوم راح وكقول الشاعر : لأن بها الأشياء والعنبري ، وقوله : ﴿ فإن الله غفور

رحيم ﴾ ، لفظ يقتضي منه الإباحة للمضطر ، وخرجت الإباحة في هذه الألفاظ تحرجاً وتضييقاً في أمرها ليدل الكلام على عظم الخطر في هذه المحرمات ، فغاية هذا المرخص له غفران الله له وحطه عنه ما كان يلحقه من الإثم لولا ضرورته . قال القاضي أبو محمد : وهذا التحريم الذي ذكرناه يفهمه الفصحاء من اللفظ وليس في المعنى منه شيء وإنما هو إيماء ، وكذلك جعل في موضع آخر غايته أن لا إثم عليه ، وإن كان لا إثم عليه وقوله هو له مباح يرجعان إلى معنى واحد فإن في هيئة اللفظين خلافاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(113/445)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾

أي كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم .

وقيل : الخطاب للمشركين ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رِقّةً عليهم ، وذلك أنهم لما ابتلوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم المِيرَة بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرَقة والجِيفة والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز ، وهو الوَبَر يعالج بالدّم .

ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جُهدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان .

وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرَّحِم والعفو ، وإن قومك قد هلكوا ؛ فادع الله لهم .

فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإِذِن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(114/445)

وقال الخازن :

﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾

في المخاطبين بهذا قولان : أحدهما ، أنهم المسلمون ، وهو قول جمهور المفسرين ، والثاني ، أنهم هم المشركون من أهل مكة .

قال الكلبي : لما اشتد الجوع بأهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : إنك إنما عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان ؟ فأذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يحملوا الطعام إليهم حكاه الواحدي وغيره والقول الأول هو الصحيح .

قال ابن عباس فكلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله يريد الغنائم ﴿ حلالاً طيباً ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الأمة وطيبها لهم ولم تحل لأحد قبلهم ﴿ واشكروا نعمة الله ﴾ يعني التي أنعم بها عليكم ﴿ إن كنتم إياه تعبدون إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴾ تقدم تفسير هذه الآية وأحكامها في سورة البقرة فلم نعده هنا . انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(115/445)

وقال أبو حيان :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾

وقال أبو عبد الله الرازي : لما ذكر المثل قال : ولقد جاءهم يعني أهل مكة رسول منهم يعني من أنفسهم يعرفونه بأصله ونسبه ، ولما وعظ تعالى بضرب ذلك المثل وصل هذا الأمر للمؤمنين بالفاء ، فأمر المؤمنين بأكل ما رزقهم وشكر نعمته ليباينوا تلك القرية التي كفرت بنعم الله .

ولما تقدم فكفرت بأنعم الله جاء هنا : واشكروا نعمة الله .

وفي البقرة جاء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا مما رزقناكم ﴾ لم يذكر من كفر نعمته فقال : ﴿ واشكروا الله ﴾ ولما أمرهم بالأكل مما رزقهم ، عدد عليهم محرماته تعالى ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه .

وكذا جاء في البقرة ذكر ما حرم إثر قوله : كلوا مما رزقناكم .

وقوله : إنما حرم الآية تقدّم تفسير مثلها في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(116/445)

وقال أبو السعود :

قوله سبحانه : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾

والمعنى وإذ قد استبان لكم حالُ من كفر بأنعم الله وكذّب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتي أولاً وآخِراً فانتهُوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيبِ الرسول عليه السلام كيلا يحِلَّ بكم مثلُ ما حل بهم واعرِفوا حقَّ نعم الله تعالى وأطيعوا رسولَه عليه السلام في أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه ﴿ حلالا طَيّباً ﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائرِ ونحوها ﴿ واشكروا نِعْمَتَ الله ﴾ واعرِفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران ،

والفاءُ في المعنى داخلةٌ على الأمر بالشكر وإنما أُدخلت على الأمر بالأكل لكون الأكل ذريعةً إلى الشكر ، فكأنه قيل : فاشكروا نعمةَ الله غِبَّ أكلها حلالاً طيباً ، وقد أُدمج فيه النهيُ عن زعم الحرمة ، ولا ريب في أن هذا إنما يُتصور حين كان العذابُ المستأصِل متوقَّعاً بعدُ وقد تمهّدت مباديه ، وبعد ما وقع فمن ذا الذي يُحذَّر ومن ذا الذي يُؤمر بالأكل والشكر ؟ وحمْلُ قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب وَهُمْ ظالمون ﴾ على الإخبار بذلك قبل الوقوعِ يأباه التصدّي لاستصلاحهم بالأمر والنهي ، وتوجيهُ خطاب الأمرِ بالأكل إلى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهي متوجّهٌ إلى الكفار ، كما فعله الواحديُّ حيث قال : فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيلِ الجليل ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي تطيعون أو إن صح زعمُكم أنكم تقصِدون بعبادة الآلهة عبادتَه تعالى .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ﴾

(117/445)

تعليلٌ لِحِلّ ما أمرهم بأكله مما رزقهم ، أي إنما حرم هذه الأشياءَ دون ما تزعُمون حرمتَه من البحائر والسوائبِ ونحوِها ﴿ فَمَنِ اضطر ﴾ بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئاً من ذلك

﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي على مضطر آخرَ ﴿ وَلاَ عَادٍ ﴾ أي متجاوزٍ قدرَ الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لا يؤاخذه بذلك ، فأُقيم سببُه مُقامه ، وفي التعرض لوصف الربوبية إيماءٌ إلى علة الحكمِ وفي الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهارٌ لكمال اللطفِ به عليه السلام ، وتصديرُ الجملة بإنما لحصر المحرماتِ في الأجناس الأربعة إلا ما ضُمّ إليه كالسّباع والحمُر الأهلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(118/445)

وقال الآلوسى :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾

والمعنى وإذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله تعالى وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتي أولاً وآخراً فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم كيلا يحل بكم ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في أمره ونهيه فكلوا من رزق الله تعالى حال كونه ﴿ حلالا طَيّباً ﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿ واشكروا نِعْمَتَ الله ﴾ واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران .

والفاء في المعنى داخلة على الأمر بالشكر وإنما دخلت على الأمر بالأكل ذريعة إلى الشكر فكأنه قيل: فاشكروا نعمة الله غب أكلها حلالاً طيباً وقد أدمج فيه النهي عن زعم الحرمة ولا ريب في أن هذا يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعاً بعد وقد تمهدت مبادية وأما بعدما وقع فمن ذا الذي يحذر ومن ذا الذي يحذر ومن ذا الذي يؤمر بالأكل والشكر وحمل قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب وَهُمْ ظالمون ﴾ [النحل: 113]

لاستصلاحهم بالأمر والنهي وإن لم يأباه التعبير بالماضي لأن استعماله في المستقبل المتحقق الوقوع مجازاً كثير.

وتوجيه خطاب الأمر بالأكل إلى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهي متوجه إلى الكفار كما فعل الواحدي قال: فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله تعالى من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل اه.

(119/445)

وتعقب بأنه بعد ما فسر العذاب بالعذاب المستأصل للشأفة كيف يراد به ما وقع في بدر وما بقي منهم أضعاف ما ذهب وإن كان مثل ذلك كافياً في الاستئصال فليكن الحذر والمأمور الباقي منهم، وما ذكره عن الواحدي من توجيه خطاب الأمر بالأكل للمؤمنين رواه

الإمام عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ثم نقل عن الكلبي ما يستدعي أن الخطاب لأهل مكة حيث قال : إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا : عاديت الرجال فما بال الصبيان والنساء وكانت الميرة قد قطعت عنهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذن في الحمل إليهم فحمل الطعام إليهم فقال الله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ الخ ثم قال : والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى فيما بعد : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [النحل : 115] الخ يعني إنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واركتوا الخبائث وهو الميتة والدم اه .

وفي "التفسير الخازني" أن كون الخطاب للمؤمنين من أهل المدينة هو الصحيح فإن الصحيح أن الآية مدنية كما قال مقاتل وبعض المفسرين ، والمراد بالقرية مكة وقد ضربها الله تعالى لأهل المدينة يخوفهم ويحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف ويشهد لصحة ذلك أن الخوف المذكور في الآية كان من البعوث والسرايا التي كانت يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول جميع المفسرين لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وإنما أمر به وهو بالمدينة فكان صلى الله عليه وسلم يبعث البعوث إلى مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة ، والمراد بالعذاب ما أصابهم من الجوع والخوف وهو أولى من أن يراد به القتل يوم بدر ، والظاهر أن قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ [النحل : 113] الخ عنده كما هو عند الجمهور انتقال من التمثيل بهم إلى التصريح بحالهم الداخلة فيه وليس من تتمته فإنه على ما قيل خلاف المتبادر إلى الفهم .

نعم كون خطاب النهي فيما بعد للمؤمنين بعيد غاية البعد ، وجعله للكفار مع جعل خطاب الأمر السابق للمؤمنين بعيد أيضاً لكن دون ذلك .

وادعى أبو حيان أن الظاهر أن خطاب النهي كخطاب الأمر للمكلفين كلهم ، ونقل كون خطاب للنهي لهم عن العسكري ، وكونه للكفار عن الزمخشري وابن عطية .

والجمهور ، ولعل الأولى ما ذكره شيخ الإسلام إلا أن تقييد العذاب بالمستأصل ودعوى أن حال أهل مكة كحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو في خصلة فذة لا يخلو عن شيء من حيث أن أهل مكة لم يستأصلوا فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك

﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تطيعون أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته سبحانه ومن قال ؛ إن الخطاب للمؤمنين أبقى هذا على ظاهره أي إن كنتم تخصونه تعالى بالعبادة ، والكلام خارج مخرج التهييج .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم ، والحصل إضافي على ما قال غير واحد أي إنما حرم أكل هذه الأشياء دون ما تزعمون من البحائر والسوائب ونحوها فلا ينافي تحريم غير المذكورات كالسباع والحمر الأهلية ، وقيل : الحصر على ظاهره والسباع ونحوها لم تحرم قبل وإنما حرمت بعد وليس الحصر إلا بالنظر إلى الماضي ، وقال الإمام : إنه تعالى حصر المحرمات في الأربع في هذه السورة وفي سورة الأنعام بقوله سبحانه : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام : 145] الخ وهما مكيتان وحصرها فيها أيضاً في البقرة وكذا في المائدة فإنه تعالى قال فيها : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : 1] فأباح الكل إلا ما يتلى عليهم ، وأجمعوا على أن المراد بما يتلى هو قوله تعالى في تلك السورة : ﴿ حُرّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ولَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ﴾ [المائدة : 3] وما ذكره تعالى من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع داخل في الميتة وما ذبح على النصب داخل فيما أهل به لغيره الله ، فثبت أن هذه السور الأربع دالة على حصر المحرمات في هذه الأربع ، وسورتا النحل والأنعام مكيتان وسورتا البقرة والمائدة مدنيتان ، والمائدة من آخر ما نزل بالمدينة

فمن أنكر حصر التحريم في الأربع إلا ما خصه الإجماع والدلائل القاطعة كان في محل أن يخشى عليه لأن هذه السور دلت على أن حصر المحرمات فيها كان مشروعاً ثابتاً في أول أمر مكة وآخرها وأول المدينة وآخرها ، وفي إعادة البيان قطع للأعذار وإزالة للشبه اه فتفطن ولا تغفل ﴿ فَمَنِ اضطر ﴾ أي دعته ضرورة المخمصة إلى تناول شيء من ذلك ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ على مضطر آخر ﴿ وَلاَ عَادٍ ﴾ متعد قدر الضرورة وسد الرمق ﴿ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لا يؤاخذه سبحانه

بذلك فأقيم سببه مقامه ، ولتعظيم أمر المغفرة والرحمة جيء بالاسم الجليل ، وقد سها شيخ الإسلام فظن أن الآية ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : 145] فبين سر التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضمير صلى الله عليه وسلم وسبحان من لا يسهو.
واستدل بالآية على أن الكافر مكلف بالفروع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) ﴾

تفريع على الموعظة وضربِ المثل ، وخوطب به فريق من المسلمين كما دلّ عليه قوله : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون إنما حرم عليكم الميتة ﴾ [سورة النحل : 114 ، 115] إلى آخره .

ولعلّ هذا موجّه إلى أهل هجرة الحبشة إذ أصبحوا آمنين عند ملك عادل في بلد يَجدون فيه رزقاً حلالاً وهو ما يُضافون به وما يكتسبونه بكدّهم ، أيْ إذا علمتم حال القرية الممثّل بها أو المعرّض بها فاشكروا الله الذي نجّاكم من مثل ما أصاب القرية ، فاشكروا الله ولا تكفروه كما كفر بنعمته أهل تلك القرية .

فقوله : ﴿ واشكروا نعمت الله ﴾ مقابل قوله في المثل : ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ [سورة النحل : 112] إن كنتم لا تعبدون غيره كما هو مقتضى الإيمان .

وتعليق ذلك بالشرط للبعث على الامتثال لإظهار صدق إيمانهم .

وإظهار اسم الجلالة في قوله : واشكروا نعمت الله ﴾ مع أن مقتضى الظاهر الإضمار لزيادة التذكير ، ولتكون جملة هذا الأمر مستقلّة بدلالتها بحيث تصحّ أن تجري مجرى المثل .

وقيل : هذه الآية نزلت بالمدينة (والمعنى واحد) وهو قول بعيد .

والأمر في قوله : ﴿ فكلوا ﴾ للامتنان .

وإدخال حرف التفريع عليه باعتبار أن الأمر بالأكل مقدمة للأمر بالشكر وهو المقصود بالتّفريع .

والمقصود : فاشكروا نعمة الله ولا تكفروها فيحلّ بكم ما حلّ بأهل القرية المضروبة مثلاً .

والحلال : المأذون فيه شرعاً .

والطيّب : ما يطيب للناس طعمه وينفعهم قُوتُه .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

(124/445)

هذه الجملة بيان لمضمون جملة ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ [سورة النحل : 114] لتمييز الطيّب من الخبيث ، فإن المذكورات في المحرّمات هي خبائث خُبثاً فطرياً لأن بعضها مفسد لتولد الغذاء لما يشتمل عليه من المضرّة .

وتلك هي الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ؛ وبعضها منافٍ للفطرة وهو ما أهلّ به لغير الله لأنه منافٍ لشكر المنعم بها ، فالله خلق الأنعام ، والمشركون يذكرون اسم غير الله عليها .

ولإفادة بيان الحلال الطّيّب بهذه الجملة جيء فيها بأداة الحصر ، أي ما حرّم عليكم إلا الأربعَ المذكورات ، فبقي ما عداها طيّباً .

وهذا بالنظر إلى الطِيب والخُبث بالذات .

وقد يعرض الخبث لبعض المطعومات عرضاً .

ومناسبة هذا التحديد في المحرّمات أن بعض المسلمين كانوا بأرض غُربة وقد يؤكل فيها لحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله ، وكان بعضهم ببلد يؤكل فيه الدم وما أهلّ به لغير الله .

وقد مضى تفسير نظير هذه الآية في سورة البقرة والأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(125/445)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) ﴾

قُلْنا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما اشتد الحال بأهل مكة حتى أكلوا الجيف ، كان يرسل إليهم ما يأكلونه من الحلال الطيب رحمة منه صلى الله عليه وسلم بهم فيقول :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ . . ﴾ [النحل : 114] .

أي : أن هذا الرزق ليس من عندي ، بل من عند الله .

﴿ حَلالاً طَيِّباً . . . ﴾ [النحل : 114] .

ذلك لأنهم كانوا قبل ذلك لا يتورَّعون عن أكل ما حرم الله ، ولا عن أكل الخبيث ، فأراد أن يُنبِّههم أن رِزْق الله لهم من الحلال الطيب الهنيء ، فيبدلهم الحلال بدل الحرام ، والطيب بدل الخبيث .

وقوله تعالى : ﴿ واشكروا نِعْمَتَ الله . . . ﴾ [النحل : 114] .

وهنا إشارة تحذير لهم أنْ يقعوا فيما وقعوا فيه من قَبْل من جُحود النعمة ونكْرانها والكفر بها ، فقد جَرَّبوا عاقبة ذلك ، فنزع الله منهم الأمْنَ ، وألبسهم لباسَ الخوف ، ونزع منهم الشّبَع ورَغَد العيش ، وألبسهم لباس الجوع ، فخذوا إذن عبرة مما سلف :

﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . . . ﴾ [النحل : 114] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ . . . ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ قال : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً ﴾ [النحل : 114] .

أراد أن يُكرِّر معنًى من المعاني سبق ذكره في البقرة والمائدة ، فقال في البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ

عَلَيْكُمُ الميتة والدم ولَحمَ الخنزير ومَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ ولَا عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 173] .

(126/445)

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ولَحْمُ الخنزير ومَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ . . ﴾ [المائدة : 3] .

وهذه الأشياء كنتم تأكلونها وهي مُحرّمة عليكم ، والآن ما دُمْنا ننقذكم ، ونجعل لكم معونة إيمانية من رسول الله ، فكلوا هذه الأشياء حلالاً طيباً .

ولكن ، لماذا كرَّر هذا المعنى هنا ؟

التكرار هنا لأمرين :

الأول : أنه سبحانه لا يريد أنْ يعطيهم صورة عامة بالحكم ، بل صورة مُشخَّصة بالحالة ؛ لأنهم كانوا جَوْعى يريدون ما يأكلونه ، حتى وإنْ كانت الجيف ، ولكن الإسلام يُحرِّم الميتة ، فأوضح لهم أنكم بعد ذلك ستأكلون الحلال الطيب .

ثانياً : أن النص يختلف ، ففي البقرة : ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ . . ﴾ [البقرة : 173] .

وهنا : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ . . ﴾ [النحل : 115] .

وليس هنا من قبيل التفنُّن في الأسلوب ، بل المعنى مختلف تماماً ؛ ذلك لأن الإهلال هو رَفْع الصوت عند الذبح ، فكانوا يرفعون أصواتهم عند الذبح ، ولكن والعياذ بالله يقولون : باسم اللات ، أو باسم العُزّى ، فيُهلون بأسماء الشركاء الباطلين ، ولا يذكرون اسم الله الوهاب .

فمرَّةً يُهلُّون به لغير الله ، ومرة يُهِلُّون لغير الله به . كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الذبْح كان على نوعين : مرة يذبحون للتقرُّب للأصنام ، فيكون الأصل في الذبح أنه أُهِلَّ لغير الله به . أي : للأصنام .

ومرَّة يذبحون ليأكلوا دون تقرُّب لأحد ، فالأصل فيه أنه أُهِلَّ به لغير الله .

إذن : تكرار الآية لحكمة ، وسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ . . ﴾ [النحل : 115] .

الاضطرار : ألاَّ تجد ما تأكله ، ولا ما يقيم حياتك .

(127/445)

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هنا رخصة عندما تُلجئنا الضرورة أن نأكل من هذه الأشياء المحرَّمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسُدُّ الجوع ، فمَعنى (غَيْرَ بَاغٍ) غير مُتجاوزٍ للحدِّ ، فلو

اضطررْتَ وعندك مَيْتة وعندك طعام حلال، فلا يصحّ أن تأكل الميتة في وجود الحلال .

﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ [النحل : 115] .

أي : ولا مُعْتَدٍ على القدر المرخَّص به، وهو ما يمسك الحياة ويسُدُّ جوعك فقط، دون شِبَع منها .

ويقول تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 115] .

وفي البقرة : ﴿ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ . . . ﴾ [البقرة : 173] .

فالمعنى واحد، ولكن هنا ذكر المغفرة والرحمة، وهناك ذكر سببهما .

وتجد الإشارة هنا إلى ما يتشدَّق به البعض من الملاحدة الذين يبحثون في القرآن عن مَغْمز، فيقولون : طالما أن الله حرَّم هذه الأشياء، فما فائدتها في الكون؟

نقول : أتظنون أن كل موجود في الكون وُجِد ليُؤكل، أليس له مهمة أخرى؟ ومن ورائه مصلحة أخرى غير الأَكْل، فإنْ حرَّم الإسلام أكْله فقد أباح الانتفاع به من وجه آخر .

فالخنزير مثلاً حرَّم الله أكْله، ولكن خلَقه لمهمة أخرى، وجعل له دَوْراً في نظافة البيئة، حيث يلتهم القاذورات، فهو بذلك يُؤدّي مهمة في الحياة .

وكذلك الثعابين لا نأكلها، ولها مهمة في الحياة أيضاً، وهي أنْ تُجهّز لنا السُّم في جوفها، وبهذا السم تعالج بعض الداءات والأمراض، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وكذلك يجب أنْ نعلمَ أن الحق سبحانه ما حرَّم علينا هذه الأشياء إلا لحكمة ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادي وتجاربه ما يُقرِّب له المعاني القيمية الدينية ، فلو نظر إلى الآلات التي تُدار من حوله من ماكينات وسيارات وطائرات وخلافه لوجد لكل منها وقوداً ، ربما لا يناسب غيرها ، حتى في النوع الواحد نرى أن وقود السيارات وهو البنزين مثلاً لا يناسب الطائرات التي تستخدم نفس الوقود ، ولكن بدرجة نقاء أعلى .

إذن : لكل شيء وقود مناسب ، وكذلك أنت أيها الإنسان لك وقودك المناسب لك ، وبه تستطيع أداء حركتك في الحياة ، وأنت صَنْعة ربك سبحانه ، وهو الذي يُحدِّد لك ما تأكله وما لا تأكله ، ويعلم ما يُصلحك وما يضرُّك .

والشيء المحرَّم قد يكون مُحرَّماً في ذاته كالميتة لما فيها من ضرر ، وقد يكون حلالاً في ذاته ، ولكنه مُحرَّم بالنسبة لشخص معين ، كأن يُمنَع المريض من تناول طعام ما ؛ لأنه يضرُّ بصحته أو يُؤخِّر شفاءه ، وهو تحريم طاريء لحين زوال سببه .

وصورة أخرى للتحريم ، وهي أن يكون الشيء حلالاً في ذاته ولا ضررَ في تناوله ، ومع ذلك نحرمه عقوبةً ، كما تفعل في معاقبة الطفل إذا أساء فنحرمه من قطعة الحلوى مثلاً .

إذن : للتحريم أسباب كثيرة ، سوف نرى أمثلة منها قريباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(129/445)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ قال : إن الإسلام دين مطهر ، طهره الله من كل سوء وجعل لك فيه يا ابن آدم سعة إذا اضطررت إلى شيء من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(130/445)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)

﴾

قوله تعالى : ﴿ واشكروا نِعْمَةَ الله ﴾ : صَرَّحَ هنا بالنعمة لتقدُّمِ ذِكْرِها مع مَنْ كفر بها ، ولم يَجِئْ ذلك في البقرة ، بل قال : ﴿ واشكروا للَّهِ ﴾ [البقرة : 172] لَمَّا لم يتقدمْ ذلك ، وتقدَّمَ نظائرُها هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 297 ﴾

(131/445)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)

﴾

الحلالُ الطيبُ ما يتناوله العبدُ على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة ، وحقيقةُ الشكر على النعمةِ الغيبةُ عن شهودِ النعمة بالاستغراق في شهود المنعِم .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

يُبَاحُ تناولُ المحرماتِ عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع ، ولا يُرَخَّصُ في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة ، وبِقَدْرِ ما يَسُدُّ الرَّمق ، كذلك عند استهلاكِ العبدِ بغلبات

الحقيقة لا بدّ من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدى الفرض الواجب عليه ، صم لا يُمكّن من التعريج في أَوْطان التفرقة والتمييز بعد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع ، كما قيل :

فإنْ تَكُ منه غيبة بعد غيبةٍ . . . فإنّ إليه بالوجود إيابي انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 325 . 326 ﴾

(132/445)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تبين بهذه الآية - كما مضى تقريره في الأنعام - جميع المحرم أكله من الحيوانات ، فعلم

بذلك جهلهم فيما حرموه على أنفسهم لأجل أصنامهم ، صرح بالنهي عنه إبلاغاً في تأكيد ذلك الحصر فقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا ﴾ أي بوجه من الوجوه في وقت ما .

ولما كان تحليلهم وتحريمهم قولاً فارغاً ليس له حقيقة أصلاً ، لأنه لا دليل عليه ، عبر عنه بأنه وصف باللسان لا يستحق أن يدخل إلى القلب فقال تعالى : ﴿ لما تصف ﴾ أي لأجل الذي تصفه ﴿ ألسنتكم ﴾ أي من الأنعام والحروث والزروع .

ولما حرك النفس إلى معرفة ما يقال لأجل ذلك ، بين مقول ذلك القول فقال تعالى :

﴿ الكذب ﴾ أي القول الذي هو عين الكذب .

(133/445)

ولما اشتد التشوف إلى تعيين ذلك المقول ، أبدل منه فقال تعالى : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ الكذب ﴾ مفعول ﴿ تصف ﴾ فتكون ﴿ ما ﴾ مصدرية ، أي لوصفها إياه ، فكأن حقيقة الكذب كانت مجهولة فلم تعرف إلا بوصف ألسنتهم لها ، فهو مبالغة في وصف كلامهم بالكذب ، وما بعده مقول القول .

ولما كانوا - كما تقدم يدعون أنهم أعقل الناس ، فكان اللائق بهم إرخاءً للعنان النسبة إلى معرفة اللوازم عند الإقدام على الملزومات ، قال تعالى : ﴿ لتفتروا على الله ﴾ أي الملك

الأعلى ﴿ الكذب ﴾ لأن من قال على أحد ما لم يأذن فيه كان قوله كذباً ، وكان كذبه لقصد افتراء الكذب ، وإلا لكان في غاية الجهل ، فدار أمرهم في مثل هذا بين الغباوة المفرطة أو قصد ما لا يقصده عاقل ، وهذا باب من التهكم عجيب ، فكأنه قيل : فما يستحقون على ذلك ؟ فأجاب بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترون ﴾ أي يقتطعون عمداً ﴿ على الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ الكذب ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ لا يفلحون ﴾ .

ولما كان الفلاح عندهم هو العيش الواسع في هذه الدنيا ، أجاب من كأنه قال : فإنا ننظرهم بنعمة ورفاهة ؟ فقال تعالى : ﴿ متاع قليل ﴾ أي ما هم فيه لفنائه وإن امتد ألف عام ﴿ ولهم ﴾ بعده ﴿ عذاب أليم ﴾ ومن ألمه العظيم دوامه فأيّ متاع هذا .

ولما بين لهم نعمته بتوسعته عليهم بما ضيقوا به على أنفسهم ، بين لهم نعمة أخرى بتمييزهم على بني إسرائيل فقال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ أي اليهود ﴿ حرمنا ﴾ أي بعظمتنا عقوبة لهم بعدوانهم وكذبهم على ربهم ﴿ ما قصصنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي كان المقصوص بها معجزاً ﴿ عليك ﴾ .

ولما لم يكن قص ذلك عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم مستغرقاً زمان القبل ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي في الأنعام ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي الذين وقع منهم الهود بتحريمنا عليهم ما حرمنا ﴿ ولكن كانوا ﴾ أي دائماً طبعاً لهم وخلقاً مستمراً ﴿ أنفسهم ﴾ أي خاصة ﴿ يظلمون ﴾ أي بالبغي والكفر ، فضيقنا عليهم معاملة بالعدل ، وعاملناكم أنتم حيث ظلمتم بالفضل ، فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة .

ولما بين هذه النعمة الدنيوية عطف عليها نعمة هي أكبر منها جداً ، استجلاباً لكل ظالم ، وبين عظمتها بحرف التراخي فقال تعالى : ﴿ ثم إن ربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ للذين عملوا السوء ﴾ وهو كل ما من شأنه أن يسوء ، وهو ما لا ينبغي فعله ﴿ بجهالة ﴾ كما عملتم وإن عظم فعلهم وتفاحش جهلهم ﴿ ثم تابوا ﴾ .

ولما كان سبحانه يقبل اليسير من العمل ، أدخل الجار فقال تعالى : ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي الذنب ول كان عظيماً ، فاقتصروا على ما أذن فيه خالقهم ﴿ وأصلحوا ﴾ بالاستمرار على ذلك ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بتسهيل دينك وتيسيره .

ولما كان إنما يغفر بعد التوبة ما عدا الشرك الواقع بعدها ، أدخل الجار فقال تعالى : ﴿ من بعدها ﴾ أي التوبة وما تقدمها من أعمال السوء ﴿ لغفور ﴾ أي بليغ الستر لما عملوا من السوء ﴿ رحيم ﴾ أي محسن بالإكرام فضلاً ونعمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 319 . 320 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما حصر المحرمات في تلك الأربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الأربع ، وفي النقصان عنها أخرى ، فإنهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكانوا يقولون ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضاً في المحللات وذلك لأنهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى ، فالله تعالى بين أن المحرمات هي هذه الأربعة ، وبين أن الأشياء التي يقولون إن هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله ، ثم ذكر الوعيد الشديد على هذا الكذب ، وأقول : إنه تعالى لما بين هذا الحصر في هذه السور

الأربع ، ثم ذكر في هذه الآية أن الزيادة عليها والنقصان عنها كذب وافتراء على الله تعالى وموجب للوعيد الشديد علمنا أنه لا مزيد على هذا الحصر ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

في انتصاب الكذب في قوله : ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ وجهان .

الأول : قال الكسائي والزجاج : (ما) مصدرية ، والتقدير : ولا تقولوا : لأجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال : لا تقولوا : لكذا كذا وكذا .

فإن قالوا : حمل الآية عليه يؤدي إلى التكرار ، لأن قوله تعالى : ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ عين ذلك .

والجواب : أن قوله : ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ ليس فيه بيان كذب على الله تعالى فأعاد قوله : ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثيرة .

وهو أنه تعالى يذكر كلاماً ثم يعيده بعينه مع فائدة زائدة .

الثاني : أن تكون (ما) موصولة ، والتقدير ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام ، وحذف لفظ فيه لكونه معلوماً .

المسألة الثالثة :

قوله تعال : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ من فصيح الكلام وبليغه كأن ماهية الكذب وحقيقته مجهولة وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب ويوضح ماهيته ، وهذا مبالغ في وصف كلامهم بكونه كذباً ، ونظيره قول أبي العلاء المعري :

سرى برق المعرة بعد وهن . . فبات برامة يصف الكلالا

والمعنى : أن سرى ذلك البرق يصف الكلال فكذا ههنا ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ لّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ المعنى : أنهم كانوا ينسبون ذلك التحريم والتحليل إلى الله تعالى ويقولون : إنه أمرنا بذلك .

وأظن أن هذا اللام ليس لام الغرض ، لأن ذلك الافتراء ما كان غرضاً لهم بل كان لام العاقبة كقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] قال الواحدي : وقوله : ﴿ لّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ بدل من قوله : ﴿ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله تعالى ، ففسر وصفهم الكذب بالافتراء على الله تعالى ، ثم أوعد المفترين ، وقال : ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ ثم بيّن أن ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب ، فقال : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ قال الزجاج : المعنى

متاعهم متاع قليل ، وقال ابن عباس : بل متاع كل الدنيا متاع قليل ، ثم يردون إلى عذاب أليم ، وهو قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ﴾

(137/445)

اعلم أنه تعالى لما بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام ، أتبعه ببيان ما خص اليهود به من المحرمات فقال : ﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ وهو الذي سبق ذكره في سورة الأنعام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وتفسيره هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : 160] .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) ﴾

اعلم أن المقصود بيان أن الافتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول

المغفرة والرحمة .

ولفظ السوء يتناول كل ما لا ينبغي وهو الكفر والمعاصي ، وكل من عمل السوء فإنما يفعله بالجهالة ، أما الكفر فلأن أحداً لا يرضى به مع العلم بكونه كفراً ، فإنه ما لم يعتقد كون ذلك المذهب حقاً وصدقاً ، فإنه لا يختاره ولا يرتضيه ، وأما المعصية فما لم تصر الشهوة غالبة للعقل والعلم لم تصدر عنه تلك المعصية ، فثبت أن كل من عمل السوء فإنما يقدم عليه بسبب الجهالة ، فقال تعالى : إنا قد بالغنا في تهديد أولئك الكفار الذين يحللون ويحرمون بمقتضى الشهوة والفرية على الله تعالى ، ثم إنا بعد ذلك نقول : إن ربك في حق الذين عملوا السوء بسبب الجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك ، أي من بعد تلك السيئة ، وقيل : من بعد تلك الجهالة ، ثم إنهم بعد التوبة عن تلك السيئات أصلحوا ، أي آمنوا وأطاعوا الله .

ثم أعاد قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ على سبيل التأكيد .

(138/445)

ثم قال : ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والمعنى : إنه لغفور رحيم لذلك السوء الذي صدر عنهم بسبب الجهالة ، وحاصل الكلام أن الإنسان وإن كان قد أقدم على الكفر والمعاصي دهراً دهيراً وأمداً مديداً ، فإذا تاب عنه وآمن وأتى بالأعمال الصالحة فإن الله غفور رحيم ،

يقبل توبته ويخلصه من العذاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 105 . 107 ﴾

(139/445)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي قِرَاءَتِهَا : قَرَأَهَا الْجَمَاعَةُ الْكَذِبَ بِنَصْبِ الْكَافِ ؛ وَخَفْضِ الذَّالِ ، وَنَصْبِ الْبَاءِ .

وَقَرَأَهَا الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ مِثْلُهُ ، إلَّا أَنَّ الْبَاءَ مَخْفُوضَةٌ ، وَقَرَأَهَا قَوْمٌ بِضَمِّ الْكَافِ وَالذَّالِ .

فَالْقِرَاءَةُ الْأُولَى يَكُونُ فِيهَا الْكَذِبُ عَلَى الْإِتْبَاعِ لِمَوْضِعِ مَا يَقُولُونَ .

وَمَنْ رَفَعَ الْكَافَ وَالذَّالَ جَعَلَهُ نَعْتًا لِلْأَلْسِنَةِ .

وَمَنْ نَصَبَ الْكَافَ وَالْبَاءَ جَعَلَهُ مَفْعُولَ قَوْلِهِ : تَقُولُوا ، وَهُوَ بَيِّنٌ كُلُّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَعْنَى الْآيَةِ : لَا تَصِفُوا الْأَعْيَانَ بِأَنَّهَا حَلَالٌ أَوْ حَرَامٌ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِكُمْ ؛ إنَّمَا

الْمُحَرِّمُ الْمُحَلِّلُ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ .

وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ : أَنَّ الْمَيْتَةَ حَلَالٌ ، وَعَلَى الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ : مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا ، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ؛ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ بِضَلَالِهِمْ ، وَاعْتِدَاءً ، وَإِنْ أَمْهَلَهُمْ الْبَارِي فِي الدُّنْيَا فَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

(140/445)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ لِي مَالِكٌ : لَمْ يَكُنْ مِنْ فُتْيَا الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقُولُوا : هَذَا حَرَامٌ وَهَذَا حَلَالٌ ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ : إنَّا نَكْرَهُ هَذَا ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَصْنَعَ هَذَا ، فَكَانَ النَّاسُ يُطِيعُونَ ذَلِكَ ، وَيَرْضَوْنَ بِهِ .

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَ إنَّمَا هُوَ لِلَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ؛ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُصَرِّحَ بِهَذَا فِي عَيْنٍ مِنْ الْأَعْيَانِ ، إلَّا أَنْ يَكُونَ الْبَارِي يُخْبِرُ بِذَلِكَ عَنْهُ ، وَمَا يُؤَدِّي إلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي أَنَّهُ حَرَامٌ يَقُولُ : إنِّي أَكْرَهُ كَذَا ، وَكَذَلِكَ كَانَ مَالِكٌ يَفْعَلُ ؛ اقْتِدَاءً بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الْفَتْوَى .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ فِيمَنْ قَالَ لِزَوْجَتِهِ : أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ أَنَّهَا حَرَامٌ وَتَكُونُ ثَلَاثًا .

قُلْنَا : سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَنَقُولُ هَاهُنَا : إنَّ الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي أَلْزَمَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ، فَأَلْزَمَهُ مَالِكٌ مَا الْتَزَمَ .

(141/445)

جوابٌ آخرُ : وهُوَ أَقْوَى ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَالِكًا لَمَّا سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ : إنَّهَا حَرَامٌ أَفْتَى بِذَلِكَ اقْتِدَاءً بِهِ ، وَقَدْ يَتَقَوَّى الدَّلِيلُ عَلَى التَّحْرِيمِ عِنْدَ الْمُجْتَهِدِ ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ عِنْدَنَا ، كَمَا يَقُولُ : إنَّ الرِّبَا حَرَامٌ فِي غَيْرِ الْأَعْيَانِ السِّتَّةِ الَّتِي وَقَعَ ذِكْرُهَا فِي الرِّبَا ، وَهِيَ الذَّهَبُ ، وَالْفِضَّةُ ، وَالْبُرُّ ، وَالشَّعِيرُ ، وَالتَّمْرُ ، وَالْمِلْحُ ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلِقُ مَالِكٌ ، فَذَلِكَ حَرَامٌ لَا يَصْلُحُ فِي الْأَمْوَالِ الرِّبَوِيَّةِ ، وَفِيمَا خَالَفَ الْمَصَالِحَ ، وَخَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَقَاصِدِ ، لِقُوَّةِ الْأَدِلَّةِ فِي ذَلِكَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(142/445)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ثم إنّ ربّك للذين عملوا السُّوء بجهالةٍ ﴾

فيه وجهان :

أحدها : بجهالة أنها سوء .

الثاني : بجهالة لغلبة الشهوة عليهم مع العلم بأنها سوء .

ويحتمل ثالثاً : أنه الذي يعجل بالإقدام عليها ويعد نفسه بالتوبة .

﴿ ثم تابوا مِنْ بعد ذلك وأصْلَحوا ﴾ لأنه مجرد التوبة من السالف إذا لم يصلح عمله في المستأنف لا يستحق ولا يستوجب الثواب . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(143/445)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

هذه الآية مخاطبة للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كانت ميتة يدل على ذلك قوله حكاية عنهم ﴿ وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾ [الأنعام : 139] والآية تقتضي كل ما كان لهم من تحليل وتحريم فإنه كله افتراء منهم ، ومنه ما جعلوه في الشهور ، وقرأ السبعة وجمهور الناس " الكَذِبَ " بفتح الكاف وكسر الذال وفتح الباء ، و" ما " مصدرية فكأنه قال لوصف ألسنتكم الكذب ، وقرأ الأعرج وأبو طلحة

وأبو معمر والحسن ، " الكذبِ " بخفض الباء على البدل من " ما " ، وقرأ بعض أهل الشام ومعَاذ بن جبل وابن أبي عبلة " الكُذُبُ " بضم الكاف والذال والباء على صفحة الألسنة ، وقرأ مسلمة بن محارب " الكذبَ " بفتح الباء " الكُذُبَ " بفتح الباء على أنه جمع كذاب ككتب في جمع كتاب ، وقوله ﴿ هذا حلال ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأنعام وكل ما أحلوا ، وقوله ﴿ وهذا حرام ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرموا ، وقوله ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ ، إشارة إلى قولهم في فواحشهم التي هذه إحداها ، وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يريد أنه كان شرعهم لاتباعهم سنناً لا يرضاها الله افتراء عليه ، لأن من شرع أمراً فكأنه قال لأتباعه هذا هو الحق ، وهذا مراد الله ، ثم أخبرهم الله ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ لا يبلغون الأمل ، و" الفلاح " بلوغ الأمل ، فطوراً يكون في البقاء كما قال الشاعر ، والصبح والمسى لا فلاح معه ، ويشبه أن هذه الآية من هذا المعنى ، يقوي ذلك قوله ﴿ متاع قليل ﴾ ، وقد يكون في المساعي ومنه قول عبيد : بالرجز]

أفلح بما شئت فقد يبلغ . . . بالضعف وقد يخدع الأريب

وقوله ﴿ متاع قليل ﴾ إشارة إلى عيشهم في الدنيا ، ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ بعد ذلك في الآخرة. وقوله ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ الآية ، لما قص تعالى على المؤمنين ما حرم عليهم أعلم أيضاً بما حرم على اليهود ليبين تبديلهم الشرع فيما استحلوا من ذلك وفيما حرموا من تلقاء أنفسهم ، وقولهم ﴿ ما قصصنا عليك ﴾ ، إشارة إلى ما في سورة الأنعام " من ذي الظفر والشحوم " الآية : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ [الأنعام : 146] وقوله ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي لم نضع العقوبة بتحريم تلك الأشياء عليهم في غير موضعها ، بل هم طرقوا إلى ذلك وجاء من تسبيبهم بالمعاصي ما أوجب ذلك. وقوله ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء ﴾ هذه آية تأنيس لجميع العالم ، أخبر الله تعالى فيها أنه يغفر للتائب ، والآية إشارة إلى الكفار الذين افتروا على الله وفعلوا الأفاعيل المذكورة ، فهم إذا تابوا من كفرهم بالإيمان وأصلحوا من أعمال الإسلام غفر الله لهم ، وتناولت هذه الآية بعد ذلك كل واقع تحت لفظها من كافر وعاص.

وقالت فرقة " الجهالة " العمد ، و" الجهالة " عندي في هذا الموضع ليست ضد العلم بل هي تعدي الطور وركوب الرأس ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " أو أجهل أو يجهل علي " وهي التي في قول الشاعر : [الوافر]

ألا لا يجهلنْ أحد علينا . . . فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

والجهالة التي هي ضد العلم تصحب هذه الأخرى كثيراً ، ولكن يخرج منها المتعمد وهو الأكثر ، وقلما يوجد في العصاة من لم يتقدم له علم بخطر المعصية التي يواقع . والضمير في ﴿ بعدها ﴾ عائد على التوبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(145/445)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ ما هنا مصدرية ، أي لوصف .

وقيل : اللام لام سبب وأجل ، أي لا تقولوا لأجل وصفكم "الكذب" بنزع الخافض ، أي لما تصف ألسنتكم من الكذب .

وقرىء "الكُذُبُ" بضم الكاف والذال والباء ، نعتاً للألسنة ، وقد تقدّم .

وقرأ الحسن هنا خاصّةً "الكَذِبِ" بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعتاً "لما" ؛ التقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ .

وقيل على البدل من ما ؛ أي ولا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على اللَّهِ الكذب .

الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة .

فقوله "هذا حلال" إشارة إلى ميتة بطون الأنعام ، وكل ما أحلّوه .

وقوله "هذا حرام" إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرّموه .

﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أي ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب .

وقال الزجاج : أي متاعهم متاع قليل .

وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم .

الثانية أسند الدّارِميّ أبو محمد في مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قطّ يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون .

وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من فُتْيَا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إيّاكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا .

ومعنى هذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرّح

بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون الباريء تعالى يخبر بذلك عنه .

وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول : إني أكره (كذا) .

وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى .

(146/445)

فإن قيل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت عليّ حرام إنها حرام ويكون ثلاثاً .

فالجواب أن مالكاً لمّا سمع عليّ بن أبي طالب يقول إنها حرام اقتدى به .

وقد يقوى الدليل على التحريم عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك ، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة ، وكثيراً ما يطلق مالك رحمه الله ؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الرّبوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هَادُواْ ﴾

بيّن أن الأنعام والحَرْث حلال لهذه الأمة ، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء .

﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي بتحريم ما حرمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم ؛ كما تقدم في النساء .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السوء ﴾

أي الشرك ؛ قاله ابن عباس .

وقد تقدم في النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(147/445)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾

يعني ولا تقولوا لأجل وصفكم الكذب ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ يعني أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره فليس لتحليلكم وتحريمكم معنى وسبب إلا الكذب فقط ، فلا تفعلوا ذلك .

قال مجاهد : يعني البحيرة والسائبة .

وقال ابن عباس : يعني قولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يحلون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم ، وينسبون ذلك إلى الله تعالى وهو قوله تعالى ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ يعني لا تقولوا إن الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم توعد المفترين للكذب

فقال سبحانه وتعالى ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ يعني : لا ينجون من العذاب ، وقيل : لا يفوزون بخير لأن الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين أن ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى ﴿ متاع قليل ﴾ يعني متاعهم في الدنيا قليل فإنه لا بقاء له ﴿ ولهم عذاب إليم ﴾ يعني في الآخرة.

﴿ وعلى الذين هادوا ﴾

يعني اليهود ﴿ حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ يعني ما سبق ذكره وبيانه في سورة الأنعام وهو قوله تعالى ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ الآية ﴿ وما ظلمناهم ﴾ يعني بتحريم ذلك عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ يعني إنما حرمنا عليهم ما حرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم.

(148/445)

وقوله تعالى ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته ، لأن السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي وكل ما لا ينبغي وكل من عمل السوء فإنما يفعله بجهالة ، لأن العاقل لا

يرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية ، فإنما يصدر عنه بسبب جهله إما لجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب أو لجهله بقدر من يعصيه ، فثبت بهذا أن فعل السوء إنما يفعل بجهالة ثم إن الله تعالى وعد من عمل سوءاً بجهالة ثم تاب ، وأصلح العمل في المستقبل أن يتوب عليه ويرحمه وهو قوله تعالى ثم تابوا من بعد ذلك ، يعني من بعد عمل ذلك السوء ﴿ وأصلحوا ﴾ يعني أصلحوا العمل في المستقبل ، وقيل معنى الإصلاح الاستقامة على التوبة ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ يعني من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه ﴿ لغفور ﴾ يعني لمن تاب وآمن ﴿ رحيم ﴾ يعني بجميع المؤمنين والتائبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(149/445)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

لما بين تعالى ما حرم ، بالغ في تأكيد ذلك بالنهي عن الزيادة فيما حرم كالبحيرة ، والسائبة ، وفيما أحل كالميتة والدم ، وذكر تعالى تحريم هؤلاء الأربع في سورة الأنعام .

وهذه السورة وهما مكيتان بأداة الحصر ، ثم كذلك في سورة البقرة والمائدة بقوله : ﴿ أحلت لكم ﴾ الآية وأجمعوا على أن المراد : ﴿ مما يتلى عليكم ﴾ هو قوله : ﴿ حرمت عليكم ﴾ الآية وهما مدنيتان فكان هذا التحريم لهذه الأربع مشرعاً ثانياً في أول مكة وآخرها ، وأول المدينة وآخرها .

فنهى تعالى أن يحرموا ويحلوا من عند أنفسهم ، ويفترون بذلك على الله حيث ينسبون ذلك إليه .

وقرأ الجمهور الكذب بفتح الكاف والباء وكسر الذال ، وجوزوا في ما في هذه القراءة أن تكون بمعنى الذي ، والعائد محذوف تقديره : للذي تصفه ألسنتكم .

وانتصب الكذب على أنه معمول لتقولوا أي : ولا تقولوا الكذب للذي تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة ، من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحي .

وهذا حلال وهذا حرام بدل من الكذب ، أو على إضمار فعل أي : فتقولوا هذا حلال وهذا حرام .

وأجاز الحوفي وأبو البقاء أن يكون انتصاب الكذب على أنه بدل من الضمير المحذوف العائد على ما ، كما تقول : جاءني الذي ضربت أخاك ، أي ضربته أخاك .

وأجاز أبو البقاء أن يكون منصوباً بإضمار أعني .

وقال الكسائي والزجاج : ما مصدرية ، وانتصب الكذب على المفعول به أي : لوصف

ألسنتكم الكذب .

ومعمول : ولا تقولوا ، الجملة من قوله : هذا حلال وهذا حرام ، والمعنى : ولا تحللوا ولا تحرموا لأجل قول تنطق به ألسنتكم كذباً ، لا بحجة وبينة .

وهذا معنى بديع ، جعل قولهم : كأنه عين الكذب ومحضه ، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد جلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولهم : وجهه يصف الجمال ، وعينها تصف السحر .

(150/445)

وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، وطلحة ، والأعرج ، وابن أبي إسحاق ، وابن عبيد ، ونعيم بن ميسرة : بكسر الباء ، وخرج على أن يكون بدلاً من ما ، والمعنى الذي : تصفه ألسنتكم الكذب .

وأجاز الزمخشري وغيره أن يكون الكذب بالجر صفة لما المصدرية .

قال الزمخشري : كأنه قيل : لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى : ﴿ بدم كذب ﴾ والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة انتهى .

وهذا عندي لا يجوز ، وذلك أنهم نصوا على أنّ أنْ المصدرية لا ينعت المصدر المنسبك

منها ومن الفعل ، ولا يوجد من كلامهم : يعجبني أنْ قمت السريع ، يريد قيامك السريع ، ولا عجبت من أنْ تخرج السريع أي : من خروجك السريع .

وحكم باقي الحروف المصدرية حكم أنّ فلا يوجد من كلامهم وصف المصدر المنسبك من أنْ ولا ، من ما ولا ، من كي ، بخلاف صريح المصدر فإنه يجوز أن ينعت ، وليس لكل مقدر حكم المنطوق به وإنما يتبع في ذلك ما تكلمت به العرب .

وقرأ معاذ ، وابن أبي عبلة ، وبعض أهل الشام : الكذب بضم الثلاثة صفة للألسنة ، جمع كذوب .

قال صاحب اللوامح : أو جمع كاذب أو كذاب انتهى .

فيكون كشارف وشرف ، أو مثل كتاب وكتب ، ونسب هذه القراءة صاحب اللوامح لمسلمة بن محارب .

وقال ابن عطية : وقرأ مسلمة بن محارب الكذب بفتح الياء على أنه جمع كذاب ، ككتب في جمع كتاب .

وقال صاحب اللوامح : وجاء عن يعقوب الكذب بضمتين والنصب ، فأما الضمتان فلأنه جمع كذاب وهو مصدر ، ومثله كتاب وكتب .

وقال الزمخشري : بالنصب على الشتم ، أو بمعنى الكلم الكواذب ، أو هو جمع الكذاب من قولك : كذب كذاباً ذكره ابن جني انتهى .

والخطاب على قول الجمهور بقوله : ولا تقولوا ، للكفار في شأن ما أحلوا وما حرموا من أمور الجاهلية ، وعلى ذلك الزمخشري وابن عطية .

وقال العسكري : الخطاب للمكلفين كلهم أي : لا تسموا ما لم يأتكم حظره ولا إباحته عن الله ورسوله حلالاً ولا حراماً ، فتكونوا كاذبين على الله في إخباركم بأنه حلله وحرمه انتهى .

وهذا هو الظاهر ، لأنه خطاب معطوف على خطاب وهو : فكلوا إنما حرم عليكم ، فهو شامل لجميع المكلفين .

واللام في لتفتروا لام التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض ، قاله الزمخشري ، وهي التي تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة .

قيل : ذلك الافتراء ما كان غرضاً لهم ، والظاهر أنها لام التعليل وأنهم قصدوا الافتراء كما قالوا : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ والله أمرنا بها ، ولا يكون ذلك على سبيل التوكيد لما تقدم لتضمنه الكذب ، لأنّ هذا التعليل فيه التنبيه على من افتروه عليه ، وهو الله تعالى .

وقال الواحدي : لتفتروا على الله الكذب بدل من قوله : لما تصف ألسنتكم الكذب ، لأنّ

وصفهم الكذب هو افتراء على الله ، ففسر وصفهم بالافتراء على الله انتهى .

وهو على تقدير ما مصدرية ، وأما إذا كانت بمعنى الذي فاللام في لما ليست للتعليل ، فيبدل منها ما يقتضي التعليل ، بل اللام متعلقة بلا تقولوا على حد تعلقها في قولك : لا تقولوا ، لما أحل الله هذا حرام أي : لا تسموا الحلال حراماً ، وكما تقول لزيد عمرو أي لا تطلق على زيد هذا الاسم .

والظاهر أنهم افتروا على الله حقيقة ، وهو ظاهر الافتراء الوارد في آي القرآن .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد أنه كان شرعهم لاتباعهم سنناً لا يرضاها الله افتراء عليه ، لأنّ من شرع أمراً فكأنه قال لتابعه : هذا هو الحق ، وهذا مراد الله .

ثم أخبر تعالى عن الذين يفترون على الله الكذب بانتفاء الفلاح.

والفلاح : الظفر بما يؤمل ، فتارة يكون في البقاء كما قال الشاعر :

والمسى والصبح لا فلاح معه . . .

وتارة في نجح المساعي كما قال عبيد بن الأبرص :

أفلح بما شئت فقد يب . . .

لغ بالضعف وقد يخدع الأريب

وارتفاع متاع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، فقدر الزمخشري منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم .

وقال ابن عطية : عيشهم في الدنيا .

وقال العسكري : يجوز أن يكون المتاع هنا ما حللوه لأنفسهم مما حرمه الله تعالى .

وقال أبو البقاء : بقاؤهم متاع قليل .

وقال الحوفي : متاع قليل ابتداء وخبر انتهى .

ولا يصح إلا بتقدير الإضافة أي : متاعهم قليل .

ولما بيّن تعالى ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام ، أتبعه بما كان خص به اليهود محالاً على ما تقدم ذكره في سورة الأنعام ، وهذا يدل على أنّ سورة الأنعام نزلت قبل هذه السورة ، إذ لا تصح الحوالة إلا بذلك .

ويتعلق من قبل بقصصنا ، وهو الظاهر .

وقيل : بحرمنا ، والمحذوف الذي في من قبل تقديره من قبل تحريمنا على أهل ملتك .

والسوء هنا قال ابن عباس : الشرك قبل المعرفة بالله انتهى .

ما يسوء صاحبه من كفر ومعصية غيره .

والكلام في للذين عملوا وما يتعلق به تقدم نظيره في قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾

فأغنى عن إعادته .

وقال قوم : بجهالة تعمد .

وقال ابن عطية : ليست هنا ضد العلم ، بل تعدى الطور وركوب الرأس منه : أو أجهل أو يُجهل عليّ .

وقول الشاعر :

ألا لا يجهلنَّ أحد علينا . . .

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والتي هي ضد العلم ، تصحب هذه كثيراً ، ولكن يخرج منها المتعمد وهو الأكثر .

وقلّ ما يوجد في العصاة من لم يتقدم له علم بخطر المعصية التي يواقع انتهى .

ملخصاً .

وقال الزمخشري : بجهالة في موضع الحال أي : عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه ، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم .

وقال سفيان : جهالته أن يلتذ بهواه ، ولا يبالي بمعصية مولاه .

وقال الضحاك : باغترار الحال عن المآل .

وقال العسكري : ليس المعنى أنه يغفر لمن يعمل السوء بجهالة ، ولا يغفر لمن عمله بغير جهالة ، بل المراد أن جميع من تاب فهذا سبيله ، وإنما خص من يعمل السوء بجهالة ، لأنّ أكثر من يأتي الذنوب يأتيها بقلة فكر في عاقبة ، أو عند غلبة شهوة ، أو في جهالة شباب ، فذكر الأكثر على عادة العرب في مثل ذلك .

والإشارة بذلك إلى عمل السوء ، وأصلحوا : استمروا على الإقلاع عن تلك المعصية .

وقيل : أصلحوا آمنوا وأطاعوا ، والضمير في من بعدها عائد على المصادر المفهومة من الأفعال السابقة أي : من بعد عمل السوء والتوبة والإصلاح .

وقيل : يعود على الجهالة .

وقيل : على السوء على معنى المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(154/445)

وقال أبو السعود :

ثم أكّد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ﴾

اللامُ صلةٌ مِثلُها في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ﴾ أي لا تقولوا في شأن ما تصفه ألسنتُكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ من غير ترتب ذلك الوصفِ على ملاحظةٍ وفكر فضلاً عن استناده إلى وحي أو قياس مبنيَ عليه ﴿ الكذب ﴾ منتصب بلا تقولوا ، وقولُه تعالى : ﴿ هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ بدلٌ منه ويجوز أن يتعلق بتصفُ على إرادة القولِ ، أي لا تقولوا لما تصف ألسنتُكم فتقولُ : هذا حلالٌ وهذا حرام ، وأن يكون مَقولُ المقدرِ حالاً من ألسنتكم ، أي قائلةً هذا حلال الخ ، ويجوز أن ينتصب الكذبَ بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا ، واللامُ للتعليل وما مصدريةٌ ، أي لا تقولوا : هذا حلالٌ وهذا حرام لوصف ألسنتِكم الكذبَ أي لا تُحِلوا ولا تحرّموا لمجرد وصفِ ألسنتكم الكذبَ وتصويرِها له بصورة مستحسنة وتزيينِها له في المسامع كأن ألسنتَكم لكونها منشأً للكذب ومنبعاً للزور شخصٌ عالمٌ بكنهه ومحيطٌ بحقيقته يصفه للناس ويعرّفه أوضحَ وصفٍ وأبينَ تعريف ، على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهُه يصفُ الجمالَ وعينُه تصف السحرَ ، وقرىء بالجر صفةً (لما) مع مدخولها كأنه قيل : لوصفها الكذبِ بمعنى الكاذبِ كقوله تعالى : ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ والمرادُ بالوصف وصفُها البهائمَ بالحل والحرمة ، وقرىء الكُذُبُ جمع كَذوب بالرفع صفةٌ للألسنة وبالنصب على الشتم ، أو بمعنى الكلِمِ الكواذب ، أو هو جمعُ الكذاب من قولهم : كذب كذاباً ذكره ابن جني ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ على الله

الكذب ﴾ فإن مدارَ الحِلّ والحُرمة ليس إلا أمرُ الله تعالى فالحكمُ بالحل والحرمةِ إسنادٌ للتحليل والتحريم إلى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه ، واللامُ لام العاقبة .

(155/445)

﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ في أمر من الأمور ﴿ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراءَ للفوز بها .

﴿ متاع قَلِيلٌ ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي منفعتُهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعةٌ قليلة ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا يكتنه كُنهُه .

﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ ﴾ خاصةً دون غيرِهم من الأولين والآخِرين ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي بقوله تعالى : ﴿ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ الآية ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلقٌ بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيقٌ لما سلف من حصر المحرمات فيما فُصّل بإبطال ما يخالفه من فرية اليهودِ وتكذيبهم في ذلك فإنهم كانوا يقولون : لسنا أول من حُرّمت عليه وإنما كانت محرمةً على نوح وإبراهيمَ ومَنْ بعدهما حتى انتهى الأمرُ إلينا ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بذلك التحريم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا عليه حسبما نعى عليهم قولُه تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ الآية ، ولقد ألقمهم الحجرَ قولُه تعالى : ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إِسراءيل إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسراءيل على نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة قُلْ فَأْتُواْ ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بُهتوا ولم يجسَروا أن يُخرجوا التوراة كيف وقد بُيّن فيها أن تحريمَ ما حُرِّم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبةً وتشديداً أوضحَ بيانٍ ، وفيه تنبيهٌ على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم .

(156/445)

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء بجهالة ﴾ أي بسبب جهالةٍ أو ملتبسين بها ليعُمَّ الجهلُ بالله وبعقابه ، وعدمِ التدبر في العواقب لغلبة الشهوة ، والسوءُ يعم الافتراءَ على الله تعالى وغيرَه ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي من بعد ما عملوا ما عملوا ، والتصريحُ به مع دَلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ أي أصلحوا أعمالَهم أو دخلوا في الصلاح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذلك السوءِ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يثيب على طاعته تركاً وفعلاً ، وتكريرُ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ لتأكيد الوعدِ وإظهارِ كمال العناية بإنجازه ، والتعرضُ لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثرِ في التائبين للإيماء إلى أن إفاضة آثارِ الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام

وكونهم من أتباعه كما أشير إليه فيما مر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(157/445)

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى أكد ما يفهم من الحصر بالنهي عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال عز قائلاً : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ﴾ الخ ،

ولا ينافي ذلك العطف كما لا يخفى ، واللام صلة القول مثلها في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ ﴾ [البقرة : 154] وقولك : لا تقل للنبيذ إنه حلال ، ومعناها الاختصاص ، و﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي لا تقولوا في شأن الذي تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ [الأنعام : 139] من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلاً عن استناده إلى وحي أو قياس مبني عليه بل مجرد قول باللسان .

﴿ الكذب ﴾ منتصب على أنه مفعول به لتقولوا وقوله سبحانه : ﴿ هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ بدل منه بدل كل ، وقيل : منصوب بإضمار أعني ، وقيل : ﴿ الكذب ﴾

منتصب على المدرية و﴿ هذا ﴾ مقول القول .

وجوز أن يكون بدل اشتمال ، وجوز أن يكون ﴿ الكذب ﴾ مقول القول المذكور ويضمر قول آخر بعد الوصف واللام على حالها أي لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام ، والجملة مبينة ومفسرة لقوله تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ﴾ كما في قوله سبحانه : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فاقتلوا أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة : 54] وجوز أن لا يضمر القول على المذهب الكوفي وأن يقدر قائله على أن المقدر حال من الألسنة ، ويجوز أن يكون اللام للتعليل و﴿ مَا ﴾ مصدرية و﴿ الكذب ﴾ مفعول الوصف و﴿ هذا حلال ﴾ الخ مقول القول أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب ، وإلى هذا ذهب الكسائي .

(158/445)

والزجاج ، وحاصله لا تحصلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له وتحقيقها لماهيته كأن ألسنتهم لكونها منشأً للكذب ومنبعاً للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه أوضح وأبين تعريف ، ومثل هذا وارد في كلام العرب والعجل تقول : له وجه يصف الجمال وريق يصف السلاف وعين تصف السحر ، وتقدم

بيت المعري ، وقد بولغ في الآية من حيث جعل قولهم كذباً ثم جعل اللسان الناطقة بتلك المقالة ينبوعه مصورة إياه التي هو عليها وهو من باب الاستعارة بالكناية وجعله بعضهم من باب الإسناد المجازي نحو نهاره صائم كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب صارت كأنها حقيقة ومنبعه الذي يعرف منه حتى كأنه يصفه ويعرفه كقوله :

أضحت يمينك من جود مصورة . . .

لا بل يمينك منها صور الجود

وقرأ الحسن .

وابن يعمر .

وطلحة .

والأعرج .

وابن إسحق .

وابن عبيد .

ونعيم بن ميسرة ﴿ الكذب ﴾ بالجر ، وخرج على أن يكون بدلاً من ﴿ مَا ﴾ مع مدخولها ، وجعله غير واحد صفة لما المصدرية مع صلتها .

وتعقبه أبو حيان بأن المصدر المسبوك من ما أو ان أو كي مع الفعل معرفة كالمضمر لا يجوز نعته فلا يقال : أعجبني أن تقوم السريع كما يقال : أعجبني قيامك السريع ، وليس لكل مقدر

حكم المنطوق به وإنما يتبع بذلك كلام العرب .

وقرأ معاذ .

وابن أبي عبلة .

وبعض أهل الشام ﴿ الكذب ﴾ بضم الثلاثة صفة للألسنة وهو جمع كذوب كصبور وصبر ، قال "صاحب اللوامح" أو جمع كذاب بكسر الكاف وتخفيف الذال مصدر كالقتال وصف به مبالغة وجمع فعل ككتاب وكتب أو جمع كاذب كشارف وشرف .

وقرأ مسلمة بن محارب كما قال ابن عطية أو يعقوب كما قال "صاحب اللوامح" ونسب قراءة معاذ ومن معه إلى مسلمة ﴿ الكذب ﴾ بضمتين والنصب ، وخرج على أوجه .

الأول : أن ذلك منصوب على الشتم والذم وهو نعت للألسنة مقطوع .

الثاني : أنه مفعول به لتصف أو ﴿ تَقُولُوا ﴾ والمراد الكلم الكواذب .

الثالث : أنه مفعول مطلق لتصف من معناه على أنه جمع كذاب المصدر ، وأعرب ﴿ هذا حلال ﴾ الخ على ما مر ولا إشكال في إبداله لأنه كلم باعتبار مواده وكلاما ن ظاهراً ﴿ لّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة وللتعليل لأن ما صدر منهم ليس

لأجل الافتراء على الله تعالى بل لأغراض أخر ويترتب على ذلك ما ذكر ، وإلى هذا ذهب الزمخشري وجماعة ، وقال بعضهم : يجوز أن تكون للتعليل ولا يبعد قصدهم لذلك كما قالوا : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءابَاءنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 28] وفي "البحر" أنه الظاهر ولا يكون ذلك على سبيل التوكيد للتعليل السابق على احتمال كون اللام للتعليل وما مصدرية لأن في هذا التنبيه على من افتروا الكذب عليه وليس فيما مر بل فيه إثبات الكذب مطلقاً ففي ذلك إشارة إلى أنهم لتمرنهم على الكذب احترئا على الكذب على الله تعالى فنسبوا ما حللوا وحرموا إليه سبحانه ، وقال الواحدي : إن ﴿ لّتَفْتَرُواْ ﴾ بدل من ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ الخ لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله تعالى ، وهو على ما في البحر أيضاً على تقدير كون ما مصدرية لأنها إذا جعلت موصولة لا تكون اللام للتعليل ليبدل من ذلك ما يفهم التعليل ، وقيل : لا مانع من التعليل على تقدير الموصولية فعند قصد التعليل يجوز الإبدال ، وحاصل معنى الآية على ما نص عليه العسكري لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حلالاً ولا حراماً فتكونوا كاذبين على الله تعالى لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمة سبحانه ، ومن هنا قال أبو نضرة : لم أزل أخاف الفتيا منذ سمعت آية النحل إلى يوم هذا .

وقال ابن العربي كره مالك وقوم أن يقول المفتي هذا حلال وهذا حرام في المسائل الاجتهادية وإنما يقال ذلك فيما نص الله تعالى عليه ، ويقال في مسائل الاجتهاد ؛ إني أكره كذا وكذا ونحو ذلك فهو أبعد من أن يكون فيه ما يتوهم منه الافتراء على الله سبحانه ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ في أمر من الأمور ﴿ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ لا يفوزون بمطلوب .

﴿ متاع قَلِيلٌ ﴾ أي منفعتهم التي قصدوها بذلك الافتراء منفعة قليلة منقطعة عن قريب فمتاع خبر مبتدأ محذوف و ﴿ قَلِيلٌ ﴾ صفته والجملة استئناف بياني كأنه لما نفي عنهم الفوز بمطلوب قيل : كيف ذلك وهم قد تحصل لهم منفعة بالافتراء ؟ فقيل : ذاك متاع قليل لا عبر به ويرجع الأمر بالآخرة إلى أن المراد نفي الفوز بمطلوب يعتد به ، وإلى كون ﴿ متاع ﴾ خبر مبتدأ محذوف ذهب أبو البقاء إلا أنه قال : أي بقاؤهم متاع قليل ونحو ذلك .

وقال الحوفي : ﴿ متاع قَلِيلٌ ﴾ مبتدأ وخبر ، وفيه أن النكرة لا يبتدأ بها بدون مسوغ وتأويله بمتاعهم ونحوه بعيد ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا يكتنه كنهه .

﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ ﴾ خاصة دون غيرهم من الأولين ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل نزول هذه الآية وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [الأنعام : 146] الآية ، والظاهر أن ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق بقصصنا وجوز تعليقه بحرمنا والمضاف إليه المقدر ما مر أيضاً .

ويحتمل أن يقدر ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ تحريم ما حرم على أمتك، وهو أولى على ما قيل، وجوز أن يكون الكلام من باب التنازع، وهذا تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بإبطال ما يخالف من فرية اليهود وتكذيبهم في ذلك، فإنهم كانوا يقولون: لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح.

وإبراهيم.

(161/445)

ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بذلك التحريم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا عليه بذلك حسبما نعى عليهم قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: 160] الآية، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء ﴾

هو ما يسيء صاحبه من كفر أو معصية ويدخل فيه الافتراء على الله تعالى، وعن ابن عباس أنه الشرك، والتعميم أولى ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ أي بسببها، على معنى أن الجهالة السبب الحامل لهم على العمل كالغيرة الجاهلية الحاملة على القتل وغير ذلك، وفسرت الجهالة

بالأمر الذي لا يليق ، وقال ابن عطية : هي هنا تعدى الطور وركوب الرأس لا ضد العلم ، ومنه ما جاء في الخبر "اللهم أعوذ بك من أن أجهل أو يجهل على" وقول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا . . .

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

نعم كثيراً ما تصحب هذه الجهالة التي هي بمعنى ضد العلم ، وفسرها بعضهم بذلك وجعل الباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ملتبسين بجهالة غير عارفين بالله تعالى وبعقابه أو غير متدبرين في العواقب لغلبة الشهوة عليهم ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي من بعد ما عملوا ما عملوا ، والتصريح به مع دلالة ﴿ ثُمَّ ﴾ عليه للتوكيد والمبالغة ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ أي أصلحوا أعمالهم أو دخلوا في الصلاح ، وفسر بعضهم الإصلاح بالاستقامة على التوبة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي التوبة كما قال غير واحد ، ولعل الإصلاح مندرج في التوبة وتكميل لها .

وقال أبو حيان : الضمير عائد على المصادر المفهومة من الأفعال السابقة أي من بعد عمل السوء والتوبة والإصلاح ، وقيل : يعود على الجهالة ، وقيل : على السوء على معنى

المعصية وليس بذاك ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذلك السوء ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يثيب على طاعته سبحانه فعلاً وتركاً ، وتكرير ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه ، والتعرض لوصف الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه صلى الله عليه وسلم وكونهم من أتباعه كما مر عنق ريب ، والتقييد بالجهالة قيل : لبيان الواقع لأن كل من يعمل السوء لا يعمله إلا بجهالة .

وقال العسكري : ليس المعنى أنه تعالى يغفر لمن يعمل السوء بجهالة ولا يغفر لمن عمله بغير جهالة بل المراد أن جميع من تاب فهذه سبيله ، وإنما خص من يعمل السوء بجهالة لأن أكثر من يأتي الذنوب يأتيها بقلة فكر في عاقبة الأمر أو عند غلبة الشهوة أو في جهالة الشباب فذكر الأكثر على عادة العرب في مثل ذلك ، وعلى القولين لا مفهوم للقيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(163/445)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) ﴾

قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ قد قدّمنا أن ضرب مضمن معنى جعل ، حتى تكون ﴿ قرية ﴾ المفعول الأوّل و ﴿ مثلاً ﴾ المفعول الثاني ، وإنما تأخرت ﴿ قرية ﴾ لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها .

وقدّمنا أيضاً أنه يجوز أن يكون ﴿ ضرب ﴾ على بابه غير مضمن ، ويكون ﴿ مثلاً ﴾ مفعوله الأوّل وقرية بدلاً منه .

وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة ، أو المراد قرية غير معينة ؟ بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة ؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة ، وذلك لما دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " اللّهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " ، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، والثاني : أرجح ، لأن تنكير قرية يفيد ذلك ، ومكة تدخل في هذا العموم البدليّ دخولاً أوّلياً .

وأيضاً يكون الوعيد أبلغ ، والمثل أكمل ، وغير مكة مثلها .

وعلى فرض إرادتها ، ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها .

ثم وصف القرية بأنها ﴿ كَانَتْ ءامِنَةً ﴾ غير خائفة ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ غير منزعجة ، أي : لا يخاف أهلها ولا ينزعجون ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ أي : ما يرتزق به أهلها ﴿ رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مّن كُلّ مَكَانٍ ﴾ من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها ﴿ فَكَفَرَتْ ﴾ أي : كفر

أهلها ﴿ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ التي أنعم بها عليهم ، والأنعم : جمع نعمة كالأشدّ جمع شدّة .

وقيل : جمع نعمى مثل بؤسى وأبؤس .

(164/445)

وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ ﴾ أي : أذاق أهلها ﴿ لِبَاسَ الجوعِ والخوف ﴾ سمي ذلك لباساً لأنه يظهر به عليهم من الهزال ، وشحوبة اللون ، وسوء الحال ، ما هو كاللباس ، فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذاقة ، وأصلها الذوق بالفم .

ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدّة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين : إدراك اللمس ، والذوق .

روي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي – إمام اللغة والأدب – هل يذاق اللباس ؟ فقال له ابن الأعرابي : لا بأس أيها النسناس ، هب أن محمداً ما كان نبياً أما كان عربياً ؟ كأنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال : فكساها الله لباس الجوع ، أو فأذاقها الله طعم الجوع ، فرد عليه ابن الأعرابي .

وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة ، وذلك أنه استعار اللباس لما غشي

الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف ، لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له ، وهو الجوع والخوف ؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه غيره ، فكانت الاستعارة مجرّدة .

ولو قال : فكساها كانت مرشحة .

قيل : وترشيح الاستعارة ، وإن كان مستحسناً من جهة المبالغة ، إلاّ أن للتجريد ترجيحاً من حيث أنه روعي جانب المستعار له ، فازداد الكلام وضوحاً .

وقيل : إن أصل الذوق بالفم ، ثم قد يستعار ، فيوضع موضع التعرف والاختبار .

ومن ذلك قول الشاعر :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها . . . وسيق إلينا عذبها وعذابها

وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب الخوف عطفاً على لباس ، وقرأ الباقون بالضم عطفاً على الجوع ، قال الفراء : كل الصفات أجريت على القرية إلاّ قوله : ﴿ يَصْنَعُونَ ﴾ تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه ، فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضرهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما جاء به ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ النازل بهم من الله سبحانه ، والحال أنهم في حال أخذ العذاب لهم ﴿ ظالمون ﴾ لأنفسهم بإيقاعها في العذاب الأبديّ ، ولغيرهم بالإضرار بهم وصدّهم عن سبيل الله ، وهذا الكلام من تمام المثل المضروب .

وقيل : إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم ، وقيل : القتل يوم بدر .

ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكروه من حال أهل القرية المذكورة ، أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها ، وجاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر .

والمعنى : أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر ، فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة ، واتركوا الخبائث وهو الميتة والدم ﴿ واشكروا نِعْمَتَ الله ﴾ التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ولا تعبدون غيره ، أو إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التي زعمتم عبادة الله تعالى .

وقيل : إن الفاء في ﴿ فكلوا ﴾ داخلة على الأمر بالشكر ، وإنما أدخلت على الأمر بالأكل ، لأن الأكل ذريعة إلى الشكر .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله ﴾ كرّر سبحانه ذكر

هذه المحرمات في البقرة والمائدة والأنعام ، وفي هذه السورة قطعاً للأعذار ، وإزالة للشبهة ، ثم ذكر الرخصة في تناول شيء مما ذكر فقال : ﴿ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ ولَا عَادٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد تقدّم الكلام على جميع ما هو مذكور هنا مستوفى .

ثم زيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة ، وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدّم ، فقال : ﴿ ولَا تقولوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ قال الكسائي ، والزجاج : " ما " هنا مصدرية .

(166/445)

وانتصاب الكذب ب ﴿ لا تقولوا ﴾ أي : لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم ، ومعناه : لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة ، ويجوز أن تكون " ما " موصولة ، والكذب منتصب ب ﴿ تصف ﴾ أي : لا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه ﴿ هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ فحذف لفظة فيه لكونه معلوماً ، فيكون قوله : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ بدلاً من الكذب ، ويجوز أن يكون في الكلام حذف بتقدير القول : أي ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم ، فتقول : هذا حلال وهذا حرام ، أو قائلة : هذا حلال وهذا حرام ، ويجوز أن ينتصب الكذب أيضاً ب ﴿ تصف ﴾ وتكون " ما "

مصدرية، أي: لا تقولوا: هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب.

وقرىء "الكذب" بضم الكاف والذال والباء على أنه نعت للألسنة، وقرأ الحسن بفتح الكاف وكسر الذال والباء نعتاً ل "ما".

وقيل: على البدل من "ما" أي: ولا تقولوا الكذب الذي تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام، واللام في ﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ هي لام العاقبة، لا لام العرض، أي: فيتعقب ذلك افتراؤكم على الله الكذب بالتحليل والتحريم، وإسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب ﴾ أي افتراء كان ﴿ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ بنوع من أنواع الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، وارتفاع ﴿ متاع قَلِيلٌ ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قال الزجاج: أي متاعهم متاع قليل، أو هو مبتدأ خبره محذوف، أي: لهم متاع قليل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يردّون إليه في الآخرة.

(167/445)

ثم خصّ محرمات اليهود بالذكر فقال: ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا ﴾ أي: حرمنا عليهم خاصة دون غيرهم ﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ بقولنا: ﴿ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ

البقر والغنم حرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ [الأنعام : 146] ، الآية ، و ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق ب ﴿ قصصنا ﴾ أو ب ﴿ حرمنا ﴾ ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بذلك التحريم ، بل جزيناهم ببغيهم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا أسباب ذلك فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم .

ثم بيّن سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء بجهالة ﴾ أي : متلبسين بجهالة ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة النساء ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي : من بعد عملهم للسوء ، وفيه تأكيد ، فإن " ثم " قد دلت على البعدية ، فأكدها بزيادة ذكر البعدية ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ أعمالهم التي كان فيها فساد بالسوء الذي عملوه ، ثم كرّر ذلك تأكيداً وتقريراً فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي : من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ كثير الغفران ، واسع الرحمة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ قال : يعني مكة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية في الآية مثله .

وزاد فقال : ألا ترى أنه قال ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال: القرية التي قال الله ﴿كَانَتْ ءامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ هي يثرب.

(168/445)

قلت: ولا أدري أي دليل دله على هذا التعيين، ولا أيّ قرينة قامت له على ذلك، ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله، وأيّ وقت أذاقها الله لباس الجوع والخوف، وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صحّ ذلك عن الصادق المصدوق.

وصحّ عنه أيضاً أنه قال: "والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون"

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب﴾ الآية، قال: في البحيرة والسائبة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حلال وهذا حَرَامٌ﴾ إلى آخر الآية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا.

قلت: صدق رحمه الله، فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتياً من أفتى بخلاف ما في

كتاب الله أو في سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأي المقدّمين له على الرواية ، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنّة كالمقلدة ، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم ويمنعوا من جهالاتهم ، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير ، فضلوا وأضلوا ، فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها . . . أعمى على عوج الطريق الجائر

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل أن يقول : إن الله أمر بكذا ، أو نهى عن كذا ، فيقول الله عزّ وجلّ له : كذبت .

أو يقول : إن الله حرّم كذا أو أحلّ كذا ، فيقول الله له : كذبت .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ قال : في سورة الأنعام .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله ، وقال : حيث يقول : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وِإِنَّا لصادقون ﴾ [الأنعام : 146] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ .

نهى جل وعلا في هذه الآية الكريمة الكفار عن تحريم ما أحل الله من رزقه ، مما شرع لهم عمرو بن لحي (لعنه الله) من تحريم ما أحل الله .

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في الآيات كثيرة . كقوله : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام : 150] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] ، وقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : 140] ، وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ [الأنعام : 139] الآية وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ [الأنعام : 138] الآية . وقوله ﴿ حِجْرٌ ﴾ أي حرام ، على غير ذلك من الآيات ، كما تقدم .

وفي قوله ﴿ الكذب ﴾ أوجه من الإعراب :

أحدهما – أنه منصوب ب ﴿ تقولوا ﴾ اي لا تقلولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من رزق الله بالحل والحرمة . كما ذكر في الآيات المذكورة آنفاً من غير استناد ذلك الوصف إلى دليل . واللام مثلها في قولك : لا تقولا لما أحل الله : هو حرام . وكقوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ﴾ [البقرة : 145] الآية . وجملة ﴿ هذا حَلَالٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ بدل من ﴿ الكذب ﴾ وقيل : إن الجملة المذكورة في محل نصب . ب ﴿ تصف ﴾ بتضمينها معنى تقول . أي ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم ، فتقول هذا حلال وهذا حرام . وقيل : ﴿ الكذب ﴾ مفعول به ل ﴿ تصف ﴾ . و ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، وجملة ﴿ هذا حَلَالٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ متعلقة ب ﴿ لا تقولوا ﴾ أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام وصف ألستنكم الكذب . أي لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ، ويجول في أفواهكم ، لا لأجل حجو وبينة – قاله صاحب الكشاف . وقيل : ﴿ الكذب ﴾ بدل م ها المفعول المحذوفة . اي لما تصفه ألسنتكم الكذب .

تنبيه

كان السّلف الصالح رضي الله عنهم يتورعون عن قولهم : هذا حلال وهذا حرام . خوفاً من هذه الآيات .

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : قال الدارمي أبو محمد في مسنده : أخبرنا هارون

، عن حفص ، عن الأعمش قال : " ما سمعت إبراهيم قط يقول : حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون " .

وقال ابن وهب : قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا . انتهى .

وقال الزمخشري : واللام في قوله ﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الفرض اه .

(171/445)

وكثير من العلماء يقولون : هي لام العاقبة . والبيانيون يزعمون أن حرف التعليل كاللام إذا لم تقصد به عليه غائية . كقوله : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً ﴾ [القصص : 8] الآية ، وقوله هنا : ﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ أن في ذلك استعارة تبعيه في معنى الحرف .

قال مقيده عفا الله عنه : بل كل ذلك من أساليب اللغة العربية . فمن أساليبها : الإتيان بحرف التعليل للدلالة على العلة الغائية . كقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] الآية . ومن أساليبها الإتيان باللاّم للدلالة على ترتب

أمر على أمر . كترتب المعلول على علته الغائية . وهذا الأخير كقوله : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ . لأن العلة الغائية البعثة لهم على التقاطه ليست هي أن يكون لهم عدواً ، بل ليكون لهم قرة عين . كما قالت امرأة فرعون : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص : 9] ولكن لما كان كونه عدواً لهم وحزناً يترتب على التقاطهم له . كترتب المعلول على علته الغائية – عبر فيه باللام الدالة على ترتيب المعلول على العلة . وهذا أسلوب عربي ، فلا حاجة إلى ما يطيل به البيانيون في مثل هذا المبحث .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : ان الذين يفترون عليه الكذب – أي يختلقونه عليه – كدعواهم أنه حرم هذا وهو لم يحرمه . ودعواهم له الشركاء والأولاد – لا يفلحون . لأنهم في الدنيا لا ينالون إلا متاعاً قليلاً لا أهمية له ، وفي الآخرة يعذبون العذاب العظيم ، الشديد المؤلم .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله في يونس: ﴿ قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: 69-70]، وقوله: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: 24]، وقوله: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير ﴾ [البقرة: 126]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله ﴿ متاع قليل ﴾ خبر مبتدأ محذوف. اي متاعهم في الدنيا متاع قليلز وقال الزمخشري: منفعتهم في الدنيا متاع قليل. وقوله ﴿ لا يفلحون ﴾ أي لا ينالون الفلاحن وهو يطلق على معنيين: أحدهما - الفوز بالمطلوب الأكبر. والثاني - البقاء السرمدي. كما تقدم بشواهده.

قوله تعالى: ﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ الآية.

هذا محرم عليهم، المقصوص عليه من قبل المحال عليه هنا هو المذكور في (سوة الأنعام) في قوله: ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايا أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام: 146].

وجملة المحرمات عليهم في هذه الآية الكريمة ظاهرة، وهو كل ذي ظغر: كالنعامة والبعير، والشحم الخالص من البقر والغنم (وهو الثروب) وشحم الكلى. أما الشّحم الذي على

الظهر ، والذي في الحوايا وهي اللأمعاء ، والمختلط بعظم كلحم الذنب وغيره من الشحوم المختلطة بالعظام – فهو حلال لهم . كما هو واضح من الآية الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(173/445)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

عاد الخطاب إلى المشركين بقرينة قوله : ﴿ لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ فالجملة معطوفة على جملة ﴿ وضرب الله مثلاً قرية ﴾ [سورة النحل : 112] الآية .

وفيه تعريض بتحذير المسلمين لأنهم كانوا قريبي عهد بجاهلية ، فربّما بقيت في نفوس بعضهم كراهية أكل ما كانوا يتعففون عن أكله في الجاهلية .

وعلّق النهي بقولهم : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ .

ولم يعلّق بالأمر بأكل ما عدا ما حُرم لأن المقصود النهي عن جعل الحلال حراماً والحرام حلالاً لا أكل جميع الحلال وترك جميع الحرام حتى في حال الاضطرار ، لأن إمساك المرء عن

أكل شيء لكراهيَةٍ أو عَيْف هو عمل قاصر على ذاته .

وأما قول : ﴿ وهذا حرام ﴾ فهو يفضي إلى التحجير على غيره ممن يشتهي أن يتناوله .

واللام في قوله : ﴿ لما تصف ﴾ هي إحدى اللامين اللّتين يتعدّى بهما فعل القول وهي التي بمعنى (عن) الداخلة على المتحدّث عنه فهي كاللام في قوله : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ [سورة آل عمران : 168] ، أي قالوا عن إخوانهم .

وليست هي لام التقوية الداخلة على المخاطب بالقول .

﴿ وتصف ﴾ معناه تذكر وصْفاً وحالاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ [سورة النحل : 62] .

وقد تقدم ذلك في هذه السورة ، أي لا تقولوا ذلك وصفاً كَذباً لأنه تقوّل لم يقله الذي له التحليل والتحريم وهو اللّهُ تعالى .

وانتصب ﴿ الكذب ﴾ على المفعول المطلق ل ﴿ تصف ﴾ ، أي وصفاً كذباً ، لأنه مخالف للواقع ، لأن الذي له التحليل والتحريم لم ينبئهم بما قالوا ولا نصب لهم دِليلاً عليه .

وجملة ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ هي مقول ﴿ تقولوا ﴾ ، واسم الإشارة حكاية بالمعنى لأوصافهم أشياء بالحِل وأشياء بالتحّريم .

و ﴿ لتفتروا ﴾ علة ل ﴿ تقولوا ﴾ باعتبار كون الافتراء حاصلاً، لا باعتبار كونه مقصوداً للقائلين، فهي لام العاقبة وليست لام العلّة.

وقد تقدّم قريباً أن المقصد منها تنزيل الحاصل المحقّق حصولُه بعدَ الفعل منزلةَ الغرض المقصود من الفعل.

وافتراء الكذب تقدّم آنفاً.

والذين يفترون هم المشركون الذين حرموا أشياء.

وجملة ﴿ متاع قليل ﴾ استئناف بياني في صورة جواب عما يجيش بخاطر سائل يسأل عن عدم فلاحهم مع مشاهدة كثير منهم في حالة من الفلاح، فأجيب بأن ذلك متاع، أي نفع موقّت زائل ولهم بعده عذاب أليم.

والآية تحذّر المسلمين من أن يتقوّلوا على الله ما لم يقله بنصّ صريح أو بإيجاد معانٍ وأوصاف للأفعال قد جَعل لأمثالها أحكاماً، فمن أثبت حلالاً وحراماً بدليل من معانٍ ترجع إلى مماثلة أفعال تشتمل على تلك المعاني فقد قال بما نصب الله عليه دليلاً.

وقُدم ﴿ لهم ﴾ للاهتمام زيادة في التحذير.

وجيء بلام الاستحقاق للتنبيه على أن العذاب حقّهم لأجل افترائهم.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾

لما شنّع على المشركين أنهم حرّموا على أنفسهم ما لم يحرّمه الله ، وحذّر المسلمين من تحريم أشياء على أنفسهم جرياً على ما اعتاده قومهم من تحريم ما أحلّ لهم ، نظّرَ أولئك وحَذّر هؤلاء .

فهذا وجه تعقيب الآية السالفة بآية ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ .

والمراد منه ما ذُكر في سورة الأنعام ، كما روي عن الحسن وعكرمة وقتادة .

وقد أشار إلى تلك المناسبة قوله : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ، أي وما ظلمناهم بما حرّمنا عليهم ولكنهم كفروا النعمة فحُرِموا من نعم عظيمة .

وغيّر أسلوب الكلام إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأن جانب التحذير فيه أهم من جانب التنظير .

وتقديم المجرور في ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ للاهتمام ، وللإشارة إلى أن ذلك حرّم عليهم ابتداء ولم يكن محرّماً من شريعة إبراهيم عليه السلام التي كان عليها سلفهم ، كما قال تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلاًّ لبني إسرئيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة

﴾ [سورة آل عمران : 93] ، أي عليهم دون غيرهم فلا تحسبوا أن ذلك من الحنيفية .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) ﴾

موقع هذه الآية من اللواتي قبلها كموقع قوله السابق ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ [سورة النحل : 110] .

فلما ذكرت أحوال أهل الشرك وكان منها ما حرّموه على أنفسهم ، وكان المسلمون قد شاركوهم أيام الجاهلية في ذلك ، ووردت قوارع الذمّ لما صنعوا ، كان مما يتوهم علوقه بأذهان المسلمين أن يحسبوا أنهم سينالهم شيء من غمص لما اقترفوه في الجاهلية ، فطمأن الله نفوسهم بأنهم لما تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام وأصلحوا عملهم بعد أن أفسدوا فإن الله قد غفر لهم مغفرة عظيمة ورحمهم رحمة واسعة .

ووقع الإقبال بالخطاب على النبي إيماءً إلى أن تلك المغفرة من بركات الدين الذي أرسل به .

وذكر اسم الرب مضافاً إلى ضمير النبي للنكتة المتقدمة آنفاً في قوله : ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ .

والجهالة : انتفاء العلم بما يجب .

والمراد : جهالتهم بأدلّة الإسلام .

و﴿ ثمّ ﴾ للترتيب الرتبي ، لأن الجملة المعطوفة بـ ﴿ ثمّ ﴾ تضمّنت حكم التوبة وأن

المغفرة والرحمة من آثارها ، وذلك أهم عند المخاطبين مما سبق من وعيد ، أي الذين عملوا السوء جاهلين بما يدلّ على فساد ما علموه .

(176/445)

وذلك قبل أن يستجيبوا لدعوة الرسول فإنهم في مدّة تأخّرهم عن الدخول في الإسلام موصوفون بأنهم أهل جهالة وجاهلية ، أو جاهلين بالعقاب المنتظر على معصية الرسول وعنادهم إياه .

ويدخل في هذا الحكم من عمل حَراماً من المسلمين جاهلاً بأنه حرام وكان غير مقصّر في جهله .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ في سورة النساء (17) .

وقوله : ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ تأكيد لفظي لقوله : ﴿ ثم إن ربك ﴾ لزيادة الاهتمام بالخبر على الاهتمام الحاصل بحرف التوكيد ولام الابتداء .

ويتصل خبر ﴿ إنّ ﴾ باسمها لبعد ما بينهما .

ووقع الخبر بوصف الله بصفة المبالغة في المغفرة والرحمة ، وهو كناية عن غفرانه لهم

ورحمته إيّاهم في ضمن وصف الله بها تين الصفتين العظيمتين .

والباء في ﴿ بجهالة ﴾ للملابسة ، وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ عملوا ﴾ .

وضمير ﴿ من بعدها ﴾ عائد إلى الجهالة أو إلى التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(177/445)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

معنى ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ : تُظهره على أوضح وجوهه ، فليس كلامهم كذباً فقط ، بل يصفه ، فمَنْ لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء .

والمراد بالكذب هنا قولهم :

﴿ هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ . . ﴾ [النحل : 116] .

فهذا كذب وافتراء على الله سبحانه ؛ لأنه وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلِّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حَسْب هواك ؛ لأن هذا افتراءُ على الله :

﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب . . . ﴾ [النحل : 116] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : 116] .

فإن انطلى كذبهم على بعض الناس ، فأخذوا من ورائه منفعة عاجلة ، فعمَّا قليل سيُفتضح أمرهم ، وينكشف كذبهم ، وتنقطع مصالحهم بين الخلق .

ويصف الحق سبحانه ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بأنه : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ . . ﴾ .

أي : ما أخذتموه بكذبكم وافترائكم على الله متاعٌ قليل زائل ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقي الذي قال الله عنه : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .

ليس هذا فقط بل :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : 117] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وعلى الذين هَادُواْ . . . ﴾ .

بعد أن تكلمت الآيات فيما أحلَّ الله وفيما حرَّم ، وبيَّنتْ أن التحليل أو التحريم لله تعالى ، جاءت لنا بصورة من التحريم ، لا لأن الشيء ذاته مُحرَّم ، بل هو مُحرَّم تحريم عقوبة ، كالذي مثَّلنا له سابقاً بحرمان الطفل من الحلوى عقاباً له على سُوء فِعْله .

والذين هادوا هم : اليهود عاقبهم الله بتحريم هذه الأشياء ، مع أنها حلال في ذاتها ، وهذا

تحريم خاصٌّ بهم كعقوبة لهم .

وقوله تعالى :

(178/445)

﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ . . ﴾ [النحل : 118] .

المراد ما ذُكِر في سورة الأنعام من قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايآ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام : 146] .

كل ذي ظفر : الحيوان ليس منفرجَ الأصابع ، والحوايا : هي المصارين والأمعاء ، ونرى أن كل هذه الأشياء المذكورة في الآية حلال في ذاتها ، ومُحلَّلة لغير اليهود ، ولكن الله حرَّمها عليهم عقوبةً لهم على ظلمهم وبغيهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء : 160-161] .

أي : بسبب ظلمهم حرَّمنا عليهم هذه الطيبات .

ذلك لأن مَنْ أخذ حكماً افتراءً على الله فحرَّم ما أحلَّ الله . أو حلَّل ما حرَّم الله لا بُدَّ أنْ يُعاقبَ بمثله فيُحرِّم عليه ما أحِلّ لغيره ، وقد وقع الظلم من اليهود لأنهم اجترأوا على حدود الله وتعاليمه ، وأول الظلم وقمته الشرك بالله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

والظلم نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره .

ومن ظلمهم : ما قالوه لموسى عليه السلام بعد أن عبر بهم البحر ، ومرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] .

(179/445)

ومن ظلمهم : أنهم عبدوا العجل من دون الله .

ومن ظلمهم لموسى عليه السلام : أنهم لم يؤمنوا به . كما قال تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس : 83] .

ومن ظلمهم : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل ﴾ [النساء :

161] .

إذن : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حقهم حرَّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم ؛ قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] .

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرموها من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ . . ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى يعطي عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أنْ شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لَتحوَّل المذنب ولو لمرة واحدة إلى مجرم يُعربد في المجتمع ، وبفتح باب التوبة يقي الله المجتمع من هذه العربدة .

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة التوبة فيقول : " لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح " .

وقوله تعالى في بداية الآية : ﴿ ثُمَّ ﴾ تدلُّ على كثرة ما تقدم من ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم لِيُبيّن لك البَوْن الشاسع بين رحمة الله وإصرار العُصَاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ .

(180/445)

أي : بطيش وحُمْق وسَفَه ، وجميعها داخلة في الجهل بمعنى أنْ تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم ، إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ، والمراد أن ينظر إلى خير عاجل في نظره ، ويترك خيراً آجلاً في نظر الشرع .

وقد ورد هذا المعنى في قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا التوبة عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : 17] .

بجهالة : يعني في لحظة سَفَه وطيْش ، فالعاصي يعلم الحكم تماماً ، ولكنه في غفلة عنه ، وعدم تبصُّر بالعواقب ، ولو فكَّر في عاقبة أمره ما تجرَّأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدِم عليها إلا في غيبة العقل .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق

السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " .

ولو استحضر قسوة الجزاء لما أقدم على معصيته ، ولكن سفهه وطيْشه يُغلّف الجزاء ويستره عنه ويُزيّن له ما ينتظره من لذة ومتعة عاجلة .

وهَبْ أن شخصاً ألحتْ عليه غريزة الجنس ، وهي أشرس الغرائز في الإنسان ، ففكّر في الفاحشة والعياذ بالله ، وقبل أنْ يقع في هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكّرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة .

بالله عليك ، ماذا تراه يفعل ؟ هل يُصِرّ على جريمته ؟ لا ، لأنه كان ذاهلاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إذن : طيشه وسفهه صرفه عن التفكر في العاقبة وأذهله عن ردّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجّلة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأصلحوا . . ﴾ [النحل : 119] .

والتوبة هنا هي التوبة النصوح الصادقة ، التي ينوي صاحبها الإقلاع عنها وعدم العَوْد إليها مرة أخرى ، ويعزم على ذلك حال توبته ، فإذا فعل ذلك قَبِل الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعود للذنب مرة أخرى إذا ضعُفَتْ نفسه عن المقاومة ، فإنْ عاد عاد إلى التوبة من جديد ، لأن الله سبحانه من أسمائه (التواب) أي : كثير التوبة ، فلم يقل : تائب بل تواب ، فلا تنقطع التوبة في حق العبد مهما أذنب ، وعليه أنْ يُحدِث لكل ذنب توبة .

بل وأكثر من ذلك ، إذا تاب العبد وأحسن التوبة ، وأتى بالأعمال الصالحة بدلاً من السيئة ، منّ الله عليه بأن يُبدِّل سيئاته حسنات ، وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 119] فيه إشارة لحرص النبي صلى الله عليه وسلم علينا ، وأنه يسرُّه أن يغفر الله لنا . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد غفور رحيم ، فكأنه سبحانه يمتنُّ على نبيه صلى الله عليه وسلم أنه سيغفر للمذنبين من أمته . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(182/445)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السوء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأصلحوا ﴾ [

119]

قال سهل : ما عصى الله تعالى أحد إلا بجهل ، ورُبَّ جهلٍ أورث علماً ، والعلم مفتاح التوبة ، والإصلاح صحة التوبة ، فمن لم يصلح توبته فعن قريب تفسد توبته ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأصلحوا ﴾ [119] ، وسئل سهل عن الجاهل ، فقال : الذي يكون إمام نفسه ، ولا يكون له إمام صالح يقتدي به . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 93 ﴾

(183/445)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ قال : هي البحيرة والسائبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام . . . ﴾ إلى آخر الآية ، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : عسى رجل أن يقول إن الله أمر بكذا ونهى عن كذا ، فيقول الله عز وجل له : كذبت . ويقول : إن الله حرم كذا وأحل كذا ، فيقول الله عز وجل له : كذبت .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ قال : في سورة الأنعام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ قال : ما قص الله ذكره في سورة الأنعام ، حيث يقول : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر . . . ﴾ [الأنعام : 146] إلى قوله : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ [الأنعام : 146] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 ص ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾

العامَّةُ على فتحِ الكافِ وكسرِ الذالِ ونصب الباءِ . وفيه أربعةُ أوجهٍ ، أظهرُها : أنه منصوبٌ على المفعول به وناصبُه " تَصِفُ " و " ما " مصدريةٌ ، ويكونُ معمولُ القولِ الجملةَ مِنْ قوله ﴿ هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ و ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ علةٌ للنهي عن القول ذلك ، أي : ولا تقولوا : هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ لأجل وَصْفِ ألسنتِكم الكذبَ ، وإلى هذا نحا الزجَّاجُ والكسائيُّ ، والمعنى : لا تُحَلِّلوا ولا تُحَرِّمُوا لأجلِ قولٍ تَنْطِقُ به ألسنتُكم من غير حُجَّةٍ .

الثاني : أن ينتصِب مفعولاً به للقولِ ، ويكون قوله : ﴿ هذا حَلاَلٌ ﴾ بدلاً مِنَ " الكذب " لأنه عينُه ، أو يكون مفعولاً بمضمرٍ ، أي : فيقولوا : هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ ، و ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ علةٌ أيضاً ، والتقديرُ : ولا تقولوا الكذب لوصفِ ألسنِتكم . وهل يجوزُ أن تكونَ المسألةُ من التنازعِ على هذا الوجهِ ، وذلك : أن القولَ يَطْلُبُ " الكذب " و " تَصِفُ " أيضاً يطلبه ، أي : ولا تَقُولُوا الكذب لما تصفه ألسنتُكم ؟ فيه نظرٌ .

الثالث : أن ينتصِبَ على البدلِ من العائدِ المحذوف على " ما " إذا قلنا : إنها بمعنى الذي ؛

التقدير : لِما تصفُه ، ذكر ذلك الحوفيُّ وأبو البقاء . الرابع : أن ينتصبَ بإضمار أعني ، ذكره أبو البقاء ، ولا حاجةَ إليه ، ولا معنى عليه .

(185/445)

وقرأ الحسن وابن يعمر وطلحة " الكذبِ " بالخفضِ وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه بدلٌ من الموصولِ ، أي : ولا تقولوا لوصفِ ألسنتِكم الكذبِ ، أو للذي تصفه ألسنتكم الكذبِ ، جعله نفسَ الكذبِ لأنه هو . والثاني : ذكره الزمخشري أن يكون نعتاً ل " ما " المصدرية . وردَّه الشيخُ : بأنَّ النحاةَ نصُّوا على أن المصدرَ المنسبكَ مِنْ أنْ والفعلِ لا يُنْعَتُ ، لا يُقال " يعجبني أن تخرجَ السريعُ " ولا فرقَ بين هذا وبين باقي الحروفِ المصدرية .

وقرأ ابن أبي عبلة ومعاذ بن جبل بضمِّ الكاف والذال ، ورفعِ الباءِ صفةً للألسنة كصَبُور وصُبُر ، أو جمع كاذِب كشارِف وشُرُف ، أو جمع " كِذاب " نحو : كِتاب وكُتُب .

وقرأ مَسْلَمَةُ بنُ محارِبٍ فيما نقله ابن عطية كذلك ، إلا أنَّه نصب الباءَ ، وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، ذكرها الزمخشري . أحدُها : أن تكونَ منصوبةً على الشتم ، يعني وهي في الأصل نعتٌ للألسنة كما في القراءة قبلها . الثاني : أن تكون بمعنى الكَلِمِ الكواذب ، يعني أنها مفعولٌ بها ، والعامل فيها : إمَّا " تَصِفُ " ، وإمَّا القولُ / على ما مرَّ ، أي : لا تقولوا الكَلِمَ الكواذبَ ، أو

لِمَا تَصِفُ ألسنتُكم الكلمَ الكواذبَ . الثالث : أن يكونَ جمع الكِذاب مِنْ قولِك "كَذِب كِذاباً " يعني فيكون منصوباً على المصدر ؛ لأنه مِنْ معنى وَصْفِ الألسنةِ فيكون نحو : كُتُب في جمع كِتاب ، وقد قرأ الكسائيُّ : ﴿ وَلاَ كِذَاباً ﴾ بالتخفيف كما سيأتي في النبأ .

(186/445)

قوله : "لِتَفْتَرُوا " في اللامِ ثلاثةُ أوجه ، أحدها : قال الواحدي : "إنه بدلٌ مِنْ ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ لأنَّ وصفَهم الكذبَ هو افتراءٌ على الله " . قال الشيخ : "فهو على تقدير جَعْلِ "ما " مصدريةً ، أمَّا إذا كانت بمعنى الذي فاللامُ فيها ليست للتعليل فيُبْدل منها ما يُفْهِمُ التعليلَ ، وإنما اللامُ في "لِما " متعلقةٌ ب "لا تقولوا " على حَدِّ تَعَلُّقِها في قولك : لا تقولوا لِما أَحَلَّ اللهُ : هذا حرامٌ ، أي : لا تُسَمُّوا الحَلاَلَ حراماً وكما تقول : لا تقلْ لزيدٍ عمراً ، أي : لا تُطْلِقْ عليه هذا الاسمَ " . قلت : وهذا وإن كان ظاهراً ، إلاَّ أنه لا يمنع من إرادةِ التعليل ، وإنْ كانت بمعنى الذي .

الثاني : أنها للصيرورة إذ لم يَفْعلوه لذلك الغرض .

الثالث : أنها للتعليلِ الصريح ، ولا يَبْعُدُ أن يَصْدُرَ مثلُ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ مَتَاعٌ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مبتدأٌ ، و " قليل " خبره ، وفيه نظرٌ للابتداءِ بنكرةٍ مِنْ غيرِ مُسوِّغ . فإن ادُّعِي إضافتُه نحو : متاعُهم قليل ، فهو بعيدٌ جداً .

الثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : بَقاؤهم أو عيشُهم أو منفعتُهم فيما هم عليه .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ : متعلِّقٌ ب " حَرَّمْنَا " أو ب " قَصَصْنَا " والمضافُ إليه " قبلُ " تقديرُه : ومِنْ قبلِ تحريمِنا على أهلِ مِلَّتك .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِهَا ﴾ : أي : مِنْ بعدِ عَمَلِ السوءِ والتوبةِ والإِصلاح ، وقيل : على الجهالةِ . وقيل : على السوءِ ؛ لأنه في معنى المعصيةِ .

و " بجهالة " حالٌ مِنْ فاعل " عَمِلوا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 297 ـ 300 ﴾

(187/445)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

الصدق في كل شيء أَوْلَى من الكذب ، وكثيرٌ من أقوالهم في الاعتراض عَيِّناتُ من الكذب .

والصِّدِّيق لا يكذب صريحاً ، ولا يتداول أقوال كاذب مهين . وصاحبُ الكذبِ تظهر عليه المذَلَّةُ لما هو فيه من الزَّلَةِ ، وله في الآخرة عذاب أليم .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ﴾

بيّن أنه أوضح لِمَنْ تَقَدَّمَ الحلالَ والحرامَ ، فمنهم مَنْ أتى بما أُمِرَ به ومنهم مَنْ خالف . . وكلٌّ عُومِل بما استوجبه ؛ فمن أطاع قلبُه قرَّبَه ، ومَنْ عصَى ردَّه وحَجَبَه .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) ﴾

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قَدَّمُوا ، وأَسِفُوا على كثيرٍ مما أسلفوا وفيه أسرفوا ، ومَحَا صِدْقُ

عَبْرَتهم آثارَ عَثْرَتهم – نظَرَ اللَّهُ إليهم بالرحمة ، فتابَ عليهم إذا أصلحوا ، ونجَّاهم إذا تضرَّعوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 326 . 327 ﴾

(188/445)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دعاهم إلى مكارم الأخلاق ونهاهم عن مساوئها بقبوله لمن أقبل إليه وإن عظم جرمه ، إجابة لدعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ [إبراهيم : 36] أتبع ذلك ذكره ترغيباً في اتباعه في التوحيد والميل مع الأمر والنهي إقداماً وإحجاماً إن كانوا ممن يتبع الحق أو يقلد الآباء ، فقال على سبيل التعليل

لما قبله : ﴿ إن إبراهيم ﴾ أي أباكم الأعظم إمام الموحدين ﴿ كان أمة ﴾ فيه من المنافع الدنيوية والأخروية ما يوجب أن يؤمه ويقصده كل أحد يمكن انتفاعه به ﴿ قانتاً ﴾ أي مخلصاً ﴿ لله ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله ليس فيه شيء من الهوى ﴿ حنيفاً ﴾ ميالاً مع الأمر والنهي بنسخ أو بغيره ، فكونوا حنفاء أتباعاً للحق ، لما قام عليه من الأدلة ، واستناناً بأعظم آبائكم .

(189/445)

ولما كان السياق لإثبات الكمال لإبراهيم عليه السلام ، وكانت الأوصاف الثبوتية قريبة المأخذ سريعة الوصول إلى الفهم ، وأتى بعدها وصف سلبي بجملة ، حذف نون ﴿ يكن ﴾ منها إيجازاً وتقريباً للفهم تخفيفاً عليه وحفظاً له من أن يذهب قبل تمامها إلى غير المراد ، وإعلاماً بأن الفعل منفي عنه عليه السلام على أبلغ وجوه النفي لا ينسب إليه شيء منه ولو قل ، فقيل : ﴿ ولم يك ﴾ ولما كانوا مشركين هم وكثير من أسلافهم ، قبح عليهم ذلك بأن أعظم من يعتقدون عظمته من آبائهم ليس من ذلك القبيل ، فقال تعالى : ﴿ من المشركين ﴾ الواقفين مع الهوى ، فلا تكونوا منهم ؛ ثم بين حاله فقال : ﴿ شاكراً ﴾ ولما كان لله على من جعله أمة من النعم ما لا يحصى ، بين أن ذلك كله قليل في جنب فضله ،

فقال مشيراً إلى ذلك بجمع القلة وإلى أن الشاكر على القليل يشكر إذا أتاه الكثير من باب الأولى : ﴿ لأنعمه ﴾ فهو لا يزال يزيده من فضله ، فتقبل دعاءه لكم فاشكروا الله اقتداء به ليزيدكم ، فكأنه قيل : فما أثابه على ذلك ؟ أو علل ما قبل ، فقال تعالى : ﴿ اجتباه ﴾ أي اختاره اختياراً تاماً ﴿ وهداه ﴾ أي بالبيان الأعظم والتوفيق الأكمل ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ وهو الحنيفية السمحة ، فكان ممن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وكان مخالفاً للأبكم الموصوف في المثل السابق ؛ ثم قال : ﴿ وءاتيناه ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ في الدنيا ﴾ بلسان الصدق والثناء الجميل الذي ذللنا له ألسنة الخلق ﴿ حسنة ﴾ ونبه بالتعبير عن المعطي بنون العظمة على جلالته حيث جعله إماماً معظماً لجميع أهل الملل ، فجمع القلوب على محبته ، وجعل له فيهم لسان صدق ، ورزقه في أولاده من النبوة والصلاح والملك والكثرة ما هو مشهور .

ولما كانت عظمة الدنيا لا تعتبر إلا مقرونة بنعمة الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وإنه في الآخرة ﴾ وقال تعالى - : ﴿ لمن الصالحين ﴾ أي له ما لهم من الثواب العظيم - معبراً ب " من " تعظيماً لمقام الصلاح وترغيباً فيه .

ولما قرر من عظمته في الدنيا والآخرة ما هو داعٍ إلى اتباعه ، صرح بالأمر به تنبيهاً على زيادة عظمته بأمر متباعد في الرتبة على سائر النعوت التي أثنى عليه بها ، وذلك كونه صار مقتدي لأفضل ولد آدم ، مشيراً إلى ذلك بحرف التراخي الدال على علو رتبته بعلو رتبة من أمر باتباعه فيما مهده مما أمر به من التوحيد والطريق الواضح السهل فقال سبحانه : ﴿ ثم أوحينا ﴾ أي ثم زدناه تعظيماً وجلالة بأن أوحينا ﴿ إليك ﴾ وأنت أشرف الخلق ، وفسر الإيحاء بقوله عز وجل ترغيباً في تلقي هذا الوحي أحسن التلقي باقتفاء الأب الأعظم : ﴿ أن اتبع ﴾ أي بغاية جهدك ونهاية همتك .

ولما كان المراد أصل الدين وحسن الاقتضاء فيه بسهولة الانقياد والانسلاخ من كل باطل ، والدعوة بالرفق مع الصبر ، وتكرير الإيراد للدلائل وكل ما يدعوا إليه العقل الصرف والفطرة السليمة ، عبر بالملة فقال تعالى : ﴿ ملة إبراهيم ﴾ ولا بعد في أن يفهم ذلك الهجرة أيضاً .

ولما كانت الحنيفية أشرف أخلاق إبراهيم عليه السلام ، فكانت مقصودة بالذات ، صرح بها فقال تعالى : ﴿ حنيفاً ﴾ أي الحال كونك أو كونه شديد الانجذاب مع الدليل الحق ؛ ورغب العرب في التوحيد ونفرهم من الشرك بقوله تعالى : ﴿ وما كان ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ من المشركين ﴾ ولما دعا سبحانه فيها إلى معالي الشيم وعدم الاعتراض ، وختم بالأمر بالملة الحنيفية التي هي سهولة الانقياد للدليل ، وعدم الكون مع الجامدين ، اقتداء بالأب الأعظم ، وكان الخلاف والعسر مخالفاً لملته ، فكان لا يجر إلى خير ، وكان من

المعلوم أن كل حكم حدث بعده ليس من ملته ، وكان اليهود يزعمون جهلاً أنه كان على دينهم ، وكان السبت من أعظم شعائرهم ، أنتج ذلك قوله تعالى جواباً لمن قد يدعي من اليهود أنه كان على دينهم ، وتحذيراً من العقوبة على الاختلاف في الحق بالتشديد في الأمر .

(191/445)

﴿ إنما جعل ﴾ أي بجعل من لا أمر لغيره ﴿ السبت ﴾ أي تحريمه واحترامه أو وباله ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ حين أمرهم نبيهم بالجمعة فقبل ذلك بعضهم وأراد السبت آخرون ، فبدلوا بالجمعة السبت .

وشدد عليهم في أمره انتقاماً منهم بما تفهمه التعدية ب " على " فكان ذلك وبالاً عليهم ، وفي ذلك تذكير بنعمة التيسير علينا ؛ قال البغوي : قال الكلبي : أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة فقال : تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً ، فاعبدوه يوم الجمعة ، ولا تعملوا فيه عملاً لصنعتكم ، وستة أيام لصناعتكم ، فأبوا إلا شرذمة منهم وقالوا : لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق يوم السبت ، فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ، ثم جاءهم عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، فأخذوا الأحد ، فأعطى الله الجمعة هذه الأمة فقبلوها وبورك لهم فيها .

وقال عبد الرزاق في تفسيره : أخبرني معمر أخبرني من سمع مجاهداً يقول في قوله تعالى ﴿ إنما جعل السبت ﴾ فقال : ردوا الجمعة وأخذوا السبت مكانه .

وروى الشيخان عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له .

فهم لنا فيه تبع ، فاليهود غداً والنصارى بعد غد " .

ولما كان الإشراك واضحاً في أمر النصارى ، استغنى بنفيه عنه عن التصريح بأنه ليس على دينهم ؛ ثم حذر من الاختلاف مثبتاً أمر البعث فقال تعالى : ﴿ وإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بطواعية أصحابك لك ﴿ ليحكم بينهم ﴾ أي هؤلاء المختلفين ﴿ فيه يختلفون ﴾ من قبول الجمعة وردها ، ومن الإذعان لتحريم الصيد وإبائه وغير ذلك ، فيجازى كل فريق منهم بما يستحقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 321 . 323 ﴾

(192/445)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

اعلم أنه تعالى لما زيف في هذه السورة مذاهب المشركين في أشياء ، منها قولهم بإثبات الشركاء والأنداد لله تعالى ، ومنها طعنهم في نبوة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وقولهم لو أرسل الله رسولاً لكان ذلك الرسول من الملائكة .

ومنها قولهم بتحليل أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أباحها الله تعالى ، فلما بالغ في إبطال مذاهبهم في هذه الأقوال ، وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة الأصوليين ، وهو الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع .

والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به ، لا جرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة ، وحكى عنه طريقته في التوحيد ليصير ذلك حاملاً لهؤلاء المشركين على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، واعلم أنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بصفات :

الصفة الأولى : أنه كان أمة ، وفي تفسيره وجوه : الأول : أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في صفات الخير كقوله :

ليس على الله بمستنكر . . أن يجمع العالم في واحد

الثاني : قال مجاهد ، كان مؤمناً وحده ، والناس كلهم كانوا كفاراً فلهذا المعنى كان وحده أمة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل : " يبعثه الله أمة

وحده " الثالث : أن يكون أمة فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والبغية ، فالأمة هو الذي يؤتم به ، ودليله قوله : ﴿ إِنِّى جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : 124] .

(193/445)

الرابع : أنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق ، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب ، وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم عليه السلام فإنه كان وحده .

الصفة الثانية : كونه قانتاً لله ، والقانت هو القائم بما أمره الله تعالى به قال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه كونه مطيعاً لله .

الصفة الثالثة : كونه حنيفاً والحنيف المائل إلى ملة الإسلام ميلاً لا يزول عنه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى ، وهذه صفة الحنيفية .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ معناه : أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر والذي يقرر كونه كذلك أن أكثر همته عليه السلام كان في تقرير علم الأصول فذكر دليل إثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله : ﴿ رَبِّيَ الذى يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة :

258] ثم أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : 76]

ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أن ألقوه في النار ، ثم طلب من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ليحصل له مزيد الطمأنينة ، ومن وقف على علم القرآن علم أن إبراهيم عليه السلام كان غارقاً في بحر التوحيد .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ ﴾ روي أنه عليه السلام كان لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداءه فإذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فأظهروا أن بهم علة الجذام فقال : الآن يجب عليّ مؤاكلتكم فلولا عزتكم على الله تعالى لما ابتلاكم بهذا البلاء .

فإن قيل : لفظ الأنعم جمع قلة ، ونعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة . فلم قال : ﴿ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ ﴾ .

(194/445)

قلنا : المراد أنه كان شاكراً لجميع نعم الله إن كانت قليلة فكيف الكثيرة .

الصفة السادسة : قوله : ﴿ اجتباه ﴾ أي اصطفاه للنبوة .

والاجتباء هو أن تأخذ الشيء بالكلية وهو افتعال من جبيت ، وأصله جمع الماء في

الحوض والجابية هي الحوض .

الصفة السابعة : قوله : ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي في الدعوة إلى الله والترغيب في الدين الحق والتنفير عن الدين الباطل ، نظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] .

الصفة الثامنة : قوله : ﴿ وءاتيناه فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ قال قتادة : إن الله حببه إلى كل الخلق فكل أهل الأديان يقرون به ، أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر ، وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم إلا به ، وتحقيق الكلام أن الله أجاب دعاءه في قوله : ﴿ واجعل لّي لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] وقال آخرون : هو قول المصلي منا كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وقيل : الصدق ، والوفاء والعبادة .

الصفة التاسعة : قوله : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ .

فإن قيل : لم قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ ولم يقل : وإنه في الآخرة في أعلى مقامات الصالحين ؟

قلنا : لأنه تعالى حكى عنه أنه قال : ﴿ رَبّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ [البقرة : 130] فقال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ تنبيهاً على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم إن كونه من الصالحين لا ينفي أن يكون في أعلى مقامات الصالحين فإن الله تعالى بين

ذلك في آية أخرى وهي قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ [الأنعام : 83] .

واعلم أنه تعالى لما وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة قال : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً ﴾ وفيه مباحث :

(195/445)

البحث الأول : قال قوم : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان على شريعة إبراهيم عليه السلام ، وليس له شرع هو به منفرد ، بل المقصود من بعثته عليه السلام إحياء شرع إبراهيم عليه السلام وعول في إثبات مذهبه على هذه الآية وهذا القول ضعيف ، لأنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه ما كان من المشركين ، فلما قال : ﴿ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ كان المراد ذلك .

فإن قيل : النبي صلى الله عليه وسلم إنما نفى الشرك وأثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية وإذا كان كذلك لم يكن متابعاً له فيمتنع حمل قوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعْ ﴾ على هذا المعنى فوجب حمله على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها .

قلنا : يحتمل أن يكون المراد الأمر بمتابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد وهو أن يدعو إليه

بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن .

البحث الثاني : قال صاحب "الكشاف" : لفظة "ثم" في قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ تدل على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته من قبل ، إن هذه اللفظة دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة عن سائر المدائح التي مدحه الله بها .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بمتابعة إبراهيم عليه السلام ، وكان محمد عليه السلام اختار يوم الجمعة ، فهذه المتابعة إنما تحصل إذا قلنا إن إبراهيم عليه السلام كان قد اختار في شرعه يوم الجمعة ، وعند هذا لسائل أن يقول : فلم اختار اليهود يوم السبت ؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ وفي الآية قولان :

القول الأول : روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أمرهم موسى بالجمعة وقال : تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك ، وقالوا : لا نريد إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت ، فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه ، ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضاً بالجمعة ، فقالت النصارى : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا واتخذوا الأحد .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد "

إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى : ﴿ على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ أي على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت ، فاختلافهم في السبت كان اختلافهم على نبيهم في ذلك اليوم أي لأجله ، وليس معنى قوله : ﴿ اختلفوا فِيهِ ﴾ أن اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت ، ومنهم من لم يقل به ، لأن اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله : ﴿ اختلفوا فِيهِ ﴾ بهذا ، بل الصحيح ما قدمناه .

فإن قال قائل : هل في العقل وجه يدل على أن يوم الجمعة أفضل من يوم السبت ؟ وذلك لأن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام ، وبدأ تعالى بالخلق والتكوين من يوم

الأحد وتم في يوم الجمعة ، فكان يوم السبت يوم الفراغ ، فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الأعمال ، فعينوا السبت لهذا المعنى ، وقالت النصارى : مبدأ الخلق والتكوين هو يوم الأحد ، فنجعل هذا اليوم عيداً لنا ، فهذان الوجهان معقولان ، فما الوجه في جعل يوم الجمعة عيداً لنا ؟

قلنا : يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم ، فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه ، والله أعلم .

(197/445)

والقول الثاني : في اختلافهم في السبت ، أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة ، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ والمعنى : أنه تعالى سيحكم يوم القيامة للمحققين بالثواب وللمبطلين بالعقاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 107.110 ﴾

(198/445)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ إنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَان .

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ ابْنُ وَهْب ، وَابْنُ الْقَاسِمِ ، كِلَاهُمَا عَنْ مَالِكٍ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ .

فَقِيلَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؛ إنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ بِهَذَا إبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إنَّ الْأُمَّةَ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ ، وَإِنَّ الْقَانِتَ هُوَ الْمُطِيعُ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : حَدَّثَنِي فَرْوَةُ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِيُّ قَالَ : قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا .

فَقُلْت فِي نَفْسِي : غَلِطَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، إنَّمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا .

فَقَالَ : أَتَدْرِي مَا الْأُمَّةُ الْقَانِتُ ؟ قُلْت : اللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالَ : الْأُمَّةُ الَّذِي يُعَلِّمُ الْخَيْرَ .

وَالْقَانِتُ لِلَّهِ : الْمُطِيعُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يُعَلِّمُ الْخَيْرَ ، وَكَانَ مُطِيعًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ .

(199/445)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْحَنِيفُ : الْمُخْلِصُ ، وكَانَ إِبْرَاهِيمُ قَائِمًا لِلَّهِ بِحَقِّهِ صَغِيرًا وكَبِيرًا ، آتَاهُ اللَّهُ رُشْدَهُ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ ، فَنَصَحَ لَهُ ، وكَسَّرَ الْأَصْنَامَ ، وبَايَنَ قَوْمَهُ بِالْعَدَاوَةِ ، ودَعَا إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ ، ولَمْ تَأْخُذْهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ؛ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ أَلَّا يَبْعَثَ نَبِيًّا بَعْدَهُ إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وأَعْطَاهُ اللَّهُ أَلَّا يُسَافِرَ فِي الْأَرْضِ ، فَتَخْطُرُ سَارَةُ بِقَلْبِهِ إِلَّا هَتَكَ اللَّهُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا الْحِجَابَ ، فَيَرَاهَا ، وكَانَ أَوَّلَ مَنِ اخْتَتَنَ ، وأَقَامَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ ، وضَحَّى ، وعَمِلَ بِالسُّنَنِ نَحْوَ قَصِّ الْأَظْفَارِ ، ونَتْفِ الْإِبْطِ ، وحَلْقِ الْعَانَةِ ، وأَعْطَاهُ اللَّهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ فِي الدُّنْيَا ، فَاتَّفَقَتْ الْأُمَمُ عَلَيْهِ ، ولَمْ يَنْقُصْ مَا أُعْطِيَ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَظِّهِ فِي الْآخِرَةِ ، وأُوحِيَ إِلَى مُحَمَّدٍ وأُمَّتِهِ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ، فَإِنَّهُ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

فَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ ، ويُعَلِّمَ الْأُمَّةَ ، فَيَكُونَ فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمِلَّةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

(200/445)

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْمُرَادُ بِالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، أَيْ فُرِضَ تَعْظِيمُ يَوْمِ السَّبْتِ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ فَرَغَ مِنْ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، ثُمَّ سَبَّتَ يَوْمَ السَّبْتِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : أَفْضَلُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْأَحَدِ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيهِ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ ، فَاخْتَلَفُوا فِي تَعْظِيمِ غَيْرِ مَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ تَعْظِيمُهُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَحَلُّوهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَا الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ؟ فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي تَعْظِيمِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّانِي : اخْتَلَفُوا فِيهِ ؛ اسْتَحَلَّهُ بَعْضُهُمْ ، وَحَرَّمَهُ آخَرُونَ ؛ قَالَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ .

الثَّالِثُ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : كَانُوا يَطْلُبُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَخْطَئُوهُ ، وَأَخَذُوا السَّبْتَ ، فَفُرِضَ عَلَيْهِمْ .

وَقِيلَ فِي الْقَوْلِ الرَّابِعِ : إنَّهُمْ أُلْزِمُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ عِيدًا ، فَخَالَفُوا وَقَالُوا : نُرِيدُ يَوْمَ السَّبْتِ ؛ لِأَنَّهُ فَرَغَ فِيهِ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ .

الْخَامِسُ : رُوِيَ أَنَّ عِيسَى أَمَرَ النَّصَارَى أَنْ يَتَّخِذُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ عِيدًا ، فَقَالُوا : لَا يَكُونُ عِيدُنَا إلَّا بَعْدَ عِيدِ الْيَهُودِ ، فَجَعَلُوهُ الْأَحَدَ .

وَرُوِيَ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيل : تَفَرَّغُوا إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ فِي يَوْمٍ تَعْبُدُونَهُ ، وَلَا تَعْمَلُونَ فِيهِ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ؛ فَاخْتَارُوا يَوْمَ السَّبْتِ ، فَأَمَرَهُمْ مُوسَى بِالْجُمُعَةِ ، فَأَبَوْا إِلَّا السَّبْتَ ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الَّذِي يُفَصِّلُ هَذَا الْقَوْلَ مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ ﴾ .

فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فَهَذَا الْيَوْمُ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ﴾ ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عُرِضَ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَارَ كُلُّ أَحَدٍ مَا ظَهَرَ إلَيْهِ ، وَأَلْزَمْنَاهُ مِنْ غَيْرِ عَرْضٍ ، فَالْتَزَمْنَاهُ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ فَهَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ : ﴿ فَسَكَتَ ، ثُمَّ قَالَ : حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا ، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ ﴾ .

وَهَذَا مُجْمَلٌ ، فَسَّرَهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : ﴿ غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ ﴾ .

(202/445)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : رُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ حِينَ اخْتَارُوا يَوْمَ السَّبْتِ قَالُوا : إنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ الْخِلْقَةَ يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَأَتَمَّهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَاسْتَرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَنَحْنُ نَتْرُكُ الْعَمَلَ يَوْمَ السَّبْتِ .

فَأَكْذَبَهُمْ اللَّهُ فِي قَوْلِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الْآيَةَ .

فَلَمَّا تَرَكُوا الْعَمَلَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِالْتِزَامِهِمْ ، وَابْتَدَعُوهُ بِرَأْيِهِمْ الْفَاسِدِ ، وَاخْتِيَارِهِمْ الْفَائِلِ ، كَانَ مِنْهُمْ مَنْ رَعَاهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَرَمَهُ فَسَخِطَ اللَّهُ عَلَى الْجَمِيعِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

وَاخْتَارَ اللَّهُ لَنَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَقَبِلْنَا خِيرَةَ رَبِّنَا لَنَا ، وَالْتَزَمْنَا مِنْ غَيْرِ مَثْنَوِيَّةٍ مَا أَلْزَمَنَا ، وَعَرَفْنَا مِقْدَارَ فَضْلِهِ ، فَقَالَ لَنَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : ﴿ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَم ، وَفِيهِ أُهْبِطَ ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مَاتَ ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إلَّا وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ إلَى حِينِ تَطْلُعُ الشَّمْسُ ،

شَفَقًا مِنْ السَّاعَةِ ، إلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إلَّا أَعْطَاهُ إيَّاهُ ﴾ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ هَذَا أَكْثَرُهُ .

(203/445)

وَجَمَعَ لَنَا فِيهِ الْوَجْهَيْنِ : فَضْلَ الْعَمَلِ فِي الْآخِرَةِ ، وَجَوَازَ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا ، وَخَشِيَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا جَرَى لِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنْ التَّنَطُّعِ فِي يَوْمِهِمْ الَّذِي اخْتَارُوهُ ، فَمَنَعَنَا مِنْ صِيَامِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَا تَخُصُّوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ ، وَلَا لَيْلَتَهَا بِقِيَامٍ ﴾ .

وَعَلَى ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ .

وَرَأَى مَالِكٌ أَنَّ صَوْمَهُ جَائِزٌ كَسَائِرِ الْأَيَّامِ .

وَقَالَ : إنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي زَمَانِهِ كَانَ يَصُومُهُ ، وَأُرَاهُ كَانَ يَتَحَرَّاهُ .

وَنَهْيُ النَّبِيِّ عَنْ تَخْصِيصِهِ أَشْبَهُ بِحَالِ الْعَالَمِ الْيَوْمَ فَإِنَّهُمْ يَخْتَرِعُونَ فِي الشَّرِيعَةِ مَا يُلْحِقُهُمْ بِمَنْ تَقَدَّمَ ، وَيَسْلُكُونَ بِهِ سُنَّتَهُمْ ؛ وَذَلِكَ مَذْمُومٌ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ فِيهِ الصَّلَاةَ ، وَلَمْ يَشْرَعْ فِيهِ الصِّيَامَ ، وَشَرَعَ فِيهِ الذِّكْرَ وَالدُّعَاءَ ؛ فَوَجَبَ الِاقْتِفَاءُ لِسُنَّتِهِ ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مَا أَبَانَ مِنْ شِرْعَتِهِ ، وَالْفِرَارُ عَنْ الرَّهْبَانِيَّةِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَ الْخَشْيَةُ مِنْ الْبَاطِلِ الْمَذْمُومِ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ فِيهِ خُلِقَ آدَم ﴾ يَعْنِي: جَمَعَ فِيهِ خَلْقَهُ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، وَهَذَا فَضْلٌ بَيِّنٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فِيهِ أُهْبِطَ إلَى الْأَرْضِ ﴾ يَخْفَى وَجْهُ الْفَضْلِ فِيهِ؛ وَلَكِنَّ الْعُلَمَاءَ أَشَارُوا إلَى أَنَّ وَجْهَ التَّفْضِيلِ فِيهِ أَنَّهُ تِيبَ عَلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَهَبَطَ إلَى الْأَرْضِ لِوَعْدِ رَبِّهِ، حِينَ قَالَ: ﴿ إنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

(204/445)

فَلَمَّا سَبَقَ الْوَعْدُ بِهِ حَقَّقَهُ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَنَفَاذُ الْوَعْدِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَفَضْلٌ عَظِيمٌ، وَوَجْهُ الْفَضْلِ فِي مَوْتِهِ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ لِلِقَائِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَقْتًا لِلِقَائِهِ.

قُلْنَا: يَكُونُ هَذَا أَيْضًا فَضْلًا، يَشْتَرِكُ فِيهِ مَعَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَيَبْقَى لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَضْلُهُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ زَائِدًا عَلَى سَائِرِ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ؛ وَمَنْ شَارَكَ شَيْئًا فِي وَجْهٍ، وَسَاوَاهُ فِيهِ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَفْضُلَهُ فِي وُجُوهٍ أُخَرَ سِوَاهُ.

وَأَمَّا وَجْهُ تَفْضِيلِهِ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ فِيهِ فَلِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ، فَجَعَلَ قُدُومَهُ فِي

أَفْضَلِ الْأَوْقَاتِ ، وَتَكُونُ فَاتِحَتُهُ فِي أَكْرَمِ أَوْقَاتِ سَائِرِ الْأَيَّامِ ، وَمِنْ فَضْلِهِ اسْتِشْعَارُ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَشَوُّقُهَا إلَيْهِ ؛ لِمَا يُتَوَقَّعُ فِيهِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ ؛

إذْ هُوَ وَقْتُ فَنَائِهَا ، وَحِينِ اقْتِصَاصِهَا وَجَزَائِهَا ، حَاشَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ اللَّذَيْنِ رُكِّبَتْ فِيهِمَا الْغَفْلَةُ الَّتِي تَرَدَّدَ فِيهَا الْآدَمِيُّ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَهُمَا رُكْنَا التَّكْلِيفِ ، وَمَعْنَى الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَ فَائِدَةُ جَرَيَانِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَتَمَامُ الْفَضْلِ ، وَوَجْهُ الشَّرَفِ تِلْكَ السَّاعَةُ الَّتِي يَنْشُرُ الْبَارِي فِيهَا رَحْمَتَهُ ، وَيَفِيضُ فِي الْخَلْقِ نَيْلُهُ ، وَيَظْهَرُ فِيهَا كَرْمُهُ ؛ فَلَا يَبْقَى دَاعٍ إلَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ، وَلَا كَرَامَةَ إلَّا وَيُؤْتِيهَا ، وَلَا رَحْمَةَ إلَّا يَبُثُّهَا لِمَنْ تَأَهَّبَ لَهَا ، وَاسْتَشْعَرَ بِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ غَافِلًا عَنْهَا .

وَلَمَّا كَانَ وَقْتًا مَخْصُوصًا بِالْفَضْلِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَوْقَاتِ قَرَنَهُ اللَّهُ بِأَفْضَلِ الْحَالَاتِ لِلْعَبْدِ ، وَهِيَ حَالَةُ الصَّلَاةِ ، فَلَا عِبَادَةَ أَفْضَلُ مِنْهَا ، وَلَا حَالَةَ أَخَصُّ بِالْعَبْدِ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ فِيهَا عِبَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ كُلِّهِمْ ؛ إذْ مِنْهُمْ قَائِمٌ لَا يَبْرَحُ عَنْ قِيَامِهِ وَرَاكِعٌ لَا يَرْفَعُ عَنْ رُكُوعِهِ ، وَسَاجِدٌ لَا يَتَفَصَّى مِنْ سُجُودِهِ ، فَجَمَعَ اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ عِبَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ فِي عِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَامَ فِي سُجُودِهِ بَاهَى اللَّهُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ ، يَقُولُ : يَا مَلَائِكَتِي ، انْظُرُوا عَبْدِي ، رُوحُهُ عِنْدِي ، وَبَدَنُهُ فِي طَاعَتِي ﴾ .

(206/445)

وَصَارَتْ هَذِهِ السَّاعَةُ فِي الْأَيَّامِ كَلَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي اللَّيَالِي فِي مَعْنَى الْإِبْهَامِ ، لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ فِي أَنَّ إِبْهَامَهَا أَصْلَحُ لِلْعِبَادِ مِنْ تَعْيِينِهَا لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا لَوْ عُلِمَتْ وَهَتَكُوا حُرْمَتَهَا مَا أُمْهِلُوا ، وَإِذَا أُبْهِمَتْ عَلَيْهِمْ عَمَّ عَمَلُهُمْ الْيَوْمَ كُلَّهُ وَالشَّهْرَ كُلَّهُ ، كَمَا أُبْهِمَتْ الْكَبَائِرُ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ ، وَهُوَ جَانِبُ السَّيِّئَاتِ ، لِيَجْتَنِبَ الْعَبْدُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَخْلَصَ لَهُ

،

فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ تَحْصِيلَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَلْيَقُمْ الْحَوْلَ عَلَى رَأْيِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، أَوْ الشَّهْرَ كُلَّهُ عَلَى رَأْيِ آخَرِينَ ، أَوْ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ عَلَى رَأْيِ كُلِّ أَحَدٍ .

وَلَقَدْ كُنْت فِي الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ ، وَكَانَ بِهَا مُتَعَبِّدٌ يَتَرَصَّدُ سَاعَةَ الْجُمُعَةِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَثَلًا خَلَا بِرَبِّهِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إلَى الضُّحَى ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، فَإِذَا كَانَ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ خَلَا بِرَبِّهِ مِنْ الضُّحَى إلَى زَوَالِ الشَّمْسِ ، فَإِذَا كَانَ فِي الْجُمُعَةِ الثَّالِثَةِ خَلَا بِرَبِّهِ مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إلَى الْعَصْرِ ، ثُمَّ انْقَلَبَ ، فَإِذَا كَانَ فِي الْجُمُعَةِ الرَّابِعَةِ خَلَا

بِرَبِّهِ مِنْ الْعَصْرِ إلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ ، فَتَحْصُلُ لَهُ السَّاعَةُ فِي أَرْبَعِ جُمَعٍ ، فَاسْتَحْسَنَ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْهُ .

(207/445)

وَقَالَ لَنَا شَيْخُنَا أَبُو بَكْرٍ الْفِهْرِيُّ : هَذَا لَا يَصِحُّ لَهُ ؛ لِأَنَّ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَرْصُدُهَا مِنْ الزَّوَالِ إلَى الْعَصْرِ تَكُونُ مِنْ الْعَصْرِ إلَى الْغُرُوبِ ، وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي تَكُونُ مِنْ الْعَصْرِ إلَى الْغُرُوبِ يَتَرَصَّدُهَا هُوَ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ إلَى الضُّحَى ؛ إذْ يُمْكِنُ أَنْ تَنْتَقِلَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ؛ يَشْهَدُ لِصِحَّةِ ذَلِكَ انْتِقَالُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي لَيَالِي الشَّهْرِ ؛ فَإِنَّهَا تَكُونُ فِي كُلِّ عَامٍ فِي لَيْلَةٍ ، لَا تَكُونُ فِيهَا فِي الْعَامِ الْآخَرِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَبَ لَهُمْ عَلَيْهَا عَلَامَةً مَرَّةً ، فَوَجَدُوا تِلْكَ الْعَلَامَةَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، وَسَأَلَهُ آخَرُ مَتَى يَنْزِلُ : فَإِنَّهُ شَاسِعُ الدَّارِ ؟ فَقَالَ لَهُ : انْزِلْ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ ، وَمَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُعَلِّمَ عَلَامَةً فَلَا يَصْدُقُ ، وَمَا كَانَ أَيْضًا لِيَسْأَلَهُ سَائِلٌ ضَعِيفٌ لَا يُمْكِنُهُ مُلَازَمَتُهُ عَنْ أَفْضَلِ

وَقْتٍ يَنْزِلُ إلَيْهِ فِيهِ ، وَأَكْرَمِ لَيْلَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا ، لِيَحْصُلَ لَهُ فَضْلُهُ ، فَيَحْمِلَهُ عَلَى النَّاقِصِ عَنْ

غَيْرِهِ، الْمَحْظُوظِ عَنْ سِوَاهُ، وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَرَادَ تَحْصِيلَ السَّاعَةِ عَمَرَ الْيَوْمَ كُلَّهُ بِالْعِبَادَةِ، أَوْ تَحْصِيلَ اللَّيْلَةِ قَامَ الشَّهْرَ كُلَّهُ فِي جَمِيعِ لَيَالِيهِ.

(208/445)

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا خَرَجَ إِلَى الْوُضُوءِ، أَوْ اشْتَغَلَ بِالْأَكْلِ، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، وَهُوَ غَيْرُ دَاعٍ وَلَا سَائِلٍ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُ؟ قُلْنَا: إِذَا كَانَ وَقْتُهُ كُلُّهُ مَعْمُورًا بِالْعِبَادَةِ وَالدُّعَاءِ، فَجَاءَتْ وَقْتَ الْوُضُوءِ أَوْ الْأَكْلِ أُعْطِيَ طَلِبَتَهُ، وَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، وَلَمْ يُحَاسَبْ مِنْ أَوْقَاتِهِ بِمَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، عَلَى أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْ عُلَمَائِنَا مَنْ قَالَ: إِذَا تَوَضَّأَ أَوْ أَكَلَ، فَاشْتَغَلَ بِذَلِكَ بَدَنُهُ وَلِسَانُهُ، فَلْيُقْبِلْ عَلَى الطَّاعَةِ بِقَلْبِهِ، حَتَّى يَلْقَى تِلْكَ السَّاعَةَ مُتَعَبِّدًا بِقَلْبِهِ.

وَهَذَا حَسَنٌ، وَهُوَ عِنْدِي غَيْرُ لَازِمٍ؛ بَلْ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ مُلَازِمًا لِلْعِبَادَةِ، مَا عَدَا أَوْقَاتِ الْوُضُوءِ وَالْأَكْلِ، فَيُعْفَى عَنْهُ فِيهَا، وَيُعْطَى عِنْدَهَا كُلَّ مَا سَأَلَ فِي غَيْرِهَا بِلُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ لَهُمْ، وَعُمُومِ فَضْلِهِ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ.

عَلَى أَنَّ مُسْلِمًا قَدْ كَشَفَ الْغِطَاءَ عَنْ هَذَا الْخَفَاءِ، فَقَالَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ ﴿ سُئِلَ عَنْ السَّاعَةِ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: هِيَ مِنْ جُلُوسِ الْإِمَامِ عَلَى الْمِنْبَرِ إِلَى

انْقِضَاءِ الصَّلَاةِ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ جَلِيٌّ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصٌّ فِي أَنَّهَا بَعْدَ الْعَصْرِ ، وَلَا يَصِحُّ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(209/445)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إنّ إبراهيم كان أمّةً ﴾

فيه ثلاثة تأويلات : أحدها : يُعلّم الخير ، قاله ابن مسعود وإبراهيم النخعي . قال زهير :

فأكرمه الأقوام من كل معشر . . . كرام فإن كذبتني فاسأل الأمم

يعني العلماء .

الثاني : أمة يقتدى به ، قاله الضحاك . وسمي أمة لقيام الأمة به . الثالث : إمام يؤتم به ، قاله الكسائي وأبو عبيدة . ﴿ قانتاً لله ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : مطيعاً لله ، قاله ابن مسعود .

الثاني : إن القانت هو الذي يدوم على العبادة لله .

الثالث : كثير الدعاء لله عز وجل .

﴿ حنيفاً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : مخلص ، قاله مقاتل .

الثاني : حاجّا ، قاله الكلبي .

الثالث : أنه المستقيم على طريق الحق ، حكاه ابن عيسى .

﴿ ولم يَكُ من المشركين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لم يك من المشركين بعبادة الأصنام .

الثاني : لم يك يرى المنع والعطاء إلا من اللّه .

﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الحسنة النبوة ، قاله الحسن .

الثاني : لسان صدق ، قاله مجاهد .

الثالث : أن جميع أهل الأديان يتولونه ويرضونه ، قاله قتادة .

الرابع : أنها تنوية الله بذكره في الدنيا بطاعته لربه . حكاه ابن عيسى .

ويحتمل خامساً : أنه بقاء ضيافته وزيارة الأمم لقبره .

﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في منازل الصالحين في الجنة .

الثاني : من الرسل المقربين .

قوله عز وجل : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : اتباعه في جميع ملته إلا ما أمر بتركه ، وهذا قول بعض أصحاب الشافعي ، وهذا دليل على جواز الأفضل للمفضول لأن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء .

الثاني : اتباعه في التبرؤ من الأوثان والتدين بالإسلام ، قاله أبو جعفر الطبري .

قوله عز وجل : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾

وهم اليهود وفي اختلافهم في السبت ثلاثة أقاويل :

(210/445)

أحدها : أن بعضهم جعله أعظم الأيام حُرْمَةً لأن الله فرغ من خلق الأشياء فيه .

الثاني : أن بعضهم جعل الأحد أعظم حُرمة منه لأن الله ابتدأ خلق الأشياء فيه .

الثالث : أنهم عدلوا عما أمروا به من تعظيم الجمعة تغليباً لحرمة السبت والأحد ، قاله مجاهد وابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(211/445)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

لما كشف الله تعالى فعل اليهود وتحكمهم في شرعهم بذكر ما حرم عليهم ، أراد أن يبين بُعدهم عن شرع إبراهيم والدعوى فيه أن يصف حال إبراهيم ليبين الفرق بين حاله وحال قريش أيضاً ، و﴿ أمة ﴾ لفظة مشتركة تقع للعين والقامة والجمع الكثير من الناس ، ثم يشبه الرجل العالم أو الملك أو المنفرد بطريقة وحده بالناس الكثير فيسمى ﴿ أمة ﴾ ، وعلى هذا الوجه سمي إبراهيم عليه السلام ﴿ أمة ﴾ ، قال ابن مسعود : " الأمة " معلم الخير ، وكان معاذ بن جبل " أمة قانتاً " ، وقال في بعض أوقاته إن معاذاً كان ﴿ أمة قانتاً ﴾ فقال قرة الكندي أو فروة بن نوفل : ليس كذلك إنما هو إبراهيم ، فقال أتدري ما الأمة ، هو معلم الخير وكذلك كان معاذ يعلم الخير ويطيع الله ورسوله ، وقال مجاهد : سمي إبراهيم ﴿ أمة ﴾ لانفراد بالإيمان في وقته مدة .

قال القاضي أبو محمد : وفي البخاري أنه قال لسارة ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك ، وقال بعض النحويين ، أظنه أبا الحسن الأخفش : " الأمة " فعلة من أم يؤم فهو كالهُزْأة والضحكة أي يؤتم به .

قال القاضي أبو محمد : ف ﴿ أمة ﴾ على هذا صفة ، وعلى القول الأول اسم ليس بصفة ، و" القانت " المطيع الدائم على العبادة ، و" الحنيف " المائل إلى الخير والإصلاح ، وكانت العرب تقول ، لمن يختتن ويحج البيت حنيفاً ، وحذف النون من " لم يكن " لكثرة الاستعمال كحذفهم من لا أبال ولا أدر ، وهو أيضاً يشبه النون في حال سكونها حروف العلة لغنتها وخفتها وأنها قد تكون علامة وغير ذلك ، فكأن " لم " دخلت على " يكن " في حال الجزم . ولا تحذف النون إذا لم تكن ساكنة في نحو قوله ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ [البينة : 1] ولا يحذف في مثل هذا إلا في الشعر فقد جاءت محذوفة ، وقوله ﴿ من المشركين ﴾ يشير إلى تبرؤ حال إبراهيم عليه السلام من حال مشركي العرب ومشركي اليهود إذ كلهم ادعاه ويلزم الإشراك اليهود من جهة تجسيمهم ، و﴿ شاكراً ﴾ ، صفة لإبراهيم تابعة ما تقدم ، و" الأنعم " جمع نعمة ، و﴿ اجتباه ﴾ معناه تخيره ، وباقي الآية بين . وقوله ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ الآية ، " الحسنة " لسان الصدق وإمامته لجميع الخلق ، هذا قول جميع المفسرين وذلك أن كل أمة متشرعة فهي مقرة أن إيمانها إيمان إبراهيم وأنه قدوتها وأنه كان على الصواب . وقوله ﴿ لمن الصالحين ﴾ بمعنى المنعم عليهم أي من

الصالحين في أحوالهم ومراتبهم ، أو بمعنى أنه في الآخرة ممن يحكم له بحكم الصالحين في الدنيا ، وهذا على أن الآية وصف حاليه في الدارين ، ويحتمل أن يكون المعنى وأنه في عمل الآخرة ، فعلى هذا هي وصف حالي في الدنيا الدنياوية والأخراوية .

(213/445)

وقوله ﴿ ثم أوحينا إليك ﴾ الآية ، الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم بهذا من جملة الحسنة التي آتاها الله إبراهيم ، قال ابن فورك وأمر الفاضل باتباع المفضول لما تقدم إلى الصواب والعمل به و ﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن اتبع ﴾ مفسرة ، ويجوز أن تكون مفعولة ، و" الملة " الطريقة في عقائد الشرع ، و ﴿ حنيفاً ﴾ حال ، والعامل فيه الفعلية التي في قوله ﴿ ملة إبراهيم ﴾ ، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير المرفوع في ﴿ اتبع ﴾ قال مكي : ولا يكون حالاً من إبراهيم ، لأنه مضاف إليه : وليس كما قال لأن الحال قد تعمل فيه حروف الخفض إذا عملت في ذي الحال ، كقولك مررت بزيد قائماً ، وقوله ﴿ إنما جعل السبت ﴾ أي لم يكن من ملة إبراهيم وإنما جعله الله فرضاً عاقب به القوم المختلفين فيه ، قاله ابن زيد ، وذلك أن موسى أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة وأمرهم أن يكون الجمعة ، فقال جمهورهم : بل يكون يوم السبت لأن الله فرغ فيه من خلق مخلوقاته ، فقال

غيرهم : بل نقبل ما أمر الله به موسى ، فراجعهم الجمهور فتا بعهم الآخرون فالزمهم الله يوم السبت إلزاماً قوياً عقوبة لهم منه ، فلم يكن منهم ثبوت بل عصوا فيه وتعدوا فأهلكهم ، وقرأ الأعمش " إنما أنزلنا السبت " ، وهي قراءة ابن مسعود وقرأ أبو حيوة " جَعَل " بفتح الجيم والعين .

قال القاضي أبو محمد : وورد في الحديث أن اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يختص من الجمعة فأخذ هؤلاء السبت وهؤلاء الأحد فهدانا الله نحن إلى يوم الجمعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه " ، فليس الاختلاف المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث ، وباقي الآية وعيد بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(214/445)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ﴾

دعا عليه السلام مشركي العرب إلى مِلّة إبراهيم ؛ إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عِزهم ؛ والأمّة : الرجل الجامع للخير ، وقد تقدم محامله .

وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغني أن عبد الله بن مسعود قال : يرحم الله معاذا ! كان أُمّة قانتا .

فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام .

فقال ابن مسعود : إن الأمّة الذي يعلّم الناس الخير ، وإن القانت هو المطيع .

وقد تقدم القنوت في البقرة و "حنيفا" في الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ شَاكِراً ﴾ أي كان شاكراً .

﴿ لأَنْعُمِهِ ﴾ الأَنعم جمع نِعْمة ، وقد تقدم .

﴿ اجتباه ﴾ أي اختاره .

﴿ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ قيل : الولد الطيب .

وقيل الثناء الحسن .

وقيل : النبوّة .

وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام في التشهد .

وقيل : إنه ليس أهل دين إلاّ وهم يتولّوْنه .

وقيل : بقاء ضيافته وزيارة قبره .

وكل ذلك أعطاه الله وزاده صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ .

"مِن" بمعنى مع ، أي مع الصالحين ؛ لأنه كان في الدنيا أيضاً مع الصالحين .

وقد تقدم هذا في البقرة .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) ﴾

قال ابن عمر : أمِر باتباعه في مناسك الحج كما علّم إبراهيمَ جبريل عليهما السلام .

وقال الطبري : أمِر باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام .

وقيل : أمِر باتباعه في جميع ملته إلا ما أمر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعي على ما حكاه الماوردي .

والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : 48] .

(215/445)

مسألة : في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول لما تقدم إلى الصواب والعمل به ، ولا دَرَك على الفاضل في ذلك ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمِر بالاقتداء بهم فقال : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

وقال هنا : "ثم أوحينا إِلَيْكَ أن اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾

أي لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه ، بل كان سَمْحا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسط في المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوماً واحداً .

فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد .

وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛ فقالت طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : دعهم وما اختاروه لأنفسهم .

وقيل : إن الله تعالى لم يعيّنه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهادهم في تعيينه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق .

وعينت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق .

فألزِم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده .

وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يَكِلَهم إلى اجتهادهم فضلاً منه ونعمة ، فكانت خيرَ الأمم أمة .

روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له قال يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى " فقوله : " فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه " يقوّي قول من قال : إنه لم يعيّن لهم ؛ فإنه لو عيّن لهم وعاندوا لما قيل "اختلفوا" .

وإنما كان ينبغي أن يقال فخالفوا فيه وعاندوا .

ومما يقوّيه أيضاً قوله عليه السلام : " أضل الله عن الجمعة مَن كان قبلنا " وهذا نص في المعنى .

وقد جاء في بعض طرقه " فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم اختلفوا فيه " وهو حجة للقول الأول .

وقد روي : " إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تَبَعٌ " .

قوله تعالى : ﴿ على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ يريد في يوم الجمعة كما بيناه ؛ اختلفوا على نبيّهم موسى وعيسى .

ووجه الاتصال بما قبله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمِر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(217/445)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾

حكى ابن الجوزي عن ابن الأنباري أنه قال : هذا مثل قول العرب : فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه به .

والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله تبارك وتعالى ﴿ فنادته الملائكة ﴾ وإنما ناداه جبريل وحده ، وإنما سمي إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) أمة لأنه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير الأخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة .

ومنه قول الشاعر :

ليس على الله بمستنكر . . .

أن يجمع العالم في واحد

ثم للمفسرين في معنى اللفظة أقوال أحدها : قول ابن مسعود : الأمة معلم الخير يعني أنه كان معلماً للخير يأتّم به أهل الدنيا .

والثاني قال مجاهد : إنه كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان أمة واحدة ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) في زيد بن عمرو بن نفيل " يبعثه الله أمة واحدة " وإنما قال فيه المقالة لأنه كان فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الأصنام .

والثالث قال قتادة : ليس من أهل دين إلا وهم يتلونه ويرضونه ، وقيل : الأمة فعلة بمعنى مفعولة ، وهو الذي يؤتم به وكان إبراهيم عليه السلام إماماً يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى

﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ وقيل إنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو من باب إطلاق المسبب على السبب ، وقيل : إنما سمي إبراهيم عليه السلام أمة لأنه قام مقام أمة في عبادة الله ﴿ قانتاً لله ﴾ يعني مطيعاً لله وقيل هو القائم بأوامر الله ﴿ حنيفاً ﴾ مسلماً يعني مقيماً على دين الإسلام لا يميل عنه ولا يزول .

وهو أو من اختتن وضحّى ، وأقام مناسك الحج ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ يعني أنه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره إلى كبره ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ يعني أنه كان شاكراً لله على أنعمه التي أنعم بها عليه ﴿ اجتباه ﴾ أي اختاره لنبوته واصطفاه لخلته ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ يعني هداه إلى دين الإسلام لأنه الصراط المستقيم والدين القويم ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ يعني الرسالة والخلة .

وقيل : هي لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام في جميع الأمم فإن الله حببه إلى جميع خلقه فكل أهل الأديان يتلونه المسلمون واليهود والنصارى ، ومشركو العرب وغيرهم ، وقيل : هو قول المصلي في التشهد : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

وقيل إنه آتاه أولاداً أبراراً على الكبر ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ يعني في أعلى مقامات الصالحين في الجنة .

وقيل : معناه وإنه في الآخرة لمن الصالحين يعني الأنبياء في الجنة فتكون من بمعنى مع ولما وصف الله إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية ، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه سلم باتباعه فقال تعالى ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم ﴾ يعني دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد .

قال أهل الأصول : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) مأموراً بشريعة إبراهيم إلا ما نسخ

منها وما لم ينسخ صار شرعاً له ، وقال أبو جعفر الطبري أمره باتباعه في التبري من الأوثان والدين بدين الإسلام وهو قوله ﴿ حنيفاً ﴾ مسلماً ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تقدم تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾

يعني إنما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود .

(219/445)

روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : أمرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال : تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً فاعبدوه في يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئاً من صنعتكم وستة أيام لصنعتكم ، فأبوا عليه وقالوا لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق ، وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضاً بيوم الجمعة .

فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الأحد فأعطى الله الجمعة لهذه الأمة فقبلوها ، فبورك لهم فيها (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا

فاختلفوا فيه ، وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي فرض عليهم ، فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغداً لليهود ، وبعد غد للنصارى " وفي رواية لمسلم " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أو من يدخل الجنة " وفي رواية أخرى له قال " أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود السبت وللنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون في الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق " قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم : قال العلماء في معنى الحديث : نحن الآخرون في الزمان والوجود السابقون في الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الأمة الجنة قبل سائر الأمم .

وقوله بيد أنهم يعني غير أنهم أو إلا أنهم .

(220/445)

وقوله فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال : القاضي عياض الظاهر أنهم فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل إلى اجتهادهم لإقامة شرائعهم فيه ، فاختلف أحبارهم في تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الأمة مبيناً ، ولم يكلهم إلى اجتهادهم ففازوا بفضيلته قال : يعني القاضي عياضاً وقد جاء أن موسى عليه

السلام أمرهم بيوم الجمعة ، وأعلمهم بفضله فناظروه أن السبت أفضل .

فقيل له دعهم .

قال القاضي : ولو كان منصوصاً عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول : خالفوه فيه .

قال الشيخ محيي الدين النووي : ويمكن أن يكونوا أمروا به صريحاً ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم إبداله فأبدلوه ، وغلطوا في إبداله .

قال الإمام فخر الدين الرازي في قوله تعالى ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ يعني على نبيهم موسى ، حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم ، أي لأجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه أن اليهود اختلفوا ، فمنهم من قال بالسبت ، ومنهم من لم يقل به ، لأن اليهود اتفقوا على ذلك .

وزاد الواحدي على هذا فقال : وهذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم : معنى الاختلاف في السبت أن بعضهم قال : هو أعظم الأيام حرمة لأن الله فرغ من خلق الأشياء ، وقال الآخرون بل الأحد أفضل لأن الله سبحانه وتعالى ، ابتدأ فيه بخلق الأشياء ، وهذا غلط لأن اليهود لم يكونوا فريقين في السبت ، وإنما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان طويل .

فإن قلت إن اليهود إنما اختاروا السبت ، لأن أهل الملل اتفقوا على أن الله خلق الخلق في ستة أيام وبدأ الخلق والتكوين في يوم الأحد ، وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك العمل في هذا اليوم ، فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى : إنما بدأ بخلق الأشياء في يوم الأحد فنحن نجعل هذا اليوم عيداً لنا ، وهذان الوجهان معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله أهل الإسلام عيداً ؟ قلت : يوم الجمعة أفضل الأيام لأن كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيداً بهذا الوجه وهو أولى .

ووجه آخر وهو أن الله خلق فيه أشرف خلقه ، وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة أشرف الأيام لهذا السبب ، ولأن الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الأمة وادخره لهم ولم يختاروا لأنفسهم شيئاً ، وكان ما اختاره الله لهم أفضل مما اختاره غيرهم لأنفسهم ، وقال بعض العلماء : بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الأحد في شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت ، ويوم الأحد بيوم الجمعة في شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) فكان أفضل الأيام يوم الجمعة كما أن محمد (صلى الله عليه وسلم) أفضل الأنبياء .

وفي معنى الآية قول آخر قال قتادة : الذي اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم ، وحرمه

بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله إنما جعل السبت أي وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه ، وهم اليهود فأحله بعضهم فاصطادوا فيه فلُعنوا ومسخوا قردة وخنازير في زمن داود عليه السلام ، وقد تقدمت القصة في تفسير سورة الأعراف وبعضهم ثبت على تحريمه ، فلم يصطد فيه شيئاً وهم الناهون والقول الأول أقرب إلى الصحة .

(222/445)

وقوله تعالى ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ يعني في أمر السبت فيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازي المحقيين بالثواب المبطلين بالعقاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(223/445)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

لما أبطل تعالى مذاهب المشركين في هذه السورة من إثبات الشركاء لله ، والطعن في نبوّة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وتحليل ما حرّم ، وتحريم ما أحل ، وكانوا مفتخرين بجدهم إبراهيم عليه السلام مقرين بحسن طريقته ووجوب الاقتداء به ، ذكره في آخر السورة وأوضح منهاجه ، وما كان عليه من توحيد الله تعالى ورفض الأصنام ، ليكون ذلك حاملاً لهم على الاقتداء به .

وأيضاً فلما جرى ذكر اليهود بيَّن طريقة إبراهيم ليظهر الفرق بين حاله وحالهم ، وحال قريش .

وقال مجاهد : سمي أمّة لانفراده بالإيمان في وقته مدّة ما .

وفي البخاري أنه قال لسارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك .

والأمة لفظ مشترك بين معان منها : الجمع الكثير من الناس ، ثم يشبه به الرجل الصائم ، أو الملك ، أو المنفرد بطريقة وحده عن الناس فسمي أمة ، وقاله ابن مسعود والفراء وابن قتيبة .

وقال ابن عباس : كان عنده من الخير ما كان عنده أمة ، ومن هنا أخذ الحسن بن هانىء قوله :

وليس على الله بمستنكر . . .

أن يجمع العالم في واحد

وعن ابن مسعود : إنه معلم الخير ، وأطلق هو وعمر ذلك على معاذ فقال : كان أمة قانتاً .

وقال ابن الأنباري : هذا مثل قول العرب : فلان رحمة ، وعلامة ، ونسابة ، يقصدون بالتأنيث التناهي في المعنى الموصوف به .

وقيل : الأمة الإمام الذي يقتدي به من أم يؤم ، والمفعول قد يبنى للكثرة على فعلة وتقدم تفسير القانت ، والحنيف : شاكراً لأنعمة .

روي أنه كان لا يتغدى إلا مع ضيف ، فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداه ، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر ، فدعاهم إلى الطعام ، فخيلوا أنَّ بهم جذاماً فقال : الآن وجبت مؤاكلتكم ، شكر الله على أنه عافاني وابتلاكم .

ورتيناه في الدنيا حسنة ، قال قتادة : حببه الله تعالى إلى كل الخلق ، فكل أهل الأديان يتولونه اليهود والنصارى والمسلمون ، وخصوصاً كفار قريش ، فإنّ فخرهم إنما هو به ، وذلك بإجابة دعوته .

﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ وقيل : الحسنة قول المصلي منا : كما صليت على إبراهيم .

وقال ابن عباس : الذكر الحسن .

وقال الحسن : النبوة .

وقال مجاهد : لسان صدق .

وقال قتادة : القبول ، وعنه تنويه الله بذكره .

وقيل : الأولاد الأبرار على الكبر .

وقيل : المال يصرفه في الخير والبر .

﴿ وإنه لمن الصالحين ﴾ ، تقدم الكلام على هذه الجملة في البقرة ، ولما وصف إبراهيم عليه السلام بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يتبع ملته ، وهذا الأمر من جملة الحسنة التي آتاها الله إبراهيم في الدنيا .

قال ابن فورك : وأمر الفاضل باتباع المفضول ، لما كان سابقاً إلى قول الصواب والعمل به .

وقال الزمخشري : ثم أوحينا في ثم هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وإجلال محله ، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتي بخليل الله إبراهيم عليه السلام من الكرامة ، وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ملته ، من قبل أنها على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليها بها انتهى .

وأنْ تفسيرية ، أو في موضع المفعول .

واتباع ملته قال قتادة : في الإسلام ، وعنه أيضاً : جميع ملته إلا ما أمر بتركه .

وعن عمرو بن العاص : مناسك الحج .

وقال القرطبي : الصحيح عقائد الشرع دون الفروع لقوله : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وقيل : في التبري من الأوثان .

وقال قوم كان على شريعة ابراهيم ، وليس له شرع ينفرد به ، وإنما المقصود من بعثه إحياء شرع ابراهيم عليه السلام .

قال أبو عبد الله الرازي : وهذا القول ضعيف ، لأنه وصف إبراهيم في هذه الآية بأنه ما كان من المشركين ، فلما قال : اتبع ملة ابراهيم ، كان المراد ذلك .

فإن قيل : النبي (صلى الله عليه وسلم) إنما نفى الشرك وأثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية ، وإذا كان كذلك لم يكن متابعاً له ، فيمتنع حمل قوله : أن اتبع ، على هذا المعنى ، فوجب حمله على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها .

(قلت) : يحتمل أن يكون المراد متابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد ، وهي أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة ، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن انتهى .

ولا يحتاج إلى هذا ، لأنّ المعتقد الذي تقتضيه دلائل العقول لا يمتنع أنْ يوحي لتظافر المعقول والمنقول على اعتقاده .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ فليس اعتقاد الوحدانية بمجرد الوحي فقط ، وإنما تظافر المنقول عن الله في ذلك مع دليل العقل .

وكذلك هنا أخبر تعالى أنّ ابراهيم لم يكن مشركاً ، وأمر الرسول باتباعه في ذلك ، وإن كان انتفاء الشرك ليس مستنده مجرد الوحي ، بل الدليل العقلي والدليل الشرعي تظافراً على ذلك .

وقال ابن عطية : قال مكي : ولا يكون يعني حنيفاً حالاً من ابراهيم لأنه مضاف إليه ، وليس كما قال لأنّ الحال قد تعمل فيها حروف الخفض إذا عملت في ذي الحال كقولك : مررت بزيد قائماً انتهى .

أما ما حكى عن مكي وتعليله امتناع ذلك بكونه مضافاً إليه ، فليس على إطلاق هذا التعليل لأنه إذا كان المضاف إليه في محل رفع أو نصب ، جازت الحال منه نحو : يعجبني قيام زيد مسرعاً ، وشرب السويق ملتوتاً .

وقال بعض النحاة : ويجوز أيضاً ذلك إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه كقوله : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً ﴾ أو كالجزء منه كقوله : ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾

وقد بينا الصحيح في ذلك فيما كتبناه على التسهيل ، وعلى الألفية لابن مالك .

وأما قول ابن عطية في رده على مكي بقوله : وليس كما قال ، لأنّ الحال إلى آخره فقول بعيد عن قول أهل الصنعة ، لأن الباء في بزيد ليست هي العاملة في قائماً ، وإنما العامل في الحال مررت ، والباء وإن عملت الجر في زيد فإنّ زيداً في موضع نصب بمررت ، وكذلك إذا حذف حرف الجر حيث يجوز حذفه نصب الفعل ذلك الاسم الذي كان مجروراً بالحرف .

ولما أمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) باتباع ملة ابراهيم عليه السلام ، وكان الرسول قد اختار يوم الجمعة ، فدل ذلك على أنه كان في شرع ابراهيم ، بين أنّ يوم السبت لم يكن تعظيمه ، واتخاذه للعبادة من شرع ابراهيم ولا دينه ، والسبت مصدر ، وبه سمي اليوم .

وتقدم الكلام في هذا اللفظ في الأعراف .

قال الزمخشري : سبتت اليهود إذا عظمت سبتها والمعنى : إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، واختلافهم فيه : أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة ، وكان الواجب عليهم أنْ يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعدما حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه ، والمعنى في ذكر ذلك نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً ، وغير ما ذكر وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته .

(فإن قلت) : فما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرمين؟ (قلت) : معناه أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرمين أخرى ، ووجه آخر وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أنْ يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة ، وأن يكون يوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا : نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت ، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة ، فهذا اختلافهم في السبت ، لأنّ بعضهم اختاره ، وبعضهم اختار عليه الجمعة ، فأذن الله لهم في السبت ، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون ، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك .

وهو يحكم بينهم يوم القيامة ، فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه .

ومعنى جعل السبت : فرض عليهم تعظيمه ، وترك الاصطياد فيه انتهى .

وهو كلام ملفق من كلام المفسرين قبله .

وقال الكرماني : عدي جعل بعلى ، لأن اليوم صار عليهم لا لهم ، لارتكابهم المعاصي فيه انتهى .

ولهذا قدره الزمخشري : إنما جعل وبال السبت .

وقال الحسن : جعل السبت لعنة عليهم بأن جعل منهم القردة .

وقال ابن عباس : إن الله سبحانه قال : ذروا الأعمال في يوم الجمعة وتفرغوا فيه لعبادتي ، فقالوا : نريد السبت ، لأن الله تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض ، فهو أولى بالراحة .

وقرأ أبو حيوة : جعل بفتح الجيم والعين مبنياً للفاعل ، وعن ابن مسعود والأعمش : أنهما قرآ إنما أنزلنا السبت ، وهي تفسير معنى لا قراءة ، لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه ، ولما استفاض عن الأعمش وابن مسعود أنهما قرآ كالجماعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(228/445)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾

على حياله لحيازته من الفضائل البشريةِ ما لا تكاد توجد إلا متفرّقةً في أمة جمّةً حسبما قيل

ليس على الله بمستَنْكَر . . . أن يجمع العالَمَ في واحدِ

وهو رئيسُ أهل التوحيد وقدوةُ أصحابِ التحقيق جادل أهلَ الشرك وألقمهم الحجرَ ببينات باهرةٍ لا تُبقي ولا تذر ، وأبطل مذاهبَهم الزائفةَ بالبراهين القاطعة والحُججِ الدامغة ، أو لأنه عليه السلام كان مؤمناً وحده والناسُ كلُّهم كفارٌ . وقيل : هي فُعْلة بمعنى مفعول كالرُّحلة والنُّخبة ، من أمّه إذا قصده أو اقتدى به فإن الناسَ كانوا يقصِدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى :

﴿ إِنِّى جاعلكِ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ وإيرادُ ذكره عليه السلام عَقيبَ تزييفِ مذاهبِ المشركين من الشرك والطعنِ في النبوة وتحريمِ ما أحله الله تعالى للإيذان بأن حقّيةَ دينِ الإسلام وبطلانَ الشرك وفروعِه أمرٌ ثابت لا ريب فيه ﴿ قانتاً لِلَّهِ ﴾ مطيعاً له قائماً بأمره ﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلاً عن كل دينٍ باطل إلى الدين الحقّ غيرَ زائلٍ عنه بحال ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ في أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً صرح بذلك مع ظهوره لا رداً على كفار قريشٍ فقط في قولهم : نحن على ملة أبينا إبراهيمَ بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ في افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ما هم عليه كقوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ إِبراهيم يَهُودِيّا وَلاَ نَصْرَانِيّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ إذ به ينتظم أمر إيراد التحريم والسبت سابقاً ولاحقاً .

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ صفةٌ ثالثة لأُمةً ، وإنما أوثر صيغةُ جمعِ القلة للإيذان بأنه عليه السلام كان لا يُخِلُّ بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفرانَ بأنعم الله تعالى حسبما بيّن ذلك بضرب المثل ﴿ اجتباه ﴾ للنبوة ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصلٍ إليه سبحانه وهو ملةُ الإسلامِ ، وليست نتيجةُ هذه الهدايةِ مجردَ اهتدائِه عليه السلام بل مع إرشاد الخلقِ أيضاً بمعونة قرينةِ الاجتباء .

(230/445)

﴿ وءاتيناه فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ حالةً حسنةً من الذكر الجميل والثناءِ فيما بين الناس قاطبةً حتى إنه ليس من أهل دينٍ إلا وهم يتولَّوْنه ، وقيل : هي الخُلّة والنبوةُ ، وقيل : قولُ المصلِّي منا كما صليتَ على إبراهيمَ ، والالتفاتُ إلى التكلم لإظهار كمالِ الاعتناء بشأنه وتفخيمِ مكانه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِنَّهُ فِى الأخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ أصحابِ الدرجات العالية في الجنة حسبما سأله بقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين واجعلنى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم . ﴾ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ مع طبقتك وسموِّ رتبتك ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ الملةُ اسمٌ لما شرعه الله تعالى لعباده على

لسان الأنبياءِ عليهم السلام من أمللتُ الكتابَ إذا أمليتُه ، وهو الدينُ بعينه لكنْ باعتبار الطاعة له وتحقيقُه أن الوضع الإلهي مهما نُسب إلى من يؤدّيه عن الله تعالى يسمّى ملةً ، ومهما نُسب إلى من يُقيمه ديناً . قال الراغب : الفرق بينهما أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه السلام ولا تكاد توجد مضافةً إلى الله سبحانه وتعالى ولا إلى آحاد الأمة ولا تستعمل إلا في جملة الشرائعِ دون آحادها ، والمرادُ بملّته عليه السلام الإسلامُ الذي عُبّر عنه آنفاً بالصراط المستقيم ﴿ حَنِيفاً ﴾ حالٌ من المضاف إليه لما أن المضافَ لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعضِ فقُيّد بذلك ، من قبيل : رأيتُ وجهَ هندٍ قائمةً ، والمأمورُ به الاتباع في الأصول دون الشرائعِ المتبدّلة بتبدل الأعصار ، وما في (ثم) من التراخي في الرتبة للإيذان بأن هذه النعمةَ من أجلّ النعم الفائضةِ عليه عليه السلام ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ تكريرٌ لما سبق لزيادة تأكيدٍ وتقريرٍ لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت ﴾

أي فُرِض تعظيمُه والتخلي فيه للعبادة وتركُ الصيد فيه تحقيقٌ لذلك النفي الكليّ وتوضيحٌ له بإبطال ما عسى يُتوهم كونُه قادحاً في كلّيته حسبما سلف في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا ﴾ الخ ، فإن اليهود كانوا يدّعون أن السبتَ من شعائر الإسلام وأن إبراهيمَ عليه السلام كان محافظاً عليه أي ليس السبتُ من شرائع إبراهيمَ وشعائرِ ملّته التي أُمرْتَ باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة وإنما شرُع ذلك لبني إسرائيل بعد مدةٍ طويلة ، وإيرادُ الفعل مبنياً للمفعول جَرْيٌ على سنن الكبرياء وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسنادِ إلى الغير ، وقد قرىء على البناء للفاعل ، وإنما عبّر عن ذلك بالجعل موصلاً بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل : إنما جُعل السبت ﴿ على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاءِ المؤدّي إلى العذاب وبكونه معلّلاً باختلافهم في شأنه قبل الوقوعِ إيثاراً له على ما أمر الله تعالى به واختياراً للعكس لكن لا باعتبار شمولِ العلّية لطرفي الاختلاف وعمومِ الغائلةِ للفريقين ، بل باعتبار حالِ منشأ الاختلافِ من الطرف المخالفِ للحق ، وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمرَ اليهودَ أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة وأن يكون ذلك يومَ الجمعة فأَبَوا عليه وقالوا : نريد اليوم الذي فرغَ الله تعالى فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت إلا شرذمةً منهم قد رضُوا بالجمعة فأَذِن الله تعالى لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمرَ الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا

يَصيدون ، وأعقابُهم لم يصبِروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردةً دون أولئك المطيعين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الفريقين المختلفين فيه ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي يفصِل ما

بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازي كلّ فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب ، وفيه إيماءٌ إلى أن ما وقع في الدنيا من مسخ أحدِ الفريقين وإنجاءِ الآخر بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيءٌ لا يعتدّ به . هذا هو الذي يستدعيه الإعجازُ التنزيليّ . وقيل : المعنى إينا جُعل وبالُ السبت وهو المسخُ على الذين اختلفوا فيه أي أحلوا الصيدَ فيه تارةً وحرّموه أخرى ، وكان حتماً عليهم أن يتّفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به ، وفسّر الحكمُ بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالِهم بالإخلال تارةً والتحريمِ أخرى ، ووجهُ إيرادِه هاهنا بأنه أريد به إنذارُ المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لأوامره ، كضرب المثلِ بالقرية التي كفرت بأنعُم الله تعالى ، ولا ريب في أن كلمة (بينهم) تحكم بأن المرادَ بالحكم هو فصلُ ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيطَ حديث المسخِ للإنذار المذكورِ بين حكاية أمرِ النبيّ صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام وبين أمرِه صلى الله

عليه وسلم بالدعوة إليها من قبيل الفصل بين الشجر ولِحائه فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(233/445)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أي كان عنده عليه السلام من الخير ما كان عند أمة وهي الجماعة الكثيرة ، فإطلاقها عليه عليه السلام لاستجماعه كمالات لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة جمة :

وليس على الله بمستنكر . . .

أن يجمع العالم في واحد

وهو صلى الله عليه وسلم رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذي نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامها وخفض رايات الشرك وجزم ببواتر الحجج هامها ، وقال مجاهد : سمي عليه السلام أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة ما ، وفي "صحيح البخاري" أنه عليه السلام قال لسارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك ، وذكر في "القاموس" أن من معاني

الأمة من هو على الحق مخالف لسائر الأديان ، والظاهر أنه مجاز بجعله كأنه جميع ذلك العصر لأن الكفرة بمنزلة العدم ، وقيل : الأمة هنا فعلة بمعنى مفعول كالرحلة بمعنى المرحول إليه ، والنخبة بمعنى المنتخب من أمه إذا قصده أو اقتدى به أي كان مأموماً أو مؤتماً به فإن الناس كانوا يقصدونه للاستفادة ويقتدون بسيرته .

وقال ابن الأنباري : هذا مثل قول العرب : فلان رحمة وعلامة ونسابة يقصدون بالتأنيث التناهي في المعنى الموصوف به .

وإيراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن في النبوة وتحريم ما أحل الله تعالى للإيذان بأن حقية دين الإسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه .

وفي ذلك أيضاً رد لقريش حيث يزعمون أنهم على دينه ، وقيل : إنه تعالى لما بين حال المشركين وأجرى ذكر اليهود بين طريقة إبراهيم عليه السلام ليظهر الفرق بين حاله وحال المشركين وحال اليهود ﴿ قَانِتاً لِلَّهِ ﴾ مطيعاً له سبحانه قائماً بأمره تعالى ﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق غير زائل عنه .

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ في أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً ، صرح بذلك مع ظهوره قيل : رداً على كفار قريش في قولهم : نحن على ملة أبينا إبراهيم ، وقيل : لذلك وللرد على اليهود المشركين بقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ عَبْدُ اللهِ ﴾ [التوبة : 30] في افترائهم وزعمهم أنه عليه السلام كان على ما هم عليه كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّا وَلاَ نَصْرَانِيّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [آل عمران : 67] إذ به ينتظم أمر إيراد التحريم والسبت سابقاً ولاحقاً .

﴿ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ ﴾

صفة ثالثة لأمة والجار والمجرور متعلق بشاكراً كما هو الظاهر ، وأوثر صيغة جمع القلة قيل : للإيذان بأنه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بأنه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما أشير إليه بضرب المثل ، وقيل : إن جمع القلة هنا مستعار لجمع الكثرة ولا حاجة إليه .

وفي بعض الآثار أنه عليه السلام كان لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداءه فإذا هو بفوج من الملائكة عليهم السلام في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فخيلوا أن بهم جذاماً فقال : الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله تعالى على أنه عافاني مما ابتلاكم به ، وجوز أبو البقاء كون الجار والمجرور متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ اجتباه ﴾ وهو خلاف الظاهر .

وجعل بعضهم متعلق هذا محذوفاً أي اختاره واصطفاه للنبوة ، وأصل الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء ، ويطلق على تخصيص الله تعالى العبد بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي منه ويكون للأنبياء عليهم السلام ومن يقاربهم ﴿ يَشَآءُ إِلَىٰ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه تعالى وهو ملة الإسلام وليست نتيجة هذه الهداية كما في إرشاد العقل السليم مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع إرشاد الخلق أيضاً إلى ذلك والدعوة إليه بمعونة قرينة الاجتباء .

(235/445)

وجوز بعضهم كون ﴿ إلى صراط ﴾ متعلقاً باجتباه وهداه على التنازع ، والجملة إما حال بتقدير قد على المشهور وإما خبر ثان لإن ، وجوز أبو البقاء الاستئناف أيضاً .

﴿ وءاتيناه فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ بأن حببه إلى الناس حتى أن جميع أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه عليه السلام حسبما سأل بقوله : ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الاخرين ﴾ [الشعراء : 84] وروي هذا عن قتادة.

وغيره ، وعن الحسن الحسنة النبوة ، وقيل : الأولاد الأبرار على الكبر وقيل : المال يصرفه في وجوه الخير والبر ، وقيل : العمر الطويل في السعة والطاعة فحسنة على الأول بمعنى

سيرة حسنة وعلى ما بعده عطية أو نعمة حسنة كذا قيل : وجوز في الجميع أن يراد عطية حسنة ، والالتفات إلى التكلم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه السلام ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ داخل في عدادهم كائن معهم في الدرجات العلى من الجنة حسبما سأل بقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ [الشعراء : 83] وأراد بهم الأنبياء عليهم السلام .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾

وهي على ما روي عن قتادة الإسلام المعبر عنه آنفاً بالصراط المستقيم ، وفي رواية أخرى عنه أنها جميع شريعته إلا ما أمر صلى الله عليه وسلم بتركه ، وفي التفسير الخازني حكاية هذا عن أهل الأصول ، وعن ابن عمرو بن العاص أنها مناسك الحج .

(236/445)

وقال الإمام : قال قوم إن النبي صلى الله عليه وسلم كان على ملة إبراهيم وشريعته وليس له شرع متفرد به بل بعث عليه الصلاة والسلام لإحياء شريعة إبراهيم لهذه الآية ، فحملوا الملة على الشريعة أصولاً وفروعاً وهو قول ضعيف ، والمراد من ﴿ مِلَّةِ إبراهيم ﴾ التوحيد ونفي الشرك المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ فإن قيل : إنه صلى الله

عليه وسلم إنما نفى الشرك وأثبت التوحيد للأدلة القطعية فلا يعد ذلك متابعة فيجب حمل الملة على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها ، قلنا : يجوز أن يكون المراد الأمر بمتابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد وهي أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن اه .

وتعقبه أبو حيان بأنه لا يحتاج إليه لأن المعتقد الذي تقتضيه دلائل العقول لا يمتنع أن يوحي ليتضافر المعقول والمنقول على اعتقاده ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ [الأنبياء : 108] كيف تضمن الوحي بما اقتضاه الدليل العقلي ، فلا يمتنع أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام بنفي الشرك والتوحيد وإن كان ذلك مما ثبت عنده عليه الصلاة والسلام بالدليل العقلي ليتضافر الدليلان العقلي والنقلي على هذا المطلب الجليل ، وآخر بأنه ظاهر في حمل الملة على كيفية الدعوة ولا شك أن ذلك ليس داخلاً في مفهومها فإنها ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب إذا أمليته وهي الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له ، وتحقيقه أن الوضع الإلهي مهما نسب إلى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب

إلى من يقيمه يسمى ديناً ، قال الراغب : الفرق بينها وبين الدين أنها لا تضاف إلا للنبي صلى الله عليه وسلم الذي يسند إليه ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى ولا إلى آحاد أمة النبي عليه السلام ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها ولا كذلك الدين ، وأكثر المفسرين على أن المراد بها هنا أصول الشرائع ، ويحمل عليه ما روي عن قتادة أولاً ولا بأس بما روي عنه ثانياً .

واستدلال بعض الشافعية على وجوب الختان وما كان من شرعه عليه السلام ولم يرد به ناسخ مبني على ذلك كما لا يخفى .

ما روي عن ابن عمرو بن العاص ذكره في "البحر" والذي أخرجه ابن المنذر .

والبيهقي في الشعب .

وجماعة عنه أنه قال : صلى جبريل عليه السلام بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به ثم صلى المغرب والعشاء بجمع ثم صلى به الفجر كأسرع ما يصلي أحد من المسلمين ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين دفع به ثم رمى الجمرة ثم ذبح وحلق ثم أفاض به إلى البيت فطاف به فقال الله تعالى لنبيه صلى الله

عليه وسلم : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ ولعل ما ذكر أولاً مأخوذ منه .

وأنت تعلم أنه ليس نصاً فيه ولا أظن أن أحداً يوافق على تخصيص ملته عليه السلام بمناسك الحج .

و﴿ إن ﴾ تفسيرية أو مصدرية ومر الكلام في وصلها بالأمر ، و﴿ ثُمَّ ﴾ قيل : للتراخي الزماني لظهور أن أيامه صلى الله عليه وسلم بعد أيامه عليه السلام بكثير ، واختار المحققون أنها للتراخي الرتبي لأنه أبلغ وأنسب بالمقام .

قال الزمخشري : إن في ﴿ ثُمَّ ﴾ هذه إيذاناً بأنه أشرف ما أوتي خليل الله عليه السلام من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته وتعظيماً لمنزلة نبينا عليه الصلاة والسلام وإجلالاً لمحله ، أما الأول فمن دلالة ثم على تباين هذا المؤتي وسائر ما أوتي عليه السلام من الرتب والمآثر ، وأما الثاني فمن حيث أن الخليل مع جلالة محله عند الله تعالى أجل رتبته أو أوحي إلى الحبيب اتباع ملته ، وفي لفظ ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ ثم الأمر باتباع الملة لا اتباع إبراهيم عليه السلام ما يدل كما في "الكشف" على أنه صلى الله عليه وسلم ليس بتابع له بل هو مستقل بالأخذ عمن أخذ إبراهيم عليه السلام عنه ﴿ حَنِيفاً ﴾ حال من إبراهيم المضاف إليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة .

ونقل ابن عطية عن مكي عدم جواز كونه حالاً منه معللاً ذلك بأنه مضاف إليه ، وتعقبه بقوله : ليس كما قال لأن الحال قد يعمل فيها حروف الخفض إذا عملت في ذي الحال نحو مررت بزيد قائماً ، وفي كلا الكلامين بحث لا يخفى .

ومنع أبو حيان مجيء الحال من المضاف إليه في مثل هذه الصورة أيضاً وزعم أن الجواز فيها مما تفرد به ابن مالك والتزم كون ﴿ حَنِيفاً ﴾ حالاً من ﴿ مِلَّةَ ﴾ لأنها والدين بمعنى أو من الضمير في ﴿ أَتَّبِعُ ﴾ وليس بشيء ولم يتفرد بذلك ابن مالك بل سبقه إليه الأخفش وتبعه جماعة ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ بل كان قدوة المحققين وهذا تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت ﴾ بمعنى إنما فرض تعظيمه والتخلي للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفي الكلي وتوضيح له بإبطال ما عسى يتوهم كونه قادحاً في الكلية فإن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شعائر الإسلام وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظاً عليه أي ليس السبت من شرائع إبراهيم وشعائر ملته عليه السلام التي أمرت باتباعها حتى يكون بينه وبين بعض المشركين علاقة في الجملة ، وإنما شرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة ، وإيراد الفعل مبنياً للمفعول جرى على سنن الكبرياء وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسناد إلى الغير .

وقرأ أبو حيوة ﴿ جَعَلَ ﴾ بالبناء للفاعل ، وعن ابن مسعود والأعمش أنهما قرءا ﴿ إِنَّمَا أَنْزَلْنَا السبت ﴾ وهو على ما قال أبو حيان تفسير معنى لا قراءة لمخالفة ذلك سواد المصحف ، والمستفيض عنهما أنهما قرءا كالجماعة إنما جعل السبت ﴿ على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ على نبيهم حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت وهم اليهود .

(240/445)

أخرج الشافعي في الأم والشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله تعالى له فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد " وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : أمر موسى عليه السلام اليهود بالجمعة وقال : تفرغوا لله تعالى في كل سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا : لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم وشدد فيه الأمر ثم جاء عيسى عليه السلام بالجمعة فقالت النصارى : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق ، واختار هذا

الإمام وحمل ﴿ فِي ﴾ على التعليل أي اختلفوا على نبيهم لأجل ذلك اليوم ، وقال الخفاجي : معنى ﴿ اختلفوا فِيهِ ﴾ خالفوا جميعهم نبيهم فهو اختلاف بينهم وبين نبيهم ، وظاهر الإخبار يقتضي أنه عين لهم أولاً يوم الجمعة ، وقال القاضي عياض : الظاهر أنه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل إلى اجتهادهم فاختلفت أحبارهم في تعيينه ولم يهدهم الله تعالى له وفرض على هذه الأمة مبيناً ففازوا بفضيلته ولو كان منصوصاً عليه لم يصح أن يقال ﴿ اختلفوا ﴾ بل يقال خالفوا ، وقال الإمام النووي : يمكن أن يكونوا أمروا صريحاً ونص عليه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم إبداله فأبدلوه وغلطوا في إبداله ، وقال الواحدي : قد أشكل أمر هذا الاختلاف على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم : معنى اختلافهم في السبت أن بعضهم قال هو أعظم الأيام حرمة لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء فيه ، وقال الآخرون : أعظمها حرمة الأحد لأن الله سبحانه ابتدأ الخلق فيه ؛ وهذا غلط لأن اليهود لم يكونوا

فرقتين في السبت وإنما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان وقيل : المراد اختلفوا فيما بينهم في شأنه ففضلته فرقة منهم على الجمعة ولم ترض بها وفضلت أخرى الجمعة عليه

ومالت إليها بناءً على ما روي من أن موسى عليه السلام جاءهم بالجمعة فأبى أكثرهم إلا السبت ورضي شرذمة منهم بها فأذن الله تعالى لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله تعالى قردة دون أولئك المطيعين ، والتفسير الأول تفسير رئيس المفسرين وترجمان القرآن وحبر الأمة المروي من طرق صحيحة عن أفضل النبيين وأعلم الخلق بمراد رب العالمين صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي المختلفين ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي يقضي بينهم بالمجازاة على اختلافهم على نبيهم ومخالفتهم له في ذلك أو يفصل ما بين الفريقين منهم من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب ، وفيه على هذا إيماءً إلى أن ما وقع في الدنيا من مسخ أحد الفريقين وإنجاء الآخر بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيء لا يعتد به ، وعبر عن الفرض بالجعل موصولاً بكلمة ﴿ على ﴾ للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدي إلى العذاب ، وعن اليهود بالاسم الموصول بالاختلاف إشارة إلى علة ذلك ، وقيل : المعنى إنما جعل وبال ترك تعظيم السبت وهو المسخ كائناً أو واقعاً على الذين اختلفوا فيه أي أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان حتماً عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله تعالى به وروي ذلك عن قتادة ، وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالإحلال تارة والتحريم أخرى .

ووجه إيراد ذلك ههنا بأنه أريد منه إنذار المشركين وتهديدهم بما في مخالفة الأنبياء عليهم السلام من الوبال كما ذكرت القرية التي كفرت بأنعم الله تعالى تمثيلاً لذلك.

(242/445)

واعترض بأن توسيط ذلك لما ذكر بين حكاية أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وبين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة إليها كالفصل بين الشجر ولحائه.

وأجيب بأن فيه حثاً على إجابة الدعوة التي تضمنها الكلام السابق وأمر بها في الكلام اللاحق فللمتوسط نسبة إلى الطرفين تخرجه من أن يكون الفصل به كالفصل بين الشجر ولحائه وهو كما ترى.

واعترض أيضاً بأن كلمة ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف دون المجازاة باختلاف أفعالهم بالإحلال تارة والتحريم أخرى.

ويرد هذا أيضاً على تفسيره بالقضاء بالمجازاة على اختلافهم جميعهم على نبيهم ومخالفتهم له فيما جاءهم به، وقد فسر بذلك على التفسير المأثور عن ترجمان القرآن، ومنهم من فسره عليه بما فسر به على التفسير المروى عن قتادة فيرد عليه أيضاً ما ذكر مع ما في ضمنه

من القول باختلاف الاختلافين بمعنى ، والظاهر اتحادهما .

وأجاب بعضهم عن الاعتراض بمنع حكم كلمة ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بما تقدم فتأمل ، وتفسير السبت باليوم المخصوص هو الظاهر الذي ذهب إليه الكثير ، وجوز كونه مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها ، قيل : ويجوز على هذا أن يكون في الآية استخدام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(243/445)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

أثنى الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسلام : بأنه أمة . أي إمام مقتدى به ، يعلم الناس الخير . كما قال تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] ، وأنه قانت لله ، أي مطيع له ، وأنه لم يكن من المشركين ، وأنه شاكر لأنعم الله ، وأن الله اجتباه ، اي اختاره واصطفاه . وأنه هداه إلى صراط مستقيم .

وكرر هذا الثناء عليه في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ [النجم : 37

] ، وقوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 51] ، وقوله : ﴿ وكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [الأنعام : 75] ، وقوله عنه : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 79] ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [آل عمران : 67] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 83-84] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه .

وقد قدمنا معاني " الأمة " في القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ الآية .

قال بعض العلماء : الحسنة التي آتاه الله في الدنيا : الذرية الطيبة ، والثناء الحسن .

ويستأنس لهذا بأن الله بين انه أعطاه بسبب إخلاصة لله ، واعتزاله أهل الشرك : الذرية الطيبة . وأشار أيضاً لأنه جعل له ثناءً حسناً باقياً في الدنيا . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم

وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : 49-50] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : 27] ، وقال : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أوحى غلى نبيِّنا صلى الله عليه وسلم الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

وبين هذا أيضاً في غير الموضع كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 161] ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : 77] ، إلى قوله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج : 78] الآية ، وقوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الممتحنة : 4] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . والملة : الشريعة .

والحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق . وأصله من الحنف : وهو اعوجاج الرجلين . يقال : برجله حنف أي اعوجاج . ومنه قوله أما الأخنف بن قيس ترقصه وهو صبي :

والله لولا حنف برجله . . . ما كان في فتيانكم من مثله

وقوله ﴿ حنيفاً ﴾ حال من المضاف إليه . على حد قول ابن مالك في الخلاصة :

ما كان جزء ما له أضيفا . . . أو مثل جزئه فلا تحيفا

لأن المضاف هنا وهو ﴿ ملَّة ﴾ كالجزء من المضاف إليه وهو ﴿ إبراهيم ﴾ لأنه لو حذف لبقي المعنى تاماً . لأن قولنا : أن أتبع إبراهيم ، كلام تامٌّ المعنى كما هو ظاهر ، وهذا هو مراده بكونه مثل جزئه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

التفسير :

مناسبة ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ هنا فى قوله تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ

حَنِيفاً » . . هو ما ذكر فى الآيات السابقة من موقف المشركين واليهود ، من أحكام اللّه ، فى حلّ المطاعم وحرمتها . .

(247/445)

ولما كان كلّ من المشركين واليهود ينتسب إلى إبراهيم - عليه السلام - ويدّعى كل منهم أنه على دينه - فناسب هذا أن يذكر إبراهيم - عليه السلام - ويذكر دينه الذي كان عليه ، وإيمانه بربه ، وشكره لنعمائه ، الأمر الذي لم يستقم عليه أىّ من الفريقين من أبنائه .

فإبراهيم - عليه السلام - كان أمة ، أي كان مجتمعا وحده ، يؤمن باللّه ، بين مجتمعات كلها على الشرك والكفر . . فهو بهذه الصفة يمثل أمة مميزة عن غيرها ، بالإيمان ، تقابل تلك الأمم التي تمثل الكفر . . فهو الإنسان المؤمن ، الذي يقابل بإيمانه الكفر والكافرين جميعا .

وكان إبراهيم مع إيمانه باللّه قانتا ، أي خاشعا للّه ، مسلما أمره له . . وكان « حنيفا » أي مائلا عن طرق الضلال والكفر . . « وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أي لم يشرك باللّه أبدا ، ولم تستجب فطرته لأن يعبد ما كان يعبد أبوه وقومه ، فنشأ مجانبا لهذه الضلالات ، عازفا عنها .

وفى وصف إبراهيم - عليه السلام - بأنه كان « حنيفا » - إشارة إلى أن المجتمع الذي كان

يعيش فيه إبراهيم كان مجتمعا يسير على طرق الكفر والشرك ، حتى لكأن ذلك هو وجهة الحياة فى زمنه ، وحتى لكأن الخروج على هذه الوجهة ، يعدّ ميلا وانحرافا . . وهذا مما يعظم من شأن إبراهيم ، ويرفع قدره فى العالمين ، بين أتباع الحق ، وأهل الإيمان . . فقد خرج إبراهيم بإيمانه عن هذا الإجماع المطلق ، وشق لنفسه ثقبا فى هذا الحائط الصفيق ، المضروب حوله من الكفر ، ونفذ إلى عالم النور ! ولهذا استحق إبراهيم بأن يوصف هذا الوصف الكريم من ربه ، بأن كان حنيفا . . والحنيف هو المائل . . ولكنه هنا ميل إلى الحق والهدى والإيمان . . ولهذا أيضا اختصّ إبراهيم - عليه السلام - بهذا الوصف دون سائر الأنبياء . . إذ كان أمة وحده .

(248/445)

- وفى قوله تعالى : « وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بالمشركين من أهل مكة ، إذ كانوا يدّعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم . . فكيف يكونون على شريعته ، وهم مشركون ، وهو الحنيف ، الذي لم يكن فى يوم من أيامه من المشركين ؟

وقوله تعالى : « شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » . .

هو معطوف على خبر كان فى قوله تعالى : « كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً . . » أي وكان شاكرا

لأنعم ربه ، إذ اجتباه ربه ، أي اصطفاه لرسالته ، وأخرجه من عالم الكفر المتكاثف حوله ، وهداه إلى الحق ، والخير ، والإيمان . .

وفى هذا تعريض باليهود ، الذين خرجوا على شريعة أبيهم إبراهيم خروجا صارخا ، فكفروا بأنعم اللّه ، ومكروا بآياته ، وكذبوا رسله ، وتنكبوا طريق الحق ، وركبوا طرق الضلال .

قوله تعالى : « وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » . .

هو عطف على قوله تعالى : « اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » :

وفى الحديث عن اللّه سبحانه وتعالى بضمير الغيبة فى قوله تعالى : « اجْتَباهُ وَهَداهُ » . . ثم الحديث عنه تعالى بضمير الحضور « وآتيناه » . . إشارة إلى تلك المنزلة التي بلغها إبراهيم عند ربه ، بعد أن اصطفاه لرسالته ، وهداه إلى دينه . . فقد استقام إبراهيم على هذا الطريق المستقيم ، مجتهدا فى الطاعة ، مخلصا فى العبادة ، حتى اتخذه اللّه سبحانه وتعالى خليلا له ، وأقبل عليه بعطاياه ومننه :

« وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً » . . فهو عطاء كريم تناوله من ربه من غير واسطة .

والحسنة التي آتاها اللّه سبحانه وتعالى إبراهيم ، هى على إفرادها وتنكيرها ، تسع ببركتها وخيرها ، الناس جميعا . . ومن ثمرات هذه الحسنة هذا الذّكر الطيب الذي لإبراهيم فى هذه الدنيا ، حيث كان من ذريته الأنبياء ، ومنهم :

موسى، وعيسى، ومحمد، أصحاب الرسالات السماوية التي يدين بها المؤمنون بالله! .

وفى قوله تعالى: «وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» إشارة إلى ما لإبراهيم عند الله فى الآخرة.. فهو عند الله من الصالحين، الذين سلموا من كل سوء، فاستحقوا منازل الرحمة والرضوان..

قوله تعالى: «ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .

العطف بثم هنا، إشارة إلى الفاصل الزمنى بين رسالة إبراهيم، ورسالة محمد، عليهما الصلاة والسلام.. وليس هذا الفاصل الزمنى على امتداده بالذي يفصل بين حقيقة الرسالتين، فهما من معدن واحد.. بل هما شىء واحد، فى الأصل الذي قامتا عليه، وهو توحيد الله، وإخلاص العبودية.

قوله تعالى: «إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»..

السبت هو اليوم الذي جعله الله لبنى إسرائيل، يوم طاعة وعبادة، يتخففون فيه من شئون الحياة الدنيا، ويراجعون أنفسهم فيما وقع منهم من سيئات، خلال أيام الأسبوع الستة..

وبذلك يمكن أن يجد الواحد منهم فرصته فى إصلاح نفسه ، وتصحيح أخطائه ، قبل أن يمضى بها الزمن فينساها ، أو تكثر ويزحم بعضها بعضا ، فيعجز عن معالجتها ، وتفتر عزيمته عن لقائها . .

(250/445)

هكذا كان يوم السبت ، لبنى إسرائيل ، يوما خالصا للّه ، وفرصة مهيأة للتطهر من الآثام ، والتخفف من الذنوب . . شأنهم فى هذا شأن النصارى فى يوم الأحد ، والمسلمين فى يوم الجمعة . . فهذا اليوم من كل أسبوع ، هو أشبه بالمنازل التي ينزلها المسافر خلال رحلة طويلة شاقة ، حيث تتهيّأ له فى هذا المنزل فرصة للراحة والاستجمام ، والتزود بالماء والطعام ، وإصلاح أدوات السفر ومعدّاته ، إلى غير ذلك مما يعين المسافر على قطع المرحلة القادمة ، من رحلته . . وهكذا . .

حتى تنتهى الرحلة ، ويلقى عصا التسيار ! . .

ولو أحسن بنو إسرائيل استقبال هذا اليوم ، واستقاموا على ما أمرهم اللّه به فيه. لكان لهم من ذلك خير كثير فى دينهم ودنياهم جميعا . . ولكنهم مكروا بنعمة اللّه وكفروا بها ، شأنهم فى هذا هو شأنهم مع كل نعمة أنعم اللّه بها

عليهم ، فخانوا اللّه فى هذا اليوم ، وجعلوه يوم لهو ، وعربدة . . فجعله اللّه نقمة عليهم ، وابتلاهم فيه بتحريم ، صيد البحر ، فلما لم يستقيموا مع هذا الأمر ، ضاعف عليهم البلاء ، فأمسك عنهم السمك أن يجدوه فى البحر إلا يوم السبت ، وبهذا وضعهم اللّه أمام هذا البلاء ، وأوقعهم فى هذا الحرج . . فإن صادوا فى يوم السبت أثموا ، وإن لم يصيدوا حرموا الصيد أبدا . . وفى هذا يقول اللّه تعالى : « وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ » . . (163 : الأعراف) ولم يحتمل القوم هذا البلاء . . فاعتدوا فى السبت ، وصادوا فيه ما حرم اللّه عليهم صيده . . فأخذهم اللّه بعذابه ، وأوقع بهم نقمته . . فمسخهم اللّه ، وألبسهم طبائع القردة ، كما يقول اللّه سبحانه : « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ، فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ » . . (65 : البقرة) .

وأكثر من هذا . . فإن اللّه قد حرم عليهم أن يعملوا فى هذا اليوم عملا ، وأن يتحولوا إلى جمادات لا حس لها ولا شعور . . وفى هذا تقول التوراة :

« اذكر يوم السبت لتقدسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملا ما ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك . .

« لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه » .

(252/445)

هكذا تقول التوراة فى الأصحاح العشرين من سفر الخروج ، ولكن بنى إسرائيل لم يستقيموا على هذا الأمر ولم يحتملوا الصبر على هذا التكليف ، الذي لا حرج فيه . . ولا إعنات ، فكثرت حوله تأويلاتهم الفاسدة ، حتى أبطلوا الأثر الطيب الذي كان سيعود عليهم منه . . ولهذا جاءهم اللّه سبحانه وتعالى بما هو أشقّ وأمرّ ، نكاية بهم ، ولعنة لهم . . فكان حكم التوراة بعد هذا هو :

« ستة أيام يعمل كل عمل وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدس للرب كل من يعمل فيه عملا يقتل . . لا تشعلوا نارا فى جميع مساكنكم يوم السبت » هكذا تقول التوراة فى « الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر الخروج » . .

فالعمل فى يوم السبت ، يوجب على اليهودي القتل ، وهذا ابتلاء عظيم من اللّه سبحانه ، لهذا القطيع المعربد ، حتى يكونوا من هذا الابتلاء بين أمرين ، أحلاهما مر . . فإن عملوا أي عمل فى يوم السبت ، ولو فى دفع عدوّ مغير عليهم وقعوا تحت حكم اللّه ، وهو استحقاقهم للقتل ، وإن لم يعملوا كانوا صيدا دانيا لكل من يريد اقتناصه . .

وفى قوله تعالى : «إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ» . . هو بيان لما حل ببني إسرائيل بافترائهم على اللّه فى يوم السبت ، وخروجهم على حكم الشريعة فيه ، بما تأوّلوا من تأويلات فاسدة ، أملتها عليهم أهواؤهم ، فكان لكل جماعة منهم رأى فيه ، وكلها آراء فاسدة قائمة على الهوى . .

(253/445)

.وفى تعدية الفعل «جعل» بحرف الجر «على» إشارة إلى أن هذا اليوم جعل لعنة على بنى إسرائيل ، بعد أن كان رحمة لهم . . فما كان للإنسان ، فهو خير ، وما كان عليه فهو شر ، كما يقول اللّه تعالى : «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها . . لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ» (286 : البقرة) .وقوله تعالى : «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» تهديد لليهود ، وأنهم سيؤخذون بآثامهم التي حملوها معهم ، من تلك

الخلافات التي وقعت بينهم فى شريعة اللّه الواضحة الصريحة، التي لا تحتمل تأويلا، ولا تثير خلافا، إلا حيث تتنازعها الأهواء، وتتوارد عليها النظرات الزائغة والعقول السقيمة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 7 صـ 391. 397 ﴾

(254/445)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال إلى غرض التّنويه بدين الإسلام بمناسبة قوله : ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ [سورة النحل : 119] المقصودِ به أنهم كانوا في الجاهلية ثم اتّبعوا الإسلام، فبعد أن بشرهم بأنه غفر لهم ما عملوه من قبل زادهم فضلاً ببيان فضل الدين الذي اتّبعوه.

وجُعل الثناء على إبراهيم عليه السلام مقدّمة لذلك لِبيان أن فضل الإسلام فضْل زائد على جميع الأديان بأن مبدأه برسول ومنتهاه برسول.

وهذا فضل لم يحظ به دين آخر.

فالمقصود بعد هذا التمهيد وهاته المقدّمة هو الإفضاء إلى قوله : ﴿ ثم أوحينا إليك أن

اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [سورة النحل : 123] ، وقد قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ [سورة الحج : 78] .

والأصل الأصيل الذي تفرّع عنه وعن فروعه هذا الانتقال ما ذُكر في الآية قبلها من تحريم أهل الجاهلية على أنفسهم كثيراً مما أنعم الله به على الناس .

ونظّرهم باليهود إذ حرّم الله عليهم أشياء ، تشديداً عليهم ، فجاء بهذا الانتقال لإفادة أن كلا الفريقين قد حادوا عن الحنيفية التي يزعمون أنهم متابعوها ، وأن الحنيفية هي ما جاء به الإسلام من إباحة ما في الأرض جميعاً من الطيّبات ، إلا ما بيّن الله تحريمه في آية ﴿ قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً ﴾ [سورة الأنعام : 145] الآية .

وقد وُصف إبراهيم عليه السلام بأنه كان أمّة .

والأمّة : الطائفة العظيمة من الناس التي تجمعها جهة جامعة .

وتقدم في قوله تعالى ﴿ كان الناس أمّة واحدة ﴾ في سورة البقرة (213) .

ووصفُ إبراهيم عليه السلام بذلك وصفٌ بديع جامع لمعنيين:

أحدهما : أنه كان في الفضل والفتوة والكمال بمنزلة أمّة كاملة .

وهذا كقولهم : أنت الرجل كل الرجل ، وقول البحْتري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً . . .

لدى الفضل حتى عُدّ ألفٌ بواحد

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مَعاذٌ أُمّة قانتٌ لله " .

والثاني : أنه كان أمّة وحده في الدين لأنه لم يكن في وقت بعثه ، موحّدٌ لله غيره .

فهو الذي أحيا الله به التوحيد ، وبثّه في الأمم والأقطار ، وبنَى له معلماً عظيماً ، وهو الكعبة ، ودعا الناس إلى حجّه لإشاعة ذكره بين الأمم ، ولم يزل باقياً على العصور .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم في خَطر بن مالك الكاهن : " وأنه يبعث يوم القيامة أمّةً وحدَه " رواه السهيلي في "الروض الأنف" .

ورأيت رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذه المقالة في زيد بن عَمرو بن نُفيل .

والقانت : المطيع .

وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ في سورة البقرة (238) .

واللام لام التقوية لأن العامل فرع في العمل .

والحنيف : المجانب للباطل .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ في سورة البقرة (135) ،

والأسماء الثلاثة أخبار ﴿ كان ﴾ وهي فضائل .

﴿ ولم يك من المشركين ﴾ اعتراض لإبطال مزاعم المشركين أن ما هم عليه هو دين إبراهيم عليه السلام .

وقد صوّروا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام ووضعوا الصورة في جوف الكعبة ، كما جاء في حديث غزوة الفتح ، فليس قوله : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ مسوقاً مساق الثناء على إبراهيم ولكنه تنزيه له عمّا اختلقه عليه المبطلون .

فوزانه وزان قوله : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ [سورة التكوير : 22] .

وهو كالتأكيد لوصف الحنيف بنفي ضدّه مثل ﴿ وأضلّ فرعون قومه وما هدى ﴾ [سورة طه : 79] .

ونُفي كونه من المشركين بحرف ﴿ لم ﴾ لأن ﴿ لم ﴾ تقلب زمن الفعل المضارع إلى الماضي ، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي ، وتفيد تجدّد ذلك المنفي الذي هو من خصائص الفعل المضارع فيحصل معنيان : انتفاءُ مدلول الفعل بمادته ، وتجدّد الانتفاء بصيغته ، فيفيد أن إبراهيم عليه السلام لم يتلبّس بالإشراك قط ، فإن إبراهيم عليه السلام لم يشرك

بالله منذ صار مميّزاً ، وأنه لا يتلبّس بالإشراك أبداً .

و﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ خبر رابع عن ﴿ كان ﴾ .

وهو مدح لإبراهيم عليه السلام وتعريض بذريّته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله مُقابل قوله :

﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ [سورة النحل : 112] .

وتقدم قريباً الكلام على أنعُم الله .

وجملة ﴿ اجتباه ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن الثّناء المتقدّم يثير سؤال سائل عن سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد ، فيجاب بأن الله اجتباه ، كقوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [سورة الأنعام : 124] .

والاجتباء : الاختيار ، وهو افتعال من جبى إذا جمع .

ونقدم في قوله تعالى ﴿ واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ في سورة الأنعام (87) .

والهداية إلى الصراط المستقيم : الهداية إلى التوحيد ودين الحنيفية .

وضمير آتيناه ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلّم تفنّناً في الأسلوب لتَوَالي ثلاثة ضمائر غيبة .

والحسنة في الدنيا : كل ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب بالدين ، والصحة ، والسلامة ، وطول العمر ، وسعة الرزق الكافي ، وحسن الذكر بين الناس .

وقد تقدّم في قوله : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ [سورة البقرة : 201

] .

والصلاح: تمام الاستقامة في دين الحقّ.

واختير هذا الوصف إشارة إلى أن الله أكرمه بإجابة دعوته، إذ حكى عنه أنه قال: ﴿ ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ [سورة الشعراء: 83].

(257/445)

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) ﴾

﴿ ثُمّ ﴾ للترتيب الرتبي المشير إلى أن مضمون الجملة المعطوفة متباعد في رتبة الرفعة على مضمون ما قبلها تنويهاً جليلاً بشأن النبي صلى الله عليه وسلم وبشريعة الإسلام، وزيادة في التّنويه بإبراهيم عليه السلام، أي جعلناك متّبعاً ملّة إبراهيم، وذلك أجلّ ما أولينا كما من الكرامة.

وقد بيّنت آنفاً أن هذه الجملة هي المقصود، وأن جملة ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ [سورة النحل: 120] الخ.

تمهيد لها.

وزيد ﴿ أوحينا إليك ﴾ للتّنبيه على أن اتّباع محمد ملّة إبراهيم كان بوحي من الله

وإرشاد صادق، تعريضاً بأن الذين زعموا اتباعهم ملّة إبراهيم من العرب من قبلُ قد أخطأوها بشبهة مثل أميّةَ بن أبي الصَلت، وزيد بن عمرو بن نُفيل، أو بغير شبهة مثل مزاعم قريش في دينهم.

و﴿ أن ﴾ تفسيرية لفعل ﴿ أوحينا ﴾ لأن فيه معنى القول دون حروفه، فاحتيج إلى تفسيره بحرف التفسير.

والاتّباع: اقتفاء السير على سَير آخر.

وهو هنا مستعار للعمل بمثل عمل الآخر.

وانتصب ﴿ حنيفاً ﴾ على الحال من ﴿ إبراهيم ﴾ فيكون زيادة تأكيد لمماثله قبله أو حالاً من ضمير ﴿ إليك ﴾ أو من ضمير ﴿ اتبع ﴾، أي كن يا محمد حنيفاً كما كان إبراهيم حنيفاً.

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "بعثت بالحنيفية السمحة".

وتفسير فعل ﴿ أوحينا ﴾ بجملة ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم ﴾ تفسير بكلام جامع لما أوحَى الله به إلى محمد عليه الصلاة والسلام من شرائع الإسلام مع الإعلام بأنها مقامة على أصول ملّة إبراهيم.

وليس المراد أوحينا إليك كلمة ﴿ اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ لأن النبي صلى الله عليه

وسلم لا يعلم تفاصيل ملّة إبراهيم ، فتعيّن أن المراد أن الموحى به إليه منبجس من شريعة إبراهيم عليه السلام .

(258/445)

وقوله : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ هو مما أوحاه الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم المحكي بقوله : ﴿ ثم أوحينا إليك ﴾ ، وهو عطف على ﴿ حنيفاً ﴾ على كلا الوجهين في صاحب ذلك الحال ، فعلى الوجه الأول يكون الحال زيادة تأكيد لقوله قبله : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ [سورة النحل : 120] ، وعلى الوجه الثاني يكون تنزيهاً لشريعة الإسلام المتبعَة لملّة إبراهيم من أن يخالطها شيء من الشرك .

ونُفي كونه من المشركين هنا بحرف ما ﴾ النافية لأن ﴿ ما ﴾ إذا نفت فعل ﴿ كان ﴾ أفادت قوّة النفي ومباعدة المنفي .

وحسبك أنها يبنى عليها الجحود في نحو : ما كان ليفعل كذا .

فحصل من قوله السابق ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ [النحل : 120] ومن قوله هنا : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ ثلاث فوائد : نفي الإشراك عن إبراهيم في جميع أزمنة الماضي ، وتجدّد نفي الإشراك تجدّداً مستمرّاً ، وبراءته من الإشراك براءة تامة .

وقد علم من هذا أن دين الإسلام منزّه عن أن تتعلّق به شوائب الإشراك لأنه جاء كما جاء إبراهيم معلناً توحيداً لله بالإلهية ومجتّثاً لوشيج الشرك.

والشرائعُ الإلهية كلها وإن كانت تحذّر من الإشراك فقد امتاز القرآن من بينها بسدّ المنافذ التي يتسلّل منها الإشراك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، وأنه لم يترك في ذلك كلاماً متشابهاً كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى، مثل ما جاء في التوراة من وصف اليهود بأبناء الله، وما في الأناجيل من موهم بنوّة عيسى عليه السلام لله سبحانه عما يصفون.

وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجّة الوداع: "أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه (أي أرض الإسلام) أبداً، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تَحْقِرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم".

ومعنى اتّباع محمد ملّة إبراهيم الواقع في كثير من آيات القرآن أن دين الإسلام بُني على أصول ملّة إبراهيم، وهي أصول الفطرة، والتوسّط بين الشدّة واللّين، كما قال تعالى: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم ﴾ [سورة الحج: 78].

وفي قضية أمر إبراهيم بذبح ولده عليهما السلام، ثم فدائه بذبح شاة رمز إلى الانتقال من

شدّة الأديان الأخرى في قرابينها إلى سماحة دين الله الحنيف في القربان بالحيوان دون الآدمي.

ولذلك قال تعالى: ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾ [سورة الصافات: 107].

فالشريعة التي تبنى تفاصيلها وتفاريعها على أصول شريعة تعتبر كأنها تلك الشريعة.

ولذلك قال المحققون من علمائنا: إن الحكم الثابت بالقياس في الإسلام يصح أن يقال إنه دين الله وإن كان لا يصح أن يقال: قالَه الله.

وليس المراد أن جميع ما جاء به الإسلام قد جاء به إبراهيم عليه السلام إذ لا يخطر ذلك بالبال، فإن الإسلام شريعة قانونية سلطانية، وشرع إبراهيم شريعة قبائلية خاصة بقوم، ولا أن المراد أن الله أمر النبي محمداً باتّباع ملّة إبراهيم ابتداءً قبل أن يوحي إليه بشرائع دين الإسلام، لأن ذلك وإن كان صحيحاً من جهة المعنى وتحتمله ألفاظ الآية لكنه لا يستقيم إذ لم يرد في شيء من التشريع الإسلامي ما يشير إلى أنه نَسْخ لما كان عليه النبي من قبلُ.

فاتّباع النبي ملّة إبراهيم كان بالقول والعمل في أصول الشريعة من إثبات التوحيد والمحاجّة له واتّباع ما تقتضيه الفطرة.

وفي فروعها مما أوحى الله إليه من الحنيفية مثل الختان وخصال الفطرة والإحسان.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾

موقع هذه الآية ينادي على أنها تضمّنت معنى يرتبط بملّة إبراهيم وبمجيء الإسلام على أساسها .

(260/445)

فلما نفت الآية قبل هذه أن يكون إبراهيم عليه السلام من المشركين ردّاً على مزاعم العرب المشركين أنهم على ملّة إبراهيم ، انتقل بهذه المناسبة إلى إبطال ما يشبه تلك المزاعم .

وهي مزاعم اليهود أن ملّة اليهودية هي ملّة إبراهيم زعماً ابتدعوه حين ظهور الإسلام جحداً لفضيلةٍ فاتتهم ، وهي فضيلة بناء دينهم على أول دين للفطرة الكاملة حسداً من عند أنفسهم .

وقد بيّنا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم ﴾ في سورة آل عمران (65) .

فهذه الآية مثل آية آل عمران يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، فذلك دالّ على أن هؤلاء الفرق الثلاث اختلفوا في إبراهيم ،

فكل واحدة من هؤلاء تدّعِي أنها على ملته ، إلا أنه اقتصر في هذه الآية على إبطال مزاعم المشركين بأعظم دليل وهو أن دينهم الإشراك وإبراهيمُ عليه السلام ما كان من المشركين .

وعقب ذلك بإبطال مزاعم اليهود لأنها قد تكون أكثر رواجاً ، لأن اليهود كانوا مخالطين العرب في بلادهم ، فأهل مكة كانوا يتّصلون باليهود في أسفارهم وأسواقهم بخلاف النّصارى .

ولما كانت هذه السورة مكّية لم يتعرّض فيها للنّصارى الذين تُعرّض لهم في سورة آل عمران .

ولهذا تكون جملة إنما جعل السبت ﴾ استئنافاً بيانياً نشأ عن قوله : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [سورة النحل : 123] إذ يثير سؤالاً من المخالفين : كيف يكون الإسلام من ملّة إبراهيم ؟ وفيه جعل يوم الجمعة اليومَ المقدس .

وقد جعلت التوراة لليهود يوم التّقديس يوم السبت .

(261/445)

ولعلّ اليهود شغبوا بذلك على المسلمين ، فكان قوله : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ بياناً لجواب هذا السؤال .

وقد وقعت هذه الجملة معترضة بين جملة ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً

﴾ [سورة النحل : 123] وجملة ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ [سورة النحل : 125] الخ .

ولذلك افتتحت الجملة بأداة الحصر إشعاراً بأنها لقلب ما ظنّه السائلون المشغبون .

وهذا أسلوب معروف في كثير من الأجوبة المورَدة لردّ رأي موهوم ، فالضمير في قوله : ﴿ فيه ﴾ عائد إلى إبراهيم على تقدير مضاف ، أي اختلفوا في ملّته ، وليس عائداً على السبت ، إذ لا طائل من المعنى في ذلك .

والذين اختلفوا في إبراهيم ، أي في ملّته هم اليهود لأنهم أصحاب السبت .

ومعنى ﴿ جعل السبت ﴾ فرض وعُيّن عليهم ، أي فرضت عليهم أحكام السبت : من تحريم العمل فيه ، وتحريم استخدام الخدم والدوابّ في يوم السبت .

وعدل عن ذكر اسم اليهود أو بني إسرائيل مع كونه أوجزَ إلى التّعبير عنهم بالموصول لأن اشتهارهم بالصّلة كافٍ في تعريفهم مع ما في الموصول وصلته من الإيماء إلى وجه بناء الخبر .

وذلك الإيماء هو المقصود هنا لأن المقصود إثبات أن اليهود لم يكونوا على الحنيفية كما علمت آنفاً .

وليس معنى فِعل ﴿ اختلفوا ﴾ وقُوع خلاف بينهم بأمر السبت بل فعل ﴿ اختلفوا ﴾ مرادٌ به خالفوا كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم " واختلافهم أنبيائهم " أي عملهم

خلاف ما أمر به أنبياؤهم .

فحاصل المعنى هكذا : ما فُرض السبت على أهل السبت إلا لأنهم لم يكونوا على ملّة إبراهيم ، إذ مما لا شكّ فيه عندهم أن ملّة إبراهيم ليس منها حرمة السبت ولا هو من شرائعها .

ولم يقع التعرّض لليوم المقدّس عند النصارى لعدم الداعي إلى ذلك حين نزول هذه السورة كما علمت .

(262/445)

ولا يؤخذ من هذا أن ملّة إبراهيم كان اليومُ المقدّسُ فيها يومَ الجمعة لعدم ما يدلّ على ذلك ، والكافي في نفي أن يكون اليهود على ملّة إبراهيم أن يوم حرمة السبت لم تكن من ملّة إبراهيم .

ثم الأظهر أن حرمة يوم الجمعة ادخرت للملّة الإسلامية لقول النبي صلى الله عليه وسلم " فهذا اليومُ الذي اختلفوا فيه فهَدانا الله إليه فالناس لنا فيه تبع اليهودُ غداً والنصارى بعد غَدٍ " .

فقوله : " فهدانا الله إليه " يدلّ على أنه لم يسبق ذلك في ملّة أخرى .

فهذا وجه تفسير هذه الآية ، ومحمل الفعل والضمير المجرور في قوله : ﴿ اختلفوا فيه ﴾ .

وما ذكره المفسّرون من وجوه لا يخلو من تكلّف وعدم طائل .

وقد جعلوا ضمير ﴿ فيه ﴾ عائداً إلى ﴿ السبت ﴾ .

وتأوّلوا معنى الاختلاف فيه بوجوه .

ولا مناسبة بين الخبر وبين ما تُوهّم أنه تعليل له على معنى جعل السبت عليهم لأنهم اختلفُوا على نبيئهم موسى عليه السلام لأجل السبت ، لأن نبيّهم أمرهم أن يعظّموا يومَ الجمعة فأَبَوا ، وطلبوا أن يكون السبت هو المفضّل من الأسبوع بعلّةِ أن الله قضى خلق السماوات والأرضين قبل يوم السبت ، ولم يكن في يوم السبت خَلق ، فعاقبهم الله بالتّشديد عليهم في حرمة السبت .

كذا نقل عن ابن عباس .

وهو لا يصحّ عنه ، وكيف وقد قال الله تعالى : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ [سورة النساء : 154] .

وكيف يستقيم أن يعدل موسى عليه السلام عن اليوم الذي أمر الله بتعظيمه إلى يوم آخر لشهوة قومه وقد عُرف بالصلابة في الدين .

من المفسرين من زعم أن التوراة أمرتهم بيوم غير معيّن فعيّنوه السبت .

وهذا لا يستقيم لأن موسى عليه السلام عاش بينهم ثمانين سنة فكيف يصحّ أن يكونوا فعلوا

ذلك لسوء فهمهم في التوراة .

ولعلّك تلوح لك حيرة المفسّرين في التئام معاني هذه الآية .

وإنما ﴿ للحصر وهو قصر قلب مقصود به الردّ على اليهود بالاستدلال عليهم بأنهم ليسوا على ملّة إبراهيم ، لأن السبت جعله الله لهم شرعاً جديداً بصريح كتابهم إذ لم يكن عليه سلفهم .

وتركيب الاستدلال : إن حرمة السبت لم تكن من ملّة إبراهيم فأصحاب تلك الحرمة ليسوا على ملّة إبراهيم .

ومعنى ﴿ جعل السبت ﴾ أنه جعل يوماً معظّماً لا عمل فيه ، أي جعل الله السبت معظّماً ، فحذف المفعول الثاني لفعل الجعل لأنه نزل منزلة اللازم إيجازاً ليشمل كل أحوال السبت المحكية في قوله تعالى : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ [سورة النساء : 154] وقوله : ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ [سورة الأعراف : 163] .

وضمن فعل ﴿ جعل ﴾ معنى فُرض فعدي بحرف ﴿ على ﴾ .

وقد ادّخر الله تعالى لمحمد أن يكون هو الوارث لأصول إبراهيم ، فجعل لليهود والنصارى

ديناً مخالفاً لملّة إبراهيم ، ونصَب على ذلك شعاراً وهو اليوم الذي يعرف به أصل ذلك الدين وتغيير ذلك اليوم عند بعثة المسيح عليه السلام إشارة إلى ذلك ، لئلا يكون يوم السبت مسترسلاً في بني إسرائيل ، تنبيهاً على أنهم عرضة لنسخ دينهم بدين عيسى عليه السلام وإعداداً لهم لتلّقي نسخ آخر بعد ذلك بدين آخر يكون شعاره يوماً آخر غير السبت وغير الأحد .

فهذا هو التفسير الذي به يظهر انتساق الآي بعضها مع بعض .

وبينهم ﴾ ظرف للحكم المستفاد من "يحكم" ، أي حكماً بين ظهرانيهم .

وليست ﴿ بينهم ﴾ لتعدية "يحكم" إذ ليس ثمّة ذكر الاختلاف بين فريقين هنا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(264/445)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

بعد أن ذكرتْ الآيات طرفاً من سيرة اليهود ، وطرفاً من سيرة أهل مكة تعرّضتْ لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟

ذلك لأنه أبو الأنبياء ، ولو مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون فيه ، حتى المشركون يقولون : نحن على دين إبراهيم ، والنصارى قالوا عنه : إنه نصراني . واليهود قالوا : إنه يهودي .

فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام ، وتُوضِّح مواصفاتها ، وتردُّ وتُبطِل مزاعمهم في إبراهيم عليه السلام ، وهاكم مواصفاته :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . ﴾ [النحل : 120] .

أُمَّة : الأمة في معناها العام : الجماعة ، وسياق الحديث هو الذي يُحدِّد عددها ، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أي : جماعة الشعراء ، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ . . ﴾ [القصص : 23] .

فسمي جماعة من الرعاة أمة ؛ لأنهم خرجوا لغرض واحد ، وهو سَقْي دوابهم .

وتُطلَق الأمة على جنس في مكان ، كأمة الفرس ، وأمة الروم ، وقد تُطلِق على جماعة تتبع نبياً من الأنبياء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] .

وحين نتوسَّع في معنى نجدها في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تشمل جميع الأمم ؛ لأنه

أُرسِل للناس كافّة ، وجمع الأمم في أمة واحدة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء : 92] .

ومعنى أمة واحدة . أي : جامعة لكل الأمم .

(265/445)

فالمعنى إذن أن إبراهيم عليه السلام يقوم مقام أمة كاملة ؛ لأن الكمالات المطلقة لله وحده ، والكمالات الموهوبة من الله لخلْقه في الرسل تُسمَّى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما ما دون الرسل فقد وُزِّعت عليهم هذه الكمالات ، فأخذ كل إنسان واحداً منها ، فهذا أخذ الحلم ، وهذا الشجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا في الرسل .

فإذا نظرتَ إلى إبراهيم عليه السلام وجدتَ فيه من المواهب ما لا يُوجد إلا في أمة كاملة .

كذلك رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم حينما حَدَّد موقعه بين رسالات الله في الأرض يقول : " الخير فيَّ وهذا هو الكمال البشري الذي أعطاه الله إياه وفي أمتي " .

أي : أن كل واحد منهم أخذ جزءاً من هذا الكمال ، فكأن كماله صلى الله عليه وسلم مُبعثر في أمته كلها .

لذلك حين تتبع تاريخ إبراهيم عليه السلام في كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه

يعطيك خَصْلة من خصال الخير ، وصِفة من صفات الكمال ، فإذا جمعتَ هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا في أمة بأسْرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

ومن معاني أمة : أنه عليه السلام يقوم مقام أمة في عبادة الله وطاعته .

وقوله : ﴿ قَانِتاً لِّلَّهِ . . ﴾ [النحل : 120] .

أي : خاشعاً خاضعاً لله تعالى في عبادته .

﴿ حَنِيفاً . . ﴾ [النحل : 120] .

الحنف في الأصل : الميْل ، وقد جاء إبراهيم عليه السلام والكون على فساد واعوجاج في تكوين القيم ، فمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحَاد عن هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعالى لا يبعث الرسل إلا إذا طَمَّ الفساد ، إذن : ميْله عن الاعوجاج والفساد ، فمعناه أنه كان مستقيماً معتدلاً على الدين الحق ، مائلاً عن الاعوجاج حائداً عن الفساد .

ثم يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 120] .

وهذه هي الصفة الرابعة لخليل الله إبراهيم بعد أن وصفه بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفي عنه الشرك بالله ، فما فائدة نَفْي الشرك عنه مرة أخرى في :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 120] .

يجب أنْ نُفرّق بين أنواع الشرك ، فمنه الشرك الأكبر ، وهو أن تجعل لله شركاء ، وهو القمة في الشرك . ومنه الشرك الخفي ، بأن تجعل للأسباب التي خلقها دَخْل في تكوين الأشياء .

فالآية هنا : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 120] .

أي : الشرك الخفي ، فالأوصاف السابقة نفتْ عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفي عنه شركَ الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفيّ .

ولذلك عندما أُلقِيَ عليه السلام في النار لم يلتفت إلى الأسباب وإنْ جاءت على يد جبريل عليه السلام ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا . فأين الشرك الخفي إذن والأسباب عنده معدومة من البداية ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل : 121] .

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدّعُون أنكم على مِلّة إبراهيم عليه السلام فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكراً لله على نعمه .

وقوله : ﴿ اجتباه ﴾ [النحل : 121] .

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم عليه السلام كان عن اختبار ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . ﴾ [البقرة : 124] .

أي : اختبره ببعض التكاليف ، فأتمها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه : ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] .

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة في ذريته قال : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة : 124] .

(267/445)

فعدَّل الله له هذه الرغبة ، وصحَّح له ، بأن ذريتك ستكون منها الظالم ، فقال : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] .

لذلك تعلَّم إبراهيم عليه السلام من هذا الموقف ، وأراد أن يحتاط لنفسه بعد ذلك ،

فعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر . . ﴾ [البقرة : 126] .

فصحَّح الله له أيضاً هذا المطلب ، فالموقف هنا مختلف عن الأول ، الأول كان في إمامة القيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أما هذه فرزق وعطاء ربوبية يشمل المؤمن والكافر

والطائع والعاصي ، فالجميع في الرزق سواء ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ . . ﴾ [البقرة : 126] .

أي : سأرزق الكافر أيضاً .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التي تُربِّي الأنبياء ، وتصنعهم على عَيْنها ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع في النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشري .

ويدل على دقة إبراهيم عليه السلام في أداء ما طُلِب منه موقفه في بناء البيت ، فبعد أن دَلَّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفي إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أنْ يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتي بالأمر على أتمِّ وجوهه ، وينفذه بدقة واحتياط ، ففكَّر أن يأتي بحجر مرتفع ، ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذي هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده ؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيماني وتخلّيه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع ، وفي مكان خالٍ من مُقوِّمات الحياة وأسباب العيش .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسبِّبها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفِّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم ؛ لذلك حينما سألته هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك ؟

فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يُضيِّعنا . وكأن إيمان إبراهيم نضح على زوجته ، وملأ قلبها يقيناً في الله تعالى .

وقوله سبحانه :

﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : 121] .

كيف . . بعد كل هذه الأوصاف الإيمانية تقول الآيات (وَهَدَاهُ) أليست هذه كلها هداية ؟

نقول : المراد زاده هداية ، كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا . . ﴾ .

الحق سبحانه يُبيِّن أن جزاء إبراهيم عليه السلام عظيم في الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء في ذريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وها نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم في

الدنيا ؛ لأنه بالغ في طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربه هذه المكانة ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين * واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 83-84]

.

حُكْماً : أي : حكمة أضع بها الأشياء في مواضعها .

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [النحل : 122] .

فإنْ كان هذا جزاءَه في الدنيا ، فلا شكَّ أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . . ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لأنعمه ، واجتباه ربه وهداه . . الخ قال :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [النحل : 123] .

يا محمد :

﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [النحل : 123] .

كأن قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أي شريعة التوحيد .

ثم يُؤكّد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 123] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت . . . ﴾ .

بعد أن تحدَّث الحق سبحانه عن إبراهيم أبي الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلَّم عن بني إسرائيل في قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكأن القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فها هي صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم ؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام ؟

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كإبراهيم في اتباعه ، فيذكر ما كان منهم في أمر السبت .

و(السبت) هو يوم السبت المعروف التالي للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِت سَبْتاً . يعني : سكن واستقرّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً

﴾ [النبأ : 9] .

ذلك أن بني إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى عليه السلام أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذي أتَّم الله فيه خَلْق الكون في ستة أيام ، وهو اليوم الذي اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا في ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

(270/445)

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود في يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام في يوم الجمعة ، واختاروا الأحد على اعتبار إنه أول بَدْء الخلق .

أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربُّهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أنْ يتفرغوا لعبادته في هذا اليوم ، وافقهم

لِيُبيّن لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجتهم ، فلو اختار لهم يوماً لاعترضوا عليه ، ولكن ها هم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقدية عامة ، هي أن الآيات التي تأتي مُصدِّقة للرسل في البلاغ عن الله تعالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقد تكون باختيار المرسَل إليهم أنفسهم ، وقد كان من بني إسرائيل أنْ كذَّبوا بهذه وهذه ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ [الإسراء : 59] .

أي : لكونهم يقترحون الآية ثم يُكذِّبونها ، فأمْرهم تكذيب في تكذيب .

وقصة السبت ذُكِرَتْ في مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : 163] .

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصيد في يوم السبت ، فكادهم الله وأغاظهم ، فكانت تأتيهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشراع ، ولا ينتفعون منها بشيء إلا الحسرة والأسف ، فيقولون : لعلها تأتي في الغد فيخيب الله رجاءهم :

﴿ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾ [الأعراف: 163].

وقد سمّى القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً؛ لأنهم اعتدوا على ما شرع الله، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي السبت فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة: 65].

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ... ﴾ [النحل: 124].

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُوحي بوجود طائفتين متناقضتين في هذه القضية، والحقيقة أن الخلاف لم يكُنْ بين اليهود بعضهم البعض، بل بينهم وبين نبيهم الذي اختار لهم يوم الجمعة، فخالفوه واختاروا السبت، فجعل الله الخلاف عليهم.

فالمعنى: إنما جُعِل السبت حُجّة على الذين اختلفوا فيه؛ لأنه اثبت عدوانهم على يوم العبادة، فبعد أن اقترحوه اختاروه انقلب حُجة عليهم، ودليلاً لإدانتهم.

ولو تأملنا قوله:

﴿ على الذين.. ﴾ [النحل: 124].

نجد أن كلمة (عَلَى) تدلُّ على الفوقية أي: أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى؛ فكأن السبت جاء ضد مصلحتهم، وكأن خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . ﴾ [الرعد : 6]

.

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ، ولكن المعية لا تقتضي العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . ﴾ [الرعد : 6] .

أي : أن المغفرة عَلَت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن رحمة الله ومغفرته عَلَتْ على أنْ تُعامِل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله سبقتْ غضبه ، ونفس الملحظ نجده في قول الحق سبحانه : ﴿ الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم : 39] .

فالكبر كان يقتضي عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكِبَر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه، عن ابن مسعود أنه سئل: ما الأمة؟ قال: الذي يعلم الناس الخير. قالوا: فما القانت؟ قال: الذي يطيع الله ورسوله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً ﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿ كان أمة قانتاً ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ قال: إماماً في الخير ﴿ قانتاً ﴾ قال: مطيعاً.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ قال: كان مؤمناً وحده والناس كفار كلهم.

وأخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: لم يبق في الأرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض ويخرج بركتها، إلا زمن إبراهيم فإنه كان وحده.

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم. والأمة، الرجل فما فوقه إن الله يقول: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ ".

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ قال: إمام هدى يقتدى به وتتبع سنته.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ قال: لسان صدق.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ قال: فليس من أهل دين إلا يرضاه ويتولاه.

(273/445)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة معاً في المصنف، وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الشعب، عن ابن عمرو قال: صلى إبراهيم الظهر والعصر والمغرب بعرفات ثم وقف، حتى إذا غابت الشمس دفع. ثم صلى المغرب والعشاء بجمع، ثم صلى به الفجر كأسرع ما يصلي أحد من المسلمين، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، دفع ثم رمى الجمرة ثم ذبح وحلق، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به فقال الله لنبيه: ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ والله تعالى أعلم.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال: أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال: إن الله فرض على اليهود الجمعة فأبوا وقالوا: يا موسى، إنه لم يخلق يوم السبت شيئاً فاجعل لنا السبت، فلما جعل عليهم السبت استحلوا فيه ما حرم عليهم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق السدي، عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله: ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال: باستحلالهم إياه، رأى موسى عليه السلام رجلاً يحمل حطباً يوم السبت فضرب عنقه.

وأخرج الشافعي في الأم والبخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد".

وأخرج أحمد ومسلم عن أبي هريرة وحذيفة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق والله أعلم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(275/445)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُمَّةً ﴾ : تُطْلَقُ الأُمَّة على الرجل الجامع لخصالٍ محمودة . وقيل : فُعْلَة تدل على المبالغةِ ، وإلى المعنى الأول نَظَرَ ابنُ هانئٍ في قوله :

3024- وليس الله بمُسْتَنْكرٍ ... أن يَجْمَعَ العالَمَ في واحِدِ

قوله تعالى : ﴿ شَاكِراً ﴾ : يجوز أن يكونَ خبراً ثالثاً ، او حالاً مِنْ أحدِ الضميرين في " قانِتاً " أو " حنيفاً " .

قوله: "لأَنْعُمِهِ" يجوز تعلُّقه ب "شاكراً" أو ب "اجتباه"، و"اجتباه": إمَّا حالٌ، وإمَّا خبرٌ آخرُ لكان. و ﴿ إلى صِرَاطٍ ﴾ يجوز تعلُّقُه ب "اجتباه" وب "هداه" على قاعدةِ التنازع.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ ﴾

قال الزمخشري: "في "ثم" هذه ما فيها مِنْ تعظيم منزلتِه وأجلالِ مَحَلِّه، والإِيذانُ بأنَّ أَشْرَفَ ما أُوتي خليلُ الرحمنِ من الكرامةِ وأَجَلَّ ما أُوْلِيَ من النعمةِ اتِّباعُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من قِبَلِ أنها دَلَّتْ على تباعُدِ هذا النعتِ في الرتبةِ منْ بينِ سائرِ النُّعوت التي أثنى اللهُ عليه بها".

قوله: ﴿ أَنِ اتبع ﴾ يجوز أن تكونَ المفسِّرةَ، وأن تكونَ المصدريةَ فتكونَ مع منصوبِها مفعولَ الإِيحاء.

(276/445)

قوله: "حنيفاً" حالٌ، وتقدَّم تحقيقُه في البقرة. وقال ابن عطية: "قال مكي: ولا يكون -يعني حنيفاً- حالاً من "إبراهيم" لأنه مضافٌ إليه، وليس كما قال؛ لأن الحالَ قد تعمل فيها حروفُ الجرِّ إذا عَمِلَتْ في ذي الحال كقولِك "مررتُ بزيدٍ قائماً". قلت: ما ذكره

مكيٌّ من امتناعِ الحال من المضاف إليه فليس على إطلاقه لما تقدَّم تفصيلُه في البقرة . وأمَّا قولُ ابن عطية : إن العاملَ الخافضُ فليس كذلك ، إنما العاملُ ما تعلَّق به الخافضُ ، ولذلك إذا حُذِفَ الخافضُ ، نُصِبَ مخفوضُه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ﴾

العامَّةُ على بنائِه للمفعول ، وأبو حَيْوَةَ على بنائِه للفاعلِ ، "السَّبْتَ" مفعول به . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 302.301 ﴾

(277/445)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

قيل آمن بالله وحدَه فقام مقام الأمة ، وفي التفسير : كان معلّماً - للخير - لأمةٍ .

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودة ما يكون في أمةٍ متفرقاً .

ويقال لمَّا قال إبراهيمُ لكلِّ ما رآه : ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام : 77] ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هي بل كان مُسْتَهْلَكاً في شهودِ الحقّ ، ورأى الكوْنَ كُلَّه بالله ، وما ذكر

حين ذكر غيرَ الله . . كذلك كان جزاء الحق فقال : أنت الذي تقوم مقام الكلّي ، ففي القيامِ بحق الله منك على الدوام غُنْيَةٌ عن الجميع .

و" الحنيف " : المستقيم في الدِّين ، أو المائل إلى الحق بالكلية .

﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) ﴾

الشاكرُ في الحقيقة – مَنْ يرى عَجْزَه عن شكره ، ويرى شُكْرَه من الله عزَّ وجل ، لِتَحَقُّقِه أنه هو الذي خَلَقَه ، وهو الذي وَفَّقه لشكره ، وهو الذي رزقه الشكرَ ، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له – سبحانه .

﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي تحقَّق بأنه عَبْدُه ، وأنه رقّاه إلى محلِّ الأكابر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى الأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

الحسنةُ التي آتاه اللَّهُ هي دوامُ ما آتاه حتى لم تنقطِعْ عنه .

ويقال هي الخلة . ويقال هي النبوة والرسالة .

ويقال آتيناه في الدنيا حسنةً حتى كان لنا بالكلية ، ولم تكن فيه لغير بقية .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) ﴾

﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي الكون بالحق ، والامتحاء عن شاهد نفسه ؛ فكان نبينا – صلى الله عليه وسلم – في اتباعه إبراهيم مؤْتمِرًا بأمر الله . وكانت ملةُ إبراهيم – عليه السلام – الخُلُقَ والسخاءَ والإيثارَ والوفاءَ ، فاتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد عليه ، فقد زاد على الكافة شأنه ، وبانت مزيّتُه .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ﴾

قومٌ حرّموا العملَ فيه وقومٌ حللوه معصيةً منهم ، وقيل جعل الجمعةَ لهم فقالوا : لا نريد إلا يومَ السبت . . فهذا اختلافهم فيه .

والإشارة من ذلك أنهم حادوا عن موجب الأمر ، ومالوا إلى جانب هواهم . ثم إنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 327.328 ﴾

(279/445)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 125 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 128 ﴾ آخر السورة الكريمة

قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم سبحانه في هذه السورة حكاية كثير من استهزائهم بوعده ووعيده ، وتكذيبهم لرسله على أبشع وجه ، والتفتير عن حرقة الحرص عليهم ، المفضي إلى شدة التأسف على ضلالهم وغير ذلك مما ربما أيأس منهم فأقعد عن دعائهم ، وأتبعه ضرب الأمثال ، ونصب الجدال – على تلك المناهيج المعجزة بما يسبق من ظواهرها إلى الفهم عند قرع السمع من المعاني الجليلة ، والمقاصد الجميلة – لعامة الخلق ما يجل عن الوصف ، وإذا تأملها الخواص وجدوا فيها من دقائق الحقائق ، ومشارع الرقائق ، ومحكم الدلائل ، ومتقن المقاصد والوسائل ، ما يوضح – بتفاوت الأفهام وتباين الأفكار – أنه بحر لا ساحل له ولا قرار ، ولا منتهى لما تستخرج منه الأنظار ، وختم باتباع الأب الأعظم ، لما كان ذلك ، وأمر

سبحانه نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو السميع المطيع أن يستن بآثاره ، ويقتدي بإضماره وإظهاره ، فسر له تلك الملة التي أمره باتباعها فقال تعالى : ﴿ ادع ﴾ أي كل من تمكن دعوته ﴿ إلى سبيل ربك ﴾ أي المحسن إليك ، بتسهيل السبيل الذي تدعو إليه واتساعه ، وهو الإسلام الذي هو الملة الحنيفية ﴿ بالحكمة ﴾ وهي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن والقبح والصلاح والفساد ، وقيل لها حكمة لأنها بمنزلة المانع من الفساد وما لا ينبغي أن يختار ، فالحكيم هو العالم بما يمنع من الفساد - قاله الرماني ، وهي في الحقيقة الحق الصريح ، فمن كان أهلاً له دعا به ﴿ والموعظة ﴾ بضرب الأمثال والوعد والوعيد مع خلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة ﴿ الحسنة ﴾ أي التي يسهل على كل فهم ظاهرها ، ويروق كل نحرير ما ضمنته سرائرها ، مع اللين في مقصودها وتأديتها هذا لمن لا يحتمل إلا ذلك ﴿ وجادلهم ﴾ أي الذين يحتملون ذلك منهم افتلهم عن مذاهبهم الباطلة إلى مذهبك الحق بطريق الحجاج ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ من الطرق بالترفق واللين والوقار والسكينة ، ولا تعرض عنهم يأساً منهم ، ولا تجازهم بسيىء مقالهم وقبيح فعالهم صفحاً

عنهم ورفقاً بهم ، فهو بيان لأصناف الدعوة بحسب عقول المدعوين ، لأن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بأن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم ، وقيل : الدعوة إن كانت لتقرير الدين وتثبيت الاعتقاد في قلوب أهله - وهي مع ذلك يقينية مطهرة عن احتمال نقيض - فهي الحكمة وهي لطالب الحق المذعن إن كان مستعداً للقبول بفكره الثاقب ، وإن كانت مقارنة لاحتمال النقيض مفيدة للظن والإقناع فهي الموعظة وهي للمذعن الذي لا استعداد له ، وإن كانت لإلزام الجاحدين وإفحام المعاندين فهي المجادلة ، فإن كانت مركبة من مقدمات مسلمة عند الجمهور أو عند الخصم فقط فهي الحسنة ، وإن كانت من مقدمات كاذبة غير مسلمة يراد ترويجها بالحيل الباطلة والطرق الفاسدة فهي السيئة التي لا تليق بمنصف ؛ ثم علل الملازمة لدعائهم على هذا الوجه بقوله تعالى : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بالتخفيف عنك ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم ﴾ أي من كل من يتوهم فيه علم ﴿ بمن ضل عن سبيله ﴾ فكان في أدنى درجات الضلال - وهو أعلم بالضالين الراسخين في الجور عن الطريق - فلا انفكاك له عن الضلال ، وهو أعلم بمن اهتدى لسبيله فكان في أدنى درجات الهداية ﴿ وهو ﴾ أي خاصة ﴿ أعلم بالمهتدين ﴾ أي الذين هم في النهاية منها ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً " من ضل " دليلاً على حذف ضده ثانياً ، و ﴿ المهتدين ﴾ ثانياً دليلاً على حذف ضدهم أولاً .

وأما أنت فلا علم لك بشيء من ذلك إلا بإعلامنا ، وقد ألزمناك البلاغ المبين ، فلا تفتر عنه معرضاً عن الحرص المهلك واليأس فإنه ليس عليك هداهم .

(6/446)

ولما بين أمر الدعوة وأوضح طرقها وقدم أمر الهجرة والإكراه في الدين والفتن فيه المشير إلى ما سبب ذلك من المحن والبلاء من الكفار ظلماً ، وختم ذلك بالأمر بالرفق بهم ، عم - بعد ما خصه صلى الله عليه وعلى آله وسلم به من الأمر بالرفق ، بالأمر لأشياعه بالعدل والإحسان كما تقدم ولو مع أعدى الأعداء ، والنهي عن مجازاتهم إلا على وجه العدل - فقال تعالى : ﴿ وإن عاقبتم ﴾ أي كانت لكم عاقبة عليهم تتمكنون فيها من أذاهم ﴿ فعاقبوا بمثل ما ﴾ ولما كان الأمر عاماً في كل فعل من المعاقبة من أيّ فاعل كان فلم يتعلق بتعيين الفاعل غرض ، بنى للمفعول قوله تعالى : ﴿ عوقبتم به ﴾ وفي ذلك إشارة - على ما جرت به عوائد الملوك في كلامهم - إلى إدالتهم عليهم وإسلامهم في يديهم ، وجعله بأداة الشك إقامة بين الخوف والرجاء .

ولما أباح لهم درجة العدل ، رقاهم إلى رتبة الإحسان بقوله تعالى : ﴿ ولئن صبرتم ﴾

بالعفو عنهم ﴿ لهو ﴾ أي الصبر ﴿ خير للصابرين ﴾ وأظهر في موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً بالوصف .

(7/446)

ولما كان التقدير : فاصبروا ، عطف عليه إفراداً له صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالأمر ، إجلالاً له وتسلية فيما كان سبب نزول الآية من التمثيل بعمه حمزة - رضى الله عنهم - ، وتنويهاً بعظم مقام الصبر زيادة في حث الأمة ، لأن أمر الرئيس أدعى لامتثال أتباعه ، فقال تعالى : ﴿ واصبر ﴾ ثم اتبع ذلك بما يحث على دوام الالتجاء إليه المنتج للمراقبة والفناء عن الأغيار ثم الفناء عن الفناء ، لئلا يتوهم أن لأحد فعلاً مستقلاً فقال تعالى : ﴿ وما صبرك ﴾ أي أيها الرسول الأعظم ! ﴿ إلا بالله ﴾ أي الملك الأعظم الذي شرع لك هذا الشرع الأقوم وأنت قائم في نصره ، ولقد قابل هذا الأمر صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأعلى مقامات الصبر ، وذلك أنهم مثلوا بقتلى المسلمين في غزوة أحد إلا حنظلة الغسيل - رضى الله عنهم - فإن أباه كان معهم فتركوه له ، فلما وقف النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على عمه حمزة - رضى الله عنهم - فوجدهم قد جدعوا أنفه وقطعوا أذنيه وجبوا مذاكيره وبقروا بطنه ، نظر إلى شيء لم ينظر قط إلى أوجع لقلبه منه فقال :

" رحمة الله عليك ، فإنك كنت فعالاً للخير وصولاً للرحم ، ولولا أن تحزن صفيه لسرني أن أدعك حتى تحشر من أجواف شتى ، أما والله ! لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم " ، وقال الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ م : لنزيدن على صنيعهم ، فلما نزلت الآية بادر صلى الله عليه وعلى آله وسلم الامتثال ، وكان لا يخطب خطبة إلا نهى عن المثلة ، وأحسن يوم الفتح بأن نهى عن قتالهم بعد أن صاروا في قبضته – صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل وعظم دائماً أبداً .

ولما كان – بعد توطين النفس على الصبر وتفريغ القلب من الأحنة – يرجع إلى الأسف على إهلاكهم أنفسهم بتماديهم على العتو على الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي في شدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس .

ولما كان سبحانه في مقام التبشير ، بالمحل الكبير والموطن الخطير ، الذي ما حازه قبل نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشير ولا نذير ، وذلك هو الإسراء إلى الملكوت الأعلى ، والمقام الأسمى من السماوات العلى ، في حضرات القدس ، ومحال الأنس ، ووطأ لذلك في سورة النعم بمقامات الكرم إلى أن قارب الوصول إليه ، أوجز في العبارة بحذف حرف

مستغنى عنه دلالة عليه فقال : ﴿ ولا تك ﴾ بحذف النون أشارة إلى ضيق الحالة عن أدنى إطالة :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً . . .

إذا دنت الديار من الديار

(9/446)

وهذا بخلاف ما يأتي في سورة النمل إن شاء الله تعالى ﴿ في ضيق ﴾ ولو قل - كما لوح إليه تنوين التحقير بما يشير إليه حذف النون ، فإن أذى الكفار الذي السياق للتسلية عنه لا يضرك في المقصود الذي بعثت لأجله ، وهو إظهار الدين وقمع المفسدين بوجه من الوجوه ﴿ مما يمكرون ﴾ أي من استمرار مكرهم بك ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وكأنك به ، وقد أتى فاصبر فإن الله تعالى معزك ومظهر دينك وإن كرهوا ؛ ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه ﴿ مع الذين اتقوا ﴾ أي وجد منهم الخوف من الله تعالى ، فكانوا في أول منازل التقوى ، وهو مع المتقين الذين كانوا في النهاية منها ، فعدلوا في أفعالهم من التوحيد وغيره عملاً بأمر الله في الكتاب الذي هو تبيان لكل شيء ، وهو مع الذين أحسنوا وكانوا في أول درجات الإحسان ﴿ والذين هم ﴾ أي

بضمائرهم وظواهرهم ﴿ محسنون ﴾ أي صار الإحسان صفة لهم غير منفكة عنهم ، فهم في حضرات الرحمن ، وأنت رأس المتقين المحسنين ، فالله معك ، ومن كان الله معه كان غالباً ، وصفقته رابحة ، وحالته صالحة ، وأمره عال ، وضده في أسوإ الأحوال ، فلا تستعجلوا قلقاً كما استعجل الكفار استهزاء ، تخلقاً في التأني والحلم بصفة من تنزه عن نقص الاستعجال ، وتعالى عن ادعاء الأكفاء والأمثال ، فقد عانق آخرها أولها ، ووافق مقطعها ، وآخرها احتباك : ذكر ﴿ الذين اتقوا ﴾ أولاً دليلاً على حذف ﴿ الذين أحسنوا ﴾ ثانياً ، ﴿ والمحسنين ﴾ ثانياً دليلاً على حذف المتقين أولاً - والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 323 . 326 ﴾

(10/446)

فصل

قال الفخر :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم باتباع إبراهيم عليه السلام ، بين الشيء الذي أمره بمتابعته فيه ، فقال : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة ﴾ .

واعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن ، وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض ، وجب أن تكون طرقاً متغايرة متباينة ، وما رأيت للمفسرين فيه كلاماً ملخصاً مضبوطاً .

واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة وبينة ، والمقصود من ذكر الحجة ، إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين ، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وإفحامه .

أما القسم الأول : فينقسم أيضاً إلى قسمين : لأن الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض ، وإما أن لا تكون كذلك ، بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل ، فظهر بهذا التقسيم إنحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة .

أولها : الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية ، وذلك هو المسمى بالحكمة ، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات ، وهي التي قال الله في صفتها : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحكمة فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] .

وثانيها : الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي الموعظة الحسنة .

وثالثها : الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم ، وذلك هو الجدل ، ثم هذا الجدل على قسمين :

(11/446)

القسم الأول : أن يكون دليلاً مركباً من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور ، أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل ، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن .

القسم الثاني : أن يكون ذلك الدليل مركباً من مقدمات باطلة فاسدة إلا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب ، والحيل الباطلة ، والطرق الفاسدة ، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل إنما اللائق بهم هو القسم الأول ، وذلك هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج في هذه الأقسام الثلاثة المذكورة في هذه الآية .

إذا عرفت هذا فنقول : أهل العلم ثلاث طوائف : الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية ، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهي الحكمة ، والقسم الثاني الذي تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية

والعلوم اليقينية ، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام ، وهذان القسمان هما الطرفان .

فالأول : هو طرف الكمال ، والثاني : طرف النقصان .

وأما القسم الثاني : فهو الواسطة ، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين ، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية ، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية ، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة ، وأدناها المجادلة ، وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون ، وأوسطهم عامة الخلق وهم أرباب السلامة ، وفيهم الكثرة والغلبة ، وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة ، فقوله تعالى : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالْحِكْمَةِ ﴾ معناه ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالحكمة ، وهي البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة ، وهي الدلائل اليقينية الإقناعية الظنية ، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل .

ومن لطائف هذه الآية أنه قال : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ فقصر

الدعوة على ذكر هذين القسمين لأن الدعوة إذا كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة ، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة ، أما الجدل فليس من باب الدعوة ، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن ، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيهاً على أنه لا يحصل الدعوة ، وإنما الغرض منه شيء آخر ، والله أعلم .

واعلم أن هذه المباحث تدل على أنه تعالى أدرج في هذه الآية هذه الأسرار العالية الشريفة مع أن أكثر الخلق كانوا غافلين عنها ، فظهر أن هذا الكتاب الكريم لا يهتدي إلى ما فيه من الأسرار إلا من كان من خواص أولي الأبصار .

(13/446)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ والمعنى : أنك مكلف بالدعوة إلى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة ، فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك ، فهو تعالى أعلم بالضالين واعلم بالمهتدين ، والذي عندي في هذا الباب أن جواهر النفوس البشرية مختلفة بالماهية ، فبعضها نفوس مشرقة صافية قليلة التعلق بالجسمانيات كثيرة الانجذاب إلى عالم الروحانيات وبعضها مظلمة كدرة قوية التعلق بالجسمانيات عديمة

الالتفات إلى الروحانيات ، ولما كانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها ، لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها ، فلهذا قال تعالى : اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع في حصول الهداية للكل ، فإنه تعالى هو العالم بضلال النفوس الضالة الجاهلة وبإشراق النفوس المشرقة الصافية فلكل نفس فطرة مخصوصة وماهية مخصوصة ، كما قال : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : 30] ، والله أعلم .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : هذه الآية فيها ثلاثة أقوال :

القول الأول : وهو الذي عليه العامة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة وقد مثلوا به قال : " والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك " فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عما أراد .

وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء ، وأبي بن كعب والشعبي وعلى هذا قالوا : إن سورة النحل كلها مكية إلا هذه الآيات الثلاث .

والقول الثاني : أن هذا كان قبل الأمر بالسيف والجهاد ، حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدؤا بالقتال وهو قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فِي سَبِيلِ الله الذين يقاتلونكم وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المعتدين ﴾ [البقرة : 190] وفي هذه الآية أمر الله بأن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا .

والقول الثالث : أن المقصود من هذه الآية نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم ، وهذا قول مجاهد والنخعي وابن سيرين قال ابن سيرين : إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ منه مثله ، وأقول : إن حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى وذلك يطرق الطعن إليه وهو في غاية البعد ، بل الأصوب عندي أن يقال : المراد أنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالطريق الأحسن ، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم ، وبالإعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور ، ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة ، وبالضرب ثانياً وبالشتم ثالثاً ، ثم إن ذلك المحق إذا شاهد تلك السفاهات ، وسمع تلك المشاغبات لا بد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب ، فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك

الزيادة ، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه .

فإن قيل : فهل تقدحون فيما روي أنه عليه السلام ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية ؟

(15/446)

قلنا : لا حاجة إلى القدح في تلك الرواية ، لأنا نقول : تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية ، إنما الذي ينازع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة ، لأن ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب :

المرتبة الأولى : قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ يعني إن رغبتم في استقباء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه ، فإن استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله ورحمته وفي قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ دليل على أن الأولى له أن لا يفعل ، كما أنك إذا قلت للمريض : إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح ، كان معناه أن الأولى بك أن لا تأكله ، فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على أن الأولى تركه .

والمرتبة الثانية : الانتقال من التعريض إلى التصريح وهو قوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام ، لأن الرحمة أفضل من القسوة والإنفاع أفضل من الإيلام .

المرتبة الثالثة : وهو ورود الأمر بالجزم بالترك وهو قوله : ﴿ واصبر ﴾ لأنه في المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى ، وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالأمر بالصبر ، ولما كان الصبر في هذا المقام شاقاً شديداً ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال : ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ أي بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الأصلي المفيد في حصول الصبر وفي حصول جميع أنواع الطاعات .

(16/446)

ولما ذكر هذا السبب الكلي الأصلي ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب فقال : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ وذلك لأن إقدام الإنسان على الانتقام ، وعلى إنزال الضرر بالغير لا يكون إلا عند هيجان الغضب ، وشدة الغضب لا تحصل إلا لأحد أمرين : أحدهما : فوات نفع كان حاصلاً في الماضي وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل معناه : ولا تحزن على قتلى أحد ، ومعناه لا تحزن بسبب فوت أولئك

الأصدقاء .

ويرجع حاصله إلى فوت النفع .

والسبب الثاني : لشدة الغضب توقع ضرر في المستقبل ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ومن وقف على هذه اللطائف عرف أنه لا يمكن كلام أدخل في الحسن والضبط من هذا الكلام بقي في لفظ الآية مباحث :

البحث الأول : قرأ ابن كثير : ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضِيْقٍ ﴾ بكسر الضاد ، وفي النمل مثله ، والباقون : بفتح الضاد في الحرفين .

أما الوجه في القراءة المشهورة فأمور : قال أبو عبيدة : الضيق بالكسر في قلة المعاش والمساكن ، وما كان في القلب فإنه الضيق .

وقال أبو عمرو : الضيق بالكسر الشدة والضيق بفتح الضاد الغم .

وقال القتيبي : ضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين .

وبهذا الطريق قلنا : إنه تصح قراءة ابن كثير .

البحث الثاني : قرئ ﴿ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ ﴾ .

البحث الثالث : هذا من الكلام المقلوب ، لأن الضيق صفة ، والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلاً في الصفة ، فكان المعنى فلا يكون الضيق فيك ، إلا أن الفائدة في قوله : ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾ هو أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء

المحيط بالإنسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به ، فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى والله أعلم .

(17/446)

المرتبة الرابعة : قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وهذا يجري مجرى التهديد لأن في المرتبة الأولى رغب في ترك الانتقام على سبيل الرمز ، وفي المرتبة الثانية عدل عن الرمز إلى التصريح وهو قوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ وفي المرتبة الثالثة أمرنا بالصبر على سبيل الجزم ، وفي هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد في فعل الانتقام فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾ عن استيفاء الزيادة : ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ في ترك أصل الانتقام ، فإن أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين .

ومن وقف على هذا الترتيب عرف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرفق واللطف مرتبة فمرتبة ، ولما قال الله لرسوله : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ ذكر هذه المراتب الأربعة ، تنبيهاً على أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعة على هذا الوجه ، وعند الوقوف على هذه اللطائف يعلم العاقل أن هذا الكتاب الكريم بحر لا ساحل له .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾ معيته بالرحمة والفضل والرتبة ، وقوله : ﴿ الذين اتقوا ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله تعالى ، وقوله : ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، وذلك يدل على أن كمال السعادة للإنسان في هذين الأمرين أعني التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، وعبر عنه بعض المشايخ فقال : كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق ، وقال الحكماء : كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وعن هرم بن حيان أنه قيل له عند القرب من الوفاة أوص ، فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي ، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل .

المسألة الرابعة :

(18/446)

قال بعضهم : إن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ منسوخ بآية السيف ، وهذا في غاية البعد ، لأن المقصود من هذه الآية تعليم حسن الأدب في كيفية الدعوة إلى الله تعالى ، وترك التعدي وطلب الزيادة ، ولا تعلق لهذه الأشياء بآية السيف ، وأكثر المفسرين مشغوفون بتكثير القول بالنسخ ، ولا أرى فيه فائدة

والله أعلم بالصواب .

قال المصنف رحمه الله : تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة بزمان معتدل ، وقال رحمه الله : الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعاني في غيب الغيب محصونة والأسرار فيما وراء العز مخزونة ، وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس إلا لله ذي الإكرام والجلال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 111.115 ﴾

(19/446)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ رُوِيَ عَنْ الشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ وَعَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ : " أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا مَثَّلُوا بِقَتْلَى أُحُدٍ قَالَ الْمُسْلِمُونَ : لَئِنْ أَظْهَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ أَعْظَمَ مِمَّا مَثَّلُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ سِيرِينَ : هُوَ فِي كُلِّ مَنْ ظُلِمَ بِغَصْبٍ أَوْ نَحْوِهِ فَإِنَّمَا يُجَازَى بِمِثْلِ مَا عَمِلَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : نُزُولُ الْآيَةِ عَلَى سَبَبٍ لَا يَمْنَعُ عِنْدَنَا اعْتِبَارَ عُمُومِهَا فِي جَمِيعِ مَا انْتَظَمَهُ

الِاسْمُ ، فَوَجَبَ اسْتِعْمَالُهَا فِي جَمِيعِ مَا انْطَوَى تَحْتَهَا بِمُقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَتَلَ رَجُلًا قُتِلَ بِهِ وَمَنْ جَرَحَ جِرَاحَةً جُرِحَ بِهِ جِرَاحَةً مِثْلَهَا ، وَإِنْ قَطَعَ يَدَ رَجُلٍ ثُمَّ قَتَلَهُ أَنَّ لِلْوَلِيِّ قَطْعَ يَدِهِ ثُمَّ قَتْلَهُ وَاقْتَضَى أَيْضًا أَنَّ مَنْ قَتَلَ رَجُلًا بِرَضْخِ رَأْسِهِ بِالْحَجَرِ أَوْ نَصَبَهُ غَرَضًا فَرَمَاهُ حَتَّى قَتَلَهُ أَنَّهُ يُقْتَلُ بِالسَّيْفِ ؛ إذْ لَا يُمْكِنُ الْمُعَاقَبَةُ بِمِثْلِ مَا فَعَلَهُ لِأَنَّا لَا نُحِيطُ عِلْمًا بِمِقْدَارِ الضَّرْبِ وَعَدَدِهِ وَمِقْدَارِ أَلَمِهِ ، وَقَدْ يُمْكِنُنَا الْمُعَاقَبَةُ بِمِثْلِهِ فِي بَابِ إتْلَافِ نَفْسِهِ قَتْلًا بِالسَّيْفِ ، فَوَجَبَ اسْتِعْمَالُ حُكْمِ الْآيَةِ فِيهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ دُونَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ .

(20/446)

وَقَدْ دَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مَنْ اسْتَهْلَكَ لِرَجُلٍ مَالًا فَعَلَيْهِ مِثْلُهُ ، وَإِذَا غَصَبَهُ سَاجَةً فَأَدْخَلَهَا فِي بِنَائِهِ أَوْ غَصَبَهُ حِنْطَةً فَطَحَنَهَا أَنَّ عَلَيْهِ الْمِثْلَ فِيهِمَا جَمِيعًا لِأَنَّ الْمِثْلَ فِي الْحِنْطَةِ بِمِقْدَارِ كَيْلِهَا مِنْ جِنْسِهَا وَفِي السَّاجَةِ قِيمَتُهَا لِدَلَالَةٍ قَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْعَفْوَ عَنْ الْقَاتِلِ وَالْجَانِي أَفْضَلُ مِنْ اسْتِيفَاءِ الْقِصَاصِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(21/446)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ ، أَصْلُهَا رِوَايَتَانِ : إحْدَاهُمَا : ﴿ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا ، وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، فِيهِمْ حَمْزَةُ ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ : لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ قَالَ : فَلَمَّا كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ الْآيَةَ ، فَقَالَ رَجُلٌ : لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُفُّوا عَنْ الْقَوْمِ إلَّا أَرْبَعَةً ﴾ .

الثَّانِيَةُ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ عَلَى حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ اُسْتُشْهِدَ ، فَنَظَرَ إلَى شَيْءٍ لَمْ يَنْظُرْ إلَى شَيْءٍ كَانَ أَوْجَعَ مِنْهُ لِقَلْبِهِ ، وَنَظَرَ إلَيْهِ قَدْ مُثِّلَ بِهِ ، فَقَالَ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْك ، فَإِنَّك كُنْت مَا عَرَفْتُك فَعُولًا لِلْخَيْرَاتِ ، وَصُولًا لِلرَّحِمِ ، وَلَوْلَا حُزْنُ مَنْ بَعْدَك عَلَيْك لَسَرَّنِي أَنْ أَدَعَك ، حَتَّى تُحْشَرَ مِنْ أَفْرَادٍ شَتَّى أَمَا وَاَللَّهِ مَعَ ذَلِكَ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ .

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفٌ بِخَوَاتِيمِ النَّحْلِ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ الْآيَاتِ ؛ فَصَبَرَ النَّبِيُّ ، وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَلَمْ يُمَثِّلْ بِأَحَدٍ ﴾ .

(22/446)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: الْجَزَاءُ عَلَى الْمُثْلَةِ عُقُوبَةٌ؛ فَأَمَّا ابْتِدَاءً فَلَيْسَ بِعُقُوبَةٍ، وَلَكِنَّهَا سُمِّيَتْ بِاسْمِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ وَكَمَا قَالَ: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾؛ وَعَادَةُ الْعَرَبِ هَكَذَا فِي الِازْدِوَاجِ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ عَلَى حُكْمِ اللُّغَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَوَازُ التَّمَاثُلِ فِي الْقِصَاصِ، فَمَنْ قَتَلَ بِحَدِيدَةٍ قُتِلَ بِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ قَتَلَ بِحَجَرٍ أَوْ حَبْلٍ أَوْ عُودٍ امْتُثِلَ فِيهِ مَا فَعَلَ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ فِي الْبَقَرَةِ وَالْمَائِدَةِ وَغَيْرِهَا، فَلَا مَعْنَى لِإِعَادَتِهِ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾: إشَارَةٌ إلَى فَضْلِ الْعَفْوِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَائِدَةِ وَغَيْرِهَا. وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربي حـ 3 صـ ﴾

(23/446)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ادعُ إلى سبيل ربِّك ﴾

يعني إلى دين ربك وهو الإسلام .

﴿ بالحكمة ﴾ فيها تأويلان :

أحدهما : بالقرآن ، قاله الكلبي .

الثاني : بالنبوة ، وهو محتمل .

﴿ والموعظة الحسنة ﴾ فيها تأويلان :

أحدهما : بالقرآن في لين من القول ، قاله الكلبي .

الثاني : بما فيه من الأمر والنهي ، قاله مقاتل .

﴿ وجادلْهُم بالتي هي أحسنُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني بالعفو .

الثاني : بأن توقظ القلوب ولا تسفه العقول . الثالث : بأن ترشد الخلف ولا تذم السلف .

الرابع : على قدر ما يحتملون . روى نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم

" .

قوله عز وجل : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ﴾

فيها قولان :

أحدهما : أنها نزلت في قتلى أُحُد حين مثلت بهم قريش .

واختلف قائل ذلك في نسخه على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾

الثاني : أنها ثابتة غير منسوخة فهذا أحد القولين .

والقول الثاني : أنها نزلت في كل مظلوم ان يقتص من ظالمه ، قاله ابن سيرين ومجاهد ﴿

واصبر ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اصبر على ما أصابك من الأذى ، وهو محتمل .

الثاني : واصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المثلة بقتلى أُحد ، قاله الكلبي .

﴿ وما صبر إلا بالله ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : وما صبر إلا بمعونة الله .

الثاني : وما صبرك إلا لوجه الله .

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إن لم يقبلوا .

الثاني : إن لم يؤمنوا .

﴿ ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون ﴾ قرأ بن كثير ﴿ ضيق ﴾ بالكسر وقرأ الباقون بالفتح .

وفي الفرق بينهما قولان :

أحدهما : أنه بالفتح ما قل ، وبالكسر ما كثر ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : أنه بالفتح ما كان في الصدر ، وبالكسر ما كان في الموضع الذي يتسع ويضيق ، قاله الفراء .

(24/446)

قوله عز وجل : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ اتقوا يعني فيما حرم الله عليهم . والذين هم محسنون فيما فرضه الله تعالى ، فجمع في هذه الآية اجتناب المعاصي وفعل الطاعات .

وقوله : ﴿ مع الذين اتقوا ﴾ أي ناصر الذي اتقوا . وقال بعض أصحاب الخواطر : من اتقى الله في أفعاله أحْسَنَ إليه في أحواله ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(25/446)

وقال ابن عطية :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة المشركين ، أمره الله تعالى أن يدعو إلى الله وشرعه بتلطف ، وهو أن يسمع المدعو حكمه ، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أجمل موقع ، ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ التخويف والترجية والتلطف بالإنسان بأن يجله ويبسطه ويجعله بصورة من يقبل الفضائل ، ونحو هذا ، فهذه حالة من يُدعَى وحالة من يجادَل دون مخاشنة ، ويبين عليه دون قتال ، فالكلام يعطي أن جدك وهمك وتعبك لا يغني لأن الله تعالى قد علم من يؤمن منهم ويهتدي ، وعلم من يضل ، فجملة المعنى اسلك هذا السبيل ولا تعن للمخاشنة لأنها غير مجدية لأن علم الله قد سبق بالمهتدي منهم والضال ، وقالت فرقة : هذه الآية منسوخة بآية القتال ، وقالت فرقة هي محكمة .

قال القاضي أبو محمد : ويظهر لي أن الاقتصار على هذه الحال وأن لا تتعدى مع الكفرة متى احتيج إلى المخاشنة هو منسوخ لا محالة ، وأما من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي محكمة إلى يوم القيامة ، وأيضاً فهي محكمة في جهة العصاة ، فهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . وقوله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا ﴾ الآية ، أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد ، ووقع ذلك في صحيح البخاري ، وفي كتاب السير وذهب النحاس إلى أنها مكية .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً لأنها تتدرج الرتب من الذي يدعى ويوعظ إلى الذي يجادل إلى الذي يجازى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور أثبت ، وأيضاً فقوله ﴿ ولئن صبرتم ﴾ يقلق بمعنى الآية على ما روى الجميع أن كفار قريش كما مثلوا بحمزة فنال ذلك من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال " لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بثلاثين " ، وفي كتاب النحاس وغيره " بتسعين " منهم فقال الناس : " إن ظفرنا لنفعلن ولنفعلن " ، فنزلت هذه الآية ، ثم عزم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر في الآية بعدها ، وسمى الإذناب في هذه الآية عقوبة ، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول ، وهذا بعكس قوله ﴿ مكروا ومكر الله ﴾ [آل عمران : 54] ، وقوله ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة : 15] ، فان الثاني هو المجاز ، والأول هو الحقيقة ، وقرأ ابن سيرين : " وإن عقَبتم فعقبوا " ، وحكى الطبري عن فرقة : أنها قالت إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداه إلى غيره ، واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال تجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه ، فقالت

فرقة : له ذلك ، منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعي وسفيان ومجاهد ، واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها ، وقال مالك وفرقة معه : لا يجوز له ذلك ، واحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أدِّ الأمانة إلى من اسأمنك ولا تخن من خانك " .

(27/446)

قال القاضي أبو محمد : ووقع في مسند ابن سنجر أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنا بامرأة رجل آخر ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر ، فاستشار الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : " أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " ، ويتقوى في أمر المال قول مالك رحمه الله ، لأن الخيانة لاحقة في ذلك وهي رذيلة لا انفكاك عنها ، ولا ينبغي للمرء أن يتأسى بغيره في الرذائل ، وإنما ينبغي أن تتجنب لنفسها ، وأما الرجل يظلم في المال ثم يتمكن من الانتصاف دون أن يؤتمن فيشبه أن ذلك له جائز يرى أن الله حكم له كما لو تمكن له بالحكم من الحاكم ، وقوله : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ الآية ، هذه العزيمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر عن المجازاة في التمثيل بالقتلى ، قال ابن زيد : هذه الآية منسوخة بالقتال وجمهور الناس على أنها محكمة ، ويروى

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أما أنا فأصبر كما أمرت فماذا تصنعون ؟ " ، قالوا : نصبر يا رسول الله كما ندبنا ، وقوله : ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ أي بمعونة الله وتأييده لك على ذلك ، والضمير في قوله ﴿ عليهم ﴾ قيل يعود على الكفار أي لا تتأسف على أن لم يسلموا ، وقالت فرقة : بل يعود على القتلى : حمزة وأصحابه الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأول أصوب يكون عود الضمير على جهة واحدة ، وقرأ الجمهور في " ضَيْق " بفتح الضاد ، وقرأ ابن كثير في " ضِيق " بكسر الضاد ورويت عن نافع وهو غلط ممن رواه ، قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر وقال أبو عبيدة : الضِيق مصدر والضَّيْق مخفف من ضيِّق كميْت وميت ، وهيْن وهيِّن ، قال أبو علي الفارسي : والصواب أن يكون الضيْق لغة في المصدر لأنه إن كان مخففاً من ضيِّق لزم أن تقام الصفة مقام الموصوف ، وليس هذا موضع ذلك .

(28/446)

قال القاضي أبو محمد : الصفة إنما تقوم مقام الموصوف إذا تخصص الموصوف من نفس الصفة ، كما تقول رأيت ضاحكاً فإنما تخصص الإنسان ، ولو قلت : رأيت بارداً لم تحسن ، وبارد مثل سيبويه رحمه الله " وضيق " لا يخصص الموصوف ، وقال ابن عباس وابن زيد :

إن ما في هذه الآية من الأمر بالصبر منسوخ، وقوله: ﴿ مع الذين ﴾ أي بالنصر والمعونة والتأييد، و﴿ اتقوا ﴾ يريد المعاصي، و﴿ محسنون ﴾ معناه يتزيدون فيما ندب إليه من فعل الخير.

كمل تفسير سورة النحل بعون الله وتأييده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(29/446)

وقال القرطبى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

فيه مسألة واحدة هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعوَ إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة.

فهي محكمة في جهة العصاة من الموحِّدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين.

وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجِي إيمانه بها دون قتال فهي فيه

محكمة .

والله أعلم .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية ، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أُحُد ، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السِّيَر .

وذهب النحاس إلى أنها مكية ، والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً ؛ لأنها تتدرّج الرتبُ من الذي يُدْعَى ويُوعَظ ، إلى الذي يجَادل ، إلى الذي يجازَى على فعله .

ولكن ما روى الجمهور أثبت .

(30/446)

روى الدّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال : " لما انصرف المشركون عن قتلى أُحُد انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُقّ بطنه ، واصطلم أنفه ، وجُدِعت أذناه ، فقال : "لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلاً" ثم دعا ببردة وغطّى بها وجهه ،

فخرجت رجلاه فغطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجليه من الإذْخر ، ثم قدّمه فكبر عليه عشراً ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه ، حتى صلّى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة إلى قوله واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ فصبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُمَثِّل بأحد " خرجه إسماعيل بن إسحاق من حديث أبي هريرة ، وحديثُ ابن عباس أكمل .

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاه إلى غيره .

وحكاه الماوردي عن ابن سيرين ومجاهد .

الثانية : واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم ائتمن الظالمُ المظلومَ على مال ، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه ؛ فقالت فرقة : له ذلك ؛ منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعِيّ وسفيان ومجاهد ؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها .

وقال مالك وفرقة معه : لا يجوز له ذلك ؛ واحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " رواه الدارقطني وقد تقدّم هذا في " البقرة " مستوفًى .

ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر ، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر ؛ فاستشار ذلك الرجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في الأمر فقال له : " أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " وعلى هذا يتقوّى قول مالك في أمر المال ؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك ، وهي رذيلة لا انفكاك عنها ، فينبغي أن يتجنبها لنفسه ؛ فإن تمكن من الانتصاف من مالٍ لم يأتمنه عليه فيُشبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له ؛ كما لو تمكن الأخذ بالحكم من الحاكم .

وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة ، نسختها "واصبِر وما صبرك إلا بالله" .

الثالثة : في هذه الآية دليل على جواز التماثل في القصاص ؛ فمن قَتل بحديدة قُتل بها .

ومن قَتل بحجر قُتل به ، ولا يتعدّى قدر الواجب ، وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" مستوفى ، والحمد لله .

الرابعة : سمّى الله تعالى الإذايات في هذه الآية عقوبة ، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية ، وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب دباجة القول ، وهذا بعكس قوله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : 54] وقوله : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] فإن الثاني هنا هو المجاز والأوّل هو الحقيقة ؛ قاله ابن عطية .

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127)

فيه مسألة واحدة : قال ابن زيد : هي منسوخة بالقتال .

وجمهور الناس على أنها مُحْكَمَة .

أي اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلَة .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على قتلى أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله .

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ ضَيْق جمع ضيقة ؛ قال الشاعر :

كَشَفَ الضَّيقة عنا وفَسَح . . .

وقراءة الجمهور بفتح الضاد .

وقرأ ابن كثير بكسر الضاد ، ورويت عن نافع ، وهو غلط ممن رواه .

(32/446)

قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر .

قال الأخفش : الضَّيق والضِّيق مصدر ضاق يضيق .

والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم .

وقال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك ، والضِّيق ما يكون في الذي يَتَّسع ويضيق ؛ مثلُ

الدار والثوب .

وقال ابن السِّكّيت : هما سواء ؛ يقال : في صدره ضَيق وضِيق .

القُتَبِيّ : ضَيْق مخفف ضيّق ؛ أي لا تكن في أمر ضَيّق فخفف ؛ مثل هَيّن وهَيْن .

وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل ، وأضاق إذا افتقر .

وقوله ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد .

وتقدّم معنى الإحسان .

وقيل لِهَرِم بن حِبّان عند موته : أوصنا ؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : ﴿ ادع إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(33/446)

وقال الخازن :

قوله ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾

يعني ادع إلى دين ربك يا محمد ، وهو دين الإسلام بالحكمة يعني بالمقالة المحكمة الصحيحة ،

وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة ، يعني وادعهم إلى الله بالترغيب والترهيب وهو أنه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ يعني بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة في الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف .

وقيل : إن الناس اختلفوا وجعلوا ثلاثة أقسام : القسم الأول هم العلماء والكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها ، فهؤلاء المشار إليهم بقوله ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ يعني ادعهم بالدلائل القطيعة اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم .

القسم الثاني : هم أصحاب الفطرة السليمة ، والخلقة الأصيلة وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حدّ الكمال ، ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان فهم أوساط الأقسام ، وهم المشار إليهم بقوله : والموعظة الحسنة أي ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة .

القسم الثالث : هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة ، وهؤلاء المشار إليهم بقوله : وجادلهم بالتي هي أحسن حتى ينقادوا إلى الحق ويرجعوا إليه .

وقيل : المراد بالحكمة القرآن يعني ادعهم بالقرآن الذي هو حكمة وموعظة حسنة ، وقيل : المراد بالحكمة النبوة أي ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين في

الدعوة ، وجادلهم بالتي هي أحسن أي أعرض عن أذاهم ولا تقصر في تبليغ الرسالة ، والدعاء إلى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير : هذا منسوخ بآية السيف ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ يعني إنما عليك يا محمد تبليغ ما أرسلت به إليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدي فيجازي كل عامل بعمله

(34/446)

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾

نزلت هذه الآية بالمدينة في سبب شهداء أحد وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون ، والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به غير حنظلة بن أبي عامر الراهب ، وذلك أن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك : لئن أظهرنا الله عليهم ، لنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد .

ووقف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره ، وبقروا بطنه وأخذت هند بن عتبة قطعة من كبده فمضغتها

ثم استرطبتها لتأكلها فلم تنزل في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: "أما إنها لو أكلتها لم تدخل النار أبداً حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئاً من جسده النار"

فلما نظر رسول الله إلى عمه حمزة نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "رحمة الله عليك فإنك ما علمنا ما كنت إلا فعّالاً للخيرات، وصولاً للرحم ولو كان حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك" فأنزل الله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ الآية فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "بل نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه" عن أبي بن كعب قالك لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقال الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم.

قال: فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فقال رجل: لا قريش بعد اليوم.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "كفروا عن القوم إلا أربعة" أخرجه الترمذي .

وقال حديث حسن غريب وأما تفسير الآية فقوله تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ سمي الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة في الكلام ، والمعنى إن صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها ، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فهو كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ أمر الله برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية في باب استيفاء الحقوق .

يعني : إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ، ولا تزيدوا عليه فإن استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله وشرعه ورحمته ، وفي الآية دليل على أن الأولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الإشارة والرمز والتعريض ، بأن الترك أولى فإن كان لا بد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الإشارة إلى طريق التصريح فقال تعالى ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ يعني ولئن عفوتم ، وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو ، والصبر خيراً من استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين والعافين .

فصل

اختلفت العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا ، على قولين : أحدهما أنها نزلت قبل براءة فأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك ، فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن

القتال، فلما أعز الله الإسلام وكثر أهله أمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالجهاد، ونسخ هذا بقوله: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية، القول الثاني: أنها أحكمت، وأنها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال منها الظالم وهذا قول مجاهد والشعبي والنخعي وابن سيرين والثوري.

(36/446)

قال بعضهم: الأصح أنها محكمة لأن الآية واردة في تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق وفي القصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة، وهذه الأشياء لا تكون منسوخة فلا تعلق لها بالنسخ والله أعلم.

قوله ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾

الخطاب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر الله سبحانه وتعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالصبر، وأعلمه أن صبره بتوفيقه ومعونته ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ يعني على الكافرين، وإعراضهم عنك وقيل: معنى الآية ولا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم فإنهم أفضوا إلى رحمة الله ورضوانه ﴿ ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ يعني: ولا يضيقن صدرك يا محمد بسبب مكرهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

قرىء في ضيق بفتح الضاد وكسرها ، فقيل لغتان .

وقال أبو عمر : والضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة ، وقال أبو عبيدة الضيق بالكسر في قلة المعاش وفي المسكين وإما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح ، وقال القتيبي : الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى : ولا تك في أمر ضيق من مكرهم .

قال الإمام فخر الدين الرازي : وهذا الكلام من المقلوب ، لأن الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ، ولا يكون الموصوف حاصلاً في الصفة فكان المعنى لا يكن الضيق حاصلاً فيك إلا أن الفائدة في قوله : ولا تك في ضيق ، هي أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل جانب ، كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ أي اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي ﴿ والذين هم محسنون ﴾ يعني بالعفو عن الجاني ، وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعني إن أردت أيها الإنسان أن أكون معك بالعون والفضل والرحمة ، فكن من المتقين المحسنين ، وفي هذا إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله .

قال بعض المشايخ : كمال الطريق صدق مع الحق ، وخلق مع الخلق وكمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل أن يعمل به ، وقيل لهرم ابن حيان عند الموت : أوص . فقال : إنما الوصية في المال ولا مال لي ، ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل . والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(38/446)

وقال أبو حيان :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

أمر الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ، وهو أن يسمع المدعو حكمة ، وهو الكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع .

وعن ابن عباس : أنّ الحكمة القرآن ، وعنه : الفقه .

وقيل : النبوّة .

وقيل : ما يمنع من الفساد من آيات ربك المرغبة والمرهبة .

والموعظة الحسنة مواعظ القرآن عن ابن عباس ، وعنه أيضاً : الأدب الجميل الذي يعرفونه .

وقال ابن جرير : هي العبر المعدودة في هذه السورة .

وقال ابن عيسى : الحكمة المعروفة بمراتب الأفعال والموعظة الحسنة أن تختلط الرغبة بالرهبة ، والإنذار بالبشارة .

وقال الزمخشري : إلى سبيل ربك الإسلام ، بالحكمة بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة وهي التي لا تخفى عليهم إنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها ، ويجوز أن يريد القرآن أي : ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف .

وقال ابن عطية : الموعظة الحسنة التخويف والترجئة والتلطف بالإنسان بأن تجله وتنشطه ، وتجعله بصورة من قبل الفضائل ونحو هذا .

وقالت فرقة : هذه الآية منسوخة بآية القتال ، وقالت فرقة : هي محكمة .

وإن عاقبتم أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة وغيره في يوم أحد ، ووقع ذلك في صحيح البخاري ، وفي كتاب السير .

وذهب النحاس إلى أنها مكية ، والمعنى متصل بما قبلها اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الذنب من الذي يدعي ، وتوعظ إلى الذي يجادل ، إلى الذي يجازى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور أثبت انتهى .

وذهبت فرقة منهم ابن سيرين ومجاهد : إلى أنها نزلت فيمن أصيب بظلامة أنْ لا ينال من ظالمه إذا تمكن الأمثل ظلامته لا يتعداها إلى غيرها ، وسمى المجازاة على الذنب معاقبة لأجل المقابلة ، والمعنى : قابلوا من صنع بكم صنيع سوء بمثله ، وهو عكس : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ المجاز في الثاني وفي : وإنْ عاقبتم في الأول .

وقرأ ابن سيرين : وإنْ عقبتم فعقبوا بتشديد القافين أي : وإنْ قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم .

والظاهر عود الضمير إلى المصدر الدال عليه الفعل مبتدأ بالإضافة إليهم أي : لصبركم وللصابرين أي : لكم أيها المخاطبون ، فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم بصبرهم على الشدائد ، وبصبرهم على المعاقبة .

وقيل : يعود إلى جنس الصبر ، ويراد بالصابرين جنسهم ، فكأنه قيل : والصبر خير للصابرين ، فيندرج صبر المخاطبين في الصبر ، ويندرجون هم في الصابرين .

ونحوه : ﴿ فمن عفا وأصلح ﴾ ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ولما خير المخاطبون في المعاقبة والصبر عنها عزم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الذي هو خير وهو

الصبر ، فأمر هو وحده بالصبر .

ومعنى بالله : بتوفيقه وتيسيره وإرادته .

والضمير في عليهم يعود على الكفار ، وكذلك في يمكرون كما قال : ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ وقيل : يعود على القتلى الممثل بهم حمزة ، ومن مثل به يوم أحد .

وقرأ الجمهور : في ضيق بفتح الضاد .

وقرأ ابن كثير : بكسرها ، ورويت عن نافع ، ولا يصح عنه ، وهما مصدران كالقيل والقول عند بعض اللغويين .

وقال أبو عبيدة : بفتح الضاد مخفف من ضيق أي : ولا تك في أمر ضيق كلين في لين .

وقال أبو علي : الصواب أن يكون الضيق لغة في المصدر ، لأنه إنْ كان مخففاً من ضيق لزم أن تقام الصفة مقام الموصوف إذا تخصص الموصوف ، وليس هذا موضع ذلك ، والصفة إنما تقوم مقام الموصوف إذا تخصص الموصوف من نفس الصفة كما تقول : رأيت ضاحكاً ، فإنما تخصص الإنسان .

ولو قلت : رأيت بارداً لم يحسن ، وببارد مثل سيبويه وضيق لا يخصص الموصوف .

وقال ابن عباس ، وابن زيد : إنّما في هذه الآيات من الأمر بالصبر منسوخ ، ومعنى المعية هنا بالنصرة والتأييد والإعانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(41/446)

وقال أبو السعود :

﴿ ادع ﴾ أي مَنْ بُعثتَ إليهم من الأمة قاطبةً فحذف المفعولُ للتعميم أو افعل الدعوةَ كما في قولهم : يعطي ويمنع أي يفعل الإعطاءَ والمنع ، فحذفُه للقصد إلى إيجاد نفسِ الفعل إشعاراً بأن عمومَ الدعوةِ غنيٌّ عن البيان وإنما المقصودُ الأمرُ بإيجاد على وجه مخصوص ﴿ إلى سَبِيلِ رَبّكَ ﴾ إلى الإسلام الذي عبّر عنه تارةً بالصراط المستقيم وأخرى بملة إبراهيمَ عليه السلام ، وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئةِ عن المالكية وتبليغِ الشيء إلى كماله اللائق شيئاً فشيئاً مع إضافة الربِّ إلى ضمير النبي عليه الصلاة والسلام في مقام الأمر بدعوة الأمة على الوجه الحكيم وتكميلِهم بأحكام الشريعةِ الشريفة من الدِلالة على إظهار اللطفِ به عليه الصلاة والسلام والإيماءِ إلى وجه بناءِ الحُكم ما لا يخفى . ﴿ بالحكمة ﴾ أي بالمقالة المحكمةِ الصحيحة وهو الدليلُ الموضحُ للحق المزيحُ للشبهة ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ أي

الخطابياتِ المقنعةِ والعِبر النافعةِ على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصِد ما ينفعهم ، فالأولى لدعوة خواصِّ الأمةِ الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامِّهم ، ويجوز أن يكون المرادُ بهما القرآنَ المجيد فإنه جامعٌ لكلا الوصفين ﴿ وجادلهم ﴾ أي ناظِرْ معانديهم ﴿ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طرقِ المناظرةِ والمجادلة من الرفق واللينِ واختيار الوجهِ الأيسرِ واستعمالِ المقدّمات المشهورةِ تسكيناً لشَغَبهم وإطفاءً لِلَهَبهم كما فعله الخليلُ عليه السلام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الذي أمرك بدعوة الخلقِ إليه وأعرضَ عن قَبول الحق بعد ما عاين من الحِكم والمواعظ والعبر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ إليه بذلك ، وهو تعليلٌ لما ذُكر من الأمرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلُكْ في الدعوة والمناظرة الطريقةَ المذكورةَ فإنه تعالى هو أعلمُ بحال من لا يرعوي عن الضلال بموجب استعدادِه

(42/446)

المكتسَب وبحال من يصير أمرُه إلى الاهتداء لما فيه من خير جليَ ، فما شرعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمةُ فإنه كافٍ في هداية المهتدين وإزالةِ عذر الضالّين أو ما عليك إلا ما ذكر من الدعوة والمجادلةِ بالأحسن ، وأما حصولُ الهداية أو الضلال والمجازاةُ

عليهما فإلى الله سبحانه إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدي إليه فيجازي كلاًّ منهما بما يستحقه . وتقديمُ الضالين لما أن مساقَ الكلامِ لهم ، وإيرادُ الضلال بصيغة الفعلِ الدالِّ على الحدوث لما أنه تغييرٌ لفطرة الله التي فطر الناسَ عليها وإعراضٌ عن الدعوة وذلك أمرٌ عارضٌ بخلاف الاهتداء الذي هو عبارةٌ عن الثبات على الفطرة والجريانِ على موجب الدعوةِ ، ولذلك جيء به على صيغة الاسمِ المنبىءِ عن الثبات ، وتكريرُ (هو أعلمُ) للتأكيد والإشعارِ بتباُيِنِ حالِ المعلومَين ومآلهما من العقاب والثواب .

وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوةِ بما أمره به من الوجه اللائق عقّبه بخطاب شاملٍ له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال :

(43/446)

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ أي إن أردتم المعاقبةَ على طريقة قول الطبيبِ للمَحْميِّ : إن أكلتَ فكلْ قليلاً ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ أي بمثل ما فُعل بكم ، وقد عبّر عنه بالعقاب على طريقة إطلاقِ اسمِ المسبَّبِ على السبب نحوُ كما تَدين تُدان أو على نهج المشاكلةِ ، والمقصودُ إيجابُ مراعاةِ العدل مع مَنْ يناصبهم من غير تجاوزٍ حين ما آلَ الجدالُ إلى القتال وأدّى النزاعُ إلى القِراع ، فإن الدعوةَ المأمورَ بها لا تكاد تنفك عن ذلك ، كيف لا وهي

موجبةٌ لصرف الوجوهِ عن القُبل المعبودةِ وإدخالِ الأعناق في قِلادة غيرِ معهودة قاضيةٍ عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون وبطلانِ دينٍ استمرَّ عليه آباؤهم الأولون وقد ضاقت عليهم الحيلُ وعيّت بهم العِللُ وسُدّت عليهم طرقُ المُحاجّة والمناظرة وأُرتجتْ دونهم أبوابُ المباحثةِ والمحاورة. وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزةَ رضي الله عنه يوم أُحد قد مُثّل به قال: "لئن أظفرَني الله بهم لأمثّلنّ بسبعين مكانك" فنزلت، فكفّر عن يمينه وكف عما أراده، وقرىء وإن عَقّبتم فعقّبوا أي وإن قَفّيْتم بالانتصار فقفّوا بمثل ما فُعل بكم غيرَ متجاوزين عنه، والأمرُ وإن دل على إباحة المماثلة في المُثْلة من غير تجاوزٍ لكن في تقييده بقوله: وإن عاقبتم حثٌّ على العفو تعريضاً، وقد صرّح به على الوجه الآكد فقيل: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ ﴾ أي عن المعاقبة بالمثل ﴿ لَهُوَ ﴾ أي لَصبركم ذلك ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة، وإنما قيل: ﴿ للصابرين ﴾ مدحاً لهم وثناءً عليهم بالصبر أو وصفاً لهم بصفة تحصل لهم عند تركِ المعاقبةِ، ويجوز عَودُ الضميرِ إلى مطلق الصبرِ المدلولِ عليه بالفعل فيدخُل فيه صبرُهم كدخول أنفسِهم في جنس الصابرين دخولاً أولياً، ثم أُمر عليه الصلاة والسلام صريحاً بما ندَب إليه غيرَه تعريضاً من الصبر لأنه أولى الناس بعزائم الأمورِ

لزيادة علمِه بشؤونه سبحانه ووفورِ وثوقِه به فقيل :

﴿ واصبر ﴾

أي على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلامِ والأَذية وعاينتَ من إعراضهم عن الحق بالكلية ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأشياء ، أي وما صبرُك ملابساً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بالله أي بذكره والاستغراقِ في مراقبة شؤونه والتبتّل إليه بمجامع الهِمّة ، وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوينِ مشاقِّ الصبرِ عليه وتشريفِه ما لا مزيدَ عليه . أو إلا بمشيئته المبنيّةِ على حِكَمٍ بالغة مستتبِعةٍ لعواقبَ حميدةٍ ، فالتسليةُ من حيث اشتمالُه على غايات جميلة ، وقيل : إلا بتوفيقه ومعونتِه فهي من حيث تسهيلُه وتيسيرُه فقط ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الكافرين بوقوع اليأسِ من إيمانهم بك ومتابعتِهم لك نحو ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ وقيل : على المؤمنين وما فُعل بهم والأولُ هو الأنسب بجزالة النظمِ الكريم ﴿ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾ بالفتح ، وقرىء بالكسر وهما لغتان كالقَوْل والقيل ، أي لا تكن في ضيق صدرٍ وحرَج ، ويجوز أن يكون الأولُ تخفيفَ ضيِّق ، كهيْن من هيِّن ، أي في أمر ضيِّقٍ ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي من مكرهم بك فيما يُستقبل ، فالأولُ نهيٌ عن التألم بمطلوبٍ مِنْ قبلهم فاتَ ، والثاني عن التألم بمحذور من جهتهم آتٍ ، والنهيُ عنهما مع أن انتفاءَهما من لوازم الصبرِ المأمورِ به لا سيما على الوجه

الأولِ لزيادة التأكيدِ وإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأن التسليةِ ، وإلا فهل يخطُر ببال من توجّه إلى الله سبحانه بشراشرِ نفسِه متنزهاً عن كل ما سواه من الشواغل شيءٌ من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذورٍ فكيف عن الخوف من وقوعه .

﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾

(45/446)

تعليلٌ لما سبق من الأمر والنهي ، والمرادُ بالمعية الولايةُ الدائمةُ التي لا تحوم حول صاحبها شائبةُ شيءٍ من الجزَع والحزنِ وضِيق الصدورِ ، وما يُشعر به دخول كُلمة مع من متبوعيّة المتقين إنما هي من حيث إنهم المباشرون للتقوى وكذا الحالُ في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصابرين ﴾ ونظائرِهما كافة ، والمرادُ بالتقوى المرتبةُ الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك ومرتبةِ التجنب عن كل ما يؤثِم من فعل وترك ، أعني التنزّه عن كل ما يشغَل سِرَّه عن الحق والتبتّل إليه بشراشر نفسِه ، وهو التقوى الحقيقيُّ المُورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والمعنى أن الله وليُّ الذين تبتلوا إليه بالكلية وتنزّهوا عن كل ما يشغل سرَّهم عنه فلم يخطُرْ ببالهم شيءٌ من مطلوب أو محذور فضلاً عن الحزن بفواته أو الخوفِ من وقوعه وهو المعنيُّ

بما به الصبرُ المأمورُ به حسبما أشير إليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما في قوله تعالى : ﴿ فاصبر إِنَّ العاقبةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ على أحد التفسيرين كما حُقق في مقامه وإلا فمجردُ التوقي عن المعاصي لا يكون مداراً لشيء من العزائم المرخصِ في تركها فكيف بالصبر المشارِ إليه ورديفيه ، وإنما مدارُه المعنى المذكورُ فكأنه قيل : إن الله مع الذين صبروا ، وإنما أوثر ما عليه النظمُ الكريم مبالغةً في الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوتِ الجليلة وروادفِه كما أن قوله تعالى : ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ للإشعار بأنه من باب الإحسانِ الذي يتنافس فيه المتنافسون على ما فُصل ذلك حيث قيل : ﴿ واصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ وقد نُبه على أن كلاًّ من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ

(46/446)

أَجْرَ المحسنين ﴾ وحقيقةُ الإحسان الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ الذي هو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتيِّ ، وقد فسّره عليه الصلاة والسلام بقوله : " أن تعبدَ الله كأنك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك " وتكريرُ الموصولِ للإيذان بكفاية كلٍ من الصلتين في ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمةً للأخرى ، وإيرادُ الأولى فعليةً للدِلالة على

الحدوث كما أن إيرادَ الثانيةِ اسميةً لإفادة كونِ مضمونِها شيمةً راسخةً لهم ، وتقديمُ التقوى على الإحسان لما أن التخليةَ متقدمة على التحلية ، والمرادُ بالموصولَين إما جنسُ المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخلٌ في زمرتهم دخولاً أولياً ، وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه ، عبّر عنهم بذلك مدحاً لهم وثناءً عليهم بالنعتين الجميلين ، وفيه رمزٌ إلى أن صنيعَه عليه الصلاة والسلام مستتبِعٌ لاهتداء الأمةِ به كقول من قال لابن عباس رضي الله عنهما عند التعزية

اصبِرْ نكنْ بك صابرين فإنما . . . صبرُ الرعية عند صبرِ الرأسِ

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضارِ : أوصِ ، قال : إنما الوصيةُ من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(47/446)

وقال الآلوسى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

﴿ ادع ﴾ أي من بعثت إليهم من الأمة قاطبة فحذف المفعول دلالة على التعميم ، وجوز أن يكون المراد إفعل الدعوة تنزيلاً له منزلة اللازم للقصد إلى إيجاد نفس الفعل إشعاراً بأن

عموم الدعوة غني عن البيان وإنما المقصود الأمر بإيجادها على وجه مخصوص .

وتعقب بأن ذلك لا يناسب المقام كما لا يناسب قوله تعالى : ﴿ وجادلهم ﴾ .

﴿ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام الذي عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة إبراهيم عليه السلام ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

﴿ بالحكمة ﴾ بالمقالة المحكمة وهي الحجة القطعية المزيحة للشبه ؛ وقريب من هذا ما في "البحر" أنها الكلام الصواب الواقع من النفس أجمع موقع ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ وهي الخطابات المنقعة والعبر النافعة التي لا يخفى عليهم إنك تناصحهم بها ﴿ وجادلهم ﴾ ناظر معانديهم ﴿ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكيناً لشغبهم وإطفاءً للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام .

واستدل كما قيل أرباب المعقول بالآية على أن المعتبر في الدعوة من بين الصناعات الخمس إنما هو البرهان والخطابة والجدل حيث اقتصر في الآية على ما يضير إليها ، وإنما تفاوتت طرق دعوته عليه الصلاة والسلام لتفاوت مراتب الناس ، فمنهم خواص وهم أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعاني قوية الانجذاب إلى المبادىء العالية مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه وهؤلاء يدعون بالحكمة بالمعنى السابق .

ومنهم عوام أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد شديدة الألف بالمحسوسات قوية التعلق بالرسوم والعادات قاصرة عن درجة البرهان لكن لا عناد عندهم وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة بالمعنى المتقدم .

(48/446)

ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحق لما غلب عليه من تقليد الأسلاف ورسخ فيه من العقائد الباطلة فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر بل لا بد من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال لتلين عريكته وتزول شكيمته وهؤلاء الذين أمر صلى الله عليه وسلم بجدالهم بالتي هي أحسن ، وإنما لم تعتبر المغالطة والشعر لأن فائدة المغالطة تغليط الخصم والاحتراز عن تغليطه إياه ومرتبة الرسول عليه الصلاة والسلام تنافي أن يغلط وتعالى أن يغلط ، والشعر وإن كان مفيداً للخواص والعوام فإن الناس في باب الإقدام والإحجام أطوع للتخييل منهم للتصديق إلا أن مداره على الكذب ومن ثمة قيل : الشعر أكذبه أعذبه فلا يليق بالصادق المصدوق كما يشهد به قوله تعالى : ﴿ وَمَا علمناه الشعر وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ [يس : 69] لا يقال : الشعر الذي هو أحد الصناعات قياس مؤلف من مقدمات مخيلة والشعر الذي مداره على الكذب هو الكلام الموزون المقفى وهو الذي نفى تعليمه عنه

صلى الله عليه وسلم لما قيل: كون الشعر مذموماً ليس لكونه كلاماً موزوناً مقفى بل لاشتماله على تخيلات كاذبة فهما من واد واحد ذكر ذلك بعض المتأخرين، وقد ذهب غير واحد إلى أن فيها إشارة إلى تفاوت مراتب المدعوين إلا أنه خالف في بعض ما تقدم، ففي "الكشف" بعد أن ذكر أن كلام الزمخشري يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ينبغي أن يجمع في الدعوة بين الثلاث فيكون الكلام في نفسه حسن التأليف منتجاً لما علق به من الغرض ومع ذلك مقصوداً به المناصحة لمن خوطب به ويكون المتكلم حسن الخلق في ذلك معلماً ناصحاً شفيقاً رفيقاً ما نصه: والأحسن على ما ذهب إليه المحققون أنه تعميم للدعوة حسب مراتب المدعوين في الفهم والاستعداد، فمن دعي بلسان الحكمة ليفاد اليقين العياني أو البرهاني هم السابقون، ومن دعي بالموعظة الحسنة وهي الإقناعات الحكمية لا الخطابات المشهورة طائفة دون هؤلاء، ومن دعي بالمجادلة الحسنة هم

عموم أهل الإسلام والكفار أيضاً اه، ولا أرى ما يوجب نفي أن يكون المراد بالموعظة الحسنة الخطابات المشهورة، وكونها مركبة من مقدمات مظنونة أو مقبولة من شخص معتقد فيه ولا يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم استعمال الظنيات أو أخذ كلام الغير

والدعوة به هو الموجب لذلك لا يخفى ما فيه فتدبر .

وذكر الإحسائي رئيس الفرقة الظاهرة في زماننا المسماة بالكشفية في كتابه "شرح الفوائد" ما محصله إن المدعوين من المكلفين ثلاثة أنواع ، وكذا الأدلة التي أشارت إليها الآية فإن كانوا من الحكماء العقلاء والعلماء النبلاء فدعوتهم إلى الحق الذي يريده الله تعالى منهم من معرفته بدليل الحكمة وهو الدليل الذوقي العياني الذي يلزم منه العلم الضروري بالمستدل عليه لأنه نوع من المعاينة كقولنا في رد من زعم أن حقائق الأشياء كانت كامنة في ذاته تعالى بنحو أشرف ثم أفاضها إنه لا بد وأن يكون لذاته سبحانه قبل الإفاضة حال مغاير لما بعدها سواء كان التغير في نفس الذات أو فيما هو في الذات فإن حصل التغير في الذات لزم حدوثها وإن حصل فيما هو في الذات أعني حقائق الأشياء الكامنة لزم أن تكون الذات محلاً للمتغير المختلف ويلزم من ذلك حدوثها .

(50/446)

وكقولنا في إثبات أنه سبحانه أظهر من كل شيء : إن كل أثر يشابه صفة مؤثرة وأنه قائم بفعله قيام صدور كالأشعة بالنيرات والكلام بالمتكلم ، فالأشياء هي ظهور الواجب بها لها لأنه سبحانه لا يظهر بذاته وإلا لاختلفت حالتاه ، ولا يكون شيء أشد ظهوراً من

الظاهر في ظهوره لأن الظاهر أظهر من ظهوره وإن كان لا يمكن التوصل إلى معرفته إلا بظهوره مثل القيام فإن القائم أظهر في القيام من القيام والقاعد أظهر في القعود من القعود وإن كان لا يمكن التوصل إلى معرفتهما إلا بالقيام والقعود فتقول : يا قائم ويا قاعد ، والمعنى لك إنما هو القائم والقاعد لا القيام والقعود لأنه بظهوره لك بذلك غيب عليك مشاهدته وإن التفت إليه احتجب عنك القائم والقاعد ، وهو آلة لمعرفة المعارف الحقية كالتوحيد وما يلحق به ، ومستنده الفؤاد وهو نور الله تعالى المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى " والنقل من الكتاب والسنة ، وشرطه الذي يتوقف عليه فتح باب النور ثلاثة أشياء .

أحدها أن تنصف ربك وتقبل منه سبحانه قوله ولا تتبع شهوة نفسك .

وثانيها أن تقف عند بيانك وتبينك وتبيينك على قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ ﴾ [الإسراء : 36] وثالثها أن تنظر في تلك الأحوال أعني البيان وما بعده بعينه تعالى وهي العين التي هي وصف نفسه لك أعني وجودك من حيث كونه أثراً ونوراً لا بعينك التي هي أنت من حيث أنك أنت أنت فإنك لا تعرف بهذه العين إلا الحادثات المحتاجة الفانية .

وإن كانوا من العلماء ذوي الألباب وأرباب القلوب فدعوتهم إلى الحق الذي يريده سبحانه منهم من اليقين الحقيقي في اعتقاداتهم بدليل الموعظة الحسنة وهي الدليل العقلي اليقيني الذي يلزم منه اليقين في الإيمان به سبحانه وبغيره مما أمرهم بالإيمان به وهو آلة لعلم الطريقة وتهذيب الأخلاق وعلم اليقين والتقوى، وهذه العلوم وإن كانت قد تستفاد من غيره ولكن بدون ملاحظته لا يوقف على اليقين والاطمئنان الذي هو أصل علم الأخلاق، ومستنده القلب والنقل، وشرط صحته والانتفاع به اتصاف عقلك به بأن تلزم ما ألزمك به ولا تظلمه وهو كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: 52] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إسرائيل على مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ واستكبرتم إِنَّ ﴾ [الأحقاف: 10] إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، وإن كانوا من العلماء أصحاب الرسوم كالمتكلمين ونظائرهم فدعوتهم إلى الحق الذي يريده سبحانه منهم من اليقين الرسمي بمقتضى طبيعتهم القاصرة بدليل المجادلة بالتي هي أحسن وهي الدليل العلمي القطعي الذي يلزم منه العلم فيما ذكر وهو آلة لعلم الشريعة، ومستنده العلم والنقل، وشرطه إنصاف الخصم بأن يقيمه على النحو المقرر في علم الميزان، وقد ذكره العلماء في كتبهم الأصولية والفروعية بل لا يكاد يسمع منهم غير هذا الدليل وهو محل المناقشات والمعارضات، وأما الدليلان الأولان

فليس فيهما مناقشة ولا معارضة فإذا اعترض عليهما معترض فقد اعترض فيهما بغيرهما اه المراد منه وهو كما ترى ، وإنما ذكرته لتعلم حال المرؤوس من حال الرئيس ، ولقد رأيت مشايخ هذه الطائفة يتكلمون بما هو كشوك القنافذ ويحسبونه كريش الطواويس ، وجوز أن يراد بالحكمة والموعظة الحسنة القرآن المجيد فإنه جامع

(52/446)

لكلا الأمرين فكأنه قيل : ادع بالقرآن الذي هو حكمة وموعظة حسنة وقيل غير ذلك ، ومنه أن الحكمة النبوة وليس من الحكمة ، وفسر بعضهم المجادلة الحسنة بالإعراض عن أذاهم وادعى أن الآية منسوخة بآية السيف ، والجمهور على أنها محكمة وأن معنى الآية ما تقدم ، ولكون الحكمة أعلى الدلائل وأشرافها والمدعوين به الكاملين الطالبين للمعارف الإلهية والعلوم الحقيقية وقليل ما هم جيء بها أولاً ، ولكون الجدل أدنى الدلائل إذ ليس المقصود منه سوى إلزام الخصم وإفحامه ولا يستعمل إلا مع الناقصين الذين تغلب عليهم المشاغبة والمخاصمة وليسوا بصدد تحصيل هاتيك العلوم ذكر أخيراً ، ولكون الموعظة الحسنة دون الحجة وفوق الجدل والمدعوين بها المتوسطين الذين لم يبلغوا في الكمال حد الحكماء المحققين ولم يكونوا في النقصان بمرتبة أولئك المشاغبين وسطت بين الأمرين ، وكأنه

إنما لم يقل : ادع إلى سبيل بالحكمة والموعظة والجدال الأحسن لما أن الجدال ليس من باب الدعوة بل المقصود منه غرض آخر مغاير لها وهو الإلزام والإفحام كما قاله الإمام فليفهم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الذي أمرك بدعوة الخلق إليه وأعرض عن قبوله .

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ إليه وهو تعليل لما ذكر أولاً من الأمرين كأنه قيل : اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة وما عليك غير ذلك وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدي إليه فيجازي كلاً منهما ما يستحقه كذا قيل .

واعترض بأن دلالة الآية على المجازاة مسلمة وأما أن حصول الهداية والضلالة ليس لغيره تعالى فالآية لا تدل عليه أصلاً .

(53/446)

وأجيب بأنه إذا انحصر علم الهداية والضلالة فيه تعالى علم أنه لا يكون لغيره سبحانه علمهما فكيف يكون له حصولهما فالقول بعدم دلالة الآية على ذلك غير سديد ، وقيل : المعنى اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فإنه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوي

عن الضلال لسوء اختياره وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من الخير فما شرعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة فإنه كاف في هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين ، وقيل : المعنى إنما عليك البلاغ فلا تلح عليهم أن أبوا بعد الإبلاغ مرة أو مرتين مثلاً فإن ربك هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفته النصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل ، وتقديم الضالين لأن الكلام فيهم ، وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات ، وجملة ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ قيل : عطف على جملة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ أو على خبر إن وتكرير ﴿ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب وهو في الجملة الأولى ضمير فصل للتخصيص كما هو ظاهر كلام البعض أو للتقوية كما قيل ، ولا يخفى ما في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من اللطافة .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) ﴾

﴿ وَإِنْ ﴾ أي إن أردتم المعاقبة ﴿ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ أي مثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب نحو كما تدين تدان على نهج المشاكلة ، وقال الخفاجي : إن العقاب في العرف مطلق العذاب ولو ابتداء وفي أصل اللغة المجازاة على عذاب سابق فإن اعتبر الثاني فهو مشاكلة وإن اعتبر الأول فلا مشاكلة ، وعلى الاعتبارين صيغة المفاعلة ليست للمشاركة ، والآية نزلت في شأن التمثيل بحمزة رضي الله تعالى عنه يوم أحد ، فقد صح عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة يوم استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه ونظر إليه قد مثل به فقال : رحمة الله تعالى عليك فإنك كنت ما علمت وصولاً للرحمة فعولاً للخيرات ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله تعالى من أرواح شتى أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم النحل ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ إلى آخرها فكفر عليه الصلاة والسلام عن يمينه وأمسك عن الذين أراد وصبر ، فهي على هذا مدينة .

وذهب النحاس إلى أنها مكية وليست في شأن التمثيل بحمزة رضي الله تعالى عنه واختاره بعضهم لما يلزم على ذلك من عدم الارتباط المنزع عنه كلام رب العزة جل شأنه إذ لا مناسبة لتلك القضية لما قبل ، وأما على القول بأنها مكية فوجه الارتباط أنه لما سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالدعوة وبين طريقها أشار إليه عليه الصلاة والسلام وإلى من يتابعه بمراعاة العدل مع من يناصبهم والمماثلة فإن الدعوة لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهي موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وادخال الاعناق في قلادة غير معهودة قاضية عليها بفساد ما يأتون وما يذرون وبطلان دين استمرت عليه آباؤهم الأولون وقد ضاقت بهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة .

وترددت في صدورهم الأنفاس ووقعوا في حيص بيص يضربون أخماساً في أسداس لا يجدون إلا الأسنة مركباً ويختارون الموت الأحمر دون دين الإسلام مذهباً ، وإلى الأول ذهب جمهور المفسرين ووقع ذلك في صحيح البخاري بل قال القرطبي : إنه مما أطبق عليه المفسرون ، وما ذكر من لزوم عدم الارتباط عليه ليس بشيء ، فإن التنبيه على تلك القضية للإشارة إلى أن الدعوة لا تخلو من مثل ذلك وأن المجادلة تجر إلى المجالدة فإذا وقعت فاللائق ما ذكر فلا فرق في الارتباط بحسب المآل بين أن تكون مكية وأن تكون مدنية ، وخصوص السبب لا ينافي عموم المعنى ، فالمعوّل عليه عدم العدول عما قاله الجمهور .

وقرأ ابن سيرين : ﴿ وَأَنْ ﴾ بتشديد القافين أي وان قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه .

واستدل بالآية على أن للمقتص أن يفعل بالجاني مثل ما فعل الجنس والقدر وهذا مما لا خلاف فيه .

وأما اتحاد الأدلة بأن يقتل بحجر من قتل به وبسيف من قتل به مثلاً فذهب إليه بعض الأئمة ، ومذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه لا قود إلا بالسيف ، ووجه ذلك مع أن الآية ظاهرة في خلافه أن القتل بالحجر ونحوه مما لا يمكن مماثلة مقداره شدة وضعفاً فاعتبرت مماثلته في القتل وازهاق الروح والأصل في ذلك السيف كما ذكره الرازي في أحكامه .

وذكر بعضهم أنه اختلف في هذه الآية فأخذ الشافعي بظاهرها ، وأجاب الحنفية بأن المماثلة في العدد بأن يقتل بالواحد واحد لأنه نزلت لقول النبي صلى الله عليه وسلم " لأمثلن بسبعين منهم " لما قتل حمزة ومثل به كما سمعت فلا دليل فيها ، وقال الواحدي : إنها منسوخة كغيرها من المثلة وفيه كلام في شروح الهداية .

وفي تقييد الأمر بقوله سبحانه ﴿ أَعْلَمُ بالمهتدين وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ حث على العفو تعريضاً لما في "إن" الشرطية من الدلالة على عدم الجزم بوقوع ما في حيزها فكأنه قيل : لا تعاقبوا وان عاقبتم الخ كقول طبيب لمريض سأله عن أكل الفاكهة ان كنت تأكل الفاكهة فكل الكمثري ، وقد صرح بذلك على الوجه الآكد فقيل : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ أي عن المعاقبة بالمثل ﴿ لَهُوَ ﴾ أي لصبركم على حد ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] ﴿ خَيْرٌ ﴾ من الانتصار بالمعاقبة ﴿ للصابرين ﴾ أي لكم إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الجليل مدحاً لهم وثناء عليهم بالصبر ، وفيه أرشاد إلى أنه إن صبرتم فهو شيمتكم المعروفة فلا تتركوها إذاً في هذه القضية أو وصفاً لهم بصفة تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة فهو على حد من قتل قتيلاً وهو الظاهر من اللفظ ، وفيه ترغيب في الصبر بالغ ، ويجوز عود الضمير إلى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل ، والمراد بالصابرين جنسهم فيدخل هؤلاء دخولاً أولياً ، ثم إنه تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم صريحاً بما ندب إليه غيره تعريضاً من الصبر لأنه عليه الصلاة والسلام أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤونه سبحانه ووثوقه به تعالى فقال تعالى :

﴿ واصبر ﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية وعاينت من أعراضهم بعد الدعوة عن الحق بالكلية ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أي

وما صبرك ملابساً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بذكر الله تعالى والاستغراق بمراقبة شؤونه والتبتل إليه سبحانه بمجامع الهمة ، وفيه من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه أو إلا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جليلة قاله شيخ الإسلام.

(58/446)

وقال غير واحد : أي إلا بتوفيقه ومعونته فالتسلية من حيث تيسير الصبر وتسهيله ولعل ذلك أظهر مما تقدم.

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الكافرين وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك نحو ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [المائدة : 68] وقيل : على المؤمنين وما فعل بهم من المثلة يوم أحد ﴿ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾ بفتح الضاد ، وقرأ ابن كثير بكسرها وروي ذلك عن نافع ، ولا يصح على ما قال أبو حيان عنه وهما لغتان كالقول والقيل أي لا تكن في ضيق صدر وحرج وفيه استعارة لا تخفى ولا داعي إلى ارتكاب القلب ، وقال أبو عبيدة : الضيق بالفتح مخفف ضيق كهين وهين أي لا تك في أمر ضيق.

ورده أبو علي كما في البحر بأن الصفة غير خاصة بالموصوف فلا يجوز ادعاء الحذف ولذلك جاز مررت بكاتب وامتنع بآكل .

وتعقب بالمنع لأنه إذا كانت الصفة عامة وقدر موصوف عام فلا مانع منه ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي من مكرهم بك فيما يستقبل فالأول كام في إرشاد العقل السليم نهي عن التألم بمطلوب من جهتهم فات والثاني نهي عن التألم بمحذور من جهتهم آت ، وفيه أن انلهي عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لزيادة التأكيد وإظهار كمال العناية بشأن التسلية وإلا فهل يخطر ببال من توجه إلى الله تعالى بشراشره متنزهاً عن كل ما سواه سبحانه من الشواغل شيء مطلوب فينهي عن الحزن بفواته ، وقيل : يمكرون بمعنى مكروا ، وإنما عبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية ، والأول نهى عن الحزن على سوء حالهم في أنفسهم من اتصافهم بالكفر والاعراض عن الدعوة والثاني نهى عن الحزن على سوء حالهم معه صلى الله عليه وسلم من إيذائهم له بالتمثيل بأحبابه ونحوه والمراد من النهيين محض التسلية لا حقيقة النهي ، وأنت تعلم أن الظاهر إبقاء المضارع على حقيقته فتأمل .

﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾

تعليل لما سبق من الأمر والنهي ، والمراد بالمعية الولاية الدائمة التي لا يحول حول صاحبها شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول كلمة ﴿ مَّعَ ﴾ من متبوعية المتقين من حيث أنهم المباشرون للتقوى ، والمراد بها هنا أعلى مراتبها أعني التنزع عن كل ما يشغل السر عن الحق سبحانه والتبتل إليه تعالى بالكلية لأن ذلك هو المورث لولايته عز وجل المقرونة ببشارة ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] والمعنى أن الله تعالى ولي الذين تبتلوا إليه سبحانه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه عز وجل فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب أو محذور فضلاً عن الحزن عليه فواتاً أو وقوعاً وهو المعنى بما به الصبر المأمور به على أول الاحتمالات السالفة وبذلك يحصل التقريب ويتم التعليل وإلا فمجرد التوقي عن المعاصي لا يكون مداراً لشيء من العزائم المرخص في تركها فكيف بالصبر المشار إليه ورديفيه وإنما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل : إن الله مع الذين صبروا ، وإنما أوثر عليه ما في النظم الكريم مبالغة في الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى : ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ للاشعار بأنه من باب الإحسان الذي فيه يتنافس المتنافسون على ما يؤذن بذلك قوله تعالى : ﴿ واصبر فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [هود : 115] وقد نبه سبحانه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [يوسف : 90] وحقيقة

الإحسان الإتسان بالأعمال على الوجه اللائق ، وقد فسره صلى الله عليه وسلم بأن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وتكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه من غير أن تكون احداهما تتمة للأخرى ، وإيراد

الأول فعلية للدلالة على الحدوث كما أن إيراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم ، وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية مقدمة على التحلية ، والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين ويدخل عليه الصلاة والسلام في زمرتهم دخولاً أولياً وإما هو صلى الله عليه وسلم وأشياعه رضي الله تعالى عنهم وعبر بذلك عنهم مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجمليلين ، وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به كقول من قال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما عند التعزية :

اصبر نكن بك صابرين وإنما . . .

صبر الرعية عند صبر الرأس

قال كل ذلك في إرشاد العقل السليم ، وإلى كون الجملة في موضع التعليل لما سبق ذهب العلامة الطيبي حيث قال : إنه تعالى لما أمر حبيبه بالصبر على أذى المخالفين ونهاه عن

الحزن على عنادهم وآبائهم الحق وعما يلحقه من مكرهم وخداعهم علل ذلك بقوله سبحانه : ﴿ حَكِيمٌ إِنَّ اللهَ ﴾ الخ أي لا تبال بهم وبمكرهم لأن الله تعالى وليك ومحبك وناصرك ومبغضهم وخاذلهم ، وعمم الحكم أرشاداً للاقتداء به عليه الصلاة والسلام ، وفي تعريض بالمخالفين وبخذلانهم كما صرح به في قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين ءامَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] وذكر أن إيراد الجملة الثانية اسمية وبناء ﴿ مُّحْسِنُونَ ﴾ على ﴿ هُمْ ﴾ على سبيل التقوى مؤذن باستدامة الإحسان واستحكامه وهو مستلزم لاستمرار التقوى لأن الإحسان إنما يتم إذا لم يعد إلى ما كان عليه من الإساءة ، وإليه الإشارة بما ورد "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" وما ذكر من حمل التقوى على أعلى مراتبها غير متعين ، وما ذكره في بيانه لا يخلو عن نظر كما لا يخفى على المتأمل ، وقد أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وغيرهم عن الحسن أنه قال في الآية : اتقوا فيما حرم الله تعالى عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم ، ويوهم كلام بعضهم أن الجملة في موضع التعليل للأمر بالمعاقبة بالمثل حيث قال : إن المعنى إن الله بالعون والحرمة والفضل مع الذين خافوا عقاب الله تعالى وأشفقوا منه فشفقوا على خلقه بعد الإسراف في المعاقبة ، وفسر الإحسان بترك الاساءة كما قيل :

ترك الإساءة إحسان وإجمال . . .

ولا يخفى ما فيه من البعد ، وقد اشتملت هذه الآيات على تعليم حسن الأدب في الدعوة وترك التعدي والأمر بالصبر على المكروه مع البشارة للمتقين المحسنين ، وقد أخرج سعيد بن منصور .

وابن جرير .

وغيرهما عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوصى فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي وأوصيكم بخواتيم سورة النحل هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) ﴾

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم ، وكان إبراهيم عليه السلام من الموحدين وهو قدوة كثير من النبيين ذكره الله في آخر هذه السورة فقال : ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ قال ابن الأعرابيّ : يقال للرجل العالم : أمّة ، والأمّة : الرجل الجامع للخير .

قال الواحدي : قال أكثر أهل التفسير : أي معلماً للخير ، وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمّة أنه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله من الشرائع .

وقيل : أمّة بمعنى مأموم أي : يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال سبحانه : ﴿ إِنّى جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : 124] والقانت : المطيع .

وقد تقدّم بيان معاني القنوت في البقرة .

والحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، وقد تقدّم بيانه في الأنعام .

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل .

﴿ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ ﴾ التي أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلة كما يدلّ عليه جمع القلة ، فهو شاكر لما كثر منها بالأولى ﴿ اجتباه ﴾ أي : اختاره للنبوّة واختصه بها ﴿ وَهَدَاهُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو ملة الإسلام ودين الحق .

﴿ وءاتيناه فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ أي : خصلة حسنة أو حالة حسنة .

وقيل : هي الولد الصالح.

وقيل : الثناء الحسن.

وقيل : النبوّة.

وقيل : الصلاة منا عليه في التشهد .

وقيل : هي أنه يتولاه جميع أهل الأديان.

(63/446)

ولا مانع أن يكون ما آتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عداه من خصال الخير ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين * واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخرين * واجعلنى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ [الشعراء : 83 - 85].

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد مع علوّ درجتك وسموّ منزلتك ، وكونك سيد ولد آدم ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبيّ من أنبيائه .

وقيل : والمراد هنا اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم لملة إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه .

وقال ابن جرير : في التبرّي من الأوثان ، والتدّين بدين الإسلام .

وقيل : في مناسك الحج .

وقيل : في الأصول دون الفروع .

وقيل : في جميع شريعته ، إلاّ ما نسخ منها ، وهذا هو الظاهر ، وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم ، فقال تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

وانتصاب ﴿ حَنِيفاً ﴾ على الحال من إبراهيم ، وجاز مجيء الحال منه ؛ لأن الملة كالجزء منه .

وقد تقرّر في علم النحو أن الحال من المضاف إليه جائز إذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف إليه ، أو كان جزءاً منه أو كالجزء ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ وهو تكرير لما سبق للنكتة التي ذكرناها .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ أي : إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه ، لا على غيرهم من الأمم .

وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت ، فقالت طائفة : إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فخالفوه وقالوا : إن السبت أفضل ، فقال الله له : دعهم وما اختاروا لأنفسهم .

وقيل : إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع ، فاختلف اجتهادهم فيه ، فعينت اليهود السبت ، لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق ، وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق .

فألزم الله كلا منهم ما أدّى إليه اجتهاده ، وعيّن لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلاً منه ونعمة .

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم ، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، ولم يجعله على إبراهيم ولا على غيره ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين المختلفين فيه ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي كلا فيه بما يستحقه ثواباً وعقاباً ، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لأخرى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ ﴾ وحذف المفعول للتعميم ، لكونه بعث إلى الناس كافة ، وسبيل الله هو الإسلام ﴿ بالحكمة ﴾ أي : بالمقالة المحكمة الصحيحة .

قيل : وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع ، وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها .

قيل : وهي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدّمات مقبولة .

قيل : وليس للدعوة إلاّ هاتان الطريقتان ، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألدّ إلى استعمال المعارضة والمناقضة ، ونحو ذلك من الجدل .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي : بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة .

(65/446)

وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً ، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ لما حثّ سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة ، بيّن أن الرشد والهداية ليس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك إليه تعالى فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ أي : هو العالم بمن يضلّ ومن يهتدّي ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ أي : بمن يبصر الحقّ فيقصده غير متعنت ، وإنما شرع لك الدعوة ،

وأمرك بها قطعاً للمعذرة، وتتميماً للحجة، وإزاحة للشبهة، وليس عليك غير ذلك.

ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوّين بالرجوع إلى الحق، فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة فقال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ أي: أردتم المعاقبة ﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ أي: بمثل ما فعل بكم، لا تجاوزوا ذلك.

قال ابن جرير: أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلاّ مثل ظلامته، لا يتعدّاها إلى غيرها.

وهذا صواب؛ لأن الآية وإن قيل: إن لها سبباً خاصاً كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ، وعمومه يؤدّي هذا المعنى الذي ذكره، وسمى سبحانه الفعل الأوّل الذي هو فعل البادىء بالشرّ عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلاّ فعل الثاني، وهو المجازي للمشاكلة، وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز.

ثم حثّ سبحانه على العفو فقال: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ أي: لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل، فالصبر خير لكم من الانتصاف، ووضع ﴿ الصابرين ﴾ موضع الضمير، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد.

وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم.

وقيل: هي منسوخة بآيات القتال، ولا وجه لذلك.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال : ﴿ واصبر ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ أي : بتوفيقه وتثبيته .

والاستثناء مفرغ من أعمّ الأشياء ، أي : وما صبرك مصحوباً بشيء من الأشياء إلاّ بتوفيقه لك .

وفيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

ثم نهاه عن الحزن فقال : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على الكافرين في إعراضهم عنك ، أو لا تحزن على قتلى أحد ، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله .

﴿ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الضاد ، وقرأ ابن كثير بكسرها .

قال ابن السكيت : هما سواء ، يعني : المفتوح والمكسور .

وقال الفراء : الضيق بالفتح : ما ضاق عنه صدرك ، والضيق بالكسر : ما يكون في الذي يتسع ، مثل الدار والثوب .

وكذا قال الأخفش ، وهو من الكلام المقلوب ؛ لأن الضيق .

وصف للإنسان يكون فيه ولا يكون الإنسان فيه ، وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى

صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه ، ومعنى ﴿ مما يمكرون ﴾ : من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان .

ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾ أي : اتقوا المعاصي على اختلاف أنواعها ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها .

وقيل : المعنى ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ الزيادة في العقوبة ، ﴿ والذين هم محسنون ﴾ في أصل الانتقام ، فيكون الأوّل إشارة إلى قوله : ﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ والثاني إشارة إلى قوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ ، وقيل ﴿ الذين اتقوا ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ إشارة إلى الشفقة على عباد الله تعالى .

(67/446)

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد ، بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود : أنه سئل عن الأمة ما هي ؟ فقال : الذي يعلم الناس الخير ، قالوا : فما القانت ؟ قال : الذي يطيع الله ورسوله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قانتا لِلَّهِ ﴾ قال : كان على الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره ، فلذلك قال الله : ﴿ كَانَ أُمَّةً قانتا لِلَّهِ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ كَانَ أُمَّةً ﴾ قال : إماماً في الخير ﴿ قانتا ﴾ قال : مطيعاً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد تشهد له أمة ، إلاّ قبل الله شهادتهم " والأمة : الرجل فما فوقه ، إن الله يقول ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ والأمة الرجل فما فوقه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عمرو وقال : صلى جبريل بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات ، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به ، ثم صلى المغرب والعشاء ، بجمع ثم صلى الفجر به كأسرع ما يصلي أحدكم من المسلمين ، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين دفع ، به ، ثم رمى الجمرة ، ثم ذبح ، ثم حلق ، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به ، فقال الله لنبيه : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ قال : أراد الجمعة ، فأخذوا السبت

مكانها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق السدّي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في الآية قال : باستحلالهم إياه .

(68/446)

رأى موسى رجلاً يحمل حطباً يوم السبت ، فضرب عنقه ، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم .

ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم ، يعني : الجمعة ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس فيه لنا تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد " وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ قال : أعرض عن أذاهم إياك .

وأخرج الترمذي وحسنه ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن خزيمة في الفوائد ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، والضياء في المختارة عن أبيّ بن كعب ، قال : لما كان يوم

أحد ، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة ، فمثّلوا بهم ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة ، أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" نصبر ولا نعاقب ، كفوا عن القوم إلاّ أربعة " وأخرج ابن سعد ، والبزار ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم في المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة : "أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حيث استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه ، ونظر إليه قد مثل به ، فقال : " رحمة الله عليك ، فإنك كنت ما علمت وصولاً للرحم ، فعولاً للخير ، ولولا حزن من بعدك عليك ، لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى ، أما والله لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك " ، فنزل جبريل ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ .

..

﴾ الآية ، فكفَّر النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر .

وأخرج ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ .

. .

﴾ الآية ، قال : هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله ، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ.

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ قال : اتقوا فيما حرّم عليهم ، وأحسنوا فيما افترض عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(70/446)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : ان يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة : من إيضاح الحق بالرفق واللين . وعم مجاهد ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ قال : أعرض عن أذاهم . وقد اشار إلى هذا المعنى في قوله : ﴿ ولَا تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت : 46] أي إلاّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا ، أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن : قوله لموسى وهارون في شأن فرعون ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] . ومن ذلك القول اللين : قول موسى له ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى ﴾ [النازعات : 18-19] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أعلم بمن ضل عن سبيله . اي زاغ عن طريق الصواب والحق ، إلى طريق الكفر والضلال .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله (في أول القلم) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ [القلم : 7-8] ، وقوله (في الأنعام) : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ [الأنعام : 117] ،

وقوله (في النجم) : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ [النجم : 30] والآيات لمثل ذلك كثيرة جداً .

(71/446)

والظاهر أن صيغة التفضيل التي هي ﴿ أعلم ﴾ في هذه الآيات يراد بها مطلق الوصف لا التفضيل . لأن الله لا يشاركه أحد في علم ما يصير إليه من شقاوة وسعادة . فهي كقول الشنفرى :

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن . . . بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

اي لم أكن بعجلهم . وقول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا . . . بيتاً دعائمه أعز وأطول .

أي عزيزة طويلة .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) ﴾

نزلت هذه الآية الكريمة من سورة النحل بالمدينة ، في تمثيل المشركين بحمزة ومن قل معه يوم أحد . فقال المسلمون : لئن أظفرنا الله بهم لنمثلن بهم . فنزلت الآية الكريمة ، فصبروا لقول تعالى : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ مع أن سورة النحل مكية ، إلا هذه الآيات الثلاث من

آخرخا . والآية فيها جواز الانتقام والإرشاد إلى افضلية العفو . وقد ذكر تعالى هذا المعنى في القرآن . كقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى : 40] الآية ، وقوله : ﴿ والجروحِ قصاصٌ فَمَن تَصدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة : 45] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 41] إلى قوله ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] ، وقو

له ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللهُ الجهر بالسواء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148] إلى قوله ﴿ أَوْ تَعْفُواْ عَن سواء فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾ [النساء : 149] كما قدمنا .

مسائل

بهذه الآية الكريمة

(72/446)

المسألة الأولى – يؤخذ من هذه الآية حكم مسألة الظفر وهي أنك إن ظلمت إنسان : بأن أخذ شيئاً من مالك بغير الوجه الشرعي ولم يمكن لك إثباته ، وقدرت له على مثل ما ظلمك به على وجه تأمن معه الفضيحة والعقوبة . فهل لك أن تأخذ قدر حقك أو لا ؟

أصح القولين ، وأجراهما على ظواهر النصوص وعلى القياس : ان لك أن تأخذ قدر حقك من غير زيادة . لقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] .

وممن قال بهذا القول : ابن سرين وإبراهيم النخعين وسفيان ومجاهد ، وغيرهم .

وقالت طائفة من العلماء منهم مالك : لا يجوز ذلك . وعليه خليل بن إسحاق المالكي في مختصره بقوله في الوديعة : وليس له الأخذ منها لمن ظلمه بمثلها .

واحتج من قال بهذا القول بحديث " أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك . ولا تخن من خانك " اه .

وهذا الحديث على فرض صحته لا ينهض الاستدلال به . لأن من أخذ قدر حقه ولم يزد عليه لم يخن من خانهن وإنما أنصف نفسه ممن ظلمه .

المسألة الثانية – أخذ بعض العلماء من هذه الاية الكريمة المماثلة في القصاص . فمن قتل بحدية قتل بها ، ومن قتل بحجر قتل به . ويؤيده " رضه صلى الله عليه وسلم رأس يهودي بين حجرين قصاصاً لجارية فعل بها مثل ذلك " .

وهذا قول أكثر أهل العلم خلافاً لأبي حنيفة ومن وافقه ، زاعماً أن القتل بغير المحدد شبه عمد ، لا عمد صريح حتى يجب فيه القصاص . وسيأتي لهذا إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح في سورة الإسراء .

المسألة الثالثة : أطلق جل وعلا في هذه الآية الكريمة اسم العقوبة على الجناية الأولى في قوله

: ﴿ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ والجناية الأولى ليست عقوبة .

لأن القرآن بلسان عربي مبين . ومن أساليب اللغة العربية المشاكلة بين الألفاظ . فيؤدي

لفظ بغير معناه الموضوع له شاكلة للفظ آخر مقترن به في الكلام . كقول الشاعر :

(73/446)

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه . . . قلت اطبخوا لي جبةً وقميصا

أي خيطوا لي . وقال بعض العلماء : ومنه قول جرير :

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها . . . فمن لحاجة هذا الأرمل الذكَّر

بناء على القول بأن الأرامل لا تطلق في اللغة إلا على الإناث .

ونظير الآية الكريمة في إطلاق إحدى العقوبتين على ابتداء الفعل مشاكلة للفظ الآخر – قوله

تعالى : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ [الحج : 60] الآية ،

ونحوه أيضاً .

قوله : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] مع أن القصاص ليس بسيئة

وقوله : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 194] الآية . لأن القصاص

من المعتدي أيضاً ليس باعتداء كما هو ظاهر ، وإنما أدى بغير لفظه للمشاكلة بين اللفظين :

قوله تعالى: ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بالله ﴾ الآية.

ذطر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالصبر، وأنه لا يمتثل ذلك الأمر بالصبر إلا بإعانة الله وتوفيقه. لقوله: ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بالله ﴾ وأشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: 35]، لأن قوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ الآية، معناه أن خصلة الصبر لا يلقاها إلا من كان له عند الله الحظ الأكبر والنصيب الأوفر، بفضل الله عليه، وتيسير ذلك له.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه مع عباده المتقين المحسنين. وقد تقدم غيضاح معنى التقوى والإحسان.

(74/446)

وهذه المعية بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنّصر والتوفيق. وكرر هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه: 46]، وقوله: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُم ﴾ [الأنفال: 12]، وقوله: ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا ﴾ [التوبة

: 40] وقوله : ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] ، إلى غير ذلك من الآيات .

واما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم ، ونفوذ القدرة ، وكون الجميع في قبضته جل وعلا : فالكائنات في يده جل وعلا أصغر من حبّة خردل ، وهذه هي المذكورة ايضاً في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] الاية ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] الآية ، وقوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف : 7] وقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : 61] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

فهو جل وعلا مستو على عرشه كما قال ، على الكيفية اللائقة بكماله وجلاله ، وهو محيط بخلقه ، كلهم في قبضة يده ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(75/446)

وقال ابن عاشور :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

يتنزل معنى هذه الآية منزلة البيان لقوله : ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [سورة النحل : 123] فإن المراد بما أوحي إليه من اتّباع ملّة إبراهيم هو دين الإسلام ، ودين الإسلام مبنيّ على قواعد الحنيفية ، فلا جرم كان الرسول بدعوته الناس إلى الإسلام داعياً إلى اتّباع ملّة إبراهيم .

ومخاطبة الله رسوله بهذا الأمر في حين أنه داع إلى الإسلام وموافق لأصول ملّة إبراهيم دليل على أن صيغة الأمر مستعملة في طلب الدّوام على الدعوة الإسلامية مع ما انضمّ إلى ذلك من الهداية إلى طرائق الدعوة إلى الدين .

فتضمّنت هذه الآية تثبيت الرسول على الدعوة وأن لا يؤيسه قول المشركين له ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ [سورة النحل : 101] وقولهم : ﴿ إنما يعلّمه بشر ﴾ [سورة النحل : 103] ؛ وأن لا يصدّه عن الدعوة أنه تعالى لا يهدي الذين لا يؤمنون بآيات الله .

ذلك أن المشركين لم يتركوا حيلة يحسبونها تثبّط النبي عن دعوته إلا ألقوا بها إليه من : تصريح بالتكذيب ، واستسخار ، وتهديد ، وبذاءة ، واختلاق ، وبهتان ، كما ذلك محكي في تضاعيف القرآن وفي هذه السورة ، لأنهم يجهلون مراتب أهل الاصطفاء ويزنونهم بمعيار موازين نفوسهم ، فحسبوا ما يأتونه من الخزعبلات مثبطاً له وموشكاً لأن يصرفه عن

دعوتهم .

وسبيل الربّ : طريقهُ .

وهو مجاز لكل عمل من شأنه أن يبلّغ عاملَه إلى رضى الله تعالى ، لأن العمل الذي يحصل لعامله غرض ما يُشبهِ الطريقَ الموصل إلى مكان مقصود ، فلذلك يستعار اسم السبيل لسبب الشيء .

قال القرطبي : إن هذه الآية نزلت بمكّة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، أي في مدّة صُلح الحديبية .

وحكى الواحدي عن ابن عباس : أنها نزلت عقِب غزوة أُحد لما أحزن النبي منظرُ المُثلة بحمزة رضي الله عنه وقال : لأقتلنّ مكانه سبعين رجلاً منهم .

(76/446)

وهذا يقتضي أن الآية مدنية .

ولا أحسب ما ذكراه صحيحاً .

ولعلّ الذي غرّ مَن رواه قوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ [النحل : 126] كما سيأتي ، بل موقع الآية متّصل بما قبله غير محتاج إلى إيجاد سبب نزول .

وإضافة ﴿ سبيل ﴾ إلى ﴿ ربك ﴾ باعتبار أن الله أرشد إليه وأمر بالتزامه .

وهذه الإضافة تجريد للاستعارة .

وصار هذا المركب علماً بالغلبة على دين الإسلام ، كما في قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ﴾ [سورة الأنفال : 36] ، وهو المراد هنا ، وفي قوله عقبه ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ [سورة النحل : 125] .

ويطلق سبيل الله علماً بالغلبة أيضاً على نصرة الدين بالقتال كما في قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ [سورة التوبة : 41] .

والباء في قوله : بالحكمة ﴾ للملابسة ، كالباء في قول العرب للمعرّس : بالرفاء والبنين ، بتقدير : أعرست ، يدل عليه المقام ، وهي إما متعلقة بـ ﴿ ادع ﴾ ، أو في موضع الحال من ضمير ﴿ ادع ﴾ .

وحذف مفعول ادع ﴾ لقصد التعميم ، أو لأن الفعل نزل منزلة اللازم ، لأن المقصود الدوام على الدعوة لا بيان المدعوين ، لأن ذلك أمر معلوم من حال الدعوة .

ومعنى الملابسة يقتضي أن لا تخلو دعوته إلى سبيل الله عن هاتين الخصلتين : الحكمة ، والموعظة الحسنة .

فالحكمة : هي المعرفة المُحكمة ، أي الصائبة المجرّدة عن الخطأ ، فلا تطلق الحكمة إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم .

ولذلك عرّفوا الحكمة بأنها : معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطىء في العلل والأسباب .

وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحاً مستمراً لا يتغيّر .

(77/446)

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ في سورة البقرة (269) مفصّلاً فانظره .

وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء ، ويرادفها الحكم .

والموعظة ﴾ : القول الذي يلين نفس المقول له لعمل الخير .

وهي أخصّ من الحكمة لأنها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها .

وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ في سورة النساء (63) .

وعند قوله : ﴿ موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ في سورة الأعراف (145) .

ووصفها بالحُسْن تحريض على أن تكون ليّنة مقبولة عند الناس ، أي حسنة في جنسها ،

وإنما تتفاضل الأجناس بتفاضل الصفات المقصودة منها .

وعطف الموعظة ﴾ على "الحكمة" لأنها تغاير الحكمة بالعُموم والخصوص الوجهي ، فإنه قد يسلك بالموعظة مسلك الإقناع ، فمن الموعظة حكمة ، ومنها خطابة ، ومنها جدل .

وهي من حيث ماهيّتها بينها وبين الحكمة العموم والخصوص من وجه ، ولكن المقصود بها ما لا يخرج عن الحكمة والموعظة الحسنة بقرينة تغيير الأسلوب ، إذ لم يعطف مصدر المجادلة على الحكمة والموعظة بأن يقال : والمجادلة بالتي هي أحسن ، بل جيء بفعلها ، تنبيهاً على أن المقصود تقييد الإذن فيها بأن تكون بالتي هي أحسن ، كما قال : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [سورة العنكبوت : 46] .

والمجادلة : الاحتجاج لتصويب رأي وإبطال ما يخالفه أو عمل كذلك .

ولما كان ما لقيه النبي من أذى المشركين قد يبعثه على الغلظة عليهم في المجادلة أمره الله بأن يجادلهم بالتي هي أحسن .

وتقدمت قريباً عند قوله : ﴿ تجادل عن نفسها ﴾ [سورة النحل : 111] .

وتقدمت من قبل عند قوله : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ في سورة النساء (107) .

والمعنى : إذا ألجأتك الدعوة إلى محاجّة المشركين فحاجهم بالتي هي أحسن .

والمفضل عليه المحاجّة الصادرة منهم ، فإن المجادلة تقتضي صدور الفعل من الجانبين ، فعلم أن المأمور به أن تكون المحاجّة الصادرة منه أشدّ حسناً من المحاجّة الصادرة منهم ، كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هن أحسن ﴾ [سورة المؤمنون : 96] .

ولما كانت المجادلة لا تكون إلا مع المعارضين صرّح في المجادلة بضمير جمع الغائبين المراد منه المشركون ، فإن المشركين متفاوتون في كيفيات محاجتهم ، فمنهم من يحاجّ بلين ، مثل ما في الحديث : أن النبي قرأ القرآن على الوليد بن المغيرة ثم قال له : هل ترى بما أقول بأساً قال : لا والدماء .

وقرأ النبي القرآن على عبد الله بن أُبيّ ابن سَلول في مجلس قومه ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إن كان ما تقول حقاً فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّثه إيّاه ومن لم يأتك فلا تغتّه ولا تأته في مجلسه بما يكره منه .

وتصدّي المشركين لمجادلة النبي تكرّر غير مرّة .

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [سورة الأنبياء : 98] الآية ، قال عبد الله الزِّبَعْرَى : لأخصُمَنّ محمداً ، فجاءه فقال : يا محمد قد عُبد عيسى ، وعُبدتِ الملائكة فهل هم حصب لجهنّم ؟ فقال النبي : اقرأ ما بعدُ ﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [سورة

الأنبياء : 101] .

أخرجه ابن المنذر وابن مردويه والطبراني ، وأبو داود في كتاب الناسخ والمنسوخ .

(79/446)

وقُيدت الموعظة بالحسنة ولم تقيد الحكمة بمثل ذلك لأن الموعظة لما كان المقصود منها غالباً ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيئة أو عن توقّع ذلك منه ، كانت مظّنة لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ ، أرشد الله رسوله أن يتوخّى في الموعظة أن تكون حسنة ، أي بِإلاَنة القول وترغيب الموعوظ في الخير ، قال تعالى خطاباً لموسى وهارون : { اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشى } [سورة طه : 43] وفي حديث الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال : وعظَنا رسولُ الله موعظة وجِلَت منها القلوب وذَرَفَتْ منها العيون الحديث .

وأما الحكمة فهي تعليم لمتطلبي الكمال من معلّم يهتمّ بتعليم طلابه فلا تكون إلا في حالة حسنة فلا حاجة إلى التنبيه على أن تكون حسنة .

والمجادلة لما كانت محاجة في فعل أو رأي لقصد الإقناع بوجه الحقّ فيه فهي لا تعدو أن تكون من الحكمة أو من الموعظة ، ولكنها جعلت قسيماً لهما هنا بالنظر إلى الغرض الداعي

إليها .

وإذ قد كانت مجادلة النبي لهم من ذيول الدعوة وُصفت بالتي هي أحسن كما وصفت الموعظة بالحسنة .

وقد كان المشركون يجادلون النبي قصداً لإفحامه ، وتمويهاً لتغليطه نبّه الله على أسلوب مجادلة النبي إيّاهم استكمالاً لآداب وسائل الدعوة كلها .

فالضمير في وجادلهم ﴾ عائد إلى المشركين بقرينة المقام لظهور أن المسلمين لا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم ولكن يتلقّون منه تلقّي المستفيد والمسترشد .

وهذا موجب تغيير الأسلوب بالنسبة إلى المجادلة إذ لم يقل : والمجادلةِ الحسنة ، بل قال : ﴿ وجادلهم ﴾ ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [سورة العنكبوت : 46] .

(80/446)

ويندرج في التي هي أحسن ردّ تكذيبهم بكلام غير صريح في إبطال قولهم من الكلام الموجّه ، مثل قوله تعالى ﴿ وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سورة سبأ : 24] ، وقوله : ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه

تختلفون ﴾ [سورة الحج : 68] .

والآية تقتضي أن القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاثة من أساليب الدعوة ، وأن الرسول إذا دعا الناس بغير القرآن من خطبه ومواعظه وإرشاده يسلك معهم هذه الطرق الثلاثة .

وذلك كله بحسب ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ومن أحوال المخاطبين من خاصّة وعامّة .

وليس المقصود لزوم كون الكلام الواحد مشتملاً على هذه الأحوال الثلاثة ؛ بل قد يكون الكلام حكمة مشتملاً على غِلظة ووعيد وخالياً عن المجادلة .

وقد يكون مجادلة غير موعظة ، كقوله تعالى : ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض .

وكقول النبي إنك لتأكل المِرباع وهو حرام في دينك ، قاله لعديّ بن حاتم وهو نصراني قبلَ إسلامه .

ومن الإعجاز العلمي في القرآن أن هذه الآية جمعت أصول الاستدلال العقلي الحقّ ، وهي البرهان والخطابة والجَدل المعبّر عنها في علم المنطق بالصناعات وهي المقبولة من الصناعات .

وأما السفسطة والشعر فيَرْبأُ عنهما الحكماء الصادقون بله الأنبياء والمرسلين .

قال فخر الدين : إن الدعوة إلى المذهب والمقالةِ لا بدّ من أن تكون مبنيّة على حُجّة .

والمقصود من ذكر الحجّة إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب السامعين ، وإما إلزام الخصم وإفحامُه .

(81/446)

أما القسم الأول فينقسم إلى قسمين لأن تلك الحجّة إما أن تكون حُجّة حقيقية يقينية مبرأة من احتمال النقيض ، وإما أن لا تكون كذلك بل تكون مفيدة ظناً ظاهراً وإقناعاً ، فظهر انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة:

أولها : الحجّة المفيدة للعقائد اليقينية وذلك هو المسمّى بالحكمة .

وثانيها : الأمارات الظنّية وهي الموعظة الحسنة .

وثالثها : الدلائل التي القصد منها إفحام الخصم وذلك هو الجَدل .

وهو على قسمين ، لأنه : إما أن يكون مركّباً من مقدّمات مسلّمة عند الجمهور وهو الجدل الواقع على الوجه الأحسن ، وإما أن يكون مركّباً من مقدّمات باطلة يحاول قائلها ترويجها على المستمعين بالحيل الباطلة .

وهذا لا يليق بأهل الفضل" ا ه .

وهذا هو المدعو في المنطق بالسفسطة، ومنه المقدمات الشعرية وهي سفسطة مزوّقة.

والآية جامعة لأقسام الحجّة الحقّ جمعاً لمواقع أنواعها في طرق الدعوة، ولكن على وجه التّداخل، لا على وجه التباين والتقسيم كما هو مصطلح المنطقيين، فإن الحجج الاصطلاحية عندهم بعضها قسيم لبعض، فالنسبة بينها التباأُن.

أما طرق الدعوة الإسلامية فالنسبة بينها العموم والخصوص المطلق أو الوجهي.

وتفصيله يخرج بنا إلى تطويل، وذهنك في تفكيكها غير كليل.

فإلى الحكمة ترجع صناعة البرهان لأنه يتألف من المقدمات اليقينية وهي حقائق ثابتة تقتضي حصول معرفة الأشياء على ما هي عليه.

وإلى الموعظة ترجع صناعة الخطابة لأن الخطابة تتألف من مقدّمات ظنّية لأنها مراعى فيها ما يغلب عند أهل العقول المعتادة.

وكفى بالمقبولات العادية موعظة.

ومثالها من القرآن قوله تعالى ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ [سورة النساء: 22] فقوله: ﴿ ومقتاً ﴾ أشار إلى أنّهم كانوا إذا فعلوه في الجاهلية يُسمونه نكاح المَقت، فأجري عليه هذا الوصف لأنه مُقنع بأنه فاحشة، فهو استدلال خطابي.

وأما الجدل فما يورد في المناظرات والحجاج من الأدّلة المسلّمة بين المتحاجَيْن أو من الأدّلة المشهورة ، فأطلق اسم الجدل على الاستدلال الذي يروج في خصوص المجادلة ولا يلتحق بمرتبة الحكمة .

وقد يكون مما يُقبل مثله في الموعظة لو ألقي في غير حال المجادلة .

وسمّاه حكماء الإسلام جدلاً تقريباً للمعنى الذي يطلق عليه في اللغة اليونانية .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

هذه الجملة تعليل للأمر بالاستمرار على الدّعوة بعد الإعلام بأن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ، وبعد وصف أحوال تكذيبهم وعنادهم .

فلما كان التّحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجاً لبيان الحكمة في ذلك بيّنت الحكمة بأن الله هو أعلم بمصير الناس وليس ذلك لِغير الله من الناس فما عليك إلا البلاغ ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حدّ الحزن على عدم اهتدائهم لأن العلم بمن يهتدي ومن يضلّ موكول إلى الله وإنما عليك التبليغ في كل حال .

وهذا قول فصل بين فريق الحقّ وفريق الباطل .

وقُدم العلم بمن ضَلّ لأنه المقصود من التعليل لأن دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللّين في جانبهم بالموعظة الحسنة والمجادلة الحسنى أهمّ ، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه التكميل .

وفيه إيماء إلى أنه لا يدري أن يكون بعض من أيس من إيمانه قد شرح الله صدره للإسلام بعد اليأس منه .

وتأكيد الخبر بضمير الفصل للاهتمام به .

وأما ﴿ إنّ ﴾ فهي في مقام التعليل ليست إلا لمجرّد الاهتمام ، وهي قائمة مقام فاء التفريع على ما أوضحه عبد القاهر في دلائل الإعجاز ؛ فإن إفادتها التأكيد هنا مستغنى عنها بوجود ضمير الفصل في الجملة المفيدة لقصر الصّفة على الموصوف ، فإن القصر تأكيد على تأكيد .

(83/446)

وإعادة ضمير الفصل في قوله : ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ للتّنصيص على تقوية هذا الخبر لأنه لو قيل : وأعلمُ بالمهتدين ، لاحتمل أن يكون معطوفاً على جملة ﴿ هو أعلم بمن ضل ﴾ على أنه خبر (لإنّ) غيرُ داخل في حيّز التقوية بضمير الفصل ، فأعيد ضمير الفصل لدفع هذا الاحتمال .

ولم يقل : وبالمهتدين ، تصريحاً بالعلم في جانبهم ليكون صريحاً في تعلّق العلم به .

وهذان القصران إضافيان ، أي ربّك أعلم بالضّالين والمهتدين ، لا هؤلاء الذين يظنّون أنهم

مهتدون وأنكم ضالون .

والتفضيل في قوله : ﴿ هو أعلم ﴾ تفضيل على علم غيره بذلك .

فإنه علم متفاوت بحسب تفاوت العالمين في معرفة الحقائق .

وفي هذا التفضيل إيماء إلى وجوب طلب كمال العلم بالهدى ، وتمييز الحقّ من الباطل ، وغوص النظر في ذلك ، وتجنّب التسرّع في الحكم دون قوة ظنّ بالحقّ ، والحذر من تغلّب تيارات الأهواء حتى لا تنعكس الحقائق ولا تسير العقول في بنيّات الطرائق ، فإن الحقّ باقٍ على الزمان والباطل تكذبه الحجّة والبرهان .

والتخلّق بهذه الآية هو أن كل من يقوم مقاماً من مقامات الرسول صلى الله عليه وسلم في إرشاد المسلمين أو سياستهم يجب عليه أن يكون سالكاً للطرائق الثلاث : الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، وإلا كان منصرفاً عن الآداب الإسلامية وغير خليق بما هو فيه من سياسة الأمّة ، وأن يخشى أن يعرّض مصالح الأمّة للتلف ، فإصلاح الأمّة يتطلّب إبلاغ الحقّ إليها بهذه الوسائل الثلاث .

والمجتمعُ الإسلامي لا يخلو عن متعنّت أو مُلَبّس وكلاهما يُلقي في طريق المصلحين شَواكَ الشبه بقصد أو بغير قصد .

فسبيل تقويمه هو المجادلة ، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه .

في "الموطأ" أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في خطبة خطبها في آخر عمره : "أيها الناس قد سُنّت لكم السّنن ، وفُرضت لكم الفرائض ، وتُركتم على الواضحة ، إلا أن تضلّوا بالناس يميناً وشمالاً" وضرب بإحدى يديه على الأخرى .

(لعلّه ضرب بيده اليسرى على يده اليمنى الممسكة السيف أو العصا في حال الخطبة) .

وهذا الضرب علامة على أنه ليس وراء ما ذُكر مطلب للناس في حكم لم يسبق له بيان في الشريعة .

وقدم ذكر علمه ﴿ بمن ضل عن سبيله ﴾ على ذكر علمه ﴿ بالمهتدين ﴾ لأن المقام تعريض بالوعيد للضالين ، ولأن التخلية مقدمة على التحلية ، فالوعيد مقدّم على الوعد .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) ﴾

عَطف على جملة ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ [سورة النحل : 125] ، أي إن كان المقام مقام الدعوة فلتكن دعوتك إيّاهم كما وصفنا ، وإن كنتم أيها المؤمنون معاقبين لمشركين على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل لا بِتجاوُز حدّ ما لقيتم منهم .

فهذه الآية متّصلة بما قبلها أتم اتّصال ، وحسبك وجود العاطف فيها .

وهذا تدرّج في رتب المعاملة من معاملة الذين يدعون ويوعظون إلى معاملة الذين يجادلون ثم إلى معاملة الذين يجازون على أفعالهم ، وبذلك حصل حسن الترتيب في أسلوب الكلام .

وهذا مختار النحاس وابن عطية وفخر الدين ، وبذلك يترجّح كون هذه الآية مكية مع سوابقها ابتداء من الآية الحادية والأربعين ، وهو قول جابر بن زيد ، كما تقدم في أول السورة .

واختار ابن عطية أن هذه الآية مكّية .

ويجوز أن تكون نزلت في قصة التّمثيل بحَمزة يوم أُحُد ، وهو مرويّ بحديث ضعيف للطبراني .

ولعلّه اشتبه على الرّواة تذكر النبي الآيَة حين توعّد المشركين بأن يمثّل بسبعين منهم إن أظفره الله بهم .

والخطاب للمؤمنين ويدخل فيه النبي .

والمعاقبة : الجزاء على فعل السوء بما يسوء فاعل السوء .

(85/446)

فقوله : بمثل ما عوقبتم ﴿ مشاكَلَةُ ﴾ عاقبتم ﴿ .

استعمل ﴿ عوقبتم ﴾ في معنى عوملتم به ، لوقوعه بعد فعل ﴿ عاقبتم ﴾ ، فهو استعارة وجه شبهها هو المشاكلة .

ويجوز أن يكون ﴿ عوقبتم ﴾ حقيقة لأن ما يلقونه من الأذى من المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أصنامهم وتسفيه آبائهم .

والأمر في قوله : ﴿ فعاقبوا ﴾ للوجوب باعتبار متعلّقه ، وهو قوله : ﴿ بمثل ما عوقبتم به ﴾ فإن عدم التجاوز في العقوبة واجب .

وفي هذه الآية إيماء إلى أن الله يُظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم ، فلعلّ بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحَنق على الإفراط في العقاب .

فهي ناظرة إلى قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ [سورة النحل : 110] .

ورغّبهم في الصبر على الأذى ، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنه ، لأنه أجلب لقلوب الأعداء ، فوصف بأنه خير ، أي خير من الأخذ بالعقوبة ، كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم ﴾ [سورة فصّلت : 34] ، وقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [سورة الشورى : 40] .

وضمير الغائب عائد إلى الصبر المأخوذ من فعل صبرتم ﴾ ، كما في قوله تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [سورة المائدة : 8] .

وأكّد كون الصبر خيراً بلام القسم زيادة في الحثّ عليه .

وعبّر عنهم بالصابرين إظهاراً في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين ، أي الصبر خير لجنس الصابرين .

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) ﴾

خص النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى ، فهو بالتزام الصبر أولى ، أخذاً بالعزيمة بعد أن رخّص لهم في المعاقبة .

وجملة ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ معترضة بين المتعاطفات ، أي وما يحصل صبرك إلا بتوفيق الله إيّاك .

(86/446)

وفي هذا إشارة إلى أن صبر النبي صلى الله عليه وسلم عظيم لقي من أذى المشركين أشدّ مما لقيه عموم المسلمين .

فصبره ليس كالمعتاد ، لذلك كان حصوله بإعانة من الله .

وحذره من الحزن عليهم أن لم يؤمنوا كقوله : ﴿ لعلّك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ [

سورة الشعراء : 3] .

ثم أعقبه بأن لا يضيق صدره من مكرهم ، وهذه أحوال مختلفة تحصل في النفس باختلاف الحوادث المسببة لها ، فإنهم كانوا يعاملون النبي مرة بالأذى علناً ، ومرة بالإعراض عن الاستماع إليه وإظهارِ أنهم يغيظُونه بعدم متابعته ، وآونة بالكيد والمكر له وهو تدبير الأذى في خفاء .

والضيق بفتح الضّاد وسكون الياء مصدر ضاق ، مثل السّير والقَول .

وبها قرأ الجمهور .

ويقال : الضِيق بكسر الضاد مثل : القيل .

وبها قرأ ابن كثير .

وتقدم عند قوله : ﴿ وضائق به صدرك ﴾ [سورة هود : 12] .

والمراد ضيق النفس ، وهو مستعار للجزع والكدر ، كما استعير ضدّه وهو السعة والاّتساع للاحتمال والصبر .

يقال : فلان ضيق الصدر ، قال تعالى في آخر الحجر ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ [سورة الحجر : 97] .

ويقال سعة الصدر .

والظرفية في ﴿ ضيق ﴾ مجازية ، أي لا يلابسك ضيق ملابسة الظرف للحال فيه .

و﴿ ما ﴾ مصدرية، أي من مكرهم.

واختير الفعل المنسبك إلى مصدر لما يؤذن به الفعل المضارع من التجدّد والتكرّر.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) ﴾

تعليل للأمر بالاقتصار على قدر الجرم في العقوبة وللترغيب في الصبر على الأذى والعفو عن المعتدين ولتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصبر والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى ولصرف الكدر عن نفسه من جراء أعمال الذين لم يؤمنوا به

علل ذلك كله بأن الله مع الذين يتقونه فيقفون عندما حد لهم ومع المحسنين.

والمعية هنا مجاز في التأييد والنصر

(87/446)

وأتي في جانب التقوى بصلة فعلية ماضية للإشارة إلى لزوم حصولها وتقررها من قبل لأنها من لوازم الإيمان لأن التقوى آيلة إلى أداء الواجب وهو حق على المكلف.

ولذلك أمر فيها بالاقتصار على قدر الذنب

وأتي في جانب الإحسان بالجملة الاسمية للإشارة إلى كون الإحسان ثابتا لهم دائما معهم

لأن الإحسان فضيلة فبصاحبه حاجة إلى رسوخه من نفسه وتمكنه. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(88/446)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

فبعد أن تحدثتْ الآيات عن النموذج الإيماني الأعلى في الإنسان في شخص أبي الأنبياء إبراهيم، وجعلتْ من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسُله باتباعه، أخذتْ في بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله.

قوله: ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ . . ﴾ [النحل: 125].

الحق تبارك وتعالى لا يُوجّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم إلا وهو يعلم أنه سيُنفّذ ما أُمِر به، وسيقوم بأمر الدعوة، ويتحمل مسؤليتها.

﴿ ادع ﴾: بمعنى دُلَّ الناس وارشدهم.

﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل: 125].

السبيل هو الطريق والمنهج، والحكمة: وَضْع الشيء في موضعه المناسب، ولكن لماذا

تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمةً ؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَنِ انحرف عن هذا المنهج ، ومَنِ انحرف عن منهج الله تجده أَلِفَ المعصية وتعوَّد عليها ، فلا بُدَّ لك أنْ ترفقَ به لِتُخرجه عما ألف وتقيمه على المنهج الصحيح ، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما أَلِفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلَك اللّين والرِّفق ، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يترك ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعِر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو افضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تحرجه أمام الآخرين ؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

﴿ بالحكمة والموعظة الحسنة . . ﴾ [النحل : 125] .

ويُروى في هذا المقام مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة قصة دارت بين الحسن والحسين رضي الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغي أنْ يكون عليه الداعية .

فيُروى أنهما رَأَيا رجلاً لا يُحسِن الوضوء ، وأراد أنْ يُعلّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعره ، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسِن أنْ تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلاً منهما يتوضأ ، ثم يحكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحُكْم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذي ما أحسنْتُ .

إنه الوعظ في أعلى صورة ، والقدوة في أحكم ما تكون .

" مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، حينما أتاه شاب في فَوْرة شبابه ، يشتكي عدم صَبْره عن رغبة الجنس ، وهي كما قلنا من أشرس الغرائز في الإنسان .

جاء الشاب وقال : " يا رسول الله إئذن لي في الزنا " .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخْفِ عِلّته ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أولَ خَطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله ؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الداء من نفس هذا الشاب ؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يُؤذه ، بل أخذه وربّت على كتفه في لطف

ولين ، ثم قال : " أتحبه لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعِلْتَ فِدَاك . قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، قال : أَتُحبه لأختكَ ؟

قال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك ، قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم " .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : " اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه " فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزني ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نفسي بشيء من هذا ، إلا ذكرْتُ أمي وأختي وزوجتي " .

(90/446)

فلنتأمل هذا التلطُّف في بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات في المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وحُسْن تصرف ، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُرًّا يغلفونه بغُلالة رقيقة حُلْوة المذاق ليستسيغه المريض ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب في هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة في الدعوة إلى الله : النصح ثقيل فلا تُرْسِله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً . .

والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع عن شيء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة في مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول : " ما بال أقوام قالوا كذا وكذا " .

ويكتفي بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحداً من الناس على حَدِّ قولهم في الأمثال : إياكِ أعني واسمعي يا جاره .

ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء في الريف حينما يتعرض أحدٌ للسرقة ، أو يضيع منه شيء ذو قيمة ، فكانوا يعتلون عن فَقْد الشيء الذي ضاع أو سُرِق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمي التراب .

ومعنى " نرمي التراب " أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشيء المفقود ، وفي الصباح يبحثون في التراب حتى يعثروا على ما فقد منهم ، ويصلوا إلى ضالَّتهم دون أنْ يُفتضحَ الأمر ، ودون أن يُحرَجَ أحد ، وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعقدت المسألة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [النحل : 125] .

والجدل مناقشة الحجج في قضية من القضايا ، وعلى كُلٍّ من الطرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالتي هي احسن . أي : في رفق ولين ودون تشنُّج أو غَطْرسة .

ويجب عليك في موقف الجدال هذا ألاَّ تُغضِبَ الخصْم ، فقد يتمحّك في كلمة منك ،

ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمهتدين ﴾ [النحل : 125] .

(91/446)

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يُبيِّن لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله في توجيه النصيحة ، ولا ينبغي للداعية أبداً أنْ يغُشَّ في دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفي نفسه استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس والعياذ بالله مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر مِمّا ينفعهم .

إذن : إنْ قُبِل الغش في شيء فإنه لا يُقبل في مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أنْ تغشّ بالله في الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمَنْ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ . . . . ﴾ .

نلاحظ أن هذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ . . ﴾ [البقرة: 194] .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية في رد الاعتداء:

﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ . . . . ﴾ [النحل: 126] .

و﴿ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ﴾ [البقرة: 194] .

إذن: الحق سبحانه، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل، إلا أن جعله صعباً من حيث التنفيذ، فمن الذي يستطيع تقدير المثلية في الرد، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء، ودون زيادة في العقوبة، وكأن في صعوبة تقدير المثلية إشارةً إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها، كما قال تعالى:

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ [النحل: 126] .

(92/446)

فقد جعل الله في الصبر سَعة، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة، ومقاساة تقدير المثلية فيها، فضلاً عما في الصبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد، كما قال الحق سبحانه: ﴿ ادفع

بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عداوةٌ كأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] .

ففي ذلك دَفْع لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ [النحل : 126] .

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : في الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ، وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهي من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى في جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله في معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر في القرآن الكريم يجد تشابهاً في تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى : ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] .

وفي آية أخرى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] .

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دِقّة التعبير القرآني .

ولما كانت المصائب التي تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن

أُصيب في صحته أو تعرّض لجائحة في ماله، أو انهار بيته . . الخ .

وفي هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة، لكن لا ضغن فيها على أحد .

(93/446)

إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد، ويناسبه قوله تعالى : ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] .

أما النوع الآخر : فهو المصائب التي تقع بفعل فاعل، كالقتل مثلاً، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك، يثير حفيظتك، ويهيج غضبك، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته، فالصبر في هذه أصعب وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما في الآية الثانية :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] .

فاستعمل هنا لام التوكيد؛ لأن الصبر هنا شاقّ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان ليُؤلّب القلوب، ويثير الضغائن والأحقاد .

كما نلاحظ في الآية الأولى قال : (وَاصْبِرْ) .

وفي الثانية قال : (صَبَر وغَفَر) لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .

ويُحكى في قصص العرب قصة اليهودي المرابي الذي أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه في أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد في الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودي الأمر إلى القاضي وقَصَّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضي صاحب فِطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن في ضربة واحد ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت .

ولما رأى اليهودي مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .

والسؤال الآن : ما علاقة هذه الآية :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ . . ﴾ [النحل : 126] .

بما قبلها : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] .

(94/446)

الدعوة إلى منهج يلفت الإنسان خليفة الله في أرضه أنْ يلتزمَ بمنهج الله الذي استخلفه ، ووضع له هذا المنهج لِيُنظّم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يُفسدون في الأرض

، ويحققون لأنفسهم مصالح على حساب الغير ، والذي يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدَّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطغى ويستعلي ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويُخرجهم مما أَلِفُوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذي يستفيدون به ، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا في وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصح والإصلاح ، وشدة تَرْك ما ألفوه .

فعلَى الداعية إذن أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتي هي احسن ، فإذا ما تعدّى أمرُهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يَعُدْ يُجدي أسلوب الحكمة .

ولا بُدَّ لنا أن نقفَ الموقف الذي تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذي شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لَدَد في الخصومة ، أو إسراف في العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ . . ﴾ [النحل : 126] .

وفي الآية تحذير أن يزيدَ الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوي أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك

يلفتهم إلى أن الذي أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هَدَّأَها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

(95/446)

وهذا التوجيه الإلهي في تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته صلى الله عليه وسلم توجّه إليه صلى الله عليه وسلم في تصرُّف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضي الله عنه .

فقد مثَّل به الكفار في أُحُد ، وشقَّتْ هند بطنه ، ولاكت كبده ، فشقّ الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثَّر في نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقرابة فهو عمه الذي آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال في انفعاله بهذه العاطفة : " لئن أظهرني الله عليهم لأُمثّلَنّ بثلاثين رجلاً منهم " .

ولكن الحق سبحانه العادل الذي أنزل ميزان العدل والحق في الخلق هَدَّأ من رَوْعه ، وعدَّل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . ﴾ [النحل : 126] .

والمتأمل للأسلوب القرآني في هذه الآية يلحظ فيها دعوة إلى التحنُّن على الخصم والرأفة به ، فالمتحدث هو الله سبحانه ، فكل حرف له معنى ، فلا تأخذ الكلام على إجماله ، ولكن تأمل فيه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً . لماذا قال الحق سبحانه : (وإنْ) ولم يستخدم (إذا) مثلاً ؟

إن عاقبتم : كأن المعنى : كان يجب ألاَّ تعاقبوا .

أما (إذا) فتفيد التحقيق والتأكيد ، والحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن القلوب ، ويضع ردَّ العقوبة بمثلها في أضيق نطاق ، فهذه رحمة حتى من الأعداء ، هذه الرحمة تُحبِّبهم في الإسلام ، وتدعوهم إليه ، وبها يتحوّل هؤلاء الأعداء إلى جنود في صفوف الدعوة إلى الله .

(96/446)

كما أن في قوله : (عَاقَبْتُمْ) دليل على أن ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ . . ﴾ [الأنفال : 60] .

كأنه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفي حال قوة تُمكنكم من الردِّ إذا اعتُدِي عليكم ،

كما أن في وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويرهبه، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن في المجتمع، فالقوي لا يفكّر أحد في الاعتداء عليه.

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم في صراعها المحموم حول التسلُّح بأسلحة فاتكة.

وكلمة: ﴿ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ.. ﴾ [النحل: 126].

نلاحظ أن الردَّ على الاعتداء يُسمَّى عقوبة، لكن الاعتداء الأول لماذا نُسميه أيضاً عقوبة؟

قالوا: لأن هذه طريقة في التعبير تسمَّى "المشاكلة"، أي: جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: 40].

لأن ردَّ السيئة لا يُسمَّى سيئة.

ولسائل في هذه القضية أن يسأل: طالما أن الإسلام يسعى في هذه المسألة إلى العفو، فلماذا لم يُقرِّره من البداية؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل؟

نقول: لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أَمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله.

. الخ. وهذا الأمن لا يتأتَّى إلا بقوة تحفظه، كما أن للمجتمع توازناً، هذا التوازن في المجتمع

لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان في المجتمع دون ظلم له .

(97/446)

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية في تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أن يَحُدّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها ، فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرّأ على جريمته ، ففي تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحفظ لسلامته وأمْنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون مَن يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : في تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول في هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية يدخل أو لا يدخل ، لا يغصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم .

إذن : شرعَ الإسلامُ العقوبةَ ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعتْ يلجأ إلى علاج آخر يجتثّ جذور الغِلّ والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر في صعيد مصر : إنه يظل في سلسلة من القتل والثأر لا تنتهي ، وتفزِّع المجتمع كله ، حتى الآمنين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات في هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجَّع واحد منهم ، فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى وليّ القتيل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفني معي ، فاصنع بي ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أنْ يثأروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التي لا تنتهي .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

بعد أن ذكرتْ الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكأن الآية السابقة تمهد للأمر هنا (وَاصْبِرْ) ليأتمر الجميع بأمر الله ، بعد أنْ قدَّم لهم الحيثيات التي تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كمَا يقولون في الحكمة : من الشجاعة أنْ تجبُن ساعة .

(98/446)

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارت نفسُك ، فالشجاعة أنْ تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله . . ﴾ [النحل : 127] .

من حكمة الله ورحمته أنْ جعلك تصبر على الأذى ؛ لأن في الصبر خيراً لك ، والله هو الذي يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التي تهيج غضبك ، وتحرّك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولّى أمره وأعانه ، كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقُوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ، وحين تتجه إليه يُجنّد الله لك الخواطر الطيبة التي تُعينك عليه وتُيسّره لك وتُرضيك به ، فيأتي صبرك جميلاً ، لا سخطَ فيه ولا اعتراضَ عليه .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . . ﴾ [النحل : 127] .

لقد امتنّ الله على أمة العرب التي استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبَه ونَسَبَه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم مُحباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

أي : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عَنَتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكل كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص : الضَّنّ بالشيء ، فكأنه صلى الله عليه وسلم يضِنّ بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى في الحديث الشريف : "إنما مثلي ومثَل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحّمون فيه" .

(99/446)

لذلك حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببتَ له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلّ عليها من يحب من أهله ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم حلاوة الإيمان أحبَّ أنْ يُشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسلِّي رسوله ، ويخفف عنه ما صُدم في قومه ، يقول له : لا تحزن

عليهم ولا تُحمّل نفسك فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ . ويخاطبه ربه في آية أخرى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] .

أي : لا تكن مُهْلكاً نفسك أسفاً عليهم .

وقوله : ﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : 127] .

الضيق : تأتي بالفتح وبالكسر ، ضِيْق ، ضَيْق .

والضيق : أن يتضاءل الشيء الواسع أمامك عما كنت تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفي هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفْسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما قال تعالى عن الثلاثة الذين تخلفوا في الجهاد مع رسول الله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ . . ﴾ [التوبة : 118] .

فالحق سبحانه ينهى رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يكون في ضيق من مكر الكفار ؛ لأن الذي يضيق بأمر ما هو الذي لا يجد في مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذي يعرف أن له منفذاً ومَخْرجاً فلا يكون في ضَيْق .

فالمعنى : لا تَكُ في ضيق يا محمد ، فالله معك ، سيجعل لك من الضيق مخرجاً ، ويرد على هؤلاء مكرهم : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ [الأنفال : 30] .

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب . فساعة أن تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب ، وتضيق بك نفسك فليسعْك ربك ، ولتكُنْ في معيته سبحانه ؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) ﴾

هذه قضية معيّة الله لمن اتقاه ، فمَنِ اتقى الله فهو في جواره ومعيته ، وإذا كنت في معية ربك فمَنْ يجرؤ أن يكيدك ، أو يمكرُ بك ؟

وفي رحلة الهجرة تتجلى معية الله تعالى وتتجسد لنا في الغار ، حينما أحاط به الكفار ، والصِّدّيق يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرَآنا ، فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو واثق بهذه المعية : " يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما " .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر ؟

المعنى : ما دام أن الله ثالثهما إذن فهما في معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمَنْ كان في معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : ﴿ اتقوا . . ﴾ [النحل : 128] .

التقوى في معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعمالاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمتأمل يجد معناها يلتقي في نقطة واحدة .

فمعنى " اتق الله " : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه ؛ لأن للحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

(101/446)

ونقول : اتقوا النار ، أي : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرّة باللازم ، ومرَّة بلازم اللازم .

وقوله : ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] .

المحسن : هو الذي يُلزم نفسه في عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به ، فإنْ كان الشرع فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة ، فالإحسان أن تزيدها ما تيسَّر لك من النوافل ، وإنْ كان الصوم شهرَ رمضان ، فالإحسان أنْ تصومَ من باقي الشهور كذا من الأيام ، وكذلك في الزكاة ، وغيرها مِمَّا فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح في حديث جبريل حينما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك " .

والآية الكريمة تُوحِي لنا بأن الذي اتقوا لهم جزاء ومعيّة ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعيّة ، كُلٌّ على حسب درجته ؛ لأن الحق سبحانه يعطي من صفات كمال لخَلْقه على مقدار معيتهم معه سبحانه ، فالذي اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوي ومَنْ أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثاني مزيّة وخصوصية .

وفي سورة الذاريات يقول تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 15-16] .

لم يقل " مؤمنين " ؛ لأن المؤمن يأتي بما فُرِض عليه فحسب ، لكن ما وجه الإحسان عندهم ؟

يقول تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 17-19] .

وكلها أمور نافلة تزيد عما فرض الله عليهم .

ويجب أن تتنبه هنا إلى أن المراد من قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] .

ليست الزكاة ، بل هي الصدقة ، لأنه في الزكاة قال سبحانه : ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . . ﴾ [المعارج : 24] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(103/446)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الامر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي احسن هذا هو الصحيح في معنى هذه الاية لا ما يزعم اسير منطق اليونان ان الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام

والمجادلة بالتي هي احسن القياس الجدلي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 1 صـ 153. 154 ﴾

(104/446)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل بظاهرها على أن معية الله خاصة بالمتقين المحسنين ، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على عمومها , وهي قوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ , وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ , وقوله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ , ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ الآية .

والجواب: أن لله معية خاصة ومعية عامة, فالمعية الخاصة بالنصر والتوفيق و الإعانة,

وهذه لخصوص المتقين المحسنين كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ .

وقوله: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ .

الآية, وقوله: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

ومعية عامة بالإحاطة والعلم ؛ لأنه تعالى أعظم وأكبر من كل شيء , محيط بكل شيء , فجميع الخلائق في يده أصغر من حبة خردل في يد أحدنا وله المثل الأعلى, وسيأتي له زيادة إيضاح في سورة الحديد – إن شاء الله – وهي عامة لكل الخلائق كما دلّت عليه الآيات المتقدمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 176. 177 ﴾

(105/446)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

أخرج ابن مردويه عن أبي ليلى الأشعري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تمسكوا بطاعة أئمتكم ولا تخالفوهم ، فإن طاعتهم طاعة الله معصيتهم معصية الله ، فإن الله إنما بعثني أدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فمن خالفني في ذلك فهو من

الهالكين وقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ، ومن ولي من أمركم شيئاً فعمل بغير ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ قال : أعرض عن أذاهم إياك .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) ﴾

أخرج الترمذي وحسنه وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرِبيَنَّ عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نصبر ولا نعاقب . . . كفوا عن القوم إلا أربعة " .

وأخرج ابن سعد والبزار وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل ، عن أبي هريرة : " أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد ، فنظر إلى منظر لم يَرَ شيئًا قط كان أوجع لقلبه منه ، ونظر إليه قد مثل به فقال : رحمة الله عليك فإنك كنت ما علمت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات ، ولولا حزن من بعدك عليك لسرّني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى ، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك . فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم النحل ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم . . . ﴾ الآية . فكفّر النبي عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر " .

وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قتل حمزة ومثل به : " لئن ظفرت بقريش لأمثلن بسبعين رجلاً منهم . فأنزل الله ﴿ وإن عاقبتم . . . ﴾ الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نصبر يا رب " فصبر ونهى عن المثلة .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير ، عن الشعبي قال : " لما كان يوم أحد وانصرف المشركون فرأى المسلمون بإخوانهم مثله ، جعلوا يقطعون آذانهم وآنافهم ويشقون بطونهم . فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن أنالَنَا الله منهم لنفعلن ولنفعلن . . . فأنزل الله ﴿ وإن عاقبتم . . . ﴾ الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل نصبر " " .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة يوم أحد حيث قتل حمزة ومثل به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلاً منهم فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط " فأنزل الله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا .

. . ﴾ إلى آخر السورة .

(107/446)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ قال : هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله ، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم . قال : فهذا من المنسوخ.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد قال : كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذو منعة ، فقالوا : يا رسول الله ، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب .

فنزلت هذه الآية ، ثم نسخ ذلك بالجهاد .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن

في قوله : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ قال : اتقوا فيما حرم الله عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن هرم بن حيان أنه لما نزل به الموت قالوا له : أوص . قال : أوصيكم بآخر سورة النحل ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة . . . ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ قال : لا تعتدوا .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن محمد بن سيرين في قوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ قال : إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ منه مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(108/446)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ادع ﴾ : يجوز أن يكونَ مفعولُه مراداً ، أي : ادعُ الناسَ ، وأن لا يكونَ ، أي : افعلِ الدعاءَ . و " بالحكمة " حالٌ ، أي : ملتبساً بها .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ ﴾ : العامَّةُ على المُفاعلة ، وهي بمعنى فَعَل كسافَر ، وابنُ سيرين " عَقَّبْتم " بالتشديد بمعنى : قَفَّيْتُمْ فقَفُّوا بمثْلِ ما فُعِل بكم . وقيل : تتبَّعْتُم . والباءُ مُعَدِّيَةٌ ، وفي قراءةِ ابنِ سيرين : إمَّا للسببيةِ ، وإمَّا مزيدةٌ .

قوله : ﴿ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ يجوز أن يكونَ عامَّاً ، أي : الصبرُ خيرٌ لجنسِ الصابرين ، وأن يكونَ مِنْ وقوعِ الظاهر موقعَ المضمر ، أي : صَبْرُكم خيرٌ لكم .

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بالله ﴾ : أي بمعونتِه فهي للاستعانة .

قوله : ﴿ فِي ضَيْقٍ ﴾ ابن كثير هنا ، وفي النمل ؛ بكسر الصاد ، والباقون بالفتح . فقيل : لغتان بمعنىً في هذا المصدر ، كالقَوْل والقِيْل . وقيل : المفتوحُ مخفَّفٌ من " ضَيِّق " كمَيْت في " ميِّت " ، أي : في أمرٍ ضَيِّق . وردَّه الفارسيُّ : بأنَّ الصفةَ غيرُ خاصةٍ بالموصوف فلا يجوز ادِّعاءُ الحذفِ ، ولذلك جاز : " مررت بكاتبٍ " وامتنع " بآكلٍ " .

قوله : ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ متعلقٌ بـ " ضَيْق " . و " ما " مصدريةٌ أو بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 302 . 303 ﴾

(109/446)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

الدعاءُ إلى سبيل الله بحثّ الناسِ على طاعةِ الله ، وزجرهم عن مخالفة أمر الله . والدعاءُ بالحكمة ألا يخالفَ بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق .

والموعظة الحسنة ما يكون صادراً عن علمٍ وصوابٍ ، ولا يكون فيها تعنيف .

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ : بالحجة الأقوى ، والطريقة الأوضح . قال تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : 88] : فَشَرْطُ الأمرِ بالمعروف استعمالُ ما تأمر به ، والانتهاء عما تنهي عنه .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) ﴾

إذا جرى عليكم ظُلْمٌ من غيركم وأردتم الانتقامَ . . فلا تتجاوزُوا حَدَّ الإذنِ بما هو في حكم الشرع .

(110/446)

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ ﴾ : فتركتم الانتصافَ لأجْلِ مولاكم فهو خيرٌ لكم إنْ فعَلْتُمْ ذلك .

والأسبابُ التي قد يترك لأجلها المرءُ الانتصافَ مختلفة ؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر ، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن يتكفَّلَ اللَّهُ بخصومه ، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجري عليه ، ومنهم من يترك ذلك لِكَرَمِ نَفَسِه ، وتَحرُّرِه عن الأخطار ولاستحبابه العفوَ عند الظَّفَرِ ، ومنهم مَنْ لا يرى لنفسه حقاً ، ولا يعتقد أَنَّ لأحدٍ هذا الحق فهو على عقد إرادته بتَرْكِ نَفْسِه ؛ فمِلْكُه مُباحٌ ودَمُهُ هَدَر .

ومنهم من ينظر إلى خصمه – أي المتسلط عليه – على أنَّ فِعْلَه جزاءٌ على ما عمله هو من مخالفة أمر الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] فاشتغاله باستغفاره عن جُرْمِه يمنعه عن انتصافه من خصمه .

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) ﴾

" واصبر " تكليف ، " وما صبرك إلا بالله " : تعريف . " واصبر " تحققٌ بالعبودية ، " وما صبرك إلا بالله " إخبارٌ عن الربوبية .

" ولا تحزن عليهم . . " أي طالِعْ التقدير ، فما لا نجعل لهُ خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجبَ أثراً فيك ، فمَنْ أَسْقَطْنا قَدْرَه فاستَصْغِر أَمْرَه . وإذا عرفتَ انفرادَنا بالإيجادِ فلا يضيق

قلبُك بشدّة عداوتهم ، فإنّا ضَمِنَّا كِفايتَك ، وألا نُشْمِتَهم بك ، وألا نجعلَ لهم سبيلاً إليك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) ﴾

إن الله معهم بالنصرة ، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

" الذين اتقوا " رؤيَةَ النصْرةِ مِنْ غيره ، والذين هم أصحاب التبري من الحَوْلِ والقوة .

والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه ، وهذه حال المشاهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 329 . 330 ﴾

(111/446)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ ﴾

صار نصباً لنزع الخافض ، ومعناه : إن ربك من بعدها لغفور رحيم .

في ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ﴾ أي : تحضر .

ويقال : معناه واذكروا ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ يعني : كل إنسان يخاصم عن نفسه ، ويذبُّ عنها ، ويقول : نفسي نفسي ، وذلك حين زفرت جهنم زفرة ، فلا يبقى

ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلا جثا على ركبتيه.

ويقول: ربّ نفسي نفسي، أي: أريد نجاة نفسي.

﴿ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي: كل نفس برة أو فاجرة جزاء ما عملت في دار الدنيا من خير أو شر ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي: لا ينقصون من حسناتهم، ولا يزادون على سيئاتهم.

قوله: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ يقول: وصف الله شبهاً ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ ءامِنَةً ﴾ يعني: مكة من العدو ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ من العدو أي: ساكنة مقيمة أهلها بمكة ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ أي: يحمل إليها طعامها، ورزق أهلها ﴿ رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يعني: موسعاً من كل أرض، يحمل إليها الثمار وغيرها ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ أي: طغت وبطرت.

ويقال: كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوعِ ﴾ أي: عاقبهم الله تعالى سبع سنين.

ومعنى اللباس هنا: سوء الحال، واصفرار الوجوه، ﴿ والخوف ﴾ يعني: خوف العدو، وخوف سرايا النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي: عقوبة لهم وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال: " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ " فاستجاب الله دعاءه، فوقع القحط والجدوبة،

حتى اضطروا إلى أكل الميتة والكلاب.

قال القتبي: أصل الذوق بالفم.

(112/446)

ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختيار ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ ﴾ يعني: ابتلاهم الله بالجوع والخوف، وظهر عليهم من سوء آثارهم، وتغير الحال عليهم.

قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ أي: الجوع ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ أي: كافرون.

ثم إن أهل مكة بعثوا أبا سفيان بن حرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ما هذا البلاء، هبك عاديت الرجال فما بال الصبيان والنساء؟ فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحمل إليهم الطعام، فحمل إليهم الطعام، ولم يقطع عنهم وهم مشركون، فقال الله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ أي: من الحرث، والأنعام، ﴿ حلالا طَيِّباً ﴾ يعني: وهم خزاعة وثقيف ﴿ واشكروا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ يعني: إن كنتم تريدون بذلك رضاء الله وعبادته.

فإن رضاه أن تستحلوا ما أحلّ الله، وتحرّموا ما حرّم الله.

ثم بيّن المحرمات فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ أي : ذبح بغير اسم الله ﴿ فَمَنِ اضطر ﴾ أي : أجهد إليَّ بشيء مما حرّم الله عليه ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ﴾ في أكله أي : لا يأكل فوق حاجته .

ويقال : غير مفارق الجماعة ، ولا عاد عليهم ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ فيما أكل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حين رخص له في أكل الميتة عند الاضطرار .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ أي : لا تقولوا يا أهل مكة فيما أحللت لكم ﴿ هذا حلال ﴾ على الرجال ، ﴿ وهذا حَرَامٌ ﴾ على النساء .

ويقال : في الآية تنبيه للقضاة ، والمفتين ، كي لا يقولوا قولاً بغير حجة وبيان .

(113/446)

ثم قال : ﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ أي : بتحريم البحيرة والسائبة ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ أي : لا يفوزون ، ولا ينجون من العذاب ﴿ متاع قَلِيلٌ ﴾ أي : عيشهم في الدنيا قليل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ ﴾ يقول : مالوا عن الإسلام ، وهم اليهود ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : في القرآن من قبل هذه السورة في سورة الأنعام ﴿ وَمَا

ظلمناهم ﴾ بتحريم ما حرّمنا عليهم ﴿ ولكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بكفرهم ، فحرَّمنا عليهم الأشياء عقوبة لهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السوء بجهالة ﴾ أي : عملوا المعصية بجهالة .

وروي عن ابن عباس أنه قال : كل سوء يعمله العبد فهو فيه جاهل ، وإن كان يعلم أن ركوبه سيئة .

﴿ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ أي : العمل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي : من بعد السيئة ويقال : من بعد التوبة ﴿ لغَفُورٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم .

قوله : ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ ﴾ أي : إماماً يقتدى به ﴿ قانتا ﴾ أي : مطيعاً لربه .

وروى عامر عن مسروق أنه قال : ذكر عند عبد الله بن مسعود معاذ بن جبل فقال عبد الله بن مسعود : كان معاذ بن جبل أمة قانتاً .

فقال رجل : وما الأُمة ؟ قال الذي يعلِّم الناس الخير ، والقانت الذي يطيع الله ورسوله .

وقال القتبي : إنَّما سماه أمةً ، لأنه كان سبب الاجتماع .

قال : وقد يجوز أنه سماه أمة لأنه اجتمع عنده خصال الخير .

ويقال : إنّما سماه أمةً ، لأنه آمن وحده حين لم يكن مؤمن غيره .

وهذا كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يَجِيءُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ يَوْمَ القِيَامَةِ وَحْدَهُ" .

(114/446)

وقد كان أسلم قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم حين لَم يكن بمكة مؤمن غيره ، وتابعه ورقة بن نوفل ، وعاش ورقة بن نوفل إلى وقت خروج النبي صلى الله عليه وسلم حتى أنزل عليه الوحي .

ثم قال : ﴿ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ أي : مستقيماً مائلاً عن الأديان كلها ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ أي : مع المشركين على دينهم .

وأصله ولم يكن فحذفت النون لكثرة استعمال هذا الحرف .

قوله : ﴿ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ ﴾ أي : ما أنعم الله عليه ﴿ اجتباه ﴾ أي : اصطفاه ، واختاره للنبوة ، ﴿ وَهَدَاهُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : إلى دين قائم وهو الإسلام ﴿ وءاتيناه فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ يقول : أكرمناه بالثناء الحسن .

ويقال : بالنبوة .

ويقال : بالولد الطيب ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ يعني : مع الأنبياء في الجنة .

قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : بعد هذه الكرامة التي أعطيناها إياك ، أمرناك ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ أي : دين إبراهيم .

يعني : استقم عليه ﴿ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ على دينهم .

قوله : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ يقول : إنما أمروا في السبت بالقعود عن العمل ﴿ على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ يعني : في يوم الجمعة ، وذلك أن موسى عليه السلام أمرهم أن يتفرغوا لله تعالى في كل سبعة أيام يوماً واحداً ، فيعبدوه ، ولا يعملوا فيه شيئاً من أمر الدنيا ، وستة أيام لصناعتهم ، ومعايشهم ، ويتفرغوا في يوم الجمعة .

فأبوا أن يقبلوا ذلك اليوم ، وقالوا : إنّما نختار السبت ، اليوم الذي فرغ الله فيه من أمر الخلق .

فجعل ذلك عليهم ، وشدد عليهم ، ثم جاءهم عيسى بالجمعة ، فاختاروا يوم الأحد .

وقال مجاهد : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ أي : في السبت اتّبعوه . وتركوا الجمعة .

وروى همام عن أبي هريرة أنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيامَةِ وأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ " يعني : يوم الجمعة .

فهذا يومهم الذي فرض عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فهم لنا فيه تبع ، واليهود غداً ، والنصارى بعد غد .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : يقضي بينهم ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين ، فبيّن لهم الحق معاينة .

ثم قال : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ أي : إلى دين ربك ، وإلى طاعة ربك ﴿ بالحكمة ﴾ يعني : بالنبوة والقرآن ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ يعني : عظهم بالقرآن ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي : حاجهم ، وناظرهم بالحجة والبيان .

ويقال : باللين .

وفي الآية دليل أن المناظرة ، والمجادلة ، في العلم جائزة ، إذا قصد بها إظهار الحق .

وهذا مثل قوله : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وقولوا ءَامَنَّا بالذى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 46] وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغيب وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل ربى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ

فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 22] ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي : عن دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ لدينه .

(116/446)

قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ قال ابن عباس : وذلك حين قتل المشركون حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، ومثلوا به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لَئِنْ أَمْكَنَنَا اللَّهُ لَنُمَثِّلَنَّ بِالْأَحْيَاءِ فَضْلًا عَنِ الْأَمْوَاتِ" . فنزل ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ الآية .

وقال محمد بن كعب القرظي : لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بالحال التي هو بها حين مثل به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

"لَئِنْ ظَفِرْتُ بِقُرَيْشٍ لَأُمَثِّلَنَّ بِثَلَاثِينَ مِنْهُمْ" .

فلما رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما به من الوجع .

قالوا : لئن ظفرنا بهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب أحد .

فنزل ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا ﴾ ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ ﴾ فلم تعاقبوا ، ولم تمثلوا ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ من المثلة أي : ثواب الصبر خير من المكافأة .

ثم صارت الآية عامة في وجوب القصاص ، أنه لا يجوز إلا مثلاً بمثل ، والعفو أفضل .

قال : ﴿ واصبر ﴾ يعني : أثبت على الصبر ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ يعني : ألهمك ووفقك للصبر ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على كفار قريش إن لم يسلموا ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ قرأ ابن كثير ﴿ فِى ضَيْقٍ ﴾ بكسر الضاد .

وقرأ الباقون : بالنصب .

ومعناهما واحد .

أي : لا يضيق صدرك مما يقولون لك ، ويصنعون بك .

وقال مقاتل : نزلت الآية في المستهزئين .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾ أي : معين للذين اتقوا الشرك ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ في العمل .

ويقال : معين الذين اتقوا مكافأة المسيء ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ إلى من أساء إليهم .

والله أعلم بالصواب .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 294 . 298 ﴾

(117/446)

وقال الثعلبي :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾

تخاصم وتحتج عن نفسها بما أسلفت من خير وشر [مشتغلاً بها لا تتفرّغ] إلى غيرها والنفس تذكر وتؤنث ﴿ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ .

روى أبو صالح المري عن جعفر بن زيد قال : قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لكعب الأحبار : يا كعب خوّفنا وحدّثنا حديثاً [تنبهنا به] قال : يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو [وافيت] القيامة بمثل عمل سبعين نقيباً ، لأُتيت عليك ظلمات وأنت لا تهمل إلاّ نفسك وأن لجهنم زفرة ما يبقى ملك مقرّب ولا نبي مبعث إلا وقع جاثياً على [ركبتيه] حتّى إن إبراهيم ليدلي [بالخلة] فيقول : يا رب أنا خليلك إبراهيم لا أسالك إلا نفسي وأن تصديق ذلك الذي أنزل عليكم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ .

وروى عكرمة عن ابن عبّاس في هذه الآية قال : ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة ، حتّى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح : يا رب الروح منك وأنت خلقته لم تكن لي يد

أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها ، ويقول الجسد إنما خلقتني كالخشب ليس لي يد ابطش بها ولا عين أبصر بها ولا رجل أمشي بها ، فجاء هذا كشعاع النور فيه نطق لساني وبه أبصرت عيني وبه مشت رجلي فجدد عليه العذاب . قال : فيضرب الله لهما مثال أعمى ومقعداً دخلاً حائطاً فيه ثمار ، فالأعمى لايبصر الثمر والمقعد لاينالها ، فنادى المقعد الأعمى : أتيني هاهنا حتّى تحملني ، قال : فدنا منه فحمله فأصابوا من الثمر فعلى من يكون العذاب ، قالا : عليهما قال : عليكما جميعاً الغذاب ، ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ يعني مكة ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ لايهاج أهلها ولايغار أهلها ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ قارة بأهلها [لايحتاجون] إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليها سائر العرب ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يحمل إليها من البر والبحر ، نظيره قوله ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص : 57] ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ جمع النعمة وقيل : جمع نعم ، وقيل : جمع نعماء مثل بأساء وأبوس ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع ﴾ إبتلاهم الله بالجوع سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرّقة والجيفة والكلاب الميتة [والعلهز] وهو الوبر يعالج بالدم ، ثم إن رؤوساء مكة تكلموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان ؟ فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل الطعام اليهم وهم بعد مشركون

﴿ والخوف ﴾ يعني بعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه التي كانت تطيف بهم .

(119/446)

وروى الخفاف والعباس عن أبي عمرو : (والخوف) بالنصب بإيقاع أذاقها عليه ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

روى مشرح بن فاعان عن سليمان بن عمر بن عثمان قال : صدرنا من الحج مع حفصة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان محصور بالمدينة ، كانت تسأل عنه حين رأت راكبين ، فأرسلت اليهما تسألهما فقالا : قتل . فقالت حفصة : والذي نفسي بيده إنها يعني المدينة القرية التي قال الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ الآية . ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ بفتح التاء والكاف بمعنى ولا تقولوا الكذب الذي تصف ألسنتكم وتكون (ما) للمصدر .

وقرأ ابن عبّاس : (الكذب) برفع الكاف والذال والباء على نعت الألسنة ﴿ هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ يعني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾

ويقولون: إن الله حرّم هذا وأمرنا بها ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ لا ينجون من عذاب الله ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ يعني الذي هم فيه من الدنيا متاع قليل أو لهم متاع قليل في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة ﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ يعني في سورة الأنعام وهو قوله ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ [الأنعام: 146] الآية.

(120/446)

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فجزيناهم ببغيهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء بِجَهَالَةٍ ﴾ الآية قيل الهاء في قوله بعدها راجع إلى الجهالة، وقيل: إلى المعصية لأن السوء بمعنى المعصية، فردّ الكناية إلى المعنى، وقيل: إلى الفعلة ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أي معلماً للخير يأتم بأهل الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة والأخلاق الجميلة ما يجتمع في أمة.

روى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ﴾ فقلت: إنما قال الله: (إن إبراهيم كان أُمة قانتا). فقال: أتدري ما الأُمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، قال: الأُمة الذي يعلّم الخير والقانت المطيع لله. وكذلك

كان معاذ بن جبل فكان يعلّم الخير وكان مطيعاً لله ولرسوله .

وقال مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كفار كلهم ، وقال قتادة : ليس من أهل دين إلا

يقولونه ويرضونه .

شهر بن حوشب قال : لم يبق الأرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض

ويخرج بركتها ، إلاّ زمن إبراهيم فإنه كان وحده ﴿ قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً ﴾ مسلماً مستقيماً

على دين الاسلام ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجتباه وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ

مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ يعني الرسالة والحكمة والثناء الحسن .

وقال مقاتل بن حيان : يعني الصلوات في قول هذه الأُمة : اللهم صل على محمّد وعلى آل

محمّد كما صليت على إبراهيم ، [وقيل] أولاداً أبراراً على الكبر . وقيل : القبول العام في

جميع الأُمم ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين * ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ حاجاً مسلماً ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ .

ابن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " جاء جبرئيل (عليه السلام) إلى إبراهيم (عليه السلام) فراح به إلى منى فصلى به الصلوات

جميعاً الظهر ، والعصر ، والمغرب والعشاء ، والفجر ثمّ غدا به إلى عرفات فصلى به الصلاتين جميعاً الظهر والعصر ، ثمّ راح فوقف به حتّى إذا غربت الشمس أفاض به إلى جمع فصلى به الصلاتين المغرب والعشاء ، ثمّ بات به حتّى إذا كان كما عجل ما يصلي أحد من المسلمين صلى به [الفجر] ، ثمّ وقف حتّى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين أفاض به إلى منى فرمى الجمرة وذبح وحلق ، ثمّ أفاض به إلى البيت فطاف به " فأوحى الله تعالى إلى محمّد ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ " .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا ﴾ يقول : ما فرض الله تعالى بتعظيم السبت وتحريمه إلاّ على الذين اختلفوا فيه .

فقال بعضهم : هو أعظم الأيام ، لأن الله فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة ثمّ سبت يوم السبت .

وقال آخرون : بل أعظم الله يوم الأحد لانه اليوم الذي ابتدأ الله فيه خلق الأشياء واختاروا تعظيم غير ما فرض الله عليهم تعظيمه ، وتركوا تعظيم يوم الجمعة الذي فرض عليهم تعظيمه واستحلوه .

قال الكلبي : أمرهم موسى بالجمعة فقال : تفرغوا لله عزّ وجلّ في كل سبعة أيام يوماً واحداً فأعبدوه في يوم الجمعة ولا تعملوا فيه لصناعتكم ، وستة أيام لصناعتكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد إلاّ اليوم الذي فرض الله من الخلق يوم السبت ، فجعل ذلك عليهم وشدد

عليهم فيه .

ثمّ جاءهم عيسى بن مريم بالجمعة فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، يعنون اليهود واتخذوا [يوم] الأحد فقال الله ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ .

قال قتادة : الذين اختلفوا فيه يعني اليهود واستحله بعضهم وحرمه بعضهم .

(122/446)

روى همام بن منبه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد " .

روى المسيب عن أبي سنان عن مكحول الشامي قال : "كان لعمر بن الخطاب على يهودي حق فلقيه عمر فقال : والذي أصطفى أبا القاسم على البشر لا تعمل لي وأنا أطلبك [بشيء] .

فقال اليهودي : ما اصطفى الله أبا القاسم على البشر ، فرفع عمر عليه السلام يده فلطم عينه ، فقال اليهودي : بيني وبينك أبو القاسم ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال

اليهودي : إن عمر زَعم إن الله إصطفاك على البشر وإني زعمت أن الله لم يصطفك على البشر ، فرفع يده فلطمني ، فقال صلى الله عليه وسلم " أما أنت يا عمر فأرضه مِنْ لطمته ، بلى يا يهودي ، آدم صفي الله ، وإبراهيم خليل الله ، وموسى نجي الله ، وعيسى روح الله ، وأنا حبيب الله ، بلى يا يهودي إسمان من أسماء الله تعالى سمّى بهما أمتي ، سمّى نفسه السلام وسمّى أمتي المسلمين ، وسمّى نفسه المؤمن وسمّى أمتي المؤمنين ، بلى يا يهودي طلبتم يوماً وذخر لنا يعني يوم الجمعة فاليوم لنا عيد وغداً لكم وبعد غد للنصارى ، بلى يا يهودي أنتم الأولون ونحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بلى يا يهودي إن الجنة محرّمة على الانبياء حتّى أدخلها أنا وإنها لمحرمة على الأمم حتّى يدخلها أمتي " .

﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ دين ربك ﴿ بالحكمة ﴾ بالقرآن ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ يعني مواعظ القرآن ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن .

(123/446)

قال المفسرون : أعرض عن أذاهم ولا تقصّر في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق ، ونسختها آية القتال ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ .

قال أكثر المفسرين : سورة النحل مكية كلها إلاّ ثلاث آيات ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ إلى آخرها ، فإنها نزلت بالمدينة في شهداء أحد ، وذلك " أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلهم يوم أحد في تبقير البطون وقطع المذاكير والمثلة السيئة ، حتّى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا وقد مُثّل به غير حنظلة الراهب فإن أباه أبو عامر الراهب كان مع أبي سفيان ، فتركوا حنظلة لذلك ، فقال المسلمون حين رأوا ذلك : لئن أظهرنا الله عليهم لتزيدنّ على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ولنفعلنّ ولنفعلنّ ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمّه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وإذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه ، وأخذت هند بن عتبة قطعة من كبده فمصصته ثمّ استرطتها لتأكلها ، فلم تلبث في بطنها حتّى رمت بها ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " أما إنها لو أكلته لم تدخل النار أبداً ، حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئاً من جسده النار " فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه حمزة نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه فقال صلى الله عليه وسلم " رحمة الله عليك فإنك ما علمتك ما كنت إلا فعالاً للخيرات وصولاً للرحم ، ولولا حزن من بعدك عليك لسرّني أن أُدعك حتّى تحشر من أفواه شتى ، أم والله لئن أظفرني الله عليهم لأُمثلن بسبعين منهم مكانك " .

فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ الآية فقال صلى الله عليه وسلم " بل نصبر " فأمسك عمّا أراد وكفّر يمينه " .

(124/446)

وقال ابن عبّاس والضحاك : وكان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ، فلمّا أعز الله الاسلام وأهله ونزلت براءة وأُمروا بالجهاد ، نسخت هذه الآية .

وقال قوم : بل هذه الآية محكمة وإنما نزلت فيمن ظلم بظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالم أكثر مما نال الظالم منه أمر بالجزاء أو العفو ونهى عن الاعتداء . وهذا قول النخعي والثوري ومجاهد وابن سيرين ، ثمّ قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ أي بمعونة الله وتوفيقه ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ في إعراضهم عنك ﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ .

قرأها بكسر الضاد هاهنا وفي سورة النحل ابن كثير والباقون : بالفتح وإختاره أبو عبيد ، وقال : لأن الضيق في قلة المعاش وفي المساكن ، فأما ما كان في القلب والصدر فإنه ضيق .

وقال أبو عمرو وأهل البصرة : الضيّق بفتح الضاد ، الغم والضِيق بالكسر [الشدّة] .

وقال الفراء وأهل الكوفة : هما لغتان معروفتان في كلام العرب مثل رَطل ورِطل .

وقال ابن قتيبة : الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهيّن ولين وليّن ، وعلى هذا التأويل صفته كأنه قال : ولا تكن في أمر ضيق .

﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ بالعون والنصرة .

روى شعبة عن أبي يونس عن أبي قزعة عن هرم بن حيان وقالوا له : أوصنا .

قال : أوصيكم بالآيات الأواخر من سورة النحل ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة ﴾ إلى آخر السورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 47.53 ﴾

(125/446)

وقال الزمخشري :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) ﴾

منصوب برحيم . أو بإضمار اذكر . فإن قلت : ما معنى النفس المضافة إلى النفس ؟ قلت : يقال لعين الشيء وذاته نفسه ، وفي نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هي ، فالنفس الأولى

هي الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره ، كل يقول :

نفسي نفسي . ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها كقوله هؤُلاءِ أَضَلُّونا ، ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ونحو ذلك .

[سورة النحل (16) : الآيات 112 إلى 113]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (113)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً أى جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم اللّه عليهم فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأنزل اللّه بهم نقمته . فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها ، فضربها اللّه مثلا لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها مُطْمَئِنَّةً لا يزعجها خوف ، لأن الطمأنينة مع الأمن ، والانزعاج والقلق مع الخوف رَغَداً واسعاً . والأنعم : جمع نعمة ، على ترك الاعتداد بالتاء ، كدرع وأدرع .

أو جمع نعم ، كبؤس وأبؤس . وفي الحديث . نادى منادى النبي صلى اللّه عليه وسلم بالموسم بمنى :

«إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا «1»» . فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان ، فما

وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه «2» ؟ قلت :

---

(1) . لم أجده هكذا .

(2) . قال محمود : «إن قلت الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحة إيقاع الاذاقة على اللباس . . . الخ» ؟

قال أحمد : وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر ، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى ، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها ، ثم جاء ملاحظا الشراء المستعار قوله فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ فاستعمل التجارة والربح ليناسب ذلك لاستعارة الشراء ، ثم جاء ملاحظا الحقيقة الأصلية المستعار لها قوله وَما كانُوا مُهْتَدِينَ فانه مجرد عن الاستعارة ، إذ لو قيل أولئك الذين ضلوا وما كانوا مهتدين ، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة والنظر إلى المستعار في بابه ، كترشيح المجاز في بابه . ومنه :

إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التؤام

فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً ثم نافقاً ، ثم جعله مستخرجا بالحبل المحكم المثنى كما يستخرج الحيوان من جحره ، والشوط في هذا الفن البديع فطين ، والله الموفق .

أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب : شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع «1» . وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس : ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث . وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف ، ولهم في نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما ، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما ، أحدهما :

أن ينظروا فيه إلى المستعار له ، كما نظر إليه هاهنا . ونحوه قول كثير :

غَمْرُ الرِّدَاءِ إذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ «2»

استعارة الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه . ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف «3» والنوال ، لا صفة الرداء ، نظر إلى المستعار له .

والثاني :

أن ينظروا فيه إلى المستعار ، كقوله :

يُنَازِعُنِى رِدَائِى عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْرِ

لِىَ الشّطْرُ الَّذِى مَلَكَتْ يَمِينِى وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ «4»

---

(1) . قوله «بما يدرك من الطعم المر والبشع» عبارة غيره: طعم المر والبشع، ولعله المر البشع بدون واو. (ع)

(2) . لكثير. والغمر: الكثير. وشبه العطاء بالرداء، لأنه يصون عرض صاحبه أو يستر فقر السائل، فاستعاره له على سبيل التصريحية وإضافة الغمر إليه تجريد، لأنه يلائم المشبه. هذا وقد يقال الغمر، يطلق على الماء الذي يغمر قامة المنغمس فيه، فيجوز أنه يشبه العطاء من حيث صونه عرض صاحبه بالرداء، فيكون استعارة مصرحة، وتكون إضافة الغمر إليه من إضافة المشبه به للمشبه، بجامع عموم كل ونفعه، والقرينة على كل ذلك قوله: إذا تبسم. شارعا في الضحك: غلقت لضحكته رقاب المال: يقال: غلق الرجل إذا ضجر وغضب، وغلق الرهن إذا ملكه المرتهن ولم يقدر صاحبه على فكه، وكانت تلك عادتهم. فالمعنى: إذا ضحك غضبت الأموال لعلها أنها ستؤخذ ويملكها غيره، أو ثبتت في أيدى السائلين وملكوها. ورقاب المال: مجاز مرسل، أى أعيانه.

(3) . قوله «و وصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف» في الصحاح الغمر الماء الكثير. وفيه «الاعتجار» لف العمامة على الرأس، وفيه «الضافي» السابغ. (ع)

(4) . استعار المنازعة لتسببه في امتداد السيف إليه حتى توسط بينهما، كالشىء

يتجاذبه اثنان. واستعار الرداء السيف بجامع حفظ كل لصاحبه وعدم الاستغناء عنه. والاعتجار ترشيح، ومعناه: التعمم أو التلفع، فهو ملائم الرداء. ويحتمل أن التركيب كله من باب التمثيل. وعبد عمرو: فاعل. ورويدك: اسم فعل، بمعنى أمهل، والكاف حرف خطاب، قاله الجوهري. وبالنظر لأصله فهو مصدر، والكاف مضاف إليه، وفيه التفات. وبكر:

أبو قبيلة. والشطر الذي ملكته يمينه: هو مقبض السيف. ودونك: اسم فعل بمعنى خذ» أي خذه فتلفع منه بالشطر الآخر وهو صدره، والأمر للاباحة، وفيه نوع تهكم»

(127/446)

أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل: فكساهم لباس الجوع والخوف، ولقال كثير: ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكا وَهُمْ ظَالِمُونَ في حال التباسهم بالظلم، كقوله الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة. وقرئ وَالْخَوْفِ عطفاً على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. أصله: ولباس الخوف. وقرئ: لباس الخوف والجوع.

[سورة النحل (16) : الآيات 114 إلى 115]

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115)

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها، وصل بذلك بالفاء في قوله فَكُلُوا صدّهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم اللّه من الحلال الطيب، وشكر إنعامه بذلك، وقال إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ يعنى تطيعون. أو إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون اللّه بعبادة الآلهة، لأنها شفعاؤكم عنده. ثم عدد عليهم محرمات اللّه، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم، دون اتباع ما شرع اللّه على لسان أنبيائه.

[سورة النحل (16) : الآيات 116 إلى 117]

وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (116) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (117)

وانتصاب الْكَذِبَ بلا تقولوا، على: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من اللّه أو إلى قياس مستند إليه. واللام مثلها في قولك:

ولا تقولوا لما أحل اللّه هو حرام. وقوله هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ بدل من الكذب.

ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول، أى: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم،

(128/446)

فتقول هذا حلال وهذا حرام. ولك أن تنصب الكذب بتصف، وتجعل «ما» مصدرية، وتعلق هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ بلا تقولوا، على: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب، أى: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم، لا لأجل حجة وبينة، ولكن قول ساذج ودعوى فارغة. فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصوّرته بصورته، كقولهم: ووجهها يصف الجمال. وعينها تصف السحر، وقرئ «الكذب» بالجرّ صفة لما المصدرية، كأنه قيل: لوصفها الكذب، بمعنى الكاذب، كقوله تعالى بِدَمٍ كَذِبٍ والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة. وقرئ «الكذب» جمع كذوب بالرفع، صفة للألسنة، وبالنصب على الشتم. أو بمعنى: الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذابا، ذكره ابن جنى.

واللام في لِتَفْتَرُوا من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض مَتاعٌ قَلِيلٌ خبر مبتدأ محذوف، أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم.

[سورة النحل (16) : آية 118]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118)

ما قَصَصْنا عَلَيْكَ يعنى في سورة الأنعام.

[سورة النحل (16) : آية 119]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)

بِجَهالَةٍ في موضع الحال، أى: عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم مِنْ بَعْدِها من بعد التوبة.

[سورة النحل (16) : الآيات 120 إلى 122]

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122)

كانَ أُمَّةً فيه وجهان، أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأمم «1» لكماله في جميع صفات

---

(1) . قال محمود : «في قوله أمة وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم . . .

الخ» قال أحمد : ويقوى هذا الثاني قوله تعالى ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً أى كان أمة تؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات ، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سيرته ، والله أعلم .

(129/446)

الخير ، كقوله :

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدِ «1»

وعن مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار . والثاني : أن يكون أمّة بمعنى مأموم ، أى : يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير ، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة «2» والنخبة ، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول ، فيكون مثل قوله قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعى عن ابن مسعود أنه قال : إنّ معاذاً كان أمّة قانتاً لله ، فقلت : غلطت ، إنما هو إبراهيم . فقال : الأمّة : الذي يعلم الخير . والقانت المطيع لله ورسوله «3» ، وكان معاذ كذلك . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال – حين قيل له : ألا تستخلف ؟ – : لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته ، ولو كان معاذ حيا لاستخلفته . ولو

كان سالم حيا لاستخلفته فإني سمعت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول : «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة ، ومعاذ أمّة قانت للّه ، ليس بينه وبين اللّه يوم القيامة إلا المرسلون ، وسالم شديد الحب للّه ، لو كان لا يخاف اللّه لم يعصه «4» . وهو ذلك المعنى ، أي : كان إماما في الدين ، لأنّ الأئمة معلمو الخير .

---

(1) قولا لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواحد

ليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لأبي نواس يعطف هرون الرشيد على الفضل البرمكي حين توعده بالقتل ، غيرة منه لما سمع من نهايته في الكرم ، وخاطب الاثنين تأسيا بعادة العرب ، والاحتفال : الاجتماع . والحاشد الجامع ، وعلى بمعنى مع ، أي : أنت مع كونك في غاية الاقتدار لست واجداً مثل الفضل في العالم كله ، ودخلت الفاء في خبر المبتدأ لما فيه خبره من رائحة الشرط ، أي : وإن كنت قادراً ، ودخلت الباء في خبر ليس لتوكيد النفي ، واستدل على ذلك بقوله : ليس مستنكراً على اللّه جمعه خصال العالم كلها في رجل واحد كالفضل ، هذا ما يتبادر منه ظاهر النظم ، لكنه خلاف مقتضى مقام الاستعطاف ، فالمعنى ولا يكن منك غيرة من الفضل ، فان كرمه بعض صفاتك ، فان اللّه قادر على جمع صفات العالم كلها فيك ، وقد فعل . ويروى : من اللّه بدل على اللّه . ويروى : بمستبدع ، بدل بمستنكر .

(2) . قوله «كالرحلة» في الصحاح «الرحلة» بالضم : الوجه الذي تريده ، وبالكسر : الارتحال . (ع)

(3) . أخرجه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية . من رواية علية عن منصور عن عبد الرحمن عن الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعى قال قال ابن مسعود . فذكره . لكن ليس فيه : فقلت له «غلطت» بل فيه فقيل له : إن ابراهيم . وفيه «وكان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير . وكان مطيعا للّه ورسوله» ورواه الحاكم أيضاً من رواية شعبة عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن عبد اللّه قال «إن معاذا كان أمة قانتا للّه» فقال رجل من أشجع يقال له : فروة ابن نوفل : إنما ذاك ابراهيم . فقال عبد اللّه : إنا كنا نشبهه بإبراهيم – الحديث» وأخرجه عبد الرزاق . ومن طريق الحاكم قال أخبرنا الثوري عن فراس نحوه .

(4) . لم أجده

(130/446)

والقانت : القائم بما أمره اللّه . والحنيف : المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه . ونفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم شاكِراً لِأَنْعُمِهِ روى أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف ، فلم يجد ذات يوم ضيفاً ، فأخر غداءه ، فإذا هو بفوج من

الملائكة في صورة البشر ، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذاماً ؟ فقال : الآن وجبت مواكلتكم شكراً للّه على أنه عافاني وابتلاكم اجْتَباهُ اختصه واصطفاه للنبوّة وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى ملة الإسلام حَسَنَةً عن قتادة : هي تنويه اللّه بذكره ، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه . وقيل : الأموال والأولاد ، وقيل : قول المصلى منا : كما صليت على إبراهيم لَمِنَ الصَّالِحِينَ لمن أهل الجنة .

[سورة النحل (16) : آية 123]

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ في «ثم» هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول اللّه»

صلى اللّه عليه وسلم ، وإجلال محله ، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتى خليل اللّه إبراهيم من الكرامة ، وأجلّ ما أولى من النعمة : اتباع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى اللّه عليه بها .

[سورة النحل (16) : آية 124]

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)

السَّبْتُ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها . والمعنى : إنما جعل وبال السبت وهو المسخ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة ،

وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما حتم اللّه عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه.

والمعنى في ذكر ذلك، نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم اللّه مثلا، وغير ما ذكر، وهو الإنذار من سخط اللّه على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته. فإن قلت:

ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرّمين؟ قلت: معناه أنه يجازيهم جزاء اختلاف

---

(1). عاد كلامه. قال محمود: «وفي ثم هذه ما فيها من تعظيم منزلة محمد صلى اللّه عليه وسلم... الخ» قال أحمد:

وإنما تفيد ذلك ثم لأنها في أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى: وها هنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة، وهو أن النبي الأمى الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلو أمره بذلك في القرآن العظيم. ففي ذلك تعظيم لهما جميعا، لكن نصيب النبي صلى اللّه عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر على ما مهدناه، واللّه الموفق للصواب.

فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى ووجه آخر : وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا : نريد اليوم الذي فرغ اللّه فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت ، إلا شر ذمة منهم قد رضوا بالجمعة ، فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة ، فأذن اللّه لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، فأطاع أمر اللّه الراضون بالجمعة ، فكانوا لا يصيدون فيه ، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم اللّه دون أولئك ، وهو يحكم بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيجازى كل واحد من الفريقين بما يستوجبه . ومعنى جعل السبت : فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه . وقرئ : إنما جعل السبت ، على البناء للفاعل . وقرأ عبد اللّه : إنا أنزلنا السبت .

[سورة النحل (16) : آية 125]

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ إلى الإسلام بِالْحِكْمَةِ بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهي الدليل الموضح

للحق المزيل للشبهة وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها. ويجوز أن يريد القرآن، أى: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

[سورة النحل (16): الآيات 126 إلى 128]

وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

سمى الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة. والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ: وإن عقبتم فعقبوا، أى: وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم.

روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على حمزة وقد مثل به، وروى:

فرآه مبقور البطن فقال : «أما والذي أحلف به ، لئن أظفرنى اللّه بهم لأمثلن بسبعين مكانك «1»» فنزلت ، فكفر عن يمينه وكفّ عما أراده ، ولا خلاف في تحريم المثلة . وقد وردت الأخبار بالنهى عنها «2» حتى بالكلب العقور . إما أن رجع الضمير في لَهُوَ إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم . ويراد بالصابرين : المخاطبون ، أى : ولئن صبرتم لصبركم خير لكم ، فوضع الصابرون موضع الضمير ثناء من اللّه عليهم بأنهم صابرون على الشدائد . أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة . وإما أن يرجع إلى جنس الصبر - وقد دل عليه صبرتم - ويراد بالصابرين جنسهم ، كأنه قيل : وللصبر خير للصابرين . ونحوه قوله تعالى فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ثم قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَاصْبِرْ أنت فعزم عليه بالصبر وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ أى بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أى على الكافرين ، كقوله فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ وقرئ : ولا تكن في ضيق ، أى : ولا يضيقن صدرك من مكرهم . والضيق : تخفيف الضيق ، أى في أمر ضيق . ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين ، كالقيل والقول إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى هو ولىّ الذين

اجتنبوا المعاصي وَولى الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ في أعمالهم . وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر : أوص .

فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي ، وأوصيكم بخواتم سورة النحل .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه اللّه بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلته ، كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية» «3» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 638 . 645﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي بغير سند . وقصة حمزة أخرجها البزار والطبراني من رواية سليمان التيمي عن ابن عثمان عن أبى هريرة «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نظر يوم أحد إلى حمزة وقد قتل ومثل به . فرأى منظراً لم يرقط أوجع لقلبه منه . وذكر باقى الحديث أتم مما ذكره هنا ورواية صالح فهو عن سليمان . وصالح ضعيف . وله طريق أخرى أخرجها الدارقطني من رواية إسماعيل بن عباس قال «لما انصرف المشركون عن قتلى أحد فرأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعمه حمزة منظراً أساءه ، وقد شق بطنه واصطلم أنفه – فذكر القصة «وفيها : لأمثلن مكانه بسبعين رجلا . وذكر الصلاة عليه وعلى القتلى . قال : فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الآية فصبر ولم يمثل بأحد» قال الدارقطني : تفرد به إسماعيل وهو ضعيف عن غير الشاميين ، قلت : وأما أول الكلام فذكره . [. . . . .]

(2) . قلت روى ذلك عن جماعة من الصحابة .

(3) . رواه الثعلبي وابن مردويه . وقد تقدم سنده في آل عمران .

(133/446)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يوم تأتي ﴾

قال الزجاج : هو منصوب على أحد شيئين ، إِما على معنى : إِن ربك لغفور يوم تأتي ، وإِما على معنى : اذكر يوم تأتي .

ومعنى ﴿ تجادل عن نفسها ﴾ أي : عنها .

والمراد : أن كل إِنسان يجادل عن نفسه .

وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب خوِّفنا ، فقال إِن لجهنم زفرةً ما يبقى ملَك مقرَّب ولا نبيّ مرسل إِلاَّ وقع جاثياً على ركبتيه ، حتى إِن إِبراهيم خليل الرحمن ليدلي بالخلة فيقول : "يا رب أنا خليلك إِبراهيم ، لا أسألك إِلاَّ نفسي" ، وإِن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ .

وقد شرحنا معنى "الجدال" في [هود : 32] .

قوله تعالى: ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة ﴾ في هذه القرية قولان:

أحدهما: أنها مكة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والجمهور، وهو الصحيح.

والثاني: أنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون، قاله الحسن.

فأما ما يروى عن حفصة أنها قالت: هي المدينة، فذلك على سبيل التمثيل، لا على وجه التفسير، وبيانه: ما روى سليم بن عنز، قال: صدرنا من الحج مع حفصة، وعثمان محصور بالمدينة، فرأت راكبَين فسألْتهما عنه، فقالا: قُتِل، فقالت: والذي نفسي بيده إِنها لْلقرية، تعني المدينة التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ﴾، تعني حفصة: أنها كانت على قانون الاستقامة في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ عند قتل عثمان رضي الله عنه.

ومعنى ﴿ كانت آمنة ﴾ أي: ذات أمْنٍ يأمن فيها أهلها أن يُغَارَ عليهم، ﴿ مطمئنة ﴾ أي: ساكنة بأهلها لا يحتاجون إِلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق.

وقد شرحنا معنى الرغد في [البقرة: 35، 58].

وقوله : ﴿ من كل مكان ﴾ أي : يجلَب إليها من كل بلد ، وذلك كلُّه بدعوة إبراهيم عليه السلام ، ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ بتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي واحد الأنعم قولان :

أحدهما : أن واحدها "نُعْمٌ" قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : "نِعْمة" قاله الزجاج.

قال ابن قتيبة : ليس قول من قال : هو جمع "نعمة" بشيء ، لأن "فِعْلَة" لا تجمع على "أفْعُلٍ" ، وإنما هو جمع "نُعْمٍ" يقال : يوم نُعْمٌ ، ويوم بُؤْسٌ ، ويجمع "أَنْعُماً" ، و"أَبْؤُساً" .

قوله تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ وروى عبيد بن عقيل ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : "والخوفَ" بنصب الفاء .

وأصل الذَّوق إنما هو بالفم ، وهذا استعارة منه ، وقد شرحنا هذا المعنى في [آل عمران : 106 ، 185] .

وإنما ذكر اللباس هاهنا تجوُّزاً ، لما يظهر عليهم من أثر الجوع والخوف ، فهو كقوله : ﴿ ولباس التقوى ﴾ [الأعراف 26] وذلك لما يظهر على المتَّقي من أثر التقوى .

قال المفسرون : عذَّبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحترقة .

فأما الخوف ، فهو خوفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سراياه التي كان يبعثها

حولهم .

والكلام وفي هذه الآية خرج على القرية ، والمراد أهلها ، ولذلك قال : ﴿ بما كانوا يصنعون ﴾ يعني به : بتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإِخراجهم إِياه وما همُّوا به من قتله .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ رسول منهم ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ، ﴿ فكذبوه فأخذهم العذاب ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه الجوع ، قاله ابن عباس .

والثاني : القتل ببدر ، قاله مجاهد .

قال ابن السائب : ﴿ وهم ظالمون ﴾ أي : كافرون .

قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾ في المخاطَبين بهذا قولان :

أحدهما : أنهم المسلمون ، وهو قول الجمهور .

والثاني : أنهم أهل مكة المشركون ، لما اشتدت مجاعتهم ، كلَّم رؤساؤُهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إِن كنتَ عاديتَ الرجال ، فما بال النساء والصبيان ؟ ! فأَذِن

رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أن يحملوا الطعام إليهم ، حكاه الثعلبي ، وذكر نحوه الفراء ، وهذه الآية والتي تليها مفسرتان في [البقرة : 172 173] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتكم الكذب ﴾ قال ابن الأنباري : اللام في "لِما" بمعنى من أجل ، وتلخيص الكلام : ولا تقولوا : هذه الميتة حلال ، وهذه البَحيرة حرام ، من أجل كذبكم ، وإِقدامكم على الوصف ، والتخرُّص لما لا أصل له ، فجرت اللام ها هنا مجراها في قوله : ﴿ وإِنه لحب الخير لشديد ﴾ [العاديات : 8] أي : وإِنه من أجل حب الخير ، لبخيل و"ما" بمعنى المصدر ، والكذب منصوب ب "تصف" والتلخيص : لا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب .

وقرأ ابن أبي عبلة : "الكُذُبَ" ، قال ابن القاسم : هو نعت الألسنة ، وهو جمع كذوب .

قال المفسرون : والمعنى : أن تحليلكم وتحريمكم ليس له معنىً إلاَّ الكذب .

والإِشارة بقوله : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ إِلى ما كانوا يُحلُّون ويحرِّمون ، ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون ذلك التحليل والتحريم إِلى الله تعالى ، ويقولون : هو أَمَرنا بهذا .

وقوله : ﴿ متاع قليل ﴾ أي : متاعهم بهذا الذي فعلوه قليل .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ يعني به ما ذكر في [الأنعام : 126] وهو قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كلَّ ذي ظُفُر ﴾ ﴿ وما

ظلمناهم ﴾ بتحريمنا ما حرَّمنا عليهم ، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بالبغي والمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ قد شرحناه في سورة [النساء 17] وشرحنا في [البقرة : 160] التوبة والاصلاح ، وذكرنا معنى قوله : ﴿ من بعدها ﴾ آنفا .

(136/446)

قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أُمَّة ﴾ قال ابن الأنباري : هذا مثل قول العرب : فلان رحمة ، وفلان علاَّمة ، ونسَّابة ، ويقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه ، والعرب قد توقع الأسماء المبهَمة على الجماعة ، وعلى الواحد ، كقوله : ﴿ فنادته الملائكة ﴾ [آل عمران : 39] ، وإنما ناداه جبريل وحده .

وللمفسرين في المراد بالأُمَّة هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الأُمَّة : الذي يعلِّم الخير ، قاله ابن مسعود ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه المؤمن وحده في زمانه ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثالث: أنه الإِمام الذي يُقتدَى به، قاله قتادة، ومقاتل، وأبو عبيدة، وهو في معنى القول الأول.

فأما القانت فقال ابن مسعود: هو المطيع.

وقد شرحنا "القنوت" في [البقرة: 116، 238] وكذلك الحنيف [البقرة 135].

قوله تعالى: ﴿ولم يَكُ﴾ قال الزجاج: أصلها: لم يكن، وإِنما حذفت النون عند سيبويه، لكثرة استعمال هذا الحرف، وذكر الحذّاق من البصريين أنها إِنما احتملت الحذف، لأنه اجتمع فيها كثرة الاستعمال، وأنها عبارة عن كل ما يمضي من الأفعال وما يستأنف، وأنها قد أشبهت حروف اللين، وأنها تكون علامة كما تكون حروف اللين علامة، وأنها غُنَّة تخرج من الأنف، فلذلك احتملت الحذف.

قوله تعالى: ﴿شاكراً لأنعمه﴾ انتصب بدلاً من قوله: ﴿أُمَّةً قانتاً﴾ وقد ذكرنا واحد الأنعم آنفاً، وشرحنا معنى "الاجتباء" في [الأنعام: 87] قال مقاتل: والمراد بالصراط المستقيم هاهنا: الإِسلام.

قوله تعالى: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ فيها ستة أقوال:

أحدها: أنه الذِّكْر الحسن، قاله ابن عباس.

والثاني: النبوّة، قاله الحسن.

والثالث : لسان صدق ، قاله مجاهد .

والرابع : اجتماع المِلَل على ولايته ، فكلهم يتولّونه ويرضَونه ، قاله قتادة .

(137/446)

والخامس : أنها الصلاة عليه مقرونة بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مقاتل بن حيان .

والسادس : الأولاد الأبرار على الكِبَر ، حكاه الثعلبي .

وباقي الآية مفسر في [البقرة : 130] .

قوله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إِليك أن اتبع ملة إِبراهيم ﴾ ملَّتُه : دينُه .

وفيما أُمر باتباعه من ذلك قولان :

أحدهما : أنه أُمر باتباعه في جميع ملته ، إِلا ما أُمر بتركه ، وهذا هو الظاهر .

[والثاني : اتباعه في التبرُّؤ من الأوثان ، والتدين بالإِسلام ، قاله أبو جعفر الطبري] .

وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع المفضول ، لأن رسولنا أفضلُ الرسل ، وإِنما أُمر باتباعه ، لسبقه إِلى القول بالحق .

قوله تعالى : ﴿ إِنما جُعِل السبت ﴾ أي : إِنما فرض تعظيمه وتحريمه ، وقرأ الحسن ، وأبو

حيوة : "إِنما جَعَل" بفتح الجيم والعين "السبتَ" بنصب التاء ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ والهاء ترجع إِلى السبت .

وفي معنى اختلافهم فيه قولان :

أحدهما : أن موسى قال لهم : تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يوماً ، فاعبدوه في يوم الجمعة ، ولا تعملوا فيه شيئاً من صنيعكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك ، وقالوا : لا نبتغي إِلاَّ اليوم الذي فرغ فيه من الخلق ، وهو يوم السبت ، فجعل ذلك عليهم ، وشدِّد عليهم فيه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وقال مقاتل : لما أمرهم موسى بيوم الجمعة ، قالوا : نتفرغ يوم السبت ، فإن الله لم يخلق فيه شيئاً ، فقال : إِنما أُمرت بيوم الجمعة ، فقال أحبارهم : انتهوا إِلى أمر نبيِّكم ، فأبوا ، فذلك اختلافهم ، فلما رأى موسى حرصهم على السبت ، أمرهم به ، فاستحلوا فيه المعاصي .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : رأى موسى رجلاً يحمل قصباً يوم السبت ، فضرب عنقه ، وعكفت عليه الطير أربعين صباحاً .

وذكر ابن قتيبة في "مختلف الحديث" : أن الله تعالى بعث موسى بالسبت ، ونسخ السبت بالمسيح .

والثاني : أنه بعضهم استحلَّه ، وبعضهم حرَّمه ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك ﴾ قال ابن عباس : نزلت مع الآية التي بعدها ، وسنذكر هناك السبب .

فأما السبيل ، فقال مقاتل : هو دين الإِسلام .

وفي المراد ﴿ بالحكمة ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها القرآن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الفقه ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : النبوَّة ، ذكره الزجاج .

وفي ﴿ الموعظة الحسنة ﴾ قولان :

أحدهما : مواعظ القرآن ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الأدب الجميل الذي يعرفونه ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وجادلهم ﴾ في المشار إِليهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل مكة ، قاله أبو صالح .

والثاني : أهل الكتاب ، قاله مقاتل .

وفي قوله : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : جادلهم بالقرآن .

والثاني : ب "لا آله إلاّ الله" ، روي القولان عن ابن عباس .

والثالث : جادلهم غير فظٍّ ولا غليظ ، وأَلِنْ لهم جانبك ، قاله الزجاج .

وقال بعض علماء التفسير : وهذا منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ إِن ربك هو أعلم ﴾ المعنى : هو أعلم بالفريقين ، فهو يأمرك فيهما بما فيه الصلاح .

قوله تعالى : ﴿ وإِن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ في سبب نزولها قولان :

أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف على حمزة ، فرآه صريعاً ، فلم ير شيئاً كان أوجع لقلبه منه ، فقال : "والله لأمثلن بسبعين منهم" ، فنزل جبريل ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف ، بقوله : ﴿ وإِن عاقبتم . . .

﴾ إِلى آخرها ، فصبر رسول الله وكفَّر عن يمينه ، قاله أبو هريرة .

وقال ابن عباس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة قد شُق بطنه ، وجُدِعت أذناه ، فقال : "لولا أن تحزن النساء ؛ أو تكون سنَّة بعدي لتركته حتَّى يبعثه الله من بطون السباع والطير ، ولأقتلنَّ مكانه سبعين رجلا منهم" ، فنزل قوله : ﴿ ادع إِلى سبيل ربك ﴾ إِلى قوله : ﴿ وما صبرك إِلا بالله ﴾ .

وروى الضحاك عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يومئذٍ: "لَئِن ظفرتُ بقاتل حمزة لأمثلنَّ به مثلة تتحدث بها العرب"، وكانت هند وآخرون معها قد مثّلوا به، فنزلت هذه الآية.

والثاني: أنه أصيب من الأنصار يوم أُحدٍ أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، ومثَّلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار: لَئِن أصبنا منهم يوماً من الدهر، لنزيدنَّ على عِدَّتهم مرتين، فنزلت هذه الآية، قاله أُبيُّ بن كعب.

وروى أبو صالح عن ابن عباس أن المسلمين قالوا: لَئِن أمكننا الله منهم، لنمثّلنَّ بالأحياء فضلا عن الأموات، فنزلت هذه الآية.

يقول: إِن كنتم فاعلين، فمثِّلوا بالأموات، كما مثَّلوا بأمواتكم.

قال ابن الأنباري: وإِنما سمى فعل المشركين معاقبةً وهم ابتدؤوا بالمثلة، ليزدوج اللفظان، فيخف على اللسان، كقوله: ﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾ [الشورى: 40].

فصل

واختلف العلماء، هل هذه [الآية] منسوخة، أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنها نزلت قبل ﴿ براءة ﴾ فأُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقاتل من قاتله، ولا يبدأ بالقتال، ثم نُسخ ذلك، وأُمر بالجهاد، قاله ابن عباس، والضحاك، فعلى

هذا يكون المعنى : ﴿ ولئن صبرتم ﴾ عن القتال ، ثم نسخ هذا بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] .

والثاني : أنها محكمة ، وإنما نزلت فيمن ظُلِم ظُلامة ، فلا يحلُّ له أن ينال من ظالمه أكثر مما ناله الظالم منه ، قاله مجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وابن سيرين ، والثوري ، وعلى هذا يكون المعنى : ولئن صبرتم عن المثلة ، لا عن القتال .

قوله تعالى : ﴿ واصبر وما صبرك إلاَّ بالله ﴾ أي : بتوفيقه ومعونته .

وهذا أمر بالعزيمة .

وفي قوله : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ قولان :

أحدهما على كفار مكة إن لم يُسلموا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(140/446)

والثاني : ولا تحزن على قتلى أُحُد ، فانهم أفضَوا إلى رحمة الله ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : ﴿ ولا تك في ضَيق ﴾ قرأ الأكثرون بنصب الضاد ، وقرأ ابن كثير : "في ضِيق" بكسر الضاد هاهنا وفي [النمل : 70] .

قال الفراء : الضَيق بفتح الضاد : ما ضاق عنه صدرك ، والضيّق : ما يكون في الذي يضيق ويتسع ، مثل الدار والثوب وأشباه ذلك .

وقال ابن قتيبة : الضَّيْق : تخفيف ضَيِّق ، مثل : هَيْن ولَيْن ، وهو ، إذا كان على هذا التأويل : صفة ، كأنه قال : لا تك في أمر ضَيِّقٍ من مكرهم .

قال : ويقال : مكان ضَيْق وضِيق ، بمعنى واحد ، كما يقال : رَطْلٌ ورِطْلٌ ، وهذا أعجب إليَّ .

فأما مكرهم المذكور هاهنا ، فقال أبو صالح عن ابن عباس : فعلهم وعملهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتَّقَوا ﴾ ما نهاهم عنه ، وأحسنوا فيما أمرهم به ، بالعون والنصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(141/446)

وقال النسفى :

﴿ يَوْمَ تَأْتِى ﴾ منصوب بـ ﴿ رحيم ﴾ أو بـ "اذكر" ﴿ كُلُّ نفسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ وإنما أضيفت النفس إلى النفس لأنه يقال لعين الشيء وذاته نفسه وفي نقيضه غيره والنفس الجملة كما هي ، فالنفس الأولى هي الجملة ، والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل : يوم يأتي كل

إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كلٌّ يقول : نفسي نفسي .

ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم : ﴿ هَؤُلاء أَضَلُّونَا ﴾ [الأعراف : 38] ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ﴾ [الأحزاب : 67] الآية ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] ﴿ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ تعطى جزاء عملها وافياً ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ في ذلك .

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ أي جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ من القتل والسبى ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ لا يزعجها خوف لأن الطمأنينة مع الأمن ، والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من كل بلد ﴿ فَكَفَرَتْ ﴾ أهلها ﴿ بِأَنْعُمِ الله ﴾ جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع ، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس ﴿ فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ الإذاقة واللباس استعارتان والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، ووجه صحة ذلك أن الإذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع .

وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل : فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العذاب وَهُمْ ظالمون ﴾ أي في حال التباسهم بالظلم قالوا : إنه القتل بالسيف يوم بدر .

رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه إلى أهل مكة في سني القحط بطعام ففرق فيهم فقال : " الله لهم بعد أن أذاقهم الجوع " ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ على يدي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حلالا طَيِّباً ﴾ بدلاً عما كنتم تأكلونه حراماً خبيثاً من الأموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب ﴿ واشكروا نِعْمَتَ الله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تطيعون أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لأنها شفعاؤكم عنده .

ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ الله

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ "إنما" للحصر أي المحرم هذا دون البحيرة وأخواتها وباقي الآية قد مر تفسيره ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ هو منصوب ب ﴿ لا تقولوا ﴾ أي ولا وتقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الانعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ [الأنعام : 139] من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحي أو إلى القياس المستنبط منه .

واللام مثلها في قولك لا تقولوا لما أحل الله هو حرام .

(143/446)

وقوله ﴿ هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ بدل من الكذب ولك أن تنصب ﴿ الكذب ﴾ ب ﴿ تصف ﴾ وتجعل "ما" مصدرية وتعلق ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ .

ب ﴿ لا تقولوا ﴾ أي و لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام وهذا لوصف ألسنتكم الكذب ، أي ولا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم لا لأجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان .

وقوله ﴿ تصف ألسنتكم الكذب ﴾ من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك "وجهها يصف

الجمال وعينها تصف السحر" واللام في ﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الفرض ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾

﴿ متاع قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أي منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم .

﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ في سورة الأنعام يعني ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [الأنعام : 146] الآية ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بالتحريم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء بجهالة ﴾ في موضع الحال أي عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ، ومرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ بتكفير ما كثروا قبل من الجرائم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بتوثيق ما وثقوا بعد من العزائم .

﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ إنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله

ليس على الله بمستنكر . . .

أن يجمع العالم في واحد

وعن مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار ، أو كان أمة بمعنى مأموم يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير ﴿ قَانِتاً لِلَّهِ ﴾ هو القائم بما أمره الله .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إن معاذاً كان أمة قانتاً لله فقيل له : إنما هو إبراهيم عليه السلام .

فقال : الأمة الذي يعلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله ، وكان معاذ كذلك .

وقال عمر رضي الله عنه : لو كان معاذ حياً لاستخلفته فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أبو عبيدة أمين هذه الأمة ، ومعاذ أمة لله قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون " ﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلاً عن الأديان إلى ملة الإسلام ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ نفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش لزعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ، وحذف النون للتشبيه بحروف اللين ﴿ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ ﴾ رُوِى أنه كان لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداءه ، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاماً فقال : الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ اختصه واصطفاه للنبوة ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى ملة الإسلام ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ نبوة وأموالاً وأولاداً ، أو تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه ، أو قول المصلي منا كما صليت على إبراهيم ﴿ وَإِنَّهُ فِي

الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لمن أهل الجنة .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾ في "ثم" تعظيم منزلة نبينا عليه السلام وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته

(145/446)

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أي فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ رُوى أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا : نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض وهو السبت ، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة ، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد ، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون ، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله ﴿ ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾ بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل

للشبهة ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها ، أو بالقرآن أي ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ، أو الحكمة المعرفة بمراتب الأفعال والموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ، أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة في الدين ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل .

(146/446)

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ سمى الفعل الأول عقوبة والعقوبة هي الثانية لازدواج الكلام كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : 40] فالثانية ليست بسيئة ، والمعنى إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه . رُوي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد ، وبقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ، فرأى النبي عليه السلام حمزة مبقور البطن فقال : " أما والذي أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك " فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده .

ولا خلاف في تحريم المثلة لورود الأخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ الضمير في ﴿ لهو ﴾ يرجع إلى مصدر ﴿ صبرتم ﴾ والمراد بالصابرين المخاطبون أي ولئن صبرتم لصبركم خير لكم ، فوضع ﴿ الصابرين ﴾ موضع الضمير ثناء من الله عليهم لأنهم صابرون على الشدائد ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ أنت فعزم عليه بالصبر ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ أي بتوفيقه وتثبيته ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على الكفار أن لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار فإنهم وصلوا إلى مطلوبهم ﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿ ضِيق ﴾ مكي .

والضيق تخفيف الضيق أي في أمر ضيق ويجوز أن يكونا مصدرين كالقيل والقول ، والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فإنه لا ينفذ عليك ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي هو ولي الذين اجتنبوا السيئات وولي العاملين بالطاعات .

قيل : من اتقى في أفعاله وأحسن في أعماله كان الله معه في أحواله .

ومعيته نصرته في المأمور وعصمته في المحظور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 301 . 305 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ ﴾

منصوب بـ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ أو باذكر . ﴿ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسي نفسي . ﴿ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاء ما عملت . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ لا ينقصون أجورهم .

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا ، فأنزل الله بهم نقمته ، أو لمكة . ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ لا يزعج أهلها خوف . ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ﴾ أقواتها . ﴿ رَغَدًا ﴾ واسعاً . ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من نواحيها . ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله ﴾ بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع ، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس . ﴿ فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف ﴾ استعار الذوق لإدراك أثر الضرر ، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف ، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقول كثير :

غمرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكَا . . . غلقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ المال

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لمَّا يلقى عليه ، وأضاف إليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظراً إلى المستعار له

، وقد ينظر إلى المستعار كقوله :

يُنَازِعْنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرو . . . رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرُو بن بَكْرِ

لِي الشَّطْرُ الَّذِي مَلَكَت يَمِيني . . . وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتجر نظراً إلى المستعار . ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ بصنيعهم .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، والضمير لأهل مكة عاد إلى ذكرهم بعد ما ذكر مثلهم . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العذاب وَهُمْ ظالمون ﴾ أي حال التباسهم بالظلم والعذاب ما أصابهم من الجدب الشديد ، أو وقعة بدر .

(148/446)

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلَالاً طَيِّباً ﴾ أمرهم بأكل ما أحل الله لهم وشكر ما أنعم عليهم بعد ما زجرهم عن الكفر وهددهم عليه بما ذكر من التمثيل والعذاب الذي حل بهم ، صداً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة . ﴿ واشكروا نِعْمَتَ الله إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تطيعون ، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلَا

عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لما أمرهم بتناول ما أحل لهم عدد عليهم محرماته ليعلم أن ما عداها حل لهم ، ثم أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال :

(149/446)

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ كما قالوا ﴿ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ الآية ، ومقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بإنما حصر المحرمات في الأجناس الأربعة إلا ما ضم إليه دليل : كالسباع والحمر الأهلية ، وانتصاب ﴿ الكذب ﴾ ب ﴿ لاَ تَقُولُواْ ﴾ و ﴿ هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ بدل منه أو متعلق بتصف على إرادة القول أي : ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقولوا هذا حلال وهذا حرام ، أو مفعول ﴿ لاَ تَقُولُواْ ﴾ ، و ﴿ الكذب ﴾ منتصب ب ﴿ تَصِفُ ﴾ وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي : لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل ، ووصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتكم تصفها وتعرفها بكلامهم هذا ، ولذلك عد من تصحيح الكلام كقولهم : وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر . وقرىء ﴿ الكذب ﴾ بالجر بدلاً من "ما" ، و ﴿ الكذب ﴾ جمع

كذوب أو كذاب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الذم أو بمعنى الكلم الكواذب . ﴿ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ﴾ تعليل لا يتضمن الغرض . ﴿ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ لما كان المفتري يفتري لتحصيل مطلوب نفي عنهم الفلاح وبينه بقوله : ﴿ متاع قَلِيلٌ ﴾ أي ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

(150/446)

﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي في سورة "الأنعام" في قوله : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق ب ﴿ قَصَصْنَا ﴾ أو ب ﴿ حَرَّمْنَا ﴾ . ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بالتحريم . ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه ، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء بجهالة ﴾ بسببها أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة ، والسوء يعم الافتراء على الله وغيره .

﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة . ﴿ لَغَفُورٌ ﴾

لذلك السوء . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يثيب على الإنابة .

﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقة في أشخاص كثيرة كقوله :

لَيْسَ مِنَ اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . . . أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وهو رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذي جادل فرق المشركين ، وأبطل مذاهبهم الزائغة بالحجج الدامغة ، ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن في النبوة وتحريم ما أحله ، أو لأنه كان وحده مؤمناً وكان سائر الناس كفاراً . وقيل هي فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه إذا قصده ، أو اقتدى به فإن الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيرته كقوله : ﴿ إِنّي جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ﴿ قانتا لِلَّهِ ﴾ مطيعاً له قائماً بأوامره . ﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلاً عن الباطل . ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ كما زعموا فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم .

﴿ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة . ﴿ اجتباه ﴾ للنبوة . ﴿ وَهَدَاهُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في الدعوة إلى الله .

﴿ وءاتيناه فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ بأن حببه إلى الناس حتى أن أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه، ورزقه أولاداً طيبة وعمراً طويلاً في السعة والطاعة. ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ لمن أهل الجنة كما سأله بقوله: ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين. ﴾

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد، و﴿ ثُمَّ ﴾ إما لتعظيمه والتنبيه على أن أَجَلَّ ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ملته، أو لتراخي أيامه. ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد حسب فهمه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ بل كان قدوة الموحدين.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت ﴾ تعظيم السبت، أو التخلي فيه للعبادة. ﴿ على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ أي على نبيهم، وهم اليهود أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فأبوا وقالوا: نريد يوم السبت لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض، فألزمهم الله السبت وشدد الأمر عليهم. وقيل معناه إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى واحتالوا له الحيل، وذكرهم هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق بما يستحقه.

﴿ ادع ﴾ من بعثت إليهم . ﴿ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام . ﴿ بالحكمة ﴾ بالمقالة المحكمة ، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة . ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة ، فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم . ﴿ وجادلهم ﴾ وجادل معانديهم . ﴿ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر ، والمقدمات التي هي أشهر فإن ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتبيين شغبهم . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة ، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك بل الله أعلم بالضالين والمهتدين وهو المجازي لهم .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ لما أمره بالدعوة وبين له طرقها أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة ، ومراعاة العدل مع من يناصبهم ، فإن الدعوة لا تنفك عنه من حيث إنها تتضمن رفض العادات ، وترك الشهوات والقدح في دين الأسلاف والحكم عليهم بالكفر والضلال . وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة وقد مثل به فقال : " والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك " فنزلت . فكفر عن يمينه ، وفيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجاني وليس له أن يجاوزه ، وحث على العفو تعريضاً بقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ وتصريحاً على الوجه الآكد بقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ ﴾ أي الصبر . ﴿ خَيْرٌ

للصابرين ﴾ من الانتقام للمنتقمين ، ثم صرح بالأمر به لرسوله لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه فقال :

(153/446)

﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيته . ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على الكافرين أو على المؤمنين وما فعل بهم . ﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ في ضيق صدر من مكرهم ، وقرأ ابن كثير في ﴿ ضَيْقٍ ﴾ بالكسر هنا وفي "النمل" وهما لغتان كالقول والقيل ، ويجوز أن يكون الضيق تخفيف ضيق .

﴿ إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا ﴾ المعاصي . ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل ، أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 423 . 428 ﴾

(154/446)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

التفسير : هذا شروع في حكاية شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كان إذا أنزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها قالت كفار قريش : إن محمداً يسخر من أصحابه يأمره اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه فنزل : ﴿ وإذا بدلنا ﴾ ومعنى التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه ، وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها . ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ شيئاً فشيئاً على حسب المصالح مغلظاً ثم مخففاً أو بالعكس ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ فوائد النسخ والتبديل . قال أبو مسلم : أراد تبديل آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل آية تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . وسائر العلماء أطبقوا على أن المراد بهذا التبديل النسخ . ونقل عن الشافعي أن القرآن لا ينسخ بالسنة لأنه تعالى أخبر بتبديل مكان الآية .

وضعف بأنه لا يلزم من وجود التبديل بالآية نفي التبديل بغيرها كالسنة المتواترة إذ لا دلالة في الآية على الحصر ، وقد مر مباحث النسخ مفصلة مستوفاة في سورة البقرة . ﴿ قل نزله ﴾ أي القرآن ﴿ روح القدس ﴾ هو جبرائيل والإضافة للمبالغة مثل " حاتم الجود " . والمراد الروح المقدس المطهر عن دنس المآثم ﴿ من ربك ﴾ صلة نزله أي ابتداء تنزيله من عنده . وقوله : ﴿ بالحق ﴾ حال أي متلبساً بالحكمة والصواب . ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ كقوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ [الأنفال : 2] فيقول كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا وكل منهما في وقته خير وصلاح لأن الذي نزله حكيم لا يفعل إلا ما هو خير في أوانه وصواب بالنسبة إلى المكلف حين ما يكلف به . ﴿ وهدى وبشرى ﴾ معطوفان على محل ﴿ ليثبت ﴾ أي تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارة ، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم . ثم حكى شبهة أخرى عنهم . كانوا يقولون : إن محمداً يستفيد القصص والأخبار من إنسان آخر ويتعلمها منه . واختلف في ذلك البشر فقيل كان غلاماً لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش ويعيش وكان صاحب كتب . وقيل : هو جبر غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي . وقيل : عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر وقف عليهما يسمع ما يقرآن فقالوا يعلمانه . وقيل : هو سلمان الفارسي . ثم أجاب عن شبهتهم فقال مستأنفاً ﴿ لسان الذي ﴾ واللسان اللغة والمعنى

لسان الرجل الذي ﴿ يلحدون ﴾ يميلون قولهم عن الاستقامة ﴿ إليه ﴾ لسان ﴿ أعجمي ﴾ غير بيّن ﴿ وهذا ﴾ القرآن ﴿ لسان عربي مبين ﴾ ذو بيان وفصاحة وقد مر في آخر " الأعراف " أن تركيب الإلحاد يدل على الإمالة ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها . قال أبو الفتح الموصلي : تركيب ع ج م يدل على الإبهام والخفاء ضد البيان والإفصاح ، ومنه " عجم الزبيب " لاستتاره وخفاته

(156/446)

، والعجماء البهيمة ، وصلاة الظهر والعصر عجماوان لأن القراءة فيهما سرية ، وأعجمت الكتاب أي أزلت عجمته . ثم إن العرب تسمي كل من لا يعرف لسانهم ولا يتكلم بلغتهم أعجمياً وقالوا : زياد الأعجم لأنه كان في لسانه عجمة مع أنه كان عربياً . وحاصل الجواب هبوا أن محمداً يتعلم المعاني من ذلك الرجل إلا أنه لا يقدح في المقصود لأن القرآن بفصاحته اللفظية أيضاً معجز . ولما ذكر جوابهم وبخهم وهددهم بقوله : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ﴾ يعني أن سبب عدم إيمانهم هو أن الله لا يهديهم كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : 7] . وفسره الإمام فخر الدين بأن الله لا يهديهم إلى طريق الجنة بل يسوقهم إلى النار . وهذا التفسير يناسب أصول المعتزلة فلا أدري كيف مال إليه .

ثم لما بين أنهم ليسوا مظاهر اللطف وكان قد بنى الأمر في جوابهم على تسليم ما ادعى الخصم من أنه يتعلم من ذلك البشر ، أراد أن يبين أن الذي قالوا غير صحيح ولا صادق في نفس الأمر فقال : ﴿ إنما يفتري الكذب ﴾ وفيه أيضاً رد لقولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ الافتراء ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى قريش أو إلى الذين لا يؤمنون أي هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون أي هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب ، لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب ، أو هم الذين من شأنهم الكذب وذلك هجيراهم لا يحجبهم عنه مروءة ولا دين ، أو أولئك هم الكاذبون في قولهم : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ [النحل : 101] ومما يدل على كذبهم عقلاً أنهم أعداء له وكلام العدا ضرب من الهذيان ولا شهادة لمتهم . وأيضاً إن أمر التعليم والتعلم لا يتم في مجلس واحد ولكنه يحتاج إلى أزمنة متمادية ، ولو كان كذلك لاشتهر وانتشر . وأيضاً إن العلوم الموجودة في القرآن كثيرة ، والمعلم يجب أن يكون أعلى حالاً من المتعلم . فلو كان مثل هذا العالم الذي يتعلم منه مثل النبي صلى الله عليه وسلم موجوداً في ذلك العصر لم يخف حاله ومال الناس إليه دون النبي . قال بعض علماء المعاني : عطف الجملة الاسمية التي هي قوله : ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ على ما قبلها وهي

فعلية ، دالة على أن من أقدم على الكذب فإنه دخل في الكفر تنبيهاً على أن صفة الكفر فيهم ثابتة راسخة كما تقول : كذبت وأنت كاذب . زيادة في الوصف بالكذب على سبيل الاستمرار والاعتياد . ولا افتراء أعظم من إنكار الإلهية والنبوة . روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . وقرأ هذه الآية . ثم إنه سبحانه من كمال عنايته أراد أن يفرق بين الكفر اللساني وحده وبين اللساني المنضم إليه القلبي فقال : ﴿ من كفر بالله ﴾ اختلف العلماء في إعرابه ؛ فالأكثرون على أنه بدل إما من ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ وما بينهما اعتراض والمعنى إنما يفتري

(158/446)

الكذب من كفر . واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ، ثم قال : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ أي طاب منه نفساً واعتقده ﴿ فعليهم غضب ﴾ وإما من المبتدأ الذي هو ﴿ أولئك ﴾ أو من الخبر الذي هو ﴿ الكاذبون ﴾ . وقيل : منصوب على الذم أي أخص وأعني من كفر . وجوّز بعضهم أن تكون " من " شرطية والجواب محذوف لأن جواب من شرح دال عليه كأنه قيل : من كفر فعليه غضب إلا من أكره ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب . وإنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس

بكافر لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما مثله يظهر من الكافر طوعاً فلهذه المشاكلة صح الاستثناء .

(159/446)

قال ابن عباس : نزلت في عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً فعذبوهم . فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قبلها بحربة وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال وقتلت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام . وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عماراً كفر فقال : كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه . فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال صلى الله عليه وسلم : " إن عادوا لك فعد لهم بما قلت . " فمن هنا حكم العلماء بأن الإكراه يجوّز التلفظ بكلمة الكفر . وحدّ الإكراه أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به كالتخويف بالقتل والضرب الشديد وسائر الإيلامات القوية . وأجمعوا على أن قلبه عند ذلك يجب أن يكون متبرئاً عن الرضا بالكفر وأن يقتصر على التعريض ما أمكن مثل أن يقول : إن محمداً كذاب يعني عند الكفار . أو يعني به محمداً آخر ،

أو يذكره على نية الاستفهام بمعنى الإنكار . وإذا أعجله من أكرهه عن إحضار هذه النية أو لأنه لما عظم خوفه زال عن قلبه ذكر هذه النية كان ملوماً وعفو الله متوقع . ولو ضيق المكره عليه حتى صرح بالكفر من غير تورية وطلب منه أن يقول لا أريد بقلبي سوى ما أذكره بلساني فههنا يتعين إما الكذب وإما توريط النفس للعذاب . فمن الناس من قال : يباح له الكذب حينئذ . ومنهم من قال : ليس له ذلك . واختاره القاضي لأن الكذب إنما يقبح لكونه كذباً فوجب أن يقبح على كل حال . ولو خرج الكذب عن القبح لرعاية بعض المصالح لم يمتنع أن يفعل الله الكذب لمصلحة ما فلا يبقى وثوق بوعده وبوعيده . وللإكره مراتب منها : أن يجب الفعل المكره عليه كما لو أكرهه على شرب الخمر وأكل الميتة لما فيه من صون النفس مع عدم إضرار بالغير ولا إهانة لحق الله .

ومنها أن يصير الفعل مباحاً لا واجباً كما لو أكره على التلفظ بكلمة الكفر لما روي أن بلالاً صبر على العذاب وكان يقول : أحد أحد حتى ملوه وتركوه ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم بئسما فعلت بل عظمه ، ولأن في ترك التقية والصبر على القتل أو التعذيب إعزازاً للإسلام . ومنها أنه لا يجب ولا يباح بل يحرم كما إذا أكره على قتل إنسان أو على

قطع عضو من أعضائه فهنا يبقى الفعل على الحرمة الأصلية . وحينئذ لو قتل فللعلماء قولان : أحدهما لا يلزم القصاص وبه قال أبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه لأنه قتل دفعاً عن نفسه فأشبه قتل الصائل ، ولأنه كالآلة للمكره ولذلك وجب القصاص على المكره وثانيهما – وبه قال أحمد والشافعي في أصح قوليه – أن عليه القصاص لأنه قتله عدواناً لاستبقاء نفسه فصار كما لو قتل المضطر إنساناً فأكله .

ومن الأفعال ما لا يمكن الإكراه عليه وهو الزنا لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة ، فلو دخل الزنا في الوجود علم أنه وقع بالاختيار لا بالإكراه . والأصح أن الإكراه فيه متصوّر ، وأن الحد يسقط حينئذ ، وعن أبي حنيفة أنه إن أكرهه السلطان لم يجب الحد ، وإن أكرهه بعض الرعية وجب .

(161/446)

قال بعض الأصوليين : في قوله : ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ دلالة على أن محل الإيمان هو القلب فهو إما الاعتقاد إن كان الإيمان معرفة ، وإما كلام النفس إن كان تصديقاً . وانتصاب ﴿ صدراً ﴾ على التمييز وأصله . ولكن من شرح بالكفر صدره . فعدل إلى النصب للمبالغة ولبناء الكلام على الإبهام ثم التفسير . قوله : ﴿ ذلك بأنهم ﴾ أي ذلك الارتداد

بسبب أنهم رجحوا ﴿ الدنيا على الآخرة ﴾ ولأجل أنه تعالى ما هداهم إلى الإيمان ولم يعصمهم عن الكفر . وقال جار الله : ذلك الوعيد والغضب والعذاب بسبب استحقاقهم خذلان الله بكفرهم . وهذا البحث وكذا بحث الطبع والختم والخلاف في تفسيره بين الأشاعرة والمعتزلة قد مر في أول سورة البقرة وفي غيرها فلا حاجة إلى الإعادة . ﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ أي الكاملون في الغفلة إذ غفلوا عن تدبر العواقب ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ وقال في أوائل سورة هود ﴿ هم الأخسرون ﴾ [الآية : 22] لأن أولئك صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فضلوا وأضلوا لذلك ضوعف لهم العذاب فهم الأخسرون ، وهؤلاء صدوا بأنفسهم فهم الخاسرون . ويمكن أن يقال : إن ما قبل الفواصل في تلك السورة لم يعتمد على ألف قبلها مثل " يبصرون " " يفترون " . وفي هذه السورة اعتمدت على الألف مثل " الكافرين " الكاذبون " فجاء في كل سورة على ما يناسبها . ولما ذكر حال من أكره أتبعه حال من هاجر من بعد ما فتن . قال جار الله : معنى ﴿ ثم إن ربك ﴾ تباعد حال هؤلاء من حال عمار وأصحابه . ومعنى ﴿ إن ربك لهم ﴾ أنه لهم لا عليهم فينصرهم ولا يخذلهم . ويحتمل أن يكون الجار متعلقاً بالخبر على نية التأخير . وتكرير " إن " لطول الكلام .

من قرأ ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ بفتح الفاء مبنياً للفال فوجهه أن فتن وافتتن بمعنى واحد والمراد أن أولئك الضعفاء لما ذكروا كلمة الكفر على سبيل التقية فكأنهم فتنوا أنفسهم لأن الرخصة في إظهار كلمة الكفر ما نزلت بعد ، أو أراد أن أكابر المشركين الذين آذوا فقراء المسلمين لو تابوا وهاجروا وصبروا فإن الله يقبل توبتهم ، ومعنى " ثم " على هذا التفسير ظاهر .

(163/446)

ومن قرأ بضم الفاء مبنياً للمفعول فالمراد أن المستضعفين المعذبين الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الإيمان إن هاجروا وجاهدوا وصبروا فإن الله يغفر لهم تكلمهم بكلمة الكفر . وقال الحسن : هؤلاء الذين هاجروا من المؤمنين كانوا بمكة فعرضت لهم فتنة فارتدوا وشكوا في الرسول ثم أسلموا وهاجروا فنزلت الآية فيهم . فمعنى " ثم " تبعيد حالة الغفران والرحمة عن حالة الارتداد والشك في أمر الرسول إلا أنه سبحانه بكرمه يغفر لهم إذا تابوا . وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي سرح ارتد ، فلما كان يوم الفتح أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ثم إنه أسلم وحسن إسلامه . وهذه الرواية إنما تصح لو جعلنا الآية مدنية . ومثله ما روي عن قتادة أنه لما أنزل الله أن أهل مكة لا يقبل منهم إسلام حتى يهاجروا كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة ، فلما جاءهم ذلك خرجوا فلحقهم المشركون فردوهم فنزلت : ﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ [العنكبوت : 1-2] فكتبوا بها إليهم فتبايعوا بينهم على أن يخرجوا فإن لحق بهم المشركون من أهل مكة قاتلوهم حتى ينجوا أو يلحقوا بالله ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزلت هذه الآية . والضمير في قوله : ﴿ من بعدها ﴾ يرجع إلى الأفعال المذكورة من الهجرة والجهاد والصبر . فالحاصل أن الآية إما نازلة فيمن عذب فلم يرتد ومع ذلك هاجر وجاهد ، وإما نازلة فيمن أظهر الكفر تقية فبين تعالى أن حاله إذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لم يكن كذلك ، وإما نازلة فيمن ارتد ثم تاب وقام بما يجب القيام به فوعده الله المغفرة والرحمة . قال الزجاج ﴿ يوم تأتي ﴾ منصوب بقوله : ﴿ رحيم ﴾ أو بإضمار " اذكر " أو " ذكرهم وأنذرهم " ومعنى الآية ظاهر إلا أن في قوله : ﴿ عن نفسها ﴾ إشكالاً من حيث إضافته النفس إلى ضمير النفس .

وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى جملة بدن الحي ، وبالنفس الثانية الذات فكأنه قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره . ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم ﴿ هؤلاء أضلونا ﴾ [الأعراف : 38] ﴿ ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] ونحو ذلك . عن بعضهم : تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه يقول : يا رب نفسي حتى إن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك .

ثم أوعد الكفار بآفات الدنيا أيضاً فقال : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية ﴾ يحتمل أن تكون مقدرة وأن تكون معينة موجودة إما مكة أو غيرها . وذهب كثير من المفسرين إلى أنها مكة والأقرب أنها غيرها لأن مثل مكة يكون غير مكة فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها .

(165/446)

قال العقلاء : ثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية . فوصف الله تعالى تلك القرية بالأمن ثم بالاطمئنان إشارة إلى أن هواء ذلك البلد لاعتداله ملائم لأمزجة أهله حتى اطمأنوا واستقروا ولم يحوجوا إلى الانتقال طلباً للصحة . ثم قال : ﴿ يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾ دلالة على حصول الكفاف لهم بأيسر وجه . قال الكشاف : الأنعم جمع نعمة

على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس. قلت: لعله حمله على ذلك طلب الضبط وإلا فلا حاجة إلى هذا التكلف. وكذا أطلق الأكثرون أن جمع "فعلة" يجيء على "أفعل". قيل: إنما ذكر جمع القلة تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، يعني أن كفران النعمة القليلة يوجب العذاب فكيف بكفران النعم الكثيرة العظيمة. وهذا مثل لأهل مكة كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة - وهو محمد صلى الله عليه وسلم - فكفروا بها وبالغوا في إيذائه فسلط الله عليهم البلاء. عذبهم بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والعلهز والفرو، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث إليهم السرايا فيغيرون عليهم. نقل أن ابن الراوندي قال لابن الأعرابي الأديب: هل يذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس هب أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان نبياً أما كان عربياً؟ كأنه طعن في الآية أن المناسب هو أن لو قيل: "فكساها الله لباس الجوع" أو "فأذاقها الله طعم الجوع" فردّ عليه ابن الأعرابي. والذي أجاب به علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه غيره. فكانت الاستعارة مجردة. ولو قال: "فكساها" كانت مرشحة

، وقد سلف منا تقرير هذا الاصطلاح في المقدمة التاسعة من مقدمات الكتاب. وترشيح الاستعارة وإن كان مستحسناً من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث إنه روعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحاً. وقيل: إن أصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرّف والاختبار فتقول: أناظر فلاناً فأذوق ما عنده.

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها . . . وسيق إلينا عذبها وعذابها

فمعنى ذقت لباس الجوع والخوف على فلان تعرفت ما ظهر عليه من الضمور وشحوبة اللون وتغير الحال وكسوف البال. ففحوى الآية عرفها الله أثر لباس الجوع. وقيل: حمل اللباس على المماسة والتقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

قال ابن عباس: يريد بفعلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم من التكذيب والهم بقتله والإخراج من مكة. قال الفراء: كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله: ﴿ يصنعون ﴾ تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها.

ولما ذكر المثل ذكر الممثل فقال : ﴿ ولقد جاءهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ رسول منهم ﴾ من أنفسهم يعرفونه بأصله ونسبه ﴿ فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ﴾ متلبسون بالظلم . قال ابن عباس : يعني بالعذاب الجوع الذي كان بمكة . وقيل : القتل يوم بدر . وقيل : إن قول ابن عباس أولى . والمراد أن ذلك الجوع بسبب كفركم فاتركوا الكفر . ﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾ من الغنائم . فأكل الغنائم مسبب عن ترك الكفر فلذلك وصله بالفاء . وقال الكلبي : إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا : عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان ؟ وكانت الميرة قد قطعت عنهم بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن في الحمل فحمل الطعام إليهم فذلك قوله : ﴿ فكلوا ﴾ . ورجح قول ابن عباس بأنه تعالى قال بعد ذلك : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ فالمراد أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب - وهو الغنيمة - واتركوا الخبائث - وهو الميتة والدم - أو أنه سبحانه أعاد تحريم هذه الأشياء في " البقرة " وفي " المائدة " و " الأنعام " وفي هذه السورة قطعاً للأعذار وإزالة للشبهة ، ثم زيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة ، وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ قال الكسائي والزجاج " ما " مصدرية وانتصاب ﴿ الكذب ﴾ ب ﴿ لا تقولوا ﴾ أي ولا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم . وقوله : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ بدل من الكذب ولك أن تنصب ﴿ الكذب ﴾ ب ﴿ تصف ﴾ وتجعل

" ما " مصدرية أيضاً أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب . ومعناه لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة ودليل . ويجوز أن تكون " ما " موصولة أي ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام ، فحذف لفظ فيه لكونه معلوماً . وقوله : ﴿ تصف ألسنتكم الكذب ﴾ من فصيح الكلام وبلغيه كأن ماهية الكذب مجهولة

(168/446)

وكلامهم يكشف عن حقيقته نظيره قوله : " وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر " . واللام في قوله : ﴿ لتفتروا ﴾ لام العاقبة لا الغرض . والمقصود من ذكره بيان أنه كذب على الله فإن قوله : ﴿ لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ لم يكن فيه هذا البيان .

ثم أوعد المفترين بقوله : ﴿ إن الذين يفترون ﴾ الآية . وقوله : ﴿ متاع ﴾ قال الزجاج : أي متاعهم . وعن ابن عباس : أراد أن متاع كل الدنيا قليل . والمعنى أن منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية ، أو أن نعيم الدنيا كلها يزول عنهم عما قريب ويبقى العقاب الدائم الأليم .

ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من

قبل ﴾ يعني في سورة الأنعام عند قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ ﴿ الأنعام : 146] ثم قال : ﴿ وما ظلمناهم ﴾ كقوله هناك : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ [الأنعام : 146] . ثم بين أن الافتراء على الله ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة . وقوله : ﴿ بجهالة ﴾ في موضع الحال أي عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه أو غير متأملين في وخامة عاقبته لغلبة الشهوة عليهم . ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ من بعد تلك السيئة أو التوبة أو الجهالة . ولما بالغ في إبطال مذاهب المشركين وفي الجواب عن شبههم ومطاعنهم وكان إبراهيم صلى الله عليه وسلم رئيس الموحدين وقدوة أكابر النبيين ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة قائلاً : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ أي هو وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير :

ليس على الله بمستنكر . . . أن يجمع العالم في واحد

وعن مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار فلهذا قيل : إنه أمة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل : يبعثه الله أمة وحده . وعن شهر بن حوشب : لم يكن زمن إلا وفيه أربعة عشر يدفع بهم الله عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم

فإنه وحده . وقيل : أمة بمعنى مأموم أي يؤمه الناس ليأخذوا منه أفعال الخير أو بمعنى مؤتم به كقوله : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ [البقرة : 124] وقيل : إنه من باب إطلاق المسبب على السبب لأنه حصل لأمته الامتياز عمن سواهم ﴿ قانتاً لله ﴾ قائماً بما يأمره الله . وعن ابن عباس : مطيعاً لله ﴿ حنيفاً ﴾ مائلاً إلى ملة الإسلام ميلاً لا يزول عنه . وقال ابن عباس : المراد أنه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى . ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ قط لا في الصغر ولا في الكبر ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ وإن كانت قليلة فضلاً عن النعم الكثيرة . يروى أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخلا غداءه فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاماً فقال : الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم ﴿ اجتباه ﴾ اختصه واصطفاه للنبوّة ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ إلى ملة الإسلام ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ عن قتادة : هي أن الله تعالى حببه إلى أهل الأديان كلها . وقيل : الأموال والأولاد . وقيل قول المصلي منا "كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم" . ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ في أعلى مقاماتهم من الجنة تحقيقاً لدعائه ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ [يوسف : 101] .

قال في الكشاف : معنى "ثم" في قوله : ﴿ ثم أوحينا إليك ﴾ تبعيد هذا النعت من بين

سائر النعوت التي أثنى الله بها على إبراهيم، ليعلم أن أجل ما أوتي خليل الله اتباع نبينا ملته في الأصول من التوحيد والمعاد وغيرهما كاختيار يوم الجمعة للفراغ وترك العمل.

(170/446)

قال أهل النظم: كان لسائل أن يسأل: لم اختار اليهود السبت مع أن إبراهيم كان اختار الجمعة؟ فأجاب الله سبحانه بقوله: ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ فاختاره بعضهم للفراغ واختار بعضهم الجمعة. روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: أمرهم موسى بالجمعة وقال تفرغوا في كل سبعة أيام يوماً واحداً فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق وهو يوم السبت. فجعل عليهم السبت وشدد عليهم. ثم جاءهم عيسى بالجمعة أيضاً فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا تبع اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ " وقال صاحب الكشاف: السبت مصدر سبت اليهود إذا عظمت سبتها. والمعنى ﴿ إنما جعل ﴾ وبال ﴿ السبت ﴾ وهو المسخ ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة، وكان

الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة . وضعف القول الأول بأن اليهود متفقون على تعيين يوم السبت للفراغة . ويمكن أن يقال : لعل فيهم من اختار الجمعة في قديم الدهر ثم وقع الاختلاف . سؤال : النصارى يقولون : إن يوم الأحد مبتدأ الخلق ، والتكوين على ما اتفق عليه أهل الملل أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام أوّلها الأحد فجعله عيداً معقول . واليهود قالت : إن يوم السبت هو اليوم الذي قد فرغ الله فيه من الأعمال فنحن نوافق ربنا . فما وجه جعل الجمعة عيداً ؟ والجواب بعد التعبد هو أن يوم الجمعة يوم التمام والكمال وذلك يوجب الفرح والسرور فجعله عيداً أولى . ثم أوعد اليهود بقوله : ﴿ وإن ربك ليحكم ﴾ الخ . ولما أمر محمداً باتباع إبراهيم صلى الله عليه وسلم بين وجه المتابعة فقال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك ﴾ الآية . وفيه أن طريقة إبراهيم صلى الله عليه وسلم في

الدعوة كانت هكذا . وتقرير ذلك أن الداعي إلى مذهب ونحلة لا بد أن يكون قوله مبنياً على حجة وهي إما أن تكون يقينية قطعية مبرأة من شائبة احتمال النقيض ، وإما أن تكون مفيدة للظن القوي والإقناع التام وإلا لم يكن ملتفتاً إليها في العلوم ، وقد يكون الجدال والخصام غالباً على المدعو فيحتاج حينئذ إلى إلزامه وإفحامه بدليل مركب من مقدمات مشهورة

مسلمة عند الجمهور، أو مقدمات مسلمة عند الخصم. فقوله: ﴿ بالحكمة ﴾ إشارة إلى استعمال الحجج القطعية المفيدة لليقين، والمكالمة بهذا الطريق إنما تكون مع الطالبين البالغين في الاستعداد إلى درجة الكمال.

وقوله: ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ إشارة إلى استعمال الدلائل الإقناعية الموقعة للتصديق بمقدمات مقبولة، وأهل هذه المكالمة أقوام انحطت درجتهم عن درجة الطائفة الأولى إلا أنهم باقون على الفطرة الأصلية طاهرون عن دنس الشغب وكدورات الجدال وهم عامة الخلق. وليس للدعوة إلا هذان الطريقان، ولكن الداعي قد يضطر مع الخصم الألد إلى استعمال الحجج الملزمة المفحمة كما قلنا فلهذا السبب عطف على الدعوة قوله: ﴿ وجادلهم بالتي ﴾ أي بالطريقة ﴿ التي هي أحسن ﴾ فكان طريق الجدال لم يكن سلوكه مقصوداً بالذات وإنما اضطر الداعي إليه لأجل كون الخصم مشاغباً. وإنما استحسن هذا الطريق لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً. فإن كان مبطلاً وأراد تغليط السامع لم يكن جداله حسناً ويسمى دليله مغالطة. هكذا ينبغي أن يتصوّر تفسير هذه الآية فإن كلام المفسرين الظاهريين فيه غير مضبوط. وجوّز في الكشاف أن يريد القرآن أي ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة وجادلهم بأحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف.

ولما حث على الدعوة بالطرق المذكورة بين أن الهداية والرشد ليس إلى النبي وإنما ذلك إلى الله تعالى فقال : ﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ الآية . أي هو العالم بضلال النفوس واهتدائها وكدورتها وبمن جعل الدعوة سبباً لسعادتها أو واسطة لشقائها . ثم إن الدعوة تتضمن تكليف المدعوّين بالرجوع عن الدين المألوف ، والفطام منه شديد وربما تنجر المقاولة إلى المقاتلة ، فحينئذ أمر الداعي وأتباعه برعاية العدل والإنصاف في حال القتال قائلاً ﴿ وإن عاقبتم ﴾ أي إن رغبتم في استيفاء القصاص إن وقع قتل فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه . والآية عامة وقد يخصصها رواة أسباب النزول بقصة حمزة قالوا : إن المشركون مثلوا بالمسلمين يوم أحد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب . فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقد مثل به . وروي فرآه مبقور البطن فقال : أما والذي أحلف به إن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده . قاله ابن عباس في رواية عطاء وأبيّ بن كعب . ومن هذا ذهبوا إلى أن خواتيم سورة النحل مدنية . ولا خلاف في تحريم المثلة ، وقد وردت الأخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور ، وقيل : نزلت حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدأوا بالقتال فهو كقوله : ﴿ وقاتلوا في سبيل الذين يقاتلونكم ﴾ [البقرة : 190] أمر الله تعالى أن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا . وقال مجاهد

والنخعي وابن سيرين : إنه نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم . وفي قوله : ﴿ إن عاقبتم ﴾ رمز إلى أن الأولى له أن لا يفعل كقول الطبيب للمريض : إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح .

(173/446)

ثم انتقل من التعريض إلى بعض التصريح قائلاً . ﴿ ولئن صبرتم لهو خير ﴾ أي صبركم خير لكم . فوضع المظهر موضع المضمر ثناء من الله عليهم أو وصفاً لهم بالصفة التي تحصل لهم أو جنس الصبر خير ﴿ للصابرين ﴾ من جنسهم . ثم صرح كل التصريح فقال : ﴿ واصبر ﴾ ثم ذكر ما يفيد سهولة الصبر على النفس فقال : ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ أي بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبه وهذا سبب كلي مفيد للصبر . وأما السبب الجزئي القريب فذلك قوله : ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك ﴾ وذلك أن إقدام الإنسان على الانتقام لا يكون إلا عند هيجان الغضب وإنه لا يهيج إلا عند فوات نفع . وأشار إليه بقوله : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ قيل : أي على قتلى أحد . وقيل : على الكافرين كقوله : ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ [المائدة : 68] وإلا حين توقع مكروه في المستقبل وأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ولا تك في ضيق ﴾ من قرأ بكسر الضاد فظاهر وهو من الكلام المقلوب الذي يشجع

عليه أمن الإلباس ، لأن الضيق وصف فهو يكون في الإنسان ولا يكون الإنسان فيه . وفيه لطيفة أخرى وهي أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط به من جميع الجوانب ، ومن قرأ بفتحها فإما على أنه مصدر أيضاً أو على أنه مخفف ضيق فمعناه في أمر ضيق ، وإنما لم يقل " ولا تكن " بالنون كما في آخر النمل موافقة لما قبله ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ ولأن الحزن ههنا أكثر بناء على أنها وردت في قتل حمزة فبولغ بالحذف في النهي عن الحزن .

(174/446)

ثم ختم السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ المعاصي كلها ﴿ والذين هم محسنون ﴾ في الطاعات بأن يعبدوا الله مخلصين عن شوائب الرياء : وقيل : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ استيفاء الزيادة ﴿ والذين هم محسنون ﴾ في ترك أصل الانتقام . فإن أردت أن أكون معك بالنصر والتأييد فكن من المتقين ومن المحسنين ، وفيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون بالرفق واللين مرتبة مرتبة . وقيل : الذين اتقوا إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والذين هم محسنون إشارة إلى الشفقة على خلق الله ومنه قال بعض المشايخ : كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق . واحتضر هرم

بن حبان فقيل له : أوص . فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي أوصيكم بخواتيم سورة النحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 307 . 318 ﴾

(175/446)

وقال ابن جزى :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي ﴾

يحتمل أن يتعلق بغفور رحيم أو بمحذوف تقديره اذكر وهذا أظهر ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ النفس هنا بمعنى الجملة كقولك : إنسان ، والنفس في قوله عن نفسها بمعنى الذات المعينة التي نقيضها الغير أي تجادل عن ذاتها لا عن غيرها كقولك : جاء نفسه وعينه ﴿ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ أي تحتج وتعتذر ، فإن قيل : كيف الجمع بين هذا وبين قوله ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35-36] فالجواب أن الحال مختلف باختلاف المواطن والأشخاص .

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ الآية ، قيل : إن القرية المذكورة مكة كانت بهذه الصفة التي ذكرها الله ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله ﴾ يعني بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأصابهم الجدب والخوف من غزو النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إنما قصد قرية

غير معينة أصابها ذلك فضرب الله بها مثلاً لمكة ، وهذا أظهر ، لأن المراد وعظ أهل مكة بما جرى لغيرهم ، والضمير في قوله فكفرت وأذاقها : يراد بها أهل القرية بدليل قوله بما كانوا يصنعون ﴿ فأذاقها الله لِبَاسَ الجوع والخوف ﴾ الإذاقة هنا واللبس مستعاران ، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها في البلايا ، حتى صارت كالحقيقة ، وأما اللباس فاستعير للجوع والخوف لاشتمالهما على اللباس ومباشرتهما له كمباشرة الثوب .

(176/446)

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ إن المراد بالقرية مكة ، فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم والعذاب الذي أخذهم القحط وغيره ، وإن كانت القرية غير معينة ، فالرسول من المتقدمين كهود وشعيب وغيرهما ، والعذاب ما أصابهم من الهلاك ﴿ فَكُلُواْ ﴾ وما بعده مذكور في البقرة ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ هذه الآية مخاطبة للعرب الذين احلوا أشياء وحرموا أشياء كالبحيرة وغيرها مما ذكر في سورة المائدة والنعام ، ثم يدخل فيها كل من قال : بدل من الكذب وما في قوله بما تصف موصولة ويجز أن ينتصب الكذب بقوله تصف وتكون ما على هذا مصدرية ويكون قوله هذا حلال وهذا حرام معمول لا تقولوا ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ يعني عيشهم في الدنيا أو انتفاعهم

بما فعلوه من التحليل والتحريم .

﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ يعني قوله في [الأنعام : 146] حرمنا كل ذي ظفر إلى آخر الآية ، فذكر ما حرم على المسلمين وما حرم على اليهود ، ليعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراء على الله كما فعلت العرب ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء بجهالة ﴾ هذه الآية تأنيس لجميع الناس وفتح باب التوبة .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم بكماله وجمعه لصفات الخير كقول الشاعر :

فليس على الله بمستنكر . . . أن يجمع العالم في واحد

(177/446)

والآخر : أن يكون أمة بمعنى إمام كقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] قال ابن مسعود : والأمة معلم الناس الخير ، وقد ذكر معنى القانت والحنيف ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ يعني لسان الصدق ، وأن جميع الأمم متفقون عليه ، وقيل : يعني المال والأولاد ﴿ لَمِنَ الصالحين ﴾ أي من أهل الجنة ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ﴾ نفى عنه الشرك لقصد الرد على المشركين من العرب الذين كانوا ينتمون إليه .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ أمر موسى بني إسرائيل أن يجعلوا يوم الجمعة مختصاً للعبادة فرضي بعضهم بذلك ، وقال أكثرهم : بل يكون يوم السبت ، فألزمهم الله يوم السبت ، فاختلافهم فيه هو ما ذكر والسبت على هذا هو اليوم ، وقيل اختلافهم فيه : هو أن منهم من حرم الصيد فيه ، ومنهم من أحله ، فعاقبهم الله بالمسخ قردة ، فالمعنى : إنما جعل وبال السبت على الذين اختلفوا فيه ، والسبت على هذا مصدر من سبت إذا عظم يوم السبت ، قاله الزمخشري ، وتقتضي الآية أن السبت لم يكن من ملة إبراهيم عليه السلام ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ المراد بالسبيل هنا : الإسلام ، والحكمة هي الكلام الذي يظهر صوابه ، والموعظة هي الترغيب والترهيب ، والجدال هو الردّ على المخالف ، وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدال ، وهذا الآية تقتضي مهادنة نسخت بالسيف ، وقيل : إن الدعاء إلى الله بهذه الطريقة من التلطف والرفق غير منسوخ ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الملاطفة من الكفار : وأما العصاة فهي في حقهم محكمة إلى يوم القيامة باتفاق .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ المعنى إن صنع بكم صنع سوء فافعلوا مثله ولا تزيدوا عليه ، والعقوبة في الحقيقة إنما هي الثانية ، وسميت الأولى عقوبة لمشاكلة اللفظ ، ويحتمل أن يكون عاقبتم بمعنى أصبتم عقبى : كقوله في الممتحنة فعاقبتم بمعنى غنمتم فيكون في الكلام تجنيس ، وقال الجمهور : إن الآية نزلت في شأن حمزة بن عبد المطلب لما بقر المشركون بطنه يوم أحد ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم ، فنزلت الآية فكفّر النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه وترك ما أراد من المثلة ولا خلاف أن المثلة حرام ، وقد وردت الأحاديث بذلك ؛ ويقتضي ذلك أنها مدنية ، ويحتمل أن تكون الآية عامة ، ويكون ذكرهم لحمزة على وجه المثال ، وتكون على هذا مكية كسائر السورة ؛ واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في مال ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه ، فأجاز ذلك قوم لظاهر الآية ، ومنعه مالك لقوله صلى الله عليه وسلم : أدّ الأمانة إلى من إئتمنك ، ولا تخن من خانك ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ هذا ندب إلى الصبر وترك عقوبة من أساء إليك فإن العقوبة مباحة ، وتركها أفضل ، والضمير راجع للصبر ، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم ، أو يراد به المخاطبون كأنه قال : خير لكم .

﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ هذا عزم على النبي صلى الله عليه وسلم في خاصته على الصبر ، ويروى انه قال لأصحابه أما أنا فأصبر كما أمرت ، فماذا تصنعون ؟ قالوا نصبر كما ندبنا ثم أخبره أنه لا يصبر إلا بمعونة الله ؛ وقد قيل إن ما في هذه الآية من الأمر بالصبر منسوخ بالسيف ، وهذا إن كان الصبر يراد به ترك القتال ، وأما إن كان الصبر يراد به ترك المثلة التي فعل مثلها بحمزة فذلك غير منسوخ ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا تاسف لكفرهم ﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي لا يضق صدرك بمكرهم ، والضيق بفتح الضاد تخفيف من ضيق كميت وميت ، وقرئ بالكسر وهو مصدر ، ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدران ﴿ إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا ﴾ يريد أنه معهم بمعونته ونصره ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وهذا هو الأظهر ، لأنه رتبه فوق التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 163 . 165﴾

(180/446)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ يوم ﴾ أي : اذكر يوم ﴿ تأتي كل نفس ﴾ أي : وإن عظم جرمها ﴿ تجادل ﴾ ، أي :

تحاجج ﴿ عن نفسها ﴾ أي : لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة . فإن قيل : ما معنى النفس المضافة إلى النفس ؟

أجيب : بأنه يقال لعين الشيء وذاته نفسه وفي نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هي فالنفس الأولى هي الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كلٌ يقول : نفسي نفسي ، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم : هؤلاء الذين أضلونا وما كنا مشركين . ﴿ وتوفى كل نفس ﴾ صالحة أو غير صالحة ﴿ ما عملت ﴾ أي : جزاءه من جنسه ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي : شيئاً . ولما هدّد تعالى الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هدّدهم أيضاً بآفات الدنيا وهي الوقوع في الجوع والخوف بقوله تعالى:

﴿ وضرب الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء ﴿ مثلاً ﴾ ويبدل منه ﴿ قرية ﴾ هي مكة والمراد أهلها ﴿ كانت آمنة ﴾ أي : ذات أمن ويأمن بها أهلها في زمن الخوف ، قال تعالى :

﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ (العنكبوت ،)

والأمن في مكة كان كذلك ، لأنّ العرب كان يغير بعضهم على بعض دون أهل مكة فإنهم كانوا أهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم . ﴿ مطمئنة ﴾ أي : قارة بأهلها لا يحتاجون فيها إلى نجعة وانتقال ، بسبب زيادة الأمن بكثرة العدد وقوّة

المدد وكف الله تعالى الناس عنها ووجود ما يحتاج إليه أهلها . فإن قيل : الاطمئنان هو الأمن فيلزم التكرار ؟

(181/446)

أجيب : بأنّ قوله تعالى : ﴿ آمنة ﴾ إشارة إلى الأمن وقوله تعالى : ﴿ مطمئنة ﴾ أي : لا يحتاجون فيها إلى نجعة كما مرّ ، وقيل : أشار تعالى بذلك إلى الصحة لأنّ هواء ذلك البلد كان ملائماً لأمزجتهم فلذلك اطمأنوا إليه واستقرّوا . قالت العقلاء : ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية . ﴿ يأتيها ﴾ أي : على سبيل التجدّد والاستمرار ﴿ رزقها رغداً ﴾ أي : واسعاً طيباً ﴿ من كل مكان ﴾ برّ وبحر بتيسير الله تعالى . ولما كانت السعة تجر إلى البطر غالباً نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله وأنعم جمع نعمة . قال الزمخشري : على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع . وقال قطرب : هي جمع نعم والنعم النعمة ، يقال : هذه أيام نعم وطعم فلا تصوموا ، وقيل : جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس . فإن قيل : الأنعم جمع قلة فكأنّ تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم لم يقل تعالى : كفروا بنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب ؟

أجيب : بأنّ المقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى فإن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة أولى وبأنّ الله تعالى أنعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا في إيذائه . ﴿ فأذاقها الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء ﴿ لباس الجوع ﴾ بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة ، وقيل : إنّ القرية غير مكة لأنها ضربت مثلاً لمكة ومثل مكة يكون غير مكة . ﴿ والخوف ﴾ بسرايا النبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيه : استعير الذوق لإدراك أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقول كثير عزة:

*غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً ** غلقت لضحكته رقاب المال

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه وأضاف إليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظراً إلى المستعار له ولو نظر إلى المستعار لقال : ضافي الرداء ، أي : سابغه ومعنى البيت إذا ضحك المسؤول ضحكة

أيقن السائل بذلك التبسم استرقاق رقاب ماله وأنه يعطي بلا خلاف وقد ينظر إلى المستعار له كقوله:

*ينازعني ردائي عبد عمرو ** رويدك يا أخا عمرو بن بكر

*لي الشطر الذي ملكت يميني ** ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الدراء للسيف ثم قال: فاعتجر نظراً إلى المستعار ولو نظر إلى المستعار منه لقال تعالى في الآية: وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير: ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكاً وهذا نهاية ما يقال في الاستعارة، وقال ابن عطية: لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الأعشى:

*إذا ما الضجيع ثنى جيدها ** تثنت عليه فكانت لباسا

ومثله قوله تعالى: ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ (البقرة،)

ومثله قول الشاعر:

*وقد لبست بعد الزبير مجاشع ** لباس التي حاضت ولم تغسل الدما

كأنَّ العار لما باشرهم ولصق بهم كأنهم نسوة وقوله تعالى: ﴿ فأذاقها ﴾ نظير قوله تعالى:

﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (الدخان،)

ونظير قول الشاعر: دون ما جنيت فاحس وذق.

وقوله تعالى: ﴿ بما كانوا يصنعون ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية، أي: بسبب صنعهم أو

بمعنى الذي والعائد محذوف ، أي : بسبب الذي كانوا يصنعونه والواو في يصنعون عائد على أهل البلد ، وقيل : قرية نظير قوله تعالى : ﴿ أو هم قائلون ﴾ (الأعراف ،) بعد قوله تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ (الأعراف ،)

. ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له فقال تعالى:

(183/446)

﴿ ولقد جاءهم ﴾ أي : أهل هذه القرية ﴿ رسول منهم ﴾ من نسبهم يعرفونه بأصله ونسبه وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فكذبوه فأخذهم العذاب ﴾ قال ابن عباس : يعني الجوع الذي كان بمكة ، وقيل : القتل الذي كان يوم بدر ﴿ وهم ظالمون ﴾ أي : في حال تلبسهم بالظلم كقوله تعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ (النساء ،) نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة . وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى:

﴿ فكلوا ﴾ أي : أيها المؤمنون ﴿ مما رزقكم الله ﴾ قال ابن عباس : يريد من الغنائم .

وقال الكلبي : إنّ رؤوساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا : عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان ، وكانت الميرة قد قطعت عنهم فأذن في الحمل

إليهم فحمل الطعام إليهم فقال الله تعالى : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ . وقال الرازي : والقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ يعني أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله . ﴿ حلالاً طيباً ﴾ وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم . ولما أمرهم تعالى بأكل الحلال أمرهم بشكر النعمة بقوله تعالى : ﴿ واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أي : تطيعون . تنبيه : رسمت نعمت بالتاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقف بالإمالة .

وتقدّم تفسير قوله تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فإنّ الله غفور رحيم ﴾ في سورة البقرة فلا إفادة في تفسير ذلك . وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر في الوصل بكسر النون والباقون بالضمّ .

تنبيه : حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة مذكور أيضاً في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه ﴾ (الأنعام ،)

الآية . وفي سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ (المائدة ،)

وأجمعوا على أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ هو قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله﴾ (البقرة،)

وقوله تعالى في المائدة: ﴿والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم﴾ (المائدة،)

فهذه الأشياء داخلة في الميتة. ثم قال تعالى: ﴿وما ذبح على النصب﴾ (المائدة،)

وهو أحد الأشياء الداخلة تحت قوله تعالى: ﴿وما أهل به لغير الله﴾ (البقرة،)

فثبت أنّ هذه السور الأربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الأربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان، فإنّ سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله بالمدينة، فمن أنكر حصر التحريم في هذه الأربعة إلا ما خصه الإجماع والدلائل العقلية القاطعة كان في محل أن يخشى عليه، لأنّ هذه السورة دلت على أنّ حصر المحرمات في هذه الأربعة كان مشروعاً ثابتاً في أوّل زمان مكة وآخره، وأوّل زمان المدينة وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الأربعة قطعاً للأعذار وإزالة للشبهة. ولما حصر تعالى المحرمات في هذه الأربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار وفي الزيادة على هذه الأربعة تارة وفي النقصان عنها أخرى بقوله تعالى:

﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه

فإنهم كانوا يحرّمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون : ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا ﴾ (الأنعام ،)

(185/446)

فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضاً في المحللات لأنهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فبيّن تعالى أنّ المحرمات هي هذه الأربعة وبين أن الأشياء التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تعالى . تنبيه : في انتصاب الكذب وجهان ؛ أحدهما : قال الكسائي : ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال : لا تقولوا لكذا وكذا كذا وكذا . فإن قيل : حمل الآية على هذا يؤدّي إلى التكرار لأنّ قوله تعالى : ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ عين ذلك ؟ أجيب : بأنّ قوله تعالى : ﴿ لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ ليس فيه بيان أنه كذب على الله فأعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد . ونظيره في القرآن كثير ، وهو أنه تعالى يذكر كلاماً ويعيده بعينه مع فائدة زائدة . الثاني : أن تكون ما موصولة والتقدير : ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام ، وحذف لفظ فيه لكونه معلوماً ، وقيل : اللام في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله تعالى : ﴿ ليكون لهم عدوّاً وحزناً ﴾

(القصص ،)

. فإن قيل : ما معنى وصف ألسنتكم الكذب ؟

أجيب : بأنّ ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه وإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته ، كقولهم : وجهها يصف الجمال ، أي : هي جميلة ، وعينها تصف السحر ، أي : هي ساحرة فلما أرادوا المبالغة في وصف الوجه بالجمال ووصف العين بالسحر عبروا بذلك .

ثم إنه تعالى أوعد المفترين بقوله تعالى : ﴿ إنّ الذين يفترون على الله ﴾ أي : الذي له الملك كله ﴿ الكذب ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ لا يفلحون ﴾ أي : لا يفوزون بخير لأن المفتري يفتري لتحصيل مطلوب فنفى الله تعالى عنه الفلاح ، لأنه الفوز بالخير والنجاح . ثم بين تعالى أن ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب بقوله تعالى :

﴿ متاع قليل ﴾ أي : منفعة قليلة تنقطع عن قرب لفنائه وإن امتدّ ألف عام ﴿ ولهم ﴾ بعده ﴿ عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم في الآخرة . ولما بين تعالى ما يحل ويحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ما يخص اليهودية من المحرمات بقوله تعالى :

﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ أي : اليهود ﴿ حرّمنا ﴾ عليهم عقوبة لهم بعداوتهم وكذبهم على ربهم ﴿ ما قصصنا عليك ﴾ يا أجل المرسلين ﴿ من قبل ﴾ أي : في سورة الأنعام وهو قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ﴾ (الأنعام ،)

الآية . ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي : بتحريم ذلك عليهم ﴿ ولكن كانوا ﴾ أي : دائماً طبعاً لهم وخلقاً مستمرًّا ﴿ أنفسهم ﴾ خاصة ﴿ يظلمون ﴾ بالبغي والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملنا كم أنتم حيث ظلمتم بالفضل فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة .

ولما بيّن تعالى هذه النعمة الدنيوية عطف عليها نعمة هي أكبر منها جدًّا استجلاباً لكل ظالم ، وبين عظمتها بحرف التراخي فقال تعالى:

(187/446)

﴿ ثم إن ربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ للذين عملوا السوء ﴾ وهو يتناول كل ما لا ينبغي فعله فيشمل الكفر وسائر المعاصي ﴿ بجهالة ﴾ أي : بسببها أو ملتبسين بها ليعمّ الجهل بالله وبقضائه وعدم التدبر في العواقب ، فكل من عمل سوءاً إنما يفعله بالجهالة ، أما الكفر فلأن أحداً لا يرضى به مع العلم بكونه كفراً لأنه لو لم يعتقد كونه حقاً فإنه لا يختاره ولا يرتضيه ، وأما المعصية فلأن العالم لم تصدر منه المعصية ما لم تصر الشهوة غالبة للعقل ،

فثبت أنّ كل من عمل السوء فإنما يقدم عليه بسبب الجهالة . ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك ﴾ أي : الذنب ولو كان عظيماً واقتصروا على ما أذن فيه خالقهم ﴿ وأصلحوا ﴾ بالاستمرار على ذلك ﴿ إن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بتسهيل دينك وتيسيره ﴿ من بعدها ﴾ أي : التوبة ﴿ لغفور ﴾ أي : بليغ الستر لما عملوا من السوء ﴿ رحيم ﴾ أي : بليغ الرحمة محسن بالإكرام فضلاً منه ونعمة . ولما دعاهم الله تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهاهم عن مساوئها بقبوله لمن أقبل إليه وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام رئيس الموحدين لا جرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات . الصفة الأولى : قوله تعالى:

﴿ إن إبراهيم كان أمّة ﴾ أي : لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرّقة في أشخاص كثيرة كقول القائل:

وليس لله ، أي : من الله ـ بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

أي أن يجمع صفاتهم في شخص واحد . وقال مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كلهم كانوا كفاراً فلهذا المعنى كان وحده أمّة واحدة . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل : "يبعثه الله امّة واحدة" . وعن شهر بن حوشب لم تبق الأرض إلا وفيها

أربعة عشر يدفع الله تعالى بهم عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم فإنه كان وحده ، وقيل : أمّة فعلة بمعنى مفعول كالدخلة والنخبة من أمّه إذا قصده واقتدى به ، فإنّ الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيره كقوله تعالى : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ (البقرة ،)

. وقرأ هشام أن إبراهام وملة إبراهام بالألف بعد الهاء فيهما . وقرأ الباقون بالياء فيهما .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ قانتاً لله ﴾ أي : مطيعاً له قائماً بأوامره . الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ حنيفاً ﴾ أي : مائلاً عن الباطل ، قال ابن عباس : إنه أوّل من اختتن ، وأقام مناسك الحج ، وضحى وهذه السنة الحنيفية . الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ أي : أنه عليه الصلاة والسلام كان من الموحدين في الصغر والكبر ، وقد أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ (الأنعام ،)

ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أنّ القوم ألقوه في النار وذلك دليل إثبات الصانع مع ملك زمانه ، وهو قوله : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ (البقرة ،)

. ثم طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى ليحصل له زيادة الطمأنينة . قال الرازي : ومن وقف على علم القرآن علم أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان غريقاً في بحر علم التوحيد . الصفة الخامسة : قوله تعالى:

﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ فإن قيل : لفظ الأنعم جمع قلة ونعمة الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال : ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ ؟

أجيب : بأنه ذكر القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة . وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يتغدّى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداءه فإذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذاماً فقال لهم : الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم بهذا البلاء . الصفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ اجتباه ﴾ أي : اصطفاه للنبوّة واختاره لخلقه . الصفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ أي : وهداه إلى دين الإسلام لأنه الصراط المستقيم ، والدين القويم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ (الأنعام ،) . الصفة الثامنة : قوله تعالى:

﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ قال قتادة : حببه للناس حتى أنّ أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه ، وأمّا المسلمون واليهود والنصارى فظاهر ، وأمّا كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم إلا به وتحقيق القول أنّ الله تعالى أجاب دعاءه في قوله : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ (الشعراء ،)

وقال آخرون : هو قول المصلي منا كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . وقيل :

أولاداً أبراراً على الكبر. الصفة التاسعة: قوله تعالى: ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ في الجنة. فإن قيل: لم لم يقل تعالى في أعلى مقامات الصالحين ؟

أجيب: بأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ (الشعراء،)

فقال تعالى هنا: ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ تنبيهاً على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم إنّ كونه من الصالحين لا ينفي أن يكون في أعلى مقامات الصالحين، فإنّ الله تعالى بيّن ذلك في آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ (الأنعام،)

(190/446)

. ولما وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في أتباعه مشيراً إلى علو مرتبته بحرف التراخي بقوله تعالى:

﴿ ثم أوحينا إليك ﴾ يا أشرف الرسل. وقيل: أتي بثم للتراخي، أي: لتراخي أيامه عن أيام إبراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام. ﴿ أن اتّبع ملة إبراهيم ﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرّة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه، ولا بعد

في أن يفهم ذلك الهجرة أيضاً . وقيل : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم مأموراً بشريعة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعاً له وقوله تعالى : ﴿ حنيفاً ﴾ حال من النبيّ صلى الله عليه وسلم ويصح أن يكون حالاً من إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالى : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ كرّره ردًّا على من زعم من اليهود والنصارى أنهم على دينه ، وقوله سبحانه وتعالى:

(191/446)

﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ فيه قولان : الأوّل : روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا : لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من الخلق ، وهو يوم السبت فجعل عليهم السبت وشدّد عليهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام أيضاً بالجمعة فقالت النصارى : لا نريد أن يكون عيدهم ، أي : اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الأحد . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن الله تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد" . فإن قيل

: هل في العقل وجه يدل على أنّ الجمعة أفضل من السبت والأحد فإن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين في يوم الأحد وتمم في يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود : نحن نوافق ربنا في ترك الأعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى . وقالت النصارى : مبدأ الخلق والتكوين يوم الأحد فنجعل هذا اليوم عيدنا فهذان الوجهان معقولان لنا فما وجه جعل يوم الجمعة عيداً ؟

(192/446)

أجيب : بأنّ يوم الجمعة هو يوم التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه . القول الثاني : اختلافهم في السبت هو أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة . ﴿ وإن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بطواعية أصحابك لك ، ﴿ ليحكم بينهم ﴾ أي : هؤلاء المختلفين ﴿ يوم القيامة ﴾ وهو يوم اجتماع جميع الخلائق ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب . ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم باتباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام بين الشيء الذي

(193/446)

أمره بمتابعته فيه بقوله تعالى: ﴿ ادع ﴾ أي: كل من تمكن دعوته ممن بعثت إليه ﴿ إلى سبيل ربك ﴾ أي: المحسن إليك بتسهيل السبيل الذي تدعو إليه واتساعه وهو الإسلام الذي هو الملة الحنيفية ﴿ بالحكمة ﴾ أي: المعاملة المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ أي: بالدعاء إلى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المتقنة والعبارات النافعة. والأولى لدعوى خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوى عوامهم ﴿ وجادلهم ﴾ أي: وجادل معانديهم ﴿ بالتي ﴾ أي: بالمجادلة التي ﴿ هي أحسن ﴾ كالدعاء إلى الله تعالى بآياته والدعاء إلى حججه بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظ ولا تعسف فإن ذلك أنفع في تسكين لهبهم، وتبيين شبههم، وقيل: المراد بالحكمة القرآن، أي: ادعهم بالقرآن والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة، وفي الأمر بالمجادلة التي هي أحسن الإعراض عن أذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق وعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير: هذا منسوخ بآية السيف، وقيل: إنّ الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام: القسم الأوّل: العلماء الكاملون وهم أصحاب العلوم الصحيحة والبصائر الشافية الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ أي: ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها وينفعوا الناس وهم خواص

العلماء من الصحابة وغيرهم . القسم الثاني : أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الأصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان فهم أوسط الأقسام وهم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ أي : ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة . القسم الثالث : أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي أحسن ﴾ أي : حتى ينقادوا إلى الحق ويرجعوا إليه .

(194/446)

﴿ إن ربك ﴾ المحسن إليك بالتخفيف عنك ﴿ هو أعلم ﴾ أي : من كل من يتوهم فيه علم ﴿ بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي : فهو سبحانه وتعالى أعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب في حديد بارد فما عليك إلا البلاغ والدعوة ، وأمّا حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك إليك ، وهذا قبل الأمر بالقتال . وذكر في قوله تعالى:

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أقوال : أحدها : وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء وأبي بن كعب والشعبي : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه ، وأخذت

هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها ، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أما أنها لو أكلته لم تدخل النار أبداً ، حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئاً من جسده النار ، فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه نظر إلى شيء لم ينظر إلى شي قط أوجع لقلبه منه فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فإني ما علمتك إلا فعالاً للخيرات ، وصولاً للرحم ، ولولا حزن من بعدك عليك لسرّني أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى ، أما والله لئن ظفرني الله بهم لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك فنزلت ، فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراد وكفر عن يمينه" . وقال المسلمون أيضاً : لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به إلا حنظلة بن الراهب فإنّ أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك : لئن ظفرنا عليهم لنزيدنّ عليهم يعني على صنيعهم ولنمثلنّ بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد .

القول الثاني : أنّ هذا كان قبل الأمر بالسيف والجهاد حتى كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدؤوا بالقتال وهو قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ﴾ (البقرة ،)

وفي هذه الآية أمر الله تعالى أن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا . القول الثالث : أنّ المقصود من هذه الآية نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعي وابن سيرين. قال الرازي : وحمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله ، وهو غاية البعد بل الأصوب عندي أن يقال : إنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق إلى الدين الحق بإحدى الطرق الثلاثة وهي : الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الأحسن ، ثم إنّ تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يشوّش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانياً وبالشتم ثالثاً .r

ثم إنّ ذلك الداعي المحق إذا سمع تلك السفاهات لا بدّ وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه .

فإن قيل : فهل تقدحون فيما روي أنه عليه الصلاة والسلام ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية ؟

(196/446)

أجيب : بأنه لا حاجة إلى القدح في تلك الرواية لأنّ تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية وذلك لا يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى . تنبيه : أمر الله تعالى برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية ، ورتب ذلك على أربع مراتب المرتبة الأولى : قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أي : إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ، ولا تزيدوا عليه فإنّ استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله تعالى ورحمته ، وفي قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ دليل على أنّ الأولى له أن لا يفعل كما أنك إذا قلت للمريض : إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه : أنّ الأولى بك أن لا تأكله فذكر تعالى بطريق الرمز ، والتعريض أنّ الأولى تركه . المرتبة الثانية : الانتقال من التعريض إلى التصريح وهو قوله تعالى : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ وهذا تصريح بأنّ الأولى ترك ذلك الانتقام لأنّ الرحمة أفضل من القسوة والانتفاع أفضل من الانتقام . وقرأ لهو قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون

الهاء والباقون برفعها . المرتبة الثالثة : هو الأمر الجازم بالترك وهو قوله تعالى:

﴿ واصبر ﴾ لأنه في المرتبة الثانية ذكر أنّ الترك خير وأولى وفي هذه المرتبة الثالثة : صرّح بالأمر بالصبر في هذا المقام . ولما كان الصبر في هذا المقام شديداً شاقاً ذكر بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى : ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي شرع لك هذا الشرع الأقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الأصلي . ثم ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي : في شدّة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس ﴿ ولا تك في ضيق ﴾ ولو قل كما لوّح إليه بتنوين التحقير ﴿ مما يمكرون ﴾ أي : من استمرار مكرهم بك ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (الحجر ،)

(197/446)

وكأنك به وقد أتى فاصبر فإنّ الله معزك ومظهر دينك . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بنصبها . تنبيه : هذا من الكلام المقلوب لأنّ الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلاً في الصفة فكان المعنى : ولا يكن الضيق فيك إلا أنّ الفائدة في قوله تعالى : ﴿ ولا تك في ضيق ﴾ هو أنّ الضيق إذا عظم وقوي صار

كالشيء المحيط بالإنسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى . المرتبة الرابعة : قوله تعالى:

(198/446)

﴿ إنّ الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه ﴿ مع الذين اتقوا ﴾ أي : وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصي ﴿ والذين هم محسنون ﴾ في أعمالهم والشفقة على خلقه ، وهذا يجري مجرى التهديد لأنّ في المرتبة الأولى رغبة في ترك الانتقام على سبيل الرمز ، وفي الثانية عدل عن الرمز إلى التصريح وهو قوله تعالى : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ . وفي المرتبة الثالثة : أمر بالصبر على سبيل الجزم ، وفي هذه المرتبة الرابعة : كأنه ذكر الوعيد على فعل الانتقام فقال : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ﴾ أي : عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون أي : في ترك أصل الانتقام فكأنه تعالى قال : إن أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفي قوله تعالى : ﴿ اتقوا ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وفي قوله : ﴿ والذين هم محسنون ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حبان عند قرب وفاته أوص فقال : إنّ الوصية في المال ولا مال لي ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل . تنبيه : قال بعضهم : إنّ

قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى ﴿ لهو خير للصابرين ﴾ منسوخ بآية السيف . قال الرازي : وهذا في غاية البعد ، لأنّ المقصود من هذه الآية تعليم حسن الأدب في كيفية الدعوى إلى الله تعالى وترك التعدّي وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الأشياء بآية السيف . وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية" . حديث موضوع .

قال الرازي : في آخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب : الحق عزيز ، والطريق بعيد ، والمركب ضعيف ، والقرب بعد ، والوصل هجر ، والحقائق مصونة ، والمعالي في غيب الغيب مكنونة ، والأسرار فيما وراء أقفال العزة مخزونة ، وبيد الخلق القيل والقال ، والكمال ليس إلا لله تعالى ذي الإكرام والجلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 381 .393 ﴾

وقال القاسمي :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾

منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) واليوم يوم القيامة . ومعنى : ﴿ تُجَادِلُ ﴾ أي : تحاجّ وتسعى في خلاصها . لا يهمها إلا ذاتها وشأنها . ولا يغني عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شيء ما : ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي : من خير وشر : ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ في ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [112 - 113] .

﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

اعلم أنه لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة ، أنذرهم بنقمته في الدنيا أيضاً بالجوع والخوف . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ أي : جعل القرية التي هذه

حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نقمته . فيدخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدرة بهذه الصفة غير معنية ؛ إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن (ضرب) معنى (جعل) و (مثلاً) مفعول ثان ، و (قريةً) مفعول أول .

(201/446)

قال أبو السعود : وتأخير (قرية) مع كونها مفعولاً أول ؛ لئلا يحول المفعول الثاني بينها وبين صفتها وما يترتب عليها ؛ إذ التأخير عن الكل مخلّ بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها . ولأن تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقباً لوروده ، وتشوقاً إليه . لا سيما إذا كان في المقدم ما يدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل . فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن . والمراد بالقرية : أهلها مجازاً ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها : ﴿ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ أنه لا يزعجها خوف . و (الرغد) الواسع . و (الأنعم) جمع نعمة .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم ، باللباس الغاشي للابس . فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذاقة

المستعارة ؛ لمطلق الإيصال المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكي اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها في ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة .

(202/446)

قال ابن كثير : هذا مثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ﴾ [القصص : 57] وهكذا قال ها هنا ، و : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً ﴾ أي : هنيئاً سهلاً : ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ ﴾ أي : جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : 28 - 29] ، ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما ، فقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ أي : ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا خلافه ، فدعا

عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلهز : (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) وقوله : ﴿ والْخَوْفِ ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله فيهم منهم . وامتن به عليهم في قوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عِمْرَان : 164] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ

(203/446)

آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً ﴾ [الطلاق : 10] ، وقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة : 151] ، إلى قوله : ﴿ وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ؛ بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، ورزقهم بعد العَيْلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم . انتهى .

ثم بيّن تعالى ضلال المشركين في تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ، مفصلاً

ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرمونه بأهوائهم . وهو مأذون بأكله كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [114] .

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ ﴾ أي : من الحرث والأنعام : ﴿ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي : تريدون عبادته فاستحلوها ، فإن عبادته في تحليلها .

واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [115] .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ ﴾ أي : ذبح على اسم غيره تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي : أجهد إلى ما حرم الله : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ﴾ أي :

متعد قدر الضرورة وسد الرمق : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : فلا يؤاخذه بذلك .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية . فأغنى عن إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم ، في البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها ، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [116 - 117] .

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أي : لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم : ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ من غير استناد ذلك الوصف

إلى وحي من الله . فـ (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله : ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ بدل من (الكذب) واللام صلة للقول ، كما يقال : لا تقل للنبيذ إنه حلال ، أي : في شأنه وحقه . فهي للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لا حكم مصمم عليه . أو : ﴿ هَذا حَلال ﴾ مفعول (تقولوا) و (الكذب) مفعول (تصف) واللام في : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ تعليلية ، و (ما) مصدرية . ومعنى تصف : تذكر . وقوله : ﴿ لِّتَفْتَرُواْ ﴾ بدل من التعليل الأول . أي : لا تقولوا : هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب ، أي : لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة . وليس بتكرار مع قوله : ﴿ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ ﴾ لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم ، لتمرنهم على الكذب ، اجترؤوا على الكذب على الله ، فنسبوا ما حللوه وحوموه إليه . وعلى هذا الوجه – كون الكذب مفعول (تصف) – ففي وصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب ؛ لجعله عين الكذب . ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ، حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها ، فـ (تصف) بمعنى توضح . فهو بمنزلة الحد والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب . فالتعريف في الكذب للجنس . كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته ، وعليه قول المعري :

~سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

ونحوه : (نهاره صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص ؛ لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه . و (وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق ، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه ، الذي يعرف منه . حتى كأنه يصفه ويعرِّفه ، كقوله :

(206/446)

~أضحت يمنيك من جود مصورة لا بل يمنيك منها صور الجود

فهو من الإسناد المجازي . أو نقول : إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال . فهو استعارة مكنية . كأنه يقول : ما بي هو الجمال بعينه ، ومثله ورد في كلام العرب والعجم . هذا زبدة ما في " شروح الكشاف " .

وما في الآية أبلغ من المثال المذكور ، لما سمعت . أفاده في " العناية " . واللام في : ﴿ لِتَفْتَرُوا ﴾ لام الصيرورة والعاقبة المستعارة من التعليلية ؛ إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا ، بل لأغراض آخر يترتب عليها ما ذكر . وجوَّز كونها تعليلية ، وقصدهم لذلك غير بعيد .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ الآية . وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يعتد له لا في الدنيا ولا في الآخرة . أما في الدنيا ، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب . وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ

نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [لقمان : 24] .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي أو حلل شيئاً مما حرم الله . أو حرَّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيه .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : فرأت هذه الآية في سورة النحل ، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا .

قال في " فتح البيان " : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله ، أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يقع كثيراً من المُؤْثِرِين للرأي المقدمين له على الرواية ، أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت ، أو يقول : إن الله حرَّم كذا وأحلَّ كذا : فيقول الله له : كذبت .

قال ابن العربي : كره مالك وقوم أن يقول المفتي : هذا حلال وهذا حرام في المسائل الاجتهادية ، وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه ، ويقال في المسائل الاجتهادية : إني أكره كذا وكذا ، ونحو ذلك .

ولما ذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ ، بيّن ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم مما ليس فيه أيضاً شيء مما حرمه المشركون ؛ تحقيقاً لافترائهم بأن ما حظروه لا سند له في شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [118 - 119] .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ ﴾ يعني اليهود : ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ [الأنعام : 146] الآية ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي : فيما حرمنا عليهم : ﴿ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : فاستحقوا ذلك . كقوله : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [النساء : 160] . وقد سلف لنا ما ذكروه في تفسيرها مما يجيء

هنا ، فتذكر . قالوا : في الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلا ما فيه مضرة لها . وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود .

(208/446)

ثم بيّن تعالى عظيم فضله في قبول توبة من تاب من العصاة بقوله :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾ أي : العمل فيما بينهم وبين ربهم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي : التوبة : ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاء لهم إلى سلوك طريقته في التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لمقامه ، مما كانوا يفترون عليه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [120 - 121] .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أي : إماماً يقتدى به ، كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] . أو كان وحده أمة من الأمم ؛ لاستجماعه كمالات لا توجد

في غيره : ﴿ قَانِتاً لِّلّهِ ﴾ أي : خاشعاً مطيعاً له ، قائماً بما أمره : ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي : مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أي : قائماً بشكر نعم الله عليه ، مستعملاً لها على الوجه الذي ينبغي ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : 37] ، أي : قام بجميع ما أمره الله تعالى به : ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أي : اختاره واصطفاه للنبوة : ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، على شرع مرضي .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [122 - 123] .

(209/446)

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي : من الذكر الجميل ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : 50] ، ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصافات : 108 - 109] ، ومن تمتيعه بالحظوظ ليتقوى على القيام بحقوق العبودية : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ ﴾ أي : في عالم الأرواح : ﴿ لَمِنَ

الصَّالِحِينَ ﴾ أي : المتمكنين في مقام الاستقامة ، بإيفاء كل ذي حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا في الجنة .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : بعد هذه الكرامات والحسنات التي أعطيناه إياها في الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، بإتباعك إياه في التوحيد وأصول الدين التي لا تتغير في الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها ، لا في فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها ، فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانِيّ .

وفي " الإكليل " : استدل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

لطيفة :

قال الزمخشري : في : ﴿ ثُمَّ ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم من الكرامة ، وأجلِّ ما أولي من النعمة ؛ إتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة ، من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها .

قال الناصر : وإنما تفيد ذلك : ﴿ ثم ﴾ لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان . ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته أشمخ محلاًّ مما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى وها هنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبةً ، وأبعد رفعةً ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم الأمي ، الذي هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، مأمور بإتباعه بالوحي ، متلوًّا أمره بذلك في القرآن العظيم . ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً . لكن نصيب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر ، على ما مهدناه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [124] .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يعني اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فيه واحتالوا لحلّه .

قال القاشاني : أي : ما فرض عليك ، إنما فرض عليهم . فلا يلزمك إتباع موسى في ذلك ،

بل إتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : بالمجازاة على اختلافهم ، يعني إفسادهم وزيغهم عن طريق الحق .

ثم بيَّن تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [125] .

(211/446)

﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾ أي : بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة : ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ أي : العبر اللطيفة والوقائع المخيفة ، ليحذروا بأسه تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي : جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة ، من الرفق واللين ، وحسن الخطاب ، من غير عنف ، فإن ذلك أبلغ في تسكين لهبهم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة ، فلا تذهب نفسك على من ضلَّ منهم حسرات ، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ ؛ لأنه هو أعلم بمن يبقى على

الضلال وبمن يهتدي إليه ، فيجازي كلاً منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلّي . فما شرعه لك في الدعوة ، هو الذي تقتضيه الحكمة . فإنه كاف في هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلَّ قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة ، وإتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [126] .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ أي : الزموا سيرة العدالة ، لا تجاوزوها . فإنها أقل درجات كمالكم . فإن كان لكم قدم في الفتوة ، وعرق راسخ في الفضل والكرم والمروءة ؛ فاتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ، وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ ألا تراه كيف أكده بالقسم واللام في جوابه ، وترك المضمر إلى المظهر حيث ما قال : (لَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) بل قال : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر . فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتكدر بظهور صفة النفس . وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه . فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس . وتنكسر سورة غضبه فيصلح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسيء بسورة الغضب بأكثر مما جنى عليكم فتظلموا ، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها ، فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجاني . أفاده القاشانِيّ .

تنبيهات :

الأول : في " الإكليل " : قال ابن العربي : في الآية جواز المماثلة في القصاص خلافاً لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسألة الظفر ، كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين والنخعي ؛ أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النَّخَعِي : سئل عن الرجل يخون الرجل ثم يقع له في يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية . ولفظ

ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير : وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

فعمومها يشمل العدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق .

(213/446)

الثاني : قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد ، حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثِّلَ به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم > . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسم . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، حين استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه ، وقد مُثِّلَ به . فقال : < رحمة الله عليك . إن كنتَ لما علمتُ ، لوصولاً للرحم ،

فعولاً للخيرات . والله لولا حزنٌ من بعدك عليك ، لسرَّني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع . (أو كلمة نحوها) . أما والله ! على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك > . فنزلت هذه الآية . فكفَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعني عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف ؛ لأن صالحاً (أحد رواته) هو ابن بشير المريّ ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخاري : هو منكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أُبَيِّ بن كعب ، قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمَّنَ الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فنزلت الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < نصبر ولا نعاقب > .

(214/446)

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول - في مقدمة التفسير - يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة ؛ ولا إلى ما روي من هذه الآثار ؛ إذ به يتضح عدم

التنافي، والتقاء الآثار مع الآية فتذكَّره .

الثالث: قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: 40] . ثم قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: 40] الآية .

وقال: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: 45] ثم قال: ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: 45] انتهى .

ثم أكد تعالى الأمر بالصبر، ليقوي الثبات والاحتمال، لكل ما يلاقيه في سبيل الحق، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [127 - 128] .

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي: بمعونته وتوفيقه: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على الكافرين، أي: على كفرهم وعدم هدايتهم: ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي: في ضيق صدر مما يمكرون من فنون المكايد

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ تعليل لما قبله . أي : فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم ؛ لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلؤهم ويظهرهم على أعدائهم . قال ابن كثير : هذه مَعِيَّة خاصة كقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : 12] . وقوله لموسى وهارون : ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : 46] . وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم ﴾ [الحديد : 4] ، وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : 7] .

قال أبو السعود : تكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه ، من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث . كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية . والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين ، وهو صلى الله عليه وسلم داخل في زمرتهم دخولاً أولياً . وإما هو صلى الله عليه وسلم ومن شايعه . عبَّر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناءً عليهم بالنعتين الجميلين . وفيه رمز إلى أن صنيعه صلى الله عليه وسلم مستتبع لإقتداء الأمة به ، كقول من قال لابن عباس رضي الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

~اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الرَّاسِ

وبعد هذا البيت :

~خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

قال ابن عباس : ما عزاني أحد من تعزيته .

وعن هَرِم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ، فلا مال لي . وأوصيكم بخواتيم سورة النحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 444.432 ﴾

(216/446)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) ﴾

سبق أن ضرب الله في هذه السورة مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة . وهو يضرب هنا مثلا لتصوير حال مكة ، وقومها المشركين ، الذين جحدوا نعمة الله عليهم . لينظروا المصير الذي يتهددهم من خلال المثل الذي يضربه لهم .

ومن ذكر النعمة في المثل ، وهي نعمة الرزق الرغد مع الأمن والطمأنينة ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التي يحرمونها عليهم اتباعا لأوهام الوثنية ، وقد أحلها الله لهم ، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها . وذلك لون من الكفر بنعمة الله ، وعدم القيام بشكرها .

يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله ، وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة .

وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث ، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات . بسبب ظلمهم . جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرما على آبائهم في عهد إبراهيم الذي كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده ، حتى حرم الله بعضها على اليهود في صورة عقوبة لهم خاصة . ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم . ثم جاء دين محمد امتدادا واتباعا لدين إبراهيم ، فعادت الطيبات حلالا كلها . وكذلك السبت الذي منع فيه اليهود من الصيد . فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية الكريم .

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. وأن يجادلهم بالتي هي أحسن. وأن يلتزم قاعدة العدل في رد الاعتداء بمثله دون تجاوز.. والصبر والعفو خير. والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين لأن الله معهم، ينصرهم ويرعاهم ويهديهم طريق الخير والفلاح.

﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه، فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾..

وهي حال أشبه شيء بحال مكة. جعل الله فيها البيت، وجعلها بلدا حراما من دخله فهو آمن مطمئن، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو في جوار بيت الله الكريم. وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة في حراسته وحمايته آمنون مطمئنون. كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة، مع أنهم في واد قفر جدب غير ذي زرع، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شيء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل.

ثم إذا رسول منهم، يعرفونه صادقا أمينا، ولا يعرف عنه ما يشين، يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين، دينه دين إبراهيم باني البيت الذي ينعمون في جواره بالأمن والطمأنينة والعيش الرغيد؛ فإذا هم يكذبونه، ويفترون عليه الافتراءات، وينزلون به وبمن اتبعوه

الأذى . وهم ظالمون .

والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم ، وعاقبة المثل أمامهم . مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، وكذبت رسوله ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون .

(218/446)

ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا ؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ، لأن الذوق أعمق أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد . وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس . لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون .

وفي ظل هذا المثل الذي تخايل فيه النعمة والرزق ، كما يخايل فيه المنع والحرمان ، يأمرهم بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكر الله على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله ، وأن يخلصوا له العبودية خالصة من الشرك ، الذي يوحي إليهم بتحريم بعض الطيبات على أنفسهم باسم الآلهة المدعاة :

﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

ويحدد لهم المحرمات على سبيل الحصر . وليس منها ما يحرمونه على أنفسهم من رزق الله من بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حام :

﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ﴾ . . وهي محرمة إما لأن فيها أذى للجسم والحس كالميتة والدم ولحم الخنزير ، أو أذى للنفس والعقيدة كالذي توجه به ذابحه لغير الله . ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴾ فهذا الدين يسر لا عسر . ومن خاف على نفسه الموت أو المرض من الجوع والظمأ فلا عليه أن يتناول من هذه المحرمات قدر ما يدفع الضرر (على خلاف فقهي ذكرناه من قبل) غير باغ على مبدأ التحريم ولا متجاوز قدر الضرورة التي أباحت المحظور .

ذلك حد الحلال والحرام الذي شرعه الله في المطعومات ، فلا تخالفوه اتباعاً لأوهام الوثنية ، ولا تكذبوا فتدعوا تحريم ما أحله الله . فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله . فهما تشريع . والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر . وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر ، والمفترون على الله لا يفلحون :

﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾ . .

لا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم وتحكيه : هذا حلال وهذا حرام .

فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه ، الذي تفترونه على الله .

والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا ومن ورائه العذاب الأليم ، والخيبة والخسران . .

ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله ، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين ، وينتظرون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله !

فأما ما حرمه الله على اليهود في قوله من قبل في سورة الأنعام . ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ﴾ فقد كان عقوبة خاصة بهم لا تسري على المسلمين :

﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ . .

ولقد استحق اليهود تحريم هذه الطيبات عليهم بسبب تجاوزهم الحد ومعصيتهم لله .

فكانوا ظالمين لأنفسهم لم يظلمهم الله . فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية

، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ؛ ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل فإن غفران الله يسعه ورحمته تشمله . والنص عام يشمل التائبين العاملين من اليهود المذنبين وغيرهم إلى يوم الدين .

(220/446)

وبمناسبة ما حرم على اليهود خاصة ، ومناسبة ادعاء مشركي قريش أنهم على ملة إبراهيم فيما يحرمونه على أنفسهم ويجعلونه للآلهة ، يعرج السياق على إبراهيم عليه السلام يجلو حقيقة ديانته ، ويربط بينها وبين الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويبين ما اختص به اليهود من المحظورات التي لم تكن على عهد إبراهيم .

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ؛ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

والقرآن الكريم يرسم إبراهيم عليه السلام نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله . ويقول عنه هنا : إنه كان أمة . واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة . ويحتمل أنه كان إماماً يقتدى به في الخير . وورد في التفسير المأثور هذا المعنى

وذاك . وهما قريبان فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد .

﴿ قانتاً لله ﴾ طائعاً خاشعاً عابداً ﴿ حنيفاً ﴾ متجها إلى الحق مائلاً إليه ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون ! ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ بالقول والعمل . لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولاً ، ويكفرونها عملاً ، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون من الشركاء ، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعاً للأوهام والأهواء . ﴿ اجتباه ﴾ اختاره ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ هو صراط التوحيد الخالص القويم .

(221/446)

ذلك شأن إبراهيم الذي يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون . ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد ، ويؤكدها النص من جديد على أن إبراهيم ﴿ وما كان من المشركين ﴾ فالصلة الحقيقية هي صلة الدين الجديد . فأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه ، وليس من ديانة إبراهيم ، وليس كذلك من دين محمد السائر على نهج إبراهيم : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ وأمرهم موكول إلى الله ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم

القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

ذلك بيان المشتبهات في العلاقة بين عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم من قبل ، وكملت في الدين الأخير ، والعقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود . وهو بعض ما جاء هذا الكتاب لتبيانه . فليأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في طريقه يدعو إلى سبيل ربه دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن . فإذا اعتدوا عليه وعلى المسلمين عاقبهم بمثل ما اعتدوا . إلا أن يعفو ويصبر مع المقدرة على العقاب بالمثل ؛ مطمئناً إلى أن العاقبة للمتقين المحسنين . فلا يحزن على من لا يهتدون ، ولا يضيق صدره بمكرهم به وبالمؤمنين :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ﴾ . .

على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ، ويعين وسائلها وطرائقها ، ويرسم المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن .

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله . لا لشخص الداعي ولا لقومه . فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله ، لا فضل له يتحدث به ، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به ، وأجره بعد ذلك على الله .

والدعوة بالحكمة ، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها .

فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه .

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية . فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

وبالجدل بالتي هي أحسن . بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح . حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق .

فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق ، حتى لا تشعر بالهزيمة ، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند

الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها . والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها ، والاهتداء إليها . في سبيل الله ، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر !

ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة .

فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير ، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق ، ودفعاً لغلبة الباطل ، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع ، فالإسلام دين العدل والاعتدال ، ودين السلم والمسالمة ، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ . وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه . فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل

يحفظ لها كرامتها وعزتها ، فلا تهون في نفوس الناس . والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد ، ولا يثق أنها دعوة الله . فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها ، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله والعزة لله جميعاً . ثم إنهم أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس ، وقيادة البشرية إلى الطريق القويم ، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون ، ويعتدى عليهم فلا يردون ؟ ! .

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر ، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان ، في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً .

وأكثر فائدة للدعوة . فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر . فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها ، فالقاعدة الأولى هي الأولى .

ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة ، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ . . فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره .

ويوصي القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم وهي وصية لكل داعية من بعده ، الا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون ، فإنما عليه واجبه يؤديه ، والهدى والضلال بيد الله ، وفق سننه في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال . وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله ، فالله حافظه من المكر والكيد ، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئاً لنفسه . .

ولقد يقع به الاذى لامتحان صبره ، ويبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه ، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون .

هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمه الله . والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله . ومن أصدق من الله ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2198 . 2203 ﴾

(225/446)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وإذا بدلنا آية ﴾ إنه تعالى يعالج بدواء القرآن أمراض القلوب في كل وقت بنوع آخر على حسب ما يعلمه من المصالح فلذلك قال : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ الذين استسلموا للطبيب ومعالجته حتى صارت قلوبهم سليمة . ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ففيه إنكار أن طب القلوب وعلاجها من شأن البشر بنظر العقل لأنه مبني على معرفة الأمراض وكميتها وكيفيتها ، ومعرفة الأدوية وخواصها وكيفية استعمالها ، ومعرفة الأمزجة واختلاف أحوالها ، وأن القلوب بيد الله يقلبها هو كيف يشاء فيضيق عن معالجتها نطاق عقول البشر ولهذا قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم :

﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ [الشعراء : 80] اللّهمّ إلا إذا علم بتعليم الله كقوله : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ [النساء : 113] ومع هذا كان يقول نحن نحكم بالظاهر ﴿ يلحدون إليه أعجمي ﴾ هو الذي لا يفهم من كلام الله أسراره وحقائقه والعربي ضده كما قال : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ [مريم : 97] ﴿ إنما يفتري الكذب ﴾ لأن الافتراء من شأن النفس الأمارة الكافرة التي لا تؤمن بآيات الله . ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ أي هم الذين استمروا على الكذب لأن المؤمن قد يكذب في بعض الأحوال إلا أنه لا يصر على

ذلك ، وهكذا في جميع المعاصي ولهذا لا يخرج من الإيمان بالكلية ولكن ينقص الكذب إيمانه ويرجع بالتوبة إلى أصله . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ إشارة إلى المريد المرتد بنسيم روائح نفحات الحق بمشام قلبه عند هبوبه ، واصطكاك أهوية عوالم الباطن ، وانخراق سحب حجب البشرية فلمع له برق أضاءت به آفاق سماء القلب وأشرقت أرض النفس ، فآمن بحقية الطلب واحتمال التعب فاستوقد نار الشوق والمحبة ، فما أضاءت ما حوله وبذل في الاجتهاد جده وحوله هبت نكباء النكبات فصدئت مرآة قلبه ، وذهب الله بنوره وانخمدت نار الطلب وآل المشؤوم إلى طبعه ﴿ إلا من أكره ﴾ على مباشرة فعل أو قول يخالف الطريقة من معاملات أهل الطبيعة فيوافقهم فيها في الظاهر ويخالفهم بالباطن حتى يخلص من شؤم صحبتهم ﴿ استحبوا ﴾ اختاروا محبة الدنيا وشهواتها على محبة الله ﴿ وإن الله لا يهدي ﴾ إلى حضرته ﴿ القوم الكافرين ﴾ بنعمته ﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ عما أعدّ الله لعباده الصالحين . ﴿ هم الخاسرون ﴾ لأن الإغضاء عن العبودية يورث خسران القلوب عن مواهب الربوبية ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ نفوسهم وهواهم ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ بمخالفة أوامر الحق ونواهيه ﴿ ثم جاهدوا ﴾ النفوس بسيوف الرياضات ﴿ وصبروا ﴾

على تزكيتها وتحليتها متمسكين بذيل إرادة الشيخ ﴿ يوم تأتي ﴾ أرباب النفوس ﴿ تجادل على نفسها ﴾ على قدر بقاء وجودها دفعاً لمضارّها وجذباً لمنافعها حتى إن كل نبي يقول نفسي نفسي إلا محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه فانٍ بالكلية عن نفسه باقٍ ببقاء ربه فيقول : أمتي أمتي لأنه مغفور ذنب وجوده المتقدم في الدنيا والمتأخر في الآخرة بما فتح الله له ليلة المعراج إذ واجهه بخطاب " سلام عليك أيها النبي " ففني عن وجوده بالسلام وبقي بوجوده بالرحمة ، فكان رحمة مهداة ببركاته إلى الناس كافة ، ولكن رفع الذلة من تلك الضيافة وجب لمتابعيه فلهذا قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

(228/446)

يعني الذين صلحوا لبذل الوجود في طلب المقصود ﴿ قرية ﴾ هي قرية شخص الإنسان ﴿ كانت آمنة ﴾ أي آهلة وهو الروح الإنساني ﴿ مطمئنة ﴾ بذكر الله ﴿ يأتيها رزقها ﴾ من المواهب ﴿ من كل مكان ﴾ روحاني وجسماني ﴿ فكفرت ﴾ النفس الأمارة ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع ﴾ وهو انقطاع مواد التوفيق فأكلوا من جيفة الدنيا وميتة المستلذات ﴿ والخوف ﴾ وهو خوف الانقطاع عن الله ﴿ ولقد جاءهم رسول ﴾

الوارد بالرباني فما تخلقوا بأخلاقه ﴿ وكلوا مما رزقكم الله ﴾ من أنوار الشريعة وأسرار الطريقة ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ على عادة أهل الإباحة ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ أي تابوا ﴿ حرمنا ﴾ من موانع الوصول ﴿ ما قصصنا عليك ﴾ في بدوّ نبوتك حتى كنت محترزاً عن صحبة خديجة وتنحيت إلى حراء أسبوعاً أو أسبوعين. ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بتحريم ذلك عليهم بل أنعمنا به عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بالإعراض عنا بعد الإقبال علينا ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ ممن له شركة مع الله في الوجود ﴿ اتبع ملة إبراهيم ﴾ في الظاهر حتى يتبعك هو في الباطن ولهذا ذهب إلى ربه ماشياً ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] وأسري بمحمد راكباً ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] فهو خليل وأنت حبيب، اتبعت الخليل في الدنيا فيتبعك الخليل في الآخرة " الناس محتاجون إلى شفاعتي يوم القيامة حتى إبراهيم عليه السلام ".

﴿ وإن عاقبتهم ﴾ النفس الأمارة ﴿ فعاقبوا ﴾ أي بالغوا في عقابها بالفطام عن مألوفاتها ﴿ بمثل ما عوقبتم به ﴾ من الانقطاع عن مواد التوفيق والمواهب. ﴿ ولئن صبرتم ﴾ على معاقبتهم ﴿ لهو خير ﴾ لأن عقاب الحبيب على قدر عقاب العدو وأعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك. ﴿ واصبر ﴾ على معاقبة النفس ومخالفة الهوى. ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ لأن الصبر من صفات الله ولا يقدر أحد أن يتصف بصفاته إلا به بأن يتجلى بتلك الصفة له. ﴿ ولا تحزن ﴾ على النفس وجنودها عند

المعاقبة فإن فيها صلاح حالهم ومآلهم .

﴿ ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ فإن مكرهم يندفع بمعونة الله عند الفرار إليه والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 318.320 ﴾

(229/446)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لّكُلّ شَىْء ﴾ [النحل : 89] أي مما كان وما يكون فيفرق به بين المحق والمبطل والصادق والكاذب والمتبع والمبتدع ، وقيل : كل شيء هو النبي صلى الله عليه وسلم كما قيل إنه عليه الصلاة والسلام الإمام في قوله سبحانه : ﴿ وَكُلَّ شىْء أحصيناه فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : 12] ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآء ذِى القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 90] قال السيادي : العدل رؤية المنة منه تعالى قديماً وحديثاً ، والإحسان الاستقامة بشرط الوفاء إلى الأبد ، وقيل : العدل أن لا يرى العبد فاترا عن طاعة مولاه مع عدم الالتفات إلى العوض ، وإيتاء ذي القربى الإحسان إلى ذوي القرابة في المعرفة والمحبة والدين فيخدمهم بالصدق والشفقة ويؤدي إليهم حقهم ، والفحشاء

الاستهانة بالشريعة ، والمنكر الإصرار على الذنب كيفما كان ، والبغي ظلم العباد ، وقيل : الفحشاء إضافة الأشياء إلى غيره تعالى ملكاً وإيجاداً

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ [النحل : 91] المأخوذ عليكم في عالم الأرواح بالبقاء على حكمه وهو الاعراض عن الغير والتجرد عن العلائق والعوائق في التوجه إليه تعالى إذا عاهدتم أي تذكرتموه بإشراق نور النبي صلى الله عليه وسلم عليكم وتذكيره إياكم ؛ قال النصر آبادي : العهود مختلفة فعهد العوام لزوم الظواهر وعهد الخواص حفظ السرائر وعهد خواص الخواص التخلي من الكل لمن له الكل ﴿ مَا عِندَكُمْ ﴾ من الصفات ينفد لمكان الحدوث ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] لمكان القدم فالعبد الحقيقي من كان فانياً من أوصافه باقياً بما عند الله تعالى كذا في أسرار القرآن" ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ﴾ أي عملا يوصله إلى كماله الذي يقتضيه استعداده ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ معتقد للحق اعتقاداً جازماً ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً ﴾ أي حياة حقيقية لا موت بعدها بالتجرد عن المواد البدنية والانخراط في سلك الأنوار القدسية والتلذذ بكمالات الصفات ومشاهدات التجليات الافعالية والصفاتية ﴿ وَلَنجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ من جنات الصفات والأفعال ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] إذ عملهم يناسب صفاتهم التي هي مبادى أفعالهم وأجرهم يناسب صفات الله تعالى التي هي مصادر أفعاله فانظر كم بينهما من التفاوت في الحسن ، ويقال : الحياة الطيبة ما تكون مع المحبوب ومن هنا قيل :

كل عيش ينقضي ما لم يكن . . .

مع مليح ما لذاك العيش ملح

(230/446)

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جاهدوا وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 110] قال سهل هو اشارة إلى الذين رجعوا القهقري في طريق سلوكهم ثم عادوا أي إن ربك للذين هجروا قرناء السوء من بعد أن ظهر لهم منهم الفتنة في صحبتهم ثم جاهدوا أنفسهم على ملازمة أهل الخير ثم صبروا معهم على ذلك ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه في الفتنة لساتر عليهم ما صدر منهم منعهم منعهم عليهم بصنوف الأنعام ، وقيل : إن ربك للذين هاجروا أي تباعدوا عن موطن النفس بترك المألوفات والمشتهيات من بعد ما فتنوا بها بحكم النشأة البشرية ثم جاهدوا في الله تعالى بالرياضات وسلوك طريقه سبحانه بالترقي في المقامات والتجريد عن التعلقات وصبروا عما تحب النفس وعلى ما تكرهه بالثبات في السير إن ربك لغفور يستر غواشي الصفات النفسانية رحيم بإفاضة الكمال والصفات القدسية ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ للنفس المستعدة القابلة لفيض القلب الثابتة في طريق اكتساب الفضائل الآمنة من خوف فواتها المطمئنة باعتقادها

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ من العلوم والفضائل والأنوار ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من جميع جهات الطرق البدنية كالحواس والجوارح والآلات ومن جهة القلب ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ ظهرت بصفاتها بطرا وإعجاباً بزينتها ونظراً إلى ذاتها ببهجتها وبهائها فاحتجبت بصفاتها الظلمانية عن تلك الأنوار ومالت إلى الأمور السلفية وانقطع إمداد القلب عنها وانقلبت المعاني الواردة عليها من طرق الحس هيآت غاسقة من صور المحسوسات التي أنجذبت إليها ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع ﴾ بانقطاع مدد المعاني والفضائل والأنوار من القلب والخوف من زوال مقتنياتها من الشهوات والمألوفات

﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] من كفران أنعم الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي من جنسهم وهي القوة الفكرية ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ بما ألقى إليهم من المعاني المعقولة والآراء الصادقة ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ أي عذاب الحرمان والاحتجاب ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ [النحل : 113] في حالة ظلمهم وترفعهم عن طريق الفضيلة ونقصهم لحقوق صاحبهم ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ لاجتماع ما تفرق في غيره من الصفات الكاملة فيه وكذا كل نبي ولذا جاء في الخبر على ما قيل لو وزنت بأمتي لرجحت بهم ﴿ قانتا لِّلَّهِ

﴿ مطيعا له سبحانه على أكمل وجه ﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلا عن كل ما سواه تعالى ﴿ ولم يكن مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 120] بنسبة شيء إلى غيره سبحانه ﴿ شاكرا ﴾ لا نعمه مستعملا لها على ما ينبغي ﴿ اجتباه ﴾ اختياره بلا واسطة عمل لكونه من الذين سبقت لهم الحسنى فتقدم كشوفهم على سلوكهم ﴿ وَهَدَاهُ ﴾ بعد الكشف ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : 121] وهو مقام الإرشاد والدعوة ينعون به مقام الفرق بعد الجمع ﴿ وءاتيناه فِى الدنيا حَسَنَةً ﴾ وهي الذكر الجميل والملك العظيم والنبوة ﴿ وِإِنَّهُ فِى الآخرة ﴾ قيل أي في عالم الأرواح ﴿ لِمَنَ الصالحين ﴾ [النحل : 122] المتمكنين في مقام الاستقامة وقيل أي يوم القيامة لمن الصالحين للجلوس على بساط القرب والمشاهدة بلا حجاب وهذا لدفع توهم أن ما أوتيه في الدنيا ينقص مقامه في العقبى كما قيل إن مقام الولي المشهور دون الولي الذي في زوايا الخمول ، وإليه الإشارة بقولهم : الشهرة آفة ، وقد نص على ذلك الشعراني في كتبه ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ [النحل : 124] وهم اليهود واختاروه لأنه اليوم الذي انتهت به أيام الخلق فكان بزعمهم أنسب لترك الأعمال الدنيوية وهو على ما قال الشيخ الأكبر قدس سره في الفتوحات يوم الأبد الذي لا لا انقضاء له فليله في جهنم

ونهاره في الجنة واختيار النصارى ليوم الأحد لأنه أول يوم اعتني الله تعالى فيه بخلق الخلق فكان بزعمهم أولى بالتفرغ لعبادة الله تعالى وشكره سبحانه ، وقد هدى الله تعالى لما هو أعظم من ذلك وهو يوم الجمعة الذي أكمل الله تعالى به الخلق وظهرت فيه حكمة الاقتدار بخلق الإنسان الذي خلق على صورة الرحمن فكان أولى بأن يتفرغ فيه الإنسان للعبادة والشكر من ذنيك اليومين وسبحان من خلق فهدى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ [النحل : 126] لما في ذلك من قهر النفس الموجب لترقيها إلى أعلى المقامات ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ قيل : الصبر أقسام .

صبر لله تعالى .

وصبر في الله تعالى .

وصبر مع الله تعالى .

وصبر عن الله تعالى .

وصبر بالله تعالى ، فالصبر لله تعالى هو من لوازم الإيمان وأول درجات الإسلام وهو حبس النفس عن الجزع عند فوات مرغوب أو وقوع مكروه وهو من فضائل الأخلاق الموهوبة من فضل الله تعالى لأهل دينه وطاعته المقتضية للثواب الجزيل ، والصبر في الله تعالى هو الثبات في سلوك طريق الحق وتوطين النفس على المجاهدة بالاختيار وترك المألوفات واللذات وتحمل البليات وقوة العزيمة في التوجه إلى منبع الكمالات وهو من مقامات السالكين يهبه الله تعالى لمن يشاء من أهل الطريقة ، والصبر مع الله تعالى هو لأهل الحضور والكشف عند التجرد عن ملابس الأفعال والصفات والتعرض لتجليات الجمال والجلال وتوارد واردات الأنس والهيبة فهو بحضور القلب لمن كان له قلب والاحتراس عن الغفلة والغيبة عند التلوينات بظهور النفس ، وهو أشق على النفس من الضرب على الهام وإن كان لذيذاً جداً ، والصبر عن الله تعالى هو لأهل العيان والمشاهدة من العشاق المشتاقين المتقلبين في أطوار التجلي والاستتار المنخلعين عن الناسوت المتنورين بنور اللاهوت ما بقي لهم قلب ولا وصف كلما لاح لهم نور من سبحات أنوار الجمال احترقوا وتفانوا وكلما ضرب لهم حجاب ورد وجودهم تشويقاً وتعظيماً ذاقوا من ألم الشوق وحرقة الفرقة ما عيل به صبرهم وتحقق موتهم ، والصبر بالله تعالى هو لأهل التمكين في مقام الاستقامة الذين أفناهم الله تعالى بالكلية وما ترك عليهم شيئاً من بقية الأنية والاثنينية ثم وهب لهم وجوداً من ذاته حتى قاموا به وفعلوا بصفاته وهو من أخلاق الله تعالى ليس لأحد فيه نصيب ، ولهذا بعد

أن أمر سبحانه به نبيه صلى الله عليه وسلم يين له عليه الصلاة والسلام إنك لا تباشره إلا بي ولا تطيقه إلا بقوتي ثم قال سبحانه له صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ فالكل مني ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : 127] لانشراح صدرك بي ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا ﴾

بقاياهم وفنوا فيه سبحانه ﴿ والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] بشهود الوحدة في الكثرة وهؤلاء الذين لا يحجبهم الفرق عن الجمع ولا الجمع عن الفرق ويسعهم مراعاة الحق والخلق ، وذكر الطيبي أن التقوى في الآية بمنزلة التوبة للعارف والإحسان بمنزلة السير والسلوك في الأحوال والمقامات إلى أن ينتهي إلى محو الرسم والوصول إلى مخدع الأنس ، هذا والله سبحانه الهادي إلى سواء السبيل فنسأله جل شأنه أن يهدينا إليه ويوفقنا للعلم النافع لديه ويفتح لنا خزائن الأسرار ويحفظنا من شر الأشرار بحرمة القرآن العظيم والرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة النحل (16) : الآيات 75 إلى 76]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)

الإعراب

(ضرب) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (مثلا) مفعول به منصوب (عبدا) بدل من (مثلا) منصوب (مملوكا) نعت لـ (عبدا) منصوب (لا) نافية (يقدر) مضارع مرفوع، والفاعل هو (على شيء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقدر) ، (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على (عبدا) " 1 " ، (رزقناه) فعل ماض مبنيّ على السكون..

و (نا) ضمير فاعل، و (الهاء) مفعول به (من) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بفعل (رزقنا) على حذف مضاف أي من عندنا (رزقا) مفعول به ثان منصوب (حسنا) نعت (رزقا) منصوب (الفاء) عاطفة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (ينفق) مثل

يقدر (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينفق) (سرّا) مصدر في موضع الحال " 2 " منصوب (جهرا) معطوف على (سرّا) بالواو منصوب (هل) حرف استفهام (يستوون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل (الحمد) مبتدأ مرفوع (للّه) جارّ ومجرور خبر (بل) حرف ابتداء فيه معنى الاستدراك (أكثرهم) مبتدأ مرفوع . . و(هم) ضمير مضاف إليه (لا يعلمون) مثل لا تعلمون . .

جملة : " ضرب اللّه . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يقدر على شيء " في محلّ نصب نعت ثان لـ (عبدا) " 3 " .

وجملة : " رزقناه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هو ينفق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هل يستوون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) أو هو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، والجملة بعده نعت .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي : إنفاق السرّ . [. . . . .]

(3) أو في محلّ نصب حال من (عبدا) لأنّه وصف .

وجملة : " الحمد لله . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

(الواو) عاطفة (ضرب اللّه مثلا رجلين) مثل ضرب اللّه مثلا عبدا ، وعلامة نصب البدل الياء فهو مثنّى (أحدهما) مبتدأ مرفوع ، و(هما) ضمير مضاف إليه (أبكم) خبر مرفوع (يقدر على شيء) مثل الأولى (الواو) عاطفة (هو) مثل الأول (كلّ) خبر مرفوع (على مولاه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كلّ) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف . . و(الهاء) مضاف إليه (أينما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بـ (يأت) - أو بـ (يوجّهه) وهو مضارع مجزوم فعل الشرط . . و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (لا) نافية (يأت) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل هو (بخير) جارّ ومجرور ويتعلّق بـ (يأت) ، (هل) حرف استفهام (يستوي) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الرجل الأبكم (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للفاعل بسبب العطف الآتي (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على الضمير المستتر فاعل يستوي (يأمر) مثل يقدر (بالعدل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأمر) ، (الواو) عاطفة " 1 " ، (هو) ضمير مبتدأ (على

صراط) جارّ ومجرور خبر المبتدأ هو (مستقيم) نعت لصراط مجرور.

وجملة: "ضرب الله (الثانية) "لا محلّ لها معطوفة على جملة ضرب (الأولى).

---

(1) أو حاليّة، والجملة بعدها حال.

(237/446)

وجملة: "أحدهما أبكم... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ" 1 ".

وجملة: "لا يقدر على شيء... "في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (أحدهما).

وجملة: "هو كلّ... "في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يقدر.

وجملة: "يوجّهه... "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "لا يأت بخير... "لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء.

وجملة: "هل يستوي... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يأمر بالعدل... "لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "هو على صراط... "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

الصرف:

(مملوكا)، اسم مفعول من ملك الثلاثيّ، وزنه مفعول.

(كلّ) ، صفة مشبّهة من كلّ يكلّ باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون ومعناه الثقيل أو غير النافع .

فوائد

- عمل المصدر :

يشترط في المصدر ليكون عاملا عمل فعله : أن يقبل أن يحل محله الفعل ، إما مقرونا بأن المصدرية ، وإما مع " ما " المصدرية .

وعمل المصدر منونا هو القياس ، لأنه أشبه بالفعل مما سواه ، نحو " أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما " ويأتي بالترتيب بعد المنون " المصدر المضاف " نحو " ولولا دفع الله الناس " ، ثم يليه المصدر غير المضاف ، ثم يأتي في المؤخرة " المصدر المعرف بأل " نحو " ضعيف الكناية أعداءه " فالنكاية هي المصدر المعرف بـ " أل " وأعداءه المفعول به .

---

(1) أو هي نعت لرجلين في محلّ نصب ، والرابط الضمير العائد هما . .

وسوف نتحدث عن اسم المصدر وعمله في موطن آخر .

[سورة النحل (16) : آية 77]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (للّه) جارّ ومجرور خبر مقدّم (غيب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (أمر) مبتدأ مرفوع (الساعة) مضاف إليه مجرور (إلّا) أداة حصر (كلمح) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (البصر) مضاف إليه مجرور (أو) حرف عطف (هو) ضمير منفصل مبتدأ (أقرب) خبر المبتدأ هو مرفوع (إنّ اللّه.. قدير) مثل إنّ اللّه عليم " 1 " (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قدير) (شيء) مضاف إليه مجرور.

جملة: "للّه غيب... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ما أمر.. إلّا كلمح... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " هو أقرب " في محلّ رفع معطوفة على الخبر المقدّر للمبتدأ أمر الساعة.

وجملة: " إنّ اللّه... قدير " لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

(لمح) ، مصدر بمعنى إغماض العين أو فتحها من لمح باب فتح، وزنه فعل بفتح فسكون.

---

(1) في الآية (70) من هذه السورة.

البلاغة

- التمثيل : في قوله تعالى وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها في فاتحة السورة الشريفة بالإتيان . وقال الزجاج : " ولم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها لأنه يقول للشيء كُنْ فَيَكُونُ .

[سورة النحل (16) : آية 78]

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللّه أخرجكم) مثل اللّه خلقكم " 1 " ، (من بطون) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخرجكم) (أمّهاتكم) مضاف إليه مجرور .

و(كم) ضمير مضاف إليه (لا تعلمون) مرّ إعرابها " 2 " ، (شيئا) مفعول به منصوب ، (الواو) عاطفة (جعل لكم السمع) مثل جعل لكم . . أزواجا " 3 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (الأبصار ، الأفئدة) اسمان معطوفان على السمع بحرفي العطف منصوبان

(لعلّكم) حرف مشبّه بالفعل للترجّي . . و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تشكرون)

مثل تعلمون " 4 " .

جملة : " اللّه أخرجكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أخرجكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

---

(1) في الآية 70 من هذه السورة .

(2) في الآية (74) من هذه السورة .

(3) في الآية (72) من هذه السورة ، والجارّ (لكم) متعلّق بـ (جعل) بتضمينه معنى خلق

(4) من الآية رقم (74) .

وجملة : " لا تعلمون . . . " في محلّ نصب حال من المفعول في (أخرجكم) .

وجملة : " جعل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخرجكم .

وجملة : " لعلّكم تشكرون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة النحل (16) : آية 79]

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)

الإعراب

(الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وجزم (يروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون .. و(الواو) فاعل (إلى الطير) جارّ ومجرور متعلّق ب (يروا) بتضمينه معنى ينظروا (مسخّرات) حال منصوبة من الطير وعلامة النصب الكسرة (في جوّ) جارّ ومجرور متعلّق ب (مسخّرات) (السماء) مضاف إليه مجرور (ما) نافية (يمسكهنّ) مضارع مرفوع .. و(هنّ) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (إلّا) أداة حصر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (إنّ في ... يؤمنون) مرّ إعراب نظيرها "1".

جملة: "لم يروا ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما يمسكهنّ إلّا اللّه ..." في محلّ نصب حال ثانية من الطير "2".

وجملة: "إنّ في ذلك لآيات ..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يؤمنون" في محلّ جرّ نعت لقوم.

---

(1) في الآية (65) من هذه السورة.

(2) أو استئنافيّة لا محلّ لها.

الصرف :

(جوّ) ، اسم لما بين السماء والأرض ، وغير ذلك ، جمعه جواء وأجواء ، ووزن جوّ فعل بفتح فسكون .

الفوائد

- مُسَخَّراتٍ :

تعريف جمع المؤنث السالم : " هو ما جمع بألف وتاء زائدتين " لذلك فإن " قضاة وهداة " ليستا من جمع المؤنث ، وانما هما جمع تكسير ، لأن ألفه وتاءه ليستا زائدتين ، وكذلك فإن تاءهما مربوطة بينما تاء جمع المؤنث مفتوحة . ولنا عودة إليه في مستقبل الحديث عن شرائطه .

[سورة النحل (16) : الآيات 80 إلى 82]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ

تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82)

الإعراب

(الواو) عاطفة (اللّه جعل . . . وجعل . . بيوتا) مثل الله جعل لكم من أنفسكم أزواجا " 1 " ، (تستخفّونها) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل ،

---

(1) في الآية (72) من هذه السورة.

و (ها) مفعول به (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تستخفّونها) ، (ظعنكم) مضاف إليه مجرور . . و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يوم إقامتكم) مثل يوم ظعنكم (الواو) عاطفة (من أصوافها) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (من جلود . .) فهو معطوف عليه (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (أوبارها ، أشعارها) اسمان مضافان إلى الضمير معطوفان على أصوافها مجروران مثله (أثاثا) معطوف على (بيوتا) منصوب أي وجعل من أصوافها . . أثاثا (متاعا) معطوف على (أثاثا) منصوب (إلى حين) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (متاعا) " 1 " .

جملة : " اللّه جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه أخرجكم " 2 " .

وجملة : " جعل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " جعل (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة جعل (الأولى) .

وجملة : " تستخفّونها . . . " في محلّ نصب نعت لـ (بيوتا) .

(الواو) عاطفة (اللّه جعل . . جعل . . وجعل لكم سرابيل) مثل اللّه جعل لكم . . أزواجا " 3 " ، (تقيكم) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء . . و(كم) ضمير مفعول به (الحرّ) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (سرابيل تقيكم بأسكم) مثل سرابيل تقيكم الحرّ . . و(كم) الثاني مضاف إليه (الكاف) حرف جرّ وتشبيه " 4 " ، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في

---

(1) أي متاع متمتّع به إلى حين .

(2) في الآية (78) من هذه السورة .

(3) في الآية (72) من هذه السورة . [. . . . .]

(4) أو اسم بمعنى مثل مفعول مطلق نائبة عن المصدر فهو صفته .

محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يتمّ . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب

(يتمّ) مضارع مرفوع والفاعل هو (نعمته) مفعول به منصوب . . و(الهاء) مضاف إليه

(على) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (يتمّ) ، و(الميم) لجمع الذكور (لعلّكم تسلمون) مثل لعلّكم تشكرون " 1 " .

وجملة : " اللّه جعل لكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه جعل لكم . . سكنا .

وجملة : " جعل لكم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " خلق " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " جعل لكم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل (الأولى) .

وجملة : " وجعل لكم (الثالثة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل (الأولى) أو (الثانية) .

وجملة : " تقيكم . . . " في محلّ نصب نعت لسرابيل .

وجملة : " تقيكم (الثانية) " في محلّ نصب نعت لسرابيل (الثانية) .

وجملة : " يتمّ . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لعلّكم تسلمون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تسلمون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تولّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ جزم فعل الشرط . .

و(الواو) فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (عليك) مثل عليكم متعلّق بخبر مقدّم (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (المبين) نعت للبلاغ مرفوع.

---

(1) في الآية (78) من هذه السورة.

وجملة: "تولّوا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتمّ..

وجملة: "عليك البلاغ... " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي: إن تولّوا فلا لوم عليك ..

الصرف:

(جلود)، جمع جلد، اسم جامد لما يحيط الجسم، وزنه فعل بكسر فسكون.

(ظعنكم)، مصدر ظعن الثلاثيّ، وزنه فعل بفتح فسكون.

(إقامتكم) مصدر قياسيّ لفعل أقام الرباعيّ، وقد استعيض من الألف قبل الأخير تاء في آخره لأن فعله معتلّ أجوف.

(أصواف)، جمع صوف، اسم جامد، وزنه فعل بضمّ فسكون.

(أوبار)، جمع وبر، اسم جامد، وزنه فعل بفتحتين.

(أشعار) ، جمع شعر ، اسم جامد ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(أثاث) ، اسم جمع بمعنى المتاع ، وزنه فعال بفتح الفاء .

(متاع) ، اسم جامد - أو مصدر - وزنه فعال بفتح الفاء . . وانظر الآية (36) من البقرة .

(أكنان) ، جمع كنّ ، اسم للستر ، وفي القاموس الكنّ بالكسر وقاء كلّ شيء وسترة ، والكنّ البيت وزنه فعل بكسر فسكون .

(سرابيل) ، جمع سربال ، اسم للقميص أو كلّ ما يلبس ، وزنه فعلال بكسر الفاء .

الفوائد

- يَوْمَ ظَعْنِكُمْ :

قال ابن " درستويه " : أهل اللغة وأكثر النحويين يقولون : كل ما كان الثاني منه (حرف حلق) جاز فيه التسكين والفتح ، مثل بجر ، ونحر ، ونهر ، وشعر ، وشهر

ولكننا نجد الشعراء يتحللون من هذه القاعدة لضرورة الشعر ويحركون عند الضرورة كل ما كان وسطه ساكنا الطريف أننا نجد هذا الترخيص في لغات أقطار عربية بكاملها ، منها

" اللبنان " ، فإنهم إذا أرادوا أن يقولوا " قرش " قالوا " قرش " ، وإذا قالوا " درب " حركوا الوسط فقالوا " درب " وهكذا سائر الأسماء الساكنة الوسط . ولا ندري هل هذا استمرار وتأثر بقواعد اللغة ، أم أنها العامية عملت عملها في ذلك .

[سورة النحل (16) : آية 83]

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (83)

الإعراب

(يعرفون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (نعمة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (ثمّ) حرف عطف (ينكرونها) مثل يعرفون . . و(ها) ضمير مفعول به (الواو) حاليّة (أكثرهم) مبتدأ مرفوع . . و(هم) مضاف إليه (الكافرون) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " يعرفون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينكرونها . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أكثرهم الكافرون " في محلّ نصب حال مؤكّدة من فاعل ينكرون .

[سورة النحل (16) : الآيات 84 إلى 87]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا

شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (نبعث) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نبعث)، (أمّة) مضاف إليه مجرور (شهيدا) مفعول به منصوب (ثمّ) حرف عطف (لا) نافية (يؤذن) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع " 1 "، (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ والجار والمجرور نائب الفاعل في محلّ رفع (كفروا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (هم) ضمير منفصل مبتدأ (يستعتبون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع.. و(الواو) نائب الفاعل.

جملة: "نبعث..." في محلّ جرّ مضاف إليه.. وجملة متعلّق الظرف استئنافيّة.

وجملة: "لا يؤذن..." في محلّ جرّ معطوفة على جملة نبعث.

وجملة: "كفروا..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "هم يستعتبون" في محلّ جرّ معطوفة على جملة يؤذن.

وجملة : " يستعتبون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (رأى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (ظلموا) مثل كفروا ،

---

(1) ومتعلّق الأذن محذوف أي في الرجوع إلى دار الدنيا أو في الكلام والاعتذار . .

(العذاب) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا يخفّف) مثل لا يؤذن ، ونائب الفاعل هو أي العذاب (عنهم) جار ومجرور متعلّق بـ (يخفّف) (الواو) عاطفة (لا هم ينظرون) مثل لا هم يستعتبون .

وجملة : " رأى الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يخفّف . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو - أي العذاب - والجملة الاسمية لا محلّ لها جواب شرط غير جازم " 1 " .

وجملة : " هم ينظرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " ينظرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(الواو) عاطفة (إذا رأى الّذين أشركوا شركاءهم) مثل إذا رأى . . العذاب (قالوا) مثل كفروا (ربّنا) منادى مضاف منصوب . . و(نا) مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شركاء) خبر مرفوع و(نا) مثل الأول (الّذين) موصول في محلّ رفع نعت لشركاء (كنّا) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير اسم كان (ندعو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على (الواو) ، الفاعل نحن (من دونك) جارّ ومجرور متعلّق بحال من مفعول ندعو المقدّر أي ندعوهم من دونك . .

و(الكاف) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ألقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل (إلى) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ألقوا) ، وهو يعود على الشركاء (القول) مفعول به منصوب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (كاذبون) خبر إنّ مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

---

(1) لأنّ جملة جواب الشرط من المضارع لا تقترن بالفاء . .

وجملة : " رأى الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أشركوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هؤلاء شركاؤنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : "كنّا ندعو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " ألقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " إنّكم لكاذبون " في محلّ نصب مقول القول للمصدر " 1 " .

(الواو) عاطفة (ألقوا إلى اللّه . . السلم) مثل ألقوا إليهم القول (يومئذ) ، يوم ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل ألقوا . . و(إذ) اسم ظرفيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (ضلّ) فعل ماض (عنهم) مثل الأول متعلّق بـ (ضلّ) ، (ما) اسم موصول " 2 " مبنيّ في محلّ رفع فاعل ، والعائد محذوف (كانوا) فعل ماض ناقص . . و(الواو) اسم كان (يفترون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

وجملة : " ألقوا . . السلم " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقوا . . القول .

وجملة : " ضلّ عنهم ما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقوا السلم .

وجملة: "كانوا يفترون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "يفترون" في محلّ نصب خبر كانوا.

---

(1) أو لا محلّ لها تفسيريّة.

(2) أو هو حرف مصدريّ، والمصدر المؤوّل فاعل.

[سورة النحل (16) : الآيات 88 إلى 89]

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (88)
وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ
الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

الإعراب

(الّذين) موصول مبتدأ (كفروا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (صدّوا) مثل كفروا

(عن سبيل) جارّ ومجرور متعلّق ب (صدّوا) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور

(زدناهم) فعل ماض مبنيّ على السكون..

و(نا) ضمير فاعل، و(هم) ضمير مفعول به (عذابا) مفعول به ثان منصوب (فوق) ظرف

مكان متعلّق بنعت لـ (عذابا) ، (العذاب) مضاف إليه مجرور (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (كانوا يفسدون) مثل كانوا يفترون " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا يفسدون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (زدناهم) .

جملة : " الّذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " صدّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " زدناهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الّذين) .

وجملة : " كانوا يفسدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يفسدون " في محلّ نصب خبر كانوا .

---

(1) في الآية (87) السابقة .

(الواو) عاطفة (يوم نبعث . . شهيدا) مرّ إعرابها " 1 " ، (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (شهيدا) ، (من أنفسهم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (شهيدا) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (جئنا) مثل زدنا (الباء) حرف جرّ

و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جئنا) ، (شهيدا) حال منصوبة من ضمير الخطاب (على) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (شهيدا) الثاني (الواو) استئنافيّة (نزّلنا) مثل زدنا (عليك) مثل عليهم متعلّق بـ (نزّلنا) ، (الكتاب) مفعول به منصوب (تبيانا) ، مفعول لأجله منصوب "2" (لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تبيانا) ، (شيء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (هدى ، رحمة ، بشرى) أسماء معطوفة على التبيان بحروف العطف منصوبة مثله ، وعلامة النصب في هدى وبشرى الفتحة المقدّرة على الألف (للمسلمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بشرى) ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : "نبعث . . ." في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "جئنا . . ." في محلّ جرّ معطوفة على جملة نبعث .

وجملة : "نزّلنا . . ." لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(تبيانا) ، مصدر سماعيّ لفعل بيّن الرباعيّ ، ويبدو أنه لا يوجد سوى هذا المصدر على هذا الوزن مع المصدر تلقاء . . أمّا الأسماء فكثيرة كالتمساح والتمثال . . وزنه تفعال بكسر التاء .

---

(1) في الآية (84) من هذه السورة.

(2) أو مصدر في موضع الحال أي مبنيّين . . .

(251/446)

[سورة النحل (16) : آية 90]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

الإعراب

(إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (يأمر) مضارع مرفوع، والفاعل هو (بالعدل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأمر)، (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (الإحسان، إيتاء) اسمان معطوفان على العدل مجروران (ذي) مضاف إليه مجرور، وعلامة الجرّ الياء (القربى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (ينهى) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، والفاعل هو (عن الفحشاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينهى)، (المنكر، البغي) اسمان معطوفان على الفحشاء بحرفي العطف مجروران (يعظكم) مثل يأمر.. و(كم) ضمير مفعول به (لعلّكم)

حرف مشبّه بالفعل للترجّي . . و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تذكّرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " إنّ اللّه يأمر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يأمر . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ينهى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يأمر .

وجملة : " يعظكم . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يأمر وينهى .

وجملة : " لعلّكم تذكّرون . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

وجملة : " تذكّرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(252/446)

الصرف :

(إيتاء) ، مصدر قياسيّ لفعل آتى الرباعيّ إذ وزنه أفعل ، وأصل إيتاء إئتاء ، خفّفت الهمزة الثانية ، وقلبت الياء المتطرّفة همزة لمجيء الألف الساكنة قبلها .

البلاغة

1 - إن الآية ، كما أخرج البخاري في الأدب ، والبيهقي في شعب الايمان ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ، أجمع آية للخير والشر ، وهي سبب استقرار الايمان في قلب عثمان بن مظعون ، وقال غير واحد : لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبيانا لكل شيء وهدى .

2 - وقد اشتملت في الواقع على أفانين من البلاغة نبينها فيما يلي :

أ - الإيجاز : فقد أمر في أول الآية بكل معروف ، ونهى بعد ذلك عن كل منكر ، وختم الآية بأبلغ العظات ، وصاغ ذلك في أواخر العبارات .

ب - صحة التقسيم : فقد استوفى فيها جميع أقسام المعنى ، فلم يبق معروف إلا وهو داخل في نطاق الأمر ، ولم يبق منكر إلا وهو داخل في حيز النهي ، وقدم ذكر العدل لأنه واجب ، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب ، ليقع نظم الكلام على أحسن ترتيب .

ج - حسن النسق : في ترتيب الجمل وعطف بعضها على بعض كما ينبغي ، حيث قدم العدل وعطف عليه الإحسان لكون الإحسان اسما عاما وإيتاء ذي القربى خاص ، فكأنه نوع من ذلك الجنس ، ثم أتى بجملة الأمر مقدمة ، وعطف عليها جملة النهي .

د - حسن البيان : لأن لفظ الآية لا يتوقف من سمعه في فهم معناه ، إذ سلم من التعقيد في لفظه ، ودل على معناه دلالة واضحة بأقرب الطرق وأسهلها ، واستوى في فهمه الذكي والغبي .

[سورة النحل (16) : الآيات 91 إلى 92]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (91) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92)

(253/446)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (أوفوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون..

و(الواو) فاعل (بعهد) جارّ ومجرور متعلّق ب (أوفوا) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب (عاهدتّم) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و(تم) ضمير فاعل (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تنقضوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون و(الواو) فاعل (الأيمان) مفعول به منصوب (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق ب (تنقضوا) ، (توكيدها) مضاف إليه مجرور.. و(ها) مضاف إليه (الواو) واو الحال (قد) حرف تحقيق (جعلتم) مثل عاهدتم (اللّه)

لفظ الجلالة مفعول به منصوب (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كفيلا) بتضمينه معنى شاهدا (كفيلا) مفعول به ثان منصوب (إنّ اللّه

بعلم) مثل إنّ اللّه يأمر " 1 " ، (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (تفعلون) مثل تذكّرون " 3 "

.

جملة : " أوفوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عاهدتّم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط.

محذوف دلّ عليه المذكور قبله .

وجملة : " لا تنقضوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " جعلتم . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تنقضوا . . " 4 " .

وجملة : " إنّ اللّه يعلم . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تفعلون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ .

(الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (تكونوا) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و(الواو) ضمير اسم تكون (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر تكونوا (نقضت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث (غزلها) مفعول به منصوب . . و(ها) مضاف إليه ، والفاعل هو العائد (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(نقضت) (قوّة) مضاف إليه مجرور (أنكاثا) حال من غزلها منصوبة " 5 " ، (تتّخذون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل (أيمانكم) مفعول به منصوب . . و(كم) مضاف إليه (دخلا) مفعول به ثان منصوب (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (دخلا) ، و(كم) كالأول (أن) حرف مصدريّ ونصب (تكون) مضارع

---

(1) في الآية (90) السابقة .

(2) أو اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والجملة بعده صلة ، والعائد محذوف أي تفعلونه .

(3) في الآية (90) .

(4) أو من فاعل المصدر (توكيد) وإن كان محذوفا . [. . . . .]

(5) وعلى رأي الزجّاج هو مفعول مطلق نائب عن المصدر ، لأنّ معنى نقضت هو نكثت ، فهو مطابق لعامله في المعنى .

ناقص منصوب (أمّة) اسم تكون مرفوع (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (أربى) خبر المبتدأ هي مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (من أمّة) جارّ

ومجرور متعلّق بـ (أربى) (إنّما) كافّة ومكفوفة (يبلوكم) مضارع مرفوع . . و(كم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبلوكم) ، (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (يبيّننّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع و(النون) نون التوكيد ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (لكم) مثل عليكم متعلّق بـ (يبيّننّ) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يبيّننّ) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (فيه) مثل به متعلّق بـ (تختلفون) ، (كنتم) فعل ماض ناقص واسمه (تختلفون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل . .

وجملة : " لا تكونوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تنقضوا . .

وجملة : " نقضت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " تتّخذون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير تكونوا .

وجملة : " تكون أمّة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن تكون . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي لأن تكون . . والجارّ متعلّق بفعل تتّخذون .

وجملة : " هي أربى . . . " في محلّ نصب خبر تكون .

وجملة : " يبلوكم اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يبيّننّ لكم " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : "كنتم فيه تختلفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تختلفون " في محلّ نصب خبر كنتم .

---

(1) لم يجز البصريّون جعل (هي) ضمير فصل ، لأنّ (أمّة) نكرة .

(255/446)

الصرف :

(توكيد) ، مصدر قياسيّ لفعل وكّد الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

(كفيلا) ، صفة مشبّهة من كفل يكفل باب فرح ، وزنه فعيل .

(غزلها) ، مصدر سماعيّ لفعل غزل الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(أنكاثا) ، جمع نكث ، بمعنى منكوث أي منقوض ، والنكث بكسر النون كحمل وأحمال .

(دخلا) ، اسم لما يدخل في الشيء وليس منه ، وهو العيب وزنه فعل بفتحتين .

(أربى) ، اسم تفضيل من ربا يربو ، وزنه أفعل ، وفيه إعلال بالقلب ، وأصله أربي - بفتح الباء - جاءت الياء - متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وكتبت برسم الياء لأنها رابعة وأصلها واو .

- المثل في القرآن :

ألمحنا إلى هذه الخاصة القرآنية فيما سبق ، ونعود للتحدث عنها ، لما لها من أهمية في تأدية الرسالة وتبليغ الدعوة .

ويبدو أن الله آثر هذا الأسلوب من ضرب الأمثال على غيره ، لأنه يعلم سبحانه ما له من تأثير في قلوب السامعين وعقولهم .

وتحضرنا هنا طريقة المسيح عليه السلام في تأدية رسالته فقد اتخذ المثل وسيلة كبري من وسائله ، فكان يسوق الأمثال لتلامذته ومريديه . ويبدو أن هذا الأسلوب قد أخذ مأخذه من قلوب الناس فكانوا يستزيدونه منه ويستمعون إليه وينتفعون بما سمعوا . . ونكاد لا نجد في القرآن الكريم سورة إلا ويرد فيها من الأمثال ما يبهر ويعجز .

ولنستمع إليه تعالى في هذه الآية إذ يقول : وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً ففيه حكمة وفيه عبرة وفيه تقرير . أما في علم البلاغة فإن المثل عبارة عن تشبيه تمثيلي لأن وجه الشبه فيه منتزع من عدة صفات .

[سورة النحل (16) : آية 93]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ (93)

الإعراب

(256/446)

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (اللام) رابطة لجواب الشرط (جعلكم) مثل شاء، و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (أمّة) مفعول به ثان منصوب (واحدة) نعت لأمّة منصوب (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (يضلّ) مضارع مرفوع، والفاعل هو (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مثل يضلّ (الواو) عاطفة (يهدي من يشاء) مثل نظيرها (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم (تسألنّ) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون، وقد حذفت لتوالي الأمثال، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين نائب فاعل، و(النون) نون التوكيد (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تسألنّ) " 1 " . (كنتم تعملون) مثل كنتم تختلفون " 2 " .

جملة: " شاء . . . اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " جعلكم . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "يضلّ... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يشاء... "لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول.

---

(1) أو هو حرف مصدريّ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ متعلّق بـ (تسألنّ).

(2) في الآية (92) من هذه السورة.

(257/446)

وجملة: "يهدي... "لا محلّ لها معطوفة على جملة يضلّ.

وجملة: "يشاء... " (الثانية) لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة: "تسألنّ... "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

وجملة: "كنتم تعملون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "تعملون" في محلّ نصب خبر كنتم.

[سورة النحل (16) : الآيات 94 إلى 96]

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (94) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا

أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (96)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (لا تتّخذوا . . بينكم) مرّ إعراب نظيرها " 1 " . (الفاء) فاء السببيّة

(تزلّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (قدم) فاعل مرفوع (بعد) ظرف زمان

منصوب متعلّق بـ (تزلّ) ، (ثبوتها) مضاف إليه مجرور ، و(ها) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن تزلّ . . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر مقدر سابق اي لا يكن

منكم اتخاذ ايمان فزلل قدم .

(الواو) عاطفة تذوقوا مضارع منصوب معطوف على (تزلّ) ، وعلامة

---

(1) في الآية (91) من هذه السورة .

النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (السوء) مفعول به منصوب (الباء) حرف جرّ

(ما) حرف مصدريّ (صددتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . .

و(تم) فاعل (عن سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (صددتم) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه

مجرور .

والمصدر المؤوّل (ما صددتم . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تذوقوا) .

(الواو) استئنافيّة (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (عذاب)

مبتدأ مؤخّر مرفوع (عظيم) نعت لعذاب مرفوع .

جملة : " جملة لا تتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تزلّ قدم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تذوقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة : " صددتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(259/446)

وجملة : " لكم عذاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(الواو) عاطفة (لا تشتروا) مثل لا تنقضوا " 1 " ، (بعهد) جار ومجرور متعلّق بـ (تشتروا)

بتضمينه معنى تستبدلوا (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (ثمنا) مفعول به منصوب

(قليلا) نعت لـ (ثمنا) منصوب (إنّ) حرف مشبه بالفعل (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ

نصب اسم إنّ " 2 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (اللّه) لفظ الجلالة

مثل الأول (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و(كم)

(1 ، 2) رسمت في المصحف موصولة وكان من حقّها أن تكون مفصولة بحسب القواعد الاملائية .

(260/446)

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خير) (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . . و(تم) ضمير اسم كان (تعلمون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

وجملة : " لا تشتروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تتّخذوا . .

وجملة : " إنّما عند اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " هو خير لكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كنتم تعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعلمون " في محلّ نصب خبر كنتم .

(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عندكم) مثل الأول، و(كم) ضمير مضاف إليه (ينفد) مضارع مرفوع، والفاعل هو وهو العائد (الواو) عاطفة (ما عند اللّه) مثل ما عندكم (باق) خبر ما الثاني مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نجزينّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع.. و(النون) نون التوكيد، والفاعل نحن للتعظيم (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (صبروا) فعل ماض وفاعله (أجرهم) مفعول به ثان منصوب، و(هم) مضاف إليه (بأحسن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نجزينّ)، (ما) حرف مصدريّ " 1 "، (كانوا يعملون) مثل كنتم تعملون " 2 ".

والمصدر المؤوّل (ما كانوا..) "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "ما عندكم ينفد ... " لا محلّ لها في حكم التعليل لما سبق.

وجملة: "ينفد ... " في محلّ رفع خبر ما.

وجملة: "ما عند الله باق " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة ما عندكم.

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف، والجملة صلة.

(2) في الآية (93) من هذه السورة.

(262/446)

وجملة: "نجزينّ... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

وجملة: "صبروا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "كانوا يعملون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: "يعملون" في محلّ نصب خبر كانوا.

الصرف:

(باق)، اسم فاعل من (بقي) الثلاثيّ، وزنه فاع، حذفت لامه لمناسبة التنوين فهو اسم منقوص.

البلاغة

1- الاستعارة التمثيلية: في قوله تعالى فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها. فالكلام استعارة للوقوع في

أمر عظيم، لأن القدم إذا زلت انقلب الإنسان من حال خير إلى حال شر.

(2) وفي قوله تعالى فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها.

(263/446)

توحيد القدم وتنكيرها: والسر في ذلك استعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة.

[سورة النحل (16): آية 97]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (97)

الإعراب

(من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عمل) فعل ماض، والفاعل هو يعود على اسم الشرط (صالحا) مفعول به منصوب (من ذكر) جارّ ومجرور حال من فاعل عمل " 1 "، (أو) حرف عطف (أنثى) معطوف

---

(1) أو تمييز للموصول (من).

على ذكر مجرور ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) واو الحال (هو) ضمير منفصل مبتدأ (مؤمن) خبر مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نحيينّه) مضارع مثل نجزينّ " 1 " ، و(الهاء) مفعول به (حياة) مفعول مطلق منصوب (طيّبة) نعت لحياة منصوب (الواو) عاطفة (لنجزينّهم أجرهم . . يعملون) مثل الآية المتقدّمة " 2 " .

جملة : " من عمل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عمل صالحا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " هو مؤمن . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " نحيينّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم وجوابها خبر لمبتدأ محذوف تقديره نحن . . والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط .

وجملة : " نجزينّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : "كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

- التتميم: في قوله تعالى مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ إلى آخر الآية.

وقد تكرر التتميم هنا مرتين. الأولى: في قوله تعالى مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى لأنّ من الشرطية أو الموصولية تفيد العموم فكان لا بدّ من تتميمها بذلك

(1، 2) في الآية (96) السابقة.

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(265/446)

للتأكيد، وإزالة لوهم التخصيص، جريا على معتقدات العرب القديمة في تفضيل الذكر على الأنثى وإيثاره بكل ما هو خير.

والثانية: في قوله وَهُوَ مُؤْمِنٌ وقد اختلفت الآراء في هذا التتميم، وما هو المراد بالحياة الطيبة التي ينالها من هو بهذه المثابة. وأحسن ما نختاره منها قول الزمخشري في كتابه الكشاف، وننقله بنصه لفائدته فقد قال وأبدع: " و ذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا يعيش عيشا طيبا، إن كان موسرا فلا مقال فيه، وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه، وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأما الفاجر فأمره على العكس، إن كان

معسرا فلا إشكال في أمره " .

[سورة النحل (16) : الآيات 98 إلى 100]

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)

الإعراب

(الفاء) استئنافيّة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (قرأت) فعل ماض وفاعله (القرآن) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (استعذ) فعل أمر، والفاعل أنت (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استعذ) ، (من الشيطان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استعذ) ، (الرّجيم) نعت للشيطان مجرور .

جملة : " قرأت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " استعذ . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(إنّ) حرف توكيد ونصب و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (ليس) فعل ماض ناقص جامد (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ليس (سلطان) اسم ليس مؤخّر مرفوع (على) حرف جرّ (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (سلطان) فهو بمعنى التسلّط (آمنوا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (على ربّهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتوكّلون) ، و(هم) مضاف إليه (يتوكّلون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

وجملة : " إنّه ليس له سلطان . . . " لا محلّ لها تعليل لمحذوف هو جواب الطلب أي استعذ باللّه من الشيطان تكف شرّه .

وجملة : " ليس له سلطان " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " يتوكّلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

(إنّما) كافّة ومكفوفة (سلطانه) مبتدأ مرفوع . . و(الهاء) مضاف إليه (على الذين) مثل الأول متعلّق بخبر المبتدأ (يتولّونه) مثل يتوكّلون . . و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (الّذين) في محلّ جرّ معطوف على الموصول السابق (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الباء) حرف جرّ و(الهاء) في محلّ جرّ متعلّق (مشركون) وهو خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة: "سلطانه على الذين . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يتولّونه . . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين).

وجملة: "هم به مشركون "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) الثاني.

الصرف:

(سلطان)، جاء اللفظ هنا بمعنى التسلّط فهو مصدر، وزنه فعلان بضمّ الفاء.

[سورة النحل (16): آية 101]

وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101)

الإعراب

(267/446)

(الواو) عاطفة (إذا بدّلنا آية) مثل إذا قرأت القرآن " 1 "، (مكان) مفعول به ثان منصوب (آية) مضاف إليه مجرور (الواو) اعتراضيّة - أو حاليّة - (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أعلم) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) (ينزّل) مضارع مرفوع، والفاعل هو (قالوا) فعل ماض وفاعله (إنّما) كافّة ومكفوفة (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (مفتر) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على

الياء المحذوفة، فهو اسم منقوص (بل) للإضراب الانتقاليّ (أكثرهم) مبتدأ مرفوع . .

و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : " بدّلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اللّه أعلم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أنت مفتر " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

---

(1) في الآية (98) من هذه السورة .

(268/446)

[سورة النحل (16) : آية 102]

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (102)

الإعراب

(قل) فعل أمر، والفاعل أنت (نزّله) فعل ماض، و(الهاء) ضمير مفعول به (روح) فاعل مرفوع (القدس) مضاف إليه مجرور (من ربّك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نزّل)، و(الكاف) مضاف إليه (بالحقّ) جارّ ومجرور حال من الفاعل أو من ضمير الخطاب المجرور (اللام) للتعليل (يثبّت) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل هو (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آمنوا) فعل ماض وفاعله.

(269/446)

والمصدر المؤوّل (أن يثبّت..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (نزّله).

(الواو) عاطفة - أو حاليّة - (هدى) معطوف على المصدر المؤوّل مجرور، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف " 1 "، (الواو) عاطفة (بشرى) معطوف على هدى مجرور مثله (للمسلمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بشرى).

جملة: " قل... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " نزّله روح... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " يثبّت... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

الفوائد

1 – عودة إلى الهمزة :

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة الاسميّة في محلّ نصب .

لقد تبسطنا في حديثنا عن الهمزة وقواعد كتابتها في حديث سابق ، وبما أن الرسم القرآني يخالف تلك القواعد ، فهذه همزة " ءامنوا " كتبت على السطر . ومثلها همزة " ءاية " كما ترى خلافا لما قررناه من قواعد لكتابتها . ونعيد هنا ما قلناه سابقا من أنه لا يعتد بالرسم القرآني في رسم الكتابة .

2 – بل : حرف عطف ، إن وقعت بعد كلام مثبت ، تكون للإضراب والعدول عن شيء إلى آخر ، مثل الآية التي معنا .

وإن وقعت بعد نفي أو نهي ، تكون للاستدراك بمنزلة لكن ، مثل : ما قام سعيد بل خليل .

وقد تكون حرف ابتداء ، إذا تلاها جملة ، مثل قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا

سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ أي بل هم عباد .

الناسخ والمنسوخ في الشريعة :

اتخذ المنافقون ، وضعفاء العقيدة ومن لم يتمكن الإيمان في قلوبهم اتخذوا نسخ الأحكام ذريعة للطعن في الدين ، واتهام الرسول/ صلّى اللّه عليه واله وسلّم/ بالافتراء . ومنهم من كان يرتد بسبب ذلك .

(271/446)

ولكن العاقل الأريب يعلم أن تدرج الأحكام من الحكمة بمكان . ولا سيما عند ما تتعلق أحكام الشريعة بنسخ عادة متأصلة ، أو عقيدة مستحكمة ، كشرب الخمر وتحول القبلة .

وقد يكون للنسخ بعض الصلة بالتطور الذي يرافق مراحل تبليغ الرسالة والذي دفع بالأئمة المجتهدين ، فيما بعد ، أن يضعوا قاعدتهم القائلة :

"لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان " .

وهذا ما نراه يستلزم تغيير القوانين الوضعية بين الحين والحين ، واستجابة للتطور ، وتمشيا مع حالة الدولة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية إلخ .

[سورة النحل (16) : آية 103]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق " 1 " ، (نعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (أنّهم) حرف توكيد ونصب . . و(هم) في محلّ نصب اسم أنّ (يقولون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل .

والمصدر المؤوّل (أنّهم يقولون . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي نعلم .

(إنّما) كافّة ومكفوفة (يعلّمه) مضارع مرفوع . . و(الهاء) ضمير مفعول به (بشر) فاعل مرفوع (لسان) مبتدأ مرفوع (الّذي) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (يلحدون) مثل يقولون (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يلحدون) ، (أعجميّ) خبر مرفوع (الواو) عاطفة " 2 " ، (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى القرآن (لسان) خبر مرفوع (عربيّ) نعت للسان مرفوع " 3 " ، (مبين) نعت ثان مرفوع .

---

(1) لأنّ علم الله محقّق دائم مستمر . [. . . . .]

(2) أو حاليّة، والجملة بعدها حال.

(3) أو خبر ثان مرفوع.

(272/446)

جملة: "نعلم.." لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

وجملة: "يقولون..." في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: "إنّما يعلّمه بشر..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لسان الذي..." لا محلّ لها استئنافيّة" 1 ".

وجملة: "يلحدون..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "هذا لسان..." لا محلّ لها معطوفة على جملة لسان الذي...

البلاغة

- الاستعارة: في قوله تعالى لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ.

الإلحاد الإمالة، من ألحد القبر إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شق منه، ثم أستعير لكل إمالة عن الاستقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله وألحد في دينه.

والمراد: أي لغة الرجل الذي يميلون إليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة.

[سورة النحل (16) : آية 104]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (104)

الإعراب

(إنّ) حرف توكيد ونصب (الذين) اسم موصول في محلّ نصب اسم إنّ (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع. و(الواو) فاعل (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق ب (يؤمنون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يهديهم) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء..

---

(1) هذا رأي الزمخشريّ، واختار أبو حيان أن تكون في محلّ نصب حال وهو أبلغ في رأيه في الإنكار عليهم والضمير في (يلحدون) هو الرابط الذي يربطها بصاحب الحال وهو فاعل يقولون.

و (هم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع.

جملة: "إنّ الذين . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يؤمنون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "لا يهديهم اللّه . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

(274/446)

وجملة: "لهم عذاب . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر.

[سورة النحل (16) : آية 105]

إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105)

الإعراب

(إنّما يفتري الكذب الّذين) مثل إنّما يعلّمه بشر " 1 " ، المفعول مقدّم والفاعل مؤخّر (لا يؤمنون بآيات اللّه) مرّ إعرابها " 2 " ، (الواو) عاطفة (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و(الكاف) حرف خطاب (هم) ضمير فصل " 3 " ، (الكاذبون) خبر المبتدأ أولئك . . مرفوع وعلامة الرفع الواو . .

جملة: "يفتري . . الذين . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يؤمنون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة: "أولئك... الكاذبون" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

---

(1) في الآية (103) من هذه السورة.

(2) في الآية (104) السابقة.

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الكاذبون)، والجملة الاسميّة خبر اسم الإشارة.

(275/446)

[سورة النحل (16) : الآيات 106 إلى 110]

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (107) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (108) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110)

الإعراب

(من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كفر) فعل ماض، والفاعل هو يعود على من (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفر)، (من بعد) جارّ ومجرور متعلق بـ (كفر)، (إيمانه) مضاف إليه مجرور، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع (أكره) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) حاليّة (قلبه) مبتدأ مرفوع.. و(الهاء) مضاف إليه (مطمئنّ) خبر مرفوع (بالإيمان) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مطمئنّ) (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (من) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شرح)

---

(1) ويجوز أن يكون اسم شرط على أن يقدّر مبتدأ لأنه لا يقع بعد الاستدراك شرط أي: لكن (هم) من شرح وجواب الشرط قوله: فعليهم غضب من اللّه.

فعل ماض والفاعل هو (بالكفر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (شرح) بتضمينه معنى طاب

(صدرا) تمييز منصوب (الفاء) زائدة " 1 " ، (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ

متعلّق بخبر مقدّم (غضب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (من الله) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ

(غضب) (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم

(عذاب عظيم) مثل عذاب أليم " 2 " .

جملة : " من كفر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " . . وجواب الشرط محذوف

تقديره فهو مؤاخذ . . أو فلهم عذاب شديد .

وجملة : " أكره . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " قلبه مطمئنّ . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " من شرح . . عليهم غضب " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " شرح . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " عليهم غضب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 4 " .

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر الأخيرة .

(ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى الوعيد ، (اللام) للبعد

و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جرّ (أنّهم) مشبّه بالفعل . .

و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (استحبّوا) فعل ماض وفاعله (الحياة)

---

(1) أو هي رابطة لجواب الشرط أن أعرب (من) اسم شرط.

(2) في الآية (104) من هذه السورة.

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(4) وقد اقترنت الجملة بالفاء لمشابهة المبتدأ للشرط..

(278/446)

مفعول به منصوب (الدنيا) نعت لـ (حياة) منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (على الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استحبّوا) بتضمينه معنى فضّلوا.

والمصدر المؤوّل (أنّهم استحبّوا...) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك.

(الواو) عاطفة (أنّ الله لا يهدي) مثل أنّهم استحبّوا (القوم) مفعول به منصوب (الكافرين) نعت للقوم منصوب.

والمصدر المؤوّل (أنّ الله لا يهدي..) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأوّل.

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " استحبّوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الأول) .

وجملة : " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الثانيّ) .

(أولئك) ، اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و(الكاف) للخطاب (الّذين) موصول في محلّ رفع خبر (طبع) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على قلوبهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (طبع) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (سمعهم ، أبصارهم) مثل قلوبهم ومعطوفان عليه بحرفي العطف (أولئك) مثل الأول (هم) ضمير فصل " 1 " ، (الغافلون) خبر المبتدأ أولئك .

وجملة : " أولئك الّذين . . . " في محلّ نصب حال من القوم " 2 " .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الغافلون) ، والجملة خبر المبتدأ أولئك .

(2) أو لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " طبع اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك . . . الغافلون " في محلّ نصب معطوفة على جملة أولئك الذين طبع . .

(لا جرم) نافية للجنس واسمها مبنيّ على الفتح في محلّ نصب " 1 " ، (أنّهم) مثل الأول (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (الخاسرون) ، (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 2 " ، (الخاسرون) خبر المبتدأ (هم) مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

المصدر المؤوّل (أنّهم . . هم الخاسرون) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره ، في ، أي لا جرم في أنّهم . . هم الخاسرون ، فالجار متعلّق بخبر لا .

وجملة : " لا جرم (في) أنّهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم الخاسرون " في محلّ رفع خبر أنّ .

(ثمّ) حرف عطف (إنّ) حرف توكيد ونصب (ربّك) اسم إنّ منصوب . . و(الكاف) مضاف إليه (اللام) حرف جرّ (الّذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بخبر إنّ أي هو ناصر لهم (هاجروا) فعل ماض وفاعله (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (هاجروا) ، (ما) حرف مصدريّ (فتنوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل (ثمّ) مثل الأول (جاهدوا) مثل هاجروا وكذلك (صبروا) ، (إنّ ربّك من بعدها) مثل الأولى . . و(ها) مضاف إليه (اللام) المزحلقة للتوكيد (غفور) خبر مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع .

---

(1) انظر حالات إعراب (لا جرم) في الآيات (22) من سورة هود و(23 ، 62) من هذه السورة . [. . . . .]

(2) أو هو ضمير أستعير لمحلّ النصب توكيد للضمير اسم أنّ .

وجملة : " إنّ ربّك للذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا جرم . .

وجملة : " هاجروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " فتنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما فتنوا . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جاهدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هاجروا .

وجملة : " صبروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هاجروا .

وجملة : " إنّ ربّك . . لغفور " لا محل لها استئنافيّة لتأكيد الجملة الأولى " 1 " .

الصرف :

(مطمئنّ) ، اسم فاعل من اطمأنّ الخماسيّ ، وزنه مفعلل بضمّ الميم وكسر اللام الأولى .

الفوائد

المفتونون عن دينهم :

- قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ . .

عند ما اشتد المشركون من أهل مكة على المستضعفين الذين آمنوا بما أنزل على محمد /

صلّى اللّه عليه وسلّم/ ارتدّ عدد منهم إلى الكفر : وكانوا فئتين : فئة استجابت لإغراء قريش رهبة أو رغبة ، وفئة عذبت في الله حتى اضطرت للنطق بكلمة الكفر .

منهم عمار بن ياسر وأبوه وأمه ، وقد قتلهما أبو جهل فكانا أول شهيدين في الإسلام . ومنهم صهيب وخباب وبلال وسالم ، فقد لجؤوا إلى التقية ، فقالوا كلمة الكفر في لسانهم وقلوبهم عامرة بالإيمان ، وقد قبل الرسول منهم ذلك وأقرّهم عليه ، ونزل فيهم من القرآن الكريم قوله تعالى : إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ .

---

(1) أو هي بدل من الأولى لا محلّ لها .

(281/446)

[سورة النحل (16) : آية 111]

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111)

الإعراب

(يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " (تأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (كلّ) فاعل مرفوع (نفس) مضاف إليه مجرور (تجادل) مضارع مرفوع ، والفاعل هي (عن نفسها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجادل) ، و(ها) ضمير مضاف إليه

(الواو) عاطفة (توفّى) فعل مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (كلّ) نائب الفاعل مرفوع (نفس) مثل الأول (ما) حرف مصدريّ (عملت) فعل ماض، و(التاء) للتأنيث والفاعل ضمير مستتر تقديره هي.

والمصدر المؤوّل (ما عملت..) في محلّ نصب مفعول به، على حذف مضاف أي جزاء عملها "2".

(الواو) واو الحال (هم) ضمير منفصل مبتدأ (لا) نافية (يظلمون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع، و(الواو) نائب الفاعل.

جملة: "(اذكر) يوم..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تأتي كلّ..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "تجادل..." في محلّ رفع نعت لكلّ نفس "3".

وجملة: "توفّى كلّ نفس" في محلّ جرّ معطوفة على جملة تأتي.

---

(1) أو هو ظرف زمان منصوب متعلّق برحيم.

(2) يجوز أن يكون (ما) اسم موصول في محلّ نصب، والعائد محذوف، والجملة بعده صلة.

(3) أو في محلّ نصب حال.

وجملة: " عملت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: " و (هم) لا يظلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة: " لا يظلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف:

(توفّى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله توفي - بياء في آخره - جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ورسمت برسم الياء لأنها خامسة .

الفوائد

- يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ :

" كل " هي اسم للدلالة على الإحاطة والجمع ، أو أجزاء الأفراد ، وهي إما نكرة نحو كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ، وإما معرفة نحو وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً .

إعرابها : لإعرابها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون توكيدا لمعرفة ، وهو مذهب البصريين .

الثاني : أن يكون نعتا لمعرفة ، فتدل على كماله نحو :

" هم القوم كل القوم يا أم خالد " .

الثالث : أن تكون تالية للعوامل ، إما مضافة نحو :

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ .

أو غير مضافة نحو : وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ . ومنه نيابتها عن المصدر فتكون منصوبة على أنها مفعول مطلق ، نحو فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ وقد تضاف إلى الظرف فتعرب مفعولا فيه .

ملاحظة : لفظ كل حكمه الإفراد والتذكير .

ومعنى كل بحسب ما تضاف إليه ، فيراعى معنى ما تضاف إليه في التنكير والتعريف والإفراد والتثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، نحو كل نفس ذائقة الموت ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

فسائر هذه الأمثلة روعي فيها معنى المضاف إليه ولم يراع لفظ " كل " فتأمّل وتصرّف .

هديت إلى الصواب .

[سورة النحل (16) : آية 112]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ

فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (112)

الإعراب

(284/446)

(الواو) استئنافيّة (ضرب) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (مثلا) مفعول به منصوب (قرية) بدل من (مثلا) منصوب (كانت) فعل ماض ناقص - و(التاء) للتأنيث - واسمه ضمير مستتر تقديره هي (آمنة) خبر كان منصوب (مطمئّنة) خبر ثان منصوب (يأتيها) مثل تأتي " 1 " ، و(ها) ضمير مفعول به (رزقها) فاعل مرفوع . . و(ها) مضاف إليه (رغدا) مصدر في موضع الحال (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتيها) ، (مكان) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة في الموضعين (كفرت) مثل عملت " 2 " ، (بأنعم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفرت) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور ، (أذاقها) مثل عمل " 3 " . . و(ها) مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لباس) مفعول به ثان منصوب (الجوع) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الخوف) معطوف على الجوع مجرور (الباء) حرف جرّ (ما) حرف

(1 ، 2 ، 3) في الآية السابقة (111) .

مصدريّ " 1 " ، (كانوا يصنعون) مثل كانوا يعملون. " 2 "

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أذاقها) .

جملة: " ضرب اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " كانت آمنة . . . " في محلّ نصب نعت لقرية.

وجملة: " يأتيها رزقها " في محلّ نصب خبر ثالث للفعل كانت " 3 " .

وجملة: " كفرت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كانت . . .

وجملة: " أذاقها اللّه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كفرت . .

وجملة: " كانوا يصنعون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: " يصنعون " في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

(1) المجاز المرسل: في قوله تعالى وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً أي أهل قرية والعلاقة المحلية، إذ أطلق المحلّ وأريد الحال.

(2) في قوله تعالى فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ استعارتان مكنيتان.

أما الإذاقة، فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة، لشيوعها في البلايا والشدائد ، وما يمسّ الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب : شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع.

وأما اللباس، فقد شبه به لاشتماله على اللابس : ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، فكأنما قد أحاط بهم واشتمل عليهم كما يشتمل اللباس على لابسه.

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف.

(2) في الآية (97) من هذه السورة.

(3) أو في محلّ نصب حال من الضمير من آمنة.

(286/446)

[سورة النحل (16) : آية 113]

وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (113)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (جاءهم) فعل ماض، و(هم) ضمير مفعول به (رسول) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ

متعلّق بنعت لرسول (الفاء) عاطفة الموضعين (كذّبوه) فعل ماض وفاعله، و(الهاء) مفعول به (أخذهم) مثل جاءهم (العذاب) فاعل مرفوع (الواو) واو الحال (هم) ضمير منفصل مبتدأ (ظالمون) خبر مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

جملة: "قد جاءهم رسول..." لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

وجملة: "كذّبوه..." لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة: "أخذهم العذاب..." لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوه.

وجملة: "هم ظالمون" في محلّ نصب حال.

[سورة النحل (16): آية 114]

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)

الإعراب

(287/446)

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. و(الواو) فاعل (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (كلوا)، (رزقكم) فعل ماض.. و(كم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (حلالا) حال من المفعول

الثاني المقدّر أي رزقكم إيّاه اللّه " 1 " ، (طيّبا) حال ثانية " 2 " ، (الواو) عاطفة (اشكروا) مثل كلوا

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي أكلا حلالا ، ومثله (طيّبا) . . ويجوز أن يكون مفعولا به أي طعاما حلالا .

(2) يجوز أن يكون نعتا لـ (حلالا) منصوب مثله .

(288/446)

(نعمة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . . و(تم) ضمير اسم كان (إيّاه) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (تعبدون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

جملة : "كلوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أتاكم رزق اللّه فكلوا . .

وجملة : " رزقكم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اشكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا .

وجملة : "كنتم . . تعبدون " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن كنتم تعبدونه فكلوا من رزقه واشكروا نعمته .

وجملة : " تعبدون " في محلّ نصب خبر كنتم .

[سورة النحل (16) : آية 115]

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115)

الإعراب

(289/446)

(إنّما) كافة ومكفوفة (حرّم) فعل ماض ، والفاعل هو (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حرّم) ، (الميتة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الدم ، لحم) اسمان معطوفان على الميتة منصوبان (الخنزير) مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على الميتة بالواو (أهلّ) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (لغير) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أهلّ) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الباء) حرف جرّ و(الهاء)

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أهلّ) " 1 " ، (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اضطرّ) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط ونائب

الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (غير) حال منصوبة (باغ) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (عاد) مثل باغ ومعطوف عليه (الفاء) رابطة أو تعليليّة (إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (غفور) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "إنّما حرّم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أهلّ لغير . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "من اضطرّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "اضطرّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "2".

وجملة: "إنّ اللّه غفور" لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي: فلا إثم عليه فإن اللّه غفور . .

الفوائد

- قوله تعالى: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

قال الفقهاء ما فحواه: إذا حلّت المجاعة بقوم، حتى أشرفوا على الهلكة، ولم يجدوا ما يتبلغون به سوى إحدى الحرمات المذكورة في الآية الآنفة الذكر، فلا إثم عليهم أن يتناولوا مما نصّ على تحريمه، شريطة أن لا يتكثروا منه. وإنما يتناولون ما ينقذهم من الهلاك، فلا يحتكرون ولا يختزنون ولا يستأثرون ولا يتزيدون فوق الضرورة. وهذا معنى قوله: غير

عاد ولا باغ.

---

(1) أو متعلّق بحال من نائب الفاعل أي مضحّى به.

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

[سورة النحل (16) : الآيات 116 إلى 117]

وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (116) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (117)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (تقولوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.. و(الواو) فاعل (اللام) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 "، (تصف) مضارع مرفوع (ألسنتكم) فاعل مرفوع.. و(كم) ضمير مضاف إليه (الكذب) مفعول به عامله تصف منصوب " 2 ".

والمصدر المؤوّل (ما تصف ألسنتكم..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تقولوا)، و(اللام) للتعليل.

(ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (حلال) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (هذا حرام) مثل هذا حلال (اللام) للتعليل (تفتروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون و(الواو) فاعل (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تفتروا)، (الكذب) مفعول به منصوب.

والمصدر المؤوّل (أن تفتروا) في محلّ جرّ باللام وهو بدل من المصدر المؤوّل الأوّل بإعادة الجارّ.

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ باللام، والعائد محذوف أي تصفه، والجملة بعده صلة ما. [......]

(2) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر أي لا تقولوا القول الكذب.. كما يجوز أن يكون مفعولا به للقول.

نصب اسم إنّ (يفترون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل (على اللّه الكذب) مثل الأولى (لا) نافية (يفلحون) مثل يفترون.

جملة : " لا تقولوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تصف ألسنتكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " هذا حلال . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " هذا حرام . . . " في محلّ نصب معطوف على جملة مقول القول .

وجملة : " تفتروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ الّذين . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يفلحون " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يفترون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

(متاع) مبتدأ مرفوع خبره محذوف مقدّم أي لهم متاع " 2 " ، (قليل) نعت لمتاع مرفوع (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ متعلّق بخبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع .

وجملة : " (لهم) متاع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لهم عذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

---

(1) وهي في محلّ نصب بدل من الكذب إن أعرب (الكذب) مفعولا به لفعل تقولوا .

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره عيشهم أو منفعتهم أو بقاؤهم . . متاع .

البلاغة

- الاستعارة بالكناية: في قوله تعالى لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ كأن ألسنتهم لكونها منشأ للكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس أوضح وصف ويعرفه أبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال: وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر. وهو من فصيح الكلام وبليغه.

الفوائد

علق ابن هشام على هذه الآية بقوله: قيل في وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ وفي كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ أن الكذب بدل من مفعول تصف المحذوف، أي لما تصفه. وكذلك في رسولا، بناء على أن " ما " في " كما " موصول اسمي، ويرده أن فيه إطلاق ما على الواحد من أولي العلم. والظاهر أن ما كافة. وأظهر منه أنها مصدرية، لإبقاء الكاف حينئذ على عمل الجر. وقيل في الكذب أنه مفعول لتقولوا، والجملتان بعده بدل منه أي لا تقولوا الكذب، لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة، وإما لمحذوف، أي فتقولون الكذب، وإما لتصف على أن ما مصدرية والجملتان محكيتا القول، أي لا تحللوا وتحرموا

لمجرد قول تنطق به ألسنتكم.

[سورة النحل (16) : الآيات 118 إلى 119]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (على) حرف جرّ (الّذين) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق ب (حرّمنا)، (هادوا) فعل ماض وفاعله (حرّمنا) فعل ماض وفاعله (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (قصصنا) مثل حرّمنا (على) مثل الأول (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (قصصنا)، (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق ب (قصصنا) " 1 "، (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (ما) نافية (ظلمناهم) مثل حرّمنا.. و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (كانوا) فعل ماض ناقص واسمه (أنفسهم) مفعول به مقدّم منصوب.. و(هم) مضاف إليه (يظلمون) مضارع مرفوع.. و(الواو) فاعل.

جملة: " هادوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين).

وجملة: " حرّمنا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " قصصنا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " ما ظلمناهم ... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 ".

وجملة: " كانوا ... يظلمون " لا محلّ لها معطوفة على ما ظلمناهم.

وجملة: " يظلمون " في محلّ نصب خبر كانوا.

(ثمّ) حرف عطف (إنّ ربّك.. السوء) مرّ إعرابها " 3 "، (السوء) مفعول به منصوب (بجهالة) جارّ ومجرور حال من فاعل عملوا (ثمّ) مثل الأول (تابوا) فعل مثل هادوا (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تابوا)، (ذلك) اسم الإشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه.. و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الواو) عاطفة (أصلحوا) مثل هادوا (إنّ ربّك.. رحيم) مرّ إعرابها " 4 ".

---

(1) وقيل متعلّق بـ (حرّمنا).

(2) أو في محلّ نصب حال من ضمير الفاعل في (حرّمنا).

(3، 4) في الآية (110) من هذه السورة.

وجملة: " إنّ ربّك للذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حرّمنا . . .

وجملة: " عملوا . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " تابوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " أصلحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تابوا .

وجملة: " إنّ ربّك . . لغفور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للأولى.

الفوائد

1 - من قبل: قبل ظرف زمان مبنيّ على الضم لإضافته إلى مضاف إليه المحذوف لفظا ، الملحوظ عقلا . وقد تقدم البحث عن " قبل وبعد " فلا حاجة للتكرار .

2 - السوء : كتبت الهمزة على السطر ، لأنها وقعت في آخر الكلمة ، وسبقت بساكن . وقد قدمنا بحثا إضافيا عن الهمزة وكتابتها في سائر أحوالها ، فعد إليه في مكانه .

[سورة النحل (16) : الآيات 120 إلى 123]

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(123)

الإعراب

(إنّ) حرف توكيد ونصب (إبراهيم) اسم إنّ منصوب، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة

(كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (أمّة) خبر كان منصوب (قانتا)

خبر ثان منصوب (للّه) جارّ

ومجرور متعلّق بـ (قانتا)، (حنيفا) خبر ثالث منصوب (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي

وجزم (يك) مضارع مجزوم ناقص وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة

للتخفيف، واسمه هو (من المشركين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر يك.

جملة: " إنّ إبراهيم كان... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كان أمّة... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " لم يك... " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان أمّة.

(شاكرا) خبر آخر لكان منصوب (لأنعمه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (شاكرا).. و(الهاء)

مضاف إليه (اجتباه) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف.. و(الهاء) ضمير

مفعول به والفاعل هو (الواو) عاطفة (هداه) مثل اجتباه (إلى صراط) جارّ ومجرور متعلّق

بـ (هداه)، (مستقيم) نعت لصراط مجرور.

وجملة: " اجتباه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " هداه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اجتباه.

(295/446)

(الواو) عاطفة (آتيناه) فعل مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير الفاعل، و(الهاء) مفعول به (في الدّنيا) جارّ ومجرور متعلّق بحال من حسنة - نعت تقدّم على المنعوت - " 1 "، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (حسنة) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (إنّه) حرف مشبّه بالفعل، و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بالصالحين (اللام) المزحلقة للتوكيد (من الصّالحين) جارّ ومجرور خبر إنّ.

---

(1) أو متعلّق بـ (آتيناه).

(296/446)

وجملة: " آتيناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اجتباه.

وجملة: " إنّه في الآخرة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناه.

(ثمّ) حرف عطف (أوحينا) مثل آتينا (إلى) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوحينا) ، (أن) حرف تفسير " 1 " ، (اتّبع) فعل أمر ، والفاعل أنت (ملّة) مفعول به منصوب (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (حنيفا) حال من إبراهيم منصوبة (الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من المشركين) جارّ ومجرور خبر كان .

وجملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناه .

وجملة : " اتّبع . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " ما كان من المشركين " في محلّ نصب معطوفة على الحال (حنيفا) .

الفوائد

- تأتي الحال من المضاف إليه ، إذا كان إحدى الحالات التالية :

أ - أن يكون المضاف جزءا من المضاف إليه ، نحو ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا .

ب - أو كان شبيه الجزء من المضاف إليه ، نحو الآية اتَّبعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً .

ج - أن يكون المضاف عاملا في الحال نحو إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً .

---

1 - أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل مجرور بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أوحينا) .

[سورة النحل (16) : آية 124]

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)

الإعراب

(إنّما) كافّة ومكفوفة (جعل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (السبت) نائب الفاعل (على الذين) جارّ ومجرور مرّ إعرابه " 1 " متعلّق بـ (جعل) بتضمينه معنى وضع (اختلفوا) فعل ماض وفاعله (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اختلفوا) ، (الواو) عاطفة (إنّ ربّك) مثل إنّ إبراهيم " 2 " ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (اللام) المزحلقة للتوكيد (يحكم) مضارع مرفوع والفاعل هو (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحكم) . . و(هم) ضمير مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يحكم) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (في) حرف جرّ و(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يحكم) ، (كانوا . . يختلفون) مثل كانوا يظلمون " 3 " . (فيه) مثل الأول متعلّق بـ (يختلفون) .

جملة: " جعل السّبت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " اختلفوا فيه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة: " إنّ ربّك ليحكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يحكم... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "كانوا... يختلفون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "يختلفون" في محلّ نصب خبر كانوا.

---

(1) في الآية (118) من هذه السورة.

(2) في الآية (120) من هذه السورة.

(3) في الآية (118) من هذه السورة.

(298/446)

[سورة النحل (16) : الآيات 125 إلى 128]

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

الإعراب

(ادع) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (إلى سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بفعل ادع (ربّك) مضاف إليه مجرور و(الكاف) مضاف إليه (بالحكمة) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل ادع (الواو) عاطفة (الموعظة) معطوف على الحكمة مجرور (الحسنة) نعت للموعظة مجرور (الواو) عاطفة (جادلهم) مثل ادع ، و(هم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ (الّتي) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (جادل) ، وثمّة موصوف محذوف أي : بالمجادلة التي . . (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أحسن) خبر مرفوع (إنّ ربّك) مثل إنّ إبراهيم " 1 " و(الكاف) ضمير مضاف إليه (هو) ضمير منفصل مبتدأ (أعلم) خبر المبتدأ هو (الباء) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعلم) (ضلّ) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (عن سبيله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ضلّ) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (هو أعلم) مثل الأولى (بالمهتدين) جارّ ومجرور

---

(1) في الآية (120) من هذه السورة .

متعلّق بـ (أعلم) الثاني ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " ادع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جادلهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هي أحسن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّتي) .

وجملة : " إنّ ربّك . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " هو أعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هو أعلم (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة هو أعلم (الأولى) .

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (عاقبتم) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(تم) ضمير فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (عاقبوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الواو) فاعل (بمثل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عاقبوا) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (عوقبتم) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و(تم) ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عوقبتم) ، (الواو) عاطفة (اللام) موطّئة للقسم (إن صبرتم) مثل إن عاقبتم (اللام) لام القسم (هو خير) مثل هو أعلم (للصابرين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خير) ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " إن عاقبتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " عاقبوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " عوقبتم به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إن صبرتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن عاقبتم . .

وجملة : " هو خير للصابرين " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

(الواو) عاطفة (اصبر) مثل ادع (الواو) واو الحال (ما) نافية (صبرك)

مبتدأ مرفوع . . و(الكاف) مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ صبرك (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تحزن) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تحزن) ، (الواو) عاطفة (لا تك) مثل لا تحزن ، والفعل مضارع ناقص ، وعلامة الجزم السكون على النون المحذوفة للتخفيف ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (في ضيق) جارّ ومجرور متعلّق بخبرتك (من) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (يمكرون) مضارع مرفوع . . و(الواو) فاعل .

المصدر المؤوّل (ما يمكرون) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (ضيق) .

وجملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن عاقبتم . . .

وجملة : " ما صبرك إلّا بالله " في محلّ نصب حال من فاعل اصبر .

وجملة : " لا تحزن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " لا تك في ضيق . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تحزن .

وجملة : " يمكرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الله) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (مع) ظرف منصوب متعلّق بخبر إنّ (الّذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (اتّقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل (الواو) عاطفة (الّذين) مثل الأول ومعطوف عليه (هم محسنون) مثل (هم) ظالمون " 2 " .

وجملة : " إنّ الله مع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " هم محسنون " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين الثاني) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 14 صـ 358 . 416 ﴾

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف .

(2) في الآية (113) من هذه السورة . [. . . . .]

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ) جملة مستأنفة لتعليمهم كيف يضرب اللّه المثل ، وضرب اللّه مثلا فعل وفاعل ومفعول به وعبدا بدل من مثلا ومملوكا صفة وجملة لا يقدر على شيء صفة ثانية وعلى شيء متعلقان بيقدر أي من التصرفات (وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً) الواو عاطفة ومن عطف على عبدا مملوكا ومن اسم موصول أو نكرة موصوفة كأنه قيل وحرا رزقناه ليطابق عبدا وجملة رزقناه صلة على الأول وصفة على الثاني ونا فاعل والها مفعول به ومنا متعلقان برزقناه ورزقا مفعول به ثان إن أردت به الحال أو مفعول مطلق إن أردت به المصدر وحسنا صفة لرزقا . (فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ) الفاء عاطفة وهو مبتدأ وجملة ينفق خبر ومنه متعلقان بينفق وسرا وجهرا مصدران منصوبان على المفعولية المطلقة أي انفاق سر وجهر أو منصوبان على الحال أي مسرا ومجاهرا وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه وأن الثواب فيه أكثر ، وهل حرف استفهام للنفي وجمع الضمير في يستوون وان تقدمه اثنان لأن المراد جنس الأحرار والعبيد المدلول عليهما والمعنى لا يستوي الأحرار والعبيد . (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا

يَعْلَمُونَ) الحمد مبتدأ ولله خبر وبل حرف إضراب وأكثرهم مبتدأ وجملة لا يعلمون خبر وأتى بالجملة الاخبارية إرشادا للعبد إلى وجوب شكر المنعم على ما أسبغ من العوارف والآلاء . (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ) الواو عاطفة وضرب الله مثلا فعل وفاعل ومفعول به ورجلين بدل من مثلا . (

(302/446)

أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ) أحدهما مبتدأ وأبكم خبره وجملة لا يقدر على شيء صفة أبكم (وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ) الواو حالية وهو مبتدأ وكل خبره وعلى مولاه متعلقان بكل (أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ) أينما اسم شرط جازم في محل نصب على الظرفية المكانية ، وهو متعلق بفعل الشرط كما هي القاعدة وقيل بجوابه ولكل وجه وقال الرضي : " العامل في متى وكل ظرف فيه معنى الشرط شرطه على ما قاله الأكثرون " غير إذا والصحيح ان العامل فيها الجواب ووجهه ابن الحاجب فقال : ان الشرط والجزاء جملتان ولا يستقيم عمل الجواب في اسم الشرط لأنه يؤدي إلى أنه يصير جملة واحدة لأنه إذا كان ظرفا له كان من تتمته ولا يكون جملة ثانية أما إذا فالعامل فيها هو الجزاء

ووجه ذلك قوة توهم الاضافة في إذا وضعفه في متى ، وفصل بعضهم فقال : والأولى أن

نفصل ونقول إن تضمن إذا معنى الشرط فحكمه حكم أخواته من متى ونحوه وإن لم يتضمن نحو إذا غربت الشمس جئتك بمعنى أجيئك وقت غروب الشمس فالعامل هو الفعل الذي في محل الجزاء وإن لم يكن جزاء في الحقيقة دون الذي في محل الشرط إذ هو مخصص للظرف وتخصيصه له إما لكونه صفة له أو لكونه مضافا اليه ولا ثالث بالاستقراء . ويوجهه فعل الشرط ولا نافية

ويأت جواب الشرط وبخير متعلقان بيأت . (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) هل حرف استفهام معناه النفي ويستوي فعل مضارع وهو تأكيد للفاعل المستتر ومن عطف على الفاعل المستتر في يستوي والشرط موجود وهو العطف بالضمير المنفصل وهو لفظ هو وهو مبتدأ وعلى صراط مستقيم خبره والجملة الاسمية صلة من وحذف مقابل أحدهما أبكم للدلالة عليه بقوله ومن يأمر أي والآخر ناطق قادر خفيف على مولاه أينما يوجهه يأت بخير .

الفوائد :

الفرق بين المصدر واسم المصدر :

كثر الاختلاف في إعراب شيئا ولهذا كان لا بد من التبسّط في إعمال المصدر ، والفرق بينهما : ان المصدر هو الذي له فعل يجري عليه كالانطلاق في انطلق واسم المصدر هو اسم المعنى وليس له فعل يجري عليه كالقهقرى فإنه لنوع من الرجوع ولا فعل له يجري عليه من لفظه وقد يقولون مصدر واسم مصدر في الشيئين المتغايرين لفظا أحدهما للفعل والآخر للدلالة التي يستعمل بها الفعل كالطهور

والطهور والأكل والأكل فالطهور المصدر والطهور اسم ما يتطهر به والأكل المصدر والأكل ما يؤكل .

ويعمل المصدر عمل فعله إن كان يحل محله فعل إما مع أن المصدرية والزمان ماض أو مستقبل نحو عجبت من ضربك زيدا أمس ، ونحو يعجبني ضربك زيدا غدا وإما مع ما المصدرية والزمان حال فقط كيعجبني ضربك زيدا الآن أي ما تضربه الآن وعمل المصدر مضافا أكثر من عمله غير مضاف نحو : " ولولا دفع الله الناس " وعمله منونا هو القياس لأنه أقرب إلى الشبه بالفعل لتنكيره نحو : " أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما " فإطعام مصدر وفاعله مستتر ويتيما مفعوله وعمله معرفا بأل قليل في السماع ضعيف في القياس لبعده من مشابهة الفعل كقوله :

ضعيف النكاية أعداءه يخال الفرار يراخي الأجل

فالنكاية مصدر مقرون بأل وأعداءه مفعوله والمعنى ضعيف نكايته أعداءه يظن أن الفرار

من الموت بباعد الأجل .

أما اسم المصدر فيعمل أيضا كالمصدر إذا كان ميميا كقول العرجي وقيل الحارث بن خالد المخزومي :

أظلوم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فمصاب مصدر ميمي مضاف إلى فاعله ورجلا مفعوله وجملة أهدى السلام نعت رجلا وتحية مفعول مطلق وستأتي قصة هذا البيت ، وإن كان غير ميمي لم يعمل عند البصريين لأن أصل وضعه لغير المصدر

فالغسل موضوع لما يغتسل به والوضوء لما يتوضأ به ويعمل عند الكوفيين وجماعة من البصريين وعليه قول القطامي :

أكفرا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا

فعطاء اسم مصدر مضاف إلى فاعله والمائة مفعوله الثاني أما الأول فهو محذوف أي عطائك إياي المائة الرتاع أي الراتعة وهي الإبل التي ترتعي والواقع أن البصريين اضطربت أقوالهم فقال بعضهم بالجواز وقال بعضهم بالمنع .

قصة بيت العرجي :

غنت جارية بحضرة الواثق من شعر العرجي :

أظلوم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من بالحضرة في إعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم ان ومنهم من رفعه على انه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب فأمر الواثق بأشخاصه قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت من مازن ، قال : من أي الموازن ؟

قلت : من مازن ربيعة فكلمني بكلام قومي وقال با اسمك ؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما إذا كانت في أول الأسماء فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته وأعجبه مني ذلك ثم قال : ما تقول في قول الشاعر :

أظلوم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

أترفع رجلا أم تنصبه فقلت الوجه النصب قال ولم ذلك ؟ فقلت :

لأن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم وهو بمنزلة قولك : إن ضربك زيدا ظلم فالرجل مفعول مصاب ومنصوب به والدليل عليه ان الكلام متعلق إلى أن تقول ظلم فيتم فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار .

[سورة النحل (16) : الآيات 77 إلى 82]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا
وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82)

اللغة :

(ظَعْنِكُمْ) : سفركم يقال ظعن يظعن من باب فتح ظعنا وظعنا وظعونا ومظعنا سار ورجل

قال :

أقاطن قوم سلمى أم نووا ظعنا إن يظعنوا فعجيب عيش من قطنا

والقاعدة هي : كل ما كان بوزن فعل مما عينه حرف حلق يجوز تسكينه كبحر ونحر ونهر وشعر وشهر ، وقال ابن درستويه في شرح الفصيح : أهل اللغة وأكثر النحويين يقولون : كل ما كان الحرف الثاني منه حرف حلق جاز فيه التسكين والفتح وقال الحذاق : ليس ذلك صحيحا ولكن هي كلمات فيها لغتان فمن سكن من العرب لا يفتح ومن فتح لا يسكن إلا في ضرورة شعر والدليل على ذلك انه قد جاء عنهم مثل ذلك في كلام كثير ليس في شيء منه من حروف الحلق شيء مثل القبض والقبض فإنه جاء فيهما الفتح والإسكان ، قال : ومما يدل على بطلان ما ذهبوا اليه أنه قد جاء في النطع أربع لغات فلو كان ذلك من أجل حروف الحلق لجازت هذه الأربع في الشعر والنهر وكل ما كان فيه شيء من حروف الحلق قال : ومما جاء فيه الوجهان مما ثانية حرف حلق : الشعر والشعر والنهر والنهر والصخر والصخر والبعر والبعر والظعن والظعن والدأب والدأب والفحم والفحم والسحر والسحر للرئة ، ومما جاء فيه الوجهان وليس ثانيه حرف حلق نشز من الأرض ونشز مرتفع ورجل صدع وصدع خفيف اللحم وليلة النفر والنفر وسطر وسطر وقدر وقدر ولفظ ولفظ وشمع وشمع ونطع ونطع وغذل وغذل وطرد وطرد وطرد وغبن وغبن ودرك ودرك وشبح

وشبح للشخص ، وهو صريح في أن طريق ذلك السماع .

(أَثَاثاً) : الأثاث : متاع البيت الكبير وأصله من أث أي تكاثف وكثر ومنه شعر أثيث أي كثير مجتمع قال امرؤ القيس :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

وقال الخليل : الأثاث والمتاع واحد وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما ، فإن قلت لا بد من فرق بين الأثاث والمتاع حتى يصح ذكر واو العطف والعطف يوجب المغايرة فما هو هذا الفرق ؟ قلت الأثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه فيدخل فيه جميع أصناف المال ، والمتاع ما ينتفع به في البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظين .

)

(307/446)

أكنان) : جمع كن وهو ما يستكن فيه من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف وفي المختار : " الكنّ السترة والجمع أكنان قال تعالى : " وجعل لكم من الجبال أكنانا " والأكنة الأغطية قال تعالى : " وجعلنا على قلوبهم أكنة " الواحد كنان وقال الكسائي كنّ الشيء ستره وبابه رد " وقد تقدم ذكر الأكنة .

(سَرابِيلَ) هي القمصان والثياب المتخذة من الصوف والكتان والقطن ومنه قول لبيد :

الحمد للّه إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

الاعراب :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) الواو استئنافية ولله خبر مقدم وغيب السموات والأرض مبتدأ مؤخر والواو عاطفة وما نافية وأمر مبتدأ والساعة مضاف إليه وإلا أداة حصر وكلمح البصر خبره وأو حرف عطف وهو مبتدأ وأقرب خبره .

(إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) إن واسمها وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبر إن . (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ) اللّه مبتدأ وجملة أخرجكم خبر ومن بطون أمهاتكم جار ومجرور متعلقان بأخرجكم .

(لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) الجملة في محل نصب على الحال من الكاف أي غير عالمين شيئا ، وشيئا مفعول به . (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وجعل عطف على أخرجكم والفاعل مستتر تقديره هو ولكم في موضع المفعول الثاني لجعل والسمع مفعوله الأول والأبصار والأفئدة عطف عليه ولعل واسمها وجملة تشكرون خبرها .

)

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل والى الطير متعلقان بيروا ومسخرات حال أي مذللة للطيران بما خلق لها من أجنحة وأسباب مواتية له وفي جو السماء متعلقان بمسخرات أي للتحليق في سمت العلو وسكاكه. و(ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ) الجملة حالية وما نافية ويمسكهن فعل وفاعل مستتر ومفعول به وإلا أداة حصر والله فاعل. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إن وخبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يؤمنون صفة لقوم. (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) والله مبتدأ وجملة جعل خبر مفعوله الأول سكنا ومفعوله الثاني أحد الجارين والثاني حال لأنه كان صفة لسكنا وتقدم عليه وإذا كانت جعل بمعنى خلق تعلق أحد الجارين به واكتفى بمفعول واحد وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك. (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تقدم إعراب نظيرتها والمراد بالبيوت هنا القباب والأبنية من الأدم والأنطاع كالخيام وغيرها وجملة تستخفونها صفة لبيوتا ويوم ظعنكم الظرف متعلق بتستخفونها ويوم إقامتكم عطف على يوم ظعنكم.

)

وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ) ومن أصوافها عطف على من جلود الأنعام وأثاثا معطوف على بيوتا أي وجعل لكم من أصوافها أثاثا فيكون من باب عطف الجار والمجرور والمنصوب على مثله ومتاعا عطف على أثاثا وإلى حين متعلقان بمتاعا أو صفة له. (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا) تقدم إعرابها. (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً) تقدم إعرابها أيضا. (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) جملة تقيكم الحر صفة لسرابيل وحذف المعطوف للعلم به أي والبرد. (وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ) وسرابيل عطف على سرابيل الأولى وجملة تقيكم صفة وتقيكم فعل مضارع وفاعل مستتر والكاف مفعوله الأول وبأسكم مفعوله الثاني والمراد بها الدروع والجواشن. (كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) كذلك نعت مصدر محذوف وقد تقدم كثيرا ويتم نعمته فعل وفاعل مستتر ومفعول به ولعل واسمها وجملة تسلمون خبرها. (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) الفاء استئنافية وان شرطية وتولوا فعل الشرط وأصله تتولوا فحذفت إحدى التاءين ويجوز أن يكون فعلا ماضيا والكلام فيه التفات ولعله أولى وجواب إن محذوف أي فلا غضاضة عليك والفاء تعليلية وإنما أداة حصر كافة ومكفوفة وعليك البلاغ خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والمبين صفة.

البلاغة :

معنى التشبيه هنا التمثيل ، أي ان الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب بمثابة لمح البصر ، واللمح النظر بسرعة ، ولا بد فيه من زمان تنقلب فيه الحدقة نحو المرئي ، وكل زمان قابل للتجزئة ، وقال الزجاج : " لم يرد ان الساعة تأتي في لمح البصر وانما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها لأنه يقول للشيء كن فيكون " وقيل : المعنى هي عند اللّه كذلك وان لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة .

[سورة النحل (16) : الآيات 83 إلى 86]

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (83) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (86)

اللغة :

(يُسْتَعْتَبُونَ) : يسترضون وقد اختلفت عبارات المفسرين فيها فلنرجع إلى كتب اللغة .

قال في المختار: عتب عليه وجد وبابه ضرب ونصر ومعتبا أيضا بفتح التاء والتعتب كالعتب والاسم المعتبة بفتح التاء وكسرها وقال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة وعاتبه معاتبة وعتابا وأعتبه سره بعد ما أساءه والاسم منه العتبى واستعتب وأعتب بمعنى. واستعتب أيضا طلب أن يعتب تقول استعتبه فأعتبه أي استرضاه فأرضاه" وفي الأساس: "واستعتبه استرضاه" وما بعد الموت مستعتب" وبينهم أعتوبة إذا كانوا يتعاتبون. تقول:

سمعت منها أعتوبة، لم تكن إلا أعجوبة. وعتابك السيف وعاتبت المشيب قال النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت: ألمّا أصح والشيب وازع

أي قلت للشيب: ما أقبح بك أن تصبو وعلى: من صلة عاتبت كما تقول عاتبته على الذنب".

(نَبْعَثُ): نرسل، وفي القاموس وغيره: بعثه يبعثه من باب فتح بعثا وتبعاثا أرسله وحده وبعث به أرسله مع غيره وبذلك يتضح صواب أبي الطيب المتنبي في قوله:

فآجرك الإله على عليل بعثت إلى المسيح به طبيبا

وقد أخطأ الصاحب في نقده لهذا البيت لأنه عدى بعث بالباء بحجة أن بعث يتعدى إلى العاقل بنفسه والى غير العاقل بالباء وقد صرفه تحامله على أبي الطيب عن التأمل في قصة البيت فقد ذكر الواحدي في كتابه قال سمعت الشيخ كريم بن الفضل قال سمعت والدي أبا بشر قاضي القضاة قال : أنشدني أبو الحسين الشامي الملقب بالمشوق قال كنت عند المتنبي فجاء وكيل علي بن محمد بن سيار بن مكرم وكان يحب الرمي فلما دخل عليه أنشده أبياتا سخيفة فنظم المتنبي قصيدته الرائعة في مديح علي بن مكرم والتي مطلعها :

ضروب الناس عشاق ضروبا فأعذرهم أشفهم حبيبا

وفيها يصف نفسه بأبيات ما لحسنها نهاية نثبتها فيما يلي :

أعزمي طال هذا الليل فانظر أمنك الصبح يفرق أن يؤوبا

كأن الفجر حبّ مستزار يراعي من دجنته رقيبا

كأن نجومه حلي عليه وقد حذيت قوائمه الجبوبا

كأن الجو قاسى ما أقاسي فصار سواده فيه شحوبا

كأن دجاه يجذبها سهادي فليس تغيب إلا أن ت

غيبا أقلب فيه أجفاني كأني أعد به على الدهر ألذ

نوبا وما ليل بأطول من نهار يظل بلحظ حساديم

شوبا وما موت بأبغض من حياة أرى لهم معي فيها نصيبا

ثم يتطرق إلى مديح علي بن مكرم ويشير إلى قصة وكيله الشاعر السخيف :

تيممني وكيلك مادحا لي وأنشدني من الشعر الغريبا

فآجرك الإله على عليل بعثت إلى المسيح به طبيبا

وعبر عنه بما لا يعقل لأنه عدى البعث بحرف الجر أو انه من جملة الهدايا التي بعث بها اليه ولكنها هدية منكرة إذ يقول :

ولست بمنكر منك الهدايا ولكن زدتني فيها أديبا

أما أبيات الوكيل فهي تافهة غير مستقيمة الوزن ولهذا أعرضنا عنها .

الاعراب :

)

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) يعرفون نعمة الله يعرفون فعل مضارع والواو فاعل ونعمة الله مفعول به وثم حرف عطف للتراخي ينكرونها عطف على يعرفون وعطف بثم للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد توفر دلائل المعرفة ، وأكثرهم الواو

للحال وأكثرهم مبتدأ والكافرون خبره أو بالعكس أي انهم كانوا يعرفون وينحرفون . (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً) الظرف متلق بمحذوف أي اذكر وجملة نبعث مضاف إليها الظرف ومن كل أمة حال لأنه كان في الأصل صفة لشهيدا وشهيدا مفعول به . (ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) ثم حرف عطف للتراخي ولا نافية ويؤذن فعل مضارع مبني للمجهول وللذين متعلقان به وقد اختلفت الآراء في هذا الإذن وأصحها أنه لا يؤذن لهم في الاعتذار لا سيما وان لها مثيلا في القرآن وهو قوله " ولا يؤذن لهم فيعتذرون " ولا الواو عاطفة ولا نافية وهم مبتدأ وجملة يستعتبون خبر وإنما عطف بثم لطول المدة التي كانت مغبتها منعهم من الكلام . (وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة رأى مضافة إلى الظرف والذين فاعل رأى وجملة ظلموا صلة والعذاب مفعول به والفاء رابطة لجواب إذا . (فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) الفاء رابطة لجواب إذا ولا نافية ويخفف فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر أي العذاب ولا عاطفة وهم مبتدأ وجملة ينظرون خبر . (وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ) تقدم نظيرتها وشركاءهم مفعول رأى . (قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ) جملة قالوا لا محل لها لأنها جواب إذا وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وهؤلاء مبتدأ وشركاؤنا خبر والذين صفة شركاؤنا وجملة كنا صلة وكان

واسمها وجملة ندعو خبر كنا ومن دونك حال من مفعول ندعو المحذوف أي ندعوهم ونعبدهم من دونك.

)

فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ) الفاء عاطفة وألقوا فعل وفاعل وهو الشركاء وإليهم متعلقان بألقوا والقول مفعول به وإنكم لكاذبون ان واسمها واللام المزحلقة وخبرها والجملة مقول القول.

(314/446)

[سورة النحل (16) : الآيات 87 إلى 90]

وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (88) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (89) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

الإعراب:

(وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ) الواو عاطفة وألقوا فعل وفاعل وهو الكفار والى اللّه جار ومجرور متعلقان بألقوا ويومئذ ظرف أضيف إلى ظرف مثله والتنوين عوضا عن جملة وقد مرّ مثاله كثيرا والسلم مفعول به. (وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) الواو عاطفة وضل فعل ماض وعنهم متعلقان به وما فاعل ضل وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يفترون خبر كانوا. (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ) الذين مبتدأ خبره جملة زدناهم وجملة كفروا صلة وصدوا عن سبيل اللّه عطف على كفروا، وزدناهم فعل وفاعل ومفعول به وعذابا مفعول به ثان وفوق العذاب ظرف متعلق بمحذوف صفة لعذابا وبما متعلقان بزدناهم والباء للسببية وما مصدرية أي بسبب صدهم وإفسادهم وكان واسمها وجملة يفسدون خبرها.

(315/446)

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وقد تكررت هذه الجملة مبالغة في التهديد والوعيد وجملة نبعث مضافة للظرف وفي كل أمة متعلقان بنبعث وشهيدا مفعول به وعليهم متعلقان بشهيدا ومن أنفسهم صفة لشهيدا (وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ) وجئنا الواو عاطفة وجئنا فعل وفاعل وبك جار ومجرور

متعلقان بجئنا وشهيدا حال وعلى هؤلاء متعلقان بشهيدا .

(وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ) ونزلنا عطف على جئنا ونا فاعل وعليك متعلقان بنزلنا والكتاب مفعول به وتبيانا مفعول لأجله أو حال أي مبينا ولكل شيء متعلقان بتبيانا وهدى ورحمة وبشرى عطف على تبيانا وللمسلمين متعلقان ببشرى وهو متعلق بالمصادر الأخرى المتقدمة من حيث المعنى .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى) إن واسمها وجملة يأمر خبر إن وبالعدل متعلقان بيأمر والإحسان عطف على العدل وكذلك إيتاء وذي القربى مضاف لإيتاء .

(وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وينهى عطف على يأمر والفاعل مستتر وعن الفحشاء متعلقان بينهى وما بعده عطف عليه وجملة يعظكم حال من فاعل يأمر وينهى ولعل واسمها وجملة تذكرون أي تتذكرون خبرها .

البلاغة :

اتفق علماء البلاغة والمفسرون جميعا على أن هذه الآية أجمع آية في القرآن للخير والشر وهي قوله تعالى : "إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان إلخ" وقد أمر عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح بتلاوتها

بدلا من القذف الذي كان يعقب خطب الجمعة بالإمام علي بن أبي طالب وبسببها أسلم عثمان بن مظعون ، وروي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له : يا ابن أخي أعد فأعاد النبي صلى اللّه عليه وسلم قراءتها عليه فقال له : إن له لحلاوة . وإن عليه لطلاوة . وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر .

وقد اشتملت في الواقع على أفانين من البلاغة نبينها فيما يلي :

1- الإيجاز : فقد أمر في أول الآية بكل معروف ونهى بعد ذلك عن كل منكر وختم الآية بأبلغ العظات وصاغ ذلك في أوجز العبارات .

2- صحة التقسيم : فقد استوفى فيها جميع أقسام المعنى فلم يبق معروف إلا وهو داخل في نطاق الأمر ولم يبق منكر إلا وهو داخل في حيز النهي ، وقدم ذكر العدل لأنه واجب وتلاه بالإحسان لأنه مندوب ليقع نظم الكلام على أحسن ترتيب وقرنهما في الأمر لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفريط يجبره الندب والنوافل وخص ذا القربى بالذكر بعد دخوله في عموم من أمر بمعاملته بالعدل والإحسان لبيان فضل ذي القربى وفضل الثواب عليه .

3- الطباق اللفظي والمقابلة بين يأمر وينهى وبين العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وبين الفحشاء والمنكر والبغي .

4- حسن النسق : في ترتيب الجمل وعطفها بعضها على بعض كما ينبغي حيث قدم

العدل وعطف عليه الإحسان لكون الإحسان اسما عاما وإيتاء ذي القربى خاص فكأنه نوع من ذلك الجنس ثم أتى بجملة الأمر مقدمة وعطف عليها جملة النهي .

5- التسهيم : لأن صدر الكلام يدل على عجزه كدلالة صدر البيت المسهم على عجزه .

6- حسن البيان : لأن لفظ الآية لا يتوقف من سمعه في فهم معناه إذ سلم من التعقيد في لفظه ودل على معناه دلالة واضحة بأقرب الطرق وأسهلها واستوى في فهمه الذكي والغبي .

7- الائتلاف : لأن كل لفظة لا يصلح مكانها غيرها .

(317/446)

8- المساواة : لأن ألفاظ الكلام قوالب لمعانيه لا تفضل عنها ولا تقصر دونها .

9- تمكين الفاصلة : لأن مقطع الآية مستقر في حيزه ثابت في مقره وقراره معناه متعلق بما قبله إلى أول الكلام ولأنه لا تحسن الموعظة إلا بعد التكليف ببيان الأمر والنهي ولأن أي لفظة حذفتها من ألفاظ الآية يختل المعنى بحذفها اختلالا ظاهرا وينقص نقصا بيّنا .

[سورة النحل (16) : الآيات 91 إلى 93]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93)

اللغة :

(تَوْكِيدِها) : توثيقها والتوكيد مصدر وكد يوكد بالواو وفيه لغة أخرى أكد يؤكد بالهمز ومعناه التقوية وهذا كقولهم ورخت الكتاب وأرخته وليست الهمزة بدلا من واو كما زعم بعضهم لأن الاستعسالين في المادتين متساويان فليس ادعاء كون أحدهما أصلا أولى من الآخر.

(أَنْكاثاً) : جمع نكث بكسر النون وهو ما ينكث فتله وفي المصباح : " نكث الرجل العهد نكثًا من باب قتل نقضه ونبذه فانتكث مثل نقضه فانتقض ونكث الكساء وغيره نقضه أيضا والنكث بالكسر ما نقض ليغزل ثانية والجمع أنكاث مثل حمل وأحمال وفي القاموس :

"

النكث بالكسر ما نقض من الأكسية والأخبية ليغزل ثانية وجمعه أنكاث ، يقال : حبل نكث وأنكاث أي منكوث " .

(دَخَلًا) : مفسدة ودغلا وفي الصحاح الدغل بالتحريك الفساد مثل الدخل وفي المعاجم الدخل العيب وفي القاموس والتاج : " الدخل بفتحتين ما داخل الإنسان من فساد في العقل أو الجسم والخديعة والعيب في الحسب والقوم الذين يتسبون إلى من ليسوا منهم ومن غريب أمر الدال والخاء أنهما لا تجتمعان إلا دلتا على فساد أو ظلام فالدّخ والدّخ بفتح الدال وضمها الدخان وناهيك بظلمته واربداده قالت امرأة أعرابية لزوجها وكان قد كبر :

لا خير في الشيخ إذا ما اجلخا وسال غرب عينه ولخا

وكان أكلا قاعدا وشخا تحت رواق البيت يغشى الدخا

وانثنت الرجل فصارت فخا وصار وصل الغانيات أخا

ودخر : ذل وصغر وأدخره أذله ودخس الحافر بكسر الخاء أصابه داء الدخس بسكون الخاء وهو ورم في الحافر والدخس بضم الدال وسكون الخاء دابة في البحر والدخيس الملتف من الكلأ وإذا التف فقد قارب السواد والعدد الكثير واللحم المكتنز وتداخلت الأمور التبست وتشابهت والدخل بفتح الدال وسكون الخاء ما دخل عليك من مالك ويقابله الخرج وهو مفسدة لصاحبه ما لم يؤدّ زكاته وما يترتب عليه ومنه سميت ضريبة الدخل ودخلة الرجل بتثليث الدال داخلته وهي محتجبة بظلمة الخفاء والدخيل من دخل في قوم وانتسب إليهم وليس منهم فهو في لبس من أمره وقلما يكون صالحا وداء دخيل أي

داخل في أعماق البدن وكل كلمة أعجمية أدخلت في كلام العرب ودخمه دفعه بإزعاج ودخن الطعام واللحم وغيرهما أصابه الدخان في حال طبخه أو شيه فتغلبت رائحة الدخان على طعمه فهو دخن والدخن بفتحتين الحقد والفساد وتغير العقل والدين والحسب يقال : "لست أصالحه على دخن" أي على مكر وفساد والدخي بفتح الدال المشددة الظلمة وليلة دخياء مظلمة وهذا من عجائب اللغات .

(أَرْبى) أزيد عددا وأوفر مالا .

الاعراب :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) الواو عاطفة وأوفوا فعل أمر وفاعل وبعهد الله جار ومجرور متعلقان بأوفوا وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة عاهدتم مضاف إليها الظرف . (وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) الواو عاطفة ولا ناهية وتنقضوا مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والأيمان مفعول به

وبعد ظرف متعلق بتنقضوا وتوكيدها مضاف اليه والواو حالية والجملة حال من فاعل تنقضوا وقد حرف تحقيق وجعلتم الله فعل وفاعل ومفعول به وعليكم متعلقان بكفيلا وكفيلا مفعول به ثان لجعلتم. (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ) تقدم إعراب مثيلتها كثيرا. (وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً) الواو عاطفة ولا ناهية وتكونوا مجزوم بها وكان واسمها والكاف خبرها وجملة نقضت صلة وغزلها مفعول به ومن بعد قوة حال من فاعل نقضت أو من مفعوله أي محكمة له أو محكماً وأنكاثا منصوب بفعل محذوف أي فجعلته أنكاثا أو بتضمين نقضت معنى صيرت فهو مفعول ثان وجوّز الزجاج فيه وجها آخر وهو النصب على المصدرية لأن معنى نقضت نكثت فهو مطابق لعامله في المعنى وقيل هو حال من غزلها أي منقوضا وستأتي قصة هذه المرأة في باب الفوائد. (تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ) جملة تتخذون حال من ضمير تكونوا أي لا تكونوا مثلها متخذين أيمانكم دخلا وتتخذون فعل مضارع وفاعل وأيمانكم مفعول به أول ودخلا مفعول به ثان وبينكم صفة لدخلا وأن وما في حيزها مصدر في محل نصب مفعول لأجله أي مخافة أن تكون وأمة اسم تكون وهي مبتدأ وأربى خبر والجملة خبر تكون ومن أمة جار ومجرور متعلقان بأربى، كانوا يحالفون الحلفاء ويقطعون العهود والمواثيق فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز جانبا نقضوا حلف أولئك وحالفوا هؤلاء.

)

إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) إنما كافة ومكفوفة وهي للحصر ويبلوكم الله فعل ومفعول مقدم وفاعل مؤخر وبه متعلقان بيبلوكم وليبينّ الواو عاطفة واللام موطئة للقسم ويبينّ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وجوبا ولكم متعلقان بيبينن ويوم القيامة ظرف متعلق بمحذوف حال

(321/446)

و ما مفعول به وكنتم صلة وهي كان واسمها وفيه جار ومجرور متعلقان بتختلفون وجملة تختلفون خبر كنتم. (وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً) الواو عاطفة ولو شرطية وشاء الله فعل وفاعل واللام واقعة في جواب لو وجعلكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول وأمة مفعول به ثان وواحدة صفة. (وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ) الواو حالية ولكن حرف استدراك مهملة لأنها خففت، ويضل فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو ومن مفعول به ويشاء صلة ويهدي من يشاء عطف على ما تقدم. (وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وتسألن فعل مضارع معرب لأن النون لم تباشره فهو مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين نائب

فاعل والنون المشددة هي نون التوكيد الثقيلة وعما متعلقان بتسألن وجملة كنتم تعملون خبر كنتم.

الفوائد:

روى التاريخ أن امرأة حمقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تميم من مكة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل إصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن فالكلام تشبيه تمثيلي مرسل والمشبه به معين.

[سورة النحل (16) : الآيات 94 إلى 97]

(322/446)

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (94) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (97)

الإعراب:

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) كرره تأكيدا مع التصريح بالنهي عنه مبالغة في قبحه (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها) الفاء فاء السببية المسبوقة بالنهي وتزل مضارع منصوب بإضمار أن وقدم فاعل وبعد ظرف متعلق بتزل وثبوتها مضاف اليه. (وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) وتذوقوا عطف على تزل والسوء مفعول به والباء حرف جر وهي للسببية وما مصدرية وهي مع مدخولها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بتذوقوا وعن سبيل الله متعلقان بصددتم ولكم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وعظيم صفته.

)

وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا) الواو عاطفة ولا ناهية وتشتروا فعل مضارع مجزوم بلا وبعهد الله متعلقان بتشتروا فالباء داخلة على المتروك وثمنا مفعول به وقليلا صفة (إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إن واسمها والظرف صلة ما وهو مبتدأ وخير خبر والجملة خبر ان ولكم متعلقان به وإن شرطية وكنتم في محل جزم فعل الشرط

والتاء اسم كان وجملة تعلمون خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فلا تنقضوا (ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ) ما اسم موصول مبتدأ وعندكم ظرف متعلق بالصلة وجملة ينفد خبر ما ومثلها وما عند اللّه باق. (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) اللام موطئة للقسم ونجزين فعل مضارع مبني على الفتح لتأكيده بالنون المشددة والفاعل مستتر تقديره نحن والذين صبروا مفعوله وأجرهم مفعول ثان لنجزين وبأحسن جار ومجرور متعلقان بنجزين وهو صفة لمحذوف أي بجزاء أحسن، وما مصدرية وكان واسمها وجملة يعملون خبرها ولك أن تجعل ما موصولة والتقدير بجزاء أحسن من عملهم الذي كانوا يعملونه في الدنيا أو نجعل الأجر متناسبا مع الأحسن من أعمالهم. (مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً) من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وعمل فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ومن ذكر متعلقان بمحذوف حال من فاعل عمل وأو حرف عطف وأنثى عطف على ذكر وهو الواو حالية وهو مبتدأ ومؤمن خبر والجملة حالية فلنحيينه الفاء رابطة واللام موطئة للقسم ونحيينه فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به وحياة مفعول مطلق وطيبة صفة وجملة فلنحيينه جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من ولك أن تجعل من اسما موصولا والفاء الداخلة لما في الموصوف من رائحة الشرط فتكون جملة فلنحيينه خبره.

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) تقدم إعرابها وسيأتي مزيد بيان لهذه الآيات في باب البلاغة.

البلاغة:

1- في قوله تعالى " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن إلى آخر الآية " فنون شتى أبرزها التتميم وقد تقدم القول فيه وتكرر في هذه الآية مرتين الأولى في قوله من ذكر أو أنثى لأن من الشرطية أو الموصولية تفيد العموم فكان لا بد من تتميمها بذلك للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص جريا على معتقدات العرب القديمة في تفضيل الذكر على الأنثى وإيثاره بكل ما هو خير والثانية في قوله وهو مؤمن وقد اختلفت الآراء في هذا التتميم وما هو المراد بالحياة الطيبة التي ينالها من هو بهذه المثابة وأحسن ما نختاره منها قول الزمخشري وننقله بنصه لفائدته قال وأبدع:

" وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا يعيش عيشا طيبا إن كان موسرا فلا مقال فيه وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة اللّه وأما الفاجر فأمره على العكس إن كان معسرا فلا إشكال في أمره على حد قول أبي دلامة:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

وإن كان موسرا فالحرص لا يدعه أن يهنأ بعيشه " ويؤيد هذا ما نراه من انهماك النوع البشري في ابتكار وسائل التدمير والخراب للاستعلاء والاستغلال والسيطرة على العالم وهيهات ! ! 2- وفي قوله " فتزل قدم بعد ثبوتها استعارة تمثيلية للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان

من حال خير إلى حال شر ويقال لمن أخطأ في شيء زلت به قدمه ومنه قول زهير :

تداركتما عبسا وقد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

3- وفي قوله " فتزل قدم بعد ثبوتها إلخ " توحيد القدم وتنكيرها والسر في ذلك استعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن توطأ لها مهاده وثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة وفيه تقليل للواعي من الناس لما يقضي بسداد الرأي واستقامته ومن جنس إفادة التنكير هنا للتقليل إفادته له في قوله تعالى : " وتعيها اذن واعية " وفي قوله " اتقوا اللّه ولتنظر نفس ما قدمت لغد " فنكر الاذن والنفس تقليلا للواعي من الناس لما يقضي بسداده .

[سورة النحل (16) : الآيات 98 إلى 102]

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ
(100) وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ
(101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ
(102)

الاعراب :

)

(326/446)

(فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) الفاء استئنافية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق باستعذ وجملة قرأت مضاف إليها الظرف والقرآن مفعول به أي إذا أردت قراءة القرآن ، والفاء رابطة للجواب واستعذ فعل أمر وفاعله أنت وبالله متعلقان باستعذ وكذلك يتعلق باستعذ من الشيطان ، والرجيم صفة . (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الجملة تعليلية للأمر وان واسمها وجملة ليس خبرها وله خبر مقدم لليس وسلطان اسمها المؤخر وعلى الذين جار ومجرور متعلقان بسلطان لأنه

مصدر بمعنى التسلط أي الاستيلاء والقهر والتمكن وآمنوا صلة وعلى ربهم متعلقان

بيتوكلون .

(

إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) إنما كافة ومكفوفة وسلطانه مبتدأ وعلى الذين خبر وجملة يتولونه من الفعل والفاعل والمفعول به صلة الموصول وعائده والذين عطف على الذين الأولى وجملة هم مشركون صلة وهم مبتدأ وبه متعلقان بمشركون ومشركون خبرهم . (وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل وبدلنا فعل وفاعل وآية مفعول به ومكان مفعول ثان لبدلنا أو ظرف مكان متعلق ببدلنا وآية مضاف إليه . (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا) الواو اعتراضية والجملة معترضة بين شرط إذا وجوابها لا محل لها والله مبتدأ وأعلم خبر وبما متعلقان بأعلم وينزل صلة وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب إذا . (إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الجملة مقول القول وإنما كافة ومكفوفة وأنت مبتدأ ومفتر خبر وبل حرف إضراب وأكثرهم مبتدأ وجملة لا يعلمون خبر وحذف مفعول يعلمون للعلم به أي حقيقة التبديل والنسخ وفائدتهما . (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا)

جملة نزله مقول قل وهو فعل ومفعول به مقدم وروح فاعل مؤخر والقدس مضاف اليه من إضافة الموصوف لصفته أي الروح المقدس وهو جبريل ومن ربك متعلقان بنزله وبالحق حال أي ملتبسا بالحق، وليثبت اللام لام التعليل ويثبت فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل هو والذين مفعول به وآمنوا صلة وليثبت في محل نصب مفعول لأجله وجر باللام لأن المصدر ليس بقلبي ولاختلاف الفعل لأن المنزل هو جبريل والمثبت هو القرآن. (وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ) هذان المصدران معطوفان على محل ليثبت أي تثبيتا وهداية وبشرى.

[سورة النحل (16) : الآيات 103 إلى 106]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106)

اللغة:

(يُلْحِدُونَ) : يميلون ولحدت القبر وألحدته وقبروه في لحد وملحود ولحد للميت وألحد له

حفر له لحدا ولحد الميت وألحده جعله

في اللحد ولحد السهم عن الهدف وألحد ، وألحد في دين اللّه ولحد عن القصد عدل عنه

وألحد في الحرم ولحد إليه مال إليه والتحد اليه : التجأ ومالي دونه ملتحد قال ذو الرمة :

إذا استوسجت آذانها استأنست لها أناسيّ ملحود لها في الحواجب

الاعراب :

(328/446)

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف يراد به التكثير هنا

ونعلم فعل مضارع وفاعل مستتر وان وما في حيزها سدت مسدّ مفعولي نعلم وأن واسمها

وجملة يقولون خبرها .

)

إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) الجملة مقول قولهم وإنما كافة ومكفوفة ويعلمه بشر فعل ومفعول به مقدم

وبشر فاعل مؤخر وهو قين أي حداد رومي اسمه جبر بفتح الجيم وسكون الباء الموحدة

وهو غلام عامر بن الحضرمي وقيل يعنون جبرا ويسارا وكانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن

التوراة والإنجيل وكان الرسول صلى اللّه عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرأانه وقيل غير

ذلك مما لا يخرج عن الصدد . (لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) لسان مبتدأ والذي مضاف إليه وجملة يلحدون إليه صلة وأعجمي خبر لسان أي غير مبين وهذا مبتدأ وعربي خبر ومبين صفة وهذا تأكيد على عروبة لغة القرآن ووجه الجواب ان الذي يعزون إليه أنه يعلم النبي القرآن رجل أعجمي في لسانه لكنة وعجمة تمنعانه من الإفصاح والإبانة ومحمد صلى اللّه عليه وسلم الذي جاءكم بهذا القرآن المبين الذي عجزتم عن الإتيان بسورة

(329/446)

من مثله . (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) إن واسمها وجملة لا يؤمنون صلة وبآيات اللّه متعلقان بيؤمنون وجملة لا يهديهم اللّه خبر إن والواو عاطفة ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم صفته . (إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ) إنما كافة ومكفوفة ويفتري فعل مضارع والكذب مفعول به مقدم والذين فاعل مؤخر وجملة لا يؤمنون بآيات اللّه صلة . (وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ) الواو اعتراضية وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والكاذبون خبر أولئك أو خبرهم والجملة خبر أولئك وجملة أولئك هم الكاذبون معترضة .

)

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) أولى الأعاريب التي ذكرها المعربون لمن أن تكون بدلا من الذين لا يؤمنون بآيات الله وتكون جملة وأولئك هم الكاذبون اعتراضا بين البدل والمبدل منه والمعنى إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ويجوز على بعد أن تعربه مبتدأ خبره جملة فعليهم والفاء زيدت لتضمن الموصول معنى الشرط وجملة كفر بالله صلة كما يجوز أن تعرب من شرطية وبالله جار ومجرور متعلقان بكفر ومن بعد إيمانه حال وإلا أداة استثناء ومن مستثنى متصل لأن الكفر يكون بالقول من غير اعتقاد وقيل هو منقطع لأن الكفر اعتقاد والإكراه على القول دون الاعتقاد كالمكره وجملة أكره صلة الموصول ، وقلبه الواو حالية وقلبه مبتدأ ومطمئن خبر وبالايمان متعلقان بمطمئن . (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ولكن الواو استئنافية ولكن حرف مشبه بالفعل واسمها ضمير الشأن ومن مبتدأ وشرح فعل الشرط إن جعلتها صلة وصلة إن جعلتها موصولا والله فاعل وصدرا

تمييز أي طاب به نفسا واعتقده ، فعليهم الفاء رابطة وعليهم خبر مقدم وغضب مبتدأ مؤخر ومن اللّه صفة ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وعظيم صفة .

البلاغة :

الإلجاء :

في قولهلام يرد فيه على المعترض عليه جواب مدخول إذا دخله الخصم به التجأ إلى تصحيح الجواب كقوله تعالى الآنف الذكر فإن للخصم أن يقول : نحن أردنا القصص والاخبار ونحن نعلم أن الأعجمي إذا ألقى الكلام إلى العربي لا يخرجه عن كونه تعلم معانيه من الأعجمي فظاهر الكلام لا يصح أن يكون ردا على المشركين فيقال لهم : هب الأعجمي علّمه المعاني فهذه العبارة الهائلة التي قطعت أطماعكم عن الإتيان بمثلها من علمها له ؟ فإن كان هو الذي أتى بها من قبل نفسه فقد أقررتم أن رجلا واحدا منكم أتى بهذا المقدار من الكلام الذي هو مائة سورة وأربع عشرة سورة وقد عجزتم بأجمعكم وكل من تدعون من دون اللّه عن الإتيان بأقصر سوره فإن قلتم إن الأعجمي علمه المعاني والألفاظ فهذا أشد عليكم لأنه إقرار بأن رجلا أعجميا قدر على بين الآيات المتضمنة للأخبار والقصص وقد عجزتم عن ثلاث آيات منهن ، يلجئهم ذلك إلى الإقرار بأنه من عند اللّه .

الفوائد :

قصة عمار بن ياسر :

روى التاريخ أن ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان منهم عمار بن ياسر وأبواه ياسر وسمية وصهيب وبلال وخباب وسالم عذبوا فأما سمية أم عمار فربطوها بين بعيرين وضربها أبو جهل بحربة في قلبها فماتت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام وأما عمار فإنه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرها فقيل يا رسول اللّه إن عمارا كفر ، فقال : كلا إن عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول اللّه يبكي فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما وراءك ؟ قال : شر يا رسول اللّه نلت منك فذكرت فجعل النبي صلى اللّه عليه وسلم يمسح عينيه وقال : إن عادوا لك فقل لهم ما قلت إلى آخر هذه القصة الممتعة التي يرجع إليها في المطولات .

]

سورة النحل (16) : الآيات 107 إلى 111]

ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (107) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (108) لا

جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111)

اللغة :

(النفس) يؤخذ من مجموع أقوال المعاجم العربية أن النفس مصدر وهي أيضا الروح والدم يقال دفق نفسه أي دمه والجسد يقال هو عظيم النفس أي الجسد والعين يقال أصابته نفس أي عين وشخص الإنسان ، ونفس الشيء عينه ويؤكد به فيقال : جاءني هو نفسه وبنفسه ونفس الأمر حقيقته والنفس أيضا العظمة والهمة والعزة والأنفة والإرادة والرأي والعقوبة والماء ، والنفس مؤنث إن أريد بها الروح نحو خرجت نفسه ومذكر إن أريد بها الشخص نحو عندي خمسة عشر نفسا والجمع أنفس ونفوس ويقال في نفسي أن أفعل شيئا أي قصدي ومرادي أن أفعل كذا وفلان يؤامر نفسيه ويشاورهما أي يتردد في الأمر ويتجه له رأيان لا يدري على أيهما يثبت وخرجت نفسه وجاد بنفسه إذا مات ، أما معنى النفس عند الفلاسفة فمرجعه علم النفس وليس هذا مكانه والخلاف فيه طويل وقد أصاب أبو

الطيب حيث قال :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين الهمّ والتعب

من قصيدة الرئيس ابن سينا في النفس :

هذا ومن المفيد أن نقتبس هنا أبياتا مختارة من قصيدة الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا في النفس :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنع

محجوب عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات توجع

أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الغراب الأبقع

وأظنها نسيت عهودا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها عن ميم مركزها بذات الاجرع

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول ا

لخضع تبكي وقد ذكرت عهودا بالحمى بمدامع تهمي ولما

تقلع وتظل ساجعة على الدمن التي درست بتكرار الرياح الأربع

ويطول بنا القول إن حاولنا شرح ما رمزت إليه هذه الأبيات المقتبسة من العينية الرائعة وحاصل ما أراده أنه يتساءل: لم تعلقت النفس بالبدن؟ إن كان رائدها غير الكمال فهي حكيمة خفية على الأذهان وإن كان رائدها الكمال فلم ينقطع تعلقها به قبل حصوله.

الاعراب:

(ذِلكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ) الاشارة إلى ما تقدم من ذكر الغضب والعذاب واسم الاشارة مبتدأ خبره بأنهم أي ثابت بسبب أنهم فالباء للسببية وان واسمها وجملة استحبوا خبرها أي اختاروا والحياة مفعول به والدنيا صفة وعلى الآخرة جار ومجرور متعلقان باستحبوا. (وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ) وأن عطف على بأنهم وأن واسمها وجملة لا يهدي خبرها والقوم مفعول به والكافرين صفة القوم. (أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ) أولئك مبتدأ والذين خبره وجملة

طبع اللّه صلة وعلى قلوبهم جار ومجرور متعلقان بطبع وسمعهم وأبصارهم عطف على قلوبهم وأولئك مبتدأ وهم مبتدأ ثان أو ضمير فصل والغافلون خبرهم أو خبر أولئك. (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ) لا جرم تقدم القول فيها وأن واسمها وفي الآخرة متعلقان بالخاسرون وهم مبتدأ والخاسرون خبره والجملة خبر ان. (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا) ثم للترتيب مع التراخي لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك وإن واسمها وللذين خبر إن بمعنى أنه وليهم وناصرهم وجملة هاجروا صلة ومن بعد متعلقان بهاجروا وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مضاف للظرف أي من بعد فتنتهم ثم حرف عطف وتراخ وجاهدوا وصبروا عطف على هاجروا (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) إن واسمها ومن بعدها حال واللام المزحلقة وغفور خبر إن الأول ورحيم خبرها الثاني، هذا وقد أسهب المعربون في إعراب هذه الآية واضطربت أقوالهم اضطرابا شديدا لفرط عنايتهم وتحريهم مواقع الصواب فجهدهم مشكور ولكن لا حاجة لذلك كله والكلام واضح لا لبس فيه. (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها) الظرف متعلق بمحذوف أي اذكر وجملة تأتي مضافة للظرف وكل نفس فاعل تأتي وجملة تجادل حال وعن نفسها متعلقان بتجادل وإنما جازت إضافة النفس إلى النفس ومن شرط المتضايفين أن يكونا متغايرين ان المراد بالنفس الأولى الإنسان وبالثاني ذاته فكأنه قال يوم يأتي كل إنسان يجادل على ذاته أي يعتذر عنها لا يهمه شأن غيره. (وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ

لا يُظْلَمُونَ) وتوفى عطف على تجادل وكل نفس نائب فاعل وما عملت مفعول توفى الثاني وهم الواو حالية أو عاطفة وهم مبتدأ وجملة لا يظلمون خبر.

[سورة النحل (16) : الآيات 112 إلى 113]

(335/446)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (113)

الإعراب:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ) الواو استئنافية وضرب اللّه مثلا فعل وفاعل ومفعول به وقرية بدل من مثلا أي جعل القرية الموسومة بهذه السمات مثلا لكل قوم أنعم اللّه عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا، وجملة كانت صفة لقرية وكان واسمها المستتر وآمنة خبرها ومطمئنة خبر ثان وجملة يأتيها خبر ثالث وهو فعل مضارع ومفعول به مقدم ورزقها فاعل مؤخر ورغدا وصف للمصدر أي اتيانا رغدا فهو مفعول مطلق أو بمعنى راغدا فهو حال ومن كل مكان متعلقان بيأتيها. (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ

(فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ) الفاء عاطفة وكفرت فعل ماض والفاعل مستتر يعود على القرية وبأنعم الله متعلقان بكفرت فأذاقها الفاء عاطفة للتعقيب وأذاقها فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ولباس الجوع والخوف مفعول ثان والباء حرف جر للسببية وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أي بسبب صنعهم أو بسبب الذي كانوا يصنعونه. (وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وجاءهم رسول فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ومنهم صفة لرسول فكذبوه الفاء حرف عطف وكذبوه فعل ماض وفاعل ومفعول به.

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ) فأخذهم عطف على فكذبوه والعذاب فاعل والواو حالية وهم مبتدأ وظالمون خبر والجملة حالية.

البلاغة:

في قوله تعالى "وضرب الله مثلا قرية" مجاز مرسل واستعارتان مكنيتان، أما المجاز المرسل ففي قوله قرية والمراد أهلها فعلاقة المجاز المحلية إذ أطلق المحل وأريد الحال وأما الاستعارة الأولى فهي استعارة الذوق للباس فأما الإذاقة فقد كادت تجري عند العرب

مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا فيقولون ذاق فلان البؤس والضرر شبّه ما يدرك منهما من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ البشع وأما اللباس فقد صح التشبيه به لأنه يشتمل على لابسه وأما الاستعارة الثانية فهي استعارة اللباس للجوع والخوف كأنما قد أحاط بهم واشتمل عليهم كما يشتمل اللباس على لابسه ، وبناء الاستعارة على الاستعارة ميدان فسيح تضل فيه الأفكار وقد ينغلق فهمه كما انغلق على ابن سنان الخفاجي في نقده للآمدي حين تناول بيت امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

فقد قال الآمدي في كتاب الموازنة " وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والجودة والصحة وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل فذكر

امتداد وسطه وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث وترادف اعجازه وأواخره شيئًا فشيئًا وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه فلما جعل له وسطا يمتد وأعجازا رادفة للوسط وصدرا متثاقلا في نهوضه حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده لأن تمطّى وتمدّد بمنزلة واحدة وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه وهذه

أقرب الاستعارات من الحقيقة وأشد للاءمته هنا لما استعيرت له وكذلك قول زهير :

وعرّي أفراس الصبا ورواحله

لما كان من شأن ذي الصّبا أن يوصف أبدا بأن يقال : ركب جواده وجرى في ميدانه ، وجمح في عنانه ، ونحو هذا ، حسن أن يستعار للصبا اسم الأفراس وأن يجعل النزوع عنه أن تعرى أفراسه ورواحله وكانت هذه الاستعارة أيضا من أليق شيء بما استعيرت له " .

وقال ابن سنان الخفاجي في كتابه " سر الفصاحة " : حول قول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

" إن هذا الذي ذكره الآمدي ليس بمرضي غاية الرضا وإن بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة الجيدة ولا الرديئة بل هو وسط فإن الآمدي قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا ممتدا استعار له اسم الصلب وجعل متمطيا من أجل امتداده وحيث جعل له أولا وآخرا استعار له عجزا وكلكلا وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض فذكر الصلب إنما يحسن من أجل العجز والوسط والتمطي من أجل الصلب والكلكل لمجموع ذلك استعارة مبنية على استعارة أخرى " . هذا ما قاله الرجلان بصدد الاستعارة المبنية على

استعارة أخرى وقد غفل ابن سنان على سموه في البلاغة عن آية القرآن وإلا ما كان أساغ لنفسه أن يذم هذه الاستعارة .

وروي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب : هل يذاق اللباس ؟ فقال له ابن الأعرابي : لا بأس أيها النسناس هب أن محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا ؟ كأنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال فكساها اللّه لباس الجوع أو فأذاقها اللّه طعم الجوع فرد عليه ابن الأعرابي ، وقد أجاب علماء البلاغة أن هذا من تجريد الاستعارة وذلك انه استعار اللباس لما خشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال الثوب على اللابس ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له وهو الجوع والخوف لأن اطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه غيره فكانت الاستعارة مجردة ولو قال فكساها كانت مرشحة ، قيل وترشيح الاستعارة وان كان مستحسنا من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحا من حيث أنه روعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحا .

[سورة النحل (16) : الآيات 114 إلى 117]

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117)

الإعراب :

)

(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا) الفاء الفصيحة أي إذا استبان لكم حال من كفر وما آل إليه أمرهم فانتهوا عما أنتم عليه وأقلعوا عن كفران النعم وكلوا واشربوا ومما متعلقان بكلوا وجملة رزقكم صلة وحلالا حال ولك أن تجعله مفعولا به لكلوا وطيبا صفة .

(وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) واشكروا نعمة اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به وإن شرطية وكنتم فعل الشرط وكان واسمها وإياه مفعول مقدم لتعبدون وجملة تعبدون خبر كنتم . (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) إنما كافة

ومكفوفة وحرم فعل وفاعل مستتر وعليكم جار ومجرور متعلقان بحرم والميتة مفعول به والدم والخنزير عطف على الميتة وما عطف أيضا وجملة أهل صلة ولغير اللّه حال وبه متعلقان بأهل وقد تقدمت هذه الآية.

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الفاء تفريعية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ واضطر فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط ونائب الفاعل مستتر يعود على من وغير باغ حال ولا عاد عطف على باغ والفاء رابطة وان واسمها وغفور خبرها الأول ورحيم خبرها الثاني والجملة في محل جزم جواب الشرط.

(وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

لا ناهية وتقولوا مضارع مجزوم بلا والواو فاعل ولما تصف اللام حرف جر وما مصدرية وهي مع مدخولها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بتقولوا وألسنتكم فاعل تصف والكذب مفعول تصف وجملة هذا حلال مقول القول فيكون المعنى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي لتعودها عليه وجريانها به أي لا تحللوا ولا تحرموا لأجل قول تنطق به ألسنتكم وهو قول مدفوع لا تقوم به حجة وهذا حرام عطف على هذا

حلال ولتفتروا بدل من قوله لما تصف ، وعلى الله متعلقان بتفتروا والكذب مفعول به لتفتروا ويجوز أن ينتصب الكذب مفعولا لتقولوا ولكون جملة هذا حلال بدل منه وعندئذ تكون ما موصولة أي ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقولوا هذا حرام وهذا حلال وكلا الاعرابين صحيح وسائغ وأورد ابن هشام في المغني هذه الآية وعبارته : قيل في ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب وفي كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، أن الكذب بدل من مفعول تصف المحذوف أي لما تصفه وكذلك في رسولا بناء على أن " ما " في "كما " موصول اسمي ويرده أن فيه إطلاق ما على الواحد من أولي العلم والظاهر أن ما كافة وأظهر منه أنها مصدرية لإبقاء الكاف حينئذ على عمل الجر وقيل في الكذب إنه مفعول لتقولوا والجملتان بعده بدل منه أي لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل أو الحرمة وإما لمحذوف أي فتقولون الكذب وإما لنصف على أن ما مصدرية والجملتان محكيتا القول أي لا تحللوا وتحرموا لمجرد قول تنطق به ألسنتكم . وسيأتي معنى وصف الألسنة بالكذب في باب البلاغة . (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ) ان واسمها وجملة يفترون صلة وعلى الله متعلقان بيفترون والكذب مفعول يفترون وجملة لا يفلحون خبر ان . (مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ)

متاع خبر مبتدأ محذوف أي ذلك العمل الذي هو ديدنهم متاع قليل الفائدة أو مبتدأ محذوف الخبر أي لهم متاع وقليل صفة متاع ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم صفة عذاب.

البلاغة:

وصف الألسنة للكذب تعبير عربي مبين للمبالغة جعلت الألسنة لاستساغتها الكذب وجريانه عليها وتردده فيما تنطق به دائما كأنها تصفه وتجسده للسامع ومن ذلك قولهم وجهها يصف الجمال وعينها توحي بالسحر أو كأن الكذب أمر مجهول وعليهم تبيانه للناس وكشف الغطاء عن خوافيه فهو مجاز عقلي.

[سورة النحل (16) : الآيات 118 إلى 123]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122)

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

الاعراب :

)

(342/446)

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ) وعلى الذين متعلقان بحرمنا وهادوا صلة الذين وما مفعول به وقصصنا صلة وعليك متعلقان بقصصنا ومن قبل متعلقان بحرمنا وقد تقدمت الاشارة إلى ما خص اليهود بتحريمه وذلك في قوله تعالى : " وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر " إلى آخر الآية من سورة الأنعام (وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) الواو عاطفة وما نافية وظلمناهم فعل وفاعل ومفعول به والواو حالية ولكن مخففة مهملة فهي حرف استدراك وكانوا كان واسمها وأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون وجملة يظلمون خبر كانوا . (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا) ثم حرف عطف للتراخي وان واسمها وللذين خبرها أي غفور للذين وعملوا صلة والسوء مفعول به وبجهالة في موضع الحال من الواو أي عملوا السوء جاهلين ثم تابوا عطف على عملوا ومن بعد متعلقان بتابوا وذلك مضافة لبعد وأصلحوا عطف على تابوا .

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) إن واسمها ومن بعدها متعلقان بغفور واللام المزحلقة وغفور خبر إن ورحيم خبر ثان. (إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) إن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو أي ابراهيم وأمة خبر كان أي كان وحده أمة بذاتها لأنه اجتمعت فيه من صفات الكمال ما يجتمع في أمة فصدق فيه قول أبي نواس:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وقانتا خبر ثان لكان ولله متعلقان بقانتا وحنيفا خبر ثالث. ولم

(343/446)

يك: لم حرف نفي وقلب وجزم ويك فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون وحذفت النون للتخفيف وقد مر ذلك في بحث خصائص كان واسم يك مستتر تقديره هو ومن المشركين خبر يك. (شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) شاكرا خبر رابع لكان ولأنعمه متعلقان بشاكرا وجملة اجتباه خبر خامس وهداه عطف على اجتباه والى صراط جار ومجرور متعلقان بهداه ومستقيم صفة لصراط.

(وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) عطف على ما تقدم على طريق

الالتفات عن الغيبة إلى التكلم لزيادة الاعتناء بشأنه وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به وفي الدنيا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان صفة لحسنة وحسنة مفعول به ثان وانه ان واسمها وفي الآخرة متعلقان بمحذوف حال واللام المزحلقة ومن الصالحين خبر ان . (ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ثم حرف عطف وأوحينا فعل وفاعل وعطفها بثم الدالة على التراخي والتباعد إشعار بالمكانة السميا والمنزلة العليا لمحمد صلى اللّه عليه وسلم وان أجلّ ما أوتي ابراهيم من النعمة اتباع محمد لشريعته ، وإليك متعلقان بأوحينا وأن اتبع أن مفسرة أو مصدرية فتكون منصوبة بنزع الخافض وملة ابراهيم مفعول اتبع وحنيفا حال من ابراهيم وسيأتي بحث مجيء الحال من المضاف اليه والواو عاطفة وما نافية وكان واسمها المستتر ومن المشركين خبرها .

الفوائد :

مجيء الحال من المضاف اليه :

تأتي الحال من المضاف اليه بشروط ثلاثة :

1- أن يكون المضاف جزءا من المضاف اليه نحو " ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا " فإخوانا حال من المضاف اليه وهو الضمير والصدور بعضه ونحو " أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه " فميتا حال من الأخ المضاف اليه اللحم واللحم بعض الأخ

2- أو كالجزء منه مثل هذه الآية فحنيفا حال من ابراهيم المضاف اليه الملة والملة كبعضه في صحة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إذ لو قيل واتبع ابراهيم لكان صحيحا .

3- أن يكون المضاف عاملا في الحال كأن يكون مصدرا أو وصفا نحو " إليه مرجعكم جميعا " فجميعا حال من الكاف والميم المضاف اليه مرجع ومرجع مصدر ميمي عامل في الحال النصب .

[سورة النحل (16) : الآيات 124 إلى 128]

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

الاعراب :

)

(345/446)

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ) إنما كافة ومكفوفة وجعل فعل ماض مبني للمجهول والسبت نائب فاعل وعلى الذين جار ومجرور متعلقان بجعل فهو بمثابة المفعول الثاني وجملة اختلفوا صلة وفيه متعلقان باختلفوا وقد تقدم أن اليهود خالفوا نبيهم موسى حيث أمرهم أن يعظموا يوم الجمعة بالتفرغ للعبادة فيه وترك الأشغال فقالوا لا نريده واختاروا السبت فشدد عليهم فيه. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) الواو عاطفة أو استئنافية وان واسمها واللام المزحلقة وجملة يحكم خبر إن وبينهم متعلقان بيحكم وكذلك الظرف وهو يوم القيامة وفيما متعلقان بمحذوف حال وجملة كانوا صلة وفيه متعلقان بيختلفون وجملة يختلفون خبر كانوا.

)

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) ادع فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والمفعول محذوف أي الناس والى سبيل ربك متعلقان بادع وبالحكمة حال أي ملتبسا بها

والموعظة الحسنة عطف على الحكمة. (وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وجادلهم عطف على ادع والهاء مفعول به وبالتي متعلقان بادع وهي مبتدأ وأحسن خبر والجملة الاسمية صلة التي. (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) إن واسمها وهو مبتدأ وأعلم خبر والجملة خبر إن وبمن متعلقان بأعلم وجملة ضل صلة وعن سبيله متعلقان بضل وهو مبتدأ وأعلم خبر وبالمهتدين متعلقان بأعلم. (وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ) الواو استئنافية وان شرطية وعاقبتم فعل ماض والتاء فاعل وهو في محل جزم فعل الشرط فعاقبوا الفاء رابطة وعاقبوا فعل أمر وفاعل وبمثل جار ومجرور متعلقان بعاقبوا وما مضاف اليه وجملة عوقبتم صلة وبه

متعلقان بعوقبتم وجملة فعاقبوا في محل جزم جواب الشرط.

(وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ) اللام موطئة للقسم وان شرطية وصبرتم في محل جزم فعل الشرط واللام واقعة في جواب القسم لتقدمه وقد تقدم ذلك وهو مبتدأ وخير خبر وللصابرين متعلقان بخير.

(وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) واصبر الواو استئنافية واصبر فعل أمر

وفاعله مستتر وما صبرك الواو حالية وما نافية وصبرك مبتدأ وإلا أداة حصر وبالله خبر والواو عاطفة ولا ناهية وتحزن فعل مضارع مجزوم بلا وعليهم متعلقان بتحزن . (وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتك فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسم تك مستتر تقديره أنت وفي ضيق خبر تك ومما صفة لضيق وجملة يمكرون صلة .

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) إن واسمها ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر والذين مضاف اليه واتقوا صلة والذين عطف على الذين وهم مبتدأ ومحسنون خبر والجملة صلة .

البلاغة :

خواتم سورة النحل :

قوله تعالى " ولا تك في ضيق " يجوز أن يكون من الكلام المقلوب لأن الضيق وصف يكون في الإنسان ولا يكون الإنسان فيه ويجوز أن يراد أن في الكلام تشبيها فقد شبه الضيق بالشيء الذي يحيط بالإنسان وهو من روائع التعبير وجوامع الكلم ولذلك روي عن ابراهيم بن حيان عند ما احتضر أنه قيل له : أوص ، فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي ولكني أوصيكم بخواتم سورة النحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 339 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والأربعون بعد الأربعمائة

(سورة الإسراء)

(4/447)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الإسراء)

(5/447)

"فصل فى فضل السّورة"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

لم يرد فيه سوى أَحاديث ظاهرة الضعف، منها: مَن قرأَ هذه السّورة كان له قنطار ومائتا أُوقيّة، كلّ أُوقية أَثقل من السّموات والأَرض، وله بوزن ذلك درجة فى الجنَّة، وكان له كأَجر مَن آمن بالله، وزاحم يعقوب فى فتنه، وحُشر يوم القيامة مع السّاجدين، ويمر على جسر جهنّم كالبرق الخاطف.

وعن جعفر : إِنَّ من قرأَ هذه السّورة كل ّليلة جمعة لا يموت حتَّى يدرك درجة الأَبدال .

وقال علىّ : من قرأَ سبحان لم يخرج من الدّنيا حتى يأْكل من ثمار الجنَّة ، ويشرب من أَنهارها ، ويُغرس له بكلِ آية ّنخلة ٌفى الجنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 296﴾

(6/447)

فصل فى مقصود السورة الكريمة

قال البقاعى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء مكية - آياتها مائة وإحدى عشر المقصود بها الإقبال على اله وحده ، وخلع كل ما سواه ، لأنه وحده المالك لتفاصيل الأمور ، وتفضيل بعض الخلق على بعض ، وذلك هو العمل بالتقوى التي أدناها التوحيد الذي افتتحت به النحل ، وأعلاها الإحسان الذي اختتمت به ، وهو الفناء عما سوى الله ، وهي من أوائل ما أنزل ، روى البخاري في فضائل القرآن وغيره عن ابن مسعود رض الله عنه قال : بنو إسائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي .

وكل من أسمائها واضح الدلالة على ما ذكر أنه مقصودها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر جـ 4 صـ 327﴾

(7/447)

" فصل "

قال السيوطى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

مقدمة سورة الإسراء أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة بني إسرائيل بمكة

وأخرج البخاري وابن الضريس وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : أنهن من العتاق الأول وهن من تلادي

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي عمر الشيباني قال: صلى بنا عبد الله الفجر فقرأ بسورتين الآخرة منهما بنو إسرائيل

الآية. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ 181﴾

(8/447)

وقال الآلوسى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة بني إسرائيل

وتسمى الإسراء وسبحان أيضا وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم مكية وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور وقال صاحب الغنيان بإجماع وقيل إلا آيتين وإن كادوا ليفتنونك وإن كادوا ليستفزونك وقيل إلا أربعا هاتان وقوله تعالى: وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وقوله سبحانه: وقل رب أدخلني مدخل صدق وزاد مقاتل قوله سبحانه: إن الذين أوتوا العلم من قبله الآية

(9/447)

وعن الحسن إلا خمس آيات ولا تقتلوا النفس الآية ولا تقربوا الزنا الآية أولئك الذين يدعون الآية أقم الصلاة الآية وآت ذا القربى حقه الآية وقال قتادة: إلا ثماني آيات وهي قوله تعالى: وإن كادوا ليفتنونك إلى آخرهن وقيل غير ذلك وهي مائة وعشر آيات عند الجمهور وإحدى عشرة عند الكوفيين وكان صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم عن عائشة يقرؤها والزمر كل ليلة وأخرج البخاري وابن الضريس وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال في هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي وهذا وجه في ترتيبها ووجه اتصال هذه بالنحل كما قال الجلال السيوطي أنه سبحانه كما قال في آخرها إنما جعل على السبت على الذين اختلفوا فيه ذكر في هذه شريعة أهل السبت التي شرعها سبحانه لهم في التوراة فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن التوراة كلها في خمس عشرة ءاية من سورة بني إسرائيل وذكر تعالى فيها عصيانهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم واستفزازهم النبي وإرادتهم إخراجه من المدينة وسؤالهم إياه عن الروح ثم ختمها جل شأنه بآيات موسى عليه السلام التسع وخطابه مع فرعون وأخبر تعالى أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأهلك وورث بنو إسرائيل من بعده وفي ذلك تعريض بهم أنهم سينالهم ما نال فرعون حيث أرادوا بالنبي ما أراد هو بموسى عليه السلام وأصحابه ولما كانت هذه

السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى افتتحت بذكر إسراء المصطفى تشريفا له بحلول ركابه الشريف جبرا لما وقع من تخريبه

(10/447)

وقال أبو حيان في ذلك : إنه تعالى لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر ونهاه عن الحزن على الكفرة وضيق الصدر من مكرهم وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والشعر وغير ذلك مما رموه وحاشاه به عقب ذلك بذكر شرفه وفضله وعلو منزلته عنده عز شأنه وقيل : وجه ذلك اشتمالها على ذكر نعم منها خاصة ومنها عامة وقد ذكر في سورة النحل من النعم ما سميت لأجله سورة النعم واشتمالها على ذكر شأن القرآن العظيم كما اشتملت تلك وذكر سبحانه هناك في النحل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وذكر ههنا في القرآن وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وذكر سبحانه في تلك أمره بإيتاء ذي القربى وأمر هنا بذلك مع زيادة في قوله سبحانه : وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا وذلك بعد أن أمر جل وعلا بالإحسان بالوالدين اللذين هما منشأ القرابة إلى غير ذلك مما لا يحصى فليتأمل والله تعالى الموفق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ 3.2 ﴾

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . سبحان الذى أسرى بعبده)

السّورة مكّيّة بالاتّفاق .

وآياتها مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيّين وعشر عند الباقين .

وكلماتها أَلف وخمسمائة وثلاث وستُّون .

وحروفها ستَّة آلاف وأَربعمائة وستون .

والمختَلَف فيها آية واحدة ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ .

فواصل آياتها أَلف إِلاَّ الآية الأُولى ، فإِنَّها راء .

ولهذه السّورة اسمان : سورة سبحان ، لافتتاحها بها ، وسورة بنى إِسرائيل لقوله : فيها ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ .

مقصود السّورة ومعظم ما اشتملت عليه : تنزيه الحقِّ تعالى ، ومعراج النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، والإسراءُ إِلى المسجد الأَقصى ، وشكر نوح عليه السّلام ، وفساد حال بنى إِسرائيل ، ومكافأَة الإِحسان والإِساءَة ، وتقويم القرآن الخلائق ، وتخليق اللَّيل والنّهار ، وبيان الحكمة فى سير الشمس والقمر ودّورهما ، وملازمة البخت المرءَ ، وقراءَة الكتب فى القيامة ، وبيان الحكمة فى إِرسال الرّسل ، والشكوى من القرون الماضية ، وذكر طلب الدّنيا والآخرة ، وتفضيل بعض الخَلْق على بعض ، وجعل برّ الوالديْن والتوحيد فى قَرَن واحد ، والإِحسان إِلى الأَقارب ، والأَمر بترك الإِسراف ، وذمّ البخل ، والنّهى عن قتل الأَولاد ، وعن الزّناء ، وقتل النَّفس ظلماً ، وأَكل مال اليتيم ، وعن التكبّر ، وكراهية جميع ذلك ، والسّؤال عن المَقُول والمسموع ، والرّد على المشركين ، وتسبيح الموجودات ، وتعيير الكفَّار بطعنهم فى القرآن ، ودعوة الحقِّ الخَلْق ، وإِجابتهم له تعالى ، وتفضيل بعض الأَنبياءِ على بعض ، وتقرّب المقرّبين إِلى حضرة الجلال ، وإِهلاك القُرَى قُبيْلَ القيامة ، وفتنة النّاس برؤيا النبىّ صلَّى الله عليه وسلم ، وإِباءُ إِبليس من السّجدة لآدم ، وتسليط الله إِيّاه على الخَلْق ، وتعديد النِّعم على العباد ، وإِكرام بنى آدم ، وبيان أَنّ كلّ أَحد يُدْعَى فى القيامة بكتابه ، ودينه ، وإِمامه ، وقَصْد المشركين إِلى ضلال الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم وإِذلاله ، والأَمر بإِقامة الصّلوات الخمس فى أَوقاتها ، وأَمر الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بقيام اللَّيل ، ووعده بالمَقَام المحمود ، وتخصيصه بمُدخل صدق ، ومُخْرَج صدق ، ونزول القرآن

بالشفاءِ، والرّحمة، والشكايةُ من إِعراض العبيد، وبيان أَنّ كلّ أَحد يصدر منه ما يليق به، والإِشارة إِلى جواب مسأَلة الرّوح، وعجز الخَلْق عن الإِتيان بمثل القرآن، واقتراحات المشركين على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتفصيل حالهم

(13/447)

فى عقوبات الآخرة، وبيان معجزات موسى، ومناظرة فرعون إِيَاه، وبيان الحكمة فى تفرقة القرآن، وآداب نزوله، وآداب الدعاء وقراءَة القرآن، وتنزيه الحقّ تعالى عن الشريك والولَد فى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ إِلى قوله: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ .

النّاسخ والمنسوخ:

فى هذه السّورة آيتان منسوختان ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ إِلى قوله: ﴿ رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ الدّعاءُ للميّت م فى حقّ المشركين ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى ﴾ ن ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ إِلى قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ م آية السّيف ن. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 288 . 290 ﴾

(14/447)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة بنى إسرائيل

238 - مسألة :

قوله تعالى : (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا) .

ما فائدة الشرط والرد الجميل مطلوب مطلقا ؟ .

جوابه :

أن المراد به : الوعد بالعطاء عند رجاء حصول الخير لأنه أطيب لنفس السائل .

239 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا) وبعدها : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ)

وفى الكهف : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ) ؟ .

جوابه :

مع ما تقدم من تنويع الكلام للفصاحة والإعجاز :

أن الأولى : وردت بعد ما تقدم من الآيات من الوصايا والعظات والتسويفات ، ولذلك قال :

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي يذكروه فيعملوا به .

والثانية : وردت بعد أفعال وأقوال من قوم مخصوصين : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الآية ، فناسب تقديم ذكر الناس وقيام الحجة عليهم بعجزهم عن الإتيان بمثله ، ولذلك جاء بعده : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ .

وأما آية الكهف فوردت بعد ذكر إبليس وعداوته وذم اتخاذه وذريته أولياء ، فناسب تقديم ذكر القرآن الدال على عداوته ولعنه .

240 - مسألة :

قوله تعالى : ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك من إبليس معصية ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ؟ .

جوابه :

أنه تهديد لا أمر طاعة ، كقوله تعالى : ﴿كلوا وتمتعوا﴾ ، والمعنى شاركهم في الإثم لا في المال .

241 - مسألة وجوابها :

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي يقوم مقامكم في دفع ذلك عنكم .

وقوله تعالى: (تَبِيعًا) أي تبيعا في المطالبات عن

إهلاككم.

(15/447)

وقوله تعالى: (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) في دفع

ذلك.

وقوله تعالى: (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) يرد

عليك ما تذهب به.

242 - مسألة:

قوله تعالى: (كل مثل)

والمذكور بعض الأمثال.

جوابه:

المراد من كل مثل محتاج إليه من أمر الدنيا والدين. أو

يكون عاما مخصوصا كقوله تعالى: (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ).

243 - مسألة:

قوله تعالى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا

(94) .

وقال تعالى في الكهف : (إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55)

فحصر في آية سبحان غير ما حصر في آية الكهف ؟ .

جوابه :

أن آية " سبحان " إشارة إلى "المانع العادي" وهو استغرابهم

أن بعث الله بشرا رسولا .

وآية الكهف : دلت على "المانع الحقيقي" وهو إرادة الله

سبحانه وتعالى وتقدير الآية : إلا إرادة الله هلاكهم لما سبق

في علمه .

244 - مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وفى العنكبوت : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا) ؟ .

جوابه :

أنه لما وصف (شَهِيدًا) بقوله تعالى : (يعلم) ناسب

تأخيره لتتبع الصفة موصوفه ولا يحول بينهما حائل . وليس هنا ولا في أمثالها صفة لشهيد ،

فجاء على

القياس في غير (كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) (كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) .

245 - مسألة :

قوله تعالى : (كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ومعنى

خبت سكنت . وقال في الزخرف : لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ) ؟

جوابه :

لا يلزم من سكون النار نقص العذاب بها إما لبقاء حرها أو

لعذابهم عند ذلك بالزمهرير ، ولا يفتر عنهم العذاب إما بحرها أو زمهريرها .

246 - مسألة : - ء ؟

(16/447)

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ) وفى يس والأحقاف

(بِقَادِرٍ) ؟

جوابه :

أن "قادر" هنا : خبر إن المثبتة فلم تدخله "الباء" . وفى يس : هو خبر "ليس" النافية ،

فدخلت الباء في خبرها . وفى الأحقاف : لما أكد النفى بنفي ثان وهو قوله تعالى : هو -
(ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ) ناسب دخول الباء في (بِقَادِرٍ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني
صـ 237.231 ﴾

(17/447)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ ويُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ وخصّت سورة الكهف ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ؛ لأَنَّ الأَجر فى السّورتين الجَنَّة ، والكبير والحَسَن من أَوصافها ؛ لكن خُصّت هذه السّورة بالكبير بفواصل الآى قبلها وبعدها ، وهى (حصيرًا) و (أليمًا) و (عجولاً) وجُلّها وقع قبل آخرها مدّة .

وكذلك فى سورة الكهف جاءَ على ما يقتضيه الآيات قبلها ، وبعدها وهى (عِوَجًا) وكذا (أَبدًا) وجُلّها ما قبل آخرها متحرّك .

وأَمّا رفع (يبشّر) فى سبحان ونصبها فى الكهف فليس من المتشابه .

قوله : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ فيها بعض التشابه ، ويُشْبه التكرار وليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأُولى فى الدّنيا ، والثالثة فى العُقْبى ، والخطاب فيهما للنّبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، والمراد به غيره ، كما فى قوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ ﴾ وقيل : القول مضمر ، أَى قل لكلِّ واحد منهم : لا تجعل مع الله إِلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً فى الدّنيا وتُلْقى فى جهنَّم ملوماً مدحوراً فى الأُخرى .

وأَمّا الثانية فخطاب للنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو المراد به .

(18/447)

وذلك أَنَّ امرأَة بعثت صبيًّا لها إِليه مرّة بعد أُخرى ، سأَلته قميصاً ، ولم يكن عليه ولا له صلَّى الله عليه وسلَّم قميصٌ غيره ، فنزعه ودفعه إِليه ، فدخل وقتُ الصّلاة ، فلم يخرج حياءً ، فدخل عليه أَصحابه فرأَوه على تلك الصّفة ، فلاموه على ذلك ، فأَنزل الله تعالى ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً ﴾ يلومك النّاس ﴿ مَّحْسُوراً ﴾ مكشوفاً .

هذا هو الأَظهر من تفسيره والله أَعلم .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ ، وفى آخر السّورة ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا

لِلنَّاسِ فِي هذا الْقُرْآنِ" مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ فزاد ، (للنَّاس) وقدّمه على القرآن ، وقال : فى الكهف ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ ﴾ إنما لم يذكر فى أَوّل سبحان (للنَّاس) لتقدّم ذكرهم فى السّورة ، وذكرهم فى (الكهف) إِذ لم يَجْر ذكرهم ، وذكر النَّاس فى آخر سبحان ، وإِن جرى ذكرهم ؛ لأَنّ ذكر الإِنْس والجنّ جرى معاً ، فذكر (للنَّاس) كراهة الالتباس ، وقدّمه على ﴿ فِي هذا الْقُرْآنِ ﴾ كما قدّمه فى

قوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ ثمّ قال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا الْقُرْآنِ ﴾ وأَمّا فى الكهف فقدّم ﴿ فِي هذا الْقُرْآنِ ﴾ لأَنّ ذكره أَجلّ الغرض .

وذلك أَنّ اليهود سأَلته عن قصّة أَصحاب الكهف ، وقصّة ذى القرْنين ، فأَوحى الله إِليه فى القرآن ؛ وكان تقديمه فى هذا الموضع أَجدر ، والعناية بذكره أَحرى وأَخلق .

(19/447)

قوله : ﴿ وَقَالُواْ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ ثمّ أَعادها فى آخر السّورة بعينها ، من غير زيادت ولا نقصان ؛ لأَنّ هذا ليس بتكرار ؛ فإِنّ الأَوّل من كلامهم فى الدّنيا ، حين جادلوا الرّسول ، وأَنكروا البعث ، والثانى من كلام الله حين جازاهم على

كفرهم، وقولهم ذلك وإنكارهم البعث، فقال ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً * ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ .

قوله ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ ﴾ وفى الكهف ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ اقتصر هنا على الإشارة؛ لتقدّم ذكر جهنَّم (ولم يقتصر عليها [فى الكهف] وإن تقدم ذكر جهنَّم) بل جمع بين الإشارة والعبارة؛ لمّا اقترن بقوله: (جنَّات) فقال: ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ الآية ثمّ قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ﴾ ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين.

قوله: ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ وفى سبأ ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ لأَنه يعود إِلى الربّ، وقد تقدّم ذكره فى الآية الأُولى، وهو قوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ﴾ وفى سبأ لو ذكر بالكناية لكان يعود إِلى الله، كما صرّح، فعاد إِليه، وبينه وبين ذكره سبحانه صريحاً أَربع عشرة آية، فلمّا طال الفصلُ صرّح.

قوله: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ وفى غيرها ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ لأَنَّ ترادُف الخطاب يدلّ على أَنَّ المخاطب به أَمر عظيم.

وهكذا هو فى السّورة؛ لأَنه - لعنه الله - ضمِن احْتِنَاكِ ذريّة آدم عن آخرهم إِلاَّ قليلاً.

ومثل هذا ﴿ أَرَءَيْتَكُمْ ﴾ فى الأَنعام فى موضعين وقد سبق.

قوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى ﴾ وفى الكهف زيادة ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ﴾ ؛ لأَنَّ ما فى هذا السّورة معناه : [ما منعهم] عن الإِيمان بمحمد إِلاَّ قولُهم : أَبعث الله بشراً رسولاً ، هلاَّ بعث مَلَكاً .

وجهلوا أَنَّ التَّجانس يورث التَّوانس ، والتغاير يورث التَّنافر ، وما فى الكهف معناه : ما منعهم عن الإِيمان والاستغفار إِلاَّ إِتيانُ سنَّة الأَوّلين .

قال الزَّجاج : إِلاَّ طلب سنَّة الأَوّلين (وهو قولهم : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الْحَقَّ ﴾ فزاد : ويستغفروا ربّهم ، لاتصاله بقوله : سنة الأَولين) وهم قوم نوح ، وصالح ، وشعيب ، كلُّهم أمروا بالاستغفار .

فنوح بقوله : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ وهود يقول : ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ وصالح يقول : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ وشُعيب يقول : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ فلمّا خوّفهم سُنَّةَ الأَوّلين أَجرى المخاطبين مُجْراهم .

قوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [وكذا جاءَ فى الرعد] وفى العنكبوت :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ كما فى الفتح ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ فجاءَ فى الرّعد وفى سبحان على الأَصل.

وفى العنكبوت أَخَّر ﴿ شَهِيداً ﴾ لمّا وصفه بقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فطال.

(21/447)

قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ ﴾ وفى الأَحقاف ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ وفى (يس) ﴿ بِقَادِرٍ ﴾؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة خبر أَنَّ، وما فى يس خبرُ ليس، فدخل الباءُ الخبر، وكان القياس أَلاَّ يدخل فى حم؛ لكنَّه شابه (ليس) بترادف النفى، وهو قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا ﴾ ﴿ وَلَمْ يَعْيَ ﴾ وفى هذه السّورة نَفْى واحد.

وأَكثر أَحكام المتشابه ثبت من وجهين؛ قياساً على باب ما لا ينصرف وغيره.

قوله: ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾ قابل موسى كلَّ كلمة من فرعون بكلمة من نفسه، فقال: ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يا فِرْعَونُ مَثْبُوراً ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 290. 295 ﴾

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الإسراء

272 – قوله تعالى وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا 9 وخصت سورة الكهف بقوله أجرا حسنا 2 لأن الأجر في السورتين الجنة والكبير والحسن من أوصافها لكن خصت هذه السورة بالكبير موافقة لفواصل الآي قبلها وبعدها وهي حصيرا 8 أليما 10 عجولا 11 وجلها وقع قبل آخرها مدة وكذلك في سورة الكهف جاء على ما تقتضيه الآيات قبلها وبعدها وهي عوجا 1 أبدا ولدا وجلها قبل آخرها متحرك

وأما رفع يبشر في سبحان ونصبها في الكهف فليس من المتشابه

273 – قوله لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا 22 وقوله ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا 29 وقوله ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا 39 فيها بعض المتشابه ويشبه التكرار وليس بتكرار لأن الأولى في الدنيا والثالثة في العقبى الثانية الخطاب فيها للنبي صلى الله عليه و

سلم والمراد به غيره وذلك أن امرأة بعثت صبيا لها إليه مرة بعد أخرى تسأله قميصا ولم يكن عليه ولا له صلى الله عليه و سلم قميص غيره فنزعه ودفعه إليه فدخل وقت الصلاة فلم يخرج حياء فدخل عليه أصحابه فوجدوه على تلك الحالة فلاموه على ذلك فأنزل الله تعالى فتقعد ملموما

يلومك الناس محسورا مكشوفا هذا هو الأظهر من تفسيره

274 - قوله ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا 41 وفي آخر السورة ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن 89 إنما لم يذكر في أول سبحان للناس لتقدم ذكرهم في السورة وذكرهم في آخر السورة 89 وذكرهم في الكهف إذ لم يجر ذكرهم لأن ذكر الإنس والجن جرى معا فذكر الناس كراهة الالتباس

وقدمه على قوله في هذا القرآن كما قدمه في قوله قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله 88 ثم قال ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن 89

وأما في الكهف فقدم في هذا القرآن لأن ذكره جل الغرض وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين فأوحى الله إليه في القرآن فكان تقديمه في هذا الموضع

أجدر والعناية بذكره أحرى

275 - قوله وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا

جديدا 49 ثم أعادها في أخر السورة بعينها من غير زيادة ولا نقصان 98 لأن هذا ليس

بتكرار فإن الأول من كلامهم في الدنيا حين جادلوا الرسول وأنكروا البعث والثاني من كلام

الله تعالى حين جازاهم على كفرهم وقولهم وإنكارهم البعث فقال مأواهم جهنم كلما

خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا

لمبعوثون خلقا جديدا 97 98

276 - قوله ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا 98 وفي الكهف ذلك جزاؤهم جهنم بما

كفروا 106 اقتصر في هذه السورة على الإشارة لتقدم ذكر جهنم

ولم يقتصر في الكهف على الإشارة دون العبارة لما اقترن بقوله جنات 107 فقال جزاؤهم

جهنم بما كفروا 106 الآية ثم قال إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

الفردوس نزلا 107 ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين للمستمعين

277 - قوله قل ادعوا الذين زعمتم من دونه 56 وفي سبأ ادعوا الذين زعمتم من دون

الله 22 لأنه يعود إلى الرب في هذه السورة وقد تقدم ذكره في الآية الأولى وهو قوله وربك

أعلم 55 وفي سبأ لو ذكر بالكناية لكان يعود إلى الله كما صرح فعاد إليه وبينه وبين ذكره

سبحانه صريحا أربع عشرة آية فلما طالت الآيات صرح ولم يكن

278 - قوله أرأيتك هذا الذي 62 وفي غيرها أرأيت لأن ترادف الخطاب يدل على أن المخاطب به أمر عظيم وخطب فظيع وهكذا هو في هذه السورة لأنه لعنه الله ضمن أخطال ذرية بني آدم عن آخرهم لا قليلا ومثل هذا أرأيتكم في الأنعام في موضعين وقد سبق

(24/447)

---

279 - قوله وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى 94 وفي الكهف بزيادة ويستغفروا ربهم 55 لأن ما في هذه السورة معناه ما منعهم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه و سلم إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا 94 هلا بعث ملكا وجهلوا أن التجانس يورث التآنس والتغاير يورث التنافر وما في الكهف معناه ما منعهم عن الإيمان والاستغفار إلا إتيان سنة الأولين

قال الزجاج إلا طلب سنة الأولين وهو قوله إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة 8 32 فزاد ويستغفروا ربهم 55 لاتصاله بقوله سنة الأولين 18 55 وهم قوم نوح وهود وصالح وشعيب كلهم أمروا بالاستغفار فنوح يقول ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا 11 52 وصالح يقول فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب 11 61 وشعيب يقول واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود 11

90 فلما خوفهم سنة الأولين أجرى المخاطبين مجراهم

280 - قوله قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم 96 وفي العنكبوت قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا 52 كما في الفتح وكفى بالله شهيدا

28 - والرعد قل كفى بالله شهيدا 43 ومثله كفى بالله نصيرا 4 45 وكفى بالله حسيبا 4 6 فجاء في الرعد وسبحان على الأصل وفي العنكبوت أخر شهيدا لأنه لما وصفه بقوله يعلم ما في السموات والأرض طال فلم يجز الفصل به

281 - قوله أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر 99 وفي الأحقاف بقادر 33 وفي يس 81 لأن ما في هذه السورة خبر أن وما في يس خبر ليس فدخل الباء الخبر وكان القياس ألا يدخل في حم الأحقاف ولكنه شابه ليس لما ترادف النفي وهو قوله أو لم يروا 33 ولم يعي 33 وفي هذه السورة نفي واحد وأكثر أحكام المتشابه في العربية ثبت من وجهين قياسا على باب ما لا ينصرف وغيره

282 - قوله إني لأظنك يا موسى مسحورا 101 قابل موسى عليه السلام كل كلمة من فرعون بكلمة من نفسه فقال إني لأظنك يا فرعون مثبورا 102 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 127.131﴾

(26/447)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الإسراء

سورة الإسراء سورة مكية ، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية ، وقد قيل : إنها مكية نزلت بعض آياتها بالمدينة وحى قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)

وقوله تعالى : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73)

إلى قوله : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

وكذلك قوله تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) .

وقد ابتدئت السورة الكريمة بذكر خبر الإسراء والإشارة إلى المعراج فى قوله تعالى :

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير

وذكر سبحانه أن أهل مكة وبيت القدس وغيرهم هم ذرية من حملهم الله مع نوح .

ثم بين سبحانه أنه قضى لبنى إسرائيل أن يفسدوا فى الأرض ، ففى الأولى يبعث الله لهم قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، ثم يجعل الله تعالى لأهل الإيمان من أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من رد الكرة عليهم ، وأمد الله المؤمنين بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا ، فإذا جاء وعد المرة الآخرة من فسادهم يدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة ، وخاطب سبحانه المؤمنين بقوله تعالى : (. . . لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7)

(27/447)

ويشير سبحانه إلى أن سبب ذلك فساد أحوال المسلمين ، وأنهم إن صلحوا صلحت الأمور ، فيقول (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين

حصيرا

ويشير سبحانه إلى أن خسارة المسلمين ترجع إلى ترك القرآن و (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10)

ويبين أحوال الإنسان فقال : (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) .

ويذكر الله سبحانه المؤمن المدرك بأنه خالق الليل والنهار ليبتغوا فضلا من ربهم ، وليعلموا عدد السنين والحساب ، ويذكر الله تعالى الناس بيوم الحساب ، وأن كل إنسان يكون معه كتابه قد سجلت فيه حسناته وسيأاته (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

ويبين سبحانه أن هلاك الأمم وضعف المسلمين أمام بنى إسرائيل فى جولتهم الأخيرة سببه الترف والتراخى : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ، ويبين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك سنته فى القرون الماضية الذين أهلكهم الله سبحانه ، ويقرر سبحانه أن (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) ﴾

ونهى سبحانه عن عبادة غير الله مع الله ﴿فتقعد مذموما مخذولا﴾ .

ويأمرنا سبحانه وتعالى أمرا : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) ﴾ ، ثم يوصى سبحانه وتعالى بالقرابة كلها ، وبالتوسط فى إنفاق المال ، ولا ينفقه إلا فى خير ، ثم ينهى عن قتل النفس وعن الزنا ، وأن قتل النفس يجعل للمولى سلطانا فى طلب الدم ، ثم ينهى سبحانه عن أن يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، ويأمر سبحانه بالوفاء بالعهد وبالوفاء بالكيل والميزان ،

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) ﴾ ،

وأمر "سبحانه" أن "ألا يقف "الإنسان ! ما لا علم له به ، أو ما لا سبيل إلى العلم ، ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾ .

ويعلم الإنسان الأدب واللياقة حتى لا ينفر الناس منه ، ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ

تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37)

وإن ذلك له في المجتمع عواقب سيئة مكروهة مقطعة لأوصال الجماعة .

(29/447)

وينهى سبحانه عن أن يكون مع الله إله آخر ، ويندد بعادات أهل الجاهلية في كراهيتهم للبنات (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وقد بين الله تعالى تصريفه سبحانه في القرآن ليتذكر الناس ولكنه يزيدهم نفورا ؟ لأنهم يرون فيه قوة الحق ، والمبطل المعاند كلما وضحت الحجة نفر وما اهتدى ، ثم يبين سبحانه أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لنازعوه سبحانه وتعالى في عرشه فيفسد الكون .

ثم ذكر سبحانه تسبيح كل ما في الوجود له ، ثم بين سبحانه هداية القرآن وضلال الناس :

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48)

وإن الأمر الذى يشغلهم عن الحق هو كفرهم بالبعث فهم يقولون : (أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ،

فيرد الله تعالى كلام هؤلاء فيقول : (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51)

(30/447)

ويبن سبحانه أن هذا كله من نزغ الشيطان بينهم ، وإن ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك (يا محمد) عليهم وكيلا ، وقد يبن

سبحانه أنه فضل بعض النبيين على بعض ، وآتى الله داود زبورا ، ويبين سبحانه عجز الأوثان في كشف الضر ، ويصف المؤمنين فيقول تعالت كلماته : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) .

ويضرب الله تعالى الأمثال بالقرى التى فسقت عن أمر ربها ، فيقول سبحانه : (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ

مَسْطُورًا (58) .

طلب المشركون آيات حسية بدل القرآن ، فيقول سبحانه : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60) .

ثم يشير سبحانه إلى قصة الخلق والتكوين ويذكر تكريم آدم بالأمر بالسجود له ، وموقف إبليس ، ويأمره سبحانه بأن يبذل أقصى ما يملك (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64)

ويبين سبحانه أن عباده المؤمنين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا .

ثم يبين سبحانه نعمه في البر والبحر وكشف الضر إذ يستغيثون به ، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا وكان الإنسان كفورا .

وأشار سبحانه إلى قدرته القاهرة : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)

هو أى مطالبا ينتصر لكم ، ولقد ذكر بعد ذلك تكريم الله تعالى لبنى آدم وذكر أن من تكريمهم أن يبعثوا ، (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)

ولقد ذكر سبحانه وتعالى محادة المشركين أن يفتنوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - عن دينه ، وأنه لولا أن الله ثبته لركن إليهم ، (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) .

ثم أشار سبحانه إلى أن المشركين يستفزون محمدا وأتباعه ليخرجوه (وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76)

(32/447)

ويأمره سبحانه بإقامة الصلاة فى أوقاتها فيقول : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) .

وبعد ذلك ذكر نزول القرآن وأنه يكون تنزيلا وقتا بعد آخر ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) .

وبين سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان غير المؤمن ، حيث يعرض عن الله عند النعمة ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83)

وكل يعمل على شاكلته

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) ﴾

وبعد ذلك بين القرآن وأن الله سبحانه وتعالى يتحدى به الخليقة إلى يوم القيامة .

ولقد ذكر سبحانه أنهم طلبوا آيات أخرى حسية ، طلبوا أن تفجر لهم الأرض ينابيع ، وأن تكون لهم جنات من نخيل وعنب ، أو أن يسقط السماء عليهم كسفا ، أو يأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكود له بيت من زخرف ، أو يرقى فى السماء ويرسل إليهم كتابا من

السماء .

وكلها آيات مادية حسية ، والنبى (صلى الله عليه وسلم) ا يجيبهم (سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) .

(33/447)

ولقد كان المشركون يعجبون ويقولون أبعث الله بشرا رسولا ! فيقول سبحانه : (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95)

ويأمر النبى (صلى الله عليه وسلم) بيها أن يجعل الله شهيدا بينه وبينهم .

وإن من يهديه الله فهو المهتد ومن يضلل الله فلن تجد له أولياء من دونه ، (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) .

ثم يذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض فهو قادر على أن يخلق مثلهم ، (. . وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا .

وإن المشركين يلحون فى أن يأتيهم الرسول بآيات حسية ، ولا يقتنعون بالقرآن معجزة مع أنه تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فذكر الله تعالى أن الله آتى موسى تسع آيات بينات (. . فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102)

فهم مع هذه الآيات التسع لم يؤمنوا ، فأخرجهم من الأرض فأغرقه الله ومن معه جميعا .

وقد بين سبحانه وتعالى مقام القرآن والرسالة المحمدية ، فقال عز من قائل :

(34/447)

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) ، وأنه لا يغض من شأن القرآن إلا من به أشرك (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) .

وكان المشركون يقولون لا نعرف الرحمن ، فقال لهم رب العالمين : (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا

الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111) . انتهى انتهى . اهـ ﴿زهرة التفاسير صـ 4310 . 4316﴾

(35/447)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء

سميت في كثير من المصاحف سورة الإسراء .

وصرح الآلوسي بأنها سميت بذلك ، إذ قد ذكر في أولها الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم واختصت بذكره .

وتسمى في عهد الصحابة سورة بني إسرائيل .

ففي جامع الترمذي في أبواب الدعاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل " .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : " إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي " .

وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير ، والترمذي في أبواب التفسير .

ووجه ذلك أنها ذكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها .

وهو استيلاء قوم أولى بأس الآشوريين عليهم ثم استيلاء قوم آخرين وهم الروم عليهم .

وتسمى أيضا سورة " سبحان " ، لأنها افتتحت بهذه الكلمة .

قاله في بصائر ذوي التمييز .

وهي مكية عند الجمهور .

قيل : إلا آيتين منها ، وهما ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 73] .

وقيل : إلا أربعا ، هاتين الآيتين ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء : 60] ، وقوله : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] .

وقيل : إلا خمسا ، هاته الأربع ، وقوله : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [الإسراء : 107] إلى آخر السورة .

وقيل : إلا خمس آيات غير ما تقدم ، وهي المبتدأة بقوله : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الإسراء : 33] ، وقوله : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ الآية [الإسراء : 32]

، وقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية

(36/447)

[الإسراء : 57] ، وقوله : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ الآيةَ[الإسراء : 78] ، وقوله : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ الآيةُ[الإسراء : 26] .

وقيل إلا ثمانيا من قوله : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله : ﴿سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ [الإسراء : 80.73] .

وأحسب أن منشأ هاته الأقوال أن ظاهر الأحكام التي اشتملت عليها تلك الأقوال يقتضي أن تلك الآي لا تناسب حالة المسلمين فيما قبل الهجرة فغلبت على ظن أصحاب تلك الأقوال مدنية .

وسيأتي بيان أن ذلك غير متجه عند التعرض لتفسيرها .

ويظهر أنها نزلت في زمن فيه جماعة المسلمين بمكة ، وأخذ التشريع المتعلق بمعاملات جماعتهم يتطرق إلى نفوسهم ، فقد ذكرت فيها أحكام متتالية لم تذكر أمثال عددها في سورة مكية غيرها عدا سورة الأنعام ، وذلك من قوله : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

إِيَّاهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ [الإسراء : 23.38] .

وقد اختلف في وقت الإسراء .

والأصح أنه كان قبل الهجرة بنحو سنة وخمسة أشهر ، فإذا كانت قد نزلت عقب وقوع الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم تكون قد نزلت في حدود سنة اثنتي عشرة بعد البعثة ، وهي سنة اثنتين قبل الهجرة في منتصف السنة .

وليس افتتاحها بذكر الإسراء مقتضيا أنها نزلت عقب وقوع الإسراء .

بل يجوز أنها نزلت بعد الإسراء بمدة .

وذكر فيها الإسراء إلى المسجد الأقصى تنويها بالمسجد الأقصى وتذكيرا بحرمته .

نزلت هذه السورة بعد سورة القصص وقبل سورة يونس .

وعدت السورة الخمسين في تعداد نزول سورة القرآن .

وعدد آيها مائة وعشر في عد أهل المدينة ، ومكة ، والشام ، والبصرة .

ومائة وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة .

أغراضها

العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات أن القرآن وحي من الله .

وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه .

وذكر أنه معجز .

ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به ، وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه .

وإبطال إحالتهم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أسري به إلى المسجد الأقصى .

فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر الدينية ، ورمزا إلهيا إلى أن الله أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم من الفضائل أفضل مما أعطى من قبله .

وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت .

فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل ، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان هو مهبط الشريعة الموسوية ، ورمز أطوار تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم ، والذي هو نظير المسجد الحرام في أن أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ [الإسراء : 1] ، فأحل الله به محمدا عليه الصلاة والسلام بعد أن هجر وخرب إيماء إلى أن أمته تجدد مجده .

وأن الله مكنه من حرمي النبوة والشريعة ، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه

السورة وإنما عمرت كنائس حوله، وأن بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى.

وفي ذلك رمز إلى أن إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.

ثم إثبات دلائل تفرد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على إثبات الوحدانية.

والتذكير بالنعم التي سخرها الله للناس، وما فيها من الدلائل على تفرده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتخاذ بنات له.

وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.

(38/447)

وعن ابن عباس أنه قال: "التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل".

وفي رواية عنه: "ثمان عشرة آية منها كانت في ألواح موسى" أي من قوله تعالى: ﴿لَا

تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً ﴾ [الإسراء : 39.22] .

ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر ، وليس مراده أن القرآن حكى ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة .

على أن كلام ابن عباس معناه : أن ما في الألواح مذكور في تلك الآي ، ولا يريد أنهما سواء ، لأن تلك الآيات تزيد بأحكام ، منها قوله : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ [الإسراء : 27.25] ، وقوله : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [الإسراء : 31] ، وقوله : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء : 39.34] ، مع ما تخلل ذلك كله من تفصيل وتبيين عريت عنه الوصايا العشر التي كتبت في الألواح .

وإثبات البعث والجزاء .

والحث على إقامة الصلوات في أوقاتها .

والتحذير من نزغ الشيطان وعداوته لآدم وذريته ، وقصة إبايته من السجود .

والإنذار بعذاب الآخرة .

وذكر ما عرض للأمم من أسباب الاستئصال والهلاك .

وتهديد المشركين بأن الله يوشك أن ينصر الإسلام على باطلهم .

وما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين واستعانتهم باليهود .

واقتراحهم الآيات ، وتحميقهم في جهلهم بآية القرآن وأنه الحق .

وتخلل ذلك من المستطردات والنذر والعظات ما فيه شفاء ورحمة ، ومن الأمثال ما هو علم وحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ 8.5 ﴾

(40/447)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة الإسراء

هذه السورة – سورة الإسراء – مكية , وهي تبدأ بتسبيح الله وتنتهي بحمده ; وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ; وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة ; إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان .

ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) وموقف القوم منه في مكة . وهو القرآن الذي جاء به , وطبيعة هذا القرآن , وما يهدي إليه , واستقبال القوم له . واستطرادا بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل , وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها . وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي , والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع . . كل ذلك بعد أن يعذر الله - سبحانه - إلى الناس , فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل (وكل شيء فصلناه تفصيلا) .

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه . ففي مطلعها : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . .)وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح (إنه كان عبدا شكورا) . . وعند ذكر دعاوي المشركين عن الآلهة يعقب بقوله: (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا , تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن , وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) . . وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن:(ويقولون:سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) . . وتختم السورة بالآية (وقل

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا , ولم يكن لهشريك في الملك , ولم يكن له ولي من الذل , وكبره تكبيرا) .

(41/447)

في تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذي بينا , يمضي سياق السورة في أشواط متتابعة .

يبدأ الشوط الأول بالإشارة إلى الإسراء : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) مع الكشف عن حكمة الإسراء (لنريه من آياتنا) . . وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وما قضى فيه لبني إسرائيل , من نكبة وهلاك وتشريد مرتين , بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة (وإن عدتم عدنا) . . ثم يقرر أن الكتاب الأخير - القرآن - يهدي للتي هي أقوم , بينما الإنسان عجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته . ويقرر قاعدة التبعة الفردية في الهدى والضلال , وقاعدة التبعة الجماعية في التصرفات والسلوك .

ويبدأ الشوط الثاني بقاعدة التوحيد , ليقيم عليها البناء الاجتماعي كله وآداب العمل والسلوك فيه , ويشدها إلى هذا المحور الذي لا يقوم بناء الحياة إلا مستندا إليه .

ويتحدث في الشوط الثالث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله , وعن البعث واستبعادهم لوقوعه , وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولا آخر , ويتكلموا بالتي هي أحسن .

(42/447)

وفي الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمدا (صلى الله عليه وسلم) بالخوارق فقد كذب بها الأولون , فحق عليهم الهلاك اتباعا لسنة الله ; كما يتناول موقف المشركين من إنذارهم لله في رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتكذيبهم وطغيانهم . ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس , وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم . يجيء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذي يبدو من المشركين . ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله , وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان , وما ينتظر الطائعين والعصاة يوم ندعو كل أناس بإمامهم: فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

ويستعرض الشوط الأخير كيد المشركين للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة . ولو أخرجوه قسرا - ولم يخرج هو مهاجرا

بأمر الله - لحل بهم الهلاك الذي حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم .

ويأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يمضي في طريقه يقرأ قرآنه ويصلي صلاته , ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن مجيء الحق وزهوق الباطل , ويعقب بأن هذا القرآن الذي أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين , بينما الإنسان قليل العلم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

(43/447)

ويستمر في الحديث عن القرآن وإعجازه . بينما هم يطلبون خوارق مادية , ويطلبون نزول الملائكة , ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب , يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا . أو أن يرقى هو في السماء ثم يأتيهم بكتاب مادي معه يقرأونه . . . إلى آخر هذه المقترحات التي يمليها العنت والمكابرة , لا طلب الهدى والاقتناع . ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة , ويكل الأمر إلى الله . ويتهكم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله - على سعتها وعدم نفادها - لأمسكوها خوفا من الإنفاق ! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله , وأن الآيات الخارقة

قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤد إلى إيمان المتعنتين الذين استفزوه من الأرض , فأخذهم الله بالعذاب والنكال .

وتنتهي السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه . القرآن الذي نزل مفرقا ليقرأه الرسول على القوم زمنا طويلا بمناسباته ومقتضياته , وليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية . والذي يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود . ويختم السورة بحمد الله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل . كما بدأها بتسبيحه وتنزيهه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2210.2208 ﴾

(44/447)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الإسراء

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة آية

بين يدي السورة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة ، شأنها كشأن سائر السورة

المكية من العناية بأصول الدين (الوحدانية ، والرسالة ، والبعث) ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو (شخصية الرسول) ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة ، الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة (الإسراء) التى كانت مظهرا من مظاهر التكريم الإلهى ، لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب .

* وتحدثت عن بني إسرائيل ، وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين ، بسبب طغيانهم وفسادهم ، وعصيانهم لأوامر الله [وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين . .] الآيات .

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية ، التي تدل على العظمة والوحدانية ، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار ، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل [وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل . .] الآيات .

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية ، والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فحثت عليها ، ودعت إلى التحلى بها ، ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل الذي ينشده الإسلام ، بدءا من قوله تعالى : [وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه .] الآيات .

* وتحدثت عن ضلالات المشركين ، حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد ،

والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات ، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير ، المنزه عن الشبيه والنظير [أفأصفاكم ربكم بالبنين وإتخذ من الملائكة إناثا ؟ إنكم لقولون قولا عظيماً . .] الآيات .

(45/447)

---

* وتحدثت عن البعث والنشور ، والمعاد والجزاء ، الذي كثر حوله الجدل ، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه ، ثم تحدثت عن القرآن العظيم (معجزة محمد (صلى الله عليه وسلم) الخالدة) ، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاته حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن ، أن يفجر لهم الأنهار ، ويجعل لهم مكة حدائق وبساتين [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا .] الآيات .

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص والعجز ، واتصافه بالعزة والكبرياء [وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا] .

التسمية :

سميت السورة الكريمة (سورة الإسراء) لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التى خص

الله تعالى بها نبيه الكريم خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم) ، احتفاء به ، وتكريما له ، على صبره ، وتحمله ضروب البلاء والأذى ، في سبيل تبليغ دعوة الله ، وإنها لحفاوة عظيمة أن يُسرى به إلى بيت المقدس ، ثم أن يُصعد به إلى السماء ، لم ينلها قبله أحد من الأنبياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 2 صـ 150. 151﴾

(46/447)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الإسراء

سبحان اللّه : أي تنزيها له من كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، والإسراء كالسرى : السير بالليل خاصة ، والمسجد الحرام : مسجد مكة ، والمسجد الأقصى : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز

الكتاب : هو التوراة ، وكيلا : أي كفيلا تكلون إليه أموركم ، شكورا أي كثير الشكر ، وقضينا : أي أعلمنا بالوحى ، لتعلن : أي لتستكبرنّ عن طاعة اللّه ، والوعد أي الموعد به وهو العقاب ، والبؤس والبأس والبأساء : الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس

كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، جاسوا خلال الديار : توسطوها وترددوا بينها ، والكرة : الدّولة والغلبة وأصل الكر العطف والرجوع ، والنفير والنافر : من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته ، والتتبير : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن جبير وكل شىء كسرته وفتته فقد تبرته ، ما علوا : أي ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، والحصير : السجن كما قال ابن عباس .

طائره : أي عمله ، سمى به إما لأنه طار إليه من عشّ الغيب ، وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا : طائر اللّه لا طائرك ، أي قدر اللّه الغالب الذي يأتى بالخير والشر لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه زجرا ، فإن مرّبهم من اليسار إلى اليمين تيمنوا به وسمّوه سانحا ، وإن مرّ من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا ، كتابا : هو صحيفة عمله ، منشورا : أي غير مطوى ، حسيبا :

أي حاسبا أي عادّا له يعد عليه أعماله ، والوزر : الإثم والذنب ، يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة ، أي نفس وازرة ، والمترفون : هم المنعّمون من الملوك والعظماء ، أمرنا مترفيها ، أي أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا : أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، فحق عليها

القول : أي وجب لها العذاب ، والتدمير : الإهلاك مع طمس الأثر ، والقرن : القوم يجمعهم زمان واحد ، وقد حدد بأربعين سنة ، وبثمانين ، وبمائة ، والعاجلة : الدار الدنيا ، يصلاها : أي يقاسى حرها ، مدحورا : أي مطرودا مبعدا من رحمة اللّه ، محظورا : أي ممنوعا عمن يريده .

فتقعد : أي فتصير ، مذموما : أي ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، مخذولا : أي من اللّه لأنك أشركت معه مالا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وقضى : أي حكم وأمر ، وأفّ : اسم صوت ينبىء عن التضجر والتألم ويقولون لا تقل لفلان أف أي لا تتعرّض له بنوع من الأذى والمكروه ، والنهر : الزجر بغلظة ، كريما : أي جميلا لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شىء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم . وخفض الجناح يراد به التواضع والتذلل ، من الرحمة : أي من فرط رحمتك عليهما ، والأوّاب :

الذي ديدنه الرجوع إلى اللّه والالتجاء إليه حين الشدة ، والتبذير إنفاق : المال فى غير موضعه ، وإخوان الشياطين : أي قرناؤهم ، والابتغاء : الطلب ، والرحمة الرزق ، والميسور : السهل اللين ، والمغلولة : المقيدة بالغلّ وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، وتبسطها : أي تتوسع فى الإنفاق ، والمحسور : المنقطع عن السير إعياء وكلالا ، ويقدر : أي يقتر ، والإملاق : الفقر قال :

وإنى على الإملاق يا قوم ماجد أعدّ لأضيافى الشّواء المضهّبا

والخطء : كالإثم لفظا ومعنى ، والفاحشة : الفعلة الظاهرة القبح ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، فلا يسرف : أي فلا يتجاوز الحد المشروع فيه ، التي هى أحسن :

(48/447)

أي الطريق التي هى أحسن ، والعهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، والقسطاس : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، والمستقيم : العدل ، والتأويل : ما يئول إليه الشيء وهو عاقبته ، ولا تقف من قفوت أثر فلان : أي اتبعته ، والمرح : الفخر والكبر ، لن تخرق الأرض : أي لن تجعل فيها طرقا بدوسك وشدة وطأتك ، والحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، والمدحور : المبعد من رحمة الله الإصفاء بالشيء : جعله خالصا له ، وصرفنا : أي بينا ، ليذكروا : أي يتدبروا ويتعظوا ، والنفور : البعد من الشيء ، وابتغاء الشيء : طلبه ، والسبيل : الطريق ، والفقه : الفهم . الحجاب والحجب : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحاجب ، والمستور : أي الساتر كما جاء عكسه من نحو " ماء دافق " : أي مدفوق ، أن يفقهوه أي لئلا يفقهوه ويفهموه ، والأكنة : الأغطية واحدها كنان ، والوقر : الصمم والثقل فى الآذان المانع من السماع ، والنفور : الانزعاج ، مسحورا : أي مخبول العقل ، فهو كقولهم " إن هو إلا رجل به جنة "

فضلوا أي جاروا عن قصد السبيل .

الرفات : ما تكسر وبلى من كل شيء ، يكبر فى صدوركم : أي يستبعد قبوله للحياة ، فطركم : أي ذرأكم وأوجدكم ، فسينغضون إليك رءوسهم : أي سيحركونها استهزاء ، يقال نغض رأسه ينغض نغضا إذا تحرك ، وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ، فتستجيبون : أي تجيبون الداعي .

ينزغ : يفسد ويهيج الشر ، والوكيل : هو المفوض إليه الأمر ، والزبور : اسم الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام .

الزعم : (بتثليث الزاى) القول المشكوك فى صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب حتى قال ابن عباس : كل موضع فى كتاب اللّه ورد فيه (زعم) فهو كذب ، لا يملكون :

(49/447)

أي لا يستطيعون ، كشف الضر : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، يدعون : أي ينادون ، الوسيلة : القرب بالطاعة والعبادة ، محذورا : أي يحذره ويحترس منه كل أحد ، فى الكتاب : أي فى اللوح المحفوظ ، والآيات : هى ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهبا ، ومبصرة : أي ذات بصيرة لمن يتأملها ويتفكر فيها ، فظلموا بها : أي فكفروا بها وجحدوا ،

أحاط بالناس : أي أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، والرؤيا هى ما عاينه صلى اللّه عليه وسلّم ليلة أسرى به من العجائب ، والشجرة : هى شجرة الزقوم ، والطغيان : تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

أرأيتك : أي أخبرنى ، هذا الذي كرّمت على : أي أهذا الذي كرمته علىّ قاله احتقارا واستصغارا لشأنه ، لأحتنكنّ ، من قولهم حنك الدابة واحتنكها : إذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، اذهب : أي امض لشأنك فقد خلّيتك وما سوّلت لك نفسك ، وموفورا : أي مكملا لا يدّخر منه شىء من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة : أي أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتّق الشتم يشتم

ويقال أفزّه الخوف واستفزه : أي أزعجه واستخفه ، بصوتك : أي بدعائك إلى معصية اللّه ، وأجلب عليهم : أي صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ، ويقال أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما

جاء فى قوله صلى اللّه عليه وسلّم فى بعض غزواته لأصحابه "يا خيل اللّه اركبي" والرّجل : واحده راجل كركب وراكب ، والغرور : تزيين الباطل بما يظن أنه حق ، والوكيل : الحافظ والرقيب

يزجى : أي يسوق حينا بعد حين والمراد أنه يجريه ، وفضله : هو رزقه ، والمراد بالضر : خوف الغرق بتقاذف الأمواج ، وضل : غاب عن ذكركم ، والخسف والخسوف :

(50/447)

دخول الشيء فى الشيء يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ، وعين من الماء خاسفة : أي غائرة الماء وخسفت الشمس : أي احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب ، والحاصب : الريح التي ترمى بالحصباء والحجارة ، والقاصف : الريح تقصف الشجر وتكسره ، والتبيع : النصير والمعين ، وحملته على فرس : أي أعطيته إياها ليركبها .

إمامهم : هو كتابهم فهو كقوله " وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ " والفتيل : الخيط المستطيل فى شقّ النواة ، وبه يضرب المثل فى الشيء الحقير التافه ، ومثله النقير والقطمير ، أعمى : أي أعمى البصيرة عن حجة اللّه وبيناته ، والركون إلى الشيء : الميل إلى ركن منه ، ضعف الحياة : أي عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا ، وضعف الممات : أي عذابا مضاعفا فى الممات فى القبر وبعد البعث ، ونصيرا : أي معينا يدفع عنك العذاب ، لا يلبثون : أي لا يبقون ، خلافك : أي بعدك ، سنة من قد أرسلنا : أي سنتنا بك سنة الرسل قبلك ، تحويلا : أي تغييرا

دلوك الشمس : زوالها عن دائرة نصف النهار ، والغسق : شدة الظلمة ، وقرآن الفجر : أي صلاة الصبح ، كان مشهودا : أي تشهده شواهد القدرة ، وبدائع الحكمة ، وبهجة العالم العلوي والسفلى فمن ظلام حالك ، أزاله ضوء ساطع ، ونور باهر ، ومن نوم وخمود ، إلى يقظة وحركة ، وسعى إلى الأرزاق ، فسبحان الواحد الخلاق ، وهل هناك منظر أجمل فى نظر الرائي من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامس يدفعه بقوة ، ليضىء العالم بجماله ، ويقظة النّوام وحركتهم على ظهر البسيطة ، وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس ، والتهجد :

(51/447)

الاستيقاظ من النوم للصلاة ، نافلة : أي فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك ، والمقام المحمود : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى اللّه عليه وسلّم ، والسلطان : الحجة البينة ، والنصير : الناصر والمعين ، زهق : أي زال واضمحل ، نأى بجانبه : أي لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره ، وشاكلته : أي مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله فى الهدى والضلال ، ويئوسا : أي شديد اليأس والقنوط من رحمة اللّه ، وأهدى سبيلا : أي أسدّ طريقا ، وأقوم منهجا .

فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء :

(1) القرآن وهو المناسب لما تقدمه من قوله : " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ " ولما بعده من قوله " وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ " ولأنه سمى به فى مواضع متعددة من القرآن كقوله " وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا " وقوله "يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ " ولأن به تحصل حياة الأرواح والعقول ، إذ به تحصل معرفة اللّه وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

(2) جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل فى مواضع عدة من القرآن كقوله " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ " وقوله " فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا "
ويؤيد هذا أنه قال فى هذه الآية " قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي " وقال جبريل " وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ " فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحى .

(3) الروح الذي يحيا به بدن الإنسان - وهذا قول الجمهور - ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدّبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته ،

ويؤيد هذا ما

روى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : " مرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا يا أبا القاسم حدّثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر ، فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ويسألونك عن الروح الآية "

وكيلا : أي ملتزما استرداده بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه ، وظهيرا : أي معينا فى تحقيق ما يتوخّونه من الإتيان بمثله ، وصرفنا : كررنا وردّدنا ، والكفور : الجحود .

الينبوع : العين التي لا ينضب ماؤها ، جنة : أي بستان تستر أشجاره ما تحتها من الأرض ، كسفا : واحدها كسفة كقطع وقطعة لفظا ومعنى ، وقبيلا : أي مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا ، والزخرف : هنا الذهب ، وأصله الزينة ، وأجملها ما كان بالذهب ، ترقى : أي تصعد ، مطمئنين : أي ساكنين مقيمين فيها ، وخبت : أي سكن لهبها ، والسعير : اللهب ، وكفورا أي جحودا للحق ، خشية الإنفاق : أي خوف الفقر ، والقتور : الشديد البخل .

مسحورا : أي مخبول العقل ، بصائر : أي حججا وبينات واحدها بصيرة أي مبصرة بينة ، مثبورا : أي هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد ، قال الزجاج : يقال ثبر الرجل فهو مثبور

إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى : " دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا " أن يستفزهم : أي أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها ، واللفيف :

(53/447)

الجمع العظيم من أخلاط شتى ، من شريف ودنيء ، ومطيع وعاص ، وقوى وضعيف ، وكل شيء خلطته بغيره فقد لففته .

الحق : هو الثابت الذي لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة ، وفرقناه : أي أنزلناه مفرقا منجما ، والمكث (بالضم والفتح) : التؤدة والتأنى ، والخرور : السقوط بسرعة ، والأذقان واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين ، ادعوا الله أو ادعوا الرحمن : أي سموه بهذين الاسمين ، خفت الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت ، وتخافت : القوم تسارّوا فيما بينهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 15 صـ 106.4 ﴾ . باختصار .

(54/447)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الإسراء

وهي مكية

1 - من ذلك قوله تعالى جده سبحان الذي أسرى بعبده ليلا يروى أن النبي (ص) سئل عن معنى (سبحان) فقال إنزاه الله من السوء وفي بعض الحديث براءة الله من السوء قال سيبويه وغيره معناه براءة الله من السوء وأنشد

* أقول لما جائني فخره * سبحان من علقمة الفاخر * وروى معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن جابر عن النبي (ص) قال قمت في الحجر لما كذبني قومي ليلة أسري بي فأثنيت على ربي وسألته أن يمثل لي بيت المقدس فرفع لي فجعلت أنعت لهم آياته وروى سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول فقال المسجد الحرام قلت ثم أي قال ثم المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال أربعون سنة ثم قال أينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد

2 - وقوله جل وعز من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله من المسجد الحرام يعني مكة إلى المسجد الأقصى يعني بيت المقدس الذي باركنا حوله قيل

فجر حوله الأنهار وأنبت الثمار 3 - ثم قال جل وعز لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير لنريه من آياتنا ما رأى من الأنبياء وآثارهم 4 - وقوله جل وعز وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل أي دللناهم به على الهدى

5 - ثم قال جل وعز تتخذوا من دوني وكيلا ويقرأ أن لا يتخذوا على إضمار بمعنى وعهدنا إليهم وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح ألا تتخذوا من دوني وكيلا قال شريكا قال أبو جعفر وذلك معروف في اللغة أن يقال لكل من قام مقام آخر في أي شئ كان هو شريكه وقال الفراء ألا تتخذوا من دوني وكيلا أي كافيا 6 - وقوله جل وعز ذرية من حملنا مع نوح روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال على النداء أي ذرية من حملنا

(55/447)

قال أبو جعفر أي حرف نداء مثل يا وروى سفيان عن حميد عن مجاهد أنه قرأ ذرية بفتح الذال وتشديد الراء والياء وروى عن زيد بن ثابت ذرية بكسر الذال وتشديد الراء والياء فأما عامر بن عبد الواحد فحكي أن زيدا قرأ ذرية بفتح الذال وتشديد الراء والياء 7 - ثم قال جل وعز إنه كان عبدا شكورا روى معمر عن قتادة قال كان إذا لبس ثوبا قال بسم الله وإذا نزعه قال الحمد لله وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال شكره أنه إذا أكل قال

بسم الله فإذا فرغ من الأكل قال الحمد لله

8 - وقوله جل وعز وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب قال سفيان أي على بني إسرائيل

قال ابن عباس قضينا أعلمنا 9 - وقوله جل وعز فإذا جاء وعد أولاهما أي أولى المرتين

بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال لجاءوا من ناحية

فارس أول مرة ومعهم بختنصر فهزمهم بنو إسرائيل ثم رجعوا في

الثانية فقتلوا بني إسرائيل ودمروهم النبي تدميرا قال قتادة بعث عليهم في أول مرة جالوت

وفي الثانية بختنصر 10 - ثم قال جل وعز فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا روى

معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال جاسوا مشوا قال أبو جعفر

المعروف عند أهل اللغة أنه يقال جسنا دور بني فلان وجسناها وإن إذا قهروهم وغلبوهم

11 - وقوله جل وعز ثم رددنا لكم الكرة عليهم أي الدولة وأمددناكم بأموال وبنين

وجعلناكم أكثر نفيرا

يجوز أن يكون نفيرا بمعنى نافر مثل قدير وقادر ويجوز أن يكون جمع نفر مثل عبيد وكليب

ومعيز وأصله من ينفر مع الرجل من عشيرته وأصحابه 12 - وقوله جل وعز فإذا جاء

وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم

فإذا جاء وعد الآخرة أي من المرتين ليسوءوا وجوهكم روى زائد عن الأعمش قال الله

ليسوء وجوهكم

وقال غيره ليسوء الوعد وجوهكم ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ لنسوء وجوهكم بالنون وهي قراءة الكسائي وفي الكلام حذف والمعنى فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم لنسوء وجوهكم وروى عن أبي بن كعب أنه قرأ فإذا جاء وعد الآخرة لنسوءن وجوهكم بالنون الخفيفة واللام المفتوحة والوقف عليه لنسوءا كما مثل لنسفعا وهو على غير حذف ومن قرأ ليسوءوا فالمعنى عنده للعباد وفيه حذف 13 - وقوله عز وجل وليتبروا ما علوا تتبيرا قال ابن جريج ليدمروا تدميرا كذا قال ابن عباس قال أبو جعفر وكذلك هو في اللغة يقال تبر الشيء إذا

كسرة ومنه التبر 14 - وقوله جل ذكره وإن عدتم عدنا روى مبارك عن الحسن قال إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة 15 - وقوله جل وعز وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا قال مجاهد أي يحصرون فيها وقال الحسن فراشا ومعادا

وروى معمر عن قتادة قال محبسا قال أبو جعفر ومعروف في اللغة أن يقال حصرت الرجل أي حبسته ويقال للموضع الذي يحبس فيه حصير ويقال أحصره المرض والأصل فيه واحد 16 - وقوله جل وعز إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم المعنى يهدي للحال التي هي أقوم

والحال التي هي أقوم توحيد الله واتباع رسله والعمل بطاعته 17 - وقوله جل وعز ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا روى معمر عن قتادة قال يدعو الإنسان على نفسه بما لو استجيب له لهلك ويدعو على ولده وماله ثم قال تعالى وكان الإنسان عجولا قيل يعجل بالدعاء على نفسه ولا يعجل الله بالإجابة وروى عن سلمان انه قال أول ما خلق الله من آدم

رأسه فاقبل ينظر إلى سائره يخلق فلما دنا المساء قال رب عجل قبل الليل فقال الله تعالى وكان الإنسان عجولا 18 - وقوله جل وعز وجعلنا الليل والنهار آيتين الآية في اللغة الدلالة والعلامة أي جعلناهما دالين على أن خالقهما ليس كمثله شئ ودالين على عدد السنين والحساب

(57/447)

---

19 - ثم قال جل وعز فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة روى هشيم عن حصين عن عكرمة عن ابن عباس فمحونا آية الليل قال هو السواد الذي ترونه في القمر ويروي أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب عن السواد الذي في القمر فقال لو سألت عما ينفعك في دنياك

وآخرتك ذاك أن الله يقول وجعلنا الليل والنهار آيتين إلى آخر الآية فآية النهار الشمس وآية الليل القمر وصحوه هو السواد الذي فيه 20 - وقوله جل ثناؤه وجعلنا آية النهار مبصرة روى الحسن عن قتادة قال منيرة قال أبو جعفر وهذا مذهب الفراء فقد قال مبصرة بمعنى مضيئة وقال غيره هذا على التشبيه أي ذات إبصار أي يبصرون بها 21 - وقوله جل وعز وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه

روى منصور وابن أبي نجيح وابن جريج عن مجاهد قال عمله وقال الضحاك رزقه وأجله وشقاءه وسعادته

وروى ابن جريج عن عطاء الخرساني عن ابن عباس قال طائره ما قدر عليه يكون معه حيثما كان ويزول معه أينما زال وقيل طائره حظه قال أبو جعفر والمعاني متقاربة إنما هو ما يطير من خير أو شر على التمثيل كما تقول هذا في عنق فلان أي يلزمه كما تلزم القلادة 22 - ثم قال جل وعز ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا روى جرير بن حازم عن حميد عن مجاهد أنه قرأ ويخرج له يوم القيامة كتابا قال يريد يعني ويخرج له الطائر كتابا أي عمله كتابا وروى عن مجاهد ويخرج وكذلك قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع وقرأ الحسن ويخرج له يوم القيامة كتابا بفتح الياء أيضا ورويت هذه القراءة عن ابن عباس فإنه قال سيحول عمله كتابا وقرأ الحسن يلقاه بضم الياء وتشديد القاف

23 - وقوله جل وعز وما كنا معذبين حتى نبعث

رسولا روى معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريره قال إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة والمعتوه والأصم والأبكم والأخرس والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام فأرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار فيقولون كيف ولم يأتنا رسول قال ولو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما فيرسل الله عليهم رسولا فيطيعه من كان يريد أن يطيعه ثم قرأ أبو هريرة وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال غيره يوم القيامة ليس بيوم تعبد ولا محنة فيرسل إلى أحد رسول ولكن معنى الآية وما كنا معذبين أحدا في الدنيا بالإهلاك حتى نبعث رسولا

24 – وقوله جل وعز وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها يقرأ هذا الحرف على وجوه روى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ أمرنا بالقصر والتخفيف وكذلك يروي عن ابن عباس وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قرأ أمرنا مترفيها وكذلك قرأ أبو عثمان النهدي وأبو العالية وقرأ الحسن والأعرج وابن أبي إسحاق آمرنا مترفيها وروى أمرنا مترفيها على فعلنا عن ابن عباس هذه

القراءة أيضا قال أبو جعفر من قرأ أمرنا مترفيها ففي قراءته ثلاثة أقوال أحدها وأثبتها ما قاله ابن جريج وزعم أنه قول ابن

عباس وهو أن المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا قال محمد بن يزيد قد علم أن الله عز وجل لا يأمر إلا بالعدل والإحسان كما قال تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسان فقد علم أن المعنى أمرنا مترفيها بالطاعة فعصوا قال مجاهد مترفوها فساقها وقال أبو العالية مستكبروها والمعنى أمرناهم بالطاعة والفاسق إذا أمر بالطاعة عصى فعصوا فحق عليهم القول بالعصيان أي وجب

(59/447)

والقول الثاني في معنى أمرنا قال معمر عن قتادة قال أمرنا أكثرنا قال الكسائي يجوز أن يكون أمرنا بمعنى أمرنا من الإمارة وأنكر أن يكون أمرنا بمعنى أكثرنا وقال لا يقال في هذا إلا أمرنا قال أبو جعفر وهذا القول الثالث أعني قول الكسائي ينكره أهل اللغة وقد حكى أبو زيد وأبو عبيدة أنه يقال أمرنا بمعنى

أكثرنا ويقوي ذلك الحديث المرفوع خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة والسكة المأبورة النخل الملقح والمهرة المأمورة الكثيرة النتاج

فأما معنى أمرنا ففيه قولان أحدهما رواه معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال أمرنا سلطنا وكذلك قال أبو عثمان النهدي وروى وكيع عن أبى جعفر الرازي

عن الربيع بن أنس عن أبي العالية أنه قرأ أمرنا مثقلة أي سلطنا مستكبريها والقول الثاني رواه الكسائي عن أبى جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية أمرنا أي أكثرنا وليس بمبعد ما رواه الكسائي ويكون مثل سمن الدابة وسمنته وأسنمته قال أبو جعفر وهذا أولى قال جل وعز ففسقوا فيها فوصف أنهم جماعة والقرية الواحدة لا توصف إن فيها جماعة امراء

إن قيل يكون واحدا فقد قيل وهذا خصوص والهلاك بالكثرة فتكثر المعاصي

فأما معنىء آمرنا إلا فأكثرنا كذلك قال الحسن ويحتمل معنى آمرنا أكثرنا عدهم وأكثرنا يسارهم وحقيقة أمر كثرت املاكه من مال أو غير ذلك من حالة ومن لقد جئت شيئا إمرا قال الكسائي عظيما وقال هارون في قراءة أبي وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيا أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول

فاما معنى آمرنا فلا يكاد يعرف لأنه إنما يقال أمر القوم إذا كثروا وآمرهم الله أي أكثرهم ولا يعرف أمرهم الله 25 - وقوله جل وعز من كان يريد العاجله فيه عجلنا له فيها ما نشاء العاجلة أي الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء وتقرأ ما يشاء قال أبو جعفر والمعنيان واحد أي

ما شاء الله ويجوز أن يكون ل من 26 - وقوله جل وعز ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا أي مباعدا يقال دحره يدحره دحرا ودحورا إذا أبعده

ثم أخبر تعالى أنه يرزق المؤمن والكافر فقال كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك 27 - وقوله جل ذكره وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه روى مبارك عن الحسن قال قضى أمر ألا تعبدوا إلا إياه وروى سفيان عن الأعمش قال قرأ عبد الله بن مسعود ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه 28 - ثم قال تعالى وبالوالدين إحسانا أي وأمر أن تحسنوا بالوالدين إحسانا 29 - وقوله جل وعز فلا تقل لهما أف

روى عن مجاهد أنه قال لا تستقذرهما صلى كما كانا لا يستقذرانك والمعنى عن أهل اللغة لا تستثقلهما أنه ولا تغلظ عليهما في القول والناس يقولون لما يستثقلونه أف له وأصل هذا أن الإنسان إذا وقع عليه الغبار أو شئ يتأذى به نفخه فقال أف وقيل إن أف وسخ الأظفار وإن التف الشئ الحقير نحو وسخ الأذن والقول الأول أعرف 30 - ثم قال جل وعز ولا تنهرهما أي لا تكلمهما بصياح ولا بضجر يقال نهره وانتهره بمعنى واحد

وبين هذا بقوله وقل لهما قولا كريما

31 - وقوله جل وعز واخفض لهما جناح الذل من الرحمة قرأ سعيد بن جبير ويحيى بن وثاب وعاصم الجحدري واخفض لهما جناح الذل من الرحمة بكسر الذال ومعنى الضم كن لهما بمنزلة الذليل المقهور إكراما وإعظاما وتبجيلا وروى هشام بن عروة عن أبيه

وبعضهم يقول عن عائشة واخفض لهما جناح الذل من الرحمة هو أن يطيعهما ولا يمتنع من شيء أراداه وقال عطاء لا ترفع يدك عليهما وقال سعيد بن المسيب هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ

(61/447)

ويقال ذل يذل ذلا وذلة ومذلة فهو ذاك وذليل ومعنى الذل بالكسر السمح عنهما يقال رجل ذليل بين الذل إذا كان سمحا لينا مواتيا وكذلك يقال دابة ذلول بين الذل إذا كان مواتيا ومنه وذللت قطوفها تذليلا 32 - وقوله جل وعز ربكم أعلم بكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا روى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال الأوابون وهو الراجعون إلى الخير كما في قول الله إنه أواب قال أبو جعفر قرئ على الفريابي عن قتيبة قال حدثنا ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حنش بن عبد الله عن ابن عباس انه قال الأواب الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها وروى سفيان عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله تعالى إنه كان للأوابين غفورا قال هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلا ثم يستغفرون الله وروى يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب الأواب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يتوب قال أبو جعفر وهذه الأقوال متقاربة والأصل في هذا أنه يقال آب يؤوب إذا رجع فهو

آيب وأواب على التكثير

33 – وقوله جل وعز وآت ذا القربى حقه قال عكرمة أي صلته التي تريد أن تصله بها

34 – ثم قال تعالى والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا

روى حصين عن عكرمة عن ابن عباس قال التبذير النفقة في غير طاعة الله وكذلك روى عن عبد الله بن مسعود إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين معنى إخوان الشياطين أي في المعصية لما عصوا وعصا أولئك جمعتهم المعصية فسموا إخوانا وكلما جمعت شيئًا إلى شيء فقد آخيت بينهما ومنه إخاء النبي له بين أصحابه 35 – وقوله جل وعز وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا

قال قتادة أي عدهم وقال عكرمة إن أعرضت عنهم لرزق تنتظره فعدهم وقل لهم سيكون فإذا جاءنا شيء أعطيناكم وقال الحسن قولا ميسورا أي لينا والمعنى عند أهل اللغة يسر فقرهم عليهم بدعائك لهم 36 – ثم قال جل وعز ولا تجعل يدك مغلوله إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا قال قتادة ولا تجعل يدك مغلوله إلى عنقك أي لا تمتنع من النفقة في الطاعة ولا تبسطها كل البسط أي لا تنفق في معصية

فتقعد ملوما محسورا قال عكرمة وقتادة أي نادما وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد فتقعد ملوما قال مذنبا أو آثما محسورا قد انقطع بك قال أبو جعفر وكذلك المحسور في اللغة يقول حسره السفر إذا انقطع به وكذلك البعير حسير ومحسور إذا انقطع ووقف وهو أشد من الكلال 37 – وقوله جل وعز ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق الإملاق الفقر وكانوا يئدون بناتهم

38 – وقوله جل وعز إن قتلهم كان خطاء كبيرا بكسر الخاء والمد وروى عن الحسن كان خطاء بفتح الخاء والمد قال أبو جعفر وأعرف هذه القراءات عند أهل اللغة كان خطأ كبيرا قال أبن جريج وزعم أنه قوله ابن عباس وهو قول مجاهد الخطأ الخطيئة قال أبو جعفر وهذا المعروف في اللغة يقال خطئ يخطأ خطأ إذا اثم وتعمد الذنب وقد حكى في المصدر خطأ وأخطأ يخطئ إخطاء والأسم الخطأ إذا لم يتعمد الذنب

فأما قراءة من قرأ كان خطاء بالكسر والمد والفتح والمد فلا يعرف في اللغة ولا في كلام العرب 39 – وقوله جل وعز ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق بين هذا الحديث لا يحل دم أمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خلال شرك بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس 40 – ثم قال جل وعز ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا اختلف المتقدمون من العلماء في السلطان الذي جعل للولي

فروى خصيف عن مجاهد قال حجته التي جعلت له أن يقتل قاتله وذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا هو السلطان الذي جعل له وأنه ليس له أن يأخذ الدية إلا أن يشاء القاتل وقال الضحاك في السلطان الذي جعل له إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية وإن شاء عفا والقول عند أهل المدينة وأهل الكوفة قول مجاهد إن السلطان ههنا القود خاصة لا ما سواه وذهب الشافعي رحمه الله إلى قول الضحاك غير أنه قال كان يستحق إذا عفا أخذ الدية أشترط ذلك أو لم يشترطه والحجة له فمن عفي له من أخيه شئ

والحديث ولي المقتول بأحد النظرين 41 - ثم قال جل وعز فلا يسرف في القتل روى خصيف عن مجاهد قال لا يقتل غير قاتله وروى منصور عن طلق بن حبيب قال لا تقتل غير قاتلك ولا تمثل به وروى خصيف عن سعيد بن جبير قال لا يقتل اثنين بواحد وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال لا يقتل أبا القاتل ولا ابنه وقرأ حذيفة فلا تسرف في القتل بالتاء

وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال هو للقاتل الأول والمعنى عنده على هذا فلا تسرف أيها القاتل 42 - ثم قال جل وعز إنه كان منصورا روى ابن كثير عن مجاهد قال إن المقتول كان منصورا قال أبو جعفر الأبين بالياء وتكون للولي لأنه إنما يقال لا يسرف لمن كان له أن يقتل فهذا للولي

وقد يجوز بالتاء ويكون للولي أيضا إلا أنه يحتاج فيه الى

تحويل المخاطبة 43 - وقوله جل وعز ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن قال محمد

سألت عبيدة عن قوله تعالى ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فقال يستقرض فإذا استغنى

رد ثم تلا فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وقال أبو العالية نحوا من هذا وقال عمر

بن الخطاب رحمة الله عليه ما يقوي هذا حدثنا أبو جعفر أحمد بن محمد النحوي قال

حدثنا الحسن بن غليب قال نا يوسف بن عدي قال نا أبو الأحوص عن أبي إسحق عن يرفا

مولى عمر قال قال عمر بن

(64/447)

الخطاب رضوان الله عليه يا يرفا إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم إذا احتجت

أخذت منه فإذا أيسرت رددته وإني إن استغنيت استعففت عنه فإني قد وليت من أمر

المسلمين أمرا عظيما وقال سعيد بن المسيب لا يشرب الماء من مال اليتم قال فقلت له إن

الله يقول ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف قال فقال إنما ذلك لخدمته صلى الله عليه وسلم

وغسل ثوبه وروى أبو يحيى وليث عن مجاهد قال لا تقرب مال اليتيم إلا للتجارة ولا

تستقرض قال فأما قوله تعالى ومن كان

فقيرا فليأكل بالمعروف فإنما معناه فليأكل من ماله بالمعروف يعني من مال نفسه وقال بهذا

جماعة من الفقهاء وأهل النظر حتى قال أبو

يوسف لعل قوله ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف منسوخ بقوله يا

أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل 44 - ثم قال جل وعز حتى يبلغ أشده

وبيان هذا في قوله حتى إذا بلغوا النكاح قال مجاهد أي الحلم 45 - وقوله جل وعز وأوفوا

الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم روى ابن جريج عن مجاهد قال القسطاس العدل

وقال الضحاك هو الميزان 46 - ثم قال تعالى ذلك خير وأحسن تأويلا

قال قتادة أي أحسن عاقبة أي ما يئول إليه الأمر في الدنيا والآخرة وقيل أحسن من النقصان

47 - وقوله جل وعز ولا تقف ما ليس لك به علم روى عن ابن عباس قال لا تقل ما ليس

لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا قال يسأل

أكان ذاك أم لا وقال ابن الحنفية رحمة الله عليه هذا في شهادة الزور وروى حجاج عن ابن

جريج عن مجاهد قال لا تقف لا ترم

قال أبو جعفر وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو من قفوت الشئ أي اتبعت أثره والمعنى لا تتبعن لسانك ما لم تعلمه فتتكلم بالحدس والظن وحكى الكسائي ولا تقف من القيافة وهو بمعنى الأول على القلب 48 - وقوله جل وعز ولا تمش في الأرض مرحا أي متكبرا متبذخا 49 - ثم قال جل وعز إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا فيه لأهل اللغة قولان

أحدهما أن المعنى إنك لن تنقب الأرض والآخر لن تقطعها كلها قال أبو جعفر وهذا أبين كأنه مأخوذ من الخرق وهو الصحراء الواسعة ويقال فلان أخرق من فلان أي أكثر سفرا وغزوا منه

50 - وقوله جل ثناؤه كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها ويقرأ سيئة عند ربك مكروها

وقيل الأول أبين لأنه قد تقدم قوله وآت ذا القربى حقه وأشياء حسنة وسيئة فقال كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها وأيضا فإنه لم يقل مكروهة 51 - ثم قال جل وعز ذلك مما اوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا أي مقصى مباعدا ومنه اللهم ادحر عنا الشيطان 52 - ثم قال جل وعز أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا لأنهم قالوا الملائكة بنات الله تعالى الله

53 - وقوله جل وعز قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا قال

قتادة المعنى إذا لتقربوا إلى الله وقال سعيد بن جبير إذا لطلبوا إليه طريقا للوصول ليزيلوا ملكه جل وعز 54 - وقوله جل وعز وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم قيل تسبيحه لدلالته على قدرة الله وأنه خالقه وأكثر أهل التفسير منهم عكرمة على أن المعنى وإن من شئ فيه الروح إلا يسبح بحمده

(66/447)

قال أبو جعفر وهذا القول أولى لأنه قال ولكن لا تفقهون تسبيحهم 55 - وقوله جل وعز وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا فيه قولان أحدهما أن الحجاب الطبع على قلوبهم ودل على هذا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه والقول الآخر أن الحجاب منع الله إياه منهم 56 - ثم قال جل وعز وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا قال أبو الجوزاء الذكر قول لا إله إلا الله

57 - ثم قال تعالى نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى أي ذوو نجوة أي سرار ثم بين ما يتناجون به فقال جل ثناءه إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا في معناه قولان قال مجاهد أي مخدوعا وقال أبو عبيدة أي له سحر والسحر والسحر الرئة والمعنى عنده إن تتبعون إلا بشرا أي ليس بملك قال أبو جعفر والقول الأول أنسب بالمعنى

وأعرف في كلام العرب لأنه يقال ما فلان إلا مسحور أي مخدوع كما قال تعالى إني لأظنك يا موسى مسحورا

أي مخدوعا قال الشاعر * أرانا موضعين لحتم غيب * ونسحر بالطعام وبالشراب * أي نعلل بهما فكأنهما نخدع ويبينه قوله تعالى انظر كيف ضربوا لك الأمثال وقال في موضع أخر ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر 58 - وقوله جل وعز وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا قال مجاهد أي ترابا وهو قول الفراء وقال أبو عبيدة والكسائي يقال منه رفت رفتا أي حطم

59 - ثم قال جل وعز إئنا أي لمبعوثون خلقا جديدا

أي مجددا 60 - ثم قال جل وعز قل كونوا حجارة أو حديدا قال مجاهد أي ما شئتم فستعادون قال أبو جعفر وهذا قول حسن لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة 61 - ثم قال عز وجل أو خلقا مما يكبر في صدوركم أي يعظم قال ابن عمر ومجاهد وعكرمة وأبو صالح والضحاك في قوله

تعالى أو خلقا مما يكبر في صدوركم هو الموت وفي الحديث أنه يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار 62 - وقوله جل وعز فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو أي يحركونها من فوق إلى أسفل ومن أسفل إلى فوق كما يفعل المتعجب المستبطئ للشئ يقال أنغض رأسه فنغض ينغض وينغض وينغض أي تحرك

63 - وقوله جل وعز يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده قال سفيان أي بأمره والمعنى عند أهل التفسير مقرين أنه خالقكم 64 - وقوله جل وعز وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم أي يفسد ويهيج 65 - وقوله جل وعز أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة وقرأ عبد الله بن مسعود أولئك الذين تدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة قال هؤلاء من العرب عبدوا أناسا من الجن فاسلم الجنيون ولم يعلم الذين عبدوهم

وروى شعبة عن السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة قال عيسى وعزير وقيل الملائكة الذين عبدوهم قوم من العرب

66 - وقوله جل وعز وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا قال مجاهد مبيدوها أو معذبوها 67 - ثم قال جل وعز كان ذلك في الكتاب مسطورا أي مكتوبا يقال سطر إذا كتب روى عن عبد الله بن عباس أنه قال أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فكتب ما هو كائن 68 - وقوله جل وعز وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون هذه آية مشكلة وفي الكلام حذف

والمعنى ما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحتموها إلا أن تكذبوا بها فتهلكوا كما فعل بمن كان قبلكم وقد أخر الله أمر هذه الأمة إلى يوم القيامة فقال سبحانه بل الساعة موعدهم

69 - ثم قال جل وعز وآتينا ثمود الناقة مبصرة قال مجاهد أي آية والمعنى ذات إبصار يبصر بها ويتبين بها صدق صالح عليه السلام

(68/447)

---

70 - ثم قال جل وعز فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا أي فظلموا بتكذيبهم بها

71 - وقوله جل وعز وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس

روى شعبة عن أبي رجاء عن الحسن قال عصمك منهم وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال هم في قبضته 72 - ثم قال جل وعز وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس قال سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك هي الرؤيا التي رآها ليلة أسرى به وزاد عكرمة هي رؤيا يقظة

قال سعيد بن المسيب إلا فتنة للناس أي إلا بلاء للناس 73 - ثم قال جل وعز والشجرة المعلونه ثنا في القرآن قال سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك هي شجرة الزقوم وقال غيرهم إنما فتن الناس بالرؤيا وشجرة الزقوم أن جماعة ارتدوا وقالوا كيف يسرى به

إلى بيت المقدس في ليلة واحدة وقالوا لما أنزل الله إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كيف تكون في النار شجرة ولا تأكلها فكان ذلك فتنة لقوم واستبصارا لقوم منهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه

ويقال إنما سمى الصديق ذلك الوقت فإن قال قائل لم يذكر في القرآن لعن هذه الشجرة قال أبو جعفر ففي ذلك جوابان أحدهما أنه لقد لعن آكلوها والجواب الآخر أن العرب تقول لك طعام ضار مكروه ملعون 74 - وقوله جل وعز قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي أي فضلت وفي الكلام حذف والمعنى أرأيتك هذا الذي فضلت علي لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين ثم حذف هذا لعلم السامع 75 - ثم قال جل وعز لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا قال أبو جعفر أكثر أهل اللغة على أن المعنى لأستولين عليهم ولأستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله وقيل هو من قولهم حنك الدابة يحنكها به إذا ربط حبلا في حنكها الأسفل وساقها حكى ذلك ابن السكيت وحكى أيضا احتنك دابته مثل حنك فيكون المعنى

لأسوقنهم كيف شئت 76 - ثم قال جل وعز قال اذهب فمن تعك هذا منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا موفور وموفر ثم واحد يقال وفرته ووفرته كما قال الشاعر * ومن يجعل المعروف من دون عرضه * يفره ومن لا يتقي الشتم يشتم * 77 - ثم قال جل وعز واستفزز من استطعت منهم بصوتك أي استخف قال مجاهد بصوتك بالغناء والمزامير 78 - ثم قال جل وعز وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وركهم رسول في الأموال والأولاد روى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال كل خيل سارت في معصية الله وكل رجل مشت في معصية الله وكل مال أصيب من حرام وكل ولد غية فهو للشيطان وقال غيره مشاركته في الأموال هي السائبة والبحيرة وفي الأولاد قولهم عبد العزى وعبد الحارث وقرأ قتادة وأجلب عليهم بخيلك ورجالك 79 - ثم قال جل وعز وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا هذا أمر فيه معنى التهدد والوعيد كما قال تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر 80 - وقوله جل وعز إن عبادي ليس لك عليهم سلطان قيل أي خلصائي كما قال تعالى فادخلي في عبادي 81 - ثم قال جل وعز وكفى بربك وكيلا أي منجيا لخلصائه ولا من الشيطان والفراء يذهب إلى أن معنى وكيلا كاف وكذا قال في قوله جل وعز ألا تتخذوا من دوني وكيلا 82 - ثم قال جل وعز ربكم الذي يزجي لكم الفلك أي يسوق 83 - وقوله جل وعز أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء وهي الحصى الصغار 84 - وقوله

جل وعز أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح قال ابن عباس هي التي تغرق قال أبو جعفر يقال قصفه لم إذا كسره كأنها من شدتها تكسر الشجر

85 - وقوله جل وعز فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا قال مجاهد ثائرا قال أبو جعفر وهو من الثأر وكذلك يقال لكل من طلب

(70/447)

بثأر أو غيره تبيع وتابع ومنه قوله تعالى فاتباع بالمعروف أي مطالبة 86 - وقوله جل وعز ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا قال عبد الله بن عباس فضلوا بأنهم يأكلون بأيديهم والبها ثم حدثنا تأكل بأفواهها وقال غيره فضلوا بالفهم والتمييز وبما سخر لهم 87 - ثم قال جل وعز يوم ندعو كل أناس بإمامهم

روى عن ابن عباس أي بنبيهم وقال الحسن والضحاك بكتابهم قال أبو جعفر ويدل على هذا قوله بعد فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا الفتيل الذي يكون في شق النواة والنقير النقرة التي فيها والقطمير الفوقة التي تكون على النواة

أي لا يظلمون مقدار هذا الحقير 88 - ثم قال جل وعز ومن كان في هذه أعمى وأضل

سبيلا قال عكرمة قال رجل لعبد الله بن عباس كيف يكون في الآخرة أعمى فقال له

أخطأت التأويل ألا ترى أنه جل وعز عدد النعم ثم قال ومن كان في هذه أعمى أي من عمي

عن هذه النعم

التي يراها وتدله على قدرة الله فهو فيما لم يره من أمر الآخرة أعمى وكذلك قال قتادة وقال

غيره ومن كان في الدنيا أعمى وقد فسح الله له في العمر ووعده قبول التوبة ودعاه إلى

الطاعة فلم يجب وعمى عن ذلك فهو في الآخرة إذا كان لا تقبل منه توبة ولا إنابة أعمى

وأضل سبيلا 89 - ثم قال جل وعز وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك المعنى

كادوا يفتنونك لأن إن واللام تدل على التوكيد

ويروي أنهم قالوا للنبي (صلع) اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالي حتى نجلس معك ونستمع

منك فهم النبي بذلك ميلا منه إلى أن يؤمنوا فعصم (صلع) وأنزل الله تبارك وتعالى وإن

كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك إلى قوله إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات

قال مالك بن دينار سألت جابر بن زيد عن قوله إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات

فقال إذا لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات قال أبو جعفر وكذلك معناه

عند أهل اللغة وخوطب بهذا النبي (ص) لأن الثواب به جزل كما قال تعالى يا نساء النبي

من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ولمشاهدة

الأنبياء والملائكة والآيات العظام كان في ذلك الخطاب من الفائدة أنه علم به أن هذا حكم

الله فيمن عصاه من الأنبياء فكيف غيرهم 90 - ثم قال جل وعز وإن كادوا ليستفزونك

من الأرض ليخرجونك ابن منها قيل المعنى يستفزونك بالقتل قال عوف عن الحسن هموا

بإخراج النبي (ص) من مكة وأراد الله بقاء أهل مكة فأمره ان يخرج منها مهاجرا إلى المدينة

فخرج بأمر الله ولو أخرجوه لهلكوا كما قال سبحانه وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا قال

أهل التفسير خلافك أي بعدك

وحكى عن العرب جاء فلان خلف فلان وخلافة أي

بعده وقد يجئ خلاف بمعنى مخالفة 91 - وقوله جل وعز أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى

غسق الليل روى سفيان عن أبى اسحاق عن الأسود عن عبد الله قال دلوكها غروبها

وروى سفيان عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس لدلوك الشمس لغروبها وروى الشعبي

عن ابن عباس دلوكها زوالها وروى الزهري عن سالم عن ابن عمر دلوك الشمس بعد نصف

النهار وهو وقت الظهر وروى مالك والليث عن نافع عن ابن عمر قال دلوك الشمس زوالها

وكذلك روي عن جعفر بن محمد رحمة الله عليه قال أبو جعفر الدلوك في اللغة الميل فهي تميل

عند الزوال وعند الغروب إلا أن الزوال في هذا أكثر على ألسن الناس ويدل عليه أن بعده

إلى غسق الليل فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبعده وقرآن الفجر فلا يمتنع أن يكون غسق الليل أوله وذلك عند غروب الشمس قال ذلك أبو هريرة وهو يقوي قول من قال الدلوك ميلها للزوال

(72/447)

قال أبن عباس غسق الليل اجتماع الليل وظلمته وقال قتادة أوله

92 - ثم قال جل وعز وقرآن الفجر فسمى الصلاة قرآنا لأنها لا تكون إلا بالقرآن 93 - ثم قال جل وعز إن قرآن الفجر كان مشهودا روى أبو هريرة عن النبي (ص) قال صلاة الفجر تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار واقرءوا إن شئتم وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا 94 - وقوله عز وجل ومن الليل فتهجد به نافلة لك قال علقمة والأسود التهجد بعد النوم

قال أبو جعفر التهجد عند أهل اللغة التيقظ والسهر والهجود النوم يقال تهجد إذا سهر وهجد إذا نام يروى عن مجاهد أن هذا للنبي (ص) خصيصا وأن معنى نافلة لك للنبي خاص لأنه قد غفر له ذنوبه فهي نافلة من أجل أنه لا يعملها في كفارة الذنوب والناس يعملون ما سوى المكتوبات لكفارات الذنوب وقال غيره نافلة لك أي ليست بفرض لأن النفل كل ما

لا يجب فعله والنافلة في اللغة الزيادة

95 - ثم قال جل وعز عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا روى داود الأودي عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي (ص) في قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي وروى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال كل عسى واجبة قال أبو عبيدة يعني في القرآن 96 - وقوله جل وعز وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق قال الحسن وقتادة هو دخول المدينة وخروجه من مكة وقال الضحاك هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنا

وقال مجاهد هو دخوله في الرسالة وأمر الله جل وعز 97 - ثم قال جل وعز واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا قال الشعبي وعكرمة أي حجة ثابتة وقال مجاهد أي حجة وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين

كله 98 - وقوله جل وعز وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا روى معمر عن قتادة قال الحق القرآن والباطل الشيطان قال وزهق هلك

99 – وقوله جل وعز وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ليست من ها هنا للتبعيض وإنما هي لبيان الجنس والمعنى وننزل ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ثم بين فقال من القرآن كما قال سبحانه فاجتنبوا الرجس من الأوثان 100 – وقوله جل وعز وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه قال مجاهد أي تباعد منا وقرأ يزيد بن القعقاع وناء بجانبه الهمزة مؤخرة واللغة الأولى أعرف وهذا على قلب الهمزة 101 – ثم قال جل وعز وإذا مسه الشر كان يؤوسا

روى سعيد عن قتادة قال يئس قنط 102 – وقوله جل وعز قل كل يعمل على شاكلته قال الحسن على نيته

وقال مجاهد أي على حدته وعلى طبيعته وقال الضحاك على ناحيته وهذا يرجع إلى قول الحسن ومجاهد وحقيقة المعنى والله أعلم كل يعمل على النحو الذي جرت به عادته وطبعة والمعنى وليس ينبغي أن يكون كذلك إنما ينبغي أن يتبع الحق حيث كان وقد ظهرت البراهين وتبين الحق قال أبو جعفر وهذا يرجع إلى قول الحسن

103 – وقوله جل وعز ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي روي عن عبد الله بن مسعود قال كنت مع النبي (ص) فسألته اليهود عن الروح فسكت فحسبت أنه يوحى إليه فتنحيت فأنزل عليه ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا يعني اليهود فقالوا نجد مثله في التوراة قل الروح من أمر ربي قال أبو جعفر وقد تكلم العلماء

في الروح فروى عطاء عن ابن عباس قال الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه

يسبح الله إلى يوم القيامة

وقال أبو صالح الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا

(74/447)

بني آدم لهم أيد وأرجل وقيل الروح جبريل عليه السلام واحتج صاحب هذا القول بقوله

سبحانه نزل به الروح الأمين قال محمد بن إسحق وزعموا أنه ناداهم يعني النبي (ص) الروح

جبريل وكذا روى عن ابن عباس والحسن قال ابن عباس وجبريل قائم بين يدي الله جل

ثناؤه يوم القيامة وقيل هو عيسى صلى الله عليه وسلم أي هو من أمر الله وليس كما يقول

النصارى وقيل الروح القرآن لقوله تعالى وكذلك أوحينا إليك

روحا من أمرنا والله أعلم بما أراد غير أنه قد أخبرنا أنه من أمر الله له جل وعز فإن قال قائل

كيف قيل لليهود وما أوتيتم من العلم إلا قليلا وقد أوتوا التوراة فالجواب أن قليلا وكثيرا إنما

يعرفان بالإضافة إلى غيرهما فإذا أضيفت التوارة إلى علم الله جل وعز كانت قليلا من كثير

ألا ترى إلى قوله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات

ربي ولو جئنا بمثله مددا 104 – وقوله جل وعز ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك

أي لو شئنا لأذهبناه قوله من الصدور والكتب ثم لا تجد لك به علينا وكيلا أي من يتوكل في ردّه قال الحسن أي يمنعك منا إذا أردناك 105 - ثم قال جل وعز إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا وهذا استثناء ليس من الأول أي لكن الله ثبته رحمة منه وتفضلا

106 - وقوله جل وعز قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا قال الحسن أي معينا

107 - وقوله جل وعز ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل أي وجهنا القول بكل مثل وهو من قوله صرفت اليك كذا أي عدلت به اليك 108 - ثم أخبر الله أنهم لما عجزوا أن يأتوا بمثله وانقطعت حجتهم اقترحوا الآيات فقال جل وعز وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا وقد أراهم الله من الآيات ما هو أكثر من هذا من انشقاق القمر وغير ذلك وقال مجاهد ينبوع عيون

قال أبو جعفر وهو عند أهل اللغة من نبع ينبع وينبع

ومنه سمى مال علي بن أبي طالب رضى الله عنه ينبع 109 - وقوله جل وعز أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا روى معمر عن قتادة قال كسفا قطعا وحكى الفراء أنه

سمع أعرابيا يقول أعطني كسفه من هذا الثوب أي قطعة ويقرأ كسفا والمعنى على هذه القراءة للسماء كلها أي طبقا واشتقاقه من كسفت الشئ أي غطيته 110 - ثم قال جل وعز أو تأتي بالله والملائكة قبيلا روى معمر وسعيد عن قتادة قال قبيلا أي عيانا

قال أبو جعفر ذهب إلى أنه من المقابلة وقال غيره قبيلا أي كفيلا يقال قبلت به أي كفلت وتقبل فلان بكذا أي تكفل به 111 - ثم قال جل وعز أو يكون لك بيت من زخرف روى مجاهد قال كنا لا ندري ما الزخرف فرأيناه في

قراءة ابن مسعود أو يكون لك بيت من ذهب وقال أبو جعفر الزخرف في اللغة الزينة والذهب من الزينة 112 - وقوله جل وعز أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه أي كتابا بنبوتك

فأعلم الله أنه لو فعل بهم ذلك ما آمنوا فقال تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين 113 - وقوله جل وعز وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا فاعلم الله أن الأعدل الأبلغ أن يبعث إلى كل خلق من كان من جنسه فقال قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فقالوا من يشهد لك بهذا فقال جل وعز قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم 114 - وقوله جل وعز ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما

وفي الحديث عن النبي (ص) ان الذي امشاهم له على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوهم قال

(76/447)

ابن عباس عميا لا يرون شيئا يسرهم وبكما لا ينطقون بحجة وصما لا يسمعون ما يسرون به 115 - ثم قال جل وعز مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا قال مجاهد كلما خبت أي كلما طفئت أوقدت وقال الضحاك كلما سكنت قال أبو جعفر يقال خبت النار إذا سكن لهبها وعاد الجمر رمادا قيل كبت فإن طفئ بعض الجمر وسكن اللهب قيل خمدت فإن طفئت كلها قيل

همدت تهمد همودا ومعنى زدناهم سعيرا زدناهم نارا تسعر أي تلتهب 116 - وقوله جل وعز قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق روى حجاج عن ابن جريج قال الإنفاق الفقر عن ابن عباس وروى معمر عن قتادة قال الإنفاق الفقر وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم واقتر إذا قل ماله 117 - ثم قال جل وعز وكان الإنسان قتورا

روى حجاج عن ابن جريج قال قتورا بخيلا عن ابن عباس 118 - وقوله جل وعز ولقد

آتينا موسى تسع آيات بينات روى شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن

صفوان بن عسال أن يهوديا قال لصاحبه تعال حتى نسأل هذا النبي (ص) فقال له الآخر لا

تقل له النبي فإنه إن سمعها صارت له أربعة أعين قال فأتاه فسأله عن هذه الآية ولقد آتينا

موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيئًا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق

ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببريئ إلى سلطان ليقتله ولا تسحروا ولا تفروا

من الزحف وعليكم خاصة اليهود ألا تعدوا في السبت قال فقبلوا يده وقالوا نشهد انك

رسول الله قال فما يمنعكم أن تتبعوني قالوا إن دواد (ص) دعا ألا يزال في ذريته نبي وإنا

نخشى إذا اتبعناك ان تقتلنا اليهود

وقال الحسن والشعبي ومجاهد والضحاك في قوله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات

هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص من الثمرات واليد والعصا

هذا معنى قولهم 119 - ثم قال جل وعز فاسأل بني إسرائيل إذ

جاءهم روى عن أبن عباس أنه قرأ فسأل بني أسرائيل

والمعنى على هذه القراءة فسأل بني إسرائيل والمعنى فلم يرد فرعون ما جاء به موسى

(ص) من الآيات والبراهين بأكثر من انه أخبر أنه ظان ان موسى عليه السلام ساحر فقال

إني لأظنك يا موسى مسحورا 120 – وقوله جل وعز قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا

رب السموات والأرض بصائر وروى عن علي بن أبي طالب رحمه الله عليه أنه قرأ لقد

علمت بضم التاء وقال والله ما علم فرعون وإنما هو موسى الذي علم قال أبو جعفر والقراء

كلهم على فتح التاء إلا الكسائي فإنه ضمها ولو صح الحديث عن علي رحمة الله لم يحتج في

ذلك إلى نظر وكانت القراءة به أولى ولكن إنما رواه أبو إسحاق عن رجل من مراد عن علي

رحمة الله عليه وعلم فرعون بذلك أوكد في الحجة عليه وقد احتج في ذلك عبد الله بن

عباس بحجة قاطعة فقال إنما هو لقد

علمت كما قال تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم حدثنا إبراهيم بن شريك قال نا

أحمد بن عبد الله بن

يونس قال نا زهير قال حدثنا أبو أسحق قال سمعت أبا عبيدة يسأل سعد بن عياض عن

قوله تعالى لقد علمت ما أنزل هؤلاء قال سعد هو كقول الرجل لصاحبه وهو يحاوره لقد

علمت قال زهير قال أبو اسحاق وحدثني رجل من مراد أنه سمع عليا يقول والله ما علم

عدو الله ولكن موسى الذي علم قال لقد علمت أنا ثم قال وإني لأظنك يا فرعون مثبورا

روى المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ملعونا وروى ابن جريج عن مجاهد قال

هالكا وروى معمر عن قتادة قال مهلكا وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال ملعونا وروى عنه جويبر قال هالكا قال أبو جعفر وهذه الأقوال ترجع إلى شئ واحد لأنه حكى أهل اللغة ما ثبرك عن هذا أي ما منعك منه وصرفك عنه فالمعنى ممنوع من الخير 121 - ثم قال جل وعز فأراد أن يستفزهم من الأرض أي يزيلهم عنها إما بقتل أو بتنحيه ذلك

(78/447)

---

122 - وقوله جل وعز وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا قال مجاهد وقتادة أي جميعا وروى سفيان عن منصور عن أبي رزين قال من كل قوم قال أبو جعفر وهذا أولى عند أهل اللغة لأنه يقال لففت الشئ إذا خلطته وقال الأصمعي اللفيف جمع ليس له واحد وهو مثل الجميع 123 - وقوله جل وعز وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا أي تبشر المطيعين الجنة وتنذر العاصين بالنار 124 - وقوله جل وعز وقرآنا فرقناه قال أبو عمرو رحمه الله فرقناه بيناه 125 - ثم قال تعالى لتقرأه على الناس على مكث قال مجاهد أي على تؤدة 126 - وقوله جل وعز إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا قال الحسن أي للجباه محمد وقال قتادة أي للوجوه والذقن عند أهل اللغة مجتمع اللحيين وهو أقرب

الأشياء إلى الأرض من الوجوه إذا ابتدئ السجود 127 - ثم قال جل وعز قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فيروى أنهم قالوا ندعو اثنين فأعلم اله جل جلاله أنه لا يدعى غيره بأسمائه فقال أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى 128 - ثم قال جل وعز ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا فيها وجهان أحدهما رواه الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله (صلع) يعلن إذا قرأ فيسب المشركون القرآن ومن أنزله ومن جاء به فصار يخفي

القراءة فأنزل الله جل وعز ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها والقول الآخر رواه هشام بن عروة عن أبيه قال قالت لي عائشة يا ابن أختي أتدري فيم أنزل ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال قلت لا قالت أنزل في الدعاء قال أبو جعفر والإسنادان حسنان والدعاء يسمى صلاة ولا يكاد يقع ذلك للقراءة قال الأعمش *

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا * يا رب جنب أبي الأوصابا إلى والوجعا * عليك مثل الذي صليت فاغتمضي * نوما فإن لجنب المرء مضطجعا *

ويقال إنه إنما قيل صلاة أنها لا تكون إلا بدعاء والدعاء صلاة فسميت باسمه 129 -

وقوله جل وعز ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل أي لم يحتج إلى من ينتصر له

130 - ثم قال عز وجل وكبره تكبيرا أي عظمه تعظيما أنتهت سورة الإسراء ولله الحمد

والمنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 115. 208 ﴾

وقال الفراء :

ومن سورة بنى إسرائيل

قوله : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ. الحرم كلّه مسجد ، يعنى مكّة

وحرمها (إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) : بيت المقدس (الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ) بالثمار والأنهار.

وقوله : (لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا) يعنى النبىّ صلى اللّه عليه وسلّم حين أسرى به ليريه تلك الليلة

العجائب. وأرى الأنبياء حتّى وصفهم لأهل مكّة ، فقالوا : فإنّ لنا إبلا فى طريق الشام

فأخبرنا

بأمرها ، فأخبرهم بآيات وعلامات ، فقالوا : متى تقدم ؟ فقال : يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق . فقالوا : هذه علامات نعرف بها صدقه من كذبه . فغدوا من وراء العقبة يستقبلونها ، فقال قائل : هذه واللّه الشمس قد شرقت ولم تأت . وقال آخر : هذه واللّه العير يقدمها جمل أورق كما قال محمد صلى اللّه عليه وسلم . ثم لم يؤمنوا .

وقوله : أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا [2] يقال : ربّا ، ويقال : كافيا .

وقوله : ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا [3] منصوبة على النداء ناداهم : يا ذرّيّة من حملنا مع نوح ، يعنى فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ممّن لم يخلق .

وقوله : وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ [4] .

أعلمناهم أنهم سيفسدون مرّتين .

وقوله : (فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما) يقول : عقوبة أولى المرّتين ، وهو أول الفسادين (بَعَثْنا عَلَيْكُمْ «1» عِباداً لَنا) يعنى بختنصّر فسبى وقتل .

وقوله : (فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ) يعنى : قتلوكم بين بيوتكم (فَجاسُوا) فى معنى أخذوا وحاسوا أيضا بالحاء فى ذلك المعنى .

وقوله : ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ [6] يعنى على بختنصّر جاء رجل بعثه اللّه عزّ وجلّ على بختنصّر فقتله وأعاد اللّه إليهم ملكهم وأمرهم ، فعاشوا ، ثم أفسدوا وهو آخر

الفسادين.

وقوله: فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ [7] يقول القائل: أين جواب (إذا) ؟ ففيه وجهان. يقال: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوء اللّه وجوهكم «2» لمن قرأ بالياء. وقد يكون

---

(1) ا: «عليهم»

(2) هى قراءة ابن عامر وأبى بكر وحمزة وخلف، كما في الإتحاف.

(82/447)

ليسوء العذاب وجوهكم. وقرأها أبىّ بن كعب 98 ب (لنسوءن وجوهكم) بالتخفيف يعنى النون.

ولو جعلتها مفتوحة اللام كانت جوابا لإذا بلا ضمير فعل. تقول إذا أتيتنى لأسوءنّك ويكون دخول الواو فيما بعد (لنسوءن) بمنزلة قوله (وَكَذلِكَ نُرِي «1» إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ) نريه «2» الملكوت، كذلك الواو فى (وَلِيَدْخُلُوا) تضمر لها فعلا «3» بعدها، وقد قرئت (ليسوءوا وجوهكم) الذين «4» يدخلون.

وقوله: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [9]. يقول: لشهادة أن لا إله إلا اللّه.

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ) أوقعت البشارة على قوله (أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) ويجوز أن يكون المؤمنون

بشروا أيضا بقوله (وَأَنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً) لأن الكلام يحتمل

أن تقول: بشّرت عبد اللّه بأنه سيعطى وأن عدوّه سيمنع، ويكون «5». ويبشّر الذين لا

يؤمنون بالآخرة أنا أعتدنا لهم عذابا أليما، وإن لم يوقع التبشير عليهم كما أوقعه على

المؤمنين قبل (أنّ) فيكون بمنزلة قولك فى الكلام بشّرت أن الغيث آت فيه معنى بشّرت

الناس أن الغيث آت وإن لم تذكرهم. ولو استأنفت (وَأَنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) صلح

ذلك ولم أسمع أحدا.

قرأ به.

وقوله: وَيَدْعُ الْإِنْسٰانُ [11] حذفت الواو منها فى اللفظ ولم تحذف فى المعنى لأنها فى

موضع رفع، فكان حذفها باستقبالها اللام السّاكنة. ومثلها (سَنَدْعُ «6» الزَّبٰانِيَةَ)

وكذلك

---

(1) الآية 75 سورة الأنعام

(2) يريد أن متعلق الجار والمجرور فى قوله: «وليكون» هو فعل مقدر مؤخر وهو (نريه الملكوت)

(3) أي وليد خلوا المسجد قدرنا ذلك وكتبناه

(4) هذا تفسير للضمير فى (ليسوءوا)

(5) هذا وجه آخر والمراد بالتبشير هنا الإخبار، ولا يراعى فى الخير أنه سار

(6) الآية 18 سورة العلق

(83/447)

(وَسَوْفَ «1» يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ) وقوله (يَوْمَ «2» يُنادِ الْمُنادِ) وقوله (فَما تُغْنِ «3» النُّذُرُ) ولو كنّ بالياء والواو كان صوابا. وهذا من كلام العرب. قال الشاعر:

كفاك كفّ ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف الدّما «4»

وقال بعض الأنصار:

ليس تخفى بشارتى قدر يوم ولقد تخف شيمتى إعسارى «5»

وقوله: (وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ) يريد كدعائه بالخير فى الرغبة إلى اللّه عزّ وجل فيما لا يحبّ الداعي إجابته، كدعائه على ولده فلا يستجاب له فى الشرّ وقد دعا به. فذلك أيضا من نعم اللّه عزّ وجل عليه.

وقوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ [12] حدّثنا محمد بن الجهم قال حدثنا الفراء قال حدثنى مندل بن علىّ عن داود بن أبى هند عن أبى حرب بن أبى الأسود الدّؤلي رفعه إلى علىّ بن أبى طالب رحمه اللّه قال: هو اللّطخ الذي فى القمر.

وقوله : وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ [13] وهو عمله ، إن خيرا فخيرا وإن شرّا فشرّا (وَ نُخْرِجُ لَهُ) قرأها يحيى بن وثّاب بالنون «6» وقرأها غيره بالياء «7» مفتوحة : (ويخرج له) طائره ، منهم مجاهد والحسن . وقرأ أبو جعفر المدنىّ (ويخرج . . . له كتابا) معناه : ويخرج له عمله كتابا .

وكلّ حسن .

---

(1) الآية 146 سورة النساء

(2) الآية 41 سورة ق . [. . . . .]

(3) الآية 5 سورة القمر

(4) تليق : تمسك . يصفه بالكرم والشجاعة . وقد ورد البيت فى اللسان (لوق) من غير عزو

(5) «بشارتى» كذا فى ا ، ش . وفى اللسان (يسر) : يسارتى» واليسارة الغنى . وهذه الرواية ظاهرة . والبشارة الجمال وحسن المظهر . يريد أنه لا تظهر عليه الكآبة نوما .

(6) وكذا قرأها أكثر المفسرين .

(7) هى قراءة يعقوب ، وقد وافقه الحسن وابن محيصن

وقوله : اقْرَأْ كِتابَكَ [14] : فيها - والله أعلم - (يقال) مضمرة. مثل قوله (وَيَوْمَ تَقُومُ «1» السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ) ومثل قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ «2» اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ) المعنى - والله أعلم - :

فيقال : أكفرتم.

وقوله : أَمَرْنا مُتْرَفِيها

[16] قرأ الأعمش 199 وعاصم ورجال من أهل المدينة (أَمَرْنا)

خفيفة حدّثنا محمد قال حدّثنا الفراء قال حدّثنى سفيان بن عيينة عن حميد الأعرج عن مجاهد (أَمَرْنا)

خفيفة.

وفسّر بعضهم (أَمَرْنا مُتْرَفِيها)

بالطاعة (فَفَسَقُوا)

أي إن المترف إذا أمر بالطاعة خالف إلى الفسوق «3».

وفى قراءة أبيّ بن كعب (بعثنا فيها أكابر مجرميها) وقرأ الحسن (آمرنا) وروى عنه (أمرنا) ولا ندرى أنها حفظت عنه لأنا «4» لا نعرف معناها هاهنا. ومعنى (آمرنا) بالمدّ : أكثرنا. وقرأ أبو العالية الرياحي (أمّرنا مترفيها) وهو موافق لتفسير ابن عباس، وذلك أنه

قال : سلّطنا رؤساءها ففسقوا فيها .

قوله : كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [14] وكلّ ما فى القرآن من قوله (وَكَفى بِرَبِّكَ) (وَكَفى بِاللَّهِ) و (كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ) فلو ألقيت الباء كان الحرف مرفوعا كما قال الشاعر «5» :

ويخبرنى عن غائب المرء هديه كفى الهدى عمّا غيّب المرء مخبرا

وإنما يجوز دخول الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه ألا ترى أنك تقول : كفاك به ونهاك به وأكرم به رجلا ، وبئس به رجلا ، ونعم به رجلا ، وطاب بطعامك طعاما ، وجاد بثوبك ثوبا . ولو لم يكن مدحا أو ذمّا لم يجز دخولها ألا ترى أن الذي يقول : قام أخوك أو قعد أخوك

---

(1) الآية 46 سورة غافر

(2) الآية 106 سورة آل عمران .

(3) ب : «الفسق»

(4) روى عن أبى زيد أن (أمر) بكسر الميم كأمر بفتحها بمعنى أكثر . وانظر البحر 6/ 20

(5) هو زيادة بن زيد العدوى كما فى اللسان (هدى) . والهدى : السيرة والسمت .

لا يجوز له أن يقول : قام بأخيك ولا قعد بأخيك إلّا أن يريد قام به غيره وقعد به .

وقوله : عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ [18] أي ذلك منا لمن نريد .

وقوله : كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ أوقعت عليهما نمدّ أي نمدهم جميعا أي نرزق المؤمن والكافر من عطاء ربّك .

وقوله : وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا [23] كقولك : أمر ربك وهى فى قراءة عبد اللّه (وأوصى ربّك) وقال ابن عباس هى (ووصّى) التصقت واوها . والعرب تقول تركته يقضى أمور الناس أي يأمر فيها فينفذ أمره .

وقوله (وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً) معناه : وأوصى بالوالدين إحسانا . والعرب تقول أوصيك به خيرا ، وآمرك به خيرا . وكان معناه : آمرك أن تفعل به ثم تحذف (أن «1») فتوصل الخير بالوصيّة وبالأمر ، قال الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا ومن أبى دهماء إذ يوصينا

خيرا بها كأننا جافونا

وقوله : (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ) فإنه ثنّى «2» لأن الوالدين قد ذكر قبله فصار الفعل على

عددهما ، ثم قال (أَحَدُهما أَوْكِلاهُما) على الائتناف «3» كقوله (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا «4») ثم استأنف فقال : (كَثِيرٌ مِنْهُمْ) وكذلك قوله (لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا «5» النَّجْوَى) ثم استأنف فقال :

(الَّذِينَ ظَلَمُوا) وقد قرأها ناس كثير (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ) جعلت (يَبْلُغَنَّ) فعلا لأحدهما . فكرّرت «6» ب فكرت عليه كلاهما .

---

(1) يريد (أن) ومعمولها من الفعل

(2) هى قراءة حمزة والكسائي وخلف .

(3) كأن المراد أن يكون اكلام على تقدير فعل أي إن يبلغ أحدهما أو كلاهما كما جاء فى إعراب العكبري والمعروف أن (أَحَدُهُما أَوْكِلاهُما) بدل من الضمير فى (يَبْلُغَنَّ) ، وكذا ما بعده مما جعله على الائتناف هو بدل من الضمير فى الفعل قبله عند الكثير ، وعند الفراء فاعل لفعل مقدر .

(4) الآية 71 سورة المائدة [. . . . .]

(5) الآية 3 سورة الأنبياء

(6) يريد : عطفت . وفى ا ، ش : «فكرت»

وقوله (فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ) قرأها عاصم بن أبى النّجود والأعمش (أفّ) خفضا بغير نون.

وقرأ العوامّ (أفّ) فالذين خفضوا ونوّنوا ذهبوا إلى أنها صوت لا يعرف معناه إلّا بالنطق به فخفضوه كما تخفض الأصوات. من ذلك قول العرب: سمعت طاق طاق لصوت الضرب، ويقولون:

سمعت تغ تغ لصوت الضحك. والذين لم ينوّنوا وخفضوا قالوا: أفّ على ثلاثة أحرف، وأكثر الأصوات إنما يكون على حرفين مثل صه ومثل يغ ومه، فذلك الذي يخفض وينوّن فيه لأنه متحرك الأوّل. ولسنا بمضطرين إلى حركة الثاني من الأدوات وأشباهها فيخفض «1» فخفض بالنون:

وشبّهت أفّ بقولك مدّ وردّ إذ كانت على ثلاثة أحرف. ويدلّ على ذلك أنّ بعض العرب قد رفعها فيقول أفّ لك. ومثله قول الراجز:

سألتها الوصل فقالت مضّ وحرّكت لى رأسها بالنغض «2»

كقول «3» القائل (لا) يقولها بأضراسه. ويقال: ما علّمك أهلك إلا (مضّ «4» ومضّ) وبعضهم:

إلّا مضّا يوقع عليها الفعل. وقد قال بعض العرب: لا تقولن له أفّا ولا تفّا يجعل كالاسم فيصيبه الخفض والرفع [والنصب] ثبت فى ب والنصب «5» بلا نون يجوز كما قالوا ردّ.

والعرب تقول: جعل يتأفّف من ريح وجدها ، معناه يقول: أفّ أفّ. وقد قال الشاعر «6» فيما نوّن:

وقفنا فقلنا إيه عن أمّ سالم وما بال تكليم الديار البلاقع

---

(1) فى الأصول: «فخفض» والمناسب ما أثبت. ويريد بالأدوات نحو ليت

(2) النغض تحريك الرأس

(3) فى اللسان (مضض) فى نقل عبارة الفراء: «مض كقول القائل . . .» وهى ظاهرة.

(4) فى ا: «مض» وفى ش، ب «إض ومض» وما أثبت من اللسان فى (مضض)

(5) ا، ش: «إحنا» وما أثبت من اللسان فى الموضع السابق

(6) هو ذو الرمة، وإيه استزادة فى الحديث وأصلها التنوين. ولذلك يقول الفراء: «فيما نون». وانظر الديوان 356.

فحذف النون لأنها كالأداة، إذ كانت على ثلاثة أحرف، شبّهت بقولهم: جير «1» لا أفعل ذاك، وقد قال الشاعر «2»:

فقلن على الفردوس أوّل مشرب أجل جير إن كانت أبيحت دعاثره

وقوله : وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ [24] بالضمّ قرأها العوامّ. حدثنا محمد قال : حدّثنا الفراء قال حدّثنى هشيم عن أبى بشر جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير أنه قرأ (واخفض لهما جناح الذّلّ) بالكسر . قال : حدثنا الفراء وحدثنى الحكم بن ظهير عن عاصم بن أبى النّجود أنه قرأها (الذّلّ) بالكسر . قال أبو زكريا : فسألت أبا بكر عنها «3» فقال : قرأها عاصم بالضمّ. والذّلّ من الذلّة أن يتذلّل وليس بذليل فى الخلقة ، والذّلّة والذّلّ مصدر «4» الذليل والذلّ مصدر للذلول مثل الدابّة والأرض. تقول : جمل ذلول ، ودابّة ذلول ، وأرض ذلول بيّنة الذّلّ.

وقوله : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ [28] يقول : إذا أتتك قرابتك أو سواهم من المحتاجين يسألونك فأعرضت لأنه لا شىء عندك تعطيهم فقل لهم : قولا ميسورا ، يقول : عدهم عدة حسنة. ثم نهاه «5» أن يعطى كلّ ما عنده حتى لا يبقى محسورا لا شىء عنده. والعرب تقول للبعير :

هو محسور إذا انقطع سيره وحسرت الدابّة إذا سرتها حتى ينقطع سيرها . وقوله : (يَنْقَلِبْ «6» إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) يحسر عند أقصى بلوغ المنظر .

---

(1) جبر بمعنى نعم أو حقا . وهو يجرى مجرى القسم .

(2) هو مضرس بن ربعى الأسدى. والفردوس موضع فى بلاد بنى يربوع. والدعائر جمع دعثور وهو الحوض المتهدم وأصله دعاثيره فحذف الياء للضرورة ، والضمير فى

«دعائره» للفردوس أو للمشرب. يقول: إن النسوة ارتحلن وذكرن أن أول منهل يصادفنه فى رحلتهن فى الفردوس، فأجابهن الشاعر: حقا ذلك تشربن من هذا الموضع إن أبيحت حياضه ولم تمنع. هذا ويذكر البغدادي فى شرح شواهد المغني فى مبحث جير أن الرواية فى البيت:

وقلن ألا الفردوس أول محضر من الحي إن كانت أبيرت دعاثره

وانظر أبياتا مع هذا فى معجم البلدان فى (الفردوس)

(3) فى ش: «عنهما» والمناسب ما أثبت أي عن هذه القراءة. وأبو بكر هو أحد رواة عاصم.

(4) أي كلاهما مصدر الذليل. والأولى: «مصدرا الذليل».

(5) أي فى قوله تعالى فى الآية التالية: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا»

(6) الآية 4 سورة الملك. [. . . . .]

(88/447)

وقوله : خِطْأً كَبِيراً [31] وقرأ الحسن خطاء «1» كبيرا بالمدّ . وقرأ أبو جعفر المدنىّ (خطأ كبيرا) قصر وهمز . وكلّ صواب . وكأنّ الخطأ الإثم . وقد يكون فى معنى خطأ بالقصر .

كما قالوا : قتب «2» وقتب ، وحذر وحذر ، ونجس ونجس . ومثله قراءة من قرأ (هم «3» أولاء على أثرى) و(إثرى) .

وقوله : وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً [33] فى الاقتصاص أو قبول الدّية .

ثم قال : (فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ) فقرئت بالتّاء «4» والياء . فمن قال بالياء ذهب إلى الولىّ أي لا يقتلنّ غير قاتله . يقول فلا يسرف لولىّ فى القتل . قال : حدّثنا الفراء قال وحدّثنى غير واحد ، منهم مندل وجرير وقيس عن مغيرة عن إبراهيم عن أبى معمر عن حذيفة بن اليمان أنه قرا (فلا تسرف) بالتاء .

وفى قراءة أبىّ (فلا يسرفوا فى القتل) .

وقوله (إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً) يقال : إن وليّه كان منصورا . ويقال الهاء للدم . إن دم المقتول كان منصورا لأنه ظلم . وقد تكون الهاء للمقتول نفسه ، وتكون للقتل لأنه فعل فيجرى مجرى الدم والله أعلم بصواب ذلك .

وقوله : حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ [34] حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال وحدثنى حبّان بن علىّ عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عبّاس قال : الأشدّ . ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين .

وقوله : وَلَا تَقْفُ [36] أكثر القراء يجعلونها من قفوت ، فتحرّك الفاء إلى الواو ، فتقول (وَلَا تَقْفُ) وبعضهم قال (ولا تقف «5») والعرب تقول قفت أثره وقفوته . ومثله يعتام ويعتمى «6»

(1) المنسوب إلى الحسن فى الإتحاف فتح الخاء وسكون الطاء .

(2) القتب والقتب : إكاف البعير .

(3) الآية 84 سورة طه .

(4) القراءة بالتاء لحمزة والكسائي وخلف ، وبالياء لغيرهم .

(5) فى البحر نسبتها إلى معاذ القارئ .

(6) أي يختار .

(89/447)

وقاع الجمل الناقة وقعا إذا ركبها ، وعاث وعثى من الفساد . وهو كثير ، منه شاك السلاح وشاكى السلاح ، وجرف هار وهار . وسمعت بعض قضاعة يقول : اجتحى ماله واللغة الفاشية اجتاح ماله .

وقد قال الشاعر :

ولو أني رأيتك من بعيد لعاقك من دعاء النيّب عاقى

يريد : عائق

حسبت بغام راحلتى عناقا وما هى ويب غيرك بالعناق «1»

وقوله : كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً [38] وقرأ بعض «2» أهل الحجاز (كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) .

وقوله : تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ [44] .

أكثر القراء على التاء . وهى فى قراءة عبد اللّه (سبّحت له السموات السبع) فهذا يقوّى الذين قرءوا بالتاء . ولو قرئت «3» بالياء لكان صوابا كما قرءوا (تَكادُ «4» السَّماواتُ) و(يكاد) «5» وإنما حسنت الياء لأنه عدد قليل ، وإذا قلّ العدد من المؤنّث والمذكر كانت الياء فيه أحسن من التاء قال اللّه عزّ وجلّ فى المؤنّث القليل (وَقالَ نِسْوَةٌ «6» فِي الْمَدِينَةِ) ، وقال فى المذكّر (فَإِذَا «7» انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) فجاء بالتذكير .

وذلك أن أوّل فعل المؤنث إذا قلّ يكون بالياء ، فيقال :

النسوة يقمن 100 ب . فإذا تقدّم الفعل سقطت النون من آخره لأن الاسم ظاهر فثبت الفعل من أوّله على

---

(1) انظر ص 62 من الجزء الأول .

(2) القراءة الأولى لابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وافقهم الحسن والأعمش

والقراءة الآخرة للباقين.

(3) هى قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبى بكر وأبى جعفر ورويس كما فى الإتحاف.

(4) الآية 90 سورة مريم.

(5) هى قراءة نافع والكسائي.

(6) الآية 30 سورة يوسف.

(7) الآية 5 سورة التوبة.

(90/447)

الياء، ومن أنّث ذهب إلى أن الجمع يقع عليه (هذه) فأنّث لتأنيث (هذه) والمذكر فيه كالمؤنّث ألا ترى أنك تقول: هذه الرجال، وهذه النساء. حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس بن الربيع عن عمّار الدهنىّ عن سعيد بن جبير قال: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة، وكلّ سلطان حجّة، هذا لقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ).

وقوله: عِظاماً وَرُفاتاً: الرّفات: التراب لا واحد له، بمنزلة الدّقاق والحطام.

وقوله: أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ [51] قالوا للنبىّ صلى اللّه عليه وسلم: أرأيت لو كنّا الموت من يميتنا؟ فأنزل اللّه عز وجل (أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) يعنى الموت

نفسه أي لبعث اللّه عليكم من يميتكم .

وقوله (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ) يقال أنغض رأسه أي حرّكه إلى فوق وإلى أسفل .

وأرانا ذلك أبو زكريا «1» فقال برأسه ، فألصقه بحلقه ثم رفعه كأنه ينظر إلى السّقف .

والرأس ينغض وينغض . والثنيّة إذا تحركت : قيل نغضت سنّه . وإنما يسمى الظليم نغضا

لأنه إذا عجّل مشيه ارتفع وانخفض .

وقوله : (وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ) يعنى البعث .

وقوله : وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا [54] يقول : حافظا وربّا .

وقوله : زَبُوراً [55] قال الفراء وحدثنى أبو بكر قال كان عاصم يقرأ (زَبُوراً) بالفتح فى

كلّ القرآن . وقرأ حمزة بالضمّ .

وقوله : أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ [57] يعنى الجنّ الذين كانت خزاعة

تعبدهم . فقال اللّه عز وجل (أُولئِكَ) يعنى الجنّ الذين (يدعونهم) يبتغون إلى اللّه . ف

(يَدْعُونَ) فعل للذين يعبدونهم . و(يَبْتَغُونَ) فعل للجنّ به «2» ارتفعوا .

---

(1) أي أشار برأسه وفعل . وفى النهاية : العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ،

وتطلقه على غير الكلام واللسان فتقول : قال بيده أي أخذ وقال برجله أي مشى . »

[.....]

(2) يريد أن الضمير فى (يبتغون) ارتفع بالفعل .

وقوله : وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها [58] بالموت (أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً) بالسّيف .

وقوله : وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ [59] (أن) فى موضع نصب (إِلَّا أَنْ كَذَّبَ) أن فى موضع رفع كما تقول : ما منعهم الإيمان إلّا تكذيبهم .

وقوله (النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) جعل الفعل لها . ومن «1» قرأ (مبصرة) أراد : مثل قول عنترة .

والكفر مخبثة لنفس المنعم «2»

فإذا وضعت مفعلة فى معنى فاعل كفت من الجمع والتأنيث ، فكانت موحّدة مفتوحة العين ، لا يجوز كسرها . العرب تقول : هذا عشب ملبنة «3» مسمنة «4» ، والولد مبخلة مجبنة . فما ورد عليك منه فأخرجه على هذه الصورة . وإن كان من الياء والواو فأظهرهما . تقول : هذا شراب مبولة ، وهذا كلام مهيبة للرجال «5» ، ومتيهة ، وأشباه ذلك . ومعنى (مبصرة) مضيئة ، كما قال اللّه عز وجل (وَالنَّهارَ مُبْصِراً) : «6» مضيئًا .

وقوله : إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ [60] يعنى أهل مكة أي أنه سيفتح لك (وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً) يريد : ما أريناك ليلة الإسراء إلا فتنة لهم ، حتى قال بعضهم : ساحر ،

وكاهن، وأكثروا . (وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ) هى شجرة الزّقوم، نصبتها بجعلنا . ولو رفعت تتبع الاسم «7» الذي فى فتنة من الرؤيا كان صوابا . ومثله فى الكلام جعلتك عاملا وزيدا وزيد .

---

(1) هو قتادة كما فى البحر 6/ 53

(2) صدره :

نبئت عمرا غير شاكر نعمتى

وهو من معلقته .

(3) أي يغزر عليه اللبن إذا رعى .

(4) أي يكثر السمن فى لبن المال إذا رعاه .

(5) ش، ب : «للرجل»

(6) الآيات 67 سورة يونس، 86 سورة النمل، 61 سورة غافر .

(7) كأنه يريد الضمير فى (فتنة) وعند الكوفيين أن الخبر الجامد يتحمل ضميرا . وفى العكبري أن الرفع قراءة شاذة وأنه على جعل (الشجرة) مبتدأ محذوف الخبر أي فتنة

وقوله : لَأَحْتَنِكَنَّ 101 ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [62] يقول : لأستولينّ عليهم (إِلَّا قَلِيلًا) يعنى المعصومين.

وقوله : وَاسْتَفْزِزْ [64] يقول استخفّ (بِصَوْتِكَ) بدعائك (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) يعنى خيل المشركين ورجالهم.

وقوله (وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ) كلّ مال خالطه حرام فهو شركه. وقوله (وَعِدْهُمْ) أي قل لهم : لا جنّة ولا نار. ثم قال اللّه تبارك وتعالى (وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً).

وقوله : لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً [69] يقال : ثائرا وطالبا. فتبيع فى معنى تابع.

وقوله : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ [71] قراءة العوامّ بالنون. و(يدعوا «1») أيضا للّه تبارك وتعالى. حدّثنا محمد قال حدّثنا الفراء قال : وسألنى هشيم فقال : هل يجوز (يوم يدعوا كلّ أناس) رووه عن الحسن فأخبرته أنى لا أعرفه، فقال : قد سألت أهل العربيّة عن ذلك فلم يعرفوه «2».

وقوله : وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى [72] يعنى : فى نعم الدنيا التي اقتصصناها عليكم (فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ) فى نعم الآخرة (أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلًا).

والعرب إذا قالوا : هو أفعل منك قالوه فى كل فاعل وفعيل، وما لا يزاد فى فعله شىء على ثلاثة أحرف. فإذا كان على فعللت مثل زخرفت، أو أفعلت مثل احمررت واصفررت لم يقولوا : هو أفعل منك إلا أن يقولوا : هو أشدّ حمرة منك، وأشدّ زخرفة منك. وإنما جاز

فى العمى لأنه لم يرد به عمى العين ، إنما أراد به - والله أعلم - عمى القلب . فيقال : فلان أعمى من فلان فى القلب

---

(1) هى قراءة الحسن .

(2) فى الكشاف أن هذا جاء على قلب الألف واوا فى لغة من يقول : أفعو فى أفعى .

(93/447)

و (لا تقل) «1» : هو أعمى منه فى العين . فذلك أنه لمّا جاء على مذهب أحمر وحمراء ترك فيه أفعل منك كما ترك فى كثيره «2» . وقد تلقى بعض النحويين يقول : أجيزه فى الأعمى والأعشى والأعرج والأزرق ، لأنا قد نقول : عمى وزرق وعرج وعشى ولا نقول : صفر ولا حمر ولا بيض . وليس ذلك بشىء ، إنما ينظر فى هذا إلى ما كان لصاحبه فيه فعل يقلّ أو يكثر ، فيكون أفعل دليلا على قلّة الشيء وكثرته ألا ترى أنك قد تقول : فلان أقوم من فلان وأجمل لأنّ قيام ذا وجماله قد يزيد على قيام الآخر وجماله ، ولا تقول لأعميين : هذا أعمى من هذا ، ولا لميّتين : هذا أموت من هذا .

فإن جاءك منه شىء فى شعر فأجزته احتمل النوعان «3» الإجازة : حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى شيخ من أهل البصرة أنه سمع العرب تقول : ما أسود شعره .

وسئل الفراء عن الشيخ فقال : هذا بشّار الناقط . وقال الشاعر «4» :

أمّا الملوك فأنت اليوم ألأمهم لؤما وأبيضهم سربال طبّاخ

فمن قال هذا لزمه أن يقول : اللّه أبيضك واللّه أسودك وما أسودك . ولعبة للعرب يقولون أبيضى حالا «5» وأسيدى حالا «6» والعرب تقول مسودة مبيضة إذا ولدت السودان والبيضان وأكثر ما يقولون : موضحة إذا ولدت البيضان وقد يقولون مسيدة 101 ب .

وقوله : وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ [76] لمّا قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة حسدته اليهود وثقل عليهم مكانه ، فقالوا : إنك لتعلم أن هذه البلاد ليست ببلاد الأنبياء ، إنما بلادهم

---

(1) ا : «لم يقل» .

(2) كأنه يريد مازاد على ثلاثة أحرف كاحمر .

(3) كأنه يريد بالنوعين ما ليس له فعل ثلاثى ، وماله فعل ثلاثى ولا تفاوت فيه ولا تفاضل .

(4) هو طرفة بن العبد ، يقوله فى هجاء عمرو بن هند ، كما فى التاج . والسربال : الثوب . كنى ببياض سربال طباخه عن قلة طبخه فيبقى سرباله نظيفا ، وهذا يراد به البخل وأنه لا يبذل طعامه ، إذ لو كان كذلك لاسود سربال طباخه ويقول ابن الكلبي : إن هذا الشعر منحول لطرفة . وانظر الخزانة 3/ 484 [. . . . .]

(5 ، 6) فى القاموس : «حبالا» وقد نقل هذا عن الصاغاني . وفى التكملة له «حالا»

كما هنا فيبدو أنه الصواب.

ولم أقف على وصف هذه اللعبة.

(94/447)

الشام. فإن كنت نبيّا فاخرج إليه، فإن اللّه سينصرك. قال: فعسكر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على أميال من المدينة فأنزل اللّه: (وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ) ليستخفونك وإذا لا يلبثون من الأرض (خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) يقول: إنك لو خرجت ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب.

وقوله: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ [77] نصب السنّة على العذاب المضمر، أي يعذّبون كسنّة من قد أرسلنا (وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا).

وقوله: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ [78].

جاء عن ابن عباس قال: هو زيغوغتها وزوالها للظهر. قال أبو زكريّا: ورأيت العرب تذهب بالدلوك إلى غياب الشمس أنشدنى بعضهم:

هذا مقام قدمى رباح ذبّب حتى دلكت براح

يعنى الساقي ذبّب: طرد الناس. براح يقول: حتى قال «1» بالراحة على العين فينظر هل غابت قال: هكذا فسّروه.

وقوله (إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ) : أوّل ظلمته للمغرب والعشاء .

وقوله (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) أي وأقم قرآن الفجر (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً) يعنى صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار .

وقوله : نافِلَةً لَكَ [79] ليست لأحد نافلة إلا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم ، لأنه ليس من أحد إلّا يخاف على نفسه ، والنبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، فعمله نافلة .

وقوله : وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ [80] قال له فى المنصرف لمّا رجع من معسكره إلى المدينة حين أراد الشام (وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ) إلى مكة .

---

(1) ا : «يقال» وقال بالراحة : أشار بها . ورواه غير الفراء : «براح» بفتح الباء . وبراح اسم الشمس .

وانظر اللسان (برح)

(95/447)

وقوله : كانَ يَؤُساً [83] إذا تركت الهمزة من قوله (يؤوسا) فإن العرب تقول يوسا ويووسا تجمعون «1» بين ساكنين وكذلك (وَلا يَؤُدُهُ «2» حِفْظُهُما) وكذلك (بِعَذابٍ «3»

بَئِيسٍ) يقول بيس و(بييس) و(يؤوده) يجمعون بين ساكنين. فهذا كلام العرب: والقراء يقولون (يووسا) و(يووده) فيحرّكون الواو إلى الرفع و(بييس) يحرّكون الياء الأولى إلى الخفض. ولم نجد ذلك فى كلامهم، لأن تحريك الياء والواو أثقل من ترك الهمزة، فلم يكونوا ليخرجوا من ثقل إلى ما هو أثقل منه.

وقوله: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ [84]: ناحيته. وهى الطريقة والجديلة. وسمعت بعض العرب من قضاعة يقول: وعبد الملك إذا ذاك على جديلته وابن الزبير على جديلته. والعرب تقول: فلان على طريقة صالحة، وخيدبة صالحة، وسرجوجة. وعكل تقول: سرجيجة.

وقوله: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [85] يقول: من علم ربّي، ليس من علمكم.

وقوله: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [87] استثناء «4» كقوله (إِلَّا حاجَةً «5» فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها).

وقوله: عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ [88] جواب «6» لقوله (لئن) والعرب إذا أجابت (لئن) ب (لا) جعلوا ما بعد لا رفعا لأن (لئن) كاليمين، وجواب اليمين ب (لا) مرفوع.

وربما جزم الشاعر، لأن (لئن) «7» إن التي يجازى بها زيدت عليها لام، فوجّه الفعل فيها إلى فعل، ولو أتى بيفعل لجاز جزمه. وقد جزم بعض الشعراء بلئن، وبعضهم بلا التي هى

جوابها .

قال الأعشى :

---

(1) أي إذا حذفت الهمزة خلفتها واو ساكنة فتجتمع ساكنة مع الواو الأولى ، وهذا الرأى من الفراء لا يعرف لغيره .

(2) الآية 255 سورة البقرة

(3) الآية 165 سورة الأعراف

(4) يريد أنه استثناء منقطع بمعنى لكن الاستدراكية ، كما فى آية يوسف

(5) الآية 68 سورة يوسف

(6) أي قوله : لا يأتون»

(7) ا : «بعد إن»

(96/447)

لئن منيت بنا عن غبّ معركة لا تلفنا من دماء القوم ننتفل «1»

102 وأنشدتنى امرأة عقيليّة فصيحة :

لئن كان ما حدّثته اليوم صادقا أصم فى نهار القيظ للشمس باديا

وأركب حمارا بين سرج وفروة وأعر من الخاتام صغرى شماليا «2»

قال وأنشدنى الكسائي للكميت بن معروف :

لئن تك قد ضاقت عليكم بيوتكم ليعلم ربّى أنّ بيتي واسع «3»

وقوله (لِبَعْضٍ ظَهِيراً) الظهير العون .

وقوله : مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً [90] .

الذي ينبع ، ويقال : ينبع لغتان . و(تفجر) قرأها يحيى بن وثّاب وأصحاب عبد اللّه بالتخفيف «4» . وكأن الفجر مرة واحدة و(تُفَجِّرَ) فكأن التفجير من أماكن . وهو بمنزلة فتحت الأبواب وفتحتها .

وقوله : كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً [92] .

و(كِسَفاً) الكسف «5» : الجماع . قال : سمعت أعرابيّا يقول لبزّاز ونحن بطريق مكة : أعطنى كشفة أي قطعة . والكشف مصدر . وقد تكون الكسف جمع كسفة وكسف .

وقوله (أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا) أي كفيلا .

وقوله : أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ [93] . المعنى : إلى السّماء . غير أن جوازه أنهم قالوا : أو تضع سلّما فترقى عليه إلى السماء ، فذهبت (فى) إلى السلّم .

---

(1) البيت فى معلقته ، والانتفال : التبرؤ ، ومنيت : ابتليت .

(2) انظر ص 67 من الجزء الأول

(3) انظر ص 66 من الجزء الأول

(4) قراءة التخفيف العاصم والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف وافقهم الحسن والأعمش. وقراءة التشديد للباقين

(5) قرأ بفتح السين نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، وقرأ الباقون بإسكانها

[.....]

(97/447)

وقوله: وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا [94] أن فى موضع نصب (إِلَّا أَنْ قالُوا) (أن) فى موضع رفع.

(أَوْ يَكُونَ «1» لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ) حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى حبّان عن الكلبىّ قال: الزخرف: الذهب.

وقوله: لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ [102] قرأها ابن عباس وابن مسعود (علمت) بنصب التاء.

حدّثنا محمد قال: حدّثنا الفراء قال: وحدّثنى هشيم عن أبى بشر عن سعيد بن جبير (لَقَدْ عَلِمْتَ) مثله بنصب التاء. حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: وحدّثنى قيس

وأبو الأحوص جميعا عن أبى إسحاق عن شيخ من مراد عن علىّ أنه قال : واللّه ما علم عدوّ «2» اللّه ، إنما علم موسى . وكان يقرأ (علمت) برفع التاء . وفسّره الكلبىّ بإسناده على قراءة علىّ وتفسيره . وأمّا ابن عباس وابن مسعود فقالا : قد قال اللّه عزّ وجل (وَ جَحَدُوا «3» بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ) قال الفراء : والفتح أحبّ إلىّ وقال «4» بعضهم : قرأ الكسائي بالرفع ، فقال : أخالفه أشدّ الخلاف .

وقوله : يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً [102] ممنوعا من الخير . والعرب تقول : ما ثبرك عن ذا أي ما منعك منه وصرفك عنه .

وقوله : جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً [104] من هاهنا وهاهنا وكلّ جانب .

وقوله : وَقُرْآناً فَرَقْناهُ [106] نصبت القرآن بأرسلناك أي ما أرسلناك إلا مبشّرا ونذيرا وقرآنا أيضا كما تقول : ورحمة لأن القرآن رحمة . ويكون نصبه بفرقناه على راجع ذكره . فلمّا كانت الواو قبله

---

(1) هذا وتفسيره فى الآية 93 السابقة . ومكانه قبل قوله : «أو ترقى فى السماء»

(2) يريد فرعون

(3) الآية 14 سورة النمل

(4) الظاهر أن هذا من المستملي ، أي قال المستملي للفراء : إن بعض القراء نسب إلى الكسائي القراءة بالضم فقال الفراء إنى أخالفه فى هذا ولا أقبل قراءته

نصب. مثله (وَفَرِيقاً «1» حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ) وأما (فَرَقْناهُ) بالتخفيف فقد قرأه أصحاب «2» عبد الله.

والمعنى أحكمناه وفصّلناه كما قال (فِيها «3» يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) أي يفصّل. وروى عن ابن عباس (فرّقناه يقول: لم ينزل فى يوم ولا يومين. حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: وحدثنى الحكم بن ظهير عن السّدّى عن أبى مالك عن ابن عباس (وَقُرْآناً فَرَقْناهُ) مخففة.

وقوله: أَيًّا ما تَدْعُوا [110] (ما) قد يكون صلة، كما قال تبارك وتعالى (عَمَّا قَلِيلٍ «4» لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ) وتكون فى معنى أىّ معادة لمّا اختلف لفظهما:

وقوله: (وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا) أي قصدا. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للفراء حـ 2 صـ 115. 133﴾

---

(1) الآية 30 سورة الأعراف

(2) هى قراءة عامة القراء. وقرأ بالتشديد ابن محيصن

(3) الآية 4 سورة الدخان

(4) الآية 40 سورة المؤمنين

(99/447)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة بني إسرائيل

(سبحان) [1] لا يتصرف ، لأنه صار علماً لأحد معنيين: إما [التبرئة والتنزيه] ، وإما [التعجب] . الأول: براءة الله –الذي أسرى بعبده– من كل سوء . والثاني: عجباً لمن أسرى بعبده . وقول الأعشى: 701– أقول لما جاءني فجره سبحان من علقمة الفاجر قال الخليل: براءة منه . وقال سيبويه: لما صار[ت] هذه الكلمة في صفات الله [على] معنى البراءة ، لا يفسر بها /في غيره ، بل يفسر بالعجب منه ، ومن فخره . وأما الإسراء ففي رواية أبي هريرة ، وحذيفة بن اليمان ، كان بنفسه في حالة الانتباه .

وفي رواية عائشة ، ومعاوية: بروحه حالة النوم . قالت عائشة: "ما فقد جسد رسول الله ، ولكن الله أسرى [بـ]روحه" .

والحسن أول قوله: (وما جعلنا الرءيا التي أريناك إلا فتنة للناس) بالمعراج . والخطابي يقول:

"قد رويت الروايتان بطرق صحيحة، فالأولى أن تجمع بينهما ونقول: كان له عليه السلام معراجان، أحدهما في النوم، والآخر باليقظة".

وما في القرآن من تعظيم أمر المعراج، والتعجب به، وما في الأخبار من إنكار قريش حتى أخبرهم بأشياء من بيت المقدس، والسابلة على طريقه إليها، كل ذلك يدل على أنه في اليقظة. (ألا تتخذوا) [2] معناه الخبر، أي: لئلا تتخذوا. وقيل: إن "أن" زائدة، والقول مقدر، أي: "وقلنا لا تتخذوا". (بعثنا عليكم) [5]

قال الحسن: خليناكم وخذلناكم. وقيل: أظهرناهم عليكم، وكان أولئك هم العمالقة.

وقيل: إنه [بختنصر]، إذ كان أصحاب سليمان بن داود -عليهما السلام- عرفوا من جهة أنبيائهم خراب الشام، ثم عودها إلى عمارتها. [ولما] وقفوا على قصد بختنصر، انجلوا عنها واعتصموا بمصر وملكها.

(فجاسوا) [5] مشوا وترددوا. وقيل: عاثوا وأفسدوا. (ليسئوا وجوهكم) [7] أي: سادتكم وكبراءكم في المرة الآخرة. (وليتبروا) يهلكوا ويخربوا. (ما علوا) ما وطئوا من الديار والمنازل. (حصيراً) [8] محبساً.

(طائره في عنقه) [13] أي: عمله، فيكون في اللزوم كالطوق للعنق. وقيل: طائره/: كتابه الذي يطير إليه يوم القيامة. إلا أن الكتاب مذكور بعده، فإنما حسن هو القول الأول، [مع] أنه مطرد في كلام العرب. قال الفرزدق: 702- [ف]من يك خائفاً لأذاة شعري فقد أمن الهجاء بنو حرام 703- هم ردوا سفيههم وخافوا قلائد مثل أطواق الحمام.

(وإذا أردنا أن نهلك قرية) [16] إرادة الهلاك ها هنا على مجاز المعلوم من عاقبة الأمر، وما يفضي إليه، كما قال الكميت: 704- يا بن هشام أهلك الناس اللبن فكلهم [يعدوا] بقوس وقرن. وقال آخر: 705- وقد جعل الوسمي ينبت بيننا وبين بني رومان نبعاً وشوحطا. (أمرنا مترفيها) [16] أي: أمرناهم بالطاعة.

(ففسقوا) [خرجوا] من أمرنا، كقولك: أمرته فعصى، ودعوته فأبى. ويجوز (أمرنا) كثرنا، يقال: أمره فهو مأمور، وآمره فهو مؤمر، وفي الحديث: "خير المال مهرة مأمورة". قال زهير: 706- والإثم من شر ما تصول به والبر كالغيث نبته أمر.

(كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء) [20] أي: من أراد العاجلة، ومن أراد الآخرة. (من عطاء ربك) من رزق ربك. (أف) [23] معناه [التكره] والتضجر. (محسوراً) [29] منقطعاً. وقيل: ذا حسرة. وقيل: مكشوفاً من قولك: حسرت الذراع. (خطئاً) [31] يجوز اسماً كالإثم، ومصدراً كالحذر. (ولا تقف ما ليس لك به علم) [36] ولا تقل. وقيل: ولا تتبع من قفوت أثره. (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً)

[36]أي: عن الإنسان، لأنها من الأشهاد يوم القيامة. وقيل: كان الإنسان عن كل ذلك مسؤولاً، لأن الطاعة والمعصية [بها]. (كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً) [38]/ أراد بالسيئة الذنب، فحمل على المعنى.

(101/447)

وقيل: إن مكروهاً بدل عن السيئة، وليس بوصف. وعبره البدل حذف المبدل. وقيل: إنه خبر آخر لكان. وأما سيئه بالإضافة، فلإنه تقدم الكلام أوامر ونواهي، فما كان في كل المذكور من [سيء] كان عند الله مكروهاً، فيعلم به ما يقابله، وهو أن ما كان بخلافه من حسن كان مرضياً. (ولقد صرفنا في هذا القرآن) [41] أي: صرفنا القول فيه على وجوه، من أمر ونهي، ووعد ووعيد، وتسلية وتحسير، وتزكية وتقريع، وقصص وأحكام، وتوحيد وصفات، وحكم وآيات. (فتستجيبون بحمده) [52]

أي: بأمره. كما قال الثقفي: 707- فإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من خزية أتقنع. (إن لبثتم إلا قليلا) [52] في الدنيا بالقياس إلى الآخرة، كما قال الحسن: "كأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل". (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) [59] أي: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين. فيكون: (أن نرسل) في موضع

النصب، و(أن كذب) في موضع الرفع.

(وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) [60] أي: علمه وقدرته، فيعصمك منهم. (وما جعلنا الرءيا التي أريناك) [60] أي: ليلة الإسراء على اختلاف الرواية، من رؤيا عيان، أو رؤيا منام. (إلا فتنة) أي: ابتلاءً واختباراً لمن كفر به، فإن قوماً [أنكروا] المعراج، فارتدوا. وقيل: إنها رؤيا النبي عليه السلام دخوله المسجد الحرام، فلما صد عنها عام الحديبية، ارتد قوم، فلما دخلها في القابل نزل: (لقد صدق الله رسوله الرءيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام).

(والشجرة الملعونة) [60] أي: وما جعلنا الشجرة الملعونة/في القرآن إلا فتنة. وذلك أن أبا جهل قال لابن الزبعري: ما الزقوم؟ فقال: الزبد والتمر بلغة البربر، فقال: زقمينا يا جارية، فأتت بهما، فقال: [تزقموا]، فهذا ما يخوفكم به محمد. وقيل: الشجرة الملعونة: بنو أمية، فإنهم الذين بدلوا الأحكام، وبغوا على أهل البيت، ولم يستعملوا البقيا في سفك الدماء.

والرؤيا ما رآها النبي عليه السلام من نزوهم على منبره . (لأحتنكن ذريته) [62] لأستولين عليهم ، وأستأصلنهم ، كما يحتنك الجراد الزرع . وقيل: لأقودنهم إلى الغواية ، كما تقاد الدابة بحنكها إذا شد فيه حبل . (واستفزز) [64]

استخف . وقيل: استزل . (بصوتك) [64] بدعائك إلى المعاصي . وقيل: إنه الغناء بالأوتار والمزامير . (وأجلب عليهم) أجمع عليهم . (بخيلك ورجلك) بكل راكب وماش في الضلالة .

(وشاركهم في الأموال والأولاد) [64] أي: إذا ولدوهم بالزنا . وقيل: إذا عودوهم الضلالة والبطالة . (ضل من تدعون إلا إياه) [67] أي: بطل . كقوله: (أضل أعمالهم) . وقيل: معناه غاب ، كقوله: (أءذا ضللنا في الأرض) . الحاصب: الحجارة الصغار ، وهي الحصاب ، والحصباء أيضاً .

وقيل: الحاصب: الريح التي ترمي بالحاصب ، كما سمي الجمار بالمحصب لمكان [رمي] الحصباء بها ، ولذلك قال الهذلي: 708- فيا رب حيرى جمادية تنزل فيها ندى ساكب 709- ملكت سراها إلى صحبها بشعث كأنهم حاصب . والقاصف: الريح التي تقصف الشجر . والتبيع: المنتصر الثائر .

(يوم ندعوا كل أنس بإمامهم) [71] قيل: بدينهم . وقيل: بأعمالهم . وقيل: بقادتهم/ورؤسائهم . فيقال [للضالين]: "يا أتباع الشيطان" . (ومن كان في هذه أعمى)

[72] أي: عن الطاعة والهدى. (فهو في الآخرة أعمى) أي: عن الثواب، وعن طريق الجنة. وقيل: إن من عمي عن هذه العبر المذكورة قبل هذه الآية، فهو عما غاب عنه من أمر الآخرة أعمى. (وإن كادوا ليفتنونك) [73] هموا أن يصرفوك. في وفد ثقيف، حين أرادوا الإسلام على أن يمتعوا باللات سنة، ويكسر سائر أصنامهم.

(103/447)

(ضعف الحياة) [75] أي: ضعف عذاب الحياة، أي: مثليه، لعظم ذنبك على شرف منزلتك. وقيل: إن الضعف هو العذاب نفسه، فكما سمي عذاباً لاستمراره في الأوقات -كالعذاب الذي يستمر في الحلق- سمي ضعفاً، لتضاعف الألم فيه. (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) [76] في اليهود، قالوا: إن أرض الشام أرض الأنبياء، وفيها الحشر. (خلفك إلا قليلاً): بعدك.

و(خلافك): بمعناه، كقوله: (بمقعدهم خلاف رسول الله): أي خلفه. قال بعض بني عقيل: 710- ولما حد[ا] الحادي وزمت جمالهم وراحوا [يغذون] القطيعة [إغذاذا]

711- تيقنت أني سوف آوي خلافهم إلى كبد يغدوا على البين أفلاذا. دلوك الشمس: غروبها، وصلاة المغرب، قال ذو الرمة:

712- مصابيح ليست باللواتي يقودها نجوم ولا بالآفلات الدوالك. وقيل: دلوكها: زوالها، وهذا التفسير يجمع الصلوات الخمس، لأنه مد من الزوال إلى الغسق. (وقرآن الفجر) ونصب (وقرآن الفجر) على الإغراء، والتحريض. وإنما سمى صلاة الفجر قرآناً، لتأكيد القراءة فيها. (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) [78] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

(فتهجد) [79] التهجد من باب السلب، وقد مر نظائره. (نافلة) خاصة لك. (أدخلني مدخل صدق) [80] أي: المدينة عند الهجرة. (وأخرجني مخرج صدق) من مكة.

وقيل: إن المراد به القبور.

ومعنى الصدق: الاستقامة وصلاح العاقبة. (وزهق الباطل) [81] ذهب وهلك.

(ونئا بجانبه) [83] بعد بنفسه، كقوله: (فتولى بركنه). (شاكلته) [84] عادته وخليقته، من قولهم: هو على شكله. (قل الروح من أمر ربي) [85] أي: من خلق ربي، لأنهم سألوه عنه أقديم أم محدث.

وقيل: معناه من علم ربي. وإنما لم يجبهم عن الروح، لأن طريق معرفته العقل لا السمع [فلا يجري] الكلام [فيه] على سمت كلام النبوة، كما هو في كتب الفلاسفة، ولئلا يصير الجواب طريقاً إلى سؤالهم عن كل ما لا [يعينهم]. (كسفاً) [92] قطعاً جمع كسفة.

قال أبو زيد: كسفت الثوب، أكسفه كسفاً: إذا قطعته، وذلك المقطوع كسف. ونصب (كسفاً) على الحال. قال الشيخ عبد الحميد -رحمه الله-: من قرأ (كسفاً) على الواحد، كان المعنى: ذات قطع على جهة التطبيق. ومن قرأ (كسفاً)، كان المعنى: ذات قطع على جهة التفريق. (قبيلاً) [92] أي: مقابلة نعاينهم. وقال القتبي: قبيلاً: كفيلاً، والقبالة: الكفالة.

وقال ابن بحر: قبيلاً: جميعاً، من: قبائل العرب، وقبائل الرأس -وهي الشؤون- لاجتماع بعض منها إلى بعض. الزخرف: الذهب. وقيل: نقوش الذهب وتحاسينه. (مثبوراً) [102] مهلكاً. والثبور: الهلاك. وقال المأمون يوماً لرجل: يا مثبور، ثم حدث عن الرشيد عن

المهدي عن المنصور عن ميمون بن مهران/عن ابن عباس: أن المثبور ناقص العقل.

(لفيفاً) [104] جميعاً، من جهات مختلفة. وتوحيده على معنى المصدر.

[تمت سورة الإسراء]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان ص 816.847﴾

(105/447)

وقال الأخفش:

سورة (الإسراء)

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾

[145] قال ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ﴾ لأنك تقول "أَسْرَيْتُ" و"سَرَيْتُ".

وقال ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ فهو فيما ذكروا - والله أعلم - قُلْ يا مُحَمَّد سُبحانَ الذي أسْرى بِعَبْدِهِ" وقل: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير.

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾

وقال ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ لأن "الأُوْلى" مثل "الكُبْرى" يتكلم بها بالالف واللام ولا يقال "هذهِ أُوْلى". والاضافة تعاقب الألف واللام. فلذلك قال ﴿ أُولاهما ﴾ كما تقول "هذهِ كُبْراهُمَا" و"كُبْراهُنَّ" و"كُبْراهُمْ عِنْدَه".

﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾

وقال ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ فنصب "الدعاءَ" على الفعل كما تقول: "إِنَّكَ مُنْطَلِقٌ انْطِلاقاً".

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾

وقال ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ قد قرئت ﴿أُفِّ﴾ و ﴿أُفّاً﴾ لغة جعلوها مثل ﴿تَعْساً﴾ وقرأ بعضهم ﴿أُفَّ﴾ وذلك ان بعض العرب يقول "أُفَّ لَكَ" على الحكاية: أي لا تَقُلْ لهما هذا القول، والرفعُ قبيح لأَنّه لم يجيء بعده باللام، والذين قالوا ﴿أُفِّ﴾ فسكروا كثير وهو أجود. وكسر بعضهم ونّون. وقال بعضهم ﴿أُفِّي﴾ كأنه أضاف هذا القول الى نفسه فقال: "أُفّي هذا لكما" والمكسور هنا منون، وغير منون على انه اسم متمكن نحو "أَمْسِ" وما أشبهه. والمفتوح بغير نون كذلك.

وقال ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ لأنه يقول: "نَهَرَه" "يَنْهَره" "وانْتَهَرُه" "يَنْتَهِرُه".

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾

وقال ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً﴾ من "خَطِيء" [145 ب] "يَخْطَأُ" تفسيره: "أَذْنَبَ" وليس في معنى "أَخْطَأَ" لأَنْ ما أَخْطَأْتَ [فيه] ما صنعته خَطَأً، و[ما] "خَطِئْتَ" [فيه] ما صنعته عمدا وهو الذنب. وقد يقول ناس من العرب: "خَطِئْتُ" في معنى "أَخْطَأْتُ".

وقال امرؤ القيس. [من الرجز وهو الشاهد التاسع والثلاثون بعد المئتين]:

يا لَهْفَ نَفْسي إِذْ خَطِئْنَ كَاهِلا * القاتِلينَ المَلِكَ الحُلاحِلا

* تَاللهِ لا يذهبُ شَيْخِي باطِلا *

وقال آخر: [من الكامل وهو الشاهد الاربعون بعد المئتين]:

والناس يَلْحُونَ الأَمِيرَ إذا هُمُ * خَطِئُوا الصَّوابَ ولا يُلامُ المُرْشَدُ

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾

وقال ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ "والقُسْطاس" مثل "القِرْطَاس" و"القُرْطَاس" و"الفِسْطاط" و"الفُسْطاط".

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾

(107/447)

[وقال] ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ قال ﴿ أُولائِكَ ﴾ . هذا واشباهه مذكّراً كان أَوْ مؤنّثاً تقول فيه "أُولَئِكَ" قال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الحادي والسبعون]:

ذُمِّي المنازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوى * والْعَيْشَ بَعْدَ أُولئِكِ الأَيَامِ

وهذا كثير.

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾

وقل ﴿ مَرَحاً ﴾ و ﴿ مَرِحا ﴾ والمكسورة احسَنُهما لأَنَّكَ لو قلت: تَمِشي مَرِحا" كان أحسن من "تَمْشى مَرَحا" ونقرؤها مفتوحة.

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾

وقال ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ فقال ﴿ عُلُوّاً ﴾ ولم يقل "تَعالِياً" كما قال ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ قال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الحادي والأربعون بعد المئتين]:

أَنْتَ الفِداءُ لِكَعْبَةٍ هَدَّمْتَها * وَنَقَرْتَها بيدَيْكَ كُلَّ مُنَقَّرِ

مَنَعَ الحَمامَ مَقِيلَهُ من سَقْفِها * ومِنَ الحَطِيمِ فَطارَ كُلَّ مُطَيَّرِ

وقال الآخر: [من الرجز وهو الشاهد الثاني والأربعون بعد المئتين]:

* يَجْرِي عَلَيْها أَيَّما إِجْراءِ *

وقال الآخر: [من الوافر وهو الشاهد الثالث والأربعون بعد المئتين]:

وَخَيْرُ الأَمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ * وَلَيْسَ بأَنْ تَتَبَّعَه اتّباعَا

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾

وقال ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ لأن الفاعل قد يكون في لفظ المفعول [146] كما تقول: "إِنَّكَ مَشْؤومٌ عَلَيْنا" و"مَيْمُون" وإِنَّما هو "شائِم" و"يامِن" لأنه من "شَأَمَهُم" و"يَمَنَهم" و"الحِجابُ" ها هنا هو الساتر، وقال ﴿ مَسْتُورا ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾

وقال ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ وإنما "النَّجْوَى" فِعْلُهُم كما تقول: "هُمْ قَوْمٌ رِضىً" وانما "الرِّضَى" فِعْلُهم.

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً ﴾

وقال ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فجعله جوابا للأمر.

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾

وقال ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ يقول "بِهَا كانَ ظُلْمُهُم" و"المُبْصِرَةُ": البَيِّنَةُ كما تقول: "المُوضِحَة" و"المُبَيِّنَة".

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾

وقال ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ [146 ب] فقوله ﴿ وَأَجْلِبْ ﴾ من "أَجْلَبْتَ" وهو في معنى "جَلَبَ" والموصولة من "جَلَبَ" "يَجْلُبُ".

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾

وقال ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ أي: سَنَنّاها سُنَّة. كما قال ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾

[وقال] ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أي: وَعَلَيْكَ قرآن الفَجْر.

(109/447)

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾

وقال ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ و ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ ﴾ فيقال "عَسَى" من الله واجبه والمعنى أَنَّكَ لو علمت من رجل انه لا يدع شيئا هو أحسن من شيء يأتيه فقال لك "عسى أَنْ أُكافِئَكَ" استنبت بعلمك به أنه سيفعل الذي يجب اذ كان لا يدع شيئا هو أحسن من شيء يأتيه.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً ﴾

وقال ﴿ يئُوساً ﴾ لأَنَّه مِنْ "يَئِس" .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءَ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً ﴾

وقال ﴿ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ ﴾ كأَنه قال "أَيّاً تَدْعُوا" .

وقال ﴿ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَآءَ الْحُسْنَى ﴾ يقول: "أَيَّ: الدُّعائَيْنِ تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْماءُ الحُسْنى" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 421 . 426 ﴾

(110/447)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة بني إسرائيل

مكية كلها «1»

4 - وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ : أخبرناهم .

5 - فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ أي عاثوا بين الديار وأفسدوا ، يقال : جاسوا وحاسوا . فهم يجوسون ويحوسون .

6 - ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ أي الدّولة .

أَكْثَرَ نَفِيراً أي أكثر عددا . وأصله : من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته . والنّفير والنّافر واحد . كما يقال : قدير وقادر .

7 - فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ يعني من المرّتين .

لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ من السّوء .

وَلِيُتَبِّرُوا أي ليدمّروا ويخرّبوا .

8 - وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً أي محبسا . من حصرت الشيء : إذا حبسته . فعيل بمعنى فاعل «2» .

---

(1) هي سورة الإسراء وهي مكية إلّا الآيات 26/ 32/ 57 ، ومن الآية 73 إلى غاية الآية 80 - فهي مدنية ونزلت بعد سورة القصص .

(2) قال الطبري : حصيرا أي فراشا ومهادا .

---

11 - وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ أي يدعو على نفسه وعلى خادمه وعلى ماله ، بما لو استجيب له فيه ، هلك .

وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا أي يعجل عند الغضب . واللّه لا يعجل بإجابته .

12 - فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ يعني محو القمر .

وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أي مبصرا بها . وقد ذكرت هذا وأمثاله في «المشكل» .

13 - وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال أبو عيدة : حظّه . وقال المفسّرون : ما عمل من خير أو شر ألزمناه عنقه .

وهذان التفسيران يحتاجان إلى تبيين . والمعنى فيما أرى - واللّه أعلم - :

أن لكل امرئ حظا من الخير والشر قد قضاه اللّه عليه . فهو لازم عنقه .

والعرب تقول لكل ما لزم الإنسان : قد لزم عنقه . وهو لازم صليف عنقه «1» .

وهذا لك عليّ وفي عنقي حتى أخرج منه . وإنما قيل للحظ من الخير والشر :

طائر ، لقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير ، وجرى له الطائر بكذا من الشر ، على طريق الفأل والطّيرة ، وعلى مذهبهم في تسمية الشيء بما كان له سببا . فخاطبهم اللّه بما يستعملون ، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر ، هو ملزمه أعناقهم . ونحوه قوله : أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ [سورة الأعراف آية 131] : وكان الحسن وأبو رجاء ومجاهد يقرؤون : وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ بلا ألف . والمعنيان جميعا سواء ، لأن العرب تقول :

جرت له طير الشمال . فالطّير الجماعة ، والطائر واحد .

وقوله : وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً أراد يخرج بذلك

(1) أي جانب عنقه .

(112/447)

العمل كتابا . ومن قرأ : وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً ، أراد : ويخرج ذلك العمل كتابا .

14 - كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً أي كافيا . ويقال : حاسبا ومحاسبا .

16 - وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها

أي أكثرنا مترفيها .

يقال : أمرت الشيء وأمرته ، أي كثرته . تقدير فعّلت وأفعلت ، ومنه قولهم :

مهرة مأمورة ، أي كثيرة النّتاج . ويقال : أمر بنو فلان يأمرون أمرا ، إذا كثروا .

وبعض المفسرين يذهب إلى أنه من الأمر . يقول : نأمرهم بالطاعة ونفرض عليهم الفرائض

، فإذا فسقوا حقّ عليهم القول ، أي وجب .

ومن قرأ : أَمَرْنا

فهو من الإمارة . أي جعلناهم أمراء .

وقرأ أقوام : آمرنا بالمد . وهي اللغة العالية المشهورة . أي كثّرنا .

23 - وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ أي أمر ربك .

25 – الأواب التائب مرة بعد مرة . وكذلك ألت 1 واب ، وهو من آب يؤوب ، أي رجع .

28 – قَوْلًا مَيْسُورًا أي ليّنا .

29 – مَحْسُورًا أي تحسرك العطية وتقطعك . كما يحسر السفر البعير فيبقى منقطعا .

يقال : حسرت الرجل فأنا أحسره ، وحسر فهو يحسر .

30 – يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ يوسّع عليه .

وَيَقْدِرُ أي يضيّق عليه .

33 – فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أي : لا تمثّل إذا قتلت بالقود ، ولا تقتل غير قاتلك .

(113/447)

---

34 – وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ أي :

يتناهى في الثّبات إلى حدّ الرجال . ويقال : ذلك ثمانية عشرة سنة . وأشدّ اليتيم غير أشدّ

الرجل في قول اللّه عز وجل : حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً [سورة الأحقاف آية 15]

: وإن كان اللفظان واحدا ، لأن أشدّ الرجل : الاكتهال والحنكة وأن يشتد رأيه وعقله .

وذلك ثلاثون سنة . ويقال :

ثمان وثلاثون سنة . وأشدّ الغلام : أن يشتد خلقه ، ويتناهى ثباته .

35 - بِالْقِسْطَاسِ : الميزان . يقال : هو بلسان الروم . وفيه لغة أخرى : بِالْقِسْطَاسِ بضم القاف . وقد قرئ باللغتين جميعا .

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أي أحسن عاقبة .

36 - وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أي : لا تتبعه الحدس والظّنون ثم تقول : رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم . وهو مأخوذ من القفاء كأنك تقفو الأمور ، أي تكون في أقفائها وأواخرها تتعقبها . يقال :

قفوت أثره . والقائف : الذي يعرف الآثار ويتبعها . وكأنه مقلوب عن القافي .

37 - وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا أي : بالكبر والفخر .

إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ أي : لا تقدر أن تقطعها حتى تبلغ آخرها يقال : فلان أخرق للأرض من فلان ، إذا كان أكثر أسفارا وغزوا .

وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا يريد : أنه ليس للفاجر أن يبذخ ويستكبر .

39 - مَدْحُورًا مقصيا مبعدا . يقال : اللهم ادحر الشيطان عني .

40 - وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا كانوا يقولون : الملائكة بنات اللّه .

42 - قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا يقول : لو كان الأمر كما تقولون لابتغى من تدعونه إلها ، التقرّب إلى

اللّه ، لأنه ربّ كل مدعوّ. ويقال : لابتغوا سبيلا ، أي طريقا للوصول إليه .

46 - أَكِنَّةً جمع كنان . مثل غطاء وأغطية .

47 - وَإِذْ هُمْ نَجْوى أي متناجون : يسار بعضهم بعضا .

إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً . قال أبوة عبيدة : يريدون بشرا ذا سحر ، ذا رئة . ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير المستكره ؟ . وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه . قال مجاهد في قوله : إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً أي مخدوعا ، لأن السحر حيلة وخديعة . وقالوا في قوله : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ [سورة المؤمنون آية 29] : أي من أين تخدعون ؟ إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ أي من المعلّلين . وقال امرؤ القيس :

ونسحر بالطّعام وبالشراب أي نعلّل ، فكأنا نخدع . وقال لبيد :

فإن تسألينا : فيم نحن ؟ فإنّنا عصافير من هذا الأنام المسحّر

أي المعلّل . والناس يقولون : سحرتني بكلامك . يريدون خدعتني .

وقوله : انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ [سورة الإسراء آية 48] :

يدل على هذا التأويل لأنهم لو أرادوا رجلا ذا رئة ، لم يكن في ذلك مثل ضربوه . ولكنهم لما أرادوا رجلا مخدوعا - كأنه بالخديعة سحر - كان مثلا ضربوه ، وتشبيها شبهوه . وكأن المشركين ذهبوا إلى أن قوما يعلّمونه ويخدعونه .

وقال اللّه في موضع آخر حكاية عنهم : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . وقول فرعون : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً ، [سورة الإسراء آية 101] : لا يجوز أن يكون أراد به :

إني لأظنك إنسانا ذا رئة ، وإنما أراد :

إني لأظنك مخدوعا .

(115/447)

والرفات ما رفت . وهو مثل الفتات .

51 - فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ أي يحركونها كما يحرك اليائس من الشيء المستبعد له رأسه . يقال : نغصت سنّه ، إذا تحركت . ويقال للظليم :

نغص ، لأنه يحرّك رأسه إذا عدا .

57 - أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يعني الذين يعبدون من دونه ويدعونهم آلهة ، يعني الملائكة ، وكانوا يعبدونها .

يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أي القلابة و .

58 - مَسْطُوراً أي مكتوبا . يقال : سطر ، أي كتب .

59 - وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً أي آتينا ثمود آية - وهي الناقة - مبصرة ، أي بينة ، يريد

مبصرا بها . كما قال : وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً [سورة الإسراء آية 12] : فَظَلَمُوا بِها ، أي كذبوا بها ، وقد بينت الظلم ووجوهه في كتاب «المشكل» .

وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ أي وما نرسل الرسل بالآيات .

60 - وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ يعني ما رآه ليلة الإسراء .

إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ يقول : فتن أقوام بها ، فقالوا : كيف يكون يذهب هذا إلى بيت المقدس ويرجع في ليلة ؟ فأرتدوا ، وزاد اللّه في بصائر قوم منهم أبو بكر رحمه اللّه ، وبه سمّي صدّيقا .

وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ يعني شجرة الزّقوم .

62 - هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ أي فضلت .

لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ : لأستأصلنّهم . يقال : احتنك الجراد ما على الأرض كلّه ، إذا أكله كلّه . واحتنك فلان ما عند فلان من العلم : إذا استقصاه . ويقال : هو من حنك دابّته يحنكها حنكا : إذا شد في حنكها

الأسفل حبلا يقودها به . أي لأقودنهم كيف شئت .

63 - جَزاءً مَوْفُوراً أي موفّرا . يقال : وفّرت عليه ماله ووفرته :

بالتخفيف والتشديد .

64 - وَاسْتَفْزِزْ أي استخفّ . ومنه يقال : استفزّني فلان .

والرجل : لرّجّالة . يقال : راجل ورجل . مثل تاجر وتجر وصاحب وصحب .

وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ : بالنفقة في المعاصي ، وَفِي الْأَوْلادِ بالزنا .

66 - يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ أي يسيرها . قال الشاعر :

فتى يزجي المطيّ على وجاها (الحاصب) : الريح . سميت بذلك : لأنها تحصب ، أي

ترمي بالحصباء ، وهي : الحصى الصغار .

والقاصف : الريح التي تقصف الشجر ، أي تكسره .

69 - ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً أي من يتبعنا بدمائكم ، أي يطالبنا .

ومنه قوله : فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ [سورة البقرة آية : 178] أي مطالبة جميلة .

71 - يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ أي بكتابهم الذي فيه أعمالهم ، على قول الحسن . وقال

ابن عباس - في رواية أبي صالح - : برئيسهم .

وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا والفتيل : ما في شق النواة .

73 - وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ أي يستزلونك .

لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ لتختلق غيره .

وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا أي لو فعلت ذاك لودّوك .

75 - ضِعْفَ الْحَياةِ أي ضعف عذاب الحياة .

وَضِعْفَ الْمَماتِ أي ضعف عذاب الممات .

76 - وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ أي بعدك .

78 - لِدُلُوكِ الشَّمْسِ : غروبها . ويقال : زوالها . والأول أحب إليّ ، لأن العرب تقول :

دلك النجم ، إذا غاب . قال ذو الرّمّة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها نجوم ولا بالآفلات الدّوالك

وتقول في الشمس : دلكت «1» براح يريدون غربت . والناظر قد وضع كفه على حاجبه

ينظر إليها . قال الشاعر :

والشمس قد كادت دنفا أدفعها بالراح كي تزحلفا

فشبهها بالمريض في الدّنف ، لأنها قد همّت بالغروب . كما قارب الدّنف الموت . وإنما ينظر

إليها من تحت الكف ، ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب ويتوقي الشعاع بكفه .

وغَسَقِ اللَّيْلِ : ظلامه .

وقُرْآنَ الْفَجْرِ أي قراءة الفجر .

79 - فَتَهَجَّدْ بِهِ أي اسهر به . يقال : تهجدت : إذا سهرت .

وهجدت : إذا نمت .

---

(1) دلك الشيء من باب نصر ، ودلكت الشمس زالت وبابه دخل ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «أقم الصلاة لدلوك الشمس» وقيل دلوكها غروبها .

(118/447)

نافِلَةً لَكَ أي تطوعا .

83 - وَنَأى بِجانِبِهِ أي تباعد .

كانَ يَؤُساً أي قانطا يائسا .

84 - كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ أي على خليقته وطبيعته . وهو من الشّكل ، يقال : لست على شكلي ولا شاكلتي .

88 - وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً أي عونا .

89 - وَلَقَدْ صَرَّفْنا أي وجهنا القول فيه بكل مثل . وهو من قولك : صرفت إليك كذا ،

أي عدلت به إليك . وشدد ذلك للتكثير . كما يقال : فتّحت الأبواب .

90 - يَنْبُوعاً أي عينا . وهو مفعول من نبع ينبع . ومنه يقال لمال على رحمه اللّه : ينبع .

92 - كِسَفاً أي قطعا . الواحد : كسفة .

أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا أي ضمينا . يقال : قبلت به ، أي كفلت به . وقال ابو عبيدة :

معاينة . ذهب إلى المقابلة .

93 - بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أي من ذهب .

97 - كُلَّما خَبَتْ أي سكنت . يقال : خبت النار - إذا سكن لهبها - تخبو . فإن سكن

اللهب ولم يطفأ الجمر . قلت : خمدت تخمد خمودا .

فإن طفئت ولم يبق منها شيء ، قيل : همدت تهمد همودا .

زِدْناهُمْ سَعِيراً أي نارا تتسعّر ، أي تتلهب .

100 - وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً أي ضيّقا بخيلا .

102 - وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً أي مهلكا . والثّبور :

الهلكة .

وفي رواية الكلبي : إني لأعلمك يا فرعون ملعونا .

103 - فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أي يستخفّهم حتى يخرجوا .

104 - جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا أي جميعا .

110 - وَلَا تُخَافِتْ بِهَا أي لا تخفها .

وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أي بين الجهر وبين الإخفاء طريقا قصدا وسطا .

والترتيل في القراءة : التّبيين لها . كأنه يفصل بين الحرف والحرف ومنه قيل : ثغر رتل ورتل ، إذا كان مفلّجا . يقال : كلام رتل ، أي مرتل ، وثغر رتل ، يعني إذا كان مستوي النبات ، ورجل رتل - بالكسر - بيّن الرّتل : إذا كان مفلّج الأسنان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 222.213 ﴾

(120/447)

وقال الغزنوى :

ومن سورة بني إسرائيل

1 سُبْحَانَ : لا ينصرف ، لأنّه علم لأحد معنيين : إمّا التبرئة والتنزيه ، وإمّا التعجب

«1» .

أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا : بمعنى «بعض ليل» على تقليل وقت الإسراء «2» .

والإسراء في رواية أبي هريرة «3» وحذيفة بن اليمان «4» كان بنفسه في الانتباه . وفي رواية عائشة ومعاوية بروحه حال النّوم «5» .

---

(1) ينظر إعراب القرآن للنحاس : 2/ 413 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 1/ 427 ، وتفسير الماوردي : 2/ 420 ، ونور المسرى في تفسير آية المسرى : (47 ، 48) .

(2) قال العكبري في التبيان : 2/ 811 : «و تنكيره يدل على قصر الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه» .

وانظر الكشاف : 2/ 436 ، وتفسير الفخر الرازي : 20/ 147 ، وتفسير القرطبي : 10/ 204 .

(3) في صحيح البخاري : (4/ 140 ، 141) ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها .

وصحيح مسلم : 1/ 154 ، كتاب الإيمان ، باب «الإسراء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات» .

وانظر تفسير الطبري : (15/ 6 ، 7) ، ودلائل النبوة للبيهقي : 2/ 358 ، والدر المنثور

:

(5/ 198، 199) .

(4) ينظر مسند أحمد : 5/ 387، وسنن الترمذي : 5/ 307، كتاب تفسير القرآن «سورة الإسراء» حديث رقم (3147) ، قال الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح» .

ومستدرك الحاكم : 2/ 359، كتاب التفسير ، وقال : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

ودلائل النبوة للبيهقي : 2/ 364، والدر المنثور : 5/ 216 .

(5) نقل ابن إسحاق عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت : «ما فقد جسد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولكن اللّه أسرى بروحه» .

وأخرج عن معاوية رضي اللّه تعالى عنه أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال :

«كانت رؤيا من اللّه تعالى صادقة» . قال ابن إسحاق : «فلم ينكر ذلك من قولهما . . .»

السيرة : (1/ 399، 400) .

وعلق الحافظ ابن كثير على نقل ابن إسحاق بقوله : «و قد توقف ابن إسحاق في ذلك ، وجوز كلّا من الأمرين من حيث الجملة ، ولكن الذي لا يشك فيه ولا يتمارى أنه كان يقظانا

لا محالة لما تقدم، وليس مقتضى كلام عائشة رضي اللّه عنها - أن جسده صلى اللّه عليه وسلم ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه أن يكون مناما كما فهمه ابن إسحاق، بل قد يكون وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم وركب البراق وجاء بيت المقدس وصعد السماوات وعاين ما عاين حقيقة ويقظة لا مناما. لعل هذا مراد عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها، ومراد من تابعها على ذلك، لا ما فهمه ابن إسحاق من أنهم أرادوا بذلك المنام، واللّه أعلم» اه.

ينظر البداية والنهاية: (3/ 112، 113).

(121/447)

والحسن أوّل قوله «1»: وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ بالمعراج «2».

وقد رويت الروايتان بطرق صحيحة، فالأولى الجمع والقول بمعراجين: أحدهما في النّوم، والآخر في اليقظة «3».

وروي أنّ المشركين سألوه عن بيت المقدس وما رآه في طريقه فوصفه لهم شيئا فشيئا، وأخبرهم أنّه رأى في طريقه قعبا «4» مغطى مملوء ماء فشرب منه، ثم غطّاه كما كان، ووصف لهم إبلا كانت في طريق الشّام يقدمها جمل أورق «5»، فوجدوا الأمر كما

وصف .

---

(1) سورة الإسراء : آية : 60 .

(2) ينظر قوله في السيرة لابن هشام : 1/ 400 ، وتفسير الماوردي : 2/ 421 ، وتفسير ابن كثير : 5/ 41 ، والدر المنثور : 5/ 309 .

وأخرج البخاري في صحيحه : 5/ 227 ، كتاب التفسير ، باب وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : «هي رؤيا عين أريها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليلة أسرى به . . .» .

(3) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن : 3/ 1194 ، ورجحه السهيلي في الروض الأنف :

2/ 149 ، وأبو شامة المقدسي في نور المسرى : 117 .

(4) أي قدحا .

اللسان : 1/ 683 (قعب) .

(5) الأورق : الأسمر .

النهاية : 5/ 175 . [. . . . .]

2 أَلَّا تَتَّخِذُوا : معناه الخبر لئلا يتخذوا .

3 ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا : أي : يا ذرّية «1» .

4 وَقَضَيْنا : أعلمنا وأوحينا ، كقوله «2» : وَقَضَيْنا إِلَيْهِ . . . أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ .

5 بَعَثْنا عَلَيْكُمْ : خلّيناهم وإياكم ، وكان أولئك هم العمالقة «3» .

وقيل : إنّه بختنصّر «4» ، إذ كان أصحاب سليمان بن داود عرفوا من جهة أنبيائهم خراب الشّام ثم عودها إلى عمارتها ، ولما وقفوا على قصد بختنصّر انجلوا عنها واعتصموا بمصر «5» .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 2/ 116 ، وقال الزجاج في معانيه : 3/ 226 : «وهي منصوبة على النداء ، كذا أكثر الأقوال ، المعنى : «يا ذرية من حملنا مع نوح . . .» .

(2) سورة الحجر : آية : 66 .

(3) نقله الماوردي في تفسيره : 2/ 423 ، والكرماني في غرائب التفسير : 1/ 621 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 9 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(4) بختنصّر : كان حاكما لبلاد بابل من قبل ملك الفرس .

وكلمة «بختنصر» مركب مزجي ، وتركيبه من «بخت» معرب «بوخت» ، بمعنى : ابن

و«نصر» اسم صنم.

ينظر تاريخ الطبري: 1/ 558، والصحاح: 1/ 243 (بخت)، والمعرّب للجواليقي: 129.

(5) ينظر هذه الرواية في تفسير الطبري: (15/ 21 - 30)، وتفسير الماوردي: 2/ 423، والتعريف والإعلام للسهيلي: 98، وزاد المسير: 5/ 9.

وأشار إليها ابن كثير في تفسيره: 5/ 44، ثم قال: «وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها لأن منها ما هو موضوع، من وضع زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء» اهـ.

فَجاسُوا : مشوا وترددوا «1» . وقيل «2» : عاثوا وأفسدوا .

7 وَعْدُ الْآخِرَةِ : [وعد] «3» المرّة الآخرة «4» .

لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ : أي : الموصوفون بالبأس يسوءوا ساداتكم «5» .

وَلِيُتَبِّرُوا : يهلكوا ويخرّبوا «6» .

ما عَلَوْا : ما وطئوا من الديار .

حَصِيراً : محبسا»

.

9 لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ : للحال التي هي أقوم وهي توحيد اللّه ، والإيمان برسله ، والعمل بطاعته/

«8» .

11 وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ : يدعو على نفسه وولده غضبا ، أو يطلب

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 424 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وانظر المفردات للراغب : 103 ، وتفسير الفخر الرازي : 20/ 157 ، وتفسير

البيضاوي :

1/ 578 .

(2) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 251 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير :

5/ 10 ، والفخر الرازي في تفسيره : 20/ 157 عن ابن قتيبة أيضا .

(3) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(4) تفسير الطبري : 15/ 31 ، وتفسير الماوردي : 2/ 425 ، وتفسير البغوي : 3/ 106 ، وتفسير الفخر الرازي : 20/ 159 .

(5) ذكره القرطبي في تفسيره : 10/ 223 فقال : «قيل : المراد ب «الوجوه» السادة ، أي :

ليذلوهم» .

(6) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 251 ، وتفسير الطبري : 15/ 43 ، وتفسير الفخر الرازي :

20/ 160 .

(7) في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 371 : «من الحصر والحبس ، فكأن معناه : محبسا ، ويقال للملك : حصير ، لأنه محجوب» .

وانظر تفسير الطبري : 15/ 45 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 228 ، وتفسير القرطبي :

10/ 224 .

(8) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 229 .

وانظر هذا المعنى في تفسير الطبري: (15/ 46، 47)، والمحرر الوجيز: 9/ 26، وتفسير القرطبي: 10/ 225.

(124/447)

ما هو شرّ له ليعجّل الانتفاع.

12 فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ: هو السواد الذي في القمر «1».

مُبْصِرَةً: أهلها بصراء كمضعف لمن قومه ضعفاء.

13 طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ: عمله «2»: فيكون في اللّزوم كالطوق للعنق، أو طائِرَهُ: كتابه الذي يطير إليه يوم القيامة «3».

14 كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً: شاهدا، وقيل: حاكما.

ولقد أنصفك من جعلك حسيبا على نفسك.

16 وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً

: هذه الإرادة على مجاز المعلوم من عاقبة الأمر.

أَمَرْنا

«4» مُتْرَفِيها: أمرناهم على لسان رسولهم بالطاعة.

فَفَسَقُوا

: خرجوا عن أمرنا ، كقوله : أمرته فعصى «5» ، أو أمرنا :

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 49 عن ابن عباس ، ومجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 247 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في «المصاحف» عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه .

[.....]

(2) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 118 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 51 عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

(3) نص هذا القول في البحر المحيط : 6/ 15 عن السدي .

وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 252 : «المعنى فيما أرى - واللّه أعلم - : أن لكل امرئ حظا من الخير والشر قد قضاه اللّه عليه فهو لازم عنقه . والعرب تقول لكل ما لزم الإنسان - قد لزم عنقه ، وهو لازم صليف عنقه . وهذا لك عليّ وفي عنقي حتى أخرج منه .

وإنما قيل للحظ من الخير والشر : طائر ، لقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير ، وجرى له الطائر بكذا من الشر على طريق الفأل والطيرة ، وعلى مذهبهم في تسمية الشيء بما كان له سببا ، فخاطبهم اللّه بما يستعملون ، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر

، هو ملزمة أعناقهم . . . » .

(4) بفتح الميم وإسكان الراء ، وهي قراءة الجمهور وعليها القراء السبعة.

ينظر السبعة لابن مجاهد : 379 ، والبحر المحيط : 6/ 17 .

(5) ينظر البحر المحيط : 6/ 18 .

(125/447)

كثّرنا «1» ، أمره وآمره . وفي الحديث «2» : «خير المال مهرة مأمورة» «3» .

20 كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ : أي : من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة .

مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ : من رزقه .

23 أُفٍّ : معناه التكرّه والتضجّر «4» .

24 وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ : لن لهما جانبك متذللا من مبالغتك في الرحمة لهما «5» .

26 وَلا تُبَذِّرْ : لا تنفق في غير طاعة اللّه شيئا .

27 إِخْوانَ الشَّياطِينِ : قرناءهم في النّار «6» ، أو أتباعهم في

---

(1) ورد هذا المعنى على قراءة الجمهور بالقصر وفتح الميم وإسكان الراء ، وكذلك على

قراءة «آمرنا» بالمد . وهي قراءة عشرية ، قرأ بها يعقوب بن إسحاق البصري ، وتنسب

هذه القراءة أيضا إلى علي بن أبي طالب، وابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبي العالية، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو، ونافع.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 379، والمحتسب لابن جني: (2/ 15، 16)، والغاية في القراءات العشر لابن مهران: 190، والنشر: 3/ 150، وإتحاف فضلاء البشر: 2/ 195، والبحر المحيط: 6/ 20.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: 3/ 468 عن سويد بن هبيرة، ورفعه.

وكذا الطبراني في المعجم الكبير: 7/ 91، والقضاعي في مسند الشهاب: (2/ 230، 231).

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 5/ 260 وقال: «رجال أحمد ثقات».

وأورده السيوطي - أيضا - في الجامع الصغير: 2/ 11، ورمز له بالصحة.

(3) أي: كثيرة الولد.

مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 373.

(4) قال ابن عطية في المحرر الوجيز: (9/ 55، 56): «و معنى اللفظة أنها اسم فعل، كأن الذي يريد أن يقول: أضجر، أو أتقذر، أو أكره، أو نحو هذا، يعبر إيجازا بهذه اللفظة فتعطي معنى الفعل المذكور، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثلا لجميع ما يمكن أن يقابل به الآباء مما يكرهون، فلم ترد هذه اللفظة في نفسها وإنما هي مثال الأعظم منها والأقل، فهذا

هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور» .

(5) عن معاني القرآن للزجاج: 2/ 235 .

(6) ذكره الفخر الرازي في تفسيره: 20/ 195، وقال: «كما قال: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وقال تعالى: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ، أي قرناءهم من الشياطين. اه.

وانظر هذا القول في الكشاف: 2/ 446، وتفسير القرطبي: 10/ 248، والبحر المحيط:

6/ 30.

(126/447)

آثارهم «1» .

28 وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ: أي: الذين أمرنا بإعطائهم إذا أعرضت عنهم لعوز فقل لهم قولا ليّنا ييسّر عليهم فقرهم.

و «الرحمة» : الرزق «2» .

29 مَحْسُوراً: منقطعا به «3» ، أو ذا حسرة «4» ، أو مكشوفا، من حسرت الذراع

«5» .

31 خِطْأً : يجوز اسماك «الإثم» «6» ، ومصدرا ك «الحذر» «7» .

---

(1) قال الطبري في تفسيره : 15/ 74 : «وكذلك تقول العرب لكل ملازم سنة قوم وتابع

أثرهم :

هو أخوهم» .

وانظر تفسير الفخر الرازي : 20/ 195 .

(2) ذكره الطبري في تفسيره : 15/ 75 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 112 ، وأورده ابن

الجوزي في زاد المسير : 5/ 28 ، وقال : «قاله الأكثرون» .

(3) ينظر هذا القول في معاني الفراء : 2/ 122 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة :

254 ، وتفسير الطبري : 15/ 76 ، وتفسير البغوي : 3/ 113 ، والكشاف : 2/

447 .

(4) ذكر القرطبي هذا القول في تفسيره : 10/ 251 عن قتادة ، ثم قال : «وفيه بعد لأن

الفاعل من «الحسرة» حسر وحسران ، ولا يقال : محسور» . [. . . . .]

(5) اللسان : 4/ 189 (حسر) .

(6) معاني القرآن للفراء : 2/ 133 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 76 ، وتفسير

الطبري :

15/ 79 ، ومعاني الزجاج : 3/ 236 .

(7) قرأ ابن عامر – من السبعة خطا بفتح الخاء والطاء .

قال أبو زرعة في حجة القراءات : 401 : «وهو مصدر ل خطى الرجل يخطأ خطئا» .

ووجه الطبري لقراءة الكسر وجهين فقال :

أحدهما : أن يكون اسما من قول القائل : خطئت فأنا أخطأ ، بمعنى : أذنبت وأثمت .

ويحكى عن العرب : خطئت : إذا أذنبت عمدا ، وأخطأت : إذا وقع منك الذنب خطأ على غير عمد منك له .

والثاني : أن يكون بمعنى «خطأ» بفتح الخاء والطاء ، ثم كسرت الخاء وسكنت الطاء ، كما قيل : قتب وقتب ، وحذر وحذر ، ونجس ونجس . و«الخطء» بالكسر اسم ، و«الخطأ» بفتح الخاء والطاء مصدر من قولهم : خطيء الرجل ، وقد يكون اسما من قولهم : أخطأ ، فأما المصدر منه ف«الإخطاء . . .» اه .

راجع تفسيره : 15/ 79 ، والسبعة لابن مجاهد : 379 ، والتبصرة لمكي : 224 ، والمحرر الوجيز : 9/ 67 .

36 وَلا تَقْفُ: لا تتبع، من «قفوت أثره» «1».

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا: أي: عن الإنسان لأنها الأشهاد يوم القيامة، أو كان الإنسان عن ذلك مسؤولا لأنّ الطاعة والمعصية بها «2».

38 كانَ سَيِّئَةً «3» عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً: أراد ب «السيئة»: الذنب «4».

أو مَكْرُوهاً بدل عن السّيّئة وليس بوصف «5». وأمّا سَيِّئُهُ بالإضافة «6» فلأنّه تقدّم أوامر ونواهي فما كان في كلّ المذكور من سيئ كان عند الله مكروها/، فيعلم به أنّ ما كان من حسن كان مرضيّا.

40 أَفَأَصْفاكُمْ: أخلص لكم البنين فاختصكم بالأجلّ.

41 وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ: صرّفنا القول فيه على وجوه من أمر

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء: 2/ 123، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 379، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (254، 255)، وتفسير الطبري: 15/ 87، ومعاني الزجاج: 3/ 239.

(2) عن تفسير الماوردي: 2/ 435.

وانظر تفسير البغوي: 3/ 114، والمحرر الوجيز: (9/ 86، 87).

(3) هذه قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 380، والتبصرة لمكي: 244، والتيسير للداني: 140.

(4) زاد المسير : 5/ 36 .

(5) والتقدير : كان سيئة وكان مكروها .

ينظر تفسير الفخر الرازي : 20/ 213 ، والمحرر الوجيز : 9/ 91 ، وتفسير القرطبي : 10/ 262 ، والبحر المحيط : 6/ 38 .

(6) بإضافة السيء إلى الهاء ، وهي قراءة عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 380 ، وحجة القراءات : 403 ، والتبصرة لمكي : 244 .

(128/447)

ونهي ، ووعد ووعيد ، وتسلية وتحسير وتزكية وتقريع وقصص وأحكام وتوحيد وصفات وحكم وآيات .

وَما يَزِيدُهُمْ : أي : هذه المعاني ، إِلَّا نُفُوراً إلا اعتقادهم الشبه .

42 لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا : إلى ما يقرّبهم إليه لعظمته عندهم .

44 وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ : أي : من جهة خلقته ، أو في معنى صفته وهي حاجته بحدوثه إلى صانع أحدثه .

45 حِجاباً مَسْتُوراً : ساترا لهم عن إدراكه ، ك «مشؤوم» و «ميمون» في معنى شائم ويا

من لأنّه من شامهم ويمنهم «1» .

وقيل «2» : مستورا عن أبصار النّاس .

46 نُفُوراً : جمع «نافر» «3» .

47 وَإِذْ هُمْ نَجْوى : اسم للمصدر ، أي : ذوو نجوى يتناجون «4» .

50 قُلْ كُونُوا حِجارَةً : أي : استشعروا أنكم منها فإنّه يعيدكم ، إذ القدرة التي بها أنشأكم هي التي بها يعيدكم «5» .

---

(1) عن معاني القرآن للأخفش : 2/ 613 .

وانظر هذا المعنى في تفسير الطبري : (15/ 93 ، 94) ، والمحرر الوجيز : 9/ 99 ، وزاد المسير : 5/ 41 .

(2) ذكره الطبري في تفسيره : 15/ 94 ، ورجحه .

وانظر تفسير الماوردي : 2/ 437 ، وتفسير البغوي : 3/ 117 ، وتفسير القرطبي : 10/ 271 .

(3) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 381 : «بمنزلة قاعد وقعود وجالس وجلوس» .

(4) عن معاني القرآن للزجاج : 3/ 243 .

(5) قال الزجاج في معانيه : 3/ 244 : «و معنى هذه الآية فيه لطف وغموض ، لأن

القائل يقول :

كيف يقال لهم كونوا حجارة أو حديدا وهم لا يستطيعون ذلك ؟ .

فالجواب في ذلك أنهم كانوا يقرّون أن الله جل ثناؤه خالقهم ، وينكرون أن اللّه يعيدهم خلقا آخر ، فقيل لهم : استشعروا أنكم لو خلقتم من حجارة أو حديد لأماتكم اللّه ثم أحياكم لأن القدرة التي بها أنشأكم وأنتم مقرون أنه أنشأكم بتلك القدرة بها يعيدكم ، ولو كنتم حجارة أو حديدا ، أو كنتم الموت الذي هو أكبر الأشياء في صدوركم» . [. . . . . .]

(129/447)

---

51 فَسَيُنْغِضُونَ : يحرّكون ، وهو تحريك المستبطئ للشيء والمبطل له المستهزئ به .

52 فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ : أي : بأمره «1» . وقيل «2» : تستجيبون حامدين .

إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا : أي : في الدنيا بالقياس إلى الآخرة .

60 وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ : أي : علمه وقدرته فيعصمك منهم .

إِلَّا فِتْنَةً : ابتلاء بمن كفر به ، فإنّ قوما أنكروا المعراج فارتدوا «3» .

وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ : أي : وما جعلنا الشجرة الملعونة [في القرآن] «4» إلّا فتنة ، إذ قال أبو جهل : هل رأيتم الشّجر ينبت في النّار «5» .

وقيل «6» : الشجرة الملعونة بنو أميّة فإنّهم الذين بدلوا وبغوا .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 15/ 101 عن ابن عباس ، وابن جريج .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 439 عن ابن جريج وسفيان .

وانظر المحرر الوجيز : 9/ 109 ، وزاد المسير : 5/ 45 .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 439 دون عزو . ونقله ابن الجوزي في زاد المسير :

5/ 45 عن سعيد بن جبير .

(3) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 258 . وأخرج - نحوه - الطبري في تفسيره

:

15/ 110 عن الحسن .

(4) ما بين معقوفين عن «ج» و «ك» .

(5) أخرج الطبري في تفسيره : 15/ 114 عن قتادة قال : «هي شجرة الزقوم ، خوف

اللّه بها عباده ، فافتنوا بذلك ، حتى قال قائلهم أبو جهل بن هشام : زعم صاحبكم هذا أن

في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر» .

وانظر تفسير الماوردي : 2/ 443 ، وتفسير البغوي : 3/ 120 .

(6) ذكر الحافظ ابن كثير هذا القول في تفسيره : 5/ 90 ، ثم قال «وهو غريب

ضعيف» .

والأثر الذي أخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 112 عن سهل بن سعد قال : «رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - بني فلان ينزون على منبره نزو القرود ، فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكا حتى مات - قال : وأنزل اللّه في ذلك : وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ . . .

الآية .

وضعف ابن كثير إسناده فقال : «وهذا السند ضعيف جدا ، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك ، وشيخه أيضا ضعيف بالكلية .

ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء ، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم ، قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ، أي : في الرؤيا والشجرة» اه .

(130/447)

والرؤيا : ما رآه النبي - عليه السلام - من نزوهم «1» على منبره .

62 أَرَأَيْتَكَ : معناه أخبر ، والكاف للخطاب ولا موضع لها ، لأنّها للتوكيد ، والجواب محذوف ، وهذا منصوب ب«أ رأيت» ، أي : أخبرني عن هذا الذي كرّمته عليّ لم كرّمته «2» ؟ .

لَأَحْتَنِكَنَّ/ ذُرِّيَّتَهُ: لأستولينّ عليهم وأستأصلنّهم كما يحتنك [55/ ب] الجراد الزّرع «3».

64 وَاسْتَفْزِزْ: استخفّ «4»، أو استزل بصوتك بدعائك إلى المعاصي «5».

وقيل «6»: إنه الغناء بالأوتار والمزامير.

---

(1) أي: وثوبهم عليه.

النهاية لابن الأثير: 5/ 44، واللسان: 15/ 319 (نزا).

(2) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 349.

وانظر إعراب القرآن للنحاس: 2/ 432، والبحر المحيط: 6/ 57.

(3) معاني القرآن للفراء: 2/ 127، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 384، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 258، وتفسير الطبري: 15/ 117، والمفردات للراغب: 134.

(4) معاني القرآن للفراء: 2/ 127، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 384، وتفسير غريب القرآن: 258، وتفسير الطبري: 15/ 118، والمحرر الوجيز: 9/ 135.

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 15/ 118 عن ابن عباس، وقتادة.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 312، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(6) أخرجه الطبري في تفسيره: 15/ 118 عن مجاهد.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 312 وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد رحمه الله تعالى.

وعقّب الطبري على هذه الأقوال بقوله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن اللّه تبارك وتعالى - قال لإبليس: واستفزز من ذرية آدم من استطعت أن تستفزه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافا للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته الذي قال اللّه تبارك وتعالى اسمه - له:

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ اه.

(131/447)

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ: أجمع عليهم، بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ: بكل راكب وماش في الضلالة، وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ: ما يكسبونه من حرام وينفقونه في معصية «1»، وَالْأَوْلادِ: إذا ولدوهم بالزنا «2»، أو عوّدوهم الضلالة والبطالة.

67 ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ: بطل، كقوله «3»: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ، أو غاب كقوله «4»: أَإِذا

ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ.

«الحاصب» «5» : الحجارة الصغار «6» . وقيل «7» : الريح التي ترمى

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 258 .

وأخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 15/ 119 عن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 444 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 258 .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (15/ 120 ، 121) عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 312 ، وزاد نسبته إلى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما . [. . . . .]

(3) سورة محمد : آية : 1 .

(4) سورة السجدة : آية : 10 ، ومصدره في القولين - فيما يبدو - تفسير الماوردي : 2/ 445 .

وانظر زاد المسير : 5/ 61 .

(5) في قوله تعالى : أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا

تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا [آية: 68].

(6) تفسير الطبري: 15/ 124، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 251.

(7) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 259.

وانظر تفسير الطبري: 15/ 124، وتفسير البغوي: 3/ 124.

(132/447)

بالحصباء، كما سمّي الجمار بالمحصّب لرمي الحصباء بها. وحصب في الأرض: ذهب فيها «1».

و «القاصف» «2»

: الريح التي تقصف الشّجر «3».

والتبيع: المنتصر الثائر «4».

71 يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ: بنبيّهم «5»، أو بدينهم وكتابهم «6»، أو بأعمالهم «7»، أو بقادتهم ورؤسائهم «8».

---

(1) اللسان: (1/ 319، 320) (حصب).

(2) في قوله تعالى: فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ

عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً [آية: 69].

(3) عن ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 259.

وانظر تفسير الماوردي: 2/ 445، والمفردات للراغب: 405، وتفسير البغوي:

3/ 125.

(4) معاني القرآن للفراء: 2/ 127، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 259،

وتفسير الطبري:

15/ 125، وتفسير البغوي: 3/ 125.

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 15/ 126 عن مجاهد، وقتادة.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 446 عن مجاهد، وابن عطية في المحرر الوجيز:

9/ 148 عن قتادة ومجاهد.

وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 65 إلى أنس بن مالك، وسعيد بن جبير، وقتادة،

ومجاهد.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 316، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم، وابن

مردويه، والخطيب عن أنس رضي الله عنه.

(6) ذكره الزجاج في معانيه: 3/ 253، والماوردي في تفسيره: 2/ 446، وابن

عطية في المحرر الوجيز: 9/ 148.

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (15/ 126، 127) عن ابن عباس، والحسن، والربيع بن أنس.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 446 عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(8) ذكر - نحوه - ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 259 عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 64، وقال: «قاله أبو صالح عن ابن عباس».

وأورد ابن عطية الأقوال التي قيلت في المراد ب «الإمام»، ثم قال: «ولفظة «الإمام» تعمّ هذا كله، لأن الإمام هو ما يؤتم به ويهتدى به في القصد ...».

(133/447)

---

72 وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى: أي: عن الطاعة والهدى، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى: عن طريق الجنة «1». أو من عمي عن هذه العبر المذكورة فهو عمّا غاب عنه من أمر الآخرة أعمى «2».

73 وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ: همّوا صرفك. في وفد ثقيف حين أرادوا الإسلام على أن يمتّعوا باللّات سنة ويكسر باقي أصنامهم «3».

74 لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ : هممت من غير عزم «4» ، وهو حديث النفس المرفوع.

75 ضِعْفَ الْحَياةِ : ضعف عذاب الحياة «5» ، أي : مثليه ، لعظم ذنبك

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 446 . [. . . . .]

(2) تفسير الطبري : 15/ 129 ، والمحرر الوجيز : 9/ 150 ، وتفسير القرطبي : 10/ 298.

(3) ذكر نحوه الزمخشري في الكشاف : 2/ 460 ، وقال الحافظ في الكافي الشاف : 100 : «لم أجده ، وذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند» .

وأخرج الطبري في تفسيره : 15/ 130 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : « . . . أن ثقيفا كانوا قالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم : يا رسول اللّه أجلنا سنة حتى يهدى لآلهتنا ، فإذا قبضنا الذي يهدى لآلهتنا أخذناه ، ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة ، فهمّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يعطيهم ، وأن يؤجلهم ، فقال اللّه : وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا .

وفي إسناده محمد بن سعد عن أبيه عن عمه عن أبيه ، وهذا الإسناد مسلسل بالضعفاء .

وقد تقدم بيان حالهم ، راجع ص (135) .

وانظر أسباب النزول للواحدي : 335 ، وتفسير البغوي : (3/ 126 ، 127) ، والفتح السماوي : 2/ 778 .

(4) قال ابن عطية في المحرر الوجيز: 9/ 155: «ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يركن، ولكنه كاد بحسب همه بموافقتهم طمعا منه في استئلافهم».

وقال الكرماني في غرائب التفسير: 1/ 367: «لولا تدل على امتناع الشيء لوجود غيره، فالممتنع في الآية إرادة الركون لوجود تثبيت اللّه إياه، هذا هو الظاهر في الآية» اه.

وانظر تفسير القرطبي: 10/ 300.

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 386، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 259، وتفسير الطبري: 15/ 132.

على شرف منزلتك. أو «الضعف» هو العذاب «1»، لتضاعف الألم كما هو عذاب لاستمراره في الأوقات، كالعذاب الذي يستمر في الحلق، ولما نزلت هذه الآية قال عليه السّلام «2»: «اللهم لا تكلني [إلى نفسي] «3» طرفة عين».

76 وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ، حين قالت اليهود: إن أرض الشّام أرض الأنبياء وفيها الحشر والنشر «4».

والاستفزاز: الاستخفاف بالإزعاج «5».

78 لِدُلُوكِ الشَّمْسِ: لزوالها «6». والآية جمعت الصلوات الخمس، لأنّه بدأ «7» من/ الزوال إلى «الغسق» وإلى قُرْآنَ الْفَجْرِ وهو صلاته، [56/ أ]

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 448، وانظر تفسير البيضاوي: 1/ 593.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره: 15/ 131 عن قتادة ورفعه، واللفظ عنده: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

وذكر مثله الماوردي في تفسيره: 2/ 448، وابن عطية في المحرر الوجيز: 9/ 154، والزمخشري في الكشاف: 2/ 461.

وقال الحافظ في الكافي الشاف: 101: «لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلا».

(3) في الأصل: «على طرفة عين»، والمثبت في النص عن الهامش و«ج»، الذي أشار ناسخه إلى وروده في نسخة أخرى.

(4) أخرج- نحوه- الطبري في تفسيره: 15/ 132، عن حضرمي.

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة: 5/ 254، عن عبد الرحمن بن غنم رضي اللّه عنه

وذكر الحافظ ابن كثير هذا القول في تفسيره: 5/ 97، وقال: «وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك»، ثم أورد رواية البيهقي، وقال: «وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالا لقوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ

الْكُفَّار وقوله تعالى :

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ ، وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه ، والله أعلم . . . » اه .

(5) معاني القرآن للفراء : 2/ 129 ، وتفسير الطبري : 15/ 132 ، والمفردات للراغب : 379 .

(6) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 129 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 387 ، وتفسير الطبري :

(15/ 135 ، 136) ، ومعاني الزجاج : 3/ 255 .

(7) في «ج» : مدّ .

(135/447)

سمّيت الصلاة قرآنا لتأكيد القراءة فيها «1» ، ونصب قُرْآنَ على الإغراء «2» .

كانَ مَشْهُوداً : يشهده ملائكة الليل وملائكة النّهار «3» .

79 نافِلَةً لَكَ : خاصة .

مَقاماً مَحْمُوداً : الشفاعة «4» . وقيل «5» : إعطاؤه لواء الحمد .

مُدْخَلَ صِدْقٍ : أي : أدخلني فيما أمرتني به وأخرجني عما نهيتني عنه «6» .

81 وَزَهَقَ الْباطِلُ : ذهب .

82 وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ : وذلك أنّه البيان الذي يزيل عمى الجهل وحيرة الشكّ ، وأنّه برهان معجز يدلّ على صدق الرسول ، وأنه يتبرّك به فيدفع به المضارّ والمكاره ، وأنّ تلاوته الصلاح الداعي إلى كل صلاح .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 450 ، وانظر معاني القرآن للزجاج : (3/ 255 ، 256) .

(2) والتقدير : وعليك قرآن الفجر إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً .

ينظر تفسير الطبري : 15/ 139 ، والتبيان للعكبري : 2/ 830 ، وتفسير القرطبي : 10/ 305 .

(3) ثبت ذلك في صحيح البخاري : (5/ 227 ، 228) ، كتاب التفسير ، باب قوله : إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً من رواية أخرجها عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعا .

وكذا في صحيح مسلم : 1/ 450 ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب «فضل صلاة الجماعة ، وبيان التشديد في التخلف عنها» عن أبي هريرة أيضا . [.....]

(4) يدل عليه ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: 5/ 228، كتاب التفسير، باب قوله:

عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً عن آدم بن علي قال: سمعت ابن عمر رضي اللّه عنهما يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا كلّ أمة تتبع نبيّها، يقولون: يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فذلك يوم يبعثه اللّه المقام المحمود».

وانظر صحيح مسلم: 1/ 179، كتاب الإيمان، باب «أدنى أهل الجنة منزلة فيها».

(5) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 451، دون عزو.

(6) نقله الماوردي في تفسيره: 2/ 452، عن بعض المتأخرين.

وأورده القرطبي في تفسيره: 10/ 311، وقال: «وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع».

(136/447)

وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً: لكفرهم به وحرمان أنفسهم المنافع التي فيه.

83 وَنَأى بِجانِبِهِ: بعّد بنفسه عن القيام بحقوق النّعم، كقوله «1»:

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ.

كان يَؤُساً : لا يثق بفضل الله «2» .

84 شاكِلَتِهِ : عادته أو طريقته التي تشاكل أخلاقه «3» .

طريق ذو شواكل : متشعب منه الطرق «4» .

85 قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي : من خلق ربّي ، لأنهم سألوه عنه :

أقديم «5» ؟ ، وإن كان معناه : من علم ربّي ، فإنما لم يجبهم عنه لأن طريق معرفته العقل لا السّمع ، فلا يجري القول فيه على سمت النّبوّة كما هو في كتب الفلاسفة ، ولئلا يصير الجواب طريقا إلى سؤالهم عما لا يعنيهم ، وليراجعوا عقولهم في معرفة مثله لما فيه من الرياضة على استخراج الفائدة .

وقيل في حد الروح : إنه جسم رقيق هوائيّ على بنية حيوانية في كل

---

(1) سورة الذاريات : آية : 39 .

(2) قال القرطبي في تفسيره : 10/ 321 : «أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط ، لأنه لا يثق بفضل الله تعالى» .

(3) في «ج» أخلاطه .

(4) ينظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 257 ، والكشاف : 2/ 464 ، واللسان : 11/ 357 (شكل) .

(5) وفي سبب نزول هذه الآية أخرج الإمامان البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود

رضي اللّه عنه قال : بينا أنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر عليه اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال : ما رابكم إليه ؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء تكرهونه ، فقالوا : سلوه ، فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي صلى اللّه عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا . فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

راجع صحيح البخاري : 5/ 228 ، كتاب التفسير ، باب «ويسألونك عن الروح» . وصحيح مسلم : 4/ 2152 ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب «سؤال اليهود النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الروح» ، وأسباب النزول للواحدي : 337 .

(137/447)

جزء منه حياة «1» .

86 وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ : أي : لمحوناه من القلوب والكتب «2» .

ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ : من تتوكّل عليه في ردّ شيء منه «3» .

87 إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ : أي : لكن رحم اللّه فأثبته في قلبك وقلوب المؤمنين «4» .

و«ينبوع» «5» يفعول من «ينبع بالماء» «6» ، أي : يفور .

92 كِسَفاً : قطعا «7» ، كسفت الثوب أكسفه وذلك المقطوع كسف .

---

(1) في تفسير الماوردي : 2/ 455 - عن بعض المتكلمين - : «أنه لو أجابهم عنها ووصفها بأنها جسم رقيق تقوم معه الحياة ، لخرج من شكل كلام النبوة ، وحصل في شكل كلام الفلاسفة ، فقال : مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، أي : هو القادر عليه» اه .

وأورد القرطبي في تفسيره : 10/ 324 الأقوال التي قيلت في «الروح» ، ثم عقب عليها بقوله : «والصحيح الإبهام لقوله : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي دليل على خلق الروح ، أي : هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر اللّه تعالى ، مبهما له وتاركا تفصيله ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإن كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز» اه .

(2) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : (15/ 157 ، 158) عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 258 ، وتفسير الماوردي : 2/ 455 ، وزاد المسير : 5/ 83 .

(3) عن معاني القرآن للزجاج : 3/ 259 ، وانظر تفسير الماوردي : 2/ 455 ،

وتفسير البغوي:

3/ 135.

(4) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 3/ 259.

(5) في قوله تعالى: وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً [آية: 90].

(6) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 390، ومعاني الزجاج: 3/ 259، وتفسير

القرطبي:

10/ 330.

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: 9/ 193: «و الينبوع»: الماء النابع، وهي صفة

مبالغة إنما تقع للماء الكثير». [.....]

(7) معاني القرآن للفراء: 2/ 131، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 390، وتفسير

غريب القرآن لابن قتيبة: 261، والمفردات للراغب: 431.

(138/447)

قَبِيلًا: معاينة نعاينهم «1»، أو جميعا من «قبائل العرب»، و «قبائل الرأس»: شؤونه

لاجتماع/ بعضها إلى بعض «2».

97 وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً : أي : عمّا يسرّهم.

بكما : عن التكلّم بما ينفعهم.

101 وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ : العصا، واليد، واللسان، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدّم «3».

مَثْبُوراً : مهلكا «4». قال المأمون لرجل : يا مثبور، ثم حدّث عن الرّشيد، عن المهدي، عن المنصور، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس - رضي اللّه عنه - أنّ «المثبور» ناقص العقل «5».

104 لَفِيفاً : جميعا من جهات مختلفة «6».

---

(1) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 390، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 261.

وأخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 162 عن قتادة، وابن جريج.

ورجحه الطبري بقوله : «وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قاله قتادة من أنه بمعنى المعاينة، من قولهم : قابلت فلانا مقابلة، وفلان قبيل فلان، بمعنى قبالته ...».

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 259، وتفسير البغوي : 3/ 137، والمحرر الوجيز : 9/ 197.

(2) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 457 عن ابن بحر.

(3) تفسير الطبري: (15/ 171، 172)، وتفسير الماوردي: 2/ 459، وتفسير ابن كثير:

5/ 122، والدر المنثور: 5/ 343.

(4) قال الزجاج في معانيه: 3/ 263: «يقال: ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك».

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 392، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 261، وتفسير الطبري: 15/ 176، وغريب الحديث للخطابي: 2/ 365، وتفسير القرطبي: (10/ 337، 338).

(5) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير: (5/ 94، 95)، وقال: «رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس».

وكذا القرطبي في تفسيره: 10/ 337.

(6) ينظر معاني القرآن للفراء: 2/ 132، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 262، وتفسير الطبري: 15/ 177، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 263.

106 مُكْثٍ: تثبّت وتوقّف «1» ليقفوا على مودعه فيعملوا به.

109 يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ: إذا ابتدأ المبتدئ يخرّ فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن «2».

110 أَيًّا ما تَدْعُوا: أي: أيّ أسمائه تدعو، و«ما» أيضا بمعنى «أيّ»، كررت مع اختلاف اللّفظ للتوكيد، كقولك: ما إن رأيت كالليلة ليلة.

111 وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً: أي: عما لا يجوز في صفته، أو صفه بأنّه أكبر من كلّ شيء «3».

انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 493.512﴾

---

(1) في تفسير الماوردي: 2/ 461 عن مجاهد.

وانظر الكشاف: 2/ 469، والمحرر الوجيز: 9/ 216، وزاد المسير: 5/ 97.

(2) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 264، وقال ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 98: «ويجوز أن يكون المعنى: يخرون للوجوه، فاكتفى بالذقن من الوجه كما يكتفى بالبعض من الكل، وبالنوع من الجنس».

وانظر القول الذي ذكره المؤلف في تفسير الفخر الرازي: 21/ 70، وتفسير القرطبي: 10/ 341.

(3) ذكر الماوردي هذين القولين في تفسيره: 2/ 464 دون عزو.

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الإسراء

عدد 50 - 17

نزلت في مكة بعد سورة القصص ، عدا الآيات 26 و32 و33 ومن 74 إلى 80 فإنهنّ نزلن بالمدينة ، وهي مئة وإحدى عشرة آية وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة ، وثلاثة آلاف وأربعمائة وستون حرفا ، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ومشتقاته ذكرناها أول سبّح اسم ربك المارة .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى : "سُبْحانَ" ابتدأت هذه السورة بهذا اللفظ وهو علم على التسبيح تقول سبحت تسبيحا ، فالتسبيح مصدر وسبحان علم عليه ، ولذلك تسمى سورة سبحان كما تسمى سوره بني إسرائيل والإسراء ، ومعناه تنزيه اللّه تعالى عن كل ما هو من شأن البشر وأحواله ، ومعناه لغة التباعد ، وعليه يكون المعنى بعد اللّه ونزاهته القصوى عن كل

ما لا ينبغي ، لأنه تعالت عظمته ليس كمثله شيء "الَّذِي أَسْرَى " وسرى بمعنى واحد ، يقال

(141/447)

أسرى به وسرى به ، ولا يقال صرى وأسرى إلا إذا كان المسير ليلا "بِعَبْدِهِ" محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وأضافه لنفسه اضافة تشريف وتبجيل وتعظيم ، لأنه صلّى اللّه عليه وسلم بلغ في هذا الإسراء أعلى الدرجات ، ودنا من أرفع المراتب ، وعلى ما لم يعلو عليه أحد روي أنه أوحي اليه بم شرفتك يا محمد ، قال بنسبتي إليك يا رب بالعبودية ، فأنزل اللّه هذه الآية العظيمة "لَيْلًا" والفائدة من ذكر كلمة ليلا مع أنه يغني عنه لفظ أسرى فضلا عن معلوميّته بمقتضى اللفظ ، هو تقليل مدة الإسراء الذي يدل عليه تنكير كلمة ليلا مع عظم ما وقع فيها من المعجزات الآتية الذكر وغيرها ، وإنما خص الليل لمزيد الاحتفال به صلّى اللّه عليه وسلم لأنه وقت الخلوة والاختصاص ومجالة الملوك ، ولا يكاد يدعو الملك لحضرته ليلا إلا من هو جليل عنده ، وهو أصل النهار والاهتداء به للقصد أبلغ ، ولأن المسافر قد يقطع بالليل ما لا يقطعه بالنهار ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار : وجاء في المثل (عند الصباح يحمد القوم السري) وقد أسرى به

ذهابا وإيابا ببعض الليل مسافة شهرين في الأرض "مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" مكة المكرمة "إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى" البيت المقدس ، وسمي أقصى إذ لم يكن إذ ذاك وراءه مسجد ، أما الآن والحمد لله فصار وراءه وبينهما مساجد كثيرة ، وأمامه ويمينه وشماله إلى أقصى الجهات المعمورة ، وفي أعظم البلاد الأجنبية التي تبعد عن مكة أشهرا ، فلم تبق قارة إلا وفيها مساجد للمسلمين "الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ" من جميع أطرافه بركة دينية معنوية ، وهي جعله مهبط الوحي وكفات الأنبياء ومقرهم وقبلتهم وبركة دنيوية حسية بالأنهار والأشجار ، وهو القبلة الأولى واليه محشر الخلائق ، وقد أسرينا بمحمد هذا الإسراء البديع وشرفناه بهذا التشريف الذي لم يكن لأحد من قبله "لِنُرِيَهُ

(142/447)

مِنْ آياتِنا" البديعة وعجائب قدرتنا المنيعة ، ونشرفه بمقامنا العظيم ، ونسرّه بكلامنا الجليل ، ونمتّعه بأشياء كثيرة ، ونتجلى عليه بذاتنا الكريمة ، واعلم أن لفظ كريم أفضل من غيره من الصفات الممدوحة التي يوصف بها ، إذ اختاره لذاته المقدسة دون غيره ، وهو أعلم بما يوصف به نفسه وما هو أليق بذاته المقدسة ، ولذلك وصفه بها ، قال تعالى :

(وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

الآية 3 من سورة العلق ، وقال تعالى : (ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) الآية 6 من سورة الانفطار ، ولا تجد وصفا في القرآن للقرآن أو الملائكة أو للجنان أو لمطلق كتاب أو للثواب أو للرسل أو للعرش إلا بلفظ كريم ، ولم يصفه الأنبياء إلا بهذا الوصف ، مثل قولهم (فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) الآية 40 من سورة النمل المارة ، وقال (ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ) كررها مرتين في سورة الرحمن ج 3 .

وأعلم أنه لا يقال إن إبراهيم أفضل من محمد عليهما الصلاة والسلام لقوله تعالى في حقّه : (وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) الآية 75 من سورة الأنعام في ج 2 ، لأن هذا الملكوت الذي رآه إبراهيم من بعض الآيات التي أراها اللّه إلى محمد وآيات اللّه لا تحصى ، وأفضاله لا تستقصى ، وإن سيدنا محمدا هو أفضل الأنبياء والرسل والملائكة على الإطلاق ، وقد أجمعت الأمة على تفضيله وعليه قولهم :

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمل عن الشقاق

ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا الزمخشري إذ يقول إن جبريل أفضل منه ، وهذا من جملة خلافياته وانشقاقه على أهل السنة والجماعة التي رجع عنها أخيرا كما يفهم من قوله :

يا من يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في لحمها والمخ في تلك العظام النحل

اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

وما قاله بعض المغالين في حقه بأنه أراد بتويته هذه عن الزمن الذي كان فيه قبل الاعتزال بعيد عن الحقيقة، ولفظ قوله هذا ومغزاه ينفيه، عفا اللّه عن الاثنين، "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ" لكل شيء يسمع أقوال عبده عند تشرفه به، ويجيب دعاءه حينما يدعوه، وهو أكرم من أن يرد أحدا فضلا عن الأنبياء الكرام "الْبَصِيرُ" 1 بشأنه المسدد لأفعاله وأعماله وأقواله ورموزه وإشاراته، قال تعالى في هذه الآية أسرى وباركنا على طريق الغيبة ثم قال إنه هو على طريق التكلم التفاتا، وهذا من أبواب المعاني والبديع بالكلام، ومن طرق البلاغة والفصاحة، وفي كلمة سبحان المصدرة بها هذه الآية معنى التعجب، لأن عروج الشيء الكثيف إلى العلو وخرقه له مما يتعجب منه، وقدمنا البحث في جواز الخرق والالتئام على سبيل خرق العادة

في الآيتين 38/ 40 من سورة يس وفي الآيتين 18/ 42 من سورة والنجم المارتين، وسنأتي على بيانه بعد بصورة أوضح وأكمل إن شاء اللّه.

مطلب وجوب الإيمان بالإسراء والمعراج وكفر من أنكر الأول وتفسيق من أنكر الثاني:

هذا وإن التعجب بعروجه لقصد الحق لأمر عظيم بين المحب والمحبوب أعجب من نزوله لقصد الخلق بينه وبين أمته ، وهذا كالفرق بين ولاية النبي ورسالته فإن الأولى بينه وبين مولاه والثانية بينه وبين الناس ، وإنما قال تعالى بعبده ولم يقل بنبيه أو رسوله لئلا يتوهم فيه ما توهمه الناس في عيسى عليه السلام من أنه انسلخ من الأكوان وعرج بجسمه إلى الملأ الأعلى مناقضا للعادات البشرية وأطوارها ، ولأن العبودية أفضل من النبوة لأنها انصراف من الخلق إلى الخالق ، والنبوة انصراف من الخالق إلى الخلق ، وشتان ما بينهما ، ولأن كلمة عبد عبارة عن الروح والجسد ، والبراق الذي ركب عليه في الإسراء من جنس الحيوانات يحمل الأجساد لا كما يقوله الغير من أنه عبارة عن البرق المعلوم الحاصل من احتكاك السحب بعضها ببعض ، وهو الذي أقل حضرة الرسول من مكة إلى القدس بسرعته وأعاده لموضعه ، وهذا أبلغ في القدرة لو كان لهذا القول أصل من نقل صحيح أو خبر قاطع وليس فليس ، أو لو كان العروج بالروح فقط كما يزعمه البعض أو حال النوم كما يقوله الغير أو حال الفناء كما توهمه الآخر أو حال الانسلاخ كما يظنه بعض المتصوفة والحكماء ، لأمكن ذلك ، على أن الذهاب بالروح يقظة ليس كالانسلاخ الذي ذهب هذا الأخيران إليه ، فإنه وإن كان خارقا للعادة إلا ان العرب لا تعرفه ، فليس محلا للتعجب ، ولم يقل به أحد من السلف كما فندناه في سورة يس المارة ، وعلى تلك الأقوال الواهية لا حاجه لذكر البراق ، لأن ما ذكر

فيها لا يحتاج إلى الحمل ، ولا محل لأن يستبعده المستبعدون أو ينكره الجاحدون استكبارا على اللّه القادر الفعال لما يريد ، لأن أهل الهيئة من جميع الملل يحصل لهم مثل ذلك ، وكثير من الناس من يرى اللّه في المنام ، ويوجد جماعة من أهل المعرفة يتوصلون إلى الانسلاخ فلا فضل فيه حينئذ ولا فخر ، ولا حاجة للإنكار والجدال وإنما القول الحق هو أنه صلّى اللّه عليه و

(145/447)

سلم أسرى بروحه وجسده يقظة من مكة إلى بيت المقدس ، ومن شك في هذا أو أنكره فهو كافر والعياذ باللّه لإنكاره القرآن صراحة ، هذا هو القول الفصل في الإسراء ، أما المعراج فهو قول ثابت كما سنورد عليك من الشواهد القوية والحجج الساطعة والدلائل القاطعة ما تقنع بثبوته ووقوعه ، ومن أنكره فقد خرق الإجماع ، ومن انشق على اجماع أهل السنّة والجماعة فإنه يفسق شرعا ولا تقبل شهادته ويوشك ان يدخله اللّه تعالى في معنى الآية 114 من سورة النساء من ج 2 ، لأن مخالفة العلماء مخالفة للرسول ومخالفة الرسول مخالفة للّه ، هذا وقد اجمع المفسرون على أن المراد بعبده في هذه الآية محمد صلّى اللّه عليه وسلم كما أجمعت على هذا أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فلم يختلف

عن ذلك أحد ، كما أنهم لم يختلفوا في الإسراء لما فيه جحود صراحة القرآن ومن شك لا حظ له في الإسلام هذا ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وليعلم ان العبودية أفضل من العبادة لأن العبادة تنقضي بالدنيا والعبودية باقية في الدنيا والآخرة ، وهي اشرف أوصاف العبد عند العارفين الكاملين ، وبها يفتخر المحب عند محبوبه قال :

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

فقال الآخر :

بالله إن سألوك عني فقل لهم عبدي وملك يميني وما أعتقته

(146/447)

و ذكر العلماء أن الله تعالى لم يعبّر عن أحد بالعبد مضافا إلى ضمير الغيبة المشار به إلى الهوية إلا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه من الإشارة وعلو الشارة ما فيه ، ومن تأمل أدنى تأمل بين قوله تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) الآية من سورة والنجم المارة وبين قوله (ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ) الآية 120 من المائدة من ج 3 بان له الفرق بين مكانة روح الله ومكانة رحمة الله ، ومن قابل بين قوله سبحان الذي أسرى الآية المارة وبين قوله (وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا) الآية 142 من سورة الأعراف المارة ، ظهر البعد بين مقام

الحبيب وبين مقام الكليم ، ومن وازن بين هذه الآية وآية (وَكَذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ) المارة من سورة الأنعام من ج 2 عرف البون بين مقام ذلك الخليل ومقام هذا الحبيب الجليل .

مطلب قصة المعراج والإسراء والمعجزات الواقعة فيهما :

(147/447)

وخلاصة القصة بناء على ما جاء في الأحاديث الصحيحة والأخبار الصريحة أنه صلّى اللّه عليه وسلم كان ليلة سبع وعشرين من شهر رجب سنة 51 من ميلاده الشريف ، وبدء السنة العاشرة من البعثة الجليلة التي أولها شهر رمضان ، لأن سنة الولادة أولها شهر ربيع الأول وكذلك سنة الهجرة أولها ربيع الأول ، وقد اعتبروا المحرم أولها اعتبارا ، كان نائما في بيت فاختة أم هانىء بنت أبي طالب بعد أن صلى الركعتين اللتين كان يتعبد فيهما قبل النوم ، وما جاء أنه كان بالحجر والحطيم وبين زمزم والمقام أقوال لم نعتمد على صحتها ولم نجد ما يقويها ، ويؤيد ما جرينا عليه ما روى عن أم هانىء أنها فقدت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من بيتها وامتنع النوم عنها مخافة عليه من قريش ، وأخبرت بني المطلب ، فتفرقوا في التماسه ، ورحل العباس إلى ذي طوى وهو يصيح يا محمد يا محمد ، هذا وقد اظهر اللّه له في إسرائه ومعراجه سبعين معجزة ، أولها أنه خرج عن سقف البيت سحر

تلك الليلة ، فنزل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام ، فأيقظه جبريل ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلم مالك يا أخى ؟ قال قم إن ربك بعثني إليك وأمرني أن آتيه بك في هذه الليلة بكرامة لم يكرم بها أحد قبلك ولا يكرم بها أحد بعدك ، فتكلم ربك وتنظر إليه ويريك عجائب عظمته وبدائع قدرته ومنافع ملكوته ، قال صلّى اللّه عليه وسلم فقمت وتوضأت وصليت ركعتين ، قال ثم إن جبريل عليه السلام تقدم إليّ وشق صدري ما بين الرّقوتين إلى أسفل بطني بإشارة منه ليس بآلة ما ، ولم أجد ألما ما ، ولا خرج مني دم ما ، معجزة على طريق خرق العادة - واستخرج قلبه الشريف ، وغسله بطست من ماء زمزم ثلاثا ، ونزع ما كان فيه من أذى ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء إيمانا وحكمة فأفرغه فيه .

تنبيه : من المعلوم أن الإيمان والحكمة ليستا من الأجسام بل هي معان ، والمعاني تمثل في الأجسام مجازا ، ولذا قال فأفرغه ، ويحتمل أنه عليه السلام جعل في الطست شيئًا ، يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتها ، فسمي إيمانا وحكمة لكونه سببا لهما .

قال ثم وضعت السكينة في قلبه الشريف ، وهذه أيضا من الأمور المعنوية التي لا تحتاج إلى حيّز محسوس ، ولا بد لهذه الأمور من عقيدة راسخة ،

وإيمان كامل ، وبصيرة طاهرة تعقلها وتصدق بها تصديقا لا مرية فيه .

ومن لا يؤمن بمثل هذه الأمور المعنويات يخشى على إيمانه ، لأنها قد تؤدي لإنكار ما هو أعظم والعياذ باللّه خصوصا فيما نحن فيه ، لإطباق العلماء على صحته وأكثر العارفين على حقيقته ، فالحذر الحذر من أن تشك يا أخي في هذه اليقينيات إذ قد يتطرق الشك فيها إلى كثير من أمور الدين ، فيسلب دين الشاك وتضمحل عقيدته في الإسلام والعياذ باللّه تعالى من حيث لا يشعر ، ولهذا يجب على المؤمن أن يسلم ويذعن لما جاء عن ربه ورسوله ، ولا يقيسها على الأمور الحسية فيصير إبليس الثاني راجع مقايسته في الآية 12 من سورة الأعراف المارة .

قال ثم أعاده إلى مكانه وأشار إلى صدره فالتأم كما كان ، وهذه معجزة ثالثة له صلّى اللّه عليه وسلم .

واعلم أن هذا الشق غير الذي وقع له في صغره عند ظئره حليمة ، وفيها أخرج الملك من صدره الشريف علقة سوداء دموية ، وقال له جبريل هذا حظ الشيطان منك .

وهي محل الغمز والوسوسة فلم يبق للخبيث حظ فيه ، ولهذا كان صلّى اللّه عليه وسلم في صغره لم يمل إلى ما يميل إليه الأولاد من اللعب واللهو ، وهكذا شأن الأنبياء في صغرهم كما مر في سورة مريم من شأن يحيى وعيسى ، ثم أنه شق صدره ثانيا حينما شرفه اللّه بالنبوة وغسل قلبه الشريف وأعيد لمحله على النحو المار ذكره لتحمل أعباء النبوة التي لا يقواها مطلق قلب ، وهذه المرة الثالثة لتصفيته للقاء ربه عزّ وجل وتخليصه من الأغيار ليتسنى له حفظ الأسرار الإلهية والكمالات الربانية التي ستلقى عليه .

الرابعة أن جبريل عليه السلام جاءه بخاتم من نور فختم على قلبه وبين كتفيه بخاتم النبوة ، وكان يراه الرائي بحسب مكانته عند اللّه وقدر محبته لرسوله واعتقاده به ، فمنهم من يراه مثل زر الحجلة (الخيمة) التي يغطى فيها السرير ويدخل في العروة ، ومنهم من يراه قطعة نور ، ومنهم من يرى فيه عبارة لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ، ومنهم من يرى غير ذلك ، ولكل وجهه .

مطلب في البراق والأقوال الواردة في المعراج :

الخامسة هي أنه صلّى اللّه عليه وسلم جيء بالبراق مسرجا وملجا وهو له دابة بيضاء لها بريق يلمع دون البغل وفوق الحمار ، خدّه خد إنسان وقوائمه قوائم بعير ، وعرفه عرف

فرس ، لا ذكر ولا أنثى ، فهو حقيقة أخرى كالملائكة ، فإنهم خارجون عن فحوى قوله تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ) الآية 49 من سورة الذاريات في ج 2 إذ لا عموم إلا وخص منه البعض ، قال وكان سرجه من اللؤلؤ وركاباه من الزبرجد ، ولجامه من الياقوت الأحمر يتلألأ النور من حليته ، وقال ما رأيت دابة أحسن منها ، وقال جبريل اركبه حتى تمضي إلى دعوة ربك ، قال فأخذ بلجامها جبريل ، وبركابها ميكائيل ، ووضع يده على خلفها إسرافيل ، فقصدت أن أركبها فجمحت ، وأبت أن تذعن ، فوضع جبريل يده على وركها وقال لها أما تستحين مما فعلت ، فو اللّه ما ركبك أحد أكرم منه على ربه ، فرشحت عرقا من الحياء ، وقيل في هذا :

ما كدى الميمون وانحلت عزائمه وأنت أنت الذي باليمن لاجمه

وإنما شهد الأملاك ساجدة إلى علاك فانحلت عزائمه

قال ابن دحية ووافقه الإمام النووي إن البراق لم يركبه أحد قبل النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم وإن قول جبريل ما ركبك أحد إلخ لا ينافيه ، لأن السالبة تصدق بنفي الموضوع وقالت يا جبريل لم أستصعب منه ، ولكن أريد أن يضمن لي الشفاعة يوم القيامة لأني علمت أنه أكرم الخلق على ربه ، فضمن لها ذلك ، فركبها قال صلّى اللّه عليه وسلم : فانطلق البراق يهوي يضع حافره حيث ينتهي طرفه .

واعلم أن الخلاف في المعراج والإسراء على ثلاثة أقوال : الأول أنه أسري بروحه وجسده يقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السموات إلى أن رأى ربه بعين رأسه كما سيأتى تفصيله ، وهذا ما عليه الجمهور من أهل السنة والجماعة .

الثاني أنه أسري بروحه وجسده يقظة وعرج بروحه فقط ، والقائلون بهذا ينكرون المعراج الحسيّ وسبق أن بينا آنفا أنهم يفسقون شرعا .

الثالث أنه أسري به وعرج به مناما ، وأصحاب هذا القول يكفرون كما مرّ بك ، لأن مثل هذا يتيسر لكثير من الناس ، ولا معنى حينئذ لاستعظامه وإنكاره ، ولا حاجة لتصادم الآراء فيه والقول باستحالته ، ولا لزوم لطلب الدليل عليه ، لأن النائم قد يرى نفسه في الشرق والغرب والسماء ولا يستبعده أحد ، وما قيل إن لفظ الرؤيا الواردة بالآية 60 الآتية تختص بالنوم

ليس على إطلاقه ، بل قد يكون في اليقظة ، قال الراعي يصف صيدا :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلبا كان جمّا بلابله

والحديث في هذا الشأن مروي عن معاوية ، وقد كان كافرا حين الإسراء ، وعن عائشة

وكانت صغيرة وليست بزوجة له صلّى اللّه عليه وسلم ، والحسن إنما رواه عنهما فلا عبرة به ، وما أخذه بعضهم من رواية شريك بن غزال طعن فيها الحفاظ فلا قيمة لها .

هذا واعلم أن إعطاء البراق قوة المشي على تلك الصفة معجزة سادسة .

والسابعة : قال بينا هو سائر على البراق إذ رأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة نارية كلما التفت رآه ، فقال له جبريل قل أعوذ بوجه اللّه الكريم وبكلماته التامة اللاتي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر من شرّ ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير ، يا رحمن ، فقالهن صلّى اللّه عليه وسلم ، فانكب لفيه ، وخرّ صريعا ، وطفئت شعلته .

الثامنة : وكشف له بطريق ضرب المثل فرأى قوما يزرعون ويحصدون في ساعة وكلما حصدوا عاد الزرع كما كان ، فقال ما هذا يا أخي يا جبريل ؟ فقال هؤلاء المجاهدون في سبيل اللّه ، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمئة ضعف ، وما أنفقوا من خير فهو يخلفه .

التاسعة : بينما هو سائر إذ نادى مناد عن يمينه يا محمد انظرني اسألك ، فلم يجبه ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ فقال هذا داعي اليهود ، أما أنك لو أجبته لتهوّدت أمتك .

العاشرة : ثم ناداه مناد عن يساره ، فلم يجبه أيضا ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا داعي النصارى ، أما لو أجبته لتنصّرت أمتك .

الحادية عشرة : ثم رأى امرأة حاسرة عن ذراعيها ، عليها من كل زينة ، جالسة على الطريق ، فقالت انظرني يا محمد أسالك ، فلم يلتقت إليها ، فقال من هذه يا جبريل ؟ فقال تلك الدنيا ، أما أنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

الثانية عشرة : ثم رأى عجوزا على جانب الطريق ، فقالت يا محمد انظرني فلم يلتفت إليها ، فقال ما هذه يا جبريل ؟ قال إنه لم يبق من عمر الدنيا إلا بقدر ما بقي من عمر هذه العجوز ، وفي عدم إجابته لهما دليل على أن حضرة الرسول غير مبال بها بالطبع ، لأنه لم يلتفت إليهما ، ولم يردّ عليهما ، وهكذا الأنبياء جبلوا على ترك الدنيا وحب الآخرة فطرة ، قالوا إن الدنيا شابة من آدم إلى إبراهيم ، وكهلة من إبراهيم إلى محمد ، وعجوز من محمد إلى القيامة .

الثالثة عشرة : إنه صلّى اللّه عليه وسلم رأى رجلا يجمع حزمة حطب لا يستطيع حملها ، وهو يزيدها ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال مثل الرجل من أمتك تكون عنده الأمانة فيكتمها عن صاحبها ويريد أن يحمل نفسه وزرا فوق أوزاره ، مما لا تقواه قواه ، راجع بحث الأمانة في تفسير الآية 8 من سورة المؤمنين في ج 2 وفي الآية 15 من آل عمران والآية 282 من البقرة وآخر سورة الأحزاب في ج 3 ، وفي سورة الماعون المارة ، قالوا اتق حروف

الشوك أي الكلمات المبدوءة بالواو كالوكالة والوصاية والولاية والوزارة والوديعة ، والكلمات المبدوءة بالشين كالشر والشره والشبع والشركة ، والكلمات المبدوءة بالكاف كالكيد والكفر والكفالة ، وكلام الفضول والكلب .

(153/447)

الرابعة عشرة : رأى صلّى اللّه عليه وسلم قوما ترضخ رؤوسهم وكلما رضخت عادت كما كانت ، فقال من هؤلاء يا جبريل ؟ قال الذين تتشاقل رءوسهم عن الصلاة المفروضة ، قال تعالى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ) الآية 4 من سورة الماعون المارة ، وإذا كان جزاء من يسهو عنها هكذا ، فكيف بمن يتركها ؟ وقد جاء عنه صلّى اللّه عليه وسلم : بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة .

ولهذا قال الإمام أحمد يقتل كفرا من يتركها عمدا .

الخامسة عشر : رأى صلّى اللّه عليه وسلم قوما على أقبالهم وأدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع (الشوك اليابس) والزقوم (ثمر شجر مرّ له زفرة لا يعرف في الدنيا وقد ذكرها اللّه في كتابه بقوله (إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) الآية 14 من الصّافات في ج 2 ، وفي الدنيا من نوعها (شجرة الحنظل) ورضف جهنم (أي حجارتها

المحماة) فقال من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم المفروضة عليهم ، ويحرمون من فضلهم فقراء اللّه راجع الآية 76 فما بعدها من سورة التوبة في ج 3 .

السادسة عشرة : رأى صلّى اللّه عليه وسلم قوما بين أيديهم لحم نيء ولحم نضج فيأكلون النيء الخبيث ويتركون النضج الطيب ، فقال ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال هذا مثل الزوجين من أمتك عندهما

الحلال فيأتيان الحرام ويدعان الحلال وهم الزناة .

راجع الآية 31 الآتية ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم من زنى زنى به ولو بحيطان داره .

أي لا بدّ من القصاص منه

ولو اختفت محارمه في داره .

فإنه ان لم يزن بهن خارجها يزنى بهنّ داخلها ، فعلى المؤمن الشهم أن يحفظ عرضه بالكفّ عن أعراض الناس .

(154/447)

السابعة عشرة رأى صلّى اللّه عليه وسلم خشبة في الطريق لا يمرّ بها ثوب ولا شيء إلا مزّقته ، فقال ما هذه يا جبريل ؟ قال هذه مثل أقوام من أمتك يقطعون الطريق وتلا الآية

85 من سورة الأعراف المارة .

الثامنة عشرة : رأى صلّى اللّه عليه وسلم رجلا يسبح في نهر من دم يلتقم الحجارة ، فقال من هذا ؟ قال هذا مثل آكل الربا .

راجع تفسير الآية 275 من سورة البقرة فما بعدها ، والآية 130 من آل عمران في ج 3 ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : لعن اللّه آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه .

التاسعة عشرة : رأى صلّى اللّه عليه وسلم قوما تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت ، فقال من هؤلاء ؟ قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، وقال تعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ) الآية 2 من سورة الصفّ ج 3 .

العشرون :

ورأى صلّى اللّه عليه وسلم قوما يخمشون وجوههم وصدورهم بأظفار نحاسية ، فقال من هؤلاء ؟

قال هؤلاء مثل الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم ، وقال تعالى (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) راجع تفسيرها المار ذكره .

الحادية والعشرون : ورأى صلّى اللّه عليه وسلم حجرا يخرج منه ثور عظيم يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع ، فقال من هذا يا جبريل ؟ قال هذا مثل الرجل من أمتك يتكلم

الكلمة العظيمة ثم يندم فلا يستطيع ردّها ، وقد جاء في الخبر من كثر لغطه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه فالنار أولى به .

وقال : وهل يكبّ الناس في النار على وجوهم إلا حصائد ألسنتهم .

الثانية والعشرون ، ورأى صلّى اللّه عليه وسلم واديا طيبا باردا وريحا مسكية شذية ، وسمع صوتا رقيقا ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا صوت الجنة ، تقول ربّ آتيني ما وعدتني ، فقد كثر فيّ ما لا نظائر له ولا أشباه .

اللهم اجعلنا من أهلها .

(155/447)

الثالثة والعشرون : ورأى صلّى اللّه عليه وسلم واديا خبيثا وريحا منتنة ، وسمع صوتا منكرا بذيا ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا صوت جهنم تقول

ربّ آتني ما وعدتني فقد كثر في ما لا تقواه العصاة ، راجع الآيتين 10/ 41 فما بعدهما من سورة الواقعة المارة في الجنة وأهلها والنار وأهلها أعاذنا اللّه منها .

الرابعة والعشرون .

ورأى صلّى اللّه عليه وسلم شخصا متنحيا عن الطريق والطريقة الإسلامية ، يقول هلم يا

محمد ، فقال جبريل سرّ يا محمد ، قال من هذا يا أخي ؟ قال هذا عدوّ اللّه إبليس ، أراد أن تميل إليه ، وقد وقعت هذه المبادرة من شفقة جبريل عليه السّلام على حبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، إذ قال له سرّ قبل أن يسأله عنه ، خلافا لعادته ، لما يعلم من حاله عليه اللعنة .

الخامسة والعشرون : ورأى محمد موسى عليهما الصلاة والسلام يصلّي في قبره عند الكثيب الأحمر ، ويقول أكرمته وفضلته ، ويرفع صوته ، فقال من هذا يا جبريل ؟ قال موسى بن عمران ، قال ومن يعاتب ؟ قال يعاتب ربّه فيك ، قال ويرفّع صوته على الحضرة الجلالية ؟ قال قد عرف حدّته التي جبله عليها (العتاب مخاطبة فيها إدلال) ، فنزل وصلى ركعتين عنده .

السادسة والعشرون : ورأى شجرة عندها شيخ وعياله ، فقال من هذا ؟ قال هذا أبوك إبراهيم عليه السلام ، فسلّم عليه وردّ عليه السلام ، فقال إبراهيم يا جبريل من هذا الذي معك ؟ قال ابنك محمد ، فقال مرحبا بالنبي العربي ودعا له بالبركة (كان ابراهيم تحت تلك الشجرة) فنزل فصلى ركعتين وسار حتى أتى الوادي الذي فيه بيت المقدس .

السابعة والعشرون : ورأى جهنم تنكشف عن مثل الزرابي أي الوسائد ، قال كيف وجدتها يا رسول اللّه ؟ قال مثل الحمة أي الفحمة .

الثامنة والعشرون : قال وبقي حتى انتهى إلى إيلياء من أرض الشام ، أي مدينة القدس ، فرأى جمعا غفيرا من الملائكة يستقبلونه صلّى اللّه عليه وسلم ، فدخلها من الباب اليماني الذي فيه تمثال الشمس والقمر .

التاسعة والعشرون : قال ولما انتهى إلى البيت المقدس كان على الباب حجر كبير فخرقه جبريل وربط به البراق ، وهذه معجزة ، لأن البراق لا يحتاج إلى الربط ، ولأن الحجرة لا تخرق باليد ، قال أبو سفيان لقيصر عند ما سأله عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كما في حديث البخاري من أنه هل يكذب ؟

قال لا ولكن زعم أنه ذهب من حرمنا إلى مسجدكم ورجع في ليلة واحدة ! ولما قال له هل يغدر قال لا ، ونحن عنه في مدة ، ليفهمه في هذه بأنه لعله وقع منه

الغدر بعد غيابه عنه وليستعظم ما ذكره في الجملة الأولى فيتهم بالكذب ، وكان بطريق عنده فقال أنا أعرف تلك الليلة التي جاء بها نبيّكم ، كنت أغلق أبواب المسجد وقد استعصى على الباب الفلاني (الذي دخل منه حضرة الرسول بموكبه المار ذكره آنفا) فاستعنت بعمال فلم يقدروا قالوا إن البناء نزل عليه ، فتركناه ، فلما أصبحنا رأيت الحجر الذي في زاوية الباب مثقوبا وبه أثر ربط دابة ، ولم أجد فيه ما يمنعه من الانغلاق ، فعلمت أنه لأجل ما علمته قديما أن نبيا يصعد من بيت المقدس إلى السماء ، فقلت لأصحابي هذا

ربط البراق بحجر الباب هو الذي منع من الانغلاق ، أي بسبب وجود الحبل الذي لم نره لأنه من خوارق العادة ، وإلا لرأينا البراق إن لم نر الحبل ، وقد تركت هذه آية حسيئة ليطلع عليها ، وإلا فإن جبريل لا يمنعه انغلاق الباب ولا غيره اه من روح البيان .

الثلاثون : ورأى صلّى اللّه عليه وسلم الحور العين باستقباله أيضا ، فسلم عليهن فرددن عليه السلام ، فقال من أنتن ؟ قلن خيرات حسان قوم أبرار نقوا فلم يدنّسوا يدرّنوا ، وأقاموا فلم يضعفوا ، وخلدوا فلم يموتوا .

(157/447)

ثم دخل المسجد ونزلت الملائكة الذين كانوا في استقباله إلى الأرض .

الحادية والثلاثون : أحيا اللّه له آدم فمن دونه من الأنبياء من سمى ومن لم يسم (فى كتابه) فرآهم في صورة مثالية كهيئاتهم الجسدانية ، إلا عيسى وإدريس والخضر والياس فإنه رآهم بأجسادهم الحقيقية الدنيوية ، لأنهم من زمرة الأحياء ، فسلموا عليه جميعهم وهنأوه بما أعطاه اللّه من الكرامة ، وقالوا الحمد للّه الذي جعلك خاتم الأنبياء فنعم النبي والأخ أنت ، وأمتك خير الأمم .

تنبيه : إن الخضر صاحب موسى عليه السلام لم تجمع الكلمة على نبوّته كعزير ولقمان وذي

القرنين ، ومجيئه هنا مع الأنبياء كون الكلمة مجمعة على حياته .

الثانية والثلاثون : قال جبريل إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم تقدم فصل بإخوانك الأنبياء فصلى بهم ركعتين ، وكان خلفه إبراهيم وعن يمينه إسماعيل ، وعن يساره إسحق عليهم السلام ، قيل كانوا سبعة صفوف ثلاثة من المرسلين وأربعة من الأنبياء ، قال في منية المصلى إمامته صلّى اللّه عليه وسلم ليلة الإسراء لأرواح الأنبياء كانت في النافلة المطلقة التي تكون فيها الصلاة جماعة ، كالتراويح وشبهها وهذا هو الحكم الشرعي : فقد جاء في مجمع البيان عن مقاتل أن قوله تعالى في الآية 45

من الزخرف في ج 2 (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا) إلخ ، نزلت في هذه الليلة كما سيأتي في تفسيرها إن شاء اللّه .

(158/447)

الثالثة والثلاثون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم أخذني العطش فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر ، فأخذت اللبن بتوفيق اللّه فشربت منه ، فقال جبريل أصبت الفطرة ، أما انك لو شربت الخمر لغوت أمتك كلها ، ولو شربت اللبن كله لما ضل أحد من أمتك بعدك ، فقلت يا جبريل ردّ إناء اللبن علي حتى أشربه كله ، فقال قضي الأمر وتلا عليه (لِيَقْضِيَ

اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا) الآية 42 من الأنفال في ج 3 ، وهذا من شدة حرصه صلّى اللّه عليه وسلم على صلاح أمته ولكن ما لم يرده اللّه لا يكون ، وإلا كما وفقه للبن الذي مادته ملائمة للعلم والحكمة ، لوفقه إلى شربه كله .

الرابعة والثلاثون : ثم قال جبريل قم يا محمد ، فقمت فإذا بسلّم من ذهب قوائمه من فضة مرصع باللؤلؤ والياقوت ، يتلألأ نوره ، وإذا أسفله على صخرة بيت المقدس ورأسه في السماء وهو المعراج الذي تبرج عليه أرواح الأنبياء وسائر بني آدم .

ذكرنا في الآية 85 من سورة الواقعة المارة أن المحتضر يشخص بصره إلى السماء فتخرج روحه وهو على هذه الحالة ، وذلك لأنه يرى هذا المعراج الذي تصعد عليه روحه ، فيعجب من حسنه فيتبعه بصره ، حتى إن أكثر الأموات تبقى عيونهم مفتوحة وعليهم بسمة ، لأن المؤمن تفتح لروحه أبواب السماء والكافر تردّ روحه إلى سجين ، فيزداد حسرة وندامة وكآبة ، فيزرق وجهه والعياذ باللّه .

مطلب الورد الأحمر والأصفر والمواليد الثلاثة والحركة القسرية :

الخامسة والثلاثون : قال صلّى اللّه عليه وسلم لما عرج بي إلى السماء بكت الأرض من بعدي فنبت الأصفر (أي الزهر الأصفر) فلما رجعت قطر عرقي على الأرض فنبت الورد الأحمر ، ألا من أراد أن يشم رائحتي فليشم الورد الأحمر .

رواه أنس مرفوعا قال أبو الفرج النهرواني هذا قليل من كثير مما أكرم اللّه نبيه ، على أن هذا لا يستلزم عدم وجود ورد أصفر وأحمر قبل ذلك ، إلا أن هذا من باب الكرامة لحضرته الزكية زيادة على ما كان ، ولهذا جرت العادة أن من يشم وردا له رائحة طيبة يصلي على محمد صلّى اللّه عليه وسلم أخذا من هذا .

ونظيره على ما قيل إن حواء عليها السلام لما هبطت إلى الأرض بكت فما وقع من قطرها في البحر صار لؤلؤا ، وما وقع في الأرض صار زهرا .

وهذا أيضا لا يستلزم عدم وجود اللؤلؤ والزهر في البحر والبر قبل ذلك .

ومنه أن إبراهيم عليه السلام ذرّى كفا من كافور الجنة فما وقع منه درة في الأرض إلا صارت سبخة ، وكان الملح موجودا قبل ذلك أيضا ، فلا تستكثر أيها القارئ شيئا على حضرة الرسول الذي أكرمه اللّه بأنواع الكرامات ولا تستعظم شيئا على خلق الأرض والسموات الذي منح الإنسان عقلا أوصله إلى أن يطير في الهواء ، وأن يستخدم الأثير فيسمع به صوت الشرق الغرب والجنوب الشمال بلحظة ، وإلى اختراع الأشعة التي تخترق القلوب من حجب الأجسام فيكشف ما فيها ، والذرة التي نسمع فيها ، وكذلك التلفزيون الذي يريك من تسمع صوته من تلك المسافات ، ولا ندري ما ذا يحدث بعد مما أشار اللّه تعالى إليه في الآية 23 من سورة يونس في ج 2 ، أبعد هذا الذي أعطاه إلى عباده مؤمنهم

وكافرهم يستغرب أن يمنح من خلق الكون لأجله ما قرأته وسمعته ؟ كلا ثم كلا .

السادسة والثلاثون :

لما صعد السلم ومعه جبريل كان جسده تابعا لروحه ، وإلا لتعذر عليه العروج.

واعلم أنّ لصورته صلّى اللّه عليه وسلم صورة ولمعناه معنى ، وكل منهما خلاف ما تتصوره الأوهام ، لأن السير الملكوتي لا يقاس على السير الملكي ، لكن عالم الملكوت مشتمل على ما هو صورة ومعنى ، والصورة هناك تابعة للمعنى كحال صاحب الإسراء ، وهنا بحث :

(160/447)

اعلم وفقك اللّه هداه وأرشدك لما به النجاة ، إن المعدن والنبات والحيوان مركبات تسمى المواليد الثلاثة ، آباؤها الأجرام الأثيرية التي هى الأفلاك بما فيها من الأجرام النيرة ، وأمهاتها العنصريات الأربع التي هي الأرض والماء والهواء والنار ، فالأرض ثقيل على الإطلاق والماء ثقيل بالاضافة للهواء والنار وهو محيط بأكثر الأرض .

والهواء خفيف مضاف إلى الثقلين بطلب العلو ، وهو محيط بكرة الأرض ، والماء والنار خفيف على الإطلاق يحيط بكرة الهواء ، وان النبي صلّى اللّه عليه وسلم جاوز هذه العناصر ليلة المعراج بالحركة القسرية ، وهي غير منكرة عندنا وعند المحيلين لهذا الإسراء

الجسماني ، لأنا نأخذ الحجرة وطبعها النزول فنرمي بها في الهواء فتصعد خلافا لطبعها لأنه يقتضي الحركة عند المركز ، فصعودها بالهواء عرض بالرمي وهو الحركة القسرية وبطبعها لأنها على طبيعة تقبل الحركة القسرية ولو لم يكن ذلك في طبعه لما انفعل لها ولا

(161/447)

قبلها وكذلك اختراقه عليه السلام الفلك الأثيري وهو نار بقوة جعلها اللّه فيه حال الصعود والهبوط ، والجسم الإنساني مهيأ مستعد لقبول الاحتراق والمانع من الاحتراق أمور يسلمها الخصم وهي الحجب التي خلقها اللّه تعالى في جسم المسري به فلم يكن عنده استعداد الانفعال للحرق كبعض الأجسام المطلية بما يمنعها من الاحتراق بالنار ، والأجساد غير القابلة له كالورق غير المنحرق وجلد السندل الذي يعيش بالنار ، أو أمر آخر وهو أن الطريق الذي اخترقه ليس النار فيه إلا محمولة في جسم لطيف ، ذلك الجسم هو المحرق بالنار فسلب عنه النار وحل على ضدها ، كنار إبراهيم عليه السلام الثابتة بالنص الإلهي أنها صارت على إبراهيم بردا وسلاما ، راجع الآية 69 من سورة الأنبياء في ج 2 ، ومثله نار التنور الذي ألقي فيه موسى الوارد في تفسير الآية 8 من سورة القصص المارة ، فإن من

جعلها بردا وسلاما على خليله إبراهيم وكليمه موسى قادر على أن يجعلها على حبيبه محمد كذلك .

(162/447)

هذا ، وان استحالة البعد الشاسع مرفوعة عنه صلّى اللّه عليه وسلم ، إذ ثبت علميا أن مسافة قطر الأرض كلها ألفان وخمسمائة وأربعون فرسخا ونصف فرسخ ، وان مسافة قطر كرة الشمس خمسة أمثال ونصف مثل قطر جرم الأرض ، وذلك أربعة عشر ألف فرسخ ، وان طرف قطرها المتأخر يصل إلى موضع طرف المتقدم في ثلثي دقيقة ، فتقطع الشمس بحركة الفلك الأعظم أربعة عشر ألف فرسخ في ثلثي دقيقة من ساعة مستوية ، راجع الآية 34 من سورة الأعراف المارة تعرف المستوية والمعوجة ، فالذي يعطي هذه القوة العظيمة للشمس ويسير المراكب التي هي كالجبال في البحر والطائرات كالقلاع في الهواء وكذلك الصواريخ الجسيمة وينقل الصوت من وراء البحار مسافة آلاف من الأميال بقوة النار والكهرباء والبخار مما علمه البشر ، أما يمنح تلك القوة حبيبه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ؟ بلى يعطيه ذلك وأكثر وأعظم ، ولا يستعظم هذا على اللّه الذي قبضته الأرض والسموات مطويات بيمينه (راجع الآية 67 من الأنبياء في ج 2) ألا من لم يؤمن به

الداخل في قوله تعالى (بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) إلخ الآية 39 من سورة يونس في ج 2 .

هذا ، وقد ذكر الإمام في الأربعين أن الأجسام متساوية في الذوات والحقائق ، وإذا كان كذلك وجب

أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر من الأعراض ، لأن قابلية ذلك العرض إن كان من لوازم تلك الماهية ، فأينما حصلت الماهية حصل ذلك العرض ، فلزم حصول تلك القابلية من إحراق وعدمه ، فوجب أن يصحّ على كل منها ما يصح على الآخر ، وإن لم يكن من لوازمها كان من عوارضها ، فيعود الكلام فيه كما هو من لوازم الماهية ، أي أينما وجد العرض وجدت القابلية ، فإن سلم فيها وإلا دار الأمر وتسلسل ، وذلك محال ، فلا بد من القول بالصحة المذكورة ، واللّه تعالى قادر على جميع الممكنات فيقدر على خلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم أو في بدن ما يحمله أو فيهما معا ، (وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) الآية 19 من سورة إبراهيم في ج 2 .

السابعة والثلاثون : قال ثم عرج بي حتى انتهيت إلى بحر أخضر عظيم ، أعظم ما يكون من البحار ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟

قال هذا بحر في الهواء لا شيء فوقه يتعلق به ، ولا شيء تحته يقرّ عليه ، ولا يدري قدر عمقه إلا اللّه تعالى ، ولولا حيلولة هذا البحر لاحترق ما في الدنيا من حر الشمس .

وهذا مما ينكره الفلكيون والطبيعيون ومن لا عقيدة له ، ونحن نعترف به لأنا نعلم أن القادر على خلق الدود في الثلج والسندل في النار والسمك في الماء والطير في الهواء الذي علم البشر صنع الطائرات والراد والذرة والصواريخ وغيرها كالغواصات وشبهها قادر على ذلك وأكثر ، فإن كان ما ورد فيه حقا عن حضرة الرسول وهو لا ينطق عن هوى فقد أصبنا الهدف وقدرنا اللّه حق قدره ، وإلا فلا يضرنا أن نعتقد به لعلمنا بقدرة اللّه ، بخلاف ما لو كذّبناه ، وكان له حقيقة ، فتكون ممن لم يقدر اللّه حق قدره .

(164/447)

أنظر ما قاله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون (وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) الآية 39 من سورة المؤمن في ج 2 ، ونحن نخاف إن كذبنا أن يصيبنا وبال تكذيبنا ولهذا فإنا نصدق به لأن تصديق ما لا مضرة له في الدين أحسن من تكذيبه ، فالتصديق له ما له والتكذيب فيه ما فيه .

الثامنة والثلاثون : قال ثم انتهيت إلى السماء الدنيا واسمها رفيع ، فأخذ جبريل بعضدي

وضرب بابها وقال افتح .

اعلم أن جبريل لا يحتاج إلى فتح باب السماء لأنه لا يحجبه حاجب ، وإنما استفتح لأن معه محمدا الإنسان الكامل (وهذا مما يدلّ على أن العروج كان بالروح والجسد ، إذ لو كان بالروح فقط لما استفتح بل لدخل جبريل على عادته ، ودخلت معه الروح التي هي من أمر اللّه ، وهذا كاف للرد على القائلين به (أما القول الثالث بأنه كان في الرؤيا فغير محتاج للردّ لأنه مردود طبعا) ، قال له الحارس من أنت ؟

قال جبريل ، قال ومن معك ؟ (إنما سأله لأن استفتاحه على غير عادته لأن اللّه أعطاه قوة الاختراق بحيث ينزل من السماء ويصعد إليها بأقل من لحظة) قال محمد ، قال أوقد بعث إليه ؟ قال نعم ، قال الحمد لله ، ففتح ودخلنا .

قال صلّى اللّه عليه وسلم :

فلما نظر إليّ قال مرحبا بك يا محمد ، ونعم المجيء مجيئك ، فقلت يا جبريل من هذا ؟ قال ملك اسمه إسماعيل خازن سماء الدنيا ، وهو ينتظر قدومك ، فدنوت منه وسلمت عليه ، فردّ علي السلام وهنأني وقال أبشر ، فإن الخير كله فيك وفي أمتك ، قال جبريل يا محمد إن

هذا الملك لم يهبط إلا عند قبض ملك الموت روحك الشريفة ، فرأيت وإذا جنوده قائمون صفوفا لهم زجيل بالتسبيح ، يقولون سبوحا سبوحا لرب الملائكة والروح ، قدّوسا قدّوسا لرب الأرباب ، سبحان العظيم الأعظم ، وكانت قراءتهم سورة الملك ، فرأيت فيهم كهيئة عثمان بن عفان ، فقلت بم بلغت هذا ؟ قال بصلاة الليل .

التاسعة والثلاثون : قال ثم انتهيت إلى آدم عليه السلام ، فإذا هو كهيئته يوم خلقه اللّه على غاية من الحسن والجمال ، وكان تسبيحه سبحان الجليل الأجل ، سبحان الواسع الغني ، سبحان اللّه العظيم وبحمده ، وإذا تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول روح طيبة في جسد طيب ، ويقول اجعلوها في علّيّين ، وتعرض عليه أرواح ذريته الكافرين فيقول روح خبيثة في جسد خبيث ، ويقول اجعلوها في سجّين ، وذلك قبل أن تدخل السماء ، لأن اللّه تعالى قال فيهم : (لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ) الآية 39 من الأعراف المارة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم فنفذت وسلمت عليه ، فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح .

الأربعون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ورأيت رجالا لهم مشافر (شفاه) كمشافر الإبل ، وفي أيديهم قطع من نار كالأفهار (الحجارة المستطيلة) التي كل واحدة منها ملء الكف يقذفونها بأفواههم فتخرج من أدبارهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال أكلة أموال اليتامى راجع الآية 9

من سورة النساء في ج 3 .

الحادية والأربعون : قال ثم رأيت رجالا لهم بطون أمثال البيوت ، فيها حيات يراها الرائي من خارجها بطريق آل فرعون ، يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار ، لا يقدرون أن يتحولوا عنها من مكانهم ذلك ، فتطأهم آل فرعون ، قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في قصة الاسراء قال انطلق بي جبريل إلى رجال كثير كل رجل بطنه مثل البيت الفخم ، منضدين على سابلة آل فرعون ، وساق الحديث ، وتقدم آنفا أن اللّه تعالى مثل له أكلة الربا في الأرض بغير هذا الوصف كما مر في المعجزة الثانية عشرة ، الثانية والأربعون : قال ثم رأيت اخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد ، وأخرى عليها لحم نتن عليها أناس يأكلون ، قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال الذين يأكلون الحرام من أموال الناس ويتركون الحلال ، وتنطبق هذه على الزناة الممثل لهم في الأرض بغير هذا الوصف كما مر في المعجزة السادسة عشرة ، وإنما كرر التمثيل لهذين الجنسين لقبح فعلهم وفظاعته عند اللّه تعالى .

الثالثة والأربعون : قال ثم رأيت نساء معلقات بأثديتهن فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال

هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال ما ليس من أولادهن ، أي ليس من نطف أزواجهن .

الرابعة والأربعون :

قال عليه السلام ثم عرج بي إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد بعث إليه ؟ قال نعم ، ففتح لنا ، فإذا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ، يشبه أحدهما صاحبه بثيابهما وشعرهما وحسنهما وقربهما من السن أيضا لأن يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر فقط ، وقتل بعد بعثة عيسى ، أي رسالته لانه نبيء في المهد ويحيى نبيء وأرسل وهو صغير ، راجع الآيتين 12 و20 من سورة مريم المارة .

ومعهما نفر من قومها ، فرحبا بي ، ودعيا لي بخير .

(167/447)

الخامسة والأربعون : قال ثم عرج بي إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل من معك ؟ قال محمد ، لم ينسبه جبريل لخزان السموات ولا لغيرهم من الملائكة لأنهم يعرفونه من يوم حمله وولادته وبعثته (والمراد بقولهم أو بعث إليه أي للعروج إلى ربه لا البعثة إلى الخلق لانها معلومة عندهم أيضا وهم ينتظرون عروجه لزيارة ربه والتشرف برؤيته التي خصّه بها دون

غيره ، وان الملائكة يتباشرون بها ليتمتّعوا برؤيته الشريفة لذلك يقولون) أو قد بعث إليه ؟ قال نعم ، ففتح لنا فإذا يوسف عليه السلام ، وقد أعطي سطر الحسن ، ومعه نفر من قومه ، فرحب بي ودعا لي بخير .

السادسة والأربعون : قال ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد بعث إليه ؟ قال نعم ، ففتح لنا : فإذا بإدريس عليه السلام ، فرحب بي ودعا لي بخير ، راجع الآية 57 من سورة مريم المارة .

السابعة والأربعون : ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد بعث إليه ؟ قال نعم ، ففتح لنا فإذا بهارون عليه السلام ولحيته إلى سرّته وحوله قوم من بني إسرائيل يقصّ عليهم ما وقع له ولأخيه موسى عليهما السلام مع القبط وبني إسرائيل في حالة الدنيا ، فرحب بي ودعا لي بخير .

(168/447)

الثامنة والأربعون : قال ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد بعث إليه ؟ قال نعم ، ففتح لنا فإذا

بموسى عليه السلام فرحّب بي ، ودعا لي بخير ، فلما جاوزته بكى فقيل ما يبكيك ؟ قال أبكي لان غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي ومن سائر الأمم (وهذا منه إشفاق على أمته لا حسدا بأمة محمد ، وقوله غلام على سبيل التعظيم ولا يجوز أن يتصوّر غير هذا المعنى في كلامه عليه السلام ، لأن كمّل الخلق مطهرون من الحسد وغيره ، فكيف بالأنبياء ولا سيما أولى العزم .)

التاسعة والأربعون : قال ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد بعث إليه ؟ قال نعم ، ففتح لنا ، فإذا بإبراهيم عليه السلام ، فسلمت عليه فردّ علي السلام ، فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح (هذا وان محمدا صلّى اللّه عليه وسلم قد أمر بالسلام على الأنبياء في الأرض والسماء ، مع أنه أفضل منهم ، لأنه عابر عليهم ، فهو في حكم القائم وهم في حكم القعود ، والقاعدة الشرعية أن يسلم القائم على القاعد ، وفي هذا دلالة على استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام اللين الحسن ،

وإن كان الزائر أفضل من المزور ، وفيه جواز مدح الإنسان في وجهه إذا أمن عليه من العجب وغيره من أسباب الفتنة ، والذين رآهم هم أرواح الأنبياء مشكلة بصورهم التي كانوا عليها في الدنيا عدا عيسى وإدريس والخضر والياس ، وقد مر سبب ذلك في المعجزة الثلاثين المارة) ، وإذا به رجل أشمط جالس بجهة باب الجنة ، مسند ظهره إلى البيت المعمور (استدل من هذا جواز إسناد الظهر إلى الكعبة المشرفة واستقبال الناس بوجهه سواء فيها أو في غيرها من المساجد) ورأى الملائكة يطوفون فيه طواف الناس بالبيت الحرام ، ورأى له بابين ، فقال في نفسه لو أن قومي لم يكونوا حديثي عهد بالإسلام لهدمت الكعبة وجعلت لها بابين .

ولهذا فإن عبد اللّه بن الزبير لما تغلب على الحجاز هدم الكعبة وبناها وجعل لها بابين تطبيقا لرغبة حضرة الرسول وهو في قبره ، وتشبيها بالبيت المعمور الواقع فوق الكعبة ، بحيث لو سقط منه حجر لسقط على الكعبة ، ولكن الحجّاج عليه ما يستحق من اللّه هدمها وأعادها على ما كانت عليه بحجة ، أن عمل ابن الزبير بدعة ، وياء يخشى البدعة ويرتكب الموبقات) قال وان البيت المعمور من عقيق محاذ إلى الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من باب ويخرجون من الباب الآخر لا يعودون إليه أبدا .

الخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم وإذا أنا بأمتي شطرين شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد ، قال فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم

الثياب البيض ، وحجب الآخرون ، فصليت فيه ركعتين ، وقال لي إبراهيم أقرئ أمتك منّي السلام وقل لهم يكثروا من به غراس الجنة طيّبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .

(170/447)

الحادية والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم واستقبلتني جارية لعساء أي شفتيها تضرب إلى السواد وهو وصف مستملح فيهن فقلت لها أنت لمن قالت لزيد بن حارثه أي الذي تبناه صلّى اللّه عليه وسلم وزوجه بنت عمته ثم طلقها وتزوّجها هو فآثره اللّه بدلها في الجنة كما آثر حضرة الرسول في الدنيا على ماله ونفسه .

الثانية والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ورأيت فوجا من الملائكة نصف أبدانهم من النار والنصف الآخر من الثلج ، فلا النار تذيب الثلج ، ولا الثلج يطفىء النار ، وهم يقولون اللهم كما ألفت بين النار والثلج ألف

بين قلوب عبادك المؤمنين .

الثالثة والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم ذهب بي جبريل إلى سدرة المنتهى وهي شجرة فوق السماء السابعة ، في أقصى الجنة تنتهي إليها الملائكة بأعمال أهل الأرض

السعداء وإليها تنزل الأحكام الشرعية ، والأنوار الرحمانية ، وإذا ورقها كآذان الفيلة (أي في الشكل لا في السعة واللون) لأن الواحدة منها تظل الخلق وثمرها كالقلال (جمع قله وهي الحجرة الكبيرة) أو القربة التي تسع ثلاثا وثمانين حقّه ، وقد أمّ تحتها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الملائكة ، فكان إمام الأنبياء في بيت المقدس في الأرض وإمام الملائكة في سدرة المنتهى في السماء ، فظهر فضله على أهل السموات وأهل الأرض كلهم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم ورأيت يخرج من أعلى السدرة أربعة أنهار : نهر من لبن ، ونهر من خمر ، ونهر من عسل ، ونهر يسمى نهر الرحمة ، ورأيت نهر الكوثر أيضا يخرج من أصلها .

(171/447)

الرابعة والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ أي قباب الدّر وإذا ترابها المسك ، ورمانها كالدلاء ، وطيرها كالبخت (أي الإبل ذات السنامين) فمشيت حتى انتهيت إلى الكوثر ، فإذا فيه آنية الذهب والفضة ، فشربت منه فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك وأبيض من الثلج ، وإذا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما أعده اللّه تعالى لأهل طاعته وقربه .

الخامسة والخمسون :

قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم نظرت إلى السدرة وقد غشيها ما غشيها من نور الحضرة الإلهية أي شيء عظيم أظلها فصار لها من الحسن غير تلك الحالة، فما أحد يستطيع أن ينعتها من حسنها ولا يصف ما فيها إلا الذي أبدعها ، ورأيت جبريل عند تلك السدرة على الصورة التي خلقه اللّه عليه له ستمائة جناح، قد سدّ الأفق ما بين المشرق والمغرب يتناثر من أجنحته الدر والياقوت كهيئته حين رآه في الأرض عدا الدر والياقوت الذي يتناثر منه في الجنة.

راجع الآية 23 من سورة التكوير المارة وقد تأخر عني فقلت له يا جبريل في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله فقال هذا حدّي لو تجاوزت لأحرقت بالنور وتلا (وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ) الآية 16 من سورة الصافات في ج 2، واعلم أن جبريل عليه السّلام تلا هذه الآية وقبلها تلا آية 42 من الأنفال، قبل أن تنزلا على حضرة الرسول، لأنه نزل بالقرآن كله إلى بيت

العزّة كما أشرنا إليه في المقدمة، فهو يحفظه كله، ولذلك كان حضرة الرسول يتداول معه تلاوة القرآن ويقرأه عليه في كل سنة فلا يقال من أين علم جبريل هاتين الآيتين ولما تنزل بعد ،

أما آية الأعراف 84 المارة في المعجزة السابعة عشرة فكانت نازلة مع سورتها ، ثم أنه صلّى اللّه عليه وسلم لما سمع من جبريل ذلك تعطف عليه وقال يا أخي يا جبريل هل من حاجة إلى ربك ؟ قال يا محمد سل اللّه أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه إلى الجنة .

السادسة والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم زج بي في النور فخرق بي سبعون حجابا ليس فيها حجاب يشبه حجابا وغلظ كل حجاب مسافة خمسمائة عام ، وانقطع عن حسن كل ملك ، فلحقني عن ذلك استيحاش ، فنادى مناد بلغه أبي بكر قف فإن ربك يصلي أي يقول سبحاني سبحاني سبقت رحمتي غضبي .

السابعة والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم وجاءني نداء من العلي الأعلى أدن يا خير البرية ، فأدناني ربي ، فكنت كما قال ، (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) الآية 8 من سورة والنجم المارة .

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال عرج بي من السماء الدنيا إلى السابعة على جناح الملائكة ، ومن السماء السابعة إلى السدرة على جناح جبريل ، ومن السدرة إلى العرش على الرفرف ، وهكذا النزول على هذا الترتيب ، والرّفرف بساط عظيم (نظير المحفّة عندنا) قال صلّى اللّه عليه وسلم وناداني جبريل من خلفي يا محمد إن اللّه يثني عليك ، فاسمع وأطع ، ولا يهولنّك كلامه أن تعيه فبدأ عليه الصلاة والسلام بالثناء بقوله التحيات للّه

والصلوات والطيبات للّه ، فقال تعالى السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته ، فقال عليه الصلاة والسلام : السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين ، فقال جبريل وهو في مكانه أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وتابعه جميع الملائكة .

(173/447)

مطلب ما بدأ اللّه تعالى به حضرة الرسول وما قال له والعلوم التي منحه إياها :

الثامنة والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم سألني ربي فلم أستطع أن أجيبه فوضع يده المقدسة بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد ، فوجدت بردها ، فأورثني علم الأولين والآخرين وعلمني علوما شتى ، فعلم أخذ عليّ كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله غيري ، وعلم خيّرني فيه ، وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي .

يستدل من هذا أن العلوم الشتى هي العلوم الثلاثة المذكورة ، كما تدل عليه الفاء الفرعية وهي زائدة على علوم الأولين والآخرين ، فالأول وهو الذي أمره بكتمه من باب الحقيقة الصّرفة ، والثاني الذي خيره فيه من باب المعرفة ، والثالث الذي أمره تبليغه للعامة والخاصة من باب الشريعة ، قال أبو يزيد البسطامي رأيت ربّي في المنام فقلت كيف الطريق إليك ، فقال أترك نفسك وتعال .

وقال حمزة الفارسي قرأت القرآن على ربي في المنام ، فلما قرأت : (وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ) قال قل وأنت القاهر يا حمزة .

(174/447)

التاسعة والخمسون : قال صلّى اللّه عليه وسلم سمعت كلام الحق كما سمعه موسى ، أي من جميع جهاتي وبكل أجزائي بلا كيفية ، ورأيته بعين رأسي بلا كيفية ، هذا وإن جميع الأنبياء رأوا ربهم حال الانسلاخ الكلي بأعين بصيرتهم ، وإن الرسول محمدا رآه بعين رأسه على الصحيح ، وقدمنا في الآية 40 من سورة بالنجم والآية 23 من سورة القيامة والآية 143 من سورة الأعراف المارات ما يتعلق في بحث رؤية اللّه تعالى فراجعها ، وهذه الرؤية الحقيقية جعلت له صلّى اللّه عليه وسلم في هذا المقام العظيم مرة واحدة ففضل فيها على المرسلين كافة ، أما رؤيته حال الانسلاخ بعين بصيرته كغيره من الأنبياء فكثيرة جدا ، أما غير الأنبياء من مؤمني البشر فيجوز أن يروه في المنام كأبي يزيد البسطامي وحمزة الفارسي وغيرهما من صالحي هذه الأمة المباركة ، ولا ينافي ذلك الحكم الشرعي ، بل يوافقه وعليه الإجماع .

قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم فرض عليّ وعلى أمّتي خمسين صلاة في اليوم والليلة ، فنزلت إلى

إبراهيم فلم يقل شيئا ، ثم أتيت موسى فقال لي ما فرض اللّه على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة ، قال إرجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، واني قد خبرت قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، قال عليه السلام فرجعت إلى ربي (أي من الفلك السادس الذي فيه موسى إلى المحل المشرف الذي خاطبه به ربه) فخررت ساجدا فقلت أيا رب خفف عن أمتي ، فحط عني خمسا ، فرجعت إلى موسى وأخبرته ، فقال إن أمتك لا تطيق ذلك إرجع إلى ربك واسأله التخفيف ، قال فلم أزل أرجع بين ربي وموسى وهو يحط عني خمسا خمسا حتى قال موسى بم أمرت ؟ قلت بخمس صلوات كل يوم وليلة ، قال إرجع فاسأله التخفيف ، فقلت

قد راجعت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم ، فلما جاوزت نادى مناد أن قد أمضيت فريضتي وخففت على عبادي ، وقال من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، وإن عملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، قال فجاوزته وهبطت راضيا بما فرض علي وتفضّل وتقدم .

هذا الحديث القدسي بلفظه الكامل في الآية 84 من سورة القصص المارة ، وهذه

الصلوات الخمس لها أجر الخمسين كما جاء في رواية أخرى ، وبأخري الحسنة بعشر أمثالها .

واعلم أنه يوجد أناس لا خلاق لهم من العلم والفهم ينكرون تردّد حضرة الرسول بين موسى وربه ويتذرعون بما لا قيمة له ولا مستند ، مما يقولونه للعوام ، إن محمدا أفضل من موسى ولا يمكن بل لا يجوز أن يكون المفضول واسطة للأفضل كي يقنعوهم بعدم صحة هذه الرواية ، وهذا من التعصب بمكان ، لأن هذا الحديث رواه البخاري عن الثقات العدول ، ولا أصح من رواته ولا منه إلا كتاب اللّه ، أما قاعدة الفاضل والمفضول والشبه به فليست على بابها وإطلاقها كما بيناه في الآية 114 من سورة طه المارة ، على أن جبريل هو الواسطة بين اللّه ورسوله ، فهل نقول إنه أفضل من محمد ، كلا ، راجع الآية الأولى المارة وهؤلاء إنما يقولون ما يقولون ليتوصلوا به إلى الطعن في الإمام البخاري من أنه أدخل في صحيحه ما ليس بصحيح ، ويقصدون الطعن في صحة المعراج بالروح والجسد كما أشرنا إليه آنفا في المعجزة الخامسة .

الستون : قال صلّى اللّه عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي سبعين مدينة تحت العرش كل مدينة مثل دنيا كم هذه مملوءة من الملائكة يسبحون اللّه تعالى ويقدسونه ويقولون اللهم اغفر لمن شهد الجمعة اللهم اغفر لمن اغتسل يوم الجمعة ، ورأيت مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، فقلت لجبريل عليه السلام (إذ رافقه في النزول من المحل الذي تخلف عنه في الطلوع) ما بال القرض أفضل من الصدقة قال لأن السائل يسأل وعنده شيء والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة .

الحادية والستون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ورأيت رضوان خازن الجنة ، وقد فرح بي حين رآني ورحب بي وأدخلني الجنة وأراني عجائب ما فيها ، ورأيت فيها درجات أصحابي والقصور والأنهار والعيون والأشجار مما أبدعه الواحد القهار ، وسمعت فيها صوتا يقول آمنا بربّ العالمين ، فقلت ما هذا الصوت يا رضوان ؟

قال صوت سحرة موسى وأرواحهم حيث أكرمهم اللّه تعالى كرامة مضاعفة بسبب إيمانهم بموسى وإخزاء فرعون ونبذهم ما خوفهم به لقاء ما أعده اللّه لهم من النعيم المقيم .

الثانية والستون : قال صلّى اللّه عليه وسلم وسمعت صوتا آخر يقول لبيك لبيك ، فقلت ما هذا الصوت يا رضوان ؟ قال صوت أرواح الحجاج ، وسمعت أناسا يقولون اللّه أكبر اللّه أكبر ، فقلت ما هذا الصوت يا رضوان ؟ قال صوت أرواح الغزاة ، وسمعت أناسا يسبحون اللّه تعالى ، فقلت من هم ؟ قال أرواح الأنبياء ، ورأيت قصور الصالحين (في أمور

دينهم ودنياهم ، أما الصالحون لعمارة الأرض فقط فصلاحهم لا يغنيهم عند اللّه شيئًا ولا يدفع عنهم عذابه) .

(177/447)

الثالثة والستون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم عرضت علي النار ، قال عرضت لأنها في تخوم الأرض السفلى ، إذ لا حاجب يمنع نفوذ بصره صلّى اللّه عليه وسلم إلى ذلك لما أودع في كل جوارحه من قوة خارقة للعادة لا طلاعه على عظائم الأمور في إسرائه ومعراجه ، وهذا من قبيل الاطلاع ، كما ضرب اللّه الأمثال السابقة في إسرائه ما بين مكة والقدس ، قال صلّى اللّه عليه وسلم وإذا مكتوب على بابها (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) الآية 43 من سورة الحجر في ج 2 ، وأبصرت ملكا لم يضحك في وجهي ، فقلت يا جبريل من هذا ؟ قال هذا مالك خازن جهنم ، وكأنه عرف المغزى من سؤاله ، فقال هذا لم يضحك منذ خلقه اللّه ، ولو ضحك لأحد لضحك إليك ، فقال جبريل يا مالك هذا محمد فسلم عليه ، قال فسلّم علي وهنأني بما صرت إليه من الكرامة .

الرابعة والستون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم إن اللّه تعالى أطلعني على ما فيها ، فإذا فيها غضب اللّه وسخطه ، لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها وأريت فيها قوما يأكلون

الجيف ، فقلت من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس أي يغتابونهم ، وأريت فيها قوما تنزع ألسنتهم من أقفيتهم ، فقلت من هؤلاء قال هؤلاء الذين يحلقون بالله كذبا ، وأريت جماعة من النساء علقن من شعورهن ، فقلت من هن ؟ قال اللاتي لا يستترن من غير محارمهن ، ورأيت منهن جماعة لباسهن من القطران ، فقلت من هن قال هؤلاء الذين ينحن على الأموات ويعددن صفاتهم .

واعلم أن المنوح عليهم والمعدد صفاتهم ليس عليهم شيء إلا إذا أوصوا

بذلك فيكون عذابهم كعذابهم : الخامسة والستون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم نزلنا من السماء الدنيا بالصورة التي صعدنا عليها ، فرأيت أسفل منها هرجا ودخانا وأصواتا ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم حتى لا ينظروا إلى العلامات ولا يتفكروا في ملكوت السموات ، ولولا ذلك لرأوا العجائب مما سواه العظيم وأبدعه في هذا الكون ، قال ونزلت على المعراج إلى صخرة بيت المقدس التي ركبته منها (يدل هذا الذي أراه اللّه إلى نبيه في الأرض والسماء وما بينهما من الجنة والنار على طريق ضرب المثل أن الجنة والنار مخلوقتان ، خلافا لمن زعم عدم خلقهما ممن خالف الإجماع .)

السادس والستون : قال صلّى اللّه عليه وسلم ثم جيء لي بالبراق فركبته وتوجهت إلى مكة في الصورة التي جئت فيها ، حتى وصلت بيت أم هانىء الذي أسري بي منه ، فنزلت وذهب جبريل ومن معه .

وتمت هذه الرحلة المباركة على الوجه المار ذكره فقعدت حزينا ، لأني اعرف أن الناس لا يصدقونني ، ثم سألتني أم هانىء عن غيبتي ، فقصصت عليها ذلك كلمه ، فقالت يا ابن عم أنشدك اللّه لا تحدث بهذا قريشا فتكذبك ، ومسكتني من ردائي لئلا أخرج من البيت ، فانتزعته منها وخرجت حتى انتهيت إلى قريش بالحطيم ، فقال أبو جهل هل من خبر ؟ استهزاء ، قلت نعم ، قال ما هو ؟

قلت أسري بي الليلة إلى البيت المقدس (فلم ينكر عليه مخافة أن لا يحدث بذلك) وقال لي أتحدث قومك بهذا إذا آتيتك بهم ؟ وذلك لأنه استعظم ما سمعه منه وعرف أن أحدا لا يصدقه بذلك ، قلت نعم ، قال فسكت مخافة أن أجحده ، قاتله اللّه كيف وهو الصادق المصدوق ، فذهب عليه اللعنة إلى مجمع الناس وصاح بأعلى صوته يا معشر كعب بن لؤي ، فانفضت إليه المجالس من كل جهة ، حتى اجتمعوا فجاء بهم إليّ ، وقال حدثهم بما

حدثني به، فقص عليهم إسراءه، فقال أبو جهل صف لنا الأنبياء الذين صليت بهم في بيت المقدس، فوصف صلّى اللّه عليه وسلم لهم الأنبياء واحدا واحدا، وهذه المعجزة السابعة والستون إذ جعل اللّه تعالى صورهم أمامه نصب عينه كما رآهم هناك حتى صار ينظر إليهم ويصفهم واحدا واحدا، لم يخطىء بواحد منهم، قال فضجوا إعجابا بما ذكر وإنكارا وحلفوا بلاتهم أن لا يصدقوه، وقالوا إنا نضرب آباط الإبل شهرين ذهابا وإيابا من مكة إلى البيت المقدس، فكيف تقطع هذه ت (28)

المسافة بجزء من الليل، وذلك لجهلهم بقدرة اللّه وكرامة هذا النبي عنده، وارتد أناس ممن كان آمن به لقلة إيمانه، لأن ما سمعوه منه لم تقبله عقولهم القاصرة، وهذا سبب خوف أم هانىء رضي اللّه عنها وإصرارها على حضرة الرسول أن لا يحدث قريشا بقصته، ولكنه صلّى اللّه عليه وسلم لا تأخذه بالحق لومة لائم.

ثم أن قريشا أخبرت أبا بكر بذلك ليستعظمه ويعذر المرتدين فقال لهم إن كان قال هذا فلقد صدق (انظروا أيها الناس هذا الإيمان العظيم إذ صدقه على أخبار أعدائه قبل ان يسمع منه) قالوا أتصدقه يا أبا بكر على طريق الاستفهام الإنكاري استعظاما لما قاله لهم

؟ قال أصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء في غدوة كل يوم وروحة ، لأنه أمين اللّه ، فسمي الصديق مبالغة من كثرة صدقه وتصديقه لحضرة الرسول ، وشرف بهذا اللقب الجليل من ذلك اليوم ، وهي منقبة وكرامة له ومعجزة لحبيبه صلّى اللّه عليه وسلم لأن هذه التسمية من قبل اللّه تعالى وهي المعجزة الثامنة والستون .

(181/447)

ثم إن قريشا ؟ ؟ ؟ على محمد صلّى اللّه عليه وسلم وطلبت منه دليلا آخر على إسرائه غير وصف الأنبياء ، فقالوا صف لنا بيت المقدس ، أرادوا بذلك أن يأثروا عليه كذبا إذا أخطأ في وصفه لأنهم يعلمون أنه لم يره قط ، وفيهم من يعرفه لزيارته له ، فشرع صلّى اللّه عليه وسلم يقصه لهم أولا بأول وهم يقولون صدقت صدقت حتى توقف في بقية أوصافه ، فلحقته كربة لم ير مثلها في حياته ، فأغاثه ربه وجلّى له بيت المقدس (وذلك بأن كشف له الحجاب فيما بينه وبينه حتى رآه وهو في مكانه ، أو أن اللّه تعالى أعدمه هناك وأوجده أمامه في تلك اللحظة يؤيد هذا ما روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي واحمد عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى اللّه لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر إليه

وقال صلّى اللّه عليه وسلم ثم أعاده لمكانه كما أوضحناه في أمر عرش بلقيس في الآية 39 من سورة النمل المارة فراجعها وراجع الآية 85 من سورة ق المارة، بحيث لا يحس به أحد غيره ولا شيء على اللّه بمحال فسرّ صلّى اللّه عليه وسلم سرورا لم يره في حياته بسبب نظر اللّه إليه عند ضيقه هذا وصار ينظر إليه ويصفه لهم حتى جاء على جميعه، فقالوا أصبت ولكن يحتمل أنك حفظت أوصافه من الناس.

التاسعة والستون ثم قالوا له ائتنا بآية ثالثة على ذلك

محسوسة غير قابلة للتأويل، فقال لهم اني مررت حين ذهابي بعير لبني فلان بوادي كذا في الروحاء (محل قريب من المدينة) ورأيتهم قد ضلوا بعيرا لهم فانتهيت إلى رحالهم وإذا قدح فيه ماء فشربت منه فاسألوهم عن ذلك (هذا وان شرب الماء بغير اذن مباح عندهم ولم يزل كذلك ولذلك شرب دون استيذان.

مطلب انكار قريش وامتحانهم للرسول وحبس الشمس:

فقالوا إن لنا عيرا آتية من بيت المقدس فاخبرنا عنها نصدقك فقال إني مررت بعيركم في التنعيم (محل قريب من مكة) فقالوا صفه لنا فوصفه لهم وبين عدد جمالهم وقال إنها تطلع

عليكم مع طلوع الشمس أي في اليوم التالي يتقدمها جمل أورق (هو الأبيض المائل للسواد) عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء أي (فيها بياض وسواد) .

فهذه آيتان محسوستان لكم بدلا من الواحدة إن كنتم تؤمنون .

قالوا له ننظر ، فذهبوا حتى إذا أدبر الليل ابتدروا وتسابقوا إلى الثنية يتراءون العير فلما قرب طلوع الشمس قال قائلهم هذه والله الشمس قد طلعت ولم تر العير فأين قول محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فلم يقض قوله إلا وقد قال الآخر هذه واللّه العير قد أقبلت وقد صدق محمد صلّى اللّه عليه وسلم وها هي يتقدمها جمل أورق وعليه الغرارتان كما ذكر محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

قيل في هذه الحادثة إن الشمس تأخرت عن زمن طلوعها مدة حتى أقبلت العير ورأوها ثم طلعت وهذه تمام السبعين معجزة في هذه المرحلة المباركة وهذا آخر ما اطلعنا عليه في هذه الحادثة الجليلة من المعجزات وقد تبلغ إلى التسعين إذا عدت منفردة لأنا جمعنا ما رأى في الجنة وما رأى في النار باعتبار كل منها معجزة وهي معجزات كثيرة ومعجزاته صلّى اللّه عليه وسلم لا تعد ولا تحصى ولا يستبعدها إلا الأحمق الجاهل بقدر حضرة الرسول ومكانته صلّى اللّه عليه وسلم عند اللّه .

واعلم أن الشمس حبست لسيدنا داود ولسليمان ويوشع وموسى ولا يقال إن حبسها مشكل لأنه يختلف فيه سير الأفلاك ويفسد فيه نظام جريانها لأن هذا من المعجزات وهي من الأمور الخارقة للعادة ولا مجال للقياس في خرق العادة وقد وقع له صلّى اللّه عليه وسلم رجوع الشمس بعد غروبها في خيبر فقد جاء عن اسماء بنت عميس قالت كان عليه الصلاة والسلام يوحى إليه ورأسه الشريف في حجر علي كرم اللّه وجهه ولم يسر عنه حتى غربت الشمس ولم يصل العصر علي فقال صلّى اللّه عليه وسلم أصليت العصر يا علي قال لا فقال صلّى اللّه عليه وسلم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس ، قالت أسماء فرأيتها طلعت بعد ما غربت حتى صلّى علي كرم اللّه وجهه العصر ثم غربت ثانيا ، ووقع له هذا أيضا أيام حفر الخندق وهذا من أعلام النبوة فاعتقد أيها القارئ وافهم لك حكمة الباري واحفظ ما لنبيّه عنده من الكرامة وتيقن قبل أن تحيق الندامة راجع الآية 33 من سورة ص وأول سورة القمر ففيها ما يشفي الغليل ويثلج الصدر هذا ولما تجلى لقريش ذلك كله تاب المرتدون ورجعوا إلى الإيمان وأصر المشركون على إنكارهم .

وقالوا سحرنا محمد وتواطئوا على هذه الكلمة قاتلهم اللّه وأخزاهم وقد استغرقت رحلته عليه السلام أربع ساعات زمانية وهي وما رآه في رحلته هذه من المعجزات المارة الذكر قد

خصّه اللّه بها إذ ليس بطوق البشر الحصول على جزء منها واعلم أرشدك اللّه ومكّن إيمانك ان اللّه تعالى جلت قدرته قد يطيل الزمن القصير كما يطوي الزمن الطويل والمسافة البعيدة لمن يشاء وهو أهون عليه وله المثل الأعلى .

وبهذه المناسبة نذكر ما وقع لبعض الأفاضل في بغداد وكان يعظ الناس بعد العصر فجاءت سحابة فغطت الشمس فظنوا أنها غابت وأرادوا الانصراف فأشار إليهم ان لا ينصرفوا ثم انحرف لجهة الغرب وقال :

لا تغربي يا شمس حتى ينتهي مدحي لآل المصطفى ولنجله

إن كان له ولى وقوفك فليكن هذا الوقوف لولده ولنسله

فلم ينته إلا والشمس قد طلعت ، فرمى عليه من الذهب ما أثقله حمله ، وهي اتفاقية لا معجزة ولا كرامة .

مطلب في دوران الشمس والأرض والدّم وحكاية اتفاقية وان الاسراء اسراءان وغيره :

واعلم أن الفلكيين قالوا إن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى بتحوير الأرض عنه في

أقل من ثانية ، والثانية جزء من ستين جزءا من الدقيقة ، والدقيقة جزء من ستين جزءا من الساعة والساعة خمس عشرة درجة فلكية ، لأن كل درجة أربع دقائق ، فإذا كانت هذه السرعة ممكنة في الجمادات فكيف لا تكون ممكنة في أشرف المخلوقات ؟ على أن القلب يسير بصاحبه من

الشرق إلى الغرب بل في جميع أنحاء العالم بلحظة واحدة بسبب لطافته ويدور الدم في الوجود كله ويرجع لمركزه بالدقيقة الواحدة ما يزيد على سبعين مرة والقوة الكهربائية تصل من الشرق إلى المغرب بلحظة ، وإذا كان كذلك وهو كذلك أفلا يجوز أن يوجد اللّه تعالى تلك اللطافة والقوة بوجود المصطفى بقدرته البالغة ؟ بلى ، وهو على كل شيء قدير ، وقدمنا آنفا في مبادئ هذه السورة ما يتعلق بهذا الإسراء وكونه يقظة ، وفنّدنا ما يضاد هذه الأقوال بعد بيان المعجزة الخامسة أما ما جاء في حديث شريك من أن الاسراء وقع قبل الوحي رؤية فهو خطأ ، وقد انتقد هذا الحديث الذي أخرجه البخاري جماعة من أهل العلم ، وعلى فرض صحته يكون إسراءان واحد في المنام وقع له صلّى اللّه عليه وسلم توطئة وتيسرا لما تضعف عنه القوى البشرية من الأمور التي وقعت في الثاني ، وإليه الاشارة

بقوله تعالى (وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيا) إلخ الآية 6 الآتية من هذه السورة، وواحد في اليقظة بروحه وجسده وهو ما عليه الجمهور، قال في الكشف هذا هو الحق وبه يحصل الجمع بين الأحاديث والأخبار، وقدمنا في الآية 18 من سورة الجنّ ما له علاقة في هذا البحث فراجعه، وقدمنا في الآية (9) فما بعدها من سورة والنجم قول الزهري بأنه سنة خمس أي سنة نزولها وبينا أن هناك أقوالا بأكثر وأقل أعرضنا عنها لعدم التثبت من صحتها، وقد ذكرنا أيضا هناك الاشكال الذي حصل لنا بفرضية الصلاة، لأن الفقهاء أجمعوا على أنها فرضت سنة عشر ليلة الإسراء، وسورة النجم نزلت سنة خمس.

(186/447)

واعلم أن ما ذكره النووي في الروضة من أنه وقع في السنة الحادية عشرة أي بعد البعثة بعشر سنين وثلاثة أشهر فيه تسامح، لأنه اعتبر مبدأ التاريخ من شهر الولادة في 12 ربيع الأول سنة 1 منها والبعثة وقعت سنة 41 من ولادته في 27 رمضان والاسراء وقع في رجب سنة 51 قولا واحدا، فيكون على قول النووي عشر سنين وعشرة أشهر بتداخل السنتين المذكورتين وحساب طرفيهما، والحق أنه بعد البعثة بتسع سنين وعشرة أشهر لا عشرة أيام، لأن الكلمة مجمعة على أن الصلاة فرضت في السنة العاشرة كما أن الكلمة

مجمعة على أنها فرضت ليلة الإسراء ، فيكون

إذا صح ما قاله الزهري ان الله تعالى أخبر عن الإسراء الأول الذي وقع عند نزول سورة النجم .

بنزول سورة الاسراء هذه ، كما أن الهجرة الشريفة وقعت في السنة الثالثة عشرة من البعثة عند نزول سورة العنكبوت ، وقد أخبر الله عنها في سورة التوبة التي هي آخر ما نزل في المدينة ، وكما أن فتح مكة رآه حضرة الرسول عام الحديبية سنة ست من الهجرة ، وحققه الله فعلا سنة ثمان منها ، وقضايا أخرى كثيرة كحادثة الندوة وغيرها ، فعلى هذا يكون سبب عدم التحدث بها كون عبادته إذ ذاك كانت خفية لقلة المسلمين وضعفهم ، أو من قبيل ما تأخر حكمه عن نزوله ، راجع تفسير سورة الكوثر المارة وما ترشدك اليه فيما تأخر حكمه عن نزوله وبالعكس ، هذا والله أعلم وقد ذكرت غير مرة أنه لم يحصل لي إشكال ولله الحمد حتى الآن إلا في قضية فرضية الصلاة هل هي عند نزول سورة والنجم أو هذه السورة ، وهل الإسراء وقع هناك أو هنا ، ولهذا لم آل جهدا يتقبّل أقوال العلماء فيها ، والسؤال أيضا من العلماء الموجودين والله ولي التوفيق .

أما الأقوال الواقعة في يوم الإسراء فهي كثيرة أيضا ولا طائل تحتها لذلك قد صرفت النظر عن سردها اكتفاء بالأقوال المجمعة على أنه يوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة 51 لبلوغها حد التواتر ثم نزل جبريل عليه السلام على حضرة الرسول ليعلمه أوقات الصلاة وكيفيتها وعدد ركعاتها وأول صلاة صلاها بحضرة الرسول صلاة الظهر وأمه جبريل بها كلها يومين يوم بأول أوقات الصلاة ويوم بآخرها مستقبلا صخرة بيت المقدس وقال له الوقت ما بين هذين الوقتين والصلاة في هذه الأوقات وعلى هذه الصيغة والصفة كما هي عليه الآن إلا أنها كانت ركعتين ركعتين فاقرت في السفر وزيدت الرباعيات في الحضر .

ثم اعلم أن الصلاة على هذه الصفة من خصائص هذه الأمة ونبيّها ، وكانت مفروضة على الأنبياء وأممهم متفرقة ، وأول من صلّى الصبح آدم عليه السلام حين أهبط إلى الأرض ، ورأى ظلمة الليل وابتلاج الفجر بعده ، وأول من صلّى الظهر ابراهيم عليه السلام حين فدى اللّه له ابنه إسماعيل ، وأول من صلّى العصر يونس عليه السلام حينما نجاه اللّه من ظلمات البحر ، وأول من صلّى المغرب عيسى عليه السلام حين شرفه اللّه بالإنجيل وأعطاه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وأول من صلّى العشاء موسى عليه السلام حين خرج من مدين وضل الطريق فكان هداه فيه ، راجع الآية 30 من سورة القصص المارة .

مطلب تعليم الرسول كيفية الصلاة وكونها من خصائص هذه الأمة والحكمة فيها :

لكن صلاتهم ليست على هيئة صلاتنا هذه وعدد ركعاتها ، إذ كل منهم أداها على النحو الذي ألهمه اللّه إياه ، والحكمة في كونها خمسا لا يعلمها على الحقيقة إلا اللّه ، وقيل لأن الحواس خمس وتقع المعاصي فيما بينها ليلا ونهارا ، وقد أشار صلّى اللّه عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله أرأيتم لو كان على باب أحدكم نهر جار ليغتسل منه منه في اليوم والليلة خمس مرات ، أكان ذلك يبقي من درنه شيئا ؟ قالوا لا يا رسول اللّه ، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللّه بهن الخطايا .

(189/447)

وقد سئل ابن عباس هل تجد الصلوات الخمس بالقرآن ، قال نعم إن أوقاتها مبينة في قوله تعالى (فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) الآية 18 من سورة الروم من ج 2 ، وكذلك من الآية 130 من سورة طه المارة ، وكذلك في الآيتين 77 و78 الآتيتين من هذه السورة ، أما عدد ركعاتها فلم يشر إليه القرآن ، وإنما ثبتت بفعل الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وتعليمه وهو لا ينطق عن الهوى ، ولا يفعل من نفسه بل بوحي من ربه القائل (ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) الآية 7 من سورة الحشر في ج 3 وقال تعالى (مَنْ يُطِعِ

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) الآية 79 من سورة النساء من ج 3 أيضا قال تعالى "وآتينا موسى الكتاب" جملة واحدة منسوخا على الواح بخلاف القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد فإنه أنزل بجوتا على قلبك بواسطة الملك وأوعيناكه بلغتك ووقّرناه في صدرك غير منسوخ على شىء لأنك أمي راجع بحث نزول القرآن في المقدمة "وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ" آل يعقوب الملقب بإسرائيل (أي صفوة اللّه من خلقه) ليهتدوا بهديه وقلنا لهم فيه "أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا" 2 تتكلون عليه في أموركم يا "ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ" في السفينة وانجيناه من الغرق حين لم يكن له من يتوكل عليه غيرنا "إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا" 3 لي يحمدني على طعامه وشرابه ولبسه واظلاله كثيرا ولهذا وصفه

(190/447)

بالشكر "وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ" أعلمناهم في التوراة وقلنا لهم على لسان رسولهم وحيا "لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ" التي بوأناكم إياها من الشام وبيت المقدس وأطرافهما بأنكم ستعملون فيها الشرور والمعاصي والعبث بالناس "مَرَّتَيْنِ" الأولى قتل شعيا وحبس أرميا عليهما السلام حين إنذراهم سخط اللّه تعالى إن لم يقلعوا ممّا هم عليه ، والثانية قتل يحيى والتصدي لقتل عيسى عليهما السلام لما دعواهما إلى اللّه والدين الحق الذي عبثوا به

وغيروا أحكامه ، يقول الله تعالى وعزتي وجلالي لتفعلنّ ذلك "وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً" 4 فتتكبرون على الناس وتظلمونهم وسنسلط عليكم من لا يرحمكم انتقاما لهم "فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما" أي العذاب الموقت المقدر لعقاب المرة الأولى لعدم ارتداعكم عن الإفساد واغتراركم بإمهال الله "بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا" مسخرين فيما نقضيه فيكم على أيديهم قالوا هو بختنصر الذي لم يعرف اسم أبيه ، وكان عاملا على العراق لملك الأقاليم (لهراست ابن كى اجنود) وكان ذلك مشتغلا بقتال الترك فوجه بختنصر إلى بني إسرائيل وهذه الإضافة ليست للتشريف لأن الكافر ليس بأهل له ولكن من قبيل قوله تعالى :

(191/447)

(كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً) الآية 129 من الأنعام في ج 2 ، ولأنها جاءت باللام المفيدة للملك والكل مملوكون فلا محل للقول بأنها أي جملة (عبادا لنا) اضافة تشريفية البتة وعلى هذا ما ورد في الحديث القدسي (الظالم سيفي أنتقم به وأنتقم منه) أي أنه آلة للانتقام فيكون المراد من الآية والحديث بيان كون هؤلاء المسلطين مظاهر لأسمائه تعالى المذل المنتقم الجبار ثم وصف هؤلاء العباد بأنهم "أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ" في القتال أصحاب شوكة وبطش في الحرب لا يقاومون لشدة شكيمتهم وكثرة عددهم وعددهم الدال عليه التنوين

"فَجاسُوا" أي يجوسون ، وجاء بلفظ الماضي لتحقق وقوعه أي أنهم إذا جاءوكم لا يكتفون بقتل للقاتل منكم بل انهم يطوقون المنازل ويتحرون الفارين والمخبّئين لاستقصاء القتل والسلب والأسر ، فلا يتركون أحدا من شرهم ، ولهذا فإنهم يفتشون "خلال" بين وأواسط وأطراف "الدِّيارِ" الكائنة في بيت المقدس فيقتلون من عثروا عليه فيها من علمائهم وأحبارهم ووجهائهم غير مراعين حرمته ومن بجواره حتى إنهم ليخرّبون البيت نفسه ويحرفون

(192/447)

التوراة ويسلبون ويأسرون من عثروا عليه "وَكانَ" معروفا في أزلنا اجراء هذا العقاب الذي نوعدهم به في هذه القسوة الصارمة التي لا رحمة فيها ولا شفقة ولا مروءة "وعدا" منا أوحينا به إلى أنبيائهم ، وأنذروهم به وخوفوهم غبّه ولم يمتثلوا ولهذا صار "مَفْعُولًا" 5 واقعا البتة لكونه قضاء مبرما من لدنا لا مردّ له ، وكان ذلك كله ، وانتهكوا حرماتهم أيضا وسبوا سبعين ألفا منهم ، فجعلوهم أرقاء لهم "ثُمَّ" بعد هذا الحادث العظيم الفظيع "رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ" الغلبة والدولة بأن جعلنا لكم السلطة "عَلَيْهِمْ" أي على الذين تسلطوا عليكم وفعلوا ما فعلوا بكم إذ قتل بختنصر واستنقذ المسبيين من دولته ورجعنا لكم الملك

والسطوة في بيت المقدس وحواليه ورجعنا حالتكم إلى أحسن مما كانت عليه قبلا ، يدل على هذا قوله تعالى "وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ" زيادة على ما كان عندكم وقويناكم وباركنا فيكم حتى صرتم أكثر عددا وغناء مما كنتم عليه قبل القتل والسبي والنهب "وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا" 6 جيشا من عدوكم إذ ظهر لنا بعد إيقاع الذل فيكم والصغار عليكم وخلودكم إلى المسكنة وتمادي عدم الرحمة عليكم من عدوكم ، أنكم تبتم ورجعتم إلى الطاعة والإيمان وتركتم الإفساد والعصيان وجزمتم على عدم العودة إلى الكفر بنعمنا وذلك كما قيل بعد مائة سنة كما سيأتي بالقصة بعد .

(193/447)

واعلموا يا بني إسرائيل أنكم "إِنْ أَحْسَنْتُمْ" في هذه المرة فيما بينكم وبين اللّه وبين الناس وامتثلتم أوامر اللّه وأعرضتم عن نواهيه فيما بينكم وبين اللّه وخلقه من الآن فصاعدا عن إيمان صادق وإخلاص وإيقان وحسن نية ، فتكونوا قد "أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ" لأن فائدة الإحسان تعود عليكم ونفعه خاص بكم "وَإِنْ أَسَأْتُمْ" فيما بينكم وبين اللّه وبين خلقه ، وانتهكتم حرماته ورجعتم على الإساءة الأولى واستمررتم عليها "فَلَها" فلأنفسكم تكون العاقبة السيئة خاصة ، جزاء لإساءتكم المكررة ونقضكم عهد اللّه ورجوعكم إلى ما

تبتم عنه ، فعليكم من الآن أن تنتبهوا يا بني إسرائيل "فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ" أي عقابها المترتب على رجوعكم إلى المنكرات وعودكم إلى الإفساد في البلاد والعباد ، بعد هذه النعمة التي مننّا بها عليكم ، فاعلموا أن ما ينزل بكم أشد وأفظع وأكبر من العقاب الأول بدلالة قوله جل قوله وعزتي وجلالي

"لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ" بأن يوقعوا فيكم أفعالا عنيفة فظيعة تخزيكم خزيا يظهر أثر كآبته على وجوهكم بأكثر مما فعلوه بكم في المرة الأولى من الخزي والعار والهوان والذل والصغار "وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ" عنوة فينتهكوا حرمته ويهدموه ويحرقوا ما فيه من الكتب والآثار ويقتلون من يحتمي به ومن في جواره من علماء وأحبار وربانيين وغيرهم "كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ" إذ فعلوا به وبكم ذلك ولم يرعوا له حرمة ولا لكم رحمة "وَلِيُتَبِّرُوا" يهلكوا ويمزقوا ويفتتوا "ما عَلَوْا" عليه من نفس ومال وبناء "تَتْبِيراً" 7 لم تتصوره عقولكم والتتبير في اللغة التهديم ، قال الشاعر :

وما الناس إلا عاملان فعامل يتبّر ما يبني وآخر رافع

أي أنهم يهدمون البناء والبنية من كل ما غلبوا عليه .

قال سعيد بن جبير التتبير كلمة نبطية بمعنى الهلاك ، أي يهلكون كل ما استولوا عليه أو وصلت إليه أيديهم دون رأفة ، ولكن بني إسرائيل أنستهم نعم اللّه الشكر فعادوا إلى ما نهوا عنه فسلط اللّه عليهم الفرس والروم فقتلوهم شر قتله وسبوهم أشنع سبي ونهبوهم أفظع نهب .

مطلب واقعتا بني إسرائيل وتبدل الأحكام بتبدل الأزمان :

وخلاصة القصتين على ما ذكره الأخباريون من القصاص أن بني إسرائيل كانوا قبل داود عليه السلام ، إذا ملك اللّه عليهم ملكا بعث معه نبيا يسدد أمره ويرشده ، فلا يستبد بشيء دون مشورته ، وكانوا تابعين لأحكام التوراة ، إذ لم ينزل اللّه لهم كتابا بعدها إلى زمن عيسى عليه السلام ، إذ أنزل عليه الإنجيل بتعديل بعض أحكامها فيما يختص بالمعاملات وفروع بعض العبادات أما ما يتعلق بأصول الدين الثلاثة الاعتراف بالإله الواحد والنبوة والرسالة والبعث والحساب ، فمكلف بها جميع الخلق من نشأتهم إلى إبادتهم ، لأنها لا تقبل التعديل ولا التأويل البتة ، أما القاعدة الشرعية وهي تبدل الأحكام بتبدل الأزمان فهي خاصة بالمعاملات بين الناس فقط ، أما ما يتعلق بالعبادات وفروعها فلا تبديل ولا تغير ، على أنه قد يقع بعض تغير في فروع العبادات من حيث القلة والكثرة في العود والأوقات ونوع التوبة والعفو والقصاص ومقدار الزكاة ولزوم الحج والرخص والعزائم وشبهها كما سيأتي في الآية

37 فما بعدها من سورة الشورى في ج 2 ، قالوا لمّا صار الملك إلى رجل منهم يدعى صديقه بعث اللّه معه أشعيا عليه السلام نبيا وكان من جملة ما بشر به هذا النبي قومه (قوله أبشري أورشليم) يريد أرض سليمان لأن أور بمعنى أرض ، وشليم بمعنى سليمان ، إذ لا يوجد حرف السين بالعبراني ، ولذلك يسمون موسى موشي وهي أراضي فلسطين المعروفة ، الآن يأتيك راكب الحمار (يعني عيسى عليه السلام) ومن بعده صاحب البعير (يعني محمدا صلّى اللّه عليه وسلم) قالوا وكانوا على أرغد عيش وأحسن حال ثم بعد زمان طويل كثرت فيهم الأحداث فغيروا وبدّلوا وطغوا وبغوا وكان ملكهم تمرض فجاءه النبي وقال له ، إن سنجاريب ملك بابل ومعه ستمائة الف راية قد نزل بك وقد هابه جميع الناس خوفا منه ، فقال يا نبي اللّه هل جاءك وحي من اللّه بشأني ؟ فقال أوحى اللّه لي أن توصي وتستخلف من تشاء على ملكك ، فإنك ميّت ، فأقبل الملك على ربّه وصلى ودعا وتضرع وبكى بقلب مخلص قالوا فاستجاب اللّه دعائه وأوحى إلى نبيه بأنه أخر أجله خمس عشرة سنة ، وان يجعل ماء التين على قرحته فيشفى ، فأخبره النبي ففعل ما قاله له وشفي ، ثم قال للنبي اسأل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع في عدونا ، فأوحى

اللّه إلى النبي أن يقول للملك إن اللّه تعالى بسبب إخلاصه كفاه شر عدوه ، وانهم سيصبحون غدا كلهم موتى إلا سنجاريب وخمسة من كتابه أحدهم بختنصر ، فأخبر الملك بذلك وإذا بالصباح صوت الصارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بني إسرائيل إن اللّه قد كفاك عدوك فخرج الملك وبعد أن رأى فعل اللّه بعدوه أمر بإحضار سنجاريب والخمسة الباقين معه ، فأحضروهم إلى قصره ، فلما رآهم أذلاء أمامه خرّ للّه ساجدا وبقي من الصبح إلى العصر ، ثم رفع رأسه فإذا هم لا يزالون وقوفا فقال لسنجاريب كيف رأيت فعل ربنا بكم ؟ فقال سنجاريب .

أتانا خبره قبل أن نخرج إليكم ولم نطع المرشد ، والقانا في الشقاء قلة عقولنا ، فقال له الملك ، إن اللّه تعالى لم يبقك وكتبتك إلا لتزدادوا شقاء في الدنيا وعذابا في الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما فعله ربنا فيكم ، إذ أهلك جيوشكم كلها على غير علم منا ومنكم ، فاذهبوا وأنذروا قومكم بذلك لئلا تحدثهم أنفسهم بغزونا ثانية ، قالوا نفعل ثم أمرهم وأذن لهم بالانصراف ، فذهبوا ولما وصلوا بابل أخبروا قومهم بما وقع فيهم فجاء إليهم السحرة والكهان وقالوا قد أخبرناكم بربهم ، فلم تقبلوا منا فكان ما كان ثم ان سنجاريب مات

واستخلف بختنصر المار ذكره آنفا في الآية الخامسة ، وما قيل أنه كان حفيد سنجاريب لم يتثبت من صحته ، فقام بأمر قومه بعده ، وقضى فيهم بقضائه ، ثم بلغه أن مات ملك إسرائيل وأنهم تنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضا ، ولم يصغوا إلى نبيهم ولم يسمعوا له قولا وأنهم لما شدّد عليهم بالوعظ والزجر والتهديد والتخويف عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فانفلقت له شجرة ودخل فيها فوضعوا المنشار على تلك الشجرة ونشروها حتى قطعوه في وسطها نصفين ، وإن الملك كان استخلف عليهم ناشئة بن أحوص ، ثم بعث اللّه لهم نبيّا ليسدّد أمرهم اسمه أرميا بن خليقائي من سبط هارون بن عمران .

مطلب الواقعة الأولى على بني إسرائيل :

ثم عظمت فيهم الأحداث وأكثروا الفساد فأوحى اللّه إلى نبيهم أن يبلغهم سوء عاقبتهم ويذكرهم بأحوال الأمم السابقة المهلكة ، وأسباب إهلاكهم وإنجاء المؤمنين منهم ، ويبن لهم ثواب الطاعة وعقاب المعصية ، وان ينذرهم بأن اللّه تعالى أقسم بعزته وجلاله أنهم إن لم ينتهوا عما هم عليه ويتوبوا إلى اللّه ليقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ، وليسلطن عليهم جبارا قاسيا يلبسه الهيبة وينزع من صدره الرحمة ، يتبعه عدد مثل سواد الليل ، فأبلغهم

ذلك نبيهم فلم يلتفتوا إليه ولم يصغوا لقوله ، فأوحى الّله إلى نبيهم أرميا عليه السلام أبلغهم إني مهلكهم بيافث من أهل بابل ، فقبضوا على نبيّهم وحبسوه بدل أن يسمعوا له ويطيعوه ، فسلط الّله عليهم بختنصر وأوقع في قلبه غزوهم ، فخرج إليهم في ستمائة ألف راية من جنوده ووطئ بلادهم ودخل بيت المقدس ، وقتل بني إسرائيل الذين هم فيه شر قتلة ، وأدام القتل فيهم حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس وحرق ما فيه من كتب وأمر جنوده فملأوه ترابا ، ثم أمرهم أن يجمعوا من بلاد القدس من بقي منهم ، فجمعوهم وأحضروهم بين يديه فاختار منهم سبعين ألفا وقسمهم بين ملوكه ، وخرج بهم والغنائم التي أخذها منهم وأثاث بيت المقدس ، ثم فرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فرقة قتلهم وفرقة سباهم وأسكن الثالثة بالشام ، وتركهم وذهب لبلاده ظافرا ، وهذه هي الواقعة الأولى التي حذر الّله بني إسرائيل منها .

(198/447)

قالوا ولما وصل بختنصر بمن معه بابل وأقام في سلطانه ما شاء الّله أن يقوم ، رأى رؤيا عجيبة ، وهي أنه رأى شيئًا أصابه فأنساه الذي رأى ، فدعا دانيال وجنايا وعزاريا وميشائيل من ذراري أنبياء بني إسرائيل الذين هم في جملة السبايا ، وسألهم تأويل رؤياه ،

فقالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها ، فقال لهم ما اذكرها لأني رأيت شيئا أنسانيها وكذلك نسيت الشيء الذي رأيته ، فأنسانيها ، ولم يبق شيء بفكري أبدا لا من الرؤيا ولا من الذي أنسانيها لشدة هول ما رأيت ، ولئن لم تخبروني بتأويلها وبالذي أنسانيها لا تنزعن أكتافكم ، فاستمهلوه وخرجوا من عنده فدعوا للّه وتضرعوا إليه ، فأوحى اللّه إليهم بها وبالذي أنساها له ، فجاؤا إليه فقالوا له رأيت تمثالا قدماه وساقاه من فخار ، وركبتاه وفخذاه من نحلس وبطنه من فضة ، وصدره من ذهب ، ورأسه وعنقه من حديد ، قال صدقتم قالوا وبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك أرسل اللّه صخرة من السماء فدقته ، فهي التي أنستك ذلك ، قال صدقتم فما تأويلها ؟ قالوا إنك رأيت الملوك بعضهم كان ألين من بعض ملكا ، وبعضهم كان أشد ملكا ، فالفخار أضعفه وفوقه النحاس أشد منه ثم الفضة أحسن منه وأفضل والذهب أحسن من الفضة وأفضل والحديد هو ملكك ، فهذا أشد وأعزمما قبله لأنه آلة الحرب وقوام النصر يكون فيه ، والصخرة التي رأيت أرسلها اللّه من السماء فدقته فنبيّ يبعثه اللّه من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه شئت أم أبيت ، قالوا فسكت وأذعن ولم ينبس بشيء لأنه كان حاضرا واقعة سنجاريب المارّة آنفا ووقر في قلبه أن اللّه تعالى يختار لأنبيائه وقد صدقهم لأنهم أخبروه بشيء لا يعلمونه ، وانهم علموه بإعلام اللّه إياهم ، فتركهم ولم يكلمهم ، قالوا ثم ان أهل بابل قالوا لبختنصر أرأيت هؤلاء

الغلمان الإسرائيليين ، فإنا قد أنكرنا نساءنا منا منذ كانوا معنا حيث انصرفت وجوههن عنا إليهم ، فاخرجهم من بين أظهرنا واقتلهم ، فقال شأنكم بهم فمن أحب منكم أن يقتل من عنده فليفعل ، أما أنا فلا أفعل بهم شيئًا فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا إلى اللّه عز وجل فوعدهم اللّه أن يحييهم ، قالوا فقتلوهم إلا من كان عند

بختنصر ، ثم لما أراد اللّه تعالى إهلاك بختنصر انبعث فقال لمن عنده من بني إسرائيل أرأيتم هذا البيت الذي خربته والناس الذين قتلتهم منكم ، قالوا البيت للّه ومن قتلت أهله كانوا من وزراء الأنبياء ، فظلموا وتعدوا حدود اللّه فسلطك ربك وربهم رب السموات والأرض عليهم بذنوبهم فهلكوا ، فلم يعجبه قولهم لأنهم لم يسندوا له شيئًا من ذلك ولم يصفوه بصفة أو عزة ، فدخل إبليس في أنفه فاستكبر وتجبر وظن أنه فعل ما فعل بقوته وسلطانه ، فقال أخبروني كيف أطلع إلى السماء فأقتل من فيها وأدخلها في ملكي لأني قد فرغت من أهل الأرض (ومن هنا ، قيل ملك الأرض أربعة كافران بختنصر ونمروذ ، ومؤمنان سليمان وذو القرنين) .

قالوا لن تقدر على هذا ، قال لتفعلن أو لاقتلنكم عن آخركم ، فبكوا وتضرعوا إلى اللّه تعالى قالوا فبعث اللّه عز وجل على بختنصر بعوضة دخلت في منخره حتى عضت أم دماغه ، فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجا له رأسه أي يضرب على فم ؟ ؟ ؟ دماغه ، ولم يزل كذلك حتى مات ، فشقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه ، ليري اللّه العباد قدرته بأن أهلكه بأضعف خلقه كما أهلك أخاه النمروذ ، ونجى اللّه من بقي من بني إسرائيل وردهم إلى الشام ، فنموا وكثروا وتحولوا حتى صاروا على حالة أحسن مما كانوا عليها قبل ، وزعموا أن اللّه تعالى أحيا أولئك الذين قتلوا في بابل ولحقوا بهم إلا أنه لم يكن عندهم من اللّه عهد يرجعون إليه في أموره ، لأن التوراة أحرقت وكذلك بقية الصحف مما كان في البيت ، وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل ، فلما رجع معهم إلى الشام صار يبكي ليله ونهاره وخرج عن الناس ، فجاءه رجل فقال له ما يبكيك ، قال ابكي على كتاب اللّه وعهده الذي كان بين أظهرنا لأنه لا يصلح ديننا ودنيانا غيره ، قال أن يردهم اللّه عليك ؟ قال نعم قال ارجع إلى بيتك فصم وتطهر وطهر ثيابك وموعدك هذا المكان غدا ، فرجع إلى بيته وفعل ما أمره به ذلك الرجل ، ثم عمد ورجع إلى المكان الذي وعده به ، فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل باناء فيه ماء وهو ملك بعثه اللّه إليه فسقاه فتمثلث التوراة في صدره ، فرجع إلى قومه فأملى لهم التوراة من صدره وكان منهم من يعرفها فأحبوه حبا شديدا

وعملوا بها وصار حالهم على أحسن ما يرام ، وهو معنى قوله تعالى (ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)

الآية المارة ، ثم قبض اللّه روح عزير عليه السلام فطال عليهم الأمر في الراحة والعبادة وانقلب أمرهم إلى الفساد وصاروا كلما جاءهم نبي كذبوه وأحدثوا الأحداث العاطلة وطغوا وبغوا وعمدوا إلى قتل الأنبياء الذين ينهونهم ويحذرونهم عاقبة أمرهم ، وصاروا يقتلون الأنبياء بغير حق ، وآخر أنبيائهم زكريا عليه السلام هرب منهم لما أرادوا قتله إلى شجرة هناك ، فدخلها فنشروه نصفين فيها كما فعلوا بأشعيا ، وتصدوا لقتل عيسى عليه السلام لتحق عليهم كلمة العذاب فوقاه اللّه منهم ورفعه إلى السماء وألقى شبهه على المنافق يهوذا الأسخريوطي الذي دلهم عليه فقتلوه على ظنهم أنه هو عيسى ابن مريم كما سيأتي تفصيله في الآية 54 فما بعدها من سورة آل عمران والآية 156 فما بعدها من سورة النساء من ج 3 فاستحقوا عذاب اللّه وسخطه الذي وعدهم به للمرة الثانية :

مطلب الواقعة الثانية على بني إسرائيل :

فبعث اللّه عليهم ملك ملوك بابل يقال له خردوش فسار إليهم بملوكه وجيوشه حتى دخل

الشام وظهر عليهم فأفناهم قتلا وأسرا ونهبا وأمر قائده أن يديم القتل فيهم في بيت المقدس حتى يسيل الدم في وسط المعسكر ، وقال له اني حلفت بإلهي أن أفعل فيهم هكذا إن ظفرت بهم ، فدخل القائد واسمه بيور زاذان المدينة ، وصار يقتل فيهم فرأى في البقعة التي يقربون فيها القرابين أي يذبحون فيها الصدقات دما يغلي ، فسألهم عنه فقالوا هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا فلذلك صار يغلي وانا منذ ثمنمئة سنة لقرب القرابين فتقبل منا إلا هذا ، فقال ما صدقتموني ، فقالوا لو كان أولى زماننا لقبل ولكن انقطع عنا الملك والنبوة والوحي ، فلذلك لم يقبل فلم يصدقهم .

فذبح على ذلك الدم سبعمئة وسبعين روحا من رؤسائهم ، فلم يهدأ الدم فذبح سبعمئة غلام منهم ، فلم يهدأ أيضا فذبح سبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فلم يهدأ ، فقال لهم ويلكم أصدقوني عن هذا الدم قبل أن أفنيكم فلا أترك منكم أحدا ، فلما رأوا الجهد وشدة القتل وتصميمه على ما قال قالوا له هذا دم نبي كان ينهانا عن سخط اللّه ويأمرنا بالخير ويهددنا ما أوقعتموه فينا الآن فلم نصدقه وقتلناه واسمه يحيى بن زكريا ، فقال الآن صدقتم لمثل هذا ينتقم اللّه منكم ، فأمر بإغلاق المدينة وإخراج

من كان معه من الجيش وخرّ ساجدا للّه تعالى ، ثم رفع رأسه وخلا في نبي إسرائيل وقال يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك ومن قتل منهم ، فاهدا بإذن اللّه ربك قبل أن أهلكهم جميعا ، فإني مكلف من قبل الملك خردوش بإدامة القتل حتى يسيل الدم إلى معسكره ، قالوا فهدأ الدم بإذن اللّه تعالى ورفع بيور زاذان عنهم القتل وقال آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل وأيقنت أن لا رب غيره ، ثم التفت إلى بني إسرائيل وقال لهم إني لا أستطيع مخالفة الملك من لزوم إسالة الدم إلى معسكره ، قالوا افعل ما أمرت به ، فأمرهم فحفروا خندقا وأمرهم بذبح البقر والحمير والأنعام فذبحوها وأجرى دمها حتى سال إلى المعسكر ، ثم امر بالقتلى فطرحوا فوق تلك الحيوانات حتى إذا كشف الملك لا يظن أنه فعل ما فعل من الحيلة خلافا لأمره فيغضب عليه ، فلما رأى خردوش الدم وصل إلى المعسكر بعث إليه أن إرفع عنهم القتل ، ثم أخذ جنوده وغنائمه وعاد إلى ملكه ، وكاد أن يفني بني إسرائيل عن بكرة أبيهم في هذه الواقعة لو لا الحيلة التي فعلها القائد رحمه اللّه ، وهذه الواقعة الأخيرة وهي أعظم من الأولى وقد انتقل الملك إلى الشام ونواحيها وإلى الأردن بسبب خراب القدس وضواحيها في هذه الواقعة وسلب اللّه منهم ما أنعم به عليهم

من أموال وأولاد وملك ، وشتتهم في البلاد فلم تقم لهم راية بعد ذلك ، إذ تعقبهم طيطوس بن اسبانوش الرومي فخرب ما بقي من بلادهم ، وطردهم عنها ، ونزع منهم بقية الملك والرئاسة ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبقوا مشتتين في المدن والقرى وأينما حلوا حل بهم الصغار وفرضت عليهم الجزية ، وبقي بيت المقدس خرابا إلى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فعمره المسلمون بأمره في خلافته ، ثم جدده على ما هو عليه الآن سليمان بن عبد الملك وابنه الوليد .

مطلب قتل يحيى عليه السلام :

قالوا والسبب في قتل يحيى أن ملكهم في زمنه كان يكرمه ويجلس معه ويدنيه منه ، وأن الملك هوي بنت أخيه التي أمها زوجته فسأل يحيى أن يتزوجها فنهاه عن نكاحها لأنها لا تحل له ، فبلغ أمها ذلك فحقدت على يحيى وعمدت ذات يوم حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابها وزينتها وطيبتها وأرسلتها إلى الملك وأمرتها تسقيه ، فإذا راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته ، فإن أعطاها سألت رأس يحيى وأن يؤتى به على طبق ، ففعلت فلما راودها قالت له لا أوافقك ؟ ؟ ؟ تعطيني ما سألت ، قال فما

تسألين ؟ قالت رأس يحيى وأن يؤتى به على طبق ، قال سلي غير هذا ، قالت لا أريد غيره ، فلما أبت عليه وقد لهبت الشهوة في نفسه الخبيثة أجاب طلبها وأمر بذلك ، فذهبت شرطنه فأمسكوا به وذبحوه وأتوا به في طست ، فوضع بين يديه ، فلما رآه تكلم الرأس فقال لا يحلّ لك زواجها ، يصغ له لاستيلاء النفس البهيمية على جوارحه فواقعها ، ولما أصبح رأى دمه يغلي محل ذبح القرابين ، فأمر بإلقاء التراب عليه ، وكلما وضع عليه التراب رقى الدم ، زال يلقى عليه التراب وهو يغلي حتى سلط اللّه عليهم ملك بابل وفعل ما فعل .

جاء في الإنجيل ما يقارب هذا ، وان الملك اسمه هيدوريا ، إلا أنه جاء فيه أن أة ظعينة ، راجع الاصحاح 14 من إنجيل متى ، وكذلك بقية الأناجيل الثلاثة حنا ومرقس ولوقا تؤيد بأنها ظعينة ، أما القرآن العظيم فلم يتعرض لهذا البحث .

تعالى "عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ" بعد هذه المرة الثانية إن تبتم وأنبتم ؟ ؟ ؟ سكتم بكتابكم وأوامر نبيكم ، فيردّ عليكم الدولة ويمددكم بأموال وبنين كما فعل "وَإِنْ عُدْتُمْ" يا بني إسرائيل إلى المعاصي كأسلافكم "عُدْنا" إلى تجديد بكم بأكثر من ذي قبل ، وقد

عادوا قاتلهم الّله بعد قتل يحيى والتصدي لقتل ؟ ؟ ؟ عليهما السلام ، فطغوا وبغوا ، فسلط عليهم المؤمنين قوم محمد صلّى الّله عليه وسلم واقتحموا هم وفتحوها عنوة وأرغموهم على الجلاء منها ، وأذّلوهم وأجبروهم على أداء الجزية أن قتلوا منهم ما قتلوا ، وشتتوا بالبلاد ، وحرمهم الّله نعمة الملك والنبوة ، ؟ ؟ ؟ طع رجاءهم منها ، وسيدوم الصغار عليهم إن شاء الّله إلى خروج مسيحهم الدجال ؟ ؟ ؟ كون على يدي جيش عيسى بن مريم عليه السلام .

وان ما يتفوهون به من ؟ ؟ ؟ ور ومساعدة الإنكليز لهم على تنفيذه لا يتيسر لهم إن شاء الّله كما يريدون تعاون المسلمون ووحدوا كلمتهم ، أما إذا تفرقوا فلا بد أن يسلطه الّله عليهم ؟ ؟ ؟ الجماعة رحمة والفرقة عذاب .

ومهما تيقن اليهود تحقيق حلمهم فإنهم سيبقون ؟ ؟ ؟ ذل من يساعدهم على انجاز ذلك الوعد لا أنجزه الله لهم ، ومهما كان فإنه لا يدوم وسيوقع الّله بهم ما أوقعه بأسلافهم لأنهم عنصر شر ويأبى الله للشر أن يدوم ، ومعول ظلم ويأبي كرم الّله إقراره ، راجع الآية 167 من سورة الأعراف المارة ، "وَجَعَلْنا جهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً" 8 سجنا يوم القيامة ، وقد نطقت به العرب قال لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن على باب الحصير قيام

والمقامة الجماعة ، قال :

وفيهم مقامات حسان وجوههم كأنّما النور منها ثمّ ينبثق

(206/447)

و غلب في البيت الأول معناه غلظ ، والمراد أن عذابهم هذا بالقتل والي والذل والقهر والحقارة والصغار ما داموا على ما هم عليه في الدنيا وفي الآخرة ، فإن موعدهم جهنم لا مخلص لهم منها أبدا ، قال تعالى "إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ" المنزل عليك يا سيد الرسل "يَهْدِي لِلَّتِي" الطريقة هِيَ "أَقْوَمُ" أعدل وأصوب من الطرق الأولى قبلها "وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ" في هذه الدنيا "أَنَّ لَهُمْ" عند اللّه في الآخرة "أَجْراً كَبِيراً" 9 جزاء أعمالهم الكريمة ، وهذا الأجر هو الجنة ونعيمها ولا أكبر منه أبدا "وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" في حياتهم الدنيا وينكرون وجودها ويكذبون من أخبرهم بها "أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً" 10 في الآخرة هو جهنم التي لا آلم من عذابها ،

قال تعالى "وَيَدْعُ الْإِنْسانُ" جنسه وأسند إليه حال بعض أفراده أو حكى عنه حاله في بعض أحيانه ، وحذفت واو يدع لفظا دون جازم لأنها تحذف في الوصل لاجتماع الساكنين وتحذف بالوقف وهي مرادة معنى حملا للوقوف على الوصل ، أي أن بعض أفراد الإنسان

حال غضبه يدعو على نفسه "بالشَّرِّ" وقد يتعدى بدعائه على ماله وولده وقومه بالهلاك واللعن "دُعاءَهُ" مثل دعاءه "بِالْخَيْرِ" لنفسه وولده وماله وعشيرته عند الرضاء بطلب البقاء لهم وطول البركة فيهم ، وهذا ناشىء من عدم تأنيه وتؤدته "وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا"

11 يتسرع بالأمر تسرع الغافل إلى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضره لا يتبصر بعاقبة أمره ، والآية عامة في كل إنسان هذا ديدنه ، وخصه بعض المفسرين بالكافر بأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل بطلب نزوله

(207/447)

سخرية ، كدعائه بالخير إذا مسته الشدة حقيقة ، على أن العذاب آتيه لا محالة استعجل به أم لا ، سخر فيه أم لا ، فإذا فاته عذاب الدنيا لحقه عذاب الآخرة ، وقال ابن عباس نزلت في النضر بن الحارث إذ قال (اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا) الذي يقوله محمد (هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ) الآية 33 من الأنفال في ج 3 ، وقال إنّ الله أجاب دعاءه وقيض له من ضرب عنقه وقتل صبرا ، إلا أنه غير وجيه ، لأن هذه الآية لم تنزل بعد ، وهناك أقوال أنها بحق آدم عليه السلام ، ولكن لا يوثق بصحتها ، لذلك فإن ما جرينا عليه من الإطلاق أولى ليدخل فيها كل من هذا شأنه وأنسب بالمقام قال تعالى "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ" هذا شروع في بعض ما

ذكر من الهداية بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالدلائل الآفاقية ، لأن اللّه تعالى قال هنا (إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَهْدِي) إلخ الآية المارة ، وقال في حقه صلّى اللّه عليه وسلم (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) الآية 53 من الشورى في ج 2 ، أي الطريق الأمثل السوي .

(208/447)

فقد وصف اللّه كتابه ورسوله بأنهما يدعوان الناس لأن يهتدوا بالطريقة القيّمة المستقيمة إلى الدين القيم السويّ ، ولا يراد بالتفضيل هذا اسم للتفضيل على معنى أنها أفضل من غيرها ، إذ لا مشاركة بين ما يهدي إليه القرآن وبين ما يهدي إليه غيره ، فالمراد بالأقوم القيم على حد قوله تعالى (فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) الآية 3 من سورة البينة في ج 3 ، (وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) الآية 5 منها ، وهو على حدّ قوله تعالى (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) الآية 27 من سورة الروم في ج 2 ، فهو بمعنى هين ، إذ لا شيء على اللّه أهون من غيره في الخلق والصنع والإبداع ، بل كلها عنده سواء ، والمعنى أن قومك يا أكرم الرسل يأبون الملة الحسنى ويريدون التي ألوم وهي عبادة الأصنام التي يكثر لومهم عليها في الدنيا والآخرة ، ويستعجلون بطلب نزول العذاب ويدعون على أنفسهم بالشر وهم تائهون في ذلك .

هذا وقد جاء النهي صريحا في المنع من دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله ، فقد أخرج

أبو داود والبذار عن جابر قال قال رسول صلّى اللّه عليه وسلم : لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم ، لئلا توافقوا من اللّه ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم .

أما ما وقع من أن حضرة الرسول دعا على بعض أهله فهو للزجر ، فعلى العاقل أن يتجنب الدعاء بالشرّ ولو كان حال غضبه لئلا يصادف ساعة الإجابة فيندم ولات حين ندم ، وعدا عن هذا فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : اشترطت على ربي فقلت إنما أنا بشر أرض كما يرضى البشر ، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا وزكاة وقربة .

ولأن غضبة صلّى اللّه عليه وسلم ليس بخارج عن حكم الشرع لأنه لا يغضب إلا للّه كما أن رضاء .

(209/447)

لا يكون إلا للّه ، وهو مأمور بالحكم بالظاهر واللّه يتولى السرائر "فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ" العظيمة الدالة على قدرتنا والناشئ عنها مصالح العباد التي لا تتم إلا بها ، لأن القرآن كما أوصل إلى الخلق نعم الدين فيوصل في هذا الكوكب إليهم ما يكمل به نعم الدنيا .

مطلب الشمس والقمر والفصول الأربعة والليل والنهار وساعاتهما :

والمراد بالمحو هو عدم جعل قوة القمر بالإضائة مثل الشمس "وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ" التي هي الشمس "مُبْصِرَةً" مضيئة جدا يبصر فيها كل شيء ، ولولا ذلك لما علم الليل من النهار ولا عرف الحساب ولتعطلت الأمور ، فالنهار آية عظيمة دالة على قدرة اللّه مكملة نعم الدنيا ، وقد أودع اللّه تعالى فيها ما أودع من منافع ، راجع الآية 37 من سورة يس المارة ، وما ترشدك إليه من الآيات قال ابن عباس جعل اللّه تعالى نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك ، فمحا من نور القمر تسعة وستين فجعلها مع نور الشمس ، وقال بعض المفسرين إن الإضافة بيانية فيكون المعنى فمحونا الآية التي هي الليل فجعلناها مطموسة مظلمة لا يبصر بها ، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة تبصر فيها الأشياء إلا أن ظاهر الآية يؤيد الأول الذي جرينا عليه ، لأنه الحقيقة ولا يعدل عنها بلا ضرورة هنا ، لا سيما وقد ورد الأثر به ، فقد أخرج عبد ابن حميد وغيره عن عكرمة ما قاله ابن عباس بزيادة فالشمس على مائة وتسعة وثلاثين جزأ والقمر على جزء واحد ، وهذه النسبة بالنظر لقوة الضياء ما بين الشمس والقمر ، وإلا فالشمس من حيث الحجم أكثر بكثير من القمر كالبعد منه بالنسبة للأرض ، ولا يعلم كنهها على ما هي عليه حقا إلا اللّه ، لأن تقدير الفلكيين عبارة عن ظن وتخمين ليس إلا مهما بالغوا وقالوا ، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال كانت شمس بالليل وشمس بالنهار

فمحا اللّه شمس الليل فهو المحو الذي في القمر ، وأخرج البيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر عن سعيد البصري ان عبد اللّه بن سلام سأل النبي صلّى اللّه عليه وسلم عن السواد الذي في القمر فقال كان شمسين وقال اللّه تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ) فالسواد الذي رأيت هو المحو هذا وأنت عليم انه متى دل أثر صحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا ينبغي أن يدعى أن غيره أولى ، ثم بين اللّه تعالى سببا ظاهريا بالنّسبة لما يدخل في عقول الذين لم يتطرقوا إلى الأسباب الأخرى التي هي من العلم الذي علمه اللّه تعالى لرسوله ولم يأمره بتبليغه كما مر في المعجزة الثامنة والخمسين قال تعالى "لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ" فيه من طلب المعاش وغيره ، إذ لا يتسنى ذلك لكم في الليل بسبب ابتغائكم الراحة فيه "وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ" بسبب اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بانتظام بديع لا يتغير ، فتعرفوا المواسم وأوقات الحج ومواقيت السحر والإفطار بالصوم ومواعيد حلول آجال ديونكم واجاراتكم ، ومدد المعاهدات التي تضربونها بينكم ، فالعدد للسنين والحساب للشهور والأيام والساعات ، ولا بعد هذه المراتب الأربعة إلا التكرار ، على أن اختلاف القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه ، مثل المدّ والجزر

، ومثل أحوال البحرانات ، وللفلاسفة في بحث محو القمر كلام طويل لا محل له هنا ، وللأثريين فيه أقوال متخالفة ، فمنهم من هو منهمك في وسائل الوصول إليه للوقوف محلى ما يتخيلونه فيه ، ولعمري أن جل ما يقولونه مبني على الحدس والحدس خطأه أكثر من صوابه ، لذلك لم نذكر شيئًا مما قالوه فيه ومن أراد استيفاء البحث فيه فليراجع كتبهم ، ومنهم من يتكهن فيه وبما فيه ، ومنهم من اشتغل بنوره وكيفية اقتباسه من الشمس وبعده وقربه منها الى

غير ذلك ، هذا وقد عبّر اللّه تعالى عن الرزق بالفضل ، وعن الكسب بالابتغاء ، لأن العبد لا تأثير له في تحصيل الرزق إلا بالطلب ، والإعطاء منوط باللّه تعالى بطريق التفضل لا بالوجوب وتأثير الطلب مثل تأثير الأسباب العادية لا تتوقف حقيقة الرزق عليه ، وقد جاء في الخبر يطلبك أجلك .

وللّه در القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعيبني تطلبه ولو قعدت ؟ ؟ ؟ لا يعييني

وإنما قال تعالى لتعلموا بلام التعليل لما قبله من الليل والنهار ، لأن الحساب نوعان شمسي

وقمري ، فما هو خاص بالأمور التعبدية كالحج والأهلية فهو قمريّ قال تعالى {قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} الآية 189 من البقرة في ج 3 وما يتعلق بالأمور الدنيوية فيجوز بالقمري والشمسي ، هذا واعلم أن العرب قديما قسموا النهار إلى اثنتي عشرة ساعة وسموا الأولى الذّرور ، والثانية البزوغ ، والثالثة الضحى ، والرابعة الغزالة ، والخامسة الهاجرة ، والسادسة الزوال ، والسابعة الدلوك ، والثامنة العصر ، والتاسعة الأصيل ، والعاشرة الغيور ، الحادية عشرة الحدور ، والثانية عشرة الغروب ، ومنهم من سمى الأولى البكور ثم الشروق ثم الإشراق ثم الرّاد ثم الضحى ثم المنوع ثم الهاجرة ثم الأصيل ثم العصر فالطفل فالعشي فالغروب .

(212/447)

وقسموا الليل إلى اثنتي عشرة ساعة أيضا فسموا الأولى الشاهد ، والثانية الغسق ، والثالثة القمة ، والرابعة الفحمة ، والخامسة الموهن ، والسادسة القطع ، والسابعة الجوشن ، والثامنة الهتكة ، والتاسعة التباشير ، والعاشرة الفجر الأول ، والحادي عشرة الفجر الثاني ، والثانية عشرة الفجر المعترض ، وقسمت الشهور الاثني عشر إلى ثلاثين وتسعة وعشرين ، وسمت كل ثلاثة أيام باسمه ، فالأولى هلال ، والثانية قمر ، والثالثة بهر ، والرابعة

زهر ، والخامسة بيض ، والسادسة درع ، والسابعة ظلم ، والثامنة حنادس ، والتاسعة دآدي ، والعاشرة ليلتان منها محاق وليلة سرار ، وسموا الشهور المتعارف عندنا أسماؤها الآن لمعان متعارفة عندنا ، فالمحرم كانوا يحرمون فيه القتال ، وصفر كانوا يغيرون فيه على بلاد الصفرية ، والربيعان كانوا يحصلون فيها ما أصابوه في صفر ، والجماد إن كانت تسميتها زمن جمود الماء من شدة البرد ، ورجب من الترجيب أي التعظيم ، فإنهم لا يقاتلون فيه ، وشعبان لتشعبهم فيه من كثرة الغارات بعضهم على بعض بعد ما كانت محرمة في رجب ، ورمضان صادفت تسميته الحر الشديد أخذا من الرمضاء أي الحرارة القوية ، وشوال كانوا يتعاهدون فيه إبلهم لأنه أول أشهر الحج أخذا من قولهم شالت الإبل بأذنابها تحضيرا للسفر ،

و ذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال لأنه من الأشهر الحرم ، وذو الحجة لوقوع الحج فيه ، وكانوا يجرون حسابهم من عقود وغيرها بالأشهر العربية من رؤية هلال كذا إلى رؤية هلال كذا ، ولما كانت المواسم العربية لا تعين الشهور الأربعة لأنها تقع كلها بدوران السنين وكانوا بحاجة لمعرفة المواسم لزراعتهم اضطروا إلى الاستعانة بالتقاويم الأجنبية القبطية

والفارسية والسريانية والرومية التي مبناها على حركة الشمس ، وصارت تبني حسابها عليها أيضا من جهة المواسم فقط ، والحساب القبطي ينسب للملك دقلديانوس ، والسرياني للاسكندر المقدوني ، والرومي لأغسطس قيصر ملك الروم ، وكذلك الفرس والسرياني فقد وضعهما لهما ملوكهما .

هذا والله أعلم ، راجع الآية 27 من سورة يس المارة ، وما ترشدك إليه فيما يتعلق في هذا البحث ومجرى الشمس والقمر وأيام السنين وغيرها .

ولما ذكر الله تعالى أحوال آيتي الليل والنهار وأنهما دليلان من أدلة توحيده ونعمتان من نعمه على أهل الدنيا قال "وَكُلَّ شَيْءٍ" من أمور دينكم ودنياكم وما تحتاجونه في معاشكم ومعادكم "فَصَّلْناهُ" بيناه لكم "تَفْصِيلًا" 12 واضحا كافيا وشرحناه على لسان نبينا شرحا شافيا لا التباس فيه ولا شك ولا شبهة ، إذ أظهرنا لكم كل ما تفتقرون إليه فلم نبق لكم حجة تحتجون بها ، قال تعالى (وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ) الآية 49 من سورة النحل ج 2 ، وقال تعالى (وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) الآية 113 من النساء في ج 3 ، فتبين في هذا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على نبيه صلّى الله عليه وسلم يهدي للتي هي أقوم ، قال تعالى "وَكُلَّ إِنسانٍ" ذكر أو أنثى كبيرا أو صغيرا ، لأن النكرة المضافة تكون بمثابة العموم ، وجاءت من باب التغليب ، وإلا فيقال إنسانة ، قال

:

إنسانة فتّانة بدر الدجى منها خجل

(214/447)

"أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ" شؤمه وسعده الذي هو نتيجة عمله في دنياه من خير أو شر ، وهو نصيبه وحظه الذي قسمناه له في الأزل مما يتشاءم أو ينفاءل فيه وطوقناه "فِي عُنُقِهِ" كالقلادة ، وخصّ العنق لأنه مما يزين أو يشين ، فإن كان عمله صالحا كان زينة له كالحلى ، وإن كان طالحا كان مشينا كالغل ، أعاذنا اللّه ، ومعنى
اللزوم كناية عن عدم المفارقة له "وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً" مثبتا فيه عمله في دنياه ليحاسب عليه يوم البعث "يَلْقاهُ مَنْشُوراً" 13 أمامه ليطلع عليه ويعلم أن ملائكة اللّه لم تظلمه بشيء ولم تنقص من عمله شيئا لأن هذا الكتاب قد سجله الحفظة الموكلون به وضبطوا فيه حركاته وسكناته ، فإذا مات طوى وحفظ بمكان عند اللّه ، فإذا بعث من قبره أخرج وعرض عليه في موقف الحساب ويقال له "اقْرَأْ كِتابَكَ" الذي دونّاه في حسناتك وسيئاتك ، وانظر إلى عللها وأسبابها وأزمنتها وأمكنتها ، وتأمل هل ظلمك الملك بكتابة ما لم تفعله أو بعدم كتابة ما فعلته من شر أو خير ؟ ويعطي اللّه تعالى إذ ذاك كل أحد قوة

القراءة ليشهد هو على نفسه ، ولهذا المغزى يشير قوله تعالى "كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبا" 14 وهذا غاية في العدل ونهاية في الإنصاف إذ اكتفى اللّه من عبده أن يكون هو محاسبا لنفسه فلم يبق في حاجة إلى استشهاد الشهود والطعن فيهم ، وهذا مظهر قوله تعالى في الآية 29 من سورة ق المارة (وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ونظائرها إذ لا يؤاخذ اللّه أحدا إلا باعترافه الاختياري ، لأنه أولا لا يستطيع أن ينطق بغير الواقع ، ثانيا إذا سكت أو تعلثم نطقت جوارحه بما اقترفت ، فيسأل عنها فلا يقدر أن ينكر شيئا وما بعد الاعتراف حجة .

قال الحسن : لقد عدل عليك (1) من جعلك حسيب نفسك .

وقيل إن الكافر يقول يا رب إنك لست بظلام ، فاجعلني أحاسب نفسي .

---

(1) قوله عدل عليك هكذا في الأصل الطبع وفي بعض النسخ إليك سيدل عليك وفي الخطيب عدل واللّه في خلقك من إلخ وفي الكشاف : يا ابن آدم أنصفك واللّه من إلخ ه .

وقيل إنه يقول يا رب لا أقبل علي شاهدا من غيري ، فيقال له :

(اقرأ كتابك) إلخ .

والباء في بنفسك للتأكيد ويجوز إسقاطها في غير القرآن

ورفع الاسم بعدها وعليه قوله : كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

وقوله :

ويخبرني عن غائب المرء هديه كفى الهدي عما غيب المرء مخبرا

والمراد بالنفس ذات الإنسان وشخصه ، وما قيل إن المراد بالنفس جوارح الإنسان لا يتأتى هنا ، لأنه على خلاف ظاهر الآية ، قال تعالى "مَنِ اهْتَدَى" في هذه الدنيا بهداية هذا القرآن وعمل بما فيه من الأحكام وآمن بمنزله والمنزل عليه "فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ" فيعود نفع هداه لها لا يتخطاها إلى غيره "وَمَنْ ضَلَّ" هداه وخالف ما جاءه فيه "فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها" فيعود وبال ضلاله على نفسه خاصة

"وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى" وهذه الجملة كالتأكيد لما قبلها ، أي لا تحمل نفس حاملة لوزرها وزر نفس أخرى غيرها ، فلا يؤاخذ أحد بذنب الآخر قريبا كان أو بعيدا بل كل أحد مختص بذنبه ، وهذه شريعة إبراهيم عليه السلام فمن بعده وكانت شريعة من قبله جارية بمؤاخذة القريب بقريبه ، راجع الآية 68 من سورة والنجم المارة ، وكانت هذه العادة في الجاهلية ثم نفاها الإسلام ، ولكن أعراب البادية حتى الآن متمسكون فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وانهم كانوا في مبادئ الإسلام أشد كفرا ونفاقا راجع الآية 96 من سورة التوبة في ج 3 ،

وهم الآن أشد عتوا وبغيا وطغيانا وعنادا ، لأنهم حتى الآن لا يعرفون من الدين إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه .

قال ابن عباس نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة لما قال لقومه اكفروا بمحمد وعلي أوزاركم ، إلا أن لفظ الآية عام فبقاؤها على عمومها أولى ، فيدخل فيها هو وغيره ممن على شاكلته .

مطلب في أولاد المشركين وأهل الفترة :

(216/447)

وما قيل إنها نزلت في أطفال المشركين لا صحة له واستدل الجبائي بهذه الآية على أن أطفال المشركين لا يعذبون وهذه من المسائل الخلافية لتصادم الأحاديث والأخبار في ذلك قال بعض العلماء هم في النار تبعا لآبائهم ، واستدل بما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن عائشة قالت : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن ولدان المسلمين ، قال في الجنة ، وسألته عن ولدان المشركين اين هم ؟ قال في النار ، قلت يا رسول اللّه لم يدركوا الأعمال ولم تجر عليهم الأقلام ، قال ربك أعلم بما كانوا عاملين (أي لو بلغوا الحلم والذي نفسي بيده إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار .

إلا أن هذا الخبر قد ضعّفه ابن عبد البر ، فلا يحتج به .

وأنت عليم بأن الحديث إذا طرقه الاحتمال يفقد صلاحيته للاستدلال ، وإنما صح عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه سئل عن أولاد المشركين فقال اللّه أعلم بما كانوا عاملين ، وتوقف بعضهم فيهم ومنهم أبو حنيفة ، والقول الصحيح أنهم ناجون لقوله تعالى "وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ" أحدا من خلقنا "حَتَّى نَبْعَثَ" له "رَسُولًا" 15 يرشده في الدنيا لإقامة الحجة عليه وقطعا للمعذرة ، حتى إذا لم يهتدوا بهديه عذبهم اللّه بنوع من أنواع العذاب في

الدنيا وفي الآخرة بالعذاب الأليم في جهنم ، أي أن اللّه تعالت رأفته يقول ما صحّ عنا وما وقع منا بل استحال على سنتنا المبيّنة على الحكم البالغة أن نعذّب أحدا من خلقنا بعذاب دنيوي أو أخروي على فعل شيء وتركه أصليا كان أو فرعيا قبل أن نرسل إليه من يحذره وينذره ويبشره ، وعلى هذا لا يستقيم القول بتعذيب أولاد المشركين كأهل الفترة ، يؤيد هذا ما جاء عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه رأى إبراهيم عليه السلام في الجنّة وحوله أولاد الناس ، قالوا يا رسول اللّه وأولاد المشركين ؟

قال وأولاد المشركين – رواه البخاري في صحيحه – والحديث الذي أخرجه الترمذي في النوادر رواه ابن عبد البر عن أنس قال سألنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدم أهل الجنة والآية هذه صرحت بأن لا تعذيب قبل التكليف ، والذي هو دون البلوغ لا يتوجّه عليه التكليف .

واعلم أنه لم يخالف أحد يكون أولاد المسلمين في الجنّة إلا من لا يعتدّ بقوله لقوله صلّى اللّه عليه وسلم ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله اللّه تعالى في الجنة بفضله ورحمته إياهم .

أما من احتج بحديث عائشة رضي اللّه عنها الذي قالت فيه لما توفي صبي من الأنصار : طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال لها صلّى اللّه عليه وسلم :

أو غير ذلك يا عائشة ، إن اللّه تعالى خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم .

فإن هذا القول المتضمن معنى النهي لها رضي اللّه عنها هو نهي عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون لها دليل قاطع ، وهذا مثل إنكاره على سعد بن أبي وقاص في قوله لحضرة الرسول بحقّ رجل حضر تقسيم الصدقة للفقراء من قبله صلّى اللّه عليه وسلم أعطه إني لأراه مؤمنا قال صلّى اللّه عليه وسلم أو مسلما ، الحديث ، ولا يبعد أنه صلّى اللّه عليه

وسلم قال هذا الحديث قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم قال ما ذكر من الأحاديث التي أثبتناها أعلاه ، وقدمنا في الآية 46 من القصص بان لا وجه لقول من فسر الرسول في هذه الآية بالعقل ، لأن حقيقة الرسول هو النبي المرسل والأصل في الكلام الحقيقة ، وما قيل إن المراد نفى المباشرة قبل البعثة لا مطلق التعذيب ، مردود ، لأن من شأن عظيم القدر للتعبير عن نفى التعذيب مطلقا ، ولا يوجد ما يقيدها لا بنوع

التعذيب ولا بنفي العذاب عن أناس دون أناس ، والقيد من شأن البشر تعالى اللّه وكلامه عن ذلك ، وما قيل إن نفي التعذيب لا يستلزم نفي استحقاق العذاب لجواز سقوطه بالمغفرة مردود أيضا ، لأن الآية تدل على انتفاء التعذيب قبل البعثة ، وانتفاؤه قبلها ظاهر ، يدل على عدم الوجوب قبلها ، فمن أدعى ان الوجوب ثابت وقد وقع التجاوز عنه بالمغفرة فعليه البيان .

هذا وما روى عن أبي حنيفة رحمه اللّه أنه قال لو لم يبعث اللّه تعالى رسولا لوجب على الخلق معرفته بالعقل لأن العقل حجة من حجج اللّه تعالى يجب الاستدلال به قبل ورود الشرع ، لا ينطبق على تفسير هذه الآية ، لأن معرفة اللّه تعالى غير اخباره بنفي العذاب عمن لم يرسل لهم رسولا ، وهي حقيقة واجبة بالعقل لأن ابراهيم عليه السلام لما قال لأبيه وقومه (إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الآية 73 من الأنعام في ج 2 لم يقل عليه السلام أوحى إلي لأنه رأى عبادتهم غير معقولة عقلا ، فضلا عن أنها منافية للشرائع ، ولأن العقل حجة في معرفة الصانع تعالى ووحدانيته وتنزيهه عن الولد والصاحبة قبل ورود الشرع إليه ، وكذلك استدلاله بالنجوم على معرفة اللّه وجعلها حجة على قومه ، راجع الآية 75 فما بعدها من سورة الأنعام المذكورة ، وهكذا فإن كل الرسل حاجّوا قومهم بحجج العقل ، لكن لا يراد من هذا الاستدلال جعل معنى الرسول في الآية هو العقل ، كلّا لأنه مخالف لاستعمال القرآن ، (قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ) الآية 51 من المؤمن في ج 2 ، ولم يقل لهم أولم تكونوا عقلاء ، وحاصل الكلام أن تفسير الرسول في هذه الآية بمعنى العقل لا يرتضيه العقل ، هذا وإن ما احتج به من يقول إن أهل الفترة غير ناجين ، وان بعض ذراري المشركين والمؤمنين ناجون ، وبعضهم هالكون هو ما أخرجه أحمد وابن راهوية وابن جردوية والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال أربعة يحتجون يوم القيمة رجل أصمّ لا يسمع شيئا ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الأصم فيقول

يا رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا ، وأما الأحمق فيقول رب جاء الإسلام والصبيان يحوفونني بالبعر ، وأما الهرم فيقول رب جاء الإسلام وما أعقل شيئًا ، وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني منك رسول ، فيأخذ سبحانه مواثيقهم

ليطيعنّه فيرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار ، فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها سحب إليها .

وأخرج قاسم بن اصبغ والبزار وابو يعلى وابن عبد البر في التمهيد عن أنس رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يؤتى يوم القيامة بأربعة : المولود والمعتوه ومن مات في الفترة والشيخ الهرم الفاني ، كلهم يتكلم بحجته ، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من جهنم (الجزء منها) ابرزي ، ويقول لهم إني كنت أبعث لعبادي رسلا من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم ، فيقول لهم أدخلوا هذه ، فيقول من كتب عليه الشقاء يا رب أندخلها ومنها كنا نفرّ وأما من كتبت له السعادة فيمضي فيقتحم فيها ، فيقول الرب تعالى قد عاينتموني فعصيتموني ، فأنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية ، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار

واخرج الحكيم الترمذي من نوادر الأصول والطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال :

يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلا ، وبالهالك وبالفترة ، وبالهالك صغيرا ، فيقول الممسوح عقلا ، أي المجنون يا رب لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد بعقله مني ، ويقول الهالك في الفترة يا رب لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهدك مني ، ويقول الهالك صغيرا يا ربي لو آتيتني عمرا ما كان من آتيته عمرا بأسعد بعمره مني ، فيقول لهم الرب تبارك وتعالى فاذهبوا وادخلوا جهنم ولو دخلوها ما ضرتهم شيئا ، فتخرج عليهم قوابص (جمع قبصات التي هي جمع قبصة وهو ما يتناول بأطراف الأصابع وهو كناية عن قليل من النار يظنون أنها قد أهلكت ما خلق اللّه) فيرجعون سراعا ويقولون يا ربنا خرجنا وعزتك نريد دخولها ، فخرجت علينا قوابص من نار ظننا أنها أهلكت ما خلق اللّه تعالى من شيء ، ثم يأمرهم ثانية فيرجعون لذلك ، ويقولون كذلك ، فيقول الرب تعالى خلقتكم على علمي والى علمي تصيرون ، يا نار ضمّيهم ، فنأخذهم النار وقدمنا في آخر سورة طه المارة ما يتعلق بهذا البحث فراجعه قال في الإصابة أن هذه الأحاديث وإن

وردت من عدة طرق فمعارضها أصحّ منها للأدلة السابقة وغيرها ، على أن الحديث مهما

كان لا يعارض القرآن وان كان متواترا فما بالك بأحاديث لم تبلغ درجة الصحة ، قال تعالى

"وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً"

من القرى والمراد بالإهلاك أهلها من اطلاق المحل وارادة

الحال فيه ، كما تقول سال الوادي أي سال الماء فيه ، لأنه ثابت مكانه "أَمَرْنا مُتْرَفِيها"

(222/447)

بالعمل الصالح والطاعة لنرفع عنهم العذاب ، لأن المنعمين والرؤساء إذا ركنوا وخضعوا

لأوامر اللّه كان غيرهم أخضع له وأطوع واكثر إذعانا ، لأن أكثرهم تبع لهم ، وقرىء "أمرنا"

بالتشديد أي جعلناهم الأمراء ، وإذا كان الجبابرة والفساق أمراء الناس فبشرهم بالدمار

إذ أريد بهم الشر ، وإذا كان الصلاح والمتقون أمراءهم فبشرهم بالفلاح والنجاة والنجاح

والفوز بالدنيا والآخرة "فَفَسَقُوا فِيها"

في أهالي القرية غير مكترثين بإرشاد الرسل وأصروا على عنادهم وخرجوا عن الطاعة

"فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ"

المبين في الآية 19 - 33 من سورة يونس والآية 111 من سورة هود والآية 45 من سورة

فصلت والآية 14 من سورة الشورى في ج 2 والآية 129 من سورة طه المارة وجب على أهلها الوعيد بالعقاب والإهلاك إذ لم يفعلوا ما أمروا به ولم يصغوا إلى قول اللّه ورسوله "فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً" 11 بانزال العذاب المقدر على أهلها فأهلكناهم فيه وخربنا ديارهم، وهذا هو معنى التدمير لما فيه من محو الأثر للمحل والحال فيه، وقيل أن أمرنا بمعنى سعرنا واستدل على هذا المعنى بما أخرجه احمد وابن أبي شيبة في سنديهما والطبراني في الكبير من حديث سويد بن هبيرة: خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة.

(223/447)

أي كثيره النتاج والسكة الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة الملقحة، وإذا أريد سكة الحراثة فيراد بالمأبورة مصلحة والمهرة المأمورة كثيرة النسل، أي أن خير المال نتاج أو زرع، وعليه يكون المعنى كثرنا جبابرتها وملوكها وخصهم بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، لأن توجه الأمر إليهم آكد، ولأن غيرهم تبع لهم، ولأن الناس عبيد الدرهم والدينار والجاه والمنصب، على أن البلاء يعم قال تعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) الآية 25 من سورة الأنفال في ج 3، وجاء عن أم

المؤمنين زينب بنت جحش أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا إله إلا اللّه ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها ، قالت زينب قلت يا رسول اللّه أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم

إذا كثر الخبث – رواه البخاري ومسلم – ، كلمة ويل تقال لمن وقع في هلكة أو أشرف أن يقع فيها ، والخبث الشر ، قال تعالى "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ" الخالية قرونا كثيرة "مِنْ بَعْدِ نُوحٍ" كقوم عاد وثمود وغيرهم ولم يقل من بعد آدم ، لأن نوحا عليه السلام يعد أبا البشر الثاني ولم يبلغ قوم من العصيان والتكذيب قبله مثل ما بلغه قوم نوح ، ولأنهم أول قوم استؤصلوا بالعذاب ، وكان قبله يقع العذاب على أناس مجرمين دون غيرهم كي يعتبر الآخرون فيقلعون عما هم عليه ويرجعون إلى ربهم ولما لم ينجح بهم وصاروا لا ينكرون على غيرهم ما هم به متلبسون من معاصي اللّه عمم العذاب ، ولهذا ذم اللّه تعالى بني إسرائيل بقوله جل قوله (كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ) الآية 82 من سورة المائدة في ج 3 .

واعلم ان القرن أقله ثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر وأكثره مائة وعشرون سنة ، فكل ثلاثة قرون عصر أي قرن باعتبار القرن عصرا والعصر مائة سنة فقط .

روي عن محمد بن القاسم عن عبد اللّه بن بشر المازني أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمود بن القاسم مازلنا نعدّله حتى تمت له مائة سنة أيضا "وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ" وإن بالغوا في إخفائها وكتمها وأرخوا الستور حال فعلها "خَبِيراً" بها "بَصِيراً" 17 لأنه عالم بجميع ما يقع في ملكه من المعلومات راء المرئيات كافة ، فكل ما يفعله العباد حال في علمه قبل أن يفعلوه وبعده ، فعلمه بالقبلية والبعدية سواء ، لا يتغير علمه في حال من الأحوال جل علمه ، وهو القائل "مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ" منكم أيها الناس وسميت الدنيا العاجلة لقلة زمنها فهي كالعربون الذي يأخذه البائع من المشترى "عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ" تعجيله له من نعيمها لا ما يشاء هو وذلك "لِمَنْ نُرِيدُ" نحن من طلابها لا لكل من أرادها كل فليس متمني يعطى ما يتمناه بل قد يعطي بعضهم كله وبعضهم بعضه ، وقد يحرم البعض البتة فيخسرون الدنيا والآخرة ويجتمع عليهم فقدها ، أجارنا اللّه من ذلك "ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ" لطالب الدنيا الحاضرة رغبة فيها والآخرة التي لم يردها مكان ما عجلنا له في الدنيا "جَهَنَّمَ يَصْلاها" يحرق فيها ويقامي حرها حال كونه "مَذْمُوماً" مهانا محقرا على اختياره لها ملوما عليه ممقوتا بسببه

"مَدْحُوراً" 18 مطرودا مبعدا من الرحمة خائبا مما كان يأمل من فضل اللّه ورحمته ورأفته.

هذا ، وما قيل أن هذه الآية نزلت في المنافق الذي يغزو مع المسلمين لأجل الغنيمة لا الثواب غير وجيه ، لأن السورة مكية إلا بعض آيات ليست هذه منها ، ولا يوجد في مكة منافقون ولا غزو ولا غزاة إذ ذاك ، وقد جاءت بلفظ عام ، والمخاطبون بها هم مشركو مكة ، وظاهرها يحصر معناها في الكفرة ، لأنها تدل على الخلود في النار ، وان صرفها إلى الفسقة أو المهاجرين لطلب الدنيا والمجاهدين للغنيمة ، وهم مؤمنون لا يستقيم على أحوالنا معشر أهل السنة والجماعة لأنا لا نقول إن صاحب الكبيرة يخلد بالنار وإن عقيدتنا تأباه قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ) الآيتين 47 و115 من النساء في ج 3 ، ولهذا فإن ما دون الشرك من المعاصي منوط بالمشيئة ولا تحديد على اللّه أما على أقوال المعتزلة ومن نحا

نحوهم فنعم ، لذلك أدرج الزمخشري الشيخ محمود جار اللّه في كشافه قبل رجوعه عن الاعتزال الفاسق في هذه الآية "وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ" وعمل لأجلها في دنياه توصلا لنعيمها "وَسَعى لَها سَعْيَها" اللائق بها المستحق لها بأن قام بما أمر اللّه وانتهى عما نهاه عنه "وَ" الحال أنه "هُوَ مُؤْمِنٌ" إيمانا صحيحا بنية خالصة ، أما إذا كان كافرا أو عمله للرياء والسمعة والنفاق فلا ينتفع بإرادته إياها ولا بسعيه لها ، لأن اللّه تعالى ذم المرائين بقوله جل قوله الذين يراؤن الآية 6 من الماعون المارة وكذلك من يتعبد في الكفرة بما يخترعه من الآراء ويزعم أنه يسعى لها ، فهؤلاء يكافئهم اللّه على أعمالهم الحسنة بالدنيا بإطالة أعمارهم وتوسيع رزقهم ومعافاتهم من الأمراض والأكدار حتى يلقوا اللّه تعالى وليس لهم حسنة يكافئون عليها بالآخرة ، كما أن المؤمن قد يجازيه اللّه على أعماله السيئة بالمرض وضيق العيش ونقد الأولاد حتى يلقى اللّه تعالى وليس عليه سيئة يعاقب عليها ، قال بعض السلف الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ، إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب "فَأُولئِكَ" مريدوا الآخرة الساعون لها بالأعمال الصالحة حالة كونهم مؤمنين باللّه ورسله وكتبه آتين بما أمروا به منتهين عما نهوا عنه "كانَ سَعْيُهُمْ" في دار الدنيا "مَشْكُوراً" 19 في الآخرة مقبولا عند اللّه يثيبهم عليها بمنه وكرمه وفضله

وأصل السعي المشي السريع دون العدو وفوق الهرولة ، ويستعمل للجد في الأمر خيرا كان

أو شرا وأكثره يستعمل في الأفعال المحمودة قال الشاعر :

أن أجز علقمه بن سعد سبعة لا أجزه ببلاء يوم واحد

و هذه الآية جاءت بمقابلة الآية قبلها ، فإن تلك في الكافر وهذه في المؤمن بدلالة قوله "كُلًّا" أي كل واحد من الفريقين فالتنوين للعوض "نُمِدُّ" نزيد مرة بعد أخرى وهذا معنى المد والمدد "هؤُلاءِ" الذين يريدون الدنيا من زخارفها "وَهَؤُلاءِ" الذين يريدون الآخرة من نعيمها "مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ" الواسع الذي لا يتناهى وهذا العطاء ليس على طريق الوجوب بل بمحض الفضل "وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ" دنيويا كان أو أخرويا "مَحْظُوراً" 20 ممنوعا عمن يريده ، بل هو فائض على من قدر له بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة ، فيرزق المؤمن والكافر في هذه الدنيا ثم يعذب الكافر في الآخرة ويثيب المؤمن فيها بحسب أعمالهما ،

قال تعالى مخاطبا حبيبه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم "انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ" في هذه الدنيا بالرزق والجاه والعمل والشرف بحسب مراتب العطاء وتفاوت أهله "وَلَلْآخِرَةُ" الآتية "أَكْبَرُ دَرَجاتٍ" 21 في الفضل من درجات الدنيا وأعظم تفاوتا فيها "وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا" 21 من الدنيا ، والفرق بين تفضيل الدنيا وتفضيل الآخرة كالفرق بين

دركات جهنم ودرجات الجنة ، وكالفرق بين الدنيا والآخرة ، فعلى الراغب في التعالي بالدنيا أن تشتد رغبته في تعالي الآخرة أيضا ، لأنها ذات مقام أبدي والدنيا مزرعة الآخرة فلها يعمل العاملون ، وفيها فليتنافس المتنافسون ، وقيل في المعنى :

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط في زمن الزرع

هذا وقد جاء في بعض الآثار أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال إن بين أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها وقد أرضى اللّه الجميع فما يغبط أحد أحدا .

وقال الضحاك : الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه ، والأسفل لا يرى أن فوقه أحدا ، لهذا لا يحسد أحد الآخر على ما هو فيه من ذلك العطاء الواسع .

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضي اللّه عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشي وأبو سفيان بن حرب وأولئك المشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم وكان قد أوصى لهم ، فقال أبو سفيان ما رأيت كاليوم قط (أي اهانة وحقارة) ، إنه ليؤذن لهؤلاء

العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل وكان أعقلهم أيها القوم إني والّله قد أرى الذي في وجوهكم فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعي القوم ودعيتم (يعني للإسلام ورفض الكفر) فأسرعوا الإجابة وأبطأتم ، أما والّله لما سبقوكم به من الفضل أشدّ عليكم فوتا من باب عمر الذي تنافسون عليه .

قال في الكشاف هذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّه الّله لهم في الجنة اكبر وأعظم .

(229/447)

لقد أنفق والّله سهيل وأخفق أبو سفيان وأنا أقول لقد صدق جار الّله فيما قال واسأل الّله ان يحقق قوله فيه المبين في الآية الأولى من هذه السورة قال تعالى مخاطبا لرسوله ايضا بما يريده من قومه "ولا تجعل" أيها الإنسان بكل حال من الأحوال "مع الّله" الذي لا إله غيره "إلها آخر" مما تسول لك نفسك الخبيثة إلهيته ومما يوسوس لك الشيطان عدوك ربوبيته وهو ليس بشيء يستحق ان تسميه ربا وإلها لأن الإله هو القادر على كل شيء والرب هو الخالق لكل شيء ومربيه ومن دونه من الأوثان عاجزة عن كل شيء ، والعاجز لا يصلح ان يكون إلها ولا يجدر أن يتخذ ربا ، فإذا فعلت هذا وأطعت هواك فيه "فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً"

محقرا موبخا مخزيا "مَخْذُولًا" غديم النضير والمعين من كل أحد ومن كل شيء فتجمع على نفسك الخذلان من اللّه تعالى والذم من ذوي العقول، إذ اتخذت محتاجا مثلك لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ومن لا يقدر على جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها كيف يرجى منه أن ينفع غيره ويدفع عنه، فجزاؤك أيها الجاعل إلها مع إله السموات والأرض لا يصلح قط للألوهية وإشراكه مع من له الكمال الذاتي الخالق الرازق المنعم.

الذمّ في الدنيا والآخرة على عملك هذا الذموم والخذلان التام، إذ لا تجد من يتصرك من العذاب الذي يحل بك، ولا من يعينك على دفعه، ولا من يؤازرك على رفعه الا من هو كافر مثلك، قد زيّن له سوء عمله وهو عاجز عن اجتناب ما حل به مثلك، فتلاوم أنت وإياه على

ما فاتكم من العمل الصالح المؤدي لخلاصكم من اللّه، قال تعالى "وَقَضى رَبُّكَ" أمر وحكم وأراد "أَلَّا تَعْبُدُوا" أيها الناس أحدا ولا شيئا "إِلَّا إِيَّاهُ" وحده وهذا الحصر يفيد وجوب العبادة له تعالى منفردا، وتحريم عبادة غيره مطلقا لأن العبادة غاية التعظيم المنعم بالنعم العظام على عابديه جلت ذاته المقدسة فلا تليق إلا لمن هو في غاية التعظيم ولما كانت

عبادته هي المقصودة وما خلق الخلق إلا لأجلها قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية 56 من سورة الذاريات في ج 2 قدمها على كل شيء .

مطلب في برّ الوالدين والحكم الشرعي بذلك :

ولما كان حق الإحسان على العبد بعد طاعة اللّه تعالى لأبويه اللذين هما السبب الظاهري بوجوده اتبع الأمر بعبادته بالإحسان إليهما فقال "وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً" ما فوقه احسان إلا عبادة الملك الديان وحده ، وذلك بأن تبرّوهما برّا لا مزيد عليه ، وتتلطفوا بهما تلطفا لا نهاية له إلا الموت ، فتخدمونهما وتقضوا حوائجهما وتعطفوا عليهما برغبة املا برضاء اللّه المترتب على رضائهما .

واعلموا أيها الناس "إِمَّا" أصلها إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيدا للمعنى "يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ" هو منتهى الشيخوخة الذي قد تحوجهما إليك أيها الولد لما يلمّ بهما "أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما" من حالة الضعف والعجز والهرم فيلتجأان عندك آخر عمرهما كما كنت ضعيفا مبدأ عمرك ملتجئا في حضانتهما ، يحنيان عليك بشفقتهما ، ويحملان الأذى من تحتك ، فلا ينامان حتى تنام ، ولا يأكلان حتى تأكل ، ولا يستريحان حتى تستريح ، ويتمنيان أن

يصيبهما كل ما قدر عليك من أذى ، وأن تكون معافى لا تصيبك شوكة عن طيب نفس ورغبه منهما ، فإذا صارا إليك واحتاجا لعنايتك فيجب أن تقوم لهما بهذه الأمور الخمسة إذا أردت رضاء اللّه ونظره إليك ، أولها "فَلا تَقُلْ لَهُما" إذا كلفاك بشيء مهما كان "أُفٍّ" وهذه الكلمة كناية عن عدم التضجر مما يقولانه لك لأنها كلمة تضجر وكراهية ، وأصلها إذا سقط عليك تراب ونفخته عنك تقول أف ، ثم توسعوا بها إلى كل مكروه ، أي ولا تتضجّر منهما أو من فعلهما أو قولهما أو مما يطلبانه منك ولو بمثل هذه الكلمة ، بل عليك أن تتلقى أمرهما برحابة صدر وطلاقة وجه ولين جانب وخفض كلام وتحسين قول لأن النهي عن هذه الكلمة يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قولا وفعلا وإشارة ورمزا قياسا جليسا ، إذ يفهم ذلك بطريق الأولى ، ويسمى مفهوم الموافقة ودلالة النص وفحوى الخطاب ، وقيل يدل على ذلك حقيقة ومنطوقا في عرف اللغة كقولك فلان لا يملك النقير أو الفتيل أو القطمير فإنه يدل كذلك على أنه لا يملك شيئا قليلا ولا كثيرا .

واعلم أنه لو يوجد فيما يخاطب به البشر كلمة يعرف أهل الدنيا على اختلاف لغاتهم أنها تدل على أقل من هذا المعنى لذكرها اللّه تعالى حفظا لحق الوالدين من أن يصل إليهما ما

يكدرهما الثاني "وَلَا تَنْهَرْهُما" تزجرهما بغلظة وشدة (وهذا معنى النهر) أي لا تزجرهما مما يتعاطيانه مما لا يعجبك أو تكره ما يريدانه منك وان كان ولا بدّ من ان تقول لهما لا تفعلا كذا مما يكون عدم فعله ضروريا فقل لهما ألا تتركان هذا ألا تعرضان عنه ، لأنه كما إنك ممنوع من التضجر بالقتيل والكثير ممنوع أيضا من إظهار المخالفة لهما في القول والفعل والرد عليهما والتكذيب لهما والكذب عليهما ، ولهذا روعي هذا الترتيب وإلا فالمنع من التأفيف يدل على المنع من النهر بطريق الأولى فيكون ذكره بعده عبثا ، وحاشا كلام اللّه منه الثالث "وَقُلْ لَهُما" عند المخاطبة أو التكليف بشيء ما أو التعدي عليك لغرض ما "قَوْلًا كَرِيماً" 23 جميلا لا شراسة فيه ولا اكفهرار ، بأن تقول يا أبتاه يا أماه مراعيا معهما حسن الأدب ، لان مناداتهما باسمهما من الجفاء ، وأن يصدر جوابك لهما عن لطف ومنة وعطف ، وان تقف أمامهما وقفة المأمور بين يدي الآمر ، ولا تقل هاء بل لبيكما وسعديكما ، قال أبو الهداج لسعيد بن المسيب كل ما ذكره اللّه تعالى في القرآن من برّ الوالدين فقد عرفته إلا قوله تعالى (قَوْلًا كَرِيماً) فما هذا القول الكريم ؟ فقال ابن المسيب قول العبد المذنب للسيد الفظ .

أي يكون بغاية من الرقة والأدب ونهاية من الخضوع والتذلل ، قال الراغب كل شيء يشرف في بابه فإنه يوصف بالكرم ، الرابع "وَاخْفِضْ" أمر اللّه تعالى الولد بخفض الجانب لوالديه

ليتسارع بالانقياد لما يريد انه منه دون تردد ، أي تواضع واخشع وألن "لَهُما جَناحَ الذُّلِّ" بأن تجعل نفسك ذليلة أمامهما زيادة في التأدب .

واعلم ان خفض الجناح مأمور به لكل أحد قال تعالى لحضرة الرسول (وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) الآية 89 من سورة الحجر في ج 2 ، فكيف بالوالدين ؟ وهذا اللين المطلوب منك لهما كائن "مِنَ الرَّحْمَةِ" عليهما أي لا يكون خفض جناحك لهما خوفا او رياء او مداهنة او غير ذلك ، بل لكمال الرأفة بهما وخالص الشفقة عليهما كما كانا كذلك لك في صغرك حين كنت مفتقرا إليهما إذ آل افتقارهما إليك ، ولا

تمنعهما شيئا أحبّاه .

واعلم أن احتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه غاية الضراعة والمسكنة ، فيحتاج إلى أشد رحمة وأفرط رأفة ولله در الخفاجي إذ يقول :

يا من أتى يسأل عن فاقتني ما حال من يسأل من سائله

ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجا إلى عامله

الخامس "وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما" برحمتك الباقية والطف بهما بلطفك الأبدي ، أي لا تكتف برحمتك لهما ، لأنها فانية ، هذا إذا كانا مسلمين ، وإذا كانا كافرين فقل ربّ اهدهما ووفّقهما إلى دينك القويم ، وسهل لهما أسباب الإيمان ويسر لهما طرق الإسلام لأجتمع بهما في دار كرامتك ، لأن الاستغفار والرحمة للكافر منهيّ عنه ، قال تعالى (ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى) الآية 113 من سورة التوبة في ج 3 ، وقد رد اللّه عن خليله إبراهيم عليه السلام حين قيل إنه استغفر لوالديه بقوله جل قوله : (وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ) الآية 14 بعدها ، ولذلك قال له (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) في الآية 26 من سورة مريم المارة ، قال تعالى (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) تتمة الآية المارة من التوبة وقد بين تعالى السبب فيما أمر به الولد لوالديه وهو "كَما رَبَّيانِي صَغِيراً" 24 أي أدع لهما بالرحمة والرأفة والمغفرة جزاء تربيتهما لك وبمقابل رحمتهما بك حال صغرك ، ولست بمقابل لهما مهما قمت به لهما ، وشتان بين رحمتك لهما ورحمتهما لك إذا قايست بينهما وأنعمت النظر في ذلك ، لأن رحمتك لهما عن رعبة ورحمتهما لك عن رغبة .

الحكم الشرعي : الأمر هنا للوجوب أي يجب عليك شرعا أيها الولد ذكرا كنت أم أنثى أن تقوم بحوائج والديك بحسب قدرتك ،

وأن تدعو لهما ، وتتواضع لهما ، وتلين جانبك لهما حينما يكلمانك أو تجاربهما ، وأن لا تزجرها ، وأن تخاطبهما باللطف وتحترمهما غاية الاحترام ، هذا وقد بالغ جل شأنه في التوصية بهما إذ شفع الإحسان إليهما بعبادته وتوحيده سبحانه ، وجعل ذلك كله قضاء مبرما عليه ، وحث حضرة الرسول على ذلك أيضا ، فقد روى ابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم ورجح الترمذي وقفه قال : رضاء اللّه في رضا الوالدين وسخط اللّه في سخط الوالدين .

وروى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد وكان المسلمون إذ ذاك بحاجة إليه ، فقال أحيّ والداك قال نعم ، قال ففيهما فجاهد .

فجعل صلّى اللّه عليه وسلم القيام بأمورهما خيرا له من الجهاد وأعظم أجرا عند ربه .

وجاء في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال لو علم اللّه تعالى شيئًا أدنى من الأف لنهى عنه ، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة ، وليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار .

ورأى ابن عمر رجلا يطوف بالكعبة حاملا أمه على رقبته فقال يا ابن عمر أتراني جزيتها ؟ قال لا ولا بطلقة واحدة ، ولكنك أحسنت والّله تعالى يثيبك على القليل كثيرا .

وروى مسلم وغيره لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه .

وعنه عليه الصلاة والسلام إياكم وعقوق الوالدين فإن الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ إزاره خيلاء إن الكبرياء للّه رب العالمين .

قدّم في هذا الحديث العاق على قاطع الرحم لأن العقوق أعظم لاشتماله على قطع الرحم وعدم احترام الأبوين الذين وصّى اللّه ورسوله بهما ومخالفتهما مخالفتهما ، ولا أعظم منها وزرا .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريره قال : جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال يا رسول اللّه من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ثم أمك ثم أباك ، ثم أدناك فأدناك ؟

أي الأقرب فالأقرب منك .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه ، قيل من يا رسول اللّه ؟ قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة أي بسبب برّهما .

وروى مسلم عن عبد اللّه بن مسعود قال : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أي الأعمال أحب إلى اللّه

تعالى ؟ قال الصلاة لوقتها ، قلت ثم ، قال برّ الوالدين ، قلت ثم ، قال الجهاد في سبيل اللّه .

وعن أبي الدرداء قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فضيّع ذلك الباب أو احفظه - أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح - وروى البيهقي في الدلائل والطبراني في الأوسط والصغير بسند فيه من لا يعرف عن جابر قال : جاء رجل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال يا رسول اللّه إن أبي أخذ مالي ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم فاذهب فأتني بأبيك فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال إن اللّه تعالى يقرئك السلام ويقول إذا جاء الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه ، فلما جاء الشيخ قال له النبي صلّى اللّه عليه وسلم ما بال ابنك يشكوك تريد أن تأخذ ماله ، قال سله يا رسول اللّه هل أنفقه إلا على عماته وخالاته أو على نفسي ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم ايه دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك ، فقال الشيخ واللّه يا رسول اللّه ما يزال اللّه تعالى يزيدنا بك

يقينا ، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي ، فقال قل وأنا أسمع فقلت :

غذوتك مولودا وصنتك يافعا تعلّ بما أجني عليك وتنهل

(237/447)

إذا ليلة نابتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهرا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيني تهمل

تخاف الرّدى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيها أؤمل

جعلت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل

تراه معدا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب موكل

قال فحينئذ أخذ النبي صلّى اللّه عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال أنت ومالك لأبيك .

ومنهم من أسند هذه الأبيات لأمية بن الصلت وهو جاهلي معروف ، وهو خلاف الواقع لأنه لو كان له من صحة ، ما نزل جبريل على النبي وقال له عن ربه ما قال ، قاتل اللّه الأفاكين .

هذا وقد قرن اللّه في هذه الآية توحيده بالإحسان إلى الوالدين وفي آية 151 من الأنعام عدم الإشراك بالإحسان إليهما ، وفي آية النساء 35 في ج 3 قرن عبادته بالإحسان إليهما ، وقال في الآية 14 من سورة لقمان (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ) الآية في ج 2 ، فقد قرن شكره بشكرهما أيضا إيذانا بعظيم حقهما وإعلاما بأن من لم يحسن إليهما لم يعبد اللّه ، ومن لم يشكرهما لم يشكر اللّه ، فالسعيد من وفق لبرهما والشقي من عقهما .

ولهذا البحث صلة في تفسير الآيتين الآنفتي الذكر فراجعهما .

هذا والأم مقدمة في البرّ على الأب لزيادة حقها ولضعف جانبها ، فهي مستوجبة للإحسان زيادة على الأب ، فعلى العاقل الموفق أن يبذل جهده ووسعه ببرهما ، ولتكن معاملة الإنسان لمثله باللطف وللضعيف بالإحسان ، وللمريض بالعطف ، وللفقير بالمعونة ، وللجاهل بالتعليم ، وللعالم بالأدب ، وللعامل بالعمل ، وللمخترع بالتشجيع ، وهكذا لكل بما يناسبه .

واعلم أنه لا يختص البر بالحياة فقط بل يكون بعد الموت أيضا ، فقد روى ابن ماجه أن رجلا قال يا رسول اللّه هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما به ؟ بعد موتهما فقال نعم الصلاة عليهما ، أي الدعاء والاستغفار لهما وإيفاء عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما .

وروى هذا الحديث ابن حبان في صحيحه بزيادة قال الرجل ما أكثر هذا يا رسول اللّه وأطيبه ، قال فاعمل به .

وأخرج البيهقي عن أنس قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن العبد ليموت والداه أو أحدهما وانه لهما لعاق فلا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبه اللّه تعالى بارّا .

وأخرج عن الأوزاعي قال بلغني أن من عقّ والديه في حياتهما ثم قضى دينا إن كان عليهما واستغفر لهما ولم يستب لهما ، كتب بارّا ، ومن برّ والديه في حياتهما وقام بواجبهما كما ينبغي حتى ماتا مدينين وكان مقتدرا على أداء دينهما ولكنه استنكف ولم يستغفر لهما واستبّ لهما كان عاقا .

وأخرج هو أيضا وابن أبي الدنيا عن محمد بن النعمان يرفعه إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برّا .

وروى مسلم أن ابن عمر رضي اللّه عنهما لقيه رجل بطريق مكة فسلم عليه ابن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، قال ابن دينار فقلت

أصلحك اللّه تعالى إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير ، فقال إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب ، وإني سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : إنّ أبرّ البرّ صلة الولد أهل ودّ أبيه .

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي بردة رضي اللّه عنه قال : قدمت المدينة فأتاني عبد اللّه بن عمر فقال أتدري لم أتيتك ؟ قال قلت لا ، قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده ، وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وودّ فأحببت أن أصل ذلك .

وجاء في الخبر احفظ ودّ أبيك .

وإذا عرفت هذا فاعلم أن العقوق من الكبائر لأن حضرة الرسول عده منها ، والعقوق هو أن يؤذي والديه أو أحدهما بما لو فعله مع غيره كان محرّما من جملة الصغائر ، أما إذا طالب الولد والديه بدين لا يكون عقوقا لأنه لو فعله مع غيرهما لا يكون حراما ، أما طلب حبسه لأجل الدين فمن العقوق ، كما أنه لو طلب حبس المعسر فإنه لا يجوز ومجرّد الشكوى منهما لا تعد عقوقا لأن إقامة الدعوى على الغير بحق جائزة ، وقد شكا بعض ولد الصحابة

آباءهم إلى رسول اللّه ولم ينهه ، وهو الذي لا يقر على باطل ، أما بنهرهما وزجرهما فمن الكبائر لثبوت النهي عنه نصا كما مر عليك ، ومخالفة أمر الوالد فيما إذا فعله لحق بالولد ضرر أو يغلب على ظنه لحوق الضرر لا يعدّ عقوقا ولا مخالفة بل عليه الطاعة والامتثال فيما عدا ذلك .

(240/447)

ومن الكبائر أن يسافر الولد ويترك أبويه أو أحدهما بلا نفقه مع قدرته وحاجتهما ، أما السفر إلى حج الفرض وطلب العلم فلا يحق للوالدين المنع إذا تأمنت نفقتهما من مالهما أو ماله ، وإن مخالفتهما في هذين لا يعدّ عقوقا ولا يكون فعله كبيرة ، أما إذا لم يؤمن نفقتهما مدة ذهابه وإيابه فلا يجوز له الذهاب مطلقا ، لأن حقهما أقدم من غيره ، وإن فعل كان عاقا ومخالفا ومرتكبا الكبائر ، وإذا خالفهما فيما لا دخل لهما فيه ولا ضرر فيه عليهما ولا عليه فلا شيء عليه البتّة ، إلا أن عدم المخالفة أولى لئلا يحقدا عليه ، وإذا فعل فعلا يسبّب ضررا إليهما فيحرم عليه ذلك ، لأن إضرارهما والتسبب لإضرارهما حرام ولو كلف الوالد ابنه طلاق زوجته التي يحبّها فلم يمتثل فلا إثم عليه ، لأن هذا من خصائصه ولا ضرر يلحقهما منه رأسا ولا تسببا ، وإذا كان يقدر أن يصبر عن زوجته فطلقها امتثالا

لأمر والديه أو أحدهما فهي فضيلة له يثاب عليها ، كما يأثم الوالدان إذا تسببا لطلاقها بلا سبب شرعي ، فقد روى ابن حبان في صحيحه أن رجلا أتى أبا الدرداء فقال إن أبي لم يزل بي حتى زوّجني امرأة وإنه الآن يأمرني بطلاقها ، قال ما أنا بالذي آمرك أن تعقّ والديك ، ولا بالذي آمرك أن تطلق زوجتك ، غير أنك إن شئت حدثتك بما سمعت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، سمعته يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ على ذلك إن شئت أو دع .

وروى أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي حديث حسن صحيح عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال كان تحتي امرأة أحبها وكان عمر يكرهها فقال لي طلقها ، فأبيت ، فأتى عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فذكر ذلك له فقال صلّى اللّه عليه وسلم طلقها .

هذا إذا طلب طلاقها لمطلق كراهتها ، وأما إذا كان لأمر يتعلق بالغيرة أو بالدين أو بالآداب فلا بد من الامتثال .

أما أوامره التي لا حامل لها إلا ضعف عقله وسفاهة رأيه بحيث لو عرضت على ذوي العقول لعدوها عبثاً أو متساهلا فيها ، فلو خالفهما فيها فلا إثم عليه ، وينبغي للولد أن لا يتضجر من هكذا أوامر فلو تضجر أو قطب وجهه لقاءهما أو لم يقم لهما حينما يأتيانه بحضور الناس كان عقوقا لهما مؤاخذ عليه ، لأنه أكثر من الأف التي نهاه اللّه عنه ، ولا يقال إن الوالدين إنما طلبا بزواجهما تحصيل اللذة لأنفسهما لا لقصد الولد ، لأنه إنما لزم منها وجود الولد ودخوله في عالم الآفات والمخالفات ، فلا فضل لهما عليه ولا منّة ، كما أن أحد المسمّين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول له أنت أدخلتني في عالم الكون والفساد وعرضتني للموت والفقر والعمى والزمانة .

وقيل لأبي العلاء المعري ولم يكن ذا ولد ما نكتب على قبرك فقال اكتبوا عليه :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

وقال في ترك التزوج وعدم الولد :

وتركت فيهم نعمة العدم التي سبقت وصدت عن نعيم العاجل

ولو أنهم ولدوا لنالوا شدة ترمي بهم في الموبقات الآجل

وقال ابن رشيق :

قبح اللّه لذة لشقانا نالها الأمهات والآباء

نحن لولا الوجود لم نألم الفقر فإيجادنا علينا بلاء وقيل للإسكندر : أستاذك أعظم منّة أم

والدك ؟ فقال الأستاذ أعظم منّة

لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي حتى أوقفني على نور العلم ، وأما الوالد فإنه

طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فأخرجني إلى عالم الكون والفساد .

(242/447)

فانظر هداك اللّه إلى هؤلاء وأمثالهم الذين ينظرون إلى ظواهر الأمور ويتركون بواطنها

والثمرة المطلوبة منها دون تروّ بالمراد الحقيقي الذي من أجله يكون الشيء وهم حكماء

تأخذ الناس عنهم ويضربون بأقوالهم الأمثال ، وإذا أجلت النظر فيما ذكروه وأنعمت

الفكر فيما سطروه في هذا لوجدته طيشا ، فلو أنهم قالوا إن الزواج يحفظ النفس من الوقوع

في الزنى المنهي عنه شرعا وإن الزواج بقصد ردع النفس عن تعدي حدود اللّه ، وأن الولد

جاء بالعرض ولا كل زواج يأتي بالولد ، وكم من ولد شرف آباءه في الدنيا والأخرى ونفعهم

فيها : لكان أولى وأجدر بمقالهم ، وان الذين يتزوجون للذة فقط لبسوا من المتدينين

المتمسكين بالدين ، بل من الذين يتبعون أهواءهم ، وشهواتهم ، وهؤلاء غير مقصودين ولا

معدودين من الرجال الذين هم رجال بالمعنى الوارد في الآية 37 من سورة النور في ج 3 ،

فإذا كانوا يحطون أنفسهم إلى درجة أهل الأهواء فلا بدع أن يقولوا ما قالوا ، وإلا فيكون

قولهم هذا من اللغو الذي يجب أن يمرّ فيه العاقل مر الكرام ، راجع الآية 71 من سورة الفرقان المارة .

واعلم هداك اللّه إذا قلنا هب أنه أول الأمر كان المطلوب منه لذة الوقاع كما يتقولون أليس الاهتمام بإيصال الخيرات ودفع الآفات من أول دخول الولد في الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات ، إذ لو كان الإدخال في عالم الكون والفساد والتعريض للأكدار والأفكار دافعا لحق الوالدين لزم أن يكون دافعا لحق اللّه تعالى ، لأنه سبحانه هو الفاعل الحقيقي ، فلو شاء لما كان الولد .

على أن السنّة في الزواج لأهل السنة أولا طلب الولد لتكثير النسل ، ثانيا كسر جماح الشهوة ، ثالثا تحصين النفس عن التعدي لحدود اللّه من الزنى ودواعيه ، لا للذة فقط ، لأن من يقتصر في أمر الزواج على اللذة فقط فليس بكامل ، وهذه الأسباب الثلاثة عبارة عن طلب الشيء للمنفعة ، ولا ينكرها عاقل متبصر .

(243/447)

هذا وإن إنكار حق الوالدين إنكارا لأجلّ الأمور (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ) الآية 40 من سورة

النور في ج 3 ، قال تعالى "رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ" من بر الوالدين والاهتمام بما يجب لهما من التوقير والاحترام وغيره ، ومن العقوق والتقصير وسوء الأدب وغيره في حقهما "إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ" حقيقة مريدين البر بهما وإصلاح شأنهما أو تكونوا طالحين قاصدين العقوق بهما ومخالفتهما وإهمالهما ، أما إذا فرط منكم حال حالة الغضب أو الغفلة مما لا يخلو البشر منه وقد أدى إلى أذاهما معنى ومادة ، ثم رجعتم إلى اللّه فتبتم واستغفرتم اللّه مما وقع منكم واسترضيتم والديكم بشتى الوسائل "فَإِنَّهُ" الإله الحليم التواب "كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً" 25 فيدخلكم في واسع رحمته ويعفو عنكم ، لأنه يحب عبده المنيب الأواب .

واعلم رعاك اللّه أن في هذه الآية العظيمة وعدا بالخير من اللّه لمن أضمر البر والإحسان لوالديه ، ووعيدا لمن أضمر لهما الكراهية والاستثقال ، وما قاله ابن جبير إن معنى هذه الآية هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ بها قول مقيد لهذه الآية المطلقة وإن بقاءها على إطلاقها أولى لتشمل كل تائب مما وقع منه في حق والديه قليلا كان أو كثيرا ، بادرة أو مقصودة ، على أن الجاني على أحد أبويه التائب من جنايته توبة خالصة يدخل فيها ، لأن معنى الأواب على ما قاله سعيد بن المسيب الذي يذنب ثم يتوب ، وعنه أنه الرجاع إلى الخير .

وقال ابن عباس الأواب الرّجاع إلى اللّه فيما يحزنه وينوبه ، فلم يقيده في البادرة .

وقيل إنه من صلّى بعد المغرب والعشاء يعدّ من الأوابين ، وهذه الصلاة تسمى صلاة

الأوابين ، فقد روى ابن ماجه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال من صلّى بين المغرب والعشاء عشرين ركعة بنى اللّه له بيتا في الجنة .

(244/447)

وروى ابن نضر أن من صلّى ست ركعات بعد المغرب قبل أن يتكلم غفر له ذنوب خمسين سنة أي من

الصغائر .

كما جاء في شرح هذا الحديث في كتاب مصباح الظلام للشيخ محمد بن عبد اللّه الجرداني ، وورد فيه أيضا من صلّى ركعتين بعد المغرب وقرأ فيهما بالمعوّذتين لم يرمد وقد جربته فوجدته ، وجاء في الصلاة بعد المغرب أحاديث كثيرة رتب عليها أجر كبير لفاعلها أعرضنا عنها اكتفاء بما ذكرنا خشية التطويل ، وقد ألمعنا إلى ما يتعلق به في الآية 30 من سورة ص المارة فراجعها تجد ما يقرّ العين من ذوي العقيدة والإيمان .

مطلب في التصدق والتبذير والإسراف والرد بالأحسن :

قال تعالى "وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ" من نفقة وزيادة عطف ، قدّم اللّه تعالى حق الوالدين لأنهما الأصل ، ثم عقبهما بالفروع المحارم ، لأن الإنفاق عليهم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن

الكسب صلة وصدقة وتسمية هذا الإتيان من قبل اللّه حقا يشعر بإلزام القريب الموسر الإنفاق على قريبه المعسر العاجز على طريق الوجوب ، وهذا الحكم الشرعي في ذلك ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 29 من سورة الروم في ج 2 نظير هذه الآية ، وهذه الآية بالنسبة لما قبلها فيها من أنواع البديع ومحسنات الكلام التعميم بعد التخصيص ، لأن الوالدين يدخلان في القربى لغة ولم يتناولهما عرفا ، ولذا قالوا في باب الوصية المبنية على العرف لو أوصى لذوي قرابته لا يدخل أبواه ، وجاء في المعراج من قال لأبيه قربي فقد عقّه .

(245/447)

واعلم أن هذا الحق لا ينحصر في النفقة بل يشمل حسن المعاشرة والرحمة والتوقير ، لأن اللفظ عام والآية معطوفة على ما قبلها الشاملة لسائر الحقوق المانعة بجميع أنواع العقوق ، وما قيل إن هذه الآية خاصة بحضرة الرسول وأن اللّه أمره بها ليؤتى أقاربه ، أو أنها لما نزلت دعا فاطمة رضي اللّه عنها فأعطاها فدكا مناف لعموم الآية ، لأن فدكا في المدينة وهذه الآية مكية ، فضلا عن أنه لا قرينة فيها على التخصيص البتة ، ومما يؤيد عدم الإختصاص هو أن فدكا لم تكن إذ ذاك تحت تصرف المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم وكانت طلبتها

إرثا بعد وفاته .

أما ما قاله الحسن بأن هذه الآية مدنية فيصحّ على قوله ما قيل في سبب نزولها ، وحينئذ يراد بالحق هنا الزكاة المفروضة ، إلا أن سياق الآية يدل على أنها مكيّة كورتها على قول الجمهور والله أعلم ، "وَالْمِسْكِينَ" الذي لا مال له ولا كسب وهو عاجز ، أما الفقير فالذي لا يكفيه كسبه ، وقيل بالعكس راجع الآية 78 من سورة الكهف في ج 2 ، "وَابْنَ السَّبِيلِ" المسافر الذي انقطع عن أهله ولو كان غنيا في بلده ، أي أعط أيها الغني مما أعطاك الله هذين الصنفين أيضا بعد أبويك وقرابتك مما زاد على حاجتك من مالك بقدر ما يسد حاجتهما "وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً" 26 بمالك وتسرف فيه ، بأن تعطيه من لا يستحقه

أو تصرفه في غير مصارفه الشرعية أو تتجاوز الحد اللازم في الإعطاء والصرف ولو على خاصّتك ونفسك ، فإن ذلك من التبذير المنهي عنه "إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ" أموالهم المفرقين لها في غير حلها ومحلها "كانُوا" في تبذيرهم هذا "إِخْوانَ الشَّياطِينِ" أعوانهم ورفقاءهم في كفران النعمة مماثلين لهم في صفات السوء من إعطاء المال لمن لا يستحقه ، أو صرفه في غير حله ، أو إعطائه بقصد الصيت والسمعة والرياء "وَكانَ الشَّيْطانُ" ولم يزل ، لأن كان تأتي للدّوام

والاستمرار إلى أجل معلوم كما هنا وإلى ما لا نهاية له كقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ الآية 156 من سورة النساء في ج 3 وأمثالها كثير ، وتأتي للزمن الحاضر فقط مثل كان زيد غنيا ، "لِرَبِّهِ كَفُوراً" 27 هو وإخوانه من الإنس يبالغون في كفران النعمة لأنهم يصرفون ما أنعم اللّه به عليهم من القوى والأموال إلى غير ما خلقت لها وللمعاصي والإفساد في الأرض وإضلال الناس عن طريق الهدى ، وحملهم على الكفر باللّه تعالى وجحود نعمه الفائضة عليهم وتبذيرها في غير محلها ، وهذا التخصيص بمقابل الشكر الذي هو صرف النعم إلى ما خلقت إليه ، وما قيل إن هذا الكفر المذكور بهذه الآية جاء على ما يقابل الإيمان ليس بشيء لمخالفته المقام وسياق الآيات .

وإنما اللّه سمى الإنفاق لهذين الصنفين حقا لأن أهل مكة قبل الإسلام كانوا افترضوا على أنفسهم إنفاق شيء من أموالهم لنشر الصيت ، وكان التصدق مفروضا على الأمم السابقة وكان أهل مكة ينفقون هذا القسم للسمعة والملاهي والطرق التي لا خير فيها ، فأمر اللّه رسوله في هذه الآية بإنفاق هذا الحق لأهله الذين ذكرهم ، وهذا قبل نزول آية الزكاة المفروضة ، أما بعد نزولها فيكون منها وعلى القدر الذي سنه حضرة الرسول كما سيأتي في الآية 221 من سورة البقرة والآية 59 من سورة التوبة في ج 3 وغيرها من السور المدنية .

واعلم أن التبذير هو كل إنفاق بغير محله كما علمت مما مرّ عليك ، وأصله في اللغة التفريق مأخوذ من إلقاء البذر في الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه ، وشرعا إنفاق المال في غير حقّه مما هو تجاوز في موقع الحق وجهل بكيفيته ، أما الإسراف فهو التجاوز في الكمية وجهل بمقدار الحق ، وكلاهما مذموم ، قال مجاهد لو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا .

وقد أنفق بعض المحققين نفقة في خير فاكثر ، فقال له صاحبه لا خير في السّرف ، فأجابه كثّر اللّه أحبابه : لا سرف في الخير ، وهذا صحيح إذا كان في أهله وعن غنّى ويحسن نية . قال تعالى "وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ" أيها الغني القريب "عَنْهُمُ" عن أقاربك الفقراء المحتاجين العاجزين والمساكين المعدمين والفقراء وأبناء السبيل المقطوعين لضيق ذات يدك أو لأمر أخطرك فأوجب إغضاءك عنهم حياء وكان ذلك منك "ابْتِغاءَ" طلب ورجاء "رَحْمَةٍ" رزق "مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها" تتوقعها وتترقب حصولها ومجيئها لتعطيهم منها "فَقُلْ لَهُمْ" عند ما تريد انصرافهم أو ردهم "قَوْلًا" جميلا لا تأنيب فيه عليهم ولا كسر لخواطرهم "مَيْسُوراً" 28 لينا وعدهم وعدا تطيب به خواطرهم كأن تقول لهم إن لنا مالا سيحضر أو دينا سنقبضه قريبا ونخصكم به ، وادع لهم بما فيه اليسر لك ولهم ، وتقدم معنى أمّا بالآية 23 المارة ، وأنث الضمير في ترجوها باعتبار اللفظ لأنه سمّى الرزق رحمة وهو يعود إليها ووضع

الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سببا للابتغاء مسبّب عنه فوقع السبب الذي هو الابتغاء موضع المسبب الذي هو الفقد .

هذا وما قيل إن هذه الآية نزلت بمهجع وبلال وصهيب وسالم وخبّاب الذين كانوا يسألون حضرة الرسول أحيانا ما يحتاجونه وأنه لا يجد ما يعطيهم فيعرض عنهم حياء ويمسك عن القول ، أو أنها نزلت في أناس من مزينة جاءوا يستحملون حضرة الرسول فقال لهم (لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ) الآية 94 من التوبة في ج 3 ، إذ ظنوا أن ذلك من غضب رسول اللّه ، لا وجه لهما ولا حقيقة ، لأن هذه السورة مكية وتلك الحادثتين وقعتا في المدينة ، وإنما هذه الآية عامّة في كل أحد ولا يخصصها ما قيل إن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان إذا سئل شيئا ليس عنده صرف وجهه الشريف وسكت ، لأن هذه الحالة شأن كل عاقل منصف ، فكيف لا تكون بأكمل الناس عقلا وإنصافا ، فهي شاملة لحضرة الرسول وأمته الخيرية على الإطلاق كالآيات التي قبلها .

جاء عن الإمام مالك رحمه اللّه أنه كان لا يرى أن يقال للسائل إذا لم يعطه شيئا رزقك اللّه تعالى أو نحوه ، لأن ذلك مما يثقل على السائل ويكره سماعه ، ولا ينبغي أن يذكر اسم اللّه

تعالى لمن لا يهش له ، وهذا القول ردّ لقول من فسر القول الميسور بأن يقال للسائل رزقك اللّه وأعطاك الله ، وهو قول مفترى بعيد لصون اسم اللّه تعالى ممن لا يبتهج بسماعه ، ولذلك فسّرنا القول الميسور بالدعاء للفقير باليسر فقط والكلام اللين ، وعليه فالأولى أن يقال للسائل ممن لا يريد أن يعطيه ائت بوقت آخر تحاشيا لذكر اسم اللّه عند من لا يحب سماعه في هذا الباب ، فإذا جاء ولم يكن عنده شيء فليقل لم يتيسر لي ما أعطيكم .

(249/447)

هذا وقد استدل بعض المفسرين أن في قوله تعالى (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ) دليل على النهي عن الإعراض فيكون المعنى إن أردت الإعراض عنهم ولم ترغب أن تعطيهم (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً) بأن تعدهم بالعطاء والانتظار لوقت آخر يتيسر لك الإعطاء فيه ولا تقطع أمله فيك وتلطف به بكلام ليّن ووجه منطلق وخفض جانب ، وقدمنا في سورة الضحى ما يتعلق بهذا البحث فراجعه ، قال تعالى "وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ" أيها الغني الموسع عليك "مَغْلُولَةً" هذا تمثيل لمنع البخل والشح كما قاله بعض المفسرين ، لأن البخل يكون في مال الرجل البخيل ، والشحّ يكون في مال غيره فهو أقبح من البخل ، وهو مبالغة في ذم عدم الإعطاء ، وقوله تعالى (إِلى عُنُقِكَ) أي لا تمسك يدك عن الإعطاء فتجعلها كالمربوطه في عنقك "وَلا

تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ" تمثيل للإسراف في العطية أي لا تعطه جميع ما عندك "فَتَقْعُدَ" إن فعلت ذلك "مَلُوماً" على الإسراف من نفسك لندمك على فقد ذات يدك بسبب طيشك ، وعند الناس تلام أيضا على تضييع كل ما في يدك من المال ، لأنهم لا يحمدونك على فعلك هذا ، ولا يحبذونه لك ، وهو عند اللّه مذموم أيضا ، لأنه لا يحبّ المسرفين ، راجع الآية 20 من الأعراف المارة ولا يرضى لعباده ما لا يحبه "مَحْسُوراً" 29 متحسرا على ما فرط منك مغموما على لوم نفسك ولوم الناس لك وبقائك صفر اليدين مخالفا لأمر اللّه تعالى الموجب الأمر بالاقتصاد في النفقة ، راجع الآية 66 من سورة الفرقان المارة ، لأن هذين النّهيين يوجبان على الرجل أن يسلك سبيلا وسطا بين الإفراط والتفريط ، وهذا هو الجود الممدوح والاقتصاد المطلوب وخير الأمور أوساطها ، قال ابن الوردي :

بين تبذير وقتر رتبة وكلا هذين إن زاد قتل

وأخرج أحمد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ما عال

من اقتصد ، وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، وتقول العامة من دبّر ما جاع ، ومن رقع ما عري ، وصبرك على نفسك خير من صبر الناس عليك .

وروى أنس مرفوعا التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين .

وقيل حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف ، وقيل أن قوله تعالى (ملوما) راجع إلى قوله تعالى (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ) الآية المارة ، وقيل البخيل ملوم حيثما كان ، وقوله تعالى (محسورا) راجع إلى قوله تعالى (وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ) الآية ، وهذا وجيه كي يكون قوله تعالى (فتقعد) بيانا لقبح الأمرين ، لأنه منصوب بجواب النهيين ، تدبر .

(251/447)

وهذه الآية عامة مطلقه يدخل في عمومها حضرة الرسول وغيره من الأمة كافة ، وما ورد عن جابر قال بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم جالس إذ أتاه صبي فقال إن أمي تستكسيك درعا ، فقال من ساعة إلى ساعة يظهر كذا فعد إلينا ، فذهب إلى أمّه فقالت قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك ، فدخل صلّى اللّه عليه وسلم داره ونزع

(الدرع) قميصه وأعطاه وقعد عريانا ، وأذن بلال ، وانتظروا فلم يخرج عليه الصلاة والسلام إلى الصلاة ، فنزلت هذه الآية لا يصح جعله سببا لنزول هذه الآية ، لأنها مكية بالاتفاق والحادثة مدنية بدليل تأذين بلال رضي اللّه عنه ، لأن مكة لا أذان فيها ولا جماعة إذ ذاك ، وقد تتبع هذا الخبر وليّ الدين العراقي فلم يجده في شيء من كتب الحديث بلفظه هذا ، وعلى فرض صحته لا يصح أن يكون سببا للنزول لما علمت ، وقد أخرج بن مردويه عن ابن مسعود قال جاء غلام إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال إن أمي تسألك كذا وكذا ، فقال ما عندنا اليوم شيء ، قال فتقول لك اكسني قميصك ، فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت حاسرا فنزلت ، وأخرج ابن أبي حاتم عن النهال بن عمرو نحوه ، وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سيار أبي الحكم قال : أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بزّ من العراق وكان معطاء كريما فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوما من العرب فقالوا نأتي النبي فنسأله ، فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل اللّه هذه الآية .

وهذا أيضا لا يصح لأنه حينما كان بمكة لا يأتيه شيء من العراق ولا من غيره ، ولم يؤمر بالقتال والغزو وأخذ

الغنائم وغيرها إلا بالمدينة ، وكذلك لا يصح سببا للنزول ما قيل إنه عليه السلام أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن الفزاري مثله ، فجاء عباس ابن مرداس وقال :

أتجعل نهبي ونهب البعيد بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع

(252/447)

و ما كنت دون امرئ منهما ومن يخفض اليوم لا يرفع

فقال صلّى اللّه عليه وسلم يا أبا بكر اقطع لسانه ، أعطه مائة من الإبل .

وكانوا جميعهم من المؤلفة قلوبهم لأن النهب والفيء لم يكن في مكة ، لهذا فإن ما اعتمد عليه بعض المفسرين من هذه الأخبار في كونها سببا للنزول غير صحيح ، وان الآية مطلقة كما ذكرنا عامة شاملة .

مطلب بسط الرزق وقبضه ووأد البنات وما يتعلق فيه :

قال تعالى "إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ" يوسعه ويكثره "لِمَنْ يَشاءُ" من عباده مؤمنا كان أو كافرا لا لكرامته ولا لمحبته "وَيَقْدِرُ" يضيق ويقلل ويقتر على من يشاء لا لهوانه ولا لبغضه ولا لبخل من الجواد عليه ، تعالى اللّه عن ذلك بل لمصالح يقتضيها هو يعلمها وحكم تتعلق بها مشيئته ، لأن مقاليد الرزق بيده جل جلاله ، وهذه الآية كالعلة لقوله تعالى (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ) كأنه قيل إن أعرضت عنهم لفقد ما تعطيهم (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً) ولا تهتم لذلك فإن عدم التوسعة

عليك ليس لهوان منك عليه، وإن ما يعرض لك في بعض الأحيان من ضيق المال الذي يحوجك إلى الإعراض ليس إلا لمصلحة وحكمة، وعليه فتكون الآية (وَلَا تَجْعَلْ) إلخ كالإعتراض بين هذه الآية والتي قبلها وكالتأكيد لمعنى ما تقتضيه حكمة اللّه عز وجل "إِنَّهُ كَانَ" قديما ولم يزل ولن يزال "بِعِبادِهِ خَبِيراً" بمصالحهم السرية الخفية "بَصِيراً" بحوائجهم العلنية الظاهرة التي منها بسط الرزق وقبضه، لأنهما أمران مختصان به، وما على العبد إلّا أن يقتصد في الإنفاق والإعطاء فيفعل ما عليه ويترك ما على اللّه بطريق التفضل إلى اللّه.

قال تعالى "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ" مخافة الفقر والفاقة، قال الشاعر:

وإني على الإملاق يا قوم ماجد أعد لأضيافي الشواء المصهّبا

وهذا النهي بحسب ظاهر الآية عن قتل الذكور والإناث، لأن لفظ الولد يتناولهما، لكن الشائع أن الجاهليين كانوا يئدون البنات فقط مخافة النهب والسبي أو مخافة أن يأخذن غير كفؤ وذلك جار عندهم، ومنهم من يئد مخافة العجز عن الإنفاق، فنهى اللّه في هذه الآية من كانت هذه عادتهم عن ذلك، وعليه فيكون المراد بالأولاد البنات، وبالقتل الوأد خشية العار والقتل مخافة الفقر واللّه أعلم.

وأصل الخشية خوف يشوبه تعظيم ويكون عن علم بما يخشى منه ، "نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ" هذا ضمان من اللّه تعالى لرزقهم وتعليل للنهي عن قتلهن ، أما النهب والسبي فهو أمر قسري وكل ما يقسر عليه لا عار فيه ، كما أن ما يكره عليه لا يتم ؟ ؟ ؟ فيه ، أما الكفاءة فهي في الإسلام متقاربة ولو فرض عدم توفرها ، فإنه لا يستوجب القتل وقد أجاز الشرع للولي طلب فسخ النكاح فيها كما أجاز له الإقرار عليها ، وإذا كان اللّه تعالى تعهد بالرزق فلا ينبغي أن يخشى من الفقر لإطعام العاجزات عن طلب الرزق ، وسيأتي في الآية 150 من سورة الأنعام في ج 2 في نظير هذه الآية تقديم ضمير الأولاد على ضمير المخاطبين عكس ما في هذه الآية وذلك التقديم للإشعار بأصالتهم في افاضة الرزق ، وعارض هذه النكتة في آية الأنعام تقدم ما يستدعي الاعتناء بشأن المخاطبين ، لأن الباعث على القتل فيها الإملاق الناجز ، ولذلك قيل من إملاق ، وهنا الإملاق المتوقع ، ولذلك قيل فيها خشية إملاق ، فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينقص من رزقكم شيء فيعتريكم ما تخشونه ونرزقكم أنتم أيضا رزقا إلى رزقكم "إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً" لذلك السبب المزعوم المبتني على قلة يقينكم بالرازق وترهمكم ذلك "كَبِيراً 31" إثمه عظيما تخطره ، والإثم والخطأ بمعنى

واحد ، ومن قرأ خطا بفتح الخاء والطاء أراد أنه لغة في الخطء بكسر الخاء وسكون الطاء مثل مثل ومثل وحذر وحذر ، لأنه من خطأ يخطىء ، وعليه يكون المعنى أن قتلهم غير صواب ، والمقام لا يناسبه ، لأن غير الصواب لا يوصف بالكبر عادة ، وإنما وصف اللّه تعالى قتلهم بالكبر لأن السبب الذي توخوه منهي عنه ولا أساس له في الشرع ، فكان قتلهم بناء على ذلك السبب الواهي أعظم عند اللّه من

(255/447)

قتلهم عفوا ، لأن فيه عدم الاعتماد على اللّه تعالى في أن يرزقهم وإطاعة للشيطان فيما يلقيه في قلوبهم من خوف الفقر ، قال تعالى (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) الآية 129 من البقرة في ج 3 ، وقال تعالى (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً) الآية 25 من سورة النساء في ج 3 ، فانظروا أيها الناس أيهما تختارون ، اتباع اللّه المتكفل بأرزاقكم ، أم الشيطان الذي يخوفكم الفقر ، وإنما كان قتلهن أعظم وزرا من القتل العفو لأن القتل يقع عادة بين الناس لعداوة أو انتقام ، أو حالة المقابلة بالغزو وغيره ، وليس فيه عدم الاعتماد على اللّه ، تأمل قول القائل :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف

وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

قال تعالى "وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى " نهى اللّه تعالى عن قربانه فضلا عن إتيانه مبالغة في التجنّب عنه والتباعد عن التعرض لأسبابه من الإشارة واللمس والغمز والقرص والقبلة والعضّ حتى النظرة الثانية إذا كانت الأولى غير مقصودة ، لأن النظر هو أول مبادئه ، ولذلك نهى اللّه تعالى المؤمنين والمؤمنات عنه كما سيأتي في الآيتين 31 و32 من سورة النور في ج 3 ، "إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً" قبيحة فظيعة زائدة عن حد الشرع لما فيها من التعدي الشنيع على الغير وتضييع النسب ، ومن لا نسب له ميت حكما "وَسَاءَ سَبِيلًا" 32 ذلك السبيل لأن الالتقاء بطريقة الزنى يسبب انقطاع النسل وهو سبب خراب العالم لأن المجتمع الإنساني لا يقوم إلا بالنكاح المسبب عنه كثرة النسل قال صلّى اللّه عليه وسلم تناكحوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم .

ولهذه الحكمة أبيح تعدد الزوجات لأن في الكثرة عز ومنعة وقوة وسيطرة على أعداء اللّه وفي عدمه القلة الناشئ عنها الذلة والضعف والمسكنة للإعداء ، قال صلّى اللّه عليه وسلم إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كاظلة ، فإذا تاب ونزع رجع إليه .

وفي رواية الشيخين لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن .

أي متوغل الإيمان في قلبه إذ يمنعه عنه ، أما من كان يدعي الإيمان أو الإسلام دون التقيد بأحكامهما فلا يمنعانه من ارتكاب جميع المحرمات لأنهما صوريّان ، واللّه تعالى لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم إياكم والزنى فإن فيه ست خصال ، ثلاث

في الدنيا وثلاث في الآخرة ، فأما التي في الدنيا فنقصان الرزق ونقصان العمر والبغض في قلوب الناس ، وأما الثلاث التي في الآخرة فغضب الرب وشدة الحساب ودخول النار ، ولهذا نهى عن قربانه فضلا عن مباشرته والعياذ باللّه ، ولما جاء في الخبر ، العين تزني بالنظر واليد تزني باللمس والرجل تزني بالمشي والقلب يشتهي الوقاع والفرج يصدق أو يكذب ، أي يصدق هذه الجوارح إذا باشر بالزنى فعلا ويكذبها إذا ردع نفسه فلم يباشره ، ولا يخفى أن الزنى من الكبائر ، وقدمنا في الآية 31 والآية 72 من سورة الأعراف والآية 68 من سورة الفرقان المارتين ما يتعلق بالزنى واللواطة والسحاق وما يتفرع عنها ، فراجعها .

واعلم أن الزنى على مراتب أعلاها اي أعظمها وزرا بالمحارم لما جاء في صحيح الحاكم أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال من وقع على ذات محرم فاقتلوه والمحرمات معلومات بالنص راجع الآية 21 فما بعدها من سورة النساء في ج 3 ، ثم بحليلة الجار ، ثم بالأجنبية ، ثم في مكان حرام كمكة والمدينة والقدس ، ثم في زمن معظم كرمضان وعشر ذي الحجة والمحرم وليالي الولادة والإسراء والمعراج والبراءة والقدر والعيدين ، ثم بالأجنبية على سبيل القهر لاوليائها ، والإكراه لها ، ثم بالأجنبية التي لا والي لها على الرضاء منها أو غير رضاء ، ثم بالمسبلة ، وزنى الثيب الأيم أقبح من البكر والأعزب ، بدليل اختلاف الحدّ ، وزنى الشيخ أفظع من زنى الشاب لكمال عقل الأول ، وزنى الحر والعالم أفظع من زنى القن والجاهل للسبب نفسه ، وهو الكمال فيهما دونها ، والزنى أكبر جرما من اللواطة وان كانت اللواطة فحش منه لما فيه من اختلاط الأنساب ولأن الشهوة داعية إليه ، ولهذا البحث صلة في نفس الآية 35 الآية .

مطلب في القتل والولي الذي له حق القصاص ومراتب الزنى واللواطة :

قال تعالى : "وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ" قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد "إِلَّا بِالْحَقِّ" استثناء مفرغ أي لا تقتلوها أبدا لسبب من الأسباب إلا بسبب واحد هو الحق ، وذلك بأسباب ثلاثة أن يكفر باللّه بعد الإيمان أو يزني بعد الإحصان أو يقتل نفسا عمدا ، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا اللّه واني رسول إلا

بإحدى ثلاث النفس بالنفس

والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة .

(258/447)

وما ذهب إليه الأمام مالك والشافعي رحمهما اللّه من قتل تارك الصلاة كسلا وما قاله الإمام احمد من أن من تركها جاحدا فرضيتها فإنه يقتل فلا قول فيه ، أما في غير الجحد فلا ، ولا يجوز الإفتاء فيه فقد جاء بالحديث لأن يخطىء الإمام بالعفو أحبّ إلي من أن يخطىء في العقوبة .

لأنه لا يجوز قتل رجل يقول ربي اللّه إلا بأمر صريح من الشارع لا شك فيه ولا معارض له ، لأن الدليل إذا طرقه الاحتمال أفقده الاستدلال ، وأما أبو حنيفة رحمه اللّه فإنه يختار حبس التارك لها كسلا وتهاونا حتى يصليها ، أما جحدا فإنه يقتل إجماعا بلا خلاف ، وما قاله بعض المحققين من قتل اللوطي فلم تجمع عليه الأمة ولم يرد به نص قاطع من آية قرآنية أو حديث متواتر ، وما قيل ان الحصر منقوض بجواز قتل الصائل فيقتل منقوض ، لأن قتل الصائل قصد منه الدفع لا القتل ، والمراد بالقتل هنا ما يكون مقصودا بنفسه ، فإذا أفضى الدفع إلى القتل فيكون أيضا بحق ، لأنه لو لم يقتله لقتله ، والدفاع عن النفس والمال والعرض

مشروع ، فقد ورد قاتل دون مالك ، قاتل دون عرضك ، قاتل دون نفسك ، فيكون قتالا بحق إذا أدى الحال إليه ولم يقدر على حفظ ماله ونفسه وعرضه من القتل إلا بالقتل ، ولهذا فإن القانون المدني عد القتل دفاعا عن النفس معفوا من العقوبة استنباطا من تلك الأدلة ، وهكذا كل قانون يقبله العقل السليم مأخوذ من الشرائع السماوية "وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً" منكم أيها الناس دون اقتراف ذنب ولا سبب من هذه الأسباب الثلاثة ، والصائل متعد غير مظلوم فلا يدخل في هذه الآية .

(259/447)

قال العلماء إن من عليه القصاص يقتص منه ولا يفيده قول الولي أنا أمرته بذلك ، وهذا المظلوم الذي قتل عمدا بغير حق يوجب قتله أو يبيحه "فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً" قويا بأن جعلنا له حق التسلط على قتل القاتل والاستيلاء عليه وإجباره بالقصاص منه أو أخذ الدية بالعفو عنه إن شاء الولي ، ولا تتعين الدية إلا بعد العفو ، فيجوز أخذها حينئذ كما في قتل الخطأ ، لأن القتل العمد لا دية فيه بل القصاص والكفّارة ، والمقتول خطأ مقتول ظلما أيضا ، إذ لم يقترف جناية تستوجب قتله ، إلا أنه لا إثم على قاتله لقوله صلّى اللّه عليه

وسلم رفع عن أمتي ثلاث : الخطأ والنسيان

وما استكرهوا عليه .

(260/447)

وشرعت الكفارة في قتل الخطأ لعدم التثبت واجتناب ما يؤدي إليه ، ومن قال إن المرأة لها دخل في طلب القصاص فقد فسّر الولي بالوارث ، والصحيح أن لا دخل لها في ذلك ، لأن القرآن جاء بلفظ الولي وهو لفظ مذكّر لا تدخل فيه المرأة ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآيتين 92 و93 من سورة النساء في ج 3 إن شاء اللّه "فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ" فيتجاوز الحد الشرعي بأن يمثل في القاتل أو يقتل اثنين بدل واحد أو يقتل غير القاتل ، راجع تفسير الآية 15 المارة في هذا البحث ، إذ كان الناس قبل شريعة إبراهيم عليه السلام يؤاخذون القريب بقريبه كما هو الحال الآن في أعراب البادية ، إذ يقتلون من عثروا عليه من أقارب القاتل ، وقد لا يكتفون بقتل واحد إذا كان المقتول وجيها ويتحرون الوجيه والشريف من أبناء عشيرة القاتل الأبرياء فيقتلونهم وهم غافلون ، وهذا غاية في الظلم والتعسف ولا حول ولا قوة إلا باللّه "إِنَّهُ كَانَ" ولي المقتول "مَنْصُورًا" 33 على القاتل لاستيفاء حقه منه قصاصا ، وقد أمر ولي الأمر بنصرته ومعاونته على استيفاء حقه ، وهذه أول آية نزلت في

القتل وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ، وهذه الآية والتي قبلها 32 و33 مدنيتان على قول الحسن والجمهور على أنها مكيتان وسياقهما يؤيد مكيتهما .

مطلب المحافظة على أموال اليتيم والوفاء بالعهود :

قال تعالى "وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ" الذي مات أبوه ، أما الذي ماتت أمه فهو عجي ، والذي مات أبواه فهو لطيم ، وفي النهي عن قربانه المبالغة في النهي عن أخذه كما لا يخفى على بصير ، ثم استثنى جل شأنه من عموم أخذ مال اليتيم حالات بينها بقوله عز قوله "إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" لنفس اليتيم من الخصال التي تعود عليه بالنفع والحظ من طرق تنميتها وحفظها والإنفاق عليه منها بلا تقتير ولا إسراف ، وبغير هذه الجهات الثلاث وما يقاربها فقد حرم اللّه قربان ماله ، فكيف بأخذه وأكله ، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) الآية 10 من سورة النساء في ج 3 ، ولا استثناء في الأكل وإنما هو في القربان فقط لما فيه من النفع لليتيم كما علمت ،

ويجب على وليه أو وصيه المحافظة عليه وعلى ماله بكل إخلاص وصدق "حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ" ليستكمل قواه ويصير أهلا للتصرف بماله ، بأن يبلغ رشيدا ويجرّب في الأخذ

والعطاء والبيع والشراء إن كان من أهله ، ولا يكون ذلك إلا بعد بلوغه إحدى وعشرين سنة من عمره على أصح الأقوال ، لأن أقل الأشد ثمانية عشرة سنة ، وأكثره ثلاثون راجع الآية 14 من سورة القصص المارة ، فإذا لم يبلغ رشيدا فلا يسلم إليه ماله ولا يمكن من التصرف به ولا من قربانه بغير الصور الثلاث ، لأنه مقيد ببلوغه وكماله ، أما إذا بلغ رشيدا وجرّب جاز للولي والوصي أن يسلمه ماله وملكه ، راجع الآية 5 من سورة النساء في ج 3 ، ويسن مراقبته من قبلهما وإرشاده لما به سداده ، وإذ ذاك يسقط الوجوب عنهما ويخرج عن كونه يتيما راجع الآية 9 من النساء أيضا في ج 3 .

(262/447)

وليعلم أن أكل مال اليتيم من الكبائر بدليل الوعيد فيه المار ذكره أعلاه قليلا كان المأكول أو كثيرا فلا يتقيد بمقدار نصاب السرقة المستوجبة للقطع ، لأن الآيات والأحاديث الواردة في النهي عنه جاءت مطلقة عامة لم تقيد بقليل أو كثير ولم تخصص أيضا ، ولا يجوز قيدها وتخصيصها إلا بدليل سمعي ، ولا يوجد ، لذلك فإن مرتكب أكل مال اليتيم مهما كان قليلا يستحق العذاب والوعيد المترتب عليه ، اللهم إلا التافه الذي يتسامح فيه عادة كشربة ماء وحبّة فاكهة ملقاة في الأرض أو ذوق الطعام لمعرفة نضجه وطعمه ، وقد توصل في هذا

الزمان والعياذ باللّه بعض القضاء المكلفين بحفظه إلى أكله بوسيلة حفظه وتنميته ، عاملهم اللّه بعدله وأذاق الخائن منهم جزاء أكله ، وللّه در القائل في أمثالهم :

قضاة زماننا أضحوا لصوصا عموما في البرايا لا خصوصا

أباحوا أكل أموال اليتامى كأنهمو رأوا فيها نصوصا

فدعنا يا أخي من أناس باعوا دينهم بيعا رخيصا

قال تعالى "وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ" الذي عاهدتم اللّه عليه أزلا يوم أخذه عليكم في عالم الذّر من التزام أوامره واجتناب نواهيه ، وما عاهدتم عليه الناس من أقوال وأفعال ، وكل ما التزمتم به أنفسكم للغير وكلفكم به اللّه في هذه الدنيا ، والوفاء بالعهد هو القيام به والعمل بمقتضاه والمحافظة عليه وعدم نقضه ، لأنه الغدر بعينه "إِنَّ الْعَهْدَ" وضع جل شأنه الظاهر موضع المضمر لكمال الاعتناء ، وإلا لقال "إنه" لأن الضمير يعود على العهد المذكور قبله "كانَ مَسْؤُلًا" 34 عنه في الدنيا ومكلف بالقيام به ومؤاخذ عليه في الدنيا والآخرة ، وتقدم كيفية أخذ العهد من قبل اللّه في الآية 172 من سورة الأعراف المارة .

واعلم أن الإخلال بالعهد من الكبائر ، فقد روي عن علي كرم الّله وجهه أنه عدّ من الكبائر نكث الصفقة أي الغدر بالمعاهدة ، وصرح شيخ الإسلام العلائي بأنه جاء في الحديث عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه سماه كبيرة ، وقال بعض المحققين إن العهد هنا هو التكليفات الشرعية ، والوفاء به حفظ ما يقتضيه القيام بموجبه .

ويقال وفي بالتخفيف والتشديد وأوفي بالمزيد وكلها بمعنى واحد ، إلا أن التشديد في الثاني يدل على التكثير والمبالغة والمزيد أي الأخير فيه زيادة حرف وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى .

واعلم أن العهود باعتبار المعهود والمعاهد بكسر الهاء وفتحها ثلاثة أنواع : الأول بين الّله وعباده ، والثاني بين العبد ونفسه ، والثالث بين الناس بعضهم لبعض .

وكل واحد باعتبار الموجب له جهتان جهة أوجبها العقل وهو ما ذكر الّله تعالى معرفته في الإنسان فيتوصل إليه إما ببدهية العقل أو بأدنى نظر واستدلال عليه ، يؤيده قوله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) الآية 172 من الأعراف المارة ، وجهة أوجبها الشرع وهو ما دلّنا عليه كتاب اللّه تعالى أو سنة نبيه ، فذلك ستة أضرب ، وكل واحد من ذلك إما أن يلزم ابتداء أو يلزم بالتزام الإنسان إياه ، والثاني أربعة أقسام :

فالأول واجب الوفاء به كالنذور المتعلقة بالقرب ، مثل أن يقول علي أن أصوم كذا وكذا إن عافاني اللّه من مرضي هذا أو أتصدق بكذا ، الثاني يستحب الوفاء به ويجوز تركه كمن

حلف على ترك مباح فإن له أن يكفّر عن يمينه ويفعل المحلوف عليه متى أراد ، الثالث يستحب ترك الوفاء به وهو ما جاء في قوله صلّى اللّه عليه وسلم إذا حلف أحدكم على شيء فرأى غيره خيرا منه ، فليأت الذي هو خير منه وليكفر عن يمينه ولا يفعل المحلوف عليه ، الرابع واجب ترك الوفاء به مثل أن يقول على أن أقتل فلانا أو أغتصب ماله ونحوه ، فعليه أن يعرض عن حلفه ويكفّر عن يمينه فيحصل

من ضرب ستة في أربعة أربعة وعشرون ضربا .

وأعلم أن للعبد قدرة مؤثرة بإذن اللّه تعالى على الوفاء بما عاهد وعاقد عليه لا أنه لا قدرة له أصلا ، ينقض ما عاهد وما عاقد ويقول هكذا مراد اللّه أو ما أراد اللّه أن أوفي بذلك كما تقول الجبرية ، ولا أن يقول أن لي قدرة مقارنة غير مؤثرة كما هو المشهور عند الأشعرية ، ولا يقول إن لي قدرة مؤثرة وإن لم يأذن اللّه تعالى كما يقوله المعتزلة ، وإن لي اختيارا أعطيته بعد طلب استعداده الثابت في علم اللّه تعالى له ، فللعبد في هذا المذهب اختيار والعبد مجبور فيه ، بمعنى أنه لا بد من أن يكون له فعل فيه ، لأن استعداده الأزلي غير المجعول قد طلبه من الجواد الكريم المطلق الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها ، والإثابة والتعذيب

إنما يترتبان على الخير والشر الثابت في نفس الأمر والخير والشر يدلان على ذلك مثل دلالة الأثر على المؤثر والغاية على ذي الغاية ، قال تعالى : ﴿مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الآية 34 من سورة النحل في ج 2 ومن وجد خيرا فليحمد اللّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

هذا ، وقد قال ابن المنير إن أهل السنة والجماعة عن الإجبار بمعزل لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختيارا وأفعالا وهم مع ذلك يوحدون اللّه تعالى حق توحيده فيجعلون قدرته سبحانه هي الموجدة والمؤثرة ، وقدرة العبد مقارنة فحسب ، وبذلك يميز بين الاختياري والقسري ، وتقوم حجة اللّه على عباده ، ولهذا يعاقب العبد على فعله ويؤجر لأنه إذا فعل الشرّ كالشرب والزنى مثلا فإنه فعلهما عن اختيار ورغبة لا عن إكراه .

(265/447)

وكراهية ، ولأنه حينما فعلهما كان عالما بأنه يعذب عليهما لأن ذلك لا يعرف إلا بعد وقوع الشيء وإلا لما استحق العذاب ولا السؤال ، فلا حجة للعبد بقوله مقدر علي وإنه لو شاء اللّه لمنعني من فعله ، اقتداء بمن سبقه من الكفرة الذين يقولون بذلك راجع الآية 140 من سورة الأنعام والآية 35 من سورة النحل في ج 2 اه .

من روح المعاني للآلوسي ، وليعلم أن الأمة الإسلامية خير من يراعي العهود ويحافظ عليها ويفي بالوعود ويقوم بها ، وكان حضرة الرسول الأعظم هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى لأمته في ذلك ، ولهذا رأيت أن أذكر نوعا من معاهدات الصلح التي عقدها عليه الصلاة والسلام على أثر انتهاء حروبه مع أهل الكتاب وغيرهم

حبا في بقاء النوع الإنساني وصيانة لحياته دون احتياج إلى استخدام السلاح وإرهاق الأرواح وجنوحا للسلم وحقنا للدم ، راجع الآيتين 10 - 11 من سورة الحجرات والآية 138 من سورة النساء والآية 62 من سورة الأنفال في ج 3 .

وهذا نص كتاب الصلح في معاهدة تبوك :

مطلب نص بعض معاهدات حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم هذا منّة من اللّه ومحمد النبي رسول اللّه ليوحنا بن رؤبة وأهل ايلية سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة اللّه تعالى ومحمد النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وانه لطيّبة لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر .

وهذا نص الكتاب الثاني :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم هذا كتاب محمد لأهل أزرح وجرباء أنهم آمنون بأمان اللّه وأمان محمد رسول اللّه وأن عليهم مائة دينار في كل رجب واقية طيبة واللّه كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين .

وهناك معاهدات أخرى سنأتي بها عند ذكر ما يناسبها من الآيات المارة الذكر في القسم المدني إن شاء اللّه وخاصة عند قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) الآية الأولى من سورة المائدة ، وعند قوله تعالى (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ) الآية 19 وما بعدها من سورة الرعد والآية 2 من سورة الصف في ج 3 والآية 91 من سورة النحل في ج 2 وغيرها مما جاء فيها وجوب المحافظة على العهود والتهديد والوعيد على نقضها ، وقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان .

فالوفاء بالعهد من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة والخصال المجيدة ، ومن الأمثال :

الوعد وجه والإنجاز محاسنه والوعد سحابة والوفاء مطرها .

وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتعليل ، وقد ذم اللّه القض في الآيات 90 فما بعدها من سورة النحل المنوه بها آنفا ، وليعلم أن النقض من الغدر والبغي وقال صلّى اللّه عليه وسلم أعجل الأشياء

عقوبة البغي .

وقال المكر والخديعة والخيانة في النار .

وقال أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه ثلاث من كن فيه كن عليه وورد : ثلاث رواجع أي ترجع على المبتدئ بهن البغي والنكث والمكر قال تعالى (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ) الآية 24 من سورة يونس في ج 2 ، وقال تعالى (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ) الآية 10 من سورة الفتح ج 3 ، وقال تعالى (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) الآية 41 من سورة فاطر المارة ، هذا وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر وطوقه غدره طوق خزي فهو على فكه غير قادر ، وأوقعه في مظنة خسف وورطة حتف ، فماله من قوة ولا ناصر .

ويشهد لهذا قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري التي سيأتي ذكرها في الآية 105 فما بعدها من سورة التوبة في ج 3 ، فلا خزي أفظع من ترك الوفاء بالميثاق ، ولا سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق ، ولا عار أفضح من نقض العهد والميثاق وجاء في المثل لم يغدر غادر إلا

لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم .

وأكثر الشعراء في ذمّه فقال بعضهم :

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا إليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

(268/447)

و هو أصناف بحسب النتائج ، فمنه الخلف بما يعد من الصغائر كالوعد بإعطاء شيء ثم النكول عنه ، وبالمجيء إلى مكان ثم الخلف به ، ومنه ما يكون من الكبائر كالإخلال بمعاهدات الصلح والهدنة الموقتة والمبايعة للإمام ، ومن الكبائر الخروج على الإمام بعد المبايعة له أيضا بغير وجه شرعي يخالف نص المبايعة ، قال تعالى "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ" أتموه وأعطوه وافيا لا تنقصوه "إِذا كِلْتُمْ" للمشتري أيها الباعة "وَزِنُوا" إذا وزنتم لغيركم ولأنفسكم من غيركم "بِالْقِسْطاسِ" القبان ومثله الميزان "الْمُسْتَقِيمِ" العدل السوي كان الموزون ذهبا أو حطبا ، وقد اكتفى جل شأنه باستقامة الوزن عن الأمر بإيفائه ، لأن الوزن عند استقامة ما يوزن به لا يتصور الجور فيه غالبا ، بخلاف الكيل فإنه كثيرا ما يقع التطفيف فيه مع استقامة الكيل ، لهذا ذكر الاكتفاء بإيفائه عن الأمر بتعديله .

مطلب الكيل والميزان والذراع . . .

وما يتعلق بهما :

وقد جاء في الآية 84 من سورة الأعراف المارة (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ)

وفي الآية 84 من سورة هود (أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ) الآية في ج 2 ، لأن الإيفاء لا يتصور بدون تعديل المكيال ، وقدمنا في سورة الشعراء المارة في الآية 182 بأن كلمة القسطاس من التي قيل فيها إنها غير عربية في الأصل ، وذكرنا هناك بأنها وغيرها في الأصل عربية واستعملها الأجانب لأن اللّه تعالى قال (إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا) وذكرنا أيضا بأنه لو فرض جدلا ومحالا بأنها في الأصل ليست بعربية فقد عربت ونطق بها العرب قبل نزول القرآن ، فوجدوها فيه على هذا لا يقدح بعربيتها في القرآن أيضا لأنها بعد التعريب والسماع في فصيح كلام العرب استعمالها صارت عربية ، فلا حاجة لإنكار عربيتها أو ادّعاء التغليب ، أو أن المراد عربي الأسلوب ، أو أنها من نوارد اللغات كما يقال في بعض الشعر إنه من نوارد الخاطر إذا وافق قول من قبله .

هذا ، وقد تبدل سينه صادا كما تبدل صاد الصراط سينا وكذلك المستقيم وشبهه من الألفاظ ، لأن السين تخلف الصاد وبالعكس في بعض المواضع راجع تفسير الآية 5 من

سورة الفاتحة المارة، "ذِلكَ" الإيفاء والاستقامة في الكيل والوزن "خَيْرٌ" لكم أيها الناس في الدنيا لأنه يسبب الرغبة في معاملتكم يجلب لكم النفاء الجميل "وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" 35 في الآخرة، وأجمل عاقبة لما يترتب عليه من الثواب، وأصل التأويل رجوع الشيء إلى الغاية المرادة منه علما، كما في قوله تعالى (وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) الآية 8 من آل عمران في ج 3، أو فعلا كما في قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ) الآية 53 من سورة الأعراف المارة وقول الشاعر :

وللنوى قبل يوم البين تأويل وليعلم أن نقص الكيل والوزن من الكبائر على ما يقتضيه الوعيد الشديد الوارد في الآيات والأحاديث، ولا فرق بين القليل والكثير، فالتفاوت لا شك قليل والعذاب عظيم كبير، ألا فلينتبه الغافلون وليتأملوا قوله تعالى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) الآتية آخر الجزء الثاني، ومن يرد السلامة ويحذر يوم الندامة فليوف الكيل وليرجح الميزان ليكون آمنا من مظنة السوء في الدنيا والعذاب في الآخرة، وهنا لا تسامح في التّافه، ولا عبرة لمن قال إن غصب ما دون ربع

الدينار لا يكون كبيرة ، ويقيس عليه التطفيف ، لأن هذا من مقاييس إبليس التي مرت لك في الآية 12 من الأعراف ، ولا محل لها هنا ، لأن الآية أوجبت الوفاء بالكيل والميزان ، واللّه تعالى يقول (وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ) الآية 83 من هود في ج 2 ، فكل نقص مهما كان تافها يعد مخالفة لكلام اللّه ، ومخالفة كبيرة عظيمة لا يختلف فيها اثنان ، على أن الغصب ليس مما يدعو قليله إلى كثيره ، لأنه يكون على سبيل القهر والغلبة بخلاف التطفيف فتعيين التنفير منه بأن كلا من قليله وكثيره كبيرة أخذا بما قالوه في شرب القطرة من الخمر إنه كبيرة وإن لم يوجد فيها مفسدة وهو السكر وزوال العقل واللغو والتأثيم لأن قليله يدعو إلى كثيره ، ومثل التطفيف في الكيل والوزن النقص في الذرع وجر السلعة حالة الذرع ، ويوشك أن لا يكاد في هذا الزمن كيال أو وزان أو ذراع يسلم من نقص إلا من عصمه اللّه تعالى ، أجارنا اللّه من النقص المادي والمعنوي بمنه وكرمه ، قال تعالى "وَلا تَقْفُ" لا تتبع أيها الإنسان "ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" من أحوال الناس وقرىء (ولا تقفوا) بإشباع الضمة حتى ولد منها واوا ، ومعنى قفا اتبع قفاه ، ثم استعمل في مطلق الاتباع وصار حقيقة فيه ، يقال قاف أثره يقوفه إذا قصّه واتبعه ، أي لا تتبع ما لا علم لك له من أقوال الناس وأفعالهم ، فتقول رأيت كذا من فلان وسمعت كذا من الآخر ، وإياك أن ترمي أحدا بالظن وتغتابه في قفاه .

مطلب آداب اللّه الذي أدب خلقه ووصايا الصوفية واعتبار الظن والسماع في بعض الأوقات :

(272/447)

هذا نهي اللّه تعالى لكم أيها الناس من أن تحكموا بما لم تحققوا ، فكيف بمن يقول رأيت وسمعت وهو لم ير ولم يسمع ، فذلك البهت ، وذلك الافتراء ، وذلك الاختلاق ، راجع الآية 110 من النساء والآيتين 6 و12 من سورة الحجرات ، والآية 58 من الأحزاب في ج 3 ، والآية 36 من سورة يونس ج 2 ، إذ يندرج تحت هذا أمور كثيرة اقتصر المفسرون على بعضها ، فمنهم من قال المراد فيها نهى المشركين عن القول بالإلهيات والنبوات تقليدا لأسلافهم واتباعا لليهود ، وقال محمد ابن الحنفية رضي اللّه عنه : النهي عن شهادة الزور ، وقيل المراد النهي عن القذف ورمي المحصنات الآتي ذكره في الآية 3 فما بعدها من سورة النور في ج 3 ، قال الكميت :

ولا أرمي البريّ بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن رمينا

وقيل المراد النهي عن الكذب ، وقال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر ، والقول ما قاله الإمام بأن المراد العموم ، لأن اللفظ عام فيتناول الكل ولا معنى للقيد والتقيد ، روى

البيهقي في شعب الإيمان وأبو نعيم في الحلية من حديث معاذ ابن أنس : من قفا مؤمنا بما ليس فيه يريد شينه به حبسه اللّه تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال .

وروى الترمذي والنسائي عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وريحانته رضي اللّه عنهما قال : حفظت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : إياكم والظنّ لأن الظن أكذب الحديث .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ،

قلت اللّه ورسوله أعلم ، قال ذكرك أخاك بما يكره .

وفي رواية ولو بحضوره .

قلت ولو كان في أخي ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته .

هذا وما جاء بأن الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام ، قال أبو عمر الهيثمي لا أصل له ، وقال نعم روى الطبراني والبيهقي وغيرهما الغيبة أشد من الزنى إلا أن له ما يبين معناه ، وهو ما رواه ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن جابر وأبي سعيد رضي اللّه عنهما إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنى ، إن الرجل ليزني فيتوب فيتوب اللّه عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر اللّه له حتى يغفر له صاحبه .

فعلم من هذا أن أشدّية المغيبة من الزنى ليست على الإطلاق بل من جهة أن التوبة الباطنية المستوفية لجميع شروطها من الندم والإقلاع ، والعزم على عدم العودة إذا وقعت قبل الغرغرة ، وقبل طلوع الشمس من مغربها ، وظهور دابة الأرض ، مقبولة مكفرة لإثم الزاني بخلاف الغيبة فإن التوبة منها وإن وجدت فيها تلك الشروط

جميعها لا تقبل ولا يكفر وزرها بدون أن يستحل من المغتاب ويستعفيه عما وقع منه ، وهذا قد لا يتيسر ، فلهذا كانت الغيبة أشد من الزنى من هذه الحيثية لا مطلقا ، وعلم من هذا أن الزاني لا يحتاج إلى الاستحلال من أولياء المزني بها إذا كان برضاها ، ومنها أيضا إن كان كرها لما يترتب عليه من المفاسد التي قد تؤدي إلى قتل الزاني والمزني بها أو لهما معا ، دفعا لما يلحقهم من العار ويولد فتنا وغيظا وحقدا لا تكاد تتلافى ، لأن الزوج والقريب يقدم على القتل فيه بمجرد التوهم فكيف مع التحقيق ، أجارنا اللّه من ذلك كله ، وليعلم أن ثمرات الزنى قبيحة في الدنيا ، يورث الفقر ويذهب بهاء المؤمن ويقصر العمر ويؤخذ بمثله من ذرية الزاني ، راجع ما قدمناه في الآية 32 المارة وحديث من زنى زني به ، أي من غير حاجة إلى ترصد محارمه والزنى بهن خارجا عن داره ، بل قد يكون في وسط داره وعلى فراشه والعياذ باللّه ، حفظنا اللّه وعصمنا بحرمة نبيه وآله .

وقد اتفق أن بعض الملوك لما سمع هذا الحديث أراد تجربته وكانت له بنت في غاية الحسن والجمال ، فأنزلها مع امرأة وأمرها أن لا تمنع أحدا أراد التعرض لها بأي شيء شاء وأمرها بكشف وجهها ، فطافت بها الأسواق ، فما مرت على أحد إلا وأطرق حياء وخجلا منها ، فلما طافت بها المدينة كلها ولم يمدّ أحد نظره إليها ، رجعت بها إلى دار الملك فلما أرادت الدخول أمسكها إنسان وقبلها وذهب ، فأدخلتها وأخبرت الملك بذلك ، فخر ساجدا للّه تعالى وقال الحمد للّه ما وقع مني في عمري قط إلا قبلة ، وقد قوصصت بها ،

فنسأل اللّه أن يعصمنا وذرارينا من الفواحش والموبقات كلها ما ظهر منها وما بطن .

هكذا كانت الملوك وسننهم في رعاياهم ، وملوك الآن على ما نحن فيه لأن الجزاء من جنس العمل ، وكما تكونوا يولى عليكم ، هذه عاقبة الزنى في الدنيا ، أما عاقبته في الآخرة فالدخول في جهنم والعذاب الأليم فيها ، أجارنا اللّه من ذلك .

(275/447)

واحتج في هذه الآية نفاة القياس ، لأنّ قفو للظن ولا حكم به ، لأن قوله تعالى (وَلَا تَقْفُ) عام دخله التخصيص وهو النهي عن العمل بالظن ، وأجيب بأن الأمة أجمعت على الحكم بالظن والعمل به في صور كثيرة ، منها الصلاة على الميت الذي لم يعرف ودفنه في مقابر المسلمين ، وتوريث المسلم منه بناء على أنه مسلم وهو مظنون فيه ، ومنها التوجه إلى القبلة في الصلاة مبني على الظن وعلى اجتهادات وامارات لا تفيد إلا الظن ، ومنها أكل الذبيحة بناء على أنها ذبيحة مسلم والذابح لها مظنون ، ومنها الشهادة فإنها ظنية أي الشهادة الفعلية وهي القتل في الجهاد لإعلاء كلمة اللّه تعالى لأنها مبنية على النيّة وهي مظنونة ، لا الشهادة القولية على الديون وغيرها فإنها لا تكون على الظن إلا في مواضع فإنها تجوز على السماع كالوقف والموت وغيرهما كما هو مدون في كتب الفقه ، ومنها قيم المتلفات وأرش

الجنايات فمبناهما على الظن .

ومن نظر ولو بمؤخر عينه رأى أن جميع الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار وطلب الأرباح والمعاملات إلى الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء والآمال في حاصلات الزروع وغيرها ، كلها مظنونة ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم : نحن نحكم بالظاهر واللّه يتولى السرائر .

فالنهي عن اتباع ما ليس بعلم قطعي مخصوص بالعقائد ، وبأن الظن قد يسمى علما ، قال تعالى (إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) الآية 11 من سورة الممتحنة في ج 3 ، وهذا العلم بإيمانهن إنما هو على إقرارهن وهو لا يفيد إلا الظن إذ لا تعلم سرائرهن في ذلك وبأن الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس كان ذلك الدليل دليلا ، على أنه متى حصل ظن على أن حكم اللّه تعالى في هذه الصورة يساوي حكمه في محل النص ، فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك الظن واقع في طريق الحكم ، وأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن .

واعلم رحمك اللّه أنه لا شك أن القياس من الحجج المعمول بها شرعا بعد كتاب اللّه وسنة رسوله وإجماع الأمة ، وهو لغة التقدير واصطلاحا تقدير الفرع المراد إلحاقه بالأصل في الحكم والعلة نقلا وعقلا لقوله تعالى {فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ} الآية 11 من سورة الحشر ، وقوله تعالى {إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ} الآية 13 من آل عمران في ج 3 والاعتبار رد الشيء إلى نظيره .

ولحديث معاذ رضي اللّه عنه حينما قال له صلّى اللّه عليه وسلم بم تقضي ؟ قال بكتاب اللّه ، قال فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله ، قال فإن لم تجد ؟ قال أجتهد برأيي ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : الحمد للّه الذي وفق رسول رسوله لما يرضي به رسوله .

هذا نقلا ، وأما عقلا فلأن الاعتبار وهو التأمل واجب عند عدم النص فيما أصاب من قبلنا

(277/447)

من المثلات بأسباب نقلت عنهم ، فنكل عنها احترازا عن مثله من الجزاء ، ولا غرو أن الاشتراك في العلة يوجب الاشتراك في المعلول كما بيناه في المطلب الرابع من المقدمة فراجعه ، ومن أراد التفصيل فعليه بكتب الأصول ، هذا وإن الأحكام المثبتة بالأقيسة كلية معتبرة

في وقائع كلية مضبوطة ، وإن التمسك بالآية تمسك بعام مخصوص وهو لا يفيد إلا الظن ،

تأمل قوله تعالى "إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا " 36 أي أن هذه

القوى الثلاث المشار إليها في هذه الآية الكريمة كسائر الجوارح الأخر من كل إنسان مستجمع

لها يسأل يوم القيامة عما اقترفتها ، فالبصر يسأل عما أبصره ، والسمع عما سمع ، والقلب

ماذا وعى ووقر فيه ، وهكذا اليد والرجل والفم ، أو أن اللّه تعالى يسأل هذه الجوارح

نفسها عن صاحبها هل استعملها فيما خلقت له بأن استعمل النظر في كتاب اللّه وآلائه

ومكنوناته ، والسمع في سماع القرآن والذكر والكلم الطيب ، والفؤاد هل وقر فيه النصح

للمسلمين وحبهم والحميّة لهم ، أم لا بأن استعملها على العكس فصرف نظره للمحارم ،

وسمعه للغيبة وقول السوء ، وقلبه للحقد والغل والحسد للناس ، واليد للبطش بغير حق ،

و

الرجل للمشي إلى ما لا يرضي اللّه وما أشبه ذلك .

هذا وقد أشار اللّه تعالى إلى هذه الجوارح بإشارة العقلاء على القول بأنها مختصة بهم تنزيلا

لها منزلتهم ، لأنها مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها .

وقال بعضهم إنها غالبة في العقلاء ، وجاءت لغيرهم من حيث أنهم اسم جمع (لذا) أي لفظ

أولئك اسم جمع لذا وهو أي ذا يعم القبيلين من يعقل ومن لا يعقل ومن ذلك قول جرير :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

مطلب ما يجب أن تبادر به الناس والوصايا العشر وغيرها :

قال تعالى "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً" فخرا وكبرا وخيلاء وتبطرا تتعاظم عليهم ، وتتكابر في مشيتك على الناس وأنت منهم "إِنَّكَ" أيها الإنسان المتصف في هذه المشية المكروهة "لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ" بمشيتك هذه الممقوتة ، فتتصور أنك تثقبها بشدة وطأتك كلا "وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا" 37 بتشامخك ومدّ عنقك وقامتك مهما تطاولت ، فأنت أنت بل تتصاغر في أعين قومك ،

وهذا تهكم في كل مختال شديد الفرح بنفسه كثير المرح على غيره ، إذ يمشي مرة على أعقابه وأخرى على رءوس أصابعه ، وتارة يتمايل ، وطورا يتبختر بقصد تعالي نفسه الواطية ، فمالك وهذا أيها الإنسان ، تواضع لأنك دون ذلك وكن كما قال أبو الحسن علي بنخروف :

تنزه عن الدنيا وكن متواضعا عفيفا ولا تسحب ذيولا من الكبر

إذا كنت في الدنيا حليف تكبر فإنك في الأخرى أقل من الذر

واعلم أن قوتك مهما كانت فلن تقابل قوة الأرض ولا جثتك عظم الجبال ، ومن هو أضعف من هذين الجمادين لا يليق به أن يتكبر ، كان صلّى اللّه عليه وسلم إذا مشى يتكفأ تكفؤا أي تمايل إلى قدام كأنما ينحط من صبب ، أي ينحدر من مكان عال فيحصر نظره قدامه ، ومن هنا جعل السادة الصوفية العارفون النظر عند المشي إلى القدم شرطا من شروطهم حتى لا يرى شيئًا من أحوال الناس ، ومن أحوالهم بارك اللّه فيهم قولهم إذا دخلت فادخل أعمى وإذا خرجت فاخرج أخرس ، وهذا هو الحكم الشرعي في المشي .

ومن السنّة أن يمشي بجانب الطريق ويتجنب التضييق على المارة ، ويغض بصره عن عورات الناس ، ويعرض عنهم ، ويوسع لهم ما استطاع ، ويزيل الأذى عن الطريق من كل ما يوجب العثار والزلق ، ويسلم على الناس ويقابلهم ببشاشة الوجه ، والأحسن أن لا يجاوز نظره محل قدمه ، وينذر الغافل والأعمى والصغير عن الوقوع في حفرة وشبهها ، ويحذرهم من المرور تحت جدار مائل ، ومن حية وعقرب وكلب كلب أو عقور أو جمل هائم أو رجل صائل أو سقف هائر ، وبالجملة من كل ما يترقب الأذى منه أو يتوقع الضرر منه مادة ومعنى .

وهذا كلّه من حق المسلم على المسلم والمعاهد والذمّي في حكم المسلم من هذه الجهات لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

قال تعالى "كُلُّ ذلِكَ" من – ولا تجعل إلى آخر هذه الآية – "كانَ سَيِّئُهُ" المنهي عنه من ذلك ، وهو أربع عشرة خصلة ، والمأمور به وهو إحدى عشرة خصلة ، ثلاث مستترة وثمانية ظاهرة ، فيكون المجموع المشار إليها بقوله ذلك خمس وعشرين خصلة ، فتدبرها لأنا أوضحناها لك فتح اللّه علينا وعليك ، فإذا علمتها فافعل المأمورات ما استطعت ، واجتنب المنهيات كلها ، لأن اجتناب المنهيات أحسن عند اللّه من فعل المأمورات ، ولهذا جاءته القاعدة الشرعية درء المفاسد مقدّم على جلب المنافع ، راجع الحديث المار في الآية 39 ، واعلم أنه كما أن المأمور به منها محبوب فالسيىء "عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً" 38 مبغوضا ، فعليك أن تتّقي كل ما يكرهه اللّه ، وتفعل ما يحبه .

(280/447)

واعلم أن لا مجال لما تمسك به بعضهم في هذه الآية من أن القبائح لا تتعلق بها إرادة اللّه تعالى ،لان المراد بالمكروه هنا ما يقابل المرضيّ كما ذكرنا ، لا ما يقابل المراد ، لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى ، وإلّا لاجتمع الضدان الإرادة والكراهة كما يزعمه

بعض المعتزلة ، ووصف ذلك بمطلق الكراهة ، مع أن أكثره من الكبائر للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الكف عنها ، ولهذا كان المكروه عند المتقين الكاملين مثل الحرام في لزوم الاحتراز عنه ، ومن لم يعرفه تعدّى إلى دائرة الإباحة ، فتدبر وتحفظ وتأدب تنج وتسلم وتربح "ذِلكَ" المقدّم تفصيله لك أيها المتدبر المتفكّر العارف "مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ" من بعض ما أنزله "رَبُّكَ" يا سيد الرسل "مِنَ الْحِكْمَةِ" التي هي أسّ علم الشرائع ومعرفة ذات الخالق والاحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخ والفساد إلى آخر الدوران "وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ" افتراء عليه إياك إياك ، احذر من هذا أيها العاقل كل الحذر ، فهو أكبر أنواع الكفر ، ولهذا صدّرت الآيات الثماني عشرة بمثل ما ختمت للعلم بأن التوحيد مبدأ الأمر وآخره ، ورأس كل حكمة ومنتهاها ، وملاك كل أمر وعمدته ، وقد رتّب عليه أولا ما هو غاية الشرك في الدنيا ، إذ ختم تلك الآية بقوله (فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا) ورتّب آخرا على هذه الآية ما هو نتيجته في العقبى ، وختمها بقوله "فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً" من نفسك وغيرك "مَدْحُوراً" 39 مبعدا من رحمة اللّه لأنه كفر ما وراءه كفر ، والفرق بين المذموم والملوم هو أن الذي يذكر أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر مذموم ، والملوم هو الذي يقال له لم فعلت مثل هذا وما الذي حملك عليه ، وما استفدت منه إلا ضرر نفسك ، ويعلم من هذا أن الندم يكون أولا واللوم آخرا ، والفرق بين المخذول والمدحور هو أن المخذول من

لم يعنه أحد وقد فوض

أمره لنفسه إذ لا ناصر له ، والمدحور المطرود المهان المستخف به ، قال ابن عباس رضي اللّه عنهما هذه الثماني عشرة آية في التوراة عشر آيات كانت في ألواح موسى عليه السلام ، وفي الدر المنثور : أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل (يعني سورة الإسراء هذه) ثم تلا ولا تجعل مع اللّه إلى آخر هذه الآية ، أي أن غالب أحكام التوراة داخلة في هذه الآيات ، أما الوصايا العشر التي هي في التوراة فهي من جملة هذه الآيات وداخلة فيها وهي مبينة تماما في الآيات 152 و153 و154 في سورة الأنعام في ج 2 كما سنبينها في محلها إن شاء اللّه .

واعلم أن اللّه تعالى ذكر في هذه السورة أولا عصيان بني إسرائيل وإفسادهم وتخريب بيت المقدس وتدميره وإياهم ، وختمها كما سيأتي في استفزاز فرعون لهم وإرادته إهلاكهم ، ونوه بالآيات التسع التي أظهرها لهم على يد موسى عليه السلام ، وأنه دمّر فرعون وقومه وأورث ملكه وأرضه إلى موسى وقومه ، وأن بني إسرائيل بعد ذلك كله استفزوا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة وأرادوا إخراجه منها ، وحينما كان في مكة

أرادوا استفزاز قريش عليه ، وقالوا لهم سلوه عن الروح وأهل الكهف وعن ذي القرنين كما سيأتي تفصيله في الآية 8 من سورة الكهف ، وهذا من بعض تعنتات اليهود .

وجاء ذكرهم في هذه السورة تعريضا بهم بأنهم إذا لم يؤمنوا بمحمد سينالهم ما نال فرعون ، لأنهم أرادوا بالنبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم ما أراد فرعون بموسى وأصحابه ، وجاء هذا البحث هنا استطرادا بسبب ذكر التوراة وما فيها راجع الآية 166 من الأعراف المارة .

(282/447)

قال تعالى "أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ" اختصكم "بِالْبَنِينَ" واختارهم لكم "وَاتَّخَذَ" هو لنفسه جلت نفسه "مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً" مع أنهنّ أدنى حالا من الذكور "إِنَّكُمْ" أيها الكفرة المختارون لأنفسكم الأحسن "لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً" 40 في حق المتّصف بالكمال المنزه عن اتخاذ الولد ، وتجرءون على هذا ولا تخشون عظمته بأن ينزل بكم أعظم العذاب .

نزلت هذه الآية بالمشركين القائلين إن الملائكة بنات اللّه ، تعالى اللّه عن ذلك ، وإنما وصف اللّه قولهم هذا بالعظيم لأنه لا أعظم منه ، إذ جعلوه جل جلاله من قبيل الأجسام السريعة الزوال المحتاجة إلى بقاء النوع بالتوالد ، وهو ليس كمثله شيء ، فهو الواحد القهار الباقي

بذاته

، وهذا القول لا يجترىء عليه ذو عقل بل هو خرق لقضايا العقول ، وإثم كبير لا يقادر قدره

،

(283/447)

قال تعالى "وَلَقَدْ صَرَّفْنا" كررنا وبيّنا ، والتصريف أصله صرف الشيء من جهة إلى أخرى ، ولكنه استعمل في التّبيين والتكرير على طريق الكناية ، لأن من يحاول بيان الشيء يصرف كلامه من نوع إلى آخر لكمال الإيضاح "فِي هذَا الْقُرْآنِ" العظيم من العبر والحكم والأخبار والقصص والأمثال والحجج والآيات والبراهين ، "لِيَذَّكَّرُوا" به قومك يا أكمل الرسل فيتعظوا بزواجره ويخبتوا لأوامره لأن هذا التكرار يقتضي الإذعان والركون إلى ما فيه ، ولكنهم تمادوا في كفرهم "وَما يَزِيدُهُمْ" ذلك التبيين "إِلَّا نُفُوراً" 41 من حقك الذي جئتهم به ، وصدودا عن الإيمان الذي تأمرهم به ، وجحودا للكتاب الذي أنزل إليهم ، وتباعدا عنك وإعراضا ، وما ذلك منهم إلا تعكيس في الحق وتماد في الباطل ، وقرىء (ليذكروا) بالتخفيف هنا كما قرىء في مثلها في سورة الفرقان المارة الآية 57 من الذكر بمعنى التذكر ضدّ النسيان والغفلة ، كما قرىء صرفنا بالتخفيف أيضا وهو مثل صرفنا بالتشديد ، إلّا

أنه لا يدل على التكثير "قُلْ" يا أكمل الرسل لهؤلاء المشركين في إظهار بطلان ما تفوّهوا به "لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ" بالتاء خطابا لهم وبالياء على الغيبة وكلا القراءتين جائزة هنا لأنه إذا أمر أحد تبليغ الكلام المأمور به لغيره فالمبلغ له في حال تكلم الأمر غائب، ويصير مخاطبا عند التبليغ، فإذا لوحظ الأول كان حقه الغيبة، وإذا لوحظ الثاني كان حقه الخطاب "إِذاً" إذ لو كان مع الله آلهة أخرى تعالى اللّه عن ذلك "لَابْتَغَوْا" لطلبوا "إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا" 42 طريقا لمغالبته وقهره ليزيلوا ملكه كما تفعل ملوك الأرض بعضها ببعض، ولكن ليس معه آلهة قطعا، كيف وهو رب العرش العظيم الإله الجليل الذي لا رب غيره، راجع الآية 33 من سورة الرحمن في ج 3.

(284/447)

وهذه الآية تشير إلى برهان التمانع المذكور في قوله تعالى (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) الآية 21 من سورة الأنبياء في ج 2 كما سيأتي تفصيله فيها إن شاء اللّه.

وقال مجاهد وقتادة إن المعنى إذا لطلبوا الزلفى إليه والتقرب لحضرته بالطاعة لعلمهم بعلوّه سبحانه عليهم وعظمته ورفعته،

وهذا كقوله تعالى (أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) الآية 57 الآتية وهو

إشارة إلى قياس اقتراني تقديره لو كان كما زعمتم آلهة لتقربوا إليه تعالى ، وكل من كان كذلك ليس إلها فهم ليسوا بآلهة .

هذا ، وعلى التفسير الأول المشار به إلى برهان التمانع تكون لو امتناعية وعلى الثاني شرطية ، والقياس مركب من مقدمتين شرطية اتفاقية وحملية ، والوجه الأول أولى في التفسير وأنسب بالمقام .

مطلب تسبيح الأشياء وبعض معجزات الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

قال تعالى منزها نفسه المنزهة بنفسه "سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ" من نسبة آلهة معه أو أولاد وصاحبة وعلا "عُلُوًّا كَبِيراً" 43 لا غاية وراءه ، وذكر العلو بعد وصفه سبحانه بذي العرش في أعلى مراتب البلاغة ، وهذا مبالغة في البراءة والبعد عمّا وصفوه به لأنه تعالى في قصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتي وما يقولونه في أدنى مراتب العدم وهو الامتناع الذاتي ، كيف لا وهو الذي "تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ" من الإنس والجن والملائكة والطير والوحش والحيتان والنّبات والجماد بدليل قوله "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ" ولا من ذرّة يطلق عليها اسم الشيء ويمتد عليها ظل الوجود فيهن إلا يسبح بحمده منهم

بلسان قاله ، ومنهم بلسان حاله ، لأن كل شيء يدل بإمكانه وحدوثه دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدته وقدرته وتنزهه من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث ، كما يدل الأثر على مؤثره "وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ" أيها الناس وأنتم منهكون في الغي والضلال "تَسْبِيحَهُمْ" لأنكم لا يفهم بعضكم لغات بعض فكيف تفهمون لغات ما هو من غير جنسكم "إِنَّهُ" جلت عظمته "كانَ" ولم يزل بعدم معاجلتكم بالعقوبة عما يصدر منكم من القبائح "حَلِيماً" لا يستفزّه الغضب فيمهل خلقه رحمة بهم ورأفة عليهم "غَفُوراً" 44 كثير المغفرة لعباده الرّاجين عفوه الراجعين إليه ، ولولا هاتان الصفتان لأنزل بكم العذاب حالا واستأصلكم به .

وليعلم أن عدم فقه تسبيح الحيوانات وغيرها ناشىء من عدم صقل القلوب من رين الذنوب ، وقصور النظر فيما يدل على علام الغيوب ، وإلا فقد وردت أحاديث وأخبار لا تقبل التأويل بتسبيح الحصى في كفه صلّى اللّه عليه وسلم ، روى مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : إن بمكة حجرا كان يسلّم علي ليالي بعثت ، وإني لأعرفه الآن .

وروى البخاري عن ابن عمر قال كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه فحنّ الجذع فمسح عليه بيده .

وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بطعام ثريد فقال إن هذا الطعام يسبّح فقالوا يا رسول اللّه وتفقه تسبيحه ؟ قال نعم ، ثم قال لرجل أدن هذه القصعة من هذا الرجل ، فأدناها ، فقال نعم يا رسول اللّه هذا الطعام يسبّح ، فقال أدنها من آخر ، فأدناها منه فقال يا رسول اللّه هذا الطعام يسبّح ، ثم ردّها ، فقال رجل يا رسول اللّه لو أمرّت على القوم جميعا ، فقال لا لأنها لو سكتت عند رجل لقالوا من ذنب ، ردّها ، فردّها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا أصحاب محمد نعدّ الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفا ، بينما نحن عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ليس معنا ماء فقال اطلبوا ممن معه فضل ماء ، فأتي بماء فوضعه في إناء ثم وضع يده فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من اللّه تعالى فشربنا منه .

قال عبد اللّه كنا نسمع صوت الماء وتسبيحه وهو يشرب .

وهذا ليس من خصائصه صلّى اللّه عليه وسلم لأن جل الأنبياء تكلم لهم الحجر ، ونبع لهم الماء ، وتكلمت لهم الحيوانات والموتى ، ووقفت لهم الشمس وكثر لهم القليل من الطعام والشراب ، وقلل لهم الكثير من الأعداء ، ومن وقف على معجزاتهم وكان موقنا آمن

وصدق بهم وبما يقع لأولياء الله من الكرامات الشبيهة بالمعجزات ومن لا فلا ، لأنه ختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة وعلى قلبه رينا وصدأ حتى لا يسمع ولا يبصر ولا يعي ، فلا يؤمن .

أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه آمركما بسبحان اللّه وبحمده فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق كل شيء .

(287/447)

وأخرج أحمد عن معاذ ابن أنس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال لهم اركبوها سالمة ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا للّه تعالى منه .

وأخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : نهى النبي صلّى اللّه عليه وسلم عن قتل الضفدع

وقال نقيقها تسبيح .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أنس بن مالك قال : ظنّ داود عليه السلام في نفسه أن أحدا لم يمدح خالقه بما مدحه ، وان ملكا نزل وهو قاعد في المحراب والبركة إلى جانبه ، فقال يا داود افهم إلى ما تصوّت به الضفدع ، فأنصت داود فإذا الضفدع تمدحه بمدحة لم يمدحه بها أحد ، فقال له الملك كيف ترى يا داود أفهمت ما قالت ؟ قال نعم ، قال ماذا قالت ؟ قال قالت سبحانك وبحمدك منتهى علمك يا رب ، قال داود لا والذي جعلني نبيه إني لم أمدحه بهذا .

وأخرج أحمد في الزهد وأبو الشيخ عن شهر بن حوشب من حديث طويل أن داود عليه السلام أتى البحر في ساعة فصلى فنادته ضفدعة يا داود إنك حدّثت نفسك أنك سبحت اللّه في ساعة ليس يذكر الله تعالى فيها غيرك وإني من سبعين ألف ضفدع كلها قائمة على رجل تسبح اللّه تعالى وتقدسه .

وأخرج الخطيب عن أبي حمزة قال كنا عند علي بن الحسين رضي اللّه عنهما ، فمرّ بنا عصافير يصحن ، فقال أتدرون ما تقول هذه العصافير ؟ قلنا لا ، قال أما اني ما أقول إنا نعلم الغيب ، ولكن سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم اللّه وجهه يقول سمعت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن الطير إذا أصبحت سبحت ربها وسألته قوت يومها ، وإن هذه تسبح ربها وتسأله قوت يومها .

وأخرج بن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال : أتى أبو بكر الصديق رضي الله عنه بغراب وافر الجناحين ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما صيد صيد ولا عضدت ولا قطعت وشيجة إلا بقلة التسبيح عضاة وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن أبي هريرة وأبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صيد من صيد ولا وشج من وشيج إلا بتضييعه التسبيح (الوشيج شجر الرماح وعرق كل شجرة ، والعضاة الشجر العظيم أو الخمط أو كل ذات شوك أو ما عظم وطال من الأشجار ، وعضده بمعنى قطعه ، والعضد والعضيد الطريقه من النخل جمعه عضدان كغرابان) وأخرج أبو الشيخ عن الحسن لو لا ما غم عليكم من تسبيح ما معكم في البيوت ما تضاررتم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن لوط بن أبي لوط قال بلغني أن تسبيح سماء الدنيا سبحان ربي الأعلى ، والثانية سبحانه وتعالى ، والثالثة سبحانه وبحمده ، والرابعة سبحانه لا حول ولا قوة إلا به ، والخامسة سبحان محيي الموتى وهو على كل شيء قدير ، والسادسة سبحان الملك القدوس ، والسابعة سبحان الذي ملأ السموات السبع والأرضين السبع عزّة ووقارا ، وأمثال هذا كثير لا يحصى عدا ولا يستقصى حدا ، وكلها متعاضدة في الدلالة على أن التسبيح قاليّ بلسان العقلاء ، حاليّ بلسان غيرهم ، وهو جائز شرعا لأنه من قبيل خرق

العادة ، حتى أن العارفين قالوا إن السالك عند وصوله إلى بعض المقامات المعلومة عندهم يسمع تسبيح الأشياء بلغات شتى ، وقال الشيخ الأكبر قدس سره : إن المسمى بالجماد والنبات له عندنا أرواح بطنت أي خفيت عن إدراك غير الكشف إياها في العادة فالكل عندنا حي ناطق ، غير أن هذا المزاج الخاص يسمى إنسانا لا غير بالصورة ، ووقع التفاضل بين الخلائق بالمزاج ، والكل يسبّح اللّه تعالى كما نطقت به هذه الآية ، ولا يسبح إلا حي عاقل عالم عارف بمسبّحه .

(289/447)

هذا وقد جاء في الحديث أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس .

والشهادة لا تكون إلا بالنطق وهو مختلف كل بحسبه كما علمت ، وإن الشرائع والنبوات مشحونة بما هو من هذا القبيل ، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف ، إلى آخر ما قاله .

ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال في دعائه للحمى يا أم ملدم إن كنت آمنت باللّه تعالى فلا تأكلي اللحم ولا تشربي الدم ولا تقدري في الفم وانتقلي إلى من يزعّم أن مع اللّه آلهة أخرى ، فإني أشهد أن لا إله الا اللّه وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .

وجاء عن السجاد رضي الله عنه في الصحيفة في مخاطبة القمر ما هو ظاهر بأن له شعورا ، واستفاض عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى النيل كتابا يخاطبه فيه حينما كتب له عمرو بن العاص بأن أهل مصر جرت عادتهم أن يطرحوا في النيل بنتا يزينونها كالعروس في كل سنة كي يفيض ، وأنه أوقف هذه العادة لورود الجواب منه فكتب له أن يمنعهم من هذه العادة السيئة وأرسل ورقة مكتوب فيها ، أيها النيل إن كنت تفيض بأمر الله فافعل ، وإلا فلا حاجة لنا فيك أو فيما معناه هذا وانه منذ طرحها فيه فاض وخلص أهل مصر من تلك العادة القبيحة ببركة كتاب عمر ، وأنه ضرب الأرض بالدرة

حين تزلزلت وقال لها إني أعدل عليك ، فسكنت ، وأن نارا كانت تخرج من ضواحي المدينة فأرسل إليها فلم تخرج ، وأن الريح أوصل كلامه إلى القادسية حتى سمعه عامله ، وهو قوله على المنبر (يا سارية الجبل) فلما سمع عرف أنه كلام عمر ، فصعد الجبل فرأى العدو من ورائه "فوقفه الله تعالى عليه بما يدل على أن الله تعالى سخر له العناصر الأربعة ، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 80 من النساء في ج 3 ، وقدمنا بعض ما يتعلق فيه في الآية 15 من سورة النمل المارة ، وذكرنا أن

ما من معجزة لنبي إلّا ومثلها لحضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم فقد جمع عامة فضائلهم ، فلا تستكثر أيها القاري على حضرته فهم تسبيح الجماد وغيره ، فهو عظيم عند ربه فرق كل البشر وأحسنه :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير ؟ ؟ ؟ خلق اللّه كلهم

دع ما ادعته النصارى في نبيهم وأحكم بما شئت فيه مدحا فيه واحتكم

(291/447)

قال تعالى "وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ" الناطق بالتسبيح والتنزيه وصرت من غاية استغراقك بمعانيه غائبا عن محافظة نفسك "جَعَلْنا" بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على الحكم الخفية "بَيْنَكَ" يا حبيبي "وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" من قومك المشركين منكري البعث المتقدم ذكرهم "حِجاباً مَسْتُوراً" 45 غير مرئي نسترك به بسائق تكفلنا بحفظك وحمايتك ، وكمل المؤمنين بفهم رموز هذا القرآن ، أما أعداؤك الكفرة فإنا نحجبهم عن فهمه والانتفاع فيه ، ونمنعهم أن يدركوا ما أنت عليه من الدرجة الرفيعة وجلالة القدر عندنا ، لذلك اجترءوا عليك فقالوا ساحر وكاهن ومتعلم وناقل ، وإنما اعتدوا على منصبك العظيم بذلك لجهلهم بمقامك الكريم ، وحسدا لما أوتيته من الفضل عليهم ، قال سعيد بن جبير لما نزلت (تَبَّتْ

يَدا أَبِي لَهَبٍ) جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي صلّى اللّه عليه وسلم مع أبي بكر فلم تره ، فقالت لأبي بكر أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني ، فقال لها أبو بكر واللّه ما ينطق بالشعر ولا يقوله ، ولم يقل لها ها هو معي أو غير ذلك ، وهو جواب على خلاف السؤال مثله في قوله تعالى (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ) الآية 89 من البقرة ومثله كثير في ج 3 .

فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ

رأسه ، فقال أبو بكر لرسول اللّه ما رأتك ، قال لم يزل ملك بيني وبينها .

(292/447)

راجع سورة المسد المارة تجد ما هو أوضح من هذا ، واحتج أصحابنا في هذه الآية على أنه يجوز أن تكون الحاسّة سليمة ويكون المرئي حاضرا لا يرى بسبب أن اللّه تعالى يخلق فيها مانعا يمنع من الرؤية ، لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان حاضرا وحاسة هذه المرأة سليمة ولكنها لم تره ، وقد أخبر اللّه تعالى أن عدم الرؤية للحجاب المستور الذي جعله بينه وبينها ، ولا معنى للحجاب المستور إلا الذي يخلقه اللّه في عيون الرائي ما يمنعه من الرؤية وهو حاضر ، وإذا كان اللّه تعالى جعل الحجاب الذي هو حائل غير مرئي ، فكيف بالمحجوب ؟ على أن كثيرا من الأشياء موجودة حسا غير مرئية كحركة الظلّ وفلكة المغزل

، والمروحة عند شدة حركتها ، راجع الآية 95 من سورة الفرقان المارة ، ولكن هذا غير ذلك "وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً" أغطية كثيرة جمع كنان بمعنى الغشاء "أَنْ يَفْقَهُوهُ" لئلا يفقوا على كنه معانية ويعرفوا حقيقة مبانيه أي أنا منعناهم عن فهمه "وَ" جعلنا "فِي آذانِهِمْ وَقْراً" ثقلا وصمما عظيما مانعا من سماعه سماعا يليق به لسابق علمنا أنهم لن ينتفعوا به وبمن أنزله ، وذلك لأنهم لا يلقون له بالا ولا يتدبرون المراد منه ، وهذه التمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشئون المنزل عليه وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن وإيذان بأن ما تضمّنه القرآن من التسبيح في غاية الظهور ، بحيث لا يتصور عدم فهمه إلا لمانع قوى يعتري المشاعر فيبطلها ، وتنبيه على أن حالتهم هذه أقبح من حالتهم السابقة ، ولهذا جعل اللّه هذا المانع في عين حمالة الحطب لئلا يجعل أذاها لحضرة الرسول تنفيذا لوعده له بالحفظ من أذى قومه "وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ" بأن قلت لا إله إلا اللّه ولم تقرنه بذكر آلهتهم التي يزعمونها ، وكلمة وحده اسم موضوع موضع المصدر أي إذا أقررت

ربك بالذكر "وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً" 46 من سماع ذكر انفراد الإله الواحد وهربوا هروبا كراهية ذلك وما قيل ان الضمير في (ولّوا) يعود إلى الشياطين لا يصحّ ، لعدم سبق

ذكر لها بل يعود للمشركين السابق ذكرهم ، فجعله يعود إلى غيرهم مخالف لسياق الكلام ،

وما جاء عن ابن عباس من الخبر في هذا لا يصح ونظير هذه الآية

الآية 46 من سورة الزّمر في ج 2 ، قال تعالى "نَحْنُ أَعْلَمُ" يا حبيبنا "بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ" من اللغو والاستخفاف والهزؤ بك وبكتابك والتكذيب لك وله "إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ" وهذا تأكيد الوعيد بالإخبار بأنه كما يقع الاستماع منهم يتعلق به علم اللّه "وَإِذْ هُمْ نَجْوى" يتسارون بينهم بأن ما يسمعونه منك سحر وكهانة وأساطير الأولين ، وانك ساحر وكاهن أو مجنون أو تعلمته من الغير أو اختلقته من نفسك ثم يتجاهرون به فيقول بعضهم لبعض ما ذكره اللّه يقول "إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ" أقيم المضمر مقام المظهر عنا مع وصفهم بالظلم للدلالة على أن تناجيهم هذا باب عظيم

من أبوابه "إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً" 47 يا سادة قريش أي إذا كنتم تريدون الاتباع فرضا ما تتبعون إلا رجلا سحر فجنّ وكانوا يعتقدون أن ذلك بتأثير السحر وهو معروف عندهم ، لأن الشرائع السابقة جاءت به ، وقد عرفوه من أهل الكتاب ووجوده حق عند اهل السنّة والجماعة ، وانهم يريدون بأنه صلّى اللّه عليه وسلم سحر فصار مطبوبا مخدوعا يأكل ويشرب مثلكم ، ويريد أن يتفضل عليكم بما يتلوه من ذلك السحر من غير أن يمتاز عليكم بشيء .

روي أنه صلّى اللّه عليه وسلم كان حين يريد إبلاغ قومه ما أنزل عليه من كلام ربه يقوم عن يمينه رجلان من بني عبد الدار ، وعن يساره رجلان منهم ، فيصفّقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار لئلا يفهم الناس ما يقول ، قاتلهم اللّه ، ومن هنا اقتدي بعض نواب الأمة حينما يسمعون خطيبا من معارضيهم فيما لا يرومونه تراهم يصيحون ويضربون بأيديهم على الرحلات ويصفقون ويصفرون أيضا ، فلا حول ولا قوة إلا باللّه تشابهت قلوبهم ، وفي هذه الآية مما يدل على التهديد والوعيد ما لا يخفى ، قال تعالى "انْظُرْ" يا أكمل الرسل "كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ" مما وصموك به من السحر وغيره وما شبهوا ما تتلوه عليهم من وحينا بأساطير الأولين وغيرها مع علمهم أنك وكتابك على خلاف ذلك ، "فَضَلُّوا" في هذا التمثيل والتشبيه والوصف عن منهاج المحاجة ، والطريق الأقوم والحقيقة الناصعة لميلهم إلى الضلال والاعوجاج "فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا" 48 إلى الحق السوي والطريقة المستقيمة بل يتهافتون إلى أضدادها ، ويسلكون السبل المهلكة ، ويخبطون في أقاويلهم الأباطيل الظاهر كذبها لكل أحد ، وفي هذه

الآية تسلية لحضرة الرسول عما يصمونه به ، ووعيد بسوء العاقبة لزيغهم عن الرشاد "وَ" من عتوهم "قالُوا" لك أيضا يا محمد "أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً" بأن متنا وبلي لحمنا وتفتّت عظامنا فصارت ترابا أو غبارا لأن الرّفات كل شيء مبالغ في ذمّه "أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" كما تقول بعد تفرق أجزائنا "خَلْقاً جَدِيداً" 49 مثل ما نحن عليه الآن ، قالوا هذا على طريق الاستبعاد بالاستفهام الإنكاري وأرادوا به استحالة إحيائهم بعد موتهم ، وفيه تعجيب بعد تعجبهم بذكر الإله الواحد مما يوقع اللوم على أتباعك لأنك بزعمهم كرجل منهم أخرجك السحر عن الطبيعة فصرت وحاشاك تهذو بأن الإله واحد وأن الموتى يحيون بعد البلاء ويحاسبون على ما فعلوه في دنياهم ، لأن هذا بزعمهم لا يكون أبدا ولا يقرّه العقل لأن بين غضاضة الحي وطراوته المفضية للاتصال الموجب للحياة وبين يبوسة الرميم المفضية للتفرق الموجب لعدم الحياة تباينا وتنافيا لا يقبل التأليف ، وهذا إنما يصدر منهم لأنهم ينظرون إلى الأمور الظاهرية ولا يتفكرون بقدرة الذي خلقهم من العدم وأوجد هذا الكون كله من لا شيء ، راجع الآية 7 من سورة سبأ في ج 2 ، "قُلْ" يا أكمل الرسل لهؤلاء المنكرين قدرتنا المستبعدين إعادتهم بعد الموت "كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً" 50 وهذا ردّ منه سبحانه عليهم فقابل قولهم : كنا ، يكونوا .

على طريق المشاكلة والمقابلة بالجنس ، وهذا الأمر أمر استهانة بهم على حد قولة تعالى حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام (أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ) الآية 80 من سورة يونس أي

إن ما تلقونه ليس بشيء بالنسبة لقدرة اللّه التي وضعها في عصاه أو أمر تسخير على حد قوله تعالى (كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ) الآية 66 من البقرة في ج 3 ،

(296/447)

"أَوْ خَلْقاً" آخر وأكبر وأعظم وأشدّ من الحجارة والحديد من كل ما يتخيلونه قويا منيعا بعيدا بمراحل كثيرة عن قبول الحياة وائتوا بكل شيء "مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ" ويستحيل عندكم قبوله للحياة وأبعد شيء عنها مما تعدونه عظيما فعله كبيرا قويا جرمه من كل محال لا تقبله عقولكم ، فإن اللّه تعالى يحييكم لا محالة إذ لا يعجزه شيء لتساوي الأجسام في قبول الاعراض عنده ، فكيف لا يحييكم إذا كنتم عظاما كانت قبل موضوعة بالحياة والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد كالحديد
وغيره ، وقد فوّض اللّه تعالى لهم الشيء الذي يكونون منه مما يستعظمونه كالسماء والأرض والجبال أي مهما تصوروه بأنفسهم على طريق الفرض والتقدير فإن اللّه تعالى قادر على إعادة أرواحهم في أجسادهم التي ماتوا عليها مهما تفرقت وتفتت وتذرت بالهواء فإنه جامعها وباعثكم بعد الموت لا محالة ، "فَسَيَقُولُونَ" لك يا سيد الرسل إذا كنا كما تقول "مَنْ يُعِيدُنا" على حالتنا هذه بعد ذلك مع ما بيننا وبين الإعادة من التفاوت والمباينة "قُلِ الَّذِي

فَطَرَكُمْ" اخترعكم وخلقكم من العدم "أَوَّلَ مَرَّةٍ" على غير مثال سابق ومن أصل تراب ما شم رائحة الحياة فالذي قدر على ذلك قبلا فهو على جمع رميمكم وافاضة الحياة فيه واعادتكم على ما كنتم عليه أقدر : وفي هذه الجملة تحقيق للحق وإزاحة للباطل والاستبعاد وإرشاد إلى طريق الاستدلال لمن كان له عقل يعقل به ، قال تعالى واصفا حالتهم عند سماع ذلك الكلام العظيم بأنهم سيبهتون ويتحيّرون الدال عليه "فَسَيُنْغِضُونَ" يحركون ويهزّون "إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ" إعجابا لقبولك هذا واستعظاما لصدوره منك مع ما يعلمون من عقلك وأناتك ونظرك لمصير كلامك ، ونغض كنصر تحرك واضطرب وحرّك قال الفراء هو تحريك الرأس بارتفاع وانخفاض مما يتعجب منه ويستهزأ به استكبارا وإنكارا قال الشاعر :

أتنغض لي يوم الفخار وقد ترى خيولا عليها كالأسود ضواريا

وقال الآخر :

أنغض نحوي رأسه واقنعا كأنه يطلب مني شيئًا أطمعا

أي أنهم رفعوا رءوسهم وطأطئوها استهزاء "وَيَقُولُونَ" لك أولئك المتعجبون الساخرون

المنكرون "مَتى هُوَ" هذا الوعيد الذي تذكره الذي فيه إعادة الأجسام والحساب والتهديد الذي تخوفنا به بالعقاب على ما نفعله في هذه الدنيا أقريب أم بعيد فإذا فاجؤوك بهذا الكلام يا سيد الأنام "قُلِ" لهم "عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً" 51 ما تسألون عنه وتستبعدونه وتنكرونه لأنه محقق مجيئه، وإنما لم يعين لهم زمانه لأنه من المغيبات التي اختص بها نفسه جل جلاله، ولم يطلع عليها أحد،

وكلمة عسى هنا للترجي والتوقع ومسوقة إلى ما هو محقق الوقوع، وما قيل إنها للمقاربة ينافيه قوله تعالى بعدها (قريبا) لأنها لو كانت للمقاربة لما جيء بها بعدها لعدم الفائدة.

مطلب الخروج من القبور واستقلال المدد الثلاث:

قال تعالى "يَوْمَ يَدْعُوكُمْ" أيها الناس وهذا الظرف منصوب بفعل مضمر تقديره اذكروا يوم يناديكم بالنفخة الأخيرة إسرافيل عليه السلام ببوقه بأمر ربه من قبوركم "فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ" كما أجبتم حين دعاكم للنفخة الأولى للموت فمتم جميعكم بنفخته أي مات كل من حضرها عدا ما استثنى اللّه كما سيأتي في الآية 67 من سورة الزمر في ج 2 بصورة أوضح، فكما أنه لم يتخلف أحد منكم بالنفخة الأولى عن الموت لم يتخلف أحد منكم عن الحياة بالنفخة الثانية، وكما دعاكم من العدم في عالم الذر وأخذ عليكم العهد بالطاعة والانقياد للرسل، كذلك دعاكم للقيام من قبوركم.

واعلموا أن قولكم حين اجابتكم لهذه الدعوة الأخيرة سبحانك اللهم وبحمدك جئناك تائبين منيبين لا ينفعكم ، لأنه في غير محلّه وإلا لقالها كل كافر مثلكم راجع الآية 17 من النساء في ج 3 ، "وَتَظُنُّونَ" بعد قيامكم من برزخكم ومجيئكم مهرولين وراء الداعي إلى المحشر "إِنْ لَبِثْتُمْ" ما مكثتم في الدنيا وفي البرزخ القبر وما بين النفختين "إِلَّا" لبثا "قَلِيلًا" 52 زمانا طفيفا يقولون هذا استحقارا لتلك المدد الثلاث ، لأن الإنسان لو مكث في الدنيا وفي القبر وبين النفختين ألوفا من السنين عدّ ذلك قليلا بنسبة مدة يوم القيامة ، فضلا عن مدة الخلود في الآخرة التي لا نهاية لها ، والمقصود من هذه الدعوة إحضار الخلائق للحساب والجزاء ، لأن دعوة السيد .

لعبده إما لاستخدامه أو التفحص عن أمره ، والأول منتف في الآخرة إذ لا تكليف فيها فتعين الثاني ، قال تعالى (يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ) الآية 40 من سورة ق المارة ، قيل إن جبريل عليه السلام يقف على صخرة بيت المقدس فينادي أيتها الأجسام البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرّقة عودي كما كنت ، فتعود حالا .

أخرج أبو داود وابن حبان عن أبي الدرداء أنه قال :

قال صلّى اللّه عليه وسلم إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم .

وهذه الدعوة تكون بالأمر التكويني ، وهو ما يوحيه إلى المعدوم ، فهو نداء على الحقيقة لا على المجاز على ما قيل إنه يمتنع حمل هذا النداء على الحقيقة ، لما يلزم من الحمل عليها خطاب الجماد ، والأجزاء المتفرقة ولو لم تمتنع إرادة الحقيقة لكان ذلك النداء كناية عن البعث والانبعاث حقيقة لا مجازا ، والمجوز لإرادتها ما ذكرنا من أن هذه الدعوة بالأمر التكويني .

وقيل إن خطاب الكافرين انقطع عند قوله تعالى قريبا .

(299/447)

والخطاب بقوله تعالى (يوم يدعوكم) للمؤمنين أي فتجيبون أيها المؤمنون حامدين له سبحانه على إحسانه إليكم وتوفيقه إياكم للإيمان بالبعث ، وهو وجيه لكن جعل الخطاب للعموم أولى وأنسب للمقام ، إذ لا مخصص ولا دال على التقييد ، وعلى كل إن شاء اللّه يجيب المؤمنون المنادي بما ذكر اللّه .

أخرج الترمذي والطبراني عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ليس على أهل لا إله إلا اللّه وحشة في قبورهم ولا في نشورهم ، وكأني بأهل لا إله إلا اللّه ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) الآية 34 من سورة

فاطر المارة ، وفي رواية عن أنس مرفوعا : ليس على أهل لا إله إلا اللّه وحشة عند الموت ولا في القبور ولا في الحشر ، وكأني بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب يقولون (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) .

راجع تفسير هذه الآية ، ومما يدل على أن الخطاب للفريقين المؤمنين والكافرين كما جرينا عليه في تفسير هذه الآية ما أخرجه عبد بن حميد عن ابن جبير أنه قال : يخرجون من قبورهم وهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك ولا بعد في صدور ذلك من الكافرين يوم القيامة وإن لم ينفعهم كما نوهنا به آنفا ، وهذا التفسير أولى بالنسبة لسياق الآية وسياق الكلام ، هذا وإن قوله تعالى "وَقُلْ لِعِبادِي" خاص بالمؤمنين بدليل الإضافة التشريفية الدالة على التخصيص ، بخلاف الآية الأولى لمجيئها بلفظ عام ، وعلى القول بأن هذا الخطاب الأخير يشمل الكافرين أيضا فيكون خطابهم بلفظ عبادي لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى قول الحق ، والأولى أولى لوجود الصارف وهو الإضافة له ، وعليه يكون المعنى قل يا أكرم الرسل لأصحابك المؤمنين "يَقُولُوا"

عند محاورتهم مع المشركين الكلم والجمل والعبارة "الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" من البذاء في المخاطبات والفحش في المحاولات ، ولا تخاشنوهم بالكلام ليظهر فضلكم عليهم ويمجد كم من يحضر مناظرتكم "إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ" يفسد ويهيّج الشرّ بما يوقعه من الوسوسة والخنس "بَيْنَهُمْ" أي الفريقين ويريد أن يقول المؤمنون للكافرين القولة التي هي أشر ، مما يؤدي إلى تأكيد العناد وتمادي الفتنة واشتداد العداء "إِنَّ الشَّيْطانَ" الذي دأبه إلقاء الفتن وديدنه إيقاع الفساد وعادته تحريك الشرّ "كانَ" قديما ولم يزل "لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً" 53 مظهرا العداوة ، نزلت هذه الآية حين شكى المسلمون إيذاء الكافرين فأوحى اللّه إلى رسوله أن يأمر المؤمنين بعدم مكافأتهم على سفههم ، وأن يقولوا لهم ما هو الخير .

وقيل نزلت في عمر بن الخطاب حين أمر بالعفو عمن شتمه ، وسياق اللفظ يأباه ، والآية عامة في جميع المؤمنين بأن يفعلوا الخلّة الحسنة من قول أو عمل بعضهم مع بعض ومع غيرهم ، ولا تأخذهم وساوس الشيطان ودسائسه فيما يقع بينهم ، ممّا يؤدي إلى الخصومة ، وأن يتذكروا عداوته القديمة فيرفضوا نزغاته .

ومما يدل على كونها للعموم قوله تعالى "رَبُّكُمْ" أيها الناس "أَعْلَمُ بِكُمْ" وبما يؤول إليه أمركم مما أنتم صائرون إليه بحسب علمه الازلي "إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ" فيوفقكم للنجاة من الكفار وأذاهم كما وفقكم للإيمان "أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ" بتسليطهم عليكم ، وعلى القول بأن الآية في

الكفار يكون المعنى بأن يميتكم على الشرك ، واعلم أن هذه الجمل الثلاث كالتفسير لقوله تعالى (الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) والجملتان قبلها (إن الشيطان .

(301/447)

إن الشيطان) كالاعتراض بينهما ، فكأنه قيل يا أيها المؤمنون قولوا للمشركين الذين يؤذونكم بالكلام هذه الجمل الثلاث ، لان أمرهم معلق على المشيئة ، ولا تصارحوهم فتقولوا لهم إنكم من أهل النار مثلا ، فإنه مما يهيجهم على الشرّ ، لأن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا اللّه ، ولا يبعد أن يهديهم فيكونوا من أهل الجنة (وأو) هنا للإباحة كقولك جالس العلماء أو الحكماء لإمكان مجالستهما معا فإنها محتملة وجائزة ، وقد تكون للتخيير فيما لا يمكن الاجتماع كقولك تزوج هندا أو أختها ، ودخلت لسعة الأمرين عند اللّه تعالى .

ثم التفت جل شأنه إلى رسوله فقال

"وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا" 54 لهم حافظا أحوالهم أو كفيلا بما يلزمهم ، ولم نجعلك مسيطرا عليهم مأمورا بقسرهم ، فما عليك الآن إلا الاشتغال بالدعوة إلى الحق فقط ، فمن شاء منهم فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وعلى القول الثاني لا تشدد القول عليهم ، ولا تغلظ

لهم ، ولا تجبرهم على الإيمان وتقسرهم لاتباعك وامتثال أوامرك ، لأنا أرسلناك بشيرا ونذيرا ، فدارهم ومر أصحابك

بمجاملتهم ، وتحمل أنت وأصحابك أذاهم ، واتركوا المشاغبة معهم وأظهروا لهم اللين والرفق علّه يؤثر في قلوبهم ، وذلك لأن أحكام اللّه تدريجية حتى إذا ظهر لنبيه إيمان من آمن وإصرار من أصر على كفره كما في سابق علمه أمره بقتاله ، ولهذا فلا محل للقول لأن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، لأن الله تعالى جعل للإرشاد والنصح أناسا وللسيف والقتل آخرين ، قال تعالى "وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وما هم عليه من أحوال ظاهرة وباطنة ؟ ؟ ؟ كلا لما يستأهله ، فيختار للنبوة والولاية من تراه حكمته أهلا لها ، وهذا ردّ على القائلين بعد أن يكون يتيم بن أبي طالب نبيا والعراة الجوع كصهيب وبلال وخباب وغيرهم أصحابا إليه ، دون الأكابر من قريش والصناديد منهم فلا نقبل دعوته ولا نؤمن به ، وذكر جل ذكره من في السموات ، لإبطال قولهم (لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ) الآية 21 من الفرقان المارّة ، وذكر من في الأرض رد لقولهم لو لا أكابر قريش وصناديدهم معه "وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ" بالفضائل النفسانية والمزايا المقدسة ، وإنزال الكتب

السماوية لا بكثرة الأموال والأتباع ، فأعطينا إبراهيم الخلة وشرفنا موسى بالتكليم وداود بالفضل وسليمان بالملك وخصصنا كل نبي بخاصة لم نعطها غيره ، فخلقنا عيسى من روحنا واتخذنا محمدا حبيبا "وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً" 55 فضلناه به لا بالملك والسلطنة وفيه إيذان بأن نبينا خاتم النبيين وأمته خير الأمم إذ أن الزبور تضمن ذلك ، وقد أخبر اللّه عز وجل عن ذلك بقولة (وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ) الآية 106 من سورة الأنبياء ، يعني محمد وأصحابه وأمته من بعدهم ، وهذا من باب التلميح راجع هذه الآية في ج 2 تجد أن ما جاء في الزبور موافق لما جاء في القرآن ،

(303/447)

وسنبحث ما يتعلق فيها هناك

إن شاء اللّه ، والزبور كله حكم وأدعية وأمثال لا حكم فيه ، وكان عليه السلام يرجع في أحكامه إلى التوراة ، وهو كما قيل مائة وخمسون سورة ، وسيدنا داود عليه السلام أول نبي جمع بين الملك والنبوة في بني إسرائيل كما تقدم في الآية 15 من سورة النمل المارة ، ففضله اللّه تعالى بالتوراة والزبور والملك وما منحه في الآيات 10 فما بعدها من سورة سبأ في ج 2 ، ولم تجمع لمن قبله ولم تكن لنبيّ بعده ، وفي هذه الآية تكذيب لليهود والقائلين لا نبي بعد

موسى ولا كتاب بعد التوراة ونظير هذه الآية الآية 153 من سورة البقرة في ج 3 ، هذا

وكما هو ثابت ارتفاع بعض النبيين على بعض وعلو درجاتهم ومن تبعهم فمن يليهم ثابت

أيضا اتضاع دركات الكافرين فمن دونهم من العصاة لانهما مظاهر صفتي اللطف والقهر

هذا ولما أصاب أهل مكة القحط وأكلوا الجيف والكلاب جاءوا فاستغاثوا بحضرة

الرسول صلّى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه عليه "قُلِ" يا سيد الرسل لهؤلاء الكفرة "ادْعُوا

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ" أنهم آلهة "مِنْ دُونِهِ" أي الإله الواحد ليكشفوا ما حل بكم من الجدب وأتى

لهم ذلك "فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ" لانهم عاجزون مثلكم عن كشف ضر أنفسهم

فكيف يستطيعون إزالة ضركم كلا "وَلا" يستطيعون "تَحْوِيلًا" 56 لحالكم من العسر إلى

اليسر ، ومن الشر إلى الخير ، ومن المرض إلى الصحة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العذاب

إلى النعيم ، وهذه الآية المدنية قال تعالى "أُولئِكَ" إشارة إلى ما يسمونه آلهة ويرجونه

لكشف ضرهم ويستعينون بهم لزيادة خيرهم "الَّذِينَ يَدْعُونَ" صيغة لإسم الإشارة الواقع

مبتدأ من حيث الإعراب وخبره "يَبْتَغُونَ" بتلك الآلهة التي يعبدونها الكفرة "إِلى رَبِّهِمُ

الْوَسِيلَةَ" يسألون ربهم ومالك أمرهم القربة بالطاعة والعبادة وهذا دليل قاطع على أن

الذين

يعبدون غير الّله يعرفون بأن ما يعبدونهم محتاجون إلى الّله وأن قدرتهم المزعومة مفاضة منه تعالى لانهم لا ينكرون أنها مخلوقة للّه وأن الله تعالى أقوى وأكمل منها مما يدل على بطلانها قال تعالى (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى) الآية 3 من سورة الزمر وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) الآية 87 من الزخرف في ج2 ، ومثلها كثير في القرآن وهذا كاف على افحامهم وعجز

آلهتهم وعلى اعترافهم بأنها مخلوقة للّه .

واعلم أنه إذا صرف معنى الآية لكفار قريش فيراد

بالذين يزعمون من دونه الملائكة والأوثان فقط وإذا صرف معناها للعموم يدخل فيها عزير وعيسى والكواكب والنار والحيوان من كل ما عبد من دون الّله ولهذا قالوا إن ضمير يدعو وضمير يبتغون عائدان للمشار إليهم وهم الأنبياء الذين عبدوا من دون الّله كعيسى وعزير والملائكة ويدخل ضمنهم الشمس والقمر والنجوم والنار والحيوان والتماثيل وغيرها من كل ما يطلق عليه اسم الوثن وما اتخذوه تقربا للعبادة بأن كل أولئك ليست بأهل للعبادة مباشرة وتبعا وأن زعمهم ذلك فيها باطل وفي الآية تغليب العاقل على غيره لأن الجمع في يدعون ويبتغون من خصائص العقلاء لا الجمادات "أَيُّهُمْ أَقْرَبُ" أيهم هنا بدل من ويبتغون وهي موصولة بمعنى من أي أولئك المعبودون يطلبون من هو لحضرة ربه أقرب من غيره

الوسيلة إلى اللّه فيتوسون به لقضاء مصالحهم أو أيّهم الذكر هو أقرب يبتغي الوسيلة إلى اللّه بطاعته ، فكيف بالأبعد فهو بحاجة إلى ذلك من باب أولى .

وأيّ مبتدأ مبني على الضم في محل رفع مضاف للضمير ، والميم علامة الجمع ، وأقرب خبر ، والعائد محذوف تقديره هو ، وبعضهم جعلها معربة وفيها معنى الاستفهام أي أيهم هو أقرب بالتقوى والصلاح والرضى وازدياد الخير .

وأعلم أن يدعون تأتي بمعنى يعبدون كما مر في الآية 49 من سورة مريم المارّة ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 35 من المائدة وفي الآية 13 من سورة التوبة في ج 3 ، وهناك بحث يتعلق بالسّادة الصوفية بشأن الرابطة التي يتخذونها في بدء أورادهم "وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ" تعالى وخيره وإحسانه وهذا عطف على يبتغون والرجاء بمعنى التوقع "وَيَخافُونَ عَذابَهُ" كغيرهم من العباد بل أعظم وجلا منهم ، لأن العبد كلما رسخ قدمه في العبادة وتقرب إلى المعبود ازداد خوفه بسبب ازدياد معرفته به ، وقدم الرجاء على الخوف ، لأن متعلقه أسبق من متعلقه .

مطلب الخوف والرّجاء وأنواع العبادة :

جاء في الحديث القدسي سبقت رحمتي غضبي .

لهذا فإن العلماء قالوا ينبغي للمؤمن أن يغلّب الخوف على الرجاء ما لم يحضره الموت ، فإذا حضره غلّب الرّجاء على

الخوف ، وفي الآية دليل على أن رجاء الرّحمة وخوف العذاب مما لا يخلّ بكمال العابد ، وقد شاع عن بعض العابدين أنه قال لست أعبد اللّه تعالى رجاء جنّته ولا خوفا من ناره .

والناس بين قادح لمن يقول ذلك ومادح ، والحق التفصيل ، وهو أن من قال هذا إظهارا للاستغناء عن فضل الله ورحمته فهو مخطئ كافر ، ومن قاله اعتقادا بأن اللّه تعالى أهل للعبادة لذاته بحيث لو لم يكن هناك جنّة ولا نار لكان أهلا لأن يعبد فهو محقق عارف كامل .

والعبادات ثلاث عبادة للرياء والسمعة فهي مخادعة داخل أهلها في قوله تعالى (يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) الآية 9 من سورة البقرة ج 3 ، وعبادة للخوف والرجاء فهي مسقطة للفرض وبالدرجة الثانية الوسطى ، فإذا لم يقصد منها الاستغناء فهي داخلة في معنى الآية المفسرة وإلا فهي الوسطى في نار جهنم ، وعبادة خلاصة للّه تعالى بقصد الاستحقاق

لذاته وصرف النظر عن الخوف والرجاء فهي العبادة الحقيقية الموصلة إلى اللّه عز وجل الموصوف أهلها بقوله تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) الآية 190 من آل عمران في ج 3 ، وفي اتحاد أسلوب الجملتين إيماء إلى تساوي رجاء أولئك الطالبين الوسيلة إليه تعالى بالطاعة والعبادة وحذرهم منه "إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً" 57 يخافه كل أحد من ملك ومملوك ومن ملك وولي مقرب أو نبي مرسل ، فضلا عن بقية الخلائق ، وجدير بأن يحذره ويحترز منه كل أحد ، وهذه الجملة تعليل لقوله تعالى ويخافون إلخ ، وفي تخصيصها بالتعليل زيادة تحذير الكفرة من العذاب .

انتهت الآية المدنية .

قال تعالى "وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ" من القرى والتنوين هنا يفيد التعميم ، لأن إذ نافية بمعنى ما ، ومن صلة مؤكدة لاستغراق النفي ، فتفيد العموم أيضا "إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها" بإبادة أهلها وتخريبها بعدهم أو هدمها عليهم أو قلبها بهم أو بسبب آخر ، ويكون هذا "قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ" عند النفخة الأولى قال تعالى (فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً ، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ) الآيات من سورة الحاقة في ج 2 لأن القيامة لا تقوم إلا بعد إتلاف هذا الكون بما فيه "أَوْ مُعَذِّبُوها" أي أهلها بالقتل وأنواع البلاء "عَذاباً شَدِيداً" لا تقواه قوى أهلها ولا يقدرون على رفعه عنهم

"كانَ ذَلِكَ" الإهلاك والتعذيب "فِي الْكِتَابِ" الأزلي المدون فيه ما كان وما يكون من بدء الخليقة إلى يوم القيامة وما بعدها من أقوال أهل الجنة والنار وخلودهما "مَسْطُوراً" 58 في اللوح المحفوظ مثبتا ، وهو واقع لا محيد عنه لأحد إذ لا شيء في الكون إلا وهو مدون فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له ومكانه الواقع فيه ، قال تعالى (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 39 من الأنعام في ج 2 .

أخرج الترمذي عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : أول ما خلق اللّه تعالى القلم ، فقال له أكتب فقال ما أكتب ؟ قال أكتب القدر وما هو كائن إلى يوم القيامة إلى الأبد .

وقال عبد اللّه بن مسعود إذا ظهر الزنى والرّبى في قرية أذن اللّه تعالى في إهلاكها .

قال مقاتل الهلاك للفرقة الصالحة والعذاب للطالحة .

قال تعالى "وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ" التي اقترحها عليك قومك "إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ" من قبلهم من الأمم السالفة التي اقترحت على أنبيائها مثل ما اقترحوه عليك قال ابن عباس

سأل أهل مكة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وفضة وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا مكانها فأوحى اللّه إليه إن شئت أن أستأني بهم فعلت وإن شئت أوتيهم ما سألوا فعلت فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لا بل تستأني بهم ، فأنزل اللّه هذه الآية "وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ" التي اقترحوها على نبيهم صالح عليه السلام بأن يخرجها لهم من حجر معين راجع قصتها في الآية 79 من سورة الأعراف المارة وهي آية عظيمة كانت أعينهم "مُبْصِرَةً" لها ظاهرة بينة "فَظَلَمُوا" أنفسهم "بِهَا" بقتلها وجحودها ، وإنما خص ثمود بالذكر لأنهم عرب مثل قوم محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ولأن الصادر من قريش والوارد منهم يرى آثار ديارهم خاوية خالية لقربها منها ، وإنهم لم يؤمنوا بعد إظهارها على يد رسولهم فأهلكهم ، إذ جرت عادة اللّه واقتضت حكمته أن كل قوم اقترحوا على رسولهم معجزة فأوتوها ولم يؤمنوا أهلكهم عن آخرهم ، وفي هذه الآية الإيجاز بالحذف والإضمار ، لأن المعنى وآتينا ثمود الناقة آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ، وقيل إن مبصرة وصف للناقة ، وإنما وصفها بالإبصار لأنها خلقت من الصخرة معجزة لنبيهم دفعا لما

يتوهم بأنها من المصورات ، لأن فن التصوير لم يبلغ أن يكون للمصور أعينا يبصر بها كسائر الحيوانات ، لأن البشر عاجز عن ذلك ، أما اللون والشكل والحركة حتى النطق المحدود الذي يولجوه بها فقط فإنهم توصلوا لعمل ذلك بواسطة الآلات المحدثة ، ولكن الإبصار لم يتوصلوا إليه ولن يتوصلوا لمعرفة مادته إلى الآن ، ولم يقفوا على تراكيبها ، فبقيت القوة الباصرة بالأعين مخزونة بأمر اللّه لم يطلع عليها أحد البتة ، وما ندري ما يقع بعد :

وما تدري إذا ما الليل ولّى بأي عجيبة يلد النهار

قال تعالى "وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ" المقترحة ونظهرها للأمم "إِلَّا تَخْوِيفاً" 59 من نزول العذاب عليهم ، ولذلك لم نجب اقتراح قومك بإرسال الآيات التي اقترحوها لأنا نعلم أن مصير المقترحين الهلاك وهو خلاف ما تريده أنت .

أخرج بن جرير عن قتادة قال إن اللّه تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبرون أو يذكرون فيرجعون عن غيهم .

مطلب الآيات على ثلاثة أنواع وبيان الخمرة الملعونة :

وليعلم أن آيات اللّه تعالى على ثلاثة أقسام ، قسم عام في كل شيء :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهنا فكرة العلماء وقسم معتاد كالبرق والرعد والخسوف والزلازل وفيها فكرة الجهلاء ، وقسم خارق للعادة وهو نوعان نوع مقرون بالتحدّي وقد انقضى بانقضاء النبوة ، وقسم غير مقرون به وهو الكرامة التي يظهرها اللّه تعالى على يد من شاء من عباده العارفين العاملين ، وهناك فكرة الأولياء ، والمعنى أنا تركنا إرسال الآيات لسبق مشيئتنا بتأخير العذاب عنهم لحكم نعلمها ، قال تعالى "إِذْ قُلْنا لَكَ" يا أكرم الرسل "إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ" فلا يستطيع أحد الخروج عن مشيئته ولا يفعل شيئًا دون إرادته وإن كل ما يقع في هذا الكون بقضائه وقدره ، وإذ هنا منصوبة بفعل مقدّر أي اذكر يا محمد لقومك ما أوحيناه إليك من ذلك وأعلمناك أن الخلق كلهم في قبضتنا وإرادتهم من إرادتنا ، فلا تبال بما تراه من كفرهم ، وامض لأمرك وبلّغ ما أرسلت به ولا تخشهم ، فاللّه حافظك ومانعك منهم ومقويك وناصرك عليهم "وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ" ليلة الإسراء والمعراج من عجائب الآيات وبدائع المعجزات "إِلَّا فِتْنَةً" اختبارا وامتحانا "لِلنَّاسِ" إذ ارتد بعض المؤمنين عند سماعها ، وأجمع كفرة قريش على جحودها فكذبها أناس وتعجب آخرون ، وصدق بها المؤمن الموقن وازداد المخلص إيمانا والكافر كفرا ، فكانت فتنة للفريقين ، واختلف المسلمون في المعراج أيضا على أقوال بسطناها آنفا في الآية الأولى من هذه السورة ، وفي المعجزة الثالثة والثلاثين المارة وما بعدها ، فراجعها إن شئت .

أخرج الترمذي والنسائي وغيرهما عن ابن عباس أن الرؤيا هي ما عاينه حضرة الرسول ليلة أسري به من العجائب الأرضية والسماوية رؤية عين ، وهي على اللغة الفصحى ، إذ تقول العرب رأيت بعيني رؤية ورؤيا ، وهذا هو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريح وغيرهم ، وإنما عبر بالرؤيا دون الرؤية لمشاكلة تسميتهم لها رؤيا ، أو جار على زعمهم كتسمية الأصنام آلهة ، فقد روي أن بعضهم قال له صلّى اللّه عليه وسلم لما قص عليهم الإسراء لعله شيء رأيته في منامك يا رسول اللّه ، أو على التشبيه بالرؤيا لما فيها من العجائب ، ولوقوعها ليلا ، أو لسرعتها ، أي وما جعلنا الرؤيا التي أرينا كها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية ، وقد ذكرتها لقومك وأقمت البرهان على صحتها بما اختبرك به قومك عن عيرهم ، كما ذكر في المعجزة الثامنة والستين فما بعدها المارة إلا فتنة افتتن بها الناس من تكذيب وتصديق وتهويل وإعجاب "وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ" روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنها شجرة الزقوم .

وروي عنه أيضا أن المراد بها لعن طاعميها من الكفرة ، ووصفها باللعن من المجاز في

الإسناد ، وفيه من المبالغة ما فيه .

وقد يراد لعنها نفسها بالمعنى اللغوي وهو البعد ، لأنها في أبعد مكان من جهنم ، قال تعالى (تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) بعد أن قال (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) الآيتين 63 و 64 من سورة الصافات في ج 2 ، أي في أبعد مكان من رحمة اللّه تعالى ، وقد لعنت إذ لعن آكلوها ، وإلا فلا ذنب لها حتى تلعن ، ولكن المصاحبة لها دخل :

ما ضرّ بالشمع إلا صحبة الفتل .

ولهذا قيل الصاحب ساحب :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

(312/447)

وأخرج بن المنذر عن الحبر أنها وصفت بالملعونة لتشبيه طلعها برءوس الشياطين كما جاء في الآيتين 64 و 65 من الصافات أيضا ، والشياطين ملعونون ، والعرب تقول لكل طعام مكروه ملعون ، والآية معطوفة على قوله تعالى الرؤيا ، أي وما جعلنا هذه الشجرة إلا فتنة للناس أيضا ، وإنما كانت فتنة لأن أبا جهل وغيره من متعنتي قريش قالوا إن محمدا يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر على طريق السّخرية والاستهزاء ، ويقول

ابن أبي كبشة هي الزقوم ، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد ثم أمر جاريته فقال هيّا ، فأحضرت له تمرا وزبدا ، وقال لأصحابه تزقموا ، وكذلك قال ابن الزبعرى الآتي ذكره في الآية 97 من الأنبياء في ج 2 ، وافتتن بهذه المقالة بعض الضعفاء وضلوا في ذلك ضلالا بعيدا ، إذ كابروا في قضية أبتها عقولهم القاصرة ، وما قدروا اللّه حق قدره ، ألا يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ، والسندل يفرخ في النار ويعمل من وبره مناديل إذا توسخت ألقيت في النار فيذهب وسخها ولا تحترق ، والدود يعيش في الثلج ، والنار من الشجر الأخضر كما قدمنا توضيحه في الآية 80 من سورة يس المارة ، فالقادر على تلك الأشياء ألا يقدر على خلق شجرة في النار لا تحترق ، وما هي إلا كالسمك في الماء والطير في الهواء راجع الآية 19 من سورة الملك في ج 2 ، بلى وهو على كل شيء قدير .

وجاء عن ابن عباس أنها الكثوث المذكورة في قوله تعالى (كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ) الآية 24 من سورة ابراهيم في ج 2 المشبّه بها كلمة الكفر ، وقد لعنها في القرآن وخصّها بالخبث ، وإن الامتنان بها على هذا هو أنهم قالوا عند سماع الآية ما بال الحشائش تذكر في القرآن ،

كما اعترضوا على ذكر البعوضة فيه ، راجع الآية 25 من سورة البقرة في ج 3 ، والمعول في هذا على القول الأول بالنسبة للمروي عنه "وَنُخَوِّفُهُمْ" بتلك الآيات ونظائرها وجاء هذا الفعل بلفظ الاستقبال دلالة على الاستمرار التجددي وقرىء بالياء "فَما يَزِيدُهُمْ" تخويفنا هذا بالإهلاك في الدنيا والتعذيب بالنار في الآخرة "إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً" 60 عظيما بسائق تمردهم وعنادهم ، فإنهم كلما جاءتهم

(314/447)

آية تجاوزوا الحد بالإنكار والتكذيب ، ولذلك فإنا لو أرسلنا إليهم ما اقترحوه على يد رسولهم لفعلوا به ما فعله من قبلهم أمثاله بأمثاله ولفعلنا بهم أيضا ما فعلناه بأمثالهم من عذاب الاستئصال ، ولكن سبقت كلمتنا بتأخير العقوبة العظمى إلى الطامّة الكبرى واعلم أن هذا الكلام مسوق لتسلية حضرة الرسول عما عسى أن يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة لمخافتها للحكمة من نوع حزن وكآبة من طعن الكفرة ، إذ كانوا يجابهونه بقولهم لو كنت نبيا أو رسولا حقا لأتيت بما نطلبه منك من المعجزات كالأنبياء قبلك ، إذ جاءوا أقوامهم بما طلبوه منهم ، ولكنك لست برسول ، ولهذا لم تقدر أن تأتينا بشيء من ذلك ، وهذا أصح ما جاء في تفسير هذه الآية وسبب نزولها ، وما قيل أن المراد بالإحاطة

هنا الإهلاك على حد قوله تعالى (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) الآية 42 من سورة الكهف في ج 2 ، وأنه هو الواقع يوم بدر ، وأن التعبير بالماضي جاء على حد قوله تعالى (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) الآية 43 من سورة القمر المارة ، وقوله تعالى (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ) الآية 13 من آل عمران ج 3 وغيرهما من الآيات لتحقق الوقوع ، وأن المراد بالرؤيا هو ما رواه صلّى اللّه عليه وسلم في المنام من مواقع مصارع القتلى من قريش ، لما صح أنه صلّى اللّه عليه وسلم لمّا ورد ماء بدر كان يقول واللّه لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يضع يده الشريفة على الأرض هاهنا هاهنا ويقول : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، وإن قريشا سمعت بما أوحى اللّه إلى نبيهم بشأن بدر وما أري في منامه ، فكانوا يضحكون ويسخرون ، وهذا هو معنى الفتنة المرادة في هذه الآية ، راجع الآية 78 من الأنفال في ج 3 ، وسمعت أيضا بما رواه مناما أنه سيدخل مكة وأنه أخبر أصحابه فتوجه إليها ، وصده المشركون عام الحديبية حتى قال عمر :

يا أبا بكر أما أخبرنا رسول اللّه أنا ندخل البيت ونطوف فيه ؟ فقال إنه لم يقل في هذه السنة ، وقد صدق اللّه ودخلوها في القابلة ، فكل هذا لا يكاد يصح شيء مه ، لأن هذه كلها

وقعت ورسول اللّه في المدينة ، وهذه الآية مكيّة إجماعا وهو مخالف لظاهر الآية المفسرة لذلك فلا يعول عليه ، وأن الاعتذار عن كون هذا مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحي بالإهلاك وبالرؤيا واقعا في مكة ، وذكر الرؤيا

و تعين مصارع القوم واقعين في المدينة ، لا وجه له أيضا إذ يلزم منه أن يكون الافتتان واقعا بالمدينة أيضا ، وأن ازديادهم طغيانا متوقع عند نزول الآية لا واقع وهو خلاف الواقع وبعيد عن المعنى ، ومباين لسياق الآية ، ومناف لسياق التنزيل ، وكذلك ما أخرجه ابن جرير عن سهيل بن سعد قال رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكا حتى مات عليه الصلاة والسلام وأنزل اللّه هذه الآية المفسرة ، وما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عباس عن سعيد بن المسيب قال : رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بني أمية على المنابر فساءه ذلك ، فأوحي اللّه تعالى إليه إنما هي دنيا أعطوها فقرّت عينه ، وذلك قوله تعالى (وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيا) إلخ وما أخرجه ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رأيت بني أمية على منا بر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء

واهتم عليه الصلاة والسلام لذلك ، فأنزل اللّه هذه الآية المفسرة وما أخرج عن ابن عمران أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : أريت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة ، وأنزل اللّه تعالى ذلك أي الآية المفسرة والشجرة الملعونة (الحكم وولده) وقال بعض المفسرين هي بنو أمية ، وما أخرج بن مردويه عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت لمروان بن الحكم سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول لأبيك وجدك إنكم الشجرة الملعونة في القرآن ، وعليه يكون الكلام على حذف مضاف أي وما جعلنا تعبير الرؤيا أو الرؤيا مجازا عن تعبيرها ، ويكون معنى الإحاطة في هذه الآية إحاطة أقداره تعالى بهم ، ومعنى الفتنة جعل ذلك بلاء لهم ، ولعنهم بما صدر منهم ومن خلفائهم من استباحة الدماء المعصومة والفروع المحصنة ومنع الحقوق وأخذ الأموال بغير حق وتبديل الأحكام والحكم

بغير ما أنزل اللّه إلى غير ذلك من القبائح العظام والمخازي الجسام التي لا تكاد تنسى ما دامت الليالي والأيام لأنهم فعلوا ما فعلوا وعدلوا عن سنن الحق وما عدلوا وإن لعنهم هذا إما على الخصوص كما زعمته الشيعة أو على العموم كما تقول أهل السنة والجماعة ، فقد قال سبحانه وتعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ) الآية 13

من سورة الأحزاب في ج 3 ، وقال عز وجل ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾

الآيات 22 فما بعدها من سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلم في ج 3 ، ودخولهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولا أولياء إلا أنه لا يجوز عند أهل السنة والجماعة أن يلعن واحد بخصوصه إذ صرحوا أنه لا يجوز لعن كافر بعينه ما لم يتحقق موته على الكفر كفرعون ونمرود فكيف من ليس بكافر ، وأما ما جاء بحديث الصحيحين إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح .

الذي احتج به السراج البلقيني على جواز لعن العاصي بعينه فقد قال ابنه الجلال بحثت مع والدي في ذلك باحتمال أن يكون لعن الملائكة لها بالعموم بأن يقولوا لعن اللّه تعالى من باتت مهاجرة فراش زوجها ، على أنه استدل على ما يقوله بخبر مسلم أنه صلّى اللّه عليه وسلم مرّ بحمار وسم بوجهه ، فقال لعن اللّه تعالى من فعل هذا ، لكان أظهر إذ الإشارة بهذا صريحة في لعن معيّن على أنه لا مانع من تأويله أيضا بأن يراد فاعل الجنس ذلك الوسم ، والمغضبة لزوجها على العموم ، راجع ما بيناه في الآية 42 من سورة القصص المارة ، وعليه فلا دلالة صريحة لا تقبل التأويل في هذين الحديثين لأن الدليل إذا طرقه الاحتمال أو التأويل أفقده قوة

الاحتجاج في الاستدلال ، وهذه قاعدة أصولية لا طعن فيها .

نعم صح أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال اللهم العن رعلا .

وذكوان وعصيه عصوا اللّه ورسوله ، وهذا فيه لعن أقوام بأعينهم ، إلا أنه يجوز أنه صلّى اللّه عليه وسلم علم بإلهام اللّه إياه ، موتهم على الكفر فلعنهم ، وهذا جائز كما تقدم ، وإذا كان كذلك فلا حجة فيه للسبب المذكور أيضا ، ولأنه بأقوام لا لشخص بعينه ، ولا يخفى أن تفسير الآية لا ينطبق على ما ذكر ولا يلائم المعنى المسوقة له الآية ، ولم يكن شيء من ذلك كله زمن نزولها ، وان بين نزولها وبين هذه الحوادث سنين كثيرة أما الأحاديث الواردة المذكورة آنفا في بني أمية وبني الحكم فيحتمل أنها صحيحة لكن لا علاقة لها في الآية المفسرة المتعلقة بالإسراء خاصة ، وتلك بحوادث أخرى ولا مانع من أنه صلّى اللّه عليه وسلم رأى ما قاله فيهم رؤيا منامية أو بطريق الكشف ، لكن غير هذه الرؤيا المقصودة هنا في هذه السورة ، وكذلك لا يتجه قول من قال إن الشجرة الملعونة أبو جهل والفتنة وجوده بلاء على المسلمين ، لأنه أيضا خلاف الظاهر

ولا يوجد ما يدلّ عليه ، وكذلك قول من قال إن الشجرة مجاز عن اليهود الذين تظاهروا على حضرة الرسول ، فلما بعث كذبوه وجاء لعنهم في القرآن صريحا ظاهرا ، وإن فتنتهم هي أنهم كانوا ينتظرون بعثته عليه السلام فلما بعث كفروا به قائلين إنه غير النبي المنتظر ،

فثبطوا كثيرا من الناس بمقالتهم هذه عن الإيمان به السبب نفسه ، ووجود لعنهم في القرآن وكونهم فتنة على الإسلام أمر واقع لا شك فيه ولا ريب ، ولكن هذه الآيات لا تمسهم ، ولا يخفى أن اليهود بالمدينة والآية نزلت بمكة قبل أن يكون لحضرة الرسول مساس بهم ، هذا وقد نقلنا لك أيها القارئ كل ما نقله المفسرون بهذا الشأن ورددنا عليه لنكفيك مؤنة المطالعة وتقنع بما أثبتناه لك ، واللّه من وراء القصد وله المنة والحمد .

(319/447)

قال تعالى "وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ" هذا تحقيق لقوله تعالى (أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ) الآية المارة وهو ظاهر في الملائكة الذين ادعى بعض العرب عبادتهم وتضمن لغيرهم وإشارة إلى عاقبة الذين عاندوا الحق جل وعلا واقترحوا الآيات وكذبوا الرسل ، لأنهم داخلون في الذرية التي احتنكهم إبليس لعنه اللّه واتبعوه اتباع الظل لذويه دخولا أوليا ومشاركون له في العناد أتم مشاركة ، ألم تر إلى قولهم فيما حكى اللّه عنهم (قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ) الآية 33 من الأنفال في ج 3 ولم يقولوا ألّلهم اهدنا إليه لسابق شقائهم ، ووجه المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها أن قريشا كذبوا حضرة الرسول حسدا وتعاظما على ما خصّه اللّه به دونهم ، وما منع إبليس من السجود لآدم عليه

السلام شيء من الأشياء إلا الحسد والتكابر عليه ، والمعنى أذكر يا محمد لقومك إنما أمرنا الملائكة وقلنا لهم "اسْجُدُوا لِآدَمَ" تكريما وتحية له واحتراما ، فسجدوا كلهم امتثالا لأمري دون تلعثم أو سؤال عن السبب بحق الانقياد والطاعة "إِلَّا إِبْلِيسَ" لم يسجد "قالَ" بعد أن وبخ على امتناعه "أَأَسْجُدُ" استفهام إنكاري وتعجب "لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً" 61 وقد خلقتني من النار وهي أفضل من الطين ، فاستحق اللعن والطرد راجع قصته مفصلة في الآية 12 من الأعراف المارة ، ثم قال "أَ رَأَيْتَكَ" أيها الإله أخبرني من "هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ" وأمرتني بالسجود له أي شيء هو حتى أسجد له

فهو دوني وما هو بالشيء المستحق للسجود بالنسبة إلي لأنه شيء لا يتمالك وعزتك وجلالك وعلوك في مكانك الذي لا يتكيف "لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ" ولم تمتني وجواب القسم قوله "لَأَحْتَنِكَنَّ" أستولين وأستأصلن "ذُرِّيَّتَهُ" مهما كانوا استئصال واستيلاء قويين محكمين ، لا أفلت وأترك "إِلَّا قَلِيلًا" 62 منهم المخلصين والصادقين ، ومعنى حنك واحتنك جعل الحبل في حنك الدابة الأسفل وقادها به كيفما شاء إلى ما أراد ، وهو كناية عن إهلاكهم بإغوائه وطرقه الخبيثة ، يقال احتنك الجراد الأرض إذا أهلك نباتها ،

واحتنك فلان مال فلان إذا أخذه وأكله ، وعليه قوله :

فشكوا إليك سنة قد أجحفت جهدا إلى جهد بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وأجلفت

وقد علم ذلك الملعون من قوة الوهم وتركيب الشهوة في بني آدم وهما سبب الميل عن الحق والركون إلى الباطل وقد برّ في قسمه الخبيث في بعض بني آدم قال تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) الآية 20 من سورة سبأ في ج 2 .

هذا ومن قال إن وسوسته خلصت إلى آدم نفسه فقاس الفرع على الأصل لا يصح لأن هذا القول وقع منه قبل الوسوسة لآدم التي كان بسببها ما كان ، ومن زعم أن هناك وسوستين فعليه البيان ولن يأتي به البتة "قالَ" استهجانا له وتبكيتا به وإهانة له "اذْهَبْ" لشأنك وامض لما تريد إذ ليس المراد من الذهاب هنا ضد المجيء بل تخليته وما سولت له نفسه الخبيثة احتقارا له كما تقول لمن خالفك في النصح افعل ما تشاء يدل على هذا قوله جل قوله "فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ" وانقاد لخداعك من ذرية آدم وضل عن الحق ومات على ذلك "فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ" أنت ومن أضللت بتغليب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية "جَزاءً مَوْفُوراً" 63 وافيا كاملا بغاية الشدة إذ تعقبه بالوعيد ولو كان المراد منه ضد المجيء لما عقب به ووفر كوعد بمعنى كمل والموفور الكامل وعليه قول أشعر الشعراء :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

قال تعالى مهددا له "وَاسْتَفْزِزْ" استخفف واستزل وحرك واستنفر "مَنِ اسْتَطَعْتَ" أن تستفزّه "مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ" دعائك إلى معصية ربك بما شئت من طرق الوسوسة كغناء ومزمار أو عود وربابة أو دفّ وبوق وغيرها من آلات اللهو واللعب بالباطل لتستميلهم إلى الكفر والمعاصي "وَأَجْلِبْ" صح "عَلَيْهِمْ" مأخوذ من الجلبة وهي الصياح والجمع يقال أجلب على العدو جمع عليه وأعان غيره عليه وتوعده بالشرّ اي استعمل بإضلالهم كل ما شئت "بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ" وسائر جنودك ركبانا ومشاة "وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ" مما يصيبونه من حرام وينفقونه فيه "وَالْأَوْلَادِ" ممن يأت منهم من الزنى الناشئ عن إغوائك وإضلالك وما تحبذه لهم من الأسماء المنهي عنها كعبد الحارث وعبد العزّى وعبد شمس ، وتزيّن لهم قتل البنات خشية العار والفاقة وقتل غير القاتل وأخذ مال قريب الغاصب وما أشبه ذلك من أعمال الجاهلية التي وقعت بعد ، إذ لا توجد إذاك جاهلية ولا غيرها .

قال مجاهد إن الرجل إذا لم يسمّ عند الجماع فالجانّ ينطوي على إحليله فيجامع معه ، وذلك هي المشاركة ، والأول أولى وأنسب بالمقام ، وأحسن في التأويل وأوقع في المعنى "وَعِدْهُمْ" المواعيد الواهية والآمال الكاذبة من شفاعة الآلهة التي تسوّل لهم عبادتها وما تخيل لهم من أن الكرامة بالأنساب لا بتقوى الله وأن العاجل خير من الآجل ، وأن لا جنة ولا

نار ، ولا نشر ولا حشر ولا حساب ولا عقاب ، على حد قول أبي نواس :

خلياني والمعاص واتركا ذكر القصاص

واسقياني الخمر صرفا في أباريق الرصاص

إن صح عنه ، وهذا لا يقوله إبليس لهم ، لأنه ينفي عنهم وجود الجزاء لنفيه وجود الآخرة ، وقد ختم أبو نواس البيتين بقوله :

وعلى اللّه وإن أسرفت في الذنب خلاصي

بما يدل على حسن عقيدته المؤيد بقوله :

إذا كنت بالنيران أوعدت من عصى فوعدك بالغفران ليس له خلف

إذا كنت ذا بطش شديد ونقمة فمن جودك الإحسان والمنّ واللطف

ركبنا خطايانا وسترك سبل ؟ ؟ ؟ وهل لشيء أنت ساتره كشف

إذا نحن لم نهفوا وتعفو تكرما فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو

قال العلامة محمد بن عبد اللّه الجرداني من كتب هذه الأبيات على كفنه ودفن فيه أمن من حساب القبر وفتّانيه وما ذلك على اللّه بعزيز وهو موف بوعده "وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ" من أباطيله ويسول لهم من أضاليله "إِلَّا غُرُوراً" 64 بهم ليستوجبوا عقاب اللّه ، هذا اعتراض لبيان مواعيده ، والغرور تزيين الخطأ وإلباسه بالصواب ، وعليه يكون المعنى إن الشيطان يزين لهم الباطل بصورة الحق إيهاما ، فيظن المغرور به أنه صواب ، يقال غر فلان فلانا إذا أصاب غرته أي غفلته ونال منه ما يريد ، وأصله من الغرو وهو الأثر الظاهر من الشيء ، لأن الشيطان يدعو إلى أحد ثلاثة أمور إما قضاء شهوة خسيسة ، وإمضاء غضب مفرط ، أو غلو في طلب رياسة ، ولا يدعو البتة إلى معرفة اللّه وخدمته ، وهذه الأمور الثلاثة ليست في الحقيقة لذائذ بل دفع آلام ، فمقترفوها والحيوانات سواء ، وهي لا تحصل إلا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة قد يتبعها الموت والهرم واشتغال البال بالخوف من زوالها والحرص على بقائها ، قال تعالى "إِنَّ عِبادِي" المختصين بي المخلصين لي أضافهم لذاته الكريمة تعظيما لشأنهم "لَيْسَ لَكَ" يا إبليس "عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ" أو قوة تمكنك من إغوائهم فلا تقدر بوجه من الوجوه أن تتسلط عليهم لأنهم خاصتي وأوليائي ، ومن كنت وليه لا يتمكن أحد من الاستيلاء عليه ، لأني وكيله "وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا" 65 لمن يتوكل عليه ويستمد المعونة منه في الخلاص من كل ما ينوبه من شيطان أو إنسان أو حيوان أو جماد ، أما الذين

يستنكفون عن عبادتي أمثالك وينسون نعمي عليهم فشأنك وإياهم ، وموعدكم جميعا النار التي هي بئس القرار .

وهذا الخطاب بلفظ ربّك هناك إلى كرامة المخاطبين وإلى مطلق إنسان ، لأن القلب لا يميل إلى كونه خطابا لإبليس وإن كان الخطاب السابق له .

(324/447)

هذا وليعلم السائل عن حكمة إنظار إبليس وتمكينه من الوسوسة من قبل اللّه تعالى وعدم منعه منها وعدم إنظاره مع قدرته على ذلك ، هو أن اللّه تعالى فعل هذا تشديدا للتكليف على الخلق ليستحقّوا مزيد الثواب ، على أن وجود إبليس ليس

مانعا مما يريده اللّه جل مجده ، فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن ، واللّه خلق الخلق طبق علمه ، وعلم بهم طبق ما هو عليه في أنفسهم ، وانه كان عليه اللعنة جازما بأن الذي تكلم معه بذلك الكلام وهدّده بذلك التهديد هو إله العالم جل وعلا ، إلا أنه غلبت عليه شقوته التي استعدت لها ذاته الخبيثة ، فلم يبصر وعيد اللّه مانعا له ، ولذا حين يأت يوم هلاكه ، ولم يبق له شيء من أجله ، يقال له اسجد اليوم لآدم لتنجو ، لا يسجد أيضا ، ويقول لم أسجد له حيا فكيف أسجد له ميتا ! كما ورد الأثر بذلك ، فيظهر عناده وعتوه وجرأته على مولاه

، فيهلك كافرا كما كان كافرا ، وليس حاله بأعجب من حال الكفار ، إذ يتمنون العود إلى الدنيا ليؤمنوا بالّله ، وقد أخبر اللّه عنهم بقوله : (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ) الآية 19 من سورة الأنعام في ج 2 ، فلا محل للقول بأن إبليس عليه اللعنة لم يكن عالما بأن الذي تكلم معه وهدده هو إله العالم ، لأن السياق يأبى ذلك والخطاب شاهد عليه .

مطلب أمل إبليس في الجنة والاعتراف بوجود الإله :

وما قيل إن له أملا بالنّجاة قيل مسنده ما حكي أن مولانا عبد اللّه التستري سأل اللّه تعالى أن يريه إبليس فرآه فسأله هل تطمع في رحمة اللّه تعالى ؟ فقال :

(325/447)

كيف لا أطمع فيها واللّه سبحانه يقول (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) الآية 156 من الأعراف المارة ، وأنا شيء من الأشياء ، فقال التستري ، ويلك إن اللّه تعالى قيدها بقوله (فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ) إلخ تلك الآية ، ثم وصفهم بقوله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) إلخ الآية 157 منها أيضا ، فقال له إبليس ويحك ما أجهلك القيد لك لا له ، فأسكت التستري لأمر لا نعلمه ، ولم يقل له إنها عامة تقبل التخصيص كتسليطك على آدم وهو قادر على منعك منه ، وكان ذلك قبل تشريفه بالنبوة إذ ما عموم إلا وخصص

والمخصص بالاستثناء منها أنت يا ملعون ، إذ نص اللّه تعالى على جزائك بآيات متعددة بلفظ اللعن الخاص بك والطرد من رحمته ، والمبعد عنها لا تشمله هذه الرحمة .

ومن هنا يضرب المثل لكل مؤمل أملا لا يدركه بالقول السائر (أمل إبليس بالجنة) ولهذا ولكونه مدونا في أزل اللّه بأنه يقع منه

ذلك وأن اللّه يلقنه طلب الإمهال ويمهله ، وما كان في علم اللّه الأزلي لا يبدل ولا يغير ، فقد أجاب طلبه وأمهله وأبقاه فتنة لبعض خلقه حتى يستكمل ما قدره اللّه له من غضب وعذاب ، فيهلك كسائر الخلق .

(326/447)

قال تعالى "رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي" يسير ويسوق ويجزي "لَكُمُ الْفُلْكَ" السفينة والقارب يطلق على الواحد والجمع ، إذ لا واحد له من لفظه مثل عالم ونساء ونسوة ورهط "فِي الْبَحْرِ" فيجعلها سائرة على ظهره بالريح الليّنة ، والآن به وبالآلات المح ؟ ؟ ؟ ثة ، لأنها داخلة في قوله تعالى (وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ) الآية 8 من النحل في ج 2 وذلك "لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ" الريح في تجاراتكم والزيارة للبلاد التي يشق عليكم الوصول إليها بالبر تتميما لمنافعكم ، وهذا تذكير ببعض نعم اللّه على عباده التي هي من دلائل توحيده ، وتفسير الفضل بالحجج

والنقد ، وعلى رأي بعض المفسرين لا يناسب المقام لأن الفضل عام لكل ما فيه نفع ، فدخولهما في عمومه أولى من التقييد بها لأنه جاء مطلقا ، فإبقاؤه على إطلاقه أولى "إِنَّهُ" جل شأنه في الأزل "كَانَ" ولا يزال "بِكُمْ" أيها الناس "رَحِيماً" 66 إلى انقضاء آجالكم في الدنيا وفي الآخرة إلى إدخالكم الجنة ، وإذ ذاك تبقون خالدين فيها تحت ظلّه ، وحمدوا هذا الإله الذي هيأ لكم ما تحتاجونه ، وسهل لكم ما يعسر عليكم ، (وربكم) في هذه الآية صفة ، لقوله تعالى قبلا (الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الآية 51 المارة أو بدل منه وهو جائز وإن تباعد ما بينها ، قال تعالى "وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ" فأصابتكم شدة بعصف الرياح وتقاذف الأمواج وخفتم الغرق "ضَلَّ" ذهب عن خواطركم وغاب عن أوهامكم كل "مَنْ تَدْعُونَ" وتستغيثون به وترجون نفعه عنكم ، ولم يبق في بالكم "إِلَّا إِيَّاهُ" جل وعلا فإنكم إذ ذاك تذكرونه وحده وتطلبون منه نجاتكم مما حل بكم لا من غيره ، والحال

أنكم في حال مرحكم وفي حالة السراء تدعون آلهتكم وحدها "فَلَمَّا نَجَّاكُمْ" ذلك الإله العظيم وأجاب دعاءكم وخرجتم "إِلَى الْبَرِّ" وأمنتم من الغرق "أَعْرَضْتُمْ" عن دعائه وحده وملتم عن الإخلاص بعد الخلاص ونسيتم حالة الشدة التي استعنتم به منها ورجعتم

إلى شرككم ، ويقال إن معنى أعرضتم توغلتم في التوسع في كفران النعمة على أنه من العرض بمقابل الطول وجعل كناية عن ذلك كما في قول ذي الرّمة :

عطاء فتى تمكن في المعالي فأعرض في المكارم واستطالا

فكأنه أراد أعرضتم واستطلتم في الكفران ، إلا أنه استغنى بذكر العرض عن الطول للزومه له ، والتفسير الأول أولى بالمقام وأنسب للكلام "وَكَانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً" 67 لنعم اللّه تعالى مبالغا في جحودها ، وهذا التعليل للإعراض وبيان لحكم الجنس ، ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين وفيه لطافة إذ أعرض اللّه عنهم ، ومن اللطائف أن بعض الناس قال لبعض الأئمة اثبت لي وجود اللّه تعالى ولا تذكر الجوهر ولا العرض ، فقال له هل ركبت في البحر ؟ قال نعم ، قال هل عصفت الريح وأنت فيه ؟ قال نعم ، قال فهل أشرفت بك السفينة على الغرق ؟

(328/447)

قال نعم ، قال فهل يئست من نفع من في السفينة من المخلوقين ونحوهم لك وإنجاءهم إياك مما أنت فيه ؟ قال نعم ، قال فهل بقي قلبك معلق بشيء آخر غيرهم ترجو منه الخلاص ؟ قال نعم ، قال ذلك هو اللّه عز وجل ، فاستحسن ذلك منه وقنع ، لأن الإنسان مهما عظم

وقوعه في المهالك ولم يجد من ينفعه يبقى في قلبه أمل النجاة ، وإذ لم يكن لهذا الأمل من يعلم تنفيذه ، فيكون المراد به هو اللّه لا غير ، قال تعالى "أَ فَأَمِنْتُمْ" أيها المعرضون عمن نجاكم من الغرق في البحر "أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ" الذي هو مأمنكم وأنتم عليه كما خسف بقارون وذهب به في أعماق الأرض ، فتغور بكم وتبتلعكم ، لأن البر والبحر مسخران للّه تعالى ، فلا فرق عليه إن أغرقكم في البحر ويرسيكم في قعره أو خسف بكم الأرض ، فيغيبكم في ثراها .

فعلى العاقل أن يجعل مخافة اللّه دائما نصب عينيه وفي سويداء قلبه في أي مكان كان "أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً" حجارة صغيرة يرجمكم بها من السماء فيهلككم كما رجم قوم لوط وأبرهة وقومه في دياركم هذه ، وقد شاهد آباؤكم حادثته وكثير منكم أيضا حضرها ، راجع الآية 82 من سورة القصص والآية 84 من الأعراف وآخر سورة الفيل المارّات .

قال الفراء (الحاصب) هو الريح التي ترمي بالحصباء .

وقال الزجاج هو التراب الذي فيه الحصباء .

وقيل ما تناثر من رقاق الثلج والبرد ومنه قول الفرزدق :

مستقبلي ن شمال الشام تضربهم بحاصب كنديف القطن منثور

وبمعنى السحاب الذي يرمي بها ، وكلها أقوال متقاربة والأول أنسب وأولى باللفظ "ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا" 68 يصرف عنكم ذلك ويحفظكم منه إذ لا راد لأمره وهو الغالب

القادر على كل شيء ، قال تعالى "أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ" أي البحر "تَارَةً أُخْرَى" ظرف منصوب يجمع على تارات وتير قال :

يقوم تارات ويمشي أخرى

(329/447)

و قد تحذف منه الهاء كقوله : بالويل تار والثبور تارا

أي مرة أخرى ومرة بعد مرة وأسند الإعادة إليه تعالى مع أنها باختيارهم .

ومما ينسب إليهم عادة كسائر أفعالهم باعتبار خلق الدواعي فيهم الملجئة إلى ذلك منه وإن كان مخلوقا له "فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ" وأنتم في البحر "قَاصِفاً" قاطعا ريحا شديدة تقلع بعزم قصفها وقوة قطعها ما تمر به من شجر ونحوه ولها صوت عال مزعج "مِنَ الرِّيحِ" المغرقة في البحر المهلكة في البر "فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ" نعمة الانجاء وإجابة الدعاء في المرة الأولى ، لأن ديدنكم نسيان النعم وكفران المنعم ، فلا تنظرون إلّا لما هو أمامكم "ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ" بذلك الإغراق والإهلاك "تَبِيعاً" 69 يطالبنا بكم ولا متّبعا دركا لثاركم ، وهذا على حد قوله تعالى (وَلا يَخافُ عُقْباها) الآية الأخيرة من سورة والشمس المارة وقرىء بنون العظمة في الأفعال الخمسة أي نخسف ونرسل ونعيدكم فنرسل فنغرقكم قال تعالى "وَلَقَدْ

كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ" بالعقل واستواء الخلقة ليدبروا معاشهم ومعادهم ، وشرفناهم على الحيوانات والحيتان والطيور بذلك وبتناول طعامهم وشرابهم بأيديهم ، وميّزناهم بالنطق واعتدال القامة وحسن الصورة ، وذللنا لهم الحيوان والجماد وسخرناهما لهم وسلطناهم على ما على وجه الأرض وما جىء فيها من معادن ومياه ، وما في المياه من حيوان وأحجار كريمة ومعادن نافعة ، وخصصناهم بالتدبر والتفكر والحظ والملاذ الدنيوية الحلال ، وزينا الرجال باللحى والنساء بالشعر ، وهذه الإضافة تقتضي العموم فتشمل البرّ والفاجر منهم ، ولهذا استدل الإمام الشافعي رحمه اللّه على طهارة الآدمي وعدم تنجيسه بالموت ، وطهارة المني لأنه منه ، ويكون منه "وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ" على الدواب والأنعام وغيرها مما كان وسيكون

"وَالْبَحْرِ" على السفن والمراكب وغيرها مما كان وسيكون ، وفي الهواء كذلك ، وتحت الأرض والبحر أيضا من كل ما خلق اللّه وأطلع عليه البشر وما سيطلع عليه بعد وسخرهم لعمله لأن عمل العبد من خلق اللّه ، قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) الآية 91 من الصافات في ج 2 ، وليعلم أن ما يراه الناس من الأشياء العجيبة التي أحدثها البشر

مما لا يتصوره العقل كله من خلق اللّه ولو شاء لما أطلعهم عليه وعلمهم صنعه "وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ" الحاصلة بصنعهم وبغير صنعهم من المأكول والمشروب والملبوس والمركوب والمفروش وغيرها من كل ما علم البشر صنعه بتعليم اللّه إياه.

مطلب تفضيل الإنسان على ما خلق اللّه على الإطلاق:

قال تعالى "وَفَضَّلْنَاهُمْ" بهذا التكريم بظروف النعم وصنوف المستلذات وفنون المعمولات "عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا" أي كل خلقنا، لأن كثيرا هنا بمعنى كل على حد قوله تعالى (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) الآية 233 من الشعراء المارة، قال الحسن أي كلهم كاذبون، "تَفْضِيلًا" 70 عظيما كبيرا إذ عرفناه بواسطة العقل والفهم واكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، فهذا هو معنى التفضيل، والاختصاص المتقدم هو معنى التكريم فلا يقال إن التفضيل والتكريم بمعنى واحد فهو تكرار، تنبه.

وليعلم أن خواص البشر الأنبياء أفضل من خواص الملائكة، ولذلك أجمع المفسرون على أن كثيرا هنا بمعنى الكل كما ذكرناه في تفسير الآية 233 المذكورة آنفا من سورة الشعراء المارة، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر على القول الراجح، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) الآية 7 من سورة البينة في ج 3 ، وجاء عن أبي هريرة قال : المؤمن أكرم على اللّه تعالى من الملائكة الذين عنده وقال : قال صلّى اللّه عليه وسلم أتعجبون من منزلة الملائكة من اللّه تعالى ، والذي نفسي بيده لمنزلة المؤمن عند اللّه يوم القيامة أعظم من ذلك واقرأوا إن شئتم (إِنَّ الَّذِينَ) إلخ الآية السابقة .

ويراد بالمؤمن هنا الكامل الموصوف في هذه الآية وهم الأنبياء ، وليعلم أيضا أن الملائكة مجبولون على الطاعة وقد وضع اللّه فيهم العقل ولم يركب فيهم الشهوة ، والبهائم على العكس فهي مجبولة على الشهوة ولم يضع

فيها العقل ، وقد ركب اللّه في بني آدم الشهوة ووضع فيهم العقل ، فمن غلب عقله على شهوته فقد التحق بالملائكة وصار أكرم منهم ، ومن غلبت شهوته على عقله التحق بالبهائم وصار أخس منهم وأشر ، وقد خلق اللّه تعالى كل ما في الكون السفلي والعلوي لبني آدم ، وخلق بني آدم لنفسه المقدسة ليعبدوه ، قال تعالى (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 56 من سورة الذاريات في ج 2 وجاء عن جابر يرفعه قال لما خلق اللّه آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان .

هذا وقالت المعتزلة : إن البشر أفضل من جميع الخلق إلا الملائكة وقال الكلبي البشر أفضل من جميع الخلق عدا طائفة من الملائكة مثل جبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل وحملة العرش وخازن الجنة والنار وشبههم ، استدلالا بقوله تعالى (كَثِيرٍ) ولو كان التفضيل على الكل لما جاء لفظ (كثير) والأول الذي جرينا عليه هو ما عليه الجمهور ، راجع الآية الأولى من هذه السورة ، وقد ذكرنا أن كثيرا أتت في القرآن بمعنى الكل قولا واحدا فيها قال في الكشاف إن المراد بالأكثر في قوله تعالى (وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) الآية 37 من سورة يونس في ج 2 (الجميع) والقرآن يفسّر بعضه بعضا والآيتان المتقدمتان والحديثان كل منها يؤيد هذا ، وعليه أبو حنيفة وكثير من الشافعية والأشعرية رضي اللّه عنهم ، ولهذا مثبتا على أن الأكثر بمعنى الكلّ ، وإن البشر أفضل من جميع الخلق ، والمراد الجنس الصادق بالواحد والمتعدد

قال تعالى "يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ) بنبيهم ومقدمهم فيقال يا أتباع فلان ، ويا قوم فلان ، وقيل بكتابهم لأن الإمام بمعنى الكتاب ، فيقال يا أهل كتاب الخير ، ويا أهل كتاب الشر ، أو يا آل القرآن ، يا آل التوراة يا آل الإنجيل ، ويا أهل دين الإسلام ، يا أهل دين اليهود ، يا أهل دين النصارى ، والأوّل أولى وأوفق ، فيأتون أفواجا أفواجا ومعنى الإمام المتبع والمقتدى به عاقلا كان أو غيره في اللغة ، وأما شرعا وعرفا فالإمام هو الخليفة ومن يصلي بالناس بأمره

جمعة وجماعة ، أخرج ابن مردويه عن

علي كرم اللّه وجهه قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في الآية يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربّهم وسنة نبيهم .

وأخرج بن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس أنه قال إمام هدى وإمام ضلالة ، وأخرج ابن جرير عن طريق الصوفي عن ابن عباس أيضا قال بإمامهم بكتاب أعمالهم وأخرج بن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب في تاريخه عن أنس أنه قال هو نبيهم الذي بعث إليهم .

وما قيل إن إمام جمع أم كخفاف جمع خفّ لأن الناس يدعون بأمهاتهم رعاية لحق عيسى عليه السلام ، وشرفا للحسنين رضي اللّه عنهما ، وشرا لأولاد الزنى لا وجه له ولا مزيّه ، لأن جمع أمّ أمهات ولم يسمع كونه جمع إمام والغلط المشهور خير من الصحيح المهجور ، على أنه ليس بغلط بل بصحيح مشهور ، ولأن عيسى عليه السلام من كرامته على ربه خلقه من

غير أب ، فهو آية في نفسه من آيات اللّه العظام ، ووالد الحسنين خير من أمهما مهما كانت مفضلة على غيرها لان آل البيت كحلقة مقرغة وفضيحة أولاد الزنى حاصلة لا محالة سواء دعي باسم أمه أولا ، لأن اللّه تعالى يحاسب الزاني والزانية ، وفي ذلك تظهر الفضائح وتنشر القبائح ، وإن ابن الزنى لا ذنب عليه لأنه لم يقترف شيئا ، قال تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) الآية 38 من سورة والنجم المارة ، ويوشك أن يثيبه اللّه تعالى على تحمله ألفاظ القذف من الناس وأقوال التحقير والاستهزاء ما لا يثيب به غيره ، وقد يكون غالبا من أهل التحمل ، وجبارا أيضا وواطيا بآن واحد ، راجع الآية 32 من سورة مريم المارة "فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ" في ذلك اليوم المهول "فَأُولَئِكَ" إشارة إلى من باعتبار معناها "يَقْرَؤُنَ كِتَابَهُمْ" فرحين مسرورين متلذذين بما فيه من الخيرات والحسنات والطاعات التي فعلوها بالدنيا ، ويقرأون ما فيه ولو لم يكونوا قارئين قبلا ، وكذلك الأعمى يقرأ كتابه بقوة يعطيه اللّه إياها ، ويعيد له بصره حتى لا يبقى لأحد حجة يحتج بها ، نفيا لدعوى الظلم "وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا" 71 أيها الناس كلكم ، فلا ينقص من أجور أعمالكم المرتسمة في كتبكم بمقدار الخيط الرفيع الذي هو في باطن نواة التمر ، كما لا يزاد على عقاب أحد بمثل ذلك ، وإنما ضرب اللّه تعالى هذا المثل بالفتيل لما هو متعارف عند العرب إذ يضربون به المثل

لكل حقير ، ولأنه لا أقل منه بنظر المخاطبين ، ومثله النقير الذي في ظهرها والقطمير الغشاء الذي عليها بل يؤتونها مضاعفة إن كانت من أعمال الخير ، ومثلها إن كانت من الشر ، راجع الآية 160 من سورة الأنعام في ج 3 ، أما الذين يؤتون كتبهم بشما لهم فتستولي عليهم الدهشة والذّلة من سوء ما يرونه فيها من كبائر المعاصي وغظائم المناهي ، فيرتبكون حتى انهم تأخذهم الرجفة فلا يستطيعون قراءتها كما ينبغي لشدة ما يعتريهم من الخوف ، لقبح ما هو مدون فيها .

أخرج الفضيلي عن أنس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : الكتب كلها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة بعث اللّه تعالى ريحا فتطيرها إلى الأيمان والشمائل ، وأول خط فيها (اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) الآية 14 المارة .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها قالت : قلت يا رسول اللّه هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ، قال أما عند ثلاث فلا ، إلى أن قال وعند تطاير الكتب ، والثاني واللّه أعلم عند النفخة الثانية ، والثالث عند الفزع الأكبر في موقف الحساب .

وجاء عن عائشة أيضا أنه يؤتى العبد كتابه بيمينه فيقرأ سيئاته ، ويقرأ الناس حسناته ، ثم يحول الصحيفة فيحول اللّه تعالى حسناته فيقرأها الناس فيقولون ما كان لهذا العبد من سيئة .

قال تعالى "وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ" الدنيا "أَعْمَى" قلبه عن الاعتراف بقدرتنا والتصديق لأنبيائنا من المدعوين المذكورين "فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ" المعبر عنها بيوم ندعو في الآية المتقدمة فكذلك يكون "أَعْمَى" بأشد من عمى الدنيا فلا يهتدي إلى ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه نفعا "وَأَضَلُّ سَبِيلًا" من سبل الدنيا لأنه فيها قد يعرف بعض الطرق المؤدية لأهله مثلا ، أما في الآخرة فلا يعرف شيئا البتة ، لذلك لا يمكنه تدارك ما فاته فيها ، أي أنه إذا اعترف إذ ذاك بالتوحيد وبالنبوة والكتب والبعث لا ينفعه ، وإذا تاب لا تقبل توبته ، وإلا لآمن الكل لأن اللّه تعالى حدد التوبة حدا وهو كونها في الدنيا وفي غير حالتي اليأس والبأس ، وقبل طلوع الشمس من مغربها ، والدابة من محلها ، راجع الآية 82 من سورة النمل المارة .

وهذا الأعمى هو الذي يؤتى كتابه بشماله بدلالة ما سبق ولمقابلته به إذ لا يجوز أن يفسر الأعمى هنا بأعمى العين الباصرة لمخالفته لقوله تعالى (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

الآية 22 من سورة ق المارة، لأن اللّه تعالى يعطي الأعمى قوة النظر يوم القيامة ويعيد الأجزاء الناقصة من الإنسان حتى القلفة، لأن الناس يحشرون كاملي الخلقة لا ترى فيهم أعمى ولا أعور ولا أقطع ولا أعرج ولا ولا، قال تعالى (كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الآية 50 من الأعراف المارة، راجع الآية 125 من سورة طه المارة لاستيفاء هذا البحث، وهذه الآيات المدنيات الأخيرة من هذه السورة، قال تعالى "وَإِنْ كادُوا" قاربوا وأوشكوا "لَيَفْتِنُونَكَ" يخدعونك وإن هذه مخففة من الثقيلة واللام في ليفتنونك تسمى اللام الفارقة بين إن هذه وإن النافية، واسمها ضمير الشان، مقدر دائما، أي أن شأنهم المقاربة لإيقاعك في الفتنة وصرفك "عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد في هذا القرآن "لِتَفْتَرِيَ" تختلق وتتقول "عَلَيْنا غَيْرَهُ" من تلقاء نفسك أو مما اقترحوه عليك.

مطلب تهديد اللّه تعالى رسوله صلّى اللّه عليه وسلم:

"وَإِذاً" إذا اتبعت أهواءهم وهممت أن تفعل ما أرادوه منك "لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا" 73 لهم مصافيا مواليا ولا تبعوك فيما تأمرهم وتنهاهم مع أنهم أعدائي وصداقتهم تقتضي الانقطاع عن ولايتي، وقيل في المعنى:

إذا صافى صديقك من تعادي فقد عاداك وانقطع الكلام

وقال الشافعي رحمه اللّه: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك، لأن من الوفاء للصديق عدم مصادقة عدوه.

قال ابن عباس قدم وفد ثقيف بعد فتح مكة إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا نبايعك على ثلاث خصال : لا ننحني في الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وإن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها بل لنأخذ هداياها ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : لا خير في دين لا ركوع ولا سجود فيه ، وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم ، وأما الطاغية (يعني اللات) فإني غير ممتعكم بها ، قالوا يا رسول اللّه ، إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا ، فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل أمرني اللّه بذلك ، فسكت النبي صلّى اللّه عليه وسلم غضبا مما قالوا فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم سؤلهم لظنهم أنه راق له ذلك وفي رواية فقام النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال عمر رضي اللّه عنه ما بالكم آذيتم رسول اللّه إنه

لا يدع الأصنام في أرض العرب ، فما زالوا به حتى أنزل اللّه هذه الآية وقد ادخرها اللّه تعالى هي وما بعدها إلى حد (زهوقا) الآتية لهذه الحادثة وهي كالمعترضة بالنسبة لما قبلها وما بعدها شأن الآيات المتأخر نزولها عن سورها ، فإنك تراها معترضة لا علاقة لها بما قبلها ولا صلة بما بعدها .

هذا ، وما قيل إن قريشا قالت لحضرة الرسول اجعل لنا آية رحمة بدل آية عذاب وآية عذاب بدل آية رحمة حتى نؤمن بك ، أو أنهم قالوا لا تمس الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا ، أو كلفوه أن يذكر آلهتهم ليسلموا ويتبعوه ، أو أنهم قالوا له إن الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم فاطردهم حتى نتبعك لأنا نستحي أن نكون وإياهم سواء في المجلس ، وأن حضرة الرسول حدث نفسه بما لفظه (ما علي أن أفعل ذلك واللّه يعلم أني لها كاره) وغيره من الترهات التي نقلها بعض المفسرين ، دون ترو من صحتها لا يصح شيء من ذلك أبدا ولا يجوز أن ينسب لحضرة الرسول شيء منه أصلا ، لأنه مما لا يقبل التأويل ، وإن اختلاف الروايات تدل دلالة كافية على وضعه ، وكون الآية مدنية تبرهن على كذبه وعزم النبي صلّى اللّه عليه وسلم وحرصه على ما أمره به ربه يحيل وقوعه ، لأن تلك الأقوال الواهية على فرض صحتها جدلا فإنها كانت في مكة ، ولم يكن يلتفت إليها حضرة الرسول مع ما كان عليه وأصحابه من الضعف لقلة المسلمين فيها ، أما وقد حفظه اللّه من كيدهم وقواه وأيده وأعلى كلمته وأظهر دينه في المدينة وكسر شوكة أعدائه فلا يتصور صحة شيء منها البتة ، قال تعالى "وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ" على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا إياك من الميل

لأقوالهم هذه "لَقَدْ كِدْتَ" قاربت في نفسك وأوشكت "تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ" بما قالوه وطلبوه لقوة خداعهم وشدة احتيالهم وتملقهم "شَيْئاً قَلِيلاً" 74 يسيرا جدا قد يستدل به إلى ميلك القلبي لهم بسبب سكوتك وقيامك عنهم، دون أن تزجرهم وتظهر غضبك عليهم، وما كان ينبغي لك أن تتصور ذلك أو تردده في خلدك حتى يتخيلوا ميلك لإجابتهم ويطمعون في موافقتك لهم.

هذا، واعلم أن ظاهر الآية تدل صراحة على أن حضرة الرسول لم يهم فعلا بإجابتهم، ولم يكد أيضا وهو لا شك معصوم عن العزم بما هو من ذلك القبيل وحديث النفس معفو عنه شرعا،

وإن كان محاسبا عليه والحساب غير العقاب والعتاب.

قال تعالى (وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) الآية 284 من البقرة في ج 3، وقدمنا نبذة فيما يتعلق في هذا البحث في الآية 86 من سورة القصص المارة وله صلة واسعة في آية البقرة المذكورة آنفا فراجعها.

وقد استدل بهذه الآية على أن العصمة بتوفيق اللّه وعنايته، وركن بفتح الكاف مضارعها

يركن بكسرها وتأتي بضم الكاف ومضارعها بفتحه كما في الآية ، قال تعالى "إِذاً" لو قاربت الركون إليهم بأدنى شيء "لَأَذَقْنَاكَ" بسبب تلك الركنة القليلة "ضِعْفَ الْحَيَاةِ" في الدنيا عذابا مضاعفا "وَ" أذقناك "ضِعْفَ الْمَمَاتِ" في الآخرة عذابا مضاعفا أيضا ، والمراد ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى ، والحذف في فصيح اللغة جائز ومرغوب ، وهذا يشمل عذاب القبر و

البعث وما بعده أيضا ، وحاصل المعنى يقول اللّه تعالى لحبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لو أجبتهم إلى بعض طلبهم لضاعفت عليك عذاب الدنيا والآخرة ، وذلك أن الأبرار لو فعلوا ما يستوجب عذابا ما يكون ضعف عذاب الأشرار وأكثر ، لأنه لا يتوقع منهم الانحراف عن منهج الرشد أصلا بدليل قوله تعالى "ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً" 75 يدفع عنك عذابنا أو يرفعه ، ففيها من التهديد والوعيد ما يتقيض له من يتقيض ولا يخفى أن الأنبياء لا نصير لهم إلا الذي قربهم وشرفهم بنبوته بادىء أمرهم ، وإن ما يقع من نصرتهم من بعض خلقه بتسخيره لهم ، فكيف يجدون نصيرا لهم من غيره ؟ كلا لا نصير له غير ربه .

روي عن قتادة أنه لما نزل قوله تعالى : وإن كادوا إلى هنا ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : أللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين .

فينبغي للمؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو على ركبتيه ويتدبر معناها ويستشعر خشية الله تعالى ويزداد تصلبا في دينه ، ويقول ما قاله نبيه صلّى الله عليه وسلم تقربا إلى الله ، لأن العبد أقرب ما يكون إلى الله إذا سأله بخلاف العبيد فإنه يكون أقرب ما يكون إليهم إذا لم يسألهم ، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلم ازهد بما في أيدي الناس تحبك الناس .

وقال العارف :

لا تسألن ابن آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله وابن آدم حين يسأل يغضب

وفي هذه الآية إجلال عظيم لحضرة الرسول من قبل ربه عز وجل ، وتنبيه على أن الأقرب من الله يكون أشد خطرا عنده كما يكون أشد خوفا منه .

قال تعالى : (إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) الآية 28 من سورة فاطر المارة ، فإذا كان الله تعالى أوعد حضرة حبيبه على ما خطر بباله ولم يفعله بضعف ما أوعد به العصاة من العذاب المدخر لهم ، فكيف بنا أيها الناس ؟ أللهم لا حول ولا قوة إلا بك ، فنسألك الهداية إلى سواء السبيل ، والعصمة من خطرات نفوسنا ومن وساوس الشيطان ودسائسه ومن شرار خلقك بفضلك يا رحمن .

قال تعالى "وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ" يستخفونك ويزعجونك ويخرجونك "مِنَ الْأَرْضِ" التي

ولدت فيها ونشأت عليها وبعثت إليهم فيها بسبب عداوتهم ومكرهم يريد أهل مكة حين ما كان صلّى اللّه عليه وسلم فيها بين أظهرهم قبل أن يهاجر عنهم .

وهذه حادثه مكية يذكر اللّه تعالى بها نبيه في المدينة بعد ما فشا أمره وعلت كلمته في أرض مكة وما حولها وكان استفزازهم ذلك "لِيُخْرِجُوكَ" قسرا "مِنْها وَإِذاً" لو فعلوا ذلك وكان خروجك قهرا "لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ" أي بعدك وعليه قوله :

عفت الديار خلافهم فكأنها بسط الشواطب بينهن حصيرا

أي بعدهم ، والشواطب اللائي يقدّون الأديم بعد ما يخلقنه "إِلَّا قَلِيلًا" 76 لبثا يسيرا جدا ، إذ جرت عادة اللّه تعالى أن كل أمة أخرجت نبيها جبرا فإنه يهلكها استئصالا ، والمعنى أنهم لو أخرجوك كما أرادوا لأهلكوا عن بكرة أبيهم ، وهم أرادوا هذا وعرفوا وصمموا عليه ، ولكن اللّه لم يرده واللّه الغالب على أمره .

هذا ، ولما لم يقع المقدّم وهو الخروج لم يقع الثاني وهو الهلاك ، إذ خرج حضرة الرسول من مكة مهاجرا بعد أن أذن اللّه له بالهجرة ، وهذا من جملة رحمات اللّه بقريش إرادة استبقائها .

وإن ما جاء في قوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ) الآية 11 من سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلم في ج 3 لا يناقض معنى هذه الآية المفسرة، لأن غاية ما فيها الاخبار عن انتصار اللّه تعالى لأنبيائه السابقين من أممهم المعاندين.

وقصارى ما دلت عليه الآية المفسرة هو قرب الاستفزاز منهم تسببا إلى إخراجه ولم يكن حاصلا ولا واقعا ومعنى أخرجتك في الآية المستشهد

بها عزمهم على اخراجك واجماع كلمتهم عليها، وهم كأنهم أخرجوك على زعمهم، ولكن اللّه تعالى أبى ذلك، فكان خروجك من بين أظهرهم خروجا لا إخراجا كما سيأتي تفصيله في حادثة الهجرة عند تفسير الآية 27 من العنكبوت في ج 2، وكيفية اجتماعهم في دار الندوة وماهية قرارهم المتخذ بهذا وصورة تنفيذه وتحقق قول ورقة بن نوفل رحمه اللّه حينما قص عليه مبادئ نزول الوحي فقال له: يا ليتني كنت جذعا إذ يخرجك قومك.

(343/447)

وقوله صلّى اللّه عليه وسلم أو مخرجي هم كما أوضحناه في المقدمة في بحث نزول الوحي وإذ كانت هذه الآية المفسرة مدنية مستثناة من سورتها فيتجه فيها ما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنيم قال إن اليهود أتوا النبي

صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا إن كنت نبيا فالحق بالشام ، فلما بلغ تبوك أنزل اللّه هذه الآية وأمره بالرجوع إلى المدينة ، وقال فيها محياك وفيها مماتك ومنها تبعث .

وعلى هذا يكون المراد بالأرض أرض المدينة لا مكة واللّه أعلم .

إذ انها صالحة للقولين قال تعالى "سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا " أي أن إهلاك كل قوم أخرجوا رسولهم قسرا هو سنة مطّردة من الإلهية التي لا تنخرم ، كما أنها من سننها المدونة في الأزل أن لا تعذب أمة ما دام نبيها فيها حتى إذا أراد إهلاكها أشار اليه ان يبتعد عنها . قال تعالى (وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) الآية 34 من الأنفال في ج 3 "وَلا تَجِدُ" أنت ولا غيرك ممن تقدمك أو تأخر عنك "لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا" 77 عن مجراها الطبيعي ولا يتمكن أحد على تغييرها ، و ؟ ؟ ؟ أسراء هذه العادة المتبعة التي لا يقدر أحد على تبديلها هو من كمال الحكمة ، والمراد من نفي الوجدان هو نفي الوجود ، ودليل نفي وجود من يغير عادة اللّه أظهر من الشمس في رابعة النهار ، هذا ومن قال إن هاتين الآيتين مكيّتان تبعا لسورتهما قال في سبب نزولها اجتماع قريش في دار الندوة واتفاقهم على إخراجه من مكة ، والحال أنهم اتفقوا على إخراجه من وجه البسيطة لأنهم أجمعوا أن يقتلوه ويشتركوا جميعا في قتله كما هو مبين في الحادثة المشار إليها أعلاه ، وانه بعد خروجه من مكة بثمانية عشر شهرا وقعت حادثة بدر وهي دليل على عدم لبثهم فيها من بعده إلا قليلا ، وهذا الزمن قليل نسبة وان

قوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) الآية المارة الذكر آنفا تؤيد ذلك، إلا أن هذا لا يستقيم، إذ جرت عادة اللّه التي لا تبدل بعذاب الاستئصال العام كما تشير اليه الآيتان المفسرتان، وإن واقعة بدر وقعت على قليل منهم ولم تكن عقب خروجه كما فعل اللّه بقوم صالح، إذ لم يتأخر عنهم العذاب إلا ثلاثة ايام، وكذلك الأمم قبله وبعده فلم يتأخر عذابهم ولم يقع على بعضهم، وسبب تعجل العذاب على أثر خروج النبي هو إذا وقع متأخرا يظن المعذبون أنه طارئ عادي ليس لإغضابهم أنبيائهم، تدبر، لهذا فان المرضي الذي لا غبار عليه ولا طعن فيه هو ما ذكرناه اولا من أن الآيتين مدنيتان، والسبب في نزولهما هو تذكير اللّه نبيه ما أراد به قومه وهو في مكة، وما ذكر عن اليهود الذين قالوا له إن كنت نبيا فاذهب إلى الشام، وذلك لأن جميع الأنبياء إما من أرض الشام او هاجروا إليها، ولهذا توجه لتبوك عند سماعه قولهم ذلك.

قال قتادة إن هذه السورة مكيّة إلا ثماني آيات وهي من قوله (وإن كادوا) إلى (زهوقا) فهن مدنيات وان كان الخفاجي لا يرضى هذا فقد خولف بكثير من أمثاله، واللّه أعلم.

مطلب مأخذ الصلوات الخمس والجمع بينها :

قال تعالى "أَقِمِ الصَّلاَةَ" التي فرضناها عليك وعلى أمتك ليلة الإسراء هذه "لِدُلُوكِ الشَّمْسِ" أي ميلانها إلى الزوال فتتناول هذه الجملة صلاتي الظهر والعصر ، ويرجح هذا القول بأن كل صلاة صلاها النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأمه بها جبريل عليه السلام هي صلاة الظهر حين علّمه كيفية الصلاة في يومين ، كما أشرنا اليه آخر قصة المعراج المارة ، وما قيل إن المراد غروبها ينافيه قوله تعالى "إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ" ظلمته لأن هذه الجملة تتناول أيضا المغرب والعشاء ، قال النّضر بن شميل غسق الليل دخول أوله قال الشاعر :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والأرقا

ويطلق على ظلمة الليل قال زهير بن أبي سلمى :

ظلّت تجود يداها وهي لاهية حتى إذا جنح الاظلام والغسق

وما استدل به بعضهم على أن الدلوك بمعنى غياب الشمس من قول ذي الرمة :

مصابيح ليست باللواتي يقودها نجوم ولا بالاملاك الدوالك

لا يكون نصا في معنى الغياب لأنه يكون بمعنى الميل والنجوم تميل بسيرها ، لأن أصل مادة ذلك تدل على الانتقال وفي الزوال انتقال من دائرة نصف النهار إلى ما يليها ، وفي الغروب

انتقال من دائرة الأفق إلى ما تحتها بحسب ما نراه، وكذلك الدلك المعروف هو انتقال اليد من محل إلى آخر، وليعلم أن كل كلمة أولها دال ولام مع قطع النظر عن آخرها تدل على ذلك مثل دلج من الدلجة وهو سير الليل ومنه دلج الدلو إذا مشى بها من رأس البئر إلى المصب ودلج بالماء إذا مشى به مشيا ثقيلا ودلع إذا أخرج لسانه ودلف إذا مشى مشية المقيد ودلق إذا أخرج المائع من مقره ودله إذا ذهب عقله "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ" صلاته لأنها لا تجوز بلا قراءة "إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً" 78 من ملائكة الليل والنهار لأنه آخر الليل وأول النهار، ولهذا فضل بعضهم صلاة الغلس على صلاة الأسفار، وان الصلاة في وقتها أفضل، وهذه الآية الكريمة هي مأخذ الصلوات الخمس التي فرضها اللّه تعالى على حضرة الرسول وأمته في هذه السورة في ليلة المعراج الشريف، ونظير هذه الآية الآية 130 من سورة طه المارة والآية 18 من سورة الروم في ج 2 هذا ومما يؤيد فرضية الصلاة في نزول هذه الآية وكونها في السنة العاشرة، كما قال الزهري أنها في السنة الخامسة لا كما قدمنا البحث فيه في قصة المعراج المارة، وإن مما يقدح في قوله أن خديجة رضي اللّه عنها لم تصل الصلوات الخمس وأن أبا طالب لم يدرك الإسراء ولم يبلغه شيء عنه ولو كان حيا لرجع اليه قومه حين أنكروه على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأنّبوه ورموه بما رموه من أجله لأنه توفي في 15 شوال سنة 10 من البعثة

التي أولها شهر رمضان وقد وقع الإسراء في 27 رجب سنة 10 وتلته خديجة بعد ثلاثة أيام كما ذكرناه قبل ، تنبه .

روى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا ، وتجتمع ملائكة الليل والنهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً) الآية وليعلم

أن ليس المراد باقامة الصلاة فيما بين هذين الوقتين ، أي دلوك الشمس وغسق الليل على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة في وقتها المعين لها ببيان جبريل عليه السلام الثابت في الروايات الصحيحة ، كما أن اعداد ركعات كل صلاة موكول إلى بيانه عليه الصلاة والسلام ، وقدمنا ما يتعلق بهذا البحث أيضا آخر قصة المعراج المارة أول هذه السورة ، وقد استدل بعضهم في هذه الآية على جواز جمع الظهر مع العصر ، والمغرب مع العشاء ، وبقاء الصبح وحدها لانفصالها بالآية وذكرها وحدها بلا عذر ، وهو خطأ إذ لا خبر صحيح بجواز ذلك ، وإذا لم يضمّ إلى هذه الآية بشيء يفسرها من أقوال حضرة الرسول على صحة

ما قاله ذلك البعض لا يصلح الأخذ به ، لأن الاستدلال بظاهرها ومفردها على جواز الأربعة جميعها ، لأنها عبارة عن جملة واحدة أولى من الاستدلال على جمع اثنتين اثنتين ، ولا قائل بجمع الأربع البتّة ، وان حديث ابن عباس المثبت في صحيح مسلم من أنه صلّى اللّه عليه وسلم صلّى الظهر والعصر جمعا بالمدينة ، وفي رواية أنه صلّى ثمانيا جمعا وسبعا جمعا من غير خوف ولا سفر هو صحيح لا غبار عليه ، إلا أنه لم ينف المرض والمطر ، لأن الجمع فيهما جائز تقديما وتأخيرا على مذهب الشافعي رضي اللّه عنه ، وتقديما فقط في الجديد بسبب المرض أو المطر ليس إلا ، ولا يليق أن يؤول الحديث المذكور بخلاف هذا ، وما جاء عنه أيضا في صحيح مسلم في رواية أخرى من غير خوف ولا مطر أي لا مطر كثير يمنع من المشي إلى الجامع بسهولة ، يدل على هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال ، فإذا كان المطر لم يبلغ ذلك فلا يمنع ولا يصح الجمع ، ولم ينف هذا الحديث أيضا المرض تدبّر ، بما يدل على أن جمعه ذلك الوارد في حديث مسلم كان بسبب المرض ، إذ لا قائل بالجمع دون سبب أصلا .

على أن الجمع لم يقل به أبو حنيفة مطلقا فيما عدا عرفات ومزدلفة لضيق الوقت

في ذلك الازدحام الذي يعرفه من شاهده ليس إلا ، لعدم تثبته رضي اللّه عنه من صحة ما ورد فيه ، وأن الجمع المروي عنه صلّى اللّه عليه وسلم حال العذر عبارة عن تأخير الأولى لآخر وقتها فصلاها فيه ، ولما فرغ منها دخل وقت الثانية فصلاها فصارت هذه الصورة صورة جمع ، ويحمل عليه قول من رآه صلّى ثمانيا

أو سبعا ، أو أنه جمع بين الوقتين ، ولهذا قال الترمذي في آخر كتابه ليس في كتاب حديث أجمعت الأمة على ترك العمل به إلا حديث ابن عباس في الجمع بالمدينة من غير خوف ولا مطر ، أي أنه لم يبين فيه المرض ولا قلة المطر غير المانع من المشي بسهولة ، وحديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة ، ولا يقال لمثل هذا الحكيم الترمذي إن قوله ناشىء من عدم تتبعه بل هو ناشىء من شدة تتبعه ، ولذلك قال ابن الهمام إن حديث ابن عباس معارض بما في مسلم من حديث ليلة التعريس أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة أن يؤخر الصلاة حتى يدخل وقت صلاة أخرى .

مما يدل على أن حديث ابن عباس فيه مقال ، وإن كان في صحيح مسلم ، كما أن حديث شريك بن نمر الذي رواه عن أنس بن مالك في قضية الإسراء فيه مقال ، حتى قال بعض أهل الحديث ما وجدنا للبخاري ومسلم في كتابيهما شيئا لا يحتمل مخرجا إلا حديث شريك الذي أشرنا إليه في الآية 18 من سورة والنجم المارة والآية 10 من سورة الجن أيضا ، وفي مطلع هذه السورة في بحث الإسراء .

وقال الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين قد زاد شريك فيه زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة .

هذا ، وهو في مسلم والبخاري وعن أنس أيضا ، فلا يبعد أن يكون ما رواه مسلم عن ابن عباس زيد فيه أيضا ما زيد .

(349/447)

ومن قال إنه تأويل (قرآن الفجر) بصلاته خلاف ظاهر الآية ولا يجوز الصرف عن الظاهر إلا بدليل ، فيقال له إن الدليل موجود وهو قوله تعالى (أَقِمِ الصَّلاَةَ) وقرآن الفجر معطوف عليها ولم يشتهر أقم القراءة بل أقم الصلاة .

مطلب في التهجد والمقام المحمود وما نسب لإبراهيم وصلاة التراويح :

وما احتج به من ضمير (به) في قوله عز قوله "وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ" يجوز رجوعه إلى القرآن بمعناه الحقيقي استخداما وهو أكثر من أن يحصى ، ويجوز رجوعه إلى الصلاة أيضا المعبر عنها بالقرآن ، لأنها ركن من أركانها كما عبر عنها بالركوع والسجود ، وعود الضمير من (به) إلى الصلاة أولى لأن التهجد هو الصلاة بعد النوم ، ولا تسمى الصلاة تهجدا إلا إذا كانت بعد النوم وفي الليل ت (35)

خاصة "نَافِلَةً لَكَ" زائدة على سائر الصلوات .

روي عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ثلاث هي عليّ فريضة وهي سنة لكم :

الوتر والسواك وقيام الليل .

وروي عن الحجاج بن عمر والمازني أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلى حتى يصبح أنه قد تهجد ، إنما التهجد الصلاة بعد الرّقاد ، ثم صلاة أخرى بعد رقدة ، ثم صلاة أخرى بعد رقدة ، هكذا كانت صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم "عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً" 79 من قبل أهل السموات والأرض .

واعلم أن عسى هنا وفي كل موضع من القرآن إذا كانت من اللّه تكون بمعنى الإيجاب التفضّلي ، لأن معناها الإطماع ، ومن أطمع إنسانا في شيء ثم حرمه منه كان عارا عليه ، واللّه أكرم من أن يطمع أحدا بشيء ثم لا يعطيه إياه ، والمقام المحمود وهو مقام الشفاعة العظمى العامة الذي اختصه اللّه تعالى به يحمده عليه الأولون والآخرون ، وناهيك أن اللّه تعالى سماه محمودا .

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك ، ثم موسى فيقول كذلك ، ثم محمد فيشفع فيقضي اللّه بين الخلائق ، فيمشي حتى يأخذ بحلقه باب الجنة ، فيومئذ يبعثه اللّه مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم .

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما نبي يومئذ ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، فيفزع الناس ثلاث فزعات ، فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك ، فيقول إني أذنبت ذنبا أهبطت منه إلى الأرض ، ولكن ائتوا نوحا ، فيأتون نوحا فيقول إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقول كما جاء في عبارة الترمذي إني كذبت ثلاث كذبات ، ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين اللّه أي (ناضل ودافع) وهي من باب المعاريض لأن الأولى قوله (إِنِّي سَقِيمٌ) الآية 19 من سورة الصافات في ج 2 ، ومعناها مريض القلب من تماديكم على الكفر وعدم التفاتكم إلى خالقكم ، والثانية قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا) الآية 62 من سورة الأنبياء في ج 2 ، وذلك على طريق الاستهزاء

بهم والسخرية من عقيدتهم بالأوثان ، والثالثة قوله للجبار حينما سأله عن زوجته سارة هذه أختي يريد أنها أخته في الخلقة والدين ، وعلى هذا فلا شيء يعد منها كذبا صراحة .

وقالوا في المعاريض مندوحة عن الكذب ، ولكنه إذ كان من أهل العزم المطلوب منهم التصريح بما لا يحتمل التأويل فيعد مثل هذا منهم ذنبّا على حد (حسنات الأبرار سيئات المقربين) ولكن ائتوا موسى ، فيأتون موسى فيقول إني قتلت نفسا ولكن ائتوا عيسى ، فيأتونه فيقول إني عبدت من دون اللّه تعالى ولكن ائتوا محمدا ، فيأتوني فأنطلق معهم فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها ، فيقال من هذا ؟ فأقول محمد ، فيفتحون لي ويقولون مرحبا ، فأخرّ ساجدا لله ، فيلهمني تعالى من الثناء والحمد والمجد ، فيقال إرفع رأسك سل تعط واشفع تشفع وقل يسمع لقولك ، فهو المقام المحمود الذي قال اللّه تعالى (عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً) الآية .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، فهي نائلة منكم إن شاء اللّه ، من مات لا يشرك باللّه شيئا .

وروى مسلم عن جابر بن عبد اللّه قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال من قال حين يسمع النداء ألّلهم ربّ هذه الدعوة النامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة .

وتقدم في سورة والضحى ما يتعلق في هذا البحث فراجعه ، وفي الآية 17 من سورة المزمل المارة تقدم ما يتعلق في قيام الليل بصورة مفصلة ، وسنذكر هنا بعض الأحاديث الواردة فيه .

روى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة قال : قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى انتفخت قدماه ، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا .

ولفظ أبي داود في رواية مسلم عن زيد بن خالد الجهني قال :

لأرمقنّ صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الليلة ، فتوسدت عتبته أو فسطاطه ، فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم صلّى ركعتين طويلتين كررها ثلاثا ، ثم صلّى ركعتين ، دون التي قبلها كررها ثلاثا أيضا ، ثم أوتر ، فذلك ثلاث عشرة ركعة .

وروى البخاري ومسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في رمضان ؟ قالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على أكثر من إحدى عشرة ركعة يصلي أربعا فلا تسل عن حسنهنّ وطولهنّ ، ثم يصلي أربعا فلا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثا .

قالت عائشة فقلت يا رسول اللّه أتنام قبل أن توتر ؟ فقال يا عائشة إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي .

ورويا عنها أيضا قالت كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة ، يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ، ويسجد سجدتين قدر ما يسجد ويقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه ، فإذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن بالإقامة .

ومن هنا أخذ الشافعي رحمه اللّه الضجعة بين سنة الفجر وفرضه ، وسماها بعضهم ضجعة القبر ، أي أنها تذكره بها ، ومن هنا أخذت أيضا صلاة التراويح في رمضان التي يسميها بعضهم سنة عمر رضي اللّه عنه وإنما هي سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وإن عمر رضي اللّه عنه أخذها عنه إلا أنه صلاها جماعة في رمضان ، وكان النبي يصليها وحده ، لهذا سموها سنة عمر نور اللّه قبره كما نور مساجدنا بذلك .

وأخرج أبو داود والنسائي عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قمت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ، ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة النساء .

وأخرج الترمذي عن عائشة قالت : قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بآية من القرآن ليلة يكررها .

وروى البخاري ومسلم عن الأسود قال : سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول اللّه من الليل ؟ قالت كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع إلى فراشه ، فإذا أذن المؤذن وثب فإن كانت به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج .

وأخرج النسائي عن أنس قال : ما كنا نشاء أن نرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في الليل مصليا إلا رأيناه ، ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه .

أي أنه كان لا يوقّت وقتا لنومه

وصلاته ، وزاد في رواية غيره ، كان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئًا ، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئًا .

فهذا حال رسول اللّه أيها الناس وهو على ما هو عليه من الرفعة والأمن من اليوم الآخر ، فكيف أنتم هل أديتم بعض حقوق اللّه وهل قمتم ببعض واجباته أو واجبات خلقه أو أتيتم ما فرضه عليكم ؟

كلا بل لا زلتم على ما أنتم عليه من الضعة غافلين عما يراد بكم في ذلك اليوم العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .

قال تعالى "وَقُلْ رَبِّ" حذف منه ياء النداء أي يا محمد قل في دعائك إذا دعوتني يا رب "أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ" في كل مكان أدخل فيه وكل زمان أصير إليه وكل أمر ألج فيه من أمور الدنيا والآخرة ، وقرىء هنا وفيما بعد مدخل بفتح الميم إذ يجوز أن يكونا اسمى مكان وانتصابهما على الظرفية ويجوز أن يكونا مصدرين منصوبين بفعل من نوعهما "وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ" كذلك على العمومية في الجملتين ، لأن جعلهما عامتين أوفق لظاهر الآية لفظا ، وقد خصهما بعض المفسرين في القبر أو في مكة أو المدينة أو الجنة أو في

تعاطي المأمورات واجتناب المنهيات وغير ذلك دون استناد لدليل يفيد التخصيص ، مع أن سابق اللفظ ولا حقه مما تقدم عن هاتين الجملتين أو تأخر لا يختصان بمكان أو زمان دون زمان ومكان آخرين ، والمعنى يا رب أدخلني إدخالا مرضيّا على طهارة وزكاة في كل أموري ، وأخرجني إخراجا مرضيّا ملقى بالكرامة آمنّا من الملامة في جميع أحوالي ، ويؤيد معنى العموم قوله جل قوله "وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا" 80 على من خالفني ولم يؤازرني وارزقني حجة قوية على من يحاججني وبرهانا مؤزرا على من يخاصمني في أمرك ، ودليلا قاطعا على من يجادلني في دينك .

هذا ، وما قيل إن هذه الآية نزلت حينما أمر حضرة الرسول بالهجرة وطلب إخراجه من مكة آمنا من أذى قومه الذين كلفوه بالخروج ، أو حينما خرج من الغار سالما قال وأدخلني المدينة آمنا أو وأدخلني مكة فاتحا أو غير ذلك ، فقيل لا مستند له واحتمال المعنى لهذا لا يعني أنها نزلت فيه ، وقد دعا صلّى اللّه عليه وسلم وأجاب اللّه دعاءه بقوله (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) الآية 67 من المائدة ، وقوله تعالى (أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الآية الأخيرة من سورة

المجادلة ، ومثلها الآية 65 من المائدة ، وقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) الآية 24 من سورة التوبة إلى غيرها من الآيات في ج 3 كالآية 8 من سورة الصف والآية 5 من سورة النور وغيرها .

قال تعالى "وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ" الصريح من قبل اللّه تعالى وهو هذا الدين الراسخ المستمد من كلام اللّه المنزل عليّ لآمركم بالإيمان به "وَزَهَقَ الْباطِلُ" اضمحل وانمحق ، وهلك الباطل الذي تدينون به والشرك الذي تزعمونه ، وبطلت عبادة الأوثان والشيطان وغيرها .

يقال زمقت نفسه إذا خرجت من الأسف .

روي البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود قال : دخل النبي صلّى اللّه عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول (جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً) (جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ) وفي رواية الطبراني في الصغير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنه صلّى اللّه عليه وسلم جاء ومعه قضيب فجعل يهوي به إلى كل صنم منها فيخرّ لوجهه ، فيقول (جاءَ الْحَقُّ) الآية "إِنَّ الْباطِلَ" مهما كان أمره "كانَ زَهُوقاً" 81 زائلا سريع الزوال ، ومهما صارت له دولة وصولة ، فإنه لا يدوم ، لأنه ظلم والكفر مع العدل قد يدوم ، والظلم مع الإيمان لا يدوم .

قال تعالى (وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ) الآية 117 من سورة هود في ج 2 ، وهذا آخر الآيات المدنيات الثماني وفسرناها على كونها مدنيات وذكرنا ما يحتملها

من التفسير على القول بأنها مكيات ، وبينّا ما فيه .

مطلب الاستشفاء بالقرآن على نوعين وثالثهما العقيدة :

(356/447)

قال تعالى "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ" من أمراض القلوب وبيان من الضلالة والجهالة ، يتبين به المختلف فيه ، ويتضح به المشكل ، ويستشفى به من الشبهات ، ويهتدى به من الحيرة .

وليعلم أن الأمراض التي يستشفى لها بالقرآن نوعان الأول الاعتقادات الفاسدة في الذات المقدسة والصفات المطهرة والنبوات المعظمة والقضاء والقدر والبعث بعد الموت ، فالقرآن العظيم مشتمل على دلائل المذهب الحق فيها كلها ومصرح على إبطال المذاهب الفاسدة منها ، فلا جرم أن القرآن الكريم خير شاف لما يحوك في القلوب ويتردد في الصدر من هذه الأمراض ولا طب لهذه الظنون الخبيثة إلا الأخذ بكتاب اللّه وسنة رسوله صلّى اللّه عليه وسلم وأقوال الفقهاء العارفين .

النوع الثاني الأخلاق المذمومة كالكذب والزنى والقمار والقتل والتعدي على الغير والربا وأكل الحرام وأكل مال اليتيم والغيبة والنميمة والتجسس والغمز واللمز وتطفيف الكيل

والوزن والذرع والغضب والحدة والحمق وغيرها مما شاكلها ، فإن القرآن الجليل لا شك أعظم شاف منها وخير منفّر عنها وأحسن مرشد لاجتنابها والأخذ بأضدادها من الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة والخصال المحمودة ، كالوفاء والسماح والعفو ولين الجانب والتؤدة والصبر وخفض القول والعفاف والصفح والكظم وشبهها مما يضاهيها ، فلا دواء لها أنفع من الأخذ بآيات القرآن وسنن المنزل عليه .

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : جاء رجل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال إني أشتكي صدري فقال عليه الصلاة والسلام اقرأ القرآن يقول اللّه تعالى (وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ) الآية 57 من يونس في ج 2 .

وأخرج البيهقي في الشعب عن واثلة ابن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم وجع حلقه فقال عليك بقراءة القرآن .

والأخبار في هذا كثيرة جدا وأقوال العارفين والعلماء العاملين تشير إلى ذلك أيضا ، وقد جرّب هذا فنفع من كان له إيمان وعقيدة راسخة ، أما من لم يعتقد به فهو عليه وبال ، راجع الآية 43 من سورة فصلت في ج 2 ، أما الأمراض الجسمانية فهي نوعان أيضا : ظاهرة

كالجروح والدماميل والكسور وما شابهها فهذه لا بدّ لها من التداوي بالعقاقير المجربة لمثلها والتضميد وغيره ، وباطنة كمرض الأمعاء والرئة والمثانة والكلى والكبد والطحال وغيرها ، فكذلك لا بد لها من التداوي عند الأطباء الحاذقين المجربين المؤمنين ، ولا بأس من التداوي عند غيرهم من أهل الكتاب عند فقدهم لأن الضرورات تبيح المحظورات ، ولكن الضرورة تقدر بقدرها لأن هذين النوعين مباينين للنوعين الأولين ، أما الأمراض الأخرى كالفتور والخدر والفلج وضرب الرأس وبعض أنواع الجنون واعتراء الوهم والوسواس وما أشبه ذلك فيجوز أن يعرضها على الأطباء الحاذقين بها وعلى حملة كتاب اللّه العارفين الأمناء فإن قراءة القرآن والتعاويذ به تدفع وتنفع لأمراض كثيرة وتشفي من علل وافرة ،

وهذا لا يمنع من التداوي لها بالعقاقير وما يصفه الأطباء ، إذ قد يجوز بآن واحد أن يستعمل المريض الدواءين المادي والمعنوي الاعتقادي .

ويؤمر المصاب بتعاطي الأسباب من الدواءين لأن الرسول حث على التداوي ، فقال تداووا عباد الله فإن الله لم يخلق داء إلا وخلق له دواء .

لا سيما الكسور والجروح والإمساك والانطلاق ، وقد وصف صلّى اللّه عليه وسلم عسلا لمنطلق بطنه ولم يقل له اقرأ عليه القرآن مع أنه بتقدير اللّه شاف لكل شيء ، وقد وقع من بعض الأنبياء والأولياء العارفين من ردّ العين بعد العمى وجبر اليد بعد الكسر وشفاء

الأبرص والأكمه بل وإحياء الموتى على طريق خرق العادة وهو ممكن بإذن الّله على يد من وفقه الله .

(358/447)

والقاعدة أن ما جاء على خلاف القياس لا يقاس عليه وهذا منها ، وما جاء من قوله صلّى الّله عليه وسلم من لم يستشف بكتاب الّله فلا شفاه الله .

فليس على إطلاقه كما ذكرنا ومما يستشفى به من القرآن العظيم للدفع والرفع تلاوة الفاتحة لكثرة الأحاديث الواردة فيها وآية الكرسي لأنها أعظم آية في القرآن وآيات الشفاء الست وهي : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) الآية 14 من سورة التوبة (وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) الآية 56 من سورة يونس (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) الآية 79 من سورة النحل في ج 2 والآية المفسرة هذه (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) الآية 80 من الشعراء المارة و(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) الآية 44 من سورة فصلت في ج 2 فقد قال السبكي جرّبت كثيرا من المرضى بتلاوتها عليهم فنفعت بإذن الله .

وقال القشيري إنه مرض له مريض قد أيس من حياته فرأى الّله عز وجل في منامه فشكا له سبحانه ذلك ، فقال له اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه أو اكتبها في إناء واسقه فيه ما

محيت به ففعل فشفاه اللّه تعالى .

ومنها قصة الأبوصيري صاحب البردة المشهورة ، ومنها المغفور له الشيخ أمين الجندي الحمصي المتوفى في شوال سنة 1257 تغمده اللّه برحمته إذ كان مبتلى بداء عضال أعيا الأطباء فنظم قصيدته المشهورة واستغاث فيها إليه تعالى وتوسل بجاه رسوله صلّى اللّه عليه وسلم فشفاه اللّه وكان مطلعها :

توسلت بالمختار أرجى الوسائل نبي لمثلي خير كاف وكافل

وكثير ممن ابتلي بداء أعجز الأطباء فيشفيه اللّه تعالى بالرقيا ، والأطباء المنصفون يعترفون بأن من الأمراض ما يشفى بخاصة ما روحانية كما فصله الأندلسي في مفرداته وداود في الجلد الثاني من تذكرته ولا يعبا بمن ينكر ذلك ، لأنه إنكار للمحسوس وجحد للظاهر .

قال الراوي اشتكى محمد بن السماك فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب نصراني فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة ، فقال لنا إلى أين ؟

قلنا له إلى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك ، فقال سبحان اللّه تستعينون على ولي اللّه بعدو اللّه اضربوه على الأرض وارجعوا إلى ابن السماك وقولوا له ضع يدك على موضع

الوجع وقل (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) ثم غاب عنا فلم نره ، فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك فوضع يده على الوجع وقال ذلك فعوفي في الوقت ، فقال لهم إن ذلك الرجل هو الخضر عليه السلام ، أما ما رواه أبو داود من حديث جابر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم سئل عن النشرة فقال هي من عمل الشيطان .

فعلى فرض صحة هذا الحديث فإن النشرة التي قال فيها حضرة الرسول ما قال هي النشرة التي كانت تفعل في الجاهلية ، وهي أنواع شتى منها ما يكون بالودع ، ومنها ما يفعله أهل التعزيم من قراءة أشياء غير معلومة المعنى أو كتابتها أو سقيها مما لم يرد به شيء من السنة ، لا مثل التي فعلها القشيري ، لأنها عبارة عن آيات اللّه من كتابه المأمور بالاستشفاء به ، قال مالك عليه الرحمة لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء اللّه تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها ، وكلمة لا بأس لا تختص بخلاف الأولى بل قد تكون للاستحباب والوجوب أيضا كما صرح به العلامة ابن عابدين في حاشيته على الدر ، وقد وردت السنة بالرقيا من العين كما مر تفصيله في الآية 51 من سورة القلم المارة وكما سيأتي في الآية 66 من سورة يوسف في ج 2 ، وقال ابن المسيب يجوز تعليق المعوذة من كتاب اللّه تعالى في قصبة ونحوها وتوضع عند الجماع وعند الغائط ، ورخص الباقر في المعوّذة تعلق على الصبيان مطلقا .

وكان ابن سيرين لا يرى بأسا بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان كبيرا كان أو صغيرا مطلقا .

وعذا الذي توارثه الناس أبا عن جد من لدن حضرة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم وإلى يومنا هذا هم عليه دائبون وبه متمسكون في جميع الأمصار ، ولم يعارض به إلا كل متكبر جبار ، ضعيف الإيمان قليل العقيدة بآيات اللّه التي هي فضل منه "وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ" به وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب ، وجدير بأن تكون كذلك لما فيها من شفاء الأمراض الباطنة والظاهرة المار تفصيلها وغيرها .

واعلم أنه كما يكون كتاب اللّه رحمة للمؤمنين فهو عذاب للكافرين بدليل قوله عز قوله "وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ" أنفسهم بالكفر به وجحوده وتكذيب المنزل عليه "إِلَّا خَسارًا" 82 في الدنيا وضلالا مزدوجا يرى سوء عاقبته في الآخرة ، قال قتادة لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضاء اللّه الذي قضى ، وتلا هذه الآية ، ونظيرتاها في المعنى الآية 45 من سورة فصلت في ج 2 والآية 12 من الأحقاف أيضا ، وفي هذه الآية تعجيب من أمر القرآن لكونه بآن واحد نور لقوم ، ظلمة لآخرين ، شفاء لأناس ، هلاك لغيرهم ، علم لأناس ، جهل لآخرين ، وقيل في المعني :

كماء المزن في الأصداف درا وفي ثغر الأفاعي صار سما

وسيأتي زيادة تفصيل في تفسير آية فصلت المنوه بها أعلاه ، وقدم الشفاء في هذه الآية على الرحمة لأن الشفاء يكون للتخلية ، والرحمة تكون للتحلية ، والتخلية مقدمة على التحلية لأنها أهم منها ، قال تعالى "وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ" من كمال فضلنا وعظيم جودنا وكثير عطائنا وفيض رحمتنا بأن وسعنا طرق خيرنا عليه ، فأعطيناه رحمة كاملة ومالا كثيرا وجاها وسلطانا وأولادا وخدما وعقارات "أَعْرَضَ" عنا وغفل عن ذكرنا ولم يدعنا ، وأظهر الاستغناء عنا كأن ما حصل عليه من ذلك من كسبه وتدبيره لا بتوفيقنا "وَنَأى" أعرض لفرط جهله وعتوه وعناده ، فتراة طوى كشحه ولوى عنقه وأدبر موليا عنا ، وهذا تأكيد للإعراض لأن المعرض عن الشيء يوليه ظهره ويصد بوجهه ويتباعد عنه "بِجانِبِهِ" مبالغة في عدم التقرب إلى اللّه تكبرا وتعاظما ، وكان عليه أن يقوم بما أنعمنا به عليه من أداء الشكر الواجب عليه بمقابل فضلنا المترادف عليه ، لكنه لم يفعل لأنه مجبول على الكفران ومفطور على النسيان ومطبوع على النكران ، وما ذكره بعض أهل المعاني من أن التأكيد يتعين فيه ترك العطف لكمال الاتصال غير مسلم ، وقرأ ابن

عامر برواية ابن ذكوان/ وناء/ في هذه الآية والآية 57 من فصلت في ج 2 ، وهذا من باب

القلب ووضع العين محل اللام مثل رأى وراء وناء بمعنى نهض كما في قوله :

حتى إذا ما التأمت مفاصله وناء في شق الشمال كاهله

(362/447)

أي نهض متوكئا على شماله وتفسير نهض هنا بأسرع لمناسبة المقام ، أي أسرع بصرف جانبه أو بمعنى تثاقل عن أداء شكرنا كأنه مستغن في ذاته مستقل في أمره بحيث لا يخطر على باله احتياجه إلى ربه "وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ" المرض والضيق والذل والإهانة والفقر والخذلان والرق والحرمان من المال والولد والخدم ونحو ذلك من أنواع الشدائد وأصناف النوازل "كانَ يَؤُساً" 83 قنوطا آيسا من رحمة اللّه لقلة يقينه وضعف دينه ، وذلك لأنه لم يحسن معاملته مع خالقه في الرخاء حتى يرجو فضله في الشدة .

وقد جاء في الحديث تعرف إلى اللّه بالرخاء يعرفك في الشدة .

فلو عرف نعمة اللّه وأدى شكرها لما مسه ضره ، ولدعاه فاستجاب دعاءه في كشفه ، ولو رجع إليه مخلصا لقبله على ما كان منه ، وقد جاء في الحديث القدسي رواه الترمذي عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تعالى :

يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت

ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة .

وقيل في هذا المعنى :

أناس أعرضوا عنا بلا جرم ولا معنى

أساءوا ظنهم فينا فهلا أحسنوا الظنا

فإن عادوا لنا عدنا وإن خانوا فما خنا

وإن كانوا قد استغنوا فإنا عنهم أغنى

أما من تكاثفت ظلمات قلبه فقد حيل بينه وبين الرضاء ، وحال عتوه وشقاؤه دون ما يطلبه ويتمناه ، وهؤلاء قد ينطبق عليهم تفسير الآية الأخيرة من سورة سبأ في ج 2 فراجعها ، واعلموا أيها الناس أن اللّه تعالى هو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه ، وان اللّه هو القوي عليكم وأنتم الضعفاء عنده ، فاستكينوا إليه ووحدوه يرسل لكم خيره ويدفع عنكم شره ، وإلا إذا كان شركم إليه صاعدا وخيره إليكم نازلا ولم تقوموا بحقه فأبشروا بالدمار .

وإن في إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الانعام إليه تعالى إيذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك ، وهذا هو الذي يقتضيه الكرم المطلق والرحمة الواسعة واللطف الشامل وإليه الإشارة بقوله صلّى اللّه عليه وسلم ألّلهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك .

وإن كل نعمة لا يشكرها العبد أو يستعملها في معصية المنعم فمصيرها الزوال في الدنيا والعذاب في الآخرة .

مطلب الكفران يزيل النعم وذات الإنسان تقتضي الطاعة فطرة :

(364/447)

قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ) الآية 7 من سورة إبراهيم في ج 2 ، وبعد أن ذكر سبحانه حال القرآن بالنسبة للمؤمن والكافر وبيّن حال الكافر في حالتي الإنعام وضده ، ذكر ما يصلح جوابا لمن يقول لم كان كذلك بقوله جل قوله "قُلْ" يا سيد الرسل لهذا السائل أو قل أيها المسئول عن ذلك "كُلٌّ" من المؤمن والكافر والمعرض والمقبل والراجي واليائس "يَعْمَلُ" عملا "عَلى" حسب "شاكِلَتِهِ" حالته وطريقته ومذهبه وطبيعته التي جبل عليها بل التي خلق إليها لما جاء في الحديث الصحيح اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فمن كان مخلوقا للشر فمهما عمل من طرق الخير فيما يبدو للناس فسيصير إلى

عمل الشر ويموت عليه ، لأن عمله الخير لم يكن خالصا للّه تعالى مهما ادعى الإخلاص فيه ، ومن كان مخلوقا للخير فمهما عمل من فنون الشر فيما يبدو للناس فسيصير إلى عمل الخير ويموت عليه ، لأن عمله الشر كان في غير رغبة منه ورضى وكان يعقبه الندم والندم استغفار والاستغفار توبة (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ) الآية 25 من الشورى في ج 2 ، حيث ختمها بقوله (وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ) من خير أو شر ونياتكم فيهما وما يؤول عملكم فيهما إليه ، فعمل الإنسان يشاكل نفسه ويشابهها في الحسن والقبح ويناسب جوهره فيهما ، فإذا كان شريفا صدرت عنه الأعمال الجميلة والأخلاق النبيلة والآداب الكاملة والأطوار الذكية والأحوال المرضية والأفكار الزكية ، وإن كانت نجسة خبيثة نشأ عنه الأفعال الردية والأخلاق الفاسدة والعوائد السيئة والأمور القبيحة والأطوار الرذيلة ، وهذه اللفظة مأخوذة من الشكل بفتح الشين أي المثل والنظير ، يقال لست من شكلي

ولا على شاكلتي ، أما بكسر الشين فمعناه الهيئة يقال جارية حسنة الشكل أي الهيئة ، وظاهر عبارة القاموس أن كلا منها يطلق على الآخر "فَرَبُّكُمْ" أيها الناس الذي برأكم

وجعلكم هكذا متشابهين في الصور متخالفين في الطبائع والأعمال وربا كم على ما أنتم عليه وفق ما هو مدون في كتابه المحفوظ "أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى " أسد منكم وأوضح وأعدل "سَبِيلًا " 84 وأحسن طريقا ومذهبا وأتباعا ومنهجا من غيره وأرضى عقلا وعملا عنده ، قال تعالى (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) الآية 58 من الأعراف المارة ، وقد جاء في الحديث الصحيح السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه ، قالوا فما فائدة العمل يا رسول اللّه ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

هذا ، وقد فسر مجاهد الشاكلة بالطبيعة وهي رواية عن ابن عباس ، وفسرها بعضهم بالعادة لأن الطبيعة مقيدة وسلطانها على ربها ظاهر ، وهذا السلطان ضابط له وقاهر ، ولأن العادة محكمة ومن المشهور على ألسنة الجمهور العادات قاهرات ، وفسرها بعضهم بالدين وهو دون التفسيرين الأولين وهما دون الأول ، قال الملا صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار لا صاحب حواشي شرح التجريد المشهور حاله مع ملا جلال وهو من فلاسفة الإسلام المتصدرين برأيهم للجمع بين الشريعة والفلسفة .

إن ذات الإنسان بحسب الفطرة الأصلية لا تقتضي إلا الطاعة ، واقتضاؤها المعصية بحسب العوارض الغريبة الجارية مجرى المرض والخروج عن الحالة الطبيعية ، فيكون ميلها للمعصية الكائنة على خلاف طبيعتها ، مثل ميل منحرف المزاج الأصلي إلى أكل الطين .

وقد ثبت في الحكمة أن الطبيعة بسبب عارض غريب تحدث في جسم المريض مزاجا خاصّا يسمى مرضا فالمرض من الطبيعة بتوسط العارض الغريب ، كما أن الصحة منها ، ومن هذا المرأة الحامل زمن الوحام قد تأكل الطين وأشياء لا تؤكل عادة ، وذلك بسبب ما يعتريها من انحراف المزاج في بداية حملها ، وقد جاء في الحديث القدسي إني خلقت عبادي كلهم حنفاء وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .

وجاء في الأثر كل مولود يولد على فطرة الإسلام ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . أي بواسطة الشياطين المخالطين له فعلا في الظاهر أو الموسوسين له معنى وخلسة بما يعم شياطين الإنس والجن الذين أمرنا اللّه تعالى بأن نتعوذ منهم .

قال تعالى (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ .مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ) السورتين المارتين ، وقال تعالى : (شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) الآية 112 من سورة الأنعام في ج 2 ، أو أنها كناية عن العوارض الغريبة ، فالخلق لو لم يحصل لهم مس من الشيطان ما عصوا اللّه تعالى ، ولبقوا على فطرتهم ، لكن مسهم الشيطان فأفسد عليهم فطرتهم الأصلية ، فاقتفوا أشياء منافية لهم مضادة

لجوهرهم البهيّ الإلهي من الهيئات الظلمانية ونسوا أنفسهم وما جبلوا عليه :

ولولا المزعجات من الليالي لما ترك القطا طيب المنام

وإذا احتاجوا إلى رسل يبلغونهم آيات اللّه ويسنون لهم ما يذكرهم عهد ذواتهم من نحو الصلاة والصيام والزكاة وصلة الأرحام ليعودوا إلى فطرتهم الأصلية ، ومقتضى ذواتهم البهية ، ويعتدل مزاجهم ويتقوم اعوجاجهم ، ولهذا قيل الأنبياء أطباء ، وهم أعرف بالداء والدواء .

ثم إن ذلك المرض الذي عرض لذواتهم والحالة المنافية التي قامت بهم لولا أن وجدوا من ذواتهم قبولا بعروضها لهم ورخصة في لحوقها بهم لم يكونا يعرضان لهم ولا يلحقانهم ، فإذا كان مما تقتضيه ذواتهم أن تلحقهم أمور منافية مضادة بجواهرهم فإذا لحقتهم تلك الأمور اجتمعت فيها جهتان الملاءمة والمنافاة ، أما كونها ملائمة فلكون ذواتهم اقتضتها ، وأما كونها منافية فلأنها اقتضتها على أن تكون منافيه لهم ، فلو لم تكن منافية لم يكن ما فرض مقتضى لها بل أمر آخر .

وانظر إلى طبيعة الأرض التي تقتضي يبوسة حافظة لأي شكل كان حتى صارت ممسكة

للشكل القسري المنافي لكرويتها الطبيعية ومنعت عن العود إليها ، فعروض ذلك الشكل للأرضية لكونها مقسورة من وجه ومطبوعة من آخر ، والإنسان عند عروض فعل هذا المنافي ملتذّ متألم ، سعيد شقي متلذذ ، ولكن لذته ألمه ، سعيد ولكن سعادته شقاؤه ، وهذا لعمرك أمر عجيب لكنه أوضح بنمط غريب ، ومن تأمل وأنصف ظهر له أن لا مخلص لكثير من الشبهات في هذا الفعل إلا بالذهاب إلى القول بالاستعداد الأزلي ، وأن لكل شيء أصالة في نفسه مع قطع النظر عن سائر الاعتيادات لا يقاضى عليه إلا هي ، لئلا يلزم انقلاب العلم جهلا وهو من أعظم المستحيلات والإنابة والتعذيب تابعان لذلك ، فسبحان الحكيم المالك ، فتثبّت أيها الرجل وكن رجلا حازما فقد زلت أقدام أعلام كثيرين كالاعلام في هذا المقام الذي لا ينجو منه إلا التائبون الجازمون بما هو كائن عند اللّه من أعمال وأفعال وأقوال وأحوال ، وإن ما هو مدون عنده أزلا للعبد لا بد وأن يدركه لا محالة ، راغبا كان أو راهبا ، راضيا أو ساخطا .

فنسأله تعالى أن ينور قلوبنا ويسدد أفهامنا ويثبت أقدامنا ويقنعنا بما كتب لنا ويرضينا بما قسمه لنا ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم روى البخاري ومسلم عن أبي عبد

الرحمن عبد اللّه بن مسعود من حديث صحيح : إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

فتأمل هذا حق التأمل وانظر كيف يقسم حضرة الرسول في حديثه هذا الذي صدره بقوله فو اللّه الذي لا إله إلا هو ، ثم ساقه .

فتمسك به وتلقّه بالقبول وسل اللّه الثبات والرسوخ في الإيمان .

مطلب أرجى آية في القرآن للمغفرة ، وبحث الروح :

واعلم أن رؤساء الاصحاب رضي اللّه عنهم تذاكروا فيما بينهم عن أي آية في القرآن أرجى للغفران ، فروي أن أبا بكر الصديق رضي اللّه عنه قال : لم أر في القرآن أرجي من هذه الآية ، أي التي نحن بصددها إذ لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران .

وقال عمر رضي اللّه عنه : لم أر أرجى من الآية التي فيها قوله جل قوله (غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ) الآية الثانية من سورة المؤمن في ج 2 ، إذ قدم الغفران قبل قبول التوبة .

وقال عثمان رضي اللّه عنه : لم أر أرجى من قوله تعالى (نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) الآية 50 من سورة الحجر في ج 2 ، لما فيها من إعلان المغفرة للجميع وطلب إعلانها .

وقال علي كرم اللّه وجهه : لم أر أرجى من آية (قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

الآية 54 من سورة الزمر ج 2 .

(369/447)

وقدمنا في سورة والضحى المارة عن جعفر الصادق أن أرجى آية في القرآن (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) إلا أنه خصّها بأهل البيت فراجعها ، والمراد هنا ما يعم الكل غير المشرك لورود النص فيه في الآيتين 47/ 116 من سورة النساء في ج 3 ، وهناك اقوال سنأتي بها عند تفسير الآيات المشار بها أعلاه فراجعها ، قال تعالى "وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ" الذي هو مبدأ البدن الإنساني ومبدأ حياته وقوام دوامها وملاك بقائها ، وإنما سألوه عن الروح لأن معرفتها من أدق الأمور التي لا يسع أحد إنكارها ولا يقدر أحد على معرفتها ، لذلك فإن كل أحد يشرئب إلى التعرف عليها ، توفر دواعي العقلاء إليها ، وكلل الأذهان عنها ، ووقوف الفكر ببابها ، فمن وفقه اللّه علم أنها لا تعلم إلا بوحي من اللّه ، والوحي خاص بالأنبياء ، وقد ختم اللّه إرسالهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فيفوض أمر معرفتها إلى اللّه .

ويوقن ويسكت ، ومن خذله الله تطرق إلى كل ما يتخيله ليقف على صورتها ومادتها ، فيرجع خاشئا ، إذ لا طريق إلى ذلك .

وقد زعم ابن القيم أن المسئول عنه في هذه الآية قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ﴾ الآية 38 من سورة عم في ج2 ، وسيأتي في تفسيرها أن الروح هناك يطلق على القرآن وعلى اسم ملك خاص أو صنف من الملائكة أو جبريل عليه السلام ، إذ لا يعلم الروح المسئول عنه في الآية المفسرة إلا الله لأنه من الغيب الذي علمه من خصائصه جل شأنه .

واعلم أن الروح كما يطلق على ما ذكر آنفا كما سيأتي في الآية الأخيرة من سورة الشورى في ج2 ، وكما مر في الآية 192 من الشعراء ، يطلق على الروح المركبة في الجسم المرادة في هذه الآية ليس إلّا والله أعلم .

أخرج أحمد والنسائي والترمذي والحاكم وصححاه وابن حبان وجماعة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئا لنسأل هذا الرجل ، فقالوا اسألوه عن الروح ، فسألوه فنزلت هذه الآية .

وفي السير عن ابن عباس أيضا أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقال لهم سلوهم ما نسأل محمدا فإنهم أهل كتاب ، عندهم من العلم ما ليس عندنا ، فخرجا حتى قدما المدينة فسألوهم ، فقالوا اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي ، فجاءوا وسألوه ، فبين لهم صلّى اللّه عليه وسلم القصتين الآتيتين في سورة الكهف في ج 2 من الآية 3 إلى 26 ومن الآية 82 إلى 99 ، ولهذا نزلت هذه الآيات بمكة قبل سورتها ، كما سيأتي فيها ، وأبهم أمر الروح إذ لم ينزل عليه فيها شيء يبينها ، وهي مبهمة في التوراة أيضا .

واعلم أن ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكىء على عسيب ، فمرّ بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه ، فقالوا يا محمد ما الروح ؟ فما زال يتوكأ على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه ، فلما نزل الوحي قال (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) الآية ، لا يصح سببا للنزول لأن الآية مكية ولم يستثنها أحد من العلماء ، على أنه يصح أن

النبي صلّى اللّه عليه وسلم أجابهم بهذه الآية لأنها كانت نازلة عليه وهو في مكة ، على أنه يتمثل ببعض الآيات المكية في المدنية عند مناسبة تتعلق بها ، أما سبب نزولها فهو ما سمعته عن ابن عباس الحديث الأول ، ومما يدل على صحة عدم النزول في حديث ابن مسعود الآنف الذكر قوله فيه : فظننت أنه يوحى إليه ، أي عند ما سكت حضرة الرسول ، على أن حالة الوحي لا تخفى على أحد ، ويوشك أن سكوته كان لتدبر الآية وهيبة لكلام اللّه ، ويؤكد هذا عدم قوله في هذا الحديث فنزلت ، بل قال فلما نزل الوحي قال (ويسألونك) إلخ ، مما يدل على أن كلمة فلما نزل الوحي من عند ابن مسعود رضي اللّه عنه ، وعليه يكون المراد من قوله (فلما نزل الوحي) فلما تذكره وتدبره والكلام يحتمل هذا . وما قاله بعض المفسرين من أن هذه الآية نزلت مرتين ليجمع بين الحديثين فغير سديد ، إذ لم يثبت أن شيئا من القرآن نزل مرتين ، وقدمنا في مطلع تفسير سورة الفاتحة المارّة وفي أول سورة المدثر المارة أيضا عدم صحة نزول شيء من القرآن مرتين ، وفيه بحث نفيس فراجعه .

"قُلِ" يا سيد الرسل لهؤلاء السائلين وغيرهم "الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي" لم يعط علمها أحدا من خلقه ، لأنها مما استأثر اللّه بعلمه كالخمسة المذكورة آخر سورة لقمان في ج 2 ، وإن معلومات اللّه التي اختص بها نفسه لا يحيط بها علم البشر ، إذ ليس

لها نهاية ، راجع الآية 27 من سورة لقمان أيضا ، وإذا كان اللّه تعالى لم يطلع رسوله على معنى الروح وهو حبيبه وصفيّه من خلقه ، فما بال الناس يبحثون عنها والتعرف إليها ؟ وغاية عقول العوالم فيها عضال ، ونهاية سعي الفلاسفة فيها ضلال ، روي عن أبي هريرة أنه قال : لقد مضى النبي صلّى اللّه عليه وسلم وما يعلم الروح ، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيتها بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه ، والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك مخلوق مجاور له ، فعليه أن يستدل به على أنه عن معرفة خالقه أعجز .

ولما أيسوا من معرفة الرّوح اختلفوا في معناها ، فقيل إنه جسم دقيق هوائي متشرب في كل جزء من الحيوان ، وقيل هو عبارة عن هذه البنية المحسوسة والهيكل المجسم ، وقيل هو الدم لأن الإنسان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم ، وقيل هي النفس لأن الإنسان يموت بانحباس نفسه ، وقيل هي اعرض ، وقيل هي جسم لطيف بمثابة الإنسان ، وقيل هي معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ، ألا ترى أنه إذا كان موجودا يكون الإنسان موصوفا بهذه الصفات جميعها ، وإذا خرج منه ذهب عنه الكل فلا يوصف بشيء منها ، وسبب هذا الاختلاف ناشيء عن عدم المعرفة بحقيقتها ، لأن المحدود إذا كان لا يعرف كيف يحد وغير المحدود بما يميّزه ، لا يمكن أن يعرف ، وإذا كان كذلك فالأولى أن يوكل علم حد الروح إلى اللّه تعالى كما وكل هو جل شأنه علمها إليه ، وهذا هو ما أجمع

عليه أهل السنة والجماعة "وَما أُوتِيتُمْ" أيها الناس "مِنَ الْعِلْمِ" بشيء من مكونات اللّه تعالى "إِلَّا" علما "قَلِيلًا" 85 جدا لا يذكر في جنب معلوماته .

واعلموا أن ما أوتيتم من العلم لا يمكن تعلقه باحتمال هذا الذي هو من خصائصه ، وفي هذه الجملة معنى النهي عن السؤال عن الروح لعدم تعليمه إلى الرسول .

(373/447)

ومما يدلّ على أن هذه الآية مكّية لا مدنية ، ما أخرجه ابن اسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت هذه الآية بمكة ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا يا محمد إنا نعجب من قولك ، ألم يبلغنا عنك أنك تقول :

(وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ) الآية أفعنينا أم قومك ؟ قال كلا عنيت .

قالوا إنك تتلو أنا أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ، وتتلو (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

والحكمة هي التوراة وقد أوتيناها ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم هي من علم اللّه قليل ، وقد آتاكم اللّه ما إن عملتم به انتفعتم .

فأنزل اللّه (وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ) الآيتين من سورة لقمان أيضا .

ولهذه الحكمة أخّرت هذه الآيات عن سورتها بالنزول لأن السورة نزلت بمكة وهذه الآيات بالمدينة .

واعلم أن معنى كون الروح من أمر اللّه أنها من الإبداعيات الكائنة بالأمر التكويني من غير تحصيل مادة وتولد من أصل كالجسد الإنساني ، والمراد بالأمر واحد الأوامر وهو كن ، والسؤال كما ذكرنا هو عن الحقيقة ، والجواب إجمالي مآله أن الروح من عالم الأمر ، مبدعة من غير مادة ، لا من عالم الخلق المبتدع في المادة ، وهو أي هذا الجواب من الأسلوب الحكيم كجواب سيدنا موسى عليه السلام إلى فرعون حينما قال له :

(وَما رَبُّ الْعالَمِينَ) فأجابه (رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا) الآية 25 من سورة الشعراء المارة مشيرا بجوابه هذا إلى أن كنه حقيقة المسئول عنه ما لا يحيط به دائرة إدراك البشر ، وإنما الذي يعلمه البشر عن الإله هو هذا القدر الإجمالي المتدرج تحت ما استثنى مما استأثر به نفسه المقدسة .

وقال ردّا على ما خطر في قلب السائل من اطلاع على معلوماته الضئيلة بقوله (وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (وتفسيره ما تقدم) تستفيدونه من طرق ، فإن تعقل المعارف النظرية إنما

هو في الأكثر من إحساس الجزئيات ، ولذلك قيل من فقد حسا فقد علما .

هذا ، ولا شك أن الروح مجردة عن علائق الأجسام ، وأنه جوهر ليس من جنس الأجسام بل هو جوهر قدسي مجرد ، يدل عليه قوله تعالى (مِنْ أَمْرِ رَبِّي) وقوله تعالى (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) الآية 29 من سورة الحجر في ج 2 ، وقوله تعالى (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) الآية 170 من سورة النساء في ج 3 ، وان هذه الإضافات تنبه على شرف الجوهر الأسنى وكونه عريّا عن الملابس الحسية .

ومن هذا القبيل قوله صلّى اللّه عليه وسلم (أنا النذير العريان) ففيه إشارة إلى تجرّد الروح عن علائق الأجرام ، وكذلك قوله صلّى اللّه عليه وسلم (خلق اللّه آدم على صورة الرحمن) – وفي رواية على صورته – وقوله عليه السلام (أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني) ففيها إيذان بشرف الروح وقربه من ربه بالذات والصفات ، قربا لا يعرف كيفيته ، مجردا عن علائق الأجرام وعوائق الأجسام .

واعلم أنه ليس بوسع الإنسان وطاقته أن يعلم حقيقة الخردلة وكيفية حصولها ونوع تكوينها ، فكيف يعلم حقيقة الروح المحببة للجسد بأمر اللّه المحركة له بالإرادة والاختيار التي إذا انفصل عنها مات وانقطعت شعوره وإدراكاته كلها ؟

وكذلك لا يقدر أن يعرف كيفية تعلقها بالبدن ومفارقتها له حالة النوم ، ثم لا بد لنا أن نبحث في حقيقة الإنسان والروح مما لخصه العلماء جزاهم اللّه عنا خيرا ، ونأخذ أصح

الأقوال في ذلك ونترك ما وقع من الأخذ والرّد فيها ، وهذا البحث الأول في حقيقة الإنسان .

(375/447)

اعلم وفقك اللّه أن الروح في الجسم الإنساني وغيره عبارة عن جسم نوراني علوي حي متحرك ، مختلف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء في الورد ، والدهن بالزيتون والسمسم ، والزبد في اللبن ، والدهن في الجواز واللوز والبطم وما أشبهها ، والهواء في البدن والنار في الفحم ، وسريان نور الشمس على مطلق الأضواء ، لا يقبل التحلل والتبدل والتفرق والتمزق ، مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا يقبل الفيض الإلهي لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة .

ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان ، إذ أن هذه السراية تفطن الإنسان بأن ظهور الأشياء وحياتها ومنبع نشأتها ونمائها منها ليس إلا ، وهذا غاية نهاية ما يمكن أن يتكلم فيه عن الروح ، إذ الاطلاع على كنهها أمر خارج علمه عن طوق البشر ، وليس له أن يبحث عنه ، لأن البحث بأكثر من هذا عقيم ، وعليه فإن الروح عبارة عن ذلك الجسم الموصوف أعلاه .

البحث الثاني في حدوث الروح وقدمه ، واعلم هداك اللّه أن المسلمين أجمعوا على أن الروح حادثة حدوثا زمانيا كسائر أجزاء العالم ، والقول الصحيح أن حدوثها قبل حدوث البدن ، لما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي اللّه عنها أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

فإن هذا الحديث يشير إلى الإخبار بأن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد ، لأن معنى هذا الحديث الشريف أن ما تعارف منها عند خلقها الأول ائتلف عند خلق أجسادها ، والعكس بالعكس .

ومن قال إن الأرواح في برزخ منقطع العناصر ، فإذا استعد جسد لشيء منها هبط اليه ، وإنها تعود إلى ذلك البرزخ بعد الوفاة

كابن حزم ، فلا دليل له على ذلك .

وليس في قوله صراحة خلق الجسم قبل الروح ، بل يفيد ظاهره أن الروح مخلوقة قبل ، لقوله في برزخ.

وإذا كان القول عاريا عن الدليل كهذا فلا محل للأخذ به ، بل الأخذ بالقول الأول المعتمد على قول الرسول صلّى اللّه عليه وسلم .

البحث الثالث ، هل الروح والنفس شيء واحد أم لا ؟ اعلم رعاك اللّه أن أكثر العلماء قالوا إن النفس والروح شيء واحد ، لما جاء في الأخبار اطلاق أحدهما على الآخر ، بدلالة ما أخرجه البزار بسند صحيح عن أبي هريرة أن المؤمن حينما ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يودّ لو خرجت نفسه ، واللّه تعالى يحب لقاءه ، وإن المؤمن لتصعد روحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من أهل الدنيا .

فهذا يدل دلالة ظاهرة على أن الروح والنفس شيء واحد ، وقال ابن حبيب هما شيئان فالروح هو النفس المترددة في الإنسان ، والنفس أمر غير ذلك ، لها يدان ورجلان ، ورأس وعينان ، وهي التي تلتذّ وتتألم ، وتفرح وتحزن ، وتتوفى في المنام ، فتخرج وتسرح وترأى الرؤيا ، ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لا يلتذ ولا يفرح حتى تعود إليه .

واستدل بقوله تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها) الآية 43 من سورة الزمر في ج 2 ، وسنأتي على ما يتعلق فيها عند تفسيرها في محلها إن شاء اللّه .

البحث الرابع : هل تموت الروح أم لا ؟ اعلم علمك اللّه أن جماعة من العلماء الأعلام قالوا إنها لا تموت استنادا لما جاء في الأحاديث الصحيحة الدالة على نعيمها وعذابها بعد مفارقتها الجسد إلى أن يرجعها اللّه إليه عند البعث ، لأن القول بموتها يلزم منه انقطاع النعيم والعذاب ، وموت الروح المذكور في قوله تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ) الآية 185 من البقرة في ج 3 ، ومثلها في سورة الأنبياء الآية 35 ج 2 جار على القول بأن النفس هي الروح ويكون بمفارقتها الجسد ، وعلى القول بأن النفس غير الروح كما علمت آنفا فلا دليل بالآية على موتها ، وما جاء في تفسير قوله تعالى (أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) الآية 11 من سورة المؤمن في ج 2 بأن الموتة الأولى للبدن ، والثانية للروح على رأي من فسر بذلك ، غير مسلم .

وسيأتي لبحثه بيان في تفسيرها إن شاء اللّه فراجعه .

البحث الخامس في تمايز الأرواح

بعد مفارقتها الأبدان : اعلم نور اللّه قلبك أن الشيخ ابراهيم الكوراني قال في بعض رسائله إن الأرواح بعد مفارقتها أبدانها المخصوصة تتعلق بأبدان أخر مثالية حسبما يليق بها ، وإلى هذا الإشارة بما جاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود (إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر) ، وبما أخرج سعيد بن منصور عن مكحول عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم (إن ذراري المؤمنين أرواحهم في عصافير الجنة) ، أي أنها تكون في أبدان مثالية على تلك

الصور ، ويؤيد هذا رواية ابن ماجه عن ابن مسعود (أرواح الشهداء عند اللّه تعالى كطير خضر) ، ولفظ ابن عمر في صورة طير بيض ، وفي رواية علي بن عثمان اللاحقي عن مكحول (إن ذراري المؤمنين أرواحهم عصافير في الجنة) ، وما جاء في إنكار بعض المتكلمين لهذا بزعمهم أنه يصير متعلق روحين ببدن واحد وهو محال .

(378/447)

ناشيء من عدم التأمّل والتثبّت ، لأن ما قررناه لا يصيّر للطائر روحا غير روح الشهيد ، بل هي نفسها ، لأن الأبدان المثالية ليست كالأبدان المحسوسة من كل وجه بل من حيث الصورة فقط ، على أنه لم يلزم من ظاهر الأحاديث محال لجواز أن تكون الروح في جوف الطير على نحو كون الجنين في بطن أمه ، تدبر .

السادس في مستقر الأرواح بعد مفارقة الأبدان : اعلم بارك اللّه فيك ونفع بك ذويك أنه قد صح أن حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم كان آخر كلامه : اللهم الرفيق الأعلى .

وقال تعالى (إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) الآية 18 من سورة المطففين في ج 2 ، فعلى هذا يكون مستقر أرواح الأنبياء في عليين ، وقد أخرج الإمام مالك رحمه اللّه عن كعب بن مالك مرفوعا إنما نسمة المؤمن (أي ذريته بدليل الأحاديث الصحيحة السابقة ، لأن الأحاديث

كالقرآن من حيث أنها يفسر بعضها بعضا) طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه اللّه تعالى في جسده حين يبعثه .

وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده ، وخرجه النسائي من طريق مالك ، وخرجه بن ماجه ، وروى ابن منده من حديث أم بشر مرفوعا ما هو نص في أن مستقر أرواح المؤمنين نحو مستقر أرواح الشهداء المار ذكرهم في حديث مسلم عن ابن مسعود ، ومستقر أرواح الكفار في سجّين ، قال تعالى (إِنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفي سِجِّينٍ) الآية 7 من المطففين أيضا .

وما قاله ابن حزم من أن أرواح الموتى أقبية قبورهم

مستدلا بقوله صلّى اللّه عليه وسلم وهو ما رواه عنه عمر رضي اللّه عنه : إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك اللّه تعالى .

وبأنه صلّى اللّه عليه وسلم حين زار الموتى قال السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، إلخ لا يتجه ، لأن الأرواح حينما كانت لها اتصال بأجسادها لا يعلم حقيقته إلا اللّه تعالى ، وبهذا

الاتصال تردّ السلام وتعرف المسلم عليها ويعرض عليها مقعدها من الجنة أو النار ، راجع الآية 46 من سورة الزمر في ج 2 ، على أنه لا مانع من انتقالها من مستقرها وعودتها إليه في أسرع من البصر ، وان حديث البراء بن عازب في صفة روح المؤمن الذي يقول فيه (فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين ، ويقول الرّب ردّوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى .

راجع تفسير الآية 54 من سورة طه المارة .

فهو ليس نص في جعل روحه في فناء قبره ، وما فيه من الإشارة لا تعارض الأحاديث الكثيرة الصريحة بأن الأرواح في الجنة لا سيما الشهداء ، وقوله تعالى منها خلقناكم إلخ الآية هو باعتبار الأبدان لا الأرواح ، ولا شكّ أيضا أن أحوال الأرواح مختلفة ، قال النسفي في بحر الكلام إن الأرواح على خمسة أقام الأول أرواح الأنبياء عليهم السلام تأكل وتشرب وتنعّم في الجنة نهارا وتأوى ليلا إلى قناديل تحت العرش ، الثاني أرواح الشهداء تكون في أجواف طير خضر في الجنة تأكل وتنعم وتأوي أيضا إلى قناديل كأرواح الأنبياء ، الثالث أرواح المطيعين من المؤمنين بربض الجنة لا تأكل ولا تمتع ولكن تنظر إلى الجنة فقط ، الرابع أرواح العصاة منهم تكون بين السماء والأرض في الهواء ، الخامس أرواح الكفار في سجين في جوف طير سود تحت الأرض السابعة ، وهي متصلة بأجسادها تعذّب وتتألم ، أجارنا اللّه وحمانا .

قال الإمام الفخر إني أعجب كل العجب ممن يقرأ هذه الآيات ويروي هذه الأحاديث ثم يقول توفي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وما كان يعرف الروح ، وفي قوله هذا رحمه اللّه ردّ على حديث أبي هريرة المتقدم ذكره آنفا بعد تفسير (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) ولهذا البحث صلة في الآية 42 من سورة الزمر في ج 2

هذا وقد علم مما تقدم أن أرواح الأنبياء والشهداء ممتازة على أرواح سائر البشر ، وهو كذلك لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال إن أنبياء اللّه لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار ولقوله تعالى (يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً) الآية الاخيرة من سورة الفجر في ج 2 ، وهذا الخطاب متوجّه إلى هذه الروح الزكية وقت الموت لكونها راضية مرضية بما يدل على أن هذا الخطاب لجسد حي حياة لا نعرفها ، وهذه الحياة مختص بها الأنبياء والشهداء لقوله تعالى (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) الآية 179 فما بعدها من آل عمران ج 3 وسيأتي في تفسير هذه الآية ما به كفاية لتتميم هذا البحث إن شاء اللّه .

مطلب في حفظ القرآن ثم رفعه بالوقت الذي قدره له اللّه .

قال تعالى "وَلَئِنْ شِئْنا" يا سيد الرسل "لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" فنمحوه من قلبك ومما كتب عليه من قبل كتبة الوحي فلا نبقي له أثرا أبدا "ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ" بالقرآن الموحي إليك الذي هو شفاء ورحمة لأهل الأرض المصدقين به والذي ثبتناك به من أن تفتتن بأقوال قومك ولا يمكنك أن تحضر "عَلَيْنا وَكِيلًا" 86 يستطيع استرداده منا وإعادته إليك ولا تقدر أن تجد من يتوكل لك علينا بذلك من متعهد أو ملزم البتة "إِلَّا" أن يتفضّل عليك ربّك فيرحمك "رَحْمَةً" عظيمة خاصة بك نازلة عليك "مِنْ رَبِّكَ" تتمكن بها من إبقائه وعدم نزعه من الصدور ومحوه من السطور وهذه منّة عظيمة جليلة منّ اللّه بها عليك، وجعل ما أوحاه إليك محفوظا، وتعهد لك بحفظه بقوله جل قوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) الآية 9 من سورة الحجر في ج 2، وتعهد لك أيضا بعدم إدخال زيادة عليه وحذف شيء منه بقوله عزّ قوله (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ) الآية 42 من سورة فصلت في ج 2، روي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل، له دويّ حول العرش كدويّ النحل، فيقول الرّب مالك؟ فيقول يا رب أتلى فلا يعمل بي.

وقال عبد اللّه بن مسعود اقرأوا القرآن

قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع .

قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما في الصدور ؟ قال يسري عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئًا ولا يجدون مما في المصاحف شيئًا ، ثم يفيضون في الشعر .

يعارض هذا ما جاء في الحديث الآخر إن الله تعالى لا ينزع العلم انتزاعا من صدور الرجال ، وإنما يفقد بموت العلماء ، وهو أصوب ، لأن اللّه أكرم من أن يمنّ على عبده بنعمة أنعمها عليه ثم ينزعها منه ، لهذا فإن حمل الحديثين المارين على هذا أولى وأوفق .

أللهم إلا أن يقال العلم غير القرآن فإنه يرفع رفعا على ما جاء في الحديثين ، والعلم يكون رفعه بموت العلماء ، وهو الأظهر واللّه أعلم ، "إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ" يا أكرم الرسل الذي من جملته إبقاء القرآن راسخا في صدرك ثابتا في الصحف باقيا يتلى إلى الوقت الذي قدره لرفعه ، وقد تفضل عليك به وبما سيبيته بعد وما لم يعلم فضلا "كَبِيراً" 87 ، من ربّك الذي أنعم عليك به وجعلك خاتم أنبيائه وسيد ولد آدم ، وأعلى كلمتك على جميع خلقه ، وأيدك بنصره ، وقواك بملائكته ، وأعطاك الشفاعة الكبرى ، وخصّك بالمقام المحمود

والحوض المشهود ، ونعما كثيرة تفضل بها عليك في الدنيا والآخرة .

أخرج البيهقي والحاكم وصححه وابن ماجه بسند قوي عن حذيفة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يدرس الإسلام كما يدرس وشي ء الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صدقة ولا نسك ، ويسرى على كتاب اللّه في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ، ويبقى الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا اللّه فنحن نقولها .

ولا يبعد أن يكون هذا بموت العلماء والقراء وعدم معرفة الباقين القراءة ، وكذلك تأويل ما يأتي بعد إذ ليس إزاء هذه الصراحة إلا التسليم واعتقادنا بأن اللّه لا يسلب نعمة من عبده بعد أن تفضّل بها عليه إلا إذا كان هذا العبد داخلا في قوله تعالى :

(ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) الآية 52 من سورة الأنفال ج 3 ، وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) الآية 14 من سورة الرعد في ج 3 ، وعليه يكون الجزاء من جنس العمل ، لأنهم نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم ونسيهم ، فجعلهم متروكين لا يؤبه بهم .

وأخرج ابن

مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أيها الناس ما هذه الكتب التي بلغني أنكم تكتبونها مع كتاب اللّه يوشك أن يغضب اللّه تعالى لكتابه ، فيسرى عليه ليلا لا يترك في قلب ولا رق منه حرف إلا ذهب به ، فقيل يا رسول اللّه فكيف بالمؤمنين والمؤمنات ؟ قال من أراد اللّه تعالى به خيرا أبقى في قلبه لا إله إلا اللّه .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال يسرى على كتاب اللّه فيرتفع إلى السماء فلا يبقى في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة ولا من الإنجيل والزبور ، فينزع من قلوب الرجال ، فيصبحون في الضلال لا يدرون ما هم فيه .

والسرى المشي آخر الليل ، ومعنى يسرّى أي يرسل اللّه تعالى في آخر الليل ما به يرفع القرآن من صدور الناس ، بدليل قوله فيصبحون في الضلال إلخ الحديث .

هذا ، وقدمنا في المقدمة بحثا يتعلق بحفظ القرآن وتهديد من ينساه فراجعه فلعل فيه إيماء إلى هذا .

ولما قال النضر وأضرابه من مشركي مكة عند سماعهم تلاوة القرآن من سيدهم سيد ولد عدنان لو نشاء لقلنا مثل ما يقول محمد يعنون به القرآن ، وقد أخبر اللّه نبيه بذلك بقوله جل

قوله : (وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا) الآية 31 من الأنفال في ج 3 ، وهذه آية مكية مستثناة من سورتها المدنية أكذبهم اللّه تعالى بقوله "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء الأفاكين المتهورين "لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ" المنزل عليك من لدنّا "لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ" أبدا ولا يقدرون على ذلك البتة "وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" 88 معاونا ومؤازرا في إرادة الإتيان بمثله ، لأنه لا يشبه كلام الخلق وهو في أعلى طبقات البلاغة معجزا في نظمه معجزا في تأليفه ، فضلا عن إعجازه بالإخبار عن الغيوب مما كون اللّه تعالى وأظهره للناس ، ومما لم يظهره بعد .

ولهذا البحث صلة في الآية 78 من سورة يونس والآية 13 من سورة هود في ج 2 والآية 24 من سورة البقرة في ج 3 .

وجملة لا يأتون جواب القسم الذي ينبىء عنه اللام الموطئة له ، وسادّ مسدّ جزاء الشرط ، ولولاها لكان لا يأتون جزاء الشرط ، وإن كان مرفوعا بناء على القول بأن فعل الشرط إذا كان ماضيا جاز الرفع في الجواب ، كما في قول زهير :

وإن أتاه قليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

وقيل لا يأتون جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة للقسم لجاز أن يكون جوابا للشرط كما في البيت .

على أن أداة الشرط إذا لم تؤثر في الشرط ظاهرا مع قربه جاز أن لا تؤثر في الجواب مع بعده .

قال تعالى "وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ" وكرّرنا فيه من العبر والوعد والوعيد والأحكام والقصص والأخبار والمعاني البديعة والأمور الغريبة والقضايا الغيبية ، وجعلناه معجزة دائمة لا تنقطع إلا عند قرب خراب هذا الكون ليؤمنوا به "فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً" 89 به وإباء عن قبوله ونفورا منه ، وهذا أبلغ من إبائهم في عدم الإيمان به لاحتماله هذا المعنى وزيادة أنهم لم يرضوا بخصلة ما سوى الكفر به "وَقالُوا" عند ظهور عجزهم عن الإتيان بمثله ، متعللين بما لا تقتضي الحكمة وقوعه ومما هو محال عقلا "لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ" في هذا القرآن ولا في غيره من الآيات "حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً" 90 عينا غزيرة من الماء نستقي منها كلنا وأنعامنا ودوابنا ونزرع عليها ، وعلى أن تكون عين هذا الماء من أراضيهم المقيمين بها لأنها قليلة الماء

91 "أَوْ تَكُونَ لَكَ" إذا لم تأتنا بذلك الماء "جَنَّةٌ" مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها" كثيرا بين تلك الجنة هائلا ، وهذا على وجه الخصوص له كالتي بعدها خلافا للطلب الأول ، لأنه على وجه العموم إلا أن الاقتراح الأول لهم والثاني له ، ولكن وجود أو يبعد هذا المراد "أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ" ونسبت إلى ربك بما تلوته عنه وهو (إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ) الآية 19 من سورة سبأ في ج 2 ، وهذا يدل على أن هذه الآية نزلت قبل سورتها ، بأن تصبها "عَلَيْنا كِسَفاً" قطعا متفرقة عظيمة "أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا" يقابلونا فنراهم عيانا بأم أعيننا ويشهدون لك بصدق دعوتك ، إذ ادعيت أنهم واسطة بينك وبين ربك الذي ادعيت رسالته "أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ" مزين مرصّع بالذهب والفضة والأحجار الكريمة "أَوْ" تأتي لنا بآية ملجئة لنا على الإيمان قاسرة لا نستطيع ردّها ، وهي بأن "تَرْقى فِي السَّماءِ" على مرأى منا "وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ" بأن تصعد إليها فقط ، لأنا لا نصدّق ذلك ولا نعترف لك به ولو رأيناك عيانا تصعد إليها لانه قد يكون صوريا بما تخيله علينا وتسحرنا به فتزيغ أعيننا عن أن نرى الحقيقة في ذلك ، بل نبقى منكرين جاحدين رقيّك "حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا" من السماء معك "كِتاباً نَقْرَؤُهُ" بلغتنا ، ونرى فيه ما يدلّ على نبوتك ، وإذا لم يكن كذلك فلا نؤمن لك أيضا بمجرد كتاب تأتينا به ، لأنك قد تموّه علينا بما ليس بشيء وتسميه كتابا ، واعلم أن السماء كل ما علاك

فأظلك ويطلق على كل مرتفع ، قال الشاعر :

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

(387/447)

وهم لا يريدون هذا وإنما يريدون السماء الحقيقية التي ذكرها لهم في سورة ق المارة في الآية 6 وهي قوله تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ) والتي أخبرهم بأنه عرج إليها ووصف لهم ما فيها كما مر أوائل هذه السورة ، فيما أكرم الخلق "قُلْ" لهؤلاء الحمقى "سُبْحانَ رَبِّي" أنزهه عما لا يليق بقدسيته عن هذه المقترحات المستحيلات واستغفره عن طلب شيء منها ، لأنه إذا كان على سبيل الفرض طلب تفجير الأرض بالأنهار أو تخصيص الجنة أو البيت المزخرف أو اجراء الأنهار بينها ممكنا فلا يمكن طلب إسقاط السماء قطعا متفرقة ولا مجتمعة ، ولا الإتيان بالخالق ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، ولا الإتيان بالملائكة الآن ، وإن كان هذا قد يقع يوم القيامة حقا لا مرية فيه بأمر اللّه تعالى وقدرته فقط كما جاء في الآيات المارة في سورة الفجر وفي غيرها من السور المارة والآتية ، أما أنا فإني إنسان مثلكم عاجز عما يعجز عنه مثلي وما تظنون بي "هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً" أفعل ما يفعله البشر وأعجز عما يعجز عنه وإنما خصّني ربي بأن أكون

"رَسُولًا" 93 إليكم أبلغكم آياته فآمركم بالخير وأنها كم عن الشر ، وجعلني من بينكم تعرفون حسبي ونسبي ، كما خصّ اللّه الأنبياء قبلي واختارهم من أقوامهم ، وإن ما اقترحتموه خارج عن طوق البشر والرسل منهم الإتيان به من عند أنفسهم ، إلا ما شاء اللّه أن يظهره على يدي من المعجزات كأمثال الرسل السابقين ، وإن إتيان المعجزات بيد اللّه تعالى إن شاء أوقعها على أيدي رسله ، وإن شاء منعها .

وسبب نزول هذه الآيات أن مشركي قريش استدعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم

و قالوا له إذا كنت تريد أن نؤمن بك ونصدقك ونجيب دعوتك فأتنا بكذا إلخ ، اقتراحاتهم المذكورة المنطوية على العناد والمنفطرة عن العتوّ ، وكان منهم من اقترح ما مر ذكره في الآيات 7 و8 و20 و21 من سورة الفرقان المارة ، فلما رأى أباطيل أقوالهم هذه تركهم وقام ، فتبعه عبد اللّه ابن أمية المتصدر لهذه المقترحات فنزلت هذه الآيات فيه وفي قومه .

وإنما نسب القول إليهم جميعا لأنهم أصغوا لمقترحاته هذه ورضوا بها وكلفوا النبي بالإجابة عنها ، ولهذا جاء الكلام بلفظ الجمع .

وخرج هذا سعيد بن منصور عن ابن جبير ، وكان ذلك الخبيث عبد اللّه بن أمية كرر هذا

الكلام على حضرة الرسول ، وقال له إن قومك عرضوا عليك ما عرضوه من الاقتراحات فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك عند اللّه ربك فلم تقبل ، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، فواللّه لا نؤمن بك أبدا ولو فعلت ما طلبناه منك ولا نصدقك أبدا ، ثم انصرف .

وقد أسف صلّى اللّه عليه وسلم لما رأى من مباعدتهم عن الإيمان بعد نزول هذه الآيات وإعراضهم عنها .

(389/447)

هذا وما قيل إن اللّه تعالى أنزل على هؤلاء المقترحين الآيتين 32/ 33 من الرعد في ج 3 وهما : (كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ) الآية (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى) الآية فغير وجيه لأن سورة الرعد مدنية ولم يستثنى منها هاتان الآيتان ولا غيرهما ، وما نحن فيه من الوقائع في مكة ، وسنأتي على ما يتعلق فيها في محلها إن شاء اللّه في القسم المدني ، قال تعالى "وَما مَنَعَ النَّاسَ" الذين حكيت أباطيلهم آنفا من "أَنْ يُؤْمِنُوا" بربهم ويصدقوا رسوله "إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى " على يديه أن يهتدوا بهديه ويسترشدوا برشده ويتوصلوا إلى معرفة توحيده ويؤمنوا به "إِلَّا أَنْ قالُوا"

جهلا منهم وعنادا بمن أرسل إليهم على طريق السخرية والاستهزاء "أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا" 94 إلينا مثلنا ألّا يبعث ملكا من الملائكة يدعونا إليه لنطيعه ونؤمن به ، فيا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء الباغين "لَوْ كَانَ" على سبيل الفرض والتقدير "فِي الْأَرْضِ" التي أنتم عليها "مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ" فيها مثلكم "مُطْمَئِنِّينَ" آمنين متوطنين كآحاد الناس ليس لهم أجنحة

يطيرون بها إلى السماء فيسمعون ما يقع فيها ويعلمون ما يجب عليهم ، وقد مست الحاجة لإرسال من يرشدهم "لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكًا رَسُولًا" 95 مثلهم من جنسهم ليميلوا إليه ، لأن الجنس لا يميل إلا لجنسه وأنتم بشر فأرسلنا إليكم بشرا من جنسكم ، لأن البشر أيضا لا يميل إلا لجنسه ، فلا يميل إلى الملك ، والملك لا يميل إلى البشر ولا يأتلف معه لذلك لم نرسل ملكا ، وهذا لا ينافي بعثته صلّى اللّه عليه وسلم إلى الجن ، لأنه متى صح فيه صلّى اللّه عليه وسلم المناسبة الصحيحة للاجتماع مع الملك والتلقي منه صح فيه المناسبة المصححة للاجتماع مع الجن والإلقاء إليهم ، كيف وهو صلّى اللّه عليه وسلم نسخة اللّه الجامعة وآيته الكبرى الساطعة ، فضلا عن أن الجنّ تشكلوا اليه عليه الصلاة والسلام بهيئة

البشر كما تشكل له رئيس الملائكة السيد جبريل عليه السلام بصورة دحية الكلبي وبصورة اعرابي ، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عمر رضي اللّه عنه حينما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وامارات الساعة ، فعلى هذا لو أنزل اللّه تعالى لهم ملكا وتشكل بهيئة البشر فلا يجد شيئًا ، لأنهم يرونه بشرا مثلهم ويقولون ما قالوا ولو جاءهم بصورته الحقيقية لما أطاقوا مقابلته ، بل لصعقوا أو ماتوا لأن حضرة الرسول مع ما هو عليه من الكمال والتأييد من اللّه لم يطق مقابلة جبريل بصورته كما مر في الآية 18 من سورة والنجم المارة وفي الآية 23 من سورة التكوير أيضا ومما يؤيد إرساله صلّى اللّه عليه وسلم إلى الجن قوله تعالى (لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً) الآية الأولى من سورة الفرقان المارة وما سوى اللّه تعالى كله عالم وخبر مسلم ، أرسلت إلى الخلق كافة والجن من الخلق راجع الآية الأولى من سورة الجن المارة فما بعدها ، أما محبة الملائكة له صلّى اللّه عليه وسلم مع انه من غير جنسهم فإنما هي بإلقاء اللّه تعالى في

قلوبهم واعلامهم بأنه صلّى اللّه عليه وسلم وسيلة لهم فيما يسألونه منه جل جلاله ، ولما جاء في الحديث إذا أحب اللّه عبدا نادى جبريل فقال له إني أحب فلانا فأحبوه ، فينادي

جبريل في الملائكة إن اللّه يحب فلانا فأحبوه ويلقي له القبول في الأرض ، فيا أكرم الرسل إن لم يصدق هؤلاء المعاندين الجاحدين رسالتك فأعرض عنهم الآن و "قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً" على أنه أرسلني إليكم وخصني من بينكم برسالته ، وقد اختارني من الأزل لذلك وهو شهيد على أني قمت بما أمرني به حسبما أمرني ، وعلى أن أبلغكم ما أرسلني به إليكم ، وهو شهيد أيضا على أنكم كذبتموني

فهو الحكم العدل "بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" على ذلك كله "إِنَّهُ كانَ" ولا يزال "بِعِبادِهِ خَبِيراً" بظواهر المرسل والمرسل إليهم "بَصِيراً" 97 ببواطنهم وخوافي أمورهم ، وانه يجازي كلا على عمله .

قال تعالى تسلية لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم واعلاما بأن ما كان مطابقا لإرادته أزلا سيكون في الواقع لا محالة ، وهو "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ" بهدايته على يد من شاء من خلقه "وَمَنْ يُضْلِلْ" منهم فهو الضال مهما أراد الناس هدايته فلن يقدروا لهذا يقول اللّه تعالى "فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ" ينصرونهم علينا أو يقودونهم إلى الهدى "مِنْ دُونِهِ" أي الهادي الحقيقي بل يبقى ضالا على ضلاله حتى يموت .

مطلب الحشر على الوجوه وبقاء عجب الذنب :

"وَنَحْشُرُهُمْ" أي هؤلاء الظالمين "يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ" منكوسين حالة كونهم "عُمْياً" لا يبصرون "وَبُكْماً" لا يتكلمون "وَصُمًّا" لا يسمعون كما كانت حالتهم في الدنيا ، أي كما أن لم ينتفعوا بحواسهم هذه في الدنيا لما فيه خيرهم لم ينتفعوا فيها في الآخرة أيضا راجع الآية 24 من سورة الفرقان المارة ، وهؤلاء الذين هذا وصفهم "مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ" يصيرون إليها بعد الموقف حالة كونها مسعرة "كُلَّما خَبَتْ" هدأ لهيبها وولى سعيرها وخمدت شعلتها "زِدْناهُمْ سَعِيراً" 98 وقودا ليزداد بلاؤهم فيها "ذلِكَ" حشرهم على الصورة المارة فاقدي منافع جوارحهم حالة ازدياد إيقاد النار لزيادة عذابهم "بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا" برسلنا وكفروا أيضا "بِآياتِنا" القرآنية والآفاقيّة الدالة على صحة الاعادة بعد الموت وعلى صدق الرسالة بذلك "وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً" 99 تقدم تفسيرها في الآية 49 المارة أي مستأنفين الحياة مرة ثانية كما كنا ، وما قيل إن المعنى يخلق اللّه غيرهم يعبدونه ويعترفون بربوبيته على حد قوله تعالى : (يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ) الآية الأخيرة من سورة محمد ج 4 ، وقوله تعالى (وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) الآية 17 من سورة فاطر المارة ، لا يتجه هنا لأنه لا يلائم السياق كما لا يخفى على ذوي الأذواق ، وآية فاطر

هذه مكررة في الآية 19 من سورة إبراهيم والآية 132 من سورة الأنعام في ج 2 لفظا ومعنى والآية 132 من سورة النساء في ج 3 ، فرد اللّه تعالى عليهم بقوله "أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" وهما أكبر وأعظم من خلقهم كما سيأتي بيانه في الآية 57 من سورة المؤمن في ج 2 "قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ" من الإنس الذين هم أضعف من ذلك "وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا" لا يتجاوزونه محققا "لا رَيْبَ فِيهِ" ولا ينبغي أن يشك فيه "فَأَبَى الظَّالِمُونَ" المتوغلون في الظلم "إِلَّا كُفُوراً" 100 وجحودا بتلك الآيات الواضحات وهؤلاء هم الذين سألوا الاقتراحات المار ذكرها ومن حذا حذوهم داخل معهم ، ولا تعد هذه الآية مكررة بسبب اختلاف اللفظ عن الآية الأولى 89 وقدمنا في الآية 137 من سورة طه ما يتعلق بحشر الأعمى فراجعه.

هذا ، وقد أخرج الشيخان عن أنس قال : قيل يا رسول اللّه كيف يحشر اللّه الناس على وجوههم ؟ قال الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم.

وأخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف مشاة على العادة وصنف ركبان وصنف على وجوههم إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك أو سحبا عليها قال تعالى (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ) الآية 48 من سورة القمر المارة ، ويشهد لهذا ما أخرجه أحمد

والنسائي عن أبي ذر أنه تلا هذه الآية ونحشرهم إلخ ، فقال حدثني الصادق المصدوق صلّى اللّه عليه وسلم أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أنواع : نوع طاعمين كاسين راكبين ، ونوع يمشون ويسعون ، ونوع تسحبهم الملائكة على وجوههم .

وما أخرجه أحمد والنسائي والترمذي عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إنكم تحشرون رجالا وركبانا وتجرون على وجوهكم .

(394/447)

وليعلم أن هذه الآية في حال أهل النار بعد دخولهم فيها ، وكذلك الأحاديث ولا تعارض هذه الآية قوله تعالى : (كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها) الآية 55 من النساء في ج 3 ، لأن تبديلها يكون بإحراقها وإفنائها وخلق غيرها ، لأنها إذا أحرقت وبقيت لا يحسون بألم العذاب واللّه تعالى يقول (لِيَذُوقُوا الْعَذابَ) فوافقت هذه الآية قوله تعالى هنا (كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً) الآية المارة في المعنى

واعلم أن اللّه تعالى يعدم هذه الذرات بالكلية ثم يعيدها نفسها كما كانت .

ولا يرد هنا بأن إعادة المعدوم محال ، لأن المعيد لها الذي خلقها من العدم أولا فليس محالا عليه أن يعيد ما خلق إلى حالته الأولى .

وما جاء في حديث الصحيحين : ليس في الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو

عجب الذنب ، منه خلق الخلق يوم القيامة .

وفي رواية مسلم كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب .

وصحح المزني أنه يفنى لقوله تعالى (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) الآية الأخيرة من سورة

القصص المارة ، وقوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ) الآية 26 من سورة الرحمن في ج 3 ،

وعجب الذنب شيء على الأرض وعليه يكون تأويل الحديث أن كل الإنسان يبلى

بالتراب ويكون سبب فنائه إلا عجب الذنب فإن اللّه تعالى يفنيه بلا تراب كما يميت ملك

الموت بلا ملك موت والخلق منه والتركيب يمكن بعد إعادته فليس ما ذكر نصا في بقائه ،

وبذلك قال ابن قتيبة .

قال تعالى "قُلْ" يا محمد لقومك وغيرهم "لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي" من المطر

والرزق والنعم الكثيرة من خزائنه الغير متناهية إذ لا يعلمها غيره .

(395/447)

واعلم أن إن أنتم هنا مرفوع بفعل يفسره الفعل بعده لأن لو لا تدخل على الأسماء أي لو

تملكون أنتم إلخ وهي حروف امتناع لا متناع بخلاف لو لا فهي حرف امتناع لوجود ، وعلى

هذا قول حاتم وقد أسر فلطمته جارية فقال : لو غير ذات سوار لطمتني ، أي لو لطمتني غير ذات سوار ، وقول المتلمس :

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرانين حيسما

وقول أبي جهل حين قتل ببدر : لو غير أكار قتلني هذا .

فمن جعل أنتم مبتدأ فقد أخطأ لأنه فاعل كما علمت .

قال تعالى "إِذاً" أي لو ملكتم خزائن رحمة اللّه "لَأَمْسَكْتُمْ" على الناس أرزاقهم شحا بها عليهم فلم تعطوا أحدا منها شيئًا "خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ" مخافة النفاد والخلاص لشدة حرصكم مهما كان مالكم كثيرا "وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً" 101 شحيحا جدا يبخل على نفسه ويبخل على غيره أيضا من باب أولى .

هذا ، ولا يقال إن بعض الإنسان جواد فكيف جاء في هذه الآية التعميم وقد قال في حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

له راحة لو أن معشار جودها على البر كان البر أندى من البحر

وكان أكثر آل البيت كريما وليسوا بأهل دنيا ، ويصدق عليهم قول الشافعي رحمه اللّه :

وهم ينفقون المال في أول الغنى ويستأنفون الصبر في آخر الفقر

إذا نزل الحي الغريب تقارعوا عليه فلم يدر المقل من المثري

لأن المقصود الأكثر من جنس الإنسان بخيل .

وليعلم أن حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم غير داخل في هذه الآية المخاطب بها بلفظ الجمع ، لأن اللّه تعالى يقول لحضرته قل لهم ذلك ، أما غيره فإن الأصل في الإنسان الشح ، لأنه خلق حينما خلق محتاجا لكل شيء فيمسك ما تصل إليه يده لنفسه ولأن بعض الكرم يكون منه السمعة والرياء ونشر الصيت ، وقد يكون ابتغاء مرضات اللّه ، وأهل هذا قليل وكل خير في القليل ، وفي القليل بحث نفيس فإذا أردت أن تقف عليه فراجع الآية 73 من سورة النمل المارة ، ووجه مناسبة هذه الآية مع ما قبلها أن المشركين المشار إليهم أعلاء لما اقترحوا على حضرة الرسول طلب الينبوع والأنهار كان لتكثير أرزاقهم واتساع الدنيا عليهم من وجه وتعجيزا للرسول من وجه آخر ، وهو المراد إذ أهمهم شأنه بعد أن رأوا آيات الإسراء والمعراج وشاع ذكره في الآفاق أكثر من ذي قبل ، فبين اللّه تعالى في هذه الآية أنهم لو أعطوا ذلك وملكوا خزائن الأرض ومفاتح رحمة اللّه لبخلوا وشحوا ولم ينفعوا أحدا ، وهذا غاية في التشنيع عليهم بالبخل ، وأنه كما وصفهم بالآية الأولى بأنهم منكبون على الكفر ، وصفهم في هذه أنهم أيضا متلبسون بالشح ، وهما صفتان مذمومتان ضرر أولاهما قاصر عليهم ، وضرر الأخرى متعد للغير .

هذا ، وبالجملة فإن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج من عهدة الواجب ، فكان إنفاقه في الأصل بمقابل عوض أيضا ، فكان بخلا حقيقة ، والمراد بهذا الإنسان الجنس فيشمل جميع أفراده ، وإذا أريد به المعهود بأن اعتبرت ال فيه للعهد يكون المراد به الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا . .

الآية السابقة ، والأولى جعله عاما ليدخل في مفهومه هؤلاء وغيرهم ،

ولما حكى اللّه تعالى عن قريش ما حكاه من التعنت والعناد تجاه رسوله صلّى اللّه عليه وسلم شرع يسليه بما جرى لأخيه موسى عليه السلام مع فرعون اللعين وما صنع بفرعون وقومه

لعدم إيمانهم بنبيهم إعلاما لحضرته بأنه سيكون مصير من لم يؤمن من قومه به مثل مصيرهم ، فقال تعالى جده "وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ" تقدم بيانها في الآية 172 من الأعراف مفصلة فارجعها .

وهذه التسع وقعت في حق القبط قبل خروجهم من مصر أما الآيات الخاصة في بني إسرائيل ، فقد وقعت بعد ذلك وهي كثيرة ، قال ابن رشد سألت اليهود حضرة رسول اللّه صلّى

اللّه عليه وسلم عن التسع آيات المبينات الواردة في القرآن ، فقال لهم : 1 ألا تشركوا باللّه شيئًا 2 ولا تسرقوا 3 ولا تزنوا 4 ولا تقتلوا النفس التي حرم اللّه إلا بالحق 5 ولا تمشوا ببريء إلى السلطان ليقتله 6 ولا تسحروا 7 ولا تأكلوا الربى 8 ولا تقذفوا المحصنة 9 ولا تولوا الفرار يوم الزحف 10 وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت .

فقاموا فقبلوا يديه ورجله وقالوا نشهد أنك نبي ، قال فما يمنعكم أن تتبعوني ؟

قالوا إن داود عليه السلام دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا اليهود – قال الترمذي حديث حسن صحيح – .

واعلم أن اللّه تعالى ذكر في القرآن من معجزات موسى عليه السلام تسع عشرة معجزة منها ما هو خاص به ، ومنها ما هو خاص بالقبط ، ومنها ما هو خاص بني إسرائيل ، أولها إزالة العقدة من لسانه حتى ذهبت عجمته وصار فصيحا ، والثانية والثالثة والرابعة هي بياض اليد وإحياء النقباء والخسف بقارون ورفيقيه ، والخامسة انقلاب العصا حية ، والسادسة جعلها تلقف حبال السحرة وعصيهم مع كثرتها أي ما طلي فيها كما بيناه في الأعراف ، والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشر هي الطوفان والجراد

والقمل والضفادع والدم ، الثانية عشرة الإظلال بالغمام ، والثالثة عشرة شق البحر ،
والرابعة عشرة إخراج الماء من الحجر بضربه له بعصائه ، والخامسة عشرة رفع الجبل
وإظلاله فوقهم ، والسادسة عشرة إنزال المنّ والسلوى ، والسابعة عشرة الجدب المعبّر عنه
بالسنين ، والثامنة عشرة نقص الثمرات ، والتاسعة عشرة الطمس على الأموال .

وكلها موضحة في سورة الأعراف والشعراء والقصص المارات وفي السور الآتية كيونس
وهود وغيرها ، وروي أن عمر ابن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع آيات
بينات فذكر في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمس ،

فقال عمر هكذا يجب أن يكون الفقيه ، ثم قال يا غلام أخرج ذلك الجراب ، فأخرجه
ففضه فإذا فيه بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة ،
أي أن هذه من بقايا ما طمس عليه من ثمرات بني إسرائيل وأموالهم .

واعلم أن تخصيص الذكر هنا بالتسع لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليها ، لما جاء في أصول
الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد .

وقد اتفق المفسرون على سبع من هذه التسع وهي : العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، واختلفت آراؤهم في الاثنتين الأخيرتين وأكثر الأقوال على أنها الأخذ بالسنين ونقص الثمرات كما بيناه في الأعراف لأن العقدة والعصا من خصائص سيدنا موسى عليه السلام وليست لقومه ، أما كونها تلقف ما يأفكون فهي لقومه ، قال تعالى "فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ" الموجودين في زمنك من أهل الكتابين الذين ستقدم عليهم في المدينة لتعرف كذبهم ويعرفوا صدقك ، وليس المطلوب من سؤالهم استفادة العلم منهم عنها ، بل لنقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره لهم ، وعليه فيكون السؤال سؤال استشهاد لأنهم أولاد أولئك اليهود الذين ظهرت لهم تلك الآيات على يد نبيهم ، وقد تناقلوها أبا عن جد فضلا عن ذكرها في التوراة التي هي بين أيديهم ، ولهذا حسن النكني بهم عن أسلافهم "إِذْ جاءَهُمْ" موسى بها دليلا على صحة رسالته من ربه إليهم "فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ" لما ظهر عجزه تلقاء تلك المعجزات "إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً" 102 مفعولا بالسحر الذي استولى على جوارحك فصرت مطبوبا مختل العقل بطلبك قوما هم تحت سلطتي قديما ، فكيف أرسل معك بني إسرائيل وأنت على ما أنت عليه . وقال بعض المفسرين معنى مسحورا ماهرا بالسحر معطى علمه ومعلّمه ، وهذه العجائب التي بينتها هي ناشئة عن مهارتك فيه ، وظاهر الآية يدل على الأول ، لأن المقام مقام ذم ، والتفسير الثاني مقامه مقام مدح يأباه المقام بدليل ما فتحت به الآية الآتية التي جاوبه بها

موسى عليه السلام ، وهي "قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ" يا فرعون مما رأيت "ما أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" وجعل تلك الآيات "بَصَائِرَ" مرئيّات ظاهرات لا تخفى على أحد من شدة وضوحها تبصرك في صدقي ، وتعلمك أني

لست كما تقول مخدوعا أو خادعا أو مخيلا إلي أو ساحرا ماهرا مما تتقول به قبلا ، لا بل إني عالم حاذق بصحة ما أقول من الأمر والنهي لأني أتلقاه من ربي خالق السموات والأرض وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما ، الذي أنزل تلك الآيات دلالة على صدقي وطلبا لإيمانكم ، فما ظننت به كله كذب محض وبهت بحت . .

والقراءة الفصحى علمت بفتح التاء لأن علم فرعون بأنها آيات نازلات من رب السماء او كد في الحجة ، ولأن احتجاج موسى عليه السلام على فرعون بعلم فرعون او كد من الاحتجاج عليه بعلم نفسه على قراءة الضم التي معناها أنه أخبر عن نفسه أنه عالم بها وأنه

غير مسحور ، ونسب هذا القول إلى سيدنا علي عليه السلام ، وأنه قال واللّه ما علم عدو اللّه ولكن علم موسى وهو قول ضعيف لا يستند اليه ، لأنه مروي عن كلثوم المرادي وهو مجهول ، ولهذا لما بلغ ابن عباس نسبة هذا القول لسيدنا علي لم يرضه واحتج بقوله تعالى (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ) الآية 14 من سورة النحل المارة بما يدل على أن فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه كما أن بلقيس وقومها علموا معجزات سيدنا سليمان عليه السلام "وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً" 102 هالكا مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر لانكارك ما عرفت صحته من آيات اللّه مكابرة وعنادا ، وقد قارع الظن منه عليه السلام بالظن من فرعون بالآية السابقة ، لأنه لما وصفه بكونه مسحورا أجابه بكونه مثبورا لأن تلك المعجزات مبصرة نيرة لا يرتاب فيها عاقل ولا يقول بها إلا أنها من عند اللّه وانه أظهرها ليؤمن بها ، قال تعالى "فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ" أي يخرج فرعون موسى وقومه ويطردهم "مِنَ الْأَرْضِ" أرض مصر أو يعدمهم من ظهر البسيطة لما رأى بقاءهم يهدد ملكه بالخراب وسلطنته بالزوال ، ولما كان ثابت في علم أنه لو أمهل فرعون وقومه ما أمهلهم لم يؤمنوا ويبقوا مصرين على كفرهم لهذا أغراه اللّه تعالى باتباع موسى وقومه وأدخلهم جميعا البحر "فَأَغْرَقْناهُ" لهذه الحكمة "وَمَنْ مَعَهُ" من القبط الذين جنّدهم لاسترجاع موسى وقومه واسترقاقهم فأهلكهم في البحر "جَمِيعاً" 103 فلم يفلت منهم أحد ، راجع كيفية إغراقهم في الآية 40 من

القصص والآية 63 من الشعراء والآية 78 من طه المارات ، قال تعالى "وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ" بعد إهلاكهم وإرائة جثتهم ؟ ؟ ؟ عائمة في البحر بما فيهم جثة فرعون "لِبَنِي إِسْرائِيلَ" بعد انجائهم من الغرق ومن فرعون وقومه "اسْكُنُوا الْأَرْضَ" أرض مصر والشام في حياتكم الدنيا "فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ" الحياة الثانية يوم القيامة "جِئْنا بِكُمْ" مؤمنكم وكافركم وبركم وفاجركم "لَفِيفاً" 104 مختلطين جميعا من هاهنا من محال وجودكم ، واللفيف هو الجماعة من قبائل شتى وهو اسم جمع لا واحد من لفظه كالجميع أي من اخلاط شتى شريف ووضيع عالي ورديء مطيع وعاصي قوي وضعيف ، قال تعالى في القرآن الذي قال فيه (لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ إلخ) الآية 88 المارة "وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ" من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا دفعة واحدة كما أنزلنا التوراة والإنجيل والزبور "وَبِالْحَقِّ نَزَلَ" نجوما متفرقة على قلب محمد الشريف بواسطة الأمين جبريل عليهما الصلاة والسلام من سماء الدنيا محفوفا بالرصد من الملائكة محفوظا بهم من تخليط الشياطين ، هذا ، ولما كان القرآن نزل بلغة العرب وعادة العرب فيما يتكلمون بشيء يستطردون لغيره ، فتذكره ثم تعود إلى ما كانت تتكلم به ، وهكذا بعد أن ذكر اللّه تعالى القرآن واستطرد لذكر

غيره وأنهاه ، ذكر ما يتعلق به تعظيما له وإجلالا ، أي انا لم نرد بإنزاله إلا تقرير الحق والصدق الذي أخبركم به المنزل عليه رسولنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم وقد اشتملت هذه الآية على أربع فوائد ، الأولى أن الحق هو الثابت الذي لا يزول كما أن الباطل هو الزائل الذي لا يثبت لأن ما جاء من الشرع لا يتطرق اليه النسخ والنقص والتحريف ولزيادة ، فكان حقا في كل الوجوه الثانية ان الانزال في قوله (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ) غير النزول الذي هو في قوله (وَبِالْحَقِّ

(403/447)

نَزَلَ) فوجب أن يكون الخالق غير المخلوق على ما ذهب إليه بعض المتكلمين .

الثالثة ان الباء في قوله وبالحق بمعنى مع كما تقول نزل بعدته وخرج بسلامته أي أنزلناه مع الحق .

الرابعة ان جملة (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ) تفيد الحصر أي ان هذا القرآن ما نزل لقصد آخر سوى اظهار الحق فقط "وَما أَرْسَلْناكَ" يا خاتم الرسل "إِلَّا مُبَشِّراً" بهذا القرآن الطائع بالجنة "وَنَذِيراً" 105 به

للعاصي في النار وما عليك من كفرهم شيء بعد أن تتقدم لهم بهذين الأمرين قال تعالى "وَقُرْآنًا" نون للتعظيم والتفخيم وهو منصوب بفعل مقدر مثل "فَرَقْناهُ" فصّلناه و

بيّنا الحق من الباطل وأنما أنزلناه عليك "لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ" تؤدة وتثبت وترسل فتتلوه عليهم خلال اثنتين وعشرين سنة وشهور وأيام ، راجع المقدمة في بحث نزول القرآن تعلم مدى نزول سورة المكية والمدنية ، أي لا تقرأه عليهم بالسرعة والعجلة فورا بل تمهّل به لعله يوقر في قلوبهم ، أولا بأول ، هذا ومن قرأ فرّقناه بالتشديد فقد أضاع المعنى المراد منه أعلاه وما معناه على قراءة التشديد إلا أنه أنزل متفرقا ، ومكث بضم الميم وسكون الكاف وقرىء بفتح الميم وضم الكاف قراءة شاذة والمعنى الذي ذكرناه تحتمله القراءتان تدبر "وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا" 106 عظيما بحسب الحوادث والوقائع والأسئلة وعفوا حسبما هو كائن في أزلنا على الوصف المذكور فيه ، وعلى ما تقتضيه الحكمة والمصلحة وتشديد الفعل يفيد التكثير ، وذلك لأن تنزيله مفرقا مترادفا متقطعا ومتواليا فيه معنى التكثير ، قال تعالى "قُلْ" يا أكرم الرسل للذين كفروا بهذا القرآن الجليل "آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا" اختاروا لأنفسكم أحد الأمرين ، واعلموا أن في الإيمان به النعيم المقيم في الجنة الخالدة مع النبيين والصالحين ،

وفي الكفر به العذاب الأليم الدائم مع فرعون وهامان ، وإن إيمانكم بالنسبة له ولمنزله والمنزل عليه وعدمه سواء ، لأنه لا يزيده كمالا ، وجحودكم لا يورثه نقصا .

وفي الآية من التهديد والوعيد ما لا يخفى على حد قوله تعالى (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) الآية 28 من سورة الكهف في ج 2 ، وقوله جل قوله (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ) الآية 40 من سورة فصلت في ج 2 .

مطلب آيات القرآن عامة مطلقة ونزولها بأشخاص لا يقيدها ولا يمنع شمولها غيرهم :

(405/447)

وقد خص بعض المفسرين هذه الآية بالمقترحين المار ذكرهم وهذا أيضا يقيدها فيهم دون نص بالتقييد أو التخصيص ، وليس بشيء وما هؤلاء الذين يريدون حصر معاني القرآن بأناس مخصوصين ، والله تعالى أنزله عاما لكل البشر ونزوله في أناس لا يقيد عمومه ولا يخصص إطلاقه بل يبقى على عمومه أبدا شاملا للكل ، لذلك فسرناها كغيرها على أنها عامة مطلقة ، يدخل فيها المقترحون وغيرهم وهو أولى كما ترى ،

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ" من قبل نزول القرآن وهم قراء الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف الذين عرفوا حقيقة الوحي وامارات النبوة وماهية

الحق والباطل والتمييز بينها "إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ" هذا القرآن وسمعوه "يَخِرُّونَ" يسقطون حالا "لِلْأَذْقانِ" على وجوههم لأن الأذقان جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين ، ويطلق على ما ينبت عليها من الشعر ، وكذلك يطلق على الوجه من إطلاق الجزء وإرادة الكل فيرمون بأنفسهم على الأرض "سُجَّداً" 107 تعظيما لأمر اللّه تعالى وشكرا لأنعامه عليهم بإنزاله وبعثة الرسل لإرشادهم وذلك لأن خوف اللّه تعالى مستول على قلوبهم ، لهذا عند ما يسمعون ذكره يطرحون أنفسهم على الأرض خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته .

(406/447)

وإنما لم يقل يسجدون لشدة مسارعتهم حتى كأنهم يسقطون سقوطا على الأرض "وَيَقُولُونَ" في سجودهم هذا "سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا" الذي وعد به خلقه على لسان رسله في الكتب القديمة المؤيدة بهذا القرآن "لَمَفْعُولًا" 108 كائنا واقعا لا محالة ، وأنهم يقولون هذا في حالة السجود وغيرها لتعلق قلوبهم بربهم ، ومن جملة وعده في الكتب القديمة إرسال محمد صلّى اللّه عليه وسلم وإنزال هذا القرآن عليه ، وقد اختلف المفسرون بالمراد في هذه الآية فمنهم من قال إن المراد بها ورقة بن نوفل على أن ورقة لم يحضر إنزال هذه السورة لأنه توفي قبلها بكثير ، ومنهم من قال عبد اللّه بن سلام ، وهذا لم

يسلم بعد حتى الآن ، ومنهم من قال إنهم جماعة من أهل الكتاب ، لان الوعد ببعثة محمد صلّى اللّه عليه وسلم مدون في كتبهم وقد كانوا بانتظاره وإنجاز هذا الوعد ، فلما رأوا محمدا وسمعوا كتابه عرفوه أنه هو ، فخروا سجودا للّه تعالى أن أراهم إياه ، وهذان القولان لا يصحان أيضا ، لان إسلام عبد اللّه وقع بالمدينة كما سيأتي في الآية 27 من سورة النساء في ج 3 ، ولان أهل الكتاب لم يخالطوا محمدا في مكة أبدا ، هذا والمقصود من هذه الآية تقرير تحقير أولئك المقترحين والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم وامتناعهم منه ، وإنهم إذا لم يؤمنوا فقد آمن به من هو خير منهم ، قال تعالى "وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ" للرءوس ولم تتكرر هذه الكلمة في القرآن إلا في هذه السورة وفي الآية 8 من سورة يس المارة ، أي يرمون رءوسهم حالة

(407/447)

كونهم "يَبْكُونَ" من خشية اللّه تعالى خضوعا لجلاله "وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً" 109 لربهم وانقيادا لحضرته الكريمة ولا تكرار في هذه الآية ، لان الأولى لتعظيم أمر اللّه وشكره لانجاز وعده والثانية لما أثر فيهم من مواعظ القرآن العظيم مما يلين القلب ويرعب الجوارح ويرطب العين ويرعد الأعضاء ويرجف الفؤاد ويرققه ، بدليل بكائهم عند سماعه فالسبب مختلف

فيها ويدخل في معنى الخرور قوله صلّى اللّه عليه وسلم إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يترك البعير وليضع يديه قبل ركبتيه .

ولا يمكن من وضعها قبل ركبتيه إلا بهذه الصورة تأمل ، وهؤلاء العلماء الممدوحون هم ما ذكرنا آنفا جماعة من مؤمني أهل الكتاب كانوا يتطلبون ويترقبون بعثة الرسول قيل منهم زيد بن عمرو بن نفيل وأبو ذر ، وعد بعضهم سلمان الفارسي والنجاشي واتباعه من اليهود والنصارى ، والقول الأحسن إنهم طائفة من أهل الكتابين كانوا قبل البعثة عند ما يسمعون وصف الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم يقع منهم ما يقع رضي اللّه عنهم ، وجاءت هذه الآية على طريق ضرب المثل على جهة التقريع أي أن أهل التوراة والإنجيل عند سماع ما يتلى عليهم من كتبهم من وصف حضرة الرسول كانوا يبكون ويودون أنهم يدركونه ليؤمنوا به ، وأنتم حينما تسمعون كلام اللّه الذي أنزله عليه لا يندى لكم جبين ولا تستفز جوارحكم ، بل تهزأون به وتسخرون ، وهو إنّما أرسل رحمة لكم ، وأحسن الأقوال أولها وهو ما بين في الآية المفسرة ، روي عن أبي هريرة أنه قال

:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية اللّه حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا اجتمع على عبد غبار في سبيل اللّه ودخان جهنم . - أخرجه الترمذي والنسائي وزاد في منخري مسلم أبدا - وأخرج الترمذي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما

قال : قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية اللّه وعين باتت تحرس في سبيل اللّه .

(408/447)

وأخرج أيضا عن النضر ابن سعد قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لو أن عبدا بكى في أمته لأنجى الله تلك الأمة من النار ببكاء ذلك العبد ، وما من عمل إلا وله وزن وثواب إلا الدمعة فإنها تطفئ بحورا من النار ، وما اغرورقت عين بمائها من خشية اللّه تعالى إلا حرم اللّه تعالى جسدها على النار ، فإن فاضت على خده لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة .

وينبغي أن تكون هذه الحالة في العلماء أكثر من غيرهم ، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الأعلى التيمي أنه قال من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه .

لأن اللّه تعالى نعت أهل العلم فقال : (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ) الآيتين المارتين ، وقال تعالى (إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) الآية 38 من سورة فاطر المارة وقدمنا فيها ما يتعلق في هذا البحث ما به كفاية ، ومن الفقه الأخذ بما قاله ابن عباس رضي اللّه عنهما :

إذا كثر الطعام فحذروني فإن القلب يفسده الطعام

إذا كثر المنام فنبّهوني فإن العمر ينقصه المنام

إذا كثر الكلام فسكتوني فإن الدين يهدمه الكلام

إذا كثر المشيب فحركوني فإن الشيب يتبعه الحمام

ولما سمع أبو جهل عليه اللعنة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول في دعائه يا اللّه يا رحمن، قال لقومه إن هذا ينهانا عن تعدد لآلهة وهو يدعو إلهين أنزل اللّه تعالى "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ" أيها الناس فإنكم "أَيًّا ما تَدْعُوا" من أسماء اللّه تعالى فادعوه بها "فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى" المشتملة على معاني التقديس كالخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية وقد مرّ بيانها في الآية 8 من سورة طه المارة فراجعها.

(409/447)

وما قيل إن اليهود قالوا لحضرة الرسول إنك تقل من ذكر الرحمن وقد ملئت التوراة من ذكره، فنزلت لا يصح، لأن الآية مكيّة بالاتفاق ولا يهود لهم صلة مع حضرة الرسول في مكة "وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها" بحيث لا تسمع نفسك أو تسمع من هو خارج المسجد "وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ" الجهر الزائد والمخافتة الكلية "سَبِيلًا" 110 حالا وسطا بحيث تسمع

نفسك إذا كنت منفردا ومن بجوارك إذا كنت إماما .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم مختفيا بمكة أي مخف عبادته فيها أو أنه كان وأصحابه إذ ذاك يخفون صلاتهم خوفا من تعدي الكفار عليهم ، وكان إذا خلا بأصحابه رفع صوته ، فإذا سمعه المشركون يسبون القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال تبارك وتعالى لنبيه (ولا تجهر) .

هذا ، ولهذا

البحث صلة في الآية 108 من سورة الأنعام في ج 2 فراجعه ، ورويا عن عائشة أنها نزلت في الدعاء ، وأخرج الترمذي وابن قتادة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال لأبي بكر مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك ، فقال إني أسمعت من ناجيته فقال إرفع قليلا .

وقال لعمر مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت ترفع صوتك فقال إني أوقظ الوسنان فقال اخفض قليلا .

فهذا على فرض صحته لا يصح أن يكون سببا للنزول لأن الآية صريحة في الصلاة ، وعلى كل الجهر بالدعاء والصلاة زيادة على الحاجة وهي اسماع من وراءه إذا كان إماما مذموم والمخافتة بحيث لا يسمع نفسه مذمومة أيضا ، والمستحب الوسط في ذلك .

قال ابن مسعود من أسمع أذنيه لم يخافت والجهر بأن يسمع من هم وراءه في الصلاة ، أو إمامه في الدعاء فقط ، والعدل رعاية الوسط قال صلّى اللّه عليه وسلم خير الأمور أوساطها .

(410/447)

وقال تعالى (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) راجع الآية 143 من سورة البقرة في ج 3 ، والآية المارة 29 من هذه السورة ، والآية 67 من الفرقان المارة .

وما قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) الآية 154 من الأعراف المارة بعيد عن الصحة لأن الأعراف نزلت قبل الإسراء ، والمقدم لا ينسح المؤخر قولا واحدا ، لا خلاف ولا معارضة فيه ، ورحم اللّه علماء الناسخ والمنسوخ ما اغلاهم وأحرصهم على القول به لمجرد بادرة .

فلا حول ولا قوة إلا باللّه القائل "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً" كما زعم بعض كفرة قريش وهم بنو مليح إذ يقولون إن الملائكة بنات اللّه ، وكما زعم اليهود بأن عزيرا ابن اللّه ، وكما افترى النصارى بأن المسيح ابن اللّه ، وكلهم كاذبون أفاكون لأنه جل شأنه لم يتخذ ولدا "وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ" من الناس والملائكة والجن والأوثان ، وهذا إبطال لقول كل من يزعم أن للّه شريكا تعالى اللّه عن ذلك "وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ" فيحتاج إلى من ينصره

ويتعزز به لأنه لم يذل قط تعالى عن ذلك ولم يوال أحدا من أجل المذلة من الغير أو المنفعة لنفسه المقدسة ، فنزهه عن ذلك كله وعظمه "وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا" 111 يليق بذاته العلية وبرأه عن جميع سمات خلقه وأعمالهم وعما يقول الكافرون وأهل الكتابين من اتخاذ الولد والصاحبة والشريك والمعين والولي ، و نزه تنزيها كثيرا .

وهذه الآية تسمى آية العز كما جاء في الحديث الصحيح ، وإن من داوم عليها كان عزيزا محترما ، ولهذا كان صلّى اللّه عليه وسلم يعلمها لكل غلام أفصح من بني عبد المطلب ، فعلى الموفق أن يداوم عليها ليل نهار ليوقع اللّه في قلوب خلقه مهابته واحترامه ويضاعف له الأجر بتلاوتها .

أخرج مسلم عن سمرة بن جندب قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أحب الكلام إلى اللّه أربع : لا إله إلا اللّه واللّه أكبر وسبحان اللّه والحمد للّه لا يضرك بأيهن بدأت .

وعن ابن عباس قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم أول ما يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون اللّه في السراء والضراء .

عن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الحمد للّه رأس الشكر ما شكر اللّه عبد لا يحمده .

وأخرج أبو يعلى وابن السّني عن أبي هريرة قال : خرجت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ويدي في يده فأتى على رجل رثّ الهيئة فقال أي فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ قال السقم والضر قال صلّى اللّه عليه وسلم ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟

قال بلى ، قال قل توكلت على الحي الذي لا يموت ، (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً) إلخ الآية ، فأتى عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعد مدة وقد حسنت حالته فقال مهيم أي مم أصابك هذا ، فقال لم زل أقول الكلمات التي علمتني .

وأخرج ابن ابي الدنيا في كتاب الفرج والبيهقي في الأسماء والصفات عن إسماعيل بن أبي فديك قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل عليه السلام ، فقال يا محمد قل توكلت على الحي الذي لا يموت و(الْحَمْدُ لِلَّهِ) الآية .

وأخرج ابن أنس والديلمي عن فاطمة بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لها إذا أخذت مضجعك فقولي الحمد للّه الكافي ، سبحان اللّه الأعلى ، حسبي اللّه وكفى ، ما شاء اللّه قضى ، سمع اللّه لمن دعا ، ليس من اللّه ملجأ ولا وراءه ملتجى ، توكلت على اللّه ربي وربكم ، (ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الْحَمْدُ لِلَّهِ

الآية .

ثم قال ما من مسلم يقرأوها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فنضره .

(412/447)

هذا ، ولا يوجد سورة محتومة بمثل ما ختمت به هذه السورة ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليما كثيرا ، والحمد للّه رب العالمين حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده بمعونة اللّه تعالى وتوفيقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 407 . 588 ﴾

(413/447)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والأربعون بعد الأربعمائة

فصل فى الوقف والابتداء

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الإسراء

مكية إلا قوله وان كادوا ليفتنوك الآيات الثمان فمدني

من آياتنا البصير تام من دوني وكيلا كاف إن نصب ما بعده بأعنى وليس بوقف إن نصب بيتخذوا أو بالبدلية من وكيلا أو النداء على قراءة تتخذوا بالتاء الفوقية شكورا تام كبيرا كاف خلال الديار جائز مفعولا كاف أكثر نفيرا حسن فلها تتبيرا حسن وكذا إن يرحمكم وقال أبو عمرو كاف عدنا حصيرا تام هي أقوم جائز أليما تام بالخير صالح عجولا تام آيتين كاف والحساب تام تفصيلا كاف وكذا في عنقه منشورا حسن حسيبا تام لنفسه جائز ولا أحبه يضل عليها كاف وزر أخرى رسولا كاف تدميرا حسن وكذا من بعد نوح بصيرا تام مدحورا حسن وكذا مشكورا كلا نمد صالح وكذا هؤلاء وهؤلاء لكن الأول أصلح من عطاء ربك تام وقال أبو عمرو كاف محظورا تام بل أتم مما قبله على بعض حسن وقال أبو عمرو كاف تفصيلا تام وكذا مخذولا إلا إياه كاف إحسانا حسن قولا كريما جائز وكذا من الرحمة صغيرا حسن غفورا أحسن منه تبذيرا كاف الشياطين جائز كفورا ميسورا حسن وكذا محسورا ويقدر كاف بصيرا تام خشية إملاق صالح وكذا وإياكم كبيرا حسن ولا تقربوا الزنا جائز سبيلا كاف إلا بالحق حسن سلطانا مفهوم منصورا حسن وكذا حتى يبلغ

اشده مسؤلا وكذا المستقيم تأويلا تام به علم صالح مسؤولا تام مرحا صالح طولا حسن مكروها صالح من الحكمة حسن مدحورا تام عظيما أتم منه إلا نفورا حسن وكذا سبيلا وعلوا كبيرا ومن فيهم تسبيحهم كاف حليما غفورا حسن مستورا كاف وفي آذانهم وقرا كاف نفورا تام وكذا مسحورا سبيلا كاف جديدا حسن في صدوركم مفهوم وكذا من يعيدنا وأول مرة متى هو صالح وقال أبو عمرو قريبا كاف وكذا يوم يدعوكم ويوم منصوب بمقدر تقديره يعيدكم يوم يدعوكم إلا قليلا تام هي أحسن صالح مبينا تام ربكم أعلم بكم كاف يعذبكم حسن وكيلا تام والأرض حسن وقال أبو عمرو كاف على بغض جائز زبورا حسن وكذا تحويلا ويخافون عذابه كاف محذورا تام شديدا صالح مسطورا تام وكذا الأولون فظلموا بها صالح تخويفا تام أحاط بالناس حسن وكذا

(5/448)

في القرآن طغيانا كبيرا تام اسجدوا لآدم مفهوم طينا صالح إلا قليلا كاف موفورا صالح وعدهم حسن إلا غرورا تام عليهم سلطانا كاف وكيلا تام من فضله كاف رحيما حسن إلا إياه كاف وكذا أعرضتم وكفورا وكيلا مفهوم لا حسن لتعلق ما بعده بما قبله تبيعا تام من الطيبات جائز تفضيلا تام إن نصب ما بعده بإضمار كاحذار أو كاف إن نصب بتقدير

يعيدكم الذي فطركم وإنما لم يكن تاما لتعلق ما بعده بما قبله وكان كافيا لبعد ما بين الكلامين بإمامهم جائز فتيلا تام وكذا سبيلا خليلا حسن قليلا صالح نصيرا تام من رسلنا حسن تحويلا تام إلى غسق الليل كاف ذكره أبو حاتم والاجود الوقف على وقرآن الفجر لأنه معطوف على الصلاة مشهودا حسن نافلة تلك كاف محمودا حسن وكذا نصير الباطل صالح زهوقا تام للمؤمنين كاف خسارا تام يؤوسا حسن سبيلا تام ويألونك عن الروح مفهوم وتقدم نظيره في سورة البقرة إلا قليلا كاف وكذا إلا رحمة من ربك عليك كبيرا تام وكذا ظهيرا كفورا كاف ينبوعا جائز وكذا تفجيرا وقبيلا لان كلا منهما رأس آية ولطول الكلام كتابا نقرؤه تام وقال أبو عمرو لمن قرأ قل سبحان ربي بالأمر وكاف لمن قرأ قال سبحان ربي لان ما بعده خبر عن الرسول فهو متصل بذلك بشرا رسولا في الموضعين تام وكذا ملكا رسولا بيني وبينكم كاف بصيرا تام فهو المهتدي كاف وكذا أولياء من دونه وصما صالح سعيرا حسن خلقا جديدا تام لا ريب فيه مفهوم إلا كفورا تام خشية الإنفاق كاف قتورا تام بينات صالح مسحورا حسن بصائر مفهوم عند بعضهم مثبورا كاف اسكنوا الأرض كاف لفيفا حسن وبالحق نزل تام ونذيرا كاف على مكث صالح وقال أبو عمرو كاف تنزيلا تام اولا تؤمنوا صالح لمفعولا كاف خشوعا تام الحسني كاف ولا تخافت بها صالح سبيلا حسن آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 447. 460 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الإسراء

مكية إلاَّ قوله وإن كادوا ليفتنونك الآيات الثمان فمدنيّ وهي مائة وإحدى عشرة آية في الكوفي وعشر في عد الباقين اختلافهم في آية واحدة للأذقان سجداً عدها الكوفي وكلمها ألف وخمسمائة وثلاثة وثلاثون كلمة وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع ستة مواضع أولى بأس شديد ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً إلاَّ أن كذب بها الأولون أو معذبوها عذاباً شديداً ورحمة للمؤمنين ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً

من آياتنا (كاف)

البصير (تام)

وكيلاً (كاف) لمن قرأ تتخذوا بالفوقية وما بعده منصوب بأعني أو بتقدير النداء أي يا ذرية من حملنا لأنَّه يصير في الثلاث منقطعاً عما قبله وليس بوقف لمن قرأه بالتحتية ونصب ذرية مفعولاً ثانياً ليتخذوا وكذا ليس بوقف لمن نصب ذرية بقوله أن لا تتخذوا أو رفع ذرية بدلاً من الضمير في يتخذوا على قراءته بالتحتية وكان وقفه على ذلك مع نوح

شكوراً (تام)

كبيراً (كاف)

خلال الديار (حسن)

مفعولاً (كاف) ومثله نفيراً

لأنفسكم (كاف) وقال يحيى بن نصير النحوي لا يوقف على أحد المقابلين حتى يأتي بالثاني وكذا كان يقول في كل معادلين

فلها (حسن)

أول مرة ليس بوقف لأنَّ ما بعده موضعه نصب بالنسق على ما قبله

تتبيرا (كاف)

أن يرحمكم (أكفى) للابتداء بعده بالشرط وقال الأخفش تام والمعنى إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم إلى المعصية مرّة ثالثة عدنا إلى العقوبة

عدنا (حسن)

حصيراً (تام)

هي أقوم (كاف) لاستئناف ما بعده ولا وقف من قوله ويبشر إلى أليماً لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على كبيراً لعطف وإن على ما قبلها

أليماً (تام)

بالخير (حسن) وحذفوا الواو من أربعة أفعال مرفوعة لغير جازم من قوله ويدع الإنسان ويمح الله الباطل ويدع الداع بسورة القمر وسندع الزبانية اكتفاء بالضمة عن الواو وقيل حذفت تنبيهاً على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود قاله في الإتقان

عجولاً (تام)

آيتين (حسن)

مبصرة ليس بوقف لأنَّ بعده لام العلة

والحساب (كاف) وانتصب كل شيء بفعل مضمر دل عليه ما بعده كأَّنه قال وفصلنا كل شيء فصلناه كقول الشاعر

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

كأَّنه قال وأخشى الذئب أخشاه فهو من باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره أو نصب على مذهب الكوفيين بالفعل الذي بعده وكذا كل شيء فصلناه تفصيلاً والوقف على تفصيلاً كالذي قبله لأنّ كل الثانية منصوبة بفعل مقدر أيضاً

في عنقه (حسن) لمن قرأ ويخرج بالتحتية أي يخرج الطائر كتاباً وهي قراءة أبي جعفر وكذا

على قراءة ونخرج بالنون مضارع أخرج وبها قرأ أبو عمرو وقرأ ابن عامر يلقاه بضم الياء التحتية وتشديد القاف مضارع لقي بالتشديد والباقون بالفتح والسكون والتخفيف مضارع لقي

منشوراً (كاف)

كتابك (جائز)

حسيباً (تام) للابتداء بعد بالشرط

لنفسه (جائز) والأولى وصله لعطف جملتي الشرط

عليها (حسن)

وزر أخرى (كاف) للابتداء بالنفي

رسولاً (تام)

مترفيها (جائز) لمن قرأ آمرنا بالمد والتخفيف وهي قراءة الحسن وقتادة ويعقوب بمعنى كثرنا وكذا من قرأ أمرنا بالقصر والتشديد بمعنى سلطنا من الإمارة وهي قراءة أبي عثمان النهدي وأبي العالية ومجاهد وهي شاذة وليس بوقف لمن قرأ أمرنا بالقصر والتخفيف أي أمرناهم بالطاعة فخالفوا وهي قراءة العامة قال أبو العالية وأنا أختارها لأنَّ المعاني الثلاثة الأمر والإمارة والكثرة مجتمعة فيها

تدميراً (كاف) ومثله من بعد نوح

بصيراً (تام)

(8/448)

لمن نريد (كاف) ومثله جهنم لأنَّ قوله يصلاها يصلح مستأنفاً أي هو يصلاها ويصلح حالاً من الضمير في له أي جعلنا جهنم له حال كونه صالياً قاله السجاوندي

مدحوراً (كاف)

وهو مؤمن ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد

مشكوراً (حسن)

كلاًّ نمد (جائز) عند يعقوب على أن ما بعده مبتدأ ومن عطاء ربك الخبر وليس بوقف إن جعل هؤلاء وهؤلاء بدلان من كلاًّ بدل كل من كل على جهة التفصيل فمن عطاء ربك موصول بما قبله والمعنى يرزق المؤمن والكافر من عطاء ربك

من عطاء ربك (كاف)

محظوراً (تام)

على بعض (حسن)

تفضيلاً (تام) ومثله مخذولاً

إلاَّ إياه (كاف) لأنَّ قوله وبالوالدين إحساناً معه إضمار فعل تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً أو أوصيكم بالوالدين إحساناً وحذف هذا الفعل لأنَّ المصدر يدل عليه وليس بوقف إن جعل وبالوالدين إحساناً معطوفاً على الأول وداخلاً فيما دخل فيه

إحساناً (حسن) وقيل كاف ولا يوقف على الكبر ولا على كلاهما لأنَّ قوله فلا تقل لهما أف جواب الشرط لأنَّ أن هي الشرطية زيدت عليها ما توكيداً لها فكأنَّه قال إن بلغ أحدهما أو كلاهما الكبر فلا تقل لهما أف وقرأ حمزة والكسائي يبلغان فالألف للتثنية والنون مشددة مكسورة بعد ألف التثنية فعلى قراءتهما يجوز الوقف على الكبر على جهة الشذوذ وذلك أن فاعل يبلغن متصل به وهي الألف وقرأ غيرهما يبلغن فأحدهما فاعل يبلغن و أو كلاهما عطف على أحدهما

أف (حسن) ومثله تنهرهما

قولاً كريماً (كاف)

من الرحمة (جائز)

صغيراً (تام)

نفوسكم (جائز)

صالحين ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد

غفوراً (تام)

وابن السبيل (جائز)

تبذيراً (كاف)

الشياطين (جائز) وقيل كاف

كفوراً (تام)

ترجوها ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد وهو فقل لهم قولاً ميسوراً وهو تام ولا وقف إلى محسوراً فلا يقف على عنقك ولا على كل البسط لأنَّ جواب النهي لم يأت بعد

محسوراً (تام)

ويقدر (كاف)

بصيراً (تام)

خشية إملاق (جائز) ومثله وإياكم

كبيراً (كاف)

ولا تقربوا الزنا (جائز) وكذا فاحشةً

سبيلاً (كاف)

إلاَّ بالحق (كاف) عند أبي حاتم وتام عند العباس بن الفضل

سلطاناً (جائز) وقيل كاف على قراءة من قرأ فلا تسرف بالتاء الفوقية خطاباً للولي أي فلا تسرف أيها الولي فتقتل من لم يقتل أو في التمثيل بالقاتل فعلى هذا التقدير لا يوقف على سلطاناً بل على في القتل

وهو (حسن) ومن قرأ بالتحتية فالوقف عنده على منصورا وفسره ابن عباس فلا يسرف ولي المقتول فيقتص لنفسه من غير أن يذهب إلى ولي الأمر فيعمل بحمية الجاهلية ويخالف أمر الله وقال غيره فلا يسرف ولي المقتول فيقتل غير القاتل أو يقتل اثنين بواحد و قريء لوليه ويروى لوليها أي ولي النفس قال أبو جعفر وهذه قراءة على التفسير فلا يجوز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف الإمام

في القتل (كاف) ومثله منصوراً

أشده (حسن) ومثله بالعهد على تقدير مضاف أي فإنَّ ذا العهد كان مسؤولاً إن لم يف للمعاهد وظاهر الآية إنَّ العهد هو المسؤول من المعاهد أن يفي به ولا يضيعه

مسؤولاً (كاف) ومثله المستقيم

تأويلاً (تام)

به علم (كاف)

مسؤولاً (تام)

مرحاً (حسن)

طولاً (كاف)

سيئه عند ربك (حسن) على قراءة من قرأ سيئة بالتأنيث والنصب وجعله خبر كان وينصب مكروها بفعل مقدر تقديره وكان مكرهاً ففصل بينهما لئلا يتوهم أَنَّه نعت لما قبله وليس بوقف إن جعل مكروها خبرا ثانيا وأما من قرأ سيئه بالرفع والتذكير على أَنَّه اسم كان ومكروها الخبر فالوقف عليه كاف وبها قرأ ابن عامر وعليها فلا يوقف على سيئه لئلاَّ يبتدأ بمنصوب لا دليل في الكلام على إعرابه ولا على معناه فلا فائدة فيه وأضاف السيء إلى هاء المذكور إشارة إلى جميع ما تقدم وفيه السيء والحسن ولم يقل مكروهة لأنَّ السيئة تؤوّل بتأويل السيء ويؤيد هذه القراءة قراءة عبد الله كل ذلك كان سيآته مكروها بالجمع مضافاً للضمير راجع السمين

من الحكمة (حسن)

إلهاً آخر ليس بوقف لأنَّ جواب النهي لم يأت

مدحوراً (تام)

إناثاً (جائز)

عظيماً (تام)

ليذكروا (جائز) للابتداء بالنفي

نفوراً (كاف)

كما تقولون ليس بوقف لأنَّ قوله إذاً لابتغوا جواب لو

سبيلاً (حسن) ومثله كبيرا على استئناف ما بعده

ومن فيهن (كاف) قال الحسن وإن من شيء فيه روح وقال ابن عباس وإن من شيء حيّ وروى موسى بن عبيد عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه قال يا بنيّ آمرك أن تقول سبحان الله وبحمده فإنَّها صلاة الخلق وتسبيحهم وبها يرزقون قال وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده وقال المقداد إنَّ التراب يسبح ما لم يبتل فإذا ابتل ترك التسبيح وإنَّ الجواهر تسبح ما لم ترفع من مواضعها فإذا رفعت تركت التسبيح وإنَّ الورق يسبح ما دام على الشجر فإذا سقط ترك التسبيح وإنَّ الماء ما دام جارياً يسبح فإذا ركد ترك التسبيح وإنَّ الثوب يسبح ما دام نظيفاً فإذا اتسخ ترك التسبيح وإنَّ الوحوش إذا صاحت سبحت فإذا سكتت تركت التسبيح

وإنَّ الطير تسبح ما دامت تصيح فإذا سكتت تركت التسبيح وأنَّ الثوب الخلق ليناديي في أول النهار اللهم اغفر لمن أفناني اهـ النكزاوي والجمهور على أنَّ التسبيح بلسان المقال والعقل لا يحيله إذ لم نأخذ الحياة من تصويتها بل من إخبار الصحابة بذلك إذ خلق الصوت في محل لا يستلزم خلق الحياة والعقل وتسبيح الجمادات كالطعام والحصى معناه أنَّ الله تعالى خلق فيه اللفظ الدال على التنزيه حقيقة إذ لو كان بلسان الحال لم يقل ولكن وقيل بلسان الحال باعتبار دلالته على الصانع وأنَّه منزه عن النقائص وإضافة التسبيح إليه مجاز لأنَّ اللفظ إنَّما يضاف حقيقة لمن قام به

إلاَّ يسبح بحمده ليس بوقف لتعلق ما بعده به استدراكاً

تسبيحهم (كاف)

غفوراً (تام)

مستوراً (كاف)

وفي آذانهم وقراً (حسن) وقيل كاف للابتداء بالشرط

نفوراً (تام) ومثله مسحوراً

فضلوا (جائز)

سبيلاً (كاف) ومثله جديداً على استئناف ما بعده وجائز إن علق ما بعده بما قبله

أو حديداً ليس بوقف لأنَّ أو خلقا منصوب بالعطف على ما قبله

في صدوركم (جائز) قال عبد الله بن عمر الموت وقيل الجبال

من يعيدنا (حسن) ومثله أول مرة وقيل كاف لاختلاف الجملتين لأنَّ السين للاستئناف وقد دخلته الفاء

متى هو (كاف) ومثله قريباً إن نصب يوم بمقدر أي يعيدكم يوم يدعوكم وجائز إن جعل ظرفاً لقريباً

بحمده (حسن)

إلاَّ قليلاً (تام)

هي أحسن (حسن) ومثله ينزغ بينهم

مبيناً (تام)

ربكم أعلم بكم (كاف) ومثله يعذبكم

وكيلاً (تام)

والأرض (حسن) ومثله على بعض

زبوراً (تام)

ولا تحويلاً (كاف) ومثله عذاباً

محذوراً (تام) للابتداء بالشرط

شديداً (كاف)

مسطوراً (تام) قال مقاتل أما الصالحة فتهلك بالموت وأما الطالحة فبالعذاب وقال ابن مسعود إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها كان ذلك في اللوح المحفوظ مكتوباً أي لأن المعصية إذا أخفيت لا تتعدى فاعلها فإذا ظهرت للعامة والخاصة كانت سبباً للهلاك بالفقر والوباء والطاعون

الأولون (حسن) وقيل كاف لأنَّ الواو للاستئناف

فظلموا بها (جائز)

تخويفاً (تام)

أحاط بالناس (حسن) ومثله للناس وكذا في القرآن وهي شجرة الزقوم التي قال الله فيها إنَّها شجرة تخرج في أصل الجحيم أي خلقت من النار وقيل هي أبو جهل وقيل هي التي تفرع منها ناس في الإسلام وهم ظالمون قد أحدثوا فيه ما لا يجوز فيه وسئل الإمام أحمد عن شخص منهم هل تلعنه فقال هل رأيتني ألعن أحداً

ونخوفهم (جائز) أي ونخوفهم بشجرة الزقوم فما يزيدهم التخويف إلاَّ طغياناً كبيراً

وكبيراً (تام)

لآدم (جائز) ومثله إلاَّ إبليس

طيناً (كاف) لاتحاد فاعل فعل قبله وفعل بعده بلا حرف عطف قاله السجاوندي

كرمت عليّ (جائز) للابتداء بلام القسم

القيامة ليس بوقف لأنَّ ما بعده قد قام مقام جواب القسم والجزاء

إلاَّ قليلاً (كاف)

موفوراً (جائز) أكد الفعل بمصدره لرفع توهم المجاز فيه ومثله بصوتك

وعدهم (حسن) لتناهي المعطوفات وللعدول من الخطاب إلى الغيبة إذ لو جرى على سنن

الكلام الأول لقال وما تعدهم بالتاء الفوقية

إلاَّ غروراً (تام)

سلطان (كاف)

وكيلاً (تام)

من فضله (كاف)

رحيماً (تام)

إلاَّ إياه (حسن) ومثله أعرضتم

كفوراً (كاف) وكذا وكيلاً على استئناف ما بعده وجائز إن عطف على حرف الاستفهام وجاز لكونه رأس آية

بما كفرتم (جائز)

تبيعاً (تام)

في البر والبحر (جائز)

تفضيلاً (تام) قال ابن عباس كل شيء يأكل بفيه إلاَّ ابن آدم فإنه يأكل بيديه وقال الضحاك كرمه بالنطق والتمييز وفضلناهم على كثير المراد جميع من خلقنا غير طائفة من الملائكة والعرب قد تضع الأكثر والكثير في موضع الجميع والكل كما قال يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والمراد به جميع الشياطين وقال زيد بن أسلم في قوله ولقد كرمنا بني آدم قالت الملائكة ربنا إنَّك أعطيت بني آدم ما يأكلون فيها ويتمعون ولم تعطنا ذلك فأعطنا في الآخرة فقال وعزتي وجلالي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان

بإمامهم (كاف) أي بنبيهم وقيل بكتابهم الذي أنزل عليهم وقيل كل يدعي بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بأعمالهم قال السمين قال الزمخشري ومن بدع التفاسير أنَّ الإمام جمع أم وأنَّ الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم وأن الحكمة فيه رعاية حق عيسى ابن مريم وإظهار شرف الحسن والحسين ولئلاَّ تفتضح أولاد الزنا اهـ

فتيلاً (كاف) ومثله سبيلاً وكذا علينا غيره وخليلاً وقليلاً كلها وقوف كافية

نصيراً (تام) لأنَّ إن بمعنى ما أي ما كادوا يستفزونك إلاَّ ليخرجوك منها

ومنها (كاف)

إلاَّ قليلاً (كاف) إن نصبت سنة بفعل مقدر أي سن الله ذلك سنة من قد أرسلنا قبلك أو يعذبون كسنة من قد أرسلنا قبلك فلما أسقطت الكاف عمل الفعل وجائز إن نصبتها بما قبلها لكونها رأس آية

من رسلنا (حسن)

تحويلاً (تام)

(13/448)

إلى غسق الليل (حسن) إن نصب ما بعده على الإغراء أي إلزموا قرآن الفجر أو وعليك قرآن الفجر كذا قدره الأخفش وتبعه أبو البقاء والأصول تأبى هذا لأنَّ أسماء الأفعال لا تعمل مضمرة و الأجود الوقف على وقرآن الفجر لأنَّه معطوف على الصلاة أي أقم الصلاة وقرآن الفجر أي صلاة الفجر

مشهوداً (كاف) على استئناف ما بعده وقطعه عما قبله

نافلة لك (حسن) كذا قيل والأولى وصله لأنَّ قوله عسى وعد واجب على قوله فتهجد

وعسى كلمة ترج للإجابة فتوصل بالدعاء

محموداً (كاف)

مخرج صدق (حسن) مدخل ومخرج بضم الميم فيهما هنا باتفاق القراء لكن إن أردت

المصدر فتحت ميم مخرج ومدخل وإن أردت المكان ضممتهما

نصيراً (تام)

الباطل (كاف)

زهوقاً (تام)

المؤمنين (حسن)

خساراً (تام)

ونأى بجانبه (جائز) عند بعضهم والأولى وصله لعطف جملة الظرف على الجملة قبلها

يؤساً (كاف)

على شاكلته (حسن) أي على نيته وقيل على دينه وقيل على طريقته

سبيلاً (تام)

على الروح (جائز) للفصل بين السؤال والجواب وكذا يقال في نظير ذلك 0

من أمر ربي (حسن) قيل لم يبين الله تعالى عن أي شيء سألوه من أمر الروح فلم يجبهم إذ كان في كتبهم إن أجابكم عن الروح فليس بنبي والروح بعض الإنسان ومنزلتها فيه الأعضاء التي لا يعيش إلاَّ بها فلم يعرف النَّبي صلّى الله عليه وسلّم عما ذا سألوه من أمر الروح عن قدمها أو حدوثها أو جوهر أو عرض أو هي الإنسان الحي أو غيره أو بعضه وقيل أراد بالروح القرآن فنزلت الآية قال ابن عباس أرسلت قريش إلى اليهود يسألونهم في شأن محمَّد هل هو نبي أم لا فقالوا نجده في التوراة كما وصفتموه وهذا زمانه ولكن اسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بخصلتين ولم يخبركم بالثالثة فاعلموا أنَّه نبي فاتبعوه وسلوه عن أصحاب الكهف وذكروا لهم قصتهم واسألوه عن ذي القرنين فإنَّه كان ملكاً وكان من أمره كذا وكذا واسألوه عن الروح فإن أخبركم عن الثلاث فلا ندري ما هو فسألته قريش عنها فقال ارجعوا غداً أخبركم ولم يقل إن شاء الله تعالى ففتر عنه الوحي ثلاثة أيام وقيل خمسة عشر يوماً ففرحت قريش ووجد النَّبي صلّى الله عليه وسلّم في نفسه فنزل عليه ولا تقولنَّ لشيء إنِّي فاعل الآية وهذا تأديب من الله تعالى لنبيه حين سئل ووعدهم أن يجيبهم غداً ولم يستثن

إلاَّ قليلاً (تام)

أوحينا إليك (جائز)

وكيلاً (جائز) لكونه رأس آية ولجواز الوقف مدخل لقوم أي ولكن رحمة من ربك غير

مذهوب بالقرآن امتناناً من الله ببقائه محفوظاً

من ربك (كاف)

كبيراً (تام) 0

لا يأتون بمثله ليس بوقف لأنَّ ما قبله قد قام مقام جواب لو فكأنه قال لو كان بعضهم لبعض

ظهيراً لا يأتون بمثله ولا يأتون جواب القسم المحذوف وقيل جواب الشرط واعتذروا عن

رفعه بإن الشرط ماض فهو كقوله

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

فأجاب الشرط مع تقدم اللام الموطئة في لئن الداخلة على الشرط وهو دليل للفراء ومن

تبعه وعلى كلا التقديرين ليس بوقف لفصله بين الشرط وجوابه

ظهيراً (تام)

من كل مثل (جائز)

كفوراً (كاف)

ينبوعاً (جائز) ومثله تفجيراً و قبيلاً لأنّ كلاًّ منهما رأس آية وجميع الأفعال معطوفة على ما

عملت فيه حتى فكأنه قال حتى تفجر لنا أو تكون لك أو ترقى في السماء

وفي السماء (جائز) للابتداء بالنفي بعد طول القصة

نقرؤه (تام) لتناهي المعطوفات ولمن قرأ قل سبحان ربي بالأمر وكاف لمن قرأ قال سبحان

ربي لأنَّ ما بعده خبر عن الرَّسول فهو متصل بذلك

بشراً رسولاً (تام) في الموضعين

الهدى ليس بوقف لأنَّ فاعل منع لم يأت بعد وهو إن قالوا وإن يؤمنوا مفعول ثان لمنع والتقدير

وما منع الناس من الإيمان وقت مجيء الهدى إياهم إلاَّ قولهم أبعث الله بشراً رسولاً

وبشراً رسولاً وملكاً رسولاً في الموضعين (تام)

ومطمئنين ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب لو

وبينكم (كاف)

بصيراً (تام)

المهتد (كاف) للابتداء بالشرط وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء وصلاً وحذفها وقفاً هنا

وفي الكهف وحذفها الباقون في الحالتين

من دونه (كاف) لأنَّ الواو لا تحتمل الحال والعطف فكانت استئنافاً

وصماً (حسن)

مأواهم جهنم (أحسن) منه لأنَّ كلما منصوبة بما بعدها ومعنى خبت سكن لهبها بعد أن

أكلت لحومهم وجلودهم فإذا بدلوا غيرها عادت كما كانت

سعيراً (كاف)

ورفاتاً ليس بوقف لأنَّما بعده بقية القول

جديداً (تام) لتمام القول

لا ريب فيه (حسن) لانتهاء الاستفهام

إلاَّ كفوراً (تام)

خشية الإنفاق (كاف)

قتوراً (تام)

بينات (جائز) ومثله بني إسرائيل إن نصب إذ باذكر مقدراً أي فاسأل عن قصة بني إسرائيل

إذ جاءهم سلى نبيه محمَّداً بما جرى لموسى مع فرعون وقومه وليس بوقف إن جعل إذ

معمولاً لآتينا ويكون قوله فاسأل بني إسرائيل اعتراضاً

مسحوراً (كاف)

بصائر (حسن) وقال الدينوري تام أي أنزلها بصائر فبصائر حال من مقدر بناء على أنَّما

بعد إلاَّ لا يكون معمولاً لما قبلها وقيل ما قبلها يعمل فيما بعدها وإن لم يكن مستثنى ولا

مستثنى منه ولا تابعاً له 0

لقد علمت ليس بوقف على القراءتين في علمت فقد قرأ الجمهور علمت بفتح التاء على خطاب موسى لفرعون وتبكيته في قوله إنه مسحور أي قد علمت إن ما جئت به ليس سحراً وقرأ الكسائي علمت بضم التاء بإسناد الفعل لضمير موسى أي إني متحقق إن ما جئت به هو منزل من عند الله 0

مثبوراً (كاف) وجميعاً والأرض ولفيفاً كلها وقوف كافية قال السجاوندي ما قبل لفيفاً بيان وعد الآخرة في المآل وما بعده بيان حقيقة القرآن في الحال بأنه حق وما جاء به حق 0

وبالحق أنزلناه (حسن) للمغايرة بين الحقين فالأول التوحيد والثاني الوعد والوعيد 0

وبالحق نزل (تام) للابتداء بالنفي 0

ونذيراً (كاف) إن نصبت قرآناً بفعل مقدر فكأنه قال وفرقنا قرآناً فرقناه وليس بوقف إن نصبته عطفاً على ما قبله ويكون من عطف المفردات أو نصب بفرقناه أو نصب بأرسلناك أي وما أرسلناك إلاَّ مبشراً ونذيراً وقرآناً أي رحمة لهم 0

على مكث (جائز) أي تؤدة وتطاول في المدة شيأً بعد شيء 0

تنزيلاً (تام)

أولا تؤمنوا (حسن) ومثله سجداً على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على يخرون 0

سبحان ربنا (حسن) وإن مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة والمعنى أن ما وعد به من

إرسال محمَّد صلّى الله عليه وسلّم ونزل القرآن عليه قد فعله وأنجزه فإن بمعنى قد 0

لمفعولاً (كاف)

يبكون (جائز) وهو حال من الضمير في ويخرون فكأنه قال ويخرون للأذقان باكين 0

خشوعاً (تام)

أو ادعوا الرحمن (حسن) ثم يبتدئ أياً ما تدعوا وذلك أن أياً منصوبة بتدعوا على المفعول

به والمضاف إليه محذوف أي أيّ الاسمين وهما لفظ الله والرحمن وتدعوا مجزوم بها فهي

عاملة معمولة 0

تدعوا ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب الشرط

الحسنى (كاف)

ولا تخافت بها (جائز)

سبيلاً (تام) على استئناف ما بعده

ولداً (حسن) ومثله الملك وكذا من الذل

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ 447. 460 ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة بني إسرائيل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قد ذكرنا ما في ذُرِّيَّة1 وذَرِّيَّة وذِرِّيَة فما مضى من الكتاب2 .

ومن ذلك قراءة ابن عباس ونصر بن عاصم وجابر بن يزيد3 : "لَتُفْسَدُنَّ4" ، بضم التاء ، وفتح السين . وقرأ : "لَتَفْسُدُنَّ" ، بفتح التاء ، وضم السين والدال -الفعل لهم- عيسى الثقفي .

قال أبو الفتح : إحدى هاتين القراءتين شاهدة للأخرى ؛ لأنهم إذا أفسدوا فقد فسدوا .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب "رضي الله عنه" : "عَبِيدًا لنا5" .

قال أبو الفتح : أكثر اللغة أن تستعمل العبيد للناس والعباد لله . قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ6﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ7﴾ ، وهو كثير . وقال : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ8﴾ . ومن أبيات الكتاب :

أتُوعِدُني بقومك يا بن حَجْلٍ أشاباتٍ يُخَالُون العبادا ؟

بما جَمَّعْتَ من حضَنٍ وعمرو وما حضَنٌ وعمرو والجِيادا9 ؟

1 سورة الإسراء : 3 .

2 انظر الصفحة "156" وما بعدها من الجزء الأول .

3 هو جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفي أبو عبد الله ، ويقال : أبو يزيد الكوفي ، روى عن أبي الطفيل وعكرمة وعطاء وجماعة ، وروى عنه شعبة والثوري وإسرائيل وغيرهم . وكان متهما بالكذب والقول بالرجعة مات سنة 128 ، وقيل غير ذلك .

تهذيب التهذيب : 2 : 46 وما بعدها .

4 سورة الإسراء : 4 .

5 سورة الإسراء : 5 .

6 سورة الحجر : 42 .

7 سورة الزمر : 16 .

8 سورة فصلت : 46 .

9 الأشابات : الأخلاط . وهو منصوب على الذم ، أو مجرور بدلا من "قومك" وحضن وعمرو قبيلتان . الكتاب : 1 : 153 .

أي يُخالون عبيدا ، أي مماليك . ويقال : العبادُ قوم من قبائل شتى من العرب ، اجتمعوا على النصرانية ، فأنفوا أن يسموا العبيد ؛ فقالوا : نحن العباد .

ومن ذلك قراءة أبي السمال : "فَحَاسُوا 1" ، بالحاء .

قال أبو الفتح : قال أبو زيد ، أو غيره : قلت له إنما هو "فَجَاسُوا" ، فقال : فَحَاسُوا وجَاسُوا 2 واحد ، [91ظ] وهذا يدل على أن بعض القراءة يتخير 3 بلا رواية ، ولذلك نظائر .

ومن ذلك قراءة أُبيّ بن كعب : "لِنَسُوءًا 4" ، بالتنوين .

قال أبو الفتح : لم يذكر أبو حاتم التنوين ، لكنه قال : وبلغني أنها في مصحف أُبي ، "لِيُسِيءَ 5" ، بالياء مضمومة بغير واو . فأما التنوين في : "لنَسُوءًا" فطريق القول عليه أن يكون أراد الفاء فحذفها ، كما قال في موضع آخر ، أي "فَلْنَسُوءًا وُجُوهَكُمْ" على لفظ الأمر ، كما تقول : إذا سألتني فلأعطك ، كأنك تأمُرُ نفسَكَ ، ومعناه فلأعطينّك . واللامان بعده للأمر أيضا ، وهما : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ . . . وَلِيُتَبِّرُوا 6 ﴾ . ويقويّ ذلك أنه لم يأت لإذا جواب فيما بعد ، فدل على أن تقديره "فَلْنَسُوءًا وُجُوهَكُمْ" ، أي فَلْنَسُوءَنّ وُجُوهَكُمْ .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب "عليه السلام" "آمَرْنَا 7" في وزن عَامَرْنَا ، واختلف عن ابن عباس والحسن وأبي عمرو وأبي العتاهية وقتادة وابن كثير وعاصم والأعرج ، وقرأ بها

---

1 سورة الإسراء : 5 .

2 في ك : جاسوا وحاسوا .

3 في ك : تتخير ، والمقرر أن القراءة سنة متبعة ، وحروفها مأثورة كلها عن الرسول صلوات الله عليه ، وانظر الجزء الأول من المحتسب ص296 .

4 سورة الإسراء : 7 .

5 والفاعل ضمير لفظ الجلالة أو الوعد قبله . البحر : 6 : 11 .

6 تكملة هذا الجزء من الآية التي الحديث عنها هي : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ .

7 سورة الإسراء : 16 .

(19/448)

ابن أبي إسحاق وإبو رجاء والثقفي 1 وسلام وعبد الله بن أبي يزيد والكلبي 2 .

وقرأ "أَمَّرْنا" مشددة الميم ، ابن عباس بخلاف ، وأبو عثمان النهدي ، وأبو العالية بخلاف ، وأبو جعفر محمد بن علي - بخلاف - والحسن - بخلاف - وأبو عمرو - بخلاف - والسدي وعاصم ، بخلاف .

وقرأ : "أَمِرْنا" بكسر الميم ، بوزن عَمِرْنا – الحسن ويحيى بن يعمر .

قال أبو الفتح : يقال : أَمِرَ القومُ إذا كثروا ، وقد أَمَرَهُم الله أي : كثَّرهم . وكان أبو علي يستحسن قول الكسائي في قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا 3 ﴾ : أي كثيرا ، من قول الله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ ، ومن قولهم : أَمِرَ الشيءُ ، إذا كثر . ومنه قولهم : خيرُ المالِ سكة مأبُورَة ، أو مُهْرَةٌ مأمُورة4 . فالسكّة الطريقة من النخل ، ومأبورة أي : ملقحة5 ، ومهرة مأمورة أي : مُكثِرةُ النسل .

وكان يجب أن يقال : مُؤْمَرَة لأنه من آمَرَها الله ، لكنه أتبعها قوله : مَأبورَة ، كقولهم : إنه ليأتينا بالغَدَايا والعَشَايا . هذا على قول الجماعة إلا ابن الأعرابي وحده ؛ فإنه قال : الغَدَايا جمع غَدِيّة ، كما أن العشايا جمع عَشِيّة . ولم يكن يرى أن الغدايا ملحقٌ بقولهم : العَشَايا6 ، وأنشد شاهدا لذلك :

ألا ليت حظيّ من زيارة أُمّيَّهْ غَدِيّاتُ قيظ أو عشيّاتُ أَشْتِيَهْ7

وقد قالوا أيضا : أمَرَها اللهُ مقصورا خفيفا ، بوزن عَمَرَها ؛ فيكون مأمُورَة على هذا من هذا ، ولا تكون ملحقةً بمأبُورَة .

---

1 هو بشر بن إبراهيم بن حكيم بن الجهم بن عبد الرحمن أبو عمر الثقفي السمري . قرأ على قتيبة ، وهو من أجل أصحابه ، وروى القراءة عنه يوسف بن جعفر بن معروف النجار وغيره . طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 176 .

2 هو محمد بن المالك بن السائب بن بشر من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار وأيام الناس ومقدم الناس بعلم الأنساب. توفي بالكوفة سنة 146 . الفهرست : 139 .

3 سورة الكهف : 71 .

4 حديث شريف أورده في الجامع الصغير "3 : 491" بلفظ : "خيرُ مالِ المرء مهرةٌ مأمورةٌ، أو سكةٌ مأبورةٌ" ، وقال : أخرجه أحمد والطبراني ، عن سويد بن هبيرة ، ورمز إليه بعلامة الصحيح .

5 في ك : ملحقة ، تحريف .

6 ومفردها على الإلحاق غدوة .

7 رواه اللسان "غدا" ، ونقل أنه إنما أراد غديات قيظ أو عشيات أشتية ، لأن غديات القيظ أطول من عشياته ، وعشيات الشتاء أطول من غدياته .

(20/448)

وأما "أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا" فقد يكون منقولا من أمِرَ القومُ أي : كثُروا . كعلِمَ وعلِمْتُه . وسلِمَ وسلِمْتُه .

وقد يكون منقولا من أمَرَ الرجل إذا صار أميرا . وأمَرَ علينا فلان : إذ وَلِيَ . وإن شئت كان

"أمَّرْنا" كثرنا ، وإن شئت من الأمْرِ والإمارة

.

فأما "أمِرْنا" فَعِلْنا ، بكسر الميم ، فأخبرنا أبو إسحاق وإبراهيم بن أحمد القرميسيني عن أبي بكر محمد بن هارون الروياني عن أبي حاتم قال : قال أبو زيد : يقال : أمِرَ اللهُ ماله وآمَرَه. قال أبو حاتم : ورَوَوْا عن الحسن أن رجلا من المشركين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني أرى أمْرَكَ هذا حقيرًا ، فقال عليه السلام : إنه سَيَأْمَرُ 1 [92و] أي ينتشر ، قال : وقال أبو عمرو : معنى ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ ، أي : أمرناهم بالطاعة ، فعصوا . وقال زهير :

والإثمُ من شرِّ ما يصال به والبر كالغيث نبتُه أمِرُ 2

وأنشد أبو زيد ، رويناه عنه وعن جماعة غيره :

أمُّ جوارٍ ضنؤها غيرُ أمِرْ صهصلقُ الصوتِ بعينها الصبِرْ 3

وقال لبيد :

إن يُغبَطوا يَهبُطوا وإن أمِرُوا يومًا يصيرُوا للْهُلْكِ والنفدِ 4

ومن 5 بعد فالأمر من أ م ر ، وهي مُحادَّة 6 للفظ ع م ر ومساوقة لمعناها 7 ، لأن الكثرة أقرب شيء إلى العمارة . وما أكثر وأظهر هذا المذهب في هذه اللغة ! ومن تنبه عليه حظي بأطرف الطريف ، وأظرف الظريف .

---

1 النهاية : 1 : 51 .

2 يصال به : يفتخر . وأمر : كثير وانظر الديوان : 315

3 روي عيال مكان جوار . والضنء "بفتح الضاد وكسرها" : الولد لا مفرد له ، وإنما هو من باب نفر ورهط ، والجمع ضنوء ، الصهصلق : الصخابة الشديدة الصوت . ومنهم من خصه بالعجوز . والصبر عصارة شجرة مرة ، والجمع صبور . والنوادر : 165 ، واللسان "صهصلق ، أمر" .

4 روي يعبطوا مكان يهبطوا ، والنكد مكان النفد . يهبطوا : فسرها أبو عمرو بيهلكون . ويقال : هبط المرض لحمه – كنصر – أي : هزله . ويعبطوا : يموتون عبطة ، كأنهم يموتون من غير مرض . والنفد : مصدر نفد بمعنى فني وذهب . انظر الديوان : 160 .

5 في ك : وبعد .

6 محادة : قريبة مجاورة .

7 يريد أن "الأمر" مأخوذ من أمر ، وأمر قريبة من عمر وعلى شبه منها ، وانظر الخصائص : 1 : 5 وما بعدها .

ومن ذلك قراءة أبي السمال : "أُفُّ" مضمومة غير منونة ، وقرأ : "أُفَ[1]" خفيفة – ابن عباس . قال هارون[2] النحوي : ويقرأ : "أَفٍّ" ، ولو قرئت "أَفًّا" لكان جائزا ، ولكن ليس في الكتاب ألف .

قال أبو الفتح : فيها ثماني لغات : أُفِّ ، وأُفَّ ، وأُفُّ ، وأُفًّا ، وأُفٍّ ، وأُفٌّ ، وأُفُّ ، وأُفًى ممال .

وهي التي يقول لها العامة : أُفِّي ، بالياء . وأُفْ خفيفة ساكنة .

وأما "أُفَ" خفيفة مفتوحة فقياسها قياس ربَ خفيفة مفتوحة ، وكان قياسها إذا خففت أن يسكن آخرها ؛ لأنه لم يلتق فيها ساكنان فتحرك ، لكنهم بقَّوا الحركة مع التخفيف أمارة ودلالة على أنها قد كانت مثقلة مفتوحة ، كما قال : لا أكلمك حِيرِي دهر[3] ، فأسكن الياء في موضع النصب في غير ضرورة شعر ، لأنه أراد التشديد في حيري دهر ، فكما أنه لو أدغم الياء الأولى في الثانية لم تكن إلا ساكنة فكذلك إذا حذف الثانية تخفيفا أقر الأولى على سكونها دلالة وتنبيها على إرادة الإدغام الذي لابد معه من سكون الأولى .

هذا هنا كذاك ثمة ، وقد مر بنا مما أريد غير ظاهره ، فجعل كأنه هو المراد به – كثير نحو من عشرة أشياء ، وفي هذا مع ما نحن عليه من الإنجاز وتنكب الإكثار كاف بإذن الله .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وعروة بن الزبير في جماعة غيرهما : "جَنَاحَ الذِّلِّ[4]" .

قال أبو الفتح : الذِّلّ في الدابة : ضد الصعوبة ، والذُّلّ للإنسان ، وهو ضد العز . وكأنهم اختاروا للفصل بينهما الضمة للإنسان والكسرة للدابة ؛ لأن ما يلحق الإنسان أكبر قدرا مما

يحلق الدابة ، واختاروا الضمة لقوتها للإنسان ، والكسرة لضعفها للدابة . ولا تستنكر مثل هذا ولا تنبُ عنه ؛ فإنه من عَرَفَ أَنِسَ ، ومن جَهِلَ استوحش . وقد مر من هذا ما لا يحصى كثرة .

---

1 سورة الإسراء : 32 ، وفي ك : أف "بضمتين على الفاء" وهو تحريف .

2 لعله هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور العتكي البصري الأزدي مولاهم ، كان علامة صدوقا نبيلا ، له قراءة معروفة . روى القراءة عن عاصم الجحدري وعاصم بن أبي النجود وغيرهما ، وروى القراءة عنه علي بن نصر ويونس بن محمد المؤدب وغيرهما . وكان أول من سمع بالبصرة وجوه القراءات وألفها وتتبع الشاذ منها ، فبحث عن إسناده . قال ابن الجزري : مات هارون – فيما أحسب – قبل المائتين . طبقات القراء : 2 : 348 .

3 لا أكلمك حيري دهر : مدة الدهر .

4 سورة الإسراء : 24 .

من ذلك قولهم : حلا الشيء في فمي يحلو ، وحلي بعيني ، فاختاروا البناء للفعل على فَعَل فيما كان لحاسة الذوق ؛ لتظهر فيه الواو ، وعلى فَعِل في حَلِي يحلَى 1 لتظهر الياء والألف ، وهما خفيفتان ضعيفتان إلى الواو ؛ لأن [لو كان حس لكان أشبه2] حصة الناظر أضعف من حس الذوق بالفم. وقالوا أيضا : جُمامُ المكوك دقيقا 3 وجِمام القدح ماء ؛ وذلك لأن الماء لا يصح أن يعلو على رأس القدح [92ظ] كما يعلو الدقيق ونحوه على رأس المكوك ؛ فجعلوا الضمة لقوتها فيما يكثر حجمه ، والكسرة لضعفها فيما يقل بل يعدم ارتفاعه.

وقالوا : النضح بالحاء غير معجمة للماء السخيف يخف أثره ، وقالوا : النضخ بالخاء لما يقوَى أثره فيبُل الثوب ونحوه بللا ظاهرا ؛ وذلك لأن الخاء أوفى صوتا من الحاء. ألا ترى إلى غلظ الخاء ورقة الحاء ؟ وقد ثبت في كتاب الخصائص4 من هذا الضرب ونحوه وما جرى مجراه وأحاط به شيء كثير. وقد قال شاعرنا 5 :

وكم من عائبٍ قولا صحيحا وآفته من الفهمِ السقيم

ولكن تأخذُ الأذهانُ منه على قدرِ القرائحِ والعلومِ6

ومن ذلك قراءة الحسن : "خَطَاءً7" ، بخلاف.

وقرأ : "خَطًا" غير ممدود ، والخاء منصوبة خفيفة -الحسن ، بخلاف.

وقرأ : "خِطًا" -بكسر الخاء غير ممدود -أبو رجاء والزهري.

وقرأ : "خَطْئًا" -في وزن خَطْعًا -ابن عامر ، بخلاف.

1 في القاموس: وحَلِيَ بعيني وقلبي – كرضي، ودعا – حلاوة وحلوانا، أو حلا في الفم، وحلى بالعين.

2 ما بين المعقوفين تكملة في هامش الأصل لم يتبين رسمها إلا على هذه الصورة، وهي ساقطة في ك، والعبارة معها وبدونها غير مستقيمة، لكن المراد بها مفهوم كما لا يخفى.

3 المكوك: مكيال يسع صاعا، أو نصف الويبة، وهي اثنان وعشرون مُدًّا بمد النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك. وجمامه: ما على رأسه فوق طفافه، أي: ما ملا حروفه.

4 الخصائص: 2: 157 وما بعدها.

5 هو المتنبي.

6 روي: الآذان مكان الأذهان، والقريحة مكان القرائح. وانظر الديوان: 2: 357

7 سورة الإسراء: 31.

(23/448)

قال أبو الفتح: أما "خَطَاءً" فاسم بمعنى المصدر، والمصدر من أخطأت: إخْطاءً، والخطاءُ من أخطأْت كالعطاء من أعطيْتُ. ويقال: خطِي يَخطأ خِطْئًا وخَطَأً، هذا في

الدين ، وأخطأت الغرض ونحوه . وقد يتداخلان فيقال : أخطأتُ في الدينِ ، وخَطِئْتُ في الرأي ونحوه . قال :

ذرِيني إنما خطئي وصَوْبِي علي وإن ما أهلكتُ مال 1

وقال عبيد :

والناس يلحوْنَ الأميرَ إذا همُ خطِئُوا الصوابَ ولا يُلام المرشد 2

وقال في الدين أمية :

عبادك يخطئُون وأنت ربٌّ بكفَيْكَ المنايا والحُتُوم 3

وأما "خَطًا" و"خِطًا" فتخفيف خَطْئًا وخِطْئًا على القياس .

ومن ذلك قراءة أبي مسلم 4 صاحب الدولة : "فَلا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ" 5 .

قال أبو الفتح : رفع هذا على لفظ الخبر بمعنى الأمر ، كقولهم : يرحمُ اللهُ زيدًا ، فهذا لفظ الخبر ، ومعناه الدعاء . أي : ليرحَمْهُ اللهُ ، ومثله قوله : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ 6 ﴾ ، أي : ليتربصْنَ . وإن شئت 7 كان معناه دون الأمر ، أي ينبغي ألا يسرفَ ، وينبغي أن يتربصْنَ . وعليه قولُه :

---

1 البيت لأوس بن غلفاء . وانظر اللسان "صوب" .

2 ورواه اللسان "أمر" ، ولم ينسبه .

3 روى الشطر الثاني :

كريم لا تليق بك الذموم

والحتوم : جمع حتم ، وهو القضاء وإيجابه وأحكام الأمر . وفي الأصل "الجثوم" ، وهو مصدر جثم ، بمعنى لزم مكانه ، فلم يبرح كأنما يريد به أقبار الموتى . وانظر اللسان "خطأ" .

4 هو عبد الرحمن بن مسلم الخراساني القائم بالدعوة العباسية ، وقيل : هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جوردن من ولد بزرجمهر بن البختجان الفارسي . قال المأمون وقد ذكر عنده أبو مسلم : "أجل ملوك الأرض ثلاثة ، وهم الذين قاموا بنقل الدولة : الإسكندر وأردشير وأبو مسلم الخراساني" ولد سنة 100 للهجرة ، ولما ظهر بخراسان كان ظهوره بمروٍ لخمس بقين من رمضان سنة 129 ، والوالي بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثي . قتله أبو جعفر المنصور سنة 137 . وفيات الأعيان : 2 : 324 وما بعدها .

5 سورة الإسراء : 33 .

6 سورة البقرة : 228 .

7 في ك : وإن كان معناه .

على الحكم المأتِيّ يوما إذا قضى قضيّته ألا يجورَ ويقصِدُ 1

فرفعه على الاستئناف ، ومعناه ينبغي أن يقصد .

ومن ذلك قراءة الجراح : "وَالْبَصرَ وَالْفَوَادَ2" ، بفتح الفاء .

قال أبو الفتح : أنكر أبو حاتم فتح الفاء ، ولم يذكر هو ولا ابن مجاهد الهمز ولا تركه .

وقد يجوز ترك الهمز مع فتح الفاء ، كأنه كان "الفؤاد" بضمها والهمز ، ثم خففت فخلصت في اللفظ واوا ، وفتحت الفاء على ما في ذلك فبقيت واو .

ومن ذلك قراءة الحسن "صَرَفْنَا 3" ، خفيف الراء .

قال أبو الفتح : "صَرَفْنَا" هنا بمعنى صرفنا مشددا على ما بيناه قبل : من كون فعل خفيفة في معنى فعل . ومنه قوله :

ونقرتها بيديك كل منقر4

أي نقرتها .

ومن ذلك [93و] قراءة أبي جعفر : "لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا5" .

قال أبو الفتح : قد تقدم ذكر هذا البتة فيما مضى في البقرة6 .

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي عمرو - بخلاف - وعاصم - بخلاف - : "بِخَيْلِكَ وَرَجِلِك7" ، بكسر الجيم .

قال أبو الفتح : روينا عن قُطرب هذه القراءة عن أبي عبد الرحمن ، وقال : الرجِلُ : الرجال

،

1 لأبي اللحام التغلبي، شاعر جاهلي، واسمه حريث، تصغير حرث. ويروى "حق" مكان "يوم". الكتاب: 1: 431، والخزانة: 3: 613.

2 سورة الإسراء: 36.

3 سورة الإسراء: 41.

4 المحتسب: 1: 81.

5 سورة الإسراء: 61.

6 المحتسب: 1: 71.

7 سورة الإسراء: 64

(25/448)

وعليه قراءة عكرمة وقتادة "ورجالِك". وقالوا: ثلاثة رَجِلَة ورَجْلَة، ومثله الأراجيلُ والمِرْجَلُ. وكان يونس يرى أن الرجْلة للعبيد أكثر، وقال الشاعر:

وأية أرضٍ لا أتيت سراتها وأية أرض لم أرِدْها بِمِرْجَل 1

أي برجال.

ويقال: رجْل جمع راجِل كتاجر وتَجْر، وهذا عند سيبويه اسم للجمع غير مكسَّر بمنزلة الجامل والباقر2، وهو عند أبي الحسن تكسير راجل وتاجر، وقال زهير:

هم ضربوا عن فرجها بكتيبة كبيضاء حرْس في جوانبها الرجْل3

ويكون الرجال جمع راجل كتاجر وتِجَار، قال الله تعالى: ﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا4 ﴾.

ومن ذلك قراءة الحسن: "يَوْمَ يُدْعَوْ كُلُّ أُنَاسٍ5"، بضم الياء، وفتح العين.

قال أبو الفتح: هذا على لغة من أبدل الألف في الوصل واوا، نحو أَفْعَوْ، وحُبْلَوْ6 ذكر ذلك سيبويه، وأكثر هذا القلب إنما هو في الوقف؛ لأن الوقف من مواضع التغيير، وهو أيضا في الوصل محكي عن حاله في الوقف. ومنهم من يبد لها ياء، وبهذه اللغة يحتج ليونس في البيت الذي أنشده صاحب الكتاب شاهدا عليه بأن ياء لبيك ياء التثنية ردا على يونس في أنها ألف بمنزلة ألف: عَلَى ولَدَى، والبيت قوله:

---

1 للأعشى، وروي فأية مكان وأية، وبمرحل بالحاء مكان بمرجل بالجيم. ديوان الأعشى: 355.

2 الجامل: القطيع من الإبل مع رعاته. والباقر: جماع البقر.

3 روي: طوائفها مكان جوانبها. والفرج: موضع مخافة العدو، وهو والثغر بمعنى. جبل، وفي الأصل خرس، وهو تحريف. وبيضاء حرس: شمراخ فيه. والشمراخ: رأس مستدير طويل دقيق في أعلى الجبل. يريد أنهم ضربوا دون موضع المخافة بكتيبة منهم

كأنها لعظمها بيضاء حرس. يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف في هذه القصيدة.

وانظر الديوان: 107

4 سورة البقرة: 239.

5 سورة الإسراء: 71.

6 وتكون "كل" مرفوعة بـ"يدعو"، ويضيف أبو حيان تخريجا آخر، وهو أن تكون الواو ضميرا مفعولا لما لم يسم فاعله، وأصله "يدعون"، فحذف النون كما حذفت في قوله:

أبيتُ أسري وتبيتي تدلُكي وجهَكِ بالعنْبَرِ والمسكِ الذكِي

أي تبيتين تدلكين، و"كل" بدل من واو الضمير. وانظر البحر: 6: 63.

(26/448)

دعوتُ لما نابني مسوَرًا فَلَبَّى فلبَّي يدَيْ مسورِ 1

قال سيبويه: "فَلَبَّي" بالياء دلالة على أنها ياء التثنية. قال: ولو كانت كألف عَلَى ولدَى لقال: فَلَبَّى يدى مسور، كقولك: على يدى مسور؛ فليونس أن يقول: جاء هذا على قولهم في الوصل: هذه أفعى. وقد ذكرنا هذا في غير هذا الموضع من كتبنا 2؛ فكذلك يكون "يُدْعَوْ" مرادا به يدعَى على أفْعَوْ.

ومن ذلك قراءة علي وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب "رضي الله عنهم" والشعبي والحسن – بخلاف – وأبي رجاء وقتادة وحميد وعمرو بن فائد وعمر بن ذر وأبي عمرو ، بخلاف : "وَقُرْآنًا فَرَّقْنَاه"3 ، بالتشديد .

قال أبو الفتح : تفسيره : فصّلناه ، ونزّلناه شيئًا بعد شيء ، ودليله قوله تعالى : ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 22.13﴾

---

1 انظر الصفحة 78 من الجزء الأول .

2 المصدر السابق : 79 .

3 سورة الإسراء : 106 .

(27/448)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الإسراء

مكية وآيها مائة وعشر آيات في غير الكوفي وإحدى عشرة فيها اختلافها آية للأذقان سجدا كوفي مشبه الفاصلة أربعة عشر لبني إسرائيل بأس شديد ويبشر المؤمنين السنين والحساب لم نريد إحسانا قتل مظلوما سلطانا بها الأولون عذابا شديدا ورحمة للمؤمنين

وصما وبالحق نزل بيكون وعكسه اثنا ن الجبال طولا لفيفا القرآت أمال أسرى أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وعن الحسن لنريه بفتح النون كما في المصطلح والإيضاح وبالياء من تحت في الدر للسمين وسهل أبو جعفر همز إسرائيل مع المد والقصر واختلف في مده عن الأزرق ويوقف عليه لحمزة بتحقيق الأولى بلا سكت على بني وبالسكت وبالنقل وبالإدغام وأما بين بين فضعيف وفي الثانية التسهيل بين بين مع المد والقصر فهي ثمانية أوجه

واختلف في ﴿ ألا يتخذوا ﴾ الآية 2 فأبو عمرو بالغيب وافقه اليزيدي والباقون بالخطاب على الالتفات

وأمال أولاهما حمزة والكسائي وخلف وقللها أبو عمرو والأزرق بخلفهما وعن الحسن عبيدا لنا على وزن فعيلا والجمهور عبادا على وزن فعال وعنه أيضا خلل الديار بفتح الخاء بلا ألف

واختلف في (ليسوؤوا وجوهكم)

في الأصل هنا ليس على إطلاقه ومع ذلك فيه نظر ظاهر وعن الحسن ألزمنا طيره بغير ألف

واختلف في (ونخرج له) الآية 13 فأبو جعفر بالياء المثناة من تحت مضمومة وفتح الراء مبنيا للمفعول ونائب الفاعل ضمير الطائر وقرأ يعقوب بالياء المفتوحة وضم الراء مضارع خرج وافقه ابن محيصن والحسن والفاعل ضمير الطائر أيضا والباقون بنون العظمة مضمومة

وكسر الراء واتفقوا على نصب كتابا على المفعول به في الأخيرة وعلى الحال في السابقتين

واختلف في (يلقاه) الآية 13 فابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف

مضارع لقى بالتشديد والباقون بالفتح والسكون والتخفيف مضارع لقي

(28/448)

وأمال ابن ذكوان من طريق الصوري في رواية الأكثرين وحمزة والكسائي وخلف وقلله

الأزرق بخلفه وأبدل همز اقرأ أبو جعفر كوقف حمزة وهشام بخلفه

واختلف في (أمرنا مترفيها) الآية 16 فيعقوب بمد الهمزة من باب فاعل الرباعي ورويت

عن ابن كثير وأبي عمرو وعاصم ونافع من غير هذه الطرق وافقه الحسن من المصطلح

والباقون بالقصر

وأمال يصلاها حمزة والكسائي وخلف وأما الأزرق فله الفتح مع تغليظ اللام والتقليل مع

ترقيقها كما مر عن النشر وكسر تنوين محظورا انظر ومسحورا انظر أبو عمرو وابن ذكوان

من طريق الأخفش وعاصم وحمزة ويعقوب وعن المطوعي وقضاء ربك بالمد والهمز

مصدرا مرفوعا بالابتداء وربك بالجر على الإضافة وأن لا تعبدوا خبره

وأمال (أو كلاهما) حمزة والكسائي وخلف واختلف فيه عن الأزرق فألحقه بعضهم

بنظائره من القوى والضحى فقلله وهو صريح العنوان وظاهر جامع البيان والجمهور على فتحه له وجها واحدا كالربا بالموحدة كما في النشر قال وهو الذي نأخذ به ثم قال وهذا هو الذي عليه العمل عند أهل الأداء قاطبة ولا يوجد نص أحد منهم بخلافه انتهى وذلك لأن ألفها منقلبة عن واو لإبدال التاء منها في كلتا ولدار رسمت ألفا والمميل يعلل بكسر الكاف وقيل عن ياء لقول سيبوية لو سميت بها لقلبت ألفها في التثنية ياء

واختلف في (إما يبلغن) الآية 23 فحمزة والكسائي وخلف ﴿ يبلغان ﴾ بألف التثنية قبل نون التوكيد الشديدة المكسورة على أن الألف ضمير الوالدين وأحدهما بدل منه بدل بعض وكلاهما عطف عليه بدل كل ولولا أحدهما لكان كلاهما توكيدا للألف وافقهم المطوعي والباقون بغير ألف وفتح النون على التوحيد لأنها تفتح مع غير الألف وأحدهما فاعله وكلاهما عطف عليه

(29/448)

واختلف في أف هنا والأنبياء والأحقاف فنافع وحفص وابو جعفر بتشديد الفاء مع كسرها منونة في الثلاثة للتنكير وافقهم الحسن وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء من غير تنوين فيها للتخفيف وافقهم ابن محيصن والباقون بكسرها بلا تنوين على أصل

التقاء الساكنين ولقصد التعريف وهو صوت يدل على تضجر ولغة الحجاز الكسر بالتنوين

وعدمه ولغة قيس الفتح وعن الحسن إن المبذرين بسكون الباء وتخفيف الذال

واختلف في خطأ فابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء والمد وافقه ابن محيصن مصدر خاطأ

يخاطىء خطاء كقاتل يقاتل قتالا وقرأ ابن ذكوان وهشام من طريق الداجوني غير المفسر

وأبو جعفر بفتح الخاء والطاء اسم مصدر من أخطأ وقيل مصدر خطىء خطأ كورم وربما

بمعنى إثم ولم يصب وعن الحسن بفتح الخاء وسكون الطاء مصدر خطىء بالكسر

والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء من غير مد وبه قرأ هشام من طريق الحلواني والمفسر

عن الداجوني مصدر خطىء خطأ إذا لم يتعمد كأثم إثما

وأمال الزنا بالزاي حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (فلا يسرف) الآية 33 فحمزة والكسائي وخلف بالخطاب للإنسان أو

القاتل ابتدأ بالقتل العدوان أو القاتل استيفاء أو ولي القتل بعد نحو الدية أو يقتل غير القاتل

كعادة الجاهلية وافقهم الأعمش والباقون بالغيب حملا على الإنسان أو الولي

واختلف في (بالقسطاس) الآية 35 هنا والشعراء الآية 182 فحفص وحمزة والكسائي

وخلف بكسر القاف فيهما وافقهم الأعمش والباقون بالضم هما لغتان الضم لغة الحجاز

والكسر لغة غيرهم ويوقف لحمزة على (مسؤولا) بالنقل فقط وأما بين بين فضعيف

واختلف في (كان سيئه) الآية 38 فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الهمز والهاء وإشباع ضمتها على الإضافة والتذكير اسم كان ومكروها خبرها أي كل ما ذكر مما أمرتم به ونهيتم عنه كان سيئة وهو ما نهيتم عنه خاصة أمرا مكروها وهذا أحسن ما يقدر في هذا الموضع كما في الدر وافقهم الحسن والأعمش والباقون بفتح الهمزة ونصب تاء التأنيث مع التنوين على التوحيد خبر كان وأنث حملا على معنى كل

ومكروها حملا على لفظها واسم كان ضمير الإشارة ويوقف عليه لحمزة بوجهين التسهيل كالواو على رأي سيبويه والإبدال ياء مضمومة على رأي الأخفش وحكى ثالث كالياء وهو المعضل ورابع وهو الإبدال واوا وكلاهما لا يصح وأمال أوحى و فتلقى وأفاصفيكم و تعالى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وسهل الهمزة الثانية من أفأصفاكم الأصبهاني عن ورش وأدغم دال ولقد صرفنا أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وعن الحسن صرفنا بتخفيف الراء

واختلف في (ليذكروا) الآية 41 هنا والفرقان الآية 50 ( ) أولا يذكر الإنسان (بمريم الآية 67 و ( ) يذكر أو أراد (بالفرقان الآية 62 فحمزة والكسائي وخلف بإسكان الذال وضم الكاف مخففة في الموضعين الأولين من الذكر وافقهم الأعمش والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما والأصل ليتذكروا فأدغم وهو من الاعتبار والتدبر وقرأ حمزة

وخلف (أن يذكر) موضع الفرقان بالتخفيف وافقهما الأعمش وقرأ نافع وابن عامر وعاصم أولا يذكر بمريم بالتخفيف وافقهما الحسن والباقون بالتشديد في السورتين

واختلف في ﴿ كما تقولون ﴾ الآية 42 فابن كثير وحفص بالغيب وافقهما ابن محيصن والشنبوذي والباقون بالخطاب

واختلف في (عما يقولون) الآية 43 فحمزة والكسائي وخلف ورويس من طريق أبي الطيب عن التمار بالخطاب وافقهم الأعمش والباقون بالغيب

(31/448)

واختلف في (تسبح له) الآية 44 فنافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وابو جعفر ورويس من طريق أبي الطيب عن التمار بالياء على التذكير وافقهم ابن محيصن وعن المطوعي سبحت فعلا ماضيا مع تاء التأنيث الساكنة والباقون بالتاء على التأنيث

وأمال الألف الثانية من آذانهم الدوري عن الكسائي وقرأ أئذا أئنا في الموضعين من هذه السورة بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني نافع والكسائي ويعقوب وكل على أصله فقالون بالتسهيل والمد وورش ورويس بالتسهيل والقصر والكسائي وروح بالتخفيف والقصر وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني وكل على أصله

أيضا فابن عامر بالتحقيق من غير فصل إلا أن الجمهور على الفصل لهشام على ما مر وأبو جعفر بالتسهيل والمد والباقون بالاستفهام في الأول والثاني فيهما فابن كثير بتسهيلهما من غير فصل وأبو عمرو بتسهيلهما مع المد والباقون بتحقيقهما مع القصر وتقدم أن بعضهم يخفي النون عند الغين من فسينغضون لأبي جعفر والجمهور على استثنائها عنه ويوقف لحمزة على رؤسهم بالتسهيل بين بين وبالحذف وهو الأولى عند آخرين باتباع الرسم كما في النشر

وأمال متى و عسى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو على ما في الطيبة ونقل في النشر تقليل متى عن أبي عمرو من روايتيه جميعا عن ابن شريح وغيره وأقره وأدغم ثاء لبثتم أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر

وقرأ ﴿ النبئين ﴾ بالهمز نافع وضم زاي (زبورا) حمزة وخلف وكسر لام قل ادعوا عاصم وحمزة ويعقوب وكسر الهاء والميم وصلا من ربهم الوسيلة أبو عمرو ويعقوب وضمهما كذلك حمزة والكسائي وخلف وكسر الهاء وضم الميم الباقون وأبدل همز الرؤيا الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه وكذا أبو جعفر لكنه قلب الواو ياء وأدغمها في الياء بعدها

وأمالها وقفا الكسائي وقللها الأزرق وابو عمرو وبخلفهما ويوقف عليها لحمزة بإبدال الهمزة واوا وأجاز الهذلي وغيره قلبها ياء وإدغامها في الياء كقراءة أبي جعفر والأول أولى وأقيس كما في النشر وأما حذفها اتباعا للرسم فلا يجوز وعن المطوعي ويخوفهم بالياء وقرأ (للملائكة اسجدوا) الآية 61 بضم التاء وصلا أبو جعفر بخلف عن ابن وردان والوجه الثاني له إشمام كسرتها الضم ومر بالبقرة وسهل الثانية مع إدخال الألف في (أأسجد) الآية 61 قالون وأبو عمرو وهشام من طريق الحلواني غير الحمال وأبو جعفر وقرأ ورش وابن كثير ورويس والصوري من جميع طرقه عن ابن ذكوان بالتسهيل بلا ألف وللأزرق أيضا إبدالها ألفا مع المد للساكنين وقرأ الجمال عن الحلواني عن هشام بتحقيقهما مع المد وقرأ ابن ذكوان من غير طريق الصوري وهشام من مشهور طرق الداجوني وعاصم حمزة والكسائي وروح وخلف بتحقيقهما من غير ألف وخلاف ابن ذكوان هنا أشار به في الطيبة بقوله أأسجد الخلاف مر

وقرأ (أرأيتك) الآية 62 بتسهيل الهمزة الثانية نافع وأبو جعفر وعن الأزرق أيضا إبدالها ألفا خالصة مع إشباع المد للساكنين وحذفها الكسائي وحققها الباقون وأثبت ياء المتكلم من أخرتني وصلا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وافقهم الحسن واليزيدي وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين وافقهم ابن محيصن والباقون بحذفها في الحالين واتفقوا على إثباتها في لولا

أخرتني بالمنافقين في الحالين لثبوتها رسما وأدغم باء اذهب فمن أبو عمرو وهشام وخلاد بخلف عنهما والكسائي

(33/448)

واختلف في (ورجلك) الآية 64 فحفص بكسر الجيم مفرد أريد به الجمع لغة في رجل بمعنى راجل أي ماش كحذر وحاذر وتعب وتاعب والباقون بسكون الجيم اسم جمع راجل كالصحب والركب وسهل الهمزة الثانية من (أفأمنتم) الأصبهاني

واختلف في ﴿ أن نخسف ﴾ ﴿ أو نرسل ﴾ ﴿ أو نعيدكم ﴾ ﴿ فنرسل ﴾ ﴿ فنغرقكم ﴾ الآية 68 فابن كثير وابو عمرو بنون العظمة في الخمسة على الالتفات من الغيبة وافقهما ابن محيصن وقرأ أبو جعفر ورويس فتغرقكم فقط بالتأنيس إسناد الضمير للريح والباقون بالياء في الخمسة على الغيبة وانفرد الشطوي عن ابن هارون عن الفضل عن ابن وردان بتشديد الراء ولم يعرج عليها في الطيبة على عادته

وقرأ (من الريح) الآية 69 بالجمع أبو جعفر والباقون بالإفراد وعن الحسن ثم لا يجدوا بالياء من تحت وعنه يدعوا بالياء كذلك وكل بالرفع على الفاعلية

وأمال أعمى معا هنا أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف لأنهما من ذوات الياء وقللهما

الأزرق بخلفه وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإمالة الأول محضة لكونه ليس أفعل تفضيل فألفه متطرفة لفظا وتقديرا والأطراف محل التغيير غالبا وفتحا الثاني لأنه للتفضيل ولذا عطف عليه وأضل فألفه في حكم المتوسطة لأن من الجارة للمفعول كالملفوظة بها وهي شديدة الاتصال بأفعل وأما ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى فحكمها مختلف يأتي بيانه في محله بطه إن شاء الله تعالى وتقدم ففي إطلاق الأصل هنا نظر ظاهر

واختلف في (لا يلبثون) الآية 76 فروح من طريق العلاف عن أصحابه عن المعدل عن ابن وهب عنه بضم الياء وفتح اللام وتشديد الباء وهي انفرادة للعلاف خالف فيها جميع سائر أصحاب روح وأصحاب المعدل وأصحاب ابن وهب كما نبه عليه في النشر وأسقطه من طيبته فلا يقرأ من طريق الكتاب وهي قراءة عطاء والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف الباء ولا خلاف في فتحها كما في النشر

واختلف في (خلافك) الآية 76 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وابو بكر وأبو جعفر بفتح الخاء وإسكان اللام بلا ألف وافقهم ابن محيصن واليزيدي وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بكسر الخاء وفتح اللام وألف بعدها وافقهم الحسن والأعمش

وهما بمعنى أي بعد خروجك

وقرأ (رسلنا) الآية 77 بإسكان السين أبو عمرو ونقل همز قرآن ابن كثير كوقف حمزة وسبق كسكته عليه وصلا وسكت ابن ذكوان وحفص وإدريس في الحالين بخلفهم ومر قريبا إمالة عسى وعن الحسن ( ) مدخل صدق (و) مخرج صدق ( ) بفتح الميم فيهما ونقدم الكلام عليه في النساء

وقرأ (وننزل) و (حتى تنزل) بالتخفيف فيهما أبو عمرو ويعقوب

واختلف في (ونأى بجانبه) الآية 83 هنا وفصلت الآية 51 فابن ذكوان وأبو جعفر بتقديم الألف على الهمز على وزن شاء من ناء ينوء نهض والباقون بتقديم الهمزة على حرف العلة على وزن من النأي وهو البعد وأمال الهمزة والنون في الموضعين الكسائي وخلف عن حمزة وعن نفسه وأمال الهمزة فقط فيهما خلاد وبالفتح والتقليل الأزرق في الهمزة فقط في الموضعين مع فتح النون وأمال أبو بكر الهمزة فقط في الإسراء فقط هذا هو المشهور عنه واختلف عنه في النون من الإسراء فروى العليمي والحمامي وابن شاذان عن أبي حمدون عن يحيى بن آدم عنه إمالتها مع الهمزة وروى سائر الرواة عن شعيب عن يحيى عنه فتحها وإمالة الهمزة أما إمالة الهمزة في السورتين عن أبي بكر وكذا الفتح له في السورتين فكل منهما انفرادة ولذا أسقطهما من الطيبة واقتصر على ما تقدم وهو الذي قرأنا به وكذا ما انفرد به فارس ابن أحمد في أحد وجهيه عن السوسي من إمالة الهمزة في الموضعين وتبعه

الشاطبي قال في النشر وأجمع الرواة عن السوسي من جميع الطرق على الفتح لا نعلم بينهم في ذلك خلافا ولذا لم يعول عليه في الطيبة في محله وإن حكاه بقيل آخر الباب منها ويوقف عليها لحمزة بوجه واحد وهو بين بين ولا يصح سواه كما في النشر

(35/448)

وأمال (أهدى وأبي) حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه وأدغم دال ولقد صرفنا أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في () حتى تفجر لنا (الآية 90 فعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة مضارع فجر الأرض شقها وافقهم الحسن والأعمش والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم مشددة مضارع فجر للتكثير وخرج بحتى فتفجر الأنهار المتفق على تشديدها للتصريح بمصدرها

واختلف في (كسفا) الآية 92 هنا والشعراء الآية 187 والروم الآية 48 وسبأ الآية 9 فنافع وابن عامر وعاصم وابو جعفر بفتح السين هنا خاصة جمع كسفة كقطعة وقطع والباقون بإسكانها جمع كسفة أيضا كسدرة وسدر ويأتي كل من موضع الشعراء والروم وسبأ في محله إن شاء الله تعالى واتفقوا على إسكان يروا كسفا بالطور لوصفه بساقطا

ومال ترقى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا حكم كفى بالله واختلف في قل سبحان ربي فابن كثير وابن عامر قال بصيغة الماضي إخبارا عن الرسول وافقهما ابن محيصن والباقون قل بصيغة الأمر من الله تعالى لنبيه وأدغم ذال إذ جاءهم أبو عمرو وهشام وأثبت الياء في المهتدي وصلا نافع وأبو جعفر وابو عمرو وفي الحالين يعقوب وأدغم تاء خبث زدناهم أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام من طريق الداجوني وابن عبدان عن الحلواني وأما (أئذا أئنا) فمر قريبا

وقرأ (لا ريب فيه) بمده وسطا حمزة بخلفه وفتح ياء الإضافة من ربي إذا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر

وقرأ ﴿ (فسل ﴾ بنقل حركة الهمزة إلى السين ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه ومر آنفا إذ جاءهم

(36/448)

واختلف في (لقد علمت) الآية 102 فالكسائي بضم التاء مسندا لضمير موسى وافقه الأعمش والباقون بالفتح على جعل الضمير للمخاطب وهو فرعون وسهل الأولى من هؤلاء إلا قالون والبزي مع المد والقصر في المتصل وقرأ ورش وقنبل في أحد أوجهه وأبو جعفر

ورويس من غير طريق أبي الطيب بتسهيل الثانية كالياء وللأزرق وقنبل إبدالها ياء ساكنة مع المد للساكنين والثالث لقنبل من طريق ابن شنبوذ إسقاط الأولى مع المد والقصر وبه قرأ أبو عمرو ورويس من طريق أبي الطيب والباقون بتحقيقهما وتقدم حكم مد المنفصل منها وقصره في حرف البقرة مفصلا ومر تسهيل همز ﴿ (إسرائل ﴾ لأبي جعفر ومده للأزرق بخلفه وعن ابن محيصن فرقناه بتشديد الراء وكسر اللام والواو من قل ادعوا الله أو ادعوا عاصم وحمزة وكسر يعقوب اللام فقط والباقون بضمهما ووقف على الياء من أيا ما دون ما حمزة والكسائي ورويس والباقون على ما نص عليه الداني في جماعة ولم يتعرض الجمهور لوقف ولا ابتداء فالأرجح كما في النشر جواز الوقف لكل القراء على كل من أيا وما اتباعا للرسم

المرسوم اتفقوا على حذف ألف ﴿ سبحن ﴾ حيث جاء واختلف في ( ) قل سبحان ربي (واتفقوا على كتابه الأقصا بالألف وروى نافع حذف ألف طائرة واختلف في أو كلاهما ففي بعضها بألف بعد اللام وفي بعضها بالحذف ولم تصور بياء في شيء من الرسوم واتفقوا على كتابة ويدع الإنسان بحذف الواو واختلف في ألف قال من قل سبحان ربي ففي المكي والشامي ثابتة وفي المدني والعراقي محذوفة ياء الإضافة واحدة (ربي إذا) الآية 100 الزوائد ثنتان ﴿ لئن أخرتني ﴾ الآية 62 ﴿ فهو المهتدي ﴾ الآية 97.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 355.362 ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الإسراء "

إسرائيل ، فيه لأبي جعفر التسهيل مع المد والقصر ، ولا يرقق ورش راءه ولا يوسط ولا يمد بدله ، ولحمزة في الوقف عليه التسهيل مع المد والقصر .

" ألا تتخذوا " قرأ أبو عمرو بياء الغيبة وغيره بتاء الخطاب .

" كبيرا " نفيرا ، وليتبروا " تتبيرا " حصيرا ، القرآن ، كبيرًا ، مبصرة ، طائرة ، تزر وازرة وزر ، تدميرًا ، خبيرًا بصيرًا ، وهو ، مؤمن ، جلي .

" أولاهما " فيه أربعة أوجه لورش: قصر البدل مع الفتح والتوسط مع التقليل والمد معهما .

" بأس وأسأتم " أبدل همزهما أبو جعفر والسوسي مطلقا ، وحمزة وقفا .

" ليسوءوا " قرأ الكسائي بالنون ونصب الهمزة . والشامي وشعبة وحمزة وخلف بالياء ونصب الهمزة . والباقون بالياء وضم الهمزة بعدها واو الجمع ولورش فيه ثلاثة البدل . ولحمزة في الوقف عليه وكذا هشام النقل والإدغام لأصالة الواو .

" ويبشر " قرأ الأخوان بفتح الياء التحتية وسكون الباء وضم الشين مخففة ، والباقون بضم

الياء وفتح الباء وكسر الشين مشددة ورقق ورش راءه .

" ونخرج " قرأ أبو جعفر بالياء التحتية المضمومة وفتح الراء ، ويعقوب بالياء التحتية المفتوحة وضم الراء ، والباقون بالنون المضمومة وكسر الراء .

" يلقاه " قرأ الشامي وأبو جعفر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف والباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف .

" اقرأ " أبدل همزة مطلقا أبو جعفر ، وفي الوقف فقط حمزة وهشام .

" أمرنا " قرأ يعقوب بمد الهمزة ، والباقون بقصرها .

" يصلاها " غلظ اللام ورش مع الفتح ورققها مع التقليل .

" محظورا انظر " كسر التنوين وصلا حمزة وعاصم والبصريان وابن ذكوان ، وضمه الباقون .

" مخذولا " آخر الربع .

الممال

أسرى ، وأخرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش . موسى لدى الوقف عليه ، وأولاهما بالإمالة للأصحاب ، والتقليل للبصري وورش بخلفه .

" الأقصا " وهدى لدى الوقف عليهما . وعسى ، ويلقاه ، وكفى معا ، واهتدى ويصلاها وسعى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه الديار والنهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، وللكافرين لهؤلاء إمالة وتقليلا ، ويوافق رويس من أمال جاء معا لابن ذكوان وحمزة وخلف .

المدغم

" الكبير " إنه هو ، وجعلناه هدى ، كتابك كفى ، نهلك قرية ، لمن نريد ثم ، فأولئك كان ، كيف فضلنا .

" يبلغن " قرأ الأخوان وخلف بألف ممدودة مدا مشبعا بعد الغين وكسر النون والباقون بغير ألف مع فتح النون .

" أف " قرأ المدنيان وحفص بكسر الفاء منونة . وابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين ، والباقون بكسرها بلا تنوين .

" صغيرا " تبذيرا ، خبيرا ، بصيرا .

"كبيرًا " فيهن ، حليما غفورا ، كله ظاهر .

" خطأ " قرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها والمد عنده حينئذ متصل . وابن ذكوان وأبو جعفر بفتح الخاء والطاء من غير ألف ولا مد . والباقون بكسر

الخاء وإسكان الطاء ولابد من التنوين والهمز للجميع . ووقف عليه حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الطاء وحذف الهمزة فيصير النطق بخاء مكسورة وطاء مفتوحة ممدودة مدا طبيعيا بعدها

" يسرف " قرأ الأخوان وخلف بالتاء المثناة الفوقية ، والباقون بالياء التحتية .

" مسئولا " ليس لورش فيه توسط ولا مد في البدل لوقوع الهمز فيه بعد ساكن صحيح ، ولحمزة فيه وقفا النقل فقط .

" بالقسطاس " كسر القاف حفص والأخوان وخلف ، وضمها الباقون .

" والفؤاد " لا إبدال فيه لورش ولا لأبي جعفر لأن الهمز عين الكلمة ، ولحمزة في الوقف عليه إبدال الهمز واوا خالصة ، ولا يخفى ما فيه من ثلاثة البدل لورش .

" سيئه " قرأ المدنيان والمكي والبصريان بفتح الهمزة وبعدها تاء التأنيث منصوبة منونة . والباقون بضم الهمزة وبعدها هاء مضمومة موصولة بواو في اللفظ ويوقف عليه لحمزة بوجهين: تسهيل الهمزة بين بين وإبدالها ياء محضة .

" ليذكروا " قرأ الأخوان وخلف بإسكان الذال وضم الكاف مخففة ، والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما .

"كما يقولون " قرأ حفص وابن كثير بياء الغيبة ، والباقون بتاء الخطاب .

" عما يقولون " قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب ، وغيرهم بياء الغيبة .

" تسبح " قرأ المدنيان والمكي والشامي وشعبة بياء التذكير ، وغيرهم بتاء التأنيث .

" قرأت القرآن " سبق مثله في النحل .

" مسحوراً انظر " مثل: محظورا انظر لجميع القراء .

" أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا " حكمه حكم الذي في سورة الرعد سواء بسواء .

" جديدًا " آخر الربع .

الممال

وقضى ، والزنا ، وأوحى ، وفتلقى وأفأصفاكم وتعالى وكلاهما بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه في الجميع إلا كلاهما فليس له فيه إلا الفتح . القربى ونجوى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، أدبارهم بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، آذانهم لدوري الكسائي .

المدغم

" الصغير " فقد جعلنا ولقد صرفنا للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " أعلم بما معا . وآت ذا القربى على أحد الوجهين ، والآخر الإظهار ، نحن نرزقهم أولئك كان ، ذلك كان ، في جهنم ملوما ، العرش سبيلا وليس في القرآن إدغام شين في سين إلا في هذا الموضع ولا إدغام في الشيطان لربه لسكون ما قبل النون . هذا وقد ذكر صاحب غيث النفع أن للسوسي الإظهار والإدغام في العرش سبيلا ، قال والإظهار قويس رواه سائر أصحاب الإدغام عن البصري ، وقرأ الداني بالوجهين إلا أنه لم يذكر في التيسير إلا الإدغام ، انتهى باختصار .

ولكن المقروء به من طريق الحرز هو الإدغام فقط ، وأما الإظهار فهو من طريق النشر .

" فسينغضون " لا إخفاء فيه لأبي جعفر لاستثنائه .

" رءوسهم " فيه لورش مع متى أربعة أوجه : القصر مع الفتح والتوسط مع التقليل والمد معهما ولحمزة عند الوقف عليه التسهيل والحذف .

" هو " عليهم ، النبيين ، مبصرة ، فظلموا ، القرآن ، كبيرا ، كله جلي .

" يشأ " معا أبدل همزة مطلقا أبو جعفر ، وفي الوقف فقط حمزة وهشام .

" زبورا " ضم الزاي حمزة وخلف وفتحها الباقون .

" قل ادعوا " كسر اللام وصلا حمزة وعاصم ويعقوب وضمها غيرهم كذلك .

" ربهم الوسيلة " كسر الهاء والميم وصلا البصريان نوضمهما كذلك الأخوان وخلف وكسر الهاء وضم الميم الباقون ولا خلاف في كسر الهاء وإسكان الميم وقفا .

" الرؤيا " أبدل همزه السوسي مطلقا ، وأبدل مع الإدغام أبو جعفر ، ولحمزة وقفا وجهان: أحدهما كالسوسي والآخر كأبي جعفر .

" للملائكة اسجدوا " قرأ أبو جعفر بضم التاء وصلا ، والباقون بكسرها .

" ءأسجدو " قرأ قالون والبصري وابو جعفر بتسهيل الثانية مع الإدخال وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بلا إدخال ، ولورش إبدالها حرف مد مشبع للساكنين ، ولهشام التسهيل والتحقيق وكلاهما مع الإدخال ، والباقون بالتحقيق من غير إدخال .

" أرأيتك " قرأ المدنيان بتسهيل الهمزة الثانية بين بين ولورش أيضا إبدالها ألفا مع المد المشبع للساكن ، والكسائي بحذفها ، والباقون بإثباتها محققة إلا حمزة فسهلها في الوقف .

" أخرتن " أثبت الياء وصلا المدنيان والبصري وفي الحالين المكي ويعقوب وحذفها الباقون في الحالين . ومن يثبت الياء لا يفتحها في الوصل .

" ورجلك " قرأ حفص بكسر الجيم ، وغيره بإسكانها .

" أن يخسف ، أو يرسل " أن يعيدكم ، فيرسل ، فيغرقكم ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون في الأفعال الخمسة ، وقرأ أبو جعفر ورويس بالياء في الأفعال الأربعة وبتاء التأنيث في

الخامس، وروي لابن وردان تخفيف الراء كالجماعة وتشديدها ويلزم من التشديد فتح الغين والوجهان صحيحان لابن وردان. والباقون بالياء التحتية في الأفعال الخمسة.

"من الريح" قرأ أبو جعفر بالجمع، وغيره بالإفراد.

"تبيعا" آخر الربع.

المال

(41/448)

"متى، وعسى ونجاكم وكفى" بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه. بالناس وللناس لدوري البصري. الرؤيا لدى الوقف عليها بالإمالة للكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه. أخرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش.

المدغم

"الصغير":

"لبثتم" للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر، اذهب فمن للبصري والكسائي وخلاد

"الكبير":

" أعلم بكم " أعلم بمن ، ربك كان ؛ كذب بها ، في البحر لتبتغوا ، فيغرقكم ، ولا إدغام في كان للإنسان لوقوع النون بعد ساكن . ولا في داود زبورا لكون الدال مفتوحة بعد ساكن ، ولا في خلقت طينا ، لأن الأول تاء ضمير .

" يقرءون " لحمزة في التسهيل والحذف .

" ممن خلقنا ، بإمامهم " يظلمون ، فهو ، غيره ، إليهم ، نصيرا ، الصلاة ، قرآن ، كله كبيرا ، ظهيرا ، جلي .

" خلافك " قرأ المدنيان والمكي والبصري وشعبة بفتح الخاء وإسكان اللام من غير ألف والباقون بكسر الخاء وفتح اللام وألف بعدها .

" رسلنا " أسكن السين أبو عمرو ، وضمها غيره .

" وننزل " خففه البصريان وشدده غيرهما .

" ونآى " قرأ ابن ذكوان وأبو جعفر بألف ممدودة بعد النون وبعدها همزة مفتوحة مثل شاء ، والباقون بهمزة مفتوحة ممدودة بعد النون مثل رآى . ولورش فيهما أربعة أوجه: قصر البدل مع فتح ذات الياء والتوسط مع التقليل والمد مع الوجهين . ولحمزة عند الوقف التسهيل فقط .

" يؤسا " فيه ثلاثة البدل لورش ، ولحمزة عند الوقف عليه التسهيل بين بين والحذف فيصير النطق بواو ساكنة لينة بعد الياء .

" ويسألونك " فيه لحمزة وقفل النقل فقط .

" حتى تفجر " قرأ الكوفيون ويعقوب بفتح التاء وإسكان الفاء وضم الجيم وتخفيفها والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم وتشديدها . وأجمعوا على تشديد فتفجر الأنهار .

ورقق ورش الراء فيهما .

" كسفا " قرأ المدنيان والشامي وعاصم بفتح السين والباقون بإسكانها .

" حتى تنزل " خففه البصريان وشدده غيرهما .

" نقرؤه " وقف عليه حمزة بالتسهيل فقط .

(42/448)

" قل سبحان " قرأ ابن كثير وابن عامر بفتح القاف وألف بعدها وفتح اللام بصيغة الماضى ، والباقون بضم القاف وإسكان اللام بصيغة الأمر .

" المهتد " قرأ المدنيان وأبو عمرو بإثبات الياء وصلا ، ويعقوب في الحالين . والباقون بحذفها كذلك .

" أئذا " أئنا " حكمه حكم ما تقدم قبله .

"جديدا " آخر الربع .

المال

" أعمى " الأول بالإمالة للأصحاب وشعبة والبصري ويعقوب وبالتقليل لورش بخلف عنه وأعمى الثاني للأصحاب وشعبة بالإمالة . ولورش بالتقليل بخلف عنه . عسى وأهدى فأبى .

وترقى والهدى وكفى ومأواهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاء معا لابن ذكوان وحمزة وخلف . ونآى بإمالة النون والهمزة معا للكسائي وخلف عن حمزة وفي اختياره والهمزة فقط لشعبة وخلاد وبتقليل الهمزة فقط لورش بخلف عنه . وقد ذكرنا الأوجه له فيها آنفا وليس للسوسي في الهمز إلا الفتح . وما ذكره الشاطبي من الخلاف له في إمالة الهمز خروج عن طرقه وطرق أصله فلا يقرأ له إلا بالفتح ، للناس والناس لدوري البصري .

المدغم

" الصغير "

" ولقد صرفنا " للبصري وهشام والأخوين وخلف . إذ جاءهم للبصري وهشام ، وخبت زدناهم للبصري والأخوين وخلف .

" الكبير "

" الممات ثم " أعلم بمن ، أمر ربي ، عليك كبيرا ، نؤمن لك ، تفجر لنا ، نؤمن لرقيك .

ولا إدغام في القرآن لا ، أو يكون لك سبحان ربي لسكون ما قبل النون فيها كلها .

" قادر " فيه ، إسرائيل ، بصائر ، فأغرقناه ، جئنا ، أنزلناه ، مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه ، عليهم يخرون معا ؛ كله جلي .

" ربي إذاً " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" فسأل " نقل حركة الهمزة إلى السين وحذف الهمزة الكسائي والمكي وخلف في اختياره وكذلك حمزة إن وقف .

" علمت " ضم الكسائي التاء وفتحها غيره .

" هؤلاء إلا " حكمها حكم هؤلاء إن كنتم بالبقرة لجميع القراء غير أن ورشا ليس له وجه إبدال الهمزة ياء مكسورة .

" قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن " قرأ عاصم وحمزة بكسر لام قل وواو أو وصلا ويعقوب بكسر اللام وضم الواو ، والباقون بضمهما معا .

" أياما " وقف الأخوان ورويس على أيا والباقون على ما ، هذا ما يؤخذ من التيسير

والشاطبية والدرة ولكن قال صاحب النشر : والأقرب للصواب جواز الوقف على كل من أيا وما ، لسائر القراء اتباعا للرسم لأنهما كلمتان منفصلتان رسما ، انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 193.187 ﴾

(44/448)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة النحل

قوله تعالى ﴿ أتى أمر الله ﴾ يقرأ بالإمالة والتفخيم فالحجة لمن أمال أنه دل على الياء والحجة لمن فخم أنه أجرى الكلام على أصله وأتى ها هنا ماض في معنى مستقبل ودليله قوله فلا تستعجلوه يريد به الساعة قوله تعالى فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه جعله مما أمر الله نبيه عليه السلام أن يخبر به والحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد معنى الخطاب وأتى به تنزيها لله تعالى من عنده فأنزله الله تصديقا لقوله والتسبيح ينقسم في اللغة أربعة أقسام تنزيها صلاة واستثناء ونورا فالتنزيه كقوله سبحانه وتعالى والصلاة كقوله فلولا أنه كان من المسبحين

والاستثناء كقوله لولا تسبحون والنور كقول النبي صلى الله عليه وسلم فلولا سبحات وجهه أي نور وجهه قوله تعالى ينزل الملائكة يقرا بالياء والتاء وضمهما وبالتشديد والتخفيف فالحجة لمن قرأه بالتاء والتشديد أنه جعل الفعل لما لم يسم فاعله ورفعهم بذلك والحجة لمن قرأه بالياء مشددا أو مخففا أنه جعل الفعل لله عز وجل فأضمره فيه لتقدم اسمه ونصب الملائكة بتعدي الفعل إليهم وأخذ المشدد من نزل والمخفف من أنزل قوله تعالى ينبت لكم به يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أخبر به عن الله عز وجل لتقدم اسمه في أول الكلام والحجة لن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله عز وجل عن نفسه بنون الملكوت وقد تقدم لذلك من الاحتجاج ما فيه بلاغ قوله تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات يقرأ كله بالنصب وبالرفع وبالنصب إلا قوله والنجوم مسخرات فإنه رفع فالحجة لمن نصبه أنه عطفه بالواو على أول الكلام فأتى به على وجه واحد والحجة لمن رفعه أنه جعل الواو حالا لا عاطفة كقولك كلمت زيدا وعمرو قائم فترفع عمرا بالابتداء وقائم خبره وكذلك قوله والشمس والقمر والنجوم مبتدآت ومسخرات خبر عنهن والحجة لمن رفع قوله والنجوم مسخرات أنه لما عطف والشمس والقمر على قوله وسخر لكم لم يستحسن أن

يقول وسخر النجوم مسخرات فرفعها قاطعا لها مما قبلها فإن قيل فما حجة من نصبها فقل بفعل مقدر معناه وجعل النجوم مسخرات فإن قيل فما معنى قوله وبالنجم هم يهتدون فوحدها هنا وقد جمع في أول الكلام فقل إن الله عز وجل جعل النجوم ثلاثة أصناف منها رجوم الشياطين ومنها ما تهتدى بها كالجدي والفرقدين ومنها مصابيح وزينة فأما النجم الثاقب فقيل الثريا

وقيل المتوقد نورا لقولهم أثقب نارك والنجم القرآن لقوله تعالى والنجم إذا هوى قيل هو نزول جبريل به والنجم من النبات ما لا يقوم على ساق قوله تعالى والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون يقرآن بالتاء والياء وقد تقدم من القول في مثاله ما يغني عن إعادته قوله تعالى تشاقون فيهم يقرأ بفتح النون وكسرها والقول فيه كالقول في قوله فبم تبشرون قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة يقرا بالياء والتاء وقد أتينا على علته في قوله فنادته الملائكة قوله تعالى تتوفاهم يقرأ بالإمالة والتفخيم فالحجة لمن أمال أنه دل على أصل الياء والحجة لمن فخم أنه لما زالت الياء عن لفظها لانفتاح ما قبلها زالت الإمالة بزوال اللفظ قوله تعالى إلا أن تأتيهم يقرأ بالتاء والياء على ما قدمنا من القول في أمثاله قوله تعالى فإن الله لا يهدي من يضل

يقرأ بضم الياء وفتح الدال وبفتح الياء وكسر الدال فالحجة لمن قرأ بضم الياء أنه أراد لا يهدى من يضله الله فاسم الله منصوب بإن ويهدى الخبر وهو فعل ما لم يسم فاعله ومن في محل رفع ويضل صلة من وقد حذفت الهاء منه لأن الهاء عائدة على من ولا بد ل من

(47/448)

وما والذي والتي وأي من صلة وعائد ومعرب لأنهن أسماء نواقص والحجة لمن فتح الياء أنه أراد فإن الله لا يهدي من يضله أحد إلا هو فيهدي فعل لله عز وجل ومن في موضع نصب بتعدي الفعل إليه قوله تعالى كن فيكون يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه أراد فإنه يكون والحجة لمن نصب أنه عطفه على قوله أن نقول له ومثلها التي في آخر يس قوله تعالى أو لم يروا إلى ما خلق الله أو لم يروا إلى الطير أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق يقرأ ن بالتاء والياء فالحجة لمن قرأهن بالتاء أنه أراد معنى مخاطبتهم وتقريرهم بآيات الله وبدائع خلقه والحجة لمن قرأهن بالياء أنه جعل الألف للتوبيخ فكأنه قال موبخا لهم ويحهم كيف يكفرون بالله وينكرون البعث ويعرضون عن آياته وهم يرون الطير مسخرات وما خلق الله من شجر ونباتا وما بدأه من الخلق أفليس من خلق شيئًا من غير شيء فأنشأه وكونه ثم أماته فأفناه قادرا على إعادته بأن يقوله له عد إلى حالتك الأولى قوله تعالى تتفيؤ ظلاله يقرأ بالياء والتاء

فالحجة لمن قرأ بالتاء أنه جمع ظل وكل جمع خالف الآدميين فهو مؤنث وإن كان واحده مذكرا ودليله قوله عز وجل في الأصنام رب إنهن أضللن فأنث لمكان الجمع والحجة لمن قرأه بالياء أنه وإن كان جمعا فلفظه لفظ الواحد كقولك جدار وعذار ولذلك ناسب جمع التكسير الواحد لأنه معرب بالحركات مثله

(48/448)

فإن قيل أجاز مثل ذلك في قوله أم هل تستوي الظلمات فقل هذا لا يلزم وإن كانا جمعين لأن علامة التأنيث في قوله الظلمات موجودة وفي قوله ظلال معدومة قوله تعالى إلا رجالا نوحي إليهم يقرأ بالياء وفتح الحاء وبالنون وكسر الحاء وقد ذكر ذلك مع أمثاله قوله تعالى وأنهم مفرطون يقرأ بفتح الراء وكسرها فالحجة لمن فتح أنه جعلهم مفعولا بهم لما لم يسم فاعله ومعناه منسيون من الرحمة وقيل مقدمون إلى النار والحجة لمن كسر أنه جعل الفعل لهم وأراد أنهم فرطوا في الكفر والعدوان فهم مفرطون والعرب تقول أفرط فلان في الأمر إذا قصر وإذا جاوز الحد قوله تعالى نسقيكم يقرأ بضم النون وفتحها ها هنا وفي المؤمنين وهما لغتان بمعنى سقى وأسقى وأنشد سقى قومي بني مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال وقال قوم سقيته ماء بغير ألف ودليله قوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا وأسقيته بالألف سألت

الله أن يسقيه وقال آخرون ما كان مرة واحدة فهو بغير ألف وما كان دائما فهو بالألف قوله تعالى يوم ظعنكم يقرأ بتحريك العين وإسكانها فالحجة لمن حرك العين

فلأنها من حروف الحلق والحجة لمن أسكن أنه أراد المصدر ومثله طعنته بالرمح طعنا قوله تعالى ولنجزين الذين صبروا يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على قوله ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين والحجة لمن قرأه بالنون أنه أراد أن يأتي بأول الكلام محمولا على آخره فوافق بين قوله تعالى ولنجزين وقوله فلنحيينه ولنجزينهم قوله تعالى يلحدون إليه أعجمي يقرأ بضم الياء وفتحها وقد ذكرت علته فيما سلف قوله تعالى من بعد ما فتنوا يقرأ بفتح التاء وبضم الفاء وكسر التاء فالحجة لمن فتح أنه جعل الفعل لهم والحجة لمن ضم الفاء أنه دل بذلك على بناء ما لم يسم فاعله ومعناه أن عمار بن ياسر وجماعة من أهل مكة أرادهم كفار قريش على الكفر وأكرهوهم فقالوا بألسنتهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ثم هاجروا إلى المدينة فأخبر الله عز وجل عنهم بما كان من إضمارهم ومن إظهارهم والحجة لمن جعل الفعل لهم أن ذلك كان منهم قبل الإسلام فمحا الإسلام ما قبله قوله تعالى ولا تك في ضيق يقرأ بفتح الضاد وكسرها وقد ذكرت حجته آنفا وقلنا فيه

ما قاله أهل اللغة والاختيار ها هنا الفتح لأن الضيق بالكسر في الموضع والضيق بالفتح في المعيشة والذي يراد به ها هنا ضيق المعيشة لا ضيق المنزل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 208. 213﴾

(50/448)

وقال ابن زنجلة :

17 - سورة سبحان

وءاتينا موسى الكتب وجعلنه هدى لبني إسراءيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا 2

قرأ أبو عمرو ألا يتخذوا بالياء وحجته أن الفعل قرب من الخبر عن بني إسرائيل فجعل الفعل مسندا إليهم إذ قال وجعلناه هدى لبني إسرائيل المعنى جعلناه هدى لبني إسرائيل لئلا يتخذوا من دوني وكيلا

وقرأ الباقون ألا تتخذوا بالتاء على الخطاب وحجتهم في الانصراف إلى الخطاب بعد الغيبة قوله الحمد لله رب العالمين ثم قال إياك نعبد وإياك نستعين فالضمير في تتخذوا وإن كان على لفظ الخطاب فإنما يعني به الغيب في المعنى ويجوز أن تكون أن بمعنى أي التي هي للتفسير على هذا التأويل لأنه انصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب ويجوز أن تكون زائده وتضمر

القول

المعنى وجعلناه هدى لبني إسرائيل وقلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلا ويجوز أن تكون الناصبة للفعل فيكون المعنى وجعلناه هدى كراهة أن تتخذوا من دوني وكيلا أو بأن لا تتخذوا

فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا 7

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص ليسوؤوا وجوهكم بالياء على الجمع وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال والألف تدل على أنها جمع ولو كانت ليسوء على واحد أو لتسوء لم يكن فيها ألف وحجة أخرى وهي أن ما قبله و ما بعده جاء بلفظ الجمع فالذي قبله بعثنا عليكم عبادا والذي بعده وليدخلوا المسجد وليتبروا قوله ليسوؤوا إخبار عن قوله بعثنا عليكم عبادا وجواب إذا محذوف المعنى فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوؤوا وجوهكم أي ليسوء العباد وجوهكم

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ليسوء بالياء وفتح الهمزة فاعل ليسوء يجوز أن يكون أحد

شيئين أحدهما أن يكون اسم الله تعالى أي ليسوء الله وجوهكم والآخر أن يكون العذاب

أي ليسوء العذاب وجوهكم ويجوز أن يكون الوعد وجواب إذا محذوف المعنى فإذا جاء

وعد الآخرة جاء ليسوء وجوهكم ومن وجه تأويله إلى ليسوء الله كان أيضا في الكلام

محذوف غير أنه سوى

جاء ويكون معنى الكلام فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوء الله وجوهكم

قرأ الكسائي لتسوء بالنون وفتح الهمزة أخبر جل وعز عن نفسه وحجته أن الكلام أتى

عقيب قوله بعثنا عليكم ثم رددنا لكم الكرة وأمددناكم وبعده وإن عدتم عدنا 8 وأعتدنا

لهم فكان حكم ما توسط الكلامين الخارجين بلفظ الجمع أن يجري على لفظهما أولى من

صرفه إلى العباد وإذا قرئ بالنون استعمل على المعاني كلها لأن الله تعالى هو الفاعل لذلك

في الحقيقة فإذا أسند الفعل في اللفظ إليه جاز أن يسوء وجوههم بالوعد وجاز أن يسوءها

بالعباد

وكل إنسان ألزمناه طئره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتبا يلقه منشورا 13

قرأ ابن عامر كتابا يلقاه منشورا بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف جعل الفعل لغير

الإنسان أي الملائكة تتلقاه بكتابه الذي فيه نسخة عمله وهو من قولك لقيت الكتاب فإذا

ضعفت قلت لقانيه زيد فيتعدى الفعل بتضعيف العين إلى مفعولين بعدما كان يتعدى بغير

التضعيف إلى مفعول واحد ويقوي هذا قوله ولقاهم نضرة

وقرأ الباقون يلقاه بفتح الياء جعلوا الفعل للإنسان لأن الله تعالى إذا ألزمه طائره لقي هو الكتاب كما قال تعالى يلق أثاما

ومن يفعل ذلك يلق أثاما ولم يقل يلق أثاما وهذا بين واضح متى بني الفعل للمفعول به نقص مفعول من المفعولين لأن أحدهما يقوم مقام الفاعل في إسناده إليه فيبقى متعديا إلى مفعول واحد

وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسنا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف 23

قرأ حمزة والكسائي إما يبلغان على الاثنين وحجتهما أن الوالدين تقدم ذكرهما في قوله تعالى وبالوالدين إحسانا فأخرجا الفعل على عددهما مثنى فإن قيل فبم يرتفع أحدهما أو كلاهما قيل في ذلك وجهان أحدهما أن يكون بدلا من الضمير في يبلغان والوجه الآخر أن يرفعه بفعل مجدد تقديره إما يبلغان عندك الكبر يبلغه أحدهما أو كلاهما

وقرأ الباقون إما يبلغن على واحد وحجتهم أن الفعل إذا تقدم لم يثن ولم يجمع ويرتفع أحدهما

بفعله وهو يبلغن

قرأ ابن كثير وابن عامر أف بفتح الفاء وقرأ نافع وحفص أف بالتنوين وقرأ الباقون أف خفضا بغير تنوين

قال أبو عبيد من خفض بغير تنوين قال إنما يحتاج إلى تنوين في الأصوات الناقصة التي على حرفين مثل مه وصه لأنها قلت فتمموها بالنون و أف على ثلاثة أحرف قالوا فما حاجتنا إلى التنوين ولكنا إنما خفضنا لئلا نجمع بين ساكنين ومن قرأ أف بالفتح فهو مبني على الفتح وإنما بني على الفتح لالتقاء الساكنين والفتح مع التضعيف حسن لخفة الفتحة وثقل التضعيف ومن نون أف فإنه في البناء على الكسر مع التنوين مثل البناء على الفتح إلا أنه بدخول التنوين دل على التنكير مثل صه ومه

وقال الزجاج أف غير متمكن بمنزلة الأصوات فإذا لم ينون فهو معرفة وإذا نون فهو نكرة بمنزلة غاق وعاق في الصوت وهذه الكلمة يكني بها عن الكلام القبيح لأن الأف وسخ الأظفار والتف الشيء الحقير

إن قتلهم كان خطئا كبيرا 31

قرأ ابن عامر إن قتلهم كان خطأ كبيرا بفتح الخاء والطاء وهو ضد العمد وحجته قوله أن يقتل مؤمنا إلا خطأ

قال الزجاج خطأ له تأويلات احدها معناه إن قتلهم كان غير صواب يقال أخطأ يخطئ

إخطاء وخطأ والخطأ الاسم من هذا لا المصدر وقد يكون الخطأ من خطئ يخطأ خطأ إذا لم يصب مثل فزع يفزع فزعا

قرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء وفتح الطاء وهو مصدر

خطئ يخطأ خطأ وخطاء إذا لم يصب كما تقول سفد الطائر يسفد سفادا

(53/448)

وقرأ الباقون خطأ بكسر الخاء وإسكان الطاء معناه إثما كبيرا وهو مصدر ل خطئ الرجل يخطأ خطئا مثل أثم يأثم إثما فهو آثم قال الشاعر . . . عبادك يخطؤون وأنت رب . . . بكفيك المنايا لا تموت . . .

والفاعل منه خاطئ وقد جاء الوعيد فيه في قوله تعالى لا يأكله إلا الخاطئون أي الآثمون

ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا 33

قرأ حمزة والكسائي فلا تسرف في القتل بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم والمراد به هو والأئمة من بعده يقول لا تقتل بالمقتول ظلما غير قاتله وحجتهما أنها في حرف عبد الله فلا تسرفوا في القتل فدل هذا على أن ذلك وجه النهي للمواجهة

وقرأ الباقون فلا يسرف بالياء وحجتهم أن هذا الكلام أتى عقيب خبر عن غائب وهو قوله

ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فكأنه قال فلا يسرف الولي في القتل وفاعل يسرف يجوز أن يكون أحد شيئين أحدهما أن يكون القاتل الأول كذا قال مجاهد ويكون التقدير فلا يسرف القاتل في القتل فيكون بقتله مسرفا والآخر أن يكون في يسرف ضمير الولي أي فلا يسرف الولي في القتل والإسراف في القتل قد اختلف فيه قال أكثر الناس الإسراف أن يقتل غير قاتل صاحبه وقيل الإسراف أن يقتل هو القاتل دون السلطان وقيل أن يقتل جماعة بواحد

وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا 35

قرأ حمزة والكسائي وحفص وزنوا بالقسطاس بكسر القاف وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان مثل القرطاس والقرطاس

كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها 38

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو كل ذلك كان سيئة منونة وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال يعني كل ما نهى الله عنه مما وصف في هذه الآيات كان سيئة وكان مكروها قال أبو عمرو ولا يكون فيما نهى الله عنه شيء حسن فيكون سيئه مكروها

وقرأ الباقون كل ذلك كان سيئه مضافا وحجتهم قوله مكروها بالتذكير ولو كان سيئه غير مضاف للزم أن يكون مكروهة بالتأنيث لأنه وصف للسيئة وأخرى وهي أنه ذكر في هذه الآيات من لدن قوله وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه حتى ينتهي إلى قوله كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها بعضه طاعة مأمور به وبعضه معصية منهي عنه فالمأمور به قوله واخفض لهما جناح الذل 24 وقوله وآت ذا القربي حقه 26 والمنهي عنه ولا تقتلوا أولادكم ولاتقربوا الزنى ولا تقتلوا النفس التي حرم الله ولا تقربوا مال اليتيم فقد أمروا ببعض هؤلاء الآيات ونهوا في بعضها فقال كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها لأن فيها ذكر الحسن والسيء والسيء هو المكروه دون الحسن

ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا 41

قرأ حمزة والكسائي ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا بالتخفيف

وقرأ الباقون ليذكروا بالتشديد أي ليدبروا ويتعظوا والأصل ليتذكورا فأدغموا التاء في الذال وحجتهم أن تذكر أبلغ في الوصف من ذكر لأن أكثر ما يقال ذكر يذكر إذا نسي شيئا ثم ذكره وإذا قيل تذكر فمعناه تفكر قال تبارك وتعالى وليتذكر أولو الألباب

وحجة التخفيف أن الوجهين متقاربان يقال ذكرت ما صنعت وتذكرت ما صنعت وفي التنزيل كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله فهذا بمعنى التفكر والاتعاظ

قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا 42 و43

(55/448)

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر قل لو كان معه آلهة كما تقولون بالتاء سبحانه وتعالى عما يقولون بالياء الحرف الأول قرؤوه بالتاء على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم لهم أي قل يا محمد للذين أشركوا لو كان معه آلهة كما تقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ثم قال جل وعز مستأنفا بتنزيه نفسه لا على مخاطبتهم سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ويجوز أن تحمله على القول كأنه يقول الله جل وعز لنبيه صلى الله عليه قل أنت يا محمد سبحانه وتعالى عما يقولون

وقرأ ابن كثير وحفص جميعا بالياء قوله قل لو كان معه آلهة

كما يقولون خطاب النبي صلى الله عليه للمؤمنين يخاطبهم بما يقول المشركون ثم عطف عليه بقوله سبحانه وتعالى عما يقولون

وقرأ حمزة والكسائي كما تقولون بالتاء عما تقولون بالتاء أيضا قيل للنبي صلى الله عليه قل للذين أشركوا لو كان معه آلهة كما تقولون ثم عطف عليه قوله سبحانه وتعالى عما تقولون

على مخاطبة النبي صلى الله عليه و سلم إياهم وحجة التاء قوله قبلها أفاصفاكم ربكم بالبنين 40

تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن 44

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص تسبح له السماوات السبع بالتاء وحجتهم قراءة أبي سبحت له السماوات وأخرى أن السماوات مؤنثة

وقرأ الباقون بالياء وحجتهم أن فعل الجمع إذا تقدم يذكر ويؤنث فمن ذكر ذهب إلى جمع السموات ومن أنث ذهب إلى جماعة السماوات وأخرى أن ابن مسعود قال إذا اختلفتم في الياء والتاء فاجعلوها ياء

وأجلب عليهم بخيلك ورجلك 64

قرأ حفص وأجلب عليهم بخيلك ورجلك بكسر الجيم هذه لغة للعرب يقال رجل ورجل يقول العرب قصر وقصر قال الشاعر

أضرب بالسيف وسعد في القصر . . .

وقال بعض أهل البصرة إنما كسرت الجيم إتباعا لكسرة اللام واللام كسرت علامة للجر كما قرأ الحسن البصري الحمد لله

وقرأ الباقون ورجلك بإسكان الجيم جمع راجل تقول راجل ورجل مثل صاحب وصحب وتاجر وتجر

أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم

أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا

لكم علينا به تبيعا 68 و69

قرأ ابن كثير وأبو عمرو أفأمنتم أن نخسف بكم أو نرسل أو نعيدكم فنرسل فنغرقكم كلها

بالنون يخبر الله جل وعز عن نفسه وحجتهما ذكرها اليزيدي فقال لقوله ثم لا تجدوا لكم

علينا به تبيعا كأنه لما أتى الكلام عقيبه بلفظ الجمع جعل ما قبله على لفظه ليأتلف نظام

الكلام على لفظ واحد

وقرأ الباقون بالياء إخبارا عن الله وحجتهم أن الكلام ابتدئ به بالخبر عن الله بلفظ

التوحيد فقال الذي يزجي لكم الفلك 66 وقال ضل من تدعون إلا إياه 67 فجعلوا ما أتى

عقيبه من

الكلام جاريا على معناه لأن القصة واحدة والكلام يتبع بعضه بعضا ومن كان في هذه

أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا 72

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى بكسر الميم فيهما

وحجتهم أن الألف تنقلب إلى الياء إذا قلت أعميان فالإمالة فيهما حسنة

وقرأ الباقون أعمى أعمى بغير إمالة وحجتهم أن الياء فيهما قد صارت ألفا لانفتاح ما قبلها والأصل ومن كان في هذه أعمي بفتح الياء فهو في الآخرة أعمي بضم الياء فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها

وكان أبو عمرو أحذقهم ففرق بين اللفظين لاختلاف المعنيين فقرأ ومن كان في هذه أعمى بالإمالة فهو في الآخرة أعمى بالفتح فجعل الأول صفة بمنزلة أحمر وأصفر والثاني بمنزلة أفعل منك أي أعمى قلبا

قال ابن كثير من عمي في الدنيا مع ما يرى من آيات الله وعبره فهو عما لم ير من الآخرة أعمى واضل سبيلا

قال أبو عبيد وكان أبو عمرو يقرأ هذا الحرف على تأويل ابن كثير فهو في الآخرة أعمى يعني أشد عمى وأضل سبيلا وحجة من أمال هي أن الإمالة والفتح لا يأتيان على المعاني بل الإمالة تقريب من الياء وإن كان بمعنى أفعل فلا يمنع من الإمالة

كما لا يمتنع الذي هو أدنى

وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا 76

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر وإذا لا يلبون خلفك بغير ألف أي بعدك كما قال جل وعز نكالا لما بين يديها وما خلفها أي بعدها

وقرأ الباقون خلاخل بالألف أي مخالفتك قال ذلك الفراء يقول لو أنك خرجت ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب وحجتهم إجماع الجميع على قوله فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه 83

قرأ ابن عامر وناء بجانبه مثل ناع وهذا على القلب وتقديره فلع ومثل هذا في القلب قولهم رأى وراء قال الشاعر . . . وكل خليل راءني فهو قائل . . . من اجلك هذا هامة اليوم أو غد . . .

وقال قوم من ناء أي نهض كما قال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أي تنهض والأصل نوأ فانقلبت الواو ألفا لتحركها

وانفتاح ما قبلها ومددت الألف تمكينا للهمزة

قرأ حمزة والكسائي ونأي بإمالة الألف بعد الهمزة وكسرة النون وحجتهما أن الألف منقلبة عن الياء التي في النأي فتبعتها هذه الألف فأراد أن ينحو نحوها فأما الألف بعد الهمزة

فتبعت الهمزة وكسر النون قبل الهمزة إتباعا لكسرة الهمزة

قرأ أبو بكر وخلاد عن حمزة ونإي بفتح النون وكسر الهمزة ولم يكسرا فتحة النون لأجل كسرة الهمزة بل تركا النون على حالها كما تقول رمي بفتح الراء

وقرأ الباقون نأى بفتح النون والهمزة أي بعد وتنحى وترك الإمالة هو الأصل لأن الياء قد انقلبت ألفا

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا 90

قرأ عاصم وحمزة والكسائي حتى تفجر لنا بفتح التاء وسكون الفاء وحجتهم قوله ينبوعا والينبوع واحد والتشديد إنما يكون للتكثير مرة بعد مرة فلا يحسن سعه فعل لما كان الينبوع واحدا

ويدل على هذا أنهم قرؤوا فتفجر الأنهار 91 بالتشديد لأنها جماعة يكثر معها الفعل

وقرأ الباقون حتى تفجر لنا بالتشديد وحجتهم إجماع الجميع على التشديد في قوله وفجرنا خلالها نهرا والنهر واحد كالينبوع فشددوا في فعل الواحد لتكرر الانفجار منه مرة بعد مرة

أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا 92

قرأ نافع وابن عامر وعاصم كسفا متحركة السين قال أبو عبيد كسفا متحركة السين جمع كسفة مثل قطعة وقطع وكسرة وكسر

وقرأ الباقون كسفا ساكنة السين جمع كسفة كما تقول بسرة وبسر الفرق بين الواحد والجمع طرح الهاء وليس بجمع تكسير

قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا 93

قرأ ابن كثير وابن عامر قال سبحان ربي على الخبر وحجتهما أن الرسول صلى الله عليه قال عند اقتراحهم هذه الأشياء التي ليست في طاقة البشر أن يفعها فقال سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا

وقرأ الباقون قل على الأمر وحجتهم ما تقدم من المخاطبة

للنبي صلى الله عليه وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا أو يكون لك 90 و93 كذا إلى أن قال الله له قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ويقوي هذا ما بعده قل لو كان في الأرض ملائكة 95 و قل كفى بالله شهيدا 96

قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض 102

قرأ الكسائي قال لقد علمت برفع التاء وحجته ما روي عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قال لقد علمت قال والله ما علم عدو الله إنما علم موسى صلى الله عليه وقراها بالرفع

مسألة فإن قلت كيف يصح الاحتجاج عليه بعلمه وعلمه لا يكون حجة على فرعون إنما يكون علم فرعون ما علمه من صحة أمر موسى حجة عليه فالقول فيه إنه لما قيل له إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون كان ذلك قدحا في علمه لأن المجنون لا يعلم فكأنه نفى ذلك ودفع عن نفسه فقال لقد علمت صحة ما أتيت به علما صحيحا كعلم الفضلاء فصارت الحجة عليه من هذا الوجه

(59/448)

وقرأ الباقون قال لقد علمت بفتح التاء على المخاطبة عن موسى صلى الله عليه لفرعون وحجتهم في ذلك أن فرعون ومن كان تبعه قد علموا صحة أمر موسى بدلالة قوله تعالى لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك وقوله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا يعني أن فرعون كان عالما بأن ما أنزل هؤلاء الآيات إلا الله ولكن جحد ما كان يعرف حقيقته وهو عالم بأن الله هو ربه. انتهى انتهى. اهـ ﴿حجة القراءات صـ 396. 411﴾

(60/448)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الإسراء

مكية وقد ذكر نظيرتها في الكوفي والشامي ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها ألف وخمس مئة وثلاث وثلاثون كلمة

وحروفها ستة آلاف وأربع مئة وستون حرفا

وهي مئة وإحدى عشرة آية في الكوفي وعشرا في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ للأذقان سجدا ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ستة مواضع

(﴿ أولي بأس شديد ﴾ ومن قتل مظلوما) (﴿ إلا أن كذب بها الأولون ﴾ أو معذبوها

عذابا شديدا) (﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ وبكما وصما)

ورؤوس الآي

البصير

1 وكيلا

2 شكورا

3 كبيرا

4 مفعولا

5 نفيرا

6 تتبيرا

7 حصيرا

8 كبيرا

9 أليما

10 عجولا

11 تفصيلا

12 منشورا

13 حسيبا

14 رسولا

15 تدميرا

16 بصيرا

17 مدحورا

18 مشكورا

19 محظورا

20 تفضيلا

21 مخذولا

22 كريما

23 صغيرا

24 غفورا

25 تبذيرا

26 كفورا

27 ميسورا

28 محسورا

29 بصيرا

30 كبيرا

31 سبيلا

32 منصورا

33 مسؤولا

34 تأويلا

35 مسؤولا

36 طولا

37 مكروها

38 مدحورا

39 عظيما

40 نفورا

41 سبيلا

42 كبيرا

43 غفورا

44 مستورا

45 نفورا

46 مسحورا

47 سبيلا

48 جديدا

49 أو حديدا

50 قريبا

51 قليلا

52 مبينا

53 وكيلا

54 زبورا

55 تحويلا

56 محذورا

57 مسطورا

58 تخويفا

59 كبيرا

60 طينا

61 قليلا

62 موفورا

63 غرورا

64 وكيلا

65

رحيما

66 كفورا

67 وكيلا

68 تبيعا

69 تفضيلا

70 فتيلا

71 سبيلا

72 خليلا

73 قليلا

74 نصيرا

75 قليلا

76 تحويلا

77 مشهودا

78 محمودا

79 نصيرا

80 زهوقا

81 خسارا

82 يؤوسا

83 سبيلا

84 قليلا

85 وكيلا

86 كبيرا

87 ظهيرا

88 كفورا

89 ينبوعا

90 تفجيرا

91 قبيلا

92 رسولا

93 رسولا

94 رسولا

95 بصيرا

96 سعيرا

97 جديدا

98 كفورا

99 قتورا

100 مسحورا

101 مثبورا

102 جميعا

103 لفيفا

104 ونذيرا

105 تنزيلا

106 لمفعولا

108 خشوعا

109 سبيلا

110 تكبيرا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان في عد آي القرآن صـ 177.178 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قد تقدم الكلام على (سبحان) في قصة آدم عليه السلام في البقرة ، و (ليلا) ظرف لأسرى ، وتنكيره يدل على قصر الوقت الذى كان الإسراء والرجوع فيه (حوله) ظرف لباركنا ، وقيل مفعول به: أي طيبنا أو نمينا (لنريه) بالنون لأن قبله إخبارا عن المتكلم ، وبالياء لأن أول السورة على الغيبة ، وكذلك خاتمة الآية ، وقد بدأ في الآية بالغيبة وختم بها ثم رجع في وسطها إلى الإخبار عن النفس فقال: باركنا ومن آياتنا ، والهاء في (أنه) لله تعالى ، وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم: أي إنه السميع لكلامنا البصير لذاتنا .

قوله تعالى (ألا يتخذوا) يقرأ بالياء على الغيبة ، والتقدير: جعلناه هدى لئلا يتخذوا ، أو آتينا موسى الكتاب لئلا يتخذوا ، ويقرأ بالتاء على الخطاب.

وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أن "أن" بمعنى أي ، وهى مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهى.

والثانى أن "أن" زائدة: أي قلنا لا تتخذوا .

والثالث أن "لا" زائدة ،

والتقدير: مخافة أن تتخذوا ، وقد رجع في هذا من الغيبة إلى الخطاب ، وتتخذوا هنا يتعدى إلى مفعولين: أحدهما (وكيلا) وفي الثاني وجهان: أحدهما (ذرية) والتقدير: لا تتخذوا ذرية من حملنا وكيلا: أي ربا أو مفوضا إليه ، ومن دوني يجوز أن يكون حالا من وكيل أو معمولا له أو متعلقا بتتخذوا .

والوجه الثاني المفعول الثاني من دوني ، وفي ذرية على ثلاثة أوجه: أحدها هو منادى .

والثانى هو منصوب بإضمار أعنى .

والثالث هو بدل من وكيل ، أو بدل من موسى عليه السلام ، وقرئ ، شاذا بالرفع على تقدير هو ذرية ، أو على البدل من الضمير في يتخذوا على القراءة بالياء لأنهم غيب ، و (من) بمعنى الذى أو نكرة موصوفة .

(63/448)

قوله تعالى (لتفسدن) يقرأ بضم التاء وكسر السين من أفسد ، والمفعول محذوف أي الأديان أو الخلق ، ويقرأ بضم التاء وفتح السين: أي يفسدكم غيركم ، ويقرأ بفتح التاء وضم السين ، أي تفسد أموركم (مرتين) مصدر ، والعامل فيه من غير لفظه (وعد أولاهما) أي موعود أولى المرتين: أي ما وعدوا به في المرة الأولى (عبادا لنا) بالألف وهو المشهور ، ويقرأ عبيدا

وهو جمع قليل ، ولم يأت منه إلا ألفاظ يسيرة (فجاسوا) بالجيم ، ويقرأ بالحاء والمعنى واحد ، و (خلال) ظرف له ، ويقرأ خلل الديار بغير ألف ، قيل هو واحد ، والجمع خلال مثل جبل وجبال (وكان) اسم كان ضمير المصدر : أي وكان الجوس .

قوله تعالى (الكرة) هي مصدر في الأصل يقال كركرا وكرة ، و (عليهم) يتعلق برددنا ، وقيل بالكرة لأنه يقال كر عليه ، وقيل هو حال من الكرة (نفيرا) تمييز ، وهو فعيل بمعنى فاعل: أي من ينفر معكم وهو اسم للجماعة ، وقيل هو جمع نفر مثل عبد وعبيد .

قوله تعالى (وإن أسأتم فلها) قيل اللام بمعنى على ، كقوله " وعليها ما اكتسبت " وقيل هي على بابها وهو الصحيح ، لأن اللام للاختصاص ، والعامل مختص بجزاء عمله حسنة وسيئة (وعد الآخرة) أي الكرة الآخرة (ليسوءوا) بالياء وضمير الجماعة: أي ليسوء العباد أو النفير ، ويقرأ كذلك إلا أنه بغير واو : أي ليسوء البعث أو المبعوث: أو الله ، ويقرأ بالنون كذلك ، ويقرأ بضم الياء وكسر السين وياء بعدها وفتح الهمزة: أي ليقبح وجوهكم (ماعلوا) منصوب بيتبروا : أي وليهلكوا علوهم وماعلوه ، ويجوز أن يكون ظرفا .

قوله تعالى (حصيرا) أي حاصرا ، ولم يؤنثه لأن فعيلا هنا بمعنى فاعل ، وقيل التذكير على معنى الجنس ، وقيل ذكر لأن تأنيث جهنم غير حقيقي .

قوله تعالى (أن لهم) أي بأن لهم (وأن الذين) معطوف عليه: أي يبشر المؤمنين بالأمرين .

قوله تعالى (دعاءه) أي يدعو بالشر دعاء مثل دعائه بالخير، والمصدر مضاف إلى الفاعل، والتقدير: يطلب الشر، فالباء للحال، ويجوز أن تكون بمعنى السبب.

(64/448)

قوله تعالى (آيتين) قيل التقدير: ذوى آيتين، ودل على ذلك قوله: " آية الليل، وآية النهار " وقيل لا حذف فيه، فالليل والنهار علامتان ولهما دلالة على شئ آخر، فلذلك أضاف في موضع ووصف في موضع.

قوله تعالى (وكل شئ) منصوب بفعل محذوف لأنه معطوف على اسم قد عمل فيه الفعل، ولولا ذلك لكان الأولى رفعه.

ومثله " وكل إنسان ".

قوله تعالى (ونخرج) يقرأ بضم النون، ويقرأ بياء مضمومة وبياء مفتوحة وراء مضمومة، و (كتابا) حال على هذا: أي ونخرج طائره أو عمله مكتوبا، و (يلقاه) صفة للكتاب، و (منشورا) حال من الضمير المنصوب، ويجوز أن يكون نعتا للكتاب.

قوله تعالى (اقرأ) أي يقال.

قوله تعالى (أمرنا) يقرأ بالقصر والتخفيف: أي أمرناهم بالطاعة، وقيل كثرنا نعمهم، وهو

في معنى القراءة بالمد ، ويقرأ بالتشديد والقصر: أي وجعلناهم أمراء ،

وقيل هو بمعنى الممدودة ، لأنه تارة يعدى بالهمزة وتارة بالتضعيف ، واللازم منه أمر القوم: أي كثروا ، وأمرنا جواب إذا ، وقيل الجملة نصب نعتا لقرية ، والجواب محذوف .

قوله تعالى (وكم أهلكنا) "كم" هنا خبر في موضع نصب بأهلكنا (من القرون) وقد ذكر نظيره في قوله "كم آتيناهم من آية" .

قوله تعالى (من كان) من مبتدأ ، وهى شرط ، و (عجلنا) جوابه (لمن نريد) هو بدل من له بإعادة الجار (يصلاها) حال من جهنم أو من الهاء في له ، و (مذموما) حال من الفاعل في يصلى .

قوله تعالى (سعيها) يجوز أن يكون مفعولا به ، لأن المعنى عمل عملها .

ولها من أجلها ، وأن يكون مصدرا .

قوله تعالى (كلا) هو منصوب (بنمد) والتقدير كل فريق ، و (هؤلاء وهؤلاء) بدل من كل ، و (من) متعلقة بنمد .

والعطاء اسم للمعطى .

قوله تعالى (كيف) منصوب ب (فضلنا) على الحال أو على الظرف .

قوله تعالى (ألا تعبدوا) يجوز أن يكون "أن" بمعنى أي ، وهى مفسرة لمعنى قضى ، ولانهى ، ويجوز أن يكون في موضع نصب: أي ألزم ربك عبادته ولا زائدة ، ويجوز أن يكون قضى بمعنى أمر ، ويكون التقدير: بأن لا تعبدوا .

قوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) قد ذكر في البقرة (إما يبلغن) إن شرطية ، وما زائدة للتوكيد ، ويبلغن هو فعل الشرط والجزاء فلا تقل ، ويقرأ "يبلغان" والألف فاعل و (أحدهما أو كلاهما) بدل منه .

وقال أبو علي: هو توكيد ، ويجوز أن يكون أحدهما مرفوعا بفعل محذوف: أي إن بلغ أحدهما أو كلاهما ، وفائدته التوكيد أيضا ، ويجوز أن تكون الألف حرفا للتثنية والفاعل أحدهما (أف) اسم للفعل ومعناه التضجر والكراهة ، والمعنى: لا تقل لهما كفا أو اتركا ، وقيل هو اسم للجملة الخبرية: أي كرهت أو ضجرت من مداراتكما ، فمن كسر بناه على الأصل ، ومن فتح طلب التخفيف مثل رب ، ومن ضم أتبع ، ومن نون أراد التنكير ، ومن لم ينون أراد التعريف ، ومن خفف الفاء حذف أحد المثلين تخفيفا .

قوله تعالى (جناح الذل) بالضم وهو ضد العز ، وبالكسر وهو الانقياد ضد الصعوبة (من الرحمة) أي من أجل رفقك بهما ، فمن متعلقة باخفض ، ويجوز أن تكون حالا من جناح (كما) نعت لمصدر محذوف: أي رحمة مثل رحمتهما .

قوله تعالى (ابتغاء رحمة) مفعول له ، أو مصدر في موضع الحال (ترجوها) يجوز أن يكون وصفا للرحمة ، وأن يكون حالا من الفاعل ، ومن ربك يتعلق بترجوها ويجوز أن يكون صفة لرحمة.

قوله تعالى (كل البسط) منصوبة على المصدر لأنها مضافة إليه.

قوله تعالى (خطأ) يقرأ بكسر الخاء وسكون الطاء والهمز وهو مصدر خطئ مثل علم علما ، وبكسر الخاء وفتح الطاء من غير همز.

وفيه ثلاثة أوجه: أحدها مصدر مثل شبع شبعا ، إلا أنه أبدل الهمزة ألفا في المصدر وياء في الفعل لانكسار ما قبلها.

والثانى أن يكون ألقى حركة الهمزة على الطاء فانفتحت وحذف الهمزة.

(66/448)

والثالث أن يكون خفف الهمزة بأن قلبها ألفا على غير القياس فانفتحت الطاء ، ويقرأ كذلك إلا أنه بالهمز مثل عنب ، ويقرأ بالفتح والهمز مثل نصب وهو كثير ، ويقرأ بالكسر والمد مثل قام قياما (الزنا) الأكثر القصر والمد لغة ، وقد قرئ به ، وقيل هو مصدر زانى ، مثل قاتل قتالا لأنه يقع من اثنين.

قوله تعالى (فلا يسرف) الجمهور على التسكين لأنه نهى ، وقرئ بضم الفاء

على الخبر ومعناه النهى ، ويقرأ بالياء والفاعل ضمير الولى ، وبالتاء : أي لا تسرف أيها

المقتص ، أو المبتدئ بالقتل .

أي لا تسرف بتعاطى القتل ، وقيل التقدير يقال له لا تسرف (إنه) في الهاء ستة أوجه:

أحدها هي راجعة إلى الولى .

والثانى إلى المقتول .

والثالث إلى الدم .

والرابع إلى القتل .

والخامس إلى الحق .

والسادس إلى القاتل: أي إذا قتل سقط عنه عقاب القتل في الآخرة .

قوله تعالى (إن العهد كان مسئولا) فيه وجهان: أحدهما تقديره: إن ذا العهد : أي كان

مسئولا عن الوفاء بعده .

والثانى أن الضمير راجع إلى العهد ، ونسب السؤال إليه مجازا كقوله تعالى " وإذا الموءودة

سئلت " .

قوله تعالى (بالقسطاس) يقرأ بضم القاف وكسرها وهما لغتان ، و (تأويلا) بمعنى مآلا: قوله

تعالى (ولا تقف) الماضي منه قفا إذا تتبع ، ويقرأ بضم القاف وإسكان الفاء مثل تقم ،

وماضيه قاف يقوف إذا تتبع أيضا (كل) مبتدأ ، و (أولئك) إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد ، وأشير إليها بأولئك ، وهى في الأكثر لمن يعقل لأنه جمع ذا ، وذا لمن يعقل ولما لا يعقل ، وجاء في الشعر: * بعد أولئك الأيام * فكان وما عملت فيه الخبر واسم كان يرجع إلى كل ، والهاء في عنه ترجع إلى كل أيضا الضمير في مسئول لكل أيضا ، والمعنى: أي السمع يسأل عن نفسه على المجاز ، ويجوز أن يكون الضمير في كان لصاحب هذه الجوارح لدلالتها عليه.

وقال الزمخشري يكون عنه في موضع رفع بمسئول كقوله " غير المغضوب عليهم " وهذا غلط لأن الجار والمجرور يقام مقام الفاعل إذا تقدم الفعل ، أو ما يقوم مقامه ، وأما إذا تأخر فلا يصح ذلك فيه لأن الاسم إذا تقدم على الفعل صار مبتدأ ، وحرف الجر إذا كان لازما لا يكون مبتدأ ، ونظيره قولك بزيد انطلق ، ويدلك على ذلك أنك لو ثنيت لم تقل بالزيدين انطلقا ، ولكن تصحيح المسألة أن تجعل الضمير في مسئول للمصدر ،

فيكون عنه في موضع نصب كما تقدر في قولك بزيد انطلق.

قوله تعالى (مرحا) بكسر الراء حال ، وبفتحها مصدر في موضع الحال

ومفعول له (تخرق) بكسر الراء وضمها لغتان (طولا) مصدر في موضع الحال من الفاعل أو المفعول، ويجوز أن يكون تمييزا ومفعولا له ومصدرا من معنى تبلغ.

قوله تعالى (سيئه) يقرأ بالتأنيث والنصب: أي كل ما ذكر من المناهى، وذكر (مكروها) على لفظ كل، أو لأن التأنيث غير حقيقي، ويقرأ بالرفع والإضافة: أي سيئ ما ذكر.

قوله تعالى (من الحكمة) يجوز أن يكون متعلقا بأوحى، وأن يكون حالا من العائد المحذوف، وأن يكون بدلا من ما أوحى.

قوله تعالى (أصفاكم) الألف مبدلة من واو لأنه من الصفوة (إناثا) مفعول أول لاتخذ، والثانى محذوف: أي أولادا، ويجوز أن يكون اتخذ متعديا إلى واحد مثل " قالوا اتخذ الله ولدا " ومن الملائكة يجوز أن يكون حالا وأن يتعلق باتخذ.

قوله تعالى (ولقد صرفنا) المفعول محذوف تقديره صرفنا المواعظ ونحوها.

قوله تعالى (كما يقولون) الكاف في موضع نصب: أي كونا كقولهم.

قوله تعالى (علوا) في موضع تعاليا، لأنه مصدر قوله تعالى، ويجوز أن يقع مصدر موقع آخر من معناه.

قوله تعالى (مستورا) أي محجوبا بحجاب آخر فوقه، وقيل هو مستور بمعنى ساتر.

قوله تعالى (أن يفقهوه) أي مخافة أن يفقهوه أو كراهة (نفورا) جمع نافر، ويجوز أن يكون

مصدرا كالعقود ، فإن شئت جعلته حالا ، وإن شئت جعلته مسدرا لولوا لأنه بمعنى نفروا .

(68/448)

قوله تعالى (يستمعون به) قيل الباء بمعنى اللام ، وقيل هي على بابها : أي يستمعون بقلوبهم أم بظاهر أسماعهم و (إذ) ظرف ليستمعون الأولى .

والنجوى مصدر : أي ذو نجوى ، ويجوز أن يكون جمع نجى كقتيل وقتلى (إذ يقول) بدل من " إذ " الإولى وقيل التقدير : اذكر إذ يقول .

والتاء في الرفات أصل ، والعامل في " إذ " مادل عليه مبعوثون لا نفس مبعوثون ، لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها ، و (خلقا) حال وهو بمعنى مخلوق ، ويجوز أن يكون مصدرا : أي بعثنا بعثا جديدا .

قوله تعالى (قل الذى فطركم) أي يعيدكم الذى فطركم ، وهو كناية عن الأحياء ، وقد دل عليه يعيدكم ، و (يكون) في موضع نصب بعسى ، واسمها مضمر فيها ، ويجوز أن يكون في موضع رفع بعسى ولا ضمير فيها .

قوله تعالى (يوم يدعوكم) هو ظرف ليكون ، ولا يجوز أن يكون ظرفا لاسم كان ، وإن كان

ضمير المصدر لأن الضمير لا يعمل ، ويجوز أن يكون ظرفا للبعث ، وقد دل عليه معنى

الكلام ، ويجوز أن يكون التقدير اذكر يوم يدعوكم (بحمده) في موضع الحال: أي فتستجيبون

حامدين ، ويجوز أن تتعلق الباء بيدعوكم (وتظنون) أي وأنتم تظنون فالجملة حال .

قوله تعالى (يقولوا) قد ذكر في إبراهيم (ينزغ) يقرأ بفتح الزاى وكسرها وهما لغتان .

قوله تعالى (زبورا) يقرأ بالفتح والضم ، وقد ذكر في النساء وفيه وجهان: أحدهما أنه علم ،

يقال زبور والزبور كما يقال عباس والعباس .

والثانى هو نكرة: أي كتابا من جملة الكتب .

قوله تعالى (أيهم) مبتدأ و (أقرب) خبره ، وهو استفهام ، والجملة في موضع نصب بيدعون ،

ويجوز أن يكون أيهم بمعنى الذى ، وهو بدل من الضمير

في يدعون ، والتقدير: الذى هو أقرب ، وفيها كلام طويل يذكر في مريم .

(69/448)

قوله تعالى (أن نرسل) أي من أن نرسل فهى في موضع نصب أو جر على الخلاف بين الخليل

وسيبويه ، وقد ذكرت نظائره (أن كذب) في موضع رفع فاعل " منعنا " وفيه حذف

مضاف تقديره: إلا إهلاك التكذيب ، وكانت عادة الله إهلاك من كذب بالآيات الظاهرة ،

ولم يرد إهلاك مشركي قريش لعلمه بإيمان بعضهم وإيمان من يولد منهم (مبصرة) أي ذات إبصار: أي يستبصر بها ، وقيل مبصرة دالة كما يقال للدليل مرشد ، ويقرأ بفتح الميم والصاد: أي تبصرة (تخويفا) مفعول له أو مصدر في موضع الحال.

قوله تعالى (وإذ قلنا) أي اذكر (والشجرة) معطوف على الرؤيا والتقدير: وما جعلنا الشجرة إلا فتنة ، وقرئ شاذا بالرفع ، والخبر محذوف: أي فتنة ، ويجوز أن يكون الخبر (في القرآن).

قوله تعالى (طينا) هو حال من " من " أو من العائد المحذوف ، فعلى الأول يكون العامل فيه اسجد ، وعلى الثاني خلقت ، وقيل التقدير: من طين ، فلما حذف الحرف نصب.

قوله تعالى (هذا) هو منصوب بأرأيت ، و (الذى) نعت له ، والمفعول الثاني محذوف تقديره: تفضيله أو تكريمه ، وقد ذكر الكلام في أرأيتك في الأنعام.

قوله تعالى (جزاء) مصدر: أي تجزون جزاء ، وقيل هو حال موطئة ، وقيل هو تمييز (من استطعت) " من " استفهام في موضع نصب باستطعت: أي من استطعت منهم استفزازه ، ويجوز أن تكون بمعنى الذى (ورجلك) يقرأ بسكون الجيم ، وهم الرجالة ، ويقرأ بكسرها وهو فعل من رجل يرجل إذا صار راجلا ، ويقرأ " ورجالك " أي بفرسانك ورجالك (ومايعدهم) رجوع من الخطاب

إلى الغيبة.

قوله تعالى (ربكم) مبتدأ ، و (الذى) وصلته الخبر ، وقيل هو صفة لقوله " الذى فطركم " أو بدل منه ، وذلك جائز وإن تباعد ما بينهما .

قوله تعالى (إلا إياه) استثناء منقطع ، وقيل هو متصل خارج على أصل الباب .

قوله تعالى (أن نخسف) يقرأ بالنون والياء ، وكذلك نرسل ونعيد كم ونغرقكم (بكم) حال من (جانب البر) أي نخسف جانب البر وأنتم ، وقيل الباء متعلقة بنخسف: أي بسببكم .

(70/448)

قوله تعالى (به تبيعا) يجوز أن تتعلق الباء بتبيع وبتجدوا ، وأن تكون حالا من تبيع .

قوله تعالى (يوم ندعوا) فيه أوجه: أحدها هو ظرف لما دل عليه قوله (ولا يظلمون فتيلا) تقديره: لا يظلمون يوم ندعو .

والثانى أنه ظرف لما دل عليه قوله متى هو .

والثالث هو ظرف لقوله فتستجيبون .

والرابع هو بدل من يدعوكم .

والخامس هو مفعول: أي اذكروا يوم ندعو ، وقرأ الحسن بياء مضمومة وواو بعد العين ورفع كل .

وفيه وجهان: أحدهما أنه أراد يدعى ففخم الألف فقلبها واوا .

والثانى أنه أراد يدعون وحذف النون ، وكل بدل من الضمير (بإمامهم) فيه وجهان:

أحدهما هو متعلق بندعو: أي نقول يا أتباع موسى ويا أتباع محمد عليهما الصلاة والسلام:

أو يا أهل الكتاب يا أهل القرآن .

والثانى هي حال تقديره: مختلطين بنبيهم أو مؤاخذين .

قوله تعالى (أعمى) الأولى بمعنى فاعل .

وفي الثانية وجهان: أحدهما كذلك: أي من كان في الدنيا عميا عن حجته فهو في الآخرة

كذلك .

والثانى هي أفعل التى

تقتضي من ، ولذلك قال (وأضل) وأمال أبو عمرو الأولى دون الثانية لأنه رأى أن

الثانية تقتضي من ، فكأن الالف وسط الكلمة تمثل أعمالهم .

قوله تعالى (تركن) بفتح الكاف وماضيه بكسرها .

وقال بعضهم: هي مفتوحة في الماضي والمستقبل ، وذلك من تداخل اللغتين إن من العرب

من يقول: ركن يركن ، ومنهم من يقول: ركن يركن فيفتح الماضي ويضم المستقبل ، فسمع من

لغته فتح الماضي فتح المستقبل ممن هو لغته ، أو بالعكس فجمع بينهما ، وإنما دعا قائل هذا

إلى اعتقاده أنه لم يجئ منهم فعل يفعل بفتح العين فيهما في غير حروف الحلق إلا أبى يأبى ، وقد قرئ بضم الكاف .

(71/448)

قوله تعالى (لا يلبثون) المشهور بفتح الياء والتخفيف ؟ ؟ وإثبات النون على إلغاء إذن ، لأن الواو العاطفة تصير الجملة مختلفة بما قبلها ، فيكون إذن حشوا ، ويقرأ بضم الياء والتشديد على ما لم يسم فاعله ، وفى بعض المصاحف بغير نون على إعمال إذن ، ولا يكترث بالواو فإنها قد تأتى مستأنفة (خلافك) وخلافك لغتان بمعنى ، وقد قرئ بهما (إلا قليلا) أي زمنا قليلا .

قوله تعالى (سنة من قد أرسلنا) هو منصوب على المصدر : أي سننا بك سنة من تقدم من الأنبياء صلوات الله عليهم ، ويجوز أن تكون مفعولا به : أي اتبع سنة من قد أرسلنا ، كما قال تعالى " فبهداهم اقتده " .

قوله تعالى (إلى غسق الليل) حال من الصلاة : أي ممدودة ، ويجوز أن تتعلق بأقم فهى لانتهاء غاية الإقامة (وقرآن الفجر) فيه وجهان : أحدهما هو معطوف على الصلاة : أي وأقم صلاة الفجر .

والثانى هو على الإغراء : أي عليك قرآن الفجر أو الزم .

قوله تعالى (نافلة لك) فيه وجهان: أحدهما هو مصدر بمعنى تهجد : أي تنفل نفلا ، وفاعله

هنا مصدر كالعافية .

والثانى هو حال: أي صلاة نافلة (مقاما) فيه وجهان: أحدهما هو حال تقديره: ذا مقام .

الثاني أن يكون مصدرا تقديره: أن

يبعثك فتقوم .

قوله تعالى (من القرآن) من لبيان الجنس: أي كله هدى من الضلال ، وقيل هي للتبعيض: أي

منه ما يشفى من المرض .

وأجاز الكسائي (ورحمة) بالنصب عطفا على " ما " .

قوله تعالى (ونأى) يقرأ بألف بعد الهمزة: أي بعد عن الطاعة ، ويقرأ بهمزة

بعد الألف .

وفيه وجهان: أحدهما هو مقلوب نأى .

والثانى هو بمعنى نهض: أي ارتفع عن قبول الطاعة ، أو نهض المعصية والكبر .

قوله تعالى (أهدى سبيلا) يجوز أن يكون أفعل من هدى غيره ، وأن يكون من اهتدى ،

على حذف الزوائد ، أو من هدى بمعنى اهتدى فيكون لازما .

قوله تعالى (من العلم) متعلق بأوتيتم ، ولا يكون حالا من قليل ، لأن فيه تقديم المعمول على "إلا" .

(72/448)

قوله تعالى (إلا رحمة) هو مفعول له ، والتقدير : حفظناه عليك للرحمة ، ويجوز أن يكون مصدرا تقديره: لكن رحمناك رحمة .

قوله تعالى (لا يأتون) ليس بجواب الشرط ، لكن جواب قسم محذوف دل عليه اللام الموطئة في قوله " لئن اجتمعت " وقيل هو جواب الشرط ، ولم يجزمه لأن فعل الشرط ماض .

قوله تعالى (حتى تفجر) يقرأ بالتشديد على التكثير ، وبفتح التاء وضم الجيم والتخفيف .

والياء في ينبوع زائدة لإنه من نبع ، فهو مثل يغبوب من غب .

قوله تعالى (كسفا) يقرأ بفتح السين ، وهو جمع كسفة مثل قربة وقرب ، وبسكونها .

وفيه وجهان: أحدهما هو مخفف من المفتوحة ، أو مثل سدرة وسدر .

والثانى هو واحد على فعل بمعنى مفعول ، وانتصابه على الحال من السماء ، ولم يؤنثه لأن تأنيث السماء غيرحقيقى ، أو لإن السماء بمعنى السقف .

والكاف في "كما " صفة لمصدر محذوف: أي إسقاطا مثل مزعومك ، و (قبيلا) حال من

الملائكة ، أو من الله والملائكة (نقرؤه) صفة لكتاب أو حال من المجرور (قل) على الأمر .

وقال على الحكاية عنه .

قوله تعالى (أن يؤمنوا) مفعول منع ، و (أن قالوا) فاعله .

قوله تعالى (يمشون) صفة للملائكة ، و (مطمئنين) حال من ضمير الفاعل .

قوله تعالى (على وجوههم) حال (وعميا) حال أخرى ، إما بدل من الأولى وإما حال من الضمير في الجار (مأواهم جهنم) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا مقدرة (كلما خبت) الجملة إلى آخر الآية حال من جهنم ، والعامل فيها معنى المأوى ، ويجوز أن تكون مستأنفة .

قوله تعالى (ذلك) مبتدأ ، و (جزاؤهم) خبره ، و (بأنهم) يتعلق

بجزاء ، وقيل ذلك خبر مبتدأ محذوف: أي الإمر ذلك ، وجزاؤهم مبتدأ ، وبأنهم الخبر ، ويجوز أن يكون جزاؤهم بدلا أو بيانا ، وبأنهم خبر ذلك .

(73/448)

قوله تعالى (لو أنتم) في موضع رفع بأنه فاعل لفعل محذوف وليس بمبتدأ ، لأن " لو " تقتضي الفعل كما تقتضيه إن الشرطية ، والتقدير: لو تملكون ، فلما حذف الفعل صار الضمير

المتصل منفصلا ، و (تملكون) الظاهرة تفسير للمحذوف (لأمسكتم) مفعوله محذوف: أي أمسكتم الأموال ، وقيل هو لازم بمعنى بخلتم (خشية) مفعول له أو مصدر في موضع الحال .

قوله تعالى (بينات) صفة لآيات أو لتسع (إذ جاءهم) فيه وجهان: أحدهما هو مفعول به باسأل على المعنى ، لأن المعنى: اذكر لبنى إسرائيل إذ جاءهم ، وقيل التقدير: اذكر إذ جاءهم ، وهى غير ما قدرت به اسأل .

والثانى هو ظرف ، وفي

العامل فيه أوجه: أحدها آتينا .

والثانى قلنا مضمرة أي فقلنا له سل .

والثالث قل .

تقديره: قل لخصمك سل بنى ، والمراد به فرعون: أي قل يا موسى ، وكان الوجه أن يقول: أذ جئتهم ، فرجع من الخطاب إلى الغيبة .

قوله تعالى (لقد علمت) بالفتح على الخطاب أي علمت ذلك ، ولكنك عاندت ، وبالضم: أي أنا غير شاك فيما جئت به (بصائر) حال من هؤلاء ، وجاءت بعد إلا ، وهى حال مما قبلها لما ذكرنا في هود عند قوله " وما نراك اتبعك " .

قوله تعالى (لفيفا) حال بمعنى جميعا ، وقيل هو مصدر كالنذير والنكير: أي مجتمعين .

قوله تعالى (وبالحق أنزلناه) أي وبسبب إقامة الحق ، فتكون الباء متعلقة بأنزلنا ، ويجوز أن

يكون حالا: أي أنزلناه ومعه الحق أو فيه الحق، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل، أي أنزلناه ومعنا الحق (وبالحق نزل) فيه الوجهان الأولان دون الثالث، لأنه ليس فيه ضمير لغير القرآن.

قوله تعالى (وقرآنا) أي وآتيناك قرآنا، دل على ذلك " ولقد آتينا موسى الكتاب " أو أرسلناك، فعلى هذا (فرقناه) في موضع نصب على الوصف، ويجوز أن يكون التقدير: وفرقنا قرآنا، وفرقناه تفسير لا موضع له، وفرقناه، أي في أزمنة، وبالتخفيف أي شرحناه (على مكث) في موضع الحال: أي متمكثا، والمكث بالضم والفتح لغتان وقد قرئ بهما، وفيه لغة أخرى كسر الميم.

(74/448)

قوله تعالى (للأذقان) فيه ثلاثة أوجه: أحدها هي حال تقديره: ساجدين للأذقان.

والثانى هي متعلقة بيخرون، واللام على بابها: أي مذلون للأذقان.

والثالث هي بمعنى على، فعلى هذا يجوز أن يكون حالا من (يبكون) ويبكون حال وفاعل (يزيدهم) القرآن أو المتلو أو البكاء أو السجود.

قوله تعالى (أياما) أيا منصوب ب (تدعوا) وتدعوا مجزوم بأيا، وهى شرط، فأما " ما "

فزائدة للتوكيد ، وقيل هي شرطية كررت لما اختلف اللفظان .

قوله تعالى (من الذل) أي من أجل الذل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 87.98 ﴾

(75/448)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الإسراء

[سورة الإسراء (17) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (3)

(76/448)

"سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "الَّذِي" اسم موصول في محل جر بالإضافة والجملة مستأنفة "أَسْرى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر "بِعَبْدِهِ" متعلقان بأسرى والهاء مضاف إليه "لَيْلًا" ظرف زمان متعلق بأسرى "مِنَ الْمَسْجِدِ" متعلقان بأسرى "الْحَرامِ" صفة لمسجد "إِلَى الْمَسْجِدِ" متعلقان بأسرى "الْأَقْصَى" صفة والجملة صلة "الَّذِي" اسم موصول صفة ثانية "بارَكْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "حَوْلَهُ" ظرف مكان متعلق بباركنا والهاء مضاف إليه "لِنُرِيَهُ" اللام للتعليل ونريه مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وهي وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بخبر لمبتدأ محذوف تقديره ذلك لنريه "مِنْ آياتِنا" متعلقان بنريه "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ السَّمِيعُ" مبتدأ وخبر "الْبَصِيرُ" خبر ثان والجملة خبر إن "وَآتَيْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله "مُوسَى" مفعول به أول "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة مستأنفة "وَجَعَلْناهُ هُدىً" ماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة "لِبَنِي" بني اسم مجرور باللام وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ومتعلقان بهدى "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "أَلَّا" أن زائدة أو مفسرة ولا ناهية "تَتَّخِذُوا" مضارع مجزوم بلا بحذف النون والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها تفسيرية "مِنْ دُونِي" سد الجار والمجرور عن المفعول الثاني لتتخذوا والياء مضاف إليه "وَكِيلًا" مفعول به أول "ذُرِّيَّةَ" بدل من وكيلا "مَنْ" اسم موصول في محل جر مضاف إليه "حَمَلْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَعَ" ظرف مكان متعلق بحملنا "نُوحٍ"

مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كانَ عَبْداً" كان وخبرها واسمها محذوف والجملة خبر إن "شَكُوراً" صفة عبدا .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 4 الى 5]

(77/448)

وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (4) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (5)

"وَقَضَيْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "إِلى بَنِي" بني اسم مجرور بإلى بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ومتعلقان بقضينا "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "فِي الْكِتابِ" متعلقان بقضينا "لَتُفْسِدُنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو المحذوفة فاعل والضمة علامة لها والنون للتوكيد "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بتفسدن

"مَرَّتَيْنِ" نائب مفعول مطلق منصوب بالياء لأنه مثنى والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم

"وَلَتَعْلُنَّ" معطوفة على لتفسدن وإعرابها كإعرابها "عُلُوًّا" مفعول مطلق "كَبِيراً" صفة لعلو

"فَإِذا" الفاء استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "جاءَ وَعْدُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "أُولاهُما" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر والهاء مضاف إليه "بَعَثْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "عَلَيْكُمْ" متعلقان ببعثنا "عِباداً" مفعول به "لَنا" متعلقان بصفة محذوفة لعبادا "أُولِي" صفة ثانية لعباد "بَأْسٍ" مضاف إليه "شَدِيدٍ" صفة "فَجاسُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "خِلالَ" ظرف مكان متعلق بجاسوا "الدِّيارِ" مضاف إليه "وَكانَ وَعْداً" الواو عاطفة وكان وخبرها واسمها محذوف "مَفْعُولًا" صفة لوعدا .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 6 الى 7]

(78/448)

ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (6) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (7)

(79/448)

"ثُمَّ" عاطفة "رَدَدْنا" ماض وفاعله "لَكُمُ" متعلقان برددنا "الْكَرَّةَ" مفعول به "عَلَيْهِمْ" متعلقان برددنا "وَأَمْدَدْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "بِأَمْوالٍ" متعلقان بأمددناكم "وَبَنِينَ" معطوف على أموال مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ" ماض وفاعله ومفعوله وأكثر مفعوله الثاني "نَفِيراً" تمييز "إِنْ" حرف شرط جازم "أَحْسَنْتُمْ" فعل الشرط ماض وفاعله والجملة ابتدائية "أَحْسَنْتُمْ" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "لِأَنْفُسِكُمْ" متعلقان بأحسنتم "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية "أَسَأْتُمْ" ماض وفاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "فَلَها" الفاء رابطة للجواب ولها متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره فلها إساءتها والجملة في محل جزم جواب الشرط "فَإِذا" الفاء استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "جاءَ وَعْدُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "لِيَسُوؤُا" اللام للتعليل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل بحذف النون والواو فاعل واللام وما بعدها متعلقان بمحذوف جواب إذا والتقدير بعثناهم ليسوؤوا "وُجُوهَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَلِيَدْخُلُوا" معطوف على ليسوؤوا وإعرابه كإعرابه "الْمَسْجِدَ" مفعول به "كَما" الكاف حرف تشبيه وما مصدرية "دَخَلُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والكاف وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي دخولا

كائنا مثل دخولهم. "أَوَّلَ" ظرف زمان منصوب "مَرَّةٍ" مضاف إليه "وَلِيُتَبِّرُوا" معطوف على ليدخلوا وإعرابه مثله "ما" موصولية مفعول به "عَلَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "تَتْبِيراً" مفعول مطلق.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 8 الى 10]

(80/448)

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (8) إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (10)

(81/448)

"عَسى" فعل ماض ناقص "رَبُّكُمْ" اسم عسى مرفوع والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "أَنْ" حرف ناصب "يَرْحَمَكُمْ" مضارع منصوب بأن والكاف مفعوله وفاعله مستتر وأن وما بعدها خبر "وَإِنْ" حرف شرط جازم والواو عاطفة "عُدْتُمْ" ماض وفاعله

وهو فعل الشرط والجملة ابتدائية "عُدْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "وَجَعَلْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "جَهَنَّمَ" مفعول به "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بحصيرا "حَصِيراً" مفعول به "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "هذاَ" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل نصب اسمها "الْقُرْآنَ" بدل من اسم الإشارة والجملة مستأنفة "يَهْدِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة خبر "لِلَّتِي" اسم موصول في محل جر ومتعلقان بيهدي "هِيَ أَقْوَمُ" مبتدأ وخبر والجملة صلة "وَيُبَشِّرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "الَّذِينَ" اسم موصول صفة "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "أَجْراً" اسم أن "كَبِيراً" صفة لأجرا "وَأَنَّ" الواو عاطفة وأن حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول اسم أن والجملة معطوفة "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بيؤمنون "أَعْتَدْنا" ماض وفاعله والجملة في محل رفع خبر أن "لَهُمْ" متعلقان بأعتدنا "عَذاباً" مفعول به "أَلِيماً" صفة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 11 الى 13]

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً (11) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (13)

"وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والإنسان فاعله والجملة مستأنفة "بِالشَّرِّ" متعلقان بيدعو "دُعَاءَهُ" مفعول مطلق والهاء مضاف إليه "بِالْخَيْرِ" متعلقان بدعاء "وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة مستأنفة "وَالنَّهَارَ" معطوف على الليل "آيَتَيْنِ" مفعول به ثان منصوب بالياء لأنه مثنى "فَمَحَوْنَا آيَةَ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله "اللَّيْلِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "وَجَعَلْنَا آيَةَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "النَّهَارَ" مضاف إليه "مُبْصِرَةً" مفعول به ثان "لِتَبْتَغُوا" اللام لام التعليل ومضارع

منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل واللام وما بعدها جار ومجرور والجار والمجرور متعلقان بجعلنا "فَضْلًا" مفعول به "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بتبتغوا والكاف مضاف إليه "وَلِتَعْلَمُوا" معطوف على لتبتغوا وإعرابه مثله "عَدَدَ" مفعول به لتعلموا "السِّنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "وَالْحِسابَ" معطوف على عدد "وَكُلَّ" مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة معطوفة "فَصَّلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مفسرة لا محل لها "تَفْصِيلًا" مفعول مطلق "وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ" معطوفة على ما سبق وإعرابها كإعرابها "طائِرَهُ" مفعول به ثان والهاء مضاف إليه "فِي عُنُقِهِ" متعلقان بألزمناه والهاء مضاف إليه "وَنُخْرِجُ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع فاعله نحن "لَهُ" متعلقان بنخرج "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بنخرج "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "كِتاباً" مفعول به ثان "يَلْقاهُ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صفة لكتابا "مَنْشُوراً" حال.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 14 الى 16]

اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15) وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (16)

"اقْرَأْ كِتَابَكَ" أمر فاعله مستتر وكتاب مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول لفعل محذوف تقديره يقال له اقرأ "كَفَى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "بِنَفْسِكَ" الباء زائدة ونفسك فاعل مرفوع بالضمة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد والجملة مستأنفة "الْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بكفى وكذلك الجار والمجرور "عَلَيْكَ" "حَسِيباً" تمييز "مَنِ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ والجملة مستأنفة "اهْتَدَى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر وهو فعل الشرط "فَإِنَّما" الفاء رابطة للجواب وإنما كافة ومكفوفة "يَهْتَدِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "لِنَفْسِهِ" متعلقان بيهتدي وجملة الشرط خبر من "وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها" الجملة معطوفة وإعرابها كسابقها . "وَلا" الواو استئنافية ولا نافية "تَزِرُ" مضارع مرفوع "وازِرَةٌ" فاعل "وِزْرَ" مفعول به "أُخْرى" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كُنَّا" كان واسمها "مُعَذِّبِينَ" خبر كان المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "نَبْعَثَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وفاعله مستتر والجار

وما بعده من مصدر مؤول متعلقان بمعذبين "رَسُولًا" مفعول به "وَإِذا"

الواو استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "أَرَدْنا"

ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "أَنْ"

حرف ناصب "نُهْلِكَ قَرْيَةً"

مضارع منصوب ومفعول به وفاعله مستتر والمصدر المؤول مفعول به "أَمَرْنا مُتْرَفِيها"

ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا "فَفَسَقُوا"

ماض وفاعله والجملة معطوفة "فِيها"

متعلقان بفسقوا "فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ"

(85/448)

ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بحق والجملة معطوفة "فَدَمَّرْناها"

ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "تَدْمِيراً"

مفعول مطلق.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 17 الى 18]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17) مَنْ كانَ

يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18)

"وَكَمْ" الواو استئنافية كم خبرية في محل نصب مفعول به مقدم لأهلكنا "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنَ الْقُرُونِ" متعلقان بأهلكنا وما بعد من تمييز بالمعنى "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بحال محذوفة "نُوحٍ" مضاف إليه "وَكَفى" الواو عاطفة كفى فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "بِرَبِّكَ" الباء حرف جر زائد ورب فاعل والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "بِذُنُوبِ" متعلقان بخبيرا "عِبادِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "خَبِيراً بَصِيراً" كل منهما تمييز لكفى "مَنْ كانَ" من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ الجملة استئنافية "كانَ" فعل ماض ناقص واسمها محذوف "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر "الْعاجِلَةَ" مفعول به والجملة خبر كان "عَجَّلْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط لم تقترن بالفاء "لَهُ" متعلقان بعجلنا "فِيها" متعلقان بعجلنا "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "نَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "لِمَنْ" اسم موصول والجار والمجرور متعلقان بنشاء "نُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "ثُمَّ" عاطفة "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان بجعلنا "جَهَنَّمَ" مفعول به "يَصْلاها" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر والها مفعول به وجملة يصلاها في محل نصب حال "مَذْمُوماً مَدْحُوراً" حالان.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 19 الى 20]

وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19) كُلاًّ نُمِدُّ

هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20)

"وَمَنْ" الواو عاطفة من اسم شرط جازم مبتدأ "أَرادَ" ماض فاعله مستتر "الْآخِرَةَ" مفعول به "وَسَعى" الواو عاطفة وماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر "لَها" متعلقان بسعى "سَعْيَها" مفعول مطلق والجملة معطوفة والها مضاف إليه "وَهُوَ مُؤْمِنٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية أو اعتراضية "فَأُولئِكَ" الفاء رابطة للجواب أولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب والجملة في محل جزم جواب الشرط "كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً" كان واسمها وخبرها والجملة خبر المبتدأ أولئك وجملة فعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ من. "كُلًّا" مفعول به مقدم لنمد "نُمِدُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "هؤُلاءِ" ها للتنبيه أولاء اسم إشارة في محل نصب بدل من كلا "وَهَؤُلاءِ" معطوف على هؤلاء "مِنْ عَطاءِ" متعلقان بنمد "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه.

"وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ عَطاءُ" كان واسمها "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف في محل

جر بالإضافة "مَحْظُوراً" خبر كان والجملة معطوفة على ما سبق.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 21 الى 23]

(87/448)

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22) وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (23)

(88/448)

"انْظُرْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والهاء في محل جر مضاف إليه "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بفضلنا "وَلَلْآخِرَةُ" الواو استئنافية واللام لام الابتداء والآخرة مبتدأ "أَكْبَرُ" خبر والجملة مستأنفة "دَرَجاتٍ" تمييز منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "وَأَكْبَرُ" معطوف

على أكبر "تَفْضِيلًا" تمييز "لا" ناهية "تَجْعَلْ" مضارع مجزوم فاعله مستتر "مَعَ" ظرف مكان متعلق بما قبله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلهاً" مفعول به "آخَرَ" صفة "فَتَقْعُدَ" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية وفاعله مستتر "مَذْمُوماً" حال "مَخْذُولًا" حال "وَقَضى رَبُّكَ" الواو استئنافية وماض وفاعله والكاف مضاف إليه "أَلَّا" أن ناصبة ولا نافية "تَعْبُدُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل "أَلَّا" أداة حصر "إِيَّاهُ" ضمير في محل نصب مفعول به "وَبِالْوالِدَيْنِ" متعلقان بفعل محذوف تقديره أحسنوا بالوالدين "إِحْساناً" مفعول مطلق "إِمَّا" إن الشرطية وما زائدة "يَبْلُغَنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "عِنْدَكَ" ظرف مكان متعلق بالفعل والكاف مضاف إليه "الْكِبَرَ" مفعول به "أَحَدُهُما" فاعل مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة ابتدائية "أَوْ" عاطفة "كِلاهُما" اسم معطوف منصوب بالألف لأنه ملحق بالمثنى والهاء مضاف إليه "فَلا" الفاء رابطة للجواب ولا ناهية "تَقُلْ" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وفاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "لَهُما" متعلقان بتقل "أُفٍّ" اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر "وَلا تَنْهَرْهُما" الواو عاطفة ومضارع مجزوم بلا الناهية فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة معطوفة "وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً" أمر فاعله مستتر والجار

والمجرور متعلقان بقل وقولا مفعول مطلق وكريما صفة والجملة معطوفة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 24 الى 26]

وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26)

"وَاخْفِضْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "لَهُما" متعلقان بأخفض "جَناحَ" مفعول به "الذُّلِّ" مضاف إليه "مِنَ الرَّحْمَةِ" متعلقان بأخفض "وَقُلْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب على النداء وياء المتكلم المحذوفة مضاف إليه "ارْحَمْهُما" فعل دعاء ومفعوله وفاعله مستتر وجملة النداء وارحمهما مقول القول "كَما" الكاف حرف

جر وما مصدرية "رَبَّيانِي" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في تأويل مصدر في محل جر ومتعلقان بصفة مفعول مطلق محذوفة تقديره ارحمهما رحمة مثل إلخ "صَغِيراً" حال "رَبُّكُمْ"

أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة والكاف مضاف إليه "بِما" ما موصولية ومتعلقان بأعلم "فِي نُفُوسِكُمْ" متعلقان بمحذوف صلة "إِنْ" شرطية "تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم والجملة ابتدائية لا محل لها "صالِحِينَ" خبر منصوب بالياء "فَإِنَّهُ" الفاء رابطة للجواب وإن واسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً" كان واسمها محذوف وغفورا خبرها والجار والمجرور متعلقان بغفورا والجملة خبر إن "وَآتِ" الواو عاطفة وآت أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر "ذَا" مفعول به أول منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة "الْقُرْبى" مضاف إليه "حَقَّهُ" مفعول به ثان والهاء مضاف إليه "وَالْمِسْكِينَ" معطوف على ذا "وَابْنَ" معطوف على ما سبق "السَّبِيلِ" مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُبَذِّرْ تَبْذِيراً" مضارع مجزوم ومفعوله المطلق وفاعله مستتر والجملة معطوفة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 27 الى 29]

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29)

"إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ" إن واسمها المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة تعليل للنهي لا محل لها "كانُوا" كان واسمها "إِخْوانَ" خبر والجملة خبر إن "الشَّياطِينِ" مضاف إليه "وَكانَ الشَّيْطانُ" الواو عاطفة وكان واسمها "لِرَبِّهِ" متعلقان بكفور والهاء مضاف إليه "كَفُوراً" خبر والجملة معطوفة "وَإِمَّا" الواو استئنافية وإن شرطية وما زائدة "تُعْرِضَنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والجملة ابتدائية وهو فعل الشرط "عَنْهُمُ" متعلقان بالفعل "ابْتِغاءَ" مفعول لأجله "رَحْمَةٍ" مضاف إليه "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان برحمة "تَرْجُوها" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل الهاء مفعول به والجملة حالية "فَقُلْ" الفاء رابطة للجواب وأمر فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بقل "قَوْلًا" مفعول مطلق "مَيْسُوراً" صفة والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَجْعَلْ" مضارع مجزوم بلا الناهية وفاعله مستتر "يَدَكَ" مفعول به أول والكاف مضاف إليه "مَغْلُولَةً" مفعول به ثان "إِلى عُنُقِكَ" متعلقان بمغلولة "وَلا تَبْسُطْها" معطوف على ولا تجعل وإعرابها مثلها وفاعله مستتر والهاء مفعول به "كُلَّ" نائب مفعول مطلق منصوب و"الْبَسْطِ" مضاف إليه "فَتَقْعُدَ" الفاء السببية ومضارع منصوب بأن المضمرة بعدها وفاعله مستتر "مَلُوماً مَحْسُوراً" حالان.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 30 الى 32]

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32)

(92/448)

"إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف في محل جر بالإضافة والجملة مستأنفة "يَبْسُطُ" مضارع فاعله محذوف والجملة خبر "الرِّزْقَ" مفعول به "لِمَنْ" من اسم موصول ومتعلقان بيبسط "يَشَاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَقْدِرُ" معطوف على يشاء وإعرابه مثله "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كَانَ" فعل ماض ناقص واسمها محذوف "بِعِبَادِهِ" متعلقان بخبيرا "خَبِيرًا بَصِيرًا" خبران لكان "وَلَا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَقْتُلُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "أَوْلَادَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "خَشْيَةَ" مفعول لأجله "إِمْلَاقٍ" مضاف إليه "نَحْنُ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "نَرْزُقُهُمْ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة خبر "وَإِيَّاكُمْ" ضمير نصب معطوف على مفعول نرزقهم "إِنَّ قَتْلَهُمْ" إن واسمها والهاء مضاف إليه والجملة تعليل لا محل لها "كَانَ خِطْأً" كان واسمها محذوف وخطئا خبر "كَبِيرًا" صفة والجملة خبر إن "وَلَا" الواو

عاطفة ولا ناهية "تَقْرَبُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "الزِّنى" مفعول به والجملة معطوفة "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كانَ" فعل ماض ناقص واسمها محذوف "فاحِشَةً" خبر كان "وَساءَ" الواو عاطفة وساء ماض لإنشاء الذم وفاعله مستتر والجملة معطوفة "سَبِيلًا" تمييز.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 33 الى 35]

(93/448)

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35)

"وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَقْتُلُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "النَّفْسَ" مفعول به "الَّتِي" اسم موصول صفة "حَرَّمَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "إِلَّا" أداة حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بتقتلوا "وَمَنْ قُتِلَ" الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وفعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر

"مَظْلُوماً" حال "فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق "جَعَلْنا" ماض وفاعله "لِوَلِيِّهِ" الجار والمجرور وقعا موقع المفعول به الثاني "سُلْطاناً" مفعول به أول لجعلنا والجملة في محل جزم جواب الشرط "فَلا" الفاء عاطفة ولا ناهية "يُسْرِفْ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي الْقَتْلِ" متعلقان بيسرف "إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "مَنْصُوراً" خبره والجملة خبر إن "وَلا تَقْرَبُوا مالَ" الواو عاطفة ولا ناهية ومضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله و"مالَ" مفعول به والجملة معطوفة "الْيَتِيمِ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "بِالَّتِي" اسم موصول مجرور بالباء ومتعلقان بتقربوا "هِيَ أَحْسَنُ" مبتدأ وخبر والجملة صلة "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَبْلُغَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وأن وما بعدها في تأويل

(94/448)

مصدر في محل جر ومتعلقان بتقربوا "أَشُدَّهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَأَوْفُوا" الواو عاطفة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة "بِالْعَهْدِ" متعلقان بأوفوا "إِنَّ الْعَهْدَ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كانَ مَسْؤُلًا" إن وخبرها واسمها محذوف والجملة خبر "وَأَوْفُوا" معطوف على أوفوا وإعرابها مثلها "الْكَيْلَ" مفعول به "إِذا" ظرف

يتضمن معنى الشرط "كِلْتُمْ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "وَزِنُوا" معطوف على ما سبق وهو أمر والواو فاعله "بِالْقِسْطاسِ" متعلقان بزنوا "الْمُسْتَقِيمِ" صفة "ذلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب وهو مبتدأ "خَيْرٌ" خبر والجملة تعليل لا محل لها "وَأَحْسَنُ" معطوف على خير "تَأْوِيلًا" تمييز.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 36 الى 38]

وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (36) وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (37) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38)

(95/448)

"وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَقْفُ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وفاعله مستتر والجملة معطوفة "ما" موصولية مفعول به "لَيْسَ" فعل ماض ناقص "لَكَ" متعلقان بخبر مقدم "بِهِ" متعلقان بمحذوف حال "عِلْمٌ" اسم ليس والجملة صلة "إِنَّ السَّمْعَ" إن واسمها "وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ" معطوف على ما قبله والجملة تعليلية لا محل لها "كُلُّ" مبتدأ "أُولئِكَ" اسم إشارة مضاف إليه والكاف للخطاب وجملة كل إلخ خبر إن "كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا" كان

وخبرها واسمها محذوف الجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة خبر كل "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَمْشِ" مضارع مجزوم بلا بحذف حرف العلة وفاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بتمش "مَرَحاً" حال "إِنَّكَ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "لَنْ" حرف ناصب "تَخْرِقَ" مضارع منصوب بلن وفاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به والجملة خبر إن "وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ" معطوف على سابقتها وإعرابها مثلها "طُولًا" تمييز "كُلُّ" مبتدأ والجملة مستأنفة "ذلِكَ" ذا اسم إشارة مضاف إليه واللام للبعد والكاف للخطاب "كانَ سَيِّئُهُ" كان واسمها والهاء مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بالخبر والجملة خبر كل "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف في محل جر بالإضافة "مَكْرُوهاً" خبر كان.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 39 الى 41]

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39) أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (41)

"ذِلكَ" ذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة مستأنفة "مِمَّا" ما موصولية متعلقان بالخبر المحذوف "أَوْحى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "إِلَيْكَ"

(97/448)

متعلقان بأوحى "رَبُّكَ" فاعل والكاف مضاف إليه والجملة صلة "مِنَ الْحِكْمَةِ" متعلقان بأوحى أو بحال محذوفة "وَلا تَجْعَلْ" الواو عاطفة ولا ناهية ومضارع مجزوم بلا الناهية وفاعله محذوف والجملة معطوفة "مَعَ" ظرف مكان متعلق بتجعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلهاً" مفعول به "آخَرَ" صفة "فَتُلْقى" الفاء فاء السببية ومضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف "فِي جَهَنَّمَ" جهنم ممنوع من الصرف مجرور وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة ومتعلقان بتلقى "مَلُوماً مَدْحُوراً" حالان "أَفَأَصْفاكُمْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية وماض ومفعوله المقدم والجملة مستأنفة "رَبُّكُمْ" فاعل مؤخر والكاف مضاف إليه "بِالْبَنِينَ" متعلقان بأصفاكم وهو مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "وَاتَّخَذَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "مِنَ الْمَلائِكَةِ" متعلقان باتخذ "إِناثاً" مفعول به أول أما مفعوله الثاني فهو من الملائكة "إِنَّكُمْ" إن واسمها والجملة

تعليل لا محل لها "لَتَقُولُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر "قَوْلًا" مفعول مطلق "عَظِيماً" صفة "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "صَرَّفْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "فِي هذَا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل جر متعلقان بصرفنا "الْقُرْآنِ" بدل "لِيَذَّكَّرُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بحذف النون والواو الفاعل واللام وما بعدها متعلقان بصرفنا "وَما" الواو حالية وما نافية "يَزِيدُهُمْ" مضارع فاعله محذوف والهاء مفعوله "إِلَّا" أداة حصر "نُفُوراً" مفعول به ثان والجملة حالية.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 24 الى 44]

(98/448)

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (44)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "كانَ" فعل ماض ناقص "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بخبر كان المقدم والهاء مضاف إليه "آلِهَةٌ" اسم كان

والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "كَما" الكاف جارة وما مصدرية "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والكاف وما بعده متعلقان بخبر كان المحذوف "إِذاً" حرف جواب وجزاء "لَابْتَغَوْا" اللام واقعة في جواب لو وماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "إِلى ذِي" ذي مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة ومتعلقان بابتغوا "الْعَرْشِ" مضاف إليه "سَبِيلًا" مفعول به "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف والهاء مضاف إليه وهي جملة مستأنفة "وَتَعالى " الواو عاطفة "تَعالى " ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "عَمَّا" ما موصولية ومتعلقان بتعالى "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة صلة "عُلُوًّا" مفعول مطلق "كَبِيراً"

صفة "تُسَبِّحُ" مضارع مرفوع "لَهُ" متعلقان بتسبح "السَّماواتُ" فاعل "وَالْأَرْضُ" معطوف على السموات والجملة مستأنفة "وَمَنْ" اسم موصول معطوف على ما سبق وهو في محل رفع "فِيهِنَّ" متعلقان بالصلة المحذوفة "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن نافية "مَنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "يُسَبِّحُ" مضارع فاعله مستتر "بِحَمْدِهِ" متعلقان بيسبح والجملة خبر المبتدأ "وَلكِنْ" الواو استئنافية ولكن

حرف استدراك "لا" نافية "تَفْقَهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة مستأنفة "تَسْبِيحَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كانَ حَلِيماً غَفُوراً" كان وخبراها واسمها محذوف والجملة خبر إن.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 45 الى 46]

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46)

(100/448)

"وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "قَرَأْتَ" ماض والتاء فاعل والجملة مضاف إليه "الْقُرْآنَ" مفعول به "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا "بَيْنَكَ" ظرف مكان متعلق بجعلنا والكاف مضاف إليه "وَبَيْنَ" معطوف على ما سبق "الَّذِينَ" موصول في محل جر مضاف إليه "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صفة "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بيؤمنون "حِجاباً" مفعول به "مَسْتُوراً" صفة "وَجَعَلْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلى قُلُوبِهِمْ" متعلقان بجعلنا

والهاء مضاف إليه "أَكِنَّةً" مفعول به "أَنْ" ناصبة "يَفْقَهُوهُ" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والمصدر المؤول في محل نصب مفعول لأجله أي خشية أن إلخ "وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً" معطوف على قلوبهم "وَإِذا" الواو عاطفة إذا ظرف يتضمن معنى الشرط "ذَكَرْتَ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "رَبَّكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه "فِي الْقُرْآنِ" متعلقان بذكرت "وَحْدَهُ" حال والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَلَّوْا" ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "عَلى أَدْبارِهِمْ" متعلقان بولوا والهاء مضاف إليه "نُفُوراً" حال أو مفعوله لأجله.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 47 الى 49]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48) وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49)

"نَحْنُ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "بِما" ما موصولية ومتعلقان بأعلم "يَسْتَمِعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بيستمعون "إِذْ" ظرف زمان متعلق بأعلم "يَسْتَمِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة مضاف إليه "إِلَيْكَ" متعلقان بيستمعون "وَإِذْ هُمْ نَجْوى" إذ ظرف معطوف على ما قبله ومبتدأ وخبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مضاف إليه "إِذْ" ظرف بدل من إذ قبلها "يَقُولُ الظَّالِمُونَ" مضارع وفاعله مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مضاف إليه "إِنْ" حرف نفي "تَتَّبِعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مقول القول "إِلَّا" أداة حصر "رَجُلًا" مفعول به "مَسْحُوراً" صفة "انْظُرْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب على الحال "ضَرَبُوا" ماض وفاعله والجملة في محل نصب مفعول به "لَكَ" متعلقان بضربوا "الْأَمْثالَ" مفعول به "فَضَلُّوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "فَلا" لا نافية "يَسْتَطِيعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة "سَبِيلًا" مفعول به "وَقالُوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة "أَإِذا" الهمزة للاستفهام وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "كُنَّا عِظاماً" كان واسمها وخبرها "وَرُفاتاً" معطوف على ما سبق "أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" الهمزة للاستفهام وإن ونا اسمها واللام المزحلقة والخبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "خَلْقاً" مفعول مطلق أو حال ،

"جَدِيداً" صفة، والجملة مؤكدة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 50 الى 51]

(102/448)

قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كُونُوا" أمر ناقص والواو اسمه "حِجارَةً" خبر كانوا والجملة مقول القول "أَوْ حَدِيداً" معطوف على حجارة "أَوْ خَلْقاً" معطوف على ما سبق "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان بمحذوف صفة خلقا "يَكْبُرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "فِي صُدُورِكُمْ" متعلقان بيكبر والكاف مضاف إليه "فَسَيَقُولُونَ" الفاء استئنافية والسين للاستقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "مَنْ" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "يُعِيدُنا" مضارع مرفوع ونا مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "الَّذِي" موصول في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف والجملة مقول القول "فَطَرَكُمْ" ماض ومفعوله فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "فَسَيُنْغِضُونَ" الفاء

استئنافية والسين للاستقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "إِلَيْكَ" متعلقان بينغضون "رُؤُسَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَيَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "مَتى " اسم استفهام متعلق بمحذوف خبر مقدم "هُوَ" مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "عَسى " فعل ماض للترجي واسمها محذوف "أَنْ" ناصبة "يَكُونَ" مضارع ناقص اسمه مستتر "قَرِيباً" خبر وجملة عسى إلخ مقول القول والمصدر المؤول من أن والفعل خبر عسى.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 52 الى 54]

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (52) وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54)

"يَوْمَ" ظرف زمان في محل نصب على الظرفية متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "يَدْعُوكُمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "فَتَسْتَجِيبُونَ" الفاء عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة "بِحَمْدِهِ" متعلقان بمحذوف حال أي حامدين "وَتَظُنُّونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة "إِنْ" نافية "لَبِثْتُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل نصب مفعول به لتظنون "إِلَّا" أداة حصر "قَلِيلًا" صفة لمفعول مطلق "وَقُلْ" الواو عاطفة وقل أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "لِعِبَادِي" متعلقان بقل والياء مضاف إليه "يَقُولُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول "الَّتِي" موصول مفعول به "هِيَ أَحْسَنُ" مبتدأ وخبر والجملة صلة "إِنَّ الشَّيْطَانَ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "يَنْزَغُ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر والجملة خبر إن "بَيْنَهُمْ" متعلق بينزغ "إِنَّ الشَّيْطَانَ" إن واسمها والجملة بدل من إن الشيطان الأولى "كَانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "لِلْإِنْسَانِ" متعلقان بعدوا "عَدُوًّا" خبر كان "مُبِيناً" صفة والجملة خبر إن "رَبُّكُمْ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والكاف مضاف إليه "بِكُمْ" متعلقان بأعلم "إِنْ يَشَأْ" إن شرطية ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب "يَرْحَمْكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وفاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "أَوْ إِنْ

يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ" معطوف على سابقه "وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَرْسَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة استئنافية "عَلَيْهِمْ" متعلقان بوكيلا "وَكِيلًا" مفعول به ثان.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 55 الى 56]

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (56)

"وَرَبُّكَ أَعْلَمُ" الواو استئنافية ومبتدأ وخبر والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "بِمَنْ" من اسم الموصول مجرور ومتعلقان بأعلم "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "فَضَّلْنا" ماض وفاعله "بَعْضَ" مفعول به "النَّبِيِّينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بفضلنا والجملة جواب قسم لا محل لها "وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً" ماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "ادْعُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول

"الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به "زَعَمْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف صفة آلهة مقدرة والهاء مضاف إليه "فَلا" الفاء استئنافية ولا نافية "يَمْلِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "كَشْفَ" مفعول به "الضُّرِّ" مضاف إليه "عَنْكُمْ" متعلقان بكشف "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "تَحْوِيلًا" معطوف على كشف.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 57 الى 59]

أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (58) وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (59)

"أُولَئِكَ" أولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب "الَّذِينَ" اسم موصول بدل والجملة مستأنفة "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "يَبْتَغُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر "إِلَى رَبِّهِمُ" متعلقان بيبتغون "الْوَسِيلَةَ" مفعول به "أَيُّهُمْ" اسم استفهام مبتدأ والهاء مضاف إليه "أَقْرَبُ" خبر والجملة في محل نصب مفعول به ليدعون "وَيَرْجُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة معطوفة "رَحْمَتَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ" معطوف على ما سبق وإعرابه مثله "إِنَّ عَذَابَ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "كَانَ مَحْذُورًا" كان وخبرها واسمها محذوف والجملة خبر إن "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن نافية لا عمل لها "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "نَحْنُ" مبتدأ "مُهْلِكُوهَا" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم وحذفت النون للإضافة والهاء مضاف إليه والجملة خبر قرية "قَبْلَ" ظرف زمان متعلق بمهلكوها "يَوْمِ" مضاف إليه "الْقِيَامَةِ" مضاف إليه "أَوْ مُعَذِّبُوهَا" معطوف على مهلكوها "عَذَابًا" مفعول مطلق "شَدِيدًا" صفة "كَانَ ذَلِكَ" ذا اسم إشارة في محل رفع اسم كان واللام للبعد والكاف للخطاب "فِي الْكِتَابِ" متعلقان بمسطورا "مَسْطُورًا" خبر كان والجملة مستأنفة. "وَمَا" الواو استئنافية وما نافية "مَنَعَنَا" ماض ومفعوله الأول والجملة استئنافية "أَنْ نُرْسِلَ" أن ناصبة ومضارع منصوب بأن وهو في تأويل مصدر مفعول منع الثاني "بِالْآيَاتِ" الباء زائدة

والآيات مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" مخففة واسمها محذوف ضمير الشأن وهي وما بعدها في محل رفع فاعل منعنا "كَذَّبَ" ماض مبني على الفتح "بِهَا" متعلقان بكذب "الْأَوَّلُونَ" فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم

"وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ" ماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة "مُبْصِرَةً" حال "فَظَلَمُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "بِهَا" متعلقان بظلموا "وَما" الواو استئنافية وما نافية "نُرْسِلُ" مضارع فاعله مستتر "بِالْآياتِ" الباء زائدة والآيات مفعول به والجملة استئنافية "إِلَّا" أداة حصر "تَخْوِيفاً" مفعول لأجله.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 60 الى 61]

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيراً (60) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61)

"وَإِذْ" الواو استئنافية وإذ ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "قُلْنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "لَكَ" متعلقان بقلنا "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "أَحاطَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر "بِالنَّاسِ" متعلقان بأحاط "وَما" الواو استئنافية وما نافية "جَعَلْنَا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "الرُّؤْيَا" مفعول به أول منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "الَّتِي" موصول في محل نصب صفة "أَرَيْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "إِلَّا" أداة حصر "فِتْنَةً" مفعول به ثان "وَالشَّجَرَةَ" معطوف على الرؤيا "الْمَلْعُونَةَ" صفة للشجرة وهي شجرة الزقوم "فِي الْقُرْآنِ" متعلقان بالملعونة "وَنُخَوِّفُهُمْ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع فاعله مستتر والهاء مفعول به "فَما" الفاء عاطفة وما نافية "يَزِيدُهُمْ" مضارع ومفعوله الأول وفاعله مستتر والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "طُغْياناً" مفعول به ثان "كَبِيراً" صفة "وَإِذْ" الواو استئنافية وإذ ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "قُلْنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "لِلْمَلائِكَةِ" متعلقان بقلنا "اسْجُدُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "لِآدَمَ" متعلقان باسجدوا "فَسَجَدُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "إِلَّا" أداة استثناء "إِبْلِيسَ" مستثنى بإلا منصوب "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَأَسْجُدُ" الهمزة للاستفهام ومضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "لِمَنْ" من اسم موصول ومتعلقان بأسجد "خَلَقْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة

"طِيناً" حال أو تمييز أو منصوب بنزع الخافض أي من طين.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 62 الى 64]

قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (62) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (64)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَرَأَيْتَكَ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله ومفعوله الأول ومعنى أرأيتك أي أخبرني والجملة مقول القول "هذَا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول وهو مع صلته خبر المبتدأ "كَرَّمْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَيَّ" متعلقان بكرمت "لَئِنْ" اللام واقعة في جواب القسم إن حرف شرط جازم "أَخَّرْتَنِ" ماض والتاء فاعله وهو فعل الشرط والنون للوقاية وياء المتكلم محذوفة والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب "إِلى يَوْمِ" متعلقان بأخرتن "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "لَأَحْتَنِكَنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وأحتنكنّ مضارع مبني على الفتح لاتصاله

بنون التوكيد الثقيلة والفاعل محذوف ونون التوكيد لا محل لها "ذُرِّيَّتَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها كسابقتها لأنها جواب قسم محذوف "إِلَّا" أداة استثناء "قَلِيلًا" مستثنى بإلا "قالَ" ماض فاعله محذوف والجملة مستأنفة "اذْهَبْ" أمر فاعله مستتر والجملة مقول القول "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ والجملة استئنافية "تَبِعَكَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر وهو

في محل جزم فعل الشرط "مِنْهُمْ" متعلقان بحال محذوفة "فَإِنَّ" الفاء رابطة للجواب إنّ حرف مشبه بالفعل "جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ" اسم إن وخبرها والكاف مضاف إليه وجملتا الشرط والجواب خبر من "جَزاءً" حال أو تمييز أو مفعول مطلق "مَوْفُوراً" صفة وجملة جواب الشرط في محل جزم "وَاسْتَفْزِزْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "مَنِ" اسم موصول مفعول به "اسْتَطَعْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بحال محذوفة "بِصَوْتِكَ" متعلقان باستفزز "وَأَجْلِبْ" أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بأجلب "بِخَيْلِكَ" متعلقان بأجلب "وَرَجِلِكَ" معطوف على ما قبله "وَشارِكْهُمْ" الواو عاطفة وأمر ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي الْأَمْوالِ" متعلقان بشاركهم

"وَالْأَوْلادِ" معطوفة على ما سبق "وَعِدْهُمْ" الواو عاطفة وأمر ومفعوله وفاعله مستتر "وَما" الواو واو الحال وما نافية "يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ" مضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر "إِلَّا" أداة حصر "غُرُوراً" مفعول لأجله أو حال والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 65 الى 68]

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (66) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (67) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68)

(112/448)

"إِنَّ عِبادِي" إن واسمها المنصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه "لَيْسَ" فعل ماض ناقص "لَكَ" متعلقان بالخبر المقدم "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالخبر المقدم "سُلْطانٌ" اسم ليس والجملة خبر إنّ "وَكَفى" الواو استئنافية وكفى فعل ماض "بِرَبِّكَ" الباء زائدة وربك فاعل مجرور لفظا مرفوع محلا "وَكِيلًا" تمييز والجملة مستأنفة. "رَبُّكُمُ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "الَّذِي" موصول خبر

والجملة مستأنفة "يُزْجِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "لَكُمُ" متعلقان بيزجي "الْفُلْكَ" مفعول به والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "فِي الْبَحْرِ" متعلقان بيزجي "لِتَبْتَغُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بيزجي "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بتبتغوا والهاء مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كَانَ بِكُمْ رَحِيماً" كان واسمها محذوف ورحيما خبرها والجار والمجرور متعلقان برحيما والجملة خبر إن "وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "مَسَّكُمُ الضُّرُّ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مضاف إليه "فِي الْبَحْرِ" متعلقان بمسكم "ضَلَّ" ماض مبني على الفتح "مَنْ" اسم موصول فاعل والجملة جواب إذا "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "إِلَّا" أداة استثناء "إِيَّاهُ" ضمير نصب في محل نصب على

الاستثناء "فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية ظرف زمان "نَجَّاكُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "إِلَى الْبَرِّ" متعلقان بنجاكم "أَعْرَضْتُمْ" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب لما "وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً" كان واسمها وخبرها والجملة مستأنفة

"أَفَأَمِنْتُمْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَنْ" ناصبة "يَخْسِفَ" مضارع فاعله مستتر والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به "بِكُمْ" متعلقان بيخسف "جانِبَ" مفعول به "الْبَرِّ" مضاف إليه "أَوْ يُرْسِلَ" معطوف على يخسف "عَلَيْكُمْ" متعلقان بيرسل "حاصِباً" مفعول به "ثُمَّ" عاطفة "لا تَجِدُوا" لا نافية ومضارع معطوف على ما قبله وهو منصوب مثله بحذف النو

[سورة الإسراء (17) : الآيات 69 الى 70]

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (69) وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً (70)

"أَمْ أَمِنْتُمْ" أم عاطفة وأمنتم ماض وفاعله والجملة معطوفة "أَنْ" ناصبة "يُعِيدَكُمْ" مضاله والجملة صلة "تَفْضِيلًا" مفعول مطلق.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 71 الى 72]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72)

"يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره واذكر "نَدْعُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "كُلَّ" مفعول به "أُنَاسٍ" مضاف إليه "بِإِمَامِهِمْ" متعلقان بندعو "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "أُوتِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف وهو في محل جزم فعل الشرط "كِتَابَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بِيَمِينِهِ" متعلقان بأوتي والهاء مضاف إليه "فَأُولَئِكَ" الفاء رابطة للجواب وأولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب وجملتا الشرط والجواب خبر من "يَقْرَؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "كِتَابَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَلَا" الواو عاطفة ولا نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة معطوفة "فَتِيلًا" نائب مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره ظلما فتيلا "وَمَنْ" الواو عاطفة من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "كَانَ" ماض ناقص "فِي هذِهِ" الها للتنبيه وذه اسم إشارة في محل جر ومتعلقان بخبر مقدم محذوف "أَعْمى " اسم كان المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "فَهُوَ" الفاء رابطة للجواب وهو مبتدأ "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بالخبر "أَعْمى " خبر "وَأَضَلُّ" معطوف على ما سبق وهو مرفوع مثله "سَبِيلًا" تمييز . وجملة جواب الشرط في محل جزم لأنها اقترنت بالفاء وجملتا فعل الشرط وجوابه خبر من .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 73 الى 75]

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (75)

(115/448)

"وَإِنْ" الواو استئنافية وإن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن "كادُوا" فعل ماض ناقص من أفعال المقاربة والواو اسمها "لَيَفْتِنُونَكَ" اللام هي الفارقة بين النفي والإثبات ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة خبر كادوا "عَنِ الَّذِي" الذي اسم موصول ومتعلقان بالفعل قبلهما "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بأوحينا "لِتَفْتَرِيَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر واللام وما بعدها متعلقان بتفتري "عَلَيْنا" متعلقان بتفتري "غَيْرَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَإِذاً" الواو عاطفة وإذن حرف جواب "لَاتَّخَذُوكَ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وفعل ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "خَلِيلًا" مفعول به ثان "وَلَوْ لا" الواو استئنافية ولولا حرف شرط غير جازم "أَنْ" حرف مصدري للاستقبال

"ثَبَّتْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله وأن وما بعدها في محل رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره ولو لا تثبيتك "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم وقد حرف تحقيق "كِدْتَ" ماض ناقص من أفعال المقاربة والتاء اسمها والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "تَرْكَنُ" مضارع مرفوع والجملة خبر كدت "إِلَيْهِمْ" متعلقان

بتركن "شَيْئاً" نائب مفعول مطلق "قَلِيلًا" صفة "إِذاً" حرف جواب "لَأَذَقْناكَ" اللام موطئة للقسم وماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "ضِعْفَ" مفعول به "الْحَياةِ" مضاف إليه "وَضِعْفَ الْمَماتِ" معطوف على ما سبق "ثُمَّ" عاطفة "لا تَجِدُ" لا نافية ومضارع مرفوع وفاعله مستتر "لَكَ" متعلقان بتجد "عَلَيْنا" متعلقان بنصيرا "نَصِيراً" مفعول به.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 76 الى 78]

وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76)
سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (77) أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ
الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78)

"وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ" مرّ إعرابها قريبا "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بيستفزونك "لِيُخْرِجُوكَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل بحذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به واللام وما بعدها متعلقان بيستفزونك "مِنْهَا" متعلقان بيخرجوك "وَإِذًا" الواو عاطفة إذا حرف جواب "لَا" نافية "يَلْبَثُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة ويلبثون جواب لو المقدرة "خِلَافَكَ" ظرف متعلق بيلبثون والكاف مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "قَلِيلًا" صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره إلّا لبثا قليلا "سُنَّةَ" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره سنّ الله ذلك سنة "مَنْ" اسم موصول مضاف إليه "قَدْ" حرف تحقيق "أَرْسَلْنَا" ماض وفاعله والجملة صلة "قَبْلَكَ" قبل ظرف زمان متعلق بأرسلنا والكاف مضاف إليه "مِنْ رُسُلِنَا" متعلقان بحال محذوفة ونا مضاف إليه "وَلَا تَجِدُ" الواو عاطفة ولا نافية وتجد مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة معطوفة "لِسُنَّتِنَا" متعلقان بتجد ونا مضاف إليه "تَحْوِيلًا" مفعول به "أَقِمِ" أمر فاعله مستتر "الصَّلَاةَ" مفعول به "لِدُلُوكِ" متعلقان بأقم والكاف مضاف إليه "الشَّمْسِ" مضاف إليه "إِلَى غَسَقِ" متعلقان بأقم "اللَّيْلِ" مضاف إليه "وَقُرْآنَ" عطف على الصلاة "الْفَجْرِ" مضاف إليه "إِنَّ قُرْآنَ" إن واسمها "الْفَجْرِ" مضاف إليه "كَانَ مَشْهُودًا" كان وخبرها واسمها محذوف والجملة خبر إن وجملة إن تعليل لا محل لها .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 79 الى 81]

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (80) وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

"وَمِنَ اللَّيْلِ" الواو عاطفة ومتعلقان بتهجد "فَتَهَجَّدْ" الفاء زائدة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على أقم "بِهِ" متعلقان بتهجد "نافِلَةً" مفعول به "لَكَ" متعلقان بنافلة "عَسى" فعل ماض تام "أَنْ يَبْعَثَكَ" أن ناصبة ومضارع منصوب فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة فاعل عسى "رَبُّكَ" فاعل يبعث مرفوع والكاف مضاف إليه "مَقاماً" مفعول مطلق لأن من يبعثك يقيم "مَحْمُوداً" صفة لمقاما

"وَقُلْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف وهو مقول القول "أَدْخِلْنِي" فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل مستتر والجملة مقول القول "مُدْخَلَ" مفعول مطلق "صِدْقٍ" مضاف إليه "وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ" إعرابها كسابقتها وهي معطوفة عليها "وَاجْعَلْ" الواو عاطفة وفعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان باجعل "مِنْ لَدُنْكَ" متعلقان باجعل والكاف مضاف إليه "سُلْطاناً" مفعول به

"نَصِيراً" صفة لسلطانا "وَقُلْ" إعرابها في صدر الآية السابقة "جاءَ الْحَقُّ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "وَزَهَقَ الْباطِلُ" معطوف على ما سبق "إِنَّ الْباطِلَ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كانَ زَهُوقاً" كان وخبرها واسمها محذوف تقديره كان هو والجملة خبر إن.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 82 الى 84]

(118/448)

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (82) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84)

"وَنُنَزِّلُ" الواو استئنافية ومضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "مِنَ الْقُرْآنِ" متعلقان بننزل "ما" اسم موصول مفعول به "هُوَ شِفاءٌ" مبتدأ وخبر والجملة صلة "وَرَحْمَةٌ" معطوف على شفاء "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان برحمة "وَلا يَزِيدُ" الواو عاطفة ولا نافية يزيد مضارع فاعله مستتر "الظَّالِمِينَ" مفعول به أول "إِلَّا" أداة حصر "خَساراً" مفعول به ثان والجملة معطوفة "وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "أَنْعَمْنا" ماض وفاعله والجملة

مضاف إليه "عَلَى الْإِنْسانِ" متعلقان بأنعمنا "أَعْرَضَ" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَنَأى" معطوف على أعرض "بِجانِبِهِ" متعلقان بنأى "وَإِذا" الواو عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "مَسَّهُ" ماض ومفعوله "الشَّرُّ" فاعل والجملة مضاف إليه "كانَ يَؤُساً" كان وخبرها واسمها محذوف والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كُلٌّ" مبتدأ والجملة مقول القول "يَعْمَلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "عَلى شاكِلَتِهِ" متعلقان بيعمل والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ" الفاء عاطفة ومبتدأ وخبر والجملة معطوفة "بِمَنْ" من اسم موصول ومتعلقان بأعلم "هُوَ" مبتدأ "أَهْدى" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة صلة "سَبِيلًا" تمييز.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 85 الى 87]

(119/448)

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85) وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (87)

"وَيَسْئَلُونَكَ" الواو استئنافية ومضارع وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "عَنِ الرُّوحِ" متعلقان بيسألونك "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "الرُّوحِ" مبتدأ والجملة مقول القول "مِنْ أَمْرِ" متعلقان بالخبر "رَبِّي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "وَما" الواو استئنافية وما نافية "أُوتِيتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة استئنافية "مِنَ الْعِلْمِ" متعلقان بأوتيتم "إِلَّا" أداة حصر "قَلِيلًا" مفعول به "وَلَئِنْ" الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية "شِئْنا" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "لَنَذْهَبَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "بِالَّذِي" الذي اسم موصول ومتعلقان بنذهبن "أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" ماض وفاعله والجملة صلة والجار والمجرور متعلقان بأوحينا "ثُمَّ" عاطفة "لا تَجِدُ" لا نافية ومضارع مرفوع فاعله مستتر "لَكَ" متعلقان بتجد والجملة معطوفة "بِهِ" متعلقان بتجد "عَلَيْنا" متعلقان بوكيلا "وَكِيلًا" مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "رَحْمَةً" مفعول لأجله "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان برحمة والكاف مضاف إليه "إِنَّ فَضْلَهُ" إن واسمها والهاء مضاف إليه "كانَ" فعل ماض ناقص واسمها محذوف "عَلَيْكَ" متعلقان بكبيرا "كَبِيراً" خبر كان والجملة كان في محل رفع خبر إن وجملة إن وما بعدها تعليلية لا محل لها .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 88 الى 90]

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَئِنِ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية "اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ" ماض والتاء للتأنيث والإنس فاعل وهو فعل الشرط والجملة ابتدائية لا محل لها "وَالْجِنُّ" معطوف على الإنس "عَلَى" حرف جر "أَنْ" ناصبة "يَأْتُوا" مضارع منصوب بحذف النون وهو مع أن في تأويل مصدر مجرور بعلى ومتعلقان بمحذوف حال "بِمِثْلِ" متعلقان بيأتوا "هَذَا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل جر مضاف إليه "الْقُرْآنِ" بدل من اسم الإشارة "لَا يَأْتُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة جواب القسم لا محل لها "بِمِثْلِهِ" متعلقان بيأتون "وَلَوْ" الواو حالية ولو زائدة "كَانَ" فعل ماض ناقص

"بَعْضُهُمْ" اسم كان والهاء مضاف إليه "لِبَعْضٍ" متعلقان بظهيرا "ظَهِيراً" خبر كان "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام الموطئة للقسم وقد حرف تحقيق "صَرَّفْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لِلنَّاسِ" متعلقان بصرفنا "فِي هذَا" ذا اسم إشارة متعلقان بصرفنا "الْقُرْآنِ" بدل من اسم الإشارة "مِنْ كُلِّ" صفة مفعول به مقدر "مَثَلٍ" مضاف إليه "فَأَبى أَكْثَرُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "النَّاسِ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "كُفُوراً" مفعول به "وَقالُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَنْ" ناصبة "نُؤْمِنَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر "لَكَ" متعلقان بنؤمن "حَتَّى" حرف غاية وجر "تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً" مضارع منصوب وفاعله مستتر ولنا ومن الأرض كلاهما متعلقان بالفعل وينبوعا مفعول به.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 91 الى 93]

(122/448)

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ

أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)

(123/448)

"أَوْ" عاطفة "تَكُونَ" مضارع ناقص "لَكَ" متعلقان بالخبر المقدم "جَنَّةٌ" اسمها المؤخر والجملة معطوفة "مِنْ نَخِيلٍ" متعلقان بمحذوف صفة لجنة "وَعِنَبٍ" معطوف على نخيل "فَتُفَجِّرَ" مضارع معطوف على تكون منصوب مثله وفاعله مستتر "الْأَنْهارَ" مفعول به "خِلالَها" ظرف مكان والها مضاف إليه "تَفْجِيراً" مفعول مطلق "أَوْ" عاطفة "تُسْقِطَ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "السَّماءَ" مفعول به "كَما" الكاف حرف جر وما مصدرية "زَعَمْتَ" ماض وفاعله وما وبعدها في تأويل مصدر في محل جر بالكاف ومتعلقان بمحذوف حال "عَلَيْنا" متعلقان بتسقط "كِسَفاً" حال "أَوْ تَأْتِيَ" أو عاطفة ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بتأتي "وَالْمَلائِكَةِ" معطوف "قَبِيلًا" حال "أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ" أو عاطفة وإعراب هذه الجملة مثل إعراب أو تكون لك جنة "مِنْ زُخْرُفٍ" متعلقان بمحذوف صفة لبيت "أَوْ" عاطفة "تَرْقَى" مضارع معطوف على ما سبق وهو منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله

مستتر والجملة معطوفة "فِي السَّماءِ" متعلقان بترقى "وَلَنْ" الواو عاطفة ولن ناصبة "نُؤْمِنَ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "لِرُقِيِّكَ" متعلقان بنؤمن والكاف مضاف إليه "حَتَّى" حرف غاية وجر "تُنَزِّلَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وفاعله مستتر "عَلَيْنا" متعلقان بتنزل "كِتاباً" مفعول به "نَقْرَؤُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة صفة لكتابا "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "رَبِّي" مضاف إليه والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "هَلْ" حرف استفهام "كُنْتُ" كان واسمها "إِلَّا" أداة حصر "بَشَراً" خبر كنت "رَسُولًا" صفة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 94 الى 96]

(124/448)

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (94) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (95) قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "مَنَعَ" ماض مبني على الفتح والجملة مستأنفة "النَّاسَ" مفعول به أول "أَنْ يُؤْمِنُوا" أن ناصبة ومضارع منصوب بأن بحذف النون وأن وما بعدها في

تأويل مصدر مفعول به ثان لمنع "إِذْ" ظرف زمان متعلق بمنع "جاءَهُمُ الْهُدى" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" مصدرية "قالُوا" ماض وفاعله وأن وما بعدها في محل رفع فاعل منع المؤخر والتقدير إلا قولهم "أَبَعَثَ اللَّهُ" الهمزة للاستفهام وماض ولفظ الجلالة فاعله

(125/448)

والجملة مقول القول "بَشَراً" مفعول به "رَسُولًا" صفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "كانَ" فعل ماض ناقص "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالخبر المقدم "مَلائِكَةٌ" اسم كان "يَمْشُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة للملائكة "مُطْمَئِنِّينَ" حال "لَنَزَّلْنا" اللام واقعة في جواب لو وماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" و"مِنَ السَّماءِ" الجاران والمجروران متعلقان بنزلنا "مَلَكاً" مفعول به "رَسُولًا" صفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كَفى" فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "بِاللَّهِ" الباء زائدة ولفظ الجلالة فاعل "شَهِيداً" تمييز "بَيْنِي" ظرف مكان والياء مضاف إليه و"بَيْنَكُمْ" معطوف على بيني والجملة مقول القول "إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "بِعِبادِهِ" متعلقان بخبيرا "خَبِيراً" خبر كان والجملة خبر إن "بَصِيراً" خبر

ثان.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 97 الى 98]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (97) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (98)

(126/448)

"وَمَنْ" الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ والجملة استئنافية "يَهْدِ اللَّهُ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة ولفظ الجلالة فاعل "فَهُوَ الْمُهْتَدِ" الفاء رابطة للجواب ومبتدأ وخبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من "وَمَنْ يُضْلِلْ" الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ "يُضْلِلْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر "فَلَنْ" الفاء رابطة للجواب ولن ناصبة "تَجِدَ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من "لَهُمْ" متعلقان بتجد "أَوْلِياءَ" مفعول به "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بأولياء والهاء مضاف إليه "وَنَحْشُرُهُمْ" الواو استئنافية ومضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله "يَوْمَ" ظرف زمان

متعلق بنحشرهم "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "عَلى وُجُوهِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "عُمْياً" مفعول به "وَبُكْماً وَصُمًّا" معطوف على ما سبق و "مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "كُلَّما" ظرف يتضمن معنى الشرط "خَبَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "زِدْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "سَعِيراً" مفعول به ثان "ذلِكَ" ذا اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "جَزاؤُهُمْ" خبر والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "بِأَنَّهُمْ" أن واسمها وهي وما بعدها في محل جر ومتعلقان بجزاؤهم "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة خبر "بِآياتِنا" متعلقان بكفروا ونا مضاف إليه "وَقالُوا" الجملة معطوفة "أَإِذا" الهمزة للاستفهام وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "كُنَّا" كان واسمها والجملة مضاف إليه "عِظاماً" مفعول به "وَرُفاتاً" معطوف على عظاما "أَإِنَّا" الهمزة للاستفهام وإن واسمها "لَمَبْعُوثُونَ" اللام المزحلقة وخبر إن مرفوع

بالواو "خَلْقاً" حال "جَدِيداً" صفة والكلام بعد قالوا مقول القول.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 99 الى 100]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً

لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (100)

(128/448)

"أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو استئنافية ولم حرف نفي وجزم وقلب "يَرَوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "أَنَّ اللَّهَ الَّذِي" أن ولفظ الجلالة اسمها واسم الموصول صفة وأن وما بعدها سد مسد مفعولي يروا "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة الموصول "السَّماواتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "قادِرٌ" خبر أن "عَلى أَنْ يَخْلُقَ" أن ناصبة ومضارع منصوب وفاعله مستتر وأن وما بعدها في محل جر ومتعلقان بقادر "مِثْلَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَجَعَلَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بجعل "أَجَلًا" مفعول به والجملة معطوفة "لا رَيْبَ" لا نافية للجنس ريب اسمها "فِيهِ" متعلقان بالخبر والجملة صفة لأجلا "فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً" الفاء استئنافية وأبى ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والظالمون فاعل وإلا أداة حصر وكفورا مفعول به والجملة مستأنفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "أَنْتُمْ" توكيد للفاعل المحذوف

مع فعله لأن لو تدخل على الفعل والجملة، والجملة المحذوفة ابتدائية لا محل لها "تَمْلِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة تفسيرية "خَزائِنَ" مفعول به "رَحْمَةِ" مضاف إليه "رَبِّي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "إِذاً" حرف جواب "لَأَمْسَكْتُمْ" اللام واقعة في جواب لو وماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب لو "خَشْيَةَ" مفعول لأجله "الْإِنْفاقِ" مضاف إليه "وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً" كان واسمها وخبرها والجملة مستأنفة.

[سورة الإسراء (17): الآيات 101 الى 102]

(129/448)

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (101) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مُوسى" مفعول به أول منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "تِسْعَ" مفعول به ثان "آياتٍ" م السالم "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "إِذْ" ظرف زمان "جاءَهُمْ" ماض فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة مضاف إليه

"فَقَالَ لَهُ" الفاء عاطفة وماض والجار والمجرور متعلقان به "فِرْعَوْنُ" فاعل والجملة معطوفة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "لَأَظُنُّكَ" اللام المزحلقة ومضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله الأول والجملة خبر

إن "يا مُوسى" يا أداة نداء وموسى منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف للتعذر في محل نصب على النداء والجملة لا محل لها . "مَسْحُوراً" مفعول به ثان لأظن "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "عَلِمْتَ" ماض وفاعله "ما أَنْزَلَ" ما نافية وماض "هؤُلاءِ" الها للتنبيه وأولاء مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "رَبُّ" فاعل "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة سدت مسد مفعولي علمت "بَصائِرَ" حال وجملة القسم في محل نصب مقول القول "وَإِنِّي" الواو عاطفة وإن واسمها والجملة معطوفة "لَأَظُنُّكَ" اللام المزحلقة وأظنك مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله الأول والجملة خبر "يا فِرْعَوْنُ" يا أداة نداء وفرعون منادى مبني على الضم "مَثْبُوراً" مفعول به ثان .

[سورة الإسراء (17) : الآيات 103 الى 106]

فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105) وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (106)

(131/448)

"فَأَرادَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "أَنْ" ناصبة "يَسْتَفِزَّهُمْ" مضارع منصوب والفاعل مستتر والهاء مفعول به وأن يستفزهم وما بعدها في محل نصب مفعول به "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بيستفزهم "فَأَغْرَقْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَمَنْ" من اسم موصول معطوف على الهاء في أغرقناه "مَعَهُ" مفعول فيه ظرف مكان متعلق بصلة الموصول والهاء مضاف إليه "جَمِيعاً" حال "وَقُلْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بقلنا "لِبَنِي" اللام حرف جر وبني مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ومتعلقان بقلنا "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه "اسْكُنُوا الْأَرْضَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا ظرف زمان "جاءَ وَعْدُ"

ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "جِئْنا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "بِكُمْ" متعلقان بجئنا "لَفِيفاً" حال "وَبِالْحَقِّ" الواو استئنافية ومتعلقان بأنزلناه "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "وَبِالْحَقِّ نَزَلَ" معطوف على ما سبق وإعرابه مثله وفاعل نزل مستتر "وَما" الواو عاطفة وما نافية "أَرْسَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "مُبَشِّراً" حال "وَنَذِيراً" معطوف على مبشرا "وَقُرْآناً" مفعول به لفعل محذوف ويفسره المذكور والجملة معطوفة "فَرَقْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مفسرة "لِتَقْرَأَهُ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعدها وفاعله مستتر والهاء مفعول به واللام وما بعدها جار ومجرور ومتعلقان بفرقناه "عَلَى النَّاسِ" متعلقان بتقرأه "عَلى مُكْثٍ" متعلقان بحال محذوفة "وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا" ماض وفاعله ومفعوله ومفعول مطلق والجملة معطوفة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 107 الى 109]

(132/448)

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ

وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109)

"قُلْ آمِنُوا" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة وأمر وفاعله والجملة مقول القول "بِهِ" متعلقان بآمنوا "أَوْ" عاطفة "لا" ناهية "تُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والجملة معطوفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" موصول في محل نصب اسم إن "أُوتُوا الْعِلْمَ" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وهو مفعوله الأول والعلم مفعوله الثاني "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بأوتوا والهاء مضاف إليه "إِذا" ظرف زمان "يُتْلى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر ونائب الفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "عَلَيْهِمْ" متعلقان بيتلى "يَخِرُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا وإذا وجملتاها في محل رفع خبر إن وجملة إن تعليلية لا محل لها "لِلْأَذْقانِ" متعلقان بيخرون "سُجَّداً" حال "وَيَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "رَبِّنا" مضاف إليه ونا مضاف إليه "إِنْ" مخففة من إن واسمها ضمير الشأن "كانَ وَعْدُ" كان واسمها والجملة خبر إن "رَبِّنا" مضاف إليه ونا مضاف إليه "لَمَفْعُولًا" اللام الفارقة بين النفي والإثبات و"مفعولا" خبر كان والجملة خبر إن "وَيَخِرُّونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والجملة معطوفة "لِلْأَذْقانِ" متعلقان بيخرون "يَبْكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية أي باكين

"وَيَزِيدُهُمْ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله الأول "خُشُوعاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة.

(133/448)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 110 الى 111]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111)

"قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "ادْعُوا اللَّهَ" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ولفظ الجلالة مفعوله "أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "أَيًّا" اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم "ما" زائدة "تَدْعُوا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "فَلَهُ" الفاء رابطة للجواب ومتعلقان بخبر مقدم "الْأَسْماءُ" مبتدأ مؤخر "الْحُسْنى" صفة والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَجْهَرْ" مضارع مجزوم والفاعل مستتر والجملة معطوفة "بِصَلاتِكَ" متعلقان بتجهر والكاف مضاف إليه "وَلا تُخافِتْ" معطوف على ولا تجهر وإعرابها مثل إعرابها "بِها"

(134/448)

متعلقان بتخافت "وَابْتَغِ" الواو عاطفة وأمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر والجملة معطوفة "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بابتغ "ذِلكَ" ذا اسم إشارة مضاف إليه واللام للبعد والكاف للخطاب "سَبِيلًا" مفعول به "وَقُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "الَّذِي" موصول في محل جر صفة "لَمْ يَتَّخِذْ" مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر "وَلَدًا" مفعول به والجملة صلة "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم حرف جزم ونفي وقلب "يَكُنْ" مضارع ناقص "لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "شَرِيكٌ" اسم يكن "فِي الْمُلْكِ" متعلقان بشريك "وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ" إعرابها كسابقتها وهي معطوفة عليها "وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والهاء مفعوله وتكبيرا مفعول مطلق والجملة معطوفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 182. 208﴾

(135/448)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة بني إِسْرَائيل

ذكر فِيهَا وَاحِدًا وَأَرْبَعين حَدِيثا

691 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (بينا أَنا فِي الْمَسْجِد الْحَرَام فِي الْحجر عِنْد الْبَيْت بَين النَّائِم وَالْيَقظَان إِذْ أَتَانِي جِبْرِيل بِالْبُرَاقِ)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث أنس بن مَالك عَن مَالك بن صعصعة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بَيْنَا أَنا نَائِم فِي الْبَيْت بَين النَّائِم وَالْيَقظَان إِذْ أَتَانِي آتٍ فشق مَا بَين هَذِه إِلَى هَذِه فاستخرج قلبِي فَغسله ثمَّ أُعِيد ثمَّ أُتيت بدابَّة دون الْبَغْل وَفَوق الْحمار أَبيض يُقَال لَهُ الْبراق يضع خطْوَة عِنْد أقْصَى طرفه) الحَدِيث بطُولِهِ

692 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَائِما فِي بَيت أم هَانِئ بعد صَلَاة الْعشَاء فَأُسْرِيَ بِهِ وَرجع من ليلته وقص الْقِصَّة عَلَى أم هَانِئ وَقَالَ (مثل لي النَّبِيُّونَ فَصليت بهم) وَقَامَ ليخرج إِلَى الْمَسْجِد فتشبثت أم هَانِئ بِثَوْبِهِ فَقَالَ مَالك) قَالَت أخْشَى أَن يكذبك قَوْمك

إن أَخْبَرتهم قَال (وَإِن كَذَّبُونِي) قَال فَخرج فَجَلَس إِلَيْهِ أَبُو جهل فَأخْبرهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِحَدِيث الْإِسْرَاء فَقَال أَبُو جهل يَا معشر بني كَعْب بن لؤَي هَلُمَّ فَحَدثهُمْ فَمن بَين مُصَفِّق وواضع يَده على

(136/448)

رَأسه تَعَجبا وَإِنْكَارا وارتد نَاس مِمَّن كَانَ آمن بِهِ وَسَعَى رجال إِلَى أبي بكر فَقَال إِن كَانَ قَال ذَلِك لقد صدق قَال أَتُصَدِّقهُ عَلَى ذَلِك قَال إِنِّي لَأُصَدِّقهُ عَلَى أبعد من ذَلِك فَسُمي الصّديق وَفِيهِمْ من سَافر إِلَى مَا ثمَّ فاستنعتوه الْمَسْجِد فَجُلِّيَ لَهُ بَيت الْمُقَدّس فَطَفِقَ ينظر إِلَيْهِ وينعته لَهُم فَقَالُوا أما النَّعْت فقد أصَاب فَقَالُوا أخبرنَا عَن عيرنا فَأخْبرهُم بِعَدَد جمالها وَأَحْوَالهَا وَقَال (تقدم يَوْم كَذَا مَعَ طُلُوع الشَّمْس يقدمهَا جمل أَوْرَق) فَخَرجُوا يشْتَدُّونَ ذَلِك الْيَوْم نَحْو الثَّنية فَقَال قَائِل مِنْهُم هَذِه وَالله الشَّمْس قد شرقت وَقَال آخر هَذِه وَالله العير قد أَقبلت يقدمهَا جمل أَوْرَق كَمَا قَال مُحَمَّد ثمَّ لم يُؤمنُوا وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سحر مُبين

(137/448)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه بِنَقص يسير فَقَالَ حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ حَدثنَا رزق الله بن مُوسَى حَدثنَا شَبابَة بن سوار حَدثنَا عبد الْأَعْلَى بن أبي الْمسَاوِر عَن عِكْرِمَة عَن أم هَانِئ بنت أبي طَالب قَالَت بَات رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَة أسرِي بِهِ فِي بَيْتِي ففقدته من اللَّيْل فامْتنعَ مني النّوم مَخَافَة أَن يكون عرض لَهُ بعض قُرَيْش فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن جِبْرِيل أَتَانِي فَأخذ بيَدي فَأَخْرجنِي فَإِذا على الْبَيْت دَابَّة دون الْبَغْل وَفَوق الْحمار فحملني عَلَيْهَا وَكَانَ يضع حافره مد بَصَره إِذا أَخذ بِي فِي هُبُوطه طَالَتْ يدَاهُ وقصرت رجْلَاهُ وَإِذا أَخذ بِي فِي صُعُوده طَالَتْ رجْلَاهُ وقصرت يدَاهُ) ثمَّ انْطلق حَتَّى انْتهى بِي إِلَى بَيت الْمُقَدّس فَأرَانِي إِبْرَاهِيم يشبه خلقه خلقي وخلقي خلقه وَأرَانِي مُوسَى أدم طَويلا سبط الشّعْر شبهته بِرِجَال أَزْد شنُوءَة وَأرَانِي عِيسَى بن مَرْيَم ربعَة أَبيض يضْرب إِلَى الْحمرَة شبهته بِعُرْوَة بن مَسْعُود الثَّقَفِيّ وَأرَانِي الدَّجَّال مَمْسُوح الْعين الْيُمْنَى شبهته بقطن بن عبد الْعزي

وَأَنا أُرِيد أَن أخرج إِلَى قُرَيْش فَأخْبرهُم بِمَا رَأَيْت فَأخذت بِثَوْبِهِ فَقلت إِنِّي أذكرك الله أَنَّك تَأتي قوما يكذبُونَك ويُنْكِرُونَ مَقَالَتك فَأَخَاف أَن يسطوا بك قَالَت فَضرب ثَوْبه من يَدي ثمَّ

خرج إِلَيْهِم فَأَتَاهُم وهم جلُوس فَأخْبرهُم مَا أَخْبرنِي فَقَالَ جُبَير بن مطعم فَقَالَ يَا مُحَمَّد أَن لَو كنت لَك سَابًّا كَمَا كنت مَا تكلّمت عَمَّا تكلّمت بِهِ وَأَنت بَين أظهرنَا فَقَالَ رجل من الْقَوْم يَا مُحَمَّد هَل مَرَرْت بِإِبِل لنا فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا قَالَ نعم وَالله وجدتهمْ قد أضلُّوا بَعِيرًا لَهُم وهم فِي طلبه) قَالَ فَهَل مَرَرْت بِإِبِل لبني فلَان قَالَ نعم وَجَدتهمْ بمَكَان كَذَا وَكَذَا قد انْكَسَرت لَهُم نَاقَة حَمْرَاء ووجدت عِنْدهم قَصْعَة من مَاء فَشَربت مَا فِيهَا) قَالُوا فَأخْبرنَا عدتهَا وَمَا فِيهَا من الرُّعَاة قَالَ قد كنت عَن عدتهَا مَشْغُولًا) فَقَامَ فَأتى بِالْإِبِلِ فعدها وَعلم مَا فِيهَا من الرُّعَاة ثمَّ أَتَى قُريْشًا فَقَالَ لَهُم سَأَلْتُمُونِي عَن إبل بني فلَان فَهِيَ كَذَا وَكَذَا وفيهَا من الرُّعَاة فلَان وَفُلَان وَسَأَلْتُمُونِي عَن إبل بني فلَان فَهِيَ كَذَا وَكَذَا وفيهَا من الرُّعَاة ابْن أبي قُحَافَة وَفُلَان وَفُلَان وَهِي مُصَبِّحَتكُمْ الْغَدَاة على الثَّنية)

قَالَ فغدوْا إِلَى الثَّنية ينظرُونَ أصدقهم مَا قَالَ فاسْتَقْبلُوا الْإِبِل فَسَأَلُوهُمْ هَل ضل لكم بعير قَالُوا نعم فسألوا الآخرين هَل انْكَسَرت لكم نَاقَة حَمْرَاء قَالُوا نعم

قَالُوا فَهَل كَانَت عنْدكُمْ قَصْعَة قَالَ أَبُو بكر أَنا وَالله وَضَعتهَا فَمَا شربهَا أحد وَلَا أهرقوا فِي الأَرْض وَصدقه أَبُو بكر وآمن بِهِ فَسُمي يَوْمئِذٍ الصّديق

وروى النَّسائيّ في سننه الكُبْرى من حَدِيث عَوْف بن أبي جميلَة عَن زرَارَة ابْن أَوْفى عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لما كَانَ لَيْلَة أسرِي بِي ثمَّ أَصبَحت بِمَكَّة فضقت بأَمْرِي وَعرفت أَن النَّاس مُكَذِّبي فَقَعَدت مُعْتَزِلا حَزينًا) قَالَ فَمر بِهِ أَبُو جهل فجَاء حَتَّى جلس إِلَيْهِ وَقَالَ كالْمُسْتَهْزِئ هَل استَفَدْت من شَيْء قَالَ نعم) قَالَ مَا هُوَ قَالَ (أُسرِي بِي اللَّيْلَة) فَقَالَ إِلَى أَيْن قَالَ (إِلَى بَيت الْمُقَدّس) قَالَ ثمَّ أَصبَحت بَين أظهرنا قَالَ (نعم) فَقَالَ أَبُو جهل معشر بني كَعْب بن لؤَي هَلُمَّ فجَاءُوا حَتَّى جلسوا

فَقَالَ لَهُ حدث قَوْمك فَقَالَ (إِنِّي أسرِي بِي اللَّيْلَة) قَالُوا إِلَى أَيْن قَالَ (إِلَى بَيت الْمُقَدّس) قَالُوا ثمَّ أَصبَحت بَين أظهرنا قَالَ نعم) قَالَ فَمن بَين مُصَفِّق وَمن بَين وَاضع يَده عَلَى رَأسه مُتَعَجِّبا قَالَ وَفِيهِمْ من سَافر وَرَأى الْمَسْجِد فَقَالُوا لَهُ هَل تَسْتَطِيع أَن تنْعَت لنا الْمَسْجِد قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَذَهَبت أنعته لَهُم حَتَّى الْتبس عَلّي بعض النَّعْت فَجِيء بِالْمَسْجِدِ فَجعلت أنعت وَأَنا أنظر إِلَيْهِ) فَقَالَ الْقَوْم أما النَّعْت فقد أصَاب انْتَهَى

وروى الْحَاكم فِي مُسْتَدْركه فِي الْفَضَائِل من حَدِيث الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت لما أسري بالنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِد الْأَقْصَى أصبح النَّاس يتحدثون بذلك فَارْتَد نَاس وَسعوا إِلَى أبي بكر فَقَالُوا هَل لَك فِي صَاحبك يزْعم أَنه أسري بِهِ إِلَى بَيت الْمُقَدّس قَالَ لَئِن قَالَ ذَلِك لقد صدق قَالُوا وَتصدقه أَنه ذهب إِلَى بَيت الْمُقَدّس وَجَاء قبل أَن يصبح قَالَ نعم إِنِّي لأُصَدّقهُ بِمَا هُوَ أبعد من ذَلِك أصدقه بِخَبَر السَّمَاء فِي غدْوَة أَو رَوْحَة فَلذَلِك سمي أَبُو بكر الصّديق انْتَهَى

قَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَذكره الثَّعْلَبِيّ بِلَفْظ الْمُصَنّف بِتَمَامِهِ من حَدِيث ابْن عَبَّاس من غير سَنَد وَكَذَلِكَ فعل الْبَغَوِيّ

وَرَوَاهُ أَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مُعْجَمه حَدثنَا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل الْوَاسِطِيّ حَدثنَا ضَمرَة ابْن ربيعَة عَن يَحْيَى بن أبي عَمْرو الشَّيْبَانِيّ عَن أبي صَالح مولى أم هَانِئ عَن أم هَانِئ . . .

فَذكره بِزِيَادَة أَلْفَاظ وَفِي آخِره فَقَالَ لَهُ الْمطعم بن عدي يَا مُحَمَّد صف لنا بَيت الْمُقَدّس فَقَالَ (دخلته لَيْلًا وَخرجت مِنْهُ لَيْلًا) فَأَتَاهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام فصوره فِي جنَاحه فَجعل يَقُول (بَاب مِنْهُ كَذَا وَبَاب مِنْهُ كَذَا) يَنْعَتهُ لَهُم وَأَبُو بكر يَقُول لَهُ صدقت ثمَّ قَالُوا لَهُ أخبرنَا عَن عيرنَا فَأخْبرهُم بهَا وَقَالَ (يقدمهَا جمل أَوْرَق هَا هُوَ ذَا يطلع بَين الثَّنية) فَانْطَلقُوا فوجدوه كَمَا قَالَ فرموه بِالسحرِ

وروَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات حَدثنَا مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ حَدثنِي إِسْحَاق بن حَازِم عَن وهب بن كيسَان عَن أبي مرّة مولى عقيل عَن أم هَانِئ بنت أبي طَالب . . . فذكره باخْتلَاف

(141/448)

قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَقد رُوِيَ حَدِيث الْمِعْرَاج من طرق كَثِيرَة بأسانيد ضَعِيفَة قَالَ فَمِنْهَا مَا أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ وَأسْندَ إِلَى جُوَيْبِر عَن الضَّحَّاك عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فِي بَيت أم هَانِئ رَاقِدًا وَقد صلى الْعشَاء الْآخِرَة . . . وَذكر حَدِيثا طَويلا

قَالَ ابْن دحْيَة فِي كِتَابه الْمُسَمّى بالتنوير فِي مولد السراج الْمُنِير وَقد ورد حَدِيث الْإِسْرَاء من رِوَايَة عمر بن الْخطاب وَعلي وَابْن مَسْعُود وَأبي ذَر وَمَالك بن صعصعة وَأبي هُرَيْرَة وَأبي سعيد وَابْن عَبَّاس وَشَدَّاد بن أَوْس وَأبي بن كَعْب وَعبد الرَّحْمَن بن قرط وَأبي حَبَّة وَأبي لَيْلَى الْأنْصَارِيّ وَعبد الله ابْن عَمْرو وَجَابِر الْأنْصَارِيّ وَحُذَيْفَة وَبُرَيْدَة وَأبي أَيُّوب وَأبي أُمَامَة وَسمرَة ابْن جُنْدُب وَأبي الْحَمْرَاء وصهيب الرُّومِي وَعَائِشَة وَأُخْتهَا أَسمَاء وَأم هَانِئ مِنْهُم من رَوَاهُ بِطُولِهِ وَمِنْهُم من اخْتَصَرَهُ

693 - الحَدِيث الثَّالث

عَن عَائِشَة رَضِي اللَّهُ عَنْهَا قَالَت وَالله مَا فقد جَسَد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِن عرج بِرُوحِهِ

قلت قَالَ مُحَمَّد بن إِسْحَاق فِي السِّيرَة حَدثنِي يَعْقُوب بن عتبَة بن الْمُغيرَة ابْن الْأَخْنَس أَن مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان كَانَ إِذا سُئِلَ عَن مسرى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَت رُؤْيا من الله صَادِقَة وحَدثني بعض آل أبي بكر أَن عَائِشَة كَانَت تَقول مَا فقد جَسَد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِن أسرِي بِرُوحِهِ

انْتَهَى

694 - الحَدِيث الرَّابِع

(142/448)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه دفع إِلَى سَوْدَة بنت زَمعَة أَسِيرًا فَأَقْبَلَ يَئِن بِاللَّيْلِ فَقَالَت لَهُ مَا لَك تئِنُّ فَشَكَى ألم الْقد فَأَرْخَتْ من كِتَافِهِ فَلَمَّا نَامَتْ أخرج يَده وهرب فَلَمَّا أصبح النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا بِهِ فَأعْلم بِشَأْنِهِ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اللَّهُمَّ اقْطَعْ يديها) فَرفعت سَوْدَة يديها تتوقع الْإِجَابَة وَأَن يقطع الله يديها فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام إِنِّي

سَأَلتْ اللهُ أَن يَجْعَل لَعْنَتِي ودُعَائِي عَلَى من لَا يسْتَحق من أَهلِي رَحْمَة لأَنِّي بشر أغضب كَمَا تغْضب الْبشر فَلْترد سَوْدَة يديها)

قلت غَرِيب من حَدِيث سَوْدَة

(143/448)

ووَقع لي عَن عَائِشَة فِي الْجُزْء الْمَعْرُوف بِجُزْء ابْن الطلابة وَأَنا أذكرهُ بسندي أخبرنَا قَاضِي الْقُضَاة عز الدّين أَبُو عمر عبد الْعَزِيز ابْن قَاضِي الْقُضَاة بدر الدّين أبي عبد الله بن مُحَمَّد بن الإِمَام برهَان الدّين أبي إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن سعد الله بن جمَاعَة الشَّافِعِي أمتع الله ببَقَائِهِ قِرَاءَة عَلَيْهِ وَأَنا أسمع فِي شهر صفر سنة أَربع وَخمسين وَسَبْعمائة بِالْقَاهِرَةِ أَنا الشَّيْخ أَبُو الْمَعَالِي أَحْمد بن الإِمَام رفيع الدّين إِسْحَاق ابْن الْمُؤَيد الإبرقوهي قِرَاءَة عَلَيْهِ وَأَنا أسمع فِي سنة سَبْعمِائة أَنا أَبُو الْقَاسِم بن الْمُبَارك ابْن أبي الْحسن بن أبي الْحسن بن أبي الْجُود أَنا أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن أبي غَالب بن الطلابة أَنا أَبُو الْقَاسِم عبد الْعَزِيز بن عَليّ بن أَحْمد بن الْحُسَيْن الْأنمَاطِي أَنا الشَّيْخ أَبُو طَاهِر مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن الْعَبَّاس المخلص حَدثنَا أَبُو بكر بن أبي دَاوُد حَدثنَا أَحْمد بن صَالح حَدثنَا ابْن أبي فديك حَدثنِي ابْن أبي ذِئْب عَن مُحَمَّد بن عَمْرو بن عَطاء عَن ذكْوَان مولى عَائِشَة عَن عَائِشَة زوج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم أَنَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دخل عَلَيْهَا بأسير فَلَهتْ مَع نسْوَة كن عِنْدهَا حَتَّى خرج الْأَسير فَقَال لَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَالك) ودعا عَلَيْهَا ثمَّ خرج وأمر النَّاس بِطَلَبِهِ فَلم يَنْشَبُوا أَن جَاءُوا

(144/448)

بِهِ فَدخل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعَائِشَة تقلب يديها فَقَال (مَالك) قلت قد دَعَوْت عَلّي فَأَنا أنْتَظر مَتى يكون فَقَام عَلَيْهِ السَّلَام فرفع يَدَيْهِ مدا ثمَّ قَال (اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنا بشر آسَف وأغضب كَمَا يغْضب الْبشر فأيما مُؤمن أَو مُؤمنَة دعوتك عَلَيْهِ بدعوة فاجعلها عَلَيْهِ زَكَاة وطهرا)

انْتَهى

وَرَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي حَدثنِي مُوسَى بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ عَن أَبِيه أَخْبرنِي ذكْوَان مولى عَائِشَة أَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دخل عَلَيْهَا بأسير وَقَال لَهَا (احْتَفِظِي بِهِ) قَالَت فلهوت مَع امْرَأَة فَخرج وَلم أشعر فَدخل النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَسَأَل عَنهُ فَقلت وَالله لَا أَدْرِي غفلت عَنهُ فَخرج فَقَال (قطع الله يدك) ثمَّ خرج عَلَيْهِ السَّلَام فصاح بِهِ فَخَرجُوا فِي طلبه حَتَّى وجدوه ثمَّ دخل فرآني وَأَنا أقلب يَدي فَقَال (

مَالك) فَقلت أَنْتَظر دعوتك

فَرفع يَدَيْهِ وَقَالَ . . . إِلَى آخِره

695 - الحَدِيث الْخَامِس

فِي الحَدِيث (خير المَال سكَّة مأبورة ومهرة مأمورة)

قلت رَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة والْحَارث بن أبي أُسَامَة فِي مُسْنده حَدثنَا روح بن عبَادَة حَدثنَا أَبُو نعَامَة بِهِ فِي مسنديهما وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو عبيد ابْن الْقَاسِم بن سَلام وَإِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غريبيهما كلهم من حَدِيث أبي نعَامَة الْعَدوي وَاسمه عَمْرو بن عِيسَى عَن مُسلم بن بديل عَن إِيَاس بن زُهَيْر عَن سُوَيْد بن هُبَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (خير مَال الْمَرْء مهرَة مأمورة أَو سكَّة مأبورة)

انْتَهَى

(145/448)

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده حَدثنَا النَّضر بن شُمَيْل حَدثنَا أَبُو نعَامَة الْعَدوي بِهِ مَوْقُوفا عَلَى سُوَيْد بن هُبَيْرَة ثمَّ قَالَ وَغير النَّضر يرفعهُ

انْتَهَى

وَفِي التَّنْقِيح وَمُسلم بن بديل الْعَدوي وَإِيَاس بن زُهَيْر أَبُو طَلْحَة ذكرهمَا ابْن أبي حَاتِم وَلم يذكر فيهمَا جرحا

وَقد رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي تَارِيخه وَقَالَ وَقَالَ معَاذ عَن أبي نعَامَة بِإِسْنَادِهِ عَن سُوَيْد بَلغنِي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . .

قَالَ أَبُو عبيد وَالْمهرَة الْمَأْمُورَة أَي كَثِيرَة النَّسْل وَالسِّكَّة أَي النّخل الْمُصْطَفّ وَقَالَ الْمَأْبُورَة تنَاسبا لقَوْله (ارْجِعْنَ مَأْزُورَات غير مَأْجُورَات لِأَنَّهُ من التَّأْبِير وَهُوَ مَا يصلح النّخل من سقِي وَغَيره

696 - الحَدِيث السَّادِس

رُوِيَ أَن رجلا من الْمُشْركين قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي أرى أمرك هَذَا حَقِيرًا فَقَالَ إِنَّه سيأمر)

قلت غَرِيب جدا وَلَو اسْتشْهد الصَّنِّف بِحَدِيث الصَّحِيحَيْنِ لَكَانَ أولى أَخْرجَاهُ فِي كتاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرقل وَفِيه قَالَ أَبُو سُفْيَان فَلَمَّا خرجنَا قلت لِأَصْحَابِي لقد أَمر أَمر ابْن أبي كَبْشَة إِنَّه ليخافه ملك بني الْأَصْفَر وَالله مَا زلت مُسْتَيْقنًا أَن أمره سيظهر حَتَّى أَدخل الله قلبِي الْإِسْلَام . . . الحَدِيث بِطُولِهِ

وَالْمُصَنّف اسْتدلَّ بِهَذَا الحَدِيث وَالَّذِي قبله لمن فسر قَوْله أمرنَا مُتْرَفِيهَا بِمَعْنى كثرنَا

أَخْرجَاهُ عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي سُفْيَان

697 - الحَدِيث السَّابِع

(146/448)

قَالَ النَّبِي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم (فَمن كَانَت هجرته إِلَى الله وَرَسُوله فَهجرَته إِلَى الله وَرَسُوله وَمن كَانَت هجرته لدُنْيَا يُصِيبهَا أَو امْرَأَة يَتَزَوَّجهَا فَهجرَته إِلَى مَا هَاجر إِلَيْهِ)

قلت رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ من حَدِيث عمر بن الْخطاب قَالَ قَالَ رَسُول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم (إِنَّمَا الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ وَلكُل امْرِئ مَا نوى فَمن كَانَت هجرته إِلَى الله وَرَسُوله فَهجرَته إِلَى الله وَرَسُوله وَمن كَانَت هجرته إِلَى دنيا يُصِيبهَا أَو امْرَأَة يَتَزَوَّجهَا فَهجرَته إِلَى مَا هَاجر إِلَيْهِ)

انْتَهى

698 - قَوْله قَالَت عَائِشَة نحلني أَبُو بكر كَذَا

قلت رَوَاهُ مَالك فِي الْمُوَطَّأ أخبرنَا ابْن شهَاب الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة أَن أَبَا بكر نحلني جذاذ عشْرين وسْقا من مَاله بِالْعَالِيَةِ فَلَمَّا حَضرته الْوَفَاة قَالَ مَا من النَّاس أحد أحب إِلَى . . . الحَدِيث وَسَيَأْتِي تَمَامه فِي سُورَة فاطر

699 - الحَدِيث الثَّامِن

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (رضَا الله من رضَا الْوَالِدين وَسخطه فِي سَخَطِهمَا)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي بَاب الْبر والصلة من حَدِيث خَالِد بن الْحَارِث حَدثنَا شُعْبَة عَن يعلي بن عَطاء عَن أَبِيه عَن عبد الله بن عَمْرو عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِن رضَا الرب فِي رضَا الْوَالِد وَسخط الرب فِي سخط الْوَالِد)

انْتَهَى

ثمَّ أخرجه عَن مُحَمَّد بن جَعْفَر غنْدر حَدثنَا شُعْبَة بِهِ مَوْقُوفا قَالَ وَهَذَا أصح وَلَا نعلم أحدا رَفعه غير خَالِد بن الْحَارِث عَن شُعْبَة وخَالِد ثِقَة مَأْمُون

انْتَهَى

(147/448)

ورَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول بِسَنَد التِّرْمِذِيّ وَمَتنه وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ لَا نعلم أحدا أسْندهُ إِلَّا خَالِد بن الْحَارِث عَن شُعْبَة

انْتَهَى

قلت قد تَابعه جمَاعَة فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْبر والصلة من طَرِيق أَحْمد بن

حَنْبَل حَدثنَا عبد الرَّحْمَن بن مهْدي حَدثنَا شُعْبَة بِهِ مَرْفُوعا وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث أبي إِسْحَاق الْفَزارِيّ عَن شُعْبَة بِهِ مَرْفُوعا

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب حَدثنَا آدم بن أبي إِيَاس حَدثنَا شُعْبَة بِهِ مَوْقُوفا

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس وَالْخمسين من حَدِيث الْقَاسِم بن سليم الصَّواف عَن شُعْبَة بِهِ مَرْفُوعا

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ أَيْضا من حَدِيث الْحُسَيْن بن الْوَلِيد حَدثنَا شُعْبَة بِهِ مَرْفُوعا ثمَّ قَالَ وروينَاهُ أَيْضا من حَدِيث خَالِد بن الْحَارِث وَأبي إِسْحَاق الْفَزارِيّ وَزيد ابْن الزَّرْقَاء وَغَيرهم مَرْفُوعا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده فِي الزَّوَائِد عقيب مُسْند ابْن مَسْعُود من حَدِيث ابْن عمر فَقَالَ حَدثنَا الْحسن بن عَلّي بن يزِيد بن أبي يزِيد الْأَنْصَارِيّ حَدثنَا عصمَة بن مُحَمَّد بن فضَالة بن عبيد الْأنْصَارِيّ عَن يَحْيَى بن سعيد الْأنْصَارِيّ عَن سَالم بن عبد الله بن عمر عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (رضَا الرب فِي رضَا الْوَالِد وَسخط الرب من سخط الْوَالِد)

انْتَهَى

وَقَالَ لَا نعلم رَوَاهُ عَن يَحْيَى بن سعيد إِلَّا عصمَة بن مُحَمَّد

انْتَهَى

700 - الحَدِيث التَّاسِع

(148/448)

رُوِيَ يفعل الْبَار مَا شَاءَ أَن يفعل فَلَنْ يدْخل النَّار وَيفْعل الْعَاق مَا شَاءَ أَن يفعل فَلَنْ يدْخل الْجنَّة

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي الْعَبَّاس الطوسي فَقَالَ حَدثنَا حبيب بن الْحسن حَدثنَا أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن مُحَمَّد بن مَسْرُوق الطوسي حَدثنَا يَعْقُوب ابْن إِسْحَاق حَدثنَا أَحْمد بن عبيد الله الغزاني حَدثنَا مُحَمَّد بن السماك عَن عَائِذ عَن عَطاء عَن عَائِشَة قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (يُقَال لِلْبَار اعْمَل مَا شِئْت فَإِنِّي سأغفر لَك وَيُقَال لِلْعَاق اعْمَل مَا شِئْت فَإِنِّي لَا أغفر لَك)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث أَحْمد بن غَالب غُلَام الْخَلِيل بن أَحْمد حَدثنَا مُحَمَّد

بن سَلام السّلمِيّ حَد ثنَا مُحمَّد بن سماك الْكوُفِي عَن حَامِد بن شرُيْح عَن عَطاء عَن عَائِشَة . . . فذكره

701 - الحَدِيث الْعَاشِر

قَالَ رجل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِن أَبَوي بلغا من الْكبر أَلي مِنْهُمَا مَا وليا مني فِي الصغر فَهَل قضيت لَهما قَالَ لَا فَإِنَّهُمَا كَانَا يفْعَلَانِ ذَلِك وهما يُحِبَّانِ بَقَاءَك) فَقَالَ وَأَنت تفعل ذَلِك وَأَنت تُرِيدُ مَوْتهمَا)

702 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

(149/448)

وشكا رجل إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَاهُ وَأَنه يَأْخُذ مَاله فَدَعَا بِهِ فَإِذا هُوَ شيخ يتَوَكَّأ عَلَى عَصا فَسَأَلَهُ فَقَالَ إِنَّه كَانَ ضَعِيفا وَأَنا قوي وَفَقِيرًا وَأَنا غَنِي فَكنت لَا أمْنَعهُ شَيْئا من مَالِي وَالْيَوْم أَنا ضَعِيف وَهُوَ قوي وَأَنا فَقير وَهُوَ غَنِي وَيبْخَل عَلّي بِمَالِه فَبَكَى عَلَيْهِ السَّلَام وَقَالَ (مَا من حجر وَلَا مدر يسمع هَذَا إِلَّا بَكَى) ثمَّ قَالَ لِلْوَلَد (أَنْت وَمَالك لأَبِيك)

703 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

وشكا آخر إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سوء خلق أمه فَقَالَ لم تكن سَيِّئَة الْخلق حِين حملتك تِسْعَة أشهر) قَالَ إِنَّهَا سَيِّئَة الْخلق قَالَ لم تكن كَذَلِك حِين أَرْضَعتك حَوْلَيْنِ كَامِلين) قَالَ إِنَّهَا سَيِّئَة الْخلق قَالَ لم تكن كَذَلِك حِين أسهرت لَيْلهَا وَأَظْمَأت نَهَارهَا) قَالَ لقد جَازَيْتهَا قَالَ مَا فعلت) قَالَ حججْت بهَا عَلَى عَاتِقي قَالَ (مَا جزيتهَا وَلَا طَلْقَة)

704 - قَوْله عَن ابْن عمر أَنه رَأَى رجلا فِي الطّواف يحمل أمه وَهُوَ يَقُول

إِنَّهَا لمطِيَّة لَا تذْعَر . . . إِذا الركاب نفرت لَا تنفر)

(مَا حملتني وَأَرْضَعَتْنِي أَكثر . . . الله رَبِّي ذُو الْجلَال الْأَكْبَر)

تَظُنُّنِي جزيتهَا يَا ابْن عمر قَالَ لَا وَلَا زفرَة

قلت رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الْبر والصلة أخبرنَا شُعْبَة عَن سعيد بن أبي بردة عَن أَبِيه قَالَ كَانَ ابْن عمر يطوف بِالْبَيْتِ فَرَأَى رجلا يطوف حَامِلا أمه وَهُوَ يَقُول . . . فَذكره إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس وَالْخمسين أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ بِسَنَدِهِ إِلَى شُعْبَة بِهِ سندا ومتنا

وروَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب مُخْتَصر فَقَالَ حَدثنَا ابْن أبي إِيَاس حَدثنَا شُعْبَة عَن سعيد بن بن أبي بردة عَن أَبِيه أَن ابْن عمر كَانَ يطوف بِالْبَيْتِ فَرَأى رجلا يَمَانِيا يطوف وَهُوَ حَامِلا أمه وَيَقُول

(إِنِّي لَهَا بَعِيرهَا الْمُذَلل . . . إِذا ذعرت ركابها لم أَذْعَر)

ثمَّ قَالَ يَا ابْن عمر أتراني جزيتها قَالَ لَا وَلَا بزفرةٍ وَاحِدَة

انْتَهى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيبه

705 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (إيَّاكُمْ وعقوق الْوَالِدين فَإِن الْجنَّة تُوجد رِيحهَا من مسيرَة ألف عَام وَلَا يجد رِيحهَا عَاق وَلَا قَاطع رحم وَلَا شيخ زَان وَلَا جَار إِزَاره خُيَلَاء إِن الْكِبْرِيَاء لله رب الْعَالمين)

قلت رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث مُحَمَّد بن الْفُرَات عَن أبي إِسْحَاق عَن الْحَارِث عَن عَلّي قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (احْذَرُوا الْبَغي فَإِنَّهُ لَيْسَ من الْعقُوبَة أسْرع من عُقُوبَة الْبَغي وصلوا أَرْحَامكُم فَإِنَّهُ لَيْسَ من ثَوَاب أعجل من ثَوَاب صلَة الرَّحِم وَإِيَّاكُم وَالْيَمِين الْفَاجِرَة فَإِنَّهَا تدع الديار من أَهلهَا بَلَاقِع وَإِيَّاكُم وعقوق الْوَالِدين فَإِن الْجنَّة تُوجد رِيحهَا من مسيرَة خَمْسمِائَة عَام وَلَا يجد رِيحهَا عَاق وَلَا قَاطع رحم وَلَا جَار إِزَاره

خُيَلَاء إِنَّمَا الْكِبْرِيَاء لله رب الْعَالمين وَالْكذب كُله إِثْم إِلَّا مَا نفعت بِهِ مُسلما أَو دفعت بِهِ عَن دين فَلَا بَأْس) انْتَهَى وَأَعله بِمُحَمد بن الْفُرَات وَضَعفه عَن البُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن معِين وَوَافَقَهُمْ

(151/448)

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن طريف البَجلِيّ حَدثنَا أبي حَدثنَا مُحَمَّد بن كثير الْكُوفِي حَدثنِي جَابر الْجعْفِيّ عَن أبي جَعْفَر مُحَمَّد بن عَلّي بن حُسَيْن عَن جَابر بن عبد الله أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (اتَّقوا الله وصلوا أَرْحَامكُم فَإِنَّهُ لَيْسَ من ثَوَاب أسْرع من صلَة الرَّحِم وَإِيَّاكُم وَالْبَغي فَإِنَّهُ لَيْسَ من عُقُوبَة أسْرع من عُقُوبَة بغي وَإِيَّاكُم وعقوق الْوَالِدين فَإِن ريح الْجنَّة تُوجد من مسيرَة ألف عَام وَالله لَا يجد رِيحهَا عَاق وَلَا قَاطع رحم وَلَا شيخ زَان وَلَا جَار إزَاره خُيَلَاء إِنَّمَا الْكِبْرِيَاء لله رب الْعَالمين)

انْتَهَى

706 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

عَن حُذَيْفَة أَنه اسْتَأْذن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قتل أَبِيه وَهُوَ فِي صف الْمُشْركين

فَقَالَ لَهُ (دَعه بلية غَيْرك)

707 - 07الحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن من أبر الْبر أَن يصل الرجل أهل ود أَبِيه)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الْبر والصلة من حَدِيث عبد الله ابْن دِينَار عَن ابْن عمر مَرْفُوعا . . . فَذكره وَفِيه قصَّة زَاد فِي لفظ آخر بعد أَن يولي

708 - الحَدِيث السَّادِس عشر

عَن عبد الله بن عمر قَالَ مر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَعْد وَهُوَ يتَوَضَّأ فَقَالَ مَا هَذَا السَّرف يَا سعد قَالَ أَو فِي الْوضُوء سرف قَالَ نعم وَإِن كنت عَلَى نهر جَار

(152/448)

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سنَنه فِي الطَّهَارَة فِي بَاب مَا جَاءَ فِي الْقَصْد فِي الْوضُوء من حَدِيث ابْن لَهِيعَة عَن حيي بن عبد الله الْمعَافِرِي عَن أبي عبد الرَّحْمَن الحبلي عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بِسَعْد وَهُوَ يتَوَضَّأ فَقَالَ مَا هَذَا السَّرف) فَقَالَ أَفِي الْوضُوء إِسْرَاف قَالَ نعم وَإِن كنت عَلَى نهر جَار

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي كِتَابه شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْعشْرين مِنْهُ وَلم يعزه الطَّيِّبِيّ إِلَّا لمُسْند أَحْمد

وَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُور

709 - الحَدِيث السَّابِع عشر

كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا سُئِلَ شَيْئا وَلَيْسَ عِنْده أعرض عَن السَّائِل وَسكت حَيَاء

قلت غَرِيب وَيقرب مِنْهُ مَا رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث من الْقسم الْوَاحِد وَالْأَرْبَعين وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْجِهَاد من حَدِيث أنس بن مَالك قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يسْأَل شَيْئا إِلَّا أعطَاهُ أَو سكت وَفِيه قصَّة حنين قَالَ الْحَاكِم صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَقد ذَكَرْنَاهُ بِتَمَامِهِ فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

وَيقرب مِنْهُ حَدِيث أَيْضا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مُحَمَّد بن يَعْقُوب الْخَطِيب حَدثنَا يَعْقُوب بن إِسْحَاق القلوسي حَدثنَا الْحسن بن عَنْبَسَة حَدثنَا مُحَمَّد ابْن كثير الْكُوفِي عَن أبي الْعَلَاء الْخفاف عَن الْمنْهَال بن عَمْرو عَن حَبَّة العرني عَن عَلّي قَالَ

كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا سُئِلَ شَيْئًا فَأَرَادَ أَن يَفْعَله قَالَ نعم) وَإِذا أَرَادَ أَن لَا يفعل سكت وَلم يقل قطّ لشَيْء لَا فَأَتَاهُ أَعْرَابِي يَوْمًا فَسَأَلَهُ فَسكت ثمَّ سَأَلَهُ فَسكت فَقَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كالمنتهر لَهُ سل مَا شِئْت) فَقَالَ أَسأَلك رَاحِلَة قَالَ لَك ذَلِك) قَالَ وزادا قَالَ لَك ذَلِك أَعْطوهُ مَا سَأَلَ) فَأَعْطوهُ ثمَّ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كم بَين مَسْأَلَة الْأَعرَابِي وَمَسْأَلَة عَجُوز بني إِسْرَائِيل إِن مُوسَى لما أَمر أَن يقطع الْبَحْر فَانْتهى إِلَى آخِره ضربت وُجُوه الدَّوَابّ فَرَجَعت فَقَالَ مُوسَى يَا رب فَقَالَ إِنَّك عِنْد قبر يُوسُف فَاحْتمل عِظَامه مَعَك فَجعل مُوسَى لَا يدْرِي أَيْن هُوَ قَالُوا إِن كَانَ أحد يُعلمهُ فعجوز بني إِسْرَائِيل فَأرْسل إِلَيْهَا مُوسَى فَسَأَلَهَا عَنهُ فَقَالَت وَالله لَا أدلك عَلَيْهِ حَتَّى تُعْطِينِي مَا أَسأَلك فَقَالَ لَك ذَلِك قَالَت فَإِنِّي أَسأَلك أَن أكون مَعَك فِي الْجنَّة فَجعل مُوسَى يرادها فَأوحى الله إِلَيْهِ أَن أعْطهَا ذَلِك فَإِنَّهُ لَا ينقصك فَأَعْطَاهَا ودلته عَلَى الْقَبْر فَأخْرج الْعِظَام وَجَاوَز الْبَحْر)

انْتَهَى

710 - الحَدِيث الثَّامِن عشر

عَن جَابر قَالَ بَينا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالس إِذْ أَتَاهُ صبي فَقَالَ إِن أُمِّي تستكسيك درعا فَقَالَ من سَاعَة إِلَى سَاعَة تظهر فعد إِلَيْنَا) فَذهب إِلَى أمه فَقَالَت لَهُ قل لَهُ إِن أُمِّي تستكسيك الدرْع الَّذِي عَلَيْك فَدخل دَاره وَنزع قَمِيصه وَأَعْطَاهُ وَقعد عُريَانا وَأذن بِلَال وَانْتَظرُوا فَلم يخرج إِلَى الصَّلَاة

711 - الحَدِيث التَّاسِع عشر

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعْطى الْأَقْرَع بن حَابِس مائَة من الْإِبِل وعيينة بن حصن فجَاء عَبَّاس بن مرداس وَأَنْشَأَ يَقُول

(أَتجْعَل نَهْبي وَنهب العبيد . . . بَين عُيَيْنَة والأقرع)

(وَمَا كَانَ حصن وَلَا حَابِس . . . يفُوقَانِ جدي فِي مجمع)

(وَمَا كنت دون امْرِئ مِنْهُمَا . . . وَمن تضع الْيَوْم لَا يرفع)

فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَا أَبَا بكر اقْطَعْ لِسَانه عني أعْطه مائَة من الْإِبِل) فَنزلت

قلت رَوَاهُ فِي مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الزَّكَاة من حَدِيث عَبَايَة بن رِفَاعَة عَن رَافع بن خديج قَالَ أعْطى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا سُفْيَان بن حَرْب وَصَفوَان ابْن أُميَّة وعيينة بن حصن والأقرع بن حَابِس كل إِنْسَان مِنْهُم مائَة من الْإِبِل وَأعْطى عَبَّاس بن مرداس دون ذَلِك فَقَالَ عَبَّاس بن مرداس . . . فَذكر الشّعْر بِعَيْنِه قَالَ فَأَتَمَّ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مائَة

انْتَهى

إِلَّا أَنه قَالَ فِي الشّعْر بدر

عوض حصن وَقَالَ مرداس عوض جدي وَقَالَ من يخْفض عوض وَمن يضع

(155/448)

وَزَاد الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من رِوَايَة مُوسَى بن عقبَة وَابْن إِسْحَاق حَدثنَا عبد الله بن أبي بكر بن حزم وَغَيره . . . فَذكر الْقِصَّة وَفِي آخرهَا اذْهَبُوا فاقْطَعُوا عني لِسَانه فوادوه حَتَّى رَضِي فَكَانَ ذَلِك قطع لِسَانه

وَكَذَلِكَ ذكره ابْن هِشَام فِي سيرته فِي غَزْوَة الطَّائِف من قَول ابْن إِسْحَاق

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة الْعَبَّاس بن مرداس من قَول عُرْوَة بن الزُّبَيْر وَمن قَول عبد الرَّحْمَن بن أبي الزِّنَاد . . . فَذكر الْقِصَّة وفيهَا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (اقطعُوا لِسَانه عني) فَأَعْطَاهُ مائَة من الْإِبِل وَيُقَال خمسين وَفِي رِوَايَة عُرْوَة فَأعْطَاهُ حلَّة

وَرَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي غَزْوَة هوَازن حَدثنَا ابْن أبي الزِّنَاد قَالَ وَأعْطى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمئِذٍ الْأَقْرَع بن حَابِس مائَة من الْإِبِل وَأعْطى عُيَيْنَة الْفَزارِيّ أَيْضا

مائَة وَأعْطى الْعَبَّاس بن مرداس أَرْبعا من الْإِبل فَقَالَ يُعَاتب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فذكر الشّعْر فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اقْطَعُوا عني لِسَانه فَأَعْطُوهُ مائَة من الْإِبِل)

712 - الحَدِيث الْعشْرُونَ

فِي الحَدِيث (من قفا مُؤمنا بِمَا لَيْسَ فِيهِ حَبسه الله فِي ردغة الخبال حَتَّى يَأْتِي بالمخرج)

قلت غَرِيب

وروى أَبُو دَاوُد فِي سنَنه فِي كتاب الْقَضَاء من حَدِيث عمَارَة بن غزيَّة عَن يَحْيَى بن رَاشد عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (وَمن قَالَ فِي مُؤمن بِمَا لَيْسَ فِيهِ أسكنهُ الله ردغة الخبال حَتَّى يخرج مِمَّا قَالَ) مُخْتَصر

(156/448)

وروى الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْبيُوع عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَمن قَالَ فِي مُؤمن مَا لَيْسَ فِيهِ حَبسه الله فِي ردغة الخبال حَتَّى يَأْتِي بالمخرج) مُخْتَصر وَصَححهُ

وروى أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب

الثَّالِث وَالْخمسين وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عبد الله بن الْمُبَارك عَنهُ عَن يَحْيَى بن أَيُّوب عَن عبد الله بن سُلَيْمَان أَن إِسْمَاعِيل بن يَحْيَى الْمعَافِرِي حَدثهُ عَن سهل بن معَاذ بن أنس عَن أَبِيه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قفا مُؤمنا بِمَا لَيْسَ فِيهِ يُرِيد شينه بِهِ حَبسه الله على جسر جَهَنَّم حَتَّى يخرج مِمَّا قَالَ) مُخْتَصر

وَلَفظ الْمُصَنّف رَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي غَرِيب الحَدِيث من قَول حسان بن عَطِيَّة قَالَ حَدثنَا مُحَمَّد بن كثير عَن الْأَوْزَاعِيّ عَن حسان بن عَطِيَّة قَالَ من قفا مُؤمنا بِمَا لَيْسَ فِيهِ وَقفه الله فِي ردغة الخبال حَتَّى يَأْتِي بالمخرج مِنْهُ

انْتَهَى قَالَ والقفو الْقَذْف يُقَال قفوت الرجل أَقْفُوهُ إِذا قَذَفته

انْتَهَى

وَلم يُورِدهُ صَاحب النِّهَايَة إِلَّا من قَول حسان بن عَطِيَّة

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي الْجُزْء الَّذِي جمعه من أَحَادِيث حَمْزَة الزيات عَن حَمْزَة الْجَزرِي عَن مطر الْوراق عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قذف مُؤمنا أَو مُؤمنَة حبس فِي ردغة الخبال حَتَّى يَأْتِي الله بالمخرج) مُخْتَصر وَرَوَاهُ فِي مُسْند الشاميين من حَدِيث مطر الْوراق عَن عَطاء الْخُرَاسَانِي عَن نَافِع عَن ابْن عمر نَحوه سَوَاء

713 - الحَدِيث الْحَادِي وَالْعشْرُونَ

رُوِيَ أَنه لما تزاحف الْفَرِيقَانِ يَوْم بدر وَرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعَرِيش مَعَ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه كَانَ يَدْعُو وَيَقُول (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك عَهْدك ووعدك) ثمَّ خرج وَعَلِيهِ الدرْع يحرض النَّاس وَيَقُول

سَيهْزمُ الْجمع وَيُوَلُّونَ الدبر

وَلَعَلَّ الله تَعَالَى أرَاهُ مصَارِعهمْ فِي مَنَامه فَكَانَ يَقُول حِين ورد مَاء بدر (وَالله لكَأَنِّي أنظر إِلَى مصَارِع الْقَوْم) وَهُوَ يومي إِلَى الأَرْض وَيَقُول (هَذَا مصرع فلَان هَذَا مصرع فلَان)

فتسامعت قُرَيْش بِمَا أُوحِي إِلَى رَسُول الله من أَمر بدر وَمَا أُرِي فِي مَنَامه من مصَارِعهمْ وَكَانُوا يَضْحَكُونَ ويستسخرون

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ بعضه فروى البُخَارِيّ فِي الْمَغَازِي عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ فِي قبَّة يَوْم بدر (اللَّهُمَّ إِنِّي أنْشدك عَهْدك ووعدك اللَّهُمَّ إِن تشَاء لَا تعبد الْيَوْم) فَأخذ أَبُو بكر بِيَدِهِ فَقَالَ حَسبك فَخرج وَهُوَ يَقُول سَيهْزمُ الْجمع وَيُوَلُّونَ الدبر

انْتَهَى

وروى مُسلم فِي الْمَغَازِي فِي قصَّة الطَّائِف عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ (هَذَا مصرع فلَان) ويَضع يَده على الأَرْض هَاهُنَا وَهَاهُنَا قَالَ فَمَا مَاط أحدهم عَن مَوضِع يَد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

714 - الحَدِيث الثَّانِي وَالْعشْرُونَ

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَا خيل الله اركبي)

(158/448)

قلت رَوَاهُ الْحَازِمِي فِي كِتَابه النَّاسِخ والمنسوخ فِي بَاب حَدِيث الْمثلَة حَدثنَا مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الْفَارِسِي أَنا يحْيَى بن عبد الْوَهَّاب أَنا مُحَمَّد بن أَحْمد الْكَاتِب أَنا عبد الله بن مُحَمَّد حَدثنَا إِسْحَاق بن أَحْمد حَدثنَا مُحَمَّد بن عَلّي بن الْحسن بن شَقِيق سَمِعت أبي يَقُول حَدثنَا أَبُو حَمْزَة عَن عبد الْكَرِيم وَسُئِلَ عَن أَبْوَال الْإِبِل فَقَالَ حَدثنِي سعيد بن جُبَير عَن الْمُحَاربين فَقَالَ كَانَ نَاس أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا نُبَايِعك عَلَى الْإِسْلَام فَبَايعُوهُ وهم كذبة لَيْسَ الْإِسْلَام يُرِيدُونَ ثمَّ قَالُوا إِنَّا نجتوي الْمَدِينَة فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام هَذِه اللقاح تَغْدُو عَلَيْكُم وَتَروح فَاشْرَبُوا من أَلْبَانهَا وَأَبْوَالهَا) فَبَيْنَمَا هم كَذَلِك إِذْ جَاءَ الصَّرِيخ إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَن قتلوا الرَّاعِي وَسَاقُوا النعم فَأمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنُودِيَ فِي النَّاس (يَا خيل الله اركبي) فَركبُوا لَا ينْتَظر فَارس

فَارِسًا وركب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَثَرهم فَلم يزَالُوا فِي طَلَبهمْ حَتَّى أَدْركُوهم فَقتل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقطع وسمر الْأَعْين قَالَ وَمَا مثل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وَلَا بعد وَنَهَى عَن الْمثلَة وَكَانَ أنس بن مَالك يَقُول نَحْو ذَلِك غير أَنه قَالَ وَأَحْرَقَهُمْ بالنَّار بَعْدَمَا قَتلهمْ

انْتَهَى

(159/448)

وَفِي عُيُون الْأَثر لأبي الْفَتْح الْيَعْمرِي فِي بَاب غَزْوَة بني قُرَيْظَة قَالَ وَرَوَى ابْن عَابِد أَخْبرنِي الْوَلِيد بن مُسلم أَخْبرنِي سعيد بن بشير عَن قَتَادَة قَالَ بعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم الْأَحْزَاب مناديا يُنَادي (يَا خيل الله اركبي)

انْتَهَى

وَعَجِيب من السُّهيْلي كَيفَ عزا هَذِه اللَّفْظَة لمُسلم ذكره فِي الرَّوْض الْأنف فِي أول غَزْوَة حنين وَهِي أَوَاخِر الْكتاب

وَأما أَبُو دَاوُد فَإِنَّهُ قَالَ فِي كتاب الْجِهَاد فِي سنَنه بَاب النداء عِنْد النفير (يَا خيل الله اركبي)

ثمَّ روَى بِسَنَدِهِ عَن سَمُرَة بن جُنْدُب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَمّى خَيْلنَا خيل الله

وَفِيه نظر لمن تأمله

وَهُوَ فِي مُسْتَدْرك الْحَاكِم من قول عَلّي روَاهُ فِي تَفْسِير سُورَة الْإِسْرَاء من حَدِيث أبي نَضرة

عَن أَسِير بن جَابر قَالَ قَالَ لي صَاحب وَأَنا بِالْكُوفَةِ هَل لَك فِي أَن تنظر رجلا . . . فَذكر

قصَّة أويس الْقَرنِي إِلَى أَن قَالَ فَنَادَى مُنَادِي عَلّي يَا خيل الله اركَبِي وَأَبْشِرِي . . .

الحَدِيث بِطُولِه

وَهُوَ فِي كتاب الرِّدَّة لِلْوَاقِدِي من قول خَالِد بن الْوَلِيد فَقَالَ حَدثنِي مُحَمَّد ابْن صَالح بن

دِينَار عَن عَاصِم بن عمر بن قَتَادَة عَن مَحْمُود بن لبيد أَن خَالِد بن الْوَلِيد قَالَ لأَصْحَابه يَوْم

الْيَمَامَة يَا خيل الله اركَبِي فركبُوا وَسَارُوا إِلَى بني حنيفَة فَقَتَلُوهُمْ وَأسرُوهُمْ

مُخْتَصر

715 - الحَدِيث الثَّالِث وَالْعشْرُونَ

(160/448)

قَالَ المُصَنّف فِي الرَّد عَلَى أهل السّنة تَفْضِيلهمْ الْبشر عَلَى الْمَلَائِكَة وَقد لَفظُوا أَخْبَارًا مِنْهَا

مَا رووا أَن الْمَلَائِكَة قَالَت رَبنَا إِنَّك أَعْطَيْت بني آدم الدُّنْيَا يَأْكُلون مِنْهَا ويتمعون وَلم تُعْطِنَا

ذَلِك فَأَعْطِنَاهُ فِي الْآخِرَة فَقَالَ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أجعَل ذُرِّيَّة من خلقت بيَدي كمن قلت لَهُ كن فَكَانَ

قلت هَذَا الحَدِيث رُوِيَ من حَدِيث ابْن عمر وَجَابِر

فَحَدِيث ابْن عمر رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن صَدَقَة الْبَغْدَادِيّ حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن عبد الله بن خَالِد المصِّيصِي حَدثنَا حجاج بن مُحَمَّد الْأَعْوَر حَدثنَا أَبُو غَسَّان مُحَمَّد بن مطرف عَن صَفْوَان بن سليم عَن عَطاء بن يسَار عَن عبد الله بن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَن الْمَلَائِكَة قَالَت يَا رب أَعْطَيْت بني آدم الدُّنْيَا يَأْكُلُون فِيهَا وَيَشْرَبُونَ ويلبسُونَ وَنحن نُسَبِّح بحَمْدك وَلَا نَأْكُل وَلَا نشرب وَلَا نَلْهُو فَكَمَا جعلت لَهُم الدُّنْيَا فَاجْعَلْ لنا الْآخِرَة قَالَ لَا أجعَل ذُرِّيَّة من

خلقت بيَدي كمن قلت لَهُ كن فَكَانَ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مُحَمَّد بن حنيفَة الوَاسِطِيّ حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد ابْن ماهان حَدثنَا أبي حَدثنَا طَلْحَة بن زيد عَن صَفْوَان بن سليم بِهِ سندا ومتنا وَقَالَ لم يروه عَن صَفْوَان إِلَّا طَلْحَة بن زيد وَأَبُو غَسَّان وَتفرد بِهِ عَن طَلْحَة مُحَمَّد بن ماهان وَتفرد بِهِ عَن أبي غَسَّان حجاج الْأَعْوَر

انْتَهَى

ورَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره من قَول زيد بن أسلم فَقَالَ حَدثنَا معمر عَن زيد بن أسلم قَالَ قَالَت الْمَلَائِكَة يَا ربنَا أَعْطَيْت بني آدم الدُّنْيَا يَأْكُلُون مِنْهَا ويتنعمون وَلم تعطنا ذَلِك فأعطناه فِي الْآخِرَة فَقَالَ الله وَعِزَّتِي وجلالي لَا أجعَل صَالح ذُرِّيَّة من خلقت بيَدي كمن قلت لَهُ كن فَكَانَ

انْتَهى

قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله روى عبد الْمجِيد بن أبي رواد عَن معمر عَن زيد ابْن أسلم عَن عَطاء بن يسَار عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (قَالَت الْمَلَائِكَة أَي رب أَعْطَيْت بني آدم الدُّنْيَا فأعطنا الْآخِرَة فَقَالَ الله تَعَالَى لَا أجعَل صَالح ذُرِّيَّة من خلقت بيَدي كمن قلت لَهُ كن فَكَانَ) وَقد رَوَاهُ سُرَيج بن يُونُس عَن عبد الْمجِيد فَوَقفهُ وَهُوَ أصح

انْتَهَى كَلَامه

ورَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية كَذَلِك وَقَالَ هَذَا حَدِيث لَا يَصح وَكَانَ الْحميدِي يتَكَلَّم فِي عبد الْمجِيد وَقَالَ ابْن حبَان يقلب الْأَخْبَار ويروي الْمَنَاكِير عَن الْمَشَاهِير فَاسْتحقَّ التّرْك

انْتَهى

وَأما حَدِيث جَابر فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات فِي بَاب وَصفه تَعَالَى بِالْيَدِ

أخبرنَا عَليّ بن أَحْمد بن عَبْدَان أَنا أَحْمد بن عبيد الصفار حَدثنَا جُنَيْد ابْن حَكِيم

حَدثنَا هِشَام بن عمار حَدثنَا عبد ربه بن صَالح قَالَ سَمِعت عُرْوَة بن رُوَيْم اللَّخْمِيّ يحدث

عَن جَابر بن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لما خلق الله آدم وَذريته

قَالَت الْمَلَائِكَة يَا رب خلقتهمْ يَأْكُلُون وَيَشْرَبُونَ وَيَنْكِحُونَ فَاجْعَلْ لَهُم الدُّنْيَا وَلنَا الْآخِرَة فَقَالَ

الله لَا أجعَل من خلقت بيَدي كمن قلت

(162/448)

لَهُ كن فَكَانَ) انْتَهى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي كِتَابه مُسْند الشاميين حَدثنَا أَحْمد بن يعلي الدِّمَشْقِي حَدثنَا هِشَام بن

عمار حَدثنَا عُثْمَان بن علاق قَالَ سَمِعت عُرْوَة بن رُوَيْم بِهِ

716 - الحَدِيث الرَّابِع وَالْعشْرُونَ

قَالَ وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ عَن أبي هُرَيْرَة أَنه قَالَ الْمُؤمن أكْرم عَلَى الله من الْمَلَائِكَة الَّذين عِنْده

قلت رُوِيَ مَوْقُوفا كَمَا ذكره المُصَنّف

وَرُوِيَ مَرْفُوعا أَيضا فَرَوَاهُ ابْن ماجة فِي سنَنه فِي كتاب الْفِتَن حَدثنَا هِشَام بن عمار حَدثنَا الْوَلِيد بن مُسلم حَدثنَا حَمَّاد بن سَلمَة حَدثنَا أَبُو المهزم يزِيد بن سُفْيَان عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْمُؤمن أكْرم على الله من بعض مَلَائكَته)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي أول شعب الْإِيمَان عَن أبي المهزم بِهِ مَوْقُوفا الْمُؤمن أكْرم على الله من مَلَائكَته

انْتَهَى

ثمَّ قَالَ وَأَبُو الْمهْزُوم مَتْرُوك انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء وأعله بِأبي المهزم وَقَالَ كَانَ كثير الْخَطَأ فَلَمَّا كثرت فِي رِوَايَته مُخَالفَة الْأَثْبَات خرج عَن حد الْعُدُول وَقد تَركه شُعْبَة

انْتَهَى

وَفِي حَدِيث آخر مَرْفُوع رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان عَن عبيد الله بن تَمام عَن خَالِد الْحذاء عَن بشر بن شغَاف عَن أَبِيه عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا شَيْء أكْرم على الله يَوْم الْقِيَامَة من ابْن آدم) قيل يَا رَسُول الله وَلَا الْمَلَائِكَة قَالَ وَلَا الْمَلَائِكَة الْمَلَائِكَة مجبورون كَالشَّمْسِ وَالْقَمَر)

انْتَهَى

قَالَ الْبَيْهَقِيّ تفرد بِهِ عبيد الله بن تَمام وَقد رَوَاهُ غَيره عَن خَالِد الْحذاء بِهِ مَوْقُوفا وَهُوَ الْأَصَح ثمَّ أخرجه كَذَلِك

وَذكره الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله وَقَالَ عبيد الله بن تَمام يروي أَحَادِيث مَقْلُوبَة وَهُوَ ضَعِيف

717 - الحَدِيث الْخَامِس وَالْعشْرُونَ

رُوِيَ أَن ثقيفا قَالَت للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا ندخل فِي أَمرك حَتَّى تُعْطِينَا خِصَالًا نفتخر بهَا عَلَى الْعَرَب لَا نُعْشِرُ وَلَا نحشر وَلَا نجبي فِي صَلَاتنَا وكل رِبًّا فَهُوَ لنا وكل رِبًّا علينا فَهُوَ مَوْضُوع عَنَّا وَأَن تمتعنا باللات سنة وَلَا نكسرها بِأَيْدِينَا عِنْد رَأس الْحول وَأَن تمنع من قصد وَادِينَا وَج فعضد شَجَره فَإِذا سَأَلتك الْعَرَب لم فعلت ذَلِك فَقل إِن الله أَمرنِي بِهِ وَجَاءُوا بِكِتَابِهِمْ فَكتب (بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم هَذَا كتاب من مُحَمَّد رَسُول الله لثقيف لَا يعشرُونَ وَلَا يحشرون) فَقَالُوا وَلَا يجبون فَسكت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ قَالُوا لِلْكَاتِبِ اكْتُبْ وَلَا يجبون وَالْكَاتِب ينظر إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَامَ عمر بن الْخطاب فسل سَيْفه وَقَالَ أسعرتم قلب نَبينَا يَا معشر ثَقِيف أسعر الله قُلُوبكُمْ نَارا فَقَالُوا لسنا نُكَلِّم إياك إِنَّمَا نُكَلِّم مُحَمَّدًا فَنزلت 718 الحَدِيث السَّادِس وَالْعشْرُونَ

عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهَا لما نزلت يَعْنِي قَوْله تَعَالَى وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاك الْآيَة كَانَ يَقُول (اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفسِي طرفَة عين)

قلت ذكره الثَّعْلَبِيّ عَن قَتَادَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

وَذكر الَّذِي قبله عَن ابْن عَبَّاس من غير سَنَد

(164/448)

---

719 - الحَدِيث السَّابِع وَالْعشْرُونَ

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما هَاجر حَسَدْته الْيَهُود وكرهوا قربه مِنْهُم فَاجْتمعُوا وَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِم إِن الْأَنْبِيَاء إِنَّمَا بعثوا بِالشَّام وَهِي بِلَاد مُقَدَّسَة وَكَانَت مهَاجر إِبْرَاهِيم فَلَو خرجت إِلَى الشَّام لآمَنَّا بك واتبعناك وَقد علمنَا أَنه لَا يمنعك من الْخُرُوج إِلَّا خوف الرّوم فَإِن كنت نَبيا فَالله مانعك مِنْهُم فعسكر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم على أَمْيَال من الْمَدِينَة وَقيل بِذِي الحليفة حَتَّى يجْتَمع إِلَيْهِ أَصْحَابه وَيَرَاهُ النَّاس عَازِمًا على الْخُرُوج إِلَى الشَّام لحرصه على دُخُول النَّاس فِي دين الله فَنزلت وَإِذا لَا يلبثُونَ خِلافك فَرجع

720 - الحَدِيث الثَّامِن وَالْعشْرُونَ

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (أَتَانِي جِبْرِيل لدلوك الشَّمْس حِين زَالَت

الشَّمْس وَصَلى بِي الظّهْر)

قلت غَرِيب

وَبِمَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْمعرفَة أخبرنَا عَلّي بن أَحْمد بن عَبْدَان أَنا أَحْمد بن عبيد حَدثنَا أَحْمد بن عَلّي الجزار حَدثنَا سعيد بن سُلَيْمَان سَعْدَوَيْه حَدثنَا أَيُّوب بن عتبَة حَدثنَا أَبُو بكر بن عَمْرو بن حزم عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن ابْن أبي مَسْعُود الْأنْصَارِي عَن أَبِيه أَن جبْرِيل أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين دلكت الشَّمْس يَعْنِي حِين زَالَت فَقَالَ لَهُ قُم فصل فَقَامَ فصلى الظّهْر ثمَّ ذكر بَاقِي الصَّلَوَات بأعدادهن . . . ثمَّ قَالَ وَأَيوب بن عتبَة لَيْسَ بِالْقَوِيّ

(165/448)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث يحيى بن سعيد حَدثنِي أَبُو بكر مُحَمَّد بن عَمْرو بن حزم عَن عقبَة بن عَمْرو أبي مَسْعُود الْأنْصَارِي قَالَ جَاءَ جبْرِيل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ قُم فصل وَذَلِكَ لدلوك حِين مَالَتْ فَقَامَ فصلى الظّهْر أَرْبعا

انْتهى

وَرَوَاهُ كَذَلِك بشر بن عمر الزهْرَانِي حَدثنِي سَلمَة بن بِلَال حَدثنَا يحيى ابْن سعيد حَدثنِي

أَبو بكر بن عَمْرو بن حزم عَن أبي مَسْعُود الْأَنْصَارِيّ . . . فَذكره بِلَفْظ ابْن مرْدَوَيْه وَزَاد

بَاقِي الصَّلَوَات

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ وَينظر فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

وَرَوَاهُ بِهَذَا السَّنَد الْبَيْهَقِيّ وَقَالَ إِنَّه مُنْقَطع لم يسمعهُ أَبُو بكر من أبي مَسْعُود وَإِنَّمَا هُوَ بَلَاغ

بلغه

انْتَهَى

قَالَه فِي السّنَن

وَبِمَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث عمر بن قيس عَن الزُّهْرِيّ عَن سَالم عَن ابْن

عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (دلوك الشَّمْس زَوَالهَا)

انْتَهَى وَقَالَ إِنَّمَا يرْوَى هَذَا الحَدِيث مَوْقُوفا عَلَى ابْن عمر وَلم يسْندهُ عَن الزُّهْرِيّ إِلَّا عمر ابْن

قيس وَكَانَ لين الحَدِيث انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره عَن سهل بن بكار عَن أبي عوَانَة عَن الْأسود ابْن قيس عَن نُبيح

الْعَنزي عَن جَابر بن عبد الله قَالَ دَعَوْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمن شَاءَ من

أَصْحَابه يطْعمُون عِنْدِي ثمَّ خَرجُوا حِين زَالَت الشَّمْس فَخرج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

وَقَالَ اخْرُج يَا أَبَا بكر) فَهَذَا حِين دلكت الشَّمْس

انْتَهى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن ابْن مَسْعُود عقبه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير سَنَد

(166/448)

---

721 - الحَدِيث التَّاسِع وَالْعشْرُونَ

عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ فِي الْمقَام الْمَحْمُود هُوَ الْمقَام الَّذِي أشفع فِيهِ لأمتي)

قلت رُوِيَ من حَدِيث سعد بن أبي وَقاص وَمن حَدِيث أنس وَمن حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ وَمن حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث ابْن مَسْعُود وَمن حَدِيث كَعْب بن مَالك وَمن حَدِيث جَابر وَمن حَدِيث الْخُدْرِيّ وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة

أما حَدِيث أنس فَذكره البُخَارِيّ فِي كتاب التَّوْحِيد وَلم يصل سَنَده بِهِ فَقَالَ وَقَالَ حجاج بن منهال حَدثنَا همام حَدثنَا قَتَادَة عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يجمع الله النَّاس يَوْم الْقِيَامَة فيهتمون لذَلِك الْيَوْم فَيَقُولُونَ لَو اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبنَا حَتَّى يُرِيحنَا من مَكَاننَا فيأتون آدم عَلَيْهِ السَّلَام) إِلَى أَن قَالَ فيأتون عِيسَى فَيَقُول لَهُم لست هُنَاكُم ائْتُوا مُحَمَّدًا) قَالَ فيأتوني فَأَسْتَأْذِن على رَبِّي فَيُؤذن لي ثمَّ أشفع) إِلَى أَن قَالَ فَأَقُول يَا رب مَا

بَقِي فِي النَّار إِلَّا من وَجب عَلَيْهِ الخلود) ثمَّ تَلا هَذِه الْآيَة عَسى أَن يَبْعَثك رَبك مقَاما مَحْمُودًا قَالَ وَهَذَا الْمقَام الَّذِي وعده نَبِيكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)
مُخْتَصر

(167/448)

أما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي تَفْسِيره هَذِه السُّورَة وَفِي الزَّكَاة عَنهُ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الشَّمْس لَتَدْنُو حَتَّى يبلغ الْعرق نصف الْأذن فَبَيْنَمَا هم كَذَلِك إِذْ اسْتَغَاثُوا بِآدَم فَيَقُول لست صَاحب ذَلِك ثمَّ مُوسَى فَيَقُول كَذَلِك ثمَّ بِمُحَمد فيشفع بَين الْخلق فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذ بِحَلقَة الْجنَّة فَذَلِك يَوْمئِذٍ يَبْعَثهُ الله مقَاما مَحْمُودًا انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْفِتَن من حَدِيث سَلمَة بن كهيل عَن أبي الزَّعْرَاء عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ يَأْذَن الله فِي الشَّفَاعَة فَيكون أول شَافِع روح الْقُدس جِبْرِيل ثمَّ إِبْرَاهِيم ثمَّ مُوسَى ثمَّ عِيسَى ثمَّ يقوم نَبِيكُم رَابِعا لَا يشفع أحد بعده فِيمَا يشفع فِيهِ وَهُوَ الْمقَام الْمَحْمُود الَّذِي وعده الله عَسى أَن يَبْعَثك رَبك

مقاما مَحْمُودًا

مُخْتَصر

(168/448)

وروَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده فَقَالَ حَدثنَا عَارِم بن الْفضل حَدثنَا سعيد بن زيد حَدثنَا عَليّ بن الحكم الْبنانِيّ عَن عُثْمَان بن عمر أبي الْيَقظَان عَن إِبْرَاهِيم عَن عَلْقَمَة وَالْأسود عَن ابْن مَسْعُود قَالَ جَاءَ ابْنا مليكَة إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَا إِن أمنا تكرم الزَّوْج وَتعطف عَلَى الْوَلَد وَذكر الضَّيْف غير أَنَّهَا وأدت فِي الْجَاهِلِيَّة فَقَالَ (أمكما فِي النَّار) قَالَ فَأَدْبرَا وَالسوء يرَى فِي وُجُوههمَا فَأمر بهما فردا وَالسُّرُور يرَى فِي وُجُوههمَا رَجَاء أَن يكون قد حدث شَيْء فَقَالَ (أُمِّي مَعَ أمكما) فَقَالَ رجل من الْمُنَافِقين وَمَا يُغني هَذَا عَن أمه شَيْئا وَنحن نطأ عَقِبه فَقَالَ رجل من الْأَنْصَار هَل وَعدك رَبك فِيهَا أَو فيهمَا فَقَالَ مَا شَاءَ الله رَبِّي وَمَا أَطْعمنِي فِيهِ وَإِنِّي لأقوم الْمقَام الْمَحْمُود يَوْم الْقِيَامَة) فَقَالَ الْأنْصَارِيّ يَا رَسُول الله وَمَا ذَاك الْمقَام الْمَحْمُود قَالَ ذَاك إِذا جِيءَ بكم حُفَاة عُرَاة غرلًا) ثمَّ ذكره بِطُولِهِ

وروَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير حَدثنَا بنْدَار حَدثنَا غنْدر حَدثنَا شُعْبَة عَن سَلمَة ابْن كهيل حَدثنَا أَبُو الزَّعْرَاء عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ يَأْذَن الله فِي الشَّفَاعَة فَيقوم نَبِيكُم صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يشفع أحد بِمثل شَفَاعَته وَهُوَ الْمقَام الْمَحْمُود الَّذِي وعده الله عَسى أَن يَبْعَثك رَبك مقَاما مَحْمُودًا

انْتَهى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك عَن عَليّ بن الحكم بِهِ وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

أما حَدِيث كَعْب بن مَالك فَرَوَاهُ الْحَاكِم أَيْضا فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث الزُّهْرِيّ عَن عبد الرَّحْمَن بن عبد الله بن كَعْب بن مَالك عَن كَعْب بن مَالك

(169/448)

أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يبْعَث الله النَّاس يَوْم الْقِيَامَة فَأَكُون أَنا وَأمتِي على تل وَيَكْسُونِي رَبِّي حلَّة خضراء ثمَّ يُؤذن لي فَأَقُول مَا شَاءَ الله أَن أَقُول فَذَلِك الْمقَام الْمَحْمُود)

انْتَهى

وَأما حَدِيث جَابر فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَأحمد فِي مُسْنده وَأخرجه مُسلم فِي الْإِيمَان عَن يزِيد الْفَقِير عَن جَابر فِي بَاب الشَّفَاعَة بِلَفْظ آخر وَيُرَاجع أَيْضا من حَدِيث إِبْرَاهِيم بن سعد عَن الزُّهْرِيّ عَن عَليّ بن الْحُسَيْن عَن جَابر بن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إذا كان يَوْم الْقِيَامَة مد الله الأَرْض مد الْأَدِيم حَتَّى لَا يكون لبشر من النَّاس إِلَّا موضِع قَدَمَيْهِ فَأَكُون أول من يُدعى جبْرِيل عَن يَمِين الرَّحْمَن فَأَقُول أَي رب إِن هَذَا أَخْبرنِي أَنَّك أَرْسلتهُ إِلَيّ فَيَقُول صدق ثمَّ أشفع فَأَقُول يَا رب عِبَادك عَبَدُوك فِي أَطْرَاف الأَرْض) قَالَ (فَهُوَ الْمقَام الْمَحْمُود)

انْتَهى

وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَقد أرْسلهُ معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن عَلّي بن الْحُسَيْن قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره ثمَّ أخرجه من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ بِهِ كَذَلِك مُرْسلا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره مُرْسلا

وَأما حَدِيث الْخُدْرِيّ فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَابْن ماجة فِي الزّهْد من حَدِيث عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن أبي نَضرة عَن الْخُدْرِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر)

قَالَ فيفزع النَّاس ثَلَاث فزعَات فيأْتُونَ آدم) فَذكر حَدِيث الشَّفَاعَة وَفِي آخِره فَيُقَال ارْفَعْ رَأسك وَاشْفَعْ تشفع وَقل يسمع لقَوْلك وَهُوَ الْمقَام الْمَحْمُود الَّذِي قَالَ الله عَسى أَن يَبْعَثك رَبك مقَاما مَحْمُودًا) مُخْتَصر قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه وَالنَّسَائِيّ وَأحمد وَابْن أبي شيبَة فِي مسنديهما عَن وَكِيع عَن دَاوُد بن يزِيد الأودي عَن أبي هُرَيْرَة

قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْله تَعَالَى عَسى أَن يَبْعَثك رَبك مقَاما مَحْمُودًا وَسُئِلَ عَنْهَا قَالَ (هِيَ الشَّفَاعَة)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن

انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَمن طَرِيق أَحْمد رَوَاهُ الواحدي فِي الْأَوْسَط

وَأما حَدِيث ابْن الْعَاصِ فَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث ابْن ثَوْبَان عَن عَمْرو بن شُعَيْب عَن أَبِيه عَن جده عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ قَالَ أَتَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل من الْأَنْصَار فَقَالَ يَا رَسُول الله مَا الْمقَام الْمَحْمُود الَّذِي وَعدك رَبك قَالَ يحْشر النَّاس

عُرَاة غرلًا) فَذكره بطُولِه

وَأما حَدِيث سعد فَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه أَيْضا من حَدِيث مُحَمَّد بن الْحسن عَن أبي حنيفَة عَن عبد الْعَزِيز بن رفيع عَن مُصعب بن سعد عَن أَبِيه قَالَ سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن الْمقَام الْمَحْمُود فَقَالَ هُوَ الشَّفَاعَة)

انْتَهَى

722 - الحَدِيث الثَّلَاثُونَ

(171/448)

عَن حُذَيْفَة قَالَ يجمع النَّاس فِي صَعِيد فَلَا تكلم نَفْس فَأول مدعُو مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُول لبيْك وَسَعْديك وَالشَّر لَيْسَ إِلَيْك وَالْمهْدِي من هديت وَعَبْدك بَين يَديك وَبِك وَإِلَيْك لَا ملْجأ وَلَا منجا مِنْك إِلَّا إِلَيْك تَبَارَكت وَتَعَالَيْت سُبْحَانَكَ رب الْبَيْت) قَالَ فَهَذَا قَوْله عَسى أَن يَبْعَثك رَبك . . . الْآيَة

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن مَسْعُود حَدثنَا خَالِد حَدثنَا شُعْبَة عَن أبي إِسْحَاق سَمِعت صلَة بن زفر يَقُول سَمِعت حُذَيْفَة يَقُول يجمع النَّاس فِي صَعِيد وَلَا تكلم نَفْس فَأول مدعُو مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُول لبيْك وَسَعْديك وَالْخَيْر فِي يَديك

وَالشَّر لَيْسَ إِلَيْك وَالْمهْدِي من هديت وَعَبْدك وَابْن عَبدك وَبك وَإِلَيْك وَلَا ملْجأ وَلَا منجا مِنْك إِلَّا إِلَيْك تبَاركت وَتَعَالَيْت) فَهَذَا قَوْله عَسى أَن يَبْعَثك رَبك مقَاما مَحْمُودًا)

انْتَهى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه عَن إِسْرَائِيل عَن أبي إِسْحَاق بِهِ وَزَاد فِيهِ سُبْحَانَكَ رب الْبَيْت كَمَا ذكره فِي الْكتاب وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أَبْوَاب كَلَام الصَّحَابَة فِي بَاب كَلَام حُذَيْفَة

وَكَذَلِكَ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره عَن مُحَمَّد بن بشار عَن غنْدر عَن شُعْبَة بِهِ

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه عَن إِسْرَائِيل عَن أبي إِسْحَاق بِهِ

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده حَدثنَا شُعْبَة بِهِ

وَمن طَرِيق أبي دَاوُد رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة حُذَيْفَة

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده عَن شُعْبَة بِهِ بِلَفْظ الْحَاكِم وَكَذَلِكَ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده

723 - الحَدِيث الْحَادِي وَالثَّلَاثُونَ

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتعْمل عتاب بن أسيد عَلَى أهل مَكَّة وَقَالَ (انْطَلق فقد اسْتَعْمَلْتُك عَلَى أهل الله) فَكَانَ شَدِيدا عَلَى الْمُرِيب لينًا عَلَى الْمُؤمن وَقَالَ لَا وَالله لَا أعلم مُتَخَلِّفًا يَتَخَلَّف عَن الصَّلَاة فِي جمَاعَة إِلَّا ضربت عُنُقه فَإِنَّهُ لَا يَتَخَلَّف عَن الصَّلَاة إِلَّا مُنَافِق فَقَالَ أهل مَكَّة يَا رَسُول الله لقد اسْتعْملت عَلَى أهل الله عتاب بن أسيد أَعْرَابِيًا جَافيا فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام (إِنِّي رَأَيْت فِيمَا يرَى النَّائِم كَأَن عتاب بن أسيد أَتَى بَاب الْجنَّة فَأخذ حَلقَة الْبَاب فقلقها قلقالا شَدِيدا حَتَّى فتح لَهُ فَدَخلهَا)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بِإِسْنَادِهِ إِلَى الْكَلْبِيّ قَالَ سُلْطَانا نَصِيرًا عتاب بن أسيد اسْتَعْملهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أهل مَكَّة فَقَالَ (انْطَلق فقد اسْتَعْمَلْتُك عَلَى أهل الله . . . فَذكره إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا مُحَمَّد ابْن أَحْمد الْأَشَج حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن زيد حَدثنَا الْحُسَيْن بن حَفْص حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن خَلِيفَة عَن الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس وَاجعَل لي من لَدُنْك سُلْطَانا نَصِيرًا قَالَ عتاب بن أسيد أمره رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَكَّة . . . فَذكره وَلم يذكر فِيهِ قَوْله عَلَيْهِ

السَّلَام

724 - الحَدِيث الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ

(173/448)

رُوِيَ أَنه لما نزلت وَقل جَاءَ الْحق وزهق الْبَاطِل يَوْم الْفَتْح قَالَ جِبْرِيل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُذ مخصرتك فألقها فَجعل يَأْتِي صنما صنما وينكت بالْمِخْصَرَةِ فِي عينه وَيَقُول جَاءَ الْحق وزهق الْبَاطِل فينكب الصَّنَم على وَجهه حَتَّى أَلْقَاهَا جَمِيعًا وَبَقِي صنم خُزَاعَة وَكَانَ فَوق الْكَعْبَة وَكَانَ من قَوَارِير صفر فَقَالَ (يَا عَلّي ارْمِ بِهِ) وَحمله رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرمى بِهِ فَكَسرهُ فَجعل أهل مَكَّة يعْجبُونَ وَيَقُولُونَ مَا رَأينَا رجلا أَسحر من مُحَمَّد

قلت غَرِيب

ورَوَاهُ مُخْتَصرا النَّسَائِيّ فِي سنَنه الْكُبْرَى فِي خَصَائِص عَلّي حَدثنَا أَحْمد بن حَرْب حَدثنَا أَسْبَاط عَن نعيم بن حَكِيم الْمَدَائِنِي حَدثنَا أَبُو مَرْيَم قَالَ قَالَ عَلّي انْطَلَقت مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَيْنَا الْكَعْبَة فَقَالَ لي (اجْلِسْ) فَجَلَست فَصَعدَ رَسُول

اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَنْكِبِي فَنَهَضْتُ بِهِ فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعْفِي

(174/448)

قَالَ لِي (اجْلِسْ) فَجَلَستُ فنزل نَبِي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لي اصْعَدْ أَنْت عَلَى مَنْكِبِي) فَنَهَضَ بِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّهُ لَيُخَيل لِي أَنِّي لَو شِئْت لَنِلْت أفق السَّمَاء فَصَعدت عَلَى الْكَعْبَة وَعَلَيْهَا تِمْثَال من صفر أَو نُحَاس فَجعلت أعالجه يَمِينا وَشمالًا وقُدَّام وَمن بَين يَدَيْهِ وَمن خَلفه حَتَّى إِذا اسْتمْكنت مِنْهُ قَالَ لِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اقْذِفْهُ) فَقَذَفْتُ بِهِ فَكَسرته كَمَا تكسر الْقَوَارِير ثمَّ نزلت فَانْطَلَقت أَنا وَرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسْتَبِق حَتَّى توارينا بِالْبُيُوتِ خشيَة أَن يلقانا أحد من النَّاس

انْتهى

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده حَدثنَا شَبابَة حَدثنَا نعيم . . . بِهِ سَوَاء

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ فِيهِ فَصَعدت عَلَى الْكَعْبَة فَقَالَ لي (أَلْق صنمهم الْأَكْبَر صنم قُرَيْش) وَكَانَ نُحَاسا مُؤَبَّدًا بِأَوْتَادٍ من حَدِيد فَجعلت أعالجه

ورَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول جَاءَ الْحق وزهق الْبَاطِل الْآيَة قَالَ فَلم أزل أعَالجهُ حَتَّى اسْتَمْكَنت فِيهِ . . . الحَدِيث

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

725 - الحَدِيث الثَّالِث وَالثَّلَاثُونَ

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من لم يستشف بِالْقُرْآنِ فَلَا شفَاه لَهُ)

(175/448)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا ابْن بَاقل رَاقِم بن أَحْمد الْقَارِي حَدثنَا أَبُو مُحَمَّد عبد الله بن أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْحسن حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن مدرك البُخَارِيّ حَدثنَا عبيد الله بن وَاصل حَدثنَا مُحَمَّد بن يُوسُف حَدثنَا أَحْمد بن الْحَارِث الغساني حَدثنَا سَاكِنة ابْن الْجَعْد قَالَ سَمِعت رَجَاء الغنوي يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من لم يستشف بِالْقُرْآنِ فَلَا شفَاه الله)

انْتهى

726 - الحَدِيث الرَّابِع وَالثَّلَاثُونَ

عَن ابْن بُرَيْدَة قَالَ لقد مضى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ لَا يعلم الرّوح

قلت فِي الْوَسِيط لِلْوَاحِدِيّ وَقَالَ عبد الله بن بُرَيْدَة مَا بلغ الْإِنْس وَالْجِنّ وَلَا الْمَلَائِكَة وَلَا الشَّيَاطِين علم الرّوح وَلَقَد مَات رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَا يعلم الرّوح

727 - الحَدِيث الْخَامِس وَالثَّلَاثُونَ

رُوِيَ أَن الْيَهُود أرْسلت إِلَى قُرَيْش أَن سلوه عَن أَصْحَاب الْكَهْف وَعَن ذِي القرنين وَعَن الرّوح فَإِن أجَاب عَنْهَا أَو سكت فَلَيْسَ بِنَبِي وَإِن أجَاب عَن بعض وَسكت عَن بعض فَهُوَ نَبِي فبين لَهُم الْقِصَّتَيْنِ وَأبْهم أَمر الرّوح وَهُوَ مُبْهَم فِي التَّوْرَاة فندموا عَلَى سُؤَالهمْ

(176/448)

قلت ذكره ابْن هِشَام فِي السِّيرَة وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة أَن أهل مَكَّة بعثوا رهطا مِنْهُم إِلَى الْيَهُود يسْأَلُونَهُمْ عَن أَشْيَاء يمْتَحنُونَ بهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا لَهُم سلوه عَن ثَلَاث فَإِن عرفهَا فَهُوَ نَبِي سلوه عَن أَقوام ذهبُوا فِي الأَرْض فَلَا يدْرِي مَا صنعُوا وَسَلُوهُ عَن رجل بلغ مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا وَسَلُوهُ عَن الرّوح فَلَمَّا رجعُوا سَأَلُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن ذَلِك فَقَالَ (غَدا أُجِيبكُم) الحَدِيث بِطُولِهِ وَيُرَاجع

728 - الحَدِيث السَّادِس وَالثَّلَاثُونَ

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قَالَ لَهُم ذَلِك يَعْنِي قَوْله تَعَالَى وَمَا أُوتِيتُمْ من

الْعلم إِلَّا قَلِيلا قَالُوا أنَحْنُ مختصون بِهَذَا الْخطاب

أم أَنْت مَعنا فِيهِ فَقَالَ بل نَحن وَأَنْتُم لم نؤت من الْعلم إِلَّا قَلِيلا فَقَالُوا مَا أعجب شَأْنك سَاعَة

تَقول وَمن يُؤْت الْحِكْمَة فقد أُوتِيَ خيرا كثيرا وَسَاعَة تَقول هَذَا فنزلت وَلَو أَنما فِي الأَرْض

من شَجَرَة أَقْلَام . . . الْآيَة

قلت ذكره الثَّعْلَبِيّ فِي سُورَة لُقْمَان هَكَذَا من غير سَنَد

وروى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة لُقْمَان حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا

أَحْمد بن مُحَمَّد بن يَعْقُوب بن مهْرَان حَدثنَا سَعْدَان بن نصر حَدثنَا عَليّ ابْن عَاصِم

حَدثنَا دَاوُد بن أبي هِنْد عَن عِكْرِمَة قَالَ عَليّ لَا أعلمهُ إِلَّا عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت هَذِه

الْآيَة وَمَا أُوتِيتُمْ من الْعلم إِلَّا قَلِيلا . . . فَذكره بتغيير وَزِيَادَة وَنقص وتطويل

729 - الحَدِيث السَّابِع وَالثَّلَاثُونَ

(177/448)

قيل لرَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم كَيفَ يَمْشُونَ على وُجُوههم فَقَالَ (إِن الَّذِي أمشاهم

على أَقْدَامهم قَادر على أَن يمشيهم على وُجُوههم)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه من حَدِيث عَليّ بن زيد بن جدعَان عَن أَوْس بن خَالِد عَن

أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يحْشر النَّاس يَوْم الْقِيَامَة ثَلَاثَة أَصْنَاف صنفا مشَاة وصِنْفًا ركبانا وصِنْفًا عَلَى وُجُوههم) قيل يَا رَسُول الله وَكَيف يَمْشُونَ عَلَى وُجُوههم قَالَ (إِن الَّذِي أَمْشَاهُم عَلَى أَقْدَامهم قَادر عَلَى أَن يمشيهمْ عَلَى وُجُوههم أما إِنَّهُم يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كل حدب وشَوْك) انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم قَالَ الْبَزَّار وَلَا نعلمهُ يرْوَى عَن أبي هُرَيْرَة إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد

انْتَهَى

وَمن طَرِيق أبي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور

والْحَدِيث مَعْنَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الرقَاق وَمُسلم فِي التَّوْبَة عَن أنس أَن رجلا قَالَ يَا رَسُول الله كَيفَ يحْشر الْكَافِر عَلَى وَجهه قَالَ (أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرجلَيْن فِي الدُّنْيَا قَادر عَلَى أَن يمشيه عَلَى وَجهه يَوْم الْقِيَامَة) قَالَ قَتَادَة بلَى وَعزة رَبنَا

انْتَهَى

وروَاهُ ابْن مرْدوَيْه فِي تَفْسِيره بِلَفْظ الْكتاب فَقَالَ حَدثنَا مُحَمَّد بن عَلّي بن دُحَيْم حَدثنَا أَحْمد بن حَازِم أَنا يعلي بن عبيد حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد عَن نفيع أبي دَاوُد عَن أنس قَالَ قيل يَا رَسُول الله كيف يحْشر النَّاس عَلَى وُجُوههم قَالَ (إِن الَّذِي أَمْشَاهُم عَلَى أَرجُلهم قَادر عَلَى أَن يمشيهم عَلَى وُجُوههم)

انْتَهَى

730 - قَوْله عَن ابْن مَسْعُود قَالَ إِن أول مَا تَفْقِدُونَ من دينكُمْ الْأَمَانَة وَآخر مَا تَفْقِدُونَ الصَّلَاة ولَيُصَلّينَ قوم وَلَا دين لَهُم وَإِن هَذَا الْقُرْآن لتصبحون يَوْمًا وَمَا فِيكُم مِنْهُ شَيْء فَقَالَ رجل وَكَيف ذَلِك وَقد أَثْبَتْنَاهُ فِي قُلُوبنَا وَمَصَاحِفنَا يُعلمهُ أَبْنَاؤُنَا فَقَالَ يسري عَلَيْهِ لَيْلًا فَيُصْبِح النَّاس مِنْهُ فُقَرَاء ترفع الْمَصَاحِف وَينْزع مَا فِي الْقُلُوب

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه أخبرنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن عبد الْعَزِيز ابْن رفيع عَن شَدَّاد بن معقل قَالَ سَمِعت ابْن مَسْعُود يَقُول إِن أول مَا تَفْقِدُونَ من دينكُمْ الْأَمَانَة وَآخر مَا يَبْقَى من دينكُمْ الصَّلَاة ولَيُصَلّينَ أَقوام وَلَا دين لَهُم وَلينْزعَنَّ الْقُرْآن من بَين أظْهركُم قَالُوا يَا أَبَا عبد الرَّحْمَن أَلسنا نَقْرَأ الْقُرْآن وَقد أثْبته الله فِي قُلُوبنَا وَأَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفنَا قَالَ يُسرى عَلَى الْقُرْآن لَيْلًا فَلَا يَبْقَى فِي قلب عبد مِنْهُ شَيْء وَلَا فِي مصحف مِنْهُ شَيْء ويُصْبِح النَّاس كَالْبَهَائِمِ ثمَّ قَرَأَ عبد الله وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحينَا إِلَيْك . . . الْآيَة

انْتَهَى

(179/448)

وَمن طَرِيق عبد الرّزّاق رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي فضل الْقُرْآن وَفِي الْفِتَن وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن زُهَيْر عَن عبد الْعَزِيز بِهِ

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث شريك عَن عبد الْعَزِيز بِهِ

731 - الحَدِيث الثَّامِن وَالثَّلَاثُونَ

عَن صَفْوَان بن عَسَّال أَن بعض الْيَهُود سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن قَوْله تَعَالَى وَلَقَد آتَيْنَا مُوسَى تسع آيَات بَيِّنَات فَقَالَ (أوحى الله إِلَى مُوسَى أَن قل لبني إِسْرَائِيل لَا تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تقتلُوا النَّفس الَّتِي حرم الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا تسحرُوا وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى سُلْطَان ليَقْتُلهُ وَلَا تَقْذِفُوا مُحصنَة وَلَا تَفِرُّوا من الزَّحْف وَأَنْتُم يهود خَاصَّة لَا تعدوا فِي السبت)

(180/448)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَفِي الاسْتِئْذَان وَالنَّسَائِيّ فِي الْمُحَارِبَة وَابْن ماجة فِي الْأَدَب من حَدِيث عبد الله بن سَلمَة عَن صَفْوَان بن عَسَّال أَن يهوديين قَالَ أَحدهمَا لصَاحبه اذْهَبُوا بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِي نَسْأَلهُ فَقَالَ لَا تقل لَهُ نَبِي فَإِنَّهُ إِن سَمعك صَارَت لَهُ أَرْبَعَة أعين فَأَتيا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فسألاه عَن قَول الله تَعَالَى وَلَقَد آتَيْنَا مُوسَى تسع آيَات بَيِّنَات فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تقتلُوا النَّفس الَّتِي حرم الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تسحرُوا وَلَا تَمْشُوا ببريء إِلَى سُلْطَان فيقتله وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا تَقْذِفُوا مُحصنَة وَلَا تفرُّوا من الزَّحْف وَعَلَيْكُم يَا يهود خَاصَّة أَلا تعدوا فِي السبت) فَقبلا يَدَيْهِ وَرجلَيْهِ وَقَالا نشْهد أَنَّك نَبِي قَالَ (فَمَا يمنعكما) قَالَا إِن دَاوُد دَعَا الله أَلا يزَال فِي ذُريَّته نَبِي وَإِنَّا نَخَاف إِن أسلمنَا أَن تقتلنا الْيَهُود

انْتَهَى

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْإِيمَان وَقَالَ فِيهِ حَدِيث صَحِيح لَا نَعْرِف لَهُ عِلّة بِوَجْه من الْوُجُوه وَلم يخرجَاهُ وَلَا خرجا لِصَفْوَان شَيْئا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو يعلى الْموصِلِي وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مسانيدهم من طَرِيق أبي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية وَدَلَائِل النُّبُوَّة وَلم يذكر فِيهِ السحر

وَكَذَلِكَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَلم يذكر فِيهِ السحر

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أول الْمَغَازِي

(181/448)

وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة بِلَفْظ السّنَن

وَأحمد رَوَاهُ من طَرِيقين لم يذكر فِي احدهما قذف الْمُحصنَة وَقَالَ فِي الآخر وَلَا تقذفوا مُحصنَة أَو قَالَ لَا تَفِرُّوا من الزَّحْف شكّ شُعْبَة

وَالْحَدِيث فِيهِ إشكالان

أَحدهمَا أَنهم سَأَلُوا عَن تسعة وَأجَاب فِي الحَدِيث بِعشْرَة وَهَذَا لَا يرد عَلَى رِوَايَة أبي نعيم وَالطَّبَرَانِيّ لِأَنَّهُمَا لم يذكرَا فِيهِ السحر وَلَا عَلَى رِوَايَة أَحْمد أَيْضا لِأَنَّهُ لم يذكر الْقَذْف مرّة وَشك فِي أُخْرَى فَيبْقى الْمَعْنى فِي رِوَايَة غَيرهم أَي خُذُوا مَا سَأَلْتُمُونِي عَنهُ وَأَزِيدكُمْ مَا يخْتَص بكم لتعلموا وقوفي عَلَى مَا يشْتَمل عَلَيْهِ كتابكُمْ

الْإِشْكَال الثَّانِي أَن هَذِه وَصَايَا فِي التَّوْرَاة لَيْسَ فِيهَا حجج عَلَى فِرْعَوْن وَقَومه فَأَي مُنَاسبَة بَين هَذَا وَبَين إِقَامَة الْبَرَاهِين عَلَى فِرْعَوْن وَمَا جَاءَ هَذَا إِلَّا من عبد الله ابْن سَلمَة فَإِن فِي حفظه شَيْئا وَتَكَلَّمُوا فِيهِ وَأَن لَهُ مَنَاكِير وَلَعَلَّ ذَيْنك الْيَهُودِيين إِنَّمَا سَأَلَا عَن الْعشْر كَلِمَات

فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ بِالتسْعِ آيَات فَوَهم فِي ذَلِك

وَالله أعلم

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره كَذَلِك بِلَفْظ السّنَن

732 - الحَدِيث التَّاسِع وَالثَّلَاثُونَ

رُوِيَ أَن أَبَا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه كَانَ يخْفض صَوته بِالْقُرْآنِ فِي صلَاته وَيَقُول أُنَاجِي رَبِّي وَقد علم حَاجَتي وَكَانَ عمر يرفع صَوته وَيَقُول أزْجر الشَّيْطَان وأُوقِظ الْوَسْنَان فَأمر أَبَا بكر أَن يرفع قَلِيلا وَأمر عمر أَن يخْفض قَلِيلا

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي قَتَادَة وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث عَلّي

(182/448)

وَأما حَدِيث أبي قَتَادَة فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ فِي التَّهَجُّد من حَدِيث ابْن إِسْحَاق السيلَحِيني أَخْبرنِي حَمَّاد بن سَلمَة عَن ثَابت الْبنانِيّ عَن عبد الله بن رَبَاح عَن أبي قَتَادَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج لَيْلَة فَإِذا هُوَ بِأبي بكر يُصَلِّي يخْفض من صَوته وَمر بعمر بن الْخطاب وَهُوَ يُصَلِّي رَافعا صَوته قَالَ فَلَمَّا اجْتمعَا عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَا أَبَا بكر مَرَرْت بك وَأَنت تصلي خَافِضًا صَوْتك) قَالَ قد أسمعت من

نَاجيْت يَا رَسُول الله وَقَال لعمر بن الْخطاب مَرَرْت بك وَأَنت تصلي رَافعا صَوْتك) قَال يَا رَسُول الله أُوقِظ الْوَسْنَان وَأطْرد الشَّيْطَان

انْتَهى بِلَفْظ أبي دَاوُد وَزَاد فِي رِوَايَة بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُور فَقَال النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا أَبَا بكر ارْفَعْ من صَوْتك شَيْئا وَقَال لعمر اخْفِضْ من صَوْتك شَيْئا)

انْتَهى

وَلَفظ التِّرْمِذِيّ عَن أبي قَتَادَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال لأبي بكر (مَرَرْت بك وَأَنت تقْرَأ تخْفض من صَوْتك) فَقَال إِنِّي أسمعت من نَاجيْت فَقَال ارْفَعْ قَلِيلا) وَقَال لعمر (مَرَرْت بك وَأَنت تقْرَأ ترفع صَوْتك) قَال إِنِّي أُوقِظ الْوَسْنَان وَأطْرد الشَّيْطَان قَال (اخْفِضْ قَلِيلا)

انْتَهى

وَقَال حَدِيث غَرِيب صَحِيح وَإِنَّمَا أسْندهُ يحْيَى بن إِسْحَاق السيلَحِيني عَن حَمَّاد بن سَلمَة وَأكْثر النَّاس

رَووهُ هَكَذَا عَن عبد الله بن رَبَاح مُرْسلا

انْتَهى

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أبي عَن حَدِيث رَوَاهُ يحْيَى بن إِسْحَاق السيلَحِينِي عَن حَمَّاد عَن ثَابت عَن عبد الله بن رَبَاح عَن أبي قَتَادَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى الْعشَاء فَقَامَ أَبُو بكر فَقَرَأَ . . . إِلَى آخِره فَقَالَ أبي أَخطَأ فِيهِ السيلَحِينِي وَالصَّحِيح عَن عبد الله بن رَبَاح أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسلا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الْخَامِس حَدثنَا ابْن خُزَيْمَة أَنا أَبُو يَحْيَى مُحَمَّد بن عبد الرَّحِيم حَدثنَا يَحْيَى بن إِسْحَاق السيلَحِينِي

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه كَذَلِك وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد من حَدِيث مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الْقِصَّة لم يقل فِيهِ لأبي بكر ارْفَعْ شَيْئا وَلَا لعمر اخْفِضْ شَيْئا زَاد (وَقد سَمِعتك يَا بِلَال وَأَنت تقْرَأ من هَذِه السُّورَة وَمن هَذِه السُّور وَقَالَ كلكُمْ أصَاب)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّد بن عَمْرو بِهِ وَلم يذكر فِيهِ قصَّة بِلَال

وَأما حَدِيث عَلّي فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الشّعب أَيْضا فَقَالَ أخبرنَا عَلّي بن أَحْمد ابْن عَبْدَان أَنا أَحْمد بن عبيد الصفار حَدثنَا عَبَّاس بن الْفضل حَدثنَا منْجَاب حَدثنَا ابْن أبي زَائِدَة يَحْيَى بن زَكَرِيَّا عَن أَبِيه عَن أبي إِسْحَاق عَن هَانِئ بن هَانِئ عَن عَلّي قَالَ كَانَ أَبُو بكر يُخَافت من صَوته إِذا قَرَأَ وَكَانَ عمر يجْهر بقرَاءَته فَذكر ذَلِك للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لأبي بكر لم تخَافت) قَالَ إِنِّي اسْمَع من أُنَاجِي وَقَالَ لعمر لم تجْهر) قَالَ أطرد الشَّيْطَان وأُوقظ الْوَسْنَان

قَالَ فَكل طيب)

انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ هَذَا الحَدِيث فِي تَفْسِيره عَن مُحَمَّد بن سِيرِين قَالَ

نبئت أَن أَبَا بكر . . . فَذكره مُرْسلا وَفِيه فَقَالَ أُنَاجِي رَبِّي وَقد علم حَاجَتي . . . الحَدِيث لم أجد هَذِه اللَّفْظَة إِلَّا عِنْده

733 - الحَدِيث الْأَرْبَعُونَ

كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا أفْصح الْغُلَام من بني عبد الْمطلب علمه هَذِه الْآيَة وَقل

الْحَمد لله الَّذِي لم يتَّخذ ولدا . . . إِلَى آخرهَا

قلت رَوَاهُ ابْن السّني فِي كِتَابه عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة أخبرنَا أَبُو مُحَمَّد عبد الله ابْن زَيْدَانَ البَجلِيّ حَدثنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن عبد الْكَرِيم بن أبي أُميَّة عَن عَمْرو ابْن شُعَيْب عَن أَبِيه عَن جده قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا أفْصح الْغُلَام . . . إِلَى آخِره

وَمن طَرِيق ابْن السّني رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

(185/448)

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعبد الرَّزَّاق فِي مصنفيهما حَدثنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن عبد الْكَرِيم بن أبي أُميَّة عَن عَمْرو بن شُعَيْب قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره معضلا لَيْسَ فِيهِ عَن أَبِيه عَن جده

734 - الحَدِيث الْحَادِي وَالْأَرْبَعُونَ

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (من قَرَأَ سُورَة بني إِسْرَائِيل فرق قلبه عِنْد ذكر الْوَالِدين كَانَ لَهُ قِنْطَار فِي الْجنَّة وَالْقِنْطَار ألف أُوقِيَّة وَمِائَتَا أُوقِيَّة)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث ابْن عَمْرو مُحَمَّد بن جَعْفَر بن مُحَمَّد الشُّرُوطِي حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن شريك بن الْفضل الْكُوفِي حَدثنَا أَحْمد بن عبد الله بن يُونُس اليربوعي

حدثنا سَلام بن سليم حدثنا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره وَلم يقل فِيهِ وَمِائَتَا أُوقِيَّة وَإِنَّمَا قَالَ وَالْقِنْطَار ألف أُوقِيَّة الْأُوقِيَّة مِنْهَا خير من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

انْتَهَى

رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الأول فِي آل عمرَان بِلَفْظ الْمُصَنّف وَبِسَنَدِهِ الثَّانِي بِلَفْظ الثَّعْلَبِيّ

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَد الثَّعْلَبِيّ الْمَذْكُور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 255. 297 ﴾

(186/448)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم الله الرّحمن الرّحيم)

سورة الإسراء

قوله عز وجل : (وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) ، الآية/ 15 .

يدل على صحة قول أهل الحق في أنه لا تكليف قبل السمع ، وأنه لا وجوب قبل إرسال الرسل ، ولا يقبح ولا يحسن بالعقل ، خلافا لمن عدا أهل الحق ، في كون العقل طريقا إلى معرفة وجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات ، وإباحة المباحات ، ثم الأكثرون منهم على أنه يجوز أن يقتصر ببعض المكلفين على دليل العقل دون السمع ، إذا كانت مصلحته فيما دل عليه العقل ، وأنه يقع في علم اللّه أنه ينهض بما كلفه دليل العقل ، والغرض بالشرائع المصلحة ، وإذا كان المعلوم من حال بعضهم نهوضه بالتكاليف العقلية تلقيا من دليل العقل ، لم يكن لإرسال الرسل إليهم فائدة ، وإنما يرسل اللّه تعالى عندهم الرسول إلى من وقع في المعلوم أن تمسك المتمسك بالشريعة داعي إلى المصلحة في التكاليف العقلية ، فيرسل الرسول إليه بأمور سمعية يعلم اللّه تعالى كونها داعية إلى المستحسنات العقلية ، ويحرم عليه من السمعيات ما يعلم كونه داعيا إلى المستقبحات العقلية .

فإذا لم يقع في المعلوم كون فعل من الأفعال داعيا إلى الواجب العقلي ، ولا ناهيا عن القبيح العقلي ، لم يكن للإرسال فائدة ، وليس يجب أن يعلم اللّه تعالى ذلك من أحوال المكلفين جملة ، وربما علم من أحوال بعضهم ، فيجب إرسال الرسول إليه ، وربما لا يعلم ذلك ، فلا يجب

إرسال الرسول إليه .

وفيهم من يقول : يجب على اللّه تعالى إرسال الرسل ، لأن ذلك أقرب إلى مظاهرة الحجة وأقوى في معنى اللطف .

وهذا الإخفاء ببطلانه ، إذ يلزم منه إبقاء الرسول أبدا أو توالي الرسل ، لأن ذلك أقرب إلى اللطف ، ولا شك أن إبقاء إبليس في الدنيا مع أعوانه أبعد عن اللطف من توالي الرسل ، ومظاهرة الحجة بهم .

وربما قالوا : العبد لا يعرى من مصالح في دينه لا يعلمها إلا بالسمع ، كما لا يعرى عن مصالح في الدنيا لا تعلم إلا بالخبر .

وهذا تحكم ، ومن أين وجد ذلك ؟

وإذا ثبت أن الأصح من قول المعتزلة المذهب الأول ، فقال للمعتزلة :

فما معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ؟

وعندكم يجوز في المعلوم أن ينهض العبد بالمصالح العقلية ، من غير افتقار إلى أفعال تكون لطفا في تلك المصالح وتعلم بالسمع ، وقد قال تعالى :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ، وعندكم في تلك الحال يجب أن لا يبعث رسولا ويعذب دون الرسول ، فتقدير الكلام : وما كنا نفعل ما يجب علينا فعله ، دون أن نبعث

رسولا لا يجوز لنا بعثه في بعض الأحوال.

وهم اختلفوا في الجواب عن الآية، فقال قائلون: المراد به عذاب

(188/448)

الاستئصال في الدنيا، كقوله: (وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا) «1».

وهذا بعيد، فإن عذاب الاستئصال على حسب ما يقع في المعلوم كونه مصلحة، وإن كان الاستئصال مصلحة دون ابتعاث الرسل، وجب عندهم ذلك، فإن عذاب الاستئصال إنما استحقه من استحقه لمخالفة التكاليف، فإذا حصلت المخالفة قبل الرسل، فأي معنى لترك ذلك؟ وإن لم يكونوا مستحقين، فلا استئصال، لا بعد الرسل ولا قبلهم، وهذا بين حسن.

وأجابوا من وجه آخر فقالوا: وما كنا معذبين فيما طريقه السمع، حتى نبعث رسولا، فأما ما كان طريقه العقل فلا، وهذا بعيد، فإن التكاليف إذا كانت منقسمة، وأقوى القسمين التكاليف العقلية، والسمعية مبنية عليها، لكونها داعية إليها ولطفا بها، فلا يجوز أن يقول: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا.

وعندهم أنه يجب العذاب على ترك التكاليف العقلية ، فتقدير الكلام :

وما كنا نفعل ما يجب علينا فعله حتى نبعث رسولا ، ولا شك أن ذلك من اللّه تعالى إبانة عن وجه العدل في أفعاله ، أو القهر وإنفاذ المشيئة ، وذلك عندهم على إطلاق قبيح ، وهو على أصلهم مثل قول القائل : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، ويعني بذلك بعض السمعيات دون بعض ، مع أن ذلك وغيره بمثابة .

واستدل به المعتزلة على رد قول بعض أصحابنا في أن اللّه سبحانه لا يعذب أطفال المشركين ، لأنه إذا كان لا يعذب قبل إرسال الرسل ، فهؤلاء الأطفال لم يعلموا الرسل ولا لهم مكنة في معرفتهم ، فكيف يعذبون بذنوب آبائهم ؟

---

(1) سورة القصص آية 59

وهذا من المحتج به جهل ، وذلك أن اللّه تعالى إنما عنى بقوله :

(وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) ، من يجوز إنفاذ الرسل إليهم ، فيعذب على ترك ما كلف ، فأما الأطفال فلا يعذبون عندنا على ترك ما كلفوا ، وإنما جعل اللّه تعالى ذلك العذاب حكما منه نافذا ، وقضاء ماضيا ، كما يؤلم الأطفال والبهائم في الدنيا ، فسقط ما

قالوه جملة .

واستدل قوم بهذا في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام فآمنوا ، فلا تكليف عليهم فيما مضى ، وهذا صحيح . ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق العذاب من جهة العقل عندنا . وهو مضمون على قائله عندنا .

ولأبي حنيفة في ذلك خلاف ، وله مأخذ فيه يستقيم على نظر الفقهاء من غير استمداد من أقوال المعتزلة ، حتى لا يتوهم متوهم أن أبا حنيفة بنى تلك المسألة على أصول المعتزلة ، فإنه بعيد منها ، وذكرنا ذلك المأخذ في مسائل الخلاف في الكتاب الذي أفردناه للروايا .

ثم أبان اللّه تعالى أنه إن لم يهلك القرى قبل انبعاث الرسل ، فليس لأنه يقبح ذلك منه إن فعل ، ولكنه وعيد منه ولا خلف في وعده ، فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده ، كان على ما قاله تعالى :

(أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً)

«1» .

ليعلم أن من هلك إنما هلك بإرادته ، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ، ليحق القول السابق من اللّه تعالى :

قوله تعالى : (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ - إلى قوله - فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً) الآية/ 18 ، 19 .

(1) سورة الإسراء آية 16 .

(190/448)

فيه دلالة على أمور ، منها أن من يريد بما يتكلفه من الطاعات أحوال الدنيا ، أو يريد تحصيل العاجلة بغير الطاعة فهو متوعد ، مثل أن يتزهد مراءاة للناس ، أو لاعتمادهم على أقواله وائتمانهم له على أموالهم ، فهو متوعد بالنار ، وأن من يريد اللّه تعالى بمساعيه فله الثواب بحكم وعد اللّه تعالى .

قوله تعالى : (وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً) ، الآية/ 23 .

قرن ذكر الوالدين بعبادة اللّه سبحانه ، فنبه به على عظيم إنعام اللّه تعالى المقتضي للشكر ، ونبه بعد ذلك على عظيم نعم الوالدين ، وبين إختلاف الوالدين ، ليكون بره بهما وإحسانه إليهما على قدر حاجاتهما فقال :

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما) «1» ، فخص هذه الحالة بالذكر ، وهي حالة حاجتهما إلى بره لتغيير الحال عليهما بالضعف النازل والكبر ، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزم من قبل ، لأنهما قد صارا في هذه الحالة كلا عليه ، فيحتاجان إلى أن يلي من أمرهما للضعف النازل منهما «2» ، ما كان يحتاجه هو في صغره أن يليان

منه، فذلك معنى تخصيص هذه الحالة بالذكر، ليبين ما يلزم من مزيد البر والتعاهد، وما يتصل بخدمة وإنفاق.

ودل قوله تعالى: (فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ)، على وجوب صبره عليهما حتى لا يتبرم ولا يضجر، فإن العادة جارية في المتضجر عند الأمر أن يقول أف أو تف في الأمور، فبين الله سبحانه تحريم هذا القدر من

---

(1) تابع للآية 23 من سورة الإسراء.

(2) الأصح (بهما).

(191/448)

التبرم على الولد عند ضعف الوالدين وحاجتهما إلى بره، ولم يقتصر تعالى على هذا القدر في بيان حقهما حتى قال: (وَلا تَنْهَرْهُما)، مؤكدا لما تقدم ودالا به على أن الواجب في بره لهما سلوك طريقة اللين في القول:

ثم قال: (وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً)، والكريم من القول ما يوافق مسرة النفس، ولا ينفر عنه الطبع.

ثم أمر بمزيد التواضع فقال: (وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) «1»، وهذا الكلام في

أعلى مراتب الفصاحة والتعبير عن المقصود بلفظ المجاز ، لأن الذل ليس له جناح ، ولا يوصف بذلك ، ولكنه أراد المبالغة في التذلل والتواضع ، وهو كقول امرئ القيس في وصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

يصف الليل المتقدم على هذا البيت في قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

وليس لليل صلب ولا إعجاز ولا كلكل فهو مجاز ، وأراد به تكامله واستواءه .

ثم بين اللّه تعالى أن الذي يلزمه لهما ليس مقصورا على منافع الدنيا ، بل يلزمه مع ذلك ما يمكن في باب الآخرة من الدعاء ، لأنه لا يقدر منهما على ما سواه ، فقال : (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً) «2» .

بين العلة في لزوم الدعاء لهما ، وبين أنه يلزم الولد من الدعاء للوالدين ، أكثر مما يلزمه في غيرهما .

---

(1) سورة الإسراء آية 24 .

(2) تابع الآية 24 من سورة الإسراء

قوله تعالى : (وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ) ، الآية/ 26 .

أبان اللّه تعالى أن على كل واحد منا مراعاة مراتب مستحقي الحقوق ، فبدأ بحق اللّه تعالى فقال : (وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) وقرنه بذكر الوالدين ، وعقب ذلك بقوله : (وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ) ، وظاهر العطف أنه قريب الإنسان .

وقد قيل : عنى به قرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

والأمر بالإحسان إلى الوالدين عام في جميع الناس ، وكذلك ما عطف عليه من إيتاء ذي القربى .

قوله تعالى : (وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً) .

والتبذير عند الشافعي إنفاق المال في غير حقه ، فلا تبذير في عمل الخير .

وقال مجاهد : لو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا .

وقد ثبت في سورة البقرة الحجر على المبذر ، وما يتعلق به من الأحكام .

ثم أبان اللّه تعالى تحريم التبذير بقوله تعالى :

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ) ، الآية/ 27 .

ثم قال تعالى في تخصيص نبيه صلّى اللّه عليه وسلم :

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً) ، الآية/ 28 .

وهو تأديب عجيب ، وقول لطيف بديع ، فإنه تعالى قال : (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ اْبْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها) : أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنا والقدرة فتحرمهم ، وإنما يجوز له أن يعرض عنهم عند عجز يعرض ، وعند عائق يعرض ، وأنت عند ذلك ترجو من

(193/448)

اللّه فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن قعد بك الحال عن المواساة (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورا ً) ، يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة فتقول : اللّه يرزق ، واللّه يفتح بالخير .

قوله تعالى : (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ) ، الآية/ 29 :

هو مجاز عن البخل والجود ومراعاة الإقتصاد فيهما جميعا ، فقال :

(وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ) : فلا تعطي من مالك شيئا .

ولما كان العطاء في الأكثر باليد غير غل اليد عن الإمساك ، فالذي لا يعطي شيئا جعله بمنزلة من يده مغلولة إلى عنقه ، والعرب تصف البخيل بضيق اليد ، فيقولون : فلان ضيق الكفين إذا كان بخيلا ، وقصير الباع ، وفي ضده رحب الذراع طويل الباع طويل اليدين .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لنسائه :

«أسرعكن بي لحاقا أطولكن يدا» «1» .

وإنما أراد به كثرة الصدقة ، فكانت زينب بنت جحش ، لأنها كانت أكثرهن صدقة .

وقال الشاعر :

وما كان أكثرهم سواما ولكن كان أرحبهم ذراعا

قوله تعالى : (وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ) ، فلا تخرج جميع ما في يدك مع حاجتك وحاجة عيالك .

(فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً) ، يعني ذا حسرة على ما خرج من يدك .

---

(1) أخرجه مسلم بن الحجاج بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها .

وهذا الخطاب لغير النبي عليه الصلاة والسلام ، فإنه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يكن يدخر شيئا لغد ، وكان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه .

وقد كان كثير من فضلاء أصحابه ينفقون في سبيل اللّه جميع أملاكهم ، فلم يعنفهم النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم .

وإنما نهى اللّه تعالى عن الأفراط في الإنفاق ، وإخراج جميع ما احتوت عليه يده من المال ،

من خيف عليه الحسرة على ما خرج من يده ، فأما من وثق بموعود اللّه تعالى وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية .

وقد روي أن رجلا أتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلم إليه مثل بيضة من ذهب ، فقال : يا رسول اللّه ، أصبت هذه من معدن واللّه ما أملك غيرها ، فأعرض عنه ، فعاد ثانيا فأعرض عنه ، فعاد ثالثا فأخذها النبي عليه الصلاة والسلام ورماه بها لو أصابته لعقرته ، وقال : «يأتيني أحدكم بجميع ما يملكه ثم يقعد ويتكفف وجوه الناس» «1» .

وكان أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه ذا مال كثير ، فأنفق جميع ماله على النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي سبيل اللّه ، حتى بقي في عباءة ، فلم يعنفه النبي عليه الصلاة والسلام ولم ينكر عليه .

فكل ذلك يدل على أن ذلك ليس بمخاطبة للنبي عليه الصلاة والسلام ، وإنما خوطب به غيره مثل قوله تعالى :

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) «2» .

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ) «3» .

---

(1) أخرجه الامام أحمد في مسنده والبيهقي في الشطب .

(2) سورة الزمر آية 65 .

(3) سورة يونس آية 94 . [. . . . .]

فاقتضت هذه الآيات من قوله: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، الأمر بالتوحيد، والإحسان إلى الوالدين، وإلى ذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والنهي عن تبذير المال وإنفاقه في معصية اللّه تعالى، والأمر بالاقتصاد في الإنفاق والنهي عن الإفراط.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾، الآية 31.

وهو كلام يتضمن ذكر السبب الخارج عليه، فإنه كان من العرب من يقتل بناته خشية الفقر، لئلا يحتاج إلى الإنفاق عليهن، ويتوفر ما يريد إنفاقه عليهن على نفسه وعلى بيته، فكان ذلك شائعا فيهم وهي «الموءودة سئلت»، والموءودة هي المدفونة حية؟ وكانوا يدفنون بناتهم أحياء.

وقال ابن مسعود: سئل النبي عليه الصلاة والسلام فقيل: «ما أعظم الذنوب؟ فقال: أن تجعل للّه ندا وهو خلقك، وأن تقتل ولدك خيفة أن يأكل معك، وأن تزني بحليلة جارك» «1».

قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً﴾، الآية/ 32.

يدل على تحريم الزنا ، وهو الذي تعرى عن نكاح وعن شبهة نكاح.

ووصف اللّه تعالى نكاح امرأة الأب بما وصف الزنا به ، فقال تعالى :

(وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلًا) «2» .

وذلك يدل على مساواته في التحريم ، وبينا ما يعترض به عليه .

واختلف العلماء في اللواط ، وأنه هل يدخل تحت الزنا ؟ والشروع فيه ليس من غرضنا «3» .

---

(1) أخرجه الامام أحمد في مسنده

(2) سورة النساء آية 22 .

(3) انظر تفسير القرطبي ، وتفسير الفخر الرازي ، وتفسير الطبري لتفصيل القول في هذه المسألة.

قوله تعالى : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً) الآية/ 33 .

السلطان مجمل يحتمل : الحجة والدية والقود ، ويحتمل الجمع لا جرم ، الشافعي يخيرين

القتل وغيره، لأن الكل بالإضافة إلى اللفظ سواء.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾.

قال الحسن ومجاهد وسعيد بن هبير والضحاك.

لا يقتل غير قاتله، ولا يمثل به «1»، وذلك أن العرب كانت تتعدى إلى غير القليل من الحميم والغريب، فلما جعل اللّه تعالى له سلطانا نهاه عن التعدي، وعلى هذا المعنى قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ «2».

فإن كان لبعض القبائل طول على الأخرى، فكان إذا قتل منهم العبد لا يرضون إلا بأن يقتل الحر منهم، وهذا في هذه الآية: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ بأن يتعدى إلى غير القاتل.

ذكر إسماعيل بن اسحق المالكي، في قوله: لوليه، ما يدل على خروج المرأة عن مطلق الولي، فلا جرم، ليس للنساء حق القصاص، كذلك قال، ولا أثر لعفوها وليس لها الاستبقاء.

ولم يعلم أن المراد بالولي هاهنا الوارث، وقد قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

---

(1) انظر تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

(2) سورة البقرة آية 178.

وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) «1» .

وقال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْ ءٍ) «2» ، الآية .

وقال تعالى : (وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ) «3» :

فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة .

احتج إسماعيل في ذلك بوجوه ركيكة منها :

أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد ، ولم يعلم أن ما كان بمعنى الجنس استوى فيه المذكر والمؤنث .

ومما ذكره أن المرأة لا تستحق كل القصاص ، والقصاص لا بعض له ، فلزمه من ذلك إخراج الزوج من جملة الأولياء في القصاص ، وعلى أنه لم يمتنع أن تكون المرأة بنفسها لا تستحق ، ولكنها مع غيرها كالورثة ، واعتذر عن ذلك بأن سبب الورثة واحد ، وقد اختلف السبب ها هنا ، فلزمه ألا يثبت القصاص بين الزوج والأخ ولا الأخ من الأم .

وذكر فيما ذكر أن المقصود من القصاص تقليل القتل ، والمقصود بكثرة القتل الرجال دون النساء .

ولزم على هذا ألا يجب القصاص على المرأة بقتل الرجل ، ولا على الرجل بقتل المرأة .

قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ، الآية/ 34 .

---

(1) سورة التوبة آية 71

(2) سورة الأنفال آية 72 .

(3) سورة الأنفال آية 75 .

(198/448)

قال مجاهد : التي هي أحسن التجارة ، خص اليتيم بذلك ، لأنه إليه أحوج ، وعن الاستقلال أبعد ، وإلى المرحمة والشفقة أقرب .

ذكر الرازي «1» أن اللّه تعالى لما قال حتى يبلغ أشده ، علم أن إيناس الرشد عند بلوغ الأشد لا يعتبر ، ولو اعتبر لذكر كما قال :

﴿حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ﴾ «2» .

والأشد مذكور على وجوه مختلفة في القرآن ، قال تعالى في موضع آخر :

﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ «3» .

وقال في موضع آخر :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى﴾ «4» ، الآية .

وذكروا أنه بلوغ الحلم.

وذكروا أنه بلوغ أربعين سنة.

فليس للأشد مرد معلوم.

ويجوز أن يكون المراد ببلوغ الأشد قبل الأربعين سنة، وتختلف أحوال الناس فيه، والذي ذكره من أن إيناس الرشد ليس معتبرا مع الأشد فبعيد، فإن الله تعالى قال: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

---

(1) انظر أحكام القرآن للجصاص.

(2) سورة النساء آية 6.

(3) سورة الأحقاف آية 15

(4) سورة القصص آية 14.

أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) «1»، فاقتضى ذلك جواز التصرف إلى بلوغ الأشد مطلقا، ولا يتحقق ذلك إلا عند جعل الأشد بمعنى البلوغ.

والولي لا يتصرف في مال اليتيم بعد البلوغ، ولا أنه يسمى يتيما إلى أربعين سنة.

قوله تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ الآية/ 78 :

قيل : دلوكها : زوالها ، وقيل : غروبها ، وقد وردت فيها آيات .

فإن كان الدلوك الزوال ، وقد دلت الآية على صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، لقوله : لدلوك الشمس إلى غسق الليل .

قال ابن عباس : غسق الليل اجتماع الليل وظلمته ، وقيل غسق الليل انتصابه ، ووقت الإختيار للعشاء يمتد إلى ذلك الوقت .

قوله تعالى : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ ، مرتب على قوله : ﴿أَقِمِ﴾ ، فتقديره ، أقم قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا .

وفيه دلالة على وجوب القراءة في صلاة الفجر .

وقال قائلون : المراد بقوله : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ : صلاة الفجر ، فإنه يبعد تخصيص صلاة الفجر بالقراءة فيها ، والصلاة كما تشتمل على القراءة تشتمل على ما عداها من الأذكار .

والأولون استدلوا على ذلك بقوله تعالى في آخر الآية : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ﴾ ، والتهجد بالقراءة لا بصلاة الفجر .

ويجاب عنه ، بأن المراد به التهجد بالصلاة ، مرتبا على قوله : أقم الصلاة «2» .

---

(1) سورة الأنعام آية 152 .

(2) انظر القاسمي في تفسيره ج 20 ص 3959 . [. . . . .]

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ، الآية/ 110 .

روي أن أبا بكر كان يخافت ، وكان عمر يجهر ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لأبي بكر : لم لا تجهر ؟ فقال : أناجي ربي وهو أعلم بحاجتي .

وقال لعمر : كيف تجهر ؟ قال : أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أحسنتما ، ثم نزلت هذه الآية ، فقال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر : أرفع شيئا ، وقال لعمر : اخفض شيئا «1» .

وقالت عائشة في هذه الآية : أراد بها الدعاء والمسألة .

وروت عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سمع صوت أبي موسى فقال :

«لقد أوتي أبو موسى من مزامر آل داود صلى اللّه عليه وسلّم» «2» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 249 . 263﴾

---

(1) انظر تفسير الطبري ، وأسباب النزول للواحدي

(2) أخرجه الامام أحمد وأبو داود في سننه .

وقال العلامة القنوجي :

سورة الإسراء

مائة وإحدى عشرة آية

وهي مكيّة : [قاله] «1» ابن عباس ، ومثله عن ابن الزبير إلا أنه استثنى : إلا ثلاث آيات ، قوله عز وجل : وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ [الإسراء : 76] نزلت حين جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وفد ثقيف ، حين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء ، وقوله تعالى : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ [الإسراء : 80] ، وقوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ [الإسراء : 60] ، وزاد [مقاتل] «2» قوله : إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ «3» [الإسراء : 107] .

[الآية الأولى]

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29) .

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ : هذا النهي يتناول كل مكلف ، وقد وجه الخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم تعريفا للأمة وتعليما لهم ، وإن كان الخطاب لكل فمن يصلح له من المكلفين «4» .

والمراد النهي للإنسان أن يمسك إمساكا يصير به مضيقا على نفسه وعلى أهله ،

(1) ما بين [المعقوفين] بغير الهاء في المطبوعة، والصواب ما أثبتناه.

(2) صحفت في المطبوع إلى (مقابل) وهو خطأ والصواب ما أثبت، وهو مقاتل بن سليمان المفسّر صاحب الأشباه والنظائر في القرآن والتفسير، طبع بمصر - الهيئة العامة للكتاب المصري.

(3) فليعلم أن سورة الإسراء - بني إسرائيل - مكيّة بإجماع المفسرين إلا ما ذكره المصنف من آيات، وقيل: إلا آيتين: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ وانظر: البحر المحيط (6/ 3).

(4) قال قتادة: لا تمتنع من النفقة في الطاعة ولا تنفق في المعصية. (معاني النحاس 3/ 145).

ولا يوسع في الإنفاق توسيعا لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفا، فهو نهي عن جانبي الإفراط والتفريط، ويحصل من ذلك مشروعية التوسط وهو العدل الذي ندب اللّه إليه.

ولا تك فيها مفرطا أو مفرّطا كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقد مثّل اللّه سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث

لا يستطيع التصرف بها ومثّل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة.

ثم بين سبحانه غاية الطرفين المنهي عنهما فقال:

فَتَقْعُدَ مَلُوماً: عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح «1».

مَحْسُوراً (29): بسبب ما فعلته من الإسراف، أي منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر «2».

والمحسور في الأصل: المنقطع عن السير.

وقيل: معناه نادما على ما سلف.

[الآية الثانية]

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33).

وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً: أي لا لسبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعا.

فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً: أي لمن يلي أمره من ورثته إن كانوا موجودين، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجودين، والسلطان التسلّط على القاتل إن شاء قتل وإن

---

(1) قال عكرمة وقتادة: أي تقعد نادما. (النحاس 3/ 146).

(2) قال الزجاج: المحسور: الذي قد بلغ الغاية في التّعب والإعياء، وقال ابن قتيبة:

مَحْسُوراً منقطعا ، تحسرك العطيّة وتقطعك ، كما يحسر السّفر البعير فيبقى منقطعا به

اه.

وقال القاضي أبو يعلى : وهذا الخطاب أريد به غير الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، لأنه لم يكن يدّخر شيئا لغد ، وكان يجوع حتى يشدّ الحجر على بطنه ، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة ينفقون جميع ما يملكون ، فلم ينههم اللّه ، لصحة يقينهم ، وإنما نهى من خيف عليه التحسّر على ما خرج من يده ، فأما من وثق بوعد اللّه تعالى فهو غير مراد بالآية . اه. (زاد المسير 5/ 30) .

(203/448)

شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية «1» .

فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ : أي لا يجاوز ما أباحه اللّه له ، فيقتل بالواحد الاثنين أو الجماعة ، أو يمثّل بالقاتل أو يعذبه .

إِنَّهُ ، أي الولي .

كانَ مَنْصُوراً (33) أي مؤيدا معانا ، فإن اللّه سبحانه نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة ، وأمر أهل الولايات فبمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه

«2» .

وقيل : هذه الآية من أول ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنها مكيّة .

[الآية الثالثة]

وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا (36) .

وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ : أي تتبع ما لا تعلم ، من قولك : قفوت فلانا إذا اتبعت أثره .

ومنه قافية الشعر لأنها تقفو كل بيت ، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لأنهم

---

(1) قال أبو جعفر : اختلف المتقدمون من العلماء في «السلطان» الذي جعل للوليّ ؟

فروى خصيف عن مجاهد قال : حجّته التي جعلت له ، أن يقتل قاتله .

وذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا هو السلطان الذي جعل له ، وأنه ليس له أن يأخذ الدّية ، إلا أن يشاء القاتل .

وقال الضحاك في السلطان الذي جعل له : إن شاء قتل ، وإن شاء أخذ الدّية ، وإن شاء عفا .

والقول عند أهل المدينة وأهل الكوفة ، قول مجاهد : إن السلطان ها هنا القود خاصّة ، لا ما سواه .

وذهب الشافعي رحمه الله إلى قول الضحاك ، غير أنه قال : كان يستحق إذا عفا أخذ الدّية ، اشترط ذلك أو لم يشترطه ، والحجّة له .

وانظر: معاني القرآن (3/ 149)، وجامع الطبري (15/ 81)، وتفسير القرطبي (10/ 255)، وزاد المسير (5/ 32)، وقد رجّح ابن جرير قول الضحاك وهو أيضا قول ابن عباس فقال: «وأولى التأويلين بالصواب ما قاله ابن عباس أن لوليّ القتيل، القتل إن شاء أخذ الدية، وإن شاء العفو، لصحة الخبر بذلك عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

(2) أورد الطبري آثارا في تفسير هذه الآية عن عبد اللّه بن كثير عن مجاهد وأبي بن كعب وغيرهم، وانظره: (15/ 83)، والسيوطي في الدر المنثور (4/ 181).

(204/448)

يتبعون آثار أقدام الناس.

ومعنى الآية: النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له، وهذه قضية كلية.

وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور، فقالوا: لا تذم أحدا بما ليس لك به علم.

وقيل: هي في شهادة الزور.

وقيل: هي في القافية.

وقال القتيبي: معنى الآية لا تتبع الحدس والظنون، وهذا صواب، فإن ما عدا ذلك هو العلم.

وقيل: المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند، قطعيا كان أو ظنيا.

قال أبو السعود في «تفسيره» «1»: واستعماله بهذا المعنى لا ينكر شيوعه.

وقال الشوكاني «2»: أقول: هذه الآية قد دلّت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام وبخبر الواحد، والعمل بالشهادة، والاجتهاد في القبلة، وفي جزاء الصيد ونحو ذلك، فلا يخرج من عمومها ومن عموم أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، إلا ما قام دليل جواز العمل به، فالعمل بالرأي في مسائل الشرع إن كان بعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة فقد رخص فيه النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كما في قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمعاذ لما بعثه قاضيا: «بم تقضي؟ قال بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي» «3».

---

(1) انظر: تفسيره (5/ 171).

(2) في «فتح القدير» (3/ 227).

(3) حديث ضعيف: رواه أبو داود (3592)، (3593)، والترمذي (1327)، (1328)، وأحمد (5/ 230، 236، 242)، والطيالسي في «مسنده» (559)، والدارمي (1/ 60)، والطبراني في «الكبير» (20/ 362)، (170)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (124)، والبيهقي في «الكبرى» (10/ 114)، وفي

«المعرفة» له (1/ 173) ، و«الخطيب في الفقيه والمتفقه» (1/ 188 ، 189) ، وابن عبد البر في «الجامع» (1592 ، 1593) وانظر : تلخيص الحبير (4/ 182 ، 183) ، ونصب [. . . . . .]

.

(205/448)

و هو حديث صالح للاحتجاج به ، كما أوضحنا ذلك في بحث مفرد .

وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتب أو السنة ، ولكنه قصّر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولا أولياء ، لأنه رأي في شرع اللّه ، وللناس عنه غنى بكتاب اللّه سبحانه وسنّة رسوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، ولم تدع إليه حاجة ، على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل ، إنما هو رخصة للمجتهد ، يجوز له أن يعمل به ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع .

وبهذا يتضح لك أتم إيضاح ويظهر لك أكمل ظهور ، أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء ، والعامل بها على شفا جرف هار .

فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفى ما ليس له به علم ، والمقلد المسكين العامل برأي ذلك

المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ، ظلمات بعضها فوق بعض «1» . انتهى .

وقد قيل : إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلا ، بل علل اللّه سبحانه النهي عن العمل بما ليس يعلم بقوله :

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ : أشار إلى الثلاثة الأعضاء ، وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها .

وقال الزجاج : إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك .

وأنشد ابن جرير «2» مستدلا على عدم جواز هذا ، قول الشاعر «3» :

ذمّ المنازل بعد منزلة اللّوى والعيش بعد أولئك الأيام

واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام ، وتبعه غيره على ذلك الخطأ كصاحب «الكشاف» .

الرّاية (4/ 63) .

(1) انظر : أقوال المفسرين في «الطبري» (15/ 86) ، ابن كثير (5/ 72) ، البحر المحيط (6/ 36) ، والقرطبي (10/ 262) ، ومجاز أبي عبيدة (1/ 379) .

(2) انظر : تفسير الطبري (15/ 87) .

(3) البيت في «ديوانه» (ص 551) .

والضمير في (كان) من قوله : كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا (36) يرجع إلى كل ، وكذا الضمير في عنه .

ومعنى سؤال هذه الجوارح : أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات ، والمستعمل هو الروح الإنساني ، فإن استعملها في الخير استحق الثواب وإن استعملها في الشر استحق العقاب .

وقيل : إن اللّه سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها .

[الآية الرابعة] وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا (37) .

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً : المرح قيل : هو شدة الفرح .

وقيل : التكبر في المشي . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقيل : الخيلاء في المشي . وقيل : البطر والأشر . وقيل : النشاط . والظاهر أن المراد به الخيلاء والفخر .

قال الزجاج في تفسير الآية : لا تمش في الأرض مختالا فخورا .

وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها ، تأكيدا وتقريرا .

ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت في عزّ وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح مصدر وقع حالا، أي: ذا مرح. وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد. وقرأ الجمهور مرحا بفتح الراء. وحكى يعقوب عن جماعة كسرها، على أنه اسم فاعل «1».

---

(1) انظر: زاد المسير (5/ 34)، والقرطبي (10/ 257)، والبحر المحيط (6/ 42).

[الآية الخامسة]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78).

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ: قد أجمع المفسرون على أن هذه الصلاة المراد بها الصلاة المفروضة.

وقد اختلف العلماء في الدلوك المذكور في هذه الآية على قولين:

أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وأبو برزة وابن عباس والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو جعفر ، واختاره ابن جرير .

والقول الثاني : أنه غروب الشمس ، قاله عليّ وابن مسعود وأبي بن كعب وأبو عبيد ، وروي عن ابن عباس «1» .

وقال الفراء : دلوك الشمس من لدن زوالها إلى غروبها «2» .

قال الأزهري : معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار : دلكة لأنها في الحالتين زائلة .

قال : والقول عندي أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس «3» .

---

(1) وروي عن أبي هريرة أيضا كما في «الطبري» (15/ 138) .

(2) ونصه : رأيت العرب تذهب في الدّلوك إلى غيبوبة الشمس ، وأنشدني بعضهم : «ذبّب حتى دلكت براح» يعني الساقي طرد الناس .

قال ابن الجوزي : وهذا اختيار ابن قتيبة ، لأن العرب تقول : دلك النجم : إذا غاب .

قال ذو الرمّة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها نجوم ولا بالأفلات الدّوالك

وتقول في الشمس : دلكت براح : يريدون : غربت ، والناظر قد وضع كفّه على حاجبه

ينظر إليها .

(3) وبقية كلامه : «وإذا جعلت الدّلوك : الغروب ، كان الأمر في هذا قاصرا على ثلاث صلوات .

وانظر : الطبري (15/ 137) ، والبحر المحيط (6/ 70) . وزاد المسير (5/ 71) .

(208/448)

و المعنى أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس إلى غسق الليل ، ويدخل فيه الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل وهما العشاءان ، وقرآن الفجر : هي صلاة الصبح فهذه خمس صلوات .

إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ : هو اجتماع الظلمة .

قال الفراء والزجاج : يقال : غسق الليل ، وأغسق إذا أقبل بظلامه «1» .

قال أبو عبيد : الغسق سواد الليل ، وأصل الكلمة من السيلان ، يقال : أغسقت إذا سالت .

وقد استدل بهذه الغاية أعني قوله إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ من قال إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب . روي ذلك عن الأوزاعي وأبي حنيفة ، وجوزه مالك والشافعي في

حال الضرورة .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في تعيين أوقات الصلاة ، فيجب أن تحمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك .

وَقُرْآنَ الْفَجْرِ : قال المفسرون المراد به صلاة الصبح .

قال الزجاج : وفي هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا »

.

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » .

وفي بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن « و قرآن معها » .

وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة ، ولو خلف الإمام ، وعليه عمل أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، وهو الحق . وقد حرره الشوكاني في مؤلفاته

---

(1) قال ابن عباس : أي اجتماع الليل وظلمته .

وقال قتادة : أوّله . وانظر : الطبري (15/ 138) ، والبحر المحيط (6/ 70) .

وقال الجوهري في الصحاح (غسق) : أول ظلمة الليل ، غسق الليل يغسق : أظلم اه .

(2) هذا من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل ، فسمّى الصلاة « قرآنا » لأنها لا تكون إلا بالقرآن .

وقال الزمخشري : «يعني صلاة الفجر ، سمّيت قرآنا لأنها ركن ، كما سمّيت ركوعا ، وسجود أو قنوتا ، ويجوز أن يكون حثا على طول القراءة في صلاة الفجر ، ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب ، ولهذا كانت الفجر أطول الصلوات قراءة» . اه . (الكشاف 2/ 372) .

(209/448)

تحريرا مجودا ، وغيره في غيره .

قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78) : أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح ، وبذلك قال جمهور المفسرين .

[الآية السادسة]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (110) .

وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها : أي بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم ، لأن الجهر والمخافتة من نعوت الصموت لا من نعوت أفعال الصلاة ، فهي من إطلاق الكل وإرادة الجزء . يقال : خفت صوته خفوفا إذا انقطع كلامه وضعف وسكن ، وخفت الزرع إذا

ذبل ، وخافت الرجل بقراءته إذا لم يرفع بها صوته ، وقيل : معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، والأول أولى «1» .

وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ : أي الجهر والمخافتة المدلول عليهما في الفعلين .

سَبِيلًا (110) أي طريقا مستويا بين الأمرين ، فلا تكن مجهورة ولا مخافتا بها .

وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها ، والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها ، والأمر بجعل البعض منها مجهورا به وهو صلاة الليل ، والمخافتة بصلاة النهار .

وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً [الأعراف : 55] .

---

(1) قال النحاس : فيها وجهان : أحدهما : رواه الأعمش عن جعفر بن إياس ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يعلن إذا قرأ ، فيسبّ المشركون القرآن ومن أنزله ، ومن جاء به ، فصار يخفي القراءة فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية .

والقول الآخر : رواه هشام بن عروة عن أبيه قال : قالت لي عائشة : يا ابن أختي أتدري فيم أنزل هذه الآية - قال : قلت : لا ، قالت : أنزل في الدعاء . وقال النحاس : والإسنادان حسنان ، والدعاء يسمّى صلاة ، ولا يكاد يقع ذلك للقراءة . ويقال : إنما قيل : صلاة ،

لأنها لا تكون إلا بدعاء ، والدعاء صلاة فسمّيت باسمه (معاني القرآن 3/ 207 ، 208) .

(210/448)

[الآية السابعة] وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111) .

ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى ، نبه على كيفية الحمد له فقال : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً : كما يقوله اليهود والنصارى ومن قال من المشركين إن الملائكة بنات اللّه ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ : أي مشارك في ملكه وربوبيته كما يزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ : أي لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه ، فهو مستغن عن الولي والنصير .

وقال الزجاج : أي لم يحتج إلى أن ينتصر بغيره . وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة

النعم، لكون «الولد مجبنة مبخلة» «1»، ولأنه أيضا يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام، والشركة في الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ما هو له، فضلا [عن نظام] «2» ما هو عليه.

وأيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين، وقد يمنعه الشريك من إفاضته الخير إلى أوليائه ويؤديه إلى الفساد، لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) [الأنبياء: 22]، والمحتاج إلى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله، ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه.

---

(1) حديث صحيح: رواه أحمد (4/ 172)، وابن ماجة (3666)، والحاكم في «المستدرك» (3/ 164).

والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 461).

وقال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبي.

(2) ما بين [] وقع في المطبوعة (أن يضاع) وهو خطأ، والتصويب من فتح القدير (3/ 266).

وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111) : أي عظمه تعظيما ، وصفه بأنه أعظم من كل شيء .

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان يعلم أهله هذه الآية : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي . . . إلخ ، الصغير من أهله والكبير «1» .

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» عن [عبد الكريم أبي أمية] قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يعلم الغلام من بني هاشم ، إذا أفصح ، سبع مرات : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً إلى آخر السورة «2» .

وأخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «آية العز :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً الآية كلها «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام ص 365 .

375 ﴾

---

(1) أثر ضعيف : رواه الطبري (15/ 189) ، وهو إسناد معضل لأن فيه قتادة بن دعامة ، وهو ليس له رواية مرفوعة . [. . . . .]

(2) إسناده ضعيف : رواه عبد الرزاق (7976) ، وابن أبي شيبة (7/ 202) ،

وابن السني (426) . وعبد الكريم بن أبي أمية : ضعّفوه .

(3) إسناده ضعيف : رواه أحمد (3/ 439 ، 440) ، والطبراني (20/ 192) ، (430) .

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (7/ 52) : «رواه أحمد من طريقين في أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف ، وفي الأخرى ابن لهيعة وهو أصلح منه ، وكذلك الطبراني» .

(212/448)

وقال السايس :

من سورة الإسراء

قال اللّه تعالى : أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79)

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ أصل الدلوك : الميل والزوال ، وهذا المعنى يصح أن يراد منه ميل الشمس عن كبد السماء ، وزوالها عنه وقت الظهيرة ، ويصح أن يراد منه ميلها وزوالها عن الأفق في وقت الغروب ، ولعلّ هذا هو منشأ اختلاف العلماء في تعيين الوقت المأمور فيه بإقامة الصلاة لدلوك الشمس .

فقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، ومنهم ابن عباس وابن مسعود إلى أنّ المراد من دلوك الشمس غروبها.

بل لقد روى ابن جرير «1» عن ابن مسعود رضي اللّه عنه أنه كان يقسم على ذلك. فقد أخرج أن أبا عبيدة بن عبد اللّه كتب إلى عقبة بن عبد الغافر أن عبد اللّه بن مسعود كان إذا غربت الشمس صلّى المغرب، ويفطر إن كان صائما، ويقسم عليها يمينا ما يقسمه على شيء من الصلوات، باللّه الذي لا إله إلا هو إنّ الساعة لميقات هذه الصلاة، ويقرأ فيها تفسيرها من كتاب الله أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ.

وأخرج أيضا «2» عن مجاهد عن ابن عباس قال: دلوك الشمس غروبها.

وذهب آخرون إلى أن دلوكها ميلها إلى الزوال، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر والحسن، وعليه الجمهور، قالوا: والصلاة التي أمر بها ابتداء من هذا الوقت هي صلاة الظهر، وقد أيّدوا هذا القول بوجوه:

منها ما

روي عن جابر أنه قال: طعم عندي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه، ثم

---

(1) في تفسيره جامع البيان، المشهور بتفسير الطبري (10/ 91).

(2) المرجع نفسه (10/ 91). [.....]

خرجوا حين زالت الشمس ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «هذا حين دلكت الشمس» .

وهذا الحديث إن صحّ كان هو العمدة في الباب وابن جرير «1» وإن كان من أنصار هذا الرأي ينصّ على أنّ الخبر ونحوه في إسناده شيء ، وإن كان لم يعينه .

ومن الوجوه أيضا النقل عن أهل اللغة ، فقد قالوا : إنّ الدلوك في كلام العرب الزوال ، ولذا قيل الشمس إذا زالت دالكة . قال ابن جرير «2» : وهذا تفسير أهل الغريب أبي عبيدة والأصمعي وأبي عمرو والشيباني وغيرهم ، وقالوا أيضا :

إنّ أصل الدلوك مأخوذ من دلك العين حين تنظر ما لا تقوى على النظر إليه ، وهذا إنما يكون عند الزوال لقوة الشمس فيه ، حتى إنّ الناظر لا يستطيع أن ينظر ، حتى يضع كفه على حاجبه ، يمنع عن عينه شعاع الشمس .

على أنّ الدلوك لو كان اسما لمطلق الميل لكان حمله على ميلها إلى الزوال في وقت الظهر أولى ، وذلك لأنّ الآية تكون قد دلّت على الأمر بإقامة الصلاة ابتداء من الظهر إلى دخول الظلمة ، أو إلى نصف الليل ، فتكون قد انتظمت أربع صلوات .

وَقُرْآنَ الْفَجْرِ دلت على الصلاة الخامسة ، ولو حملنا الدلوك على الغروب تكون الآية قد

دلّت على صلاتي المغرب والعشاء : إن لم نقل إنها تدل على صلاة واحدة هي صلاة المغرب .

وقد قالوا : كلما كان المدلول عليه كثيرا كان الحمل عليه أولى ، فيكون حمل الدلوك على ميل الشمس إلى الزوال في الظهيرة أولى من حمله على الزوال للغروب .

واللام في قوله : لِدُلُوكِ الشَّمْسِ لام الوقت والأجل ، لأنّ الوقت سبب الوجوب .

إلى غَسَقِ اللَّيْلِ قيل : غسق الليل سواده وظلمته ، وقال بعضهم : غسق الليل دخول أوله .

وأصله من غسقت العين إذا هملت بالدمع ، والغاسق السائل ، فمعنى غسق الليل انصب بظلامه ، وذلك أن الظلمة كأنها تنصب على العالم .

فمعنى الآية والله أعلم : أدم إقامة الصلاة من الظهيرة إلى وقت هجوم الظلمة ، أو إلى غيبوبة الشفق ، أو إلى منتصف الليل على ما قيل في تفسير الغسق . وعلى هذا تكون هذه الآية والتي بعدها على ما يجيء قد دلتا على الأمر

---

(1) المرجع نفسه (10/92) .

(2) المرجع نفسه (10/92) .

بالصلاة من الظهيرة إلى العشاء ، وذلك أربع صلوات على حسب البيان الذي وردت به السنة العملية ، وعلى الأمر بالصلاة في الفجر ، وتلك هي الصلاة الخامسة .

ولقد أراد بعضهم أن يفهم من الأمر بإقامة الصلاة من دلوك الشمس إلى غسق الليل أنّ الله قد بين في الآيتين ثلاثة أوقات : وقت الدلوك ، ووقت الغسق ، ووقت الفجر ، ووقت الدلوك فيه صلاتان ، وهما : الظهر والعصر ، ووقت الغسق فيه صلاتان : المغرب والعشاء ، فدلّ ذلك على جواز الجمع بين الظهر والعصر ، لأنّ وقتهما الدلوك ، وجمع المغرب إلى العشاء ، لأنّهما في الغسق ، وهو استدلال عجيب ، إذ إنّ كل ما في الآية أنّها أمرت بإقامة الصلاة من دلوك الشمس إلى الغسق ، فهل هذا أمر يشغل كل هذا الوقت بالصلاة ، أو أمر بفعل الصلاة في بعض أجزائه ، وما مقدار هذا البعض ؟ كل هذا خارج عن مدلول الآية ، وقد بينته السنة ، فإن كانت قد ورد فيها جمع الصلاتين ، أو الصلوات من غير عذر ، فبيانها هو الدليل ، وإن كان قد ورد فيها أن الجمع بين الصلاتين لا يجوز إلا بشروط ، وفي أوقات دون أخرى ، كان ذلك هو الدليل على أن الجمع إنما يجوز بهذه الشروط .

وحيث إنه قد انجر الكلام إلى الجمع فنقول : قد روي عن ابن مسعود وابن عباس جواز جمع الظهر إلى العصر ، والمغرب إلى العشاء مطلقا ولو من غير عذر ، والجمهور على خلاف مذهبهما .

فالشافعية : يجيزون جمع التقديم والتأخير بشروط تعلم من كتبهم ، والحنفية يقولون : لا

جمع إلا في الظهر والعصر جمع تقديم يوم عرفة، والمغرب والعشاء جمع تأخير في مزدلفة، ويعرف ذلك من كتبهم أيضا.

وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً وَقُرْآنَ معطوف على الصلاة، أي وأقم قرآن الفجر، وقد قال أبو بكر الرازي «1»: إنّ ذلك يدلّ على وجوب القراءة في الصلاة، ووجه الدلالة أن الآية تدلّ على الأمر بقرآن الفجر، ولا نعلم قراءة واجبة في الفجر إلا أن تكون القراءة في صلاة الفجر، وقد حمل بعضهم القرآن في قوله: وَقُرْآنَ الْفَجْرِ على الصلاة في الفجر. قال أبو بكر الرازي: وهو عدول عن الحقيقة إلى المجاز من غير دليل، وذلك غريب من أبي بكر، فإنّ الدليل هو ما قاله: من أنا لا نعلم قرآنا واجبا في ذلك

(1) أحكام القرآن للإمام الرازي (3/ 206).

(215/448)

الوقت، وإن كان له أن يقول: إن الفجر فيه قرآن واجب، وهو قرآن الفجر، ولكن هذا إن أثبت له ما أراد فهو يثبت وجوب القراءة في الفجر، فمن أين وجبت في كل الصلوات، سيقول من دليل آخر، فنقول: ذلك هو الدليل على وجوب القراءة.

على أنا لا نرى أنّ حمل القرآن في قوله: وَقُرْآنَ الْفَجْرِ على الصلاة يؤدي إلى الغرض الذي

أراده الجصاص من هذا ، وهو أخذ وجوب القراءة في الصلاة ، فإنّ تسمية صلاة الفجر بالقرآن إنما كانت لأن القراءة جزء مهمّ فيها ، كما سميت الصلاة بالركوع والسجود .

وقد أراد الفخر الرازي أن يأخذ من قوله : وَقُرْآنَ الْفَجْرِ دليلا على مذهب الشافعية ، في استحباب التغليس بالفجر ، ويقول في وجه الدلالة : إنّه أمر بإقامة الصلاة في الفجر ، والفجر إنما سمي فجرا ، لأنّ نور الصبح يفجر ظلمة الليل ، قال وظاهر الأمر للوجوب ، فمقتضى هذا اللفظ وجوب إقامة الصلاة في أول وقت الفجر ، إلا أنا أجمعنا على أنّ الوجوب غير حاصل ، فيبقى الأمر للندب .

وأنت تعلم أنّ أمر تحديد الصلوات قد ثبت بالسنة في حديث جبريل ، الذي بيّن فيه أول الوقت وآخره ، فدلّ ذلك على الجواز في كل الوقت ، فأفضلية التقديم على التأخير والعكس تحتاج إلى دليل مستقل ، ك :

«أبردوا بالظهر» «1»

، «ولا تزال أمتي بخير : ما عجّلوا المغرب وأخّروا العشاء» «2»

، فالتغليس بالفجر والتنوير والإسفار به يحتاج إلى دليل مستقل ، فالحكم هو ما يدلّ عليه ذلك الدليل .

وقد أخذ الفخر الرازي من تسمية صلاة الفجر بالقرآن الحثّ على تطويل القراءة في الصلاة ، وهو وجيه .

إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً قالوا : إن معنى ذلك أنّ ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام .

قال الفخر - بعد سوق هذا الكلام - ويحتمل أن يكون المراد من قوله : إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً الترغيب في أن تؤدى هذه الصلاة بجماعة ، ويكون المعنى :

كونها مشهودة بالجماعة الكثيرة ، وهو حسن أيضا .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79) .

وَمِنَ اللَّيْلِ الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره ، قم ، و(من) للتبعيض ، والمعنى : قم بعض الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ الهجود : النوم ، ولكنه أريد منه هنا

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (1/ 154) ، 9 - كتاب مواقيت الصلاة ، 9 - باب الإبراد حديث رقم (538) .

(2) رواه أبو داود في السنن (1/ 172) ، كتاب الصلاة ، باب وقت المغرب حديث رقم (418) .

التيقظ ، فقال بعضهم : هو من أسماء الأضداد ، حتى قال أبو عبيدة : الهاجد النائم ، والهاجد المصلي بليل .

وذهب بعضهم إلى أن إطلاق المتهجد على المصلي بليل إطلاق شرعي ، كأنه إنما سمّي بذلك لأنه ألقى الهجود ، وهو : النوم عن نفسه ، كما قيل للعابد : متحنث ، لأنّه ألقى الحنث عن نفسه ، ومتحرّج ومتأثّم ومتحوّب لمن ألقى الحرج والإثم والحوب عن نفسه .

ويرى بعضهم أن التهجد أخصّ من الصلاة بالليل ، فلا يقال لكل من صلّى بالليل : متهجد ، وإنما يقال لمن نام ، ثم قام فصلّى ، ثم رقد ، فقام فصلّى ، وهو مروي عن الحجاج بن عمر المازني قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلّى حتى يصبح أنه قد تهجد ، إنما التهجد الصلاة بعد الرّقاد ، ثم صلاة أخرى بعد رقدة ، ثم صلاة أخرى بعد رقدة ، هكذا كانت صلاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وحينئذ فلا يكون إطلاق التهجد على المصلي على هذا النحو مجازيا ، لأنّ الهاجد هو النائم ، والمتهجد طالب النوم ، لأنّه كلما صلّى كان طالبا للنوم بعد الصلاة ، فيكون التهجد في هذا المعنى حقيقيا بِهِ بالقرآن نافِلَةً لَكَ النفل الزيادة ، وقد اختلف العلماء في معنى كون التهجد زيادة خاصة بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم لأن صلاة الليل ما تزال لكلّ من صلّى بليل ، فذهب ابن جرير « 1 » في جماعة من السلف إلى أنّ معنى زيادتها له ، خاصة أنها فريضة عليه ، زيدت على المكتوبات الخمس بالنسبة له خاصّة .

وذهب جماعة إلى أنّ معنى كونها نافلة له ، أنّ النوافل إنما يحتاج إليها لتكون كفارة لذنوب من يفعلها ، والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد غفر له ما تقدم من ذنبه ، فهي زائدة له ، لأنّ غيره نافلته تكفّر ذنبه ، وأما نافلة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فلا تلاقي ما تكفره ، فمن هذا كانت زائدة ، وهو مروي عن مجاهد وآخرين .

ولم يرتض هذا القول ابن جرير ، وقال : نزلت سورة النصر قبل قبض الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وفيها أمره بالاستغفار وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً [النصر : 3] .

وقد روي عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه كان يزيد في الاستغفار في اليوم على مئة مرة «2» ، وكلما اشتد قرب العبد من ربه كلما زاد خوفه منه ، وإن كان السيد قد أمنه ، وذلك مقام يعرفه أهله .

عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً كلمة (عسى) في كلام العرب تفيد التوقع ، وهي هنا للوجوب ، قالوا : إنما كانت للوجوب لأنّها تفيد الإطماع ، ومن أطمع إنسانا

---

(1) في تفسيره جامع البيان ، المشهور بتفسير الطبري (15/ 96) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (4/ 2075) 48 - كتاب الذكر حديث رقم (4/ 2702) .

في شيء ، ثم حرمه منه كان غارّا ، وهذا المعنى مستحيل على اللّه تعالى ، وقد أفاض ابن جرير «1» في بيان هذا المعنى .

والمقام المحمود : قال الواحدي : أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة العظمى في إسقاط العقاب .

وقد اختلف العلماء بعد هذا اختلافا يقصد منه إلى الكيفيات والتفاصيل ، والمدار فيها على الأخبار الواردة ، فما ورد منها من طريق صحيح كان المعوّل عليه في بيان كيفية الشفاعة والمقام المحمود ، وكل ما تدلّ عليه الآية أن النبيّ عليه أفضل الصلاة والسلام سيبعثه اللّه مبعثا يحمده الناس عليه حمدا بالغا ، وذلك لأنه منقذهم من هول العذاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 486. 491 ﴾

---

(1) في تفسيره جامع البيان ، المشهور بتفسير الطبري (15/ 97) .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

«سورة بنى إسرائيل (17)»

«وَقَضَيْنا» (4) مجازه : أخبرنا . «1»

«فَجاسُوا» (5) قتلوا . «2»

«خِلالَ الدِّيارِ» (5) بين الديار .

---

(1) «أخبرنا» : كذا فى الطبري 10/ 217 قال ابن حجر (8/ 295) :

قال أبو عبيدة فى قوله «و قضينا إلى بنى إسرائيل» أي أخبرناهم ، وفى قوله «و قضى ربك» (17/ 23) ، أي أمر ، وفى قوله «إن ربك يقضى بينهم» (27/ 87) أي يحكم ، وفى قوله «فقضاهن سبع سموات» (41/ 12) أي خلقهن وقد بين أبو عبيدة بعض الوجوه التي يرد بها لفظ القضاء ، وأغفل كثيرا منها . . . إلخ.

(2) «قتلوا» : قال الطبرىّ (15/ 21) وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول معنى «جاسوا» قتلوا ، ويستشهد لقوله ذلك ببيت حسان :

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الأعداء عرض العساكر

وجائز أن يكون معناه : فجاسوا خلال الديار فقتلوهم . . . إلخ .

«رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ» (6) أعقبنا لكم الدولة.

«أَكْثَرَ نَفِيراً» (6) مجازه: من الذين نفروا معه.

«وَلِيُتَبِّرُوا» (7) وليدمّروا،

«جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً» (8) من الحصر «1» والحبس فكان معناه محبسا، ويقال: للملك حصير لأنه محجوب، قال لبيد:

ومقامة غلب الرّقاب كأنهم جنّ لدى باب الحصير قيام «2»

والحصير أيضا: البساط الصغير، فيجوز أن تكون جهنم لهم مهادا بمنزلة الحصير، ويقال للجنبين: حصيران، يقال: لاضربن حصيريك وصقليك.

---

(1) «حصيرا من الحصر»: قال الطبري (15/ 34): فأما فعيل من الحصر بمعنى وصفه بأنه الحاصر فذلك لا نجده فى كلام العرب... وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن ذلك جائز ولا أعلم لما قال وجها يصح إلا بعيدا وهو أن يقال جاء حصير بمعنى حاصر كما قيل عليم بمعنى عالم وشهيد بمعنى شاهد ولم يسمع ذلك مستعملا فى الحاصر كما سمعنا فى عالم وشاهد. وفى البخاري: «حصيرا محبسا»، قال ابن حجر

(8/ 298) : هو قول أبى عبيدة أيضا .

(2) : ديوانه 2/ 39 ، والطبري 15/ 34 . والسمط 955 ، والقرطبي 10/ 224 والصحاح واللسان والتاج (حصر) .

(220/448)

«أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ» (13) أي حظّه . «1»

«وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» (15) أي ولا تأثم آثمة إثم أخرى أثمته ولم تأثمه الأولى منهما ،

ومجاز وزرت تزر : مجاز أثمت ، فالمعنى أنه :

لا تحمل آثمة إثم أخرى ، يقال : وزر هو ، ووزّرته أنا .

«وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها»

(16) «2» أي أكثرنا مترفيها وهى من قولهم : قد أمر بنو فلان ، أي كثروا فخرج على

تقدير قولهم : علم فلان ، وأعلمته أنا ذلك ، قال لبيد :

---

(1) «حظه» : قال ابن مطرف فى القرطين (1/ 252) : قال أبو عبيدة حظه ، وقال

المفسرون : ما يحمل من خير أو شر ألزمناه عنقه ، وهذان التفسيران يحتاجان إلى تبيين إلخ

وقال الطبري (16/ 38 - 39) : أي حظه من قولهم : طار سهم فلان بكذا ، إذا خرج

سهمه على نصيب من الأنصباء ، وذلك وإن كان قولا له وجه فإن تأويل أهل التأويل على ما قد بينت وغير جائز أن يتجاوز فى تأويل القرآن ما قالوه إلى غيره ، على أن ما قاله هذا القائل إن كان عنى بقوله حظه من العمل والشقاء والسعادة فلم يبعد معنى قوله من معنى قولهم .

(2) «أمرنا» : قال الطبري (15/ 39) : اختلفت القراء فى قراءة قوله «أمرنا مترفها» فقرأت ذلك عامة قراء الحجاز والعراق أمرنا بقصر الألف دون مدها ، وتخفيف الميم وفتحها . . . إلخ وفى اللسان (أمر) : قال أبو عبيدة آمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرته وأمر هو أي كثر فخرج على تقدير قولهم : علم فلان وأعلمته أنا ذلك .

[كلّ بنى حرّة قصارهم قلّ وإن أكثرت من العدد] «1»

إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا يوما يصيروا للهلك والنّفذ

وبعضهم يقرؤها : «أَمَرْنا مُتْرَفِيها»

على تقدير أخذنا وهى فى معنى أكثرنا وآمرنا غير أنها لغة أمرنا : أكثرنا «2» ترك المدّ ومعناه أمرنا ، ثم قالوا :

مأمورة من هذا ، فإن احتج محتج فقال هى من أمرت فقل كان ينبغى أن يكون آمرة ولكنهم يتركون إحدى الهمزتين ، وكان ينبغى أن يكون آمرة ثم طوّلوا ثم حذفوا «ولأمرنّهم» (4/ 119) فلم يمدوها قال الأثرم : وقول أبى عبيدة فى مأمورة لغة وقول أصحابنا قياس وزعم يونس عن أبى عمرو أنه قال : لا يكون هذا وقد قالت العرب : خير المال نخلة مأبورة ومهرة مأمورة أي كثيرة الولد . وله موضع آخر مجازه : أمرنا ونهينا فى قول بعضهم وثقّله بعضهم فجعل معناه أنهم جعلوا أمراء .

---

(1) : ديوانه 1/ 19 ، والأغانى 15/ 133 ، والقرطبي 10/ 233 ، والثاني فقط فى اللسان والتاج (أمر) .

(2) «أكثرنا» : قال الطبري (15/ 40) : وقد كان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يقول قد يتوجه معناه إذا قرىء كذلك إلى معنى «أكثرنا مترفيها» ويحتج لتصحيحه ذلك بالخبر الذي روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال :

خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة ويقول : إن معنى قوله مأمورة كثيرة النسل ، وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين ينكر ذلك من قيله . . .

ولا يجيز أمرنا بمعنى أكثرنا . . . إلخ .

(ص 373) «خير . . . مأمورة» : وفى الحديث : خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أخرجه حميد وإسحاق وابن أبى رشيق والحارث والطبراني وأبو عبيد من رواية مسلم بن

بديل . . . عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: خير مال المرء ميرة مأمورة أو سكة مأبورة (الكافي الشاف فى تحريج أحاديث الكشاف 2/ 655) وانظره فى الطبري 15/ 40 والقرطبي 10/ 233 والغريبين والنهاية واللسان (أمر) .

(222/448)

«فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ»

(16) أي فوجب عليها العذاب.

«مَدْحُوراً» (18) أي مقصى مبعدا، يقال: أدحر الشيطان عنك، [و مصدره الدّحور] .

«وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (23) مجازه: وأمر ربّك.

«فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ» (23) «1» تكسر وتضمّ وتفتح بغير تنوين، وموضعه فى معناه ما غلظ وقبح من الكلام.

«فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً» (25) أي للتّوابين من الذنوب.

[«المبذّرين»] (27) المبذّر هو المسرف المفسد العائث.

---

(1) «أف» : قرأها نافع وحفص بالتنوين وكسر الفاء وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسرها من غير تنوين (الداني 139) .

«قَوْلًا مَيْسُوراً» (28) أي ليّنا «1» هيّنا ، وهو من اليسر .

«وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ» (29) مجازه فى موضع قولهم :

لا تمسك عما ينبغى لك أن تبذل من الحق وهو مثل وتشبيه .

«وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ» (29) أي لا تسرف كل السرف ، وتبذّر كل التبذير .

«مَلُوماً مَحْسُوراً» (29) أي منضى قد أعيا ، يقال : حسرت البعير ، وحسرته بالمسألة والبصر أيضا إذا رجع محسورا ، وقال الهذلي : «2»

إنّ العسير بها داء مخامرها فشطرها نظر العينين محسور (74)

أي فنحوها .

«وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ» (31) «3» كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر وهو الإملاق.

---

(1) «لينا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 295 .

(2) «الهذلي» : هو قيس بن خويلد الهذلي.

(3) «إملاق» : روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 8/ 298.

(224/448)

«إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً» (31) [إثما] وهو اسم من خطأت، وإذا فتحته فهو مصدر كقول [أوس بن علفاء «1» الهجيمىّ].

دعينى إنّما خطأى وصوبى علىّ وإن ما أهلكت مال (274)

[يريد: إصابتى]، وخطأت وأخطأت لغتان، «2» [زعم «3» يونس عن أبى إسحاق قال: أصل الكلام بناؤه على فعل ثم يبنى آخره على عدد من له الفعل من المؤنث والمذكر من الواحد والإثنين والجميع كقولك: فعلت وفعلنا وفعلن وفعلا وفعلوا، ويزاد فى أوله ما ليس من بنائه فيزيدون الألف، كقولك: أعطيت إنما أصلها عطوت، ثم يقولون معطى فيزيدون الميم بدلا من الألف وإنما أصلها عاطى، ويزيدون فى أوساط فعل افتعل وانفعل واستفعل ونحو هذا، والأصل فعل

---

(1) «أوس بن غلفاء» : من بنى الهجيم بن عمرو بن تميم وهو جاهلى، انظر الشعراء

404. [. . . . .]

(2) «خطأ . . . لغتان» : روى ابن حجر (8/ 296) تفسير أبى عبيدة هذا وقال : واختار الطبري القراءة التي بكسر ثم بسكون وهى المشهورة . . . وأما قول أبى عبيدة الذي تبعه فيه البخاري حيث قال : خطئت بمعنى أخطئت ففيه نظر فإن المعروف عند أهل اللغة أن خطىء بمعنى إثم وأخطأ إذا لم يتعمد أو إذا لم يصب .

(3) «زعم . . . سكن (ص 277)» قارن هذا الكلام بما ورد فى تفسير آية 22 من سورة الحجر .

(225/448)

وإنما أعادوا هذه الزوائد إلى الأصل فمن ذلك فى القرآن «وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ» (15/ 22) وإنما يريد الريح ملقحة فأعادوه إلى الأصل ومنه قولهم :

طوّحتنى الطّوائح (405) وإنما هى المطاوح لأنها المطوّحة ، ومن ذلك قول العجّاج :

يكشف عن جمّاته دلو الدال

(407) وهى من أدلى دلوه ، وكذلك قول رؤبة :

يخرجن من أجواز ليل غاضى

(406) وهى من أغضى الليل أي سكن.].

«وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى» (32) مقصور وقد يمدّ فى كلام أهل نجد، قال الفرزدق:

أبا حاضر من يزن يعرف زناؤه ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكّرا «1»

وقال الفرزدق:

أخضبت عردك للزناء ولم تكن يوم اللقاء لتخضب الأبطالا «2»

---

(1): فى الجمهرة 3/ 255 والصحاح واللسان والتاج زنى).

(2): لم أجده فى مظانه.

وقال [الجعدىّ]:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرّجم «1»

«فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ «2» فِي الْقَتْلِ» (33) جزمه بعضهم على مجاز النهى، كقولك: فلا يسرفنّ فى القتل أي يمثّل به ويطوّل عليه العذاب، ويقول بعضهم «فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ» فيرفعه على مجاز الخبر كقولك: إنه ليس فى قتل ولى المقتول الذي قتل ثم قتل هو به سرف.

«إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً» (33) مجازه من النصر ، أي يعان ويدفع إليه حتى يقتله بمقتوله .

«مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (34) مجازه : بالقوت إذا قام به وعمره من غير أن يتأثل منه مالا .

«حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» (34) مجازه : منتهاه من بلوغه ، ولا واحد له منه فإن أكرهوا على ذلك قالوا : أشدّ ، بمنزلة صبّ والجميع أضبّ .

---

(1) : فى الأضداد لأبى حاتم 152 والمقصور والمدود 58 والإنصاف 165 وأمالى المرتضى 1/ 155 والسمط 368 والقرطبي 10/ 253 واللسان (زنى) .

(2) «فلا يسرف» : قرأ حمزة والكسائي بالتاء والباقون بالياء (الداني 140)

(227/448)

«إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا» (34) أي مطلوبا ، يقال : وليسألن فلان عهد فلان .

«وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (36) مجازه : ولا تتبع ما لا تعلمه ولا يعنيك . «1» وذكر أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقذف أمّنا ولا نقفو آباءنا»

وروى فى الحديث : «ولا نقتفى من أبينا» «2» وقال النّابغة الجعدىّ :

ومثل الدّمى شمّ العرانين ساكن بهن الحياء لا يشعن التّقافيا «3»

يعنى التقاذف.

---

(1) «ولا تتبع . . . يعينك» : روى الطبري (15/ 58) تفسيره هذا عنه.

(2) «نحن . . . أبينا» : فى الطبري (15/ 58) وهو فى النهاية (قفى) على خلاف.

(3) : فى الطبري 15/ 58 وشواهد الكشاف 327.

(228/448)

«كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا» (36) خرج مخرج ما جعلوا الخبر عنه والعدد كالخبر عن الآدميّين وعلى لفظ عددهم إذا جمعوا وهو فى الكلام :

كلّ تلك، ومجاز «عنه» كقولهم : كل أولئك ذاهب، لأنه يرجع الخبر إلى كل ولفظه لفظ الواحد والمعنى يقع على الجميع، وبعضهم يقول : كل أولئك ذاهبون، لأنه يجعل الخبر للجميع الذي بعد كل.

«إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ» (37) مجازه : لن تقطع «1» الأرض، وقال رؤبة :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق «2»

أي المقطّع وقال آخرون : إنك لن تنقب الأرض، وليس بشىء.

«أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ» (40) أي اختصكم.

«وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً» (46) أي صما واستكاكا وثقلا وأوله مفتوح والوقر من الحمل مكسور الأول.

---

(1) «إنك . . . تقطع» : رواه ابن حجر (8/ 296) عن أبى عبيدة.

(2) : الشطر من أرجوزة فى ديوانه 104 - 108 ، وهو فى الطبري 15/ 59 واللسان والتاج (قتم).

(229/448)

«وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً» (46) أي أعقابهم ، نفور : جمع نافر بمنزلة قاعد وقعود وجالس وجلوس.

«وَإِذْ هُمْ نَجْوى» (47) وهى مصدر من ناجيت أو اسم منها فوصف القوم بها والعرب تفعل ذلك ، كقولهم : إنما هم عذاب وأنتم غمّ ، فجاءت فى موضع متناجين. «1»

«إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً» (47) أي ما تتبعون كقولك ما تتبعون إلّا رجلا مسحورا ، أي له سحر «2» وهو أيضا مسحر وكذلك كل دابّة أو طائر أو بشر يأكل فهو مسحور لأن له سحرا ، والسحر الرّئة ، قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحّر «3»

وقال:

---

(1) «نجوى . . . متناجين» : رواه ابن حجر (8/ 296) عن أبي عبيدة.

(2) «ما . . . سحر» : قال الطبري (15/ 63) : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يذهب بقوله إن تتبعون . . . إلى معنى ما تتبعون . . . رئة. وروى القرطبي (10/ 272) رواية نسخة ببعض نقص وزيادة.

(3) ديوانه 1/ 80 والطبري 15/ 63 والقرطبي 10/ 373 واللسان (سحر).

[. . . . . .]

ونسحر بالشراب وبالطّعام «1»

أي نغذى لأن أهل السماء لا يأكلون فأرادوا أن يكون ملكا.

«أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً» (49) عظاما لم تحطم، ورفاتا أي حطاما. «2»

«يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ» (51) أي يعظم.

«فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» (51) أي خلقكم.

«فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ» (51) مجازه: فسيرفعون ويحركون استهزاء منهم، ويقال:

قد نغضت سنّ فلان إذا تحركت وارتفعت من أصلها «3» قال:

ونغضت من هرم أسنانها»

وقال:

لما رأتنى أنغضت لى الرأسا «5»

---

(1): لعله عجز بيت لامرئ القيس (باختلاف القافية) فى ديوانه من الستة 210 والقرطبي 10/ 273 واللسان (سحر).

(2) «ورفاتا ... أي حطاما»: رواه ابن حجر (8/ 296) عن أبى عبيدة.

(3) «فسيرفعون ... أصلها»: نقله الطبري (15/ 65) ببعض نقص وزيادة ورواه ابن حجر (8/ 294) عن أبى عبيدة.

(4): فى الطبري 15/ 65 والقرطبي 10/ 275.

(5): فى الطبري 15/ 65 القرطبي 10/ 275.

(231/448)

[قال ذو الرّمة:

طعائن لم يسكن أكناف قرية بسيف ولم تنغض بهن القناطر] «1»

«إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ» (53) أي يفسد ويهيج، وبعضهم يكسر زاى ينزغ.

«كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً» (58) أي مثبتا، مكتوبا، قال العجّاج:

واعلم بأنّ ذا الجلال قد قدر في الصّحف الأولى التي كان سطر «2»

أمرك هذا فاحتفظ فيه النّتر

النّتر: الخديعة، قال يونس لما أنشد العجّاج هذا البيت قال: لا قوة إلّا باللّه.

---

(1): ديوانه 244.

(2): ديوانه 19 والطبري 15/ 69، 21/ 71 والجمهرة 2/ 14 واللسان والتاج (نتر)

(232/448)

«فَظَلَمُوا بِها» (59) مجازه: فكفروا بها.

«لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (62) مجازه: لأستميلنّهم ولأستأصلنهم، يقال: احتك فلان ما عند فلان أجمع من مال أو علم أو حديث أو غيره «1» [أخذه كله واستقصاه]، قال:

نشكو إليك سنة قد أجحفت جهدا إلى جهد بنا فأضعفت «2»

واحتنكت أموالنا وجلّفت

«وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ» (64) أي استخفف واستجهل.

«بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ» (64) جميع راجل، بمنزلة تاجر والجميع تجر وصاحب والجميع صحب. «3»

---

(1) «لأستميلنهم... غيره»: وهو فى الطبري 15/ 75 بفرق يسير.

(2): فى الطبري 15/ 75 والقرطبي 10/ 287.

(3) «واستفزز... صحب»: وفى البخاري: واستفزز استخف بخيلك الفرسان والرجال والرجالة واحدها راجل مثل صاحب وصحب وتاجر وتجر قال ابن حجر (8/ 296) هو كلام أبى عبيدة بنصه.

(233/448)

«أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً» (68) ريحا «1» عاصفا، تحصب قال [الفرزدق]:

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور «2»

أي بصقيع.

«تارَةً أُخْرى» (69) مرّة أخرى والجميع تارات وتير. «3»

«فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ» (59) أي تقصف كل شىء أي تحطم، يقال: بعث

اللّه عليهم ريحا عاصفا قاصفا لم تبق لهم ثاغية ولا راغية.

«ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً» (69) أي من يتبعنا لكم تبيعة ولا طالبا لنا بها.

---

(1) «ريحا . . . إلخ» : قال الطبري (15/ 79) : وكان بعض أهل العربية بوجه تأويل قوله «أو يرسل . . . حاصبا» إلى أو يرسل عليكم ريحا عاصفا يحصب ويستشهد لذلك بقول الشاعر - إلخ. ورواه ابن حجر (8/ 296) عن أبى عبيدة.

(2) : ديوانه 262 والكامل 463 والطبري 15/ 79، 20/ 87 والقرطبي 10/ 292

(3) «تارة . . . وتير» : كذا فى البخاري قال ابن حجر (8/ 298) : هو كلام أبى عبيدة.

«وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ» (70) أي أكرمنا إلا أنها أشدّ مبالغة فى الكرامة. «1»

[«يوم] ندعو كلّ أناس بإمامهم» (71) أي بالذي اقتدوا به وجعلوه إماما، ويجوز أن يكون بكتابهم:

«وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (71) وهو المفتّل الذي فى شق بطن النواة. «2»

«فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى » (72) أشدّ عمى.

«لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً» (74) أي تميل وتعدل وتطمئن.

«إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ» (75) مختصر، كقولك ضعف عذاب الحياة وعذاب الممات فهما عذابان عذاب الممات به ضوعف عذاب الحياة. «3»

---

(1) «ولقد . . . الكرامة»: رواه ابن حجر (8/ 298) عن أبى عبيدة. [. . . . .]

(2) «وهو . . . النواة»: كذا فى الطبري 15/ 81.

(3) «مختصر . . . الحياة» روى الطبري (15/ 83) هذا الكلام عن بعض أهل العربية من أهل البصرة ولعله يعنى أبا عبيدة ورواه ابن حجر (8/ 298)

(235/448)

«وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ» (76) رفع «يلبثون» على التقديم والتأخير كقولك: ولا يلبثون خلافك إذا، أي بعدك، قال: «1»

عفت الديار خلافها فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا (296)

أي بعدهن ويقرؤه آخرون خلفك والمعنى واحد.

«لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ» (78) ودلوك الشمس من عند زوالها إلى أن تغيب

وقال :

هذا مقام قدمى رباح غدوة حتى دلكت براح «2»

---

(1) «قال» : القائل هو الحارث بن خالد كما مر عند تخريج البيت واستشهد به الطبري (15/ 85) والقرطبي (10/ 302) فى تفسير هذه الآية أيضا .

(2) : الرجز فى نوادر أبى زيد 88 وتهذيب الألفاظ 393 ومجالس ثعلب 373 والطبري 15/ 86 والقرطبي 10/ 303 والجمهرة 2/ 218 والصحاح والغريبين والفائق واللسان والتاج (برح) . - براح : قال الطبري : ويروى «براح» بفتح الباء فمن روى ذلك «براح» بكسر الباء فإنه يعنى أن يضع الناظر كفه على حاجبيه من شعاعها لينظر ما بقي من غبارها وهذا تفسير أهل الغريب أبى عبيدة والأصمعى وأبى عمرو الشيباني وغيرهم وقد ذكرت فى الخبر الذي رويت عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال : حين غربت الشمس دلكت براح يعنى براح مكانا ، ولست أدرى هذا التفسير أعنى قوله مكانا من كلام من هو ممن فى الإسناد أو من كلام عبد اللّه وإن يكن من كلام عبد اللّه فلا شك أنه كان أعلم بذلك من أهل الغريب الذي ذكرت قولهم وأن الصواب فى ذلك قوله دون قولهم وإن لم يكن من كلام عبد اللّه فإن أهل العربية كانوا أعلم بذلك منه إلخ .

ألا ترى أنها تدفع بالراح، يضع كفه على حاجبيه من شعاعها لينظر ما بقي من غيابها والدلوك دنوها من غيبوبتها، قال العجّاج:

والشمس قد كادت تكون دنفا أدفعها بالراح كى تزحلفا «1»

«إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ»، أي ظلامه قال: ابن قيس الرّقيّات:

إنّ هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهمّ والأرقا «2»

«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ» (78) أي ما يقرأ به فى صلاة الفجر.

«إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً» (78) مجازه: إن ملائكة الليل تشهده وإذا صلّيت الغداة أعقبتها ملائكة النهار.

---

(1): الرجز فى ديوان العجاج 82 وتهذيب الألفاظ 393 والطبري 15/ 86 والجمهرة 2/ 218 والقرطين 1/ 261 والقرطبي 10/ 303.

(2): فى الطبري 15/ 87 والقرطبي 10/ 304 واللسان والتاج (غسق).

«وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ» (79) أي اسهر بصلاة أو بذكر اللّه، وهجدت: نمت أيضا [وهو الهجود، قال لبيد بن ربيعة.

قال هجّدنا فقد طال السّرى «1»

يقول: نوّمنا].

«نافِلَةً لَكَ» أي نفلا وغنيمة لك.

«أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ»

(80) [من أدخلت] ومن جعله من دخلت قال: مدخل صدق بفتح الميم.

«نَأى بِجانِبِهِ» (83) أي تباعد بناحيته وقربه.

«وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً» (83) أي قنوطا، أي شديد اليأس لا يرجو.

«يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ» (84) أي على ناحيته وخليقته ومنها قولهم: هذا من شكل هذا.

---

(1): صدر بيت فى ديوانه 2/ 13 والاقتضاب 408.

«وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ» (89) أي وجّهنا وبيّنا.

«حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً» (90) وهى يفعول من «نبع الماء»، أي ظهر وفاض.

«عَلَيْنا كِسَفاً» (92) من القطع فيجوز أن يكون واحدا أي قطعة، ويجوز أن يكون جميع كسفة فيخرج مخرج سدرة والجميع سدر، ويجوز أن تفتح ثانى حروفه فيخرج مخرج كسرة والجميع كسر، يقال: جاءنا بثريد كف، أي قطع خبز لم تثرد.

«وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا» (92) مجازه: مقابلة، أي معاينة وقال:

نصالحكم حتى تبوؤا بمثلها كصرخة حبلى بشّرتها قبيلها «1»

---

(1) : البيت فى ملحق ديوان الأعشى ص 256 برواية شرح شواهد الكشاف 247، وهو فى الطبري 15/ 101 واللسان (قبل) وعجزه فى الإصلاح 160 وفتح الباري 8/ 297.

(239/448)

أي قابلتها فإذا وصفوا بتقدير فعيل من قولهم: قابلت ونحوها جعلوا لفظ صفة الاثنين والجميع من المذكر والمؤنث على لفظ واحد، نحو قولك: هى قبيلى وهما قبيلى وهم قبيلى وكذلك هن قبيلى. «1»

«بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ» (93) وهو مصدر المزخرف وهو المزيّن.

«كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً» (97) أي تأجّجا، «2» وخبت سكنت [قال الكميت:

ومنّا ضرار وابنماه وحاجب مؤجّج نيران المكارم لا المخبى] «3»

قال : ولا تكون الزيادة إلّا على أقلّ منها قبل الزيادة قال القطامىّ :

وتخبو ساعة وتشبّ ساعا «4»

ولم يذكر هاهنا جلودهم فيكون الخبوّ لها .

---

(1) «قابلتها . . . قبيلى» : روى الطبري (15/ 101) هذا الكلام عن بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة كذا ولعله يعنى أبا عبيدة .

(2) «تأجحا» : كذا فى الطبري 15/ 105 .

(3) : فى اللسان والتاج (خبا) .

(4) : ديوانه 39 وفى الكتاب 2/ 195 والكامل 160 والطبري 15/ 105 والأضداد للأبيارى 113 والشنتمرى 2/ 189 واللسان (سوع) .

«قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ» (100) معناه : لو تملكون أنتم .

«وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً» (100) أي مقترا .

«يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً» (102) أي مهلكا . قال [ابن الزّبعرى] :

إذا جارى الشيطان فى سنن الغىّ ومن مال ميله مثبور «1» [الزّبعرى «2» الرجل الغليظ الأزبّ، وكذلك الناقة زبعرى] .

«وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ» (109) واحدها ذقن وهو مجمع اللّحيين . «3»

«وَلا تُخافِتْ بِها» (110) مجازه: لا تخفت بها، ولا تفوّه بها، ولكن أسمعها نفسك ولا تجهر بها فترفع صوتك، وهذه فى صلاة النهار العجما كذلك تسمّيها العرب ولم نسمع فى صلاة الليل شيئا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 1 صـ 370. 392﴾

---

(1) : فى السيرة (غوتنجن) 827 والروض الأنف 2/ 289 والسمط 833 والقرطبي 10/ 338، 13/ 11 وشواهد المغني 188 .

(2) «الزبعرى . . . .» : راجع الاشتقاق واللسان (زبعر) . [. . . . . .]

(3) «للأذقان . . . . اللحيين» : كذا فى البخاري، قال ابن حجر (8/ 298) هو قول أبى عبيدة .

«مهلك» : كذا فى البخاري وقال ابن حجر (8/ 308) : هو قول أبى عبيدة .

(241/448)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «بنو إسرائيل»

«1»

[سورة الإسراء (17) : الآيات 12 الى 13]

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (12) وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (13)

قوله سبحانه وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً [12] وفى هذه الآية استعارتان إحداهما : قوله سبحانه : فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ . والآية العلامة . والمراد بمحوها - والله أعلم - على قول بعضهم أي جعلنا ظلمة الليل مشكلة ، لا يفهم معناها ، ولا يعلم فحواها ، لما استأثر الله تعالى بعلمه من المصلحة المستسرّة فى ذلك .

وحقيقة المحو طمس أثر الشيء . من قولهم : محوت الكتاب . إذا طمست سطوره ، حتى يشكل على القارئ ، ويخفى على الرائي «2» .

وقال قوم : آية الليل القمر خاصّة . ومحوه : تصيير تلك الطمسة فى صفحته ، حتى نقص

نوره عن نور الشمس ، لما يعلم اللّه سبحانه من المصلحة فى ذلك . وآية النهار الشمس .

وقال آخرون : بل آيتا الليل والنهار ضوء هذا فى الجملة ، وظلمة هذا فى الجملة . لأن الضوء علامة النهار ، والظلمة علامة الليل ، على ما قدمنا ذكره . والاستعارة الأخرى قوله تعالى : وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً وفى ذلك وجهان : أحدهما أن يكون المراد أنا

(1) هى سورة «الإسراء» . وقد سميت من قديم سورة بنى إسرائيل . وقد قال ابن مسعود رضى اللّه عنه فى بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى . يريد من قديم كسبه . انظر القرطبي ج 10 ص 203 .

(2) فى الأصل «على الرأى» وهو تحريف من الناسخ .

جعلناها مكشوفة القناع مبينة الإبصار ، على خلاف آية الليل إذ جعلناها مشرجة «1» الغلاف ، بهيمة الأطراف .

والوجه الآخر أن يكون معنى مبصرة أي يبصر الناس فيها ، ويهتدون بها كما تقدم قولنا فى قولهم : نهار صائم ، وليل نائم . أي أهل هذا صيام ، وأهل هذا نيام . وكما يقولون : رجل مخبث . إذا كان أهله وولده خبثاء . ورجل مضعف . إذا كانت دوابه وظهوره ضعفاء .

فعلى هذا يسمى النهار مبصرا ، إذا كان أهله بصراء . وقد مضى الكلام على مثل ذلك فيما تقدم .

وقوله سبحانه : وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ [13] وهذه استعارة .

والمراد بالطائر هاهنا – والله أعلم – ما يعمله الإنسان من خير وشر ، ونفع وضر . وذلك مأخوذ من زجر الطير على مذاهب العرب . لأنهم يتبركون بالطائر المتعرض من ذات اليمين ، ويتشاءمون بالطائر المتعرض من ذات الشمال .

ومعنى ذلك أنه سبحانه يجعل عمل الإنسان من الخير والشر كالطوق فى عنقه بإلزامه إياه ، والحكم عليه به . وقال بعضهم : معنى ذلك أنا جعلنا لكل إنسان دليلا من نفسه على ما بيّناه له ، وهديناه إليه . والعرب تقيم العنق والرقبة مقام الإنسان نفسه . فيقولون : لى فى رقبة فلان دم ، ولى فى رقبته دين . أي عنده . وفلان أعتق رقبة . إذا أعتق عبدا أو أمة . ويقول الداعي فى دعائه : اللهم أعتق رقبتى من النار . وليس يريد العنق المخصوصة ، وإنما يريد الذات والجملة .

وجعل سبحانه الطائر مكان الدليل الذي يستدل به على استحقاق الثواب والعقاب ، على عادة العرب التي ذكرناها فى التبرك بالسانح ، والتشاؤم بالبارح .

---

(1) أشرج الشيء : ضم بعضه إلى بعض وأحكم شده .

[سورة الإسراء (17) : آية 24]

وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (24)

وقوله سبحانه : وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ [24] . وهذه استعارة عجيبة ، وعبارة شريفة . والمراد بذلك : الإخبات للوالدين ، وإلانة القول لهما ، والرفق واللطف بهما .

وخفض الجناح فى كلامهم عبارة عن الخضوع والتذلل ، وهما ضد العلو والتعزز .

إذ كان الطائر إنما يخفض جناحه إذا ترك الطيران ، والطيران هو العلوّ والارتفاع . وقد يستعار ذلك لفرط الغضب والاستشاطة «1» . فيقال : قد طار فلان طيرة «2» . إذا غضب واستشاط . وقد أومأنا إلى هذا المعنى فيما تقدم من هذا الكتاب .

وإنما قال سبحانه : وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ [24] . ليبين تعالى أن سبب الذل لهما الرأفة والرحمة ، لئلا يقدر أنه الهوان والضراعة . وهذا من الأغراض الشريفة ، والأسرار اللطيفة .

[سورة الإسراء (17) : آية 29]

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29)

وقوله سبحانه: وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ [29] وهذه استعارة. وليس المراد بها اليد التي هى الجارحة على الحقيقة، وإنما الكلام الأول كناية عن التقتير، والكلام الآخر كناية عن التبذير وكلاهما مذموم، حتى يقف كل منهما عند حده، ولا يجرى إلا إلى أمده. وقد فسّر هذا قوله سبحانه: وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا، وَلَمْ يَقْتُرُوا، وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً «3».

---

(1) فى الأصل «الاستشاط» وهو تحريف من الناسخ. لأن الفعل استشاط، والمصدر استشاطة.

مثل استقام استقامة.

(2) فى الأصل «طيره» بالهاء وهو تحريف. والصواب بالتاء المربوطة المنقوطة.

(3) سورة الفرقان. الآية رقم 67.

[سورة الإسراء (17): الآيات 46 الى 47]

وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا

عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47)

وقوله سبحانه: وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً [46]. وهذه استعارة. لأنه ليس هناك على الحقيقة كنان على قلب، ولا وقر فى سمع. وإنما المراد أنهم- لاستثقالهم سماع القرآن عند أمر الله سبحانه نبيه عليه السلام بتلاوته على أسماعهم وإفراغه فى آذانهم- كالذين على قلوبهم أكنّة دون علمه، وفى آذانهم وقر دون فهمه، وإن كانوا من قبل نفوسهم أتوا، وبسوء اختيارهم أخذوا. ولو لم يكن الأمر كذلك لما ذمّوا على اطراحه، ولعذروا بالإضراب عن استماعه.

وقوله سبحانه: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى [47] وهذه استعارة لأن النّجوى مصدر كالتقوى. وإنما وصفوا بالمصدر، لما فى هذه الصفة من المبالغة فى ذكر ما هم عليه، من كثرة تناجيهم، وأسرار المكايد بينهم. والصفة بالمصادر تدلّ على قوة الشيء الموصوف بذلك. مثل قولهم: رجل رضا، وقوم عدل. وما يجرى هذا المجرى.

[سورة الإسراء (17): آية 59]

وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (59)

وقوله سبحانه : وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً [59] . وهذه استعارة . والمعنى : جعلنا الناقة آية مبصرة . أي مبصرة للعاشى «1» . ومذكّرة للناسى ، ومظنة لاعتبار المعتبر ، وتفكر المفكر . لأن من عجائب تلك الناقة تمخض الصخرة بها من غير حمل بطن ، ولا فرع فحل . وأنها كانت تقاسم ثمود الورد ، فلها يوم ولثمود يوم .

قال سبحانه : لَها شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ «2» فإذا كان يومها

---

(1) العاشى : اسم فاعل من عشا عن الشيء ، أي أعرض وصدر عنه إلى غيره .

(2) سورة الشعراء الآية رقم 155 .

(245/448)

شربت فيه الماء ، مثلما كانت ثمود تأخذ أشقاصها «1» وزروعها ، وأصرامها «2» وشروبها . وهذا من صوادح العبر ، وقوارع النذر .

وقال بعضهم : يجوز أن يكون معنى مبصرة هاهنا أي ذات إبصار . والتأويلان يؤولان إلى معنى واحد .

[سورة الإسراء (17) : آية 62]

قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً

(62)

وقوله سبحانه عن إبليس : لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [62] وهذه استعارة على بعض التأويلات فى هذه الآية . وهو أن يكون الاحتناك هاهنا افتعالا من الحنك . أي لأقودنهم إلى المعاصي ، كما تقاد الدابة بحنكها ، غير ممتنعة على قائدها . وهى عبارة عن الاستيلاء عليهم ، والملكة لتصرفهم ، كما يملك الفارس تصرّف فرسه ، بثني العنان تارة ، وبكبح اللجام مرة .

وقال يعقوب «3» فى «إصلاح المنطق» : [يقال : حنك الدابة يحنكها حنكا ، إذا شدّ فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به . وقد احتنك الدابة «4» مثل حنكها] إذا فعل بها ذلك .

وقال بعضهم : لأحتنكنّ ذرّيته . أي لألقينّ فى أحناكهم حلاوة المعاصي ، حتى يستلذوها ، ويرغبوا فيها ويطلبوها . والقول الأول أحبّ إلىّ .

---

(1) الأشقاص : جمع شقص بكسر الشين ، وهو القطعة من الشيء أو من الأرض .

[. . . . .]

(2) الأصرام : جمع صرم بكسر الصاد ، وهو الجماعة من الشيء أو من البيوت .

(3) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ، المعروف با بن السكيت ، وكان أبوه من أصحاب الكسائي المشهور فى اللغة والنحو . أما صاحبنا فقد شهد له المؤرخون بالعلم الغزير فى

اللغة والشعر والثقة فى الرواية .

وكتابه «إصلاح المنطق» يقول فيه المبرد : «ما رأيت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب يعقوب بن السكيت فى المنطق» . توفى سنة 244 . وقد طبع «إصلاح المنطق» طبعة موثقة بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون .

(4) فى «إصلاح المنطق» ص 82 (و قد احتنك دابته) .

وقال بعضهم : لأستأصلنّ ذريته بالإغواء ، ولأستقصينّ إهلاكهم بالإضلال ، لأن اتباعهم غيه وطاعتهم أمره يؤولان بهم إلى موارد الهلاك ، وعواقب البوار .

وقال الشاعر :

نشكو إليك سنة قد أجحفت واحتنكت أموالنا وجلّفت «1»

أي أهلكت أموالنا .

ويقال : احتنكه إذا استأصله وأهلكه . ومن ذلك قولهم : احتنك الجراد الأرض . إذا أتى على نبتها .

وقيل أيضا : المراد بذلك لأضيّقن عليهم مجارى الأنفاس من أحناكهم ، بإيصال الوسوسة

لهم، وتضاعف الإغواء عليهم، ويقال: احتنك فلان فلانا. إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه، فكان كالشبا «2» فى مقلته والشجا «3» فى مسعله.

[سورة الإسراء (17) : آية 78]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78)

وقوله سبحانه أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ [78] وهذه استعارة. لأن الدالك: المائل فى كلامهم. فكأنه سبحانه أمر بإقامة الصلاة عند ميل الشمس. فقيل عند ميلها للزوال، وقيل عند ميلها للغرب. والشمس على الحقيقة لا تميل عن موضعها ولا تزول عن مركزها، وإنما تعلو أو تنخفض، وترتفع بارتفاع الفلك وانخفاضه، وسيره وحركاته.

[سورة الإسراء (17) : آية 81]

وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

وقوله سبحانه: وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ، إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً [81]

---

(1) ورد هذا الرجز فى «مجازات القرآن» لأبى عبيدة هكذا:

نشكو إليك سنة قد أجحفت جهدا إلى جهد بنا فأضعفت واحتنكت أموالنا وجلفت

انظر «مجازات القرآن» لأبى عبيدة. طبعة سامى الخانجى ص 384. والرجز كذلك فى «الجامع لأحكام القرآن» ج 10 ص 287. ولم ينسبه أبو عبيدة ولا القرطبي لقائله.

(2) الشبا : جمع شباة وهى حد السيف أو قدر ما يقطع به منه.

(3) فى الأصل السجا بالسين المهملة. ولعله تحريف من الناسخ. فإن الشجا بالشين المعجمة ما يعترض الحلق فيشجى به.

(247/448)

وهذه استعارة. لأنهم يقولون : زهقت نفس فلان إذا خرجت. ومنه قوله تعالى : وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ «1» فالمراد - واللّه أعلم - وهلك الباطل إنّ الباطل كان هلوكا. تشبيها له بمن فاضت نفسه، وانتقضت بنيته. لأن الباطل لا مساك لذمائه، ولا سماك لبنائه.

[سورة الإسراء (17) : آية 84]

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84)

وقوله سبحانه : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ [84] وهذه استعارة. لأن الأولى أن يكون المراد هاهنا بالشاكلة - واللّه أعلم - الطريقة التي تشاكل أخلاق الإنسان، وتوافق طبيعته. وذلك مأخوذ من الشاكلة، وجمعها شواكل، وهى الطرق المتّسعة «2» عن المحجة العظمى. فكأن الدنيا هاهنا مشبّهة بالطريق الأعظم، وعادات الناس فيها،

وطبائعهم التي جبلوا عليها مشبهة بالطرق المختلجة من ذلك الطريق، الذي هو المعمود وإليه الرجوع.

وقال بعضهم: الشاكلة العلامة، وأنشد:

بدت شواكل حبّ كنت تضمره في القلب أن هتفت في الدّار ورقاء «3»

فكأنه تعالى قال: كلّ يعمل على الدلالة التي نصبت لاستدلاله، والأمارة التي رفعت لاهتدائه.

[سورة الإسراء (17): آية 100]

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (100)

وقوله سبحانه: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ [100] وهذه استعارة، والمراد بالخزائن هاهنا المواضع التي جعلها اللّه سبحانه وتعالى

---

(1) سورة التوبة. الآية رقم 55.

(2) هكذا بالأصل. ولعلها: المتشعبة.

(3) لم أهتد إلى قائل هذا البيت.

جعات «1» لدرور الرزق ومنافع الخلق . وإلى تلك المواضع ترفع الأيدى عند السؤال والرغبات ، واستدراك «2» الخير والبركات .

[سورة الإسراء (17) : آية 106]

وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (106)

وقوله سبحانه : وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ [106] وهذه استعارة ، ومعنى فرقناه : أي بيّناه للناس بنصوع مصباحه ، وشدوخ أوضاحه ، حتى صار كمفرق الفرس فى وضوح مخطّه «3» أو كفرق الصبح فى بيان منبلجه .

وقال بعضهم : معنى فرقناه أي فصّلناه سورا وآيات . وذلك بمنزلة فرق الشعر ، وهو تمييز بعضه من بعض ، حتى يزول التباسه ، ويتخلص التفافه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 198 . 205 ﴾

---

(1) هكذا بالأصل . ولم أوفق إلى تحقيقها ، ولما كان الناسخ ضبط آخرها بكسرتين ، فهى جمع مؤنث سالم منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة على أنها مفعول به لجعل . ولعلها «جفنات» .

(2) هكذا بالأصل ، ولا معنى لها ولعلها «واستدرار»

(3) المخط هو مكان الخط أو الفرق فى مفرق الحصان .

(249/448)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الإسراء

الآية الأولى من هذه السورة تضمنت قصة الإسراء ، ثم عاد التاريخ القهقرى ليذكر بنى إسرائيل وما عرض لهم أثناء إقامتهم الأولى فى فلسطين . لقد أوتوا التوراة دينا ودولة ، والمرتقب منهم ومن أمثالهم إذا أقاموا حكومة دينية أن تكون صورة للنظام لا للفوضى ، وللعدالة لا للجور ، لكن بنى إسرائيل الذين عانوا كثيرا تحت وطأة الاستبداد الفرعونى لم يلبثوا طويلا حتى جددوا سيرة الفراعنة الأولين ، فعاثوا فى الأرض فسادا ، ولم يكن بد من تأديبهم . وتسمى هذه السورة سورة بنى إسرائيل ، كما تسمى سورة الإسراء . ويشرح القرآن الكريم أن العجز الإدارى والخلقى فى سلطة بلد ما ينتهى بزوال هذه السلطة ، وقدوم آخرين من الخارج ليتولوا هم الحكم ، ويعاقبوا العابثين ، قال تعالى: "وقضينا إلى بني

إسرائيل في الكتاب " يعنى سجلات العلم الأزلى " لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا " . إن الدولة التى تختل أمورها تختل أرضها ، وتفقد استقلالها وحريتها . . . أوتيت ملك فلم تحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه . ! إن الفساد والاستعلاء لا يتصوران فى حكم يقوم على الوحى وينتسب إلى السماء ، ولذلك فإن عقوبة أهله تكون شديدة ، استعمار أجنبى يقوم على الإذلال والاضطهاد ، حتى إذا استقام المعوج وعاد إلى أدبه واصطلح مع ربه عادت إليه مكانته وكرامته " ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا " . وليس ما يقع مكافأة أنهت المأساة . إنه اختبار جديد ، وعلى الشعوب أن تعى وترعوى " إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها . . . " .

(250/448)

ويظهر أن اليهود أدمنوا المرض ، واستمرأوا العلل ، فلا تكاد أحوالهم تستقيم عصرا حتى يحنوا إلى عبثهم ومظالمهم ، ويتجدد العقاب ، وتتجدد التوبة " وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا " . ويقول التاريخ : إن الإفسادة الأولى أعقبها تدمير الآشوريين

لدولة اليهود وهدمهم لهيكل سليمان . ثم قامت الدولة ثانية ، وعادت إلى الإفساد فهاجمها الرومان وتكررت العقوبة ، وبقى اليهود دهرا طويلا بلا دولة ! ! . ثم شاء الله أن يقلد المسلمون اليهود ، وأن يفسدوا دولة الوحى بأهوائهم ! وكانت عقوبة القدر هذه المرة أن يقيم بنو إسرائيل دولة على أنقاض العرب الذى تخلوا عن القرآن ، واخلدوا إلى الأرض . والصراع القائم اليوم غريب ، لأنه بين مسلمين تخلوا عن مواريث السماء ، واستهوتهم نزعات جنسية ! ! وبين يهود يرفعون راية التوراة ، ويعظمون يوم السبت . أى: بين وحى حق قليل الأنصار ، وبين وحى مختلط محرف يغالى به أهله "وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا" ونعود إلى سورة الإسراء لنلحظ فيها أمرا تفردت به ، وهو أن كلمة " القرآن" تكررت نحو إحدى عشرة مرة ، وهو ما لم يقع فى سورة أخرى ! ألهذا علاقة بما شرحناه من طبيعة المعركة القائمة اليوم بيننا وبين اليهود ؟ ولنذكر الآن هذه الآيات: 1 - " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا" . 2 - " ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا " 3 - "وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا" . يقول جل شأنه قبل ذلك: 4 - "وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا" 5 - " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا " .

6 – و 7 – " وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا " . 8 – " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا " . 9 – " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " . 10 – " ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا " 11 – " وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا" . وقد ذكر القرآن فى هذه السورة باسم الروح " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " .

والسياق أدل على هذا المعنى من التفسير الآخر للروح ، وإن كان تفسيرا جائزا . كما ذكر القرآن بعود الضمير إليه فى قوله تعالى : " وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا " إن سورة بنى إسرائيل انفردت بهذه الخاصة عل المسلمين يفقهون أن القرآن الذى صنع أمتهم قديما قدير على أن يصبهم فى قوالب السيادة والقيادة مرة أخرى ، وعلى أن ينتزع من نفوسهم حب الدنيا وكراهية الموت ، ويهب لهم قلوبا شجاعة تفتدى الحق وتحرص على لقاء الله ! ! . أحيانا يكون الجهل عذرا مخففا ، أما التجاهل والاستكبار على الحق وإيثار العمى على الهدى فهو ذريعة غضب هائل . وقديما سلط الله عبدة

الأوثان على بنى إسرائيل ، لأنهم لم يقدروا كتابهم قدره ، فليس عجيبا أن يسلط على المسلمين بعد ما أهملوا القرآن من لا يقيم لهم وزنا أو يعرف لهم حقا . وطريق العودة واضح: لابد من عقيدة وشريعة وأخلاق ومعاملات تتفجر من ينابيع القرآن ، ويحيا بها المسلمون من جديد ، حياة تجعلهم أمة الوحى ، وصلة السماء بالأرض. من تجاوز الحق ومتابعة الوهم أن تزرع فى الصباح وتنتظر الحصاد فى الأصيل ! إن لكل شىء أوانا يتم فيه ، رضى المرء أم سخط . والإنسان لا يشب فى يوم ، والحضارة لا تزدهر فى شهر ، والنتائج تتحقق وفق قوانين مضبوطة تتم مع كر الغداة ومر العشىّ .

(252/448)

مهما دعا المؤمن فلابد من الصبر على سنن الله الكونية . "ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا" ورعاية للزمان وخضوعا له جاء الحديث عنه فى الآية اللاحقة : " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا" ومع سير الزمن تقوم دول وتنهزم أخرى ، ويعلو أمر اليهود ويسفل ، كما أبان الوحى أول السورة ، وكذلك تتقلب الدنيا بغيرهم من الناس . لكن الإنسان هو المسئول الأول عن نفسه ، إذا

عقل فقد اتخذ القرار السليم ، وإن شرد هوى " من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . " . وهذا قانون للأفراد والشعوب ، وإن كشف القرآن الكريم هنا أن الترف أول مظاهر الفساد فى الآفة ، وأن المترفين هم الجراثيم الحاملة والناقلة للمرض ، وأن مطاوعتهم خطوة إلى الهاوية " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " . والحضارات القائمة على الدين تظل معتصمة به ، وحاملة لواءه ما ظلت بعيدة عن الترف والمراسم الفارغة ، وقسوة القلب . ويتم لها ذلك إذا حددت موقفها من الآخرة تحديدا واضحا " من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد " ما نشاء لمن نريد ! ! عبارة صارمة ، إن الله لا يغلب على أمره ، ولا ينال ما عنده إلا بإرادته ، وما يملك أحد عليه شيئًا . . والتدين الكاذب لا يروج عند الله ، وليست لأهله وجاهة ، ويقول سبحانه هنا : " وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح . . . . " والحديث عن الأمم السابقة حتى بعثة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أما بعد ذلك فقد تحدثت آية أخرى عن مصاير المجرمين " وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا " والكتاب فيما يبدو هو سجل العلم الإلهى . . والتحذير لنا وللناس أجمعين ، ما النجاة من هذه المصاير ؟ تسوق سورة

بنى إسرائيل خلال صفحتين حافلتين جملة من

الوصايا العظيمة تعصم الناس من الزلل ، وتقودهم إلى الرشد ، وتضمن لهم الرعاية الإلهية فى الحاضر والمستقبل . وتبدأ هذه الوصايا بقوله تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . . . " وتنتهى بقوله : " ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا " بدأت هذه النصائح بتوحيد الله وختمت كذلك بتوحيده ، لأن القلب الذى يعنو لغير الله لا أمل فيه ، والاستقامة الكاملة مربوطة بالتوحيد الكامل . ومع عبادة الله وحده يجىء البر بالوالدين ، ويدرك المرء قيمة هذه الوصاة عندما يتأمل فى المجتمعات الغربية ، ويرمق ملاجئ العجزة ، أى الآباء والأمهات عند الكبر . لقد ضاقت بهم بيوتهم ، وابتعد عنهم أولادهم ، وصاروا إلى هذه المبانى المخصصة لهم حتى يدركهم الموت ! ! . إن الأجيال التى وهبت الحياة للآخرين لم تجد لديهم لمسة وفاء ، إنهم ينطلقون فى الدنيا انطلاق الوحش فى البرية ، حتى إذا ولى شبابهم سكنوا فى مساكن آبائهم بعد أن يخليها منهم الموت . ، وهكذا . . لقد صارت الأثرة قانونا . . ! ! . والغريب أن الآباء يربون أولادهم حتى البلوغ فإذا جاء سن الرشد فلكل وجهة هو موليها ! ما تجمعهم فى الدنيا إلا أعياد الميلاد ، أو مناسبات خاصة . . . إن للجماعة المؤمنة شارات أخرى ، يقول الله فى الوالدين : " واخفض لهما جناح الذل من

الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" ويقول فى الأقارب : "وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا" والتفسير الحق عندى أن المرء لا يجوز له التوسع فى النفقة والاستكثار من الكماليات ، فإن ذلك تبذير يحصد ما لديه ، ولا يبقى عنده فضلا يعطيه قريبا أو بعيدا . . وأكد القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " . وسياسة تقليل النسل لا تغنى عن الشعوب البليدة شيئًا ! يجب

(254/448)

أن تلتمس المفاتيح لخزائن

الخيرات التى بثها الله هنا وهناك ، والسماء لا تمطر القاعدين ذهبا ولا فضة . . " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق" . ونهى القرآن عن الزنا ، والزنا عملة متداولة فى الحضارة الحديثة ، وهو أفضل من الكبت فى مجال التربية عندهم ، ولا يعاقب عليه قانونا مادام بالتراضى ! ! والله يقول: "ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا" . ومع أن قتل النفس جريمة فالقانون لا يقتل القاتل . . . وقد حرمت عقوبة الإعدام فى دول كثيرة !

وأدى ذلك إلى شيوع القتل وسفك الدماء الحرام " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق

ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا " . وأمر الله الناس باحترام مال اليتيم وبالوفاء بالعهود ، وبضبط المكاييل والموازين . ثم ذكر لكل إنسان أنه مسئول عن سمعه وبصره وقلبه ، إنه مسئول عن كل شيء فيه ، فلا يجوز أن يحيا فوضويا سائبا " ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا" . ولو أن الناس وقفوا أمام ما يعرض لهم من أوهام ، ولم يصدقوا ما وصل إليهم من شائعات لنجوا من شرور جمة ! . ونهى القرآن أخيرا عن الخيلاء وذهاب المرء بنفسه "ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . . . " . إن هذه الوصايا تقيم الفرد المؤمن والشعب المؤمن ، والحضارة الصالحة ، ولن يهزم الله أمة تمسكت بهذه الخلال . بدأ فى ختام هذه النصائح حديث شجى عن الله ولقائه ، والكون وخالقه ! . وأذكر أن الدكتور أحمد زكى وصف الكون بشموسه وأقماره : بأنه كون راقص ، كل شيء فيه يتحرك ! من شروق إلى غروب ، ومن علو إلى هبوط ، إنه يتحرك وفق نغم معين لا فوضى فيه ولا نشاز . وكل دقيقة تمر تشهد بعظمة صاحبه ، وتنطق بعلو قدره . ومع ذلك فلا أدرى لم أنا مبهور بخلق الإنسان ؟ تائه فى أسرار القدرة الكامنة فى خلقه ؟ نظرت تحت الساعة الموضوعة بمعصم يدى اليسرى ! كانت ضاغطة قليلا على

الجلد ، أثر ذلك

فى الشعيرات الدموية قليلا ، لم يؤثر فى قنوات الأعصاب التى تحمل الإحساس ، ولا فى أفواه الغدد التى تمد الشعر بالغذاء ، ولا فى الخلايا التى تفرز العرق ! ! . وتتابع فكرى فى هذا الجسم كله وأجهزته العاملة ، وكيانه المتجدد كما يقول ! العلماء ، إن مئات الملايين من الخلايا تعمل مؤدية وظيفتها بدأب ونظام ، وتحدد لأبناء آدم مسيرتهم فى هذه الحياة ! ! أتدرى خلية فى المخ أو فى الأصابع ما تعمل ؟ ليس لكرات الدم البيضاء أو الحمراء أو لغيرها من أعضاء الجسد عقل تهتدى به ! . إن بارئها أودع فيها وظيفتها ودفعها فى مسارها ، فما تحيد عنه يمنة أو يسرة . أذلك ليوم واحد ؟ كلا ! إنه لعمر مكتوب لا يزيد ولا ينقص ! . أذلك فى شخص واحد يتركز الاهتمام فيه ؟ كلا ، إنه فى أكثر من خمسة مليارات شخص يتوزع الاهتمام عليها ، فما يقل فى أحد عن آخر ! . ألا يصرخ ذلك بعظمة البارئ الأعلى ؟ إن كل فرد ، بل كل ذرة ، شاهد صدق على عظمة الله ! .

ونظرت فى سورة "سبحان" فإذا الله. جل شأنه. يخاطب المشركين بحديث عجب: " ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا * قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا * تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون

تسبيحهم إنه كان حليما غفورا" ولست أحقق هنا : هل تسبيح الكائنات بحمد ربها دلالة حال أو دلالة مقال ؟ . إن الكون ـ على أية حال ـ لا يقوم بنفسه ، وإنما يقوم به الحى القيوم ! ! . وإذا صعب على مغفل أن يعرف الله ، وأن يقر بوحدانيته فلن يضر الله شيئًا ، فكل شئ يسبح بحمده ! . ومضت السورة تحدث المشركين عن الله الذى

هجروه ، واتخذوا الأصنام آلهة من دونه ، إنهم ذاهلون تائهون ، لا يحبون أن يسمعوا حديثا عنه ! . وهم يحسبون الرسول رجلا مسحورا ، وهم يعتقدون أنه لا حياة إلا فى هذه الدنيا ، وتلك طبيعة الدواب ! إن الدواب لا تشعر بغد قريب أو بعيد ، إنها تعيش يومها وحسب ، هى محبوسة وراء محيطه . والغريب أن العالم المعاصر لا يدرى إلا هذا المنطق ، وهو يشيعه فى عالم الفن والغناء ، وعالم القانون والفلسفة ! ! " وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا * قل كونوا حجارة أو حديدا

أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا * يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا . . . " والإنغاض: تحريك الرأس علوا وسفلا إنكارا واستهزاء . . وفى موضع آخر من السورة تكرر رفض المشركين للبعث والجزاء ، فبين القرآن الكريم أن الإنسان امتاز على الدواب بعقله ، فإذا فقد هذا العقل نظر ولم ير ، وسمع ولم يع ، ونطق بالباطل ، وفقد أهليته لهداية الله ، وعالن بإنكاره لوجوده ولقائه: " ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا * ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا * أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا " . وفى سورة بنى إسرائيل لا غرابة أن يوصى الله المسلمين بإحسان القول ، ففى وصايا الله لليهود "وقولوا للناس حسنا " فليكن الإحسان فى القول والتلطف فى الدعوة شيمة الأمة الخاتمة ! " وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا " . . وتلت ذلك إشارة إلى أن أمر المسلمين سوف يعلو حتى يرثوا الأرض ، وذلك فى قوله تعالى: "وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا " إن الزبور الذى نزل على داود يقول الله

فيه " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون " ، فإيثار داود بالذكر لفت نظر لهذه الإشارة الدالة على خلود أمتنا واتصال رسالتها . والحق أن التوحيد الذى تميزت رسالة الإسلام بتقريره ، وتحمست لإشاعته ، يربط الناس بربهم ربطا شديدا ، ويجعل عروتهم به وثيقة ، ويقرر أن كل ما عدا الله عبد له ،

مقهور فى جلاله: " قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا " .

واقتضى المقام هنا حديثا عن آدم وبنيه ! لقد كان آدم جديرا بأن يكون أفضل حالا ومآلا بعد ما اصطفاه الله وأعلى شأنه ، وأسجد له ملائكته . وكان بنوه جديرين بأن يكذبوا ظنون إبليس ، بعد ما أفاء الله عليهم من نعمائه ما يلهج الألسنة بالشكر " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . . . " لكن آدم وهن عزمه ، وأبناءه نسوا الجميل الذى يمرحون فيه ، فلم يكن من مؤاخذتهم بد ، وجاء فى هذا القرآن من شأنهم ما يثير الدهشة ، فلنتدبره لنعرف كيف

نفعل . . ؟ ! إن الله منحنا العقول لنفكر ونحكم ، ونميز الحسن من القبيح والطيب من الخبيث ، وما قيمة عقولنا إذا لم نفعل ذلك ؟ . وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ! إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟ . وعندما نقول لرجل : واحد وواحد تساوى اثنين ، فيقول لك : لا أصدق حتى تنقل الجبل من مكانه ، أفترى أن لهذا القائل منطقا جديرا باحترام ؟ . إن محمدا رسول الله بذل جهده فى إثبات أن الله واحد ، وأن وجوده الأعلى أصدق من كل وجود ، فقيل له : بل أصنامنا أولى بالتقدير ! وتحدوه أن يأتى بمعجزة تصدقه ! . ولو أن هؤلاء أصحاب نفوس سوية وعقول سليمة لجاز أن يتنزل القدر الأعلى ويجيبهم إلى ما يريدون ، المشكلة أن كفرهم يبقى بعد ما يجابون " . . . فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون " ؟ . لقد طلب أهل مكة من محمد أن يجعل الصفا ذهبا ، حتى يصدقوا رسالته ! فكيف إذا حول لهم الجبل إلى ذهب ثم ظلوا على تكذيبهم ؟ إنه مهلكهم يقينا ، إن اللعب مع السماء لا يسوغ . وفى هذه السورة " الإسراء " يقول الله تعالى : " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا

ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا " . على أن قريشا لم تطلب خارقة ما ، بل حددت بضع خوارق عدتها عدا " وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا " ؟ .

الواقع أن الله لو حقق لهم ما يطلبون ما خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، كما قال فى مكان آخر : " ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون " . إن العناد ملك قلوبهم ، وليس الكفر عرضا سريعا يمر ببعض الناس ، إنه مزيج من الحسد والغباء ، والطمع والأثرة ، والبعد عن الكفر يتطلب عقلا واعيا ، وحكما عادلا ، وخلقا زاكيا . والمعركة بين الكفر والإيمان ليست جولة سريعة ، إنها صراع يظل سنين " ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة . . " ! ! " فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا * ومن كان في هذه أعمى فهو

في الآخرة أعمى وأضل سبيلا" . ومحمد .عليه الصلاة والسلام. إمام أولى العزم الذين جاهدوا الضلال الأزمنة الماضية ، وهو فى الجزيرة العربية لن ينشغل بمآرب كفارها ومقترحاتهم ، فرسالته العامة إصلاح الخلل فى كل نفس ، فى أية قارة ، إلى أن تقوم الساعة . ويزيد عبؤه جسامة إلى أنه يعتمد فى نجاحه. بعد تأييد الله. على تحريك العقول وهز التقاليد ، ومعالجة العوج البشرى بالهوينى ، حتى يسلس قياده ! ويالها من مهمة ! ! . هؤلاء كبراء يرفضون أن تجمعهم مع جماهير الناس ساحة ، وقديما قالوا لنوح: "أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين" . إنهم يطلبون من محمد أن يجعل لهم مكانة خاصة إذا أراد أن يؤمنوا له ! ! . وقد ينفق من وقته واهتمامه الكثير ليعالج زعيما إذا آمن تبعته ألوف من الأنصار ! وربما أخذ هذا الوقت من حق آخر فقير . . ! وفى هذا يقول الله له: "وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلا * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا" . إن سياسة الدعوة شئ ، والانحرافات الخلقية شئ آخر ، وقد عاتب الله نبيه

لانشغاله بأحد الكبراء عن أحد الضعفاء . والسياق كله تنبيه إلى كيدهم وتحذير من ملاينتهم . . . وتلا ذلك كشف عن خباياهم وعما يبيتون لدعوة الإسلام من شرور " وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا " إنهم أحرجوه فى مكة كل الحرج ، وكانوا قد رأوا إخراجه ، ثم اختاروا قتله . وقد خرج الرسول مهاجرا ، ونجاه الله من كيدهم ، ولم يلبثوا إلا قليلا بعده حتى انتصر الإسلام وعاد إلى مكة ظافرا . . . وصدق الله وعده . وبعد جهاد الدعوة جاء جهاد العبادة ، فكلف الرسول بالصلاة ليلا ونهارا " أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا " . إننى ألفت كتابى " فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء " وقد تملكنى شعور بأن الأرض من الأزل إلى الأبد لم تشهد ذاكرا عابدا متفننا فى الثناء على الله وتمجيده وتقديسه كما رأت ذلك فى سيرة محمد -عليه الصلاة والسلام- وآثاره فى كتابه وسنته ناطقة بهذه الحقيقة ! . إن محمدا كلمة الله الأخيرة إلى الناس ، واللبنة التى تم بها بنيان النبوات الأولى ، وقد كان أهل الكتاب يشعرون بأن هناك نبيا قادما ، ويجدون فيما لديهم ما يدعو إلى ارتقابه وتصديقه . فلما جاء سارع المخلصون إلى اتباعه ، قال تعالى: " وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا * وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى

عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا " .

والتاريخ العالمى يذكر أن نصارى الشام ومصر سارعوا إلى الدخول فى الإسلام بعد زوال الاستبداد الرومانى ، ثم حملوه مع العرب إلى آفاق العالمين ، مصداق هذه الآيات الكريمة ، وإشارة بصدق هذا الجمهور الكبير من أهل الكتاب الذين آمنوا وأخلصوا . . . . انتهى

انتهى . اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 217. 227﴾

(262/448)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والأربعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/449)

الجزء التاسع والأربعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 1 ﴾ نفس الآية

(4/449)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/449)

"فصل"

قال السيوطى :

سورة بني إسرائيل

اعلم أن هذه السورة والأربع بعدها من قديم ما أنزل أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء (من العتاق الأول ، وهن من تلادى) وهذا وجه في ترتيبها ، وهو اشتراكها في قدم النزول ، وكونها مكيات ، وكونها مشتملة على القصص وقد ظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل: أنه سبحانه لما قال في آخر النحل: (إِنما جعلَ السبت على الذين اختلفوا فيه) فسر في هذه شريعة أهل السبت وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم في التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن إبن عباس أنه قال: (التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل) وذكر عصيانهم وفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استفزازهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون: وأخبر أن استفزازهم للنبي صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم ، ووقع ذلك أيضاً ولما كانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى اسرى بالمصطفى إليه ، تشريفاً له بحلول ركابه الشريف فلله الحمد على ما ألهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 113﴾

قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

لما كان مقصود النحل التنزه عن الاستعجال وغيره من صفات النقص ، والاتصاف بالكمال المنتج لأنه قادر على الأمور الهائلة ومنها جعل الساعة كلمح البصر أو أقرب ، وختمها بعد تفضيل إبراهيم عليه السلام والأمر باتباعه بالإشارة إلى نصر أوليائه – مع ضعفهم في ذلك الزمان وقلتهم – على أعدائه على كثرتهم وقوتهم ، وكان ذلك من خوارق العادات ونواقص المطردات ، وأمرهم بالتأني والإحسان ، افتتح هذه بتحقيق ما أشار الختم إليه بما خرقه من العادة في الإسراء ، وتنزيه نفسه الشريفة من توهم استبعاد ذلك ، تنبيهاً على أنه قادر على أن يفعل الأمور العظيمة الكثيرة الشاقة في أسرع وقت ، دفعاً لما قد يتوهم أو يتعنت به من يسمع نهيه عن الاستعجال وأمره بالصبر ، وبياناً لأنه مع المتقي المحسن ، وتنويهاً بأمر محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وإعلاماً بأنه رأس المحسنين

وأعلاهم رتبة وأعظمهم منزلة ، بما آتاه من الخصائص التي منها المقام المحمود ، وتمثيلاً لما أخبر به من أمر الساعة فقال تعالى : ﴿ سبحان ﴾ وهو علم للتنزيه ، دال على أبلغ ما يكون من معناه ، منصوب بفعل متروك إظهاره ، فسد مسده ﴿ الذي أسرى ﴾ فنزه نفسه الشريفة عن كل شائبة نقص يمكن أن يضفيها إليه أعداؤه بهذا اللفظ الأبلغ عقب الأمر بالتأني آخر النحل .

كما نزه نفسه الشريفة بذلك اللفظ عقب النهي عن الاستعجال في أولها ، وهو راد لما علم من ردهم عليه وتكذيبهم له إذا حدثهم عن الإسراء ، وفيه مع ذلك إيماء إلى التعجيب من هذه القصة للتنبيه على أنها من الأمور البالغة في العظمة إلى حد لا يمكن استيفاء وصفه .

(7/449)

ولما كان حرف الجر مقصوراً على إفادة التعدية في " سرى " الذي بمعنى أسرى وكان أسرى يستعمل متعدياً وقاصراً عبر به ، واختير القاصر للدلالة على المصاحبة زيادة في التشريف فقال تعالى : ﴿ بعبده ﴾ أي الذي هو أشرف عباده وأحقهم بالإضافة إليه الذي لم يتعبد قط لسواه من صنم ولا غيره لرجاء شفاعة ولا غيرها .

(8/449)

ولما كان الإسراء هو السير في الليل ، وكان الشيء قد يطلق على جزء معناه بدلالة التضمن مجازاً مرسلاً ، نفي هذا بقوله تعالى : ﴿ ليلاً ﴾ وليدل بتنوين التحقير على أن هذا الأمر الجليل كان في جزء يسير من الليل ، وعلى أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج - في الإسراء والعروج إلى سدرة المنتهى وسماع الكلام من العلي الأعلى - إلى رياضة بصيام ولا غيره ، بل كان مهيئاً لذلك متأهلاً له ، فأقامه تعالى من الفرش إلى العرش ﴿ من المسجد الحرام ﴾ أي من الكعبة المشرفة مسجد إبراهيم عليه السلام ، قيل : كان نائماً في الحطيم ، وقيل : في الحجر ، وقيل : في بيت أم هانىء - وهو قول الجمهور ، فالمراد بالمسجد حينئذ الحرم لأنه فناء المسجد ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ أي الذي هو أبعد المساجد حينئذ وأبعد المسجدين الأعظمين مطلقاً من مكة المشرفة ، بينهما أربعون ليلة ، فصلى بالأنبياء كلهم : إبراهيم وموسى ومن سواهما - على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ، ورأى من آياتنا ما قدرناه له ، ورجع إلى بين أظهركم إلى المسجد الأقرب منكم في ذلك الجزء اليسير من الليل وأنتم تضربون أكباد الإبل في هذه المسافة شهراً ذهاباً وشهراً إياباً ، ثم وصفه بما يقتضي تعظيمه وأنه أهل للقصد فقال تعالى : ﴿ الذي باركنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، بالمياه والأشجار وبأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والأرزاق والبركات ﴿ حوله ﴾ أي لأجله فما ظنك به نفسه ! فهو أبلغ من " باركنا فيه " ثم منه إلى

السماوات العلى إلى سدرة المنتهى إلى ما لم ينله بشر غيره صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل وعظم دائماً أبداً ؛ ولعله حذف ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور فهومهم عن إدراك أدلته لو أنكروه بخلاف الإسراء ، فإنه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الأمارات التي وصفها لهم وهم قاطعون بأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يرها قبل ذلك ، فلما بان صدقه بما ذكر من الأمارات

أخبر بعد ذلك من أراد الله بالمعراج ؛ ثم ذكر سبحانه الغرض من الإسراء بما يزيد في تعظيم المسجد فقال : ﴿ لنريه ﴾ بعينه وقلبه ﴿ من ءاياتنا ﴾ السماوية والأرضية كما أرينا أباه الخليل عليه السلام ملكوت السماوات والأرض ، وجعل الالتفات لتعظيم الآيات والبركات ؛ روى البخاري عن أبي هريرة . رضى الله عنهم . قال : أتى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة أسري به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن ، فنظر إليهما فأخذ اللبن فقال جبرئيل عليه السلام : الحمد لله الذي هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك .

وعن جابر . رضى الله عنهم . سمعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : " لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا

أنظر إليه " .

ولما كان المعول عليه غالباً في إدراك الآيات حس السمع والبصر ، وكان تمام الانتفاع بذلك إنما هو بالعلم ، وكان سبحانه قد خص هذا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من كمال الحس مما يعد معه حس غيره عدماً ، عبر عن ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي هذا العبد الذي اختصصناه بالإسراء ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ السميع ﴾ أي أذناً وقلباً بالإجابة لنا والإذعان لأوامرنا ﴿ البصير ﴾ بصراً وبصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات ، وصدقه من الدلالات ، حين نعت ما سألوه عنه من بيت المقدس ومن أمر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور في قصة الإسراء مما كان يراه وهو ينعت لهم وهم لا يرونه ولا يقاربون ذلك ولا يطمعون فيه ، وقال من كان دخل منهم إلى بيت المقدس : أما النعت والله فقد أصاب ، أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها ، وأحوالها وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق ، فخرجوا ذلك اليوم نحو الثنية يشتدون ، فقال قائل : هذه والله الشمس قد طلعت ، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت ، يقدمها جمل أورق كما قال محمد ، ثم لم يؤمنوا وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين .

قال الإمام الرازي في اللوامع : وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم أبصر جميع ما في الملكوت بالعين المبصرة مشاهدة لم يسترب فيه حتى روي أنه قال : " رأيت ليلة أسري بي إلى العلى الذرة تدب على وجه الأرض من سدرة المنتهى " وذلك لحدة بصره ، والبصر على أقسام : بصر الروح ، وبصر العقل الذي منه التوحيد ، وبصر القربة الذي خص به الأولياء وهو نور الفراسة ، وبصر النبوة ، وبصر الرسالة .

وهذه الأبصار كلها مجموعة لرسولنا صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل وعظم دائماً أبداً ، وله زيادة بصر قيادة الرسل وسيادتهم ، فإنه سيد المرسلين وقائدهم ، وكان مطلعاً على الملك والملكوت كما قال : زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها – انتهى . وهذا الأخير رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن ثوبان .رضى الله عنهم .أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها " وكان يبصر من ورائه كما يبصر من أمامه – كما أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أنس .رضى الله عنهم . ، وفي كثير من طرقه عدم التقييد بالصلاة ، وهذا صريح في أن بصره لم يكن متقيداً بالعين ، بل خلق الله تعالى الأبصار في جميع أعضائه وكذا السمع ، فإن كون العين محلاً لذلك وكذا الأذن إنما هو بجعل الله ، ولو جعل ذلك في غيرهما لكان كما يريد سبحانه ولا مانع ، ولم يكن الظلام يمنعه من نفود البصر ففي مسند أحمد عن جابر بن عبد الله .رضى الله عنهما .قال : فقدت رحلي ليلة فمررت على رسول الله صلى الله عليه

وعلى آله وسلم وهو ينشد لعائشة ـ رضى الله عنهم ـ ا ، فقال : ما لك يا جابر ؟ فقلت : فقدت جملي أو ذهب في ليلة ظلماء ، فقال لي : هذا جملك ، اذهب فخذه ، فذهبت نحو ما قال لي ، فلم أجده فرجعت إليه فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! ما وجدته ، فقال لي : على رسلك ، حتى إذا فرغ أخذ بيدي فانطلق حتى أتينا الجمل فدفعه إليّ ، قال : هذا جملك – الحديث .

(11/449)

وروى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يرى بالليل في الظلمة كمل يرى بالنهار في الضوء ، وروي مثل ذلك عن عائشة ـ رضى الله عنهم ـ ا ، وقال القاضي عياض في الشفا : حكى بقي بن مخلد عن عائشة ـ رضى الله عنهم ـ ا قالت ، كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يرى في الظلمة كما يرى في الضوء ، وأسند عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : لما تجلى الله لموسى عليه الصلاة والسلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ .

وجوز أن يكون اختصاص نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذلك بعد الإسراء –

انتهى .

وقد أخرج حديث أبي هريرة هذا الحافظ نور الدين الهيثمي في زوائد المعجمين : الأوسط والأصغر للطبراني ، ولعل هذا من مناسبة تعقيب هذه الآية بذكر موسى عليه السلام .

(12/449)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم قوله ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ الآية ، كان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم عليه السلام على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى جميع الأنبياء لا سيما مع الأمر بالاتباع ، فأعقب ذلك بسورة الإسراء ، وقد تضمنت من خصائص نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وانطوت على ما حصل منه المنصوص في الصحيح والمقطوع به والمجمع عليه من أنه – صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل وعظم – سيد ولد آدم ، فاستفتحت السورة بقصة الإسراء وقد تضمنت – حسبما وقع في صحيح مسلم وغيره – إقامته بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفيهم إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء من غير استثناء ، هذه رواية ثابت عن أنس .رضى الله عنهم . ، وفي حديث أبي هريرة .رضى الله عنهم . ، أنه – صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم

وبجل وعظم دائماً أبداً - أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ القرآن فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي وسطاً وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً، فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ وفي رواية أبي هريرة. رضى الله عنهم. من طريق الربيع بن أنس وذكر سدرة المنتهى وأنه تبارك وتعالى قال له: سل! فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين والرياح، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص، وأعذته وأمه من

الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل، فقال له ربه تبارك وتعالى: قد اتخذتك حبيباً فهو مكتوب في التوراة - " محمد حبيب الرحمن " وأرسلتك إلى الناس كافة،

وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون .

وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي ، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً ، وأعطيتك سبعاً من المثاني ولم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك خواتم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك ، وجعلتك فاتحاً وخاتماً .

وفي حديث شريك أنه رأى موسى عليه السلام في السماء السابعة قال : بتفضيل كلام الله ، قال : ثم علا به فوق ذلك ما لا يعلمه إلا الله ، فقال موسى : لم أظن أن يرفع عليّ أحد .

وفي حديث علي بن أبي طالب. رضى الله عنهم. خرجه البزار " في ذكر تعليمه عليه الصلاة والسلام الأذان وخروج الملك فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : يا جبريل ! من هذا ؟ قال : والذي بعثك بالحق ! إني لأقرب الخلق مكاناً ، وإن هذا الملك ما رأيته قط منذ خلقت قبل ساعتي هذه .

وفيه : ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقدمه ، فأم بأهل السماء فيهم آدم ونوح " ، وفي هذا الحديث قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين راويه : فيومئذ أكمل الله لمحمد – صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل وعظم – الشرف

على أهل السماوات والأرض ؛ قال ابن الزبير : وقد حصل منه تفضيله صلى الله عليه وعلى آله وسلم – وشرف وكرم وبجل وعظم دائماً أبداً – بالإسراء وخصوصه بذلك ، ثم قد انطوت السورة على ذكر المقام المحمود ، وهو مقامه في الشفاعة الكبرى ، وذلك مما خص به حسبما ثبت في الصحيح وانعقد عليه إجماع أهل السنة ، ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه صلى الله عليه وعلى آله وسلم – وشرف وكرم وبجل وعظم دائماً أبداً – الذي فضل به كافة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام مثل ما تضمنت هذه والحمد لله – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 327 . 333 ﴾

(15/449)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ يتخذوا ﴾ بياء الغيبة . أبو عمرو وعباس مخيراً . الباقون بتاء الخطاب ﴿ أساتم ﴾ بالمد : أبو عمرو ويزيد الأصبهاني عن ورش والأعشى وحمزة في الوقف . ﴿ ليسوء ﴾ بياء الغيبة على التوحيد : ابن عامر وحمزة وأبو بكر وحماد و ﴿ لنسوء ﴾ بالنون : علي . الباقون ﴿ ليسؤوا ﴾ على الجمع ﴿ ويبشر ﴾ مخففاً : حمزة وعلي . ﴿

ويخرج ﴾ بالياء مجهولاً : يزيد ﴿ ويخرج ﴾ لازماً : يعقوب الآخرون بالنون متعدياً ﴿ تلقاه ﴾ مشدداً : ابن عامر ويزيد ، وروى النقاش عن ابن ذكوان بالإمالة . الباقون مخففة ، وقرأ حمزة وعلي وخلف بالإمالة ﴿ قرأ كتابك ﴾ بغيرهم : الأعشى وأوقية وحمزة في الوقف : ﴿ أمرنا ﴾ من باب المفاعلة : يعقوب .

الوقوف : ﴿ آياتنا ﴾ ط ﴿ البصير ﴾ 5 ﴿ وكيلاً ﴾ ط لمن قرأ ﴿ تتخذوا ﴾ بتاء الخطاب لإمكان أن يجعل ﴿ ذرية ﴾ منادى ﴿ نوح ﴾ ط ﴿ شكوراً ﴾ 5 ﴿ كبيراً ﴾ 5 ﴿ الديار ﴾ ط ﴿ مفعولاً ﴾ 5 ﴿ نفيراً ﴾ 5 ﴿ فلها ﴾ ط لأن ما بعد عائد إلى قوله ﴿ فإذا جاء وعد أولادهما ﴾ مع اعتراض العوارض ﴿ تتبيراً ﴾ 5 ﴿ يرحمكم ﴾ 5 للابتداء بالشرط مع العطف ﴿ عدنا ﴾ 5 حذراً من توهم العطف ﴿ حصيراً ﴾ 5 ﴿ كبيراً ﴾ 5 لا للعطف ﴿ أليما ﴾ 5 ﴿ بالخير ﴾ ط ﴿ عجولاً ﴾ 5 ﴿ والحساب ﴾ ، ط ﴿ تفصيلاً ﴾ 5 ﴿ عنقه ﴾ ط ﴿ منشوراً ﴾ 5 ﴿ كتابك ﴾ ط ﴿ حسيباً ﴾ 5 ط للابتداء بعد بالشرط ﴿ لنفسه ﴾ ج للشرط مع العطف ﴿ عليها ﴾ ط ﴿ أخرى ﴾ ط ﴿ رسولاً ﴾ 5 ﴿ تدميراً ﴾ 5 ﴿ نوح ﴾ ط ﴿ بصيراً ﴾ 5 ﴿ جهنم ﴾ ج لاحتمال ما بعده الحال والاستئناف ﴿ مدحوراً ﴾ 5 ﴿ مشكوراً ﴾ 5 ﴿ عطاء ربك ﴾ ط ﴿ محظوراً ﴾ 5 ﴿ بعض ﴾ ط ﴿ تفصيلاً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 322 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

سورة بني إسرائيل

عددها : مائة آية وعشر آيات

عن ابن عباس أنها مكية ، غير قوله : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ﴾ [الإسراء : 71] إلى قوله : ﴿ واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ [الإسراء : 80] فإنها مدنيات ، نزلت حين جاء وفد ثقيف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ .

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال النحويون : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ اسم علم للتسبيح يقال : سبحت الله تسبيحاً وسبحاناً ، فالتسبيح هو المصدر ، وسبحان اسم علم للتسبيح كقولك : كفرت اليمين تكفيراً وكفراناً وتفسيره تنزيه الله تعالى من كل سوء .

قال صاحب "النظم" : السبح في اللغة التباعد ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً ﴾ [المزمل : 7] أي تباعداً فمعنى : سبح الله تعالى ، أي بعده ونزهه عما لا ينبغي وتمام المباحث العقلية في لفظ التسبيح قد ذكرناها في أول سورة الحديد ، وقد جاء في لفظ التسبيح معان آخرى : أحدها : أن التسبيح يذكر بمعنى الصلاة ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين ﴾ [الصافات : 143] أي من المصلين ، والسبحة الصلاة النافلة ، وإنما قيل للمصلي مسبح ، لأنه معظم لله بالصلاة ومنزه له عما لا ينبغي .

وثانيها : ورد التسبيح بمعنى الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبّحُونَ ﴾ [القلم : 28] أي تستثنون وتأويله أيضاً يعود إلى تعظيم الله تعالى في الاستثناء بمشيئته .

وثالثها : جاء في الحديث : " لأحرقت سبحات وجهه ما أدركت من شيء " قيل معناه نور وجهه ، وقيل : سبحات وجهه ، نور وجهه الذي إذا رآه الرائي قال : سبحان الله ، وقوله : ﴿ أسرى ﴾ قال أهل اللغة : أسرى وسرى لغتان : وقوله : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام ، وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال : سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري قال : لما وصل محمد صلوات الله عليه إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في العارج أوحى الله تعالى إليه : يا محمد بم أشرفك ؟ قال : ﴿ رب بأن تنسبني إلى نفسك بالعبودية ﴾ فأنزل الله فيه : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ وقوله : ﴿ لَيْلاً ﴾ نصب على الظرف .

فإن قيل : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟

قلنا : أراد بقوله : ﴿ لَيْلاً ﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية ، واختلفوا في ذلك الليل قال مقاتل : كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة ، ونقل صاحب "الكشاف" عن أنس والحسن أنه كان ذلك قبل البعثة .

وقوله : ﴿ مّنَ المسجد الحرام ﴾ اختلفوا في المكان الذي أسرى به منه ، فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الذي يدل عليه ظاهر لفظ القرآن ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق

" وقيل أسري به من دار أم هانيء بنت أبي طالب .

(18/449)

والمراد على هذا القول بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به ، وعن ابن عباس الحرم كله مسجد ، وهذا قول الأكثرين وقوله : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ اتفقوا على أن المراد منه بيت المقدس وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام وقوله : ﴿ الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قيل بالثمار والأزهار ، وقيل بسبب أنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة .

واعلم أن كلمة ﴿ إلى ﴾ لانتهاء الغاية فمدلول قوله : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ أنه وصل إلى حد ذلك المسجد فأما أنه دخل ذلك المسجد أم لا فليس في اللفظ دلالة عليه ، وقوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ يعني ما رأى في تلك الليلة من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى .

فإن قالوا : قوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ يدل على أنه تعالى ما أراه إلا بعض الآيات ، لأن كلمة ﴿ مِنْ ﴾ تفيد التبعيض ، وقال في حق إبراهيم : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ

السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] فيلزم أن يكون معراج إبراهيم عليه السلام أفضل من معراج محمد صلى الله عليه وسلم .

قلنا : الذي رآه إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، والذي رآه محمد صلى الله عليه وسلم بعض آيات الله تعالى ، ولا شك أن آيات الله أفضل .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ أي أن الذي أسرى بعبده هو السميع لأقوال محمد ، البصير بأفعاله ، العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء ، مقرونة بالصدق والصفاء ، فلهذا السبب خصه الله تعالى بهذه الكرامات ، وقيل : المراد سميع لما يقولون للرسول في هذا الأمر ، بصير بما يعملون في هذه الواقعة .

المسألة الثانية :

اختلف في كيفية ذلك الإسراء فالأكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأقلون قالوا : إنه ما أسري إلا بروحه حكي عن محمد بن جرير الطبري في "تفسيره" عن حذيفة أنه قال ذلك رؤيا .

وأنه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أسري بروحه ، وحكي هذا القول أيضاً عن عائشة رضي الله عنها ، وعن معاوية رضي الله عنه .

واعلم أن الكلام في هذا الباب يقع في مقامين : أحدهما : في إثبات الجواز العقلي .

الثاني : في الوقوع .

أما المقام الأول : وهو إثبات الجواز العقلي ، فنقول : الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها والله تعالى قادر على جميع الممكنات ، وذلك يدل على أن حصول الحركة في هذا الحد من السرعة غير ممتنع ، فنفتقر ههنا إلى بيان مقدمتين :

المقدمة الأولى : في إثبات أن الحركة الواقعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها ويدل عليه وجوه :

الوجه الأول : أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور وقد ثبت في الهندسة أن نسبة القطر الواحد إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع ، فيلزم أن تكون نسبة نصف القطر إلى نصف الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع وبتقدير أن يقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم فهو لم يتحرك إلا بمقدار نصف القطر فلما حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان ، فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه ، وإذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أولى بالإمكان ، والله أعلم .

الوجه الثاني : وهو أنه ثبت في الهندسة أن قرص الشمس يساوي كرة الأرض مائة وستين وكذا مرة ثم إنا نشاهد أن طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع ، وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن في نفسه .

(20/449)

الوجه الثالث : أنه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش ، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش إلى مركز العالم ، فإن كان القول بمعراج محمد صلى الله عليه وسلم في الليلة الواحدة ممتنعاً في العقول ، كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة والسلام من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعاً ، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة ، فثبت أن القائلين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحد ، يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه الصلاة والسلام في اللحظة من العرش إلى مكة ، ولما كان ذلك باطلاً كان ما ذكروه أيضاً باطلاً .

فإن قالوا : نحن لا نقول إن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ينتقل من مكان إلى مكان ، وإنما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد

صلى الله عليه وسلم حتى يظهر في روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضراً متجلياً في ذات جبريل عليه الصلاة والسلام .

(21/449)

قلنا : تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء ، فأما جمهور المسلمين فهم مقرون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة ، وإذا كان كذلك كان الإلزام المذكور قوياً ، روي أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له : إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر : إن كان قد قال ذلك فهو صادق ، ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل ، فكلما ذكر شيئاً قال أبو بكر صدقت فلما تم الكلام قال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله حقاً ، فقال له الرسول : وأنا أشهد أنك الصديق حقاً ، وحاصل الكلام أن أبا بكر رضي الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا ؟

الوجه الرابع : أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس ويسلمون أنه هو الذي يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم ، ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل

إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم ، فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الأنبياء كان أولى ، وهذا الإلزام قوي على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان ، أما الذين يقولون إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني ، فهذا الإلزام غير وارد عليهم ، إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل .

فإن قالوا : هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأنهم أجسام لطيفة ، ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها ، أما الإنسان فإنه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه ؟

(22/449)

قلنا : نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد ممكن في نفس الأمر ، وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضاً ممكنة الحصول في جسم البدن الإنساني ، فذاك مقام آخر سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى

الوجه الخامس : أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى

المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام :

﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12] بل نقول : الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة ، وذلك أيضاً يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة .

الوجه السادس : أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى : ﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الكتاب أَنَاْ ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

[النمل : 40] وإذا كان ممكناً في حق بعض الناس ، علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود .

الوجه السابع : إن من الناس من يقول : الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر ثم إنا إذا فتحنا العين ونظرنا إلى رجل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل في تلك اللحظة اللطيفة ، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السريعة من الممكنات لا من الممتنعات ، فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه .

المقدمة الثانية : في بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون حصولها في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممتنعاً ، والذي يدل عليه أنا بينا بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهياتها ، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام ، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد صلى الله عليه وسلم أمر ممكن الوجود في نفسه .

وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن ، فوجب كونه تعالى قادراً عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه ، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب ، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام ، بل هو حاصل في جميع المعجزات ، فانقلاب العصا ثعباناً تبلغ سبعين ألف حبل من الحبال والعصي ، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب ، وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصم ، وإظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب ، وكذا القول في جميع المعجزات فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع ، لزم الجزم بفساد القول بإثبات المعجزات وإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال فكذا ههنا ، فهذا تمام القول في بيان أن القول بالمعراج ممكن غير ممتنع ، والله أعلم .

المقام الثاني : في البحث عن وقوع المعراج قال أهل التحقيق : الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر ، أما القرآن فهو هذه الآية ، وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح .

(24/449)

واعلم أن هذا الاستدلال موقوف على أن الإنسان هو الروح وحده أو الجسد وحده أو مجموع الجسد والروح ، أما القائلون بأن الإنسان هو الروح وحده ، فقد احتجوا عليه بوجوه : أحدها : أن الإنسان شيء واحد باق من أول عمره إلى آخر ، والأجزاء البدنية في التبدل والتغير والانتقال والباقي غير متبدل ، فالإنسان مغاير لهذا البدن .

وثانيها : إن الإنسان قد يكون عارفاً بذاته المخصوصة حال ما يكون غافلاً عن جميع أجزائه البدنية ، والمعلوم مغاير للمغفول عنه ، فالإنسان مغاير لهذا البدن .

وثالثها : أن الإنسان يقول بمقتضى فطرته السليمة يدي ورجلي ودماغي وقلبي ، وكذا القول في سائر الأعضاء فيضيف كلها إلى ذاته المخصوصة والمضاف غير المضاف إليه فذاته المخصوصة وجب أن تكون مغايرة لكل هذه الأعضاء .

فإن قالوا : أليس أنه يضيف ذاته إلى نفسه ، فيقول ذاتي ونفسي فيلزمكم أن تكون نفسه مغايرة لذاته ، وهذا محال .

قلنا : نحن لا نتمسك بمجرد اللفظ حتى يلزمنا ما ذكرتموه ، بل إنما نتمسك بمحض العقل ، فإن صريح العقل يدل على أن الإنسان موجود واحد وذلك الشيء الواحد يأخذ بآلة اليد ويبصر بآلة العين ، ويسمع بآلة الأذن فالإنسان شيء واحد ، وهذه الأعضاء آلات له في هذه الأفعال ، وذلك يدل على أن الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والآلات ، فثبت بهذه الوجوه أن الإنسان شيء مغاير لهذه البنية ولهذا الجسد .

إذا ثبت هذا فنقول : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ المراد من العبد جوهر الروح وعلى هذا التقدير فلم يبق في الآية دلالة على حصول الإسراء بالجسد .

فإن قالوا : فالإسراء بالروح ليس بأمر مخالف للعادة ، فلا يليق به أن يقال : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ .

(25/449)

قلنا : هذا أيضاً بعيد ، لأنه لا يبعد أن يقال : إنه حصل لروحه من أنواع المكاشفات والمشاهدات ما لم يحصل لغيره ألبتة ، فلا جرم كان هذا الكلام لائقاً به ، فهذا تقرير وجه

السؤال على الاستدلال بهذه الآية في إثبات المعراج بالروح والجسد معاً .

والجواب : أن لفظ العبد لا يتناول إلا مجموع الروح والجسد ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الذي ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ [العلق : 9 ، 10] ولا شك أن المراد من العبد ههنا مجموع الروح والجسد .

وقال أيضاً في سورة الجن : ﴿ وَأَنَّهُ لَّمَا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن : 19] والمراد مجموع الروح والجسد فكذا ههنا ، وأما الخبر فهو الحديث المروي في الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ، ثم منه إلى السموات ، واحتج المنكرون له بوجوه : أحدها : بالوجوه العقلية وهي ثلاثة : أولها : أن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة .

وثانيها : أن صعود الجرم الثقيل إلى السموات غير معقول .

وثالثها : أن صعوده إلى السموات يوجب انخراق الأفلاك ، وذلك محال .

والشبهة الثانية : أن هذا المعنى لو صح لكان أعظم من سائر المعجزات وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه في ادعاء النبوة ، فأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه أحد ولا يشاهده أحد ، فإنه يكون ذلك عبثاً ، وذلك لا يليق بالحكيم .

والشبهة الثالثة : تمسكوا بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ [

الإسراء : 60] وما تلك الرؤيا إلا حديث المعراج ، وإنما كان فتنة للناس ؟ لأن كثيراً ممن آمن به لما سمع هذا الكلام كذبه وكفر به فكان حديث المعراج سبباً لفتنة الناس ، فثبت أن ذلك رؤيا رآه في المنام .

(26/449)

الشبهة الرابعة : أن حديث المعراج اشتمل على أشياء بعيدة ، منها ما روي من شق بطنه وتطهيره بما زمزم وهو بعيد ، لأن الذي يمكن غسله بالماء هو النجاسات العينية ولا تأثير لذلك في تطهير القلب عن العقائد الباطلة والأخلاق المذمومة ، ومنها ما روي من ركوب البراق وهو بعيد ، لأنه تعالى لما سيره من هذا العالم إلى عالم الأفلاك ، فأي حاجة إلى البراق ، ومنها ما روي أنه تعالى أوجب خمسين صلاة ثم إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه الصلاة والسلام .

قال القاضي : وهذا يقتضي نسخ الحكم قبل حضوره ، وأنه يوجب البداء وذلك على الله تعالى محال ، فثبت أن ذلك الحديث مشتمل على ما يجوز قبوله فكان مردوداً .

والجواب عن الوجوه العقلية قد سبق فلا نعيدها .

والجواب عن الشبهة الثانية : ما ذكره الله تعالى وهو قوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ وهذا كلام مجمل وفي تفصيله وشرحه وجوه : الأول : أن خيرات الجنة عظيمة ، وأهوال النار شديدة ، فلو أنه عليه الصلاة والسلام ما شاهدهما في الدنيا ، ثم شاهدهما في ابتداء يوم القيامة فربما رغب في خيرات الجنة أو خاف من أهوال النار ، أما لما شاهدهما في الدنيا في ليلة المعراج فحينئذ لا يعظم وقعهما في قلبه يوم القيامة فلا يبقى مشغول القلب بهما ، وحينئذ يتفرغ للشفاعة .

الثاني : لا يمتنع أن تكون مشاهدته ليلة المعراج للأنبياء والملائكة ، صارت سبباً لتكامل مصلحته أو مصلحتهم .

الثالث : أنه لا يبعد أنه إذا صعد الفلك وشاهد أحوال السموات والكرسي والعرش ، صارت مشاهدة أحوال هذا العالم وأهواله حقيرة في عينه ، فتحصل له زيادة قوة في القلب باعتبارها يكون في شروعه في الدعوة إلى الله تعالى أكمل وقلة التفاته إلى أعداء الله تعالى أقوى ، يبين ذلك أن من عاين قدرة الله تعالى في هذا الباب ، لا يكون حاله في قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره في الجهاد وغيره إلا أضعاف ما يكون عليه حال من لم

يعاين .

واعلم أن قوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ كالدلالة على أن فائدة ذلك الإسراء مختصة به وعائدة إليه على سبيل التعيين .

والجواب عن الشبهة الثالثة : أنا عند الانتهاء إلى تفسير تلك الآية في هذه السورة نبين أن تلك الرؤيا رؤيا عيان لا رؤيا منام .

والجواب عن الشبهة الرابعة : لا اعتراض على الله تعالى في أفعاله فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

أما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش ، فهذه الآية لا تدل عليه ، ومنهم من استدل عليه بأول سورة والنجم ، ومنهم من استدل عليه بقوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبقٍ ﴾ [الانشقاق : 19] وتفسيرهما مذكور في موضعه ، وأما دلالة الحديث فكما سلف ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 116.122 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾

أما قوله ﴿ سبحان ﴾ ففيه تأويلان :

أحدهما : تنزيه الله تعالى من السوء ، وقيل بل نزه نفسه أن يكون لغيره في إسراء عبده تأثير .

الثاني : معناه برأه الله تعالى من السوء ، وقد قال الشاعر :

أقول لمّا جاءني فَخْرُه . . . سبحان مِنْ علقمةَ الفاخِرِ

وهو ذكر تعظيم لله لا يصلح لغيره ، وإنما ذكره الشاعر على طريق النادر ، وهو من السبح في التعظيم وهو الجري فيه إلى أبعد الغايات . وذكر أبان بن ثعلبة أنها كلمة بالنبطية " شبهانك " . وقد ذكر الكلبي ومقاتل : إن ﴿ سبحان ﴾ في هذا الموضع بمعنى عجب ، وتقدير الآية : عجب من الذي أسرى بعبده ليلاً ، وقد وافق على هذا التأويل سيبويه وقطرب ، وجعل البيت شاهداً عليه ، وأن معناه عجبٌ من علقمة الفاخر . ووجه هذا التأويل أنه إذا كان مشاهدة العجب سبباً للتسبيح صار التسبيح تعجباً فقيل عجب ، ومثله قول بشار :

تلقي بتسبيحةٍ مِنْ حيثما انصرفت . . . وتستفزُّ حشا الرائي بإرعاد

وقد جاء التسبيح في الكلام على أربعة أوجه :

أحدها : أن يستعمل في موضع الصلاة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ فلولا أنه كان من المسبِّحينَ ﴾ [الصافات : 143] أي من المصلين .

الثاني : أن يستعمل في الاستثناء ، كما قال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ [القلم : 28] أي لولا تستثنون .

الثالث : النور ، للخبر المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " لأحرقت سبحات وجهه " أي نور وجهه .

الرابع : التنزيه ، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن التسبيح فقال : " تنزيه الله تعالى عن السوء

" . وقوله تعالى : ﴿ أسرى بعبده ﴾ أي بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والسُّرى : سير الليل ، قال الشاعر :

وليلة ذا ندًى سَرَيت . . . ولم يلتني مِنْ سُراها ليت

وقوله ﴿ من المسجد الحرام ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني من الحرم ، والحرم كله مسجد . وكان صلى الله عليه وسلم حين أُسرى به نائماً في بيت أم هانىء بنت أبي طالب ، روى ذلك أبو صالح عن أم هانىء .

الثاني : أنه أسرى به من المسجد ، وفيه كان حين أسري به روى ذلك أنس بن مالك . ثم اختلفوا في كيفية إسرائه على قولين :

أحدهما : أنه أسريَ بجسمه وروحه ، روى ذلك ابن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو هريرة وحذيفة بن اليمان .

واختلف قائلو ذلك هل دخل بيت المقدس وصلى فيه أم لا ، فروى أبو هريرة أنه صلى فيه بالأنبياء ، ثم عرج به إلى السماء ، ثم رجع به الى المسجد الحرام فصلى فيه صلاة الصبح من صبيحة ليلته .

وروى حذيفة بن اليمان أنه لم يدخل بيت المقدس ولم يُصلّ فيه ولا نزل عن البراق حتى عرج به ، ثم عاد إلى ملكه .

والقول الثاني : أن النبي صلى الله عليه السلام أسري بروحه ولم يسر بجسمه ، روى ذلك عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما فُقِدَ جَسَدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أسرى بروحه .

وروي عن معاوية قال : كانت رؤيا من الله تعالى صادقة ، وكان الحسن يتأول قوله تعالى ﴿ وما جعَلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنةً للناس ﴾ [الإسراء : 60] أنها في المعراج ، لأن

المشركين كذبوا ذلك وجعلوا يسألونه عن بيت المقدس وما رأى في طريقه فوصفه لهم ، ثم ذكر لهم أنه رأى في طريقه قعباً مغطى مملوءاً ماء ، فشرب الماء ثم غطاه كما كان ، ثم ذكر لهم صفة إبل كانت لهم في طريق الشام تحمل متاعاً ، وأنها تقدُم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يقدمها جمل أورق ؛ فخرجوا في ذلك اليوم يستقبلونها ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت ولم تأت ، وقال آخر : هذه والله العير يقدُمها جمل أورق كما قال محمد . وفي هذا دليل على صحة القول الأول أنه أسرى بجسمه وروحه .

وقوله تعالى : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ يعني بيت المقدس ، وهو مسجد سليمان بن داود عليهما السلام وسمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام .

ثم قال تعالى : ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني بالثمار ومجاري الأنهار .

الثاني : بمن جعل حوله من الأنبياء والصالحين ولهذا جعله مقدساً . وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " يقول الله تعالى : يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي

". ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الآيات التي أراه في هذا المسرى أن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة ، وهي مسيرة شهر .

الثاني : أنه أراه في هذا المسرى آيات .

وفيها قولان :

أحدهما : ما أراه من العجائب التي فيها اعتبار .

الثاني : من أري من الأنبياء حتى وصفهم واحداً واحداً .

﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه وصف نفسه في هذه الحال بالسميع والبصير ، وإن كانتا من صفاته اللازمة لذاته في الأحوال كلها لأنه حفظ رسوله عند إسرائه في ظلمة الليل فلا يضر ألا يبصر فيها ، وسمع دعاءه فأجابه إلى ما سأل ، فلهذين وصف الله نفسه بالسميع البصير .

الثاني : أن قومه كذبوه عن آخرهم بإسرائه ، فقال : السميع يعني لما يقولونه من تصديق أو تكذيب ، البصير لما يفعله من الإسراء والمعراج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾

لفظ الآية يقتضي أن الله عز وجل أسرى بعبده ، وهو محمد عليه السلام ، ويظهر أن ﴿ أسرى ﴾ هي هنا معداة بالهمزة إلى مفعول محذوف تقديره ، أسرى الملائكة بعبده ، وكذلك يقلق أن يسند ﴿ أسرى ﴾ وهو بمعنى سرى إلى الله تعالى ، إذ هو فعل يعطي النقلة كمشى وجرى وأحضر وانتقل ، فلا يحسن إسناد شيء من هذا ونحن نجد مندوحة ، فإذا صرحت الشريعة بشيء من هذا النحو كقوله في الحديث " أتيته سعياً ، وأتيته هرولة " حمل ذلك بالتأويل على الوجه المخلص من نفي الحوادث ، و ﴿ أسرى ﴾ في هذه الآية تخرج فصيحة كما ذكرنا ولا تحتاج إلى تجوز قلق فيمثل هذا اللفظ ، فإنه ألزم للنقلة من أتيته و ﴿ أتى الله بنيانهم ﴾ [النحل : 26] ويحتمل أن يكون ﴿ أسرى ﴾ بمعنى سرى على حذف مضاف كنحو قوله تعالى ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ [البقرة : 17] ووقع الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه ، وذكر النقاش عمن رواه عشرين صحابياً ، فروى جمهور الصحابة وتلقى جل العلماء منهم أن الإسراء كان بشخصه صلى الله عليه وسلم ، وأنه ركب البراق من مكة ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه ، وروى حذيفة وغيره أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم لم ينزل عن البراق في بيت المقدس ولا دخله ، قال حذيفة ولو صلى فيه لكتبت عليكم الصلاة فيه ، وأنه ركب البراق بمكة ولم ينزل عنه حتى انصرف إلى بيته ، إلا في صعوده إلى السماء ، وقالت عائشة ومعاوية إنما أسري بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفارق شخصه مضجعه وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق من ربه عز وجل ، وجوزه الحسن وابن إسحاق ، والحديث ، قال القاضي أبو محمد ، مطول في البخاري ومسلم وغيرهما ، فلذلك اختصرنا نصه في هذا الباب ، وركوب البراق على قول هؤلاء يكون من جملة ما رأى في النوم ، قال ابن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن في كتاب الطبري : البراق هو دابة إبراهيم الذي كان يزور عليه البيت

الحرام .

قال القاضي أبو محمد : يريد أن يجيء من يومه ويرجع وذلك من مسكنه بالشام ، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور ، ولو كانت منامة ما أمكن قريشاً التشنيع ولا فضل أبو بكر بالتصديق ، ولا قالت له أم هاني : لا تحدث الناس بهذا فيكذبوك إلى غير هذا من الدلائل ، واحتج لقول عائشة بقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس

﴾ [الإسراء : 60] ، ويحتمل القول الآخر لأنه يقال لرؤية العين رؤيا ، واحتج أيضاً بأن في بعض الأحاديث : فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام وهذا محتمل أن يريد من الإسراء إلى نوم ، واعترض قول عائشة بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ولا حدثت عن النبي عليه السلام ، وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غير مشاهد للحال صغيراً ، ولم يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ سبحان ﴾ مصدر غير متمكن لأنه لا يجري بوجوه الإعراب ولا تدخل عليه الألف واللام ولم يجر منه فعل ، وسبح إنما معناه قال سبحان الله فلم يستعمل سبح إلا إشارة إلى ﴿ سبحان ﴾ ، ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين وهو معرفة بالعلمية وإضافته لا تزيده تعريفاً ، هذا كله مذهب سيبويه فيه ، وقالت فرقة : قال القاضي أبو محمد : نصبه على النداء كأنه قال : " يا سبحان " ، قال القاضي أبو محمد الذي ، وهذا ضعيف ومعناه تنزيهاً لله ، وروى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه ولم ما معنى سبحان الله ؟ قال :

" تنزيهاً لله من كل سوء " ، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي هو من معناه لا من لفظه إذ يجر من لفظه فعل ، وذلك مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء ، فالتقدير عنده أنزه

الله تنزيهاً فوقع ﴿ سبحان ﴾ مكان قولك تنزيهاً ، وقال قوم من المفسرين : ﴿ أسرى ﴾ فعل غير متعد عداه هنا بحرف جر تقول سرى الرجل وأسرى إذ سار بالليل بمعنى ، وقد ذكرت ما يظهر في اللفظ من جهة العقيدة ، وقرأ حذيفة وابن مسعود " أسرى بعبده من الليل من المسجد الحرام " ، وقوله من ﴿ المسجد الحرام ﴾ ، قال أنس بن مالك : أراد المسجد المحيط بالكعبة نفسها ورجحه الطبري وقال : هو الذي يعرف إذا ذكر هذا الاسم ، وروى الحسن بن أبي الحسن عن النبي عليه السلام أنه قال : " بينا أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل والملائكة " ، الحديث بطوله . وروى قوم أن ذلك كان بين زمزم والمقام ، وروى مالك بن صعصعة عن النبي عليه السلام : " بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان " ، وذكر عبد بن حميد الكشي في تفسيره عن سفيان الثوري أنه قال : أسري بالنبي عليه السلام من شعب أبي طالب ، وقالت فرقة : ﴿ المسجد الحرام ﴾ مكة كلها واستندوا إلى قوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 27] وعظم المقصد هنا إنما هو مكة ، وروى بعض هذه الفرقة عن أم هاني أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء في بيتي ، وروي بعضها عن النبي عليه السلام ، أنه قال : " خرج سقف بيتي " وهذا يلتئم مع قول أم هاني ، وكان الإسراء فيما قال مقاتل قبل الهجرة بعام ، وقاله قتادة ، وقيل بعام ونصف ، قاله عروة عن عائشة وكان ذلك في رجب ، وقيل في ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول والنبي صلى الله عليه وسلم ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة

أشهر وثمانية وعشرين يوماً ، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة ، وقبل بيعة العقبة ، ووقع في الصحيحين لشريك بن أبي نمر وهم في هذا المعنى فإنه روى حديث الإسراء

(34/449)

فقال فيه : وذلك قبل الوحي إليه ، ولا خلاف بين المحدثين أن هذا وهم من شريك ، و ﴿ المسجد الأقصى ﴾ ، مسجد بيت المقدس ، وسماه ﴿ الأقصى ﴾ أي في ذلك الوقت كان أقصى بيوت الله الفاضلة من الكعبة ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ الأقصى ﴾ البعيد دون مفاضلة بينه وبين سواه ، ويكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا البعد في ليلة . و" البركة حوله " هي من جهتين ، إحداهما النبوءة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه وبواديه ، والأخرى النعم من الأشجار والمياه والأرض المفيدة التي خص الله الشام بها ، وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : " إن الله بارك فيما بين العرش إلى الفرات وخص فلسطين بالتقديس " وقوله : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ يريد لنري محمداً بعينه آياتنا في السماوات والملائكة والجنة والسدرة وغير ذلك مما رآه تلك الليلة من العجائب ، ويحتمل أن يريد لنري محمداً للناس آية ، أي يكون النبي صلى الله عليه وسلم آية في أن يصنع الله ببشر هذا الصنع وتكون الرؤية على هذا رؤية قلب ، ولا خلاف أن في هذا الإسراء

فرضت الصلوات الخمس على هذه الأمة. وقوله: ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ وعيد من الله للكفار تكذيبهم محمداً في أمر الإسراء، فهي إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك أي ﴿ هو السميع ﴾ لما تقولون ﴿ البصير ﴾ بأفعالكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(35/449)

فائدة

قال الإمام السبكى:

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْله تَعَالَى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ الْآيَةَ الْمَشْهُورُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْ وَرَدَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَى فِي مَوْضِعَيْنِ فِي سُورَةِ غَافِرٍ وَفِي سُورَةِ الشُّورَى.

فَيَكُونُ هَذَا مَوْضِعًا رَابِعًا وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إنَّ الضَّمِيرَ هُنَا يَعُودُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَكُونُ هَذَانِ الِاسْمَانِ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَيَكُونُ مَعْنَى وَصْفِهِ بِهِمَا هُنَا أَنَّهُ الْكَامِلُ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ اللَّذَيْنِ يُدْرِكُ بِهِمَا الْآيَاتِ الَّتِي يُرِيهِ إيَّاهَا وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ فَهَذَا يُحْتَمَلُ، لِأَنَّ الْمَعْنَى نَقَلْنَاهُ

مِنْ حَالَةِ النُّطْفَةِ إلَى حَالَةٍ عَظِيمَةٍ .

وَمُحْتَمَلًا ابْتِلَاؤُهُ .

فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ تَدَبُّرَهُ ، وَتَدَبُّرُهُ إنَّمَا يَكُونُ بِالْعَقْلِ ، وَأَعْظَمُ الْحَوَاسِّ الْمُوَصِّلَةِ إلَى الْعَقْلِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ .

فَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ يَجِيءُ وَصْفُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ أَكْمَلَ مِنْهُ فِي التَّدَبُّرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالْبَصَرِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى . انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 64 . 65 ﴾

(36/449)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سبحان ﴾ "

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن تفسير : "سبحان الله" ، فقال : "تنزيه لله عن كل سوءٍ" " ، وقد ذكرنا هذا المعنى في [البقرة : 32] .

قال الزجاج : و"أسرى" : بمعنى : سيَّر عبده ، يقال : أسريت وسريت : إِذا سرت ليلاً .

وقد جاءت اللغتان في القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ والليل إذا يسرِ ﴾ [الفجر : 4] .

وفي معنى التسبيح هاهنا قولان .

أحدهما : أن العرب تسبِح عند الأمر المعجب ، فكأن الله تعالى عجَّب العباد مما أسدى إلِى رسوله من النعمة .

والثاني : أن يكون خرج مخرج الرد عليهم ، لأنه لما حدَّثهم بالاسراء ، كذبوه ، فيكون المعنى : تنزه الله أن يتخذ رسولا كذاباً .

ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا : محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي قوله : ﴿ من المسجد الحرام ﴾ قولان .

أحدهما : أنه أُسري به من نفس المسجد ، قاله الحسن ، وقتادة ، ويسنده حديث مالك بن صعصعة ، وهو في "الصحيحين" "بينا أنا في الحطيم" وربما قال بعض الرواة : في "الحِجر" .

والثاني : أنه أُسري به من بيت أم هانئ ، وهو قول أكثر المفسرين ، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام : الحرم .

والحرم كلُّه مسجد ، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره .

فأما ﴿ المسجد الأقصى ﴾ فهو بيت المقدس ، وقيل له : الأقصى ، لبُعد المسافة بين المسجدَين .

ومعنى ﴿ باركنا حوله ﴾ : أن الله أجرى حوله الأنهار ، وأنبت الثِّمار .

وقيل : لأنه مَقَرُّ الأنبياء ، ومَهْبِطُ الملائكة .

واختلف العلماء ، هل دخل بيتَ المقدس ، أم لا ؟ فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس ، وصلّى فيه بالأنبياء ، ثم عُرِجَ به إلى السماء .

وقال حُذيفة بن اليمان : لم يدخل بيت المقدس ولم يصلِّ فيه ، ولا نزل عن البُراق حتى عُرِجَ به .

فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ وأنتم تقولون : صعِد إلى السماء ؟

فالجواب : أن الإسراء كان إلى هنالك ، والمعراج كان من هنالك .

(37/449)

وقيل : إن الحكمة في ذِكْر ذلك ، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بَدْءِ الحديث ، لاشتد إنكارهم ، فلما أخبر ببيت المقدس ، وبان لهم صدقُه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة ، أخبر بمعراجه .

قوله تعالى : ﴿ لنُرِيَه من آياتنا ﴾ يعني : ما رأى ، أي : تلك الليلة من العجائب التي أَخبر بها الناس .

﴿ إنه هو السميع ﴾ لمقالة قريش ، ﴿ البصير ﴾ بها .

وقد ذكرنا في كتابنا المسمى ب "الحدائق" أَحاديث المعراج، وكرهنا الإِطالة هاهنا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسيرحـ 5 صـ ﴾

(38/449)

وقال القرطبى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ "سبحان" اسم موضوع موضع المصدر ، وهو غير متمكن ؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب ، ولا تدخل عليه الألف واللام ، ولم يجر منه فعل ، ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين ، تقول : سبّحت تسبيحا وسُبحاناً ، مثل كفّرت اليمين تكفيراً وكفراناً .

ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص .

فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره ؛ فأما قول الشاعر :

أقول لمّا جاءني فَخْرُهُ . . .

سبحانَ مِن عَلْقَمَةَ الفاخِرِ

فإنما ذكره على طريق النادر .

وقد " روى طلحة بن عبيد الله الفَيّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم :
ما معنى سبحان الله ؟ فقال : تنزيه الله من كل سوء " والعامل فيه على مذهب سيبويه
الفعل الذي من معناه لا من لفظه ، إذ لم يجر من لفظه فعل ، وذلك مثل قعد القُرْفصاء ،
واشتمل الصَّمّاء ؛ فالتقدير عنده : أنزّه الله تنزيهاً ؛ فوقع "سبحان الله" مكان قولك تنزيهاً .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ "أسرى" فيه لغتان : سرى وأسرى ؛ كسقى
وأسقى ، كما تقدّم .

قال :

أسْرتْ عليه من الجَوْزَاء سارِيَةٌ . . .
تُزْجِي الشّمال عليه جامدَ البَرَد

وقال آخر :

حيِّ النَّضيرة ربة الخِدْرِ . . .
أسْرَت إليّ ولم تكن تَسْري

فجمع بين اللغتين في البيتين .

والإسراء : سير الليل ؛ يقال : سَرَيت مَسْرًى وسُرًى ، وأسريت إسراء ؛ قال الشاعر :

وليلة ذات نَدًى سريتُ . . .

ولم يَلِتْنِي من سُراها لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أوّل الليل ، وسرى سار من آخره ؛ والأوّل أعرف .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ قال العلماء : لو كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم اسم

أشرفُ منه لسمّاه به في تلك الحالة العلية .

وفي معناه أنشدوا :

يا قومِ قلبي عند زهراءِ . . .

(39/449)

يعرفه السامع والرائي

لا تَدْعُنِي إلاّ بيا عبدها . . .

فإنه أشرف أسمائي

وقد تقدّم .

قال القُشَيْرِيّ : لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية ، وأرقاه فوق الكواكب العلوية ، ألزمه

اسم العبودية تواضعاً للأمة .

الرابعة : ثبت الإسراء في جميع مصنّفات الحديث ، ورُوي عن الصحابة في كل أقطار

الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه .

وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابياً .

روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتيت بالبراق وهو دابة أبيضُ (طويل) فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحَلْقة التي يَرْبِط بها الأنبياء قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترتَ الفِطْرة قال ثم عَرج بنا إلى السماء . . .

" وذكر الحديث .

ومما ليس في الصحيحين ما خرّجه الآجُرِيّ والسَّمَرْقنديّ ، قال الآجري عن أبي سعيد الخُدْرِيّ في قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلةِ أسْرِيَ به ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

"أتيت بدابّة هي أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يميني يا محمد على رِسْلك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم سمعت نداء عن يساري يا محمد على رِسْلك فمضيت ولم أعَرِّج عليه ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته في الحَلْقة التي كانت الأنبياء تُوثق بها ثم دخلت المسجد وصلّيت فيه فقال لي جبريل عليه السلام ما سمعتَ يا محمد فقلتُ سمعتُ نداءً عن يميني يا محمد على رِسْلك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرّج فقال ذلك داعي اليهود ولو وقفتَ لتهوّدت أمتك قال ثم سمعت نداء عن يساري على رِسْلك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرّج عليه فقال ذلك داعي النصارى أمَا إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك قال ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلك فمضيت ولم أُعَرّج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لاخترت الدنيا على الآخرة قال ثم أتيت بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لي خذ فاشرب أيّهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لي جبريل أصبت الفِطْرة ولو أنك أخذت الخمر غَوَتْ أمّتك ثم جاء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسن ما رأيتُ أولم تروا إلى الميت كيف يحدّ بصره إليه فعرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك؟ قال محمد قالوا وقد أرسل

إليه؟ قال نعم ففتحوا لي وسلّموا عليّ وإذا مَلَك يحرس السماء يقال له إسماعيل معه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف قال وما يعلم جُنُودَ رَبِّك إلا هو . . .

(41/449)

" وذكر الحديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المُحَبّ في قومه وحوله تبع كثير من أمّته فوصفه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سُرّته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم عليّ ورحب بي فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل كثير الشعر ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما . . .

" الحديث.

وروى البزّار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتِي بفرس فحمل عليه ، كلّ خُطوة منه أقصى بصره.

.

.

وذكر الحديث.

وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" بينا أنا نائم في الحِجْر إذ أتاني آتٍ فحركني برجله فاتبعت الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وخُفّها خُفُّ حافر وذنّبها ذنب ثور وعُرْفها عرف الفرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بُرْقة لا تَنْفِري من محمد فوالله ما ركبك مَلك مقرّب ولا نبيّ مُرْسَل أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإني أحِبّ أن أكون في شفاعته فقلت أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى . . .

" الحديث .

(42/449)

وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النّيْسابوري عن أبي سعيد الخدري قال : " لما مر النبيّ صلى الله عليه وسلم بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذي وُعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصراً من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصراً من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها

وأسِرّتها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيحُ أهلها سبحان من جمع بين الثلج والنار من قالها مرة واحدة كان له مثلُ ثوابهم استفتح الباب جبريلُ عليه السلام ففُتح له فإذا هو بكهل لم يُرَ قَطّ كَهْلٌ أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته قريباً من سرته قد كاد أن تكون شَمْطة وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحَبّ في قومه . . .

" وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين ، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سبع بكمالها في كتاب (شفاء الصدور) له .

ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فرضت على النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة في حين الإسراء حين عرج به إلى السماء .

واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة ، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده ؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية ، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها ، وهي أهمّ من سَرْد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى .

فأما المسألة الأولى وهي هل كان إسراء بروحه أو جسده ؛ اختلَف في ذلك السلف والخلف ، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، ولم يفارق شخصُه مضجَعه ، وأنها كانت

رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حق.

ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكي عن الحسن وابن إسحاق.

(43/449)

وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح؛

واحتجوا بقوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى" فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء.

قالوا: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ في المدح.

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه ثم أسْرِيَ بجسده.

وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية.

وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال بروح عبده ولم يقل بعبده.

وقوله: ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [النجم: 17] يدل على ذلك.

ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما قالت له أم هانىء : لا تحدّث الناس فيكذبوك ، ولا فُضّل أبو بكر بالتصديق ، ولما أمكن قريشاً التشنيعُ والتكذيب ، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا ، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر ، وقد قال له المشركون : إن كنت صادقاً فخبّرنا عن عِيرنا أين لقيتَها ؟ قال : "بمكان كذا وكذا مررتُ عليها ففزِع فلان فقيل له : ما رأيت يا فلان ، قال : ما رأيت شيئًا غير أن الإبل قد نفرت" .

قالوا : فأخبرنا متى تأتنا العير؟ قال : "تأتيكم يوم كذا وكذا" .

قالوا : أيّة ساعة؟ قال : "ما أدري ، طلوع الشمس من هاهنا أسرع أم طلوع العِيرُ من هاهنا" .

فقال رجل : ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت .

وقال رجل : هذه عِيركم قد طلعت ، واستخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك .

روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"لقد رأيتُني في الحِجْر وقريش تسألني عن مَسْرَاي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبِتْها فكَرُبْتُ كَرْباً ما كُرِبت مثله قطّ قال فرفعه الله لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به" الحديث.

وقد اعتُرِض قول عائشة ومعاوية: "إنما أسرى بنَفْس رسول الله صلى الله عليه وسلم" بأنها كانت صغيرة لم تشاهِد، ولا حدّثت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدّث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء.

وقد احتجّ لعائشة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: 60] فسماها رؤيا.

وهذا يردّه قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ ولا يقال في النوم أسرى.

وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة.

وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالةٌ واضحة على أن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوّز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم معارجُ؛ فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا،

وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح : " بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان " الحديث .

ويحتمل أن يردّ من الإسراء إلى نوم .

والله أعلم .

المسألة الثانية : في تاريخ الإسراء ، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضاً ، واختُلف في ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسِرَي به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة .

وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت : تُوفِّيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة .

قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام .

وروى عنه الوَقّاصيّ قال : أسْرِيَ به بعد مبعثه بخمس سنين .

(45/449)

قال ابن شهاب : وفُرض الصيام بالمدينة قبل بدر ، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرمت الخمر بعد أُحُد .

وقال ابن إسحاق : أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ،

وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل .

وروى عنه يونس بن بكير قال : صلّت خديجة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وسيأتي .

قال أبو عمر : وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع .

وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدّم .

وقال الحَرْبيّ : أسري به ليلة سبع وعشرين من (شهر) ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة .

وقال أبو بكر محمد بن عليّ بن القاسم الذهبي في تاريخه : أسري به من مكة إلى بيت المقدس ، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً .

قال أبو عمر : لا أعلم أحداً من أهل السير قال ما حكاه الذهبي ، ولم يُسْنِد قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة : وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرج به إلى السماء ، وذلك منصوص في الصحيح وغيره .

وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت ؛ فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضر فأكملت أربعاً ، وأُقرّتِ صلاة السفر على ركعتين .

وبذلك قال الشَّعْبِيّ وميمون بن مِهْران ومحمد بن إسحاق .

قال الشعبيّ : إلا المغرب .

(46/449)

قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فهمز له بعِقبه في ناحية الوادي فانفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوَضّأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه ، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجدات ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى ، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة ، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء .

وروي عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين .

وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري ، وهو قول ابن جريج ، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك .

ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال ، فعلّم النبيّ

صلى الله عليه وسلم الصلاة ومواقيتها .

وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول : كان أوّل الصلاة مثنى ، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً فصارت سُنّة ، وأُقِرّت الصلاة للمسافر وهي تمام .

قال أبو عمر : وهذا إسناد لا يحتج بمثله ، وقوله "فصارت سُنّة" قول منكر ، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قولٌ لا معنى له .

وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً ، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها .

الخامسة : قد مضى الكلام في الأذان في "المائدة" والحمد لله .

ومضى في "آل عمران" أن أوّل مسجد وُضع في الأرض المسجدُ الحرام ، ثم المسجد الأقصى .

وأن بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذرّ ، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك ؛ فتأمله هناك فلا معنى

للإعادة .

ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تُشَدّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس " .

خرّجه مالك من حديث أبي هريرة .

وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد ؛ لهذا قال العلماء : من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل ، ويصلّي في مسجده ، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها .

وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رِباطاً في ثَغْر يسدّه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل .

وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ في هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ، وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ سُمِّيَ الأقصَى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام ، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظَّم بالزيارة ، ثم قال : ﴿ الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قيل : بالثمار وبمجاري الأنهار .

وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين ؛ وبهذا جعله مقدّسا .

وروى معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول الله تعالى يا شام أنت

صفْوَتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي " أصله سام فعُرِّبَ .

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب .

والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس ، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر ، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحداً واحداً ، حسبما ثبت في صحيح مسلم وغيره .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(48/449)

وقال أبو حيان :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾

سبب نزول ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقريش الإسراء به وتكذيبهم له ، فأنزل الله ذلك تصديقاً له ، وهذه السورة مكية قال صاحب الغنيان بإجماع وقيل : إلا آيتين ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ وقيل : إلا أربع هاتان وقوله : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ وقوله ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق ﴾ ، وزاد مقاتل قوله تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا

العلم من قبله ﴾ الآية وقال قتادة إلا ثماني آيات أنزلت بالمدينة وهي من قوله : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ إلى آخرهن .

ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها أنه تعالى لما أمره بالصبر ونهاه عن الحزن عليهم وأن يضيق صدره من مكرهم ، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والسعر وغير ذلك مما رموه به ، أعقب تعالى ذلك بذكر شرفه وفضله واحتفائه به وعلو منزلته عنده ، وتقدّم الكلام على سبحان في البقرة .

وزعم الزمخشري أنه علم للتسبيح كعثمان للرجل .

وقال ابن عطية : ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين وهو معرفة بالعلمية وإضافته لا تزيده تعريفاً انتهى .

ويعنيان والله أعلم أنه إذا لم يضف كقوله :

سبحان من علقمة الفاخر . . .

وأما إذا أضيف فلو فرضنا أنه علم لنوي تنكيره ثم يضاف وصار إذ ذاك تعريفه بالإضافة لا بالعلمية .

و﴿ أسرى ﴾ بمعنى سرى وليست الهمزة فيه للتعدية وعدّيا بالباء ولا يلزم من تعديته بالباء المشاركة في الفعل ، بل المعنى جعله يسرى لأن السرى يدل على الانتقال كمشى وجرى وهو مستحيل على الله تعالى ، فهو كقوله : ﴿ لذهب بسمعهم ﴾ أي لأذهب

سمعهم ، فأسرى وسرى على هذا كسقى وأسقى إذا كانا بمعنى واحد ، ولذلك قال المفسرون معناه سرى بعبده .

(49/449)

وقال ابن عطية : ويظهر أن ﴿ أسرى ﴾ معداة بالهمزة إلى مفعول محذوف تقديره أسرى الملائكة بعبده لأنه يقلق أن يسند أسرى وهو بمعنى سرى إلى الله تعالى إذ هو فعل يعطي النقلة كمشى وجرى وأحضر وانتقل ، فلا يحسن إسناد شيء من هذا ونحن نجد مندوحة فإذا صرحت الشريعة بشيء من هذا النحو كقوله في الحديث : " أتيته سعياً وأتيته هرولة " حمل ذلك بالتأويل على الوجه المخلص من نفي الحوادث ، و ﴿ أسرى ﴾ في هذه الآية تخرج فصيحة كما ذكرنا ولا يحتاج إلى تجوز قلق في مثل هذه اللفظة فإنه ألزم للنقلة من أتيته وأتى الله بنيانهم انتهى .

وإنما احتاج ابن عطية إلى هذه الدعوى اعتقاد أنه إذا كان أسرى بمعنى سرى لزم من كون الباء للتعدية مشاركة الفاعل للمفعول وهذا شيء ذهب إليه المبرد ، فإذا قلت : قمت بزيد لزم منه قيامك وقيام زيد عنده وهذا ليس كذلك ، التبست عنده باء التعدية بباء الحال ، فباء الحال يلزم فيه المشاركة إذ المعنى قمت ملتبساً بزيد وباء التعدية مرادفة للهمزة

، فقمت بزيد والباء للتعدية كقولك أقمت زيداً ولا يلزم من إقامتكه أن تقوم أنت .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون أسرى بمعنى سرى على حذف مضاف كنحو قوله تعالى : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ يعني أن يكون التقدير لسرت ملائكته بعبده ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وهذا مبني على اعتقاد أنه يلزم المشاركة والباء للتعدية وأيضاً فموارد القرآن في فأسر بقطع الهمزة ووصلها يقتضي أنهما بمعنى واحد ، ألا ترى أن قوله : ﴿ فأسر بأهلك ﴾ ﴿ وان أسْرِ بعبادي ﴾ قرىء بالقطع والوصل ، ويبعد مع القطع تقدير مفعول محذوف إذ لم يصرح به في موضع ، فيستدل بالمصرح على المحذوف .

والظاهر أن هذا الإسراء كان بشخصه ولذلك كذبت قريش به وشنعت عليه ، وحين قص ذلك على أم هانىء قالت : لا تحدث الناس بها فيكذبوك ولو كان مناماً استنكر ذلك وهو قول جمهور أهل العلم ، وهو الذي ينبغي أن يعتقد .

وحديث الإسراء مروي في المسانيد عن الصحابة في كل أقطار الإسلام ، وذكر أنه رواه عشرون من الصحابة .

قيل وما روي عن عائشة ومعاوية أنه كان مناماً فلعله لا يصح عنهما ، ولو صح لم يكن في

ذلك حجة لأنهما لم يشاهدا ذلك لصغر عائشة وكفر معاوية إذ ذاك ، ولأنهما لم يسندا ذلك إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا حدّثا به عنه .

وعن الحسن كان في المنام رؤيا رآها وقوله : ﴿ بعبده ﴾ هو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال أبو القاسم سليمان الأنصاري : لما وصل محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج أوحى الله إليه : يا محمد بمَ أشرّفك ؟ قال : يا رب بنسبتي إليك بالعبودية ، فأنزل فيه ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ الآية انتهى .

وعنه قالوا : عبد الله ورسوله ، وعنه إنما أنا عبد وهذه إضافة تشريف واختصاص .

وقال الشاعر :

لا تدعني إلا بيا عبدها . . .

لأنه أشرف أسمائي

وقال العلماء : لو كان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة .

وانتصب ﴿ ليلاً ﴾ على الظرف ، ومعلوم أن السُّرَى لا يكون في اللغة إلا بالليل ، ولكنه ذكر على سبيل التوكيد .

وقيل : يعني في جوف الليل فلم يكن إدلاجاً ولا ادّلاجاً .

وقال الزمخشري : أراد بقوله : ﴿ ليلاً ﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية ، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة من الليل أي بعض الليل كقوله : ﴿ ومن الليل فتهجّدْ به ﴾ على الأمر بالقيام في بعض الليل انتهى .

والظاهر أن قوله : ﴿ من المسجد الحرام ﴾ هو المسجد المحيط بالكعبة بعينه ، وهو قول أنس .

وقيل من الحجر .

وقيل من بين زمزم والمقام .

وقيل من شعب أبي طالب .

وقيل من بيت أم هانىء .

وقيل من سقف بيته عليه السلام ، وعلى هذه الأقوال الثلاثة يكون أطلق المسجد الحرام على مكة .

وقال قتادة ومقاتل : قبل الهجرة بعام .

وقالت عائشة بعام ونصف في رجب .

وقيل في سبع عشرة من ربيع الأول والرسول عليه السلام ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً .

وعن ابن شهاب بعد المبعث بسبعة أعوام .

وعن الحربي ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة وقبل بيعة العقبة ، ووقع لشريك بن أبي نمر في الصحيح أن ذلك كان قبل أن يوحى إليه ، ولا خلاف بين المحدثين أن ذلك وهم من شريك .

وحكى الزمخشري عن أنس والحسن أنه كان قبل المبعث .

وقال أبو بكر محمد بن عليّ بن القاسم الرعيني في تاريخه : أسري به من مكة إلى بيت المقدس وعُرِّج به إلى السماء قبل مبعثه بثمانية عشر شهراً ، " ويروى أنه كان نائماً في بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء ، فأسري به ورجع من ليلته وقص القصة على أم هانىء وقال : "مثل لي النبيون فصليت بهم" .

وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانىء بثوبه فقال : "ما لك" ؟ قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم ، قال : "وإن كذبوني" فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحديث الإسراء .

فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي هلم فحدثهم فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً ، وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال إلى أبي بكر فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أتصدقه على ذلك؟ قال : إني لأصدقه على أبعد من ذلك ، فسمي الصدِّيق رضي الله تعالى عنه .

ومنهم من سافر إلى المسجد الأقصى فاستنعتوه ، فجلى له بيت المقدس فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال : "تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق" فخرجوا يشتدّون ذلك اليوم نحو الثنية .

فقال قائل منهم : والله هذه الشمس قد شرقت .

(52/449)

وقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا وقالوا : ما هذا إلاّ سحر بيِّن " ، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة وكان العروج به من بيت المقدس ، وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب ، وأنه لقي الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى .

وهذا على قول من قال : أن هذه الليلة هي ليلة المعراج وهو قول ابن مسعود وجماعة .

وذهب بعضهم إلى أن ليلة المعراج هي غير ليلة الإسراء .

و ﴿ المسجد الأقصى ﴾ مسجد بيت المقدس وسمي الأقصى لأنه كان في ذلك الوقت أقصى بيوت الله الفاضلة من الكعبة .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بالأقصى البعيد دون مفاضلة بينه وبين سواه ، ويكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا البعد في ليلة انتهى .

ولفظه : ﴿ إِلى ﴾ تقتضي أنه انتهى الإسراء به إلى حدّ ذلك المسجد ولا يدل من حيث الوضع على دخوله .

و ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ صفة مدح لإزالة اشتراط عارض وبركته بما خص به من الخيرات الدينية كالنبوّة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر ونواحيه ونواديه ، والدنياوية من كثرة الأشجار والأنهار وطيب الأرض .

وفي الحديث " أنه تعالى بارك فيما بين العريش إلى الفرات وخص فلسطين بالتقديس "

وقرأ الجمهور ﴿ لنريه ﴾ بالنون وهو التفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم ، وقراءة الحسن ليريه بالياء فيكون الالتفات في آياتنا وهذه رؤيا عين والآيات التي أريها هي العجائب التي أخبر بها الناس وإسراؤه من مكة وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحداً واحداً حسبما ثبت في الصحيح .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد ليرى محمداً للناس آية ، أي يكون النبي (صلى الله عليه وسلم) آية في أن يصنع الله ببشر هذا الصنع فتكون الرؤية على هذا رؤية القلب .

قال الزمخشري : ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقوال محمد ﴿ البصير ﴾ بأفعاله العالم بتهذيبها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب ذلك .

(53/449)

وقال ابن عطية : وعيد من الله للكفار على تكذيبهم محمداً (صلى الله عليه وسلم) في أمر الإسراء ، فهي إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك أي هو السميع لما تقولون البصير بأفعالكم انتهى . انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(54/449)

وقال أبو السعود :

﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾

سبحان علمٌ للتسبيح كعثمانَ للرجل وحيث كان المسمّى معنى لا عيناً ، وجنساً لا

شخصاً لم تكن إضافتُه من قبيل ما في : زيدُ المعارك أو حاتمُ طيِّءٍ ، وانتصابه بفعل متروكِ الإظهار تقديرُه أسبح الله سبحان الخ ، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاقُ من السبْح الذي هو الذهابُ والإبعادُ في الأرض ، ومنه فرسٌ سَبوحٌ أي واسعُ الجري ، ومن جهة النقلِ إلى التفعيل ، ومن جهة العدولِ من المصدر إلى الاسم الموضوعِ له خاصة لا سيما وهو علمٌ يشير إلى الحقيقة الحاضرةِ في الذهن ومن جهة قيامِه مَقام المصدر مع الفعل ، وقيل : هو مصدرٌ كغفران بمعنى التنزه ، ففيه مبالغةٌ من حيث إضافةُ التنزه إلى ذاته المقدسةِ ومناسبةٌ تامة بين المحذوف وبين ما عُطف عليه في قوله سبحانه وتعالى ، كأنه قيل : تنزه بذاته وتعالى . والإسراءُ السيرُ بالليل خاصة كالسُّرى وقوله تعالى : ﴿ لَيْلاً ﴾ لإفادة قلةِ زمان الإسراءِ لِما فيه من التنكير الدالِّ على البعضية من حيث الأجزاءُ دَلالتَه على البعضية من حيث الأفراد ، فإن قولك : سِرت ليلاً كما يفيد بعضيةَ زمان سيرِك من الليالي يفيد بعضيتَه من فرد واحد منها بخلاف ما إذا قلت : سرتُ الليلَ فإنه يفيد استيعابَ السير له جميعاً ، فيكون معياراً للسير لا ظرفاً له ويؤيده قراءةُ (من الليل) أي بعضِه ، وإيثارُ لفظ العبدِ للإيذان بتمحّضه عليه الصلاة والسلام في عبادته سبحانه وبلوغِه في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ ونهايةَ النهاياتِ النائية حسبما يلوّح به مبدأُ الإسراء ومنتهاه ، وإضافةُ التنزيه أو التنزّه إلى الموصول المذكورِ للإشعار بعلّية ما في حيز

الصلةِ للمضاف فإن ذلك من أدلة كمالِ قدرِته وبالغِ حكمتِه ونهايةِ تنزهه عن صفات المخلوقين.

(55/449)

﴿ مِّنَ المسجد الحرام ﴾ اختُلف في مبدأ الإسراءِ فقيل: هو المسجدُ الحرام بعينه وهو الظاهرُ، فإنه رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت بين النائم واليقظانِ إذْ أتاني جبريلُ عليه الصلاة والسلام بالبُراق" وقيل: هو دارُ أم هانىءٍ بنتِ أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام الحرمُ لإحاطته بالمسجد والْتباسِه به، أو لأن الحرم كلَّه مسجد، فإنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام كان نائماً في بيت أم هانىء بعد صلاة العشاءِ فكان ما كان فقصّه عليها، فلما قام ليخرُجَ إلى المسجد تشبّثتْ بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشيةَ أن يكذبه القومُ، قال عليه الصلاة والسلام: "وإن كذبوني" فلما خرج جلس إليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراءِ فقال أبو جهل: يا معشر كعبِ بنِ لؤي بنِ غالب، هلُمّ فحدّثْهم فمن مصفّق وواضعٍ يدَه على رأسه تعجباً وإنكاراً وارتد ناسٌ ممن كان آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدّقه على ذلك؟ قال:

إني أصدقه على أبعدَ من ذلك ، فسُمِّيَ الصِّديقُ وكان فيهم من يعرف بيت المقدس

فاستنعتوه المسجدَ فجُلِّي له بيتُ المقدس فطفِق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعتُ

فقد أصابه .

فقالوا : أخبِرْنا عن عِيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالِها وأحوالها وقال : ﴿ تقدم يوم كذا مع

طلوع الشمس يقدمُها جملٌ أورَقُ ﴾ فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم

: هذه والله الشمسُ قد أشرقت ، فقال آخرُ : هذه والله العِيرُ قد أقبلت يقدمها جملٌ أورقُ

كما قال محمد ، ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون .

(56/449)

واختُلف في وقته أيضاً ، فقيل : كان قبل الهجرة بسنة ، وعن أنس والحسنِ أنه قبل البعثة ،

واختلف أيضاً أنه في اليقظة أو في المنام فعن الحسن أنه كان في المنام ، وأكثرُ الأقاويل بخلافه

، والحق أنه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها ، واختُلف أيضاً أنه كان جُسمانياً أو

روحانياً ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما فُقِد جسدُ رسولِ الله صلى الله

عليه وسلم ولكن عُرج بروحه . وعن معاوية أنه قال : إنما عُرج بروحه ، والحقُّ أنه كان

جُسمانياً على ما ينبىء عنه التصديرُ بالتنزيه وما في ضمنه من التعجب ، فإن الروحانيَّ

ليس في الاستبعاد والاستنكار وخرقِ العادةِ بهذه المثابة ، ولذلك تعجبت منه قريشٌ وأحالوه ولا استحالة فيه ، فإنه قد ثبت في الهندسة أن قُطرَ الشمس ضِعفَ قطرِ الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، ثم إن طرفها الأسفلَ يصل إلى موضع طرفِها الأعلى بحركة الفَلَك الأعظمِ مع معاوقة حركةِ فلكِها لها في أقلَّ من ثانية ، وقد تقرر أن الأجسام متساويةٌ في قَبول الأعراضِ التي من جملتها الحركةُ وأن الله سبحانه قادرٌ على كل ما يحيط به حيطة الإمكان فيقدر على أن يخلق تلك الحركةَ بل أسرعَ منها في جسد النبي صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمِله ولو لم يكن مستبعداً لم يكن معجزة ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ أي بيتِ المقدس ، سُمي به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجدٌ وفي ذلك من تربية معنى التنزيهِ والتعجّب ما لا يخفى ﴿ الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبِطُ الوحي ومتعبَّدُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ غايةٌ للإسراء ﴿ مِنْ ءاياتنا ﴾ العظيمةِ التي من جملتها ذهابُه في برهة من الليل مسيرةَ شهرٍ ، ولا يقدح في ذلك كونُه قبل الوصول إلى المقصِد ومشاهدةِ بيت المقدس وتمثّل الأنبياءِ له ووقوفِه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام ، والالتفاتُ إلى التكلم لتعظيم تلك البركاتِ والآياتِ ،

وقرئ ليريَه بالياء ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لأقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن ﴿ البصير ﴾ بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذِنُ به القصرُ فيكرمُه ويقرّبه بحسب ذلك ، وفيه إيماءٌ إلى أن الإسراءَ المذكورَ ليس إلا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفعِ منزلته وإلا فالإحاطةُ بأقواله وأفعاله حاصلةٌ من غير حاجة إلى التقريب ، والالتفاتُ إلى الغَيبة لتربية المهابة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(58/449)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾

سبحان هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسبيحاً بمعنى نزه تنزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله ؛ نعم جاء التسبيح بمعنى القول المذكور كثيراً حتى ظن بعضهم أنه مخصوص بذلك وإلى هذا ذهب صاحب القاموس في شرح ديباجة الكشاف ، وجعل سبحانمصدر سبح مخففاً وليس بذاك ، وقد يستعمل علماً للتنزيه فيقطع عن الإضافة لأن الأعلام لا تضاف قياساً ويمنع من الصرف للعلمية والزيادة واستدل على ذلك بقول

الأعشى :

قد قلت لما جاءني فخره . . .

سبحان من علقمة الفاخر

وقال الرضى : لا دليل على علميته لأنه أكثر ما يستعمل مضافاً فلا يكون علماً وإذا قطع

فقد جاء منوناً في الشعر كقوله :

سبحانه ثم سبحاناً نعوذ به . . .

وقبلنا سبح الجودى والجمد

وقد جاء باللام كقوله :

سبحانك اللهم ذو السبحان . . .

ولا مانع من أن يقال في البيت الذي استدلوا به : حذف المضاف إليه وهو مراد للعلم به

وأبقى المضاف على حاله مراعاة لأغلب أحواله أي التجرد عن التنوين كقوله :

خالط من سلمى خياشيم وفا . . .

انتهى ، وظاهر كلام الزمخشري أنه علم للتسبيح دائماً وعو على جنس لأن علم الجنس كما يوضع للذوات يوضع للمعاني فلا تفصيل عنده ، وانتصر له صاحب الكشف فقال : إن ما ذهب إليه العلامة هو الوجه لأنه إذا ثبتت العلمية بدليلها فالإضافة لا تنافيها وليست من باب زيد المعارك لتكون شاذة بل من باب حاتم طي وعنترة عبس وذكر أنه يدل على التنزيه البليغ وذلك من حيث الاشتقاق من السبح وهو الذهاب والإبعاد من الأرض ثم ما يعطيه نقله إلى التفعيل ثم العدول عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما وهو علم يشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن وما فيه من قيامه مقام المصدر مع الفعل فإن انتصا به بفعل متروك الإضهار ولهذا لم يجز استعماله إلا فيه تعالى أسماؤه وعظم كبرياؤه ، وكأنه قيل : ما أبعد الذي له هذه القدرة عن جميع النقائص فلا يكون اصطفاؤه لعبده الخصيص به إلا حكمة وصواباً انتهى .

وأورد على ما ذكره أولا أن منع إضافة العلم قياساً لم يفرق بين إضافة وإضافة فإن ادعى أن بعض الأعلام اشتهرت بمعنى كحاتم بالكرم فيجوز في نحوه الإضافة لقصد التخصيص ودفع العموم الطارىء فما نلأحن فيه ليس من هذا القبيل كما لا يخفى .

وما ذكر من دلالته على التنزيه من جميع النقائص هو الذي يشهد له المأثور ، ففي العقد الفريد عن طلحة قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : تنزيه لله تعالى عن كل سوء .

وقال الطيبي في قول الزمخشري : إنه دل على التنزيه البليغ عن جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله تعالى إن ذلك مما يأباه مقام الإسراء إباء العيوف الورود وهو مزيف بل معناه التعجب كما قال في النور الأصل في ذلك أن يسبح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه وليس بشيء ، ففي الكشف أن التنزيه لا ينافي التعجب كما توهم واعترض ، وجعله مداراً والتعجب تبعاً ههنا هو الوجه بخلاف آية النور ، وذكر بعضهم أن الظاهر من كلام الكشاف في مواضع أنه لا يرتضي الجمع بين التنزيه والتعجب للمنافاة بينهما بل لأن كلا منهما معنى مستقل فالجمع بينهما جمع بين معنى المشترك ، وعلى الجمع فالوجه ما ذكر أنه الوجه فافهم ، وقيل إن سبحان ليس علماً أصلاً بلا تفصيل ففيه ثلاثة مذاهب ، وذكر بعضهم أنه في الآية على معنى الأمر أي نزهوا الله تعالى وبرئوه من جميع النقائص ويدخل فيها العجز عما بعد أو من العجز عن ذلك ، والمتبادر اعتبار المضارع ، والإسراء السير بالليل خاصة كالسرى فأسرى وسرى بمعنى وليست همزة أسرى للتعدية كما قال أبو عبيدة ، وقال ابن عطية : الهمزة للتعدية والمفعول محذوف أي أسري ملائكته بعبده ، قال في البحر : وإنما احتاج إلى هذه الدعوى لاعتقاد أنه إذا كان

أسرى بمعنى سرى لزم من كون الباء للتعدية مشاركة الفاعل للمفعول وهذا شيء ذهب إليه المبرد فإذا قلت : قمت بزيد يلزم منه قيامك وقيام زيد عنده وإذا جعلت الباء كالهمزة لا يلزم ذلك كما لا يخفى ، وقال أيضاً : يحتمل أن يكون أسري بمعنى سرى على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه والأصل أسلاي ملائكته وهو مبني على ذلك الاعتقاد أيضاً ، وقال الليث : يقال أسري لأول الليل وسرى لآخره وأما سار فالجمهور على أنه عام لا اختصاص له بليل أو نهار .

(61/449)

وقيل إنه مختص بالنهار وليس مقلوباً من سرى ، وإيثار لفظة العبد للإيذان بتمحضه صلى الله عليه وسلم في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح مبدأ الإسراء ومنتهاه ، والعبودية على ما نص عليه العارفون أشرف الأوصاف وأعلى المراتب وبها يفتخر المحبون كما قيل :

لا تدعني إلا بيا عبدها . . .

فإنه أشرف أسمائي

وقال آخر :

بالله ان سألوك عني قل لهم . . .

عبدي وملك يدي وما أعتقته

وعن أبي القاسم سليمان الأنصاري أنه قال : لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة أوحى الله تعالى إليه يا محمد بم نشرفك ؟ قال : بنسبتي إليك بالعبودية فأنزل الله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ وجاء قولوا عبد الله ورسوله ، وقيل إن في التعبير به هنا دون حبيبه مثلاً سداً لباب الغلو فيه صلى الله عليه وسلم كما وقع للنصارى في نبيهم عليه السلام ، وذكروا أنه لم يعبر الله تعالى عن أحد بالعبد مضافاً إلى ضمير الغيبة المشار به إلى الهوية إلا النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك من الإشارة ما فيه ، ومن تأمل أدنى تأمل ما بين قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾ [الأعراف : 143] ظهر له الفرق التام بين مقام الحبيب ومقام الكليم صلى الله عليه وسلم وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً في هذه السورة ما يفهم منه الفرق أيضاً فلا تغفل ، وإضافة ﴿ سبحانه ﴾ إلى الموصول المذكور للأشعار بعلية ما حيز الصلة للمضاف فإن ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته وغاية تنزهه تعالى عن صفات النقص ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْلاً ﴾ ظرف لأسرى ، وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء وأنها بعض من أجزاء الليل ولذلك قرأ عبد الله .

وحذيفة ﴿ مِّنَ اللَّيل ﴾ أي بعضه كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ ﴾ [الإسراء : 79] .

(62/449)

واعترض بأن البعضية المستفادة من من التبعيضية هي البعضية في الأجزاء والبعضية المستفادة من التنكير البعضية في الأفراد والجزئيات فكيف يستفاد من التنكير أن الإسراء كان في بعض من أجزاء الليل فالصواب أن تنكيره لدفع توهم أن الإسراء كان في ليال أو لإفادة تعظيمه كما هو المناسب للسياق والسياق أي ليلا أي ليل دنا فيه المحب إلى المحبوب وفاز مقام الشهود بالمطلوب .

وأجاب عن ذلك بعض الكاملين بما لا يخفى نقصه .

وقال بعض المحققين : إن ما ذكر قد نص عليه الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز ولا يرد عليه الاعتراض ابتداء .

وتحقيقه على ما صرح به الفاضل اليمني نقلاً عن سيبويه .

وابن مالك أن الليل والنهار إذا عرفا كانا معياراً للتعميم وظرفاً محدوداً فلا تقول صحبته الليلة وأنت تريد ساعة منها إلا أن تقصد المبالغة كما تقول أتاني أهل الدنيا لناس منهم

بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك فلما عدل عن تعريفه هنا علم أنه لم يقصد استغراق السرى له وهذا هو المراد من البعضية المذكورة ولا حاجة إلى جعل الليل مجازاً عن بعضه كما إنك إذا قلت جلست في السوق وجلوسك في بعض أماكنه لا يكون فيه السوق مجازاً كما لا يخفى، وقد أشار إلى هذا المدقق في الكشف، وقيل: المراد بتنكيره أنه وقع في وسطه ومعظمه كما يقال جاءني فلان بليل أي في معظم ظلمته فيفيد البعضية أيضاً، وينافيه ما سيأتي إن شاء الله تعالى في الحديث، وزعم أن ذكر ﴿ لَيْلاً ﴾ للتأكيد أو تجريد الإسراء وإرادة مطلق السير منه ناشىء من قلة البضاعة كما لا يخفى.

وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان حكمة كون الإسراء ليلاً ﴿ مّنَ المسجد الحرام ﴾.

الظاهر أن المراد به المسجد المشهور بين الخاص والعام بعينه وكان صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الحجر منه، فقد أخرج الشيخان.

والترمذي.

(63/449)

والنسائي من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أنا في الحجر وفي رواية في الحطيم بين النائم واليقظان إذ أتاني آت فشق ما

بين هذه إلى هذه فاستخرج قلبي فغسله ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق فحملت عليه " الحديث ، وفي بعض الروايات أنه جاءه جبريل وميكائيل عليهما السلام وهو مضطجع في الحجر بين عمه حمزة وابن عمه جعفر فاحتملته الملائكة عليهم السلام وجاؤوا به إلى زمزم فألقوه على ظهره وشق جبريل صدره من ثغرة نحره إلى أسفل بطنه بغير آلة ولا سيلان دم ولا وجود ألم ثم قال لميكائيل : ائتني بطست من ماء زمزم فأتاه به فاستخرج قلبه الشريف وغسله ثلاث مرات ثم أعاده إلى مكانه وملأه إيمانا وحكمة وختم عليه ثم خرج به إلى باب المسجد فإذا بالبراق مسرجا ملجما فركبه الخبر ، ويعلم منه الجمع بين ما ذكر من أنه عليه الصلاة والسلام كان إذ ذاك في الحجر وما قيل إنه كان بين زمزم والمقام ، وقيل : المراد به الحرم وأطلق عليه لإحاطته به فهو مجاز بعلاقة المجاورة الحسية والإحاطة أو لأن الحرم كله محل للسجود ومحرم ليس بحل فهو حقيقة لغوية والنكتة في هذا التعبير مطابقة المبدى المنتهى .

وكان صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في دار فاختة أم هانىء بنت أبي طالب ؛ فقد أخرج النسائي عن ابن عباس وأبو يعلى في مسنده ، والطبراني في الكبير من حديثها أنه صلى الله

عليه وسلم كان نائماً في بيتها بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته وقص القصة

عليها ، وقال مثل لي النبيون فصليت بهم ثم خرج إلى المسجد وأخبر به قريشاً فمن مصفق

وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً وارتد أناس ممن آمن به عليه الصلاة والسلام وسعى

رجال إلى أبي بكر فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق قالوا تصدقه على ذلك قال : إني

أصدقه على أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة فسمى الصديق ، وكان في

القوم من يعرف بين المقدس فاستنعتوه إياه فجلى له فطفق ينظر إليه وينعته لهم فقالوا : أما

النعت فقد أصاب فيه فقالوا : أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا هل لقيت منها شيئاً ؟ قال :

نعم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رحالهم

قدح من ماء فعطشت فأخذته وشربته ووضعته كما كان فاسألوا هل وجدوا الماء في

القدح حين رجعوا ؟ قالوا : هذه آية قال : ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعوداً

فنفر بعيرهما مني فانكسر فاسألوهما عن ذلك قالوا : هذه آية أخرى ، ثم سألوه عن العدة

والاحمال والهيئات فمثلت له العير فاخبرهم عن كل ذلك وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع

الشمس وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان قالوا .

وهذه آية أخرى فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس

فيكذبوه إذ قال قائل .

هذه الشمس قد طلعت وقال آخر : هذه العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال فلم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين قاتلهم الله أني يؤفكون وفي بعض الآثار أن أم هانىء قالت : فقدته صلى الله عليه وسلم وكان نائماً عندي فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش ويقال إنه تفرقت بنو عبد المطلب يلتمسونه ووصل العباس إلى ذي طوى وهو ينادي يا محمد يا محمد فأجابه صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي أعييت قومك أين كنت ؟ قال : ذهبت إلى بيت المقدس قال : من ليلتك قال : نعم قال : هل أصابك الأخير ؟ قال ما أصابني الأخير وقيل : غير ذلك .

وكما اختلف في مبدأ الإسراء اختلف في سنته فذكر النووي في الروضة أنه كان بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر ، وفي الفتاوي أنه كان سنة خمس أو ست من النبوة ، ونقل عنه الفاضل الملا أمين العمري في شرح ذات الشفاء الجزم بأنه كان في السنة الثانية عشرة من المبعث .

وعن ابن حزم دعوى الإجماع على ذلك ، وضعف ما في الفتاوي بأن خديجة رضي الله تعالى عنها لم تصل الخمس وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين .

وقيل كان قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر ، وقيل ثلاثة أشهر ، ووقع في حديث شريك بن أبي نمرة عن أنس أنه كان قبل أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم وقد خطأه غير واحد في

ذلك ، ونقل الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين حديث شريك الواقع فيه ذلك بطوله ، ثم قال : هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى بألفاظ غير معروفة .

وقد روى حديث الإسراء عن أنس جماعة من الحفاظ المتقنين والأئمة المشهورين كابن شهاب .

وثابت البناني .

وقتادة فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك ، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث .

(66/449)

وأجاب عن ذلك محيي السنة وغيره بما ستسمعه إن شاء الله تعالى ، وكذا اختلف في شهره وليلته فقال النووي في الفتاوي : كان في شهر ربيع الأول ، وقال في شرح مسلم تبعاً للقاضي عياض : إنه في شهر ربيع الآخر ، وجزم في الروضة بأنه في رجب ، وقيل : في شهر رمضان ، وقيل : في شوال ، وكان على ما قيل الليل السابعة والعشرين من الشهر وكانت ليلة السبت كما نقله ابن الملقن عن رواية الواقدي ، وقيل : كانت ليلة الجمعة لمكان فضلها وفضل الإسراء ، ورد بأن جبرائيل عليه السلام صلى بالنبي صلى الله عليه وسلم أول يوم

بعد الإسراء الظهر ولو كان يوم الجمعة لم يكن فرضها الظهر قاله محمد بن عمر السفري ، وفيه أن العمري ذكر في شرح ذات الشفاء أن الجمعة والجنازة وجبتا بعد الصلوات الخمس ، وفي شرح المنهاج للعلامة ابن حجر إن صلاة الجمعة فرضت بمكة ولم تقم بها لفقد العدد أو لأن شعارها الإظهار وكان صلى الله عليه وسلم بها مستخفياً ، وأول من أقامها بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زرارة بقرية على ميل من المدينة .

(67/449)

ونقل الدميري عن ابن الأثير أنه قال : الصحيح عندي أنها كانت ليلة الاثنين واختاره ابن المنير ، وفي البحر قيل إن الإسراء كان في سبع عشرة من شهر ربيع الأول والرسول صلى الله عليه وسلم ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وثمانية ووعشرين يوماً ، وحكى أنها ليلة السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر عن الجرمى ، وهي على ما نقل السفيري عن الجمهور أفضل الليالي حتى ليلة القدر مطلقاً ، وقيل هي أفضل بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وليلة القدر أفضل بالنسبة إلى أمته عليه الصلاة والسلام ، ورد بأن ما كان أفضل بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم فهو أفضل بالنسبة إلى أمته عليه الصلاة والسلام فهي أفضل مطلقاً نعم لم يشرع التعبد فيها والتعبد في ليلة القدر مشروع إلى يوم القيامة والله

تعالى أعلم واختلف أيضاً أنه في اليقظة أو في المنام فعن الحسن أنه في المنام .

وروى ذلك عن عائشة .

ومعاوية رضي الله تعالى عنهما ، ولعله لم يصح عنها كما في البحر ، وكان رضي الله تعالى عنها إذ ذاك صغيرة ولم تكن زوجته عليه الصلاة والسلام ، وكان معاوية كافراً يومئذ ، واحتج لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : 60] لأن الرؤيا تختص بالنوم لغة ، ووقع في حديث شريك المتقدم ما يؤيده ، وذهب الجمهور إلى أنه في اليقظة ببدنه وروحه صلى الله عليه وسلم والرؤيا تكون بمعنى الرؤية في اليقظة كما في قول الراعي يصف صائداً :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده . . .

وبشر قلبا كان جماً بلاله

(68/449)

وقال الواحدي : إنها رؤية اليقظة ليلاً فقط وخبر شريك لا يعول عليه على ما نقل عن عبد الحق ، وقال النووي : وأما ما وقع في رواية عن شريك وهو نائم وفي أخرى عنه بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه إذ قد يكون ذلك

أول وصول الملك إليه وليس في الحديث ما يدل على كونه صلى الله عليه وسلم نائماً في القصة كلها .

واحتج الجمهور لذلك بأنه لو كان مناماً ما تعجب منه قريش ولا استحالوه لأن النائم قد يرى نفسه في السماء ويذهب من المشرق إلى المغرب ولا يستبعده أحد ، وأيضاً العبد ظاهر في الروح والبدن ، وذهبت طائفة منهم القاضي أبو بكر .

والبغوي إلى تصديق القائلين بأنه في المنام والقائلين بأنه في اليقظة وتصحيح الحديثين في ذلك بأنّ الإسراء كان مرتين إحداهما في نومه صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فاسري بروحه توطئة وتيسيراً لما يضعف عنه قوى البشر وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : 60] ثم أسري بروحه وبدنه بعد النبوة ؛ قال في الكشف : وهذا هو الحق وبه يحصل الجمع بين الأخبار .

(69/449)

وحكى المازري في شرح مسلم قولاً رابعاً جمع به بين القولين فقال : كان الإسراء بجسده صلى الله عليه وسلم في اليقظة إلى بيت المقدس فكانت رؤية عين ثم أسري بروحه الشريفة عليه الصلاة والسلام منه إلى ما فوقه فكانت رؤيا قلب ولذا شنع الكفار عليه

عليه الصلاة والسلام قوله : أتيت بيت المقدس في ليلتي هذه ولم يشنعوا عليه قوله فيما سوى ذلك ولم يتعجبوا منه لأن الرؤيا ليست محل التعجب ، وليس معنى الإسراء بالروح الذهاب يقظة كالإنسلاخ الذي ذهب إليه الصوفية والحكماء فإنه وإن كان خارقاً للعادة ومحلاً للتجب أيضاً إلا أنه أمر لا تعرفه العرب ولم يذهب إليه أحد من السلف ، والأكثر على أن المعراج كالإسراء بالروح والبدن ولا استحالة في ذلك فقد ثبت بالهندسة أن مساحة قطر جرم الأرض ألفان وخمسمائة وخمسة وأربعون فرسخاً ونصف فرسخ وأن مساحة قطر كرة الشمس خمسة أمثال ونصف مثل لقطر جرم الأرض وذلك أربعة عشر ألف فرسخ وأن طرف قطرها المتأخر يصل موضع طرفه المتقدم في ثلثي دقيقة فتقطع الشمس بحركة الفلك الأعظم أربعة عشر ألف فرسخ في ثلثي دقيقة من ساعة مستوية .

(70/449)

وذكر الإمام في الأربعين أن الأجسام متساوية في الذوات والحقائق فوجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على غيره من الأعراض لأن قابلية ذلك العرض إن كان من لوازم تلك الماهية فأينما حصلت حصل لزم حصول تلك القابلية فوجب أن يصح على كل منها ما يصح على الآخر ، وإن لم يكن من لوازمها كان من عوارضها فيعود الكلام فإن سلم وإلا دار

أو تسلسل وذلك محال فلا بد من القول بالصحة المذكورة والله تعالى قادر على جميع الممكنات فيقدر على أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله، وقال العلامة البيضاوي: الاستخالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية إلى آخر ما قال، وما ذكرناه هو الصواب في التعبير فإن المقدمتين اللتين ذكرهما ممنوعتان، أما الأولى بأن النسبة التي ذكرها إنما هي نسبة جرم الشمس إلى جرم الأرض كما برهنوا عليه في باب مقادير الاجرام والابعاد من كتب الهيئة لكنهم قالوا جرم الشمس مثل جرم الأرض مائة وستة وستين مرة وربع مرة وثمن مرة.

(71/449)

والعلامة جعل ذلك نسبة القطر إلى القطر لأنه المتبادر مما بين الطرفين، وإرادة الجرم منه خلاف الظاهر جداً، وكان يكفيه لو أراد ذلك أن يقول: قرص الشمس ضعف كرة الأرض فاي معنى لما زاده، وأما الثانية فإن أراد بالثانية الثانية من دقيقة الدرجة الفلكية التي هي ستون دقيقة فمنعها بما حرره العلامة القطب الشيرازي في نهاية الإدراك حيث قال: مقدار

الدرجة الواحدة من مقعر الفلك الأطلس بالأميال 3953439 ميلا فالفلك الأعلى يقطع فيما مقداره من الزمان جزء واحد من خمسة عشر جزءاً من ساعة مستوية وهو ثلث خمسها هذا المقدار من الأميال فإذا تحرك مقدار دقيقة وهي جزء من تسعمائة جزء من ساعة مستوية كان قدر قطعة من المسافة 817551 ميلا وسدس ميل وخمس ربع أو ربع خمس ميل ، ولأن حين ما يبدو قرن الشمس إلى أن تطلع بالتمام يكون بقدر ما يعد واحد من واحد إلى ثلثمائة فبمقدار ما يعد ثلاثين يتحرك الفلك 817551 ميلا وهو ألف وسبعمائة واثنان وثلاثون فرسخاً من مقعره والله تعالى أعلم بما يتحرك محدبه حينئذ فسبحان الله تعالى ما أعظم شأنه اه .

وحاصل ذلك أن الفلك الأعظم يتحرك من ابتداء طلوع جرم الشمس إلى أن يطلع بتمامه سدس درجة وهو عشر دقائق من ستين دقيقة من درجة فلكية ومقدار مساحة هذه الدقائق 006915 أي خمسمائة ألف وتسعة عشر ألفا وستمائة فرسخ وإذا جعلنا هذه الدقائق ثواني كانت ستمائة ثانية فاين الأقل من ثانية .

وإن أراد بالثانية الثانية من دقيقة الساعة التي هي ربع الدرجة الفلكية فسدس الدرجة ههنا يكون ثلثي دقيقة وإذا جعلنا ثلثي الدقيقة ثواني كانا أربعين ثانية وهذه الثواني هي الثواني الستمائة بعينها إلا أن المنجمين لما جعلوا الساعة ستين دقيقة تسهيلاً للحساب والساعة عبارة عن خمسة عشر درجة فلكية اقتضى أن تكون الدرجة الفلكية وكل ثانية من ثواني دقيقة الساعة بخمسة عشر ثانية من ثواني دقيقة الدرجة الفلكية فالخلاف بين ثواني دقائق الدرجة الفلكية وثواني دقيقة الساعة اعتبار لفظي وأجاب عبد الرحمن الكردي الشهير بالفاضل بأن الثانية جزء من ستين جزأً من دقيقة والدقيقة قد تطلق على جزء من ستين جزأً من درجة وقد تطلق على جزء من ستين جزءاً من ساعة وقد تطلق على جزء من ستين جزأً من يوم بليلته ، ومراد العلامة البيضاوي من الثانية الثانية الثالثة لا الثانية الأولى وهو ظاهر ولا الثانية الثانية كما ذهب إليه سعدي جلبي وتبعه ابن صدر الدين ، وفيه أنه يفهم منه أن الفلكيين قد يقسمون اليوم بليلته إلى ستين دقيقة كما يقسمونها إلى الساعات والدرجات والدقائق قسمة يتميز بها أجزاء الزمان ولم يقل بذلك أحد منهم وإنما ذكر ذلك بعضهم تسهيلاً لمعرفة الكسر الزائد على الأيام التامة من السنة لتعرف منه السنة الكبيسة في ثلاث سنين أو أربع سنين وهو بمعزل عما نحن فيه من قطع المسافة البعيدة بالزمان القليل ولو سلمنا ما زعمه كان ناقصاً من مدة حركة الفلك الأعظم من ابتداء طلوع قرص الشمس إلى انتهائه وهو ثلثا دقيقة هما أربعون ثانية وذلك جزء من

تسعين جزأً من ساعة مستوية كما حرره العلامة الشيرازي ، وما ذكره من أن الثانية من دقيقة اليوم بليلته عبارة عن أربعة وعشرين ثانية من ثواني دقيقة الساعة ، وهي أقل من ثلثي دقيقة بستة عشر ثانية خطأ على خطأ تلك إذن قسمة ضيزى ، نعم قد أصاب في الرد على الفاضلين وقد أخطأ الفاضل الأول في غير ذلك في هذا المقام كما

(73/449)

لا يخفى على من وقف على كلامه وكان له أدنى اطلاع ، على كتب القوم ، ولتداول هذا المبحث بين الطلبة وعدم وجدانهم من يبل غليلهم تعرضنا له بما نرجو أن يبل به الغليل ، هذا والعلماء درجات والله تعالى الموفق لفهم الدقائق فتأمل مرة وثانية وثالثة فلعل الله سبحانه أن يفتح عليك غير ذلك ، وما ذكر من تساوي الأجسام مبني على ما قيل على تركبها من الجواهر الفردة وفيه خلاف النظام والفلاسفة ، والبحث في ذلك طويل ، ولا يستدل على الاستحالة بلزوم الخرق والالتئام ، وقد برهنوا على استحالة ذلك لأنا نقول : إن برهانهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت كما بين في محله ، ولم تتعرض الآية لأنه صلى الله عليه وسلم كان في الإسراء به محمولاً على شيء لكن صحت الأخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أسري به على البراق ﴿ إلى المسجد الاقصى ﴾ وهو بيت المقدس ، ووصفه

بالأقصى أي الأبعد بالنسبة إلى من بالحجاز ، وقال غير واحد : إنه سمي به لأنه أبعد المساجد التي تزار من المسجد الحرام وبينهما نحو من أربعين ليلة ، وقيل : لأنه ليس وراءه موضع عبادة فهو أبعد مواضعها ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يراد بالأقصى البعيد دون مفاضلة بينه وبين ما سواه وهو بعيد في نفسه للزائرين ، وقيل المراد بعده عن الأقذار والخبائث .

واختلف في ركوب جبريل عليه السلام معه فقيل : ركب خلفه عليه الصلاة والسلام ، والصحيح أنه لم يركب بل أخذ بركابه وميكائيل يقود البراق .

واختلف أيضاً في استمراره عليه عليه الصلاة والسلام في عروجه إلى السماء فقيل : عرج عليه ، والصحيح أنه نصب له معراج فعرج عليه ، وجاء في وصفه وعظمه ما جاء ، ووهم الحافظ ابن كثير كما قال الحلبي القائلين ومنهم صاحب الهمزية إن عروجه صلى الله عليه وسلم على البراق .

(74/449)

ومن الأكاذيب المشهورة أنه صلى الله عليه وسلم لما أراد العروج صعد على صخرة بيت المقدس وركب البراق فمالت الصخرة وارتفعت لتلحقه فأمسكتها الملائكة ففي طرف

منها أثر قدمه الشريف وفي الطرف الآخر أثر أصابع الملائكة عليهم السلام فهي واقفة في الهواء قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض سبحانه وتعالى ، وذكر العلائي في تفسيره أنه كان للنبي عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء خمسة مراكب ، الأول : البراق إلى بيت المقدس ، الثاني : المعراج منه إلى السماء الدنيا ، الثالث : أجنحة الملائكة منها إلى السماء السابعة ، الرابع : جناح جبريل عليه السلام منها إلى سدرة المنتهى ، الخامس : الرفرف منها إلى قاب قوسين ، ولعل الحكمة في الركوب إظهار الكرامة وإلا فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يوصله إلى أي موضع أراد في أقل من طرفة عين ، وقيل لم يكن إلا البراق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والمعراج منه إلى حيث شاء الله تعالى وقد كان له عشر مراقي سبعة إلى السموات والثامن إلى السدرة والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام والعاشر إلى العرش والله تعالى أعلم .

ومن العجائب ما سمعته عن الطائفة الكشفية والعهدة على الراوي أن للروح جسدين جسد من عالم الغيب لطيف لا دخل للعناصر فيه وجسد من عالم الشهادة كثيف مركب من العناصر والنبي صلى الله عليه وسلم حين عرج به ألقى كل عنصر من عناصر الجسد العنصري في كرته فما وصل إلى فلك القمر حتى ألقى جميع العناصر ولم يبق معه إلا الجسد اللطيف فرقى به حيث شاء الله تعالى ، ثم لما رجع عليه الصلاة والسلام رجع إليه ما ألقاه واجتمع فيه ما تفرق منه ، ولعمري إنه حديث خرافة لا مستند له شرعاً ولا عقلاً .

وذكر مولانا عبد الرحمن الدشتي ثم الجامي أن المعراج إلى العرش بالروح والجسد وإلى ما

وراء ذلك بالروح فقط وأنشد بالفارسية :

جو رفرف شد مشرف ازوجودش . . .

(75/449)

كرفت ازدست رفرف عرش زودش

بدست عرش تن جون خرقه بكذاشت . . .

علم برلا مكان بي خرقه افراشت

كلى برد ندا زين دهليزه يست . . .

بدان دركاه وإلا دست بردست

جهت رامهره ازششدر رهانيد . . .

مكانرا مركب ازتنكى جهانيد

مكاني يافت خالي ازمكان نيز . . .

كه تن محرم نبودا نجا وجان نيز

ولم أقف على مستند له من الآثار وكأنه لاحظ أن العروج فوق العرش بالجسد يستدعي

مكاناً ، وقد تقرر عند الحكماء أن ما وراء العرش لا خلا ولا ملا وبه تنتهي الأمكنة وتنقطع الجهات ، وقال بعضهم : أمر المعراج أجل من أن يكيف وماذا عسى يقال سوى أن المحب القادر الذي لا يعجزه شيء دعا حبيبه الذي خلقه من نوره إلى زيارته وأرسل إليه من أرسل من خواص ملائكته فكان جبريل هو الآخذ بركابه وميكائيل الآخذ بزمام دابته إلى أن وصل إلى ما وصل ثم تولى أمره سبحانه بما شاء حتى حصل فأي مسافة تطول على ذلك الحبيب الرباني وأي جسم يمتنع عن الخرق لذلك الجسد النوراني :

جز بجزوى فثم عالم لطف . . .

من بقايا أجساده الأرواح

ومن تأمل في العين وإحساسها بالقريب والبعيد ولو كان فاقدها وذكر له حالها لأنكر ذلك إنكاراً ما عليه مزيد ، وكذا في غير ذلك من آثار قدرة الله تعالى الظاهرة في الأنفس والآفاق والواقع على جلالة قدرها الاتفاق لم يسعه إلا تسليم ما نطقت به الآيات وصحت به الروايات ، ويشبه كلام هذا البعض ما قاله بعض شعراء الفرس إلا أن فيه ميلاً إلى مذهب أهل الوحدة وهو قوله :

قصه يبرنك معراج ازمن بيدل مبرس . . .

قطره دريا كشت وبيغمر نميدا نم جه شد

والظاهر أن المسافة التي قطعها عليه الصلاة والسلام في مسيره كانت باقية على امتدادها ، ويؤيد ذلك ما ذكره الثعلبي في تفسيره في وصف البراق أنه إذا أتى وادياً طالت يداه وقصرت رجلاه وإذا أتى عقبة طالت رجلاه وقصرت يداه ؛ وكانت المسافة في غاية الطول ، ففي حقائق الحقائق كانت المسافة من مكة إلى المقام الذي أوحى الله تعالى فيه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ما أوحى قدر ثلثمائة ألف سنة ، وقيل : خمسين ألفاً ، وقيل غير ذلك ، وأنه ليس هناك طي مسافة على نحو ما يثبته الصوفية وبعض الفقهاء للأولياء كرامة ، وجهل بعض الحنفية مثبتيه لهم وكفرهم آخرون وليس له وجه ظاهر ، وربما يلزم مثبتيه القول بتداخل الجواهر والفلاسفة والمتكلمون سوى النظام يحيلونه ويبرهنون على استحالته ، وادعى بعضهم الضرورة في ذلك وقالوا : المنع مكابرة ، وقد أثبت الصوفية للأولياء نشر الزمان ولهم في ذلك حكايات عجيبة والله تعالى أعلم بصحتها ، ولم أر من تعرض لذلك من المتشرعين وهو أمر وراء عقولنا المشوبة بالأوهام ، ومثله في ذلك قول من قال : الأزل والأبد نقطة واحدة الفرق بينهما بالاعتبار ، وليس لفهم ذلك عندي إلا المتجردون من جلابيب أبدانهم وقليل ما هم ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة حكاية إنكار طي المسافة أيضاً وذكر ما فيه والله تعالى الموفق .

وإنما أسرى به صلى الله عليه وسلم ليلاً لمزيد الاحتفال به عليه الصلاة والسلام فإن الليل وقت الخلوة والاختصاص ومجالسة الملوك ولا يكاد يدعو الملك لحضرته ليلاً إلا من هو خاص عنده وقد أكرم الله تعالى فيه قوماً من أنبيائه عليهم السلام بأنواع الكرامات وهو كالأصل للنهار ، وأيضاً الاهتداء فيه للمقصد أبلغ من الاهتداء في النهار ، وأيضاً قالوا : إن المسافر يقطع في الليل ما لا يقطع في النهار ومن هنا جاء عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار ، وأيضاً أسري به ليلاً ليكون ما يعرج إليه من عالم النور المحض أبعد عن الشبه بما يعرج منه من عالم الظلمة وذلك أبلغ في الإعجاب .

وقال ابن الجوزي في ذلك : إن النبي صلى الله عليه وسلم سراج والسراج لا يوقد إلا ليلاً وبدر وكذا مسير البدر في الظلم إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، ثم إن الآية ليست نصاً في دخوله عليه الصلاة والسلام المسجد الأقصى إلا أن الأخبار الصحيحة نص في ذلك ، وقوله سبحانه : ﴿ الذى لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ صفة مدح وفيها إزالة اشتراك عارض ، وبركته بما خص به من كونه متعبد الأنبياء عليهم السلام وقبلة لهم وكثرة الأنهار والأشجار حوله ، وفي الحديث أنه تعالى بارك فيما بين العريش إلى الفرات وخص

فلسطين بالتقديس ، وقيل : بركته أن جعل سبحانه مياه الأرض كلها تنفجر من تحت صخرته والله تعالى أعلم بصحة ذلك ، وهو أحد المساجد الثلاث التي تشد إليها الرحال ، والأربع التي يمنع من دخولها الدجال فقد أخرج أحمد في المسند أن الدجال يطوف الأرض إلا أربعة مساجد ؛ مسجد المدينة .

ومسجد مكة .

والأقصى .

والطور .

والصلاة فيه مضاعفة فقد أخرج أحمد أيضاً .

وأبو داود .

وابن ماجه عن ميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت : يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس قال : أرض المحشر والمنشر ائتوه وصلوا فيه فإن صلاة فيه بألف صلاة .

وفي رواية لأحمد عن بعض نسائه عليه الصلاة والسلام أنها قالت : يا رسول الله فإن لم تستطع إحدانا أن تأتيه قال : إذا لم تستطع إحداكن أن تأتيه فلتبعث إليه زيتاً يسرج فيه فإن

من بعث إليه بزيت يسرج فيه كان كمن صلى فيه ، وروى بعضه أبو داود ، وهو ثاني مسجد وضع في الأرض لخبر أبي ذر قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال : المسجد الحرام قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى قلت : كم بينهما قال : أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه ، وقد أسسه يعقوب عليه السلام بعد بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة بما ذكر في الحديث وجدده سليمان أو أتم تجديد أبيه عليهما السلام بعد ذلك بكثير ، والكلام فيما يتعلق بذلك مفصل في محله ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءايٰتنا ﴾ أي لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة ، فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم عرج به من صخرة بيت المقدس كما تقدم واجتمع في كل سماء مع نبي من الأنبياء عليهم السلام كما في "صحيح البخاري" .

وغيره ، واطلع عليه الصلاة والسلام على أحوال الجنة والنار ورأى من الملائكة ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى .

(79/449)

ونقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه الصلاة والسلام رأى ليلة المعراج في مملكة الله تعالى خلقاً كهيئة الرجال على خيل بلق شاكين السلاح طول الواحد منهم ألف

عام والفرس كذلك يتبع بعضهم بعضاً لا يرى أولهم ولا آخرهم فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ فقال : ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : 31] فأنا أهبط وأصعد أراهم هكذا يمرون لا أدري من أين يجيئون ولا إلى أين يذهبون ، وقد صلى صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم السلام في بيت المقدس ، وقال في "العقائق" وكانت صلاته عليه الصلاة والسلام بهم ركعتين قرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص ؛ وقال بعضهم : كانت دعاء ، وذكر أن الأنبياء كانوا سبعة صفوف ثلاثة منهم مرسلون وأن الملائكة عليهم السلام صلت معهم وهذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام كما قال القاضي زكريا في "شرح الروض" ، والحكمة في ذلك أن يظهر أنه أمام الكل عليه الصلاة والسلام ، وهل صلى بأرواحهم خاصة أو بها مع الأجساد فيه خلاف ، وكذا اختلف في أنه صلى الله عليه وسلم صلى بهم قبل العروج أو بعده فصحح الحافظ ابن كثير أنه بعده وصحح القاضي عياض وغيره أنه قبله ، وجاء في رواية أنه عليه الصلاة والسلام صلى في كل سماء ركعتين يؤم أملاكها ، وكان الإسراء والعروج في بعض ليلة واحدة ، وكان رجوعه صلى الله عليه وسلم على ما كان ذهابه عليه ولم يعين مقدار ذلك البعض ، وكيفما كان فوقوع ما وقع فيه من أعجب الآيات وأغرب الكائنات ، وفي بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع وجد فراشه لم يبرد من أثر النوم ، وقيل : إن غصن شجرة أصابه بعمامته في ذهابه فلما رجع وجده بعد يتحرك ، وزعم بعضهم أن ليلة الإسراء غير ليلة المعراج وظاهر

الآية على ما سمعت يقتضي أنهما في ليلة واحدة ؛ وإنما أسري به صلى الله عليه وسلم أولاً إلى بيت المقدس وعرج به ثانياً منه ليكون وصوله إلى

الأماكن الشريفة على التدريج فإن شرف بيت المقدس دون شرف الحضرة التي عرج إليها على ما قيل ، وقيل : توطيناً له عليه الصلاة والسلام لما في المعراج من الغرابة العظيمة التي ليست في الإسراء وإن كان غريباً أيضاً ، وقيل : لتتشرف به أرض المحشر ذهاباً وإياباً ، وقيل : لأن باب السماء الذي يقال مصعد الملائكة عليهم السلام على مقابلة صخرة بيت المقدس فقد نقل عن كعب الأحبار أنه قال : إن لله تعالى باباً مفتوحاً من سماء الدنيا إلى بيت المقدس ينزل منه كل يوم سبعون ألف ملك يستغفرون لمن أتى بيت المقدس وصلى فيه فأسريه به صلى الله عليه وسلم إلى هناك أولاً ثم عرج به ليكون صعوده على الاستواء ، وقيل : إن اسطوانات المسجد قالت ربنا حصل لنا من كل نبي حظ وقد اشتقنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فأرزقنا لقاءه فبدىء بالإسراء به إلى المسجد تعجيلاً للإجابة ، وقيل : غير ذلك .

وعبر بمن الدالة على التبعيض لأن إراءة جميع آيات الله تعالى لعدم تناهيها مما لا تكاد تقع ولو

قيل آياتنا لتبادر الكل ، وربما يستعان بالمقام على إرادته واستشكل بأنه كيف يرى نبينا صلى الله عليه وسلم بعض الآيات ويرى إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] وفرق بين الحبيب والخليل ، وأجيب بأن بعض الآيات المضافة إليه تعالى أشرف وأعظم من ملكوت السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبّهِ الكبرى ﴾ [النجم : 18] ، وقال الخفاجي : السؤال غير وارد لأن ما رآه إبراهيم عليه السلام ما فيها من الدلائل والحجج وليس ذلك مقاوماً للمعراج فتأمل .

(81/449)

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون معنى الآية لنرى محمداً صلى الله عليه وسلم للناس آية من آياتنا أي ليكون عليه الصلاة والسلام آية في أنه يصنع الله تعالى ببشر هذا الصنع ، ويندفع بهذا السؤال المذكور إلا أنه احتمال في غاية البعد ، ثم لا يخفى أنه ليس في الآية إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة الإسراء إذ لا يصدق عليه تعالى أنه من آياته بل لا يصدق سبحانه أنه آية ، نعم مثبتو الرؤية يحتجون بغير ذلك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ، وكذا ليست الآية نصاً في المعراج بل هي نص في الإسراء دونه إذ يجوز حمل بعض الآيات على ما

حصل له صلى الله عليه وسلم في الإسراء فقط بل قال بعضهم : ليس في الآيات مطلقاً ما هو نص في ذلك ، من هنا قالوا : الإسراء إلى بيت المقدس قطعي ثبت بالكتاب فمن أنكره فهو كافر والمعراج ليس كذلك فمن أنكره فليس بكافر بل مبتدع ؛ وكأنه سبحانه إنما لم يصرح به كما صرح بالإسراء رحمة بالقاصرين على ما قيل ، وفي التفسير الخازني أن فائدة ذكر المسجد الأقصى فقط دون السماء أنه لو ذكر صعوده عليه الصلاة والسلام لاشتد إنكارهم لذلك فلما أخبر أنه أسري به إلى بيت المقدس وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التي فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بمعراجه إلى السماء فكان الإسراء كالتوطئة للمعراج اه ، وهذا ظاهر في الخبر الوارد في هذا الباب لا في الآية لأنه لم يخبر فيها بالمعراج كما أخبر فيها بالإسراء دلالة ، وقيل : إن الإشارة بعد ذلك التصريح كافية فتدبر ، وصرف الكلام من الغيبة التي في قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ إلى صيغة المتكلم المعظم في ﴿ بَارَكْنَا مِنْ ءاياتنا ﴾ لتعظيم البركات والآيات لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير تدل على عظم ما أضيف إليه وصدر عنه كما قيل إنما يفعل العظيم العظيم ، وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة وهي أن قوله تعالى : ﴿ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾

يدل على مسيره عليه الصلاة والسلام من عالم الشهادة إلى عالم الغيب فهو بالغيبة أنسب وقوله تعالى: ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ دل على إنزال البركات فيناسب تعظيم المنزل والتعبير بضمير العظمة متكفل بذلك، وقوله سبحانه: ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ على معنى بعد الاتصال وعز الحضور فيناسب التكلم معه، وأما الغيبة فلكونه صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ليس من عالم الشهادة ولذا قيل إن فيه إعادة إلى مقام السر والغيبوبة من هذا العالم والغيبة بذلك اليق وقوله تعالى: ﴿ مِنْ ءاياتنا ﴾ عود إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه، وأما الغيبة في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ على تقدير كون الضمير له تعالى كما هو الأظهر وعليه الأكثر فليطابق قوله تعالى: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ ويرشح ذلك الاختصاص بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعه وينطبق عليه التعليل أتم انطباق إذ المعنى قربه وخصه بهذه الكرامة لأنه سبحانه مطلع على أحواله عالم باستحقاقه لهذا المقام، قال الطيبي: أنه هو السميع لأقوال ذلك العبد البصير بأفعاله بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الهوى مقرونة بالصدق والصفا مستأهلة للقرب والزلفى، وأما على تقدير كون الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو البقاء عن بعضهم وقال: أي السميع لكلامنا البصير لذاتنا، وقال الجلبي: إنه لا يبعد، والمعنى عليه إن عبدي الذي شرفته بهذا التشريف هو المستأهل له

فإنه السميع لأوامري ونواهي العامل بهما البصير الذي ينظر بنظرة العبرة في مخلوقاتي فيعتبر أو البصير بالآيات التي أريناه إياها كقوله تعالى :

(83/449)

﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [النجم : 17] فقيل لمطابقة الضمائر العائدة عليه وكذا لما عبر به عنه من قوله سبحانه : ﴿ عَبْدِهِ ﴾ ، وقيل : للإشارة إلى اختصاصه صلى الله عليه وسلم بالمنح والزلفى وغيبوبة شهوده في عين بي يسمع وبي يبصر ، ولا يمتنع إطلاق السميع والبصير على غيره تعالى كما توهم لا مطلقاً ولا هنا ، قال الطيبي : ولعل السر في مجيء الضمير محتملاً للأمرين الإشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم إنما رأى رب العزة وسمع كلامه به سبحانه كما في الحديث المشار إليه آنفاً فافهم تسمع وتبصر ، وتوسيط ضمير الفصل إما لأن سماعه تعالى بلا إذن وبصره بلا عين على نحو لا يشاركه فيه تعالى أحد وإما للإشعار باختصاصه صلى الله عليه وسلم بتلك الكرامة .

وزعم ابن عطية أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ وعيد للكفار على تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الإسراء أي إنه هو السميع لما تقولون أيها المكذبون البصير بما تفعلون فيعاقبكم على ذلك .

وقرأ الحسن ﴿ لِيُرِيَهُ ﴾ بياء الغيبة ففي الآية حينئذٍ أربع التفاتات. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(84/449)

وقال صاحب روح البيان:

﴿ سُبْحَانَ ﴾ اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه ومتضمن معنى التعجب وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره اسبح الله عن صفات المخلوقين سبحانا ً بمعنى تسبيحا ً ثم نزل منزلة الفعل فناب منابه كقولهم معاذ الله وغفرانك غير ذلك.

وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه وتصدير الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذكره بعده وهو لا ينافي التعجب.

قال في "التأويلات النجمية": كلمة سبحان للتعجب بها يشير إلى أعجب أمر من أموره تعالى جرى بينه وبين حبيبه.

وفي "الأسئلة الحكم" أما اقتران الإسراء بالتسبيح ليتقي بذلك ذو العقل وصاحب الوهم ومن يحكم عليه خياله من أهل التشبيه والتجسيم مما يخيله في حق الخالق من الجهة والجسد والحد والمكان.

وإنما تعجب بعروجه دون نزوله عليه السلام لأنه لما عرج كان مقصده الحق تعالى ولما نزل كان مقصد الخلق والمقصود من التعجب التعجب بعروجه .

وأيضاً أن عروجه أعجب من نزوله لأن عروج الكثيف إلى العلو من العجائب ﴿ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ .

الإسراء السير بالليل خاصة كالسرى يقال اسري وسري أي : سار ليلاً ومنه السرية لواحدة السرايا لأنها تسري في خفية وأسرى به أي : سيره ليلاً .

قال النضر : سقط السؤال والاعتراضات على المعراج بقوله : أسرى دون سار ونظيره قوله عليه السلام : "حبب إلى من دنياكم ثلاث" حيث لم يقل أحببت .

(85/449)

وإنما قال بعبده دون بنبيه لئلا يتوهم فيه نبوة وألوهة كما توهموا في عيسى ابن مريم عليهما السلام بانسلاخه عن الأكوان وعروجه بجسم إلى الملأ الأعلى مناقضاً للعادات البشرية وأطوارها .

وأدخل الباء للمناسبة بين العبودية التي هي الذلة والتواضع وبين الباء التي هي حرف الخفض والكسر فإن كل ذليل منكسر .

وفيه إشارة إلى شرف مقام العبودية حتى قال الإمام في تفسيره : إن العبودية أفضل من الرسالة لأن بالعبودية ينصرف من الخلق إلى الحق فهي مقام الجمع وبالرسالة ينصرف من الحق إلى الخلق فهي مقام الفرق والعبودية أن يكل أموره إلى سيده فيكون هو المتكفل بإصلاح مهامه والرسالة التكفل بمهام الأمة وشتان ما بينهما .

قال الشيخ الأكبر قدس سره (1) : إن معراجه عليه السلام أربع وثلاثون مرة واحدة بجسده والباقي بروحه رؤياً رآها أي : قبل النبوة وبعدها وكان الإسراء الذي حصل له قبل أن يوحى إليه توطئة له وتيسيراً عليه كما كان بدأ نبوته الرؤيا الصادقة والذي يدل على أنه عليه السلام عرج مرة بروحه وجسده معاً قوله أسرى بعبده فإن العبد اسم للروح والجسد جميعاً وأيضاً أن البراق الذي هو من جنس الدواب إنما يحمل الأجساد وأيضاً لو كان بالروح حال النوم أو حال الفناء أو الانسلاخ لما استبعده المنكرون إذ المتهيئون من جميع الملل يحصل لهم مثل ذلك ويتعارفونه بينهم .

وقد ذكروا أن جبريل عليه السلام أخذ طينة النبي صلى الله عليه وسلّم فعجنها بمياه الجنة وغسلها من كل كثافة وكدورة فكأن جسده الطاهر كان من العالم العلوي كروحه الشريف . (2)

فإن قلت ففيمَ أسري به ؟ قلت : قال صلى الله عليه وسلّم "أسري بي في قفص من لؤلؤ فراشه من ذهب" كما في "بحر العلوم" .

---

(1) كلام لا دليل عليه.

(2) كلام غريب كسابقه لا يعول عليه. والله أعلم.

(86/449)

﴿ لَيْلا ﴾ نصب على الظرف وهو تأكيد إذ الإسراء في لسان العرب لا يكون إلا ليلاً حتى لا يتخيل أنه كان نهاراً ولا يظن أنه حصل بروحه أو لإفادة تقليل مدة الإسراء في جزء من الليل لما في التنكير من الدلالة على البعضية من حيث الإفراد فإن قولك سرت ليلاً كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالي يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما إذا قلت: سرت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً فيكون معياراً للسير لا ظرفاً له وهي ليلة سبع وعشرين من رجب ليلة الإثنين وعليه عمل الناس قالوا: إنه عليه السلام ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين وأسري به ليلة الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين ومات يوم الاثنين ولعل سره أن يوم الاثنين إشارة إلى التعين الثاني الذي هو مبدأ الفياضية ونظيره الباء كما أن الباء من الحروف الهجائية له التعين الثاني فكذا يوم الاثنين فكان الألف ويوم الأحد بمنزلة تعين الذات والباء ويوم الاثنين أي: تعينهما بمنزلة تعين الصفات فافهم وفي وصف هذه الليلة،

فإن قلت فلِمَ جُعِل المعراج ليلاً ولم يجعل نهاراً ؟ حتى يكون إشكال وطعن .

قلت : ليظهر تصديق من صدق وتكذيب من كذب .

(87/449)

وأيضاً أن الليل محل الخلوة بالحبيب فالليل حظ الفراش والوصال والنهار حظ اللباس والفراق والليل مظهر البطون والنهار مظهر الظهور والليل راحة والراحة من الجنة والنهار تعب والتعب من النار وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، يعني : (درسال دوازدهم از مبعث بوده) ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أصح الروايات على أن الإسراء كان من بيت أم هانىء بنت أبي طالب وكان بيتها من الحرم والحرم كله مسجد .

قالوا حدود الحرم من جهة المدينة على ثلاثة أميال ومن طريق العراق على سبعة أميال ومن طريق الجعرانة على تسعة أميال ومن طريق الطائف على سبعة أميال ومن طريق جدة على عشرة أميال والمواقيت الخمسة التي وقتها النبي صلى الله عليه وسلّم وعينها للإحرام فناء للحرم وهو فناء للمسجد الحرام وهو فناء للبيت شرفه الله تعالى فالبيت إشارة إلى الذات الإلهية والمسجد الحرام إلى الصفات والحرم إلى الأفعال وخارج المواقيت إلى الآثار ومن قصد مكة سواء كان للزيارة وغيرها لا يحل له التجاوز من هذه الأفنية غير محرم

تعظيماً لها وقس عليه دخول المساجد وحضور المشايخ أصحاب القلوب للصلاة والزيارة فإنه لا بد من أدب الظاهر والباطن في كل منهما .

ـ ذكروا ـ أن الحجر الأسود أخرج من الجنة وله ضوء فكل موضع بلغ ضوءه كان حرماً .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لما أهبط آدم إلى الأرض خر ساجداً معتذراً فأرسل الله تعالى جبريل بعد أربعين سنة يعلمه بقبول توبته فشكا إلى الله تعالى ما فاته من الطواف بالعرش فأهبط الله له البيت المعمور وكان ياقوتة حمراء فأضاء ما بين المشرق والمغرب فنفرت من ذلك النور الجن والشياطين وفزعوا وتفرقوا في الجو ينظرونه فلما رأوه أي : النور من جانب مكة أقبلوا يريدون الاقتراب إليه فأرسل الله تعالى ملائكته فقاموا حوالي الحرم في مكان الاعلام اليوم ومنعوهم فمن ثمة تسمى الحرم بالحرم .

(88/449)

﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأقْصَى ﴾ أي : بيت المقدس وسمي بالأقصى أي : الأبعد لأنه لم يكن حينئذٍ وراءه مسجد فهو أبعد المساجد من مكة وكان بينهما أكثر من مسيرة شهر .

قال بعض العارفين : أشار بالمسجد الحرام إلى مقام القلب المحرم أن يطوف به مشركوا القوى البدنية الحيوانية وترتكب فيه فواحشها وخطاياها وتحجه غير القوى الحيوانية من الصفات

البهيمية والسبعية.

وأشار بالمسجد الأقصى إلى مقام الروح الأبعد من العالم الجسماني لشهود تجليات الذات.

قال في "هدية المهديين": معراج النبي عليه السلام إلى المسجد الأقصى ثابت بالكتاب وهو في اليقظة وبالجسد بإجماع القرن الثاني ثم إلى السماء بالخبر المشهور ثم إلى الجنة أو العرش أو إلى طواف العالم بخبر الواحد انتهى.

(89/449)

﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي والملائكة ومتعبد الأنبياء من لدن موسى عليه السلام ومحفوف بالأنهار والأشجار المثمرة فدمشق والأردنّ فلسطين من المدائن التي حوله ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَآ﴾ غاية للإسراء وإشارة إلى أن الحكمة في الإسراء به إراءة آيات مخصوصة بذاته تعالى التي ما شرف بإراءتها أحداً من الأولين والآخرين إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين فإنه تبارك وتعالى أرى خليله عليه السلام وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه الملكوت كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأنعام: 75) وأرى حبيبه آيات ربوبيته الكبرى كما قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم: 18) ليكون من المحبين المحبوبين فمن تبعضية لأن ما أراه الله تعالى في

تلك الليلة إنما هو بعض آياته العظمى وإضافة الآيات إلى نفسه على سبيل التعظيم لها لأن المضاف إلى العظيم عظيم .

وسقط الاعتراض بأن الله تعالى أرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وأرى نبينا عليه السلام بعض آياته فيلزم أن يكون معراج إبراهيم أفضل .

وحاصل الجواب أنه يجوز أن يكون بعض الآيات المضافة إلى الله تعالى أعظم وأشرف من ملكوت السموات والأرض كلها كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (النجم : 18) ، قالوا في التفاسير هي ذهابه في بعض الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية ونحوها .

قال في : "أسئلة الحكم" أما الآيات الكبرى : فمنها في الآفاق ما ذكره عليه السلام من النجوم والسموات والمعارج العلى والرفرف الأدنى وصرير الأقلام وشهود الألواح وما غشي الله سدرة المنتهى من الأنوار وانتهاء الأرواح والعلوم والأعمال إليها ومقام قاب قوسين من آيات الآفاق .

ومنها آيات الأنفس كما قال سبحانه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الافَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ﴾ وقوله : ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم : 9) من آيات الأنفس وهو مقام المحبة والاختصاص بالهو ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم : 1) مقام المسامرة وهو الهوّ غيب الغيب وأيده ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (النجم : 11) والفؤاد قلب القلب وللقلب رؤية وللفؤاد رؤية فرؤية القلب يدركها العمى كما قال تعالى : ﴿وَلَاكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾ (الحج : 46) والفؤاد لا يعمى لأنه لا يعرف الكون وماله تعلق إلا بسيده فإن العبد هنا عبد من جميع الوجوه منزه مطلق التنزيه في عبوديته فما نقل عبده من مكان إلى مكان إلا ليريه من آياته التي غابت عنه كأنه تعالى قال : ما أسريت به إلا لرؤية الآيات لا إليّ فإني لا يحدني مكان ولا يقيدني زمان ونسبة الأمكنة والأزمنة إلي نسبة واحدة وأنا الذي وسعني قلب عبدي فكيف أسري به إليّ وأنا عنده ومعه أينما كان نزولاً وعروجاً واستواء ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقواله صلى الله عليه وسلّم بلا أذن كما يتكلم من غير آلة الكلام وهو اللسان ويعلم من غير أداة العلم وهو القلب ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك .

وفيه إيماء إلى أن الإسراء المذكور ليس إلا لتكرمته ورفع منزلته وإلا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة

إلى التقريب .

وفي "التأويلات" وفي قوله : ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلّم هو السميع الذي قال الله : "كنت له سمعاً في يسمع وبي يبصر" فتحقيقه لنريه من آياتنا المخصوصة بجمالنا وجلالنا إنه هو السميع بسمعنا البصير ببصرنا فإنه لا يسمع كلامنا إلا بسمعنا ولا يبصر جمالنا إلا ببصرنا .

(91/449)

(وتفصيل القصة أنه عليه السلام بات ليلة الاثنين ليلة السابع والعشرين من رجب كما سبق في بيت أم هاني بنت أبي طالب واسمها على الأشهر فاختة أسلمت يوم الفتح وهرب زوجها جبيرة إلى نجران ومات بها على كفره واضطجع عليه السلام هناك بعد أن صلى الركعتين اللتين كان يصليهما وقت العشاء ونام ففرج عن سقف بيتها ونزل جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ومع كل واحد منهم سبعون ألف ملك وأيقظه جبريل بجناحه قال عليه السلام : فقمت إلى جبريل فقلت : أخي جبريل ما لك ؟ فقال : يا محمد إن ربي تعالى بعثني إليك أمرني أن آتيه بك في هذه الليلة بكرامة لم يكرم بها أحد قبلك ولا يكرم بها أحد بعدك فإنك تريد أن تكلم ربك وتنظر إليه وترى في هذه الليلة من عجائب ربك وعظمته وقدرته قال عليه السلام : فتوضأت وصليت ركعتين وشق جبريل صدره

الشريف من الموضع المنخفض بين الترقوتين إلى أسفل بطنه أي : أشار إلى ذلك فانشق فلم يكن الشق بآلة ولم يسل دم ولم يجد له عليه السلام ألماً لأنه من خرق العادة وظهور المعجزات فجاء بطست من ماء زمزم واستخرج قلبه عليه السلام فغسل ثلاث مرات ونزع ما كان فيه من أذى .

(92/449)

وفيه إشارة إلى فضل زمزم على المياه كلها جنانية أو غيرها ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء إيماناً وحكمة فافرغ فيه لأن المعاني تمثل بالأجسام كالعلم بصورة اللبن ووضعت فيه السكنة ثم أعاد القلب إلى مكانه والتأم صدره الشريف فكانوا يرون أثراً كأثر المخيط في صدره وهو أثر مرور يد جبريل .

ووقع له عليه السلام شق الصدر ثلاث مرات :

والمرة الأولى : حين كان في بني سعد وهو ابن خمس سنين على ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما وأخرج في هذه المرة العلقة السوداء من القلب التي هي حظ الشيطان ومحل غمزه أي : محل ما يلقيه من الأمور التي لا تنبغي فلم يكن

للشيطان في قلب النبي عليه السلام حظ وكذا لم يكن لقلبه الطاهر ميل إلى لعب الصبيان

ونحوه وهو مما اختص به دون الأنبياء عليهم السلام إذ لم يكن لهم شرح الصدر على هذا الأسلوب وللورثة الكمل حظ من هذا المعنى فإنه يخرج من بعضهم الدم الأسود بالقيء في حال اليقظة ومن بعضهم حال الفناء والانسلاخ والأول أتم لأنه يزول القلب بالكلية فينشط للعبادات كالعادات وجاء جبريل في هذه المرة بخاتم من نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبه عليه السلام لحفظ ما فيه وختم أيضاً بين كتفيه بخاتم النبوة أي الذي هو علامة على النبوة وكان حوله خيلان فيها شعرات سود مائلة إلى الخضرة وكان كالتفاحة أو كبيض الحمامة أو كزر الحجلة وهو طائر على قدر الحمامة كالقطاة أحمر المنقار والرجلين ويسمى دجاج البر وزرها بيضتها .

قال الترمذي والصواب حجلة السرير واحدة الحجال وزرها الذي يدخل في عروتها كما في حياة الحيوان ﷺ مكتوب عليه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أو "محمد نبي أمين" أو غير ذلك .

والتوفيق بين الروايات بتنوع الخطوط بحسب الحالات والتجليات أو بالنسبة إلى أنظار الناظرين .

قال الإمام الدميري : إن بعض الأولياء سأل الله تعالى أن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس فأراه الحق هيكل الإنسان في صورة بلور وبين كتفيه شامة سوداء كالعش والوكر فجاء الخناس يتحسس من جميع جوانبه وهو في صورة خنزير له خرطوم كخرطوم الفيل فجاء من بين الكتفين فأدخل خرطومه قبل قلبه فوسوس إليه فذكر الله تعالى فخنس وراءه ولذلك سمي بالخناس لأنه ينكص على عقبيه مهما حصل نور الذكر في القلب ولهذا السر الإلهي كان عليه السلام يحتجم بين كتفيه ويأمر بذلك ووصاه جبريل بذلك لتضعيف مادة الشيطان وتضييق مرصده لأنه يجري وسوسته مجرى الدم ولذلك كان خاتم النبوة بين كتفيه إشارة إلى عصمته من وسوسته لقوله : "أعانني الله عليه فأسلم" أي : بالختم الإلهي أيده به وخصه وشرفه وفضله بالعصمة الكلية فأسلم قرينه وما أسلم قرين آدم فوسوس إليه لذلك .

.والمرة الثانية : .عند مجيىء الوحي في بلوغه سن أربعين ليحصل له التحمل لأعباء الرسالة .

.والمرة الثالثة : .ليلة الإسراء وهو ابن ثنتين وخمسين ليتسع قلبه لحفظ الأسرار الإلهية والكلمات الربانية وجاء جبريل هذه الليلة بدابة بيضاء ومن ثمة قيل لها البراق بضم الموحدة لشدة بريقها أو لسرعتها فهي كالبرق الذي يلمع في الغيم ، وهي دابة فوق الحمار دون البغل .

قال صاحب "المنتقى" : الحكمة في كونه على هيئة بغل ولم يكن على هيئة فرس التنبيه على أن الركوب في سلم وأمن لا في خوف وحرب أو لإظهار الآية في الإسراع العجيب في دابة لا يوصف شكلها بالإسراع فإنه كان يضع خطوه عند أقصى طرفه ويؤخذ من هذا أنه أخذ من الأرض إلى السماء في خطوة لأن بصر من في الأرض يقع على السماء وإلى السموات السبع في سبع خطوات لأن بصر من يكون في السماء يقع على السماء التي فوقها وبه يرد على من استبعد من المتكلمين إحضار عرش بلقيس في لحظة واحدة .

وقال في "الربيع" : الأبرار خد البراق كخد الإنسان وقوائمها كقوائم البعير وعرفها كعرف الفرس وعليها سرج من لؤلؤة بيضاء وركابان من زبرجد أخضر وعليه لجام من ياقوت أحمر يتلألأ نوراً .

قال في "إنسان العيون" : لا ذكر ولا أنثى ومن لا يوصف بوصف المذكر والمؤنث فهو حقيقة ثالثة ويكون خارجاً من قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ كما خرجت الملائكة من ذلك فإنهم ليسوا ذكوراً ولا إناثاً .

قال عليه السلام : "فما رأيت دابة أحسن منها وإني لمشتاق إليها من حسنها فقلت : يا

جبريل ما هذه الدابة؟ فقال: هذا البراق فاركب عليه حتى تمضي إلى دعوة ربك فأخذ جبريل بلجامها وميكائيل بركابها وإسرافيل من خلفها فقصدت إلى أن أركبها فجمحت الدابة وأبت فوضع جبريل يده على وركها وقال لها: أما تستحيين مما فعلت فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله من محمد فرشحت عرقاً من الحياء".

قال ابن دحية: لم يركب البراق أحد قبله عليه السلام ووافقه الإمام النووي فقول جبريل ما ركبك لا ينافيه لأن السالبة تصدق بنفي الموضوع.

فقالت: يا جبريل لم استصعب منه إلا ليضمن أن يشفع لي يوم القيامة لأنه أكرم الخلائق على الله فضمن لها ذلك.

قالوا: الورد الأبيض خلق من عرق جبريل والأصفر من عرق البراق.

(95/449)

وعن أنس رضي الله عنه رفعه "لما عرج بي إلى السماء بكت الأرض من بعدي فنبت الأصفر من نباتها فلما رجعت قطر عرقي على الأرض فنبت ورد أحمر ألا من أراد أن يشم رائحتي فليشم الورد الأحمر".

قال أبو الفرج النهرواني: هذا الخبر يسير من كثير مما أكرم الله تعالى به نبيه عليه السلام ودل

على فضله ورفيع منزلته كما في "المقاصد الحسنة" .

يقول الفقير : هذا لا يستلزم أن لا يكون قبل هذا ورد أحمر وأبيض وأصفر إذ ذلك من باب الكرامة ونظير ذلك أن حواء عليها السلام حين أهبطت إلى الأرض بكت فما وقع من قطرات دموعها في البحر صار لؤلؤاً وهذا لا يستلزم أن لا يكون قبل هذا در في البحر وقس عليه الملح فإن إبراهيم عليه السلام أتى بكف من كافور الجنة فذراه فحيثما وقع ذرة منه في أطراف العالم انقلب مملحة وكان قبل هذا ملح لكن لا بهذه المثابة .

قال عليه السلام : "فركبتها" :

قال صاحب المنتقى : الظاهر عندي أنه لم يركب لأنه عليه السلام مخصوص بشرف الإسراء فانطلق البراق يهوي به يضع حافره حيث أدرك طرفه حتى بلغ أرضاً فقال له جبريل : انزل فصل ههنا ففعل ثم ركب فقال له جبريل : أتدري أين صليت ؟ قال : "لا" قال : صليت بمدين وهي قرية تلقاء غزة عند شجرة موسى سميت باسم مدين بن موسى لما نزلها فانطلق البراق يهوي به فقال له جبريل : انزل فصل ففعل ثم ركب فقال له : أتدري أين صليت ؟ قال : "لا" قال : صليت ببيت لحم وهي قرية تلقاء بيت المقدس حيث ولد عيسى عليه السلام وبينا هو صلى الله عليه وسلّم على البراق إذ رأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار

كلما التفت رآه فقال له جبريل : ألا أعلمك كلمات تقولهن إذا أنت قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه ؟ فقال عليه السلام : "بلى" فقال جبريل : قل أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن فقال عليه السلام : "ذلك" فانكب لفيه وطفئت شعلته .

ورأى صلى الله عليه وسلّم حال المجاهدين في سبيل الله أي : كشف له عن حالهم في دار الجزاء بضرب مثال .

فرأى قوماً يزرعون ويحصدون من ساعته وكلما حصدوا عاد كما كان فقال : "يا جبرائيل ما هذا ؟" قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من خير فهو يخلفه والمراد تكرير الجزاء لهم .

ونادى مناد عن يمينه يا محمد انظرني أسألك فلم يجبه فقال : "ما هذا يا جبريل ؟" فقال : هذا داعي اليهود أما أنك لو أجبته لتهودت أمتك أي : لتمسكوا بالتوراة والمراد غالب الأمة .

ونادى مناد عن يساره كذلك فلم يجبه فقال : "ما هذا يا جبريل ؟" فقال : هذا داعي

النصارى أما أنك لو أجبته لتنصرت أمتك أي: لتمسكوا بالإنجيل.

وكشف له عليه السلام عن حال الدنيا بضرب مثال فرأى امرأة حاسرة عن ذراعيها لأن ذلك شأن المقتنص لغيره وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى ومعلوم أن النوع الواحد من الزينة يجلب القلوب إليه فكيف بوجود سائر أنواع الزينة، فقالت: يا محمد انظرني أسألك فلم يلتفت إليها فقال: "من هذا يا جبريل" فقال: تلك الدنيا أما أنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

ورأى صلى الله عليه وسلّم على جانب الطريق عجوزاً فقالت: يا محمد انظرني فلم يلتفت إليها فقال: "من هذه يا جبريل؟" فقال: إنه لم يبق شيء من عمر الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز.

وفي كلام بعضهم قد يقال لها شابة وعجوز بمعنى يتعلق بذاتها وبمعنى يتعلق بغيرها.

الأول وهو أنها من أول وجود هذا النوع الإنساني إلى أيام إبراهيم عليه السلام تسمى الدنيا شابة وفيما بعد ذلك إلى بعثة نبينا عليه السلام كهلة ومن بعد ذلك إلى يوم القيامة تسمى عجوزاً وهذا بالنسبة إلى القرن الإنساني وإلا فقد خلق آدم عليه السلام والدنيا عجوز

ذهب شبابها ونضارتها كما ورد في بعض الأخبار .

فإن قلت : الشباب ومقابله إنما يكون في الحيوان .

قلت : الغرض من ذلك التمثيل .

وكشف له عليه السلام عن حال من يقبل الأمانة مع عجزه عن حفظها بضرب مثال فأتى على رجل جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : "ما هذا يا جبريل ؟" قال : هذا الرجل من أمتك يكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها ويريد أن يتحمل عليها .

قيل : "اتقوا الواوات" أي : اتقوا مدلولات الكلمات التي أولها واو كالولاية والوزارة والوصاية والوكالة والوديعة .

وكشف له عن حال من ترك الصلاة المفروضة في دار الجزاء فأتى على قوم ترضخ رؤوسهم كلما رضخت عادت كما كانت فقال : "يا جبريل من هؤلاء ؟" قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة أي : المفروضة عليهم .

وكشف له عن حال من يترك الزكاة الواجبة عليه فأتى على قوم على إقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع وهو اليابس من الشوك والزقوم ثمر شجر مر له زفرة قيل : إنه لا يعرف شجره في الدنيا وإنما هو شجر في النار وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (الصافات : 64) ويأكلون رضف جهنم أي : حجارتها المحماة التي تكون بها فقال : "من هؤلاء يا جبريل" قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم المفروضة عليهم .

وكشف له عن حال الزناة بضرب مثل فأتى على قوم من بين أيديهم لحم نضيج في قدور ولحم نيىء أيضاً في قدور خبيث فجعلوا يأكلون من ذلك النيىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال : "ما هذا يا جبريل" قال : هذا الرجل من أمتك يكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح .

وكشف له عن حال من يقطع الطريق بضرب مثال فأتى عليه السلام على خشبة لا يمر بها ثوب ولا شيء إلا خرقته فقال : "من هذه يا جبريل" قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه وتلا ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ (الأعراف : 86) .

وفيه إشارة إلى الزناة المعنوية وقطاع الطريق عن أهل الطلب وهم الدجاجلة والأئمة المضلة في صورة السادة القادة الأجلة فإنهم يفسدون أرحام الاستعدادات والاعتقادات بما يلقون

فيها من نطف خلاف الحق ويصرفون المقلدين عن طريق التحقيق ويقطعون عليهم خير الطريق فأولئك يحشرون مع الزناة والقطاع.

وكشف له عن حال من يأكل الربا أي: حالته التي يكون عليها في دار الجزاء فرأى رجلاً يسبح في نهر من دم يلقم الحجارة فقال: "من هذا" فقال: آكل الربا.

وكشف له عن حال من يعظ ولا يتعظ فأتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت فقال: "من هؤلاء يا جبريل" فقال: هؤلاء خطباء الفتنة خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون:

وكشف له عن حال المغتابين للناس فمر على قوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقال: "من هؤلاء يا جبريل" فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم.

وكشف له عن حال من يتكلم بالفحش بضرب مثال فأتى على حجر يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج فلا يستطيع فقال: "من هذا يا جبريل" فقال: هذا الرجل من أمتك يتكلم الكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها.

وكشف له عن حال من أحوال الجنة فأتى على واد فوجده طيباً بارداً ريحه ريح المسك وسمع صوتاً فقال: "يا جبريل ما هذا" قال: هذا صوت الجنة تقول يا رب ائتني ما وعدتني.

وكشف له عن حال من أحوال النار فأتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً خبيثة فقال: "ما هذا يا جبريل" قال: صوت جهنم تقول يا رب ائتني ما وعدتني،

ومر عليه السلام على شخص متنحياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد قال جبريل: سر يا محمد قال عليه السلام: "من هذا" قال: عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه:

ومر عليه السلام على موسى وهو يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر وهو يقول برفع صوته أكرمته وفضلته فقال: "من هذا يا جبريل" قال: هذا موسى بن عمران عليه السلام قال: "ومن يعاتب" قال له: يعاتب ربه فيك.

والعتاب مخاطبة فيها إدلال والظاهر أنه عليه السلام نزل عند قبره فصلى ركعتين.

ومر عليه السلام على شجرة تحتها شيخ وعياله فقال: "من هذا يا جبريل" قال: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: من هذا الذي معك يا جبريل؟ قال

: هذا ابنك محمد صلى الله عليه وسلّم قال : مرحباً بالنبي العربي الأمي ودعا له بالبركة وكان قبر إبراهيم تحت تلك الشجرة فنزل عليه السلام وصلى هناك ركعتين ثم ركب وسار حتى أتى الوادي الذي في بيت المقدس فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي وهي النمارق أي : الوسائد فقيل : يا رسول الله كيف وجدتها ؟ قال : "مثل الحمة" أي : الفحمة ومضى عليه السلام حتى انتهى إلى إيليا من أرض الشام وهو بالكسر مدينة القدس واستقبله من الملائكة جم غفير لا يحصى عددهم فدخلها من الباب اليماني الذي فيه مثل الشمس والقمر ثم انتهى إلى بيت المقدس وكان بباب المسجد حجر فأدخل جبريل يده فيه فخرقه فكان كهيئة الحلقة وربط به البراق .

وفي حديث أبي سفيان رضي الله عنه قبل إسلامه أنه قال لقيصر يحط من قدره صلى الله عليه وسلّم ألا أخبرك أيها الملك عنه خبراً تعلم منه أنه يكذب ؟ فقال : وما هو ؟ قال : إنه يزعم أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فجاء مسجد كم هذا ورجع إلينا في ليلة واحدة فقال بطريق : أنا أعرف تلك الليلة فقال له قيصر : ما أعلمك بها قال : إني كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير واحد وهو

الباب الفلاني غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني فلم يفد فقالوا إن البناء نزل عليه فاتركوه إلى غد حتى يأتي بعض النجارين فيصلحه فتركه مفتوحاً فلم أصبحت غدوت فإذا الحجر الذي من زاوية الباب مثقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة ولم أجد بالباب ما يمنعه من الإغلاق فعلمت أنه إنما امتنع لأجل ما كنت أجده في العلم القديم أن نبياً يصعد من بيت المقدس إلى السماء وعند ذلك قلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر .

ولا يخفى أن عدم انغلاق الباب إنما كان ليكون آية وإلا فجبريل لا يمنعه باب مغلق ولا غيره وكذا خرق المربط وربط البراق وإلا فالبراق لا يحتاج إلى الربط كسائر الدواب الدنيوية فإن الله تعالى قد سخره لحبيبه عليه السلام .

ولما استوى عليه السلام على الحجر المذكور قال جبريل : يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين قال : "نعم" قال جبريل : فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن فسلم عليه السلام عليهن فرددن

عليه السلام فقال: من أنتن قلن خيرات حسان نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا وأقاموا فلم يظعنوا وخلدوا فلم يموتوا ثم دخل عليه السلام المسجد ونزلت الملائكة وأحيى الله له آدم ومن دونه من الأنبياء من سمي الله ومن لم يسم حتى لم يشذ منهم أحد فرآهم في صورة مثالية كهيئتهم الجسدانية إلا عيسى وإدريس والخضر والياس فإنه رآهم بأجسادهم الدنيوية لكونهم من زمرة الاحياء كما هو الظاهر فسلموا عليه وهنأوه بما أعطاه الله تعالى من الكرامة وقالوا: الحمد الذي جعلك خاتم الأنبياء فنعم النبي أنت ونعم الأخ أنت وأمتك خير الأمم ثم قال جبريل: تقدم يا محمد وصل بإخوانك من الأنبياء ركعتين فصلى بهم ركعتين وكان خلف ظهره إبراهيم وعن يمينه إسماعيل وعن يساره إسحاق عليهم السلام وكانوا سبعة صفوف ثلاثة صفوف من الأنبياء المرسلين وأربعة من سائر الأنبياء.

قال في "إنسان العيون": والذي يظهر. والله أعلم. أن هذه الصلاة كانت من النفل المطلق ولا يضر وقوع الجماعة فيها انتهى.

وفي "منية المفتي" أيضاً إمامة النبي عليه السلام ليلة المعراج لأرواح الأنبياء وكانت في النافلة انتهى.

قال عليه السلام: "لما وصلت إلى بيت المقدس وصليت فيه ركعتين" أي: إماماً بالأنبياء والملائكة "أخذني العطش أشد ما أخذني فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر فأخذت الذي فيه اللبن وكان ذلك بتوفيق ربي فشربته إلا قليلاً منه وتركت الخمر فقال

جبريل : أصبت الفطرة يا محمد " لأن فطرته هي الملائمة للعلم والحلم والحكمة "أما أنك لو شربت الخمر لغوت أمتك كلها ولو شربت اللبن كله لما ضل أحد من أمتك بعدك فقلت : يا جبريل أردد عليّ اللبن حتى أشربه كله فقال جبريل : قضي الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم" .

(103/449)

قال بعضهم : إنه لم يختلف أحد أنه عرج به صلى الله عليه وسلّم من عند القبة التي يقال لها قبة المعراج عن يمين الصخرة وقد جاء "صخرة بيت المقدس من صخور الجنة" وفيها أثر قدم النبي عليه السلام .

قال أبي بن كعب : ما من ماء عذب إلا وينبع من تحت صخرة بيت المقدس ثم يتفرق في الأرض وهذه الصخرة من عجائب الله فإنها صخرة شعثاء في وسط المسجد الأقصى قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ومن تحتها المغارة التي انفصلت من كل جهة فهي معلقة بين السماء والأرض .

قال الإمام أبو بكر بن العربي في شرح الموطأ امتنعت لهيبتها أن أدخل من تحتها لأني كنت أخاف أن تسقط عليّ بالذنوب ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجاب تمشي في

جوانبها من كل جهة فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شيء ولا بعض شيء وبعض الجهات أشد انفصالاً من بعض .

قال بعضهم : بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً وباب السماء الذي يقال له : مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس أي : ولهذا أسري به عليه السلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليحصل العروج مستوياً من غير تعويج .

يقول الفقير رقاه الله القدير إلى معرفة سر المعراج المنير : لعل وجه الإسراء إلى بيت المقدس هو التبرك بقدمه الشريفة لكون مدينة القدس ومسجدها متعبد كثير من الأنبياء ومدفنهم لا لأنه يحصل العروج مستوياً فإن ذلك من باب قياس الغائب على الشاهد وتقدير الملكوت بالملك إذ الأرواح الطيبة وألطفها

النبي عليه السلام بجسمه وروحه لا حائل لهم واعتبار الاستواء والتعويج من باب التكلف الذي لا يناسب حال المعراج .

وقد ثبت أن عيسى عليه السلام سينزل إلى المنارة البيضاء الدمشقية ولم يعهد أنها حيال باب السماء فالجواب العقلي لا يتمشى ههنا .

قال في "ربيع الأبرار" "ثم قال لي جبريل : قم يا محمد فقمت فإذا بسلم من ذهب قوائمه من فضة مركب من اللؤلؤ والياقوت يتلألأ نوره وإذا أسفله على صخرة بيت المقدس ورأسه في السماء فقيل لي : يا محمد اصعد فصعدت" .

وفي "إنسان العيون" : عرج إلى السماء من الصخرة على المعراج لا على البراق .

والمعراج بكسر الميم وفتحها الذي تعرج أرواح بني آدم فيه وهو سلم له مرقاة من ذهب وهذا المعراج لم تر الخلائق أحسن منه أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء أي : بعد خروج روحه فإن ذلك عجبه بالمعراج الذي نصب لروحه لتعرج عليه وذلك شامل للمؤمن والكافر إلا أن المؤمن يفتح لروحه باب السماء دون الكافر فترد بعد عروجها تحسراً وندامة وتبكيتاً له وذلك المعراج أتى به من جنة الفردوس وأنه منضد باللؤلؤ أي : جعل فيه اللؤلؤ بعضه على بعض عن يمينه ملائكة ويساره ملائكة فصعد صلى الله عليه وسلّم ومعه جبريل .

وفي كلام بعض المشايخ أن المراد بالمعراج صورة الجذب والانجذاب وتمثيل الصعود وإلا فالآلة لا تتمشى هناك إذ لا يقاس السير الملكوتي على السير الملكي والظاهر أن عالم الملكوت مشتمل على ما هو صورة ومعنى والصورة هناك تابعة للمعنى كحال صاحب السير والإسراء فإنه لو لم يكن جسده تابعاً لروحه لتعذر العروج فلصورته صورة ولمعناه معنى وكل منهما خلاف ما تتصوره الأوهام وهو اللائح بالبال والحمد الملك المتعال .

واعلم أن المعدن والنبات والحيوان مركبات تسمى بالمواليد الثلاثة آباؤها الأثيريات أي: الإجرام الأثيرية التي هي الأفلاك بما فيها من الأجرام النيرة وأمهاتها العنصريات والعناصر أربعة الأرض والماء والهواء والنار فالأرض ثقيل على الإطلاق والماء ثقيل بالإضافة إلى الهواء والنار وهو محيط بأكثر الأرض والهواء خفيف مضاف إلى الثقلين يطلب العلو وهو محيط بكرة الأرض والماء والنار خفيف على إطلاق يحيط بكرة الهواء والنبي صلى الله عليه وسلّم جاوز هذه العناصر ليلة المعراج بالحركة القسرية والحركة القسرية غير منكورة عندنا وعند المحيلين لهذا الإسراء الجسماني فإنا نأخذ الحجر وطبعه النزول فنرمي به في الهواء فصعوده في الهواء بخلاف طبعه وبطبعه أما قولنا بخلاف طبعه فإن طبعه يقتضي الحركة نحو المركز فصعوده في الهواء عرضي بالحركة القسرية وهي الرمي به علواً وأما قولنا وبطبعه فإنه على طبيعة يقبل بها الحركة القسرية ولو لم يكن ذلك في طبعه لما انفعل لها ولا قبلها وكذلك اختراقه عليه السلام الفلك الأثيري وهو نار والجسم الإنساني مهيأ مستعد لقبول الاحتراق ثم إن المانع من الاحتراق أمور يسلمها الخصم فتلك الأمور كانت الحجب التي خلقها الله سبحانه في جسم المسري به فلم يكن عنده استعداد الانفعال للحرق كبعض

الأجسام المطلية بما يمنعها من الاحتراق بالنار أو أمر آخر وهو أن الطريق الذي اخترقه ليس النار فيه إلا محمولة في جسم لطيف ذلك الجسم هو المحرق بالنار فسلب عنه النار وحل به ضدها كنار إبراهيم عليه السلام قال عليه السلام : "انتهيت إلى بحر أخضر عظيم أعظم

(106/449)

ما يكون من البحار فقلت : يا جبرائيل ما هذا البحر ؟ فقال : يا محمد هذا بحر في الهواء لا شيء من فوقه يتعلق به ولا شيء من تحته يقر فيه ولا يدري قعره وعظمته إلا الله تعالى ولولا أن هذا البحر كان حائلاً لاحترق ما في الدنيا من حر الشمس" ثم قال : "ثم انتهيت إلى السماء الدنيا واسمها رقيع فأخذ جبريل بعضدي وضرب بإبهامه وقال : افتح الباب" وإنما استفتح لكون إنسان معه ولو انفرد لما طلب الفتح ولكون مجيئه على خلاف ما كانوا يعرفونه قبل : "قال الحارس : من أنت ؟ قال : جبريل قال : ومن معك فإنه رأى شخصاً معه لم يعرفه قال : محمد قال : أوقد بعث محمد قال : نعم" وذلك لجواز أن يعرف ولادته عليه السلام ويخفى عليه بعثته قال : "الحمد ففتح لنا الباب ودخلنا فلما نظر إلي قال : مرحباً بك يا محمد ولنعم المجيىء مجيئك فقلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : إسماعيل خازن السماء

الدنيا وهو ينتظر قدومك فادن وسلم عليه فدنوت وسلمت فرد عليّ السلام وهنأني فلما صرت إليه قال : أبشر يا محمد فإن الخير كله فيك وفي أمتك فحمد الله على ذلك" وهذا الملك لم يهبط إلى الأرض قط إلا مع ملك الموت لما نزل لقبض روحه الشريفة "تحت يده سبعون ألف ملك تحت يد كل ملك سبعون ألف ملك قال : وإذا جنوده قائمون صفوفاً ولهم زجل بالتسبيح يقولون سبوحاً سبوحاً لرب الملائكة والروح قدوساً قدوساً لرب الأرباب سبحان العظيم الأعظم وكان قراءتهم سورة الملك فرأيت فيها كهيئة عثمان بن عفان فقلت : بم بلغت إلى هنا قال : بصلاة الليل" :

(107/449)

قال : "ثم انتهيت إلى آدم فإذا هو كهيئة يوم خلقه الله تعالى" أي : على غاية من الحسن والجمال "وكان تسبيحه سبحان الجليل الأجل سبحان الواسع الغنى سبحان الله العظيم وبحمده فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة خرجت من جسد طيب اجعلوها في عليين وتعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة خرجت من جسد خبيث اجعلوها في سجين" .

فإن قلت أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء فكيف تعرض عليه وهو في السماء .

قلت : المراد بعض أرواح ذريته الكفار يقع نظره عليها وهي دون السماء لأنها شفافة .

فإن قلت : ما ذكر يقتضي أن يكون أرواح المؤمنين كلهم في عليين في السماء الرابعة وقد ثبت أن أرواح العصاة محبوسة بين السماء والأرض .

قلت : التحقيق أن مبدأ مراتب السعداء من السماء الدنيا على درجات متفاوتة إلى عليين ومبدأ مراتب الأشقياء من مقعر سماء الدنيا إلى منازل مختلفة إلى سجين تحت السابعة وهو مسكن إبليس وذريته فمراتب أرواح الكفار أنزل من مراتب أرواح عصاة المؤمنين تلتحق بعد التهذيب إلى مقارها العلوية قال عليه السلام : "فتقدمت إليه وسلمت عليه فقال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح" أي : لقيت رحباً وسعةً وكان مقره فلك القمر لمناسبته في السرعة فإن القمر يسير في الشهر ما يسير الشمس في السنة من المنازل فناسب في سرعة حركاته حركاته الذهنية وانتقالاته الباطنية وموجب هذه الرؤية الخاصة أي : رؤيته عليه السلام لآدم في السماء الدنيا دون غيره من الأنبياء عليهم السلام مناسبة صفاتية أو فعلية أو حالية فلا تنافي أن يشارك آدم في هذه السماء غيره من بعض الأنبياء وقس عليها الرؤية فيما فوقها من السموات كما سيجيىء .

قال في تفسير "المناسبات" في سورة النجم فأول ما رأى صلى الله عليه وسلّم من الأنبياء عليهم السلام آدم عليه السلام الذي كان في أمن الله وجواره فأخرجه إبليس عدوه منهما وهذه القصة تشبهها الحالة الأولى من أحوال النبي عليه السلام حين أخرجه أعداؤه من حرم الله وجوار بيته فأشبهت قصته في هذا قصة آدم مع أن آدم يعرض عليه ذريته البر والفاجر منهم فكان في السماء الدنيا بحيث يرى الفريقين لأن أرواح أهل الشقاء لا تلج في السماء ولا تفتح لهم أبوابها انتهى قال عليه السلام: "ورأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل" أي: كشفاه الإبل "وفي أيديهم قطع من نار كالأفهار" أي الحجارة "التي كل واحد منها ملء الكف يقذفونها في أفواههم تخرج من أدبارهم قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: أكلة أموال اليتامى ظلماً" وهؤلاء لم يتقدم رؤيته لهم في الأرض ولعل المراد بالرجال الأشخاص أو خصوا بذلك لأنهم أولياء للأيتام غالباً "ثم رأيت رجالاً لهم بطون أمثال البيوت فيها حيات ترى من خارج البطون بطريق آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار لا يقدرون أن يتحولوا من مكانهم ذلك" أي: فتأطهم آل فرعون الموصوفون بما ذكر المقضتي لشدة وطئهم لهم والمهيومة التي أصابها الهيام وهو داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض ولا ترعى أو العطاش والهيام شدة العطش.

وفي رواية "كلما نهض أحدهم خر" أي : سقط "قلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء أكلة الربا" وتقدمت رؤيته عليه السلام لهم في الأرض لا بهذا الوصف بل أن الواحد منهم يسبح في نهر من دم يلقم الحجارة ولا مانع من اجتماع الوصفين لهم أي : فيخرجون من ذلك النهر ويلقون في طريق من ذكر وهكذا عذابهم دائماً "ثم رأيت أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد وأخرى عليها لحم منتن عليها ناس يأكلون قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام" أي : من الأموال أعم مما قبله وهؤلاء لم يتقدم رؤيته لهم في الأرض "ثم رأيت نساء متعلقات بثديهن فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال ما ليس من أولادهن أي : بسبب زناهن" وفي رواية "أنه عليه السلام رأى في هذه السماء النيل والفرات" وذلك لأن منبعهما من تحت سدرة المنتهى ويمران في الجنة ويجاوزانها إلى السماء الدنيا فينصبان إلى الأرض من طرق العالم فيجريان. وفي زيادة "الجامع الصغير" "إن النيل يخرج من الجنة ولو التمستم فيه حين يسيح لوجدتم فيه من ورقها" قال صلى الله عليه وسلّم "ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل قيل : ومن معك؟ قال : محمد قيل : أوقد بعث إليه؟ قال : نعم ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهم السلام" أي : شبيه أحدهما بصاحبه ثيابهما وشعرهما "ومعهما نفر من قومهما فرحبا بي ودعوا لي بخير" وكونهما ابن الخالة أي : أن أم

كل خالة الآخر هو المشهور والتفصيل في آل عمران.

قال في "تفسير المناسبات" ثم رأى في الثانية عيسى ويحيى وهما الممتحنان باليهود أما عيسى فكذبته اليهود وآذته وهموا بقتله فرفعه الله وأما يحيى فقتلوه،

(110/449)

ورسول الله صلى الله عليه وسلّم بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان وكانت محنته فيها باليهود وآذوه وظاهروا عليه وهموا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه فنجاه الله كما نجى عيسى منهم ثم سموه في الشاة فلم تزل تلك الأكلة تعاده حتى قطعت أبهره كما قال عند الموت وهكذا فعلوا بابني الخالة عيسى ويحيى.

قوله تعاده يقال عادته اللسعة إذا أتته لعداد بالكسر أي: لوقت وفي الحديث: "ما زالت أكلة خيبر تعادني فهذا أوان قطعت أبهري" وهو عرق في الظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه وذلك أن يهودية أتت رسول الله بشاة مسمومة فأكل منها وأكل القوم فقال عليه السلام: "ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة" فمات بشر بن البراء منه فجيىء بها إلى رسول الله فسألها عن ذلك فقالت: أردت أن أقتلك فقال عليه السلام: "ما كان الله ليسلط على ذلك" أي: على قتلي.

قال الشيخ افتاده قدس سره : وإنما لم يؤثر السم فيه عليه السلام إلى الاحتضار لأن إرشاده عليه السلام وإن كان في عالم التنزل غير أن تنزله كان من مرتبة الروح وهي أعدل المراتب فلم يؤثر فيه إلى الاحتضار فلما احتضر تنزل إلى أدنى المراتب لأن الموت إنما يجري على البشرية فلما تنزل إلى تلك المرتبة أثر فيه "ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ قال جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : أوقد بعث إليه ؟ قال : نعم ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام ومعه نفر من قومه وإذا هو أعطى شطر الحسن" أي : نصف الحسن الذي أعطيه الناس غير نبينا عليه السلام وفي كلام بعضهم أعطى شطر الحسن الذي أوتيه نبينا عليه السلام وكان نبينا عليه السلام أملح وإن كان يوسف أبيض ،

وذلك أن الحسن والملاحة من عالم الصفات ولم يحصل لغيره عليه السلام ما حصل له من تجليات الصفات على الكمال صورة ومعنى إذ هو أفضل من الكل فالتجلي له أكمل وهو اللائح بالبال قال عليه السلام : "فرحب بي ودعا لي بخير قال في "تفسير المناسبات" أما لقاؤه ليوسف عليه السلام في السماء فإنه يؤذن بحالة ثالثة تشبه حالة يوسف عليه السلام وذلك أن يوسف ظفر بإخوته بعد ما أخرجوه من بين ظهرانيهم فصفح عنهم وقال : ﴿لا

تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف : 72) الآية وكذلك نبينا عليه السلام أسر يوم بدر جملة من أقاربه الذين أخرجوه فيهم عمه العباس وابن عمه عقيل فمنهم من أطلقه ومنهم من فداه ثم ظهر عليهم بعد ذلك عام الفتح فجمعهم فقال لهم : "أقول ما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم" "ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : أوقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير" قال الله تعالى في حقه : "ورفعناه مكاناً علياً" أي : السماء الرابعة حال حياته على أحد الوجوه وكونه في الجنة كما في بعض الروايات لا ينافي وجوده في السماء المذكورة تلك الليلة.

قيل : رفع إلى السماء من مصر بعد أن خرج منها ودار الأرض كلها وعاد إليها ودعا الخلائق إلى الله تعالى باثنتين وسبعين لغة خاطب كل قوم بلغتهم

وعلمهم العلوم وهو أول من استخرج علم النجوم أي : علم الحوادث التي تكون في الأرض باقتران الكواكب وهو علم صحيح لا يخطىء في نفسه وإنما الناظر في ذلك هو الذي يخطىء لعدم استيفائه النظر.

قال في "المناسبات" ثم لقاؤه لإدريس عليه السلام في السماء الرابعة وهو المكان الذي سماه الله مكاناً علياً وإدريس أول من آتاه الله الخط بالقلم فكان ذلك موذناً بحالة رابعة وهو شأنه صلى الله عليه وسلّم حتى أخاف الملوك وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته حتى قال أبو سفيان وهو عند ملك الروم حين جاء كتاب النبي عليه السلام ورأى ما رأى من خوف هرقل لقد أمر أمر ابن أبي كبشه حين أصبح يخافه ملك ابن أبي الأصفر وكتب بالقلم إلى جميع ملوك الأرض فمنهم من اتبعه على دينه كالنجاشي وملك عمان ومنهم من هادن وأهدى إليه وأتحفه المقوقس ومنهم من تعصى عليه فاظفره الله به وهذا مقام عليّ وخط بالقلم على نحو ما أوتي إدريس عليه السلام: "ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا ؟ قال: جبريل قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قيل: أوقد بعث إليه ؟ قال: نعم ففتح لنا فإذا أنا بهارون عليه السلام ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء تكاد تضرب إلى سرته من طولها وحوله قوم من بني إسرائيل وهو يقص عليهم فرحب بي ودعا لي بخير" وكان هارون محبباً في قومه لأنه كان ألين إليهم من موسى لأن موسى كان فيه بعض الشدة عليهم ومن ثمة كان له منهم بعض الأذى.

قال في "المناسبات": لقاؤه عليه السلام في السماء الخامسة لهارون المحبب في قومه يوذن بحب قريش وجميع العرب له بعد بغضهم فيه.

قال وهب بن منبه: وجدت في أحد وسبعين كتاباً أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلّم إلا كحبة بين رمال الدنيا.

ومما يتفرع على العقل إقناء الفضائل واجتناب الرذائل وإصابة الرأي وجودة الفطنة وحسن السياسة والتدبير وقد بلغ من ذلك صلى الله عليه وسلّم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه ومما لا يكاد يقضي منه العجب حسن تدبيره صلى الله عليه وسلّم للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة كيف ساسهم واحتمل جفاءهم وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه واجتمعوا عليه واختاروه على أنفسهم وقاتلوا دون أهلهم وآباءهم وأبناءهم وهجروا في رضاه أوطانهم "ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: نعم ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير" وكان موسى رجلاً آدم طوالاً كثير الشعر مع صلابته لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر منهما وكان إذا غضب يخرج شعر رأسه من قلنسوته وربما اشتعلت قلنسوته لشدة غضبه ولشدة غضبه لما فر الحجر بثوبه صار يضربه حتى ضربه ست ضربات أو سبعاً مع أنه لا إدراك له ووجه بأنه لما فر صار كالدابة والدابة إذا

جمحت فصاحبها يؤديها بالضرب.

يقول الفقير: إنما فر الحجر لأن للجمادات حياة حقانية عند أهل الله تعالى وربما يظهر أثرها في الظاهر فتصير في حكم الأحياء من ذوي الروح

قال عليه السلام: "فلما جاوزت أي عن موسى بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي" أي بل ومن سائر الأمم لأن أهل الجنة من الأمم مائة وعشرون صفاً هذه الأمة منها ثمانون صفاً وسائر الأمم أربعون.

(114/449)

قال ابن الملك: إنما بكى موسى إشفاقاً على أمته حيث قصر عددها عن عدد أمة محمد لا حسداً عليه لأنه لا يليق به وأما قوله أن غلاماً بعث بعدي فلم يكن على سبيل التحقير بل على معنى تعظيم المنة تعالى لأن محمداً مع كونه غير طويل العمر في عبادة ربه خصه بهذه الفضيلة.

يقول الفقير: بكاء موسى عليه السلام هو المناسب لمقامه لأنه كان له غيرة غالبة ولذا لما مر عليه السلام عليه وهو يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر سمع منه وهو يقول برفع صوته

أكرمته فضلته يخاطب ربه وعاتبه ادلالاً وهو لا يستلزم الحسد والتحقير لأن كمل أفراد الأمة مطهرون عن مثل هذا فكيف الأنبياء خصوصاً أولوا العزم منهم ومن البين أن أهل الجنة يرضون بما أوتوا من الدرجات على حسب استعداداتهم فلا يتمنى بعضهم مقام بعض لكونه خارجاً عن الحكمة فكذا الأنبياء الأولياء في مقاماتهم المعنوية وإلا لما استراحوا وهو مخل برتبتهم.

قال في "المناسبات": ولقاؤه في السماء السادسة لموسى عليه السلام يوذن بحالة تشبه حالة موسى عليه السلام حين أمر بغزوة الشام وظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها وادخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد إهلاك عدوهم وكذلك غزا رسول الله صلى الله عليه وسلّم تبوك من أرض الشام وظهر على صاحب دومة الجندل حتى صالحه على الجزية بعد أن أتى به أسيراً وافتتح مكة ودخل أصحابه البلد الذي خرجوا منه "ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: أوقد بعث إليه قال: نعم ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح".

قال الإمام التوربشتي أمر النبي عليه السلام بالتسليم على الأنبياء وإن كان أفضل لأنه كان عابراً عليهم وكان في حكم القائم وهم في حكم القعود والقائم يسلم على القاعد والمرئى كان أرواح الأنبياء مشكلة بصورهم التي كانوا عليها إلا عيسى فإنه مرئى بشخصه قال عليه السلام : "وإذا إبراهيم رجل أشمط جالس عند باب الجنة" أي في جهتها وإلا فالجنة فوق السماء السابعة "على كرسي مسنداً ظهره إلى البيت المعمور" وهو من عقيق محاذ للكعبة بحيث لو سقط سقط عليها "يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون الأنفاس الإنسانية يدخلون من الباب الواحد ويخرجون من الباب الآخر" فالدخول من باب مطالع الكواكب والخروج من باب مغاربها قال عليه السلام : "وإذا أنا بأمتي شطرين شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمدة فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور" أي ركعتين والظاهر أنه ليس المراد بالشطر النصف حتى يكون العصاة من أمته بقدر الطائعين منهم .

يقول الفقير المراد بالشطرين الفرقتان والفرقة التي عليهم ثياب بيض طائفة بالنسبة إلى الذين عليهم ثياب رمدة لأن الحكمة الإلهية اقتضت كون أهل العصيان والنفس أكثر من أهل الطاعة والتزكية إذ المقصود ظهور الإنسان الكامل وهو حاصل مع أن الواحد على الحق

هو السواد الأعظم فيكون أهل الطاعة كالشطر بالنسبة إلى أهل العصيان نسأل الله تعالى أن يدخلنا بيت القلب مع الداخلين ويزيل أوساخ وجوداتنا بحرمة النبي الأمين.

قال السهيلي قد ثبت في الصحيح أن أطفال المؤمنين والكافرين في كفالة سيدنا إبراهيم عليه السلام وأن رسول الله قال لجبريل حين رآهم مع إبراهيم "من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أولاد المؤمنين الذين يموتون صغاراً" قال له: "وأولاد الكافرين" قال: وأولاد الكافرين.

(116/449)

وقد روي في أطفال الكافرين أيضاً "أنهم خدم لأهل الجنة".

وجاء أن إبراهيم عليه السلام قال لرسول الله: "اقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها سبحان الله والحمد ولا إله إلا الله والله أكبر"

قال عليه السلام: "واستقبلتني جارية لعساء وقد أعجبتني فقلت لها: يا جارية أنت لمن؟ قالت: لزيد بن حارثة" واللعس لون الشفة إذا كان تضرب إلى السواد قليلاً وذلك مستملح.

يقول الفقير زيد هذا هو الذي تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكانت زينب تحت

نكاحه فطلقها ليتزوجها رسول الله فلما آثر النبي عليه السلام بها أبدل الله مكانها زوجاً له من الحور مليحة جداً وجازاه بها فإن لكل فناء وترك مشروع أثراً معنوياً فما انتقص شيء في الظاهر إلا وقد انتقل في الباطن والآخرة باطن بالنسبة إلى الدنيا فمن ترك حظه فيها وجده في الآخرة أعلى منه وأوفر .

ورأى عليه السلام في السماء السابعة فوجاً من الملائكة نصف أبدانهم من النار ونصفها من الثلج فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار وهم يقولون : اللهم كما ألفت بين النار والثلج فألف بين قلوب عبادك المؤمنين حمله بعض الأكابر على معنى أن نصف أجزائه ثلج ونصف أجزائه نار فامتزجا وحصل بينهما مزاج واحد والظاهر أن الأول أدل على القدرة فإن اجتماع الأضداد بالمعنى الذي ذكره موجود في أكثر المركبات .

(117/449)

قال في "المناسبات" : ثم لقاؤه في السماء السابعة إبراهيم عليه السلام لحكمتين إحداهما أنه رآه عند البيت المعمور مسنداً ظهره إليه والبيت المعمور حيال الكعبة أي بإزائها ومقابلتها وإليه تحج الملائكة كما أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة وأذن في الناس بالحج والحكمة الثانية أن آخر أحوال النبي عليه السلام حجه إلى البيت الحرام وحج معه

ذلك العام نحو من سبعين ألفاً من المسلمين ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل توذن بالحج لأنه الداعي إليه والرافع لقواعد الكعبة المحجوجة قال صلى الله عليه وسلّم "ثم ذهب بي" أي جبريل "إلى سدرة المنتهى" وهي شجرة فوق السماء السابعة في أقصى الجنة إليها ينتهي الملائكة بأعمال أهل الأرض من السعداء وإليها تنزل الأحكام العرشية والأنوار الرحمانية "وإذا أوراقها كآذان الفيلة" جمع الفيل أي في الشكل وهو الاستدارة لا في السعة إذ الواحدة منها تظل الخلق كما في بعض الروايات "وثمرها كالقلال" جمع قلة وهي الجرة العظيمة وهذه الشجرة هي الحد البرزخي بين الدارين فأغصانها نعيم لأهل الجنة وأصولها زقوم لأهل النار ولافنانها حنين بأنواع التسبيحات والتحميدات والترجيعات عجيبة الألحان تطرب لها الأرواح وتظهر عليها الأحوال وأم فيها رسول الله ملائكة السموات في الوتر فكان إمام الأنبياء في بيت المقدس وإمام الملائكة عند سدرة المنتهى فظهر بذلك فضله على أهل الأرض والسماء ويخرج من أصل تلك الشجرة أربعة أنهار نهران باطنان أي يبطنان ويغيبان في الجنة بعد خروجهما من أصل تلك الشجرة وهما الكوثر ونهر الرحمة ونهران ظاهران أي يستمران ظاهرين بعد خروجهما من أصل تلك الشجرة فيجاوزان الجنة وهما النيل نهر مصر والفرات نهر الكوفة.

قال بعضهم لولا دخول بحر النيل في الملح الذي يقال له البحر الأخضر قبل أن يصل إلى بحيرة الزنج لما قدر أحد على شربه لشدة حلاوته ومر الفرات في بعض السنين فوجد فيه رمان مثل البعير فيقال أنه رمان الجنة .

يقول الفقير لعله من البساتين التي يقال لها جنان الأرض إذ سقوط الثمار من أماكنها من الفساد غالباً وليس لثمار الجنة ذلك اللهم إلا أن يقال وجود ذلك الرمان في الفرات على تقدير أن يكون من رمان الجنة إنما هو ليكون آية لذوي الاستبصار ودخل عليه السلام الجنة فإذا فيها جنابذ أي قباب الدرّ وإذا ترابها المسك ورمانها كالدلاء وطيرها كالبخت وانتهى إلى الكوثر فإذا فيه آنية الذهب والفضة فشرب منه فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك وفي الحديث "ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل والذي نفس محمد بيده لا يقطف رجل ثمرة من الجنة فتصل إلى فيه حتى يبدل الله مكانها خيراً منها" وهذا القسم يرشد إلى أن ثمرة الجنة كلها حلوة تؤكل وأنها تكون على صورة ثمرة الدنيا المرة وغشى السدرة ما غشى من نور الحضرة الإلهية فصار لها من الحسن غير تلك الحالة التي كانت عليها فما أحد من خلق يستطيع أن ينعتها من حسنها لأن رؤية الحسن تدهش الرائي ورأى عليه السلام جبرائيل عند تلك السدرة على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق أي ما بين المشرق والمغرب يتناثر من

أجنحته الدر والياقوت .

.ويروى.أن جبريل لما وصل إلى السدرة التي هي مقامه تأخر فلم يتجاوز فقال عليه السلام : "أفي مثل هذا المقام يترك الخليل خليله" فقال : لو تجاوزت لأحرقت بالنور .

وفي رواية لو دنوت أنملة لأحرقت ،

(119/449)

فقال عليه السلام : "يا جبريل هل لك من حاجة إلى ربك قال : يا محمد سل الله لي أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه" قال عليه السلام : "ثم زج بي في النور فخرق بي سبعون ألف حجاب ليس فيها حجاب يشبه حجاباً غلظ كل حجاب خمسمائة عام وانقطع عني حس كل ملك فلحقني عند ذلك استيحاش فعند ذلك نادى مناد بلغة أبي بكر قف فإن ربك يصلي" أي يقول سبحاني سبحاني سبقت رحمتي على غضبي وجاء نداء من العلى الأعلى "ادن يا خير البرية ادن يا أحمد ادن يا محمد فادناني ربي حتى كنت كما قال ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى" .

.وروي.أنه عليه السلام عرج من السماء السابعة إلى السدرة على جناح جبريل ثم منها على الرفرف وهو بساط عظيم .

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني هو نظير المحفة عندنا ونادى جبريل من خلفه يا محمد إن الله يثني عليك فاسمع وأطع ولا يهولنك كلامه فبدأ عليه السلام بالثناء وهو قوله : "التحيا توالصلوات والطيبات" أي العبادات القولية والبدنية والمالية فقال تعالى : "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته" فعمم عليه السلام سلام الحق فقال : "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" فقال جبريل : "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله" وتابعه جميع الملائكة .

(120/449)

قال بعض الكبار اخترق الأفلاك من غير أن تسكن عن تحريكها كاختراق الماء والهواء إلى أن وصل سدرة المنتهى فقعد على الرفرف فاخترق عوالم الأنوار إلى أن جاز موضع القدمين إلى العرش أي المستوى المفهوم من قوله : "الرحمن على العرش استوى" كل ذلك بجسمه فعاين محل الاستواء فلما فارق عالم التركيب والتدبير لم يبق له أنيس من جنسه فاستوحش من حيث مركبه فنودي بصوت أبي بكر : "قف يا محمد إن ربك يصلي" فسكن وتلا عليه عند ذلك "هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور" هذا لسان الأحباب وخطاب الأخلاء والأصحاب وهذا أول الأبواب المعنوية من هنا تقع في بحر

الإشارات والمعاني وهو الإسراء البسيط فتقع المشاهدة بالبصر لا بالجارحة لأعيان الأرواح المهيمة التي لا مدخل لها في عالم الأجسام فترك الرفرف ومشاهدة الجسم وانسلخ من الرسم والاسم وسافر برفرف همته فحطت العين بساحل بحر العمى حيث لا حيث ولا أين فأدركت ما أدركت من خلف حجاب العزة الاحمى الذي لا يرتفع أبداً ثم عادت بلا مسافة إلى شهود عنها ثم إلى تركيب كونها المتروك بالمستوى مع الرفرف فقوله : "ثم دنا" إشارة إلى العروج والوصول وقوله : "فتدلى" إلى النزول والرجوع وقوله ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ بمنزلة النتيجة إشارة إلى الوصول إلى مرتبة الذات الواحدية أي عالم الصفات المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ إشارة إلى مرتبة الذات الأحدية أي عالم الذات المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وكان المعراج في صورة الصعود والهبوط لأنه

وقع بالجسم والروح معاً وإلا فالملك والملكوت مندرج في الوجود الإنساني وكل تجل يحصل له إنما هو من الداخل لا من الخارج قال صلى الله عليه وسلّم "سألني ربي فلم أستطع أن أجيبه فوضع يده بين كتفيّ بلا تكييف ولا تحديد " أي يد قدرته سبحانه منزه عن الجارحة

"فوجدت بردها فأورثني علم الأولين والآخرين وعلمني علوماً شتى فعلم أخذ علي كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله غيري وعلم خيرني فيه وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي" وهي الإنس والجن وهذا التفصيل يدل على أن العلوم الشتى هذه العلوم الثلاثة كما يدل عليه الفاء وهي زائدة على علوم الأولين والآخرين فالعلم الأول من باب الحقيقة الصرفة والثاني من باب المعرفة والثالث من باب الشريعة.

ومن جملة ما أوحى في هذا الموطن من القرآن خواتيم سورة البقرة وبعض سورة والضحى وبعض الم نشرح لك وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الأحزاب: 43) والوحي بلا واسطة يقتضي الخطاب فسمع عليه السلام كلام الحق من غير كيفية كما سمعه موسى عليه السلام من كل جانب ورآه:

قال الإمام النووي الراجح عند أكثر العلماء أنه رأى ربه بعيني رأسه، يقول الفقير: يعني بسره وروحه في صورة الجسم بأن كان كل جزء منه سمعاً واتحد البصر بالبصيرة فهي رؤية بهما معاً من غير تكييف فافهم فإنه جملة ما يتفصل.

فإن قلت: ما الفرق بين الأنبياء وبين نبينا عليه السلام في باب الرؤية فإنهم يرونه ويشاهدونه حال الانسلاخ الكلي.

قلت ما حصل لنبينا عليه السلام فوق الانسلاخ إذ الرؤية في صورة الانسلاخ إنما هي

بالبصيرة فقط وأما رؤيته تعالى في الجنة فقيل لا يراه الملائكة وقيل يراه منهم جبريل خاصة مرة واحدة.

(122/449)

قال بعضهم وقياس عدم رؤية الملائكة عدم رؤية الجن له تعالى ورد ذلك.

يقول الفقير: لعل وجه الاختلاف عند الحقيقة أن الملائكة والجن على جناح واحد وهو الجمال والإنس على جناحين وهما الجمال والجلال المقول لهما الكمال فلا يرونه تعالى من مرتبة مؤمني الإنس وإنما يشاهدونه تعالى من مرتبة أنفسهم فافهم وأما أنه ليس لهم مشاهدة أصلاً فلا مساعدة له بوجه من الوجوه واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها أي وقوعها لأن ذلك المرئى أنما هو صفة من صفات الله تعالى.

.روي.عن أبي يزيد البسطامي قدس سره أنه قال: رأيت ربي في المنام فقلت له: كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك ثم تعال.

.وروي.أن حمزة القارىء قرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره في المنام حتى إذا بلغ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام: 18) قال الله تعالى: قل يا حمزة وأنت القاهر (1)

يقول الفقير: سمعت من شيخي وسندي قدس سره أن شيخه عبد الله الشهير بذاكر زاده

روح الله روحه أراد أن يستخلفه فامتنع عليه فرأى في تلك الليلة في المنام أن الله تعالى أعطاه المصحف وقال له خذ هذا وادع عبادي إليّ وكان من آثار هذا المنام أن الله تعالى وفقه لإحياء العلم والدعوة إلى الله في المراتب الأربع وزاد خلفاؤه على المائة والخمسين كلهم من أهل التفسير ولم يتيسر هذا المقام لغيره من مشايخ العصر قال عليه السلام :

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الكلام من البعد البعيد ، كما أن القرآن لا يصح تغيير الضمائر فيه ولو صح ذلك لفعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مثل قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) ﴾ فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقل : فإنه نزله على قلبى ، بل كان يقرؤها ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . والله أعلم .

"فرض الله عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة" قيل : كانت كل صلاة منها ركعتين ألا يرى أنه من قال علي صلاة يلزمه ركعتان ويخالفه ما قالوا : إنه عليه السلام كان يصلي كل يوم وليلة ما يبلغ إلى خمسين صلاة وفق ما فرض ليلة المعراج فالظاهر أن هذه الخمسين باعتبار الركعتان لأنه هو المضبوط عنه عليه السلام يعني كان يصلي في اليوم والليلة من الفرائض والنوافل

خمسين ركعة وصرح بعضهم بأن المراد الخمسون وقتاً فالظاهر أن كل وقت كان مشتملاً على ركعتين لأن الصلاة في الأصل كانت ركعتين ركعتين ثم زيدت في الحضر وأقرت في السفر قال عليه السلام : "فنزلت إلى إبراهيم فلم يقل شيئاً ثم أتيت موسى" أي في الفلك السادس "فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة" يعني مارستهم ولقيت الشدة فيما أردت فيهم من الطاعة قال عليه السلام : "فرجعت إلى ربي" يعني رجعت إلى الموضع الذي ناجيت ربي فيه وهو سدرة المنتهى "فخررت ساجداً فقلت : أي ربي خفف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى وأخبرته قال : إن أمتك لا تطيق ذلك قال : فلم أزل أرجع بين ربي وموسى ويحط خمساً خمساً حتى قال موسى : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم قال : ارجع فاسأله التخفيف فقلت : قد راجعت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم" يعني : فلا أرجع فإن رجعت كنت غير راض ولا مسلم ولكن أرضى بما قضي الله وأسلم أمري وأمرهم إلى الله "فلما جاوزت نادى منادٍ أمضيت فريضتي" يعني قال الله تعالى : يا محمد هي خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة كما قال :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام : 160) والصلاة إنما تحصل بتوجه القلب والعمل الواحد في مرتبة القلب يقابل العشرة وقال : "من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب شيء فإن عملها كتبت سيئة واحدة" .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما كانت الصلاة خمسين والغسل من الجنابة سبع مرات وغسل البول من الثوب سبع مرات ولم يزل صلى الله عليه وسلّم يسأل ربه حتى جعلت الصلاة خمساً وغسل الجنابة مرة واحدة وغسل البول من الثوب مرة وفي الحديث "أكثروا من الصلاة على موسى فما رأيت أحداً من الأنبياء أحوط على أمتي منه" وجاء "كان موسى أشدهم عليّ حين مررت به وخيرهم عليّ حين رجعت فنعم الشفيع كان لكم موسى" وذلك فإنه كما تقدم لما جاوزه النبي عند الصعود بكى فنودي ما يبكيك؟ فقال : رب هذا غلام أي لأنه صلى الله عليه وسلّم كان حديث السن بالنسبة إلى موسى بعثته بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي ، فإن قلت هذا وقوع النسخ قبل البلاغ وقد اتفق أهل السنة والمعتزلة على منعه ، قلت : وقع بعد البلاغ بالنسبة إلى النبي عليه السلام لأنه كلف بذلك ثم نسخ فإذا نسخ في حقه نسخ في حق أمته لأن الأصل أن ما ثبت في حق كل نبي ثبت في حق أمته إلا أن يقوم الدليل على الخصوصية .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم "رأيت ليلة أسري بي إلى السماء تحت العرش سبعين مدينة كل مدينة مثل مدائنكم هذه سبعين مرة مملوءة من الملائكة يسبحون الله ويقدسونه ويقولون في تسبيحهم اللهم اغفر لمن شهد الجمعة" أي صلاتها

(125/449)

"اللهم اغفر لمن اغتسل يوم الجمعة" أي لصلاتها "ورأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة الصدقة بعشر أمثلها والقرض بثمانية عشر فقلت لجبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة قال: لأن السائل يسأل وعنده شيء والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة" وبيان كون درهم القرض بثمانية عشر درهماً أن درهم القرض بدرهمين من دراهم الصدقة كما جاء في بعض الروايات ودرهم الصدقة بعشرة تصير الجملة عشرين ودرهم القرض يرجع للمقرض بدله بدرهمين من عشرين يتخلف ثمانية عشر "ورأيت رضوان خازن الجنة فلما رآني فرح بي ورحب بي وأدخلني الجنة وأراني فيها من العجائب ما وعد الله فيها لأوليائه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ورأيت فيها درجات أصحابي ورأيت فيها الأنهار والعيون وسمعت فيها صوتاً وهو يقول: آمنا برب العالمين فقلت: ما هذا الصوت يا

رضوان ؟ قال : هم سحرة فرعون وأزواجهم وسمعت آخر وهو يقول : لبيك اللهم فقلت : من هو قال : أرواح الحجاج وسمعت التكبير فقال هؤلاء الغزاة وسمعت التسبيح فقال هؤلاء الأنبياء ورأيت قصور الصالحين وعرضت عليّ النار وإن كانت في الأرض السابعة فإذا على بابها مكتوب وإن جهنم لموعدهم أجمعين" قال عليه السلام : "وأبصرت ملكاً لم يضحك في وجهي فقلت : يا أخي جبريل من هذا ؟ قال : مالك خازن النار لم يضحك منذ خلقه الله ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك فقال له جبريل : يا مالك هذا محمد فسلم عليه فسلم عليّ وهنأني بما صرت إليه من الكرامة والشرف" وإنما بدأ خازن النار بالسلام عليه صلى الله عليه وسلّم ليزيل ما استشعر من الخوف منه ويشير إلى أنه ومن اتبعه من الصالحين سالمون من النار ناجون قال عليه السلام : "فسألته أن يعرض عليّ النار بدركاتها فعرضها عليّ بما فيها وإذا فيها غضب الله" أي نقمته "لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها وإذا قوم يأكلون الجيف فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ورأيت قوماً تنزع ألسنتهم

من أقفيتهم فقلت : من هم ؟ فقال : هم الذين يحلفون بالله كاذبين ورأيت جماعة من النساء علقن بشعورهن فقلت : من هن ؟ قال : هن اللاتي لا يستترن من غير محارمهن ورأيت جماعة منهن لباسهن من القطران فقلت : من هن ؟ قال : نائحات" جمع نائحة وهي الباكية على الميت مع عد أخلاقه ومحاسنه .

ودل حديث المعراج على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن لأن الإنسان إذا علم ثواباً مخلوقاً اجتهد في العبادة ليحصل ذلك الثواب وإذا علم عقاباً مخلوقاً اجتهد في اجتناب المعاصي لئلا يصيبه ذلك العقاب وقد صح أن الجنان قيعان وعمارتها بالأعمال كما دل عليه حديث الغراس فيما سبق .

واعلم أنه عليه السلام أسري به من مكة إلى بيت المقدس على البراق ومن بيت المقدس إلى السماء الدنيا على المعراج ومنها إلى السماء السابعة على جناح الملائكة ومنها إلى السدرة على جناح جبريل ومنها إلى العرش على الرفرف والظاهر أن النزول كان على هذا الترتيب .

وقال بعض الأكابر من أهل الله أنه أسري به إلى السدرة على البراق وأياماً كان فلما نزل إلى السماء الدنيا نظر إلى أسفل منه فإذا هو بهرج ودخان وأصوات فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم حتى لا ينظروا إلى العلامات ولا يتفكروا في ملكوت السموات ولولا ذلك لرأوا العجائب أي أدركوها ونزل عليه السلام إلى بيت المقدس

وتوجه إلى مكة وهو على البراق حتى وصل إلى بيته الأشرف بالحرم المكي الأحمى بحجر الكعبة العظيمة أو إلى بيت أم هاني كما يدل عليه ما يجيىء من تقرير القصة وكان زمان ذهابه ومجيئه ثلاث ساعات أو أربع ساعات .

وفي كلام السبكي أن ذلك كان قدر لحظة ولا بدع لأن الله تعالى قد يطيل الزمن القصير كما يطوي الطويل لمن يشاء .

.روي.في مناقب الشيخ موسى السدراني من أكابر أصحاب الشيخ أبي مدين قدس الله سرهما أن له ورداً في اليوم والليلة سبعين ألف ختمة . (1)

---

(1) علق أحد الأفاضل على مثل هذا الكلام قائلا : هذا أمر لا تسعه العقول وحظنا منه التصديق . والله أعلم .

يقول الفقير : قال شيخي وسندي قدس سره في الكلام عليه : إن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة فيكون في كل اثنتي عشرة ساعة خمس وثلاثون ألف ختمة لأنه إما أن ينبسط إلى ثلاث وأربعين سنة وتسعة أشهر وأما إلى أكثر وعلى التقدير الأول يكون اليوم والليلة منبسطاً إلى سبع وثمانين سنة وستة أشهر فيكون في كل يوم وليلة من أيام السنين

المنبسطة إليها ولياليها ختمتان ختمة في اليوم وختمة في الليلة كما هو العادة ويحتمل التوجيه بأقل من ذلك باعتبار سرعة القاري هذا فإنه صدق وقد كوشف لي هكذا وقد صدقته وقبلته وهذا سر عظيم انتهى كلام الشيخ ، وقد ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس أي عظمه وسعته ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ثم أن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية وهي جزء من ستين جزأ من الدقيقة والدقيقة جزء من ستين جزأ من الدرجة وهي جزء من خمسة عشر جزأ من الساعة فإذا كانت هذه السرعة ممكنة للجماد فكيف لا يمكن لأفضل العباد إذا أراد رب البلاد والله تعالى قادر على جميع الممكنات فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة في جسد النبي عليه السلام أو فيما يحمله .

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره قد ذهب عليه السلام وجاء ولم يتم ماء إبريقه انصباباً ومن كان مؤمناً لا ينكر المعراج ولكن وقوع السير المذكور في مقدار ذلك الزمن اليسير يشكل عند العقل بحسب الظاهر وأما عند التحقيق فلا إشكال ألا يرى أن في الوجود الإنساني شيئاً لطيفاً أعني القلب يسير من المشرق إلى المغرب بل جميع العوالم في آن واحد وهو بديهي لا ينكره من له أدنى تمييز حتى البله والصبيان أفلا يجوز أن تحصل تلك اللطافة لوجود النبي صلى الله عليه وسلّم بقدرة الله تعالى فوقع ما وقع منه في الزمن اليسير :

.روي.أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما رجع من ليلته قص القصة على أم هانىء وقال : "إني أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بذلك" فقالت : أنشدك الله أي بفتح الهمزة أي أسألك بالله ابن عم أي يا ابن عمي أن لا تحدث أي لا تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك فلما كان الغداة تعلقت بردائه فضرب بيده على ردائه فانتزعه من يدها وانتهى إلى نفر من قريش في الحطيم هو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود وأولئك النفر مطعم بن عدي وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة فقال : "إني صليت العشاء" أي أوقعت صلاة في ذلك الوقت "في هذا المسجد وصليت به الغداة" أي أوقعت صلاة في ذلك الوقت وإلا فصلاة العشاء لم تكن فرضت وكذا صلاة الغداة

التي هي الصبح لم تكن فرضت كما تقدم "وأتيت فيما بين ذلك بيت المقدس" وأخبرهم عما رأى في السماء من العجائب وأنه لقي الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى وجاء أنه لما دخل المسجد الحرام وعرف أن الناس يكذبونه وما أحب أن يكتم ما هو دليل على قدرة الله تعالى وما هو دليل على علو مقامه الباعث على اتباعه قعد حزيناً فمر به

عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه عليه السلام فقال كالمستهزىء : هل كان من شيء ؟ قال : "نعم أسري بي الليلة" قال : إلى أين ؟ قال : "إلى بيت المقدس" قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : "نعم" قال : أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني ؟ قال : "نعم" قال : يا معشر كعب بن لؤي فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما فقال : حدث قومك بما حدثتني به فقال : "إني أسري بي" قالوا : إلى أين ؟ قال : "إلى بيت المقدس فنشر لي الأنبياء وصليت بهم وكلمتهم" فقال أبو جهل كالمستهزىء : صفهم لنا فقال عليه السلام : "أما عيسى ففوق الربعة دون الطويل" أي لا طويل ولا قصير "عريض الصدر جاعد الشعر" أي في شعره "تثنى وتكسر تعلوه صهبة" أي يعلو شعره شقرة "ظاهر الدم" أي يعلوه حمرة "كأنما خرج من ديماس" أي حمام وأصله الكنّ الذي يخرج منه الإنسان وهو عريان وأصله الظلمة يقال ليل دامس والحمام لفظ عربي .

وأول واضع له الجن وضعته لسليمان عليه السلام وقيل : الواضع بقراط الحكيم وقيل : شخص سابق على بقراط استفاده من رجل كان به تعقيد العصب فوقع في ماء حار في جب فسكن فصار يستعمله حتى برىء وفي الحديث "اتقوا بيتاً يقال له الحمام فمن دخله

فليستتر" ولم يدخل عليه السلام الحمام ولم يكن ذلك في بلاد الحجاز وإنما كان في أرض العجم والشام "وأما موسى فضحم آدم" أي أسمر ومن ثمة كان خروج يده بيضاء مخالفاً لونها لسائر لون جسده آية "طويل كأنه من رجال شنوءة" وهي طائفة من اليمن أي ينسبون إلى سنوءة وهو عبد المطلب بن كعب من أولاد الأزد معروفون بالطول "كثير الشعر غائر العينين متراكم الأسنان متقلص الشفتين خارج اللثة" وهو اللحم الذي خارج الأسنان عابس "وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي خلقاً وخلقاً فضجوا" أي صاح قريش وعظموا ذلك وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه متعجباً ومنكراً قالوا : نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً أتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة واللات والعزى لا نصدقك وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه أي أسرع أو مشى فقال : إن كان قد قال ذلك فلقد صدق قالوا : أتصدقه على ذلك ؟ قال : إني أصدقه على أبعد من ذلك أي إن ذهب إلى بيت المقدس في ليلة واحدة أصدقه فإني أصدقه في خبر السماء في غدوة وهي ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس وروحة وهي اسم للوقت من الزوال إلى الليل والمراد هنا أنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أي مجيء الخبر له من السماء بواسطة الملك أبعد مما تتعجبون منه فسمي الصديق وهو الكثير الصدق فهو للمبالغة وتسمية أبي بكر بسبب هذا الجواب الصدق بهذا الاسم للمبالغة في كيفية الصدق

فإنه صدق كامل في مثل هذا المقام الذي كذب فيه أكثر الناس وكان علي رضي الله عنه يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبي بكر من

السماء الصديق أي فهي تسمية الله بالذات لا تسمية الخلق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس

فاستنعتوه المسجد أي قالوا : يا محمد صف لنا بيت المقدس كم له من باب أرادوا بذلك إظهار كذبه عليه السلام لأنهم عرفوا أنه عليه السلام لم يره قال : "فكربت كرباً شديداً لم أكرب مثله قط لأنهم سألوني عن أشياء لم أثبتها وكنت دخلته ليلاً وخرجت منه ليلاً فقمت في الحجر فجلي الله لي بيت المقدس" أي كشفه لي أي بوجود صورته ومثاله في جناح جبريل أو برفع الحجاب بينه وبين بيت المقدس حتى رآه عليه السلام وهو في مكانه إذ كان يصل بصره إلى حيث يصل إليه قلبه أو بإعدامه هناك وإيجاده في مكة طرفة عين بحيث يتصل بعدمه وجوده على ما هو شأن الخلق الجديد ومنه زيارة الكعبة لبعض الأولياء قال : "فطفقت" أي : جعلت أخبرهم عن آياته أي : علاماته وأنا أنظر إليه .

قال في "المواهب" ولم يسألوه عما رأى في السماء لأنه لا عهد لهم بذلك فقالوا : أما لنعت فقد أصاب فقالوا : ما آية ذلك يا محمد ؟ أي ما العلامة الدالة على هذا الذي أخبرت به فإنا لم نسمع بمثل هذا قط أي : هل رأيت في مسراك وطريقك ما نستدل بوجوده على صدقك أي لأن وصفك لبيت المقدس يحتمل أن تكون حفظته عمن ذهب إليه فقال عليه السلام : "آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا" أي في الروحاء وهو محل قريب من المدينة أي بينه وبين المدينة ليلتان "قد أضلوا ناقة لهم" أي وأنا متوجه وذاهب "وانتهيت إلى رحالهم وإذا قدح ماء فشربت منه" فاسألوهم عن ذلك وشرب الماء للغير جائز لأنه كان عند العرب كاللبن مما يباح لكل مجتاز من أبناء السبيل قالوا : فأخبرنا عن عيرنا قال : "مررت بها في التنعيم" وهو محل قريب من مكة أي وأنا راجع إلى مكة فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها "وأنها تقدم مع طلوع الشمس يتقدمها جمل أورق" وهو ما بياضه إلى سواد "عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء" أي فيها بياض وسواد أي جوالق مخطط ببياض فابتدر القوم الثنية أي الجبل فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هذه والله العير قد أقبلت يتقدمها جمل أورق كما قال محمد عليه الغرارتان فتاب المرتدون وأصر المشركون وقالوا إنه ساحر .

وجاء في بعض الروايات أن الشمس حبست له عليه السلام عن الطلوع حتى قدمت تلك

العير وحبس الشمس وقوفها عن السير أي عن الحركة بالكلية وقيل بطؤ حركتها وقيل ردها إلى ورائها .

فإن قيل حبسها ورجوعها مشكل لأنها لو تخلفت أو ردت لاختلت الأفلاك وفسد النظام .

قلنا : حبسها وردها من باب المعجزات ولا مجال للقياس في خرق العادات .

وقد وقع حبس الشمس لبعض الأنبياء كداود وسليمان ويوشع وموسى عليهم السلام .

(133/449)

وأما عود الشمس بعد غروبها فقد وقع له صلى الله عليه وسلّم في خيبر فعن أسماء بنت عميش رضي الله تعالى عنها قالت : كان عليه السلام يوحى إليه ورأسه الشريفة في حجر علي رضي الله عنه ولم يسر عنه حتى غربت الشمس وعلي لم يصل العصر فقال له رسول الله : "أصليت العصر" قال : لا فقال عليه السلام : "اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فأردد عليه الشمس" قالت أسماء فرأيتها طلعت بعدما غربت وهو من أجل أعلام النبوة فليحفظ . (1)

وذكر أنه وقع لبعض الوعاظ ببغداد كان يعظ بعد العصر ثم أخذ في ذكر فضائل آل البيت

فجاءت سحابة غطت الشمس فظن وظن الناس الحاضرون عنده أن الشمس غابت فأرادوا الانصراف فأشار إليهم أن لا يتحركوا ثم أدار وجهه إلى ناحية المغرب وقال :

لا تغربي يا شمس حتى ينتهي

مدحي لآل المصطفى ولنجله

إن كان للمولى وقوفك فليكن

هذا الوقوف لولده ولنسله

فطلعت الشمس فلا يحصى ما رمى عليه من الحلى والثياب وهو من الاتفاقات الغريبة كما حكي أن بعض الناس كان يهوى شاباً يلقب ببدر الدين فاتفق أنه توفي ليلة البدر فلما أقبل الليل وتكمل البدر لم يتمالك محبة رؤيته من شدة الحزن وأنشد يخاطب البدر :

شقيقك غيب في لحده

وتطلع يا بدر من بعده

فهلا خسفت وكان الخسوف

لباس الحداد على فقده

فخسف القمر من ساعته فانظر إلى صدق المحبة وتأثيرها في القمر وصدق من قال أن المحبة مغناطيس القلوب ،

---

(1) رد هذا الخبر المحققون من العلماء .

اللهم اجعلنا من أهل المحبة والوداد آمين وحين زالت الشمس من اليوم الذي يلي ليلة المعراج نزل جبريل وأم بالنبي عليه السلام ليعلمه أوقات الصلوات وهيئتها وأعداد ركعاتها ثم صيح بأصحابه "الصلاة جامعة" لأن الإقامة المعروفة للصلاة لم تشرع إلا بالمدينة فاجتمعوا فصلى النبي عليه السلام بالناس فسميت تلك الصلاة صلاة الظهر لأنها فعلت عند قيام الظهيرة أي شدة الحر أو عند نهاية ارتفاع الشمس فصلاته عليه السلام بالناس كانت بعد صلاته مع جبريل وأمه جبريل يومين يوماً في أول الوقت ويوماً في آخره وكان ذلك عند باب الكعبة مستقبلاً لصخرة الله ثم التفت جبريل وقال: يا محمد هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين وإنما لم تقع البداءة بالصبح مع أنها أول صلاة بعد ليلة الإسراء لأن الإتيان بها يتوقف على بيان الإتيان بالكيفية أي على بيان علم كيفيتها المعلق عليه الوجوب كأنه قيل: أوجبت حيث ما تبين كيفيته في وقته والصبح لم تبين كيفيتها في وقتها فلم تجب.

فإن قيل قول جبريل هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك يقتضي أن هذه الصلوات كانت مشروعة لكل واحد من الأنبياء قبله وليس كذلك لأنها من خصائص هذه الأمة.

قلنا معناه أن وقتك هذا المحدود الطرفين مثل وقت الأنبياء قبلك فإنه كان محدود الطرفين أو أن بعضهم صلى الفجر وبعضهم ما يليها وهو لا ينافي كون المجموع على هذه الكيفية من خصائص هذه الأمة.

.روي.أن أول من صلى الفجر آدم عليه السلام حين أهبط إلى الأرض من الجنة وأظلمت عليه الدنيا وجنّ الليل ولم يكن يرى قبل ذلك فخاف خوفاً شديداً فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكراً تعالى لحصول النجاة من ظلمة الليل ولرجوع النهار أو لما تيب عليه كان ذلك عند الفجر فصلى ركعتين شكراً لحصول التوبة وزوال المخالفة وطلوع النور التوفيق وغروب ظلمة المخالفة.

(135/449)

وأول من صلى بعد الزوال إبراهيم عليه السلام حين فدى ابنه عند الظهر صلى أربعاً شكراً لذهاب غم الولد ولنزول الفداء ولرضى الله حين نودي قد صدقت الرؤيا ولصبر ولده على أذى الذبح ومشقته.

وأول من صلى العصر يونس عليه السلام حين أنجاه من ظلمات أربع : الزلزلة ، والليل ، والماء ، وبطن الحوت.

وأول من صلى المغرب عيسى عليه السلام فالركعة الأولى لنفي الألوهية عن نفسه والثانية لنفيها عن والدته والثالثة لإثباتها تعالى وقيل : غفر لداود عليه السلام عند الغروب فقام يصلي أربع ركعات فجهد أي تعب فجلس في الثالثة أي سلم فيها فصارت المغرب ثلاثاً .

وأول من صلى العشاء موسى عليه السلام حين خرج من مدين وضل الطريق وكان في غم المرأة وغم أخيه هارون وغم فرعون عدوه وغم أولاده فلما أنجاه الله من ذلك كله صلى أربعاً .

وأول من صلى الوتر نبينا عليه الصلاة والسلام .

قال في "تفسير التيسير" أم رسول الله ملائكة السموات في الوتر فكان إمام الأنبياء في بيت المقدس وإمام الملائكة عند سدرة المنتهى فظهر ذلك فضله على أهل الأرض والسماء انتهى .

قال في "التقدمة شرح المقدمة" قيل لما قام إلى الثالثة رأى والديه في النار ففزع وانحل يداه ثم كبر وقنت واستغاث بالله من النار وأهلها وأتمها على ثلاث ركعات فصارت وتراً .

قيل : فرضت الصلوات الخمس في المعراج ركعتين ركعتين حتى المغرب ثم زيد في صلاة الحضر فأكملها أربعاً في الظهر أي في غير يوم الجمعة وأربعاً في العصر وثلاثاً في المغرب وأربعاً في العشاء وأقرت صلاة الصبح على ركعتين فعن عائشة رضي الله عنها فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتان أي في الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء فلما أقام رسول الله أي بعد شهر وقيل : وعشرة أيام من الهجرة زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان وتركت صلاة الفجر أي لم يزد عليها شيء لطول القراءة فيها وتركت صلاة المغرب فلم يزد عليها إلا ركعة فصارت ثلاثاً وقيل : فرضت الخمس في المعراج أربعاً إلا المغرب ففرضت ثلاثاً وإلا الصبح ففرضت ركعتين وإلا صلاة الجمعة ففرضت ركعتين ثم قصرت الأربع في السفر أي في السنة الرابعة من الهجرة وهو المناسب لقوله تعالى :

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ ﴾ (النساء : 101) .

قال بعضهم والحكمة في جعل الصلاة في اليوم والليلة خمساً أن الحواس لما كانت خمساً والمعاصي تقع بوساطتها كانت كذلك لتكون ماحية لما يقع في اليوم والليلة من المعاصي أي بسبب تلك الحواس وقد أشار إلى ذلك النبي عليه السلام بقوله : "أرأيتم لو كان بباب أحدكم نهر يغتسل منه في اليوم والليلة خمس مرات أكان ذلك يبقى من درنه شيئاً" قالوا لا يا رسول الله قال : "فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا" .

وقال بعضهم : جعلها خمس صلوات إظهاراً لسر التضعيف قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ

بِالْحَسَنَةِ فَلَه عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام : 160) فالخمس عشر مرات خمسون وهي العدد الذي فرض ليلة المعراج قبل التخفيف .

وقيل لأن الكعبة بنيت من خمسة جبال طور سينا وطورزيتا والجودى

(137/449)

وحرا وأبو قبيس ولهذا السر جعل الطواف حول البيت الحرام بمنزلة الصلاة ولكن الصلاة أفضل من الطواف إلا في حق الحاج فإنه مختص بالمحل الشريف والصلاة بخلافه .

وقيل : جعلها خمساً شكراً للعناصر الأربعة وجمعيتها في نشأة الإنسان وقد جعل الله الصلاة على أربعة أركان القيام والركوع والقعود والسجود لتكون شكراً لهذه العناصر الأربعة ، أو لأن الخلق أربعة أصناف قائم مثل الأشجار وراكع مثل الأنعام وقاعد مثل الأحجار وساجد مثل الهوام فأراد أن يوافق الجميع في أحوالهم فيشاكل كل واحد من الخلق وجعل الله في أوضاع الصلاة جمعية العالم كلها وجعلت الصلاة مثنى وثلاث ورباع لتوافق أجنحة الملائكة فإنها جعلت أجنحة للشخص بها يطير إلى الله تعالى .

قال حضرة الشيخ الشهير بافتادة قدس سره : صلاة الصبح في مقابلة الجسم والروح

والأربع في المراتب الأربع أي الطبيعة والنفس والقلب والروح وصلاة المغرب كانت لعيسى ولذلك صارت ثلاثاً لأنه ليس له حظ الطبيعة .

(138/449)

وقال حضرة شيخي وسندي قدس الله سره في كتاب "اللائحات البرقيات" عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (الإسراء : 12) إن الليل إشارة إلى مرتبة اللاتعين وهي مرتبة الجلال الاطلاقي الذاتي الحقيقي الوجودي لكمال الإطلاق الذاتي الحقيقي الوجودي والنهار إشارة إلى مرتبة التعين وهي مرتبة الجمال الإطلاقي الذاتي الحقيقي الوجودي لذلك الكمال المذكور نعته ثم صلاة الفجر من الصلوات الخمس المشتمل عليها الليل والنهار بركعتيها إشارة إلى الاثنينية والتمايز بين المرتبتين المذكورتين والركعة الأولى إشارة إلى مرتبة الجلال والركعة الثانية إشارة إلى مرتبة الجمال وأحدية مجموع الركعتين واجتماع الركعتين والتقاؤهما في ذلك المجموع إشارة إلى كمال واجتماع الجلال والجمال والتقائهما في ذلك الكمال ثم صلاة المغرب منها عكس صلاة الفجر ليظهر فيها ما بطن فيها من الأحدية الجامعة والركعة الأولى إشارة إلى الجلال والثانية إلى الجمال والثالثة إلى الكمال الجامع ومرتبة اللاتعين مرتبة القوة ومرتبة التعين

مرتبة الفعل ولولا القوة لما تحقق الفعل والقوة إجمال والفعل تفصيل فلولا خزينة القوة لما ظهر كرم الفعل وجود الفضل ثم صلاة العشاء منها بركعاتها الأربع إشارة إلى التعينات الأربعة الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية في مرتبة اللاتعين والجلال بالقوة وصلاة الظهر منها بركعاتها الأربع إشارة إلى تلك التعينات الأربعة في مرتبة الجمال الإلهي بالفعل وصلاة العصر منها بركعاتها الأربع إشارة إليها في مرتبة الجمال الكوني بالفعل ثم الفرائض إشارة إلى الوجود الحقاني الإلهي المنبسط على الأكوان مطلقاً والواجبات إشارة إلى الوجودات الخلقية الكونية الأخصية والسنن إشارة إلى الوجودات الخلقية الكونية الخاصية والمستحبات إشارة إلى الوجودات الخلقية العامية

(139/449)

ثم ساق حضرة الشيخ روح الله روحه في ذلك الكتاب كلاماً طويلاً من طلبه وجده ،

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما هل تجد الصلوات الخمس في كتاب الله تعالى فقال : نعم وتلا قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (الروم : 17.18) وأراد بحين تمسون المغرب والعشاء وبحين تصبحون الفجر وبعشيا العصر وبحين

تظهرون الظهر وإطلاق التسبيح بمعنى الصلاة جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (الصافات : 143) ، قال القرطبي أي من المصلين ، وفي الكشاف عن ابن عباس رضي الله عنهما كل تسبيح في القرآن فهو صلاة والعمدة في الصلاة الطهارة الباطنة وحضور القلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 5 صـ 125.156 ﴾

(140/449)

وقال القاسمى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ .

يمجد تعالى نفسه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي : سيَّره منه ليلاً . و (أسرى) بمعنى (سرى) يقال : أسراه وأسرى به وسرى به . فهمزة (أسرى) ليست للتعدية ، ولذا عدي بالباء . وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة في (أسرى) لإفادة السرعة في السير ، ولذا أوثر على (سرى) .

والإسراء سير الليل كله ، كأسرى ، فقوله تعالى : ﴿ لَيْلًا ﴾ للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود . مثل : أسعفت مرامه . مع أن الإسعاف قضاء الحاجة . أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر . وقد استظهره الناصر في "الانتصاف" قال : ونظيره في إفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموناً لغيره ، قوله تعالى : ﴿ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النحل : 51] . فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد . فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين ، وهو التثنية ، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ؛ لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ولو اقتصر على قوله : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ ﴾ لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له . والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوحدانية .

وقيل : سرُّ قوله : ﴿ لَيْلًا ﴾ إفادة تقليل الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه . أي : أنه كان في بعض الليل ، أخذاً من تنكيره . فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا عُرِّفا كانا معياراً للتعميم ، فلا تقول : أرقت الليل ، وأنت تريد ساعة منه ، إلا أن تقصد المبالغة . بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا ، علم أنه لم يقصد استغراق

السرى ، وهذا هو المراد من البعضية . وجوَّز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهي الأرض الواسعة . وأصله من الواو ، أسرى مثل أجبل وأتهم ، أي : ذهب به في سراة من الأرض ، وهو غريب . وفي تخصيص الليل إعلام بفضله ؛ لأنه وقت السر والنجوى والتجلي الأسمى ، ولذلك كان أكثر عبادته صلى الله عليه وسلم بالليل . والمراد (بعبده) خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم . وفي ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره – ما لا يخفى .

(142/449)

والعبد لغةً : الإنسان مطلقاً والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودة .

قال ابن القيم في " طريق الهجرتين " : أكمل الخلق أكملهم عبودية . وأعظمهم شهوداً . لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين . ولهذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم : < أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك > .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأرفعهم عنده منزلة ؛ لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : < أيها الناس ! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي ، إنما أنا عبد > . وكان يقول : < لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله > . وذكره سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته : مقام الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدي . فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ وقال : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن : 19] . وقال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : 23] . وفي حديث الشفاعة : أن المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فنال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

(143/449)

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ يعني مسجد مكة المكرمة . سمي حراماً ، كبلده ، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولا كلئه .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان ؛ لأنه الذي بناه وشيده و : ﴿ الأَقْصَى ﴾ بمعنى الأبعد . سمي بذلك

لبعده عن مكة ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ أي : جوانبه ببركات الدين والدنيا ؛ لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار . فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ؛ لكونه في أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . والمساجد بيوت الله . ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه بركتهم ويمنهم أيضاً .

وقيل في خصائص (الأقصى) : إنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجه إلى السماوات العلى والمشهد الأسمى . بيت نوه الله به في الآيات المفصلة ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرب . وهو قبلة الصلاة في الملتين ، وفي صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين . لا تشدُّ الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه . انتهى . ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد والنسائي والحاكم صححه ، عن ابن عَمْرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً ، فأعطاه اثنتين وأنا أرجو يكون أعطاه الثالثة > .

سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - يعني ببيت المقدس - خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه .

(144/449)

قال النبي صلى الله عليه وسلم : < ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك > .

وروي أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه ؛ تجريداً لقصد الصلاة .

وقال الشيرازي في " عرائس البيان " : كان بداية المعرج الذهاب إلى الأقصى ؛ لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم . وهناك بقربه طور سينا ، وطور زيتا ، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى في تلك الجبال ، مواضع كشوف الحق ، لذلك قال : ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ . انتهى .

والالتفات في : ﴿ بَارَكْنَا ﴾ لتعظيم ما ذكر ؛ لأن فعل العظيم يكون عظيماً ، لا سيما إذا عبَّر عنه بصيغة التعظيم . والنكتة العامة تنشيط السامعين .

وقوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ إشارة إلى حكمة الإسراء . أي : لكي نُرِي محمداً صلى الله عليه وسلم من آياتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل ، مسيرة شهر ، ومشاهدة بيت المقدس ، وتمثل الأنبياء له ، ووقوفه على مقاماتهم العلية .

قيل : أراد تعالى أن يريه صلى الله عليه وسلم من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية ؛ لأن الآيات الحسية أكبر في قطع الشبهة ودفع الوساوس من العقلية ؛ إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان . وقد تعترض الشبهة والوساوس في العقليات ؛ لأنه لا يشك أحد في نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يري رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة ؛ إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كذا يستفاد من " التأويلات " لأبي منصور .

(145/449)

وما أحسن ما قاله ابن إسحاق : كان في مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر منه بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة وثباتاً لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين . فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده وأفعالهم ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

تنبيهات :

الأول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليلاً . وأما العروج إلى السماوات وإلى ما فوق العرش ، فهذه الآية لا تدل عليه .

ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والكلام عليه ثمة .

الثانية : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل هجرته [في المطبوع : هجرة] بسنة . قاله الزهري وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووي ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة .

وفي " إنسان العيون " : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة . وقيل : سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل : سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب . واختار هذا الأخير الحافظ عبد الغني المقدسي ، قال : وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : في " زاد المعاد " لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة . وقيل : مرتين : مرة يقظة ومرة مناماً . وأرباب هذه القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله > ثم

استيقظت > وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين : مرة قبل الوحي ؛ لقوله في حديث شريك (وذلك قبل أن يوحى إليه) ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث . ومنهم من قال : بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحي ، ومرتين بعده . وكل هذا خبط ، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات ، جعلوه مرة أخرى . فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع . والصواب الذي عليه أئمة النقل ؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً ، ثم يقول أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى الخمسين ثم يحطها عشراً عشراً ؟ ! .

الرابع : قال القاضي عياض ، عليه الرحمة ، في " الشفا " : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده ؟ على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة على أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي . وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكي عن الحسن (والمشهور عنه خلافه) وإليه أشار محمد بن إسحاق . وحجتهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾ [الإسراء : 60] وما حكوا عن عائشة : ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله < بينا أنا نائم > ، وقول أنس : (

وهو نائم في المسجد الحرام) وذكر القصة ، ثم قال في آخرها : (فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام) .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة . وهذا هو الحق ، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدري وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج . وهو دليل قول عائشة . وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس . وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبي وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه . قال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ في المدح .

ثم اختلفت هاتان الفرقتان : هل صلى ببيت المقدس أم لا ؟ ففي حديث أنس وغيره صلاته فيه . وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا .

(148/449)

ثم قال القاضي عياض : والحق في هذا والصحيح ، إن شاء الله ، أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها . وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل ، إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ؛ إذ لو كان مناماً لقال : (بروح عبده) ولم يقل (بعبده) وقوله : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : 17] ، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به ؛ إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر . بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته ، إلى ما ذكر في الحديث ، من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس (أو في السماء) على ما روى غيره ، وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك .

وفي بعض هذه الأخبار : < فأخذ ، يعني جبريل ، بيدي ، فعرج بي إلى السماء > إلى قوله : < ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام > ، وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس : هي رؤيا عين رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، لا رؤيا منام .

وعن الحسن فيه : < بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقمت ، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت لمضجعي > . ذكر ذلك ثلاثاً ، فقال في الثالثة : < فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد ، فإذا بدابة > ، وذكر خبر البراق .

(149/449)

وعن أم هانئ : ما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أَهَبْنَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى الصبح وصلينا قال : يا أم هانئ ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا بيِّنٌ في أنه بجسمه .

وعن أبي بكر (من رواية شدَّاد بن أوس عنه) أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة

أسري به : طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < صليت ليلة أسري بي في مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة > ، وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة ، فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : < فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدي فعرج بي > .

وعن أنس : < أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم > . وعن أبي هريرة : < لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كربا ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لي أنظر إليه > . ونحوه عن جابر .

وقد روى عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : < ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها > .

ثم قال القاضي عياض " في إبطال حجج من قال : إنها نوم " : احتجوا بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا ﴾ فسماها (رؤيا) . قلنا : قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ يرده ؛ لأنه لا يقال في النوم (أسرى) .

وقوله : ﴿ فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص ؛ إذ ليس في الحلم فتنة ، ولا يكذب به أحد ؛ لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة . على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية . فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قصة الحديبية وما وقع في نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سماها في الحديث مناماً ، وقوله في حديث آخر : < بين النائم واليقظان > . وقوله أيضاً : وهو نائم . وقوله : < ثم استيقظت > ، فلا حجة فيه ؛ إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حلمه والإسراء به وهو نائم . وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها إلا ما يدل عليه : < ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام > فلعل قوله < استيقظت > بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه : أن مسراه لم يكن طول ليلة ، وإنما كان في بعضه . وقد يكون قوله : < استيقظت وأنا في المسجد الحرام > لما كان غَمَرَهُ من عجائب ما طالع من ملكوت السماوات والأرض ، وخامر بطنه من مشاهدة الملأ الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث : أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه ، ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر ، ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع : وهو أن يعبر بالنوم ها هنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد عن هَمَّام : < بينا أنا نائم > ، وربما قال < مضطجع > ، وفي رواية هدبة عنه < بينا أنا في الحطيم > ، وربما قال < في الحجر مضطجع > . وقوله في الرواية الأخرى : < بين النائم واليقظان > فيكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً .

وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم ، وذكر شق البطن ، ودنوُّ الرب ، الواقعة في هذا الحديث ، إنما هي من رواية شريك عن أنس . فهي منكرة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال في الإسراء والمعراج ، على ما حكاه ابن القيم في " زاد المعاد " ستة : بروحه وجسده وهو الذي صححوه ، وقيل : كان ذلك مناماً ، وقيل : بل يقال أسري به ولا يقال يقظة ولا مناماً ، وقيل : كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناماً ، وقيل : كان الإسراء مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وقيل : بل أسري به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فقيل : هو غلط ، وقيل : الوحي هنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة . والمراد : قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء ، فأسري به فجأة من غير تقدم إعلام ، وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثرون عنهم ؛ أنها رؤيا منام . وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة ، إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك . ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً ، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولا كان مناماً ، وإنما قالا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده . وفرق بين الأمرين . فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض ، وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت : عرج

بروحه وبدنه . وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه . وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً . وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة في صعودها إلى السماوات سماء سماء ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ،

(153/449)

فتقف بين يدي الله عز وجل . فيأمر فيها بما يشاء ، ثم تنزل إلى الأرض . فالذي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو حيّ لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة . ومن سواه صلى الله عليه وسلم ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة . فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان . وروح رسول الله صلى الله عليه وسلم صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن ، وإشراق وتعلق به . بحيث يرد السلام على من سلم عليه . وبهذا التعلق رأى موسى قائماً يصلي في

قبره ، ورآه في السماء السادسة . ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . فرآه يصلي في قبره ، ورآه في المساء السادسة . كما أنه صلى الله عليه وسلم في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك ، وبدنه في ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، ردَّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، ولم يفارق الملأ الأعلى . ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا ؛ فلينظر إلى الشمس في علوِّ محلها وتعلقها وتأثيرها في الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هذا ، وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن . وهذه النار تكون في محلها ، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم . فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

~فقلْ للعيونِ الرُّمْدِ إياكِ أنْ تريْ سنا الشَّمسِ فاستغشِي ظلامَ اللَّيَاليَا

انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة سعدي في " حواشي البيضاوي " : والمعراج بروحه في اليقظة – وهو الذي أشار إليه ابن القيم – خارق أيضاً للعادة . انتهى .

وتعقب العلامة القنوي له : بأنه نوع مراقبة وانسلاخ ، والذي ذهب إليه الصوفية ساقط ؛ لأنه فوقه بكثير . بل غيره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذي فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيم من أنه إسراء بالروح ؛ فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظيره قوله بعضهم : إن ذلك كان أمراً إعجازياً . والحقيقة أنه كشفٌ روحانِيٌّ . وقد قرروا في عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم ؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات . وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسده صلى الله عليه وسلم ممكن . فوجب كونه تعالى قادراً عليه . وغاية ما في الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك . وفي " العقائد النسفية وحواشيها " : الخرق والالتئام على السماوات جائز ؛ لأن الأجسام كلها متماثلة في تركبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كلّ ما يصح على الآخر . فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام . وكذا الأجسام الفلكية . والله تعالى قادراً على الممكنات كلها . فيكون قادراً على الخرق في السماوات ؛ لأنه ممكن فيها . وفي الرازي براهين أخر . فانظرها .

جاء في كتاب " إظهار الحق " : أن بعض أهل الكتاب مارى في المعراج ، فبُكّتْ بأن صعود

الجسم العنصري إلى الأفلاك صرحت به التوراة الموجودة لديهم في (أخنوخ) . وأنه نقل حيّاً إلى السماء لئلا يرى الموت . كما في الفصل الخامس من سفر التكوين . وصرَّحت في صعود (إليا) في الفصل الثاني من سفر الملوك . وفي إنجيل مرقس في الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

(155/449)

أقول : أخنوخ : هو إدريس عليه السلام ، المنوه به في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ [مريم : 57] ، وإيليا : نَبِيٌّ أُرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهروا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سِبَسْطِيَة : من قسم الأرض المقدسة ، زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه ، إلى أن ارتفع في مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء ، جانب نهر الأردن في بطاح أريحا ، شاهده خليفته اليشاع النبي بعده . كذا في تاريخ الكتاب المقدس . و (إيليا) : هو إلياس ، و (اليشاع) : هو اليسع المذكوران في القرآن المجيد .

وقد نوه بالأول في سورة الصفات بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ وَاللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [

الصافات : 123 - 126] .

السادس : قيل : إن المسجد الأقصى في زمن الإسراء كان خرابا بشهادة التاريخ . وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عنادا لليهود . وبقي كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس . انظر (تاريخ أبي الفداء) وغيره . فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً ، باعتبار ما كان عليه وما وضع له ، كما أطلق المسجد على حرم مكة ، وهو لم يكن يومئذ مسجداً . وإنما كان بيتاً للأصنام . لكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها ، سمي مسجداً بهذا الاعتبار . أو يقال : إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهما . وهو كونهما مسجدين للمسلمين .

السابع : في التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقي الدين أحمد ابن تيمية رضي الله عنه ، عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل ، فأيهما المصيب ؟ .

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر . إن أراد به أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر .

فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عينها . فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينها ؟ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ، التي يظن أنها ليلة الإسراء ، بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه > وفي الصحيحين عنه : < تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان > . وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر فإنه نزل فيها القرآن .

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها ، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة ، فهذا صحيح . وليس

إذا أعطى الله نبيه صلى الله عليه وسلم فضيلة في مكان أو زمان ، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدّر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر ، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه . والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمر ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحي . ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم .

ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها . لا سيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها . ولهذا لا يعرف أي : ليلة كانت . وإن كان الإسراء من أعظم فضائله صلى الله عليه وسلم ، ومع هذا لم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية . بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي ، وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها . ولا خص المكان الذي ابتدئ فيه الوحي ولا الزمان بشيء .

ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل

الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات . كيوم الميلاد ، ويوم التعميد ، وغير ذلك من أحواله . وقد رأى عُمَر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلون فيه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء في حق النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء . فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل له . انتهى . نقله الشمس ابن القيم "في زاد المعاد" .

(159/449)

الثامن : قال الشمس ابن القيم في " زاد المعاد " : اختلف الصحابة : هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالا : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم : 13 – 14] إنما هو جبريل . وصح عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : < نور ، أنى أراه ؟ ! > . أي : حال بيني وبين

رؤية النور . كما قال في لفظ آخر : < رأيت نوراً > . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارميّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا . ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : < رأيت ربي تبارك وتعالى > . ولكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقاً . فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . ولكن لم يقل أحمد : إنه رآه بعيني رأسه . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة . من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم : 11] ، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم : 13] ، والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن هذا المرئي جبريل . رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . وقول ابن عباس هذا . هو مستند الإمام أحمد في قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

التاسع : قال الحافظ [في المطبوع : الجاحظ] أبو الخطاب عُمَر بن دِحْية في كتابه " التنوير في مولد السراج المنير " بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس : وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عُمَر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قُرْط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عَمْرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جُنْدب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ما وقع في المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة ؛ ، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملحدون . انتهى .

وقد نقل الرازي عن بعض المعتزلة رده لجمل فيه – ساقها – صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها في الحقيقة بحمده تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فن المعقول . ولقد فاتهم بسبب ذلك خير كثير . وليس في الأحاديث الصحيحة ما يناقض المفعول أو الواقع ، بوجه ما ، يعلم ذلك الراسخون . وفوق كل ذي علم عليم .

وقد بقي ممن رواه من الصحابة . غير من تقدم ؛ سهل بن سعد وعبد الله بن حوالة الأزدي

وعبد الله بن أسعد بن زرارة وأبو الدرداء وعبد الله بن عُمَر . وأما من رواه من التابعين مرسلاً فكثير ، منهم : الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب ومحمد بن الحنفية وعروة وسفيان الثوري والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبي ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة " الدر المنثور " للحافظ السيوطي .

(161/449)

وأما طرقه في الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة . وليس في أحاديث المعراج أصح منه . ورواه الزهري عنه عن أبي ذر . ورواه شَرِيك بن أبي نمر وثابت البُناني عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا واسطة . وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل جـ 10 صـ 446. 459 ﴾

(162/449)

وقال الشيخ المراغى :

سورة الإسراء – سورة بنى إسرائيل

هى مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال مقاتل إلا ثمانى آيات من قوله : وإن كادوا ليفتنونك إلى آخر هنّ .

وآيها عشر ومائة .

أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم « عن عائشة أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزّمر »

وأخرج البخاري وابن مردويه « عن ابن مسعود أنه قال فى هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى » .

ووجه مناسبتها لسورة النحل وذكرها بعدها أمور :

---

(1) إنه سبحانه ذكر فى سورة النحل اختلاف اليهود فى السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التي شرعها لهم فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : « إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل » .

(2) إنه لما أمر نبيه صلى اللّه عليه وسلّم بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكرهم فى السورة السالفة - ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

(3) إنه ذكر فى السورة السالفة نعما كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضا نعما خاصة وعامة .

(4) ذكر هناك أن النحل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس - وهنا ذكر : وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .

(5) إنه فى تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

[سورة الإسراء (17) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

تفسير المفردات

سبحان اللّه : أي تنزيها له من كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، والإسراء كالسرى : السير بالليل خاصة ، والمسجد الحرام : مسجد مكة ، والمسجد الأقصى : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

الإيضاح

(سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) أي تنزيها للذى أسرى بعبده محمد صلى اللّه عليه وسلّم، فى جزء من الليل من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ورجع فى ليلته، وتبرئة له مما يقوله المشركون من أن له من خلقه شريكا وأن له صاحبة وولدا.

(الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ) أي الذي جعلنا حوله البركة لسكانه فى معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم.

لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا) أي كى نرى عبدنا محمدا من عبرنا وأدلتنا، ما فيه البرهان الساطع والدليل القاطع، على وحدانيتنا وعظم قدرتنا.

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أي إن الذي أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة فى سرى محمد صلى اللّه عليه وسلّم من مكة إلى بيت المقدس، البصير بما يفعلون، لا تخفى عليه خافية من أمرهم، ولا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فهو محيط به علما، ومحصيه عددا، وهو لهم بالمرصاد، وسيجزيهم بما هم له أهل.

تحقيق ما قيل فى الإسراء والمعراج

اعلم أن هاهنا أمرين :

(1) إسراء النبي صلى اللّه عليه وسلّم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وهذا هو الذي ذكر فى هذه السورة.

(2) العروج به والصعود إلى السماء الدنيا ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام بعد وصوله إلى بيت المقدس ، ولم يذكر ذلك هنا ، وسيأتى بيانه فى سورة النجم ونفصل فيه القول تفصيلا إن شاء اللّه .

آراء العلماء فى الاسراء

وهاهنا أمور - مكان الإسراء - زمانه - هل كان الإسراء بالروح والجسد أو بالروح فحسب ؟ :

(1) يرى جمع من العلماء أن الإسراء كان من المسجد الحرام - وقيل أسرى به من دار أم هانىء بنت أبى طالب .

(2) أما زمانه فقد كان ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة ، وعن أنس والحسن البصري أنه كان قبل مبعثه صلى اللّه عليه وسلّم .

(3) أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لا مناما ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إن التسبيح والتعجب فى قوله : سبحان الذي أسرى بعبده - إنما يكون فى الأمور العظام - ولو كان ذلك مناما لم يكن فيه كبير شأن ولم يكن مستعظما .

(ب) إنه لو كان مناما ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ، ولما ارتد جماعة ممن كانوا قد أسلموا ، ولما قالت أم هانىء لا تحدّث الناس فيكذبوك ، ولما فضّل أبو بكر بالتصديق ،

(165/449)

وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها (لم أعرفها حق المعرفة) فكربت كربا ما كربت مثله قط ، فرفعه اللّه لى أنظر إليه ، فما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به » الحديث .

(ج) إن قوله (بعبده) يدل على مجموع الروح والجسد .

(د) إن ابن عباس قال فى قوله « وما جعلنا الرّؤيا الّتى أريناك إلّا فتنة للنّاس » هى رؤيا عين أريها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ليلة أسرى به ، ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسية ألا ترى إلى قول الراعي يصف صائدا :

وكبّر للرؤيا وهشّ فؤاده وبشّر قلبا كان جمّا بلابله

(ه) إن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى فى صفة

سير سليمان عليه السلام . « غدوّها شهر ورواحها شهر » وجاء فيه أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر كما قال تعالى : « قال الّذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك » وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :

(ا) إن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن سرى رسول الّله صلى الّله عليه وسلّم قال : كان رؤيا من الّله صادقة – وقد ضعّف هذا بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره في مثل هذا .

(ب) إن بعض آل أبى بكر قال : كانت عائشة تقول ما فقد جسد ورسول الّله صلى الّله عليه وسلّم ، ولكن أسرى بروحه ، ونقدوا هذا بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الّله صلى الّله عليه وسلّم .

(ج) إن الحسن قال فى قوله (وما جعلنا الرؤيا) الآية إنها رؤيا منام رآها (والرؤيا تختص بالنوم) .

قال أبو جعفر الطبري : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن اللّه أسرى بعبده محمد صلى اللّه عليه وسلّم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر اللّه عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أن اللّه حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ، ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلا على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكرا عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائي منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل - وبعد فإن اللّه إنما أخبر فى كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال اللّه إلى غيره - إلى أن الأدلة الواضحة ، والأخبار المتتابعة ، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أن اللّه أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد اه .

والخلاصة - إن الذي عليه المعوّل عند جمهرة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله يصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم ركب البراق وعاد إلى مكة

بغلس .

المامة فى المعراج

يرى بعض العلماء أن عروج النبي صلى اللّه عليه وسلّم إلى السموات السبع كان بجسده وروحه يقظة لا مناما لدليلين :

(167/449)

(ا) آية الإسراء إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده ، والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلا بهما .

(ب) الحديث المروي فى الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما ، وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام .

وأنكره آخرون وأثبتوا أن المعراج كان بالروح فحسب لوجوه :

(1) إن الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد غير معقوله .

(2) إنه لو صح ذلك لكان أعظم المعجزات وكان يجب أن يظهر حين اجتماع الناس حتى يستدلّ به على صدقه فى ادعاء النبوة ، فأما أن يحصل ذلك فى وقت لا يراه فيه أحد ،

ولا يشاهده فيه مشاهد ، فإن ذلك عبث لا يليق بحكمة الحكيم .

(3) إن الصعود بالجسم إلى العالم العلوي فوق طبقات معينة مستحيل ، لأن الهواء معدوم ، فلا يمكن أن يعيش فيه الجسم الحي أو يتنفس فيه .

(4) إن حديث المعراج اشتمل على أشياء فى غاية البعد :

(ا) شق بطنه وتطهيره بماء زمزم ، والذي يغسل بالماء هو النجاسات العينية ، ولا تأثير لذلك فى تطهير القلب من العقائد الزائفة ، والأخلاق المذمومة .

(ب) ركوب البراق ولا حاجة له بذلك لأن العالم العلوي فى غنى عن ذلك .

(ج) إنه تعالى أوجب خمسين صلاة ، ولم يزل محمد صلى اللّه عليه وسلّم يتردد بين اللّه وموسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه السلام – وهذا غير جائز كما قال القاضي أبو بكر الباقلاني لأنه يقتضى نسخ الحكم قبل العمل به ، وهذا بداء محال على اللّه .

(د) لم يقل أحد من المسلمين بأن الأنبياء أحياء بأجسادهم فى العالم العلوي ، وإنما الحياة هناك حياة روحية لا جسمانية ، والتخاطب والكلام معهم والصلاة بهم من الأمور الروحية لا الجسمية ، إذ لا يعقل غير هذا – وبهذا يثبت المعراج الرّوحى لا الجسماني .

ويمكن أن يجيب الأولون عن الاستبعادات العقلية بأن هذه معجزة ، والله تعالى قادر على خرق سننه بسنة أخرى ، ككل معجزات الأنبياء ، من انقلاب العصا حية ثم عودتها فى مدة قصيرة عصا صغيرة كما كانت .

ويبقى أمر الحديث ، واشتماله على أمور غريبة ، لا حاجة إليها فى تصديق النبوة ، والمحاورة فى فرض الصلوات وانتقالها من خمسين إلى خمس مما يستدعى رد الحديث وعدم النظر إليه لاضطراب متنه كما قال القاضي أبو بكر الباقلاني وإن صححه رواة الحديث باعتبار سنده .

عظة وذكرى

إنا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين لنستخلص منهما أمورا هى الغاية فى العظة والاعتبار :

(1) إن هاتين الرحلتين الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ، ليمحّص الله المؤمنين ، ويبين منهم صادق الإيمان ومن في قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة والانضواء تحت لوائه ، وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام ، وتكاليف شاقة ، من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء ، وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى

ذلك الحين شرقا وغربا .

(2) إن اللّه أطلع رسوله على ما فى هذا الكون أرضيّه وسماويّه من العظمة والجلال ، ليكون ذلك درسا عمليا لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر ، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة ، أو يجلس إلى معلم ، أو يسح فى أرجاء المعمورة ، أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء – فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التي لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهما إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنّى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله « وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا » .

(169/449)

---

(3) إن ما يجدّ كل يوم من ضروب المخترعات ، والتوسل بها إلى طى المسافات ، بوسائل الطيارات ، وقطع المحيطات فى قليل الساعات ، من قارة إلى قارة ، ومن قطر إلى قطر ، ليجعلنا نعتقد أن ما جاء فى وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التي ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

(4) إن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيّل إلينا من العوائق العملية ،

من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى ، لتخلخل الهواء ، واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجساد المشاهدة فى عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها وإبداء الرأى فيها ، وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

(5) إن ما جاء فى الحديث من أن الرسول صلى اللّه عليه وسلّم صلى إماما بالأنبياء فى عالم السموات ليرشد إلى أن محمدا صلى اللّه عليه وسلّم جاء بشريعة ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأئمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه ، وصاروا مؤتمين به .

(6) إن فى هذا مغزى جديرا بطويل التأمل والتفكير ، وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووئام فى الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذي أرسلهم - أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم ، وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلما لا حربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة ، والقانون الذي جاءت ، به هو الشريعة التي يقضى بها بين الناس ، كما هو المتبع فى القوانين الوضعية ، فإن الذي يجب العمل به هو القانون الأخير ، وهو يلغى جميع ما سبقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 15 صـ 11.3 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

سورة الإسراء

نزولها : نزلت قبل الهجرة بنحو عام ، فهى مكية . . وقيل إن فيها بضع آيات نزلت بالمدينة ، منها قوله تعالى : « وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ » . .

إلى قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » . . ومنها آية :

« أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » . . وآية : « وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ » ويقول « الفيروزآبادي » فى كتابه « بصائر ذوى التمييز » : إن السورة مكية باتفاق ! ! عدد آياتها : مائة وإحدى عشرة آية . .

عدد كلماتها : ألف وخمسمائة وثلاث وستون كلمة . .

عدد حروفها : ستة آلاف وأربعمائة وستون حرفا . .

[ما يقال فى تسمية السورة]

الرأى على أنها سميت الإسراء . . لأنها بدأت بالإسراء ، ولأن الإسراء أعظم حدث فى حياة النبىّ ، بل وفى حياة البشرية كلها . . فلم يقع هذا الحدث فى الحياة البشرية ، إلا تلك المرّة . . فكان بذلك أعظم معلم من معالم تلك السورة ، وحقّ له أن يكون وحده دون غيره ، عنوانا لها .

هذا ، و « البيضاوي » فى تفسيره ، يسمّى هذه السورة سورة : « أسرى » جاعلا فعل الإسراء « أسرى » ، هو العنوان للسورة ، دون تغيير فيه . .

ومن أعجب الأعاجيب هنا ، أن نجد لهذه السورة اسما ، يجعله المفسّرون من بعض أسمائها ، على ما جرت به عادتهم من تكثير الآراء وحشدها ،

للأمر الواحد . . فجعلوا من أسماء هذه السورة ، اسم : « بنى إسرائيل » . .

وواضح أن هذا الاسم دخيل منتحل ، تسلّل إلى المفسّرين وأصحاب السّير ، فيما تسلّل من الإسرائيليات ، التي دسّها اليهود على هؤلاء العلماء ، فقبلوها منهم بحسن نيّة . .

(171/449)

ولو كان لبنى إسرائيل أن تكون لهم سورة باسمهم فى القرآن الكريم ، لكانت سورة البقرة - مثلا - أولى من الإسراء فى هذا المقام ، إذ كانت البقرة تحوى من أخبار بنى إسرائيل ، أكثر مما تحويه سورة الإسراء ، ومع هذا فقد أخذت السورة اسم البقرة ، وهى بقرة بنى إسرائيل ، ولم تأخذ اسمهم ! الأمر الذي يحمل على القول بأنه مستبعد أصلا أن يكون لبنى إسرائيل سورة باسمهم فى كتاب اللّه ، وإن كان لأبى لهب سورة باسمه ! ومن جهة أخرى ، فإنا نرى سورا فى القرآن ، فيها حديث مستفيض عن بنى إسرائيل ، كسورة الأعراف ، وسورة طه

، مثلا ، ومع هذا فلم تسمّ أىّ منهما سورة بنى إسرائيل ! ! فلما ذا كانت سورة « الإسراء » بالذات ، هى التي يدخل عليها هذا الاسم ، وينازعها شرف هذه التسمية التي سميت بها تلك السورة ؟

إننا نشمّ هنا ريح « اليهود » ونجد بصمات أصابعهم المتلصصة ، التي تريد أن يكون حديث « الإسراء » حديثا خافتا ، لا يذكر إلا عند تلاوة الآية ، دون أن يجرى له ذكر عند الحديث عن سور القرآن الكريم ، كلما ذكرت آية من آيات هذه السورة ، ونسبت إليها الآية . . وذكر السورة فى القرآن الكريم يجرى عادة أكثر من ذكر أي آية من آياتها .

هذه واحدة ، من فعلات اليهود فى حديث الإسراء !

وأكثر من هذا كيدا ، ومكرا ، ما أدخلوه على حديث الإسراء ذاته من زور الأحاديث ، التي أخذها عنهم بعض العلماء ، عن غفلة ، ونيّة حسنة ، باعتبار أن هذه الأحاديث المبالغ فيها تعالى من قدر النبىّ ، وترفع من شأنه . . وما دروا أن تلك المفتريات إذ تجتمع مع الحقّ ، تبعث حوله الشك والاتهام ، الأمر الذي يذهب بجلال الحقيقة وروعتها ، وإنما مردّ ذلك الجلال ، وتلك الروعة ، إلى قربها من الطبيعة البشرية ، ومداناتها للواقع المألوف . .

وحسبنا شاهدا لهذا ، القرآن الكريم ، فى إعجازه الذي قصرت عن مداناته أيدى الإنس والجن ، ومع هذا ، فهو من كلام لم يخرج عن مألوف اللسان العربىّ ، ولم يجاوز حدود اللغة العربية ! وسنرى فى حديث الإسراء ، ما دخل على هذا الحديث من دسّ اليهود وكيدهم ، الأمر الذي ألقى شبها كثيرة عند من يستمعون إلى هذا الحديث وما اختلط به ، فلا يدرى المؤمن ماذا يأخذ من هذه الأحاديث وماذا يدع ، فلو أنه أخذها جملة لما اطمأن إليها قلبه ، ولما سكن إليها عقله ، ولو أخذ بعضا وترك بعضا ، لفقد الثقة فيما أخذ أو ترك .. جميعا ! !

[مناسبتها للسورة التي قبلها]

ختمت سورة النحل ، التي قبل هذه السورة بقوله تعالى : « وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

وهذا الختام يحدّث عما كان يعانيه الرسول الكريم من ضيق ، وما يجده فى نفسه من مشاعر الحزن والألم ، لما يلقى من قومه وأهله من كيد ، وما يرى فيهم من عناد وإصرار على الكفر والضلال .. فناسب ذلك أن يذكر معه ، ما كان من فضل اللّه على النبي الكريم ، بهذه الرحلة المباركة التي رأى فيها النبىّ الكريم ما رأى من آيات ربّه ، فوجد فى هذا ، الروح لنفسه ، والانشراح لصدره ، والعزاء الجميل من مصابه فى أهله ..

ولعلّ فيما حدّث به ختام سورة النّحل ما يكشف عن بعض حكمة الإسراء ، وأنه. كما سنرى. كان استضافة للنبىّ الكريم فى رحاب الملأ الأعلى ، ليستشفى مما نزل به من ضيق ، وما ألّم به من ألم ، فى هذا الصراع الذي كان محتدما بينه وبين قومه ، حتى لقد كانت تتنزّل عليه آيات اللّه تدعوه إلى أن يرفق بنفسه ، وأن يتخفف من مشاعر الحزن على أهله ، ألا يكونوا مؤمنين . وفى هذا يقول سبحانه « فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ » (8 : فاطر) ويقول جلّ شأنه :

« أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (99 : يونس) ويقول سبحانه :

« إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ » (56 : القصص) . .

ويجتمع هذا كله فى قوله تعالى فى آخر سورة النحل : « وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » . .

فناسب هذا الختام للسورة أن تجىء بعدها سورة الإسراء ، وما كشف اللّه لنبيه فى هذه الرحلة المباركة من جلال ملكوته ، وما أراه من أسرار علمه وحكمته ! بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآية : (1) [سورة الإسراء (17) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

التفسير :

سبحان : مصدر ، منصوب ، بفعل محذوف تقديره سبّح اللّه تسبيحا ، أو سبّحه سبحانا . .

أسرى : أسرى بكذا ، أي سار به ليلا . . وأصل الفعل من السرّ ، وهو ما خفى عن غير صاحبه من الأمور . . ولأن الليل يستر الناس ، ويخفى شخوصهم وأفعالهم عن الناس ، فقد سمّى السير فيه سرى . . وسمّى تحرك الليل نفسه ، سرى ، وذلك لأنه يقطع رحلته فى دورة الفلك من أول الليل إلى آخره دون أن يدلّ دليل على حركته ، إلا شواهد باهتة خفية لا يراها إلا من يتربص له ، ويرصد مسيرته . . فأول الليل وآخره سواء ، فى مرأى العين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ » . . فالليل نفسه يسرى ، أي يسير متخفّيا فى ظلام ، مستترا به ، لا ننكشف حركته للناس . . . !

وعلى هذا ، فكل حركة ، أو عمل ، يكون فى خفاء يمكن أن يطلق عليه لفظ « سرى » ، فيقال : أسريت بهذا الأمر أي فعلته سرّا ، دون أن يطلع عليه أحد . .

وقيد السّرى باللّيل هنا ، يراد به تحقيق أمرين :

أولهما : اتخاذ الليل ستارا للسير ، وظرفا حاويا له ، حتى لا تنفذ إليه الأبصار . .

وثانيا : التحرك فى حذر ، وحيطة ، وفى خفاء ، دون جلبة أو ضوضاء . .

الأمر الذي يعين على إنفاذ الأمر دون أن يفضح . . فإن الليل وإن كان سترا

يحجب الأبصار ، فإن مع الأبصار التي حجبها الليل أسماعا ، لا يعطّل وظيفتها ظلام الليل ، بل سكونه يزيد من قدرتها على التقاط الأصوات ، والإمساك بها . . ولعلّ هذا هو ما نلمحه فى قوله تعالى للوط عليه السلام : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » (81 : هود) وقوله تعالى لموسى عليه السلام : « فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ » (23 : الدخان) . . فقد جاء الأمر إلى النبيّين الكريمين بالسّرى ليلا ، ليكون اللّيل ستارا لهذا السير ، إلى جانب ما يكون من حذر وحيطة واحتراس ، فى إخفاء كل حركة ، وكل صوت ، ينبىء عن هذا السير ، أو السّرى . . ! ومن هنا سمّى النّبع الجاري فى سلاسة ، ورفق ـ سمّى « سريّا »

كما يقول سبحانه وتعالى لمريم : « فَنادَاها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » (24 : مريم) .

وقد توسعنا فى شرح كلمة « أسرى » وفى قيدها بظرف الليل ، لندرك السرّ فى قوله تعالى : « سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » وأن قيد السّرى هنا بالليل ، وجعله وعاء حاويا له ، لم يكن توكيدا للخبر بأن الإسراء كان بالليل ، كما يقول بذلك المفسّرون ، فهذا الظرف ـ فى رأيهم على هذا القول ـ ليس له أثر فى معنى لفظ « الإسراء » . . إذ الإسراء أو السّرى ـ عندهم ـ لا يكون إلا ليلا . . فكلمة « ليلا » عندهم لمجرد التوكيد ، بالتكرار ! ! وقد رأيت أن معنى الإسراء ، أو السّرى ، هو الخفاء ، وأنه مشتق من السّرّ ، وأنه وإن غلب السّرى على اللّيل ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون بالنّهار إذا وقع الأمر فى ستر من الخفاء ، غير هذا الستر الطبيعي الذي يتّخذ من الليل . .

فقوله تعالى : « سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » يشير إلى أمرين :

أولهما : أن ظرف الإسراء كان ليلا ، وثانيهما : أنه كان بحيث لم يشعر به أحد ، بل وقع فى ستر ، بحيث لم يلحظه أحد من المتصلين بالنّبيّ ، القريبين منه ، الذين كانوا يشاركونه الحياة

فى بيته ، وفى الحجرة التي كان ينام فيها .

ونستظهر من هذا أمرين أيضا :

أولهما : أن الإسراء بالرسول ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، كان بجسده ، ولم يكن بروحه الشريف وحده . . وأنه لو كان بروحه لما جاء التعبير القرآنى عنه بلفظ « أسرى » الذي يدلّ فى ذاته على الستر والخفاء ، ولما جعل هذا السّتر فى مضمون ستر آخر هو الليل ، كما يقول سبحانه : « ليلا » . .

وثانيهما : أن هذا الإسراء بالنبيّ الكريم ، لم يكن معجزة متحدّية ، وإنما هو رحلة روحيّة ، واستضافة من اللّه الرحمن الرحيم ، للنبىّ ، فى رحاب ملكوته ، حيث يشهد من ملكوت اللّه ، ويتزود من ألطاف اللّه ، ما لم يشهده بشر ، وما لم يتزود به إنسان ! هذا ، وقد كان للإسراء حديث طويل متصل ، امتلأت به كتب التفسير ، والسّير ، وقد دخل على هذا الحدث كثير من الخيال ، وكثير من الكذب والدسّ ، حتى كاد يختنق الشعاع المنبعث منه ، وتغيب عن نظر الناظر فيه ، مواقع العبرة والعظة منه . .

ولهذا رأينا أن نقف من هذا الحدث وقفة ، ندفع بها ما نستطيع دفعه من هذا الضباب المتكاثف حول « الإسراء » ، حتى يستطيع المسلم أن يرى وجه هذه الآية الوضيئة التي اختص اللّه سبحانه وتعالى بها خاتم النبيين ، وإمام المرسلين . .

[وقفة مع الإسراء . . والمعراج]

قد رأينا فى مفتتح هذه السورة أنها تبدأ بقوله تعالى : « سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

فهذه الآية ، هى كلّ ما ذكر القرآن ذكرا صريحا عن الإسراء . .

وكان من أجل هذا أن سمّيت السورة سورة « الإسراء » ، باعتبار أن « الإسراء » هو أبرز حدث فيها ، وأظهر وجه من وجوه الأحداث التي عرضت لها هذه السورة.

وإذن ، فالحديث الحقّ عن الإسراء ، ينبغى ألا يخرج عن مضمون هذه الآية ، وألا يجاوز حدودها . .

والإسراء ـ كما يفهم من هذه الآية ـ هو رحلة سماوية ، أرادها اللّه سبحانه لنبيّه الكريم ، ليريه سبحانه وتعالى من آياته ، ما لا تراه العيون ، ولا تتظنّاه الظنون ! وحدود هذه الرحلة ـ كما يذكر القرآن ـ هى : من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس .

وزمانها ، لحظة من لحظات الليل . . كما يقول سبحانه : « سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا . . »

فالآية صريحة فى « الإسراء » وفى أنه كان فعلا للنبى الكريم ، وأنه واقعة حقيقية ، وليس رؤيا مناميّة ، وإلّا لما كان له ذكر خاص فى سورة خاصة .

والذي يقف بالإسراء عند هذا الحدّ الذي قطعت به هذه الآية الكريمة ، يجد أن تلك الإضافات الكثّيرة ، وتلك الذّيول الطويلة التي علقت بحديث الإسراء ، ليس من معطيات الآية الكريمة ، من جهة ، ولا تستدعيه غاية الإسراء ، ولا يحتاج إليها الكمال الذي يجب أن يكون عليه - من جهة أخرى . .

فالإسراء ، على ما تشهد به الآية - لم يكن - كما أشرنا من قبل - معجزة متحدية ، وإنما هو - كما قلنا - رحلة روحية إلى بيت المقدس ، مجمع الأنبياء ، وأول قبلة للإسلام ! !

دواعى هذه الرحلة :

كان الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - قبيل الإسراء ، فى وجه خصومة عنيفة ظالمة ، من قومه . . يدعوهم إلى الرشاد والخير ، فيلقونه بالتكذيب والبهت ، ويرمونه بالسّوء والأذى . . وهو رحيم بهم ، حريص على هدايتهم ، تكاد تذهب نفسه حسرة عليهم ، إذ يراهم يتمزقون شعبا ، ويتقطعون أوصالا ، بين يدى دعوته التي يدعوهم إليها . .

وليس حال أدعى من هذه الحال ، للخروج من هذا الجوّ الثقيل الخانق ، إلى جوّ آخر ، فيه راحة للصدر واسترواح للنفس ! ولكن : إلى أين المذهب والنبىّ قائم على دعوة السماء ، موجه برسالتها ؟

إنه لا مفرّ للنبىّ ـ إن أراد أن يظل فى سجل الأنبياء ـ من أن يثبت فى موقفه ، لا يزايله ، ولا يتحول عنه أبدا ، وإن هلك ! وقد قالها رسول اللّه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ لعمّه أبى طالب ، حين دعاه عمّه إلى أن يترك ما هو فيه ، ويلقى قومه بالموادعة ، حتى لا تتمزّق وحدة قريش ، ويقتل بعضها بعضا ، فقال قولته الخالدة : « واللّه يا عمّ لو وضعوا الشّمس فى يمينى ولقمر فى بسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، أو أهلك دونه » !

ولكن . . ها هى ذى الأحداث تزداد شدة ، والشر يشتد اشتعالا ، فتأتمر قريش فيما بينها على أن تكون جبهة واحدة فى وجه النبي ، ومن يقف إلى جواره من قومه . .

وقد أبت العصبية العربية على بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ـ رهط النبي الأدنين ـ أبت عليهم العصبية العربية ، أن يتخلوا عن النبي ، وأن يسلموه لقريش ، تنال منه ، وتستبد به !

وكان من هذا أن عمدت قريش إلى مقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وعقدت فيما بين بطونها وأفخاذها عهدا ، على ألا يتعاملوا مع بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، فلا يزوّجوهم ، ولا يتزوجوا منهم . ولا يأخذوا منهم أو يعطوهم .

بل إنها القطيعة التامة فى كل شىء بتواصل الناس به .

وقد واجه بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، هذه الحرب الاجتماعية والاقتصادية ، بشجاعة وصبر ، وإباء ، وأبوا أن يعطوا الدنيّة فى هذا الامتحان ، الذي تعرف فيه معادن الرجال . . فجمع أبو طالب ـ عميد بنى هاشم ـ أهله ، وانحاز بهم إلى شعب أبى طالب « 1 » . . واستمر هذا الحصار ، نحو ثلاث سنين ، بلغ بهم الجهد فيها غايته ، حتى سمع أصوات صبيانهم يتضاغون جوعا من وراء الشّعب ! وطبيعى أن النبي الكريم ، كان خلال هذه المحنة يحمل فى نفسه كل ما لقى آل عبد المطلب ، وآل هاشم ، من جهد ومشقة . . فكل ما كان يقع من آلام فى محيط أفرادهم ، فردا فردا ، وفى جماعاتهم ، أسرة أسرة ، كان يقع على مشاعر

---

(1) شعب أبى طالب : هو محلة انحاز إليها بنو هاشم مدة الحصار ، فسميت بهذا الاسم .

النبي ، ويهيج خواطر الألم والإزعاج فى نفسه . قبل أن يصل إليهم . . أضعاف ما كانوا يجدون من ألم وإزعاج ! ذلك أنه ـ وهو النبي ـ يألم لآلام الناس جميعا ، ويود لو حملها عنهم ، أو رمى بها فى مكان سحيق . . فكيف بما يقع فى نفسه من هذا ، للآلام التي يراها فى أهله وذوى قرابته القائمين على نصرته ؟ ثم هو من جهة أخرى ، يرى أن ما نزل بأهله من آلام وشدائد ، خلال تلك المحنة ، إنما كان بسببه هو ، وأن ذلك الذي احتملوه من أجله ، لم يكن بسبب العقيدة والدّين ، وإنما كان من أجل القرابة والدم . ولو كان من أجل العقيدة والدين ، لهان الأمر ، ولكان على أصحاب العقيدة أن يؤدّوا ضريبة الدفاع عن عقيدتهم ، لقاء الثواب العظيم الذي ينتظرهم من رب العالمين ! إن الآلام النفسية والروحية ، بل والجسدية ، التي احتملها النبي حلال تلك المحنة التي عاش فيها أهله . . كانت من أقسى ما لقى النبي فى طريق دعوته من الآم . . إنه حمل آلام أهله كلها ، وإن ذهب كل منهم بنصيبه منها . . فمن أجل النبىّ احتملوا هذه التجربة القاسية ، وفى سبيل حمايته ، والدفاع عنه ، واجهوا هذه القطيعة المرة ، واحتملوا عبء هذا الحصار المحكم الظالم . ثلاث سنين !

رحلة فى العالم الأرضى :

وحين بلغ الأمر من الشدة والضيق مداه فى نفس النبي ، وأصبح جو مكة ثقيلا خانقا . . أراد ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ أن يلتمس له متنفسا خارج مكة ، لعله يجد أعوانا على الحق ، وأنصارا للخير ، يستمعون له ، ويستجيبون لدعوته .

كان لا بد أن يلتمس النبي لنفسه ولدعوته مجالا آخر خارج مكة ، بعد أن لقى هو وأهله الأدنون ما لقوا من هذا البلاء الشديد ، أثناء الحصار الذي ضربته عليهم قريش نحو ثلاث سنين . .

(181/449)

ومما ضاعف من وقع الآلام فى نفس الرسول ، أن سقط فى ذلك الحين الجناحان اللذان كانا يرفّان عليه رحمة وحنانا . . ذلك أنه ما كادت تنتهى محنة الحصار ، ويفسد تدبير قريش ، وتنقض صحيفتها التي أبرم فيها هذا العقد الذي عقدته بينها لمقاطعة بنى هاشم ، بعد أن سلّط اللّه عليها الأرضة فأكلتها جميعا ، إلا ما ورد فيها من ذكر اسم اللّه عز وجل.ما كادت تنتهى هذه المحنة.

حتى مات عمه أبو طالب ، بعد خروجه بقومه من الشّعب بستة أشهر . . ثم لحقت به الزوجة البرّة الرحيمة السيدة خديجة ، بعد موته بثلاثة أيام ! ! فانظر كيف ابتلى النبي الكريم هذا الابتلاء فى عمه وفى زوجه ، وكيف تفرغ يده من كلّ قوة مادية على هذه الأرض كانت تقف إلى جانبه ، وتشد أزره ؟ ومتى كان ذلك ؟

إنه كان فى أحرج مواقف الدعوة ، وحين بلغ الأمر من الشدة والشقاق مداه ، بين قريش ،

وبين النبي .

إن ذلك كله من ألوان الشدائد والمحن التي مرت بالرسول خلال تلك السنوات العشر التي قضاها النبي الكريم بين قومه ، يغادبهم ، ويراوحهم بآيات اللّه وكلماته ، فلا يسمع منهم إلا ما يسوء ، ولا يلقى منهم إلا ما يكره. نقول إن ذلك كله كان تربية وإعدادا للجولة التالية من الدعوة ، واستعدادا لاستقبال الطور الجديد من أطوارها . حيث ستشهد الأيام التالية أحداثا جساما ، وتطورات خطيرة فى حياة هذا الدين الجديد . فسيلتقى النبي بوجوه كثيرة من قبائل مختلفة ، وسيسمع أحاديث متباينة ، وسيتلقّى أجوبة مختلفة لما يلقى على الأسماع من آيات اللّه ، وسيهجر النبي موطنه ، ويهاجر إلى موطن

آخر ، وأقوام آخرين غير قومه . . وستدور معارك ، وتسيل دماء ، ويبتلى النبي فى نفر كريم عزيز من أصحابه ، يسقطون فى هذه المعارك ، وسيقوم النبي على توجيه مجتمع إسلامى ضخم ، بعد أن يجيئه نصر اللّه ، ويفتح مكة ، ويدخل الناس فى دين اللّه أفواجا !

إن هذا البلاء العظيم الذي ابتلى به الرسول ، هو . كما قلنا . إعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى ، وإن هذا البلاء أشبه بعمل المحاريث والفئوس ، فى شقّ الأرض ،

وتقليب تربتها قبل أن يلقى فيها الحبّ . . فذلك هو الذي يتيح لها الجو الصالح ، لأن تعطى خير ما فيها من عناصر الإنبات ، لما يلقى فيها من حبّ ! نقول إنه فى هذا الجو الثقيل الخانق ، الذي كان يضيق به صدر الرسول فى مكة . خرج إلى الطائف ، يعرض نفسه ، ويقدّم دعوته إلى « ثقيف » يلتمس منهم الاستجابة له ، والنصرة لدعوته ، والمنعة بهم من قومه . . وكان معه فى رحلته تلك ، مولاه زيد بن حارثة ! ولما انتهى الرسول الكريم إلى الطائف ، عمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم ، فدعاهم إلى اللّه ، فلم ير منهم إلا إعراضا ، وسفها ، وتكذيبا ، واستهزاء . .

وكان فيما قال له صاحب كلمتهم : « واللّه لا أكلمك أبدا ! لئن كنت رسولا . كما تقول . لأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك السلام ! ولئن كنت تكذب على اللّه . ما ينبغى لى أن أكلمك ! ! » إنها سفسطة أحمق ، وضلالة ظلوم جهول ! فقام رسول اللّه من عندهم ، وقد يئس من خيرهم ، إن كان فيهم خير ، وقال لهم صلوات اللّه وسلامه عليه : « أما إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى . . »

إذ كره رسول اللّه ، أن يبلغ ذلك قومه عنه ، فيغربهم ذلك به ، ويدفعهم إلى

الانتقام منه ، ومضاعفة الكيد له . . ولكن القوم لم يفعلوا ، وبعثوا إلى قريش من يخبرها بما كان من أمر محمد معهم ، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فوقفوا له سماطين (أي صفين) وجعلوا يسفهون عليه ، ويرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج فى رأسه ! وترك الرسول الكريم . بأبى هو وأمي . الطائف على تلك الحال ، وقد امتلأت نفسه أسى وحسرة ، وفاض صدره ، ضيقا وحزنا ! ولكن إلى أين المسير ؟ وهل هناك غير مكة ؟ إنه على أي حال ، لا يزال يمسك منها على شىء من الأمل والرجاء ، ولا يزال يطمع فى خير من أهل أو صديق فيها ! وقبل أن يتخذ الرسول وجهته إلى مكة ، أسند ظهره إلى شجرة نائية هناك ، حتى تجتمع نفسه ، وتسكن خلجاته ويخف عنه بعض ما حمل من أهل ثقيف من آلام ! وفى ظل هذه الشجرة ، وجّه الرسول وجهه إلى ربّه ، يناجيه ، ويطلب العون والمدد من رحمته ، فخلق قلبه بهذا النداء الدافئ العميق ، وتحركت شفتاه بهذا الدعاء الندىّ العطر ، المعقود بأنفاس الأمل والرجاء فى مالك الملك ، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض . . فيقول صلوات اللّه وسلامه عليه :

« اللهمّ . . أشكو إليك ضعف قوّتى ، وقلّة حيلتى ، وهوانى على الناس ! « يا أرحم الراحمين . أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربى . . .

« إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى « 1 » ؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمرى ؟

« إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى . .

(1) أي يتنكر بي. والمراد بالبعيد ثقيف، وبالعدو: قريش.

«غير أن عافيتك أوسع لى..

«أعوذ بنور وجهك، الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلّ علىّ غضبك، أو أن ينزل بي سخطك.

«لك العتبى حتى ترضى «1» «ولا حول ولا قوّة إلا بك..

بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله، المخلّقة بأنفاس النبوّة الطاهرة، اتجه الرسول إلى ربّه.. متضرعا، متوجعا، طالبا رضا ربّه ورحمته، فى صبر وحمد، على السّرّاء والضرّاء! مدد غير منتظر:

وفى طريق الرسول الكريم من الطائف إلى مكة، نزل منزلا بمكان يسمّى «نخلة» وقضى فيه ليلته، ثم قام فى جوف الليل يصلّى، ويتهجّد بكلمات ربّه، فصرف إليه نفر من الجنّ، فاستمعوا له، وباتوا الليل معه، دون أن يشعر بهم!..

وفى الصّباح، وقبل أن يزايل النبىّ مكانه الذي بات فيه، تلقّى خبر السّماء فى قوله تعالى:

«وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ

وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . . » . .

(الآيات : 29 . 32) من سورة الأحقاف .

فكان هذا عزء كريما للرسول الكريم ، ومواساة رقيقة مسّت مشاعر النبىّ ، وذهبت بكثيرمما خالطها من الألم والحزن ، فشاع فى كيانه الرّضا والاطمئنان . . إنه ليس وحده ، وإن صوت السماء متصل به ، وإن جندا

---

(1) العتبى : ما يزيل آثار الأمر الذي استوجب العتاب أو اللوم .

من جنود اللّه ـ لا يراهم ـ يحفّون به ، ويستمعون إليه ، ويؤمنون به ، وبالكتاب الذي أنزل عليه .

ومن هذا الذي يستمع إلى كلام اللّه ، ويستجيب لرسوله ؟ إنهم جماعة من « الجنّ » . .

الجنّ الذي يضرب به المثل فى الخروج على كل نظام ، والتأّبى على كل نداء ! .

فكيف لا يكون لهذا القرآن مثل هذا الأثر فى نفوس الناس ، وفى أضلّهم ضلالا ، وأعتاهم عتوّا ؟

ولا شك أن فى هذا قدرا كبيرا من التنفيس عن رسول اللّه ، والتطييب لخاطره ، بعد تلك

التجربة القاسية التي مرّت به فى الطائف . . وإنها لزاد يتزوّد به الرسول ، ويجد منه القوة على مواصلة السّير فى طريقه إلى قومه ، وفى مواجهة تحدّيهم له ، وعنادهم وتأبّيهم عليه ! .

وعلى هذا العزم ، ومع تلك القوة ، مضى الرسول إلى مكة ! .

ولا يجد الرسول قومه ، على غير ما عرف منهم . . إنهم على هذا الضلال المبين ، وعلى تلك العداوة له ، والخلاف عليه . . وأنه إذا كان قد وجد من استماع الجنّ إليه ، ما يشدّ عزمه ، ويدفع به إلى مواجهة قومه فى مكة. فإنه ما زال فى حاجة إلى أمداد أخرى ، تثبّت قدمه ، وتشدّ عزمه ، وتلقى أضواء على هذا الظلام الكثيف المنعقد فى سماء مكة ، بينه وبين قومه .

لقد أبلى الرسول الكريم بلاءه ، فى الأرض ، واستنفد كل ما يعطى ويأخذ منها ومن أهلها ، فكان لا بد من عالم آخر ، يتزود منه بزاد روحى ، يشيع فى كيانه قوى مجدّدة ، لا تنفد على كثرة ما ينفق منها فى هذا النضال المتصل بينه وبين قومه ، حتى يحكم اللّه بينه وبينهم بالحق ، وهو خير الحاكمين . .

فكانت رحلة الإسراء !

رحلة فى العالم العلوي :

وفى الإسراء إلى العالم العلوي . . يجد الرسول من آيات ربّه ، ومن دلائل قدرته ، وعجائب

ملكوته، ما تذوب فى عباب محيطاته كل شرور العالم الأرضى وآلامه . .

فلم يكن الإسراء فى صميمه، إلا رحلة روحية لرسول اللّه، فى عالم النور، وإلّا استدناء له إلى مواطن الرحمة واللطف . . وإن ذلك لهو الجزاء الحسن للرسول على جهاده الصّادق، فى سبيل اللّه، وفى قيامه على أداء الرسالة التي أرسل إليها، واحتمل ما احتمل من أجلها . .

(186/449)

وماذا يكون للرسول من جزاء فى هذه الدنيا، على مالقى فى سبيل الدعوة من عنت وإرهاق، وما أصابه من ضرّ وأذى فى نفسه، وأهله، وصحبه؟ إن كلّ ما فى الأرض لا يقوم ببعض هذا الجزاء . . وإن الرسول الزاهد فى كل ما فى هذه الأرض، وما عليها من مال ومتاع . . فلم يكن إلا ما فى السماء، هو الذي يناسب حال الرسول، ويليق به! وقد ذكر القرآن الكريم حادثة الإسراء فى، أول سورة الإسراء . .

والذي ذكره من أمر الإسراء، أنه وقع ليلا، وأن حدوده كانت من المسجد الحرام بمكة، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وقد وصف بالأقصى لبعده عن المسجد الحرام، فهو فى مكان قصىّ بالإضافة إلى المسجد الحرام.

يقول ابن إسحق فى سيرته : « وكان مسراه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ وما ذكر منه ، بلاء وتمحيصا ، وأمرا من أمر اللّه ، فى قدرته وسلطانه . . فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن به وصدّق ، وكان من أمر اللّه على يقين . . فأسرى به كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد » « 1 » .

وقد طلع النبىّ على قريش بهذا الخبر ، وأنه أسرى به فى ليلته تلك من مكة إلى بيت المقدس ، فبهتوه ، وكذّبوه ، وأطلقوا ألسنتهم بالقول السيّئ فيه . . وقال قائلهم : « هذا واللّه الإمر « 2 » ، واللّه إن العير لتطّرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهرا مقبلة . . أ فيذهب محمد فى ليلة واحدة ويعود إلى مكة » ؟

ولم يقف الأمر عند كفّار قريش ، بل تجاوزهم إلى ضعاف الإيمان ، ممن أسلموا ، فارتدّوا عن الإسلام ، وارتابوا . .

وتحدّث الروايات أن الكفار ذهبوا إلى أبى بكر ـ رضى اللّه عنه ـ لعلهم يجدون عنده ما وجدوا عند ضعاف الإيمان ، فقالوا له : « هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلّى فيه ، ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر : أنتم تكذبون عليه ؟ فقالوا : ها هو ذا فى المسجد يحدّث به الناس ! فقال أبو بكر : « لئن كان قاله لقد صدق ! فما يعجبكم من ذلك ؟

فو اللّه إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه « 3 » » .

ونحن نشكّ فى هذه الرواية . . فما كان أبو بكر بالذي يخفى عليه شىء من أمر النبىّ ، حتى يعلمه كفار قريش قبل أن يعلمه ، وما كان الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه يحدث بهذا الخبر العجيب قبل أن يلقى به أبا بكر ، وهو الذي كان أشبه بظلّ رسول اللّه ، لا يفارقه أبدا !

---

(1) السيرة لابن هشام : جزء 2 ص 2 .

(2) الإمر بالكسر - الأمر العظيم فى شناعته : « لقد جئت شيئا إمرا »

(3) زاد المعاد جزء 2 والسيرة لابن هشام جزء 2 ص 4 .

و نعود إلى « الإسراء » فنقول - كما قلنا من قبل - إنه كان شأنا خاصّا بالنبيّ ، ورحلة روحيّة فى الملأ الأعلى ، أرادها اللّه سبحانه وتعالى له ، ليشرح بها صدره ، وينعش بها روحه ، ويذهب بها ما ألّم به من ضيق وحزن ، بموت عمّه ، وزوجه ، وبتألّب قريش عليه ، وعلى آله ، وبما لقى من أهل الطائف من لقاء بارد ثقيل ، وردّ سمج قبيح .

وفى حدود هذا المعنى ينبغى أن نقيم نظرتنا إلى الإسراء . . فهو بهذا المعنى ، ليس معجزة للتحدّى ، تقف من الناس موقف التعجيز لهم ، والتحدّى بالإتيان بمثلها ، وإنما هى إخبار بأمر شهده الرسول وحده . . فإذا حدّث به كان حديثه الصدق كلّه ، لا ينبغى لمن آمن بأنه نبىّ أن يكذبه ، أو يشك فى شىء مما يقول . .

إنه أمين السّماء . . لا يكذب أبدا . . هذا مبدأ يجب أن يسلم به كل من يدخل فى هذا الدين ، ويؤمن باللّه ورسوله . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (7 : الحشر) .

إن حديث الإسراء اختبار عملىّ لإيمان المؤمنين . . فمن آمن باللّه ، لا يكون إيمانه إيمانا حقّا ، حتى يؤمن برسوله ، ولا يكون مؤمنا برسوله حتى يصدّق كل قول يقوله ، ويسلّم به ، قبل أن ينظر فيه ، أو يعرضه على عقله . . وإن كان ذلك لا يمنعه من أن ينظر بعد هذا فى قول الرسول ، وأن يعرضه على عقله فذاك نظر غايته الفهم والإدراك لمرامى قول الرسول والعمل به . .

فهذه آيات اللّه التي كانت تنزل على الرسول الكريم ، إنها لم يقم عليها شاهد بأنها كلام اللّه ،

إلّا إيمان المؤمنين به ، بأنه رسول من عند اللّه ، وإن كان فى آيات اللّه ذاتها ما يحدث عن إعجازها ، وأنها ليست من قول بشر . . ولكن هذا لا يعرف إلا بعد نظر فى وجه آيات القرآن ، واستعراض ما فيها من قوى الحق ، وشواهد الإعجاز !

هذا ما ينبغى أن نقف عنده من حديث الإسراء ، فإذا كان لنا أن نمدّ النظر إلى ما وراء هذا ، فهو ما جاء من ذكر المسجد الأقصى ، وجعله معلما من معالم الإسلام ، يناظر المسجد الحرام . . وفى هذا ، ما يصل مشاعر المسلمين بهذين المسجدين ، ويجعلهما معا آيتين من آيات اللّه فى الأرض ، يستظلّ المسلمون بظلهما ، ويقومون على عمارتهما وتأمين السّبل إليهما . . وهذا لا يكون إلا إذا كان هذان المسجدان داخل دار الإسلام ، وتحت يد المسلمين ، الأمر الذي يكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن ، فى إخباره بالغيب ، الذي لم يكن يقع لنظر أحد من المسلمين يومذاك ، أو يدور فى خواطرهم . .

(189/449)

وقد مكّن اللّه للمسلمين من المسجد الأقصى ، ودخل هو وما حوله فى دار الإسلام ، منذ خلافة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم ، وإلى يوم الدين . . وإنه على رغم ما بذل أعداء الإسلام من جهود فى إخراج هذا البيت من يد المسلمين ـ فإنه لا

يلبث أن يعود إليهم ، كما يعود إليهم ، كما يعود المسافر إلى أهله ، بعد رحلة ، قد تطول وقد تقصر ! ونحن نكتب هذا ، فى سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثمانين من الهجرة (1969 من الميلاد) وبيت المقدس فى يد اليهود ، منذ عامين تقريبا ، اليهود الذين عملوا لذلك من قبل ظهور الإسلام يوم كانوا خاضعين لحكم الرومان ، ثم عملوا له بعد الإسلام ، فأشعلوا الفتن ، وأقاموا الحروب ، وأغروا النصارى بالمسلمين ، حتى وقع الشر بينهم فى تلك الحروب التي اتصلت نحو قرنين ، والتي عرفت بالحروب الصليبية . .

.كل هذا ليجد اليهود فرصتهم إلى هذا البيت الحرام ، وها هم أولاء قد وجدوها اليوم ، مستعينين بأموالهم ، وسلطانهم على أمريكا ، التي ساندتهم ، ووقفت وراءهم ، وأمدتهم بالعتاد والرجال والأموال . .

ولا ندرى السبيل الذي نستردّ به هذا البيت . . أهو بالحرب أم بالسلم ،

ولكن الذي ندريه ونستيقنه ، هو أن هذا البيت لا بد أن يعود للمسلمين ، وأن يدخل فى دولة الإسلام ، وأن غربته فى يد اليهود ستنتهى حتما ، ويعود الغريب إلى أهله . . إن شاء اللّه . .

هذا عن الإسراء . .

أما المعراج ، فإن حديثه يطول . . ولكنّا سنكتفى بلمحات نشير بها إليه ، لنكشف عن تلك المقولات التي قيلت فيه . . بلا حساب ، ولا تقدير ، حتى اشتبه فيه الحق بالباطل ،

وغلب فيه الخيال على الواقع .

قصّة المعراج :

والمراد بالمعراج ، هو عروج النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - أي صعوده إلى السماء ، من بيت المقدس بعد أن أسرى به إليه . .

(190/449)

والآيات التي يستند إليها الذين يصورون حديث المعراج هى ما جاء فى أول سورة النجم فى قوله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى » .

وهذه الآيات محتملة لكثير من التأويلات ، بحيث لا يرى فيها المعراج إلّا بعد جهد ، وطول نظر ، ومن خلال ثقب ضيق جدّا . . وذلك ليكون المعراج فى حدود هذا الإطار ، الذي يومأ فيه إليه إيماء ، ولا يتحدّث عما احتواه من أسرار وعجائب ، لم يطلع عليها إلا الرسول

وحده ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . !

وقد رويت عن الرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ أحاديث عن المعراج ، تحدّث بها إلى بعض أصحابه ، فى بعض ما رأى من آيات ربّه ، ولم تكن هذه الأحاديث إلا إشارات أشار بها الرسول الكريم إلى بعض ما رأى من ملكوت اللّه ، مما تنشرح به صدور المؤمنين ، ويزداد به إيمانهم نورا ويقينا ! وليس فى هذه الأحاديث ـ إن صحت ـ ما يتصل بالعقيدة ، أو يضاف إلى الشريعة .

(191/449)

ولكن الذي يقرأ القصص التي صورت فيها رحلة المعراج ، يجد فيها كثيرا من الدّسّ ، والكذب ، والتلفيق ! ولليهود هنا ، فى هذه القصة ، دور كبير فى دسّ الأخبار ، وتلفيق الأحاديث ، حيث المجال فسيح ، يتسع لكل قول يقال فى هذا العالم العلوى ، وفى المشاهد التي يمكن أن يشهدها من يصل إلى هذا العالم ويطوّف به . .

وأبرز ما نراه من دسّ اليهود هنا ، هو ما يروى فى حديث المعراج ، من اللقاء الذي كان بين النبي وبين موسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وأن موسى سأل النبىّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ عما افترض اللّه على أمّته من الصلاة ، فلما قال النبىّ لموسى : إنها خمسون صلاة

افترضها اللّه سبحانة وتعالى على المسلمين فى اليوم والليلة ، قال له موسى : ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك » . . ثم تقول الرواية : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، رجع إلى المولى سبحانه وتعالى ، وسأله التخفيف فاستجاب له ربّه فجعلها أربعين ، فلما عاد النبىّ إلى موسى وأخبره بما خفف اللّه سبحانه وتعالى من الخمسين إلى الأربعين.قال موسى : ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك . . ثم تمضى الرواية فتقول : إن النبىّ ما زال يراجع ربه ، فيخفف عنه ، ثم يعود إلى موسى فيطلب منه أن يسأل زيادة فى التخفيف . . فكانت ثلاثين ، ثم عشرين ، ثم عشرة . . ثم خمسة . .

وعندها قال النبىّ.صلوات اللّه وسلامه عليه.لموسى : « لقد استحيت من ربى »

. . ! ! وبهذا أصبحت فريضة الصلاة خمسا فى العمل وخمسين فى الأجر ! ! .

هذه الرواية تشير إلى أمور . . منها :

أولا : أن تجعل لموسى عليه السلام ، ما يشبه الوصاية على النبىّ.صلوات اللّه وسلامه عليه.وهذا من شأنه أن يجعل لليهود منزلة على المسلمين أشبه بهذه المنزلة . . هذا ، إذا

جعلنا فى اعتبارنا أن هذا الخبر المدسوس ، إنما يحدّث به المسلمون ، دون أن يرى أحد أن لليهود شأنا فيه ، إذ كانوا ينكرون نبوّة النبىّ أصلا ، فكيف يعترفون بعروجه إلى السماء !

وهذا ما يجعل لهذا الحديث ، هذا الأثر الذي أشرنا إليه ! وثانيا : ما وجه الحكمة فى أن يكون من تدبير اللّه سبحانه وتعالى أن تجىء فريضة الصلاة على هذا الأسلوب الذي يشبه أسلوب المناقصات ! ! والذي يبدأ بخمسين صلاة ، ثم ينتهى بخمس صلوات ؟ وما الحكمة فى أن يغدو النبىّ الكريم ، ويروح بين موسى وربّه كل هذه الغدوات والروحات ؟ ألا غدوة وروحة واحدة تكفى إن كان لا بد من هذا ؟ .

إن ذكاء واضع هذه الرواية قد أبى عليه إلّا أن يجيب عن هذه التساؤلات ، وأن يكشف عن وجه الحكمة فى هذا ، فيجعل من تمام الرواية : « أنها خمس فى العمل وخمسون فى الأجر » ! !

وهذا الذي جعله واضع الرواية وجها داعيا إلى قبولها ، هو فى الواقع الوجه الذي يكشف عن ردّها . . إذ ليست الصلاة وحدها هى التي تختص بهذه المزية فى اعتبار الصلاة بعشر صلوات ، بل إن كل الأعمال الطيبة توزن عند اللّه سبحانه وتعالى بهذا الميزان ، كما يقول سبحانه وتعالى : « مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها » .

هذا ، وقد فصّل القاضي « عياض » فى كتابه « الشفا » ، مذاهب القول فى الإسراء والمعراج . . وهل كان مع الإسراء معراج ؟ وهل كان الإسراء بالروح وحده ؟ أو بالروح

والجسد معا ؟

يقول القاضي عياض :

« اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بروحه أو جسده . . على ثلاث مقالات :

(193/449)

---

1 ـ فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء حق ، ووحي . . وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكى عن الحسن (البصري) ـ والمشهور عنه خلافه ـ وإليه أشار محمد بن إسحاق . . وحجتهم قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » وما حكوه عن عائشة رضى اللّه عنها من قولها : « ما فقد جسد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم » .

2 ـ « و ذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد ، وفى اليقظة . .

وهذا هو الحق . وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبى هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبى حية البدري ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ،

ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج . . وهو قول الطبري ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين . . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدّثين ، والمتكلمين ، والمفسرين .

3 ـ وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة ، إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : « سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء ، الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبي صلّى اللّه عليه وسلّم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه . . قال هؤلاء : « ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد عن المسجد الأقصى ، لذكره ، فيكون أبلغ في المدح . »

وبعد أن انتهى القاضي عياض من عرض هذه الآراء ، عرض رأيه هو ، فرجح جانب القول بأن الإسراء كان بالروح والجسد معا . . فقال :

« والحق من هذا ، والصحيح إن شاء اللّه ، أنه إسراء بالروح والجسد في القصة كلها ـ أي الإسراء والمعراج ـ وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار . . .

ثم يقول : « و ليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، إذ لو كان مناما لقال : « بروح عبده » ولم يقل « بعبده » وقوله تعالى : « ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى » . . ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم ، وافتتنوا به . . إذ مثل هذه المنامات لا ينكر . . بل لم يكن ذلك الإنكار منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه ، وحال يقظته . »

وممن قال بأن الإسراء كان بالجسد والروح معا . . البيضاوي فى تفسيره ، وقد أراد أن يخرج هذا الرأى على أسلوب البحث العلمي ، وأنه من الممكنات التي لا ينكرها العلم . . يقول البيضاوي : « و الأكثر ـ أي من آراء العلماء ـ

أنه أسرى بجسده إلى بيت المقدس ، ثم عرج به إلى السموات ، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، ولذلك تعجّب قريش واستحالوه . »

ثم يقول : « و الاستحالة مدفوعة بما ثبت فى الهندسة أن ما بين طرفى قرص الشمس ضعف ما بين طرفى كرة الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، ثم إن طرفها ـ الشمس ـ الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى فى أقل من ثانية ! ! وقد برهن فى الكلام أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض ، وأن اللّه سبحانه قادر على كل الممكنات ، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة فى بدن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو فيما يحمله ، والتعجب من لوازم المعجزات . »

والذي نقف عنده من كلام البيضاوي هنا قوله : « و قد برهن فى الكلام أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض » . . وهذا يعنى أن الأجسام جميعها ترجع إلى أصل واحد ، وأن هذا الأصل قابل لجميع الأعراض التي تقبلها الأجسام ، بمعنى أن المادة التي شكل منها كائن ما ، قابلة لأن يشكل منها كائن آخر مخالف له ، مع اختلاف فى نسب الأجزاء التي يتكون منها الكائن وفى أوضاع هذه الأجزاء ، بل إن ذلك نفسه واقع فى أجزاء الكائن الواحد . .

فالعين مثلا هى من نفس المادة التي تخلّق منها الأنف ، أو الكبد أو القلب ، أو الشعر . . فكلها جميعا ترجع إلى ما عرف اليوم باسم « الذرّة » أو ما كان يعرف قديما بالجوهر الفرد . . فمن كل الذرات تتكون الأجسام ، ومن الاختلاف فى بناء الذرات ، وترتيب أوضاعها ، تظهر الأجسام فى صورها وأشكالها . .

وهذا ما فهمه البيضاوي وقرّره فى قوله : « إن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض » يعنى أنه من الممكن أن يتحلل جسم الإنسان ـ مثلا ـ إلى ذرات فيصبح كائنا لطيفا غير مرئى ، ثم يعاد تركيبه إلى وضعه الأصلى ، فيكون جسدا

كثيفا كما كان . . كل ذلك فى لحظة خاطفة كلمح البصر أو هو أقرب ، دون أن يخرج الجسد عن سلطان «الروح» فى حالى تحليله أو تركيبه . . ! وذلك هو الإعجاز أو المعجزة التي تظهر من انتقال النبي الكريم بجسده الشريف إلى المسجد الأقصى ، أو العروج به إلى السماء فى طرفة عين ! ونعود بعد هذا ، فنقول : إن الخلاف فى أن الإسراء والمعراج ، كان بالجسد ، وبالروح ، خلاف لا يؤثر فى حقيقة الإسراء ، وما نال الرسول الكريم فيه من ألطاف ربه ، وما رأى من آياته . . وإن قدرة اللّه سبحانه وتعالى لا تتقيد بتلك القيود التي تحكمها الضرورات البشرية ، وخير من هذا الخلاف الذي يذهب بجلال الإسراء ، ويعبث بالستر الخفىّ الملقى عليه من عالم الروح. خير من هذا أن ننظر إلى الرسول الكريم فى موكب جلاله وعظمته ، تحفّ به ألطاف ربه ، وتحدوه رعايته ، إلى حيث يسبح فى عالم الحق ، ويطعم بروحه من طيبات الملأ الأعلى . .

أما أن نجسّد العالم العلوىّ ، ونحيله إلى أشياء من عالم التراب الذي نعيش فيه ، فذلك مما يهوّن من خطر الإسراء والمعراج ، ويزرى بقدرهما ، ويبخس من قيمتهما . .

إن الذي يطالع قصة الإسراء والمعراج، على تلك الصورة أو الصور المجسدة التي تعرضها كتب السيرة، والتفسير، ليموت فى نفسه كثير من تلك المشاعر الروحية، التي كان خليقا أن يثيرها فيه حديث الإسراء والمعراج، لو أزيح من طريقه هذا الركام الكثير من العوائق والسدود . . ولا تنخدع لتلك الأصباغ الساذجة التي يلطخ بها القصاص وجه الحقائق المادية، ليجعلوا لها بتلك الأصباغ وجها تدخل به إلى العالم العلوىّ . . فإن هذا « المكياج »

المصطنع يجعل منها مسخا أكثر منها حقيقة . .

فالبراق مثلا . . الذي يأخذ فى حديث « الإسراء » لونا بارزا صارخا . والذي يهيأ للرسول ليتخذ منه مطية إلى العالم العلوي . هذا البراق ليس إلا « أتانا » ركب عليه جناحان من ريش، فصار أشبه بلعبة من لعب الأطفال التي يؤلفونها من حطام بعض لعبهم التي انتهى دورها معهم . . !

ثم هذا الحجر الذي يشدّ إليه الأنبياء دوابهم عند المسجد الأقصى، وتلك الحلقات المغروسة فى هذا الحجر لتمسك المقاود واللّجم . إنها جميعها لتمسك بالمعاني الكريمة العالية التي كان يجدها المرء فى نفسه لو أزاح هذا الحجر من طريقها، وانزاحت معه اللّجم والمقاود والسروج وغيرها، مما يكون فى مرابط الحيوان ! وعلى أىّ فإن الإسراء، على أية صورة وقع، لم يكن فيه ما يخرج النبىّ الكريم عن بشريّته، ويباعد ما بينه وبين الإنسان

الذي هو « محمد » . .

فقد عاد الرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ بعد الإسراء ، ولقى قومه مؤمنين ، وكافرين ، فلم ينكر أحد من أمره شيئا مما كان يعهد فيه . . حتى إن أعداءه أنفسهم لم يجدوا عليه أمارة من أمارات هذه الرحلة المباركة . .

فإن خيرها كلّه كان مخبوءا فى كيانه ، منطويا فى صدره ، ساريا فى روحه . .

إنه شأن من شأن اللّه مع نبيّه ، وزاد روحىّ زوّده به ربّه ، تكريما له ، وترويحا عن كيانه المجهد المكدود .

(197/449)

وحديث المسلمين عن الإسراء ، ينبغى أن يكون حمدا للّه ، وتنزيها له ، وثناء عليه ، أن أنزل نبيّهم هذا المنزل الكريم ، ورفعه إلى هذا المقام العظيم ،

وأفاض عليه ما أفاض من ألطافه ومننه . . وهذا ما يدعونا إليه اللّه سبحانه وتعالى فى قوله جل شأنه :

« سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » أي فسبّحوا اللّه واحمدوا له ، أن أسرى بعبده

محمدا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن أراه من آياته وأسبغ عليه من آلائه ، ما هو أهل له عند ربّه « ذِلكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 8 صـ 433.405 ﴾

(198/449)

وقال ابن عاشور :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾

الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام مُتضمّنٍ ما يَجب تنزيه الله عنه يؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالاًّ على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه.

فإن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيهاً أو تنقيصاً لا يليقان بجلال الله تعالى مثل ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ [الصافّات : 180] يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التنزيه ، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به كقوله ﴿ قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ [النور : 16] ، وقول الأعشى :

قد قلتُ لما جاءني فخره

سُبْحَانَ من علقمَةَ الفاخِرِ . . .

ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادراً منه كان المعنى تعجيب السامعين، لأن التعجب مستحيلة حقيقته على الله لا لأن ذلك لا يلتفت إليه في محامل الكلام البليغ لإمكان الرجوع إلى التمثيل، مثل مجيء الرجاء في كلامه تعالى نحو ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ [البقرة: 189]، بل لأنه لا يستقيم تعجب المتكلم من فعل نفسه، فيكون معنى التعجيب فيه من قبيل قولهم أتعجب من قول فلان كيْت وكيْت.

ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى.

ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلاً للشك في قدرة الله وللإشراك به كان من شأنه أن يُنطق المتأمل بتسبيح الله تعالى، أي تنزيهه عن العجز.

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة سبحان الله ﴾ التي نُحت منها السبحلة.

ووقع التصرف في صيغها بالإضمار نحو سبحانَك وسبحانه، وبالموصول نحو ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ [يس: 36] ومنه هذه الآية.

والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه ، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى .

ويفيد أن حديث الإسراء أمر فَشا بين القوم ، فقد آمن به المسلمون وأكبَره المشركون .

وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد وإثباتُ أنه رسول من الله ، وأنه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قِبل لهم بإنكاره ، فقد كان إسراؤه إطلاعاً له على غائب من الأرض ، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام .

وأسرى ﴾ لغة في سَرَى ، بمعنى سار في الليل ، فالهمزة هنا ليست للتعدية لأن التعدية حاصلة بالباء ، بل أسرى فعل مفتح بالهمزة مرادف سَرى ، وهو مثل أبان المرادف بَان ، ومثل أنهج الثوبُ بمعنى نَهَجَ أي بلِيَ ، ف ﴿ أسرى بعبده ﴾ بمنزلة ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ [البقرة : 17] .

وللمبرد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة والتعدية بالباء بأن الثانية أبلغ لأنها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعولَ في الفعل ، فأصل (ذهب به) أنه استصحبه ، كما قال تعالى

﴿ وسار بأهله ﴾ [القصص : 29] .

وقالت العرب أشبعهم شتماً ، ورَاحوا بالإبل .

وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا إذ قال أسرى بعبده ﴾ دون سرّى بعبْدَه ، وهي التلويح إلى أن الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايتِهِ وتوفيقه ، كما قال تعالى ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] ، وقال : إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا [التوبة : 40] .

فالمعنى : الذي جعل عبده مُسريا ً، أي ساريا ً، وهو كقوله تعالى : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ [هود : 81] .

وإذ قد كان السُرى خاصا ً بسير الليل كان قوله : ليلاً ﴾ إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جُزء ليلة ، وإلا لم يَكن ذكره إلا تأكيدا ً، على أن الإفادة كما يقولون خير من الإعادة .

(200/449)

وفي ذلك إيماء إلى أنه أسراء خارق للعادة لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة ، وأيضا ً ليتوسل بذكر الليل إلى تنكيره المفيد للتعظيم .

فتنكير ﴿ ليلاً ﴾ للتعظيم ، بقرينة الاعتناء بذكره مع علمه من فعل ﴿ أسرى ﴾ ، وبقرينة عدم تعريفه ، أي هو ليل عظيم باعتبار جعله زمنا ً لذلك السرى العظيم ، فقام التنكير هنا مقام ما يدل على التعظيم .

ألا ترى كيف احْتيج إلى الدلالة على التعظيم بصيغة خاصة في قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ [القدر : 21] إذ وقعت ليلة القدر غير منكرة .

و(عَبْد) المضاف إلى ضمير الجلالة هنا هو محمد كما هو مصطلح القرآن ، فإنه لم يقع فيه لفظ العبد مضافاً إلى ضمير الغيبة الراجع إلى الله تعالى إلا مراداً به النبي ؛ ولأن خبر الإسراء به إلى بيت المقدس قد شاع بين المسلمين وشاع إنكاره بين المشركين ، فصار المراد بعبده ﴾ معلوماً .

والإضافة إضافة تشريف لا إضافة تعريف لأن وصف العبودية لله متحقق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفاً .

والمسجد الحرام هو الكعبة والفِناء المحيط بالكعبة بمكة المتخذ للعبادة المتعلقة بالكعبة من طواف بها واعتكاف عندها وصلاة .

وأصل المسجد : أنه اسم مكان السجود .

وأصل الحرام : الأمر الممنوع ، لأنه مشتق من الحَرْم بفتح فسكون وهو المنع ، وهو يرادف الحرم .

فوصف الشيء بالحرام يكون بمعنى أنه ممنوع استعماله استعمالاً يناسبه ، نحو ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] أي أكل الميتة ، وقول عنترة :

حُرمت علي وليتها لم تَحرم

أي ممنوع قربانها لأنها زوجة أبيه وذلك مذموم بينهم .

ويكون بمعنى الممنوع من أن يعمل فيه عمل ما .

ويبين بذكر المتعلق الذي يتعلق به .

وقد لا يذكر متعلّقة إذا دل عليه العرف ، ومنه قولهم : ﴿ الشهر الحرام ﴾ [البقرة : 194] أي الحرام فيه القتال في عرفهم .

(201/449)

وقد يحذف المتعلق لقصد التكثير ، فهو من الحذف للتعميم فيَرجع إلى العموم العرفي ، ففي نحو ﴿ البيت الحرام ﴾ [المائدة : 2] يراد الممنوع من عُدوان المعتدين ، وغزوِ الملوك والفاتحين ، وعملِ الظلم والسوءِ فيه .

والحرام : فَعال بمعنى مفعول ، كقولهم : امرأة حَصان ، أي ممنوعة بعفافها عن الناس .

فالمسجد الحرام هو المكان المعد للسجود ، أي للصلاة ، وهو الكعبة والفناء المجعول حرماً لها .

وهو يختلف سعة وضيقاً باختلاف العصور من كثرة الناس فيه للطواف والاعتكاف والصلاة .

وقد بنى قريش في زمن الجاهلية بيوتهم حول المسجد الحرام .

وجعل قُصي بقربه دارَ الندوة لقريش وكانوا يجلسون فيها حول الكعبة ، فانحصر لما أحاطت به بيوت عشائر قريش .

وكانت كل عشيرة تتخذ بيوتها متجاورة .

ومجموع البيوت يسمى شِعباً بكسر الشين .

وكانت كل عشيرة تسلك إلى المسجد الحرام من منفذ دُورها ، ولم يكن للمسجد الحرام جدار يُحفظ به .

وكانت المسالك التي بين دُور العشائر تسمى أبواباً لأنها يسلك منها إلى المسجد الحرام ، مثل باب بني شيبة ، وباب بني هاشم ، وباب بني مخزوم وهو باب الصفا ، وباب بني سهم ، وباب بني تيم .

وربما عُرِف بعض الأبواب بجهة تقرب منه مثل بَاب الصفا ويسمى باب بني مخزوم .

وباب الحزورة سمي بمكان كانت به سوق لأهل مكة تسمى الحَزْورة .

ولا أدري هل كانت أبواباً تغلق أم كانت منافذ في الفضاء فإن الباب يطلق على ما بين حاجزين .

وأول من جعل للمسجد الحرام جداراً يُحفظ به هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة سبعَ عشرة من الهجرة .

ولُقب بالمسجد لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعله لإقامة الصلاة في الكعبة كما حكى الله عنه ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم : 37] .

ولما انقرضت الحنيفية وترك أهل الجاهلية الصلاة تناسوا وصفهُ بالمسجد الحرام فصاروا يقولون : البيت الحرام .

(202/449)

وأما قول عمر : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام ، فإنه عبر عنه باسمه في الإسلام .

فغلبَ عليه هذا التعريف التوصيفي فصار له علماً بالغلبة في اصطلاح القرآن .

ولا أعرف أنه كان يعرف في الجاهلية بهذا الاسم ، ولا على مسجد بيت المقدس في عصر تحريمه عند بَني إسرائيل .

وقد تقدم وجه ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ في [البقرة : 144] ، وعند قوله تعالى : ﴿ أن صدوكم عن المسجد الحرام ﴾ في أول العقود [المائدة : 2] .

وعلميته بمجموع الوصف والموصوف وكلاهما معرّف باللام .

فالجزء الأول مثل النجم والجزء الثاني مثل الصعِق ، فحصل التعريف بمجموعهما ، ولم يعد النحاةُ هذا النوع في أقسام العلم بالغلبة .

ولعلهم اعتبروه راجعاً إلى المعرف باللام .

ولا بد من عده لأن علميته صارت بالأمرين .

والمسجد الأقصى هو المسجد المعروف ببيتِ المقدِس الكائن بإيلياء ، وهو المسجد الذي بناه سليمان عليه الصلاة والسلام .

والأقصى ، أي الأبعد .

والمراد بعده عن مكة ، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام ، وهو وصف كاشف اقتضاه هنا زيادة التنبيه على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقاً للعادة لكونه قطْعَ مسافة طويلة في بعض ليلة .

وبهذا الوصف الوارد له في القرآن صار مجموع الوصف والموصوف علماً بالغلبة على مسجد بيت المقدس كما كان المسجد الحرام علماً بالغلبة على مسجد مكة .

وأحسب أن هذا العلم له من مبتكرات القرآن فلم يكن العرب يصفونه بهذا الوصف ولكنهم لما سمعوا هذه الآية فهموا المراد منه أنه مسجد إيلياء .

ولم يكن مسجد لدين إلهي غيرهما يومئذٍ .

وفي هذا الوصف بصيغة التفضيل باعتبار أصل وضعها معجزةٌ خفية من معجزات القرآن

إيماء إلى أنه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد طيبة الذي هو قَصِيٌّ عن المسجد الحرام ، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه حينئذٍ .

(203/449)

فتكون الآية مشيرة إلى جميع المساجد الثلاثة المفضلة في الإسلام على جميع المساجد الإسلامية ، والتي بينها قول النبي : " " لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجد الحرام ، ومسجد الأقصى ، ومسجدي "

وفائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته بقوله : من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا ﴾ أمران:

أحدهما : التنصيص على قطع المسافة العظمية في جزء ليلة ، لأن كلا من الظرف وهو ﴿ ليلاً ﴾ ومن المجرورين ﴿ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا ﴾ قد تعلق بفعل ﴿ أسرى ﴾ ، فهو تعلق يقتضي المقارنة ، ليعلم أنه من قبيل المعجزات .

وثانيهما : الإيماء إلى أن الله تعالى يجعل هذا الإسراء رمزاً إلى أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكة أيضاً ؛ فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرعت في المسجد الأقصى .

ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سُرى يعقبه تأويب .

وبذلك حصل رد العجز على الصدر .

ومن هنا يظهر مناسبة نزول التشريع الاجماعي في هذه السورة في الآيات المفتتحة بقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، ففيها : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ [الإسراء : 23 35] إيماء إلى أن هذا الدين سيكون ديناً يحكم في الناس وتنفذ أحكامه .

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام كما ورد ذلك عن النبي .

ففي الصحيحين ﴾ عن أبي ذر قال : قلتُ يا رسول الله أي مسجد وُضع في الأرض أولُ ؟

قال المسجدُ الحرام .

قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى .

قلت كمْ بينهما ؟ قال أربعون سنة" .

فهذا الخبر قد بين أن المسجد الأقصى من بناء إبراهيم لأنه حُدد بمدة هي من مدة حياة إبراهيم عليه السلام .

وقد قُرن ذكره بذكر المسجد الحرام .

وهذا مما أهملَ أهل الكتاب ذكره .

وهو مما خَصّ الله نبيئه بمعرفته .

والتوراة تشهد له ، فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر : أن إبراهيم لما دخل أرض كنعان (وهي بلاد فلسطين) نصب خيمته في الجبل شرقي بيت إيل (بيت إيل مدينة على بعد أحد عشر ميلاً من أورشليم إلى الشمال وهو بلد كان اسمه عند الفلسطينيين (لوزا) فسماه يعقوب : بيت إيل ، كما في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين) وغربي بلاد عاي (مدينة عبرانية تعرف الآن "الطيبة") وبنى هنالك مذبحاً للرب .

وهم يطلقون المذبح على المسجد لأنهم يذبحون القرابين في مساجدهم .

قال عمر بن أبي ربيعة :

دُميةٌ عند راهب قسيس

صوروها في مذبح المحراب . . .

أي مَكانَ المذبح من المسجد ، لأن المحراب هو محل التعبد ، قال تعالى : ﴿ وهو قائم يصلي

في المحراب ﴾ [آل عمران : 39] .

ولا شك أن مسجد إبراهيم هو الموضع الذي توخى داود عليه السلام أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه أو أوحى الله إليه بذلك ، وهو الذي أوصى ابنَه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجدَ ، أي الهيكل .

وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم (يوسيفوس) أن الجبل الذي سكنه إبراهيم بأرض كنعان اسمه (نَابو) وأنه هو الجبل الذي ابتنى عليه سليمان الهيكل وهو المسجد الذي به الصخرة .

وقصة بناء سليمان إياه مفصلة في سفر الملوك الأول من أسفار التوراة .

وقد انتابه التخريب ثلاث مرات:

أولاها : ﴿ حين خربه بختَنَصّر ملكُ بابل سنة 578 قبل المسيح ثم جدده اليهود تحت حكم الفُرس .

الثانية : خربه الرومان في مدة طيطوس بعد حروب طويلة بينه وبين اليهود وأعيد بناؤه ، فأكمل تخريبَه أدريانوس سنة 135 للمسيح وعفى آثاره فلم تبق منه إلا أطلال .

الثالثة لما تنصرت الملكة هيلانة أم الأنبراطور قسطنطين ملكك الروم (بيزنطة) وصارت متصلبة في النصرانية ، وأشرب قلبها بُغْض اليهود بما تعتقده من قتلهم المسيح كان مما اعتدت عليه حين زارت أورشليم أن أمرت بتعفية أطلال هيكل سليمان وأن ينقل ما بقي من الأساطين ونحوها فتبني بها كنيسة على قبر المسيح المزعوم عندهم في موضع توسموا أن يكون هو موضع القبر (والمؤرخون من النصارى يشكون في كون ذلك المكان هو المكان الذي يُدَّعَى أن المسيح دفن فيه) وأن تسميها كنيسة القيامة ، وأَمَرَت بأن يجعل موضعُ المسجد الأقصى مرمَى أزبال البلد وقُماماته فصار موضعُ الصخرة مَزْبلة تراكمت عليها الأزبال فغطتها وانحدرت على درجها .

ولما فتح المسلمون بقية أرض الشام في زمن عمر وجاء عمر بن الخطاب ليشهد فتح مدينة إيلياء وهي المعروفة من قبلُ (أورشليم) وصارت تسمى إيلياء بكسر الهمزة وكسر اللام وكذلك كان اسمها المعروف عند العرب عندما فتح المسلمون فلسطين .

وإيلياء اسم نبيء من بني إسرائيل كان في أوائل القرن التاسع قبل المسيح .

قال الفرزدق :

وبيتان بيتُ الله نحن ولاته

وبيتٌ بأعلى إيلياء مشرَّف . . .

وانعقد الصلح بين عُمر وأهل تلك المدينة وهم نصارى .

قال عمر لبطريق لهم اسمه (صفرونيوس) "دُلني على مسجد داوود" ، فانطلق به حتى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على دَرَج الباب فتجشم عمر حتى دخَل ونظر فقال : الله أكبر ، هذا والذي نفسي بيده مسجدُ داوود الذي أخبرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أُسري به إليه" .

ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسون الزبل عن الصخرة حتى ظهرت كلها ، ومضى عمر إلى جهة محراب داوود فصلى فيه ، ثم ارتحل من بلد القدس إلى فلسطين .

ولم يَبن هنالك مسجداً إلى أن كان في زمن عبد الملك بن مروان أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وعمارة المسجد الأقصى .

ووكل على بنائها رَجاء بن حَيْوَة الكِندي أحد علماء الإسلام ، فابتدأ ذلك سنة ست وستين وكان الفراغ من ذلك في سنة ثلاث وسبعين .

كان عمر أول من صلى فيه من المسلمين وجعل له حرمة المساجد .

ولهذا فتسمية ذلك المكان بالمسجد الأقصى في القرآن تسمية قرآنية اعتبر فيها ما كان عليه من قبل لأن ، حكم المسجدية لا ينقطع عن أرض المسجد .

فالتسمية باعتبار ما كان ، وهي إشارة خفية إلى أنه سيكون مسجداً بأكمل حقيقة المساجد .

واستقبله المسلمون في الصلاة من وقت وجوبها المقارن ليلة الإسراء إلى ما بعد الهجرة بستة عشر شهراً .

ثم نسخ استقباله وصارت الكعبة هي القبلة الإسلامية .

وقد رأيت أن سائحاً نصرانياً اسمه (اركولف) زار القدس سنة 670 م ، أي بعد خلافة عمر بأربع وثلاثين سنة ، وزعم أنه رأى مسجداً بناه عمر على شكل مربع من ألواح وجذوع أشجار ضخمة وأنه يسع نحو ثلاثة آلاف .

والظاهر أن نسبة المسجد الأقصى إلى عمر بن الخطاب وهَم من أوهام النصارى اختلط عليهم كشف عمر موضع المسجد فظنوه بناءً .

وإذا صدق اركولف فيما ذكر من أنه رأى مكاناً مربعاً من ألواح وعمد أشجار كان ذلك شيئاً أحدثه مسلمو البلاد لصيانة ذلك المكان عن الامتهان .

وقوله ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ صفة للمسجد الأقصى .

وجيء في الصفة بالموصولية لقصد تشهير الموصوف بمضمون الصلة حتى كأن الموصوف مشتهر بالصلة عند السامعين .

والمقصود إفادة أنه مبارك حوله .

وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة في تكثير الفعل، مثل عافاك الله.

والبركة: نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة بوفرة الثواب للمصلين فيه وبإجابة دعاء الداعين فيه.

وقد تقدم ذكر البركة عند قوله تعالى: ﴿ مباركاً وهدى للعالمين ﴾ في [آل عمران: 96].

وقد وصف المسجد الحرام بمثل هذا في قوله تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين ﴾ [آل عمران: 96].

(207/449)

ووجه الاقتصار على وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر هذا التبريك أن شهرة المسجد الحرام بالبركة وبكونه مقام إبراهيم معلومة للعرب؛ وأما المسجد الأقصى فقد تناسى الناس ذلك كله، فالعرب لا علم لهم به والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.

وحولَ يدل على مكان قريب من مكان اسم ما أضيف (حولَ) إليه.

وكونُ البركة حولَه كنايةٌ عن حصول البركة فيه بالأوْلى، لأنها إذا حصلت حوله فقد

تجاوزت ما فيه ؛ ففيه لطيفة التلازم ، ولطيفة فحوَى الخطاب ، ولطيفة المبالغة بالتكثير .

وقريب منه قول زياد الأعجم :

إنّ السماحةَ والمروءة والندى

في قبةٍ ضُربت على ابن الحشرج . . .

ولكلمة ﴿ حوله ﴾ في هذه الآية من حسن الموقع ما ليس لكلمة (في) في بيت زياد ، ذلك أن ظرفية (في) أعم .

فقوله : (في قبة) كناية عن كونها في ساكن القبة لكن لا تفيد انتشارها وتجاوزها منه إلى ما حوله .

وأسباب بركة المسجد الأقصى كثيرة كما أشارت إليه كلمة ﴿ حوله ﴾ .

منها أن واضعه إبراهيم عليه السلام ، ومنها ما لحقه من البركة بمن صلى به من الأنبياء من داوود وسليمان ومن بعدهما من أنبياء بني إسرائيل ، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام وإعلانه الدعوة إلى الله فيه وفيما حوله ، ومنها بركة من دُفن حوله من الأنبياء ، فقد ثبت أن قبري داوود وسليمان حول المسجد الأقصى .

وأعظم تلك البركات حلول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ذلك الحلول الخارق للعادة ، وصلاته فيه بالأنبياء كلهم .

وقوله : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ تعليل الإسراء بإرادة إراءة الآيات الربانية ، تعليلُ ببعض

الحِكَم التي لأجلها منح الله نبيئه منحة الإسراء ، فإن للإسراء حِكماً جمة تتضح من حديث الإسراء المروي في "الصحيح" .

(208/449)

وأهمها وأجمعها إراءته من آيات الله تعالى ودلائل قدرته ورحمته ، أي لنريه من الآيات فيخبرهم بما سألوه عن وصف المسجد الأقصى .

ولام التعليل لا تفيد حصر الغرض من متعلقها في مدخولها .

وإنما اقتُصر في التعليل على إراءة الآيات لأن تلك العلة أعلق بتكريم المُسرَى به والعناية بشأنه ، لأن إراءة الآيات تزيد يقين الرائي بوجودها الحاصل من قبل الرؤية .

قال تعالى : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ [الأنعام : 75] .

فإن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة : 260] ، ولذلك لم يقل الله بعد هذا التعليل أو لم يطمئن قلبك ، لأن اطمئنان القلب مُتَّسِعُ المدى لا حد له فقد أنطق الله إبراهيم عن حكمة نبوءة ، وقد

بادر محمداً بإراءة الآيات قبل أن يسأله إياها توفيراً في الفضل .

قال علي بن حزم الظاهري وأجاد :

ولكن للعيان لطيفُ معنى

له سأل المعاَينة الكليمُ . . .

واعلم أن تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية لأنهم بمقدار قوة اليقين يزيدون ارتقاء على درجة مستوى البشر والتحاقاً بعلوم عالم الحقائق ومساواة في هذا المضمار لمراتب الملائكة .

وفي تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلم في قوله :

باركنا . . .

ولنُريه من آياتنا سلوكٌ لطريقة الالتفات المتبعة كثيراً في كلام البلغاء .

وقد مضى الكلام على ذلك في قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد ﴾ في [الفاتحة : 5] .

والالتفات هنا امتاز بلطائف:

منها : أنه لما استُحضرت الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم .

ومنها : الإيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة .

ومنها : التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير في قوله : إنه هو السميع البصير ﴾ ، فيتبادر عود ذلك الضمير إلى غير من عاد إليه ضمير ﴿ نريه ﴾ لأن الشأن تناسق الضمائر ، ولأن العود إلى الالتفات بالقرب ليس من الأحسن .

فقوله : ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ الأظهرُ أن الضميرين عائدان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقاله بعض المفسرين ، واستقرَبه الطيبي ، ولكن جمهرة المفسرين على أنه عائد إلى الله تعالى .

ولعل احتماله للمعنيين مقصود .

وقد تجيء الآيات محتملة عدّةَ معانٍ .

واحتمالها مقصود تكثيراً لمعاني القرآن ، ليأخذ كل منه على مقدار فهمه كما ذكرنا في المقدمة التاسعة .

وأياما كان فموقع (إنّ) التوكيد والتعليل كما يؤذن به فصل الجملة عما قبلها .

وهي إما تعليل لإسناد فعل ﴿ نريه إلى فاعله ؛ وإما تعليل لتعليقه بمفعوله ، فيفيد أن تلك الإراءة من باب الحكمة ، وهي إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي ، فهو من إيتاء الحكمة من هو

أهلها .

والتعليل على اعتبار مرجع الضمير إلى النبي أوقع ، إذ لا حاجة إلى تعليل إسناد فعل الله تعالى لأنه محقق معلوم .

وإنما المحتاج للتعليل هو إعطاء تلك الإراءة العجيبة لمن شك المشركون في حصولها له ومن يحسبون أنه لا يطيقها مثله .

على أن الجملة مشتملة على صيغة قصر بتعريف المسند باللام وبضمير الفصل قصراً مؤكداً ، وهو قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً للقلب ، أي هو المدرك لما سمعه وأبصره لا الكاذِبُ ولا المتوهمُ كما زعم المشركون .

وهذا القصر يؤيد عود الضمير إلى النبي لأنه المناسب للرد .

ولا ينازع المشركون في أن الله سميع وبصير إلا على تأويل ذلك بأنه المُسمع والمبصِر لرسوله الذي كذبتموه ، فيؤول إلى تنزيه الرسول عن الكذب والتوهم .

ثم إن الصفتين على تقدير كونهما للنبيء هما على أصل اشتقاقهما للمبالغة في قوة سمعه وبصره وقبولهما لتلقي تلك المشاهدات المدهشة ، على حد قوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر

وما طغى ﴾

[النجم : 17] ، وقوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ [النجم : 12] .

وأما على تقدير كونهما صفتين لله تعالى فالمناسب أن تؤولا بمعنى المسمع المبصر ، أي القادر على إسماع عبده وإبصاره ، كما في قول عمرو بن معد يكرب :

أمن ريحانة الداعي السميع

أي المُسمع .

وقد اختلف السلف في الإسراء أكان بجسد رسول الله من مكة إلى بيت المقدس أم كان بروحه في رؤيا هي مشاهدة رُوحانية كاملة ورؤيا الأنبياء حق .

والجمهور قالوا : هو إسراء بالجسد في اليقظة ، وقالت عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق رضي الله عنهم أنه إسراء بروحه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي .

واستدل الجمهور بأن الامتنان في الآية وتكذيبَ قريش بذلك دليلان على أنه ما كان الإخبار به إلا على أنه بالجسد .

واتفق الجميع على أن قريشاً استوصفوا من النبي علامات في بيت المقدس وفي طريقه فوصفها لهم كما هي ، ووصف لهم عيراً لقريش قافلة في طريق معين ويوم معين فوجدوه كما وصف لهم .

ففي صحيح البخاري ﴾ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينما أنا في المسجد الحرام

بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل . . .

" إلى آخر الحديث .

وهذا أصح وأوضح مما روي في حديث آخر أن الإسراء كان من بيته أو كان من بيت أم هاني بنت أبي طالب أو من شعب أبي طالب .

والتحقيق حمل ذلك على أنه إسراء آخر ، وهو الوارد في حديث المعراج إلى السماوات وهو غير المراد في هذه الآية .

فللنبيء صلى الله عليه وسلم كرامتان : أولاهما الإسراء وهو المذكور هنا ، والأخرى المعراج وهو المذكور في حديث "الصحيحين" مطولاً وأحاديث غيرِه .

وقد قيل : إنه هو المشار إليه في سورة النجم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ الآية .

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقوله بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول . فإنا نبين ذلك .

فإذا علمت ذلك .

فاعلم أن هذا الإسراء به صلى الله عليه وسلم المذكور في هذه الآية الكريمة ، زعم بعض أهل العلم أنه بروحه صلى الله عليه وسلم دون جسده ، زاعماً أنه في المنام لا اليقظة ، لأن رؤيا الأنبياء وحي .

وزعم بعضهمك أن الإسراء بالجسدِ ، والمعراج بالروح دون الجسد ، ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم يقظةً لا مناماً ، لأنه قال ﴿ بعبده ﴾ والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد ، ولأنه قال ﴿ سبحان ﴾ والتَّسبيح إنما يكون عند الأمور العظام . فلو كان مناماً لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه . ويؤيده قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [النجم : 17] لأن البصر من آلات الذات لا الروح ، وقوله هنا ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ .

ومن أوضح الأدلة القرآنية على ذلك قوله جل وعلا : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ والشجرة الملعونة فِي القرآن ﴾ [الإسراء : 60] فإنها رؤيا عين يقظة ، لا رؤيا منام ، كما صحّ عن ابن عباس وغيره .

ومن الأدلة الواضحة على ذلك – أنها لو كان رؤيا منام لما كانت فتنة ، ولا سبباً لتكذيب قريس ، لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار ، لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح . فلاذي جعله الله فتنة هو ما رآه بعينه من الغرائب والعجائب . فزعم المشركون أن من ارِدعى رؤية ذلك بعينه فهو كاذب لا محالة ، فصار فتنة لهم . وكون الشجرة الملعونة التي هي شجرة الزقوم على التحقيق فتنة لهم – أن الله لما أنزل قوله : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم ﴾ [الصافات : 64] قالوا : ظهر كذبه . لأن الشجر لا ينبت بالأرض اليابسة ، فكيف ينبت في أصل النار ! "كما تقدم في البقرة .

ويؤيد ما ذكرنا من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالى هنا : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ الآية ، وقوله ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ﴾ [النجم : 17-18] . وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلى على رؤيا المنام ، مردود . بل التحقيق : ان لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً . ومنه قول الراعي وهو عربي قح :

فكبر للرّيا وهش فؤاده . . . وبشّر نفساً كان قبل يلومها

فإنه يعني رؤية صائد بعينه . ومنه أيضاً قول أبي الطيب :

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض . . . قاله صاحب اللسان وزعم بعض اهل العلم : أن

المراد بالرؤيا في قوله :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ ﴾ [الإسراء : 60] الآية ، رؤيا منام وأنها هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله ﴾ [الفتح : 27] الآية والحق الأول .

وركوبه صلى الله عليه وسلم على البراق يدل على أن الإسراء بجسمه . لأن الروح ليس من شأنه الركوب على الدواب كما هو معروف ، وعلى كل حال :

فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه : " أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السماوات السبع " .

قد دلت الأحاديث المذكورة على أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه ، يقظة لا مناماً ، كما دلت على ذلك أيضاً الآيات التي ذكرنا .

وعلى ذلك من يعتد به من أهل السنة والجماعة ، فلا عبرة بمن أنكر ذلك من الملحدين .

وما ثبت في الصَّحيحين من طريق شريك عن أنس رضي الله عنه : أن الإسراء المذكور وقع مناماً – لا ينافي ما ذكرنا مما عليه أهل السنة والجماعة ، ودلت عليه نصوص الكتاي والسنة . لإمكان أن يكون رأي الإسراء المذكور نوماً ، ثم جاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح فأسري به يقظة تصديقاً لتلك الرؤيا المنامية . كما رأى في النوم أنهم دخلوا المسجد الحرام ، فجاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح ، فدخلوا المسجد الحرام في عمرة القضاء عام سبع يقظة ، لا مناماً ، تصديقاً لتلك الرؤيا . كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ اللهُ آمِنِينَ . . . ﴾ [الفتح : 27] الآية . ويؤيد ذلك حديث عائشة الصحيح " فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح " مع أن جماعة من أهل العلم قالوا : إن شريك بن عبد الله بن أبي نمر ساء حفظه في تلك الرواية المذكورة عن أنس ، وزاد فيها ونقص ، وقدم وأخر . ورواها عن أنس غير من الحفاظ على الصواب ، فلم يذكروا المنام الذي ذكره شريك المذكور . وانظر رواياتهم بأسانيدها ومتونها في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى . فقد جمع طرق حديث الإسراء جمعاً حسناً بإتقان . ثم رحمه الله : " والحق أنه عليه السلام اسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب امسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتي بالمعراج وهو كالسلم ذو درجٍ يرقى فيها ن فصعد فيه إلى السّماء الدنيا ، ثم

إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ن وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهمن حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة ، ثم جاوز منزليهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوىً يسمع فيه صريف الأقلام – اي أقلام القدر – بما هو كائنن ورأى سدرة المنتهى ، وغشيها من أمر

(215/449)

الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة ، وغشيها الملائكة ، وإبراهيم الخليل بانِيَ الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه ، لأن الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ورأى الجنة والنار .

وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده .

وفي هذا اعتناء بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء . فصلى بهم فيه لما حانت الصَّلاة ، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ . ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء . والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ، ولكن ، في بعضها أنه كان أول دخوله إليه ، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم في منازلهم

جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم ، وهذا هو اللائق . لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجانب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى .

ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النّبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة ، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام في ذلك . ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس . والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى بلفظه من تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام ، فهو متواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش ممن رواه : عشرين صحابياً ن ثم شرع يذكر بعض طرقه في الصحيحين وغيرهما ، وبسط قصة الإسراء ، تركناه لشهرته عند العامةن وتواتره في الأحاديث .

وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في آخر كلامه على هذه الآية الكريمة فائدتين ، قال في أولاهما : " فائدة حسنة جليلة – وروى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب (دلائل النبوة) من طريق محمد بن عمر الواقدي : حدثني مالك بن أبي الرجال ، عم عمر بن عبد الله ،

عن محمد بن كعب القرظي قال : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة إلى قيصر " . فذكر ورده عليه وقدومه إليه ، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه . فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سياتي بيانه . وجعل أبو سفيان يجتهد أن يحقِّر أمره ويصغِّره عنده ، قال في هذا السياق عن أبي سفيان : " والله ما منعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه به من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليَّ ولا يصدقني في شيءٍ .

قال : حتَّى ذكرت قوله ليلة أسري به ، قال فقلت : أيُّها الملك ، ألا أخبرك خبراً تعرف به أنَّه قد كذب . قال : وما هو ؟ قالك قلت إنه يزعم لنا انه خرج من أرضنا ارض الحرم في ليلةٍ ، فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصَّباح . قال : وبطريق إيلياء عند رأس قيصر ، فقال بطريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة .

قال : فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : أني كنت لا أنام ليلةً حتَّى أغلق أبواب المسجد . فما كانت تلك اللَّيلةِ أغلقت الأَبواب كلَّها غير بابٍ واحدٍ غلبني ،

فاستعنت عليه بعمّالي ومن يحضرني كلهم فغلبنا ، فلم نستطيع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً ، فدعون إليه النَّجاجرة فنظروا إليه فقالوا : إنَّ هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحرِّكهن حتى نصبح فننظر من أين أتى ! قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلمَّا أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب . وإذا فيه أثَر مربط الدابة . قال : فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب اللَّيلة إلى على نبيٍّ وقد صلَّى الليلة في مسجدنا اه .

ثم قال في الأخرى : " فائدة – قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) وقد ذكر حديث الإسراء عن طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد .

ثم قال : وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلي ، وابن مسعودٍ ، وأبي ذرٍّ ، ومالك بن صعصعة ، وأبي هريرةن وأب سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أَوس ، وأبي بن كعب ، وعبد الرحمن بن قرط ، وأبي حبة ، وأبي ليلى الأنصاريين ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وجذيفة ، وبُريدة ، وأبي أيوب ، وأبي أُمامة ، وسمرة بن جندب ، وأبي الحمراء ، وصهيب الرومي ، وأم هانىء ، وعائشة ، وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين . منهم من ساقه بطوله ، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة " فحديث الإسراء

أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [الصف : 8] اه من ابن كثير بلفظه .

(218/449)

وقد قدمنا أن أحسن أوجه الإعراب في ﴿ سبحان ﴾ أنه مفعول مطلق ، منصوب بفعل محذوف : اي اسبح الله سبحاناً اي تسبيحاً . والتسبيح : الإبعاد عن السوء . ومعناه في الشرع : التنزيه عن كل ما لا يليق بجلال الله وكماله ، كما قدمنا . وزعم بعض أهل العلم : أن لفظة ﴿ سبحان ﴾ علم للتنزيه . وعليه فهو علم جنسٍ لمعنى التنزيه على حد قول ابن مالك في الخلاصة ، مشيراً غلى أن علم الجنس يكون للمعنى كما يكون للذات :

ومثله برة للمبرة . . . كذا فجار علم للفجرة

وعلى أنه علم – فهو ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون . والذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أنه غير علم ، وأن معنى ﴿ سبحان ﴾ تنزيهاً لله عن كل ما لا يليق به .

ولفظة ﴿ سبحان ﴾ من الكلمات الملازمة للإضافةن وورودها غير مضافة قليل . كقول الأعشى :

فقلت لما جاءني فخره . . . سبحان من علقمة الفاخر

ومن الأدلة على أنه غير – علم ملازمته للإضافة والأعلام تقل إضافتها ، وقد سمعت لفظة ﴿ سبحان ﴾ غير مضافة مع التنوين والتعريف . فمثاله مع التنوين قوله :

سبحانه ثم سبحانه نعوذ به . . . وقبلنا سبح الجودي والجمد

ومثاله معرفاً قول الراجز :

سبحانك اللهم ذا السبحان . . . والتعبير بلفظ في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها . إذ لو كان هناك وصف اعظم منه لعبر به في هذا المقام العظيم ، الذي اخترق العبد فيه السبع الطباق ، ورأى من آيات ربّه الكبرى . وقد قال الشاعر في محبوب مخلوق ، ولله المثل الأعلى :

يا قوم قلبي عند زهراء . . . يعرفه السامع والراءي

لا تدعني إلا بيا عبدها . . . فإنه اشرف أسمائي

(219/449)

واختلف العلماء في النكتة البلاغية التي نكر من أجلها ﴿ ليلاً ﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء ، وأنه أُسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة . وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعيضة ، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة ﴿ من الليل

﴾ أي بعض الليل. كقوله: ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً ﴾ [الإسراء: 79] يعني بالقيام في بعض الليل اه، واعترض بعض أهل العلم هذا.

وذكر بعضهم: ان التنكير في قوله ﴿ ليلاً ﴾ للتعظيم. أي ليلاً اي ليل، دنا فيه المحب إلى المحبوب! وقيل فيه غير ذلك. وقد قدمنا: أن أسرى وسرى لغتان. كسقى وأسقى، وقد جمعهما قول حسان رضي الله عنه:

حي النضيرة ربة الخدر... أسرت إليك ولم تكن تسري

بفتح التاء من "تسري" والباء في اللغتين للتعدية، كالباء في ﴿ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: 17] وقد تقدمت سواهد هذا في (سورة هود).

تنبيه

اختلف العلماء – هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسراء بعين رأسه أو لا؟

فقال ابن عباس وغيره: "رآه بعين رأسه" وقالت عائشة وغيرها: "لم يره". وهو خلاف مشهور، بين أهل العلم معروف.

قال مقيده عفا الله عنه: التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع: أنه صلى الله عليه وسلم لم يره بعين راسه. وما جاء عن بعض السلف من أنه رآه. فالمراد به الرؤية بالقلب. كما في صحيح مسلم: "أنه رآه بفؤاده مرتين" لا بعين الرأس.

ومن أوضح الأدلة على ذلك – أن أبا ذر رضي الله عنه (وهو هو في صدق اللهجة) سأل

النّبي صلى الله عليه وسلم عن هذه المسالة بعينها .

فأفتاه بما مقتضاه : أنه لم يره . قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا وكيع ، عن يزيد بن إبراهيم ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق ، عن أبي ذر قال : سألّت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأّيت ربك ؟ قال : " نور ! أنى أراه ؟ " .

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي (ح) وحدثني حجاج بن الشاعر ، حدثنا عان بن مسلم ، حدثنا همام ، كلاهما عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق قال : " قلت لأبي ذر : لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته . فقال : عن أي شيء كنت تسأله ؟ قال : كنت أساله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت فقال : " رأيت نوراً " هذا لفظ مسلم .

وقال النووي في شرحه لمسلم : أما قوله صلى الله عليه وسلم : " نور ! انَى أراه " ! ! فهو بتنوين " نور " وفتح الهمزة في " أَنى " وتشديد النون وفتحها . و " أَراه " بفتح الهمزة هكذا رواه جميع الرواة في جميع الأصول والرويات . ومعناه : حجابه نور ، فكيف أراه ! ! .

قال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله : الضمير في " أراه " عائد إلى الله سبحانه وتعالى ، ومعناه : ان النور منعني من الرؤية . كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ، ومنعها من إدراك ما حالت بين الراثي وبينه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " رأيت نوراً " معناه : رأيت النور فحسب ، ولم أر غيره . قال : وروي " نوراني " بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء . ويحتمل أن يكون معناه راجعاً إلى ما قلناه . اي خالق النور المانع من رؤيته ، فيكون من صفات الأفعال .

قال القاضي عياض رحمه الله : هذه الرواية لم تقع إلينا ! ولا رأيناها في شيء من الأصول اه محل الغرض من كلام النووي .

قال مقيده عفا اله عنه : التحقيق الذي لا شك فيه هو : أن معنى الحديث هو ما ذكر ، من كونه لا يتمكن أحد من رؤيته لقوة النور الذي هو حجابه . ومن اصرح الأدلة على ذلك ايضاً حديث أبي موسى المتفق عليه " حِجَابُهُ النُّور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " نور ! انى أراه ؟ " اي كيف أراه وحجابه نور ، من صفته أنه لو كشفه لأحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه .

وقد قدمنا : أن تحقيق المقام في رؤية الله جل وعلا بالأبصار - أنها جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، بدليل قوله موسى ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] لأنه لا يجهل المستحيل في حقّه جل وعلا. وأنها جائزة شرعاً وواقعة يوم القيامة، ممتنعة شرعاً في الدنيا قال :

﴿ لَن تَرَانِي ولكن انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ [الأعراف : 143] إلى قوله ﴿ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ [الأعراف : 143].

ومن أصرح الأدلة في ذلك حديث " إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا " في صحيح مسلم وصحيح ابن خزيمة كما تقدم.

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ [النجم 8-9] الآية - فذلك جبريل على التحقيق، لا الله جلّ وعلا

قوله تعالى : ﴿ الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ .

أظهر التفسيرات فيه : أن معنى ﴿ باركنا حوله ﴾ أكثرنا حوله الخير والبركة بالأشجار والثمار والأنهار. وقد وردت آيات تدل على هذا. كقوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 71] وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 81] فإن

المراد بتكل الأرض : الشام . والمراد بأنه بارك فيها : أنه أكثر فيها البركة وا لخير با لخصي والأشجار والثمار والمياه كما عليه جمهور العلماء .

وقال بعض العلماء : المراد بأنه بارك فيها أنه بعث الأنبياء منها . وقيل غير ذلك . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ﴾ .

(222/449)

الظاهر إنما أراه الله من آياته في هذه الآية الكريمة : أن أراه إياه رؤية عين . فمزة التعدية ادخلة على رأى البصرية . كقولك : أرأيت زيداً دار عمرو . أي جعلته يراها بعينه . و " من " في الآية للتبعيض ، والمعنى ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ﴾ : أي بعض آياتنا فجعله يراها بعينه . وذلك ما رآه صلى الله عليه وسلم بعينه ليلة الإسراء من الغرائب والعجائب . كما جاء مبيناً في الأحاديث الكثيرة .

ويدل لما ذكرنا في الآية الكريمة قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ﴾ [النجم : 17-18] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾

استهل الحق سبحانه هذه السورة بقوله (سُبْحَانَ) ؛ لأنها تتحدث عن حدث عظيم خارق للعادة ، ومعنى سبحانه: أي تنزيهاً لله تعالى تنزيهاً مطلقاً ، أن يكون له شبه أو مثيل فيما خلق ، لا في الذات ، فلا ذاتَ كذاته ، ولا في الصفات فلا صفات كصفاته ، ولا في الأفعال ، فليس في أفعال خَلْقه ما يُشبِه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك: الله موجود وأنت موجود ، فنزه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك من عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس من عدم ، وهو ذاتي فيه سبحانه . فذاته سبحانه لا مثيلَ لها ، ولا شبيه في ذوات خلقه . وكذلك إن قيل: سَمْع والله سمع . فنزِه الله أنْ يُشابه سمعُه سمعَك ، وإن قيل: لك فِعْل ، ولله فِعْل فنزِّه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معاني (سُبْحَان) أي: أتعجب من قدرة الله .

إذن: كلمة (سُبْحَان) جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات

البشر ، فإذا ما سمعتَه إياكَ أنْ تعترضَ أو تقول: كيف يحدث هذا ؟ بل نزِّه الله أن يُشابه فِعْلُه فِعْلَ البشر ، فإن قال لك: إنه أسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيتَ المقدس في ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فإياك أن تنكر .

فربك لم يقُلْ: سَرَى محمد ، بل أُسْرِي به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعْه لمقاييس الزمن لديك ، فِفعْل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَان) نجدها في الأشياء التي ضاقتْ فيها العقول ، وتحيَّرتْ في إدراكها وفي الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: 36] .

(224/449)

فالأزواج أي: الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر في النبات ، وفي الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله: ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بما توصَّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذي يساوي الذكر والأنثى ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: 49] .

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: 17] .

فمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحُلُّ الظلام محلَّ الضياء ، أو الضياء محل الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول: سبحان الله .

ومنها قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَاذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: 13] .

هذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردتْ فيها كلمة (سبحان) في خلال السور وفي طيّات الآيات .

و(سُبْحَان) اسم يدلُّ على الثبوت والدوام ، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزِّه ، كما نقول في الخلق ، فالله خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أنْ يخلق شيئاً .

وكما تقول: فلان شاعر ، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

إذن: تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنزِّهه سبحانه ، فإذا وُجِد المنزّه تحوّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الحشر: 1] .

وهل سبَّح وسكت وانتهى التسبيح ؟ لا ، بل: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الجمعة: 1] .

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح ثابت له ، وتُسبِّح له

الكائنات في الماضي والحاضر ، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكلَّف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى: 1] .

وقوله: (أُسْرِي) من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، وفي الحِكَم: (عند الصباح يحمَدُ القوم السُّرى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم فلا تَقِسْ الفعل بمقياس البشر ، ونزِّه فِعْل الله عن فِعْلك ، وقد استقبل أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذِّب . فقالوا : كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون في قولهم ؛ لأن رسول الله لم يَدَّعِ أنه سَرَى بل قال: أُسْرِي بي .

ومعلوم أن قَطْع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة المتمثلة في السرعة . أي: أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو أردنا مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية سيختلف الزمن لو سِرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فما بالك لو نسب الفعل والسرعة إلى الله تعالى ، إذا كان الفعل من الله فلا زمن .

فإنْ قال قائل: ما دام الفعل مع الله لا يحتاج إلى زمن ، لماذا لم يَأْتِ الإسراء لمحة فحسْب ،

ولماذا استغرق ليلة؟

نقول: لأن هناك فرْقاً بين قطْع المسافات بقانون الله سبحانه وبين مَرَاءٍ عُرِضَتْ على النبي صلى الله عليه وسلم في الطريق، فرأى مواقف، وتكلَّم مع أشخاص، ورأى آيات وعجائب، هذه هي التي استغرقت الزمن.

وقلنا: إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قَدْر قوة الفاعل.

هَبْ أن قائلاً قال لك: أنا صعدتُ بابني الرضيع قمة جبل "إفرست"، هل تقول له: كيف صعد ابنك الرضيع قمة "إفرست"؟

هذا سؤال إذن في غير محلِّه، وكذلك في مسألة الإسراء والمعراج يقول تعالى: أنا أسريتُ بعبدي، فمن أراد أنْ يُحيل المسألة ويُنكرها، فليعترض على الله صاحب الفعل لا على محمد.

لكن كيف فاتتْ هذه القضية على كفار مكة؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج نأخذ رَدّاً جميلاً على هؤلاء الذين يخوضون في هذا الحادث بعقول ضيقة وبإيمانية سطحية في

عصرنا الحاضر، فيطالعونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان.

ونسمع منهم مَنْ يقول: إن الإسراء كان منَاماً، أو كان بالروح دون الجسد.

ونقول لهؤلاء: لو قال محمد لقومه: أنا رأيتُ في الرؤيا بيت المقدس، هل كانوا يُكذّبونه؟ ولو قال لهم: لقد سبحتْ روحي الليلة حتى أتتْ بيت المقدس، أكانوا يُكذّبونه؟ أتُكذَّب الرّؤى أو حركة الأرواح؟!

إذن: في إنكار الكفار على رسول الله وتكذيبهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم برُوحه وجسده، وكأن الحق سبحانه ادّخر الموقف التكذيبي لمكذبي الأمس، ليردّ به على مُكذّبي اليوم.

وقوله سبحانه: ﴿ بِعَبْدِهِ.. ﴾ [الإسراء: 1].

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً، هذا مدلولها، لا يمكن أن تُطلَق على الروح فقط.

لكن، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذه الصفة بالذات؟

نقول: لأن الله تعالى جعل في الكون قانوناً عاماً للناس، وقد يُخرَق هذا القانون أو الناموس العام ليكون معجزةً للخاصة الذين ميّزهم الله عن سائر الخَلْق، فكأن كلمة (عبده) هي حيثية الإسراء.

أي: أُسْرِي به؛ لأنه صادق العبودية لله، وما دام هو عبده فقد أخلص في عبوديته لربه،

فاستحق أنْ يكون له مَيْزة وخصوصية عن غيره ، فالإسراء والمعراج عطاء من الله استحقَّه رسوله بما حقّق من عبودية لله .

(227/449)

وفَرْق بين العبودية لله والعبودية للبشر ، فالعبودية لله عِزٌّ وشرف يأخذ بها العبدُ خَيْرَ سيده ، وقال الشاعر: وَمِمّا زَادَني شَرَفاً وَعِزّاً وَكِدْتُ بأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيّا دُخُولِي تَحْتَ قَولِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرت أحمدَ لِي نبيّاً أما عبودية البشر للبشر فنقْصٌ ومذلّة وهوان ، حيث يأخذ السيد خَيْر عبده ، ويحرمه ثمره كَدّه .

لذلك ، فالمتتّبع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتي إلا في المواقف العظيمة مثل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ . . ﴾ [الإسراء: 1] .

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ . . ﴾ [الجن: 19] .

ويكفيك عِزاً وكرامة أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك أن يكون الأمر في يدك ، فما عليكَ إلا أنْ تتوضأ وتنوي المقابلة قائلاً: الله أكبر ، فتكون في معية الله عز وجل في لقاء تحدد أنت مكانه ومُوعده ومُدّته ، وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل في حضرة ربك إلى أن تنهي المقابلة متى أردتَ .

وما أحسنَ ما قال الشاعر: حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَفِي بي بلاَ مَواعِيدَ رَبُّهُو في قُدْسِهِ الأعَزِّ ولكِنْ أنَا أَلْقَى متَى وَأَيْنَ أُحِبُّ فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعنت ؟ وكم دونه من الحجّاب والحرّاس ؟ ثم بعد ذلك لَيس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان، ولا الموضوع ولا غيره.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المتخلِّق بأخلاق الله إذا سلَّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده.

وقوله: ﴿ لَيْلاً.

. ﴾ [الإسراء: 1].

سبق أن قُلْنا: إن السُّرى هو السير ليلاً، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلاً، ولكن الحق سبحانه أراد أنْ يؤكد ذلك، فقد يقول قائل: لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً ؟

(228/449)

نقول: حدث الإسراء ليلاً، لتظل المعجزة غَيْباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو ذهب في النهار لرآه الناس في الطريق ذهاباً وعودة، فتكون المسألة ـ إذن ـ حِسيّة مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب.

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال: إن صاحبكم يزعم أنه أُسْرِي به الليلة من مكة إلى بيت المقدس، فمنهم مَنْ قلّب كفَّيْه تعجُّباً، ومنهم مَنْ أنكر، ومنهم مَن ارتد.

أما الصِّدِّيق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدِّق، ومن هذا الموقف سُمِّي الصديق، وقال قولته المشهورة: "إن كان قال فقد صدق".

إذن: عمدته أن يقول رسول الله، وطالما قال فهو صادق، هذه قضية مُسلَّم بها عند الصِّدِّيق رضي الله عنه.

ثم قال: "إنَّا لَنُصدقه في أبعد من هذا، نُصدِّقه في خبر السماء (الوحي)، فكيف لا نُصدِّقه في هذا"؟

إذن: الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحكّاً للإيمان، ومُمحِّصاً ليقين الناس، حين يغربل مَنْ حول رسول الله، ولا يبقى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذي لا يهتز ولا يتزعزع.

لذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ.. ﴾ [الإسراء: 60].

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يكُنْ مناماً، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً، فالمنام لا يُكذِّب به أحد ولا يختلف فيه الناس.

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعني المنامية، ولم يقُلْ "رؤية" يعني البصرية؟

قالوا: لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة.

وورد في الإسراء أحاديث كثيرة تكلَّم فيها العلماء: أكان بالروح والجسد؟ أكان يقظة أم مناماً؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانيء؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء، ونُوضّح ما فيها من تقارب.

(229/449)

فمن حيث: أكان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد؟ فقد أوضحنا وَجْه الصواب فيه، وأنه كان بالروح والجسد جميعاً، فهذا مجال الإعجاز، ولو كان بالروح فقط ما كان عجيباً، وما كذَّبه كفار مكة.

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤيا منام، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان الرؤيا الصادقة، فكان صلى الله عليه وسلم لا يرى رُؤْيا إلا وجاءت كفلَق الصبح، فرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ليست كرؤيانا، بل هي صِدْق لا بُدَّ أن يتحقّق. ومثال ذلك ما حدث، مَنْ إرادة الله له رؤْيا الفتح.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ . . ﴾ [الفتح: 27] .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم صحابته هذا الخبر، فلما ردَّهم الكفار عند الحديبية، فقال الصحابة لرسول الله: ألم تُبشّرنا بدخول المسجد الحرام؟ فقال: ولكن لم أَقُلْ هذا العام.

لذلك يسمون هذه الرُّؤى رؤى الإيناس، وهي أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم الشيء مناماً، حتى إذا ما تحقق لم يُفَاجأ به، وكان له أُنْس به. وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح فلابُدَّ أن هذه الرؤيا ستأتي واقعاً وحقيقة، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل التذكرة بذلك الإيناس.

إذن: مَنْ قال: إن الإسراء كان مناماً نقول له: نعم كان رؤيا إيناس تحققتْ في الواقع، فلدينا رؤى الإيناس أولاً، ورؤى التذكير بالنعمة ثانياً، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثاً، وبذلك نخرج من الخلاف حول: أكان الإسراء يقظة أم مناماً؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كلما اشتدتْ به الأهوال يُريه الله تعالى ما حدث له لِيُبيّن له حفاوة السماء والكون به صلى الله عليه وسلم ؛ ليكون جَلْداً يتحمل ما يلاقي من التعنت والإيذاء .

أما من قال: إن الإسراء كان من بيت أم هانيء ، فهذا أيضاً ليس محلاً للخلاف ؛ لأن بيت أم هانيء كان مُلاصِقاً للمطاف من المسجد الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن: لا داعي لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة ؛ لأن الفعل فِعْل الحق سبحانه وتعالى ، والذي يحكيه لنا هو الحق سبحانه وتعالى ، فلا مجالَ للخلاف فيه .

وقوله تعالى:

﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى . . . ﴾ [الإسراء: 1] .

المسجد الحرام هو بيت الله: الكعبة المشرفة ، وسُمّي حراماً ؛ لأنه حُرّم فيه ما لم يحرُمْ في غيره من المساجد . وكل مكان يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . ﴾ [التوبة: 18] .

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت لله باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خَلْق الله ؛ لذلك كان بيت الله باختيار الله قِبْلة لبيوت الله باختيار خَلْق الله .

وقد يُراد بالمسجد المكان الذي نسجد فيه، أو المكان الذي يصلح للصلاة، كما جاء في الحديث الشريف: ". . وجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً ".

أي: صالحة للصلاة فيها.

ولا بُدَّ أن نفرِّق بين المسجد الذي حُيِّز وخُصِّص كمسجد مستقل، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة، فالعامل يمكن أن يصلي في مصنعه، والفلاح يمكن أن يصلي في مزرعته، فهذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة.

أما المسجد فللصلاة، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير آية، أو بيان حكم، أو تلاوة قرآن.

. إلخ ولا يجوز في المسجد مباشرة عمل من أعمال الدنيا.

" لذلك حينما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد ضالته في المسجد، قال له: " لا ردَّها الله عليك ".

وقال لمن جلس يعقد صفقة في المسجد: " لا بارك الله لك في صفقتك ".

ذلك لأن المسجد خُصِّص للعبادة والطاعة، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل، فإياك

أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفي ما أخذته منك ، وما أنفقته في سبيلها من وقت .

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شيء من منافع الدنيا ، كمَنْ يبني مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودَعْكَ من نيته عندما خَصَّص هذا المكان للصلاة: أكانت نيته لله خالصة؟ أم لمأرب دنيوي؟ وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ [الجن: 18].

فمثل هذا المكان لا يُسمّى مسجداً ؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقدسية المسجد ، وما لا يليق بحُرْمة الصلاة ، فالصلاة في مثل هذا المكان كالصلاة في أي مكان آخر من البيت .

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلِّق فوق مكة ؛ لأن جوَّ الحرم حَرَمٌ .

وقوله تعالى:

﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى . . ﴾ [الإسراء: 1] .

في بُعْد المسافة نقول: هذا قصيّ . أي: بعيد . وهذا أقصى أي: أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصيّ ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمسجد الأقصى: أي: الأبعد، وهو مسجد بيت المقدس.

وقوله سبحانه: ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ.. ﴾ [الإسراء: 1].

البركة: أن يُؤتي الشيءُ من ثمره فوق المأمول منه، وأكثر مما يُظنّ فيه، كأن تُعِد طعاماً لشخصين، فيكفي خمسة أشخاص فتقول: طعام مبارك.

وقول الحق سبحانه:

﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ... ﴾ [الإسراء: 1].

(232/449)

دليل على المبالغة في البركة، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى، فالبركة فيه من باب أَوْلى، كأن تقول: مَنْ يعيشون حول فلان في نعمة، فمعنى ذلك أنه في نعمة أعظم.

لكن بأيّ شيء بارك الله حوله؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية، وبركة دينية:

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خِصْبة عليها الحدائق والبساتين التي تحوي مختلف الثمار، وهذا من عطاء الربوبية الذي يناله المؤمن والكافر.

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين، هذه البركة الدينية تتمثل في أن الأقصى مَهْد الرسالات

ومَهْبط الأنبياء ، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الوحي وتنزلتْ الملائكة .

وقوله: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ . . . ﴾ [الإسراء: 1] .

اللام هنا للتعليل .

كأن مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن نُرِي رسول الله الآيات ، وكلمة: الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول: هذا آية في الحُسْن ، آية في الشجاعة ، فالآية هي الشيء العجيب .

ولله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذي يراه الناس ، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الَّيلُ وَالنَّهَارُ . . ﴾ [فصلت: 37] . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴾ [الشورى: 32] .

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله صلى الله عليه وسلم خصوصية ، وأن يُريه من آيات الغيب الذي لم يَرَهُ أحد ، ليرى صلى الله عليه وسلم حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذي قال له: ﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: 127] .

لأنك في سَعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء في الملأ الأعلى ، وإنْ كنت في ضيق من الخَلْق فأنت في سَعة من الخالق .

وقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1].

أي: الحق سبحانه وتعالى.

(233/449)

السمع: إدراك يدرك الكلام. والبصر: إدراك يدرك الأفعال والمرائي، فلكل منهما ما يتعلق به.

لكن سميع وبصير لمن؟

جاء هذا في ختام آية الإسراء التي بيّنتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم، وكأن معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثتْ فيها أقوال وأفعال من الجانبين.

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى: (سَمِيعٌ) لأقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله، حيث آذاه قومه وكذبوه وألجؤوه إلى الطائف، فكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم في مكة، فعاد مُنكَراً دامياً، وكان من دعائه: " اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك

هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

فالله سميع لقول نبيه صلى الله عليه وسلم. وبصير لفعله.

فقد كان صلى الله عليه وسلم في أشدّ ظروفه حريصاً على دعوته، فقد قابل في طريق عودته من الطائف عبداً، فأعطاه عنقوداً من العنب، وأخذ يحاوره في النبوات ويقول: أنت من بلد نبي الله يونس بن متى.

أو يكون المعنى: سميع لأقوال المشركين، حينما آذوا سَمْع رسول الله وكذَّبوه وتجهَّموا له، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورَمَوْه بالحجارة.

الحق تبارك وتعالى تعرّض لحادث الإسراء في هذه الآية على سبيل الإجمال، فذكر بدايته من المسجد الحرام، ونهايته في المسجد الأقصى، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مُجْملة.

وجاء صلى الله عليه وسلم ففسَّر لنا هذا المجمل، وذكر الآيات التي رآها، فلو لم يذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى من آيات الله لَقُلْنا: وأين هذه الآيات؟ فالقرآن يعطينا اللقطة الملزمة لبيان الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: 17-19].

إذن: كان لا بُدَّ لتكتمل صورة الإسراء في نفوس المؤمنين أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ما قال من أحاديث الإسراء.

لكن يأتي المشكِّكُون وضعَاف الإيمان يبحثون في أحاديث الإسراء عن مأخذ، فيعترضون على المرائي التي رآها رسول الله، وسأل عنها جبريل عليه السلام.

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث في الآخرة، فكيف رآها محمد صلى الله عليه وسلم؟

ونقول لهؤلاء: لقد قصُرَتْ أفهامكم عن إدراك قدرة الله في خَلْق الكون، فالكون لم يُخلَق هكذا، بل خُلِق بتقدير أزلي له، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل:

هَبْ أنك أردتَ بناء بيت، فسوف تذهب إلى المهندس المختص وتطلب منه رَسْماً تفصيلياً له، ولو كنت ميسور الحال تقول له: اعمل لي (ماكيت) للبيت، فيصنع لك نموذجاً مُصغّراً للبيت الذي تريده.

فالحق سبحانه خلق هذا الكون أزلاً، فالأشياء مخلوقة عند الله (كالماكيت)، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدّره.

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82].

انظر: ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ ﴾ كأن الشيء موجود والله تعالى يظهره فحسب، لا يخلقه بداية، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر في عالم الواقع؛ لذلك قال أهل المعرفة: أمور يُبديها ولا يبتديها.

(235/449)

وإن كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة في هذه الآية، فقد ذكر المعراج بالالتزام في سورة النجم، في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم: 13-18].

ففي الإسراء قال تعالى:

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا.. ﴾ [الإسراء: 1].

وفي المعراج قال: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم: 18].

ذلك لأن الإسراء آية أرضية استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من الإلهام أنْ

يُدلِّل على صِدْقه في الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ لأن قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أنْ رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فقالوا له: صِفْه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يَرَهْ ، فتحدَّوْهُ أن يصفه .

والرسول صلى الله عليه وسلم حينما يأتي بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً ؟

إذن: صورته لم تكن واضحة أمام النبي صلى الله عليه وسلم بكل تفاصيلها ، وهنا تدخلتْ قدرة الله فجلاَّه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلوك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن عيراً لهم في الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تصلهم مع شروق الشمس يوم مُعين .

وفعلاً تجمعوا في صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم: ها هي الشمس أشرقتْ . فردَّ الآخر: وها هي العير قد ظهرتْ .

إذن: استطاع صلى الله عليه وسلم أن يُدلِّل على صدق الإسراء ؛ لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلمه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من عِيرهم في الطريق .

أما ما حدث في المعراج، فآيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم الدليل عليها أمام قومه، فأراد الحق سبحانه أنْ يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى، فيصفها له رسول الله؟

إذن: آية الأرض أمكن أنْ يُدلّل عليها، فإذا ما قام عليها الدليل، وثبت للرسول خَرْق نواميس الكون في الزمن والمسافة، فإنْ حدّثكم عن شيء آخر فيه خَرْق للنواميس فصدّقوه، فكأن آية الإسراء جاءت لِتُقرِّب للناس آية المعراج.

فالذي خرق له النواميس في آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النواميس في آيات السماء، فالله تعالى يُقرِّب الغيبيات، التي لا تدركها العقول بالمحسّات التي تدركها.

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة النفقة في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، فأراد الحق سبحانه أنْ يبيّن ذلك ويُقرِّبه للعقول، فقال: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 261].

ومن لُطْف الله سبحانه بعقول خَلْقه أنْ جعل آيات الإسراء بالنصّ الملزم الصريح، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام في سورة النجم؛ لذلك قال العلماء: إن الذي يُكذِّب بالإسراء يكفر

، أما مَنْ يكذِب بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذِب المعراج أيضاً ؛ لأن المعراج وإنْ جاء بالالتزام فقد بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ . . ﴾ [الحشر: 7] .

(237/449)

والمتأمل في الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أثراً ، وهو بيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُؤيّد من الله ، وله معجزات ، وتُخرَق له القوانين والنواميس العامة ؛ ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .

فالمعجزة: أمر خارق للعادة الكونية يُجريه الله على يد رسوله ؛ ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حيث ألقاه قومه في النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل كان المراد نجاة إبراهيم من النار ؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكّنهم من الإمساك به ، ولو أمسكوا فيمكن أنْ يُنزِل الله المطر فيطفيء النار .

إذن: المسألة ليست نجاة إبراهيم، المسألة إثبات خَرْق النواميس لإبراهيم عليه السلام، فشاء الله أنْ تظلَّ النار مشتعلة، وأن يُمسكوا به ويرموه في النار، وتتوفر كل الأسباب لحرقه. عليه السلام.

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين، فمن خواصّ النار الإحراق، وهي خَلْق من خَلْقِ الله، يأتمر بأمره، فأمر اللهُ النارَ ألاَّ تحرق، سلبها هذه الخاصية، فقال تعالى: ﴿ قُلْنَا يانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: 69].

وربما يجد المشكّكون في الإسراء والمعراج ما يُقرّب هذه المعجزة لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدُّم علمي يُقرِب لنا المسافات، فقد تمكَّن الإنسان بسلطان العلم أنْ يغزوَ الفضاء، ويصعد إلى كواكب أخرى في أزمنة قياسية، فإذا كان في مقدور البشر الهبوط على سطح القمر، أتستبعدون الإسراء والمعراج، وهو فِعْل لله سبحانه؟!

وكذلك من الأمور التي وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء والمعراج حادثة شَقّ الصدر التي حكاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمتأمل فيه يجده عملاً طبيعياً لإعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لما هو مُقبِل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف في

طبيعتها عن الطبيعة البشرية .

كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر ، فيقولون لك: البس ملابس كذا . وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد ، وتتأقلم معه ، فما بالك ومحمد صلى الله عليه وسلم سيلتقي بالملائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقي بإخوانه من الأنبياء ، وهم في حال الموت ، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى من ربه عز وجل ؟

إذن: لا غرابة في أنْ يحدث له تغيير ما في تكوينه صلى الله عليه وسلم ليستطيع مباشرة هذه المواقف .

وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقائه بالأنبياء في هذه الرحلة ، قال تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ . . ﴾ [الزخرف: 45] .

والرسول صلى الله عليه وسلم إذا أمره ربّه أمراً نفّذه ، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر: واسأل مَن سبقك من الرسل ؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا في لقاء مباشر ومواجهة ، فإذا حدَّثنا بذلك رسول الله في رحلة الإسراء والمعراج نقول له: صدقت ، ولا يتسلل الشكّ إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة في هذه القضية ـ الإسراء والمعراج ـ دائرة بين يقين المؤمن بصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أنْ يفهم كل قضايا الكون من حولك ؟

فما أكثر الأمور التي وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَهَا ، ومع مرور الزمن وتقدُّم العلوم رآها تتكشّف له تدريجياً ، فما شاء الله أنْ يُظهره لنا من قضايا الكون يسَّر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

(239/449)

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أنْ يتعداها ، وإياك أنْ تظنّ أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهي وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رأيت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغُر تدريجياً حتى يختفي عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أنْ تسمعَ صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قَلَّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئًا .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلُّب على قانون العيْن وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة

وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تُمكِّن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعدها على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إذن: فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حُدِّثْتَ بشيء فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصِّدِّيق أبي بكر رضي الله عنه حينما حدثوه عن صاحبه صلى الله عليه وسلم ، وأنه أُسرِي به من مكة إلى بيت المقدس ، فما كان منه إلا أن قال: " إن كان قال فقد صدق " .

فالحجة عنده إذن قول الرسول ، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق ، ولا مجال لعمل العقل في هذه القضية ، ثم قال "كيف لا أُصدقه في هذا الخبر ، وأنا أصدقه في أكثر من هذا ، أصدقه في خبر الوحي يأتيه من السماء " .

فآية الإسراء -إذن- كانت آية أرضية ، يمكن أنْ يُقام عليها الدليل ، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرِق لمحمد في الإسراء ، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أَدْعى لتصديقه .

والمتأمل في هذه السورة يجدها تسمى سورة الإسراء ، وتسمى سورة بني إسرائيل ، وليس فيها عن الإسراء إلا الآية الأولى فقط ، وأغلبها يتحدث عن بني إسرائيل ، فما الحكمة من ذِكْر بني إسرائيل بعد الإسراء ؟

سبق أن قلنا : إن الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النحل أن رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم كان في ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفِّف عنه ويُسلِّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما أَلِفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رأَوا موسى عليه السلام .

فعندما يأتي محمد صلى الله عليه وسلم ويقول: أنا رسول للناس كافّة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون: إنْ كنتَ رسولاً فعلاً وسلّمنا بذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخْل لك ببني إسرائيل ، فَلَنا رسالتنا وبيت المقدس عَلَم لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت إسرائيل إلى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلةً للمسلمين في بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم إليه: ليدلل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل في مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث في حَوْزة المسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

أخرج ابن جرير عن حذيفة أنه قرأ " سبحان الذي أسرى بعبده من الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى " .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ قال : ﴿ سبحان ﴾ تنزيه الله تعالى ﴿ الذي أسرى ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ من المسجد الحرام ﴾ إلى بيت المقدس ، ثم رده إلى المسجد الحرام . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الأعشى وهو يقول :

قلت له لما علا فخره . . . سبحان من علقمة الفاجر

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه من طريق ثابت ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره

عند منتهى طرفه . . . فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت ركعتين ثم خرجت ، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن فقال جبريل : اخترت الفطرة . ثم عرج بنا إلى سماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بآدم ، فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة ، عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ، فرحّبا بي ودعوا إلي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن ، فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بإدريس

، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها فيها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى إلي ما أوحى وفرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت حتى انتهيت إلى

موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم . فرجعت إلى ربي فقلت : يا رب ، خفف عن أمتي . فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمساً ، فقال : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . قال : فلم أزل أرجع بين ربي وموسى حتى قال : يا محمد ، إنهن خمس صلوات لكل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فقلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير وابن مردويه من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، عن أنس قال : " ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم . فقال أحدهم : خذوا خيرهم . فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى

أتوه ليلة أخرى ، فيما يرى قلبه ، وتنام عيناه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب محشواً إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديده – يعني عروق حلقه – ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب باباً من أبوابها فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحباً به وأهلاً . ووجد في السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلم عليه ورد عليه آدم وقال : مرحباً وأهلاً يابني . . . نعم الإبن أنت . فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ما هذان النهرين يا جبريل ؟ قال : هذا النيل والفرات عنصرهما . ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك .

ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحبا به وأهلاً .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى الخامسة فقالوا مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السادسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السابعة فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم ، منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة ولم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله ، فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما يوحي إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ، ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلي ، خمسين صلاة كل يوم وليلة . قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، ارجع فليخفف عنك ربك وعنهم . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يستشيره فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار تبارك وتعالى فقال وهو مكانه : يا رب ، خفف عنا . . . ؛ فإن أمتي لا تستطيع ذلك . فوضع عنه عشر صلوات . ثم رجع إلى موسى واحتبسه ، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا

محمد ، والله لقد راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه ، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك . يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل ، فرفعه عند الخامسة فقال : يا رب ، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم ، فخفف عنا . فقال الجبار : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك . قال : إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب ، وكل حسنة بعشر أمثالها . فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها . فقال موسى

: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، ارجع إلى ربك فليخفف عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا موسى ، قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه . قال : فاهبط بسم الله . واستيقظ وهو في المسجد الحرام " .

وأخرج النسائي وابن مردويه من طريق يزيد بن أبي مالك ، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتيت ليلة أسرى بي بدابة فوق الحمار ودون البغل

، خطوها عند منتهى طرفها . . . كانت تسخّر للأنبياء قبلي ، فركبته معي جبريل فسرت ، فقال : انْزِلْ فَصَلّ . ففعلت . . . فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بطيبة وإليها المهاجر إن شاء الله . ثم قال : انزل فصَلِّ . ففعلت فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى ، ثم قال : انزل فَصَلِّ . فصليت فقال أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى . ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام ، فقدّمني جبريل فصليت بهم .

ثم صعد بي إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم فقال لي : سلم عليه فقال : مرحباً يابني والنبي الصالح .

ثم صعد بي إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى ، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها يوسف . ثم صعد بي إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها هارون . ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس . ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى ، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم ، ثم صعد بي إلى فوق السبع سموات ، وأتيت سدرة المنتهى فغشيتني ضبابة . . . فخررت ساجداً ، فقيل لي :

إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فقم بها أنت وأمتك ، فمررت على إبراهيم فلم يسألني شيئاً ، ثم مررت على موسى فقال لي : كم فرض عليك وعلى أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . قال : إنك لن تستطيع أن تقوم بها أنت ولا أمتك ، فاسأل ربك التخفيف . فرجعت فأتيت سدرة المنتهى فخررت ساجداً . . . فقلت : يا رب ، فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة ، فلن أستطيع أن أقوم بها أنا ولا أمتي . . . فخفف عني عشراً . فمررت على موسى فسألني فقلت : خفف عني عشراً . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فخفف عني عشراً ثم عشراً حتى قال : هن خمس بخمسين ، فقم بها أنت وأمتك . فعلمت أنها من الله صرى . فمررت على موسى فقال لي : كم فرض عليك ؟ فقلت : خمس صلوات ، فقال : فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما ، فقلت : إنها من الله فلم أرجع " .

(248/449)

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر ، عن يزيد بن أبي مالك ، عن أنس رضي الله عنه قال : " لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتاه جبريل عليه السلام بدابة فوق الحمار ودون البغل . حمله جبريل عليها ينتهي خفها حيث ينتهي طرفها فلما بلغ بيت

المقدس أتى إلى الحجر الذي ثمة ، فغمزه جبريل عليه السلام بإصبعه فثقبه ، ثم ربطها ثم صعد . . . فلما استويا في صرحة المسجد قال جبريل : يا محمد ، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ قال : نعم . قال : فانطلق إلى أولئك النسوة فسلّم عليهن ، وهن جلوس عن يسار الصخرة . فأتيتهن فسلَّمت عليهن فرددن عليَّ السلام ، فقلت : من أنتن ؟ فقلن : خيرات حسان . . . نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا . ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير ، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة ، فقمنا صفوفاً فانتظرنا من يؤمنا ، فأخذ جبريل بيدي فقدّمني . . . فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل : يا محمد ، أتدري من صلَّى خلفك ؟ قلت : لا . قال : صلى خلفك كل نبي بعثه الله . ثم أخذ بيدي فصعد بي إلى السماء ، فلما انتهينا إلى الباب استفتح ، قالوا : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . ففتحوا له وقالوا : مرحباً بك وبمن معك . فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم . فقال لي جبريل : ألا تسلِّم على أبيك آدم ؟ قلت : بلى . . . فأتيته فسلمت عليه ، فردّ عليّ وقال لي : مرحباً بابني والنبي الصالح . ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح فقالوا له مثل ذلك ، فإذا فيها عيسى ويحيى . ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ، فقالوا له مثل ذلك ، فإذا فيها يوسف . ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح ،

فقالوا له مثل ذلك ، فإذا فيها إدريس . ثم عرج بي إلى السماء الخامسة فاستفتح ، فقالوا له مثل ذلك ، فإذا فيها هارون . ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح ، فقالوا له

مثل ذلك ، فإذا فيها موسى . ثم عرج بي إلى السماء السابعة فاستفتح ، فقالوا له مثل ذلك ، فإذا فيها إبراهيم . ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد ، وعليه طير خضر أنعم طير رأيت . فقلت : يا جبريل ، إن هذا الطير لناعم . قال : يا محمد ، آكله انعم منه . ثم قال : اتدري أي نهر هذا ؟ قلت : لا . قال : الكوثر الذي أعطاك الله إياه ، فإذا فيه آنية الذهب والفضة تجري على رضراض من الياقوت والزمرّد ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، فأخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك .

ثم انطلق بي حتى انتهى إلى الشجرة ، فغشيتني سحابة فيها من كل لون ، فرفضني جبريل وخررت ساجداً لله . فقال الله لي : يا محمد ، إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فقم بها أنت وأمتك . ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريل فانصرفت سريعاً ، فأتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً ، ثم أتيت على موسى فقال : ما صنعت يا محمد ؟ قلت : فرض عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة . قال : فلن تستطيع أنت ولا أمتك . فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك . فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة ، فغشيتني السحابة وخررت ساجداً وقلت : ربي ، خفف عنّا . قال : قد وضعت عنكم عشراً . ثم انجلت عني السحابة ، فرجعت إلى موسى فقلت : وضع عني عشراً . قال : ارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم . فوضع عشراً إلى أن قال : هن خمس بخمسين ، ثم انحدر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : ما لي لم آت على أهل سماء إلا رحبوا بي وضحكوا إلي ، غير رجل واحد سلمت عليه فرد علي السلام ورحب بي ولم يضحك إلي ؟ ! قال : ذاك مالك خازن النار ، لم يضحك منذ خلق ولو ضحك لأحد لضحك إليك . قال : ثم ركبت منصرفاً ، فبينما هو في بعض طريقه مرّ بعير من قريش تحمل طعاماً منها جمل عليه غرارتان ، غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان ، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر رضي الله عنه فقالوا : يا أبا

بكر ، هل لك في صاحبك ؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع من ليلته . . . !

فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن كان قاله فقد صدق ، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، نصدقه على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما علامة ما تقول ؟ قال : مررت بعير لقريش وهي في مكان كذا وكذا ، فنفرت العير منا واستدارت . . . وفيها بعير عليه غرارتان : غرارة بيضاء ، وغرارة سوداء . فصرع فانكسر ،

(251/449)

فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك سمي أبو بكر (الصديق) وسألوه : هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى ؟ قال : نعم . قالوا : فصفهما . قال : أما موسى ، فرجل آدم كأنه من رجال ازد عمان . وأما عيسى ، فرجل ربعة سبط ، تعلوه حمرة كأنه يتحادر من لحيته الجمان " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة ، عن أنس رضي الله عنه قال : " لما جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق ، فكأنها هزت أذنيها فقال جبريل : يا براق ، فوالله ما ركبك مثله . وسار

رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو بعجوز على جانب الطريق ، فقال : ما هذه يا جبريل ؟ قال : سر يا محمد . فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق يقول : هلم يا محمد ، فقال له جبريل : سر يا محمد . فسار ما شاء الله أن يسير فلقيه خلق من خلق الله فقالوا : السلام عليك يا أول . . . السلام عليك يا آخر . . . السلام عليك يا حاشر . فقال له جبريل عليه السلام : اردد السلام . فرد السلام ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، فتناول رسول الله اللبن . فقال له جبريل عليه السلام : أصبت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغوت أمتك ، ثم بعث له آدم عليه السلام فمن دونه من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، ثم قال جبريل : أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق ، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز ، وأما الذي أراد أن تميل إليه ، فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه . وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى " .

وأخرج ابن مردويه من طريق كثير بن خنيس ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما أنا مضطجع في المسجد ليلة نائماً ، إذ رأيت ثلاثة نفر أقبلوا نحوي ، فقال الأول : هو . . . هو . قال الأوسط : نعم . قال الآخر : خذوا سيد القوم ، فرجعوا عني ، ثم رأيتهم الليلة الثانية ، فقال الأول : هو . . . هو . قال الأوسط : نعم . قال الآخر : خذوا سيد القوم ، فرجعوا عني حتى إذا كانت الليلة الثالثة رأيتهم ، فقال الأول هو هو . وقال الأوسط : نعم . وقال الآخر : خذوا سيد القوم ، حتى جاؤوا بي زمزم فاستلقوني على ظهري ثم غسلوا حشوة بطني ، ثم قال بعضهم لبعض : أنقوا . ثم أتى بطست من ذهب مملوءة حكمة وإيماناً ، فأفرغ في جوفي . ثم عرج بي إلى السماء فاستفتح فقالوا : من هذا ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد . قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . ففتح . . . فإذا آدم إذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى . قلت : يا جبريل ، من هذا . . . ! ؟ قال : هذا أبوك آدم ، إذا نظر عن يمينه رأى من في الجنة من ذريته ضحك ، وإذا نظر عن يساره رأى من في النار من ذريته بكى " .

ثم قال أنس بن مالك : يا ابن أخي إنه يطول علي الحديث . " ثم عرج بي حتى جاء السماء السادسة فاستفتح . . . فقال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : ومن معك ؟ قال : محمد . قال : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . ففتح فإذا موسى . ثم عرج بي إلى السماء السابعة فاستفتح . . . قيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قال : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . ففتح فإذا إبراهيم ، قال مرحباً بالابن والرسول . ثم مضى حتى جاء الجنة فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قال : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . ففتح الباب . قال : فدخلت الجنة فأُعْطِيتُ الكوثر ، فإذا نهر في الجنة عضادتاه بيوت مجوفة من لؤلؤ ، ثم مضى حتى جاء سدرة المنتهى ﴿ فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم : 9] ففرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة ، فرجعت حتى أمر موسى فقال : كم فرض عليك وعلى أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . قال : فارجع إلى ربك فاسأله يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت إليه فوضع عني عشراً ، فمررت على موسى فقال : كم فرض عليك وعلى أمتك ؟ فقلت : أربعين صلاة . قال : فارجع إلى ربك فاسأله يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت إليه فوضع عني عشراً ، فمررت على موسى فقال : كم فرض عليك وعلى أمتك ؟ قلت : ثلاثين صلاة . قال : فارجع إلى ربك فاسأله يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت إليه فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال : كم فرض عليك وعلى

أمتك ؟ قلت : عشرين صلاة . قال : فارجع إلى ربك فاسأله يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت فوضع عني عشراً ، ثم مررت على موسى فقال : كم فرض عليك وعلى أمتك ؟ قلت : عشر صلوات . قال : فارجع إلى ربك فاسأله يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت فوضع عني خمساً . ثم قال : إنه لا يبدل قولي ولا ينسخ كتابي ، تخفيفها عنكم كتخفيف خمس صلوات ، وإنها لكم كأجر خمسين صلاة . فمررت على موسى فقال : كم فرض عليك وعلى أمتك ؟ قلت : خمس صلوات . قال : فارجع إلى ربك فاسأله يخفف عنك

وعن أمتك . فإن بني إسرائيل قد أُمِرُوا بأيسر من هذا فلم يطيقوه . قال : لقد رجعت إلى ربي حتى إني لأستحي منه " .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وصححه ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : " قلنا يا رسول الله ، كيف أسري بك ؟ فقال : صليت

بأصحابي العتمة بمكة معتماً ، فأتاني جبريل بدابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل وقال : اركب ، فاستصعبت علي فأدارها بأذنها ثم حملني عليها ، فانطلقت تهوي بنا . . . يقع حافرها حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل ، فقال : انزل . فنزلت فقال : صَلِّ . فصليت ، ثم ركبنا فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم . قال : صليت بيثرب . . . صليت بطيبة ، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ، ثم بلغنا أرضاً فقال : انزل . فنزلت . فقال : صلِّ فصليت ، ثم ركبنا فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم . قال : صليت بمدين ، صليت عند شجرة موسى ، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصورها ، فقال : انزل فنزلت ، ثم قال : صَلِّ فصليت ، ثم ركبنا فقال : أتدري أين صليت ؟ فقلت : الله أعلم . فقال : صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم ، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني ، فأتى قبلة المسجد فربط فيه الدابة ، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر فصليت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذني من العطش أشد ما أخذني فأُتيتُ بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل ، أُرْسِلَ إلي بهما جميعاً فعدلت بينهما ، فهداني الله فأخذت اللبن فشربت حتى فرغت منه ، وكان إلى جانبي شيخ متكئ على منبره فقال : أخذ صاحبك الفطرة وإنه لمهدي . ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي في المدينة ، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي فقلنا : يا رسول الله ، كيف وجدتها ؟

قال : مثل الحمة السخنة . ثم انصرف بي فمررنا بعير قريش بمكان كذا وكذا ، وقد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان ، فسلّمت عليهم فقال بعضهم : هذا صوت محمد ، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة فأتاني أبو بكر

فقال : يا رسول الله ، أين كنت الليلة ؟ قد التمستك في مكانك . فقلت : أعلمت أني أتيت بيت المقدس الليلة ؟ فقال : يا رسول الله ، إنه مسيرة شهر فصفه لي . قال : ففتح لي صراط كأني أنظر إليه ، لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم عنه . فقال أبو بكر رضي الله عنه : أشهد أنك رسول الله . وقال المشركون : انظروا إلى ابن أبي كبشة ، زعم أنه أتى بيت المقدس الليلة فقال : إن من آية ما أقول لكم : أني مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا وقد أضلوا بعير لهم فجمعه فلان ، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا ، ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه شيخ أسود وغرارتان سوداوان ، فلما كان ذلك اليوم أشرف القوم ينظرون حتى كان قريباً من نصف النهار قدمت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه من طريق قتادة رضي الله عنه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن مالك بن صعصعة حدثه أن رسول الله حدثهم عن ليلة أسري به قال: " بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة رضي الله عنه - في الحجر مضطجعاً، إذ أتاني آت فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة، فأتاني فشق ما بين هذه إلى هذه - يعني من ثغر نحره إلى شعرته - فاستخرج قلبي، فأوتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبي بماء زمزم ثم حشى ثم أعيد مكانه. ثم أوتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار يقال له البراق، يقع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى بي السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم فقلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم عليه السلام، فسلم عليه. فسلمت عليه فرد علي السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً ولنعم المجيء جاء. ففتح لنا فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة فقلت: يا جبريل، من هذان؟ قال: هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما،

فسلمت عليهما فردا السلام ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد حتى أتى إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء . ففتح لنا فلما خلصت إذا يوسف فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد حتى أتى إلى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن

معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء . ففتح لنا فلما خلصت إذا إدريس فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء . فلما خلصت إذا هارون فسلمت عليه فرد عليّ السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى إلى السماء السادسة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء . ففتح لنا فلما خلصت إذا أنا بموسى فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى . قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بُعِثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي . ثم صعد حتى أتى إلى السماء السابعة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء . ففتح لنا فلما خلصت إذا إبراهيم ، قلت : من هذا يا جبريل قال : هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح . ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة وإذا أربعة أنهار يخرجن من أصلها : نهران باطنان : ونهران ظاهران ، فقلت : يا جبريل ، ما هذه الأنهار . . . ! ؟ فقال : أما الباطنان ، فنهران في الجنة . وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع إليَّ البيت المعمور قلت : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه ، آخر ما عليهم . ثم أُتِيتُ بإناءين أحدهما خمر والآخر لبن ، فعرضا

عليّ فقيل : خذ أيهما شئت فأخذت اللبن فقيل لي : أصبت الفطرة ، أنت عليها وأمتك .
ثم فرضت عليَّ الصلاة خمسون صلاة كل يوم ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة كل يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فرجعت إلى ربي فحط عني خمساً ، فأقبلت حتى أتيت على موسى فأنبأته بما حط فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك . قال : فما زلت بين موسى وبين ربي يحط عني خمساً خمساً حتى أقبلت بخمس صلوات ، فأتيت على موسى فقال : بم أمرت ؟ قلت : بخمس صلوات كل يوم . قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك . . . إني قد بلوت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فقلت : لقد رجعت إلى ربي حتى لقد استحيت ، ولكني أرضى وأسلم فنوديت أن يا محمد ، إني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي الحسنة بعشر أمثالها " .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وابن مردويه من طريق يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس رضي الله عنه قال : كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله قال : " فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بما زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء ، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل عليه السلام لخازن السماء : افتح . قال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد . قال : أرسل إليه ؟ قال : نعم . ففتح ، فلما علونا السماء الدنيا إذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، فإذا نظر قبل يمينه تبسم وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة . والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى ، ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها افتح . فقال له خازنها مثل ما قال الأول ، ففتح " .

قال أنس رضي الله عنه : فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ، ولم يثبت كيف منازلهم .

قال ابن شهاب : وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام "

قال ابن حزم وأنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ففرض الله على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة

قال : فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال : راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك

فراجعت ربي فقال : هي خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي فرجعت إلى موسى فقال : ارجع إلى ربك

قلت : قد استحيت من ربي

ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيتها ألوان لا أدري ما هي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها مسك "

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله بالمدينة عن ليلة أسري به من مكة إلى المسجد الأقصى قال : " بينا أنا نائم عشاء بالمسجد الحرام إذ أتاني آت فأيقظني

فاستيقظت فلم أر شيئًا وإذا أنا بكهيئة خيال فأتبعه بصري حتى خرجت من المسجد

فإذا أنا بدابة أدنى شبهة بدوابكم هذه بغالكم غير أن مضطرب الأذنين يقال له البراق

وكانت الأنبياء تركبه قبلي

يقع حافره عند مد بصره فركبته فبينا أنا أسير عليه إذ دعاني داع عن يميني : يا محمد

انظرني أسألك

فلم أجبه ثم دعاني داع عن شمالي يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه فبينا أنا سائر إذا بامرأة

حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله فقالت : يا محمد أنظرني أسألك

فلما ألتفت إليها حتى أتيت بيت المقدس فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء عليهم

السلام توثقها بها ثم أتاني جبريل عليه السلام بإناءين أحدهما خمر والآخر لبن فشربت اللبن

وتركت الخمر فقال جبريل : أصبت الفطرة أما أنك لو أخذت الخمر غوت أمتك

فقلت : الله أكبر

الله أكبر

فقال جبريل : ما رأيت في وجهك هذا ؟ قلت : بينا أنا اسير إذ دعاني داع عن يميني : يا

محمد أنظرني أسألك فلم أجبه

قال : ذاك داعي اليهود أما لو أنك لو أجبته لتهودت أمتك

قلت : وبينا أنا أسير إذ دعاني داع عن يساري : يا محمد أنظرني أسألك فلم أجبه

قال : ذاك داعي النصارى أما أنك لو أجبته لتنصرت أمتك فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة تقول : يا محمد أنظرني أسألك فلم أجبها

قال : تلك الدنيا أما أنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة

(262/449)

ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم فلم تر الخلائق أحسن من المعراج

! أما رأيت الميت حين رمى بصره طامحا إلى السماء عجبه المعراج

؟ فصعدت أنا وجبريل فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف

فاستفتح جبريل باب السماء قيل : من هذا ؟ قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟ قال : محمد

قيل : قد بعث إليه ؟ قال : نعم فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته لم يتغير منه شيء وإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين

ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين

فقلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أبوك آدم فسلم علي ورحب بي فقال : مرحبا بالابن الصالح

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها

قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام

وفي لفظ : فإذا أنا بقوم على مائدة عليها لحم مشوي كأحسن ما رأيت من اللحم وإذا حوله جيف فجعلوا يقبلون على الجيف يأكلون منها ويدعون اللحم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الزناة

عمدوا إلى ما حرم الله عليهم وتركوا ما أحل الله لهم ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بقوم بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة وهم على سابلة آل فرعون فتجيء السابلة فتطؤهم فسمعتهم يضجون إلى الله قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل قد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخرا من نار ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يضجون إلى الله

قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بنساء يعلقن بثديهن ونساء منكسات بأرجلهن فسمعتهن يضججن إلى الله قلت يا جبريل من هؤلاء النساء ؟ قال : هؤلاء اللاتي يزنين ويقتلن أولادهن ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم ثم يدس في أفواههم ويقول : كلوا مما أكلتم فإذا أكره ما خلق الله لهم ذلك قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون الذين يأكلون لحوم الناس

ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ! قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي ورحب بي

ثم صعدنا إلى السماء الثالثة فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى ومعهما نفر من قومهما شبيه أحدهما بصاحبه ثيابهما وشعرهما فسلمت عليهما وسلما علي ورحبا بي

ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بإدريس قد رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه وسلم علي ورحب بي

ثم صعدنا إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد

لحيته تصيب سرته من طولها قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا المحبب في قومه هذا هرون بن عمران ومعه نفر كثير من قومه فسلمت عليه وسلم علي ورحب بي

ثم صعدنا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى رجل آدم كثير الشعر لو كان عليه قميصان خرج شعره منهما وإذا هو يقول : يزعم الناس أني أكرم الخلق على الله وهذا أكرم على الله مني ولو كان وحده لم أبال ولكن كل نبي ومن تبعه من أمته

قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي ورحب بي

ثم صعدنا إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم وإذا هو جالس مسند ظهره إلى البيت المعمور ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي وقال : مرحبا بالابن الصالح فقيل لي : هذا مكانك ومكان أمتك ثم تلا إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين آل عمران آية 68 وإذا بأمتي شطرين : شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد

ثم دخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين

عليهم ثياب رمد وهم على خير

فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور ثم خرجت أنا ومن معي قال : والبيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون فيه إلى يوم القيامة

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا كل ورقة منها تكاد تغطي هذه الأمة وغذا في أصلها عين تجري يقال لها سلسبيل فيشق منها نهران فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ فقال : أما هذه فهو نهر الرحمة وأما هذا فهو نهر الكوثر الذي أعطاكه الله

فاغتسلت في نهر الرحمة فغفر لي من ذنبي ما تقدم وما تأخر ثم أخذت على الكوثر حتى دخلت الجنة فإذا فيها ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وإذا أنا بأنهار من ماء غير آسن وأنها من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى

وإذا فيها رمان كأنه جلود الإبل المقتبة وإذا فيها طير كأنها البخت

قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله إن تلك الطير لناعمة ؟ قال : آكلها أنعم منها يا أبا بكر وإني لأرجو أن تأكل منها

قال : ورأيت فيها جارية لعساء فسألتها لمن أنت ؟ فقالت : لزيد بن حارثة

فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا

ثم عرضت علي النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ولو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها ثم غلقت دوني

ثم إني رفعت إلى سدرة المنتهى فتغشاها فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة ثم إن الله أمرني بأمره وفرض علي خمسين صلاة وقال : لك بكل حسنة عشر وإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة فإذا عملتها كتبت لك عشرا وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء فإن عملتها كتبت عليك سيئة

ثم دفعت إلى موسى فقال : بم أمرك ربك ؟ قلت : بخمسين صلاة

قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا يطيقون ذلك

فرجعت إلى ربي فقلت : يا رب خفف عن أمتي فإنها أضعف الأمم

فوضع عني عشرا

فما زلت أختلف بين موسى وبين ربي حتى جعلها خمسا فناداني ملك : عندها تمت فريضتي وخففت عن عبادي فأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها

ثم رجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ قلت : بخمس صلوات : قال : ارجع إلى ربك

فاسأله التخفيف لأمتك

قلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييته

ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب : إني رأيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء ثم رأيت كذا وكذا فقال أبو جهل : ألا تعجبون مما يقول محمد ؟ قال : فأخبرته بعير لقريش لما كانت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا وإنها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرتهم بكل رجل وبعيره كذا ومتاعه كذا

فقال رجل : أنا أعلم الناس ببيت المقدس

فكيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ فرفع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس فنظر إليه فقال : بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا

فقال : صدقت "

(266/449)

وأخرج البزار وأبو يعلى وابن جرير ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا من

حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ومعه ميكائيل ، فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام : ائتني بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح صدره .

فشق عن بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل عليه السلام بثلاث طساس من ماء زمزم ، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غلّ وملأه حلماً وعلماً وإيماناً ويقيناً وإسلاماً ، وختم بين كتفيه بخاتم النبوّة ، ثم أتاه بفرس فحمل عليه . . . كل خطوة منه منتهى بصره . فسار وسار معه جبريل ، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم . . . كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ، ما هذا . . ! ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه . ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين تثاقل رؤوسهم عن الصلاة ثم أتى على قوم على اقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع . . . يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء

يا جبريل . . . ! ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئاً ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم آخر نيء خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويتركون النضيج الطيب . قلت : ما هؤلاء يا جبريل ! ؟ قال : هذا الرجل من أمتك . . . تكون عنده المرأة الحلال فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً تبيت معه حتى تصبح ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته ، قال : ما هذا يا جبريل . . . ! ! ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك . . . يقعدون على الطريق فيقطعونه . ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم بمقاريض من نار . . . كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك

شيء ، قال : ما هؤلاء يا جبريل . . . ! ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة . ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع . قال :

ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها . ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة وريح مسك ، وسمع صوتاً فقال : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هذا صوت الجنة . . . تقول : يا رب ، ائتني بما وعدتني فقد كثرت غرفي واستبرقي وحريري وسندسي وعبقري ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي ولبني وخمري ، فائتني ما وعدتني ، فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة .

قالت : رضيت . ثم أتى على وادٍ فسمع شكوى ووجد ريحاً منتنة فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم ، تقول : رب ائتني بما وعدتني ، فلقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وضريعي وغساقي وعذابي ، وقد بعد قعري واشتد حري فائتني ما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت : قد رضيت . ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى صخرة ، ثم دخل فصلى مع الملائكة عليهم السلام . . . فلما قضيت الصلاة قالوا : يا جبريل ، من هذا معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم . قالوا : وقد

بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. ثم لقي أرواح الأنبياء عليهم السلام فأثنوا على ربهم، فقال إبراهيم عليه السلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً وأعطاني ملكاً عظيماً وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار وجعلها عليّ برداً وسلاماً. ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي ﴿ قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف: 159] ثم إن داود عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملك عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن والطير، وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب. ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين يعملون ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل ملكي ملكاً طيباً، ليس فيه حساب، ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعلني

كلمته وجعل مثلي مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل . ثم إن محمد صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه عز وجل فقال : "كلكم أثنى على ربه وإني مثن على ربي" فقال : " الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل علي الفرقان فيه تبيان لكل شيء ، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتي أمة وسطاً ، وجعل أمتي هم الأولون والآخرون ، وشرح لي صدري ، ووضع عني وزري ، ورفع لي ذكري ، وجعلني فاتحاً وخاتماً " .

فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم . ثم : أتي بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها ، فأتي بإناء منها فيه ماء ، فقيل : اشرب ، فشرب منه يسيراً ، ثم رفع إليه إناء آخر فيه لبن ، فقيل : اشرب ، فشرب منه حتى روي ، ثم رفع إليه إناء آخر فيه خمر ،

فقيل له : اشرب ، فقال : لا أريده قد رويت . فقال له جبريل : – عليه السلام – أما إنها ستحرم على أمتك ، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل . ثم صعدوا بي إلى السماء فاستفتح ، فقيل : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فدخل فإذا هو برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء ، كما ينقص من خلق الناس ، على يمينه باب يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة ، إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه فرح وضحك ، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى وحزن ، فقلت يا جبريل ، من هذا ؟ قال : هذا أبوك آدم ، وهذا الباب الذي بيمينه باب الجنة ، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذي عن شماله باب جهنم ، إذا نظر من يدخله بكى وحزن . ثم صعد بي جبريل عليه السلام إلى السماء الثانية ، فاستفتح قيل : من هذا معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ وخليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فإذا هو بشابين ، قال : يا جبريل ، من هذان ؟ قال : عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فصعد به إلى السماء الثالثة ، فاستفتح ، فقالوا : من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة

ونعم المجيء جاء ، فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال :

هذا أخوك يوسف عليه السلام ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فدخل فإذا هو برجل ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا إدريس رفعه الله مكاناً علياً . ثم صعد إلى السماء الخامسة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحباً به حياه الله من أخ وخليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم ، قال : من هذا يا جبريل ومن هؤلاء حوله ؟ قال : هذا هرون المحبب وهؤلاء بنو إسرائيل .

ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح فقيل له : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ وخليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فإذا هو برجل جالس فجاوزه فبكى الرجل قال : يا جبريل من هذا ؟ قال : موسى ، قال : فما له يبكي ؟ قال : زعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله ، وهذا رجل من بني آدم قد خلفني في دنيا وأنا في أخرى فلو أنه بنفسه لم أبال ، ولكن مع كل نبي أمته . ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ وخليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم في ألوانهم شيء ، فقام هؤلاء الذين في ألوانها شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص ولم يكن في أبدانهم شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم ، فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : يا جبريل ، من هذا الأشمط ، ومن هؤلاء بيض الوجوه ، ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء ، وما هذه الأنهار التي دخلوا ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض . وأما هؤلاء البيض الوجوه ، فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء ، فقوم خلطوا

عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما الأنهار ، فأولها رحمة الله ، والثاني نعمة الله ، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً . ثم انتهى إلى السدرة ، قيل له هذه السدرة ينتهي إليها كل واحد خلا من أمتك على نسك ، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من

خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها ، والورقة منها مغطية للأمة كلها ، فغشيها نور الخلاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة عليهم السلام أمثال الغربان حين تقع على الشجرة . فكلمه الله تعالى عند ذلك فقال له : سل ، فقال : اتخذت إبراهيم خليلاً ، وأعطيته ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى تكليماً ، وأعطيت داود ملكاً عظيماً ، وألنت له الحديد وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك وأَعَذْتَهُ وأمّه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل .

فقال له ربه عز وجل : وقد اتخذتك خليلاً ، وهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمن ، وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك . ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معي ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقاً ، وآخرهم بعثاً ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلتك فاتحاً وخاتماً . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فضلني ربي وأرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وألقى في قلب عدوي الرعب من مسيرة شهر ، وأحل لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً ، وأعطيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعرضت علي أمتي فلم يخف علي التابع والمتبوع ، ورأيتهم أتوا على قوم ينتعلون الشعر ، ورأيتهم أتوا على قوم عراض الوجوه صغار الأعين ، كأنما خرمت

أعينهم بالمخيط ، فلم يخف عليّ ما هم لاقون من بعدي ، وأمرت بخمسين صلاة ، فلما رجع إلى موسى عليه السلام قال : بم أمرت ؟ قال : بخمسين صلاة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك أضعف الأمم ، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة ، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه فسأله التخفيف ، فوضع عنه عشراً ، ثم رجع إلى موسى فقال : بكم أمرت ؟ قال : بأربعين : قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فرجع فوضع عنه عشراً ، إلى أن جعلها خمساً ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، قال : قد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه ، فما أنا براجع إليه . قيل له : أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات ، فإنهن يجزين عنك

خمسين صلاة ، وإن كل حسنة بعشر أمثالها ، " فرضي محمد صلى الله عليه وسلم كل الرضا . قال : وكان موسى عليه السلام من أشدهم عليه حين مر به ، وخيرهم له حين رجع إليه .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أخيه عيسى ، عن أبيه عبد الرحمن ، عن أبيه أبي ليلى : أن جبريل عليه السلام أتى النبي

صلى الله عليه وسلم بالبراق فحمله بين يديه ، ثم جعل يسير به فإذا بلغ مكاناً مطأطئاً طالت يداه وقصرت رجلاه حتى يستوي به ، وإذا بلغ مكاناً مرتفعاً قصرت يداه وطالت رجلاه حتى يستوي به ثم عرض له رجل عن يمين الطريق ، فجعل يناديه يا محمد ، إلى الطريق ، مرتين ، فقال له جبريل عليه السلام : امض ولا تكلم أحداً ، ثم عرض له رجل عن يسار الطريق ، فقال له إلى الطريق يا محمد ، فقال له جبريل عليه السلام : امض ولا تكلم أحداً ، ثم عرضت له امرأة حسناء جميلة ، ثم قال له جبريل السلام : تدري من الرجل الذي دعاك عن يمين الطريق ؟ قال : لا ، قال : تلك اليهود دعتك إلى دينهم .

ثم قال : تدري من الرجل الذي دعاك عن يسار الطريق ؟ قال : لا ، قال : تلك النصارى ، دعتك إلى دينهم . ثم قال : تدري من المرأة الحسناء الجميلة ؟ قال : لا ، قال : تلك الدنيا تدعوك إلى نفسها ، ثم انطلقا حتى أتيا بيت المقدس ، فإذا هم بنفر جلوس ، فقالوا مرحباً بالنبي الأمي ، وإذا في النفر شيخ ، قال : ومن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم ، وهذا موسى ، وهذا عيسى ، ثم أقيمت الصلاة ، فتدافعوا . حتى قدموا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم أتوا بأشربة ، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم اللبن ، فقال له جبريل

عليه السلام أصبت الفطرة ، ثم قيل له : قم إلى ربك ، فقام فدخل ، ثم جاء فقيل له : ماذا صنعت ؟ قال : " فرضت على أمتي خمسون صلاة " فقال له موسى عليه السلام : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق هذا ، فرجع ثم جاء فقال له موسى عليه السلام : ماذا صنعت ؟ فقال : " ردها إلى خمس وعشرين صلاة " فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فرجع ثم جاء فقال : ردها إلى اثنتي عشرة ، فقال موسى عليه السلام : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فرجع ثم جاء فقال : " ردها إلى خمس " فقال موسى عليه السلام : ارجع فاسأله التخفيف قال : " قد استحيت من ربي فما أراجعه وقد قال لي ربي أن لك بكل ردة رددتها مسألة أَعْطَيْتُكَهَا " .

(278/449)

وأخرج ابن عرفة في جزئه المشهور وأبو نعيم في الدلائل وابن عساكر في تاريخه من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل عليه السلام بدابة دون البغل وفوق الحمار ، فحملني عليه ثم انطلق يهوي بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه ، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه ، حتى مررنا برجل طِوَال سِبْط آدم كأنه من رجال شنوأة ، وهو يقول : ويرفع صوته أكرمته

وفضلته ، فدفعنا إليه فسلمنا ، فرد السلام ، فقال : " من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا أحمد قال : مرحباً بالنبي الأمي العربي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، ثم اندفعنا ، فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، قلت : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ، قلت : ويرفع صوته على ربه ؟ ! قال : إن الله قد عرف له حديثه ، ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السراج تحتها شيخ وعياله ، فقال لي جبريل عليه السلام : اعمد إلى أبيك إبراهيم ، فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام ، فقال إبراهيم : من معك يا جبريل ؟ قال : هذا ابنك أحمد ، فقال : مرحباً بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، يا بني ، إنك لاق ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها في أمتك فافعل ، ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى ، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء عليهم السلام تربط بها ، ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد ، ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن ، فأخذت اللبن فشربت ، فضرب جبريل عليه السلام منكبي ، وقال أصبت الفطرة ، ثم أقيمت الصلاة فأممتهم ثم انصرفنا فأقبلنا " .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة والبزار والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل وابن عساكر من طريق علقمة رضي الله عنه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتيت بالبراق فركبته إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه ، فسار بنا في أرض غمة منتنة ، ثم أفضينا إلى أرض فيحاء طيبة ، فسألت جبريل عليه السلام ؟ قال : تلك أرض النار وهذه أرض الجنة ، فأتيت على رجل قائم يصلي ، فقلت : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا أخوك عيسى عليه السلام فسرنا ، فسمعنا صوتاً وتذمراً ، فأتينا على رجل فقال : من هذا معك ؟ قال : هذا أخوك محمد صلى الله عليه وسلم ، فسلم ودعا بالبركة وقال : سل لأمتك اليسر ، فقلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى عليه السلام ، قلت على من كان تذمره ؟ قال : على ربه عز وجل ، قلت : أعلى ربه ؟ ! قال : نعم . قد عرف حدته ، ثم سرنا فرأيت مصابيح وضوءاً ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه شجرة أبيك إبراهيم عليه السلام ادن منها ، فدنوت منها ، فرحب بي ودعا لي بالبركة ، ثم مضينا حتى أتينا بيت المقدس ، فربطت الدابة بالحلقة التي تربط بها الأنبياء عليهم السلام ، ثم دخلت المسجد فنشرت لي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، من سمى الله منهم ومن لم يسم ، فصليت بهم إلا هؤلاء الثلاث : إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام " .

وأخرج ابن مردويه من طريق المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" صليت ليلة أسري بي في مقدم المسجد ، ثم دخلت إلى الصخرة ، فإذا ملك قائم معه آنية ثلاث ، فتناولت العسل ، فشربت منه قليلاً ، ثم تناولت الآخر فشربت منه حتى رويت ، فإذا هو لبن ، فقال اشرب من الآخر ، فإذا هو خمر ، قلت قد رويت . قال : أما أنك لو شربت من هذا لم تجتمع أمتك على الفطرة أبداً ، ثم انطلق بي إلى السماء ، ففرضت عليّ الصلاة ، ثم رجعت إلى خديجة رضي الله عنها وما تحوّلت عن جانبها الآخر " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه ، عن أم هانئ رضي الله عنها قالت : بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به في بيتي ، ففقدته من الليل ، فامتنع عني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن جبريل عليه السلام

أتاني فأخذ بيدي فأخرجني فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار ، فحملني عليها ثم انطلق حتى أتى بي إلى بيت المقدس ، فأراني إبراهيم يشبه خلقه خلقي ، ويشبه خلقي خلقه ، وأرأني موسى آدم طوالاً ، سبط الشعر أشبهه برجال ازد شنوأة ، وأراني عيسى ابن مريم ربعة أبيض يضرب إلى الحمرة شبهته بعروة بن مسعود الثقفي ، وأراني الدجال ممسوح العين اليمنى شبهته بقطن بن عبد العزى ، قال : وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم ما رأيت " فأخذت بثوبه ، فقلت إني أذكرك الله ، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقالتك ، فأخاف أن يسطوا بك ، قالت : فضرب ثوبه من يدي ، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس ، فأخبرهم ، فقام مطعم بن عدي فقال : يا محمد ، لو كنت شاباً كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا . فقال رجل من القوم : يا محمد ، هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا ؟ قال : " نعم ، والله وجدتهم قد أضلوا بعيراً لهم فهم في طلبه " قال : هل مررت بإبل لبني فلان قال : " نعم وجدتهم في مكان كذا وكذا ، قد انكسرت لهم ناقة حمراء ، فوجدتهم وعندهم قصعة من ماء فشربت ما فيها " قالوا : فأخبرنا عن عدتها وما فيها من الرعاء . قال : " قد كنت عن عدتها مشغولاً " فقام وأتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاء . ثم أتى قريشاً فقال لهم : " سألتموني عن إبل بني فلان ، فهي كذا وكذا ، وفيها من الرعاء فلان وفلان ، وسألتموني عن إبل بني فلان فهي كذا وكذا وفيها من الرعاء ابن أبي قحافة وفلان وفلان وهي مصبحتكم الغداة الثنية "

فقعدوا إلى الثنية ينظرون أصدقهم ما قال ، فاستقبلوا الإبل فسألوا ، هل ضل لكم بعير ؟ قالوا

(282/449)

: نعم . فسألوا الآخر ، هل انكسر لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم . قال : فهل كان عندكم قصعة من ماء ؟ قال أبو بكر رضي الله عنه : والله أنا وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريقت في الأرض ، فصدقه أبو بكر رضي الله عنه وآمن به ، فسمي يومئذ الصديق .
وأخرج أبو يعلى وابن عساكر ، عن أم هانئ رضي الله عنها قال : دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم بغلس وأنا على فراشي ، فقال : " شعرت أني نمت الليلة في المسجد الحرام فأتاني جبريل ، فذهب بي إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل مضطرب الأذنين فركبته ، فكان يضع حافره مد بصره ، إذا أخذ بي في هبوط طالت يداه وقصرت رجلاه ، وإذا أخذ بي في صعود طالت رجلاه وقصرت يداه ، وجبريل لا يفوتني حتى انتهينا إلى بيت المقدس ، فأوثقته بالحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها ، فنشر لي رهط من الأنبياء عليهم السلام منهم إبراهيم وموسى وعيسى فصليت بهم وكلمتهم ، وأتيت بإناءين أحمر وأبيض ، فشربت الأبيض ، فقال لي جبريل عليه السلام : شربت اللبن وتركت

الخمر ، لو شربت الخمر لارتدت أمتك ، ثم ركبته فأتيت المسجد الحرام ، فصليت به الغداة ، " فتعلقت بردائه وقلت : أنشدك الله يا ابن عم ، إن تحدث بها قريشاً ، فيكذبك من صدقك ، فضربت بيدي على ردائه فانتزعته من يدي ، فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عكنه فوق ازاره كأنها طي القراطيس ، وإذا نور ساطع عند فؤاده كاد يختطف بصري ، فخررت ساجدة ، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج ، فقلت لجاريتي : ويحك اتبعيه ، وانظري ماذا يقول وماذا يقال له ، فلما رجعت أخبرتني أنه انتهى إلى نفر من قريش فيهم المطعم بن عدي وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة . فقال : " إني صليت الليلة العشاء في هذه المسجد وصليت به الغداة وأتيت فيما بين ذلك ببيت المقدس فنشر لي رهط من الأنبياء فيهم إبراهيم وموسى وعيسى فصليت بهم وكلمتهم " فقال عمرو بن هشام – كالمستهزئ – : صفهم لي .

فقال : صلى الله عليه وسلم : " أما عيسى ففوق الربعة ودون الطويل عريض الصدر جعد الشعر يعلوه صهبة كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، وأما موسى فضخم آدم طوال كأنه من رجال شنوأة كثير الشعر غائر العينين متراكب الأسنان مقلص الشفة خارج اللثة عابس ،

وأما إبراهيم فوالله لأنا أشبه الناس به خلقاً " فضجوا وأعظموا ذاك ، فقال المطعم : كل أمرك قبل اليوم كان أمماً غير قولك اليوم ، أنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً تزعم أنك أتيته في ليلة ! واللات والعزى لا أصدقك . فقال أبو بكر رضي الله عنه – يا مطعم ، بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته ، أنا أشهد أنه صادق ، فقالوا : يا محمد ، صف لنا بيت المقدس ، قال : دخلته ليلاً وخرجت منه ليلاً ، فأتاه جبريل عليه السلام فصوّره في جناحه ، فجعل يقول : باب منه كذا في موضع كذا ، وباب منه كذا في موضع كذا ، وأبو بكر رضي الله عنه يقول : صدقت صدقت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ :

" يا أبا بكر إن الله قد سماك الصديق " قالوا يا محمد ، أخبرنا عن عيرنا ، قال : " أتيت على عير بني فلان بالروحاء قد أضلوا ناقة لهم ، فانطلقوا في طلبها فانتهيت إلى رحالهم ليس بها منهم أحد وإذا قدح ماء فشربت منه ، ثم انتهيت إلى عير بني فلان فنفرت مني الإبل وبرك منها جمل أحمر عليه جوالق مخطط ببياض لا أدري أكسر البعير أم لا ، ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم يقدمها جمل أورق وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية " فقال الوليد بن المغيرة : ساحر ، فانطلقوا فنظروا فوجدوا كما قال ، فرموه بالسحر ، وقالوا : صدق الوليد .

فأنزل الله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاَّ فتنة للناس ﴾ [الإسراء : 60] .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير ، عن أم هانئ رضي الله عنها قالت : ما أسري برسول الله إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال صلى الله عليه وسلم : " يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين " .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر ، عن عبد الله بن عمر ، وأم سلمة وعائشة وأم هانئ وابن عباس رضي الله عنهما ، دخل حديث بعضهم في بعض قالوا : أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة من شعب أبي طالب إلى بيت المقدس . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حملت على دابة بيضاء بين الحمار وبين البغل في فخذها جناحان تحفز بهما رجليها ، فلما دنوت لأركبها شمست ، فوضع جبريل عليه السلام يده على معرفتها ثم قال : ألا تستحيين يا براق مما تصنعي ، والله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه ، فاستحيت حتى ارفضت عرقاً ، ثم قرت حتى ركبتها ، فعلت بأذنيها وقبضت الأرض حتى كان منتهى وقع حافرها طرفها ، وكانت طويلة الظهر طويلة الأذنين .

وخرج معي جبريل لا يفوتني ولا أفوته حتى أتى بيت المقدس ، فأتى البراق إلى موقفه الذي

كان يقف فربطه فيه ، وكان مربط الأنبياء عليهم السلام ، رأيت الأنبياء جمعوا لي ، فرأيت إبراهيم وموسى وعيسى ، فظننت أنه لا بد أن يكون لهم إمام ، فقدمني جبريل عليه السلام حتى صليت بين أيديهم ، وسألتهم ؟ فقالوا : بعثنا بالتوحيد " .

(285/449)

وقال بعضهم : فقد النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، فتفرقت بنو عبد المطلب يطلبونه يلتمسونه ، وخرج العباس رضي الله عنه حتى إذا بلغ ذا طوى ، فجعل يصرخ يا محمد يا محمد ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيك لبيك ، فقال : ابن أخي ، أعييت قومك منذ الليلة ، فأين كنت ؟ قال : أتيت من بيت المقدس ، قال : في ليلتك ؟ ! قال : نعم . قال : هل أصابك إلا خير ؟ قال : ما أصابني إلا خير . وقالت أم هانئ رضي الله عنها : ما أسري به إلا من بيتنا ، بينا هو نائم عندنا تلك الليلة صلى العشاء ثم نام ، فلما كان قبل الفجر أنبهناه للصبح فقام فصلى الصبح . قال : " يا أم هانئ ، لقد صليت معكم العشاء كما رأيت بهذا الوادي ثم قد جئت بيت المقدس فصليت به ، ثم صليت الغداة معكم " ثم قام ليخرج ، فقلت لا تحدث هذا الناس فيكذبوك ويؤذوك . فقال : والله لأحدثنهم ، فأخبرهم ، فتعجبوا وقالوا لم نسمع بمثل هذا قط . وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم لجبريل عليه السلام : " يا جبريل ، إن قومي لا يصدقوني " قال : يصدقك أبو بكر وهو الصديق . وافتتن ناس كثير وضلوا كانوا قد أسلموا وقمت في الحجر ، فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه ، فقال بعضهم : كم للمسجد من باب ؟ - ولم أكن عددت أبوابه - فجعلت أنظر إليها وأعدها باباً باباً وأعلمهم ، وأخبرتهم عن عير لهم في الطريق وعلامات فيها ، فوجدوا ذلك كما أخبرتهم . وأنزل الله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال : كانت رؤيا عين رآها بعينه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً ليركبه فاستصعب عليه فقال له جبريل عليه السلام : أبمحمد صلى الله عليه وسلم تفعل هذا ؟ فوالله ما ركبك خلق أكرم على الله منه . قال : فارفضّ عرقاً .

وأخرج ابن مردويه ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : أسري بالنبي - صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول ، قبل الهجرة بسنة .

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، قبل خروجه إلى المدينة بستة عشر شهراً .

وأخرج البيهقي عن عروة مثله .

وأخرج البيهقي ، عن السدي رضي الله عنه قال : أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، قبل مهاجره بستة عشر شهراً .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن مردويه والبيهقي في كتاب حياة الأنبياء ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" مررت ليلة أسري بي على موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر " .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي ، عن أنس رضي الله عنه قال : حدثني بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به ، مر على موسى وهو يصلي في قبره . قال : وذكر لي أنه حمل على البراق . قال : فأوثقت الفرس . أو قال : الدابة بالحلقة . فقال أبو بكر رضي الله عنه صفها لي يا رسول الله ، قال : كذه وذه . وكان أبو بكر رضي الله عنه قد رآها .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي إلى السماء رأيت موسى يصلي في قبره " .

وأخرج الطبراني ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على موسى وهو قائم يصلي في قبره .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لما أسري بالنبي – صلى الله عليه وسلم – جعل يمر بالنبي والنبيين معهم الرهط ، والنبيين معهم القوم والنبي والنبيين ليس معهم أحد ، حتى مر بسواد عظيم ، " فقلت : من هؤلاء ؟ فقيل موسى وقومه ، ولكن ارفع رأسك وانظر ، فإذا سواد عظيم ! قد سد الأفق من ذا الجانب وذا الجانب ، فقيل لي : هؤلاء وسوى هؤلاء من أمتك ، سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب " قال : فدخل ولم يسألوه بأنفسهم ولم يفسر لهم . فقال قائلون : نحن هم . وقال قائلون هم أبناؤنا الذين ولدوا في الإسلام ، فخرج فقال : " هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون " . فقام عكاشة بن محصن فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال : " أنت منهم " ، فقام رجل آخر فقال : أنا منهم ؟ قال : " سبقك بها عكاشة " " .

وأخرج أحمد والنسائي والبزار والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل بسند صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة ، فقلت : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : ماشطة بنت فرعون وأولادها كانت تمشطها ، فسقط المشط من يدها ، فقالت بسم الله ، فقالت ابنة فرعون ، أبي ؟ قالت : بل ربي وربك ورب أبيك . قالت : أولك رب غير أبي ؟ قالت : نعم . قالت : فأخبر بذلك أبي ؟ قالت : نعم فأخبرته فدعاها فقال : ألك رب غيري ؟ قالت : نعم ، ربي وربك الله الذي في السماء . فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها لتلقي فيها وأولادها . قالت : إن لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قالت : تجمع عظامي وعظام ولدي ، فتدفنه جميعاً . قال : ذلك لك لما لك علينا من الحق ، فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم قال : أسرعي يا أمه ولا تقاعسي فإنك على الحق ، فألقيت هي وولدها . "

قال ابن عباس رضي الله عنه وتكلم أربعة وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم .

وأخرج ابن ماجه وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليلة أسري بي وجدت ريحاً طيبة ، فقلت : يا جبريل ، ما هذه ؟ قال : هذه الماشطة وزوجها وابنها ، بينما هي تمشط ابنة فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقال : تعس فرعون ، فأخبرت أباها ، وكان للمرأة ابنان وزوج ، فأرسل إليهم ، فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما ، فأبيا ، فقال : إني قاتلكما : فقالا إحسان منك إلينا ، إن قتلتنا أن تجعلنا في بيت ، ففعل ، " فلما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجد ريحاً طيبة ، فسأل جبريل عليه السلام ؟ فأخبره .

وأخرج أحمد وأبو داود ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون في وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليلة أسري بي مررت بناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت كما كانت ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ ، قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون " .

وأخرج ابن مردويه ، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أسري بي رأيت رجلاً يسبح في نهر يلقم الحجارة فسألت من هذا ؟

فقيل لي : هذا آكل الربا " .

وأخرج الترمذي والبزار والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل ، عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما كان ليلة أسري بي ، أتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس ، فوضع أصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه ، عن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال : لما عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به الماء ، ثم الخمر ، ثم اللبن ، أخذ اللبن . فقال له جبريل عليه السلام : أصبت الفطرة ، وبه غذيت كل دابة ، ولو أخذت الخمر غويت وغوت أمتك وكنت من أهل هذه ، وأشار إلى الوادي الذي يقال له وادي جهنم ، فنظر إليه فإذا هو نار تلتهب .

وأخرج أحمد وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني ليلة أسري بي ، وضعت قدمي حيث توضع أقدام الأنبياء عليهم السلام من بيت المقدس ، وعرض عليّ عيسى عليه السلام ، فإذا أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود ، وعرض عليّ موسى عليه السلام ، فإذا رجل جعد ضرب من الرجال ،

وعرض عليّ إبراهيم عليه السلام، فإذا أقرب الناس به شبهاً صاحبكم " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " حين أسري بي لقيت موسى عليه السلام، فنعته فإذا هو رجل مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوأة، ولقيت عيسى عليه الصلاة والسلام فنعته ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس، ورأيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنا أشبه ولده به، وأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، قيل لي هديت للفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك " .

وأخرج مسلم والنسائي وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء، إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وإذا موسى عليه السلام قائم وإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوأة، وإذا عيسى عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم

عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم ، -يعني نفسه- فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت قال قائل : يا محمد ، هذا مالك خازن النار ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام " .

وأخرج ابن مردويه ، عن عمر رضي الله عنه قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم رأى مالكاً خازن النار ، فإذا رجل عابس يعرف الغضب في وجهه .

وأخرج أحمد ، عن عبيد بن آدم ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالجابية ، فذكر فتح بيت المقدس ، فقال لكعب رضي الله عنه : أين ترى أن أصلي ؟ قال : خلف الصخرة . قال : لا . ولكن أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدم إلى القبلة فصلى .

وأخرج أحمد وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة بسند صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ليلة أسري بالنبي دخل الجنة فسمع في جانبها وجساً ، فقال : يا جبريل ما هذا ؟ فقال : هذا بلال المؤذن .

فقال النبي حين جاء إلى الناس : " قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا " فلقيه موسى عليه الصلاة والسلام فرحب به وقال مرحباً بالنبي الأمي ، قال : " وهو رجل آدم طويل سبط ،

شعره مع أذنيه أو فوقهما ، فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى عليه السلام ، فمضى فلقيه رجل فرحب به ، قال : من هذا ؟ قال : هذا عيسى عليه السلام ، فمضى فلقيه شيخ جليل مهيب فرحب به وسلم عليه ، وكلهم يسلم عليه ، قال : من هذا يا جبريل ؟ ، قال : أبوك إبراهيم عليه السلام . قال : ونظر في النار ، فإذا قوم يأكلون الجيف ! قال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس . ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة ، فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى ، قام يصلي ، ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه ، فلما انصرف جيء بقدحين أحدهما عن اليمين ، والآخر عن الشمال ، في أحدهما لبن ، وفي الآخرة عسل ، فأخذ اللبن فشرب منه ، فقال الذي كان معه القدح : أصبت الفطرة " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن مردويه وابو نعيم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره ، وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم ، فقال ناس : نحن لا نصدق محمداً بما يقول : فارتدوا كفاراً ! فضرب الله رقابهم مع أبي جهل . وقال أبو جهل : يخوفنا محمد بشجرة الزقوم ،

هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا به . ورأى الدجال في صورته ، رؤيا عين ليس برؤيا منام .

وعيسى وموسى وإبراهيم عليهم السلام ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال ؟ فقال : " رأيته فيلمانيا أقمرهجان ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري ، كأن شعره أغصان شجرة . ورأيت عيسى عليه السلام شاباً أبيض جعد الرأس حديد البصر مبطن الخلق ، ورأيت موسى أسحم آدم كثير الشعر شديد الخلق ، ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلا أنظر إلى أرب منه إلا نظرت إليه مني حتى كأنه صاحبكم ، قال جبريل سلم على أبيك فسلمت عليه " .

وأخرج البخاري ومسلم والطبراني وابن مردويه من طريق قتادة ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران عليه السلام رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوأة ، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن جهنم ، والدجال في آيات أراهن الله " قال : ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ [السجدة : 23] فكان قتادة رضي الله عنه يفسرها أن النبي صلى الله عليه وسام قد لقي موسى عليه السلام .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لقيت ليلة أسري بي ، إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال : أما وجبتها ، فلا يعلم بها أحد إلا الله تعالى . وفيما عهد إلي ربي ، أن الدجال خارج ، ومعي قضيبان ، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، فيهلكه الله إذا رآني ، حتى أن الحجر والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتي كافراً ، فتعال فاقتله ، فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطأون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، لا يمرون على ماء إلا شربوه ، ثم يرجع الناس إلي ، فيشكونهم فأدعو الله تعالى عليهم ، فيهلكهم ويميتهم ، حتى تجيف الأرض من نتن ريحهم ، فينزل الله المطر ، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر . ففيما عهد إليَّ ربي إن كان كذلك ، أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن حذيفة رضي الله عنه أنه حدث ، عن ليلة أسري

بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : ما زايل البراق حتى فتحت له أبواب السماوات ، فرأى الجنة والنار ، ووعد الآخرة أجمع ، ثم عاد ولفظ ابن مردويه ، فأري ما في السماوات وأري ما في الأرض قيل له أي دابة البراق ؟ قال : دابة طويل أبيض خطوه مد البصر .

وأخرج أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عساكر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة عرج بي إلى السماء ، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي فيها مكتوباً ، محمد رسول الله ، وأبو بكر الصديق خلفي " .

وأخرج البزار عن ابن عمر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي إلى السماء ، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي فيها مكتوباً ، محمد رسول الله " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند صحيح ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مررت ليلة أسري بي على الملأ الأعلى ، فإذا جبريل كالحلس البالي من خشية الله " ، وفي لفظ لابن مردويه ، " مررت على جبريل في السماء الرابعة ، فإذا هو كأنه حلس بال من خشية الله " .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة ، عن عبد الرحمن بن

قرط رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليلة أسري بي إلى المسجد الأقصى ، كان بين المقام وزمزم ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السماوات العلى ، فلما رجع قال : سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السماوات العلى من ذي المهابة مشفقات من ذي العلوّ بما علا ، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى " .

وأخرج ابن عساكر ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسرى بي جبريل ، سمعت تسبيحاً في السماوات العلى ، فرجف فؤادي فقال لي جبريل عليه السلام : تقدم يا محمد ولا تخف ، فإن اسمك مكتوب على العرش ، لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ليلة أسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة ، نظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات والعقارب ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة

الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت إلى أسفل مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم ، لا يتفكرون في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي ، مررت بالكوثر ، فقال جبريل عليه السلام : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فضربت بيدي على تربته ، فإذا مسك أذفر " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما عرج بي إلى السماء ، رأيت نهراً يطرد عجاجاً مثل السهم ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، حافتاه قباب من در مجوف ، فضربت بيدي إلى جانبه ، فإذا مسكة ذفراء ، فضربت بيدي إلى رضراضها ، فإذا در . قلت : يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت إبراهيم ليلة أسري بي وهو أشبه من رأيت بصاحبكم " .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن حبان وابن رمدويه ، عن أبي أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

" عرج بي إلى السماء فرأيت إبراهيم خليل الرحمن ، فقال إبراهيم : يا جبريل ، من هذا الذي معك ؟ فقال جبريل : هذا محمد ، فرحب بي وقال : مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة . فقال له النبي : – صلى الله عليه وسلم – وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتيت ليلة أسري بي على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا محمد ، أخبر أمتك أن الجنة قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " .

وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد ، أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي رأيت الجنة من درة بيضاء ، فقلت يا جبريل ، إنهم يسألوني عن الجنة ؟ قال : أخبرهم أن أرضها قيعان وترابها المسك " .

وأخرج ابن ماجة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي

في البعث والنشور ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة ، الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة " .

وأخرج الطبراني ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي إلى السماء ، أدخلت الجنة ، فوقعت على شجرة من أشجار الجنة ، لم أر في الجنة أحسن منها ولا أبيض ورقاً ولا أطيب ثمرة ، فتناولت ثمرة من ثمراتها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي ، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة رضي الله عنها ، فإذا أنا اشتقت إلى ريح الجنة شممت ريح فاطمة " .

وأخرج الحاكم وضعفه ، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل عليه السلام بسفرجلة ، فأكلتها ليلة أسري بي ، فعلقت خديجة بفاطمة ، فكنت إذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رقبة فاطمة " .

وأخرج البزار وأبو قاسم البغوي وابن قانع كلاهما في معجم الصحابة وابن عدي وابن

عساكر ، عن عبد الله بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ليلة أسري بي انتهيت إلى قصر من لؤلؤة " ولفظ البغوي " أسري بي في قفص من لؤلؤة ، فراشه ذهب يتلألأ نوراً وأعطيت ثلاثاً : إنك سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين " .

وأخرج ابن قانع والطبراني وابن مردويه ، عن أبي الحمراء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي إلى السماء السابعة ، فإذا على ساق العرش الأيمن ، لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله : " لما عرج بي رأيت على ساق العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته بعلي " .

وأخرج ابن عساكر ، عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أسري بي ، رأيت على العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق عمر الفاروق عثمان ذو النورين " .

وأخرج الدارقطني في الأفراد والخطيب وابن عساكر ، عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت ليلة أسري بي في العرش فريدة خضراء فيها مكتوب بنور أبيض ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق عمر الفاروق " .

وأخرج البزار ، عن علي رضي الله عنه قال : لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان ، أتاه جبريل عليه السلام بدابة يقال لها البراق ، فذهب يركبها فاستصعبت ، فقال لها جبريل عليه السلام – أسكني ، فوالله ما ركبك عبد أكرم على الله من محمد – صلى الله عليه وسلم – فركبها حتى انتهى إلى الحجاب الذي يلي الرحمن ، فبينما هو كذلك ، إذ خرج عليه ملك من الحجاب ، فقال الملك : الله أكبر الله أكبر ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر ، ثم قال الملك : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقيل له من وراء الحجاب : صدق عبدي ، أنا الله لا إله إلا أنا . فقال الملك : أشهد أن محمداً رسول الله ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي ، أنا أرسلت محمداً ، فقال الملك : حيّ على الصلاة حي على الفلاح قد قامت الصلاة . ثم قال : الله أكبر الله أكبر ، فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي ، أنا أكبر أنا أكبر ، ثم قال : لا إله إلا الله ، فقيل من وراء الحجاب صدق عبدي ، لا إله إلا أنا ، ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وسلم فقدمه ، فأم أهل السموات فيهم آدم ونوح ، فيومئذ أكمل الله لمحمد الشرف على أهل السموات والأرض .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج به إلى السماء ، فانتهى إلى مكان من السماء وقف فيه ، وبعث الله ملكاً فقام من السماء مقاماً ما قامه قبل ذلك ، فقيل له : علمه الأذان ، فقال الملك : الله أكبر الله أكبر فقال الله : صدق عبدي أنا الله الأكبر ، فقال الملك : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال الله : صدق عبدي أنا الله لا إله إلا أنا فقال الملك : أشهد أن محمداً رسول الله ، فقال الله : صدق عبدي أنا أرسلته وأنا اخترته وأنا ائتمنته ، فقال : حي على الصلاة ، فقال الله : صدق عبدي ودعا إلي فريضتي وحقي ، فمن أتاها محتسباً كانت كفارة لكل ذنب ، فقال الملك : حي على الفلاح ، فقال الله : صدق عبدي أنا أقمت فرائضها وعدتها ومواقيتها ، ثم قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تقدم ، فتقدم ، فائتم به أهل السموات ، فتم له شرفه على سائر الخلائق .

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي إلى السماء أذن جبريل ، فظنت الملائكة أنه يصلي بهم ، فقدّمني فصليت بالملائكة " .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن ابن عمر رضي الله عنهما – أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به إلى السماء ، أوحى إليه بالأذان ، فنزل به فعلمه جبريل .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم – علم الأذان ليلة أسري به وفرضت عليه الصلاة .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – فرضت عليه الصلاة ليلة أسري به .

وأخرج أحمد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : فرض الله على نبيه صلى الله عليه وسلم الصلاة خمسين صلاة ، فسأل ربه فجعلها خمس صلوات .

(300/449)

وأخرج أبو داود والبيهقي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كانت الصلاة خمسين ، والغسل من الجنابة سبع مرات ، وغسل البول من الثوب سبع مرات ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل ؟ حتى جعلت الصلاة خمساً ، وغسل الجنابة مرة ، وغسل البول من الثوب مرة .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهى إلى سدرة المنتهى وإليها ينتهي ما يصعد به ، وفي لفظ : يعرج به من الأرواح حتى يقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها حتى

يقبض ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ [النجم : 16] قال : غشيها فراش من ذهب .

وأعطي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات .

وأخرج الطبراني ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" لما أسري بي انتهيت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها أمثال القلال " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه – وسلم لما انتهى إلى سدرة المنتهى رأى فراشاً من ذهب يلوذ بها .

وأخرج ابن مردويه ، عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت : " سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يقول : يصف سدرة المنتهى ، فقال : " فيها فراش من ذهب ، وثمرها كالقلال ، وأوراقها كآذان الفيلة " قلت : يا رسول ، ما رأيت عندها ؟ قال : " رأيته عندها " يعني ربه عز وجل " .

وأخرج ابن ماجة وابن مردويه ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما مررت ليلة أسري بي بملأ من الملائكة إلا قالوا لي يا محمد ، مر أمتك بالحجامة " .

وأخرج أحمد و والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما مررت بملأ من الملائكة ليلة أسري بي ، إلا قالوا عليك بالحجامة " وفي لفظ مر أمتك بالحجامة .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما مررت على ملأ من الملائكة ليلة أسري بي إلا أمروني بالحجامة " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثني الله ليلة أسري بي إلى يأجوج ومأجوج أدعوهم إلى دين الله وعبادته ، فأمروا أن يجيبوني وهم في النار مع من يحصى من ولد آدم ، وولد إبليس " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد والطبراني في الأوسط وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به ، فكان بذي طوى قال : يا جبريل ، إن قومي لا يصدقوني ، قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق " .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا : هل لك في صاحبك ، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال

ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن قال ذلك ، لقد صدق . قالوا : فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ ! قال : نعم . إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة .

فلذلك سمي أبا بكر الصديق .

(302/449)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي والبزار والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة وابن عساكر بسند صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما كان ليلة أسري بي ، فأصبحت في مكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبي ، فقعدت معتزلاً حزيناً ، فمر به عدوّ الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزئ ، هل كان من شيء ؟ قال : نعم . قال وما هو ؟ قال : " إني أسري بي الليلة " قال : إلى أين ؟ قال : " إلى بيت المقدس " قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم . فلم يرد أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث ، إن دعا قومه إليه . قال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ قال : نعم . قال : هيا يا معشر بني كعب بن لؤي ، فانقضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما . قال : حدث قومك بما حدثتني

، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني أسري بي الليلة " قالوا : إلى أين ؟ قال : " إلى بيت المقدس " قالوا إيليا ؟ قال : نعم . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم . قال : فمن بين مصفق ، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً ! قالوا : وتستطيع أن تنعت المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر إليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت ، فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه ، حتى وضع دون دار عقيل " أو عقال فنعته وأنا أنظر إليه ، فقام القوم أما النعت فوالله لقد أصاب " .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما كذبتني قريش لما أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر ، فجلا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه " .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن عروة رضي الله عنه قال : قالت قريش لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما أخبرهم بمسراه إلى بيت المقدس ، أخبرنا ماذا ضل عنا وائتنا بآية ما

تقول : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ضلت منكم ناقة ورقاء عليها بر لكم " فلما قدمت عليهم قالوا انعت لنا ما كان عليها ، ونشر له جبريل عليه السلام ما عليها كله ينظر إليه ، فأخبرهم بما كان عليها وهم قيام ينظرون ، فزادهم ذلك شكاً وتكذيباً .

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن السدي رضي الله عنه قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر قومه بالرفقة والعلامة في العير قالوا : فمتى تجيء ؟ قال : يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون ، وقد ولى النهار ولم تجئ ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ، فزيد له في النهار ساعة وحبست عليه الشمس ، فلم ترد الشمس على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى يوشع بن نون عليه السلام حين قاتل الجبارين .

واخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير ، عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه قال : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم أتى بدابة دون البغل وفوق الحمار يضع حافره عند منتهى طرفه ، يقال له البراق . ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعير للمشركين ، فنفرت فقالوا : يا هؤلاء ما هذا ؟ فقالوا ما نرى شيئاً ؛ ما هذه الرائحة إلا ريح ، حتى أتى بيت المقدس ، فأتى بإناءين : في أحدهما خمر ، وفي الآخر لبن فأخذ اللبن فقال جبريل عليه السلام : " هديت وهديت أمتك " .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر، عن الواقدي، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة وغيره من رجاله قالوا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل ربه أن يريه الجنة والنار فلما كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم في بيته ظهراً أتاه جبريل وميكائيل، فقالا: انطلق إلى ما سألت الله، فانطلقا به إلى السموات ما بين المقام وزمزم، فأتي بالمعراج، فإذا هو أحسن شيء منظراً، فعرج به إلى السموات سماءً سماءً فلقي فيها الأنبياء وانتهى إلى سدرة المنتهى، ورأى الجنة والنار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولما انتهيت إلى السماء السابعة لم أسمع إلا صريف الأقلام" وفرضت عليه الصلوات الخمس ونزل جبريل عليه السلام، فصلى برسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات في مواقيتها.

وأخرج ابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسري به، ريحه ريح عروس وأطيب من ريح عروس.

وأخرج ابن مردويه، عن جبير قال: سمعت سفيان الثوري رضي الله عنه سئل، عن ليلة أسري به، فقال: أسري ببدنه.

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي رضي الله عنه إلى قيصر وكتب إليه معه ، فلقيه بحمص ودعا الترجمان ، فإذا في الكتاب من محمد رسول الله ، إلى قيصر صاحب الروم ، فغضب أخ له وقال : تنظر في كتاب رجل بدأ بنفسه قبلك ، وسماك قيصر صاحب الروم ولم يذكر أنك ملك ؟ ! قال له قيصر : إنك والله ما علمت أحمق صغيراً ، مجنوناً كبيراً : تريد أن تحرق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه ؟ فلعمري لئن كان رسول الله كما يقول : فنفسه أحق أن يبدأ بها مني ، وإن كان سماني صاحب الروم ، فلقد صدق ، ما أنا إلا صاحبهم وما أملكهم ، ولكن الله سخرهم لي ولو شاء لسلطهم علي ، ثم قرأ قيصر الكتاب ، فقال : يا معشر الروم ، إني لأظن هذا الذي بشر به عيسى ابن مريم ، ولو أعلم أنه هو مشيت إليه حتى أخدمه بنفسي ، لا يسقط وضوءه إلا على يدي ، قالوا : ما كان الله ليجعل ذلك في الإعراب الأميين ويدعنا ، ونحن أهل الكتاب قال : فأصل الهدى بيني وبينكم الإنجيل ، ندعو به فنفتحه ، فإن كان هو إياه اتبعناه ، وإلا أعدنا عليه خواتمه كما كانت إنما هي خواتيم مكان خواتم قال : وعلى الإنجيل يومئذ اثنا عشر خاتماً من ذهب ختم عليه هرقل ، فكان كل ملك يليه بعده ظاهر عليه بخاتم آخر ، حتى ألقى ملك قيصر وعليه إثنا عشر خاتماً ، يخبر أوّلهم لآخرهم أنه لا يحل لهم أن يفتحوا الإنجيل في دينهم ، وإنهم يوم يفتحونه

يغير دينهم ويهلك ملكهم ، فدعا بالإنجيل ففض عنه أحد عشر خاتماً حتى بقي عليه خاتم واحد ، فقامت الشمامسة والأساقفة والبطارقة ، فشقوا ثيابهم وصكوا وجوههم ونتفوا رؤوسهم ! قال : ما لكم ؟ قالوا : اليوم يهلك ملك بيتك ، وتغير دين قومك .

قال : فأصل الهدى عندي . قالوا : لا تعجل حتى نسأل عن هذا ونكاتبه وننظر في أمره ؟ قال : فمن نسأل عنه ؟ قالوا : قوماً كثيراً بالشام ، فأرسل يبتغي قوماً يسألهم ؟ فجمع له أبو سفيان وأصحابه ، فقال : أخبرني يا أبا سفيان عن هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فلم يأل أن يصغر أمره ما استطاع ، قال : أيها الملك ، لا يكبر عليك شأنه ، إنا لنقول : هو ساحر ، ونقول : هو شاعر ، ونقول : هو كاهن . قال قيصر : كذلك والذي نفسي بيده كان يقال للأنبياء عليهم السلام قبله . قال : أخبرني عن موضعه فيكم . قال : هو أوسطنا . قال : كذلك بعث الله كل نبي من أوسط قومه . أخبرني عن أصحابه . قال : غلماننا وأحداث أسنانهم والسفهاء ، أما رؤساؤنا فلم يتبعه منهم أحد . قال : أولئك والله أتباع الرسل ، أما الملأ والرؤوس فأخذتهم الحمية . قال : أخبرني عن أصحابه هل يفارقونه بعدما يدخلون في دينه ؟ قال : ما يفارقه منهم أحد . قال : فلا يزال داخل منكم في دينه ؟ قال : نعم . قال

: ما تزيدونني عليه إلا بصيرة ، والذي نفسي بيده ليوشكن أن يغلب على ما تحت قدمي . يا معشر الروم ، هلموا إلى أن نجيب هذا الرجل إلى ما دعا إليه ونسأله الشام أن لا يطأ علينا أبداً . فإنه لم يكتب قط نبي من الأنبياء إلى ملك من الملوك يدعوه إلى الله فيجيبه إلى ما دعاه ، ثم يسأله مسألة إلا أعطاه مسألته ما كانت ، فأطيعوني .

قالوا : لا نطاوعك في هذا أبداً . قال أبو سفيان : والله ما يمنعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ، ولا يصدقني حتى ذكرت قوله ليلة أسري به . قلت : أيها الملك ، أنا أخبرك عنه خبراً تعرف أنه قد كذب . قال : وما هو؟ قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيليا ، ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح قال : وبطريق إيليا عند رأس قيصر . قال البطريق : قد علمت تلك الليلة . فنظر إليه قيصر فقال ما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني ، فاستعنت عليه عمالي ومن يحضرني كلهم ، فعالجته فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً ، فدعوت الناجرة ، فنظروا إليه ، فقالوا هذا باب

سقط عليه التجاق والبنيان ، فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من اين أتى ، فرجعت وتركته مفتوحاً فلما أصبحت غدوت ، فإذا الحجر الذي من زاوية الباب مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ، فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، فقد صلى الليلة في مسجدنا ، فقال قيصر : يا معشر الروم ، أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبي بشركم به عيسى عليه السلام ؟ وهذا هو النبي الذي بشر به عيسى ، فأجيبوه إلى ما دعا إليه ، فلما رأى نفورهم قال : يا معشر الروم ، دعاكم ملككم يختبركم كيف صلابتكم في دينكم ، فشتمتموه وسببتموه وهو بين أظهركم فخروا له سجداً .

(308/449)

وأخرج الواسطي في فضائل بيت المقدس ، عن كعب رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به ، وقف البراق في الموقف الذي كان يقف فيه الأنبياء ، ثم دخل من باب النبي ، وجبريل عليه السلام أمامه ، فأضاء له ضوء كما تضيء الشمس ، ثم تقدم جبريل عليه السلام أمامه ، حتى كان من شامي الصخرة ، فأذن جبريل عليه السلام ، ونزلت الملائكة عليهم السلام من السماء ، وحشر الله لهم المرسلين عليهم السلام ، فأقام الصلاة ثم تقدم جبريل عليه السلام ، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم بالملائكة والمرسلين

، ثم تقدم قدام ذلك إلى موضع ، فوضع له مرقاة من ذهب ومرقاة من فضة وهو المعراج حتى عرج جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء .

وأخرج الواسطي من طريق أبي حذيفة مؤذن بيت المقدس ، عن جدته أنها رأت صفية زوج النبي رضي الله عنها وكعباً رضي الله عنه يقول : لها يا أم المؤمنين ، صلي ههنا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالنبيين عليهم السلام حين أسري به ههنا ، وأومأ أبو حذيفة بيده إلى القبلة القصوى في دبر الصخرة .

وأخرج الواسطي ، عن الوليد بن مسلم رضي الله عنه قال : حدثني بعض أشياخنا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما ظهر على بيت المقدس ليلة أسري به فإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان ، فقلت يا جبريل ، ما هذان النوران ؟ قال : أما هذا الذي عن يمينك فإنه محراب أخيك داود – عليه السلام – وأما هذا الذي عن يسارك فعلى قبر أختك مريم .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر ، عن الحسن بن الحسين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني برجله

، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت لمضجعي ، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه ، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت لمضجعي فجاءني فهمزني بقدمه ، فجلست فأخذ بعضدي ، فقمت معه فخرج إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض بين الحمار والبغل له في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه يضع يده في منتهى طرفه ، فحملني عليه ، ثم خرج لا يفوتني ولا أفوته " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي ، عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ الآية . قال : أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، فحمله على البراق ، فسار به إلى بيت المقدس ، فمر بأبي سفيان في بعض الطريق وهو يحتلب ناقة ، فنفرت من حس البراق فأهرقت اللبن ، فسب أبو سفيان من نفرها ، ونَدَّ جمل لهم أورق ، فذهب إلى بعض المياه فطلبوه ، فأخذوه ، ومر بواد فنفخ عليه من ريح المسك ، فسأل جبريل – عليه السلام – ما هذا الريح فقال : هؤلاء أهل بيت من المسلمين ، حرقوا بالنار في الله عز وجل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن حوالة الأزدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت ليلة أسري بي عمود أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة ، قلت : ما تحملون ، قالوا : عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده

ﷺ قال : أسري به من شعب أبي طالب .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما فقدت جسد رسول الله ولكن الله أسرى بروحه .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير ، عن معاوية بن أبي سفيان : أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

وأخرج ابن النجار في تاريخه ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل بالبراق ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : قد رأيتها يا رسول الله ؟ قال : صفها لي ، قال : بدنة . قال : صدقت ، قد رأيتها يا أبا بكر " .

وأخرج الخطيب ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أسري بي إلى السماء قربني الله تعالى حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى لا بل أدنى ، وعلمني المسميات ، قال : يا محمد ، قلت : لبيك يا رب ، قال : هل غمك أن جعلتك آخر النبيين ؟ قلت : يا رب ، لا . قال : فهل غم أمتك أن جعلتهم آخر الأمم ؟ قلت : يا رب لا ، قال : أبلغ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أني جعلتهم آخر الأمم ، لأفضح الأمم

عندهم ، ولا أفضحهم عند الأمم " .

وأخرج الطبراني ، عن أم هانئ رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري به : " إني أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم " فكذبوه ، وصدقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فسمي يومئذ الصديق .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن شهاب رضي الله عنه قال : أخبرني ابن المسيب وأبو أسامة بن عبد الرحمن ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أسري به على البراق - وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام ، يقع حافرها موضع طرفها . قال : فمرت بعير من عيرات قريش - بواد من تلك الأودية ، فنفر بعير عليه غرارتان سوداء وزرقاء ، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إيليا ، فأتي بقدحين قدح خمر وقدح لبن ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن . قال له جبريل عليه السلام : هديت إلى الفطرة ، لو أخذت قدح الخمر غوت أمتك .

قال ابن شهاب رضي الله عنه : فأخبرني ابن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي هناك إبراهيم وموسى وعيسى ، فنعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما

موسى فضرب ، رجل الرأس كأنه من رجال شنوأة ، وأما عيسى فرجل أحمر كأنما خرج من ديماس ، فأشبه من رأيت به عروة بن مسعود الثقفي ، وأما إبراهيم فأنا أشبه ولده به . فلما رجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حدث قريشاً أنه أسري به ، فارتد ناس كثير بعدما أسلموا . قال أبو سلمة : فأتى أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – فقيل له : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس . ثم رجع في ليلة واحدة . قال أبو بكر رضي الله عنه : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : فأشهد إن كان قال ذلك ، لقد صدق . قالوا : أفتشهد أنه جاء الشام في ليلة واحدة ؟ قال : إني أصدقه بأبعد من ذلك ! أصدقه بخبر السماء .

(312/449)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، عن ابن جريج قال نافع بن جبير رضي الله عنه وغيره : لما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم من الليلة التي أسري به فيها ، لم يرعه إلا جبريل عليه السلام يتدلى حين زاغت الشمس ، ولذلك سميت الأولى ، فأمر بلالاً يصيح في الناس الصلاة جامعة فاجتمعوا ، فصلى جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم – وصلى النبي صلى الله عليه وسلم – للناس ، طوّل الركعتين الأوليين ، ثم قصر في الباقيتين ، ثم سلم جبريل –

عليه السلام – على النبي صلى الله عليه وسلم ، وسلم النبي صلى الله عليه وسلم على الناس ، ثم في العصر عمل مثل ذلك ، ففعلوا كما فعلوا في الظهر ، ثم نزل في أول الليل ، فصيح الصلاةُ جامعة ، فصلى جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم – وصلى النبي صلى الله عليه وسلم – للناس طوّل في الأولتين وقصر في الثالثة ، ثم سلم جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم على الناس ، ثم لما ذهب ثلث الليل نزل فصيح الصلاة جامعة ، فاجتمعوا فصلى جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم وصلى النبي صلى الله عليه وسلم للناس ، فقرأ في الأولتين فطوّل وجَهَرَ وقصر في الباقيتين ، ثم سلم جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم على الناس ، ثم لما طلع الفجر صيح الصلاة جامعة ، فصلى جبريل عليه السلام للنبي – صلى الله عليه وسلم – وصلى النبي صلى الله عليه وسلم للناس ، فقرأ فيهما وجهر وطول ورفع صوته ، ثم سلم جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم – وسلم النبي صلى الله عليه وسلم على الناس .

وأخرج أبو بكر الواسطي في كتاب بيت المقدس ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كانت الأرض ماء فبعث الله تعالى ريحاً فمسحت الماء مسحاً ، فظهرت على الأرض زبدة ، فقسمها أربع قطع : خلق من قطعة مكة ، والثانية المدينة ، والثالثة بيت المقدس ، والرابعة الكوفة . وقال الواسطي رضي الله عنه ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل كم هم ، فبعث نقباء وعرفاء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم ، فعتب الله عليه لذلك ، وقال : قد علمت أني وعدت إبراهيم أن أبارك فيه وفي ذريته حتى أجعلكم كعدد الذر ، وأجعلهم لا يحصى عددهم ، وأردت أن تعلم عددهم ، إنه لا يحصى عددهم ، فاختاروا إثنين أن أبتليكم بالجوع ثلاث سنين ، أو أسلط عليكم العدو ثلاثة أشهر ، أو الموت ثلاثة أيام ، فأشار بذلك داود عليه السلام على بني إسرائيل ، فقالوا ما لنا بالجوع ثلاث سنين صبر ، ولا بالعدوّ ثلاثة أشهر صبر ، فليس لهم تقية ، فإن كان لا بد ، فالموت بيده لا بيده غيره ، فمات منهم في ساعة ألوف كثيرة ما يدري عددهم ، فلما رأى ذلك داود – عليه السلام – شق عليه ما بلغه من كثرة الموت فسأل الله ودعا ، فقال : يا رب ، أنا آكل الحامض وبنو إسرائيل تدرس ؟ أنا طلبت ذلك ، وأمرت به بني إسرائيل ، فما كان من شيء فبي ، وارفع عن بني إسرائيل .

فاستجاب له ، ورفع عنهم الموت ، فرأى داود عليه السلام الملائكة – عليهم السلام – سالين سيوفهم يغمدونها ، يرفعون في سلم من ذهب من الصخرة ، فقال داود : هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه لله مسجد أو تكرمة ، وأراد أن يأخذ في بنيانه ، فأوحى الله إليه : هذا بيت المقدس ، وإنك بسطت يدك في الدماء فلست ببانيه ، ولكن ابن لك بعدك اسمه سليمان ، أسلمه من الدماء . فلما ملك سليمان عليه الصلاة والسلام بناه وشرفه ، فلما أراد سليمان عليه السلام أن يبنيه قال للشياطين : إن الله عز وجل أمرني أن أبني بيتاً له لا يقطع فيه حجر بحديدة . فقالت الشياطين : لا يقدر على هذا إلا شيطان في البحر له مشربة يردها ، فانطلقوا إلى مشربته فأخرجوا ماءها ، وجعلوا مكانه خمراً فجاء يشرب ، فوجد ريحاً ، فقال شيئاً ولم يشرب ، فلما اشتد ظمؤه جاء فشرب فأخذ ، فبينما هم في الطريق إذا هم برجل يبيع الثوم بالبصل فضحك ، ثم مر بامرأة تكهن لقوم فضحك ، فلما انتهى إلى سليمان أخبر بضحكه ، فسأله ؟ فقال : مررت برجل يبيع الدواء بالداء ، ومررت بامرأة تكهن وتحتها كنز لا تعلم به . فذكر له شأن البناء ، فأمر أن يؤتى بقدر من نحاس لا تقلها البقر . فجعلوها على فروخ النسر ، ففعلوا ذلك ، فأقبل إليه ، فلم يصل إلى فروخه ، فعلا في جوّ السماء ثم تدلى فأقبل بعود في منقاره فوضعه على القدر فانفلقت ، فعمدوا إلى ذلك العود فأخذوه فعملوا به الحجارة .

وأخرج ابن سعد ، عن سالم أبي النضر رضي الله عنه قال : لما كثر المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه ضاق بهم المسجد ، فاشترى عمر رضي الله عنه ما حول المسجد من الدور ، إلا دار العباس بن عبد المطلب وحجر أمهات المؤمنين ، فقال عمر رضي الله عنه للعباس : يا أبا الفضل إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم ، وقد ابتعت ما حوله من المنازل ؛ نوسع به على المسلمين في مسجدهم إلا دارك وحجر أمهات المؤمنين . قال عمر : فأما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين ، أوسع بها في مسجدهم . فقال العباس - رضي الله عنه - ما كنت لأفعل . فقال عمر رضي الله عنه : اختر مني أحدى ثلاث : إما أن تبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين ، وإما أن أحطك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، وإما أن تصدق بها على المسلمين فيوسع بها في مسجدهم .

فقال : لا ولا واحدة منها . فقال عمر رضي الله عنه : اجعل بيني وبينك من شئت . فقال أبي بن كعب رضي الله عنه فانطلقا إلى أبي فقصا عليه القصة فقال أبي – رضي الله عنه – إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالا : حدثنا . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله أوحى إلى داود ، ابن لي بيتاً أُذْكَرُ فيه ، فخط له هذه الخطة – خطة بيت المقدس – فإذا بربعها زاوية بيت من بني إسرائيل ، فسأل داود أن يبيعه إياه فأبى ، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه : " أن يا داود أمرتك أن تبني لي بيتاً أذكر فيه ، فأردت أن تدخل في بيتي الغصب ، وليس من شأني الغصب ، وإن عقوبتك أن لا تبنيه " قال : يا رب ، فمن ولدي قال : من ولدك . " قال : فأخذ عمر رضي الله عنه بمجامع ثياب أبي بن كعب رضي الله عنه وقال : جئتك بشيء ، فجئت بما هو أشد منه ، لتخرجنّ مما قلت ، فجاء يقوده حتى أدخله المسجد ، فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيهم أبو ذر رضي الله عنه . فقال أبي رضي الله عنه إني نشدت الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم – يذكر حديث بيت المقدس ، حيث أمر الله تعالى ، داود أن يبينه إلا ذكره . فقال أبو ذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آخر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسل أبياً . فأقبل أبي على عمر رضي الله عنه فقال : يا عمر ، أتتهمني على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : يا

أبا المنذر ، لا والله ما اتهمتك عليه ، ولكني كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً . قال : وقال عمر رضي الله عنه للعباس رضي الله عنه : اذهب فلا أعرض لك في ذلك . فقال العباس رضي الله عنه : أما إذ فعلت هذا ، فإني تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم في مسجدهم ، فأما وأنت تخاصمني فلا . فخط له عمر رضي الله عنه

(317/449)

داره التي هي له اليوم وبناها من بيت مال المسلمين .

وأخرج ابن سعد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت للعباس دار بالمدينة فقال عمر – رضي الله عنه – هبها لي أو بعنيها حتى أدخلها في المسجد فأبى . قال اجعل بيني وبينك رجلاً من أصحاب رسول الله ، فجعلا أبي بن كعب رضي الله عنه بينهما ، فقضى أبي على عمر .

فقال عمر – رضي الله عنه – ما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أجرأ علي من أبي . قال : إذ أنصح لك يا أمير المؤمنين ، أما علمت قصة المرأة ؟ أن داود – عليه السلام – لما بنى بيت المقدس ، ادخل فيه بيت امرأة بغير إذنها ، فلما بلغ حجراً لرجال منع

بناءه ، فقال : أي رب ، إذ منعتني ففي عقبي من بعدي . فلما كان بعد قال له العباس – رضي الله عنه – أليس قد قضيت لي ؟ قال : بلى . قال : فهي لك قد جعلتها لله .

(318/449)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب ليزيد بها في المسجد ، فأبى العباس رضي الله عنه أن يعطيها إياه . فقال عمر – رضي الله عنه – لآخذنها . قال : فاجعل بيني وبينك أبي بن كعب . قال : نعم ، فأتيا أبياً فذكرا له ، فقال أبي – رضي الله عنه – أوحى الله إلى سليمان بن داود – عليه السلام – أن يبني بيت المقدس ، وكانت أرض لرجل فاشترى منه الأرض ، فلما أعطاه الثمن ، قال : الذي أعطيتني خير أم الذي أخذت مني ؟ قال : بل الذي أخذت منك . قال : فإني لا أجيز ، ثم اشتراها منه بشيء أكثر من ذلك ، فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً ، فاشترط عليه سليمان عليه السلام أني أبتاعها منك على حكمك ، ولا تسألني أيهما خير . قال : نعم . فاشتراها منه بحكمة ، فاحتكم إثني عشر ألف قنطار ذهباً ، فتعاظم ذلك سليمان أن يعطيه ، فأوحى الله إليه " إن كنت تعطيه من شيء هو لك فأنت أعلم ، وإن كنت تعطيه من رزقنا ، فأعطه حتى

يرضى " قال : ففعل . قال : وإني أرى أن عباساً رضي الله عنه أحق بداره حتى يرضى . قال العباس رضي الله عنه – فإذ قضيت ، فإني أجعلها صدقة على المسلمين .

وأخرج عبد الرزاق ، عن زيد بن أسلم قال : كان للعباس بن عبد المطلب دار إلى جنب مسجد المدينة ، فقال له عمر رضي الله عنه بعنيها . وأراد عمر أن يدخلها في المسجد ، فأبى العباس أن يبيعها إياه . فقال عمر رضي الله عنه : فهبها لي ، فأبى . فقال عمر : فوسعها أنت في المسجد . فأبى ، فقال عمر : لا بد لك من إحداهن ، فأبى عليه . قال : فخذ بيني وبينك رجلاً . فأخذا أبي بن كعب ، فاختصما إليه ، فقال أبي لعمر : ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه : فقال له عمر : أرأيت قضاءك هذا في كتاب الله ، أم سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال أبي : بل سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : وما ذاك ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس جعل كلما بنى حائطاً أصبح منهدماً ، فأوحى الله إليه " أن لا تبن في حق رجل حتى ترضيه " " فتركه عمر رضي الله عنه فوسعها العباس رضي الله عنه بعد ذلك في المسجد .

وأخرج الواسطي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : لما أمر الله تعالى داود أن يبني بيت المقدس قال : يا رب وأين أبنيه ؟ قال : " حيث ترى الملك شاهراً سيفه " قال : فرآه في ذلك المكان . فأخذ داود عليه السلام فأسس قواعده ورفع حائطه ، فلما ارتفع انهدم . فقال داود عليه السلام : يا رب ، أمرتني أن أبني لك بيتاً ، فلما ارتفع هدمته ! فقال : " يا داود إنما جعلت خليفتي في خلقي ، لم أخذته من صاحبه بغير ثمن ؟ إنه يبنيه رجل من ولدك " فلما كان سليمان عليه السلام ساوم صاحب الأرض بها . فقال له : هي بقنطار ، فقال له سليمان عليه السلام : قد استوجبتها ، فقال له صاحب الأرض : هي خير أم ذاك ؟ قال : لا ، بل هي خير ، قال : فإنه قد بدا لي . قال : أو ليس قد أوجبتها . قال : لا ، ولكن البيعان بالخيار ما لم يتفرقا . قال ابن المبارك – رضي الله عنه – هذا أصل الخيار . قال : فلم يزل يزايده ويقول له مثل قوله الأول حتى استوجبها منه بتسعة قناطير ، فبناه سليمان عليه السلام حتى فرغ منه ، وتغلقت أبوابه فعالجها سليمان عليه السلام أن يفتحها فلم تنفتح حتى قال في دعائه : بصلوات أبي داود إلا تفتحت الأبواب ، فتفتحت الأبواب . قال : ففرغ له سليمان – عليه السلام – عشرة آلاف من قراء بني إسرائيل ، خمسة آلاف بالليل ، وخمسة آلاف بالنهار ، ولا تأتي ساعة من ليل ولا نهار ، إلا والله عز وجل يعبد فيه .

وأخرج الواسطي ، عن الشيباني قال : أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود – عليه السلام – إنك لم تتم بناء بيت المقدس . قال أي رب ، ولم ؟ قال : لأنك غمرت يدك في الدم . قال : أي رب ، ولم يكن ذلك في طاعتك ؟ قال : بلى وإن كان .

وأخرج ابن حبان في الضعفاء ، والطبراني وابن مردويه والواسطي ، عن رافع بن عمير رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " " قال الله لداود عليه السلام : ابن لي بيتاً في الأرض " فبنى داود عليه السلام بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به . فأوحى الله إليه : " يا داود قضيت بيتك قبل بيتي " قال : يا رب ، هكذا قلت : من ملك استأثر ، ثم أخذ في بناء المسجد ، فلما تم السور سقط ثلث ، فشكا ذلك إلى الله . فأوحى الله إليه : " إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً " قال : ولم يا رب ؟ قال : لما جرى على يديك من الدماء ! قال : يا رب أو لم يكن ذلك في هواك ومحبتك ؟ قال : " بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم " فشق ذلك عليه ، فأوحى الله إليه " لا تحزن ، فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان " فلما مات داود عليه السلام ، أخذ سليمان في بنائه ، فلما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بني إسرائيل . فأوحى الله تعالى إليه : " قد أرى سرورك ببنيان بيتي ، فاسألني أعطك " قال : أسألك ثلاث خصال : حكماً يصادف حكمك ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه ، خرج من

ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " – أما الاثنتان فقد أعطيهما وأنا أرجو أن يكون قد أعطي الثالثة " " .

(321/449)

وأخرج الواسطي عن كعب ، قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : " ابن لي بيت المقدس : فعارضه ببناء له . فأوحى الله إليه " يا داود أمرتك أن تبني بيتاً لي فعارضته ببناء لك ليس لك أن تبنيه " قال : يا رب ، ففي عقبي . قال : في عقبك . فلما ولي سليمان – عليه السلام – أوحى الله إليه " أن ابن بيت المقدس " فبناه فلما كمل خرَّ ساجداً شاكراً لله تعالى . قال : يا رب ، من دخله من خائف فأمنه ، أو من داع فاستجب له ، أو مستغفر فاغفر له ، فأوحى الله إليه " أني قد خصصت لآل داود الدعاء " قال : فذبح أربعة آلاف بقرة ، وسبعة آلاف شاة ، وصنع طعاماً ودعا بني إسرائيل .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سليمان عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً ، فأعطاه اثنتين ، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة . سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله

ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد يعني بيت المقدس خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه " قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك " .

وأخرج ابن أبي شيبة والواسطي، عن عبد الله بن عمر قال : إن الحرم، لَحَرَم في السموات السبع بمقداره من الأرض . وإن بيت المقدس لمقدس في السموات السبع بمقداره من الأرض .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه، عن أبي سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى " .

وأخرج الواسطي ، عن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال : لما فرغ سليمان بن داود عليه السلام من بناء بيت المقدس ، أنبت الله له شجرتين عند باب الرحمة : إحداهما تنبت الذهب ، والأخرى تنبت الفضة . فكان في كل يوم ينتزع من كل واحدة مائتي رطل من ذهب وفضة ، ففرش المسجد بلاطة ذهباً ، وبلاطة فضة ، فلما جاء بختنصر ، خربه واحتمل منه ثمانين عجلة ذهباً وفضة فطرحه برومية .

وأخرج ابن عساكر ، عن يحيى بن عمرو الشيباني قال : لما بنى داود عليه السلام مسجد بيت المقدس ، نهى أن يدخل الرخام بيت المقدس ، لأنه الحجر الملعون ، فخر على الحجارة فلعن .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : تذاكرنا ونحن عند النبي - صلى الله عليه وسلم - أيهما أفضل ؟ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو مسجد بيت المقدس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه ، ولنعم المصلى ، وليوشكن أن يكون للرجل مثل بسط فرشه من الأرض ، حيث يرى منه بيت المقدس ، خير له من الدنيا جميعاً ، أو قال خير من الدنيا وما فيها " .

وأخرج الواسطي ، عن كعب رضي الله عنه قال : أن الله عز وجل ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين .

وأخرج الواسطي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال ، وهو ببيت المقدس : يا نافع ، أخرج بنا من هذا البيت ، فإن السيئات تضاعف فيه ، كما تضاعف الحسنات .

وأخرج الواسطي عن مكحول رضي الله عنه : أن ميمونة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس ، قال : " نعم المسكن بيت المقدس ، ومن صلى فيه صلاة بألف صلاة فيما سواه " قالت : فمن لم يطق ذلك ، قال فليهد إليه زيتاً .

(323/449)

وأخرج الواسطي ، عن مكحول رضي الله عنه قال : من صلى في بيت المقدس ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً وصبحاً ، ثم صلى الغداة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

وأخرج الواسطي ، عن كعب رضي الله عنه قال : شكا بيت المقدس إلى الله عز وجل الخراب ، فقيل : هل يتكلم المسجد ؟ فقال : إنه ما من مسجد إلا وله عينان يبصر بهما ، ولسان يتكلم به ، وإنه ليلتوي من البزاق والنجاسة كما تلتوي الدابة من ضرب السوط .

وأخرج الواسطي ، عن كعب في بيت المقدس : اليوم فيه كألف يوم ، والشهر فيه كألف شهر ، والسنة فيه كألف سنة ، ومن مات فيه فكأنما مات في السماء الدنيا .

وأخرج الواسطي ، عن الشيباني رضي الله عنه قال : ليس يعد من الخلفاء إلا من ملك

المسجدين المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ قال : أنبتنا حوله الشجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(324/449)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ عليه مستوفى أول البقرة . و " أَسْرى " و " سَرَى " لغتان ، وقد تقدَّم الكلام عليهما في سورة هود ، وأن بعضهم خَصَّ " أَسْرى " بالليل . قال الزمخشري هنا : " فإن قلتَ : الإِسراءُ لا يكون إلا ليلاً فما معنى ذِكْرِ الليلِ ؟ قلت : أراد بقوله " ليلاً " بلفظ التنكيرِ تقليلَ مدةِ الإِسراءِ ، وأنه أُسْرِي به في بعضِ الليلِ من مكةَ إلى الشام مسيرةَ أربعين ليلةً ؛ وذلك : أنَّ التنكيرَ دلَّ على البعضية ، ويَشْهد لذلك قراءةُ عبدِ الله وحذيفة " من الليل " ، أي : بعضه كقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ [الإِسراء : 79] . انتهى . فيكون " سَرى " و " أَسْرى " كـ " سَقَى " و " أَسْقى " والهمزةُ ليست

للتعديةِ، وإنما المُعَدِّى الباءُ في "بعبده"، وقد تقدَّم أنها لا تَقْتضي مصاحبةَ الفاعلِ للمفعول عند الجمهور، في البقرة خلافاً للمبرد.

وزعم ابنُ عطية أنَّ مفعولَ "أَسْرى" محذوف، وأنَّ التعديةَ بالهمزة فقال: "ويَظْهر أنَّ "أَسْرى" مُعَدَّاةٌ بالهمزةِ إلى مفعولٍ محذوف، أي: أَسْرى الملائكةُ بعبدِه، لأنه يَقْلَقُ أَنْ يُسْنَد "أسرى" وهو بمعنى "سرى" إلى الله تعالى؛ إذ هو فعلٌ يقتضي النَّقْلةَ كمشى وجرى وأحضر وانتقل، فلا يَحْسُنُ إسنادُ شيءٍ من هذا مع وجودِ مَنْدوحةٍ عنه، فإذا وقع في الشريعة شيءُ من ذلك تَأَوَّلْناه نحو: أَتَيْتُه هَرْوَلة".

(325/449)

قلت: وهذا كلُّه إنما بناه اعتقاداً على أن التعديةَ بالباء تَقْتضي مصاحبةَ الفاعلِ للمفعول في ذلك، وقد تقدَّم الردُّ على هذا المذهبِ في أول البقرة في قوله ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ [الآية: 20]. ثم جوَّز أن يكونَ "أَسْرى" بمعنى "سَرَى" على حَذْفِ مضافٍ كقولِه: ﴿ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: 17]، يعني فيكون التقدير: الذي أَسْرَى ملائكتُه بعبدِه، والحاملُ له على ذلك ما تقدَّم من اعتقاد المصاحبة.

قوله: "لَيْلاً" منصوب على الظرف. وقد تقدَّم فائدةُ تنكيرِه. و"من المسجد" لابتداء

الغاية .

قوله: حولَه "فيه وجهان، أظهرُهما: أنه منصوبٌ على الظرف، وقد تقدَّم تحقيقُ القولِ فيه أولَ البقرة. والثاني: انه مفعولٌ. قال أبو البقاء: "أي: طَيَّبْنا ونَمَّيْنا". يعني ضَمَّنه معنى ما يتعدَّى بنفسه، وفيه نظرٌ لأنه لا يَتَصَرَّف .

قوله: "لِنُرِيَه" قرأ العامَّة بنونِ العظمة جَرْياً على "بارَكْنا". وفيهما التفاتان: مِنَ الغَيْبة في قوله ﴿ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ إلى التكلُّم في "باركْنا" و "لِنُرِيَه"، ثم التفتَ إلى الغَيْبَة في قولِه "إنه هو" إنْ أَعَدْنا الضميرَ على الله تعالى وهو الصحيحُ، ففي الكلام التفاتان .

(326/449)

وقرأ الحسن "لِيُرِيَه" بالياء مِنْ تحتُ أي الله تعالى، وعلى هذه القراءةِ يكون في هذه الآية أربعةُ التفاتات: وذلك أنَّه التفت أولاً من الغَيْبة في قوله ﴿ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ إلى التكلم في قوله "باركْنا"، ثم التفت ثانياً من التكلمِ في "باركْنا" إلى الغيبة في "لِيُرِيَه" على هذه القراءة، ثم التفت بالياء من هذه الغَيْبة إلى التكلم في "آياتنا"، ثم التفت رابعاً من هذا التكلمِ إلى الغيبة في قوله "إنه هو" على الصحيح في الضميرِ أنَّه لله، وأمَّا على قولٍ نقله أبو البقاء أن الضمير في "إنه هو" للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلا يجيءُ ذلك، ويكون في قراءة

العامَّةِ التفاتٌ واحدٌ ، وفي قراءة الحسنِ ثلاثةٌ . وهذا موضعٌ غريبٌ ، وأكثرُ ما وَرَدَ الالتفاتُ [فيه] ثلاثُ مرات على ما قال الزمخشري في قولِ امرئ القيس :

3025- تطاوَلَ ليلُكَ بالإِثْمِدِ . . . .

. . .

الأبيات . وقد تقدَّم النزاعُ معه في ذلك ، وبعضُ ما يُجاب به عنه أولَ الفاتحة .

ولو ادَّعى مُدَّعٍ أنَّ فيها خمسةَ التفاتات لاحتاج في دَفْعِه إلى دليلٍ واضحٍ ، والخامس : الالتفاتُ مِنْ " إنَّه هو " إلى التكلم في قوله ﴿ وَآتَيْنَآ مُوسَى ﴾ الآية .

والرؤيةُ هنا بَصَرِيةٌ . وقيل : قلبية وإليه نحا ابن عطية ، فإنه قال : " ويُحْتمل أَنْ يريد : لِنُرِيَ محمداً للناس آيةً ، أي : يكون النبي صلى الله عليه وسلم آيةً في أَنْ يصنعَ اللهُ ببشرٍ هذا الصنعَ " فتكونُ الرؤيةُ قلبيةً على هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 305 308.﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى وتقدس: (بسم الله الرحمن الرحيم)

كلمة ما سمعها عابد إلا شكر عصمته، وما سمعها سالك إلا وجد رحمته، وما تحققها عارف إلا تعطر قبله بنسيم قربته، وما شهدها موحد إلا تقطر دمه لخوف فرقته.

قوله جل ذكره: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾

افتتح السورةَ بذِكْرِ الثناء على نَفْسه فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي ﴾ [الإسراء: 1]: الحقُّ سبَّحَ نَفْسَه بعزيزِ خطابِه، وأخبر عن استحقاقه لجلال قَدْرِه، وعن توحُّده بعلوِّ نعُوتِه.

ولمَّا أراد أَنْ يَعْرِفَ العبادُ خَصَّ به رسولَه - صلى الله عليه وسلم - ليلةَ المعراجِ من عُلوٍّ ما رقَّاه إليه، وعِظَمِ ما لَقَّاه به أزالَ الأُعْجوبةَ بقوله: ﴿ أَسْرَى ﴾، ونفى عن نبيِّه خَطَرَ الإعجاب بقوله: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾؛ لأَنَّ مَنْ عَرَفَ أُلوهيته، واستحقاقَه لكمالِ العِزِّ فلا يُتَعجَّبُ منه أن يفعل ما يفعل، ومَنْ عرف عبوديةَ نَفْسِه، وأَنَّه لا يَمْلِكُ شيئاً من أمره فلا يُعْجَبُ بحاله. فالآية أوضحت شيئَين اثنين: نَفَى التعجّبِ من إظهارِ فِعْلِ اللَّهِ عزَّ وجل، ونَفَى الإعجاب في وصف رسول الله عليه السلام.

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام - حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة - فقال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ [الأعراف: 143]، وأخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ وليس مَنْ جاءَ بنفْسِه كمَنْ أَسْرَى به ربُّه، فهذا مُحتَمَلٌ

وهذا محمول ، هذا بنعت الفَرْقِ وهذا بوصف الجمع ، هذا مُرِيدٌ وهذا مُرَادٌ .

ويقال جعل المعراجَ بالليل عند غَفْلَةِ الرُّقَبَاءِ وغَيْبَةِ الأجانب ، ومن غير ميعاد ، ومن غير تقديم أُهْبَةٍ واستعداد ، كما قيل :

ويقال جعل المعراجَ بالليل لِيُظْهِرَ تصديقَ مَنْ صَدَّقَ ، وتكذيبَ مَنْ تعجَّب وكَذَّبَ أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان تعبُّدُه صلى الله عليه وسلم وتهجُّدُه بالليل جَعَلَ الحقُّ سبحانه المعراجَ بالليلِ .

ويقال :

ليلةُ الوَصْلِ أَصْفَى . . . من شهور ودهور سواها .

ويقال أرسله الحقُّ - سبحانه - ليتعلم أهلُ الأرضِ منه العبادة ، ثم رقَّاه إلى السماءِ ليتعلَّمَ الملائكةُ منه آدابَ العبادة ، قال تعالى في وصفه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : 17] ، فما التَفَتَ يميناً وشمالاً ، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرام ؛ تجرَّد عن كلِّ طلبٍ وأَرَبٍ .

قوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ : كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشّفٌ بالذات . ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله – سبحانه – شيءٌ في جلالِهِ وجماله ، وعِزّه وكبريائه ، ومجده وسنائه .

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه – أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثْلَه في نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 333. 334 ﴾

(329/449)

كلام نفيس للعلامة الشيخ محمد الغزالى فى قصة الإسراء والمعراج.

قال عليه سحائب الرحمة والرضوان :

الإسراء والمعراج يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التى بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ، ما عقب هذه الرحلة من ارتفاع فى طباق السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه أحد ، ثم الأوبة ـ بعد ذلك ـ إلى المسجد الحرام بمكة . وقد أشار القرآن الكريم إلى كلتا الرحلتين فى سورتين مختلفتين . وذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله : (سبحان الذي

أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) [الإسراء :1] .

(330/449)

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله: (ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى) [النجم: 13- 18] . فتعليل الإسراء - كما نصت الآية - أن الله يريد أن يرى عبده بعض آياته . ثم أوضحت آيات المعراج ، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - شهد - بالفعل - بعض هذه الآيات الكبرى . وقد اختلف العلماء - من قديم - أكان هذا السرى الخارق بالروح وحده ، أم بالروح والجسد جميعا ؟ والجمهور على القول الأخير . وللدكتور هيكل رأى غريب فقد اعتبره استجماعا ذهنيا ونفسيا لوحدة الوجود من الأزل إلى الأبد فى فترة من فترات التألق النفسانى الفذ ، الذى اختص به بشر نقى جليل مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وفى إبان هذا التألق الذى استعلى به على كل شىء ، استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب والعقاب . . إلخ . فالإسراء حق . . وهو - عنده - روحى لا مادى ، ولكنه فى اليقظة لا فى المنام ، فليس رؤيا

صادقة كما يرى البعض ، بل هو حقيقة واقعة على النحو الذى صوره ، ثم قال فيه بعدئذ :

(وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية) . والحق . . أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية ، أخذت تضمحل وتزول ، وأن ما يراه الناس ميسورا فى عالم الروح ليس يستوعر فى عالم المادة . وأحسب أنه بعد ما مزق العلم من أستار عن أسرار الوجود ، فإن أمر المادة أضحى كأمر الروح ، لا يعرف مداه إلا قيوم السموات والأرض . وإن الإنسان ليقف مشدوها ، عندما يعلم أن الذرة تمثل فى داخلها نظام المجموعة الشمسية الدوارة فى الفلك ، صمانها – وهى هباءة تافهة – تكمن فيها حرارة هائلة ، عندما

أطلقت ، أحرقت الأخضر واليابس . إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أسرى به وعرج ، كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة الصوت كما اخترع الناس أخيرا ؟ لقد امتطى البراق – وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه ، كأنه يمشى بسرعة الضوء . وكلمة " براق " يشير اشتقاقها إلى البرق ، أى أن قوة الكهرباء سخرت فى هذه الرحلة . لكن الجسم – فى حالته المعتادة – يتعذر عليه النقل فى الآفاق بسرعة البرق الخاطف ،

لابد من إعداد خاص ، يحصن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد . وأحسب أن ما روى عن شق

الصدر ، وغسل القلب وحشوه ، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم . وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز ، ذات الدلالة التى تدق على السذج . إن الإسراء والمعراج ، وقعا للرسول – صلى الله عليه وسلم – بشخصه فى طور بلغ الروح فيه قمة الإشراق وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصَّى من أغلب القوانين التى تحكمه . واستكناه حقيقة هذه الرحلة ، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق ، مرتبط بإدراك العقل الإنسانى لحقيقة المادة والروح وما أودع الله فيهما من قوى وخصائص . ولذلك سنتجاوز هذا البحث إلى ما هو أيسر وأجدى ، أى إلى تسجيل المعالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة عامة وتشاريع محددة . وقصة الإسراء والمعراج ، تهمنا من هذه الناحية . ألم تر أن " علم النفس " لم يستبحر وينطلق إلا يوم تحرر من البحث فى الروح والخبط فى مدلولها ؟ * ** * لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة ؟ إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهورا طوالا ، وهى وقف على بنى

إسرائيل ، وظل بيت المقدس مهبط الوحي ، ومشرق أنواره على الأرض وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار . فلما أهدر اليهود كرامة الوحى وأسقطوا أحكام السماء ، حلت بهم لعنة الله ، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ! ومن ثم كان مجىء الرسالة إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - انتقالا بالقيادة الروحية فى العالم ، من أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد ، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل . وقد كان غضب اليهود مشتعلا لهذا التحول مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره: (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب) . لكن إرادة الله مضت وحملت الأمة الجديدة رسالتها وورث النبى العربى تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها ؟ فكان من وصل الحاضر بالماضى وإدماج الكل فى حقيقة واحدة :

أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين فى الإسلام وأن ينتقل إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى إسرائه فيكون هذا الانتقال احتراما للإيمان الذى درج - قديما - فى رحابه.

ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية فى هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا . صاحب الرسالة الخاتمة . إن النبوات يصدق بعضها بعضا ويمهد السابق منها للاحق ، وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بنى إسرائيل بذلك: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) . وفى السنة الصحيحة أن الرسول . صلى الله عليه وسلم . صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين فى المسجد الأقصى ، فكانت هذه الإمامة إقرارا مبينا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه ، أخذت تمامها على يد محمد بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين . والكشف عن منزلة محمد . صلى الله عليه وسلم . ودينه ، ليس مدحا يساق فى حفل تكريم ، بل هو بيان حقيقة مقررة فى عالم الهداية ، منذ تولت السماء إرشاد الأرض ، ولكنه جاء فى إبانه المناسب . فإن جهاد الدعوة الذى حمله محمد . صلى الله عليه وسلم . على كواهله ، عرضه لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء ، ومزق شمل أتباعه ، فما ذاقوا . مذ آمنوا به . راحة الركون إلى الأهل والمال . وكان آخر العهد بمشاق الدعوة ، طرد " ثقيف " له ، ثم دخوله البلد الحرام فى جوار مشرك . إن هوانه على الناس ، منذ دعاهم إلى الله ، جعله يجأر إلى رب الناس شاكيا راجيا . فمن تطمين الله له ، ومن نعمائه عليه أن يهئ له هذه الرحلة السماوية لتمس فؤاده المعنى ببرد الراحة وليشعر أنه بعين الله ، منذ قام

يوحده ويعبده ، ويعلم البشر توحيده وعبادته . كان يقول: "إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى " فالليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل ، وأن مكانته بين المصطفين

الأخيار ، موطدة مقدمة . إن الإسراء والمعراج يقعان قريبا من منتصف فترة الرسالة التى مكثت ثلاثة وعشرين عاما ، وبذلك كانا علاجا مسح متاعب الماضى ، ووضع بذور النجاح للمستقبل . إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى فى ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم فى توهين كيد الكافرين وتصغير جموعهم ومعرفة عقباهم . وقد عرف محمد - صلى الله عليه وسلم - فى هذه الرحلة أن رسالته ستنساح فى الأرض وتتوطن الأودية الخصبة فى النيل والفرات وتنزع هذه البقاع من مجوسية الفرس وتثليث الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلا فى أعقاب جيل ، وهذا معنى رؤية النيل والفرات فى الجنة وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبله .

لقد روى الترمذى مثلا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: " إذا أعطى أحدكم الريحان فلا يرده فإنه خرج من الجنة " . فهل ذلك يدل على أن الريحان من الجنة ونحن نقطف أزهاره من الحقول والحدائق ؟ حكمة الإسراء ذلك والله عز وجل يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادا إليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ويهاجمون سلطانهم القائم . فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته فأمره أن يلقى عصاه قال: (ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى) . فلما ملأ قلبه إعجابا بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد : (اذهب إلى فرعون إنه طغى) . وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى وربما تقول: إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثنى عشر عاما على عكس ما وقع لموسى . وهذا حق ، وسره ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق فى سير المرسلين الأولين قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة فهى تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء . وسيرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوق هذا المستوى . فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النهى من أول يوم ، وجاءت الخوارق فى طريق الرسول ضربا من التكريم لشخصه ، والإيناس له ، غير معكرة ، ولا معطلة للمنهج العقلى العادى الذى اشترعه القرآن .

وقد اقترح المشركون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرقى فى السماء ، فجاء الجواب من عند الله : (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) . فلما رقى فى السماء بعد ، لم يذكر قط أن ذلك رد على التحدى أو إجابة على الاقتراح السابق بل كان الأمر ـ كما قلنا ـ محض تكريم ومزيد إعلام من الله لعبده . إكمال البناء وفى قصة الإسراء والمعراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة ، وهذا المعنى من أصول الإسلام . (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) . والتحيات المتبادلة بين النبى وإخوته السابقين توثق هذه الآصرة . ففى كل سماء أحل الله فيها أحد رسله ، كان النبى يستقبل فيها بهذه الكلمة : مرحبا بالأخ الصالح ! والخلاف بين الأنبياء وهم صنعته الأم الجائرة عن السبيل السوى أو بالأحرى صنعه الكهان والمتاجرون بالأديان . أما محمد ، فقد أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذى تعهده من سبقوه ، ومنع الزلازل من تصعيده . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ! ويقولون هل وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم

النبيين " . والأديان المعتمدة على الوحى السماوى معروفة، وليس منها ـ بداهة ـ ما اصطنعه الناس لأنفسهم من أوثان وطقوس كالبرهمية والبوذية وغيرهما ، وليس منها كذلك ما ابتدع ـ أخيرا ـ من نحل احتضنها الاستعمار الغربى وكثر الأنصار حولها ، ليشدد الخناق على مقاتل الشرق ، ويعوق المسلمين الأحرار عن حطم قيوده ، وإنقاذ عبيده وذلك كالبهائية والقاديانية . ومن الممكن ـ لو خلصت النيات ونشد الحق ـ أن توضع أسس عادلة لوحدة دينية ، تقوم على احترام المبادئ المشتركة وإبعاد الهوى عن استغلال الفروق الأخرى ، إلى أن تزول على الزمن ، أو تنكسر حدتها . والإسلام الذى تعد

تعاليمه امتدادا للنبوات الأولى ، ولبنة مضافة إلى بنائها العتيد أول من يرحب بهذا الاتجاه ويزكيه .

سلامة الفطرة وفى ليلة الإسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهى أنه دين الفطرة . ففى الحديث : (. . ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن . فأخذت اللبن . قال : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك " . إن سلامة الفطرة لب الإسلام ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل القلب . إن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل إلا قذرا

وسوادا . وربما أخفى هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ، ومظاهر مزوقة . ويوم تكون العبادات ـ نفسها ـ ستارا لفطرة فاسدة فإن هذه العبادات الخبيثة ، تعتبر أنزل رتبة من المعاصى الفاجرة . والناس كلما تقدمت بهم الحضارات ، أمعنوا فى التكلف والمصانعة ، وقيدوا أنفسهم بعبادات وتقاليد قاسية . وأكثر هذه التكلفات حجب تطمس وهج الفطرة وتعكر نقاوتها وطلاقاتها . وليس أبغض إلى الله من أن تفترى هذه القيود باسم الدين وأن تترك النفوس فى سجونها ، مغلولة كئيبة . فرض الصلاة وفى المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت فى السماء لتكون معراجا يرقى بالناس ، كما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا . والصلوات التى شرع الله غير الصلوات التى يؤديها ـ الآن ـ كثير من الناس . وعلامة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنايا ، وأن تخجله من البقاء عليها إن ألم بشىء منها . فإذا كانت الصلاة ـ مع تكرارها ـ لا ترفع إلى هذه الدرجة فهى صلاة كاذبة . الصلاة طهور كما جاء فى السنة ، إلا أنها طهور للإنسان الحى ، لا للجثة العفنة .

إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحى من غبار عارض ، والأعراض التى تلحق المرء فى الحياة فتصدئ قلبه كثيرة ومطهراتها أكثر ! وفى الحديث: " فتنة الرجل من أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " . أما أصحاب القلوب الميتة فالصلاة لا تجديهم فتيلا . . ولن يزالوا كذلك حتى تحيا قلوبهم أو يواريها الثرى . . * * * وقد رويت سنن ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى فى هذه الرحلة صورا شتى لأجزية الصالحين والطالحين ، وتناقلت كتب السيرة رواية هذه الصور الجليلة على أنها وقعت ليلة الإسراء و المعراج . والحق أن ذلك كان رؤيا منام فى ليلة أخرى من الليالى المعتادة كما ثبت ذلك فى الصحاح . قريش والإسراء فلما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله الناس بما تم له وما شهد من آيات ربه الكبرى . والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض ، أتراهم يصدقون به فى السماء ؟ لقد طاروا يجمع بعضهم بعضا ليسمع هذه الأعجوبة فيزداد إنكارا لرسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وريبة من أمره . وتحداه بعضهم أن يصف بيت المقدس ، إن كان رآه هذه الليلة حقا ؟

عن جابر رضى الله عنه ، قال رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لما كذبتنى قريش ، قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته ، وأنا أنظر إليه " ! .

ويقول الدكتور هيكل : " أحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح فى هذا لما رأوا فيه عجبا ، بعد الذى عرف العلم فى وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى للتحدث عن أشياء واقعة فى جهات نائية . فما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية فى الكون كله ؟ ويستطيع ـ بما وهب الله له من قوة ـ أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده " ! ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمعرفة الطريقة التى تم بها الإسراء والمعراج ، كلا الأمرين حق ، ترك ثماره فى نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستراح إلى حمد الخالق ، وقل اكتراثه لذم الهمل من الجاحدين والجاهلين ، ثم نشط إلى متابعة الدعوة ، موقنا أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب . ويزعم بعض الكتاب أن فريقا من المسلمين ارتد عقب الإسراء والمعراج إنكارا لهما . بل يزيد الدكتور " هيكل " أن المسلمين تضعضعوا على أثر انتشار القصة على الأفواه ، واستبعاد المشركين لوقوعها . وهذا كله خطأ ، فلا الآثار التاريخية تدل عليه ، ولا الاستنتاج الحصيف ينتهى به ، ولا ندرى كيف يقال هذا ؟ مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نهجه القديم ينذر بالوحى كل من يلقى ، ويخوض ـ بدعوته ـ المجامع ويغشى المواسم ، ويتبع الحجيج فى منازلهم ، ويغبر قدميه إلى أسواق " عكاظ " و " مجنة " و " ذى الحجاز " داعيا الناس إلى نبذ الأوثان ، والاستماع إلى هدى القرآن ، وكان

يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويمنعوه . وكان عمه أبو لهب يمشى وراءه ويقول: لا تطيعوه فإنه صابئ وكذاب ! فيكون جواب القبائل: أسرتك وعشيرتك أعلم بك ! ثم يردونه أقبح الرد . ومن القبائل التى أتاها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعاها إلى الله ، فأبت الاستجابة له: "

فزارة" و "غسان" و "مرة"

و"حنيفة" و "سليم" و "عبس" و "بنو النضير! و "كندة" و! كلب" و"عذرة" و "الحضارمة" و "بنو عامر بن صعصعة" و "محارب بن حفصة" . . إلخ. ما وجد فى هؤلاء قلبا مفتوحا ، ولا صدرا مشروحا ، بل كان الراحلون والمقيمون يتواصون بالبعد عنه ، ويشيرون إليه بالأصابع . وكان الرجل يجىء من الآفاق البعيدة فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام قريش لا يفتنك ! ! مع ذلك فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الجو القابض ـ لم يخامر اليأس قلبه ، واستمر ـ مثابرا ـ فى جهاد الدعوة حتى تأذن الحق ـ أخيرا ـ بالفرج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فقه السيرة صـ 120.119 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 2 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 8 ﴾ من نفس السورة

(4/450)

قوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبت بهذه الخارقة ما أخبر به عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة على كل ما يريد ، وما حباه صلى الله عليه وعلى آله وسلم به من الآيات البينات في هذا الوقت اليسير ، أتبعه ما منح في المسير من مصر إلى الأرض المقدسة من الآيات في مدد طوال جداً موسى عليه السلام الذي كان أعظم الأنبياء بركة على هذه الأمة ليلة الإسراء لما أرشد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه من مراجعة الله تعالى في تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين إلى خمس مع أجر خمسين ، والذي كان أنهى العروج به إذ ناجاه الله وقربه رأس

جبل الطور بعد الأمر بالرياضة بالصوم والتخلي أربعين يوماً ، والذي تقدم في آخر النحل أن قومه اختلفوا عليه في السبت ، تنفيرا من مثل حالهم ، وتسلية عمن تبعهم في تكذيبهم وضلالهم ، وذلك في سياق محذر للمكذبين عظائم البلاء ، فقال تعالى - عاطفاً على ما تقديره ، فآتينا عبدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم الكتاب المفصل المعجز ، وجعلناه هدى للخلق كافة ، وتولينا حفظه فكان آية باقية حافظاً لدينه دائماً :

﴿ وءاتينا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي الجامع لخيري الدارين لتقواه وإحسانه ، معظماً له بنون العظمة ، فساوى بين النبيين في تعظيم الإراءة والإيتاء وخص محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم بإضافة آياته إلى مظهر العظمة ، وكان إيتاء موسى عليه السلام الكتاب في نيف وأربعين سنة بعد أن أخرج معه بني أسرائيل من حبائل فرعون وجنوده الذين كانوا لا يحصون كثرة بتلك الآيات الهائلة التي لا يشك عاقل أن من قدر عليها لا يمتنع عليه شيء أراده ، وفي هذه المدة الطويلة - بل بزيادة - كان وصول بني إسرائيل من مصر إلى هذا المسجد الذي أوصلنا عبدنا إليه ورددناه إليكم في بعض ليلة راكباً البراق الذي كان يركبه الأنبياء قبله ، يضع حافره في منتهى طرفه ، وبنو إسرائيل كانوا يسيرون جميع النهار مجتهدين ثم يبيتون في الموضع الذي أدلجوه منه في التيه لا

يقدرون أن يجوزوه أربعين سنة – على ما قال كثير من العلماء ، أو أنهم كانوا في هذه المدة يدورون حول جبل أدوم كما في التوراة ، فثبت أنا إنما نفعل بالاختيار على حسب ما نراه من الحكم ، ثم ذكره ثمرة كتاب موسى عليه السلام فقال تعالى : ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب ، بما لنا من العظمة ﴿ هدى ﴾ .

(6/450)

ولما كان هذا التنوين يمكن أن يكون للتعظيم يستغرق الهدى ، بين الحال بقوله : ﴿ لبني إسرائيل ﴾ بالحمل على العدل في التوحيد والأحكام ، وأسرينا بموسى عليه السلام وبقومه من مصر إلى بلاد المسجد الأقصى ، فأقاموا سائرين إليها أربعين سنة ولم يصلوا ، ومات كل من خرج منهم من مصر إلا " النقيبين الموفيين " بالعهد ، فقد بان الفصل بين الإسرائين كما بان الفصل بين الكتابين ، فذكر الإسراء أولاً دليل على حذف مثله لموسى عليه السلام ثانياً ، وذكر إيتاء الكتاب ثانياً دليل على حذف مثله أولاً ، فالآية من الاحتباك ؛ ثم نبه على أن المراد من ذلك كله التوحيد اعتقاداً وعبادة بقوله تعالى : ﴿ ألا ﴾ أي لئلا ﴿ تتخذوا ﴾ بالياء التحتية في قراءة أبي عمرو ، وبالفوقانية في قراءة الباقين ، فنبه بصيغة الافتعال على

أنه - لكثرة ما على وحدانيته من الدلائل ، وله إلى خلقه من المزايا والفضائل - لا يعدل عنه إلى غيره إلا بتكلف عظيم من النفس ، ومنازعة بين الهوى والعقل وما فطر سبحانه عليه النفوس من الانقياد إليه والإقبال عليه ، ونفر من له همة علية ونفس أبية من الشرك بقوله منبهاً بالجار على تكاثر الرتب دون رتبة عظمته سبحانه وعد الاستغراق لها ، تاركاً نون العظمة للتنصيص على المراد من دون لبس بوجه : ﴿ من دوني ﴾ وقال تعالى :

﴿ وكيلاً ﴾ أي رباً يكلون أمورهم إليه ويعتمدون عليه من صنم ولا غيره ، لتقريب إليه بشفاعة ولا غيرها - منبهاً بذكر الوكالة على سفه آرائهم في ترك من يكفي في كل شيء إلى من لا كفاية عنده لشيء ، ثم أتبعه ما يدل على شرفهم بشرف أبيهم ، وأنه لم ينفعهم إدلاءهم إليه - عند إرادة الانتقام - بما ارتكبوا من الإجرام ، فقال - منبهاً على الاهتمام بالتوحيد والأمر بالإخلاص بالعود إلى مظهر العظمة حيث لا لبس ، ناصباً على الاختصاص في قراءة أبي عمرو ، وعلى النداء عند الباقين ، تذكيراً بنعمة الإنجاء من الغرق : ﴿ ذرية من حملنا ﴾ أي في السفينة

بعظمتنا ، على ظهر ذلك الماء الذي طبق ما تحت أديم السماء ، ونبه على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى : ﴿ مع نوح ﴾ أي من أولاده وأولادهم الذين أشرفهم إبراهيم الذي كان شاكراً ثم إسرائيل عليهما السلام ، لأن الصحيح أن من كان معه من غيرهم ماتوا ولم يعقبوا ، ولم يقل : ذرية نوح ، ليعلم أنهم عقب أولاده المؤمنين لتكون تلك منة أخرى ؛ ثم نبه على تقواه وإحسانه حثاً على الاقتداء به بقوله : ﴿ إنه كان ﴾ أي كوناً جبلياً ﴿ عبداً شكوراً ﴾ أي مبالغاً في الشكر الذي هو صرف جميع ما أنعم الله به فيما خلقه له فأحسن إليه لشكره بأن جعل في ذريته النبوة والكتاب كما فعل بإبراهيم عليه السلام لأنه كان شاكراً ، فاقتدوا بهذين الأبوين العظيمين في الشكر يزدكم ، ولا تقلدوا غيرهما في الكفر يعذبكم ، وخص نوحاً عليه السلام لأنه ما أملى لأحد ما أملى لقومه ولا أمهل أحداً ما أمهلهم ، ثم أهلكهم أجمعين كما أومأ إليه قوله ﴿ حملنا ﴾ إهلاك نفس واحدة ، ثم أذهب الماء بعد إغراقهم بالتدريج في مدة طويلة ، فثبت أنه منزه عن العجلة ، وأنه سبحانه تارة يفعل الأمور الكثيرة الشاقة في أسرع وقت ، وترة يعمل ما هو دونها في أزمان طوال ، فبان كالشمس أنه إنما يفعل على حسب ما يريد مما تقتضيه حكمته ؛ روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ قال : أتي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مما ذلك ؟ يجمع الله الناس : الأولين والآخرين في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم

البصر ، وتدنو الشمس ، فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فذكر حديث الشفاعة العظمى وإتيانهم الأنبياء آدم وبعده أولي العزم عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم يقولون لنوح عليه السلام : وقد سماك الله عبداً

(8/450)

شكوراً ، وكلهم يتبرأ ويحيل على من بعده إلى أن وصل الأمر نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربنا ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ! ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع ! فأرفع رأسي فأقول : أمتي يا رب أمتي يا رب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسي بيده ! إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 333. 335 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن الكلام في الآية التي قبل هذه الآية ، وفيها انتقل من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ، لأن قوله : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى ﴾ فيه ذكر الله على سبيل الغيبة وقوله : ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ يدل على الغيبة وقوله : ﴿ وَءاتَيْنَآ مُوسَى الكتاب ﴾ الخ يدل على الحضور وانتقال الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس يسمى صنعة الالتفات .

المسألة الثانية :

ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أسرى به ، وذكر في

هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه فقال : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ يعني التوراة : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى ﴾ أي يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق وقوله : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : قرأ أبو عمرو : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ ﴾ بالياء خبراً عن بني إسرائيل والباقون بالتاء على الخطاب ، أي قلنا لهم لا تتخذوا .

البحث الثاني : قال أبو علي الفارسي : إن قوله : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون (أن) ناصبة للفعل فيكون المعنى : وجعلناه هدى لئلا تتخذوا .

وثانيها : أن تكون (أن) بمعنى أي التي للتفسير وانصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قراءة العامة كما انصرف منها إلى الخطاب .

والأمر في قوله : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ [ص : 6] فكذلك انصرف من الغيبة إلى النهي في قوله : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ ﴾ .

وثالثها : أن تكون (أن) زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمر والتقدير : وجعلناه هدى لبني إسرائيل فقلنا لا تتخذوا من دوني وكيلاً .

البحث الثالث : قوله : ﴿ وَكِيلاً ﴾ أي رباً تكلون أموركم إليه .

أقول حاصل الكلام في الآية : أنه تعالى ذكر تشريف محمد صلى الله عليه وسلم بالإسراء ، ثم ذكر عقيبه تشريف موسى عليه الصلاة والسلام بإنزال التوراة عليه ، ثم وصف التوراة بكونها هدى ، ثم بين أن التوراة إنما كان هدى لاشتماله على النهي عن اتخاذ غير الله وكيلاً ، وذلك هو التوحيد ، فرجع حاصل الكلام بعد رعاية هذه المراتب أنه لا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا منقبة أعظم من أن يصير المرء غارقاً في بحر التوحيد وأن لا يعول في أمر من الأمور إلا على الله ، فإن نطق ، نطق بذكر الله ، وإن تفكر ، تفكر في دلائل تنزيه الله تعالى ، وإن طلب طلب من الله ، فيكون كله لله وبالله ، ثم قال : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ وفي نصب ﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ وجهان :

الوجه الأول : أن يكون نصباً على النداء يعني : يا ذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لأنه قال : هذا نداء قال الواحدي : وإنما يصح هذا على قراءة من قرأ بالتاء كأنه قيل لهم : لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة قال قتادة : الناس كلهم ذرية نوح لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين : سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك ، فكان قوله : يا ذرية من حملنا مع نوح ، قائماً مقام قوله : ﴿ أَيُّهَا الناس ﴾ .

الوجه الثاني : في نصب قوله : ﴿ ذُرِّيَّة ﴾ أن الاتخاذ فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً ﴾ [النساء : 125] والتقدير : لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً ، ثم إنه تعالى أثنى على نوح فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : 3] أي كان كثير الشكر ، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أكل قال : " الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني " وإذا شرب قال : " الحمد لله الذي أسقاني ولو شاء أظمأني " وإذا اكتسى قال : " الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني " وإذا احتذى قال : " الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني " وإذا قضى حاجته قال : " الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه " وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجاً آثره به .

فإن قيل : قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ما وجه ملايمته لما قبله ؟

قلنا : التقدير كأنه قال : لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي ، لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام كان عبداً شكوراً ، وإنما يكون العبد شكوراً لو كان موحداً لا يرى حصول شيء

من النعم إلا من فضل الله وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام ، كما أن آباءكم اقتدوا به ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 122 . 124 ﴾

(12/450)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾

يعني التوراة .

﴿ وجعلناه هدًى لبني إسرائيل ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن موسى هدى لبني إسرائيل .

الثاني : أن الكتاب هدى لبني إسرائيل .

﴿ ألاّ تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : شريكاً ، قاله مجاهد .

الثاني : يعني ربّاً يتوكلون عليه في أمورهم ، قاله الكلبي .

الثالث : كفيلاً بأمورهم ، حكاه الفراء .

قوله عز وجل : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ يعني موسى وقومه من بني إسرائيل ذرية من

حملهم الله تعالى مع نوح في السفينة وقت الطوفان .

﴿ إنّه كان عبداً شكوراً ﴾ يعني نوحاً ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه سماه شكوراً لأنه كان يحمد الله تعالى على طعامه ، قاله سلمان .

الثاني : أنه كان يستجد ثوباً إلا حمد الله تعالى عند لباسه ، قاله قتادة .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : أن نوحاً كان عبداً شكوراً فجعل الله تعالى موسى من ذريته .

الثاني : أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله تعالى من ذرية نوح. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/450)

وقال ابن عطية :

﴿ وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ﴾

(14/450)

عطف قوله : ﴿ وآتينا ﴾ على ما في قوله ﴿ أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] من تقدير الخبر ، كأنه قال أسرينا بعبدنا وأريناه آياتنا ، و ﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، والضمير في ﴿ جعلناه ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ الكتاب ﴾ ويحتمل أن يعود على ﴿ موسى ﴾ .

وقوله ﴿ ألا تتخذوا ﴾ يجوز أن تكون " أن " في موضع نصب بتقدير كراهية أن موضع خفض بتقدير لأن لا تتخذوا ، ويجوز أن تكون " أن " مفسرة بمعنى أي كما قال ﴿ أن امشوا واصبروا ﴾ [ص : 6] فهي في هذا مع أمر موسى وهي في آياتنا هذه مع نهي ، والمعنى مع هذه التقديرات فعلنا ذلك لئلا تتخذوا يا ذرية ، ويحتمل أن يكون ﴿ ذرية ﴾ مفعولاً ، ويحتمل أن تكون " أن " زائدة ويضمر في الكلام قول تقديره قلنا لهم : لا تتخذوا ، وأما أن يضمر القول ولا تجعل " أن " زائدة فلا يتجه ، لأن ما بعد القول إما يكون جملة تحكى ، وإما أن يكون ترجمة عن كلام لا هو بعينه ، فيعمل القول في الترجمة كما تقول لمن قال : لا إله إلا الله قلت حقاً ، وقوله : ﴿ ألا تتخذوا ﴾ ليس بواحد من هذين ، قاله أبو علي وقرأ جمهور الناس " تتخذوا " بالتاء على المخاطبة ، وقرأ أبو عمرو وحده " ألا يتخذوا " بالياء على لفظ الغائب ، وهي قراءة بن عباس ومجاهد وقتادة وعيسى وأبي رجاء ، و " الوكيل " هنا فعيل من التوكل أي متوكلاً عليه في الأمور ، فهو ند لله بهذا الوجه ، قال مجاهد ﴿ وكيلاً ﴾ شريكاً ، وقرأ جمهور الناس " ذُرية " بضم الذال وقرأ مجاهد بفتحها ، وقرأ زيد بن ثابت وأبان بن عثمان ومجاهد أيضاً بكسرها ، وكل هذا بشد الراء والياء ، ورويت

عن زيد بن ثابت بفتح الذال وتسهيل الراء وشد الياء على وزن فعيلة ، و ﴿ ذرية ﴾ وزنها فعولة ، أصلها ذرورة ، أبدلت الراء الثانية ياء كما قالوا قصيت شعري أي قصصته ، ثم قلبت الواو ياء وأدغمت ثم كسرت الراء لتناسب الياء ، وكل هؤلاء قرؤوا ﴿ ذرية ﴾ بالنصب ، وذلك متجه إما على المفعول ب " يتخذوا " ويكون المعنى أن لا

(15/450)

يتخذ بشر إلهاً من دون الله ، وإما على النداء أي يا ذرية ، فهذه مخاطبة للعالم ، قال قوم : وهذا لا يتجه إلا على قراءة من قرأ " تتخذوا " بالتاء من فوق ، ولا يجوز على قراءة من قرأ " ويتخذوا " بالياء لأن الفعل الغائب والنداء لمخاطب والخروج من الغيبة إلى الخطاب إنما يستسهل مع دلالة الكلام على المراد ، وفي النداء لا دلالة إلا على التكلف ، وإما على النصب بإضمار أعني وذلك متجه على القراءتين على ضعف النزعة في إضمار أعني ، وإما على البدل من قوله ﴿ وكيلاً ﴾ وهذا أيضاً فيه تكلف ، وقرأت فرقة " ذريةٌ " بالرفع على البدل من الضمير المرفوع في " يتخذوا " وهذا إنما يتوجه على القراءة بالياء ، ولا يجوز على القراءة بالتاء لأنك لا تبدل من ضمير مخاطب لو قلت : ضربتك زيداً على البدل لم يجز ، وقوله : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ إنما عبر بهذه العبارة عن الناس الذين عناهم في الآية

بحسب الخلاف المذكور لأن في هذه العبارة تعديد النعمة على الناس في الإنجاء المؤدي إلى وجودهم ، ويقبح الكفر والعصيان مع هذه النعمة ، والذين حملوا مع نوح وأنسلوا هم بنوه لصلبه لأنه آدم الأصغر ، وكل من على الأرض اليوم من نسله هذا قول الجمهور ذكره الطبري عن قتادة ومجاهد وإن كان معه غيرهم فلم ينسل قال النقاش : اسم نوح عبد الجبار ، وقال ابن الكلبي : اسمه فرج ، ووصفه ب " الشكر " لأنه كان يحمد الله في كل حال وعلى كل نعمة على المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك صلى الله عليه وسلم ، قاله سلمان الفارسي وسعيد بن مسعود وابن أبي مريم وقتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(16/450)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ ل

مَّا ذكر في الآية الأولى إِكرام محمد صلى الله عليه وسلم ، ذكر في هذه كرامة موسى .

و﴿ الكتاب ﴾ : التوراة .

﴿ وجعلناه هدىً لبني إِسرائيل ﴾ أي : دللناهم به على الهدى .

﴿ ألاَّ تتخذوا ﴾ قرأ أبو عمرو : "يتخذوا" بالياء ، والمعنى : هديناهم لئلا يتخذوا .

وقرأ الباقون بالتاء ، قال أبو علي : وهو على الانصراف إلى الخطاب بعد الغَيْبَة ، مثل ﴿ الحمد لله ﴾ ثم [قال] ﴿ إِياك نعبد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وكِيلاً ﴾ قال مجاهد : شريكاً .

وقال الزجاج : ربّاً .

قال ابن الأنباري : وإنما قيل للربِّ : وكيل ، لكفايته وقيامه بشأن عباده ، من أجل أَن الوكيل عند الناس قد عُلم أَنه يقوم بشؤون أصحابه ، وتفقُّد أمورهم ، فكان الرب وكيلاً من هذه الجهة ، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكِّل وانحطاط أمر الوكيل .

قوله تعالى : ﴿ ذرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا ﴾ قال مجاهد : هو نداء : يا ذرية من حملنا .

قال ابن الأنباري : من قرأ : "ألاَّ تتخذوا" بالتاء ، فإنه يقول : بعد الذرية مضمر حُذفَ اعتماداً على دلالة ما سبق ، تلخيصه : يا ذرية من حملنا مع نوح لا تتخذوا وكيلاً ، ويجوز أن يستغني عن الإِضمار بقوله : ﴿ إِنه كان عبداً شكوراً ﴾ لأنه بمعنى : اشكروني كشكره .

ومن قرأ : "لا يتخذوا" بالياء ، جعل النداء متصلاً بالخطاب ، و"الذرية" تنتصب بالنداء ، ويجوز نصبها بالاتخاذ على أنها مفعول ثانٍ ، تلخيص الكلام : أن لا يتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلاً .

قال قتادة : الناس كلُّهم ذرِّيَّة من أنجى الله في تلك السفينة .

قال العلماء : ووجه الإِنعام على الخَلْق بهذا القول ، أنهم كانوا في صلب من نجا .

قوله تعالى : ﴿ إِنه كان عبداً شكوراً ﴾ قال سلمان الفارسي : كان إِذا أَكل قال : "الحمد لله" وإِذا شرب قال : "الحمد لله" .

وقال غيره : كان إِذا لبس ثوباً قال : "الحمد لله" فسمَّاه الله عبداً شكوراً . انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(17/450)

وقال القرطبى :

﴿ وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ﴾

أي كَرّمنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة .

﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي ذلك الكتاب .

وقيل موسى .

وقيل معنى الكلام : سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً وآتى موسى الكتاب ؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز .

وقيل : إن معنى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ، معناه أسرينا ، يدل عليه ما بعده من قوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ فحمل "وآتينا موسى الكتاب" على المعنى .

﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ قرأ أبو عمرو "يتخذوا" بالياء .

الباقون بالتاء .

فيكون من باب تلوين الخطاب .

﴿ وَكِيلاً ﴾ أي شريكاً ؛ عن مجاهد .

وقيل : كفيلاً بأمورهم ؛ حكاه الفراء .

وقيل : ربًّا يتوكّلون عليه في أمورهم ؛ قاله الكلبي .

وقال الفراء : كافيا ؛ والتقدير : عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً .

وقيل : التقدير لئلا تتخذوا .

والوكيل : من يُوكَل إليه الأمر .

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾

أي يا ذرية من حملنا ، على النداء ؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبي نَجيح .

والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن ، وهم جميع مَن على الأرض ؛ ذكره المهدوِيّ .

وقال الماوَرْدِيّ : يعني موسى وقومه من بني إسرائيل ، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا .

وذكر نوحاً ليذكّرهم نعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم .

وروى سفيان عن حُميد عن مجاهد أنه قرأ "ذَرِّيّة" بفتح الذال وتشديد الراء والياء .

وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد بن ثابت .

ورُوي عن زيد بن ثابت أيضاً "ذِرِيّة" بكسر الذال وشدّ الراء والياء .

ثم بين أن نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده .

(18/450)

قال قتادة : كان إذا لبس ثوباً قال : بسم الله ، فإذا نزعه قال : الحمد لله .

كذا روى عنه معمر .

وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال : شكره إذا أكل قال : بسم الله ، فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله .

قال سلمان الفارسي : لأنه كان يحمَد الله على طعامه .

وقال عمران بن سليم : إنما سمي نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني ، وإذا احتذى قال : الحمد لله

الذي حذاني ولو شاء لأحفاني ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه فيّ .

ومقصود الآية : إنكم من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال .

وقيل : المعنى أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله الله من ذرية نوح .

وقيل : يجوز أن يكون "ذرية" مفعولاً ثانياً ل "تتخذوا" ، ويكون قوله : "وكيلا" يراد به الجمع فيسوغ ذلك في القراءتين جميعاً أعني الياء والتاء في "تتخذوا" .

ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون "ذرية" بدلاً من قوله "وكيلاً" لأنه بمعنى الجمع ؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح .

ويجوز نصبها بإضمار أعني وأمدح ، والعرب قد تنصب على المدح والذم .

ويجوز رفعها على البدل من المضمر في "تتخذوا" في قراءة من قرأ بالياء ؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب .

ويجوز جرها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين .

فأما "أنْ" من قوله "ألا تتخذوا" فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا .

ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدّم .

ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي ، لا موضع لها من الإعراب ، وتكون "لا" للنهي فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(19/450)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تشريف الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالإسراء وإراءته الآيات ذكر تشريف موسى بإيتائه التوراة ﴿ وآتينا ﴾ معطوف على الجملة السابقة من تنزيه الله تعالى وبراءته من السوء ، ولا يلزم من عطف الجمل المشاركة في الخبر أو غيره .

وقال ابن عطية : عطف قوله وآتينا على ما في قوله أسرى بعبده من تقدير الخبر كأنه قال : أسرينا بعبدنا وأريناه آياتنا وآتينا .

وقال العكبري وآتينا معطوف على أسرى انتهى .

وفيه بعد و﴿ الكتاب ﴾ هنا التوراة ، والظاهر عود الضمير من وجعلناه على الكتاب ، ويحتمل أن يعود على موسى ، ويجوز أن تكون أن تفسيرية ولا نهي وأن تكون مصدرية تعليلاً أي لأن لا يتخذوا ولا نفي ، ولا يجوز أن تكون أن زائدة ويكون لا تتخذوا معمولاً لقول محذوف خلافاً لمجوز ذلك إذ ليس من مواضع زيادة أن .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وقتادة وعيسى وأبو رجاء وأبو عمرو من السبعة : يتخذوا بالياء على الغيبة وباقي السبعة بتاء الخطاب ، والوكيل فعيل من التوكل أي متوكلاً عليه .

وقال الزمخشري رباً تكلون إليه أموركم .

وقال ابن جرير : حفيظاً لكم سواي .

وقال أبو الفرج بن الجوزي : قيل للرب وكيل لكفايته وقيامه بشؤون عباده ، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل انتهى .

وانتصب ﴿ ذرية ﴾ على النداء أي يا ذرّية أو على البدل من وكيلاً ، أو على المفعول الثاني ليتخذوا ووكيلاً وفي معنى الجمع أي لا يتخذوا وكلاء ذرية ، أو على إضمار أعني .

وقرأت فرقة ذرية بالرفع وخرج على أن يكون بدلاً من الضمير في يتخذوا على قراءة من قرأ بياء الغيبة .

وقال ابن عطية : ولا يجوز في القراءة بالتاء لأنك لا تبدل من ضمير مخاطب لو قلت ضربتك زيداً على البدل لم يجز انتهى .

وما ذكره من إطلاق إنك لا تبدل من ضمير مخاطب يحتاج إلى تفصيل ، وذلك أنه إن كان في بدل بعض من كل وبدل اشتمال جاز بلا خلاف ، وإن كان في بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة وإن كان يفيد التوكيد جاز بلا خلاف ، نحو : مررت بكم صغيركم وكبيركم وإن لم يفد التوكيد ، فمذهب جمهور البصريين المنع ومذهب الأخفش والكوفيين الجواز وهو الصحيح لوجود ذلك في كلام العرب ، وقد استدللنا على صحة ذلك في شرح كتاب التسهيل ، وذكر من حملنا مع نوح تنبيهاً على النعمة التي نجاهم بها من الغرق .

وقرأ زيد بن ثابت وأبان بن عثمان وزيد بن عليّ ومجاهد في رواية بكسر ذال ذرية .

وقرأ مجاهد أيضاً بفتحها .

وعن زيد بن ثابت ذرية بفتح الذال وتخفيف الراء وتشديد الياء على وزن فعليه كمطيه .

والظاهر أن الضمير في أنه عائد على نوح .

قال سلمان الفارسي : كان يحمد الله على طعامه .

وقال إبراهيم شكره إذا أكلَّ قال : بسم الله ، فإذا فرغ قال : الحمد لله .

وقال قتادة : كان إذا لبس ثوباً قال : بسم الله ، وإذا نزعه قال : الحمد لله .

وقيل : الضمير في أنه عائد إلى موسى انتهى .

ونبه على الشكر لأنه يستلزم التوحيد إذ النعم التي يجب الشكر عليها هي من عنده تعالى ،

فكأنه قيل كونوا موحدين شاكرين لنعم الله مقتدين بنوح الذي أنتم ذرية من حمل معه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(21/450)

وقال أبو السعود :

﴿ وَءاتَيْنَآ مُوسَى الكتاب ﴾

أي التوراة وفيه إيماءٌ إلى دعوته عليه الصلاة والسلام إلى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعاً بين الأمرين المتّحدين في المعنى ، ولم يُذكر هاهنا العروجُ بالنبي عليه السلام إلى السماء وما كان فيه مما لا يُكتنه كنهُه حسبما نطقتْ به سورةُ النجم تقريباً للإسراء إلى قَبول السامعين ، أي آتيناه التوراةَ بعد من أسرَينا إلى الطور ﴿ وجعلناه ﴾ أي ذلك الكتابَ ﴿ هُدًى لّبَنِى إسراءيل ﴾ يهتدون بما في مطاويه ﴿ أَن لاَ تَتَّخِذُواْ ﴾ أي لا تتخذوا نحو كتبت إليه أن افعل كذا ، وقرىء بالياء على أنّ أنْ مصدريةٌ ، والمعنى آتينا موسى الكتابَ لهداية بني إسرائيلَ لئلا يتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ أي ربًّا تكِلون إليه أموركم ، والإفرادُ لما أن فعيلاً مفردٌ في اللفظ جمعٌ في المعنى .

﴿ ذُرّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾

نُصب على الاختصاص أو النداءِ على قراءة النهي ، والمرادُ تأكيدُ الحملِ على التوحيد بتذكير إنعامِه تعالى عليهم في ضمن إنجاءِ آبائِهم من الغرق في سفينة نوحٍ عليه السلام ، أو على أنه أحدُ مفعولَيْ لا يتخذوا على قراءة النفي ومن دون حالٌ من وكيلاً فيكون كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملائكة والنبيين أَرْبَابًا ﴾ وقرى بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أو بدلٌ من واو لا تتخذوا بإبدال الظاهر من ضمير المخاطَب كما هو مذهبُ بعض البغادِدَة ، وقرىء ذِرِّية بكسر الذال ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي إن نوحاً عليه الصلاة والسلام ﴿ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كثيرَ الشكر في مجامع حالاتِه ، وفيه إيذانٌ بأن إنجاءَ مَنْ معه كان ببركة شكرِه عليه الصلاة والسلام وحثٌّ للذرية على الاقتداء به وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظمُ مراتبِ الكُفرانِ ، وقيل : الضمير لموسى عليه السلام . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(22/450)

وقال الآلوسى :

﴿ وَءاتَيْنَآ مُوسَى الكتاب ﴾

أي التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب وهو الظاهر أو موسى عليه السلام ﴿ هُدًى ﴾

عظيماً ﴿ لِّبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ متعلق بهدى أو بجعل واللام تعليلية والواو استئنافية أو عاطفة على جملة ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ ﴾ [الإسراء : 1] لا على ﴿ أسرى ﴾ كما نقله في "البحر" عن العكبري.

وحكى نظيره عن ابن عطية لبعده وتكلفه، وعقب آية الإسراء بهذه استطراداً تمهيداً لذكر القرآن، والجامع أن موسى عليه السلام أعطى التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجه لأنه منح ثمت التكليم وشرف باسم الكليم وطلب الرؤية مدمجاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزلا عليه وإن شئت فوازن بين ﴿ أسرى بِعَبۡدِهِۦ وَءَاتَيۡنَآ مُوسَى ﴾ وبين ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ﴿ وَيَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ ﴾ أي أي لا تتخذوا على أن تفسيرية ولا ناهية، والتفسير كما قال أبو البقاء لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهي، وقيل لمحذوف أي آتينا موسى كتابة شيء هو لا تتخذوا، والكتاب وإن كان المراد به التوراة فهو مصدر في الأصل، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر.

وجوز في "البحر" أن تكون أن مصدرية والجار قبلها محذوف ولا نافية أي لئلا تتخذوا، وقيل يجوز أن تكون أن وما بعدها في موضع البدل من ﴿ الكتاب ﴾ وجوز أبو البقاء أن تكون زائدة و ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ﴾ معمول لقول محذوف ﴿ وَلَا ﴾ فيه للنهي أي قلنا لا تتخذوا.

وتعقبه أبو حيان بأن هذا الموضع ليس من مواضع زيادة أن.

وكذا جوز أن تكون ﴿ لا ﴾ زائدة كما في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] والتقدير كراهة أن تتخذوا ولا يخفى ما فيه .

وقرأ ابن عباس .

ومجاهد .

وعيسى .

وأبو رجاء .

(23/450)

وأبو عمرو من السبعة أن لا تتخذوا بياء الغيبة ، وجعل غير واحد أن على ذلك مصدرية ولم يذكروا فيها احتمال كونها مفسرة ، وقال شيخ زاده : لا وجه لأن تكون أن مفسرة على القراءة بياء الغيبة لأن ما في حيز المفسرة مقول من حيث المعنى والذي يلقى إليه القول لا بد أن يكون مخاطباً كما لا وجه لكونها مصدرية على قراءة الخطاب لأن بني إسرائيل غيب فتأمل .

والجار عندهم على كونها مصدرية محذوف أي لأن لا يتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ أي رباً تكلون إليه أموركم غيري فالوكيل فعيل بمعنى مفعول وهو الموكول إليه أي المفوض إليه

الأمور وهو الرب ، قال ابن الجوزي : قيل للرب وكيل لكفايته وقيامه بشؤون عباده لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل و ﴿ مِنْ ﴾ سيف خطيب ودون بمعنى غير وقد صرح بمجيئها كذلك في غير موضع وهي مفعول ثان لتتخذوا و ﴿ وَكِيلاً ﴾ الأول .

وجوز أن تكون من تبعيضية واستظهر الأول ، والمراد النهي عن الإشراك به تعالى .

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾

نصب على الاختصاص أو على النداء ؛ والمراد الحمل على التوحيد بذكر إنعامه تعالى عليهم في تضمن إنجاء آبائهم من الغرق في سفينة نوح عليه السلام حين ليس لهم وكيل يتوكلون عليه سواه تعالى ، وخص مكي النداء بقراءة الخطاب قال : من قرأ ﴿ يَتَّخِذُواْ ﴾ [الإسراء : 2] بياء الغيبة يبعد معه النداء لأن الياء للغيبة والنداء للخطاب فلا يجتمعان إلا على بعد ونعم ما قال ، وقول بعضهم : ليس كما زعم إذ يجوز أن ينادي الإنسان شخصاً ويخبر عن أحد فيقول : يا زيد ينطلق بكر وفعلت كذا يا زيد ليفعل عمرو كيت وكيت إن كما زعم لا يدفع البعد الذي ادعاه مكي .

وجوز أن يكون أحد مفعولي ﴿ تَتَّخِذُواْ ﴾ [الإسراء : 2] و﴿ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 2] الآخر وهو لكونه فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه الواحد المذكر وغيره فلا يرد أنه كيف يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً والمفعول الثاني خبر معنى وهو غير مطابق هنا ﴿ وَمِنْ دُونِى ﴾ [الإسراء : 2] حال منه و﴿ مِنْ ﴾ يجوز أن تكون ابتدائية.

وجوز أيضاً أن يكون بدلاً من ﴿ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 2] لأن المبدل منه ليس في حكم الطرح من كل الوجوه أي لا تتخذوا من دوني ذرية من حملنا والمراد نهيهم عن اتخاذ عزير. وعيسى عليهما السلام ونحوهما أرباباً.

وفي التعبير بما ذكر إيماءً إلى علة النهي من أوجه، أحدها : تذكير النعمة في إنجاء آبائهم كما ذكر، والثاني : تذكير ضعفهم، وحالهم المحوج إلى الحمل، والثالث : أنهم أضعف منهم لأنهم متولدون منهم، وفي إيثار لفظ الذرية الواقعة على الأطفال والنساء في العرف الغالب مناسبة تامة لما ذكر، وجوز أبو البقاء كونه بدلاً من ﴿ موسى ﴾ [الإسراء : 2] وهو بعيد جداً.

وقرأت فرقة ﴿ ذُرِّيَّةِ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو ذرية ولا بعد فيه كما توهم أو على البدل من ضمير ﴿ يَتَّخِذُواْ ﴾ [الإسراء : 2] قال أبو البقاء : على القراءة بياء الغيبة، وقال ابن عطية : ولا يجوز هذا على القراءة بتاء الخطاب لأن ضمير المخاطب لا يبدل منه الاسم الظاهر، وتعقبه أبو حيان في "البحر" بأن المسألة تحتاج إلى تفصيل

وذلك أنه إن كان في بدل بعض من كل وبدل اشتمال جاز بلا خلاف وإن كان في بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة إن كان يفيد التوكيد جاز بلا خلاف أيضاً نحو مررت بكم صغيركم وكبيركم وإن لم يفد التوكيد فمذهب جمهور البصريين المنع ومذهب الأخفش.

والكوفيين الجواز وهو الصحيح لوجود ذلك في لسان العرب، وقد استدل على صحته في شرح التسهيل، وقرأ زيد بن ثابت.

وأبان بن عثمان.

وزيد بن علي.

(25/450)

ومجاهد في رواية بكسر ذال ﴿ ذُرِّيَّةِ ﴾ وفي رواية أخرى عن مجاهد أنه قرأ بفتحها، وعن زيد بن ثابت أيضاً أنه قرأ ﴿ ذُرِّيَّةِ ﴾ بفتح الذال وتخفيف الراء وتشديد الياء على وزن فعيلة كمطية ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كثير الشكر في مجامع حالاته.

وأخرج ابن جرير.

وابن المنذر.

والبيهقي في الشعب.

والحاكم وصححه عن سلمان الفارسي قال: كان نوح عليه السلام إذا لبس ثوباً أو طعم طعاماً حمد الله تعالى فسمي عبداً شكوراً، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن إبراهيم قال: شكره عليه السلام أن يسمي إذا أكل ويحمد الله تعالى إذا فرغ.

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن أنس الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما سمى الله تعالى نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أمسى وأصبح قال: ﴿ سبحان الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحمد فِى السموات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: 17، 18] " وأخرج البيهقي.

وغيره عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن نوحاً لم يقم عن خلاء قط إلا قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى في منفعته وأذهب عني أذاه" وهذا من جملة شكره عليه السلام.

وفي هذه الجملة إيماءً بأن إنجاء من معه عليه السلام كان ببركة شكره وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفر، وهذا وجه ملائمتها لما تقدم، وقال الزمخشري: يجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد وحينئذٍ فلا يطلب ملاءمته مع ما سيق له الكلام إلا من حيث أنه كان من شأن من ذكر أعني نوحاً عليه السلام، وقيل ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ عائد على موسى عليه السلام والجملة مسوقة على وجه

التعليل إما لإيتاء الكتاب أو لجعله عليه السلام هدى بناءً على أن ضمير ﴿ جعلناه ﴾ له أو للنهي عن الاتخاذ وفيه بعد فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(26/450)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾

هو مصدر سبح ، يقال : سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً ، مثل كفر اليمين تكفيراً وكفراناً ، ومعناه التنزيه والبراءة لله من كل نقص .

وقال سيبويه : العامل فيه فعل لا من لفظه ، والتقدير : أنزه الله تنزيهاً ، فوقع سبحان مكان تنزيهاً ، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء ؛ وقيل : هو علم للتسبيح كعثمان للرجل ، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان ، ثم نزل منزلة الفعل وسدّ مسدّه ، وقد قدّمنا في قوله : ﴿ سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : 32] .

طرفاً من الكلام المتعلق بسبحان .

والإسراء قيل : هو سير الليل ، يقال : سرى وأسرى ، كسقى وأسقى لغتان ، وقد جمع

بينهما الشاعر في قوله :

حي النضير ربة الخدر . . . أسرت إليّ ولم تكن تسري

وقيل هو سير أوّل الليل خاصة ، وإذا كان الإسراء لا يكون إلاّ في الليل فلا بدّ للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة ، فقيل : أراد بقوله ﴿ ليلاً ﴾ تقليل مدّة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة .

ووجه دلالة ﴿ ليلاً ﴾ على تقليل المدّة ما فيه من التنكير الدالّ على البعضية ، بخلاف ما إذا قلت : سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً .

وقد استدلّ صاحب الكشاف على إفادة ليلاً للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة (من الليل) .

وقال الزجاج : معنى ﴿ أسرى بعبده ليلاً ﴾ سير عبده ، يعني : محمداً ليلاً ، وعلى هذا فيكون معنى أسرى : معنى سير ، فيكون للتقيد بالليل فائدة ، وقال : ﴿ بعبده ﴾ ولم يقل : بنبيه أو رسوله ، أو بمحمد تشريفاً له صلى الله عليه وسلم .

قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه ، لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم ، والحالة العلية :

لا تدعني إلا بيا عبدها . . . فإنه أشرف أسمائي

ادعاء بأسماء نبزا في قبائلها . . . كأن أسماء أضحت بعض أسمائي

﴿ مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ قال الحسن وقتادة : يعني المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن .

وقال عامة المفسرين : أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من دار أم هانىء ، فحملوا المسجد الحرام على مكة ، أو الحرام ، لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام ، أو لأن الحرم كله مسجد .

ثم ذكر سبحانه الغاية التي أسرى برسوله إليها فقال : ﴿ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ وهو بيت المقدس .

وسمي الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ، ولم يكن حينئذٍ وراءه مسجد ، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله : ﴿ ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين ، فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة .

وفي ﴿ باركنا ﴾ بعد قوله ﴿ أسرى ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم .

ثم ذكر العلة التي أسرى به لأجلها فقال : ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ ﴾ أي : ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ سبحانه ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ بكل مسموع ، ومن جملة ذلك قول رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ بكل مبصر ، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله .

وقد اختلف أهل العلم هل كان الإسراء بجسده صلى الله عليه وسلم مع روحه، أو بروحه فقط؟ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأوّل، وذهب إلى الثاني طائفة من أهل العلم منهم عائشة، ومعاوية، والحسن، وابن إسحاق، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان، وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا: كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واستدلوا على هذا التفصيل بقوله: ﴿ إلى المسجد الاقصى ﴾، فجعله غاية للإسراء بذاته صلى الله عليه وسلم.

(28/450)

فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء، وقع بذاته لذكره، والذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات، ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، ولا مقتضى لذلك إلاّ مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شيء، ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي صلى الله عليه وسلم عند

إخباره لهم بذلك حتى ارتدّ من ارتدّ ممن لم يشرح بالإيمان صدراً ، فإن الإنسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد ، بل ما هو محال ولا ينكر ذلك أحد ؛ وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرءيا التى أريناك إِلاَّ فِتْنَةً لّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : 60] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الإسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين ، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا ، وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي صلى الله عليه وسلم ركب البراق ؟ وكيف يصح وصف الروح بالركوب ؟ وهكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه بأنه كان عند أن أسري به بين النائم واليقظان ؟

وقد اختلف أيضاً في تاريخ الإسراء ، فروي أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة .

وروي أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام .

ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين ، وقيل : بثلاث ؛ وقيل : بأربع ، ولم تفرض الصلاة إلاّ ليلة الإسراء .

وقد استدل بهذا ابن عبد البرّ على ذلك ، وقد اختلفت الرواية عن الزهري .

وممن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهري في رواية عنه ، وكذلك الحربي فإنه قال : أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع وعشرين من ربيع الأوّل قبل الهجرة بسنة .

وقال ابن القاسم في تاريخه : كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً .

قال ابن عبد البرّ : لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا .

وروي عن الزهري أنه أسري به قبل مبعثه بسبعة أعوام ، وروي عنه أنه قال : كان قبل مبعثه بخمس سنين .

وروى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت : توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة .

﴿ وَءاتَيْنَآ مُوسَى الكِتاب ﴾ أي : التوراة ، قيل : والمعنى كرّمنا محمداً بالمعراج وأكرمنا موسى بالكتاب ﴿ وجعلناه ﴾ أي : ذلك الكتاب ؛ وقيل : موسى ﴿ هُدًى لِّبَنِى إسراءيل ﴾ يهدون به ﴿ أَن لا تَتَّخِذُواْ ﴾ .

قرأ أبو عمر بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية أي : لئلا يتخذوا .

والمعنى : آتيناه الكتاب لهداية بني إسرائيل لئلا يتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ قال الفراء : أي كفيلاً بأمورهم ، وروي عنه أنه قال : كافياً ؛ وقيل : أي متوكلون عليه في أمورهم ،

وقيل: شريكاً، ومعنى الوكيل في اللغة من توكل إليه الأمور.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء، ذكرهم سبحانه إنعامه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم من الغرق، ويجوز أن يكون المفعول الأوّل لقوله ﴿ أن لا تتخذوا ﴾ أي: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، كقوله: ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائكة والنبيين أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: 80].

(30/450)

وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من فاعل ﴿ تتخذوا ﴾، وقرأ مجاهد بفتح الذال، وقرأ زيد بن ثابت بكسرها، والمراد بالذرية هنا: جميع من في الأرض، لأنهم من ذرية من كان في السفينة؛ وقيل: موسى وقومه من بني إسرائيل.

وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص، والرفع على البدل وعلى الخبر، فإنها كلها راجعة إلى بني إسرائيل المذكورين، وأما على جعل النصب على أن ﴿ ذرية ﴾ هي المفعول الأوّل لقوله ﴿ لا تتخذوا ﴾، فالأولى تفسير الذرية بجميع من في الأرض من بني آدم.

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ أي: نوحاً، وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله

إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ، ومن أفضل الطاعات حثاً لذريته على شكر الله سبحانه .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : أسري بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال : أسري برسول الله إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة .

وأخرج البيهقي عن عروة مثله .

وأخرج البيهقي أيضاً عن السدّي قال : أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مهاجره بستة عشر شهراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿ الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قال : أنبتنا حوله الشجر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَءاتَيْنَآ مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لّبَنِى إسراءيل ﴾ قال : جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور وجعله رحمة لهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ قال : شريكاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ قال : هو على النداء .

يا ذرية من حملنا مع نوح.

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ ، ما كان مع نوح إلاّ أربعة أولاد : حام ، وسام ، ويافث ، وكوش ، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق " واعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها ، وليس في ذلك كثير فائدة ، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث ، وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وهو مبحث آخر ، والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز ، وذكر أسباب النزول ، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية ، وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ .

قال ابن كثير : لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه . فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن . وقال الرازي : لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أسرى به ، ذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه . وقال الشهاب في " العناية " : عقبت آية الإسراء بهذه ؛ استطراداً ، بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطي التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجه ؛ لأنه صح ثمة التكليم ، وشُرِّف باسم الكليم مدمجاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزلا عليه . وإن شئت فوازن بين : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ و : ﴿ وَآتَيْنَا مُوْسَى ﴾ وبين : ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ و : ﴿ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ . و (الواو) استئنافية أو عاطفة على جملة (سبحان الذي أسرى) الخ لا على (أسرى) لبعده ، وتكلفه . وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبني إسرائيل) متعلق بـ (هدى) أو بـ (جعلناه) ، وهي تعليلية .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ أي : ولياً ومعبوداً تكلون إليه أموركم ؛ لأنه تعالى أنزل على كل نبي أرسله ، أن يعبده وحده لا شريك له ، وقد قرئ : ﴿ أَلَّا يَتَّخِذُوا ﴾ بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل . والتقدير : جعلناه هدى لئلا يتخذوا . وقرئ بالتاء على الخطاب ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن (أنْ) بمعنى أي . وهي مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهي .

الثاني : أن (أن) زائدة ، أي : قلنا : لا تتخذوا .

الثالث : أن (لا) زائدة ، والتقدير : مخافة أن تتخذوا . والوكيل والموكول إليه . أي : المفوض إليه الأمور . وهو الرب . فـ (فعيل) بمعنى مفعول . و (دون) بمعنى غير . و (من) زائدة . أو تبعيضية . وقوله : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء . وفيه تهييج وتنبيه على المنة . والإنعام عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة . وإيماء إلى علة النهي . كأنه قيل : لا تشركوا به ، فإنه المنعم عليكم والمنجي لكم من الشدائد . وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه . وفي التعبير بـ (الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء ، مناسبة تامة لما ذكر . وذكر حملهم في السفينة ؛

للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلون عليه سواه . وقوله : ﴿ عَبْداً شَكُوراً ﴾ أي : لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذي ينبغي . وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الإقتداء به . وقيل : إنه استطراد . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 459.460 ﴾

(34/450)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ﴾

عطف على جملة ﴿ سبحان الذي أسرى ﴾ [الإسراء : 1] الخ فهي ابتدائية .

والتقدير : الله أسرى بعبده محمد وآتى موسى الكتاب ، فهما منتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر .

وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد الأقصى .

فإن أطوار المسجد الأقصى تمثل ما تطور به حال بني إسرائيل في جامعتهم من أطوار الصلاح والفساد ، والنهوض والركود ، ليعتبر بذلك المسلمون فيقتدوا أو يحذروا .

ولمناسبة قوله : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ [الإسراء : 1] فإن من آيات الله التي أوتيها النبي آيَةَ

القرآن ، فكان ذلك في قوة أن يقال : وآتيناه القرآن وآتينا موسى الكتاب (أي التوراة) ، كما يشهد به قوله بعد ذلك ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء : 9] أي للطريقة التي هي أقوم من طريقة التوراة وإن كان كلاهما هُدى ، على ما في حالة الإسراء بالنبي عليه الصلاة والسلام ليلاً ليرى من آيات الله تعالى من المناسبة لحالة موسى عليه السلام حين أوتي النبوة ، فقد أوتي النبوءة ليلاً وهو سار بأهله من أرض مدين إذ آنس من جانب الطور ناراً ، ولحاله أيضاً حين أسري به إلى مناجاة ربه بآيات الكتاب .

والكتاب هو المعهود إيتاؤُه موسى عليه السلام وهو التوراة .

وضمير الغائب في جعلناه للكتاب ، والإخبار عنه بأنه هدى مبالغة لأن الهُدى بسبب العمل بما فيه فجُعل كأنه نفسُ الهدى ، كقوله تعالى في القرآن : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] .

وخص بني إسرائيل لأنهم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم ، فالجعل الذي في قوله : وجعلناه ﴾ هو جعل التكليف .

وهم المراد بـ "الناس" في قوله: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ [الأنعام: 91]، لأن الناس قد يطلق على بعضهم، على أن ما هو هدى لفريق من الناس صالح لأن يَنتفع بهديه من لم يكن مخاطباً بكتاب آخرَ، ولذلك قال تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ [المائدة: 44].

وقرأ الجمهور ﴿ألا تتخذوا﴾ بتاء الخطاب على الأصل في حكاية ما يحكى من الأقوال المتضمنة نهياً، فتكون (أنْ) تفسيرية لما تضمنه لفظ (الكتاب) من معنى الأقوال، ويكون التفسير لبعض ما تضمنه الكتاب اقتصاراً على الأهم منه وهو التوحيد.

وقرأ أبو عمرو وحده بياء الغيبة على اعتبار حكاية القول بالمعنى، أو تكون (أنْ) مصدرية مجرورة بلام محذوفة حَذفاً مطرداً، والتقدير: آتيناهم الكتاب لئلا يتخذوا من دوني وكيلا.

والوكيل: الذي تفوض إليه الأمور.

والمراد به الرب، لأنه يتكل عليه العباد في شؤونهم، أي أن لا تتخذوا شريكاً تلجؤون إليه.

وقد عُرف إطلاق الوكيل على الله في لغة بني إسرائيل كما حكى الله عن يعقوب وأبنائه ﴿ فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ [يوسف: 66].

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾

يجوز أن يكون اعتراضاً في آخر الحكاية ليس داخلاً في الجملة التفسيرية.

فانتصاب ﴿ ذرّيّةَ ﴾ على الاختصاص لزيادة بيان بني إسرائيل بياناً مقصوداً به التعريض بهم إذ لم يشكروا النعمة.

ويجوز أن يكون من تمام الجملة التفسيرية، أي حال كونكم ذرية من حملنا مع نوح عليه السلام، أو ينتصب على النداء بتقدير حرف النداء، أي يا ذرية من حملنا مع نوح، مقصوداً به تحريضهم على شكر نعمة الله واجتناب الكفر به باتخاذ شركاء دونه.

(36/450)

والحمل وضع شيء على آخر لنقله، والمراد الحمل في السفينة كما قال: ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ [الحاقة: 11]، أي ذرّيّة من أنجيناهم من الطوفان مع نوح عليه السلام.

وجملة إنه كان عبدا شكوراً ﴾ مفيدة تعليل النهي عن أن يتخذوا من دون الله وكيلاً، لأن أجدادهم حملوا مع نوح بنعمة من الله عليهم لنجاتهم من الغرق وكان نوح عبداً شكوراً والذين حملوا معه كانوا شاكرين مثله، أي فاقتدوا بهم ولا تكفروا نعم الله.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من تمام الجملة التفسيرية فتكون مما خاطب الله به بني إسرائيل، ويحتمل أنها مذيلة لجملة ﴿ وآياتنا موسى الكتاب ﴾ فيكون خطاباً لأهل القرآن.

واعلم أن في اختيار وصفهم بأنهم ذرية من حمل مع نوح عليه السلام معاني عظيمة من

التذكير والتحريض والتعريض لأن بني إسرائيل من ذرية سام بن نوح وكان سام ممن ركب السفينة .

وإنما لم يقل ذرية نوح مع أنهم كذلك قصداً لإدماج التذكير بنعمة إنجاء أصولهم من الغرق .

وفيه تذكير بأن الله أنجى نوحاً ومن معه من الهلاك بسبب شكره وشكرهم تحريضاً على الائتساء بأولئك .

وفيه تعريض بأنهم إن أشركوا ليُوشكن أن ينزل بهم عذاب واستئصال ، كما في قوله : ﴿ قيل يا نوح اهبطْ بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنُمتعهم ثم يَمَسُّهُمْ منا عذابٌ أليم ﴾ [هود : 48] .

وفيه أن ذرية نوح كانوا شقين شق بار مطيع ، وهم الذين حملهم معه في السفينة ، وشق متكبر كافر وهو ولده الذي غرق ، فكان نوح عليه السلام مثلاً لأبي فريقين ، وكان بنو إسرائيل من ذرية الفريق البار ، فإن اقتدوا به نَجُوا وإن حادوا فقد نزعوا إلى الفريق الآخر فيوشك أن يهلكوا .

وهذا التماثل هو نكتة اختيار ذكر نوح من بين أجدادهم الآخرين مثل إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب عليهم السلام ، لفوات هذا المعنى في أولئك .

وقد ذكر في هذه السورة استئصال بني إسرائيل مرتين بسبب إفسادهم في الأرض وعلوهم مرتين وأن ذلك جزاء إهمالهم وعْدَ اللّهِ نوحاً عليه السلام حينما نجاه.

وتأكيد كون نوح كان عبداً شكوراً ﴿ بحرف (إنّ) تنزيل لهم منزلة من يجهل ذلك ؛ إما لتوثيق حملهم على الاقتداء به إن كانت الجملة خطاباً لبني إسرائيل من تمام الجملة التفسيرية، وإما لتنزيلهم منزلة من جهل ذلك حتى تورطوا في الفساد فاستأهلوا الاستئصال وذهاب ملكهم، لينتقل منه إلى التعريض بالمشركين من العرب بأنهم غير مقتدين بنوح لأن مثلهم ومثل بني إسرائيل في هذا السياق واحد في جميع أحوالهم، فيكون التأكيد منظوراً فيه إلى المعنى التعريضي.

ومعنى كون نوح ﴿ عبداً ﴾ أنه معترف لله بالعبودية غير متكبر بالإشراك، وكونه ﴿ شكوراً ﴾، أي شديداً لشكر الله بامتثال أوامره.

وروي أنه كان يكثر حمد الله.

والاقتداء بصالح الآباء مجبولة عليه النفوس ومحل تنافس عند الأمم بحيث يعد خلاف ذلك كمثير للشك في صحة الانتساب.

وكان نوح عليه السلام مثلاً في كمال النفس وكانت العرب تعرف ذلك وتنبعث على الاقتداء به.

قال النابغة :

فألفيت الأمانة لم تخنها

كذلك كان نوح لا يخون . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(38/450)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَآ مُوسَى الكتاب ﴾ .

لما بين جل وعلا في هذه الأيمة الكريمة عظم شأن نبيه محمد صلى الله علية وسلم ، ذكر عظم شأن موسى بالكتاب العظيم ، الذي أنزله إليه ، وهو التوراة . مبيناً أنه جعله هدىً لبني إسرائيل . وكرر جلو علا هذا المعنى في القرآن . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 23-24] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ [القصص : 43] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 154] الآية ، وقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ . . ﴾

[الأعراف : 145] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ .

(39/450)

اعلم أن هذا الحرف قرأه جمهور القراء ﴿ ألا تتخذون ﴾ بالتاء على وجه الخطاب .

وعلى هذا ف " أن " هي المفسرة . فجعل التوراة هدى لبني إسرائيل مفسر بنهيهم عن اتخاذ وكيل من دون الله . لأن الإخلاص لله في عبادته هو ثمرة الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه . وعلى هذه القراءة ف " لا " في قوله : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ ناهية . وقرأه أبو عمرو من السبعة ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ بالياء على الغيبة . وعلى هذه القراءة فالمصدر المنسبك من " أن " وصلتها مجرور بحرف التعليل المحذوف . اي وجعلناه هدى لبني إسرائيل لأجل ألا يتخذوا من دوني وكيلاً . لأن اتخاذ الوكيل الذي تسند إليه الأمور ، وتفوض من دون الله ليس من الهدى . فمرجع القراءتين إلى شيء واحد ، وهو أن التوكل إنما يكونعلى الله وحده لا على غيره .

(40/450)

وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة. كقوله: ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ [المزمل: 9]، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ الرحمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: 29]. وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إله إلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [التوبة: 129]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: 3]، وقوله: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَعلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ على مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ [إبراهيم: 11–12]، وقوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: 56] الآية، وقوله: ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ياقوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس: 71]، وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ على الله وكفى بالله وَكِيلاً ﴾

[الأحزاب: 3] الآية، وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: 58] الآية، وقوله: ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: 123] الآية، وقوله: ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل ﴾ [آل عمران: 173]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

والوكيل : فعليل من التوكل . أي متوكلاً عليه ، تفوضون إليه أموركم . فيوصل إليكم النفع ، ويكف عنكم الضر .

وقال الزمخشري : ﴿ وكيلاً ﴾ أي رباً تلكون إليه أموركم .

وقال ابن جرير : حفيظاً لكم سواي .

وقال أبو الفرج بن الجوزي : قيل للرب وكيل لكفايته وقيامه بشؤون عباده . لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل اه . قال أبة حيان في البحر .

وقال القرطبي : ﴿ وكيلاً ﴾ أي شريكاً . عن مجاهد . وقيل : كفيلاً بامورهم . حكاه الفراء . وقيل : ربّا يتوكلون عليه في أمورهم . قاله الكلبي . وقال الفراء : كافياً اه والمعاني متقاربة ، ومرجعها إلى شيء واحد ، وهو أن الوكيل : من يتوكل عليه . فتفوض الأمور إليه ، ليأتي بالخير ، ويدفع الشر . وهذا لا يصح إلا لله وحده جل وعلا . ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه . لأنه لا نافع ولا ضار ، ولا كافي إلا هو وحده جل وعلا . . عليه توكلنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة من حملهم مع نوح تنبيهاً على النعمو التي نجاهم به من الغرق . ليكون في ذلك تهييج لذرياتهم على طاعة الله . أي من حملنا مع نوح ، فنجيناهم من الغرق ، تشبهوا بأبيكم ، فاشكروا نعمنا . وأشار إلى هذا المعنى في قوله : ﴿ أولئك الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [مريم : 58] الآية . وبين في مواضع أخر الذن حملهم مع نوح من هم ؟ وبين الشيء الذي حملهم فيه ، وبين من بقي له نسل ، وعقب منهم ، ومن انقطع ولم يبق له نسل ولا عقب .

فبين أن الذين حملهم مع نوح : هم أهله ومن آمن معه من قولمه في قوله : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول وَمَنْ آمَنَ ﴾ [هود : 40] .

وبين أن الذين آمنوا من قومه قليل بقوله : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

(42/450)

وبين أن ممن سبق عليه القول من أهله بالشقاء امرأته وابنه . قال في امرأته : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأة نُوحٍ ﴾ [التحريم : 10] إلى قوله ﴿ ادخلا النار مَعَ الداخلين ﴾ [التحريم : 10] ، وقال في ابنه : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ [هود : 43] ، وقال فيه أيضاً : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46]

الآية. وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي الموعود بنجاتهم في قوله: ﴿ فاسلك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ ﴾ [المؤمنون: 27] الآية، ونحوها من الآيات.

وبين أن الذي حملهم فيه هو السفينة في قوله: ﴿ قُلْنَا احمل ﴾ [هود: 40] الآية. أي السّفينة، وقوله: ﴿ فاسلك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ الآية. أي أدخل فيها - أي السفينة - ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ ﴾.

وبين أن ذرية من حمل مع نوح لم يبق منها إلا ذرية نوح في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات: 77]، وكان نوح يحمد الله على طعامه وشرابه، ولباسه وشأنه كله. فسّماه الله عبداً شكوراً.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا ﴾ [الإسراء: 3] - أن منادى بحرف محذوف. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(43/450)

وقال الشيخ الشعراوى:

قوله: ﴿ وَآتَيْنَا ﴾

أي: أوحينا إليه معانيه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن

وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ . . ﴾ [الشورى: 51] .

فليس في هذا الأمر مباشرة .

و(الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإنْ أُطلِق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوَحْي قد يكون بمعاني الأشياء ، ثم يُعبّر عنها الرسول بألفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه بألفاظهم .

ومثال ذلك: الحديث النبوي الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان الأمر في التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل: ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، في حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط ؟

نقول: لأن القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أنْ يأتيَ بمثله ، فلا دَخْلَ لأحد فيه ، ولا بُدَّ أنْ يظلَّ لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول صلى الله عليه وسلم أُوحِيَ إليه لَفْظُ ومعنى القرآن الكريم ، وأُوحِي إليه معنى الحديث النبوي الشريف .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . . ﴾ [الإسراء: 2] .

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل لِيُبلِّغه لبني إسرائيل ، وليرسمَ لهم طريق الهدى الله سبحانه ، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [السجدة: 23] .

والهُدَى: هو الطريق الموصّل للغاية من أقصر وجه ، وبأقل تكلفة ، وهو الطريق المستقيم ، ومعلوم عند أهل الهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى خلاصة هذا الكتاب ، وخلاصة هذا الهُدى لبني إسرائيل في قوله تعالى:

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 2] .

ففي هذه العبارة خلاصة الهُدى ، وتركيز المنهج وجماعه .

والوكيل: هو الذي يتولّى أمرك ، وأنت لا تُولّي أحداً أمرك إلا إذا كنت عاجزاً عن القيام به ، وكان مَنْ تُوكّله أحكمَ منك وأقوى ، فإذا كنت ترى الأغيار تنتاب الناس من حولك وتستولي عليهم ، فالغني يصير فقيراً ، والقوي يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكذلك ترى الموت يتناول الناس واحداً تِلْو الآخر ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لتولّي أمرك

والقيام بشأنك ، فربما وكّلتَ واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن: إذا كنتَ لبيباً فوكِّل مَنْ لا تنتابه الأغيار ، ولا يدركه الموت ؛ ولذلك فالحق سبحانه حينما يُعلمنا أن نكون على وعي وإدراك لحقائق الأمور ، يقول: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: 58] .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تتخذَ من دون الله وكيلاً ، حتى لو كان هذا الوكيل هو الواسطة بينك وبين ربك كالأنبياء ؛ لأنهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم ، بل يناولونك ويُبلِّغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . ﴾ [الإسراء: 86] .

ولو شئنا ما أوحينا إليك أبداً ، فمن أين تأتي بالمنهج إذن؟

وقد تحدث العلماء طويلاً في (أن) في قوله:

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: 2] .

فمنهم مَنْ قال: إنها ناهية . ومنهم من قال: نافية ، وأحسن ما يُقال فيها: إنها مُفسّرة لما قبلها من قوله تعالى:

﴿ وَآتَيْنَآ مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى . . ﴾ [الإسراء: 2] .

ففسرت الكتاب والهدى ولخّصتْه ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ

هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ﴾ [طه: 120] .

فقوله: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ تُفسّر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

(45/450)

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . ﴾ [القصص: 7] .

(فأنْ) هنا مُفسِّرة لما قبلها . وكأن المعنى: وأوحينا إليه ألاَّ تتخذوا من دوني وكيلاً .

أو نقول: إن فيها معنى المصدرية ، وأنْ المصدرية قد تُجرّ بحرف جر كما تقول: عجبت أنْ تنجحَ ، أي: من أنْ تنجح ، ويكون معنى الآية هنا : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لنبي إسرائيل لأنْ لا تتخذوا من دوني وكيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا . . ﴾ .

(46/450)

(ذرية) منصوبة هنا على الاختصاص لِقصْد المدح ، فالمعنى: أخصّكم أنتم يا ذرية نوح ،

ولكن لماذا ذرية نوح بالذات ؟

ذلك لأننا نجَّيْنَا الذين آمنوا معه من الطوفان والغرق ، وحافظنا على حياتهم ، وأنتم ذريتهم ، فلا بُدَّ لكم أنْ تذكروا هذه النعمة لله تعالى ، أن أبقاكم الآن من بقاء آبائكم .

فكأن الحق سبحانه يمتنّ عليهم بأنْ نجَّى آباءهم مع نوح ، فليستمعوا إلى منهج الله الذي جَرَّبه آباؤهم ، ووجدوا أن مَنْ يؤمن بالله تكون له النجاة والأمن من عذاب الله .

ويقول تعالى:

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [الإسراء: 3] .

أي: أن الحق سبحانه أكرم ذريته ؛ لأنه كان عبداً شكوراً ، والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه ؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبّطون في متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذي يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجنّبهم الزَّلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفّر للإنسان قُوت يومه تطلّع إلى قُوت العام كله ، فإذا توفّر له قوت عامه قال: أعمل لأولادي ، فترى خير أولاده أكثر من خَيْره ، وتراه ينشغل بهم ، ويُؤثِرهم على نفسه ، ويترقّى في طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، فالإنسان عُرْضَة للأغيار ، وقد يأتيه أجله فيترك وراءه كل شيء ؛ ولذلك فالحق سبحانه يدلّنا على وَجْه الصواب الذي ينفع الأولاد ، فيقول تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً

﴾ [النساء: 9].

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلّمنا أن تقوى الله تتعدّى بركتها إلى أولادك من بعدك، يعطينا مثلاً واقعياً في قصة موسى والخضر عليهما السلام ـ التي حكاها لنا القرآن الكريم.

(47/450)

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية، واستطعما أهلها فأبَوْا أنْ يُضيّفوهما، وسؤال الطعام يدل على صِدْق الحاجة، فلو طلب منك السائل مالاً فقد تتهمه بكَنْزه، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شكّ أنه صادق في سؤاله، فهذا دليل على أنها قرية لِئَام لا يقومون بواجب الضيافة، ولا يُقدِّرون حاجة السائل.

ومن هنا تعجَّبَ موسى ـ عليه السلام ـ من مبادرة الخِضْر إلى بناء الجدار الذي أوشك على السقوط دون أنْ يأخذ أجْره من هؤلاء اللئام: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [الكهف: 77].

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الأمر، ويُظهر له ما أطلعه الله عليه من بواطن الأمور التي لا يدركها موسى عليه السلام، فيقول: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . ﴾

[الكهف: 82] .

فالجدار مِلْك لغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من هؤلاء اللئام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخّر الله لهما مَنْ يخدمهما ، ويحافظ على مالهما .

إذن: فِعلّة هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من أجله ، وجعلهما في حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل: ومن أين للغلامين أن يعلما بأمر هذا الكنز عند بلوغهما ؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادريْن على حمايته والدفاع عنه .

(48/450)

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية في آية أخرى فيقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور: 21] .

فكرامةً للآباء نلحق بهم الأبناء ، حتى وإنْ قَصَّروا في العمل عن آبائهم ، فنزيد في أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [الإسراء: 3] .

وشكور صيغة مبالغة في الشكر ، فلم يقل شاكر ؛ لأن الشاكر الذي يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام: إنه كان لا يتناول شيئاً من مُقوّمات حياته إلا شكر الله عليها . ولا تنعَّم بنعمة من ترف الحياة إلا حمد الله عليها ، فإذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني من غير حول مني ولا قوة ، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني من غير حول مني ولا قوة ، وهكذا في جميع أمره .

ويقول بعض العارفين: ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جَهْدهم أن يقولوا : بسم الله في أول الطعام والحمد لله في آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحْصَى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نِعَم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قَيْد للنعمة ، تجده يعمل ما نُسميّه حَمْد القضاء مثل الصلاة القضاء أي: حمد الله على نعم فاتت لم يحمده عليها ، فيقول: الحمد لله على كل نعمة أنعمتَها عليَّ يا ربّ ، ونسيت أنْ أحمدَك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دَأَبه وديدنه .

وقد يتعدى حمدَ الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمدوه ،

فيقول: الحمد لله عن كل ذي نعمة أنعمتَ عليه، ولم يحمدك عليها .

ولذلك يقولون: إن النعمة التي تحمد الله عليها لا تُسأل عنها يوم القيامة؛ لأنك أدَّيتَ حقها من حَمْد الله والثناء عليه .

(49/450)

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناء عليه، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: 7] .

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(50/450)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ﴾ : فيه ثلاثة أوجهٍ ، أحدُها : أن تُعْطَفَ هذه الجملةُ على الجملةِ السابقة من / تنزيهِ الربِّ تبارك وتعالى ولا يَلْزَمُ في عَطْفِ الجمل مشاركةٌ في خبرٍ ولا غيرِه .

الثاني : قال العسكري : إنه معطوف على " أسرى " . واستبعده الشيخُ . ووجهُ الاستبعادِ : أن المعطوفَ على الصلةِ صلةٌ ، فيؤدِّي التقديرُ إلى ضرورةِ التركيب : سُبْحان الذي أسرى وآتينا ، وهو في قوة : الذي آتينا موسى ، فيعود الضميرُ على الموصولِ ضميرَ تكلمٍ مِنْ غيرِ مسوِّغٍ لذلك .

والثالث : أنه معطوفٌ على ما في قوله " أسرى " من تقدير الخبر كأنه قال : أَسْرَيْنا بعبدِنا ، وأَرَيْناه آياتنا وآتَيْنا ، وهو قريبٌ مِنْ تفسيرِ المعنى لا الإِعراب .

قوله : " وجَعَلْناه " يجوز أن يعودَ ضميرُ النصبِ للكتاب ، وهو الظاهرُ ، وأَنْ يعودَ لموسى عليه السلام .

قوله : ﴿ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يجوز تعلُّقُه بنفس " هدى " كقوله : ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ [يونس : 35] ، وأَنْ يتعلَّقَ بالجَعْل ، أي : جعلناه لأجلِهم ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ نعتاً ل " هُدى " .

قوله : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ ﴾ يجوز أَنْ تكون " أَنْ " ناصبةً على حَذْفِ حرفِ العلة ، أي : لئلا تتَّخذوا . وقيل : " لا " مزيدةٌ ، والتقدير : كراهةَ أَنْ تتخذوا ، وأَنْ تكونَ المفسرةَ و " لا " ناهيةٌ ، فالفعلُ منصوبٌ على الأول مجزومٌ على الثاني ، وأَنْ تكونَ مزيدةً عند بعضِهم ، والجملةُ التي بعدها معمولةٌ لقولٍ مضمر ، أي : مقولاً لهم : لا تتخذوا ، أو قلنا لهم : لا

تتخذوا ، وهذا ظاهرٌ في قراءةِ الخطاب . وهذا مردودٌ بأنه ليس من مواضعِ زيادةِ " أَنْ "

.

(51/450)

وقرأ أبو عمروٍ ﴿ أَنْ لا يَتَّخذوا ﴾ بياء الغَيْبة جَرْياً على قوله ﴿ لبني إسرائيل ﴾ والباقون بالخطاب التفاتاً .

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ : العامَّةُ على نصبها وفيها أوجهٌ ، أحدُها : أنها منصوبةٌ على الاختصاصِ ، وبه بدأ الزمخشري . الثاني : أنَّها منصوبَةٌ على البدلِ من " وَكِيلاً " ، أي : أن لا تتخذوا من دونِه ذريةَ مَنْ حَمَلْنا . الثالث : أنها منصوبةٌ على البدلِ مِنْ " موسى " ، ذكره أبو البقاء وفيه بُعْدٌ بعيد . الرابع : أنها منصوبةٌ على المفعولِ الأولِ ل " تتخذوا " ، والثاني هو " وكيلاً " فقُدِّم ، ويكون " وكيلاً " ممَّا وقع مفردَ اللفظ والمَعْنِيُّ به جمعٌ ، أي : لا تتخذوا ذريةَ مَنْ حَمَلْنا مع نوحٍ وُكلاءَ كقوله : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران : 80] .

الخامس : أنها منصوبةٌ على النداء ، أي : يا ذريةَ مَنْ حَمَلْنا ، وخَصُّوا هذا الوجهَ بقراءة

الخطاب في " تتَّخذوا " وهو واضحٌ عليها ، إلا أنه لا يَلْزَمُ ، وإن كان مكيٌّ قد منع منه فإنه قال : " فأمَّا مَنْ قرأ " يتَّخذوا " بالياء فذريَّة مفعولٌ لا غير ، ويَبْعُدُ النداءُ ؛ لأن الياءَ للغَيْبة والنداءَ للخطاب ، فلا يجتمعان إلا على بُعْدٍ " . وليس كما زعم ، إذ يجوز أن يُنادِيَ الإِنسانَ شخصاً ويُخْبِرَ عن آخرَ فيقول : " يا زيدُ ينطلقُ بكرٌ وفعلتَ كذا " و " يا زيدُ ليفعلْ عمروٌ كيتَ وكيت " .

(52/450)

وقرأت فرقةٌ " ذُرِّيَّةُ " بالرفع ، وفيها وجهان ، أحدهما : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ تقديرُه : هو ذريَّةُ ، ذكره [أبو] البقاء وليس بواضحٍ . والثاني : أنه بدلٌ من واوِ " تتَّخذوا " قال ابن عطية : " ولا يجوز ذلك في القراءةِ بالتاءِ ، لأنك لا تُبْدِل من ضميرٍ مخاطب ، لو قلت : " ضربْتُك زيداً " على البدل لم يَجُزْ " .

ورَدَّ عليه الشيخ هذا الإِطلاقَ وقال : " ينبغي التفصيلُ ، وهو إن كان بدلَ بعضٍ أو اشتمالٍ جاز ، وإن كان كلاًّ مِنْ كل ، وأفاد الإِحاطةَ نحو " جئتُمْ كبيرُكم وصغيرُكم " جَوَّزه الأخفش والكوفيون . قال : " وهو الصحيحُ " . قلت : وتمثيلُ ابنِ عطيةَ بقولِه " ضَرَبْتُكَ زيداً " قد يَدْفع عنه هذا الردَّ .

وقال مكي : " ويجوز الرفعُ في الكلامِ على قراءةِ مَنْ قرأ بالياء على البدلِ من المضمرِ في " يتَّخذوا " ولا يَحْسُنُ ذلك في قراءة التاء ؛ لأنَّ المخاطبَ لا يُبْدَلُ منه الغائبُ ، ويجوز الخفضُ على البدل من بني إسرائيل " . قلت : أمَّا الرفعُ فقد تقدَّم أنه قرئ به وكأنه لم يَطَّلِعْ عليه ، وأمَّا الجرُّ فلم يُقْرَأْ به فيما عَلِمْتُ ويَرِد عليه في قوله "لأنَّ المخاطب لا يُبْدَلُ منه الغائبُ" ما وَرَدَ على ابن عطية ، بل أَوْلَى لأنه لم يذكر مثالاً يبيِّن مرادَه كما فعل ابنُ عطية/

.

قوله تعالى : ﴿ مَنْ حَمَلْنَا ﴾ : يجوز أن تكونَ موصولةً أو موصوفةً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 309 . 312 ﴾

(53/450)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكنَّ نبيَّنَا – صلوات الله عليه – كان أوفى – سماعاً – ؛ فإنَّ الشمسَ في طلوعها وإشراقها تكون أقربَ

ممن طلعت له من حقائقها .

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾

أي يا ذرية مَنْ حملنا مع نوح – على النداء . . إنه كان عبداً شكوراً .

وكان يضرب في كل (. . .) كما في القصة – سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأُمِرَ حين دعا عليهم فقال : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26]

ويقال الشكور هو الذي يكون شكره على توفيقِ اللَّهِ له لِشُكْرِه ، ولا يتقاصر عن شكره لِنعَمِه .

ويقال الشكور الذي يشكر بماله ، ينفقه في سبيل الله ولا يدَّخِره ، ويشكر بنفْسِه فيستعملها في طاعة الله ، لا يُبْقِي شيئًا من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه ربَّه فلا تأتي عليه ساعةٌ إلا وهو يذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 335 ﴾

(54/450)

قوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ

الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم أتبع ذلك ما يدل على شرف كتاب موسى وصحة نسبته إليه تعالى بما يقتضي شمول العلم وتمام القدرة بما كشف عنه الزمان من صدق إخباره ، وفظاظة وعيده وإنذاره ، تنبيهاً على أن من كذب بكتابه أهلكه كائناً من كان وإن طال إمهاله ، فلا تغتروا بحلمه لأن الملوك لا تقر على أمر يقدح في ملكها ، فقال تعالى : ﴿ وقضينا ﴾ أي بعظمتنا بالوحي المقطوع به ، منزلين ومنهين ﴿ إلى بني إسرائيل ﴾ أي عبدنا يعقوب عليه السلام الذي كان أطوع أهل زمانه لنا ﴿ في الكتاب ﴾ الذي أوصلناه إليهم على لسان موسى عليه السلام ﴿ لتفسدن ﴾ أكد بالدلالة على القسم باللام لأنه يستبعد الإفساد مع الكتاب المرشد ﴿ في الأرض ﴾ أي المقدسة التي كأنها لشرفها هي الأرض بما يغضب الله ﴿ مرتين ولتعلن ﴾ أي بما صرتم إليه من البطر لنسيان المنعم ﴿ علواً كبيراً ﴾ بالظلم والتمرد ، ولا ينتقم منكم إلا على حسب ما تقتضيه حكمتنا في الوقت الذي نريد بعد إمهال طويل ؛ والقضاء : فصل الأمر على إحكام ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي وقته الذي حددناه له للانتقام فيه ﴿ بعثنا ﴾ أي بعظمتنا ؛ ونبه على أنهم أعداء بقوله : ﴿ عليكم ﴾ ونبه على

عظمته، قدرته وسعة ملكه بقوله تعالى: ﴿عباداً لنا﴾ أي لا يدان لكم بهم لما وهبنا لهم من عظمتنا ﴿أولي بأس﴾ أي عذاب وشدة في الحرب شديدة ﴿شديد فجاسوا﴾ أي ترددوا مع الظلم والعسف وشديد السطوة؛ والجوس: طلب الشيء باستقصاء ﴿خلال﴾ أي بين ﴿الديار﴾ الملزوم لقهر أهلها وسفولهم بعد ذلك العلو الكبير؛ والخلال: انفراج ما بين الشيئين وأكثر لضرب من الوهن ﴿وكان﴾ أي ذلك البعث ووعد العقاب به ﴿وعداً مفعولاً﴾ أي لا شك في وقوعه ولا بد أن يفعل لأنه لا حائل بيننا وبينه، ولا يبدل القول إلا عاجز أو جاهل؛ عن ابن عباس .رضى الله عنهما .أنهم جالوت وجنوده؛ وعن سعيد بن المسيب أنهم بختنصر وجنوده؛ وعن الحسن: العمالقة؛ وعن سعيد بن جبير: سنجاريب وجنوده؛ قال في السفر الخامس من التوراة إشارة

إلى هذه المرة الأولى – والله أعلم: وإن أنتم لم تسمعوا قول الله ربكم لم تحفظوا ولم تعملوا بجميع سننه التي آمركم بها اليوم، ينزل بكم هذا اللعن الذي أقص عليكم كله، ويدرككم العقاب، وتكونوا ملعونين في القرية والسفر وفي الحضر، ويلعن نسلكم وثمار أرضكم، وتكونوا ملعونين إذا دخلتم، وملعونين إذا خرجتم، ينزل بكم الرب البلاء والحشرات،

وينزل بكم الضربات الشديدة وبكل شيء تمدون أيديكم إليه لتعملوه حتى يهلككم ويتلفكم سريعاً ، من أجل سوء أعمالكم وتركك لعبادتي ، يسلط الله عليكم الموت فيهلككم من الأرض التي تدخلونها لترثوها ، يضربكم الله بجيران العقل والبهق والبرص ، وبالحريق باشتمال النار ، وباليرقان والجرب والسموم ، ويسلط عليكم هذه الشعوب حتى تهلكوا ، وتكون السماء التي فوقكم عليكم شبه النحاس ، والأرض التي تحتكم شبه الحديد ، ويصير الرب مطر أرضهم غباراً ويكسركم الرب بين يدي أعدائكم ، تخرجون إليهم في طريق واحدة وتهربون في سبعة طرق ، وتكونون مثلاً وفزعاً لجميع مملكات الأرض ، وتكون جيفكم طعاماً لجميع السباع وطيور السماء ، ولا يذب أحد عنكم ، ويضربكم الرب بالجراحات التي ضرب بها أهل مصر ، ويبليكم بالبرص والزحير وبالحكة ، ولا يكون لكم شفاء من ذلك ، ويضربكم الرب بالعمى والكمه ورعب القلب ، وتكونون تجسسون في الظهيرة مثل ما يتجسس العميان ، ولا يتم شيء مما تعملون ، ولا يكون له تمام ، وتكونون مقهورين مظلومين مغصوبين كل أيام حياتكم ولا يكون لكم منقذ ، تخطبون المرأة فيتزوجها غيركم ، وتبنون بيتاً ويسكنه غيركم ، وتغرسون كروماً ولا تعصرون منها ، وتذبحون ثيرانكم بين أيديكم ولا تأكلون منها شيئاً ، ويؤخذ حمارك ظلماً ولا تقدر أن تخلصه ، ويسوق العدو أغنامكم ولا يكون لكم منقذ ، ويسبي بنيك وبناتك شعب آخر وتنظر إليهم

ولا تقدر لهم على خلاص ، وتشقى وتغتم نهارك كله أجمع ولا يكون لك حيلة ، وثمار أرضك وكل كدك يأكله

(56/450)

شعب لا تعرفه ، وتكون مضطهداً مظلوماً طول عمرك ، ويضربك الرب بجرح رديء على ركبتيك وساقيك ولا يكون لك ، ويسلط عليك الجراحات من قرنك إلى قدمك ويسوقك الرب ، ويسوق ملكك الذي ملكته عليك إلى شعب لم يعرفه أبوك ، وتعبد هناك آلهة عملت من خشب وحجارة ، وتكون مثلاً وعجباً ويفكر فيك كل من يسمع خبرك ثم قال : ويولد لك بنون وبنات ولا يكونون لك بل يسبون ، وينطلق بهم مسبيين .

ثم قال : ويسلط الرب عليك شعباً يأتيك وأنت جائع ظمآن ، وتخدم أعداءك الذين يسلطهم الله عليك من بعيد من أقصى الأرض ، ويسرع إليك مثل طيران النسر شعب لا تعرف لغتهم شعب وجوههم صفيقة لا تستحيي من الشيوخ ، ولا ترحم الصبيان ، ويضيق عليك في جميع قراك حتى يظفر بسوراتك المشيدة التي تتوكل عليها وتثق بها ، وتضطر حتى تأكل لحم ولدك من الحاجة والضيق الذي يضيق عليك عدوك ، والرجل المدلل منكم المتلذذ المفيق تنظر عيناه إلى أخيه وحليلته وإلى من بقي من ولده جائعاً ولا يعطيهم من لحم

ابنه الذي يأكل ، لأنه لا يبقى عنده شيء من الاضطهاد والضيق الذي يضيق عليك عدوك في كل قراك ، والمرأة المخدرة المدللة المفيقة التي لم تطأ الأرض قدماها من الدلال تنظر عيناها إلى زوجها وإلى ابنها وبنتها وإلى ولدها التي تلد ، وهي تأكلهم ، وذلك من الحاجة والفقر وعدم الطعام مما يضيق عليك عدوك ويضطهدك في جميع قراك .

(57/450)

ولما بين سبحانه أنه قادر على إذلال العزيز بعد ضخامة عزه ، بين أنه مقتدر على إدالته على من قهره بعد طول ذله إذا نقاه من درنه وهذ به من ذنوبه ، فقال تعالى مشيراً بأداة التراخي إلى عظمة هذه الإدالة بخرقها للعوائد : ﴿ ثم رددنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، وعجل لهم البشرى بقوله تعالى : ﴿ لكم ﴾ أي خاصة ﴿ الكرة ﴾ أي العودة والعظمة ؛ وبين أن ذلك مع السطوة بقوله سبحانه : ﴿ عليهم ﴾ قال بعض المفسرين : في زمان داود عليه السلام ﴿ وأمددناكم ﴾ أي أعنّاكم بعظمتنا ﴿ بأموال ﴾ تستعينون بها على قتال أعدائكم ﴿ وبنين ﴾ أي تقوون بهم ﴿ وجعلناكم ﴾ أي بعظمتنا ﴿ أكثر ﴾ أي من عدوكم ﴿ نفيراً ﴾ أي ناساً ينفرون معكم إذا استنفرتموهم للقتال ونحوه من المهمات ، والظاهر أنه ليس المراد بهذه المرة ما كان على يدي داود عليه السلام لأن الله يقول في هذه

المرة الثانية ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ﴾ وداود عليه السلام أسس المسجد ولم يكمله ، إنما أكمله ابنه سليمان عليهما السلام من بعده ، والذي عز من قال ذلك أن بني إسرائيل كانوا قهروا قبل داود عليه السلام من الفلسطينيين وغيرهم ، ثم كان خلاصهم على يده عليه السلام – كما مضت الإشارة إليه في سورة البقرة ، قال في الزبور في المزمور الثالث عشر : من يعطي صهيون الخلاص لإسرائيل ؟ إذا رد الرب سبي شعبه يتهلل يعقوب ويفرح إسرائيل ؛ وفي الثالث والأربعين : اللهم ! إنا قد سمعنا بآذاننا وأخبرنا آباؤنا بالأعمال التي صنعت في أيامهم الأولى ، فلنسبحك يا إلهنا كل يوم ، ونشكر اسمك إلى الدهر ، الآن أضعفتنا وأقصيتنا ، ولم تكن يا رب تصحب جيوشنا ، لكن رددتنا على أعقابنا عن أعدائنا ، واختطفنا مبغضونا ، جعلتنا مأكلة كالغنم ، مددتنا بين الشعوب ، بعت شعبك بلا ثمن ، أقللت كثرة عددهم ، صيرتنا عاراً في جيرتنا ، هزاً وطنزاً لمن حولنا ، صرنا مثلاً في الشعوب ، وهزاً للرؤوس في الأمم ، حزني بين يديّ النهار كله ، الخزي غطى وجهي ،

من صوت المعير ، اللهم ! إن هذا كله قد نالنا ولم ننس اسمك ، ولا نكثنا عهدك ، ولا صرفنا قلوبنا عنك ، عدلت بقصدنا عن سبلك ، أنزلتنا محال وعرة ، غشيتنا بظلال الموت ، ولم ننسك يا رب ، وقال في المزمور الثامن والسبعين والذي بعده : اللهم ! إن الأمم دخلت ميراثك ونجست هيكل قدسك ، جعلوا أورشليم خراباً كالمحرس ، وصيروا جثث عبيدك طعاماً لطير السماء ، ولحوم أصفيائك لوحوش الأرض ، سفكوا دماءهم كالماء حول أورشليم وليس لهم دافن ، صرنا عاراً في جيراننا ، هزءاً وطنزاً لمن حولنا ، حتى متى تسخط يا رب ، دائماً يشتعل مثل النار غضبك ، أفض رجزك على الأمم الذين لا يعرفونك وعلى الملوك الذين لم يدعوا اسمك ، فإنهم أكلوا يعقوب وأخربوا دياره ، لا تذكر خطايانا الأولى بل تغشانا رأفتك سريعاً ، لأنا قد تمسكنا جداً ، فكن لنا معيناً يا إلهنا ومخلصنا ، ونمجد اسمك يا رب ، نجنا واغفر لنا خطايانا لأجل اسمك الكريم ، لئلا تقول الأمم : أين إلههم ؟ عند ذلك تعلم الشعوب وتنظر عيوننا انتقام دماء عبيدك المسفوكة ، وليدخل إليك تنهد الأسارى ، وكمثل عظمة ذراعك أنقذ بني المقتولين ، جاز جيراننا في حضنهم للواحد سبعة بالعار الذي عيروك يا رب ! نحن شعبك وغنم رعيتك ، نشكرك إلى الأبد ونخبر بتسابيحك من جيل إلى جيل .

أنصت يا راعي إسرائيل الذي هدى يوسف كالخروف ، انظر أيها الجالس على الكروبين استعلن قدام إفرام وبنيامين ومنشا ، وأظهر جبروتك وتعال لخلاصنا ، اللهم ! أقبل وأشرق وجهك علينا وخلصنا ، اللهم ربنا القوي ! حتى متى تسخط على صلاة عبيدك ، وتطعمهم الخبز بدموعهم وتسقيهم الدموع بالكيل ، جعلتنا عاراً لجيراننا ، واستهزأ بنا أعداؤنا ، اللهم رب القوات ! أقبل بنا وأشرق وجهك علينا وخلصنا ، أنت نقلت الكرمة من مصر ، طردت الشعوب وغرستها ، سهلت طريقاً أمامها ، مكنت أصولها ، امتلأت الأرض منها ، ظلل الجبال ظلها وأغصانها على أرز الله ، كذلك امتدت عروقها إلى البحر وإلى الأنهار فروعها ، ثم إنك هدمت سياجها ، وقطعها كل عابري السبيل ، خنزير الغاب أفسدها ، وحيوان الوحش رعتها ، اللهم رب القوات ! اعطف علينا ، واطلع من السماء ، وانظر وتعاهد هذه الكرمة ، وأصلح الغرس الذي غرسته يمينك وابن الإنسان الذي قويته ، ولتهلك الذين أحرقوها بالنار برجزك ، ولتكن يدك على رجل يمينك وابن الإنسان الذي اصطفيته لك ، لا تبعدنا منك وأنقذنا لنمجد اسمك ، اللهم رب القوات ! اعطف علينا وأشرق وجهك علينا وخلصنا ؛ وفي الرابع والثمانين : رضيت يا رب عن أرضك ، ورددت سبي يعقوب ، غفرت ذنوب شعبك سترت جميع خطاياهم ، سكنت كل رجزك ، ورددت شدة غضبك ؛ وفي الثامن والثمانين : قدوس إسرائيل ملكنا بالوحي ، كلمت

نبيك وقلت : إني جعلت عوناً للقوى ، رفعت مختاراً من شعبي ، ووجدت داود عبدي ، مسحته بدهن قدسي ، يدي أعانته ، وذراعي قوته ، عدوه لا يضره ، وابن الخطيئة لا يذله ، وقطعت أعداءه من بين يديه ، ولمغضبيه قهرت ، أمانتي ورحمتي معه ، وباسمي يرتفع قرنه ، جعلت في البحار طريقه ، وفي الأنهار يمينه ، هو يدعوني : أنت أبي وإلهي ناصري وخلاصي ، وأنا أجعله بكراً رفيعاً على جميع ملوك الأرض وأحفظ عليه رحمتي إلى الأبد ؛ ثم قال : وأنت رفضت وأقصيت مسيحك ، ونقضت عهد عبدك في الأرض ،

ودنست قدسه ، وهدمت جميع سياجه ، وكل حصونه أخفت ، اختطفه عابرو السبيل ، صار عاراً في جيرته ، رفعت يمين أعدائه ، فرحت جميع مبغضيه ، رددت نصرة سيفه ، لم تعنه في الحرب ، أبطلت شجاعته ، طرحت في الأرض كرسيه ، صغرت أيام سنيه ، صببت حزناً عليه ، فحتى متى تسخط يا رب ؟ إلى الأبد يتقد مثل النار رجزك ، اذكر خلقك لي ، فإنك لم تخلق الإنسان باطلاً ، من هو الإنسان الذي يعيش ولا يعاين الموت أو ينجي نفسه من الجحيم ؟ اللهم ! أين رحمتك القديمة التي حلفت بحقك لداود عليه السلام ؟ اللهم أعداؤك عيروا آثار مسيحك ، تبارك الرب إلى الأبد ، يكون يكون ؛ وفي

الخامس بعد المائة : خلصنا يا إلهنا واجمعنا من الأمم لنشكر اسمك القدوس ، ونفتخر بتسبيحك ، تبارك الرب إله إسرائيل من الآن وإلى الأبد ، يقول جميع الشعب : يكون ، وفي الخامس والعشرين بعد المائة : إذا رد الرب سبي صهيون صرنا كالمتغربين ، حينئذ تمتلىء أفواهنا فرحاً وألسنتنا تهليلاً ، هناك يقال في الأمم : قد أكثر الرب الصنيع إلى هؤلاء ، أكثر الرب الصنيع إلينا فصرنا فرحين ، يا رب اردد سبينا كأودية اليمن ، الذين يزرعون بالدموع ويحصدون بالفرح ، كانوا ينطلقون يبذرون زرعهم باكين ويأتون مقبلين بالتهليل حاملين غلاتهم ؛ وفي السادس والثلاثين بعد المائة : على أنهار بابل جلسنا هناك وبكينا حين ذكرنا صهيون ، وعلقنا قيثاراتنا على الصفصاف الذي في وسطها ، لأن الذين سبونا سألونا هناك قول التمجيد ، والذين انطلقوا قالوا : سبحوا لنا في تسابيح صهيون ! كيف نسبح لكم تسابيح الرب في أرض غريبة ؟ إن نسيتك يا يروشليم فتنساني يميني ، ويلصق لساني بحنكي إن لم أذكروك وإن لم أسبق وأصعد إلى يروشليم في ابتداء فرحي ، اذكر يا رب بني أدوم في يوم أورشليم القائلين : اهدموا إلى الأساس .

يا ابنه الشقية ! طوبى لمن يجازيك جزاء صنيعك بنا ، طوبى لمن أخذ أطفالك وضرب بهم الصخرة .

وهذا الذي في هذا المزمور إيذان بما يحل بهم من بختنصر ، وقد تقدم غير مرة أن ما كان فيما ينقل من هذه الكتب القديمة من لفظة توهم نقصاً كالأب ونحوه فإنها على تقدير صحتها عنهم لا يجوز إطلاقها في شرعنا ، والظاهر أن هذه الادلة المذكورة في القرآن في هذه الكرة هي التي كانت في أيام عزير عليه السلام على يد كورش ملك الفرس - كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وأن الذين كانوا قهروهم أولاً هم أجناد بختنصر - كما تقدم ، ففي سفر أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بعد موسى عليه السلام أن الله تعالى أوحى إلى إرميا بن حلقيا من الأحبار الذين كانوا في عناثوث في أرض بنيامين على عهد يوشيا ملك يهوذا في السنة الثالثة عشرة من ملكه يتوعدهم بأنهم إن لم يرجعوا عما أحدثوا من الضلالات سلط عليهم ملك بابل ، ولم يزل يحذرهم مثل ذلك ويخبرهم بما يحصل لهم من الشر بذنوبهم إلى أن تمت أيام يواكيم بن يوشيا ، وفي إحدى عشرة سنة لصديقيا بن يوشيا إلى يوم سبيت أورشليم في الشهر الخامس ، وهو شهر آب وكان يخبرهم بأن ملك بابل يأسر صديقيا ملك اليهود ، ويسوقه مع الأسرى إلى بابل ، ويستمرون في أسرهم سبعين سنة ثم يردهم الله تعالى إلى بيت المقدس .

قال إرميا عليه السلام : إن الله تعالى قال لي : من قبل أن أصورك في البطن عرفتك ، وخصصتك لي نبياً من قبل أن تخرج من الرحم وجعلتك نبياً للشعوب ، فقلت : أطلب

إليك يا رب وإلهي أن تعفيني ، لأني لست أعلم أن أنطق لأني حدث ، فقال لي الرب : لا تقل : إني حدث .

(62/450)

لأنك تتوجه إلى كل ما أرسلك فيه وتجمع ما آمرك به من القول ، فأدّه ولا تخف لأني معك أنقذك من كل آفة ، وإن الرب مد يده وقربها إلى فيّ وقال لي الرب : قد صيرت أقوالي في فيك ، فاعلم أني قد سلطتك اليوم على جميع مملكات الأمم لتهدم وتنقض وتهلك وتستأصل وتبكت وتتنبأ وتقدسني ، ثم أوحى إليّ الرب وقال : ما الذي رأيت يا إرميا ؟ فقلت : رأيت غصناً من شجر اللوز ، فقال لي الرب : ما أحسن ما رأيت لأن معجل فصل أقوالي ؛ ثم أوحى إليّ الرب ثانية : ما الذي رأيت ؟ فقلت منجلاً منصوباً ووجهه إلى ناحية الجربياء – أي الشمال – فقال لي الرب : من ناحية الجربياء ينفتح الشر وينزل في جميع الأرض التي ليهوذا ، ها أنا مرسلك أن تدعو جميع عشائر مملكات الجربياء ، يقول الرب .

فيأتون ويلقي كل رجل منهم كرسيه في مدخل أبواب أورشليم ، ويحوطون بسورها كما يدور ، وبجميع قرى يهوذا ، وأنتقم منهم بأحكام وقضائي من أجل جميع سرورهم وسوء أعمالهم ، لأنهم اجتنبوني وبخروا لآلهة غريبة بالبخور ، وسجدوا لصنعة أيديهم فأمت

أنت فشد على ظهرك ، وقم فقل عليهم جميع الأقوال التي آمرك بها ولا تخفهم ولا تحابهم لئلا أكسرك بين أيديهم وأذلك ، وقد جعلتك اليوم كالقرية العزيزة الممتنعة ، ومثل قضيب من حديد ، وصيرتك مثل سور من نحاس على الأرض كلها ، وعلى جميع ملوك يهوذا وعلى عظمائهم وعلى أحبارهم وآبائهم ، وعلى جميع شعب الأرض ، فإن جاهدوك لم يقهروك لأني معك وأنا منقذك منهم .

(63/450)

ولم يزل يقوم فيهم بمثل هذا من كلام في غاية البلاغة والرقة بحيث يفتت الأكباد ، ويصدع القلوب ، ويفيض العيون ، نحو أربع كراريس ، لولا خوف الملالة وكراهة الإطالة لأتيت بكثير منه ، وكان المتنبئون الكذبة يقومون فيهم بخلاف ذلك مما يؤمنهم إلى أن ضربوا إرميا ليترك عنهم مثل ذلك ، فلم يكن يستطيع تركه وقال لشخص من المتنبئين اسمه حننيا : إن الرب لم يرسلك ، أنت وكلت هذا الشعب على الزور ، ومن أجل هذا يقول الرب : هو ذا أطرحك عن وجه الأرض ، وفي هذه السنة تموت ، لأنك تكلمت بالإثم قدام الرب ، فمات حننيا النبي الكذاب في تلك السنة في الشهر السابع .

ثم زاد تحذير إرميا لهم إلى أن حبسوه ، ثم إن الله تعالى أمره أن يكتب لهم ما يوحيه إليه في

صحيفة ويرسلها إليهم ، فدعا باروخ بن ناريا الكاتب وأمره بكتابة ما أنطقه به الرب وقال له ها أنا محبوس ولست أستطيع أن أدخل بيت الرب ، فخذ هذه الصحيفة وادخل أنت إلى بيت الرب في يوم الصوم واقرأها عليهم ، فإنها كلام الرب ، لعلهم يرجعون عن طريقة السوء ، ويكف الرب عن الشر الذي قاله عليهم .

لأنه عظيم الرجز والغضب الذي تكلم به الرب على هذا الشعب .

ففعل باروخ ذلك ، فأخذوا الصحيفة من يده وأوصلوها إلى الملك يواقيم بن يوشيا فشققها وأحرقها بالنار ، فأمره الله أن يكتب صحيفة أخرى مثلها ويزيد ما يأمره الله به ، ومنه أن يواقيم ملك يهوذا لا يكون له من يجلس على كرسي داود عليه السلام ، وجيفته تكون مطروحة في السموم بالنهار وفي الجليد بالليل ، وآمر به وبذريته وبعبيده ، وآتى على أورشليم وعلى سكانها وعلى بيت يهوذا بكل الشر الذي قلت عليهم ، لأنهم لم يسمعوا صوتي .

ولما ملك صاديقيا على اليهود ، وكانت السنة العاشرة من ملكه ، وهي الثامنة عشرة لبختنصر ملك بابل ، أحاطت جيوش ملك بابل بأورشليم ، وكان إرميا النبي محبوساً في

دار حرس الملك ، حبسه فيها صاديقيا ملك يهوذا ، وقال له : ما لك تتنبأ وتقول : هكذا يقول الرب : هوذا أدفع هذه القرية وصديقيا ملك يهوذا في يدي ملك بابل ويضبطها ، ولا ينجو من أيدي الكلدانيين ، لأن الرب دفاع يدفعه في يدي ملك بابل ويكلمه فمه لفمه وعيناه إلى عينيه ، وينطلق به إلى بابل ؟ فأوحى الله إلى إرميا وهو محبوس فقال : يقول الرب : هوذا أدفع هذه القرية إلى ملك بابل فيحرقها بالنار ، وأنت فلا تفلت من يديه ، ولكنك أخذاً تؤخذ وتدفع إليه وعيناك إلى عينيه تنظر ، وفمك إلى فمه يكلم ، وإلى بابل تذهب ، ولكن اسمع يا صديقيا ملك يهوذا قول الرب ، هكذا يقول الرب عليك : إنك لست تموت بالحرب ، ولكنك موت سلامة تموت ، وكالذي ناحوا على آبائك الملوك الأولين الذين كانوا قبلك ينوحون عليك ويقولون : واسيداه ! لأن هذا القول الذي تكلمت به قاله الرب ، هذا كله ، وأجناد ملك بابل تحاصر أورشليم وتقاتلها .

(65/450)

ثم إن صديقيا أرسل إلى فرعون بمصر ليستنجد به فخرج جنده ، فلما سمع بهم الكلدانيون انصرفوا عن أورشليم ، وحل قول الرب على إرميا أن هكذا يقول الرب إله إسرائيل لملك يهوذا الذي بعث إلى جند فرعون ليعينوه : هوذا الآن جند فرعون يرجعون إلى أرض مصر ،

ويرجع الكلدانيون ويقاتلون هذه القرية ويحتوون عليها ويحرقونها بالنار ، هكذا يقول الرب ، لا تظنوا في أنفسكم أن الكلدانيين الذين انصرفوا عنكم ليس يرجعون ، بل إنهم يرجعون ويحرقون القرية بالنار ثم إن اليهود اتهموا إرميا بأنه يريد أن يفر إلى الكلدانيين فجلدوه وطرحوه في السجن ، فأخرجه الملك صديقيا وسأله في البيت سراً عن قول الرب فقال له : في يد ملك بابل تدفع ، وقال له : ماذا أخطأت إليك وإلى عبيدك وإلى هذا الشعب إذ طرحتموني في السجن ؟ وأين الذين كانوا يتنبؤون لكم أنه لا يأتي عليكم ملك بابل ولا على هذه الأرض ؟ فرده إلى السجن ولم ينزله إلى الجب لأنه كان لا يقدر على مخالفة أشراف مملكته .

ثم قال إرميا : هكذا يقول الرب : من يسكن هذه القرية بالحرب فبالجوع والموتان يذهب ، فأما من يخرج إلى الكلدانيين فإنه يحيي نفسه ويعيش ، هكذا يقول الرب ، فقال الأشراف : يقتل هذا الرجل لأنه يسقط أيادي المقاتلة الذين بقوا في القرية وأيادي الشعب إذا قال هذا الكلام ، فقال الملك صديقيا : هوذا منذ وقع في أيديكم لا يستطيع أن يغير هذا الكلام ، ولم يكن الملك يقدر يقول لهم شيئاً ، فأخذوا إرميا وطرحوه في جب إميلخيا بن الملك في دار

السجن، والجب لم يكن فيه ماء ولكن حمأة، فغرق إرميا في الحمأة، وسمع عبد الملك حبشي وكان رجلاً مؤمنا فقال للملك: يا سيدي! بئس ما صنع هؤلاء القوم بالنبي إذ طرحوه في جب، وهو ذا يموت، فقال الملك: خذ معك من هنا ثلاثين رجلاً، وانطلقوا اصعدوا إرميا من الجب قبل أن يموت، وإن عبد الملك أخذ رجالاً ودخل إلى الخزانة التي أسفل بيت الملك، وأخذ من ثَمَّ خلقاناً فسببها إلى إرميا بالحبل وقال له: خذ هذه الخلقان، واجعلها تحت إبطيك، لئلا يعقرك الحبل، ففعل إرميا كذلك وأصعدوه من الجب وأجلسوه في دار السجن، وأرسل الملك فأدخل إرميا إليه وجعله في داخل ثلاثة أبيات، مخدع داخل مخدع وقال له: إني أسألك أن لا تكتمني شيئًا، قال إرميا لصديقيا: إني أخاف أن تقتلني، وإن أنا أشرت عليك لم تطعني، فقال صديقيا: حيّ هو الرب الذي خلقني إني لا أقتلك ولا أدفعك إلى الناس الذين يريدون نفسك، فقال إرميا: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: لئن خرجت إلى أشراف ملك بابل لتحيين نفسك، وهذه القرية تسلم ولا تحرق بالنار، وتعيش أنت وبنوك، وإن أنت لم تخرج إليهم فستدفع هذه القرية إلى الكلدانيين ويحرقونها بالنار وأنت فلا تنجو من أيديهم، فقال الملك لإرميا: إني أخشى من اليهود أن أخرج إلى الكلدانيين فلعلهم يدفعونني في أيديهم ويهزؤون بي، قال إرميا: إنهم ليس يدفعونك في أيديهم، اسمع إلى كلمة الرب لمنفعتك

لتحيي نفسك .

وحل على إرميا قول الرب إذ كان محبوساً في دار الحرس : انطلق فقل للعبد الحبشي الذي للملك : هكذا يقول الرب القوي إله إسرائيل : هو ذا آتي على هذه القرية بالشر ، ويكونون قدامك في ذلك اليوم ، وأنجيك ، قال الرب : ولا تدفع في يد القوم الذين لا يخشون الله ، ولا تسقط في الحرب ، ولكنك تنجو بنفسك لأنك توكلت على ما قال لك الرب .

(68/450)

وجلس إرميا في دار السجن حتى اليوم الذي أخذ فيه الكلدانيون أورشليم في السنة التاسعة لصديقيا ملك يهوذا في الشهر العاشر ، وفي تسعة من الشهر أتى بختنصر ملك بابل في كل أجناده إلى أورشليم وحلوا عليها ، وفي إحدى عشرة سنة لصديقيا في الشهر الخامس انثلمت القرية ، فأتى كل أشراف ملك بابل إلى الباب الأوسط ، فلما رأى صديقيا أنهم قد جلسوا في الباب الأوسط وقد هرب المقاتلة وخرجوا بالليل ، خرج الملك أيضاً من الباب الذي بين السورين في طريق نيسان ، فلما صار إلى الصحراء طلبه جند الكلدانيين على الأثر ، فأدركوه في صحراء أريحا وافترق عنه أجناده فساقوه حتى أصعدوه إلى

بختنصر ملك بابل في ديلاب من أرض حماة وذبح ملك بابل بني صديقيا وكل أشراف يهوذا ،
وأعمى عيني صديقيا وأوثقه في السلاسل لكي يذهب به إلى بابل ، وأحرق بيت الملك
وبيوت الشعب بالنار ، واستأصل السور المحيط بأورشليم ، وكذا بقية الشعب ، الذين
بقوا في القرية والذين هربوا إليه سباهم ودفعهم إلى وازردان صاحب شرطته ، فانطلق بهم
إلى بابل ، ومساكين الشعب – الذين ليس لهم شيء – تركهم في أرض يهوذا ، واستعمل
عليهم أخيقام بن شافان ، وأمر بختنصر صاحب شرطته أن يأخذ إرميا وقال : لتكن
عينك عليه ، ولا تفعل به بأساً ، وما قال لك من شيء فافعله ، فأرسل إلى إرميا فأخذه
من دار الحبس ، ودفعه إلى أجدليا بن أخيقام بن شافان ليرده إلى بيته ، وقال وازردان
صاحب الشرطة لإرميا : إلهك الذي قال هذا الشر على هذه البلدة وفعل كالذي قال ،
لأنكم أخطأتم للرب ولم تسمعوا صوته ، فأنزل بكم هذا الأمر ، وأما أنت فها أنا ذا قد
أحللتك من السلاسل التي كانت في يديك ، فإن شئت أن تأتي معي إلى بابل فتعال ، وإن
شئت فأقم ، فهذه الأرض في يديك كلها ، فحيثما كان خيراً لك وحيث يحسن في عينيك
فانطلق إليه ، وإلا فاجلس عند جدليا بن أخيقام بن شافان الذي سلطه بختنصر في يهوذا ،
وأعطاه صاحب الشرطة مواهب في

الطريق وسرحه بسلام ، فأتى إرميا إلى أجدليا بن أخيقام إلى مسفيا ، وجلس عنده مع الشعب الذين خلفهم ملك بابل في الأرض .

هذا ما دل على أولي البأس الشديد الذين سلطهم الله عليهم ، وأما ما دل على رحمة الله لهم ففي تأريخ يوسف بن كريون أن الروم لما بلغهم أن بختنصر ملك بابل فتح مدينة المقدس ازداد خوفهم من الكسدانيين ، فأرسلوا إلى بختنصر رسلاً وهدايا ، وطلبوا منه الأمان والمسالمة ، فآمنهم وعاهدهم على طاعته وموالاته ، فاطمأنوا وآمنوا وانقطعت عنهم تلك الحروب إلى زمان دارا الملك ، وكان سبب الحروب بين الروم وبين الكسدانيين .

أن الكسدانيين كانوا يعادون اليونانيين ، فأعان الروم اليونانيين فغضب الكسدانيون من ذلك فحاربوا أهل رومية ، واتصلت الحروب بينهم إلى هذا الحد ، فلما انتقد الله العزيز على الكسدانيين طول تجبرهم وحكم بزوال ملكهم وانقضاء دولتهم كما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام ، أثار عليهم من ملوك الأمم ملكين عظيمين : أحدهما دارا ملك ماداي ، والآخر كورش ملك الفرس ، فتزوج كورش ملك الفرس بنت دارا واتفقا على معصية

الكسدانيين ، وأظهر الخلاف على بلتشصار بن بختنصر ملكهم ، ثم سار إلى بابل في عساكر قوية ، فأرسل إليهم بلتشصر عسكراً كبيراً ، فجرت بينهم حرب عظيمة ، قتل فيها من الفريقين خلق كثير ، ثم انهزم عسكر بلتشصر وهربوا ، فتبعهم كورش ودارا إلى مسيرة يوم عن بابل ، وقتلا كثيراً منهم ، وأقام دارا وكورش في ذلك الموضع ، ثم إن بلتشصر بعث إليهما بألف قائد من قواده ومعهم جميع خاصته وجبابرته ، فخرجوا من بابل آخر النهار ، وساروا ليلتهم فانتهوا إلى عسكر دارا وكورش عند الصباح فكبسوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فانهزم دارا وثبت كورش فقاتل الكسدانيين ومنعهم أن يتبعوا عسكر دارا ، وقامت الحرب بينهم طول النهار ، ثم استظهر الكسدانيون على الفرس وقتلوا جماعة منهم ، فانهزم الفرس وعاد قواد بلتشصار إليه ظافرين غانمين ، فعظم سرور بلتشصار بذلك ، وصنع لقواده صنيعاً عظيماً أحفل فيه وأحضر الآلات الحسنة من الفضة والذهب ، وبالغ في إكرامهم وحضر معهم مجلس الشراب ، فأكل وشرب وعظم سرورهم وسروره ، فلما أخذ الشراب منه أراد أن يزيد في إكرام أصحابه وسرورهم ، فأمر بإحضار آلات الذهب والفضة التي كان جده بختنصر الملك قد أخذها من هيكل بيت المقدس ، ونقلها مع جالية بني إسرائيل إلى بابل ، فأحضرت تلك الآلات بحضرة بلتشصر فشرب فيها الخمر وسقى فيها قواده ونساءه وجواريه ، وأقبلوا يسبحون لأصنامهم ويحمدونها ، قال : فسخط الله سبحانه من ذلك وكره ما فعله

(71/450)

بلتشصار من ابتذال الآلات القدس ولم يخف من الله ولم يشكره على ما ظفره بأعدائه ، فأرسل ملاكاً وأمره أن يكتب بحضرة بلتشصار ألفاظاً بأحمر تتضمن ذكر ما حكم الله به عليه وعلى مملكته ، فحل الملاك بأمر الله عز وجل وكتب الألفاظ على حائط المجلس مقابل المنارة ، وكان يرى أصابع الملاك وهي تكتب وما رأى بقية شخصه ، وكانت تلك الأصابع شديدة البهار والنور ، فلما رآها ذهل ولحقه رعب شديد وفزع وارتعد جميع جسمه رعدة شديدة ، ورعب جيمع جنده ، ولم يفهم تلك الكتابة ولا وجد في أصحابه من يقرأها لأن الخط كان كسدانياً وكان اللفظ عبرانياً .

(72/450)

فأمر بإحضار دانيال النبي – صلى الله على نبينا محمد وعليه السلام – فقرأها وفسرها وقال : أيها الملك ! قد أخطأت خطأ عظيماً بابتذالك الآلات قدس الله بأيدي جندك وجواريك فنجسوها ، ولذلك سخط الله وأرسل ملاكه حتى كتب هذه الألفاظ ليعلمك

ما يريد أن يفعله ، فأما هذه الألفاظ المكتوبة فهي " حسب ووزن ونقل " وتفسيرها أن الله حسب مدة دولتكم التي قد جعلها لكم فوجدها قد انقضت وانتهت ولم يبق منها شيء ، ووزنك في الميزان فوجدك ناقصاً ، يريد أنه جربك بالإحسان إليك والظفر بأعدائك فوجدك غير شاكر لإحسانه ولم تحمده ، بل سبحت الأصنام ، وأما تفسير " نقل " فإن الله قد قضى وحكم بزوال الملك عنك ونقله إلى كورش ودارا ؛ قال : فلما سمع بلتشصار ما قال دانيال ازداد خوفه وفزعه واضطرب قواده أيضاً وفزعوا فزعاً شديداً وانصرفوا إلى منازلهم وهم خائفون ، فلما نام بلتشصر في تلك الليلة جاء إليه خادم من خدمه فقتله على فراشه ، وأخذ رأسه ومضى إلى دارا وكورش ، وأخبرهما بخبر بلتشصار وما فعل من ابتذال آنية القدس ، وخبر الكتابة التي كتبها الملاك قدامه وتفسير دانيال لها ، وما أخبره به من انقضاء ملكه وانتقال دولته إلى ملوك مادي وفارس بسبب ابتذاله آنية القدس ، فلما سمع دارا وكورش ما أخبرهما به ونظرا رأس بلتشصار شكرا الله عز وجل واعترفا بقدرته وأكثرا تسبيحه وتمجيده ، ونذر كورش أنه يبني بيت الله بأورشليم ، ويرد تلك الآنية ، ويطلق جالية اليهود أن يرجعوا إلى بلادهم ، ثم سار كورش ودارا من مواضعهما ، ودخلا بابل وقتلا جميع أهلها بأشد القتل وأعظم العذاب ، فتم عند ذلك ما أخبرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من انتقام الله تعالى من الكسدانيين وأهل بابل ومجازاتهم بما فعلوه بآنية قدسه ، ثم اقتسم دارا وكورش مملكة الكسدانيين فأخذ دارا مدينة بابل وأعمالها

وتسلم قصر بلتشصار وجلس على سريره ، وأخذ كورش جميع مملكة الكسدانيين التي هي غير بابل

(73/450)

وأعمالها واستقر الأمر بينهما على ذلك ، وكان دارا في ذلك الوقت شيخاً فلم تطل مدته فلما مات اتفق عظماء مادي وفارس على أن ملكوا عليهم كورش ، ومنذ ذلك الوقت صار ملك مادي وفارس واحداً ، وبقي الأمر على ذلك ولم يتغير ، ولما تسلم كورش مملكة الكسدانيين ، وجلس على كرسي بابل وملك على مادي وفارس حركه الله تعالى في السنة الأولى من ملكه ، فذكر نذره الذي كان قد نذر أنه يطلق لجالية بني إسرائيل الرجوع إلى بلدهم ، وأنه يبني قدس الله ، ويرد آلاته إليه ، فأمر بإحضار شيوخ الجالية وكبرائهم ، فأخبرهم بما قد عزم عليه من بناء بيت المقدس وإطلاقهم وقال لهم : من اختار من جالية اليهود أن يمضي إلى مدينة القدس لبناء الهيكل الذي أخربه بختنصر فليمض ويستعن بالله عز وجل فإنه يعينه ، وأنا كورش عبد الإله العظيم أطلق من خزائني جميع ما يحتاج إليه من المال والعدد لعمارة بيت الرب الذي ظفرني بالكسدانيين ، وأعطاني ملكهم ، قال : فلما سمع شيوخ الجالية مقالة كورش عظم سرورهم بذلك وشكروا الله عز وجل على إحسانه

، وطلعوا إلى مدينة بيت المقدس ، ومعهم جماعة كثيرة ، ومعهم عزرا الكاهن عليه السلام ونحميا ومردخاي ويشوع وسائر رؤساء الجالية ومقدميهم ، فبنوا بيت الله على المقدار الذي رسم لهم كورش ، وبنوا المذبح على واجبه وحدوده ، وقربوا القرابين على واجبها ، وكان كورش يطلق لهم كل سنة ما يحتاجون إليه لخدمة بيت الله من المال والحنطة والزيت والخمر والغنم والبقر ، وأطلق لهم مالاً كثيراً ، ولم يزل الأمر يجري على ذلك طول مملكة الفرس ، قال : ثم عظم أمر كورش وبسط الله يده على جميع الأمم والممالك ، وفتح له الحصون المنيعة وأعطاه كنوز الأرض وذخائرها ، ولم يزل مقبلاً مظفراً حيثما توجه كما أخبر الله تعالى على يد أشعيا النبي عليه السلام أنه يفعل ذلك بكورش من أجل إحسانه إلى بني إسرائيل ؛ قال في سفر الأنبياء في نبوة أشعيا بن آموص : هكذا يقول الرب

: أنا الذي أبطل آيات العرافين ، وأصير كل تعريفهم جهلاً ، وأرد الحكماء إلى خلفهم ، وأعرف أعمالهم للناس ، وأثبت كلمة عبيدي ، وأتمم قول رسلي ، لأنه قال لأورشليم : إنها تعمر ، ولقرى يهوذا : إنها تبنى وتعمر خراباتها ، ويقول للغور أن يخرب وتيبس أنهاره ، ويقول لكورش : ارع لتتم جميع إرادتي ، وتأمر ببناء أورشليم وتقيم هياكلها ، هكذا يقول

الرب لمسيحه وكورش الذي أخذ بيمينه لتخضع له الشعوب ويظهر على الملوك أبداً : افتح الأبواب بين يديه ، ولا تغلق الأبواب أمامه ، أنا أسير قدامه ، وأسهل له العسر ، أكسر أبواب النحاس ، وأحطم أمخال الحديد ، وأعطيه الذخائر التي في الظلمات ، والأشياء المطمورة المستورة ، ليعلم أني أنا الرب الذي دعوته قبل مولده إله إسرائيل ، من أجل عبدي يعقوب وإسرائيل صفِي دعوتك باسمك ، وكنيتك من قبل أن تعرفني ، أنا الرب ولا إله غيري – انتهى ما في سفر الأنبياء .

ولم يزل كورش يحسن إلى بني إسرائيل حتى مات وملك بعده ابنه تمكيشه فأنفذ ما كان صنعه أبوه من البر إلى اليهود وإطلاق الأموال الكثيرة لهم تعظيماً لبيت الله ، وكان من بعده من ملوك الفرس على ذلك ، ويطلقون ما كان كورش يطلقه للقرابين وغيرها ، ويجلون بيت الله ويعظمونه ويتبركون به ، حتى كان أحشويرش – وهو أردشير الملك – فتغيرت حال اليهود في زمانه بسبب وزير استوزره من العماليق يسمى هامان ، ثم إن الله تعالى عطفه عليهم بسبب زوجة له من اليهود ، ولم يزل أمرهم مستقيماً وهم تحت طاعة الفرس إلى أن ملك الإسكندر الثاني ، قال ابن كثير في سورة الكهف : وهو الذي يؤرخ له من مملكة الروم ، وقد كان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة انتهى .

وهو الماقيدوني اليوناني الرومي ، ملك بعد قتل أبيه فليفوس ، وكان عمره حين ملك عشرين سنة ، وكان حكيماً عارفاً بسائر العلوم ، وكان الذي علمه الحكمة أرسطاليس الحكيم ، وكان الإسكندر يشاوره في أموره ويرجع إلى رأيه ويتدرب بتدبيره ، ولم يكن يشبه أباه ولا أمه ، وكان وجهه كوجه الأسد وعيناه مختلفتين : اليمنى سوداء تنظر إلى أسفل ، واليسرى صافية اللون كعين السنور تنظر إلى فوق ، وأسنانه دقيقة حادة كأسنان الكلب ، وكان شجاعاً جريئاً مقداماً من صباه ، فلما فتح بلاد المغرب ورجع منها قصد بلاد الشام وتوجه إلى بيت المقدس فلقيه ملاك الرب فأمره أن يعظم القدس وأهلها ، ففعل ثم قصد دارا الثاني ملك الفرس ، فلما حاذى نابلس خرج إليه سنبلاط السامري صاحبها وحمل إليه أموالاً كثيرة وهدايا ، ثم سار إلى دارا فقتله ، ثم إلى ملك الهند فكذلك ، ثم إلى مطلع الشمس ، ثم أحب أن يرى أطراف الأرض فضرب فيها ، ورأى من الأمم والعجائب ما هو مذكور في سيره ، ورجع فمات ببابل ، ثم كان أمر اليهود تارة وتارة وهم تحت حكم اليونان الذين ملكوا بعد الإسكندر ، ثم غلب الروم فكان اليهود تحت أيديهم ، وكانوا يقومون ويقعدون تارة وتارة إلى أن كثرت فيهم الأحداث ، وعظمت المصائب والفتن ، وعم الفساد ، وكثرت فيهم الخوارج ، واتصل القتل والغدر والنهب والغارات ، وقتلوا زكريا ويحيى وابنه عليهما السلام ، وأطبقوا على إرادة قتل المسيح ابن مريم عليهما السلام ،

فرفعه الله تعالى إليه ثم سلط عليهم طيطوس قيصر فأهلكهم وأخرب البيت الخراب الثاني -كما سيأتي ثم لم يقم لليهود أمر إلى الآن. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 348.335﴾

(76/450)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة:

الإسرائيليات في إفساد بني إسرائيل:

ومن الإسرائيليات في كتب التفسير: ما يذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيرًا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: الآيات من 4-8].

وليس من قصدنا هنا : تحقيق مَرَّتَىْ إفسادهم ، ومن سلط عليهم في كلتا المرتين ، فلذلك موضع آخر 1 .

وإنما الذي يتصل ببحثي : بيان ما روي من الإسرائيليات في هاتين المرتين ، واسم من سلط عليهم ، وصفته وكيف كان ، وإلام صار أمره ، وقد كانت معظم الروايات في بيان العباد ذوي البأس الشديد الذين سلطوا عليهم تدور حول "بختنصر" البابلي ، وقد أحاطوه بهالة من العجائب ، والغرائب ، والمبالغات التي لا تصدق ، وقد أخرج هذه الروايات ابن جرير في تفسيره ، وأكثر منها جدا2 ، وابن أبي حاتم والبغوي3 ، وغيرهم عن ابن عباس ،

---

1 الذي أرجحه أن العباد ذوي البأس الشديد الذين نكلوا بهم ، وأذلوهم ، وسبوهم هم بختنصر وجنوده وأن الآخرين الذين أساءوا وجوههم ، ودخلوا المسجد الأقصى هم "طيطوس" الروماني وجيوشه ، فقد أساموهم سوء العذاب ، وتأمل في قوله : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ فإنه يدل على أنهم سيعودون ثم يفسدون ، فيرسل الله لهم من يسومهم العذاب ألوانًا .

2 تفسير ابن جرير ج15 من ص 16- 34.

3 ج5 ص 144-154.

وابن مسعود ، وعن سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعن السدي ، وعن وهب بن منبه ، وابن إسحاق ، وغيرهم ، وخرجها من غير ذكر أسانيدها مع عزوها إلى مخرجيها السيوطي في "الدر المنثور"1 .

وفيها ولا شك الكثير من أكاذيب بني إسرائيل التي اختلقها أسلافهم ، وتنوقلت عليهم ، ورواه أخلافهم من مسلمة أهل الكتاب الذين أسلموا ، وأخذها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسينا للظن بهم ، ورواها من غير تنبيه إلى ما فيها .

وفي هذه الأخبار الإسرائيلية ما يحتمل الصدق والكذب ، ولكن الأولى عدم الاشتغال به ، وأن لا يفسر القرآن به ، وأن نقف عند ما قصه الله علينا ، من غير أن نفسد جمال القرآن ، وجلاله بمثل هذه الإسرائيليات .

وقد أكثر ابن جرير هنا من النقل عن ابن إسحاق ، وفي بعضها روي عن ابن إسحاق عمن لا يتهم ، عن وهب بن منبه2 ، وفي بعضها بسنده عن وهب بن منبه في ذكر ابن إسحاق ، وبذلك وقفنا على من كان المصدر الحقيقي لهذه المرويات ، وأنه وهب ، وأمثاله من مسلمة أهل الكتاب .

وقد سود ابن جرير بضع صفحات من كتابه في النقل عن ابن إسحاق وعن وهب ولا أحب أن أنقل هذا بنصه ؛ فإن في ذلك تسويدًا للصفحات ، ولكني سأذكر البعض ليكون

القارئ لهذا التفسير على حذر من مثل ذلك .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثني ابن إسحاق قال : "كان مما أنزل الله على موسى 3 في خبره عن بني إسرائيل ، وفي إحداثهم ، ما هم فاعلون بعده ، فقال : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ .

فكانت بنو إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب ، وكان الله في ذلك متجاوزا عنهم .

---

1 ج 4 ص 163- 166.

2 تفسير ابن جرير ج 15 ص 29 .

3 المراد : أنزل معناه لا لفظه ، فالتوراة لم تكن بالعربية ، ولا كان لسان موسى عليه الصلاة والسلام عربيا .

متعطفا عليهم ، محسنًا إليهم ، فكان مما أنزل بهم في ذنوبهم ما كان قدم إليهم في الخبر على لسان موسى ، مما أنزل بهم في ذنوبهم ، فكان أول ما أنزل بهم من تلك الوقائع : أن ملكًا منهم كان يدعى صديقه ، وكان الله إذا ملك الملك عليهم بعث نبيا يسدده ، ويرشده ، ويكون

فيما بينه ، وبين الله ، ويحدث إليه في أمرهم لا ينزل عليهم الكتب ، إنما يؤمرون باتباع التوراة ، والأحكام التي فيها وينهونهم عن المعصية ، ويدعونهم إلى ما تركوا من الطاعة ، فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه شعياء بن أمصيا ، وذلك قبل مبعث زكريا ، ويحيى وعيسى ، وشعياء الذي بشر بعيسى ، ومحمد ، فملك ذلك الملك بني إسرائيل ، وبيت المقدس زمانا ، فلما انقضى ملكه ، عظمت فيهم الأحداث ، وشعياء معه ، بعث الله عليهم : "سنجاريب" ملك بابل ، ومعه ستمائة ألف راية1 فأقبل سائرا حتى نزل نحو بيت المقدس ، والملك مريض ، في ساقه قرحة ، فجاء النبي شعياء ، فقال له : يا ملك بني إسرائيل : إن "سنجاريب" ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده ، ستمائة ألف راية ، وقد هابهم الناس ، وفَرَقُوا2 منهم ، فكبُر ذلك على الملك فقال : يا نبي الله ، هل أتاك وحي من الله فيما حدث فتخبرنا به ؟ كيف يفعل الله بنا ، وبسنجاريب وجنوده ؟ فقال له النبي عليه السلام : لم يأتني وحي أُحدث إلي في شأنك ، فبينما هم على ذلك : أوحى الله إلى شعياء النبي : أن ائت ملك بني إسرائيل فمره أن يوصي وصيته ، ويستخلف على ملكه من شاء من أهل بيته ، فإنك ميت . . .

ثم استرسل ابن جرير في الرواية ، حتى استغرق ذلك أربع صفحات كبار من كتابه3 لا يشك الناظر فيها أنها من أخبار بني إسرائيل ، وفيما ذكره ابن جرير عن ابن إسحاق الصدق ، والكذب ، والحق ، والباطل ، ولسنا في حاجة إليه في تفسير الآيات .

---

1 من المبالغات التي لا تصدق، وكن على ذكر مما نقلناه عن العلامة ابن خلدون فيما سبق.

2 أي: خافوا.

3 ج15 من ص 18-21.

(79/450)

وفي الإفساد الثاني، ومن سلط عليهم، روى ابن جرير أيضا قال: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه قالا: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، قال: حدثنا ابن عبد الصمد بن معقل، عن وهب بن منبه.

(80/450)

وحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عمن لا يُتَّهَم، عن وهب بن منبه اليماني واللفظ لحديث ابن حميد أنه كان يقول يعني وهب بن منبه: قال الله تبارك وتعالى لأرميا حين بعثه نبيا إلى بني إسرائيل: يا أرميا من قبل أن أخلقك اخترتك، ولأمر

عظيم اختبأتك ، فبعث الله "أرميا" إلى ذلك الملك من بني إسرائيل ، يسدده ، ويرشده ويأتيه بالخبر من الله فيما بينه ، وبين الله ، قال : ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، وركبوا المعاصي ، واستحلوا المحارم ، ونسوا ما كان الله سبحانه وتعالى صنع بهم ، وما نجاهم من عدوهم "سنجاريب" وجنوده ، فأوحى الله إلى أرمياء : أنت أئت قومك من بني إسرائيل ، واقصص عليهم ما آمرك به ، وذكرهم نعمتي عليهم ، وعرفهم أحداثهم . . . واسترسل وهب بن منبه فيما يذكره من أخبار بني إسرائيل حتى استغرق ذلك من تفسير ابن جرير ثلاث صفحات كبار 1 إلى غير ذلك ، مما ذكره ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وغيرهما ، من قصص عجيب غريب في "بختنصر" هذا ، وما خرب من البلاد وما قتل من العباد .

الكذب على رسول الله بنسبة هذه الإسرائيليات إليه :

ولو أن هذه الإسرائيليات والأباطيل وقف بها عند رواتها من أهل الكتاب الذين أسلموا ، أو عند من رواها عنهم من الصحابة والتابعين لهان الأمر ، ولكن عظم الإثم أن تنسب هذه الإسرائيليات إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم ولا أشك أن هذا الدس من عمل زنادقة اليهود أو الفرس .

روى ابن جرير في تفسيره ، قال : حدثنا عصام بن داود بن الجراح ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثنا سفيان بن سعيد الثوري قال : حدثنا منصور بن المعتمر ، عن ربعي بن حراش ،

قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن بني إسرائيل لما اعتدوا ، وعلوا ، وقتلوا الأنبياء ، بعث الله عليهم ملك فارس :

1ج15 ، من ص 29-33 .

(81/450)

بختنصر" وكان الله ملكه سبعمائة سنة1 فسار إليهم ، حتى دخل بيت المقدس ، فحاصرها ، وفتح ، وقتل على دم زكريا سبعين ألفا ، ثم سبي أهلها ، وبني الأنبياء ، وسلب حلي بيت المقدس ، واستخرج منها سبعين ألفا ، ومائة ألف عجلة من حلي ، حتى أوردها بابل"2 ، قال حذيفة : فقلت يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عظيما عند الله ، قال : "أجل ، بناه سليمان بن داود من ذهب ، ودر ، وياقوت ، وزبرجد وكان بلاطة من ذهب ، وبلاطة من فضة ، وعمده ذهبا ، أعطاه الله ذلك ، وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين ، فسار "بختنصر" بهذه الأشياء ، حتى دخل بها بابل ، فأقام بنو إسرائيل في يديه مائة سنة ، تعذبهم المجوس ، وأبناء المجوس ، فيهم الأنبياء ، وأبناء الأنبياء ثم إن الله رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له : "كورش" وكان مؤمنا ، أن سر إلى بقايا بني إسرائيل حتى تستنقذهم فسار "كورش" ، ببني إسرائيل ، وحلي

المقدس حتى رده إليه .

---

1 وأي جرم أعظم من أن ينسب هذا التخريف إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟

2 مبالغات وأكاذيب تنزه رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها .

(82/450)

فأقام بنو إسرائيل مطيعين الله مائة سنة ، ثم إنهم عادوا في المعاصي ، فسلط الله عليهم "بطيانموس" فغزا بأبناء من غزا مع بختنصر ، فغزا بني إسرائيل ، حتى أتاهم بيت المقدس ، فسبى أهلها ، وأحرق بيت المقدس ، وقال لهم : يا بني إسرائيل ، إن عدتم في المعاصي عدنا عليكم بالسباء ، فعادوا في المعاصي ، فسير الله عليهم السباء الثالث ، ملك رومية ، يقال له : "فاقس بن أسبايوس 1 " فغزاهم في البر والبحر فسباهم ، وسبى حلي بيت المقدس ، وأحرق بيت المقدس بالنيران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا من صنعة حلي بيت المقدس ، ويرده المهدي إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة ، وسبعمائة سفينة ، يرسي بها على على "يافا" حتى تنقل إلى بيت المقدس ، وبها يجمع الله الأولين ، والآخرين" ، وعفا الله عن ابن جرير ، كيف استجاز أن يذكر هذا الهراء ، وهذه التخريفات عن المعصوم صلى الله عليه وسلم وكان عليه أن يصون كتابه عن أن يسوده

بأمثال هذه المرويات الباطلة .

---

1 في تفسير البغوي : "قاقس بن استيانوس" .

348 238

(83/450)

ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد ابن كثير ، حيث قال في تفسيره :

"وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا ، وهو حديث موضوع لا محالة ، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث ، والعجب كل العجب ، كيف راجَ عليه مع جلالة قدره ، وإمامته ، وقد صرح شيخنا : أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب ، وكتب ذلك على حاشية الكتاب يعني كتاب تفسير ابن جرير وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية ، لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها : ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ، ومنها : ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن في غنية عنها ولله الحمد ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ، ولا رسوله إليهم ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغَوا ، وبغَوا سلط الله عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم ، وسلك خلال بيوتهم ، وأذلهم ، وقهرهم جزاء وفاقا ،

وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا كثيرا من الأنبياء والعلماء 1 .

---

1 تفسير ابن كثير والبغوي ج 5 ص 148 - 150 .

(84/450)

التفسير الصحيح للآية :

وهذا هو الحق الذي ينبغي أن يصار إليه في الآية ، والقصص القرآني لا يعنى بذكر الأشخاص ، ولا الأماكن ؛ لأن الغرض منه العبرة ، والتذكير ، والتعليم والتأويل ، والذي دلت عليه الآية : أنهم أفسدوا مرتين في الزمن الأول ، وظلموا وبغوا ، فسلط الله عليهم في الأولى من أذلهم وسباهم ، ولا يغنيني أن يكون هذا "سنجاريب" أو "بختنصر" وجيشه ؛ إذ لا يترتب على العلم به فائدة تذكر ، وسلط الله عليهم في الثانية من أذلهم ، وساء وجوههم ، ودخل المسجد الأقصى ، فأفسد فيه ، ودمر ، ولا يعنينا أن يكون هذا الذي نكل بهم هو : "طيطوس" الروماني أو غيره ؛ لأن المراد من سياق قصته ما قضاه الله على بني إسرائيل أنهم أهل فساد ، وبطر ، وظلم ، وبغي ، وأنهم لما أفسدوا وطغوا ، وتجبروا سلطه الله عليهم من عباده من نكل بهم ، وأذلهم ، وسباهم ، وشردهم ، ثم إن الآيات

دلت أيضا على أن بني إسرائيل لا يقف طغيانهم ، وبغيهم ، وإفسادهم عند المرتين الأوليين ، بل الآية توحي بأن ذلك مستمر إلى ما شاء الله ، وأن الله سيسلط عليهم من

يسومهم العذاب ، ويبطش بهم ، ويرد ظلمهم وعدوانهم ، قال عز شأنه : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ ، أليس في قوله هذا إنذار ووعيد لهم إلى يوم القيامة ؟ !

بلى .

وما يؤكد هذا الإنذار والوعيد قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فهل يسلط الله عليهم اليوم من يرد ظلمهم وبغيهم ، وطردهم أهل فلسطين من ديارهم ، واغتصاب الديار ، واستذلال العباد ، واستهانتهم بالقيم الخلقية ، والحقوق الإنسانية ؟

ذلك ما نرجو ، وما ذلك على المسلمين والعرب بعزيز ، لو وحدوا الكلمة ، وجمعوا الصفوف ، وأخذوا الحذر والأهبة ، وأعدوا العدة فاللهم حقق وأعِنْ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 234 . 240 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4)

﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم ، وبأنه جعل التوراة هدى لهم ، بين أنهم ما اهتدوا بهداه ، بل وقعوا في الفساد فقال : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسرائيل فِى الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِى الأرض مَرَّتَيْنِ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

القضاء في اللغة عبارة عن قطع الأشياء عن إحكام ، ومنه قوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [فصلت : 12] وقول الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . داود . . .

. . .

.

.

فقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم .

ولفظ ﴿ إلى ﴾ صلة للإيحاء ، لأن معنى قضينا أوحينا إليهم كذا .

(87/450)

وقوله : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ يريد المعاصي وخلاف أحكام التوراة وقوله : ﴿ فِى الأرض ﴾ يعني أرض مصر وقوله : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ يعني أنه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاء عظيماً ، لأنه يقال لكل متجبر : قد علا وتعظم ، ثم قال : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أولاهما ﴾ يعني أولى المرتين : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ والمعنى : أنه إذا جاء وعد الفساق في المرة الأولى أرسلنا عليكم قوماً أولى بأس شديد ، ونجدة وشدة ، والبأس القتال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَحِينَ البأس ﴾ [البقرة : 177] ومعنى ﴿ بعثنا عليكم ﴾ أرسلنا عليكم ، وخلينا بينكم وبينهم خاذلين إياكم ، واختلفوا في أن هؤلاء العباد من هم ؟ قيل : إن بني إسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء ، وذلك أول الفسادين فسلط الله عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفاً ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرض نفسه فبقوا هناك في الذل إلى أن قيض الله ملكاً آخر غزا أهل بابل واتفق أن تزوج بامرأة من بني إسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد

بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل ، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا ، فهو قوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ﴾ .

والقول الثاني : إن المراد من قوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴾ أن الله تعالى سلط عليهم جالوت حتى أهلكهم وأبادهم وقوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة ﴾ هو أنه تعالى قوى طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود حتى قتل جالوت فذاك هو عود الكرة .

والقول الثالث : إن قوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴾ هو أنه تعالى ألقى الرعب من بني إسرائيل في قلوب المجوس ، فلما كثرت المعاصي فيهم أزال ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وإفنائهم وإهلاكهم .

واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط عليهم أقواماً قتلوهم وأفنوهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَجَاسُواْ خلال الديار ﴾ قال الليث : الجوس والجوسان التردد خلال الديار ، والبيوت في الفساد ، والخلال هو الانفراج بين الشيئين ، والديار ديار بيت المقدس ، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير جاسوا فعن ابن عباس فتشوا وقال أبو عبيدة :

طلبوا من فيها .

وقال ابن قتيبة : عاثوا وأفسدوا .

وقال الزجاج : طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه .

قال الواحدي : الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ما قالوه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ أي كان قضاء الله بذلك قضاء جزماً حتماً لا يقبل النقض والنسخ ، ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة ﴾ أي أهلكنا أعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم : ﴿ وجعلناكم أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ النفير العدد من الرجال وأصله من نفر مع الرجل من عشيرته وقومه ، والنفير والنافر واحد ، كالقدير والقادر ، وذكرنا معنى نفر عند قوله : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ [التوبة : 122] وقوله : ﴿ انفروا خِفَافًا ﴾ [التوبة : 41] .

المسألة الثانية : احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في مسألة القضاء والقدر من وجوه : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسرائيل فِى الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِى الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ وهذا القضاء أقل احتمالاته الحكم الجزم ، والخبر الحتم ، فثبت أنه تعالى أخبر عنهم أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي خبراً جزماً لا يقبل النسخ ، لأن القضاء معناه الحكم الجزم على ما شرحناه .

ثم إنه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ .

إذا ثبت هذا فنقول: عدم وقوع ذلك الفساد عنهم يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذباً وانقلاب حكمه الجازم باطلاً، وانقلاب علمه الحق جهلاً، وكل ذلك محال، فكان عدم إقدامهم على ذلك الفساد محالاً، فكان إقدامهم عليه واجباً ضرورياً لا يقبل النسخ والرفع، مع أنهم كلفوا بتركه ولعنوا على فعله، وذلك يدل على قولنا: إن الله قد يأمر بشيء ويصد عنه وقد ينهى عن شيء ويقضي بتحصيله، فهذا أحد وجوه الاستدلال بهذه الآية.

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الآية قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ والمراد أولئك الذين تسلطوا على بني إسرائيل بالقتل والنهب والأسر، فبين تعالى أنه هو الذي بعثهم على بني إسرائيل، ولا شك أن قتل بني إسرائيل ونهب أموالهم وأسر أولادهم كان مشتملاً على الظلم الكثير والمعاصي العظيمة.

ثم إنه تعالى أضاف كل ذلك إلى نفسه بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ وذلك يدل على أن الخير والشر والطاعة والمعصية من الله تعالى.

أجاب الجبائي عنه من وجهين: الأول: المراد من ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ هو أنه تعالى أمر

أولئك الأقوام بغزو بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الفساد ، فأضيف ذلك الفعل إلى الله تعالى من حيث الأمر .

والثاني : أن يكون المراد خلينا بينهم وبين بني إسرائيل ، وما ألقينا الخوف من بني إسرائيل في قلوبهم .

وحاصل الكلام أن المراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع .

واعلم أن الجواب الأول ضعيف ؛ لأن الذين قصدوا تخريب بيت المقدس وإحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال إنهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى .

والجواب الثاني أيضاً ضعيف ، لأن البعث على الفعل عبارة عن التقوية عليه وإلقاء الدواعي القوية في القلب ، وأما التخلية فعبارة عن عدم المنع ، والأول فعل ، والثاني ترك ، فتفسير البعث بالتخلية تفسير لأحد الضدين بالآخر وأنه لا يجوز ، فثبت صحة ما ذكرناه ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 124.126﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ .

معنى قضينا ها هنا : أخبرنا .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن معناه حكمنا ، قاله قتادة .

ومعنى قوله : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ أي قضينا عليهم .

﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ الفاسد الذي فعلوه قتلهم للناس ظلماً وتغلبهم على أموالهم قهراً ، وإخراب ديارهم بغياً . وفيمن قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان :

أحدهما : أنه زكريا قاله ابن عباس .

الثاني : أنه شعياً ، قاله ابن إسحاق ، وأن زكريا مات حتف أنفه .

أما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني فيحيى بن زكريا في قول الجميع قال مقاتل : وإن كان بينهما مائتا سنة وعشر .

﴿ فإذا جاء وعْد أولاهما ﴾ يعني أولى المرتين من فسادهم .

﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديدٍ ﴾ في قوله بعثنا وجهان :

أحدهما : خلينا بينكم وبينهم خذلاناً لكم بظلمكم ، قاله الحسن .

الثاني : أمرنا بقتالكم انتقاماً منكم .

وفي المبعوث عليهم في هذه المرة الأولى خمسة أقاويل :

أحدها : جالوت وكان ملكهم طالوت إلى أن قتله داود عليه السلام ، قاله ابن عباس وقتادة.

الثاني : أنه بختنصر ، وهو قول سعيد بن المسيب .

الثالث : أنه سنحاريب ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : أنهم العمالقة وكانوا كفاراً ، قاله الحسن .

الخامس : أنهم كانوا قوماً من أهل فارس يتجسسون أخبارهم ، وهو قول مجاهد .

﴿ . . . فجاسوا خلال الديار ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يعني مشوا وترددوا بين الدور والمساكن ، قال ابن عباس وهو أبلغ في القهر .

الثاني : معناه فداسوا خلال الديار ، ومنه قول الشاعر :

إِلَيْكَ جُسْتُ اللَّيْلَ بِالمَطِيِّ . . . الثالث : معناه فقتولهم بين الدور والمساكن ، ومنه قول حسان بن ثابت :

ومِنَّا الَّذِي لاقَى بِسَيْفِ مُحَمَّدٍ . . . فَجَاس بِهِ الأَعْدَاءَ عَرْضَ العَسَاكِر

الرابع : معناه فتشوا وطلبوا خلال الديار ، قاله أبو عبيدة .

الخامس : معناه نزلوا خلال الديار ، قاله قطرب ، ومنه قول الشاعر :

فَجُسنا ديارهم عَنْوةً . . . وأبنا بساداتهم موثَقينا

قوله عز وجل : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ يعني الظفر بهم ، وفي كيفية ذلك ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن بني إسرائيل غزوا ملك بابل واستنقذوا ما فيه يديه من الأسرى والأموال .

الثاني : أن ملك بابل أطلق من في يده من الأسرى ، وردّ ما في يده من الأموال .

الثالث : أنه كان بقتل جالوت حين قتله داود .

﴿ وأمددناكم بأموالٍ وبنين ﴾ بتجديد النعمة عليهم .

﴿ وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أكثر عزاً وجاهاً منهم .

الثاني : أكثر عدداً ، وكثرة العدد تنفر عدوهم منهم ، قال تُبع بن بكر :

فأكرِم بقحْطَانَ مِن وَالِدٍ . . . وحِمْيَرَ أَكْرِمْ بقَوْمٍ نَفِيرا

قال قتادة : فكانوا بها مائتي سنة وعشر سنين ، وبعث فيهم أنبياء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ الآية ،

قال الطبري : معنى ﴿ قضينا ﴾ فرغنا وحكي عن غيره أنه قال : ﴿ قضينا ﴾ هنا بمعنى أخبرنا ، وحكي عن آخرين أنهم قالوا ﴿ قضينا ﴾ معناه في أم الكتاب .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية رضي الله عنه : وإنما يلبس في هذا المكان تعدية ﴿ قضينا ﴾ ب ﴿ إلى ﴾ ، وتلخيص المعنى عندي أن هذا الأمر هو مما قضاه الله تعالى في أم الكتاب على بني إسرائيل وألزمهم إياه ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى . فلما أراد هنا الإعلام لنا بالأمرين جميعاً في إيجاز ، جعل ﴿ قضينا ﴾ دالة على النفوذ في أم الكتاب ، وقرن بها دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل ، والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ ، ولهذا فسر ابن عباس مرة بأن قال ﴿ قضينا إلى بني إسرائيل ﴾ معناه أعلمناهم ، وقال مرة : معناه قضينا عليهم . و ﴿ الكتاب ﴾ هنا التوراة لأن القسم في قوله ﴿ لتفسدن ﴾ غير متوجه مع أن يجعل ﴿ الكتاب ﴾ هو اللوح المحفوظ ، وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية الرياحي "في الكتب" على الجمع ، قال أبو حاتم : قراءة الناس

على الإفراد ، وقرأ الجمهور " لتُفسِدن " بضم التاء وكسر السين ، وقرأ عيسى الثقفي " لَتفسُدُن " بفتح التاء وضم السين والدال ، وقرأ ابن عباس ونصر بن عاصم وجابر بن زيد " لتُفسَدُن " بضم التاء وفتح السين وضم الدال . وقوله ﴿ ولتعلن ﴾ أي لتتجبرون عن طاعة الأمرين بطاعة الله وتطلبون في الأرض العلو والفساد وتظلمون من قدرتم على ظلمة ونحو هذا .

(94/450)

قال القاضي أبو محمد : ومقتضى هذه الآيات أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم الله تعالى عندهم في الرسل والكتب وغير ذلك ، وأنه سيرسل عليهم أمة تغلبهم وتقتلهم وتذلهم ، ثم يرحمهم بعد ذلك ، ويجعل لهم الكرّة ويردهم إلى حالهم الأولى من الظهور ، فيقع منهم المعاصي وكفر النعم والظلم والقتل والكفر بالله من بعضهم ، فيبعث الله عليهم أمة أخرى تخرب ديارهم وتقتلهم وتجليهم جلاء مبرحاً ، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله وقيل : كان بين " المرتين " آخر الأولى وأول الثانية مائتَا سنة وعشر سنين ملكاً مؤيداً بأنبياء وقيل سبعون سنة .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾

الضمير في قوله ﴿ أولاهما ﴾ عائد على قوله ﴿ مرتين ﴾ [الإسراء : 4] وعبر عن الشر ب " الوعد " لأنه قد صرح بذكر المعاقبة ، وإذا لم يجيء " الوعد " مطلقاً فجائز أن يقع في الشر ، وقرأ علي بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن " عبيداً " ، واختلف الناس في العبيد المبعوثين ، وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعداً عيونه : أن بني إسرائيل عصوا وقتلوا زكرياء عليه السلام فغزاهم سنحاريب ملك بابل ، وكذا قال ابن إسحاق وابن جبير ، وقال ابن عباس : غزاهم جالوت من أهل الجزيرة وروي عن عبد الله بن الزبير أنه قال في حديث طويل : غزاهم آخراً ملك اسمه خردوس ، وتولى قتلهم على دم يحيى بن زكرياء قائد لخردوس اسمه بيورزاذان ، وكف عن بني إسرائيل وسكن بدعائه دم يحيى بن زكرياء ، وقيل غزاهم أولاً صنحابين ملك رومة ، وقيل بختنصر ، وروي أنه دخل في جيش من الفرس وهو خامل يسير في مطبخ الملك فاطلع من جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفرس لأنه كان يداخلهم ، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك الملك الأعظم ، فلما كان بعد مدة

جعله الملك رئيس جيش ، وبعثه فخرب بيت المقدس وقتلهم وجلاهم ثم انصرف فوجدوا الملك قد مات فملك موضعه ، واستمرت حاله حتى ملك الأرض بعد ذلك ، وقالت فرقة : إنما غزاهم بختنصر في المرة الأخيرة حين عصوا وقتلوا يحيى بن زكرياء ، وصورة قتله : أن الملك أراد أن يتزوج بنت امرأته فنهاه يحيى عنها فعز ذلك على امرأته ، فزينت بنتها وجعلتها تسقي الملك الخمر وقالت لها : إذا راودك الملك عن نفسك فتمنعي حتى يعطيك الملك ما تتمنين ، فإذا قال لك تمني علي ما أردت ، فقولي رأس يحيى بن زكرياء : ففعلت الجارية ذلك فردها الملك مرتين وأجابها في الثالثة ، فجيء بالرأس في طست ولسانه يتكلم وهو يقول لا تحل لك ، وجرى دم يحيى فلم ينقطع فجعل الملك عليه التراب حتى ساوى سور المدينة والدم ينبعث ، فلما غزاهم الملك الذي بعث الله عليهم بحسب الخلاف الذي فيه ،

قتل منهم على الدم حتى سكن بعد قتل سبعين ألفاً ، هذا مقتضى هذا الخبر ، وفي بعض رواياته زيادة ونقص ، فروت فرقة : أن أشعياء النبي عليه السلام وعظهم في بعض الأمر وذكرهم الله ونعمه في مقام طويل قصة الطبري ، وذكر أشعياء في آخره محمداً صلى الله

عليه وسلم وبشر به فابتدره بنو إسرائيل ، ففر منهم فلقي شجرة فتفلقت له حتى دخلها فالتأمت عليه ، فعرض الشيطان عليهم هدبة من ثوبه فأخذوا منشاراً فنشروا الشجرة وقطعوه في وسطها فقتلوه ، فحينئذ بعث الله عليهم في المرة الآخرة ، وذكر الزهراوي عن قتادة قصصاً ، أن زكرياء هو صاحب الشجرة وأنهم قالوا لما حملت مريم : ضيع بنت سيدنا حتى زنت فطلبوه فهرب منهم حتى دخل في الشجرة فنشروه ، وروت فرقة أن بختنصر كان حفيد سنحاريب الملك الأول ، وروت فرقة أن الذي غزاهم آخراً هو سابور ذو الأكتاف ، وقال أيضاً ابن عباس سلط الله عليهم حين عادوا ثلاثة أملاك من فارس سنداباذان وشهرباران ، وآخر ، وقال مجاهد : إنما جاءهم في الأولى عسكر من فارس " فجاس خلال الديار " وتغلب ولكن لم يكن قتال ، ولا قتل في بني إسرائيل ، ثم انصرفت عنهم الجيوش وظهروا وأمدوا بالأموال والبنين حتى عصوا وطغوا فجاءهم في المرة الثانية من قتلهم وغلبهم على بيضتهم وأهلكهم آخر الدهر ، وقوله عز وجل ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ وهي المنازل والمساكن .

وقوله تعالى : ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ﴾ يرد على قول مجاهد إنه لم يكن في المرة الأولى غلبة ولا قتال وهل يدخل المسجد إلا بعد غلبة وقتال ، وقد قال مؤرج ، " جاسوا خلال الأزقة " ، وقد ذكر الطبري في هذه الآية قصصاً طويلاً منه ما يخص الآيات وأكثره لا يخص وهذه المعاني ليست بالثابت فلذلك اختصرتها ، وقوله ﴿ بعثنا ﴾ يحتمل أن يكون الله بعث إلى ملك تلك الأمة رسولاً يأمره بغزو بني إسرائيل فتكون البعثة بأمر ويحتمل أن يكون عبر بالبعث عما ألقي في نفس الملك الذي غزاه وقرأ الناس " فجاسوا " بالجيم ، وقرأ أبو السمال " فحاسوا " بالحاء وهما بمعنى الغلبة والدخول قسراً ومنه الحواس ، وقيل لأبي السمال إنما القراءة " جاسوا " بالجيم فقال " جاسوا وحاسوا " واحد .

قال القاضي أبو محمد : فهذا يدل على تخير لا على رواية ، ولهذا لا تجوز الصلاة بقراءته وقراءة نظرائه ، وقرأ الجمهور : " خلال " ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " خللَ " ونصبه في الوجهين على الظرف ، وقوله ﴿ ثم رددنا لكم الكرة ﴾ ، الآية عبارة عما قاله الله لبني إسرائيل في التوراة وجعل ﴿ رددنا ﴾ موضع نرد إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد لكنه لما كان وعد الله في غاية الثقة أنه يقع عبر عن مستقبله بالماضي ، وهذه الكرة هي بعد الجلوة الأولى لما وصفنا ، فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس وملكوا فيه ، وحسنت حالهم برهة من الدهر ، وأعطاهم الله الأموال والأولاد ، وجعلهم إذا نفروا إلى أمر أكثر

الناس ، قال الطبري معناه وصيرنا كم أكثر عدد نافر منهم ، قال قتادة : كانوا ﴿ أكثر نفيراً ﴾ في زمن داود عليه السلام ، و" نفير " يحتمل أن يكون جمع نفر ككلب وكليب ، وعبد وعبيد ، ويحتمل أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل أي وجعلناكم أكثر نافراً .

قال القاضي أبو محمد : وعندي أن النفر اسم لا جمع الذي نفر سمي بالمصدر ، وقد قال تبع الحميري : [المتقارب] .

(98/450)

فأكرم بقحطان من والد . . . وحمير أكرم بقوم نفيرا

وقالوا : لا في العير ولا في النفير ، يريدون جمع قريش الخارج من مكة لا بإذن ، فلما قال الله لهم إني سأفعل بكم هكذا عقب ذلك بوصيتهم في قوله ﴿ إن أحسنتم ﴾ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(99/450)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أخبرناهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : قضينا عليهم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وبه قال قتادة ، فعلى الأول : تكون "إلى" على أصلها ، ويكون الكتاب : التوراة ، وعلى الثاني : تكون "إلى" بمعنى "على" ، ويكون الكتاب الذِّكر الأول .

قوله تعالى : ﴿ لتُفْسِدُنَّ في الأرض ﴾ يعني : أرض مصر ﴿ مرتين ﴾ بالمعاصي ومخالفة التوراة .

وفي مَنْ قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان .

أحدهما : زكريا ، قاله السدي عن أشياخه .

والثاني : شَعْيَا ، قاله ابن إسحاق .

فأما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني : فهو يحيى بن زكريا .

قال مقاتل : كان بين الفسادَين مائتا سنة وعشر سنين .

فأما السبب في قتلهم زكريا ، فإنهم اتهموه بمريم ، وقالوا : منه حملت ، فهرب منهم ، فانفتحت له شجرة فدخل فيها وبقي من ردائه هدب ، فجاءهم الشيطان فدلَّهم عليه ،

فقطعوا الشجرة بالمنشار وهو فيها .

وأما السبب في قتلهم "شعيا" ، فهو أنه قام فيهم برسالةٍ مِنَ الله ينهاهم عن المعاصي .

وقيل : هو الذي هرب منهم فدخل في الشجرة حتى قطعوه بالمنشار ، وأن زكريا مات حتف أنفه .

وأما السبب في قتلهم يحيى بن زكريا ، ففيه قولان .

أحدهما : أن مِلكهم أراد نكاح امرأة لا تحلُّ له ، فنهاه عنها يحيى .

ثم فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها ابنة أخيه ، قاله ابن عباس .

والثاني : ابنته ، قاله عبد الله بن الزبير .

والثالث : أنها امرأة أخيه ، وكان ذلك لا يصلح عندهم ، قاله الحسين بن علي عليهما السلام .

والرابع : ابنة امرأته ، قاله السدي عن أشياخه ، وذكر أن السبب في ذلك : أن ملك بني إِسرائيل هويَ بنت امرأته ، فسأل يحيى عن نكاحها ، فنهاه ، فحنقت أمها على يحيى حين

نهاه أن يتزوج ابنتها ، وعمدت إلى ابنتها فزينتها وأرسلتها إلى الملك حين جلس على شرابه ، وأمرتها أن تسقيه ، وأن تعرض له ، فإن أرادها على نفسها ، أبت حتى يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْت ، ففعلت ذلك ، فقال : ويحك سليني غير هذا ، فقالت : ما أريد إلا هذا ، فأمر ، فأُتي برأسه والرأس يتكلم ويقول : لا تحلُّ لك ، لا تحلُّ لك .

والقول الثاني : أن امرأة الملك رأت يحيى عليه السلام وكان قد أُعطيَ حسناً وجمالاً ، فأرادته على نفسه ، فأبى ، فقالت لابنتها : سلي أباك رأس يحيى ، فأعطاها ما سألت ، قاله الربيع بن أنس .

قال العلماء بالسِّيَر : ما زال دم يحيى يغلي حتى قتل عليه من بني إسرائيل سبعون ألفاً ، فسكن ، وقيل : لم يسكن حتى جاء قاتله ، فقال : أنا قتلته ، فقُتِل ، فسكن .

قوله تعالى : ﴿ ولَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً ﴾ أي : لَتَعَظَّمُنّ عن الطاعة ولتبغُنَّ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي : عقوبة أُولى المرّتين ﴿ بعثنا ﴾ أي : أرسلنا ﴿ عليكم عباداً لنا ﴾ وفيهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم جالوت وجنوده ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : "بُخْتَنَصَّر" ، قاله سعيد بن المسيب ، واختاره الفراء ، والزجاج .

والثالث : العمالقة ، وكانوا كفاراً ، قاله الحسن .

والرابع : سنحاريب ، قاله سعيد بن جبير .

والخامس : قوم من أهل فارس ، قاله مجاهد .

وقال ابن زيد : سلط [الله] عليهم سابور ذا الأكتاف من ملوك فارس .

قوله تعالى : ﴿ أُولي بأسٍ شديد ﴾ أي : ذوي عدد وقوة في القتال .

وفي قوله : ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : مشَوا بين منازلهم ، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال مجاهد : يتجسَّسون أخبارهم ، ولم يكن قتال .

وقال الزجاج : طافوا خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه ؟ و"الجوس" : طلب الشيء باستقصاء .

والثاني : قتلوهم بين بيوتهم ، قاله الفراء ، وأبو عبيدة .

والثالث : عاثوا وأفسدوا ، يقال : جاسوا وحاسوا ، فهم يجوسون ويحوسون إِذا فعلوا ذلك ، قاله ابن قتيبة .

فأما الخلال : فهي جمع خَلَل ، وهو الانفراج بين الشيئين .

وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وابن جبير ، وأبو المتوكل : "خَلَلَ الديار" بفتح الخاء واللام من

غير ألفٍ .

﴿ وكان وعْداً مفعولا ﴾ أي : لا بد من كونه .

قوله تعالى : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ أي : أظفرناكم بهم .

والكَرَّة ، معناها : الرجعة والدَّولة ، وذلك حين قتل داودُ جالوتَ وعاد ملكهم إليهم .

وحكى الفراء أن رجلا دعا على "بختنصر" ، فقتله الله ، وعاد ملكهم إليهم .

وقيل : غزَوا ملك بابل فأخذوا ما كان في يده من المال والأسرى .

قوله تعالى : ﴿ وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ أي : أكثر عدداً وأنصاراً منهم .

قال ابن قتيبة : النَّفير والنافر واحد ، كما يقال : قدير وقادر ، وأصله : مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته وأهل بيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(102/450)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب ﴾

وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية "فِي الكتب" على لفظ الجمع .

وقد يرِد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع ؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد .

ومعنى "قَضَينا" أعلمنا وأخبرنا ؛ قاله ابن عباس : وقال قتادة : حكمنا ؛ وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه .

وقيل : قضينا أوحينا ؛ ولذلك قال : "إلى بني إسرائيل" .

وعلى قول قتادة يكون "إلى" بمعنى على ؛ أي قضينا عليهم وحكمنا .

وقاله ابن عباس أيضاً .

والمعنِيّ بالكتاب اللوح المحفوظ .

﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ وقرأ ابن عباس "لَتُفْسَدُنّ" .

عيسى الثّقفي "لَتَفْسُدُنّ" .

والمعنى في القراءتين قريب ؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة .

﴿ فِي الأَرض ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها .

﴿ مرَّتَيْنِ ولَتَعْلُنَّ ﴾ اللام في "لتفسدن ولتعلن" لام قسم مضمر كما تقدّم .

﴿ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ أراد التكبر والبَغْيَ والطغيان والاستطالة والغَلَبة والعدوان .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾

أي أولَى المرّتين من فسادهم .

﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم أهل بابل ، وكان عليهم بُخْتَنَصّر في

المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه ؛ قاله ابن عباس وغيره .

وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولو بأس شديد .

وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يتجسّسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوَعَى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال ، وهذا في المرة الأولى ، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل ؛ ذكره القشيري أبو نصر .

وذكر المهدوِيّ عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا .

ورواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد ؛ ذكره النحاس .

(103/450)

وقال محمد بن إسحاق في خبر فيه طول : إن المهزوم سَنْحَاريب ملك بابل ، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه ، وبعث ملك بني إسرائيل واسمه صديقة في طلب سنحاريب فأخِذ مع الخمسة ، أحدهم بختنصر ، فطرح في رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير

لكل رجل منهم ، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل ، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين ، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث في بني إسرائيل ، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شَعْيَا ؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم .

وقال ابن عباس وابن مسعود : أوّل الفساد قتل زكريا .

وقال ابن إسحاق : فسادهم في المرة الأولى قتل شعياً نبيّ الله في الشجرة ، وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرِجَ أمرهم وتنافسوا على المُلْك وقتل بعضهم بعضاً وهم لا يسمعون من نبيهم ؛ فقال الله تعالى له قم في قومك أوحِ على لسانك ، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبة من ثوبه فأراهم إياها ، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها .

وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيَا .

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خلال الديار ﴾ هو سنحاريب من أهل نِينَوَى بالمَوْصل ملكُ بابل .

وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق ، فالله أعلم .

وقيل : إنهم العمالقة وكانوا كفاراً ، قاله الحسن .

ومعنى جاسوا : عاثوا وقتلوا ؛ وكذلك حاسوا وهاسوا وداسوا ؛ قاله ابن عُزيز ، وهو قول

القُتَبِيّ .

وقرأ ابن عباس : "حاسوا" بالحاء المهملة .

(104/450)

قال أبو زيد : الحَوْس والجَوْس والعَوْس والهَوْس : الطواف بالليل .

وقال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها ؛ وكذلك الاجتياس .

والجَوَسان (بالتحريك) الطوفان بالليل ؛ وهو قول أبي عبيدة .

وقال الطبري : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين ؛ فجمع بين قول أهل اللغة .

قال ابن عباس : مشوا وترددوا بين الدُّور والمساكن .

وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم ؛ وأنشد لحسان :

ومنا الذي لاقى بسيف محمد . . .

فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا ، قال :

فجُسْنَا ديارهُمُ عَنوةً . . .

وأُبْنَا بساداتهم مُوثَقينا

﴿ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ أي قضاء كائنا لا خُلف فيه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ﴾ أي الدَّولة والرجعة ؛ وذلك لمّا تبتم وأطعتم .

ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف في من قتلهم .

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ حتى عاد أمركم كما كان .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرا ﴾ أي أكثر عدداً ورجالاً من عدوّكم .

والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته ؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر .

ويجوز أن يكون النفير جمع نَفْر كالكليب والمعيز والعبيد ؛ قال الشاعر :

فأَكْرِمْ بقحطانَ من والد . . .

وحِمْيَرَ أكرم بقوم نفيرا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثرَ انضماما وأصلح أحوالاً ، جزاءً من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4)

﴾

جاس يَجُوسُ جوساً وَجَوَسَاناً تردد في الغارة قاله الليث .

وقال أبو عبيدة : جاسوا فتشوا هل بقي ممن لم يقتل .

وقال الفراء : قيلوا .

قال حسان :

ومنا الذي لاقى لسيف محمد . . .

فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا ، قال الشاعر :

فجسنا ديارهم عنوة . . .

وأبناء ساداتهم موثقينا

وقيل : داسوا ، ومنه :

إليك جسنا الليل بالمطي . . .

وقال أبو زيد : الجوس والحوس والعوس والهوس الطواف بالليل .

فالجوس والحوس طلب الشي باستقصاء .

حظرت الشيء منعته .

﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ .

﴿ قَضى ﴾ يتعدّى بنفسه إلى مفعول كقوله : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ ولما ضمن هنا معنى الإيحاء أو الإنفاذ تعدّى بإلى أي وأوحينا أو أنفذنا إلى بني إسرائيل في القضاء المحتوم المبتوت .

وعن ابن عباس معناه أعلمناهم ، وعنه أيضاً قضينا عليهم ، وعنه أيضاً كتبنا .

واللام في ﴿ لتفسدن ﴾ جواب قسم ، فإما أن يقدر محذوفاً ويكون متعلق القضاء محذوفاً تقديره وقضينا إلى بني إسرائيل بفسادهم في الأرض وعلوهم ، ثم أقسم على وقوع ذلك وأنه كائن لا محالة ، فحذف متعلق قضينا وأبقى منصوب القسم المحذوف .

ويجوز أن يكون قضينا أجري مجرى القسم ولتفسدنّ جوابه ، كقولهم قضاء الله لأقومنّ .

وقرأ أبو العالية وابن جبير في الكتب على الجمع والجمهور على الإفراد فاحتمل أن يريد به الجنس ، والظاهر أن يراد التوراة .

وقرأ ابن عباس ونصر بن عليّ وجابر بن زيد لتفسدنّ بضم التاء وفتح السين مبنياً للمفعول أي يفسدكم غيركم .

فقيل من الإضلال .

وقيل من الغلبة .

وقرأ عيسى لتفسدنّ بفتح التاء وضم السين أي فسدتم بأنفسكم بارتكاب المعاصي مرتين أولاهما قتل زكرياء عليه السلام قاله السدّي عن أشياخه ، وقاله ابن مسعود وابن عباس ، وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم تنافسوا على المُلك وقتل بعضهم بعضاً ولا يسمعون من زكريا .

فقال الله له : قم في قومك أوح على لسانك ، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدواً عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ هدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها حتى قطعوه في وسطها .

وقيل : سبب قتل زكريا أنهم اتهموه بمريم قيل قالوا حين حملت مريم : ضيع بنت سيدنا حتى زنت ، فقطعوه بالمنشار في الشجرة .

وقيل شعياء قاله ابن إسحاق وإن كان زكرياء مات موتاً ولم يقتل وإن الذي دخل الشجرة وقطع نصفين بالمنشار في وسطها هو شعياء ، وكان قبل زكرياء وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط الله والآخرة قبل يحيى بن زكرياء وقصد قتل عيسى ابن مريم أعلم الله بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وكفر لنعم الله تعالى في الرسل وفي الكتب وغير ذلك ، وأنه سيرسل عليهم أمّة تغلبهم وتقتلهم وتذلهم ثم يرحمهم بعد ذلك ويجعل لهم الكرة ويردهم إلى حالهم الأولى من الظهور فتقع منهم المعاصي وكفر النعم والظلم والقتل والكفر بالله من بعضهم ، فيبعث الله عليهم أمة أخرى تخرب ديارهم وتقتلهم وتجليهم جلاء مبرحاً ودل الوجود بعد ذلك على هذا الأمر كله ، قيل وكان بين آخر الأولى والثانية مائتا سنة وعشر سنين ملكاً مؤيداً ثابتاً .

وقيل سبعون سنة .

وقال الكلبي لتعصنّ في الأرض المقدسة ولتعلنّ أي تطغون وتعظمون .

وقرأ زيد بن علي علياً كبيراً في الموضعين بكسر اللام والياء المشدّدة .

وقراءة الجمهور ﴿ علواً ﴾ والصحيح في فعول المصدر أكثر كقوله : ﴿ وعتوا عتواً كبيرا

﴾ بخلاف الجمع ، فإن الإعلال فيه هو المقيس وشذ التصحيح نحو نهو ونهوّ خلافاً للفراء إذ جعل ذلك قياساً ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي موعد أولاهما لأن الوعد قد سبق ذلك والموعود هو العقاب .

وقال الزمخشري : معناه وعد عقاب أولاهما .

وقيل : الوعد بمعنى الوعيد .

وقيل : بمعنى الموعد الذي يراد به الوقت ، والضمير في أولاهما عائد على المرتين .

وقرأ الجمهور ﴿ عباداً ﴾ وقرأ الحسن وزيد بن علي عبيداً .

قال ابن عباس : غزاهم وقتادة جالوت من أهل الجزيرة .

وقال ابن جبير وابن إسحاق غزاهم سنجاريب وجنوده ملك بابل .

وقيل بخت نصر ، وروي أنه دخل قبل في جيش من الفرس وهو حامل يسير في مطبخ الملك ، فاطلع من جور بني إسرائيل على ما لم يعلمه الفرس لأنه كان يداخلهم ، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك للملك الأعظم ، فلما كان بعد مدة جعله الملك رئيس جيش وبعثه وخرب بيت المقدس وقتلهم وجلاهم ثم انصرف فوجد الملك قد مات فملك موضعه ، واستمرت حاله حتى ملك الأرض بعد ذلك .

وقيل هم العمالقة وكانوا كفاراً .

وقيل : كان المبعوثون قوماً مؤمنين بعثهم الله وأمرهم بغزو بني إسرائيل والبعث هنا الإرسال

والتسليط .

وقال الزمخشري : معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على أن الله عز وعلا أسند بعث الكفرة إلى نفسه فهو كقوله : ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ وكقول الداعي : وخالف بين كلمتهم وأسند الجوس وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم ، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم انتهى .

وفي قوله خلينا بينهم وبين ما فعلوا دسيسة الاعتزال .

(108/450)

وقال ابن عطية : ﴿ بعثنا ﴾ يحتمل أن يكون الله أرسل إلى ملك تلك الأمة رسولاً بأمره بغزو بني إسرائيل فتكون البعثة بأمر ، ويحتمل أن يكون عبر بالبعث عما ألقى في نفس الملك أي غزاهم انتهى .

﴿ أولي بأس شديد ﴾ أي قتال وحرب شديد لقوتهم ونجدتهم وكثرة عددهم وعُددهم .

وقرأ الجمهور ﴿ فجاسوا ﴾ بالجيم .

وقرأ أبو السمال وطلحة فحاسوا بالحاء المهملة .

وقرىء فتجوسوا على وزن تكسروا بالجيم .

وقرأ الحسن ﴿ خلال الديار ﴾ واحداً ويجمع على خلل كجبل وجبال ، ويجوز أن يكون خلال مفرداً كالخلل وهو وسط الديار وما بينها ، والجمهور على أنه في هذه البعثة الأولى خرّب بيت المقدس ووقع القتل فيهم والجلاء والأسر .

وعن ابن عباس ومجاهد : أنه حين غزوا جاس الغازون خلال الديار ولم يكن قتل ولا قتال في بني إسرائيل ، وانصرفت عنهم الجيوش .

والضمير في ﴿ وكان ﴾ عائداً على وعد أولاهما .

قال الزمخشري : وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل انتهى .

وقيل يعود على الجيوش ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ هذا إخبار من الله لبني إسرائيل في التوراة ، وجعل ﴿ رددنا ﴾ موضع نرد إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد لكنه لما كان وعد الله في غاية الثقة أنه يقع عبر عن مستقبله بالماضي ، والكرة الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليهم حتى تابوا ورجعوا عن الفساد ملكوا بيت المقدس قبل الكرة قبل بخت نصر واستبقاء بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم ، وذكر في سبب ذلك أن ملكاً غزا أهل بابل وكان بخت نصر قد قتل من بني إسرائيل أربعين ألفاً ممن يقرأ التوراة وبقي بقيته عندهم ببابل في الدل ، فلما غزاهم ذلك الملك وغلب على بابل تزوج امرأة من بني إسرائيل فطلبت منه أن يرد بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل ، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء

فرجعوا إلى أحسن ما كانوا .

وقيل : الكرة تقوية طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود على قتل جالوت .

وقال قتادة : كانوا أكثر شراً في زمان داود عليه السلام .

وانتصب ﴿ نفيراً ﴾ على التمييز .

فقيل : النفير والنافر واحد وأصله من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته قاله أبو مسلم .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون جمع نفر ككلب وكليب وعبد وعبيد ، وهم المجتمعون للمصير إلى الأعداء .

وقيل : النفير مصدر أي أكثر خروجاً إلى الغزو كما في قول الشاعر :

فأكرم بقحطان من والد . . .

وحمير أكرم بقوم نفيرا

ويروى بالحميرين أكرم نفيراً ، والمفضل عليه محذوف قدره الزمخشري وأكثر نفيراً مما كنتم وقدره غيره ، وأكثر نفيراً من الأعداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَضَيْنَا ﴾

أي أتممنا وأحكمنا مُنْزلين ﴿ إلى بَنِى إسراءيل ﴾ أو موحين إليهم ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي في التوراة فإن الإنزالَ والوحيَ إلى موسى عليه السلام إنزالٌ ووحيٌ إليهم ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأرض ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ ، ويجوز إجراءُ القضاء المحتومِ مُجرى القسمِ كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدن ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ مصدرٌ والعاملُ فيه من غير جنسه . أولاهما مخالفةُ حكم التوراة وقتلُ شعياءَ عليه الصلاة والسلام وحبسُ أرمياءَ حين أنذرهم سخطَ الله تعالى ، والثانية قتلُ زكريا ويحيى وقصدُ قتلِ عيسى عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ لتستكبِرُنّ عن طاعة الله سبحانه ، أو لتغلِبُنّ الناسَ بالظلم والعدوان وتفرّطُنّ في ذلك إفراطاً مجاوزاً للحدود .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أولاهما ﴾ أي أولى كرّتَي الإفساد ، أي حان وقتُ حلولِ العقاب الموعود ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ وقرىء عبيداً لنا ﴿ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوي قوةٍ وبطشٍ في الحروب ، هم سنحاريبُ من أهل نينوى وجنودُه ، وقيل : بُخْتَ نَصَّرُ عاملُ لهراسبَ ، وقيل : جالوت ﴿ فَجَاسُواْ ﴾ أي تردّدوا لطلبكم بالفساد ، وقرىء بالحال والمعنى واحد ، وقرىء وجوسوا ﴿ خلال الديار ﴾ في

أوساطها للقتل والغارة ، وقرىء خِلَلَ الديار فقتلوا علماءَهم وكبارَهم وأخرقوا التوراةَ وخربوا المسجد وسبَوْا منهم سبعين ألفاً ، وذلك من قبيل تولية بعضِ الظالمين بعضاً مما جرت به السنةُ الإلهية ﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ لا محالة بحيث لا صارفَ عنه ولا مبدِّلَ .

(111/450)

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة ﴾ أي الدولةَ والغلَبة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنةٍ حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو ، قيل : هي قتل بُخْتُ نصّر واستنقاذُ بني إسرائيلَ أُسَاراهم وأموالَهم ورجوعُ المُلْك إليهم ، وذلك أنه لما ورِث بهمنُ بنُ إسفنديارَ المُلكَ من جدّه كشتاسفَ بنِ لهراسب ألقى الله تعالى في قلبه الشفقةَ عليهم فردّ أُساراهم إلى الشام وملّك عليهم دانيال عليه السلام فاستولَوا على من كان فيها من أتباع بُخْتَ نصّر ، وقيل : هي قتلُ داودَ عليه السلام لجالوت .

﴿ وأمددناكم بأموال ﴾ كثيرةٍ بعدما نُهبت أموالُكم ﴿ وَبَنِينَ ﴾ بعدما سُبيَتْ أولادُكم ﴿ وجعلناكم أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ مما كنتم من قبل أو من عدوكم ، والنفيرُ مَن ينفِر مع الرجل من

قومه ، وقيل : جمعُ نفرٍ وهو القومُ المجتمعون للذهاب إلى العدو كالعبيد والمبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(112/450)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إسرائيل ﴾

أخرج بن جرير .

وغيره عن ابن عباس أي أعلمناهم ، وزاد الراغب وأوحينا إليهم وحياً جزماً ، وصرح غير واحد بتضمن القضاء معنى الإيحاء ولهذا عدى بإلى ، والوحي إليهم إعلامهم ولو بالواسطة ، وقيل إلى بمعنى على وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس : قال أي قضينا عليهم ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي التوراة أو الجنس بدليل قراءة أبي العالية .

وابن جبير ﴿ الكتاب ﴾ بصيغة الجمع والظاهر الأول على الأول أو اللوح المحفوظ على الأخير ، وأخرج ابن المنذر .

والحاكم عن طاوس قال : كنت عند ابن عباس ومعنا رجل من القدرية فقلت : إن أناساً يقولون لا قدر قال : أو في القوم أحد منهم ؟ قلت : لو كان ما كنت تصنع به ؟ قال : لو كان

فيهم أحد منهم لأخذت برأسه ثم قرأت عليه ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسرائيل فِى الكتاب ﴾ ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأرض ﴾ جواب قسم محذوف ، وحذف متعلق القضاء أيضاً للعلم به ؛ والتقدير وقضينا إلى بني إسرائيل بفسادهم وعلوهم والله لتفسدن الخ ويكون هذا تأكيداً لتعلق القضاء ، ويجوز جعله جواب ﴿ قَضَيْنَا ﴾ بإجراء القضاء مجرى القسم فيتلقى بما يتلقى به نحو قضاء الله تعالى لأفعلن كذا .

والمراد بالأرض الجنس أو أرض الشام وبيت المقدس .

وقرأ ابن عباس .

ونصر بن علي .

وجابر بن زيد ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ بضم التاء وفتح السين مبنياً للمفعول أي يفسدكم غيركم فقيل من الضلال ، وقيل من الغلبة .

وقرأ عيسى ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ بفتح التاء وضم السين على معنى لتفسدن بأنفسكم بارتكاب المعاصي ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ منصوب على أنه مصدر ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ من غير لفظه ، والمراد إفسادتين أولاهما على ما نقل السدي عن أشياخه قتل زكريا عليه السلام وروي ذلك عن ابن عباس .

وابن مسعود وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم تنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضاً ولم يسمعوا من زكريا فقال الله تعالى له : قم في قومك أوح على لسانك فلما فرغ مما أوحى عليه عدوا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ هدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسط الشجرة حتى قطعوه في وسطها .

وقيل سبب قتله أنهم اتهموه بمريم عليها السلام قيل قالوا : حين حملت ضيع بنت سيدنا حتى زنت فقطعوه بالمنشار في الشجرة ، وقال ابن إسحاق : هي قتل شعيا عليه السلام وقد بعث بعد موسى عليه السلام فلما بلغهم الوحي أرادوا قتله فهرب فقتل وهو صاحب الشجرة وزكريا عليه السلام مات موتاً ولم يقتل .

وفي "الكشاف" أولاهما قتل زكريا وحبس أرمياً والآخرة قتل يحيى وقصد قتل عيسى عليهما السلام ، وهذا فيمن جعل هلاك زكريا قبل يحيى عليهما السلام وهو رواية ابن عساكر في تاريخه عن علي كرم الله تعالى وجهه ، ثم ضم ذلك مع حبس أرمياً في قرن غير سديد لأن أرمياً كان في زمن بختنصر وبينه وبين زكريا أكثر من مائتي سنة .

واختار بعضهم وقيل : إنه الحق أن الأول تغيير التوراة وعدم العمل بها وحبس أرمياً وجرحه إذ وعظهم وبشرهم بنبينا صلى الله عليه وسلم وهو أول من بشر به عليه الصلاة والسلام بعد بشارة التوراة ، والأخرى قتل زكريا ويحيى عليهما السلام ، ومن قال : إن

زكريا مات في فراشه اقتصر على يحيى عليه السلام ، واختلف في سببه قتله فعن ابن عباس وغيره أن سبب ذلك أن ملكاً أراد أن يتزوج من لا يجوز له تزوجها فنهاه عليه السلام وكان الملك قد عود تلك المرأة أن يقضي لها كل عيد ما تريد منه فعلمتها أمها أن تسأله دم يحيى في بعض الأعياد فسألته فأبى فألحت عليه فدعا بطست فذبحه فيه بدرت قطرة على الأرض فلم تزل تغلي حتى قتلها عليها سبعون ألفاً .

وقال الربيع بن أنس : إن يحيى عليه السلام كان حسناً جميلاً جداً فراودته امرأة الملك عن نفسه فأبى فقالت لابنتها : سلى أباك رأس يحيى فسألته فأعطاها إياه ، وقال الجبائي .

إن الله تعالى ذكر فسادهم في الأرض مرتين ولم يبين ذلك فلا يقطع بشيء مما ذكر ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ لتستكبرن عن طاعة الله تعالى أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن في ذلك إفراطاً مجاوزاً للحد ، وأصل معنى العلو الارتفاع وهو ضد السفل وتجوز به عن التكبر والاستيلاء على وجه الظلم .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ بكسر العين واللام والياء المشددة ، قال في "البحر" والتصحيح في فعول المصدر أكثر بخلاف الجمع فإن الإعلال فيه

هو المقيس وشذ التصحيح نحو لهو ومهو خلافاً للفراء إذ جعل قياساً .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾

أي أولى مرتى الإفساد .

والوعد بمعنى الموعود مراد به العقاب كما في "البحر" وفي الكلام تقدير أي فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود ، وقيل الوعد بمعنى الوعيد وفيه تقدير أيضاً ، وقيل بمعنى الوعد الذي يراد به الوقت أي فإذا حان موعد عقاب أولاهما ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ أرسلنا لمؤاخذتكم بتلك الفعلة ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ وقال الزمخشري : خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم وفيه دسيسة اعتزال ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون الله تعالى أرسل إلى ملك أولئك العباد رسولاً يأمره بغزو بني إسرائيل فتكون البعثة بأمر منه تعال .

ى وقرأ الحسن .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم ﴿ عبيداً ﴾ ﴿ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوي قوة وبطش في الحروب ، وقال الراغب : البؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر والبأس والبأساء في النكاية ، ومن هنا قيل : إن وصف البأس بالشديد مبالغة كأنه قيل : ذوي شدة شديدة كظل ظليل ولا بأس فيه ، وقيل إنه تجريد وهو صحيح أيضاً .

واختلف في تعيين هؤلاء العباد فعن ابن عباس .

وقتادة هم جالوت الجزري وجنوده ، وقال ابن جبير .

وابن إسحاق هم سنجاريب ملك بابل وجنوده ، وقيل هم العمالقة ، وفي "الأعلام" للسهيلي هم بختنصر عامل لهراسف أحد ملوك الفرس الكيانية على بابل والروم وجنوده بعثوا عليهم حين كذبوا أرميا وجرحوه وحبسوه قيل وهو الحق .

﴿ فَجَاسُواْ خلال الديار ﴾ أي ترددوا وسطها لطلبكم ، قال الراغب : جاسوا الديار توسطوها وترددوا بينها ويقاربه حاسوا وداسوا ، وقرأ ﴿ حاسوا ﴾ بالحاء أبو السمال .

وطلحة ، وقرىء أيضاً ﴿ تجوسوا ﴾ بالجيم على وزن تكسروا .

وقال أبو زيد : الجوس والحوس طلب الشيء باستقصاء ، و﴿ وَلاَ خلال ﴾ اسم مفرد ولذا قرأ الحسن ﴿ خلال ﴾ ويجوز أن يكون خلال جمع خلل كجبال جمع جبل ، ويشير كلام أبي السعود إلى اختياره وكلام البيضاوي إلى اختيار الأول .

﴿ وكَانَ ﴾ أي وعد أولاهما ﴿ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ محتم الفعل فضمير ﴿ كَانَ ﴾ للوعد السابق ، وقيل : للجوس المفهوم من ﴿ جلسوا ﴾ والجمهور على أن في هذه البعثة خرب هؤلاء العباد بيت المقدس ووقع القتل الذريع والجلاء والأسر في بني إسرائيل وحرقت

التوراة ، وعن ابن عباس .

ومجاهد أنه لم يكن ذلك وإنما جاس الغازون خلال الديار وانصرفوا بدون قتال .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾

(116/450)

أي الدولة والغلبة ، وأصل معنى الكر العطف والرجوع ، وإطلاق الكرة على ما ذكر مجاز شائع كما يقال تراجع الأمر ، ولام لكم للتعدية ، وقيل : للتعليل ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي الذي فعلوا بكم ما فعلوا متعلق بالكرة لما فيها من معنى الغلبة أو حال منها ، وجوز تعلقه برددنا ، وهذا على ما في البحر إخبار منه تعالى في التوراة لبني إسرايل إلا أنه جعل ﴿ رَدَدْنَا ﴾ موضع نرد لتحقق الوقوع ، وكان بين البعث والرد على ما قيل مائة سنة وذلك بعد أن تابوا ورجعوا عما كانوا عليه واختلف في سبب ذلك فروى اردشير بهمن بن اسفنديار بن كشتاسف بن لهراسف لما ورث الملك من جده كشتاسف ألقى الله تعالى في قلبه الشفقة على بني إسرائيل فرد اسراءهم الذين أتى بهم بختنصر إلى بابل وسيرهم إلى أرض الشام وملك عليهم دانيال فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر ، وجعل بعضهم من آثار هذه الكرة قتل بختنصر ولم يثبت .

وفي البحران ملكاً غزا أهل بابل وكان بختنصر قد قتل من بني إسرائيل أربعين ألفاً ممن يقرأ التوراة وأبقى عنده بقية في بابل فلما غزاهم ذلك الملك وغلب عليهم تزوج امرأة بني إسرائيل فطلبت منه أن يرد بني إسرائيل إلى ديارهم ففعل وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا ، وقيل : رد الكرة بأن سلط الله تعالى داود عليه السلام فقتل جالوت .

وتعقب بأنه يرده قوله تعالى : ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد ﴾ [الإسراء : 7] الخ فإن المراد به بيت المقدس وداود عليه السلام ابتدأ بنيانه بعد قتل جالوت وإيتائه النبوة ولم يتمه وأتمه سليمان عليه السلام فلم يكن قبل داود عليه السلام مسجد حتى يدخلوه أول مرة ، ودفع بأن حقيقة المسجد الأرض لا البناء أو يحمل قوله تعالى : ﴿ دَخَلُوهُ ﴾ على الاستخدام وهو كما ترى ، والحق أن المسجد كان موجوداً قبل داود عليه والسلام كما قدمنا .

(117/450)

﴿ وأمددناكم بأموال ﴾ كثيرة بعد ما نهبت أموالكم ﴿ وَبَنِينَ ﴾ بعدما سبيت أولادكم ﴿ وجعلناكم أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ مما كنتم من قبل أو من أعدائكم ، والنفير على ما قال أبو مسلم كالنافر من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته ، وقال الزجاج : يجوز أن يكون جمع نفر

ككلب وكليب وعبد وعبيد وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو ، وقيل : هو مصدر أي أكثر خروجاً إلى الغزو كما في قول الشاعر :

فأكرم بقحطان من والد . . .

وحمير أكرم بقوم نفيرا

ويروى بالحميريين أكرم نفيراً ، وصحيح السهيلي أنه اسم جمع لغلبته في المفردات وعدم إطراد مفرده. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(118/450)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾

أي : كتاب اللوح المحفوظ ، أي : حكمنا فيه : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ يعني أرض فلسطين بيت المقدس التي بارك الله حولها . والإفساد بالكفر والمعاصي .

قال السمين : في تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفذنا . أي : أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم . ومتعلق القضاء محذوف . أي : بفسادهم . وقوله : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ جواب قسم محذوف مؤكد لمعنى القضاء ، أو جواب لقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ لأنه ضمن معنى

القسم . ومنه قولهم : (قضاء الله لأفعلن كذا) فيُجْرُون القضاء والقدر مجرى القسم ، فيتلقيان بما يتلقى به القسم . و (مرتين) أي : إفسادتين . منصوب على أنه مصدر (لتفسدن) من غير لفظه . وعدل عنه ؛ لأن تثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي : ولتستكبرن وتتعظمُنَّ عن طاعة الله تعالى ، أو لتظلمن الناس ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ أي : موعود أولى المرتين ، أي : وما وعدوا به في المرة الأولى ، يعني وعد المؤاخذة على أولى المفسدتين : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : ذوي قوة وبطش في الحرب ، شديد : ﴿ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ ﴾ ترددوا خلال أماكنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ أي : مَقْضِيًا لا صارف له .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بعد هذه المؤاخذة الشديدة ، رددنا ، عند توبتكم ، لكم الغلبة التي كانت لكم في الأصل ، عليهم : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي : قوماً ورهطاً . جمع (نفر) أو اسم جمع له . وأصله من ينفر مع الرجل من قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 461 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) ﴾

عطف على جملة ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ [الإسراء : 2] ، أي آتينا موسى الكتاب هُدى ، وبينا لبني إسرائيل في الكتاب ما يحل بهم من جراء مخالفة هدي التوراة إعلاماً لهذه الأمة بأن الله لم يدخر أولئك إرشاداً ونصحاً ، فالمناسبة ظاهرة .

والقضاء بمعنى الحكم وهو التقدير ، ومعنى كونه في الكتاب أن القضاء ذكر في الكتاب ، وتعدية قضينا بحرف (إلى) لتضمين قضينا معنى (أبلغنا) ، أي قضينا وأنهينا ، كقوله تعالى : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ في سورة [الحجر : 66] .

فيجوز أن يكون المراد بـ (الكتاب) كتاب التوراة والتعريف للعهد لأنه ذكر الكتاب آنفاً ، ويوجد في مواضع ، منها ما هو قريب مما في هذه الآية لكن بإجمال (انظر الإصحاح 26 والإصحاح 28 والإصحاح 30) ، فيكون العدول عن الإضمار إلى إظهار لفظ (الكتاب) لمجرد الاهتمام .

ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية .

فتعريف (الكتاب) تعريف الجنس وليس تعريف العهد الذكري ، إذ ليس هو الكتابَ المذكور آنفاً في قوله : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ [الإسراء : 2] لأنه لما أظهر اسم الكتاب أشعر بأنه كتاب آخر من كتبهم ، وهو الأسفار المسماة بكتب الأنبياء : أشعياء ،

وأرميا ، وحزقيال ، ودانيال ، وهي في الدرجة الثانية من التوراة .

وكذلك كتاب النبي مَلاَخي .

والإفساد مرتين ذكر في كتاب أشعياء وكتاب أرمياء .

ففي كتاب أشعياء نذارات في الإصحاح الخامس والعاشر .

وأولى المرتين مذكورة في كتاب أرمياء في الإصحاح الثاني والإصحاح الحادي والعشرين وغيرهما .

وليس المراد بلفظ الكتاب كتاباً واحداً فإن المفرد المعرف بلام الجنس يراد به المتعدد .

وعن ابن عباس الكتاب أكثر من الكتب .

ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة وكتب الأنبياء ولذلك أيضاً وقع بالإظهار دون الإضمار .

وجملة ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ إلى قوله ﴿ حصيرا ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ .

وأيّا مّا كان فضمائر الخطاب في هذه الجملة مانعة من أن يكون المراد بالكتاب في قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ اللوح المحفوظ أو كتاب الله ، أي علمه .

وهذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين : حوادث بينهم وبين البابليين ، وحوادث بينهم وبين الرومانيين .

فانقسمت بهذا الاعتبار إلى نوعين : نوع منهما تَنْدَرِج فيه حوادثهم مع البابليين ، والنوع الآخر حوادثهم مع الرومانيين ، فعبر عن النوعين بمرتين لأن كل مرة منهما تحتوي على عدة ملاحم .

فالمرة الأولى هي مجموع حوادث متسلسلة تسمى في التاريخ بالأسر البابلي وهي غزوات (بختنصر) مَلِك بابل وأشور بلادَ أورشليم .

والغزو الأول كان سنة 606 قبل المسيح ، أسَرَ جماعات كثيرة من اليهود ويسمى الأسر الأول .

ثم غزاهم أيضاً غزواً يسمى الأسر الثاني ، وهو أعظم من الأول ، كان سنة 598 قبل المسيح ، وأسَرَ ملكَ يهوذا وجمعاً غفيراً من الإسرائيليين وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان وما فيه من الآنية النفيسة .

والأسر الثالث المُبير سنة 588 قبل المسيح غزاهم "بختنصر" وسبى كل شعب يهوذا ، وأحرق هيكل سليمان ، وبقيت أورشليم خراباً يباباً .

ثم أعادوا تعميرها كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة ﴾ [الإسراء : 6] .

وأما المرة الثانية فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلادَ أورشليم .

وسيأتي بيانها عند قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ [الإسراء : 6] الآية .

وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل مفيد أنه إفساد من جمهورهم بحيث تعد الأمة كلُّها مُفسدة وإن كانت لا تخلو من صالحين .

(121/450)

والعلو في قوله : ولتعلن علوا كبيراً ﴾ مجاز في الطغيان والعصيان كقوله : ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ [القصص : 4] وقوله : ﴿ إنه كان عالياً من المسرفين ﴾ [الدخان : 31] وقوله : ﴿ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين [النمل : 31] تشبيهاً للتكبر والطغيان بالعلو على الشيء لامتلاكه تشبيه معقول بمحسوس .

وأصل ولتعلن ﴾ لتَعْلُوُونَنّ .

وأصل ﴿ لتفسدن ﴾ لتفسدونن .

والوعد مصدر بمعنى المفعول ، أي موعود أولى المرتين ، أي الزمان المقدر لحصول المرة الأولى من الإفساد والعلو ، كقوله : ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً ﴾ [الكهف : 98] .

ومثل ذلك قوله : ﴿ وكان وعداً مفعولا ﴾ أي معمولاً ومنفذاً .

وإضافة ﴿ وعد ﴾ إلى ﴿ أولاهما ﴾ بيانية ، أي الموعود الذي هو أولى المرتين من الإفساد والعلو .

والبعث مستعمل في تكوين السير إلى أرض إسرائيل وتهيئة أسبابه حتى كأن ذلك أمر بالمسير إليهم كما مر في قوله : ﴿ ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ في سورة [الأعراف : 167] ، وهو بعث تكوين وتسخير لا بعث بوحي وأمر .

وتعدية بعثنا ﴾ بحرف الاستعلاء لتضمينه معنى التسليط كقوله : ﴿ ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ [الأعراف : 167] .

والعِباد : المملوكون ، وهؤلاء عباد مخلوقية ، وأكثر ما يقال : عباد الله .

ويقال : عَبيد ، بدون إضافة ، نحو ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : 46] ، فإذا قصد المملوكون بالرق قيل : عَبيد ، لا غير .

والمقصود بعباد الله هنا الأشوريون أهل بابل وهم جنود بختنصر .

والبأس : الشوكة والشدة في الحرب .

ووصفه بالشديد لقوته في نوعه كما في آية سورة سليمان [النمل : 33] : ﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد .

﴾ وجملة فجاسوا ﴾ عطف على ﴿ بعثنا ﴾ فهو من المقضي في الكتاب .

والجوس : التخلل في البلاد وطرقها ذهاباً وإياباً لتتبع ما فيها .

وأريد به هنا تتبّع المقاتلة فهو جوس مضرة وإساءة بقرينة السياق .

(122/450)

و (خلال) اسم جاء على وزن الجموع ولا مفرد له ، وهو وسط الشيء الذي يتخلل منه .

قال تعالى : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ [الروم : 48] .

والتعريف في الديار ﴾ تعريف العهد ، أي دياركم ، وذلك أصل جعل (ال) عوضاً عن

المضاف إليه .

وهي ديار بلد أورشليم فقد دخلها جيش بختنصر وقتل الرجال وسبى ، وهدم الديار ،

وأحرق المدينة وهيكل سليمان بالنار .

ولفظ (الديار) يشمل هيكل سليمان لأنه بيت عبادتهم ، وأسر كل بني إسرائيل وبذلك

خلت بلاد اليهود منهم .

ويدل لذلك قوله في الآية الآتية : ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ﴾ .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) ﴾

عطف جملة ﴿ فجاسوا ﴾ [الإسراء : 5] فهو من تمام جواب (إذَا) من قوله : ﴿

فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ [الإسراء : 5] ، ومن بقية المقضي في الكتاب ، وهو ماض لفظاً مستقبل معنًى ، لأن (إذا) ظرف لِما يستقبل .

وجيء به في صيغة الماضي لتحقيق وقوع ذلك .

والمعنى : نبعث عليكم عباداً لنا فيجوسون ونرد لكم الكرة عليهم ونمدكم بأموال وبنين ونجعلكم أكثر نفيراً .

و (ثم) تفيد التراخي الرتبي والتراخي الزمني معاً .

والردّ : الإرجاع .

وجيء بفعل رددنا ﴾ ماضياً جَرياً على الغالب في جواب (إذا) كما جاء شرطها فعلاً ماضياً في قوله : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا ﴾ [الإسراء : 5] أي إذا يجيء يبعث .

والكرة : الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه .

فقوله : عليهم ﴾ ظرف مستقر هو حال من ﴿ الكرة ﴾ ، لأن رجوع بني إسرائيل إلى أورشليم كان بتغلب ملك فارس على ملك بابل .

وذلك أن بني إسرائيل بعد أن قضوا نيفاً وأربعين سنة في أسر البابليين وتابوا إلى الله وندموا على ما فرط منهم سَلط الله ملوكَ فارس على ملوك بابل الأشوريين ؛ فإن الملك (كُورش) ملك فارس حارب البابليين وهزمهم فضعُف سلطانهم ، ثم نزل بهم (دَاريوس) ملك فارس وفتح بابل سنة 538 قبل المسيح ، وأذن لليهود في سنة 530 قبل المسيح أن يرجعوا إلى أورشليم ويجددوا دولتهم .

وذلك نصر انتصروه على البابليين إذ كانوا أعواناً للفرس عليهم .

والوعد بهذا النصر ورد أيضاً في كتاب أشعياء في الإصحاحات : العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر ، وغيرها ، وفي كتاب أرميا في الإصحاح الثامن والعشرين والإصحاح التاسع والعشرين .

وقوله : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ هو من جملة المقضي الموعود به .

ووقع في الإصحاح التاسع والعشرين من كتاب أرميا "هكذا قال الرب إلهُ إسرائيل لكل السبي الذي سبيتهُ من أورشليم إلى بابل : ابنوا بيوتاً واسكنوا ، واغرسوا جنات ، وكلوا ثمرها ، خُذوا نساء ولِدُوا بنين وبناتٍ ، واكثروا هناك ولا تِقلُّوا" .

و﴿ نفيراً ﴾ تمييز "لأكثر" فهو تبيين لجهة الأكثرية ، والنفير .

اسم جمع للجماعة التي تنفر مع المرء من قومه وعشيرته ، ومنه قول أبي جهل : "لا في العير

ولا في النفير" .

والتفضيل في (أكثر) تفضيل على أنفسهم ، أي جعلناكم أكثر مما كنتم قبل الجَلاء ، وهو المناسب لمقام الامتنان .

وقال جمع من المفسرين : أكثرَ نفيراً من أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم ، أي أفنى معظم البابليين في الحروب مع الفرس حتى صار عدد بني إسرائيل في بلاد الأسر أكثر من عدد البابليين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(124/450)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية .

أظهر الأقوال فيه : أنه بمعنى أخبرناهم وأعلمناهم .

ومن معاني القضاء : الأخبار والإعلام . ونظير ذلك في القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] والظّاهر أن تعديه ب " إلى " لنه مضمن معنى الإيحاء . وقيل : مضمن معنى : تقدمنا إليهم فأخبرناهم . قال معناه ابن كثير . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ . . ﴾ [الإسراء : 4] .

أي : حكمنا حُكْماً لا رجعةَ فيه ، وأعلنّا به المحكوم عليه ، والقاضي الذي حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى .

والقضاء يعني الفَصْل في نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاض مُؤهَّلٍ ، وعلى علم بالقانون الذي يحكم به ، ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُدَّ أن يكون القاضي مُؤهّلاً ، ولو عُرْف المتنازعين ، ويمكن أن يكونوا جميعاً أميّين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، ولكنهم واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْل الحق والعدل في حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويُحكّمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضي لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بينة على المدعي أن يُقدّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبينة تحتاج إلى سماع الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم في القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو في أثناء ذلك عُرْضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أنْ يُعمِّي عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكلماً يستميل القاضي ، فيحوّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث في قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضي هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضي العدل الذي لا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّي عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً في قضاء قضاه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهل القضاة أفضل من رسول الله ؟ !

ففي الحديث الشريف: " إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته فأقضي له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار " .

فردَّ صلى الله عليه وسلم الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أنْ يراجعَ نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بشر يقضي كما يقضي البشر ، ولكن إنْ عمَّيْتَ

على قضاء الأرض فلن تُعمِّي على قضاء السماء .

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم فيمَنْ يستفتي شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب: " استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ " .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميِّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله: ﴿ فِي الْكِتَابِ . . ﴾ [الإسراء: 4] .

أي: في التوراة ، كتابهم الذي نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس في كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أي: حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به في التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على ألسنة الرسل ، أَيُنفذونه وينصاعون له ، أم يخرجون عنه ويفسدون في الأرض ؟

إذا كان رسولهم ـ عليه السلام ـ قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا في تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأنْ يُطيعوا أمره .

وقوله تعالى:

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ . . ﴾ [الإسراء: 4] .

جاءتْ هذه العبارة هكذا مُؤكّدة باللام ، وهذا يعني أن في الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه ، فكأن الحق سبحانه يقول: ونفسي لتفسدن في الأرض ، لأن القسَم لا يكون إلا بالله .

أو نقول: إن المعنى: ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكّداً ، لا يستطيع أحد الفِكَاك منه ، ففي هذا معنى القسَم ، وتكون هذه العبارة جواباً لـ " قضينا " ؛ لأن القسَم يجيء للتأكيد ، والتأكيد حاصل في قوله تعالى:

﴿ وَقَضَيْنَآ . . . ﴾ [الإسراء: 4].

فما هو الإفساد ؟

(127/450)

الإفساد: أن تعمد إلى الصالح في ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكُلُّ شيء في الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركَته ليؤديَ غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخللْتَ به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التي خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مُقوّمات حياتنا في السماء والأرض والشمس والهواء . . الخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل وأعدّ لنا في كَوْنه ما يُمكِّن الإنسان بعقله وطاقته أن يزيدَ الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إنْ لم تستطع أن تزيد

الصالح صلاحاً فأبقِ الصالح على صلاحه.

فمثلاً، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء، فإما أنْ تحتفِظَ بها على حالها فلا تطمسها،

وإما أنْ تزيدَ في صلاحها بأنْ تبنيَ حولها ما يحميها من زحف الرمال، أو تجعل فيها آلة رفع

للماء تضخه في مواسير لتسهِّل على الناس استعمال، وغير ذلك من أَوْجُه الصلاح.

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: 61].

أي: أنشأكم من الأرض، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم، فإنْ أحببتَ أنْ تُثري حياتك

فأعمِلْ عقلك المخلوق لله ليفكر، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله

في الكون، فأنت لا تأتي بشيء من عندك، فقط تُعمِل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله،

وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثرِي حياتك، ويُوفِّر

لك الرفاهية والترقي.

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعمَلُوا عقولهم، وزادوا الصالح صلاحاً، وكم فيها من

مَيْزات وفَّرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج

من ظواهر الكون، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان، فأخذوا

هذه الفكرة، وأفلحوا في عمل يخدم البشرية.

وكما يكون الإفساد في الماديات كمَنْ أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوّثات، كذلك يكون في المعنويات، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه، فكوْنُك لا تنفذ هذا المنهج، أو تكتمه، أو تُحرِّف فيه، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى.

ويقول تعالى لبني إسرائيل:

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ.. ﴾ [الإسراء: 4].

وهل أفسد بنو إسرائيل في الأرض مرتين فقط؟

والله إنْ كانوا كذلك فقد خلاهم ذم، والأمر إذن هيّن، لكنهم أفسدوا في الأرض إفساداً كثيراً متعدداً، فلماذا قال تعالى: مرتين؟

تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين، وفي أيّ فترات التاريخ حدثتا، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم في حضْن الإسلام.

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بني إسرائيل، فدلّ ذلك على أن الإسلام تعدّى إلى مناطق مُقدّساتهم، فأصبح بيت المقدس قِبْلة للمسلمين، ثم أُسْرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وبذلك دخل في حَوْزة الإسلام؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة، وجاء للناس كافة.

إذن: كان من الأَوْلى أن يُفسّروا هاتين المرتين على أنهما في حضن الإسلام؛ لأنهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام، ولا دَخْل للإسلام في إفسادهم السابق؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 4].

فإنْ كان الفساد مُطْلقاً. أي: قبل أن يأتي الإسلام فقد تعدَّد فسادهم، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم البحر فرأوا جماعة يعكفون على عبادة العجل، فقالوا لموسى. عليه السلام: ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: 138].

(129/450)

هل هناك فساد أكثر من أنْ قتلوا الأنبياء الذين جعلهم الله مُثُلاً تكوينية وأُسْوة سلوكية، وحرّفوا كتاب الله؟

والناظر في تحريف بني إسرائيل للتوراة يجد أنهم حرّفوها من وجوه كثيرة وتحريفات متعددة، فمن التوراة ما نسوه، كما قال تعالى: ﴿ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ.. ﴾ [المائدة: 13].

والذي لم ينسوْهُ لم يتركوه على حاله، بل كتموا بعضه، والذي لم يكتموه لم يتركوه على حاله،

بل حرَّفوه، كما قال تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ . . ﴾ [المائدة: 13].

ولم يقف الأمر بهم عند هذا النسيان والكتمان والتحريف، بل تعدَّى إلى أن أَتَوا بكلام من عند أنفسهم، وقالوا هو من عند الله، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَاذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً . . ﴾ [البقرة: 79].

فهل هناك إفساد في منهج الله أعظم من هذا الإفساد؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث في قصة طالوت وجالوت في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ . . ﴾

[البقرة: 246].

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصَّلوا منه ولم يقاتلوا.

ويرون أن الفساد الثاني قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم، واتسعتْ رقعتها من الشمال إلى الجنوب، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم، وفعل بهم ما فعل.

وهذه التفسيرات على أن الفسادين سابقان للإسلام، والأَوْلى أن نقول: إنهما بعد الإسلام، وسوف نجد في هذا ربْطاً لقصة بني إسرائيل بسورة الإسراء.

كيف ذلك؟

قالوا: لأن الإسلام حينما جاء كن يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين في المدينة كانوا يقولون لهم: لقد أظلَّ زمان نبي يأتي فنتبعه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم.

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم: إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك، وأنك صادق، ويعرف علامتك، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

ويقول أحدهم: لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد، لأنه قد يشك في نسبة ولده إليه، ولكنه لا يشك في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لِمَا قرأه في كتبهم، وما يعلمه من أوصافه، لأنه صلى الله عليه وسلم موصوف في كتبهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

إذن: كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا، وكانوا مستشرفين لمجيئه، وعندهم مُقدِّمات لبعثته صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ . . ﴾ [البقرة: 89] .

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

في المدينة أبرم رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفّى لهم رسول الله ما وفّوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم ، جاس رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتَل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: 2] .

وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من يهود بني النضير ، وبني قَيْنقاع ، وبني قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُّ الآية القادمة يُؤيِّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5)

معلوم أن (إذَا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول: إذا جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء في قصة طالوت وجالوت ، وأن الإفساد الثاني جاء في قصة بختنصر .

وقوله: ﴿ وَعْدُ ﴾ . والوعد كذلك لا يكون بشيء مضى ، وإنما بشيء مستقبل . و ﴿ أُولاهُمَا ﴾ أي: الإفساد الأول .

وقوله: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ . . . ﴾ [الإسراء: 5]

وفي هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا في حضن الإسلام ؛ لأن كلمة ﴿ عِبَاداً ﴾ لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت الذي قتله طالوت ، وبختنصر فهما كافران .

وقد تحدّث العلماء في قوله تعالى: ﴿ عِبَاداً لَّنَآ . . ﴾ [الإسراء: 5] فمنهم من رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَاداً) تُقَال للمؤمن وللكافر ، وأتوا بالأدلة التي تؤيد رأيهم حَسْب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى في قصة عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: 116-118]

والشاهر في قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ . . ﴾ [المائدة: 118]

فأطلق كلمة "عبادي" على الكافرين، وعلى هذا القول لا مانع يكون جالوت وبختنصر، وهما كافران قد سُلِّطا على بني إسرائيل.

ثم استدلوا بآية أخرى تحكي موقفاً من مواقف يوم القيامة، يقول تعالى للشركاء الذين اتخذوهم من دون الله: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ . . ﴾ [الفرقان: 17]

فأطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً.

إذن: قوله تعالى: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ . . . ﴾ [الإسراء: 5]

ليس من الضروري أن يكونوا مؤمنين، فقد يكونون من الكفار، وهنا نستطيع أن نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم منهم، ويُسلّط عليهم أمثالهم من الكفرة والظالمين، فإذا أراد سبحانه أن ينتقم من الظالم سلّط عليه مَنْ هو أكثر منه ظلماً، وأشدّ منه بطشاً، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَالِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: 129]

(134/450)

وإذا كان أصحاب هذا الرأي لديهم من الأدلة ما يثبت أن كلمة عباد تُطلَق على المؤمنين وعلى الكافرين، فسوف نأتي بما يدل على أنها لا تُطلَق إلا على المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً * وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾

[الفرقان: 63-67]

إلى آخر ما ذكرت الآيات من صفا المؤمنين الصادقين، فأطلق عليهم "عباد الرحمن".

دليل آخر في قول الحق سبحانه في نقاشه لإبليس: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ.. ﴾[الحجر: 42]

والمراد هنا المؤمنون.. وقد قال إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[ص: 82-83]

إذن: هنا إشكال، حيث أتى كُلٌّ بأدلّته وما يُؤيّد قوله، وللخروج من هذا الإشكال نقول:

كلمة "عباد" و"عبيد" كلاهما جمع ومفردهما واحد (عبد). فما الفرق بينهما؟

لو نظرتَ إلى الكون كله مؤمنه وكافره لوجدتهم جميعاً لهم اختيارات في أشياء، ومقهورين في أشياء أخرى، فهم جميعاً عبيد بهذا المعنى يستوي في القهر المؤمن والكافر، إذن: كل الخَلْق عبيد فيما لا اختيارَ لهم فيه.

ثم بعد ذلك نستطيع أن نُقسّمهم إلى قِسْمين: عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون في مظلة العباد، وعبيد تسمو بهم أعمالهم وانصياعهم لأمر الله فيدخلون في مظلة عباد الله. كيف ذلك؟

لقد جعل الله تعالى لك في أفعالك منطقة اختيار ، فجعلك قادراً على الفِعْل ومقابله ، وخلقك صالحاً للإيمان وصالحاً للكفر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففي منطقة الاختيار هذه يتمايز العبيد والعباد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مُرادهم إلى مُراد ربهم في المباحات ، فتراهم يُنفِّذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم: سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العباد الذين سَلَّموا جميع أمرهم لله في منطقة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن: كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى في المباحات .

أما الكفار الذين اختاروا مُرادهم وتركوا مُراد الله ، واستعملوا اختيارهم ، ونسوا اختيار ربهم ، حيث خَيَّرَهم: تؤمن أو تكفر قال: أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال: أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال: أسرق . وهؤلاء هم العبيد ، ولا يقال لهم "عباد" أبداً ؛ لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكي نستكمل حَلَّ ما أشكل في هذه المسألة لا بُدَّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا في الدنيا في دار التكليف ؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُمَيِّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمرَّدوا

واختاروا غير مراد الله عز وجل في الاختياريات، أما في القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها.

فإذا جاءت الآخرة فلا محلّ للاختيار والتكليف، فالجميع مقهور لله تعالى، ولا مجالَ فيها للتقسيم السابق، بل الجميع عبيد وعباد في الوقت ذاته.

إذن: نستطيع أن نقول: إن الكل عباد في الآخرة، وليس الكل عباداً في الدنيا. وعلى هذا نستطيع فهم معنى (عباد) في الآيتين: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ.. ﴾[المائدة: 118]

وقوله: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ.. ﴾[الفرقان: 17]

(136/450)

فسمّاهم الحق سبحانه عباداً؛ لأنه لم يَعُدْ لهم اختيار يتمردون فيه، فاستوَوْا مع المؤمنين في عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل.

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ.. ﴾ [الإسراء: 5]

المقصود بها الإفساد الأول الذي حدث من اليهود في ظِلّ الإسلام، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما

جَاسُوا خلال ديارهم، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم مَنْ قتلوه، وسَبَوْا مَنْ سَبَوْه.

وقوله: ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ. . ﴾ [الإسراء: 5]

أي: قوة ومنَعة، وهذه كانت حال المؤمنين في المدينة، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل، وليس حال ضعفهم في مكة.

وقوله سبحانه: ﴿ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ. . ﴾ [الإسراء: 5]

جاسُوا من جاسَ أي: بحث واستقصى المكان، وطلب مَنْ فيه، وهذا المعنى هو الذي يُسمّيه رجال الأمن "تمشيط المكان".

وهو اصطلاح يعني دِقّة البحث عن المجرمين في هذا المكان، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر، حيث يتخلل المشط جميع الشعر، وفي هذا ما يدل على دِقّة البحث، فقد يتخلل المشط تخلُّلاً سطحياً، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها.

إذن: جاسُوا أي: تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفي عليهم أحد منهم، وهذا ما حدث مع يهود المدينة: بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير، ويهود خيبر.

ونلاحظ هنا أن القرآن آثر التعبير بقوله: ﴿ بَعَثْنَا. . ﴾ [الإسراء: 5]

والبعث يدل على الخير والرحمة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في حال اعتداء، بل في حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق.

وكلمة: ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ تفيد العلو والسيطرة.

وقوله: ﴿ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ [الإسراء: 5]

أي: وَعْد صدق لابد أن يتحقق؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به، وإياك أن تظن أنه كأي وَعْد يمكن أنْ يَفِي به صاحبه أو لا يفي به؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْداً: سألقاك غداً مثلاً.

فهذا الوعد يحتاج في تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به، إنما إذا كان الوعد ممَّنْ يقدر على الإنفاذ، ولا تجري عليه مِثْل هذه العوارض، فوعْدُه مُتحقّق النفاذ.

فإذا قال قائل: الوعد لا تُقال إلا في الخير، فكيف سمَّى القرآن هذه الأحداث: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ.

. ﴾ [الإسراء: 5]

قالوا: الوعيد يُطلَق على الشر، والوعد يُطلَق على الخير وعلى الشر، ذلك لأن الشيء قد يكون شراً في ظاهره، وهو خير في باطنه، وفي هذا الموقف الذي نحن بصدده، إذا أراد

الحق سبحانه أنْ يُؤدِّبَ هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر في ظاهره ، لكنه في الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إنْ حاولوا هم الاستفادة منه .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الذي يعاقبه والده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حِرْصاً على ما يُصلحه ، وصدق الشاعر حين قال: فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

(138/450)

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6)

الخطاب في هذه الآية مُوجَّه لبني إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحوّل وانقلاب للأوضاع ، فبعد أن تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سلّطهم لتأديب بني إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر ؛ لأن المسلمين تخلَّوْا عن منهج الله الذي ارتفعوا به ، وتَنصَّلوا من كَوْنهم عباداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسلّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم ؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدبهم رسول الله والمسلمون في المدينة ، فأخذوا ينظرون في حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين

انصراف عن المنهج وتنكُّب للطريق المستقيم ، فانحلَّتْ الأمور الإيمانية في نفوس المسلمين ، وانقسموا دُوَلاً ، لكل منها جغرافياً ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فانحلّتْ عنهم صِفَة عباد الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استحقوا أن يكونوا عباداً لله بحق تراجعت كِفتهم وتخلَّوْا عن منهج ربهم ، وتحاكموا إلى قوانين وضعية ، فسلَّط عليهم عدوهم ليؤدّبهم ، فأصبحتْ الغلبة لليهود ؛ لذلك يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ . . ﴾ [الإسراء: 6]

و﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي ، على خلاف الفاء مثلاً التي تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنْشَرَهُ ﴾ [عبس: 21-22]

فلم يَقُل الحق سبحانه: فرددنا ، بل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا ﴾ ذلك لأن بين الكَرَّة الأولى التي كانت للمسلمين في عهد رسول الله ، وبين هذه الكَرَّة التي كانت لليهود وقتاً طويلاً .

فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون، منذ عصر الرسول إلى أن حدث وَعْد بلفور، الذي أعطى لهم الحق في قيام دولتهم في فلسطين، وكانت الكَرَّة لهم علينا في عام 1967، فناسب العطف بـ " ثم " التي تفيد التراخي.

والحق سبحانه يقول: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ.. ﴾ [الإسراء: 6]

أي: جعلنا لبني إسرائيل الغَلَبَة والقوة والنصر على المسلمين وسلّطناهم عليهم؛ لأنهم تخلوْا عن منهج ربهم، وتنازلوا عن الشروط التي جعلتْهم عباداً لله.

و(الكَرَّة) أي: الغلبة من الكرِّ والفرِّ الذي يقوم به الجندي في القتال، حيث يُقدم مرة، ويتراجع أخرى.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ [الإسراء: 6]

وفعلاً أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال في العالم كله، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلِّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات، وفي كل المجالات.

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّة على المسلمين، فهم في ذاتهم ضعفاء رغم ما في أيديهم من المال والبنين، ولا بُدَّ لهم لكي تقوم لهم قائمة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومي المزعوم في فلسطين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ [الإسراء: 6]

فالنفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التي ساندت اليهود وصادمت المسلمين .

وما زالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أنْ نعود كما كُنَّا ، عباداً لله مُسْتقيمين على منهجه ، مُحكِّمين لكتابه ، وهذا وَعْد سيتحقّق إنْ شاء الله ، كما ذكرتْ الآية التالية: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(140/450)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) ﴾

قوله : ﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ " قضى " يتعدَّى بنفسه : ﴿ فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً ﴾ [الأحزاب : 37] ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ [القصص : 29] ، وإنما تَعَدَّى هنا ب " إلى " لتضمُّنه معنى : أَنْفَذْنا وأَوْحَيْنا ، أي : وأَنْفَذْنا إليهم بالقضاءِ المحتومِ . ومتعلِّقُ

القضاءِ محذوفٌ، أي: بفسادِهم. وقوله: "لَتُفْسِدُنَّ" جوابُ قسمٍ محذوفٍ تقديرُه: واللهِ لتفسِدُنَّ، وهذا القسمُ مؤكدٌ لمتعلَّق القضاء. ويجوز أن يكونَ "لَتُفْسِدُنَّ" جواباً لقوله: "وقَضَيْنا" لأنه ضُمِّن معنى القسم، ومنه قولُهم: "قضاء الله لأفعلنَّ" فيُجْرُون القضاء والنَّذْرَ مُجْرى القسم فيُتَلَقَّيان بما يُتَلَقَّى به القسمُ.

والعامَّةُ على توحيد "الكتاب" مُراداً به الجنسُ. وابنُ جبير وأبو العالية "في الكُتُب" على الجمع، جاؤوا به نَصَّاً في الجمع.

وقرأ العامَّةُ بضمِّ التاءِ وكسرِ السينِ مضارعَ "أفسدَ"، ومفعولُه محذوفٌ تقديره: لَتُفْسِدُنَّ الأديانَ. ويجوز أَنْ لا يُقَدَّر مفعولٌ، أي: لتُوقِعُنَّ الفساد. وقرأ ابنُ عباسٍ ونصرُ بن علي وجابر بن زيد "لَتُفْسَدُنَّ" ببنائه للمفعول، أي: لَيُفْسِدَنَّكم غيرُكم: إمَّا من الإِضلال أو من الغلبة. وقرأ عيسى بن عمر بفتح التاء وضمِّ السين، أي: فَسَدْتُم بأنفسِكم.

قوله "مَرَّتَيْنِ" منصوبٌ على المصدر، والعاملُ فيه "لَتُفْسِدُنَّ" لأنَّ التقديرَ: مرتين من الفساد.

قوله : " عُلُوّاً " العامَّةُ على ضمِّ العين مصدرَ علا يَعْلُو . وقرأ زيد بن عليّ " عِلِيّاً " بكسرِهما والياءُ ، والأصلُ الواو ، وإنما اعتلَّ على اللغة القليلة ؛ وذلك أن فُعُولاً المصدرَ الأكثرُ فيه التصحيحُ نحو : عَتا عُتُوّاً ، والإِعلالُ قليلٌ نحو ﴿ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ﴾ [مريم : 69] على أحدِ الوجهين كما سيأتي ، وإنْ كان جمعاً فالكثيرُ الإِعلالُ . نحو : " جِثِيّاً " وشَذَّ : بُهُوٌ وبُهُوٌّ ، ونَجْوٌ ونَجُوٌّ ، وقاسه الفراء .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعْد ﴾ : أي : مَوْعُود ، فهو مصدرٌ واقعٌ موقعَ مفعول ، وتركه الزمخشري على حالِه ، لكن بحذف مضاف ، أي : وَعْدُ عقابِ أُوْلاهما . وقيل : الوَعْدُ بمعنى الوعيد . وقيل : بمعنى المَوْعِد الذي يُراد به الوقتَ . فهذه أربعةُ أوجهٍ . والضميرُ عائدٌ على المرتين .

قوله : " عِباداً " العامَّةُ على " عِباد " بزنة فِعال ، وزيدُ بن علي والحسنُ " عبيداً " على فَعِيْل ، وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك .

قوله : " فجاسُوا " عطفٌ على " بَعَثْنا " ، أي : تَرَتَّب على بعثنا إياهم هذا . والجَوْسُ والجُوْس بفتحِ الجيم وضمِّها مصدرَ جاسَ يَجُوسُ ، أي : فَتَّشَ ونَقَّبَ ، قاله أبو عبيد .

وقال الفراء : " قَتَلُوا " قال حسان :

3026- ومِنّا الذي لاقى بسيفِ محمدٍ . . . فجاسَ به الأعداءُ عَرْضَ العساكرِ

وقال أبو زيد : " الجُوسُ والجَوْسُ والحَوْسُ والهَوْسُ طَلَبُ الطَّوْف بالليل " . وقارب قطرب :

" جاسُوا : نزلوا " . وأنشد :

3027- فَجُسْنا ديارَهُمُ عَنْوةً . . . وأُبْنا بساداتِهم مُوْثَقِيْنا

وقيل : " جاسُوا بمعنى داسوا " ، وأنشد :

(142/450)

3028- إليك جُسْنا الفِيلَ بالمَطِيّ . . . وقيل : الجَوْسُ : التردُّد . وقيل : طَلَبُ الشيءِ

باستقصاء . ويقال : " حاسُوا " بالحاءِ المهملة ، وبها قرأ طلحة وأبو السَّمَّال ، وقرئ "

فَجَوَّسُوا " بالجيم بزنة نُكِّسُوا .

قوله : " خلالَ " العامَّةُ على " خِلال " وهو محتملٌ لوجهين ، أحدهما : أنه جمع خَلَل كجبال

في جَبَل ، وجمال في جَمَل . والثاني : أنه اسمٌ مفردٌ بمعنى وَسْط ، ويدلُّ له قراءةُ الحسن "

خَلَلَ الدِّيار " . وقوله : " وكان وَعْداً " ، أي : وكان الجَوْسُ ، أو وكان وَعْدُ أُوْلاهما ، أو

وكان وَعْدُ عقابهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الكرة ﴾ : مفعولُ " رَدَدْنا " وهي في الأصلِ مصدرُ كَرَّ يَكُرُّ ، أي : رَجَعَ ، ثم يُعَبَّر بها عن الدَّوْلَةِ والقَهْر .

قوله " عليهم " يجوز تعلُّقه ب " رَدَدْنا " ، أو بنفس / الكَرَّة ، لأنه يُقال : كَرَّ عليه فتتعدَّى ب " على " ويجوز أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنها حالٌ من " الكَرَّة " .

قوله : " نَفِيراً " منصوبٌ على التمييز ، وفيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّه فَعِيْل بمعنى فاعِل ، أي : أكثر نافراً ، أي : مَنْ يَنْفِرُ معكم . الثاني : أنه جمع نَفْرٍ نحو : عَبْد وعَبِيد ، قاله الزجاج ، وهم الجماعة الصَّائرون إلى الأعداء . الثالث : أنه مصدرٌ ، أي : أكثرُ خروجاً إلى الغَزْو .

قال الشاعر :

3029- فأَكْرِمْ بقَحْطانَ مِنْ والدٍ . . . وحِمْيَرَ أكرِمْ بقومٍ نَفيرا

والمفضَّلُ عليه محذوفٌ ، فقدَّره بعضُهم : أكثر نفيراً من أعدئكم ، وقدَّره الزمخشري : أكثر نفيراً مِمَّا كنتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 312. 315 ﴾

(143/450)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البعث)

وقد ورد فى القرآن على ثمانية معان :

الأَوّل : بمعنى الإِلهام : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ ﴾ أَى أَلهم .

(122/2)

الثانى : بمعنى إِحياءِ الموتى فى الدنيا : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ ، ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ ، ﴿ وكَذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاۤءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أَى أَحييناهم .

الثالث : بمعنى الاستيقاظ من النوم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ ﴾ أَى من النَّوم ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ .

الرابع : بمعنى التسليط ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً ﴾ .

الخامس : بمعنى نَصْب القيّم والحاكم : ﴿ فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَاۤ ﴾ .

السّادس : بمعنى التعيين : ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً ﴾ أَى عيّن وبيّن ، ﴿ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ﴾ أَى قد عيّن وبيّن .

السابع : بمعنى الإِخراج من القبول للحشر : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ .

الثامن : بمعنى الإِرسال : ﴿ فَابْعَثُواْ أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ ، ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً ﴾ أَى أَرسل .

وأَصل البعث إِثارة الشئِ وتوجيهه .

يقال : بعثتُه فانبعث .

ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلِّق به .

فالبعث ضربان : بَشَرِىّ ؛ كبعث البعير ، وبعث الإِنسان فى حاجة ، وإِلهى ، وذلك ضربان : أَحدهما إِيجاد الأَعيان ، والأَجناس ، والأَنواع عن ليس وذلك يختص به البارئُ – تعالى – ولم يُقْدِر عليه أَحداً من خَلْقه .

والثانى : إِحياءُ الموتى .

وقد خَصّ به بعض أَوليائه ؛ كعيسى وغيره .

ومنه ﴿ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ نحو يوم المَحْشر .

وقوله : ﴿ وَلَاكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ أَى توجُّههم ومُضيّهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 215.214 ﴾

(144/450)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4)

﴿

القضاءُ ها هنا بمعنى الإعلام، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في المُسْتَأَنَفِ منهم وما يستقبلهم، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخْبِروا به، وليكونَ أبلغَ في لزوم الحُجَّةِ عليهم، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم، وليعلموا أن ما سَبَقَ به القضاءُ فلا محالةَ يحصل وإنْ ظُنَّ التباعدُ عنه.

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5) ﴾

إن الله سبحانه يُعِدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) ﴾

يدلُّ على أنه مُقَدِّرُ أعماله العباد، ومدبِّرُ أفعالِهم؛ فإنَّ انتصارهم على أعدائهم من جملة أكسابهم، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذي تولاَّه بقوله: ﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 336 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما ثبت بكون ما توعد به سبحانه في أوقاته كما أخبر به بطشه وحلمه ، فثبتت قدرته وعلمه ، أشار إلى أن من سبب إذلاله لمن يريد به الخير المعصية ، وسبب إعزازه الطاعة ، فقال تعالى : ﴿ إن أحسنتم ﴾ أي بفعل الطاعة على حسب الأمر في الكتاب الداعي إلى العدل والإحسان ﴿ أحسنتم لأنفسكم ﴾ فإن ذلك يوجب كوني معكم فأكسبكم عزاً في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿ وإن أسأتم ﴾ أي بارتكاب المحرمات والإفساد ﴿ فلها ﴾ الإساءة ، وذكرها باللام تنبيها على أنها أهل لزيادة النفرة لأن كل أحد يتطير من نسبتها إليه عبارة كانت ، فإذا تطير مع العبارة المحبوبة فكيف يكون حاله مع غيرها .

ولما انتهزت فرصة الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية ، عطف الوعيد الثاني بالفاء إشارة إلى أنه بعد نصر بني إسرائيل على أهل المرة الأولى ، ولعلها أيضاً مؤذنة بقرب مدتها من مدة الإدالة فقال تعالى : ﴿ فإذا جاء ﴾ أي أتى إتياناً هو كالملجأ إليه قسراً على خلاف ما يريده الآتي إليه ﴿ وعد الآخرة ﴾ أي وقته ، فاستأهلتم البلاء لما أفسدتم وأحدثتم من البلايا التي أعظمها قتل زكريا ويحيى عليهما السلام والعزم على قتل عيسى عليه السلام ﴿ ليسوءوا ﴾ أي بعثنا عليكم عباداً لنا ليسوءوا ﴿ وجوهكم ﴾ أي يجعل آثار المساءة بادية فيها ، وحذف متعلق اللام لدلالة الأول عليه ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ أي الأقصى الذي سقناكم إليه من مصر في تلك المدد الطوال وأعطيناكم بلاده بالتدريج ، وجعلناه محل أمنكم وعزكم ، ثم جعلناه محلاً لإكرام أشرف خلقنا بالإسراء به إليه وجمع أرواح النبيين كلهم فيه وصلاته بهم ثَمَّ ، وهذا تعريض بالتهديد لقريش بأنهم إن لم يرجعوا أبدل أمنهم في الحرم خوفاً وعزهم ذلاً ، فأدخل عليهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل إكرام لا إهانة ببركة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم دائماً أبداً ﴿ كما دخلوه ﴾ أي الأعداء ﴿ أول مرة ﴾ بالسيف ، ويقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة ﴿ وليتبروا ﴾ أي يهلكوا ويدمروا مع التقطيع والتفريق ﴿ ما علوا ﴾ أي عليه من ذلك ، وقيل : ما مصدرية ، أي مدة علوهم

فيكون ﴿ يتبروا ﴾ قاصراً فيعظم مدلوله ، وأكد الفعل وحقق الوعد فقال : ﴿ تتبيراً ﴾ .

(147/450)

وقال في التوراة إشارة إلى هذه المرة الأخيرة - والله أعلم - بعد ما مضى من الإشارة إلى المرة الأولى سواء : وإن لم تحفظ وتعمل بجميع الوصايا والسنن التي كتبت في هذا الكتاب لتتقي الله ربك وتهاب اسمه المحمود المرهوب ، يخصك الرب بضربات موجعة ويبتليك بها ويبتلي نسلك من بعدك ، وينزل بك جميع الضربات التي أنزلها بأهل مصر تدوم عليك ، وكل وجع وكل ضربة لم تكتب في هذا الكتاب يبتليك الله بها حتى تهلك وتبقى من نسلك عدد قليل من بعد كثرتهم التي كانت قد صارت مثل نجوم السماء ، لأنك لم تسمع قول الله ربك ، فيكون كما فرحكم الرب وأنعم عليكم وكثركم يستأصلكم بالعقاب والنكال ، ويدمر عليكم ويتلفكم ، وتجلون عن الأرض التي تدخلونها لترثوها ، ويفرقكم الرب بين جميع الشعوب من أقطار السماء إلى أقطارها ، وتعبدون هناك الآلهة الأخرى التي عملت من الحجارة والخشب لم تعرفوها أنتم ولا آباؤكم ، ولا تسكنون أيضاً بين تلك الشعوب ولا تكون راحة لأقدامكم ، ولكن يصير الله قلوبكم فزعة مرتجفة ، ويبتليكم بظلمة العين وسيلان

الأنفس ، وتكون حياتكم معلقة حيالكم من بعيد ؛ وتكونون فزعين الليل والنهار ، ولا تصدقون أنكم تعيشون ، بالغداة تقولون : متى نمسي ؟ وبالعشي تقولون : متى نصبح ؟ وذلك من فزع قلوبكم وخوفكم ومن ظلمة أبصاركم وقلة حيلتكم ، ويردكم الله إلى أرض مصر في سفن على الحال الذي قلت لكم ، لا تعودون أن تروها أبداً ، وتباعون هناك عبيداً وإماء ، ولا يكون من يشتريكم ، هذه أقوال العهد التي أمر الله بها موسى أن يعاهد بني إسرائيل في أرض موآب سوى العهد الذي عاهدهم بجوريب – انتهى .

(148/450)

وإنما قلت : إن هذا إشارة إلى المرة الثانية ، لأنه تكرير لذلك الذي قدمته في الأولى ، فحمله على أن يكون مشيراً إلى غير ما أشار إليه الأول أولى ، بل ربما كان متعيناً ، ثم أخبرني بعض فضلاء اليهود أن علماءهم قالوا كذلك ، وكان الخراب في هذه المرة على يد طيطوس بعد أن تملك أبوه أسفسيانوس على الروم ورجع من الأرض المقدسة بعد موت ملكهم تيروس الذي كان أرسله لقتال اليهود لما خرجوا عن طاعته ، وكان معه يوسف بن كريون أحد أكابر اليهود ، وكان أحد من ندبه اليهود لقتال أسفسيانوس ومن معه ، فأسروه وأحسنوا إليه فاستمر عندهم ، فلما مات تيروس وملكه أصحابه رجع إلى رومية وبعث ابنه للفراغ

من القدس وبعث يوسف معه بعد أن استمر البيت عامراً من عمارة العزير عليه السلام أربعمائة سنة وعشرين سنة ، ولم يدخل بعد هذا الخراب في أيدي اليهود ، وكان هذا لثلاثمائة سنة وثمانين سنة من ولاية الإسكندر ، وقال مؤرخهم في شرح هذا الخراب : إن طيطوس كان في قيسارية ، فسار منها حتى انتهى إلى يالو فأخذ من نقاوة عسكره ستمائة رجل ، وسار إلى بيت المقدس ليقف على أحوال المدينة ، وينظر الحصن ، ويعلم ما يحتاج إلى علمه ، ويدبر الأمور بحسب ذلك ، وعمل على أن يراسل أهل بيت المقدس بالجميل ويدعوهم إلى المسالمة ويبذل لهم الأمان ، فلما قرب من المدينة وجد الأبواب مغلقة ، وليس يخرج من المدينة ولا يدخل إليها أحد لما بين الخوارج من الحروب المتصلة ، فما وجد من خاطبه من القوم ، فانصرف راجعاً إلى عسكره .

قال : وكان قوم من أصحاب الخوارج لما علموا بمجيء طيطوس قد خرجوا من المدينة ، فكمنوا له في بعض الطريق ، فما اجتاز بهم وهو راجع أحاطوا به وحالوا بينه وبين أصحابه ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى خلص بعد أن أشرف على الهلاك ، فعلم ما القوم عليه من النجدة والشر فأعد لذلك عدته لما أراد الله من خراب القدس ، وكان الله سبحانه وتعالى

ملكه وعز سلطانه قد أظهر لبني إسرائيل أموراً دلتهم على زوال أمرهم لو أنهم تبصروا ، منها شبه كوكب كبير له نور قوي وضوء شديد كان القدس يضيء منه البلد كله طول الليل قريباً من ضوء النهار ، فأقام كذلك سبعة أيام مدة عيد الفصح ، ففرح به الجهال واغتم العلماء ، ومنها أنهم أحضروا في هذا العيد بقرة ليقربوها ، فولدت خروفاً فاستنكر الناس ذلك ، ومنها أن باب القدس الشرقي كان عظيماً ثقيلاً لا يعالجه إلا جماعة ، فلما كان في تلك الأيام كانوا يجدونه كل يوم مفتوحاً من غير فاتح ، فيجتمع الرجال المعتادون له فيغلقونه ثم يعودون إليه فيجدونه مفتوحاً ، فكان الجهال يفرحون والعلماء يغتمون ، ومنها أنه ظهر على بيت قداس الأقداس في الهواء صورة وجه الإنسان شديد الحسن عظيم البهاء والنور ، ومنها أنه ظهر أيضاً في الجو صور ركبان من نار يطيرون في الهواء قريباً من الأرض على بيت المقدس وعلى جميع أرض اليهود ، ومنها أنه سمع الكهنة في ليلة عيد العنصرة في القدس حس جماعة كثيرة يذهبون ويجيئون في الهيكل من غير أن يروهم بل كانوا يسمعون وطأهم فقط ، ثم سمعوا صوتاً عظيماً يقول : امضوا بنا حتى نرتحل عن هذا البيت ، ومنها أنه كان قد ظهر قبل هذا بأربع سنين في المدينة رجل يمشي كالمجنون ويصيح بأعلى صوت يقول : صوت من المشرق ، صوت من المغرب ، صوت من أربع جهات الدنيا ، صوت على أورشلام ، وصوت على الهيكل ، وصوت عل الحصن ، وصوت على الفروس ، وصوت على جميع الناس ، الويل على أورشلام ، الويل على أورشلام ، وكان لا يهدأ من هذا

(150/450)

الكلام ، وكان الناس يبغضونه ويزجرونه ويتصورونه بالجنون ، فلم يزل على ذلك إلى أن أحاط العدو بالمدينة ، فابتدأ في بعض الأيام يتكلم على عادته ، فأتاه حجر في رأسه فمات ووجد في حائط قدس الأقداس حجر قديم مكتوب عليه " إذا صار بنيان الهيكل مربعاً ملك على أرض بني إسرائيل ملك عظيم ، ويتسلط على سائر الأرض " فقال قوم : هو ملك بني إسرائيل ، وقال الحكماء والكهنة : بل الروم ، ووجد أيضاً حجر قديم مكتوب عليه " إذا كمل بنيان القدس وصار مربعاً فإنه عند ذلك يخرب " فلما وقع الحصار وانهدم أنطونيا سدوا السور فصار الهيكل مربعاً كما سيأتي ، وأعظم الأمارات ما كان عليه خوارجهم من القتال ، وسفك دماء الخاص والعام ، والحريق والجوع ، بحيث إنه أحاط البلاء بهم وبجميع الناس ولا يجدون مهرباً حتى كرهوا الحياة .

(151/450)

ولما خلص طيطوس من الخوارج بات في عسكره ، ثم سار بالليل من يالو ، فأصبح على بيت المقدس ونزل على رأس جبل الزيتون الذي في شرقي المدينة أورشليم ، ليحجز الوادي بينه وبينها ولا يخفى عليه من يخرج إليه منها ، ثم رتب عسكره ووصاهم بالتعاون والتظافر واليقظة والحذر ، وأن لا يفارق بعضهم بعضاً ، وقال : إنكم تقاتلون قوماً لم تقاتلوا مثلهم في البأس والشجاعة والصبر على القتال والبصر بالحرب ، فلما رآه اليهود اصطلح رؤساء الخوارج يوحانان وشمعون والعازار على أن لا يحارب بعضهم بعضاً ويتفقوا على محاربة الروم ، واجتمعوا وفتحوا باب المدينة ولقوا من كان قرب من الروم ، فقاتلوهم واشتد الحرب فانهزم الروم ، فردهم طيطوس وشجعهم فعادوا فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها خلق كثير ، وانهزم اليهود فوقفوا عند السور وبعثوا جريدة من أصحابهم في عدد كثير من جهة أخرى ، فداروا من وراء عسكر الروم ، وزحف أولئك من أمامهم ، فكان الروم بين العسكرين فقتل منهم خلق كثير فانهزموا ، وثبت طيطوس في جمع من أصحابه فاشتد الأمر حتى كاد يقتل ، فقال أصحابه : امضِ إلى الجبل ، فاختار الموت على الهزيمة ولم يزل يقاتلهم حتى تخلص بعد أن استظهر عليه اليهود ثلاث دفعات ، ولما عاد اليهود إلى المدينة نقضوا عهودهم وحارب بعضهم بعضاً كما كانوا ، لأن يوحانان كان يريد الرئاسة ، وكان شمعون والعازار يأبيان ذلك ، وحضر عيد الفصح – وهو الفطير – فدخل يوحانان في أصحابه إلى القدس في اليوم الأول ، فلقيهم الناس بالجميل وسروا بهم ، فنزعوا

ما ظهر من ثيابهم فإذا تحتها السلاح، وأخذوا على الناس الأبواب، فقتلوا خلقاً كثيراً من الكهنة وغيرهم ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً، فقتل العازار وشمعون من كان خارج القدس من جماعة يوحانان، فخرج إليهم واشتد الأمر واتصلت الحرب، فلما علم طيطوس زحف إلى المدينة فقال له قوم من اليهود الذين على السور: نفتح لك الباب على أن تؤمننا

وتريحنا من هؤلاء الخوارج، فلم يثق بهم لما ظهر لهم من شرهم وغدرهم، وعلت الأصوات في المدينة، لأن بعضهم كان يريد أن يفتح لطيطوس وبعضهم يمنع، وتبادروا إلى حفظ الأبواب والسور، فتقدم جماعة من الروم إلى المدينة طمعاً في أن يفتح لهم الباب فرماهم الخوارج بالحجارة والنشاب، وأعانهم الذين كانوا استدعوا الروم للدخول، ثم خرج جماعة من اليهود فهزموا الروم وأنكوا فيهم وتبعوهم إلى قرب عسكرهم، وشرعوا يهزؤون بهم ويعيرونهم بالهزيمة، فأراد من في العسكر أن يلاقوهم فمنعهم طيطوس واشتد غضبه على أصحابه وقال: لست أعجب من اليهود في غدرهم، ولكن أعجب منكم مع بصركم بالحرب وكثرة تجاربكم فكيف خدعوكم؟ فمضيتم إلى المدينة بغير أمري وخالفتم وصيتي، ولذلك انهزمتم لأنه لا يجوز للرعية أن تخالف أمر الملك، وقد علمتم أن

بعض ملوكنا قتل ابنه لأنه مضى إلى الحرب بغير أمره ، فأنتم مستحقون للقتل بعصياني ، مستوجبون لما جرى عليكم من الهزيمة ، فسجد أصحاب طيطوس له واعترفوا بخطئهم وقالوا : لا نعاود ، فأمرهم أن يعدلوا ما حول المدينة من المعاثر والوهدات ، ويسدوا الآبار ليسهل عليهم القتال ويهدم السور ، ففعلوا ذلك وقطعوا كل ما حول المدينة من الشجر والنبات ، وكان حولها من سائر الجهات بساتين كثيرة فيها أنواع الأشجار والفواكه مسيرة أميال من كل جهة ، فكان إذا أقبل إنسان عليها يرى أحسن منظر فلم يبق الروم من ذلك شيئاً ، وكان من يعرف تلك البساتين إذا رآها بعد إتلافها يبكي ويستوحش ، واشتغل اليهود بخوارجهم ، واتفق شمعون والعازار على يوحانان وكان قد ملك القدس ومعه ثمانية آلاف وأربعمائة رجل من الشجعان ، وكان مع شمعون عشرة آلاف من اليهود وخمسة آلاف من أدوم – أي النصارى – وكان الكهنة وجماعة من أهل المدينة مع العازار ، وحصل الناس بين هؤلاء بأسوأ حال ، وكانوا إذا استظهر الروم على المدينة اتفقوا وحاربوهم ، فإذا دفعوهم عادوا إلى الشر

فيما بينهم .

ثم إن طيطوس أحضر كبش الحديد وغيره من آلات القتال ليهدم السور ، وصنع أبراجاً عظيمة من الخشب توازي سور المدينة وتحتها بكر ليدفعها الرجال وتصعد عليها المقاتلة ، وأرسل إليهم رجلاً من أصحابه يدعوهم إلى المسالمة فرماه بعض من على السور فقتله ، واصطلح الخوارج وخرجوا إلى الروم فقاتلوهم وأحرقوا الكبش وجميع تلك الآلات وأبعدوهم ورجعوا إلى المدينة يتقاتلون ، فلما علم طيطوس بذلك دفع الكبش على السور فهدم منه قطعة كبيرة ، فهرب من كان وراءه إلى السور الثاني ، فأبعد الروم ما سقط من حجارة السور ليتسع لهم المجال ، فاصطلح الخوارج وفرقوا أصحابهم على جهات المدينة ، واشتد بينهم وبين الروم ، وصدق الفريقان ، وتولى طيطوس الحرب بنفسه ، وأقبل يشجع أصحابه ويعدهم بالأموال والصلات ، وشجع الخوارج أصحابهم ونادى شمعون : من انهزم قتل وهدم منزله .

فلما رأى طيطوس ثبات أصحاب شمعون مال إلى جهة يوحانان ، ولأنها معتدلة وطيئة ، وأراد أن ينطح السور الثاني ، فناداه رجل اسمه قصطور من فوق السور : أسألك يا سيدي

أن تشفق على هذه المدينة والأمر يجري على ما تحب ، فظن طيطوس صدقه فتوقف وشرع يكلمه ، وأطال المراجعة احتيالاً منه ليتمكن أصحابه من إحراق الكبش ، ثم سأله أن يبعث له شخصاً من أصحابه ليتفق معه ، فأرسل إليه شخصاً من وجوه الروم فقال له : اقرب حتى ألقي إليك ما لي ثم انزل ، فألقى عليه صخرة فأخطأته وقتلت رجلاً كان معه ، فغضب طيطوس ودفع الكبش على السور الثاني فانهدم منه قطعة كبيرة ، فاشتد أسف قصطور فقتل نفسه ، وتبادر اليهود فمنعوا الروم من الدخول من الموضع الذي انثلم ، وحاربوهم إلى أن أخرجوهم عن السور الأول وقتلوا جماعة منهم ، واتصلت الحرب بين الفريقين أربعة أيام ، وورد على طيطوس في اليوم الرابع عسكر كبير من أمم مختلفة تعينه على اليهود ، فخرج اليهود على عادتهم فقاتلوهم فلم تكن لهم بهم طاقة فانهزموا ودخلوا إلى الحصن الثالث ، فأمر طيطوس برفع الحرب وكف عنهم خمسة أيام ، وركب في اليوم الخامس وتقدم إلى قرب السور ، فوجد يوحانان وشمعون وأصحابهما قد خرجوا من المدينة ليحرقوا الكبش ، فابتدأهم طيطوس بالسلام وخاطبهم بالجميل والملاطفة وقال : قد رأيتم ما جرى من هدم هذين السورين ، وليس يتعذر هدم السور الثالث ، وقد علمتم أنكم ما انتفعتم في هذه المدة بما فعلتموه ، وكذلك لا تنتفعون أيضاً بدوامكم على ما أنتم عليه من اللجاج في مخالفتنا .

فارجعوا عن ذلك قبل أن أهدم هذا السور الباقي ، وأستبيح المدينة ، وأخرب الهيكل ،

ولست أختار ذلك ولا أريده ، فإن رجعتم إلى طاعتنا كنا لكم على أفضل ما عهدتموه منا ، ودامت لكم السلامة ، وزال عنكم ما أنتم فيه من المكروه .

وأمر يوسف بن كريون أن يقرب منهم ويبلغ معهم الغاية في القول ويستدعيهم إلى المسالمة ويبذل لهم من الأمان والعهود ما يثقون به ويسكنون إليه ، فوقف قدام باب المدينة وقال : اسمعوا مني يا معشر بني إسرائيل ما أنا مخاطبكم به ، فإني إنما أخاطبكم بما ينفعكم ويعود بصلاحكم إن قبلتموه ، واعلموا أن محاربة الأعداء ومقاومتهم قد كانت تحسن بكم حين كانت بلدانكم عامرة ، وعساكركم متوافرة ، وأحوالكم مستقيمة ، فأما بعد أن بلغتم إلى هذه الحال ، من خراب البلدان وفناء الرجال ، وذهاب النعم واختلال الأحوال ، فكيف تطمعون في مقاومة هذه الأمة العظيمة القوية التي قد قهرت الممالك والأمم واستولت عليهم ، فعلى أيّ شيء تعتمدون ؟ فإن قلتم : إنا نعتمد على الله عز وجل ونرجو أن ينصرنا كما جرت عادته مع آبائنا ، فيجب أن تعلموا أنه هو الذي سلط عليكم هذه الأمة لسوء أفعالكم وكثرة ذنوبكم ، لأنكم ارتكبتم المحارم ، وسفكتم الدماء ، ونجستم هيكل الله المقدس ، وقتلتم كهنته وصلحاء أمته ظلماً ، فكيف ترجون من الله النصر والمعونة مع هذه

الأفعال القبيحة والله لا ينصر من عصاه ، وإن كنتم تتكلون على الحصون والعدد والعساكر فأنتم تعلمون أن جميع ذلك قد ذهب أكثره ، ولم يبق منه إلا القليل ، وهذه المدينة قد هدم سوران من أسوارها ولم يبق غير واحد وهم مجدون في هدمه ، وأنتم كل يوم في نقصان وضعف وعدوكم في زيادة وقوة ، فإن دمتم على ما أنتم عليه هلكتم ولم يبق منكم باقية ، فإن قلتم : إنا نختار القتل على الذل للأمم وطاعتهم ، فقد علمتم أن آباءنا وأصولنا – وهم السادة الذين يجب علينا أن نقتدي بهم – لم يمتنعوا من مسالمة الأمم الذين جاوروهم ومداراتهم ، ولو كان أمراً مكروهاً لقد كانوا أولى بكراهته منكم ، والمتقدمون منا أطاعوا المصريين في أزمان كثيرة وملوك الموصل والكسدانيين والفرس ثم اليونانيين الذين جاروا عليهم وأساؤوا إليهم وصبروا على ظلمهم لهم على أن

أذن الله بخلاصهم منهم على أيدي بني حشمناي الكهنة ، ثم أطاعوا بعد ذلك ملوك الروم إلى هذه الغاية ، ولم يروا أن عليهم نقصاً في طاعتهم ، وكذلك أنتم إن أطعتموهم كان ذلك أولى بكم من أن تعرضوا أنفسكم للهلاك ، ونعمتكم للزوال ، وبلدكم للخراب ، وتحصلوا بعد ذلك في أضعاف ما كرهتموه من الذلن ولا يعذركم في ذلك عاقل ولا يحمد رأيكم ،

على أن الروم ما زالوا محسنين إليكم ، كفوكم أمر أعدائكم من اليونانيين ، وأزالوا سلطانهم عنكم ، وأعانوكم على كثير من الأمم الذين يعادونكم حتى غلبتموهم واستوليتم عليهم ، فأنتم بطاعتهم أولى منكم بمعصيتهم ، وقد علمتم أن الله عز وجل قد جعل لكل أمة دولة وسلطاناً سلطها فيه ، فإذا انقضى ذلك الزمان زالت دولتها وسلطانها فذلت لغيرها وخضعت لمن كان يخضع لها ، وقد بسط الله أيديكم زماناً ، وسلطكم على غيركم دهراً ، ثم جعل الدولة والسلطان لسواكم ، وأراد أن يذلكم لهم ، فمتى خالفتم مراد الله ولم تقبلوا حكمه هلكتم ، وليس يشك في أن الله أراد في هذا الزمان أن يرفع الروم ويبسط أيديهم ، لأنه قد أذل لهم الملوك وظفرهم بالأمم حتى أطاعهم من في سائر جهات الدنيا ممن هو أشد منكم بأساً ، وأكثر عدداً ، وأقوى سلطاناً ، وكيف تطمعون في أن تغلبوهم وأنتم تشاهدون إقبالهم وقوة أمرهم ومعونة الله لهم ، وترون أنفسكم بخلاف ذلك ، وليس يعيب الإنسان ولا ينقصه طاعته لمن هو أقوى منه وأعلى يداً ، لأن الله عز وجل قد جعل أمر الخلق في الدنيا مبنياً على أن يكون بعضهم تابعاً لبعض ، وبعضهم قاهراً لبعض ، وبعضهم محتاجاً إلى بعض ، وكل صنف يخضع لمن هو أقوى منه ويذل له ويطيعه ، وذلك ظاهر موجود في الناس على طبقاتهم ، وفي الحيوانات على اختلافها ، وليس يستغني عن ذلك أحد ، ولا يذمه عاقل ، وإذ كان الأمر كذلك فليس ينقصكم طاعة الروم ، ولا الروم بأول

من أطعتموهم وقد تقدمت طاعتكم لهم منذ سنين ؛ وقد ابتدؤوكم في هذا الوقت بالجميل ،

(157/450)

ودعوكم إلى المسالمة ، وبذلوا لكم الأمان ، وضمنوا لكم الإحسان ، وظهر منهم الإشفاق على مدينتكم وقدسكم فاتقوا الله ، وتلافوا أمركم ، وأحسنوا النظر لمن بقي منكم ، فارجعوا إلى ما كنتم عليه من طاعتهم لتبقوا وتتماسك أحوالكم ، وتسلم هذه المدينة وهذا القدس الجليل قبل أن يهدم هذا الحصن الباقي فتهلكوا .

(158/450)

فصاح الخوارج بشتم يوسف والفرية عليه ورموه بالسهام والحجارة ، فتباعد قليلاً وأغلظ لهم في الكلام وقال : يا معشر العصاة ! أخبروني ما الذي حملكم على قتال الروم إن كنتم تقصدون بذلك صيانة القدس عن الأعداء فأنتم قد ابتذلتموه بالمعاصي ونجستموه بما سفكتم فيه من الدماء الكثيرة ظلماً ، وإن كنتم تريدون نصرة الأمة وإعزازها فأنتم تقتلونها

بأيديكم وتبالغون في ظلمها والإساءة إليها ، وهل يفعل الأعداء بكم أكثر مما فعلتموه ؟ أو يبلغون فيكم أكثر مما قد بلغتموه في أنفسكم ؟ أخبروني متى كان من تقدم من أمتنا أو تأخر يغلبون من يحاربهم ويستظهرون على أعدائهم بالعساكر والعدد دون الصلاح والتقوى ؟ وهل تخلص من تخلص من الشدائد إلا بطاعة الله والدعاء له ؟ وهل كانوا يغلبون إلا بنصر الله لهم ومعونته إياهم ؟ وهل كان ينصرهم إلا إذا أطاعوه واتقوه ؟ فلما عصوه سلط عليهم الأعداء ومكنهم منهم حتى قهروهم وأذلوهم ، ولم ينتفعوا بعددهم وسلاحهم ولا قدروا على مقاومة الأعداء بيأسهم وقوتهم ، وقد علمتم أن الله عز وجل كفى الصالحين في كل زمان أمر أعدائهم ، فمنهم من دعا الله عز وجل عند الشدائد فاستجاب له بلا حرب ، وأظهر الآيات العظيمة في معونتهم وكفايتهم ، فبلغوا بذلك ما لم يكونوا يبلغون إليه بحولهم وقوتهم ، ومنه من حارب الأعداء واستعان بالله عز وجل فأعانه على عدوه وظفره به ، ولم يفعل الله مثل ذلك مع العصاة ليظهر فضيلة الصالحين ، اعتبروا بأبيكم إبراهيم عليه السلام ، لما أخذ فرعون امرأته ألم يضرب الله فرعون وأهله بالبلاء العظيم حتى خضع فانكسر ورد امرأة إبراهيم عليه السلام وهي سليمة ، ثم أحسن إليه وأكرمه ، فهل قدر إبراهيم عليه السلام على ذلك بالسيف والمحاربة أو بالصلاح والدعاء إلى الله عز وجل ؟ وكذلك فعل الله مع إسحاق عليه السلام لما أخذ أبيمالخ ملك فلسطين امرأته ، وقد علمتم أن موسى عليه السلام لم يستظهر على فرعون وعساكر المصريين حتى

هلكوا وتخلصت أمة بني إسرائيل منهم بحرب ولا عدة ، بل بالدعاء وكفاية الله له ، ولما حارب عماليق بني إسرائيل هل غلبوه إلا بدعاء موسى عليه السلام وصلاته ؟ ويوشع بن نون عليه السلام لما عبر الأردن مع بني إسرائيل قد كان في جمع كبير وقوة فهل فتح يريحا بالحرب أو بالآية العجيبة في سقوط الحصن ؟ ولما أخطأ عاخان بما أخذه من يريحا من الغنيمة التي نهى الله عنها بني إسرائيل ألم يسخط الله على الأمة بسببه حتى غلبهم أهل مدينة عاي وهم قليل ، فلم يقدر بنو إسرائيل مع كثرتهم على مقاومتهم إلى أن صلى يوشع بن نون عليه السلام ودعا إلى الله عز وجل فاستجاب الله دعاءه ونصر بني إسرائيل على عاي وجدعون لما غلب عسكر مدين وعماليق مع كثرتهم هل غلبهم إلا بمعونة الله لهم ؟ واذكروا كيف انهزم عسكر الأرمن العظيم عن سبسطية بصلاة اليشع النبي عليه السلام ودعائه ، وقد كان أهل المدينة أشرفوا على الهلاك من الجوع ، فأوقع الله الخوف في قلوب الأرمن فانهزموا بغير حرب ولا قتال ، وخرج أهل المدينة فغنموا عسكرهم وزال عنهم الجوع ، واذكروا ما فعل الله مع نساء الملك ويوشافاط لما ظفرهما بأعدائهما بالدعاء والصلاة ، وقد علمتم أن شمشون قبل أن يخطىء كان جبارا مظفراً ، فلما أخطأ أسره

أعداؤه فصار ذليلاً في أيديهم مثل أقل الناس وأضعفهم وطحنوه بالرحى مثل الإماء ، وكذلك شاوول – وفي نسخة : طالوت – الملك لما كان طائعاً لله تعالى كان الله ينصره ، فلما عصاه أسلمه الله إلى أعدائه فظفروا به ، ولم ينتفع بعساكره وعدده ، وأمصيا لما حارب أدوم غلبهم وظفر بهم ، فلما أخذ أصنامهم ونصبها في بيت المقدس سخط الله عليه ، فلما حارب يواش ملك بني إسرائيل بعد ذلك انهزم أقبح هزيمة لخذلان الله له وتركه معونته ، واذكروا هلاك عسكر سنحاريب ملك الموصل العسكر العظيم بغير حرب ولا قتال بل بصلاة حزقيا الملك والأنبياء عليهم السلام ودعائهم ، واعتبروا بصدقيا الملك لما عصى

(160/450)

الكسدانيين وظن أنهم يغلبهم بعساكره وبعدته وخالف الأنبياء عليهم السلام في مسالمتهم ، هل انتفع بذلك ؟ وهل كانت عاقبته وعاقبة الأمة إلا إلى الهلاك ؟ فهذا وغيره مما لم أذكره لكم يدلكم على عناية الله بالأخيار ، وخذلانه للعصاة الأشرار .

(161/450)

وساق لهم من مثل هذا كلاماً كثيراً بلغياً ، ثم رغبهم في طاعة اسفسيانوس بالخصوص بما اشتهر من حسن سيرته ، وقال : ولو لم تعلموا ذلك إلا بما عاملني به من الجميل ، وقد كنت أستوجب منه غير ذلك لكفاكم ، لأني كنت أول من اجتهد في محاربته ، وقتلت خلفاً كثيراً من أصحابه ، ولقد كنت أعلم أني خالفت الصواب ، ولكني لما رأيتكم بأجمعكم قد اتفقتم على محاربتهم وبعثتموني لم أخالفكم ، وبذلت المجهود في مناصحتكم ، وثبت في حصن يودنات إلى أن فنى أصحابي ، وغلبني الأمر ، ولم يبق لي حيلة ، ثم حصلت مع الروم فما أساؤوا إليّ بل أحسنوا وأجملوا وعفوا عني وأنا معهم إلى هذه الغاية على ما أحب ، وقد كنت اجتهدت قبل حصولي معهم أن أهرب إليكم فما تم لي ذلك ، وأنا الآن أحمد الله تعالى إذ لم يسهل لي ذلك ، فإني لو كنت معكم لكنت إما أن أشاركم في أفعالكم هذه فأكون مخطئاً ، أو أخالفكم فتقتلوني ظلماً ، فتأملوا ما خاطبتكم به ولا تظنوا أن الله ينصركم ، فإنكم لا تستحقون ذلك لأنكم قد أسخطتموه ، واستدلوا على ذلك بآية عين سلوان ، فإنها قد كانت قريبة من الجفاف قبل أن ينزل بكم هذه العساكر ، فلما نزلوا غزرت فصارت كالنهر لتعلموا أن الله تعالى يريد معونة أعدائكم عليكم ، وأنا أعلم أن كلامي لا يؤثر فيكم ليتم ما قد حكم الله به من هلاك هذه المدينة وخراب هذا القدس الجليل ، ولذلك قد قست قلوبكم فصارت كالحجارة بل هي أقسى وأصلب من الحجارة ، لأن الحجر قد يؤثر

فيه الماء إذا دام انصبابه عليه ، وأنتم لا تؤثر فيكم المواعظ الكثيرة ، ولا تلين قلوبكم ولا تنكسر ، ولكني قد بلغت الغاية فيما يلزمني من نصيحتكم ، فاقبلوا نصحي وأشفقوا على هذا القدس الجليل الذي بنته الأنبياء المقدسون والملوك العظماء ، فإن بقاء عزكم وثبات أمركم مقرون ببقائه وعمارته ، وإن خرب لم يبق لكم عز ولا إقبال ولا دولة ، فاقبلوا ما بذله لكم ابن الملك من الأمان ، وثقوا بعهده وما ضمنه من

الإحسان ، وأنا الضامن لكم عنه ، وإن اتهمتموني بأني أخدعكم وأريد معاونة الروم عليكم فأنتم تعلمون أن أبي وأمي وزوجتي الكريمة عليّ وأولادي معكم ، فإن ظهر لكم من طيطوس بعد مسالمتكم له ما تكرهون فاقتلوهم واقتلوني فقد وهبتكم دماءهم ودمي على ذلك .

ثم بكى يوسف بكاء شديداً ، وكان طيطوس يسمع كلامه فرق له وأمر بإطلاق من كان من السبي في عسكره ، وأطلق لهم أن يمضوا حيث شاؤوا فمال أكثر أهل المدينة إلى طاعة طيطوس ، فمنعهم الخوارج ووكلوا بأبواب المدينة من يحفظها ، وأمروا الموكلين أن يقتلوا كل من أراد الخروج ، ولما طال الحصار اشتد الجوع ، وكان الخوارج يفتشون منازل الناس وينهبون الطعام ويقتلون من مانعهم عنه ، فكان الناس يموتون في المدينة بالجوع ، ومن أراد الخروج إلى ظاهر المدينة ليأخذ شيئاً من نبات الأرض قتله الخوارج ، وإن قدر على الخروج قتله الروم ، فأفناهم ذلك ، وكان طيطوس إذا سمع ذلك رق لهم واستعطفهم ، فلا يزيد استعطافه الخوارج إلا قسوة ، ويخاطبونه بالقبيح ليكف عن ذلك لئلا يميل معه الناس ، فلما رأى ذلك جد في إخراب السور الثالث ليخلص الناس من الخوارج ، فقسم عسكره أربعة أقسام ونصب كباشاً على الجهات الأربع ، فخرج إليهم الخوارج فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا من الروم خلقاً كثيراً ، وكانوا قد ندبوا أربعة من أشدائهم لإحراق الكباش إذا اشتغلوا بالقتال ، ولم يزالوا يقاتلونهم حتى تم لهم ما أرادوا وأحرقوا الكباش وجميع آلاتها ، ونظر الروم من شجاعة اليهود وبأسهم ما هالهم فانهزموا ، فردهم طيطوس وجعل يشجعهم وقال : أما تأنفون أن يغلبكم اليهود بعد أن استظهرنا عليهم ، وهدمنا سورين من أسوار المدينة ، ولم يبق غير سور واحد ، وقد هلك أكثرهم وليس لهم من ينصرهم ، ونحن فعساكرنا متوافرة ، ومعنا أمم كثيرة تعيننا عليهم ، ثم أمرهم أن يتركوا قتالهم حتى يهلكوا

من الجوع ، فضبطوا جميع طرق المدينة ، فضاق الأمر بهم جداً واشتد الجوع ، ولم يكن أحد يقدر أن يطحن قمحاً لئلا ينهب ، ولا يخبز لئلا يفضحه الدخان ، فكان من عنده شيء يستّفون القمح والدقيق ، فمات كثير من الناس ، واشتغل الأحياء بأنفسهم ، فما كانوا يدفنون موتاهم ، وكان الحي ربما أخذ ميته فألقاه في بئر ثم

يلقي نفسه بعده ليموت ، وكان بعضهم يحفر له قبراً ثم يضطجع فيه حتى يموت ، وامتلأت الشوارع بالموتى ، فكان الخوارج يلقونهم من السور إلى الوادي الشرقي ، فلما رآهم طيطوس اغتم ورق لهم ، وكان ببيت المقدس امرأة من أهل النعم ، أصلها من مدينة في حيرة الأردن ، فلما كثرت الفتن هناك انتقلت في جملة من انتقل إلى بيت المقدس بجميع عبيدها وسائر نعمتها ، ولم يكن لها غير ابن واحد صغير وهي تحبه حباً شديداً ، فلما قويت المجاعة ، ونهب الخوارج جميع ما عندها ، اشتد بها الأمر وكان ابنها يتضور من الجوع ، فلما زاد بها الجوع وما يؤلم قلبها من تضور ابنها ، أرادت قتل ابنها لتأكله ، فبقيت حائرة لا تدري على أيّ الأمرين تحمل نفسها ، هل تقتل ولدها العزيز عليها بيدها ، وذلك من أعظم الأمور وأشنعها ، أم تصبر على ما تراه به وبنفسها من البلاء وقد فارقها الصبر وعدمت الجلد ، ثم زاد بها

الجوع فزال عنها التمييز فقالت : يا ابني وواحدي ! قد كنت آمل أن تعيش حتى تبرني ، وكنت أخاف أن تموت قبلي فأفجع بموتك ، فيا ليتني كنت قد ثكلتك فدفنتك واحتسبتك عند الله ، والآن يا ولدي فقد أحاط بنا المكروه وأيقنا بالهلاك ، فالحي لا يرجو الحياة والميت لا يدفن ، وأنا وأنت هالكان ، وإن مت يا بني لم يدفنك أحد وكنت كغيرك ممن أكلته الكلاب وطيور السماء ، وقد رأيت أن أقتلك لتستريح مما أنت فيه ثم آكلك فأجعل بطني التي حملتك فيها قبراً لك ، وأسد بك جوعي ، فيكون ذلك عوض برك بي الذي كنت أرجوه ، وتنال بذلك الأجر العظيم ، ويكون ذلك عاراً على هؤلاء الخوارج الذي أوقعونا في هذا البلاء ، وزيادة في سخط الله عليهم ، ويذكر ذلك على ممر الدهر ، ويتحدث به بعدنا الأجيال ، ويعتبر به ذوو الألباب ، ثم قبضت على ابنها بيدها الواحدة وأخذت الحديدة بالأخرى وهي كالمجنونة ، وحولت وجهها عنه لئلا تراه وضربته بالحديدة فمات ، ثم أخذت منه وشوته وأكلته ، فلما شم الخوارج ريح ذلك

اللحم هجموا عليها فقالوا لها : من أين لك هذا اللحم ؟ ولم استأثرت به علينا ؟ فقال : ما كنت بالتي أوثر نفسي عليكم فاجلسوا ، فجاءت بالمائدة وأخرجت ما بقي من جسم

ابنها وقالت : هذا ولدي وأعز الناس عندي قتلته بيدي لإفراط الجوع وأكلت من لحمه ، وهذا بقية جسمه عزلتها لكم ، فكلوا واشعبوا ولا تكونوا أشد رحمة لولدي مني ، ولا تضعف قلوبكم عن ذلك فإنه قبيح لشجعان مثلكم أن تكون امرأة أقوى قلباً منكم ، وأنتم أحق بأن ترضوا بهذا مني ، لأنكم الذين سببتم علينا البلاء حتى بلغنا هذا المبلغ ، ثم رفعت صوتها تبكي وتنتحب وتنوح على ابنها ، فلما رأوا ذلك هالهم وخرجوا مذعورين واشتهر خبرها ، فقلق الناس قلقاً شديداً ، وتحققوا صحة الوعيد الذي سبق من الله ، وانكسر الخوارج لذلك واستعظموه وأطلقوا للناس الخروج ، فخرج في ذلك الوقت خلق كثير .

فلما اتصل ذلك بطيطوس استعظمه واشتد خوفه من الله تعالى ، فرفع يده إلى السماء وقال : اللهم ! أنت العالم بالخفيات والمطلع على السرائر والنيات ، أنت تعلم أني لم أجيء إلى هذه المدينة لأسيء إلى أهلها ولقد ساءني أمر هذه المرأة فلا تؤاخذني به ، وطالب هؤلاء الخوارج وانتقم منهم ، وظفرني بهم ولا تمهلهم .

وأمر بالإحسان إلى من خرج إليه من اليهود ، فكان كثير منهم لا يقدرون على فتح أفواههم ، وكثير منهم مات لما أكل الطعام ، وكان الصبيان وغيرهم يختطفون الخبز إذا نظروه وينهشونه بلا عقل ، فإذا أكلوا ماتوا ، فقال طيطوس ليوسف بن كريون : ما الحيلة في هؤلاء

حتى لا يموتوا ؟ فقال : ينبغي أن يسقوا اللبن والحساء الرقيق أياماً حتى تلين أمعاؤهم ، ثم الطعام بعد ذلك ، ففعل ذلك فسلم منهم جماعة .

وتقدم الروم إلى السور الثالث ليهدموه فخرج إليهم يوحانان وشمعون وأصحابهما مع ما هم فيه من الضر فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم جماعة ، فأمر طيطوس بدفع الكبش على السور ، فدفع عليه في الليل فهدم ، وكبر الروم تكبيراً عظيماً وكبر اليهود من داخل المدينة ، فلم يجسر الروم على دخول المدينة ، فلما أصبحوا إذا سور جديد بإزاء الهدم قد بناه اليهود تلك الليلة وهم قيام عليه ، فاستعظم الروم ذلك وأيسوا من الفتح ، فقال طيطوس : هذا رطب لم يستحكم ، وإذا ضربه الكبش أسرع الانهدام ، فطلع الروم على السور الذي هدموه ، ووقف اليهود على الجديد واشتد القتال ، فهزمهم اليهود بعد أن قتلوا كثيراً منهم فضجر الروم وعزموا على الرحيل ، فجمع طيطوس أصحابه وقال : اعلموا أن كل من يعمل عملاً فإنما قصده إلى الغاية : ولذلك يصبر على التعب ليبلغ ما أراد ، وربما كان آخر العمل أشق من أوله ، فإن تركه ذهب تعبه ضائعاً وبقي عمله ناقصاً لا ينتفع به .

وضرب لهم أمثالاً في ذلك ثم قال : وأنتم قد صبرتم على محاربة هؤلاء القوم واستظهرتم عليهم إلى هذه الغاية حتى هلك رؤساؤهم وجبابرتهم ، وخربت حصونهم ونفوا بالجوع والسيف ، ولم يبق منهم غير شرذمة يسيرة كالموتى ، فأن انصرفتم كنتم قد ضيعتم تعبكم وأنتم على أنفسكم وأهنتموها عند كل من يسمع خبركم ، ولو كنتم انصرفتم عنهم قبل هذا كان أحسن بكم ، وأما الآن فلا عذر لكم في عجزكم عن محاربة قوم قد بلغ بهم الضر والجوع هذا المبلغ ، فإن رجعتم عنهم طمع فيكم كل أحد ، واجترأ عليكم كل من يخافكم ، ولم لا تتأسون باليهود في الصبر والشجاعة مع فناء رجالهم ، واجتماع المكاره عليهم ، وانقطاع رجائهم ، فصبرهم إما طمعاً في الظفر ، أو أنفة من الغلبة ، أو رغبة في بقاء الذكر ، فأنتم أحق بذلك منهم لتدفعوا العار عن أنفسكم على أنكم قد صبرتم في أيام تيروس قيصر على محاربة هؤلاء القوم ، وعملتم على أن لا ترجعوا عنهم إلا بعد الظفر ، فلما ملك أسفسيانوس الذي هو أشجع من تيروس وأعظم بأساً ، أردتم أن ترجعوا عنهم قبل أن تظفروا ، فأيّ عذر لكم.

فلما سمعوا هذا ثبتوا .

ثم مضى جماعة منهم ليلاً ، فصعدوا من تلك الثلمة ودخلوا إلى المدينة فكبروا ، فانتبه اليهود وكانوا قد ناموا لطول تعبهم وضرهم ، ولزم كل منهم مكانه ، ومضى طيطوس إلى أصحابه فوقف عند السور إلى أن أصبحوا ، فانهزم اليهود إلى القدس وتبعهم الروم فاقتتلوا في الصحن البراني ، ولم يكن إلا السيوف لضيق الموضع ، فكان بينهما قتال لم يكن فيما مضى لاستقبال الجميع ، لأنهم حصلوا في موضع لا مطمع فيه بالسلامة إلا بالصدق في القتال ، وكان الكل رجالة ، فعظمت الحرب بينهم وعلت أصواتهم وضجيجهم حتى سمعت من البعد ، وكثرت القتلى في الفريقين واستظهر اليهود آخراً وأخرجوا الروم قرب ربع النهار ، وأمر طيطوس بهدم سور مضوع متصل بالقدس يسمى أنطونيا ليتسع المجال لأصحابه ، فلما هدم ذلك انثلم سور القدس وسهلت الطريق إليه ، فبادر اليهود وبنوه وأدخلوه في جملة القدس فصار مربعاً ، فكان ذلك تصديق ما رأوه قبل ذلك مكتوباً على الحجر القديم المقدم ذكره " إذا كمل بنيان القدس فصار مربعاً فعند ذلك يخرب بيت المقدس " وكان اليهود قد نسوا ذلك ، فلما رأوه تذكروا وعلموا أن المدة قد تمت وأنه سيخرب .

وكان يوم هذه الحرب العظيمة عيد العنصرة ، فقرب طيطوس من القدس وكلمهم ورغبهم في المسالمة ليتمكنوا من العبادة في هذا العيد ، ووعدهم بالإحسان إليهم وقال : قد علمتم

أن ملككم بجنيا لما حاصره بختنصر ملك بابل وخرج إليه مستأمناً ، انتفع بذلك ونفع قومه وبلده فسلموا ، وأن صدقيا الملك لما لج في محاربة بختنصر ولم يسالمه كما أمرته الأنبياء ، أهلك المدينة والأمة وأساء إلى نفسه وإليهم ، فسبيلكم أن تعتبروا بهما وتهتدوا بأصوبهما فعلاً وأحمدهما عاقبة ، فاقبلوا نصيحتي ، واكتفوا بما جرى ، ووعدهم أن يعفو عن جميع ما تقدم ويحسن إليهم - وأطال الكلام .

وكان يوسف بن كريون يترحم لهم ويبكي بكاء شديداً ، ثم قال لهم يوسف : إني لست أعجب من خراب هذه المدينة ، لعلمي بأن مدتها قد انتهت ، ولكني أتعجب منكم وأنتم تقرؤون كتاب دانيال النبي عليه السلام وتعلمون ما ذكره من بطلان القرابين وعدم الكاهن المسيح ، وأنتم مع ذلك لا تنكسرون ولا تخضعون لله ، ولا تستسلمون لمن قد سلطه الله عليكم .

فلم يقبل الخوارج ولا رجعوا غير أن جماعة من الكهنة والرؤساء تم لهم الخروج إلى الروم فآمنهم وأحسن إليهم ، فمنع الخوارج من بقي ، وضبطوا الطرق ، فبكى اليهود وشكوا منع الخوارج لهم من الخروج ، فأراد الخوارج قتلهم فبادر الروم ليخلصوهم فهجموا إلى القدس فقاتلوهم قتالاً شديداً فانهزم الروم ، وأدتهم الهزيمة إلى داخل القدس الأعظم قدس الأقداس ، فقتلهم اليهود فيه ، فاختار طيطوس من عسكره ثلاثين ألفاً وأمرهم أن يدخلوا إلى صحن القدس لمحاربتهم ، وأراد هو الدخول معهم فمنعه أصحابه وقالوا : قف على موضع عال لتقوى قلوب أصحابك ، ويبذلوا المجهود في القتال ، ولا تخاطر بنفسك وبنا ، واتفق رأيهم على بيات ، فعلم بذلك اليهود فلم يناموا تلك الليلة ، فلما أصبحوا افترق اليهود على أبواب صحن القدس وأقاموا على مقاتلة الروم سبعة أيام ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة وأبعدوهم عن القدس ، فأمر طيطوس أصحابه بالكف عنهم ليفنيهم الجوع ، وكان بقرب القدس قصر عظيم من بناء سليمان بن داود عليهما السلام ، ثم زاد فيه ملوك البيت الثاني طبقة عالية من الخشب الحسن ووزروا جميع الجدر بالخشب ، فطلوا جميع ما فيه من الخشب بالنفط والكبريت والزفت ، ثم أخفوا فيه رجلاً منهم ليشعل النار في مواضع من ذلك الخشب إذا دخله الروم ، وكان فيه باب خفي يخرج إلى موضع آخر لا يفطن له إلا من يعرفه ، ثم مضوا إلى عسكر الروم ليلاً وهم في القدس فناوشوهم ، فاجتمع عليهم من الروم خلق كثير فقاتلوهم ساعة ، ثم انهزموا فدخلوا هذا القصر ، فدخل الروم وراءهم فلم

يجدوا أحداً منهم ، فصعدوا إلى الطبقة العالية ، فخرج اليهودي الذي كان قد اختفى ، فاختلط بهم وأطلق النار في تلك المواضع ، فاضطرمت النار في جميع جوانبه فبادر الروم إلى الباب فوجدوا اليهود قد سدوه بسيوفهم فهلكوا ، وكان فيهم جماعة من وجوه الروم ، فخاف الروم من اليهود ولم يأمنوا أن يحتالوا عليهم بأمر آخر ، فخرجوا من

القدس والمدينة ورجعوا إلى معسكرهم ، فأمر طيطوس بضبط الطرق والتضييق عليهم ليهلكهم الجوع فمات أكثرهم ، وخرج كثير من أصحاب الخوارج إلى طيطوس فقتلهم ، ثم دخلت الروم إلى بيت الله فلم يجدوا من يمانعهم ، وكان طيطوس قد أكد على أصحابه في أن لا يحرقوا القدس فقال له رؤساء أصحابه : إنك إن لم تحرقه لم تتمكن من اليهود ، لأنهم لا يزالون يقاتلون ما كان باقياً ، فإذا أحرق ذهب عزهم فانكسرت قلوبهم فلم يبق لهم ما يقاتلون عنه ، فقال : لا تحرقوه إلا أن آمركم ، وكان في طريقه باب مغشى بصفائح الفضة وهو مغلق ، فأحرقه بعض الروم ليأخذوا الفضة ، فلما احترق وجدوا الطريق إلى القدس الأجل ، فدخلوه وحملوا أصنامهم فنصبوها فيه ، فخرج قوم ممن بقي من اليهود في الليل إلى أولئك الذين في القدس فقتلوهم ، فلما بلغ ذلك طيطوس جاء إلى القدس فقتل أكثر من

وجد فيه من اليهود ، وهرب من بقي منهم إلى جبل صهيون ، فلما كان الغد أحرق الروم أبواب قدس الأقداس ، وكانت مغشاة بالذهب ، فلما سقطت كبروا وصرخوا صراخاً عظيماً ، فجاء طيطوس مسرعاً ليمنع من إحراقه فلم يتم له ذلك ، ويقال : إنه صاح حتى انقطع صوته ، فلما علم أن الأمر قد خرج عن يده دخل لينظره قبل أن يحترق ، فلما رأى حسنه وبهجته تحير وتعجب وقال : حقاً إن هذا البيت الجليل ينبغي أن يكون بيت الله إله السماء ومسكن جلاله ونوره ، وإنه ليحق لليهود أن يحاربوا عنه ويستقلوا عليه ، ولقد أصابت الأمم وأحسنت فيما كانت تفعله من إعظام هذا البيت وإكرامه وحمل الهدايا إليه ، وإنه لأعظم من هيكل رومية ومن جميع هياكل الأمم التي شاهدناها وبلغنا خبرها ، وما أردت إحراقه ولكن هم فعلوا ذلك بشرهم ولجاجهم ، وكان من بقي من الكهنة لما رأوا الحريق حاربوا الروم عنه ، فلما علموا أنهم عاجزون عن دفعهم قالوا : ما نريد أن نبقى بعده فطرحوا أنفسهم في النار فهلكوا ، ومضى عند ذلك من بقي من اليهود إلى جميع ما في المدينة

من القصور الجليلة والمنازل الحسنة فأحرقوها بجميع ما فيها من الذخائر والآلات ، وكان حريق القدس في اليوم العاشر من الشهر الخامس وهو آب ، وذلك نظير اليوم الذي أحرق فيه

الكسدانيون البيت الأول .

ولما كان في غد هذا اليوم ظهر من اليهود رجل متنبىء فقال لهم : اعلموا أن هذا القدس سيعود عن قليل مبنياً كما كان من غير أن يبنيه الآدميون ، بل بقدرة الله تعالى ، فداوموا على ما أنتم عليه من محاربة الروم والامتناع من طاعتهم ، فاجتمع عليه جماعة فقاتلوا ، فظفر بهم الروم فقتلوهم بأسرهم ، وقتلوا كثيراً من عوام اليهود وضعفائهم ممن كانوا قد رحموه قبل ذلك ، وراسل يوحانان وشمعون طيطوس يطلبان منه الأمان فقال : قد كنت طلبت إليكما ذلك قبل ، فأما الآن فأنتما في قبضتي وليس لي عذر عند الله ولا عند أحد من الناس في استبقائكما .

(173/450)

فانحدر ليلاً إلى القدس بأصحابهما فقتلوا قائدين من الروم فأمر طيطوس بقتل من بقي في المدينة من اليهود ممن كان قدر رحمه ، فلما رأى أصحاب شمعون ذلك خافوا على أنفسهم ، فأرسلوا إلى طيطوس أن يؤمنهم ، فقتل شمعون رؤساءهم وهرب الباقون إلى طيطوس فآمنهم وكف أصحابه عمن بقي من اليهود في المدينة ؛ ثم هرب شمعون ويوحانان من جبل صهيون إلى موضع استترا فيه ، فتم استيلاء طيطوس على جميع البلد وهدم سور جبل

صهيون ، ولما طال عليهما الاستتار واشتد بهما الجوع خرجا إلى طيطوس فقتلهما ، ثم رحل متوجهاً إلى رومية ومعه السبي والغنائم ، وكان كلما نزل منزلاً يقدم جماعة ممن ظفر به من الخوارج إلى السباع التي معه حتى أفناهم ، وكان العازر لما رأى إفساد شمعون وقتله من لم يكن له ذنب من اليهود قد علم أن لا مخلص لهم من البلاء ، فخرج عنه قبل استيلاء الروم على البلد عنها وأقام في بعض المواضع ، فلما رحل طيطوس مضى إلى قرية مصيرا فعمر حصنها ، فسمع به طيطوس وهو بأنطاكية فرد إليه قائداً من قواده فحاصره ، فلما عاين الهلكة دعا أصحابه إلى قتل من خلفهم من العيال والاستقتال ليموتوا أعزة ، فأجابوه إلى ذلك وقاتلوا حتى قتلوا كلهم - فسبحان القوي الشديد ، الفعال لما يريد .

ولما انقضى ذلك ، كان كأنه قيل : أما لهذه المرة من كرة كالأولى ؟ فأطمعهم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ عسى ربكم ﴾ أي الذي عودكم بإحسانه ﴿ أن يرحمكم ﴾ فيتوب عليكم ويكرمكم ؛ ثم أفزعهم بقوله تعالى : ﴿ وإن عدتم ﴾ أي بما نعلم من دبركم إلى المعصية مرة ثالثة فما فوقها ﴿ عدنا ﴾ أي بما تعلمون لنا من العظمة ، إلى عذابكم في الدنيا ، وقد عادوا غير مرة بما أشار إليه الكلام ، وإن كان في سياق الشرط ، ليظهر الفرق بين كلام العالم

وغيره ، وأشار إلى ذلك قوله في التوراة عقب ما مضى : وإذا تمت عليك هذه الأقوال كلها والدعاء واللعن الذي تلوت عليك فتب في قلبك وأنت متفرق بين الشعوب التي يفرقك الله فيها ، واقبل إلى ربك واسمع قوله ، واعمل بجميع ما آمرك به اليوم أنت وبنوك من كل قلبك ، فيرد الرب سبيك ويرحمك ، ويعود فيجمعك من جميع الشعوب التي فرقك فيها ، وإن كان المبددون يا آل إسرائيل في أقطار الأرض يجمعك الله ربك من هناك ويقربك من ثم ويردك إلى الأرض التي ورثها أبوكم وترثون ، وينعم عليكم وتكثرون أفضل من آبائكم ، ويختن الله الرب قلوبكم وقلوب نسلكم إلى الأبد ، وتتقون الله ربكم من كل قلوبكم وأنفسكم لما يريحكم وينعمكم وينزل الله كل هذا اللعن بأعدائكم وشنأتكم الذي آذوكم .

﴿ وجعلنا ﴾ أي بعد ذلك بعظمتنا ﴿ جهنم ﴾ التي تلقى داخلها بالتجهم والكراهة ﴿ للكافرين ﴾ وهذا الوصف الظاهر موضع ضمير لبيان تعليق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء في ذلك هم وغيرهم ، وفيه إشارة إلى أنهم يعودون إلى الإفساد ، وإلى أن منهم من يؤمن ومنهم من يكفر ﴿ حصيراً ﴾ أي محبساً يحصرهم غاية الحصر ، وعن الحسن أن الحصير هو الذي يفرش ويبسط ، فالمعنى أنه يجعلها مهادهم . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 348 . 364 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم لما عصوا سلط عليهم أقواماً قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ، ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة ، فعند ذلك ظهر أنهم إن أطاعوا فقد أحسنوا إلى أنفسهم ، وإن أصروا على المعصية فقد أساؤا إلى أنفسهم ، وقد تقرر في العقول أن الإحسان إلى النفس حسن مطلوب ، وأن الإساءة إليها قبيحة ، فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ .

المسألة الثانية :

قال الواحدي : لا بد ههنا من إضمار ، والتقدير : وقلنا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، والمعنى : إن أحسنتم بفعل الطاعات فقد أحسنتم إلى أنفسكم من حيث إن ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات ، وإن أسأتم بفعل المحرمات أسأتم إلى أنفسكم من حيث إن بشؤم تلك المعاصي يفتح الله عليكم أبواب العقوبات .

المسألة الثالثة :

قال النحويون : إنما قال : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ للتقابل والمعنى : فإليها أو فعليها مع أن حروف الإضافة يقوم بعضها مقام بعض ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 4 ، 5] أي إليها .

المسألة الرابعة :

قال أهل الإشارات هذه الآية تدل على أن رحمة الله تعالى غالبة على غضبه بدليل أنه لما حكى عنهم الإحسان أعاده مرتين فقال : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ ولما حكى عنهم الإساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ولولا أن جانب الرحمة غالب وإلا لما كان كذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الأخرة ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال المفسرون : معناه وعد المرة الأخيرة ، وهذه المرة الأخيرة هي إقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام .

قال الواحدي : فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه إليه فسبى بني إسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس أقول : التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه الصلاة والسلام ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة ، ومعلوم أن الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له : قسطنطين الملك - والله أعلم بأحوالهم - ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الأقوام .

المسألة الثانية :

جواب قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ ﴾ محذوف تقديره : فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوؤا وجوهكم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم عليه من قوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴾ [الإسراء : 5] ثم قال : ﴿ ليسوؤا وُجُوهَكُمْ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

يقال : ساءه يسوءه أي أحزنه ، وإنما عزا الإساءة إلى الوجوه ، لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والإشراق والإسفار في الوجه .

وإن حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة والسواد في الوجه ، فلهذا السبب عزيت الإساءة إلى الوجوه في هذه الآية ، ونظير هذا المعنى كثير في القرآن .

المسألة الثانية :

قرأ العامة : ليسوؤا على صيغة المغايبة ، قال الواحدي : وهي موافقة للمعنى وللفظ .

أما المعنى فهو أن المبعوثين هم الذين يسوؤنهم في الحقيقة ، لأنهم هم الذين يقتلون ويأسرون وأما اللفظ فلأنه يوافق قوله : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا المسجد ﴾ وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة : ﴿ ليسوء ﴾ على إسناد الفعل إلى الواحد ، وذلك الواحد يحتمل أن يكون أحد أشياء ثلاثة : إما اسم الله سبحانه لأن الذي تقدم هو قوله : ﴿ ثم رددنا . . .

(177/450)

وأمددناكم ﴾ [الإسراء : 6] ، وكل ذلك ضمير عائد إلى الله تعالى ، وإما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله : ﴿ بَعَثْنَا ﴾ والفعل المتقدم يدل على المصدر كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ بِمَا ءاتاهم الله مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ [آل عمران : 180] وقال الزجاج : ليسوء الوعد وجوهكم ، وقرأ الكسائي بالنون وهذا على إسناد الفعل إلى الله تعالى كقوله : ﴿ بعثنا عليكم ﴾ ﴿ أمددناكم ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِيُتَبّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ يقال : تبر الشيء تبراً إذا هلك وتبره أهلكه .

قال الزجاج : كل شيء جعلته مكسراً ومفتتاً فقد تبرته ، ومنه قيل : تبر الزجاج وتبر

الذهب لمكسره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 139] وقوله : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إلا تبارا ً ﴾ [نوح : 28] وقوله : ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ يحتمل ما غلبوا عليه وظفروا به ، ويحتمل ويتبروا ما داموا غالبين ، أي ما دام سلطانهم جارياً على بني إسرائيل ، وقوله : ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ ذكر للمصدر على معنى تحقيق الخبر وإزالة الشك في صدقه كقوله : ﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] أي حقاً ، والمعنى : وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ والمعنى : لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل .

ثم قال : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ يعني : أن بعثنا عليكم من بعثنا ، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي ، ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم ، فإن عدتم مرة أخرى إلى المعصية عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى .

قال القفال : إنما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الأعراف خبراً عن بني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب ﴾ [الأعراف : 167] ثم قال : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أي وإنهم قد عادوا إلى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والإنجيل ، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب .

فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ، ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين حَصِيرًا ﴾ والحصير فعيل فيحتمل أن يكون بمعنى الفاعل ، أي وجعلنا جهنم حاصرة لهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول ، أي جعلناها موضعاً محصوراً لهم ، والمعنى أن عذاب الدنيا وإن كان شديداً قوياً إلا أنه قد يتفلت بعض الناس عنه ، والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص عنه ، إما بالموت وإما بطريق آخر ، وأما عذاب الآخرة فإنه يكون حاصراً للإنسان محيطاً به لا رجاء في الخلاص عنه ، فهؤلاء الأقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطاً بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 126. 128 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾

لأن الجزاء بالثواب يعود إليها ، فصار ذلك إحساناً لها .

﴿ وإن أسأتُم فلها ﴾ أي فإليها ترجع الإساءة لما يتوجه إليها من العقاب ، فرغَّب في الإحسان وحذر من الإساءة .

ثم قال تعالى : ﴿ فإذا جاءَ وعْدُ الآخرة ليسوءُوا وجُوهكم ﴾ يعني وعد المقابلة على فسادهم في المرة الثانية . وفيمن جاءهم فيها قولان : أحدهما : بختنصّر ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه انطياخوس الرومي ملك أرض نينوى ، وهو قول مقاتل ، وقيل إنه قتل منهم مائة ألف وثمانين ألفاً ، وحرق التوراة وأخرب بيت المقدس ، ولم يزل على خرابه حتى بناه المسلمون .

﴿ وليدخلوا المسجد كما دَخلوه أوّل مرّة ﴾ يعني بيت المقدس .

﴿ وليتبروا ما علوا تتبيراً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه الهلاك والدمار .

الثاني : أنه الهدم والإخراب ، قاله قطرب ، ومنه قول لبيد :

وما النّاسُ إلا عَامِلان فَعَامِلٌ . . . يُتَبّرُ مَا يَبْنِي وَآخَرُ رَافِعُ

قوله عز وجل : ﴿ عسى ربُّكم أن يرحمكم ﴾ يعني مما حل بكم من الانتقام منكم .

﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ فيه تأويلان : أحدهما : إن عدتم إلى الإساءة عدنا إلى الانتقام ، فعادوا . قال ابن عباس وقتادة : فبعث الله عليهم المؤمنين يذلونهم بالجزية والمحاربة إلى يوم القيامة .

الثاني : إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى القبول ، قاله بعض الصالحين .

﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني فراشاً ومهاداً ، قاله الحسن : مأخوذ من الحصير المفترش .

الثاني : حبساً يحبسون فيه ، قاله قتادة ، مأخوذ من الحصر وهو الحبس . والعرب تسمي الملك حصيراً لأنه بالحجاب محصور ، قال لبيد :

ومقامَةٍ غُلْبِ الرِّقَابِ كأنَّهُمْ . . . جِنٌّ لَدَى بَابِ الحَصِيرِ قِيَامُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(180/450)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ إن أحسنتم ﴾ .

والمعنى أنكم بعملكم تؤخذون لا يكون ذلك ظلماً ولا تسرعاً إليكم ، و﴿ وعد الآخرة ﴾ معناه من المرتين المذكورتين ، وقوله ﴿ ليسوءوا ﴾ اللام لام أمر ، وقيل المعنى بعثناهم ﴿ ليسوءوا ﴾ فهي لام كي كلها ، والضمير للعباد " أولي البأس الشديد " ، وقرأ الجمهور : " ليسوءوا " بالياء جمع همزة وبين واوين ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر " ليسوءَ " بالياء وهمزة مفتوحة على الإفراد ، وقرأ الكسائي ، وهي مروية عن علي بن أبي طالب " لنسوء " بنون العظمة ، وقرأ أبي بن كعب " لنسوءن " بنون خفيفة ، وهي لام الأمر ، وقرأ علي بن أبي طالب " ليسوءن " ، وهي لام القسم والفاعل الله عز وجل ، وفي مصحف أبي بن كعب " لِيُسيء " بياء مضمومة بغير واو ، وفي مصحف أنس " ليسوء وجهكم " على الإفراد ، وخص ذكر " الوجوه " لأنها المواضيع الدالة على ما بالإنسان من خير أو شر ، و﴿ المسجد ﴾ مسجد بيت المقدس ، و" تبر " معناه أفسد بقسم وركوب رأس ، وقوله ﴿ ما علوا ﴾ أي ما غلبوا عليه من الأقطار وملكوه من البلاد ، وقيل ﴿ ما ﴾ ظرفية والمعنى مدة علوهم وغلبتهم على البلاد ، و" تبر " معناه رد الشيء فتاتاً كتبر الذهب والحديد ، ونحوه وهو مفتتة.

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8) ﴾

يقول الله عز وجل لبقية بني إسرائيل ﴿ عسى ربكم ﴾ إن أطعتم في أنفسكم واستقمتم ﴿ أن يرحمكم ﴾ ، و﴿ عسى ﴾ ترجّ في حقهم وهذه العدة ليست برجوع دولة وإنما هي بأن يرحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة اتباعهم لعيسى ومحمد فلم يفعلوا وعادوا إلى الكفر والمعصية ، فعاد عقاب الله فضرب عليهم الذل وقتلهم وأذلهم بيد كل أمة ، وهنا قال ابن عباس سلط عليهم ثلاثة ملوك ، و" الحصير " فعيل من الحصر فهو بمعنى السجن أي يحصرهم ، وبنحو هذا فسر مجاهد ، وقتادة وغيرهما ، ويقال " الحصير " أيضاً من الحصر للملك ومنه قول لبيد : [الكامل]

ومقامة غلب الرقاب كأنهم . . . جن لدى باب الحصير قيام

ويقال لجنى الإنسان الحصيران لأنهما يحصرانه ومنه قول الطرماح : [الطويل]

قليلاً تتلى حاجة ثم غولبت . . . على كل معروش الحصيرين بادن

وقال الحسن البصري في الآية : أراد ما يفترش ويبسط كالحصير المعروف عن الناس .

قال القاضي أبو محمد : وذلك الحصير أيضاً هو مأخوذ ، من الحصر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إِن أحسنتم ﴾

أي : وقلنا لكم إِن أحسنتم فأطعتُم الله ﴿ أحسنتم لأنفسكم ﴾ أي : عاقبةُ الطاعة لكم ﴿ وإِن أسأتم ﴾ بالفساد والمعاصي ﴿ فلها ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه بمعنى : فإليها .

والثاني : فعليها .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ جواب "فاذا" محذوف ، تقديرُه : فإذا جاء وعد عقوبة المرة الآخرة من إِفسادكم ، بعثناهم ليسوؤوا وجوهكم ، وهذا الفساد الثاني ، هو قتلهم يحيى بن زكريا ، وقصدهم قتل "عيسى" فرُفع ، وسلَّط الله عليهم ملوك فارس والروم فقتلوهم وسبَوْهم ، فذلك قوله : ﴿ ليسوؤوا وجوهكم ﴾ .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : "ليسوؤوا" بالياء على الجميع والهمز بين الواوين ، والإِشارة إِلى المبعوثين .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : "ليسوءَ وجوهكم" على التوحيد ؛ قال أبو علي : فيه وجهان .

أحدهما : ليسوءَ اللهُ عز وجل .

والثاني : ليسوء البَعْثُ .

وقرأ الكسائي : "لنسوءَ" بالنون ، وذلك راجع إلى الله تعالى .

وفيمن بَعث عليهم في المرة الثانية قولان .

أحدهما : بختنصر ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وكثير من الرواة يأبى هذا القول ، ويقولون : كان بين تخريب "بختنصر" بيت المقدس ، وبين مولد يحيى بن زكريا زمان طويل .

والثاني : انطياخوس الرومي ، قاله مقاتل .

ومعنى ﴿ ليسوؤوا وجوهكم ﴾ أي : ليُدخِلوا عليكم الحزن بما يفعلون من قتلكم وسَبْيِكُم ؛ وخصت المساءاة بالوجوه ، والمراد : أصحاب الوجوه ، لما يبدو عليها من أثر الحزن والكآبة .

قوله تعالى : ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ يعني : بيت المقدس ﴿ كما دخلوه ﴾ في المرة الأولى ﴿ وليُتَبِّروا ﴾ أي : ليدمِّروا ويخرِّبوا .

قال الزجاج : يقال لكل شيء ينكسر من الزجاج والحديد والذهب : تِبر .

ومعنى ﴿ ما علَوا ﴾ أي : ليدمِّروا في حال علوِّهم عليكم .

قوله تعالى : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ هذا مما وُعِدوا به في التوراة .

و"عسى" من الله واجبة، فرحمهم [الله] بعد انتقامه منهم، وعمر بلادهم، وأعاد نعمهم بعد سبعين سنة.

﴿ وإِن عدتم ﴾ إِلى معصيتنا ﴿ عُدنا ﴾ إِلى عقوبتكم.

قال المفسرون: ثم إِنهم عادوا إِلى المعصية، فبعث الله عليهم ملوكاً من ملوك فارس والروم.

قال قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فهم في عذاب إِلى يوم القيامة، فيعطُون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

قوله تعالى: ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ فيه قولان.

أحدهما: سجناً، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة.

وقال مجاهد: يحصرون فيها.

وقال أبو عبيدة، وابن قتيبة: محبساً، وقال الزجاج: "حصيراً": حبساً، أخذ من قولك: حصرت الرجل، إِذا حبسته، فهو محصور، وهذا حصيره، أي: محبسه، والحصير: المنسوج، سمي حصيراً، لأنه حصرت طاقاته بعضها مع بعض، ويقال للجَنْب: حصير، لأن بعض الأضلاع محصور مع بعض.

وقال ابن الأنباري: حصيراً: بمعنى: حاصرة، فصرف من حاصرة إِلى حصير، كما

صرف "مؤلم" إلى أليم.

والثاني: فراشاً ومهاداً، قاله الحسن.

قال أبو عبيدة: ويجوز أن تكون جهنم لهم مهاداً بمنزلة الحصير، والحصير: البساط الصغير. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(184/450)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾

أي نفع إحسانكم عائد عليكم.

﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعليها؛ نحو سلام لك، أي سلام عليك.

قال:

فخَرَّ صريعاً لليدين وللفمِ . . .

أي على اليدين وعلى الفم.

وقال الطبري: اللام بمعنى إلى، يعني وإن أسأتم فإليها، أي فإليها ترجع الإساءة؛ كقوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة: 5] أي إليها.

وقيل: فلها الجزاء والعقاب.

وقال الحسين بن الفضل: فلها ربٌّ يغفر الإساءة.

ثم يحتمل أن يكون هذا خطاباً لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي أسأتم فحلّ بكم القتل والسَّبْيُ والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُلُوّ وانتظام الحال.

ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله.

أو يكون خطاباً لمشركي قريش على هذا الوجه.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله مَلِكٌ من بني إسرائيل يقال له لاخت؛ قاله القُتَبِيّ.

وقال الطبري: اسمه هيردوس، ذكره في التاريخ؛ حمله على قتله امرأة اسمها أزبيل.

وقال السدّي: كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملك أن يتزوج بنت امرأة له فنهاه عنها وقال: إنها لا تحل لك؛ فحقدت أمّها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثياباً حمراء رقاقاً وطيّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على

شرابه ، وأمرتها أن تتعرض له ، وإن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله ؛ فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْت من ذهب ؛ ففعلت ذلك حتى أتي برأس يحيى بن زكريا والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحلّ لك ؛ لا تحلّ لك ؛ فلما أصبح إذا دمه يَغْلي ، فألقى عليه التراب فغَلَى فوقه ، فلم يزل يُلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يَغْلِي ؛ ذكره الثعلبي وغيره .

وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن عليّ قال : كان ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وابنته فورِث مُلْكَه أخوه ، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه ، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك ، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء ، فقال له : لا تتزوجها فإنها بَغِيّ ؛ فَعُرِّفت المرأةُ أنه قد ذكرها وصرفه عنها ، فقالت : من أين هذا ! حتى بلغها أنه من قِبَل يحيى ، فقالت : ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه ، فعمَدت إلى ابنتها وصنّعتها ، ثم قالت : اذهبي إلى عمك عند الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره ، ويقول سليني ما شئت ، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتك ، فإذا قال لك ذلك فقولي : لا أسأل إلا رأس يحيى .

قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رؤوس الملأ ثم لم يُمْض له نُزِع من ملكه ؛ ففعلت ذلك .

قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى ، وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه ، فاختار

ملكه فقتله .

قال : فساخت بأمّها الأرضُ .

(186/450)

قال ابن جُدْعان : فحدّثت بهذا الحديث ابنَ المسيّب فقال أفما أخبرك كيف كان قتل زكريا ؟ قلت لا ؛ قال : إن زكريا حيث قُتل ابنه انطلق هارباً منهم واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدْبة تكفّتها الرياح ، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها ، ونظروا بتلك الهُدْبة فدعوا بالمِنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقع في التاريخ الكبير للطبري فحدثني أبو السائب قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المِنْهال عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : بعث عيسى ابنُ مريم يحيى بنَ زكريا في اثني عشر من الحواريّين يعلّمون الناس ، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ ، قال : وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه . . .

وذكر الخبر بمعناه .

وعن ابن عباس قال : بُعث يحيى بنُ زكريا في اثني عشر من الحواريّين يعلمون الناس ، وكان

فيما يعلّمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكان لها كلَّ يوم حاجة يقضيها ، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة فقولي : حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا ؛ فقال : سليني سوى هذا ! فقالت : ما أسألك إلا هذا .

فلما أبت عليه دعا بطَسْت ودعا به فذبحه ، فندَرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تَغْلِي حتى بعث الله عليهم بختنصّر فألْقَى في نفسه أن يقتل على ذلك الدّم منهم حتى يسكن ذلك الدم ، فقتل عليه منهم سبعين ألفاً ، في رواية خمسة وسبعين ألفاً .

قال سعيد بن المسيّب : هي دِيَة كُل نبيّ .

وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً ، وإني قاتل با بن ابنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً .

وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا .

وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التي تلي المحراب مما يلي الشرق ، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيّر .

وعن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليّ ؛ وحمرتها بكاؤها .

وعن سفيان بن عُيَيْنة قال : أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دار همٍّ ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم ، ويوم يُبعث فيشهد مشهداً لم ير مثله ؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ .

كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة ؛ فقيل : بختنصر .

وقاله القشيري أبو نصر ، لم يذكر غيره .

قال السُّهَيْلِيّ : وهذا لا يصح ؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى ، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السلام بزمان طويل ، وقبل الإسكندر ؛ وبين الإسكندر وعيسى نحوٌ من ثلثمائة سنة ، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعيا ، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا ، فهو الذي قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها .

وقال الثعلبي : ومن روى أن بختنصّر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السِّيَرِ والأخبار ؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعْيَا وفي عهد إرْمِيَاء .

قالوا : ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصّر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك سبعين سنة ، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة ، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاثاً وستين سنة .

قلت : ذكر جميعه الطبري في التاريخ رحمه الله .

(188/450)

قال الثعلبي : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى وبعض الناس يقول : لما قتلوا زكريا بعث الله إليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له : خردوس ، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشأم ، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهي لئن اظهرني الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في

وسط عسكري ، وأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء تَغْلِي ، فسألهم فقالوا : دَمُ قربان قرّبناه فلم يتقبل منا منذ ثمانين سنة .

قال ما صَدَقتموني ، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤسائهم فلم يهدأ ، (فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذُبحوا على الدم فلم يهدأ) ، فأمر بسبعة آلاف من سَبْيِهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد ، فقال : يا بني إسرائيل ، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتله .

فلما رأوا الجَهد قالوا : إن هذا دم نبيّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة مِن سَخَط الله فقتلناه ، فهذا دمه ، كان اسمه يحيى بن زكريا ، ما عصى الله قطّ طرفة عين ولا همّ بمعصية .

فقال : الآن صدقتموني ، وخر ساجداً ثم قال : لمثل هذا يُنتقم منكم ، وأمر بغلق الأبواب وقال : أخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوس ، وخلا في بني إسرائيل وقال : يا نبيّ الله ، يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك ، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أبقي منهم أحداً .

فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل ، ورفع عنهم القتل وقال : رب ، إني آمنت بما آمن به بنو إسرائيل وصدّقت به ؛ فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس الأنبياء : إن هذا الرئيس مؤمن صدوق .

ثم قال : إن عدّو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره ، وإني لا أعصيه ، فأمرهم فحفروا خَنْدَقاً وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم ، ثم انصرف عنهم إلى بابل ، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل .

قلت : قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حُذيفة ، وقد كتبناه في (كتاب التذكرة) مقطعاً في أبوابٍ في أخبار المَهْدِيّ ، نذكر منها هنا ما يبيّن معنى الآية ويفّسرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان ، قال حذيفة : " قلت يا رسول الله ، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيم الخطر عظيم القدر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هو من أجَلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودُرّ وياقوت وزمرد" : وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سَخّر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن ، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد ، وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف .

قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختنصّر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة ، وهو قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسَبُوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفاً ومائة ألف عجَلَة حتى أودعوها أرض بابل ، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مائة عام ، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل ، وأن يستنقذ مَن في أيديهم من بني إسرائيل ؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس واستنقذ ذلك الحلي الذي كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة فقال لهم : يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسَّبْي والقتل ، وهو قوله : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلّط الله عليهم ملك الروم قَيْصر ، وهو قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة

﴿ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾

فغزاهم في البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلي جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفاً ومائة ألف عَجَلة حتى أودعه في كنيسة الذهب، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهديّ فيردّه إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يُرْسَى بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأوّلين والآخرين . . .

"

وذكر الحديث.

(191/450)

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ أي من المرتين؛ وجواب "إذا" محذوف، تقديره بعثناهم؛ دلّ عليه "بعثنا" الأوّل.

﴿ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي بالسَّبْي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ ف "ليسوءوا" متعلق بمحذوف؛ أي بعثنا عباداً ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم.

قيل: المراد بالوجوه السادة؛ أي ليُذِلّوهم.

وقرأ الكسائي "لنسوءَ" بنون وفتح الهمزة، فعل مُخبر عن نفسه معظّم، اعتباراً بقوله

"وقضينا، وبعثنا ورددنا".

ونحوه عن عليّ.

وتصديقها قراءة أبيٍّ "لنسوءنّ" بالنون وحرف التوكيد.

وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحمزة وابن عامر "ليسوءَ" بالياء على التوحيد وفتح الهمزة؛ ولها وجهان: أحدهما ليسوء الله وجوهكم.

والثاني ليسوء الوعدُ وجوهكم.

وقرأ الباقون "ليسوءوا" بالياء وضم الهمزة على الجمع؛ أي ليسوء العباد الذين هم أولو بأس شديد وجوهكم.

﴿ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ ﴾ أي ليدمّروا ويهلكوا.

وقال قُطْرُب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فعامل . . .

يُتَبِّر ما يَبْنِي وآخر رافع

﴿ مَا عَلَوْاْ ﴾ أي غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَتْبِيراً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾

وهذا مما أخبروا به في كتابهم.

و"عسى" وعد من الله أن يكشف عنهم.

و"عسى" من الله واجبة.

﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثّر عددهم وجعل منهم الملوك.

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم؛ فهم يُعطون الجزية بالصَّغار؛ وروي عن ابن عباس.

وهذا خلاف ما تقدم في الحديث وغيره.

وقال القُشَيْرِيّ: وقد حلّ العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرة على أيدي المسلمين.

وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم.

وعلى هذا يصح قول قتادة.

(192/450)

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ أي محْبساً وسِجْناً، من الحَصْر وهو الحبس.

قال الجوهري: يقال حصره يحصره حصراً ضيق عليه وأحاط به.

والحصير: الضيق البخيل.

والحصير: البارِيّة.

والحصير : الجنْب ، قال الأَصْمَعِيّ : هو ما بين العِرْق الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترِضاً فما فوقه إلى منقطع الجنب .

والحصير : المَلِك ؛ لأنه محجوب .

قال لبيد :

وقماقِمٍ غُلْبِ الرّقاب كأنهم . . .

جنّ لدى باب الحصير قيام

ويروى :

ومَقامةٍ غُلْب الرقاب . . .

على أن يكون "غلب" بدلاً من "مقامة" كأنه قال : ورُبَّ غُلْبِ الرقاب .

وروي عن أبي عبيدة :

لدى طرف الحصير قيام

أي عند طرف البساط للنعمان بن المنذر .

والحصِير : المَحْبِس ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ .

قال القُشَيْرِيّ : ويقال للذي يُفترش حصيرا ؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج .

وقال الحسن : أي فراشاً ومهاداً ؛ ذهب إلى الحصير الذي يفرش ، لأن العرب تسمي

البساط الصغير حصيراً .

قال الثعلبي : وهو وجه حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(193/450)

وقال أبو حيان :

﴿ إن أحسنتم ﴾

أي أطعتم الله كان ثواب الطاعة لأنفسكم ، ﴿ وإن أسأتم ﴾ بمعصيته كان عقاب الإساءة لأنفسكم لا يتعدّى الإحسان والإساءة إلى غيركم ، وجواب وإن أسأتم قوله : ﴿ فلها ﴾ على حذف مبتدأ محذوف ولها خبره تقديره فالإساءة لها .

قال الكرماني : جاء فلها باللام ازدواجاً انتهى .

يعني أنه قابل قوله لأنفسكم بقوله فلها .

وقال الطبري : اللام بمعنى إلى أي فإليها ترجع الإساءة .

وقيل اللام بمعنى على أي فعليها كما في قوله :

فخر صريعاً لليدين وللفم . . .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي المرة الآخرة في إفسادكم وعلوكم ، وجواب إذا محذوف

يدل عليه جواب إذا الأولى تقديره بعثناهم عليكم وإفسادهم في ذلك بقتل يحيى بن زكريا عليهما السلام .

وسبب قتله فيما روي عن ابن عباس وغيره : أن ملكاً أراد أن يتزوج من لا يجوز له نكاحها ، فنهاه يحيى بن زكريا وكان لتلك المرأة حاجة كل يوم عند الملك تقضيها ، فألقت أمها إليها أن تسأله عن ذبح يحيى بن زكريا بسبب ما كان منعه من تزويج ابنتها فسألته ذلك ، فدافعها فألحق عليه فدعا بطست فذبحه فندرت قطرة على الأرض فلم تزل تغلي حتى بعث الله عليهم بخت نصر وألقى في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ، فقتل عليه منهم سبعين ألفاً .

وقال السهيلي : لا يصح أن يكون المبعوث في المرة الآخرة بخت نصر لأن قتل يحيى بعد رفع عيسى ، وبخت نصر كان قبل عيسى بزمن طويل .

وقيل : المبعوث عليهم الإسكندر وبين الإسكندر وعيسى نحو ثلاثمائة سنة ، ولكنه إن أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعياء فكان بختنصر إذ ذاك حياً فهو الذي قتلهم وخرب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها .

وروي عن عبد الله بن الزبير أن الذي غزاهم آخراً ملك اسمه خردوس وتولى قتلهم على دم يحيى بن زكرياء قائد له فسكن الدم .

وقيل قتله ملك من ملوك بني إسرائيل يقال له لاحب .

وقال الربيع بن أنس : كان يحيى قد أعطي حسناً وجمالاً فراودته امرأة الملك عن نفسه فأبى ، فقالت لابنتها : سلي أباك رأس يحيى فأعطاها ما سألت .

وقرأ الجمهور ﴿ ليسوءوا ﴾ بلام كي وياء الغيبة وضمير الجمع الغائب العائد على المبعوثين .

وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر ليسوء بالياء وهمزة مفتوحة على الإفراد والفاعل المضمر عائد على الله تعالى أو على الوعد أو على البعث الدال عليه جملة الجزاء المحذوفة .

وقرأ عليّ بن أبي طالب وزيد بن عليّ والكسائي لنسوء بالنون التي للعظمة وفيها ضمير يعود على الله .

وقرأ أبيّ لنسوءن بلام الأمر والنون التي للعظمة ونون التوكيد الخفيفة آخراً .

وعن عليّ أيضاً لنسوءنّ وليسوءنّ بالنون والياء ونون التوكيد الشديدة وهي لام القسم ، ودخلت لام الأمر في قراءة أبيّ على المتكلم كقوله : ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ وجواب إذا هو الجملة الأمرية على تقدير الفاء .

وفي مصحف أبيّ ليسيء بياء مضمومة بغير واو .

وفي مصحف أنس ليسوء وجهكم على الإفراد ، والظاهر أنه أريد بالوجوه الحقيقة لأن آثار الأعراض النفسانية في القلب تظهر على الوجه ، ففي الفرح يظهر الإسفار والإشراق ، وفي الحزن يظهر الكلوح والغبرة ، ويحتمل أن يعبر عن الجملة بالوجه فإنهم ساؤهم بالقتل والنهب والسبي فحصلت الإساءة للذوات كلها أو عن ساداتهم وكبرائهم بالوجوه ، ومنه قولهم في الخطاب يا وجه العرب .

واللام في ﴿ وليدخلوا ﴾ لام كي معطوفاً على ما قبلها من لام كي ، ومن قرأ بلام الأمر أو بلام القسم جاز أن يكون وليدخلوا وما بعدها أمراً ، وجاز أن تكون لام كي أي وبعثناهم ليدخلوا .

و﴿ المسجد ﴾ مسجد بيت المقدس ومعنى كما دخلوه أول مرة أي بالسيف والقهر والغلبة والإذلال ، وهذا يبعد قول من ذهب إلى أن أولى المرتين لم يكن فيها قتل ولا قتال ولا نهب ، وتقدّم الكلام في أول مرة في سورة التوبة .

﴿ وليتبروا ﴾ يهلكوا .

وقال قطرب : يهدموا .

قال الشاعر :

فما الناس إلاّ عاملان فعامل . . .

يتبر ما يبني وآخر رافع

والظاهر أن ﴿ ما ﴾ مفعولة بيتبروا أي يهلكوا ما غلبوا عليه من الأقطار ، ويحتمل أن تكون ما ظرفية أي مدة استيلائهم عسى ربكم أن يرحمكم بعد المرة الثانية إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي ، وهذه الترجئة ليست لرجوع دولة وإنما هي من باب ترحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمداً عليهما السلام فلم يفعلوا .

﴿ وإن عدتم ﴾ إلى المعصية مرة ثالثة عدنا إلى العقوبة وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم .

وعن الحسن عادوا فبعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

وعن قتادة : ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحي من العرب فهم منه في عذاب إلى يوم القيامة انتهى .

ومعنى ﴿ عدنا ﴾ أي في الدنيا إلى العقوبة .

وقال تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ ثم ذكر ما أعدّ لهم في الآخرة وهو جعل جهنم لهم ﴿ حصيرا ﴾ والحصير السجن .

قال لبيد :

ومقامه غلب الرجال كأنهم . . .

جن لدى باب الحصير قيام

وقال الحسن : يعني فراشاً ، وعنه أيضاً هو مأخوذ من الحصر والذي يظهر أنها حاصرة لهم محيطة بهم من جميع جهاتهم ، فحصير معناه ذات حصر إذ لو كان للمبالغة لزمته التاء لجريانه على مؤنث كما تقول : رحيمة وعليمة ، ولكنه على معنى النسب كقوله السماء منفطر به أي ذات انفطار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(196/450)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ ﴾

أعمالكم سواءٌ كانت لازمةً لأنفسكم أو متعديةً إلى الغير ، أي عمِلتموها على الوجه اللائقِ ولا يُتصور ذلك إلا بعد أن تكون الأعمالُ حسنةً في أنفسها وإن فعلتم الأحيان ﴿ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ لأن ثوابَها لها ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ ﴾ أعمالَكم بأن عملتموها لا على الوجه اللائق ويلزمه السوءُ الذاتيّ أو فعلتم الإساءة ﴿ فَلَهَا ﴾ إذ عليها وبالها ، وعن علي كرم الله

وجهه : ما أحسنتُ إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الأخرة ﴾ حان وقت ما وُعد من عقوبة المرة الآخرة ﴿ لِيَسُوءوا وُجُوهَكُمْ ﴾ متعلقٌ بفعل حُذف لدلالة ما سبق عليه ، أي بعثناهم ليسوؤا ومعنى ليسوؤا وجوهكم ليجعلوا آثارَ المساءة والكآبةِ باديةً في وجوهكم كقوله تعالى : ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وقرىء ليَسوءَ على أن الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث ، ولنسوءَ بنون العظمةِ ، وفي قراءة علي رضي الله عنه : لَنَسُوأَنّ على أنه جوابُ إذا ، وقرىء لنَسوأنْ بالنون الخفيفة وليَسوأنّ واللام في قوله عز وجل : ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد ﴾ عطف على ليسوؤا متعلقٌ بما تعلق هو به ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي في أول مرةٍ ﴿ وَلِيُتَبّرُواْ ﴾ أي يهلكوا ﴿ مَا عَلَوْاْ ﴾ ما غلبوه واستولَوْا عليه أو مدةَ علوِّهم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ فظيعاً لا يوصف بأن سلط الله عز سلطانه عليهم الفرسَ فغزاهم ملكٌ بابلَ من ملوك الطوائف اسمُه جودرد ، وقيل : جردوس ، وقيل : دخل صاحبُ الجيش فذبح قرابينَهم فوجد فيه دماً يغلي فسألهم عنه ، فقالوا : دمُ قربانٍ لم يقبل منا ، فقال : لم تصْدُقوني ، فقتل على ذلك ألوفاً فلم يهدأ الدم ، ثم قال : إن لم تصْدُقوني ما تركت منكم أحد ، فقالوا : إنه دمُ يحيى بنِ زكريا عليهما الصلاة والسلام ، فقال : لمثل هذا ينتقم منكم ربُّكم ، ثم قال : يا يحيى قد علم ربي وربُّك ما أصاب قومَك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن

لا أُبقيَ منهم أحداً ، فهدأ .

﴿ عسى ربُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد المرة الآخرة إن تبتم توبةً أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصي ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ إلى ما كنتم فيه من الفساد مرةً أخرى ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الأكاسرةَ ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوة ونحوِ ذلك . وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام فهم يُعطون الجزيةَ عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثلُه ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين حَصِيرًا ﴾ أي محبِساً لا يستطيعون الخروجَ منها أبد الآبدين ، وقيل : بِساطاً كما يبسط الحصيرُ ، وإنما عُدل عن أن يقال : وجعلنا جهنمَّ لكم تسجيلاً على كفرهم بالعَود وذماً لهم بذلك وإشعاراً بعلة الحكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(198/450)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ ﴾

أعمالكم سواء كانت لازمة لأنفسكم أو متعدية للغير أي عملتموها على الوجه المستحسن اللائق أو فعلتم الإحسان ﴿ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي لنفعها بما يترتب على ذلك من الثواب ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ ﴾ أعمالكم لازمة كانت أو متعدية بأن عملتموها على غير الوجه اللائق أو فعلتم الإساءة ﴿ فَلَهَا ﴾ أي فالإساءة عليها لما يترتب على ذلك من العقاب فاللام بمعنى على كما في قوله :

فخر صريعاً لليدين وللفم . . .

وعبر بها لمشاكلة ما قبلها

وقال الطبري : هي بمعنى إلى على معنى فاساءتها راجعة إليها ، وقيل : إنها للاستحقاق كما في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 10] .

وفي "الكشاف" أنها للاختصاص .

وتعقب بأنه مخالف لما في الآثار من تعدي ضرر الإساءة إلى غير المذنب اللهم إلا أن يقال : إن ضرر هؤلاء القوم من بني إسرائيل لم يتعدهم ، وفيه أنه تكلف لا يحتاج إليه لأن الثواب والعقاب الأخرويين لا يتعديان وهما المراد هنا ، وقيل : اللام للنفع كالأولى لكن على سبيل التهكم ، وتعميم الإحسام ومقابله بحيث يشملان المتعدي واللازم الذي استظهره بعض المحققين وفسر الإحسان بفعل ما يستحسن له ولغيره والإساءة بضد ذلك وقال : إنه أنسب وأتم وذا قيل إن تكرير الإحسان في النظم الكريم دون الإساءة إشارة إلى أن جانب

الإحسان أغلب وأنه إذا فعل ينبغي تكراره بخلاف ضده ، وجاء عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلا الآية ، ووجه مناسبتها لما قبلها على ما قال القطب أنه لما عصوا سلط الله تعالى عليهم من قصدهم بالنهب والأسر ثم لما تابوا وأطاعوا حسنت حالهم فظهر إن إحسان الأعمال وإساءتها مختص بهم ، والآية تضمنت ذلك وفيها من الترغيب بالإحسان والترهيب من الإساءة ما لا يخفى فتأمل .

(199/450)

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ﴾ المرة ﴿ الآخرة ﴾ من مرتى إفسادكم ﴿ لِيَسُوءا ﴾ متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه وهو جواب إذا أي بعثناهم ليسوؤا ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي ليجعل العباد المبعوثون آثار المساءة والكآبة بادية في وجوهكم فإن الأعراض النفسانية تظهر فيها فيظهر بالفرح النضارة والإشراق وبالحزن والخوف الكلوح والسواد فالوجوه على حقيقتها ، قيل ويحتمل أن يعبر بالوجه عن الجملة فإنهم ساؤهم بالقتل والنهب والسبي فحصلت الإساءة للذوات كلها ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ويحتمل أن يراد بالوجوه ساداتهم وكبراؤهم اه وهو كما ترى .

واختير هذا على ليسوؤكم مع أنه أخصر وأظهر إشارة إلى أنه جمع عليه ألم النفس والبدن

المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ ﴾ الخ ، وقيل : ﴿ فَإِذَا جَاء ﴾ هنا مع كونه من تفصيل المجمل في قوله سبحانه :

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ [الإسراء : 4] فالظاهر فإذا جغاء وإذا جاء للدلالة على أن مجيء وعد عقاب المرة الآخرة لم يتراخ عن كثرتهم واجتماعهم دلالة عل شدة شكيمتهم في كفران النعم وإنهم كلما ازدادوا عدة وعدة زادوا عدواناً وعزة إلى أن تكاملت أسباب الثروة والكثرة فاجأهم الله عز وجل على الغرة نعوذ بالله سبحانه من مباغتة عذابه .

وقرأ أبو بكر .

وابن عامر .

وحمزة ﴿ ليسؤ ﴾ على التوحيد والضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث المدلول عليه بالجزاء المحذوف ، والإسناد مجازي على الأخيرين وحقيقي على الأول ، ويؤيده قراءة علي كرم الله تعالى وجهه .

وزيد بن علي .

والكسائي ﴿ لنسوء ﴾ بنون العظمة فإن الضمير لله تعالى لا يحتمل غير ذلك ، وقرأ أبي ﴿ لنسؤن ﴾ بلام الأمر ونون العظمة أوله ونون التوكيد الخفيفة آخره ودخلت لام الأمر على فعل المتكلم كما في قوله تعالى : ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ [العنكبوت : 12] وجواب إذا على هذه القراءة هو الجملة الإنشائية على تقدير الفاء لأنها لا تقع جواباً بدونها ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أيضاً ﴿ لنسوءن ﴾ و ﴿ ليسوءن ﴾ بالنون والياء أولاً ونون التوكيد الشديدة آخراً ، واللام في ذلك لام القسم والجملة جواب القسم سادة مسد جواب إذا ؛ واللام في قوله تعالى : ﴿ لِيَسُوءوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المسجد ﴾ لام كي والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله وهو متعلق ببعثنا المحذوف غيره فيكون العطف من عطف جملة على أخرى ، وعلى القراءة بلام الأمر أو لام القسم فيما تقدم يجوز أن تكون اللام لام الأمر وأن تكون لام كي ، والمراد بالمسجد بيت المقدس وهو مفعول يدخلوا ، وفي "الصحاح" أن الصحيح في نحو دخلت البيت إنك تريد دخلت إلى البيت فحذف حرف الجر فانتصب البيت انتصاب المفعول به ، وتحقيقه في محله ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ ﴾ أي دخولاً كائناً كدخولهم إياه ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فهو في موضع النعت لمصدر محذوف ، وجوز أن يكون حالاً أي كائنين كما دخلوه ، و ﴿ أَوَّلُ ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية ، والمراد من التشبيه على ما في "البحر" أنهم يدخلونه بالسيف والقهر والغلبة والإذلال ، وفيه أيضاً أن هذا يبعد قول من ذهب إلى أن أولى المرتين لم يكن فيها قتال ولا قتل ولا نهب

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أي يهلكوا، وقال قطرب: يهدموا وأنشد قول الشاعر:

وما الناس إلا عاملان فعامل...

يتبر ما يبني وآخر رافع

وقال بعضهم: الهدم إهلاك أيضاً، وأخرج ابن المنذر.

وغيره عن سعيد بن جبير أن التتبير كلمة نبطية.

﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي الذي غلبوه واستولوا عليه فما اسم موصول والعائد محذوف وهو إما مفعول أو مجرور على ما قيل، وجوز أن تكون ما مصدرية ظرفية أي ليتبروا مدة دوامهم غالبين قاهرين ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ فظيعاً لا يوصف.

واختلف في تعيين هؤلاء العباد المبعوثين بعد أن ذكروا قتل يحيى عليه السلام في الإفساد الأخير فقال غير واحد: إنهم بختنصر وجنوده، وتعقبه السهيلي بأنه لا يصح لأن قتل يحيى بعد رفع عيسى عليهما السلام وبختنصر كان قبل عيسى عليه السلام بزمن طويل، وقيل الإسكندر وجنوده، وتعقبه أيضاً بأن بين الإسكندر وعيسى عليه السلام نحواً من ثلثمائة سنة ثم قال لكنه إذا قيل: إن إفسادهم في المرة الأخيرة بقتل شعيا جاز أن يكون المبعوث

عليهم بختنصر ومن معه لأنه كان حينئذ حياً ، وروى عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أن الذي غزاهم ملك خردوش وتولى قتلهم على دم يحيى عليه السلام قائد له فسكن .

وفي بعض الآثار أن صاحب الجيش دخل مذبح قرابينهم فوجد فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال : ما صدقتموني فقتل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأ الدم ثم قال : إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً فقالوا : إنه دم يحيى عليه السلام فقال : بمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال : إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً فقالوا : إنه دم يحيى عليه السلام فقال : بمثل هذا ينتقم ربكم منكم ثم قال : يا يحيى قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحداً منهم فهدأ ، واختار في "الكشف" وقال هو الحق إن المبعوث عليهم في المرة الثانية يردوس من ملوك الطوائف وكأنه هو خردوش الذي مر آنفاً فقد ذكر أنه ملك بابل من ملوك الطوائف .

وقيل : اسمه جوزور وهؤلاء الملوك ظهروا بعد قتل الإسكندر دارا واستيلائه على ملك الفرس ، وكان ذلك بصنع الإسكندر متبعاً فيه رأي معلمه أرسطو ، وعدتهم تزيد على

سبعين ملكاً ، ومدة ملكهم على ما في بعض التواريخ خمسمائة واثنتا عشرة سنة ، وحصل اجتماع الفرس بعد هذه المدة على أردشير بن بابك طوعاً وكرها وكان أحد ملوك الطوائف على اصطخر ، وعلى هذا يكون الملك المبعوث لفساد بني إسرائيل بقتل يحيى عليه السلام من أواخر ملوك الطوائف كما لا يخفى ، ويكون بين هذا البعث والبعث الأول على القول بأن المبعوث بختنصر وأتباعه مدة متطاولة ، وفي بعض التواريخ أن قتل الإسكندر دارا بعد بختنصر بأربعمائة وخمس وثلاثين سنة وبعد مضي نحو من ثلثمائة سنة من غلبة الإسكندر ولد المسيح عليه السلام ، ولا شك أن قتل يحيى عليه الصلاة والسلام بعد الولادة بزمان والبعث بعد القتل كذلك فيكون بين البعثين ما يزيد على سبعمائة وخمس وثلاثين سنة ، والذي ذهب إليه اليهود أن المبعوث أولاً بختنصر وكان في زمن أرميا عليه السلام وقد أنذرهم مجيئه صريحاً بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام كما نطق به كتابه فحبسوه في بئر وجرحوه وكان تخريبه لبيت المقدس في السنة التاسعة عشر من حكمه وبين ذلك وهبوط آدم ثلاثة آلاف وثلثمائة وثماني وثلاثين سنة وبقي خراباً سبعين سنة ، ثم أن أسبيانوس قيصر الروم وجه وزيره طوطوز إلى خرابه فخربه سنة ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانية وعشرين فيكون بين البعثين عندهم أربعمائة وتسعون سنة ، وتفصيل الكلام في ذلك في كتبهم والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

ونعم ما قيل إن معرفة الأقوام المبعوثين بأعيانهم وتاريخ البعث ونحوه مما لا يتعلق به كبير

غرض إذ المقصود أنه لما كثرت معاصيهم سلط الله تعالى عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

(203/450)

وظاهر الآية يقتضي اتحاد المبعوثين أولاً وثانياً ، ومن لا يقول بذلك يجعل رجوع الضمائر للعباد على حد رجوع الضمير للدرهم في قولك : عندي درهم ونصفه فافهم .

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾

بعد البعث الثاني إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ للإفساد بعد الذي تقدم منكم ﴿ عُدْنَا ﴾ للعقوبة فعاقبناكم في الدنيا بمثل ما عاقبناكم به في المرتين الأوليين ، وهذا من المقضي لهم في الكتاب أيضاً وكذا الجملة الآتية ، وقد عادوا بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وقصدهم قتله فعاد الله تعالى بتسليطه عليه الصلاة والسلام عليهم فقتل قريظة وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقين وقيل عادوا فعاد الله تعالى بأن سلط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوة ونحو ذلك والأول مروي عن الحسن . وقتادة ، والتعبير بأن للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يعودوا ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين حَصِيرًا ﴾ قال ابن عباس .

وغيره : أي سجنا وأنشد في البحر قول لبيد :

ومقامه غلب الرقاب كأنهم . . .

جن على باب الحصير قيام

فإن كان اسماً للمكان المعروف فهو جامد لا يلزم تأنيثه وتذكيره .

وإن كان بمعنى حاصر أي محيط بهم وفعيل بمعنى فاعل يلزم مطابقته فعدم المطابقة هنا إما لأنه على النسب كلابن وتامر أي ذات حصر وعلى ذلك خرج قوله تعالى : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] أي ذات انفطار أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول وقيل التذكير على تأويل جهنم بمذكر ، وقيل لأن تأنيثها ليس بحقيقي نقل ذلك أبو البقاء وهو كما ترى .

(204/450)

وأخرج ابن المنذر وغيره عن الحسن أنه فسر ذلك بالفراش والمهاد ، قال الراغب : كأنه جعل الحصير المرمول وأطلق عليه ذلك لحصر بعض طاقاته على بعض فحصير على هذا بمعنى محصور وفي الكلام التشبيه البليغ ، وجاء الحصر بمعنى السلطان وأنشد الراغب في ذلك البيت السابق ثم قال : وتسميته بذلك إما لكونه محصوراً نحو محجب وإما لكونه

حاصراً أي مانعاً لمن أراد أن يمنعه من الوصول إليه اه وحمل ما في الآية على ذلك مما لم أر من تعرض له والحمل عليه في غاية البعد فلا ينبغي أن يحمل عليه وإن تضمن معنى لطيفاً يدرك بالتأمل ، وكان الظاهر أن يقال لكم بدل للكافرين إلا أنه عدل عنه تسجيلاً على كفرهم بالعود وذماً لهم بذلك وإشعاراً بعلة الحكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(205/450)

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾

من جملة المقضي في الكتاب مما خوطب به بنو إسرائيل ، وهو حكاية لما في الإصحاح التاسع والعشرين من كتاب أرميا "وصلُّوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام" .

وفي الإصحاح الحادي والثلاثين "يقول الرب أزرعُ بيت إسرائيل وبيت يَهوذا ويكون كما سهرتُ عليهم للاقتلاع والهدم والقَرض والإهلاك ، كذلك أسهَر عليهم للبناء والغرس في تلك الأيام لا يقولون : الآباء أكلوا حِصْرِماً وأسنان الأبناء ضَرِستْ بل كل واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحِصْرِم تَضرِس أسنانُه" .

ومعنى ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ أننا نرد لكم الكرة لأجل التوبة وتجدد الجيل وقد أصبحتم في حالة نعمة ، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسناً وإن أسأتم أسأتم لأنفسكم ، فكما أهلكنا مَن قبلكم بذنوبهم فقد أحسنا إليكم بتوبتكم فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير مَن قبلكم .

وإعادة فعل ﴿ أحسنتم ﴾ تنويه فلم يقل : إن أحسنتم فلأنفسكم .

وذلك مثل قول الأحوص :

فإذا تَزول تزول عن مُتخمّط

تُخشى بوادِره على الأقرانِ . . .

قال أبو الفتح ابن جني في شرح بيت الأحوص في الحماسة : إنما جاز أن يقول (فإذا تَزولُ تزول) لِما اتصل بالفعل الثاني من حرف الجر المفادة منه الفائدة .

ومثله قول الله تعالى : ﴿ هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كم غوينا ﴾ [القصص : 63] ، ولو قال : هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم لم يفد القول شيئاً كقولك : الذي ضربتهُ ضربتُه .

وقد كان أبو علي امتنع في هذه الآية مما أخذناه (في الأصل أجزناه) غير أن الأمر فيها عندي على ما عرفتُك اه .

والظاهر أن امتناع أبي علي من ذلك في هذه الآية أنه يرى جَواز أن تكون أغويناهم تأكيداً لأغوينا وقوله : كما غوينا استئنافاً بيانياً ، لأن اسم الموصول مسند إلى مبتدأ وهو اسم الإشارة فتم الكلام بذلك ، بخلاف بيت الأحوص ومثال ابن جني : الذي ضربته ضربتُه ، فيرجع امتناع أبي علي إلى أن ما أخذه ابن جني غير متعين في الآية تعيُّنَه في بيت الأحوص .

وأسلوب إعادة الفعل عند إرادة تعلق شيء به أسلوب عربي فصيح يقصد به الاهتمام بذلك الفعل .

وقد تكرر في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ [الشعراء : 130] وقال : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ [الفرقان : 72] .

وقوله : إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ جاء على طريقة التجريد بأن جعلت نفس المحسن كذات يحسن لها .

فاللام لتعدية فعل ﴿ أحسنتم ﴾ ، يقال : أحسنت لفلان .

وكذلك قوله : ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ .

فقوله : ﴿ فلها ﴾ متعلق بفعل محذوف بعد فاء الجواب ، تقديره : أسأتم لها .

وليس المجرور بظرف مستقر خبراً عن مبتدأ محذوف يدل عليه فعل ﴿ أسأتم ﴾ لأنه لو كان كذلك لقال فعَلَيها ، كقوله في سورة [فصلت : 46] ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن

أساء فعليها ﴾

ووجه المخالفة بين أسلوب الآيتين أن آية فصلت ليس فيها تجريد ، إذ التقدير فيها : فعمله لنفسه وإساءته عليه ، فلما كان المقدر اسماً كان المجرور بعده مستقراً غير حرف تعدية ، فجرى على ما يقتضيه الإخبار من كون الشيء المخبَر عنه نافعاً فيخبر عنه بمجرور باللام ، أو ضاراً يخبر عنه بمجرور بـ (إلى) ، وأما آية الإسراء ففعل أحسنتم وأسأتم الواقعان في الجوابين مقتضيان التجريد فجاءا على أصل تعديتهما باللام لا لقصد نفع ولا ضر .

تفريع على قوله : ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ [الإسراء : 7] ، إذ تقدير الكلام فإذا أسأتم وجاء وعدُ المرة الآخرة .

(207/450)

وقد حصل بهذا التفريع إيجاز بديع قضاءً لِحَقّ التقسيم الأول في قوله : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ [الإسراء : 5] ، ولِحَقّ إفادة ترتب مجيء وعد الآخرة على الإساءة ، ولو عطف بالواو كما هو مقتضى ظاهر التقسيم إلى مرتين فاتت إفادة الترتب والتفرع .

والآخرة ﴾ صفة لمحذوف دل عليه قوله : ﴿ مرتين ﴾ ، أي وعد المرة الآخرة .

وهذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تفريعه بالفاء .

والآخرة ضد الأولى .

ولاماتُ "ليسوؤوا ، وليدخلوا ، وليتبروا" للتعليل ، وليست للأمر لاتفاق القراءات المشهورة على كسر اللامين الثاني والثالث ، ولو كانا لامَيْ أمرٍ لكانَا ساكنين بعد واو العطف ، فيتعين أن اللام الأول لام أمر لا لام جر .

والتقدير فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عباداً لنا ليسوؤا وجوهكم الخ .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص ، وأبو جعفر ، ويعقوب ﴿ ليسوؤا ﴾ بضمير الجمع مثل أخواته الأفعالِ الأربعة .

والضمائر راجعة إلى محذوف دلّ عليه لام التعليل في قوله : ﴿ ليسوؤا ﴾ إذ هو متعلق بما دل عليه قوله في ﴿ وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾ [الإسراء : 5] ، فالتقدير : فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عباداً لنا ليسوؤوا وجوهكم .

وليست عائدة إلى قوله : عباداً لنا ﴾ المصرح به في قوله : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ﴾ [الإسراء : 5] ، لأن الذين أساؤوا ودخلوا المسجد هذه المرة أمة غير الذين جاسوا خلال الديار حسب شهادة التاريخ وأقوال المفسرين كما سيأتي .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف ليسوءَ ﴾ بالإفراد والضمير لله تعالى .

وقرأ الكسائي ﴿ لنَسوءَ ﴾ بنون العظمة .

وتوجيهُ هاتين القراءتين من جهة موافقة رسم المصحف أن الهمزة المفتوحة بعد الواو قد ترسم بصورة ألف ، ، فالرسم يسمح بقراءة واو الجماعة على أن يكون الألف ألف الفرق وبقراءتي الإفراد على أن الألف علامة الهمزة .

(208/450)

وضميرا "ليسوءوا وليدخلوا" عائدان إلى ﴿ عباداً لنا ﴾ [الإسراء : 5] باعتبار لفظه لا باعتبار ما صدق المعاد ، على نحو قولهم : عندي درهم ونصفه ، أي نصف صاحب اسم درهم ، وذلك تعويل على القرينة لاقتضاء السياق بُعد الزمن بين المرتين : فكان هذا الإضمار من الإيجاز .

وضمير كما دخلوه ﴾ عائد إلى العباد المذكور في ذكر المرة الأولى بقرينة اقتضاء المعنى مراجع الضمائر كقوله تعالى : ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ [الروم : 9] ، وقول عباس بن مرداس :

عُدنا ولولا نحن أحدق جمعهم

بالمسلمين وأحرزوا ما جَمّعوا . . .

فالسياق دال على معاد (أحرزوا) ومعاد (جمّعوا) .

وسَوْء الوجوه : جَعْل المساءة عليها ، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتى تبدو على وجوهكم لأن ما يخالج الإنسان من غم وحزن ، أو فرح ومسرة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد ، كقول الأعشى

:

وأقدِمْ إذا ما أعين الناس تَفْرَق

أراد إذا ما تفرق الناس وتظهر علامات الفرق في أعينهم .

ودخول المسجد دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله : كما دخلوه أول مرة ﴾ المراد منه قوله : ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ [الإسراء : 5] .

والتتبِير : الإهلاك والإفساد .

وما علوا ﴾ موصول هو مفعول "يتبروا" ، وعائد الصلة محذوف لأنه متصل منصوب ، والتقدير : ما علوه ، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب .

ولم يعدهم الله في هذه المرة إلا بتوقع الرحمة دون رد الكرة ، فكان إيماء إلى أنهم لا مُلك لهم بعد هذه المرة .

وبهذا تبين أن المشار إليه بهذه المرة الآخرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرد وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه ، وقد أنذرهم النبي مَلآخي في

الإصحاحين الثالث والرابع من كتابه وأنذرهم زكرياء ويحيى وعيسى فلم يرعووا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان .

وبيان ذلك : أن اليهود بعد أن عادوا إلى أورشليم وجددوا ملكهم ومسجدهم في زمن (داريوس) وأطلق لهم التصرف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس ، فمكثوا على ذلك مائتي سنة من سنة 530 إلى سنة 330 قبل المسيح ، ثم أخذ ملكهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشليم فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة 166 قبل المسيح إذ قام قائد من إسرائيل اسمه (ميثيا) وكان من اللاويين فانتصر لليهود وتولى الأمر عليهم وتسلسل الملك بعده في أبنائه في زمن مليء بالفتن إلى سنة أربعين قبل المسيح .

دخلت المملكة تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم (هيرودس) ثم تمردوا للخروج على الرومانيين ، فأرسَل قيصر رومية القائدَ (سيسيَانوس) مع ابنه القائد (طيطوس) بالجيوش في حدود سنة أربعين بعد المسيح فخربت أورشليم واحترق المسجد ، وأسر (طيطوس) نيفاً وتسعين ألفاً من اليهود ، وقُتل من اليهود في تلك

الحروب نحو ألف ألف ، ثم استعادوا المدينة وبقي منهم شرذمة قليلة بها إلى أن وافاهم الأمبراطور الروماني (أدريانوس) فهدمها وخربها ورمى قناطير المِلح على أرضها كيلا تعود صالحة للزراعة ، وذلك سنة 135 للمسيح .

وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض ، وتفرقوا في الأرض ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة 16 ه صلحاً مع أهلها وهي تسمى يومئذٍ (إيلياء) .

وقوله : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ عطفَ الترهيب على الترغيب .

ويجوز أن تكون معترضة والواو اعتراضية .

والمعنى : بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمنكم في البلاد التي تلْجأون إليها ، إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم ، أي عدنا لمثل ما تقدم من عقاب الدنيا .

(210/450)

وجملة ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ عطف على جملة ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ لإفادة أن ما ذكر قبله من عقاب إنما هو عقاب دنيوي وأن وراءه عقاب

الآخرة .

وفيه معنى التذييل لأن التعريف في ﴿ للكافرين ﴾ يعم المخاطبين وغيرهم .

ويومىء هذا إلى أن عقابهم في الدنيا ليس مقصوراً على ذنوب الكفر بل هو منوط بالإفساد في الأرض وتعدي حدود الشريعة .

وأما الكفر بتكذيب الرسل فقد حصل في المرة الآخرة فإنهم كذبوا عيسى ، وأما في المرة الأولى فلم تأتهم رسل ولكنهم قتلوا الأنبياء مثل أشعياء ، وأرمياء ، وقتل الأنبياء كفر .

والحصير : المكان الذي يحصر فيه فلا يستطاع الخروج منه ، فهو إما فعيل بمعنى فاعل ، وإما بمعنى مفعول على تقدير متعلق ، أي محصور فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(211/450)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من أحسن – أي بالإيمان والطاعة – فإنه إنما يحسن إلى نفسه . لأن نفع ذلك لنفسه خاصة . وأن من أساء – أي بالكفر والمعاصي – فإنه إنما

يسيء على نفسه . لأن ضرر ذلك عائد إلى نفسه خاصة .

وبين هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : 46] الآية ، وقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7–8] ، وقوله : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] ، إلى غير ذلك من الآيات . واللام في قوله : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ بمعنى على ، اي فعليها ، بدليل قوله ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : 46] . ومن إتيان اللام بمعنى على قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ [الإسراء : 109] الآية . أي عليها : وقوله : ﴿ فَسَلاَمٌ لَّكَ ﴾ [الواقعة : 91] الآية . أي سلام عليك – على ما قاله بعض العماء . ونظير ذلك من كلام العرب : قول جابر التغلبي ، أو شريح العبسي ، أو زهير المزني أو غيرهم :

تناوله بالرمح ثم انثنى له . . . فخر صريعاً لليدين وللفم

أي على اليدين وعلى الفم . والتعبير بهذه اللام في هذه الآية للمشاكلة . كما قدمنا في نحو : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ ﴾ [الشورى : 40] الأية ، ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 194] الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ الآية .

جواب ﴿ إذا ﴾ في هذه الآية الكريمة محذوف ، وهو الذي تتعلق به اللام في قوله : ﴿ لِيَسُوءُواْ ﴾ وتقديره : فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسؤوا وجوهكم . بدليل قوله في الأولى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ [الإسراء : 5] الآية ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن . قال ابن قتيبة في (مشكل القرآن) : ونظيره في حذف العامل قول حميد بن ثور :

رأتني بحبليها فصدت مخافة . . . وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

أي رأتني أقبلت ، أو مقبلاً . وفي هذا الحرف ثلاث قرآت سبعيات : قرأه على الكسائي " لنسوء وجوهكم " بنون العظمة وفتح الهمزة . أي لنسوءها بتسليطنا إياهم عليكم يقتلونكم ويعذبونكم . وقرأه ابن عامر وحمزة وشعبة عن عاصم " ليسوء وجوهكم " بالياء وفتح الهمزة والفاعل ضمير عائد إلى الله . أي ليسوء هو . أي الله وجوهكم بتسليطه إياهم عليكم .

وقرأه الباقون ﴿ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ بالياء وضم الهمزة بعدها واو الجمع التي هي فاعل الفعل ، ونصبه بحذف النون ، وضمير الفاعل الذي هو واو عائد إلى الذين بعثهم الله عليهم ليسؤوا وجوههم بأنواع العذاب والقتل .

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ .

لما بين جلَّ وعلا أن بني إسرائيل قضى إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين ، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما : بعث عليهم عباداً له أولي بأس شديد ، فاحتلوا بلادهم وعذبوهم . وأنه إذا جاء وعد المرة الآخرة : بعث عليهم قوماً ليسوءوا وجوههم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علو تتبيراً .

(213/450)

وبين ايضاً : أنهم إن عادوا للإفساد المرة الثالثة فإنه جلَّ وعلا يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم . وذلك في قوله : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ ولم يبين هنا : هل عادوا للإفساد المرة الثالثة أو لا ؟ ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكتم صفاته ونقض عهوده ، ومظاهرة عدوه عليه ، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة . فعاد الله جلَّ وعلا للانتقام منهم تصديقاً لقوله : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ فسلط عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين . فجرى على بني قريظة والنضير ، وبني قينقاع وخيبر ، ما جرى من القتل ، والسبي ، والإجلاء ، وضرب الجزية على من بقي منهم ، وضُرِّبَ الذلة والمسكنة .

فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة : 89-90] ، وقوله : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [البقرة : 100] الآية ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ على خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة : 13] الآية ، ونحو ذلك من الآيات .

(214/450)

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد للانتقام منهم ، قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَآقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العقاب ﴾ [الحشر : 2-4] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ

الكتاب مِن صيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ [الأحزاب : 26-27] الآية ، ونحو ذلك من الآيات .

وتركنا بسط قصة الذين سُلطوا عليهم فب المرتين . لأنها أخبار إسرائلية . وهي مشهورة في كتب التفسير والتاريخ والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ .

في قوله : ﴿ حَصِيراً ﴾ في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء ن كل منهما يشهد لمعناه قرآن .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن الآية قد يكون فيها وجهان أو أوجه وكلها صحيح ويشهد له قرآن . فنورد جميع ذلك لأنه كله حق :

(215/450)

الأول – أن الحصير : المحبس والسجن . من الحصر وهو الحبس . قال الجوهري : يقال حصره يحصره حصراً : ضيّق عليه ، وأَحاط به . وهذا الوجه يدل له قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [الفرقان : 13] ، ونحو ذلك من

الآيات .

الوجه الثاني – أن معنى ﴿ حصيراً ﴾ أي فراشاً ومهاداً . من الحصير الذي يفرش . لأن العرب تسمي البساط الصغير حصيراً . قال الثعلبي : وهو وجه حسن . ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] الآية ، ونحو ذلك من الآيات . والمهاد : الفراش . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(216/450)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7) ﴾

ومازال الخطاب مُوجّهاً إلى بني إسرائيل ، هاكم سُنّة من سنن الله الكونية التي يستوي أمامها المؤمن والكافر ، وهي أن مَنْ أحسن فله إحسانه ، ومَنْ أساء فعليه إساءته .

فها هم اليهود لهم الغَلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على المنهج ، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله ؛ لأن هذه سُنّة كونية ، مَنِ استحق الغلبة فهي له ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزّه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ . . ﴾ [الإسراء: 7]

فيه إشارة إلى أنهم في شك أنْ يُحسِنوا ، وكأن أحدهم يقول للآخر: دَعْكَ من قضية الإحسان هذه .

فإذا كانت الكَرَّة الآن لليهود ، فهل ستظل لهم على طول الطريق ؟ لا . . لن تظل لهم الغَلبة ، ولن تدوم لهم الكرّة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ . . ﴾ [الإسراء: 7]

أي: إذا جاء وقت الإفسادة الثانية لهم ، وقد سبق أنْ قال الحق سبحانه عنهم: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ . . ﴾ [الإسراء: 4]

وبيّنا الإفساد الأول حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة .

وفي الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظة وصَحْوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون لنا الغلبة والقوة ، وستعود لنا الكَرَّة على اليهود .

وقوله تعالى: ﴿ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 7]

أي: نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم؛ لأن الوجه هو السِّمة المعبرة عن نوازع النفس الإنسانية، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر، وهو أشرف ما في المرء، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ﴾ [الإسراء: 7] أي: أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى وسينقذونه من أيدي اليهود.

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ﴾ [الإسراء: 7]

المتأمل في هذه العبارة يجد أن دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود، بل كان في أيدي الرومان المسيحيين.

فدخوله الأول لم يكُنْ إساءةً لليهود، وإنما كان إساءة للمسيحيين، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى، وهو في حوزة اليهود، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم المسجد الأقصى، ونُطهِّره من رِجْسهم.

ونلحظ كذلك في قوله تعالى: ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ﴾ [الإسراء: 7] أن القرآن لم يقُلْ ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج.

إذن: فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لِنُبوءَة القرآن، وكأن الحق سبحانه يريد

أنْ يلفتنا : إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحوا معه .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ . . ﴾ [الإسراء: 7]

كلمة الآخرة تدلُّ على أنها المرة التي لن تتكرر ، ولكن يكون لليهود غَلَبة بعدها .

وقوله تعالى: ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً . . ﴾ [الإسراء: 7]

يتبروا : أي: يُهلكوا ويُدمِّروا ، ويُخرِّبوا ما أقامه اليهود وما بَنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة التي نشاهدها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقُلْ: ما علوتُم ، إنما قال ﴿ مَا عَلَوْاْ ﴾ ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة من وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح في قَوْل الحق سبحانه عنهم: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاس . . ﴾ [آل عمران: 112]

فهم أذلاء أينما وُجدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون في ظِلّه ، كما كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويُعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهُويّة لا تذوب في غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون في البلاد التي يعيشون فيها ؛ لذلك نجد لهم في كل بلد يعيشون به حارة تسمى " حارة اليهود " ، ولم يكن لهم ميْلٌ للبناء والتشييد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً . . ﴾ [الأعراف: 168]

كل جماعة منهم في أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أنْ أصبح لهم وطن قومي في فلسطين على حَدِّ زعمهم ، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد .

ونحن الآن ننتظر وَعْد الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرّة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لتعود لنا صِفَة العباد ، ونكون أَهْلاً لِنُصْرة الله تعالى:

إذن: طالما أن الحق سبحانه قال: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ . . ﴾ [الإسراء: 7]

فهو وَعْد آتٍ لا شَكَّ فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصّها في آخر السورة في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [الإسراء: 104]

والمتأمل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقُّق وَعْد الله، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود في أرض فلسطين آية مُرادة لله تعالى.

ومعنى الآية أننا قُلْنا لبني إسرائيل من بعد موسى:

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد: اسكُنْ فلا بُدَّ أن يُحدد لك مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك: اسكن بورسعيد.. اسكن القاهرة.. اسكن الأردن.

أما أن يقول لك: اسكن الأرض!! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أنْ يظلُّوا مبعثرين في جميع الأنحاء، مُفرّقين في كل البلاد، كما قال عنهم:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً.. ﴾ [الأعراف: 168]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: 167]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكننة ونكَدٍ بين سكان الأرض إلى يوم القيامة، وهذه الخميرة هي في نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهاج الإسلام، فساعة أنْ يُهاجَ تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبّه في الناس.

إذن: فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة، وهي إثارة الحيوية الإيمانية في النفوس، فلو لم

تُثِرِ الحيوية الإيمانية لَبهتَ الإسلام .

وهذه هي رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذي يشقي الناس به يُلفِت الناس إلى الإيمان ، فلا يرونَ راحة لهم إلا في الإيمان بالله ، ولو لم يكُنْ الكفر الذي يؤذي الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل في الكون بعض الناس ويُزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

(220/450)

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثرهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحَوْا إليهم بفكرة الوطن القومي ، وزيَّنوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن في قيام دولة إسرائيل وتجمّع اليهود بها نكاية في الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سبحانه وتعالى حين يريد أن نضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم: ﴿ عِبَاداً لَّنَآ . . ﴾ [الإسراء: 5]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفرّقون مُبعْثرون في كل أنحاء العالم ، فلن نحارب في العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتيبة إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حي ، فكيف لنا أن نتتبعهم

وهم مبعثرون، في كل بلد شِرْذمة منهم؟

إذن: ففكرة التجمُّع والوطن القومي التي نادى بها بلفور وأيّدتْها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام، هذه الفكرة في الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام، وتُسهّل علينا تتبعهم وتُمكّننا من القضاء عليهم؛ لذلك يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾[الإسراء: 104]

أي: أتينا بكم جميعاً، نضمُّ بعضكم إلى بعض، فهذه إذن بُشرى لنا معشر المسلمين بأن الكَرَّة ستعود لنا، وأن الغلبة ستكون في النهاية للإسلام والمسلمين، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن نعود إلى الله، ونتجه إليه كما قال سبحانه: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾[الأنعام: 43]

والمراد بقوله هنا: ﴿ وَعْدُ الآخِرَةِ.. ﴾ [الإسراء: 7]

هو الوعد الذي قال الله عنه: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ﴾ [الإسراء: 7]

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)

و(عَسَى) حَرْف يدلّ على الرجاء، وكأن في الآية إشارةً إلى أنهم سيظلون في مذلّة ومَسْكنة، ولن ترتفع لهم رأس إلا في ظِلّ حبل من الله وعَهْد منه، وحبل من الناس الذين يُعاهدونهم على النُّصْرة والتأييد والحماية.

وقوله: ﴿ رَبُّكُمْ.. ﴾ [الإسراء: 8]

انظر فيه إلى العظمة الإلهية، ورحمة الرب سبحانه الذي ما يزال يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله، وهو آخر رسول يأتي من السماء، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله: ﴿ رَبُّكُمْ.. ﴾ [الإسراء: 8]

لأن الربّ هو المتولّي للتربية والمتكفّل بضمان مُقومات الحياة، لا يضنّ بها حتى وإنْ كان العبد كافراً، فالكلُّ أمام عطاء الربوبية سواء: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي.

الجميع يتمتع بِنعَم الله: الشمس والهواء والطعام والشراب، فهو سبحانه لا يزال ربهم مع كل ما حدث منهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ.. ﴾ [الإسراء: 8]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان في موقف يستحق فيه الرحمة، واليهود لن تكون لهم دولة، ولن يكون لهم كيان، بل يعيشون في حِضْن الرحمة الإيمانية الإسلامية التي تُعطي لهم فرصة التعايش مع الإسلام معايشة، كالتي كانت لهم في مدينة رسول الله، يوم أن أكرمهم وتعاهد

معهم.

وقد وصلتْ هذه المعايشة لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أنْ يقترضَ لا يقترض من مسلم، بل كان يقترض من اليهود، وفي هذا حكمة يجب أنْ نعيهَا، وهي أن المسلم قد يستحي أن يطالب رسول الله إذا نسى مثلاً، أما اليهودي فسوف يُلحّ في طلب حقِّه وإذا نسى رسول الله سيُذكّره.

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُغالطونه مِرَاراً، وقد حدث أن وفَّى رسول الله لأحدهم دَيْنه، لكنه أنكره وأتى يطالب به من جديد، وأخذ يراجع رسول الله ويغالطه وينكر ويقول: ابْغِني شاهداً.

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد، وهكذا تأزّم الموقف في حضور أحد الصحابة، واسمه خزيمة، فهَبَّ خزيمة قائلاً: أنا يا رسول الله كنت شاهداً، وقد أخذ هذا اليهودي دَيْنه، فسكت اليهودي ولم يرد ولم يجادل، فدل ذلك على كذبه. ويكاد المريب أن يقول: خذوني.

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما اختلى بخزيمة بعد أن انصرف الدائن قال: يا

خزيمة ما حملك على هذا القول، ولم يكن أحد معنا، وأنا أقضي لليهودي دَيْنه؟ فضحك خزيمة وقال: يا رسول الله أأُصدّقك في خبر السماء، وأُكذّبك في عِدّة دراهم؟ فَسُرَّ رسول الله من اجتهاد الرجل، وقال: "مَنْ شهد له خزيمة فحَسْبه".

ثم يُهدّد الحق سبحانه بني إسرائيل، فيقول: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا.. ﴾ [الإسراء: 8]

إنْ عُدتُّم للفساد، عُدْنا، وهذا جزاء الدنيا، وهو لا ينجيكم من جزاء الآخرة، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على الذنوب في الدنيا يُبرّئهم من عذاب الآخرة.

فالعقوبة على الذنب التي تُبرّئ المذنب من عذاب الآخرة ما كان في حِضْن الإسلام، وإلاَّ لاَسْتوى مَنْ أقيم عليه الحدّ مع مَنْ لم يُقمْ عليه الحد.

فلو سرق إنسان وقُطِعَتْ يده، وسرق آخر ولم تُقطع يده، فلو استَووْا في عقوبة الآخرة، فقد زاد أحدهما عن الآخر في العقوبة، وكيف يستوي الذي قُطِعَتْ يده. وعاش بذِلّتها طوال عمره مع مَنْ أفلت من العقوبة؟

هذا إنْ كان المذنب مؤمناً.

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذي بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا وجودَ له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعفي صاحبها من عقوبة الآخرة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء: 8]

﴿ جَعَلْنَا ﴾ فِعْل يفيد التحويل ، كأن تقول: جعلت العجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أي: صيَّرْتُه وحوَّلْتُه . فماذا كانت جهنم أولاً فيُحوّلها الحق سبحانه حصيراً ؟

قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا ﴾ في هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هي بمعنى خَلَقْنا ، أي: خلقناها هكذا ، كما تقول: سبحان الذي جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لون آخر فحوَّله الله تعالى إلى البياض ، بل خلقه هكذا بداية .

ومعنى: ﴿ حَصِيراً . . ﴾ [الإسراء: 8]

الحصير فراش معروف يُصنع من القَشّ أو من نبات يُسمى السَّمُر ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك ، وسُمِّي حصيراً ، لأن كلمة حصير مأخوذة من الحَصْر ، وهو التضييق في المكان للمكين ، وفي صناعة الحصير يضمُّون الأعواد بعضها إلى بعض إلى أنْ تتماسكَ ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نفرش الحصير ؟ نفرش الحصير ؛ لأنه يحبس عنّا القذَر والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا . إذن: الحصر معناه المنع والحبس والتضييق .

والمتتبع لمادة (حصر) في القرآن الكريم يجدها بهذه المعاني ، يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ

الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ . . ﴾ [التوبة: 5]

أي: ضَيِّقوا عليهم.

وقال تعالى في فريضة الحج: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ . . ﴾ [البقرة: 196] أي: حُبِسْتم ومَنعْتم من أداء الفريضة.

إذن: فقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء: 8]

(224/450)

أي: تحبسهم فيها وتحصرهم، وتمنعهم الخروج منها، فهي لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . ﴾ [الكهف: 29]

فلا يستطيعون الخروج، فإنْ حاولوا الخروج رُدُّوا إليها، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا . . ﴾ [السجدة: 20]

وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء: 8]

إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجرموا في الدنيا يحتمُون في أنصارهم وأتباعهم من الأقوياء،

ويدخلون في حضانة أهل الباطل ، أما في الآخرة فلن يجدوا ناصراً أو مدافعاً .

يقول تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

[الصافات: 25-26]

وبعد أن تكلّم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجَعْله آيةً يمكن إقامة الدليل عليها ، حيث خرق له الناموس في أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرق له الناموس فيها لا يعلمه القوم كان أَدْعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد صلى الله عليه وسلم لربه هي التي أعطتْه هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح ـ عليه السلام ـ عبداً شكوراً ، فهناك فَرْق بين عبودية الخَلْق للخالق ، وعبودية الخَلْق للخَلْق ؛ لأن العبودية للخَلْق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خَيْر سيده .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن بني إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد في الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولمن أساء ، وكُلٌّ له عمله دون ظُلْم أو جَوْر .

لذلك ينقلنا السياق القرآني إلى بيان المنهج الإلهي المنزّل من السماء ليوضح عبودية الإنسان لربه ، وكيف يكون عبداً مُخْلِصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ قال جعله الله هدى ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعله رحمة لهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أن لا يتخذوا من دوني وكيلاً ﴾ قال : شريكاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ قال : هو على النداء ، يا ذرية من حملنا مع نوح .

وأخرج ابن مردويه ، عن عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذرية من حملنا مع نوح " ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد : حام وسام ويافث وكوش ، فذاك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي فاطمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان نوح عليه السلام لا يحمل شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا قال : بسم الله والحمد لله ، فسماه الله عبداً شكوراً " .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سلمان رضي الله عنه قال : كان نوح عليه السلام إذا لبس ثوباً أو طعم طعاماً قال : الحمد لله فسمي عبداً شكوراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، عن سعيد بن مسعود الثقفي الصحابي رضي الله عنه قال : إنما سمي نوح عليه السلام عبداً شكوراً ، لأنه كان إذا أكل أو شرب أو لبس ثوباً أحمد الله .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن نوحاً لم يقم عن خلاء قط إلا قال : الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى فيّ منفعته ، وأخرج عني أذاه " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، عن العوّام قال : حدثت أن نوحاً عليه السلام كان يقول : الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى في منفعته ، وأذهب عني أذاه .

واخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أصبغ بن زيد : أن نوحاً عليه السلام كان إذا خرج من الكنيف قال ذلك ، فسمي ﴿ عبداً شكوراً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه : أن نوحاً عليه السلام إذا خرج من الغائط قال : الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني .

وأخرج عبد الله بن حمد في زوائد الزهد ، عن إبراهيم رضي الله عنه قال : شكره أن يسمي إذا أكل ، ويحمد الله إذا فرغ .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ قال : لم يأكل شيئاً قط إلا حمد الله ، ولم يشرب شراباً قط إلا حمد الله عليه ، فأثنى عليه ﴿ إنه كان عبدا شكوراً ﴾ .

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب ، عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : كان نوح عليه السلام إذا أكل قال : الحمد لله ، وإذا شرب قال : الحمد لله ، وإذا لبس قال : الحمد لله ، وإذا ركب قال : الحمد لله ، فسماه الله ﴿ عبداً شكوراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سمى الله نوحاً ﴿ عبداً شكوراً ﴾ لأنه كان إذا أمسى وأصبح قال : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن علي رضي الله عنه أنه قال : حق الطعام أن يقول العبد : بسم

الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وشكره أن يقول : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن تميم بن سلمة رضي الله عنه قال : حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على طعامه ، وحمد الله على آخره ، لم يسأل عن نعيم لذة الطعام .

(227/450)

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجة والطبراني في الدعاء ، عن حاتم عن عمر بن الخطاب أنه لبس جديداً فقال : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي . ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم عمد إلى الثوب الذي خلق فتصدق به ، كان في كنف الله وفي حفظ الله ، وفي ستر الله حياً وميتاً " قالها ثلاثاً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا لبس أحدكم ثوباً جديداً ، فليقل الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في الناس " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عون بن عبد الله قال : لبس رجلا ثوباً جديداً ، فحمد الله ،

فأدخل الجنة، أو غفر له.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ قال: أعلمناهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ قال: أخبرناهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ قال: قضينا عليهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ قال: هذا تفسير الذي قبله.

وأخرج ابن المنذر والحاكم، عن طاوس قال: كنت عند ابن عباس - رضي الله عنهما - ومعنا رجل من القدرية، فقلت إن أناساً يقولون لا قدر. قال: أوفي القوم أحد منهم؟ قلت: لو كان، ما كنت تصنع به؟ قال: لو كان فيهم أحد منهم لأخذت برأسه. ثم قرأت عليه ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾.

وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾.

فكان أوّل الفساد: قتل زكريا عليه السلام، فبعث الله عليهم ملك النبط، فبعث الجنود وكانت أساورته ألف فارس ﴿ فهم أولو بأس ﴾ فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيماً مسكيناً، إنما خرج يستطعم، وتلطف حتى دخل المدينة، فأتى مجالسهم وهم يقولون: لو يعلم عدوّنا ما قذف في قلوبنا من الرعب بذنوبنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حين سمع ذلك منهم وأشد القيام على الجيش، فرجعوا وذلك قول الله: ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ الآية.

ثم أن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط، فأصابوا منهم، فاستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قوله: ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ الآية.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ قال: الأولى، قتل زكريا عليه الصلاة والسلام، والأخرى، قتل يحيى عليه السلام.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطية العوفي رضي الله عنه في قوله: ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ قال: أفسدوا المرة الأولى، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم، وأفسدوا المرة الثانية، فقتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام، فبعث الله عليهم بختنصر.

(229/450)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث الله عليهم في الأولى جالوت ، فجاس خلال ديارهم وضرب عليهم الخراج والذل ، فسألوا الله أن يبعث إليهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله ، فبعث الله طالوت ، فقتل جالوت فنصر بنو إسرائيل ، وقتل جالوت بيدي داود عليه السلام ، ورجع إلى بني إسرائيل ملكهم ، فلما أفسدوا : بعث الله عليهم في المرة الآخرة بختنصر ، فخرب المساجد وتبر ﴿ ما علوا تتبيراً ﴾ قال الله : بعد الأولى والآخرة ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ﴾ قال : فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين .

(230/450)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي هاشم العبدي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ملك ما بين المشرق والمغرب أربعة : مؤمنان ، وكافران ، أما الكافران ، فالفرخان و بختنصر . فأنشأ أبو هاشم يحدث قال : كان رجل من أهل الشام صالحاً فقرأ هذه الآية ﴿

وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ علواً كبيراً ﴾ قال : يا رب ، أما الأولى فقد فاتتني ، فأرني الآخرة ، فأتى وهو قاعد في مصلاه قد خفق برأسه فقيل : الذي سألت عنه ببابل واسمه بختنصر ، فعرف الرجل أنه قد استجيب له ، فاحتمل جراباً من دنانير فأقبل حتى انتهى إلى بابل ، فدخل على الفرخان فقال : إني قد جئت بمال فأقسمه بين المساكين ، فأمر به فأنزل ، فجمعوهم له ، ثم جعل يعطيهم ويسألهم عن أسمائهم ، حتى إذا فرغ ممن بحضرته قيل له : فإنه قد بقيت منهم بقايا في الرساتيق ، فجعل يبعث فتاه حتى إذا كان الليل رجع إليه فاقرأه رجلاً رجلاً ، فأتى على ذكر بختنصر فقال : قف . كيف قلت ؟ قال : بختنصر . قال : وما بختنصر هذا ؟ قال : هو أشدهم فاقة ، وهو مقعد يأتي عليه السفارون ، فيلقي أحدهم إليه الكسرة ، ويأخذ بأنفه . قال : فإني مسلم به [7] لا بد . قال الآخر : فإنما هو في خيمة له يحدث فيها ، حتى أذهب فأقبلها وأغسله . قال : دونك هذه الدنانير . فأقبل إليه بالدنانير فأعطاه إياها . ثم رجع إلى صاحبه فجاء معه ، فدخل الخيمة فقال : ما اسمك ؟ قال : بختنصر . قال : من سماك بختنصر ؟ قال : من عسى أن يسميني إلا أمي ! قال : فهل لك أحد ؟ قال : لا والله ، إني لهٰهنا أخاف بالليل أن تأكلني الذئاب . قال : فأي الناس أشد بلاء ؟ قال : أنا . قال : أفرأيت إن ملكت يوماً من دهر أتجعل لي أن لا تعصيني ؟ قال أي سيدي لا يضرك أن لا تهزأ بي . قال : أرأيت إن

ملكت مرة أتجعل لي أن لا تعصيني ؟ قال : أما هذه فلا أجعلها لك ولكن سوف أكرمك كرامة لا أكرمها أحداً . قال دونك هذه الدنانير ، ثم انطلق فلحق بأرضه ، فقام الآخر

(231/450)

فاستوى على رجليه ، ثم انطلق فاشترى حماراً وأرساناً ، ثم جعل يستعرض تلك الأعاجم فيجزها فيبيعه ، ثم قال : إلى متى هذا الشقاء ؟ فعمد فباع ذلك الحمار وتلك الأرسان واكتسى كسوة ، ثم أتى باب الملك ، فجعل يشير عليهم بالرأي وترتفع منزلته حتى انتهوا إلى بواب الفرخان الذي يليه ، فقال له الفرخان : قد ذكر لي رجل عندك ، فما هو ؟ قال : ما رأيت مثله قط ! قال : ائتني به ، فكلمه فأعجب به . قال : إن بيت المقدس وتلك البلاد قد استعصوا علينا ، وانا باعثون عليهم بعثاً ، وإني باعث إلى البلاد من يختبرها ، فنظر حينئذ إلى رجال من أهل الأرب والمكيدة ، فبعثهم جواسيس ، فلما فصلوا إذا بختنصر قد أتى بخرجيه على بغلة ، قال : أين تريد ؟ قال : معهم قال : أفلا آذنتني فابعثك عليهم ؟ قال : لا ، حتى إذا وقعوا بالأرض قال : تفرقوا وسأل بختنصر عن أفضل أهل البلد ؟ فدل عليه ، فألقى خرجيه في داره .

(232/450)

قال لصاحب المنزل : ألا تخبرني عن أهل بلادك ، قال : على الخبير سقطت ، هم قوم فيهم كتاب فلا يقيمونه ، وأنبياء فلا يطيعونهم ، وهم متفرقون . قال بختنصر كالمتعجب منه : كتاب لا يقيمونه ، وأنبياء لا يطيعونهم ، وهم متفرقون ! فكتبهن في ورقة وألقى في خرجيه وقال : ارتحلوا ، فاقبلوا ، حتى قدموا على الفرخان ، فجعل يسأل كل رجل منهم ، فجعل الرجل يقول : أتينا بلاد كذا ولها حصن كذا ولها نهر كذا قال : يا بختنصر ، ما تقول ؟ قال : قدمنا أرضاً على قوم لهم كتاب لا يقيمونه ، وأنبياء لا يطيعونهم ، وهم متفرقون ، فأمر حينئذ ، فندب الناس وبعث إليهم سبعين ألفاً ، وأمر عليهم بختنصر ، فساروا حتى إذا علوا في الأرض أدركهم البريد : إن الفرخان قد مات ولم يستخلف أحداً . قال للناس : مكانكم . ثم أقبل على البريد حتى قدم على الناس وقال : كيف صنعتم ؟ قالوا : كرهنا أن نقطع أمراً دونك . قال : إن الناس قد بايعوني . فبايعوه ، ثم استخلف عليهم وكتب بينهم كتاباً ، ثم انطلق بهم سريعاً حتى قدم على أصحابه ، فأراهم الكتاب ، فبايعوه وقالوا : ما بنا رغبة عنك . فساروا ، فلما سمع أهل بيت المقدس تفرقوا وطاروا تحت كل كوكب ، فشعث ما هناك ، أي أفسد ، وقتل من قتل وخرب بيت المقدس ، واستبى أبناء الأنبياء فيهم دانيال . فسمع به صاحب الدنانير فأتاه فقال : هل تعرفني ؟ قال : نعم . فأدنى مجلسه ولم يشفعه في شيء ، حتى إذا نزل بابل لا ترد له راية . فكان كذلك ما شاء الله ، ثم إنه رأى

رؤيا فأفظعته ، فأصبح قد نسيها . قال : عليّ بالسحرة والكهنة . قال : أخبروني عن رؤيا رأيتها الليلة ، والله لتخبرني بها ، أو لأقتلنكم . قالوا : ما هي ؟ قال : قد نسيتها قالوا : ما عندنا من هذا علم ، إلا أن ترسل إلى أبناء الأنبياء . فأرسل إلى أبناء الأنبياء . قال : أخبروني عن رؤيا رأيتها الليلة ، والله لتخبرني بها أو لأقتلنكم . قالوا : ما هي ؟ قال : قد نسيتها . قالوا غيب ولا يعلم الغيب إلا

الله تعالى . قال والله لتخبرني بها ، أو لأضربن أعناقكم . قالوا : فدعنا حتى نتوضأ ونصلي وندعو الله تعالى . قال : فافعلوا . فانطلقوا فأحسنوا الوضوء ، فأتوا صعيداً طيباً فدعوا الله ، فأخبروا بها ، ثم رجعوا إليه فقالوا : رأيت كأن رأسك من ذهب ، وصدرك من فخار ، ووسطك من نحاس ، ورجليك من حديد . قال : نعم . قال : أخبروني بعبارتها أو لأقتلنكم . قالوا : فدعنا ندعو ربنا . قال اذهبوا ، فدعوا ربهم فاستجاب لهم ، فرجعوا إليه قالوا : رأيت كأن رأسك من ذهب ، ملكك هذا يذهب عند رأس الحول من هذه الليلة .

قال : ثم مه ؟ قالوا : ثم يكون بعدك ملك يفخر على الناس ، ثم يكون ملك يخشى الناس

شدته ، ثم يكون ملك لا يقله شيء ، إنما هو مثل الحديد يعني الإسلام فأمر بحصن فبني له ، بينه وبين السماء ، ثم جعل ينطقه بمقاعد الرجال والاحراس ، وقال لهم : إنما هي هذه الليلة لا يجوز عليكم أحد ، وإن قال أنا بختنصر إلا قتلتموه مكانه ، كائناً من كان من الناس . فقعد كل أناس في مكانهم الذي وكلوا به . واهتاج بطنه من الليل ، فكره أن يرى مقعده هناك . وضرب على أسمخة القوم ، فاستثقلوا نوماً ، فأتى عليهم وهم نيام ، ثم أتى عليهم فاستيقظ بعضهم ، فقال : من هذا ؟ قال : بختنصر . قال : هذا الذي حفي إلينا فيه الليلة . فضربه فقتله ، فأصبح الخبيث قتيلاً .

وأخرج ابن جرير نحوه أخصر منه عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ، وعن السدي وعن وهب بن منبه .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : ظهر بختنصر على الشام ، فخرب بيت المقدس وقتلهم ، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كباء فسألهم ما هذا الدم ؟ قالوا : أدركنا آباءنا على هذا وكلما [7] ظهر عليهم الكباء ظهر ، فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن .

وأخرج ابن عساكر ، عن الحسن رضي الله عنه : أن بختنصر لما قتل بني إسرائيل وهدم بيت المقدس وسار بسبايا بني إسرائيل إلى أرض بابل ، فسامهم سوء العذاب ، أراد أن يتناول السماء ، فطلب حيلة يصعد بها ، فسلط الله عليه بعوضة ، فدخلت منخره فوقفت في دماغه ، فلم تزل تأكل دماغه وهو يضرب رأسه بالحجر حتى مات .

وأخرج ابن جرير ، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن بني إسرائيل لما اعتدوا في السبت وعلوا وقتلوا الأنبياء عليهم السلام بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر ، وكان الله ملكه سبعمائة سنة ، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس ، فحاصرها وفتحها ، وقتل على دم زكريا عليه السلام سبعين ألفاً ، ثم سبى أهلها وبني الأنبياء ، وسلب حلى بيت المقدس ، واستخرج منها سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة من حلى ، حتى أورده بابل " قال حذيفة – رضي الله عنه – فقلت : يا رسول الله ، لقد كان بيت المقدس عظيماً عند الله ؟ ! قال : " " أجل " فبناه سليمان بن داود – عليه السلام – من ذهب ودر وياقوت وزبرجد وكان بلاطة ذهبا وبلاطة فضة ، وعمده ذهباً ، أعطاه الله ذلك وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين ، فسار

بختنصر بهذه الأشياء حتى نزل بها بابل ، فأقام بنو إسرائيل مائة سنة يعذبهم المجوس وأبناء المجوس ، فيهم الأنبياء وأبناء الأنبياء ، ثم إن الله رحمهم ، فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له كورس – وكان مؤمناً – أن : سر إلى بقايا بني إسرائيل حتى تستنقذهم ، فسار كورس ببني إسرائيل ودخل بيت المقدس حتى رده إليه ، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله مائة سنة ، ثم إنهم عادوا في المعاصي ، فسلط عليهم ابطنا نحوس فغزا ثانياً بمن غزا مع بختنصر ، فغزا بني إسرائيل ، حتى أتاهم بيت المقدس ، فسبى أهلها وأحرق بيت المقدس . وقال لهم : يا بني إسرائيل ، إن عدتم في المعاصي ، عدنا عليكم في السباء ، فعادوا في المعاصي ، فسير الله عليهم السباء الثالث : ملك رومية يقال له فاقس بن اسبايوس ، فغزاهم في البر والبحر فسباهم ، وسيَّر حلى بيت المقدس وأحرق بيت المقدس بالنيران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – " فهذا من صفة حلى بيت المقدس ويرده المهدي إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يرسى بها على يافا ، حتى

تنتقل إلى بيت المقدس وبها يجتمع إليه الأوّلون والآخرون " .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن زيد قال : كان إفسادهم الذي يفسدون في الأرض مرتين : قتل

زكريا عليه السلام ويحيى بن زكريا ، فسلط عليهم سابور ذا الأكتاف ، ملكاً من ملوك فارس ، من قبل زكريا ، وسلط عليهم بختنصر من قبل يحيى .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ قال : إذا جاء وعد أولى تينك المرتين اللتين قضينا إلى بني إسرائيل ﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ قال جند أتوا من فارس يتجسسون من أخبارهم ويسمعون حديثهم معهم بختنصر فوعى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعت فارس ولم يكثر قتال ونصرت عليهم بنو إسرائيل ، فهذا وعد الأولى ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ بعث ملك فارس ببابل جيشاً وأمر عليهم بختنصر فدمروهم ، فهذا وعد الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فجاسوا ﴾ قال فمشوا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه قال : أما المرة الأولى فسلط عليهم جالوت ، حتى بعث طالوت ومعه داود فقتله داود ، ثم رد الكرة لبني إسرائيل ﴿ وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ أي عدداً وذلك في زمان داود ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ آخر

العقوبتين ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ قال ليقبحوا وجوهكم ، ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ﴾ قال : كما دخل عدوهم قبل ذلك ﴿ وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ قال : يدمروا ما علوا تدميراً ، فبعث الله عليهم في الآخرة بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلق الله إليه ، فسبى وقتل وخرب بيت المقدس ، وسامهم سوء العذاب .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال : كانت الآخرة أشد من الأولى بكثير ، فإن الأولى كانت هزيمة فقط ، والآخرة كانت تدميراً ، وحرق بختنصر التوراة حتى لم يترك فيها حرفاً واحداً ، وخرب بيت المقدس .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ تتبيراً ﴾ قال : تدميراً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : ﴿ تبرنا ﴾ دمرنا بالنبطية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ قال : كانت الرحمة التي وعدهم : بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإن

عدتم عدنا ﴾ قال : فعادوا ، فبعث الله عليهم محمداً – صلى الله عليه وسلم – فهم يعطون ﴿ الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [التوبة : 29] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ قال : سجناً .

وأخرج ابن النجار في تاريخه ، عن أبي عمران الجوني في قوله : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ قال سجناً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ يقول جعل الله مأواهم فيها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ حصيراً ﴾ قال : يحصرون فيها .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ حصيراً ﴾ قال : فراشاً ومهاداً .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10)

أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ قال : للتي هي أصوب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في الآية قال : إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، فأما داؤكم فالذنوب والخطايا ، وأما دواؤكم فالاستغفار .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يتلو كثيراً ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين ﴾ خفيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ أن لهم أجراً كبيراً ﴾ قال : الجنة . وكل شيء في القرآن أجر كبير ورزق كبير ورزق كريم فهو الجنة .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ يعني قول الإنسان : اللهم إلعنه واغضب عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ قال : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته ، يغضب أحدهم فيدعو عليه ، فيسب نفسه ويسب زوجته وماله وولده ، فإن أعطاه الله ذلك شق عليه ، فيمنعه ذلك ، ثم يدعو بالخير فيعطيه .

وأخرج ابن جرير، عن مجاهد رضي الله عنه: في قوله: ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ قال: ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته يعجل فيه، فيدعو عليه لا يحب أن يصيبه.

وأخرج أبو داود والبزار، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم".

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ قال: ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن عساكر، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: أول ما خلق الله من آدم عليه السلام رأسه، فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه، فلما كان بعد العصر قال: يا رب، اعجل قبل الليل، فذلك قوله: ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، عن مجاهد قال: لما خلق الله آدم خلق عينيه قبل بقية جسده،

فقال : أي رب ، أتم بقية خلقي قبل غيبوبة الشمس ، فأنزل الله ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 ص ﴾

(240/450)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَهَا ﴾ : في اللامِ أوجهٌ : أحدُها : أنها بمعنى " على " ، أي فعليها كقوله :

3030- . . . . فَخَرَّ صريعاً

لليدينِ وللفمِ

أي : على اليدين . والثاني : أنها بمعنى إلى . قال الطبري : " أي/ فإليها تَرْجِعُ الإِساءةُ " . الثالث : أنها على بابها ، وإنما أتى بها دونه " على " للمقابلة في قوله : " لأنفسِكم " فأتى بها ازْدِواجاً . وهذه اللامُ يجوز أن تتعلَّقَ بفعلٍ مقدرٍ كما تقدَّم في قولِ الطبريِّ ، وإمَّا بمحذوفٍ على أنها خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه : فلها الإِساءةُ لا لغيرِها .

قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ ، أي : المرة الآخرة فَحُذِفَتْ " المرَّةَ " للدَّلالة عليها ،

وجوابُ الشرطِ محذوفٌ تقديره: بَعَثْناهم .

وقوله: ﴿ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ متعلقٌ بهذا الجوابِ المقدرِ . وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر "لِيَسُوْءَ" بالياءِ المفتوحةِ وهمزةٍ مفتوحةٍ آخرَ الفعل . والفاعلُ: إمَّا اللهُ تعالى، وإمَّا الوعدُ، وإمَّا البعثُ، وإمَّا النفيرُ . والكسائيُّ "لِنَسُوْءَ" بنونِ العظمة، أي: لِنَسُوْءَ نحن، وهو موافِقٌ لما قبلَه مِنْ قولِه "بَعَثْنا عباداً لنا" و "رَدَدْنا" و "أَمْدَدْنا"، وما بعده من قوله: "عُدْنا" و "جَعَلْنا" .

(241/450)

وقرأ الباقون: "لِيَسُوْءُوا" مسنداً إلى ضميرِ الجمع العائد على العِباد، أو على النفير؛ لأنه اسمُ جمعٍ، وهو موافِقٌ لما بعدَه من قوله ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ ﴾ . وفي عَوْدِ الضميرِ على النفيرِ نظرٌ؛ لأنَّ النفيرَ المذكورَ من المخاطبين، فكيف يُوصف ذلك النفيرُ بأنه يَسُوْءُ وجوهَهم؟ اللهم إلا أنْ يريدَ هذا القائلُ أنه عائدٌ على لفظِه دون معناه، من باب "عندي درهمٌ ونصفُه" .

وقرأ أُبَيٌّ "لِنَسُوْءَنْ" بلامِ الأمرِ ونونِ التوكيدِ الخفيفةِ ونونِ العظمة، وهذا جوابٌ ل "إذا"، ولكن على حَذْفِ الفاء، أي "فَلِنَسُوْءَنْ، ودخلت لامُ الأمرِ على فعلِ المتكلمِ كقولِه تعالى

: ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [العنكبوت : 12] .

وقرأ عليُّ بنُ أبي طالب "لَيَسُوْءَنَّ" و "وَلَنَسوْءَنَّ" بالياء أو النون التي للعظمةِ، ونونِ التوكيدِ الشديدة، واللامِ التي للقسَمِ . وفي مصحف أُبَيّ "لِيَسُوْءُ" بضمِّ الهمزة من غيرِ واوٍ، وهذه القراءةُ تشبه أَنْ تكونَ على لغةِ مَنْ يَجْتَزِئُ عن الواوِ بالضمة، كقوله :

3031- فلوْ أنَّ الأَطبَّا كانُ حولي . . . .

. . . .

يريد : "كانوا" . وقولِ الآخر :

3032- إذا ما الناسُ جاعُ وأَجْدَبُوا . . . .

. . . . . .

يريد "جاعُوا" ، فكذا هذه القراءةُ، أي : لِيَسُوْءُوا ، كما في القراءةِ الشهيرة، فَحَذَفَ الوَاو .

وقرئ "لِيَسْيء" بضمِّ الياءِ وكسرِ السينِ وياءٍ بعدها ، أي : لُيقَبِّحَ اللهُ وجوهكم، أو ليقبّح الوعدُ، أو البعثُ . وفي مصحفِ أنس "وَجْهَكم" بالإِفرادِ كقوله :

3033- كُلوا في بعضِ بطِنكمُ تَعِفُّوا . . . .

[وكقوله :]

3034- . . . . في حلْقِكم

عَظْمٌ وقد شَجِيْنا

[وكقوله:]

3035- . . . .

. . . . . وأمَّا جِلْدُها فَصَلِيْبُ

قوله: "وِليَدْخُلوا" مَنْ جَعَلَ الأولى لامَ "كي" كانت هذه أيضاً لامَ "كي" معطوفةً عليها، عَطْفَ علةٍ على أخرى، ومَنْ جَعَلَها لامَ أمرٍ كأُبَيّ، أو لامَ قسمٍ كعليّ بن أبي طالب فاللامُ في "لِيَدْخُلوا" تحتمل وجهين: الأمرَ والتعليل، و ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أو حالٌ من ضميره، كما يقول سيبويه، أي: دخولاً كما دخلوه. و ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ظرفُ زمانٍ، وتقدَّم/ الكلامُ عليها في براءة.

[قوله:] ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ يجوز في "ما" أن تكونَ مفعولاً بها، أي: ليُهْلكوا الذي عَلَوه، وقيل: ليَهْدِموه كقوله:

3036- وما الناسُ إلا عاملان فعامِلٌ . . . يُتَبِّرُ ما يَبْني وآخرُ رافِعُ

ويجوز فيها أَنْ تكونَ ظرفيةً، أي: مدةَ استعلائِهم وهذا مُحْوِجٌ إلى حذفِ مفعولٍ، اللهم إلا أَنْ يكونَ القصدُ مجردَ ذِكْرِ الفعلِ نحو: هو يعطي ويمنع.

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8) ﴾

قوله تعالى : ﴿ حَصِيرا ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بمعنى فاعِل ، اي : حاصرةً لهم ، مُحيطةً بهم ، وعلى هذا فكان ينبغي أن يؤنَّثَ بالتاء كخبيرة . وأُجيب : بأنَّها على النسَب ، أي ذات حَصْرٍ كقولِه : ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] ، أي ذاتُ انفطارٍ . وقيل : الحَصِيْرُ : الحَبْس ، قال لبيد :

3037- ومَقامَةٍ غُلْبِ الرجالِ كأنَّهمْ . . . جِنٌّ لدى بابِ الحصيرِ قيامُ

وقال أبو البقاء : " لم يؤنِّثْه لأنَّ فعيلاً بمعنى فاعِل " وهذا منه سهوٌ ؛ لأنه يؤدِّ إلى أن تكونَ الصفةُ التي على فعيل إذا كانَتْ بمعنى فاعِل جاز حَذْفُ التاءِ منها ، وليس كذلك لِما تقدَّم مِنْ أنَّ فعيلاً بمعنى فاعِل يَلْزَمُ تأنيثه ، وبمعنى مَفْعول يجب تذكيرُه ، وما جاء شاذَّاً مِنَ النوعين يُؤَوَّل . وقيل : إنما لم يُؤَنَّثْ لأنَّ تأنيث " جهنَّم " مجازيٌّ ، وقيل : لأنها في معنى السِّجْن والمَحْبَس ، وقيل : لأنها بمعنى فِراش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 316.319 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

إنْ أحسنتُم فثوابكم كسبتم، وإنْ أسأتم فعداءكم جَلَبْتُم - والحقُّ أعزُّ مِنْ أَنْ يعودَ إليه من أفعال عبادِه زَيْنٌ أو يلحقه شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾.

كلمةُ ﴿ عَسَى ﴾ فيها ترجية وإطماع، فهو - سبحانه - وقفهم على حد الرجاء والأمل والخوف والوجل.

وقوله ﴿ عَسَى ﴾: ليس فيه تصريح بغفرانهم، ورحمتهم، وإنما فيه للرجاء موجِبٌ قويٌّ؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾.

أي إنْ عُدْتُم إلى الزَّلَّة عُدْنا إلى العقوبة، وإن استقمتم في التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة.

ويقال إن عُدْتُم إِلَى نَقْضِ العَهْد عُدنا إلى تشديد العذاب.

ويقال: إن عُدْتُم للاستجارة عدنا للإجارة.

ويقال إن عُدتم إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء .

ويقال إن عُدْتمْ إلى ما يليق بكم عُدْنا إلى ما يليق بكرمنا .

﴿ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ لأنهم (. . .) وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين .

و﴿ حَصِيراً ﴾ أي محبساً ومصيراً . فالمؤمنُ - وإنْ كان صاحب ذنوب وإنْ كانت كبيرة - فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالةَ يصل يوماً إلى غفرانه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 337 ﴾

(245/450)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 9 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) وَيَدْعُ

الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبت أن كتاب موسى عليه السلام الذي أنزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس في تلك المدة المتطاولة هو هدى لبني إسرائيل ، صادق الوعد والوعيد فيما قضى فيه إليهم من أمرهم وأمر بيت المقدس من ترقية حال من أطاعه وإعلائهم وأخذ من عاداهم ومن تعكيس أحوال العصاة مرة بعد أخرى بتسليط الأعداء عليهم بالقتل والأسر والنهب وتخريب البلاد ، تنبيهاً على أن طاعة الله تجلب كل خير وكرامة ، ومعصيته توجب كل بلية ، كما كشف عنه الزمان على ما هو معروف من تواريخ اليهود وغيرها ، لاح أن القرآن يزيد عليه في كل معنى حسن وأمر شريف فيما أتى به من الوعود الصادقة ، والأحكام المحكمة ، والمعاني الفائقة ، في النظوم العذبة الرائقة ، مع الإعجاز عن الإتيان بآية من مثله لجميع الإنس والجان بنسبة ما زاد المسير المحمدي إلى بيت المقدس – الذي أراه فيه من آياته – على المسير الموسوي الذي آتاه فيه الكتاب ، فقال – في جواب من كأنه قال : قد علم أن كتاب موسى عليه السلام الذي أنزل في مسيرة لقصد محل المسجد الأقصى قيم في الهداية والوعود الصادقة ، فما حال الكتاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي

أنزل عليه منه في سبب مسيرة إليه في ذلك ؟ ﴿ إن هذا القرءان ﴾ أي الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس ﴿ يهدي ﴾ .

(5/451)

ولما كان صاحب الذوق السليم يجد لحذف الموصوف هزة وروعة ، لما يجد من الفخامة بإبهامه لا يجدها عند ذكره وإيضاحه ، قال ﴿ للتي ﴾ أي للطرائق والأحوال والسنن التي ﴿ هي أقوم ﴾ من كل طريقة وسنة وحال دعا إليها كتاب من الكتب السماوية ، أما في الصورة فباعتبار ما علا به من البيان ، وأما في الوعود فباعتبار العموم لجميع الخلق في الدارين ، وأما في الأصول فبتصريف الأمثال وتقريب الوسائل ، وحسم مواد الشبه وإيضاح وجوه الدلائل ، وأما الفروع فباعتبار الأحسنية تارة في السهولة والخفة ، وتارة في غير ذلك - كما هو واضح عند من تأمل ما بين الأمرين .

ولما انقسم الناس إلى مهتد به وضال ، أتبع سبحانه ذلك بيانه ، وكان التعبير عن حالهما بالبشرى في قوله تعالى : ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي الراسخين في هذا الوصف ، ولهذا قيدهم بياناً لهم بقوله تعالى : ﴿ الذين ﴾ يصدقون إيمانهم بأنهم ﴿ يعملون ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم ﴿ الصالحات ﴾ من التقوى والإحسان

﴿ أن لهم ﴾ أي جزاء لهم في ظاهرهم وبواطنهم ﴿ أجراً كبيراً ﴾ إشارة إلى صلاح هذه الأمة وثباتهم على دينهم وأنه لا يزال أمرهم ظاهراً كما كان إنذار كتاب موسى عليه السلام قومه إشارة إلى إفسادهم وتبديلهم دينهم .

ولما بشرهم بما لهم في أنفسهم ، أتبعه ما لهم في أعدائهم فقال تعالى : ﴿ وأن ﴾ أي ويبشر المؤمنين أيضاً بأن ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد منهم إيمان ﴿ بالآخرة ﴾ حقيقة أو مجازاً ، المسبب عنه أنهم لا يعملون الصالحات حقيقة لعدم مباشرتها ، أو مجازاً ببنائها على غير أساس الإيمان ؛ وعبر بالعتاد تهكماً بهم ، فقال تعالى : ﴿ أعتدنا ﴾ أي أحضرنا وهيأنا ما هو في غاية الطيب والنفاسة والملاءمة على سبيل الوعد الصادق الذي لا يتخلف بوجه ، وهو مع ذلك منظور إليه ، لعظمتنا ﴿ لهم ﴾ من عندنا بواسطة المؤمنين أو بلا واسطة .

(6/451)

ولما استشرف الأعداء إلى هذا الوعد استشراف المغتبط المسرور ، أتاهم في تفسيره بما خلع قلوبهم على طريقة " تحية بينهم ضرب وجيع " وسر قلوب الأولياء سروراً عظيماً ، فقال تعالى : ﴿ عذاباً أليماً ﴾ فإنه لا بشرى لذوي الهمم أعلى ولا أسر من الانتقام من

مخالفيهم ، فصار فضل الكتاب على الكتاب كفضل الذهاب على الذهاب ، وحذف المؤمنين الذين لا يعملون الصالحات ، لتمام البشارة بالإشارة إلى أنهم من القلة في هذه الأمة الشريفة بحيث لا يكادون أن يوجدوا .

(7/451)

ولما ذكر سبحانه ما لكلامه من الدعاء إلى الأقوام ، أتبعه ما عليه الإنسان من العوج الداعي له إلى العدول عن التمسك بشرائعه القويمة والإقدام على ما لا فائدة فيه ، تنبيهاً على ما يجب عليه من التأني للنظر فيما يدعو إليه نفسه ووزنه بمعيار الشرع ، فقال تعالى :

﴿ ويدع ﴾ حذف واوه - الذي هو لام الفعل - خطأً في جميع المصاحف ولا موجب لحذفه لفظاً في العربية - مشير إلى أنه يدعو بالشر لسفهه وقلة عقله ، وهو لا يريد علو الشر عليه - بما أشير إليه بحذف ما معناه عند أهل الله الرفعة والعلو ، وإلى أن غاية فعله الهلاك إلى أن يتداركه الله ، وقد ذكرت حكم الوقف عليه وعلى أمثاله في سورة القمر

﴿ الإنسان ﴾ أي عند الغضب ونحوه على نفسه وعلى من يحبه ، لما له من الأنس بنفسه والنسيان لما يصلحه ﴿ بالشر ﴾ أي ينادي ربه ويتضرع إليه بسبب إيقاع الشر به ﴿ دعاءه ﴾ أي مثل دعائه ﴿ بالخير ﴾ أي بحصول الخير له ولمن يحبه ؛ ثم نبه على الطبع

الذي هو منبع ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وكان الإنسان ﴾ أي هذا النوع بما له من قلة التدبر لاشتغاله بالنظر في عطفيته والأنس بنفسه ، كوناً هو مجبول عليه ﴿ عجولاً ﴾ أي مبالغاً في العجلة يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله من غير أن يتأنى فيه تأني المتبصر الذي لا يريد أن يوقع شيئاً إلا في أتم مواقعه ، ولذلك يستعجل العذاب لنفسه استهزاء ، ولغيره استشفاء ؛ والعجلة : طلب الشيء في غير وقته الذي لا يجوز تقديمه عليه ، وأما السرعة فهي عمله في أول وقته الذي هو أولى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 366.364 ﴾

(8/451)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين وهو الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام ، وما فعله في حق العصاة

والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم، كان ذلك تنبيهاً على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة، لا جرم أثنى على القرآن فقال: ﴿إِنَّ هذا القرءان يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 161] يدل على كون هذا الدين مستقيماً، وقوله في هذه الآية: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان.

وأقول: قولنا هذا الشيء أقوم من ذاك، إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة، ثم كان حصول معنى الاستقامة في إحدى الصورتين أكثر وأكمل من حصوله في الصورة الثانية، وهذا محال لأن المراد من كونه مستقيماً كونه حقاً وصدقاً، ودخول التفاوت في كون الشيء حقاً وصدقاً محال، فكان وصفه بأنه أقوم مجازاً، إلا أن لفظ الأفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا: الله أكبر أي الله كبير، وقولنا: الأشج والناقص أعدلا بني مروان، أي: عادلاً بني مروان، أو يحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف، والله أعلم.

البحث الثاني: قوله: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ نعت لموصوف محذوف، والتقدير: يهدي للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق، ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله: ﴿ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: 34] أي بالخصلة التي هي أحسن.

أما قوله : ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ فاعلم أنه تعالى وصف القرآن بثلاثة أنواع من الصفات :

الصفة الأولى : أنه يهدي للتي هي أقوم ، وقد مر تفسيره .

والصفة الثانية : أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير ، وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هادياً إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح ، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر ، وذلك هو الأجر الكبير لأن الطريق الأقوم لا بد وأن يفيد الربح الأكبر والنفع الأعظم .

والصفة الثالثة : قوله : ﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وذلك لأن الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح ، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم ، فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل .

واعلم أن قوله : ﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ عطف على قوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم ، ونظيره قوله : بشرت زيداً أنه سيعطى وبأن عدوه سيمنع .

فإن قيل : كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب ؟

قلنا : مذكور على سبيل التهكم ، أو يقال : إنه من باب إطلاق اسم الضدين على الآخر ، كقوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

فإن قيل : هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الإيمان بالآخرة ، فكيف يليق بهذا الموضع قوله : ﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قلنا عنه جوابان : أحدهما : أن أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين ، والثاني : أن بعضهم قال : ﴿ لن تَمَسَّنَا النار إِلا أَيَّامًا معدودات ﴾ [آل عمران : 24] فهم في هذا القول صاروا كالمنكرين للآخرة ، والله أعلم .

(10/451)

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) ﴾

وفي الآية مباحث :

البحث الأول : اعلم أن وجه النظم هو أن الإنسان بعد أن أنزل الله عليه القرآن وخصه بهذه النعمة العظيمة والكرامة الكاملة ، قد يعدل عن التمسك بشرائعه والرجوع إلى بياناته

، ويقدم على ما لا فائدة فيه فقال : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَاءُه بالخير ﴾ .

البحث الثاني : اختلفوا في المراد من دعاء الإنسان بالشر على أقوال :

القول الأول : المراد منه : النضر بن الحرث حيث قال : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] فأجاب الله دعاءه وضربت رقبته ، فكان بعضهم يقول : ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ [العنكبوت : 29] .

وآخرون يقولون : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] .

وإنما فعلوا ذلك للجهل واعتقاد أن محمداً كاذب فيما يقول .

والقول الثاني : المراد أنه في وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله ، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً فأقبل يئن بالليل فقالت له : ما لك تئن ؟ فشكى ألم القيد فأرخت له من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبي عليه الصلاة والسلام دعا به فأعلم بشأنه ، فقال عليه الصلاة والسلام : " اللهم اقطع يدها " فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني سألت الله أن يجعل دعائي على من لا يستحق عذاباً من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما تغضبون ، فلترد سودة يدها "

والقول الثالث : أقول : يحتمل أن يكون المراد : أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلباً لشيء

يعتقد أن خيره فيه ، مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره ، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء ، وإنما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولاً مغتراً بظواهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها .

(11/451)

البحث الرابع : القياس : إثبات الواو في قوله : ﴿ وَيَدْعُ ﴾ إلا أنه حذف في المصحف من الكتابة ، لأنه لا يظهر في اللفظ ، أما لم تحذف في المعنى لأنها في موضع الرفع ، ونظيره : ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ الله المؤمنين ﴾ [النساء : 146] ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ [ق : 41] ﴿ فَمَا تُغْنِ النذر ﴾ [القمر : 5] ولو كان بالواو والياء لكان صواباً هذا كلام الفراء .

وأقول : إن هذا يدل على أنه سبحانه قد عصم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فإن إثبات الياء والواو في أكثر ألفاظ القرآن وعدم إثباتهما في هذه المواضع المعدودة يدل على أن هذا القرآن نقل كما سمع ، وأن أحداً لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ وفي هذا الإنسان قولان :

القول الأول : آدم عليه السلام ، وذلك لأنه لما انتهت الروح إلى سرته نظر إلى جسده

فأعجبه فذهب لينهض فلم يقدر ، فهو قوله : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ .

والقول الثاني : أنه محمول على الجنس ، لأن أحداً من الناس لا يعرى عن عجلة ، ولو تركها لكان تركها أصلح له في الدين والدنيا ، وأقول : بتقدير أن يكون المراد هو القول الأول ، كان المقصود عائداً إلى القول الثاني ، لأنا إذا حملنا الإنسان على آدم عليه الصلاة والسلام كان المعنى أن آدم الذي كان أصل البشر لما كان موصوفاً بهذه العجلة وجب أن تكون هذه صفة لازمة للكل ، فكان المقصود عائداً إلى القول الثاني ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 128. 131 ﴾

(12/451)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾

فيها تأويلان :

أحدهما : شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله الكلبي والفراء .

الثاني : ما تضمنه من الأوامر والنواهي التي هي أصوب ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾

فيه وجهان من التأويل :

أحدها : أن يطلب النفع في العاجل بالضر العائد عليه في الآجل .

الثاني : أن يدعوا أحدهم على نفسه أو ولده بالهلاك ، ولو استجاب دعاءه بهذا الشر كما استجاب له بالخير لهلك .

﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : عجولاً في الدعاء على نفسه وولده وما يخصه ، وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد .

الثاني : أنه عنى آدم حين نفخ فيه الروح ، حتى بلغت الى سُرّته فأراد أن ينهض عجلاً ، وهذا قول إبراهيم والضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/451)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن ﴾ الآية ،

﴿ يهدي ﴾ في هذه الآية بمعنى يرشد ، ويتوجه فيها أن تكون بمعنى يدعو ، و﴿ التي ﴾ يريد بها الحالة والطريقة ، وقالت فرقة ، ﴿ للتي هي أقوم ﴾ لا إله إلا الله .

قال القاضي أبو محمد : والأول أعم وكلمة الإخلاص وغيرها من الأقوال داخلة في الحال " التي هي أقوم " من كل حال تجعل بازائها ، والاقتصار على ﴿ أقوم ﴾ ولم يذكر من كذا إيجاز ، والمعنى مفهوم ، أي ﴿ للتي هي أقوم ﴾ من كل ما غايرها فهي النهاية في القوام ، وقيد المؤمنين بعمل الصالحات إذ هو كمال الإيمان وإن لم يكن في نفسه ، والمؤمن المفرط في العمل له بإيمانه حظ في عمل الصالحات : و" الأجر الكبير " الجنة ، وكذلك حيث وقع في كتاب الله فضل كبير وأجر كبير فهو الجنة ، وقوله ﴿ أن ﴾ الأولى في موضع نصب ب ﴿ يبشر ﴾ ، و﴿ أن ﴾ الثانية عطف على الأولى ، وهي داخلة في جملة بشارة المؤمنين ، بشرهم القرآن بالجنة ، وأن الكفار لهم عذاب أليم ، وذلك أن علم المؤمنين بهذا مسرة لهم ، وفي هذه البشارة وعيد للكفار بالمعنى ، هذا الذي تقتضيه ألفاظ الآية ، وقرأ الجمهور ، " ويُبَشِّر " بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين ، وقرأ ابن مسعود ويحيى بن وثاب وطلحة " ويَبْشُر " بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين ، و﴿ أعتدنا ﴾ معناه أحضرنا وأعددنا ومنه العتاد ، و" الأليم " الموجع ، وقوله ﴿ ويدع الإنسان ﴾ الآية ، سقطت الواو من ﴿ يدع ﴾ في خط المصحف لأنهم كتبوا المسموع ، وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد : هذه

الآية نزلت ذامة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم وأبنائهم في وقت الغضب والضجر ، فأخبر الله أنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت كما تدعون بالخير في وقت التثبت ، فلو أجاب الله دعاءهم أهلكهم ، لكنه يصفح ولا يجيب دعاء الضجر المستعجل ، ثم عذر بعض العذر في أن الإنسان له عجلة فطرية ، و﴿ الإنسان ﴾ هنا قيل يريد به الجنس بحسب ما في الخلق من ذلك قاله مجاهد وغيره ، وقال سلمان الفارسي وابن عباس : إشارته إلى آدم في أنه لما نفخ الروح في رأسه عطس وأبصر فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقيه أعجبته نفسه فذهب ليمشي مستعجلاً لذلك فلم يقدر وأشارت ألفاظ هذه الآية

(15/451)

إلى هذا والمعنى فأنتم ذوو عجلة موروثة من أبيكم ، ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل أسيراً في قيْد في بيت سودة بنت زمعة فسمعت سودة أنينه فأشفقت فقالت له ما بالك ؟ فقال : ألم القيد ، فقالت : فأرخت من ربطه فسكت ، ثم نامت ، فتحيل في الانحلال وفر ، فطلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصبح ، فأُخبر الخبر ، فقال قطع الله يدها ففزعت سودة ورفعت يديها نحو السماء وهي تخاف الإجابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله قد جعل دعائي في مثل هذا رحمة على المدعو عليه ، لأني بشر أغضب وأعجل ، فلترد سودة يديها " ، وقالت فرقة هذه الآية نزلت في شأن قريش الذين قالوا ﴿ اللهم إن كان الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] ، وكان الأولى أن يقولوا فاهدنا إليه وارحمنا به فذمهم الله تعالى في هذه الآية بهذا ، وقالت فرقة : معنى هذه الآية : معاتبة الناس على أنهم إذا نالهم شر وضرعوا وألحوا في الدعاء الذي كان يجب أن يدعوه في حالة الخير ويلتزمه من ذكر الله وحمده والرغبة إليه ، لكنه يقصر حينئذ ، فإذا مسه ضر ألح واستعجل الفرج ، فالآية على هذا من نحو قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعَانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضُر مسه ﴾ [يونس : 12] . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(16/451)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾

قال ابن الأنباري : "التي" وصف للجمع ، والمعنى : يهدي إِلى الخصال التي هي أقوم الخصال .

قال المفسرون : وهي توحيد الله والإِيمان به وبرسله والعمل بطاعته ، ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم ﴾ أي : بأن لهم ﴿ أجراً ﴾ وهو الجنة ، ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي : ويبشرهم بالعذاب ، لأعدائهم ، وذلك أن المؤمنين كانوا في أذىً من المشركين ، فعجَّل الله لهم البشرى في الدنيا بعقاب الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ ويدعُ الإِنسان بالشر ﴾

وذلك أن الإِنسان يدعو في حال الضجر والغضب على نفسه وأهله بما لا يحب أن يستجاب له كما يدعو لنفسه بالخير .

﴿ وكان الإِنسان عجولاً ﴾ يعجِّل بالدعاء بالشر عند الغضب والضجر عَجَلَته بالدعاء بالخير .

وفي المراد بالإِنسان هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم جنس يراد به الناس ، قاله الزجاج وغيره .

والثاني : آدم ، فاكتفى بذكره من ذكر ولده ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنه النضر بن الحارث حين قال : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] ، قاله مقاتل .

وقال سلمان الفارسي : أول ما خلق الله من آدم رأسه ، فجعل ينظر إِلى جسده كيف يخلق

، قال : فبقيت رجلاه ، فقال : يا رب عجِّل ، فذلك قوله : ﴿ وكان الإِنسان عجولا ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(17/451)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بيّن أن الكتاب الذي أنزل الله عليه سبب اهتداء .

ومعنى ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أي الطريقة التي هي أسدّ وأعدل وأصوب ؛ ف "التي" نعت لموصوف محذوف ، أي الطريقة التي هي أقوم .

وقال الزجاج : للحال التي هي أقوم الحالات ، وهي توحيد الله والإيمان برسله .

وقاله الكلبي والفرّاء .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ تقدّم .

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم .

﴿ أَجْراً كَبِيراً ﴾ أي الجنة .

﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب.

والقرآن معظمه وعد ووعيد.

وقرأ حمزة والكسائِيّ "وَيَبْشُر" مخففاً بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر.

قوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير ﴾

قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللَّهُمَّ أهلكه، ونحوه.

﴿ دُعَآءَهُ بالخير ﴾ أي كدعائه ربّه أن يَهَب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك.

نظيره: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير ﴾ [يونس: 11] وقد تقدّم.

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32].

وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطوف بالبيت فيمن يطوف . . .

وأرفع من مِئْزَرِي المُسْبَلِ

وأسجد بالليل حتى الصباح . . .

وأَتْلُو من الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ

عسى فارجُ الْهَمِّ عن يوسفٍ . . .

يُسَخِّرِ لي ربَّةَ المَحْمِلِ

(18/451)

قال الجوهري : يقال ما على فلان مَحْمِل مثال مجلس أي معتمد .

والمَحْمِل أيضاً : واحد محامل الحاج.

والمِحْمَل مثال المِرْجَل : عِلاقة السيف .

وحذفت الواو من "ويدع الإنسان" في اللفظ والخط ولم تحذف في المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة ؛ كقوله تعالى : ﴿ سَنَدْعُو الزبانية ﴾ [العلق : 18] ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ [الشورى : 24] ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ الله المؤمنين ﴾ [النساء : 146] ﴿ يُنَادِ المناد ﴾ [ق : 41] ﴿ فَمَا تُغْنِي النذر ﴾ [القمر : 5] ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ أي طبعه العَجَلة ، فيَعْجَل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير .

وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركّب فيه الروح على الكمال .

قال سلمان : أوّل ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده ، فلما كان

عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال : يا ربّ عَجّل قبل الليل ؛ فذلك قوله : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ وقال ابن عباس : لما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر ؛ فذلك قوله : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ .

وقال ابن مسعود : لما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة ؛ فذلك حين يقول : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ذكره البيهقي .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما صور الله تعالى آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِق خلقاً لا يتمالك " وقد تقدّم .

(19/451)

وقيل : " سلّم عليه السلام أسِيراً إلى سَوْدة فبات يئنّ فسألته فقال : أنيني لشدّة القِدّ والأسر ؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب ؛ فأخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "قطع الله يديك" فلما أصبحت كانت تتوقّع الآفة ؛ فقال عليه السلام : "إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر" "

ونزلت الآية ؛ ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللَّهُمَّ إنما محمد بشر يغضَب كما يغضَب البشر وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تُخْلِفَنِيه فأيُّما مؤمنٍ آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقُرْبَةً تقرّبُه بها إليك يوم القيامة " وفي الباب عن عائشة وجابر .

وقيل : معنى "وكان الإنسان عجولاً" أي يؤثر العاجل وإن قَلّ ، على الآجل وإن جَلّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(20/451)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

لما ذكر تعالى من اختصه بالإسراء وهو محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومن آتاه التوراة وهو موسى عليه السلام وأنها هدى لبني إسرائيل ، وذكر ما قضى عليهم فيها من التسليط عليهم بذنوبهم ، كان ذلك رادعاً من عقل عن معاصي الله فذكر ما شرف الله به رسوله من القرآن الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب إلهي ، وأنه يهدي للطريقة أو الحالة التي

هي أقوم .

وقال الضحاك والكلبي والفراء ﴿ التي هي أقوم ﴾ هي شهادة التوحيد .

وقال مقاتل : للأوامر والنواهي و ﴿ أقوم ﴾ هنا أفعل التفضيل على قول الزجاج إذ قدر أقوم الحالات وقدره غيره أقوم مما عداها أو من كل حال ، والذي يظهر من حيث المعنى أن ﴿ أقوم ﴾ هنا لا يراد بها التفضيل إذ لا مشاركة بين الطريقة التي يرشد إليها القرآن وطريقة غيرها ، وفضلت هذه عليها وإنما المعنى التي هي قيمة أي مستقيمة كما قال : ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ و ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ أي مستقيمة الطريقة ، قائمة بما يحتاج إليه من أمر الدين .

وقال الزمخشري : ﴿ التي هي أقوم ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأشدّها أو للملة أو للطريقة ، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف لحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه انتهى .

﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ قيد في الإيمان الكامل إذ العمل هو كمال الإيمان ، نبه على الحالة الكاملة ليتحلى بها المؤمن ، والمؤمن المفرط في عمله له بإيمانه حظ في عمل الصالحات والأجر الكبير الجنة .

وقال الزمخشري : فإن قلت كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ قلت :

كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي ، وإما مشرك ، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك انتهى .

(21/451)

وهذا مكابرة بل وقع في زمان الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بعض المؤمنين هنات وسقطات بعضها مذكور في القرآن ، وبعضها مذكور في الحديث الصحيح الثابت .

﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ عطف على قوله : ﴿ أن لهم أجراً كبيراً ﴾ بشروا بفوزهم بالجنة وبكينونة العذاب الأليم لأعدائهم الكفار ، إذ في علم المؤمنين بذلك وتبشيرهم به مسرة لهم ، فهما بشارتان وفيه وعيد للكفار .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ويخبر بأن الذين لا يؤمنون انتهى .

فلا يكون إذ ذاك داخلاً تحت البشارة .

وفي قوله : ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ دليل على أن من آمن بالآخرة لا يعدّ له عذاب أليم ، وأنه ليس عمل الصالحات شرطاً في نجاته من العذاب .

وقرأ الجمهور ﴿ ويبشر ﴾ مشدّداً مضارع بشر المشدّد .

وقرأ عبد الله وطلحة وابن وثاب والإخوان ﴿ ويبشر ﴾ مضارع بشر المخفف ومعنى

﴿ أعتدنا ﴾ أعددنا وهيأنا ، وهذه الآية جاءت عقب ذكر أحوال اليهود ، واندرجوا فيمن لا يؤمن بالآخرة لأن أكثرهم لا يقول بالثواب والعقاب الجسماني وبعضهم قال : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ فلم يؤمنوا بالآخرة حقيقة الإيمان بها .

﴿ ويدع الإنسان ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : نزلت ذامّة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم وأبنائهم في أوقات الغضب والضجر ، ومناسبتها لما قبلها أن بعض من لا يؤمن بالآخرة كان يدعو على نفسه بتعجيل ما وعد به من الشر في الآخرة ، كقول النضر : ﴿ فأمطر علينا حجارةً ﴾ الآية .

وكتب ﴿ ويدع ﴾ بغير واو على حسب السمع والإنسان هنا ليس واحداً معيناً ، والمعنى أن في طباع الإنسان أنه إذا ضجر وغضب دعا على نفسه وأهله وماله بالشر أن يصيبه كما يدعو بالخير أن يصيبه ، ثم ذكر تعالى أن ذلك من عدم تثبته وقلة صبره .

(22/451)

وعن سلمان الفارسي وابن عباس : أشار به إلى آدم لما نفخ الروح في رأسه عطس وأبصر ، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقه أعجبته نفسه فذهب يمشي مستعجلاً فلم يقدر ، أو المعنى ذو عجلة موروثة من أبيكم انتهى .

وهذا القول تنبو عنه ألفاظ الآية .

وقالت فرقة : هذه الآية ذم لقريش الذين قالوا : { اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك } الآية .

وكان الأولى أن يقولوا : فاهدنا إليه وارحمنا .

وقالت فرقة : هي معاتبة للناس على أنهم إذا نالهم شر وضر دعوا وألحوا في الدعاء واستعجلوا الفرج ، مثل الدعاء الذي كان يجب أن يدعوه في حالة الخير انتهى .

والباء في { بالشر } و{ بالخير } على هذا بمعنى في ، والمدعوّ به ليس الشر ولا الخير ، ويراد على هذا أن تكون حالتاه في الشر والخير متساويتين في الدعاء والتضرّع لله والرغبة والذكر ، وينبو عن هذا المعنى قوله : { دعاءه } إذ هو مصدر تشبيهي يقتضي وجوده ، وفي هذا القول شبه { دعاءه } في حالة الشر بدعاء مقصود كان ينبغي أن يوجد في حالة الخير .

وقيل : المعنى { ويدع الإنسان } في طلب المحرم كما يدعو في طلب المباح . انتهى انتهى . ا هـ { البحر المحيط حـ 6 صـ }

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ هذا القرءان ﴾

الذي آتيناكَهُ ﴿ يَهْدِى ﴾ أي الناسَ كافةً لا فِرقةً مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿ لِلَّتِى ﴾ للطريقة التي ﴿ هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي أقومُ الطرائقِ وأسدُّها أعني ملةَ الإسلامِ والتوحيدِ ، وتركُ ذكرِها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخَصلة ونحوِها مما يعبّر به عن المقصد المذكور بل للإيذان بالغِنى عن التصريح بها لغاية ظهورِها لا سيما بعد ذكر الهدايةِ التي هي من روادفها ، والمرادُ بهدايته لها كونُه بحيث يهتدي إليها من يتمسك به لا تحصيلُ الاهتداء بالفعل فإنه مخصوصٌ بالمؤمنين حينئذ ﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين ﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع ، وقرىء بالتخفيف ﴿ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ التي شرحت فيه ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم بمقابلة تلك الأعمالِ ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشرَ مرات فصاعداً .

﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ وأحكامِها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاءِ ، وتخصيصُها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها مُعظمَ ما أُمروا بالإيمان به ، ولمراعاة التناسبِ بين أعمالهم وجزائِها الذي أنبأ عنه قوله عز وجل : ﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴾ وهو عذابُ جهنمَ أي أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجودَه من الآخرة عذاباً أليماً وهو أبلغُ في الزجر لما أن إتيانَ العذابِ من حيث لا يُحتسب أفظعُ وأفجعُ ، والجملةُ

معطوفة على جملة يبشّر بإضمار يُخبر، أو على قوله تعالى: ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ داخلةٌ معه تحت التبشير المرادِ به مجازاً مطلقُ الإخبار المنتظمِ للإخبار بالخبر السارِّ وبالنبأ الضارِّ فيكون ذلك بياناً لهداية القرآنِ بالترغيب والترهيب، ويجوز كونُ التبشير بمعناه والمرادُ تبشيرُ المؤمنين ببشارتين: توليهم وعقابِ أعدائهم.

(24/451)

وقوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر ﴾ بيانٌ لحال المهديِّ إثرَ بيان حالِ الهادي، وإظهارٌ لما بينهما من التباين، والمرادُ بالإنسان الجنسُ أسند إليه حال بعضِ أفراده أو حُكي عنه حالُه في بعض أحيانه فالمعنى على الأول أن القرآنَ يدعو الإنسانَ إلى الخير الذي لا خيرَ فوقه من الأجر الكبيرِ ويحذّر من الشر الذي لا شرَّ وراءه من العذاب الأليم، وهو أي بعضٌ منه وهو الكافرُ يدعو لنفسه بما هو الشرُّ من العذاب المذكور إما بلسانه حقيقةً كدأب مَنْ قال منهم: ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ومن قال: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ إلى غير ذلك مما حُكي عنهم وإما بأعمالهم السيئة المُفضية إليه الموجبةِ له مجازاً كما هو ديدنُ كلِّهم ﴿ دُعَاءهُ بالخير ﴾ أي مثلَ دعائه بالخير المذكور فرضاً لا تحقيقاً فإنه بمعزل من الدعاء به

وفيه رمزٌ إلى أنه اللائقُ بحاله ﴿ وَكَانَ الإنسانُ ﴾ أي مَن أُسند إليه الدعاءُ المذكورُ من أفراده ﴿ عَجُولاً ﴾ يسارع إلى طلب ما يخطر بباله متعامياً عن ضرره أو مبالغاً في العجلة يستعجل العذابَ وهو آتيه لا محالة ، ففيه نوعُ تهكمٍ به ، وعلى تقدير حمل الدعاءِ على أعمالهم تُحمل العَجولية على اللَّجّ والتمادي في استيجاب العذابِ بتلك الأعمال ، وعلى الثاني أن القرآنَ يدعو الإنسانَ إلى ما هو خيرٌ وهو في بعضِ أحيانه كما عند الغضبِ يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شرٌّ ، وكان الإنسان بحسب جبلّته عجولاً ضجِراً لا يتأسَّى إلى أن يزول عنه ما يعتريه .

(25/451)

روي أنه عليه الصلاة والسلام دفع إلى سَوْدَةَ أسيراً فأرخت كتافه رحمةً لأنينه بالليل من ألم القيد فهرب فلما أُخبر به النبيُّ عليه الصلاة والسلام قال : " اللهم اقطع يديها " فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة ، فقال عليه الصلاة السلام : " إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أهلي عذاباً رحمةً " أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيراً ، وكان الإنسان عجولاً غيرَ متبصّر لا يتدبر في أموره حقَّ التدبر ليتحقق ما هو خيرٌ حقيقٌ بالدعاء

به وما هو شرٌّ جديرٌ بالاستعاذة منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(26/451)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ هذا القرءان ﴾

الذي آتيناكه ، وهذا متعلق بصدر السورة كما مرت الإشارة إليه ، وفي الإشارة بهذا تعظيم لما جاء به النبي المجتبى صلى الله عليه وسلم ﴿ يَهْدِى ﴾ أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى عليه السلام ﴿ لِلَّتِى ﴾ أي الطريقة التي ﴿ هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي أقوم الطرق وأسدها أعني ملة الإسلام والتوحيد فللتي صفة لموصوف حذف اختصاراً وقدره بعضهم الحالة أو الملة ، وأيما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في الإبهام من الدلالة على أنه جرى الوادي وطم على القرى ، و ﴿ أَقْوَمُ ﴾ أفعل تفضيل على ما أشار إليه غير واحد .

وقال أبو حيان : الذي يظهر من حيث المعنى أنه لا يراد به التفضيل إذ لا مشاركة بين الطريقة التي يهدي لها القرآن وغيرها من الطرق في مبدأ الاشتقاق لتفضل عليه فالمعنى للتي

هي قيمة أي مستقيمة كما قال الله تعالى ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : 3] ﴿ ذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ [البينة : 5] اه .

وإلى ذلك ذهب الإمام الرازي ﴿ وَيُبَشّرُ المؤمنين ﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع .

وقرأ عبد الله .

وطلحة .

وابن وثاب .

والإخوان ﴿ وَيُبَشّرُ ﴾ بالتخفيف مضارع بشر المخفف وجاء بشرته وبشرته وأبشرته ﴿ الذين يَعْمَلُونَ ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ التي شرحت فيه ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم بمقابلة أعمالهم ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشراً فصاعداً وفسر ابن جريج الأجر الكبير وكذا الرزق الكريم في كل القرآن بالجنة

﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾

وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء من الثواب والعقاب الروحانيين والجسمانيين ، وتخصيص الآخرة بالذكر من بينت سائر ما لم يؤمن به الكفرة لكونها معظم ما أمروا الايمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قوله تعالى :

﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب جهنم أي أعددنا وهيأنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذاباً مؤلماً ، وهو أبلغ في الزجر لما أن إتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع وأفجع ، ولعل أهل الكتاب داخلون في هذا الحكم لأنهم لا يقولون بالجزاء الجسماني ويعتقدون في الآخرة أشياء لا أصل لها فلم يؤمنوا بالآخرة وأحكامها المشروحة في هذا القرآن حقيقة الايمان فافهم .

والعطف على ﴿ أن لهم أجراً كبيراً ﴾ [الإسراء : 9] فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشراً به كثبوت الأجر الكبير للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ومصيبة العدو سرور يبشر به فكأنه قيل يبشر المؤمنين بثوابهم وعقاب أعدائهم ، ويجوز أن تكون البشارة مجازاً مرسلاً بمعنى مطلق الاخبار الشامل للأخبار بما فيه سرور وللاخبار بما ليس كذلك ، وليس فيه الجمع بين معنى المشترك أو الحقيقة والمجاز حتى يقال : إنه من عموم المجاز وإن كان راجعاً لهذا أو العطف على ﴿ يُبَشِّرُ ﴾ [الإسراء : 9] أو ﴿ يَهْدِى ﴾ [الإسراء : 9] بإضمار يخبر فيكون من عطف الجملة على الجملة ، ولا يخفى ما في الآية من ترجيح الوعد على الوعيد .

ونبه سبحانه على ما في "البحر" بوصف المؤمنين بالذين يعملون الصالحات على الحالة الكاملة لهم ليتحلى المؤمن بذلك وأنت تعلم أنه إن فسر الأجر الكبير بالجنة فهو ثابت للمؤمن العامل وللمؤمن المفرط إذ أصل الإيمان متكفل بدخول الجنة فضلاً من الله تعالى ورحمة ، نعم ما أعد للعامل في الجنة أعظم مما أعد للمفرط ، وإن فسر بما أعده الله تعالى في الآخرة من الجنة والدرجات العلي وأنواع الكرامات فيها التي لا يتكفل بها مجرد الايمان فظاهر أن ذلك غير ثابت للمؤمن المفرط فلا بد من التوصيف ولا يلزم منه عدم دخول المفرط الجنة ، نعم يلزم منه أن لا يثبت له الأجر الكبير بالمعنى السابق ، والآيات التي يفهم منها دخوله الجنة كثيرة ولعل هذه الآية يفهم منها ذلك واقتضى المقام عدم التصريح بحكمه .

وفي "الكشاف" أنه تعالى ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة لأن الناس حينئذ إما مؤمن تقي وإما مشرك وأصحاب المنزلة بين المنزلتين إنما حدثوا بعد ذلك .

وتعقبه أبو حيان بأنه مكابر فقد وقع في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم من بعض المؤمنين هفوات وسقطات بعضها مذكور في القرآن وبعضها مذكور في الأحاديث الصحيحة اه .

والمقرر في الأصول أن الأكثر على عدالة الصحابة ومن طرأ له منهم قادح كسرقة وزنا عمل بمقتضاه ، ثم ما ذكره من المنزلة بين المنزلتين الظاهر أنه أراد به ما ذهب إليه إخوانه المعتزلة

من أن متركب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر وإذا مات من غير توبة خلد في النار وقد رد ذلك في علم الكلام فتدبر .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر ﴾

قال شيخ الإسلام : بيان لحال المهدي إثر بيان حال الهادي وإظهار لما بينهما من التباين والمراد بالإنسان الجنس أسند إليه حال بعض أفراده وهو الكافر ، وإليه يشير كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أو حكى عنه حاله في بعض أحيانه كما يقتضيه ما روى عن الحسن .

(29/451)

ومجاهد فالمعنى على الأول أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذي لا خير فوقه من الأجر الكبير ويحذره من الشر الذي لا شر وراءه من العذاب الأليم وهو أي بعض أفراده أعني الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور إما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم : ﴿ اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] ومن قال : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [

الأعراف : 70] إلى غير ذلك مما حكى عنهم ، وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه الموجبة له مجازاً كما هو ديدن كلهم .

وبعضهم جعل الدعاء باللسان مجازاً أيضاً عن الاستعجال استهزاء .

﴿ دُعَاءهُ ﴾ أي دعاء كدعائه فحذف الموصوف وحرف التشبيه وانتصب المجرور على المصدرية وهو مراد من قال : مثل دعائه ﴿ بالخير ﴾ المذكور فرضاً لا تحقيقاً فإنه بمعزل عن الدعاء به ، وفيه رمز إلى أنه اللائق بحاله .

﴿ وَكَانَ الإنسان ﴾ أي من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده ﴿ عَجُولاً ﴾ يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعامياً عن ضرره أو مبالغاً في العجلة يستعجل الشر والعذاب وهو آتيه لا محالة ففيه نوع تهكم به ، وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تجعل العجولة على اللج والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال ، والمعنى على الثاني أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير وهو في بعض أحيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الإنسان بحسب جبلته عجولاً ضجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه .

أخرج الواقدي في المغازي عن عائشة رضي الله تعالى عنها : " أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها باسير وقال لها : احتفظي به قالت : فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عنه فقلت : والله لا أدري وغفلت عنه فخرج فقال : قطع الله يدك ثم خرج عليه الصلاة والسلام فصاح به فخرجوا في طلبه حتى وجدوه ثم دخل علي فرآني وأنا أقرب يدي فقال : ما لك ؟ قلت : انتظر دعوتك فرفع يديه وقال : اللهم إنما أنا بشر آسف وأغضب كما يغضب البشر فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوتك عليه بدعوة فاجعلها له زكاة وطهراً "

أو يدعو بما هو شر ويحسبه خيراً وكان عجولاً غير مستبصر لا يتدبر في أموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وهو شر جدير بالاستعاذة منه اه مع بعض زيادة وتغيير .

واختار إرادة الكافر من الإنسان الأول بعض المحققين وذكر في وجه ربط الآيات أنه تعالى لما شرح ما خص به نبيه صلى الله عليه وسلم من الإسراء وإيتاء موسى عليه السلام التوراة وما فعله بالعصاة المتمردين من تسليط البلاء عليهم كان ذلك تنبيهاً على أن طاعة الله تعالى توجب كل خير وكرامة ومعصية سبحانه توجب كل بلية وغرامة لا جرم قال : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يهدى ﴾ [الإسراء : 9] الخ ثم عطف عليه ﴿ وَجَعَلْنَا الليل ﴾ [الإسراء : 12] الخ بجامع دليل العقل والسمع أو نعمتي الدين والدنيا ، وأما اتصال قوله تعالى : ﴿

وَيَدْعُ الإنسان ﴾ الخ فهو أنه سبحانه لما وصف القرآن حتى بلغ به الدرجة القصوى في الهداية أتى بذكر من أفرط في كفران هذه النعمة العظمة قائلاً ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] الخ .

(31/451)

ومثل هذا ما قيل إنه تعالى بعد إن وصف القرآن بما وصف ذم قريشاً بعدم سؤالهم الهداية به وطلبهم إنزال الحجارة عليهم أو إيتاء العذاب الأليم إن كان حقاً ، وفي "الكشف" أن قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان ﴾ الخ بيان أن القرآن يهديهم للتي هي أقوم ويأبون إلا التي هي ألوم وهو وجه للربط مطلقاً وكل ما ذكروه في ذلك متقارب .

ويرد على حمل الدعاء على الدعاء بالأعمال والعجولية على اللج والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال خلاف المتبادر كما لا يخفى ، وفسر بعضهم الإنسان الثاني بآدم عليه السلام لما أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهما عن سليمان الفارسي قال : أول ما خلق الله تعالى من آدم عليه السلام رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر قال : يا رب أعجل قبل الليل

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ ، وروى نحوه عن مجاهد وروى القرطبي والعهدة عليه أنه لما وصلت الروح لعينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت جوفه اشتهاها فوثب عجلاً إليها فسقط ، ووجه ارتباط ﴿ وَكَانَ الإنسان ﴾ الخ على هذا القول إفادته أن عجلته بالدعاء لضجره أو لعدم تأمله من شأنه وأنه موروث له من أصله وشنشنة يعرفها من أخزم فهو اعتراض تذييلي وكلام تعليلي والأولى إرادة الجنس وإن كان ألفاظ الآية لا تنبو عن إرادة آدم عليه السلام كما زعم أبو حيان ثم أن الباء في الموضعين على ظاهرها صلة الدعاء ، وقيل : إنها بمعنى في والمعنى يدعو في حالة الشر والضر كما كان يدعو في حالة الخير فالمدعو به ليس الشر والخير ، وقيل : إنها للسببية أي يدعو بسبب ذلك وكلا القولين مخالفين للظاهر لا يعول عليهما ، واستدل بالآية على بعض الاحتمالات على المنع من دعاء الرجل على نفسه أو على ماله أو على أهله وقد جاء النهي عن ذلك صريحاً في بعض الأخبار .

(32/451)

فقد أخرج أبو داود والبزار عن جابر عن قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدعو على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعو على أموالكم لئلا توافقوا من الله تعالى

ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم " وبه يرد على ما قيل من أن الدعاء بذلك لا يستجاب فضلاً من الله تعالى وكرماً .

(33/451)

واستشكل بأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على أهله كما سمعت في حديث الواقدي ، وأجيب عن ذلك بأنه كان للزجر وإن كان وقت الغضب وقد اشترط صلى الله عليه وسلم على ربه سبحانه في مثل ذلك أن يكون رحمة فقد صح أنه عليه الصلاة والسلام قال : " إني اشترطت على ربي فقلت إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طوراً وزكاة وقربة " وذكر النووي في جواب ما يقال : إن ظاهر الحديث أن الدعاء ونحوه كان بسبب الغضب ما قال المازري من أنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن دعاءه وسبه ونحوهما كان مما يخير فيه بين أمرين أحدهما هذا الذي فعله والثاني زجره بأمر آخر فحمله الغضب لله تعالى على أحد الأمرين المخير فيهما وليس ذلك خارجاً عن حكم الشرع ، والمراد من قوله عليه الصلاة والسلام ليس لها بأهل ليس لها بأهل عند الله تعالى وفي باطن الأمر ولكنه في الظاهر مستوجب لذلك ، وقد يستدل على ذلك بإمارات

شرعية وهو مأمور صلى الله عليه وسلم بالحكم بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر ، وقيل : إن ما وقع منه عليه الصلاة والسلام من الدعاء ونحوه ليس بمقصود بل هو مما جرت به عادة العرب في وصل كلامهما بلا نية كتربت يمينك وعقري حلقي لكن خاف صلى الله عليه وسلم أن يصادف شيء من ذلك إجابة فسأل ربه سبحانه وتعالى ورغب إليه في أن يجعل ذلك زكاة وقربة ، نعم في ذكر حديث الواقدي ونحوه كالحديث الذي ذكره البيضاوي في المقام الذي ذكر فيه لا يخلو عن شيء فتأمل ، ثم إن القياس إثبات الواو في ﴿ يَدْعُ ﴾ الإنسان إذ لا جازم تحذف له لكن نقل القرآن العظيم كما يمع ولم يتصرف فيه الناقل بمقدار فهمه وقوة عقله . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(34/451)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسراءيل فِى الكتاب ﴾

أي : أعلمنا وأخبرنا ، أو حكمنا وأتممنا ، وأصل القضاء : الإحكام للشيء والفراغ منه ؛ وقيل : أوحينا ، ويدل عليه قوله إلى بني إسرائيل ، ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال : قضينا بني إسرائيل ، ولو كان بمعنى حكمنا لقال : على بني إسرائيل ، ولو كان بمعنى أتممنا

لقال : لبني إسرائيل ، والمراد بالكتاب : التوراة ، ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه ؛ وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ .

وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير : (في الكتب) .

وقرأ عيسى الثقفي : (لتفسدنّ في الأرض) بفتح المثناة ، ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور ، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا في نفوسهم ، والمراد بالفساد : مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة ، والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس ؛ وقيل : أرض مصر ، واللام في ﴿ لتفسدن ﴾ جواب قسم محذوف .

قال النيسابوري : أو أجري القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدنّ .

وانتصاب ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف ، أو على أنه في نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه ، والمرة الأولى : قتل شعياء أو حبس أرمياء ، أو مخالفة أحكام التوراة ، والثانية : قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ هذه اللام كاللام التي قبلها ، أي : لتستكبرنّ عن طاعة الله ولتستعلنّ على الناس بالظلم والبغي مجاوزين للحد في ذلك ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهما ﴾ أي : أولى المرتين المذكورتين ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : قوّة في الحروب وبطش عند اللقاء .

قيل : هو بختنصر وجنوده ؛ وقيل : جالوت ؛ وقيل : جند من فارس ؛ وقيل : جند من بابل

﴿ فَجَاسُواْ خلال الديار ﴾ أي : عاثوا وتردّدوا ، يقال : جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى ، ذكره ابن غرير والقتيبي .

قال الزجاج : معناه طافوا خلال الديار ، هل بقي أحد لم يقتلوه ؟ قال : والجوس طلب الشيء باستقصاء .

قال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أي : تخللوها ، كما يجوس الرجل للأخبار ، أي : يطلبها ، وكذا قال أبو عبيدة .

وقال ابن جرير : معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين .

وقال الفراء : معناه قتلوهم بين بيوتهم وأنشد لحسان :

وَمِنَّا الذي لاقي بسَيْفٍ مُحَمَّدٍ . . . فَجاسَ بِهِ الأَعْدَاءَ عُرْضَ العَسِاكِرِ

وقال قطرب : معناه نزلوا .

وأنشد قول الشاعر :

فجسنا ديارهم عنوة . . . وأُبنَا بساداتهم موثقينا

وقرأ ابن عباس (فحاسوا) بالحاء المهملة .

قال أبو زيد : الحوس ، والجوس ، والعوس ، والهوس : الطوف بالليل ، وقيل : الطوف بالليل

هو الجوسان محركاً ، كذا قال أبو عبيدة .

وقرىء (خلل الديار) .

ومعناه معنى خلال وهو : وسط الديار ﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ أي : كائناً لا محالة .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ﴾ أي : الدولة والغلبة والرجعة ، وذلك عند توبتهم . قيل : وذلك حين قتل داود جالوت ، وقيل : حين قتل بختنصر ﴿ وأمددناكم بأموال وَبَنِينَ ﴾ بعد نهب أموالكم وسبي أبنائكم ، حتى عاد أمركم كما كان .

(36/451)

﴿ وجعلناكم أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ قال أبو عبيدة : النفير : العدد من الرجال ؛ فالمعنى ؛ أكثر رجالاً من عدوكم ، والنفير : من ينفر مع الرجل من عشيرته ، يقال : نفير ونافر مثل : قدير وقدر ، ويجوز أن يكون النفير جمع : نفر ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ ﴾ أي : أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ، ﴿ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ لأن ثواب ذلك عائد إليكم ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ ﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم ، ﴿ فَلَهَا ﴾ أي : فعليها .

ومثله قول الشاعر :

فخر صريعاً لليدين وللفم . . . أي : على اليدين وعلى الفم .

قال ابن جرير : اللام بمعنى إلى ، أي : فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] أي : إليها ؛ وقيل : المعنى : فلها الجزاء أو العقاب .

وقال الحسين بن الفضل : فلها ربّ يغفر الإساءة ، وهذا الخطاب : قيل هو لبني إسرائيل الملابثين لما ذكر في هذه الآيات ، وقيل : لبني إسرائيل الكائنين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : إعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك ، وقيل : هو خطاب لمشركي قريش .

﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخرة ﴾ أي : حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة ، والمرة الآخرة : هي قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق ، وقصة قتله مستوفاة في الإنجيل ، واسمه فيه يوحنا ، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله ، واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة .

وقال ابن جرير : هيردوس ، وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف ، تقديره : بعثناهم ، لدلالة جواب " إذا " الأولى عليه ، ﴿ يسؤووا وُجُوهَكُمْ ﴾ متعلق بهذا الجواب المحذوف أي : ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة ، وتتبين في وجوهكم الكآبة ، وقيل : المراد بالوجوه السادة منهم .

وقرأ الكسائي (لنسوء) بالنون ، على أن الضمير لله سبحانه .

وقرأ أبيّ : (لنسوءن) بنون التأكيد .

(37/451)

وقرأ أبو بكر ، والأعمش ، وابن وثاب ، وحمزة ، وابن عامر " ليسوء " بالتحتية والإفراد .

قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ، والضمير : لله أو الوعد ﴿ وَلِيَدْخُلُوا المسجد ﴾ معطوف على ﴿ ليسوءوا ﴾ .

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أي : يدمروا ويهلكوا ، وقال قطرب : يهدموا ، ومنه قول الشاعر :

فما الناسُ إلاّ عامِلان فَعَاملٌ . . . يُتَبِّر ما يَبْنِي ، وآخر رافع

وقرأ الباقون بالتحتية ، وضم الهمزة ، وإثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي : ما غلبوا عليه من بلادكم ، أو مدة علوهم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ أي : تدميراً ، ذكر المصدر إزالة للشك وتحقيقاً للخبر .

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ يا بني إسرائيل بعد انتقامه منكم في المرة الثانية .

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ للثالثة ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم .

قال أهل السير : ثم إنهم عادوا إلى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد من بعثه في التوراة والإنجيل ، فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدي العرب ، فجرى على بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والإجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم ، وضرب الذلة والمسكنة .

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين حَصِيرًا ﴾ وهو المحبس ، فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول .

والمعنى : أنهم محبوسون في جهنم لا يتخلصون عنها أبداً .

قال الجوهري : حصره يحصره حصراً : ضيق عليه وأحاط به ؛ وقيل : فراشاً ومهاداً ، - وأراد على هذا - بالحصير : الحصير الذي يفرشه الناس ﴿ إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ يعني : القرآن يهدي الناس الطريقة التي هي أقوم من غيرها من الطرق وهي ملة الإسلام ، فالتي هي أقوم صفة لموصوف محذوف وهي الطريق .

وقال الزجاج : للحال التي هي أقوم الحالات ، وهي توحيد الله والإيمان برسله ، وكذا قال الفراء .

﴿ وَيُبَشِّرُ المؤمنين ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يبشر) بفتح الياء وضم الشين .

وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الشين من التبشير أي : يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلاً وعاجلاً للمؤمنين ﴿ الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ التي أرشد إلى عملها القرآن ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أي : بأنّ لهم .

﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ وأحكامها المبينة في القرآن ﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وهو عذاب النار ، وهذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير : يخبر ، أي : ويخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ؛ وقيل : معطوفة على قوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ ، ويراد بالتبشير : مطلق الإخبار ، أو يكون المراد منه معناه الحقيقي ، ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين : الأولى : ما لهم من الثواب ، والثانية : ما لأعدائهم من العقاب .

﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر ﴾ المراد بالإنسان هنا : الجنس ، لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده ، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له ﴿ دُعَاءهُ بالخير ﴾ أي : مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما ، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشرّ هلك ، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة ، ومثل ذلك ﴿ وَلَوْ يُعَجّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير ﴾ [يونس : 11] .

وقد تقدّم ؛ وقيل : المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة : هو الكافر يدعو لنفسه بالشرّ ،

وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقول القائل : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

(39/451)

وقيل : هو أن يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح ، وحذفت الواو من ﴿ ويدع الإنسان ﴾ في رسم المصحف لعدم التلفظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله : ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] و ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ [الشورى : 24] و ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ الله المؤمنين ﴾ [النساء : 146] ونحو ذلك .

﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ أي : مطبوعاً على العجلة ، ومن عجلته : أنه يسأل الشر كما يسأل الخير ؛ وقيل : إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح ، والمناسب للسياق هو الأوّل .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسراءيل ﴾ قال : أعلمناهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : أخبرناهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ وقَضَيْنَا إلى بَنِى إسراءيل ﴾ : قضينا

عليهم .

وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن عليّ في قوله : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرض مَرَّتَيْنِ ﴾ قال : الأولى : قتل زكريا ، والآخرة : قتل يحيى .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية ، قال : كان أوّل الفساد قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، ثم إن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم ، فذلك قوله : ﴿ ثم رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : بعث الله عليهم في الأولى جالوت ، وبعث عليهم في المرة الأخرى بختنصر ، فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ فَجَاسُواْ ﴾ قال : فمشوا .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ تدميرا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ قال : كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ قال : فعادوا فبعث الله سبحانه عليهم محمداً ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

واعلم أنها قد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرّتين ، وفي تعيين من سلطه الله عليهم ، وفي كيفية الانتقام منهم ، ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين حَصِيرًا ﴾ قال : سجنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ، قال : معنى حصيراً : جعل الله مأواهم فيها .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ حَصِيرًا ﴾ قال : فراشاً ومهاداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ قال : للتي هي أصوب .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيراً " إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشّرُ " بالتخفيف .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَاءهُ بالخير ﴾ يعني قول الإنسان : اللهم العنه واغضب عليه .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ قال : ضجراً ، لا صبر له على سرّاء ولا ضرّاء .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن سلمان الفارسي قال : أوّل ما خلق الله من آدم رأسه ، فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر قال : يا ربّ أعجل قبل الليل ، فذلك قوله : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(41/451)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة وهو تأييد النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات والمعجزات ، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ [الإسراء : 2] .

وأعقب ذلك بذكر ما أنزل على بني إسرائيل من الكُتب للهدى والتحذير ، وما نالهم من جراء مخالفتهم ما أمرهم الله به ، ومن عدولهم عن سَنَن أسلافهم من عهد نوح .

وفي ذلك فائدة التحذير من وقوع المسلمين فيما وقع فيه بنو إسرائيل ، وهي الفائدة العظمى من ذكر قصص القرآن ، وهي فائدة التاريخ .

وتأكيد الجملة مراعى فيه حال بعض المخاطبين وهم الذين لم يذعنوا إليه ، وحالُ المؤمنين من الاهتمام بهذا الخبر ، فالتوكيد مستعمل في معنييه دفع الإنكار والاهتمام ، ولا تعارض بين الاعتبارين .

وقوله : ﴿ هذا القرآن ﴾ إشارة إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزل من القرآن قبل هذه الآية .

وبُينت الإشارة بالاسم الواقع بعدها تنويهاً بشأن القرآن .

وقد جاءت هذه الآية تنفيساً على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قصت عن بني إسرائيل وما حل بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك ، فأخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل ، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وفي التعبير بـ ﴿ التي هي أقوم ﴾ نكتة لطيفة ستأتي .

وتلك عادة القرآن في تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه .

و ﴿ التي هي أقوم ﴾ صفة لمحذوف دل عليه ﴿ يهدي ﴾ ، أي للطريق التي هي أقوم ، لأن الهداية من ملازمات السير والطريق ، أو للملة الأقوم ، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر .

والأقوم : تفضيل القويم .

والمعنى : أنه يهدي للتي هي أقوم من هُدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله : ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ [الإسراء : 2] .

ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم ، لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل ، ولا يغادر مسلكاً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكهُ إليها تحريضاً أو تحذيراً ، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه ، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقومَ من الطرائق الأخرى وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة .

وهذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفاراً ، وحسبك مثالاً لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك بحيث سلمت هذه الآية في جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي ، فلم تنزل إلى

حضيض الشرك بحال ، فمحل التفضيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق والصدق ، وليس محل التفضيل تلك الغاية حتى يقال : إن الحق لا يتفاوت .

والأجر الكبير فُسر بالجنة ، والعذابُ الأليم بجهنم ، والأظهر أن يحمل على عموم الأجر والعذاب ، فيشمل أجر الدنيا وعذابها ، وهو المناسب لما تقدم من سعادة عيش بني إسرائيل وشقائه ، فجعل اختلاف الحالين فيهما موعظة لحالي المسلمين والمشركين .

وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ عطف على ﴿ أن لهم أجرا كبيرا ﴾ لأنه من جملة البشارة ، إذ المراد بالذين لا يؤمنون بالآخرة مشركو قريش وهم أعداء المؤمنين ، فلا جرم أن عذاب العدو بشارة لمن عاداه .

(43/451)

والاقتصار على هذين الفريقين هو مقتضى المقام لمناسبة تكذيب المشركين بالإسراء فلا غرض في الإعلام بحال أهل الكتاب .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) ﴾

موقع هذه الآية هنا غامض ، وانتزاع المعنى من نظمها وألفاظها أيضاً ، ولم يأت فيها المفسرون بما ينثلج له الصدر .

والذي يظهر لي أن الآية التي قبلها لما اشتملت على بشارة وإنذار وكان المنذرون إذا سمعوا الوعيد والإنذار يستهزئون به ويقولون : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يس : 48] عُطف هذا الكلام على ما سبق تنبيهاً على أن لذلك الوعد أجلاً مسمى .

فالمراد بالإنسان الإنسان الذي لا يؤمن بالآخرة كما هو في قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ و ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ [مريم : 66 67] وإطلاق الإنسان على الكافر كثير في القرآن .

وفعل يدعو ﴾ مستعمل في معنى يطلب ويبتغي ، كقول لبيد :

ادْعُو بهن لعَاقر أو مُطْفِل

بُذِلَت لجيران الجميع لِحَامُها . . .

وقوله : ﴿ دعاءه بالخير ﴾ مصدر يفيد تشبيهاً ، أي يستعجل الشر كاستعجاله الخير ، يعني يستبطىء حلول الوعيد كما يستبطىء أحد تأخر خير وعد به .

وقوله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ تذييل ، فالإنسان هنا مراد به الجنس لأنه المناسب للتذييل ، أي وما هؤلاء الكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة إلا من نوع الإنسان ، وفي نوع الإنسان الاستعجال فإن (كان) تدل على أن اسمها متصف بخبرها اتصافاً متمكناً كقوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف : 54] .

والمقصود من قوله : وكان الإنسان عجولاً ﴾ الكناية عن عدم تبصره وأن الله أعلم

بمقتضى الحكمة في توقيت الأشياء ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ﴾ [يونس : 11] ، ولكنه دَرّج لهم وصول الخير والشر لطفاً بهم في الحالين .

(44/451)

والباء في قوله : بالشر وبالخير لتأكيد لصوق العامل بمعموله كالتي في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] ؛ أو لتضمين مادة الدعاء معنى الاستعجال ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى : 18] .

وعجول : صيغة مبالغة في عاجل .

يقال : عجل فهو عاجل وعجول .

وكتب في المصحف ويدع ﴿ بدون واو بعد العين إجراء لرسم الكلمة على حالة النطق بها في الوصل كما كتب ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] ونظائرها .

قال الفراء : لو كتبت بالواو لكان صواباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(45/451)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ الآية .

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة : أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية ، وأجمعها لجميع العلوم ، وآخرها عهداً برب العالمين جلَّ وعلا - يهدي للتي هي اقوم . اي الطريق التي هي أسد وأعد واصوب . ف ﴿ التي ﴾ نعت لموصوف محذوف . على حد قول ابن مالك في الخلاصة :

وما من المنعوت والنعت عقل . . . يجوز حذفه وفي النعت يقل

وقال الزجاج والكلبي والفراء : للحال التي هي أقوم الحالات ، وهي توحيد الله والإيمان برسله .

وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها واصوبها ، لو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم . لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة . ولكنَّنا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة مِن هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة ، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام ، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفَّار ، وطعنوا بسببها في دين الإسلام ، لقصور إدراكهم عن معرفة

حكمها البالغة.

فمن ذلك توحيد الله جلَّ وعلا: فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي اقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيده جلَّ وعلا في ربوبيته، وفي عبادته، وفي اسمائه وصفاته. وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(46/451)

الأول – توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف: 87] الآية، وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَمَن يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 31] وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء: 23] تجاهل من عارف أنه عبد مربوب. بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: 102] الآية، وقوله: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل: 14] وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ

﴾ [يوسف : 106] ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً .

الثاني – توحيده جلَّ وعلا في عبادته . وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى " لا إله إلا الله " وهي متركبة من نفي وإثبات . فمعنى النفي منها : خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت . ومعنى الإثبات منها : إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص ، على الوجه الذي شرعه على أسنة رسله عليهم الصلاة والسلام .

وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد ، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] .

(47/451)

ومن الآيات الدالة على هذا الانوع من التوحيد قوله تعالى : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 19] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] ، وقوله : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [

الأنبياء : 108] فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول : إنما أوحي إليه محصزر في هذا النوع من التوحيد . لشمول كلمة " لا إله إلا الله " لجميع ما جاء في الكُتب . لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده . فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي ، وما يتْبع ذلك من ثواب وعقاب ، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة .

النوع الثالث – توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته . وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين :

الأول – تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم . كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11]

والثاني – الإيمان بما وصف الله به نفسه . أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائق بكماله وجلاله . كما قال بعد قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف ، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] وقد قدمنا هذا المبحث مستوفىً موضحاً بالآيات القرآنية " في سورة الأعراف " .

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلَّ وعلا – على وجوب توحيده في عبادته. ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير. فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده. لن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ﴾ [يونس: 31] إلى قوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾ [يونس: 31]. فلمَّا أقروا بربوبيته وبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 31].

ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الأرض وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: 84-85] فلمَّا اعترفوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: 85]، ثم قال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات السبع وَرَبُّ العرش العظيم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: 86-87] فلما أقرُّوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 87]، ثم قال: ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾

[المؤمنون: 88-89] فما أقروا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ فأنى

تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 89] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات والأرض قُلِ الله ﴾ [الرعد : 16] فما صح الاعتراف وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله : ﴿ قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ [الرعد : 16] .

(49/451)

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] فلما صح إقرارهم وبخهم منكراً عليهم بقوله : ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 87] .

(50/451)

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [العنكبوت : 61] فلما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله : ﴿ فأنى يُؤْفَكُون ﴾ [الزخرف 87 ، العنكبوت : 61] وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [العنكبوت63] فلما

صح إقرارهم وبخهم منكراً عليهم شِركهم بقوله : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 63] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] فما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : 25] ، وقوله تعالى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ [النمل : 59-60] ولا شك أن الجواب غلي لا جواب لهم البتة غيره : هو أن القادر على خلق السّماوات والأرض وما ذكر معها ، خير من جماد لا يقد على شيء . فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله . ﴿ أإله مَّعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : 60] ، ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً ﴾ ﴿ النمل : 61] ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله . فلما تعين اعتارفهم وبخهم منكرا عليهم بقوله : ﴿ أإله مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : 61] ، ثم قال جلّ وعلا : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السوء وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ

الأرض ﴾ [النمل : 62] ولا شك أن الجواب كما قبله . فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكراً عليهم بقوله ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : 62] ، ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [النمل : 63] ، ولا شك أن الجواب كما قبله . فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكراً عليهم بقوله : ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 63] ، ثم قال جلّ وعلا : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ [النمل : 64] ، ولا شك أن الجواب كما قبله . فلما تعين الاعتراف وبخهم منكراً عليهم بقوله : ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 64] ، وقوله : ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الروم : 40] ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو : لا ! أي ليس من شركائنا من يقدر على ان يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء .

فلم تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 40] .

والآيات بنحو هذا كثيرة جداً . ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع : أم كل الأسئلة المتعلّقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير ، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار . لأن المقر بالبروبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة . نحو قوله تعالى : ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم : 10] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً ﴾ [الأنعام : 164] وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار . لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلّق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكا ، لأنهم لا ينكرون الربوبين ، كما رابت كثرة الآيات الدالة عليه .

والكلام على أقسام التوحيد ستجده إن شاء الله في مواضع كثيرة مِن هذا الكتاب المبارك ، بحسب المناسبات في الآيات التي تتكلم على بيانها بآيات أخر .

ومن هذي القرآنِ للتي هي أقوم – جعله الطلاق بيد الرجل . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾ [الطلاق : 1] الآية ، ونحوها من الآيات . لأن النساء مزارع وحقول ، تبذر فيها النطف كما يبذر الحب في الأرض . كما قال تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 223] .

ولا شك أن الطريق التي هي اقوم الطرق : أن الزارع لا يرغم على الأزدارع في حقل لا يرغب الزراعة فيه لأنه يراه غير صالح له ، والدليل الحسي القاطع على ما جاء به القرآن من أن الرجل زارع ، والمرأة مزرعة – أن آلة الأزدراع مع الرجل . فلو أرادت المرأة أن تجامع الرجل

وهو كاره لها ، لا رغبة له فيها لم ينتشر ، ولم يقم ذكره إليها فلاتقدر منه على شيء ، بخلاف الرجل فإنه قد يرغمها وهي كارهة فتحمل وتلد . كما قال أبو كبير الهذلي :

ممن حملن بها به وهو عواقد . . . حبك النطاق فشب غير مهبل

فدلت الطبيعة والخلقة على أنه فاع وأنها مفعول به ولذا أجمع العقلاء على نسبة الولد له لا لها .

(53/451)

وتسوية المرأة بالرجل في ذلك مكابرة في المحسوس ، كما لا يخفى .

ومن هدي القرآن للتي هي اقوم – إباحته تعدد الزوجات إلى أربع ، وأن الرجل إذا خاف عدم العدل بينهن ، لزمه الاقتصار على واحدة ، أو ملك يمنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي اليتامى فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ ﴾ [النساء : 3] ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها ، هي إباحة تعدد الزوجات لأمور محسوسة يعرفها كلُّ العُقَلاء .

منها – أن المرأة الواحدة تحيض وتمرض ، وتنفس إلى غير ذلك من العوائق المانعة من قيامها بأخص لوازم الزوجية ، والرجل مستعد للتسبب في زيادة الأُمة ، فلو حبس عليها في أحوال

أعذارها لعطلت منافعه باطلاً في غير ذنب .

ومنها – أن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عدداً من النساء في أقطار الدنيا ، وأكثر تعرضاً لأسباب الموت منهن في جميع ميادين الحياة . فلو قصر الرجل على واحدة ، لبقي عدد ضخم من النساء محروماً من الزواج ، فيضطرون إلى ركوب الفاحشة فالعدول عن هدي القرآن في هذه المسألة من أعظم أسباب ضياع الأخلاق ، والانحطاط إلى درجة البهائم في عدم الصيانة ، والمحافظة على الشرف والمروءة والأخلاق ! فسبحان الحكيم الخبير ! كتاب حكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

(54/451)

ومنها – أن الإناث كلهن مستعدات للزواج ، وكثير من الرجال لا قدرة لهم على القيام بلوازم الزواج لفقرهم . فالمستعدون للزواج من الرجال أقل من المستعدات له من النساء . لأن المرأة لا عائق لها ، والرجل يعوقه الفق وعدم القدرة على لوازم النكاح . فلو قصر الواحد على الواحدة ، لضاع كثير من المستعدات للزواج أيضاً بعدم وجود أزواج . فيكون ذلك سبباً لضياع الفضيلة وتفشي الرزيلة ، والانحطاط الخلقي ، وضياع القيم الإنسانية ، كما هو واضح . فإن خاف الرجل إلا يعدل بينهن ، وجب عليه الاقتصار على واحدة ، أو

ملك يمينه . لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ﴾ [النحل : 90] الآية .

والميل بالتفضيل في الحقوق الشرعية بينهن لا يجوز ، لقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الميل فَتَذَرُوهَا كالمعلقة ﴾ [النساء : 129] . أما الميل الطبيعي بمحبة بعضهن أكثر من بعض ، فهو غير مستطاع دفعه للبشر ، لأنه انفعال وتأثر نفساني لا فعل ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَلَن تستطيعوا أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النسآء ﴾ [النساء : 129] الآية ، كما أوضحناه في غير هذا الموضع . ومت يزعمه بعض الملاحدة من أعداء دين الإسلام ، من أن تعدد الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة ، لأنه كلما أرضى إحدى الضرتين سَخطت الأخرى . فهو بين سخطتين دائماً – وأن هذا ليس من الحكمة . فهو كلام ساقط ، يظهر سقوطه لكل عاقل . لأن الخصام والمشاغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه ألبتة ، فيقع بين الرجل وأمه ، وبينه وبين أبيه ، وبينه وبين أولاده ، وبينه وبين زوجته الواحدة . فهو أمر عادي ليس له كبير شأن ، وهو في جنب المصالح العظيمة التي ذكرنا في تعدد الزوجات من صيانة النساء وتيسير التزويج لجميعهن ، وكثرة عدد الأمة لتقوم بعددها الكثير في وجه الإسلام – كلا شيء ، لأن المصلحة العظمى يقدم جلبها على دفع المفسدة الصغرى .

فلو فرضنا أن المشاغَبة المزعومة في تعدد الزوجات مفسدة ، أو أن إيلام قلب الزوجة الأولى بالضرة مفسدة ، لقدمت عليها تلك المصالح الراجحة التي ذكرنا ، كما هو معروف في الأصول . قال في مراقي السعود عاطفاً على ما تلغى فيه المفسدة المرجوحة في جنب المصلحة الراجحة :

أو رجح الإصلاح كالأسارى . . . تفدى بما ينفع للنصارى

وانظر تدلي دوالي العنب . . . في كل مشرق وكل مغرب

ففداء الأسارى مصلحة راجحة ، ودفع فدائهم النافع للعدو مفسدة مرجوحة ، فتقدم عليها المصلحة الراجحة . أما إذا تساوت المصلحة والمفسدة ، أو كانت المفسدة أرجح كفداء الأسارى بسلاح يتمكن بسببه العدو من قتل قدر الأسارى أو أكثر من المسلمين ، فإن المصلحة تلغى لكونها غير راجحة ، كما قال في المراقي :

اخرم مناسباً بمفسد لزم . . . للحكم وهو غير مرجوح علم

وكذلك العنب تعصر منه الخمر وهي أم الخبائث ، إلا أن مصلحة وجود العنب والزبيب والانتفاع بهما في أقطار الدنيا مصلحة راجحة على مفسدة عصر لخمر منها ألغيت لها تلك المفسدة المرجوحة . واجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون سبباً لحصول الزنى إلا أن التعاون بين المجتمع من ذكور وإناث مصلحة أرجح من تلك المفسدة ،

ولذا لم يقل أحد من العلماء إنه يجب عزل النساء في محلٍّ مستقل عن الرجال، وأن يجعل عليهن حصن قوي لا يمكن الوصول إليهن معه، وتجعل المفاتيح بيد أمين معروف بالتقى والديانة كما هو مقرر في الأصور.

فالقرآن أباح تعدّد الزواجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج، ولمصلحة الرجل بعدم تعطّل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة ليكثر عددها فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطل بعض منافع الرجل، وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية. والعلم عند اله تعالى.

(56/451)

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم – تفضيله الذكر على الأنثى في الميراث. كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء: 176].

وقد صرح تعالى في هذه الآية الكريمه: أنه يبين لخلقه هذا البيان الذي من جملته تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث لئلا يضلوا. فمن سوى بينهما فيه فهو ضال قطعاً.

ثم بين أنه أعلم بالحكم والمصالح وبكل شيء من خلقه بقوله : ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، وقال : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ [النساء : 11] الآية .

ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدّ لها تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث الذي ذكره الله تعالى . كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ ﴾ [النساء : 34] أي وهو الرجال ﴿ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : 34] اي وهو النساء ، وقوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [النساء : 228] وذلك لأن الذكورة كمال خلقي ، وقوة طبيعة ، وشرف وجمال . والأنوثة نقص خلقي ، وضعف طبيعي ، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء ، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس . وقد أشار جل وعلا إلى ذلك بقوله : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] لأن الله أنكر عليهم في هذه الآية الكريمة أنهم نسبوا له ما لا يليق به من الولد ، ومع ذلك نسبوا له أخس الولدين وأنقصهما وأضعفهما .

ولذلك ينشأ في الحلية اي الزينة من أنوع الحلي والحلل ليجبر نقصه الخلقي الطبيعي بالتجميل بالحُلي والحلل وهو الأنثى . بخلاف الرجل . فإن كمال ذكورته وقوتها وجمالها يكفيه على الحلي . كما قال الشاعر :

وما الحلي إلا زينة من نقيصة . . . يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

أما إذا كان الجمال موفراً . . . كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

وقال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى ﴾ [النجم : 21-22]

وإنما كانت هذه القسمة ضيزى – أي غير عادلة – لأن الأُنثى أنقص من الذكر خلقة وطبيعة . فجعلوا هذا النصيب الناقص لله جلّ وعلا – سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ! وجعلوا الكامل لأنفسهم كما قال : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : 62] اي وهو البنات . وقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : 85] إلى قوله ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : 59] ، وقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ [الزخرف : 17] – أي وهو الأنثى ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف : 17] .

وكل هذه الآيات القرآنية تدل على أن الأنثى ناقصة بمقتضى الخلقة والطبيعة ، وأن الذكر أفضل وأكمل منها . ﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات : 153-154] ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً ﴾ [الإسراء : 40] الآية ، والآيات الدالة على تفضيله عليه كثيرة جداً .

ومعلوم عند عامة العقلاء : أن الأنثى متاع لا بد له ممن يقوم بشؤونه ويحافظ عليه .

وقد اختلف العلماء في التمتع بالزوجة : هل هو قوت ؟ أو تفكه ؟ وأجرى علماء المالكية

على هذا الخلاف حكم إلزام الابن بتزويج أبيه الفقير قالوا : فعلى أن النكاح قوت فعليه تزويجه ؟ لأنه من جملة القوت الواجب له عليه . وعلى أنه تفكه لا يجب عليه على قول بعضهم . فانظر شبه النساء بالطعام والفاكهة عند العلماء ، وقد جاءت السنة الصحيحة بالنهي عن قتل النساء والصبيان في الجهاد . لأنهما من جملة مال المسلمين الغانمين . بخلاف الرجال فإنهم يقتلون .

(58/451)

ومن الأدلة على أفضلية الذكر على الأنثى : أن المرأة الأولى خلقت من ضلع الرجل الأول فأصلها جزء منه . فإذا عرفت من هذه الأدلة : أن الأنوثة نقص خلقي ، وضعف طبيعي – فاعلم أن العقل الصحيح الذي يدرك الحكم والأسرار ، يقضي بأن الناقص الضعيف بخلقته وطبيعته ، يلزم أن يكون تحت نظر الكامل في خلقته ، القوي بطبيعته . ليجلب له ما لا يقدر عليه جلبه من النفع ، ويدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من الضر . كما قال تالى ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النسآء بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [النساء : 34] .

وإذا علمت ذلك – فاعلم أنه لما كانت الحكمة البالغة ، تقتضي أن يكون الضعيف الناقص

مقوماً عليه من قبل القوي الكامل ، اقتضى ذلك أن يكون الرجل ملزماً بالإنفاق على نسائه ، والقيام بجميع لوازمهن في الحياة .

(59/451)

كما قال تعالى : ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : 34] ومال الميراث ما مسحا في تحصيله عرقاً ، ولا تسببا فيه البتة ، وإنما هو تمليك من الله ملكهما إياه تمليكاً جبرياً . فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يؤثر الرجل على لمرأ في الميراث وإن أدليا بسبب واحد . لأن الرجل مترقب للنقص دائماً بالإنفاق على نسائه ، وبذل المهور لهن ، والبذل في نوئب الدهر . والمرأة مترقة للزّيادة بدفع الرجل لها المهر ، وإنفاقه عليها وقيامه بشؤونها . وإيثار مترقب النقص دائماً على مترقب الزيادة دءئماً لجبر بعض نقصه المترقب – حكمته ظاهرة واضحة ، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي . ولذا قال تعالى : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : 11] ولأجل هذه الحكم التّي بينا بها فضل المرأة في جميع أحوالها . وخصه بالرسالة والنبوة والخلافة دونها ، وملكه الطلاق دونها . وجعله الولي في النكاح دونها ، وجعل انتساب الأولاد إليه لا إليها ، وجعل شهادته في الأموال بشهادة امرأتين في وقله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ

مِنَ الشهدآء ﴾ [البقرة : 282] . وجعل شهادته تقبل في الحدود والقصاص دونها ، إلى غير ذلك من الفوارق الحسية والمعنوية والشرعية بينهما .

ألا ترى أن الضعف الخلقي والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجل ، مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب . قال جرير :

إن العيون التي في طرفها حور . . . قتلنا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به . . . وهن أضعف خلق الله أركانا

وقال ابن الدمينة :

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له . . . ببعض الأّذى لم يدر كيف يجيب

فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل . . . به سكتة حتى يقال مريب

(60/451)

فالأول – تشبه بهن بضعف أركانهن والثاني – بعجزهن عن الإبانة في الخصام . كما قال تعال : ﴿ وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] . ولهذا التباين في الكمال والقوة بين النوعين ، صح عن النّبي صلى الله عليه وسلم اللعن على من تشبه منهما بالآخر .

قال البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة

عن قتادة ، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال " هذا لفظ البخاري في صحيحه . ومعلوم أن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في كتاب الله . لأن اله يقول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] الآية . كما ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه كما تقدم .

فلتعلمن أيتها النساء اللاتي تحاولن أن تكن كالرجال في جميع الشؤون أنكن مترجلات متشبهات بالجال ، وأنكن ملعونات في كتاب الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . زكذلك المخنثون المتشبهون بالنساء ، فهم أيضاً ملعونون في كتاب الله على لسانه صلى الله عليه وسلم ، ولقد صدق من قال فيهم :

وما عجب أن النساء ترجلت . . . ولكن تأنيث الرجال عجاب

(61/451)

واعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه . أن هذه الفكرة الكافر ، الخاطئة الخاسئة ، المخالفة للحس والعقل ، وللوحي السماوي وتشريع الخالق البارِىء . من تسوية الأنثى بالذكر في جميع الأحكام والميادين . فيها من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني ما لا

يخفى على أحد إلا من أعمى الله بصيرته . وذلك لأن الله جلّ وعلا جعل الأنثى بصفاتها الخاصة بها صالحة لأنواع من المشاركة في بناء المجتمع الإنساني ، صلاحاً لا يصلحه غيرها ، كالحمل والوضع ، والإرضاع وتربية الأولاد ، وخدمة البيت ، والقيام على شؤونه . من طبخ وعجن وكنس ونحو ذلك . وهذه الخدمات التي تقوم بها للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر وصيانة ، وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة و والقِيم الأنسانية – لا تقل عن خدمة الرجل بالاكتساب . فزعم أولئك السفلة الجهلة من الكفار وأتباعهم : أن المرأة لها من الحقوق في الخدمة خارج بيتها مثل ما للرجل ، مع أنها في زمن حملها ورضاعها ونفاسها ، لا تقدر على مزاولة أي عمل فيه اي مشقة كما هو مشاهد . فإذا خرجي هي وزوجها بقبت خدمات البيت كلها ضائعة : من حفظ الأولاد الصغار ، وإرضاع من هو في زمن الرضاع منهم ، وتهيئة الأكل والشرب للرجل إذا جاء من علمه . فلو أجروا إنساناً يقوم مقامها ، لتعطل ذلك الإنسان في ذلك البيت التعطل الذي خرجت المرأة فراراً منه . فعادت النتيجة في حافرتها على أن خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين . لأن المرأة متا ، هو خير متاع الدنيا ، وهو أشد أمتعة الدنيا عرضاً للخيانة . لأن العين الخائنة إذا نظرت إلى شيء من محاسنها فقد استغلت بعض منافع ذلك الجمال خيانة ومكراً .

فتعريضها لأَن تكون مائدة للخونة فيه ما لا يخفى على أدنى عاقل . وكذلك إذا لمس شيئاً

من بدنها بدن خائن سرت لذة ذلك اللمس في دمه ولحمه بطبيعة الغريزة الإنسانية . ولا سيِما إذا كان القلب فارغاً من خشية الله تعالى ، فاستغل نعمة ذلك البدن

(62/451)

خيانة وغدراً . وتحريك الغرائز بمثل ذلك النظر واللمس يكون غالباً سبباً لما هو شر منه . كما هو مشاهد بكثرة في البلاد التي تخلت عن تعاليم الإسلام ، وتركت الصيانة . فصارت نساؤها يخرجن متبرِّجات عاريات الأجسام إلا ما شاء الله . لأن الله نزع من رجالها صفة الرجولة والغيرة على حريمهم . ولا حول لا قوة إلا بالله العلي العظيم ! نعوذ بالله من مسخ الضمير والذوق ، ومن كل سوء ، ودعوى الجهلة السفلة : أن داوم خروج النساء بادية الرُّؤوس والأعناق والمعاصمن والأذرع والسوق ، ونحو ذلك معناه : إشباع الرَّغبة مما لا يجوز ، حتى يزوب الأرب منه بكثرة مزاولته ، وهذا كما ترى .

ولأن الدوام لا يذهب إثارة الغريزة باتفاق العقلاء . لأن الرجل يمكث مع امرأته سنين كثيرة حتى تلد أولادها ، ولا تزال ملامسته لها ، ورؤيته لبعض جسمها تثير غريزته . كما هو مشاهد لا ينكره إلا مكابر :

لقد سمعت لو ناديتَ حياً . . . ولكن لا حياة لمن تنادي

وقد أَمر رب السماوات والأرض، خالق هذا الكون ومدبر شؤون، العلام بخفايا أمروه، وبكل ما كن وما سيكون - بغض البصر عما لا يحل. قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلك أزكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ [النور: 30-31] الآية.

(63/451)

ونهى المرأة أن تضرب برجلها لتسمع الرجال صوت خلخالها في قوله: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: 31]. ونهاهن عن لين الكلام. لئلا يطمع أهل الخنى فيهن. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بالقول فَيَطْمَعَ الذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ [الأحزاب: 32]. وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق المقام في مسألة الحجاب (في سورة الأحزاب) كما قدمنا الوعد بذلك في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

(64/451)

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: ملك الرقيق المعبر عنه في القرآن بملك اليمين في آيات كثيرة. كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: 3]، وقوله: ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: 5-6] "في سورة (قد أفلح المؤمنون)، وسأل سائل"، وقوله: ﴿ والجار ذِي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: 36]، وقوله: ﴿ والمحصنات مِنَ النسآء إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ الله ﴾ [النساء: 24] الآية، وقوله جل وعلا: ﴿ والذين يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النور: 33] الآية، وقوله: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب: 52] الآية، وقوله: ﴿ يا أيها النبي إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ الله عَلَيْكَ ﴾ [الأحزاب: 50] الآية، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ [الأحزاب: 55]، وقوله: ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ [النور: 31] وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ المحصنات المؤمنات فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ المؤمنات ﴾ [النساء: 25]، وقوله: ﴿ فَمَا الذين فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [النحل: 71]، وقوله: ﴿ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ ﴾ [الروم: 28]

الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات ونحوها : ملك الرقيق بالرق . ومن الآيات الدالة على ملك الرقيق قوله : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً ﴾ [النحل : 75] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [البقرة : 221] الآية ، ونحو ذلك من الآيات .

وسبب الملك بالرق : هو الكُفر ، ومحاربة الله ورسوله . فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم ، وجميع قواهم ، وما أعطاهم الله لِتكون كلمة الله هي العليا على الكفار – جعلهم ملكاً لهم بالسبي .

إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء . لما في ذلك من المصلحة على المسلمين .

وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة . وذلك أن الله جلَّ وعلا خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ، ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 56–57] . وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنه . كما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] ، وفي الآية الأخرى " في

سورة النحل " : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 18] . وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه . كما قال تعالى ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] فتمرد الكفار على ربهم وطغوا وعتوا ، وأعلنوا الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا ، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته ، وارتكاب ما يسخطه ، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره . وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان .

(66/451)

فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير جلَّ وعلا – عقوبة شديدة تُناسب جريمتهم . فسلبهم التصرف ، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات ، فأجاز بيعهم وشِراءهم ، وغير ذلك من التصرفات المالية ، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلباً كلياً . فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم ، وأن يطعموهم مما يطعمون ، ويكسوهم مما يلبسون ، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، وإن كلفوهم أعانوهم . كما هو معروف في السنة الورادة عنه صلى الله عليه وسلم ، مع الإيصاء عليهم

في القرآن. كما في قوله تعالى: ﴿ واعبدوا الله ولَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالوالدين إِحْسَانًا وَبِذِي القربى واليتامى ﴾ [النساء: 36] إلى قوله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيمَانكُمْ ﴾ [النساء: 36] كما تقدم.

وتشوف الشارع تشوفاً شديداً للحرية والاخراج من الرق. فأكثر اسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ وظِهار ويمين وغير ذلك. وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة في قوله: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: 33] ورغب في الإعتاق ترغيباً شديداً. ولو فرضنا - ﴿ وَلِلَّهِ المَثَل الأعلى ﴾ [النحل: 60] أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام - قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة شديدة يريد بها إسقاط حكمها، وعدم نفوذ كلمتها، والحيلولة بينها وبن ما تريده من تنفي أنظمتها، التي يظهر لها أن بهما صلاح المجتمع، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة. ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه. فهو أشد سلباً لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل.

والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذي شرعه . ليسير عليه خلقه فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة . والرخاء والعدالة ، والمساواة في الحقوق الشرعية ، وتنتظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسماها ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 90] فعاقبة الله هذه المعاقبة بمنعه التصرف . ووضع درجته وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك .

فإن قيل : إذا كان الرقيق مسلماً فما وجه ملكه بالرق ؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال ؟

فالجواب : ان القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء : أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق ، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها . فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي : ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع ، وهو الحكيم الخبير . فإذا استقر هذا الحق وثبت ، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقاً بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه . كما هو معلوم عند العقلاء . نعم ، يحسن بالمالك ويجمل به : أن يعتقه إذا أسلم ، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه ، وفتح له الأبواب الكثيرة كما قدمنا - فسبحان الحكيم الخبير ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السميع

العليم ﴾ [الأنعام : 115] فقوله ﴿ صدقاً ﴾ أي في الأخبار وقوله ﴿ وعدلاً ﴾ أي في الأحكام . ولا شك أن من ذلك العدل : الملك بالرق وغيره من أحكام القرآن .

وكم من غائبٍ قولاً صحيحاً . . . وآفته من الفهم السقيم

(68/451)

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم : القصاص . فإن الإنسان إذا غضل وهم بأن يقتل إنساناً آخر فتذكر أنه إن قتله قتل به ، خاف العاقبة فترك القتل . فحيي ذلك الذي كان يريد قتله ، وحيي هو . لأنه لم يقتل فيقتل قصاصاً . فقتل القاتل يحيا به ما لا يعلمه إلا الله كثرة كما ذكرنا . قال تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 179] ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها ، ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديماً وحديثاً قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم بكتاب اله . لأن القصاص رادع عن جريمة القتل . كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفاً . وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة . لأن فيه إقلاق عدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول ، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحْبس ، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع . كله كلام ساقط ، عار من الحكمة ! لأن الحبي لا يردع الناس عن القتل فإذا لم تكن العقوبة رادعة فإن

السفهاء يكثر منهم القتل . فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل .

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم : قطع يد السارق المنصوص عليه بقوله تعالى

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : 38] ، وقال النّبي صلى الله عليه وسلم : " لو سرقت فاطمة لقطعت يدها "

وجمهور العلماء على أن القطع من الكوع ، وأنها اليمنى . وكان ابن مسعود وأصحابه يقرؤون " فاقطعوا أيمانهما " .

والجمهور أنه إن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى ، ثم إن سرق فيده اليسرى ، ثم إن سرق فرجله اليمنى ، ثم يعزر . وقيل يقتل . كما جاء في الحديث : " ولا قطع إلا في ربْع أو قيمته أو ثلاثة دراهم " كما هو معروف في الأحاديث .

وليس قصدنا هنا تفصيل احكام السرقة . وشروط القطع ، كالنصاب والإخراج من حرز . ولكن مرادنا أن نبين أن قطع يد السارق من هدي القرآن للتي هي أقوم .

وذلك أن هذه اليد الخبيثة الخائنة ، التي خلقها الله لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه من

امتثال أوامره واجتناب نهيه ، والمشاركة في بنا المجمتع الإنساني – فمدت أصابعها الخائنة ، غلى مال الغير لتأخذه بغي حَق ، واستعلمت قُوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر ، وأخذ أموال الناي على هذا الوجه القبيح ، يد نجسة قذرة ، ساعية في الإخلال بنظام المجمتع . إذ لا نظام له بغير المال ، فعاقبها خالِقها بالقطع والإزالة . كالعضو الفاسد الذي يجر الداؤ لسائر البدن ، فإنه يزال بالكلية إبقاء على البدن ، وتطهيراً له من المرض . ولذلك فإن قطع اليد يطهر السارق من دني ذنب ارتكاب معصية السرقة ، مع الردع البالغ بالقطع عن السرقة . قال البخاري في صحيحه " باب – الحدود كفّارة " حدثنا محمد بن يوسف أخبرنا ابن عيينة عن الزُهري ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : كنا عند النَّبي صلى الله عليه وسلم في مجلس ، فقال : " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولاتزنوا " ، وقرأ هذه الآية كلها ، " فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفّارته ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه . إن شاء غفر له ، وإن شاء عذّبه " اه هذا لفظ البخاري في صحيحه .

وقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح " فهو كفارته " نص صريح في أن الحدود تطهر المرتكبين لها من الذنب .

والتحقيق في ذلك ما حققه بعض العلماء : من أن حقوق اله يطهر منها بإقامة الحد . زحق

المخلوق يبقى. فارتكاب جريمة السرقة مثلاً يطهر منه بالحد، والمؤاخذة بالمال تبقى، لأن السرقة علة موجبة حكمين: وهما القطع والغرم. قال في مراقي السعود:

(70/451)

وذاك في الحكم الكثير أطلقه . . . كالقطع مع غرم نصاب السرقه

مع أن جماعة من أهل العلم قالوا: لا يلزمه الغرم مع القطع.

لظاهر الآية الكريمة: فإنها نصَّت على القطع ولم تذكر غرماً.

وقال جماعة: يغرم المسروق مطلقاً، فات أو لم يفت، معسراً كان أو موسراً. ويتبع به ديناً إن كان معسراً.

وقال جماعة: يرد المسروق إن كان قائماً. وإن لم يكن قائماً رد قيمته إن كان موسراً، فإن كان معسراً فلا شيء عليه ولا يتبع به ديناً.

والأول مذهب ابي حنيفة. والثاني مذهب الشافعي وأحمدز والثالث مذهب مالك.

وقطع السارق كان معروفاً في الجاهلية فأقره الإسلام. وعقد ابن الكبي باباً لمن قطع في الجاهلية بسب السرقة، فذكر قصة الذين سرقوا غزال الكعبة فقطعوا في عهد عبد المطلب. وذكر ممن قطع في السرقة عوف بن عبد بن عمرو بن مخزوم، ومقيس بن قيس بن

عدي بن سهم وغيرهما ، وأن عوفاً السابق لذلك انتهى .

وكان من هدايا الكعبة صورة غزالين من ذهب ، أهدتهما الفرس لبيت الله الحرام ، كما عقده البدوي الشنقيطي في نظم عمود النسب بقوله :

ومن خباياه عزالاً ذهب . . . أهدتهما الفرس لبيت العرب

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : وقد قُطع السارق في الجاهلية ، وأول من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن لمعيؤة ، فأمر الله بقطعه في الإسلام . فكان أول سارق قطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام من الرجال الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف . ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم . وقطع أبو بكر يد اليمنى الذي سرق العقد . وقطع عمر يد ابن سمرة أخي عبد الرحمن بن سمرة اه .

(71/451)

قال مقيده عفا اله عنه : ما ذكره القرطبي رحمه الله من أن المخزمية التي سرقت فقطع النَّبي صلى الله عليه وسلم يدها أولاً هي مرة بنت سفيان خلاف التحقيق . والتحقيق أنها فاطمو بنت الأسود بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وهي بنت أخي أبي سلمة بن عبد الأسد الصحابي الجليل ، الذي كان زوج أم سلمة قبل النَّبي صلى الله عليه

وسلم. قتل أبوها كافراً يوم بدر، قتله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وقطع النّبي صلى الله عليه وسلم يدها وقع في غزوة الفتح. وأما سرقة أم عمرو بنت سفيان بن عبد الأسد ابنة عم المذكورة، وقطع النّبي صلى الله عليه وسلم يدها ففي حجة الوداع، بعد قصة الأولى بأكثر من سنتين.

فإن قيل: أخرج الشيخان في صحيحهما، وأصحاب السنن وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النّبي صلى الله عليه وسلم قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم. وفي لفظ بعضهم قيمته ثلاثة دراهم. وأخرج الشيخان في صحيحهما، وأصحاب السنن غير ابن ماجه وغيهرم من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النّبي صلى الله عليه وسلم "كان يقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً" والأحاديث بمثل هذا كثيرة جداً، مع أنه عرف من الشرع أن اليد فيها نصف الدية، ودية الذهب ألف دينار.

فتكون دية اليد خمسمائة دينا. فكيف تؤخذ في مقابلة ربع دينار؟ وما وجه العدالة والإنصاف في ذلك.

فالجواب – أن هذا النوع من اعتراضات الملحدين الذين لا يؤمنون بالله ورسوله، هو الذي نظمه المعري بقوله:

يد بخمس مئين عسجد وديت... ما بالها قطعت في ربع دينار

وللعلماء عنه أجوبه كثيرة نظماً ونثراً. منها قوله القاضي عبد الوهاب مجيباً له في بحره

ورويه :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها . . . ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري

(72/451)

وقال بعضهم : لما خانت هانت . ومن الواضح : ان تلك اليد الخسيسة الخائنة لما تحملت رذيلة السرقة وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير كثمن المجن والأترجة ، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك الشيء القليل ، الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى .

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة : ثم إنا أجبنا عن هذا الطعن ، بأن الشرع إنما قطع يده بسبب أنه تحمل الدناءة والخساسة في سرقة ذلك القدر القليل . فلا يبعد أن يعاقبه الشرع بسبب تلك الدناءة هذه العقوبة العظيمة اه .

فانظر ما يدعو إليه القرآن : من مكارم الأخلاق ، والتنزُّه عما لا يليق ، وقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً - يدل على أن التشريع السماوي يضع درجة الخائن من خمسمائة درجة إلى ربع درجة . فانظر هذا الحط العظيم لدرجته ، بسبب ارتكاب الرذائل .

وقد استشكل بعض الناس قطع يد السارق خاصة دون غيرها من الجنايات على الأموال ، كالغصب والانتهاب ، ونحو ذلك .

قال المازري ومن تبعه : صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها ، وخص السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها ، من الانتهاب والغصب ، ولسهولة إقامة البينة على ما عدى السرقة بخلافها ، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر . ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد . ثم لما خانت هانت . وفي ذلك إثارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله :

يد بخمس مئين عسجد وديت . . . ما بالها قطعت في ربع دينار

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها وأرخصها . . . حماية المال فاهم حكمة الباري

وشرح ذلك : أن الدية لو كانت ربع دينا لكثرت الجنايات على الأيدي . ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينا لكثرت الجنايات على الأموال . فظهرت الحكمة في الجانبين ، وكان في ذلك صيانة من الطرفين .

وقد عسر فهم المعنى المقدم ذكره في الفرق بين السرقة وبين النهب ونحوه على بعض منكري القياس فقال : القطه في السرقة دون الغصب وغيره غير معقول المعنى . فإن الغصب أكثر

هتكاً للحرمة من السرقة ، فدل على عدم اعتبار القياي .

لأنه إذا لم يعمل به في الأعلى فلا يعمل به في المساوي .

وجوابه – أن الأدلة على العمل بالقياس اشهر من أن يتكلف لإيرادها . وستأتي الإشارة إلى شيء من ذلك في كتاب الأحكام . اه بواسطة نقل ابن حجر في فتح الباري .

قال مقيدة عفا الله عنه : الفرق بين السرقة وبين الغصب ونحوه الذي أشار إليه المازري – ظاهر ، وهو أن النهب والغصب ونحوهما قليل بالنسبة إلى السرقة ، ولأن الأمر الظاهر غالباً توجد البينة عليه بخلاف السرقة . فإن السارق إنما يسرق خفية بحيث لا يطلع عليه أحد ، فيعسر الإنصاف منه . فغلظت عليه الجناية ليكون أبلغ في الزجر . والعلم عند الله تعالى .

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم : رجم الزاني المحصن ذكراً كان أو أنثى ، وجلد الزاني البكر مائة جلدة ذكراً كان أو أُنثى .

أما الرجم – فهو منصوص بآية منسوخة التلاوية باقية الحكم ، وهي قوله تعالى : " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم " .

وقد قدمنا ذم القرآن للمعرض عما في التوراة من حكم الرجم . فدل القرآن في آيات محكمة – كقوله ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ ﴾ [المائدة : 41] الآية ، وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المائدة : 23] الآية

- على ثبوت حكم الرجم على شريعة نبيِنا نبيّنا صلى الله عليه وسلم لذمه في كتابنا للمعرِض عنه كما تقدم .

(74/451)

وما ذكرنا من أن حكم الرجم ثابت بالقرآن لا ينافي قول علي رضي الله عنه ، حين رجم امرأة يوم الجمعة : " رجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم " . لأن السنة هي التي بينت أن حكم آية الرجم باق بعد نسخ تلاوتها .

ويدل لذلك قول عمر رضي الله عنه في حديثه الصحيح المشهور : " فكان مما أنزل إليه آية الرجم ، فقرأناها وعلقناها ووعيناها ، رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده . . " الحديث .

والملحدون يقولون : إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية ، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسا . لقصور إدراكهم عن فهم حكم الله البالغة في تشريعه .

والحاصل - أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى . لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر ، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك

الأعراض، وتقذير الحُرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني. والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله. ومن كان كذلك فهو نجس قذر لا يصلح للمصاحبة. فعاقبه خالقه الحكيم الخبير بالقتل ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع. ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قتلته أفظع قتلة. لأن جَرِيمته أفظع جريمة – والجزاء من جنس العمل.

(75/451)

وقد دل المطهر على أن إدخال الفرج في الفرج المأذون فيه شرعاً يوجب الغسل، والمنع من دخول المسجد على كل واحد منهما حتى يغتسل بالماء. فدل ذلك أن ذلك الفعل يتطلب طهارة في الأصل، وطهارته المعنوية إن كان حراماً قتل صاحبه المحصن. لأنه إن رجم كفر ذلك عنه ذنب الزنى، ويبقى عليه حق الآدمي. كالزوج إن زنى بمتزوجة، وحق الأولياء في إلحاق العار بهم كما أشرنا له سابقاً. وشدة قبح الزنى أمر مركوز في الطبائع، وقد قالت هند بنت عتبة وهي كافرة: ما اقبح ذلك الفعل حلالاً! فكيف به وهو حرام! وغلظ جلَّ وعلا عقوبة المحصن بالرجم تغليظاً أشد من تغليظ عقوبة البكر بمائة جلدة. لأن المحصن قد ذاق عُسَيْلة النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن. فما كان الداعي إلى

الزنى أعظم ، كان الرادع عنه أعظم وهو الرجم .

وأما جلد الزاني البكر ذكراً كان أو أنثى مائة جلدة – فهذا منصوص بقوله تعالى ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : 2] الآية . لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزنى ، وتطهره من ذنب الزنى كما تقدّم .

وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل ما يلزم الزناة من ذكور وإناث ، وعبيد وأحرار " في سورة النور " .

وتشريع الحكيم الخبير جل وعلا – متشمل على جميع الحكم من درء المفاسد وجلب المصالح ، والجري على مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات ، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فظيع الجناية بعزظيم العقاب جزاءً وفاقاً .

(76/451)

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم : هدية إلى أن التقدم لا ينافي التمسك بالدين . فما خيله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام : كم أن التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام – باطل لا أَساس له ، والقرآن الكريم يدعو إلى التقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين . ولكن ذلك التقدم في حدود الدين ، والتحلي بآدابه الكريمة ،

وتعاليمه السماوية. قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: 60] الأية، وقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يا جبال أَوِّبِي مَعَهُ والطير وَأَلَنَّا لَهُ الحديد أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السرد واعملوا صَالِحاً ﴾ [سبأ: 10-11] الآية. فقوله ﴿ أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السرد ﴾ يدل على الاستعداد لمكافحة العدو، وقوله ﴿ واعملوا صَالِحاً ﴾ يدل على أن ذلك الاستعداد لمكافحة العدو في حدود الدين الحنيف. وداود من أنبياء "سورة الأنعام" المذكورين فيها في قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ ﴾ [الأنعام: 84] الآي، وقد قال تعالى مخاطباً لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم بعد أن ذكرهم: ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام: 90]. وقد ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما من اين أخذت السجدة "في ص" فقال: أو ما تقرأ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ ﴾ ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ فسجدها داود، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فدل ذلك على أنا نخاطبون بما تضمنته الاية مما امر به داود . فعلينا ان نستعد لكفاح العدو مع التمسك بديننا ، وانظر قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : 60] فهو أمر جازم بإعداد كل ما في الاستطاعة من قوه ولو بلغت القوة من التطور ما بلغت . فهو أمر جازم بمسايرة التطور في الأمور الدنيوية ، وعدم الجمود على الحالات الأول إذا طرأ تطور جديد . ولكن كل ذلك مع التمسك بالدين .

ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاة فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وليأخذوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أخرى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء : 102] الآية . فصلاة الخوف المذكورة في هذه الآية الكريمة تدل على لزوم الجمع بين مكافحة العدو ، وبين القيام بما شرعه الله جلَّ وعلا من دينه . فأمره تعالى في هذه الآية بإقامة الصلاة في وقت التحام الكفاح المسلح يدل على ذلك ايضاً دلالة في غاية الوضوح ، وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ [الأنفال : 45] فأمره في هذه الآية الكريمة بذكر الله كثيراً عند التحام القتال يدل على ذلك ايضاً دلالة واضحة .

فالكفار خيلوا لضعاف العقول أن النسبة بين التقدم و التمسك بالدين ، والسمت الحسن والأخلاق الكريمة – تباين مقابلة كتباين النقيضين كالعدم والوجود ، والنفي الإثبات . أو

الضدين كالسواد والبياض، والحركة والسكون. أو المتضئقين كالأبوة والبنوة، والفوق والتحت. أو العدم والملكة كالابصر والعمى.

(78/451)

فإن الوجود والعدم لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد من جهة واحدة، وكذلك الحركة والسكون مثلاً. وكذلك الأبوة والبنوة. فكل ذات ثبتت لها الأبوة لذات استحالت عليه البنوة لها، بحيث يكون شخص ابا ًوابنا ًلسخص واحد. كاستحالة اجتماع السواد والبياض في نقطة بسيطة، او الحركة والسكون في جرم. وكذلك البصر والعمى لا يجتمعان. فخيلوا لهم أن التقدم والتمسك بالدين متباينان تباين مقابلة، بحيث يستحيل اجتماعهما. فكان من نتائج ذلك انحلالهم من الدين رغبة في التقدم. فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

والتحقيق - أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين بالنظر إلى العقلوحده، وقطع النظر عن نصوص الكتاب والسنة - إنما هي تباين المخالفة، وضابط المتابينين تباين المخالفة أن تكون حقيقة كل منهما في حد ذاتها تباين حقيقة الآخر، ولكنهما يمكن اجتماعها عقلاً في ذات أخرى. كالبياض والبرودة، والكلام والقعود، والسواد والحلاوة.

فحقيقة البياض في حد ذاتها تباين حقيقة البرودة ، ولكن البياض والبرودة يمكن اجتماعهما في ذات واحدة كالثلج .

(79/451)

وكذلك الكلام والقعود فإن حقيقة الكلام تباين حقيقة القعود ، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعداً متكلماً في وقت واحد . وهكذا . فالنسبة بين التمسك بالدِّين والتقدم بالنظر إلى حكم العقل من هذا القبيل ، فكما أن الجرم الأبيض يجوز عقلاً أن يكون بارداً كالثلج ، والإنسان القاعد يجوز عقلاً أن يكون متكلماً ، فكذلك المتمسك بالدين يجوز عقلاً أن يكون متقدماً . إذ لا مانع في حكم العقل من كون المحافظ على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، مشتغلاً في جميع الميادين التقدمية كما لا يخفى ، وكا عرفه التاريخ للنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ومن تبعهم بإحسان . أما بالنظر غلى نصوص الكتاب والسنة كقوهل تعالى ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : 40] الآية ، وقوله : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] ، وقوله : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : 21]

، وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ [غافر : 51] الآية ، وقوله : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 14] ، ونحو ذلك من الآيات وما في معناها من الأحاديث .

(80/451)

فإن النسبة بين التمسك بالدين والتقدم ، كالنسبة بين الملزوم ولازمه . لأن التمسك بالدين ملزوم للتقدم ، بمعنى أنه يلزم عليه التقدم ، كما صرحت به الآيات المذكورة . ومعلوم أن النسبة بين الملزوم ولازمه لا تعدو أحد أمرين : إما أن تكون المساواة أو الخصوص المطلق ، لأن الملزوم لا يمكن أن يكون أعم من لازمه . وقد يجوز أن يكون مساوياً له أو أخص منه ، ولا يتعدى ذلك . ومثال ذلك : الإنسان مثلاً ، فإنه ملزوم للبشرية والحيوانية ، بمعنى أن الإنسان يلزم على كونه إنساناً أن يكون بشراً وأن يكون حيواناً ، وأحد هذين اللازمين مساوٍ له في الماصدق وهو البشر . والثاني أعم منه ماصدقاً وهو الحيوان ، فالإنسان أخص منه خصوصاً مطلقاً كما هو معروف .

فانظر كيف خيلوا لهم أن الربط بين الملزوم ولازمه كالتنافي الذي النقيضين والضدين .

وأطاعوهم في ذلك لسذاجتهم وجهلهم وعمى بصائرهم ، فهم ما تقولوا على الدين الإسلامي ورموه بما هو منه بريء إلا لينفروا منه ضعاف العقول ممن ينتمي للإسلام ليمنكنهم الاستيلاء عليهم ، أهم لو عرفوا الدِّين حقاً واتبعوه لفعلوا بهم ما فعل أسلافهم بأسلافهم ، فالدين هو هو ، وصلته بالله هي هي ، ولكن المنتسبين إليه في جل أقطار الدنيا تنكروا له ، ونظروا إليه بعين المقت والازدارء . فجعلهم الله أرقاء للكفرة الفجرة . ولو راجعوا دينهم لرجع لهم عزهم ومجدهم ، وقادوا جميع أهل الأرض . وهذا مما لا شك فيه ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 4] .

ومن هدي القرآن للتي هي أَقْوَم – بيانه أ ، ه كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

(81/451)

فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح ، مخرج عن الملة الإسلامية . ولما قال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم : الشة تصبح ميتة من قتلها ؟ فقال لهم : " الله قتلها " فقالوا هل : ماذبحتم بأيديكم حلال ، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون إنه حرام ! فأنتم إذن أحسن من

الله ! ؟ – أنزل الله فيهم قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] وحذف الفاء من قوله ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ يدل على قسم محذوف على حد قوله الخلاصة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم . . . جواب ما أخرت فهو ملتزم

إذ لو كانت الجملة جواباً للشرك لاقترنت بالفاء على حد قوله في الخلاصة أيضاً :

واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل . . . شرطاً لأن أو غيرها لم ينجعل

(82/451)

فهو قسم من الله جلّ وعلا أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل الميتة أنه مشرك ، وهذا الشرك مخرج عن املة بإجماع المسلمين ، وسيوبخ الله مرتكبه يوم القيامة بقوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس : 60] لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ﴾ [النساء : 117] اي ما يعبدون إلا شيطاناً ، وذلك باتباعهم تشريعه . وقال : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ

شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : 137] الآية ، فسماهم شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى . وقال عن خليله ﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ [مريم : 44] الآية ، اي بطاعته في الكفر والمعاصي . ولما سأل عدي بن حاتم النَّبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً ﴾ [التوبة : 31] الآية ، بين له أن معنى ذلك أنهم أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم . والآيات بمثل هذا كثيرة .

(83/451)

العجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدعي الإسلام . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء : 60] ، وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] . وقال : ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [الأنعام : 114] .

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم – هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع ، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام . لأنه هو الذي

يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

(84/451)

فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك، بساقك. كما جاء في الحديث عن النَّبي صلى الله عليه وسلم: "إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيهاً على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه. كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ [البقرة: 84] الآية، أي لا تخرجون إخوانكم، وقوله: ﴿ لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: 12] أي بإخوانكم على أصح التفسرين، وقوله: ﴿ وَلَا تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات: 11] الآية، أي إخوانكم على أصح التفسرين وقوله: ﴿ وَلَا تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: 188] الآية، أي لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات. ولذلك ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

من الآيات الدالة على أن الرابطة الحيقية هي الدين ، أن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية : قوله تعالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : 22] إذ لا رابطة نسبيه اقرب من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر . وقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ ﴾ [التوبة : 71] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : 10] وقوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ [آل عمران : 103] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(85/451)

فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير الإسلام كالعصبية المعروفة بالقومية – لا يجوز ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين .

ومن أصرح الأدلة في ذلك : ما رواه البخاري في صحيحه قال : باب قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : 8] حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان قال : حفظناه من عمرو بن دينار قال : سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : كنا في غزاة

فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال الأنصاري : يا للأنصار ! ! وقال المهاجري : يا للمهاجرين ! ! فسمِّعها الله رسوله قال : " ما هذا ؟ " فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فقال النّبي صلى الله عليه وسلم : " دعوها فإنها منتنة " الحديث .

فقول هذا الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : للمهاجرين – هو النداء بالقومية العصبية بعينه ، وقول النَّبي صلى الله عليه وسلم " دعوها فإنها منتنة " يقتضي وجوب ترك النداء بها . لأن قوله " دعوها " أمر صريح بتركها ، والأمر المطلق يقتضي الوجوب على التحقيق كما تقرر في الاصول . لأن الله يقوله :

(86/451)

﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] ، ويقول لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] فدل على أن مخالفة الأمر معصية . وقال تعالى عن نبيّه موسى في خطابه لأخيه : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : 93] فأطلق اسم المعصية على مخالفة الأمر : وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب :

36] فدلت الآية على أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم مانع من الاختيار ، موجب للامتثال . لا سيما وقد أكد النَّبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بالترك بقوله : " فإنها منتنة " وحسبك بالنتن موجباً للتباعد لدلالته على الخبث البالغ .

فدل هذا الحديث الصحيح على أن النداء برابطة القومية لما أمر به النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ان فاعله يتعاطى المنتن ، ولا شط أن المنتن خبيث ، والله تعالى يقول : ﴿ الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور : 26] الآية ، ويقول ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث ﴾ [الأعراف : 157] وحديث جابر هذا الذي قدمناه عن البخاري أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه قال رحمه الله : حدثنا أبة بكر بن ابي شيبة . وزهير بن حرب ، وأحمد بن عبدة الضبي ، وابن أبي عمر ، واللفظ لابن أبي شيبة قال ابن عبدة : اخبرنا وقال الآخرون : حدثنا سفيان بن عيينة قال : سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول : كنّا مع النَّبي في غزاةٍ ، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا للأنصار ! وقال المهاجري : يا للمهاجرين ؟ فقا ل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بال دعوى الجاهلية ! " قالوا : يارسول الله ، كسع رجل من الأمهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال : " دعوها فإنها منتنة " الحديث .

وقد عرفت وجه لدلالة هذا الحديث على التحريم ، مع أن في بعض رواياته الثابتة في الصحيح التصريح بان دعوى الرجل : " يا لبني فلان " من دعوى الجاهلية . وإذ صح بذلك أنها من دعوى الجاهلية فقد صح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية " وفي رواية في الصحيح : " ليس منا من ضرب الخدود ، أو شق الجيوب ، أو دعا بدعوى الجاهلية " ، وذلك صريح في أن من دعا تلك الدعوى ليس مناع ، وهو دليل واضح على التحريم الشديد . ومما يدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا " هذا حديث صحيح ، أخرجه الإمام أحمد من طرق متعددة عن عتي بن ضمرة السعدي ، عن ابي بن كعب رضي الله عنه ، وذكره صاحب الجامع الصغير بلفظ " إذا سمعتم من يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولاتكنوا " وأشار لأنه أخرجه أحمد في المسند ، والنسائي وابن حبان ، والطبراني في الكبير ، والضياء المقدسي عن أُبي رضي الله عنه ، وجعل عليه علامة الصحة .

وذكره أيضاً صاحب الجامع الصغير بلفظ " إذا رايتم الرجل يعزى . . " الخ ، وأشار إلى أنه أخرجه الإمام أحمد في المسند والترمذي ، وجعل عليه علامة الصحة . وقال شارحه المناوي : ورواه عنه أيضاً الطبراني ، قال الهيثمي : ورجاله ثقات ، وقال شارحه العزيزي : هو حديث صحيح . وقال فيه الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني في كتابه (كشف الخفاء ومزي الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) ق لالنجم : رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي بن كعب رضي الله عنه . ومراده بالنجم : الشيخ محمد نجم الدين الغزي في كتابه المسمى (إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن) فانظر كيف سمى النَّبي صلى الله عليه وسلم ذلك النداء " عزاء الجاهلية " وأمر أن يقال للداعي به " اغضض على هن أبيك " أي فرجه ، وأن يصرح له بذلك ولا يعبر عنه بالكناية . فهذا يدل على شدة قبح هذا النداء ، وشدة بغض النَّبي صلى الله عليه وسلم له .

واعلم أن رؤساء الدعاة إلى نحو هذه القومية العربية : أبو جهل ، وأبو لهب ، والوليد بن المغيرة ، ونظراؤهم من رؤساء الكفرة .

وقد بين تعالى لقوميتهم في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [المائدة : 104] الآية ، وقوله : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة : 170] الآية ، وأمثال ذلك من الآيات .

واعلم أنه لا خلاف بين العلماء – كما ذكرنا آنفاً – في منع النداء برابطة غير الإسلام. كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية. فإن النداء بها حينئذ معناه الحقيقي: أنه نداء إلى التخلي عن دين الإسلام، ورفض الرابطة السماوية رفضاً باتاً، على أن يعتاض من ذلك روابط عصبية قومية، مدارها على أن هذا من العرب، وهذا منهم أيضاً مثلاً. فالعروبة لا يمكن أن تكن خلفاً من الإسلام. واستبدالها به صفقة خاسرة. فهي كما قال الراجز:

بدلت بالجمة رأساً أزعرا . . . وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصَّرا . . . وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده كما لا يخفى.

وفقد بين الله جلَّ وعلا في محكم كتابه: أن الحكمة في جعله بني آدم شعوباً وقبائل هي التعارف فيما بينهم. وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها. قال جلَّ وعلا ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: 13] فاللام في قوله ﴿ لتعارفوا ﴾ لام التعليل، والأصل لتتعارفوا، وقد حذفت إحدى التاءين. فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة لقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ ﴾ ونحن حين نصرح بمنع

النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية ، ونقيم الأدلة على منع ذلك - لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة .

كما نفع الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب . وقد بين الله جلّ وعلا أن عطف ذلك العم الكافر على نبيه صلى الله عليه وسلم من منن الله عليه . قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ [الضحى : 6] أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب .

(90/451)

ومن آثار هذه العصبية النسبية قوله أبي طالب فيه صلى الله عليه وسلم :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم . . . حتى أوسّد في التُّراب دفينا

كما قدما في سورة هود .

وقد نفع الله بتكل العصبية النسبية شعيباً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كما قال تعالى عن قومه : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : 91] .

وقد نفع الله بها نبيه صالحا ايضاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . كما أشار تعالى لذلك بقوله : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا

لَصَادِقُونَ ﴾ [النمل : 49] فقد دلت الآية على أنهم يخافون من أوليا صالح ، ولذلك لم يفكروا ان يفعلوا به سوءاً غلا ليلاً خفية . وقد عزموا أنهم إن فعلوا به ذلك أنكروا وحلفوا لأوليائه أنهم ما حضروا ما وقع بصالح خوفاً منهم . ولما كان لوط عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لا عصبة له في قومه ظهر فيه أثر ذلك حتى قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : 80] وقد قدمنا هذا مستوفى في " سورة هود " .

(91/451)

فيلزم الناظر في هذه المسألة أن يفرق بين الأمرين ، ويعلم أن النداء بروابط القوميات لا يجوز على كل حال ، ولا سيما إذا كان القصد بذلك القضاء على رابطة الإسلام ، وإزالتها بالكلية بدعوى أنه لا يساير التطور الجديد ، أو أنه جمود وتأخر عن مسايرة ركب الحضارة . نعوذ بالله من طمس البصيرة . أن منع النداء بروابط القوميات لا ينافي أنه ربما انتفع المسلم بنصرة قريبه الكافر بسبب العواطف النسبية الأواصر العصبية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة ، كما وقع من أبي طالب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله يؤيد هذا الدّين بالرجل الفاجر " ولكن تلك القرابات النسبية لا يجوز أن تجعل هي الرابطة بين المجتمع . لأنها تشمل المسلم والكافر ،

ومعلوم أن المسلم عدو الكافر ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : 22] الآية ، كما تقدم .

والحاصل – أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة " لا إله إلا الله " ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد ، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف .

(92/451)

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر : 7-9] . فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي رَبَطَتْ بين حملة العرش ومن حوله ، وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم ، إنما هي الإيمان بالله جلّ وعلا . لأنه قال على الملائكة : ﴿ ويؤمنون به ﴾

فوصفهم بالإيمان . فدل ذلك على ان الرابطة بينهم هي الإيمان وهو أعظم رابطة .

ومما يوضح لك أن الرابطة الحقيقة هي دين الإسلام – قوله تعالى في أبي لهب عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد : 3] ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة عند النَّبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وقد جاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيه : " سَلمان منا أهل البيت " رواه الطبراني والحاكم في المستدرك ، وجعل عليه صاحب الجامع الصغير علامة الصحة . وضعفه الحافظ الذهبي . وقال الهيثمي فيه ، عند الطبراني كثير بن عبد الله المزني ضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات . وقد أجا من قال :

لقد رفه الإسلام سلمان فارس . . . وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

(93/451)

وقد اجمع العلماء : على أنا لرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر ، إن إرثه يكون للمسلمين بأخوة الإسلام ، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر ، والميراث دليل القرابة .

فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة التسبية .

وبالجملة ، فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض ،

وتربط بين أهل الأرض والسماء ، هي رابطة " لا إله إلا الله " فلا يجوز البتة النداء برابطة غيرها . ومن والى الكفار بالروابط النسبية محبة لهم ، ورغبة فيهم يدخل في قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : 51] ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : 73] والعلم عند الله تعالى .

وبالجملة - فالمصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاثة :

الأولى - درء المفاسد المعروف عند أهل الأصول بالضروريات .

والثانية - جلب المصالح المعروف عند أهل الأصول بالحاجيات .

والثالثة - الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، المعروف عند أهل الأصول بالتحسينيات والتتميمات . وكل هذه المصالح الثلاث هدى فيها القرآن العظيم للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها .

فالضروريات التي هي درء المفاسد - إنما هي درؤها عن ستة أشياء :

الأوَّل - الدين ، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : 193] ، وفي آية الأنفال : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : 39] وقال تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [الفتح : 16] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمرا أن أقاتل

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله " الحديث ، وقال صلى الله عليه وسلم : " من بدل دينه فاقتلوه " إلى غير ذلك من الأدلة لى المافظة على الدين .

(94/451)

والثاني – النفس ، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها باقوم الطرق وأعدلها . ولذلك أوجب القصاص درءاً للمفسدة عن الأنفس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب ﴾ [البقرة : 179] الآية ، وقال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى ﴾ [البقرة : 178] الآية ، وقال : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ [الإسراء : 33] الآية .

الثالث – العقل ، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه باقوم الطرق وأعدلها . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] إلى قوله ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] . وقال صلى الله عليه وسلم : "كل مسكر حرام" ، وقال : " ما أسكر كثيره فقليله حرام "كما قدمنا ذلك مستوفى " في سورة النحل " وللمحافظة على العقل أوجب صلى الله عليه وسلم حد الشارب درءاً للمفسدة عن العقل .

الرابع – النسب ، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها . ولذلك حرم الزنى وأوجب فيه الحد الرادع ، وأوجب العدة على النساء عند المفارقة بطلاق أو موت . لئلا يختلط ماء الرجل بماء آخر في رحم امرأة محافظة على الأنساب قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32] ، ونحو ذلك من الآيات ، وقال تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : 2] الآية . وقد قدمنا آية الرجم والأدلة الدالة على أنها منسوخة التلاوة باقية الحكم . وقال تعالى في إيجاب العدة حفظاً للأنساب : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قرواء ﴾ [البقرة : 228] الآية ، وقال : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة : 234] وإن كانت عدة الوفاة فيها شبه تعبد لوجوبها مع عدم الخلوة بين الزوجين .

ولأجل المحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره . فمنع نكاح الحامل حتى تضع ، قال تعالى : ﴿ وَأُوْلَاتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 4] .

(96/451)

الخامس – العِرْض ، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها . فنهى المسلم عن أن يتكلم في أخيه بما يؤذيه ، أوجب عليه إن رماه بفرية حد القذف ثمانين جلدة . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات : 12] ، وقال ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : 12] . وقبح جلَّ وعلا غيبة المسلم غاية التقبيح . بقوله : ﴿ وَلَا تلمزوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بالألقاب بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ [الحجرات : 11] ، وقال في إيجاب حد القاذف : ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وأولئك هُمُ الفاسقون إِلَّا الذين تَابُواْ ﴾

[النور : 4-5] الآية .

السادس – المال ، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعجلها . ولذلك منع أخذه بغير حق شرعي ، وأجب على السارق حد السرقة وهو قطع اليد كما تقدم . قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لَا تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء : 29] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحكام لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ الناس بالإثم وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 188] ، وقال :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيدِيَهُمَا جزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ ﴾ [المائدة : 38] الآية . وكل ذلك محافظة على المال ودرء للمفسدة عنه .

(97/451)

المصلحة الثانية – جَلْب المصالح ، وقد جاء القرآن بجلب المصالح باقوم الطرق وأعدلها . ففتح الأبواب لجلب المصالح في جميع الميادين ، قال تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : 198] ، وقال : ﴿ وَآخَرُونَ ﴾ [المزمل : 20] وقال : ﴿ بالباطل إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ ﴾ [النساء : 29] .

ولأجل هذا جاء الشرع الكريم بإباحة المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع على الوجه المشوع . ليستجلب كل مصلحته من الآخر ، كالبيوع ، والأجارات والأكرية والمساقاة والمضاربة ، وما جرى مجرى ذلك .

المصلحة الثالثة – الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وقد جاء القرآن بذلك باقوم الطرق وأعدلها . والحض على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ولذلك لما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه

صلى الله عليه وسلم قالت : "كان خُلقه القرآن" لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق . لأن الله تعالى يقول في نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] .

فدل مجموع الآية وحديث عائشة على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق : أنه يكون على خُلق عظيم ، وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق ، وسنذكر لك بعضاً من ذلك تنبيهاً به على غيره .

(98/451)

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : 237] الآية . فانظرما في هذه الآية من الحضّ على مكارم الأخلاق من الأمر بالمر\عفو والنهي عن نسيان الفضل . وقال تعالى ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام أَن تَعْتَدُواْ ﴾ [المائدة : 2] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] . فانظر ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق ، والمر بأن تُعامل من عَصى الله فيك بأن تُطيعه فيه . وقال تعالى : ﴿ واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً وَبِذِي القربى واليتامى والمساكين

والجار ذِي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وَمَا مَلَكَتْ أَيمانكُمْ ﴾ [النساء : 36] فانظر إلى هذا من مكارم الأخلاق والأمر بالإحسان إلى المحتاجين والضعفاء ، وقال تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تذكَّرُونَ ﴾ [النحل : 90] ، وقال تعالى : ﴿ يا بني آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] الآية ، وقال ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : 151] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ باللغو مَرُّوا كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات .

(99/451)

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم – هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها .

ونحن دائماً في المناسبات نبين هدي القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات ، هي من أعظم ما يعانيه العالم في جميع المعمورة ممن ينتمي إلى الإسلام ، – تنبيهاً بها على غيرها :

المشكلة الأولى – هي ضعف المسلمين في أقطار الدينا في العدد والعدة عنمقاومة الكفار . وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها . فبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى ، وقوة الإيمان به والتوكل عليه . لأن الله قوي عزيز ، قاهر لكل شيء . فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا .

فمن الأدلة المبينة لذلك : أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب المذكور في قوله تعالى ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب : 10–11] كان علاج ذلك هو ما ذكرنا . فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة اثره في المسلمين ، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت مقاكعوهم سياسةواقتصاداً . فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر العظيم ، وحلوا به هذه المشكلة العظمى ، وهو ما بينه جلَّ وعلا (في سورة الأحزاب) بقوله : ﴿ وَلَمَّا رَأَى المؤمنون الأحزاب قَالُواْ هذا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : 22] .

فهذا الإيمان الكامل ، وهذا التسليم العظيم لله جلَّ وعلا ، ثقةً به ، وتوكلاً عليه ، هو سبب حل هذه المشكلة العظمَى .

وقد صرح الله تعالى بنتيجته هذا العلاج بقوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ المؤمنين القتال وكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً وَأَنزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكتاب مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ [الأحزاب : 25-27].

وهذا الذي نصرهم الله به على عدوهم ما كانوا يظنونه ، ولا يحسبون أنهم ينصرون به وهو الملائكة والريح . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾

[الأحزاب : 9] ولما علم جلَّ وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل ، ونوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح : 18] : أي من الإيمان والإخلاص - كان من نتائج ذلك ما ذكره الله جلَّ وعلا في قوله ﴿ وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ [الفتح : 21] فصرح جلَّ وعلا في هذه الآية

بأنهم لم يقدروا عليها ن وأن الله جلَّ وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها ، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم .

(101/451)

فدلت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الأيما ن به ، هو السبب لقدرة الضعيف على القوي وغلبته له ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصابرين ﴾ [البقرة : 249] ، وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ فعل في سياق النفي ، والفعل في سياق النفي من صيغ العموم على التحقيق ، كما تقرر في الأصول . ووجهه ظاهر . لأن الفعل الصناعي " أعني الذي يسمى في الاصطلاح فعل الأمر أو الفعل الماضي أو الفعل المضارع " ينحل عند النحويين ، وبعض البلاغيين عن مصدر وزمن ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

المصدر اسم ما سمى الزمان من . . . مدلولي الفعل كأمن من أمن

وعند جماعة من البلاغيين ينحل عنمصدر وزمن ونسبة ، وهذا هو الظاهر كما حرره بعض البلاغيين ، في بحث الاستعارة التبعية .

فالمصدر إذن كامن في مفهوم الفعل إجماعاً . فيتسلط النفي الداخل على الفعل على

المصدر الكامن في مفهومه ، وهو في المعنى نكرة . إذ ليس له سبب يجعله معرفة ، فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي ، وهي من صيغ العموم .

فقوله : ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ في معنى لا قدرة لكم عليها ن وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة . لأن النكرة في سياق النفي تدل على عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان . كما هو معروف في محله .

وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم ، ولكن الله جلَّ وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها . لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] .

المشكلة الثانية

هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء – مع أن المسلمين على الحق . والكفار على الباطل .

وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم . فأفتى الله جل وعلا فيها ، وبين السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه جلَّ وعلا .

وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد : فقتل عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، ومثل بهما ، وقتل غيرهما من المهاجرين ، وقتل سبعون رجلاً من الأنصار ، وجرح صلى الله عليه وسلم ، وشُقَّت شفته ، وكسرت رباعيته ، وشج صلى الله عليه وسلم .

استشكل المسلمون ذلك وقالوا : كيف يدال منا المشركون ؟ ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ ! فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : 165] .

وقوله تعالى : ﴿ ﴾ .

فيه إجمال بينه تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران : 152] .

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح . لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين ، وتنازعهم في الأمر ، وعصيانهم أمره صلى الله عليه وسلم ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدماً لها على أمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد أوضحنا هذا في سورة "آل عمران" ومن عرف أصل الداء . عرف الدواء . كما لا يخفى .

المشكلة الثالثة

هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية .

لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدوله. كما قال تعالىك ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: 46].

وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة "الأنفال".

فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضاً فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك.

(103/451)

وقد بين تعالى في سورة "الحشر" أن سبب هذا الداء الذي عَمت به البلوى إنما هو ضعف العقل. قال تعالى ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر: 14] ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: 14]. ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدارك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي. لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتاً ويضيء الطريق للمتمسّك به. فيريه الحق حقاً والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، والضار ضاراً. قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ

فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْس بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : 122] ، وقال تعالى :

﴿ الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] ومن أخرج من الظلمات إلى النور أبصر الحق ، لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ أهدى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : 22] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور وَلاَ الظل وَلاَ الحرور وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات ﴾ [فاطر : 19–22] ، وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [هود : 24] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان حياة بدلاً من الموت الذي كان فيه ، ونورا بدلاً من الظلمات التي كان فيها .

(104/451)

وهذا النور عظيم يكشف الحقائق كشفاً عظيماً . كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن

يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ لِلنّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 35] – ولما كان تتبع جميع ما تدل عليه هذه الآية الكريمة من هدي القرآن للتي هي اقوم – يقتضي تتبع جميع القرآن وجميع السنة لأن العمل بالسنة من هدي القرآن للتي هي أقوم. لقوله تعالى : ﴿ ومَآ آتاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] وكان تتبع جميع ذلك غير ممكن في هذا الكتاب المبارك، اقتصرنا على هذه الجمل التي ذكرنا من هدي القرآن للتي هي اقوم تنبيهاً بها على غيرها والعلم عند الله تعالى.

(105/451)

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) ﴾

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير للعلماء. وأحدهما يشهد له قرآن.

وهو أن معنى الأية ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر ﴾ كأن يعو على نفسه أو ولده بالهلاك عند الضجر من أمر. فيقول اللهم أهلكني، أو أهلك ولدي. فيدعو بالشر دعار لا يحب أن يستحاب له. وقوله ﴿ دُعَآءُهُ بالخير ﴾ أي يدعو بالشر كما يدعو بالخير فيقول عند الضجر : اللهم أهلك ولدي كما يقول في غير وقت الضجر : اللهم عافه، ونحو ذلك من الدعاء.

ولو استجاب الله دعاءه بالشر لهلك. ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: 11] أي لو عجّل لهم الإجابة بالشر كما يعجل لهم الإجابة بالخير لقضي إليهم أجلهم أي لهلكوا وماتوا.

فالاستعجال بمعنى التعجيل.

ويدل في دعاء الإنسان بالشر قول النضر بن الحارث العبدري: ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32].

وممن فسر الآية الكريمة بما ذكرنا: ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وهو أصح التفسرين لدلالة آيو يونس عليه.

الوجه الثاني في تفسير الآية - أن الإنسان كما يدعو بالخير فيسأل الله الجنة، والسلامة من النار، ومن عذاب القبر، كذلك قد يعو بالشر فيسأل الله ان ييسر له الزنى بمعشوقته، او قتل مسلم هو عدو له ونحو ذلك. ومن هذا القبيل قول ابن جامع: -

أطوف بالبيت فيمن يطوف... وارفع من مئزري المسبل

واسجد بالليل حتى الصباح... وأتلوا من المحكم المنزل

عسى فارج الهم عن يوسف... يسخر لي ربة المحمل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) ﴾

فمَنْ كان يريد الأُسْوة الطيبة في عبودية الرسول لربه ، هذه العبودية التي جعلتْه يسري به إلى بيت المقدس ، ثم يصعد به إلى السماء ، ومَنْ كان يريد أن يكون مثل نوح في عبوديته لربه فأكرم ذريته من أجله ، فعليه أنْ يسيرَ على دَرْبهم ، وأنْ يقتدي بهم في عبوديتهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهود الذين أفسدوا في الأرض مرتين .

والذي يرسم لنا الطريق ويُوضِّح لنا الحق من الباطل هو القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ هَاذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . . ﴾ [الإسراء: 9]

قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ هَاذَا الْقُرْآنَ . . ﴾ [الإسراء: 9]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول: إن هذا القرآن ؟

نقول: لم يكن القرآن كله قد نزل ، ولكن كل آية في القرآن تُسمّى قرآناً ، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: 18]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن . ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملتْ كل المسائل التي تضمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً . . ﴾ [المائدة: 3]

فإن استشرف مُسْتشرف أنْ يستزيد على كتاب الله، أو يأتي بجديد فليعلم أن منهج الله مُنزَّه عن النقص، وفي غِنىً عن زيادتك، وما عليك إلا أن تبحث في كتاب الله، وسوف تجد فيه ما تصبو إليه من الخير.

قوله: ﴿ يَهْدِي . . ﴾ [الإسراء: 9]

(107/451)

الهداية هي الطريق الموصِّل للغاية من أقرب وَجْه، وبأقل تكلفة وهي الطريق المستقيم الذي لا التواءَ فيه، وقلنا: إن الحق سبحانه يهدي الجميع ويرسم لهم الطريق، فمن اهتدى زاده هُدى، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: 17]

ومعنى: ﴿ أَقْوَمُ . . ﴾ [الإسراء: 9]

أي: أكثر استقامة وسلاماً. هذه الصيغة تُسمّى أفعل التفضيل، إذن: فعندنا (أقوم) وعندنا أقل منه منزلة (قَيِّم) كأن نقول: عالم وأعلم.

فقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَاذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . . ﴾ [الإسراء: 9]

يدل على وجود (القيّم) في نُظم الناس وقوانينهم الوضعية، فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين وشرائع حينما تعضُّهم المظالم ويشْقُون بها، فيُقنّنون تقنيات تمنع هذا الظلم.

ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء، فما وضعوه وإنْ كان قَيّماً فما وضعه الله أقوم، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أن تُعضَّ بشيء مُعوج غير قيّم، وإلا فماذا يلفتُك للقيم؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية، ويمنع المرض من أساسه، فهناك فَرْق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض، فأصحاب القوانين الوضعية يُعدّلون نُظمهم لعلاج الأمراض التي يَشْقَون بها.

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية، فإن حَدثْت غفلة من المسلمين، وأصابتهم بعض الداءات نتيجة انصرافهم عن منهج ربهم نقول لهم: عودوا إلى المنهج: ﴿ إِنَّ هَاذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

. ﴾ [الإسراء: 9]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نرى ما حدث معنا في مدينة "سان فرانسيسكو" فقد سألنا أحدُ المستشرقين عن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 32]

وفي آية أخرى يقول: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 33]

فكيف يقول القرآن: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ . . ﴾ [التوبة: 33]

في حين أن الإسلام محصور، وتظهر عليه الديانات الأخرى؟ فقلتُ له: لو تأملتَ الآية لوجدت فيها الردّ على سؤالك، فالحق سبحانه يقول: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 32]

ويقول: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 33]

إذن: فالكافرون والمشركون موجودون، فالظهور هنا ليس ظهور اتّباع، ولم يقُل القرآن: إن الناس جميعاً سيؤمنون.

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجّة وظهور حاجة، ظهور نظم وقوانين، ستضرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلّي عن قوانينهم والأخذ بقوانين الإسلام؛ لأنهم وجدوا فيها ضَالّتهم.

فنظام الطلاق في الإسلام الذي كثيراً ما هاجموه وانتقدوه، ورأوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة، وشقي الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل في قوانينهم، وهكذا ألجأتهم مشاكل الحياة الزوجية لأنْ يُقنّنوا للطلاق.

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُباً في الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حَلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد في الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم ؛ لأنكم ستلجأون في حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا في الإسلام ، فعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء "كِنز" وهو زعيم اقتصادي عندهم ، يقول لهم: انتبهوا ، لأن المال لا يؤدي وظيفته كاملة في الحياة إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لجَجَ هؤلاء في خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعني أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر ؟ إنهم يعودون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

(109/451)

ولا يخفي ما في التعامل الربوي من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مرّ الزمن أنْ تُسدد حتى أقساط الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون: ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحروب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم: كفاكم خداعاً ، فألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة

عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التي ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عَضَّتهم قَنَّنُوا لها .

فظهور دين الله هنا يعني ظهور نُظم وقوانين ستضطرهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتّباع .

إذن: فمنهج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأَهْدى ، وفي القرآن الكريم ما يُوضّح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا في قصة مولاه " زيد بن حارثة " ، وزيد لم يكن عبداً إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ التي وهبتْه بدورها لخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكان زيد في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن علم أهله بوجوده في مكة فأتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن خَيَّره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختار زيد البقاء في خدمة رسول الله وآثره على أهله . فقال صلى الله عليه وسلم: " فما كنت لأختار على مَن اختارني شيئاً " .

وفي هذه القصة دليل على أن الرقَّ كان مباحاً في هذا العصر ، وكان الرقّ حضانةَ حنانٍ

ورحمة، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده، يأكل من طعامه، ويشرب من شرابه، يكسوه إذا اكتسى، ولا يُكلّفه ما لا يطيق، وإنْ كلّفه أعانه، فكانت يده بيده.

(110/451)

وهكذا كانت العلاقة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين زيد؛ لذلك آثره على أهله، وأحب البقاء في خدمته، فرأى رسول الله أن يُكافئ زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله، فقال: "لا تقولوا زيد بن حارثة، قولوا زيد بن محمد".

وكان التبني شائعاً في ذلك الوقت. فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُحرِّم التبني، وأنْ يُحرِّم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: 5]

والشاهد هنا: ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: 5]

فكأن الحكم الذي أنهى التبني، وأعاد زيداً إلى زيد بن حارثة هو الأقسط والأعدل، إذن: حكم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن جَوْراً، بل كان قِسْطاً وعدلاً، لكنه قسط بشري يَفْضُله ما كان من عند الحق سبحانه وتعالى.

وهكذا عاد زيد إلى نسبة الأصلي، وأصبح الناس يقولون "زيد ابن حارثة"، فحزن

لذلك زيد ، لأنه حُرِم من شرف الانتساب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعوَّضه الله تعالى عن ذلك وساماً لم يَنَلْه صحابي غيره ، هذا الوسام هو أن ذُكِر اسمه في القرآن الكريم ، وجعل الناس يتلونه ، ويتعبدون به في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا . . ﴾ [الأحزاب: 37]

إذن: عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى: ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . . ﴾ [الإسراء: 9]

لأن المتتبع للمنهج القرآني يجده يُقدّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط في كل شيء .

في العقائد ، وفي الأحكام ، وفي القصص .

ففي العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ ينكر وجود إله في الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدُّد الآلهة ، فجاء الإسلام وَسَطاً بين الطرفين ، جاء بالأقوم في هذه المسألة ، جاء ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدّث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو أقوم وأوسط ، فللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فَلَهُ يَدٌ وسمع وبصر ، لكن ليست يده كيدنا ، وليس

سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . ﴾ [الشورى: 11]

وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبِّهة الذين شبّهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطّلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأوّلوها على غير حقيقتها .

وكذلك في الخلق الاجتماعي العام ، يلفتنا المنهج القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: 105] يلفتنا إلى ما في الكون من عجائب نغفل عنها ، ونُعرِض عن تدبُّرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذكّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هي بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذي يُثري حياتنا ، ويُوفّر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فالحق سبحانه أعطانا مُقوّمات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمَنْ أراد الكماليات فعليه أنْ يُعمِل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة في ظواهر الكون ، اهتدى بها أصحاب إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسَهّلَتْ عليها كثيراً من المعاناة .

فالذي اخترع العجلة في نقل الأثقال بنى فكرتها على ثِقل وجده يتحرك بسهولة إذا وُضع تحته شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التي مكّنَتْهُ من نقل أضعاف ما

كان يحمله .

والذي أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوةً مُحرِّكة عندما شاهد القِدْر وهو يغلي ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار في تسيير القطارات والعربات .

(112/451)

والعالِم الذي اكتشف دواء " البنسلين " اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء نسميها " الريم " تتكون في أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكي عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفة ، لاحظ أن عينه قد برئت ، فبحث في هذه المسألة حتى توصّل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب في كون الله ، التي يغفل عنها الخَلْق ، ويمرُّون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم في المادة التي خلقها الله ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان في الأرض أعدَّ له كُلَّ متطلبات حياته ، وضمن له في الكون جنوداً إن

أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: 61]

والاستعمار أنْ تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا تستقيم الأمور إنْ كان هذا يبني وهذا يهدم ، إذن: لا بد أنْ تُنظم حركة الحياة تنظيماً يجعل المواهب في الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاضد ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: 17]

وإنْ كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبُّر في آيات الله في كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيّب عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسُّس وتتبُّع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغَيْبهم .

(113/451)

وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن يُثري حياة الناس في الكون ، وهَبْ أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة

واحدة لا يستطيع التخلّي عنها ، فلو تتبعتَ هذه السيئة الواحد فربما أزهدتْك في كل حسناته ، حرمتْك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تغاضيت عن هذه السيئة فيه لأمكنك الانتفاع به .

وهَبْ أن صانعاً بارعاً في صنعته وقد احتجْتَه ليؤديَ لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهدك هذا في صَنْعته ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره ، وإنْ كان أقلّ منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبُّع غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبُّع غَيْبك والبحث عن أسرارك ؛ ولذلك ما أنعم الله على عبيده نعمة أعظمَ من حِفْظ الغيب عنده هو ؛ لأنه ربّ ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لأحدهم غَيْبُ أخيه أو عيبٌ من عيوبه أذاعه وفضحه به .

إذن: فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طُلَعة في استنباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفي الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلَعة في تتبّع أسرار الناس والبحث عن غيبهم ؛ لأنك إنْ تتبعتَ غيب الناس والتمستَ عيوبهم حرمْتَ نفسك من مصادر يمكن أنْ تنتفع بها .

فالحق سبحانه يريد في الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع

من التنافس الشريف البنّاء ، التنافس الذي يُثري الحياة ، ولا يثير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . . ﴾ [المطففين: 26]

كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجدّ ليكون مِثْله أو أفضل منه ، وكأن الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرُّقي ، فالتنافس المقصود ليس تنافس الغِلّ والحقد والكراهية ، بل تنافس مَنْ يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس مَنْ لا يشمت لفشل الآخرين .

(114/451)

وقد يجد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى في عدوه ، ونحن نرى الكثير منا يغضب وتُثَار حفيظته إنْ كان له عدو ، ويراه مصدر شرٍّ وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار .

وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله في إيجاد هذا العدو لا نتفع به انتفاعاً لا يجده في الصديق ، لأن صديقك قد يُنافقك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كَبْوة ليذيعها ويُسمّع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت في الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى: عِدَايَ لَهُمْ فَضْلٌ عليّ ومِنَّةٌ فَلاَ أبعَدَ الرحْمَنُ عَنّي

الأَعَادِيا هُمُو بحثُوا عَنْ زلّتي فَاجْتنبْتُها وهُمْ نافَسُوني فاكْتَسبْتُ المعَالِيا وهكذا نجد لكل شيء في منهج الله فائدة، حتى في الأعداء، ونجد في هذا التنافس المثمر الذي يُثري حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة.

أيضاً لكي يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بُدّ له من قانون يحفظ توازنه، قانون يحمي الضعيف من بطش القوي، فجاء منهج الله تعالى لِيُقنّن لكل جريمة عقوبتها، ويضمن لصاحب الحق حَقّه، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس.

ثم حذَّر القوي أنْ تُطغيه قوته، وتدعوه إلى ظلم الضعيف، وذكّره أن قوته ليست ذاتية فيه، بل هي عَرَضٌ سوف يزول وسوف تتبدل قوته في يوم ما إلى ضَعْف يحتاج معه إلى العون والمساعدة والحماية.

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنا: أنا أحمي الضعيف من قوتك الآن، لأحمي ضعفك من قوة غيرك غداً.

أليس في هذا كله ما هو أقوم؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله في مجال الإنفاق، وتصرُّف المرء في ماله، والمتأمل في هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذيرَ فيه ولا تقتير.

ولاشك أن الإنسان بطبعه يُحب أن يُثري حياته ، وأن يرتقي بها ، ويتمتع بترفها ، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذّراً لا يُبقي من دخله على شيء ، بل لا بُدّ له من الاعتدال في الإنفاق حتى يجد في جعبته ما يمكنه أن يُثري حياته ويرتقي بها ويُوفّر لأسرته كماليات الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الأقوم في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان: 67]

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [الإسراء: 29]

فللإنسان في حياته طموحات تتتابع ولا تنتهي ، خاصة في عصر كثُرت فيه المغريات ، فإنْ وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ، فعليه إذن ألاّ يُبدّد كل طاقته ، وينفق جميع دَخْله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البُخْل والإمساك ؛ لأن البُخْل مذموم ، والبخيل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البُخْل سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التي تصيب المجتمع ، فالممسك لا يتعامل مع المجتمع في حركة البيع والشراء ، فيسهم ببُخْله في تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه .

إذنْ: فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير في أوسط الأمور ، وهذا هو الأقوم

الذي ارتضاه لنا المنهج الإلهي .

وكذلك في مجال المأكل والمشرب ، يرسم لنا الطريق المعتدل الذي يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام والتُّخْمة ، قال تعالى: ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31]

فقد علَّمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قَدْر طاقة الوقود الذي يحتاجه جسمه لا يشتكي ما يشتكيه أصحاب الإسراف في المأكل والمشرب .

(116/451)

والمتأمل في حال هؤلاء الذين يأكلون كلّ مَا لَذَّ وطاب ، ولا يَحْرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء عند كِبَرهم وتقدُّم السِّنّ بهم يُحْرمون بأمر الطبيب من تناول هذه الملذّات ، فترى في بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، في حين يأكل سيده أنواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له:

لأنك أكلتها وأسرفتَ فيها في بداية الأمر ، فلا بُدَّ أنْ تُحرمَ منها الآن .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: "كُلُوا واشربوا وتصدقوا ، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة"

وأيضاً من أسباب السلامة التي رسمها لنا المنهج القرآني ، ألَّا يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرهق المعدة ، ويجرُّ على صاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيب كل شيء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهي يرسم لنا الطريق الأقوم الذي يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلو تدبرْتَ هذا المنهج لوجدته في أيِّ جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

في العقائد ، في العبادات ، في الأخلاق الاجتماعية العامة ، في العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]

هذا المنهج الإلهي هو أَقْوم المناهج وأصلحها ؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق ، ويعلم مَا يصلحهم ، كما قلنا سابقاً : إن الصانع من البشر يعلم صَنْعته ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملْتَ الآلة حَسبْ قانون صانعها أَدَّتْ مهمتها بدقة ، وسلَمتْ من الأعطال ، فالذي خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته ، فيقول له: افعل كذا ولا تفعل كذا:

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14]

فآفة الناس في الدنيا أنهم وهم صَنْعة الحق سبحانه يتركون قانونه، ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم، وهي قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما. إذن: لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 9]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهي يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها، وينعم بالأمن الإيماني، وهذه نعمة في الدنيا، وإن كانت وحدها لكانت كافية، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبشّرنا بما هو أعظم منها، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نَعِيمَيْ الدنيا والآخرة.

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق، يضمن لك فيها الاستقامة والسلام والتعايش الآمن مع الخَلْق.

ومن ذلك قول الحق سبحانه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38]

وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ [طه: 123]

ويقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97]

وفي الجانب المقابل يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَالِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَالِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه: 124-126]

(118/451)

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيري الدنيا والآخرة، ففي المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لا ظُلْماً منه، فهو سبحانه مُنَزَّه عن الظلم والجَوْر، بل عَدْلاً وقِسطاً بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها.

ومعنى: ﴿ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ [الإسراء: 9]

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً، أو على الأقل تبقي الصالح على صلاحه، ولا تدخل فيه بما يُفسده.

وقوله: ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: 9]

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير، ولم يَأْتِ بصيغة أفعل التفضيل منها

(أكبر) ، فنقول: لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فوَصْف الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفي هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال: أكبر فغيره كبير ، إذن: فاختيار القرآن أبلغ وأحكم .

كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هي وصف له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرْض الله علينا أكبر من أي عمل دنيويّ ، وهذا يعني أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو مُعين على الآخرة . فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبس ، والمتأمل في هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرْض الله أكبر من كل كبير .

(119/451)

ولأهمية العمل الدنيوي في حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الجمعة: 9-10]

والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع، واختار البيع دون غيره من الأعمال؛ لأنه الصفقة السريعة الربح، وهي أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال، كما أن البائع يحب دائماً البيع، ويحرص عليه، بخلاف المشتري الذي ربما يشتري وهو كاره، فتجده غير حريص على الشراء؛ لأنه إذا لم يشْتَرِ اليوم سيشتري غداً.

إذن: فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع، فتَرْك غيره من الأعمال أَوْلَى.

فإن ما قُضِيَت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض، فأخرجنا للقائه سبحانه في بيته من عمل، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل.

إذن: فالعمل وحركة الحياة (كبير)، ولكن نداء ربك (أكبر) من حركة الحياة؛ لأن نداء ربك هو الذي سيمنحك القوة والطاقة، ويعطيك الشحنة الإيمانية، فتُقبِل على عملك بهِمّة وإخلاص.

(120/451)

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10)

وهذه الآية امتداد للآية السابقة، ومعطوفة عليها؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً: ﴿

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ [الإسراء: 9]

ثم عطف عليه: ﴿ وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ . . ﴾ [الإسراء: 10]

إذن: فالآية داخلة في البشارة السابقة، ولكن كيف ذلك، والبشارة السابقة تُبشّر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً، والبشارة إخبار بخيْر يأتي في المستقبل، فكيف تكون البشارة بالعذاب؟

قالوا: نعم، هذه بشارة على سبيل التهكُّم والاستهزاء بهم، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: 34]

وكما قال الحق سبحانه متهكماً: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: 49]

وكما تقول للولد الذي أهمل فأخفق في الامتحان: مبروك عليك الفشل، أو تقول: بشِّر فلاناً بالرسوب.

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة، وللكافر بالعذاب، كلاهما بشارة للمؤمن، فبشارة المؤمن بالجنة تسرُّه وتُسعده، وتجعله يستشرف ما ينتظره من نعيم الله في الآخرة.

وبشارة الكافر بالعذاب تسرُّ المؤمن؛ لأنه لم يقع في مصيدة الكفر، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتُخيفه، وهذا رحمة به وإحسان إليه.

وهذا المعنى واضح في قول الحق سبحانه في سورة الرحمن: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ *

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 17-25]

(121/451)

فهذه كلها نِعَم من نعم الله تعالى علينا ، فناسب أن تُذيّل بقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 18]

أما قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 35-36]

فأيُّ نعمة في أنْ يُرسل الله عليهما شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران؟

نعم ، المتأمل في هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نِعَم الله ، ألا وهي زَجْر العاصي عن المعصية ، ومسرّة للطائع .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ .

(122/451)

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11)

(يَدْعُ) الدعاء: طَلَب ما تعجز عنه من قادر عليه.

وأهل النحو يقولون. إن الفعل: ماضٍ ومضارع وأمر. فالأمر: طَلَبٌ من الأعلى إلى الأدنى، فكلّ طلب من الله لخلْقه فهو أمر، أو من الأعلى من البشر للأدنى. أما إنْ كان الطلب من مُسَاوٍ لك فهو التماس أو رجاء. فإنْ كان الطلب من الأدنى للأعلى، كطلب العبد من ربه فهو دعاء.

لذلك نجد التدقيق في الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظّمه، فنقول للطالب: أعرب: رب اغفر لي، فيقول: اغفر، فِعْل دالّ على الدعاء، لأنه لا يجوز في حَقِّ المولَى تبارك وتعالى أن نقول: فعل أمر، فالله لا يأمره أحد.

فأوّل ما يُفهم من الدعاء أنه دَلَّ على صفة العجز والضعف في العبد، وأنه قد اندكتْ فيه ثورة الغرور، فعَلِم أنه لا يقدر على هذا إلا الله فتوجه إليه بالدعاء.

(بِالشَّرِّ) بالمكروه، والإنسان لا يدعو على نفسه، أو على ولده، أو على ماله بالشر إلا في حالة الحَنَق والغضب وضيق الأخلاق، الذي يُخرِج الإنسان عن طبيعته، ويُفقِده التمييز، فيتسرّع في الدعاء بالشر، ويتمنى أن يُنّفذ الله له مَا دعا به.

ومن رحمة الله تعالى بعباده ألاَّ يستجيب لهم هذا الدعاء الذي إنْ دلَّ فإنما يدل على حُمْق

وغباء من العبد .

وكثيراً ما نسمع أماً تدعو على ولدها بما لو استجاب الله له لكانت قاصمة الظهر لها ، أو نسمع أباً يدعو على ولده أو على ماله ، إذن: فمن رحمة الله بنا أنْ يفوت لنا هذا الحمق ، ولا يُنفّذ لنا ما تعجّلناه من دُعاءٍ بالشر . قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: 11]

أي: لو استجاب الله لهم في دعائهم بالشر لكانت نهايتهم .

(123/451)

وإن كنت تُسَرّ وتسعد بأن ربك سبحانه وتعالى فوّتَ لك دعوة بالشر فلم يَسْتجب لها ، وأن لعدم استجابته سبحانه حكمةً بالغةً .

فاعلم أن لله حكمة أيضاً حينما لا يستجيب لك في دعوة الخير ، فلا تقُلْ: دعوتُ فلم يستجبْ لي ، واعلم أن لله حكمة في أن يمنعك خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكان وبالاً عليك .

إذن: عليك أن تقيسَ الأمريْن بمقياس واحد ، وترضى بأمر الله في دعائك بالخير ، كما رضيت بأمره حين صرف عنك دعاء الشر ، ولم يستجب لك فيه . فكما أن له سبحانه

حكمة في الأولى ، فله حكمة في الثانية .

وقد دعا الكفار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنفسهم ، فقالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَاذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ . . ﴾ [الأنفال: 32]

وقالوا: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً . . ﴾ [الإسراء: 92]

ولو استجاب الله لهم هذا الدعاء لَقَضى عليهم ، وقطع دابرهم ، لكن لله تعالى حكمة في تفويت هذا الدعاء لهؤلاء الحَمْقى ، وها هم الكفار باقون حتى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكان المنتظر منهم أن يقولوا: اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدنا إليه ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قَبلوا الموت في سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن طبيعة الإنسان العجلة والتسرُّع ، كما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: 37]

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفي المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله الخير من خلاله .

إذن: أنت لا تعلم وَجْه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أنْ تُجابَ إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لِعزّة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى: ﴿ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ . . ﴾ [الإسراء: 11]

أي: أن الإنسان يدعو بالشر في إلحاح ، وكأنه يدعو بخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(125/451)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ : أي : للحالةِ أو للمِلّة أو للطريقة . قال الزمخشري : " وأيَّتما قدَّرْتَ لم تَجِدْ مع الإِثباتِ ذَوْقَ البلاغةِ الذي تجده مع الحذف ؛ لِما في إبهام الموصوفِ بحذفِه مِنْ فخامةٍ تُفْقَدُ مع إيضاحِه " .

قوله تعالى : ﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أن يكونَ عطفاً على " أنَّ " الأولى ، أي : يُبَشِّرُ المؤمنين بشيئين : بأجرٍ كبيرٍ وبتعذيبِ أعدائهم ، ولا شكَّ أنَّ ما يُصيب عَدُوَّك سُرورٌ لك . وقال الزمخشري : " ويُحتمل أن يكونَ المرادُ : ويُخبر بأنَّ الذين " .

قال الشيخ : " فلا يكونُ إذ ذاك داخلاً تحت البشارةِ " . قلتُ : قولُ الزمخشريِّ يَحْتمل أمرين ، أحدُهما : أن يكونَ قوله " ويُحتمل أن يكونَ المرادُ : ويُخْبِرُ بأنَّ " أنه من باب الحذف ، أي : حَذَفَ " ويُخْبِرُ " وأبقى معموله ، وعلى هذا فيكون " أنَّ الذين " غيرَ داخلٍ في حَيِّز البِشارة بلا شك ، ويحتمل أن يكونَ قصدَه : أنه أُريد بالبِشارة مجرَّدُ الإِخبار سواءً كان بخيرٍ أم بِشَرّ ، وهل هو فيهما حقيقةٌ أو في أحدِهما ، وحينئذٍ يكون جمعاً بين الحقيقةِ والمجاز ، أو استعمالاً للمشترك في معنييه ، وفي المسألتين خلافٌ مشهور ، وعلى هذا فلا يكون قولُه ﴿ وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ غيرَ داخلٍ في حيِّز البِشارة ، إلا أنَّ الظاهرَ مِنْ حالِ الزمخشري أنه لا يُجيز الجمعَ بين الحقيقةِ والمجازِ ولا استعمالَ المشتركِ في مَعْنَيَيْه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير ﴾ :

في البابين ثلاثةُ أوجه، أحدُها: أنهما متعلِّقتان بالدعاءِ على بابهما نحو: "دَعَوْتُ بكذا" والمعنى: أنَّ الإِنسانَ في حالِ ضَجَرِه قد يَدْعُو بالشرِّ ويُلِحُّ فيه، كما يَدْعُو ويُلِحُّ فيه.

والثاني: أنهما بمعنى "في" بمعنى أنَّ الإِنسانَ إذا أصابه ضرٌّ دعا وأَلَحَّ في الدعاءِ واستعجل الفرجَ، مثلَ الدعاءِ الذي كان يحبُّ أُنْ يدعوَه في حالةِ الخير، وعلى هذا فالمَدْعُوُّ به ليس الشرَّ ولا الخيرَ. وهو بعيدٌ. الثالث: أن تكونَ للسببِ، ذكره أبو البقاء، والمعنى لا يُساعده، والمصدرُ مضافٌ لفاعِلِه. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 320. 321﴾

(127/451)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) ﴾

القرآنُ يدل على الحقِّ والصواب. و ﴿ أَقْوَمُ ﴾: هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب، ولكنَّ الخللَ من جهة المُسْتَدِلِّ لا الدليل،

إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكنَّ المستدِلَّ مُعْرِضُ ، وبآداب النظر مُخِلٌّ ، فيكون العيبُ في تقصيره لا في قصور الدليل .

والقرآنُ نورٌ ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ من ظُلُماتِ جَهْله ، وخرج من غمار شَكّه . ومَنْ رَمَدَتْ عيونُ نظره التبس رُشْدُه .

ويقال الحَوَلُ ضَرَرُه أشدُّ من العَمَى ؛ لأَنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِر فيَتْبَعُ قائدَه ، ولكن الأحول يتوهَّمُ الشيء شيئين فهو بتخيُّله وحسبانه يماري مَنْ كان سليماً . . كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجَدَل ، ولم يضع النظر موضعه بَقِيَ في ظُلُماتِ جَهْله ، وصال بباطل دعواه على خَصْمِه ، كما قيل :

بأطرافِ المسائلِ كيف يأتي . . . – ولا أَدْرِي لَعَمْرُكَ – مُبْطِلُوها ؟

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11) ﴾

(128/451)

من الأدب في الدعاء أَلاَّ يسألَ العبدُ إلاَّ عند الحاجة ، ثم ينظر فإنْ كان شيءٌ لا يعنيه ألا يتعرَّضَ له ؛ فإنَّ في الخبر : " مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ثم من آداب الداعي إذا سأل من اللَّهِ حاجَته ورأى تأخيراً في الإجابة إلا يَتَّهِم الحقّ – سبحانه – ويجب أن يعلم أن

الخير في ألا يجيبه ، والاستعجالُ – فيما يختاره العبد – غيرُ محمود ، وأوْلى الأشياءِ السكونُ والرضا بحُكْمِه سبحانه ، إن لم يساعدْه الصبر وسَأَلَ فالواجبُ تَرْكُ الاستعجال ، والثقةُ بأنَّ المقسومَ لا يفوته ، وأنَّ اختيارَ الحقِّ للعبد خيرٌ له من اختياره لنفسه . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 338 . 339 ﴾

(129/451)

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبت ما لصفته تعالى من العلو ، ولصفة الإنسان من السفول تلاه بما لأفعاله تعالى من الإتقان ، ذاكراً ما هو الأقوم من دلائل التوحيد والنبوة في العالمين : العلوي والسفلي ، ثم ما لأفعال الإنسان من العوج جرياً مع طبعه ، أو من الإحسان بتوفيق اللطيف المنان ، فقال

تعالى مبيناً ما منحهم به من نعم الدنيا بعد ما أنعم عليهم به من نعم الدين : ﴿ وجعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ الليل والنهار آيتين ﴾ دالتين على تمام العلم وشمول القدرة ، آية الليل كالآيات المتشابهة ، وآية النهار كالمحكمة ، فكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به إلا بهاتين الآيتين ﴿ فمحونا ﴾ أي بعظمتنا الباهرة ﴿ آية الليل ﴾ بإعدام الضياء فجعلناها لا تبصر بها المرئيات كما لا يبصر الكتاب إذا محي ﴿ وجعلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ ءاية النهار ﴾ ولما كانت في غاية الضياء يبصر بها كل من له بصر ، أسند الإبصار إليها مبالغة فقال : ﴿ مبصرة ﴾ أي بالشمس التي جعلها منيرة في نفسها ، فلا تزال هذه الدار الناقصة في تنقل من نور إلى ظلمة ومن ظلمة إلى نور كما للإنسان - بعجلته التي يدعو إليها طبعه وتأنيه الداعي إليه عقله - من انتقال من نقصان إلى كمال ومن كمال إلى نقصان ، كما أن القمر الذي هو أنقص من الشمس كذلك :

ثم ذكر بعض المنافع المترتبة على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ لتبتغوا ﴾ أي تطلبوا طلباً شديداً ﴿ فضلاً من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم فيهما بضياء هذا تارة وبرد هذا أخرى ﴿ ولتعلموا ﴾ بفصل هذا من هذا ﴿ عدد السنين ﴾ أي من غير حاجة إلى حساب ، لأن النيرين يدلان على تحول الحول بمجرد تنقلهما .

ولما كانا أيضاً يدلان على حساب المطالع والمغارب ، والزيادة والنقصان ، وغير ذلك من الكوائن ، لمن أمعن النظر ، وبالغ في الفكر ، قال تعالى : ﴿ والحساب ﴾ أي جنسه ، فصلناهما لذلك على هذا الوجه المتقن بالزيادة والنقصان ، وتغير الأحوال في أوقات معلومة ، على نظام لا يختل على طول الزمان مقدار ذرة ، ولا ينحل قيس شعرة إلى أن يريد الله خراب العالم وفناء الخلق ، فيبيد ذلك كله في أسرع وقت وأقرب زمن ، ولولا اختلافهما لاختلطت الأوقات وتعطلت الأمور ﴿ وكل شيء ﴾ غيرهما مما تحتاجون إليه في دينكم أو دنياكم ﴿ فصلناه ﴾ أي بعظمتنا ، وأزلنا ألباسه ، وأكد الأمر تنبيهاً على تمام القدرة ، وأنه لا يعجزه شيء يريده ، فقال تعالى : ﴿ تفصيلاً ﴾ فانظروا بأبصاركم وبصائركم ، وتتبعوا في علانياتكم وسرائركم ، تجدوا أمراً متقناً ونظاماً محكماً ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ [الملك : 4] .

ولما كان هذا أمراً دقيقاً جداً ، أتبعه ما هو أدق منه وأغرب في القدرة والعلم من تفاصيل أحوال الآدميين ، بل كل مكلف بعضها من بعض من قبل أن يخلقهم ، فقال تعالى : ﴿ وكل إنسان ﴾ أي من في طبعه التحرك والاضطراب ﴿ ألزمناه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ طائره ﴾ أي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر ، ولعله عبر به لأنهم كانوا لا يقدمون ولا يحجمون في المهم من أعمالهم إلا بالطائر فيقولون : جرى لفلان الطائر بكذا .

﴿ في عنقه ﴾ أي الذي محل الزين بالقلادة ونحوها ، والشين بالغل ونحوه ، إلزاماً لا يقدر أن ينفك عن شيء منه كما لا يقدر على الانفكاك عن العنق ، وذلك كما ألزمنا بني إسرائيل ما قضينا إليهم في الكتاب ، فكان كما قلنا ، وهم يعلمون نه من السوء بمكان ، فلم يقدروا على الاحتراز منه والانفصال عنه ، فلا يمكن أن يظهر في الأبد إلا ما قضى به في الأزل " جف القلم بما هو كائن " ﴿ ونخرج ﴾ أي بما لنا من العظمة وشمول العلم وتمام القدرة ﴿ له يوم القيامة ﴾ أي الذي لا بد من إيجاده ﴿ كتاباً ﴾ بجميع ما عمل ﴿ يلقاه ﴾ حال كونه ﴿ منشوراً ﴾ تكتبه حَفَظَتَنا كل يوم ، ثم إذا صعدوا قابلوا ما فيه على ما سطرناه قديماً في اللوح المحفوظ فيجدونه كما هو ، لا خلاف فيه أصلاً ، فإذا لقي كتابه يوم العرض قيل له : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ أنت بنفسك غير ملزم بما يقرأه غيرك ﴿ كفى ﴾ وحقق الفاعل بزيادة الباء فقال تعالى : ﴿ بنفسك اليوم ﴾ أي في جميع هذا اليوم الذي تكشف فيه الستور ، وتظهر جميع الأمور ﴿ عليك حسيباً ﴾ أي حاسباً بليغاً ، فإنك تعطي القدرة على قراءته أمياً كنت أو قارئاً ، ولا ترى فيه زيادة ولا نقصاً ، ولا تقدر أن تنكر منه حرفاً ، إن أنكره

لسانك شهدت عليك أركانك ، فيا لها من قدرة باهرة ، وقوة قاهرة ، ونصفة ظاهرة ! .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 366 . 368 ﴾

(132/451)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

فصل فى الإسرائيليات والموضوعات

فيما يتعلق بخلق الشمس والقمر :

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والثعلبي ، وغيرهم من المفسرين ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ 1 .

فقد رووا عن ابن عباس أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله لما أبرم خلقه ، فلم يبقَ من خلقه غير آدم عليه السلام خلق شمسا من نور عرشه ، فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسا ، فإنه خلقها مثل الدنيا ، ما بين مشارقها ومغاربها ،

وأما ما كان في سابق علمه أن يطمسها ويحولها قمرا ، فإنه خلقها مثل الشمس في الضوء ، وإنما يرى الناس صغرهما ؛ لشدة ارتفاعهما ، ولو تركهما الله كما خلقهما في بدء الأمر لم يعرف الليل من النهار ، ولا النهار من الليل ، ولكان الأجير ليس له وقت يستريح فيه ، ولكان الصائم لا يدري إلى متى يصوم ، ومتى يفطر ، إلى أن قال : فأرسل جبريل ، فأمرَّ

---

1 الإسراء : 12 .

جناحه على وجه القمر ثلاث مرات ، وهو يومئذ شمس فمحا عنه الضوء ، وبقي فيه النور ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ فالسواد الذي ترونه في القمر هو : أثر ذلك المحو" .

وكذلك روى هذا الباطل ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وسنده واهٍ ؛ لأن فيه نوح بن أبي مريم وهو وضَّاع دجال وقد حكم عليه ابن الجوزي بالوضع والاختلاق1 , ومنشؤه من الإسرائيليات التي ألصقت بالنبي زورا ، وفيه من الركاكة اللفظية ، والمعنوية ما يشهد بوضعه على النبي ، وليس عليه شيء من نور النبوة .

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعرض للكونيات بهذا التفصيل ، ولما سئل عن

الهلال لم يبدو صغيرا ثم يكبر حتى يصير بدرا ، ثم يصغر ، أجاب بالفائدة ، فقال : ﴿ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ ؛ لأن بالأهلة تعرف السنون ، والشهور ، وعليها تتوقف مصالح الناس الدينية والدنيوية ، فيها يعرفون حجهم ، وصومهم ، وإخراج زكاتهم ، وحلول آجال ديونهم ونحوها ، وليس من الحكمة التعرض لمثل هذه الكونيات بالتفصيل ، فتركها لعقول الناس ، وإدراكاتهم أولى ، ولا سيما أنه لا يتوقف على معرفة الأمة لمثل هذه الأمور فائدة دينية ، والقرآن والسنة النبوية حينما يعرضان للحديث عن الكونيات يكون غرضهما انتزاع العبرة ، والاستدلال بما أودع فيهما على وجود الله جل وعلا ، ووحدانيته ، وقدرته ، وعلمه ، وسائر صفاته ولذلك لا نقف فيما صح وثبت من الأحاديث على مثل هذا التفصيلات التي نجدها في الآثار الضعيفة ، والإسرائيليات الباطلة .

ويعجبني في هذا ما نقله الآلوسي في تفسيره ، عن بعض العلماء قال : "وذكر بعض الفضلاء : أنه لم يجئ في ترتيب الأجرام العلوية ، والسفلية ، وشرح أحوالهما كما فعل الفلاسفة عن الشارع شيء ؛ لما أن ذلك ليس من المسائل المهمة في نظره عليه الصلاة والسلام وليس المهم إلا التفكر ، والاستدلال بها على وحدة الصانع ، وكماله جل شأنه وهو حاصل بما يحسن منها فسبحان من رفع السماء بغير عمد ، ومد الأرض ، وجعل فيها رواسي"2 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 290. 291 ﴾

1 اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج1 ص 24 وما بعدها .

2 تفسير الآلوسي ج 13 ص 99 ط/ منير .

(134/451)

فصل آخر من الإسرائيليات والموضوعات

فيما يتعلق بتعليل بعض الظواهر الكونية :

ومن ذلك : ما يذكره بعض المفسرين ، وما يوجد في بعض كتب الحديث في غروب الشمس ، وأنها إذا غربت ابتلعها حوت ، وما يتعلق بالسماوات ، والأجرام السماوية ومن أي الجواهر هي ، والأرض وعلام استقرت ، وأنها على ظهر حوت ، وما يذكرونه في تعليل برودة الآبار في الصيف ، وسخونتها في الشتاء ، وعن منشأ الرعد والبرق ، وعن منشأ السحاب ، إلى نحو ذلك مما لا نصدق وروده عن المعصوم صلى الله عليه و سلم وما ورد منه موقوفا ، فمرجعه إلى الإسرائيليات الباطلة ، أو إلى الزنادقة الذين أرادوا أن يظهروا الإسلام بمظهر الدين الخرافي الذي ينافي العلم ، والسنن الكونية .

فقد روي عن أبي أمامة الباهلي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "وُكِّلَ بالشمس تسعة أملاك ، يرمونها بالثلج كل يوم ، لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته"

رواه الطبراني .

وفي أحد رواته عقير بن معدان ، وهو ضعيف جدا ، ولو أن الحديث صحيح السند ، أو ثابت ، لتمحلنا ، وقلنا : إنه من قبيل التمثيل ، أما وهو بهذا الضعف ، فلنلق به دبر آذاننا .

وعن ابن عمر ، قال : "سئل النبي صلى الله عليه وسلم فقيل : أرأيت الأرض على ما هي ؟ قال : الأرض على الماء" قيل : الماء على ما هو ؟ قال : "على صخرة" فقيل : الصخرة على ما هي ؟ قال : "هي على ظهر حوت يلتقي طرفاه بالعرش" قيل الحوت على ما هو ؟ قال : "على كاهل ملك ، قدماه على الهواء" . رواه البزار عن شيخه عبد الله بن أحمد – يعني ابن شبيب ، وهو ضعيف ، وعن الربيع بن أنس قال : "السماء الدنيا موج مكفوف ، والثانية : صخرة ، والثالثة : حديد ، والرابعة : نحاس ، والخامسة : فضة ، والسادسة : ذهب ، والسابعة : ياقوت" رواه الطبراني في الأوسط هكذا موقوفا على الربيع ، وفيه أبو جعفر الرازي ، وثقه أبو حاتم وغيره ، وضعفه النسائي وغيره1 .

وروى الطبراني في الأوسط بسنده ، فقال : حدثنا محمد بن يعقوب الأهوازي

---

1 مجمع الزوائد للهيثمي ج 8 ص 131 .

الخطيب ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الصمد السلمي ، قال : حدثنا أبو عمران الحراني ، قال : حدثنا ابن جريج عن عطاء ، عن جابر بن عبد الله ، أن خزيمة بن ثابت –وهو ليس بالأنصاري المشهور– كان في عير لخديجة وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان معه في تلك العير ، فقال له : يا محمد ؛ أرى فيك خصالا ، وأشهد أنك النبي الذي يخرج من تهامة وقد آمنت بك ، فإذا سمعت بخروجك أتيتك ، فأبطأ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى كان يوم فتح مكة أتاه فلما رآه قال : "مرحبا بالمهاجر الأول" و . . .

ثم قال : يا رسول الله ؛ أخبرني عن ضوء النهار ، وظلمة الليل ، وعن حر الماء في الشتاء ، وعن برده في الصيف ، وعن البلد الأمين ، وعن منشأ السحاب وعن مخرج الجراد ، وعن الرعد والبرق ، وعن ما للرجل من الولد ، وما للمرأة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما ظلمة الليل ، وضوء النهار ، فإن الشمس إذا سقطت تحت الأرض ، فأظلم الليل لذلك ، وإذا أضاء الصبح ابتدرها سبعون ألف ملك ، وهي تقاعس كراهية أن تعبد من دون الله ، حتى تطلع ، فتضيء ، فيطول الليل بطول مكثها ، فيسخن الماء لذلك ، وإذا كان الصيف : قل مكثها ، فبرد الماء لذلك ، وأما الجراد : فإنه نثرة حوت في البحر ، يقال له : "الأبوات" ، وفيه يهلك ، وأما منشأ السحاب : فإنه ينشأ من قبل الخافقين ، ومن بين الخافقين تلجمه الصبا والجنوب ، ويستدبره الشمال والدبور ، وأما الرعد : فإنه ملك بيده مخراق1 يدني القاصية : ويؤخر الدانية ، فإذا رفع برقت ، وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب

صعقت ، وأما ما للرجل من الولد ، وما للمرأة فإن للرجل العظام ، والعروق ، والعصب ، وللمرأة اللحم ، والدم ، والشعر ، وأما البلد الأمين : فمكة" .

وقال الهيثمي في زوائده : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه يوسف بن يعقوب أبو عمران ، ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمته ، ولم يذكر تضعيفه عن أحد !2 .

أقول : والحق أن الذهبي حكم ببطلان هذا الخبر ، وقال : إن راويه عن يوسف بن يعقوب مجهول ، وهو محمد بن عبد الرحمن السلمي المذكور ، وأحرى به أن يكون

---

1 المخراق خرق تفتل ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا والمراد هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب

2 مجمع الزوائد للهيثمي ج 8 ، ص 132 .

باطلا ، ورحم الله الإمام الحافظ الناقد أبا عبد الله الذهبي ، الذي أبان لنا قيمة هذه المرويات الباطلة ، من منذ بضعة قرون .

وإليك ما قاله الإمام الذهبي بنصه قال : يوسف بن يعقوب ، أبو عمران ، عن ابن جريج ، بخبر باطل طويل ، وعنه إنسان مجهول ، واسمه : عبد الرحمن السلمي ، قال الطبراني :

حدثنا محمد بن يعقوب الأهوازي الخطيب .

ثم ذكر الإسناد الذي ذكرته آنفا ، وبعض المتن ، إلا أنه قال : "إن خزيمة بن ثابت الأنصاري" . . . وقال : ذكره أبو موسى في الطوالات وروى بعضه عبدان الأهوازي ، عن السلمي هذا 1 .

فكيف يقول الهيثمي ، ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمته ، ولم ينقل تضعيفه عن أحد ؟ ! إنه والله العجب ! ! وقد وافق الذهبي فيما قال الإمام الحافظ ابن حجر في : لسان الميزان"2 ، فقد ذكر ما ذكره الذهبي ، غير أنه قال : عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاري كان في عير لخديجة . . . وذكر القصة السابقة .

وما ذكره الحافظ ابن حجر في "لسان الميزان" من أنه ليس بالأنصاري هو الصحيح ، فهو خزيمة بن حكيم السلمي ، ويقال له : ابن ثابت أيضا ، كان صهر خديجة أم المؤمنين ، فهو غير خزيمة بن ثابت الأنصاري ، المشهور بأنه ذو الشهادتين قطعا 3 .

ومما يروى في مثل هذا ما روي عن صباح بن أشرس ، قال : "سئل ابن عباس عن المد والجزر ، فقال : إن ملكًا موكّلًا بناموس البحر ، فإذا وضع رجله فاضت ، وإذا رفعها غاضت" ، قال الهيثمي : رواه أحمد وفيه من لم أعرفه . أقول : والبلاء غالبا ، إنما يكون من المجاهيل .

وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "المجرة التي في السماء هي عرق

حية تحت العرش" ، روه الطبراني في المعجم الكبير والأوسط ، وقال : لا يروى عن

---

1 ميزان الاعتدال في نقد الرجال ج 3 ، ص 335 ترجمة رقم 2866 ط السعادة .

2 ج 6 ص 330 ط الهند .

3 الإصابة ج 1 ، ص 427 ترجمة 2258 .

(137/451)

النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد ، وفيه عبد الأعلى بن أبي سحرة ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات ، أقول : والبلاء من هذا الذي لا يُعرَف .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معاذ ؛ إني مرسلك إلى قوم هل عناد ، فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل : هي لعاب حية تحت العرش" رواه الطبراني ، وفيه الفضل بن المختار وهو ضعيف 1 . أقول : وأحرى بمثل هذا أن لا يروى إلا من طريق ضعيف .

وكل هذا الذي ذكرناه ، وأمثاله مما لا نصدق وروده عن المعصوم صلى الله عليه وسلم وإنما هو من أكاذيب بني إسرائيل وخرافاتهم أو من وضع الزنادقة الخبثاء ، وألصق بالنبي زورا ، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتكلم في الكونيات ، والفلكيات وأسباب

الكائنات بهذا التفصيل ، كما حققت لك آنفا ، وفي هذه المرويات من السذاجة العلمية ، والتهافت ما لا يليق بعاقل ؛ فضلا عن أعقل العقلاء ، الذي ما كان ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم .

وأيضا : فهذه التعليلات لا تتفق هي والمقررات العلمية المستقرة الثابتة ، التي أصبحت في حكم اليقينات اليوم ، ولا أدري كيف يكون حال الداعية إلى الإسلام اليوم في البلاد المتقدمة في العلم والمعرفة إذا لهج بمثل هذه الأباطيل التي تضرُّ بالدين أكثر مما ينال منه أعداؤه ؟ ولو أن هذه المرويات كانت في كتب معتمدة من كتب الحديث ، والرواية التي تعنى بذكر الأحاديث الصحيحة والحسنة ، لكان للمنتصرين لها بعض العذر ؛ أما وهي كما علمت غير معتدٍّ بها ؛ لضعف أسانيدها ، ومخالفتها للعقل ، والعلم اليقيني ، فاضرب بها عرض الحائط ولا كرامة ، وكفى إفسادها العقول والأفكار أحقابا من الزمان ، ورحم الله أئمتنا الأوائل الذين تنبهوا إليها ، ونقدوها وزيفوها . انتهى انتهى . اهـ ﴾

الإسرائيليات والموضوعات ص 292 . 295 ﴾

---

1 مجمع الزوائد ج 8 ص 138 .

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في تقرير النظم وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما أوصل إلى الخلق من نعم الدين وهو القرآن أتبعه ببيان ما أوصل إليهم من نعم الدنيا فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ وكما أن القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه ، فكذلك الدهر مركب من النهار والليل .

فالمحكم كالنهار ، والمتشابه كالليل ، وكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه ، فكذلك الوقت والزمان لا يكمل الانتفاع به إلا بالنهار والليل .

والوجه الثاني : في تقرير النظم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وذلك الأقوم ليس إلا ذكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة ، لا جرم أردفه بذكر دلائل التوحيد ، وهو عجائب العالم العلوي والسفلي .

الوجه الثالث : أنه لما وصف الإنسان بكونه عجولاً أي منتقلاً من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة ، بين أن كل أحوال هذا العالم كذلك ، وهو الانتقال من النور إلى الظلمة وبالضد ،

وانتقال نور القمر من الزيادة إلى النقصان وبالضد ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ قولان :

القول الأول : أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار .

والمعنى : أنه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا .

أما في الدين : فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له ، مع كونهما متعاقبين على الدوام ، من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما ، بل لا بد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة ، وأما في الدنيا : فلأن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار ، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل ﴾ وعلى هذا القول : تكون الإضافة في آية الليل والنهار للتبيين ، والتقدير : فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي نفس النهار مبصرة ، ونظيره قولنا : نفس الشيء وذاته ، فكذلك آية الليل هي نفس الليل .

ويقال أيضاً : دخلت بلاد خراسان أي دخلت البلاد التي هي خراسان ، فكذلك ههنا .

القول الثاني : أن يكون المراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر ، فمحونا آية الليل وهي القمر ، وفي تفسير محو القمر قولان :

القول الأول : المراد منه ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان في النور ، فيبدو في أول الأمر في صورة الهلال ، ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدراً كاملاً ، ثم يأخذ في الانتقاص قليلاً قليلاً ، وذلك هو المحو ، إلى أن يعود إلى المحاق .

والقول الثاني : المراد من محو القمر الكلف الذي يظهر في وجهه يروى أن الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء ، فأرسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء .

ومعنى المحو في اللغة : إذهاب الأثر ، تقول : محوته أمحوه وانمحى وامتحى إذا ذهب أثره ، وأقول : حمل المحو في هذه الآية على الوجه الأول أولى ، وذلك لأن اللام في قوله : ﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مّن رَّبّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ متعلق بما هو مذكور قبل ، وهو محو آية الليل .

وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله .

إذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه ، لأن سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر ، وأهل التجارب بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه ، مثل أحوال البحار في المد والجزر ، ومثل أحوال التجربات على ما تذكره الأطباء في كتبهم ، وأيضاً بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور ، وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الأهلة كما قال :

﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ فثبت أن حمل المحو على ما ذكرناه أولى .

وأقول أيضاً : لو حملنا المحو على الكلف الحاصل في وجه القمر ، فهو أيضاً برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين في المبدأ والمعاد ، أما دلالته على صحة قولهم في المبدأ ، فلأن جرم القمر جرم بسيط عند الفلاسفة ، فوجب أن يكون متشابه الصفات ، فحصول الأحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على أنه ليس بسبب الطبيعة ، بل لأجل أن الفاعل المختار خصص بعض أجزائه بالنور القوي ، وبعض أجزائه بالنور الضعيف ، وذلك يدل على أن مدبر العالم فاعل مختار لا موجب بالذات .

وأحسن ما ذكره الفلاسفة في الاعتذار عنه ، أنه ارتكز في وجه القمر أجسام قليلة الضوء ، مثل ارتكاز الكواكب في أجرام الأفلاك ، فلما كانت تلك الأجرام أقل ضوأ من جرم القمر ، لا جرم شوهدت تلك الأجرام في وجه القمر كالكلف في وجه الإنسان ، وهذا لا يفيد مقصود الخصم ، لأن جرم القمر لما كان متشابه الأجزاء فلم ارتكزت تلك الأجرام الظلمانية في بعض أجزاء القمر دون سائر الأجزاء ؟ وبمثل هذا الطريق يتمسك في أحوال الكواكب ، وذلك لأن الفلك جرم بسيط متشابه الأجزاء فلم لم يكن حصول جرم الكواكب في بعض جوانبه أولى من حصوله في سائر الجوانب ؟ وذلك يدل على أن اختصاص ذلك الكوكب بذلك الموضع المعين من الفلك لأجل تخصيص الفاعل المختار ، وكل هذه الدلائل إنما يراد من تقريرها وإيرادها التنبيه على أن المؤثر في العالم فاعل بالاختيار لا موجب بالذات ، والله أعلم .

أما قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مبصرة ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن معنى كونها مبصرة أي مضيئة وذلك لأن الإضاءة سبب لحصول الإبصار ، فأطلق اسم الإبصار على الإضاءة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

والثاني : قال أبو عبيدة يقال : قد أبصر النهار إذا صار الناس يبصرون فيه ، كقوله : رجل مخبث إذا كان أصحابه خبثاء ، ورجل مضعف إذا كانت ذراريه ضعافاً ، فكذا قوله : ﴿ والنهار مبصراً ﴾ [يونس : 67] ، أي أهله بصراء .

واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة منافع الليل والنهار ، قال : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 10 ، 11] وقال أيضاً : ﴿ جعَلَ لَكُمُ الليل والنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ .

(142/451)

واعلم أن الحساب مبني على أربع مراتب : الساعات والأيام والشهور والسنون ، فالعدد للسنين ، والحساب لما دون السنين ، وهي الشهور والأيام والساعات ، وبعد هذه المراتب الأربع لا يحصل إلا التكرار كما أنهم رتبوا العدد على أربع مراتب : الآحاد والعشرات والمئات والألوف ، وليس بعدها إلا التكرار ، والله أعلم .

ثم قال : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ والمعنى : أنه تعالى لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ، ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا ، فلما شرح الله تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق ، كان ذلك تفصيلاً نافعاً وبياناً كاملاً ، فلا جرم

قال : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ أي كل شيء بكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم ، فقد فصلناه وشرحناه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] وقوله : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : 25] وإنما ذكر المصدر وهو قوله : ﴿ تَفْصِيلًا ﴾ لأجل تأكيد الكلام وتقريره ، كأنه قال : وفصلناه حقاً وفصلناه على الوجه الذي لا مزيد عليه ، والله أعلم .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في كيفية النظم وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى لما قال : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ كان معناه أن كل ما يحتاج إليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكوراً .

وكل ما يحتاج إليه من شرح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، فقد صار مذكوراً .

وإذا كان الأمر كذلك فقد أزيحت الأعذار ، وأزيلت العلل فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ونقول له : ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

الوجه الثاني : أنه تعالى لما بين أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا ، مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعماً عليهم بأعظم وجوه النعم .

وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فإنه يكون مسؤولاً عن أعماله وأقواله .

الوجه الثالث : في تقرير النظم أنه تعالى لما بين أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فلما شرح أحوال الشمس والقمر والليل والنهار ، كان المعنى : إني إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي ، وإذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته أنه هل أتى بتلك الخدمة والطاعة ، أو تمرد وعصى وبغى ، فهذا هو الوجه في تقرير النظم .

المسألة الثانية :

في تفسير لفظ ، الطائر ، قولان :

القول الأول : أن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه ، أو يحتاج إلى ازعاجه ، وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة ، فلما كثر ذلك منهم سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس : ﴿ قَالُواْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس : 18] إلى قوله : ﴿ قَالُواْ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : 19] فقوله : ﴿ وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ أي كل إنسان ألزمناه عمله في عنقه .

(144/451)

وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد : ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ .

القول الثاني : قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت ، وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر ، والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم ، والعمر والرزق ، والسعادة والشقاوة .

والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وأن ينحرف عنه ، بل لا بد وأن يصل إلى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية ، فتلك الأشياء المقدورة كأنها تطير إليه وتصير إليه ، فبهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الأحوال المقدرة بلفظ الطائر ، فقوله : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلزَمناه طائره فِى عُنُقِهِ ﴾ كناية عن أن كل ما قدره الله تعالى ومضى في علمه حصوله ، فهو لازم له واصل إليه غير منحرف عنه .

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على أن كل ما قدره الله تعالى للإنسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم ، وتقريره من وجهين :

الوجه الأول : أن تقدير الآية : وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه ، فبين تعالى أن ذلك العمل لازم له ، وما كان لازماً للشيء كان ممتنع الزوال عنه واجب الحصول له وهو المقصود .

والوجه الثاني : أنه تعالى أضاف ذلك الإلزام إلى نفسه ، لأن قوله : ﴿ ألزمناه ﴾ تصريح بأن ذلك الإلزام إنما صدر منه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ [الفتح : 26] وهذه الآية دالة على أنه لا يظهر في الأبد إلا ما حكم الله به في الأزل ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : " جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة " والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾ كناية عن اللزوم كما يقال : جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا

العمل وألزمتك الاحتفاظ به ، ويقال : قلدتك كذا وطوقتك كذا ، أي صرفته إليك وألزمته إياك ، ومنه قلده السلطان كذا .

(145/451)

أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق ، ومنه يقال : فلان يقلد فلاناً أي جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه .

قال أهل المعاني : وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء بهذا المعنى لأن الذي يكون عليه إما أن يكون خيراً يزينه أو شراً يشينه ، وما يزين يكون كالطوق والحلي ، والذي يشين فهو كالغل ، فههنا عمله إن كان من الخيرات كان زينة له ، وإن كان من المعاصي كان كالغل على رقبته .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَابًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ قال الحسن : يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك .

فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة .

قوله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ ﴾ أي من قبره يجوز أن يكون معناه : نخرج له ذلك لأنه لم ير كتابه في

الدنيا فإذا بعث أظهر له ذلك وأخرج من الستر ، وقرأ يعقوب : (ويخرج له يوم القيامة كتاباً) أي يخرج له الطائر أي عمله كتاباً منشوراً ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 10] وقرأ ابن عمر : (يلقاه) من قولهم : لقيت فلاناً الشيء أي استقبلته به . قال تعالى : ﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان : 11] وهو منقول بالتشديد من لقيت الشيء ولقانيه زيد .

(146/451)

ثم قال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ والتقدير يقال له : وهذا القائل هو الله تعالى على ألسنة الملائكة ﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال الحسن : يقرؤه أمياً كان أو غير أمي ، وقال بكر بن عبد الله : يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها ، وسيأتي في جوف صحيفته وهو يقرؤها ، حتى إذا ظن أنها أوبقته قال الله تعالى : "اذهب فقد غفرتها لك فيما بيني وبينك" فيعظم سروره ، ويصير من الذين قال في حقهم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : 38 ، 39] ثم يقول : ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] .

وأما قوله : ﴿ كفى بِنفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي محاسباً .

قال الحسن: عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك.

قال السدي: يقول الكافر يومئذ إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾، والله أعلم.

المسألة الرابعة:

قال حكماء الإسلام: هذه الآية في غاية الشرف، وفيها أسرار عجيبة في أبحاث:

البحث الأول: أنه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذي يطير إليه، وذلك لأنه تعالى قدر لكل أحد في الأزل مقداراً من الخير والشر، فذلك الحكم الذي سبق في علمه الأزلي وحكمه الأزلي لا بد وأن يصل إليه، فذلك الحكم كأنه طائر يطير إليه من الأزل إلى ذلك الوقت، فإذا حضر ذلك الوقت وصل إليه ذلك الطائر وصولاً لا خلاص له ألبتة ولا انحراف عنه ألبتة.

وإذا علم الإنسان في كل قول وفعل ولمحة وفكرة أنه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله إليه على منهج معين وطريق معين، وأنه لا بد وأن يصل إليه ذلك الطائر، فعند ذلك عرف أن الكفاية الأبدية لا تتم إلا بالعناية الأزلية.

والبحث الثاني: أن هذه التقديرات إنما تقدرت بإلزام الله تعالى.

وذلك باعتبار أنه تعالى جعل لكل حادث حادثاً متقدماً عليه لحصول الحادث المتأخر ، فلما كان وضع هذه السلسلة من الله لا جرم كان الكل من الله ، وعند هذا يتخيل الإنسان طيوراً لا نهاية لها ولا غاية لأعدادها ، فإنه تعالى طيرها من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب ، وأنها صارت وطارت طيراناً لا بداية له ولا غاية له ، وكان كل واحد منها متوجهاً إلى ذلك الإنسان المعين في الوقت المعين بالصفة المعينة ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ .

البحث الثالث : أن التجربة تدل على أن تكرار الأعمال الاختيارية تفيد حدوث الملكة النفسانية الراسخة في جوهر النفس ، ألا ترى أن من واظب على تكرار قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظاً ، ومن واظب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له .

إذا عرفت هذا فنقول : لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة وجب أن يحصل لكل واحد من تلك الأعمال أثر ما في جوهر النفس ، فإنا لما رأينا أن عند توالي القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقبة في الحجر ، علمنا أن لكل واحد من تلك القطرات أثراً ما في حصول ذلك الثقب وإن كان ضعيفاً قليلاً ، وإن كانت الكتابة أيضاً في عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلح الناس على جعلها معرفات لألفاظ مخصوصة ، فعلى هذا ، دلالة تلك النقوش على تلك المعاني المخصوصة دلالة كائنة

جوهرية واجبة الثبوت، ممتنعة الزوال، كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش أولى باسم الكتاب من الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والاصطلاح.

وإذا عرفت هاتين المقدمتين فنقول: إن كل عمل يصدر من الإنسان كثيراً كان أو قليلاً قوياً كان أو ضعيفاً، فإنه يحصل منه لا محالة في جوهر النفس الإنسانية أثر مخصوص، فإن كان ذلك الأثر أثراً لجذب جوهر الروح من الخلق إلى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات.

وإن كان ذلك الأثر أثراً لجذب الروح من حضرة الحق إلى الاشتغال بالخلق كان ذلك من موجبات الشقاوة والخذلان.

إلا أن تلك الآثار تخفى ما دام الروح متعلقاً بالبدن، لأن اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الأحوال وتجليها وظهورها، فإذا انقطع تعلق الروح عن تدبير البدن فهناك تحصل القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام: "من مات فقد قامت قيامته" ومعنى كون هذه الحالة قيامة أن النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة في هذا الجسد السفلي، فإذا انقطع ذلك التعلق، قامت النفس وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلوي، فهذا هو المراد

من كون هذه الحالة قيامة ، ثم عند حصول القيامة بهذا المعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء ، وقيل له ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] وقوله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَابًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ معناه : ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتاباً مشتملاً على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الأحوال الدنيوية ، ويكون هذا الكتاب في هذا الوقت منشوراً ، لأن الروح حين كانت في البدن كانت هذه الأحوال فيه مخفية فكانت كالمطوية .

أما بعد انقطاع التعلق الجسداني ظهرت هذه الأحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد أن كانت مطوية ، وظاهرة بعد أن كانت مخفية ، وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح فيقال له في تلك الحالة : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ ثم يقال له : ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ فإن تلك الآثار إن كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لا محالة ، وإن كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لا محالة ، فهذا تفسير هذه الآية بحسب الأحوال الروحانية .

واعلم أن الحق أن الأحوال الظاهرة التي وردت فيها الروايات حق وصدق لا مرية فيها ، واحتمال الآية لهذه المعاني الروحانية ظاهر أيضاً ، والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الإقرار بالكل ، والله أعلم بحقائق الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 137.131 ﴾

(150/451)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنها ظلمة الليل التي لا نبصر فيها الطرقات كما لا نبصر ما محي من الكتاب ، وهذا من أحسن البلاغة ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : أنها اللطخة السوداء التي في القمر ، وهذا قول علي وقتادة ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيميز به الليل من النهار .

﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها الشمس مضيئة للأبصار .

الثاني : موقظة .

قوله عز وجل : ﴿ وكل إنسان ألزمنا طائره في عنقه ﴾

فيه قولان :

أحدهما : ألزمناه عمله من خير أو شر مثل ما كانت العرب تقوله سوانح الطير وبوارحه ، والسانح : الطائر يمر ذات اليمين وهو فأل خير ، والبارح : الطائر يمر ذات الشمال وهو فأل شر ، وأضيف إلى العنق .

الثاني : أن طائره حظه ونصيبه ، من قول العرب : طار سهم فلان إذا خرج سهمه ونصيبه منه ، قاله أبو عبيدة .

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ يعني كتاب طائره الذي في عنقه من خير أو شر .

ويحتمل نشر كتابه الذي يلقاه وجهين :

أحدهما : تعجيلاً للبشرى بالحسنة ، والتوبيخ بالسيئة .

الثاني : إظهار عمله من خير أو شر .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لما في قراءته من زيادة التقريع والتوبيخ .

والثاني : ليكون إقراره بقراءته على نفسه .

﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني شاهداً .

والثاني : يعني حاكماً بعملك من خير أو شر . ولقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك بعملك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(151/451)

وقال ابن عطية :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

(152/451)

" الآية " العلامة المنصوبة للنظر والعبرة ، وقوله ﴿ فمحونا ﴾ قالت فرقة : سبب تعقيب الفاء أن الله تعالى خلق الشمس والقمر مضيئين فمحا بعد ذلك القمر محاه جبريل بجناحيه ثلاثة مرات فمن هنالك كلَفُه وكونه منيراً فقط ، وقالت فرقة ، وهو الظاهر : إن قوله ﴿ فمحونا ﴾ إنما يريد في أصل خلقته ، وهذا كما تقول بنيت داري فبدأت بالأس ، ثم تابعت

فلا تريد بالفاء التعقيب ، وظاهر لفظ الآية يقتضي أربع آيات لا سيما لمن بنى على أن القمر هو الممحو والشمس هي المبصرة ، فأما إن قدر الممحو في إظلام الليل والإبصار في ضوء النهار أمكن أن تتضمن الآية ﴿ آيتين ﴾ فقط ، على أن يكون فيها طرف من إضافة الشيء إلى نفسه ، وقوله ﴿ مبصرة ﴾ مثل قولك ليل قائم ونائم أي ينام فيه ويقام ، فكذلك " آية مبصرة " أي يبصر بها ومعها ، وحكى الطبري عن بعض الكوفيين أنه قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سلوا عما شئتم فقال ابن الكوّا : ما السواد الذي في القمر ؟ فقال له علي : قاتلك الله هلا سألت عن أم دينك وآخرتك ذلك محو الليل وجعل الله تعالى النهار مبصراً ليبتغي الناس الرزق ، وفصل الله ، وجعل القمر مخالفاً للشمس ليعلم به العدد من السنين والحساب للأشهر وللأيام ، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة القمر لا من جهة الشمس ، وقوله ﴿ كل شيء ﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه الظاهر تقديره وفصلنا كل شيء فصلناه تفصيلاً وقيل : و﴿ كل ﴾ عطف على ﴿ والحساب ﴾ فهو معمول ﴿ لتعلموا ﴾ ، والتفصيل البيان بأن تذكر فصول ما بين الأشياء وتزال أشباهها حتى يتميز الصواب من الشبه العارضة فيه ، وقوله ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره ﴾ الآية ، قوله ﴿ كل ﴾ منصوب بفعل مقدر ، وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد ؛ " طيره في عنقه " ، قال ابن عباس ﴿ طائره ﴾ ما قدر له وعليه ، وخاطب الله العرب في هذه الآية بما

تعرف ، وذلك أنه كان من عادتها التيمن والتشاؤم بالطير في كونها سانحة وبارحة وكثر ذلك

(153/451)

حتى فعلته بالظبا وحيوان الفلاة ، وسميت ذلك كله تطيراً ، وكانت تعتقد أن تلك الطيرة قاضية بما يلقى الإنسان من خير وشر ، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقى الإنسان من خير وشر قد سبق به القضاء . وألزم حظه وعمله وتكسبه في عنقه ، وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا عدوى ولا طيرة " ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ فعبر عن الحظ والعمل إذ هما متلازمان ب " الطائر " ، قال مجاهد وقتادة بحسب معتقد العرب في التطير ، وقولهم في أمور على الطائر الميمون ، وبأسعد طائر ومنه طار في المحاجة والسهم كقول أم العلا الأنصارية فطار لنا من القادمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة عثمان بن مظعون ، أي كان ذلك حظنا ، وأصل هذا كله من الطير التي تقضي عندهم بلقاء الخير والشر وأبطل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم

" لا عدوى ولا طيرة " ، وقوله ﴿ في عنقه ﴾ جرى أيضاً على مقطع العرب في أن تنسب

ما كان إلزاماً وقلادة وأمانة ونحو هذا إلى العنق كقولهم : دمي في عنق فلان وكقول الأعشى :

والشعر قلدته سلامة ذا . . . فائش والشيء حيثما جعلا

(154/451)

وهذا كثير ، ونحوه جعلهم ما كان تكسباً وجناية وإثماً منسوباً إلى اليد إذ هي الأصل في التكسب ، وقرأ أبو جعفر ونافع والناس " ونخرج " بنون العظمة "كتاباً " بالنصب ، وقرأ الحسن ومجاهد وابن محيصن : و" يخرُج " بفتح الياء وضم الراء على الفعل المستقبل " كتاباً " أي طائره الذي كني به عن عمله يخرج له ذا كتاب ، وقرأ الحسن من هؤلاء "كتابٌ " بالرفع ، وقرأ أبو جعفر أيضاً " ويُخرَج" بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله ، "كتاباً " أي طائره ، وقرأ أيضاً "كتاباً " وقرأت فرقة " ويُخرِج" بضم الياء وكسر الراء أي يخرج الله ، وفي مصحف أبي بن كعب "في عنقه يقرؤه يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً " ، وهذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطيئاته ، وقرأ الجمهور "يَلْقاه" بفتح الياء وسكون اللام وخفة القاف ، وقرأ ابن عامر وحده ، "يُلَقّاه" بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف وهي قراءة الحسن بخلاف ، وأبي جعفر والجحدري ، وقوله ﴿ اقرأ كتابك ﴾ حذف من الكلام يقال

له اختصار الدلالة الظاهرة عليه ، و" الحسيب " الحاسب ونصبه على التمييز ، وأسند الطبري عن الحسن أنه قال : يا بن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت أو قلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ قد عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

قال القاضي أبو محمد : فعلى هذه الألفاظ التي ذكر يكون الطائر ما يتحصل مع آدم من عمله في قبره فتأمل لفظه ، وهذا هو قول ابن عباس وقال قتادة في قوله : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ إنه سيقرأ يومئذ من لم يكن يقرأ . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(155/451)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾

أي : علامتين يدلان على قدرة خالقهما .

﴿ فمحونا آية الليل ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن آية الليل : القمر ، ومحوها : ما في بعض القمر من الاسوداد .

وإلى هذا المعنى ذهب علي عليه السلام ، وابن عباس في آخرين .

والثاني : آية الليل محيت بالظلمة التي جعلت ملازمةً لليل ؛ فنسب المحو إلى الظلمة إذْ كانت تمحو الأنوارَ وتبطلُها ، ذكره ابن الأنباري .

ويُروى أن الشمس والقمر كانا في النور والضوء سواءً ، فأرسل الله جبريل فأمرَّ جناحه على وجه القمر وطمس عنه الضوء .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا آية النهار ﴾ يعني : الشمس ﴿ مبصرة ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : منيرة ، قاله قتادة .

قال ابن الأنباري : وإنما صلح وصف الآية بالإبصار على جهة المجاز ، كما يقال : لعب الدهر ببني فلان .

والثاني : أن معنى "مبصرة" : مبصراً بها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن معنى "مبصرة" مُبَصِّرَةً ، فجرى "مُفْعِل" مجرى "مُفَعِّل" ، والمعنى : أنها تُبَصِّر الناس ، أي : تُريهم الأشياء ، قاله ابن الأنباري .

ومعاني الأقوال تتقارب .

قوله تعالى : ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي : لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم وتطلبون رزقكم بالنهار ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ بمحو آية الليل ، ولولا ذلك

، لم يعرف الليل من النهار ، ولم يُتبين العدد .

﴿ وكلَّ شيء ﴾ أي : ما يُحتاج إليه : ﴿ فصّلناه تفصيلا ﴾ بيّنّاه تبيناً لا يلتبس معه بغيره .

قوله تعالى : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ﴾

وقرأ ابن أبي عبلة "وكلُّ" برفع اللام .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبَيٌّ ، والحسن ﴿ ألزمناه طَيْره ﴾ بياء ساكنة من غير ألف .

وفي الطائر أربعة أقوال .

أحدها : شقاوته وسعادته ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال مجاهد : ما من مولود يولد إلاَّ وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي ، أو سعيد .

والثاني : عمله ، قاله الفراء ، وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أنه ما يصيبه ، قاله خصيف .

وقال أبو عبيدة حظُّه .

قال ابن قتيبة : والمعنى فيما أرى والله أعلم : أن لكل امرئٍ حظاً من الخير والشر قد قضاه

الله [عليه] ، فهو لازم عنقه ، والعرب تقول : لكل ما لزم الإنسان : قد لزم عنقه ، وهذا لك عليَّ وفي عنقي حتى أخرج منه ، وإنما قيل للحظ من الخير والشر : "طائر" ، لقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير ، وجرى له الطائر بكذا من الشر ، على طريق الفأل والطِيَّرة ، فخاطبهم الله بما يستعملون ، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطّائر ، هو الذي يُلزمه أعناقهم .

وقال الأزهري : الأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم ، علم المطيع من ذريته ، والعاصي ، فكتب ما علمه منهم أجمعين ، وقضى سعادةَ من علمه مطيعاً ، وشقاوة مَن علمه عاصياً ، فصار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه ، فذلك قوله : ﴿ ألزمناه طائره في عنقه ﴾ .

والرابع : أنه ما يَتطيَّر من مثله من شيء عمله ، وذِكْرُ العنق عبارة عن اللزوم له ، كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس ، هذا قول الزجاج .

وقال ابن الأنباري : الأصل في تسميتهم العمل طائرا ، أنهم كانوا يتطيَّرون من بعض الأعمال .

قوله تعالى : ﴿ ونُخرج له ﴾ قرأ أبو جعفر : "ويُخْرَج" بياء مضمومة وفتح الراء .

وقرأ يعقوب ، وعبد الوارث : بالياء مفتوحة وضم الراء .

وقرأ قتادة ، وأبو المتوكل : "ويُخرِج" بياء مرفوعة وكسر الراء .

وقرأ أبو الجوزاء، والأعرج: "وتَخرُجُ" بتاء مفتوحة ورفع الراء، ﴿ يوم القيامة كتاباً ﴾

وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: "كتاب" بالرفع، ﴿ يلقاه ﴾ وقرأ ابن عامر،

وأبو جعفر: "يُلَقَّاه" بضم الياء وتشديد القاف.

وأمال حمزة، والكسائي القاف.

قال المفسرون: هذا كتابه الذي فيه ما عمل.

(157/451)

وكان أبو السوّار العَدَوي إذا قرأ هذه الآية قال: نشرتان وطيّة، أمّا ما حييتَ يا ابن آدم،

فصحيفتُك منشورة، فأَمْلِ فيها ما شئت، فإذا مُتَّ، طُويت، ثم إذا بُعثت، نُشرت.

قوله تعالى ﴿ إقرأ كتابك ﴾ وقرأ أبو جعفر: "اقرا" بتخفيف الهمزة، وفيه إضمار،

تقديره، فيقال له إقرأ كتابك.

قال الحسن: يقرؤه أُمّياً كان أو غير أُميٍّ، ولقد عدل عليك مَن جعلك حسيب نفسك.

وفي معنى ﴿ حسيباً ﴾ ثلاثة أقوال.

أحدها: محاسِباً.

والثاني: شاهداً.

والثالث : كافياً ، والمعنى : أن الإنسان يفوّض إليه حسابه ، ليعلم عدل الله بين العباد ، ويرى وجوب حجة الله عليه ، واستحقاقه العقوبة ، ويعلم أنه إن دخل الجنة ، فبفضل الله ، لا بعمله ، وإن دخل النار ، فبذنبه .

قال ابن الأنباري : وإنما قال : ﴿ حسيباً ﴾ ، والنفس مؤنثة ، لأنه يعني بالنفس : الشخص ، أو لأنه لا علامة للتأنيث في لفظ النفس ، فشبّهت بالسماء والأرض ، قال تعالى : ﴿ السماء منفطر به ﴾ [المزمل : 18] ، قال الشاعر :

[فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها] . . .

ولا أرضَ أبقلَ إبقالَها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(158/451)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ ﴾

أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا .

والآية فيهما : إقبال كلّ واحد منهما من حيث لا يعلم ، وإدباره إلى حيث لا يعلم .

ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آيةٌ أيضاً .

وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل .

وقد مضى هذا .

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل ﴾ ولم يقل : فمحونا الليل ، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لاهما .

و "مَحَوْنَا" معناه طمسنا .

وفي الخبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمَر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور ، والسوادُ الذي يُرى في القمر من أثر المحو .

قال ابن عباس : جعل الله الشمس سبعين جزءًا والقمر سبعين جزءًا ، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس ، فالشمس على مائة (وتسع) وثلاثين جزءا والقمرُ على جزء واحد .

وعنه أيضاً : خلق الله شمسين من نور عرشه ، فجعل ما سبق في علمه أن يكون شمساً مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها ، وجعل القمر دون الشمس ؛ فأرسل جبريلَ عليه السلام فأمَرَّ جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره ؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو ، ولو تركه شمساً لم يعرف الليل من النهار . ذكر عنه الأوّل الثعلبيُّ والثاني المَهدَوِيّ ؛ وسيأتي مرفوعا .

وقال عليّ رضي الله عنه وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر ، ليكون ضوء

القمر أقلّ من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للأبصار .

قال أبو عمرو بن العَلاء : أي يُبْصَر بها .

قال الكسائيّ : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء ، وصار بحالة يُبْصَر بها .

وقيل : هو كقولهم خبيث مُخْبِث إذا كان أصحابه خبثاء .

(159/451)

ورجل مضعِف إذا كانت دوابه ضعافاً ؛ فكذلك النهار مُبْصِرا إذا كان أهله بصراء .

﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يريد التصرف في المعاش .

ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار .

وقد قال في موضِع آخر : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] .

﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لما عُرف الليل من النهار ، ولا كان يُعرف الحساب والعدد .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ أي من أحكام التكليف ؛ وهو كقوله : ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ

شَيْءٍ ﴾ [النحل: 89] ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38].

وعن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غيرُ آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمراً فكانا جميعاً شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يَدعها شمساً فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمراً فخلقها دون الشمس في العِظَم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تَعْتَدّ ولا تُدْرَى أوقات الصلوات والحج ولا تحلّ الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمَرَ جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ ﴾ "

الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾

قال الزجاج: ذِكر العنق عبارةٌ عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق.

وقال ابن عباس: "طائره" عمله وما قُدّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان.

وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسَب به.

وقال مجاهد: عمله ورزقه، وعنه: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شَقِيّ أو سعيد.

وقال الحسن: "ألزمناه طائره" أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير، أي صار له عند القسمة في الأزل.

وقيل: أراد به التكليف، أي قدرناه التزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمِر به وينزجز عما زُجر به أمكنه ذلك.

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ يعني كتاب طائرِه الذي في عنقه.

وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد: "طيره" بغير ألف؛ ومنه ما روي في الخبر: "اللَّهُمّ لا خيرَ إلا خيرُك ولا طَيْرَ إلا طيرك ولا ربّ غيرك" وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر ويعقوب "وَيَخْرُجُ" بفتح الياء وضم الراء، على معنى ويخرج له الطائر كتاباً؛ ف "كتابا" منصوب على الحال.

ويحتمل أن يكون المعنى: ويخرج الطائر فيصير كتاباً.

وقرأ يحيى بن وثّاب "ويُخْرِج" بضم الياء وكسر الراء ؛ وروي عن مجاهد ؛ أي يخرج الله .

وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْقَع ، وروي أيضاً عن أبي جعفر : "ويُخْرَج" بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : ويُخرج له الطائرُ كتاباً .

الباقون "ونخرج" بنون مضمومة وكسر الراء ؛ أي ونحن نخرج.

احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقوله "ألزمناه" .

وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر "يُلَقّاه" بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، بمعنى يؤتاه .

الباقون بفتح الياء خفيفة ، أي يراه منشوراً .

وقال ﴿ منشورا ﴾ تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة .

وقال أبو السوّار العدوي وقرأ هذه الآية ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال : هما نشرتان وطيّة ؛ أما ما حييت يا بن آدم فصحيفتك المنشورة فأمْلِ فيها ما شئت ، فإذا متّ طُويت حتى إذا بُعثت نُشرت .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أُمّيًا كان أو غير أُمّيًا .

﴿ كفى بِنفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ أي محاسباً .

وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانُك قلمه ، وريقك مِداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المُمْلِي على حَفَظَتك ، ما زِيد فيه ولا نُقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(162/451)

وقال أبو حيان :

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وأنه هاد إلى الطريقة المستقيمة ذكر ما أنعم به مما لم يكمل الانتفاع إلاّ به ، وما دل على توحيده من عجائب العالم العلوي ، وأيضاً لما ذكر عجلة الإنسان وانتقاله من حال إلى حال ذكر أن كل هذا العالم كذلك في الانتقال لا يثبت على حال ، فنور عقب ظلمة وبالعكس ، وازدياد نور وانتقاص .

والظاهر أن ﴿ الليل والنهار ﴾ مفعول أول لجعل بمعنى صير ، و﴿ آيتين ﴾ ثاني المفعولين ويكونان في أنفسهما آيتين لأنهما علامتان للنظر والعبرة ، وتكون الإضافة في ﴿ آية الليل وآية النهار ﴾ للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود ، أي ﴿ فمحونا ﴾ الآية التي هي الليل ،

وجعلنا الآية التي هي النار مبصرة .

وقيل : هو على حذف مضاف فقدره بعضهم وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين ، وقدّره بعضهم و: جعلنا ذوي الليل والنهار أي صاحبي الليل والنهار ، وعلى كلا التقديرين يراد به الشمس والقمر ، ويظهر أن ﴿ آيتين ﴾ هو المفعول الأول ، و﴿ الليل والنهار ﴾ ظرفان في موضع المفعول الثاني ، أي وجعلنا في الليل والنهار آيتين .

وقال الكرماني : ليس جعل هنا بمعنى صير لأن ذلك يقتضي حالة تقدّمت نقل الشيء عنها إلى حالة أخرى ، ولا بمعنى سمى وحكم ، والآية فيها إقبال كل واحد منهما وإدباره من حيث لا يعلم ، ونقصان أحدهما بزيادة الآخر ، وضوء النهار وظلمة الليل ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ إذا قلنا أنّ الليل والنهار هما المجعولان آيتين فمحو آية الليل عبارة عن السواد الذي فيه ، بل خلق أسود أول حاله ولا تقتضي الفاء تعقيباً وهذا كما يقول بنيت داري فبدأت بالأس .

وإذا قلنا أن الآيتين هما الشمس والقمر ، فقيل : محو القمر كونه لم يجعل له نوراً .

وقيل : محوه طلوعه صغيراً ثم ينمو ثم ينقص حتى يستتر .

وقيل : محوه نقصه عما كان خلق عليه من الإضاءة ، وأنه جعل نور الشمس سبعين جزءاً ونور القمر كذلك ، فمحا من نور القمر حتى صار على جزء واحد ، وجعل ما محا منه زائداً في نور الشمس ، وهذا مروي عن عليّ وابن عباس .

وقال ابن عيسى : جعلناها لا تبصر المرئيات فيها كما لا يبصر ما محي من الكتّاب .

قال : وهذا من البلاغة الحسنة جداً .

وقال الزمخشري : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أي جعلنا الليل ممحواً لضوء مطموسه ، مظلماً لا يستبان منه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحو ، وجعلنا النهار مبصراً أي يبصر فيه الأشياء وتستبان ، أو ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ التي هي القمر حيث لم يخلق له شعاع كشعاع الشمس فترى به الأشياء رؤية بينة ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء انتهى .

ونسب الإبصار إلى ﴿ آية النهار ﴾ على سبيل المجاز كما تقول : ليل قائم ونائم ، أي يقام فيه وينام فيه .

فالمعنى يبصر فيها .

وقيل : معنى ﴿ مبصرة ﴾ مضيئة .

وقيل : هو من باب أفعل ، والمراد به غير من أسند أفعل إليه كقولهم : أجبن الرجل إذا كان أهله جبناء ، وأضعف إذا كان دوابه ضعافاً فأبصرت الآية إذا كان أصحابها بصراء .

وقرأ قتادة وعليّ بن الحسين ﴿ مبصرة ﴾ بفتح الميم ، والصاد وهو مصدر أقيم مقام الاسم ، وكثر مثل ذلك في صفات الأمكنة كقولهم : أرض مسبعة ومكان مضبة ، وعلل المحو والإبصار بابتغاء الفضل وعلم عدد السنين والحساب ، وولى التعليل بالابتغاء ما وليه من آية النهار وتأخر التعليل بالعلم عن آية الليل .

وجاء في قوله : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ﴾ البداءة بتعليل المتقدم ثم تعليل المتأخر بالعلة المتأخرة ، وهما طريقان تقدم الكلام عليهما .

ومعنى ﴿ لتبتغوا ﴾ لتتوصلوا إلى استبانة أعمالكم وتصرفكم في معايشكم ﴿ والحساب ﴾ للشهور والأيام والساعات ، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة آية الليل لا من جهة آية النهار ﴿ وكل شيء ﴾ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿ فصلناه ﴾ بيناه تبيينا غير ملتبس ، والظاهر أن نصب ﴿ وكل شيء ﴾ على الاشتغال ، وكان ذلك أرجح من الرفع لسبق الجملة الفعلية في قوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار ﴾ وأبعد من ذهب إلى أن ﴿ وكل شيء ﴾ معطوف على قوله : ﴿ والحساب ﴾ والطائر .

قال ابن عباس : ما قدّر له وعليه ، وخاطب الله العرب في هذه الآية بما تعرف إذ كان من

عادتها التيمُّن والتشاؤم بالطير في كونها سانحة وبارحة وكثر ذلك حتى فعلته بالظباء وحيوان الفلاة ، وسمي ذلك كله تطيراً .

وكانت تعتقد أن تلك الطيرة قاضية بما يلقى الإنسان من خير وشر ، فأخبرهم الله تعالى في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقى الإنسان من خير وشر فقد سبق به القضاء وألزم حظه وعمله ومكسبه في عنقه ، فعبر عن الحظ والعمل إذ هما متلازمان بالطائر قاله مجاهد وقتادة بحسب معتقد العرب في التطير ، وقولهم في الأمور على الطائر الميمون وبأسعد طائر ، ومنه ما طار في المحاصة والسهم ، ومنه فطار لنا من القادمين عثمان بن مظعون أي كان ذلك حظنا .

وعن ابن عباس : ﴿ طائره ﴾ عمله ، وعن السدّي كتابه الذي يطير إليه .

وعن أبي عبيدة : الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه البخت .

وعن الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك ، وخص العنق لأنه محل الزينة والشين فإن كان خيراً زانه كما يزين الطوق والحلي ، وإن كان شراً شانه كالغل في الرقبة .

وقرأ مجاهد والحسن وأبو جاء طيره .

وقرىء : ﴿ في عنقه ﴾ بسكون النون .

وقرأ الجمهور ومنهم أبو جعفر : ﴿ ونخرج ﴾ بنون مضارع أخرج .

﴿ كتاباً ﴾ بالنصب .

وعن أبي جعفر أيضاً ويخرج بالياء مبنياً للمفعول ﴿ كتاباً ﴾ أي ويخرج الطائر كتاباً .

(165/451)

وعنه أيضاً كتاب بالرفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله .

وقرأ الحسن وابن محيصن ومجاهد : ويخرج بفتح الياء وضم الراء أي طائره كتاباً إلا الحسن فقرأ : كتاب على أنه فاعل يخرج .

وقرأت فرقة : ويخرج بضم الياء وكسر الراء أي ويخرج الله .

وقرأ الجمهور ﴿ يلقاه ﴾ بفتح الياء وسكون اللام .

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والجحدري والحسن بخلاف عنه ﴿ يلقاه ﴾ بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف .

﴿ منشوراً ﴾ غير مطوي ليمكنه قراءته ، و﴿ يلقاه ﴾ و﴿ منشوراً ﴾ صفتان لكتاب ، ويجوز أن يكون ﴿ منشوراً ﴾ حالاً من مفعول يلقاه ﴿ اقرأ كتابك ﴾ معمول لقول محذوف أي يقال له : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ .

وقال قتادة : يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً .

وقال الزمخشري وغيره .

و ﴿ بنفسك ﴾ فاعل ﴿ كفى ﴾ انتهى .

وهذا مذهب الجمهور والباء زائدة على سبيل الجواز لا اللزوم ، ويدل عليه أنه إذا حذفت ارتفع ذلك الاسم بكفى .

قال الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً . . .

وقال آخر :

ويخبرني عن غائب المرء هديه . . .

كفى الهدي عما غيب المرء مخبرا

وقيل : فاعل ﴿ كفى ﴾ ضمير يعود على الاكتفاء ، أي كفى هو أي الاكتفاء بنفسك .

وقيل : ﴿ كفى ﴾ اسم فعل بمعنى اكتف ، والفاعل مضمر يعود على المخاطب ، وعلى هذين القولين لا تكون الباء زائدة .

وإذا فرعنا على قول الجمهور أن ﴿ بنفسك ﴾ هو فاعل ﴿ كفى ﴾ فكان القياس أن تدخل تاء التأنيث لتأنيث الفاعل ، فكان يكون التركيب كفت بنفسك كما تلحق مع زيادة من في الفاعل إذا كان مؤنثاً ، كقوله تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ وقوله : ﴿ وما تأتيهم من آية ﴾ ولا نحفظه جاء التأنيث في كفى إذا كان الفاعل مؤنثاً مجروراً بالباء

، والظاهر أن المراد ﴿ بنفسك ﴾ ذاتك أي ﴿ كفى ﴾ بك .

وقال مقاتل : يريد بنفسه جوارحه تشهد عليه إذا أنكر .

وقال أبو عبيدة أي ما أشد كفاية ما علمت بما علمت .

﴿ واليوم ﴾ منصوب بكفى و ﴿ عليك ﴾ متعلق بحسيباً .

ومعنى ﴿ حسيباً ﴾ حاكماً عليك بعملك قاله الحسن .

قال : يا ابن آدم لقد أنصفك الله وجعلك حسيب نفسك .

وقال الكلبي : محاسباً يعني فعيلاً بمعنى مفاعل كجليس وخليط .

وقيل : حاسباً كضريب القداح أي ضاربها ، وصريم بمعنى صارم يعني أنه بناء مبالغة كرحيم وحفيظ ، وذكر ﴿ حسيباً ﴾ لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير ، لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجل ، وكأنه قيل : كفى بنفسك رجلاً حسيباً .

وقال الأنباري : وإنما قال ﴿ حسيباً ﴾ والنفس مؤنثة لأنه يعني بالنفس الشخص ، أو لأنه لا علامة للتأنيث في لفظ النفس ، فشبهت بالسماء والأرض قال تعالى : ﴿ السماء منفطر

به ﴾ وقال الشاعر :

ولا أرض أبقل ابقالها . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(167/451)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾

شروعٌ في بيان بعضِ وجوه ما ذُكر من الهداية بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائلِ الآفاقية التي كلٌّ واحدة منها برهانٌ نيّرٌ لا ريب فيه ومنهاجٌ بيّنٌ لا يضِلّ من ينتحيه ، فإن الجعلَ المذكورَ وما عُطف عليه من محو آيةِ الليل وجعلِ آيةِ النهار مبصرةً وإن كانت من الهدايات التكوينية لكن الإخبارَ بذلك من الهدايات القرآنية المنبّهة على تلك الهداياتِ ، وتقديمُ الليل لمراعاة الترتيبِ الوجوديّ إذ منه ينسلخ النهارُ ، وفيه تظهرُ غُررُ الشهور ، ولو أن الليلةَ أضيفت إلى ما قبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبُها من شهر آخرَ ، ولترتيب غايةِ آيةِ النهار عليها بلا واسطة أي جعلنا الملوَيْن بهَيْآتهما وتعاقبُهما واختلافِهما في الطول والقِصَر على وتيرةٍ عجيبة يحار في فهمها العقولُ آيتين تدلان على أن لهما صانعاً حكيماً قادراً عليماً وتهديان إلى ما هدى إليه القرآنُ الكريم من ملة الإسلام والتوحيد ﴿ فَمَحَوْنَا

ءايَةَ الليل ﴾ الإضافةُ إما بيانيةٌ كما في إضافة العددِ إلى المعدود أي محونا الآية التي هي الليلُ وفائدتُها تحقيقُ مضمونِ الجلمة السابقةِ، ومحوُها جعلُها ممحُوّةَ الضوءِ مطموسَتَه، لكن لا بعد إن لم تكن كذلك بل إبداعُها على ذلك كما في قولهم: سبحان من صغّر البعوضَ وكبّر الفيل أي أنشأهما كذلك، والفاءُ تفسيريةٌ لأن المحو المذكورَ وما عُطف عليه ليسا مما يحصل عَقيبَ جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعلِ ومُتمّماته ﴿ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النهار ﴾ أي الآية التي هي النهارُ على نحو ما مر ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ أي مضيئةً يبصَر فيها الأشياءُ وصفاً لها بحال أهلها أو مبصرةً للناس من أبصره فبصره، وإما حقيقيةٌ وآيةُ الليل والنهار نيّراهما، ومحوُ القمر إما خلقُه مطموسَ النور في نفسه فالفاء كما ذُكر، وإما نفسُ ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق على ما هو معنى المحو، والفاءُ للتعقيب

(168/451)

وجعلُ الشمس مبصرةً إبداعُها مضيئةً بالذات ذاتَ أشعة تظهر بها الأشياءُ المظلمة.

(169/451)

﴿ لِّتَبْتَغُواْ ﴾ متعلقٌ بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النهار ﴾ كما أشير إليه أي وجعلناها مضيئة لتطلُبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي رزقاً إذ لا يتسنى ذلك في الليل، وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرضُ لصفة الربوبية المنبئةِ عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً دَلالةٌ على أن ليس في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطلب وإنما الإعطاءُ إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلاً بحكم الربوبية ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ ﴾ متعلقٌ بكِلا الفعلين أعني محوَ آية الليل وجعْلَ آيةِ النهار مبصرةً لا بأحدهما فقط إذ لا يكون ذلك بانفراده مداراً للعلم المذكور، أي لتعلموا بتفاوت الجديدَين أو نيّرَيْهِما ذاتاً من حيث الإظلامُ والإضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعِهما وسائرِ أحوالِهما ﴿ عَدَدَ السنين ﴾ التي يتعلق بها غرضٌ علمي لإقامة مصالِحِ الدينية والدنيوية ﴿ والحساب ﴾ أي الحسابَ المتعلقَ بما في ضمنها من الأوقات أي الأشهرَ والليالِيَ والأيامَ وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققُها مما ينتظمه الحسابُ، وإنما الذي تعلق به العدُّ طائفةٌ منها وتعلقُه في ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثيةَ تحققِها وتحصُّلها من عدة أشهر قد تحصّل كل واحد منها بطائفة من الساعات مثلاً فإن ذلك وظيفةُ الحساب بل من حيث أنها فردٌ من تلك الطائفة المعدودة بعدها أي يُفنيها من غير أن يعتبر في ذلك تحصيلُ شيءٍ معين وتحقيقُه ما مر في سورة يونسَ من أن الحسابَ إحصاءُ ماله كميةٌ منفصلة بتكرير أمثالِه من حيث يتحصل

بطائفة معينة منها حدٌّ معين منه له اسمٌ خاصٌّ وحكمٌ مستقل كما أشير إليه آنفاً ، والعدُّ إحصاؤُه بمجرد تكرير أمثالِه من غير أن يتصل منه شيء كذلك ، ولما أن السنين لم يعتبر فيها حدٌّ معين له اسمٌ خاصٌّ وحكم مستقلٌّ أُضيف إليها

(170/451)

العددُ وعُلّق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصّل مراتبَ معينةٍ لها أسامٍ خاصة وأحكامٌ مستقلة ، وتحصّلُ مراتبِ الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباريٌّ لا يجدي في تحصل المعدودات ، وتقديمُ العدد على الحساب مع أن الترتيبَ بين متعلَّقَيْهما وجوداً وعدماً على العكس للتنبيه من أول الأمر على أن متعلق الحساب ما في تضاعيف السنين من الأوقات أو لأن العلمَ المتعلِّق بعدد السنينَ علمٌ إجماليٌّ بما تعلق به الحساب تفصيلاً ، أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصلُ شيءٍ آخرَ منه حسبما ذكر نازلٌ من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلةَ البسيط من المركب ، أو لأن العلم المتعلقَ بالأول أقصى المراتب فكان جديراً بالتقديم في مقام الامتنان والله سبحانه أعلم ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعادِ سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية ، وهو منصوبٌ بفعل يفسره قوله تعالى : ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ أي بيناه في

القرآن الكريم بياناً بليغاً لا التباسَ معه كقوله تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لّكُلّ شَىْء ﴾ فظهر كونُه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بيناً .

(171/451)

﴿ وَكُلَّ إنسان ﴾ مكلف ﴿ ألزمناه طائره ﴾ أي عملَه الصادرَ عنه باختياره حسبما قُدّر له كأنه طار إليه من عُشّ الغيب ووكْر القدر ، أو ما وقع له في القسمة الإلية الواقعةِ حسب استحقاقِه في العلم الأزليِّ من قولهم : طار له سهمٌ كذا ﴿ فِى عُنُقِهِ ﴾ تصويرٌ لشدة اللزوم وكمالِ الارتباط أي ألزمناه عملَه بحيث لا يفارقه أبداً بل يلزمه لزومَ القِلادة أو الغُلّ للعنق لا ينفك عنه بحال ، وقرىء بسكون النون ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ ﴾ بنون العظمة وقد قرىء بالياء مبنياً للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول ، والضمير للطائر كما في قراءة يَخرُج من الخروج ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ للحساب ﴿ كتابا ﴾ مسطوراً فيه ما ذكر من عمله نقيراً وقِطميراً وهو مفعول لنُخرِجُ على القراءتين الأُوليين أو حالٌ من المفعول المحذوفِ الراجع إلى الطائر وعلى الأخرَيَين حالٌ من المستتر في الفعل من ضمير الطائر ﴿ يلقاه ﴾ الإنسان ﴿ مَنْشُوراً ﴾ وهما صفتان للكتاب أو الأول صفةٌ والثاني حالٌ منها ، وقرىء يلقاه من لَقيته كذا أي يلقى الإنسانُ إياه . قال الحسن : بُسِطت لك صحيفةٌ ووكّل بك

ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ سيئاتك حتى إذا مُت طُويت صحيفتُك وجُعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة .

(172/451)

﴿ اقرأ كتابك ﴾ أي قائلين لك ذلك . عن قتادة يقرأ ذلك اليومَ من لم يكن في الدنيا قارئاً ، وقيل : المرادُ بالكتاب نفسُه المنتقشة بآثار أعماله فإن كل عمل يصدُر من الإنسان خيراً أو شرًّا يحدُث منه في جوهر روحِه أمرٌ مخصوصٌ إلا أنه يخفى ما دام الروحُ متعلقاً بالبدن مشتغلاً بواردات الحواسّ والقُوى ، فإذا انقطعت علاقتُه عن البدن قامت قيامته لأن النفس كانت ساكنةً مستقرة في الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلويِّ فيزول الغطاءُ وتنكشف الأحوالُ ويظهر على لَوح النفس نقشُ كلِّ شيء عملِه في مدة عمرِه وهذا معنى الكتابة والقراءة ﴿ كفى بنفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي كفى نفسُك ، والباء زائدة واليومَ ظرفٌ لكفى وحسيباً تمييزٌ و (على) صلتُه لأنه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسَب عليه كذا . أو بمعنى الكافي ، ووُضِع موضعَ الشهيد لأنه يكفي المدعي ما أهمه . وتذكيرُه لأن ما ذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أو لأنه مبنيٌّ على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول

جَبَلَة بن حريث

يا نفسُ إنكِ باللذات مسرور . . . فهل ينفعَنْك اليوم تذكيرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(173/451)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

هذا على ما قيل شروع في بيان بعض ما ذكر من الهداية بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التي كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه فإن الجعل المذكور وما عطف عليه وإن كانا من الهدايات التكوينية لكن الأخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات .

وذكر الإمام في وجه الربط وجوهاً ، الأول أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما أوصل إلى الخلق من نعم الدين وهو القرآن أتبعه ببيان ما أوصل إليهم من نعم الدنيا فقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ الخ ، وكما أن القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه كذلك الزمان مشتمل على الليل والنهار وكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا

يكمل الانتفاع به إلا بالنهار والليل ، الثاني أنه تعالى وصف الإنسان بكونه عجولاً أي منتقلاً من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة بين أن كل أحوال العالم كذلك وهو الانتقال من النور إلى الظلمة وبالضد وانتقال نور القمر من الزيادة إلى النقصان وبالضد ، الثالث نحو ما نقلناه أولا ولعله الأولى ، وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور العربية ولترتيب غاية النهار عليها بلا واسطة ، ومما يزيد تقديم الليل حسناً افتتاح السورة بقوله سبحانه ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] والجعل على ما نقل عن السمين بمعني التصيير متعد لاثنين أو بمعنى الخلق متعدلوا حد و ﴿ ءايَتَيْنِ ﴾ حال مقدرة .

(174/451)

واستشكل الأول الكرماني بأنه يستدعي أن يكون الليل والنهار موجودين على حالة ثم انتقلا منها إلى أخرى وليس كذلك ، ودفع بأنه من باب ضيق فم الركية وهو مجاز معروف واستظهر هذا أبو حيان ، والمعنى جعلنا الملوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافهما في الطول والقصر على وتيرة عجيبة آيتين تدلال على أن لهما صانعاً حكيماً قادراً عليماً ويهديان إلى ما هدى إليه القرآن الكريم من الإسلام والتوحيد .

﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل ﴾ الإضافة هنا وفيما بعد إما بيانية كما في إضافة العدد إلى المعدود نحو أربع نسوة أي محونا الآية التي هي الليل أي جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسة مظلماً لا يستبين فيه شيء كما لا يستبين ما في اللوح الممحو وإلى ذلك ذهب صاحب الكشاف .

وروي عن مجاهد وهو على نحو ضيق فم الركية والفاء تفسيرية لأن المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته ، وقيل معنى محو الليل إزالة ظلمته بالضوء ، ورجح بأن فيه إبقاء المحو على حقيقته وهو إزالة الشيء الثابت وليس فيما ذكره الزمخشري ذلك ولا ينبغي العدول عن الحقيقة بلا ضرورة .

وتعقب بأنه يكفي ما بعده قرينة على تلك الإرادة فإن محو الليل في مقابلة جعل النهار مبصراً ، وعلى ما ذكر من المعنى الحقيقي لا يتعلق بمحو الليل فائدة زائدة على ما بعده ، وقيل عليه إن الظلمة هي الأصل والنور طارىء فكون الليل مخلوقاً مطموس الضوء مفروغ عنه فالمراد بيان أن الله تعالى خلق الزمان ليلاً مظلماً ثم جعل بعضه نهاراً باحداث الاشراق لفائدة ذكرها سبحانه ، وكون محو الليل في مقابلة جعل النهار مضيئاً لا يوجب حمله على المجاز لفائدة بيان إبقاء بعض الزمان على إظلامه وجعل بعضه مضيئاً اه ولا يخفى ما فيه من التكلف وأن المقام لا يلائمه فالمعول عليه ما في الكشاف .

﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ﴾ أي الآية التي هي النهار ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ أي مضيئة فهو مجاز بعلاقة السببية أو الإسناد مجازي كما في نهاره صائم والمراد يبصر أهلها أو الصيغة للنسب أي ذات إبصارهم أو هي من أبصره المتعدي أي جعله مبصراً ناظراً والإسناد إلى النهار مجازي أيضاً من الإسناد إلى السبب العادي والفاعل الحقيقي هو الله تعالى أو من باب أفعل المراد به غير من أسند إليه كأضعاف الرجل إذا كانت دوابه ضعافاً وأجبن إذا كان أهله جبناء فأبصرت الآية بمعنى صار أهلها بصراء .

وروى ذلك عن أبي عبيدة وهو معنى وضعي لا مجازي .

وقرأ قتادة .

وعلى بن الحسين رضي الله عنهما ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بفتح الميم والصاد وهو مصدر أقيم مقام غيره وكثر مثل ذلك في صفات الأمكنة كارض مسبعة ومكان مضبة وإما إضافة لامية وآيتا الليل والنهار نيراهما القمر والشمس ويحتاج حينئذ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ إلى تقدير مضاف في الأول والثاني أي جعلنا نيري الليل والنهار آيتين أو جعلنا الليل والنهار ذوي آيتين أن جعل جعل متعدياً إلى مفعولين والليل والنهار هو المفعول

الأول وآيتين الثاني ، فإن عكس كما استظهره أبو حيان وجعل الليل والنهار نصباً على الظرفية في موضع المفعول الثاني أي جعلنا في الليل والنهار آيتين وهما النيران لا يحتاج إلى تقدير كما إذا جعل الجعل متعدياً لواحد والليل والنهار منصوبان على الظرفية كما جوزه المعربون ، ومحو آية الليل وهي القمر على ما تدل عليه الآثار إزالة ما ثبت لها من النور يوم خلقت ، فقد أخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن ابن عباس في الآية إنه قال كان القمر يضيء كما تضيء الشمس وهو آية الليل فمحى فالسواد الذي في القمر أثر ذلك المحو .

وأخرج عبد بن حميد .

وغيره عن عكرمة أنه قال : خلق الله تعالى نور الشمس سبعين جزأ ونور القمر سبعين جزأ فمحى من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعله مع نور الشمس فالشمس على مائة وتسعة وثلاثين جزأ والقمر على جزء واحد ، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : كانت شمس بالليل وشمس بالنهار فمحى الله تعالى شمس الليل فهو المحو الذي في القمر ، وأخرج البيهقي في دلائل النبوة .

وابن عساكر عن سعيد المقبري أن عبد الله بن سلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر فقال : كانا شمسين وقال قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءايَةَ الليل ﴾ فالسواد الذي رأيت هو المحو ، وفي حديث طويل أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند واه عن ابن عباس مرفوعاً " أن الله تعالى خلق شمسين من نور عرشه فارسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر وهو يومئذ شمس ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور وذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ " الآية إلى غير ذلك من الآثار ، والفاء على هذا للتعقيب ، وجعل آية النهار وهي الشمس مبصرة على نحو ما تقدم فتبصر ، وقيل محو القمر اما خلقه كمدا مطموس النور غير مشرق بالذات على ما ذكره أهل الهيئة من أنه غير مضيء في نفسه بل نوره مستفاد من ضوء الشمس فالفاء تفسيرية كما مر وإما نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً بحسب الرؤية والإحساس إلى أن ينمحق على ما هو معنى المحو فالفاء للتعقيب ، وذكر الإمام في محوه قولين ، احدهما نقص نوره قليلاً قليلاً إلى المحاق ، وثانيهما جعله ذا كلف ثم قال : حمله على الوجه الأول أولى لأن اللام في الفعلين بعد متعلق بما هو المذكور قبل وهو محو

آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ، ومحو آية الليل إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله تعالى إذا حملنا محو القمر على زيادة نورة القمر ونقصانه لأن سبب حصول هذه الآية مختلف باختلاف أحوال نور القمر وأهل التجارب أثبتوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه مثل أحوال البحار في المد والجزر ومثل أحوال البحرانات على ما يذكره الأطباء في كتبهم ، وأيضاً بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الهلال كما قال سبحانه ﴿ وَلِتَعْلَمُوا ﴾ الخ اه .

(178/451)

وأنت تعلم أنه متى دل أثر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكرناه أولا لا ينبغي أن يدعي أن غيره أولى ، وهو لعمري وجه لا كلف فيه عند من له عين مبصرة ، وللفلاسفة في هذا المحو المرئى في وجه القمر كلام طويل لا بأس بأن تحيط به خبراً فنقول : ذكر الإمام في المباحث المشرقية أن امتناع بعض المواضع في وجه القمر عن قبول الضوء التام إما أن يكون بسبب خارج عن جرم القمر أو غير خارج عند فإن كان بسبب خارج فإما أن يكون لمثل ما يعرض للمرايا من وقوع أشباح الأشياء فيها فإذا رؤيت تلك الأشياء لم تر براقة

فكذلك القمر لما تصورت فيه أشباح الجبال والبحار وجب أن لا ترى تلك المواضع في غاية الاستنارة ، وإما أن يكون ذلك بسبب ساتر والأول باطل ، أما أولاً فلأن الأشباح لا تنحفظ هيآتها مع حركة المرآة وبتقدير سكونها لا تستقر تلك الأشباح فيها عند اختلاف مقامات الناظرين والآثار التي في وجه القمر ليست كذلك ، وأما ثانياً فلأن القمر ينعكس الضوء عنه إلى البصر وما كان كذلك لم يصلح للتخييل ، وأما ثالثاً فلأنه كان يجب أن تكون تلك الآثار كالكرات لأن الجبال في الأرض كتضريس أو خشونة في سطح كرة وليس لها من المقدار قدر ما يؤثر في كرية الأرض فكيف لأشباحها المرئية في المرآة .

وأما إن كان ذلك بسبب ساتر فذلك الساتر إما أن يكون عنصرياً أو سماوياً والأول باطل ، أما أولا فلأنه كان يجب أن يكون المواضع المتسترة من جرم القمر مختلفة باختلاف مقامات الناظرين ، وأما ثانياً فلأن ذلك الساتر لا يكون هواء صرفاً ولا ناراً صرفة لأنهما شفافان فلا يحجبان بل لا بد وأن يكون مركباً إما بخاراً وإما دخاناً وذلك لا يكون مستمراً ، وأما إن كان الساتر سماوياً فهو الحق وذلك إنما يكون لقيام أجسام سماوية قريبة المكان جداً من القمر وتكون من الصغر بحيث لا يرى كل واحد منها بل جملتها على نحو مخصوص من

الشكل وتكون إما عديمة الضوء أو لها ضوء أضعف من ضوء القمر فترى في حالة إضاءته مظلمة ، وأما إن كان ذلك بسبب عائد إلى ذات القمر فلا يخلو إما أن يكون جوهر ذلك الموضع مساوياً لجواهر المواضع المستنيرة من القمر في الماهية أو لا يكون فإن لم يكن كان ذلك لارتكاز أجرام سماوية مخالفة بالنوع للقمر في جرمه كما ذكرناه قبل وهو قريب منه .

وإما أن تكون تلك المواضع مساوية الماهية لجرم القمر فحينئذ يمتنع اختصاصها بتلك الآثار إلا بسبب خارجي لكنه قد ظهر لنا أن الأجرام السماوية لا تتأثر بشيء عنصري وبذلك أبطل قول من قال : إن ذلك المحو بسبب انسحاق عرض القمر من مماسة النار ، أما أولاً فلأن ذلك يوجب أن يتأدى ذلك في الأزمان الطويلة إلى العدم والفساد بالكلية والأرصاد المتوالية مكذبة لذلك ، وأيضاً القمر غير مماس للنار لأنه مفرق في ذلك تدويره الذي هو في حامله الذي بينه وبين النار بعد بعيد بدليل أن النار لو كانت ملاقية لحامله لتحركت بحركته إلى المشرق وليس كذلك لأن حركات الشهب في الأكثر لا تكون إلا إلى جهة المغرب وتلك الحركة تابعة لحركة النار والحركة المستديرة ليست للنار بذاتها فإنها مستقيمة الحركة فذلك لها بالعرض تبعاً لحركة الكل فبطل ما قالوه .

وذكر الآمدي في أبكار الأفكار زيادة على ما يفهم مما ذكر من الأقوال وهي أن منهم من قال: إن ما يرى خيال لا حقيقة له، ورده بأنه لو كان كذلك لاختلف الناظرون فيه؛ ومنهم من قال: إنه السواد الكائن في القمر في الجانب الذي لا يلي الشمس، ورده بأنه لو كان كذلك لما رؤي متفرقاً، ومنهم من قال: إنه وجه القمر فإنه مصور بصوة وجه الإنسان وله عينان وحاجبان وأنف وفم، ورده بأنه مع بعده يوجب أن يكون فعل الطبيعة عندهم معطلاً عن الفائدة لأن فائدة الحاجبين عندهم دفع أذى العرق عن العينين وفائدة الأنفس الشم وفائدة الفم دخول الغذاء وليس للقمر ذلك، وقد رد عليهم رحمة الله تعالى عليه سائر ما ذكروه.
وذكر الإمام في التفسير أن آخر ما ذكره الفلاسفة في ذلك أنه ارتكن في وجه القمر أجسام قليلة الضوء مثل ارتكاز الكواكب في أجرام الأفلاك ولما كانت تلك الأجرام أقل ضوأ من جرم القمر لا جرم شوهدت في وجهه كالكلف في وجه الإنسان وفي ارتكازها في بعض أجزائه دون بعض كونه متشابه الأجزاء عندهم دليل على الصانع المختار كما أن في تخصيص بعض أجزائه بالنور القوي وبعضها بالنور الضعيف مع تشابه الأجزاء دليلاً على ذلك.

ومثل هذا التخصيص في الدلالة تخصيص بعض جوانب الفلك الذي هو عندهم أيضاً جرم بسيط متشابه الأجزاء بارتكاز الكواكب فيه دون البعض الآخر.

وزعم بعض أهل الآثار أنه مكتوب في وجه القمر لا إله إلا الله ، وقيل لفظ جميل ، وقيل غير ذلك وأن المحو المرئى هو تلك الكتابة ولا يعول على شيء من ذلك ، نعم مكتوب على كل شيء لا إله إلا الله وكذا جميل ولكن ذلك بمعنى آخر كما لا يخفى .

ونقل لي عن أهل الهيئة الجديدة أنهم يزعمون أن القمر كالأرض فيه الجبال والوهاد والأشجار والبحار وأنهم شاهدوا ذلك في أرصادهم وأن المواضع التي لا يرى فيها محوهي البحار والتي فيها محوهى أرضي غير مستوية وزعموا أنه لو وصل أحد إلى القمر لرأى الأرض كذلك ومن هنا قالوا لا يبعد أن يكون معموراً بخلائق نحو عمارة الأرض بل قالوا : إن جميع الكواكب مثله في ذلك قياساً عليه وإن كانت لا يرى فيها لمزيد بعدها ما يرى فيه وبعيد من الحكمة أن يعمر الله تعالى الأرض بالخلق على صغرها ويترك أجساماً عظيمة أكثرها أعظم من الأرض خالية بلا خلق على كبرها وهم منذ غرهم القمر تشبثوا بحباله في عمل الحيل للعروج إليه فصنعوا سفناً زئبقية فعرجوا فيها فقبل أن يصلوا إلى كرة البخار انتفخت أجسامهم وضلت كما ضلت من قبل أفهامهم فانقلبوا صاغرين وهبطوا خاسئين ، وأنت تعلم أن كلامهم في هذا الباب مخالف لأصول الفلسفة ولا برهان لهم عليه سوى

السفه ومنشؤه محض أنهم رأوا شيئاً في القمر ولم يتحققوه وظنوه ما ظنوه وأي مانع من أن يكون قد جعل الله تعالى المحو على وجه يتخيل فيه ذلك بل لا مانع على أصولنا من أن يقال: قد جعل الله تعالى في القمر أجراماً تشبه ما حسبوه لكن لم يرد في ذلك شيء عن الصادق صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرج به إلى قاب قوسين أو أدنى، وما ذكروه من أنه بعيد من الحكمة أن يعمر الله تعالى الأرض الخ يلزم عليه أن يكون ما بين الكواكب ككواكب الدب الأكبر مثلا معموراً بالخلائق كالأرض أيضاً فإنه أوسع منها بأضعاف مضاعفة وهم لا يقولون به على انا نقول قد جاء "أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد" فيجوز أن يكون على جرم القمر ملائكة يعبدون الله تعالى بما شاء وكيف شاء بل يجوز أن يكون عند كل ذرة من ذراته ملك كذلك وهذا نوع من العمارة بالخلق، والأحسن عند من عز عليه وقته عدم الالتفات إلى مثل هذه الخرافات

وتضييع الوقت في ردها والله سبحانه الموفق، ثم ما تقدم من أن المحو نقص ما استفاده القمر من الشمس شيئاً فشيئاً فيه القول بأن نور القمر مستفاد من نور الشمس وقد عد الجل من العلماء ذلك في الحدسيات وذكروا أن الشمس مضيئة بنفسها وكلا الأمرين مما

ذكره الفلاسفة وليس له في الشرع مستند يعول عليه ، وقد نقله الآمدي وتعقبه فقال :

ذكروا أن الشمس نيرة بنفسها وما المانع من كونها سوداء الجرم والله تعالى يخلق فيها النور في أوقات مشاهدتنا لها ، وأن تكون مستنيرة من كواكب أخرى فوقها وهي مستورة عنا ببعض الاجرام السماوية المظلمة كما يحدث للشمس في حالة الكسوف ، وإن سلمنا أنها نيرة بنفسها فلا نسلم أن نور القمر مستفاد منها وما المانع من كون الرب تعالى يخلق فيه النور في وقت دون وقت أو أن يكون مع كونه مركوزاً في فلكه دائراً على مركز نفسه وأحد وجهيه نير والآخر مظلم كما كان بعض أجزاء الفلك شفافاً وبعضها نيراً وهو متحرك بحركة مساوية لحركة فلكه ويكون وجهه المضيء عند مقابلة الشمس وهو الذي يلينا ويكون الزيادة والنقصان فيما يظهر لنا على حسب بعده وقربه من الشمس فلا يكون مستنيراً من الشمس اه .

وأورد أنه إذا ضم الخسوف إلى الزيادة والنقصان قرباً وبعداً لا يتم ما ذكره وصح ما ذكروه من الاستفادة .

وأجيب بأنه ما المانع من أن يكون الخسوف لحيلولة جرم علوي بيننا وبينه لا لحيلولة الأرض بينه وبين الشمس فلا بد لنفي ذلك من دليل فافهم والله تعالى أعلم وهو المتصرف في ملكه كيفما يشاء ﴿ لِّتَبْتَغُواْ ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ﴾ وفي الكلام مقدر أي جعلنا آية النهار مبصرة لتطلبوا لأنفسكم فيه .

﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي رزقاً إذ لا يتسنى ذلك في الليل ، وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً دلالة كما قال شيخ الإسلام : على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وإنما الاعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه تعالى بل تفضلاً بحكم الربوبية ، ومعنى تأثير الطلب على نحو تأثير الأسباب العادية فإنه من جملتها ولا توقف حقيقة للرزق عليه ، وفي الخبر يطلبك رزقك كما يطلبك أجلك ، ولله تعالى در القائل :

لقد علمت وما الاشراف من خلقي . . .

أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعييني تطلبه . . .

ولو قعدت أتاني لا يعنيني

﴿ وَلِتَعْلَمُواْ ﴾ متعلق كما قيل بكلا الفعلين أعني محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهام فقط إذ لا يكون ذلك بانفراده مداراً للعلم المذكور أي لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتاً من حيث الاظلام والإضاءة مع تعاقبهما أو حركتهما وأوضاعهما وسائر

أحوالهما ﴿ عَدَدَ السنين ﴾ التي يتعلق بها غرض علمي لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿ والحساب ﴾ أي الحساب المتعلق بما في ضمنها من الأوقات أي الأشهر والليالي والأيام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة، ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وإنما الذي يتعلق به العد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من حيثية التحقق والتحصل من عدة أشهر حصل كل واحد منها من عدة أيام حصل كل واحد منها من طائفة من الساعات مثلا فإن ذلك من وظيفة علم الحساب بل من حيث إنها فرد من طائفة السنين المعدودة بعدها أي نفسها من غير أن يعتبر في ذلك تحصيل شيء معين كما حقق ذلك شيخ الإسلام.

(184/451)

وقيل: المعنى ﴿ لِّتَعْلَمُواْ ﴾ باختلافهما وتعاقبهما على نسق واحد أو بحركاتهما عدد السنين الخ المراد بالحساب جنسه أي الجاري في المعاملات كالإجارات والبيوع المؤجلة وغير ذلك؛ وذكر بعضهم أن الظاهر المناسب أن المراد لتعلموا بالليل فإن عدد السنين الشرعية والحساب الشرعي يعلمان به غالباً أو بالقمر لقوله تعالى في الأهلة ﴿ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ﴾ [البقرة: 189] وأنت تعلم أن السنين شمسية

وقمرية وبكل منهما العمل فلو قيل إحدى الآيتين مبينة لأحدهما والأخرى للآخر لا محذور فيه ، وكون الشرع معولاً على أحدهما لا يضر ، وتقديم العدد على الحساب من أن الترتيب بين متعلقيهما على ما سمعت أولاً وجوداً وعدماً على العكس للتنبيه من أول الأمر على أن متعلق الحساب ما في تضاعيف السنن من الأوقات أو لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلاً أو لأن العلم المتعلق بالأول أقصى المراتب فكان جديراً بالتقديم في مقام الامتنان أو لأن العدد نازل من الحساب منزلة البسيط من المركب بناء على ما حقق من أن الحساب إحصاء ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل والعدد إحصائه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل شيء كذلك ولهذا وكون السنين مما لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف إليها العدد وعلق الحساب بما عداها فتدبر .

(185/451)

﴿ وَكُلَّ شيْءٍ ﴾ تفتقرون إليه في معاشكم ومعادكم سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى : ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ وهذا من باب الاشتغال ورجح النصب لتقديم جملة فعلية ، وجوز أن يكون

معطوفاً على ﴿ الحساب ﴾ وجملة ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ وهذا من باب الاشتغال ورجح النصب لتقدم جملة فعلية ، وجوز أن يكون معطوفاً فاعلى ﴿ الحساب ﴾ وجملة ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ صفة شيء ، وهو بعيد معنى .

والتفصيل من الفصل بمعنى القطع والمردا به الابانة التامة وجيء بالمصدر للتأكيد .

فالمعنى بينا كل شيء ، وهو بعيد معنى .

والتفصيل من الفصل بمعنى القطع والمراد به الإبانة التامة وجيء بالمصدر للتأكيد .

فالمعنى بينا كل شيء في القرآن الكريم بياناً بليغا لا التباس معه كقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : 89] فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بينا .

﴿ وَكُلَّ إنسان ﴾ منصوب على حد ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الإسراء : 12] أي وألزمنا كل إنسان مكلف ﴿ ألزمناه طَئِرَهُ ﴾ أي عمله الصادر منه باختياره حسبما قدر له خيراً كان أو شراً كأنه طار إليه من عش الغيب ووكر القدر ، وفي الكشاف أنهم كانوا يتفاءلون بالطير ويسمونه زجراً فإذا سافروا ومر بهم طير زجروه فإن مر بهم سانحاً بأن مر من جهة اليسار إلى اليمين تيمنوا وإن مر بارحاً بأن مر من جهة اليمين إلى الشمال تشاءموا ولذا سمي تطيراً فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير استعارة تصريحية لما يشبههما من قدر الله تعالى وعمل العبد لأنه سبب للخير والشر .

(186/451)

ومنه طائر الله تعالى لا طائرك أي قدر الله جل شأنه الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن ، وقد كثر فعلهم ذلك حتى فعلوه بالظباء أيضاً وسائر حيوانات الفلا وسموا كل ذلك تطيراً كما في البحر ، وتفسيره بالعمل هنا مروى عن ابن عباس ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد وذهب إليه غير واحد وفسره بعضهم بما وقع للعبد في القسمة الأزلية الواقعة حسب استحقاقه في العلم الأزلي من قولهم : طار إليه سهم كذا ، ومن ذلك فطار لنا من القادمين عثمان بن مظعون أي ألزمنا كل إنسان نصيبه وسهمه الذي قسمناه له في الأزل ﴿ فِى عُنُقِهِ ﴾ تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط وعلى ذلك جاء قوله : إن لي حاجة إليك فقال : بين أذني وعاتقي ما تريد ؛ وتخصيص العنق لظهور ما عليه من زائن كالقلائد والأصواق أو شائن كالاغلال والأوهاق ولأنه العضو الذي يبقى مشكوفاً يظهر ما عليه وينسب إليه التقدم والشرف ويعبر به عن الجملة وسيد القوم .

فالمعنى ألزمناه غله بحيث لا يفارقه أبداً بل يلزمه لزوم القلادة والغل لا ينفك عنه بحال .

(187/451)

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن النطفة التي يخلق منها النسمة تطير في المرأة أربعين يوماً وأربعين ليلة فلا يبقى منها شعر ولا بشر ولا عرق ولا عظم إلا دخلته حتى إنها لتدخل بين الظفر واللحم فإذا مضى أربعون ليلة وأربعون يوماً أهبطها الله تعالى إلى الرحم فكانت علقة أربعين يوماً وأربعين ليلة ثم تكون مضغة أربعين يوماً وأربعين ليلة فإذا تمت لها أربعة أشهر بعث الله تعالى إليها ملك الأرحام فيخلق على يده لحمها ودمها وشعرها وبشرها ثم يقول سبحانه صور فيقول : يا رب أصور أزائد أن ناقص أذكر أم أنثى أجميل أم ذميم أجعد أم سبط أقصير أم طويل أأبيض أم آدم أسوى أم غير سوى فيكتب من ذلك ما يأمر الله تعالى به ثم يقول : أي رب أشقى أم سعيد ؟ فإن كان سعيداً نفخ فيه بالسعادة في آخر أجله وإن كان شقياً نفخ فيه بالشقاوة في آخر أجله ثم يقول أكتب أثرها ورزقها ومصيبتها وعملها بالطاعة والمعصية فيكتب من ذلك ما يأمره الله تعالى ثم يقول الملك : يا رب ما أصنع بهذا الكتاب فيقول : سبحانه علقه في عنقه إلى قضائي عليه "

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمناهُ طَٰئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ .

ولا يخفى أن الظاهر من هذا الخبر أن ذكر العنق ليس للتصوير المذكور وأن الطائر عبارة عن الكتاب الذي كتب فيه ما كتب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أنس أنه فسره بذلك صريحاً ، وباب المجاز واسع ، ونحن نؤمن بالحديث إذا صح ونفوض كيفية ما دل عليه إلى اللطيف الخبير جل جلاله ، والظاهر منه أيضاً عدم تقييد الإنسان بالمكلف ، ويؤيد ذلك ما أخرجه أبو داود في كتاب القدر .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال في الآية : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد ، وآخر الآية ظاهر في التقييد .

وقرأ مجاهد .

(188/451)

والحسن وأبو رجاء ﴿ طيره ﴾ وقرىء ﴿ فِى عُنُقِهِ ﴾ بسكون النون ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة ﴾ والبعث للحساب ﴿ كتابا ﴾ هي صحيفة عمله ، ونصبه على أنه مفعول ﴿ نُخْرِجُ ﴾ وجوز أن يكون حالاً من مفعول لنخرج محذوف وهو ضمير عائد على الطائر أي نخرجه له حال كونه كتاباً .

ويعضد ذلك قراءة يعقوب.

ومجاهد، وابن محيض ﴿ وَيُخْرِجُ ﴾ بالياء مبنياً للفاعل من خرج يخرج ونصب ﴿ كتابا ﴾ فإن فاعله حينئذ ضمير الطائر وكتاباً حال منه والأصل توافق القراءتين، وكذا قراءة أبي جعفر ﴿ وَيُخْرِجُ ﴾ بالياء مبنياً للمفعول من أخرج ونصب ﴿ كتابا ﴾ أيضاً، ووجه كونها عاضدة أن في يخرج حينئذ ضميراً مستتراً هو ضمير الطائر وقد كان مفعولاً، واحتمال أن يكون ﴿ لَهُ ﴾ نائب الفاعل فلا تعضد لا يلتفت إليه لأن إقامة غير المفعول مع وجوده مقام الفاعل ضعيفة وليس ثمت ما يكون كتاباً حالاً منه فيتعين ما ذكر كما قاله ابن يعيش في شرح المفصل، وعنه أيضاً أنه قرئ ﴿ يَخْرُجُ ﴾ بالبناء للمفعول أيضاً ورفع ﴿ كتاب ﴾ على أنه نائب الفاعل وقرأ الحسن ﴿ ﴾ على أنه نائب الفاعل وقرأ الحسن ﴿ يَخْرُجُ ﴾ بالبناء للفاعل من الخروج ورفع ﴿ كِتَابٌ ﴾ على الفاعلية، وقرأت فرقة ويخرج بالياء من الإخراج مبنياً للفاعل وهو ضمير الله تعالى وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هارون قال في قراءة أبي بن كعب ﴿ وَكُلَّ إنسان ألزمناه طَٰئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ لَهُۥ يَوْمَ القيامة كِتَٰبًا ﴾ ﴿ يلقياه ﴾ أي يلقى الإنسان أو يلقاه الإنسان ﴿ يلقاه مَنْشُوراً ﴾ غير مطوي لتمكن قراءته، وفيه إشارة إلى أن ذلك أمر مهيء له غير مغفول عنه، وجملة ﴿ يلقاه ﴾ صفة كتاباً و﴿ مَنْشُوراً ﴾ حال من ضميره، وجوز أن يكونا صفتين له، وفيه تقدم الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد وهو خلاف الظاهر،

وقرأ ابن عامر .

وأبو جعفر والجحدري .

(189/451)

والحسن بخلاف عنه ﴿ يلقاه ﴾ بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف من لقيته كذا أي يلقي الإنسان إياه .

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك في قبرك حتى تجيء يوم القيامة فتخرج لك .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ بتقدير يقال له ذلك ، وهذه الجملة إما صفة أو حال أو مستأنفة ، والظاهر أن جملة قوله تعالى : ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ من جملة مقول القول المقدر ، وكفى فعل ماض وبنفسك فاعله والباء سيف خطيب وجاء اسقاطها ورفع الاسم كما في قوله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً . . .

وقوله :

ويخبرني عن غائب المرء هديه . . .

كفى الهدى عما غيب المرء مخبراً

ولم تلحق الفعل علامة التأنيث وإن كان مثله تلحقه كقوله تعالى : ﴿ مَا ءامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ ﴾ [الأنبياء : 6] ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ ﴾ [الأنعام : 4] قيل لأن الفاعل مؤنث مجازي ولا يشفي الغليل لأن فاعل ما ذكر من الأفعال مؤنث مجازي مجرور بحرف زائد أيضاً وقد لحق فعله علامة التأنيث وغاية الأمر في مثل ذلك جواز الإلحاق وعدمه ولم يحفظ كما في "البحر" الإلحاق في كفى إذا كان الفاعل مؤنثاً مجروراً بالباء الزائدة ، ومن هنا قيل إن فاعل كفى ضمير يعود على الاكتفاء أي كفى هو أي الاكتفاء بنفسك ، وقيل هو اسم فعل بمعنى اكتف والفاعل ضمير المخاطب والباء على القولين ليست بزائدة ، ومرضى الجمهور ما قدمناه ، والتزام التذكير عندهم على خلاف القياس .

(190/451)

ووجه بعضهم ذلك بكثرة جر الفاعل بالباء الزائدة حتى أن إسقاطها منه لا يوجد إلا في أمثلة معدودة فانحطت رتبته عن رتبة الفاعلين فلم يؤنث الفعل له ، وهذا نحو ما قيل في مربهند وقيل غير ذلك ، و﴿ اليوم ﴾ ظرف لكفى و﴿ حَسِيباً ﴾ تمييز كقوله تعالى :

﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] وقولهم : لله تعالى دره فارساً ، وقيل : حال وعليك متعلق به قدم لرعاية الفواصل وعدى بعلي لأنه بمعنى الحاسب والعاد وهو يتعدى بعلي كما تقول عدد عليه قبائحه ، وجاء فعيل الصفة من فعل يفعل بكسر العين في المضارع كالصريم بمعنى الصارم وضريب القداح بمعنى ضاربها إلا أنه قليل أو بمعنى الكافي فتجوز به عن معنى الشهيد لأنه يكفي المدعي ما أهمه فعدى بعلي كما يعدى الشهيد ، وقيل هو بمعنى الكافي من غير تجوز لكنه عدى تعدية الشهيد للزوم معناه له كما في أسد علي ، وهو تكلف بارد ، وتذكيره وهو فعيل بمعنى فاعل وصف للنفس المؤنثة معنى لأن الحساب والشهادة مما يغلب في الرجال فأجرى ذلك على أغلب أحواله فكأنه قيل كفى بنفسك رجلاً حسيباً أو لأن النفس مؤولة بالشخص كما يقال ثلاثة أنفس أو لأن فعيل المذكور محمول على فعيل بمعنى فاعل والظاهر أن المراد بالنفس الذات فكأنه قيل كفى بك حسيباً عليك .

وجعل بعضهم في ذلك تجريداً فقيل : إنه غلط فاحش .

وتعقب بأن فيه بحثاً فإن الشاهد يغاير المشهود عليه فإن اعتبر كون الشخص في تلك الحال كأنه شخص آخر كان تجريداً لكنه لا يتعلق به غرض هنا .

وعن مقاتل أن المراد بالنفس الجوارح فإنها تشهد على العبد إذا أنكر وهو خلاف الظاهر .

وعن الحسن أنه كان إذا قرأ الآية قال : يا ابن آدم أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك ، والظاهر أنه يقال ذلك للمؤمن والكافر ، وما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي من أن الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب فيقول : رب إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له : ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ ﴾ الآية لا يدل على أنه خاص بالكافر كما لا يخفى ، ويقرأ في ذلك اليوم كما روى عن قتادة من لم يكن قارئاً في الدنيا .

وجاء أن المؤمن يقرأ أولاً سيآته وحسناته في ظهر كتابه يراها أهل الموقف ولا يراها هو فيغبطونه عليها فإذا استوفى قراءة السيآت وظن أنه قد هلك رأى في آخرها هذه سيآتك قد غفرناها لك فيتبلج وجهه ويعظم سروره ثم يقرأ حسناته فيزداد نوراً وينقلب إلى أهله مسروراً ويقول ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابية ﴾ [الحاقة : 19 ، 20] .

(192/451)

وأما الكافر فيقرأ أولاً حسناته وسيآته في ظهر كتابه يراها أهل الموقف فيتعوذون من ذلك فإذا استوفى قراءة الحسنات وجد في آخرها هذه حسناتك قد رددناها عليك وذلك

قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: 23] فيسود وجهه ويعظم كربه ثم يقرأ سيآته فيزداد بلاء على بلاء وينقلب بمزيد خيبة وشقاء ويقول ﴿ ياليتني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 25، 26] جعلنا الله تعالى ممن يقرأ فيرقى لا ممن يقرأ فيشقى بمنه وكرمه؛ هذا وفسر بعضهم الكتاب بالنفس المنتقشة بآثار الأعمال ونشره وقراءته بظهور ذلك له ولغيره، وبيانه أن ما يصدر عن الإنسان خيراً أو شراً يحصل منه في الروح أثر مخصوص وهو خفي ما دامت متعلقة بالبدن مشتغلة بواردات الحواس والقوى فإذا انقطعت علاقتها قامت قيامته لانكشاف الغطاء باتصالها بالعالم العلوي فيظهر في لوح النفس نقش أثر كل ما عمله في عمره وهو معنى الكتابة والقراءة، ولا يخفى أن هذا منزع صوفي حكمي بعيد من الظهور قريب من البطون، وفيه حمل القيامة على القيامة الصغرى وهو خلاف الظاهر أيضاً، والروايات ناطقة بما يفهم من ظاهر الآية نعم ليس فيها نفي انتقاش النفس بآثار الأعمال وظهور ذلك يوم القيامة فلا مانع من القول بالأمرين، ومن هنا قال الإمام: إن الحق أن الأحوال الظاهرة التي وردت فيها الروايات حق وصدق لا مرية فيها واحتمال الآية لهذه المعاني الروحانية ظاهر أيضاً والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الإقرار بالكل ونعم ما قال غير أن كون ذلك الاحتمال ظاهراً غير ظاهر، وقال الخفاجي: ليس في هذا ما يخالف النقل وقد حمل عليه ما روى عن قتادة من أنه يقرأ في ذلك اليوم من لم يكن قارئاً ولا وجه لعده مؤيداً له، وأنت تعلم أن

حمل كلام قتادة على ذلك تأويل أيضاً ولعل قتادة وأمثاله من سلف الأمة لا يخطر لهم أمثال هذه

التأويلات ببال والكلام العربي كالجمل الأنوف والله تعالى أعلم بحقائق الأمور .

وفي كيفية النظم ثلاثة أوجه ذكرها الإمام .

الأول : أنه تعالى لما قال : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء : 12] تضمن أن كل ما يحتاج إليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد قد صار مذكوراً وإذا كان كذلك فقد أزيحت الأعذار وأزيلت العلل فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ، الثاني : أنه تعالى لما بين أنه سبحانه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما فكأنه كان منعماً عليهم بوجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته تعالى وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة يكون مسئولاً عن أقواله وأعماله ، الثالث : أنه تعالى بين أنه ما خلق الخلق إلا لعبادته كما قال ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فلما شرح أحوال الشمس والقمر والنهار والليل كان إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من

الاشتغال بطاعتي وإذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سيألته هل أتى بتلك الطاعة أو تمرد وعصى اه ، وقد يقال وجه الربط أن فيما تقدم شرح حال كتاب الله تعالى المتضمن بيان النافع والضار من الأعمال وفي هذا شح حال كتاب العبد الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من تلك الأعمال إلا أحصاها وحسنه وقبحه تباع للأخذ بما في الكتاب الأول وعدمه فمن أخذ به فقد هدى ومن أعرض عنه فقد غوى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 15 صـ ﴾

(194/451)

وقال القاسمى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

أي : جعلناهما ، بهيئاتهما وتعاقبهما واختلافهما في الطول والقصر ، علامتين تدلان على أن لهما خالقاً حكيماً ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ أي : بجعلها مظلمة : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أي : مضيئة لتمييز الأشياء المحسوسة . والإضافة فيهما إما بيانية ، أي : الآية التي هي الليل ، والآية التي هي النهار . وإما حقيقية . وآية الليل والنهار نيراهما . والمراد بمحو القمر خلقه مطموس النور في نفسه . أو نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى

المحاق . وبجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات ، ذات أشعة تبصر بها الأشياء .

فالإسناد في (مبصرة) مجازي إلى السبب العادي ، أو تجوز بعلاقة السبب . وقوله تعالى : ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ متعلق بـ (جعلنا) أي : لتطلبوا في النهار رزقاً منه سبحانه بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ أي : الحساب المتعلق بما في ضمن السنين من الأشهر والليالي والأيام ، أو الحساب الجاري في المعاملات ، كالبيوع والإجارات ، وفي العبادات ، أي : لتعرف مضي الآجال المضروبة لذلك ؛ إذ لولاه لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور .

قال السيوطي في " الإكليل " : هذه الآية أصل في علم المواقيت والهيئة والتاريخ . وفي الآية لف ونشر غير مرتب . انتهى .

(195/451)

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي : مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم : ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ أي : بيناه في القرآن بياناً بليغاً لا التباس معه . كقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] ، فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بيناً .

(196/451)

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ أي : ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيراً وشراً ، بحيث لا يفارقه أبداً . بل يلزمه لزوم الطوق في العنق ، لا ينفك عنه بحال .

قال الطبري : المعنى : وكل إنسان ألزمناه ما قضي أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله ، في عنقه لا يفارقه . وإنما قوله : ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها .

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر ، اعتبروا أحوال الطير : وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه . وإذا طار فهل يطير متيامنا أو متياسراً أو صاعداً إلى الجو ، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة ، فلما كثر ذلك منهم ، سمي الخير والشر بالطائر ، تسمية للشيء باسم لازمه .

قال الطبري : فأعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه ، نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر وشقاء يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنان عدن . وإنما

أضيف إلى العنق ولم يضف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ، قيل : لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين ، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببني آدم وغيرهم من ذلك ، إلى أعناقهم . وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق . كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد ، فقالوا : ذلك بما كسبت يداه . وإن كان الذي جر عليه لسانه أو فرجه .

فكذلك قوله : ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ وحاصله : - كما قاله الرازي - أن قوله : ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾ كناية عن اللزوم . كما يقال : (جعلت هذا في عنقك) أي : قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به . ويقال : (قلدتك كذا وطوقتك كذا) أي : صرفته إليك وألزمته إياك . ومنه (قلده السلطان كذا) أي : صارت الولاية ، في لزومها له ، في موضع القلادة ومكان الطوق . ومنه يقال (فلان يقلد فلاناً) أي : يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . وقوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ ﴾ أي : نظهر له : ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : البعث للجزاء على الأعمال : ﴿ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً ﴾ أي : يجده مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته . ويقال له :

﴿ اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ أي : شهيداً بما عملت .

قال القاشاني : ﴿ كِتَاباً ﴾ هيكلاً مصوراً يصور أعماله : ﴿ يَلْقَاهُ مَنشُوراً ﴾ لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لا مطوياً كما كان عند كونها فيه بالقوة . يقال له : ﴿ اقْرَأْ كَتَابَكَ ﴾ أي : اقرأه قراءة المأمور الممتثل لأمر آمرٍ مطاع يأمره بالقراءة . أو تأمره القوى الملكوتية . سواء كان قارئاً أو غير قارئ ؛ لأن الأعمال هناك ممثلة بهيئاتها وصورها ، يعرفها كل أحد . لا على سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأميّ : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازماً إياها ، نصب عينها ، مفصلاً لا يمكنها الإنكار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 466.468 ﴾

(199/451)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

عطف على ﴿ ويدع الإنسان بالشر ﴾ [الإسراء : 11] ، الخ .

والمناسبة أن جملة ﴿ ويدع الإنسان ﴾ تتضمن أن الإبطاء تأخير الوعد لا يرفعه وأن الاستعجال لا يجدي صاحبه لأن لكل شيء أجلاً ، ولما كان الأجل عبارة عن أزمان كان

مشتملاً على ليلٍ ونهارٍ منقضّيينْ .

وهذا شائع عند الناس في أن الزمان مُنقض وإن طال .

فلما أريد التنبيه على ذلك أدمج فيه ما هو أهم في العبرة بالزمنين وهو كونهما آيتين على وجود الصانع وعظيم القدرة ، وكونهما منتين على الناس ، وكون الناس ربما كرهوا الليل لظلمته ، واستعجلوا انقضاءه بطلوع الصباح في أقوال الشعراء وغيرهم ، ثم بزيادة العبرة في أنهما ضدان ، وفي كل منهما آثار النعمة المختلفة وهي نعمة السير في النهار .

واكتفي بعدِّها عن عدّ نعمة السكون في الليل لظهور ذلك بالمقابلة ، وبتلك المقابلة حصلت نعمة العلم بعدد السنين والحساب لأنه لو كان الزمن كله ظلمةً أو كله نوراً لم يحصل التمييز بين أجزائه .

وفي هذا بعد ذلك كله إيماء إلى ضرب مثل للكُفر والإيمان ، وللضلال والهدى ، فلذلك عُقب به قوله : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ [الإسراء : 2] الآية ، وقوله : إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ﴾ إلى قوله : ﴿ أعتدنا لهم عذاباً ﴾ [الإسراء : 109] ، ولذلك عقب بقوله بعده ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ الآية [الإسراء : 15] .

وكل هذا الإدماج تزويد للآية بوافر المعاني شأن بلاغة القرآن وإيجازه .

وتفريع جملة فمحونا آية الليل ﴾ اعتراض وقع بالفاء بين جملة ﴿ وجعلنا الليل والنهار ﴾ وبين متعلقة وهو ﴿ لتبتغوا ﴾ .

وإضافة آية إلى الليل وإلى النهار يجوز أن تكون بيانية ، أي الآية التي هي الليل ، والآية التي هي النهار .

(200/451)

ويجوز أن تكون آية الليل الآية الملازمة له وهي القمر ، وآية النهار الشمس ، فتكون إعادة لفظ (آية) فيهما تنبيهاً على أن المراد بالآية معنى آخر وتكون الإضافة حقيقيّة ، ويصير دليلاً آخر على بديع صنع الله تعالى وتذكيراً بنعمة تكوين هذين الخلقين العظيمين .

ويكون معنى المحو أن القمر مطموس لا نور في جرمه ولكنه يكتسب الإنارة بانعكاس شعاع الشمس على كُرَتِهِ ، ومعنى كون آية النهار مبصرة أن الشمس جعل ضوؤها سببَ إبصار الناس الأشياء ، ف ﴿ مبصرة ﴾ اسم فاعل (أبصر) المتعدي ، أي جعل غيره باصراً .

وهذا أدق معنى وأعمق في إعجاز القرآن بلاغة وعلماً فإن هذه حقيقة من علم الهيئة ، وما أعيد لفظ (آية) إلا لأجلها .

والمحو : الطمس .

وأطلق على انعدام النور ، لأن النور يُظهر الأشياء والظلمة لا تظهر فيها الأشياءُ ، فشبه اختفاء الأشياء بالمحو كما دل عليه قوله في مقابله : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ، أي

جعلنا الظلمة آية وجعلنا سبب الإبصار آية .

وأطلق وصف ﴿ مبصرة ﴾ على النهار على سبيل المجاز العقلي إسناداً للسبب .

وقوله : ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ عِلة لخصوص آية النهار من قوله : ﴿ آيتن

وجاء التعليل لحكمة آية النهار خاصةً دون ما يقابلها من حكمة الليل لأن المنة بها أوضح ،

ولأن من التنبه إليها يحصل التنبه إلى ضدها وهو حكمة السكون في الليل ، كما قال : ﴿

لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ كما تقدم في سورة [يونس : 67] .

ثم ذكرت حكمة أخرى حاصلة من كلتا الآيتين .

وهي حكمة حساب السنين ، وهي في آية الليل أظهر لأن جمهور البشر يضبط الشهور

والسنين بالليالي ، أي حساب القمر .

والحساب يشمل حساب الأيام والشهور والفصول فعطفه على عدد السنين ﴾ من عطف

العام على الخاص للتعميم بعد ذكر الخاص اهتماماً به .

(201/451)

وجملة ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ تذييل لقوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾

باعتبار ما سيق له من الإشارة إلى أن للشر والخير الموعود بهما أجلاً ينتهيان إليه .

والمعنى : أن ذلك الأجل محدود في علم الله تعالى لا يعدوه ، فلا يقرّبه استعجال ولا يؤخره استبطاء لأن الله قد جعل لكل شيء قدراً لا إبهام فيه ولا شك عنده . . . .

أن للخير وللشر مَدى . . . .

فلا تحسبوا ذلك وعداً سُدى .

والتفصيل : التبيين والتمييز وهو مشتق من الفصل بمعنى القطع لأن التبيين يقتضي عدم التباس الشيء بغيره .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فُصلت ﴾ صدر [هود : 1] .

والتفصيل في الأشياء يكون في خلقها ، ونظامها ، وعِلم الله بها ، وإعلامه بها .

فالتفصيل الذي في علم الله وفي خلقه ونواميس العوالم عام لكل شيء وهو مقتضى العموم هنا .

وأما ما فصله الله للناس من الأحكام والأخبار فذلك بعض الأشياء ، ومنه قوله تعالى : يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون [الرعد : 2] وقوله : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ [الأنعام : 97] .

وذلك بالتبليغ على ألسنة الرسل وبما خلق في الناس من إدراك العقول ، ومن جملة ما فصله للناس الإرشاد إلى التوحيد وصالح الأعمال والإنذار على العصيان .

وفي هذا تعريض بالتهديد .

وانتصب كل شيء ﴾ بفعل مضمر يفسره ﴿ فصلناه ﴾ لاشتغال المذكور بضمير مفعول المحذوف .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) ﴾

لما كان سياق الكلام جارياً في طريق الترغيب في العمل الصالح والتحذير من الكفر والسيئات ابتداء من قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ عذاباً أليماً ﴾ [الإسراء : 109] وما عقبه مما يتعلق بالبشارة والنذارة وما أدمج في خلال ذلك من التذكير ثم بما دل على أن علم الله محيط بكل شيء تفصيلاً ، وكان أهم الأشياء في هذا المقام إحاطة علمه بالأعمال كلها ، فأعقب ذكر ما فصله الله من الأشياء بالتنبيه على تفصيل أعمال الناس تفصيلاً لا يقبل الشك ولا الإخفاء وهو التفصيل المشابه للتقييد بالكتابة ، فعطف قوله : ﴿ وكل إنسان ﴾ الخ على قوله : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ [الإسراء : 12] عطف خاص على عام للاهتمام بهذا الخاص .

والمعنى : وكل إنسان قدرنا له عمله في علمنا فهو عامل به لا محالة وهذا من أحوال الدنيا .

والطائر : أطلق على السهم ، أو القرطاس الذي يُعين فيه صاحب الحَظّ في عطاء أو قرعة لقسمة أو أعشار جزور الميسر ، يقال : اقتسموا الأرض فطار لفلان كذا ، ومنه قول أم العَلاء الأنصارية في حديث الهجرة : اقتسم الأنصارُ المهاجرين فطار لنا عُثمان بن مظعون . . .

وذكرت قصة وفاته .

وأصل إطلاق الطائر على هذا : إما لأنهم كانوا يرمون السهام المرقومة بأسماء المتقاسمين على صبر الشيء المقسوم المعدة للتوزيع .

فكل من وقع السهم المرقوم باسمه على شيء أخذَه .

وكانوا يطلقون على رمي السهم فعل الطيران لأنهم يجعلون للسهم ريشاً في قُذذه ليخف به اختراقه الهواء عند رميه من القوس ، فالطائر هنا أطلق على الحظ من العمل مثل ما يطلق اسم السهم على حظ الإنسان من شيء ما .

وإما من زجر الطير لمعرفة بخْتٍ أو شُؤم الزاجر من حالة الطير التي تعترضه في طريقه ، والأكثر أن يفعلوا ذلك في أسفارهم ، وشاع ذلك في الكلام فأطلق الطائر على حظ الإنسان من خير أو شر .

والإلزام: جعله لازماً له، أي غير مفارق، يقال: لَزمه إذا لم يفارقه.

وقوله: في عُنُقِهِ ﴾ يجوز أن يكون كناية عن الملازمة والقرب، أي عمله لازم له لزوم القلادة.

ومنه قول العرب تقلدها طَوْقَ الحمامة، فلذلك خصت بالعنق لأن القلادة توضع في عنق المرأة.

ومنه قول الأعشى

والشِعْرَ قلدتُه سَلامَةَ ذَا فَا . . .

ئش والشيءُ حيثما جُعلا

ويحتمل أن يكون تمثيلاً لحالة لعلها كانت معروفة عند العرب وهي وضع علامات تعلق في الرقاب للذين يعيّنون لعمل ما أو ليؤخذ منهم شيء، وقد كان في الإسلام يجعل ذلك لأهل الذمة، كما قال بشار

كَتب الحبُّ لها في عُنقي . . .

مَوْضِعَ الخَاتم من أهله الذِمم

ويجوز أن يكون ﴿ في عنقه ﴾ تمثيلاً بالبعير الذي يوسم في عنقه بسمة كيلا يختلط بغيره، أو الذي يوضع في عنقه جلجل لكيلا يضل عن صاحبه.

والمعنى على الجميع أن كل إنسان يعامل بعمله من خير أو شر لا يُنقص له منه شيء .

وهذا غير كتابة الأعمال التي ستذكر عقب هذا بقوله : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً ﴾ الآية .

وعَطف جملة ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً ﴾ إخبار عن كون تلك الأعمال المعبر عنها بالطائر تظهر يوم القيامة مفصلة معينة لا تغادَر منها صغيرةٌ ولا كبيرة إلا أحصيت للجزاء عليها .

وقرأ الجمهور ﴿ ونخرج ﴾ بنون العظمة وبكسر الراء ، وقرأه يعقوب بياء الغيبة وكسر الراء ، والضمير عائد إلى الله المعلوم من المقام ، وهو التفات .

وقرأه أبو جعفر بياء الغيبة في أوله مبنياً للنائب على أن ﴿ له ﴾ نائب فاعل و ﴿ وكتاباً ﴾ منصوباً على المفعولية وذلك جائز .

والكتاب : ما فيه ذكر الأعمال وإحصاؤها .

والنشر : ضد الطي .

ومعنى ﴿ يلقاه ﴾ يجده .

استعير فعل يلقى لمعنى يَجد تشبيهاً لوجدان النسبة بلقاء الشخص .

والنشر كناية عن سرعة اطلاعه على جميع ما عمله بحيث إن الكتاب يحضر من قبل وصُول صاحبه مفتوحاً للمطالعة .

وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر ﴿ يُلَقّاه بضم الياء وتشديد ، القاف مبنياً للمجهول على أنه مضاعف لقي تضعيفاً للتعدية ، أي يجعله لاقياً كقوله : ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ [الإنسان : 11] .

وأسند إلى المفعول بمعنى يجعله لاقياً .

كقوله : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ [فصّلت : 35] وقوله : ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاما ﴾ [الفرقان : 75] .

ونشر الكتاب إظهاره ليقرأ ، قال تعالى : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ [التكوير : 10] .

وجملة اقرأ كتابك ﴾ مقول قول محذوف دل عليه السياق .

والأمر في ﴿ اقرأ ﴾ مستعمل في التسخير ومكنى به عن الإعذار لهم والاحتجاج عليهم كما دل عليه قوله : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ ، ولذلك كان معرفة تلك الأعمال من ذلك الكتاب حاصلة للقارىء .

والقراءة : مستعملة في معرفة ما أثبت للإنسان من الأعمال أو في فهم النقوش المخصوصة إن كانت هنالك نقوش وهي خوارق عادات .

والباء في قوله : ﴿ بنفسك ﴾ مزيدة للتأكيد داخلة على فاعل ﴿ كفى ﴾ كما تقدم في قوله : ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ في سورة [النساء : 79] .

وانتصب ﴿ حسيباً ﴾ على التمييز لنسبة الكفاية إلى النفس ، أي من جهة حسيب .

والحسيب : فعيل بمعنى فاعل مثل ضريب القداح بمعنى ضاربها ، وصريم بمعنى صارم ، أي الحاسب والضابط .

وكثر ورود التمييز بعد (كفى بكذا) .

وعدي بـ (على) لتضمينه معنى الشهيد .

وما صدق النفس هو الإنسان في قوله : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره ﴾ فلذلك جاء ﴿ حسيباً ﴾ بصيغة التذكير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(205/451)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

(206/451)

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه جعل الليل والنهار آيتين . اي علامتين دالتين على أنه الرب المستحق أن يعبد وحده ، ولا يشرك معه غيره . وكرر تعالى هذا المعنى في مواضع كثيرة . كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار ﴾ [فصلت 37] الآية ، وقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس : 37] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي اختلاف الليل والنهار وَمَا خَلَقَ الله فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 6] ، وقوله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ [البقرة : 164] - إلى قوله - ﴿ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اختلاف الليل والنهار أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 80] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] ، وقوله : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ العزيز الغفار ﴾ [الزمر : 5] ، وقوله : ﴿ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً والشمس والقمر حُسْبَاناً ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [الأنعام : 96] ، وقوله ﴿ والشمس وَضُحَاهَا والقمر إِذَا تَلاَهَا والنهار إِذَا

جَلاَّهَا والليل إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس: 1-4] الآية، وقوله: ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إِذَا تجلى ﴾ [الليل: 1-2] الآية، وقوله: ﴿ والضحى والليل إِذَا سجى ﴾ [الضحى: 1-2] الآية، إلى غير

(207/451)

ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [الإسراء: 12] يعني أنه جعل الليل مظلماً مناسباً للهدوء والراحة، والنهار مضيئاً مناسباً للحركة والاشتغال بالمعس في الدنيا. فيسعون في معاشهن في النهار، ويستريحون من تعب العمل بالليل. ولو كان الزمن كله ليلاً لصعب عليهم العمل في معاشهم، ولو كان كله نهاراً لأهلكهم التعب من دوام العمل.

فكما أن الليل والنهار آيتان من آياته جلَّ وعلا، فهما أيضاً نعمتان جلَّ وعلا.

وبين هذا المعنى المشار إليه هنا في مواضع أخر، كقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ

اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتيكُمْ بلَيْل تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلاَ تُبْصِرُونَ ومِن رَّحْمَتِهِ جعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُوا فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : 71-73] .

فقوله : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي في الليل . وقوله : ﴿ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار وقوله : ﴿ وجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وجعلْنَا الليل لِبَاساً وَجعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 9-11] الآية ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 47] وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [الروم : 23] الآية ، وقوله :

﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل ويَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ [الأنعام : 60] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [الإسراء : 12] بين فيه نعمة أخرى على خلقه ، وهي معرفتهم عدد السنين والحساب . لأنهم باختلاف الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام ، ويعرفون بذلك يوم الجمعة ليصلوا فيه صلاة

الجمعة، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويعلمون مضي أشهر العدة لمن تعتد بالأشهر المشار إليها في قوله: ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارتبتم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق: 4]، وقوله ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة: 234]. ويعرفون مضي الآجال المضروبة للديون والإجارات، ونحو ذلك.

وبين جلَّ وعلا هذه الحكمة في مواضع أخر، كقوله: ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب مَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 5]. وقوله جلَّ وعلا: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ﴾ [البقرة: 189]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿ فَمَحَوْنَآ آيَةَ الليل وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: 12] فيه وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما - أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وجعلنا نيرى الليل والنهار، أي الشمس والقمر آيتين.

وعلى هذا القول – فآية الليل هي القمر ، وآية النهار هي الشمس . والمحو الطمس . وعلى هذا القول – فمحو آية الليل قيل معناه السواد الذي في القمر . وبهذا قال علي رضي الله عنه ، ومجاهد ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقيل : معنى ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل ﴾ [الإسراء : 12] أي لم نجعل في القمر شعاعاً كشعاع الشمس ترى به الأشياء رؤية بينة . فنقص نور القمر عن نور الشمس هو معنى الطمس على هذا القول .

وهذا أظهر عندي لمقابلته تعالى له بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار ﴾ [الإسراء : 12]

والقول بان معنى محو آية الليل : السواد الذي في القمر ليس بظاهر عندي وإن قال به بعض الصحابة الكرام ، وبعض أجلاء أهل العلم !

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار ﴾ على التفسير المذكور أي الشمس ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ أي ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء على حقيقته .

قال الكسائي : هو من قول العرب : أبصر النهار : إذا أضاء وصار بحالة يبصر بها – نقله عنه القرطبي .

قال مقيده عفا الله عنه : هذا التفسير من قبيل قولهم : نهاره صائم ، وليله قائم . ومنه قوله :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى . . . ونمت وما ليل المحب بنائم

وغاية ما في الوجه المذكور من التفسير: حذف مضاف، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب إن دلت عليه قرينة. قال في الخلاصة:

وما يلي المضاف يأتي خلفا ... عنه في الإعراب إذا ما حدفا

والقرينة في الآية الكريمة الدالة على المضاف المحذوف قوله: ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: 12] فإضافة الآية إلى الليل والنهار دليل على أن الآيتين المذكورتين لهما لا هما أنفسهما.

(210/451)

وحذف المضاف كثيرة في القرآن كقوله: ﴿ واسأل القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير التي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [يوسف: 82]، وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأخ وَبَنَاتُ الأخت ﴾ [النساء: 23] اي نكاحها وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [المائدة: 3] اي اكلها، ونحو ذلك.

وعلى القول بتقدير المضاف، وأن المراد بالآيتين الشمس والقمر - فالآيات الموضحة لكون الشمس والقمر آيتين تقدمت موضحة في سورة النحل.

الوجه الثاني من التفسير - أن الآية الكريمة ليس فيها مضاف محذوف، وان المراد بالآيتين

نفس الليل والنهار ، لا الشمس والقمر .

وعلى هذا القول فإضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ ، تنزيلاً لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف في المعنى . وإضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ كثيرة في القرآن وفي كلام العرب . فمنه في القرآن قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ [البقرة : 185] الآية ، ورمضان هو نفس الشهر بعينه على التحقيق ، وقوله : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ [يوسف : 109] الآية ، والدار هي الآخرة بعينها . بدليل قوله في موضع آخر : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخرة ﴾ [الأنعام : 32] بالتعريف ، والآخرة نعت للدار .

وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] والحبل هو الوريد ، وقوله : ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ [فاطر : 43] الآية ، والمكر هو السيء بدليل قوله ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

ومن أمثلته في كلام العرب قول امرئ القيس :

كبكر المقاناة البياض بصفرة . . . غذاها نمير الماء غير المحلل

لأن المقاناة هي البكر بعينها ، وقول عنترة في معلقته :

ومشك سابغة هتكت فروجها . . . بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك : السابغة بعينها . بدليل قوله : هتكت فروجها . لأن الضمير عائد إلى السابغة التي عبر عنها بالمشك .

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة فاطر . وبينا أن الذي يظهر لنا : أن إضافة الشيء غلى نفسه مع اختلاف لفظ المضاف والمضاف إليه أسلوب من أساليب اللغة العربية . لأن تغاير اللفظين ربما نزل منزلة التغاير المعنوي . لكثرة الإضافة المذكورة في القرآن وفي كلام العرب . وجزم بذلك ابن جرير في بعض مواضعه في القرآن . وعليه فلا حاجة إلى التأويل المشار إليه بقوله في الخلاصة :

ولا يضاف اسم لما به اتحد . . . معنى وأول موهماً إذا ورد

ومما يدل على ضعف التأويل المذكور قوله :

وإن يكونا مفردين فأضف . . . حتما وإلا أتبع الذي ردف

لأن إيجاب إضافة العلم إلى القلب مع اتحادهما في المعنى إن كانا مفردين المستلزم للتأويل ، ومنع الإتباع الذي لا يحتاج إلى تأويل – دليل على ان ذلك من أساليب اللغة العربية ، ولو لم يكن من أساليبها لوجب تقديم ما لا يحتاج إلى تاويل على المحتاج إلى تأويل كما ترى . وعلى هذا الوجه من التفسير – فالمعنى : فمحونا الآية التي هي الليل ، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة . أي جعلنا الليل مَمْحُو الضور مطموسه ، مظلماً لا تستبان فيه الأشياء كما

لا يستبان ما في اللوح المحو . وجعلنا النهار مبصراً . اي تبصر فيه الأشياء وتستبان .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا ﴾ [الإسراء : 12] تقدم إيضاحه ، والآيات الدالة عليه في سورة " النحل " في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] الآية .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) ﴾

(212/451)

في قوله جلّ وعلا في هذه الآية الكريمه ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ ﴾ وجهان معروفان من التفسير :

الأول – أن المراد بالطائر : العمل ثم قولهم : طار له سهم إذا خرج له . اي ألزمناه ما طار له من عمله .

الثاني – أن المراد بالطائر ماسبق له في علم الله من شقاوة أو سعادة . والقولان متلازمان .

لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة .

فإذا عرفت الوجهين المذكورين فاعلم – أنا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن الآية قد يكون فيها للعلماء قولان أو أقوال ، وكلها حق ، ويشهد له قرآن – فنذكر جميع الأقوال

وأدلتها من القرآن. لأنها كلها حق، والوجهان المذكوران في تفسير هذه الآية الكريمة كلاهما يشهد له قرآن.

أما على القول الأول بأن المراد بطائره عمله – فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازم له كثيرة جداً. كقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: 123] الآية، وقوله ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: 16]، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: 6]، وقوله ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: 46]، وقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: 7و8]. والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

(213/451)

وأما على القول بأن المراد بطائره نصيبه الذي طار له في الأزل من الشقاوة أو السعادة – فالآيات الدالة على ذلك ايضاً كثيرة، كقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: 2]، وقوله: ﴿ ولذلك خَلَقَهُم ﴾ [هود: 119] اي للاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم. وقوله: ﴿ فَرِيقاً هدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة ﴾ [

الأعراف : 30] ، وقوله : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ في عنقه ﴾ أي جعلنا عمله او ما سبق من شقاوة في عنقه . اي لازماً له لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه . ومنه قول العرب : تقلدها طوق الحمامة . وقولهم : الموت في الرقاب . وهذا الأمر ربقة في رقبته . ومنه قول الشاعر :

اذهب بها اذهب بها . . . طوقتها طوق الحمامه

فالمعنى في ذلك كله : اللزوم وعدم الانفكاك .

وقوله جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ ذكر جلَّ زعلا في هذه الآية الكريمة : أن ذلك العلمل الذي ألزم الإنسان إياه يخرجه له يوم القيامة مكتوباً ي كتاب يلقاه منشوراً ، اي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره .

وبين أشياء من صفات هذا الكتاب الذي يلقاه منشوراً في آيات أخر . فبين أن من صفاته : ان المجرمين مشفقون أي خائفون مما فيه ، وأنه لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنهم يجدون فيه جميع ما عملوا حاضراً ليس منه شيء غائباً ، وأن الله جلَّ وعلا لا يظلمهم في الجزاء عليه شيئاً .

وذلك في قوله جلَّ وعلا : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا

ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [الكهف : 49] .

(214/451)

ويبين في موضع آخر : أن بعض الناس يؤتي هذا الكتاب بيمينه – جعلنا الله وإخواننا المسلمين منهم . وأن من أوتيه بيمينه يحاسب حسابا يسيرا ، ويرجع إلى أهله مسرورا ، وأنه في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية . قال تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا ﴾ [الانشقاق : 7-9] ، وقال تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية ﴾ [الحاقة : 19-23] .

ويبين في موضع آخر : أن من أوتيه بشماله يتمنى أنه لم يؤتهن وأنه يؤمر به فيصلى الجحيم ، ويسلك في سلسلة من سلاسل النار ذرعها سبعون ذراعا . وذلك في قوله : ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها

سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : 25-32] أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من النار ، ومما قرب إليها من قوله وعمل .

(215/451)

ويين في موضع آخر : أن من أوتي كتابخ وراء ظهره يصلى السعير ، ويدعو الثبور . وذلك في قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيصلى سَعِيراً ﴾ [الانشقاق : 10-12] ، وقوله تعالى : ﴿ اقرأ كَتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] يعني أن نفسه تعلم أنه لم يظلم ، ولم يكتب عله إلا ما عمل . لأنه في ذلك الوقت يتذكر كل ما عمل في الدنيا من أول عمره إلى آخره . كما قال تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : 13] .

وقد بين تعالى في مواضع أخر : انه إن أنكر شيئاً من عمله شهدت عليه جوارحه . كقوله تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : 65] ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي

ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ [فصلت : 31-32] ، وقوله جلَّ وعلا ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة : 14-15] ، وسيأتي اله لهذا زيادة إيضاح في سورة القيامة .

تنبيه

لفظة " كفى " تستعمل في القرآن واللغة العربية استعمالين :

تستعمل متعدية ، وهي تتعدى غالباً إلى مفعولين ، وفاعل هذه المتعدية لا يجر بالباء .

كقولهك

(216/451)

﴿ وَكَفَى الله المؤمنين القتال ﴾ [الأحزاب : 25] ، وكقوله : ﴿ أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] الآية ، وقوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله ﴾ [البقرة : 137] الآية ، ونحو ذلك من الآيات .

وتستعمل لازمة ، ويطرد جر فاعلها بالباء المزيدة لتوكيد الكفاية . كقَوْله في هذه الآية الكريمة ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] ، وقوله تعالى : ﴿ وكفى بالله وَكِيلاً ﴾ [الأحزاب : 3و48] ، وقوله : ﴿ وكفى بالله حَسِيباً ﴾ [

النساء : 6] ونحو ذلك .

ويكثر إتيان التمييز بعد فاعلها المجرور بالباء . وزعم بعض علماء العربية : أن جر فاعليها بالباء لازم . والحق أنه يجوز عدم جه بها ، ومنه قول الشاعر :

عميرة ودع إن تجهزت غاديا . . . كفى السيب والإسلام للمرء ناهيا

وقول الآخر :

ويخبرني عن غائب المرء هديه . . . كفى الهدى عما غيب المرء مخبرا

وعلى قراءة من قرأ ﴿ يلَقَّاه ﴾ بضم الياء وتشديد القاف مبنياً للمفعول – فالمعنى : ان الله يلقيه ذلك الكتاب يوم القيامة . فحذف الفاعل فبني الفعل للمفعول .

وقراءة من قرأ ﴿ يَخْرج ﴾ بفتح الياء وضم الراء مضارع خرج مبيناً للفاعل – فالفاعل ضير يعود إلى الطائر بمعنى العمل وقوله ﴿ كتاباً ﴾ حال من ضمير الفاعل . اي ويوم القيامة يخرج هو اي العمل المعبر عنه بالطائر في حال كونه كتاباً منشوراً . وكذلك على قراءة ﴿ يخرج ﴾ بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول ، فالضمير النائب عن الفاعل راجع أيضاً إلى الطائر الذي هو العمل . اي يخرج له هو اي طائه بمعنى عمله ، في حال كونه كتاباً .

وعلى قراءة " يخرج " بضم الياء وكسر الراء مبنياً للفاعل ، فالفاعل ضمير يعود إلى الله تعالى ، وقوله ﴿ كتاباً ﴾ مفعول به . اي ويوم القيامة يخرج هو اي الله له كتاباً يلقاه منشوراً .

(217/451)

وعلى قراءة الجمهور منهم السبعة – فالنون في ﴿ نخرج ﴾ نون العظمة لمطابقة قوله ﴿ ألزمناه ﴾ و ﴿ كتاباً ﴾ مفعول به لنخرج كما هو واضح . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

(218/451)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آَيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آَيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آَيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تتأتى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظِّر بالليل والنهار في جنس الإنسان من الذكورة والأنوثة ، فهما

أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصَّب لجنسه تعصباً أعمى خالياً من فَهْم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

وتأمل قول الحق سبحانه: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل: 1-4]

فلا تجعل الليل ضِداً للنهار ، ولا النهار ضداً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضِداً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضداً للذكورة .

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ . . ﴾ [الإسراء: 12]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعايشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح من أنْ نعرّفهما ، فنقول مثلاً: الليل هو مَغِيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن: قد يكون الشي أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحينما يتحدّث عنهما ، يقول تعالى: ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى: 1-2]

ويقول: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: 1-2] فبدأ بالليل.

ومرة يتحدث عن اللازم لهما، فيقول: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: 1]

لأن الحكمة من الليل تكمن في ظُلْمته، والحكمة من النهار تكمُن في نوره، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرار وراحة. وفي الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء، ويأخذ البدن راحته؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم: "أطفئوا المصابيح إذا رقدتم".

في حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة - التي نراها الآن - مظهر حضاري، وهم غافلون عن الحكمة من الليل، وهي ظلمته.

والنور للحركة والعمل والسَّعْي، فمَن ارتاح في الليل يُصبح نشيطاً للعمل، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة، وارتاحت أعضاؤه، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل.

لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ.. ﴾ [القصص: 73]

لماذا؟ ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ.. ﴾ [القصص: 73]

أي: في الليل. ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ.. ﴾ [القصص: 73] أي: في النهار.

إذن: لليل مهمة، وللنهار مهمة، وإياك أنْ تخلط هذه بهذه، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدِّي إلا بالليل كالحراسة مثلاً، نجد الحق سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة.

فيقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيلِ وَالنَّهَارِ.. ﴾ [الروم: 23]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم، فأعطانا فُسْحة ورُخْصة، ولكن في أضيق نطاق، فَمَنْ لا يقومون بأعمالهم إلا في الليل، وهي نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التي ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا.

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة، وتمرَّد على هذا النظام الإلهي، فإن الحق سبحانه يَردعه بما يكبح جماحه، ويحميه من إسرافه على نفسه، وهذا من لُطْفه تعالى ورحمته بخَلْقه.

(220/451)

هذا الردْع إما رَدْع ذاتيّ اختياري، وإما رَدْع قَهْريّ الردع الذاتي يحدث للإنسان حينما يسعى في حركة الحياة ويعمل، فيحتاج إلى طاقة، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجري في أعضائه، فإنْ زادتْ الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق، لأن الدم المتوارد إلى رئته لا يكفي هذه الحركة.

وهذا نلاحظه مثلاً في صعود السُّلَّم، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك، فتحتاج إلى قوة أكثر، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادي.

فكأن الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً في الإنسان، إذا ما

تجاوز حَدّ الطاقة التي جعلها الله فيه .

أما الردْع القهري فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتي دور الرادع القَسْري ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكأن الطبيعة التي خلقها الله فيه تقول له: ارحم نفسك ، فإنك لم تَعُدْ صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلِم الإنسان لاختياره ، بل يُلقي عليه النوم وفقدان الوعي والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد مِنّا إذا ما تعرّض لمناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بُدَّ له بعد أن ينتهي من مهمته هذه أنْ ينام مثل هذه المدة التي سهرها ؛ ليأخذ الجسم حَقَّه من الراحة التي حُرم منها .

وقوله تعالى: ﴿ آيَتَيْنِ . . ﴾ [الإسراء: 12]

قلنا : إن الآية هي الشيء العجيب الذي يدعو إلى التأمل ، ويُظهِر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلَق على ثلاثة أشياء:

ـ تُطلَق على الآيات الكونية التي خلقها الله في كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقي بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الّيل وَالنّهَارُ وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ

﴾ [فصلت:37]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [الشورى: 32]

(221/451)

وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

- وتُطلق الآيات على المعجزات التي تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدْقهم ، فكل رسول يُبعَث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخَلْق ، لا بُدَّ أن يأتي بدليل على صِدْقه وأمارة على أنه رسول .

وهذه هي المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهروا ؛ لتكون أوضح في إعجازهم وأدْعَى إلى تصديقهم .

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ . . ﴾ [الإسراء: 59]

.وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن: هذه أنواع ثلاثة.في كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففي الأولى: هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفي الثانية: آيات الإعجاز ، حيث أتى بشيء نبغ فيه القوم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفي الثالثة: آيات القرآن وحاملة الأحكام ؛ لأنها

أقوم نظام لحركة الحياة.

فقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ . . ﴾ [الإسراء: 12]

أي: كونيتين، ولا مانع أنْ تفسر الآياتُ الكونية آيات القرآن.

وقوله: ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ . . ﴾ [الإسراء: 12]

أي: بعد أنْ كان الضوء غابت الشمس فَحَلَّ الظلام، أو مَحوْناهَا: أي جعلناها هكذا، كما قلنا: سبحان مَنْ بيّض اللبن.

أي خلقه هكذا، فيكون المراد: خلق الليل هكذا مظلماً.

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . ﴾ [الإسراء: 12]

أي: خلقنا النهار مضيئاً، ومعنى مبصرة أو مضيئة أي: نرى بها الأشياء؛ لأن الأشياء لا تُرى في الظلام، فإذا حَلَّ الضياء والنور رأيناها، وعلى هذا كان ينبغي أن يقول: وجعلنا آية النهار مُبْصَراً فيها، وليست هي مبصرة.

وهذه كما في قوله تعالى في قصة موسى وفرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً . . ﴾ [النمل: 13]

فنسب البصر إلى الآيات، كما نسب البصر هنا إلى النهار.

وهذه مسألة حيّرتْ الباحثين في فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئي فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامي " ابن الهيثم " الذي نَوّر الله بصيرته ، وهداه إلى سِرّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئي لأمكنك أن ترى الأشياء في الظُّلمة إذا كنتَ في الضوء .

إذن: الشعاع لا يأتي من العين ، بل من الشيء المرئي ، ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت في الضوء ، ولا نراها إن كانت في الظلام .

وعليه يكون الشيء المرئيّ هو الذي يبصرك من حيث هو الذي يتضح لك ، ويساعدك على رؤيته ، ولذلك نقول: هذا شيء يُلفت النظر أي: يرسل إليك مَا يجعلك تلتفت إليه .

إذن: التعبير القرآني: ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . ﴾ [الإسراء: 12]

على مستوى عال من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53]

وقوله تعالى: ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ . . ﴾ [الإسراء: 12]

وهذه هي العلة الأولى لآية الليل والنهار .

أي: أن السعي وطلب الرزق لا يكون إلا في النهار ؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السّعي والعمل إلا إذا

كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل.

وبهذا نجد في الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ.. ﴾

[القصص: 73]

فالترتيب في الآية يقتضي أن نقول: ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ.. ﴾[القصص: 73]

أي: في الليل، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ.. ﴾[القصص: 73] أي: في النهار، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل، فهما -إذن- متكاملان.

(223/451)

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحلاً للحركة وابتغاء فضل الله؛ لأن الحركة أمرٌ ماديّ وتفاعل ماديّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله، كالفلاح وتفاعله مع أرضه، والعامل تفاعله مع آلته.

هذا التفاعل المادي لا يتم إلا في ضوء؛ لأن الظلمة تغطي الأشياء وتُعميها، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس، أما في السعي والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمنفعل له، ففي الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك، أو بما هو أضعف منك

فتحطمه.

إذن: فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبيّن الإنسان المادة التي يتفاعل معها. لذلك، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء. فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: 1]

لأن النور محلٌّ للحركة، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة، والراحة لا تكون إلا في ظُلْمة الليل.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ.. ﴾ [الإسراء: 12]

وهذه هي العِلَّة الأخرى لليل والنهار، حيث بمرورهما يتمّ حساب السنين.

وكلمة ﴿ عَدَدَ ﴾ تقتضي شيئاً له وحدات، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات؛ لأن الشيء إنْ لم تكُنْ له كميات متكررة فهو واحد.

وقوله: ﴿ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ.. ﴾ [الإسراء: 12]

لأنها من لوازم حركتنا في الحياة، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة، أو وقت سقوط المطر، أو هبوب الرياح. وفي العبادات نحدد بها أيام الحج، وشهر الصوم، ووقت الصلاة، ويوم الجمعة، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار.

ولو تأملتَ عظمة الخالق سبحانه لوجدتَ القمر في الليل ، والشمس في النهار ، ولكل منهما مهمة في حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذي أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهي بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على أساسها ، فهو في أول الشهر هلال ، ثم يكبر فيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ، ثم يأخذ في التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن: نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهاراً ، فنقول: الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس: 5]

فقوله: ﴿ وَقَدَّرَهُ . . ﴾ [يونس: 5] أي: القمر ؛ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدقّ نظام حسابي يُعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و﴿ مَنَازِلَ . . ﴾ [يونس: 5] هي البروج الاثنى عشر للقمر التي أقسم الله بها في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج: 1-3]

ولأن حياة الخَلْق لا تقوم إلا بحساب الزمن، فقد جعل الخالق سبحانه في كَوْنه ضوابط تضبط لنا الزمن، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هي في نفسها منضبطة، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة (تُقدّم أو تُؤخّر).

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت في كَوْنه: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: 5]

أي: بحساب دقيق لا يختلّ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم.

(225/451)

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً .. ﴾ [الإسراء: 12]

معنى التفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين، وتقول: فصلْتُ شيئاً عن شيء، فالحق سبحانه فصَّل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل، حتى لا يلتبس علينا الأمر في كل نواحي الحياة.

ومثال ذلك في الوضوء مثلاً يقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة: 6]

فأطلق غَسْل الوجه؛ لأنه لا يختلف عليه أحد، وحدَّد الأيدي إلى المرافق، لأن الأيدي يُختلف في تحديدها، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ، أو إلى المرفق، أو إلى الكتف، لذلك حددها الله تعالى، لأنه سبحانه يريدها على شكل مخصوص.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ ﴾ [المائدة: 6] فالرأس يناسبها المسْح لا الغَسْل، والرِّجْلاَن كاليد لا بُدَّ أنْ تُحَدَّد. فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم، فقال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ.. ﴾ [النساء: 43]

والتيمم يقوم مقام الوضوء، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى، وقد يظن البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة، وكذلك التيمُّم؛ لذلك يقترح بعضهم أن نُنظِّف أنفسنا بالكولونيا مثلاً.

نقول: ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى، وإلا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب؟ هذا الاستعداد للصلاة هو الذي جعل سيدنا علي زين العابدين رضي الله عنه يَصْفرّ وجهه عند الوضوء، وعندما سُئِل عن ذلك قال: أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن؟ فللقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً، وأنْ يستعدّ للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى.

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13)

كلمة (طائره) أي: عمله وأصلها أن العرب كانوا في الماضي يزجرون الطير، أي: إذا أراد أحدهم أنْ يُمضيَ عملاً يأتي بطائر ثم يطلقه، فإنْ مَرَّ من اليسار إلى اليمين يسمونه " السانح " ويتفاءلون به، وإنْ مَرّ من اليمين إلى اليسار يسمونه " البارح " ويتشاءمون به، ثم يتهمون الطائر وينسبون إليه العمل، ولا ذنب له ولا جريرة.

إذن: كانوا يتفاءلون باليمين، ويتشاءمون باليسار، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن، ولا يحب التشاؤم؛ لأن الفَأْل الطيب يُنشّط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام، ويقضي على الحركة والتفاعل في الكون.

والحق سبحانه هنا يُوضّح: لا تقوّلوا الطائر ولا تتهموه، بل طائرك أي: عملك في عنقك يلازمك ولا ينفكّ عنك أبداً، ولا يُسأل عنه غيره، كما أنه لا يُسأل عن عمل الآخرين، كما قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىا . . ﴾ [الإسراء: 15]

فلا تُلقي بتبعة أفعالك على الحيوان الذي لا ذنب له.

وقوله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء: 13]

وهو كتاب أعماله الذي سجَّلته عليه الحفظة الكاتبون، والذي قال الله عنه: ﴿ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَاذَا الْكِتَابِ لاَيُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف: 49]

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً. أي: مفتوحاً مُعدّاً للقراءة.

(227/451)

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)

الحق تبارك وتعالى يُصوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة، حيث يقف العبد بين يديْ ربه عزَّ وجل، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه، ليكون هو حجة على نفسه، ويُقر بما اقترف، والإقرار سيد الأدلة.

فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة، ولا مجالَ فيه للجدال أو الإنكار، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته:

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: 24]

ويقول سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ

﴿[فصلت: 21]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه في الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه في خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدي ، وبيده يُنفق ويقيل عثرة المحتاج ، وبرجْله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه في كل هذا مُسخَّرة طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل ؛ لأنها منقادة لمراداتك ، ففِعْلها لك ليس دليلاً على الرضى عنك ؛ لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك في الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارهة وهي لاعنةٌ له ، وهي مُبغِضة له ولِفعْله ، فإذا كان القيامة وانحلَّت من إرادته ، وخرجتْ من سجن سيطرته ، شهدتْ عليه بما كان منه . ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء: 14]

أي: كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند واه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله خلق شمسين من نور عرشه " فاما ما كان في سابق علمه أنه يدعها شمساً ، فإنه خلقها مثل الدنيا على قدرها ، ما بين مشارقها ومغاربها ، وأما ما كان في سابق علمه أنه يطمسها ويجعلها قمراً ، فإنه خلقها دون الشمس في العظم ، ولكن إنما يرى صغرها لشدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض ، فلو ترك الشمس كما كان خلقها أول مرة لم يعرف الليل من النهار ، ولا النهار من الليل ، ولم يدر الصائم إلى متى يصوم ومتى يفطر ، ولم يدر المسلمون متى وقت حجهم ، وكيف عدد الأيام والشهور والسنين والحساب ، فأرسل جبريل فأمر جناحه عن وجه القمر – وهو يومئذ شمس – ثلاث مرات ، فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور ، فذلك قوله : ﴿ وجعل الليل والنهار آيتين ﴾ الآية .

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر ، عن سعيد المقبري : أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر ؟ فقال :

كانا شمسين. فقال: قال الله: ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ﴾ فالسواد الذي رأيت هو المحو.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف، عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ قال: هو السواد الذي في القمر.

وأخرج ابن مردويه، عن علي رضي الله عنه في الآية. قال: كان الليل والنهار سواء، فمحا الله آية الليل فجعلها مظلمة، وترك آية النهار كما هي.

(229/451)

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ قال: هو السواد بالليل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ قال: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ قال: السواد الذي في القمر.

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر، عن مجاهد رضي الله عنه قال: كتب هرقل إلى معاوية يسأله عن ثلاثة أشياء: أي مكان إذا صليت فيه ظننت أنك لم تصل إلى قبلة؟

وأي مكان طلعت فيه الشمس مرة لم تطلع فيه قبل ولا بعد ؟ وعن السواد الذي في القمر ؟ فسأل ابن عباس رضي الله عنهما ؟ فكتب إليه أما المكان الأول : فهو ظهر الكعبة . وأما الثاني : فالبحر حين فرقه الله لموسى عليه السلام . وأما السواد الذي في القمر : فهو المحو .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن عكرمة رضي الله عنه في الآية قال : خلق الله نور الشمس سبعين جزءاً ، ونور القمر سبعين جزءاً ، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً ، فجعله مع نور الشمس ، فالشمس على مائة وتسعة وثلاثين جزءاً ، والقمر على جزء واحد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه في الآية قال : كانت شمس بالليل وشمس بالنهار فمحا الله شمس الليل ، فهو المحو الذي في القمر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ قال : انظر إلى الهلال ليلة ثلاث عشرة ، أو أربع عشرة ، فإنك ترى فيه كهيئة الرجل ، آخذاً برأس رجل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ قال : ظلمة الليل وسدف النهار ؛ ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ قال : جعل لكم ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ [المزمل : 7] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فصلناه ﴾ يقول : بيناه .

(230/451)

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عطاء بن السائب رضي الله عنه قال : أخبرني غير واحد أن قاضياً من قضاة الشام ، أتى عمر رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين رأيت رؤيا أفظعتني . قال : وما رأيت ؟ قال : رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، والنجوم معهما نصفين . قال : فمع أيهما كنت ؟ قال : مع القمر على الشمس . قال عمر رضي الله عنه : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ فانطلق فوالله لا تعمل لي عملاً أبداً . قال عطاء رضي الله عنه : فبلغني أنه قتل مع معاوية يوم صفين .

وأخرج ابن عساكر ، عن علي بن زيد رضي الله عنه ، قال : سأل ابن الكواء علياً رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر ؟ قال : هو قول الله تعالى : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن ، عن جابر - رضي الله عنه - سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طائر كل إنسان في عنقه " .

(231/451)

وأخرج ابن مردويه، عن حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن النطفة التي يخلق منها النسمة تطير في المرأة أربعين يوماً وأربعين ليلة، فلا يبقى منها شعر ولا بشر ولا عرق ولا عظم إلا دخله، حتى أنها لتدخل بين الظفر واللحم، فإذا مضى لها أربعون ليلة وأربعون يوماً أهبطه الله إلى الرحم، فكان علقة أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم يكون مضغة أربعين يوماً وأربعين ليلة، فإذا تمت لها أربعة أشهر، بعث الله إليها ملك الأرحام فيخلق على يده لحمها ودمها وشعرها وبشرها، ثم يقول: صوّر. فيقول: يا رب، ما أصور أزائد أم ناقص، أذكر أم أنثى، أجميل أم ذميم أجعد أم سبط أقصير أم طويل أبيض أم آدم أسويّ أم غير سويّ؟ فيكتب من ذلك ما يأمر الله به. ثم يقول الملك: يا رب، أشقيّ أم سعيد؟ فإن كان سعيداً، نفخ فيه بالسعادة في آخر أجله، وإن كان شقياً: نفخ فيه الشقاوة في آخر أجله. ثم يقول: اكتب أثرها ورزقها ومصيبتها وعملها بالطاعة والمعصية، فيكتب من ذلك ما يأمره الله به، ثم يقول الملك: يا رب، ما أصنع بهذا الكتاب؟ فيقول: علقه في عنقه إلى قضائي عليه. فذلك قوله: ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾".

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ ألزمناه طائره في عنقه ﴾ قال: سعادته وشقاوته وما قدره الله له وعليه فهو لازمه أينما كان.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله: ﴿ طائره في عنقه ﴾ قال: قال عبد الله رضي الله عنه الشقاء والسعادة والرزق والأجل.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر، عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿ طائره في عنقه ﴾ قال: كتابه.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ أي عمله.

(232/451)

وأخرج أبو داود في كتاب القدر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ قال: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ ألزمناه طائره ﴾ قال: عمله ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ قال: هو عمله الذي عمل أحصي عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب عليه من العمل، فقرأه منشوراً.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي رضي الله عنه في الآية قال: الكافر يخرج له يوم القيامة

كتاب ، فيقول : رب ، إنك قد قضيت . إنك لست بظلام للعبيد ، فاجعلني أحاسب نفسي . فيقال له : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر ، عن هرون قال : في قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ يقرؤه يوم القيامة ﴿ كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه أنه قرأ " ويخرج له يوم القيامة كتاباً " بفتح الياء يعني يخرج الطائر كتاباً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال : سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا .

وأخرج ابن جرير ، عن الحسن رضي الله عنه قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة .

فعند ذلك يقول : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ حتى بلغ عليك ﴿ حسيباً ﴾ .

وأخرج ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف، عن عائشة – رضي الله عنها – قال: سالت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين؟ فقال: " هم مع آبائهم " ثم سألته بعد ذلك؟ فقال: " الله أعلم بما كانوا عاملين " ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام؟! فنزلت ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فقال: " هم على الفطرة " أو قال: " في الجنة ".

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني الصعب بن جثامة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، إني قضيت في البنات من ذراري المشركين؟ قال: " هم منهم ".

وأخرج ابن سعد وأحمد وقاسم بن أصبغ وابن عبد البر، عن خنساء بنت معاوية الضمرية، عن عمها قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة ".

وأخرج قاسم بن أصبغ وابن عبد البر، عن أنس رضي الله عنه قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين؟ قال: " هم خدم أهل الجنة ".

وأخرج، عن سلمان رضي الله عنه قال: أطفال المشركين خدم أهل الجنة.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن عبد البر وضعفه، عن عائشة رضي الله

عنها قالت : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المسلمين أين هم ؟ قال : " في الجنة " وسألته عن ولدان المشركين أين هم ؟ قال : " في النار " ، قلت : يا رسول الله ، لم يدركوا الأعمال ولم تجر عليهم القلام ! قال : " ربك أعلم بما كانوا عاملين ، والذي نفسي بيده لئن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار " " .

وأخرج أحمد وقاسم بن أصبغ وابن عبد البر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت أقول في أطفال المشركين هم مع آبائهم ، حتى حدثني رجل من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه سئل عنهم ؟ فقال : " ربهم أعلم بهم وبما كانوا عاملين " فأمسكت عن قولي .

وأخرج قاسم بن أصبغ وابن عبد البر ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل ، عن أولاد المشركين ؟ فقال : " الله أعلم بما كانوا عاملين والله أعلم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ آيَتَيْنِ ﴾ : يجوز أن يكونَ هو المفعولَ الأولَ ، و ﴿ الليل والنهار ﴾ ظرفان في موضع الثاني قُدِّما على الأول ، والتقدير : وجَعَلْنا آيتين في الليلِ والنهار ، والمرادُ بالآيتين : إمَّا الشمسُ والقمرُ ، وإمَّا تكويرُ هذا على هذا ، وهذا على هذا ، ويجوز أنْ يكونَ " آيَتَيْن " هو الثاني ، و ﴿ الليل والنهار ﴾ هما الأول . ثم فيه احتمالان ، أحدُهما : أنه على حَذْفِ مضافٍ : / إمَّا من الأول ، أي : نَيِّرَي الليل والنهار ، وهما القمرُ والشمسُ ، وإمَّا من الثاني ، أي : ذَوِي آيتين . والثاني : أنه لا حَذْفَ ، وأنهما علامتان في أنفسِهما ، لهما دلالةٌ على شيءٍ آخرَ . قال أبو البقاء : " فلذلك أضافَ في موضعٍ ، ووَصف في آخر " يعني أنه أضافَ الآيةَ إليهما في قولِه ﴿ آيةَ الليل ﴾ و ﴿ الليل والنهار ﴾ ووصفَهما في موضعٍ آخرَ بأنهما اثنان لقولِه : " وجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيتين " . هذا كلُّه إذا جَعَلْنَا الجَعْلَ تصييراً متعدِّياً لاثنين ، فإن جَعَلْناه بمعنى " خَلَقْنا " كان " آيتين " حالاً ، وتكونُ حالاً مقدرة .

واستشكل بعضُهم أَنْ يكونَ " جَعَلَ " بمعنى صَيَّرَ قال : " لأنه يَسْتَدْعِي أن يكونَ الليلُ

والنهارُ موجودَيْن على حالةٍ ، ثم انتقل عنها إلى أخرى " .

قوله : " مُبْصِرَةً " فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مِنْ الإِسنادِ المجازيّ ، لأنَّ الإِبصارَ فيها لأهلِها ، كقولِه : { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً } [الإسراء : 59] لَمَّا كانت سبباً للإِبْصار .

وقيل : " مُبْصِرة " : مضيئةً ، وقيل : هي من بابِ أَفْعَل ، والمرادُ به غيرُ مَنْ أُسْنِد الفعلُ إليه كقولهم : " أَضْعَفَ الرجلُ " ، أي : ضَعُفَتْ ماشِيَتُه ، و " أَجْبَن " إذا كان أهلُه جبناء ، فالمعنى أنَّ أهلَها بُصراء .

وقرأ عليُّ بن الحسين وقتادةُ " مَبْصَرَة " بفتح الميم والصاد ، وهو مصدرٌ أُقيم مُقام الاسمِ ، وكَثُر هذا في صفاتِ الأمكنة نحو : " مَذْأَبَة " .

قوله : { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ } فيه وجهان ، أحدهما : أَنَّه منصوبٌ على الاشتغال ، ورُجِّح نصبُه لتقدُّمِ جملةٍ فعلية . وكذلك { وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ } [الإسراء : 13] .

والثاني : - وهو بعيد - أنه منصوبٌ نَسَقاً على " الحِسابَ " ، أي : لتعلموا كلَّ شيءٍ أيضاً ، ويكون " فَصَّلْناه " على هذا صفةً .

وقرئ " في عُنْقِه " وهو تخفيفٌ شائعٌ .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ ﴾ : العامَّةُ على " نُخْرِجُ " بنونِ العظمة مضارع " أَخْرَجَ " ، و " كتاباً " فيه وجهان ، أحدهما : أنه مفعولٌ به والثاني : أنه منصوبٌ على الحال من المفعول المحذوف ، إذ التقدير : ونُخْرِجُه إليه كتاباً ، ونُخْرِجُ الطائر .

ورُوِي عن أبي جعفر : " ويُخْرَجُ " مبنيَّاً للمفعول ، "كتاباً " نصبٌ على الحال ، والقائمُ مَقامَ الفاعلِ ضميرُ الطائرِ ، وعنه أنَّه رَفَع "كتاباً " . وخُرِّج على أنَّه مرفوعٌ بالفعلِ المبنيِّ للمفعول ، والأولى قراءةٌ قلقةٌ .

وقرأ الحسن : " ويَخْرُجُ " بفتحِ الياءِ وضمِّ الراءِ مضارعَ " خَرَجَ " ، "كتابٌ " فاعلٌ به ، وابن محيصن ومجاهد كذلك ، إلا أنهما نَصَبا "كتاباً " على الحال ، والفاعلُ ضميرُ الطائرِ ، أي : ويَخْرُجُ له طائرُه في هذه الحالِ . وقرئ " ويُخْرِجُ " بضمِّ الياء وكسرِ الراء مضارعَ " أَخْرَجَ " ، والفاعلُ ضميرُ الباري تعالى ، "كتاباً " مفعولٌ .

قوله : "يَلْقَاْه " صفةٌ لـ "كتاباً " ، و " مَنْشُوراً " حالٌ من هاء "يَلْقَاه " . وجوَّز الزمخشري والشيخ وأبو البقاء أن يكونَ نعتاً لكتاب . وفيه نظرٌ : من حيث إنه يَلْزَمُ تقدُّمُ الصفةِ غير

الصريحة على الصريحةِ، وقد تقدَّم ما فيه .

وقرأ ابنُ عامر "يُلَقَّاه" بضمِّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف، مضارِعَ "لَقَّى" بالتشديد ،

والباقون : بالفتح والسكونِ والتخفيف مضارعِ لَقِي .

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ : على إضمارِ القولِ، أي : يُقال له : اقرأْ، وهذا القولُ : إمَّا صفةٌ

أو حالٌ كما في الجملةِ قبله .

قوله/ ﴿ كفى بِنَفْسِكَ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ، المشهورُ عند المُعْرِبين : أنَّ "كفى" فعلٌ ماضٍ

، والفاعلُ هو المجرورُ بالباء، وهي فيه مزيدةٌ، ويَدُلُّ عليه أنها حُذِفت ارتفع، كقوله :

3038- ويُخْبرني عن غائبِ المَرْءِ هَدْيُه . . . كَفَى الهَدْيُ عَمَّا غَيَّبَ المَرْءُ مُخْبِرا

وقولِ الآخر :

3039- . . . . كَفَى

الشيبُ والإِسلامُ للمرءِ ناهيا

وعلى هذا فكان ينبغي أن يُؤَنَّثَ الفعلُ لتأنيث فاعِله، وإن كان مجروراً كقوله : ﴿ مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ ﴾ [الأنبياء : 6] و ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ ﴾ [الأنعام : 4] . وقد

يقال : إنه جاء على أحد الجائزين فإن التأنيثَ مجازيٌّ . والثاني : أنَّ الفاعلَ/ ضميرُ

المخاطبِ، و "كفى" على هذا اسمُ فعلٍ أمرٍ، أي : اكْفِ، وهو ضعيفٌ لقَبولِ "كفى"

علاماتِ الأفعالِ . الثالث : أنَّ فاعلَ " كَفَى " ضميرٌ يعودُ على الاكتفاء ، وقد تقدَّم الكلامُ على هذا مستوفى . و " اليومَ " نصبٌ ب " كفى " .

(238/451)

قوله : " حَسِيْبا " فيه وجهان ، أحدُهما : أنه تمييزٌ . قال الزمخشري : " وهو بمعنى حاسِب ، كضَرِيْب القِداح بمعنى ضاربها ، وصَرِيْم بمعنى صارِم ، ذكرهما سيبويه ، و " على " متعلقةٌ به مِنْ قولك : حَسِب عيله كذا ، ويجوز أن يكونَ بمعنى الكافي ووُضِع موضعَ الشهيد ، فعُدِّي ب " على " لأنَّ الشاهدَ يكفي المُدَّعي ما أهمَّه . فإن قلت : لِمَ ذَكَّرَ " حسيباً " ؟ قلت : لأنَّه بمنزلِةِ الشاهدِ والقاضي والأمين ، وهذه الأمور يَتَوَلاَّها الرجالُ فكأنَّه قيل : كفى بنفسِك رجلاً حسيباً ، ويجوز أَنْ تُتَأَوَّلَ النفسُ بمعنى الشخصِ ، كما يقال : ثلاثة أنفس " . قلت : ومنه قولُ الشاعر :

3040- ثلاثةُ أنفسٍ وثلاثُ ذَوْدٍ . . . لقد جارَ الزمانُ على عيالي

والثاني : أنه منصوبٌ على الحالِ ، وذُكِرَ لما تقدَّم . وقيل : حَسِيب بمعنى مُحاسِب كخَلِيط وجَلِيس بمعنى : مُخالِط ومُجالس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 325.321﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

جعل الليلَ والنهارَ علامةً على كمال قدرته ، ودلالةً على وجوب وحدانيته ؛ في تعاقبهما وتناوبهما ، وفي زيادتهما ونقصانهما .

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته ؛ فالعبادةُ شرطُها الدوامُ والاتصال ، والوظائف حقُّها التوفيق والاختصاص .

ولو وقع في بعض العبادات تقصيرٌ أو حَصَلَ في أداءِ بعضِها تأخيرٌ تَدَارَكَه بالقضاءِ حتى يَتَلافَى التقصير .

ويقال من وجوه الآيات في الليل والنهار إفرادُ النهار بالضياء من غير سبب ، وتخصيصُ الليل بالظلام بغير أمرٍ مكتسب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ : وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقه ، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة ، بل هو في كل ليلة في منزل آخر ، إما بزيادة أو بنقصان .

وأمّا الشمس فحالها الدوام . . والناس كذلك أوصافهم ؛ فأربابُ التمكين الدوامُ شرطُهم ، وأصحابُ التلوينِ التنقل حقُّهم ، قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً . . . تتحير الألبابُ دون نزوله .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) ﴾

ألزم كلَّ أحدٍ ما لَبِسَ بجيدِه . فالذين هم أهلُ السعادة أسرج لهم مركبَ التوفيقَ ، فيسير بهم إلى ساحات النجاة ، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مَطِيَّةَ الخذلان فأَقْعَدَتْهم عن النهوض نحو منهج الخلاص ، فوقعوا في وَهْدَةِ الهلاك .

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) ﴾

(240/451)

مَنْ ساعَدَتْه العنايةُ الأزليةُ حِفظَ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه ، ومَنْ أبلاه بحُكْمِه ردَّه وأهمَلَه ، ثم تركه وعَمَلَه ، فإذا استوفى أَجَلَه عرف ما ضيّعَه وأهمله ، ويومئذ يُحْكُمِه في حالِ نفسه ، وهو لا محالةَ يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله . . . فكم من حسرةٍ يتجرّعُها ، وكم من خيبةٍ يتلقّاها !

ويقال مَنْ حَاسَبَه بكتابه فكتابةُ مُلازِمُه في حسابه فيقول : ربِّ : لا تحاسبني بكتابي . .

ولكن حاسِبْنِي بما قلتَ: إنَّكَ غافرُ الذنّبِ وقابلُ التوبِ. . لا تعاملني بمقتضى كتابي:

ففيه بواري وهلاكي. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 339.

340﴾

(241/451)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان:

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

10. وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة

لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا

الإسراء: 12

بقلم: د. زغلول النجار

في هذه الآية الكريمة يذكرنا ربنا تبارك وتعالي بأنه قد جعل الليل والنهار آيتين من آياته

الكونية المبهرة التي تدل علي طلاقة قدرته , وبالغ حكمته , وبديع صنعه في خلقه , فاختلاف هيئة كل من الليل والنهار في الظلمة والنور , وتعاقبهما علي وتيرة رتيبة منتظمة ليدل دلالة قاطعة علي أن لهما خالقا قادرا عليما حكيما . .

والآية في اللغة العلامة والجمع آي , وآيات والآية من كتاب الله جماعة حروف تكون كلمة أو مجموعة كلمات تبني منها الآية لتحمل دلالة معينة .

آراء المفسرين

يذكر عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة أن الله تعالي قد جعل من صفات الليل أنه مظلم , كما جعل من صفات النهار أنه منير , وربما كان ذلك هو آية كل منهما , وهذا الفهم دفع ببعض المفسرين إلي القول بأن من معاني قوله تعالي : فمحونا آية الليل . . أي جعلنا الليل , وهو آية من آيات الله ـ مظلما , وجعلنا من صفاته تلك الظلمة , وأن من معاني قوله تعالي : وجعلنا آية النهار مبصرة أي جعلنا الآية (التي هي النهار) منيرة تعين علي الإبصار فيها , من نحو قول العرب : أبصر النهار إذا أنار وصار بحالة يبصر فيها , ولكن المقابلة بين محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ربما تتحمل من المعاني ما هو فوق ذلك , مما يحتاج إلي توظيف العديد من الحقائق العلمية الحديثة من أجل حسن فهم دلالة تلك المقابلة .

فواضح نص الآية الكريمة أن الله تعالي قد محا آية الليل , وأبقي آية النهار مبصرة

لكي يتيح الفرصة للخلق لابتغاء الفضل منه , والسعي علي كسب الرزق أثناء النهار , وللخلود إلي السكينة والراحة بالليل , وأن في هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير وسيلة ميسرة لتحديد الزمن , ولتأريخ الأحداث , فبدون ذلك التتابع الرتيب لليل والنهار يتلاشي إحساس الإنسان بمرور الزمن , وتتوقف قدرته علي متابعة الأحداث والتأريخ لها , ولذلك يمن علينا ربنا تبارك وتعالي في ختام هذه الآية الكريمة بأنه قد فصل لنا كل شيء في وحيه الخاتم القرآن الكريم الذي ليس من بعده وحي من الله , وليست من بعده أية رسالة ربانية , ولذلك جاء ذلك التفصيل الإلهي تفصيلا دقيقا واضحا لكل أمر من أمور الدين الذي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيه أية ضوابط صحيحة .

آيتا الليل والنهار

الليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق , تشهدان بدقة بناء الكون , وانتظام حركة كل جرم فيه , وإحكام السنن الضابطة له , ومنها تلك السنن الحاكمة لحركات كل من الأرض والشمس , والتي تتضح بجلاء في التبادل المنتظم للفصول المناخية , والتعاقب الرتيب لليل والنهار , وما يصاحب ذلك كله من دقة وإحكام بالغين . . ! !

فنحن نعلم اليوم أن التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير هو من الضرورات اللازمة للحياة علي الأرض , ولاستمرارية وجود تلك الحياة بصورها المختلفة حتي يرث الله تعالي الأرض ومن عليها .

(243/451)

فبهذا التبادل بين الظلام والنور يتم التحكم في درجات الحرارة والرطوبة , وكميات الضوء اللازمة للحياة في مختلف بيئاتها الأرضية , كما يتم التحكم في العديد من الأنشطة والعمليات الحياتية من مثل التنفس , والنتح , والتمثيل الضوئي , والأيض , وغيرها ويتم ضبط التركيب الكيميائي للغلاف الغازي المحيط بالأرض , وضبط صفاته الطبيعية , وتتم دورة المياه بين الأرض والسماء والتي لولاها لفسد كل ماء الأرض كما يتم ضبط حركات كل من الأمواج المختلفة في البحار والمد والجزر , والرياح والسحاب , ونزول المطر بإذن الله , ويتم تفتيت الصخور وتكون التربة بمختلف أنواعها ومنها الصالحة للانبات , وغير الصالحة , وترسب الصخور ومنها القادرة علي خزن كل من الماء والنفط والغاز ومنها غير القادرة علي ذلك , وتركيز مختلف الثروات الأرضية , وغير ذلك من العمليات والظواهر التي بدونها لا يمكن للأرض أن تكون صالحة للحياة .

وتعاقب الليل والنهار علي نصفي الأرض هو كذلك ضروري , لأن جميع صور الحياة الأرضية لا تتحمل مواصلة العمل دون راحة وإلا هلكت , فالإنسان والحيوان والنبات , وغير ذلك من أنماط الحياة البسيطة يحتاج إلي الراحة بالليل لاستعادة النشاط بالنهار أو عكس ذلك بالنسبة لانماط الحياة الليلية فالإنسان . علي سبيل

المثال . يحتاج إلي أن يسكن بالليل فيخلد إلي شيء من الراحة والعبادة والنوم مما يعينه علي استعادة نشاطه البدني والذهني والروحي , وعلي استرجاع راحته النفسية , واستجماع قواه البدنية حتي يتهيأ للعمل في النهار التالي وما يتطلبه ذلك من قيام بواجبات الاستخلاف في الأرض , وقد ثبت بالتجارب العملية والدراسات المختبرية أن أفضل نوم الإنسان هو نومه بالليل , خاصة في ساعات الليل الأولي , وأن إطالة النوم بالنهار ضار بصحته لأنه يؤثر علي نشاط الدورة الدموية تأثيرا سلبيا , ويؤدي إلي شيء من التيبس في العضلات , والتراكم للدهون علي مختلف أجزاء الجسم , وإلي زيادة في الوزن , كما يؤدي إلي شيء من التوتر النفسي والقلق , وربما كان مرد ذلك إلي الحقيقة القرآنية التي مؤداها أن الله تعالي قد جعل الليل لباسا , وجعل النهار معاشا , وإلي الحقيقة الكونية التي مؤداها أن الانكماش

الملحوظ في سمك طبقات الحماية في الغلاف الغازي للأرض ليلا , وتمددها نهارا يؤدي إلي زيادة قدراتها علي حماية الحياة الأرضية بالنهار عنها في الليل حين ترق طبقات الحماية الجوية تلك رقة شديدة قد تسمح لعدد من الأشعات الكونية بالنفاذ إلي الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض , وهي أشعات مهلكة مدمرة لمن يتعرض لها لمدد كافية , ومن هنا كان ذلك الأمر القرآني بالاستخفاء في الليل والظهور في النهار ومن هنا أيضا كان أمره إلي خاتم الأنبياء والمرسلين صلي الله عليه وسلم أن يستعيذ بالله تعالي من شر الليل إذا دخل بظلامه , وأن يلتجئ إلي الله ويعتصم بجنابه من أخطار ذلك فقال عز من قائل :

ومن شر غاسق إذا وقب *[الفلق :3]

فهذا الشر ليس مقصورا علي الظلمة وما يمكن أن يتعرض فيها المرء إلي مخاطر البشر , بل قد يمتد إلي مخاطر الكون التي لا يعلمها إلا الله تعالي .

ثم إن هذا التبادل في اليوم الواحد بين ليل مظلم ونهار منير , يعين الإنسان علي إدراك

حركة الزمن , وتأريخ الأحداث , وتحديد الأوقات بدقة وانضباط ضروريين للقيام بمختلف الأعمال , ولأداء جميع العبادات , وللوفاء بمختلف العهود والحقوق والمعاملات

وغير ذلك من الأنشطة الإنسانية , فلو كان الزمن كله علي نسق واحد من ليل أو نهار ما استقامت الحياة وما استطاع الإنسان أن يميز من حياته ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا , وبالتالي لتوقفت الحياة , ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالي في ختام الآية :

. . لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب . . ولذلك أيضا يمن علينا ربنا وهو تعالي صاحب الفضل والمنة بتبادل الليل والنهار في العديد من آيات القرآن الكريم , ومع إيماننا بذلك , وتسليمنا به يبرز التساؤل في الآية الكريمة التي نحن بصددها رقم 12 من سورة الإسراء عن مدلول آيتي الليل والنهار , وعن كيفية محو آية الليل وإبقاء آية النهار مبصرة؟ . .

محو آية الليل وإبقاء آية النهار مبصرة عند المفسرين :

في شرح معني هذه الآية الكريمة ذكر نفر من المفسرين أن آيتي الليل والنهار نيراهما , فآية الليل هي القمر , وآية النهار هي الشمس , وإذا كان الأمر كذلك فكيف محيت آية الليل , والقمر لا يزال قائما بدورانه حول الأرض ينير ليلها كلما ظهر ؟ , فقد روي عن عبدالله بن عباس رضي الله تبارك وتعالي عنهما أنه قال : كان القمر يضئ كما تضئ الشمس , والقمر آية الليل , والشمس آية النهار , وعلي ذلك فمعني قول الحق تبارك وتعالي : فمحونا آية الليل هو السواد الذي في القمر أي انطفاء جذوته , وأضاف : أن مدلول وجعلنا الليل والنهار آيتين أي ليلا ونهارا , وكذلك خلقهم الله عز وجل .

وتبع ابن عباس في ذلك قتادة (يرحمه الله) الذي قال : كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه , وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة , وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم

.

وفي الكلام إشارة دقيقة إلي الفارق الذي حدده القرآن الكريم

(246/451)

في آيات عديدة بين ضوء الشمس ونور القمر , والذي لم يدركه العلماء إلا متأخرا بأن الأول ينطلق من نجم ملتهب شديد الحرارة , مضئ بذاته بينما الثاني ينتج عن انعكاس أشعة الشمس علي سطح القمر البارد المعتم .

وقال نفر آخر من المفسرين إن آية الليل هي ظلمته , كما أن آية النهار هي نوره ووضاءته , فالله تعالي جعل من الظلام آية لليل , كما جعل من النور آية للنهار , فيعرف كل منهما بأيته , أي بعلامته الدالة عليه , ومن هؤلاء المفسرين ابن جريج (يرحمه الله) الذي نقل عن عبدالله بن كثير (رحمة الله عليه) قوله : آيتا الليل والنهار هما ظلمة الليل , وسرف النهار

.

وهنا يتبادر إلي الذهن السؤال التالي : كيف يستقيم هذا الفهم مع قول الحق (تبارك وتعالي

) : فمحونا آية الليل وظلمة الليل باقية مع بقاء نور النهار ؟ وإذا كانت آية الليل هي ظلمته فكيف محيت تلك الظلمة وهي لاتزال باقية ؟ وعلي الرغم من هذا التعارض فقد أيد عدد من المفسرين المعاصرين هذا الفهم بصورة أو أخري ومنهم صاحب الظلال (يرحمه الله) الذي كتب مانصه . . . والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الذي لايصيبه الخلل مرة واحدة , ولايدركه التعطل مرة واحدة , ولا يني يعمل دائبا بالليل والنهار , فما المحو المقصود هنا وآية الليل باقية كآية النهار ؟ يبدو ـ والله أعلم ـ أن المقصود به ـ ظلمة الليل التي تخفي فيها الأشياء , وتسكن فيها الحركات والأشباح . . , فكأن الليل محو إذا قيس إلي ضوء النهار , وحركة الأحياء فيه والأشياء , وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء (بالنور) الذي يكشف كل شئ فيه للأبصار .

من هذا الاستعراض يتضح اختلاف آراء المفسرين ـ قدامي ومعاصرين ـ في اجتهادهم لفهم دلالة الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها (الآية الثانية عشرة من سورة الإسراء) فمنهم من قال بأن آية النهار هي نوره الوضاء , أو هي الشمس

مصدر ذلك الضياء , بينما آية الليل هي ظلمته , أو هي القمر المتميز بظلمة سطحه الذي لا ينير إلا بسقوط أشعة الشمس عليه , وانعكاسها من ذلك السطح المعتم المظلم , وقد دفع ذلك ببعض المفسرين إلي القول بإحتمال كون القمر في بدء خلقه ملتهبا , شديد الحرارة , مشتعلا , مضيئًا بذاته تماما كالشمس , ثم انطفأت جذوته وخبت , فمحي ضوءه الأصلي , ولم يعد له نور إلا ما يسقط علي سطحه من أشعة الشمس , وهذا الاحتمال لا تدعمه الملاحظات العلمية الدقيقة في صفحه الكون , وفي تاريخ الأرض القديم , فكتلة القمر المقدرة بحوالي 735 مليون مليون مليون طن البالغة حوالي 1/80 من كتلة الأرض لا تمكنه من أن يكون نجما ملتهبا بذاته فالحد الأدني لكتلة الجرم السماوي كي يكون نجما لا تقل عن 8% من كتلة الشمس المقدرة بألفي مليون مليون مليون مليون طن , أي لا يجوز للنجم أن تقل كتلته عن 160 مليون مليون مليون مليون طن وهو أكثر من مائتي ض عف كتلة القمر , ولو افترضنا جدلا امكانية أن يكون القمر نجما لأحرق لهيبه الأرض لقربه منها .(380000 كيلومتر في المتوسط) , ولأدي إلي خلخلة غلافها الغازي , وإلي تبخير مياهها , وإلي تركها جرداء قاحلة لا أثر للحياة فيها علي الإطلاق . . . ! ! !

إضاءة السماء في ظلمة الليل كانت آية الليل , ومحوها هو حجبها عنا .

علي الرغم من الظلام الشامل للكون , والذي لم يدركه الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء منذ مطلع الستينات من القرن العشرين , وعلي الرغم من محدودية الحزام الرقيق الذي يري فيه

نور النهار بسمك ; لايتعدي المائتي كيلو متر فوق مستوي سطح البحر في نصف الكرة الأرضية المواجهة للشمس حتي أن الانسان في انطلاقه من الأرض إلي فسحة الكون في أثناء النهار فإنه يفاجأ بتلك الظلمة الكونية الشاملة التي يري فيها الشمس قرصا أزرق في صفحة حالكة السواد , لايقطع من شدة سوادها إلا أعداد من النقاط المتناثرة , الباهته الضوء التي تحدد مواقع النجوم .

(248/451)

علي الرغم من كل ذلك فإن العلماء قد لاحظوا في سماء الأرض عددا من الظواهر المنيرة في ظلمة الليل الحالك نعرف منها :

(1) ظاهرة توهج الهواء في طبقات الجو العليا

Airglowin the upperatmosphere

وهي عبارة عن نور باهت متغير ينتج عن عدد من التفاعلات الكيميائية في نطاق التأين

Ionosphere

المحيط بالأرض من ارتفاع 90 إلي 1000 كيلومتر فوق مستوي سطح البحر , وهو نطاق مشحون بالإلكترونات مما يساعد علي رجع الموجات الراديوية إلي الأرض .

(2) ظاهرة أنوار مناطق البروج

Zodiacal Lights

وتظهر علي هيئة مخروط من النور الباهت الرقيق الذي يري في جهة الغرب بمجرد غروب الشمس , كما يري في جهة الشرق قبل طلوعها بقليل , وتفسر تلك الأنوار بانعكاس وتشتت ضوء الشمس غير المباشر علي بعض الأجرام الكونية التي تعترض سبيله في أثناء تحركها متباعدة عن الأرض أو مقتربة منها .

(3) ظاهرة أضواء النجوم

Stellar Lights

وتصدر من النجوم في مواقعها المختلفة , ثم تتشتت في المسافات الفاصلة بينها حتي تصل إلي غلاف الأرض الغازي .

(4) ظاهرة أضواء المجرات

Galactic Lights

وتصدر من نجوم مجرة من المجرات القريبة منا , والتي تتشتت أضواؤها في داخل المجرة الواحدة , ثم يعاد تشتتها في المسافات الفاصلة بين المجرات حتي تصل إلي الغلاف الغازي المحيط بالأرض .

(5) ظاهرة الفجر القطبي وأطيافه

Aurora and Auroralspectra

وتعرف هذه الظاهرة أيضا بإسم الأضواء القطبية

Polar Lights

أو بإسم فجر الليل القطبي

Polar Nights Dawn

وهي ظاهرة نورانية تري بالليل في سماء كل من المناطق القطبية وحول القطبية

Polarand Subpolar Regions

وتتركز أساسا في المنطقتين الواقعتين بين كل من قطبي الأرض المغناطيسيتين وخطي العرض المغناطيسيين 67 درجة شمالا ,67 درجة جنوبا , وقد تمتد أحيانا لتشمل مساحات أوسع من ذلك .

وتبدو ظاهرة

الفجر القطبي عادة علي هيئة أنوار زاهية متألقة جميلة , تختلف باختلاف الارتفاع الذي تري عنده (ويغلب عليها اللون الأخضر والأحمر والأبيض المشوب بزرقه والبنفسجي والبرتقالي وهي تتوهج وتخبو (أي تزداد شدة ولمعانا ثم تهدأ) بطريقة دورية كل عدة ثوان (قد تمتد إلي عدة دقائق) , وتتباين ألوان الشفق القطبي في أجزائه المختلفة تباينا كبيرا , وإن تناقصت شدة نورها إلي أعلي بصفة عامة , حيث تتدلي تلك الأنوار من السماء إلي

مستوي قد يصل إلي 80 كيلومترا فوق مستوي سطح البحر , وتمتد أفقيا إلي مئات الكيلومترات لتملأ مساحات شاسعة في صفحة السماء , علي هيئة هالات حلقية أو قوسية متموجة , تكون عددا من الستائر النورانية المطوية المتدلية من السماء , والتي يشبه نورها النور المصاحب لبزوغ الفجر الحقيقي .

ويفسر العلماء حدوث ظاهرة الفجر القطبي بارتطام الأشعة الكونية الأولية بالغلاف الغازي للأرض مما يؤدي إلي تأينه (أي شحنه بالكهرباء) , وإصدار أشعة كونية ثانوية , ثم تصادم الأشعات الكونية (وهي تحمل شحنات كهربية مختلفة) مع بعضها البعض , ومع غيرها من الشحنات الكهربية الموجودة في الغلاف الغازي للأرض مما يؤدي إلي تفريغها , وتوهجها , وتكثر الشحنات الكهربائية في الغلاف الغازي للأرض في كل من أحزمة الإشعاع

Radiation Belts

المعروفة باسم أحزمة فان ألن

Van Allens Belts

والموجودة في داخل نطق التأين المحيطة بالأرض

Ionos phere Zones

وفي نطق التأين ذاتها . والأشعة الكونية الأولية

Primary Cosmic Rays

تملأ فسحة الكون علي هيئة الجسيمات الأولية المكونة للذرات

Elementaryorsubatomic particles

وهي جسيمات متناهية في الدقة , ومشحونة بشحنات كهربائية عالية , وتتحرك

بسرعات تقترب من سرعة الضوء .

وتنطلق الأشعة الكونية الأولية من الشمس , وإن كان أغلبها يصلنا من خارج المجموعة

الشمسية , ولم تكتشف تلك الأشعة

الكونية إلا في سنة 1936 م .

(250/451)

وتتسرب الأشعة الكونية الأولية إلي الأرض عبر قطبيها المغناطيسيين لتصل إلي أحزمة

الإشعاع ونطق التأين في الغلاف الغازي للأرض مما يؤدي إلي تكون الأشعة الكونية الثانوية

Secondary cosmicrays

التي قد يصل بعضها إلي سطح الأرض فيخترق صخورها , أما الأشعة الكونية الأولية فلا

يكاد يصل منها إلي سطح الأرض قدر يمكن قياسه .

والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض ,

والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين ساحبة معها موجات الأشعة الكونية ,

وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي , وحينما تنفذ تلك الأشعة من قطبي الأرض المغناطيسيين فإنها تؤدي إلي زيادة تأين الغلاف الغازي للأرض في منطقتي قطبيها المغناطيسيين , ويؤدي اصطدام الشحنات المختلفة إلي تفريغها من شحناتها الكهربائية , ومن ثم إلي توهج الغلاف الغازي للأرض في كل من المنطقتين القطبيتين في ظاهرة تعرف بظاهرة الوهج القطبي أو الشفق القطبي أو الأضواء القطبية أو فجر الليل القطبي وهي ظاهرة تري بوضوح في ظلمة الليل الحالك حول القطبين المغناطيسيين للأرض , خاصة في أوقات الثورات الشمسية العنيفة حين يتزايد اندفاع الأشعة الكونية الأولية من الشمس , فتصل كميات مضاعفة منها في اتجاه الأرض . ويتزايد الإشعاع في الطبقات العليا من الغلاف الغازي للأرض إلي نسب مهلكة مدمرة خاصة في نطق التأين التي تحتوي علي تركيز عال من البروتونات (الموجبة) والإليكترونات (السالبة) , ويحتبس المجال المغناطيسي للأرض الغالبية العظمي من تلك الإشعاعات , ويوجهها إلي قطبيها المغناطيسيين في حركة لولبية موازية لخطوط المجال المغناطيسي والتي تنحني من القطب الشمالي إلي القطب الجنوبي وبالعكس , وعندما يقترب الجسم المشحون بالكهرباء من جسيمات الأشعة الكونية تلك من أحد قطبي الأرض المغناطيسيين فإنه يرده إلي

الآخر وهكذا تحدد خطوط الحقل المغناطيسي للأرض اتجاهات تحرك الأشعة الكونية وتركزها حول قطبي الأرض المغناطيسيين .

ومن الثابت علميا أن نطق الحماية المتعددة الموجودة في الغلاف الغازي للأرض ومنها نطاق الأوزون , نطق التأين المتعددة , أحزمة الإشعاع , والنطاق المغناطيسي للأرض , لم تكن موجودة في بدء خلق الأرض , ولم تتكون إلا علي مراحل متطاولة من بداية خلق الأرض الابتدائية

Proto-Earth

وعلي ذلك فقد كانت الأشعة الكونية وباقي صور النور المتعددة في صفحة الكون تصل بكميات هائلة إلي المستويات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض ككل , فتؤدي إلي إنارتها وتوهجها ليلا بمثل ظاهرة الشفق القطبي , توهج الهواء , أضواء النجوم , أضواء المجرات وغيرها مما نشاهد اليوم , ولكن بمعدلات أشد وأقوي , وكان هذا التوهج وتلك الإنارة يشملان كل أرجاء الأرض فتنير ليلها إنارة تقضي علي ظلمة الليل .

وبعد تكون نطق الحماية المختلفة للأرض أخذت هذه الظواهر في التضاؤل التدريجي حتي اقتصرت علي بقايا رقيقة جدا وفي مناطق محددة جدا مثل منطقتي قطبي الأرض المغناطيسيين , لتبقي شاهدة علي حقيقة أن ليل الأرض في المراحل الأولي لخلقها كان

يضاء بوهج لا يقل في شدته عن نور الفجر الصادق , وشاهدة علي رحمة الله بنا أن جعل للأرض هذا العدد الهائل من نطق الحماية المتعددة والتي بدونها تستحيل الحياة علي الأرض , وشاهدة علي حاجتنا إلي رحمة الله تعالي ورعايته في كل وقت وفي كل حين من الأخطار المحيطة بنا من كل جانب , وشاهدة علي صدق تلك الإشارة القرآنية المعجزة .

وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا .

وهي حقيقة لم يدركها العلم المكتسب إلا في السنوات المتأخرة من القرن العشرين , ولم يكن لأحد من البشر إدراك لها وقت تنزل القرآن الكريم ولا لعدد

من القرون بعد ذلك . . ! !

(252/451)

وانطلاقا من هذه الحقيقة يمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) بتبادل الليل والنهار فيقول (عز من قائل) :

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم

بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

(القصص: 71.73)

وجاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين (92) مرة, منها ثلاثة وسبعون (73) مرة بلفظة الليل, ومرة واحدة بلفظة ليل, وثماني (8) مرات بلفظة ليلة, وخمسة (5) مرات بلفظة ليلا, وثلاث (3) مرات بلفظة ليال, ومرة واحدة بكل من اللفظين ليلها وليالي .

كذلك ورد ذكر النهار في القرآن الكريم سبعا وخمسين (57) مرة, منها أربعة وخمسون (54) مرة بلفظ النهار, وثلاث (3) مرات بلفظ نهارا, كما وردت ألفاظ الصبح, و الإصباح و الفلق ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أخري كثيرة, كذلك وردت كلمة اليوم أحيانا بمعني النهار .

ونعمة الله تعالي علي أهل الأرض جميعا بمحو إنارة الليل, وإبقاء إنارة النهار نعمة ما بعدها نعمة, لأنه لولا ذلك ما استقامت الحياة علي الأرض, ولا استطاع الانسان الإحساس بالزمن, ولا التأريخ للأحداث بغير تبادل ظلام الليل مع نور النهار, ولتلاشت الحياة, ومن هنا جاءت إشارة القرآن الكريم إلي تلك الحقيقة سبقا لكافة المعارف الإنسانية .

وإن دل ذلك علي شئ فإنما يدل علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته, وعلي أن هذا النبي الخاتم (صلي الله عليه وسلم) كان

موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , وأنه (عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) ما كان ينطق عن الهوي إن هو إلا وحي يوحي كما وصفه ربنا (تبارك وتعالي) .

(253/451)

وإذا كان صدق القرآن الكريم جليا في إشاراته إلي بعض أشياء الكون وظواهره , فلابد أن يكون صدقه في رسالته الأساسية وهي الدين (بركائزه الأربع : العقيدة , والعبادة , والأخلاق والمعاملات) جليا كذلك . وهنا يتضح جانب من جوانب الإعجاز في كتاب الله , وما أكثر جوانبه المعجزة . هو الإعجاز العلمي , وهو خطاب العصر ومنطقه , وما أحوج الأمة الإسلامية , بل ما أحوج الإنسانية كلها إلي هذا الخطاب في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه , وزمن العولمة الذي تحاول فيه القوي الكبري . علي ضلالها . فرض قيمها الدينية والأخلاقية والإجتماعية المنهارة علي دول العالم الثالث وفي زمرتها الدول الإسلامية , بحد غلبتها العلمية والتقنية , وهيمنتها الاقتصادية والعسكرية , وقد عانت الدول الغربية , ذاتها ولاتزال من الإغراق المادي الذي دمر مجتمعاتها , وأدي إلي تحللها الأسري والاجتماعي والأخلاقي والسلوكي والديني , وإلي ارتفاع معدلات الجريمة ,

والأدمان , والانتحار , وإلي الحيود عن كل قوانين الفطرة السوية التي فطر الله خلقه عليها ,

وإلي العديد من المشاكل والأزمات النفسية والمظالم الاجتماعية والسياسية علي المستويين

المحلي والدولي . . . !

وما أحوج علماء المسلمين إلي إدراك قيمة الآيات الكونية في كتاب الله فيقبلوا عليها تحقيقا علميا منهجيا دقيقا بعد فهم عميق لدلالة اللغة وضوابطها وقواعدها , ولأساليب التعبير فيها , وفهم لأسباب النزول , ومعرفة بالمأثور من تفسير الرسول (صلي الله عليه وسلم) وجهود السابقين من المفسرين , ثم تقديم ذلك الإعجاز العلمي إلي الناس كافة. مسلمين وغير مسلمين . مما يعد دليلا ماديا ملموسا علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وعلي أن سيدنا ونبينا محمدا (صلي الله عليه وسلم) هو خاتم أنبيائه ورسله , في غير تكلف ولا اعتساف ,

لأن القرآن الكريم غني عن ذلك , وهو أعز علينا وأكرم من أن نتكلف له .

وهذا المنهج في الاهتمام بالآيات الكونية في كتاب الله , وشرح الإشارات العلمية فيها من قبل المتخصصين. كل في حقل تخصصه. هو من أكثر وسائل الدعوة إلي دين الله قبولا في زمن

العلم والتقنية الذي نعيشه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية .

بقلم: د . زغلول النجار ﴾ .

(255/451)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والخمسون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/452)

الجزء الثاني والخمسون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من سورة الإسراء

وحتى الآية ﴿ 17 ﴾ من نفس السورة

(4/452)

قوله تعالى ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما مضى ، أنتج قطعاً معنى ما قلنا لبني إسرائيل ﴿ إن أحسنتم ﴾ الآية ، لكل أحد منهم ومن غيرهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ من اهتدى ﴾ فتبع الهدى ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ﴾ لأن ثوابه لا يتعداه ﴿ ومن ضل ﴾ بالإعراض عما أنزلنا من البيان ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ لأن عقابه عليه ، لا يتجاوزه ﴿ ولا تزر وازرة ﴾ أي أي وازرة كانت ﴿ وزر أخرى ﴾ لتخفف عنها ، بل لكل جزاء عمله لا يتعداه إلى غيره ، فنثيب من اهتدى ونعذب من ضل ﴿ وما كنا ﴾ أي على عظمتنا ﴿ معذبين ﴾ أحداً ﴿ حتى نبعث ﴾ أي بعثاً يناسب عظمتنا ﴿ رسولاً ﴾ فمن بلغته دعوته فخالف أمره واستكبر عن اتباعه عذبناه بما يستحقه ، وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام في جميع الأمم كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ [النحل : 36] ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر : 24] فإن دعوتهم إلى الله تعالى قد انتشرت ، وعمت الأقطار واشتهرت ، انظر إلى قول قريش الذين لم يأتهم نبي بعد إسماعيل عليه السلام

(5/452)

﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ [ص : 7] فإنه يفهم أنهم سمعوه في الملة الأولى فمن بلغته دعوة أحد منهم بوجه من الوجوه فقصر في البحث عنها فهو كافر مستحق للعذاب ، فلا تغتر بقول كثير من الناس في نجاة أهل الفترة مع إخبار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن آباءهم الذين مضوا في الجاهلية في النار ، وأن ما يدحرج الجعل خير منهم – إلى غير ذلك من الأخبار ؛ قال الإمام أبو عبد الله الحليمي أحد أجلاء الشافعية وعظماء أئمة الإسلام ـ رضى الله عنهم ـ م في أوائل منهاجه في باب من لم تبلغه الدعوة : وإنما قلنا : إن من كان منهم عاقلاً مميزاً إذا رأى ونظر إلا أنه لا يعتقد ديناً فهو كافر ، لأنه وإن لم يكن سمع دعوة نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلا شك أنه سمع دعوة أحد من الأنبياء الذين كانوا قبله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على كثرتهم ، وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم والذين كفروا بهم وخالفوهم ، فإن الخبر قد يبلغ على لسان المخالف كما يبلغ على لسان الموافق ، وإذا سمع آية دعوة كانت إلى الله فترك أن يستدل بعقله على صحتها وهو من أهل الاستدلال والنظر ، كان بذلك معرضاً عن الدعوة فكفر – والله أعلم ، وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبي ولا عرف أن في العالم من يثبت إلهاً – وما نرى أن ذلك يكون – فإن كان فأمره على الاختلاف – يعني عند من يوجب الإيمان بمجرد العقل ومن لا يوجبه إلا بانضمام النقل .

وما قاله الحليمي نقل نحوه عن الإمام الشافعي نفسه ـ رضى الله عنهم ـ ؛ قال الزركشي في

آخر باب الديات من شرحه على المنهاج : وقد أشار الشافعي إلى عسر قصور – أي عدم بلوغ – الدعوة حيث قال : وما أظن أحداً إلا بلغته الدعوة إلا أن يكون قوم من وراء النهر بكوننا ، وقال الدميري : وقال الشافعي : ولم يبق من لم تبلغه الدعوة .

(6/452)

ولما أشار إلى عذاب المخالفين ، قرر أسبابه وعرف أنها بقدره ، وأن قدره لا يمنع حقوق العذاب ، لبناء الأمر على ما يتعارفه ذوو العقول بينهم فقال تعالى : ﴿ وإذا ﴾ أي فنبعث الرسل بأوامرنا ونواهينا ، وإذا أردنا أن نحيي قرية الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، ألقينا في قلوب أهلها امتثال أوامرنا والتقيد باتباع رسلنا ، وإذا ﴿ أردنا ﴾ وإرادتنا لا تكون إلا عظيمة جداً ﴿ أن نهلك ﴾ أي بعظمتنا ﴿ قرية ﴾ في الزمن المستقبل ﴿ أمرنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر أحد على مخالفتها ﴿ مترفيها ﴾ الذين لهم الأمر والنهي بالفسق ، أي استدرجناهم بإدرار النعم ودفع النقم على ما يعملون من المعاصي ، الذي كان – بكونه سبباً لبطرهم ومخالفتهم – كالأمر بالفسق ﴿ ففسقوا فيها ﴾ بعد ما أزال الرسول معاذيرهم بتبليغ الرسالة كما قال تعالى

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ [الأنعام : 44] – أي على ألسنة الرسل – ﴿ فتحنا عليهم

أبواب كل شيء ﴾ [الأنعام : 44] الآية ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ [الأنعام : 123] وخص المترفين لأن غيرهم لهم تبع ، ولأنهم أحق الناس بالشكر وأولى بالانتقام عند الكفر ، ويجوز أن يكون : أمرناهم بأوامرنا ففسقوا فيها ، أي الأوامر بالطاعات التي يعلم قطعاً أن أوامرنا تكون بها ولا تكون بغيرها ، لأنا لا نأمر بالفحشاء ، وقد جرت العادة بأن المترف عسر الانقياد ، لا تكاد تسمح نفسه بأن يصير تابعاً بعدما كان متبوعاً ، فعصوا فتبعهم غيرهم لأن الأصاغر تبع للأكابر فأطبقوا على المعصية فأهلكناهم ، وقرأ يعقوب : آمرنا - بمد الهمزة بمعنى كثرنا ، من آمرت الشيء وأمرته فأمر - إذا كثرته ، وفي الحديث " خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة " أي كثيرة النتاج ؛ وروى البخاري في التفسير عن عبد الله بن مسعود . رضى الله عنهم . قال : كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية : آمر بنو فلان .

(7/452)

والكثرة راجعة إلى الأمر الذي هو ضد النهي ، فإنه نتيجة العز الذي هو لازم الكثرة ، ويجوز أن يكون من المؤامرة ، أي أمرناهم بأوامرنا فما امتثلوا وأمرونا بأوامرهم ، أي سألونا ما يريدون فأعطيناهم ذلك استدراجاً فأبطرهم نيل الأماني ففسقوا ﴿ فحق ﴾ أي وجب

وجوباً لا شك في وقوعه ﴿ عليها القول ﴾ الذي توعدناهم به على لسان الرسول بمباشرة البعض للفسق وسكوت الباقين على حسب ما تتعارفونه بينكم في أن من خالف الأمر الواجب للفسق وسكوت الباقين على حسب ما تتعارفونه بينكم في أن من خالف الأمر الواجب عليه استحق العقاب ﴿ فدمرناها ﴾ أي أهلكناها إهلاكاً شديداً بغتة غير مبالين بها فجعلناها كالمدرة المفتتة، وكان أمرها على عظمتنا هيناً ، ولذلك أكد فقال تعالى : ﴿ تدميراً ﴾ .

ولما قرر أن هذا شأنه إذا أراد أن يهلك، أخبر أنه فعل ذلك بمن لا يحصيهم العد من القرون، ولا يحيط بهم الحد من الأمم، لأن الاعتبار بالمشاهد أوقع في القلب وأهول عند النفس، فكأنه قال : كم فعلنا ذلك بالقرى ولم نستعجل في إهلاك قرية منهم ولا أخذناهم من غير إنذار، بل أرسلنا فيهم وأملينا لهم إلى أن كان ما علمناه في الأزل، وجاء الوقت الذي قدرناه، وبلغوا في الذنوب ما يستحقون به الأخذ ، ولقد أهلكنا قوم نوح على هذا السنن، وكانوا أهل الأرض - كما مضت الإشارة إليه ووقع التنبيه عليه، وإهلاكهم كان في إبلاغ أهل الأرض ما أرسلنا به رسلنا من التوحيد لأن ذلك لم يخفف على أحد بعدهم، وعطف على هذا المقدر قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا ﴾ أي بما لنا من العظمة، وبين مدلول "كم" بقوله تعالى : ﴿ من القرون ﴾ على هذا السنن.

ولما كان الإهلاك بعذاب الاستئصال لم يستغرق ما بعده، أدخل الجار فقال تعالى: ﴿ من بعد نوح ﴾ الذي أنتم ذرية من أنجيناه بالحمل معه بذنوبهم أمهلناهم حتى أعذرنا إليهم ثم أخذناهم في مدد متفاوتة، فكان بعضهم أقصر مدة من بعض وبعضهم أنجيناه بعد أن أحطنا به مخايل العذاب، وأما من قبل نوح فالظاهر من عبارة التوراة وسكوت القرآن أنهم لم يكونوا كفاراً، وبه صرح كثير من المفسرين في تفسير ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ [البقرة: 213].

ولما كان ذلك ربما أوجب أن يقال: كيف يعذب الساكت مع إمكان عذره بعجز أو غيره؟ قال دافعاً لذلك تاركاً مظهر العظمة، تلطفاً بهذا النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، في جملة حالية: ﴿ وكفى بربك ﴾ أي المحسن إليك بالعفو عن أمتك وأعقابهم من الاستئصال ﴿ بذنوب عباده ﴾ أي لكونه خلقهم وقدر ما فيهم من جميع الحركات والسكنات ﴿ خبيراً ﴾ من القدم، فهو يعلم السر وأخفى، وأما أنتم فلستم هناك، فكم من إنسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين ثم أسفرت عاقبته عند الامتحان عن أنه من أضل الضالين ﴿ بصيراً ﴾ بها، إذا وقعت لا يخفى عليه شيء منها، وأما أنتم فكم من شخص كنتم ترونه مجتهداً في العبادة، فإذا خلا بارز ربه بالعظائم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 368. 371 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : ﴿ وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] ومعناه : أن كل أحد مختص بعمل نفسه ، عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى أقرب إلى الأفهام وأبعد عن الغلط فقال : ﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله ، ولا يتعدى منه إلى غيره ، ويتأكد هذا بقوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ [النجم : 39 ، 40] قال الكعبي : الآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر ، وأنه غير مجبور على عمل بعينه أصلاً لأن قوله : ﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ إنما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد ، أما المجبور على أحد

الطرفين ، الممنوع من الطرف الثاني فهذا لا يليق به .

المسألة الثانية :

أنه تعالى أعاد تقرير أن كل أحد مختص بأثر عل نفسه بقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ قال الزجاج : يقال وزر يزر فهو وازر ووزر وزرا وزرة ، ومعناه : أثم يأثم إثماً قال : وفي تأويل الآية وجهان : الأول : أن المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره ، وأيضاً غيره لا يؤاخذ بذنبه بل كل أحد مختص بذنب نفسه .

والثاني : أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالإثم ، لأن غيره عمله كما قال الكفار : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : 32] .

واعلم أن الناس تمسكوا بهذه الآية في إثبات أحكام كثيرة .

الحكم الأول :

قال الجبائي في الآية دلالة على أنه تعالى لا يعذب الأطفال بكفر آبائهم ، وإلا لكان الطفل مؤاخذاً بذنب أبيه ، وذلك على خلاف ظاهر هذه الآية .

الحكم الثاني :

روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الميت ليعذب ببكاء أهله " فعائشة طعنت في صحة هذا الخبر ، واحتجت على صحة ذلك الطعن بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ فإن تعذيب الميت بسبب بكاء أهله أخذ للإنسان بجرم غيره ، وذلك خلاف هذه الآية .

الحكم الثالث :

قال القاضي : دلت هذه الآية على أن الوزر والإثم ليس من فعل الله تعالى .

وبيانه من وجوه : أحدها : أنه لو كان كذلك لامتنع أن يؤاخذ العبد به كما لا يؤاخذ بوزر غيره .

وثانيها : أنه كان يجب ارتفاع الوزر أصلاً ، لأن الوازر إنما يصح أن يوصف بذلك إذا كان مختاراً يمكنه التحرز ، ولهذا المعنى لا يوصف الصبي بهذا .

الحكم الرابع :

أن جماعة من قدماء الفقهاء امتنعوا من ضرب الدية على العاقلة ، وقالوا : لأن ذلك يقتضي مؤاخذة الإنسان بسبب فعل الغير ، وذلك على مضادة هذه الآية .

وأجيب عنه بأن المخطىء ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل ، فكيف يصير غيره مؤاخذاً بسبب ذلك الفعل ، بل ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء من الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قال أصحابنا وجوب شكر المنعم لا يثبت بالعقل بل بالسمع ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وجه الاستدلال أن الوجوب لا تتقرر ماهيته إلا بترتيب العقاب على الترك ، ولا عقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية ، فوجب أن لا يتحقق الوجوب قبل الشرع .

ثم أكدوا هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] وبقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ مّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [طه : 134] .

(11/452)

ولقائل أن يقول : هذا الاستدلال ضعيف ، وبيانه من وجهين : الأول : أن نقول : لو لم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي ألبتة ، وهذا باطل فذاك باطل بيان الملازمة من وجوه : أحدها : أنه إذا جاء المشرع وادعى كونه نبياً من عند الله تعالى وأظهر المعجزة ، فهل يجب على المستمع استماع قوله والتأمل في معجزاته أو لا يجب ؟ فإن لم يجب فقد بطل القول بالنبوة .

وإن وجب ، فإما أن يجب بالعقل أو بالشرع فإن وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلي ، وإن وجب بالشرع فهو باطل ، لأن ذلك الشرع إما أن يكون هو ذلك المدعي أو غيره ، والأول باطل لأنه يرجع حاصل الكلام إلى أن ذلك الرجل يقول : الدليل على أنه يجب قبول قولي أني أقول إنه يجب قبول قولي ، وهذا إثبات للشيء بنفسه ، وإن كان ذلك الشارع غيره كان الكلام فيه كما في الأول : ولزم إما الدور أو التسلسل وهما محالان .

وثانيها : أن الشرع إذا جاء وأوجب بعض الأفعال ، وحرم بعضها فلا معنى للإيجاب والتحريم ، إلا أن يقول : لو تركت كذا وفعلت كذا لعاقبتك فنقول : إما أن يجب عليه الاحتراز عن العقاب أو لا يجب ، فلو لم يجب عليه الاحتراز عن العقاب لم يتقرر معنى الوجوب ألبتة ، وهذا باطل فذاك باطل ، وإن وجب عليه الاحتراز عن العقاب ، فإما أن يجب بالعقل أو بالسمع ، فإن وجب بالعقل فهو المقصود ، وإن وجب بالسمع لم يتقرر معنى هذا الوجوب إلا بسبب ترتيب العقاب عليه ، وحينئذ يعود التقسيم الأول ويلزم التسلسل وهو محال .

وثالثها : أن مذهب أهل السنة أنه يجوز من الله تعالى أن يعفو عن العقاب على ترك الواجب وإذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب ، فلم يبق إلا أن يقال : إن ماهية الواجب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب ، وهذا الخوف حاصل بمحض

العقل ، فثبت أن ماهية الوجوب إنما تحصل بسبب هذا الخوف ، وثبت أن هذا الخوف حاصل بمجرد العقل ، فلزم أن يقال : الوجوب حاصل بمحض العقل .

(12/452)

فإن قالوا : ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم ؟

قلنا : إنه تعالى إذا عفا فقد سقط الذم ، فعلى هذا ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل ، فثبت بهذه الوجوه أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه .

وإذا ثبت هذا فنقول : في الآية قولان : الأول : أن نجري الآية على ظاهرها .

ونقول : العقل هو رسول الله إلى الخلق ، بل هو الرسول الذي لولاه لما تقررت رسالة أحد من الأنبياء ، فالعقل هو الرسول الأصلي ، فكان معنى الآية وما كنا معذبين حتى نبعث رسول العقل .

والثاني : أن نخصص عموم الآية فنقول : المراد وما كنا معذبين في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفة وجوبها إلا بالشرع إلا بعد مجيء الشرع ، وتخصيص العموم وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه عند قيام الدلائل ، وقد بينا قيام الدلائل الثلاثة ، على أنا لو

نفينا الوجوب العقلي لزمنا نفي الوجوب الشرعي ، والله أعلم .

واعلم أن الذي نرتضيه ونذهب إليه أن مجرد العقل سبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به ، وترك ما يتضرر به ، أما مجرد العقل لا يدل على أنه يجب على الله تعالى شيء .

وذلك لأنا مجبولون على طلب النفع والاحتراز عن الضرر ، فلا جرم كان العقل وحده كافياً في الوجوب في حقنا والله تعالى منزه عن طلب النفع والهرب من الضرر ، فامتنع أن يحكم العقل عليه بوجوب فعل أو ترك فعل ، والله أعلم .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ في تفسير هذا الأمر قولان :

القول الأول : أن المراد منه الأمر بالفعل ، ثم إن لفظ الآية لا يدل على أنه تعالى بماذا يأمرهم

فقال الأكثرون : معناه أنه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات ، ثم إنهم يخالفون ذلك الأمر

ويفسقون وقال صاحب "الكشاف" : ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون ، إلا أن هذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه ، أن المأمور به إنما حذف لأن قوله ؛ ﴿ فَفَسَقُواْ ﴾ يدل عليه يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ لا يفهم منه ، إلا أن المأمور به قيام أو قراءة فكذا ههنا لما قال : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصاني أو فخالفني فإن هذا لا يفهم منه أني أمرته بالمعصية والمخالفة ؛ لأنا نقول : إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له ، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأموراً بها ، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق ، وهذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصر صاحب "الكشاف" على قوله مع ظهور فساده ، فثبت أن الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عناداً وأقدموا على الفسق .

القول الثاني : في تفسير قوله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي أكثرنا فساقها .

قال الواحدي : العرب تقول أمر القوم إذا كثروا .

وأمرهم الله إذ كثرهم ، وآمرهم أيضاً بالمد ، روى الجرمي عن أبي زيد أمر الله القوم وآمرهم ، أي كثرهم .

(14/452)

واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله صلى الله عليه وسلم : " خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة " والمعنى مهرة قد كثر نسلها يقولون : أمر الله المهرة أي كثر ولدها ومن الناس من أنكر أن يكون أمر بمعنى كثر وقالوا أمر القوم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد أي كثرهم ، وحملوا قوله عليه الصلاة والسلام : " مهر مأمورة " على أن المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة .

وأما المترف : فمعناه في اللغة المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ أي خرجوا عما أمرهم الله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ يريد : استوجبت العذاب ، وهذا كالتفسير لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِى أُمّهَا رَسُولاً ﴾ [القصص : 59] وقوله : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون ﴾ [الأنعام : 131] فلما حكم تعالى في هذه الآيات أنه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله

، فلا جرم ذكر أنه ها هنا يأمرهم فإذا خالفوا الأمر ، فعند ذلك استوجبوا الأهلاك المعبر عنه بقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ وقوله : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أي أهلكناها إهلاك الاستئصال .

والدمار هلاك على سبيل الاستئصال .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه : الأول : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد إيصال الضرر إليهم ابتداء ثم توسل إلى إهلاكهم بهذا الطريق .

(15/452)

الثاني : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد منهم الفسق ، والثالث : أنه تعالى قال : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ بالتعذيب والكفر ، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الإيمان منهم ، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذباً وذلك محال ، والمفضي إلى المحال محال .

قال الكعبي : إن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدىء بالتعذيب والإهلاك لقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] وقوله : ﴿ مَّا يَفْعَلُ

الله بعذابكم إن شكرتم وءامنتم ﴾ [النساء : 147] وقوله : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص : 59] فكل هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يبتدىء بالإضرار ، وأيضاً ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الإسراء : 15] ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض ، فثبت أن الآيات التي تلوناها محكمة ، وكذا الآية التي نحن في تفسيرها ، فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ما قاله الكعبي ، واعلم أن أحسن الناس كلاماً في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة : القفال .

فإنه ذكر فيه وجهين :

الوجه الأول : قال إنه تعالى أخبر أنه لا يعذب أحداً بما يعلمه منه ما لم يعمل به ، أي لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إن أمره عصاه بل يأمره فإذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ معناه : وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالإيمان بي والعمل بشرائع ديني على ما بلغهم عني رسولي ،

ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بإهلاكهم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها ، والحاصل أن المعنى : وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم ، بل أمرنا مترفيها ففسقوا ، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به .

(17/452)

والوجه الثاني : في التأويل أن نقول : وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها لم نعاجلها بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم ، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي ، وإنما خص المترفين بذلك الأمر ، لأن المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب ، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالاً بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق ، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صباً ، ثم قال القفال : وهذان التأويلان راجعان إلى أن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة حتى يعذر إليهم غاية الأعذار الذي يقع منه اليأس من إيمانهم ، كما قال في قوم نوح : ﴿ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 27] وقال : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ من قد آمن ﴾ [هود

: 36] وقال في غيرهم : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يونس : 74]

فأخبر تعالى أولاً أنه لا يظهر العذاب إلا بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثم أخبر ثانياً في هذه الآية أنه إذا بعث الرسول أيضاً فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب ، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ ، فإن بقوا مصرين على الذنوب فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال ، وهذا التأويل الذي ذكره القفال في تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله .

(18/452)

وأجاب الجبائي بأن قال : ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد إهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا ، وذلك لأنه ظلم وهو على الله محال ، بل المراد من الإرادة قرب تلك الحالة فكان التقدير وإذا قرب وقت إهلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل : إذا أراد المريض أن يموت ازدادت أمراضه شدة ، وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة ، وليس المراد أن المريض يريد أن يموت ، والتاجر يريد أن يفتقر وإنما يعنون أنه سيصير كذلك فكذا ههنا .

واعلم أن جميع الوجوه الثلاثة التي ذكرناها في التمسك بهذه الآية ، لا شك أن كلها عدول

عن ظاهر اللفظ ، أما الوجه الثاني والثالث فقد بقي سليماً عن الطعن ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

المشهور عند القراء السبعة : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ بالتخفيف غير ممدودة الألف ، وروي برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس : ﴿ آمَرْنَا ﴾ بالمد ، وعن أبي عمرو ﴿ أَمَّرْنَا ﴾ بالتشديد فالمد على الكثير يقال : أمر القوم بكسر الميم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد ، أي كثرهم الله .

والتشديد على التسليط ، أي سلطنا مترفيها ، ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ فاعلم أن المراد أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ويتمردون فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح .

وهم عاد وثمود وغيرهم ، ثم إنه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطاباً لغيره وردعاً وزجراً للكل فقال : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق ، وثبت أنه قادر على كل الممكنات فكان قادراً على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه .

وأيضاً أنه منزه عن العبث والظلم .

(19/452)

ومجموع هذه الصفات الثلاث أعني العلم التام ، والقدرة الكاملة ، والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لأهل الطاعة .

وخوف عظيم لأهل الكفر والمعصية .

البحث الثاني : قال الفراء : لو ألغيت الباء من قولك ﴿ بربك ﴾ جاز ، وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم .

كقولك : كفاك به .

وأكرم به رجلاً .

وطاب بطعامك طعاماً .

وجاد بثوبك ثوباً ، أما إذا لم يكن مدحاً أو ذماً لم يجز دخولها ، فلا يجوز أن يقال : قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 142.137 ﴾

(20/452)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ مَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾

يعني لما يحصل له من ثواب طاعته .

﴿ ومَن ضلَّ فإنما يضل عليها ﴾ يعني لما يحصل عليه من عقاب معصيته .

﴿ ولا تزر وازِرةٌ وزر أخرى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره .

الثاني : لا يجوز لأحد أن يعصى لمعصية غيره .

الثالث : لا يأثم أحد بإثم غيره .

ويحتمل رابعاً : أن لا يتحمل أحد ذنب غيره ويسقط مأثمه عن فاعله .

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وما كنا معذبين على الشرائع الدينية حتى نبعث رسولاً مبيناً ، وهذا قول من زعم أن العقل تقدم الشرع .

الثاني : وما كنا معذبين على شيء من المعاصي حتى نبعث رسولاً داعياً ، وهذا قول من زعم أن العقل والشرع جاءا معاً .

وفي العذاب وجهان :

أحدهما : عذاب الآخرة . وهو ظاهر قول قتادة .

الثاني : عذاب بالاستئصال في الدنيا ، وهو قول مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها . . ﴾ الآية

في قوله ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه إذا أردنا أن نحكم بهلاك قرية .

والثاني : معناه وإذا أهلكنا قرية ، وقوله ﴿ أردنا ﴾ صلة زائدة كهي في قوله تعالى : ﴿ جداراً يريد أن ينقض ﴾ [الكهف : 77]

الثالث : أنه أراد بهلاك القرية فناء خيارها وبقاء شرارها .

﴿ أمرنا مترفيها ﴾ الذي عليه الأئمة السبعة من القراء أن أمرنا مقصور مخفف ، وفيه وجهان :

أحدهما : أمرنا مترفيها بالطاعة ، لأن الله تعالى لا يأمر إلا بها ، ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أي فعصوا بالمخالفة ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه : بعثنا مستكبريها ، قاله هارون ، وهي في قراءة أبيّ : بعثنا أكابر مجرميها .

وفي قراءة ثانية ﴿ أمّرنا مترفيها ﴾ بتشديد الميم ، ومعناه جعلناهم أمراء مسلطين ، قاله أبو عثمان النهدي .

وفي قراءة ثالثة ﴿ آمَرْنا مُترفيها ﴾ ممدود ، ومعناه أكثرنا عددهم ، من قولهم آمر القوم إذا كثروا ، لأنهم مع الكثرة يحتاجون إلى أمير يأمرهم وينهاهم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " خير المال مهرة أو سُكة مأبورة " أي كثيرة النسل ، وقال لبيد :

إن يغبطوا يهبطوا وإن أَمِروا . . . يوماً يصيروا إلى الإهلاك والنكد

وهذا قول الحسن وقتادة .

وفي ﴿ مترفيها ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها جبار وها ، قاله السن .

الثاني : رؤساؤها ، قاله علي بن عيسى .

الثالث : فساقها ، قاله مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نُوح ﴾ واختلفوا في مدة القرن على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مائة وعشرون سنة ، قاله عبد الله بن أبي أوفى .

الثاني : أنه مائة سنة ، قاله عبد الله بن بُسْر المازني . الثالث : أنه أربعون سنة ، روى ذلك محمد بن سيرين عن النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(22/452)

وقال ابن عطية :

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾

معنى هذه الآية أن كل أحد إنما يحاسب عن نفسه لا عن غيره ، وروي أن سببها أن الوليد بن المغيرة المخزومي قال لأهل مكة : اكفروا بمحمد وإثمكم علي ، فنزلت هذه الآية ، أي إن الوليد لا يحمل إثمكم وإنما إثم كل واحد عليه ، وقالت فرقة نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سلمة بن عبد الأسد ، والإشارة بالضلال إلى الوليد بن المغيرة ، و﴿ وزر ﴾ معاه حمل ، والوزر الثقل ، ومنه وزير السلطان أي يحمل ثقل دولته ، وبهذه الآية نزعت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في الرد على من قال : إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه ، ونكتة ذلك المعنى إنما هي أن التعذيب إنما يعنّ إذا كان البكاء من سنة الميت ، وسببه كما كانت العرب تفعل وقوله ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ قالت فرقة هي الجمهور : هذا في حكم الدنيا ، أي إن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا من بعد الرسالة إليهم والإنذار ، وقالت فرقة : هذا عام في الدنيا والآخرة .

(23/452)

قال القاضي أبو محمد : وتلخيص هذا المعنى : أن مقصد الآية في هذا الموضع الإعلام بعادة الله مع الأمم في الدنيا ، وبهذا يقرب الوعيد من كفار مكة ، ويؤيد ما يجيء بعد من وصفه ما يكون عند إرادته إهلاك قرية ، ومن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون ومع هذا فالظاهر من كتاب الله في غير هذا الموضع ومن النظر أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل ، كقوله تعالى : ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى ﴾ [الملك : 8-9] ، وظاهر ﴿ كلما ﴾ [الملك : 8] الحصر ، وكقوله تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر : 24] ، وأما من جهة النظر فإن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد وبَثِّ المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر يوجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك في مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار ، وهذه الآية أيضاً يعطي احتمال ألفاظها نحو هذا ، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالة وهم أهل الفترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم ، وأما ما روي من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح ولا يقتضيه ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليس دار تكليف ، وقوله ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ الآية ، في مصحف أبي " بعثنا أكابر مجرميها " ، و" القرية " ، المدينة المجتمعة مأخوذ من قريت الماء في الحوض إذا جمعته وليست من قرأ الذي هو مهموز ، وإن

كان فيها جمعاً معنى الجمع ، وقرأ الجمهور " أمَرنا " على صيغة الماضي من أمر ضد نهي ، وقرأ نافع ، وابن كثير في بعض ما روي عنهما ، " آمرنا " بمد الهمزة بمعنى كثرنا ، ورويت عن الحسن ، وهي قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس بخلاف عنه وعن الأعرج ، وقرأ بها ابن إسحاق ، تقول العرب : أمر القوم إذا كثروا ، وآمرهم الله بتعدي الهمزة وقرأ أبو عمرو بخلاف : " أمّرنا " بتشديد الميم

(24/452)

، وهي قراءة أبي عثمان النهدي وأبي العالية وابن عباس ، ورويت عن علي بن أبي طالب ، وقال الطبري ، : القراءة الأولى معناها أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها وهو قول ابن عباس وابن جبير ، والثانية معناها كثرناهم ، والثالثة هي من الإمارة أي ملكناهم على الناس ، قال القاضي أبو محمد : قال أبو علي الفارسي : الجيد في " آمرنا " أن تكون بمعنى كثرنا فتعدي الفعل بلفظه غير متعد كما تقول رجع ورجعته وشترعينه وشترتها فتقول آمر القوم وآمرهم الله أي كثرهم ، قال " وآمرنا " مبالغة في " أمرنا " بالهمزة ، و" أمّرنا " مبالغة فيه بالتضعيف ، ولا وجه لكون " أمّرنا " من الإمارة لأن رياستهم لا تكون إلا واحداً بعد واحد والإهلاك إنما يكون في مدة واحد منهم .

قال القاضي أبو محمد : وينفصل عن هذا الذي قاله أبو علي بأن الأمر وإن كان يعم المترف وغيره فخص المترف بالذكر إذ فسقه هو المؤثر في فساد القرية وهم عظم الضلالة ، وسواهم تبع لهم وأما " أمّرنا " من الإمارة فمتوجه على وجهين ، أحدهما أن لا يريد إمارة الملك بل كونهم يأمرون ويؤتمر لهم ، فإن العرب تقول لمن يأمر الإنسان وإن لم يكن ملكاً هو أميره ، ومنه قول الأعشى : [المتقارب]

إذا كان هادي الفتى في البلاد . . . صدر القناة أطاع الأميرا

ومنه قول معاوية لعمر رضي الله عنه حين أمره بالاستقادة من لطمة عمرو بن العاص ، إن علي أميراً لا أقطع أمراً دونه ، أراد معاوية رضي الله عنه أباه وأراد الأعشى أنه إذا شاخ الإنسان وعمي واهتدى بالعصا أطاع كل من يأمره ، ومنه قول الآخر : [الكامل]

والناس يلحون الأمير إذ هم . . . خطئوا الصواب ولا يلام المرشد

وأيضاً فلو أراد إمارة الملك في الآية لحسن المعنى ، لأن الأمة إذا ملك الله عليها مترفاً ففسق ثم ولي مثله بعده ، ثم كذلك عظم الفساد وتوالى الكفر واستحقوا العذاب فنزل بهم على الرجل الأخير من ملوكهم ، وقرأ الحسن ويحيى بن عمر " أمِرنا " بكسر الميم وحكاها

النحاس عن ابن عباس ، ولا أتحقق وجهاً لهذه القراءة إلا إن كان أمر القوم يتعدى بلفظه ، فإن العرب تقول آمر بنو فلان إذا كثروا ، ومنه قول لبيد :

إن يغبُطوا يهبطوا وإن أمروا . . . يوماً يصيروا للقل والنفد

ومنه : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، ورد القراء هذه القراءة ، وقد حكي أمر متعدياً عن أبي زيد الأنصاري ، و" المترف " الغني من المال المتنعم ، والترفة النعمة ، وفي مصحف أبي بن كعب : " قرية بعثنا أكابر مجرميها فمكروا فيها " ، وقوله ﴿ فحق عليها القول ﴾ أي وعيد الله لها الذي قاله رسولهم ، والتدمير الإهلاك ، مع طمس الآثار وهدم البناء ، ومنه قول الفرزدق : [المتقارب]

وكان لهمْ ككبرِ ثمود لمّا . . . رغا دهراً فدمرهم دمارا

(26/452)

وقوله ﴿ وكم أهلكنا ﴾ الآية ﴿ كم ﴾ في موضع نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ وهذا الذكر لكثرة من أهلك الله ﴿ من القرون ﴾ مثال لقريش ووعيد ، أي لستم ببعيد مما حصلوا فيه من العذاب إذا أنتم كذبتم نبيكم ، واختلف الناس في القرن ، فقال ابن سيرين : عن النبي عليه السلام أربعون ، وقيل غير هذا مما هو قريب منه ، وقال عبد الله بن أبي أوفى القرن

مائة وعشرون سنة ، وقالت طائفة القرن مائة سنة ، وهذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله عليه السلام " خير الناس قرني " ، وروى محمد بن القاسم في ختنه عبد الله بن يسر ، قال وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسي ، وقال سيعيش هذا الغلام قرناً قلت : كم القرن ؟ قال مائة سنة ، قال محمد بن القاسم ، فما زلنا نعد له حتى أكمل مائة سنة ومات رحمه الله ، والباء في قوله ﴿ بربك ﴾ زائدة التقدير وكفى بربك ، وهذه الباء إنما تجيء في الأغلب في مدح أو ذم وكأنها تعطي معنى اكتف بربك أي ما أكفاه في هذا ، وقد تجيء ﴿ كفى ﴾ دون باء كقول الشاعر : [الطويل]

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا . . . وكقول الآخر : [الطويل]

ويخبرني عن غائب الأمر هديه . . . كفى الهدي عما غيب المرء مخبرا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(27/452)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾

أي : له ثواب اهتدائه ، وعليه عقاب ضلاله .

قوله تعالى: ﴿ ولا تزرُ وازرةٌ ﴾ أي: نفس وازرة ﴿ وزر أخرى ﴾ قال ابن عباس: إِن الوليد بن المغيرة قال: اتبَّعوني وأنا أحمل أوزاركم، فقال الله تعالى: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾، قال أبو عبيدة: والمعنى: ولا تأْثمُ آثِمَة إِثم أخرى.

قال الزجاج: يقال: وزر، يَزِرُ، فهو وازِر، وَزراً، ووِزراً، ووِزْرَةً، ومعناه: أَثِم إِثماً.

وفي تأويل هذه الآية وجهان.

أحدهما: أن الآثم لا يؤخذ بذنب غيره.

والثاني: أنه لا ينبغي أن يعمل الإِنسان بالإِثم، لأن غيرَه عَمِلَه كما قال الكفار: ﴿ إِنّا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف: 22].

ومعنى ﴿ حتى نبعثَ رسولاً ﴾ أي: حتى نُبيِّنَ ما به نعذِّب، وما من أجله نُدخلُ الجنة.

فصل

قال القاضي أبو يعلى: في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلا، وإِنما تجب بالشرع، وهو بعثة الرسل، وأنه لو مات الإِنسان قبل ذلك، لم يقطع عليه بالنار.

قال: وقيل معناه: أنه لا يعذِّب في ما طريقه السمع إِلاَّ بقيام حجة السمع من جهة الرسول، ولهذا قالوا: لو أسلم بعض أهل الحرب في دار الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها، لم يلزمه قضاء شيء منها، لأنها لم تلزمه إِلاَّ بعد قيام حجة السمع، والأصل فيه قصة أهل

قُباء حين استداروا إِلى الكعبة ولم يستأنفوا ، ولو أسلم في دار الإِسلام ولم يعلم بفرض الصلاة ، فالواجب عليه القضاء ، لأنه قد رأى الناس يصلُّون في المساجد بأذان وإِقامة ، وذلك دعاء إِليها .

قوله تعالى : ﴿ وإِذا أردنا أن نُهلك قرية ﴾

في سبب إِرادته لذلك قولان .

أحدهما : ما سبق لهم في قضائه من الشقاء .

والثاني : عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إِياهم .

قوله تعالى : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ قرأ الأكثرون : "أَمرْنَا" مخففة ، على وزن "فَعَلْنا" ، وفيها ثلاثة أقوال .

(28/452)

أحدها : أنه من الأمر ، وفي الكلام إِضمار ، تقديره : أمرنا مترفيها بالطاعة ، ففسقوا ، هذا مذهب سعيد بن جبير .

قال الزجاج : ومثله في الكلام : أمرتك فعصيتني ، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر .

والثاني : "كثَّرنا" يقال : أمرت الشيء وآمرته ، أي : كثَّرته ، ومنه قولهم : مُهرَةٌ مأمورةٌ ، أي

: كثيرة النِّتاج، يقال: أَمِر بنو فلان يأمَرون أمراً: إِذا كثروا، هذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة.

والثالث: أن معنى "أَمَرْنَا": أمَّرْنا، يقال: أَمرت الرجل، بمعنى: أمَّرته، والمعنى: سلَّطنا مترفيها بالإِمارة، ذكره ابن الأنباري.

وروى خارجة عن نافع: "آمرنا" ممدودة، مثل "آمنّا"، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وأبي رزين، والحسن، والضحاك، ويعقوب.

قال ابن قتيبة: وهي اللغة العالية المشهورة، ومعناه: كثَّرنا، أيضاً.

وروى ابن مجاهد أن أبا عمرو قرأ: "أَمَّرْنَا" مشددة الميم، وهي رواية أبان عن عاصم، وهي قراءة أبي العالية، والنخعي والجحدري.

قال ابن قتيبة: المعنى: جعلناهم أُمراءَ.

وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: "أَمِرْنا" بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة.

فأما المترَفون، فهم المتنعّمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسَعة العيش، والمفسرون يقولون: هم الجبَّارون والمسلَّطون والملوك، وإِنما خص المترَفين بالذكر، لأنهم الرؤساء، ومَن عداهم تبع لهم.

قوله تعالى: ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أي: تمردوا في كفرهم، لأن الفسق في الكفر: الخروج إِلى

أفحشه .

وقد شرحنا معنى "الفسق" في [البقرة : 26 ، 197] .

قوله تعالى : ﴿ فحق عليها القول ﴾ قال مقاتل : وجب عليها العذاب .

وقد ذكرنا معنى "التدمير" في [الأعراف : 137] .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من القرون ﴾ وهو جمع قَرن .

(29/452)

وقد ذكرنا اختلاف الناس فيه في [الأنعام : 6] ، وشرحنا معنى "الخبير" و"البصير" في (البقرة) .

قال مقاتل : وهذه الآية تخويف لأهل مكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(30/452)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾

أي إنما كلّ أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره ؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلّ فعقاب كفره عليه .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ تقدّم في الأنعام .

وقال ابن عباس : نزلت في الوليد بن المغيرة ، قال لأهل مكة : اتبعوني واكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم ، فنزلت هذه الآية ؛ أي إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه .

يقال : وَزَرَ يزِر وَزْرا ووِزْرَة ، أي أَثِم .

والوِزر : الثِّقْل المثقِل والجمع أوزار ؛ ومنه ﴿ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] أي أثقال ذنوبهم .

وقد وَزَرَ إذا حَمَل فهو وازر ؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثِقْل دولته .

والهاء في قوله كناية عن النفس ، أي لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، حتى أن الوالدة تَلْقي ولدها يوم القيامة فتقول : يا بني ألم يكن حجري لك وِطاء ، ألم يكن ثديي لك سِقاء ، ألم يكن بطني لك وعاء ، ! فيقول : بلى يا أُمّه فتقول : يا بني فإن ذنوبي أثقلتني فاحمل عني منها ذنباً واحدا فيقول : إليك عني يا أمّه ! فإني بذنبي عنكِ اليوم مشغول .

مسألة نزعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الردّ على ابن عمر حيث قال : إن الميت ليعَذَّبُ ببكاء أهله .

قال علماؤنا : وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه ، وأنه معارض للآية .

ولا وجه لإنكارها ، فإن الرواة لهذا المعنى كثير ؛ كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلة بنت مخرمة ، وهم جازمون بالرواية ؛ فلا وجه لتخطئتهم .

ولا معارَضة بين الآية والحديث ؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصيّة الميت وسنته ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طَرَفة :

إذا مِتّ فانعيني بما أنا أهله . . .

وشُقّي عليّ الجيب يا بنت مَعْبَدِ

وقال :

إلى الحَوْل ثم اسم السلام عليكما . . .

(31/452)

ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

وإلى هذا نحا البخاري .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث ، وأنه إنما يعذَّب بنَوْحِهم ؛ لأنه أهمل نهيهَم عنه قبل موته وتأديبَهم بذلك ، فيعذَّب بتفريطه في ذلك ؛ وبترك ما أمره الله به من قوله : ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] لا بذنب غيره ،

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ أي لم نترك الخلق سُدًى ، بل أرسلنا الرسل .

وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبّح ويحسّن ويبيح ويحظر .

وقد تقدّم في البقرة القول فيه .

والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا ؛ أي أن الله لا يهلك أمة بعذابٍ إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار .

وقالت فرقة : هذا عام في الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى :

﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا ﴾ [الملك : 8]

قال ابن عطية : والذي يعطيه النظر أن بعثه آدم عليه السلام بالتوحيد وبَثّ المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد غرق الكفار .

وهذه الآية أيضاً يعطي احتمال ألفاظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة ، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدّر وجودَهم بعضُ أهل العلم .

وأما ما روي من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح ، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف .

(32/452)

قال المهدوِيّ : وروي عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولاً إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم ؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا ، وتلا الآية ؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة ، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف ، وسيأتي مرفوعاً في آخر سورة طه إن شاء الله تعالى ؛ ولا يصح وقد استدلّ قوم في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى ؛ وهذا صحيح ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل ، والله أعلم .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى أخبر الله تعالى في الآية التي قبل أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل ، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل ، ولكنه وعد منه ، ولا خلف في وعده .

فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمر مترفيها بالفِسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير.

يعلمك أن من هلك فإنّما هلك بإرادته، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى.

الثانية قوله تعالى: ﴿ أَمَرْنَا ﴾ قرأ أبو عثمان النَّهْدِيّ وأبو رَجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن "أمَّرْنا" بالتشديد، وهي قراءة عليّ رضي الله عنه؛ أي سلّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم.

وقال أبو عثمان النهدِيّ "أمّرنا" بتشديد الميم، جعلناهم أمراء مسلَّطين؛ وقاله ابن عَزيز. وتأمّر عليهم تسلط عليهم.

وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كَثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما "آمرنا" بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائِيّ.

وقال أبو عبيدة : آمرته بالمد وأمرته ، لغتان بمعنى كثّرته ؛ ومنه الحديث : " خير المال مُهْرَةٌ مأمُورة أو سِكّة مأبورة " أي كثيرة النِّتاج والنَّسل .

وكذلك قال ابن عزيز : آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد ؛ أي أكثرنا .

وعن الحسن أيضاً ويحيى بن يَعْمَر "أمِرنا" بالقصر وكسر الميم على فَعِلنا ، ورويت عن ابن عباس .

قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا ؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد ، وأنكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد ؛ قال وأصلها "أأمرنا" فخفف ، حكاه المهدويّ .

وفي الصحاح : وقال أبو الحسن أَمِر مالُه (بالكسر) أي كثُره .

وأَمر القوم أي كثروا ؛ قال الشاعر :

أَمِرون لا يرثون سَهْمَ القُعْدُدِ . . .

وآمر الله ماله (بالمد) .

الثعلبي : ويقال للشيء الكثير أَمِرٌ ، والفعل منه : أَمِرَ القومُ يأمَرون أمراً إذا كثروا .

قال ابن مسعود : كنا نقول في الجاهلية للحيّ إذا كثروا : أَمِر أمْرُ بني فلان ؛ قال لَبيد :

كلُّ بني حُرَّةٍ مَصيرُهمُ . . .

قُلٌّ وإن أكثَرتْ من العددِ

إن يُغْبَطوا يَهْبِطوا وإن أَمِرُوا . . .

يوماً يصيروا للهُلْكِ والنّكَدِ

قلت : وفي حديث هِرَقل الحديث الصحيح : "لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبشة ، ليخافه ملك بني الأصفر" أي كثر .

وكله غير متعدّ ولذلك أنكره الكسائي ، والله أعلم .

قال المهدوِي : ومن قرأ "أَمِر" فهي لغة ، ووجه تعدية "أَمِر" أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقربَ شيء إلى العمارة ، فعدّى كما عدّى عمر .

الباقون "أَمَرْنا" من الأمر ؛ أي أمرناهم بالطاعة إعذاراً وإنذاراً وتخويفاً ووعيداً .

﴿ فَفَسَقُواْ ﴾ أي فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا .

﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَولُ ﴾ فوجب عليها الوعيد ؛ عن ابن عباس .

وقيل : "أَمَرْنا" جعلناهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور ، أي غير مؤمر .

وقيل : معناه بعثنا مستكبريها .

(34/452)

قال هارون : وهي قراءة أُبَيٍّ "بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا" ذكره الماوَرْدِيّ .

وحكى النحاس : وقال هارون في قراءة أُبَيٍّ "وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر

مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول" .

ويجوز أن يكون "أمرنا" بمعنى أكثرنا ؛ ومنه "خير المال مُهْرَةٌ مأمورة" على ما تقدّم .

وقال قوم : مأمورة اتباع لمأبورة ؛ كالغدايا والعشايا .

وكقوله : "إِرْجِعن مأزورات غير مأجورات" .

وعلى هذا لا يقال : أَمَرهم الله ، بمعنى كثرهم ، بل يقال : آمره وأمره .

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة .

قال أبو عبيد : وإنما اخترنا "أمرنا" لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإِمارة والكثرة .

والمُتْرَف : المنعّم ؛ وخُصّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا ﴾ أي استأصلناها بالهلاك .

﴿ تَدْمِيراً ﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم .

وفي الصحيح من حديث " زينب بنت جَحْش زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فَزِعا مُحْمَرًّا وجهه يقول : لا إله إلا الله ويْلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها .

قالت : فقلت يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كَثُر الخبث" وقد

تقدّم الكلام في هذا الباب ، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تُغيّر كانت سبباً لهلاك الجميع ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾

أي كم من قوم كفروا حلّ بهم البَوار .

يخوّف كفّار مكة ؛ وقد تقدّم القول في القرن في أوّل سورة الأنعام ، والحمد لله .

﴿ وكفى بِرَبّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً ﴾ "خبيراً" عليماً بهم .

"بَصِيراً" يُبصر أعمالهم ؛ وقد تقدّم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(35/452)

وقال ابن كثير :

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أي : عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه .

ثم قال : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي : لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جانٍ إلا

على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ [فاطر: 18].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: 13]، وقوله [تعالى] ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: 25]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئًا. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

(36/452)

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: 8، 9]، وكذا قوله [تعالى]: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: 71]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر : 37]

(37/452)

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت مقحمة في صحيح البخاري عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : 56] .

حدثنا عبيد الله بن سعد ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن صالح بن كَيْسَان ، عن الأعرج بإسناده إلى أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "اختصمت الجنة والنار" فذكر الحديث إلى أن قال : "وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحدًا ، وأنه ينشئ للنار خلقًا فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ؟ ثلاثا ، وذكر تمام الحديث (1) .

فإن هذا إنما جاء في الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل ، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا : لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

"تحاجت الجنة والنار" فذكر الحديث إلى أن قال: "فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط، قط، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فينشئ الله لها خلقًا" (2).

بقي ها هنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى، فيها قديمًا وحديثًا وهي: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفَتْرة ولم تبلغه الدعوة. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا ذاكرها لك بعون الله [تعالى] وتوفيقه ثم نذكر فصلا ملخصًا من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

فالحديث الأول: عن الأسود بن سَرِيع:

---

(1) صحيح البخاري برقم (7449)

(2) صحيح البخاري برقم (4850) وصحيح مسلم برقم (2846).

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع [رضي الله عنه] أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل

هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الأصم فيقول : رب ، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا ، وأما الأحمق فيقول : رب ، قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر ، وأما الهَرَمُ فيقول : رب ، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا ،

(39/452)

وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ، ما أتاني لك رسول . فيأخذ مواثيقهم لِيُطِعنّه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا" (1) .

وبالإسناد عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي رافع ، عن أبى هريرة ، مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره : "من دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا ، ومن لم يدخلها يسحب إليها" (2) .

وكذا رواه إسحاق بن راهويه ، عن معاذ بن هشام ، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد ، من حديث حنبل بن إسحاق ، عن علي بن عبد الله المديني ، به وقال : هذا إسناد صحيح (3) ، وكذا رواه حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعة كلهم يدلي على الله بحجة" فذكر نحوه (4) .

ورواه ابن جرير ، من حديث مَعْمَر ، عن همام ، عن أبي هريرة ، فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (5) .

وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة موقوفاً .

الحديث الثاني : عن أنس بن مالك :

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا الربيع ، عن يزيد بن أبان قال : قلنا لأنس : يا أبا حمزة ، ما تقول في أطفال المشركين ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة هم من خدم أهل الجنة" (6) .

الحديث الثالث : عن أنس أيضاً :

---

(1) المسند (24/4) وقال الهيثمي في المجمع (216/7) : "رجاله رجال الصحيح" .

(2) المسند (24/4) وقال الهيثمي في المجمع (216/7) : "رجاله رجال الصحيح" .

(3) الاعتقاد (ص169) .

(4) رواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (404) من طريق الحسن بن موسى ، عن حماد بن سلمة به .

(5) تفسير الطبري (41/15) .

(6) رواه أبو نعيم في الحلية (308/6) من طريق سفيان الثوري ، عن الربيع بن صبيح به

، وضعفه الحافظ ابن حجر في الفتح (246/3) وله شواهد من حديث أبي سعيد الخدري، وسمرة بن جندب رضي الله عنهما . وكأن في متن الحديث نكاره لمخالفته ما ورد في الصحيحين أولا ، ولأن الله وصف خدم أهل الجنة بالخلود فقال : (ويطوف عليهم ولدان مخلدان) [الإنسان : 19] وسيأتي تضعيف الحافظ ابن كثير له ، والله تعالى أعلم .

قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خَيْثَمَةَ ، حدثنا جرير ، عن لَيْث ، عن عبد الوارث ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يؤتى بأربعة يوم القيامة : بالمولود ، والمعتوه ، ومن مات في الفَتْرَة ، والشيخ الفاني الهرم ، كلهم يتكلم بحجته ، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار : أبرز . ويقول لهم : إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم ، وإني رسول نفسي إليكم ادخلوا هذه . قال : فيقول من كتب عليه الشقاء : يا رب ، أنى ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال : ومن كتبت عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعًا ، قال : فيقول الله تعالى : أنتم لرسلي أشد تكذيبًا ومعصية ، فيدخل هؤلاء الجنة ، وهؤلاء النار" .

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله (1).

الحديث الرابع: عن البراء بن عازب، رضي الله عنه:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضًا: حدثنا قاسم بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله.

- يعني ابن داود - عن عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أطفال المسلمين قال: "هم مع آبائهم". وسئل عن أولاد المشركين فقال: "هم مع آبائهم". فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: "الله أعلم بهم" (2).

ورواه عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره (3).

الحديث الخامس: عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم عظَّم شأن المسألة، قال: "إذا كان يوم القيامة، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولا ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكنا أطوع

عبادك ، فيقول لهم ربهم : أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون : نعم ، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها ، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظًا وزفيرًا ، فرجعوا إلى ربهم فيقولون : ربنا أخرجنا -أو : أجرنا - منها ، فيقول لهم : ألم تزعموا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم . فيقول : اعمدوا إليها ، فادخلوها .

---

(1) مسند أبي يعلى (225/7) ومسند البزار برقم (2177) "كشف الأستار" وليث بن أبي سليم ضعيف ، وعبد الوارث قال عنه البخاري : "منكر الحديث" .

(2) وذكره المؤلف في جامع المسانيد والسنن (87/37) من مسند أبي يعلى ، ولم أقع عليه في المطبوع من المسند .

(3) لم أقع على هذا الطريق ، ولعلي أستدركه فيما بعد - إن شاء الله . وروى الإمام أحمد في مسنده (84/6) من طريق بهية عن عائشة نحوه .

فينطلقون حتى إذا رأوها فَرِقوا ورجعوا ، فقالوا : ربنا فَرِقنا منها ، ولا نستطيع أن ندخلها فيقول : ادخلوها داخرين" . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : "لو دخلوها أول مرة

كانت عليهم بردًا وسلامًا" . ثم قال البزار : ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه ، لم يروه عن أيوب إلا عباد ، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد (1) .

قلت : وقد ذكره ابن حبان في ثقاته ، وقال يحيى بن معين والنسائي : لا بأس به ، ولم يرضه أبو داود . وقال أبو حاتم : شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به .

الحديث السادس : عن أبي سعيد – سعد بن مالك بن سنان الخدري :

قال الإمام محمد بن يحيى الذُّهَلي : حدثنا سعيد بن سليمان ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الهالك في الفترة والمعتوه والمولود : يقول الهالك

(1) مسند البزار برقم (3433) "كشف الأستار" .

في الفترة : لم يأتني كتاب ، ويقول المعتوه : رب ، لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرًا ولا شرًا ، ويقول المولود : رب لم أدرك العقل فترفع لهم نار فيقال لهم : ردوها" ، قال : فيردها من كان في علم الله سعيدًا لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل ، فيقول : إياي عصيتم ، فكيف لو أن رسلي أتتكم ؟" .

وكذا رواه البزار ، عن محمد بن عمر بن هَيَّاج الكوفي ، عن عبيد الله بن موسى ، عن فضيل بن مرزوق ، به (1) ثم قال : لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه ، عن عطية عنه ، وقال في آخره : "فيقول الله : إياي عصيتم فكيف برسلي بالغيب ؟"

الحديث السابع : عن معاذ بن جبل ، رضي الله عنه :

قال هشام بن عَمَّار ومحمد بن المبارك الصوري حدثنا عمر بن واقد ، عن يونس بن حلبس ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن معاذ بن جبل ، عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : "يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيرًا . فيقول الممسوخ : يا رب ، لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد مني - وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك - فيقول الرب عز وجل : إني آمركم بأمر فتطيعوني ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : اذهبوا فادخلوا النار - قال : ولو دخلوها ما ضرّتهم - فتخرج عليهم قوابص ، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، فيرجعون سراعًا ، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك ، فيقول الرب عزّ وجل : قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون ، وعلى علمي خلقتكم ، وإلى علمي تصيرون ، ضميهم ، فتأخذهم النار" (2) .

الحديث الثامن : عن أبي هريرة ، رضي الله عنه :

قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع ، رضي الله عنه :

---

(1) مسند البزار برقم (2176) وقال الهيثمي في المجمع (216/7) "فيه عطية وهو

ضعيف" .

(2) ورواه ابن عدي في الكامل (118/5) من طريق عبد الصمد بن عبد الله ، عن هشام بن عمار ، عن عمرو بن واقد به . وقال بعد أن ساق أحاديث عمرو بن واقد عن يونس : "كلها غير محفوظة إلا من رواية عمرو بن واقد عن يونس ، عن أبي إدريس ، عن معاذ ابن جبل وهو من الشاميين ممن يكتب حديثه ولا يحتج به" .

(44/452)

وفي الصحيحين ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرَانه ويُمَجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟" (1) .

وفي رواية قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيرا ؟ قال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" (2) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت ، عن عطاء بن قُرَّة ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم - فيما أعلم ، شك موسى - قال :

---

(1) صحيح البخاري برقم (1385) وصحيح مسلم برقم (2658) .

(2) الرواية في صحيح مسلم برقم (2658) .

(45/452)

"ذراري المسلمين في الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام " (1) .

وفي صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الله ، عز وجل ، أنه قال : "إني خلقت عبادي حنفاء " (2) وفي رواية لغيره "مسلمين" .

الحديث التاسع : عن سمرة ، رضي الله عنه :

رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه "المستخرج على البخاري" من حديث عوف الأعرابي ، عن أبي رجاء العطاردي ، عن سَمُرَة ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل مولود يولد على الفطرة" فناداه الناس : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال : "وأولاد المشركين" (3) .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مكرم الضَّبِّي ، عن عيسى بن شعيب ، عن عباد بن منصور ، عن أبي رَجَاء ، عن سمرة قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أطفال المشركين فقال : "هم خدم أهل الجنة" (4) .

الحديث العاشر : عن عم حسناء .

قال [الإمام] أحمد : [حدثنا إسحاق ، يعني الأزرق] ، أخبرنا رَوْح ، حدثنا عوف ، عن حسناء بنت معاوية من بني صريم قالت : حدثني عمي قال : قلت : يا رسول الله ، من في الجنة ؟ قال : "النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوئيد في الجنة" (5) .

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة ، لحديث سَمُرَة بن جندب في صحيح البخاري : أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام ، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان ، فقال له جبريل : هذا إبراهيم ، عليه السلام ، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ . قال "نعم ، وأولاد المشركين" (6) .

ومنهم من جزم لهم بالنار ، لقوله عليه السلام : "هم مع آبائهم" .

---

(1) المسند (326/2) وقال الهيثمي في المجمع (219/7) : "فيه عبد الرحمن بن ثابت وثقه ابن المديني وجماعة ، وضعفه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله ثقات" .

(2) صحيح مسلم برقم (2865) .

(3) أصله في صحيح البخاري برقم (7047) من طريق عوف به نحوه .

(4) المعجم الكبير (244/7) وقال الهيثمي في المجمع (219/7) : "وفيه عبادة بن

منصور وثقة يحيى القطان وفيه ضعف" .

(5) المسند (58/5) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (246/3) : "إسناده حسن" .

(6) صحيح البخاري برقم (7047) .

(46/452)

ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العَرَصَات ، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخرًا ، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة .

(47/452)

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها ، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض . وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، رحمه الله ، عن أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في "كتاب الاعتقاد" وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد .

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَري بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان ، ثم قال : وأحاديث هذا الباب ليست قوية ، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها ؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء ، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين ، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ؟ !

والجواب عما قال : أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح ، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء ، ومنها ما هو حسن ، ومنها ما هو ضعيف يقوى بالصحيح والحسن . وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط ، أفادت الحجة عند الناظر فيها ، وأما قوله : "إن الآخرة دار جزاء" . فلا شك أنها دار جزاء ، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار ، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة ، من امتحان الأطفال ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ [ن : 42] وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها : أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة ، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقًا واحدًا كلما أراد السجود خرَّ لقفاه (1) .

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجًا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأل غير ما هو فيه ، ويتكرر ذلك مرارًا ، ويقول الله تعالى : يا ابن آدم ، ما أغدرك ! ثم يأذن له في دخول الجنة (2) .

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (4919) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه.

(2) صحيح البخاري برقم (806) وصحيح مسلم برقم (182) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(48/452)

وأما قوله: "وكيف يكلفهم دخول النار، وليس ذلك في وسعهم؟" فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم، وأيضًا فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه بردًا وسلامًا، فهذا نظير ذلك، وأيضًا فإن الله تعالى [قد] أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضًا حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفًا، يقتل الرجل أباه وأخاه

وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم ، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل ، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور ، والله أعلم .

(49/452)

فصل

فإذا تقرر هذا ، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال :

أحدها : أنهم في الجنة ، واحتجوا بحديث سَمُرَة أنه ، عليه السلام رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم في رواية أحمد عن حسناء عن عمها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "والمولود في الجنة" . وهذا استدلال صحيح ، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه . فمن علم الله [عز وجل] منه أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب ، فأمره إلى الله تعالى ، ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ، ونقله الأشعري عن أهل السنة [والجماعة] ثم من هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة من يجعلهم مستقلين فيها ، ومنهم من يجعلهم خدمًا لهم ، كما جاء في حديث علي بن زيد ، عن أنس ، عند أبي داود الطيالسي وهو ضعيف ، والله أعلم .

القول الثاني : أنهم مع آبائهم في النار ، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب ، حدثني عبد الله بن أبى قيس مولى غُطَيْف ، أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هم تبع لآبائهم" . فقلت : يا رسول الله ، بلا عمل ؟ فقال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" (1) .

وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب ، عن محمد بن زياد الألهاني ، سمعت عبد الله بن أبي قيس سمعت ، عائشة تقول : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذراري المؤمنين قال : "هم من آبائهم" . قلت : فذراري المشركين ؟ قال : "هم مع آبائهم" قلت : بلا عمل ؟ قال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" (2) .

---

(1) المسند (84/6) .

(2) سنن أبي داود برقم (4712) .

(50/452)

ورواه [الإمام] أحمد أيضا ، عن وكيع ، عن أبي عَقِيل يحيى بن المتوكل – وهو متروك – عن مولاته بُهَيَّة عن عائشة ؛ أنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أطفال المشركين فقال : "إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار" (1) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، عن محمد بن فضيل بن غزوان ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان عن علي ، رضي الله عنه ، قال : سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال : "هما في النار" . قال : فلما رأى الكراهية في وجهها [قال] لو رأيت مكانهما لأبغضتهما" . قالت : فولدي منك ؟ قال : [قال : "في الجنة" . قال : ثم قال رسول الله

---

(1) المسند (208/6) .

(51/452)

صلى الله عليه وسلم] .

"إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار" ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ] ﴾ [الطور : 21] (1) .

وهذا حديث غريب ؛ فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال ، وشيخه زاذان لم يدرك عليًا ، والله أعلم .

وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة ، عن أبيه ، عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الوائدة والموءودة في النار" . ثم قال الشعبي : حدثني به علقمة ، عن أبي

وائل، عن ابن مسعود (2) .

وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: أتيت أنا وأخي النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تقري الضيف وتصل الرحم، وأنها وأدت أختاً لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: "الوائدة والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم". وهذا إسناد حسن (3) .

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله صلى الله عليه وسلم: "الله أعلم بما كانوا عاملين". وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين قال: الله أعلم بما كانوا عاملين" (4) وكذلك هو في الصحيحين، من حديث الزهري، عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين" (5) .

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة؛ لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في "سورة الأعراف"، والله أعلم.

---

(1) زوائد المسند (134/1) .

(2) سنن أبي داود برقم (4717) .

(3) أخرجه أحمد في مسنده (3/478) من طريق ابن أبي عدي ، عن داود بن أبي هند به .

(4) صحيح البخاري برقم (1383) وصحيح مسلم برقم (2660) .

(5) صحيح البخاري برقم (1384) وصحيح مسلم برقم (2659)

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفرّاء الحنبلي ، عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة . وهذا هو المشهور بين الناس ، وهو الذي نقطع به إن شاء الله ، عز وجل . فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، عن بعض العلماء : أنهم توقفوا في ذلك ، وأن الولدان كلهم تحت شيئة (10) الله ، عز وجل .

قال أبو عمر : ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث

منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطئه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة انتهى كلامه وهو غريب جدًا.

وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب "التذكرة" (1) نحو ذلك أيضًا، والله أعلم.

وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: "أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم". رواه أحمد مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه (2).

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العُطَاردي، سمعت ابن عباس وهو على

المنبر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يزال أمر هذه الأمة مواتيًا – أو مقاربًا – ما لم يتكلموا في الوِلْدان والقَدَر" .

قال ابن حبان : يعني أطفال المشركين .

وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم ، به (3) . ثم قال : وقد رواه جماعة عن أبي رجاء ، عن ابن عباس موقوفًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 5 صـ 61.52 ﴾

---

(1) التذكرة : (ص511 – 517)

(2) المسند (41/6) وصحيح مسلم برقم (2662) وسنن أبي داود برقم (4713) وسنن النسائي (57/4) وسنن ابن ماجة برقم (82) .

(3) صحيح ابن حبان برقم (1824) "موارد" ، ومسند البزار برقم (2180) "كشف الأستار" .

(54/452)

وقال أبو حيان :

﴿ من اهتدى ﴾ الآية

قالت فرقة : نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سلمة بن عبد الأسود ، وفي الضلال إلى الوليد بن المغيرة .

وقيل : نزلت في الوليد هذا قال : يا أهل مكة اكفروا بمحمد وإثمكم عليّ ، وتقدم تفسير ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ في آخر الأنعام ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ انتفاء التعذيب ببعثة الرسول عليه السلام ، والمعنى حتى يبعث رسولاً فيكذب ولا يؤمن بما جاء به من عند الله ، وانتفاء التعذيب أعم من أن يكون في الدنيا بالهلاك وغيره من العذاب أو في الآخرة بالنار فهو يشملهما ، ويدل على الشمول قوله في الهلاك في الدنيا بعد هذه الآية ﴿ وإذا أردنا ﴾ وفي الآخرة ﴿ فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ وآي كثيرة نص فيها على الهلاك في الدنيا بأنواع من العذاب حين كذبت الرسل .

وقوله في عذاب الآخرة كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ وقالوا : بلى قد جاءنا نذير ، وكلما تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين .

وقوله : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ وذهب الجمهور إلى أن هذا في حكم الدنيا ، أي إن الله لا يهلك أمّة بعذاب إلا من بعد الرسالة إليهم والإنذار .

قال الزمخشري : فإن قلت الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه ، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم ركونهم لذلك الإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا

بعد الإيمان .

قلت : بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا كنا غافلين ، فلولا بعث إلينا رسولاً ينبهنا علي النظر في أدلة العقل انتهى .

وقال مقاتل : المعنى وما كنا مستأصلين في الدنيا لما اقتضته الحكمة الإلهية حتى يبعث رسولاً إقامة للحجة عليهم وقطعاً للعذر عنهم ، كما فعلنا بعاد وثمود والمؤتفكات وغيرها .

(55/452)

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ﴾

لما ذكر تعالى أنه لا يعذب أحداً حتى يبعث إليه رسولاً بين بعد ذلك علة إهلاكهم وهي مخالفة أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتمادي على الفساد .

وقال الزمخشري : ﴿ وإذا أردنا ﴾ وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إهلاكهم إلاّ قليل انتهى .

فتؤول ﴿ أردنا ﴾ على معنى دنا وقت إهلاكهم وذلك على مذهب الاعتزال .

وقرأ الجمهور أمرنا ، وفي هذه القراءة قولان :

أحدهما : وهو الظاهر أنه من الأمر الذي هو ضد النهي ، واختلف في متعلقه فذهب الأكثرون منهم ابن عباس وابن جبير إلى أن التقدير أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا .

وذهب الزمخشري إلى أن التقدير أمرناهم بالفسق ففسقوا ورد على من قال أمرناهم بالطاعة فقال : أي أمرناهم بالفسق ففعلوا ، والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا وهذا لا يكون ، فبقي أن يكون مجازاً ، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خوّلهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية ، وآثروا الفسوق فلما فسقوا حق عليهم القول ، وهي كلمة العذاب فدمرهم .

فإن قلت : هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت : لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه .

وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه وهو كلام مستفيض .

يقال : أمرته فقام وأمرته فقرأ ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ولا يلزم هذا قولهم أمرته فعصاني أو فلم يمتثل أمري لأن ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به ، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به وكأنه يقول : كان مني أمر فلم يكن منه طاعة كما أن من يقول : فلان يعطي ويمنع ويأمر وينهى غير قاصد إلى مفعول .

فإن قلت : هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقسط والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ﴿ ففسقوا ﴾ ؟ قلت : لا يصح ذلك لأن قوله ﴿ ففسقوا ﴾ يدافعه فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدّعي إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه .

ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول : لو شاء لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك ، تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وقلت : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الإساءة فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم يكن على سداد انتهى .

أما ما ارتكبه من المجاز وهو أن ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ صببنا عليهم النعمة صباً فيبعد جداً .

وأما قوله وأقدرهم على الخير والشر إلى آخره فمذهب الاعتزال ، وقوله لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز تعليل لا يصح فيما نحن بسبيله ، بل ثم ما يدل على حذفه .

(57/452)

وقوله فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه إلى قوله علم الغيب ، فنقول : حذف الشيء تارة يكون لدلالة موافقه عليه ، ومنه ما مثل به في قوله أمرته فقام وأمرته فقرأ ، وتارة يكون لدلالة خلافه أو ضده أو نقيضه فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ قالوا : تقديره ما سكن وما تحرك .

وقوله تعالى ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ قالوا : الحر والبرد .

وقول الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضاً . . .

أريد الخير أيهما يليني

أالخير الذي أنا أبتغيه . . .

أم الشر الذي هو يبتغيني

تقديره : أريد الخير وأجتنب الشر ، وتقول : أمرته فلم يحسن فليس المعنى أمرته بعدم الإحسان فلم يحسن ، بل المعنى أمرته بالإحسان فلم يحسن ، وهذه الآية من هذا القبيل يستدل على حذف النقيض بإثبات نقيضه ، ودلالة النقيض على النقيض كدلالة النظير على النظير ، وكذلك أمرته فأساء إليّ ليس المعنى أمرته بالإساءة فأساء إليّ ، إنما يفهم منه أمرته بالإحسان فأساء إليّ .

وقوله ولا يلزم هذا قولهم أمرته فعصاني .

نقول : بل يلزم ، وقوله لأن ذلك مناف أي لأن العصيان مناف وهو كلام صحيح .

وقوله : فكان المأمور به غير مدلول عليه ولا منوي هذا لا يسلم بل هو مدلول عليه ومنوي لا دلالة الموافق بل دلالة المناقض كما بينا .

وأما قوله : لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به هذا أيضاً لا يسلم .

وقوله في جواب السؤال لأن قوله ﴿ ففسقوا ﴾ يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدّعي إضمار خلافه .

قلنا : نعم يدعي إضمار خلافه ودل على ذلك نقيضه .

وقوله : ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف .

قلت : ليس نظيره لأن مفعول أمر لم يستفض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه ، بل لا يكاد

يستعمل مثل شاء محذوفاً مفعوله لدلالة ما بعده عليه ، وأكثر استعماله مثبت المفعول لانتفاء الدلالة على حذفه .

(58/452)

قال تعالى : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ ﴿ أمر أن لا تعبدوا إلا أياه ﴾ ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي به ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة .

وقال الشاعر :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . . .

وقال أبو عبد الله الرازي : ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصاني يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به ، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ، أن كونه معصية ينافي كونها مأموراً بها ، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق .

هذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصرّ صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ما ذكروه ، وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة

والقوم خالفوا ذلك عناداً وأقدموا على الفسق انتهى .

القول الثاني : أن معنى ﴿ أمرنا ﴾ كثرنا أي كثرنا ﴿ مترفيها ﴾ يقال : أمر الله القوم أي كثرهم حكاه أبو حاتم عن أبي زيد .

وقال الواحدي : العرب تقول : أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم انتهى .

وقال أبو علي الفارسي : الجيد في أمرنا أن يكون بمعنى كثرنا ، واستدل أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بما جاء في الحديث : " خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة " أي كثيرة النسل ، يقال : أمر الله المهرة أي كثر ولدها ، ومن أنكر أمر الله القوم بمعنى كثرهم لم يلتفت إليه لثبوت ذلك لغة ويكون من باب ما لزم وعدّي بالحركة المختلفة ، إذ يقال : أمر القوم كثروا وأمرهم الله كثرهم ، وهو من باب المطاوعة أمرهم الله فأمروا كقولك شتر الله عينه فشترت ، وجدع أنفه وثلم سنه فثلمت .

وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر وعكرمة .

﴿ أمرنا ﴾ بكسر الميم ، وحكاها النحاس وصاحب اللوامح عن ابن عباس ، وردّ الفراء هذه القراءة لا يلتفت إليه إذ نقل أنها لغة كفتح الميم ومعناها كثرنا .

حكى أبو حاتم عن أبي زيد يقال : أمر الله ماله وأمره أي كثره بكسر الميم وفتحها .

وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وابن أبي إسحاق ، وأبو رجاء ، وعيسى بن عمر ، وسلام ، وعبد الله بن أبي يزيد ، والكلبي : آمرنا بالمد وجاء كذلك عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وأبي العالية ، وابن هرمز ، وعاصم ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، ونافع ، وهو اختيار يعقوب ومعناه كثرنا .

يقال أمر الله القوم وآمرهم فتعدى بالهمزة .

وقرأ ابن عباس وأبو عثمان النهدي والسدّي وزيد بن عليّ وأبو العالية : ﴿ أمّرنا ﴾ بتشديد الميم وروي ذلك عن عليّ والحسن والباقر وعاصم وأبي عمر وعدي أمر بالتضعيف ، والمعنى أيضاً كثرنا وقد يكون ﴿ أمّرنا ﴾ بالتشديد بمعنى وليناهم وصيرناهم أمراء ، واللازم من ذلك أمر فلان إذا صار أميراً أي ولي الأمر .

وقال أبو عليّ الفارسي : لا وجه لكون ﴿ أمّرنا ﴾ من الإمارة لأن رياستهم لا تكون إلاّ لواحد بعد واحد والإهلاك إنما يكون في مدة واحد منهم ، وما قاله أبو عليّ لا يلزم لأنا لا نسلم أن الأمير هو الملك بل كونه ممن يأمر ويؤتمر به ، والعرب تسمي أميراً من يؤتمر به وإن لم يكن ملكاً .

ولئن سلمنا أنه أريد به الملك فلا يلزم ما قال لأن القرية إذا ملك عليها مترف ثم فسق ثم آخر ففسق ثم كذلك كثر الفساد وتوالى الكفر ونزل بهم على الآخر من ملوكهم ، ورأيت في النوم

أني قرأت وقرئ بحضرتي ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ الآية بتشديد الميم .

فأقول في النوم : ما أفصح هذه القراءة ، والقول الذي حق عليهم هو وعيد الله الذي قاله رسولهم .

وقيل : ﴿ القول ﴾ لأملان وهؤلاء في النار ولا أبالي .

والتدمير الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء .

(60/452)

﴿ وكم ﴾ في موضع نصب على المفعول بأهلكنا أي كثيراً من القرون ﴿ أهلكنا ومن القرون ﴾ بيان لكم وتمييز له كما يميز العدد بالجنس ، والقرون عاد وثمود وغيرهم ويعني بالإهلاك هنا الإهلاك بالعذاب ، وفي ذلك تهديد ووعيد لمشركي مكة وقال : ﴿ من بعد نوح ﴾ ولم يقل من بعد آدم لأن نوحاً أول نبي بالغ قومه في تكذيبه ، وقومه أول من حلت بهم العقوبة بالعظمى وهي الاستئصال بالطوفان .

وتقدّم القول في عمر القرن و﴿ من ﴾ الأولى للتبيين والثانية لابتداء الغاية وتعلقا بأهلكنا لاختلاف معنييهما .

وقال الحوفي : ﴿ من بعد نوح ﴾ من الثانية بدل من الأولى انتهى .

وهذا ليس بجيد .

وقال ابن عطية : هذه الباء يعني في ﴿ وكفى بربك ﴾ إنما تجيء في الأغلب في مدح أو ذم انتهى .

و﴿ بذنوب عباده ﴾ تنبيه على أن الذنوب هي أسباب الهلكة ، و﴿ خبيراً بصيراً ﴾ لتنبيه على أنه عالم بها فيعاقب عليها ويتعلق بذنوب بخبيراً أو ببصيراً .

وقال الحوفي : تتعلق بكفى انتهى .

وهذا وهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(61/452)

وقال أبو السعود :

﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾

فذلكةٌ لما تقدم من بيان كونِ القرآن هادياً لأقوم الطرائقِ ولزومِ الأعمال لأصحابها ، أي من اهتدى بهدايته وعمِل بما في تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعودُ منفعة اهتدائِه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لم يهتدِ ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ عن الطريقة التي يهديه

إليها ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي فإنما وبالُ ضلاله عليها لا على من عداه ممّن يباشره حتى يمكن مفارقةُ العمل صاحبَه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ تأكيد للجملة الثانية ، أي لا تحمل نفسٌ حاملةٌ للوزر وزرَ نفسٍ أخرى حتى يمكن تخلّصُ النفس الثانية عن وزرها ويختلَّ ما بين العامل وعملِه من التلازم ، بل إنما تحمل كلٌّ منها وزرها ، وهذا تحقيقٌ لمعنى قوله عز وجل : ﴿ وكُلَّ إنسان ألزمناه طائره فِى عُنُقِهِ ﴾ وأما ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شفاعة حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شفاعة سَيّئَةً يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مّنْهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مِن حمْل الغير وانتفاعِه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاعٌ بحسنة نفسِه وتضرّرٌ بسيئته فإن جزاءَ الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العاملُ لازمٌ له .

(62/452)

وإنما الذي يصل إلى مَنْ يشفع جزاءُ شفاعته لا جزاءُ أصل الحسنة والسيئة ، وكذلك جزاءُ الضلال مقصورٌ على الضالين ، وما يحمله المُضلون إنما هو جزاءُ الإضلال لا جزاءُ الضلال ، وإنما خُص التأكيدُ بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغةِ حيث كانوا يزعُمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعةُ على أسلافهم الذين قلدوهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ ﴾ بيانٌ للعناية

الربانية إثرَ بيان اختصاصِ آثارِ الهداية والضلال بأصحابها وعدم حِرمان المهتدي من ثمرات هدايته وعدمِ مؤاخذة النفس بجناية غيرها ، أي وما صح وما استقام منا بل استحال في سنتنا المبنيةِ على الحِكَم البالغة أو ما كان في حكمنا الماضي وقضائِنا السابق أن نعذب أحداً من أهل الضلال والأوزارِ اكتفاءً بقضية العقل ﴿ حتى نَبْعَثَ ﴾ إليهم ﴿ رَسُولاً ﴾ يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحججَ ويمهد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزل عليه ، والمرادُ بالعذاب المنفيّ إما عذابُ الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله وهو المناسبُ لما بعده ، أو الجنسُ الشامل للدنيوي والأخروي وهو من أفراده ، وأياً ما كان فالبعثُ غايةٌ لعدم صحة وقوعِه في وقته المقدر له لا لعدم وقوعِه مطلقاً ، كيف لا والأخرويُّ لا يمكن وقوعُه عَقيبَ البعث ، والدنيويُّ أيضاً لا يحصُل إلا بعد تحقق ما يوجبه من الفسق والعصيان ، ألا يُرى إلى قوم نوحٍ كيف تأخر عنهم ما حل بهم زُهاءَ ألف سنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾

بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التي جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالإرادة تحققها بالفعل إذ لا يتخلف عنها المراد ولا الإرادة الأزلية المتعلقة لوقوع المراد في وقته المقدر له إذ لا يقارنه الجزاء الآتي بل دنو وقتها كما في قوله تعالى أتى أمر الله أى وإذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك قرية بأن نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذي بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعني عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصي دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين ﴿ أَمَرْنَا ﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿ مُتْرَفِيهَا ﴾ متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل لأنهم الأصول في الخطاب والباقي أتباع لهم ولأن توجه الأمر إليهم آكد و عدم التعرض للمأمور به إما الظهور أن المراد به الحق والخير لأن الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي إليه وإما لأن المراد وجد منا الأمر كما يقال فلان يعطي ويمنع ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَول ﴾ أي ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا ﴾ بتدمير أهلها ﴿ تَدْمِيراً ﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الأمر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشيء فأمر أي كثرته فكثر وفي الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أي كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الإفعال

والتفعيل وقد جعلنا من الإمارة أي جعلناهما أمراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فإن مؤدى ذلك أن طغيانهم منوطاً بإرادة الله سبحانه وإنعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقاً بأن يعبر عنه بالامر به .

(64/452)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا ﴿ مّنَ القرون ﴾ بيانٌ لكم وتمييزٌ له ، والقَرْنُ مدةٌ من الزمان يُخترَم فيها القومُ وهي عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة ، وقد أيِد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال : " عِشْ قرناً " فعاش مائة سنةٍ أو مائة وعشرين ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعادٍ وثمودَ ومَنْ بعدهم ممن قُصّت أحوالُهم في القرآن العظيم ومَنْ لم تُقَصّ ، وعدمُ نظمِ قومه عليه الصلاة والسلام في تلك القرون المهلَكة لظهور أمرِهم ، على أن ذكره عليه الصلاة والسلام رمزٌ إلى ذكرهم ﴿ وكفى بِرَبّكَ ﴾ أي كفى ربُّك ﴿ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَا بَصِيرًا ﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها ، وتقديمُ الخبير لتقدم متعلّقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادي الأعمالِ الظاهرةِ أو لعمومه حيث يتعلق بغير المُبصَرات أيضاً . وفيه إشارةٌ إلى أن البعثَ

والأمر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فإن ذلك حاصلٌ قبل ذلك وإنما هو لقطع الأعذار وإلزام الحُجة من كل وجه. انتهى. اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(65/452)

وقال الآلوسى :

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾

فذلكة لما تقدم من كون القرآن هادياً للتي هي أقوم ولزوم الأعمال لأصحابها أي من اهتدى بهدايته وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة الاهتداء به إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ عما يهديه إليه ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي فإنما وبال ضلاله عليها لا على من لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ تأكيد للجملة الثانية أي لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم، وخص التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم.

وروى عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة لما قال : افكروا بمحد صلى الله عليه وسلم وعلى أوزاركم ، ولا ينافي هذه الآية ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شفاعة حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شفاعة سَيِّئَةً يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء : 85] وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته لأنه في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وإنما يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصل الحسنة واليئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين ومايحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال قاله شيخ الإسلام ، ولهذه الآية طعنت عائشة رضي الله تعالى عنها في صحة خبر ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن صلى الله عليه وسلم قال : " إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه " فإن فيه أخذ الإنسان بجرم غيره وهو خلاف ما نطقت به الآية .

وأجيب بأن الحديث محمول على ما إذا أوصى الميت بذلك فيكون ذلك التعذيب من قبيل جزاء الإضلال ، وقيل : المراد بالميت المحتضر مجازاً وبالتعذيب التعذيب في الدنيا أي أن

المحتضر يتأمل ببكاء أهله عليه فلا ينبغي أن يبكوا ، ولهذا أيضاً منع جماعة من قدماء الفقهاء صرف الدية على العاقلة لما فيه من مؤاخذة الإنسان بفعل غيره ، وأجيب بأن ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء وإلا فالمخطىء نفسه ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل فكيف يؤاخذ غيره عليه ، واستدل بها الجبائي على أن أطفال المشركين لا يعذبون وإلا كانوا مؤاخذين بذنب آبائهم وهو خلاف ظاهر الآية ، وزعم بعضهم أنها نزلت فيهم وليس بصحيح ، نعم أخرج ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف عن عائشة قالت :

" سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : هم من آبائهم ثم سألته بعد ذلك فقال : الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت ولا تزر وازرة وزر أخرى فقال : هم على الفطرة أو قال في الجنة " والمسألة خلافية وفيها مذاهب فقال الأكثرون : هم في النار تبعاً لآبائهم واستدل لذلك بما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن عائشة أيضاً قالت " سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدان المسلمين أين هم ؟ قال : في الجنة وسألته عن ولدان المشركين أين هم ؟ قال في النار قلت : يا رسول الله لم يدركوا الأعمال ولم تجر عليهم الأقلام قال : وربك أعلم بما كانوا

عاملين والذي نفسي بيده إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار " وفيه أن هذا الخبر قد ضعفه ابن عبد البر فلا يحتج به ، نعم صح أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد المشركين يقال : الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين وليس فيه تصريح بأنهم في النار وحقيقة لفظه الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين لو بلغوا ولم يبلغوا والتكليف لا يكون إلا بالبلوغ .

وأخرج الشيخان .

وأصحاب السنن .

وغيرهم عن ابن عباس قال : حدثني الصعب بن جثامة قلت : يا رسول الله أنا نصيب في البيات من ذراري المشركين ، قال : هم منهم .

وهو عند المخالفين محمول على أنهم منهم في الأحكام الدنيوية كالاسترقاق .

(68/452)

وتوقفت طائفة فيهم ومن هؤلاء أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ، وقيل : فيهم من يدخل الجنة ومن يدخل النار لما أخرج الحكيم الترمذي في "النوادر" عن عبد الله بن شداد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فسأله عن ذراري المشركين الذين هلكوا صغاراً فوضع رأسه ساعة ثم قال : أين السائل ؟ فقال : هذا أنذا يا رسول الله فقال : إن الله تبارك

وتعالى إذا قضى بين أهل الجنة والنار ولم يبقى غيرهم عجوا فقالوا : اللهم ربنا لم تأتنا رسلك ولم نعلم شيئاً فأرسل إليهم ملكاً والله تعالى أعلم بما كانوا عاملين فقال : إني رسول ربكم إليكم فانطلقوا فاتبعوا حتى أتوا النار فقال إن الله تعالى يأمركم أن تفتحموا فيها فاقتحمت طائفة منهم ثم خرجوا من حيث لا يشعر أصحابهم فجعلوا في السابقين المقربين ثم جاءهم الرسول فقال إن الله تعالى يأمركم أن تقتحموا في النار فاقتحمت طائفة أخرى ثم أخرجوا من حيث لا يشعرون فجعلوا في أصحاب اليمين ثم جاء الرسول فقال : إن الله تعالى يأمركم أن تقتحموا في النار فقالوا : ربنا لا طاقة لنا بعذابك فأمر بهم فجمعت نواصيهم وأقدامهم ثم ألقوا في النار .

وذهب المحققون إلى أنهم من أهل الجنة وهو الصحيح ويستدل له بأشياء منها الآية على ما سمعت عن الجبائي .

ومنها حديث إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة وحوله أولاد الناس قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين قال : وأولاد المشركين رواه البخاري في "صحيحه" ، ومنها ما أخرجه الحكيم الترمذي أيضاً في "النوادر" .

وابن عبد البر عن أنس قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : هم خدام أهل الجنة .

ومنها الآية الآتية حيث أفادت أن لا تعذيب قبل التكليف ولا يتوجه على المولود التكليف ويلزمه قول الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يبلغ ، ولم يخالف أحد في أن أولاد المسلمين في الجنة إلا بعد من لا يعتد به فإنه توقف فيهم لحديث عائشة توفى صبي من الأنصار فقلت : طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال صلى الله عليه وسلم : أو غير ذلك يا عائشة إن الله تعالى خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم .

(70/452)

وأجاب العلماء عنه بأنه لعله عليه الصلاة والسلام نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون لها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبي وقاص في قوله : اعطه إني لأراه مؤمناً قال أو مسلماً الحديث ، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم قال ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله تعالى الجنة بفضله ورحمته إياهم " إلى غير ذلك من الأحاديث ، وقال القاضي : دلت الآية على أن الوزر ليس من فعله تعالى لأنه لو كان

كذلك لامتنع أن يؤاخذ العبد به كما لا يؤاخذ بوزر غيره ولأنه كان يجب ارتفاع الوزر أصلاً لأن الوازر إنما يوصف بذلك إذا كان مختاراً يمكنه التحرز ولهذا المعنى لا يوصف الصبي بذلك ، وأنت تعلم أن هذا إنما ينتهض على الجبرية لا على الجماعة القائلين لا جبر ولا تفويض ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ بيان للعناية الربانية إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أي وما صح وما استقام منا بل استحال في سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان في حكمنا الماضي وقضائنا السابق أن نعذب أحداً بنوع ما من العذاب دنيوياً كان أو أخروياً على فعل شيء أو ترك شيء أصلياً كان أو فرعياً ﴿ حتى نَبْعَثَ ﴾ إليه ﴿ رَسُولاً ﴾ يهدي إلى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع أو حتى نبعث رسولاً كذلك تبلغه دعوته سواء كان مبعوثاً إليه أم لا على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى منا الخلاف ، وهذا غاية لعدم صحة وقوع العذاب في وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقاً كيف والأخروي لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوي لا يحصل إلا بعد تحقق ما يوجب من الفسق والعصيان ، ألا يرى إلى قوم نوح عليه السلام كيف تأخر عنهم ما حل بهم زهاء ألف سنة ، وألزم المعتزلة القائلون

بالوجوب العقلي قبل البعثة بهذه الآية لأنه تعالى نفى فيها لتعذيب مطلقاً قبل البعثة وهو من لوازم الوجوب بشرط ترك الواجب عندهم إذ لا يجوزون العفو فينتفي الوجوب قبل البعثة لانتفاء لازمه ، ومحصوله أنه لو كان وجوب عقلي لثبت قبل البعثة ولا شبهة في أن العقلاء كانوا يتركون الواجبات حينئذ فيلزم أن يكونوا معذبين قبلها وهو باطل الآية .

وتعقب بأنه إنما يتم إذا أريد بالعذاب ما يشمل الدنيوي والأخروي كما أشير إليه لكن المناسب لما بعد أن يراد عذاب الاستئصال في الدنيا ولا يلزم من انتفاء العذاب الدنيوي قبل البعث انتفاء الوجوب لأن لازم الوجوب عندهم هو العذاب الأخروي .

وأجيب بعد تسليم أن المناسب لما بعد أن يراد العذاب الدنيوي بأن الآية لما دلت على أنه لا يليق بحكمته إيصال العذاب الأدنى على ترك الواجب قبل التنبيه ببعثة الرسول فدلالتها على عدم إيصال العذاب الأكبر على تركه قبل ذلك أولى ، وأورد الأصفهاني في "شرح المحصول" على من استدل بالآية على نفي الوجوب العقلي قبل البعثة أموراً ، الأول أن المراد بالرسول فيها العقل ، الثاني : أنا سلمنا أن المراد النبي المرسل لكن الآية دلت على نفي تعذيب المباشرة قبل البعثة ولا يلزم منه نفي مطلق التعذيب .

الثالث : أنا سلمنا ذلك لكن ليس في الآية دلالة على نفي التعذيب قبلها عن كل الذنوب .

الرابع : أنا سلمنا الدلالة لكن لا يلزم من نفي المؤاخذة انتفاء الاستحقاق لجواز سقوط

المؤاخذة بالمغفرة، ثم أجاب عن الأول بأن حقيقة الرسول هو النبي المرسل والأصل في الكلام الحقيقة، وعن الثاني بأن من شأن عظيم القدر التعبير عن نفي التعذيب مطلقاً بنفي المباشرة، وعن الثالث بما أشرنا إليه من أن تقدير الكلام وما كنا معذبين أحداً ويلزم من ذلك انتفاء تعذيب كل واحد من الناس وذلك هو المطلوب لأن الخصم لا يقول به.

(72/452)

وعن الرابع بأن الآية تدل على انتفاء التعذيب قبل البعثة وانتفاؤه قبلها ظاهراً يدل على عدم الوجوب قبلها فمن ادعى أن الوجوب ثابت وقد وقع التجاوز بالمغفرة فعليه البيان اه، وأنت تعلم أنه إذا كان الاستدلال إلزامياً كما قال به غير واحد لا يرد الأمر الرابع أصلاً لأن المعتزلة لا يجوزون العفو عن تارك الواجب العقلي.

وقد أشرنا إلى ذلك، نعم قال المراغي في "شرح منهاج الأصول" للقاضي: لا حاجة إلى جعل الدليل إلزامياً بل يجوز إتمامه على تقدير جواز العفو أيضاً بأن يقال وقوع العذاب وإن لم يكن لازماً للوجوب لكن عدم الأمن من وقوعه لازم له ضرورة إذ يجوز العقاب على ترك الواجب عندنا وإن لم يجب وهذا اللازم أعني عدم الأمن منتف لدلالة الآية على عدم وقوعه فينتفي الملزوم.

ورد ذلك أولاً بمنع أن عدم الأمن من وقوع العذاب من لوازم ترك الواجب مطلقاً بل عدم الأمن إذا لم يتيقن عدم وقوع العذاب بدليل آخر ، وأما ثانياً فبأن انتفاء عدم الأمن إنما هو بالآية إذ قبل ورودها كان العقاب جائزاً ولا شك أن انتفاءه بها انتفاء بالعفو لأن معنى العفو عدم العقاب والآية تدل عليه فلم يتم الدليل على تقدير جواز العفو وهو كما ترى ،

وقيل : نجعل اللازم جواز العقاب فيتم الدليل تحقيقاً لأن جواز العفو لا ينافي جواز العقاب .

ورد بأن الملازمة القائلة بأنه لو كان الوجوب ثابتاً قبل الشرع لعذب تارك الواجب وإن كانت مسلمة حينئذ لكن بطلان التالي ممنوع لأن الآية إنما تدل على نفي وقوع العذاب لا على نفي جوازه .

وفيه أن معنى ﴿ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ ما سمعت وهو يدل على نفي الجواز ، وقد كثر استعمال هذا التركيب في ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ [الشعراء : 209] ﴿ وَمَا كُنَّا لاَعِبِينَ ﴾ [الأعراف : 7] إلى غير ذلك ولو أريد نفي الوقوع لقيل وما نعذب حتى نبعث رسولاً .

وضعف الإمام الاستدلال بالآية بأنه لو لم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي البتة وهذا باطل فذاك باطل قال : بيان الملازمة من وجوه ، أحدها : أنه إذا جاء الشارع وادعى كونه نبياً من عند الله تعالى وأظهر المعجزة فهل يجب على المستمع استماع قوله والتأمل في معجزته أو لا يجب فإن لم يجب فقد بطل القول بالنبوة وإن وجب فأما أن يجب بالشرع أو بالعقل فإن وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلي وإن وجب بالشرع فهو باطل لأن ذلك الشارع إما أن يكون هو ذلك المدعى أو غيره والأول باطل لأنه يرجع حاصل الكلام إلى أن يقول ذلك الرجل الدليل : على أنه يجب قبول قولي أني أقول يجب قبول قولي وهذا إثبات للشيء بنفسه ، وإن كان غيره كان الكلام فيه كما في "الأول : ولزم إما الدور أو التسلسل وهما محالان ، وثانيها : أن الشرع إذا جاء وأوجب بعض الأفعال وحرم بعضها فلا معنى للإيجاب والتحريم إلا أن يقول لو تركت كذا أو فعلت كذا لعاقبتك ، فنقول : إما أن يجب عليه الاحتراز عن العقاب أو لا يجب فإن لم يجب لم يتقرر معنى الوجوب البتة وإن وجب فإما أن يجب بالعقل أو بالسمع فإن وجب بالعقل فهو المقصود وإن وجب بالسمع لم يتقرر معنى الوجوب إلا بسبب ترتيب العقاب عليه وحينئذ يعود التقسيم الأول ويلزم التسلسل وهو محال .

وثالثها : أن مذهب أهل السنة أنه يجوز من الله تعالى العفو عن العقاب على ترك الواجب وإذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب فلم يبق إلا أن يقال : إن ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب وهذا الخوف حاصل بمحض العقل فثبت أن ماهية الوجوب إنما تحصل بسبب هذا الخوف وإن هذا الخوف حاصل بمجرد العقل فلزم أن يقال : الوجوب حاصل بمجرد العقل ، فإن قالوا : ماهية الوجوب إنما تقرر بسبب حصول الذم ، قلنا : إنه تعالى إذا عفا فقد سقط الذم فعلى هذا ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل فثبت بهذه الوجوه أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه اه .

(75/452)

وتعقبه العبادي بأنه يمكن الجواب عن الأول بأنه إذا أظهر المعجزة على دعواه أنه رسول ثبت صدقة كما تقرر في محله فيجب قبول قوله في كل ما يخبر عن الله تعالى من غير لزوم محذور من إثبات الشيب بنفسه أو الدور أو التسلسل ، وإن كان ثبوت ما أخبر بالشرع بمعنى أن ثبوته بإخبار من ثبتت رسالته بالمعجزة عن الله تعالى بذلك وليس حاصل الكلام

على هذا أنه يقول : الدليل على أنه يجب قبول قولي أني أقول يجب قولي حتى يلزم ما يلزم بل حاصله أنه يقول : يجب قبول قولي لأنه ثبت أني رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالى فيجب صدقي وتصديقي في كل ما أدعيه ، وليس في هذا شيء من المحاذير السابقة ، وقد صرح السيد السند في "شرح المواقف" بأنه يثبت الشرع وتجب المتابعة بمجرد دعوى الرسالة مع اقتران المعجزة وتمكن المبعوث إليه العاقل من النظر وأن لم ينظر ، وذكر أنه حينئذ لا يجوز للمكلف الاستمهال ولو استمهل لم يجب الإمهال لجريان العادة بإيجاب العلم عقيب النظر الذي هو متمكن منه فعلم أنه بمجرد دعوى الرسالة مع ما ذكر يثبت الوجوب بأخبار وهو ثبوت الشرع لأن معنى الثبوب به بالاخبار عن الله تعالى حقيقة أو حكماً وعلى هذا لا يتأتى الترديد الذي ذكره بقوله لأن ذلك الشرع إما أن يكون الخ فليتأمل ، وعن الثاني بأن وجوب الاحتراز عن العقاب ليس أمراً أجنبياً عن وجوب كذا حتى يتوجه عليه الترديد الذي ذكره بل هو نفس وجوب كذا أو لازمه إذ الاحتراز ليس إلا بالاتيان بكذا الذي هو الواجب فوجوب الاحتراز ليس إلا بالاتيان بكذا الذي هو الواجب فوجوب الاحتراز إما وجوب كذا أو لازمه فوجوبه بوجوبه فلا يلزم الترديد المذكور ، وعن الثالث بأنه إن أراد بقوله إن ماهية الواجب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب أن حصول الواجب في الخارج بالإتيان به إنما هو بسبب حصول الخوف فليس الكلام فيه ومع ذلك إنا لا نسلم أن الإتيان بالواجب متوقف على حصول الخوف وإن أراد أن تحقق وجوب

الواجب أي تعلق وجوبه بالمكلف الذي هو التكليف التنجيزي متوقف على حصول الخوف المذكور فهو ممنوع كما هو ظاهر اه فتدبر .

وأنت تعلم أن الاستدلال بالآية على تقدير تمامه لا يختص بالمعتزلة بل يشاركهم في ذلك أحد فريقي الحنفية من أهل السنة وهم الماتريدية وعامة مشايخ سمرقند لأنهم وإن لم يقولوا كالمعتزلة بأن العقل حاكم بالحسن والقبح اللذين أثبتوها جميعاً لكنهم قالوا : إن العقل آلة للعلم بهما فيخلقه الله تعالى عقيب نظر العقل نظراً صحيحاً وأوجبوا الايمان بالله تعالى وتعظيمه وحرموا نسبة ما هو شنيع إليه سبحانه حتى روى عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه قال : لو لم يبعث الله تعالى رسولاً لوجوب على الخلق معرفته ، وقد صرح غير واحد من علمائهم بأن العقل حجة من حجبب الله تعالى ويجب الاستدلال به قبل ورود الرع ، واحتجوا في ذلك بما أخبر الله تعالى به عن إبراهيم عليه السلام من قوله لأبيه وقومه ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 74] حيث قال ذلك ولم يقل أوحى إلي ومن استدلاله بالنجوم ومعرفة الله تعالى بها وجعلها حجة على قومه وكذاك كل الرسل حاجوا قومهم بحجج العقل كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

السموات والأرض ﴾ [إبراهيم: 10] الآية وبقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا ءاخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [المؤمنون: 117] الآية حيث لم يقل ومن يدع مع الله إلهاً آخر بعدما أوحى إليه أو بلغته الدعوة وبقوله سبحانه خبراً عن أهل النار ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ [الملك: 10] حيث أخبروا أنهم صاروا في النار لتركهم الانتفاع بالسمع والعقل.

(77/452)

وفيه أنهم لو انتفعوا بالعقول في معرفة الصانع قبل ورود الشرع لم يصيروا في النار وبأن الحجج السمعية لم تكن حججاً إلا باستدلال عقلي، وبأن المعجزة بعد الدعوة لا تعرف إلا بدليل عقلي وآيات الأنفس والآفاق أدل على الصانع من دلالة المعجزة على أنها من الله تعالى فلما كان بالعقل كفاية معرفة المعجزة كان به كفاية معرفة الله تعالى من طريق الأولى، وبأن دعاء جميع الكفرة إلى دين الإسلام واجب على الأمة ومعلوم أن الدهرية لا يحتج عليهم بكلام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فلم يبق إلا حجج العقول إلى غير ذلك، وحينئذ يقال لهم: لو وجب على الخلق معرفة الله تعالى والإيمان به قبل بعثة رسول لزم تعذيب الكافر قبلها لاخباره تعالى بأنه لا يغفر الشرك به وقد نفى التعذيب في الآية فلا وجوب ضرورة

انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم على نهج ما فعل مع المعتزلة ، والإمام الرازي بعد أن ضعف الاستدلال بالآية وأثبت الوجوب العقلي ذكر في الآية وجهين ، الأول : حمل الرسول على العقل ، والثاني : تخصيص العموم بأن يقال المراد وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالشرع إلا بعد مجيء الشرع ثم قال : والذي نرتضيه ونذهب إليه أن مجرد العقل سبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به وترك ما يتضرر به ويمتنع أن يحكم العقل عليه تعالى بوجوب فعل أو ترك فعل اه .

وأنت تعلم ما قيل من حمل الرسول على العقل وهو خلاف استعمال القرآن الكريم ، ويبعده توبيخ الخزنة الكفار بقولهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ موسى بالبينات ﴾ [غافر : 50] ولم يقولوا أو لم تكونوا عقلاء ، وحمل الرسول فيه على العقل مما لا يرتضيه العقل ، واعتذر هو عن التخصيص بأنه بأنه وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه إذا قام الدليل عليه وقد قام بزعمه .

(78/452)

وأبو منصور الماتريدي ومتبعوه حملوا الآية على نفي تعذيب الاستئصال في الدنيا ، وذهب هؤلاء إلى تعذيب أهل الفترة بترك الايمان والتوحيد وهم كل من كان بين رسولين ولم يكن

الأول مرسلاً إليهم ولا أدركوا الثاني ، واعتمد القول بتعذيبهم النووي في "شرح مسلم" فقال : إن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار وليس في هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة فإن هؤلاء كانت بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الرسل عليهم السلام .

والظاهر أن النووي يكتفي في وجوب الايمان على كل أحد ببلوغه دعوة من قبله من الرسول وإن لم يكن مرسلاً إليه فلا منافاة بين حكمه بأنهم أهل فترة بالمعنى السابق وحكمه بأن الدعوة بلغتهم خلافاً للأبي في زعمه ذلك ، نعم إنما تلزم المنافاة لو ادعى أن من تقدمهم من الرسول مرسلاً إليهم وليس فليس .

(79/452)

وإلى ذلك ذهب الحليمي فقال في منهاجه : إن العاقل المميز إذا سمع أية دعوة كانت إلى الله تعالى فترك الاستدلال بعقله على صحتها وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضاً عن الدعوة فكفر ويبعد أن يوجد شخص لم يبلغه خبر أحد من الرسل على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم والذين كفروا بهم وخالفوهم فإن الخبر قد يبلغ على لسان المخالف كما يبلغ على لسان الموافق ولو أمكن أن يكون لم

يسمع قط بدين ولا دعوة نبي ولا عرف أن في العالم من يثبت إلهاً ولا نرى أن ذلك يكون فأمره على الاختلاف في أن الايمان هل يجب بمجرد العقل أو لا بد من انضمام النقل ، وهذا صريح في ثبوت تكليف كل أحد بالايمان بعد وجود دعوة أحد من الرسول وإن لم يكن رسولاً إليه ، وبالغ بعضهم ف باعتماد ذلك حتى قال : فمن بلغته دعوة أحد من الرسول عليهم السلام بوجه من الوجوه فقصر في البحث عنها فهو كافر من أهل النار فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة مع أخبار النبي صلى الله عليه وسلم بأن آباءهم الذين مضوا في الجاهلية في النار اه .

والذي عليه الأشاعرة من أهل الكلام والأصول والشافعية من الفقهاء أن أهل الفترة لا يعذبون وأطلقوا القول في ذلك ، وقد صح تعذيب جماعة من أهل الفترة .

وأجيب بأن أحاديثهم آحاد لا تعارض القطع بعدم التعذيب قبل البعثة ، وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر مختص به يقتضي ذلك علمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم نظير ما قيل في الحكم بكفر الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام مع صباه ، وقيل إن تعذيب هؤلاء المذكورين في الأحاديث مقصور على من غير وبدل من أهل

الفترة بما لا يعذر به كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع كما فعل عمرو بن لحي ولا يخفى أن هذا لا يوافق إطلاق هؤلاء الأئمة ولا القول بأنه لا وجوب إلا بالشرع ولو أمكن أن يكون من ثبت تعذيبه من أتباع من بقي شرعه إذ ذاك كعيسى عليه السلام لم يبق إشكال أصلاً ، واستدل بعض من يقول بتعذيبهم مطلقاً بما أخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" .

والطبراني .

وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيراً فيقول الممسوخ عقلاً : يا رب لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد بعقله مني ويقول الهالك في الفترة : يا رب لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهدك مني ويقول الهالك صغيراً : يا رب لو آتيتني عمراً ما كان من آتيته عمراً بأسعد بعمره مني فيقول لهم الرب تبارك وتعالى : فاذهبوا فادخلوا جهنم ولو دخلوها ما ضرتهم شيئاً فتخرج عليهم قوابص من نار يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله تعالى من شيء فيرجعون سراعاً ويقولون : يا ربنا خرجنا وعزتك نريد دخولها فخرجت علينا قوابص من نار ظننا أن قد أهلكت ما خلق الله تعالى من شيء ثم يأمرهم ثانية فيرجعون لذلك ويقولون كذلك فيقول الرب تعالى خلقتكم على علمي وإلى علمي تصيرون يا نار ضميهم فتأخذهم النار " وبعض الأخبار يقتضي أن منهم من يعذب ومنهم من لا يعذب .

فقد أخرج أحمد .

وابن راهويه .

وابن مردويه .

(81/452)

والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أربعة يحتجون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئاً ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً وأما الأحمق فيقول : رب جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني لك رسول فيأخذ سبحانه مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها سحب إليها " .

وأخرج قاسم بن أصبغ .

والبزار .

وأبو يعلى .

وابن عبد البر في التمهيد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى يوم

القيامة بأربعة بالمولود والمعتوه ومن مات في الفترة والشيخ الهرم الفاني كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من جهنم : أبرزي ويقول لهم : إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم فيقول لهم : ادخلوا هذه فيقول من كتب عليه الشقاء : يا رب أتدخلناها ومنها كنا نفر وأما من كتب له السعادة فيمضي فيقتحم فيها فيقول الرب تعالى : قد عاينتموني فعصيتموني فأنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار " إلى غير ذلك من الأخبار ، ويحتج بها من قال بانقسام ذراري المشركين بل وذراري المؤمنين وفي القلب من صحتها شيء وإن قال في الإصابة : إنها وردت من عدة طرق وعلى تقدير صحتها فمعارضها أصح منها ، والذي يميل إليه القلب أن العقل حجة في معرفة الصانع تعالى ووحدته وتنزهه عن الولد سبحانه قبل ورود الشرع للأدلة السابقة وغيرها وإن كان في بعضها ما يقال وإرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة منه تعالى أو أن ذلك لبيان ما لا ينال بالعقول من أنواع العبادات والحدود فلا يرد أنه لو كان العقل حجة ما أرسل الله تعالى رسولاً ولاكتفى به .

وقيل في جوابه : لما كان أمر البعث والجزاء مما يشكل مع العقل وحده إلا بعظيم تأمل فيه حرج يعذر الإنسان بمثله ولا إيمان بدونه بعث الله تعالى الرسل عليهم السلام لبيان ما به تتمة الدين لا لنفس معرفة الخالق فإنها تنال ببداية العقول فالبعرة تدل على البعير والأثر على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج إلا تدل على اللطيف الخبير.

وأيضاً إن الله تعالى لم يدعنا ورسولاً من أول الأمر إلى آخره والحجة كانت قائمة بالواحد كما بقيت بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ولم يدل ذلك على أن الأول لم يكن حجة كافية ، وكذلك لم يدعنا سبحانه والبيان بآية واحدة بل من علينا جل شأنه بآيات متكررة ولا يدل ذلك أن الآية الواحدة لم تكن حجة كافية .

(83/452)

وقوله تعالى خبراً عن قول الخزنة لأهل النار : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ [غافر : 50] توبيخ بالأظهر وهو لا يدل على أن الأخر ليس بحجة ، وقوله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] على معنى لئلا يكون لهم احتجاج بزعمهم بأن يقولوا ﴿ لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ [طه : 134] ، وقوله تعالى :

﴿ ذلك أن لَّمْ يكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون ﴾ [الأنعام : 131] محمول على الإهلاك بعذاب الاستئصال في الدنيا على تكذيب الرسل وأما جزاء الكفر فالنار في العقبى ، وكذا يقال في الآية التي نحن فيها لكثرة ما يدعو إليه فلا عذر لمن لم يعرف ربه سبحانه من أهل الفترة إذا كان عاقلاً مميزاً متمكناً من النظر والاستدلال لا سيما إذا بلغته دعوة رسول من الرسل عليهم السلام ولا يكاد يوجد من لم تبلغه كما سمعت عن الحليمي وقيل : بوجوده في أمريقا وهي المسماة بيكي دنيا قبل أن يظفر بها في حدود الألف بعد الهجرة كرشتوفيل المشهور بقلوبنو فإن أهلها على ما بلغنا إذ ذاك لم يسمعوا بدعوا رسول أصلاً ، ثم المفهوم من كلام الأجلة أن النزاع إنما هو بالنسبة لأحكام الإيمان بالله تعالى بخلاف الفروع فلا خلاف في أنها لا تثبت إلا في حق من بلغته دعوة من أرسل إليه وهو الظاهر ، نعم ما اتفق عليه الملل من الفروع هل هو كالإيمان حتى يجري فيه النزاع المتقدم فيه نظر ، وأما الإيمان بنبينا صلى الله عليه وسلم فليس بواجب على من لم تبلغه دعوته إذ ليس للعقل في ذلك مجال كما لا يخفى على ذي عقل بل قال حجة الإسلام الغزالي .

الناس بعد بعثته عليه الصلاة والسلام أصناف ، صنف لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلاً فأولئك مقطوع لهم بالجنة ، وصنف بلغتهم دعوته وظهور المعجزة على يده وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا فأولئك مقطوع لهم بالنار ، وصنف بلغتهم دعوته عليه الصلاة والسلام وسمعوا به لكن كما يسمع أحدنا بالدجال وحاشا قدره الشريف صلى الله عليه وسلم عن ذلك فهؤلاء أرجو لهم الجنة إذ لم يسمعوا ما يرغبهم في الإيمان به اه ، ولعل القطع بالجنة للأولين ورجاءها للآخرين إنما يكونان إذا كانوا مؤمنين بالله تعالى وأما إذا لم يكونوا كذلك فهم على الخلاف ، ثم إن مسألة عدم الوجوب قبل ورود الشرع إنما يتم الاستدلال عليه بالآية عند المستدلين بها كما قال الأصفهاني إذا كان المقصود تحصيل غلبة الظن فيها وورود الشرع إنما يتم الاستدلال عليه بالآية عند المستدلين بها كما قال الأصفهاني إذا كان المقصود تحصيل غلبة الظن فيها فإن كانت علمية فلا يمكن إثباتها بالدلائل الظنية ، وفيها عندهم نوع اكتفاء أي وما كنا معذبين ولا مثيبين حتى نبعث رسولاً ، قالوا : واتغنى عن ذكر الثواب بذكر مقابله من العذاب ولم يعكس لأنه أظهر منه في تحقق معنى التكليف فتأمل .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾

بيان لكيفية وقوع العذاب بعد البعثة ، وليس المراد بالإرادة الإرادة الأزلية المتعلقة بوقوع المراد في وقته المقدر له أصلاً إذ لا يقارنها الجزاء الآتي ، ولا تحققها بالفعل إذ لا يتخلف عنه المراد بل دنو وقته كما في قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ اللهِ ﴾ [النحل : 1] أي إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاكها بأن نعذب أهلها بما ذكر من عذاب الاستئصال الذي بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعني عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصي دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين ﴿ أَمْرُنَا ﴾ بالطاعة كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير على لسان الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿ مُتْرَفِيهَا ﴾ متنعميها وجباريها وملوكها ، وخصهم بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال وما وقع من سواهم باتباعهم ولأن توجه الأمر إليهم آكد ، ويدل على تقدير الطاعة أن فسق وعصى متقاربان بحسب اللغة وإن خص الفسق في الشرع بمعصية خاصة وذكر الضد يدل على الضد كما أن ذكر النظير يدل على النظير فذكر الفسق والمعصية يدل على تقدير الطاعة كما قيل في قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] فيكون نحو أمرته فأساء إلى أي أمرته بالإحسان بقرينة المقابلة بينهما المعتضدة بالعقل الدال على أنه لا يؤمر بالإساءة كما لا يؤمر بالفسق ،

والنقل كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ [الأعراف : 82] ، وجوز أن ينزل الفعل منزلة اللازم كما في يعطي ويمنع أي وجهنا الأمر .

(86/452)

﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، واختار الزمخشري أن الأصل أمرناهم بالفسق ففسقوا إلا أنه يمتنع إرادة الحقيقة للدليل فيحمل على المجاز إما بطريق الاستعارة التمثيلية بأن يشبه حالهم في تقلبهم في النعم مع عصيانهم وبطرهم بحال من أمر بذلك أو بطريق الاستعارة التصريحية التبعية بأن يشبه إفاضة النعم المبطرة لهم وصبها عليهم بأمرهم بالفسق بجامع الحمل عليه والتسبب له ويتمم أمر الاستعارة في الصورتين بما لا يخفى ، وقيل : الأمر استعارة للحمل والتسبب لاشتراكهما في الإفضاء إلى الشيء وآثر أن تقدير أمرناهم بالطاعة ففسقوا غير جائز لزعمه أنه حذف ما لا دليل عليه بل الدليل قائم على خلافه لأن قولهم أمرته فقام وأمرته فقعد لا يفهم منه إلا الأمر بالقيام والقعود ولو أردت خلاف ذلك كنت قد رمت من مخاطبك علم الغيب ، ولا نقض بنحو قولهم : أمرته فعصاني أو فلم يمتثل أمري لأنه لما كان منافياً للأمر علم أنه لا يصلح قرينة للمحذوف فيكون الفعل في ذلك من باب يعطي ويمنع .

واعترض بأنه لا يجوز أن يكون من قبيل أمرته فعصاني لما سمعت من تقارب فسق وعصى وبان قرينة ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ [الأعراف : 28] لم لا تكفي في تقدير وجهنا الأمر فوجد منهم الفسق لا أن يقدر متعلق الأمر ؛ ثم لم لا يجوز أن يكون التعقيب بالضد قرينة للضد الآخر ونحوه أكثر من أن يحصى ، وأجاب في "الكشف" عن ذلك فقال : الجواب عن الأولين أن صاحب الكشاف منع أن يراد أمرنا بالطاعة وأما أن يراد توجيه الأمر فلم يمنعه من هذا المسلك بل المانع أن تخصيص المترفين حينئذٍ يبقى غير بين الوجه وكذلك التقييد بزمان إرادة الإهلاك فإن أمره تعالى واقع في كل زمان ولكل أحد ولظهوره لم يتعرض له ، وعن الثالث أن شهرة الفسق في أحد معنييه تمنع من عده مقابلاً بمعنى العصيان على أن ما ذكرنا من نبو المقام عن الإطلاق قائم في التقييد بالطاعة ، وفيه قول بسلامة الأمير ونظير بعين الرضا وغفلة عن وجه التخصيص الذي ذكرناه وهو بين لا غبار عليه ، وكذا وجه التقييد بالزمان المذكور ، والحق أن ما ذكره الزمخشري من الحمل وجه جميل إلا أن عدم ارتضائه ما روته الثقات عن ترجمان القرآن وغيره من تقدير الطاعة مع ظهور الدليل ومساعدته مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء لا وجه له كما لا يخفى على من

له قلب .

وحكى أبو حاتم عن أبي زيد أن ﴿ أَمْرُنَا ﴾ بمعنى كثرنا واختاره الفارسي ، واستدل أبو

عبيدة على صحة هذه اللغة بما أخرجه أحمد .

وابن أبي شيبة في مسنديهما .

والطبراني في الكبير من حديث سويد بن هبيرة "خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة" أي

كثيرة النتاج ، وأمر كما قيل من باب ما لزم وعدي باختلاف الحركة فيقال أمرته بفتح الميم

فأمر بكسرها وهو نظير شتر الله تعالى عينه فشترت وجدع أنفه فجدع وثلم سنه فثلمت ،

وقيل : إن المكسور يكون متعدياً أيضاً وأنه قرأ به الحسن .

ويحيى بن يعمر .

وعكرمة ، وحكى ذلك النحاس .

وصاحب اللوامح عن ابن عباس وأن رد الفراء له غير ملتفت إليه لصحة النقل ، وفي

"الكشف" أن أمر بمعنى كثر كثير وأما أمرته المتعدي فقال الزمخشري في الفائق ما معناه :

ما عول هذا القائل الأعلى ما جاء في الخبر أعني مهرة مأمورة وما هو إلا من الأمر الذي هو

ضد النهي وهو مجاز أيضاً كما في الآية كأن الله تعالى قال لها كوني كثيرة النتاج فكانت فهي إذن مأمورة على خلاف منهيه ، وقيل : أصله مومرة فعدل عنه إلى مأمورة لطلب الازدواج مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " مأزورات غير مأجورات " حيث لم يقل موزورات .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن أبي إسحاق .

وأبو رجاء .

وعيسى بن عمرو .

وعبد الله بن أبي زيد .

والكلبي ﴿ أَمْرُنَا ﴾ بالمد وكذلك جاء عن ابن عباس .

والحسن .

وقتادة .

وأبي العالية .

وابن هرمز .

وعاصم .

وابن كثير .

وأبي عمرو .

ونافع وهو اختيار يعقوب ، ومعناه عند الجميع كثرنا وبذلك أيد التفسير السابق على القراءة المشهورة .

وقرأ ابن عباس .

وأبو عثمان النهدي ، والسدي .

وزيد بن علي .

وأبو العالية ﴿ أَمْرُنَا ﴾ بالتشديد ، وروي ذلك أيضاً عن علي .

والحسن .

والباقر رضي الله تعالى عنهم .

وعاصم .

(89/452)

وأبي عمرو ، ومعناه على هذه القراءة قيل كثرنا أيضاً ، وقيل : بمعنى وليناهم وجعلناهم أمراء واللازم من ذلك أمر بالضم إلحاقاً له بالسجايا أي صار أميراً والمراد به من يؤمر ويؤتمر به سواء كان ملكاً أم لا على أنه لا محذور لو أريد به الملك أيضاً خلافاً للفارسي لأن القرية إذا ملك عليها مترف ففسق ثم آخر ففسق وهكذا كثر الفساد وتوالى الكفر ونزل بهم

العذاب على الآخر من ملوكهم ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ أي كلمة العذاب السابق بحلوله أو بظهور معاصيهم أو بانهماكهم فيها ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف، والتدمير هو الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء، والآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه وإهلاك جميعهم لصدور الفسق منهم جميعاً فإن غير المترف يتبعه عادة لا سيما إذا كان المترف من علماء السوء، ومن هنا قيل: المعنى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها واتبعهم غيرهم فحق عليها القول الآية، وقيل: هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال سبحانه: ﴿ واتقوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: 25] وصح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش " أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها قالت زينب: قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال: نعم إذا كثر الخبث " هذا والظاهر أن ﴿ أَمْرُنَا ﴾ جواب إذا ولا تقديم ولا تأخير في الآية والإشكال المشهور فيها على هذا التقدير من أنها تدل على أنه سبحانه يريد إهلاك قوم ابتداءً فيتوسل إليه بأن يأمرهم فيفسقون فيهلكهم وإرادة ضرر الغير ابتداءً من غير استحقاق الإضرار كالإضرار كذلك مما ينزه عنه تعالى لمنافاته للحكمة قد مرت الإشارة إلى جوابه، وأجاب عنه بعضهم بأنه في الآية تقديماً وتأخيراً

والأصل إذا أمرنا مترفي قرية ففسقوا فيها أردنا إهلاكها فحق عليها القول ، ونظيره على ما قيل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاة فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ ﴾ [النساء : 102] وآخرون بأن قوله تعالى : ﴿ أَمْرُنَا ﴾ الخ في موضع الصفة لقرية وجواب إذا محذوف للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه كما قيل في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [الزمر : 73 ، 74] وقول الهذلي وهو آخر قصيدة :

حتى إذا اسلكوهم في قتائدة . . .

شلا كما تطرد الجمالة الشردا

وقيل في الجواب عن ذلك غير ذلك فتدبر .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أي كثيراً ما أهلكنا ﴿ مّنَ القرون ﴾ تمييز لكم والقرن على ما قال الراغب القوم المقترنون في زمان واحد ، وعن عبد الله بن أبي أوفى هو مدة مائة وعشرين سنة ، وعن محمد بن القاسم المازني وروي مرفوعاً أنه مائة سنة ، وجاء أنه صلى الله عليه وسلم دعا لرجل فقال : عش قرناً فعاش مائة سنة أو مائة وعشرين ، وعن الكلبي أنه ثمانون سنة ، وعن ابن سيرين أنه أربعون سنة ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ من بعد زمنه عليه السلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم في القرآن العظيم ومن لم تقص ، وخص نوح عليه

السلام بالذكر ولم يقل من بعد آدم لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب ففيه تهديد وإنذار للمشركين ولظهور حال قومه لم ينظموا في القرون المهلكة على أن ذكره عليه السلام رمز إلى ذكرهم ، ومن الأولى للتبيين لا زائدة والثانية لابتداء الغاية فلذا جاز اتحاد متعلقهما ، وقال الحوفي : من الثانية بدل من الأولى وليس بجيد .

(91/452)

﴿ وكفى بِرَبّكَ ﴾ أي كفى ربك وقد تقدم الكلام مفصلاً آنفاً في مثل هذا التركيب ﴿ بِذُنوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَا بَصِيرًا ﴾ محيطاً بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها ، وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادىء الأعمال الظاهرة تقدماً وجودياً ، وقيل تقدما رتبياً لأن العبرة بما في القلب كما يدل عليه "إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم ونياتكم" وإنما الأعمال بالنيات ونية المؤمن خير من عمله إلى غير ذلك أو لعمومه من حيث يتعلق بغير المبصرات أيضاً ، والجار والمجرور متعلق بخبيراً بصيراً على سبيل التنازع .

وقال الحوفي : متعلق بكفى وهو وهم ، وفي تذييل ما تقدم بما ذكر إشارة على ما قيل إلى أن البعث والأمر وما يتلوهما هن فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فإن

ذلك حاصل قبل ذلك وإنما هو لقطع الأعذار وإلزام الحجة من كل وجه .

وفي "الكشاف" أنه سبحانه نبه بقوله تعالى : ﴿ وكفى بِربِّكَ ﴾ الخ على أن الذنوب هي الأسباب المهلكة لا غير ، وبيانه كما في "الكشف" أنه جل شأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتم دل على أنه تعالى جازاهم بها وإلا لم ينتظم الكلام ، وأما الحصر فلأن غيرها لو كان له مدخل كان الظاهر ذكره في معرض الوعيد ثم لا يكون السبب تاماً ويكون الكلام ناقصاً عن أداء المقصود فلزم الحصر وهو المطلوب ولا أرى كلامه خالياً عن دسيسة اعتزال تظهر بالتأمل ولعله لذلك لم يتعرض له العلامة البيضاوي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى جـ 15 صـ ﴾

(92/452)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد ، أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأفهام ، ومعنى كونهما آيتين أنهما

يدلان على وجود الصانع وقدرته ، وقدّم الليل على النهار لكونه الأصل .

﴿ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ ﴾ أي : طمسنا نورها ، وقد كان القمر كالشمس في الإنارة والضوء .

قيل : ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر ، وقيل المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة ، وليس المراد أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أي : جعل سبحانه شمسه مضيئة تبصر فيها الأشياء .

قال أبو عمرو بن العلاء والكسائي : هو من قول العرب : أبصر النهار إذا صار بحالة يبصر بها ؛ وقيل : مبصرة للناس من قوله أبصره فبصر .

فالأوّل وصف لها بحال أهلها ، والثاني وصف لها بحال نفسها ، وإضافة آية إلى الليل والنهار بيانية أي : فمحونا الآية التي هي الليل والآية التي هي النهار كقولهم نفس الشيء وذاته .

﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في وجوه المعاش ، واللام متعلق بقوله : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أي : جعلناها لتبتغوا فضلاً من ربكم أي : رزقاً ، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار ، ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] .

ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجعل فقال : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنين والحساب ﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً ، أعني : محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لا بأحدهما فقط كالأوّل .

(93/452)

إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب ، إلاّ باختلاف الجديدين ومعرفة الأيام والشهور والسنين .

والفرق بين العدد والحساب : أن العدد إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء ، والحساب إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حدّ معين منه له اسم خاص ؛ فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد ، وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدّة أشهر .

قد يحصل كل شهر من عدّة أيام ، قد يحصل كل يوم من عدّة ساعات ، قد تحصلت كل ساعة من عدّة دقائق ، فذلك هو الحساب .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ أي : كل ما تفتقرون إليه في أمر دينكم ودنيا كم بيناه

تبييناً واضحاً لا يلتبس.

وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الأعذار ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: 42].

ولهذا قال: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال أبو عبيدة: الطائر عند العرب الحظ.

ويقال له البخت: فالطائر ما وقع للشخص في الأزل بما هو نصيبه من العقل والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة؛ كأن طائراً يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ولا غاية إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص في وقته المقدّر من غير خلاص ولا مناص.

وقال الأزهري: الأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى سعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً، فطار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه؛ وذلك قوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ أي: ما طار له في علم الله، وفي عنقه عبارة عن اللزوم، كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس.

قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق.

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾.

قرأ ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن محيصن ، وأبو جعفر ، ويعقوب (ويخرج) بالمثناة التحتية المفتوحة وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر .

﴿ وكتاباً ﴾ منصوب على الحال ، ويجوز أن يكون المعنى : يخرج لها الطائر فيصير كتاباً .

وقرأ يحيى بن وثاب (يُخرِج) بضم الياء وكسر الراء : أي : يخرج الله .

وقرأ شيبة ومحمد بن السميفع ، وروي أيضاً عن أبي جعفر (يُخرج) بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول أي : ويخرج له الطائر كتاباً .

وقرأ الباقون ﴿ ونخرج ﴾ بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه .

و﴿ كتاباً ﴾ مفعول به ، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى : ﴿ ألزمناه ﴾ .

وقرأ أبو جعفر ، والحسن ، وابن عامر (يلقاه) بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، وقرأ الباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف .

وإنما قال سبحانه : ﴿ يلقاه مَنْشُوراً ﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة وللتوبيخ على السيئة .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ أي نقول له : إقرأ كتابك ، أو قائلين له ، قيل : يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئاً ، ومن لم يكن قارئاً ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ الباء في : ﴿ بنفسك ﴾ زائدة .

و﴿ حسيباً ﴾ تمييز ، أي : حاسباً .

قال سيبويه : ضريب القادح بمعنى : ضاربها ، وصريم بمعنى صارم ، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى الكافي ، ثم وضع موضع الشهيد فعدّي ب ﴿ على ﴾ ، والنفس بمعنى الشخص ، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى : المحاسب كالشريك والجليس .

(95/452)

﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضدّه يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره ، فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه ، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه ، ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به ، ولم يترك ما نهي عنه ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي : فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها ، فكل أحد محاسب عن نفسه ، مجزيّ بطاعته معاقب بمعصيته ، ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ والوزر الإثم ، يقال : وزر : يزر وزراً ووزرة ، أي : إثما ، والجمع أوزار ، والوزر : الثقل .

ومنه ﴿ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] أي : أثقال ذنوبهم .

ومعنى الآية : لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها وتؤخذ به الأولى ، وقد تقدّم مثل هذا في الأنعام .

قال الزجاج في تفسير هذه الآية : إن الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدايته ، والضالّ بضلاله ، وعدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره ، ذكر أنه لا يعذب عباده إلاّ بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه ، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدًى ، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم ، والظاهر أنه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل ، وبه قالت طائفة من أهل العلم .

وذهب الجمهور إلى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا ﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿ أمرنا ﴾ على قولين : الأوّل أن المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي ، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به ، فالأكثر على أنه : الطاعة والخير .

(96/452)

وقال في الكشاف : معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا ، وأطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير ، وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل : أمرته فعصاني ، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية ، لأن المعصية

منافية للأمر ، مناقضة له ، فكذلك : أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق ؛ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به ، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه .

القول الثاني أن معنى ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أكثرنا فساقها .

قال الواحدي : تقول العرب أمر القوم ، إذا كثروا وأمرهم الله : إذا أكثرهم .

وقد قرأ أبو عثمان النهدي ، وأبو رجاء ، وأبو العالية ، والربيع ، ومجاهد ، والحسن (أمَّرنا) بتشديد الميم ، أي : جعلناهم أمراء مسلطين .

وقرأ الحسن أيضاً ، وقتادة ، وأبو حيوة الشامي ، ويعقوب ، وخارجة عن نافع ، وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس : (آمرنا) بالمدّ والتخفيف ، أي : أكثرنا جبابرتها وأمراءها ، قاله الكسائي .

وقال أبو عبيدة : "آمرته" بالمدّ و "أمرته" لغتان بمعنى كثرته ، ومنه الحديث : "خير المال مهرة مأمورة" أي : كثيرة النتاج والنسل ، وكذا قال ابن عزيز .

وقرأ الحسن أيضاً .

ويحيى بن يعمر (أمِرنا) بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس .

قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا .

وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلاّ آمرنا بالمدّ .

قال في الصحاح : وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر ، أي : كثر ، وأمر القوم ، أي : كثروا ، ومنه قول لبيد :

إن يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وَإِنْ أَمِرُوا . . . يوماً يكن للهَلاكِ والفَنَدِ

(97/452)

وقرأ الجمهور ﴿ أمرنا ﴾ من الأمر ، ومعناه ما قدّمنا في القول الأوّل ، ومعنى ﴿ مُتْرَفِيهَا ﴾ : المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش ، والمفسرون يقولون في تفسير المترفين : إنهم الجبارون المتسلطون ، والملوك الجائرون ، قالوا : وإنما خصوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم ، ومعنى ﴿ فسقوا فيها ﴾ : خرجوا عن الطاعة وتمرضوا في كفرهم ، لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ أي ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم .

﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أي : تدميراً عظيماً لا يوقف على كنهه لشدته وعظم موقعه ، وقد قيل في تأويل ﴿ أمرنا ﴾ بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق ، وهو إدرار النعم عليهم ، وقيل أيضاً : إن المراد ب ﴿ أردنا أن نهلك قرية ﴾ أنه قرب إهلاك قرية ، وهو

عدول عن الظاهر بدون ملجىء إليه .

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون ﴾ أي : كثيراً ما أهلكنا منهم ، ف ﴿ كم ﴾ مفعول ﴿ أهلكنا ﴾ ، و ﴿ من القرون ﴾ بيان ل ﴿ كم ﴾ وتمييز له ؛ أي : كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود ، فحلّ بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب ؟ وفيه تخويف لكفار مكة .

ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة فقال : ﴿ وكفى بِرَبّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ قال الفراء : إنما يجوز إدخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به ، كقولك : كفاك ، وأكرم به رجلاً ، وطاب بطعامك طعاماً ، ولا يقال : قام بأخيك ، وأنت تريد : قام أخوك .

وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف شديد لأهل المعصية ، لأن العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة تقتضي إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه ، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك ، والمراد بكونه سبحانه ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً لا تخفى عليه منها خافية .

وقد أخرج البيهقي في دلائل النبوّة ، وابن عساكر عن سعيد المقبري : أن عبد الله بن سلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر ، فقال : "كانا شمسين ، قال الله ﴿ وَجَعَلْنَا اليل والنهار ءايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءايَةَ اليل ﴾ فالسواد الذي رأيت هو المحو" وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم معنى هذا بأطول منه .

قال السيوطي : وإسناده واهٍ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في المصاحف عن عليّ في قوله : ﴿ فَمَحَوْنَا ءايَةَ اليل ﴾ قال : هو السواد الذي في القمر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ قال : منيرة .

﴿ لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مّن رَّبّكُمْ ﴾ قال : جعل لكم سبحاً طويلاً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ قال : بيناه .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير بسندٍ حسن عن جابر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طائر كل إنسان في عنقه " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ألزمناه طَآئِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ قال : سعادته

وشقاوته وما قدّر الله له وعليه فهو لازمه أين كان .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر عن أنس في قوله : ﴿ طَٰئِرَهُۥ ﴾ قال : كتابه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : عمله .

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ قال : هو عمله الذي أحصي عليه ، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشوراً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال : سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئاً في الدنيا .

(99/452)

وأخرج ابن عبد البرّ في التمهيد عن عائشة في قوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ قال : سألت خديجة عن أولاد المشركين فقال : "هم من آبائهم" ثم سألته بعد ذلك فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فقال : " هم على الفطرة " .

أو قال : " في الجنة " .

قال السيوطي : وسنده ضعيف .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : يا رسول الله إنا نصيب في البيات من ذراري المشركين ، قال : " هم منهم " .

وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل .

وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين ، ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع إليها .

وأخرج إسحاق بن راهويه ، وأحمد ، وابن حبان ، وأبو نعيم في المعرفة ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصمّ لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في الفترة " ، ثم قال : " فيأخذ الله مواثيقهم ليطيعنه ويرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النار " ، قال : " فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاما ، ومن لم يدخلها يسحب إليها " ، وإسناده عند أحمد ، هكذا حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي عن أبي قتادة ، عن الأحنف بن قيس ، عن الأسود بن سريع .

وأخرج نحوه إسحاق بن راهويه ، وأحمد ، وابن مردويه عن أبي هريرة ، وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة .

وأخرج قاسم بن أصبع ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن عبد البرّ في التمهيد عن أنس قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه .

وجعل مكان الأحمق المعتوه .

(100/452)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيراً " فذكر معناه مطولاً .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ قال : بطاعة الله فعصوا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال : سمعت ابن عباس يقول في الآية : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ بحق فخالفوه ، فحق عليهم بذلك التدمير .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية قال : سلطنا شرارنا فعصوا ، فإذا فعلوا ذلك ، أهلكناهم بالعذاب ، وهو كقوله : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابر مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ [الأنعام : 123] .

وأخرج البخاري ، وابن مردويه عن ابن مسعود ، قال : كنا نقول للحى إذا كثروا في الجاهلية : قد أمر بنو فلان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(101/452)

وقال القاسمى :

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾

قال أبو السعود : فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطرائق ، ولزوم الأعمال لأصحابها . أي : من اهتدى بهدايته ، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عما نهاه عنه ، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه ، لا تتخطاه إلى غيره ممن لا يهتدي : ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي : عن الطريقة التي يهديه إليها : ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي : وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشره . فقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ مؤكد لما قبله للاهتمام به .

قال أبو السعود : أي : لا تحمل نفسه حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى ، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾

وأما ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ [النساء : 85] ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] من حمل الغير وزر الغير ، وانتفاعه بحسنته ، وتضرره بسيئته ، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه ، وتضرر بسيئته . فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له . وإنما الذي يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته ، لا جزاء أصل الحسنة والسيئة ، وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين . وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال .

وإنما خصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغة . حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم . انتهى .

(102/452)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ بيان للعناية الربانية ، إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته ، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها . أي : وما صح وما استقام منا ، بل استحال في سنتنا المبنية على الحكم البالغة ، أن نعذب قوماً حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ،

ويردعهم عن الضلال ؛ لإقامة الحجة وقطعاً للعذر . والعذاب أعم من الدنيوي والأخروي ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ [طه : 134] وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : 8 – 9] ، وكذا قوله : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : 71] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر : 37] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يعذب قوماً عذاب استئصال ، ولا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسل . قال قتادة : إن

الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بينة . ولا يعذب أحداً إلا بذنبه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة . وأنه إنما كان للتمرد على الرسل والتنكب عن منهجهم . وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيوي لانحصارها فيه . والمعنى : إذا أردنا أن نعذب قوماً عذاب استئصال : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ يعني متنعميها ، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم : ﴿ فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ فوجب عليها ، بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم ، وعيد الله الذي أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج : ﴿ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ أي : فخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف . وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكاً هائلاً ، كما جرى لبيت المقدس ، لما انحرف اليهود عن شرعتهم ، على ما قدمنا بيانه . وإنما خص المترفين ، وهم الجبارون والملوك والرؤساء بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل ؛ لأنهم الأصل في الخطاب والباقي تبع لهم . ولأن توجه الأمر إليهم آكد . وإنما حذف مفعول : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ لظهور أن المراد به الحق والخير . لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي إليه . وفي إيثار (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع ، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم ، وطمس أثرهم ، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدو . ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال : ﴿

تَدۡمِيرٗا ﴾ أي : كلياً بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع .

قال القاشانيّ : إن لكل شيء في الدنيا زوالاً . وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك .

وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال ، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته ؛ فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيها من الجادة المستقيمة التي هي صراط الله وهي الشريعة الحافظة للنظام . فإذا جاء وقت إهلاك قرية ، فلا بد من استحقاقها للإهلاك .

وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلما تعلقت إرادته بإهلاكها ، تقدمه أولاً بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعم بطراً وأشراً بنعمة الله ، واستعمالاً لها فيما لا ينبغي . وذلك بأمر من الله وقدر منه ، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم . وحينئذ وجب إهلاكهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ ﴾ أي : وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح ، كعاد وثمود وفرعون . ممن قُصَّتْ أنباؤهم في القرآن العظيم ومن لم تقص . و : ﴿ ٱلۡقُرُونِ ﴾ جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه ، وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد . وخص : ﴿ نُوحٖ ﴾ ولم يقل : (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . ففيه تهديد وإنذار للمشركين .

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ أي : لا يخفى عليه شيء منها ، فيدرك سرها وعلنها وسيجازي عليها .

والآية تدل – كما قال الزمخشري – : على أن الذنوب هي أسباب الهلكة ، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علما أَتَمَّ ، دل على أنه جازاهم بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 468.470 ﴾

(104/452)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾

هذه الجملة بيان أو بدل اشتمال من جملة ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ مع توابعها .

وفيه تبيين اختلاف الطائر بين نافع وضار ، فطائر الهداية نفع لصاحبه وطائر الضلال ضر لصاحبه .

ولكون الجملة كذلك فصلت ولم تعطف على التي قبلها .

وجملة ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ واقعة موقع التعليل لمضمون جملة ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ لما في هذه من عموم الحكم فإن عَمل أحد لا يُلحق نفعُه ولا ضَره بغيره .

ولما كان مضمون هذه الجملة معنى مهما اعتبر إفادة أنفاً للسامع ، فلذلك عطفت الجملة ولم تُفصل .

وقد روعي فيها إبطال أوهام قوم يظنون أن أوزارهم يحملها عنهم غيرهم .

وقد روي أن الوليد بن المغيرة وهو من أئمة الكفر كان يقول لقريش : اكفروا بمحمد وعلي أوزاركم ، أي تبعاتكم ومؤاخذتكم بتكذيبه إن كان فيه تبعة .

ولعله قال ذلك لما رأى ترددهم في أمر الإسلام وميلهم إلى النظر في أدلة القرآن خشية الجزاء يوم البعث ، فأراد التمويه عليهم بأنه يتحمل ذنوبهم إن تبين أن محمداً على حق ، وكان ذلك قد يروج على دهمائهم لأنهم اعتادوا بالحملات والكفالات والرهائن ، فبين الله للناس إبطال ذلك إنقاذاً لهم من الاغترار به الذي يهوي بهم إلى المهالك مع ما في هذا البيان من تعليم أصل عظيم في الدين وهو ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

فكانت هذه الآية أصلاً عظيماً في الشّريعة ، وتفرع عنها أحكام كثيرة .

ولّما روى ابن عمر عن النّبيء صلى الله عليه وسلم " أنّ الميت ليعذّب ببكاء أهله عليْه " قالت عائشة رضي الله عنها : "يرحم الله أبا عبد الرحمان ، ما قال رسول الله ذلك والله يقول : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

ولما مُرّ برسول الله جنازةُ يهودية يبكي عليها أهلها فقال : "إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب" .

والمعنى أن وزر أحد لا يحمله غيره فإذا كان قد تسبب بوزره في إيقاع غيره في الوِزر حُمل عليْه وزر بوزر غيره لأنه متسبب فيه ، وليس ذلك بحمل وزر الغير عليه ولكنه حمل وزر نفسه عليها وهو وزر التسبب في الأوزار .

وقد قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ، وكذلك وزر من يَسُنّ للناس وزراً لم يكونوا يعملونه من قبل .

وفي الصحيح ﴾ : "مَا من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأولِ كِفْل من دمها ذلك أنه أول من سن القتل" .

وسكتت الآية عن أن لا ينتفع أحد بصالح عمل غيره اكتفاء إذ لا داعي إلى بيانه لأنه لا يوقع في غرور ، وتعلم المساواة بطريق لحن الخطاب أو فحواه ، وقد جاء في القرآن ما يومىء إلى أن المتسبب لأحد في هدي ينال من ثواب المهتدي قال تعالى:

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ [الفرقان : 74] وفي الحديث : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم بثه في صدور الرجال ، وولد صالح يدعو له بخير .

ومن التخليط توهم أن حمل الدية في قتل الخطأ على العاقلة منافٍ لهذه الآية ، فإن ذلك

فرع قاعدة أخرى وهي قاعدة التعاون والمواساة وليست من حمل التبعات .

وتزر ﴿ تحمل الوزر ، وهو الثقل .

والوازرة : الحاملة ، وتأنيثها باعتبار أنها نفس لقوله قبله ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [فصّلت : 46] .

وأطلق عليها وازرة ﴾ على معنى الفرض والتقدير ، أي لو قدرت نفس ذات وزر لا تزاد على وزرها وزر غيرها ، فعلم أن النفس التي لا وزر لها لا تزر وزر غيرها بالأوْلى .

والوزر : الإثم لتشبيهه بالحمل الثقيل لما يجره من التعب لصاحبه في الآخرة ، كما أطلق عليه الثقل ، قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : 13] .

عطف على آية ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ الآية .

(106/452)

وهذا استقصاء في الإعذار لأهل الضلال زيادة على نفي مؤاخذتهم بأجرام غيرهم ، ولهذا اقتصر على قوله : ﴿ وما كنا معذبين ﴾ دون أن يقال ولا مثيبين .

لأن المقام مقام إعذار وقطع حجة وليس مقام امتنان بالإرشاد .

والعذاب هنا عذاب الدنيا بقرينة السياق وقرينة عطف ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا

مترفيها ﴾ [الإسراء : 16] الآية .

ودلت على ذلك آيات كثيرة ، قال الله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ [الشعراء : 209] وقال : ﴿ فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ [يونس : 47] .

(على أن معنى (حتى) يؤذن بأن بعثة الرسول متصلة بالعذاب شأن الغاية ، وهذا اتصال عرفي بحسب ما تقتضيه البعثة من مدةٍ للتبليغ والاستمرار على تكذيبهم الرسول والإمهال للمكذبين ، ولذلك يظهر أن يكون العذاب هنا عذاب الدنيا وكما يقتضيه الانتقال إلى الآية بعدها .

على أننا إذا اعتبرنا التوسع في الغاية صح حمل التعذيب على ما يعم عذاب الدنيا والآخرة .

ووقوع فعل معذبين ﴾ في سياق النفي يفيد العموم ، فبعثة الرسل لتفصيل ما يريده الله من الأمة من الأعمال .

ودلت الآية على أن الله لا يؤاخذ الناس إلا بعد أن يرشدهم رحمة منه لهم .

وهي دليل بين على انتفاء مؤاخذة أحد ما لم تبلغه دعوة رسول من الله إلى قوم ، فهي حجة للأشعري ناهضة على الماتريدي والمعتزلة الذين اتفقوا على إيصال العقل إلى معرفة وجود الله ، وهو ما صرح به صدر الشريعة في التوضيح في المقدمات الأربع .

فوجود الله وتوحيده عندهم واجبان بالعقل فلا عذر لمن أشرك بالله وعطل ولا عذر له بعد بعثة رسول.

وتأويل المعتزلة أن يراد بالرسول العقل تطوُّحٌ عن استعمال اللغة وإغماض عن كونه مفعولاً لفعل ﴿ نبعث ﴾ إذ لا يقال بعث عقلاً بمعنى جعل.

وقد تقدم ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ في سورة [النساء: 165].

(107/452)

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ﴾

هذا تفصيل للحكم المتقدم قُصد به تهديد قادة المشركين وتحميلهم تبعة ضلال الذين أضلوهم.

وهو تفريع لتبيين أسباب حلول التعذيب بعد بعثة الرسول أدمج فيه تهديد المضلين.

فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء على قوله: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء: 15] ولكنه عطف بالواو للتنبيه على أنه خبر مقصود لذاته باعتبار ما

يتضمنه من التحذير من الوقوع في مثل الحالة الموصوفة ، ويظهر معنى التفريع من طبيعة الكلام ، فالعطف بالواو هنا تخريج على خلاف مقتضى الظاهر في الفصل والوصل .

فهذه الآية تهديد للمشركين من أهل مكة وتعليم للمسلمين .

والمعنى أن بعثة الرسول تتضمن أمراً بشرع وأن سبب إهلاك المرسل إليهم بعد أن يبعث إليهم الرسول هو عدم امتثالهم لما يأمرهم الله به على لسان ذلك الرسول .

ومعنى إرادة الله إهلاك قرية التعلق التنجيزي لإرادته .

وتلك الإرادة تتوجه إلى المراد عند حصول أسبابه وهي المشار إليها بقوله : أمرنا مترفيها ﴾ إلى آخره .

ومتعلق ﴿ أمرنا ﴾ محذوف ، أي أمرناهم بما نأمرهم به ، أي بعثنا إليهم الرسول وأمرناهم بما نأمرهم على لسان رسولهم فعصوا الرسول وفسقوا في قريتهم .

واعلم أن تصدير هذه الجملة بـ (إذا) أوجب استغلاق المعنى في الربط بين جملة شرط (إذا) وجملة جوابه ، لأن شأن (إذا) أن تكون ظرفاً للمستقبل وتتضمن معنى الشرط أي الربط بين جملتيها .

فاقتضى ظاهر موقع (إذا) أن قوله : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ هو جواب (إذا) فيقتضي أن إرادة الله إهلاكها سابقة على حصول أمر المترفين سَبْقَ الشرط لجوابه ، فيقتضي ذلك أن إرادة الله تتعلق بإهلاك القرية ابتداء فيأمر الله مترفي أهل القرية فيفسقوا فيها فيحق عليها القول الذي هو مظهر إرادة الله إهلاكهم ، مع أن مجرى العقل يقتضي أن يكون فسوق أهل القرية وكفرُهم هو سبب وقوع إرادة الله إهلاكهم ، وأن الله لا تتعلق إرادته بإهلاك قوم إلا بعد أن يصدر منهم ما توعدهم عليه لا العكس .

وليس من شأن الله أن يريد إهلاكهم قبل أن يأتوا بما يسببه ، ولا من الحكمة أن يسوقهم إلى ما يفضي إلى مؤاخذتهم ليحقق سبباً لإهلاكهم .

وقرينة السياق واضحة في هذا ، فبنا أن نجعل الواو عاطفة فعل ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ على ﴿ نبعث رسولاً ﴾ فإن الأفعال يعطف بعضها على بعض سواء اتحدت في اللوازم أم اختلفت ، فيكون أصل نظم الكلام هكذا : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ونأمر مترفي قرية بما نأمرهم به على لسان الرسول فيفسقوا عن أمرنا فيحق عليهم الوعيد فنهلكهم إذا أردنا إهلاكهم .

فكانَ ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ شريطة لحصول الإهلاك ، أي ذلك بمشيئة الله ولا مكره له ، كم دلت عليه آيات كثيرة كقوله:

﴿ أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ [آل

عمران : 127 128] وقوله : ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ [الأعراف :
100] وقوله : ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴾ [الإنسان : 28] وقوله : ﴿
عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ [الإسراء : 18] .

فذُكر شريطة المشيئة مرتين .

وإنما عدل عن نظم الكلام بهذا الأسلوب إلى الأسلوب الذي جاءت به الآية لإدماج التعريض بتهديد أهل مكة بأنهم معرضون لمثل هذا مما حل بأهل القرى التي كذبت رسل الله .

(109/452)

وللمفسرين طرائق كثيرة تزيد على ثَمان لتأويل هذه الآية متعسفة أو مدخولة ، وهي متفاوتة ، وأقربُها قول من جعل جملة أمرنا مترفيها ﴾ إلخ صفةً لـ ﴿ قرية ﴾ وجعل جواب (إذا) محذوفاً .

والمترَفُ : اسم مفعول من أترفه إذا أعطاه الترُفةَ .

بضم التاء وسكون الراء أي النعمة .

والمترفون هم أهل النعمة وسعة العيش ، وهم معظم أهل الشرك بمكة .

وكان معظم المؤمنين يومئذٍ ضعفاء قال الله تعالى: ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ﴾ [المزمّل: 11].

وتعليق الأمر بخصوص المترفين مع أن الرسل يخاطبون جميع الناس، لأن عصيانهم الأمرَ الموجه إليهم هو سبب فسقهم وفسق بقية قومهم إذ هم قادة العامة وزعماء الكفر فالخطاب في الأكثر يتوجه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتبعهم الدهماء فعم الفسق أو غلب على القرية فاستحقت الهلاك.

وقرأ الجمهور أمرنا ﴾ بهمزة واحدة وتخفيف الميم، وقرأ يعقوب ﴿ آمرنا ﴾ بالمد بهمزتين همزة التعدية وهمزة فاء الفعل، أي جعلناهم آمرين، أي داعين قومهم إلى الضلالة، فسكنت الهمزة الثانية فصارت ألفاً تخفيفاً، أو الألف ألف المفاعلة، والمفاعلة مُستعملة في المبالغة، مثل عافاه الله.

والفسق: الخروج عن المقر وعن الطريق.

والمراد به في اصطلاح القرآن الخروج عما أمر الله به، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ في سورة [البقرة: 26].

والقول ﴾ هو ما يبلغه الله إلى الناس من كلام بواسطة الرسل وهو قول الوعيد كما قال: ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ [الصافات: 31].

والتدمير: هدم البناء وإزالة أثره، وهو مستعار هنا للاستئصال إذ المقصود إهلاك أهلها

ولو مع بقاء بنائهم كما في قوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

وتقدم التدمير عند قوله تعالى : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ في سورة [الأعراف : 137] .

وتأكيد دمرناها بالمصدر مقصود منه الدلالة على عظم التدمير لا نفي احتمال المجاز .

(110/452)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) ﴾

ضرب مثال لإهلاك القرى الذي وصف سببه وكيفيته في الآية السابقة ، فعقب ذلك بتمثيله لأنه أشد في الكشف وأدخل في التحذير المقصود .

وفي ذلك تحقيق لكون حلول العذاب بالقرى مقدماً بإرسال الرسول إلى أهل القرية ، ثم بتوجيه الأوامر إلى المترفين ثم فسقهم عنها وكان زعماء الكفرة من قوم نوح مترفين وهم الذين قالوا : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأي ﴾ [هود : 27] وقال لهم نوح عليه السلام ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ [هود : 31] .

فكان مقتضى الظاهر عطف هذه الجملة بالفاء لأنها كالفرع على الجملة قبلها ولكنها

عطفت بالواو إظهاراً لاستقلالها بوقع التحذير من جهة أخرى فكان ذلك تخريجاً على خلاف مقتضى الظاهر لهذا الاعتبار المناسب.

و(كم) في الأصل استفهام عن العدد، وتستعمل خبرية دالة على عدد كثير مُبهم النوع، فلذلك تحتاج إلى تمييز لنوع العدد، وهي هنا خبرية في محل نصب بالفعل الواقع بعدها لأنها التزم تقديمها على الفعل نظراً لكون أصلها الاستفهام وله صدر الكلام.

ومن القرون ﴿ تمييز للإبهام الذي اقتضته (كم).

والقرون جمع قرن، وهو في الأصل المدة الطويلة من الزمن فقد يقدر بمائة سنة وبأربعين سنة، ويطلق على الناس الذين يكونون في تلك المدة كما هنا.

وفي الحديث " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " ، أراد أهل قرني، أي أهل القرن الذي أنا فيه.

وقال الله تعالى: ﴿ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ [الفرقان: 38].

وتخصيص ﴿ من بعد نوح ﴾ إيجاز ، كأنه قيل من قوم نوح فمن بعدهم ، وقد جعل زمن نوح مبدأ لقصص الأمم لأنه أول رسول ، واعتبر القَصص من بعده لأن زمن نوح صار كالمنقطع بسبب تجديد عمران الأرض بعد الطوفان ، ولأن العذاب الذي حل بقومه عذاب مهول وهو الغرق الذي أحاط بالعالم .

ووجه ذكره تذكير المشركين به وأن عذاب الله لا حد له ، والتنبيه على أن الضلالة تحول دون الاعتبار بالعواقب ودون الاتعاظ بما يحل بمن سبق وناهيك بما حل بقوم نوح من العذاب المهول .

وجملة ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ إقبال على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بالخصوص ، لأن كل ما سبق من الوعيد والتهديد إنما مآله إلى حمل الناس على تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من القرآن بعد أن لجوا في الكفر وتفننوا في التكذيب ، فلا جرم خُتم ذلك بتطمين النبي بأن الله مطلع على ذنوب القوم .

وهو تعريض بأنه مجازيهم بذنوبهم بما يناسب فظاعتها ، ولذلك جاء بفعل ﴿ كفى ﴾ وبوصفي ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ المكنى بذكرهما عن عدم إفلات شيء من ذنوبهم المرئية والمعلومة من ضمائرهم أعني أعمالهم ونواياهم .

وقدم ما هو متعلق بالضمائر والنوايا لأن العقائد أصل الأعمال في الفساد والصلاح .

وفي الحديث : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد

الجسد كله ألا وهي القلب " .

وفي ذكر فعل (كفى) إيماء إلى أن النبي غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربه فهو كافيه وحسبه ، قال : ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [البقرة : 137] ؛ أو إلى أنه في غنية عن الهم في شأنهم كقوله لنوح : ﴿ فلا تسألنِ ما ليس لك به علم ﴾ [هود : 46] فهذا إما تسلية له عن أذاهم وإما صرف له عن التوجع لهم .

وفي خطاب النبي بذلك تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 14 صـ ﴾

(112/452)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ .

ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة : ان من اهتدى فعمل بما يرضي الله جلّ وعلا ، أن اهتداءه ذلك إنما هو لنفسه لأنه هو الذي يسخط ربه جلّ وعلا ، أن ضلاله ذلك إنما هو على نفسه . لأنه هو الذي يجنى ثمرة عواقبه السيئة الوخيمة ، فيخلد به في النار .

ويين هذا المعنى في مواضع كثيرة . كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا

﴾ [فصلت : 46] الآية ، وقوله : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 40] ، وقوله : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : 104] ، وقوله : ﴿ فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس : 108] . والآيات بمثل هذا كثيرة جداً . وقد قدمنا طرفاً منها في سورة " النحل " .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ .

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه لا تحلم نفس ذنب أخرى . بل لا تحمل نفس إلا ذنبها . فقوله ﴿ ولا تزر ﴾ أي لا تحمل ، من وزر يزر إذا حمل . ومنه سمي وزير السلطان ، لنه يحمل أعباء تدبير شؤون الدولة . والوزر : الإثم . يقال : وزر يزر وزرا ، إذا اثم . والوزؤ أيضاً : الثقل المثقل ، اي لا تحمل نفس وازرة أي آثمة وزر نفس أخرى . أي إثمها ، أو حملها الثقيل . بل لا تحمل إلا وزر نفسها .

(113/452)

وهذا المعنى جاء في آيات أخر . كقوله : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ [فاطر : 18] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [الأنعام : 164] الآية ، وقوله : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : 134] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا في سورة " النحل " بإيضاح : ان هذه الآيات لا يعارضها قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] الآية ، ولا قوله : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] لأن المراد بذلك أنهم حملوا أوزار ضلالهم في أنفسهم ، وأوزار إضلالهم غيرهم . لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً - كما تقدم مستوفى .

تنبه

يرد على هذه الآية الكريمة سؤلان :

الأول - ما ثبت في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما من " أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه " فيقال : ما وجه تعذيبه ببكاء غيره . إذ مؤاخذته ببكاء غيره قد يظن من لا يعلم أنها من أخذ الإنسان بذنب غيره ؟

السؤال الثاني - إيجاب دية الخطأ على العقلة .

فيقال : ما وجه إلزام العاقلة الدية بجناية إنسان آخر ؟ .

والجواب عن الأول – هو أن العلماء حملوه على أحد أمرين :

الأول – أن يكون الميت أوصى بالنوح عليه . كما قال طرفة بن العبد في معلقته :

إذا مت فانعيني بما أنا أهله . . . وشقى على الجيب يا بنة معبد

لأنه إذا كان أوصى بأن يناح عليه : فتعذيبه بسبب إصائه بالمنكر . وذلك من فعله لا فعل غيره .

(114/452)

الثاني – أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه . لأن إهماله نهيهم تفريط منه ، ومخالفة لقوله تعالى : ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] فتعذيبه إذا بسبب تفريطه ، وتركه ما أمر الله به من قوله : ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية

– وهذا ظاهر كما ترى .

وعن الثاني – بأن إيجاب الدية على القاقلة ليس من تحميلهم وزر القاتل ، ولكنها مواساة محضة أوجبها الله على عاقلة الجاني . وأوجب المواساة فيها على العاقلة . ولا إشكال في إيجاب الله على بعض خلقه مواساة بعض خلقه . كما أوجب أخذ الزكاة من مال الأغنياء وردها إلى الفقراء . واعتقد من أوجب الدية على أهل ديوان القاتل خطأ كأبي حنيفة

غيره – أنها باعتبار النصرة فأوجبها على أهل الديوان. ويؤيد هذا القول ما ذكره القرطبي في تفسيره قال: " وأجمع أهل السير والعلم: أن الدية كانت في الجاهلية تحملها العاقلة، فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام. وكان يتعاقلون بالنصرة ثم جاء الإسلام فجرى الأمر على ذلك. حتى جعل عمر ديوان، وان عمر جعل الديوان، وجمع بين الناس، وجعل أهل كل ناحية يداً، وجعل عليهم قتال من يليهم من العدو. انتهى كلام القرطبي رحمه الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة: أن الله جلَّ وعلا لا يعذب أحداً من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة. حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره فيعصى ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار.

وقد أوضح جلَّ وعلا هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء: 165] فصرح في هذه الآية الكريمة: بأن لا بد من أن يقطع حجة كل أحد بإرسال الرسل، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم النار.

وهذه الحجة التي أوضح هنا قطعها بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين . بينها في آخر سورة طه بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [طه : 134] .

وأشار لها في سورة القصص بقوله : ﴿ ولولا أن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾

[القصص : 47] ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] ، وقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة : 19] الآية ، وكقوله : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتبعوه واتقوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَن تقولوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : 155-157] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

ويوضح ما دلت عليه هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم من أن الله جلَّ وعلا لا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار والإعذار على أسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام – تصريحه جلَّ وعلا في آيات كثيرة : " بأنَّه لم يدخل أحداً النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل . فمن قوله جلَّ وعلا : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك : 8-9] الآية .

ومعلوم أن قوله جلَّ وعلا : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ [الملك : 8] يعم جميع الأفواج الملقين في النار .

قال أبو حيان في " البحر المحيط " في تفسير هذه الآية التي نحن بصددها ما نصه : " وكلما " تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين . ومن ذلك قوله جلَّ وعلا : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [الزمر : 71] ، وقوله في هذه الآية : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا ﴾ عام لجميع الكفار .

وقد تقرر في الأصول : أن الموصولات كالذي والتي وفروعهما من صيغ العموم . لعمومها في كل ما تشمله صلاتها ، وعقده في مراقي السعود بقوله في صيغ العموم .

صيغة كل أو الجميع . . . وقد تلا الذي التي الفروع

ومراده بالبيت : أن لفظة "كل ، وجميع ، والذي ، والتي " وفروعهما من صيغ العموم . فقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ إلى قوله ﴿ قالوا بلى ﴾ عام في جميع الكفار . وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أنذرتهم الرسل في دار الدنيا . فعصوا أمر ربهم كما هو واضح .

(117/452)

ونظيره أيضاً قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير ﴾ [فاطر : 36-37] . فقوله ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ إلى قوله ﴿ وجاءكم النذير ﴾ عام أيضاً في جميع أهل النار . كما تقدم إيضاحه قريباً .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين فِي النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب قالوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات قَالُواْ بلى قَالُواْ فادعوا وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [غافر : 49-50] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع أهل النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا .

وهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تدل على عذ أهل الفترة بأنهم لم يأتهم نذير ولو ماتوا على الكفر . وبهذا قالت جماعة أهل العلم .

(118/452)

وذهبت جماعة أخرى من أهل العلم إلى أن كل من مات على الكفر فهو في النار ولو لم يأته نذير ، واستدلوا بظواهر آيات من كتاب الله ، وبأحاديث عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

فمن الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى : ﴿ وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء : 18] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ الله والملائكة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة : 161] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : 91] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48] ، وقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : 31] ، وقوله ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة ﴾ [المائدة : 72] الآية وقوله : ﴿ قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ [الأعراف : 50] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وظاهر جيمع هذه الآيات العموم. لأنها لم تخصص كافراً دون كافر، بل ظاهرها شمول جميع الكفار.

(119/452)

ومن الأحاديث الدالة على أن الكفار لا يعذرون في كفرهم بالفترة ما أخرجه مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أنَّ رجلاً قال يا رسول الله، أَين أبي؟. قال: "فِي النَّار" فلما قفى دعاه فقال: "أَنَّ أَبي وأَباك في النَّار" اه وقال مسلم رحمه الله في صحيحه أيضاً: حدثنا يَحْيَى بن أيوب، ومحمد بن عباد – واللفظ ليحيى – قالا: حدثنا مروان بن معاوية، عن يزيد يعني ابن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن ازور قبرها فإذن لي" حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب قالا: حدثنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النَّبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبّكى من حوله. فقال: "استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذطِّر الموت"

اه إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عدم عذر المشركين بالفترة .

وهذا الخلاف مشهور بن أهل الأصور – هل المشركون الذين ماتوا في الفترة وهو يعبدون الأوثان في النار لكفرهم . أو معذورون بالفترة ؟ وعذدخ في " مراقي السعود " بقوله :

ذو فترة بالفرع لا يراع . . . وفي الأصول بينهم نزاع

وممن ذهب إلى أن أهل الفترة الذين ماتوا على الكفر في النار : النووي في شرح مسلم ، وحكى عليه القرافي في شرح التنقيح الإجماع . كما نقله عنه صاحب " نشر البنود " .

وأجاب أهل هذا القول عن قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] من أربعة أوجه :

(120/452)

الأول – أن التعذيب المنعفى في قوله ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ الآية ، وأمثالها من الآيات . إنما هو العذيب الدنيوي كما وقع في الدنيا من العذاب بقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم موسى وأمثالهم . وإذا فلا ينافي ذلك التعذيب في الآخرة .

ونسب هذا القول القرطبي ، وأبو حاين ، والشوكاني وغيرهم في تفاسيرهم إلى الجمهور .

والوجه الثاني – أن محل العذر بالفترة المنصوص في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ

رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] الآية وأمثالها في غير الواضح الذي لا يخفى على أدنى عاقل . أما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل كعبادة الأوثان فلا يعذر فيه أحد . لأن الكفار يقرون بأن الله هو ربهم ، الخالق الرازق ، النافع ، الضار . ويتحققون كل التحقق أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع ولا على دفع ضر . كما قال عن قوم إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 65] وكما جاءت الآيات القرانية بكثرة بأنهم وقت الشدائد يخلصون الدعاء لله وحده . لعلمهم أن غيره لا ينفع ولا يضر . كقوله ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفلك دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [العنكبوت : 65] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [لقمان : 32] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] الآية ، على غير ذلك من الآيات . ولكن الكفار غالطوا أنفسهم لشدة تعصبهم لأوثانهم – فزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى ، وأنها شفعاؤهو عند الله . مع أن العقل يقطع بنفي ذلك .

الوجه الثالث أن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . كإبراهيم وغيره . وأن الحجة قائمة عليهم بذلك . وجزم بهذا النووي في شرح مسلم ، ومال إليه العبادي في (الآيات البينات) .

الوجه الرابع – ما جاء من الأحاديث الصحيحة عن النّبي صلى الله عليه وسلم ، الدالة على أن بعض أهل الفترة في النار . كما قدمنا بعض الأحاديث الواردة بذلك في صحيح مسلم وغيره .

وأجاب القائلون بعذرهم بالفترة عن هذه الأوجه الأربعة –فأجابوا عن الوجه الأول ، وهو كون التعذيب في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] إنما هو التعذيب الدنيوي دون الأخروي من وجيهين :

الأول – أنه خلاف ظاهر القرآن .

لأن ظاهر القرآن انتفاء التعذيب مطلقاً ، فهو أعم من كونه في الدنيا . وصرف القرآن عن ظاهره ممنوع إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

الوجه الثاني – أن القرآن دل في أيات كثيرة على شمول التعذيب المنفي في الآية للتعذيب في الآخرة . كقوله : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُواْ بلى ﴾ [الملك : 8-9] وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلى بعد إنذار الرسل . كما تقدم إيضاحه بالآيات القرانية .

وأجابوا عن الوجه الثاني - وهو أن محل العذر بالفترة في غير الواضح الذي لا يخفى على أحد - بنفس الجوابين المذكورين آنفاً . لأن الفرق بين الواضح وغيره مخالف لظاهر القرآن ، فلا بد له من دليل يجب الرجوع إليه ، ولأن الله نق على أن أهل النار ما عذبوا بها حتى كذبوا الرسل في دار الدنيا ، بعد إنذارهم من ذلك الكفر الواضح ، كما تقدم إيضاحه .

(122/452)

وأجابوا عن الوجه الثالث الذي جزم به النووي ، وما إليه العبادي وهو قيام الحجة عليهم بإنذار الرسل الذين أرسلوا على ألسنة بعض الرسل والقرآن ينفي هذا نفياً باتاً في آيات كثيرة . كقوله في " يس " ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : 6] و " مَا " في قوله ﴿ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ نافيه على التحقيق ، لا موصوله ، وتدل لذلك الفاء في قوله ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، وكقوله في " القصص " : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [القصص : 46] الآية ، وكقوله في " سبأ " ﴿ وَمَآ آتَيْنَاهُمْ مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ : 44] ، وكقوله في " ألم السجدة " : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [السجدة : 3] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأجابوا عن الوجه الرابع – بأن تلك الأحاديث الورادة في صحيح مسلم وغيره أخبار آحاد يقدم عليها القاطع ، وهو قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] ، وقوله : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بلى ﴾ [الملك : 8-9] ، ونحو ذلك من الآيات .

وأجاب القائلون بالعذر بالفترة أيضاً عن الآيات التي استدل بها مخالفوهم كقولهم : ﴿ وَلَا الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء : 18] ، إلى آخر ما تقدم من الآيات – بأن محل ذلك فيما إذا أرسلت إليهم الرسل فكذبوهم بدليل قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

(123/452)

وأجاب القائلون بتعذيب عبدة الأوثان من أهل الفترة عن قول مخالفيهم : إن القاطع الذي هو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ يجب تقديمه على أخبار الآحاد الدالة على تعذيب بعض أهل الفترة ، كحديثي مسلم في صحيه المتقدمين – بأن الآية عامة ، والحديثين كلاهما خاص في شخص معين .

والمعروف في الأصول أنه لا يتعارض عام وخاص . لأن الخاص يقضي على العام كما هو

مذهب الجمهور ، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله ، كم بيناه في غير هذا الموضع .

فما أخرجه دليل خاص خرج من العموم ، وما لم يخرجه دليل هاص بقي داخلاً في العموم . كما تقرر في الأصول .

واجاب المانعون بأن هذا التخصيص يبطل حكمه العام . لأن الله جل وعلا تمدح بكمال الإنصاف . وأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذب بإنذار الرسل في دار الدنيا ، واشار لأن ذلك الإنصاف الكامل ، والإعذار الذي هو قطع العذر عله لعدم التعديب . فلو عذب إنسانا واحداً من غير إنذار لأختلت تلك الحكمة التي تمدح الله بها ، ولثبتت لذلك الإنسان الحجة التي أرسل الله الرسل لقطعها . كما بينه بقوله : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [طه : 134] كما تقدم إيضاحه .

وأجاب المخالفون عن هذا – بأنه لو سلم أن عدم الإنذار في دار الدنيا علة لعدم التعذيب في الآخرة ، وحصلت علة الحكم التي هي عدم الإنذار في الدنيا ، مع فقد الحكم الذي هو عدم التعذيب في الآخرة للنص في الأحاديث على التعذيب فيها . فإن وجود علة الحكم مع فقد الحكم المسمى في اصطلاح أهل الأصول ، وعقد الأقوال في ذلك صاحب " مراقي السعود " بقوله في مبحث القوادح :

منها وجود الوصف دون الحكم . . . سماه بالنقض وعاة العلم

والأكثرون عندهم لا يقدح . . . بل هو تخصيص وذا مصحح

وقد روي عن مالك تخصيص . . . أن يك الاستنباط لا التنصيص

وعكس هذا قد رآه البعض . . . ومنتقى ذي الاختصار النقض

إن لم تكن منصوصة بظاهر . . . وليس فيما استنبطت بضائر

إن جار لفقد الشرط أو لما منع . . . والوفق في مثل العرايا قد وقع

فقد أشار في الأبيات إلى خمسة أقوال في النقض : هل هو تخصيص ، أو إبطال للعلة ، مع التفاصيل التي ذكره في الأقوال المذكورة .

واختار بعض المحققين من أهل الأصول : ان تخلف الحكم عن الوصف إن كان لأجل مانع منع من تأثير العلة ، أو لفقد شرط تأثيرها فهم تخصيص للعلة ، وإلا فهو نقض وإبطال لها .

فالقتل العمد العدوان علة لوجوب القصاص إجماعاً .

فإذا وجد هذا الوصف المركب الذي هو القتل العمد العدوان ، ولم يوجد الحكم الذي هو القصاص في قتل الوالد ولده لكون الأبوة مانعاً من تاثير العلة في الحكم – فلا يقال هذه العلة

منقوضة .

لتخلف الحكم عنها في هذه الصورة ، بل هي علة منع من تاثيرها مانع . فيخصص تاثيرها بما لم يمنع منه مانع .

وكذلك من زوج أمته من رجل ، وعره فزعم له أنها حرة فولد منها . فإن الولد يكون حراً ، مع أن رق الأم علة لرق الولد إجماعاً . لأن كل ذات رحم فولدها بمنزلتها . لأن الغرور مانع منع من تأثير العلة التي هي رق الأم في الحكم الذي هو رق الولد .

وكذلك الزنى : فإنه علم للرجم إجماعاً .

فإذا تخلف شرط تأثير هذه العلة التي هي الزنى في هذا الحكم الذي هو الرجم ، ونعني بذلك الشرط الإحصان . فلا يقال إنها علة منقوضة ، بل هي علة تخلف شرط تاثيرها .

وأمثال هذا كثيرة جداً . هكذا قاله بعض المحققين .

(125/452)

قال مقيده عفا الله عنه : الذي يظهر : أن آية " الحشر " دليل على أن النقض تخصيص للعلة مطلقاً ، والله تعالى أعلم . ونعني بآية " الحشر " قوله تعالى في بني النضير : ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار ﴾ [الحشر : 3] .

ثم بين جل وعلا علة هذا العقاب بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الحشر : 4] الآية . وقد يوجد بعض من شاق الله ورسوله ، ولم يعذب بمثل العذاب الذي عذب به بو النضير ، مع الاشتراك في العلة التي هي مشاقة الله ورسوله .

فدل ذلك على أن تخلف الحكم عن العلة في بعض الصور تخصيص للعلة لا نقض لها . والعلم عند الله تعالى .

أما مثل بيع التمر اليابس بالرطب في مسألة بيع العرايا فهو تخصيص للعلة إجماعاً لا نقض لها . كما أشار له في الأبيات بقوله :

والوفق في مثل العرايا قد وقع . . . قال مقيده عفا الله عنه : الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة التي هي : هل يعذ المشركون بالفترة أو لا ؟ هو أنهم معذورون بالفترة في الدنيا ، وان الله يوم القيامو يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها . فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا . ومن امتنع دخل النار وعذب فيها ، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا . لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل .

وإنما قلنا : إن هذا هو التحقيق في هذه المسألة لأمرين :

الأول – أن هذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبوته عنه نص في محل النزاع . فلا وجه للنزاع ألبتة مع ذلك .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية التي نحنح بصددها ، بعد أن ساق الأحاديث الكثيرة الدالة على عذرهم بالفترة وامتحانهم يوم القيامة ، رادا على ابن عبد البر تضعيف أحاديث عذرهم وامتحانهم ، بأن الآخرة دار جزاء لا عمل ، وأن التكليف بدخول النار تكليف بما لا يطاق وهو لا يمكن – ما نصه :

والجواب عما قال : أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك من أئمة العلماء ، ومنها ما هو حسن ، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن .

وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط ، أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله : إن الدار الآخرة دار جزاء ، فلا شك أنها دار جزاء ، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار . كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال ، وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ [القلم : 42] الآية .

وقد ثبت في الصحاح وغيرها : " أن المؤمنون يسجدون لله يوم القيامة ، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ، ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً ، كلما أراد السجود خر لقفاه " . وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها : " أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه الا يسال غير ما هو فيه ، ويتكرر ذلك منه ، ويقول الله تعالى : يا ابن آدم ، ما أعذرك ! ثم يأذن له في دخول الجنة " وأما قوله : فكيف يكلفهم الله دخول النار ، وليس في وسعهم ؟ فليس هذا بمانع من صحة الحديث . " فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجوازظ على الصراط وهو جسر على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر ، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم ، كالبق ، وكالريح ، و : كأجاويد الخيل والركاب . ومنهم الساعين ومنهم الماشي ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم المكدوس على وجهه في النار " وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا ، بل هذا أطم وأعظم !

وأيضاً - فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإن يكون عليه برداً وسلاماً . فهذا نظير ذلك .

وأيضاً - فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم . فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غذاة واحدة سبعين ألفاً ، يقتل الرجل أباه وأخاه ، وهو في عماية غمامة أرسلها الله عليهم . وذلك عقوبة لهم على عبادة العجل . وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا

يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير بلفظه .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى أيضاً قبل هذا الكلام بقليل ما نصه :

ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامو في عرصات المحشر . فمن أطاع دخل الجنة ، وانكشف علم الله فيه بسابق السعادة . ومن عصى دخل النار داخراً ، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة .

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها ، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة ن الشاهقد بعضها لبعض .

وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب (الاعتقاد ﴾ وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد . انتهى محل الغرض من كلام ابن كثير رحمه الله تعالى ، وهو واضح جداً فيما ذكرنا .

الأمر الثاني – ان الجمع بين الأدلة واجب متى أمكن بلا خلاف . لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما . ولا وجه للجمع بين الأدلة غلى هذا القول بالعذر والامتحان . فمن

دخل النار هو الذي لم يمتثل ما أمر به عند الامتحان ويتفق بذلك جميع الأدلة ، والعلم عند الله تعالى .

ولا يخفى أن مثل قوله ابن عبد البر رحمه الله تعالى : إن اخرة دار جزاء لا دار عمل -لا يصح ان ترد به النصوص الصحيحة الثابتة عن النّبي صلى الله عليه وسلم . كما أوضحنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ﴾

في معنى قوله ﴿ أمّرنا مترفيها ﴾ في هذه الآية الكريمة ثلاثة مذاهب معروفة عند علماء التفسير :

الأول – وهو الصواب الذي يشهد له القرآن ، وعليه جمهور العلماء – أن الأمر في قوله ﴿ أمرنا ﴾ هو الأمر الذي هو ضد النهين وأن نتعلق الأمر محذوف لظهوره . والمعنى ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ بطاعة الله وتوحيده ، وتصديق رسله وأتباعهم فيما جاؤوا به ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ اي خرجوا عن طاعة أمر ربهم ، وعصوه وكذبوا رسله ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا القول ﴾ اي وجب عليها الوعيد ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أي أهلكناها إهلاكاً مستاصلا . وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم .

وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة. كقوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَاحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف: 28] الآية. فتصريحه جل وعلا بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل وضح على أنه قوله ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا ﴾ أي أمرناهم بالطاعة فعصوا. وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا. لأن الله لا يأمر بالفحشاء.

ومن الآيات الدالة على هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: 34-35]. فقول في هذه الآية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ الآية. لفظ عام في جميع المترفين من جميع المترفين من جميع القرى أن الرسل أمرتهم بطاعة الله فقالوا لهم: إنا بما أرسلتم به كافرون، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبهذا التحقيق تعلم: أن ما زعمه الزمخشري في كشافه من أن معنى ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي أمرناهم بالفسق ففسقوا. وأن هذا مجاز تنزيلاً لإسباغ النعم عليهم الموجب لبطرهم وكفرهم منزلة الأمر بذلك – كلام كله ظاهر السقوط والبطلان. وقد اوضح إبطاله أبو حيان في "البحر"، والرازي في تفسيره، مع أنه لا يشك منف عارف في بطلانه.

وهذا القول الصحيح في الآية جار على الأسلوب العربي المالوف، من قولهم: أمرته فعصاني. اي أمرته بالطاعة فعصى. وليس المعنى: امرته بالعصيات كما لا يخفى.

(130/452)

القول الثاني في الآية - هو أن الأمر في قوله أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ امر كوني قدري، اي قدرنا عليهم ذلك وسخرناهم له. لأن كلاً ميسر لما خلق له. والأمر الكوني القدري كقوله ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ [القمر: 50]، وقوله ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف: 166]، وقوله ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [يونس: 24]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82].

القول الثالث في الآية - أن "أَمَرْنَا" بمعنى أكثرنا. أي أكثرنا مترفيها ففسقوا

وقال أبو عبيدة ﴿ أمرنا ﴾ بمعنى أكثرنا لغة فصيحة كآمرنا بالمد.

ويدل لذلك الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير مال امرىء مهوة مأمورة، أو سكة مأبورة".

قال ابن كثير: قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه (الغريب): المأمورة: كثيرة النسل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: من التأبير، وهو تعليق

طلع الذكر على النخلة لئلا يسقط ثمرها . ومعلوم إن إتيان المأمورة على وزن المفعول يدل على أن أمر بفتح الميم مجردا عن الزوائد ، متعد بنفسه إلى المفعول . فيتضح كون أمره بمعنى أكثر . وأنكر غير واحد تعدى أمر الثلاثي بمعنى الإكثار إلى المفعول وقالوا : حديث سويد بن هبيرة المذكور من قبيل الأزدواج ، كقولهم : الغدايا والعشايا ، وكحديث " ارجعن مأزورا غير مأجورات " أن الغدايا لا يجوز ، وإنما ساغ للازدواج مع العشايا ، وكذلك مازورات بالهمز فهو على غير الأصل . لأن المادة من الوزر بالواو . غلا أن الهمز في قوله " مأزورات " للازدواج مع " مأجورات " .

(131/452)

والازدواج يجوز فيه ما لا يجوز في غيره كما هو معلوم . وعليه فقوله " مأمورة " إتباع لقوله " مأبورة " وإن كان مذكوراً قبله للمناسبة بين اللفظين .

وقال الشيخ أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : قوله تعالى ﴿ أمرنا ﴾ قرأ أو عثمان النهدي ، وأبو رجاء ، وأبو العالية ، والربيع ، ومجاهد ، والحسن " أمرنا " بالتشديد . وهي قراءة علي رضي الله عنه . أي سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم .

وقال أبو عثمان النهدي " أمَّرنا " بتشديد الميم : جعلناهم أمراء مسلطين .

وقاله ابن عزيز : وتأمر عليهم تسلط عليهم . وقرأ الحسن أيضاً ، وقتادة ، و وأبو حيوة الشامي ، ويعقوب وخارجة عن نافع ، وحماد بن سلمة عن أبن كثير وعلي وابن عباس باختلاف عنهما " آمرنا " بالمد والتخفي . اي أكثرنا جبابرتها وأمراءها . قاله الكسائي .

وقال أبو عبيدة : " آمرته – بالماد – وأمرته لغتان بمعنى أكثرته . ومنه الحديث " خير المَال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة " أي كثيرة النتاج والنسل . وكذلك قال ابن عزيز : أمرنا وأمرنا بمعنى واحد . أي أكثرنا . وعن الحسن ايضاً ، ويحيى بن يعمر : امرنا – بالقصر وكسر الميم – على فعلنا ، ورويت عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا ، وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد . وأنكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد ، وأصلها أأمرنا فخفف – حكاه المهدوي .

وفي الصحاح : قال أبو الحسن : أمر ماله – بالكسر – أي كثر . وأمر القوم : اي أكثروا . قال الشاعر وهو الأعشى :

طرفون ولادون كل مبارك . . . أمرون لا يرثون شهو القعدد

وآمر الله ماله – بالمد . الثعلبي : ويقال للشيء الكثير أمر . والفعل منه أمر القوم يأمرون أمراً : إذا كثروا .

قال بان مسعود : كنا نقول في الجاهلية لحي إذا كثروا : أمر أمر بني فلان : قال لبيد :

كل بني حرة مصيرهم . . . قل وإن أكثرت من العدد

إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا . . . يوماً يصيروا للهكل والنكد

(132/452)

قلت : وفي حديث هرقل الحديث الصحيح . لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بني الأصفر . اي كثر . وكهلا غير متعد ، ولذلك أنكره الكسائي . والله أعلم .

قال المهدوي : ومن قرأ أمر فهي لغة . ووجه تعدية أمر أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شيء إلى العمارة . فعدى كما عدى عمر – إلى أن قال : وقيل أمرناهم جعلناهم أمراء . لأن العرب تقول : أمير غير مامور ، اي غير مؤمر . وقيل معناه : بعثنا مستكبريها . قال هارون : وهي قراءة أبي : بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا فيها – ذكره الماوردي .

وحكى النحاس : وقال هارون في قراءة أبي : وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول اه محل الغرض من كلام القرطبي .

وقد علمت أن التحقيق الذي دل عليه القرآن أن معنى الآية : أمرنا مترفيها بالطاعة فعصوا أمرنا . فوجب عليهم الوعيد فأهلكناهم كما تقدم إيضاحه .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف ، وهو أن يقال : إن الله اسند الفسق فيها لخصوص المترفين دون غيره في قوله ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء : 16] مع لأأنه ذكر عموم الهلاك للجميع المترفين وغيرهم في قوله ﴿ فَحَقّ عَلَيْهَا القول فدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء : 16] يعني القرية ، ولم يستثن منها غير المترفين ؟

والجواب م وجهين :

(133/452)

الأول – أن غير المترفين تبع لهم . وإنما خص بالذكر المترفين الذين هلم سادتهم وكبراؤهم . لأن غيرهم تبع لهم . كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] ، وكقوله ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ﴾ [البقرة : 166] الآية ، وقوله : ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا ﴾ [الأعراف : 38] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ للَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : 21] . الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي

النار فَيَقُولُ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تبعا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ [غافر : 47] إلى غير ذلك من الآيات .

الوجه الثاني - أن بعضهم إن عصى الله وبغى وطغى ولم ينههم الآخرون فإن الهلاك يعم الجميع . كما قال تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] ، وفي الصحيح من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها : أنها لما سمعت النّبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرٍّ قد اقتربْ ، فتح اليوم من ردم ياجوج وماجود مثل ، هذه " - وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها قالت له : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم ، إذا كثر الخبث " وقد قدمنا هذا المبحث موضحاً في سورة المائدة .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) ﴾

(134/452)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : انه أهلك كثيراً من القرون من بعد نوح . لأن لفظة ﴿ كم ﴾ في قوله ﴿ وكم أهلكنا ﴾ خبرية ، معناها الإخبار بعدد كثير . وأنه جل وعلا خبير بصير بذنوب عباده . وأكد ذلك بقوله ﴿ وكفى بِرَبِّكَ ﴾ الآية .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحته آيات آخر من أربع جهات :

الأولى – أن في الآية تهديداً لكفار مكة ، وتخويفاً لهم من أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم من الأمم التي كذبت رسلها . أي أهلكنا قروناً من بعد نوح بسبب تكذيبهم الرسل ، فلا تكذبوا رسولنا لئلا نفعل بكم مثل ما فعلنا بهم .

والآيات التي أوضحت هذا المعنى كثيرة . كقوله في قوم لوط ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137-138] ، وكقوله فيهم أيضاً : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 75-76] ، وقوله فيهم ايضاً : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 35] ، وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : 10] ، وقوله بعد ذكره جل وعلا إهلاكه لقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب في سورة الشعراء : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 8] ، وقوله في قوم موسى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ [النازعات : 26] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ [هود : 103] الآية ، وقوله : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ والذين مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [الدخان : 37] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على تخويفهم بما وقع لمن قبلهم .

الجهة الثانية – ان هذه القرون تعرضت لبيانها آيات أخر . فبينت كيفية إهلاك قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وفرعون وقومه من قوم موسى ، وذلك مذكور في مواضع متعددة معلومة من كتاب الله تعالى . وبين أن تلك القرون كثيرة في قوله : ﴿ وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَابَ الرس وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 38] وبين في موضع آخر : ان منها ما لا يعلمه إلا الله جل وعلا ، وذلك في قوله في سورة إبراهيم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ [إبراهيم : 9] الآية . وبين في موضعين آخرين ان رسلهم منهم من قص خبره على نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من لم يقصصه عليه . وهما قوله في سورة النساء : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] ، وقوله في سورة المؤمن : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [غافر : 78] .

الجهة الثالثة – ان قوله ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : 17] يدل على أن القرون التي كانت بين آدم ونو أنها على الإسلام .

كما قال ابن عباس : كانت بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام – نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية .

(136/452)

وهذا المعنى تدل عليه آيات أخر . كقوله ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة : 213] الاية ، وقوله . ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ [يونس : 19] الآية . لأن معنى ذلك على أصح الأقوال أنهم كانوا على طريق الإسلام ، حتى وقع ما وقع من قوم نوح من الكفر . فبعث الله النَّبيين ينهون عن ذلك الكفر ، مبشرين من أطاعهم بالجنة ، ومنذرين من عصاهم بالنار . وأولهم في ذلك نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ويدل على هذا قوله : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ [النساء : 163] الآية . وفي أحاديث الشفاعة الثابتة في الصحاح وغيرها أنهم يقولون لنوح : إنه أول رسلو بعثه الله لأهل الأرض كما قدمنا ذلك في سورة البقرة .

الجهة الرابعة – أن قوله ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : 17] فيه أعظم زجر عن ارتكاب ما لا يرضي الله تعالى .

والآيات الموضحة لذلك كثيرة جداً . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وقوله : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] ، وقوله : ﴿ واعلموا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا في أَنْفُسِكُمْ فاحذروه ﴾ [البقرة : 235] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وقد قدمنا هذا المبحث موضحاً في أول سورة هود . ولفظة ﴿ كم ﴾ في هذه الآية الكريمة في محل نصب مفعول به ﴿ لإهلكنا ﴾ و ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من القرون ﴾ بيان لقوله ﴿ كم ﴾ وتمييز له كما يميز العدد بالجنس . وأما لفظة " من " في قوله ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : 17] فالظاهر أنها للبتداء الغاية ، وهو الذي اختاره أبو حيان في " البحر " . وزعم الحوفي أن ﴿ من ﴾ الثانية بدل من الأولى ، ورده عليه أبو حيان . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 3 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى: ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . . ﴾ [الإسراء: 15]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، وهو سبحانه الغنيّ عن عباده، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذي جعله خليفة له في أرضه، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوّمات الحياة كلها من أرض وسماء، وشمس وقمر، وهواء وجبال ومياه.

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق، إذن: فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً، كما أن معصيتهم لن تضره سبحانه في شيء.

وهنا قد يسأل سائل: فلماذا التكليفات إذن؟

نقول: إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفي صالحهم، لكي تستمر حركة حياتهم، وتتساند ولا تتعاند؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه منهجاً نسير عليه، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله، من الخالق الذي يعلم من خلق، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم، فلو كان منهج بشر لبشر لكان لك أنْ تتأبى عليه، أما منهج الله فلا ينبغي الخروج عليه.

لذلك نسمع في الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون: الأصبع الذي يقطعه الشرع لا ينزف، والمعنى أن الشرع هو الذي أمر بذلك، فلا اعتراض عليه، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا ولم تقعُدْ.

ومن كماله سبحانه وغِنَاهُ عن الخَلْق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم من أحكام أو تجنٍّ أو

تقصير ؛ ذلك لأن كل شيء عنده بمقدار ، ولا يُقضى أمر في الأرض حتى يُقضى في السماء ، فإذا كلَّفْتَ واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصّر في قضائها ، أو رفض ، أو سعى فيها ولم يُوفّق نجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمّل الخالق سبحانه عن عباده ، ويُعفيهم من هذا الحرج ، ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فلكل شيء ميلاد ، ولا داعيَ لأنْ نسبق الأحداث ، ولننتظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

(139/452)

ومن هنا يُعلّمنا الإسلام قبل أن نَعِد بعمل شيء لا بُدَّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا ـ إذن ـ في حماية المشيئة الإلهية إنْ وُفّقْتُ فبها ونِعمت ، وإن عجزت فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن: تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضِّغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكأن الحق سبحانه يقول لك: تمهل فكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيتَ حاجتك فاعلم أن الذي كلَّفْته بها ما قضاها لك في

الحقيقة، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة، فجاءت على يديه، فالخير في الحقيقة من الله، والناس أسباب لا غير.

وتتضح لنا هذه القضية أكثر من مجال الطب وعلاج المرضى، فالطبيب سبب، والشفاء من الله، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان.

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة، فيقول أحدهم: ليس لنا إلا في (الخضرة).

والخضرة معناها: الحالة الناجحة التي حان وقت شفائها.

وصدق الشاعر حين قال: والناسُ يلْحون الطَّبِيبَ وإنَّما خَطَأُ الطَّبِيبِ إصَابَةُ الأَقْدَارِ فقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . . ﴾ [الإسراء: 15] أي: لصالح نفسه.

والاهتداء: يعني الالتزام بمنهج الله، والتزامك عائد عليك، وكذلك التزام الناس بمنهج الله عائد عليك أيضاً، وأنت المنتفع في كل الأحوال بهذا المنهج؛ لذلك حينما ترى شخصاً مستقيماً عليك أن تحمد الله، وأن تفرحَ باستقامته، وإياك أن تهزأ به أو تسخر منه؛ لأن استقامته ستعود بالخير عليك في حركة حياتك.

وفي المقابل يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . . ﴾ [الإسراء: 15]

أي: تعود عليه عاقبة انصرافه عن منهج الله؛ لأن شرَّ الإنسان في عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله، فيشقى هو بشرّه، ويشقى به المجتمع.

ومن العجب أن نرى بعض الحمقى إذا رأى مُنحرفاً أو سيء السلوك ينظر إليه نظرة بُغْض وكراهية، ويدعو الله عليه، وهو لا يدري أنه بهذا العمل يزيد الطين بلة، ويُوسِّع الخُرْق على الراقع كما يقولون.

فهذا المنحرف في حاجة لمَنْ يدعو الله له بالهداية، حتى تستريح أولاً من شرِّه، ثم لتتمتع بخير هدايته ثانياً. أما الدعاء عليه فسوف يزيد من شرِّه، ويزيد من شقاء المجتمع به.

ومن هذا المنطلق علَّمنا الإسلام أن مَنْ كانت لديه قضية علمية تعود بالخير، فعليه أنْ يُعديها إلى الناس؛ لأنك حينما تُعدّي الخير إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم، فكما انتفعوا هم بآثار خِلالك الحميدة، فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم.

لذلك حرّم الإسلام كَتْم العلم لما يُسبّبه من أضرار على الشخص نفسه وعلى المجتمع.

يقول صلى الله عليه وسلم: "من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة".

وكذلك من الكمال الذي يدعونا إليه المنهج الإلهي أن يُتقِن كل صاحب مهنة مهنته، وكل

صاحب صَنْعة صَنْعته، فالإنسان في حركة حياته يُتقِن عملاً واحداً، لكن حاجاته في الحياة كثيرة ومتعددة.

فالخياط مثلاً الذي يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة، وهو يحتاج في حياته إلى مِهَن وصناعات كثيرة، يحتاج إلى: الطبيب والمعلم والمهندس والحداد والنجار والفلاح.. الخ.

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسخّر الله له مَنْ يتقن له حاجته، ولو رَغْماً عنه، أو عن غير قصد، أو حتى بالمصادفة.

إذن: من كمالك أن يكون الناس في كمال، فإنْ أتقنتَ عملك فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً فسوف يُيسِّر الله لهم سبيل إتقان حاجتك، من حيث لا يريدون ولا يشعرون.

(141/452)

وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىا.. ﴾ [الإسراء: 15]

أي: لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ، ولا يُؤاخَذ أحدٌ بجريرة غيره، وكلمة: ﴿ تَزِرُ وَازِرَةٌ.. ﴾ [الإسراء: 15]

من الوزر: وهو الحِمْل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير: أي الذي يحمل الأعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك أو الأمير.

فعدْلُ الله يقتضي أنْ يُحاسب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمي أحد ذنبه على أحد ، كما قال تعالى: ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً . . ﴾ [لقمان: 33]

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون في القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىا . . ﴾ [الإسراء: 15]

وقالوا: كيف نُوفِّق بينها وبين قوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . . ﴾ [العنكبوت: 13]

وقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: 25]

ونقول: التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر في الآية الأولى ، والوِزْر في الآيتين الأخيرتين.

ففي الأولى وزر ذاتيٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضَلَّ هو في نفسه ، فيجب أنْ يتحمّل وِزْر ضلاله. أما في الآية الثانية فقد أضلَّ غيره ، فتحمّل وِزْره الخاص به ، وتحمّل وِزْر مَنْ أضلَّهم.

ويُوضِّح لنا هذه القضية الحديث النبوي الشريف: " من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15]

(142/452)

العذاب: عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أنْ تُعاقبني عليها لا بُدَّ أن تُعلِّمني أن هذه مخالفة أو جريمة (وهي العمل الذي يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمة إلا بنصٍ ينصُّ عليها ويُقنّنها ، ويُحدِّد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها في الجرائد الرسمية لكي يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إنْ خالفوا أو تعرَّضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى في القانون الوضعي نقول: لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان في أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أنْ نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترضَ عليك من

منطلق هذه الآية.

أما أنْ يُجرَّم هذا العمل، ويُعلَن عنه في الصحف الرسمية، فلا حجة لمَنْ جهله بعد ذلك؛ لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يُعفِي من العقوبة.

فكأن قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15] يجمع هذه الأركان السابقة: الجريمة، والعقوبة، والنص، والإعلام، حيث أرسل الله الرسول يُعلِّم الناس منهج الحق سبحانه، ويُحدِّد لهم ما جرمه الشرع والعقوبة عليه.

لذلك يقول تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24]

ويقول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ.. ﴾ [المائدة:19]

إذن: قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير صلى الله عليه وسلم.

وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا: إن كانت الحجة قد قامت على مَن آمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فما بال الكافر الذي لم يؤمن ولم يعلم منهج الله؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره.

نقول: لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركّبه فيه خالقه سبحانه من ميزان إيماني هو الفطرة ، هذه الفطرة هي المسئولة عن الإيمان بقوة قاهرة وراء الوجود ، وإنْ لم يأتِ رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية:

هَبْ أنك قد انقطعتْ بك السُّبل في صحراء واسعة شاسعة لا تجد فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فنمْتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

بالله أَلاَ تفكِّر في أمرها قبل أن تمتدّ يدُك إليها ؟ أَلاَ تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عَمَّنْ أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بُدَّ أنْ يهتديَ إلى أن للكون خالقاً مُبْدِعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليدَ المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التي خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقوّمات والإمكانيات ، وجدنا أمام أعيننا آياتٍ كثيرة دالّة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك . خذ مثلاً الشمس التي تنير الكون على بُعْدها تطلع في الصباح وتغرب في المساء ، ما تخلَّفتْ يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن موعدها ، أَلاَ تسترعي هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً بـ " أديسون " الذي اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام

والدراسة في حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهي عُرْضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التي لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه ؟

والعربي القُحُّ الذي ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْر البعير وآثار الأقدام استدلَّ بالأثر على صاحبه ، فقال في بساطة العرب : البَعْرة تدلّ على البعير ، والقدم تدلّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

(144/452)

إذن : بالفطرة التكوينية التي جعلها الله في الإنسان يمكن له أن يهتدي إلى أن للكون خالقاً ، وإنْ لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحينما يأتي رسول من عند الله يساعده في الوصول إلى ما يبحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقه ، وأن هذه القوة الخفية التي حيَّرتْك هي (الله) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومَن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ولم يعارضه أحد ولم يَدَّعِ

أحد أنه إله مع الله ، وبذلك سَلِمَتْ له سبحانه هذه الدعوى ؛ لأن صاحب الدعوة حين يدَّعيها تسلم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانية في الإنسان هي التي عناها الحق سبحانه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى . . ﴾ [الأعراف: 172]

وهذا هو العَهْد الإلهي الذي أخذه الله على خَلْقه وهم في مرحلة الذَّرِّ ، حيث كانوا جميعاً في آدم ـ عليه السلام ـ فالأَنْسَال كلها تعود إليه ، وفي كل إنسان إلى يوم القيامة ذرة من آدم ، هذه الذرة هي التي شهدتْ هذا العهد ، وأقرَّتْ أنه لا إله إلا الله ، ثم ذابتْ هذه الشهادة في فطرة كل إنسان ؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافر الذي أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنها ، وهي تدعوه إلى معرفة الله: كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرأيت الجوع أو لمسْتَه أو شَمَمْته؟ إنها الفطرة والغريزة التي جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالقه في حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته يُسبّح بحمد ربّه ، فذراتُ الكون وذراتُ التكوين في المؤمن وفي الكافر تُسبّح بحمد ربها ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . ﴾ [الإسراء: 44] فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسبّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنْسجماً مع نفسه مع تكوينه المادي .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذرّاته وأعضائه في ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذرّاته وأعضائه راضية عنه تُحبه وتُحب البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته في طاعة الله ، فترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعةً من ليل أو نهار تكفيه ذلك ؛ لأن أعضاءه في انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . ﴾ [الذاريات: 17]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه ، لأنه في انسجام تام مع إرادته صلى الله عليه وسلم .

وما أشبه الإنسان في هذه القضية بسيد شرس سيء الخُلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سُوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادي له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقته .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقادةً له لما طاوعتْه ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أنْ تفكّ من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتنطق بلسان مُبين ، وتشهد عليه بما اقترف في الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضاءه تريد أن ترتاح من شره .

(146/452)

ولا بُدّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان في تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَاكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . ﴾ [الإسراء: 44]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 79]

وهنا قد يقول قائل: ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسبّح الله بدون داود ؟

والميزة هنا لداود ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه في تسبيحه وكأنه (كورس) أو نشيد جماعي تتوافق فيه الأصوات ، وتتناغم بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ . . ﴾ [سبأ: 10]

أي: رَجِّعي معه ورَدِّدي التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أي لغته ، فكان يسمع النملة وهي تخاطب بني جنسها ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لِمَنْ يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ . . ﴾ [النمل: 19]

إذن: لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحينما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون: سبَّح الحصى في يد النبي صلى الله عليه وسلم نقول لهم: تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبِّح في يده صلى الله عليه وسلم كما يُسبِّح في يد أبي جهل ، لكن الميزة أنه صلى الله عليه وسلم سمع تسبيح الحصى في يده ، وهذه من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

والحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهي كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شيء دونك حياة أيضاً ، لكن ليستْ كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . ﴾ [القصص: 88]

فكل ما يُطلق عليه شيء مهما قَلَّ فهو هالك ، والهلاك ضد الحياة ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . ﴾ [الأنفال: 42] فدلَّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قوله الحق سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15]

فإن اهتدى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذي يُعْلِمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن: لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن الله ، ويُنبِّه الفطرة الغافلة عن وجوده تعالى .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يعطينا مثالاً لعاقبة الخروج عن منهج الله تعالى ؛ لأنه سبحانه حينما يُرسل رسولاً ليُبلِّغ منهجه إلى خَلْقه ، فلا عُذْرَ للخارجين عنه ؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ، الذي يستحق منا الطاعة والانقياد . وكيف يتقلب الإنسان في نعمة ربه ثم يعصاه ؟ إنه رَدٌّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذي يسوقه إليك ليل نهار ، بل في كل نَفَسٍ من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عُذْر لَمنْ خرج عنه ، ولذلك يقولون: " من يأكل لقمتي يسمع كلمتي " .

كما أن هذا المنعم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك في وقت مناسب ، في وقت استوت فيه ملكاتُكَ وقدراتُكَ ، وأصبحتَ بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربع في نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأَوْلَى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتُنفِّذه أمراً ونهياً ؛ لأنه سبحانه أوجدك من دم وأمدَّك من عُدم .

والمتأمل في قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يُكلِّف بعضاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا . . ﴾ [طه: 132]

وقد شرح لنا النبي صلى الله عليه وسلم هذه القضية فقال: " مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع ،

واضربوهم عليها لعشر " .

وهذا التكليف وإنْ كان في ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه في حقيقته من الله تعالى فهو الآمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول في هذه السن من القريب المباشر المحسّ أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسّة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فإذا ما كلفه أبوه كان أَدْعَى إلى الانصياع والطاعة ؛ لأن الولد في هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقي ، وهو الله تعالى .

لذلك أمر الأب أن يعوّد ولده على تحمُّل التكليف وأن يعاقبه إنْ قصّر ؛ لأن الآمر بالفعل هو الذي يُعاقب على الإهمال فيه . حتى إذا بلغ الولد سِنَّ التكليف الحقيقي من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْس بالتكليف وتعودٌ عليه ، وبذلك يأتي التكليف الإلهي خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

أما إن أخذتَ نِعم الله وانصرفتَ عن منهجه فطغيْتَ بالنعمة وبغيتَ فانتظر الانتقام ، انتظر أَخْذه سبحانه وسنته التي لا تتخلف ولا تُردُّ عن القوم الظالمين في الدنيا قبل الآخرة .

واعلم أن هذا الانتقام ضروري لحفظ سلامة الحياة ، فالناس إذا رأوا الظالمين والعاصين

والمتكبرين يرتعُونَ في نعَم الله في أمن وسلامة ، فسوف يُغريهم هذا بأن يكونوا مثلهم ، وأنْ يتخذوهم قدوة ومثلاً ، فيهم الفساد والظلم وينهار المجتمع من أساسه .

أما إنْ رَأَوْا انتقام الحق سبحانه من هؤلاء ، وشاهدوهم أذلّاء منكسِرينَ ، فسوف يأخذون منهم عبرة وعظة ، والعاقل مَنِ اعتبر بغيره ، واستفاد من تجارب الآخرين .

فالانتقام من الله تعالى لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ، وكم رأينا من أشخاص وبلاد حاقَ بهم سوء أعمالهم حتى أصبحوا عِبرةً ومُثْلة ومَنْ لم يعتبر كان عبرة حتى لمَنْ لم يؤمن ، وبذلك تعتدل حركة الحياة ، حيث يشاهد الجميع ما نزل بالمفسدين من خراب ودمار ، وإذا استقرأت البلاد في نواحي العالم المختلفة لتيسَّر لك الوقوف على هذه السُّنة الإلهية في بلاد بعينها ، ولاستطعْتَ أن تعزو ما حدث لها إلى أسباب واضحة من الخروج عن منهج الحق سبحانه .

وصدق الله حين قال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: 112]

وإياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه، فلابد أن يأتي اليوم الذي يأخذهم فيه أخْذَ عزيز مُقْتدر، وإلاَّ لكانت أُسْوة سيئة تدعو إلى الإفساد في حركة الحياة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء: 16]

الآفة أن الذين يستقبلون نصَّ القرآن يفهمون خطأ أن ﴿ فَفَسَقُواْ ﴾ مترتبة على الأمر الذي قبلها، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذي أمرهم بالفسق، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين، فتعالوا نرَ أوامر الله في القرآن: ﴿ وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.. ﴾ [البينة: 5]

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ.. ﴾ [النمل: 91]

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 72]

فأمْر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء، كما ذكر القرآن الكريم، وعلى هذا يكون المراد من الآية: أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا، ولكنهم خالفوا وعَصَوْا وفسقوا؛ لذلك حقَّ عليهم العذاب.

والأمر: طَلَب من الأعلى، وهو الله تعالى إلى الأدنى، وهم الخَلْق طلب منهم الطاعة والعبادة، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله.

قوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً . . ﴾ [الإسراء: 16]

من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا ؛ لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم. و ﴿ قَرْيَةً ﴾ أي أهل القرية.

وقوله: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ . . ﴾ [الإسراء: 16]

أي: وجب لها العذاب، كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ . . ﴾ [يونس: 33]

(151/452)

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلَم حركة الحياة، وليحمي المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً . . ﴾ [الإسراء: 16]

أي: خربناها، وجعلناها أثراً بعد عَيْن، وليستْ هذه هي الأولى، بل إذا استقرأتَ التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يبقى منها إلا آثاراً شاخصة شاهدة عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً ﴾ .

فأين عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح؟ إذن: فالآية قضية قولية، لها من الواقع ما يُصدّقها.

وقوله: ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ.. ﴾ [الإسراء: 17]

دلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فيما قبل نوح؛ لأن الناس كانوا قريبي عَهْد بخَلْق الله لآدم -عليه السلام- كما أنه كان يلقنهم معرفة الله وما يضمن لهم سلامة الحياة، أما بعد نوح فقد ظهر الفساد والكفر والجحود، فنزل بهم العذاب. الذي لم يسبق له مثيل.

قال تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 1-14]

ولنا وَقْفة سريعة مع هذه الآيات من سورة الفجر، فقد خاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: 6]

و﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى: ألم تعلم؛ لأن النبي لم ير ما فعله الله بعاد، فلماذا عدل السياق القرآني

عن: تعلم إلى ترَ؟

قالوا: لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته، ومثلها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل: 1]

حيث وُلِد رسول الله في عام الفيل، ولم يكن رأى شيئاً.

وفي آيات سورة (الفجر) ما يدلنا على أن حضارة عاد التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة التي لفتتْ أنظار العالم كله؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد: ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: 8]

(153/452)

أي: لا مثيلَ لها في كل حضارات العالم، في حين قال عن حضارة الفراعنة: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: 10] مجرد هذا الوصف فقط. وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ.. ﴾ [الإسراء: 17]

كَمْ: تدل على كثرة العدد.

والقرون: جمع قرن، وهو في الاصطلاح الزمني مائة عام، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً في الحياة، ولو على مبدأ من المبادئ، وتوارثه الناس فيما بينهم.

وقد يُطلَق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول: قرن نوح، قرن هود ، قرن فرعون . أي: الفترة التي عاشها .

وقوله: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً . . ﴾ [الإسراء: 17]

أي: أنه سبحانه غنيّ عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر: 19]

فلا يحتاج لمَنْ يخبره؛ لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل: طالما أن الله تعالى يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم ؟

نقول: لأن السؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين:

الأولى: كأنْ يسألَ الطالب أستاذه عن شيء لا يعلمه ، فالهدف أنْ يعلم ما جهل .

والأخرى: كأن يسأل الأستاذ تلميذه في الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعله شاهداً على نفسه ، كما قال: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾[الإسراء: 14]

وقوله تعالى: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ . . ﴾ [الإسراء: 17]

(154/452)

كما تقول: كفى بفلان كذا ، أي: أنك ترتضيه وتثقُ به ، فالمعنى: يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره ، وقد سبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى في يده كل السلطات حينما يقضي: السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، وهو سبحانه غنيّ عن الشهود والبينة والدليل .

إذن: كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً . ولأن الحق سبحانه خبير بصير بذنوب عباده ، فعقابه عَدْل لا ظلمَ فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(155/452)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى ينذره على ألسنة رسله

عليهم الصلاة والسلام، ونظيرها قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، ويؤيده تصريحه تعالى بأن كل أفواج أهل النار جاءتهم الرسل في دار الدنيا في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ الآية.

ومعلوم أنّ (كلما) صيغة عموم، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعمّ كل كافر، لما تقرر في الأصول من أن الموصولات من صيغ العموم، لعمومها كلّما تشمله صلاتها كما أشار له في مراقي السعود بقوله:

وقد تلا الذي التي الفروع

صيغة كل أو الجميع

ومعنى قوله: (وقد تلا الذي الخ.

.

) : أن (الذي) و(التي) وفروعها صيغ عموم ككل وجميع, ونظيره أيضا قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ فانه عام أيضاً ؛ لأن أول الكلام ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وأمثال هذا كثيرة في القرآن مع أنه جاء في بعض الآيات ما يفهم منه أن أهل الفترة في النار, كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ , فإن عمومها يدل على دخول من لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عموم قوله تعالى: ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ , وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ الآية.

إلى غير ذلك من الآيات.

اعلم أولا: أن من يأته نذير في دار الدنيا وكان كافرا حتى مات اختلف العلماء فيه هل هو من أهل النار لكفره أو هو معذور لأنه لم يأته نذير ؟ كما أشار له في مراقي السعود بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع

وفي الأصول بينهم نزاع

وسنذكر إن شاء الله جواب أهل كل واحد من القولين, ونذكر ما يقتضي الدليل رجحانه, فنقول: -وبالله نستعين- قد قال قوم: إن الكافر في النار ولو مات في زمن الفترة وممن جزم

بهذا القول النووي في شرح مسلم ؛ لدلالة الأحاديث على تعذيب بعض أهل الفترة, وحكى القرافي في (شرح التنقيح) الإجماع على أن موتى أهل الجاهلية في النار لكفرهم كما حكاه عنه صاحب (نشر البنود) وأجاب أهل هذا القول عن آية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ وأمثالها من ثلاثة أوجه:

الأول: إن التعذيب المنفي في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ وأمثالها هو التعذيب الدنيوي فلا ينافي ثبوت التعذيب في الآخرة, وذكر الشوكاني في تفسيره أن اختصاص هذا التعذيب المنفي بالدنيا دون الآخرة ذهب إليه الجمهور, واستظهر هو خلافه, ورد التخصيص بعذاب الدنيا بأنه خلاف الظاهر من الآيات, وبأن الآيات المتقدمة الدالة على اعتراف أهل النار جميعا بأن الرسل أنذروهم في دار الدنيا صريح في نفيه .

الثاني: أن محل العذر بالفترة المنصوص في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ الآية وأمثالها في غير الواضح الذي لا يلتبس على عاقل, أما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل كعبادة الأوثان فلا يعذر فيه أحد ؛ لأن جميع الكفار يقرّون بأن الله هو ربهم وهو خالقهم ورازقهم, ويتحققون أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع ولا على دفع ضر, لكنهم غالطوا أنفسهم

فزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى, وأنها شفعاؤهم عند الله مع أن العقل يقطع بنفي ذلك .

الثالث: أن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبله – صلى الله عليه وسلم – تقوم عليهم بها الحجة, ومال إليه بعض الميل ابن قاسم في (الآيات البينات) وقد قدمنا في سورة آل عمران أن هذا القول يرده القرآن في آيات كثيرة مصرحة بنفي أصل النذير عنهم كقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ , وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ , إلي غير ذلك من الآيات .

(158/452)

وأجاب القائلون بأن أهل الفترة معذورون عن مثل قوله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ – إلى قوله – ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من الآيات المتقدمة, بأنهم لا يتبين أنهم من أصحاب الجحيم ولا يحكم لهم بالنار, ولو ماتوا كفارا إلا بعد إنذارهم وامتناعهم من الإيمان كأبي طالب, وحملوا الآيات المذكورة على هذا المعنى, واعترض هذا الجواب بما ثبت في الصحيح من دخول بعض أهل الفترة النار كحديث "إن أبي وأباك في النار" الثابت

في صحيح مسلم وأمثاله من الأحاديث, واعترض هذا الاعتراض بأن الأحاديث – وإن صحت – فهي أخبار آحاد يقدم عليها القاطع كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ , واعترض هذا الاعتراض أيضا بأنه لا يتعارض عام وخاص فما أخرجه حديث صحيح خرج من العموم وما لم يخرجه نص صحيح بقي داخلا في العموم, واعترض هذا الاعتراض أيضاً بأن هذا التخصيص يبطل علة العام؛ لأن الله تعالى تمدح بكمال الإنصاف, وصرح بأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذب بإنذار الرسل في دار الدنيا , وبيّن أن ذلك الإنصاف التام علة لعدم التعذيب, فلو عذب إنسانا واحدا من غير إنذار لاختلت تلك الحكمة ولثبتت لذلك المعذب الحجة التي بعث الله الرسل لقطعها كما صرح به في قوله: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وهذه الحجة بيّنها في سورة طه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الآية, وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ , وهذا الاعتراض الأخير يجري على الخلاف في النقض هل هو قادح في العلة أو تخصيص لها ؟ وهو اختلاف كثير معروف في الأصول عقده في مراقي السعود بقوله: – في تعداد القوادح في الدليل – :

منها وجود الوصف دون الحكم

سماه بالنقض وعاة العلم

والأكثرون عندهم لا يقدح

بل هو تخصيص وذا مصحح

وقد روى عن مالك تخصيص

إن يك الاستنباط لا التنصيص

وعكس هذا قد رآه البعض

ومنتقى ذي الاختصار النقض

إن لم تكن منصوصة بظاهر

وليس فيما استنبطت بضائر

إن جاء لفقد الشرط أو لما منع

والوفق في مثل العرايا قد وقع

والمحققون من أهل الأصول على أن عدم تأثير العلة إن كان لوجود مانع من التأثير أو انتفاء شرط التأثير فوجودها مع تخلف الحكم لا ينقضها ولا يقدح فيها وخروج بعض أفراد الحكم حينئذ تخصيص للعلة لا نقض لها كالقتل عمدا عدوانا فانه علة القصاص إجماعا ولا يقدح

في هذه العلة تخلف الحكم عنها في قتل الوالد لولده لأن تأثيرها منع منه مانع هو الأبوة وأما إن كان عدم تأثيرها لا لوجود مانع أو انتفاء بشرط فانه يكون نقضا لها وقدحا فيها ولكن يرد على هذا التحقيق ما ذكره بعض العلماء من أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ﴾ علة منصوصة لقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُم﴾ الآية, مع أن هذه العلة قد توجد ولا يوجد ما عذب به بنو النضير من جلاء أو تعذيب دنيوي وهو يؤيد كون النقض تخصيصا مطلقا لا قدحاً .

ويجاب عن هذا بأن بعض المحققين من الأصوليين قال: إن التحقيق المذكور محله في العلة المستنبطة دون المنصوصة وهذه منصوصة كما قدمنا ذلك في أبيات مراقي السعود في قوله:

وليس فيما استنبطت بضائر . . .

إن جاء لفقد الشرط أو لما منع

هذا ملخص كلام العلماء وحججهم في المسألة, والذي يظهر رجحانه بالدليل هو الجمع بين الأدلة ؛ لان الجمع واجب إذا أمكن بلا خلاف كما أشار له في المراقي بقوله: والجمع واجب متى ما أمكنا .

.

الخ . .

ووجه الجمع بين هذه الأدلة هو عذرهم بالفترة وامتحانهم يوم القيامة بالأمر باقتحام نار فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا ومن امتنع عذب بالنار وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا لان الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل وبهذا الجمع تتفق الأدلة فيكون أهل الفترة معذورين, وقوم منهم من أهل النار بعد الامتحان, وقوم منهم من أهل الجنة بعده أيضا , ويحمل كل واحد من القولين على بعض منهم علم الله مصيرهم, وأعلم به نبيه صلى الله عليه وسلم ، فيزول التعارض .

والدليل على هذا الجمع ورود الأخبار به عنه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ بعد أن ساق طرق الأحاديث الدالة على عذرهم وامتحانهم يوم القيامة رادّا على ابن عبد البر تضعيف أحاديث عذرهم وامتحانهم ما نصه: "والجواب عما قال, إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء , ومنها ما هو حسن, ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح و الحسن, و إذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها" انتهى محل الغرض منه بلفظه,

ثم قال "إن هذا قال به جماعة من محققي العلماء والحفاظ والنقاد وما احتج به البعض لرد هذه الأحاديث من أن الآخرة دار جزاء لا دار عمل وابتلاء فهو مردود من وجهين: الأول أن ذلك لا ترد به النصوص الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم ولو سلمنا عموم ما قال من أن الآخرة ليست دار عمل لكانت الأحاديث المذكورة مخصصة لذلك العموم.

(161/452)

الثاني: أنا لا نسلم انتفاء الامتحان في عرصات المحشر بل نقول دل القاطع عليه؛ لأن الله تعالى صرّح في سورة القلم بأنهم يُدعون إلى السجود في قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآية ومعلوم أن أمرهم بالسجود تكليف في عرصات المحشر, وثبت في الصحيح أن المؤمنين يسجدون يوم القيامة وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً كلما أراد السجود خرّ لقفاه, وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه, ويتكرر ذلك مرارا, ويقول الله تعالى يا ابن آدم ما أغدرك ثم يأذن له في دخول الجنة, ومعلوم أن تلك العهود والمواثيق تكليف في عرصات

المحشر والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 178. 186 ﴾

(162/452)

" فصل "

قال السيوطى:

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة: المعتوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام، ثم أرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار، فيقولون كيف؟ ولم تأتنا رسل! قال: وايم الله، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ثم يرسل إليهم، فيطيعه من كان يريد أن يطيعه. قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾.

وأخرج إسحق بن راهويه وأحمد وابن حبان وأبو نعيم في المعرفة والطبراني وابن مردويه والبيهقي في كتاب الاعتقاد، عن الأسود بن سريع - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله

عليه وسلم : " أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في الفطرة ، فأما الأصم ، فيقول : رب ، لقد جاء الإسلام ، وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق ، فيقول : رب ، جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب ، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفطرة فيقول : رب ، ما آتاني لك رسول . فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه ، ويرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار . قال : فوالذي نفس محمد بيده ، لو دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها سحب إليها " .

وأخرج ابن راهويه وأحمد وابن مردويه والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مثله ، غير أنه قال في آخره : فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها سحب إليها .

وأخرج قاسم بن أصبغ والبزار وأبو يعلى وابن عبد البر في التمهيد ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى يوم القيامة بأربعة : بالمولود والمعتوه ومن مات في الفترة والشيخ الهرم الفاني ، كلهم يتكلم بحجته ، فيقول الرب تبارك وتعالى : لعنق من جهنم أبرزي ، ويقول لكم : إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم ، وإني

رسول نفسي إليكم . فيقول لهم : ادخلوا هذه ، فيقول : من كتب عليه الشقاء يا رب ؟ أندخلها ومنها كنا نفر ؟ ! قال : وأما من كتب له السعادة فيمضي فيها ، فيقول الرب : قد عاينتموني فعصيتموني ، فأنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية ، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والطبراني وأبو نعيم ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً ، وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيراً ، فيقول الممسوخ عقلاً : يا رب ، لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد بعقله مني ، ويقول الهالك في الفترة رب لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهدك مني ، ويقول الهالك صغيراً : يا رب ، لو آتيتني عمراً ما كان من أتيته عمراً بأسعد بعمره مني ، فيقول الرب : - تبارك وتعالى - فإني آمركم بأمر أفتطيعوني ؟ فيقولون : نعم وعزتك ، فيقول لهم : اذهبوا فادخلوا جهنم ، ولو دخلوها ما ضرتهم شيئاً ، فخرج عليهم قوابص من نار يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، فيرجعون سراعاً ويقولون : يا ربنا ، خرجنا وعزتك نريد دخولها ، فخرجت علينا قوابص من نار ، ظننا أن قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، ثم يأمرهم ثانية ، فيرجعون كذلك ويقولون : كذلك ، فيقول الرب : خلقتكم على علمي ، وإلى علمي تصيرون ، ضميهم ، فتأخذهم النار " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي صالح رضي الله عنه قال : يحاسب يوم القيامة الذين أرسل إليهم الرسل ، فيدخل الله الجنة من أطاعه ، ويدخل النار من عصاه ، ويبقى قوم من الولدان والذين هلكوا في الفترة ، فيقول : وإني آمركم أن تدخلوا هذه النار ، فيخرج لهم عنق منها ، فمن دخلها كانت نجاته ، ومن نكص فلم يدخلها كانت هلكته .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه : " أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أتاه رجل فسأله عن ذراري المشركين الذين هلكوا صغاراً ؟ فوضع رأسه ساعة ثم قال : أين السائل ؟ فقال : ها أنا يا رسول الله ، فقال : " إن الله تبارك وتعالى إذا قضى بين أهل الجنة والنار لم يبق غيرهم عجّوا ، فقالوا : اللهم ربنا ، لم تأتنا رسلك ولم نعلم شيئاً ، فأرسل إليهم ملكاً ، والله أعلم بما كانوا عاملين ، فقال : إني رسول ربكم إليكم ، فانطلقوا فاتبعوا حتى أتوا النار ، فقال : إن الله يأمركم أن تقتحموا فيها ، فاقتحمت طائفة منهم ، ثم أخرجوا من حيث لا يشعر أصحابهم ، فجعلوا في السابقين المقربين ، ثم جاءهم الرسول فقال : إن الله يأمركم أن تقتحموا في النار ، فاقتحمت طائفة أخرى ، ثم خرجوا من حيث لا يشعرون ، فجعلوا في أصحاب اليمين ، ثم جاء الرسول

فقال : إن الله يأمركم أن تقتحموا في النار ، فقالوا : ربنا ، لا طاقة لنا بعذابك ، فأمر بهم ، فجمعت نواصيهم وأقدامهم ثم ألقوا في النار والله أعلم " " .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ قال أمروا بالطاعة فعصوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب رضي الله عنه قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول ؛ في قوله : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ الآية . قال : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ بحق ، فخالفوه ، فحق عليهم بذلك التدمير .

(165/452)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ قال : سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك ، أهلكناهم بالعذاب .

وهو قوله : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ [الأنعام : 123] .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن

قوله وجل : ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ قال : سلطنا عليهم الجبابرة فساموهم سوء العذاب .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول :

إن يعطبوا يبرموا وإن أمروا . . . يوماً يصيروا للهلك والفقد

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية رضي الله عنه – كان يقرأ ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ مثقلة . يقول : أمرنا عليهم أمراء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قرأ "آمرنا مترفيها" يعني بالمد . قال : أكثرنا فساقها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر ، عن عكرمة – رضي الله عنه – أنه قرأ ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ قال : أكثرناهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ قال : أكثرنا .

وأخرج البخاري وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية قد أمروا بني فلان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ : قرأ العامَّةُ بالقصرِ والتخفيفِ وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه من الأمرِ الذي هو ضِدُّ النهيِ . ثم اختلف القائلون بذلك في متعلَّق هذا الأمرِ : فعن ابن عباس في آخرين : أنه أَمَرْناهم بالطاعةِ فَفَسَقُوا ، وقد ردَّ هذا الزمخشريُّ رداً شديداً وأنكره إنكاراً بليغاً في كلامٍ طويلٍ ، حاصلُه : أنه حَذْفُ ما لا دليلَ عليه ، وقدَّر هو متعلّق الأمرِ : الفسق ، أي : أَمَرْناهم بالفسق قال : " أي : أَمَرْناهم بالفِسْق ، فعملوا ، والأمرُ مجازٌ ؛ لأنَّ حقيقةَ أمرِهم بالفسقِ أَنْ يقول لهم : افْسُقوا ، وهذا لا يكونُ ، فبقي أن يكونَ مجازاً . ووجهُ المجازِ : أنه صَبَّ عليهم النعمة صَبّاً ، فجعلوها ذريعةً إلى المعاصي واتّباعِ الشهوات ، فكأنهم مَأمورون بذلك لِتَسَبُّبِ إيلاءِ النّعْمَةِ فيه ، وإنما خَوَّلهم فيها ليشكروا " .

ثم قال: "فإنْ قلت: فهلاّ زَعَمْتَ أنّ معناه: أَمَرْناهم بالطاعةِ ففسَقُوا. قلت: لأنّ حَذْفَ ما لا دليلَ عليه غيرُ جائز، فكيف حَذْفُ ما الدليلُ قائمٌ على نَقِيضِه؟ وذلك أنّ المأمورَ به إنما حُذِفَ لأنّ "فَفَسَقُوا" يدلُّ عليه، وهو كلامٌ مستفيضٌ يقال: "أَمَرْتُه فقام"، و"أَمَرْتُه فَقَرأ"، لا يُفهم منه إلا أنّ المأمورَ به قيامٌ أو قراءةٌ، ولو ذَهَبْتَ تُقَدِّرُ غيرَه رُمْتَ مِنْ مخاطَبِك عِلْمَ الغيبِ، ولا يَلْزَمُ [على] هذا قولُهم: و"أَمَرْتُه فعصاني" أو "فلم يمتثلْ" لأنّ ذلك منافٍ للأمرِ مناقِضٌ له، ولا يكونُ ما يناقض الأمرَ مأموراً به، فكان محالاً أنْ يُقْصَدَ أصلاً حتى يُجْعَلَ دالاًّ على المأمورِ به، فكان المأمورُ به في هذا الكلامِ غيرَ مَنْوِيٍّ ولا مُرادٍ؛ لأن مَنْ يتكلمُ بهذا الكلامِ لا يَنْوِي لآمرِه مأموراً به، فكأنه يقول: كان مني أَمْرٌ فكان منه طاعةٌ، كما أنّ مَنْ يقول: ["فلان] يأمرُ ويَنْهى ويعطي ويمنع" لا يَقْصِدُ مفعولاً. فإن قلت: هلاّ كان ثبوتُ العلمِ بأنّ اللهَ لا يأمرُ بالفحشاء دليلاً على أنّ المراد: أَمَرْناهم بالخيرِ، قلت: لأنّ قوله "فَفَسَقوا" يدافعه، فكأنَّك أظهَرْتَ شيئاً وأنت تُضْمِرُ خلافَه، ونظيرُ "أمر": "شاء" في أنّ مفعولَه استفاضَ حَذْفُ مفعولِه لدلالةِ ما بعدَه عليه. تقول: لو شاءَ لأحسنَ إليك، ولو شاءَ لأساءَ إليك، تريد: لو شاء الإحسانَ، ولو شاء الإساءةَ، ولو ذَهَبْتَ تُضْمِرُ خلافَ ما أظهرْتَ، وقلت: قد دَلَّتْ حالُ مَنْ أُسْنِدَتْ إليه المشيئةُ أنه من أهلِ الإحسان أو من أهلِ الإساءةِ فاتركِ الظاهرَ المنطوقَ وأَضْمِرْ ما دَلَّتْ عليه حالُ المسندِ إليه المشيئةُ، لم تكنْ على سَدادٍ".

(168/452)

وتَتَبَّعه الشيخُ في هذا فقال: "أمَّا ما ارتكبه من المجاز فبعيدٌ جداً، وأمَّا قولُه: "لأنَّ حَذْفَ ما لا دليلَ عليه غيرُ جائزٍ" فتعليلٌ لا يَصِحُّ فيما نحن بسبيلِه، بل ثَمَّ ما يَدُلُّ على حَذْفِه.

وقوله: "فكيف يُحْذَفُ ما الدليلُ على نقيضِه قائمٌ" إلى "عِلْم/الغيب" فنقول: حَذْفُ الشيءِ تارةً يكونُ لدلالةِ موافِقه عليه، ومنه ما مَثَّل به في قولِه "أَمَرْتُه فقامَ"، وتارة يكونُ لدلالةِ خِلافِه أو ضدِّه أو نقيضِه كقولِه تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اليل والنهار ﴾ [الأنعام: 13]، أي: ما سَكَنَ وتحرَّك، وقوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل: 81]، أي: والبردَ، وقول الشاعر:

3041- وما أَدْرِيْ إذا يَمَّمْتُ أرْضاً ... أريدُ الخيرَ أيُّهما يَلِيني

أالخيرُ الذي أنا أَبْتَغِيْه ... أم الشرُّ الذي هو يَبْتَغيني

(169/452)

أي : وأَجْتَنِبُ الشرَّ ، وتقول : " أَمَرْتُه فلم يُحْسِنْ " فليس المعنى : أمرتُه بعدم الإِحسانِ ، بل المعنى : أَمَرْتُه بالإِحسانِ فلم يُحْسِنْ ، والآيةُ من هذا القبيل ، يُستدلُّ على حذف النقيض بنقيضه كما يُسْتَدَلُ على حَذْفِ النظير بنظيره ، وكذلك " أَمَرْتُه فأساء إليَّ " ليس المعنى : أَمَرْتُه بالإِساءة بل أَمَرْتُه بالإِحسان . وقوله : " ولا يَلْزم هذا قولَهم : " أَمَرْتُه فعصاني " . نقول : بل يَلْزَمُ . وقوله : " لأنَّ ذلك منافٍ " ، أي : لأنَّ العِصْيانَ منافٍ . وهو كلامٌ صحيح . وقوله : " فكان المأمورُ به غيرَ مدلولٍ عليه ولا مَنْوِيٍّ " لا يُسَلَّم بل مَدْلُولٌ عليه ومنويٌّ لا دلالةَ الموافِقِ بل دلالةُ المناقِض ، كما بَيَّنَّا . وقوله : " لا يَنْوِي مأموراً به " لا يُسَلَّم . وقوله : " لأنَّ فَفَسَقُوا يدافعُه ، إلى آخره " قلنا : نعم نَوَى شيئاً ويُظهِرُ خلافَه ، " لأنَّ نقيضَه يَدُلُّ عليه . وقولُه : " ونظيرُ " أمر " " شاء " ليس نظيرَه ؛ لأنَّ مفعولَ " أمر " كَثُرَ التصريحُ به . قال الله [تعالى] : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بالفحشآء ﴾ [الأعراف : 28] ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : 40] ﴿ يَأْمُرُ بالعدل ﴾ [النحل : 67] ﴿ أَمَرَ رَبِّي بالقسط ﴾ [الأعراف : 29] ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بهاذآ ﴾ [الطور : 32]

وقال الشاعر :

3042- أَمَرْتُك الخيرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ به . . . .

قلت : والشيخُ رَدَّ عليه رَدَّ مُسْتَرِيحٍ من النظرِ ، ولولا خَوفُ السآمَةِ على الناظرِ لكان للنظرِ في كلامهما مجالٌ .

(170/452)

والوجه الثاني : أنَّ " أَمَرْنا " بمعنى كَثَّرْنا ، ولم يَرْتَضِ الزمخشريُّ في ظاهرِ عبارتِه فإنَّه قال : " وفسَّرَ بعضُهم " أَمَرْنا " ب " كَثَّرْنا " ، وجَعَلَه من باب : فَعَلْتُه ففعَل ، كَثَبَّرْتُه فثَبَر . وفي الحديثِ : " خَيْرُ المالِ سِكَّةٌ مأبُوْرة ومُهْرَةٌ مَأْمورة " ، أي : كثيرةُ النِّتاج " . قلت : وقد حكى أبو حاتم هذه اللغةَ ، يقال : أَمِر القومُ ، وأَمَرهم اللهُ ، ونقله الواحديُّ أيضاً عن أهل اللغة ، وقال أبو علي : " الجيِّد في " أَمَرْنا " أن يكونَ بمعنى كَثَّرْنا " .

واستدل أبو عبيدة بما جاء في الحديثِ فذكره . يقال : أَمَرَ اللهُ المُهْرَةَ ، أي : كَثَّر ولدَها .

قال " ومَن أنكر " أمرَ اللهُ القومَ " أي : كَثَّرهم لم يُلتفَتْ إليه لثبوتِ ذلك لغةً " .

ويكون مِمَّا لَزِمَ وتعدَّى بالحركةِ المختلفةِ ؛ إذ يُقال : أَمِر القومُ كَثُروا ، وأَمَرَهم اللهُ كَثَّرهم ، وهو من باب المطاوعة : أَمَرهم اللهُ فأْتَمَروا كقولك : شَتَرَ اللهُ عَيْنَه فشَتِرَتْ ، وجَدَعَ أنفَه فَجَدِع ، وثَلَمَ سِنَّه فَثَلِمَتْ .

وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر وعكرمة : " أَمِرْنا " بكسر الميم بمعنى " أَمَرْنا " بالفتح . حكى

أبو حاتم عن أبي زيد أنه يُقال : " أَمَرَ اللهُ مالَه ، وأَمِرَه " بفتح الميم وكسرِها ، وقد رَدَّ الفراء هذه القراءَةَ ، ولا يُلْتَفَتُ لِرَدّه لثبوتِها لغةً بنَقْلِ العُدول ، وقد نَقَلَها قراءةً عن ابن عباس أبو جعفر وأبو الفضل الرازي في " لوامِحه " فكيف تُرَدُّ ؟

وقرأ عليٌّ بن أبي طالب وابنُ أبي إسحاق وأبو رجاء في آخرين " آمَرْنا " بالمَدِّ ، ورُوِيَتْ هذه قراءةً عن ابنِ كثير وأبي عمرو وعاصم ونافعٍ ، واختارها يعقوبُ ، والهمزةُ فيه للتعديةِ ؟

(171/452)

وقرأ عليٌّ أيضاً وابنُ عباس وأبو عثمان النهدي : " أَمَّرْنا " بالتشديد . وفيه وجهان ، أحدهما : أنَّ التضعيفَ للتعديةِ ، عدَّاه تارةً بالهمزة وأخرى بتضعيفِ العين ، كأَخْرَجْته وخَرَّجته . والثاني : أنه بمعنى جعلناهم أُمَراءَ ، واللازمُ من ذلك " أُمِّر " . قال الفارسيُّ ، " لا وجهَ لكون " أَمَّرْنا " / من الإِمارة ؛ لأنَّ رئاستهم لا تكونُ إلاَّ لواحدٍ بَعْدَ واحدٍ ، والإِهلاكُ إنما يكون في مُدَّةٍ واحدة " . وقد رُدَّ على الفارسي : بأنَّا لا نُسَلِّم أن الأميرَ هو المَلِك حتى يَلْزَمَ ما قلتَ ، لأنَّ الأميرُ عند العرب مَنْ يَأْمُرُ ويُؤْتَمَرُ به . ولَئِنْ سُلِّم ذلك لا يلزم ما قال ؛ لأنَّ المُتْرَفَ إذا مَلَكَ فَفَسَقَ ثم آخرَ بعده ففَسَقَ ، ثم كذلك كَثُر الفسادُ ، ونزل

بهم على الآخِرِ مِنْ ملوكهم .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ :

"كم" نصبٌ بأَهْلكنا ، و ﴿ مِنَ القرون ﴾ تمييزٌ ل "كم" ، و ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ : "مِنْ" لابتداء الغاية ، والأُوْلى للبيان فلذلك اتَّحد متعلَّقُها . وقال الحوفي : "الثانية بدلٌ مِن الأولى ، وليس كذلك لاختلاف معنييهما . والباءُ بعد "كَفَى" تقدَّم الكلامُ عليها . وقال ابن عطية : "إنما يُجاءُ بهذه الباءِ في موضع مَدْحٍ أو ذم" . والباء في "بذنوب" متعلقةٌ ب "خبيراً" ، وعَلَّقها الحوفيُّ ب "كَفَى" . قال الشيخ : "وهو وهمٌ" . قلت : إنما جَعَله وهماً لأنه لا يَتَعَدَّى بالباء ، ولا يليق به المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 331.325 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ .

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه ؛ إنْ كانت طاعةً فقضياؤها لأصحابها ، وإنْ كانت زلَّةً فبلاؤها لأربابها . والحقُّ غنيٌّ مُقدَّسٌ ، أَحَدِيٌّ مُنَزَّه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ .

كُلٌّ مُطَالَبٌ بجريرته . وكل نَفْسٍ تحمل أوزارها لا وِزْرَ نَفْسٍ أخرى . . . ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ : دلَّ ذلك على أن الواجبات إنما تَتَوجَّهُ من حيث السمع .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) ﴾

إذا كَثُرَ أهلُ الفسادِ غَلَبُوا ، وقَلَّ أهل الصلاح وفقدوا : فعند ذلك يغمر اللَّهُ الخَلْقَ ببلائه ، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا في بابهم ، ولا فيهم من يبتهل إلى اله فيُسْمَعُ دعاؤه ، فَيَخْتَرِمُ أولياءَه ، ويُبْقِي أربابَ الفساد ، وعند ذلك يشتدُّ البلاءُ وتَعْظُمُ المِحَنُ إلى أن ينظرَ اللَّه تعالى إلى الخَلْق نَظَرَ الرحمةِ والمِنَّة .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) ﴾

في الآية تسليةٌ للمظلومين إذا استبطأوا هلاكَ الظالمين ، و (. .) قِصَرِ أيديهم عنهم . فإذا فَكَّروا فيما مضى من الأُمم أمثالِهم وكيف بَنَوْا مَشِيدا ً ، وأَمَّلُوا بعيدا ً . . فبادوا جميعا ً ، يعلمون أَنَّ الآخرين – عن قريب – سينخرطون في سلكهم ، ويُمْتَحَنُون بمثل شأنهم . وإذا أظَلَّتْهُم سُحُبُ الوحشة فاءوا إلى ظلِّ شهود التقدير ، فتزول عنهم الوحشة ، وتطيب لهم الحياةُ ، وتحصل الهيبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 340 .

341﴾

(174/452)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

23